تفسير الطبري

من كتابه

جامع البيان عن تأويل آي القرآن

هذّبه وحقّقه وضبط نصّه وعلّق عليه

الدكتور بشار عواد معروف — عصام فارس الحرستاني

مؤسسة الرسالة

تفسير الطبري

تفسير الطبري

من كتابه

جامع البيان عن تأويل آي القرآن

هذبه وحققه وضبط نصه وعلق عليه

الدكتور بشار عواد معروف عصام فارس الحرستاني

المجلد الأول

الفاتحة - البقرة

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير الطبري

١

الطّبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

مؤسّسة الرّسالة للطباعة والنشر والتوزيع

مؤسّسة الرّسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٦٠٣٢٤٣ - ٨١٥١١٢ - ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

مقدّمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الحمدُ لله الذي أنزلَ على عبده الكتابَ ولم يجعلْ له عِوَجاً. قَيِّماً لينذر بأساً شديداً من لَدُنه ويُبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أنَّ لهم أجراً حَسناً﴾ [الكهف: ١-٢].

﴿الحمدُ لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيمُ الخبير﴾ [سبأ: ١].

﴿الحمدُ لله الذي هَدَانا لهذا وما كُنا لنهتديَ لولا أنْ هدانا الله﴾ [الأعراف: ٤٣].

﴿الحمدُ لله وسلامٌ على عباده الذين اصطفى﴾ [النمل: ٥٩].

﴿الحمدُ لله الذي نَجَّانا من القوم الظالمين﴾ [المؤمنون: ٢٨].

﴿الحمدُ لله الذي أذهبَ عنا الحَزَن﴾ [فاطر: ٣٤].

﴿الحمدُ لله الذي صَدَقنا وَعْدَهُ﴾ [الزمر: ٧٤].

﴿فَقُطِعَ دابرُ القومِ الذين ظَلَمُوا والحمدُ لله ربِّ العالمينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

﴿الحمد لله ربِّ العالمين. الرحمن الرحيم. مَلِكِ يوم الدين﴾ [الفاتحة: ١-٣].

نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مُضِل له، ومَن يُضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا

إله إلا الله وحده لا شريك له، كلمة قامت بها الأرض والسموات، وخُلِقت لأجلها جميع المخلوقات، وبها أرسل الله تعالى رُسلَهُ، وأنزل كُتبَهُ.

وأشهد أن سيدنا وقدوَتنا وإمامنا محمداً عبده ورسوله، وأمينه على وحيه، وخِيرته من خلقه، وسفيره بينه وبين عباده، بعثه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كُله ولو كره المشركون.

أما بعد،

فإنَّ القرآنَ العظيم هو كتابُ الله «الدَّالُّ عليه لمن أراد معرفته، وطريقه الموصلة لسالكها إليه، ونوره المبين الذي أشرقت له الظلمات، ورحمته المُهْدَاةُ التي بها صلاح جميع المخلوقات، والسبب الواصل بينه وبين عباده إذا انقطعت الأسباب، وبابه الأعظم الذي منه الدخول فلا يغلق إذا غُلِّقت الأبواب. وهو الصراط المستقيم الذي لا تميل به الآراء، والذِّكْرُ الحكيم الذي لا تزيغ به الأهواء، والنُّزُل الكريم الذي لا يَشبع منه العلماء، لا تفنىٰ عجائبه، ولا تُقلع سحائبه، ولا تنقضي آياته، ولا تختلف دلالاته، كلما ازدادت البصائر فيه تأملاً وتفكيراً، زادها هداية وتبصيراً. . . فهو نور البصائر مِنْ عَمَاهَا، وشفاء الصدور من أدوائها وجَواها، وحياة القلوب، ولذة النفوس، ورياض القلوب، وحادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، والمنادي بالمساء والصباح: يا أهل الفلاح حَيَّ على الفلاح»[1].

ولحكمةٍ بالغة تعلو على أفهامنا القاصرة، أنزل الله جلّ ثناؤه كتابه باللسان العربي المبين ﴿قرآناً عربياً غيرَ ذي عِوَجٍ لعلهم يتقون﴾ [الزمر: ٢٨] ﴿ولو جعلناه قرآنا أعجمياً لقالوا: لولا فُصِّلت آياته: ءأعجمي وعربي﴾ [فصلت: ٤٤]، وجعله شفاءً ورحمة للمؤمنين[2]، فصَرَّف الله سبحانه فيه من كل مثل[3]،

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم: ١/٧.

(٢) تضمين للآية ٨٢ من سورة الاسراء.

(٣) تضمين للآية ٨٩ من سورة الاسراء.

ليهدي به للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين[4]. وجعله المعجزة الكبرى لرسوله ﷺ، وتحدى به جل ثناؤه الإنس والجن، فقال سبحانه: ﴿قل لئن اجتمعت الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يأتون بمثله ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظهيراً﴾ [الاسراء: ٨٨]، وتولى حفظه بنفسه ولم يَكل ذلك إلى أحد من خلقه، فقال تعالى: ﴿إنا نحن نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإنا له لحافظون﴾ [الحجر: ٩]، فظهر مصداق ذلك مع طول المدة، وامتداد الأيام، وتوالي الشهور، وتعاقب السنين، وانتشار أهل الاسلام، واتساع رقعته.

وقد سَمّاه الله تعالى القرآن، والفرقان، والكتاب، والذكر، وحَثَّ عباده على الاعتبار بما فيه من المواعظ والبينات، فقال جَلَّ ثناؤه مخاطباً رسوله ﷺ: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدَّبروا آياته وليتذكرَ أولو الألباب﴾ [ص: ٢٩]، وقال الرسول ﷺ: «إن أفضلكم من تعلم القرآن وعَلَّمه»[5].

وأمرنا الله جل شأنه ورسوله ﷺ بتلاوته وتعاهده وتَدَبُّرِهِ والعمل به، ومعلوم أن العمل به لا يتم إلا بمعرفة معانيه والوقوف على دلالاته، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «المؤمن الذي يقرأ القرآن، ويعمل به، كالأُتْرُجَّةِ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ وريحها طيب»[6]، وقال ﷺ: «مَثَلُ الذي يقرأ القرآن وهو حافظٌ له مع

---

(٤) تضمين للآية ٩ من سورة الاسراء.

(٥) من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه. وفي رواية شعبة: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» وهو عند أحمد: ١/٥٧ و٥٨ و٦٩، والدارمي (٣٣٤١)، والبخاري: ٦/٢٣٦، وأبو داود (١٤٥٢)، وابن ماجة (٢١١)، والترمذي (٢٩٠٧)، والنسائي في فضائل القرآن (٦١) و(٦٢) و(٦٣).

(٦) قطعة من حديث أخرجه أحمد: ٤/٣٩٧ و٤٠٣ و٤٠٤ و٤٠٨، والدارمي (٣٣٦٦)، وعبد بن حميد (٥٦٥)، والبخاري: ٦/٢٣٤ و٢٤٤ و٧/٩٩ و٩/١٩٨، ومسلم (٧٩٧)، وأبو داود (٤٨٣٠)، وابن ماجة (٢١٤)، والنسائي: ٨/١٢٤.

السَّفَرَة الكِرام، ومَثَلُ الذي يقرأ وهو يتعاهده وهو عليه شديد، فله أجران»[٧].

وكان أبو جعفر الطبري يقول: «إني لأعجب ممن قرأ القرآن ولم يعلم تأويله كيف يلتذ بقراءته»[٨]؟

ولذلك كان الاقبالُ على القرآن الكريم وتفهمه وتدبره واستخراج كنوزه وإثارة دفائنه وصرف العناية إليه والعكوف بالهمة عليه من أعظم ما ينال المؤمن به المطالبَ العالية، فإنه الكفيل بمصالح العباد في المعاش والمعاد، وهو العلم النافع المؤدي الى العمل الصالح.

ومن أجَلّ التفاسير المتقدمة وأكثرها استيعاباً تفسير أبي جعفر محمد بن جرير الطبري المعروف بجامع البيان عن تأويل آي القرآن.

---

(٧) أخرجه أحمد: ٤٨/٦ و٩٤ و٩٨ و١١٠ و١٧٠ و١٩٢ و٢٣٩ و٢٦٦ والدارمي (٣٣٧١)، والبخاري: ٢٠٦/٦، ومسلم (٧٩٨)، وأبو داود (١٤٥٤)، وابن ماجة (٣٧٧٩)، والترمذي (٢٩٠٤)، والنسائي في فضائل القرآن (٧٠) و(٧١) و(٧٢).

(٨) ياقوت: إرشاد الأريب: ٤٤٠/٦.

أبو جعفر الطبري[٩]:

ولد أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري في آمل طبرستان أواخر سنة ٢٢٤هـ أو أوائل سنة ٢٢٥هـ، وحفظ القرآن منذ سن مبكرة واعتنى به والده عناية شديدة، فَجَدَّ في إكمال تعليمه وسمح له في أسفاره وأعانه عليها، فكان طول حياته يمده بالشيء بعد الشيء، فيقتات به.

وكانت بغداد آنذاك عاصمة الدنيا العربية الإسلامية ومعدن العلم والعلماء، يتجه إليها طلبة العلم من كل حدب وصوب، ينهلون من مناهلها العذبة، ولا يمكن لأحد أن يدعي علماً من غير شهادة شيوخها وأساتيذها، لذلك كان من الطبيعي أن يشد أبو جعفر الرحال إليها بُعَيْدَ الأربعين ومئتين، وكان في نفسه أن يسمع من إمام الأئمة، آنذاك، أحمد بن حنبل، ولكن الحظ

---

(٩) ترجمته في الفهرست لأبن النديم ٣٢٦، وتاريخ بغداد للخطيب ٢/١٦٢ و١٦٩، وطبقات الشيرازي: ٩٣، والأنساب للسمعاني ٨/٢٠٥-٢٠٧ وتاريخ ابن عساكر: ٣٧/الورقة ٢٤٨، والمنتظم لابن الجوزي: ٦/١٧٠-١٧٢، وإرشاد الأريب: ٦/٤٢٣-٤٦٢ (وهي أوسع التراجم)، وانباه الرواة للقفطي: ٣/٨٩-٩٠ والمحمدون من الشعراء: ٢٦٣، وتهذيب الأسماء واللغات للنووي: ١/٧٨-٧٩، ووفيات الأعيان لابن خلكان: ٤/١٩١-١٩٢، وطبقات ابن عبدالهادي، الورقة ١٢٣، وتاريخ الاسلام للذهبي، الورقة ٤٥-٤٧ (أحمد الثالث ٢٩١٧/٩)، وتذكرة الحفاظ: ٢/٧١٠-٧١٦، والعبر: ٢/١٤٦، وسير أعلام النبلاء: ١٤/٢٦٧-٢٨٢، وميزان الاعتدال: ٣/٤٩٨-٤٩٩، ومعرفة القراء: ١/٢٦٤-٢٦٦، ودول الاسلام: ١/١٨٧ وتلخيص: ابن مكتوم ١٩٨، والوافي بالوفيات للصفدي: ٢/٢٨٤-٢٨٧، ومرآة الجنان لليافعي: ٢/٢٦٠، وطبقات السبكي: ٣/١٢٠-١٢٨، والبداية والنهاية لابن كثير: ١١/١٤٥-١٤٧، وطبقات القراء للجزري: ٢/١٠٦-١٠٨، ولسان الميزان لابن حجر: ٥/١٠٠-١٠٣، والنجوم الزاهرة: ٧/٢٠٥، وطبقات المفسرين للسيوطي: ٣٠، وشذرات الذهب: ٢/٢٦٠. وللدكتور أحمد محمد الحوفي كتاب مستقل عنه طبع ضمن سلسلة اعلام العرب بالقاهرة سنة ١٩٦٣.

لم يسعفه فدخل بغداد بُعَيْدَ وفاتهِ بقليلٍ، لكنه أقام بها وكتب عن شيوخها، من مثل محمد بن عبدالملك بن أبي الشَّوارب، وإسحاق بن أبي إسرائيل، وأحمد بن منيع البَغوي، ومحمد بن حميد الرازي، ويعقوب بن إبراهيم الدَّورقي، وعمر بن علي الفلاس، وسفيان بن وكيع، وغيرهم من علماء الحديث والفقه والتفسير والعربية والنحو، وأكثر عن شيوخه البغداديين حتى كانوا أوسع مَنْ أخذَ عنهم.

ثم انحدر إلى البصرة فسمع من شيوخها مثل محمد بن موسى الحرشي، ومحمد بن عبدالأعلى الصنعاني، وبشر بن معاذ، ومحمد بن بشّار بُندار، ومحمد بن المثنى العَنَزي، وغيرهم. وكتب في طريقه عن شيوخه الواسطيين.

ثم رحل إلى الكوفة فكتب فيها عن أبي كريب محمد بن العلاء الهَمْداني، وهَنّاد بن السري، وإسماعيل بن موسى السُّدي وأضرابهم.

وعاد إلى بغداد فكتب بها ولزم المقام بها، وتفقه بها على مذهب الإمام الشافعي، ومكث فيها طويلاً حتى وفاته ـ فيما عدا مدة رحل منها إلى بعض البلدان، من بينها رحلة إلى مصر والشام بين (٢٥٣ ـ ٢٥٦)هـ، وعودة قصيرة إلى طبرستان سنة ٢٩٠هـ.

أخذ الطبري بمصر عن الربيع بن سليمان المُرادي، وإسماعيل بن إبراهيم المُزني، ومحمد بن عبدالله بن عبدالحكم، وابن وَهْب، ويونس بن عبدالأعلى الصَّدَفي وغيرهم، وكان يرافقه في هذه الرحلة ثلاثة من علماء العصر هم: إمام الأئمة ابن خُزيمة، ومحمد بن نصر المَرْوزي، ومحمد بن هارون الرُّوياني.

وفي مدينة السلام بغداد اكتملت علوم الطبري، فصار أحد علمائها الأعلام في القرآن، والفقه، والحديث، والتاريخ، واللغة، والنحو، والشعر، وبَزَّ أقرانه في هذه العلوم.

وفي مدينة السلام بغداد كتب كتبه النافعة، ولاسيما كتبه: التفسير والتاريخ، وتهذيب الآثار، فهو بغدادي الثقافة، والفكر، والتأليف، بقي فيها الى حين وفاته، فظهر أثر الثقافة البغدادية في تكوين فكره السَّلَفي الأصيل ورده على أهل البدع والضلالات، وتَصَدِّيهِ للجهمية والقدرية والمعتزلة في قولهم بقدرة العباد، وخلق القرآن، وإبطال رؤية الله تعالى يوم القيامة، وتخليد أهل الكبائر في النار، وإبطال شفاعة رسول الله ﷺ. وإيمانه ـ رحمه الله ـ أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن جميع ما في العالم لا يكون إلا بمشيئة الله تعالى، وهي الآراء التي شحن بها كتبه دفاعاً عن العقيدة الإسلامية الصحيحة، وطريقة الصحابة والتابعين في فهم الكتاب والسنة.

وفاته:

قال أحمد بن كامل القاضي: توفي أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في وقت المغرب من عشية الأحد ليومين بقيا من شوّال سنة عشر وثلاث مئة. ودُفن وقد أضحى النهار من يوم الإثنين غد ذلك اليوم في داره برحبة يعقوب بمدينة السلام بغداد، واجتمع لتشييعه من لا يحصيهم عدداً إلا الله، وصلِّي على قبره عدة شهور ليلاً ونهاراً، ورثاه خَلْقٌ كثير من أهل الديَن والأدب.

وكان ابن كامل القاضي ممن حضر وفاته، وقد قيل لأبي جعفر الطبري قبل خروج روحه: يا أبا جعفر أنتَ الحجةُ فيما بيننا وبين الله فيما ندين به، فهل من شيء توصينا به من أمر دِيننا، وبَيِّنة لنا نرجو بها السلامة في معادنا؟ فقال: الذي أدينُ اللهَ به وأوصيكم هو ما ثَبَتٌ في كتبي فاعملوا به وعليه. وأكثَرَ من التشهُّد وذكر الله عز وجل، ومسح يده على وجهه، وغَمَّضَ بصَره بيده، وبسَطَها وقد فارقت روحه الدنيا.

ووصفه أصحابه بأنه كان أسمر الى الأدمة، أعين، نحيف الجسم، مديد القامة ـ رحمه الله تعالى ـ.

أقوال العلماء فيه:

ونرى من المفيد أن نقتطف هنا آراء العلماء والنُّقَّادِ ممن عاصره أو جاء بعده، لما لذلك من أهمية في توثيقه وبيان فضله ومنزلته، وعُلُوِّ مرتبته، واتساع دائرة علمه.

قال إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة المتوفى سنة ٣١١هـ للحسين بن علي التميمي المعروف بحُسَيْنَك لما عاد من رحلته إلى بغداد ولم يسمع من أبي جعفر الطبري: «لو سمعت منه لكان خيراً لك من جميع من سمعت منه سواه»[١٠]. وقال في موضع آخر: «ما أعلم على أديم الأرض أعلم من محمد بن جرير»[١١].

وقال أبو علي الطوماري: كنت أحمل القنديل في شهر رمضان بين يدي أبي بكر بن مجاهد (المتوفى سنة ٣٢٤هـ) إلى المسجد لصلاة التراويح، فخرج ليلة من ليالي العشر الأواخر من داره واجتاز على مسجده فلم يدخله وأنا معه، وسار حتى انتهى إلى آخر سوق العطش فوقف بباب مسجد محمد بن جرير، ومحمد يقرأ سورة الرحمن، فاستمع قراءته طويلاً ثم انصرف، فقلت له: يا أستاذ تركت الناس ينتظرونك وجئت تسمع قراءة هذا؟ فقال: يا أبا عليّ دع هذا عنك، ما ظننت أن الله تعالى خلق بشراً يحسن يقرأ هذه القراءة»[١٢].

وقال ابن مجاهد أيضاً: قال أبو العباس (أحمد بن يحيى ثعلب المتوفى سنة ٢٩١هـ) يوماً: مَن بقي عندكم - يعني في الجانب الشرقي ببغداد - من النحويين؟ فقلت: ما بقي أحدٌ، مات الشيوخ. فقال: حتى خلا جانبكم؟ قلت: نعم الا أن يكون الطبري الفقيه. فقال لي: ابن جرير؟ قلت: نعم. قال: ذاك من حُذّاق الكوفيين. قال أبو بكر (بن مجاهد): وهذا من أبي

---

(١٠) تاريخ الخطيب: ٢/١٦٤.

(١١) أنساب السمعاني: ٨/٢٠٦.

(١٢) تاريخ الخطيب: ٢/١٦٤.

العباس كثير، لأنه كان شديد النَّفْس شرس الأخلاق، وكان قليل الشهادة لأحد بالحذق في علمه»[١٣].

وقال أبو سعيد بن يونس المتوفى سنة ٣٤٧هـ: «محمد بن جرير من أهل آمل، كتب بمصر، ورجع إلى بغداد، وصنّف تصانيف حسنة تدل على سعة علمه»[١٤].

وقال أبو بكر أحمد بن كامل القاضي تلميذه المتوفى سنة ٣٥٠هـ: «أربعة كنت أحب بقاءهم: أبو جعفر بن جرير، والبربري، وأبو عبدالله بن أبي خيثمة، والمَعْمَري، فما رأيت أفهم منهم ولا أحفظ»[١٥].

وقال في موضع آخر: «لم أرَ بعد أبي جعفر أجمع للعلم وكتب العلماء ومعرفة اختلاف الفقهاء وتمكنه من العلوم منه»[١٦].

وقال أبو محمد عبدالله بن أحمد الفرغاني المتوفى سنة ٣٦٢هـ: «وكان ممن لا تأخذه في الله لومة لائم مع عظيم ما يلحقه من الأذى والشناعات من جاهل، وحاسد، وملحد، فأما أهل الدين والعلم، فغير منكرين علمه، وزهده في الدنيا، ورفضه لها، وقناعته ـ رحمه الله ـ بما كان يردُ عليه من حصةٍ من ضيعة خلّفها له أبوه بطبرستان يسيرة»[١٧].

وقال أبو محمد عبدالعزيز بن محمد الطبري: «كان أبو جعفر من الفضل والعلم والذكاء والحفظ على ما لا يجهله أحد عرفه، لجمعه من علوم الإسلام ما لم نعلمه اجتمع لأحدٍ من هذه الأمة، ولا ظهر من كتب المصنفين وانتشر من كتب المؤلفين ما انتشر له. وكان راجحاً في علوم القرآن والقراءات وعلم

---

(١٣) ارشاد الأريب: ٦/٤٣٨.

(١٤) سير أعلام النبلاء: ١٤/٢٦٩.

(١٥) سير أعلام النبلاء: ١٤/٢٧٥.

(١٦) إرشاد الأريب: ٦/٤٤٨.

(١٧) سير أعلام النبلاء: ١٤/٢٧٤.

التاريخ من الرسل والخلفاء والملوك واختلاف الفقهاء... وقد كان له قدم في علم الجدل يدل على ذلك مناقضاته في كتبه على المعارضين لمعاني ما أتى به وكان فيه من الزهد والورع والخشوع والأمانة وتصفية الأعمال وصدق النية وحقائق الأفعال ما دلّ عليه كتابه في آداب النفوس، وكان يحفظ الشعر للجاهلية والإسلام ما لا يجهله إلا جاهل به... وكان خلياً عن الدنيا تاركاً لها ولأهلها، يرفع نفسه عن التماسها، وكان كالقارىء الذي لا يعرف إلا القرآن، وكالمحدث الذي لا يعرف إلا الحديث، وكالفقيه الذي لا يعرف إلا الفقه، وكالنحوي الذي لا يعرف إلا النحو، وكالحاسب الذي لا يعرف إلا الحساب. وكان عاملاً للعبادات جامعاً للعلوم، وإذا جمعت بين كتبه وكتب غيره وجدتَ لكتبه فضلاً على غيرها»[(١٨)].

وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣هـ: «استوطن الطبري بغداد وأقام بها إلى حين وفاته، وكان أحد أئمة العلماء يُحكم بقوله، ويُرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله. وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره. وكان حافظاً لكتاب الله، عارفاً بالقراءات بصيراً بالمعاني، فقيهاً في أحكام القرآن، عالماً بالسنن وطرقها، وصحيحها وسقيمها، وناسخها ومنسوخها، عارفاً بأقوالِ الصحابةِ والتابعين، ومَنْ بعدهم من الخالفين في الأحكام، ومسائل الحلال والحرام، عارفاً بأيام الناس وأخبارهم»[(١٩)].

وقال الحافظ أبو الفرج ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧هـ: «وكان قد جمع من العلوم ما رأس به أهل عصره، وكان حافظاً للقرآن، بصيراً بالمعاني، عالماً بالسنن، فقيهاً في الأحكام، عالماً باختلاف العلماء، خبيراً بأيام الناس وأخبارهم»[(٢٠)].

---

(١٨) ارشاد الأريب: ٦/٤٣٧-٤٣٩.

(١٩) تاريخه: ٢/١٦٣.

(٢٠) المنتظم: ٦/١٧١.

وقال جمال الدين القِفْطي المتوفى سنة ٦٤٦هـ: «العالم الكامل الفقيه المقرىء النحوي اللغوي الحافظ الأخباري، جامع العلوم، لم يُرَ في فنونه مثله».

وقال القاضي شمس الدين ابن خَلِّكان المتوفى سنة ٦٨١هـ: «كان إماماً في فنون كثيرة منها التفسير والحديث والفقه والتاريخ وغير ذلك. وله مصنفات مليحة في فنون عديدة تدل على سعة علمه وغزارة فضله، وكان من الأئمة المجتهدين، لم يقلد أحداً... وكان ثقة في نقله، وتاريخُه أصح التواريخ وأثبتها»(٢٢).

وقال مؤرخ الإسلام الحافظ شمس الدين الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨هـ: «الإمام العَلَم المجتهد، عالم العصر، صاحب التصانيف البديعة... كان من كبار أئمة الاجتهاد... كان ثقة، صادقاً، حافظاً، رأساً في التفسير، إماماً في الفقه والاجتماع والاختلاف، علّامة في التاريخ وأيام الناس، عارفاً بالقراءات، وباللغة، وغير ذلك».

جامع البيان عن تأويل آي القرآن:

هذا هو العنوان الذي وسم به أبو جعفر الطبري كتابه في تفسير القرآن الكريم، وأملاه ببغداد ابتداءً من سنة ٢٨٣هـ وانتهى من إملائه سنة ٢٩٠هـ(٢٣)، فجاء أَجَلَّ تفسيرٍ على الإطلاق.

قال الطبري: حدثتني به نفسي وأنا صبي. وقال: استخرت الله تعالى

---

(٢١) انباه الرواة: ٣/٨٩.

(٢٢) وفيات الأعيان: ٤/١٩١.

(٢٣) تاريخ الخطيب: ٢/١٦٤ أما ما ورد في إرشاد الأريب لياقوت (٦/٤٣٩) من قول أبي بكر بن كامل أن الطبري قرأه عليهم سنة ٢٧٠ فالظاهر أنه تصحيف، والصواب ٢٩٠.

في عمل كتاب التفسير، وسألته العون على ما نويته ثلاث سنين قبل أن أعمله، فأعانني[٢٤].

وكان في قدرة الطبري أن يؤلف كتاباً ضخماً جداً في التفسير لما حصل عليه من المعارف المتنوعة المكوّنة له، فيروى عنه أنه قال لأصحابه: أتنشطون لتفسير القرآن؟ قالوا: كم يكون قدره؟ فقال: ثلاثون ألف ورقة. فقالوا: هذا مما تفنىٰ الأعمار قبل تمامه، فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة[٢٥]. وذكر أبو محمد عبدالعزيز بن محمد الطبري أنه رأى نسخة منه ببغداد تشتمل على أربعة آلاف ورقة.

نال كتاب الطبري شهرة لم ينلها كتاب في بابته، وحُمِلَ هذا الكتاب مشرقاً ومغرباً، وقرأه الجم الغفير من العلماء في وقته، وكُلٌّ فضَّلَهُ وقدّمه، حتى قال أبو حامد الإسفراييني: لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل له كتاب تفسير محمد بن جرير لم يكن ذلك كثيراً[٢٦]، ونظر فيه إمام الأئمة ابن خزيمة من أوله إلى آخره فلم يجد أعلم من مؤلفه[٢٧]، ووصفه الخطيب بأنه لم يصنف أحد مثله[٢٨]. وقال أبو محمد الفرغاني: تمَّ من كتب محمد بن جرير كتاب التفسير الذي لو ادعى عالم أن يصنف منه عشرة كتب، كل كتاب منها يحتوي على علم مفرد مستقصىً لفَعَلَ[٢٩].

من أجل ذلك اعتنى به الناس عناية شديدة، فاختصره قديماً غير واحد

---

(٢٤) ارشاد الأريب: ٦/٤٣٩.

(٢٥) تاريخ الخطيب: ٢/١٦٣. وتروى مثل هذه الحكاية عن التاريخ أيضاً.

(٢٦) تاريخ الخطيب: ٢/١٦٣.

(٢٧) نفسه: ٢/١٦٤.

(٢٨) نفسه: ٢/١٦٣.

(٢٩) سير أعلام النبلاء: ١٤/٢٧٣.

من العلماء[٣٠]، وتُرجم منذ القرن الرابع إلى الفارسية[٣١]، ثم إلى التركية[٣٢]. كما أفاد منه كل المفسرين الذين جاءوا بعده، واختصره من المتأخرين غير واحد، وترجم أخيراً إلى الانكليزية[٣٣].

وطبع الكتاب كاملاً بالمطبعة الميمنية بمصر سنة ١٣٢١هـ، ثم بمطبعة بولاق سنة (١٣٢٣ - ١٣٣٠هـ) وغيرهما، وأخرج منه العلامة المحقق الأديب الكبير محمود شاكر ستة عشر مجلداً طبعت في دار المعارف بمصر، ثم توقف عن إتمامه. وأُعِيد نشره على هذه الطبعات عشرات المرات بطريقة التصوير.

استوعب الطبري في كتابه معظم التفاسير المعروفة إلى عصره مما يرتضيه، مثل كتب التفاسير المصنفة عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد بن جبر، وقتادة بن دعامة السدوسي، والحسن البصري وأضرابهم.

وأفاد من تفاسير عبدالرحمن بن زيد بن أسلم، وابن جريج، ومقاتل بن حيان النَّبَطيّ.

واستوعب معظم الأحاديث المعروفة في التفسير، صحيحها وضعيفها، فضلاً عن الآثار المروية عن الصحابة والتابعين الذين عُرِف عنهم العناية بتفسير الكتاب العزيز.

على أنّه لم يُدخل في كتابه التفاسير غير الموثوقة، مثل تفاسير ابن الكلبي، ومقاتل بن سليمان، ومحمد بن عمر الواقدي، في حين أخذ عنهم الأخبار والتاريخ كما فعل كثير من المحدثين.

واستقصى كتُب معاني القرآن، مثل كتب: علي بن حمزة الكسائي،

---

(٣٠) الفهرست لابن النديم: ٣٢٦.

(٣١) بروكلمان: ١/٢١٣ (الملحق).

(٣٢) نفسه: ١/٢٤٩.

(٣٣) صدر منه المجلد الأول عن مطبعة اكسفورد.

ويحيى بن زياد الفراء، وأبي الحسن الأخفش، وأبي علي قطرب وغيرهم مما يقتضيه الكلام عند حاجته إليه.

وشحن الكتاب باختلاف القَرَأَة، واختلاف النحويين البصريين والكوفيين، وساق الكثير من الشعر الجاهلي والاسلامي للاستدلال به على مدلولات الألفاظ تعضيداً لرأيه أو آراء الآخرين.

تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل آي القرآن:

لذلك أصبح «جامع البيان» كتاباً ضخماً يعجز عن قراءته الكثير من المثقفين والمتشوقين إلى معرفة كتاب الله تعالى من غير المختصين به، فضلاً عما فيه من ذكر الاختلافات الكثيرة في التفسير والقراءات والدقائق النحوية واللغوية، وكثرة الأحاديث الضعيفة، وعدم إدراك الناس لمراد الطبري من الاستدلال بها، إلا من رحم ربي، فصار الناس يتيهون في كل هذا ويصعب عليهم إدراك المعاني والدلالات والآراء التي قصدها المؤلف وأراد تثبيتها، وفي كل هذا خطر كبير على تكوين العقل المسلم حينما لا يكون متخصصاً في العلوم الاسلامية.

وقد حذرنا رسول الله ﷺ من الاختلاف في الكتاب العزيز، فعن جُندب ابن عبدالله البَجَلي، قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرَؤُوا القرآن ما ائتَلَفَت عليه قلوبُكم، فاذا اختلفتُم فقوموا»[٣٤].

وكنتُ منذ طلبي العلم أرجع إلى «جامع البيان» فتسحرني عبارة الطبري القوية البليغة بعد عرضه لآراء المخالفين في كتابه، فيبدو «تفسيره» الخاص به متحداً مترابطاً يصدر عن فهم عميق وإدراك دقيق لكتاب الله العزيز يسير على نمط واحد من أول الكتاب إلى آخره.

---

(٣٤) أخرجه أحمد: ٣١٣/٤، والدارمي (٣٣٦٢) و(٣٣٦٤)، والبخاري: ٢٤٤/٦ و١٣٦/٩، ومسلم: (٢٦٦٧).

ثم أنبهني بعض أصـدقائي من محبي العلم إلى الفائدة العظيمة من تقديم «تفسير» الـطبـري وحـده ممـا ورد في «جامع البيان» دون الآراء والأحاديث والأشعار والقراءات التي استدل بها مخالفوه، أو استدل بها هو نفسه في الرد عليهم أو تقوية رأيه.

وقد شجعني على المضي في هذا العمل ما رأيته من صنيع بعض من اختصر الكتاب أو هذبه في إبقائه على الآراء المختلفة والاقتصار على اختصار الأسانيد وبعض الأشعار، أو اختصاره اختصاراً مجحفاً أخرجه عن مقصده[٣٥].

من هنـا أزمعت على تقـديم «تفسير الـطبري» وحده بعيداً عن الآراء والاستشهـادات الكثيرة المتباينة في التفسير، وعُنيت بهذا الأمر عناية شديدة بحيث يأتي الكتاب لطيفاً في حجمه، مستوعباً لجميع ما توصل إليه المؤلف من تأويل.

لذلك حذفت التفاسير التي نقلها ولم يَرْضَهَا وتَوصَّلَ إلى ما يخالفها. وأسقطت معظم ما استشهد به هو أو مخالفوه من الشواهد الشعرية واللغوية، والخلافات الفرعية في الدقائق النحوية.

وأهملت معظم ما استند إليه من الأحاديث والآثار إذ أن في كلامه الذي ارتضاه خلاصة لها، إلا في القليل النادر الصحيح منها، وإلا فإن الغالب على ما ساقه من الأسانيد عدم ارتقائها إلى مراتب الصحة القاطعة.

ولعل مما شجعني على هذا الفعل ما توصل إليه العلامة الجليل الأستاذ محمـود شاكر من فائدة تبين أن استدلال الطبري بالآثار الواهية التي يرويها بأسـانيدها، لا يراد به إلا تحقيق معنى لفظ أو بيان سياق عبارة، كاستدلال

---

(٣٥) للشيخ العلامة الدكتور بكر بن عبدالله أبو زيد كتاب نفيس في الرد على اختصار الشيخ الصابوني لتفسير الطبري عنوانه «التحذير من مختصرات محمد الصابوني في التفسير» فليراجع ففيه فوائد جمة.

المستدل بالشعر على معنى لفظ في كتاب الله وأنه من أجل هذا الاستدلال لم يبال بما في الإسناد من وهن لا يرتضيه، فهو لم يسقها لتكون مهيمنة على تفسير آي التنزيل الكريم[٣٦].

على أنني رأيت ضرورة الابقاء على استشهادات المؤلف من آي الكتاب العزيز، فهي من أصح ما يُفسَّر به، فضلاً عن أنها تزيد من قوة ترابط التفسير الواحد الذي ارتضاه المؤلف.

ـ وهذا المنهج الذي انتهجته هو الذي حدا بي إلى وسم هذا الاختصار بـ «تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل آي القرآن» ليكون دالاً على اقتصاره على كلام الطبري وما ارتضاه من تأويل لكل آية.

كما عُنينا برصدِ الآراء التي أوردها الطبريُّ عن كبار المفسرين في تأويل كل آية من غير ذكرٍ لأسانيدها ورواتها إذ لم نجد فائدةً للقارىء المثقف في الإبقاء عليها لما فيها من التكرار الذي قد يضيعُ الفائدةَ ويقطع تسلسلَ فهمِ القارىء وتملّيه للنص.

وحذفنا الاستدلالات التي ساقها المؤلف لإثبات صحة قراءة عاصم، وهي التي اشتهرت في المصاحفِ المطبوعةِ بالمشرق، لأنها لا تُضيفُ جديداً لما هو معروفٌ متداول عند الناس في عصرنا. وفي الوقت نفسه أبقينا على القراءات التي رَجَّحها الطبري على هذه القراءة وما استدلَّ به من الاستدلالاتِ العلمية النفيسة في إثباتِ رجحانها، لما عرفنا عنه من تَبَحُّرٍ في هذا العلم ومعرفة متميزة بأصوله ودقائقه، لينتفع بها أهلُ العلم والقراء على حَدٍّ سواء.

---

(٣٦) مقدمة العلامة الأستاذ محمود شاكر لتفسير الطبري ١/١٧، وتعليقه على المجلد الأول ١/٤٥٤، ٤٥٨ من طبعته المحققة.

ولأبي جعفر آراء سديدة في مسائل الناسخ والمنسوخ، إذ هو من الذين لا يرتضون القولَ بالنسخ إلا بدليلٍ واضح بَيِّنٍ، وله في ذلك مؤلف أشار إليه في تضاعيف كتابه غير مرةٍ، لذا رأينا من المفيد النافع الإبقاء على كثير مما أثبته ودلَّلَ عليه في هذا الشأن لما فيه من الفوائد والعوائد.

ولا بد لنا من أن نشير إلى أننا عرضنا خطتنا وعملنا على طائفة من أهل العلم بعد أن قطعنا فيه شوطاً، فكانوا ـ جزاهم الله خيراً ـ يرفدوننا بآرائهم ومقترحاتهم، فنقوّم طريقتنا في الاختيار والتهذيب والإخراج حينما نجد ذلك نافعاً للكتاب مُحَسِّناً له.

وفي مقدمة من اطلع على هذا العمل مذ بدأنا به صديقنا العلامة النحرير المحدث العالم بكتاب الله الفقيه الأصولي النظار الشيخ شعيب الأرنؤوط ـ مَتَّع الله المسلمين بعلمه ومعرفته ـ فأنبهنا إلى جملة أمور أدت إلى إنضاج هذا العمل حتى ظهر بهذه الهيأة العلمية النافعة إن شاء الله تعالى، فجزاه الله عنا وعن القراء خير ما يجازي به عباده الصالحين.

كما نرى من الواجب علينا أن ننوه بمؤسسة الرسالة والأستاذ محمد إقبال دعبول الذي تحمس لهذا العمل وتحمل نشره لما رأى فيه من نفع لأمةِ العربيةِ أمّةِ القرآن.

وقد رأيتُ من المفيد لهذا الكتاب أن يشاركني في العمل به صديقي الفاضل الأستاذ عصام فارس الحرستاني، لما عرفته عنه من دقة في عمله وإتقان في ضبطه وتدقيقه وذوق رفيع في الفهم والاختيار، فكان هذا من توفيق الله سبحانه وفضله ومَنّه.

ولسنا هنا في حال ذكر ما عانينا في هذا التهذيب، وما قمنا به من ضبط وتدقيق، فإن الكتاب الذي بين يدي القارىء هو المُنْبِىءُ بكل ذلك.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا وينفع الناسَ بهذا الكتاب، ويتقبل منا عملنا فيه، ويجنبنا مواطن الزلل، وأن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه

بمدينة عمان / البلقاء

أبو محمد

بشّار بن عوّاد بن معروف البغدادي

تفسير الطبري

من كتابه

جامع البيان عن تأويل آي القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي حجت الألبابَ بدائعُ حِكمه، وخَصمَت العقولَ لطائفُ حُججه، وقطعت عذرَ الملحدين عجائبُ صُنعه، وهَتفتْ في أسماع العالمينَ ألسنُ أدلته، شاهدةً أنه الله الذي لا إله هُو، الذي لا عِدْلَ له معادل، ولا مِثلَ له مماثل، ولا شريكَ له مُظاهِر، ولا وَلدَ له ولا والد، ولم يكن له صاحبةٌ ولا كفواً أحدٌ، وأنه الجبار الذي خضعت لجبروته الجبابرة، والعزيز الذي ذلت لعزته الملوكُ الأعزّة، وخشعت لمهابة سطوته ذَوُو المهابة، وأذعنَ له جميعُ الخلق بالطاعة طوْعاً وكرهاً، كما قال الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه: ﴿ولله يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمـوٰاتِ والأَرْض طَوْعـاً وَكَرْهاً وَظِلاَلُهُمْ بِالغُدُوِ وَالآصَال﴾ [الرعد: ١٥] فكل موجود إلى وَحدانيته داعٍ، وكل محسوس إلى رُبوبيته هادٍ، بما وسَمهم به من آثار الصنعة، من نقص وزيادة، وعجز وحاجة، وتصرف في عاهات عارضة، ومقارنة أحداث لازمة، لتكونَ له الحجة البالغة.

ثم أرْدف ما شهدتْ به من ذلك أدلَّتهُ، وأكد ما استنارت في القلوب منه بهجته، برسلٍ ابتعثهم إلى من يشاء من عباده، دعاة إلى ما اتضحت لديهم صحّتـه، وثبتت في العقول حجته، ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] وليذَّكَّر أولو النهى والحلم. فأمدَّهم بعوْنه، وأبانهم من سائر خلقه، بما دلّ به على صدقهم من الأدلة، وأيدهم به من الحجج البالغة والآي المعجزة، لئلا يقول القائل منهم: ﴿مَا هٰذَا إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأكُلُ مِمَّـا تَأكُلُونَ مِنْـه وَيَشْـرَبُ مِمَّـا تَشْرَبُونَ. وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إنَّكُمْ إذاً لَخَاسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣-٣٤] فجعلهم سفراءَ بينه وبين خلقه، وأمناءه على وحيه، واختصهم بفضله، واصطفاهم برسالته، ثم جعلهم ـ فيما خصهم به من مواهبـه، ومَنَّ به عليهم من كرامـاته ـ مراتبَ مختلفة، ومنازل مُفترقة، ورفع بعضهم فوق بعض درجـات، متفـاضـلات متباينات. فكرَّم بعضهم بالتكليم

والنجوى، وأيّد بعضهم بروح القدس، وخصّه بإحياء الموتى، وإبراء أولي العاهة والعمى، وفضَّل نبينا محمداً ﷺ، من الدرجات بالعليا، ومن المراتب بالعُظمى. فحباه من أقسام كرامته بالقسم الأفضل، وخصه من درجات النبوّة بالحظ الأجزَل، ومن الأتباع والأصحاب بالنصيب الأوفر. وابتعثه بالدعوة التامة، والرسالة العامة، وحاطه وحيداً، وعصمه فريداً، من كل جبار عاند، وكل شيطان مارد، حتى أظهر به الدّين، وأوضح به السبيل، وأنهج به معالم الحق، ومَحَق به منار الشِّرك. وزُهِقَ به الباطلُ، واضمحل به الضلالُ وخُدَعُ الشيطان وعبادةُ الأصنام والأوثان، مُؤَيَّداً بدلالةٍ على الأيام باقية، وعلى الدهور والأزمان ثابتة، وعلى مَرِّ الشهور والسنين دائمة، يزداد ضياؤها على كرّ الدهور إشراقاً، وعلى مرّ الليالي والأيام ائتلاقاً، خِصِّيصَى[1] من الله له بها دون سائر رسله ـ الذين قهرتهم الجبابرة، واستذلَّتهم الأمم الفاجرة، فتعفَّتْ بعدهم منهم الآثار، وأخملت ذكرهم الليالي والأيام ـ ودون مَنْ كان منهم مُرْسلاً إلى أمة دون أمة، وخاصّة دون عامةٍ، وجماعة دون كافّة.

فالحمدُ لله الذي كرمنا بتصديقه، وشرّفنا باتِّباعه، وجعلنا من أهل الإقرار والإيمان به وبما دعا إليه وجاء به، ﷺ، أزكى صلواته، وأفضل سلامه وأتمّ تحياته.

ثم أما بعد، فإنّ من جسيم ما خصّ الله به أمة نبينا محمد ﷺ من الفضيلة، وشرَّفهم به على سائر الأمم من المنازل الرفيعة، وحباهم به من الكرامة السنية، حفظَه ما حفظ عليهم ـ جلّ ذكره وتقدست أسماؤه ـ من وحيه وتنزيله، الذي جعله على حقيقة نبوة نبيهم ﷺ دلالة، وعلى ما خصه به من الكرامة علامةً واضحة، وحجةً بالغة، أبانه به من كل كاذب ومفترٍ، وفصَل به وبينهم وبين كل جاحد ومُلْحِد، وفرَّق به بينهم وبين كل كافر ومشرك؛ الذي لو اجتمع جميعُ من بين أقطارها، من جِنّها وإنسها وصغيرها وكبيرها، على أن

---

(١) أفرده به دون غيره.

يأتوا بسورة من مثله لم يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. فجعله لهم في دُجى الظُّلم نوراً ساطعاً، ونفي سُدَف الشُّبَه شهاباً لامعاً[1]، وفي مضَلة المسالك دليلاً هادياً، وإلى سبل النجاة والحق حادياً، ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٦] حَرَسَهُ بعينٍ منه لا تنام، وحاطه بركنٍ منه لا يضام، لا تَهِي على الأيام دعائمه، ولا تبيدُ على طول الأزمان معالمه، ولا يجور عن قصد المحجَّة تابعُه[2]، ولا يضل عن سُبُل الهدى مُصَاحبه. من اتبعه فاز وهُدِي، ومن حاد عنه ضلَّ وغَوَى، فهو موئلهم الذي إليه عند الاختلاف يَئِلون، ومعقلهم الذي إليه في النوازل يعقلون[3]، وحصنهم الذي به من وساوس الشيطان يتحصنون، وحكمة ربهم التي إليها يحتكمون، وفصْل قضائه بينهم الذي إليه ينتهون، وعن الرضى به يصدرون، وحبله الذي بالتمسك به من الهلكة يعتصمون.

اللهم فَوَفِّقْنَا لإصابة صواب القول في مُحْكَمه ومُتَشابهه، وحلاله وحرامه، وعامِّه وخاصه، ومجمَله ومفسره، وناسخه ومنسوخه، وظاهره وباطنه، وتأويل آيِه وتفسير مُشْكِله. وألهمنا التمسكَ به والاعتصامَ بمحكمه، والثبات على التسليم لمتشابهه. وأوزعنا الشكر على ما أنعمتَ به علينا من حفظه والعلم بحدوده. إنك سميع الدعاء قريب الإجابة. وصلى الله على محمد النبي وآله وسلم تسليماً.

اعلموا عبادَ الله، رحمكم الله، أن أحقَّ ما صُرِفت إلى علمه العناية،

---

(١) السدف: جمع سدفة، وهي ظلمة الليل يخالطها بعض الضوء، تكون في أول الليل وآخره ما بين الظلمة إلى الشفق، وما بين الفجر إلى الصلاة.

(٢) المحجة: الطريق. والقصد: استقامة الطريق وسهولته.

(٣) وأل يئل وألا ووؤولا: لجأ طلباً للنجاة. والموئل: الملجأ والمنجى. والمعقل: الحصن المنيع في رأس الجبل، وعقل إليه يعقل عقلا وعقولا: لجأ إليه وامتنع به.

وبُلِغت في معرفته الغاية، ما كان لله في العلم به رضىً، وللعالم به إلى سبيل الرشاد هدى وأن أجْمعَ ذلك لباغيه كتابُ الله الذي لا ريب فيه، وتنزيله الذي لا مِرْية فيه، الفائزُ بجزيل الذخر وسنيّ الأجر تَالِيهِ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيم حَميد.

ونحن ـ في شرح تأويله، وبيان ما فيه من معانيه ـ منشئون إن شاء الله ذلك، كتاباً مستوعِباً لكل ما بالناس إليه الحاجة من علمه، جامعاً، ومن سائر الكتب غيره في ذلك كافياً. ومُخْبِرُونَ في كل ذلك بما انتهى إلينا من اتفاق الحجة فيما اتفقت عليه منه، واختلافها فيما اختلفت فيه منهُ. ومُبَيِّنُو عِلَل كل مذهب من مذاهبهم، ومُوَضِّحو[1] الصحيح لدينا من ذلك، بأوجز ما أمكن من الإيجاز في ذلك، وأخصر ما أمكن من الاختصار فيه.

والله نسأَلُ عونه وتوفيقه لما يقرب من محَابِّهِ، ويُبْعد من مَساخِطه. وصلى الله على صفوته من خلقه وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً.

وأولُ ما نبدأ به من القِيل في ذلك: الإبانةُ عن الأسباب التي البدايةُ بها أولى، وتقديمها قبل ما عداها أحْرى. وذلك: البيانُ عما في آي القرآن من المعاني التي من قِبَلها يدخلُ اللَّبْس على مَنْ لم يعانِ رياضةَ العلوم العربية ولم تستحكم معرفتُه بتصاريف وجوه منطق الألسُن السليقية الطبيعية.

القولُ في البيانِ عن اتّفاق معاني آي القرآن، ومعاني منطق مَنْ نزل بلسانه القرآن من وَجْه البيان ـ والدّلالة على أن ذلك من الله تعالى ذكره هو الحكمة البالغة ـ مع الإبانةِ عن فضْل المعنَى الذي به بَايَن القرآنُ سائرَ الكلام

إن من أعظم نعم الله تعالى ذكره على عباده، وجسيم منَّته على خلقه،

(١) قال شيخنا العلامة مصطفى جواد رحمه الله ـ ومن خطه نقلت ـ: إثبات النون أولى، كما قال «منشئون» أولاً.

ما منحهم من فَضْـل البيان الذي به عن ضمائرِ صُدُورهم يُبينون، وبه على عزائم نفوسهم يَدُلُّون، فذلَلَّ به منهم الألسن، وسهَّل به عليهم المستصعِب. فبهِ إياه يُوَحِّدون، وإيَّاه به يُسَبِّحون ويقدسون، وإلى حاجاتهم به يتوصّلون، وبه بينهم يَتحاورُون، فيتعارفون ويتعاملون.

ثم جعلهم، جلّ ذكره ـ فيما منحهم من ذلك ـ طبقاتٍ، ورفع بعضهم فوق بعض درجاتٍ: فَبَيْنَ خطيب مُسْهِب، وذَلِقِ اللسان مُهْذِب، ومفْحَمٍ عن نفسه لا يُبين، وعَيِيٍّ عن ضمير قلبه لا يُعبّر. وجعل أعلاهم فيه رُتبة، وأرفعهم فيه درجةً، أبلغَهم فيما أرادَ به بَلاغاً، وأبينَهم عن نفسه به بياناً. ثم عرّفهم في تنزيله ومحكم آيِ كتابه فضلَ ما حباهم به من البيان، على مَنْ فضّلهم به عليه من ذي البَكَم والمُسْتَعْجِم اللسان، فقال تعالى ذكرهُ: ﴿أَوَ مَنْ يُنَشَّأُ في الحِلْيَةِ وَهوَ في الخِصَامِ غَيرُ مُبِين﴾ [الزخرف: ١٨]. فقد وَضَحَ إذاً لذوي الأفهام، وتبين لأولي الألباب، أنّ فضلَ أهل البيان على أهل البَكَم والمستعجِم اللسان، بفضل اقتدار هذا من نفسه على إبانة ما أراد إبانته عن نفسه ببيانه، واستعجام لسان هذا عما حاول إبانته بلسانه.

فإذْ كان ذلك كذلك ـ وكان المعنى الذي به باينَ الفاضلُ المفضولَ في ذلك، فصار به فاضلاً والآخرُ مفضولاً، هو ما وصفنا من فضْل إبانة ذي البيان، عما قصّر عنه المستعجمُ اللسان، وكان ذلك مختلفَ الأقدار، متفاوتَ الغايات والنهايات ـ فلاشك أن أعلى منازل البيان درجةً، وأسنى مراتبه مرتبةً، أبلغُه في حاجة المُبين عن نفسه، وأبينُه عن مراد قائله، وأقربُه من فهم سامعه. فإن تجاوز ذلك المقدار، وارتفع عن وُسْع الأنام، وعجز عن أن يأتي بمثله جميعُ العباد، كان حجةً وعَلَماً لرسل الواحد القهار ـ كما كان حجةً وعَلَماً لها إحياءُ الموتى وابراءُ الأبرص وذوي العمى بارتفاع ذلك عن مقادير أعلى منازل طبِّ المتطببين، وأرفع مراتب علاج المعالجين، إلى ما يعجز عنه جميع العالَمِين. وكالذي كان لها حجةً وعَلَماً قطعُ مسافة شهرين في الليلة الواحدة، بارتفاع

ذلك عن وسع الأنام، وتعذر مثله على جميع العباد، وإن كانوا على قطع القليل من المسافة قادرين، ولليسير منه فاعلين.

فإذْ كان ما وصفنا من ذلك كالذي وصفنا، فَبَيِّنٌ أنْ لا بيانَ أبْيَنُ، ولا حكمة أبلغُ، ولا منطقَ أعلى، ولا كلاَم أشرفُ ـ من بيانٍ ومنطق تحدّى به امرؤ قوماً في زمان هم فيه رؤساء صناعة الخطب والبلاغة، وقِيلِ الشعرِ والفصَاحة، والسجع والكهانة، على كل خطيب منهم وبليغ، وشاعر منهم وفصيح، وكل ذي سجع وكهانة ـ فسفَّه أحلامهم، وقصَّر بعقولهم[1]، وتبرأ من دينهم، ودعا جميعهم إلى اتباعه والقبول منه والتصديق به، والإقرار بأنه رسولٌ إليهم من ربهم. وأخبرهم أن دلالته على صِدْقِ مقالته، وحجَّتَه على حقيقة نبوّته ـ ما أتاهم به من البيان، والحكمة والفرقان، بلسانٍ مثل ألسنتهم، ومنطق موافقةٍ معانيه معاني منطقهم. ثم أنبأ جميعهم أنهم عن أن يأتوا بمثل بَعْضِهِ عَجَزَةٌ، ومن القدرة عليه نقَصَةٌ. فأقرّ جميعُهم بالعجز، وأذعنوا له بالتصديق، وشهدوا على أنفسهم بالنقص. إلا من تجاهل منهم وتعامى، واستكبر وتعاشَى، فحاول تَكَلُّفَ ما قد علم أنه عنه عاجز، ورام ما قد تيقن أنه عليه غير قادر. فأبدى من ضعف عقله ما كان مستتراً، ومن عِيٍّ لسانه ما كان مصُوناً، فأتى بما لا يعجزُ عنه الضعيف الأخرق، والجاهل الأحمق، فقال: «والطاحنات طحناً، والعاجنات عجناً، فالخابزات خبزاً، والثاردات ثَرْداً، واللاقمات لقَمْا»[2]، ونحو ذلك من الحماقات المشبهةِ دعواه الكاذبة.

فإذْ كان تفاضُلُ مراتب البيان، وتبايُنُ منازل درجات الكلام، بما وصفنا قَبْلُ ـ وكان الله تعالى ذِكْرُهُ وتقدّست أسماؤه، أحكمَ الحكماء، وأحلمَ الحلماء ـ كان معلوماً أن أبينَ البيان بيانهُ، وأفضلَ الكلام كلامه، وأن قَدْرَ فضْلِ بيانه،

---

(١) سفه أحلامهم: نسبهم إلى السفه، وهو خفة الحلم واضطراب الرأي وضعفه، وهو باب من الجهل.

(٢) من هذيان مسيلمة الكذاب لعنه الله. انظر تاريخ الطبري ٣/٢٤٥ وسواه.

جلّ ذكره، على بيان جميع خلقه، كفضله على جميع عباده.

فإذْ كان كذلك ـ وكان غيرَ مبين منّا عن نفسه مَنْ خاطبَ غيره بما لا يفهمه عنه المخاطب ـ كان معلوماً أنه غير جائز أن يخاطبَ جَلَّ ذكره أحداً من خلقه إلا بما يفهمه المخاطَبُ، ولا يرسلَ إلى أحد منهم رسولاً برسالة إلا بلسانٍ وبيانٍ يفهمه المرسَلُ إليه. لأن المخاطب والمرسَلَ إليه، إن لم يفهم ما خوطب به وأرسل به إليه، فحالهُ ـ قبلَ الخطاب وقبل مجيء الرسالة إليه وبعده ـ سواءٌ، إذ لم يُفِـدْهُ الخطابُ والرسالةُ شيئاً كان به قبل ذلك جاهلاً. والله جل ذكره يتعالى عن أن يخاطب خطاباً أو يرسل رسالةً لا توجب فائدةً لمن خُوطب أو أرسلت إليه، لأنَّ ذلك فينا مِنْ فِعْلِ أهلِ النقص والعبث، والله تعالى عن ذلك مُتَعال. ولذلك قال جل ثناؤه في محكم تنزيله: ﴿وما أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إلاَّ بلِسَـانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]. وقال لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ إلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُم الَّذِي اخْتَلَفُوا فيه وَهُدَىً ورَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤]. فغير جائز أن يكونَ به مهتدياً، منْ كانَ بما يُهْدَى إليه جاهلاً.

فقد تبين إذاً ـ بما عليه دللنا من الدلالة ـ أن كلَّ رسولٍ لله جلّ ثناؤه أرسله إلى قوم، فإنما أرسلهُ بلسان مَن أرسله إليه، وكلّ كتاب أنزله على نبي، ورسالة أرسلها إلى أمة، فإنما أنزله بلسان من أنزله أو أرسله إليه. فاتَّضَحَ بما قلنا ووصفنا، أن كتاب الله الذي أنزله إلى نبينا محمد ﷺ، بلسان محمد ﷺ. وإذْ كان لسـانُ محمد ﷺ عربياً، فبيِّنٌ أن القرآن عربيٌّ. وبذلك أيضاً نطق محكم تنزيل ربنا، فقال جل ذكره: ﴿إنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]. وقال: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ. نَزَلَ به الرُّوحُ الأَمِينُ. عَلَى قَلْبِك لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥].

وإذْ كانت واضحةً صحةُ ما قلنا ـ بما عليه استشهدنا من الشواهد، ودللنا عليه من الدلائل ـ فالواجبُ أن تكون معاني كتاب الله المنزَل على نبينا محمد ﷺ، لمعاني كلام العرب موافقةً، وظاهرهُ لظاهر كلامها ملائماً، وإن باينه كتابُ الله

بالفضيلة التي فَضَلَ بها سائرَ الكلام والبيان، بما قد تقدّم وَصْفُنَاهُ.

فإذْ كان ذلك كذلك، فَبَيِّنٌ ـ إذْ كان موجوداً في كلام العرب الإيجازُ والاختصارُ، والاجتزاءُ بالإخفاء من الإظهار، وبالقلة من الإكثار في بعض الأحوال، واستعمالُ الإطالة والإكثار، والترداد والتكرار، وإظهارُ المعاني بالأسماء دون الكناية عنها، والإسرار في بعض الأوقات، والخبرُ عن الخاصّ في المراد بالعامّ الظاهر، وعن العامّ في المراد بالخاصّ الظاهر، وعن الكناية والمرادُ منه المصرح، وعن الصفة والمرادُ الموصوف، وعن الموصوف والمرادُ الصفة، وتقديمُ ما هو في المعنى مُؤَخَّرٌ، وتأخيرُ ما هو في المعنى مُقَدَّمٌ، والاكتفاءُ ببعض من بعض، وبما يظهر عما يحذف، وإظهارُ ما حَظُّهُ الحذف ـ أن يكون ما في كتاب الله المنزَل على نبيه محمد ﷺ من ذلك، في كلّ ذلك له نظيراً، وله مِثْلاً وشبيهاً.

ونحن مُبَيِّنو جميع ذلك في أماكنه، إن شاء الله ذلك وأمدّ منه بعونٍ وقوة.

القول في البيان
عن الأحرف التي اتفقت فيها ألفاظ العرب
وألفاظ غيرها من بعض أجناس الأمم

إن سألنا سائل فقال: إنك ذكرت أنه غيرُ جائز أن يخاطب الله تعالى ذكرهُ أحداً من خلقه إلا بما يفهمه، وأن يرسل إليه رسالة إلا باللسان الذي يفقهه، فما أنت قائل (بالأخبار التي تدل)[1] على أن فيه من غير لسان العرب؟

قيل له: إنّ الذي قالوه من ذلك غير خارج من معنى ما قلنا ـ من أجل أنهم لم يقولوا: هذه الأحرف وما أشبهها لم تكن للعرب كلاماً، ولا كان ذاك لها منطقاً قبل نزول القرآن، ولا كانت بها العرب عارفةً قبل مجيء الفرقان ـ فيكون ذلك قولاً لقولنا خِلافاً[2] . وإنما قال بعضهم: حرف كذا بلسان الحبشة معناهُ كذا، وحرفُ كذا بلسان العجم معناهُ كذا. ولم نستنكر أن يكون الكلام ما يتفق فيه ألفاظ جميع أجناس الأمم المختلفة الألسن بمعنى واحد، فكيف بجنسين منها؟ كما قد وجدنا اتفاق كَثير منه فيما قد علمناه من الألسن المختلفة، وذلك كالدرهم والدينار والدواة والقلم والقرْطاس، وغير ذلك ـ مما يُتْعِبُ إحصاؤه ويُمِلُّ تَعْدَادُهُ، كرهنا إطالة الكتاب بذكره ـ مما اتفقت فيه الفارسية والعربية باللفظ والمعنى. لعل ذلك كذلك في سائر الألسن التي نجهل منطقها ولا نعرف كلامها.

---

(١) ما بين المعقوفتين من عندي اقتضتها ضرورة التهذيب، وكل الأخبار التي ذكرها ضعيفة سوى خبرٍ واحد من كلام أبي ميسرة الكوفي، انفرد به الطبري وحده.

(٢) خلاف: مخالف، وسيكثر مجيئها في كلام الطبري.

فلو أن قائلاً قال ـ فيما ذكرنا من الأشياء التي عَدَدْنا وأُخْبِرْنا اتفاقَهُ في اللفظ والمعنى بالفارسية والعربية، وما أشبهَ ذلك مما سكتنا عن ذكره ـ : ذلك كله فارسي لا عربي، أو ذلك كله عربي لا فارسي، أو قال: بعضه عربي وبعضه فارسي، أو قال كان مخرج أصله من عند العرب فوقع إلى العجم فنطقوا به، أو قال: كان مخرج أصله من عند الفرس فوقع إلى العرب فأعربته ـ كان مُستجهلاً. لأن العربَ ليست بأولى أن تكون، كان مخرجُ أصل ذلك منها إلى العجم، ولا العجم أحقُّ أن تكون كان مخرج أصل ذلك منها إلى العرب، إذ كان استعمال ذلك بلفظ واحد ومعنى واحد موجوداً في الجنسين.

وإذْ كان ذلك موجوداً على ما وصفنا في الجنسين، فليس أحدُ الجنسين أولى بأن يكون أصلُ ذلك كان من عنده من الجنسِ الآخر. والمدّعِي أن مخرج أصل ذلك إنما كان من أحد الجنسين إلى الآخر، مدّعٍ أمراً لا يُوصَلُ إلى حقيقة صِحَّتِهِ إلا بخَبَرٍ يُوجِبُ العِلْمَ، ويُزيلُ الشكَّ، ويقطع العذرَ صحّتُه.

بل الصواب في ذلك عندنا: أنْ يسمَّى: عربياً أعجمياً، أو حبشياً عربياً، إذ كانت الأمّتان له مستعملتين ـ في بيانها ومنطقها ـ استعمالَ سائر منطقها وبيانها. فليس غيرُ ذلك من كلام كلّ أمة منهما، بأولى أنْ يكون إليه منسوباً ـ منه[1].

فكذلك سبيل كل كلمة واسم اتفقت ألفاظ أجناس أمم فيها وفي معناها، ووُجد ذلك مستعملاً في كل جنس منها استعمالَ سائرِ منطقهم، فسبيلُ إضافته إلى كل جنس منها، سبيلُ ما وصفنا ـ من الدرهم والدينار والدواة والقلم، التي اتفقت ألسن الفرس والعرب فيها بالألفاظ الواحدة والمعنى الواحد، في أنه مستحقٌّ إضافته إلى كل جنس من تلك الأجناس ـ اجتماعٌ واقترانٌ[2].

وذلك هو معنى من روينا عنه القولَ في الأحرف التي مضت في صدر

---

(١) قول «منه» متعلق بقوله «بأولى»، أي «بأولى منه...».

(٢) أي أن يجمع بين الوصفين أو يقرن بين النسبتين.

هذا الباب، من نسبة بعضهم بعض ذلك إلى لسان الحبشة، ونسبة بعضهم بعضَ ذلك إلى لسان الفرس، ونسبة بعضهم بعضَ ذلك إلى لسان الروم. لأنّ من نسب شيئاً من ذلك إلى ما نسبه إليه، لم ينفِ - بنسبته إياه إلى ما نسبه إليه - أن يكـون عربياً، ولا من قال منهم: هو عربيّ، نفى ذلك أن يكون مستحقاً النسبةَ إلى من هو من كلامه من سائر أجناس الأمم غيرها. وإنما يكون الإثبات دليلاً على النفي، فيما لا يجوز اجتماعه من المعاني، كقول القائل: فلان قائم، فيكون بذلك من قوله دالاً على أنه غير قاعد، ونحو ذلك مما يمتنع اجتمـاعه لتنافيهما. فأمّا ما جاز اجتماعه فهو خارج من هذا المعنى. وذلك كقول القائل: فلان قائم مكلِّمٌ فلاناً، فليس في تثبيت القيام له ما دلَّ على نفي كلام آخر، لجواز اجتماع ذلك في حالٍ واحدٍ من شخص واحد. فقائل ذلك صادق إذا كان صاحبه على ما وصفه به.

فكذلك ما قلنا - في الأحرف التي ذكرنا وما أشبهها - غيرُ مستحيل أن يكون عربياً بعضها أعجمياً، وحبشياً بعضها عربياً، إذ كان موجوداً استعمالُ ذلك في كلتا الأمتين. فناسِبُ ما نَسبَ من ذلك إلى إحدى الأمتين أو كلتيهما محقٌّ غيرُ مبطل.

فإن ظن ذو غباءٍ أنّ اجتماع ذلك في الكلام مستحيلٌ - كما هو مستحيل في أنساب بني آدم - فقد ظنّ جهلاً. وذلك أن أنساب بني آدم محصورة على أحد الطرفين دون الآخر، لقول الله تعالى ذكره: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ﴾ [الأحزاب: ٥]. وليس ذلك كذلك في المنطق والبيان، لأنّ المنطق إنما هو منسوب إلى من كان به معروفاً استعمالُه. فلو عُرِف استعمالُ بعض الكلام في أجناس من الأمم - جنسين أو أكثر - بلفظ واحد ومعنى واحد، كان ذلك منسوباً إلى كل جنس من تلك الأجناس، لا يستحق جنس منها أن يكون به أولى من سائر الأجناس غيره. كما لو أنّ أرضاً بين سَهل وجبل، لها هواء السهل وهواء الجبل، أو بين برٍّ وبحرٍ، لها هواء البر وهواءُ البحر - لم يمتنع

ذو عقل صحيح أن يصفها بأنها سُهْلية جبلية[1]. أو بأنها بَرِّية بحْرية، إذ لم تكن نسبتها إلى إحدى صفتيها نافيةً حقَّها من النسبة إلى الأخرى. ولو أفردَ لها مفردٌ إحدى صفتيها ولم يسلبها صفتها الأخرى، كان صادقاً محقاً.

وكذلك القول في الأحرف التي تقدم ذِكْرُنَاهَا في أول هذا الباب.

وهذا المعنى الذي قلناه في ذلك، هو معنى قول من قال: في القرآن من كل لسان[2] ـ عندنا بمعنى، والله أعلم: أنّ فيه من كلّ لسان اتفق فيه لفظ العرب ولفظ غيرها من الأمم التي تنطق به، نظيرَ ما وصفنا من القول فيما مضى.

وذلك أنه غيرُ جائز أن يُتوهَّم على ذي فطرة صحيحة، مقرّ بكتاب الله، ممن قد قرأ القرآن وعرف حدود الله ـ أن يعتقد أن بعضَ القرآن فارسي لا عربي، وبعضه نبطي لا عربي، وبعضه رومي لا عربي، وبعضه حبشي لا عربي، بعد ما أخبر الله تعالى ذكرهُ عنه أنه جعله قرآناً عربياً. لأن ذلك إنْ كان كذلك، فليس قولُ القائل: القرآنُ حبشيٌّ أو فارسيٌّ، ولا نسبةُ من نسبه إلى بعض ألسن الأمم التي بعضهُ بلسانه دون العرب ـ بأولى بالتطويل من قول القائل: هو عربي. ولا قولُ القائل: هو عربيٌّ بأولى بالصّحة والصواب من قول ناسبه إلى بعض الأجناس التي ذكرناها. إذ كان الذي بلسان غير العرب من سائر ألسن أجناس الأمم فيه، نظيرَ الذي فيه من لسان العرب.

وإذا كان ذلك كذلك، فَبَيِّنٌ إذاً خطأ من زعم أن القائل من السلف: في القرآن من كل لسان، إنما عنى بِقِيلِهِ ذلك، أنّ فيه من البيان ما ليس بعربيّ، ولا جائز نسبته إلى لسان العرب.

ويقال لمن أبى ما قلنا ـ ممن زعم أن الأحرف التي قدمنا ذكرها في أول

---

(١) النسب إلى السهل (بفتح فسكون): (سُهْلي)، بضم السين، على غير القياس.

(٢) هو قول أبي ميسرة الكوفي أخرجه عنه الطبري بسند صحيح، لكنه انفرد به.

الباب وما أشبهها، إنما هي كلام أجناس من الأمم سوى العرب، وقعت إلى العرب فعرَّبته ـ: ما برهانك على صحة ما قلت في ذلك من الوجه الذي يجب التسليم له، فقد علمتَ مَن خالفك في ذلك، قال فيه خلاف قولك؟ وما الفرقُ بينك وبين مَنْ عارضك في ذلك، فقال: هذه الأحرف، وما أشبهها من الأحرف غيرها، أصلها عربي، غير أنها وقعت إلى سائر أجناس الأمم غيرها فنطقت كل أمة منها ببعض ذلك بألسنتها من الوجه الذي يجبُ التسليم له؟

فلن يقول في شيء من ذلك قولاً إلا ألزم في الآخر مثله.

فإن اعتـلَّ في ذلك بأقوال السلف التي قد ذكرنا بعضها وما أشبهها، طُولِبَ ـ مطالبَتنا مَنْ تأوَّل عليهم في ذلك تأويله ـ بالذي قد تقدم بيانه. وقيل له: ما أنكرتَ أن يكون من نسب شيئاً من ذلك منهم إلى من نسبه من أجناس الأمم سوى العرب، إنما نسبه إلى إحدى نسبتيه التي هو لها مستحق، من غير نَفيٍ منه عنه النسبة الأخرى؟ ثم يقال له: أرأيتَ من قال لأرض سُهْلية جبلية: هي سُهلية، ولم ينكر أن تكون جبلية، أو قال: هي جبلية، ولم يدفعْ أن تكون سُهْلية، أنافٍ عنها أن تكون جبلية، أو قال: هي جبلية، ولم يدفعْ أن تكون سُهْلية، أنافٍ عنها أن تكون لها الصفة الأخرى بقيله ذلك؟

فإن قال: نعم! كابر عَقْلَه. وإن قال: لا، قيل له: فما أنكرت أن يكون قولُ من قال في سجّيل: هي فارسية، وفي القسطاس: هي رومية ـ نظيرَ ذلك؟ وسئل الفرقَ بين ذلك، فلن يقولَ في أحدهما قولاً إلا ألزِم في الآخر مثله.

قد دللنا، على صحة القول بما فيه الكفاية لمن وُفِّق لفهمه، على أن الله جل ثناؤه أنزل جميع القرآن بلسان العرب دون غيرها من ألسن سائر أجناس الأمم، وعلى فساد قول من زعم أن منه ما ليس بلسان العرب ولغاتها[1].

(١) الفقرة الأخيرة من فصل عقده الطبري للقول في اللغة التي نزل بها القرآن من لغات العرب، حذفناه لقلة أهميته في عصرنا، وكذلك فعلنا بالفصل الذي جاء بعده بعنوان «القول في البيان عن معنى قول رسول الله ﷺ: «أنزل القرآن من سبعة أبواب الجنة وذكر الأخبار الواردة بذلك» للسبب نفسه.

[راجعهما في الطبعة التي بتحقيق احمد شاكر ومحمد شاكر ١/٢١-٧٢]

القول في الوجوه التي مِنْ قِبَلِهَا يُوصَلُ إلى معرفة تأويل القرآن

قال الله جلّ ذكره وتقدست أسماؤه، لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، وقال أيضاً جلّ ذكره: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُم الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدَىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ، وأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وابْتِغَاءَ تَأْوِيلِه، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ الله، وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧]. فقد تبين ببيان الله جلّ ذكره:

أنّ مما أنزل الله من القرآن على نبيه ﷺ، ما لا يُوصَلُ إلى علمِ تأويله إلا ببيان الرسول ﷺ. وذلك تأويل جميع ما فيه: من وجوه أمرهِ ـ واجبهِ وَنَدْبه وإرْشاده ـ وصنوفِ نَهيه، ووظائف حقوقه وحدوده، ومبالغ فرائضه، ومقادير اللازم بعضَ خَلْقه لبعض، وما أشبه ذلك من أحكام آيه، التي لم يُدْرَك عِلْمُها إلا ببيان رسول الله ﷺ لأمّته. وهذا وجهٌ لا يجوز لأحد القول فيه، إلا ببيان رسول الله ﷺ له تأويلَه بنصٍّ منه عليه، أو بدلالة قد نصَبها، دالَّةٍ أمّته على تأويله.

وأنّ منه ما لا يعلم تأويله إلا الله الواحدُ القهار. وذلك ما فيه من الخبر عن آجالٍ حادثة، وأوقات آتية، كوقت قيام الساعة، والنفخ في الصور، ونزول عيسى بن مريم، وما أشبه ذلك: فإن تلك أوقاتٌ لا يعلم أحدٌ حدودَها، ولا يعرف أحدٌ من تأويلها إلا الخبرَ بأشراطها، لاستئثار الله بعلم ذلك على خلقه.

وبذلك أنزل ربُّنا محكم كتابه، فقال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي، لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِها إِلاَّ هُوَ، ثَقُلَتْ فِي السَّموات والأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً، يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا، قُلْ إِنَّما عِلْمُهَا عِنْدَ الله وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]. وكان نبينا محمد ﷺ إذا ذكر شيئاً من ذلك، لم يدلّ عليه إلا بأشراطه دون تحديده بوقته كالذي روي عنه ﷺ أنه قال لأصحابه، إذْ ذكر الدجّال: «إنْ يخرجْ وأنا فيكم، فأنا حَجِيجُه، وإنْ يخرجْ بعدي، فالله خليفتي عليكم»[1]، وما أشبه ذلك من الأخبار ـ التي يَطُولُ باستيعابها الكتاب ـ الدالّةِ على أنه ﷺ لم يكن عنده علمُ أوقاتِ شيء منه بمقادير السِّنين والأيام، وأن الله جلّ ثناؤه إنما كان عَرَّفَهُ مجيئه بأشراطه، ووقّته بأدلته.

وأن منه ما يعلم تأويلَه كلُّ ذي علم باللسان الذي نزل به القرآن. وذلك: إقامةُ إعرابه ومعرفةُ المسمَّيات بأسمائها اللازمة غيرِ المشترَك فيها، والموصوفات بصفاتها الخاصة دون ما سواها، فإنّ ذلك لا يجهله أحدٌ منهم. وذلك كسامعٍ منهم لو سمع تالياً يتلو: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١-١٢]، لم يجهلْ أن معنى الإفساد هو ما ينبغي تركهُ مما هو مضرَّة، وأن الإصلاحَ هو ما ينبغي فِعله مما فِعْلُهُ منفعةٌ، وإنْ جَهِل المعانيَ التي جعلها الله إفساداً، والمعانيَ التي جَعلها الله إصْلاحاً. فالذي يعلمه ذو اللسان ـ الذي بلسانه نزل القرآنُ ـ من تأويل القرآن، هو ما وصفتُ: مِنْ معرفة أعيان المسمَّيات بأسمائها

---

(١) قال ابن حجر في الفتح ١٣: ٨٤ في شرح حديث ابن عمر الذي أخرجه البخاري، وذكر الدجال فقال: «وما من نبي إلا وقد أنذر قومه»، قال: «في بعض طرقه: ان يخرج فيكم فأنا حجيجه». وهو إشارة إلى حديث النواس بن سمعان، مطولاً، في صحيح مسلم ٢: ٣٧٦، وفيه: «إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم»، وأن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم».

اللازمة غير المشترَك فيها، والموصوفات بصفاتها الخاصة، دون الواجب من أحكامها وصفاتها وهيآتها التي خص الله بعلمها نبيَّه ﷺ، فلا يُدرَك علمُهُ إلا ببيانِه، دون ما استأثر الله بعلمِهِ دون خَلْقِهِ.

النهي عن القول في تأويل القرآن بالرأي

إن ما كان مِن تأويل آيِ القرآن الذي لا يُدرَك علمه إلا بنَصِّ بيان رسول الله ﷺ، أو بنَصْبه الدلالة عليه ـ غير جائز لأحد القِيلُ فيه برأيه. بل القائلُ في ذلك برأيه ـ وإنْ أصابَ الحق فيه ـ فمخطىءٌ فيما كان من فِعله، بقيله فيه برأيه، لأن إصـابته ليستْ إصابة مُوقِنٍ أنه مُحِقٌّ، وإنما هو إصابة خارصٍ[1] وظانٍّ. والقائل في دين الله بالظنّ، قائلٌ على الله ما لم يعلم. وقد حرَّم الله جلّ ثناؤه ذلك في كتابه على عباده، فقال: ﴿قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالبَغْيَ بِغَيْرِ الحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِالله مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]. فالقائل في تأويل كتاب الله، الذي لا يدرَك علمه إلا ببيان رسول الله ﷺ، الذي جعل الله إليه بيانه ـ قائلٌ بما لا يعلمُ وإن وافق قيله ذلك في تأويله، ما أراد الله به من معناه. لأن القائل فيه بغير علم، قائلٌ على الله ما لا علم له به.

الحَضّ على العلم بتفسير القرآن

وقد حَثَّ الله عزّ وجل عباده على الاعتبار بما في آي القرآن من المواعظ والبينات ـ بقوله جلّ ذكره لنبيه ﷺ: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّروا آياتِه وَلِيَتَذَكَّرَ أُولو الأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩] وقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هٰذَا القُرْآنِ

(١) خارص: أي بمخمنٍ، والخرص: الحَزْرُ، وكل قولٍ بالظن.

مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ، قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٧ـ٢٨] وما أشبه ذلك من آي القرآن، التي أمر الله عبادَه وحَثَّهم فيها على الاعتبار بأمثال آيِ القرآن، والاتعاظ بمواعظه ـ ما يدل على أنَّ عليهمْ معرفةَ تأويل ما لم يُحجب عنهم تأويلُه من آيِه.

لأنه محالٌ أن يُقال لمن لا يفهمُ ما يُقال له ولا يعقِل تأويلَهُ: «اعتبرْ بما لا فَهْم لك به ولا معرفةَ من القيل والبيان والكلام» ـ إلا على معنى الأمر بأن يفهمَه ويفقَهَه، ثم يتدبَّره ويعتبرَ به فأما قبلَ ذلك، فمستحيلٌ أمرهُ بتدبره وهو بمعناه جاهل. كما محال أن يقال لبعض أصناف الأمم الذين لا يعقلون كلامَ العرب ولا يفهمونه، لو أنشد قصيدة شعرٍ من أشعار بعض العرب ذاتَ أمثالٍ ومواعظ وحكم: «اعتبر بما فيها من الأمثال، وادَّكر بما فيها من المواعظ» ـ إلا بمعنى الأمر لها بفهم كلامِ العرب ومعرفتِه، ثم الاعتبار بما نبهها عليه ما فيها من الحكم. فأما وهي جاهلة بمعاني ما فيها من الكلام والمنطق، فمحالٌ أمرُها بما دلَّت عليه معاني ما حوته من الأمثال والعِبر. بل سواء أمرُها بذلك وأمرُ بعض البهائم به، إلا بعدَ العلم بمعاني المنطق والبيان الذي فيها.

فكذلك ما في آي كتاب الله من العبر والحِكم والأمثال والمواعظ، لا يجوز أن يقال: «اعتبرْ بها» إلا لمن كان بمعاني بيانه عالماً، وبكلام العرب عارفاً؛ وإلا بمعنى الأمر ـ لمن كان بذلك منهُ جاهلاً ـ أنْ يعلم معاني كلام العرب ثم يتدبَّره بعدُ، ويتعظ بحِكَمِهِ وصُنوف عِبَرِه.

فإذْ كان ذلك كذلك ـ وكان الله جلّ ثناؤه قد أمر عباده بتدبُّره وحثهم على الاعتبار بأمثاله ـ كان معلوماً أنه لم يأمر بذلك مَن كان بما يدُلُّ عليه آيُهُ جاهلاً. وإذْ لم يجز أن يأمرهم بذلك إلا وهُمْ بما يدلهم عليه عالمون، صحَّ أنهم ـ بتأويل ما لم يُحجَبْ عنهم عِلْمُهُ من آيِهِ الذي استأثر الله بعلمه منه دون خلقه، الذي قد قدَّمنا صفتَه آنفاً ـ عارفون. وإذْ صَحَّ ذلك فَسَد قول من أنكر تفسيرَ المفسرين ـ من كتاب الله وتنزيلِه ـ ما لم يحجب عن خَلقه تأويله.

قد قلنا فيما مَضى من كتابنا هذا في وجُوه تأويل القرآن، وأن تأويل جميع القرآن على أوجهٍ ثلاثة:

أحدها: لا سبيل إلى الوصول إليه، وهوالذي استأثر الله بعلمه، وحَجبَ علمه عن جميع خلقه، وهو أوقاتُ ما كانَ من آجال الأمور الحادثة، التي أخبر الله في كتابه أنها كائنة، مثل: وقت قيام الساعة، ووقت نزول عيسى بن مريم، ووقتِ طلوع الشمس من مغربها، والنفخ في الصور، وما أشبه ذلك.

والوجه الثاني: ما خصَّ الله بعلم تأويله نبيَّه ﷺ دون سائر أمته، وهو ما فيه مما بعباده إلى علم تأويله الحاجةُ، فلا سبيل لهم إلى علم ذلك إلا ببيان الرسول ﷺ لهم تأويلَه.

والثالث منها: ما كان علمهُ عند أهل اللسان الذي نزل به القرآن، وذلك علم تأويل عربيته وإعرابه، لا يُوصَل إلى علم ذلك إلا من قِبَلهم.

فإذْ كان ذلك كذلك، فأحقُّ المفسرين بإصابة الحق ـ في تأويلِ القرآنِ الذي إلى عِلْم تأويله للعباد السبيلُ ـ أوضحُهم حُجة فيما تأوَّل وفسَّر، مما كان تأويله إلى رسول الله ﷺ دون سائر أمته من أخبار رسول الله ﷺ الثابتة عنه: إمَّا من جهة النقل المستفيض، فيما وُجِد فيه من ذلك عنه النقلُ المستفيض، وإمَّا من جهة نقل العُدُولِ الأثبات، فيما لم يكن فيه عنه النَّقلُ المستفيض، أو من جهة الدلالة المنصوبة على صحته؛ وأصحُّهم برهاناً ـ فيما ترجَم وبَيَّنَ من ذلك ـ مما كان مُدرَكاً علمهُ من جهة اللسان: إما بالشواهد من أشعارهم، السائرة، وإما من منطقهم ولغاتهم المستفيضة المعروفة، كائناً من كان المتأوِّل والمفسِّر، بعد أن لا يكون خارجاً تأويلُه وتفسيره ما تأول وفَسَّرَ من ذلك، عن أقوالِ السلفِ من الصحابة والأئمة، والخلف من التابعين وعلماء الأمة.

القول في تأويل أسماءِ القرآن وسُوَره وآيِه

إن الله تعالى ذِكْرُهُ سمَّى تنزيله الذي أنزله على عبده محمد ﷺ أسماءً أربعة:

منهن: «القرآن»، فقال في تسميته إياه بذلك في تَنزيله: ﴿نَحْنُ نقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هٰذَا القُرْآنَ وإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣]، وقال: ﴿إِنَّ هٰذَا القُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦].

ومنهن: «الفرقان»، قال جلّ ثناؤه في وحيه إلى نبيه ﷺ يسميه بذلك: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ [الفرقان: ١].

ومنهن: «الكتاب»: قال تباركَ اسمهُ في تسميته إياه به: ﴿الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً، قَيِّماً﴾ [الكهف: ١].

ومنهن: «الذكر»، قال تعالى ذكره في تسميته إياه به: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

ولكل اسم من أسمائه الأربعة في كلام العرب، معنى ووجهٌ غيرُ معنى الآخر ووجهه.

فأمـا «القرآن»، فإن المفسرين اختلفوا في تأويله. والواجبُ أن يكون تأويله على قول ابن عباس: من التلاوة والقراءة، وأن يكون مصدراً من قول القـائل: قرأت، كقولك «الخُسران» من «خَسِرت»، و«الغُفْران» من «غفر الله لك»، و«الكُفران» من «كفرتُك»، و«الفرقان» من «فَرَّق الله بين الحق والباطل».

فإنْ قال قائل: وكيف يجوز أن يسمى «قرآناً» بمعنى القراءة، وإنما هو مقروء؟

قيل: كما جاز أن يسمى المكتوب «كتاباً»، بمعنى: كتاب الكاتب، كما قال الشاعر في صفة كتاب طَلاقٍ كتبه لامرأته:

تُؤمِّــل رَجْـعــةً مِنّـي، وفـيهــا كِتَــابٌ مثْــلَ ما لَصِـق الغِــرَاءُ

يريد: طلاقاً مكتوباً، فجعل «المكتوب» كتاباً.

وأما تأويل اسمه الذي هو «فُرْقان»، فإنَّ تفسيرَ أهل التفسير جاء في ذلك بألفاظ مختلفة، هي في المعاني مؤتلفة.

وأصلُ «الفُرْقان» عندنا: الفرقُ بين الشيئين والفصل بينهما. وقد يكون ذلك بقضاءٍ، واستنقاذٍ، وإظهار حُجَّة، ونَصْرٍ، وغير ذلك من المعاني المفرِّقة بين المُحِقِّ والمُبْطِلِ. فقد تبين بذلك أن القرآن سُمي «فرقاناً»، لفصله - بحججه وأدلّته وحدود فرائضه وسائر معاني حُكمه - بين المحق والمبطل. وفرقانُه بينهما: بِنَصْرِهِ المُحِقَّ، وتخذيلِهِ المبطلَ، حُكماً وقضاءً.

وأما تأويل اسمه الذي هو «كتابٌ»: فهو مصدر من قولك «كتبت كتاباً» كما تقولُ: قمت قياماً، وحسبت الشيء حِساباً. والكتابُ: هو خطُّ الكاتب حروفَ المعجم مجموعةً ومفترقة. وسُمي «كتاباً»، وإنما هو مكتوب، كما قال الشاعر في البيت الذي استشهدنا به:

* وفيها كِتابٌ مثلَ ما لَصِقَ الغِراءُ *

يعني به مكتوباً.

وأما تأويل اسمه الذي هو «ذِكْرٌ»، فإنه محتمل معنيين: أحدهما: أنه ذكرٌ من الله جلّ ذكره، ذكَّر به عباده، فعرَّفهم فيه حدوده وفرائضه، وسائرَ ما أودعه من حُكمه. والآخر: أنه ذكرٌ وشرفٌ وفخرٌ لمن آمن به وصدَّق بما فيه، كما

قال جلّ ثناؤه: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، يعني به أنه شرفٌ له ولقومه.

(معنى السورة)

ثم تسمى كل سورة من سور القرآن «سورة»، وتجمع «سُوَراً»، على تقدير «خُطبة وخُطب»، و«غُرفة وغُرَف».

والسورة، بغير همز: المنزلة من منازل الارتفاع. ومن ذلك سُور المدينة، سمي بذلك الحائطُ الذي يحويها، لارتفاعه على ما يحويه. غير أن السُّورة من سُور المدينة لم يسمع في جمعها «سُوَر»، كما سمع في جمع سورة من القرآن «سور». قال العجاج في جمع السُّورة من البناء:

فرُبَّ ذِي سُرَادِقٍ مَحْـجُـورِ   سِرْتُ إليه في أعـالي السُّـورِ

فخرَج تقدير جمعها على تقدير جَمع بُرَّة وبُسْرة، لأن ذلك يجمع بُرّاً وبُسراً.

وكذلك لم يسمع في جَمع سُوْرة من القرآن سُوْرٌ، ولو جمعت كذلك لم يكن خطأ في القياس، إذا أريد به جميعُ القرآن وإنما تركوا ـ فيما نرى ـ جمعه كذلك، لأن كل جمع كان بلفظ الواحد المذكّر مثل: بُرّ وشعير وقَصَب وما أشبه ذلك، فإن جماعَه يجري مجرى الواحد من الأشياء غيره. لأن حكم الواحد منه منفرداً قَلّما يُصاب، فجرى جماعه مجرى الواحد من الأشياء غيره، ثم جُعلت الواحدة منه كالقطعة من جميعه، فقيل: بُرَّة وشعيرة وقصبة، يراد به قطعة منه. ولم تكن سور القرآن موجودةً مجتمعةً اجتماعَ البر والشعير وسور المدينة، بل كل سورة منها موجودةٌ منفردة بنفسها، انفرادَ كل غُرْفة من الغُرف وخُطبة من الخطب، فجُعِل جمعُها جمع الغُرَف والخطب المبنيِّ جمعها من واحدها.

وقد همز بعضهم السورةَ من القرآن. وتأويلُها، في لغة من هَمَزها،

القطعةُ التي قد أفضِلت من القرآن عما سواها وأبقيت. وذلك أن سؤر كل شيء: البقية منه تَبقى بعدَ الذي يُؤخذ منه، ولذلك سميت الفضْلة من شراب الرجل - يشرَبُه ثم يُفضلها فيبقيها في الإناء - سُؤْراً.

وأما الآية من آي القرآن، فإنها تحتمل وجهين في كلام العرب:

أحدُهما: أن تكون سميت آية، لأنها علامةٌ يُعرف بها تمام ما قبلها وابتداؤها، كالآية التي تكون دلالةً على الشيء يُستدل بها عليه، ومنه قوله جلّ ذكره: ﴿رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ﴾ [المائدة: ١١٤] أي علامةً منك لإجابتك دُعاءنا وإعطائك إيَّانا سُؤْلَنا.

والآخر منهما: القصةُ، كما قال كعب بن زهير بن أبي سُلمى:

أَلَا أَبْلِغَا هذا المُعَرِّضَ آيَةً ... أَيَقظانَ قالَ القولَ إذْ قَالَ، أمْ حَلَمْ(١)

يعني بقوله «آية»: رسالةً مني وخبراً عني.

فيكون معنى الآيات: القصص، قصةً تتلو قصةً، بفُصُول ووُصُول.

---

(١) ديوانه: ٦٤.

القول في تأويل أسماء فاتحة الكتاب

صَحَّ الخبر عن رسول الله ﷺ بما حدثني به يونس بن عبدالأعلى، قال: حدثنا ابن وهب، قال: أخبرني ابن أبي ذئب، عن سعيد المَقْبُري، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، قال: هي أم القرآن، وهي فاتحة الكتاب، وهي السبع المثاني[1].

فهذه أسماءُ فاتحة الكتاب.

وسميت «فاتحةَ الكتاب»، لأنها يُفتتح بكتابها المصاحف، ويُقرأ بها في الصلوات، فهي فَواتح لما يتلوها من سور القرآن في الكتابة والقراءة.

وسميت «أم القرآن»، لتقدمها على سائر سور القرآن غيرها، وتأُخّر ما سواها خلفها في القراءة والكتابة. وذلك من معناها شبيهٌ بمعنى فاتحة الكتاب. وإنما قيل لها ـ بكونها كذلك ـ أمَّ القرآن، لتسمية العرب كل جامع أمراً ـ أو مقدِّمٍ لأمر إذا كانت له توابعُ تتبعه، هو لها إمام جامع ـ «أُمَّاً». فتقول للجلدة التي تجمع الدِّماغ: «أم الرأس». وتسمي لواء الجيش ورايتهم التي يجتمعون تحتها للجيش ـ «أُمَّاً».

وأما تأويل اسمها أنها «السَّبْعُ»، فإنها سبعُ آيات، لا خلاف بين الجميع من القرَّاء والعلماء في ذلك.

وإنما اختلفوا في الآي التي صارت بها سبع آيات. فقال عُظْمُ[2] أهل الكوفة: صارت سبع آيات بـ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾، ورُوي ذلك عن

(١) أخرجه أحمد ٢/٤٤٨، والدارمي ٣٣٧٧، والبخاري ٦/١٠٢ وفي جزء القراءة خلف الامام صفحة ١٤٩، وأبو داود (١٤٥٧)، والترمذي (٣١٢٤).

(٢) عظم الشيء أو الناس: معظمهم وأكثرهم.

جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين. وقال اخرون: هي سبع آيات، وليس منهن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾، ولكن السابعة «أنعمت عليهم». وذلك قول عُظْم قَرَأَةِ[1] أهل المدينة ومُتْقنيهم.

وأما وصف النبي ﷺ آياتها السبع بأنهن مثانٍ، فلأنها تثنىٰ قراءتها في كل صلاة تطوع. وكذلك كان الحسن البصري يتأول ذلك.

وليس في وجوب اسم «السبع المثاني» لفاتحة الكتاب، ما يدفعٍ صحة وجوب اسم «المثاني» للقرآن كله، ولما ثَنَّى المئين من السور. لأن لكلٍّ وجهاً ومعنىً مفهوماً، لا يَفْسدُ - بتسميته بعضَ ذلك بالمثاني - تسميةُ غيره بها.

فأما وجه تسمية ما ثَنَّى المئينَ من سور القرآن بالمثاني، فقد بَيَّنَّا صِحَّتَهُ، وسندُل على صحة وجه تسمية جميع القرآن به عند انتهائنا إليه في سورة الزُّمَر، إن شاء الله.

---

(١) قَرَأة: جمع قارىء.

القول في تأويل الاستعاذة

تأويل قوله: ﴿أَعُوذُ﴾.

والاستعـاذة: الاستجـارة. وتأويل قول القائل ﴿أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ أستجيرُ بالله ـ دون غيره من سائر خلقه ـ من الشيطان أن يضرَّني في ديني، أو يصدَّني عن حق يلزمني لربي.

تأويل قوله: ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ﴾.

والشيطان، في كلام العرب: كل متمرد من الجن والإنس والدوابِّ وكل شيء. وكذلك قال ربنا جلّ ثناؤه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]، فجعل من الإنس شياطينَ، مثلَ الذي جعل من الجن.

وإنما سُمي المتمرِّد من كل شيء شيطاناً، لمفارقة أخلاقه وأفعاله أخلاقَ سائـر جنسه وأفعاله، وبُعْدِهِ من الخير. وقد قيل: إنه أُخِذَ من قول القائل: شَطَنَتْ دَاري من دارك ـ يريد بذلك: بَعُدت.

تأويل قوله: ﴿الرَّجِيمِ﴾.

وأمـا الرجيم فهو: فَعيل بمعنى مفعول، كقول القائل: كفٌّ خضيبٌ، ولحيةٌ دَهين، ورجـل لَعِينٌ، يريد بذلك: مخضوبة ومدهونة وملعون. تأويل الـرجيم: الملعون المشتوم. وكُلُّ مَشْتُومٍ بقولٍ رديء أو سبٍّ فهو مَرْجُوم. وأصل الرجم الرَّمي، بقولٍ كان أو بفعل. ومن الرجم بالقول قول أبي إبراهيم لإبراهيم صلوات الله عليه: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم: ٤٦].

وقد يجوز أن يكون قِيل للشيطان رجيمٌ، لأن الله جلّ ثناؤه طَردَه من سماواته ورجمه بالشُّهب الثَّواقِب.

القول في تأويل

بسم الله الرحمن الرحيم

بسْم ﴾.

ندَّست أسماؤه أدَّبَ نبيه محمداً ﷺ بتعليمه تقديمَ
ميع أفعاله، وتقدَّم إليه في وصفه بها قبل جميع
ن ذلك وعلمه إياه، منه لجميع خلقه سُنَّةً يستَنُّون
فَبِهِ افتتاحُ أوائلِ منطقهم، وصدور رسائلهم وكتبهم
ةُ ما ظهر من قول القائل: «بسم الله»، على ما بَطَنَ
ـه.

سم الله» مقتضية فعلاً يكون لها جالباً، ولا فعلَ معها
«بسم الله» معرفتُه بمراد قائله، عن إظهار قائل ذلك
اطق به عند افتتاحه أمراً، قد أحضر مَنطقهُ به - إما
- ما قد أغنى سامِعَه عن دلالةٍ شاهدةٍ على الذي
سار استغناءُ سامعِ ذلك منه عن إظهار ما حذف منه،
قائلاً قيل له: «ما أكلت اليوم؟» فقال: طعاماً - عن
...وله «طعاماً»، «أكلت»، لما قد ظهر لديه من الدلالة
على أن ذلك معناه[1]، بتقدم مسألة السائل إياه عما أكل. فمعقول إذاً أن قول القائل إذا قال: «بسم الله الرحمن الرحيم» ثم افتتح تالياً سورةً، أن إتباعه «بسم الله الرحمن الرحيم» تلاوَةَ السورة، يُنبىء عن معنى قوله: «بسم الله الرحمن الرحيم». ومفهومٌ به أنه مريد بذلك: أقرأُ بسم الله الرحمن الرحيم. وكذلك

---

(١) معناه: أي ما يعنيه ويقصده.

قوله: «بسم الله» عند نهوضه للقيام أو عند قعوده وسائر أفعاله، ينبىء عن معنى مراده بقوله «بسم الله»، وأنه أراد بقِيلِهِ «بسم الله»، أقوم باسم الله. وأقعد باسم الله. وكذلك سائر الأفعال.

فإن قال لنا قائل: فإن كان تأويلُ قول «بسم الله» ما وصفتَ والجالبُ الباءَ في «بسم الله» ما ذكرتَ، فكيف قيل «بسم الله» بمعنىٰ أقرأُ باسم الله، أو أقوم أو أقعد باسم الله؟ وقد علمت أن كلَّ قارىءٍ كتاب الله، فبعون الله وتوفيقه قراءتُه، وأن كل قائم أو قاعد أو فاعلٍ فعلاً، فبالله قيامُه وقعودُه وفعلهُ. وهَلاَّ - إذْ كان ذلك كذلك - قيل «بالله الرحمن الرحيم» ولم يُقَلْ «بسم الله» فإن قول القائل: أقوم وأقعد بالله الرحمن الرحيم، أو أقرأ بالله - أوضحُ معنى لسامعه من قوله «بسم الله»، إذ كان قوله «أقوم أو أقعد باسم الله»، يوهم سامعَه أن قيامه وقعوده بمعنى غيرِ الله.

قيل له، وبالله التوفيق: إن المقصودَ إليه من معنى ذلك غيرُ ما توهَّمته في نفسك. وإنما معنى قوله «بسم الله»: أبدأ بتسمية الله وذكره قبل كل شيء، أو أقرأُ بتسميتي اللهَ، أو أقوم وأقعد بتسميتي اللهَ وذكره - لا أنه يعني بقِيلِهِ «بسم الله»: أقوم بالله، أو أقرأُ بالله، فيكونَ قولُ القائل: أقرأ بالله، أو أقوم أو أقعد بالله - أولى بوجه الصواب في ذلك من قوله «بسم الله».

فإن قال: فإن كان الأمر في ذلك على ما وصفتَ، فكيف قيل: «بسم الله» وقد علمتَ أنّ الاسم اسمٌ، وأن التسمية مصدرٌ من قولك سَمَّيت؟

قيل: إن العربَ قد تخرج المصادرَ مبهمةً على أسماء مختلفة، كقولهم: أكرمتُ فلاناً كرامةً. وإنما بناءُ مصدر «أفعلتُ» - إذا أخرج على فعله - «الإفعالُ». وكقولهم: أهنت فلاناً هَواناً وكلمته كلاماً. وبناء مصدر: «فعَّلت» التفعيل.

فإذْ كان الأمر - على ما وصفنا، من إخراج العرب مصادرَ الأفعال على غير بنـاء أفعـالها - كثيراً، وكان تصديرها إياها على مخارج الأسماء موجوداً فاشياً، فبيِّنٌ بذلك صَوابُ ما قلنا من التأويل في قول القائل «بسم الله»، أن معناه في ذلك عند ابتدائه في فعل أو قول: أبدأُ بتسمية الله قبل فعلي أو قبل قولي. وكذلك معنى قول القائل عند ابتدائه بتلاوة القرآن: «بسم الله الرحمن الرحيم»، إنما معناه: أقرأُ مبتدئاً بتسمية الله، أو ابتدىء قراءتي بتسمية الله. فجُعِـل «الاسمُ» مكان «التسمية»، كما جُعل الكلامُ مكان التكليم، والعطاءُ مكان الإعطاء.

ولا خلاف بين الجميع من علمـاء الأمة، أن قائلاً لو قال عند تذكيته بعض بهائم الأنعام[1]: «بالله» ولم يقل: «بسم الله» أنه مخالف - بتركه قِيلَ: «بسم الله» - ما سُنَّ له عند التذكية من القول. وقد عُلم بذلك أنه لم يُرد بقول «بسم الله» «بالله»، كما قال الزاعم أن اسمَ الله في قول الله: «بسم الله الرحمن الرحيم» هو الله. لأن ذلك لو كان كما زعم، لوجب أن يكون القائل عند تذكيته ذبيحتَه «بالله»، قائلاً ما سُنَّ له من القول على الذبيحة. وفي إجماع الجميع على أن قائلَ ذلك تارك ما سُنَّ له من القول على ذبيحته - إذْ لم يقل «بسم الله» - دليلٌ واضح على فساد ما ادَّعى من التأويل في قول القائل: «بسم الله»، أنه مراد به «بالله»، وأن اسم الله هو الله.

وليس هذا هو الموضع من مواضع الإكثار في الإبانة عن الاسم: أهُوَ المسمى، أمْ غيرُه، أم هو صفة له؟ فَنُطِيلُ الكتابَ به، وإنما هذا موضع من مواضع الإبانة عن الاسم المضاف إلى الله: أهو اسمٌ، أم مصدر بمعنى التسمية؟

القول في تأويل قول الله: ﴿اللهِ﴾.

---

(١) التذكية: النحر والذبح.

وأما تأويل قول الله تعالى ذكره «الله»، فإنه على معنى ما رُوي لنا عن عبدالله بن عباس: هو الذي يَألَهُهُ كُلُّ شيء، ويَعْبُدُهُ كُلُّ خَلْقٍ.

فإن قال لنا قائل: فهل لذلك في «فعل ويفعل» أصل كان منه بناءُ هذا الاسم؟ قيل: أما سماعاً من العرب فلا، ولكن استدلالاً.

فإن قال: وما دلّ على أن الألوهية هي العبادة، وأن الإله هو المعبود، وأن له أصلاً في «فعل ويفعل»؟

قيل: لا تَمَانُعَ بين العرب في الحكم لقول القائل ـ يصف رجلاً بعبادة، وبطلب ما عند الله جلّ ذكره: «تألَّه فلان» ـ بالصحة ولا خلاف.

ولا شك أن «التألُّه»، التفعُّل من «ألَهَ يأله»، وأن معنى «أله» ـ إذا نُطق به: ـ عَبَدَ الله. وقد جاء منه مصدر يدل على أن العرب قد نطقت منه بـ «فعل يفعل»، بغير زيادة.

القول في تأويل قوله: ﴿الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

وأما «الرحمن»، فهو فَعلان، من رحم، و«الرحيم» فعيل منه. والعرب كثيراً ما تبني الأسماء من «فَعِل يفْعَل» على «فعلان»، كقولهم من غَضِب: غَضبان، ومن سَكر: سكران، ومن عَطش: عطشان. فكذلك قولهم «رَحمن» من رَحِمَ، لأن «فعِلَ» منه: رَحم يرْحم. وقيل «رحيم»، وإن كانت عَين «فعِل» منها مكسورة، لأنه مدح. ومن شأن العرب أن يحملوا أبنية الأسماء ـ إذا كان فيها مدح أو ذم ـ على «فعيل»، وإن كانت عين «فعل» منها مكسورةً أو مفتوحةً، كما قالوا من «علم» عالم وعليم، ومن «قدَر» قادر وقدير. وليس ذلك منها بناء على أفْعالها، لأن البناء من «فَعِل يفْعَل» و«فعَل يفعِل» فاعلٌ. فلو كان «الرحمن والرحيم» خارجين على بناء أفعالهما، لكانت صورتهما «الراحم».

فإن قال قائل: فإذا كان الرحمن والرحيم اسمين مشتقين من الرحمة، فما وجهُ تكرير ذلك، وأحدهما مؤدٍّ عن معنى الآخر؟

قيل له: ليس الأمر في ذلك على َما ظننتَ، بل لكل كلمة منهما معنى لا تؤدي الأخرى منهما عنها.

فإن قال: وما المعنى الذي انفردت به كل واحدة منهما، فصارت إحداهما غير مؤدية المعنى عن الأخرى؟

قيل: أما من جهة العربية فلا تَمانُع بين أهل المعرفة بلغات العرب، أن قول القائل: «الرحمن» ـ عن أبنية الأسماء من «فَعِل يفعَل» ـ أشدُّ عدولاً من قوله «الرَّحيم». ولا خلاف مع ذلك بينهم، أنّ كل اسم له أصل في «فَعِلَ يفعَل» ـ ثم كان عن أصله من «فَعِلَ يفعَلُ» أشد عدولاً ـ أن الموصوف به مفضَّل على الموصوف بالاسم المبني على أصله من «فَعِل يفعَل»، إذا كانت التسمية به مدحاً أو ذماً. فهذا ما في قول القائل «الرحمن»، من زيادة المعنى على قوله «الرحيم» في اللغة.

وأما من جهة الأثر والخبر، ففيه بين أهل التأويل اختلاف.

إن المعنى الذي في تسمية الله بالرحمن، دون الذي في تسميته بالرحيم: هو أنه بالتسمية بالرحمن موصوفٌ بعموم الرحمة جميعَ خلقه، وأنه بالتسمية بالرحيم موصوفٌ بخصوص الرحمة بعضَ خلقه، إما في كل الأحوال، وإما في بعض الأحوال. فلاشك ـ إذ كان ذلك كذلك ـ أن ذلك الخصوص الذي في وصفه بالرحيم، لا يستحيل عن معناه، في الدنيا كان ذلك أو في الآخرة، أو فيهما جميعاً.

فإذ كان صحيحاً ما قلنا من ذلك ـ وكان الله جلّ ثناؤه قد خصّ عباده المؤمنين في عاجل الدنيا بما لطف بهم من توفيقه إياهم لطاعته، والإيمان به

وبـرسله، واتباع أمره واجتناب معاصيه؛ مما خُذِل عنه مَنْ أشرك به، وكفر، وخالف ما أَمَرَهُ به، وركب معاصيَه؛ وكان مع ذلك قد جعلَ، جَلَّ ثناؤه، ما أعد في آجل الآخِرة في جناته من النعيم المقيم والفوز المبين، لمن آمن به، وصَدَّقَ رُسُلَهُ، وعمل بطاعته، خالصاً، دون مَنْ أشرك وكفر به[1] - كان بَيِّناً أن الله قد خَصَّ المؤمنين من رحمته في الدنيا والآخرة، مع ما قد عمَّهم به والكفارَ في الدنيا من الإفضال والإحسان إلى جميعهم في البسط في الرزق، وتسخير السحاب بالغَيْثِ، وإخراج النبات من الأرض، وصحة الأجسام والعقول، وسائر النعم التي لا تُحصى، التي يشترك فيها المؤمنون والكافرون.

فربُّنا جلَّ ثناؤه رحمنُ جميعِ خَلْقِهِ في الدنيا والآخرة، ورحيمُ المؤمنين خاصةً في الدنيا والآخرة. فأما الذي عمّ جميعَهم به في الدنيا من رحمته فكان رَحمـاناً لهم به، فما ذكرنا مع نظائره التي لا سبيل إلى إحصائها لأحد من خلقه، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤، والنحل: ١٨].

وأمـا في الآخـرة، فالذي عمّ جميعهم به فيها من رحمته، فكان لهم رحماناً، في تسويته بين جميعهم جلّ ذكرهُ في عَدله وقضائه، فلا يظلم أحداً منهم مِثْقال ذَرّة، وإن تَكُ حسنةً يُضاعفها ويُؤتِ من لَدُنْهُ أجراً عظيماً، وتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ. فذلك معنى عمومه في الآخرة جميعَهم برحمته، الذي كان به رحماناً في الآخرة.

وأما ما خَصَّ به المؤمنين في عاجل الدنيا من رحمته، الذي كان به رحيماً لهم فيها، كما قال جلّ ذكره: ﴿وَكانَ بالمُؤمِنِينَ رَحِيماً﴾ [الأحزاب: ٤٣] فما وصفنا من اللطف لهم في دينهم، فخصهم به، دونَ من خذَله من أهل الكفر به. وأما ما خصهم به في الآخرة، فكان به رحيماً لهم دون الكافرين، فما

(١) جواب قوله: «فإذا كان صحيحاً...» وما بينهما فصل.

وصفنا آنفاً مما أعدَّ لهم دون غيرهم من النعيم، والكرامة التي تقصرُ عنها الأماني.

وقد زعم بعضُ أهل الغَباء أن العرب كانت لا تعرف «الرحمن»، ولم يكن ذلك في لغتها، ولذلك قال المشركون للنبي ﷺ: ﴿وَمَا الرَّحْمنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ [الفرقان: ٦٠]، إنكاراً منهم لهذا الاسم. كأنه كان محالاً عنده أن ينكر أهل الشرك ما كانوا عالمين بصحته، أوْ: لَا وكأنه لم يتْلُ من كتاب الله قول الله ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُوْنَهُ﴾ - يعني محمداً - ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وهم مع ذلك به مُكَذِّبُون، ولنبوته جاحدون! فَيَعلمَ بذلك أنهم قد كانوا يدافعون حقيقةَ ما قد ثبت عندهم صحتُه، واستحكمتْ لديهم معرفتُه.

وقد زعم أيضاً بعضُ من ضعُفت معرفتُه بتأويل أهل التأويل، وقلَّت روايته لأقوال السلف من أهل التفسير، أن «الرحمن» مجازه: ذو الرحمة، و«الرحيم» مجازه: الراحم[1]. ثم قال: قد يقدِّرون اللفظين من لفظٍ والمعنى واحد، وذلك لاتساع الكلام عندهم، قال: وقد فعلوا مثل ذلك فقالوا: ندمان ونَديم، ثم استشهد ببيتِ بُرْج بن مُسْهِر الطائي:

وَنَــدْمَــانٍ، يزيدُ الــكــأسَ طِيبــاً سَقَيْتُ وَقَــدْ تَغَــوَّرَتِ النُّجُــومُ[2]

واستشهد بأبياتٍ نظائرِه في النَّديم والنَّدمان، ففرق بين معنى الرحمن والرحيم في التأويل لقوله: الرحمن ذو الرحمة، والرحيم الراحم، وإنْ كان قد ترك بيان تأويل معنَيَيْهما على صحته. ثم مثل ذلك باللَّفظين يأتيان بمعنى

---

(١) الذي عناه الطبري، هو أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتابه «مجاز القرآن»: ٢١، وقد نقل أكثر كلامه الآتي بنصه.

(٢) حماسة أبي تمام ١٣٥/٣، والمؤتلف والمختلف للآمدي: ٦٢.

واحـد، فعاد إلى ما قد جعله بمعنيين، فجعله مثال ما هو بمعنى واحد مع اختلاف الألفاظ.

ولاشك أن ذا الرحمة هو الذي ثَبت أن له الرحمة، وصحَّ أنها له صفة؛ وأن الراحم هو الموصوف بأنه سيرحم، أو قد رحم فانقضى ذلك منه، أو هو فيه. ولا دلالة له فيه حينئذ أن الرحمة له صفة، كالدلالة على أنها له صفة، إذا وُصِف بأنه ذو الرحمة. فأين معنى «الرحمن الرحيم» على تأويله، من معنى الكلمتين تأتيان مقدَّرتين من لفظ واحد باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني؟ ولكن القول إذا كان على غير أصل معتمد عليه، كان واضحاً عوارُه.

وإن قال لنا قائل: ولم قدَّم اسمَ الله الذي هو «الله»، على اسمه الذي هو «الرحمن»، واسمه الذي هو «الرحمن»، على اسمه الذي هو «الرحيم»؟

قيل: لأن من شأن العرب، إذا أرادوا الخبر عن مُخبَرٍ عنه، أن يقدموا اسمه، ثم يتبعونه صفاتِه ونعوته. وهذا هو الواجب في الحُكم: أن يكون الاسم مقـدَّمـاً قبل نعته وصِفَته، ليعلم السامع الخبرَ، عمَّن الخبرُ. فإذا كان ذلك كذلك ـ وكانَ الله جَلَّ ذكره أسماءٌ قد حرَّم على خلقه أن يتسمَّوا بها، خَصَّ بها نفسه دونهم، وذلك مثلُ «الله» و«الرحمن» و«الخالق»؛ وأسماءٌ أباحَ لهم أن يُسَمِّيَ بَعضهم بعضاً بها، وذلك: كالرحيم والسميع والبصير والكريم، وما أشبه ذلك من الأسماء ـ كان الواجب أن تقدَّم أسماؤه التي هي له خاصة دون جميع خلقـه، ليعـرف السـامعُ ذلك مَنْ تَوجَّه إليه الحمد والتمجيدُ، ثم يُتبع ذلك بأسمائه التي قد تسمى بها غيره، بعد علم المخاطب أو السامع من توجَّه إليه ما يتلو ذلـك من المعـاني. فبدأ الله جلّ ذكره باسمه الذي هو «الله»، لأن الألوهية ليست لغيره جلّ ثناؤه من وجهٍ من الوجوه، لا من جهة التسمِّي به، ولا من جهـة المعنى. وذلـك أنّـا قد بيّنّـا أن معنى «الله» تعالى ذكره معنى المعبود، ولا معبودَ غيرهُ جلّ جلاله، وأن التسمِّيَ به قد حرّمه الله جلّ ثناؤه،

وإن قصد المتسمِّي به ما يقصدُ المتسمِّي بسعيد وهو شقي، وبحسَنٍ وهو قبيح.

أوَ لَا تَرى أن الله جلّ جلاله قال في غير آية من كتابه: ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ﴾ فاستكبر ذلك من المقرِّ به، وقال تعالى في خُصوصه نَفسَه بالله وبالرحمن: ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ، أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠] ثم ثنَّى باسمه الذي هو «الرحمن»، إذ كان قد مَنع أيضاً خلقه التسمي به، وإن كان من خلْقه من قد يستحق تسميته ببعض معانيه. وذلك أنه قد يجوز وصْف كثير ممن هو دون الله من خلقه، ببعض صفات الرحمة. وغير جائز أن يستحق بعضَ الألوهية أحدٌ دونَهُ. فلذلك جاء الرحمن ثانياً لاسمه الذي هو «الله». وأما اسمه الذي هو «الرحيم» فقد ذكرنا أنه مما هو جائز وصْف غيره به. والرحمة من صفاته جلّ ذكره، فكان ـ إذ كان الأمرُ على ما وصفنا ـ واقعاً مواقع نعوت الأسماء اللواتي هن توابعها، بعد تقدم الأسماء عليها. فهذا وجه تقديم اسم الله الذي هو «الله»، على اسمه الذي هو «الرحمن»، واسمه الذي هو «الرحمن»، على اسمه الذي هو «الرحيم»[1].

وقد كان الحسنُ البصري يقولُ في «الرحمن» مثل ما قلنا، إنه من أسماء الله التي مَنَعَ التسميَ بها العبادَ.

مع أن في إجماع الأمة من منع التسمِّي به جميعَ الناس، ما يُغني عن الاستشهاد على صحة ما قلنا في ذلك بقول الحسن وغيره.

---

(١) قال العلامة محمود محمد شاكر ـ حفظه الله ـ: هذا الاحتجاج من أجود ما قيل، ودقته تدل على حسن نظر أبي جعفر فيما يعرض له. وتفسيره كله شاهد على ذلك. رحمة الله عليه.

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل فاتحة الكتاب

﴿الحَمْدُ للهِ﴾:

ومعنى ﴿الحَمدُ للهِ﴾: الشكر خالصاً لله جلّ ثناؤه دون سائر ما يُعبد من دونه، ودون كلّ ما بَرَأ من خلقه، بما أنعم على عباده من النِّعم التي لا يُحصيها العـدد، ولا يحيط بعددها غيره أحدٌ، في تصحيح الآلات لطاعته، وتمكين جوارح أجسام المكلَّفين لأداء فرائضه، مع ما بَسَطَ لهم في دنياهم من الرزق، وغَذَاهم به من نعيم العيش، من غير استحقاق منهم ذلك عليه، ومع ما نبَّههم عليه ودعاهم إليه، من الأسباب المؤدِّية إلى دوام الخلود في دار المُقام في النعيم المقيم. فلربنا الحمدُ على ذلك كله أولاً وآخراً.

فإن قال لنا قائل: وما معنى قوله «الحمد لله»؟ أَحَمِدَ الله نفسَهُ جلّ ثناؤه فأثنى عليها، ثم عَلَّمَنَاهُ لنقول ذلك كما قال ووصفَ به نفسه؟ فإن كان ذلك كذلك، فما وجه قوله تعالى ذكره إذاً ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وهو عَزَّ ذِكْرُهُ معبودٌ لا عابدٌ؟ أم ذلك من قِيلِ جبريلَ أو محمدٍ رَسول الله ﷺ؟ فقد بَطل أن يكون ذلك لله كلاماً.

قيل: بل ذلك كله كلام الله جلّ ثناؤه، ولكنه جلّ ذكره حمِد نفسه وأثنى عليها بما هو له أهلٌ، ثم علَّم ذلك عباده، وفرض عليهم تلاوته، اختباراً منه لهم وابتلاءً، فقال لهم قولوا: ﴿الحمدُ للهِ رَبِّ العالَمِينَ﴾، وقولوا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. فقوله: ﴿إياك نعبد﴾ مما عَلَّمَهُمْ جَلَّ ذكره أن يقولوه ويَدينُوا له بمعناه، ذلك موصول بقوله: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾، وكأنه قال: قولوا هذا وهذا.

فإن قال: وأين قوله: «قولوا»، فيكونَ تأويلُ ذلك ما ادَّعَيْتَ؟

قيل: قد دللنا فيما مضى أن العرب من شأنها - إذا عرفتْ مكان الكلمة، ولم تَشكَّكْ أنَّ سامعها يعرف، بما أظهرت من منطقها، ما حذفت - حَذْفُ ما كفى منه الظاهرُ من منطقها، ولاسيما إن كانت تلك الكلمة التي حُذفت، قولاً، أو تأويل قولٍ.

فكذلك ما حُذف من قول الله تعالى ذكره: ﴿الحمدُ لله رَبِّ العَالَمينَ﴾، لمَّا عُلم بقوله جلّ وعز ﴿إياكَ نَعبُد﴾ ما أراد بقوله: ﴿الحمدُ لله رب العالمين﴾، من معنى أمره عبادَه، أغنتْ دلالة ما ظُهِر عليه من القول عن إبداء ما حُذف.

القول في تأويل قول الله ﴿رَبِّ﴾.

قد مضى البيان عن تأويل اسم الله الذي هو «الله»، في «بسم الله»، فلا حاجة بنا إلى تكراره في هذا الموضع.

وأما تأويل قوله ﴿رَبِّ﴾، فإن الرب في كلام العرب منصرفٌ على معانٍ؛ فالسيد المطاع فيهم يُدْعَى رباً، والرجل المصلح للشيء يدعى رباً، والمالك للشيء يدعى ربه. وقد ينصرف أيضاً معنى «الرب» في وجوه غير ذلك، غير أنها تعود إلى بعض هذه الوجوه الثلاثة.

فربنا جلّ ثناؤه: السيد الذي لا شِبْه لهُ، ولا مثل في مثل سؤدده، والمصلح أمْرَ خَلْقِه بما أسبغ عليهم من نعمه، والمالك الذي له الخلق والأمر.

القول في تأويل قوله: ﴿العالَمِينَ﴾ (١).

والعـالمون جمع عالَم، والعالَم: جمعٌ لا واحدَ له من لفظه، كالأنام والرهط والجيش، ونحو ذلك من الأسماء التي هي موضوعات على جِمَاعٍ لا واحد له من لفظه.

والعالَم اسم لأصناف الأمم، وكل صنف منها عالَمٌ، وأهل كل قَرْن من كل صنف منها عالَم ذلك القرن وذلك الزمان. فالإنس عالَم، وكل أهل زمان منهم عالَمُ ذلك الزمان. والجنُّ عالَم، وكذلك سائر أجناس الخلق، كل جنس منها عالم زمانه. ولذلك جُمع فقيل: عالَمون، وواحده جمعٌ، لكون عالَم كل زمان من ذلك عالم ذلك الزمان.

وهذا القول الذي قلناه، قولُ ابن عباس وسعيد بن جبير وهو معنى قول عامة المفسرين.

القول في تأويل قوله: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (٢).

قد مضى البيانُ عن تأويل قوله «الرحمن الرحيم» في تأويل ﴿بسم الله الرحمن الرَّحِيم﴾، فأغنى ذلك عن إعادته في هذا الموضع.

ولم نَحتجْ إلى الإبانة عن وجه تكرير ذلك في هذا الموضع، إذْ كنا لا نرى أن «بسم الله الرحمن الرحيم» من فاتحة الكتاب ـ آيةً، فيكونَ علينا لسائلٍ مسألةٌ بأن يقول: ما وجه تكرير ذلك في هذا الموضع، وقد مضى وصفُ الله عزّ وجل به نفسه في قوله «بسم الله الرحمن الرحيم»، مع قرب مكان إحدى الآيتين من الأخرى، ومجاورتها صاحبتها؟ بل ذلك لنا حُجة على خطأ دعوى من ادَّعى أن «بسم الله الرحمن الرحيم» من فاتحة الكتاب آية. إذ لو كان ذلك كذلك، لكان ذلك إعادة آية بمعنى واحد ولفظ واحدٍ مرتين من غير فَصْل يَفصِل بينهمـا. وغيرُ موجودٍ في شيء من كتاب الله آيتانِ متجاورتان مكررتان بلفظ

واحد ومعنى واحد لا فصل بينهما من كلام يُخالف معناه معناهما. وإنما يُؤتى بتكرير آية بكمالها في السورة الواحدة، مع فُصول تفصِل بين ذلك، وكلامٍ يُعترضُ به بغير معنى الآيات المكررات أو غير ألفاظها، ولا فاصِلَ بين قول الله تبارك وتعالى اسمه «الرحمن الرحيم» من «بسم الله الرحمن الرحيم»، وقولِ الله: «الرحمن الرحيم» من «الحمدُ لله رب العالمين».

فإن قال: فإن ﴿الحمدُ لله ربِّ العالَمين﴾ فاصل من ذلك.

قيل: قد أنكر ذلك جماعة من أهل التأويل، وقالوا: إن ذلك من المؤخر الذي معناه التقديم، وإنما هو: الحمد لله الرحمن الرحيم رَبِّ العالمين مَلِكِ يوم الدين. واستشهدوا على صحة ماادعوا من ذلك بقوله «مَلِك يوم الدين»، فقالوا: إن قوله «مَلِكِ يوم الدين» تعليم من الله عبده، أنْ يصفَه بالمُلْك في قراءة من قرأ «مَلِكِ» وبالمِلْك في قراءة من قرأ «مالك». قالوا: فالذي هو أولى أن يكونَ مجاورَ وصفه بالمُلْك أو المِلْك، ما كان نظرَ ذلك من الوصف، وذلك هو قوله: «رب العالمين»، الذي هو خبر عن مِلْكه جميع أجناس الخلق؛ وأن يكون مجاورَ وصفه بالعظمة والألُوهة، ما كان له نظيراً في المعنى من الثناء عليه، وذلك قوله: «الرحمن الرحيم». فزعموا أن ذلك لهم دليلٌ على أن قوله «الرحمن الرحيم»، بمعنى التقديم قبل «رب العالمين»، وإن كان في الظاهر مؤخراً. وقالوا: نظائرُ ذلك ـ من التقديم الذي هو بمعنى التأخير، والمؤخر الذي هو بمعنى التقديم ـ في كلام العرب أفشى، وفي منطقها أكثر، من أن يُحصى.

القول في تأويل قوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (٣).

القرَّاء مختلفون في تلاوة ﴿ملك يَوْمِ الدِّين﴾. فبعضهم يتلوه ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّين﴾، وبعضهم يتلوه ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، وبعضهم يتلوه ﴿مَلِكَ يَوْمِ

الدِّين﴾ بنصب الكاف. وقد استقصينا حكاية الرواية عمن روُي عنه في ذلك قراءةً في «كتاب القراءات»، وأخبرنا بالذي نختار من القراءة فيه، والعلةِ الموجبة صحة ما اخترنا من القراءة فيه. فكرهنا إعادة ذلك في هذا الموضع، إذ كان الذي قَصَدْنا له، في كتابنا هذا، البيانَ عن وجوه تأويل آيِ القرآن، دون وجوه قراءتها.

ولا خلاف بين جميع أهـل المعـرفـة بلغـات العـرب، أن المَلِك من «المُلْك» مشتق، وأن المالك من «المِلْك» مأخوذٌ. فتأويل قراءة من قرأ ذلك ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدين﴾، أن لله المُلْك يوم الدين خالصاً دون جميع خلقه، الذين كانـوا قبـل ذلـك في الدنيا ملوكاً جبابرة ينازعونه الملك، ويدافعونه الانفرادَ بالكبرياء والعظمة والسلطان والجبرية. فأيقنوا بلقاء الله يوم الدين أنهم الصَّغَرة الأذِلة، وأن له ـ من دُونهم، ودون غيرهم ـ المُلك والكبرياء، والعزة والبهاء، كما قال جلّ ذكره وتقدست أسماؤه في تنزيله: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى الله مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ، لله الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] فأخبر تعالى ذكره أنه المنفرد يومئذ بالمُلك دون ملوك الدنيا، الذين صارُوا يوم الدين من مُلكهم إلى ذِلة وصَغار، ومن دُنياهم في المعاد إلى خسار.

وأولى التـأويلين بالآية، وأصـحُّ القـراءتين في التـلاوة عندي، التأويلُ الأول، وهي قراءةُ من قرأ ﴿مَلِكِ﴾ بمعنى المُلك. لأن في الإقرار له بالانفراد بالمُلك، إيجاباً لانفراده بالمِلْك، وفضيلةَ زيادة المِلك على المالك، إذْ كان معلوماً أن لا مَلِك إلا وهو مالكٌ، وقد يكون المالكُ لا ملكاً.

وبعدُ، فإن الله جلّ ذكره، قد أخبر عبادَه في الآية التي قبل قوله ﴿ملِكِ يوم الدين﴾ أنه مالكُ جميع العالمين، وسيِّدهم، ومُصلحُهم، والناظرُ لهم، والرحيم بهم في الدنيا والآخرة، بقوله: ﴿الحمد لله ربِّ العالمين* الرحمٰن الرحيم﴾. وإذْ كان جلّ ذكره قد أنبأهم عن مِلْكه إيَّاهم كذلك بقوله: ﴿ربِّ

العالمين﴾، فأولى الصفات من صفاته جلّ ذكره أن يَتْبَع ذلك، ما لم يحْوِه قوله ﴿ربِّ العالمين الرَّحمن الرحيم﴾، مع قرب ما بين الآيتين من المواصَلة والمجاورة، إذْ كانت حكمته الحكمة التي لا تشبهها حِكمةٌ، وكان في إعادة وصفه جلّ ذكره بأنه ﴿مالِكِ يوم الدين﴾، إعادةُ ما قد مضى من وصفه به في قوله ﴿ربِّ العالمين﴾، مع تقارب الآيتين وتجاور الصفتين. وكان في إعادة ذلك تكرارُ ألفاظ مختلفة بمعان متفقة، لا تفيد سامع ما كُرِّر منه فائدةً به إليها حاجة. والذي لم يحْوِهِ من صفاته جلّ ذكره ما قبل قوله «مالك يوم الدين»، المعنى الذي في قوله «مَلِك يوم الدين»، وهو وصْفه بأنه الملِك.

فَبَيِّنٌ إذاً أن أوْلى القراءتين بالصواب، وأحق التأويلين بالكتاب، قراءة من قرأه ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّين﴾، بمعنى إخلاص المُلك له يوم الدين، دون قراءة من قرأ «مالك يوم الدين» الذي بمعنى أنه يملك الحكم بينهم وفصلَ القضاء، متفرِّداً به دون سائر خلقه.

فإن ظنّ ظان أن قوله ﴿ربِّ العَالمين﴾ نبأ عن ملكه إياهم في الدنيا دون الآخرة، يوجبُ وصْلَ ذلك بالنبأ عن نفسه أنه: مَنْ مَلَكهم في الآخرة على نحوِ ملْكه إياهم في الدنيا بقوله «مالك يوم الدين» ـ فَقد أغفل وَظنَّ خَطأً.

وذلك أنه لو جاز لظان أنْ يظن أن قوله ﴿ربِّ العالمين﴾ محصورٌ معناه على الخبر عن ربوبية عالم الدنيا دُونَ عالم الآخرة، مع عدم الدلالة على أن مَعنى ذلك كذلك في ظاهر التنزيل، أو في خبرٍ عن الرسول ﷺ به منقولٍ، أو بحجة موجودة في المعقول ـ لجاز لآخر أن يظن أن ذلك محصور على عالم الزمان الذي فيه نَزل قوله ﴿ربِّ العالمين﴾، دون سائر ما يحدث بعدَه في الأزمنة الحادثة من العالمين. إذْ كان صحيحاً بما قدمنا من البيان، أن عالَم كل زمان غير عالَم الزمان الذي بعده.

فإن غَبِيَ ـ عن علم صحة ذلك بما قد قدمنا ـ ذو غباء، فإن في قول الله جلّ ثناؤه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الكِتَابَ وَالحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى العَالَمِينَ﴾ [الجاثية: ١٦] دلالةً واضحةً على أن عالم كل زمان، غيرُ عالم الزمان الذي كان قَبله، وعالم الزمان الذي بعدَه، إذْ كان الله جلّ ثناؤه قد فضّل أمة نبينا محمد ﷺ على سائر الأمم الخالية، وأخبرهم بذلك في قوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلْنَّاس﴾ [آل عمران: ١١٠]. فمعلومٌ بذلك أن بَني إسرائيل في عصر نبينا لم يكونوا ـ مع تكذيبهم به ﷺ ـ أفضلَ العالمين، بل كانَ أفضلَ العالمين في ذلك العصر وبعدَه إلى قيام الساعة، المؤمنون به المتبِعون منهاجهُ، دون من سِواهم من الأمم المكذِّبة الضالة عن منهاجه.

وإذْ كان بيِّناً فساد تأويل متأوِّل لو تأوّل قوله ﴿ربِّ العالمين﴾ أنه معنيٌّ به أن الله ربُّ عَالمي زَمن نبينا محمد ﷺ، دون عالمي سائر الأزمنة غيره ـ كان واضحاً فساد قول من زعم أن تأويلَهُ: ربُّ عالَمِ الدنيا دُون عالَمِ الآخرة، وأن «مـالـك يوم الدين» استحقَّ الوصلَ به ليُعلمَ أنه في الآخرة من مِلْكهم ورُبُوبيتهم بمثل الذي كان عليه في الدنيا.

ويُسْأل زاعم ذلك، الفرق بينه وبين متحكم مثله ـ في تأويل قوله ﴿رب العالمين﴾، تحكَّم فقال: إنه إنما عنى بذلك أنه ربّ عالمي زمان محمد ﷺ، دون عالمي غيره من الأزمان الماضية قبله، والحادثة بعدَه، كالذي زعم قائل هذا القول أنه عَنىٰ به عالمي الدنيا دون عالمي الآخرة ـ من أصل أو دلالة. فلن يقول في أحدهما شيئاً إلا ألزم في الآخر مثله.

وأما الزاعم أن تأويل قوله ﴿مالك يوم الدين﴾ أنه الذي يملكُ إقامة يَوم الدين، فإن الذي ألزمْنا قَائلَ هذا القول الذي قبله ـ له لازمٌ. إذْ كانت إقامةُ القيامة، إنما هي إعادة الخلق الذين قد بادوا لهيئاتهم التي كانوا عليها قبل

الهلاك، في الدار التي أعَدَّ لهم فيها ما أعَدَّ. وهُمُ العالَمون الذين قد أخبر جلّ ذكره عنهم أنه ربُّهم في قوله ﴿ربِّ العالمين﴾.

وأما تأويل ذلك في قراءة من قرأ ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، فإنه أراد: يا مالك يوم الدين، فنصَبه بنية النداء والدعاء، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هٰذَا﴾ [يوسف: ٢٩] بتأويل: يا يوسف أعرضْ عن هذا.

وإنما أوْرطه في قراءة ذلك ـ بنصب الكاف من «مالك»، على المعنى الذي وصفتُ ـ حيرتهُ في توجيه قَوله: ﴿إياكَ نَعْبدُ وإيَّاك نَسْتَعِين﴾ وِجْهتَه، مع جر ﴿مـالـك يومِ الدين﴾، وخفضِه. فظن أنه لا يصح معنى ذلك بعد جره ﴿مالكِ يوم الدين﴾، فنصب «مالكَ يوم الدين» ليكون «إياكَ نعبد» له خطاباً. كأنه أراد: يا مالك يوم الدين، إياكَ نعبد وإياكَ نَستعين. ولو كان عَلم تأويلَ أول السورة، وأن «الحمدُ لله رَبِّ العالمين» أمرٌ من الله عبده بقِيل ذلك، وكان عَقَل عن العرب أن من شأنها إذا حكَت أو أمرت بحكاية خبرٍ يتلو القولَ، أن تخاطب ثم تُخْبِرَ عن غائبٍ، وتخبرَ عن غائب ثم تعودَ إلى الخطاب، لما في الحكـاية بالقـول من معنى الغـائب والمخـاطب، كقـولهم للرجل: قد قلتُ لأخيك: لو قمتَ لقمتُ، وقد قلتُ لأخيك: لو قام لقمتُ ـ لسَهُل عليه مخرجُ ما استصعب عليه وِجْهتُه من جر «مالك يوم الدين».

فقراءة «مالكَ يوم الدين» محظورة غير جائزة، لإجماع جميع الحجة من القراء وعلماء الأمة على رَفض القراءة بها.

القول في تأويل قوله ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾.

والدين في هذا الموضع، بتأويل الحساب والمجازاة بالأعمال، ومن ذلك قول الله جلّ ثناؤه ﴿كلَّا بَل تُكَذِّبُونَ بالدِّين﴾ ـ يعني: بالجزاء ـ ﴿وإنَّ عَلَيْكُمْ

لَحَافِظِين﴾ [الانفطار: ٩-١٠] يُحصون ما تعملون من الأعمال، وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ [الواقعة: ٨٦]، يعني غير مجزيِّين بأعمالكم ولا مُحَاسَبين.

وللدين معانٍ في كلام العرب، غير معنى الحساب والجزاء، سنذكرها في أماكنها إن شاء الله.

القول في تأويل قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

وتأويل قوله ﴿إِيَّاكَ نعبُد﴾: لك اللهم نَخشعُ ونَذِلُّ ونستكينُ، إقراراً لك يا رَبنا بالرُّبوبية لا لغيرك.

وإنما اخترنا البيان عن تأويله بأنه بمعنى نَخشع ونذل ونستكينُ، دون البيان عنه بأنه بمعنى نرجو ونَخاف ـ وإن كان الرجاء والخوف لا يكونان إلا مع ذلة ـ لأن العبودية، عندَ جميع العرب، أصلُها الذلة، وأنها تسمي الطريقَ المذلَّلَ الذي قد وَطِئته الأقدام، وذللته السابلة: معبَّداً.

القول في تأويل قوله ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (٤)

معنى قوله ﴿وإياك نستعين﴾: وإياك رَبنا نستعين على عبادتنا إياك وطاعتنا لك في أمورنا كلها ـ لا أحداً سواك، إذْ كان من يكفُر بك يَستعين في أمورِه معبودَه الذي يعبُدُه من الأوثان دونَك، ونحن بك نستعين في جميع أمورنا مخلصين لك العبادة.

فإن قال قائل: وما معنى أمرِ الله عِبادَه بأن يسألوه المعونةَ على طاعته؟ أوَ جائزٌ، وقد أمرهم بطاعته، أن لا يعينهم عليها؟ أم هل يقول قائل لربه: إياك نستعينُ على طاعتك، إلا وهو على قوله ذلك مُعانٌ؟ وذلك هو الطاعة. فما وجهُ مسألة العبد ربَّه ما قد أعطاه إياه؟

قيل: إن تأويلَ ذلـك على غير الوجه الذي ذهبتَ إليه، وإنما الداعي ربَّه من المؤمنين أن يعينه على طاعته إياه، داعٍ أن يعينه فيما بقي من عُمره على ما كلفه من طاعته، دون ما قد تَقَضَّى ومضى من أعماله الصالحة فيما خلا من عمره. وجازت مسألةُ العبد ربَّه ذلك، لأن إعطاء الله عبدَه ذلك ـ مع تمكينه جوارحه لأداء ما كلَّفه من طاعته، وافترض عليه من فرائضه ـ فضلٌ منه جل ثناؤه تفضّل به عليه، ولُطْف منه لَطَف له فيه. وليس في تَركه التفضُّل على بعض عبيده بالتوفيق ـ مع اشتغال عبده بمعصيته، وانصرافه عن محبته، ولا في بَسطه فضلَه على بعضهم، مع إجهاد العبد نفسه في مَحبته، ومسارعته إلى طاعته ـ فسادٌ في تدبير، ولا جَور في حكم، فيجوز أن يجهلَ جاهل موضع حُكم الله في أمرِه عبدَه بمسألته عونه على طاعته.

وفي أمر الله جلّ ثناؤه عبادَه أن يقولوا: ﴿إياك نعبُدُ وإياكَ نَسْتعين﴾، بمعنى مسألتهم إياه المعونةَ على العبادة، أدلُّ الدليل على فساد قول القائلين بالتَّفويض من أهل القدر[1]، الذين أحالوا أن يأمُرَ الله أحداً من عباده بأمرٍ، أو يكلفه فرضَ عمل، إلا بعدَ إعطائه المعونة على فعلِه وعلى تركِه. ولو كانَ الذي قالوا من ذلك كما قالوا، لبطلت الرَّغبة إلى الله في المعونة على طاعته. إذ كانَ ـ على قولهم، مع وجود الأمر والنهي والتكليف ـ حقاً واجباً على الله للعبد إعطاؤه المعونة عليه، سأله ذلك عبدهُ أو تركَ مسألة ذلك. بل تَرْكُ إعطائه ذلك عندهم منه جَورٌ. ولو كان الأمر في ذلك على ما قالوا، لكان القائل: ﴿إياك نَعبد وإياك نستعين﴾، إنما يسأل ربَّه أن لا يجور.

وفي إجماع أهل الإسلام جميعاً ـ على تصويب قول القائل: «اللهم إنا

(١) أهـل القـدر: هم نفـاة القدر لا مثبتوه، والقائلون بالتفويض هم القدرية والمعتزلة والإمامية يزعمون أن الأمر فوض إلى الإنسان (أي رد إليه)، فإرادته كافية في إيجاد فعله، طاعة كان أو معصية، وهو خالق لأفعاله، والاختيار بيده.

نستعينك»، وتخطئتِهم قول القائل «اللهم لا تَجُرْ علينا» - دليل واضحٌ على خطأ ما قال الـذين وصفتُ قولهم. إذْ كان تأويلُ قول القـائل عندهم: اللهم إنا نستعينك - اللهم لا تترك مَعونتنا التي تركُهَا جوْرٌ منك.

فإن قال قائل: وكيف قيل: «إياك نعبدُ وإياك نستعين»، فقُدِّم الخبر عن العِبـادة، وأخِّـرتْ مسألةُ المعونة عليها بعدها؟ وإنما تكون العِبادةُ بالمعونة، فمسألةُ المعونة كانت أحقَّ بالتقديم قبلَ المُعَان عليه من العمل، والعبادةُ بها.

قيل: لمَّا كان معلوماً أن العبادة لا سبيل للعبد إليها إلا بمعونة من الله جلّ ثناؤه، وكان محالاً أن يكون العبْد عابداً إلا وهو على العبادة معان، وأن يكـون مُعـاناً عليها إلا وهو لها فاعل - كان سواءً تقديمُ ما قُدم منهما على صاحبه. كما سواءٌ قولك للرجل إذا قضى حاجَتَك فأحسن إليك في قضائها: «قضيتَ حاجتي فأحسنتَ إلي»، فقـدمت ذكـر قضـائـه حاجتَك، أو قلتَ: «أحسنتَ إلي فقضيتَ حاجتي»، فقــدمتَ ذكـر الإحسـان على ذكـر قضـاء الحاجة. لأنه لا يكون قاضياً حاجتكَ إلا وهو إليك محسن، ولا محسناً إليك إلا وهو لحاجتك قاضٍ.

فكذلك سواءٌ قول القائل: اللهم إنا إياك نعبُدُ فأعِنَّا على عبادتك، وقوله: اللهم أعنَّا على عبادتك فإنا إياك نعبُدُ.

وقد ظن بعض أهل الغفلة أن ذلك من المقدم الذي معناه التأخيرُ، كما قال امرؤ القيس:

ولَــوْ أن مَا أسْــعَــى لأدْنَـى مَعِيشَــةٍ كَفاني، ولم أطلُبْ، قليلٌ من المالِ[1]

يريد بذلك: كفاني قليلٌ من المال ولم أطلب كثيراً. وذلك - من معنى التقديم والتأخير، ومن مشابهة بيت امرىء القيس - بمعْزل. من أجل أنه قد

(١) ديوانه ١: ٧١.

يكفيه القليلُ من المال ويطلُب الكثيرَ، فليس وجُودُ ما يكفيه منه بموجبٍ له تركَ طلب الكثير، فيكونَ نظيرَ العبادة التي بوجُودها وجود المعونة عليها، وبوجود المعونة عليها وُجُودها، فيكونَ ذكرُ أحدِهما دالاًّ على الآخر، فيعتدلَ في صحة الكلام تقديمُ ما قُدِّم منهما قبلَ صاحبه، أن يكونَ موضوعاً في درجته ومرتَّباً في مرتَبتِه.

فإن قال: فما وجْه تكراره «إياك» مع قوله: «نستعين»، وقد تقدَّم ذلك قَبْل «نعبد»؟ وهلاَّ قيل: «إياك نعبُدُ ونستعين»، إذ كان المُخبَرُ عنه أنه المعبودُ، هو المُخبَرُ عنه أنه المستعانُ؟

قيل له: إن الكاف التي مع «إيَّا»، هي الكاف التي كانت تتصل بالفعل ـ أعني بقوله «نعبد» ـ لو كانت مؤخرةً بعدَ الفعل. وهي كنايةُ اسم المخاطبِ المنصوب بالفعل فكُثِّرت بـ «إيَّا» متقدِّمةً، إذْ كانت الأسماء إذا انفردتْ بأنفسها لا تكون في كلام العرب على حرف واحد.

فلما كانت الكاف من «إيَّاكَ» هي كنايةَ اسم المخاطَب التي كانت تكون كافاً وحدها متصلةً بالفعل إذا كانتْ بعد الفعل، ثم كان حظُّها أن تعادَ مع كل فعل اتصلتْ به، فيقال: «اللهم إنا نعبُدُكَ ونستعينُكَ ونحمدكَ ونشكرك»، وكان ذلك أفصحَ في كلام العرب، من أن يقال: «اللهم إنا نعبدك ونستعين ونحمد» ـ كان كذلك، إذا قدِّمت كنايةُ اسم المخاطب قبل الفعل موصولةً بـ «إيا»، كان الأفصح إعادَتها مع كل فعل. كما كان الفصيحُ من الكلام إعادتها مع كل فعل، إذا كانت بعد الفعل متصلةً به، وإن كان تركُ إعادتها جائزاً.

القول في تأويل قوله ﴿اهْدِنَا﴾.

ومعنى قوله ﴿اهدِنَا الصراطَ المستقيم﴾، في هذا الموضوع عندنا: وَفِّقْنا للثبات عليه.

ومعناه نظيرُ معنى قوله «إياك نستعين»، في أنه مَسألةُ العبد رَبَّهُ التوفيقَ للثباتِ على العمل بطاعته، وإصابةِ الحق والصواب فيما أمرَهُ به ونهاه عنه، فيما يَستَقبِلُ من عُمُره، دون ما قد مضى من أعماله، وتقضَّى فيما سَلف من عُمُره. كما قوله «إيَّاك نستعين»، مسألةٌ من ربّه المعونةَ على أداء ما قد كَلَّفَهُ مِنْ طاعته، فيما بقي من عُمره.

فكـانَ معنى الكـلام: اللهم إياك نعبدُ وحدَك لا شريكَ لكَ، مخلصين لك العبادةَ دونَ ما سِواكَ من الآلهة والأوثان، فأعِنَّا على عبادتك، ووفِّقنا لما وفَّقت له مَنْ أنعمتَ عليه من أنبيائك وأهل طاعتك، من السبيل والمنهاج.

فإنْ قال قائل: وأنَّى وَجدتَ الهدايةَ في كلام العرب بمعنى التَّوفيق؟

قيل له: ذلك في كلامها أكثرُ وأظهرُ من أنْ يُحصى عددُ ما جاء عنهم في ذلك من الشواهد.

ومنه قول الله جلّ ثناؤه: ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ في غير آية من تنزيله. وقد عُلم بذلك، أنه لم يَعْنِ أنه لا يُبيِّنُ للظالمين الواجبَ عليهم من فرائضه. وكيف يجوزُ أن يكونَ ذلك معناه، وقد عمَّ بالبيان جميع المكلَّفين من خلقه؟ ولكنه عنى جلّ وعز أنه لا يُوفِّقهم، ولا يشرَحُ للحق والإيمان صدورهم.

وقد زعم بعضهم أن تأويل قوله ﴿اهدِنا﴾: زِدْنا هداية.

وليس يخلُو هذا القولُ من أحدِ أمرين: إما أن يكون ظَنَّ قائلُه أن النبي ﷺ أُمِرَ بمسألة رَبِّه الزيادةَ في البيان، أو الزيادةَ في المعونة والتوفيق.

فإن كان ظن أنه أُمِر بمسألة الزيادة في البيان، فذلك ما لا وجهَ له. لأن الله جلّ ثناؤه لا يكلِّفُ عبداً فرضاً من فرائضه، إلا بعد تبيينه له وإقامة الحجة عليه به. ولو كان مَعنى ذلك معنى مسألتِه البيانَ، لكانَ قد أُمِرَ أنْ يدعو ربّه

أن يبيِّن له ما فرِضَ عليه، وذلك من الدعاء خَلْفٌ[1]، لأنه لا يفرض فرضاً إلا مبيَّناً لمن فرضَه عليه. أو يكون أُمِرَ أن يدعوَ رَبَّه أن يفرض عليه الفرائض التي لم يفرضْها. وفي فساد وَجه مسألة العبد ربَّه ذلك، ما يوضِّح عن أن معنى ﴿اهْدِنَا الصِّراطَ المستقيمَ﴾، غير معنى: بَيِّنْ لنا فرائضَك وحدودَك.

أو يكون ظن أنه أُمِرَ بمسألة ربه الزيادةَ في المعونة والتوفيق. فإن كان ذلـك كذلك، فلن تخلوَ مسألتُه تلك الزيادةَ من أن تكون مسألةً للزيادة في المعونة على ما قد مضى من عمله، أو على ما يحدُث. وفي ارتفاع[2] حاجةِ العبد إلى المعونة ما قد تقضَّى من عمله، ما يُعلِمُ أن معنى مسألة تلك الزيادة إنما هو مسألتُه الزيادةَ لما يحدث من عمله. وإذ كانَ ذلك كذلك، صارَ الأمر إلى ما وصفنا وقلنا في ذلك: من أنه مسألة العبد ربَّه التوفيقَ لأداء ما كُلِّف من فرائضه، فيما يَستقبل من عُمُره.

وفي صحة ذلك، فسادُ قول أهلِ القدَرِ الزاعمين أنَّ كُلَّ مأمورٍ بأمرٍ أو مكلَّفٍ فرضاً، فقد أعطي من المعونة عليه، ما قد ارتفعت معه في ذلك الفرض حاجَتُهُ إلى ربِّه. لأنه لو كان الأمر على ما قالوا في ذلك، لبطَلَ معنى قول الله جلّ ثناؤه ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ* اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. وفي صحة معنى ذلك، على ما بيَّنا، فسادُ قولهم.

وقـد زعم بعضُهم أن معنى قوله ﴿اهْدنا الصِّراط المستقيم﴾: أسْلِكنا طريق الجنـة في المعاد، أيْ قدِّمنا له وامْضِ بنا إليه، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣]، أي أدخلوهم النارَ، كما تُهْدَى المرأةُ إلى زوجها، يُعنى بذلك أنها تُدخَل إليه، وكما تُهْدى الهديَّة إلى الرجل، وكما تَهدي الساقَ القدمُ[3].

---

(١) أي رديء من القول.
(٢) ارتفع الأمر: زال وذهب.
(٣) أي تَرِدُ به الموارِدَ.

وفي قول الله جلّ ثناؤه ﴿إيَّاكَ نعبُد وإياك نستعين﴾ ما يُنْبِىءُ عن خطأ هذا التأويل، مع شهادة الحجة من المفسرين على تخطئته. وذلك أنّ جميعَ المفسرينَ من الصحابةِ والتابعينَ مجمِعُون على أن معنى «الصراط» في هذا الموضع، غيرُ المعنى الذي تَأوَّلَهُ قائل هذا القول، وأن قوله: «إياك نستعينُ» مسألةُ العبدِ ربَّه المعونةَ على عبادته. فكذلك قوله «اهْدِنا» إنما هو مسألةُ الثباتِ على الهدى فيما بقي من عُمُره.

والعربُ تقول: هديتُ فلاناً الطريقَ، وهديتُه للطريق، وهديتُه إلى الطريق، إذا أرشدتَه إليه وسدَّدته له. وبكل ذلك جاء القرآن، قال الله جلّ ثناؤه: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لله الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقال في موضع آخر: ﴿آجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢١] وقال: ﴿اهْدِنَا الصِرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

وكُلُّ ذلك فاشٍ في منطقها، موجودٌ في كلامها.

القول في تأويل قوله ﴿آلصِّرٰطَ المُسْتَقِيمَ﴾ (٥)

أجمعت الأمةُ من أهل التأويل جميعاً على أن «الصراط المستقيم»، هو الطريقُ الواضح الذي لا اعوجاجَ فيه. وكذلك ذلك في لغةِ جميعِ العربِ. والشواهدُ على ذلك أكثرُ من أن تُحصَىٰ.

ثم تستعيرُ العربُ «الصراط» فتستعمله في كل قولٍ وعملٍ وُصِفَ باستقامةٍ أو اعوجاجٍ، فتصفُ المستقيمَ باستقامته، والمعوجَّ باعوجاجه.

والذي هو أولى بتأويل هذه الآية عندي، أعني: ﴿اهدِنا الصِّراط المستقيم﴾، أن يكون معنياً به: وفقنا للثبات على ما ارتَضيتَه ووفَّقْتَ له مَنْ أنعمتَ عليه من عبادِكَ، من قولٍ وعملٍ، وذلك هو الصِّراط المستقيم. لأنَّ

مَنْ وُفِّقَ لما وُفق له مَنْ أنعم اللهُ عليه من النبيِّين والصدِّيقين والشهداء، فقد وُفِّقَ للإسلام، وتصديقِ الرسلِ، والتمسكِ بالكتاب، والعملِ بما أمر الله به، والانزجار عما زَجره عنه، واتباعِ منهج النبيِّ ﷺ، ومنهاج أبي بكر وعمر وعثمان وعلي. وكلٍّ عبدٍ لله صالحٍ، وكل ذلك من الصراط المستقيم.

وقد اختلفتْ تراجمةُ القرآن[1] في المعنيِّ بالصراط المستقيم. يشملُ معاني جميعهم في ذلك، ما اخترنا من التأويل فيه.

وإنما وصفه الله بالاستقامة، لأنه صوابٌ لا خطأ فيه. وقد زعم بعضُ أهل الغباءِ، أنه سمّاه الله مستقيماً، لاستقامته بأهله إلى الجنة. وذلك تأويلٌ لتأويل جميع أهل التفسير خلافٌ، وكفى بإجماع جميعهم على خلافه دليلاً على خطئه.

القول في تأويل قوله: ﴿صِرٰطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِم﴾ (٦)

وقوله ﴿صِرَاط الذين أنعمْتَ عليهم﴾، إبانةٌ عن الصراط المستقيم، أيُّ الصراطِ هو؟ إذْ كان كل طريق من طُرق الحق صراطاً مستقيماً. فقيل لمحمد ﷺ: قُلْ يا محمد: اهدنا يا رَبَّنا الصراطَ المستقيم، صراطَ الذينَ أنعمتَ عليهم بطاعتكَ وعبادتكَ، من مَلائكتك وأنبيائك والصديقين والشهداء والصالحين وذلك نظير ما قال ربنا جلّ ثناؤه في تنزيله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً﴾ ﴿وَإِذاً لَآتَيْنَاهُم مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً﴾ ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً﴾ ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٦-٦٩].

فالذي أُمِرَ محمدٌ ﷺ وأمتُه أن يسألوا ربَّهم من الهداية للطريق

---

(١) تراجمة القرآن، جمع ترجمان: وأراد المفسرين.

المستقيم، هي الهداية للطريق الذي وصَف اللهُ جلّ ثناؤه صِفتَهُ. وذلك الطريقُ، هو طريقُ الذين وصَفهم اللهُ بما وصفهم به في تنزيلهِ، ووعدَ مَنْ سَلكه فاستقام فيه طائعاً لله ولرسوله ﷺ، أن يُورِدَهُ مواردهم والله لا يُخْلِفُ الميعاد.

وفي هذه الآية دليلٌ واضح على أنَّ طاعةَ الله جلّ ثناؤه، لا ينالها المُطيعون إلا بإنعامِ الله بها عليهم، وتوفيقه إياهم لها. أوَ لَا يسمعونه يقول: «صراط الذين أنعمت عليهم»، فأضافَ كُلَّ ما كان منهم من اهتداء وطاعة وعبادة إلى أنه إنعامٌ منه عليهم؟

فإنْ قال قائلٌ: وأين تمامُ هذا الخبرِ؟ وقد علمتَ أنَّ قولَ القائلِ لآخر: «أنعمت عليك» مقتضٍ الخبرَ عمَّا أنعمَ به عليه، فأين ذلك الخبرُ في قوله «صراط الذين أنعمت عليهم»، وما تلك النعمة التي أنعمها عليهم؟

قيل له: قد قدمنا البيان ـ فيما مضى من كتابنا هذا ـ عن اجتزاءِ العربِ في منطقها ببعضٍ من بعض، إذا كان البعضُ الظاهر دالاًّ على البعض الباطن وكافياً منه. فقوله «صراط الذين أنعمتَ عليهم» من ذلك. لأن أمْرَ اللهِ جلّ ثناؤه عبادَه بمسألته المعونةَ، وطلبهم منه الهدايةَ للصراط المستقيم، لما كان متقدماً قولَه «صراطَ الذين أنعمت عليهم»، الذي هو إبانةٌ عن الصراط المستقيم وإبدالٌ منه ـ كان معلوماً أن النعمةَ التي أنعم الله بها على مَنْ أمَرنا بمسألته الهدايةَ لطريقهم، هو المنهاجُ القويمُ والصراطُ المستقيم، الذي قد قَدَّمْنَا البيانَ عن تأويله آنفاً. فكان ظاهرٌ ما ظهر من ذلك ـ مع قرب تجاور الكلمتين ـ مُغْنِياً عن تكراره.

القول في تأويل قوله: ﴿غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾

والقَرَأةُ مجمعةٌ على قراءة «غير» بجر الراء منها. والخفضُ يأتيها من وجهين:

أحدهما: أن يكون «غير» صفة لِـ «الذين» ونعتاً لـ (هِمْ) فتخفضها. إذ كان «الذين» خفضاً، وهي لهم نعتٌ وصفةٌ. وإنما جاز أن يكون «غير» نعتاً لِـ «الذين»، و«الذين»، معرفة و«غير» نكرة، لأن «الذين» بصلتها ليست بالمعرفة الموقتة كالأسماء التي هي أماراتٌ بين الناس، مثل زيد وعمرو وما أشبه ذلك، وإنما هي كالنكراتِ المجهولات، مثل الرجل والبعير وما أشبه ذلك. فلما كان «الذين» كذلك صفتُها، وكانت «غير» مضافةً إلى مجهولٍ من الأسماء، نظيرَ «الذين»، في أنه معرفة غير موقتة، كما «الذين» معرفة غير موقتة ـ جاز من أجل ذلك أن يكون «غير المغضوب عليهم» نعتاً لِـ «الذين أنعمت عليهم» كما يقال: «لا أجلسُ إلا إلى العالم غير الجاهل»، يراد: لا أجلس إلا إلى مَنْ يعلم، لا إلى مَنْ يجهل. ولو كان «الذين أنعمت عليهم» مَعرفةً موقتة، كان غير جائز أن يكون «غير المغضوب عليهم» لها نعتاً. وذلك أنه خطأ في كلام العرب ـ إذا وصفت معرفة موقتة بنكرة ـ أن تُلْزِم نَعتها النكرةَ إعرابَ المعرفة المنعوت بها، إلا على نيةِ تكريرِ ما أعربَ المنعوتَ بها. خطأ في كلامهم أن يقال: «مررتُ بعبدالله غير العالم»، فتخفض «غير»، إلا على نية تكرير الباء التي أعرَبتْ عبدالله. فكان معنى ذلك لو قيل كذلك: مَرَرتُ بعبدالله، مررت بغيرِ العالم. فهذا أحدُ وجهي الخفضِ في «غير المغضوب عليهم».

والوجهُ الآخر من وجهي الخفض فيها: أن يكون «الذين» بمعنى المعرفة الموقتة. وإذا وُجِّه إلى ذلك، كانت «غير» مخفوضةً بنية تكرير «الصراط» الذي خُفِض «الذين» عليها، فكأنك قلت: صراطَ الذين أنعمت عليهم، صراطَ غير المغضوب عليهم.

وهذان التأويلان في «غير المغضوب عليهم»، وإن اختلفا في اختلاف مُعرِبَيْهما، فإنهما يتقارب معناهما. من أجل أنَّ مَنْ أنعمَ اللهُ عليه فهداه لدينهِ الحق، فقد سَلِمَ من غضب رَبِّهِ، ونجا من الضلال في دينه.

فسواءٌ ـ إذْ كان سَامعُ قوله «اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم» غيرَ جائزٍ أن يرتاب، مع سماعهِ ذلك من تَاليهِ، في أنَّ الذين أنْعمَ الله عليهم بالهداية للصِّراط غيرُ غاضبٍ ربهم عليهم، مع النعمةِ التي قد عظمت منَّتهُ بها عليهم في دينهم؛ ولا أن يكونوا ضُلّالاً وقد هداهم الحقَّ ربُّهم. إذْ كان مستحيلاً في فِطَرِهم اجتمـاعُ الـرضَىٰ من الله جلّ ثناؤه عن شخصٍ والغضب عليه في حالٍ واحدةٍ، واجتماعُ الهدىٰ والضلال له في وقتٍ واحد ـ أوُصِفَ[1] القوم؛ معَ وَصْف الله إياهم بما وصفهم به من توفيقه إياهم وهدايته لهم، وإنعامه عَليهم بما أنعم الله به عليهم في دينهم، بأنهم غيرُ مغضوب عليهم ولا هم ضَالُّون؛ أم لم يوصفوا بذلك. لأن الصِّفة الظاهرة التي وُصفوا بها، قد أنبأت عنهم أنهم كذلك، وإن لم يصرِّح وصفهُم به.

هذا، إذا وجَّهنـا «غير» إلى أنهـا مخفـوضة على نية تكرير «الصراطِ» الخافضِ «الذين»، ولم نجعل «غير المغضوب عليهم ولا الضالين» من صفة «الـذين أنعمت عليهم»، بل إذا جعلناهم غيرَهم. وإن كان الفريقان لاشك مُنْعَماً عليهما في أديانهما.

فأمّا إذا وجهنا «غير المغضوب عليهم ولا الضالين» إلى أنها من نَعت، «الذين أنعمت عليهم»، فلا حاجةَ بسامعهِ إلى الاستدلال، إذْ كان الصريحُ من معناه قد أغنى عن الدليل.

وقد يجوز نصب «غير» في «غير المغضوب عليهم»، وإن كنتُ للقراءة بها كارهاً لشذوذها عن قراءة القُراء. وإنَّ ما شَذَّ من القراءات عما جاءت به الأمة نقلاً ظاهراً مستفيضاً، فرأيٌ للحَقِّ مخالِفٌ، وعن سبيل الله وسبيل رسول الله ﷺ وسبيل المسلمين متجانفٌ. وإن كان له ـ لو كان جائزاً القراءةُ به ـ في الصواب مخرجٌ.

---

(١) يقـول العـلامة محمود شاكر: وسياقُ العبارة: «سواء... أوصف القوم... أم لم يوصفوا»، وما بين هذين فصلٌ طويل كدأب أبي جعفر في بيانه.

فإن قال لنا قائل: فَمَنْ هؤلاء المغضوبُ عليهم، الذين أمرنا الله جلّ ثناؤه بمسألته أنْ لا يجعلنا منهم؟

قيل: هم الذين وصفهم الله جلّ ثناؤه في تنزيله فقال: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذٰلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ، مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ القِرَدَةَ والخَنَازِيرَ وعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولٰئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠]. فأعلمنا جَلَّ ذِكْرُهُ ثَمَّةَ[1]، ما أَحَلَّ بهم من عقوبته بمعصيتهم إياه. ثم عَلَّمَنَا، مِنَّةً منه علينا، وجه السبيل إلى النجاة من أن يحِلَّ بنا مثل الذي حَلّ بهم من المَثُلات[2]، ورأفة منه بنا.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلاَ الضَّالِّينَ﴾ (٧)

فإنْ قال لنا قائل: ومَن هؤلاء الضَّالُّون الذين أمرنا الله بالاستعاذة بالله أن يَسلُكَ بنا سبيلَهم ونَضِلَّ ضلالَهم؟

قيل: هم الذين وصَفهم الله في تنزيله فقال: ﴿يَا أَهلَ الكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

فكل حائدٍ عن قَصْدِ السبيل، وسالكٍ غيرَ المنهج القويم، فضَالٌّ عند العرب، لإضلاله وَجهَ الطريق.

---

(١) ثمَّ وثَمَّةَ (بفتح الثاء): إشارة للبعيد بمنزلة «هنا» للقريب.

(٢) المثلات: جمع مثلة. وهي العقوبة والتنكيل.

مسألة يَسأل عنها أهل الإلحاد الطّاعنون في القرآن

إن سألنَا منهم سائل فقال: إنك قد قدَّمتَ في أوَّلِ كتابك هذا في وصْف البيان: بأنّ أعلاه درجةً وأشرفَه مرتبةً، أبلغُه في الإبانة عن حاجة المُبينِ به عن نفسه، وأبينُه عن مُراد قائله، وأقربُه من فهم سامعه. وقلتَ، مع ذلك: إن أوْلى البيان بأن يكون كذلك، كلامُ الله جلّ ثناؤه، لِفَضْله على سائرِ الكلام بارتفاع دَرَجته على أعلى درجاتِ البيان، فما الوجه - إذْ كان الأمرُ على ما وصفتَ - في إطالة الكلام بمثلِ سورةِ أُمِّ القرآن بسبع آيات؟ وقد حَوَتْ معاني جميعها منها آيتان، وذلك قوله ﴿مَلكِ يومِ الدين إياكَ نَعبد وَإياكَ نَستعين﴾، إذْ كان لاشـك أنَّ مَنْ عَرف مَلك يوم الدين، فقد عَرفَه بأسمائه الحسنى وصفاته المُثْلى. وأن مَنْ كان لله مطيعاً، فلاشك أنه لسبيل من أنعم الله عليه في دينه مُتَّبع، وعن سبيلِ مَنْ غَضِب عليه وضَلَّ مُنْعَدِل. فما في زيادة الآيات الخمس الباقية، من الحكمة التي لم تَحْوِها الآيتان اللتان ذكرنا؟

قيل له: إنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ جَمع لنبينا محمد ﷺ ولأمته - بما أنزل إليه من كتابه - معاني لم يجمعْهُن بكتابٍ أنزله إلى نَبِيٍّ قبله، ولا لأمَّة من الأمم قبلهم. وذلك أن كُلَّ كتابٍ أنزله جلّ ذكرُه على نبيٍّ من أنبيائه قبله، فإنما أنزله ببعض المعاني التي يحوي جميعَها كتابُه الذي أنزله على نبينا محمد ﷺ. كالتَّوراة التي هي مواعظ وتفصيل، والزَّبُور الذي هو تحميد وتمجيد، والإنجيل الـذي هو مواعظ وتـذكير - لا مُعجـزةَ في واحـد منهـا تشهدُ لمن أنزِل إليه بالتصديق. والكتابُ الذي أنزِل على نبيِّنا محمد ﷺ، يحوي معاني ذلك كله، ويزيد عليه كثيراً من المعاني التي سائرُ الكتب غيرِه منها خالٍ. وقد قدَّمنا ذكره فيما مضى من هذا الكتاب.

ومن أشرفِ تلك المعاني التي فضل بها كتابُنا سائرَ الكتب قبله، نَظْمُه

العجيبُ ورصْفُه الغريب وتأليفُه البديع؛ الذي عجزتْ عن نظم مثْل أصغرِ سورة منه الخطباءُ، وكلَّت عن وَصْفِ شَكْلٍ بعضهِ البُلغاءُ، وتحيَّرت في تأليفه الشعراءُ، وتبلَّدت - قصوراً عن أن تأتي بمثله - لديه أفهامُ الفُهماء، فلم يجدوا له إلا التسليمَ والإقرارَ بأنه من عند الواحدِ القهار. مع ما يحوي، مَع ذلك، من المعاني التي هي ترغيبٌ وترهيبٌ، وأمرٌ وزجرٌ، وقَصَصٌ وَجَدَلٌ ومَثَلٌ، وما أشبهَ ذلك من المعاني التي لم تجتمع في كتابٍ أُنْزِلَ إلى الأرض من السماء.

فمهما يَكُنْ فيه من إطالة، على نحو مَا في أمِّ القرآن، فَلِمَا وصفتُ قَبْلُ من أنَّ الله جلّ ذكره أرادَ أن يجمعَ - برَصْفهِ العجيب ونظْمِه الغريب، المنعدِلِ عن أوزان الأشعار وسَجْعِ الكُهَّان وخطب الخطباء ورَسائل البلغاء، العاجز عن رَصْفِ مِثْلِهِ جميعُ الأنام، وعن نظم نظيره كل العباد - الدلالةَ على نبوةِ نبينا محمد ﷺ؛ وبما فيه من تحميدٍ وتمجيد وثناء عليه - تنبيهَ العباد على عَظمته وسلطانه وقدرته وعِظم مَملكته، ليذكرُوه بآلائه، ويحمدوه على نعمائه، فيستحقوا به منه المزيدَ، ويستوجبوا عليه الثوابَ الجزيل؛ وبما فيه من نَعْتِ مَنْ أنعم عليه بمعرفته، وتفضَّل عليه بتوفيقه لطاعته - تعريفَ عباده أنَّ كُلَّ ما بهم من نعمةٍ، في دينهم ودنياهم، فمنه، ليصرفوا رَغبتهم إليه، ويبتغوا حاجاتهم من عنده دُون ما سِواهُ من الآلهةِ والأنداد؛ وبما فيه من ذكره ما أحل بمن عَصَاه مِنْ مَثُلاته، وأنزل بمن خالفَ أمرَهُ من عقوباته - ترهيبَ عبادهِ عن ركوب معاصيه، والتعرُّضِ لِمَا لا قِبَلَ لهم به من سَخَطهِ، فيسلكَ بهم في النكال والنِّقمات سبيلَ من ركب ذلك من الهُلَّاك.

فذلك وَجْهُ إطالةِ البيان في سورة أم القرآن، وفيما كان نظيراً لها من سائر سور الفرقان. وذلك هو الحِكمةُ البالغة والحجة الكاملة.

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلْبَقَرَةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

القول في تفسير السورة التي يُذْكر فيها البقرة

القول في تأويل قول الله جلّ ثناؤه: ﴿ألم﴾ (١)

اختلفت تَراجِمَةُ القرآن في تأويل قولِ الله تعالى ذكره: «ألم».

فقال بعضهم: هو اسم من أسماء القرآن.

وقال بعضهم: هو فواتح يفتح الله بها القرآن.

وقال آخرون: هو اسم للسورة.

وقال بعضهم: هو اسم الله الأعظم.

وقال بعضهم: هو قَسَمٌ أقسمَ اللهُ به وهو من أسمائه.

وقال بعضهم: هو حروف مُقَطَّعةٌ من أسماء وأفعال، كُلُّ حرفٍ من ذلك لمعنىً غيرِ معنى الحرفِ الآخر.

وقال بعضهم: هي حروفُ هِجاءٍ موضوع.

وقال بعضهم: هي حروفٌ يشتملُ كُلُّ حرفٍ منها على معانٍ شتى مختلفة.

وقال بعضهم: هي حروف من حساب الجُمَّل.

وقال بعضهم: لكل كتابٍ سرٌّ، وسِرُّ القرآنِ فواتِحُهُ.

وأمَّا أهل العربية، فإنهم اختلفوا في معنى ذلك. فقال بعضهم: هي حروفٌ من حُرُوفِ المعجم، استُغْنِيَ بذكر ما ذُكِرَ منها في أوائل السور عن

ذكر بواقيها، التي هي تتمة الثمانية والعشرين حرفاً؛ كما استغنى المُخبرُ ـ عمن أخبرَ عنه أنه في حروف المعجم الثمانية والعشرين حرفاً ـ بذكر « أ ب ت ث »، عن ذكر بواقي حروفها التي هي تتمة الثمانية والعشرين: قال. ولذلك رفع ﴿ذٰلِكَ الكتابُ﴾، لأن معنى الكلام: الألف واللام والميم من الحروف المقطعة، ذلك الكتابُ الذي أنزلته إليك مجموعاً لا ريبَ فيه.

وقال آخرون: بل ابتدئت بذلك أوائلُ السُّور ليفتحَ لاستماعِهِ أسماعَ المشركين ـ إذ تواصَوْا بالإعراضِ عن القرآن ـ حتى إذا استمعوا له تُلي عليهم المُؤَلَّفُ منه.

وقال بعضهم: الحروفُ التي هي فواتح السُّور حروف يستفتحُ اللهُ بها كلامه.

ولكلٍّ قولٍ من الأقوال التي قالها الذين وصفنا قولهم في ذلك، وجهٌ معروفٌ.

والصوابُ من القول عندي في تأويل مفاتح السور، التي هي حروف المعجم: أن الله جلّ ثناؤه جعلَها حروفاً مقطَّعة ولم يَصِلْ بعضَها ببعض ـ فيجعلها كسائر الكلام المُتَّصِلِ الحروفِ ـ لأنه عَزَّ ذِكْرُهُ أراد بلفظِه الدلالةَ بكل حرفٍ منه على معانٍ كثيرة، لا على معنى واحد.

فإنْ قال لنا قائل: وكيفَ يجوز أن يكون حرفٌ واحدٌ شاملاً الدلالةَ على معانٍ كثيرة مختلفة؟

قيل: كما جاز أن تكون كلمة واحدةٌ تشتمل على معانٍ كثيرةٍ مختلفةٍ، كقولهم للجماعة من الناس: أمَّة، وللحين من الزمان: أمَّة، وللرجل المتعبِّد المطيع لله: أمة، وللدين والملة: أمة. وكقولهم للجزاء والقصاص: دين، وللسلطان والطاعة: دين، وللتذلل: دين، وللحساب: دينٌ، في أشباهٍ لذلك كثيرةٍ يطولُ الكتابُ بإحصائها ـ مما يكونُ من الكلام بلفظ واحد، وهو مشتمل

على معانٍ كثيرةٍ. وكذلك قول الله جلّ ثناؤه: «ألم» و«ألر» و«ألمص» وما أشبه ذلك من حروف المعجم التي هي فواتح أوائل السور، كل حرفٍ منها دالٌّ على معانٍ شتى، شاملٌ جميعُها من أسماء الله عزّ وجل وصفاته ما قاله المفسِّرُون من الأقوال التي ذكرنا عنهم. وهن، مع ذلك، فواتح السور، كما قاله مَنْ قال ذلك. وليسَ كونُ ذلك من حُروف أسماء الله جلّ ثناؤه وصفاتِه، بمانِعِها أنْ تكون للسُّور فواتح. لأن الله جلّ ثناؤه قد افتتح كثيراً من سور القرآن بالحمدِ لنفسهِ والثناءِ عليها، وكثيراً منها بتمجيدِهَا وتعظِيمها، فغيرُ مستحيلٍ أن يبتدىء بعض ذلك بالقسم بها.

فالتي ابتُدِىء أوائِلُها بحرُوف المعجم، أحدُ مَعاني أوائلها: أنهن فواتحُ ما افتَتَحَ بهن من سُور القرآن. وهُنَّ مما أقسمَ بهن، لأن أحدَ معانيهن أنهن من حروف أسماء الله تعالى ذِكْرُهُ وصفاتِه، على ما قدَّمنا البيان عنها، ولاشك في صحةِ معنى القَسَم بالله وأسمائه وصفاته. وهن من حروف حساب الجُمَّل. وهن للسُّور التي افتتحت بهنِ شعارٌ وأسماء. فذلك يحوي مَعانيَ جميعِ ما وصفنا، مما بَيَّنَّا، من وجوهِهِ. لأن الله جلّ ثناؤه لو أراد بذلك، أو بشيءٍ منه، الدلالةَ على معنىً واحد مما يحتملهُ ذلك، دونَ سائرِ المعاني غيره، لأبان ذلك لهم رسولُ الله ﷺ إبانةً غيرَ مشكلةٍ إذْ كان جلّ ثناؤه إنما أنزل كتابه على رسوله ﷺ ليُبيِّنَ لهم ما اختلفوا فيه. وفي تركه ﷺ إبانةَ ذلك ـ أنه مرادٌ به من وجُوه تأويلهِ البعضُ دون البعض ـ أوضحُ الدليل على أنه مرادٌ به جميعُ وجوههِ التي هو لها محتملٌ. إذ لم يكن مستحيلا في العقل وجهٌ منها أن يكون من تأويله ومعناه، كما كان غير مستحيلٍ اجتماعُ المعاني الكثيرة للكلمة الواحدة، باللفظ الواحد، في كلامٍ واحد.

ومَنْ أبى ما قلناهُ في ذلك، سُئِل الفرقَ بين ذلك، وبين سائر الحروفِ التي تأتي بلفظٍ واحد، مع اشتمالها على المعاني الكثيرة المختلفة، كالأمة

والدين وما أشبه ذلك من الأسماء والأفعال. فلن يقول في واحدٍ مِنْ ذلك قولاً إلا أُلْزِمَ في الآخرِ مثله.

وكذلك يُسأل كُلُّ مَنْ تَأَوَّلَ شيئاً من ذلك ـ على وجهٍ دُون الأوجهِ الأُخَرِ التي وصفنا ـ عن البرهانِ على دَعْواه، من الوَجه الذي يجبُ التسليمُ له. ثم يُعارَضُ بقولِ مُخالفهِ في ذلك، ويسأل الفرق بينه وبينه: من أَصْلٍ، أو مما يدلُّ عليه أصْلٌ. فلن يقولَ في أحدهما قولاً إلا أُلْزِمَ في الآخر مثله.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَٰبُ﴾

قال عامةُ المفسرين: تأويل قول الله تعالى ﴿ذلك الكتاب﴾: هذا الكتاب.

فإنْ قال قائـل: وكيف يجـوزُ أن يكون «ذلك» بمعنى «هذا»؟ و«هذا» لاشك إشارة إلى حاضرٍ مُعَايَنٍ، و«ذلك» إشارةٌ إلى غائبٍ غير حاضر ولا مُعايَن؟

قيل: جاز ذلك، لأن كل ما تَقَضَّى، بقُرْبِ تَقضِّيه من الإخبار، فهو ـ وإن صار بمعنى غير الحـاضـر ـ فَكَالحاضِرِ عند المخاطب. وذلك كالرجل يحدِّثُ الرجلَ الحديثَ فيقول السامع: «إن ذلك والله لكما قُلْتَ»، و«هذا والله كما قلتَ»، و«هو والله كما ذكرت»، فيخبرُ عنه مَرَّة بمعنى الغائب، إذْ كان قد تَقضَّى ومضى، ومرة بمعنى الحاضر، لقُرْب جوابه من كلام مخبره، كأنه غير مُنْقَضٍ. فكذلك «ذلك» في قوله ﴿ذلك الكتاب﴾ لأنه جَلَّ ذِكْرُهُ لما قدم قبلَ «ذلك الكتاب» «ألم»، التي ذكرنا تصرُّفَها في وجُوهِها من المعاني على ما وصفنا، قال لنبيه ﷺ: يا محمد، هذا الذي ذكرته وبيَّنْتُه لك، الكتابُ. ولذلك حسن وضع «ذلك» في مكان «هذا»، لأنه أُشِيرَ به إلى الخبر عمّا تضمَّنهُ قوله «ألم» من المعاني، بعد تقضي الخبر عنه بـ «ألم»، فصار لِقُرْبِ الخبرِ عنه من

تقضِّيه، كالحاضرِ المُشَارِ إليه، فأخبر به بـ «ذلك» لانقضائه، ومصير الخبر عنه كالخبر عن الغائب، وترجمهُ[1] المفسِّرون: أنه بمعنى «هذا»، لقربِ الخبر عنه من انقضائه، فكانَ كالمُشاهَدِ المُشَارِ إليه بـ «هذا»، نحو الذي وصفناه من الكلام الجاري بين الناس في محاوراتهم، وكما قال جل ذكره: ﴿وَاذْكُرْ إِسْماعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الأَخْيَارِ۞ هذا ذكر﴾ [ص: ٤٨-٤٩] فهذا ما في «ذلك» إذا عنى بها «هذا».

وقد يحتمل قوله جلّ ذكره ﴿ذلك الكتاب﴾، أن يكون معنياً به السُّوَرُ التي نزلت قبلَ سورةِ البقرةِ بمكة والمدينة، فكأنه قال جلّ ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: يا محمد، اعلمْ أنَّ ما تضمَّنَتْهُ سُوَرُ الكتابِ التي قد أنزلتها إليك، هو الكتابُ الذي لا ريبَ فيه. ثم ترجمه المفسرون بأن معنى «ذلك»: «هذا الكتاب»، إذْ كانت تلك السُّور التي نزلت قبل سورة البقرة، من جملةِ جميعِ كتابنا هذا، الذي أنزله الله عزّ وجل على نبينا محمد ﷺ.

وكان التأويلُ الأول أولى بما قاله المفسرون، لأن ذلك أظهرُ معاني قولِهم الذي قالوه في «ذلك».

القول في تأويل قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾

وتأويل قوله: «لا ريب فيه» « لا شَكَّ فيه».

والهاء التي في «فيه» عائدةٌ على الكتاب، كأنه قال: لا شك في ذلك الكتاب أنه من عندِ اللهِ هُدىً للمتقين.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿هُدىً﴾

---

(١) ترجمه: أي فسره.

والهُدى في هذا الموضع مصدرٌ من قولك: هديتُ فلاناً الطريقَ ـ إذا أرشدتَه إليه، ودَلَلْتَهُ عليه، وبَيَّنْتَهُ له ـ أهديه هُدى وهداية.

فإن قال لنا قائل: أوَ ما كتابُ الله نوراً إلا للمتقين، ولا رَشاداً إلا للمؤمنين؟

قيل: ذلك كما وصفه ربنا عزّ وجل. ولو كان نوراً لغير المتقين، ورشاداً لغير المؤمنين، لم يخصُص الله عزّ وجل المتقين بأنه لهم هدى، بل كان يَعُمُّ به جميع المُنْذَرينَ. ولكنه هدى للمتقين، وشفاءٌ لما في صدور المؤمنين، وَوَقْرٌ في آذان المكذبين، وعمىً لأبصار الجاحدين، وحجةٌ لله بالغةٌ على الكافرين. فالمؤمن به مُهتدٍ، والكافرُ به محجوجٌ.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٢)

وأَوْلى التأويلات بقول الله جلّ ثناؤه ﴿هدى للمتقين﴾ تأويلُ من وصفَ القومَ بأنهم الذين اتَّقُوا الله تبارك وتعالى في ركوب ما نهاهم عن ركوبه، فتجنبوا معاصِيه، واتَّقوْه فيما أمرهم به من فرائضِه، فأطاعوه بأدائها. وذلك أن الله عز وجل وصَفهم بالتقوى، فلم يحصُرْ تقواهم إياه على بعضٍ ما هو أهلٌ له منهم دون بعض. فليس لأحدٍ من الناس أن يحصُر معنى ذلك، على وَصْفهم بشيءٍ من تَقوى الله عزّ وجل دون شيء، إلا بحجةٍ يجبُ التسليمُ لها. لأنَّ ذلك من صفة القوم ـ لو كان محصوراً على خاص من معاني التقوى دون العام منها ـ لم يَدَعِ الله جلّ ثناؤه بيانَ ذلك لعباده: إما في كتابه، وإما على لسان رسوله ﷺ، إذْ لَم يكن في العقل دليلٌ على استحالة وصفهم بعموم التقوى.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿الَّذِين يُؤْمِنُونَ﴾

ومعنى الإيمان عند العرب: التصديق، فيُدْعَى المصدِّقُ بالشيء قولاً، مؤمناً به، ويُدْعى المصدِّق قولَه بفِعْلِه، مؤمناً. ومن ذلك قول الله جلّ ثناؤه: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]، يعني: وما أنتَ بمصدِّقٍ لنا في قولنا. وقد تدخلُ الخشيةُ لله في معنى الإيمان، الذي هو تصديقُ القولِ بالعملِ. والإيمانُ كلمةٌ جامعةٌ الإقرارَ بالله وكتُبهِ ورسلِه، وتصديق الإقرار بالفعل. وإذْ كان ذلك كذلك، فالذي هو أولى بتأويل الآيةِ، وأشبه بصفة القوم: أن يكونوا موصوفين بالتصديق بالغَيْب قولاً واعتقاداً وعملاً، إذ كان جلّ ثناؤه لم يحصُرْهم من معنى الإيمان على معنىً دون معنى، بل أجْمَلَ وَصْفَهُم به، من غير خصوصِ شيءٍ من معانيه أخرجَهُ من صفتهم بخبرٍ ولا عقلٍ.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿بِالْغَيْبِ﴾

وأصلُ الغيب: كُلُّ ما غاب عنكَ من شيءٍ. وهو من قولك: غاب فُلان يغيبُ غيباً.

وقد اختلفَ أهلُ التأويل في أعيانِ القومِ الذين أنزل الله جلّ ثناؤه هاتين الآيتين من أول هذه السورة فيهم، وفي نَعْتهم وصِفَتهم التي وَصَفهم بها، من إيمانِهم بالغيبِ، سائر المعاني التي حوتها الآيتان من صفاتهم غيرَه.

فقال بعضُهم: هم مؤمنو العربِ خاصةً، دون غيرهم من مؤمني أهل الكتاب.

واستدَلُّوا على صحةِ قولهم ذلك وحقيقة تأويلهم، بالآية التي تتلو هاتين الآيتين، وهو قول الله عزّ وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ

قَبْلِكَ﴾. قالوا: فلم يكن للعربِ كتابٌ قبل الكتاب الذي أنزل الله عزّ وجل على محمد ﷺ، تَدينُ بتصديقِه والإقرارِ والعمل به. وإنما كان الكتابُ لأهل الكتابين غيرها. قالوا: فلما قَصَّ اللهُ عزّ وجل نبأ الذين يؤمنون بما أُنْزِلَ إلى محمد وما أُنْزِلَ من قبله ـ بعد اقتصاصه نبأ المؤمنين بالغيب ـ علمنا أن كُلَّ صِنفٍ منهم غيرُ الصنف الآخر، وأن المؤمنين بالغيب نوعٌ غيرُ النوع المصدِّق بالكتابين اللذين أحدهما مُنَزَّلٌ على محمد ﷺ، والآخرُ منهما على مَنْ قَبْلَ رسول الله.

قالوا: وإذْ كان ذلك كذلك، صحَّ ما قلنا من أن تأويل قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، إنما هم الذين يؤمنون بما غاب عنهم من الجنة والنار، والثَّوَاب والعقاب والبعثِ، والتصديقِ بالله ومَلائكته وكُتُبه ورسله، وجميع ما كانت العرب لا تدينُ به في جاهليتها، مما أوجب الله جلّ ثناؤه على عِبَاده الدَّيْنُونة به ـ دون غيرهم.

وقـال بعضهم: بلِ نَزَلتْ هذه الآيات الأربـعُ في مؤمني أهل الكتاب خاصَّةً، لإيمانهم بالقرآن عند إخبار الله جلّ ثناؤه إياهم فيه عن الغيوب التي كانوا يخفونها بينهم ويُسِرُّونَها، فعلموا عند إظهار الله جلّ ثناؤه نبيَّه ﷺ على ذلك منهم في تنزيله، أنه من عند الله جلّ وعز، فآمَنُوا بالنبيِّ ﷺ، وصدَّقُوا بالقرآن وما فيه من الإخبارِ عن الغيوبِ التي لا عِلْمَ لهم بها، لِمَا استقرَّ عندهم ـ بالحجةِ التي احتجَّ اللهُ تبارك وتعالى بها عليهم في كتابه، من الإخبار فيه عمَّا كانوا يكتمونه من ضمائرهم ـ أن جميع ذلك من عند الله.

وقال بعضهم: بل الآيات الأربعُ من أول هذه السورة، أُنزِلتْ على محمد ﷺ بوصفِ جميع المؤمنين الـذين تلـك صِفَتُهم من العرب والعجم، وأهل الكتابين وسِوَاهم. وإنما هذه صفة صِنْفٍ من الناس، والمؤمن بما أنزل الله على محمد ﷺ، وما أُنزِلَ من قبله، هو المؤمن بالغيب.

وأَوْلى القولين عندي بالصواب، وأشبههما بتأويل الكتاب، القولُ الأول، وهو: أن الذين وَصَفهم الله تعالى ذِكْرُه بالإيمان بالغيب، وبما وصفهم به جلّ ثناؤه في الآيتين الأُوْلَيَيْن، غير الذين وصفهم بالإيمان بالذي أنزل على محمد والذي أنزل على مَنْ قبله من الرسل، لما ذكرت من العللِ قَبْلُ لمن قال ذلك.

ومما يدلّ أيضاً مع ذلك على صحةِ هذا القول، أنه جنَّسَ ـ بعد وصف المؤمنين بالصِّفتين اللتين وَصَفَ، وبعد تصنيفه كلَّ صنفٍ منهما على ما صنَّف الكفار ـ جِنْسَيْن: فجعل أحدهما مطبوعاً على قلبه، مختوماً عليه، مأيوساً من إيابه، والآخرَ منافقاً، يُرائي بإظهارِ الإيمان في الظاهر، ويَسْتَسِرُّ النفاقَ في الباطن. فَصَيَّرَ الكفار جنسَيْن، كما صيَّر المؤمنين في أول السورة جِنْسين. ثم عَرَّفَ عبادَهُ نَعْتَ كلِّ صنفٍ منهم وصِفَتَهم، وما أعدَّ لكل فريق منهم من ثواب أو عقاب، وذَم أهل الذَّم منهم، وشكرَ سَعْيَ أهل الطاعة منهم.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَيُقِيمُونَ﴾.

وإقامتُها: أداؤها ـ بحدودها وفروضها والواجب فيها ـ على ما فُرِضَتْ عليهم كما يقال: أقام القومُ سُوقَهم، إذا لم يُعَطِّلوها من البَيع والشراء فيها.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿الصَّلَوٰةَ﴾

وأما الصلاةُ فإنها في كلام العرب الدُّعاءُ، وأرى أن الصلاة المفروضة سُمِّيت «صلاة»، لأنَّ المصلِّيَ متعرِّضٌ لاستنجاح طلبَته من ثوابِ الله بعمله، مع ما يسأل رَبَّه من حاجاته، تعرُّضَ الداعي بدعائه ربَّه استنجاحَ حاجاته وسؤله.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿ومِمَّا رَزَقْنٰهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (٣)

وأَوْلى التأويلات بالآية وأحقُّها بصفة القوم: أن يكونوا كانوا لجميع اللازم لهم في أموالهم، مُؤدِّين، زكاةً كان ذلك أو نفقةَ مَنْ لَزِمَتْهُ نفقتُه، من أهلٍ وعيالٍ وغيرهم، ممن تجبُ عليهم نَفَقتُه بالقرابةِ والملك وغير ذلك. لأن الله جلّ ثناؤه عَمَّ وصفهم إذْ وصَفهم بالإنفاق مما رزقهم، فمدحهم بذلك من صفتهم. فكان معلوماً أنه إذ لم يَخْصُصْ مدْحَهم ووصفَهم بنوعٍ من النفقاتِ المحمودِ عليها صاحبُها دونَ نوعٍ بخبر ولا غيره ـ أنهم موصوفون بجميع معاني النفقات المحمودِ عليها صاحبُها من طَيِّبِ ما رزقهم رَبُّهم من أموالهم وأملاكهم، وذلك الحلالُ منه الذي لم يَشُبْهُ حرامٌ.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾

قد مضى البيان عن المنعوتين بهذا النعت، وأي أجناس الناس هم.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (٤)

أما الآخرةُ فإنها صفةٌ للدار، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿وإنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]. وإنما وُصِفَتْ بذلك لمصيرها آخِرةً لأولى كانت قَبْلَها، كما تقولُ للرجل: «أنعمتُ عليك مرَّة بعد أخرى، فلم تشكر لي الأولى ولا الآخرة»، وإنما صارت آخرة للأولى، لتقدُّم الأولى أمامَها. فكذلك الدارُ الآخرة، سُمِّيتْ آخرةً لتقدُّم الدار الأولى أمامها، فصارت التاليةُ لها آخرةً. وقد يجوز أن تكون سُمِّيت آخرةً لتأخرها عن الخَلْقِ، كما سميت الدنيا «دنيا» لِدُنُوِّها من الخلق.

وأما الذي وَصَف الله جلّ ثناؤه به المؤمنين ـ بما أنزل إلى نبيه محمد ﷺ وما أنزل إلى مَن قَبله من المرسلين ـ من إيقانِهم به من أمرِ الآخرة، فهو إيقانهم بما كان المشركون به جاحدين: من البَعْث والنُّشور والثوابِ والعقاب والحساب والميزان، وغير ذلك مما أعَدَّ الله لخلْقِه يومَ القيامة.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿أُولئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ﴾

اختلف أهلُ التأويل فيمن عَنَى اللهُ جلّ ثناؤه بقوله: «أولئكَ على هُدىً من ربهم»:

فقال بعضهم: عَنَى بذلك أهل الصِّفتين المتقدمتين، أعني: المؤمنين بالغيب من العرب، والمؤمنين بما أنزل إلى محمد ﷺ وإلىٰ مَن قَبله من الرسل. وإياهم جميعاً وَصَف بأنهم على هُدىً منه، وأنهم هم المفلحون.

وقال بعضهم: بل عنى بذلك المتقين الذين يؤمنون بالغيب، وهم الذين يؤمنون بما أُنزلَ إلى محمد، وبما أُنزِلَ إلى مَنْ قَبْلَهُ من الرسل.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك الذين يؤمنون بما أنزل إلى محمد ﷺ، وبما أنزل إلى مَنْ قبله، وهم مُؤمنو أهل الكتاب الذين صدقوا بمحمد ﷺ وبما جاء به، وكانوا مؤمنين من قَبْلُ بسائر الأنبياء والكُتُب.

وعلى هذا التأويل الآخر يُحتمل أن يكون ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إلَيْكَ﴾ في محل خفضٍ، ومحل رفع.

وأولى التأويلات عندي بقوله: ﴿أُولئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أن تكون «أولئك» إشارةً إلى الفريقين، أعني: المتَّقين، والذين يؤمنون بما أنزل إليك، وتكون «أولئك» مرفوعة بالعائد من ذكرهم في قوله «على هدى من ربهم»؛ وأن

تكون «الذين» الثانيةُ معطوفةً على ما قبلُ من الكلام، على ما قد بيَّنّاه.

وإنما رأينا أن ذلك أولى التأويلات بالآية، لأن الله جلّ ثناؤه نَعتَ الفريقين بنعتِهم المحمود، ثم أثنَى عليهم. فلم يكن عزّ وجل ليخصَّ أحد الفريقين بالثناء، مع تساويهما فيما استحقّا به الثناءَ من الصفات. كما غيرُ جائزٍ في عَدْلِه أنْ يتساويا فيما يستحقان به الجزاءَ من الأعمال، فيخصَّ أحدهما بالجزاء دون الآخر، ويحرِمَ الآخر جَزَاءَ عملِه. فكذلك سبيلُ الثناء بالأعمال، لأنَّ الثناء أحد أقسام الجزاء.

وأما معنى قوله: ﴿أُولئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ﴾ فإن معنى ذلك: أنهم على نورٍ من ربِّهم وبرهانٍ واستقامة وسَدادٍ، بتسديدِ اللهِ إياهم، وتوفيقه لهم.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٥)

وتأويل قوله: «وأولئك هم المفلحون» أي أولئك هم المُنْجِحُون المُدْرِكُون ما طَلَبُوا عندَ الله تعالى ذكره بأعمالِهم وإيمانهم بالله وكتبه ورُسله، من الفَوْزِ بالثواب، والخلود في الجِنَان والنَّجاةِ مما أعَدَّ الله تبارك وتعالى لأعدائه من العقاب.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٦﴾

عن ابن عباس: «إن الذين كفروا»، أي بما أنزِل إليك من ربِّك، وإنْ قالوا إنا قد آمنا بما قد جاءنا من قبلك.

وكان ابن عباس يرى أن هذه الآية نزلتْ في اليهود الذين كانوا بنواحي

المدينةِ على عهد رسول الله ﷺ، توبيخاً لهم في جُحودهم نبوَّةَ محمد ﷺ وتكذيبِهم به، مع علمهم به ومعرفتِهم بأنه رسولُ الله إليهم وإلى الناس كافة.

وأمَّا عِلَّتنا في اختيارنا ما اخترنا من التأويل في ذلك (عن ابن عباس)، فهي أنَّ قول الله جلّ ثناؤه ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ عَقِيبَ خبرِ اللهِ جَلَّ ثناؤه عن مؤمني أهلِ الكتاب، وعَقِيبَ نعتهم وصفتهم وثنائه عليهم بإيمانهم به وبكتبه ورسله.

فأوْلى الأمورِ بحكمة الله، أن يُتلِيَ ذلك الخبرَ عن كُفارهم ونُعُوتهم، وذمِّ أسبابهم وأحوالهم، وإظهارَ شَتْمهم والبراءةَ منهم. لأن مؤمنيهم ومشركيهم - وإن اختلفت أحوالهم في اختلاف أديانهم - فإن الجنس يجمع جميعَهم بأنهم بنو إسرائيل.

وإنما احتج الله جلّ ثناؤه بأول هذه السورة لنبيِّه ﷺ على مشركي اليهود من أحبار بني إسرائيل الذين كانوا مع علمهم بنبوته مُنْكرين نبوته - بإظهار نبيِّه ﷺ على ما كانت تُسِرُّه الأحبار منهم وتكتُمه، فيجهلهُ عُظْمُ اليهودِ وتَعلمُهُ الأحبارُ منهم - ليعلموا أنَّ الذي أطلعه على عِلْمِ ذلك، هو الذي أنزل الكتابَ على موسى. إذْ كان ذلك من الأمور التي لم يكنْ محمدٌ ﷺ ولا قومُه ولا عشيرتُه يعلمونه ولا يعرفونه من قبل نزول الفرقان على محمد ﷺ، فيمكنهم ادعاء اللَّبس في أمره عليه السلام أنه نبيٌّ، وأن ما جاء به فمن عند الله. وأنَّى يُمكنُ ادعاء اللَّبس في صدق أُمِّيٍّ نشأ بين أُمِّيِّين لا يكتبُ ولا يقرأ ولا يحسُب، فيقال قرأ الكتبَ فعَلم، أو حسب فنجَّم؟ انبعثَ على أحْبارٍ قُرَّاءٍ كَتَبَةٍ - قد درسوا الكتب ورأَسوا الأمم - يُخْبرهم عن مستورِ عُيوبهم، ومَصُونِ علومهم، ومكتومِ أخبارهم، وخَفِيَّات أمورهم التي جهلها مَنْ هو دونهم من أحبارهم. إن أمرَ من كان كذلك لغَيرُ مُشْكِلٍ، وإنَّ صِدْقَهُ لبَيِّنٌ.

ومما ينبىء عن صحة ما قُلنا ـ من أن الذين عنىٰ الله تعالى ذكره بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ هُم أحبارُ اليهود الذين قُتلوا على الكفرِ وماتوا عليه ـ اقتصاصُ الله تعالى ذِكْرُهُ نبأَهُم، وتذكيرُه إياهم ما أخذ علَيهم من العهودِ والمواثيق في أمر محمدٍ عليه السلام، بَعْد اقتصاصه تعالى ذكرُه ما اقتص من أمرِ المنافقين، واعتراضِه بين ذلك بما اعترضَ به من الخبر عن إبليس وآدم ـ في قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ الآيات [البقرة: ٤٠ وما بعدها]، واحتجاجُه لنبيِّه عليهم، بما احتجَّ به عليهم فيها بعد جُحُودهم نبوته. فإذْ كان الخبر أولاً عن مُؤمني أهل الكتاب، وآخراً عن مشركيهم، فأولى أن يكون وَسطاً: ـ عنهم. إذْ كان الكلامُ بعضُه لبعض تَبَعٌ، إلا أن تأتيهم دلالةٌ واضحةٌ بعُدول بعض ذلك عما ابتَدأ به من معانيه فيكونَ معروفاً حينئذ انصرافه عنه.

وأما معنى الكفر في قوله: «إن الذين كفروا» فإنه الجُحُود. وذلك أن الأحبار من يَهودِ المدينة جحدوا نبوَة محمد ﷺ، وستَروه عن الناس وكتمُوا أمره وهُمْ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم.

وأصْلُ الكفر عند العرب: تَغطيةُ الشيء، ولذلك سمَّوُا الليل «كافراً»، لتغطية ظُلمته ما لَبِسَتْهُ. فكذلك الأحبار من اليهود غطَّوا أمرَ محمد ﷺ وكَتَمُوه الناسَ مع علمهم بنبوته، ووُجُودِهم صِفَتَه في كُتُبهم ـ فقال الله جلّ ثناؤه فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الكِتَابِ أُولئِكَ يَلْعَنُهُم اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]، وهم الذين أنزل الله عزّ وجل فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾.

القول في تأويل قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾

وتأويل «سواءٌ»: معتدل. مأخوذ من التّساوي، كقولك: «مُتساوٍ هذان الأمران عندي»، و«هما عِندي سَواءٌ»، أي هما متعادلان عنديَ، ومنه قول الله جلّ ثناؤه: ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨]، يعني: أعْلِمْهُم وآذِنْهُم بالحربِ، حتى يَستوي عِلْمُكَ وعلمُهم بما عليه كلُّ فريقٍ منهم للفريقِ الآخر. فكذلك قوله «سَواءٌ عليهم»: معتدلٌ عندهم أيِ الأمرين كان منك إليهم، الإنذار أم ترك الإنذار لأنهم لا يؤمنون، وقد خَتمتُ على قلوبهم وسمعهم.

وأما قوله: ﴿أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾، فإنه ظهرَ به الكلامُ ظهورَ الاستفهام وهو خبرٌ، لأنه وَقعَ موقعَ «أي» كما تقول: «لا نُبالي أقمتَ أم قعدت»، وأنت مخبرٌ لا مستفهم، لوقوع ذلك موقع «أي» وذلك أن معناه إذا قلتَ ذلك: ما نبالي أي هذين كان منك. فكذلك ذلك في قوله: «سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ»، لما كان معنى الكلام: سواءٌ عليهم أيُّ هذين كان منك إليهم ـ حَسُنَ في موضعه مع سواءٌ: «أفعلتَ أم لم تفعل».

فتأويل الكلام إذاً: معتدلٌ يا محمد ـ على هؤلاء الذين جحدوا نبوَّتك من أحبارِ يهود المدينة بعد علمهم بها، وكتموا بيانَ أمركَ للناس بأنك رسولي إلى خَلْقِي، وقد أخذتُ عليهم العهدَ والميثاقَ أن لا يكتموا ذلك، وأن يُبَيِّنُوهُ للناس، ويُخبرُوهم أنهم يجدُون صِفَتَك في كتبهم ـ أأنذرتهم أم لم تنذرهم، فإنهم لا يؤمنون، ولا يرجعون إلى الحق، ولا يصدقونَ بك وبما جئتَهم به.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾

وأصلُ الختم: الطَّبْع. والخاتَم هو الطَّابع. يقال منه: ختمتُ الكتابَ، إذا طَبَعْته.

فإن قال لنا قائل: وكيف يختِمُ على القلوبِ، وإنما الختمُ طبعٌ على الأوعية والظروف والغلف[1]؟

قيل: فإن قلوبَ العباد أوعيةٌ لما أُودِعَتْ من العلوم، وظروفٌ لما جُعل فيها من المعارف بالأمور. فمعنى الختم عليها وعلى الأسماع - التي بها تُدرَكُ المسموعات، ومن قِبَلها يُوصَلُ إلى معرفةِ حقائق الإنباء عن المُغَيَّبات - نظيرُ معنى الختم على سائر الأوعية والظروف.

وهـذه الآية من أوْضحِ الدليل على فساد قول المنكرين تكليفَ ما لا يُطاقُ إلا بمعونة الله، لأنَّ الله جلّ ثناؤه أخبرَ أنه ختم على قلوب صِنْفٍ من كُفَّار عباده وأسماعهم، ثم لم يُسقط التكليفَ عنهم، ولم يَضَعْ عن أحدٍ منهم فرائضَهُ، ولم يعذِرْهُ في شيءٍ مما كان منه من خلاف طاعته بسبب ما فعل به من الختم والطبع على قلبه وسمعه - بَلْ أخبر أنَّ لجميعِهم منه عذاباً عظيماً على تركِهم طاعتَهُ فيما أمَرَهُم به ونهاهم عنه من حدودهِ وفرائضه، مع حَتْمه القضاءَ عليهم مع ذلك، بأنهم لا يؤمنون.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾

وقوله: ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوةٌ﴾ خبرٌ مبتدأ بعد تمام الخبر عمَّا ختم

---

(١) الغلف جمع غلاف: وهو الصوان الذي يشتمل على ما أوعيت فيه.

الله جلّ ثناؤه عليه من جوارح الكفار الذين مضت قِصَصهم. وذلك أن «غِشاوةٌ» مرفوعة بقوله «وعلى أبصارهم»، فذلك دليل على أنه خَبرٌ مبتدأ، وأن قوله «ختم الله على قلوبهم»، قد تناهى عند قوله «وعلى سَمْعهم».

وذلك هو القراءة الصحيحة عندنا لمعنيين:

أحدهما: اتفاقُ الحجة من القُرَّاء والعلماء على الشهادة بتصحيحها، وانفرادُ المخالِفِ لهم في ذلك، وشذوذه عمّا هم على تَخطئتِهِ مُجْمِعُونَ. وكفى بإجماع الحجة على تخطئة قراءته شاهداً على خطئها.

والثاني: أن الختمَ غيرُ موصوفةٍ به العيونُ في شيءٍ من كتاب الله، ولا في خبرٍ عن رسولِ الله ﷺ، ولا موجودٍ في لغة أحدٍ من العرب. وقد قال تبارك وتعالى في سورة أخرى: ﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾ ثم قال: ﴿وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣]، فلم يدخل البصرَ في معنى الخَتْم. وذلك هو المعروف في كلام العرب، فلم يَجُزْ لنا، ولا لأحدٍ من الناس، القراءةُ بنصب الغِشاوة، لما وصفتُ من العلتين اللتين ذكرتُ، وإن كان لنَصْبها مخرجٌ معروفٌ في العربية.

وإنما أخبر الله تعالى ذِكْرُهُ نبيه محمداً ﷺ عن الذين كفروا به من أحبار اليهود، أنه قد خَتَم على قلوبهم وطَبعَ عليها - فلا يعقلون لله تبارك وتعالى موعظةً وَعَظَهُمْ بها، فيما آتاهم من علم ما عندهم من كُتُبِهِ، وفيما حدَّدَ في كتابه الذي أوحاه وأنزله إلى نبيه محمد ﷺ - وعلى سمعهم، فلا يسمَعُون من محمد ﷺ نبيِّ الله تحذيراً ولا تذكيراً ولا حجةً أقامها عليهم بنبوَّته، فيتذكَّرُوا ويَحْذَرُوا عقابَ الله عزّ وجل في تكذيبهم إياه مع عِلْمِهم بصدقِهِ وصحةِ أمره. وأعلمه مع ذلك أنَّ على أبصارهم غشاوةً عن أن يُبصروا سبيلَ الهُدى، فيعلموا قُبْحَ ما هم عليه من الضلالة والرَّدَى.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾

وتأويل ذلك عندي، كما قاله ابن عباس وتأوله: ولهم بما هم عليه من خلافك عذابٌ عظيم. قال: فهذا في الأحبار من يهود، فيما كَذَّبُوكَ به من الحق الذي جاءك من ربك بعد معرفتهم.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾

أما قوله: «ومن الناس»، فإن في «الناس» وجهين:

أحدهما: أنْ يكونَ جمعاً لا واحدَ له من لَفْظِه، وإنما واحدهم «إنسانٌ»، وواحدتهم «إنسانة».

والوجه الآخر: أن يكون أصله «أُناس» أسقِطت الهمزة منها لكثرة الكلام بها، ثم دخلتها الألف واللام المُعَرِّفتان، فأدغِمت اللام ـ التي دخلت مع الألف فيها للتعريف ـ في النون، كما قيل في ﴿لكِنَّا هُوَ الله رَبِّي﴾ [الكهف: ٣٨]، على ما قد بَيَّنا في «اسم الله» الذي هو الله. وقد زعم بعضهم أن «الناس» لغة غير «أناس»، وأنه سمع العرب تصغرهُ «نُوَيْس» من الناس، وأن الأصل لو كان أناس لقيل في التصغير: أُنيس، فَرُدَّ إلى أصله.

وأجمعَ جميعُ أهلِ التأويل على أنَّ هذه الآية نزلت في قومٍ من أهلِ النِّفاق، وأن هذه الصِّفة صِفتُهم.

وتأويل ذلك: أن الله جلّ ثناؤه لما جمع لرسوله محمد ﷺ أمْرَهُ في دار هجرته واستقرَّ بها قرارُه، وأظهر الله بها كلمتَهُ، وفشا في دورِ أهلِها الإسلامُ، وقَهَرَ بها المسلمون مَنْ فيها من أهلِ الشرك من عَبَدَةِ الأوثان، وذَلَّ بها مَن فيها

من أهل الكتاب ـ أظهر أحبارُ يهودها لرسول الله ﷺ الضَّغائن، وأبدوا له العداوةَ والشنآنَ، حسداً وبغياً، إلا نفراً منهم هداهم الله للإسلام فأسلموا، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وطابَقَهم سراً على معاداة النبي ﷺ وأصحابه وبَغْيِهم الغوائل، قومٌ ـ من أراهط الأنصار الذين آوَوْا رسولَ الله ﷺ ونَصَروه ـ وكانوا قد عَسَوْا في شِرْكِهم وجاهليَّتهم قد سُمُّوا لنا بأسمائهم، كَرِهْنَا تطويلَ الكتابِ بذكرِ أسمائهم وأنسابهم، وظاهروهم على ذلك في خَفاءٍ غيرِ جِهارٍ، حذارَ القتلِ على أنفسهم، والسِّباءِ من رسول الله ﷺ وأصحابه، وركوناً إلى اليهود لما هم عليه من الشرك وسوء البصيرة بالإسلام. فكانوا إذا لَقُوا رسولَ الله ﷺ وأهلَ الإيمان به من أصحابه قالوا لهم ـ حِذاراً على أنفسهم ـ: إنا مؤمنون بالله وبرسوله وبالبَعْث، وأعطَوْهم بألسنتهم كلمة الحقِّ، ليدرأوا عن أنفسهم حكم الله فيمن اعتقد ما هم عليه مقيمون من الشرك، لو أظهروا بألسنتهم ما هم مُعْتَقِدُوهُ من شركهم. وإذا لَقُوا إخوانَهم من اليهود وأهل الشرك والتكذيب بمحمد ﷺ وبما جاء به، فَخَلَوْا بهم ﴿قَالُوا: إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءونَ﴾. فإياهم عَنى جَلَّ ذِكْرُهُ بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يعني بقوله تعالى خبراً عنهم: آمنا بالله: ـ وصدقنا بالله.

وقد دللنا على أنَّ معنى الإيمان: التصديق، فيما مضى قَبْلُ من كتابنا هذا.

وقوله: ﴿وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾، يعني: بالبعثِ يوم القيامة، وإنما سُمي يومُ القيامة «اليومَ الآخر»، لأنه آخر يوم، لا يومَ بعده سواه.

فإنْ قال قائل: وكيف لا يكون بعده يوم، ولا انقطاعَ للآخرة ولا فناء ولا زوال؟

قيل: إن اليومَ عند العرب إنما سُمي يوماً بليلته التي قبله، فإذا لم يتقدم النهارَ ليلٌ لم يُسَمَّ يوماً. فيومُ القيامة يومٌ لا ليلَ بعده، سوى الليلة التي قامت في صبيحتها القيامة، فذلك اليوم هو آخر الأيام. لذلك سماه الله جلّ ثناؤه «اليوم الآخر»، ونعتَهُ بالعَقيم. ووصفه بأنه يوم عَقيم، لأنه لا ليلَ بعده.

وأما تأويل قوله: «وما هم بمؤمنين»، ونفيُه عنهم جَلَّ ذِكْرُهُ اسمَ الإيمان، وقد أخبر عنهم أنهم قد قالوا بألسنتهم: آمَنَّا بالله وباليوم الآخر ـ فإنَّ ذلك من الله جَل وعَزَّ تكذيبٌ لهم فيما أخبَرُوا عن اعتقادهم من الإيمانِ والإقرار بالبعث، وإعلامٌ منه نبيَّهُ ﷺ أنَّ الذي يُبْدُونَهُ له بأفواهِهِم خلافُ ما في ضمائر قلوبهم، وضِدُّ ما في عزائم نفوسهم.

وفي هذه الآية دلالـةٌ واضحة على بُطُولِ ما زَعَمتْهُ الجهميةُ: من أن الإيمان هو التصديق بالقول، دون سائر المعاني غيره. وقد أخبر الله جلّ ثناؤه عن الذين ذكرهم في كتابه من أهل النفاق، أنهم قالوا بألسنتهم: «آمنا بالله وباليوم الآخر»، ثم نَفَى عنهم أن يكونوا مؤمنين، إذْ كان اعتقادهم غير مصدِّقٍ قِيلَهُم ذلك.

وقوله «وما هم بمؤمنين» يعني بمصدِّقين، فيما يزعمون أنهم به مُصَدِّقون.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾

"وخـداعُ المنـافقِ ربَّـه والمؤمنينَ، إظهارُه بلسانه من القول والتصديق، خلافَ الذي في قلبه من الشك والتكذيب" ليدْرَأ عن نفسه، بما أظهر بلسانه، حكمَ الله عزّ وجل ـ اللازمَ مَنْ كان بمثلِ حاله من التكذيب، لو لم يُظْهِرْ بلسانهِ ما أظهرَ من التصديق والإقرار ـ من القَتْل والسِّباء. فذلك خِداعُه ربَّهُ وأهلَ الإيمان بالله.

فإن قال قائل: وكيف يكون المنافقُ لله وللمؤمنين مُخادِعاً، وهو لا يُظْهِرُ بلسانه خلافَ ما هو له معتقدٌ إلا تَقِيَّةً؟

قيل: لا تمتنعُ العربُ من أنْ تُسمي مَنْ أعطى بلسانه غيرَ الذي هو في ضميره تَقِيَّةً لينجو مما هو له خائف، فنجا بذلك مما خافه ـ مُخادِعاً لمن تخلَّصَ منه بالذي أظهر له من التَّقية. فكذلك المنافق، سُمي مخادعاً لله وللمؤمنين، بإظهاره ما أظهر بلسانه تقيَّةً، مما تخلَّص به من القتل والسِّبَاءِ والعذابِ العاجل، وهو لغير ما أظهر مُسْتبطِنٌ. وذلك من فعلِه ـ وإن كان خِدَاعاً للمؤمنين في عاجل الدنيا ـ فهو لنفسه بذلك من فعله خادعٌ، لأنه يُظهر لها بفعله ذلك بها، أنهُ يُعطيها أمنيَّتها، ويُسقيها كأس سرُورها، وهو مُورِدُها به حِياض عَطَبها، ومجَرِّعُها به كأسَ عَذابها، ومُزِيرُها[1] من غَضب الله وأليم عقابه ما لا قِبَلَ لها به. فذلك خديعَتُه نَفْسَهُ، ظَنّاً منه ـ مع إساءته إليها في أمر معادها ـ أنه إليها مُحْسِنٌ، كما قال جلّ ثناؤه: «وما يخدَعُون إلا أنفسهم ومَا يشعُرُون»، إعلاماً منه عبادَه المؤمنين أنَّ المنافقين بإساءتهم إلى أنفُسهم في إسخاطِهم ربَّهم بكُفْرِهم وشكِّهم وتكذيبهم ـ غيرُ شاعرين ولا دارين ولكنهم على عَمْيَاء من أمرِهم مُقيمون.

وهذه الآية من أوضح الدليل على تكذيب الله جلّ ثناؤه الزاعمينَ: أنَّ الله لا يُعذِّبُ من عباده إلا من كَفَر به عِناداً، بعد علمه بوحدانيته، وبعد تقرُّرِ صحةِ ما عاندَ ربه تبارك وتعالى عليهِ من تَوْحيدِهِ، والإقرار بكتبه ورُسله ـ عنده. لأن الله جلّ ثناؤه قد أخبر عن الذين وصفهم بما وصفهم به من النفاق، وخِداعهم إياه والمؤمنين ـ أنهم لا يشعرون أنهم مُبْطِلُونَ فيما هُمْ عليه من

---

(١) أزاره: حَمَلَهُ على الزيارة، وفي حديث طلحة: «. . . حتى أزرته شعوب»، وشعوب هي المنية، أي أوردته المنية فزارها، وجعلها زيارة، وهي هلاك. سخرية بهم واستهزاء.

الباطل مُقِيمون، وأنَّهم بخداعهم ـ الذي يحسبون أنهم به يُخادعون رَبَّهم وأهلَ الإيمان به ـ مخدوعون. ثم أخبر تعالى ذكره أنَّ لهم عذاباً أليماً بتكذيبهم بما كانوا يُكَذِّبون من نبوة نبيِّهِ، واعتقاد الكفر به، وبما كانوا يَكذِبون في زعمهم أنهم مؤمنون، وهم على الكفر مُصِرُّون.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾

إنْ قال قائـل: أَوَ ليسَ المنـافقـون قد خَدَعُـوا المؤمنين ـ بما أظهرُوا بألسنتهم من قِيلِ الحَقِّ ـ عن أنفسهم وأمـوالِهم وذَراريهم حتى سَلِمَتْ لهم دنياهم، وإن كانوا مخدوعين في أمر آخرتهم؟

قيل: خطأٌ أن يقال إنهم خَدعُوا المؤمنين. لأنَّا إذا قلنا ذلك، أوجبنا لهم حقيقةَ خدعةٍ جازتْ لهم على المؤمنين. كما أنّا لو قلنا: قتل فلان فلاناً، أوجبنا له حقيقة قتلٍ كان منه لفلان. ولكنا نقول: خادَع المنافقون رَبَّهم والمؤمنين، ولم يَخْدَعوهم بَل خَدعوا أنفسهم، كما قال جلّ ثناؤه، دون غيرها، نظيرَ ما تقول في رجل قاتل آخر فقتَلَ نَفْسَهُ ولم يقتُلْ صاحبه: قاتَل فلان فلاناً فلم يقتل إلا نَفْسَهُ، فتوجبُ له مقاتَلَةَ صاحبه، وتنفي عنه قتلَهُ صاحِبَهُ، وتُوجِبُ له قتلَ نفسـهِ. فكذلك تقول: «خادَعَ المنافقُ ربَّه والمؤمنين فلم يَخْدَعْ إلا نفسه»، فتثبت منه مخادعةَ ربه والمؤمنين، وتنفي عنه أنْ يكونَ خدع غيرَ نفسه، لأن الخـادعَ هو الـذي قد صَحَّتْ الخديعةُ له، ووَقع منه فِعْلُها. فالمنافقون لم يخدَعُوا غيرَ أنفسِهم، لأنَّ ما كان لهم من مالٍ وأهلٍ، فلم يكن المسلمون مَلَكُـوه عليهم ـ في حال خِداعهم إياهم عنـه بنفاقهم وَلا قَبْلها ـ فيستنقِذُوه بخداعهم منهم، وإنما دافعوا عنه بكذبهم وإظهارهم بألسنتهم غيرَ الذي في ضمائرهم، ويحكُم الله لهم في أموالهم وأنفسهم وذراريهم في ظاهر أمورِهم

بحُكْم ما انتسبوا إليه من الملّةِ، والله بما يُخْفون من أمورِهم عالم. وإنما الخادع مَنْ خَتَلَ غيرَهُ عن شيئِه، والمخدوعُ غير عالم بموضع خديعةِ خادِعه. فأما والمُخَادَعُ عارفٌ بخداعِ صاحبه إياه ـ غير لاحقِه من خداعه إيَّاهُ مكروهٌ، بل إنما يتجافى للظَّانِّ به أنه له مُخادِعٌ، استدراجاً، ليبلغ غايةً يتكامل له عليه الحُجَّةُ للعقوبةِ التي هو به مُوقع عند بلوغهِ إياها، والمُسْتَدْرَج غيرُ عالمٍ بحالِ نفسه عند مُسْتَدْرِجِه، ولا عارف باطِّلاعه على ضميره، وأنَّ إمهالَ مستدرِجه إياه، تركه معاقبته على جرمه، ليبلغ المخاتِلُ المخادعُ ـ من استحقاقه عقوبةَ مُسْتَدْرِجِه، بكثرة إساءته، وطولِ عِصيانه إياه، وكثرة صفحِ المستدرِجِ، وطولِ عفوهِ عنه ـ أقصى غايةٍ ـ فإنما هو خادعٌ نَفْسَهُ لاشك، دون مَنْ حَدَّثَتْهُ نفسُه أنه له مخادع. ولذلك نفىٰ الله جلّ ثناؤه عن المنافق أن يكون خَدَعَ غيرَ نفسِه، إذ كانت الصِّفةُ التي وَصَفنا صفتَه.

وإذا كان الأمر على ما وصفنا من خِدَاع المنافق ربَّه وأهلَ الإيمان به، وأنه غير صائرٍ بخداعهِ ذلك إلى خديعةٍ صحيحةٍ إلا لنفسِه دون غيرها، لما يُوَرِّطُها بفعله من الهلاك والعطب ـ فالواجبُ إذاً أن يكون الصحيح من القراءة: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ دون ﴿وَمَا يخادِعُونَ﴾ لأنَّ لفظ «المخادع» غير مُوجبٍ تثبيتَ خديعةٍ على صحَّة، ولفظ «خادع» موجبٌ تثبيتَ خديعةٍ على صحَّة. ولاشك أن المنافق قد أَوْجبَ خديعة الله عزّ وجل لِنَفْسه بما رَكِبَ من خداعه ربَّه ورسولَه والمؤمنين ـ بنفاقه، فلذلك وجبت الصِّحةُ لقراءة من قرأ: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾.

ومن الدلالة أيضاً على أنَّ قراءةَ مَنْ قرأ: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ﴾ أولى بالصحةِ من قراءة مَنْ قرأ: ﴿وَمَا يخادِعُونَ﴾، أن الله جلّ ثناؤه قد أخبر عنهم أنهم يُخادعون الله والمؤمنين في أول الآية، فمحال أن يَنفيَ عنهم ما قد أثبت أنهم قد فعلوه، لأن ذلك تضادٌّ في المعنى، وذلك غير جائز من الله جلّ وعز.

القول في تأويل قول الله جلّ ثناؤه: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾

يعني بقوله جلّ ثناؤه «وما يشعرون»، وما يَدْرُون. يقال: ما شَعَرَ فلانٌ بهذا الأمر، وهو لا يشعر به - إذا لم يَدْرِ ولم يَعْلم - شِعراً وشعوراً.

فأخبر الله تعالى ذكره عن المنافقين: أنهم لا يشعرون بأن الله خادِعُهم، بإملائِه لهم واستدراجِه إياهم، الذي هو من الله جلّ ثناؤه إبلاغٌ إليهم في الحجة والمعذرة، ومنهم لأنفسهم خديعةٌ، ولها في الآجل مَضرة.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾

وأصل المرَض: السَّقم، ثم يقال ذلك في الأجساد والأديان. فأخبر الله جلّ ثناؤه أن في قلوب المنافقين مَرَضاً، وإنما عنىٰ تبارك وتعالى بخبره عن مرض قلوبهم، الخبر عن مرض ما في قلوبهم من الاعتقاد، ولكن لما كان معلوماً بالخبر عن مرض القلب، أنَّه معنيٌّ به مرضُ ما هم معتقدُوه من الاعتقاد، استغنى بالخبر عن القلب بذلك والكفاية عن تصريح الخبر عن ضمائرهم واعتقاداتهم.

ومعنى قول الله جلّ ثناؤه: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ إنما يعني: في اعتقادِ قلوبهم الذي يعتقدونه في الدين، والتصديقِ بمحمدٍ ﷺ، وبما جاء به من عند الله - مَرَض وسُقْم. فاجتزأ بدلالة الخبر عن قلوبهم على معناه، عن تصريح الخبر عن اعتقادهم.

والمرضُ الذي ذكر الله جلّ ثناؤه أنه في اعتقاد قلوبهم الذي وصفنا: هو شكُّهم في أمرِ محمدٍ وما جاء به من عند الله، وتحيُّرُهم فيه، فلا هُمْ به موقنون إيقانَ إيمانٍ، ولا هم له منكرون إنكارَ إشراك، ولكنهم، كما وصفهم الله عزّ

وجل، مُذَبْذَبُونَ بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، كما يقال: فلان يُمَرِّضُ في هذا الأمر، أي يُضَعِّف العزمَ ولا يصحِّحُ الروِيَّةَ فيه.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾

قد دللنا آنفاً على أن تأويل المرض الذي وَصَف الله جلّ ثناؤه أنه في قلوب المنافقين، هو الشكُّ في اعتقادات قلوبهم وأديانهم، وما هم عليه - في أمرِ محمدٍ رسولِ الله ﷺ، وأمر نبوته وما جاء به - مقيمون.

فالمرض الذي أخبر الله جلّ ثناؤه عنهم أنَّه زادهم على مرضهم، نظيرُ ما كان في قلوبهم من الشَّكِّ والحيرة قبل الزيادة، فزادهم الله بما أحدث من حدوده وفرائضه - التي لم يكن فرضهَا قبل الزيادة التي زادها المنافقين - من الشك والحيرة، إذْ شَكُّوا وارتابوا في الذي أحدث لهم من ذلك - إلى المرض والشك الذي كان في قلوبهم في السَّالف، من حدوده وفرائضه التي كان فَرَضَها قبل ذلك. كما زاد المؤمنين به إلى إيمانهم الذي كانوا عليه قبل ذلك، بالذي أحدث لهم من الفرائض والحدود إذْ آمنوا به، إلى إيمانهم بالسالف من حُدُوده وفرائضه - إيماناً. كالذي قال جلّ ثناؤه في تنزيله: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذه إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إيماناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ* وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]. فالزيادة التي زيدهَا المنافقون من الرَّجاسة إلى رجاستهم هو ما وصفنا. والتي زِيْدَهَا المؤمنون إلى إيمانهم، هو ما بَيَّنا. ذلك هو التأويل المُجْمَعُ عليه.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

والأليم: هو المُوجِعُ. معناه: ولهم عذاب مؤلم. بصرفِ «مؤلم» إلى «أليم»، كما يقال: ضَرْبٌ وَجِيع بمعنى مُوجع، والله بَديع السموات والأرض، بمعنى مُبْدِع.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۝١٠﴾

اختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك، فقرأه بعضهم: ﴿بِمَا كانُوا يَكْذِبُونَ﴾ مُخَفَّفة الذَّال مفتوحة الياء، وهي قراءة عُظْم قَرَأَةِ أهلِ الكوفة وقرأه آخرون: ﴿يُكَذِّبُونَ﴾ بضم الياء وتشديد الذال، وهي قراءة عُظْم قَرَأَةِ أهل المدينة والحجاز والبصرة.

وكأن الذين قرأوا ذلك، بتشديد الذال وضم الياء، رأوا أن الله جلّ ثناؤه إنما أوجب للمنافقين العذابَ الأليم بتكذيبهم نبيَّه ﷺ وبما جاء به، وأن الكذِبَ لولا التكذيبُ لا يُوجب لأحدٍ اليَسير من العذاب، فكيف بالأليم منه؟

وليس الأمرُ في ذلك عندي كالذي قالوا. وذلك: أن الله عزّ وجل أنبأ عن المنافقين في أول النبأ عنهم في هذه السورة، بأنهم يَكذبون بدَعْواهمُ الإيمانَ، وإظهارهم ذلك بألسنتهم، خداعاً لله عزّ وجل ولرسوله وللمؤمنين، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بذلك من قِيْلِهم، مع اسْتِسْرَارِهم الشكَّ والريبة، ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ﴾ بصنيعهم ذلك ﴿إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ﴾ دونَ رسولِ الله ﷺ والمؤمنين؛ ﴿وَمَا يَشْعُرونَ﴾ بموضعِ خديعتهم أنفسَهُم، واستدراج الله عزّ وجل إياهم بإملائه لهم، ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾ شَكُّ النفاقِ وريبَتُهُ والله زَائِدُهم شكاً وريبة بما كانوا يَكذِبون الله ورسولَهُ والمؤمنينَ بقولهم بألسنتهم آمنّا بالله وباليوم الآخر، وهم في قِيلِهم ذلك كَذَبَةٌ، لاستسرارهم الشَّكَّ والمرض في اعتقادات قلوبهم

في أمْرِ الله وأمرِ رسوله ﷺ. فأولى في حكْمة الله جلّ جلاله، أنْ يكون الوعيدُ منه لهم على ما افتتح به الخبرَ عنهم من قبيح أفعالهم وذميم أخلاقهم، دون ما لم يَجْرِ له ذِكْرٌ من أفعالهم. إذ كان سائر آيات تنزيله بذلك نَزَل، وهو: أنْ يفتتحَ ذِكْرَ محاسن أفعالِ قومٍ، ثم يختم ذلك بالوعد على ما افتتح به ذِكره من أفعالهم، ويفتتح ذكر مساوىء أفعال آخرين، ثم يختم ذلك بالوعيد على ما ابتدأ به ذكره من أفعالهم.

فكـذلك الصحيح من القول ـ في الآيات التي افتتح فيها ذِكْرَ بعض مساوىء أفعالِ المنافقين ـ أنْ يختمَ ذلك بالوعيدِ على ما افتتح به ذكره من قبائحِ أفعالهم فهذا هذا، مع دلالة الآية الأخرى على صحة ما قلنا، وشهادتها بأنَّ الواجبَ من القراءة ما اخترنا، وأنَّ الصوابَ من التأويل ما تأوَّلْنا، من أنَّ وعيدَ الله المنافقين في هذه الآية العذابَ الأليمَ على الكذب الجامع معنى الشك والتكذيب، وذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ* اتَّخَـذُوا أَيْمَـانَهُمْ جُنَّـةً فَصَـدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّهمْ سَاء مَا كَانُـوا يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١، ٢].

والآية الأخرىٰ في المجادلة: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [المجـادلة: ١٦]. فأخبر جلّ ثناؤه أن المنافقين ـ بقِيلِهم ما قالُوا لرسولِ الله ﷺ، مع اعتقادِهم فيه ما هم مُعْتَقِدُونَ ـ كاذبون. ثم أخبر تعالى ذكره أنَّ العذابَ المُهِينَ لهم، على ذلك من كذبهم. ولو كان الصحيح من القراءة على ما قرأه القارئون في سورة البقرة: «ولهم عذاب أليم بما كانوا يُكَذِّبون» لكانت القراءةُ في السورة الأخرى: «والله يشهدُ إن المنافقين لمكذِّبون»، ليكون الوعيدُ لهم الذي هو عَقِيب ذلك وعيداً على التكذيب لا على الكذب. وفي إجماع المسلمين على أنَّ الصوابَ من القراءة في قوله: «والله

يشهد إن المنافقين لكاذبون» بمعنى الكذب - وأنَّ إيعادَ الله تبارك وتعالى فيه المنافقينَ العذابَ الأليمَ على ذلك من كذبهم - أوضحُ في الدلالةِ على أنَّ الصحيحَ من القراءة في سورة البقرة: «بما كانوا يَكْذِبون» بمعنى الكَذِب، وأنَّ الوعيدَ من الله تعالى ذِكْرُه للمنافقين فيها على الكذب - حقٌّ - لا على التكذيب الذي لم يَجْرِ له ذِكْرٌ - نظيرَ الذي في سورة المنافقين سواءً.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾

نزلت في المنافقين الذين كانوا على عَهد رسول الله ﷺ، وإن كان معنيّاً بها كُلُّ مَنْ كان بمثل صفتهم من المنافقين بعدَهم إلى يوم القيامة؛ لإجماع الحجة من أهلِ التأويلِ على أنَّ ذلك صفةُ مَنْ كان بين ظَهرَانَيْ أصحابِ رسول الله ﷺ - على عهد رسول الله ﷺ - من المنافقين، وأن هذه الآيات فيهم نَزَلَتْ. والتأويلُ المُجْمَعُ عليه أولى بتأويل القرآن، من قولٍ لا دلالةَ على صحته من أصل ولا نظير.

والإفساد في الأرض، العمل فيها بما نهى اللهُ جَلَّ ثناؤه عنه، وتضييعُ ما أمر اللهُ بحِفْظِه، فذلك جملة الإفساد، كما قال جلّ ثناؤه في كتابه مخبراً عن قِيْلِ ملائكتهِ: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠]، يعنون بذلك: أتجعلُ في الأرضِ مَنْ يَعْصِيكَ ويُخالف أمرك؟ فكذلك صفة أهل النفاق: مُفسدون في الأرض بمعصِيَتهم فيها ربَّهم، وركوبهم فيها ما نَهاهم عن ركوبه، وتضييعِهم فرائضَه، وشكِّهم في دينِ الله الذي لا يقبَلُ من أحدٍ عملاً إلا بالتَّصديقِ به والإيقانِ بحقيقته، وكذِبهم المؤمنين بدَعواهم غيرَ ما هُمْ عليه مقيمُون من الشك والرَّيب، وبمظاهرتهم أهلَ التكذيبِ بالله وكُتُبه ورسله على أولياء الله، إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً. فذلك إفسادُ المنافقين

في أرض الله، وهم يحسبون أنهم بفعلهم ذلك مُصْلِحُونَ فيها. فلم يسقط الله جلّ ثناؤه عنهم عقوبتَهُ، ولا خفَّفَ عنهم أليمَ ما أعدَّ من عقابهِ لأهلِ معصيتهِ ـ بحُسبانهم أنهم فيما أَتَوْا من معاصي الله مصلحون ـ بل أوجبَ لهم الدَّرْكَ الأسفلَ من نارهِ، والأليمَ من عذابهِ، والعارَ العاجلَ بسَبِّ الله إياهم وشَتْمِهِ لهم، فقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. وذلك من حكم الله جلّ ثناؤه فيهم، أدلُّ الدليلِ على تكذيبه تعالى قولَ القائلين: إن عقوباتِ الله لا يستحقها إلا المعاندُ ربَّه فيما لزمه من حُقُوقهِ وفروضه، بعد علمه وثُبوتِ الحجةِ عليه بمعرفته بلزوم ذلك إياه.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ١١﴾

لاشك أنهم كانوا يحسبون أنهم فيما أَتَوْا من ذلك مصلحون. فسواءٌ بين اليهـود والمسلمين كانت دعواهم الإصلاحَ، أو في أديانهم، وفيما ركبوا من معصية الله، وكَذِبهم المؤمنينَ فيما أظهروا لهم من القولِ وهُمْ لغيرِ ما أظهرُوا مُستبْطِنون؛ لأنهم كانوا في جميع ذلك من أمرهم عند أنفسهم محسنين، وهم عند الله مُسيئون، ولأمرِ الله مخالفون. لأن الله جلّ ثناؤه قد كان فرض عليهم عداوةَ اليهودِ وحربَهم مع المسلمين، وألزمهم التصديقَ برسول الله ﷺ وبما جاء به من عند الله، كالذي ألزمَ من ذلك المؤمنين. فكان لقاؤهُم اليهودَ ـ على وجه الولاية منهم لهم، وشكُّهم في نبوَّةِ رسولِ الله ﷺ وفيما جاء به أنه من عند الله ـ أعظمَ الفساد، وإن كان ذلك كان عندهم إصلاحاً وهُدىً: في أديانهم أو فيما بين المؤمنين واليهود، فقال جلّ ثناؤه فيهم: ﴿ألا إنهم هم المفسدون﴾ دون الذين ينهونهم من المؤمنين عن الإفساد في الأرض، ﴿ولكن لا يشعرون﴾.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾

وهذا القولُ من الله جلّ ثناؤه تكذيبٌ للمنافقين في دعواهم. إذا أُمِروا بطاعةِ الله فيما أمرَهم اللهُ به، ونُهُوا عن معصيةِ الله فيما نَهاهم اللهُ عنه، قالوا: إنما نحن مصلحون لا مفسدون، ونحن على رُشْدٍ وهُدىً - فيما أنكرتُموه علينا - دونكم لا ضالُّون. فَكَذَّبهمُ الله عزّ وجل في ذلك من قِبَلِهم فقال: ألا إنهم هم المفسدون المخالفون أمرَ الله عزّ وجل، المتعدُّونَ حُدُودَهُ، الراكبونَ معصيتَهُ، التاركُون فروضَه، وهم لا يشعُرون ولا يَدْرُون أنهم كذلك - لا الذين يأمرونهم بالقسط من المؤمنين، وينهَوْنَهُم عن معاصي الله في أرضه من المسلمين.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾

وتأويل قوله: ﴿وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس﴾ يعني: وإذا قيل لهؤلاء الذين وَصفَهم اللهُ ونعتهم بأنهم يقولون: ﴿آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾: صَدِّقوا بمحمدٍ وبما جاء به من عند الله، كما صدق به الناس. ويعني بـ«الناس» المؤمنينَ الذين آمنوا بمحمدٍ ونبوته وما جاء به من عند الله.

وإنما أُدخِلت الألفُ واللام في «الناس»، وهم بعضُ الناس لا جميعُهم، لأنهم كانوا معروفين عند الذين خُوطِبُوا بهذه الآية بأعيانهم، وإنما معناه: آمِنُوا كما آمنَ الناس الذين تعرفونهم من أهلِ اليقينِ والتصديقِ بالله وبمحمدٍ ﷺ وما جاء به من عند الله وباليوم الآخر. فلذلك أُدخِلت الألفُ واللام فيه، كما أُدخِلَتا في قوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾

[آل عمران: ١٧٣]، لأنه أُشيرَ بدخولها إلى ناسٍ معروفين عند مَنْ خُوطِبَ بذلك.

القول في تأويل قول الله جلّ ثناؤه: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ﴾

والسفهاء جَمْعُ سَفِيه، كما العلماءُ جمع عليم، والحكماء جمعُ حكيم. والسفيه: الجاهل، الضعيفُ الرأي، القليلُ المعرفة بمواضع المنافع والمضار. ولذلك سَمَّى الله عزّ وجل النِّساء والصبيانَ سفهاء، فقال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً﴾ [النساء: ٥]، فقال عامة أهل التأويل: هم النساء والصبيان، لضعف آرائهم، وقلة معرفتهم بمواضع المصالح والمضار التي تصرف إليها الأموال.

وإنما عَنَى المنافقون بِقِيْلِهم: أنؤمنُ كما آمَن السُّفهاء ـ إذْ دُعُوا إلى التصديقِ بمحمدٍ ﷺ، وبما جاء به من عند الله، والإقرار بالبعث فقيل لهم: آمنوا كما آمن الناس ـ أصحابَ[1] محمدٍ وأتباعَهُ من المؤمنين المصدِّقين به، من أهل الإيمان واليقين، والتصديقِ بالله، وبما افترض عليهم على لسان رسوله محمد ﷺ وفي كتابه، وباليوم الآخر. فقالوا إجابةً لقائلِ ذلك لهم: أنؤمنُ كما آمَن أهلُ الجهل، ونصدِّقُ بمحمد ﷺ كما صدق به هؤلاء الذين لا عقولَ لهم ولا أفهام؟

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ١٣﴾

---

(١) «أصحاب محمد» مفعول قوله: «وإنما عنى المنافقون بقيلهم...».

وهذا خبرٌ من الله تعالى عن المنافقين الذين تقدم نعتُه لهم، ووصفُه إياهم بما وصفهم به من الشك والتكذيب - أنَّهم هم الجُهَّال في أديانهم، الضعفاءُ الآراءِ في اعتقاداتهم واختياراتهم التي اختاروها لأنفسهم، من الشك والريب في أمرِ الله وأمر رسوله وأمر نبوته، وفيما جاء به من عند الله، وأمر البعث، لإساءَتهم إلى أنفسهم بما أتَوْا من ذلك وهم يحسبون أنَّهم إليها يُحْسِنون. وذلك هو عَيْنُ السَّفَه، لأن السفيه إنما يُفسد من حيث يرى أنه يُصلحُ، ويُضيع من حيث يَرى أنه يحفظ، فكذلك المنافق: يَعصي رَبَّه من حيثُ يرى أنه يطيعُه، ويكفرُ به من حيث يرى أنه يُؤمن به، ويسيء إلى نفسه من حيث يحسب أنه يُحسن إليها، كما وصفهم به ربنا جلّ ذكره، فقال: ﴿ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾، وقال: ﴿ألا إنهم هم السفهاء﴾ - دون المؤمنين المصدقين بالله وبكتابه، وبرسوله وثوابه وعقابه - ﴿ولكن لا يعلمون﴾. وكذلك كان ابن عباس يتأول هذه الآية.

وأما وَجْهُ دخول الألف واللام في «السُّفهاء»، فشبيهٌ بوجه دخولهما في «الناس» في قوله: ﴿وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس﴾، وقد بيَّنا العلة في دخولهما هنالك، والعلةُ في دخولهما في «السفهاء» نظيرتها في دخولهما في «الناس» هنالك، سواء.

والدلالةُ التي تدل عليه هذه الآية من خطأ قولِ مَنْ زعم أن العقوبةَ من الله لا يستحقها إلا المعاند ربَّه، بعد عِلْمِه بصحةِ ما عانده فيه - نظيرُ دلالة الآيات الأخَر التي قد تقدم ذكرنا تأويلَها في قوله «ولكن لا يشعرون»، ونظائر ذلك.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ﴾

وهذه الآية نظيرةُ الآيةِ الأخرى التي أخبر الله جلّ ثناؤه فيها عن المنافقين بخداعهم الله ورسولَه والمؤمنين، فقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾، ثم أكْذَبهم تعالى ذكره بقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾، وأنهم بقِيلهم ذلك يُخادعون الله والذين آمنوا. وكذلك أخبر عنهم في هذه الآية أنهم يقولون ـ للمؤمنين المصدِّقين بالله وكتابه ورسوله ـ بألسنتهم: آمنا وصدَّقنا بمحمدٍ وبما جاء به من عند الله، خِداعاً عن دمائهم وأموالهم وذَراريهم، ودرءاً لهم عنها، وأنهم إذا خَلَوْا إلى مَرَدَتِهم وأهلِ العُتُوِّ والشر والخُبث منهم ومن سائر أهل الشرك، الذين هم على مثل الذي هم عليه من الكُفر بالله وبكتابه ورسوله ـ وهم شياطينهم، وقد دللنا فيما مضى من كتابنا على أن شياطينَ كل شيء مَرَدَتُه ـ قالوا لهم: «إنا معكم»، أي إنَّا معكم على دينكم، وظُهراؤكم على مَنْ خالَفَكُم فيه، وأولياؤكم دون أصحابِ محمدٍ ﷺ، «إنما نحن مستهزِئون» بالله وبكتابه ورسوله وأصحابه.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ١٤﴾

أجمع أهل التأويل جميعاً ـ لا خلاف بينهم ـ على أن معنى قوله: ﴿إنما نحن مستهزئون﴾: إنما نحن ساخرون. فمعنى الكلام إذاً: وإذا انصرف المنافقون خالين إلى مَرَدتهم من المنافقين والمشركين قالوا: إنا معكم على ما أنتم عليه من التكذيبِ بمحمدٍ ﷺ وبما جاء به، ومُعَاداتِه ومعاداةِ أتباعه، إنما نحن ساخرون بأصحابِ محمدٍ ﷺ، بقيلنا لهم إذا لقيناهم: آمَنَّا بالله وباليوم الآخر.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾

إن معنى الاستهزاء في كلام العرب: إظهارُ المستهزِيء للمستهزَأ به من القول والفعل ما يُرضيه ظاهراً، وهو بذلك من قِيله وفِعْله به مُورِثه مَساءة باطناً. وكذلك معنى الخداع والسخرية والمكر.

فإذا كان ذلك كذلك ـ وكان اللهُ جَلَّ ثناؤُه قد جعل لأهلِ النفاق في الدنيا من الأحكام ـ بما أظهروا بألسنتهم، من الإقرار بالله وبرسوله وبما جاء به من عند الله، المُدْخِلِهم في عِدَادِ مَنْ يشمله اسمُ الإسلام، وإن كانوا لغير ذلك مستبطنين ـ أحكامَ المسلمين المصدِّقين إقرارَهم بألسنتهم بذلك، بضمائر قلوبِهم، وصحائحِ عزائمهم، وحميدِ أفعالهم المحققة لهم صحَّةَ إيمانهم ـ معَ علم الله عزّ وجل بكذبهم، واطلاعِه على خُبْثِ اعتقادهم، وشكِّهم فيما ادَّعوا بألسنتهم أنهم به مصدِّقون، حتى ظنُّوا في الآخرة إذْ حُشِرُوا في عِدادِ مَنْ كانوا في عِدادهم في الدنيا، أنَّهم وارِدُون مَوْرِدَهم. وداخلون مدخلهم. والله جلّ جلاله ـ مع إظهاره ما قد أظهر لهم من الأحكامِ المُلْحِقَتِهم في عاجلِ الدنيا وآجلِ الآخرة إلى حال تمييزه بينهم وبين أوليائه، وتفريقِه بينهم وبينهم ـ معدٌّ لهم من أليمِ عقابه ونَكال عذابِه، ما أعَدَّ منه لأعدى أعدائهِ وشَرِّ عباده، حتى مَيَّزَ بينهم وبين أوليائـه، فألحقهم من طبقات جحيمه بالدَّرك الأسفل ـ كان معلوماً أنه جلّ ثناؤه بذلك من فعلِه بهم ـ وإن كان جزاءً لهم على افعالهم، وعدلاً ما فعل من ذلك بهم لاستحقاقهم إياه منه بعصيانهم له ـ كان بهم ـ بما أظهرَ لهم من الأمور التي أظهرها لهم: من إلحاقه أحكامَهُم في الدنيا بأحكامِ أوليائـه وهم له أعـداء، وحشـرِه إياهم في الآخـرة مع المؤمنين وهم به من المكذبين ـ إلى أن ميَّز بينهم وبينهم ـ مستهزئاً، وبهم ساخراً، ولهم خادعاً، وبهم ماكراً. إذ كان معنى الاستهزاء والسخرية والمكر والخديعة ما وصفنا قَبْلُ، دون أن يكون ذلك معناه في حالٍ فيها المستهزىء بصاحبه له ظالم، أو عليه فيها غير عادل، بل ذلك معناه في كل أحواله، إذا وُجدت الصفاتُ التي قَدَّمْنَا

ذكرها في معنى الاستهزاء وما أشبهه من نظائره.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: ﴿ويمدهم﴾، وأولى هذه الأقوال بالصواب: أن يكون بمعنى يزيدهم، على وجه الإملاء والترك لهم في عُتُوِّهم وتمردهم، كما وصف ربُّنا أنه فعل بنظرائهم في قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، يعني نَذَرُهم ونتركهم فيه، ونملي لهم ليزدادوا إثماً إلى إثمهم.

القول في تأويل قوله: ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾

و«الطُّغيان»: «الفُعْلان»، من قولك: «طَغَى فلان يطغَى طُغياناً». إذا تجاوز في الأمر حَدَّهُ فبغَى. ومنه قول الله: ﴿كَلَّا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: ٦، ٧] أي يتجاوزُ حَدَّهُ.

وإنما عنى الله جلّ ثناؤه بقوله «وَيَمُدُّهُمْ في طُغْيَانِهِمْ». أنه يُملي لهم، وَيذَرُهم يَبغون في ضلالهم وكفرهم حيارى يترددون.

القول في تأويل قوله: ﴿يَعْمَهُونَ ۝١٥﴾

والعَمَه نفسُه: الضَّلال. يقال منه: عَمِه فلانٌ يَعْمه عَمَهاناً وعُمُوهاً، إذا ضل.

و«العُمَّه» جمع عامِهٍ، وهم الذين يضلون فيه فيتحيرون. فمعنى قوله إذاً: «في طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ»: في ضلالهم وكفرهم الذي قد غمرهم دَنَسُهُ، وعلاهم

رِجْسُه، يترددون حيارى ضُلَّالاً، لا يجدون إلى المخرجِ منه سبيلاً، لأن الله قد طبع على قلوبهم وختم عليها، وأعمى أبصارَهُم عن الهدى وأغشاها، فلا يبصرون رُشْداً ولا يهتدون سبيلاً.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾

إنْ قال قائل: وكيف اشترى هؤلاء القومُ الضلالةَ بالهدى، وإنما كانوا منافقين لم يتقدم نفاقَهم إيمانٌ فيقال فيهم: باعوا هُدَاهم الذي كانوا عليه بضلالتهم التي استبدلوها منه؟ وقد علمتَ أن معنى الشراء المفهوم: اعتياضُ شيءٍ ببذلِ شيءٍ مكانه عِوَضاً منه، والمنافقون الذين وصفهم الله بهذه الصفة، لم يكونوا قط على هُدىً فيتركوه ويعتاضوا منه كفراً ونفاقاً؟

قيل: قد اختلف أهلُ التأويل في معنى ذلك، والذي هو أولى عندي بتأويل الآية، ما روينا عن ابن عباس وابن مسعود من تأويلهما قوله: «اشْتَرَوُا الضَّلالةَ بِالهُدى»: أخذوا الضلالةَ وتركوا الهدى. وذلك أنَّ كُلَّ كافرٍ بالله فإنه مستبدلٌ بالإيمان كفراً، باكتسابه الكفرَ الذي وُجِدَ منه، بدلاً من الإيمان الذي أُمِرَ به. أوَ مَا تسمعُ الله جلّ ثناؤه يقول فيمن اكتسب كفراً به مكان الإيمان به وبرسوله: ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨]؟ وذلك هو معنى الشراء، لأن كل مشترٍ شيئاً فإنما يستبدلُ مكانَ الذي يُؤخذ منه من البدل آخرَ بديلاً منه. فكذلك المنافقُ والكافر، استبدلا بالهدى الضلالةَ والنفاق، فأضَلَّهُمَا الله، وسَلَبَهُمَا نورَ الهدى، فترك جميعَهم في ظلماتٍ لا يبصرون.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾

وتأويل ذلك أنَّ المنافقينَ - بشرائهم الضلالةَ بالهُدى - خسروا ولم يربحوا، لأنَّ الرابح من التجار: المستبدلُ من سلعته المملوكة عليه بدلاً هو أنفسَ من سلعته المملوكة أو أفضلَ من ثمنها الذي يبتاعها به. فأما المستبدِلُ من سلعته بدلاً دُونَها ودونَ الثمنِ الذي ابتاعها به، فهو الخاسرُ في تجارتِهِ لاشك. فكذلك الكافر والمنافق، لأنهما اختارَا الحيرةَ والعَمى على الرشادِ والهدى، والخوفَ والرُّعْبَ على الحِفْظِ والأمن، واستبدلا في العاجل: بالرَّشادِ الحيرةَ، وبالهُدى الضلالةَ، وبالحِفْظِ الخوفَ، وبالأمنِ الرعبَ - مع ما قد أعدَّ لهما في الآجل من أليمِ العقابِ وشديدِ العذاب، فخابا وخَسِرا، ذلك هو الخسران المبين.

فإن قال قائل: فما وجه قوله: «فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهمْ»؟ وهل التجارة مما تَرْبَح أو تُوكس، فيقال: رَبِحت أو وُضِعَت؟

قيل: إن وجه ذلك على غير ما ظننتَ. وإنما معنى ذلك: فما ربحوا في تجارتهم - لا فيما اشترَوْا، ولا فيما شرَوْا. ولكن الله جلّ ثناؤه خاطب بكتابه عَرباً فسَلكَ في خطابِهِ إياهم وبيانِهِ لهم، مَسْلَكَ خطاب بعضِهم بعضاً، وبيانهم المستعمل بينهم. فلما كان فصيحاً لديهم قولُ القائل لآخر: خابَ سَعْيُكَ، ونام ليلُك، وخسر بيعُك، ونحو ذلك من الكلام الذي لا يَخْفَى على سامعه ما يريدُ قائلُه - خاطبهم بالذي هو في منطقهم من الكلام، فقال: «فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهمْ» إذ كان معقولاً عندهم أنَّ الربحَ إنما هو في التجارة، كما النومُ في الليلِ. فاكتفى بفهم المخاطبين بمعنى ذلك، عن أن يقال: فما ربحوا في تجارتهم، وإنْ كان ذلك معناه.

القول في تأويل قوله: ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ١٦﴾

يعني بقوله جلّ ثناؤه «وَمَا كانُوا مُهْتَدِينَ»: ما كانوا رُشداءَ في اختيارهم الضلالةَ على الهدى، واستبدالهم الكفرَ بالإيمان، واشترائهم النفاقَ بالتصديق والإقرار.

القول في تأويل قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ١٧﴾

إنْ قال لنا قائل: وكيف قيل: «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً»، وقد علمتَ أن «الهاء والميم» من قوله «مثلهم» كناية جِمَاعٍ - من الرجال أو الرجال والنساء - و«الذي» دلالة على واحد من الذكور؟ فكيف جعلَ الخبرَ عن واحدٍ مَثَلاً لجماعة؟ وهَلاَّ قِيلَ: مثلهم كمثل الذين استوقدوا ناراً؟ وإنْ جاز عندك أن تمثلَ الجماعةَ بالواحد، فتجيز لقائلٍ رأى جماعةً من الرجال فأعجبته صُوَرهم وتمامُ خلقهم وأجسامهم، أنْ يقول: كأنَّ هؤلاء، أو كأنَّ أجسامَ هؤلاء، نخلةٌ؟

قيل: أما في الموضع الذي مَثَّلَ ربُّنا جلّ ثناؤه جماعةً من المنافقين، بالواحد الذي جعله لأفعالهم مثلاً، فجائز حسنٌ، وفي نظائره، كما قال جلّ ثناؤه في نظير ذلك: ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩]. يعني كدَوَران عَيْنِ الذي يُغشى عليه من الموت - وكقوله: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨] بمعنى: إلا كبَعْث نَفْسٍ واحدة.

وأما في تمثيلِ أجسامِ الجماعة من الرجال، في الطولِ وتمامِ الخلق، بالواحدةِ من النخيل، فغيرُ جائزٍ، ولا في نظائره، لفرقٍ بينهما.

فأما تمثيلُ الجماعة من المنافقين بالمستوقِدِ الواحد، فإنما جاز، لأنَّ المرادَ من الخبر عن مَثَلِ المنافقين، الخبرُ عن مَثَل استضاءتهم بما أظهروا بألسنتهم من الإقرار وهم لغيرهِ مُسْتَبْطِنُونَ ـ من اعتقاداتهم الرَّديئة، وخَلْطِهم نفاقَهم الباطن بالإقرار بالإيمان الظاهر. والاستضاءَةُ ـ وإن اختلفتْ أشخاصُ أهلها ـ معنىً واحد، لا معانٍ مختلفة. فالمثل لها في معنى المثَل للشخص الواحد، من الأشياء المختلفة الأشخاص.

وتأويل ذلك: مَثَلُ استضاءةِ المنافقين بما أظهروه من الإقرارِ بالله وبمحمد ﷺ وبما جاء به، قولاً، وهُمْ به مُكَذِّبُونَ اعتقاداً، كمَثَل استضاءةِ الموقد ناراً. ثم أسقط ذِكْرَ الاستضاءة، وأضيف المثَلُ إليهم.

وأما قوله: «استوْقَدَ ناراً»، فإنه في تأويل: أوقدَ، كما قال الشاعر:

وَدَاعٍ دَعَا: يَا مَنْ يُجِيبُ إلى النَّدَى ... فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجِيبُ[1]

يريد: فلم يُجبه. فكان معنى الكلام إذاً: مَثَلُ استضاءة هؤلاء المنافقين ـ في إظهارهم لرسول الله ﷺ وللمؤمنين بألسنتهم، من قولهم: آمنَّا بالله وباليوم الآخر، وصدَّقنا بمحمد وبما جاء به، وهم للكفر مستبطنون ـ فيما الله فاعل بهم، مثل استضاءة مُوقِد نارٍ بنارهِ، حَتى أضاءت له النارُ ما حوله، يعني: ما حول المستوقِدِ.

إن الله جلّ ثناؤه إنما ضرَب هذا المثل للمنافقين ـ الذين وَصَف صِفتَهم وقَصَّ قصَصهم، من لَدُن ابتدأ بِذِكْرِهم بقوله: «ومِنَ الناسِ مَنْ يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هُمْ بمؤمنين» ـ لا المعلنين بالكفر المجاهرين بالشرك. ولو كان المثل لمن آمن إيماناً صحيحاً ثم أعلن بالكفر إعلاناً صحيحاً ـ على ما ظن المتأولُ قولَ الله جلّ ثناؤه: «كمثل الذي استوقدَ ناراً فلما أضاءَتْ ما حوله ذهبَ الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون»: أنَّ ضوءَ النار مثلٌ لإيمانهم

---

(١) الشعر لكعب بن سعد الغنوي (الأصمعيات: ١٤، وأمالي القالي ٢: ١٥١).

الذي كان منهم عندَهُ على صحةٍ، وأنَّ ذهاب نورهم مثلٌ لارتدادِهم وإعلانِهم الكفرَ على صحة ـ لم يكن هناك من القول خداعٌ ولا استهزاءٌ عند أنفسهم ولا نفاقٌ. وأنَّىٰ يكون خداعٌ ونفاقٌ ممن لم يُبْدِ لكَ قولاً ولا فعلاً إلا ما أوجبَ لك العلم بحالهِ التي هو لك عليها، وبعزيمة نفسه التي هو مقيمٌ عليها؟ إن هذا بغير شَك من النفاق بعيدٌ، ومن الخداع بريءٌ. وإذْ كان القومُ لم تكن لهم إلا حالتان: حالُ إيمانٍ ظاهر، وحالُ كفرٍ ظاهر، فقد سقط عن القوم اسمُ النفـاق. لأنهم في حال إيمـانهم الصحيح كانـوا مؤمنين، وفي حال كفرهم الصحيح كانوا كافرين. ولا حالةَ هناك ثالثةً كانوا بها منافقين.

وفي وَصْف الله جلّ ثناؤه إياهم بصفة النفاق، ما يُنْبِيءُ عن أنَّ القول غيرُ القول الذي زعمه من زَعم: أنَّ القومَ كانوا مؤمنين، ثم ارتدوا إلى الكفر فأقاموا عليه، إلا أنْ يكون قائلُ ذلك أراد أنهم انتقلوا من إيمانِهم الذي كانوا عليه، إلى الكفرِ الذي هو نفاق. وذلك قولٌ إنْ قاله، لم تُدْرَكْ صِحَّتُه إلا بخبرٍ مُستفِيضٍ، أو ببعض المعاني الموجبة صِحَّتَهُ. فأما في ظاهر الكتاب فلا دلالةَ على صحته، لاحتماله من التأويل ما هو أولى به منه.

فإذْ كان الأمر على ما وَصَفْنَا في ذلك، فأولى تأويلات الآية بالآية: مثل استضـاءَة المنـافقين ـ بمـا أظهروا بألسنتهم لرسولِ الله ﷺ من الإقرار به، وقولِهم له وللمؤمنين: آمنَّا بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، حتى حُكِمَ لهم بذلك في عاجـل الدنيا بحكم المسلمين: في حَقنِ الدماء والأموال، والأمن على الذرية من السِّباء، وفي المناكحة والموارثة ـ كمثل استضاءة المُوقِدِ النارَ بالنار، حتى إذا ارتفق بضيائها، وأبصرَ ما حوله مستضيئاً بنوره من الظلمة، خَمدت النارُ وانطفأت، فذهب نورُه، وعاد المستضيءُ به في ظُلمةٍ وَحيرة.

وذلك أن المنافق لم يزل مستضيئاً بضوء القولِ الذي دَافع عنه في حَياته القتلَ والسباءَ، مع استبطانه ماكانمستوجباً به القتل وسلبَ المال لو أظهره بلسانه

ـ تُخيِّل إليه بذلك نفسُه أنه بالله ورسوله والمؤمنين مستهزىء مخادعٌ، حتى سَوَّلَتْ له نفسُه ـ إذْ وَرَد على ربه في الآخرة ـ أنه ناجٍ منه بمثل الذي نجا به في الدنيا من الكذب والنفاق. أوَ ما تسمع الله جلّ ثناؤه يقول إذْ نَعَتَهم، ثم أخبر خبرَهم عند ورودهم عليه: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ الله جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلفونَ لَكُمْ ويَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيءٍ أَلَا إنَّهُمْ هُمُ الكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨]، ظنّاً من القوم أنَّ نجاتهم من عذابِ الله في الآخرة، في مثل الذي كان به نجاؤهم من القتل والسباء وسلب المال في الدنيا: من الكذب والإفك، وأنَّ خداعهم نافعُهم هنالك نَفْعَهُ إياهم في الدنيا، حتى عايَنُوا من أمر الله ما أيقنوا به أنهم كانوا من ظنونهم في غرورٍ وضلال، واستهزاءٍ بأنفسهم وخداع، إذ أطفأ اللهُ نورَهم يوم القيامة، فاستنظروا المؤمنين ليقتبسوا من نورِهم فقيل لهم: ارجعوا وراءَكم فالتمسوا نوراً واصلوْا سَعيراً. فذلك حينَ ذهب اللهُ بنورهم وتركهم في ظلماتٍ لا يبصرون. كما انطفأتْ نار المستوقِدِ النارَ بعد إضاءتها له، فبقيَ في ظلمته حيرانَ تائهاً، يقول الله جلّ ثناؤه: ﴿يَوْمَ يَقُولُ المُنَافِقُونَ وَالمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالتَمِسُوا نُوراً فَضربَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ العَذَابُ* يُنَادونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانيُّ حَتَّى جاءَ أَمْرُ الله وَغرَّكُمْ بالله الغَرُورُ* فَاليَوْمَ لَا يُؤخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ ولَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ المَصِيرُ﴾ [الحديد: ١٣-١٥].

فإنْ قال لنا قائل: إنك ذكرتَ أن معنى قول الله تعالى ذكره «كَمَثَلِ الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حَولَهُ»: خَمدتْ وانطفأتْ، وليس ذلك بموجودٍ في القرآن. فما دلالتك على أنَّ ذلك معناه؟

قيل: قد قلنا إنَّ من شأنِ العرب الإيجاز والاختصار، إذا كان فيما نطقت به الدلالةُ الكافية على ما حذفتْ وتركتْ.

القول في تأويل قول الله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝١٨﴾

وإذْ كان تأويل قول الله جلّ ثناؤه: «ذهب الله بنورهم وتَركهم في ظلمات لا يبصرون»، هو ما وصفنا ـ من أن ذلك خَبَرٌ من الله جلّ ثناؤه عما هو فاعلٌ بالمنافقين في الآخرة، عند هتك أستارهم، وإظهاره فضائح أسرارهم، وَسلبه ضياءَ أنوارهم، من تَرْكِهم في ظُلَم أهوالِ يوم القيامة يترددون، وفي حَنادسها[1] لا يُبصرون ـ فَبَيِّنٌ أنَّ قوله جلّ ثناؤه: «صمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهم لا يرجعون» من المُؤَخَّرِ الذي معناه التقديم، وأن معنى الكلام: أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين، صُمٌّ بكمٌ عُميٌّ فهم لا يرجعون، مَثَلُهم كمثلِ الذي استوقدَ ناراً فلما أضاءتْ ما حَوْلَهُ ذهبَ الله بنورهم وتركَهم في ظلمات لا يبصرون، أو كمثل صَيِّب من السماء.

وهـذا خبـرٌ من الله جلّ ثناؤه عن المنافقين: أنهم باشترائهم الضلالةَ بالهدى لم يكونوا للهدى والحق مهتدين، بل هم صُمٌّ عنهما فلا يسمعونهما، لغلبـة خِذلان الله عليهم، بُكمٌ عن القيل بهما فلا ينطقون بهما ـ والبُكم: الخُرْسُ، وهو جِماعُ أبكم ـ عُميٌ عن أن يبصرُوهما فيعقلوهما، لأن الله قد طبع على قلوبهم بنفاقهم فلا يهتدون.

القول في تأويل قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾

وقوله: «فهم لا يرجعون»، إخبارٌ من الله جلّ ثناؤه عن هؤلاء المنافقين ـ الـذين نَعَتَهُمُ الله باشتـرائهم الضلالةَ بالهُدَى، وصَممِهم عن سمَاع الخير والحق، وبَكَمهم عن القيل بهما، وعَماهم عن إبصارهما ـ أنهم لا يرجعون

---

(١) حنادسها، جمع حندس: وهو الليل الشديد الظلمة، والحنادس: ثلاث ليال في آخر الشهر.

إلى الإقلاع عن ضلالتهم، ولا يتُوبون إلى الإنابة من نفاقهم. فآيَس المؤمنين من أن يبصرَ هؤلاء رشداً، أو يقولوا حقاً، أو يَسمعوا داعياً إلى الهدى، أو أن يَذَّكَّروا فيتوبوا من ضلالتهم، كما آيس من تَوبةِ قادةِ كفارِ أهلِ الكتاب والمشركين وأحبارهم، الذين وَصَفهم بأنه قد ختم على قلوبهم وعلى سَمعهم وغشَّى على أبصارهم.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾

والصيِّب «الفَيْعِل» من قولك: صَاب المطر يَصُوبُ صَوباً، إذا انحدَر وَنزَل.

وتأويل ذلك: مَثَلُ استضاءَةِ المنافقين بضوء إقرارهم بالإسلام، مع استسرارهم الكفر، مَثَلُ إضاءة موقد نارٍ بضوء ناره، على ما وصف جلّ ثناؤه من صفته، أو كمثل مَطرٍ مُظلمٍ وَدْقُه تَحَدَّرَ من السماء، تحمله مُزْنَةٌ ظلماء في ليلة مُظلمة. وذلك هو الظلمات التي أخبر الله جلّ ثناؤه أنها فيه.

فإنْ قال لنا قائل: أخبرنا عن هذين المثَلين: أهما مثَلان للمنافقين، أو أحدهُما؟ فإنْ يكونا مثلَيْن للمنافقين، فكيف قيل: «أو كصيِّب»، و«أو» تأتي بمعنى الشك في الكلام، ولم يقل «وكصيب» بالواو التي تُلحِق المثَلَ الثاني بالمثل الأول؟ أو يكون مَثل القوم أحدهما، فما وجه ذكر الآخرِ بـ «أو»؟ وقد علمت أن «أو» إذا كانت في الكلام فإنما تدخل فيه على وجه الشك من المخبِر فيما أخبرَ عنه، كقول القائل: «لقيني أخوك أو أبوك» وإنما لَقيه أحدهُما، ولكنه جَهلَ عَيْنَ الذي لقيه منهما، مع علمه أنَّ أحدهما قد لقيه. وغيرُ جائزٍ في الله جلَّ ثناؤه أن يُضافَ إليه الشك في شيءٍ، أو عُزُوب عِلْمِ شيءٍ عنه، فيما أخبَرَ أو تَركَ الخبر عنه.

قيل له: إنَّ الأمرَ في ذلك بخلاف الذي ذهبت إليه. و«أو» ـ وإنْ كانت في بعض الكلام تأتي بمعنى الشك ـ فإنها قد تأتي دالةً على مثل ما تدلُّ عليه الواو، إما بسابق من الكلام قبلها، وإما بما يأتي بعدَها.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ١٩ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ﴾

إن الله ضَرَب الصَّيب لظاهرِ إيمان المنافق مَثلًا، وَمَثَّل ما فيه من ظلماتٍ لضلالته، وما فيه من ضياء برقٍ لنور إيمانه؛ واتقاءه من الصواعق بتصيير أصابعه في أذنيه، لضَعْفِ جَنانه ونَخْب[1] فؤاده من حُلول عقوبة الله بساحته؛ وَمشيَه في ضوء البرق لاستقامته على نور إيمانه؛ وقيامَه في الظلام، لحيرته في ضلالته وارتكاسه في عَمَهه.

فتأويل الآية إذاً ـ إذْ كان الأمر على ما وصفنا ـ : أو مَثَلُ ما استضاء به المنافقون ـ من قِيلهم لرسولِ الله ﷺ وللمؤمنين بألسنتهم: آمنا بالله وباليومِ الآخرِ وبمحمدٍ وما جاء به، حتى صار لهم بذلك في الدنيا أحكامُ المؤمنين، وهم ـ مع إظهارِهم بألسنتهم ما يُظهرون ـ بالله وبرسوله ﷺ وما جاء به من عند الله وباليوم الآخر، مُكَذِّبون، ولخلاف ما يُظهرون بالألسُنِ في قلوبهم مُعْتَقِدُونَ، على عمىً منهم، وجهالة بما هم عليه من الضلال، لا يدرون أيَّ الأمرين اللذين قد شَرَعَا لهم فيه الهداية: أفي الكفر الذي كانوا عليه قبل

---

(١) النخب: الجبن وضعف القلب، ورجل نخب ونخيب ومنخوب الفؤاد: جبانٌ لا خير فيه، كأنه منتزع الفؤاد، فلا فؤاد له.

إرسالِ الله محمداً ﷺ بما أرسله به إليهم، أم في الذي أتاهم به محمد ﷺ من عند ربهم؟ فهم من وعيدِ الله إياهم على لسان محمد ﷺ وَجِلُون، وهم مع وَجَلِهم من ذلك في حقيقته شاكُّون، في قلوبهم مَرَضٌ فزادهُم الله مَرَضاً. كمثل غَيثٍ سرَى ليلاً في مُزنة ظلماء وليلة مظلمة، يحدوها رعدٌ، ويستطير في حافاتها برقٌ شديدٌ لمعانه، كثيرٌ خَطرانه، يكادُ سَنا بَرْقِه يَذهب بالأبصار ويختطفها من شدة ضيائه ونور شعاعه، وينهبط منها تارات صواعقُ، تكاد تَدَع النفوس من شدة أهوالها زواهق.

فالصَّيب مَثلٌ لظاهر ما أظهر المنافقون بألسنتهم من الإقرار والتصديق، والظلمات التي هي فيه لظُلُمَاتُ ما هم مستبطنون من الشك والتكذيب ومرض القلوب. وأما الرعدُ والصواعق، فلِما هُمْ عليه من الوَجَل من وعيد الله إياهم على لسان رسوله ﷺ في آي كتابه، إما في العاجل وإما في الآجل، أنْ يحل بهم، مع شكهم في ذلك: هل هو كائن أم غير كائن؟ وهل له حقيقة أم ذلك كذبٌ وباطلٌ؟ - مَثلٌ. فهم من وَجلهم، أن يَكون ذلك حَقاً، يَتَّقُونه بالإقرارِ بما جاء به محمد ﷺ بألسنتهم، مخافةً على أنفسهم من الهلاكِ ونزول النَّقِمَات. وذلك تأويل قوله جلّ ثناؤه «يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حَذَر الموت»، يعني بذلك: يتقون وَعيدَ الله الذي أنزله في كتابه على لسان رسوله ﷺ، بما يُبْدُونهُ بألسنتهم من ظاهرِ الإقرار، كما يتقي الخائفُ أصواتَ الصواعق بتغطيةِ أذنيه وتصيير أصابعه فيها، حَذَراً على نفسه منها.

وإنما جَعل الله إدخالَهم أصابعَهُم في آذانهم مثلاً لاتِّقائهم رسولَ الله ﷺ والمؤمنين بما ذكرنا أنهم يَتَّقونهم به، كما يتقي سامعُ صَوتِ الصاعقةِ بإدخالِ أصابعهِ في أذنيه. وذلك من المثَل نظيرُ تمثيل الله جلّ ثناؤه ما أنزَل فيهم من الوعيدِ في آيِ كتابهِ بأصواتِ الصواعق. وكذلك قوله: «حَذَرَ الموت»، جعله جلّ ثناؤه مثلاً لخوفهم وإشفاقهم من حلول عاجل العقاب المُهْلِكهم الذي

تُوُعِّدُوه بساحتهم، كما يجعل سامعُ أصوات الصواعق أَصَابعه في أذنيه، حَذَرَ العطب والموت على نفسه، أنْ تَزهق من شدتها.

وكان قتادةُ وابنُ جُريج يتأولان قوله: «يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حَذَر الموت»، أنَّ ذلك من الله جلّ ثناؤه صفةٌ للمنافقين بالهلع وضَعْفِ القلوبِ وكراهة الموت، ويتأوَّلان في ذلك قوله: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤].

وليس الأمر في ذلك عندي كالذي قالا. وذلك أنه قد كان فيهم من لا تُنكرُ شجاعتُه ولا تُدفع بَسالته، كقُزْمان[1]، الذي لم يَقُمْ مقامه أَحَدٌ من المؤمنين بأُحد، أو دونه. وإنما كانت كراهتُهم شُهود المشاهدِ مع رسول الله ﷺ، وتركُهم مُعاونته على أعدائه، لأنهم لم يكونوا في أديانهم مُستبصرين، ولا برسول الله ﷺ مصدِّقين، فكانوا للحضورِ معه مَشَاهِدَهُ كارهين، إلا بالتخذيلِ عنه. ولكن ذلك وَصفٌ من الله جلّ ثناؤه لهم بالإشفاق من حُلول عقوبة الله بهم على نفاقهم، إما عاجلاً وإما آجلاً. ثم أخبر جلّ ثناؤه أن المنافقين ـ الذين نَعتهم الله النعتَ الذي ذكر، وضرب لهم الأمثال التي وَصَف، وإن اتقوْا عقابه، وأشفقوا من عَذابه إشفاقَ الجاعلِ في أذنيه أصابعَهُ حِذَارَ حُلولِ الوعيد الذي تَوَعَّدَهُم به في آي كتابه ـ غيرُ مُنْجيهم ذلك من نزوله بعَقْوَتهم[2]، وحُلوله بساحتهم، إما عاجلاً في الدنيا، وإما آجلاً في الآخرة، الذي في قلوبهم من مَرَضها، والشك في اعتقادها، فقال: «والله مُحيطٌ بالكافرين»، بمعنى جَامِعُهم، فَمُحِلٌ بهم عُقوبته.

---

(١) كان قزمان حليفاً لبني ظفر، قاتل مع المسلمين يوم أحد حميَّةً لقومه، وقتل وحده من المشركين عشرة، من الاثنين وعشرين رجلاً الذين قتلوا يوم أحد من المشركين.

(٢) العقوة: ساحة الدار، وما كان حولها وقريباً منها.

ثم عاد جلّ ذكره إلى نعت إقرار المنافقين بألسنتهم، والخبر عنه وعنهم وعن نفاقهم، وإتمام المثل الذي ابتدأ ضربَه لهم ولشكِّهم ومَرَض قلوبهم، فقال: «يكاد البرق»، يعني بالبرق، الإقرارَ الذي أظهروه بألسنتهم بالله وبرسوله وما جاء به من عند ربهم. فجعل البرقَ له مثلاً، على ما قدَّمنا صفته.

«يَخطفُ أبصَارهم»، يعني: يذهب بها ويستلبُها ويلتمعها من شدة ضيائه ونُور شُعاعه.

فجعل ضَوءَ البرق وشدة شُعاع نُوره، كضوء إقرارهم بألسنتهم بالله وبرسوله ﷺ وبما جاء به من عند الله واليوم الآخر وشُعاعِ نوره، مثلاً.

ثم قال تعالى ذكره: «كُلَّمَا أضاء لهم»، يعني أنَّ البرق كلما أضاء لهم، وجعل البرق لإيمانهم مَثلاً. وإنما أراد بذلك: أنهم كلما أضاء لهم الإيمان، وإضاءتُه لَهم: أن يَرَوْا فيه ما يُعجبهم في عاجل دنياهم، من النُّصرة على الأعداء، وإصابةِ الغنائم في المغازي، وكثرة الفتوح ومنافعِها، والثراء في الأموال، والسلامةِ في الأبدان والأهل والأولاد ـ فذلك إضاءتُه لهم، لأنهم إنما يُظْهِرُونَ بألسنتهم ما يُظهرونه من الإقرار، ابتغاءَ ذلك، ومدافعةً عن أنفسهم وأموالهم وأهليهم وذَراريهم، وهم كما وصفهم الله جلّ ثناؤه بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ الله عَلَى حَرْفٍ فإنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ [الحج: ١١].

ويعني بقوله «مَشَوْا فيه»، مشوا في ضوء البرق. وإنما ذلك مَثَلٌ لإقرارهم على ماوصفنا. فمعناه: كلما رأوا في الإيمان ما يُعجبهم في عاجلِ دنياهم على ما وصفنا، ثبتوا عليه وأقاموا فيه، كما يمشي السائرُ في ظُلمة الليل وظُلمة الصَّيِّب الذي وصفه جلّ ثناؤه، إذا برقت فيها بارقةٌ أبصرَ طريقه فيها.

«وإذا أظلم»، يعني: ذهب ضوءُ البرق عنهم.

ويعني بقوله «عليهم»، على السائرين في الصَّيِّبِ الذي وَصف جلّ ذكره. وذلك للمنافقين مثَل. ومعنى إظلام ذلك: أن المنافقين كلما لم يَرَوْا في الإسلام ما يعجبهم في دنياهم - عند ابتلاء الله مؤمني عباده بالضرَّاء، وتمحيصه إياهم بالشدائد والبلاء، من إخفاقِهم في مَغزاهم، وإدالةِ عدوِّهم منهم، أو إدبارٍ من دنياهم عنهم - أقاموا على نفاقهم، وثبتوا على ضلالتهم، كما قام السائر في الصَّيب الذي وصف جَلَّ ذِكْرُهُ، إذا أظلم وخَفتَ ضوءُ البرق، فحارَ في طريقه، فلم يعرف منهجه.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ﴾

وإنما خَصّ جلَّ ذِكْرُهُ السمعَ والأبصارَ - بأنه لو شاء أذهبَها من المنافقين دون سائر أعضاء أجسامهم - لِلَّذي جرَى من ذكرها في الآيتين، أعني قوله: «يجعلون أصابِعَهم في آذانهم من الصواعق»، وقوله: «يكادُ البرق يَخطَفُ أبصارهم كلما أضاء لهم مَشَوْا فيه»، فجرى ذكرها في الآيتين على وجه المثَل. ثم عقَّب جلّ ثناؤه ذِكْرَ ذلك، بأنه لو شاء أذهبه من المنافقين عقوبةً لهم على نفاقهم وكفرهم، وعيداً من الله لهم، كما توعَّدهم في الآية التي قبلها بقوله: «والله مُحيطٌ بالكافرين»، واصفاً بذلك جلّ ذكره نفسَه، أنه المُقْتَدِرُ عليهم وعلى جَمْعِهم، لإحلال سَخَطه بهم، وإنزال نِقْمته عليهم، ومُحذِّرَهم بذلك سَطوته، ومخوِّفَهم به عقوبته، ليتقوا بأسَه، ويُسارعوا إليه بالتوبة.

وإنما معنى قوله: «لـذهب بسمعهم وأبصارهم»، لأذهب سَمعَهم وأبصارَهم. ولكن العرب إذا أدخلوا الباء في مثل ذلك قالوا: ذهبتُ ببصره، وإذا حذفوا الباء قالوا: أذهبتُ بصره. كما قال جلّ ثناؤه: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا﴾ [الكهف: ٦٢]، ولو أدخلت الباء في الغداء لقيل: ائتنا بغدَائنا.

فإن قال لنا قائل: وكيف قيل: «لذهب بسمعهم» فوحَّد، وقال: «وأبصارهم» فَجَمَعَ؟ وقد علمتَ أن الخبر في السمع خبرٌ عن سَمْع جماعة، كما الخبر عن الأبصار خبرٌ عن أبصار جماعة؟

قيل: قد اختلف أهلُ العربية في ذلك، فقال بعض نحويي الكوفة: وحَّد السمعَ لأنه عَنى به المصدَر وقصَد به الخَرْق، وجمع الأبصار لأنه عَنى به الأعينَ. وكان بعض نحويي البصرة يزعم: أن السمع وإن كان في لفظ واحد، فإنه بمعنى جماعة. ويَحْتَجُّ في ذلك بقول الله: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤٣]: لا تَرْتَدُّ إليهم أطرافُهم، وبقوله: ﴿وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]، يراد به أدْبارُهم. وإنما جاز ذلك عندي، لأن في الكلام ما يَدُل على أنه مُرادٌ به الجمع، فكان في دلالته على المراد منه، وأداء معنى الواحد من السمع عن معنى جماعة، مُغنياً عن جِمَاعه[1]. ولو فعل بالبصر نظيرَ الذي فعل بالسمع، أو فعل بالسمع نظير الذي فعل بالأبصار - من الجمع والتوحيد - كان فصيحاً صحيحاً، لما ذكرنا من العلة.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٠﴾

وإنما وَصف الله نفسه جلّ ذكره بالقدرةِ على كل شيءٍ في هذا الموضع، لأنه حذَّر المنافقين بأسَهُ وسَطْوَتَهُ، وأخبرهم أنه بهم مُحيطٌ، وعلى إذهابِ أسماعهم وأبصارهم قَدير. ثم قال: فاتقوني أيُّها المنافقون، واحذَرُوا خِداعي وخداعَ رسولي وأهلِ الإيمان بي، لا أحِلَّ بكم نقمتي، فإني على ذلك وعلى غيره من الأشياء قدير. ومعنى «قدير» قادر، كما معنى «عليم» عالم، على ما

---

(١) أي عن جَمْعِه، والطبري يكثر استعمال «جماع» مكان جمع.

وصفتُ فيما تَقدم من نظائره، من زيادة معنى فعيل على فاعل في المدح والذم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾

فأمرَ جلّ ثناؤه الفريقين - اللّذيْنِ أخبرَ الله عن أحدهما أنه سواءٌ عليهم أأنْذِرُوا أم لم يُنذروا أنهم لا يؤمنون، لطبْعِه على قلوبهم وعلى سمعهم، وعن الآخـرِ أنه يُخادع اللهَ والذين آمنوا بما يُبْدِي بلسانهِ من قِيلهِ: آمنا بالله وباليوم الآخر، مع استبطانهِ خِلافَ ذلك، ومرض قلبه، وشَكّهِ في حقيقة ما يُبدي من ذلك؛ وغيرهم من سائر خلقه المُكَلَّفين - بالاستكانةِ، والخضوع له بالطاعة، وإفرادِ الربوبية له والعبادةِ دون الأوثانِ والأصنام والآلهة. لأنه جَلَّ ذِكْرُهُ هو خالِقُهم وخالقُ مَنْ قبلهم من آبائهم وأجدادهم، وخالقُ أصنامهم وأوثانهم وآلهتهم. فقال لهم جلّ ذكره: فالذي خَلَقكُم وخَلَقَ آباءكم وأجدادَكم وسائرَ الخلق غيرَكم، وهو يقدرُ على ضرّكم ونَفعكم - أولى بالطاعةِ مِمَّنْ لا يقدرُ لكم على نَفعٍ ولا ضرّ.

وهذه الآيةُ من أدَلِّ دليلٍ على فسادِ قولِ مَنْ زعم: أنَّ تكليفَ ما لا يطاق إلا بمعونة الله غيرُ جائز. إلا بعد إعطاء الله المكلف المعُونةَ على ما كلَّفه. وذلك أن الله أمر من وَصفنا، بعبادته والتوبة مِن كفره، بعد إخباره عنهم أنهم لا يؤمنون، وأنهم عن ضَلالتهم لَا يَرْجعون.

القول في تأويل قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾

وتأويل ذلك: لعلكم تتقون بعبادتكم ربَّكم الذي خلقكم، وطاعتِكم إياهُ

فيما أمركم به ونهاكم عنه، وإفرادكُم له العبادةَ لتتقوا سَخَطه وغضَبه أنْ يَحلَّ عليكم، وتكونوا من المتقين الذين رضي عنهم ربهم.

فإن قال لنا قائل: فكيف قال جلّ ثناؤه: «لعلكم تتقون»؟ أوَ لم يكنْ عالماً بما يصيرُ إليه أمرهُم إذا هم عبدوه وأطاعُوه، حتى قال لهم: لعلكم إذا فعلتم ذلك أنْ تتقوا، فأخرج الخبرَ عن عاقبةِ عبادتهم إياه مخرج الشك؟

قيل له: ذلك على غيرِ المعنى الذي توهَّمتَ، وإنما معنى ذلك: اعبُدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم، لتتقوه بطاعتهِ وتوحيدهِ وإفرادهِ بالربوبيةِ والعبادة.

القول في تأويل قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾

وقوله: «الذي جعل لكم الأرض فِراشاً» مردودٌ على «الذي» الأُولى في قولـه: «اعبدُوا ربكم الذي خَلقَكم»، وهما جميعاً من نَعت «ربكم»، فكأنه قال: اعبدُوا ربكم الخَالِقكُم، والخالقَ الذين من قبلكم، الجاعلَ لكمُ الأرضَ فراشاً. يعني بذلك أنه جعل الأرض مِهاداً مُوَطَّأً وَقَراراً يُسْتقرُّ عليها. يُذكِّرُ ربنا جلّ ذكره ـ بذلك من قِيله ـ عبادَهُ نِعَمَهُ عندهم وآلاءه لديهم، ليذكروا أياديَه عندهم، فينيبوا إلى طاعته ـ تعطُّفاً منه بذلك عليهم، ورأفةً منه بهم، ورحمةً لهم، من غير ما حاجةٍ منه إلى عبادتهم، ولكن ليُتِمَّ نعمتَهُ عليهم ولعلَّهم يهتدون.

القول في تأويل قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾

وإنما سُميت السماءُ سماءً لعلوِّها على الأرض وعلى سُكانها من خلقه، وكُلُّ شيءٍ كان فوق شيء آخـرَ فهو لِمَا تحتَهُ سَماءٌ. ولذلك قيل لسقف البيت:

سَمَاوةٌ، لأنه فوقه مرتفعٌ عليه. ولذلك قيل: سَمَا فلان لفلان، إذا أشرف له وَقَصَد نحوه عالياً عليه.

وإنما ذَكَرَ تعالى ذِكْرُه السماءَ والأرض فيما عَدَّدَ عليهم من نِعَمِهِ التي أنعمها عليهم، لأنَّ منهما أقواتهم وأرزاقهم ومعايشهم، وبهما قوامُ دُنياهم. فأعلمهم أن الذي خَلقهما وخلق جميع ما فيهما وما هُمْ فيه من النعم، هو المستحقُّ عليهم الطاعةَ، والمستوجبُ منهم الشكرَ والعبادةَ، دون الأصنامِ والأوثانِ، التي لا تضرُّ ولا تنفع.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك أنه أنزل من السماء مطراً، فأخرج بذلك المطر مما أنبتوه في الأرض من زَرْعهم وغَرْسهم ثمرات، رزقاً لهم، غذاءً وأقواتاً. فنبههم بذلك على قدرته وسُلطانه، وذكَّرهم به آلاءَهُ لديهم، وأنه هو الذي خلقهم، وهو الذي يرزقهم ويكفُلُهم، دون مَنْ جعلوه له نِدّاً وعِدْلاً من الأوثانِ والآلهة. ثم زَجَرَهم عن أن يجعلوا له نِدّاً، مع علمهم بأن ذلك كما أخبرهم، وأنه لا نِدَّ له ولا عِدْل، ولا لهم نافعٌ ولا ضارٌ ولا خالقٌ ولا رازقٌ سِواه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾

والأنداد جمع نِد، والنِّدُّ: العِدْلُ والمِثل. فنهاهم الله تعالى أن يُشركوا به شيئاً، وأن يعبدوا غيرَهُ، أو يتخذوا له نِدّاً وَعِدْلاً في الطاعة، فقال: كما لا شريكَ لي في خَلْقِكم، وفي رِزْقِكم الذي أرزقكم وملكي إياكم، ونعمي التي أنعمتُها عليكم، فكذلك فأفردوا ليَ الطاعةَ، وأخلصوا لي العبادةَ، ولا تجعلوا

لي شريكاً ونِدّاً من خلقي، فإنكم تعلمون أنّ كل نعمةٍ عليكم فمنّي.

القول في تأويل قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾

الذي هو أولى بتأويل قوله: «وأنتم تعلمون» أنه يعني بذلك كُلَّ مُكَلَّفٍ، عالم بوحدانية الله، وأنه لا شريكَ له في خلقه، يُشرِكُ معه في عبادته غيرَهُ، كائناً مَنْ كان من الناس، عربياً كان أو أعجمياً، كاتباً أو أُمّيّاً، وإنْ كان الخطابُ لكفارِ أهلِ الكتاب الذين كانوا حواليْ دَار هجرةِ رسولِ الله ﷺ، وأهلِ النفاق منهم، وممن بينَ ظَهرانيهم ممن كان مشركاً فانتقل إلى النفاق بمقدم رسول الله ﷺ.

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾

وهذا من الله عزّ وجل احتجاجٌ لنبيه محمد ﷺ على مشركي قومهِ من العربِ ومنافِقيهم، وكفارِ أهلِ الكتاب وضُلاَّلهم. الذين افتتح بقَصَصهم قولَه جلّ ثناؤه: «إن الذين كفروا سواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم»، وإياهم يخاطبُ بهذه الآيات، وضُرباءَهم يَعني بها، قال الله جلّ ثناؤه لهم: وإنْ كنتم أيها المشركون من العرب والكفارُ من أهل الكتابين، في شَكٍّ - وهو الريب - مما نَزَّلْنَا على عبدنا محمدٍ ﷺ من النورِ والبرهانِ وآياتِ الفرقان: أنه من عندي، وأنّي الذي أنزلتهُ إليه، فلم تُؤمنوا به ولم تُصَدِّقُوه فيما يقول، فَأْتُوا بحجةٍ تدفعُ حُجته، لأنكم تعلمون أنَّ حجةَ كُلِّ ذي نبوةٍ على صِدْقِهِ في دعواهُ النبوةَ: أنْ يأتيَ ببرهانٍ يعجزُ عن أن يأتيَ بمثله جَميعُ الخَلْقِ. ومن حجة محمد ﷺ على صدقه، وبُرهانه على حقيقة نبوته، وأنَّ ما جاء به من عندي - عَجزُ

جميعكم وجميع مَنْ تستعينون به من أعوانكم وأنصاركم، عن أن تَأتوا بسورة من مثله. وإذا عَجـزتم عن ذلك ـ وأنتم أهلُ البراعةِ في الفصاحة والبلاغة والذرابة[1] ـ فقد علمتم أنَّ غيرَكم عما عَجزتم عنه من ذلك أعْجزُ. كما كان برهانُ من سَلف من رُسلي وأنبيائي على صدقه، وحُجتهُ على نبوته من الآيات، ما يَعجز عن الإتيانِ بمثله جميعُ خلقي. فيتقرر حينئذٍ عندكم أن محمداً لم يتقوَّلْهُ ولم يَخْتَلِقْهُ، لأن ذلك لو كان منه اختلاقاً وتقوُّلاً لم تعجزوا وجميع خلقي عن الإتيانِ بمثله. لأن محمداً ﷺ لم يَعْدُ أنْ يكون بَشراً مثلكم، وفي مِثْلِ حالِكم في الجسم وبَسطة الخلق وذرابة اللسان ـ فيمكن أن يُظَنَّ به اقتدارٌ على مَا عجزتم عنه، أو يتوهم منكم عجزٌ عما اقتدر عليه.

فإن قال قائلٌ: فإنك ذكرتَ أنَّ الله عنى بقوله: «فأتوا بسورة من مثله»، من مثل هذا القرآن، فهل للقرآن من مثل فيقال: ائتوا بسورة من مثله؟

قيل: انه لم يعنِ به: ائتوا بسورةٍ من مِثْلِه في التأليفِ والمعاني التي باينَ بها سائرَ الكَلام غيره، وانما عنى: ائتوا بسورة من مثله في البيان، لأنّ القرآن أنزلِه الله بلسانٍ عربي، فكلام العرب لاشك له مِثْلٌ في معنىٰ العربية. فأما في المعنىٰ الذي باين به القرآنُ سائرَ كلام المخلوقين، فلا مثلَ له من ذلك الوجه ولا نظيرَ ولا شبيه.

وإنما احتج الله جلّ ثناؤه عليهم لنبيه ﷺ بما احتج به لهُ عليهم من القرآن، إذْ ظهر عجزُ القوم عن أن يأتوا بسورةٍ من مثله في البيان، إذْ كان القرآن بياناً مثلَ بيانهم، وكلاماً نزل بلسانهم، فقال لهم جلّ ثناؤه: وإنْ كنتم في رَيبٍ من أنَّ ما أنزلتُ على عَبدي من القرآن من عندي، فَأْتُوا بسورةٍ من كلامكم الذي هو مثلهُ في العربية، إذْ كنتم عرباً، وهو بيانٌ نظيرُ بيانكم، وكلامٌ شبيهُ

---

(١) الذرابة: حِدَّةُ اللسان وفصاحته.

كلامِكم. فلم يكلفهم جلّ ثناؤه أن يأتوا بسورةٍ من غير اللسان الذي هو نظيرُ اللسان الذي نزل به القرآن، فيقدِرُوا أن يقولُوا: كَلَّفْتَنا ما لو أحسنَّاه أتينا به، وإنا لا نقدر على الإتيانِ به لأنَّا لسنا من أهلِ اللسان الذي كلفتنا الإتيانَ به، فليس لك علينا بهذا حجةٌ. لأنا ـ وإنْ عَجزنا عن أن نأتي بمثله من غير ألسنتنا لأنا لسنا من أهله ـ ففي الناس خَلْقٌ كثيرٌ من غير أهل لساننا يقدرُ على أن يأتي بمثله من اللسان الذي كلفتنا الإتيان به. ولكنه جلّ ثناؤه قال لهم: ائتوا بسورةٍ من مثله، لأن مثله من الألسن ألسنكم. وأنتم ـ إنْ كان محمدٌ اختلقه وافتراه، إذا اجتمعتم وتظاهرتُم على الإتيان بمثل سورةٍ منه من لسانكم وبيانكم ـ أقدرُ على اختلاقه ورَصْفِه وتأليفه من محمد ﷺ، وإنْ لم تكونوا أقدرَ عليه منه، فلن تعجزوا ـ وأنتم جميعٌ ـ عمّا قدَرَ عليه محمدٌ من ذلك وهو وحيدٌ، إنْ كنتم صادقين في دعواكم وزعمكم أن محمداً افتراه واختلقه، وأنه من عندِ غيري.

القول في تأويل قوله: ﴿وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٣﴾

وذلـك قول الله لمن شَكَّ من الكفار فيما جاء به محمدٌ ﷺ. وقوله: «فادعوا»، يعني: استنصروا واستغيثوا.

وأما الشهداء، فإنها جمعُ شهيدٍ، كما الشركاءُ جمع شريك، والخطباء جمع خطيب. والشهيد يسمى به الشاهدُ على الشيء لغيره بما يحقِّق دَعواه. وقـد يُسَمَّى به المُشَاهِدُ للشيء، كما يقال: فلان جليسُ فلان ـ يعني به مُجالسَهُ، ونديمه ـ يعني به منادِمَهُ، وكذلك يقال: شهيده ـ يعني به مُشاهِدَه.

فإذا كانت «الشهداء» محتملةً أن تكون جمعَ «الشهيد» الذي هو منصرف

للمعنيين اللَّذيْنِ وصفت، فأولى وجهٍ بتأويل الآية ما قاله ابن عباس، وهو أن يكون معناه: واستنصروا على أنْ تأتوا بسورةٍ مِنْ مثلهِ أعوانَكم وشُهداءَكم الذين يُشاهدونكم ويُعاونونكم على تكذيبهم الله ورسولَهُ، ويُظاهرونَكُم على كُفْرِكُم ونفاقكم، إنْ كنتم مُحِقِّينَ في جُحودكم أن ما جاءكم به محمد ﷺ اختلاقٌ وافتراء، لتمتحنوا أنفسكم وغيرَكم: هل تقدرون على أنْ تأتوا بسورةٍ من مثله، فيقدر محمد على أن يأتي بجميعه من قِبَل نَفسه اختلاقاً؟

وكما قال جلّ ثناؤه: ﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الإنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أنْ يَأتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الاسراء: ٨٨]، فأخبر جلّ ثناؤه في هذه الآية، أنَّ مِثْلَ القرآن لا يأتي به الجنُّ والإنسُ ولو تظاهروا وتعاونوا على الإتيانِ به، وتحدَّاهم بمعنى التوبيخِ لهم في سورة البقرة فقال تعالى: «وإنْ كنتم في ريب مما نَزَّلْنا على عبدِنا فأتُوا بسورةٍ من مثله وادعوا شهداءَكم من دون الله إن كنتمْ صَادقين». يعني بذلك: إنْ كنتم في شَك في صِدْقِ محمدٍ فيما جاءكم به من عندي أنه من عندي، فأتوا بسورة من مثله، وليستنصرْ بعضُكم بعضاً على ذلك إن كنتم صادقين في زعمكم، حتى تعلموا أنكم إذْ عَجزتم عن ذلك ـ أنه لا يقدر على أن يأتي به محمد ﷺ، ولا من البشر أحدٌ، ويَصِحَّ عندكُم أنه تنزيلي ووَحيي إلى عبدي.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «فإن لم تفعلوا»، إن لم تأتوا بسورة من مثله. فقد تظاهرتم أنتم وشركاؤكم عليه وأعوانكم، فتبين لكم بامتحانكم واختباركم عَجْـزُكم وعَجـزُ جميع خَلْقِي عنـه، وعلمتم أنه من عندي، ثم أقمتم على التكذيبِ به. وقوله: «ولن تفعلوا»، أي لن تأتوا بسورةٍ من مثله أبداً.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾

يعني جلّ ثناؤه بقوله «فاتقوا النار»، يقول: فاتقوا أن تَصْلَوُا النارَ بتكذيبكم رسولي بما جاءكم به من عندي أنه من وَحْيِي وتنزيلي، بعد تَبَيُّنِكُم أنه كتابي ومن عندي، وقيام الحجة عليكم بأنه كلامي ووحيي، بعجزِكم وعجزِ جميع خَلْقِي عن أنْ يأتوا بمثله.

ثم وصف جلّ ثناؤه النارَ التي حَذَّرهم صِلِيَّهَا فأخبرهم أنَّ الناسَ وَقُودُها، وأن الحجـارة وَقُـودها، فقال: «التي وقودها الناسُ والحجارة»، يعني بقوله: «وَقُودُها» حَطَبُها، والعربُ تَجعله مصدراً وهو اسم، إذا فتحت الواو، بمنزلة الحطب.

فإذا ضَمت الواو من «الوقود» كان مصدراً من قول القائل: وَقدَت النارُ فهي تَقِدُ وقوداً وقِدَة ووَقَداناً وَوقْداً، يراد بذلك أنها التهبتْ.

فإن قال قائل: وكيف خُصَّت الحجارة فقرنت بالناس، حتى جُعلت لنارِ جهنم حطباً؟

قيل: إنها حجارةُ الكبريت، وهي أشد الحجارة ـ فيما بلغنا ـ حَرّاً إذا أُحميت.

القول في تأويل قوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾

قد دللنا فيما مضى من كتابنا هذا، على أنَّ «الكافر» في كلام العرب، هو الساترُ شيئاً بغطاء، وأن الله جلّ ثناؤه إنما سَمَّى الكافرَ كافراً، لجحودهِ آلاءَهُ عنده، وتغطيته نَعماءَهُ قِبَله.

فمعنى قوله إذاً: «أُعدت للكافرين»، أُعدت النارُ للجاحدين أن الله رَبُّهم المتوحِّدُ بخَلْقِهم وخَلْقِ الذين من قبلهم، الذي جَعل لهمُ الأرضَ فراشاً، والسماء بناءً، وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لهم - المُشْركينَ معه في عبادَتِهِ الأندادَ والآلهة، وهو المتفردُ لهم بالإنشاء، والمتوحِّدُ بالأقواتِ والأرزاق.

القول في تأويل قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾

أما قوله تعالى: «وبشِّر»، فإنه يعني: أخبرهم. والبشارة أصلها الخبرُ بما يُسَرُّ به المخبَرُ، إذا كان سابقاً به كُلَّ مخبِرٍ سواه.

وهذا أمرٌ من الله تعالى نبيَّه محمداً ﷺ بإبلاغ بشارتِهِ خَلْقَهُ الذين آمنوا به وبمحمد ﷺ وبما جاء به من عند ربه، وصدقوا إيمانهم ذلك وإقرَارهم بأعمالهم الصالحة، فقال له: يا محمد، بشِّرْ مَنْ صدَّقك أنك رسولي - وأنَّ ما جئتَ به من الهدى والنور فمن عندي، وحقَّق تصديقَهُ ذلك قولاً بأداء الصالح من الأعمال التي افترضتها عليه، وأوجبتُها في كتابي على لسانك عليه - أنَّ له جناتٍ تجري من تحتها الأنهار، خاصةً، دُون مَنْ كذَّب بكَ وأنكرَ ما جئته به من الهدى من عندي وعانَدَكَ، ودونَ مَنْ أظهر تصديقكَ، وأقرَّ أنَّ ما جِئْتَهُ به فمن عندي قولاً، وجَحَدَهُ اعتقاداً، ولم يحققه عملاً. فإن لأولئك النارَ التي وَقُودها الناسُ والحجارة، معدةً عندي.

والجنات: جمع جنة، والجنة: البستان.

وإنما عنى جلّ ذكره بذكر الجنة: ما في الجنةِ من أشجارها وثمارها وغروسها، دون أرضها - ولذلك قال عَزَّ ذِكْرُه: «تجري من تحتها الأنهار». لأنه

معلومٌ أنـه إنما أراد جلّ ثناؤه الخبرَ عن ماءِ أنهارِها أنه جارٍ تحت أشجارِها وغروسها وثمارها، لا أنه جارٍ تحت أرضها. لأن الماء إذا كان جارياً تحت الأرض، فلا حظَّ فيها لعيون مَنْ فوقها إلا بكشف الساتر بينها وبينه. على أنَّ الذي تُوصفُ به أنهارُ الجنة، أنها جارية في غير أخاديد.

فإذا كان الأمر كذلك، في أنَّ أنهارَها جاريةٌ في غير أخاديد، فلاشك أنَّ الـذي أُريدَ بالجنات: أشجارُ الجنات وغروسها وثمارها دون أرضها، إذا كانت أنهارها تجري فوق أرضها وتحتَ غروسها وأشجارها، وذلك أولى بصفة الجنة من أن تكون أنهارها جاريةً تحت أرضها.

وإنما رَغَّبَ الله جلّ ثناؤه بهذه الآية عبادَهُ في الإيمان، وحَضَّهم على عبادته بما أخبرهم أنه أعَدَّهُ لأهل طاعته والإيمان به عنده، كما حَذَّرهم في الآيةِ التي قَبْلَها بما أخبر من إعدادِه ما أعَدَّ ـ لأهلِ الكفر به، الجاعلينَ معه الآلهة والأنداد ـ من عقابِهِ عن إشراكِ غيرِه معه، والتعرض لعقوبته بركوبِ معصيته وتَرك طاعته.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «كلما رُزقوا منها»: من الجنات، والهاء راجعةٌ على الجنات، وإنما المعني أشجارها، فكأنه قال: كلما رُزقوا ـ من أشجارِ البساتين التي أعدها الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات في جناته ـ من ثمرة من ثمارها رزقاً قالوا: هذا الذي رُزقنا من قَبْلُ.

ثم اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «هذا الذي رُزقنا من قبل».

فقال بعضهم: تأويل ذلك: هذا الذي رُزقنا من قبل هذا في الدنيا.

وقال آخرون: بل تأويلُ ذلك: هذا الذي رُزِقْنَا من ثمار الجنة من قبل هذا، لشدةِ مشابهةِ بعضِ ذلك في اللونِ والطعم بعضاً. ومن علة قائلي هذا القول: أن ثمار الجنة كلما نُزِعَ منها شيءٌ عاد مكانه آخرُ مثله.

وقال بعضهم: بل قالوا «هذا الذي رزقنا من قبل»، لمشابهته الذي قَبْلَهُ في اللونِ، وإنْ خالفه في الطعم.

وهذا التأويل مذهبُ مَنْ تأول الآية. غير أنه يدفع صحته ظاهرُ التلاوة. والذي يدل على صحته ظاهرُ الآية ويحقق صحته، قولُ القائلين: إن معنى ذلك: هذا الذي رزقنا من قبلُ في الدنيا. وذلك أن الله جلّ ثناؤه قال: «كلما رُزقـوا منهـا من ثمرة رزقاً»، فأخبر جَلَّ ثناؤُهُ أن مِنْ قِيل أهلِ الجنةِ كلما رُزقُوا من ثمر الجنة رزقاً، أن يقولوا: هذا الذي رُزقنا من قبلُ. ولم يخصص بأنَّ ذلك من قِيلهم في بعضِ ذلك دون بعضٍ. فإذْ كان قد أخبر جلّ ذكره عنهم أن ذلك من قِيلهم في كل ما رُزقوا من ثمرها، فلا شك أنَّ ذلك من قِيلهم في أولِ رزقٍ رُزِقُوهُ من ثمارها أُتُوا به بعد دخولهم الجنةَ واستقرارهم فيها، الذي لم يتقدمه عندهم من ثمارها ثمرة. فإذْ كان لاشك أن ذلك من قِيلهم في أوله، كما هو من قِيلهم في أوْسطه ومَا يَتلوه ـ فمعلومٌ أنه مُحال أن يكون من قِيلهم لأولِ رزقٍ رُزِقُوه من ثمار الجنة: هذا الذي رُزقنا من قبل هذا من ثمار الجنة! وكيف يجوز أن يقولوا لأولِ رزقٍ رُزقوه من ثمارها ولمَّا يتقدمه عندهم غيره: هذا هو الذي رُزقناه من قبل؟ إلا أنْ ينسُبهم ذُو غَيَّة وضَلالٍ إلى قِيلِ الكذبِ الذي قد طَهَّرَهُم اللهُ منه، أو يدفعَ دافعٌ أن يكونَ ذلك من قِيلهم لأول رزقٍ رُزقوهُ منها من ثمارها، فيدفعَ صحةَ ما أوجبَ الله صحته بقوله: «كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً»، من غير نصب دلالة على أنه معنيٌّ به حالٌ من أحوالهم دون حال.

فقد تبين بما بيَّنا أنَّ معنى الآية: كلما رُزق الذين آمنوا وعملوا الصالحات من ثمرة من ثمار الجنة في الجنة رزقاً قالوا: هذا الذي رُزقنا من قبل هذا في الدنيا.

فإن سألنا سائل، فقال: وكيف قال القوم: هذا الذي رُزقنا من قَبْلُ، والذي رُزقوه من قَبْلُ قد عُدِمَ بأكلِهم إياه؟ وكيف يجوز أن يقول أهل الجنة قولاً لا حقيقةَ له؟

قيل: إن الأمر على غير ما ذهبتَ إليه في ذلك. وإنما معناه: هذا من النوع الذي رُزقناه من قَبل هذا، من الثمار والرزق. كالرجل يقول لآخر: قد أعَدَّ لك فلانٌ من الطعام كذا وكذا من ألوان الطبيخ والشواء والحلوى. فيقول المقولُ له ذاك: هذا طعامي في منزلي. يعني بذلك: أن النوع الذي ذكر له صاحبه أنه أعده له من الطعام هو طعامُه، لا أن أعيانَ ما أخبره صاحبه أنه قد أعده له، هو طعامه. بل ذلك مما لا يجوز لسامعٍ سَمعه يقول ذلك، أن يتوهم أنه أراده أو قصدَه، لأن ذلك خلافُ مَخرَج كلامِ المتكلم. وإنما يوجَّه كلامُ كُلِّ متكلمٍ إلى المعروفِ في الناس من مخارجه، دون المجهولِ من معانيه. فكذلك ذلك في قوله: «قالوا هذا الذي رُزقنا من قبل»، إذ كان ما كانوا رُزقوه من قَبْلُ قد فَنِيَ وعُدِم. فمعلوم أنهم عَنَوْا بذلك: هذا من النوع الذي رُزقناه من قبل، ومن جنسه في السِّمَات والألوان.

القول في تأويل قوله: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَـٰبِهاً﴾

والهاء في قوله: «وأُتوا به مُتشابهاً» عائدةٌ على الرزق فتأويله: وأُتوا بالذي رُزقوا من ثمارها متشابهاً.

وقد اختلَفَ أهلُ التأويل في تأويل «المتشابه» في ذلك:

فقال بعضهم: تشابُهه أن كله خيار لا رَذْلَ فيه.

وقال بعضهم: تشابُهه في اللون وهو مختلفٌ في الطعم.

وقال بعضهم: تشابُهه في اللون والطعم.

وقـال بعضهم: تشـابُهه، تشابه ثمر الجنة وثمر الدنيا في اللون، وإن اختلف طعومهما.

وقال بعضهم: لا يُشبه شيءٌ مِمَّا في الجنة ما في الدنيا، إلا الأسماء.

وأولى هذه التأويلات بتأويل الآية، تأويلُ من قال: وأُتُوا به متشابهاً في اللونِ والمنظر، والطعمُ مختلفٌ. يعني بذلك اشتباه ثمر الجنة وثمر الدنيا في المنظر واللون، مختلفاً في الطعمِ والذوقِ، لِمَا قَدَّمْنَا من العلة في تأويل قوله: «كلما رُزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رُزقنا من قبل» وأن معناه: كلما رُزقوا من الجِنان من ثمرةٍ من ثمارها رزقاً قالوا: هذا الذي رُزقنا من قبل هذا في الدنيا: فأخبر الله جلّ ثناؤه عنهم أنهم قالوا ذلك، ومن أجل أنهم أُتُوا بما أُتُوا به من ذلك في الجنة متشابهاً، يعني بذلك تشابهَ ما أُتُوا به في الجنة منه. والذي كانوا رُزِقُوه في الدنيا، في اللونِ والمرأى والمنظر، وإنْ اختلفا في الطعم والذوق، فتباينا، فلم يكن لشيءٍ مما في الجنة من ذلك نظيرٌ في الدنيا.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾

والهـاء والميم اللتـان في «لهم» عائـدتـان على الـذين آمنـوا وعملوا الصـالحات، والهاء والألف اللتان في «فيها» عائدتان على الجنات. وتأويل ذلك: وبشِّرِ الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جناتٍ فيها أزواجٌ مطهرة.

والأزواج جمع زَوْج، وهي امرأةُ الرجل. يقال: فلانة زَوْجُ فلان وزوجته.

وأما قوله: «مُطَهَّرة» فإنَّ تأويله أنهن طُهِّرنَ من كُلِّ أذىً وقَذىً وريبةٍ، مما يكون في نساءِ أهلِ الدنيا، من الحيضِ والنفاسِ والغائطِ والبول والمخاط والبُصاقِ والمني، وما أشبه ذلك من الأذى والأدناس والريب والمكاره.

القول في تأويل قوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٥﴾

يعني تعالى ذكره بذلك: والذين آمنوا وعملوا الصالحات في الجنات خالدون. والهاء والميم من قوله «وهم»، عائدة على الذين آمنوا وعملوا الصالحات. والهاء والألف في «فيها» على الجنات. وخُلودُهم فيها دوامُ بقائِهم فيها على ما أعطاهم اللهُ فيها من الحَبْرَةِ والنعيمِ المقيم.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾

إن الله جلّ ذكره أخبر عباده أنه لا يستحيي أنْ يضربَ مثلاً ما بعوضةً فما فوقها، عَقِيب أمثالٍ قد تَقَدَّمَتْ في هذه السورة، ضربها للمنافقين، دون الأمثال التي ضربها في سائر السور غيرها. فَلأَنْ يكون هذا القول - أعني قوله: «إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما» - جواباً لنكيرِ الكفارِ والمنافقين ما ضرب لهم من الأمثال في هذه السورة، أحق وأولى من أنْ يكون ذلك جواباً لنكيرهم ما ضرب لهم من الأمثال في غيرها من السور.

فإن قال قائل: إنما أوجبَ أنْ يكون ذلك جواباً لنكيرهم ما ضرَب من الأمثال في سائر السور، لأنَّ الأمثالَ التي ضربها اللهُ لهم ولآلهتهم في سائر السور أمثالٌ موافقة المعنى لما أخبر عنه: أنه لا يستحيي أن يضربه مثلاً، إذْ كان بعضها تمثيلاً لآلهتهم بالعنكبوت، وبعضها تشبيهاً لها في الضَّعْفِ والمهانةِ

بالذباب. وليس ذكر شيء من ذلك بموجود في هذه السورة، فيجوزَ أنْ يقال: إن الله لا يستحيي أن يضربه مثلاً.

فإن ذلك بخلاف ما ظنّ. وذلك أنَّ قولَ الله جلّ ثناؤه: «إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها»، إنما هو خبرٌ منه جَلَّ ذِكْرُهُ أنه لا يستحيي أنْ يضربَ في الحق من الأمثالِ صغيرها وكبيرها، ابتلاءً بذلك عبادَهُ واختباراً منه لهم، ليميزَ به أهلَ الإيمانِ والتصديقِ به من أهلِ الضلالِ والكفرِ به، إضلالاً منه به لقوم، وهدايةً منه به لآخرين.

لا أنه جَلَّ ذِكْرُه قصَد الخبرَ عن عين البعوضة أنه لا يستحيي من ضَرْبِ المَثَلِ بها، ولكن البعوضةَ لَمَّا كانت أضعفَ الخَلْقِ خَصَّها اللهُ بالذكر في القِلة، فأخبر أنه لا يستحيي أن يضرب أقلَّ الأمثالِ في الحق وأحقرَها وأعلاها إلى غير نهاية في الارتفاع، جواباً منه جلّ ذكره لمن أنكر من منافقي خَلْقِه ما ضرَب لهم من المثل بِمُوقِد النارِ والصَّيب من السماء، على ما نَعتهما به من نَعْتهما.

فإن قال لنا قائل: وأين ذِكْرُ نكيرِ المنافقين الأمثالَ التي وصفتَ، الذي هذا الخبرُ جوابه، فنعلم أنَّ القولَ في ذلك ما قلتَ؟

قيل: الدلالة على ذلك بينةٌ في قولِ الله تعالى ذكره: «فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحَقُّ من رَبِّهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً». وإن القوم الذين ضرَب لهم الأمثال في الآيتين المقدَّمتين ـ اللتين مثَّل ما عليه المنافقون مقيمون فيهما: بموقِد النار والصَّيب من السماء، على ما وصفَ من ذلك قبل قوله: «إنَّ الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً» ـ قد أنكروا المثل وقالوا: ماذا أراد الله بهذا مثلاً؟ فأوضح لهم تعالى ذكره خطأً قِيلهم ذلك، وقَبَّحَ لهم ما نَطَقُوا به، وأخبرهم بحكمهم في قِيلهم ما قالوا منه، وأنه ضلالٌ وفسوقٌ،

وأن الصوابَ والهدى ما قاله المؤمنون دون ما قالوه.

وأما تأويل قوله: «إن الله لا يستحيي»، فإنَّ بعض المنسوبين إلى المعرفة بلغةِ العرب كان يتأول معنى «إن الله لا يستحيي»: إن الله لا يخشى أن يضرب مثلاً، ويستشهدُ على ذلك من قوله بقول الله تعالى: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، ويزعم أن معنى ذلك: وتستحي الناس والله أحق أن تستحيه ـ فيقول: الاستحياء بمعنى الخشية، والخشية بمعنى الاستحياء.

وأما معنى قوله: «أن يضرب مثلاً»، فهو أن يبيِّن ويصف، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [الروم: ٢٨]، بمعنى وَصَفَ لكم.

وأما «ما» التي مع «مثل»، فإنها بمعنى «الذي»، لأن معنى الكلام: إن الله لا يستحيي أن يضرب الذي هو بعوضة في الصغر والقلة فما فوقها ـ مثلاً.

فإن قال لنا قائل: فإنْ كان القولُ في ذلك ما قلتَ، فما وجه نصب البعوضة، وقد علمتَ أنَّ تأويل الكلام ما تأولت: أن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً الذي هو بعوضة؛ فالبعوضةُ على قولك في محل الرفع؟ فأنَّى أتاها النصبُ؟

قيل: أتاها النصبُ من وجهين:

أحدُهما: أن «ما» لما كانت في محل نَصْب بقوله «يضرب»، وكانت البعوضة لها صلة، عُرِّبت بتعريبها، فألزمت إعرابها. والعرب تفعل ذلك خاصة في «من» و«ما»، تعرب صِلاتهما بإعرابهما، لأنهما يكونان معرفة أحياناً، ونكرة أحياناً.

وأما الوجه الآخر: فأنْ يكون معنى الكلام: إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بين بعوضةٍ إلى ما فوقها، ثم حذف ذكر «بين» و«إلى»، إذ كان في

نصب البعوضة ودخول الفاء في «ما» الثانية، دلالة عليهما، كما قالت العرب: «مُطِرنا ما زُبالة فالثَّعْلَبِيَّة»، و«له عشرون ما ناقة فجملاً»، و«هي أحسنُ الناس ما قرناً فقدماً»، يعنون: ما بين قَرْنِها إلى قَدَمِهَا. وكذلك يقولون في كل ما حَسُنَ فيه من الكلام دخول: «ما بين كذا إلى كذا»، ينصبون الأول والثاني، ليدل النصبُ فيهما على المحذوف من الكلام. فكذلك ذلك في قوله: «ما بعوضة فما فوقها»[1].

وأما تأويل قوله «فما فوقها»: فما هو أعظم منها ـ عندي ـ لما ذكرنا أن البعوض أضعف خلق الله، فإذْ كانت أضعف خلق الله فهي نهايةٌ في القِلَّةِ والضعفِ. وإذْ كانت كذلك، فلاشك أنَّ ما فوق أضعف الأشياء، لا يكون إلا أقوى منه. فقد يجب أن يكون المعنى: فما فوقها في العظم والكبر، إذ كانت البعوضة نهايةً في الضعف والقلة. فقد تبين إذاً بما وصفنا، أن معنى الكلام: إن الله لا يستحيي أنْ يَصِفَ شبَهاً لما شبَّه به الذي هو ما بين بعوضةٍ إلى ما فوق البعوضة.

فأما تأويل الكلام لو رفعت البعوضة، فغير جائز في «ما»، إلا ما قلنا من أن تكون اسماً، لا صلة بمعنى التطول.

القول في تأويل قوله: **﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾**

يعني تعالى ذكره بقوله: «فأما الذين آمنوا»، فأما الذين صدقوا الله

---

(١) أكثر هذا من كلام الفراء في معاني القرآن ١: ٢١ ـ ٢٢، وذكر الوجهين السالفين جميعاً، وكلامه أبسط من كلام الطبري وأبين.

ورسوله. وقوله: «فيعلمون أنه الحق من ربهم». يعني: فيعرفون أن المثَل الذي ضرَبه الله، لِما ضرَبه له، مثَل.

وقوله «وأما الذين كفرُوا»، يعني الذين جحدوا آياتِ الله، وأنكرُوا ما عرَفوا، وستروا ما علموا أنه حَقٌّ، وذلك صفةُ المنافقين، وإياهم عَنَى اللهُ جَلَّ وعز - ومَنْ كان من نظرائهم وشركائهم من المشركين من أهل الكتاب وغيرهم - بهذه الآية، فيقولون: ماذا أراد الله بهذا مثلاً.

وتأويل قوله «ماذا أراد الله بهذا مثلاً»، ما الذي أراد الله بهذا المثل مثلاً. «فذا»، الذي مع «ما»، في معنى «الذي»، وأراد صلته. وهذا إشارةٌ إلى المثل.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾

يعني بقوله جلّ وعز: «يضل به كثيراً»، يُضِلُّ اللهُ به كثيراً من خَلْقِه. والهاء في «به» من ذكر المثل. وهذا خبر من الله جلّ ثناؤه مبتدَأً، ومعنى الكلام: أن الله يُضل بالمثل الذي يضربه كثيراً من أهل النفاق والكفر. فيزيد هؤلاء ضلالاً إلى ضلالهم، لتكذيبهم بما قد عَلِمُوه حقاً يقيناً من المثل الذي ضربه الله لما ضربه له، وأنه لما ضربَه له موافق. فذلك إضْلالُ الله إياهم به. و«يهدي به»، يعني المثل، كثيراً من أهلِ الإيمانِ والتصديق، فيزيدهم هُدىً إلى هُداهم وإيماناً إلى إيمانهم. لتصديقهم بما قد علموه حقاً يقيناً أنه موافق ما ضرَبه الله له مثلاً، وإقرارُهم به. وذلك هدايةٌ من الله لهم به.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ٢٦﴾

وأصلُ الفسق في كلام العرب: الخروجُ عن الشيء. يقال منه: فسقت

الرُّطَبَة إذا خرجت من قشرها. ومن ذلك سُميت الفأرةُ فُوَيْسِقة، لخروجها عن جُحرها، فكذلك المنافق والكافر سُميا فاسِقَيْن، لخروجهما عن طاعة ربهما. ولذلك قال جلّ ذكره في صفة إبليس: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦ﴾ [الكهف: ٥٠]، يعني به خرج عن طاعته واتباعِ أمره.

فمعنى قوله: «وما يُضِل به إلا الفاسقين»، وما يضل الله بالمثل الذي يضربُه لأهلِ الضلال والنفاق. إلا الخارجينَ عن طاعته، والتاركينَ اتباعَ أمرِهِ، من أهلِ الكفرِ به من أهلِ الكتاب، وأهل الضلال من أهلِ النفاق.

القول في تأويل قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾

وهذا وصف من الله جلّ ذكره الفاسقين الذين أخبر أنه لا يُضل بالمثَل الذي ضربه لأهل النفاق غيرَهم، فقال: وما يُضِل الله بالمثل الذي يضربه ـ على ما وصف قبلُ في الآيات المتقدمة ـ إلا الفاسقين الذين ينقُضُون عهد الله من بعد ميثاقه.

ثم اختلف أهلُ المعرفة في معنى العهد الذي وصف اللهُ هؤلاء الفاسقين بنقضه.

وأولى الأقوال عندي بالصواب في ذلك قولُ مَنْ قال: إن هذه الآيات نزلت في كفارِ أحبارِ اليهود الذين كانوا بين ظَهْرانَيْ مهاجَرِ رسولِ الله ﷺ، وما قَرُبَ منها من بقايا بني إسرائيل، ومَنْ كان على شِرْكِهِ من أهلِ النفاق الذين قد بينا قصَصهم فيما مضى من كتابنا هذا.

وقد دللنا على أنَّ قولَ الله جلّ ثناؤه: «إنّ الذين كفروا سواء عليهم»، وقوله: «ومن الناس مَنْ يقولُ آمنا بالله وباليوم الآخر»، فيهم أنزلت، وفيمَنْ كان على مِثْلِ الذي هم عليه من الشرك بالله. غيرَ أن هذه الآيات عندي، وإنْ

كانت فيهم نزلتْ، فإنـه معنيٌّ بها كل مَنْ كان على مثلِ ما كانوا عليه من الضلال، ومعنيٌّ بما وافق منها صفة المنافقين خاصةً، جميعُ المنافقين؛ وبما وافق منها صفةَ كفارِ أحبار اليهود، جميعُ مَنْ كان لهم نظيراً في كفرهم.

وذلك أن الله جلّ ثناؤه يَعُمُّ أحياناً جميعَهم بالصفة، لتقديمهِ ذكر جميعهم في أولِ الآيات التي ذكرتْ قَصَصهم، ويخص أحياناً بالصفة بعضَهم، لتفصيله في أولِ الآيات بين فَرِيقَيْهم، أعني: فريقَ المنافقين من عَبَدَةِ الأوثانِ وأهلِ الشرك بالله، وفريقَ كفارِ أحبارِ اليهود. فالذين ينقضون عهدَ الله، هم التاركون ما عَهِدَ اللهُ إليهم من الإقرار بمحمد ﷺ وبما جاء بِهِ، وتبيين نبوته للناس، الكاتمونَ بيانَ ذلك بعدَ علمهم به، وبما قد أخذَ اللهُ عليهم في ذلك، كما قال الله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، ونبذُهم ذلك وراءَ ظهورِهم، هو نقضُهم العهدَ الذي عهدَ إليهم في التوراة الذي وصفناه، وتركُهم العمل به.

وإنما قلت: إنه عنى بهذه الآيات مَنْ قلتُ إنه عنى بها، لأن الآيات ـ من مبتدأ الآيات الخمس والست من سورة البقرة ـ فيهم نَزَلَتْ، إلى تمام قصصهم. وفي الآية التي بعد الخبر عن خَلْقِ آدم وبيانِهِ في قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]. وخطابِهِ إياهم جلّ ذكره بالوفاء بذلك خاصة دون سائر البشر ـ ما يَدُلُّ على أنَّ قولـه: «الـذين ينقضُون عهدَ الله من بعد ميثاقه» مقصودٌ به كفارهم ومنافقوهم ومَنْ كان من أشياعهم من مشركي عبدةِ الأوثان على ضلالهم. غيرَ أن الخطاب ـ وإن كان لمن وصفت من الفريقين ـ فداخلٌ في أحكامهم، وفيما أوجبَ اللهُ لهم من الوعيد والذم والتوبيخ، كُلُّ مَنْ كان على

سبيلهم ومنهاجِهم من جميعِ الخلق وأصنافِ الأمم المخاطبين بالأمرِ والنهي.

فمعنى الآية إذاً: وما يُضِلُّ به إلا التاركينَ طاعةَ الله، الخارجينَ عن اتباع أمره ونهيه، الناكثين عهودَ الله التي عهدها إليهم، في الكتب التي أنزلها إلى رُسُله وعلى ألسن أنبيائه، باتباع أمرِ رسولِهِ محمد ﷺ وما جاء به، وطاعة الله فيما افترض عليهم في التوراةِ من تبيينِ أمره للناس، وإخبارهم إياهم أنهم يجدونه مكتوباً عندهم أنه رسولٌ من عند الله مفترضةٌ طاعتهُ، وترك كتمان ذلك لهم. ونكثُهم ذلك ونَقضُهم إياه، هو مخالفتهمُ اللهَ في عهدِهِ إليهم ـ فيما وصفتُ أنه عهد إليهم ـ بعد إعطائهم ربهم الميثاقَ بالوفاء بذلك. كما وصفهم به ربنا تعالى ذكره بقوله: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللهِ إلا الحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

وأما قوله: «من بعد ميثاقه»، فإنه يعني: من بعد توَثُّق الله فيه بأخذِ عهودِهِ بالوفاء له، بما عَهِدَ إليهم في ذلك. غيرَ أن التوثق مصدرٌ من قولك: توثقت من فلان تَوَثُّقاً، والميثاقُ اسمٌ منه. والهاء في الميثاق عائدة على اسم الله.

وقد يدخل في حكم هذه الآية كل مَنْ كان بالصفة التي وصف الله بها هؤلاء الفاسقين من المنافقين والكفار، في نقضِ العهدِ وقطعِ الرحم والإفسادِ في الأرض.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾

والذي رَغب اللهُ في وَصْلِه وذمَّ على قطعهِ في هذه الآية: الرَّحِمُ. وقد بين ذلك في كتابه، فقال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢]. وإنما عنى بالرحم أهلَ الرحم

الذين جمعتهم وإياه رَحِمٌ والدةٍ واحدة. وقطعُ ذلك: ظُلْمُهُ في تَرْكِ أداءِ ما ألزمَ اللهُ من حقوقها، وأوجبَ من بِرِّها. وَوَصْلُها: أداءُ الواجبِ لها إليها من حقوقِ الله التي أوجبَ لها، والتعطفُ عليها بما يحقُّ التعطف به عليها.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾

وفسادُهم في الأرض: هو ما تقدم وَصْفُنَاهُ قَبْلُ من معصيتهم ربَّهم، وكفرهم به، وتكذيبهم رسوله، وجحدهم نبوته، وإنكارِهم ما أتاهم به من عند الله أنه حقٌّ من عنده.

القول في تأويل قوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ۝٢٧﴾

والخاسرون جمع خاسر، والخاسرون: الناقصُون أنفسهم حظوظَها ـ بمعصيتهم الله ـ من رحمته، كما يخسرُ الرجل في تجارته، بأنْ يُوضَع من رأس ماله في بيعه. فكذلك الكافر والمنافق، خسر بحرمان الله إياه رحمتَه التي خلقها لعباده في القيامة، أحوج ما كان إلى رحمته.

القول في تأويل قول الله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٨ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾

إن معنى قوله: «وكنتم أمواتاً» أمواتَ الذِّكْرِ، خمولاً في أصلاب آبائكم نُطَفاً، لا تُعْرَفُونَ ولا تُذْكَرُونَ: فأحياكم بإنشائكم بشراً سوياً حتى ذُكِرتم وعُرِفتم وحَيِيتم، ثمَّ يميتكم بقبضِ أرواحكم وإعادتِكُم رُفاتاً لا تُعرفون ولاَ تُذكرون في

البرزخ إلى يوم تُبْعَثُونَ، ثم يحييكم بعد ذلك بنفخ الأرواح فيكم لبعث الساعة وصَيحةِ القيامة، ثم إلى الله تُرجعونَ، بعد ذلك، كما قال: «ثم إليه تُرجعون»، لأن الله جلّ ثناؤه يحييهم في قبورهم قبلَ حشرهم، ثم يحشرهم لموقفِ الحساب، كما قال جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣] وقال: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلونَ﴾ [يس: ٥١].

وهذه الآية توبيخٌ من الله جلّ ثناؤه للقائلين: «آمنَّا بالله وباليوم الآخر»، الذين أخبر الله عنهم أنهم مع قِيلهم ذلك بأفواهِهم، غيرُ مؤمنين به. وأنهم إنما يقولون ذلك خِداعاً لله وللمؤمنين، فعذَلهم الله بقوله: «كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم»، ووبَّخهم واحتج عليهم - في نكيرهم ما أنكروا من ذلك وجحودهم ما جحدوا بقلوبهم المريضة - فقال: كيف تكفرون بالله فتجحدون قُدْرَتَهُ على إحيائِكم بعد إماتتكم، لبعث القيامة، ومجازاةِ المُسِيء منكم بالإساءةِ والمحسن بالإحسان، وقد كنتم نطفاً أمواتاً في أصلاب آبائكم، فأنشأكم خَلْقاً سوياً، وجعلكم أحياءً، ثم أماتكم بعد إنشائكم. فقد علمتم أنَّ مَنْ فعل ذلك بقدرته، غير مُعْجزهِ - بالقدرة التي فعل ذلك بكم - إحياؤكم بعد إماتتكم، وإعادتكم بعد إفنائِكم، وحشركم إليه لمجازاتكم بأعمالكم.

ثم عَدَّدَ ربنا تعالى ذكره عليهم وعلى أوليائهم من أحبار اليهود - الذين جمع بين قَصَصهم وقَصَص المنافقين في كثيرٍ من آي هذه السورة التي افتتح الخبرَ عنهم فيها بقوله: «إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تُنذرْهم لا يؤمنون» - نِعَمَهُ التي سَلَفَتْ منه إليهم وإلى آبائهم، التي عَظُمَتْ منهم مواقعها. ثم سَلَبَ كثيراً منهم كثيراً منها، بما رَكِبُوا من الآثام، واجترموا من الأجرام، وخالفوا من الطاعةِ إلى المعصية، مُحَذِّرَهُم بذلك تعجيلَ العقوبة لهم، كالتي عَجَّلَها للأسلافِ والأَفْراطِ قبلهم، ومُخوِّفَهم حُلولَ مَثُلاتِه بساحتهم

كالذي أحل بأوَّليهم، ومُعرِّفَهم ما لهم من النجاةِ في سرعة الأَوْبةِ إليه، وتعجيلِ التوبة، ومن الخلاص لهم يوم القيامة من العقاب.

فبدأ بعد تعديده عليهم ما عدَّد من نعمه التي هم فيها مُقيمون، بذكر أبينا وأبيهم آدم أبي البشر صلوات الله عليه، وما سلف منه من كرامته إليه، وآلائه لديه، وما أحلَّ به وبعدوِّهِ إبليس من عاجلِ عقوبته بمعصيتهما التي كانت منهما، ومخالفتهما أمره الذي أمرهما به. وما كان من تَغَمُّدِهِ آدمَ برحمته إذْ تاب وأناب إليه. وما كان من إحلالهِ بإبليس من لعنتهِ في العاجل، وإعداده له ما أعَدَّ له من العذابِ المقيم في الآجل، إذ استكبر وأبى التوبةَ إليه والإنابة، منبهاً لهم على حكمهِ في المنيبين إليه بالتوبة، وقضائه في المستكبرين عن الإنابة، إعذاراً من الله بذلك إليهم، وإنذاراً لهم، ليتدبروا آياته وليتذكر منهم أولُو الألباب. وخاصًّاً أهلَ الكتاب ـ بما ذَكر من قصص آدم وسائر القصص التي ذكرها معها وبعدها، مما عَلِمَهُ أهلُ الكتاب وجَهِلَتْهُ الأمَّةُ الأمّيةُ من مشركي عَبَدةِ الأوثان ـ بالاحتجاج عليهم ـ دون غيرهم من سائر أصناف الأمم، الذين لا علم عندهم بذلك ـ لنبيه محمد ﷺ، ليعلموا بإخبارهِ إياهم بذلك، أنَّهُ للهِ رسولٌ مبعوثٌ، وأنَّ ما جاءهم به فَمِنْ عندهِ. إذْ كان ما اقتص عليهم من هذه القصص، من مكنونِ علومهم، ومَصُونِ ما في كتبهم، وخفيِّ أمورهم التي لم يكن يدعي معرفةَ عِلْمِهَا غيرُهم وغيرُ مَنْ أخذَ عنهم وقرأ كتبهم.

وكان معلوماً من محمد ﷺ أنه لم يكن قط كاتباً، ولا لأسفارهم تالياً، ولا لأحدٍ منهم مُصاحباً ولا مجالساً، فيمكنهم أنْ يَدَّعوا أنه أخذ ذلك من كتبهم أو عن بعضهم، فقال جلّ ذكره ـ في تعديدهِ عليهم ما هُمْ فيه مقيمون من نعمه، مع كفرهم به، وتركهم شُكْرَهُ عليها بما يجبُ له عليهم من طاعته: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]. فأخبرهم جلّ ذكره أنه خلق

لهم ما في الأرض جميعاً، لأن الأرضَ وجميع ما فيها لبني آدم منافعُ. أما في الدين، فدليلٌ على وحدانية ربهم، وأما في الدنيا فمعاشٌ وبلاغ لهم إلى طاعتهِ وأداء فرائضه، فلذلك قال جلّ ذكره: «هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً».

وقوله: «هو» مكنيٌّ من اسم الله جلّ ذِكْرُه عائدٌ على اسمه في قوله: «كيف تكفرون بالله». ومعنى خَلْقِه ما خَلَقَ جَلَّ ثناؤه، إنشاؤه عينه، وإخراجه من حال العدم إلى الوجود. و«ما» بمعنى «الذي».

فمعنى الكلام إذاً: كيف تكفرون بالله وكنتم نُطفاً في أصلاب آبائكم فجعلكم بشراً أحياءً، ثم يُمِيتكم، ثم هو مُحْيِيكم بعد ذلك وباعثكم يوم الحشرِ للثوابِ والعقاب، وهو المنعمُ عليكم بما خلق لكم في الأرض من معايشكم وأدلتكم على وحدانية ربكم.

و«كيف» بمعنى التعجب والتوبيخ، لا بمعنى الاستفهام، كأنه قال: ويْحَكم كيف تكفرون بالله، كما قال: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [التكوير: ٢٦].

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾

الاستواء في كلام العرب منصرف على وجوه: منها انتهاءُ شباب الرجل وقوته، فيقال، إذا صار كذلك: قد استوى الرجلُ. ومنها: استقامة ما كان فيه أَوَدٌ من الأمور والأسباب، يقال منه: استوى لفلان أمرُه إذا استقام بعد أَوَدٍ. ومنها: الإقبال على الشيء يقال استوى فلان على فلان بما يكرهه ويسوؤه بعد الإحسان إليه. ومنها: الاحتياز والاستيلاء. كقولهم: استوى فلانٌ على

المملكة. بمعنى احتوى عليها وحازَها. ومنها: العلو والارتفاع، كقول القائل، استوى فلان على سريره. يعني به علوَّه عليه.

وأوْلى المعاني بقول الله جلّ ثناؤه: «ثم استوى إلى السماء فسوَّاهن»، علا عليهن وارتفع، فدبرهن بقدرته، وخلقهنَّ سبع سماوات.

والعجبُ ممن أنكر المعنى المفهوم من كلام العرب في تأويل قول الله: «ثم استوى إلى السماء»، الذي هو بمعنى العلو والارتفاع، هرباً عند نفسه من أن يلزمه بزعمه ـ إذا تأوله بمعناه المفهوم كذلك ـ أن يكون إنما علاَ وارتفع بعد أن كان تحتها ـ إلى أن تأوله بالمجهول من تأويله المستنكر. ثم لم يَنْجُ مما هرَب منه! فيقال له: زعمت أن تأويل قوله «استوى» أقبلَ، أفكان مُدْبراً عن السماء فأقبل إليها؟ فإنْ زعم أن ذلك ليس بإقبال فعل، ولكنه إقبال تدبير، قيل له: فكذلك فقُلْ: علا عليها علو مُلْكٍ وسُلْطان، لا عُلُوَّ انتقالٍ وزَوال. ثم لن يقول في شيء من ذلك قولا إلا ألزم في الآخر مثله. ولولا أنا كرهنا إطالةَ الكتاب بما ليس من جنسه، لأنبأنا عن فسادِ قولِ كل قائلٍ قال في ذلك قولاً، لقول أهل الحق فيه مخالفاً. وفيما بَيَّنا منه ما يُشرِف بذي الفهم على ما فيه له الكفاية إن شاء الله تعالى.

فإن قال لنا قائل: أخبرنا عن استواء الله جلّ ثناؤه إلى السماء، كان قبل خلق السماء أم بعده؟

قيل: بعده، وقبل أن يسويهن سبعَ سماوات، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾ [فصلت: ١١]. والاستواء كان بعد أن خلقها دُخاناً، وقبل أن يسوِّيَها سبعَ سموات.

وأما قوله «فسواهن» فإنه يعني: هَيَّأهن وخلقهن ودبَّرهن وقوَّمهن. والتسوية في كلام العرب: التقويم والإصلاح والتوطئة، كما يقال: سوَّى فلان لفلان هذا الأمر. إذا قَوَّمَهُ وأصلحه وَوَطَّأه له. فكذلك تسوية الله جلّ ثناؤه سماواته: تقويمه إياهن على مشيئته، وتدبيره لهن على إرادته، وتفتيقهن بعد ارتتاقهن.

فمعنى الكلام إذاً: هو الذي أنعم عليكم، فخلق لكم ما في الأرض جميعاً وسخَّره لكم تفضُّلاً منه بذلك عليكم، ليكون لكم بلاغاً في دنياكم ومتاعاً إلى موافاةِ آجالكم، ودليلاً لكم على وَحدانية ربكم. ثم علا إلى السماوات السبع وهي دخان، فسوَّاهن وحبَكهن، وأجرىٰ في بعضهن شمسَهُ وقمره ونجومه، وقَدَّرَ في كُلِّ واحدةٍ منهن ما قدر من خلقه.

القول في تأويل قوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٢٩﴾

يعني بقوله جلّ جلاله: «وهو»: نفسَه. وبقوله: «بكل شيء عليم»: أن الذي خلقكم، وخلق لكم ما في الأرض جميعاً، وسَوَّى السماوات السبع بما فيهن فأحكمهن من دخان الماء، وأتقن صُنْعَهُنَّ، لا يخفى عليه - أيها المنافقون والملحدون الكافرون به من أهل الكتاب - ما تبدون وما تكتمون في أنفسكم. وإن أبدى منافقوكم بألسنتهم قولهم: آمنا بالله وباليوم الآخر، وهم على التكذيب به منطوون. وكذَّبتْ أحباركم بما أتاهم به رسولي من الهدى والنور. وهم بصحَّتِهِ عارفون. وجحدوه وكتموا ما قد أخذتُ عليهم - ببيانه لخلقي من أمر محمد ونبوته - المواثيقَ وهم به عالمون. بل أنا عالم بذلك من أمركم وغيره من أمورِكم وأمورِ غيركم، إني بكل شيء عليم. وقوله: «عليم» بمعنى عالم.

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾

إن الله جلّ ثناؤه خاطب الذين خاطبهم بقوله: «كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم»، بهذه الآيات والتي بعدها، مُوَبِّخهم مُقَبِّحاً إليهم سوء فِعَالهم ومقامهم على ضلالهم، مع النعم التي أنعمها عليهم وعلى أسلافهم؛ ومذكِّرَهم ـ بتعديدِ نِعَمِهِ عليهم وعلى أسلافهم ـ بأسَهُ، أن يسلكوا سبيلَ مَنْ هلك من أسلافهم في معصيته، فيسلك بهم سبيلهم في عقوبته؛ ومُعَرِّفَهُم ما كان منه من تعطفه على التائب منهم استعتاباً منه لهم. فكان مما عَدَّدَ من نعمه عليهم أنه خلق لهم ما في الأرض جميعاً، وسَخَّرَ لهم ما في السموات من شمسها وقمرها ونجومها، وغير ذلك من منافعها التي جعلها لهم ولسائر بني آدم معهم منافع. فكان في قوله تعالى ذِكْرُه: «كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون»، معنى: اذكروا نعمتي التي أنعمتُ عليكم، إذ خلقتكم ولم تكونوا شيئاً. وخلقتُ لكم ما في الأرض جميعاً. وسويت لكم ما في السماء. ثم عطف بقوله: «وإذ قال رَبُّك للملائكة» على المعنى المقتضى بقوله: «كيف تكفرون بالله». إذ كان مقتضياً ما وصفتُ من قوله: «اذكروا نعمتي إذ فعلت بكم وفعلتُ، واذكروا فعلي بأبيكم آدم إذ قلتُ للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفةً».

القول في تأويل قوله: ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾

والملائكة جمع مَلأكٍ، غيرَ أن أحدَهم، بغير الهمزة أكثرُ وأشهر في كلام العرب منه بالهمز. وذلك أنهم يقولون في واحدهم: مَلَك من الملائكة، فيحذفون الهمز منه، ويحركون اللام التي كانت مسكنة لو هُمز الاسم. وإنما يحركونها بالفتح، لأنهم ينقلون حركة الهمزة التي فيه بسقوطها إلى الحرف

الساكن قبلها: فإذا جمعوا واحدهم، ردوا الجمع إلى الأصل وهمزوا، فقالوا: ملائكة:

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾

أي مُستخلفٌ في الأرض خليفةً، ومُصَيِّرٌ فيها خَلَفاً.

القول في تأويل قوله: ﴿خَلِيفَةً﴾

والخليفة الفعيلة من قولك: خَلَفَ فلان فلاناً في هذا الأمر، إذا قام مقامه فيه بعده. كما قال جلّ ثناؤه ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤] يعني بذلك أنه أبدلكم في الأرض منهم، فجعلكم خلفاء بعدهم. من ذلك قيل للسلطان الأعظم: خليفة، لأنه خَلَفَ الذي كان قبله، فقام بالأمر مقامه، فكان منه خَلَفاً. يقال منه: خلف الخليفة، يخلُف خلافة وخِلِّيفَى.

القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه خبراً عن ملائكته: ﴿قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾

إنْ قال لنا قائل: وكيف قالتِ الملائكةُ لربها إذْ أخبرها أنه جاعلٌ في الأرض خليفة: «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء»، ولم يكن آدمُ بَعْدُ مخلوقاً ولا ذُريته، فيعلموا ما يفعلونَ عياناً؟ أعلمتِ الغيبَ فقالتْ ذلك، أم قالتْ ما قالتْ من ذلك ظناً؟ فذلك شهادةٌ منها بالظن، وقولٌ بما لا تعلم. وذلك ليس من صفتها. أمْ ما وجه قِيلها ذلك لربها؟

قيل: قد قالت العلماءُ من أهلِ التأويل في ذلك أقوالاً (أَوْلَاها) تأويلُ مَنْ قال: إن ذلكَ منها استخبارٌ لربها، بمعنى: أَعْلِمْنَا يا ربَّنا أجاعلٌ أنتَ في الأرض مَنْ هذه صِفَتُـهُ، وتـاركٌ أنْ تجعـلَ خلفاءَك منا ونحن نُسَبِّحُ بحمدك ونُقَدِّسُ لك ـ لا إنكارٌ منها لِمَا أعْلَمَها رَبُّها أنه فاعلٌ وإنْ كانت قد استعظمتْ لما أخبرت بذلك، أنْ يكونَ لله خَلْقٌ يعصيه.

وأما وصفُ الملائكة مَن وصفت ـ في استخبارها ربَّها عنه ـ بالفساد في الأرض وسفك الدماء، فغير مستحيلٍ فيه، وهو أن الله جلّ ثناؤه أخبرهم أنه جاعلٌ في الأرض خليفة تكون له ذرية يفعلون كذا وكذا، فقالوا: «أتجعل فيها مَنْ يفسد فيها»، على ما وصفت من الاستخبار.

فإنْ قال لنا قائلٌ: وما وجه استخبارها، والأمر على ما وصفتَ، من أنها قد أخبرت أن ذلك كائن؟

قيل: وجه استخبارها حينئذٍ يكون عن حالهم عند وقوع ذلك. وهل ذلك منهم؟ ومسألتهم ربَّهم أن يجعلهم الخلفاءَ في الأرض حتى لا يعصوه.

فإن قال قائل: فإنْ كان أَوْلى التأويلاتِ بالآية هو ما ذكرتَ، من أنَّ الله أخبر الملائكة بأنَّ ذريةَ خليفتهِ في الأرض يفسدون فيها ويسفكون فيها الدماء، فمن أجل ذلك قالت الملائكة: «أَتجعلُ فيها من يُفسدُ فيها»، فأين ذكر إخبارِ الله إياهم في كتابه بذلك؟

قيل له: اكتفى بدلالة ما قد ظهرَ من الكلام عليه عنه، إذ كان فيما أظهر من كلامـه، دلالـة على معنى مُرادهِ. ونظائرُ ذلك في القرآن وأشعار العرب وكلامها أكثر من أنْ يُحصى.

القول في تأويل قوله تعالى: وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ

أمـا قوله: «ونحن نسبِّح بحمدك» فإنه يعني: إنا نعظِّمك بالحمد لك والشكر، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [النصر: ٣]، وكما قال: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ٤]. وكُلُّ ذِكْرٍ لله عند العرب فتسبيحٌ وصلاة. يقول الرجل منهم: قضيتُ سُبْحتي من الذكر والصلاة.

وأصلُ التسبيح لله عند العرب: التنزيهُ له مِنْ إضافةِ ما ليسَ من صفاتهِ إليه، والتبرئة له من ذلك.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾

والتقـديس هو التـطهير والتعظيم، ومنه قولهم: «سُبُّوح قُدُّوس»، يعني بقولهم: «سُبوح»، تنزيهٌ لله، وبقولهم: «قُدوسٌ»، طهارةٌ له وتعظيم. ولذلك قيل للأرض: «أرض مُقدسة»، يعني بذلك المُطَهَّرة. فمعنى قول الملائكة إذاً: «ونحن نسبِّـح بحمدك»، نُنَزِّهُكَ ونُبَرِّئُكَ مما يُضِيفُه إليك أهلُ الشرك بكَ، ونُصَلِّي لك «ونقدس لك»، ننسبك إلى ما هو من صفاتك، من الطهارة من الأدناس وما أضاف إليك أهلُ الكفر بك.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾

وهذا الخبرُ من الله جَلَّ ثناؤه ينبىء عن أن الملائكة التي قالت: «أتجعلُ فيهـا من يُفسد فيها ويسفك الدماء»، استفظعتْ أنْ يكونَ لله خَلْقٌ يعصيه، وعجبتْ منه إذْ أُخْبِرَتْ أنَّ ذَلك كائن. فلذلك قال لهم ربهم: «إني أعلم ما لا تعلمون». يعني بذلك، والله أعلم: إنكم لتعجبون من أمر الله وتستفظعونه، وأنا أعلمُ أنه في بعضكم، وتَصفُونَ أنْفُسَكُم بصفةٍ أعلمُ خِلافَها من بعضكم، وتُعرِّضون بأمرٍ قد جعلته لغيركم. وذلك أنَّ الملائكة لما أخبرها ربها بما هو

كائنٌ من ذريةِ خليفتهِ، من الفساد وسفك الدماء، قالت لربها: يا رب أجاعلٌ أنتَ في الأرضِ خليفةً من غيرِنا، يكونُ من ذريته مَنْ يَعصيكَ، أم منا، فإنَّا نُعَظِّمُكَ ونصلي لك ونطيعك ولا نعصيك؟ - ولم يكن عندها عِلْمٌ بما قد انطوى عليه كَشْحاً إبليسُ من استكباره على ربه - فقال لهم ربهم: إني أعلم غيرَ الذي تقولون من بعضكم. وذلك هو ما كان مستوراً عنهم من أمر إبليس، وانطوائه على ما قد كان انطوى عليه من الكِبْرِ. وعلى قِيلهم ذلك، ووصفهم أنفسهم بالعموم من الوصف، عُوتبوا.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ﴾

على التأويل الذي تأول «آدم» مَن تأوله، بمعنى أنه خُلق من أديم الأرض، يجب أن يكون أصْل «آدم» فعلاً سُمي به أبو البشر، كما سمي «أحمد» بالفعل من الإحماد، و«أسعد» من الإسعاد، فلذلك لم يُجَرَّ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾

اختلف أهلُ التأويل في الأسماء التي علمها آدم ثم عَرضها على الملائكة، (وأَوْلاَهَا) بالصواب، وأشبهها بما دَلَّ على صحتهِ ظاهرُ التلاوة، قولُ مَنْ قال في قوله: «وعلم آدم الأسماء كلها» أنها أسماءُ ذريته وأسماءُ الملائكة، دون أسماءِ سائرِ أجناس الخَلْق. وذلك أن الله جلّ ثناؤه قال: «ثم عرَضهم على الملائكة»، يعني بذلك أعيانَ المسمِّين بالأسماء التي علمها آدم. ولا تكادُ العرب تَكْني بالهاء والميم إلا عن أسماءِ بني آدم والملائكة. وأما إذا كانت عن أسماء البهائم وسائر الخَلْق سِوَى من وصفناها، فإنها تَكْني عنها بالهاء والألف أو بالهاء والنون، فقالت: «عرضهن» أو «عرضها»، وكذلك تفعل إذا كَنَتْ عن

أصنافٍ من الخَلْق كالبهائم والطير وسائر أصناف الأمم وفيها أسماءُ بني آدم والملائكة، فإنها تكني عنها بما وصفنا من الهاء والنون أو الهاء والألف. وربما كَنَتْ عنها، إذا كان كذلك، بالهاء والميم، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ [النور: ٤٥]، فكنى عنها بالهاء والميم، وهي أصنافٌ مختلفة فيها الآدمي وغيره. وذلك، وإن كان جائزاً، فإنَّ الغالبَ المستفيضَ في كلام العرب ما وَصفنا، من إخراجهم كنايةَ أسماء أجناسِ الأمم - إذا اختلطت - بالهاء والألف أو الهاء والنون. فلذلك قلتُ: أولى بتأويل الآية أن تكون الأسماء التي علَّمها آدمَ أسماء أعيان بني آدم وأسماء الملائكة.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾

قد تقدم ذِكْرُنَا التأويلَ الذي هو أَوْلَى بالآية، على قراءتنا ورَسم مُصْحفنا، وأن قوله: «ثم عَرَضهم»، بالدلالة على بني آدم والملائكة، أولى منه بالدلالة على أجناس الخلق كلها، وإن كان غيرَ فاسد أن يكون دالاً على جميعِ أصنافِ الأمم، للعللِ التي وصفنا.

ويعني جلّ ثناؤه بقوله: «ثم عَرَضهم»، ثم عرَض أهل الأسماء على الملائكة.

القول في تأويل قوله: ﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾

وتأويل قوله «أنبئوني»: أخبروني.

القول في تأويل قوله جلّ ذكره: ﴿بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾

(يعني (جلّ ثناؤه): بأسماء هذه التي حَدَّثتُ بها آدمَ.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٣١﴾

ومعنى ذلك: فقال أنبئوني بأسماء مَنْ عرضتُه عليكم أيتها الملائكة ـ القائلون: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء من غيرنا، أم منا، فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ إن كنتم صادقين في قِيلكُم أني إنْ جعلتُ خليفتي في الأرض من غيركم عَصَاني ذريته وأفسدوا فيها وسفكوا الدماء، وإنْ جَعَلْتُكُم فيها أطعتموني واتبعتم أمري بالتعظيم لي والتقديس. فإنكم إنْ كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضتُهم عليكم من خَلْقِي، وهم مخلوقون موجودون ترونهم وتعاينونهم، وَعلِمَهُ غيركم بتعليمي إياه؛ فأنتم ـ بما هو غير موجود من الأمور الكائنة التي لم توجد بعدُ، وبما هو مستترٌ من الأمور، التي هي موجودة، عن أعينكم ـ أحرى أنْ تكونوا غير عالمين. فلا تسألوني ما ليسَ لكم به عِلْمٌ، فإني أعْلَمُ بما يُصْلِحُكم ويصلحُ خَلْقِي.

وهذا الفعل من الله جلّ ثناؤه بملائكته ـ الذين قالوا له: «أتجعل فيها من يفسد فيها»، من جهةِ عتابهِ جلّ ذكره إياهم ـ نظيرُ قولهِ جَلَّ جلاله لنبيه نوح صلوات الله عليه إذ قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ ٱلْحَاكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥] ـ : لَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ. فكذلك الملائكة سألت ربها أنْ تكون خلفاءه في الأرض لِيُسَبِّحُوهُ ويقدسوه فيها، إذْ كان ذريةُ مَنْ أخبرهم أنه جاعلُه في الأرض خليفةً، يفسدون فيها ويسفكون الدماء، فقال لهم جلّ ذكره: «إني أعلم ما لا تعلمون». يعني بذلك: إني أعلم أنَّ بعضَكم فاتحُ المعاصي وخاتِمُها، وهو إبليس، منكراً بذلك تعالى ذِكْرُه قولَهم. ثم عرَّفهم موضعَ هَفْوَتِهم في قِيلهم ما قالوا من ذلك، بتعريفهم قُصورَ عِلْمِهم عَمَّا هم له شاهدون عياناً، ـ فكيف

بما لم يروه ولم يُخبَرُوا عنه؟ - بعرضه ما عرض عليهم من خلقه الموجودين يومئذ، وقيله لهم: «أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين» أنكم إن استخلفتكم في أرضي سَبَّحتموني وَقَدَّسْتُموني، وإن استخلفتُ فيها غيرَكم عَصَاني ذُريته وأفسدوا وسفكوا الدماء. فلما اتَّضَحَ لهم موضعُ خطأ قِيلهم، وبَدَتْ لهم هفوةُ زَلَّتِهم، أنابوا إلى الله بالتوبة فقالوا: «سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا»، فسارعوا الرجعة من الهفوة، وبادروا الإنابة من الزلة، كما قال نوح - حين عوتب في مَسألته فقيل له: لا تسألْن مَا لَيْسَ لك به عِلْم -: ﴿رَبِّ إنِّي أعُوذُ بِكَ أنْ أسْألَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإلا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]. وكذلك فِعْلُ كُلِّ مُسَدَّدٍ للحق مُوفَّق له - سريعة إلى الحق إنابته، قريبة إليه أوْبته.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٢﴾

وهذا خَبَرٌ من الله جلّ ذكره عن ملائكته، بالأوبةِ إليه، وتسليم عِلْمِ ما لم يعلموه له، وتَبَرِّيهم من أنْ يعلموا أو يعلم أحد شيئاً إلا ما علَّمه تعالى ذكره.

وفي هذه الآيات الثلاث العبرةُ لمن اعتبرَ، والذكرى لمن ادَّكَرَ، والبيان لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد، عما أودع الله جلّ ثناؤه آيَ هذا القرآن من لطائفِ الحكم التي تعجزُ عن أوصافها الألسن.

وذلك: أن الله جلّ ثناؤه احتجَّ فيها لنبيهِ ﷺ على مَنْ كان بين ظهرَانَيْه من يَهود بني إسرائيل، بإطلاعه إياه من علوم الغيب التي لم يكن جلّ ثناؤه أطلعَ عليها من خَلْقِه إلا خاصاً، ولم يكن مُدركاً علمه إلا بالإنباء والإخبار، لتتقرر عندهم صحة نبوته، ويعلموا أنَّ ما أتاهم به فمن عنده. ودلّ فيها على

أن كل مُخْبرٍ خبراً عما قد كان ـ أو عما هو كائن مما لم يكنْ، ولم يأته به خبـر، ولم يُوضَـع له على صحته برهان، ـ فمتقولُ ما يستوجبُ به من ربه العقوبة. ألا ترى أنَّ الله جلّ ذكره رَدَّ على ملائكته قِيلَهم: «أتجعلُ فيها من يُفسدُ فيها وَيسفكُ الدماءَ وَنحنُ نُسبح بحمدك ونقدسُ لك» قال: «إني أعلمُ ما لا تعلمونَ»، وعَرَّفَهم أنَّ قِيلَ ذلك لم يكن جائزاً لهم، بما عَرَّفَهُم من قُصورِ عِلْمِهم عند عرضهِ ما عَرَضَ عليهم من أهل الأسماء، فقال: «أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتمْ صادقين». فلم يكن لهم مَفزَعُ إلا الإقرارُ بالعجز، والتبرِّي إليه أنْ يعلموا إلا ما عَلَّمهم، بقولهم: «سبحانك لا عِلْمَ لنا إلا ما علمتنا». فكان في ذلك أوضحُ الدلالة وأبينُ الحجة، على كذبِ مقالةِ كُلِّ من ادَّعى شيئاً من علومِ الغيب من الحُزاة[1] والكهنة والعافَةِ[2] والمنجِّمة. وذكَّر بها الذين وَصَفنا أمرَهم من أهل الكتاب ـ سوالفَ نِعَمِهِ على آبائهم، وأياديَه عند أسلافهم، عند إنابتهم إليه، وإقبالهم إلى طاعته، مُستعطفَهم بذلك إلى الرَّشاد، ومُستعتِبَهم به إلى النجـاة. وحـذَّرهم ـ بالإصرار والتمادي في البغي والضلال ـ حلولَ العقاب بهم، نظيرَ ما أحل بعدوِّه إبليس، إذ تمادَى في الغي والخَسار.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

وتأويل ذلك: أنك أنت يَا ربنا العليمُ من غير تعليمٍ بجميع ما قد كان وما هو كائن، والعالم للغيوب دون جميعِ خَلْقِكَ. وذلك أنهم نَفَوْا عن أنفسهم بقولهم: «لا علم لنا إلا ما علمتنا»، أن يكون لهم علمٌ إلا ما عَلَّمهم ربهم،

---

(١) الحزاة جمع حاز: وهو كالكاهن، يحزر الأشياء ويقدرها بظنه.

(٢) العـافـة جمـع عائف: وهو الذي يعيف الطير فيزجرها ويتفاءل أو يتشاءم بأسمائها وأصواتها وممرها. واسم حرفته: العيافة.

وأثبتوا ما نَفوْا عن أنفسهم من ذلك لربهم بقولهم: «إنك أنتَ العليم»، يعنون بذلك العالم من غير تعليم، إذ كان مَنْ سوَاك لا يعلم شيئاً إلا بتعليم غيره إياه. والحكيم: هو ذو الحكمة.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾

إن الله جلّ ثناؤه عَرَّفَ ملائكته - الذين سألوه أن يجعلهم الخُلفاءَ في الأرض، ووَصفوا أنْفُسَهم بطاعتهِ والخضوع لأمره، دونَ غيرهم الذين يُفسدون فيها ويسفكون الدماء - أنَّهم، من الجهلِ بمواقعِ تدبيره ومحل قَضَائه قَبل إطلاعه إياهم عليه، على نحو جهلِهم بأسماءِ الذين عرَضهم عليهم، إذ كان ذلك مما لم يعلِّمهم فيعلَموه، وأنهم وغيرَهم من العبادِ لا يعلمون من العلم إلا ما علَّمهم إياهُ رَبُّهم، وأنه يَخُصُّ بما شاء من العلم مَنْ شَاء من الخلق، ويمنعه منهم مَنْ شاء، كما علم آدم أسماء ما عَرَض على الملائكة، ومنعهم عِلْمها إلا بعد تعليمه إياهم.

فأما تأويل قوله: «قال يا آدم أنبئهم»، يقول: أخبر الملائكةَ، والهاء والميم في قوله «أَنْبِئْهُم» عائدتان على الملائكة. وقوله: «بأسمائهم» يعني بأسماء الذين عَرَضهم على الملائكة، والهاء والميم اللتان في «أسمائهم» كناية عن ذكر «هؤلاء» التي في قوله: «أنبئوني بأسماء هؤلاء». «فلما أنبأهم» يقول: فلما أخبر آدمُ الملائكةَ بأسماء الذين عرضهم عليهم فلم يعرفوا أسماءَهم، وأيقنوا خطأً قِيلهم: «أتجعلُ فيها من يُفسد فيها ويَسفكُ الدماءَ ونحن نسبِّح بحمدك ونقدسُ لك»، وأنهم قَد هَفوْا في ذلك وقالوا ما لا يعلمون كيفية وقوع قضاء ربهم في ذلك لو وقع، على ما نطقوا به، - قال لهم ربهم: «ألم أقلْ

لكمُ إني أعلمُ غيبَ السموات والأرض». والغيب: هو ما غاب عن أبصارهم فلم يعاينوه؛ توبيخاً من الله جلّ ثناؤه لهم بذلك، على ما سَلَفَ من قِيلهم، وَفَرَط منهم من خطأ مَسألتهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۝٣٣﴾

إن معنى قوله «وأعلم ما تُبدون»، وأعلم - مع علمي غيبَ السموات والأرض - ما تُظْهِـرُونَ بألسنتكم، «وما كنتم تكتمون»، وما كنتم تُخْفُونَهُ في أنفسكم، فلا يخفى عليَّ شيء، سواءٌ عندي سرائركم وعلانيتكم.

والـذي أظهروه بألسنتهم ما أخبرَ الله جلّ ثناؤه عنهم أنهم قالوه، وهو قولُهم: «أتجعلُ فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبِّح بحمدك ونقدس لك»؛ والذي كانوا يكتمونه، ما كان منطوياً عليه إبليسُ من الخلافِ على الله في أمرِهِ، والتكبُّرِ عن طاعته.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٣٤﴾

أما قوله: «وإذ قلنا» فمعطوف على قوله: «وإذ قال ربك للملائكة»، كأنه قال جَلَّ ذِكْرُه لليهود - الذين كانوا بين ظهرانَيْ مُهَاجَرِ رسول الله ﷺ من بني إسرائيل، مُعَدِّداً عليهم نِعَمَهُ، ومذكِّرَهُم آلاءه، على نحو الذي وصفنا فيما مضى قبل -: اذكروا فعلي بكم إذْ أنعمتُ عليكم. فخلقتُ لكم ما في الأرض جميعاً، وإذ قلتُ للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفة فكرمتُ أباكم آدمَ بما آتيتهُ من عِلمي وفضلي وكرامتي، وإذْ أسجدتُ له ملائكتي فسجدوا له. ثم

استثنى من جميعهم إبليس، فدلَّ باستثنائه إياه منهم على أنه منهم، وأنه ممن قد أُمِر بالسجودِ معهم، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿إلا إبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ* قَالَ مَا مَنَعَكَ ألا تَسْجُدَ إذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١١، ١٢]، فأخبر جلّ ثناؤه أنه قد أمر إبليس فيمن أمَرَهُ من الملائكة بالسجود لآدمَ. ثم استثناه جَلَّ ثناؤه مما أخبر عنهم أنهم فعلوه من السجود لآدم، فأخرجه من الصفةِ التي وصفهم بها من الطاعةِ لأمرِه، ونفى عنه ما أثبته لملائكتِه من السجود لعبده آدم.

القول في معنى: إِبْلِيسَ

وإبليس «إفعِيل»، من الإبلاس، وهو الإياس من الخير والندمُ والحزن. وكما قال الله جلّ ثناؤه: ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]، يعني به: أنهم آيِسُونَ من الخير، نادمون حزناً.

فإن قال قائل: فإن كان إبليس، كما قلتَ، «إفعيل» من الإبلاس، فهلا صُرف وأُجريَ؟ قيل: تُرِك إجراؤه استثقالاً، إذ كان اسماً لا نظيرَ له من أسماء العرب، فشبَّهته العربُ ـ إذْ كان كذلك ـ بأسماء العجم التي لا تُجرَى. وقد قالوا: مررتُ بإسحاق، فلم يُجروه. وهو من «أسحقه الله إسحاقاً»، إذْ كان وَقَع مبتدَأ اسماً لغير العرب، ثم تَسَمَّتْ به العربُ فجرى مَجراه ـ وهو من أسماء العجم ـ في الإعراب فلم يصرف. وكذلك «أيوب»، إنما هو «فيعول» من «آب يؤوبُ».

وتأويل قوله: «أبَى»، يعني جلّ ثناؤه بذلك إبليس، أنَّهُ امتنع من السجود لآدمَ فلم يسجد له. «واستكبر»، يعني بذلك أنه تعظَّمَ وتكبَّرَ عن طاعةِ الله في السجود لأدم. وهذا، وإنْ كان من الله جلّ ثناؤه خبراً عن إبليس، فإنه تقريعٌ

لضُرَبائه من خَلْقِ الله الذين يتكبرون عن الخضوع لأمرِ الله، والانقيادِ لطاعته فيما أمرهم به وفيما نهاهم عنه، والتسليم له فيما أوجب لبعضِهم على بعضٍ من الحقِّ. وكان مِمَّنْ تكبَّرَ عن الخضوع لأمر الله، والتذلل لطاعته، والتسليم لقضائه فيما ألزمهم من حقوق غيرهم - اليهودُ الذين كانوا بين ظهرانيْ مُهاجَرِ رسول الله ﷺ، وأحبارُهم الذين كانوا برسول الله ﷺ وصفتهِ عارفينَ، وبأنه لله رسولٌ عالِمينَ. ثم استكبروا - مع عِلْمِهم بذلك - عن الإقرار بنبوَّتِه، والإذعان لطاعته، بَغياً منهم له وحسداً. فَقرَّعهم الله بخبره عن إبليس الذي فعل في استكباره عن السجود لآدم حسداً له وبغياً، نظيرَ فِعْلِهم في التكبر عن الإذعان لمحمد نبي الله ﷺ ونبوته، إذْ جاءهم بالحق من عند ربهم حسداً وبغياً.

ثم وَصَف إبليس بمثل الذي وصف به الذين ضربه لهم مثلاً في الاستكبار والحسد والاستنكاف عن الخضوع لمن أمرَهُ الله بالخضوع له، فقال جلّ ثناؤه: «وكان» - يعني إبليس - «منَ الكافرين» - من الجاحدين نِعَمَ الله عليه وأياديَه عنده، بخلافه عليه فيما أمرَهُ به من السجود لآدم، كما كفرت اليهودُ نِعَمَ ربِّها التي آتاها وآباءَها قَبْلُ: من إطعامِ الله أسلافَهم المَنَّ والسلوى، وإظلال الغمام عليهم، وما لا يُحْصَى من نعمه التي كانت لهم، خصوصاً ما خصَّ الذين أدركوا محمداً ﷺ بإدراكهم إياه، ومشاهدتهم حجةَ الله عليهم، فجحدت نبوَّته بعد عِلْمِهم به، ومعرفتهم بنبوته حسداً وبغياً. فنسبه الله جلّ ثناؤه إلى «الكافرين»، فجعله من عِدَادِهم في الدين والملة، وإنْ خالفهم في الجنس والنسبة. كما جعل أهلَ النفاقِ بعضَهم من بعضٍ، لاجتماعهم على النفاق، وإن اختلفتْ أنسابُهم وأجناسهم فقال: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٦٧] يعني بذلك أنَّ بعضَهم من بعضٍ في النفاق والضلال. فكذلك قوله في إبليس: كان من الكافرين، كان منهم في الكُفر بالله ومخالفته أمرَهُ، وإنْ كان مخالفاً جنسُه أجناسَهم ونَسَبُه نسبهم. ومعنى

قوله: «وكان من الكافرين» أنه كان حين أَبى عن السجود ـ من الكافرين حينئذ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾

وفي هذه الآية دلالة واضحة على صِحَّةِ قولِ مَنْ قال: إن إبليس أُخرجَ من الجنة بعد الاستكبار عن السجود لآدم، وأُسكنها آدمُ قبل أنْ يهبط إبليس إلى الأرض. ألا تسمعون الله جلّ ثناؤه يقول: ﴿وقلنا يا آدمُ اسكنْ أنت وزوجك الجنة وكُلَا منها رَغَداً حَيثُ شئتما ولا تَقربا هذه الشجرةَ فتكونا من الظالمين﴾ ﴿فأزَلَّهُمَا الشيطانُ عنها فأخرجَهُمَا مما كانا فيه﴾. فقد تبين أنَّ إبليسَ إنما أزلهما عن طاعةِ الله بعد أن لُعِن وأظهرَ التكبر، لأنَّ سجودَ الملائكة لآدم كان بعد أن نُفخ فيه الروح، وحينئذٍ كان امتناعُ إبليس من السجود له، وعند الامتناع من ذلك حَلَّتْ عليه اللعنة.

ويقال لامرأة الرجل: زَوْجُه وزَوْجتُه، والزوجة بالهاء أكثر في كلام العرب منها بغير الهاء. والزوج بغير الهاء يقال إنه لغة لأزْد شَنوءة. فأما الزوج الذي لا اختلاف فيه بين العرب، فهو زوجُ المرأة.

القول في تأويل قوله: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾

أمـا الـرَّغَد، فإنه الواسعُ من العيش، الهنيءُ الذي لا يُعنِّي صاحِبَهُ. يقال: أرْغد فلان، إذا أصاب واسعاً من العيش الهنيء.

فمعنى الآية: وقلنا يا آدمُ اسكُنْ أنتَ وزوجك الجنة، وكلا من الجنة رزقاً واسعاً هنيئاً من العيش حيث شئتما.

البقرة: ٣٥

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾

والشجر في كلام العرب: كُلُّ ما قامَ على ساقٍ، ومنه قول الله جلّ ثناؤه: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦]، يعني بالنجم ما نَجمَ من الأرض من نَبْتٍ، وبالشجر ما استقلَّ على ساق.

ثم اختلف أهلُ التأويل في عين الشجرة التي نُهي عن أكل ثمرها آدم، فقال بعضهم: هي السُّنبلة، وقال آخرون: هي الكرمة، وقال آخرون: هي التينةُ.

والقول في ذلك عندنا أنَّ الله جلّ ثناؤه أخبر عباده أن آدم وزوجَه أكلا من الشجرةِ التي نهاهُمَا ربُّهما عن الأكل منها، فأَتَيا الخطيئةَ التي نهاهما عن إتيانِها بأكْلِهما ما أكلا منها، بعد أن بيّن الله جلّ ثناؤه لهما عَينَ الشجرة التي نهاهما عن الأكلِ منها، وأشار لهما إليها بقوله: «ولا تقربا هذه الشجرة»، ولم يضع الله جلّ ثناؤه لعباده المخاطَبين بالقرآن، دلالةً على أيِّ أشجارِ الجنة كان نَهيُه آدمَ أنْ يَقْرَبَها، بنصٍّ عليها باسمها، ولا بدلالة عليها. ولو كان لله في العلم بأي ذلك من أيٍّ رضاً، لم يُخل عبادَه من نَصْب دلالة لهم عليها يَصِلُونَ بها إلى معرفةِ عينها، ليطيعوه بعلمهم بها، كما فعل ذلك في كُلِّ ما بالعِلْمِ به له رضاً.

فالصواب في ذلك أن يقال: إن الله جلّ ثناؤه نهى آدمَ وزوجته عن أكلِ شجرةٍ بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها، فخالفا إلى ما نهاهما الله عنه، فأكلا منها كما وصفهما الله جلّ ثناؤه به. ولا عِلْمَ عندنا بأيِّ شجرةٍ كانت على التعيين، لأنَّ الله لم يَضَع لعباده دليلاً على ذلك في القرآن، ولا في السنّة الصحيحة. فأنَّى يأتي ذلك؟. وذلك عِلْمٌ، إذا عُلِمَ لم ينفع العالمَ به علمه، وإنْ جَهِلَهُ جاهلٌ لم يضرَّه جهلُه به.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٣٥﴾

وفي قوله «فتكونا من الظالمين»، وجهانِ من التأويل:

أحدهما: أن يكون «فتكونا» في نية العطف على قوله «ولا تقربا»، فيكون تأويله حينئذ: ولا تقربا هذه الشجرة ولا تكونا من الظالمين. فيكون «فتكونا» حينئذٍ في معنى الجزم مجزوماً بما جُزم به «ولا تقربا»، كما يقول القائل: لا تُكلم عمراً ولا تُؤْذِهِ.

والثاني: أن يكون «فتكونا من الظالمين»، بمعنى جواب النهي. فيكون تأويله حينئذٍ: لا تقربا هذه الشجرة، فإنكما إنْ قَرَبتماها كنتما من الظالمين. كما تقول: لا تَشتمْ عمراً فيشتُمكَ، مجازاةً. فيكون «فتكونا» حينئذٍ في موضع نَصبٍ، إذْ كان حرفاً عُطِف على غير شكله، لما كان في «ولا تقربا» حرف عامل فيه، ولا يصلح إعادته في «فتكونا».

وأما تأويل قوله «فتكونا من الظالمين»، فإنه يعني به فتكونا من المُتَعَدِّينَ إلى غيرِ ما أذِن لهم وأبيح لهم فيه، وإنما عَنى بذلك أنكما إنْ قربتما هذه الشجرةَ، كنتما على منهاجِ مَنْ تَعدَّى حُدودي، وعَصى أمري، واستحلَّ محارمي، لأنَّ الظالمين بعضُهم أولياء بعض، والله وليُّ المتقين.

وأصل «الظلم» في كلام العرب، وضعُ الشيء في غير موضعه. وقد يتفرع الظلم في معانٍ يطول بإحصائها الكتاب، وسنبينها في أماكنها إذا أتينا عليها إنْ شاء الله تعالى. وأصلُ ذلك كله ما وصفنا من وضع الشيء في غير موضعه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾

«فأزلَّهما بتشديد اللام، بمعنى: استزلَّهما، من قولك زلَّ الرجل في دينه: إذا هَفَا فيه وأخطأ، فأتى ما ليس له إتيانه فيه. وأزلَّه غيره: إذا سبب له ما يزلّ من أجله في دينه أو دنياه، ولذلك أضاف الله تعالى ذكره إلى إبليسَ خُروجَ آدم وزوجته من الجنة، فقال: «فأخرجهما» يعني إبليسُ «مما كانا فيه»، لأنه كانَ الذي سَبَّب لهما الخطيئة التي عاقبهما الله عليها بإخراجهما من الجنة.

وقد أخبر الله تعالى ذِكْرُه عن إبليسَ أنه وسوسَ لآدم وزوجته ليبدي لهما ما وُورِيَ عنهما من سَوآتهما، وأنه قال لهما: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا من الخَالِدِينَ* وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠-٢١] مُدلِّياً لهما بغرور. ففي إخباره جَلَّ ثناؤه - عن عدوِّ الله أنه قاسم آدمَ وزوجته بقِيلِه لهما: إني لكما لمن الناصحين - الدليلُ الواضح على أنه قد باشر خطابهما بنفسه: إما ظاهراً لأعينهما، وإما مُسْتَجِناً في غيره. وذلك أنه غير مَعقول في كلام العرب أن يقال: قاسم فلانٌ فلاناً في كذا وكذا. إذا سَبَّبَ له سبباً وصلَ به إليه دونَ أنْ يحلفَ له. والحلف لا يكون بتسبب السبب. فكذلك قوله «فوسوس إليه الشيطان»، لو كان ذلك كان منه إلى آدم - على نحو الذي منه إلى ذريته، من تزيينِ أكلِ ما نهى اللهُ آدم عن أكله من الشجرة، بغير مباشرةِ خطابهِ إياه بما استزلَّهُ به من القولِ والحيل - لما قال جلّ ثناؤه: «وقاسَمهما إني لكما لمن الناصحين». كما غير جائز أن يقول اليوم قائلٌ ممن أتى معصيةً: قاسمني إبليسُ أنه لي ناصحٌ فيما زيَّنَ لي من المعصية التي أتيتها. فكذلك الذي كان من آدمَ وزوجته، لو كان على النحو الذي يكون فيما بين إبليس اليومَ وذرية آدم - لما قال جلّ ثناؤه: «وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين».

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾

وأما تأويل قوله: «فأخرجهما»، فإنه يعني: فأخرج الشيطانُ آدمَ وزوجته، «مما كانا»، يعني مما كان فيه آدمُ وزوجته من رَغَدِ العيشِ في الجنة، وسَعَةِ نعيمها الذي كانا فيه. وقد بينا أن الله جلّ ثناؤه إنما أضاف إخراجهما من الجنة إلى الشيطان - وإنْ كان الله هو المُخْرِجَ لهما - لأن خروجهما منها كان عن سببٍ من الشيطان، فأُضِيفَ ذلك إليه لتسبيبه إياه، كما يقول القائل لرجل وَصل إليه منه أذىً حتى تحوَّلَ من أجله عن موضعٍ كان يسكنه: «ما حَوَّلني من موضعي الذي كنتُ فيه إلا أنتَ»، ولم يكن منه له تحويل، ولكنه لما كان تحوّله عن سبب منه، جازَ له إضافة تحويله إليه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾

يقال هبط فلان أرض كذا ووادِيَ كذا، إذا حلّ ذلك.

وقد أبان هذا القولُ من الله جلّ ثناؤه، عن صحة ما قلنا من أنّ المخرِجَ آدمَ من الجنة هو اللهُ جلّ ثناؤه، وأنَّ إضافةَ الله إلى إبليس ما أضاف إليه من إخراجهما، كان على ما وصفنا. ودلَّ بذلك أيضاً على أنَّ هبوطَ آدم وزوجته وعدوهما إبليس، كان في وقتٍ واحد، بجَمْع الله إياهم في الخبر عن إهباطهم، بعد الذي كان من خطيئةِ آدمَ وزوجته، وتسبُّب إبليس ذلك لهما، على ما وصفه رَبُّنا جَلَّ ذِكْرُه عنهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾

والمستقرُّ في كلام العرب، هو موضِعُ الاستقرار. فإذْ كان ذلك كذلك،

فحيث كان من الأرض موجوداً حالاًّ، فذلك المكانُ من الأرض مُسْتَقَرُّهُ. وإنما عنى الله جلّ ثناؤه بذلك: أنَّ لهم في الأرض مستقرّاً ومنزلاً، بأماكنهم ومستقرِّهم من الجنة والسماء. وكذلك قوله: «ومتاع» يعني به: أنَّ لهم فيها متاعاً بمتاعهم في الجنة.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ٣٦﴾

والمتاع، في كلام العرب، كل ما استُمْتِعَ به من شيءٍ، من معاشٍ استُمتع به أو رِياشٍ أو زينة أو لذة أو غير ذلك. فإذْ كان ذلك كذلك ـ وكان الله جلّ ثناؤه قد جعل حياةَ كل حيٍّ متاعاً له يستمتع بها أيام حياته، وجعل الأرضَ للإنسان متاعاً أيام حياته، بقراره عليها، واغتذائه بما أخرج الله منها من الأقواتِ والثمار، والتذاذهِ بما خلق فيها من الملاذِّ، وجعلها من بعد وفاته لجثته كِفاتاً[1]، ولجسمه منزلاً وقَراراً؛ وكان اسم المتاع يشمل جميع ذلك ـ كان أولى التأويلات بالآية ـ إذْ لم يكن الله جلّ ثناؤه وضع دلالة دالة على أنه قَصد بقوله: «ومتاعٌ إلى حين» بعضاً دون بعض، وخاصّاً دون عامّ في عقل ولا خبر ـ أن يكون ذلك في معنى العامِّ، وأنْ يكونَ الخبرُ أيضاً كذلك، إلى وقت يطولُ استمتاعُ بني آدم وبني إبليس بها، وذلك إلى أن تُبدَّلَ الأرضُ غيرَ الأرضِ. فإذْ كان ذلك أوْلَى التأويلات بالآية لما وَصفنا، فالواجب إذاً أن يكون تأويل الآية: ولكم في الأرض مَنازلُ ومساكنُ تستقرُّون فيها استقرارَكم ـ كان ـ في السماوات، وفي الجنان في منازلكم منها، واستمتاع منكم بها وبما أخرجتُ لكم منها، وبما جعلتُ لكم فيها من المعاش والرياش والزِّين والملاذِّ، وبما أعطيتُكم على ظهرها أيامَ حياتِكم ومن بعدِ وفاتِكم لأرْماسكم وأجداثكم تُدفنون

---

(١) الكفات: الموضع الذي يضم فيه الشيء ويقبض.

فيها[1]، وتبلغون باستمتاعكم بها إلى أن أُبدلَكُم بها غيرَها.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾

أما تأويل قوله: «فتلقى آدم»، فقيل: إنه أَخَذَ وقَبِلَ. وأصله التفعُّل من اللقاء، كما يتلقى الرجلُ الرجلَ مُستقبَله عند قدومهِ من غيبته أو سفره، فكأنَّ ذلك كذلك في قوله «فتلقى»، كأنه استقبله فتلقَّاهُ بالقبول حين أوحى إليه أو أخبر به. فمعنى ذلك إذاً: فلقَّى الله آدمَ كلماتِ توبةٍ، فتلقَّاها آدمُ من ربهِ وأخذها عنه تائباً، فتاب الله عليه بقِيلهِ إياها، وقبوله إياها من ربه.

والذي يدل عليه كتابُ الله، أنَّ الكلماتِ التي تلقاهُنَّ آدمُ من ربه، هُنَّ الكلماتُ التي أخبر الله عنه أنه قالها متنصِّلاً بقِيلها إلى ربه، معترفاً بذنبه، وهو قوله: «رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وإِنْ لم تَغفرْ لنا وترحمنا لنكونَنَّ من الخاسرين».

وهذا الخبر الذي أخبر الله عن آدم - من قِيله الذي لقَّاه إياه فقاله تائباً إليه من خطيئته - تعريفٌ منه جَلَّ ذِكْرُه جميعَ المخاطبين بكتابه، كيفيةَ التوبةِ إليه من الذنوب، وتنبيهٌ للمخاطَبينَ بقوله ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، على موضعِ التوبةِ مما هم عليه من الكفر بالله، وأنَّ خلاصَهم مما هم عليه مُقيمون من الضلالة، نظير خلاصِ أبيهم آدم من خطيئته، مع تذكيرهِ إياهم به السالفَ إليهم من النِّعَمِ التي خَصَّ بها أباهم آدم وغيرَهُ من آبائهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾

---

(١) الأرماس جمع رمس، والأجداث جمع جدث (بفتحتين): وهما بمعنى القبر.

وقوله: «فتاب عليه»، يعني: على آدم. والهاء التي في «عليه» عائدةٌ على آدم. وقوله: «فتاب عليه»، يعني رزَقَهُ التوبة من خطيئتِهِ. والتوبةُ معناها الإنابةُ إلى الله، والأوبةُ إلى طاعته مما يَكرَهُ من معصيته.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٣٧ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا﴾

وتأويل قوله: «إنه هو التواب الرحيم»، أن الله جلّ ثناؤه هو التواب على مَنْ تاب إليه - من عباده المذنبين - من ذنوبه، التارك مجازاته بإنابته إلى طاعته بعد معصيتهِ بما سَلَفَ من ذنبه. وقد ذكرنا أنَّ معنى التوبة من العبد إلى ربه، إنابتُه إلى طاعته، وأوْبَتُه إلى ما يُرضيه بتركهِ ما يَسْخَطه من الأمورِ التي كان عليها مُقِيماً مما يكرهه ربه. فكذلك توبة الله على عبده، هو أنْ يرزقَهُ ذلك، ويؤوب له من غضبه عليه إلى الرِّضَا عنه، ومن العقوبة إلى العفو والصفح عنه.

وأما قوله: «الرحيم»، فإنه يعني أنه المُتَفَضِّلُ عليه مع التوبة بالرحمة. ورحمته إياه، إقالةُ عَثْرته، وصفحه عن عقوبة جُرْمِه.

وقد ذكرنا القول في تأويل قوله: «قلنا اهبطوا منها جميعاً» فيما مضى، فلا حاجة بنا إلى إعادته، إذْ كان معناه في هذا الموضع، هو معناه في ذلك الموضع.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾

وتأويل قوله: «فإما يأتينكم»، فإن يَأتكم. و«ما» التي مع «إن» توكيدٌ للكلام، ولدخولها مع «إن» أدخلت النون المشددة في «يأتينّكم»، تفرقةً

بدخولها بين «ما» التي تأتي بمعنى توكيد الكلام ـ التي تُسَمِّيها أهل العربية صلةً وحَشواً ـ وبين «ما» التي تأتي بمعنىٰ «الذي»، فتؤذِن بدخولها في الفعل، أنّ «ما» التي مع «إن» التي بمعنى الجزاء، توكيد، وليست «ما» التي بمعنى «الذي».

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾

والهدى، في هذا الموضع، البيان والرشاد.

وأقرب إلى الصواب منه عندي وأشبهُ بظاهر التلاوة، أن يكون تأويلها: فإما يأتينكم يا معشرَ مَنْ أُهبطَ إلى الأرضِ من سمائي، وهو آدمُ وزوجته وإبليس ـ كما قد ذكرنا قَبْلُ في تأويل الآية التي قبلها ـ إما يأتينكم مني بيانٌ من أمري وطاعتي، ورشادٌ إلى سبيلي وديني، فمن اتبعه منكم فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وإنْ كان قد سَلَفَ منهم قبل ذلك إليَّ معصيةٌ وخلافٌ لأمري وطاعتي. يُعَرِّفهم بذلك جلّ ثناؤه أنه التائبُ على مَنْ تاب إليه من ذنوبه، والرحيمُ لمن أنابَ إليه، كما وصف نفسه بقوله: «إنه هو التوَّابُ الرحيم».

وذلك أنَّ ظاهرَ الخطابِ بذلك إنما هو للذين قال لهم جلّ ثناؤه: «اهبطوا منها جميعاً»، والذين خُوطِبُوا به هم مَنْ سَمَّيْنَا. وذلك، وإنْ كان خطاباً من الله جلّ ذكره لمن أُهبط حينئذٍ من السماء إلى الأرض، فهو سنَّةُ الله في جميع خَلْقِه، وتعريفٌ منه بذلك الذين أخبر عنهم في أول هذه السورة بما أخبر عنهم في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]، وفي قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]، وأن حكمه فيهم ـ إنْ تابوا إليه وأنابوا واتبعوا ما

أتاهم من البيان من عند الله على لسان رسوله محمد ﷺ - أنهم عنده في الآخرة ممن لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، وأنهم إنْ هلكوا على كُفرهم وضلالتهم قبل الإنابة والتوبة، كانوا من أهل النارِ المخلَّدين فيها.

وقوله: «فمن تَبِعَ هُدَايَ»، يعني: فمن اتبع بَياني الذي آتيتُه على ألْسُنِ رُسُلي، أو مع رسلي.

وقوله: «فلا خوفٌ عليهم»، يعني فهم آمنون في أهوالِ القيامة من عقابِ الله، غير خائفين عذابه، بما أطاعوا الله في الدنيا واتبعوا أمره وهُداه وسبيله، ولا هم يحزنون يومئذ على ما خلَّفوا بعد وفاتهم في الدنيا.

وليس شيءٌ أعظمَ في صدر الذي يموتُ مِمَّا بعد الموت. فأمَّنهم منه وَسلَّاهم عن الدنيا فقال: «ولا هُمْ يحزنون».

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ٣٩﴾

يعني: والذين جَحدوا آياتي وكذَّبُوا رسلي. وآيات الله: حُجَجه وأدلتُه على وحدانيَّتِه وربوبيَّتِه، وما جاءت به الرُّسُل من الأعلام والشواهد على ذلك، وعلى صِدْقِها فيما أنبأتْ عن ربِّها. وقد بَيَّنا أنَّ معنى الكفر، التغطيةُ على الشيء.

«أولئك أصحاب النار»، يعني: أهلُها الذين هم أهلها دون غيرهم، المُخَلَّدُونَ فيها أبداً إلى غير أمَدٍ ولا نهاية.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ

يعني بقوله جلّ ثناؤه: «يا بني إسرائيل» وَلَدِ يعقوبَ بن إسحق بن إبراهيم خليل الرحمن وكان يعقوب يدعى «إسرائيل»، بمعنى عبدالله وصفوته من خلقه. و«إيل» هو الله، و«إسرا» هو العبد، كما قيل: «جبريل» بمعنى عبدالله.

وإنما خاطب الله جلّ ثناؤه بقوله: «يا بني إسرائيل» أحبارَ اليهود من بني إسرائيل، الذين كانوا بين ظَهرانَيْ مُهَاجَر رسول الله ﷺ، فنسبهم جلّ ذكره إلى يعقوب، كما نسب ذرية آدم إلى آدم، فقال: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١] وما أشبه ذلك. وإنما خصَّهم بالخطاب في هذه الآية والتي بعدها من الآي التي ذكَّرهم فيها نِعَمَهُ ـ وإنْ كان قد تَقدَّمَ ما أنزل فيهم وفي غيرهم في أول هذه السورة ما قد تقدم ـ أنَّ الذي احتج به من الحجج والآيات التي فيها أنباءُ أسلافهم، وأخبار أوائِلهم، وَقَصَصُ الأمورِ التي هُمْ بعِلْمِهَا مَخْصُوصونَ دون غيرهم من سائر الأمم، ليس عند غيرهم من العلم بصحته وحقيقته مثلُ الذي لهم من العلم به، إلا لمن اقتبسَ عِلْمَ ذلك منهم. فعرَّفهم بإطلاع محمد ﷺ على علمها ـ مع بُعْدِ قومِهِ وعشيرته من معرفتها، وقِلَّةِ مزاولةِ محمدٍ ﷺ دراسةَ الكتب التي فيها أنباءُ ذلك ـ أن محمداً ﷺ لم يَصِلْ إلى عِلْمِ ذلك إلا بوحيٍ من الله وتنزيلٍ منه ذلك إليه ـ لأنهم من عِلْم صحة ذلك بمحلّ ليس به من الأمم غيرهم، فلذلك جلّ ثناؤه خصّ بقوله: «يا بني إسرائيل» خطابَهم.

القول في تأويل قوله: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾

ونعمته التي أنعم بها على بني إسرائيل جَلَّ ذِكْرُه، اصطفاؤه منهم الرُّسُلَ، وإنزاله عليهم الكُتُبَ، واستنقاذُه إياهم مما كانوا فيه من البلاء والضَّرَّاء من فرعونَ وقومِهِ، إلى التمكين لهم في الأرض، وتفجير عيون الماء من الحجر، وإطعام المنِّ والسلوى. فأمر جلّ ثناؤه أعقابهم أن يكون ما سلف منه

إلى آبائهم على ذُكْرٍ[1]، وأن لا ينسوا صَنِيعَه إلى أسلافهم وآبائهم، فيحلّ بهم من النقم ما أحلَّ بمن نَسِيَ نعمَهُ عنده منهم وكفرها، وجحد صنائعه عنده.

وتذكيرُ الله الذين ذكَّرهم جلّ ثناؤه بهذه الآية من نعمه على لسانِ رسولهِ محمدٍ ﷺ، نظيرُ تذكيرِ موسى صلوات الله عليه أسلافَهم على عهده، الذي أخبر اللهُ عنه أنه قال لهم، وذلك قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ العَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠].

القول في تأويل قوله تعالى: وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ

قد تقدم بياننا فيما مضى ـ عن معنى العهد ـ من كتابنا هذا، والصوابُ عندنا من القولِ فيه. وهو في هذا الموضع: عهدُ اللهِ ووصيتهُ التي أخَذَ على بني إسرائيلَ في التوراة، أن يُبَيِّنُوا للناسِ أمرَ محمدٍ ﷺ أنه رسولٌ، وأنهم يَجِدُونَهُ مكتوباً عندهم في التوراة أنه نبيُّ الله، وأنْ يؤمنوا به وبما جاء به من عند الله.

«أُوفِ بعهدكم»: وعهدهُ إياهم أنهم إذا فعلوا ذلك أدْخَلهم الجنةَ، كما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ الله إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ الله قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ، فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٢]، وكما قال: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ* الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي

(١) أي: على تَذَكُّرٍ، كما في القاموس المحيط.

التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. [الأعراف: ١٥٦ـ١٥٧].

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾

وتأويل قوله: «وإياي فارهبون»، وإياي فاخْشَوْا ـ واتَّقُوا أيها المُضَيِّعُونَ عَهْدِي من بني إسرائيل، والمُكَذِّبون رسولي الذي أخذتُ ميثاقكم ـ فيما أنزلتُ من الكتُب على أنبيائي ـ أن تُؤمنوا به وتَتَّبِعُوه ـ أنْ أُحِلّ بكمْ من عقوبتي، إنْ لم تُنِيبُوا وتتوبوا إليَّ باتباعه والإقرار بما أنزلتُ إليه، ما أحللتُ بِمَنْ خالفَ أمري وكذَّبَ رُسلي من أسلافكم.

القول في تأويل قوله تعالى ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾

يعني بقوله جلّ ثناؤه: «آمنوا»، صدِّقوا، كما قدمنا البيانَ عنه قَبْلُ. ويعني بقوله: «بما أنزلتُ»، ما أنزل على محمد ﷺ من القرآن. ويعني بقوله: «مصدِّقاً لما معكم»، أن القرآن مصدِّق لما مع اليهود من بني إسرائيل من التوراة. فأمرهم بالتصديق بالقرآن، وأخبرهم جَلَّ ثناؤه أنَّ في تصديقهم بالقرآن تصديقاً منهم للتوراة، لأنَّ الذي في القرآن من الأمر بالإقرار بنبوة محمد ﷺ وتصديقه واتباعه، نظيرُ الذي من ذلك في التوراة والإنجيل. ففي تصديقهم بما أنزل على محمدٍ تصديقٌ منهم لما معهم من التوراة، وفي تكذيبهم به تكذيبٌ منهم لما معهم من التوراة.

وقوله: «مصدقاً»، قطع[1] من الهاء المتروكة في «أنزلته» من ذكر «ما» ومعنى الكلام: وآمنوا بالذي أنزلته مصدقاً لما معكم أيها اليهود، والذي معهم: هو التوراة والإنجيل.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾

فإنْ قال لنا قائل: كيف قِيل: «ولا تكونوا أَوَّلَ كافرٍ به»، والخطابُ فيه لجميع، وقوله: «كافر» واحد؟ وهل نجيز ـ إن كان ذلك جائزاً ـ أن يقول قائل: «ولا تكونوا أول رجُلٍ قام»؟

قيل له: إنما يجوز توحيد ما أُضيفَ له «أفعلَ» وهو خبر لجميع، إذا كان اسماً مشتقاً من «فعل ويفعل»، لأنه يؤدِّي عن المرادِ معه المحذوف من الكلام وهو «مَنْ»، ويقوم مقامه في الأداء عن معنى ما كان يُؤدِي عنه «مَنْ» من الجمع والتأنيث، وهو في لفظ واحد. ألا ترى أنك تقول: ولا تكونوا أوَّلَ مَنْ يكفر به. «فمن» بمعنى جميع، وهو غير متصرفٍ تصرفَ الأسماء للتثنية والجمع والتأنيث. فإذا أُقيم الاسمُ المشتق من «فعل ويفعل» مُقَامه، جرى وهو موحّد مجراه في الأداء عما كان يؤدي عنه «مَنْ» من معنى الجمع والتأنيث، كقولك: «الجيش مُنهزم»، و«الجند مقبلٌ»، فتوحَّد الفعلَ لتوحيد لفظ الجيش والجند. وغيرهم جائز أن يقال: «الجيش رجل، والجند غلام»، حتى تقول: «الجند غلمان والجيش رجال». لأنَّ الواحدَ من عدد الأسماء التي هي غير مشتقة من «فعل ويفعل»، لا يؤدّي عن معنى الجماعة منهم.

وأما تأويل ذلك، فإنه يعني به: يا معشرَ أحبارِ أهل الكتاب، صدِّقوا بما

---

(١) قوله: «قطع»، أي حال. والطبري يكثر من هذا الاستعمال كما سيأتي.

أنزلتُ على رسولي محمد ﷺ من القرآنِ المصدِّق كتابَكم والذي عندكم من التوراة والإنجيل، المعهود إليكم فيهما أنه رسولي ونبيِّي المبعوثُ بالحق، ولا تكونوا أوَّلَ أمتكُمْ كذَّبَ به وجَحد أنه من عندي، وعندكم من العلمِ به ما ليسَ عند غيرِكم.

وكفرهم به: جُحودهم أنه من عند الله. والهاء التي في «به» من ذكر «ما» التي مع قوله «وآمنوا بما أنزلتُ».

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾

(يعني): لا تبيعوا ما آتيتُكُم من العلم بكتابي وآياته بثمنٍ خسيسٍ وَعَرضٍ من الدنيا قليل. وبيعُهم إياه ـ تَرْكُهم إبانةَ ما في كتابهم من أمرِ محمدٍ ﷺ للناس، وأنه مكتوبٌ فيه أنه النبيُّ الأميُّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ـ بثمن قليل، وهو رِضاهم بالرياسة على أتباعم من أهل مِلَّتهم ودينهم، وأخذهم الأجرَ مِمَّنْ بَيَّنُوا له ذلك على ما بَيَّنُوا له منه.

وإنما قلنا بمعنى ذلك «لا تبيعوا»، لأنَّ مشتري الثمن القليل بآيات الله بائعُ الآياتِ بالثمن، فكلُّ واحدٍ من الثمن والمثمَّن مَبيع لصاحبه، وصاحبه به مشترٍ. فيكون حينئذ نهيُه عن أخْذِ الأجر على تَبْيِينهِ، هو النهي عن شراء الثمنِ القليل بآياته.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾

يقول: فاتقونِ ـ في بَيعكم آياتي بالخسيس من الثمن، وشرائكم بها القليلَ من العَرَض، وكفركم، بما أنزلتُ على رسولي وجحودكم نبوة نبيِّي ـ أنْ أُحِلَّ بكم ما أحللتُ بأسلافكم الذين سلكوا سبيلكم من المَثُلات والنَّقِمات.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾

يعني بقوله: «ولا تلبسُوا»، لا تخلطوا. واللَّبْس هو الخلط. يقال منه: لَبَست عليه هذا الأمر ألبِسهُ لبساً: إذا خلطته عليه.

فإن قال لنا قائل: وكيف كانوا يلبِسون الحَقَّ بالباطل وهم كفَّار؟ وأيُّ حَقٍّ كانوا عليه مع كفرهم بالله؟

قيل: إنـه كان فيهم منـافقـون منهم يُظْهِـرونَ التصـديقَ بمحمـدٍ ﷺ ويستبطنون الكفر به. وكان عُظْمُهم يقولون: محمد نبيٌّ مبعوث، إلا أنه مبعوثٌ إلى غيرنـا. فكـان لَبْسُ المنافق منهم الحقَّ بالباطل، إظهارَه الحقَّ بلسانه، وإقـرارَه بمحمدٍ ﷺ وبما جاء به جهاراً، وخلطه ذلك الظاهر من الحق بما يستبطنه. وكان لَبْسُ المقرّ منهم بأنه مبعوثٌ إلى غيرهم، الجاحدُ أنه مبعوث إليهم، إقرارَه بأنه مبعوثٌ إلى غيرهم، هو الحق، وجحودَه أنه مبعوثٌ إليهم، وهـو البـاطل، وقد بَعثه الله إلى الخلق كافة. فذلك خلطهم الحق بالباطل ولَبْسهم إياه به.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾

(يعني): ولا تخلطوا على الناس ـ أيها الأحبارُ من أهل الكتاب ـ في أمرِ محمدٍ ﷺ وما جاء به من عند ربه، وتزعموا أنه مبعوثٌ إلى بعض أجناس الأمم دون بعض، أو تُنَافِقُوا في أمره، وقد علمتم أنه مبعوثٌ إلى جميعِكم وجميعِ الأمم غيركم، فتخلطوا بذلك الصدقَ بالكذبِ، وتكتموا به ما تجدونه في كتابِكم من نعتهِ وصفتهِ، وأنه رسولي إلى الناسِ كافةً، وأنتم تعلمون أنه رسـولي، وأنَّ ما جاء به إليكم فمن عندي، وتعرفون أن من عهدي ـ الذي

أخذتُ عليكم في كتابِكم - الإيمانَ به وبما جاءَ به والتصديقَ به.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝٤٣﴾

ذُكِر أنَّ أحبارَ اليهود والمنافقين كانوا يأمرون الناسَ بإقامِ الصلاةِ وإيتاء الزكاة ولا يفعلونه، فأمرهم الله بإقام الصلاة مع المسلمين المصدِّقين بمحمدٍ وبما جاء به، وإيتاءِ زكاةِ أموالهم معهم، وأن يخضعوا لله ولرسوله كما خضعوا.

وقد بَيَّنا معنى إقامةِ الصلاة فيما مضى من كتابنا هذا، فكرهنا إعادته. أما إيتاءُ الزكاة، فهو أداءُ الصدقةِ المفروضة. وأصل الزَّكاة، نماءُ المال وتثميرهُ وزيادتهُ ومن ذلك قيل: زكا الزَّرْعُ، إذا كثر ما أخرج الله منه. وزَكتِ النَّفقةُ، إذا كثُرت. وقيل زكا الفَرْدُ، إذا صارَ زَوْجاً بزيادة الزائد عليه حتى صار به شَفْعاً.

وإنما قيل للزكاة زكاة، وهي مال يخرجُ من مالٍ، لتثميرِ الله - بإخراجها مما أخرجت منه - ما بقي عند ربِّ المال من مالِه. وقد يحتمل أن تكون سُمِّيت زكاة، لأنها تطهيرٌ لما بقيَ من مالِ الرجل، وتخليصٌ له من أن تكون فيه مَظْلمةٌ لأهلِ السُّهْمان[1]، كما قال جلّ ثناؤه مخبراً عن نبيه موسى صلوات الله عليه: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً﴾ [الكهف: ٧٤]، يعني بريئةً من الذنوبِ طاهرة. وكما يقال للرجل: هو عدل زَكِيٌّ - لذلك المعنى. وهذا الوجه أعجبُ إليَّ - في تأويلِ زكاة المال - من الوجه الأول، وإنْ كان الأول مقبولاً في تأويلها.

وإيتاؤها: إعطاؤُها أهلها.

---

(١) السهمان جمع سهم، كالسهام: وهو النصيب والحظ.

وأما تأويل الرُّكوع، فهو الخضوعُ لله بالطاعة. يقال منه: ركع فلانٌ لكذا وكذا، إذا خضع له.

وهذا أمرٌ من الله جلّ ثناؤه ـ لمن ذكر من أحبار بني إسرائيل ومنافقيها ـ بالإنابةِ والتوبةِ إليه، وبإقامِ الصلاة وإيتاء الزكاة، والدخول مع المسلمين في الإسلام، والخضوع له بالطاعة؛ ونهيٌ منه لهم عن كتمانِ ما قد علموه من نبوةِ محمدٍ ﷺ، بعد تظاهر حججه عليهم، بما قد وصفنا قَبْلُ فيما مضى من كتابنا هذا، وبعد الإعذارِ إليهم والإنذارِ، وبعد تذكيرهم نِعَمَهُ إليهم وإلى أسلافهم تعطُّفاً منه بذلك عليهم، وإبلاغاً في المعذرة.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾

التأويلُ الذي يدلُّ على صحته ظاهرُ التلاوة: أتأمرونَ الناسَ بطاعةِ الله وتتركون أنفسكم تعصيه؟ فَهَلَّا تأمرونَها بما تأمرون به الناسَ من طاعةِ ربكم؟ مُعيِّرَهُم بذلك، ومُقَبِّحاً لهم قبيحَ ما أتوا به.

ومعنى «نِسْيانهم أنفسَهم» في هذا الموضع، نَظيرُ «النسيان» الذي قال جلّ ثناؤه ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] بمعنى: تركوا طاعةَ الله، فتركهم الله من ثوابه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾

يعني بقوله: «تتلون» تدرسون وتقرأون.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾

يعني بقـوله: «أفلا تعقلون»، أفلا تَفْقَهُونَ وتفهمون قُبْحَ ما تأتون من معصيتكم ربَّكم التي تأمـرون النـاس بخـلافهـا، وتَنهوْنَهُم عن رُكوبها وأنتم راكبُوها، وأنتم تعلمون أنَّ الذي عليكم من حَقِّ الله وطاعته، واتباعِ محمدٍ والإيمان به وبما جاء به، مثل الذِي على مَنْ تأمرونه باتباعه؟ وهذا يدلُّ على صحة ما قلنا، من أمرِ أحبارِ يهود بني إسرائيل غيرَهم باتِّباعِ محمد ﷺ، وأنهم كانوا يقولون: هو مبعوثٌ إلى غيرنا! كما ذكر قبل.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾

يعني بقوله جلّ ثناؤه: «واستعينوا بالصبر»، استعينوا على الوفاء بعهدي الذي عاهَدْتُموني في كتابكم ـ من طاعتي واتباعِ أمري، وترك ما تَهوَوْنَهُ من الرياسةِ وحُبِّ الدنيا، إلى ما تكرهونه من التسليمِ لأمرِي واتباعِ رسولي محمد ﷺ ـ بالصبرِ عليه والصلاة.

وقد قيل: إنَّ معنى «الصبر» في هذا الموضع الصّوم، و«الصومُ» بعض معاني «الصبر». وتأويل مَنْ تأوَّل ذلك عندنا: أن الله تعالى ذِكْرُه أمرهم بالصبر على كُلِّ ما كرهته نفوسُهم من طاعة اللهِ، وتَرْكِ معاصيه. وأصلُ «الصبر»: منعُ النفس مَحَابَّها، وكفُّها عن هواها، ولذلك قيل للصابر على المصيبة: «صابرٌ»، لكفِّهِ نَفْسَهُ عن الجزع. وقيل لشهر رمضان «شهر الصَّبر»، لصبر صائميهِ عن المطاعم والمشارب نهاراً، وصبرُه إياهُم عن ذلك، حَبْسُه لهم وكفُّه إياهم عنه، كما تصبر الرجلَ المُسِيءَ للقتلِ فتحبسهُ عليه حتى تقتله. ولذلك قيل: «قَتَلَ فلانٌ فلاناً صَبْراً»، يعني به: حبسه عليه حتى قتله، فالمقتول «مصبور» والقاتلُ «صابر».

وأما «الصلاة»، فقد ذكرنا معناها فيما مضى.

فإنْ قال لنا قائل: قد عَلِمْنَا معنى الأمر بالاستعانةِ بالصبر على الوفاء بالعهد والمحافظة على الطاعة، فما معنى الأمر بالاستعانة بالصلاة على طاعة الله وترك معاصيه، والتعرِّي عن الرياسة وترك الدنيا؟

قيل: إن الصلاة فيها تلاوة كتابِ الله الداعيةِ آياتُه إلى رفضِ الدنيا وهَجْرِ نعيمها، المسليةِ النفوسَ عن زينتها وغُرورها، المذكِّرةِ الآخرةَ وما أعدَّ الله فيها لأهلها، ففي الاعتبار بها المعونةُ لأهلِ طاعة الله على الجدِّ فيها، كما روي عن نبيِّنا ﷺ أنه كان إذا حَزَبهُ أمر فَزِع إلى الصلاة[1].

فأمر اللهُ جَلَّ ثناؤه الذين وصف أمْرَهُم من أحبارِ بني إسرائيل، أنْ يجعلوا مفزَعهم ـ في الوفاء بعهدِ الله الذي عاهدوه ـ إلى الاستعانةِ بالصبر والصلاة، كما أمر نبيه محمداً ﷺ فقال له: ﴿فَٱصْبِرْ﴾ يا محمد ﴿عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآءِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠]. فأمره جلّ ثناؤه في نوائبهِ بالفزَعِ إلى الصبرِ والصلاة.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝٤٥﴾

يعني بقـولـه جلّ ثناؤه: «وإنها»، وإنَّ الصلاةَ. فـ«الهاء والألف» في «وإنها» عائدتانِ على الصلاةِ. وقد قال بعضهم: إن قوله: «إنها» بمعنى: إنَّ إجابةَ محمد ﷺ. ولم يَجْرِ لذلك بلفظ الإجابة ذِكْرٌ، فتجعل «الهاء والألف» كناية عنه. وغيرُ جائزٍ تركُ الظاهرِ المفهوم من الكلام، إلى باطنٍ لا دلالةَ على صحته.

ويعني بقوله: «لكبيرةٌ»، لشديدةٌ ثقيلة.

---

(١) مسند أحمد ٣٨٨/٥، وأبو داود (١٣١٩)، وهو صحيح.

ويعني بقوله: «إلّا على الخاشعين»، إلا على الخاضعين لطاعته، الخائفين سطواتِه، المُصَدِّقينَ بوعدهِ ووعيده.

وأصل «الخشوع»: التواضعُ والتذلل والاستكانة.

فمعنى الآية: واستعينوا، أيها الأحبارُ من أهل الكتاب، بِحَبْسِ أنفسكم على طاعةِ الله، وكَفِّها عن معاصي الله، وبإقامةِ الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر، المقرِّبَة من مَراضي الله، العظيمةِ إقامتُها إلا على المتواضعين لله، المستكينين لطاعته، المتذللين من مخافته.

القول في تأويل قوله تعالى ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ

إنْ قال لنا قائل: وكيف أخبر اللهُ جَلَّ ثناؤه عَمَّنْ قد وَصَفه بالخشوع له بالطاعة، أنه «يظن» أنه مُلاقِيه، والظنُّ شَكٌّ، والشاك في لقاءِ الله عندك بالله كافر؟

قيل له: إنَّ العربَ قد تُسمي اليقينَ «ظناً»، والشك «ظناً»، نظيرَ تسميتهم الظُّلمة «سُدْفَة»، والضياء «سُدْفَة»؛ والمغيث «صَارخاً»، والمستغيث «صارخاً»، وما أشبه ذلك من الأسماء التي تسمي بها الشيءَ وضدَّه. ومنه قول الله جلّ ثناؤه: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣].

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: أَنَّهُم مُّلَـٰقُواْ رَبِّهِمْ

إنْ قال لنا قائل: وكيف قيل إنهم مُلاَقُو رَبِّهم، فأضيف «الملاقون» إلى الرب تبارك وتعالى، وقد علمتَ أنَّ معناه: الذين يظنون أنهم يَلْقَوْنَ ربهم؟ وإذْ كان المعنى كذلك، فمن كلام العربِ تركُ الإضافة وإثبات النون، وإنما تُسقط النونَ وتضيف، في الأسماء المبنية من الأفعال، إذا كانت بمعنى «فعل»، فأما

إذا كانت بمعنى «يفعل وفاعل»، فشأنها إثبات النون وترك الإضافة.

قيل: لا تدافع بين جميعِ أهلِ المعرفة بلغاتِ العرب وألْسُنِهَا، في إجازةِ إضافةِ الاسم المبني من «فعل ويفعل» وإسقاط النون، وهو بمعنى «يفعل وفاعل»، أعني بمعنى الاستقبال وحالِ الفعلَ ولما يَنْقض. فلا وجه لمسألة السائل عن ذلك: لِمَ قيلَ؟

فتأويل الآية إذاً: واستعينوا على الوفاءِ بعهدي بالصبرِ عليه والصلاة، وإنَّ الصلاة لكبيرةٌ إلا على الخائفين عقابي، المتواضعينَ لأمري، الموقنينَ بلقائي والرجوع إليَّ بعد مماتهم.

وإنما أخبر الله جلّ ثناؤه أنَّ الصلاة كبيرةٌ إلا على مَنْ هذه صفتهُ، لأن مَنْ كان غيرَ مُوقنٍ بمعادٍ، ولا مصدِّقٍ بمرجعٍ ولا ثواب ولا عقاب، فالصلاةُ عنده عَنَاءٌ وضلال، لأنه لا يرجو بإقامتها إدراكَ نفعٍ ولا دفعَ ضُرٍّ. وحُقَّ لِمَنْ كانت هذه الصفةُ صفته أنْ تكون الصلاةُ عليه كبيرةً، وإقامتها عليه ثقيلة وله فادحة.

وإنما خَفَّتْ على المؤمنين المصدِّقين بلقاء الله، الراجينَ عليها جزيلَ ثوابِهِ، الخائفين بتضييعها أليمَ عقابِهِ، لِمَا يرجون بإقامتها في مَعادهم من الوصولِ إلى ما وَعَدَ اللهُ عليها أهلها، ولما يحذرون بتضييعها ما أوعد مُضيعَها. فأمر الله جَلَّ ثناؤه أحبارَ بني إسرائيل الذين خاطبهم بهذه الآيات، أنْ يكونوا من مُقيمِيها الراجينَ ثوابَها، إذا كانوا أهلَ يقينٍ بأنهم إلى الله راجعون، وإياه في القيامة مُلاقون.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝٤٦﴾

و«الهاء والميم» اللتان في قوله: «وأنهم»، من ذكر الخاشعين، و«الهاء» في «إليه»، من ذكر الرب تعالى ذكره في قوله: «مُلَاقو ربهم».

فتأويل الكلمة، وإنها لكبيرةٌ إلا على الخاشعين الموقنين أنهم إلى رَبهم راجعون.

يعني: يستيقنون أنهم يرجعون إليه يوم القيامة. لأنَّ الله تعالى ذكره قال في الآية التي قبلها: «كيفَ تكفرونَ بالله وكنتمْ أمواتاً فأحياكمْ ثم يُميتكم ثم يُحييكم ثم إليه تُرجعون». فأخبر جلّ ثناؤه أنَّ مَرْجِعَهم إليه بعد نَشرهم وإحيائهم من مماتهم، وذلك لاشك يوم القيامة. فكذلك تأويل قوله: «وأنهم إليه راجعون».

القول في تأويل قوله تعالى ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾

وتأويل ذلك في هذه الآية، نظيرُ تأويله في التي قبلها في قوله: «اذكروا نعمتي التي أنعمتُ عليكم وأوفوا بعهدي». وقد ذكرته هنالك.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧﴾

وهذا أيضاً مما ذَكَّرهم جَلَّ ثناؤه من آلائهِ ونِعَمِهِ عندهم. ويعني بقوله: «وأني فَضَّلتكم على العالمين»، أنِّي فضلتُ أسلافكم، فنسب نِعمَه على آبائهم وأسلافهم، إلى أنها نِعَمٌ منه عليهم، إذ كانت مآثر الآباء مآثرَ للأبناء، والنعم عند الآباء نعماً عند الأبناء، لكونِ الأبناء من الآباء. وأخرج جَلَّ ذِكْرُه قوله: «وأني فضلتكم على العالمين» مُخرَجَ العُمومِ، وهو يريد به خُصوصاً، لأن المعنى: وأني فضلتكم على عَالَمِ مَنْ كنتم بين ظَهريه وفي زمانه.

وقد أتينا على بيانِ تأويلِ قوله: «العالمين» بما فيه الكفايةُ في غير هذا الموضع، فأغنى ذلك عن إعادتهِ.

البقرة: ٤٨

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾

يعني: واتقوا يوماً لا تجزي فيه نفس عن نفس شيئاً. وجائزٌ أيضاً أن يكـونَ تأويله، واتقـوا يومـاً لا تَجْزِيه نفسٌ عن نفس شيئاً، فَحُذِفَت «الهاء» الراجعةُ على اليوم، إذ فيه اجتزاء ـ بما ظهر من قوله: «واتقوا يوماً لا تجزي نفس»، الدال على المحذوف منه ـ عما حذف. إذ كان معلوماً معناه.

وقد زعم قومٌ من أهل العربية أنه لا يجوز أن يكون المحذوف في هذا الموضع إلا «الهاء». وقال آخرون لا يجوز أن يكون المحذوف إلا «فيه». وقد دللنا فيما مضى على جواز حذف كل ما دلّ الظاهر عليه.

وأما المعنى في قوله: «واتقوا يوماً لا تجزي نفسٌ عن نفس شيئاً»، فإنه تحذيرٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ عبادَه الذين خاطبهم بهذه الآية ـ عقوبتَهُ أنْ تحلَّ بهم يوم القيامة، وهو اليوم الذي لا تجزي فيه نفسٌ عن نفس شيئاً، ولا يَجزي فيه والدٌ عن وَلده ولا مولود هُو جازٍ عن وَالده شيئاً.

وأما تأويل قوله: «لا تَجْزي نفسٌ»، فإنه يعني: لا تُغني.

وأصل «الجزاء» ـ في كلام العرب ـ: القضاء والتعويض. يقال: «جَزيته قَرْضَه ودَيْنَهُ أجزيه جَزَاءً»، بمعنى قضيته دَيْنَهُ. ومن ذلك قيل: «جزى الله فلاناً عَنِّي خيراً أو شراً»، بمعنى أثابه عَني، وقَضاهُ عَنِّي ما لزمني له بفعله الذي سلف منه إليَّ. وقد قال قوم من أهل العلم بلغة العرب: «يقال أجزيتُ عنه كذا» إذا أعَنْتَهُ عليه، و«جَزَيت عَنك فلاناً» إذا كافأته.

فمعنى الكلام إذاً: واتقوا يَوْماً لا تقضي نَفْسٌ عن نفسٍ شيئاً ولا تُغني عنها غِنى.

فإن قال لنا قائل: وما معنى: لا تقضي نفسٌ عن نفس ولا تُغني عنها غِنى؟

قيل: هو أنَّ أحدنا اليوم ربَّما قضى عن ولَدِهِ أو والدِهِ أوْ ذِي الصداقة والقرابة - دَيْنهُ. وأما في الآخرة فإنه - فيما أَتَتْنَا به الأخبارُ عنها - يَسُرُّ الرجلَ أن يَبْرُدَ[1] لهُ على وَلده أو والده حَقٌّ. وذلك أن قضاء الحقوق في القيامة من الحسنات والسيئات، فقوله جلّ ثناؤه: «لا تجزي نفس عن نفس شيئاً». يعني: أنها لا تقضي عنها شيئاً لزمها لغيرها، لأنَّ القضاءَ هنالك من الحسنات والسيئات على ما وصفنا. وكيف يقضي عن غيره ما لَزِمَهُ، مَنْ كان يسرُّهُ أن يَثْبُتَ له على وَلده أو والده حق، فيؤخذَ منه ولا يُتجافى له عنه؟

القول في تأويل قوله عزّ وجل: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾

و«الشفاعة» مَصْدَرٌ من قولِ الرجل: «شَفع لي فلانٌ إلى فلان شَفاعة»، وهو طلبه إليه في قضاء حاجته. وإنما قيل للشفيع «شَفيعٌ وشافع»، لأنه ثنَّى المستشفِعَ به فصار به شَفعاً، فكان ذو الحاجة - قبل استشفاعهِ به في حاجته - فَرداً، فصار صَاحبُه له فيها شافعاً، وطلبُه فيه وفي حاجته شَفاعة. ولذلك سُمي الشفيعُ في الدارِ وفي الأرضِ «شفيعاً»، لمصيرِ البائع به شفعاً.

فتأويل الآية إذاً: واتقوا يوم لا تقضي نفس عن نَفس حَقاً لَزِمَها للهِ جَلَّ ثناؤه ولا لغيره، ولا يَقبلُ الله منها شفاعةَ شافعٍ، فيترك لها ما لزمها من حقّ.

وقيل: إن الله عزّ وجل خاطب أهلَ هذه الآية بما خاطبهم به فيها، لأنهم كانوا من يهود بني إسرائيل، وكانوا يقولون: نحنُ أبناءُ الله وأحبَّاؤه وأولاد أنبيائه، وسيشفعُ لنا عنده آباؤنا. فأخبرهم الله جَلَّ وعز أنَّ نفساً لا تجزي عن نفسٍ شيئاً في القيامة، ولا يُقبل منها شفاعةُ أحدٍ فيها، حتى يُستَوفَى لكلِّ ذي حَقٍّ منها حقه.

---

(١) برد عليه حق: وجب ولزم. وبرد لي عليه كذا وكذا: أي ثبت. ويقال: لي عليه ألف بارد، أي ثابت.

فآيَسَهُم جَلَّ ثناؤه مما كانوا أطْمَعُوا فيه أنفسَهم، من النجاةِ من عذابِ الله ـ مع تكذيبهم بما عرفوا من الحق، وخلافِهم أمرَ الله في اتباع محمدٍ ﷺ وما جاءهم به من عنده ـ بشفاعةِ آبائهم وغيرهم من الناس كلهم؛ وأخبرهم أنه غيرُ نافعهم عنده إلا التوبة إليه من كفرهم، والإنابة من ضلالهم. وجعَل ما سنَّ فيهم من ذلك إماماً لكل مَنْ كان على مِثل مِنهاجهم، لئلا يطمعَ ذو إلحادٍ في رحمته.

وهذه الآية، وإنْ كان مَخرجها عاماً في التلاوة، فإنَّ المرادَ بها خاصٌ في التأويل، لتظاهر الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمَّتي»[1] وأنه قال: «ليس منْ نبيٍّ إلا وقد أُعْطيَ دَعْوةً، وإنِّي اختبأتُ دَعوتي شفاعةً لأمَّتي، وهي نائلةٌ إنْ شاء الله منهم مَنْ لا يشرك بالله شيئاً»[2]. فقد تبين

---

(١) حديث صحيح، أخرجه الترمذي (٢٤٣٥) من حديث ثابت عن أنس ورجاله رجال مسلم، وأخرجه أحمد ٣/٢١٣، وأبو داود (٤٧٣٩) من حديث أشعث الحدَّانيّ عن أنس، ورجاله ثقات غير أشعث هذا، فقد وثقه النسائي ويحيى بن معين، وتكلم فيه العقيلي فقال: «في حديثه وهم» وغَلَّطه الذهبي في الميزان فقال: «قول العقيلي في حديثه وهم، ليس بمسلم إليه، وأنا أتعجبُ كيف لم يخرج له البخاري ومسلم!» «تهذيب الكمال ٣/ الترجمة ٥٢٧»، وفي الباب عن جابر، أخرجه الترمذي (٢٤٣٦) بسند فيه محمد بن ثابت البناني وهو ضعيف.

(٢) أصله في الصحيحين فقد أخرجه البخاري ٨/٨٢ و٩/١٧٠، ومسلم (١٩٨) من حديث أبي هريرة بلفظ «لكل نبي دعوة فأُريد إن شاءَ الله أنْ اختبىءَ دعوتي شفاعةً لأُمتي يوم القيامة»، وأخرجه مسلم من حديث أنس أيضاً (٢٠٠)، وهو بهذا اللفظ في معظم دواوين الإسلام. وزيادة «وهي نائلةٌ إن شاء الله منهم من لا يشرك بالله شيئاً» أخرجها مسلم (١٩٩) من حديث أبي بكر بن أبي شيبة وأبي كريب، عن أبي معاوية، عن الأعمش، عن أبي صالح عن أبي هريرة. وأخرجها الترمذي (٣٦٠٢) عن أبي كريب، به، وابن ماجة (٤٣٠٧) عن أبي بكر بن أبي شيبة به، وقال الترمذي: حسن صحيح. =

بذلك أن الله جلّ ثناؤه قد يَصفح لعباده المؤمنين - شفاعة نبينا محمد ﷺ لهم - عن كثير من عُقوبة إجرامهم بينهم وبينه، وأن قولَه: «ولا يُقبل منها شفاعةٌ»، إنما هي لمن مات على كفره غيرَ تائبٍ إلى الله عزّ وجل. وليس هذا من مواضعِ الإطالةِ في القولِ في الشفاعة والوعد والوعيد، فنستقصي الحِجاجَ في ذلك. وسنأتي على ما فيه الكفاية في مواضعه إنْ شاء الله.

القول في تأويل قوله تعالى: وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ

و«العَدْلُ» - في كلام العرب؛ بفتح العين - الفِدْية.

وإنما قيل للفدية من الشيء والبدَلِ منه: «عَدلٌ»، لمعادلته إياه وهو من غير جنسه، ومَصيره له مثلاً، من وَجه الجزاء، لا من وجه المُشابَهة في الصورة والخِلْقةِ، كما قالَ جلّ ثناؤه: ﴿وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْهَا﴾ [الآنعام: ٧٠]، بمعنى: وإن تَفد كلَّ فديةٍ لا يؤخذ منها.

يقال منه: « هذا عَدْله وعَديله». وأما «العِدل» - بكسر العين - فهو مثل الحِمْلِ المحمولِ على الظهر. يقال من ذلك: «عندي غلام عِدْل غلامك، وشاة عِدْل شاتك» - بكسر العين - إذا كان غلامٌ يعدلُ غلاماً، وشاة تعدل شاة. وكذلك ذلك في كل مِثْلٍ للشيءِ من جِنْسِه. فإذا أُريدَ أنَّ عنده قيمته من غير جنسه، نُصبت العين، فقيل: «عِندي عَدل شَاتِكَ من الدراهم». وقد ذُكِرَ عن

= وفي هذا الحديث بيان فضل نبينا ﷺ على سائر الأنبياء حيث آثر أمته على نفسه وأهل بيته بدعوته المجابة ولم يجعلها أيضاً دعاءً عليهم بالهلاك كما وقع لغيره ممن تقدم. ومن صحة نظره ﷺ أنه جعلها للمذنبين من أمته لكونهم أحوج إليها من الطائعين. وأما قوله ﷺ: «فهي نائلة» ففيه دليل لأهل السنة والجماعة أن من مات غير مشرك لا يخلد في النار ولو مات مصراً على الكبائر (وانظر فتح الباري: ١١/٨١).

بعض العربِ أنه يكسر العين من «العدل» الذي هو بمعنى الفِدية، لمعادلة ما عادَله من جهة الجزاء، وذلك لتقارب معنى العَدل والعِدْل عندهم. فأما وَاحد «الأعدال»، فلم يسمع فيه إلا «عِدل» بكسر العين.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝٤٨﴾

وتأويل قوله: «ولا هُم يُنصرون»، يعني أنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر، كما لا يَشفعُ لهم شافع، ولا يُقبل منهم عَدْلٌ ولا فدية. بَطلت هنالك المُحاباة، واضمحلت الرُّشَى والشفاعات، وارتفع بين القوم التعاونُ والتناصر، وصار الحُكم إلى العَدل الجبار الذي لا ينفعُ لديه الشُّفعاء والنُّصراء، فيجزي بالسيئة مِثْلَها وبالحسنةِ أضعافَها، وذلك نظير قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٤-٢٦].

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾

أما تأويل قوله: «وإذ نَجَّيْناكم»، فإنه عطف على قوله: «يا بني إسرائيلَ اذكرُوا نِعْمتي». فكأنه قال: اذكروا نعمتي التي أنعمتُ عليكم، واذكروا إنعامَنا عليكم - إذ نَجيناكم من آل فرعون - بإنْجائِنَاكُم منهم.

وأما «آل فرعون»، فإنهم أهلُ دينه وقومُه وأشياعُه.

وأصل «آل» أهل، أبْدِلت الهاء همزة، كما قالوا «ماءٌ» فأبدلوا الهاء همزة، فإذا صغَّروه قالوا: «مُوَيْه» فردوا الهاء في التصغير. وأخرجوه على أصله. وكذلك إذا صغَّروا «آل»، قالوا «أُهَيْل». وقد حكي سماعاً من العرب في تَصْغير «آل» «أويل». وقد قيل: «فلان من آل النساء»، يراد به أنه منهن خُلِقَ. ويقال ذلك أيضاً بمعنى أنه يريدُهنَّ وَيهواهنَّ.

وأحسن أماكن «آل» أن يُنطق به مع الأسماء المشهورة، مثلُ قولهم: آل النبي محمد ﷺ، وآل علي، وآل عباس، وآلُ عَقِيل. وغيرُ مستحسن استعمالُه مع المجهول وفي أسماء الأَرَضين وما أشبه ذلك. غيرُ حسن عند أهل العلم بلسان العرب أن يقال: رأيتُ آلَ الرجل ورآني آل المرأة ـ ولا ـ: رأيت آل البصرة وآل الكوفة. وقد ذكر عن بعض العرب سَماعاً أنها تقول: «رأيتُ آل مكة، وَآل المدينة». وليس ذلك في كلامهم بالفاشي المستعمل.

وأما «فرعون» فإنه يقال إنه اسمٌ كانت مُلوك العمالِقة بمصر تُسَمَّى به، كما كانت مُلوك الروم يُسَمَّى بعضهم «قيصر»، وبعضهم «هِرَقْل»، وكما كانت ملوك فارس تسمَّى «الأكاسرَة» واحدهم «كسرى»، وملوك اليمن تسمى «التبابعة» واحدهم «تُبَّع».

وإنما جاز أنْ يُقالَ: «وإذْ نَجَّيناكم من آلِ فرعون»، والخطابُ به لِمَنْ لم يدرك فرعونَ ولا المنجَّين منه، لأن المخاطبين بذلك كانوا أبناءَ من نَجَّاهم من فرعون وقومه، فأضافَ ما كان من نعمه على آبائهم إليهم، وكذلك ما كانَ من كُفران آبائهم على وجه الإضافة، كما يقول القائلُ لآخر: «فعلنا بكم كذا وفعلنا بكم كذا، وقتلناكم وسَبَيْنَاكم»، والمخبِر إما أن يكون يعني قومه وعشيرته بذلك، أو أهل بلده ووطنه ـ كانَ المقولُ له ذلك أدرك ما فُعِلَ بهم من ذلك أو لم يدركه.

القول في تأويل قوله تعالى: يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ

وفي قوله: «يسومونكم» وجهان من التأويل:

أحدهما: أن يكون خَبراً مستأنفاً عن فِعل فرعونَ ببني إسرائيل، فيكونَ معناه حينئذ: واذكروا نعمتي عليكم إذ نجَّيتُكم من آل فرعون، وكانوا من قَبْلُ يسومونكم سُوء العذاب. وإذ كان ذلك تأويله، كان موضع «يسومونكم» رفعاً.

والوجه الثاني: أن يكون يسومونكم حالاً، فيكون تأويله حينئذ: وإذْ نجَّيناكم. من آل فرعون سائميكم سُوءَ العذاب، فيكون حالاً من آل فرعون.

وأما تأويل قوله: «يسومونكم» فإنه: يُورِدُونَكُم، ويُذِيقُونكم، ويُولونكم. يقال منه: «سامَهُ خُطةَ ضَيم»، إذا أولاه ذلك وأذاقه.

فأما تأويل قوله: «سُوء العذاب»، فإنه يعني ما سَاءَهم من العذاب. وقد قال بعضهم: أشدّ العذاب. ولو كان ذلك معناه لقيل: أسوأ العذاب.

فإن قال لنا قائل: وما ذلك العذابُ الذي كانوا يُسومُونهم، الذي كان يسوؤهم؟

قيل: هو ما وصفه الله تعالى في كتابه فقال: «يُذبِّحون أبناءكم وَيستحيُون نساءَكم».

القول في تأويل قوله تعالى: **يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ**

وأضاف اللهُ جَلَّ ثناؤه ما كان من فِعْلِ آلِ فرعون ببني إسرائيل - من سَوْمهم إياهم سُوءَ العذاب، وذَبْحِهم أبناءَهم، واستحيائهم نساءَهم - إليهم، دون فرعون - وإنْ كان فعلهم ما فعلوا من ذلك كانَ بقوَّةِ فرعون، وعن أمرهِ - لمباشرتهم ذلك بأنفسهم. فبيَّنَ بذلك أنَّ كُلَّ مباشرٍ قَتْلَ نفسٍ أو تعذيبَ حَيٍّ بنفسه، وإنْ كان عن أمْر غيره، ففاعله المتولِّي ذلك هو المستحقُّ إضافة ذلك إليه، وإن كان الآمرُ قاهراً الفاعلَ المأمورَ بذلك - سلطاناً كان الآمرُ، أو لصاً خارباً[1]، أو مُتَغَلِّباً فاجراً. كما أضاف جلّ ثناؤه ذَبْح أبناء بني إسرائيل واستحياءَ نسائِهم، إلى آلِ فرعونَ دون فرعون، وإنْ كانوا بِقُوَّةِ فرعونَ وأمرِهِ إياهم بذلك،

(١) الخارب: اللص الشديد الفساد.

فَعَلُوا ما فعلوا، مَعَ غَلَبَتِهِ إياهم وقهره لهم. فكذلك كل قاتلٍ نَفساً بأمرِ غيره ظلماً، فهو المقتولُ عندنا به قِصَاصاً، وإنْ كان قَتله إيَّاها بإكراهِ غيرِهِ له على قتله.

وأما تأويلُ ذَبْحِهم أبناء بني إسرائيل واستحيائِهم نساءَهُم فمعناه: ذَبْحُ آل فرعون الصِّبيانَ وتَرْكهم من القتل الصَّبايا. وإنما قيل: «ويَستحيون نساءَكم»، إذْ كان الصَّبايا داخلات مع أمهاتهن ـ وأمهاتهن لا شَك نساء ـ في الاستحياء، لأنهم لم يكونُوا يقتلونَ صغارَ النساء ولا كبارَهن، فقيل: «ويستحيون نساءكم»، يعني بذلك الوالداتِ والمولودات، كما يقال: «قد أقبلَ الرجال»، وإنْ كان فيهم صبيان. فكذلك قوله: «ويستحيون نساءكم». وأما من الذكور، فإنه لَمَّا لم يَكُنْ يُذْبَحُ إلا المولودون، قيل: «يُذبحُونَ أبناءكم»، ولم يقل: يذبحون رجالكم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾

أما قوله: «وفي ذلكُم بَلاءٌ من رَبكم عَظيمٌ» فإنه يعني: وفي الذي فعلنا بكم، من إنْجَائِنَاكم ـ مما كُنْتُمْ فيه من عذابِ آلِ فرعون إياكم، على ما وصفتُ ـ بلاءٌ لكم من ربِّكم عظيم.

ويعني بقوله «بلاء»: نعمةٌ.

وأصلُ «البَلاء» ـ في كلامِ العربِ ـ الاختبارُ والامتحان، ثم يُستعملُ في الخيرِ والشر. لأنَّ الامتحان والاختبارَ قد يكون بالخير كما يكون بالشر، كما قال ربُّنا جلّ ثناؤه: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]، يقول: اختبرناهم، وكما قال جلّ ذكره: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]. ثم تسمِّي العربُ الخيرَ «بلاءً» والشر «بلاءً». غيرَ

أنَّ الأكثرَ في الشرِّ أنْ يُقال: «بَلَوْتُه أبلوه بَلاءً»، وفي الخير: «أبليْتُه أُبْلِيه إبلاءً وبلاءً».

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾

أما تأويل قوله: «وإذْ فرقنا بكم»، فإنه عطفٌ على «وإذْ نجَّيْناكم»، بمعنى: واذكروا نعمتي التي أنعمتُ عليكم، واذكروا إذْ نجَّيناكم من آلِ فرعونَ، وإذْ فرَقنا بكمُ البحرَ.

ومعنى قوله: «فَرَقنا بكم»، فَصلنا بكم البحر. لأنهم كانوا اثنَيْ عشر سِبْطاً؛ ففرَقَ البحر اثني عشر طريقاً، فَسَلَكَ كُلُّ سِبْطٍ منهم طريقاً منها. فذلك فَرْقُ اللهِ بهم عزّ وجل البحرَ وفصلُه بهم، بتفريقِهم في طُرقه الاثني عشر.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٠﴾

ويعني بقوله: «وأنتم تنظرون»، أي تنظرون إلى فَرْقِ الله لكم البحرَ وإهلاكهِ آلَ فرعون في الموضع الذي نَجَّاكم فيه، وإلى عظيم سلطانه ـ في الذي أرَاكُم من طاعةِ البحر إياهُ، من مصيرهِ رُكاماً فِلَقاً[1] كهيئة الأطوادِ الشامخة، غير زائل عن حَدِّهِ، انقياداً لأمرِ الله وإذعاناً لطاعته، وهو سَائلٌ ذائبٌ قبل ذلك.

يُوقِفُهم بذلك جَلّ ذِكْرُه على موضعِ حُجَجِه عليهم، ويُذَكِّرُهم آلاءَه عند

---

(١) ركام: مجتمع بعضه فوق بعض والفِلَق جمع فِلْقَة، وهي: الشق.

أوائلهم، ويُحَـذِّرُهم - في تكذيبهم نَبِيَّنا محمداً ﷺ - أنْ يحلَّ بهم ما حلَّ بفرعونَ وآله، في تكذيبهم موسى ﷺ.

القول في تأويل قوله تعالى: وَإِذْ وَعَدْنَا

اختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك، فقرأ بعضهم: «وَاعَدْنا» بمعنى أن الله تعالى واعد موسى مُوافاة الطور لمناجاته، فكانت المواعدةُ من الله لموسى، ومن موسى لربه. وكان من حجتهم على اختيارهم قراءة «واعَدْنا» على «وَعَدْنا» أنْ قالـوا: كُلُّ اتِّعادٍ كان بين اثنين للالتقاء والاجتماع، فكلُّ واحدٍ منهما مواعِدٌ صاحبَـهُ ذلـك. فلذلك - زعموا - وَجَبَ أن يُقْضَى لقراءة مَنْ قرأ «واعَدْنا»، بالاختيار على قراءة من قرأ «وعدنا».

وقرأ بعضهم: «وعدنا»، بمعنى أن الله الواعدُ والمنفردُ بالوَعْدِ دونه. وكان من حجتهم في اختيارِهم ذلك أنْ قالوا: إنما تكونُ المواعدةُ بين البشر، فأما الله جلّ ثناؤه، فإنه المنفردُ بالوعد والوعيد في كُلِّ خيرٍ وشر. قالوا: وبذلك جاء التنـزيل في القـرآن كله، فقـال جلّ ثنـاؤه: ﴿إِنَّ اللهَ وَعَـدَكُمْ وَعْدَ الحَقِّ﴾ [إبراهيم: ٢٢] وقال: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧]. قالوا: فكذلك الواجبُ أنْ يكونَ هو المنفرد بالوعد في قوله: «وإذ وَعدْنا موسى».

والصواب عندنا في ذلك من القول: أنهما قراءتان قد جَاءت بهما الأمَّةُ وقرأت بهما القَرَأَةُ، وليس في القراءةِ بإحداهما إبطالُ معنى الأخرى، وإنْ كان في إحداهما زيادةُ معنىً على الأخرى من جهةِ الظاهر والتلاوة، فأما من جهة المفهوم بهما، فهما متفقتان. وذلك أنَّ مَنْ أخبرَ عن شخصٍ أنه وَعَدَ غيرَهُ اللقاءَ بموضعٍ من المواضع، فمعلومٌ أنَّ الموعودَ ذلك واعدَ صاحبه من لقائه

بذلك المكان، مثل الذي وَعده من ذلك صاحبه، إذا كان وَعْدُهُ ما وَعَدَهُ إياه من ذلك عن اتفاقٍ منهما عليه. ومعلومٌ أن موسى صلوات الله عليه لم يَعِدْهُ ربُّه الطورَ إلا عن رضًا موسى بذلك، إذْ كان موسى غير مشكوكٍ فيه أنه كان بكُلِّ ما أمَرَ اللهُ به راضياً، وإلى مَحَبَّتِهِ فيه مُسَارِعاً. ومعقولٌ أن الله تعالى لم يَعِدْ موسى ذلك، إلا وموسى إليه مُسْتَجِيبٌ. وإذْ كان ذلك كذلك، فمعلومٌ أنَّ الله عزَّ ذِكْرُه كان وَعد موسى الطورَ، ووعدَهُ موسَى اللقاءَ. فكان الله عزّ ذكره لموسى واعِداً مُواعِداً له المُناجاةَ على الطور، وكان موسى وَاعداً لربِّهِ مُواعِداً له اللقاءَ. فبأيِّ القراءتين من «وعد» و«واعد» قرأ القارىء، فهو للحق في ذلك ـ من جهة التأويل واللغة ـ مصيبٌ، لما وَصَفْنَا من العِلَل قَبْلُ.

ولا معنى لقول القائل: إنما تكونُ المواعدةُ بين البشر، وأنَّ اللهَ بالوعدِ والوعيدِ منفردٌ في كُلِّ خيرٍ وشر. وذلك أن انفرادَ الله بالوعدِ والوعيدِ في الثوابِ والعقابِ، والخير والشر، والنَّفْعِ والضُرِّ الذي هو بيدِهِ وإليهِ دونَ سائرِ خَلْقِه ـ لا يُحيلُ الكلامَ الجاريَ بين الناسِ في استعمالهم إياه عن وجوهه، ولا يُغَيِّرُهُ عن معانيه. والجاري بين الناسِ من الكلامِ المفهوم ما وصفنا: من أنَّ أيَّ اتِّعادٍ كان بين اثنين، فهو وَعْدٌ من كُلِّ واحدٍ منهما صاحبَه، ومواعدةٌ بينهما، وأنَّ كُلَّ واحدٍ منهما واعدٌ صاحبه مواعدٌ. وأنَّ الوعْدَ الذي يكونُ به الانفرادُ من الواعد دون الموعود، إنما هو ما كان بمعنى «الوعد» الذي هو خلافُ «الوَعيد».

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿مُوسَىٰ﴾

«ومـوسى» ـ فيمـا بلغنـا ـ بالقبـطية كلمتان، يُعْنَى بهما وشَجَرٌ. فـ «مو»، هو الماء، و«شا» هو الشجر. وإنما سمي بذلك ـ فيما بلغنا ـ لأنَّ أُمَّهُ لَمَّا جعلتهُ في التابوت ـ حين خافتْ عليه من فرعونَ وألقته في اليَمِّ، كما أوحى اللهُ إليها، وقيل: إنَّ اليمَّ الذي ألقته فيه هو النيل ـ دفعته أمواجُ اليم

حتى أدخلتـه بين أشجارٍ عند بيتِ فرعون، فخرج جواري آسِيةَ امرأةِ فرعون يَغْتَسِلْنَ، فوجَدْنَ التابوتَ فأخذنَهُ. فسمي باسم المكان الذي أُصيبَ فيه، وكان ذلك بمكانٍ فيه ماء وشجر، فقيل: موسى، ماء وشجر.

القول في تأويل قوله تعالى ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾

ومعنى ذلك: وإذْ وَاعَدنا موسى أربعينَ ليلة بتمامها. فالأربعون ليلة كلها داخلة في الميعاد.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾

وتأويل قوله: «ثم اتخذتم العجلَ من بَعده»، ثم اتخذتم في أيامِ مُواعَدةِ مُوسى العِجْلَ إلهاً، مِنْ بَعْدِ أنْ فارقَكُم موسى مُتوجِّهاً إلى الموعد. و«الهاء» في قوله: «من بَعْدِه» عائدةٌ على ذِكْرِ موسى.

فأخبر جَلَّ ثناؤُه المخالفينَ نَبِيَّنا ﷺ من يهودِ بني إسرائيل، المُكَذِّبينَ، المُخَاطَبِينَ بهـذه الآية ـ عن فِعْـلِ آبـائهم وأسـلافهم، وتكذيبهم رُسُلهم، وخـلافهم أنبياءَهم، مع تَتـابعِ نِعمَه عليهم، وشُيوعِ آلائهِ لديهم، مُعَرِّفَهُم بذلـك أنهم ـ من خلاف محمـد ﷺ وتكذيبهم به، وجحودهم لرسالته، مع عِلْمِهم بِصِـدْقِه ـ على مِثْلِ منهاجِ آبائهم وأسلافهم، ومُحَذِّرَهُم من نُزولِ سَطوتـه بهم ـ بمُقامهم على ذلك من تكذيبهم ـ ما نَزَلَ بأوائلهم المكذبين بالرسُل: مِنَ المسخِ واللعنِ وأنواعِ النِّقِمات.

تأويل قوله: ﴿وَأَنتُمْ ظَـٰلِمُونَ ۝٥١﴾

يعني: وأنتمْ واضعو العبادةِ في غير موضعها، لأنَّ العبادةَ لا تَنبغي إلا لله عزّ وجل، وعبدتُم أنتم العِجْلَ ظُلماً منكم، ووضعاً للعبادةِ في غير موضعها. وقد دللنا ـ في غير هذا الموضع مما مَضَى من كتابنا ـ أنّ أصلَ كُلِّ ظُلمٍ، وضع الشيءِ في غير مَوْضعه. فأغنى ذلك عن إعادته في هذا الموضع.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٢﴾

يقول: تركنا مُعَاجَلَتَكُمْ بالعقوبة، «من بعد ذلك»، أي مِنْ بعدِ اتِّخَاذِكم العجلَ إلٰهاً.

فمعنى الكلام إذاً: ثم عفونا عنكم من بعد اتخاذكم العجلَ إلٰهاً، لتشكروني على عفوي عنكم، إذْ كان العفوُ يُوجِبُ الشكرَ على أهل اللبِّ والعقل.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝٥٣﴾

يعني بقوله: «وإذ آتينَا موسى الكتابَ»: واذكروا أيضاً إذْ آتينا مُوسى الكتاب والفُرقان. ويعني بـ«الكتاب»: التوراة، وبـ«الفرقان»: الفصل بين الحق والباطل.

وأوْلَى التأويلات بتأويل الآية، ما روي عن ابن عباس وأبي العالية ومجاهد: من أنَّ «الفرقان»، الذي ذَكَرَ اللهُ أنه آتاهُ موسى في هذا الموضع هو

الكتابُ الذي فَرَقَ به بين الحق والباطل، وهو نعتٌ للتوراة وصِفَةٌ لها.

فيكون تأويلُ الآية حينئذٍ: وإذْ آتينا مُوسى التوراةَ التي كتبناها له في الألواح وفرَقنا بها بين الحق والباطل.

فيكون «الكتاب» نعتاً للتوراة أُقيمَ مقامَها، استغناء به عن ذِكْرِ التوراة، ثم عَطف عليه بـ «الفرقان»، إذْ كان من نعتها.

وقد بَيَّنا معنى «الكتاب» فيما مضى من كتابنا هذا، وأنه بمعنى المكتوب.

وإنما قُلْنَا هذا التأويل أَوْلَى بالآية، وإنْ كان محتملاً غيرُه من التأويل، لأنَّ الذي قبله من ذِكْر «الكتاب»، وأن معنى «الفرقان» الفَصْل ـ وقد دللنا على ذلك فيما مضى من كتابنا هذا ـ، فإلحاقُه، إذْ كان كذلك، بصفة مَا وَلِيَهُ، أَوْلَى من إلحاقهِ بصفةِ ما بَعُدَ منه.

وأما تأويل قوله: «لَعلكمْ تَهتدونَ»، فنظير تأويل قوله: «لعلكم تشكرون»، ومعناه لتهتدوا.

وكأنه قال: واذكُروا أيضاً إذْ آتينا مُوسى التوراةَ التي تَفرقُ بين الحق والباطل لتهتدوا بها، وتَتَّبِعُوا الحَقَّ الذي فيها، لأنِّي جعلتُهَا كذلك هُدىً لمن اهتدَى بها، واتَّبع ما فيها.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾

وتأويل ذلك: واذكرُوا أيضاً إذ قال موسى لقومه من بني إسرائيل: يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم. وظُلْمُهم إيَّاها، كانَ فِعْلَهم بها ما لم يكن لَهُمْ أنْ يفعلوه بها، مِمَّا أوجبَ لهمُ العقوبةَ من الله تعالى. وكذلك كُلُّ فاعلٍ فعلاً يستوجِبُ به العقوبة من الله تعالى، فهو ظالمٌ لنفسهِ بإيجابهِ العقوبةَ لها من الله تعالى. وكان الفِعْلُ الذي فعلوه فَظلموا به أنفسهم، هو ما أخبر الله عنهم: من ارتدادِهم باتخاذِهم العجلَ رَبّاً بعد فراقِ موسى إيَّاهم.

ثم أمرَهم موسى بالمراجعة من ذنبهم، والإنابة إلى الله من رِدَّتِهم، بالتوبةِ إليه، والتسليم لطاعتـه فيما أمرهم به. وأخبرهـم أنَّ توبتهم من الذنب الذي رَكِبُوه قَتْلُهم أنْفُسَهم.

وقد دَللنا فيما مضى على أنَّ معنى «التوبة»: الأَوْبة مما يَكْرَهُهُ اللهُ إلى ما يَرضاهُ من طاعتهِ.

فاستجابَ القومُ لِمَا أمَرَهُمْ به موسى من التوبةِ مما ركبوا من ذنوبهم إلى ربهم، على ما أمرهم به.

وأما معنى قوله: «فتوبوا إلى بَارئكم»، فإنه يعني به: ارجِعُوا إلى طاعةِ خالِقكم، وإلى ما يُرضيه عنكم.

وهـو من «بَـرأَ الله الخلق يبرؤه فهو بارىء». و«البريَّة»: الخَلْق. وهي «فَعليةٌ» بمعنى «مفعـولـة»، غير أنها لا تُهمز. كما لا يهمز «مَلَك» وهو من «لأك»، لكنه جرى بترك الهمز كذلك.

وقد قيل: إنَّ «البرية» إنما لم تُهمز، لأنها «فعيلة» من «البَرَى»، والبَرَى: التراب، فكان تأويله على قولِ مَنْ تأوَّله كذلك: أنه مخلوقٌ من التراب.

وقال بعضهم: إنما أخذت «البريّة» من قولك: «بريتُ العود». فلذلك لم يُهمز.

وترك الهمز من «بارِئكم» جائز، والإبدال منها جائز. فإذْ كان ذلك جائزاً في «باريكم»، فغير مستنكر أنْ تكون «البرية» من: «بَرَى الله الخلق»، بترك الهمزة.

وأما قوله: «ذلكم خيرٌ لكم عند بَارِئكم»، فإنه يعني بذلك: توبتُكم بقتلِكُم أنفسَكم، وطاعتُكم رَبَّكم، خيرٌ لكم عند بارئكم، لأنكم تَنْجُونَ بذلك من عقابِ الله في الآخرة على ذنبكم، وتستوجبون به الثوابَ منه.

وقوله: «فتاب عليكم»، أي: بما فعلتم مِمَّا أمركم به من قَتْلِ بعضِكم بعضاً. وهذا من المحذوف الذي اسْتُغْنِيَ بالظاهرِ منه عن المتروك. لأن معنى الكلام: فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسَكم، ذلكم خيرٌ لكم عند بارئكم، فَتُبْتُمْ، فتابَ عليكم. فترك ذكر قوله: «فتبتم»، إذْ كان في قوله: «فتاب عليكم» دلالةٌ بَيِّنَةٌ على اقتضاء الكلام «فَتُبْتُمْ».

ويعني بقوله: «فتاب عليكم»، رجعَ لكم ربكم إلى ما أحببتم: من العفوِ عن ذُنُوبِكم وعظيمِ ما ركبتم، والصفحِ عن جُرْمِكُم، «إنه هو التوابُ الرحيم» يعني: الراجعُ لمن أناب إليه بطاعته إلى ما يُحِبُّ من العفوِ عنه.

ويعني بـ «الرحيم»، العائد إليه برحمته المُنْجيةِ من عقوبته.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾

وتأويل ذلك: واذكروا أيضاً إذْ قلتم يا مُوسى لَنْ نُصدِّقَكَ ولن نُقِرَّ بما جئتنا به، حتى نرى الله جهرة - عياناً برفعِ الساترِ بيننا وبينه، وكشف الغطاء دوننا ودُونه، حتى نَنْظُرَ إليه بأبصارنا، كما تُجهر الرَّكِيَّةُ. وذلك إذا كان ماؤها

قد غَطَّاهُ الطينُ، فَنُقِّيَ ما قد غَطَّاهُ حتى ظَهرَ الماءُ وَصَفا. يقال منه: «قد جَهرت الركيةَ أجهرُها جَهْراً وَجهْرة». ولذلك قيل: «قد جاهر فلانٌ بهذا الأمر مُجاهَرةً وجِهاراً»، إذا أظهره لرأيِ العينِ وأعْلَنَهُ.

فَذَكَّرهم بذلك جَلَّ ذِكْرُه اختلافَ آبائهم، وسوءَ استقامة أسلافهم لأنبيائهم، مع كثرة مُعاينتهم من آياتِ الله جلَّ وعز وعِبَر ما تَثلَجُ بأقلِّها الصدورُ، وتطمئن بالتصديقِ معها النفوسُ. وذلك مع تَتابُعِ الحجج عليهم، وسبوغ النعمِ من الله لديهم، وهم مع ذلك مَرَّةً يَسألون نبيَّهم أنْ يجعلَ لهم إلهاً غيرَ الله. ومرَّة يعبُدون العجلَ من دونِ الله. ومرة يقولون: لا نُصَدِّقكَ حتى نرى الله جَهْرةً وأخرى يقولُون له، إذا دُعُوا إلى القتال: اذْهَبْ أنتَ وربُّكَ فقاتلا إنَّا ههنا قاعدون. ومرة يقال لهم: قُولوا حِطَّةٌ وادْخُلُوا البابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لكم خَطاياكم. فيقولون: حِنطةٌ في شعيرة! ويدخلون البابَ من قِبَلِ أَسْتاهِهم، مع غير ذلك من أفعالِهم التي آذوا بها نَبيَّهم عليه السلام، التي يكثر إحصاؤها.

فأعلم رَبُّنا تَبارك وتعالى ذِكْرُه الذين خاطَبهم بهذه الآياتِ من يهودِ بني إسرائيل، الذين كانوا بَيْنَ ظَهرانَيْ مُهاجَر رسولِ الله ﷺ، أنهم لن يَعْدُوا أنْ يكونوا - في تكذِيبهم محمداً ﷺ، وجحودهم نُبوَّتَهُ، وتركهم الإقرار به وبما جاء به، مع علمهم به، ومعرفتهم بحقيقة أمره - كأسلافِهم وآبائهم الذين فَصَّلَ عليهم قَصَصهم، في ارتدادِهم عن دينهم مرةً بعد أخرى، وتَوَثُّبهم على نَبيِّهم موسى صلوات الله وسلامه عليه تارة بعد أخرى، مع عظيمِ بلاءِ الله جَلَّ وعزّ عندهم، وسُبوغِ آلائهِ عليهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٥﴾

وأصل «الصاعقة»، كُلُّ أمرٍ هائلٍ رآه المَرءُ أو عَايَنَهُ أو أصابه - حتى يصير من هَوْلِهِ وعظيمِ شأنه إلى هلاكٍ وعَطب، وإلى ذهابِ عقلٍ وغُمورِ فَهْمٍ، أو فَقْدِ بعضِ آلاتِ الجسم - صوتاً كان ذلك أو ناراً أو زَلْزلةً أو رَجْفاً. ومما يدلُّ على أنه قد يكونُ مصعوقاً وهو حيٌّ غير ميت، قول الله عزّ وجلّ: ﴿وخَرَّ مُوسَى صَعِقاً﴾ [الأعراف: ١٤٣]، يعني: مَغْشِيّاً عليه.

ويعني بقوله: «وأنتم تنظرون»، وأنتم تنظرون إلى الصاعقة التي أصابتكم، يقول: أخذتكم الصاعقة عِياناً جِهاراً وأنتم تنظرونَ إليها.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

يعني بقوله: «ثم بَعثناكم»، ثم أحييناكم.

وأصل «البعثة»: إثارةُ الشيءِ من محلِّهِ. ومنه قيل: «بَعث فلان راحلتَه». إذا أثارَها من مَبْركها للسير.

ومن ذلك قيل: «بعثتُ فلاناً لحاجتي»، إذا أقَمْتُه من مكانهِ الذي هو فيه للتوجه فيها. ومن ذلك قِيلَ ليومِ القيامة: «يوم البَعْث»، لأنه يومٌ يُثارُ الناسُ فيه من قبورهم لموقفِ الحساب.

ويعني بقوله: «من بعد موتكم»، من بعد موتكم بالصاعقة التي أهلكتكم.

وقوله: «لعلكم تشكرون»، يقول: فعلنا بكم ذلك لتشكروني على ما أوْلَيْتُكم من نِعمتي عليكم، بإحيائيَ إياكم، استبقاءً منِّي لكم، لتراجعوا التوبة من عظيمِ ذنبكم، بعد إحلالي العقوبةَ بكم بالصاعقة التي أحْلَلْتُهَا بكم،

فأماتتكم بعظيم خَطَئِكم الذي كان منكم فيما بيْنكم وبين رَبكم.

وهذا القولُ على تأويلِ من تأول قوله: «ثم بَعثناكم»، ثم أحييناكم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾

«وظللنا عليكم الغمام» عَطْفٌ على قوله: «بَعثناكم من بعد موتكم». فتأويلُ الآية: ثم بعثناكم من بعد موتكم وظللنا عليكم الغمام ـ وعَدَّدَ عليهم سائرَ ما أنعمَ به عليهم ـ لَعَلَّكُمْ تشكرون.

و«الغمام» جَمْعُ «غمامة»، كما السحابُ جمع سحابة. و«الغمام» هو ما غَمَّ السماءَ فألبسَها من سَحاب وقتام، وغير ذلك مما يسترها عن أعينِ الناظرينَ. وكُلُّ مُغَطًّى فالعربُ تُسَمِّيه مغموماً.

وإذا كان معنى الغمام ما وَصَفْنَا، مِمَّا غَمَّ السماء من شيءٍ يُغطي وَجْهَها عن الناظرِ إليها، فليس الذي ظَلَّلَهُ الله عزّ وجلّ على بني إسرائيل ـ فوصفه بأنه كان غماماً ـ بأوْلى، بوصفه إياه بذلك أنْ يكون سحاباً، منه بأنْ يكونَ غير ذلك مما ألبس وجهَ السماء من شيءٍ.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ﴾

اختلف أهل التأويل في صفة «المنّ». فقال بعضهم: هو صمغةٌ، وقال آخرون: هو عسلٌ، وقال آخرون: هو الخبز الرقاق، وقال آخرون: هو الزنجبيل، وقال آخرون: هو الذي يسقط على الشجر، الذي يأكله الناس، وقال آخرون: هو اللبن الصافي.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿وَٱلسَّلْوَىٰ﴾

«والسلوى» اسم طائر يشبه السُّمانَى، واحِدُه وجِماعةُ بلفظٍ واحد، كذلك السُّمانَى لفظ جماعها وواحدها سواء. وقد قيل: إنَّ واحدةَ السلوى، سَلواةٌ.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾

وهذا مما استُغني بدلالةِ ظاهرِهِ على ما تُرك منه. وذلك أن تأويل الآية: وظللنا عليكم الغمامَ، وأنـزلنا عليكمُ المَنَّ والسَّلْوى، وقلنا لكم: كُلُوا من طَيِّباتِ ما رزقناكم. فترك ذكر قوله: «وقلنا لكم»، لما بَيَّنا من دلالة الظاهرِ في الخطاب عليه.

وعنى جلَّ ذِكْرُه بقوله «كُلُوا من طيباتِ ما رزقناكم»: كُلُوا من شَهِيَّاتِ رِزْقنا الذي رَزَقْنَاكُمُوهُ.

وقد قيل: عنى بقوله: «من طيبات ما رزقناكم»، من حلالهِ الذي أبَحْنَاهُ لكم فجعلناه لكم رزقاً.

والأول من القولين أولى بالتأويل، لأنه وَصَفَ ما كان القومُ فيه من هَنِيءِ العيشِ الـذي أعطاهم، فَوَصْفُ ذلك بـ «الطيب»، الذي هو بمعنى اللذة، أحْرَى من وَصْفِهِ بأنه حلالٌ مُباح.

و«ما» التي مع «رزقناكم»، بمعنى «الذي». كأنه قيل: كُلُوا من طيبات الرزقِ الذي رَزَقْنَاكُموه.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٥٧﴾

وهذا أيضاً من الذي اسْتُغْنِيَ بدلالةِ ظاهره على ما تُرِكَ منه. وذلك أنَّ معنى الكلام: كلوا من طيبات ما رزقناكم. فخالَفُوا ما أمَرْنَاهُم به وعصوا رَبَّهم، ثم رسولَنا إليهم، و«وما ظلمونا»، فاكتفى بما ظهر عما ترك.

وقوله: «وما ظلمونا» يقول: وما ظَلَمُونا بِفِعْلِهم ذلك ومعصيتهم، ولكن كانوا أنفسَهُم يظلمون.

ويعني بقوله: «وما ظلمونا»، وما وضعوا فعلهم ذلك وعصيانَهم إيَّانا، موضع مَضرَّةٍ علينا ومَنْقَصةٍ لنا، ولكنهم وضعُوه من أنفسهم موضعَ مضرَّةٍ عليها ومنقصةٍ لها.

وقد دللنا فيما مضى، على أنَّ أصلَ «الظلم»: وضعُ الشيء في غير موضعه ـ بما فيه الكفاية، فأغنى ذلك عن إعادته.

وكذلك ربُّنا جَلَّ ذِكْرُه، لا تضرُّه معصيةُ عاصٍ، ولا يتحيَّفُ خزائنه ظُلْمُ ظالمٍ، ولا تنفعه طاعةُ مطيعٍ، ولا يزيدُ في مُلْكِه عَدْلُ عادل، بل نفسَه يظلمُ الظالمُ، وحظَّها يَبْخَسُ العاصي، وإياها ينفعُ المطيع، وحظَّها يُصيب العادلُ.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾

و«القريةُ» ـ التي أمرهم الله جلّ ثناؤه أنْ يدخلوها، فيأكلوا منها رغداً حيث شاؤوا ـ فيما ذُكِرَ لنا: بيت المقدس.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾

يعني بذلك: فَكُلُوا من هذه القرية حيث شئتم عَيْشاً هَنيئاً واسعاً بغير حساب. وقد بَيَّنا معنى «الرغد» فيما مضى من كتابنا.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾

أما «البابُ» الذي أُمِرُوا أن يدخلوه، فإنه قيل: هو بابُ الحِطَّة من بيت المقدس.

وأصل «السجود» الانحناءُ لمن سُجِدَ لَه معظَّماً بذلك. فكل مُنْحَنٍ لشيءٍ تعظيماً له فهو «ساجد».

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾

وتأويل قوله: «حِطَّة»، فِعْلَةٌ، من قول «القائل: حَطَّ الله عنك خَطاياك فهو يَحُطُّها حِطَّة»، بمنزلة الرِدَّةِ والحِدَّة والمِدَّة، من حَددتَ وَمَدَدتَ.

واختلفَ أهلُ العربية في المعنى الذي من أجله رُفعت «الحطة».

والذي هو أقربُ عندي في ذلك إلى الصواب، وأشبه بظاهر الكتاب: أن يكون رفع «حطة» بنيَّةِ خبرٍ محذوفٍ قد دَلَّ عليه ظاهرُ التلاوة، وهو: دخولُنا البـابَ سُجَّداً حطةٌ، فكفى من تكريره بهذا اللفظ، ما دَلَّ عليه الظاهرُ من التنزيل، وهو قوله: «وادخلوا البابَ سُجَّداً»، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿وإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوماً الله مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةٌ[١] إلى رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٤]، يعني: موعظتنا إياهم معذرة إلى ربِّكم. فكذلك عندي في تأويل قوله: «وقولوا حطة»، يعني بذلك: وإذ قلنا ادخلوا هذه القريةَ، وادخلوا الباب سُجّداً، وقولوا: دخولنا ذَلك سُجَّداً حِطةٌ لذنوبنا.

---

(١) قراءتنا: «معذرة» بالنصب في مصـاحفنـا. والرفع قراءةُ عامة قُرَّاءِ الحجاز والكوفة والبصرة، وقرأ بعض أهل الكوفة «معذرة» بالنصب.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ﴾

يعني بقوله «نغفرْ لكمة نتغمَّد لكم بالرّحمةِ خطاياكم، ونسترها عليكم، فلا نفضحكم بالعقوبةِ عليها.

وأصل «الغفر» التغطيةُ والستر، فَكُلُّ ساترٍ شيئاً فهو غَافِرُه. ومن ذلك قيل للبيضةِ من الحديدِ التي تُتَّخَذُ جُنَّةً للرأس: «مِغْفر»، لأنها تُغطي الرأسَ وَتُجِنُّهُ. ومثله «غِمْدُ السيف»، وهو ما تغمَّده فوارَاهُ. ولذلك قيل لزئبر الثّوب: «غَفْرة»، لتغطيته الثوب، وحَوْلِه بين الناظرِ والنظرِ إليه.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿خَطَـٰيَـٰكُمْ﴾

و«الخطايا» جمع «خَطية»، بغير همز، كما «المطايا» جَمْعُ «مَطِيَّة»، و«الحَشايا» جمع «حَشِيَّة». وإنما تُرك جَمْعُ «الخطايا» بالهمز، لأنَّ تركَ الهمزِ في «خَطيئة» أكثر من الهمز، فَجُمِعَ على «خطايا»، على أنَّ واحدتها غير مهموزة. ولو كانت «الخطايا» مجموعةً على «خطيئة» بالهمز: لقيل: خَطائي، على مثل قبيلة وقبائل، وصحيفة وصحائف. وقد تُجمعُ «خطيئة» بالتاء، فيهمز فيقال «خطيئات». و«الخطيئة» فعيلة، من «خَطىءَ الرجل يَخْطَأ خِطْأً»، وذلك إذا عَدَلَ عن سبيل الحق.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٨﴾

يعني: مَنْ كان منكم مُحسناً زِيدَ في إحسانِه، ومَنْ كان مخطِئاً نغفر له خَطيئته.

فتأويل الآية: وإذْ قلنا ادخلوا هذه القرية مُباحاً لكم كُلُّ ما فيها من

الطيبات، مُوسَّعاً عليكم بغيرِ حسابٍ؛ وادخلوا البابَ سُجَّداً، وقولوا: سجودنا هذا لله حِطَّةٌ من رَبِّنا لذنوبنا يَحُطُّ به آثامَنا، نتَغَمَّد لكم ذنوبَ المذنبِ منكم فنسترها عليه، ونحط أوزارَه عنه، وسَنزيد المحسنَ منكم - إلى إحساننا السالف عنده - إحساناً. ثم أخبرَ اللهُ جَلَّ ثناؤه عن عظيمِ جَهالتهم، وسوء طاعتهم ربَّهم، وعِصيانهم لأنبائهم، واستهزائهم برُسلهِ - مع عظيمِ آلاءِ الله عزَّ وجل عندهم، وعجائبِ ما أراهُمْ من آياتهِ وعِبره؛ مُوَبِّخاً بذلك أبناءهم الذين خُوطِبُوا بهذه الآيات، ومُعَلِّمَهُم أنهم إنْ تَعدَّوْا - في تكذيبهم محمداً ﷺ، وجحودهم نُبُوَّتَهُ، مع عظيمِ إحسانِ الله بمبعثه فيهم إليهم، وعجائبِ ما أظهرَ على يديهِ من الحجج بين أظهرهم - أنْ يكونوا كأسلافهم الذين وصفَ صِفَتَهُم، وقَصَّ علينا أنباءَهم في هذه الآيات، فقال جلّ ثناؤه: «فبدَّلَ الذين ظَلمُوا قولاً غير الذي قيلَ لهمْ فأنزلنا على الذين ظَلمُوا رِجْزاً من السماء» الآية.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾

وتأويل قوله: «فبدَّل»، فغيَّر. ويعني بقوله: «الذين ظَلموا»، الذين فعلوا ما لم يكنْ لهم فِعْلُه. ويعني بقوله: «قَوْلاً غيرَ الذي قيل لَهم»، بَدَّلوا قولاً غير الذي أُمِرُوا أن يقولوه، فقالوا خِلافَهُ. وذلك هو التبديلُ والتغيير الذي كان منهم. وكان تبديلُهم - بالقول الذي أُمِرُوا أنْ يقولوا - قولاً غيره.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾

يعني بقوله: «فأنزلنَا عَلى الذين ظَلمُوا»، - على الذين فعلوا ما لم يكن

لهم فِعلُه»، من تَبْدِيلهم القولَ، الذي أمرهم الله جلّ وعز أن يقولوه، قولاً غيره، ومعصيتِهم إياه فيما أَمَرَهُم به، وبركوبِهم ما قَدْ نَهاهم عن ركوبه، ـ «رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون».

و«الرِّجز»، في لغة العرب، العذابُ. وهو غير «الرُّجْز»[١]. وذلك أنّ «الرِّجز»: البَثْر، ومنه الخبر الذي روي عن النبي ﷺ في الطاعون أنه قال: إنه رِجْز عُذِّبَ به بعضُ الأمم الذين قبلكم[٢].

وقد دللنا على أن تأويل «الرجز» العذاب. وعذابُ الله جلّ ثناؤه أصنافٌ مختلفة. وقد أخبر الله جلّ ثناؤه أنه أنزل على الذين وصَفْنا أَمْرَهُم الرجزَ من السماء وجائزٌ أن يكون ذلك طاعوناً، وجائز أن يكون غيره. ولا دلالةَ في ظاهرِ القرآن ولا في أثرٍ عن الرسولِ ثابتٌ، أيّ أصنافِ ذلك كانَ.

فالصوابُ من القول في ذلك أنْ يُقالَ كما قال الله عزّ وجل: فأنزلنا عليهم رجزاً من السماء بفسقهم.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ۝٥٩﴾

وقد دللنا ـ فيما مضى من كتابنا هذا ـ على أن معنى «الفِسْق»، الخروج من الشيء.

فتأويل قوله: «بما كانوا يفسقون» إذاً: بما كانوا يتركون طاعةَ الله عزّ وجل، فيخرُجون عنها إلى معصيتهِ وخلافِ أمرهِ.

---

(١) الرُّجْز: الأوثان، والرِّجز: هو البثر: خراج صغار كالذي يكون من الطاعون والجدري.

(٢) قطعة من حديث صحيح أخرجه من حديث أسامة بن زيد: مالك (١٨٦٨)، وأحمد ٥/٢٠٠ و٢٠٢ و٢٠٧ و٢٠٨، والبخاري ٤/٢١٢ و٩/٣٤، ومسلم (٢٢١٨)، والترمذي (١٠٦٥) وغيرهم.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ﴾

يعني بقوله: «وإذ اسْتَسْقَى مُوسَى لقومه»، وإذ اسْتسقانا موسى لقومه، أي سألَنا أنْ نسقيَ قومه ماءً. فترك ذكر المسؤول ذلك، والمعنى الذي سأل موسى، إذْ كان فيما ذُكر من الكلام الظاهر دلالة على معنى ما تُرِك.

وكذلك قوله: «فقلنا اضربْ بعَصاك الحجرَ فانفجرت منه اثنتا عَشْرَة عيناً»، مما استغني بدلالة الظاهر على المتروك منه. وذلك أنَّ معنى الكلام: فقلنا اضرب بعصاكَ الحجر. فضربَه، فانفجرت. فترك ذِكْرَ الخبرِ عن ضَرْبِ موسى الحجر، إذ كان فيما ذكر دلالة على المراد منه.

وكذلك قوله: «قد عَلِمَ كُلُّ أناسٍ مشرَبهم»، إنما معناه: قد علم كل أناس منهم مشربهم. فترك ذكر «منهم» لدلالةِ الكلامِ عليه.

وقومُ موسى، هم بنو إسرائيل، الذين قَصَّ الله عزّ وجل قَصَصهم في هذه الآيات. وإنما اسْتسقى لهم ربَّهُ الماءَ في الحالِ التي تاهوا فيها في التِّيه.

وأما قوله: «قَدْ عَلِمَ كُلُّ أناس مَشْرَبهم»، فإنما أخبر الله عنهم بذلك لأن مَعناهم - في الذي أخرج الله عزّ وجل لهم من الحجر، الذي وصَف جَلَّ ذِكْرُه في هذه الآية صِفتَهُ - من الشرب، كان مخالفاً مَعاني سائرِ الخَلْقِ فيما أخرجَ الله لهم من المياهِ من الجبالِ والأرضين، التي لا مالكَ لها سوى الله عزّ وجل. وذلك أنَّ الله كان جعل لكل سِبْطٍ من الأسباط الاثني عشر، عيناً من الحجر الذي وَصَفَ صِفَتَهُ في هذه الآية، يشربُ منها دونَ سائرِ الأسباطِ غيره، لا يدخل سِبْطٌ منهم في شُرب سبط غيره. وكان مع ذلك لكل عينٍ من تلك العيونِ

الاثنتي عشرة، موضعٌ من الحجر قد عرفه السِّبط الذي منه شربه. فلذلك خَصّ جلّ ثناؤه هؤلاء بالخبر عنهم: أنَّ كُلَّ أناسٍ منهم كانوا عالِمين بمشرَبهم دونَ غيرهم من الناس. إذْ كان غيرهم ـ في الماء الذي لا يملكه أحدٌ ـ شُركاءَ في منابعه ومسايله. وكان كُلُّ سبطٍ من هؤلاء مفرداً بشُرب مَنبَعٍ من منابعِ الحجر ـ دون سائر منابعهِ ـ خاصٌّ لهم دون سائر الأسباط غيرهم. فلذلك خُصوا بالخبر عنهم: أنَّ كُلَّ أناسٍ منهم قد عَلِمُوا مشرَبهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾

وهذا أيضاً مما استغني بذكر ما هو ظاهر منه، عن ذكره ما تُرك ذكره وذلك أن تأويل الكلام: فقلنا اضربْ بعصاك الحجرَ، فضربه، فانفجرتْ منه اثنتا عشرةَ عيناً، قد عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مشربهم، فقيل لهم: كلوا واشربوا من رزق الله. أخبر الله جَلَّ ثناؤه أنه أمرهم بأكلِ ما رَزَقهم في التِّيه من المَنِّ والسلوى، وبشرب ما فجَّرَ لهم فيه من الماء من الحجر المُتعاوَر[1]، الذي لا قرارَ له في الأرض، ولا سبيلَ إليه إلّا لمالكيهِ، يتدفقُ بعيونِ الماء، ويَزخرُ بينابيع العَذْب الفرات، بقدرة ذي الجلال والإكرام.

ثم تَقدم جَلَّ ذِكْرُه إليهم ـ مع إبَاحَتِهم ما أُباح، وإنعامِه عليهم بما أنعم به عليهم من العيش الهنيء ـ بالنهي عن السعيِ في الأرضِ فساداً، والعَثَا فيها استكباراً. فقال جلّ ثناؤه لهم: ولا تَعْثَوْا في الأرض مُفسدين».

(١) الحجر المتعاور: الحجر المتبادل، ينقل من يد إلى يد. من تعاوروا الشيء: إذا تبادلوه، ولا يُتَعاوَرُ شيءٌ حتى يكون منقولاً، أما الثابتُ فلا يتعاورهُ الناسُ ولا يتبادلونه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾

يعني بقوله: «لَا تَعْثَوْا» لا تَطْغَوا، ولا تسعوا في الأرض مُفْسِدِينَ.

وأصل «العَثا» شِدَّةُ الإفساد، بل هو أشدُّ الإفساد. يقال منه: «عَثِيَ فلانٌ في الأرض» - إذا تجاوز في الإفسادِ إلى غايتِهِ - «يَعْثَى عَثا»، مقصور، وللجماعة: هم يَعْثَوْن. وفيه لغتان أخريان، إحداهما: «عَثا يعثو عُثُوّاً». ومن قرأها بهذه اللغة. فإنه ينبغي له أن يَضُمَّ الثاء من «يعثُو»، ولا أعلم قارئاً يُقتَدى بقراءته قرأ به. ومَنْ نطق بهذه اللغة مخبراً عن نفسه قال: «عَثَوْتُ أعثو»، ومن نطق باللغة الأولى قال: «عَثِيتُ أعْثَى».

والأخرى منهما: «عَاثَ يعيثُ عَيْثاً وعُيُوثاً وعَيَثاناً»، كل ذلك بمعنى واحد.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾

قد دللنا - فيما مضى قَبْلُ - على معنى «الصبر» وأنه كَفُّ النفسِ وَحَبسُها عن الشيء. فإذْ كان ذلك كذلك، فمعنى الآية إذاً: واذكروا إذْ قلتم - يَا مَعشر بني إسرائيل -: لنْ نُطيقَ حَبْسَ أنفسنا على طعامٍ واحد - وذلك «الطعام الواحد»، هو ما أخبر الله جَلَّ ثناؤه أنه أطْعمهُموه في تِيههم، وهو «السلوى» في قولِ بعضِ أهلِ التأويل، وفي قول وهب بن منبه: هو «الخبزُ النقيّ مع اللحم» - فاسأل لنا ربَّك يُخْرِج لنا مما تُنْبِتُ الأرضُ من البقْل والقِثّاء، وما سمى الله مع ذلك، وَذكر أنهم سألوه موسى.

وإنما قال جلّ ذكره: «يُخرجْ لنا مما تُنبتُ الأرض» - ولم يَذْكُر الذي سألوه أنْ يدعُو ربَّهُ ليخرجَ لهم من الأرض، فيقول: قالوا ادْعُ لنا رَبَّكَ يُخْرِجُ لنا كذا وكذا مما تُنْبِتُهُ الأرضُ من بَقْلها وقثائها - لأن «من» تأتي بمعنى التبعيض لِمَا بعدها. فاكتفى بها عن ذِكْر التبعيض، إذْ كان معلوماً بدخولها معنى ما أُريدَ بالكلام الذي هيَ فيه. كقول القائل: «أصبحَ اليوم عند فلان من الطعام»، يريد شيئاً منه.

فتأويلُ الكلام إذاً - على ما وَصَفْنَا من أَمْرِ «مِنْ» -: فادعُ لنا ربك يخرج لنا بعضَ ما تُنْبتُ الأرضُ من بقلها وقثائها.

و«البَقْل» و«القِثّاء» و«العَدَس» و«البَصَل»، هو ما قد عَرَفَهُ الناسُ بينهم من نباتِ الأرضِ وَحبِّها.

وأما «الفُوم» فإنَّ أهل التأويل اختلفوا فيه. فقال بعضهم: هو الحِنطة والخبز، وقال آخرون: هو الثوم، وهو في بعض القراءات «وثومها».

وقد ذُكر أن تسمية الحِنطة والخبز جميعاً «فوماً» من اللغة القديمة. حُكِيَ سماعاً من أهلِ اللغة: «فَوِّمُوا لنا»، بمعنى: اخْتَبِزُوا لنا.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾

يعني بقوله: «قال أتستبدلون الذي هو أدْنَى بالذي هو خَير»، قال لهم موسى: أتأخذون الذي هو أخَسُّ خطراً وقيمةً وقَدْراً من العيشِ، بَدلاً بالذي هو خيرٌ منه خطراً وقيمةً وقدراً؟ وذلك كان استبدالهم.

وأصل «الاستبدال»: هو تركُ شيءٍ لآخر غيره مكانَ المتروك.

ومعنى قولـه: «أدنى» أخَسُّ وأوضـعُ وأصغـرُ قدراً وخـطراً. وأصله من قولهم: «هذا رجل دَنِيٌّ بَيِّنُ الدَّناءة» و«إنه ليُدنِّي في الأمور» بغير همز، إذ كان يَتَتَبَّعُ خَسيسهـا. وقد ذُكر الهمزُ عن بعض العرب في ذلك، سماعاً منهم. يقولون: «ما كنت دَانئاً، ولقد دَنأت».

ولا شكَّ أنَّ من استبدَلَ بالمنِّ والسلوى البقلَ والقِثّاءَ والعدَس والبصلَ والثّوم، فقد استبدل الوَضيع من العيش بالرفيع منه.

وقد تأوّلَ بعضُهم قوله: «الذي هُو أدْنى» بمعنى: الذي هو أقربُ. ووجَّه قوله: «أدْنى»، إلى أنه أفعل من «الدُّنُوّ»، الذي هو بمعنى القُرْبِ.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: **﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾**

وتأويل ذلك: فَدَعَا مُوسى، فاسْتَجَبْنَا له، فقلنا لهم: «اهبطوا مصراً»، وهو من المحذوفِ الذي اجتُزِىء بدلالةِ ظاهرهِ على ذكر ما حُذف وتُرك منه.

وقد دللنا ـ فيما مضى ـ على أن معنى «الهُبُوط» إلى المكان، إنما هو النزولُ إليه والحلولُ به.

فتأويل الآية إذاً: وإذ قُلتم يا موسى لنْ نَصْبر على طعامٍ واحد، فادْع لنا ربك يُخرجْ لَنا مما تُنبت الأرضُ من بقلها وقِثائها وفُومها وَعَدَسها وبَصَلها. قال لهم موسى: أتستبدلون الذي هو أخَسُّ وأردأ من العيش، بالذي هو خير منه. فدعا لهم ربَّه أنْ يُعطيهم ما سألوه، فاستجابَ اللهُ له دعاءه، فأعطاهم ما طلبوا، وقال الله لهم: اهبطوا مصراً فإنَّ لكم ما سألتم.

وأولى الأقوالِ في ذلك عندنا بالصواب أنْ يُقالَ: إن موسَى سأل رَبَّهُ أنْ يعطي قومَه ما سألوه من نباتِ الأرض - على ما بَيَّنَهُ الله جلّ وعز في كتابه - وهم في الأرض تائهون، فاستجاب الله لموسى دعاءه، وأمره أنْ يهبطَ بمن معه من قومِهِ قَراراً في الأرض التي تُنْبِتُ لهم ما سألَ لهم من ذلك، إذْ كان الذي سألوه لا تُنبته إلا القُرى والأمصار، وأنه قد أعطاهم ذلك إذْ صارُوا إليه. وجائز أن يكون ذلك القَرارُ «مصرَ»، وجائز أن يكون «الشام».

فأما القراءةُ، فإنها بالألف والتنوين: «اهبطوا مصراً». وهي القراءة التي لا يجوز عندي غيرها، لاجتماعِ خطوطِ مصاحفِ المسلمين، واتفاق قراءة القَرَأَةِ على ذلك. ولم يقرأ بترك التنوين فيه وإسقاط الألف منه، إلا من لا يجوز الاعتراضُ به على الحجة[1]، فيما جاءت به من القراءة مستفيضاً بينها.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾

يعني بقوله: «وضُربت»، أي فُرضت ووُضعت عليهم الذلةُ وألزِمُوها. من قول القائل: «ضَرَبَ الإمامُ الجزيةَ على أهل الذمة»، و«ضربَ الرجل على عَبده الخرَاج»، يعني بذلك وضعه فألزمه إياه، ومن قولهم: «ضَرَبَ الأميرُ على الجيش البَعْثَ»، يُراد به: ألزمهموه.

وأما «الذلة» فهي «الفِعْلة» من قول القائل: «ذَلَّ فلانٌ يَذِلُّ ذُلاًّ وذِلَّة»، كـ «الصِّغرة» من «صَغُرَ الأمر»، و«القِعْدة» من «قَعَد».

و«الذِّلَّة» هي الصَّغارُ الذي أمرَ الله جلّ ثناؤه عبادَه المؤمنين أنْ لا يُعْطوهم أماناً - على القرَارِ على ما هم عليه من كفرهم به وبرَسولِهِ - إلا أن يبذُلوا الجزيةَ عَليه لهم، فقال جلّ وعز: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلَا

---

(١) الحجة هنا: الذين يُحتَجُّ بهم.

يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

فأخبرهم اللهُ جَلَّ ثناؤه أنه يُبْدِلُهم يالعزِّ ذُلًّا، وبالنعمة بؤساً، وبالرِّضا عنهم غَضَباً، جزاءً منه لهم على كُفرهم بآياته، وقتلهم أنبياءَه ورسلَه، اعتداءً وظلماً منهم بغير حق، وعصيانهم لَهُ، وخلافاً عليه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾

يعني بقوله: «وَباؤوا بغضَب منَ الله، انصرفوا وَرَجعوا. ولا يقال «باؤوا» إلَّا موصولاً: إمَّا بخيرٍ، وإمَّا بشر. يقال منه: «باء فُلان بذنبه يَبوء به بَوْاً وَبواءً». ومنه قول الله عزّ وجل ﴿إنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ [المائدة: ٢٩]، يعني: تنصرفَ متحمِّلهما وترجعَ بهما، قد صارَا عليك دُوني.

فمعنى الكلام إذاً: ورجعوا منصرفين متحمِّلين غَضَبَ الله، قد صار عليهم من الله غَضَبٌ، وَوَجبَ عليهم منه سُخط.

وقدَّمنا معنى غَضَبِ اللهِ على عبدهِ فيما مضى من كتابنا هذا، فأغنى عن إعادتهِ في هذا الموضع.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾

يعني بقوله جلّ ثناؤه: «ذلك»، ضَرْبَ الذلةِ والمسكنةِ عليهم، وإحلالَه غضَبه بهم. فَدَلَّ بقوله «ذلك» ـ وهو يعني به ما وصفنا ـ على أنَّ قولَ القائل: «ذلك»، يشملُ المعاني الكثيرةَ إذا أُشيرَ به إليها.

ويعني بقـوله: «بأنهم كانوا يكفرون»، مِنْ أَجْلِ أنهم كانوا يكفرون. يقول: فَعلنا بهم - من إحلالِ الذلّ والمسكنةِ والسُّخط بهم - من أجل أنهم كانوا يكفرون بآياتِ الله ويقتلونَ النبيينَ بغيرِ الحق.

فقوله: «وضُربَتْ عليهم الذِّلة والمسكنةُ وباؤوا بغضَبٍ من الله ذلك بأنّهم كانـوا يكفرون بآيات الله»، يقول: كانَ ذلكَ مِنَّا بكفرهم بآياتنا، وجزاءً لهم بقتلِهم أنبياءَنا.

وقد بَيَّنا فيما مضى من كتابنا أنَّ معنى «الكفر»: تغطية الشيء وستره، وأنَّ «آيات الله» حُجَجُه وأعلامُه وأدلَّتهُ على توحيدهِ وصِدْقِ رُسُلِهِ.

فمعنى الكلام إذاً. فعلنا بهم ذلك، من أجل أنهم كانوا يجحدون حُججَ الله على توحيدهِ وتصديقِ رسله، ويدفعون حقيتها، ويكذبون بها.

ويعني بقوله: «ويقتلونَ النبيين بغير الحق»: ويقتلونَ رُسُلَ الله الذين ابتَعثهم - لإنباء ما أرسلهم به عنه - لمن أُرْسِلُوا إليه، منكرين رسالتهم جاحدين نبوتهم.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ٦١﴾

وقوله: «ذلك»، رد على «ذلك» الأولى. ومعنى الكلام: وضُرِبَتْ عليهمُ الـذِلَّةُ والمسكنةُ، وباؤوا بغضبٍ من الله من أجلِ كفرهم بآياتِ الله وقتلِهم النبيين بغير الحق، من أجل عِصْيانهم رَبَّهم واعتدائِهم حدودَهُ، فقال جلّ ثناؤه: «ذلك بما عَصَوْا»، والمعنى: ذلك بعصيانِهم وكفرهم مُعتدين.

و«الاعتداء»، تجاوزُ الحَدِّ الذي حَدَّهُ الله لعبادهِ إلى غيره. وكُلُّ متجاوزٍ حَدَّ شيءٍ إلى غيره، فقد تَعدَّاهُ إلى ما جاوزَ إليه.

ومعنى الكلام: فعلتُ بهم ما فعلتُ من ذلك، بما عَصَوا أمري، وتَجاوزُوا حَدِّي إلى ما نَهَيْتُهم عنه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾

أمَّا «الذين آمنوا»، فهم المُصَدِّقُون رسولَ الله فيما أتاهم به من الحقّ من عند الله. وإيمانُهم بذلك، تَصْدِيقُهم به - على ما قد بَيَّناهُ فيما مضى من كتابنا هذا.

وأما «الذين هادوا»، فهم اليهود. ومعنى: «هادوا»، تَابُوا. يقال منه: «هادَ القوم يَهودُون هَوداً وَهَادَة». وقيل: إنما سُميت اليهودُ «يَهودَ»، من أجل قولهم: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

القول في تأويل قوله عزّ وجل: ﴿وَالنَّصَارَى﴾

و«النصارى» جمع، واحدهم نَصْرَان، كما واحد السَّكارَى سَكران، وواحد النَّشاوى نَشوان. وكذلك جَمْعُ كُلِّ نَعْتٍ كان واحدهُ على «فَعْلان» فإن جمعه على «فعالى». إلا أنَّ المستفيضَ من كلام العرب في واحد «النصارى» «نصرانيٌّ». وقد حُكي عنهم سماعاً «نَصْران» بطرح الياء، وسُمع منهم في الأنثى: «نصرانة». وقد سُمع في جمعهم «أنْصار»، بمعنى النصارى، لِنُصْرَةِ بعضِهم بعضاً، وَتناصُرِهم بينهم. وقد قيل إنهم سُمُّوا «نَصَارى»، مِنْ أجلِ أنهم نزلوا أرضاً يقال لها «ناصرة».

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾

و«الصابئون» جمع «صَابىء»، وهو المستحدثُ سِوَى دِينه ديناً، كالمرتدِ من أهلِ السلامِ عن دينه. وكُلُّ خارجٍ من دينٍ كان عليه إلى آخرَ غيرِهِ، تُسَمِّيه العربُ: «صابئاً». يقال منه: «صَبأَ فلان يَصْبأ صَبأ». ويقال: «صَبأت النُّجوم»: إذا طَلعت. «وصَبأ علينا فُلان موضعَ كذا وكذا»، يعني به: طلع.

واختلف أهلُ التأويل فيمن يَلْزَمُهُ هذا الاسم من أهلِ المِلَلِ. فقال بعضهم: يلزم ذلك كُلَّ مَنْ خرجَ من دينٍ إلى غير دين. وقالوا: الذين عَنى الله بهذا الاسم، قومٌ لا دِينَ لهم.

وقال آخرون: هم قومٌ يعبدون الملائكة ويُصَلُّون إلى القِبلة.

وقال آخرون: بل هم طائفةٌ من أهل الكتاب[1].

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾

يعني بقوله: «من آمَن بالله واليوم الآخر»، مَنْ صدَّق وأقرَّ بالبعثِ بعد الممات يوم القيامة، وعمل صالحاً فأطاع الله، فلهم أجْرُهُم عند ربهم. يعني بقوله: «فلهم أجرهم عند ربهم»، فلهم ثوابُ عَمَلِهم الصالح عند ربهم.

فإنْ قال لنا قائل: فأين تَمامُ قوله: «إنَّ الذين آمنوا وَالذين هَادوا وَالنصارى وَالصابئين»؟

قيل: تَمامُهُ جملةُ قَوله: «مَنْ آمَن بالله واليوم الآخر». لأن معناه: مَنْ آمن منهم بالله واليومِ الآخِر، فترك ذِكْرَ «منهم» لدلالةِ الكلامِ عليه، استغناءً بما ذَكر عما تَرَك ذِكْرَهُ.

---

(١) لعل هذا هو الأصح إن شاء الله، لما نعرفه من عقائد الموجودين الآن منهم في العراق.

فإنْ قال: وما معنى هذا الكلام؟

قيل: إنَّ معناه: إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين، مَنْ يؤمنْ بالله وَاليومِ الآخر، فلهُم أجْرُهم عند ربِّهم.

فإن قال: وكيف يُؤمن المؤمن؟

قيل: ليس المعنى في المؤمن المعنى الذي ظَنَنْتَهُ، من انتقالٍ من دِينٍ إلى دين، كانتقال اليهوديِّ والنصرانيِّ إلى الإيمان - وإنْ كان قد قيل إنَّ الذين عُنُوا بذلك، مَنْ كان من أهلِ الكتابِ على إيمانهِ بعيسى وبما جاء به، حتى أدرك محمداً ﷺ فآمن به وصدَّقه، فقيل لأولئك الذين كانوا مؤمنين بعيسى وبما جاء به، إذْ أدْركُوا محمداً ﷺ: آمِنُوا بمحمدٍ وبما جَاء به - ولكن معنى إيمانِ المؤمنِ في هذا الموضع، ثباتُه على إيمانهِ وتَرْكُه تبديلَهُ. وأما إيمانُ اليهود والنصارى والصابئين، فالتصديقُ بمحمدٍ ﷺ وبما جاء به، فَمَنْ يؤمن منهم بمحمدٍ وبما جاء به واليومِ الآخر، ويَعملْ صالحاً، فلم يبدِّلْ ولم يغيِّرْ حتى توفيَ على ذلك، فله ثوابُ عملهِ وأجرة عند ربه، كما وصف جلّ ثناؤه.

وأما قوله: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢﴾

فإنه يعني به جَلَّ ذِكْرُه: ولا خوفٌ عليهم فيما قَدِموا عليه من أهوالِ القيامة، ولا هم يحزنون على ما خَلَّفُوا وراءهم من الدنيا وَعيشها، عند معاينتهم ما أعدَّ الله لهم من الثوابِ والنعيم المقيم عنده.

فكان إيمانُ اليهود: أنه مَنْ تمسَّكَ بالتوراةِ وسُنةِ موسى، حتى جاء عيسى. فلما جاء عيسى كان مَنْ تمسَّكَ بالتوراة وأخذ بسُنة موسى - فَلَمْ يَدَعْهَا ولم يَتَّبِعْ عيسى - كان هالكاً. وإيمانُ النصارى: أنه مَنْ تَمَسَّكَ بالإنجيلِ منهم

وشرَائع عيسى كان مؤمناً مقبولاً منه، حتى جاءَ محمد ﷺ، فمن لم يَتَّبِعْ محمداً ﷺ منهم ويَدَعْ ما كان عليه من سُنة عيسى والإنجيل ـ كان هالكاً.

والـذي قلنـا من التـأويل، أشبهُ بظاهر التنزيل. لأنَّ الله جَلَّ ثناؤه لم يخصِّص ـ بالأَجر على العملِ الصالح مَع الإيمان ـ بعضَ خَلْقِه دون بعضٍ منهم.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾

«الميثاق»، «المفعال»، من «الوثيقة»، إمَّا بيمينٍ، وإما بعهدٍ، أو غير ذلك من الوثائق.

ويعني بقوله: «وإذْ أخَذْنا ميثاقكم»، الميثاقَ الذي أخبرَ جَلَّ ثناؤُه أنه أَخَذَ منهم في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ وبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ [البقرة: ٨٣-٨٥]، والآيات التي ذكر معها.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾

وأما «الطور» فإنَّهُ الجبلُ في كلامِ العرب.

وقيل: إنه اسمُ جبلٍ بعَيْنِهِ. وذُكِرَ أنه الجبلُ الذي ناجَى الله عليه موسى.

وقيل: إنَّه من الجبال ما أنبتَ دُون ما لم يُنبت.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾

اختلف أهلُ العربية في تأويل ذلك، والصوابُ في ذلك عندنا: أنَّ كُلَّ كلامٍ نُطِقَ به ـ مفهومٍ به معنى ما أريد ـ ففيه الكفاية من غيره.

ويعني بقوله: «خُذُوا مَا آتيناكم»، ما أمرناكم به في التوراة.

وأصلُ «الإيتاء»، الإعطاء.

ويعني بقوله: «بقُوّة»، بجدٍّ في تأديةِ ما أمَرَكُم فيه وافترضَ عليكم.

فتأويل الآية إذاً: خُذُوا ما افترضناهُ عليكم في كتابنا من الفرائض، فاقبلوه، واعملوا باجتهادٍ منكم في أدائهِ، من غيرِ تقصيرٍ ولا توانٍ. وذلك هو معنى أخذهم إياه بقُوَّةٍ، بجدٍّ.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

يعني: واذكروا مَا فيما آتيناكُم من كتابنا من وَعْدٍ ووعيدٍ شديد، وترغيبٍ وترهيب، فاتْلُوه، واعتَبِرُوا به، وتَدَبَّرُوهُ إذا فعلتم ذلك، كي تَتَّقُوا وتَخافوا عقابي، بإصرارِكم عَلى ضَلالِكم، فتنتهوا إلى طاعتي، وتَنْزِعُوا عما أنتُمْ عليه من مَعصيتي. والذي آتاهم الله هو التوراة.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾

يعني بقوله جلّ ثناؤه: «ثم تَوَلَّيتم»: ثم أعْرَضْتُم. وإنما هو «تفعَّلتم» من قولهم: «ولَّاني فُلَان دُبُرَهُ» إذا استدبرَ عنه وخلَّفه خَلْفَ ظهره. ثم يستعمل ذلك في كل تاركِ طاعةٍ أُمِرَ بها، ومُعْرِضٍ بوجهه. يقال: قد تولَّى فلانٌ عن طاعةِ فلان، وتولَّى عن مواصلته»، ومنه قول الله جلّ ثناؤه ﴿فَلَمَّا آتاهُم مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُون﴾ [التوبة: ٧٦]، يعني بذلك: خالفوا ما كانوا وَعَدُوا الله من قولهم: ﴿لَئِن آتانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ من الصَّالِحِين﴾ [التوبة: ٧٥]، ونبذوا ذلك وراء ظُهورهم.

ومن شأن العرب استعارةُ الكلمةِ ووضعها مكانَ نَظِيرها.

ونظائر ذلك في كلام العرب أكثر من أنْ تُحصى.

فكذلك قوله: «ثم تَوليتمْ من بعد ذلك»، يعني بذلك: أنكم تركتم العملَ بما أخذْنا ميثاقكم وعُهودَكم على العملِ به بجدٍّ واجتهاد، بعد إعطائكم ربَّكم المواثيقَ على العملِ به، والقيامِ بما أمركم به في كتابكم، فنبذتُمُوه وراءَ ظهوركم.

وكَنى بقوله جَلَّ ذِكْرُه: «ذلك»، عن جميعِ ما قبله في الآية المتقدمة، أعني قوله: «وإذْ أخذنا ميثاقكم ورَفعنا فوقكم الطورَ».

القول في تأويل قوله تعالى ذِكْرُه: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾

يعني بقوله جَلَّ ذكره: «فلوْلا فَضْلُ الله عَليكم»، فلولا أنَّ الله تَفَضَّلَ عليكم بالتوبةِ - بعد نَكْثِكم الميثاقَ الذي واثقتُموه - إذْ رفع فوقكم الطور - بأنكم تجتهدون في طاعتهِ، وأداءِ فرائضهِ، والقيام بما أمركم به، والانتهاءِ عما نهاكم عنه في الكتابِ الذي آتاكم، فأنعمَ عليكم بالإسلام ورحمته التي رَحمكم بها، وتجاوز عنكم خَطيئتكم التي ركبتُموها، بمراجعتكم طاعةَ ربكم - لكنتم من الخاسرين.

وهـذا، وإنْ كان خطاباً لِمَنْ كان بين ظَهرانيْ مُهَاجَر رسولِ الله ﷺ من أهلِ الكتاب أيامَ رسول الله ﷺ، فإنما هو خَبَرٌ عن أسلافهم - فأخرجَ الخبرَ مُخرجَ المخبَرِ عنهم - على نحو ما قد بَيَّنا فيما مضى، من أنَّ القبيلةَ من العرب تخـاطِبُ القبيلةَ عند الفخار أو غيره، بما مضى من فِعل أسلافِ المخاطِب

بأسلاف المخاطَب، فتضيف فعل أسْلاف المخاطِب إلى نفسها فتقول: فعلنا بكم وفعلنا بكم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٦٤﴾

فلولا فضلُ الله عليكم ورحمته إياكم ـ بإنقاذه إياكم بالتَّوبة عليكم من خطيئتكم وجُرْمكم ـ لكنتم الباخسين أنفسكم حُظوظَها دائماً، الهالكين بما اجترمتم من نَقض ميثاقكم، وخلافكم أمرَهُ وطاعته.

وقد تقدم بياننا قَبْلُ عن معنى «الخسار»، بما أغنى عن إعادتهِ في هذا الموضع.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾

يعني بقوله: «وَلقدْ علمتم»، ولقد عَرَفتم. كقولك: «قد عَلمتُ أخاك، ولم أكُنْ أعلمه»، يعني عرفته، ولم أكن أعرفه، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، يعني: لا تعرفونهم الله يعرفهم.

وقوله: «الذينَ اعْتَدَوا منكم في السبت»، أي الذين تجاوزوا حَدِّي وركبوا ما نَهَيْتُهم عنه في يوم السبتِ، وَعَصَوا أمْري.

وقد دللت ـ فيما مضى ـ على أنّ «الاعتداء»، أصلُه تجاوزُ الحدِّ في كُلِّ شيءٍ. بما أغنى عن إعادتهِ في هذا الموضع.

وهذه الآية وآيات بَعدها تتلوها، مِمَّا عَدَّدَ جَلَّ ثناؤهُ فيها على بَني إسرائيل

ـ الذين كانوا بين خلال دور الأنصار زمانَ النبيِّ ﷺ، الذين ابتدأ بذكرهم في أول هذه السورة من نَكْثِ أسلافهم عهدَ الله وميثاقه ـ ما كانوا يُبرمون من العقود، وحَذَّرَ المخاطَبين بها أنْ يحلَّ بهم ـ بإصرارهم على كفرهم، ومُقامهم على جحودِ نُبوَّةِ محمدٍ ﷺ، وتركهم اتباعَه والتصديقَ بما جاءهم به من عند ربِّهِ ـ مثلُ الذي حَلَّ بأوائِلهم من المَسْخِ والرَّجْف والصعق، وما لا قِبَلَ لهم به من غَضَب الله وسَخَطه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ٦٥﴾

يعني بقوله: «فقلنا لهم» أي: فقلنا للذين اعتدَوْا في السبت ـ يعني في يوم السبت.

وأصلُ «السَّبْتِ»، الهدُوُّ والسكونُ في رَاحة وَدَعة، ولذلك قيل للنائم «مَسْبُوت» لهدوِّهِ وسكونِ جسده واستراحته، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً﴾ [النبأ: ٩] أي راحةً لأجسادكم. وهو مصدر من قول القائل: «سبت فلان يَسْبُتُ سَبْتاً».

وقوله: «كُونوا قردةً خَاسئين»، أي: صِيرُوا كذلك.

و«الخاسىء» المُبْعَدُ المطرودُ، كما يخسأ الكلبُ يقال منه: «خَسأْتُه أخسؤُه خَسْأً وخسُوءاً، وهو يَخسأ خُسوءاً». قال: ويقال: «خَسَأْته فَخسَأَ وَانخَسأ».

فكذلك معنى قوله: «كونُوا قِرَدةً خاسئين» أي، مُبْعَدِينَ من الخير أذلاَّء صُغَراء.

البقرة: ٦٦

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويلِ «الهاء والألف» في قوله: «فجعلناها»، وعلامَ هي عائدة؟ فروي عن ابن عباس فيها قولان:

أحدهما: فجعلنا تلك العُقوبةَ ـ وهي المَسخة ـ «نكالاً».

فالهاءُ والألف من قوله: «فجعلناها» ـ على قول ابن عباس هذا ـ كناية عن «المَسْخة»، وهي «فَعلة» من مَسخهم الله مَسخةً.

فمعنى الكلام على هذا التأويل: فقلنا لهُم: كونوا قردة خاسئين، فصاروا قِرَدةً مَمْسُوخينَ، «فجعلناها»، فجعلنا عقوبَتنا ومسخَنا إياهم، «نكالاً لما بَين يَدَيها وَمَا خَلْفَها وَمَوْعظةً للمتقين».

والقول الآخر: من قولي ابن عباس: «فجعلناهَا»، يعني الحِيتان.

«والهاء والألف» ـ على هذا القول ـ من ذكر الحيتان، ولم يَجْرِ لها ذِكْرٌ. ولكن لما كان في الخبر دلالة، كنَى عن ذكرها. والدلالة على ذلك قوله: ولقد عَلِمْتُم الذين اعْتَدَوْا مِنْكُمْ في السبتِ».

القول في تأويل قوله: ﴿نَكَالًا﴾

و«النَّكـال» مصدرٌ من قول القائل: «نَكَّل فلان بفلان تَنكيلاً وَنكالاً». وأصل «النَّكال»، العقوبة.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾

وأَوْلَى التـأويلات بتـأويل الآية: «لمـا بين يديها»: يقول: لِيَحْذَرَ مَنْ

بَعْدَهُم عقوبتي. «وما خلفها»: يقول: الذين كانوا بقوا معهم. وذلك لما وصفنا من أن «الهاء والألف» ـ في قوله: «فجعلناها نكالاً» ـ بأنْ تكونَ من ذكر العقوبة والمَسخة التي مَسخَها القوم، أوْلى منها بأنْ تكونَ من ذكر غيرها. مِنْ أجلِ أنَّ اللهَ جَلَّ ثناؤهُ إنما يحذِّر خَلْقَهُ بأسَهُ وسطوَته، وبذلك يُخوفهم. وفي إبانتهِ عَزَّ ذِكْرُه ـ بقوله: «نكالاً»: أنه عَنى به العقوبةَ التي أحَلَّها بالقوم ـ ما يُعْلِمُ أنه عنَى بقوله: «فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها»، فجعلنا عقوبتنا التي أحْللناها بهم عقوبةً لما بين يديها وما خلفها ـ دون غيره من المعاني. وإذْ كانت «الهاء والألف» ـ بأنْ تكونَ من ذكر المسخة والعقوبة، أولى منها بأنْ تكونَ من ذِكْرِ غيرِها؛ فكذلك العائد في قوله: لما بين يَدَيْها وما خَلفها» من «الهاء والألف»: أنْ يكون من ذكر «الهاء والألف» اللَّتَيْنِ في قوله: «فَجعلناها»، أولى من أنْ يكون من ذكر غيره.

فتأويلُ الكلام ـ إذْ كان الأمرُ على ما وَصَفْنَا ـ: فقلنا لهم كونوا قردةً خاسئين، فجعلنا عقوبتنا لهم عقوبةً لما بين يَديها من ذنوبهم السالفة منهم، بمَسْخِنَا إياهم وعقوبتنا لهم ـ ولما خلفَ عقوبتنا لهم من أمثال ذنوبهم: أنْ يعملَ بها عامل، فَيُمْسَخُوا مثل ما مُسخوا، وأنْ يحلَّ بهم مِثْل الذي حَلَّ بهم، وتحذيراً من الله تعالى ذِكْرُهُ عبادَه: أنْ يأتوا من مَعاصيهِ مِثْلَ الذي أتى المَمْسُوخون، فَيُعَاقَبوا عقوبتهم.

القول في تأويل قوله تعالى: وَمَوْعِظَةً

و«الموعظة»، مصدر من قول القائل: «وَعظتُ الرجل أعِظه وَعظاً وَمَوْعظة»، إذا ذكَّرته.

فتأويل الآية: فجعلناها نَكالاً لما بين يديها وما خلفها وَتَذْكِرَةً للمتقين، ليتَّعظوا بها، ويعتبرُوا، ويتذكروا بها.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ ۝٦٦﴾

وأمّا «المتقون»، فهم الذين اتقوا، بأداء فرائضه واجتنابِ معاصيه.

فجعل تعالى ذِكْرُه ما أحلَّ بالذين اعتدَوْا في السبتِ من عقوبتهِ، موعظةً للمتقين خاصَّةً، وعبرةً للمؤمنين، دون الكافرينَ به إلى يوم القيامة.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٦٧﴾

وهـذه الآية مما وبَّخ الله بها المخاطَبين من بني إسرائيل، في نَقْض أوائلهم الميثاقَ الذي أخذه اللهُ عليهم بالطاعةِ لأنبيائه، فقال لهم: واذكروا أيضاً من نكْثكم ميثاقي، «إذ قَال مُوسى لقومه» - وَقوْمُه بنو إسرائيل، إذ ادَّارَأُوا في القتيلِ الذي قُتل فيهم إليه - «إنَّ الله يأمرُكم أنْ تَذبحوا بَقَرَة قالوا أتَتَّخِذُنَا هُزُواً».

و«الهزُؤ»: اللعب والسخرية.

ولا ينبغي أن يكون من أنبياء الله - فيما أَخْبَرَتْ عن الله من أمرٍ أو نهيٍ - هزُؤٌ أو لَعِبٌ. فظنوا بموسى أنه في أمرِه إياهم - عن أمرِ الله تعالى ذِكْرُه بذبحِ البقرة عند تَدَارُئِهم في القتيلِ إليه - أنه هازِىءٌ لاعبٌ. ولم يكن لهم أنْ يَظُنُّوا ذلك بنبيٍّ الله، وهو يخبرهم أنَّ الله هو الذي أمرَهم بذبح البقرة.

فأخبرهم موسى - إذْ قالوا له ما قالوا - أنَّ المخبر عن الله جلّ ثناؤه بالهزء والسخرية، من الجاهلين. وبَرَّأ نَفْسَهُ مما ظنوا به من ذلك فقال: «أعوذُ بالله أنْ أكونَ من الجاهلين»، يعني: من السفهاء الذين يروون عن الله الكذب والباطل.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ﴾

فقال الذين قيل لَهم: «إنَّ الله يأمركم أنْ تَذْبَحُوا بَقرة» - بعد أنْ عَلِمُوا واستقرَّ عندهم، أنَّ الذي أمَرَهُم به موسى عليه السلام من ذَلك عن أمرِ الله من ذَبْحِ بقرة - جدٌّ وحَقٌّ، «ادعُ لنا ربك يُبيِّنْ لنا ما هِيَ»، فسألوا موسى أن يسأل رَبه لهم ما كان الله قد كَفَاهُم بقوله لهم: «اذبحوا بقرة». لأنه جَلَّ ثناؤهُ إنما أمرهم بذبحِ بقرةٍ من البقر - أيّ بقرةٍ شاءُوا ذَبْحَها من غيرِ أنْ يحصر لهم ذلك على نوعٍ منها دون نوعٍ أو صنفٍ دون صنف - فقالوا بجفاءِ أخلاقِهم وغِلَظِ طبائعهم، وسُوء أفهامهم، وتكلُّف ما قد وضعَ الله عنهم مَؤُنته، تَعنُّتاً منهم لرسولِ الله ﷺ.

فلما تكلَّفُوا جَهلاً منهم مَا تكلَّفوا - من البحثِ عما كانوا قد كُفُوه من صِفةِ البقرةِ التي أُمِرُوا بذبحها، تعنُّتاً منهم نَبيَّهم مُوسَى صلوات الله عليه، بعد الذي كانوا أظهروا له من سوءِ الظنِّ به فيما أخبرهم عن الله جلّ ثناؤه، بقولهم: «أتتخـذنا هزواً» - عاقبهم عَزَّ وجل بأنْ حَصَرَ ذَبْحَ ما كان أمَرَهُم بذبحهِ من البقر، على نوعٍ منها دون نوعٍ ، فقال لهم جَلَّ ثناؤه - إذْ سألوه فقالوا: ما هي؟ ما صفتها؟ وما حِلْيتها؟ حَلِّها لنا لنعرفها! - قال: «إنها بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ ولا بكرٌ».

يعني بقوله جلّ ثناؤه: «لا فَارِضٌ»، لا مُسِنَّةٌ هَرِمَةٌ. يقال منه: «فرضتْ البقرة تَفرِضُ فُروضاً»، يعني بذلك: أَسَنَّتْ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾

و«البِكر» من إناثِ البهائم وبني آدم، ما لم يفتَحِلْهُ الفَحْلُ، وهي مكسورة .

الباء. لم يسمع منه «فَعَل» ولا «يفعل». وأما «البَكْرُ» بفتح الباء، فهو الفتيُّ من الإبل.

وإنما عنَى جلّ ثناؤه بقوله «وَلا بِكْرٌ» ولا صغيرة لم تَلِدْ.

القول في تأويل قوله تعالى: عَوَانٌ

«العوَان» النَّصَف التي قد وَلَدت بَطناً بعد بطنٍ، وليست بنعتٍ للبكر. يقال منه: «قد عوَّنت»، إذا صارت كذلك.

وإنما معنى الكلام أنه يقول: إنها بقرة لا فارضٌ ولا بِكْرٌ بَلْ عوانٌ بين ذلك. ولا يجوز أن يكون «عوَانٌ» إلا مبتدأ. لأن قوله «بين ذلك»، كناية عن الفارض والبكر، فلا يجوز أن يكون متقدِّماً عليهما.

وَجمعها «عُوْنٌ». يقال: «امرأة عَوَانٌ، من نسوة عُون».

وبقرة «عَوَانٌ، وَبقر عُونٌ». قال: ورُبما قالت العرب: «بقر عُوُنٌ» مثل «رُسُلٌ»، يطلبون بذلك الفرق بين جمع «عَوَان» من البقر، وجمع «عَانَة» من الحُمُر. ويقال: «هذه حرب عَوَان»، إذا كانت حرباً قد قُوتِلَ فيها مرة بعد مرة. يُمثِّلُ ذلك بالمرأة التي ولدت بَطناً بعد بطن. وكذلك يُقال: «حَاجة عَوَانٌ»، إذا كانت قد قُضيت مرة بعد مرة.

القول في تأويل قوله تعالى: بَيْنَ ذَٰلِكَ

يعني بقوله: «بين ذلك»، بين البكر والهرمة.

فمعنى الكلام: قال إنه يقولُ إنها بقرةٌ لا مسنَّة هرِمة، ولا صغيرةٌ لم تلد، ولكنها بقرة نَصَفٌ قد ولدت بطناً بعد بطن، بين الهرَم والشباب. فجمع «ذلك»

معنى الهرم والشباب لما وصفنا. ولو كان مكان الفارض والبكر اسما شخصين، لم يجمع مع «بين» «ذلك». وذلك أن «ذلك» لا يؤدِّي عن اسم شخصين. وغيرُ جائز لمنْ قال: «كنت بين زيد وعمرو»، أن يقول: «كنت بين ذلك»، وإنما يكونُ ذلك مع أسماء الأفعال دون أسماء الأشخاص.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ۝٦٨﴾

يقول الله لهم جلّ ثناؤه: افْعَلُوا ما آمُرُكُم به، تُدْرِكُوا حاجاتكم وطلباتكم عندي، واذبحوا البقرةَ التي أمرتكم بذبحها، تَصِلُوا - بانتهائكم إلى طاعتي بذبحها - إلى العلمِ بقاتلِ قتيلكم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ﴾

ومعنى ذلك: قال قومُ موسى لموسى: ادْع لنا ربك يُبيِّنْ لنا ما لونها؟ أي لون البقرة التي أمَرْتَنَا بذبحها. وهذا أيضاً تعنُّتٌ آخرُ منهم بعد الأول، وتكلُّفُ طَلَبِ ما قد كانوا كُفُوهُ في المرة الثانية والمسألة الآخرة. وذلك أنهم لم يكونوا حُصِرُوا في المرةِ الثانية - إذ قيل لهم بعد مسألتهم عن حِلْيَةِ البقرةِ التي كانوا أُمِرُوا بذبحها، فأبوا إلا تَكَلُّفَ ما قد كُفُوه من المسألةِ عن صفتها، فحُصِروا على نوعٍ دون سائرِ الأنواع، عقوبةً من الله لهم على مَسألتهم التي سألوها نبيَّهم ﷺ، تعنتاً منهم له. ثم لم يحصُرهم على لونٍ منها دون لون، فأبَوْا إلا تَكَلُّفَ ما كانوا عن تكلُّفهِ أغنياء، فقالوا - تعنُّتاً منهم لنبيهم ﷺ، «ادْعُ لنا ربك يبيِّن لنا ما لونها»، فقيل لهم عقوبةً لهم: «إنها بقرةٌ صفراءُ فاقعٌ لونها تَسُرُّ الناظرين». فحُصِرُوا على لونٍ منها دون لون. ومعنى ذلك: أن البقرة التي أمرتكم بذبحها صفراءُ فاقعٌ لونها.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾

يعني: خالصٌ لونُهـا. و«الفقـوع» في الصفـرة، نظير «النُّصُـوع» في البياض، وهو شِدَّتُه وصفاؤه، يقال منه: «فَقع لونه يفقَعُ ويفقُعُ فَقعاً وفُقوعاً، فهو فاقعٌ».

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ۝٦٩﴾

يعني بقـولـه «تسـر النـاظرين»، تُعجب هذه البقرة ـ في حُسْنِ خَلْقِها وَمنظرها وَهيئتها ـ الناظرَ إليها.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ۝٧٠﴾

يعني بقوله: «قالوا»، قال قومُ مُوسى ـ الذين أُمِرُوا بذبح البقرة ـ لموسى. فترك ذِكْرَ موسى، وذَكَرَ عائِدَ ذِكْرِهِ، اكتفاءً بما دَلَّ عليه ظاهرُ الكلام. وذلك أن معنى الكلام: قالوا له: ادعُ ربَّك. فلم يذكر «له» لما وصفنا.

وقوله: «يبيِّن لَنا ما هي»، خبرٌ من الله عن القوم بجَهْلةٍ منهم ثالثة. وذلك أنهم لو كانوا، إذْ أُمِرُوا بذبحِ البقرةِ، ذَبَحُوا أَيَّتَها تَيَسَّرَتْ مما يقعُ عليه اسمُ بقـرةٍ، كانت عنهم مُجْزِئةً، ولم يكن عليهم غيرُها، لأنهم لم يكونوا كُلِّفُوها بصفـةٍ دون صفـة. فلما سألوا بيانها بأيِّ صفةٍ هيَ، بَيَّنَ لهم أنها بِسِنٍّ من الأسنـانِ دون سِنٍّ سائرِ الأسنان، فقيل لهم: هي عَوانٌ بَين الفارض والبكر والضرع. فكانوا ـ إذْ بُيِّنَتْ لهم سِنُّها ـ لو ذبحوا أدنى بَقَرَة بالسن التي بُيِّنت لهم، كانت عنهم مُجزئةً، لأنهم لم يكونوا كُلِّفوها بغير السن التي حُدَّتْ لَهم،

ولا كانوا حُصِرُوا على لونٍ منها دون لون. فلما أبوا إلا أنْ تكونَ مُعَرَّفَةً لهم بنعوتها، مبينةً بحدودها التي تُفَرِّقُ بينها وبين سائرِ بهائمِ الأرض، فَشَدَّدُوا على أنفسهم - شدَّد الله عليهم بكثرةِ سُؤالهم نبيِّهم واختلافِهم عليه.

ولكن القوم لما زَادوا نبيَّهم موسى ﷺ أذىً وَتعنُّتاً، زادَهُمْ اللهُ عقوبةً وتشديداً.

وفي أقـوال الصحـابـة والتابعين والخالِفين بعدهم - من قولهم إن بني إسرائيل لو كانوا أخَذُوا أدنى بقرة فذبحوها أجزأَتْ عنهم، ولكنهم شَدَّدُوا فَشَدَّدَ اللهُ عليهم - من أوضح الدلالة على أنَّ القوم كانوا يرون أنَّ حُكْمَ الله، فيما أَمَـرَ ونهى في كتـابـهِ وعلى لسـانِ رَسُـولـه ﷺ، على العموم الظاهر، دون الخصوصِ الباطن، إلا أنْ يخصَّ بعضَ ما عمَّه ظاهرُ التنزيل كتابٌ من اللهِ أو رسولِ الله؛ وأنَّ التنزيلَ أو الرسولَ، إنْ خصَّ بعض ما عمَّه ظاهرُ التنزيلِ بحكمٍ خلاف ما دَلَّ عليه الظاهر، فالمخصوصُ من ذلك خارجٌ من حكمِ الآية التي عَمَّتْ ذلك الجنسَ خاصة، وسائرُ حُكم الآية على العموم؛ على نحو ما قد بَيَّنـاه في كتـابنا (كتاب الرسالة) من (لطيف القول في البيان عن أصول الأحكـام) - في قولنـا في العمومِ والخصوص، وموافقةِ قولهم في ذلك قولَنا ومذهبِهم مذهبَنا، وَتخطئتهم قولَ القائلين بالخصوص في الأحكام، وشهادَتهم على فسادِ قولِ مَنْ قالَ: حُكم الآية الجائية مجيءَ العُمومِ على العموم، ما لم يُختصَّ منها بعض ما عَمَّتْهُ الآية. فإن خُصَّ منها بعضٌ، فحكمُ الآية حينئذٍ على الخصوص فيما خُصَّ منها، وسائر ذلك على العموم.

وأما تأويل قوله: «تَشابَهَ علينا»، فإنه يعني به: التَبَس علينا.

و«تَشَابَهَ علينا»، بتخفيف الشين ونصب الهاء، على مثال «تَفاعل»، ويذكِّر الفعلَ، وإن كان «البقر» جماعاً. لأنَّ من شأنِ العربِ تذكيرَ كُلِّ فِعْلِ جَمْعٍ

كانت وِحْدَانُهُ بالهاء، وجمعه بطرح الهاء - وتأنيثُه، كما قال الله تعالى في نظيره في التذكير: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠]، فذكَّر «المنقعر» وهو من صِفَةِ النخلِ، لتذكير لفظ «النخلة - وقال في موضع آخر: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]، فأنَّثَ «الخاوية» - وهي من صفة «النخل» - بمعنى النخل. لأنها وإنْ كانت في لفظِ الواحدِ المذكر - على ما وصفنا قَبْلُ - فهي جماع «نخلة».

وأما قوله «وإنَّا إنْ شَاءَ الله لَمهتدونَ»، فإنهم عنوا: وإنَّا إنْ شَاء الله لَمُبَيَّنٌ لنا ما التبسَ عَلينا وتَشابَهَ من أمرِ البقرة التي أمرنا بذبحها. ومعنى «اهتدائهم» في هذا الموضع معنى: «تبيُّنهم» أيَّ ذلك الذي لزمهم ذَبْحه مما سواه من أجناسِ البقر.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾

وتأويل ذلك: قال موسى: إن الله يَقول إنَّ البقرةَ التي أمرتكم بذَبحها بقرَةٌ لا ذَلولٌ. ويعني بقوله: «لا ذلولٌ»، أي لم يُذَلِّلْهَا العملُ. فمعنى الآية: إنها بقرةٌ لم تُذللها إثارةُ الأرض بأظلافها، ولا سُنِيَ عليها الماءُ فَيُسْقَى عليها الزرعُ. كما يقال للدابة التي قد ذَلَّلَها الركوبُ أو العمل: «دَابة ذَلُولٌ بَيِّنَةُ الذِّل» بكسر الذال. ويقال في مثله من بني آدم: «رجل ذَليل بَيِّنُ الذِّلِّ والذِّلة».

ويعني بقوله «تُثيرُ الأرضَ»، تقلبُ الأرض للحرث. يقال منه: «أثَرتُ الأرضَ أُثيرها إثارة»، إذا قَلَبتها للزرع. وإنما وصفها جلّ ثناؤه بهذه الصفة، لأنها كانت - فيما قيل - وَحْشِية.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾

ومعنى «مُسلَّمة» «مفعَّلة» من «السَّلامة». يقال منه: «سُلِّمتْ تُسلَّم فهي مُسلَّمة»، يعني: لا عوار فيها.

فمعنى الكلام: إنه يقول إنها بقرة لم تُذلِّلها إثارةُ الأرض وَقلبها للحراثةِ، ولا السُّنُوُّ عليها للمزارع، وهي مع ذلك صحيحةٌ مسلَّمة من العيوب.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾

يعني بقوله: «لا شية فيها»، لا لونَ فيها يخالفُ لونَ جلدها. وأصله من «وَشْيِ الثَّوب»، وهو تحسينُ عُيوبهِ التي تكونُ فيه، بضروبٍ مختلفة من ألوان سداه ولُحمتـه. يقـال منه: «وَشَيْتُ الثوبَ فأنا أشِيه شِيةً ووَشْياً»، ومنه قِيلَ للسَّاعي بالرجل إلى السلطان أو غيره: «وَاشٍ»، لِكَذِبهِ عليه، وتحسينِه كذبه بالأباطيلِ. يقال منه: «وَشَيْتُ به إلى السلطان وِشايةً».

وإنما قيل: «لا شِيةَ فيها» وهي من «وَشَيت»، لأن «الواو» لما أُسْقِطت من أولها أبدلتْ مكانَها «الهاءُ» في آخرها. كما قيل: «وَزنته زِنة» و«وَسِنَ سِنةً» و«وَعدته عِدة» و«ودَيْتهُ دِيةً».

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾

(وتأويل ذلك): الآنَ بَيَّنْتَ لنا الحَقَّ في أمرِ البقر، فعرفنا أَيُّها الواجبُ علينا ذَبحها منها. لأنَّ الله جلّ ثناؤه قد أخبر عنهم أنهم قد أطاعوهُ فذَبحوها، بعد قِيلهم هذا. مع غِلَظِ مُؤْونةِ ذَبحها عليهم، وثِقَلِ أمرها، فقال: «فذَبحوها وما كادوا يفعلون»، وإنْ كانوا قد قالوا ـ بقولهم: الآن بيَّنتَ لنا الحق ـ هُراءً

من القول، وأتَوْا خطأً وَجهلاً من الأمر. وذلك أنَّ نبيَّ الله موسى ﷺ كانَ مبيِّناً لهم - في كل مسألةٍ سألوها إياه، وردٍّ رادُّوه في أمرِ البقر - الحقَّ. وإنما يقال: «الآن بَيَّنتَ لنا الحق»، لمن لم يكن مبيِّناً قبلَ ذلك، فأما مَنْ كان كُلُّ قِيله - فيما أبانَ عن الله تعالى ذِكْرُه - حقاً وبياناً، فغيرُ جائزٍ أنْ يُقالَ له - في بعض ما أبانَ عن الله في أمره ونهيه، وأدَّى عنه إلى عبادهِ من فرائضهِ التي أوجبها عليهم -: «الآن جئتَ بالحق»، كأنه لم يكن جَاءهم بالحق قبل ذلك!

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ٧١﴾

يعني بقوله: «فذَبحوها»، فذبح قومُ موسى البقرة، التي وَصَفَها الله لهم وأمَرهم بذبحها.

ويعني بقوله: «وَما كادُوا يَفعلونَ»، أي: قاربوا أن يَدَعُوا ذَبْحَها، ويتركوا فَرْضَ الله عليهم في ذلك.

ثم اختلف أهلُ التأويل في السبب الذي من أجله كادوا أن يُضِيعوا فَرْضَ الله عليهم، في ذبح ما أمرهم بذبحه من ذلك، والصوابُ من التأويل عندنا: أنَّ القومَ لم يكادوا يفعلون ما أَمَرهم اللهُ به من ذبحِ البقرة، لخلَّتين إحداهما: غلاءُ ثمنهـا، مع ما ذُكر لنا من صِغَر خطرها وقلة قيمتها؛ والأخرى: خوفُ عظيمِ الفضيحةِ على أنفسهم، بإظهار الله نبيَّه موسى صلوات الله عليه وأتباعَه - على قاتلهِ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا﴾

يعني بقوله جلّ ثناؤه: «وإذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً»، واذكروا يا بني إسرائيل إذْ قتلتم نفساً.

وقـوله: «فادَّارَأتُم فيها»، يعني فاختلفتم وتنازعتم. وإنما هو «فتدارَأتم فيها» على مثال «تفَاعلتم»، من الدَّرءِ. و«الدَّرْء» العِوَج.

فكان اختلافهم وتنازُعهم وخصامُهم بينهم - في أمر القتيل - هو «الدَّرْء» الذي قال الله جلّ ثناؤه لذرّيتهم وبقايا أولادهم: «فادّارأتم فيها والله مُخرجٌ ما كنتم تَكتمون».

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٧٢﴾

يعني بقوله: «واللهُ مُخرج مَا كنتم تكتمون»، والله مُعْلِنٌ ما كنتم تُسِرُّونه من قَتلِ القتيل الذي قَتلتم، ثم ادارأتم فيه.

ومعنى «الإخراج» - في هذا الموضع - الإظهارُ والإعلان لِمَنْ خفيَ ذلك عنه، وإطلاعُهم عليه، كما قال الله تعالى ذكره: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا للهِ الَّذِي يُخْرِجُ الخَبْءَ فِي السَّماوَاتِ والأَرْضِ﴾ [النمل: ٢٧]، يعني بذلك: يُظْهِرُه ويطلِعُه من مَخْبئه بعد خفائِه.

والذي كانوا يكتمونه فأخرجه، هو قتلُ القاتلِ القتيلَ. لما كتم ذلك القاتلُ وَمن عَلمه مِمَّنْ شايعه على ذلك، حَتى أَظهره الله وأخرَجه، فأعلن أمرَه لمن لا يعلم أمرَه.

وعنى جلّ ذكره بقوله: «تكتمون»، تُسِرُّون وتُغيِّبون.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ﴾

يعني جلّ ذكره بقوله: «فقُلنا»، فقلنا لقوم موسى الذين ادَّارؤوا في القتيل - الـذي قد تَقَـدَّمَ وصفُنـا أمـره -: اضربوا القتيلَ. و«الهاء» التي في قوله:

«اضربوه»، من ذكر القتيل؛ «ببعضها» أي: ببعض البقرة التي أمرَهُم الله بذبحها فذبحوها.

والصوابُ من القول عندنا في تأويل قوله: «فقلنا اضربوه ببعضها»، أنْ يقال: أمرهم الله جلّ ثناؤه أنْ يَضربُوا القتيلَ ببعض البقرة ليحيا المضروبُ. ولا دلالةَ في الآية، ولا في خبرٍ تقومُ به حُجَّةٌ، على أيِّ أبعاضِها التي أمر القوم أن يضربُوا القتيل به. وجائزٌ أنْ يكونَ الذي أُمِروا أن يضربوه به هو الفخذ، وجائزٌ أن يكون ذلك الذَّنَبُ وغُضروفُ الكتفِ، وغيرُ ذلك من أبعاضها. ولا يَضُرُّ الجهلُ بأيِّ ذلك ضَرَبُوا القتيلَ، ولا ينفعُ العِلْمُ به، مع الإقرار بأنَّ القومَ قد ضربوا القتيلَ ببعض البقرة بعد ذبحها فأحياه الله.

فإنْ قال قائل: وما كان معنى الأمر بضرب القتيل ببعضها؟ قيل: ليحيا فَيُنْبِىءَ نبيَّ الله موسى ﷺ والذين ادَّارَؤُوا فيه ـ مَنْ قاتله.

فإن قال: وأين الخبرُ عن أنَّ الله جَلَّ ثناؤه أمرَهم بذلك لذلك؟

قيل: تُرِكَ ذلك اكتفاءً بدلالةِ ما ذُكِرَ من الكلامِ الدالِّ عليه ـ نحوَ الذي ذكرنا من نظائرِ ذلك فيما مضى. ومعنى الكلام: فقلنا اضربوه ببعضها ليحيا، فضربوه فحيي ـ: كما قال جلّ ثناؤه: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنْفَلَقَ﴾ [الشعراء: ٦٣]، والمعنى: فضرَب فانفلق ـ دل على ذلك قوله: «كذلك يُحيي الله الموتى ويُريكم آياته لَعلكم تَعقلون».

القول في تأويل قوله تعالى: كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ

وقوله: «كذَلك يُحْيِي الله الموتى»، مخاطبةٌ من الله عبادَه المؤمنين، واحتجاجٌ منه على المشركين المكذبين بالبعث، وأمْرُهم بالاعتبارِ بما كان منه جَلَّ ثناؤه من إحياءِ قتيل بني إسرائيل بعد مماته في الدنيا. فقال لهم تعالى

ذِكْرُه: أيها المكذبون بالبعث بعدَ الممات، اعتبروا بإحيائي هذا القتيلَ بعد مماتِه، فإنِّي كما أَحْيَيْتُهُ في الدنيا، فكذلك أحيي الموتى بعد مماتهم، فأبعثهم يومَ البعثِ.

وإنمـا احتج جَلَّ ذِكْرُه بذلك على مشركي العرب، وهم قومٌ أُمِّيُّون لا كتـابَ لهم، لأنَّ الـذين كانوا يعلمون عِلْمَ ذلك من بني إسرائيل كانوا بين أظهُرِهم، وفيهم نزلتْ هذه الآياتُ. فأخبرهم جَلَّ ذِكْرُه بذلك، ليتعرفوا عِلْمَ مَنْ قبلهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٧٣﴾

يعني جلّ ذكره: ويُرِيكمُ اللهُ أيها الكافرون المُكَذِّبُونَ، بمحمدٍ ﷺ، وبما جاء به من عند الله، من آياته ـ وآياتُهُ: أعلامُه وحججه الدالةُ على نبوته لتعقِلُوا وتَفهموا أنه مُحِقٌّ صادق، فتؤمنوا به وتَتَّبِعُوهُ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾

يعني بذلك كفار بني إسرائيل، وهم ـ فيما ذكر ـ بنو أخي المقتول، فقال لهم: «ثم قَستْ قُلوبكم»، أي جَفَّت وَغَلظت وَعَسَتْ.

يقال: «قسا» و«عسا» و«عتا» بمعنى واحد، وذلك إذا جَفا وغلظ وصَلُبَ. يقال منه: «قَسا قَلْبُه يَقسُو قَسْواً وَقَسْوَة وَقَساوةً وَقَسَاءً».

ويعني بقوله: «مِنْ بَعد ذَلك»، مِنْ بعد أنْ أحيا المقتولَ لهم ـ الذي ادَّارأوا في قتله، فأخبرَهم بقاتلِه، وبالسببِ الذي مِنْ أجلهِ قَتَلَهُ، وفَصَلَ اللهُ

تعالى ذِكرُه بخبره بين المُحِقِّ منهم والمُبْطِلِ. وكانت قساوةُ قلوبهم التي وصَفَهُم اللهُ بها، أنهم - فيما بلغنا - أنكروا أنْ يكونوا هُم قتلوا القتيلَ الذي أحياهُ الله، فأخبر بني إسرائيل بأنهم كانوا قَتَلَتَهُ، بعد إخبارِه إياهم بذلك، وبعد مِيتَتِهِ الثانية.

القولُ في تأويل قوله تعالى: ﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾

يعني بقوله: «فهي»: «قلوبكم». يقول: ثم صلبت قلوبكم - بعد إذ رأيتمُ الحَقَّ فَتَبَيَّنْتُمُوهُ وعرفتموه - عن الخضوع لهُ، والإذعانِ لواجبِ حَقِّ الله عليكم، فقلوبكم كالحجارةِ صَلابةً ويُبْساً وغِلَظاً وشِدَّة، «أو أشد قَسوة»، يعني: قلوبُهم - عن الإذعانِ لواجبِ حَقِّ الله عليهم، والإقرارِ له باللازمِ من حقوقِهِ لهم - أشد صلابةً من الحجارة.

فإن سأل سائل فقال: وما وجه قوله: «فهي كالحجارة أو أشدُّ قَسوة»، و«أو» عند أهل العربية، إنما تأتي في الكلام لمعنى الشَّكِّ، واللهُ تعالى جَلَّ ذكره غيرُ جائزٍ في خَبَرِهِ الشكُّ؟

قيل: إنَّ ذلك على غيرِ الوجهِ الذي توهَّمته، من أنه شَكٌّ من الله جَلَّ ذِكْرُه فيما أخبرَ عنه، ولكنه خبرٌ منه عن قلوبهم القاسية، أنها - عند عباده الذين هُم أصحابها، الذين كَذَّبُوا بالحق بعد ما رأوا العظيمَ من آياتِ الله - كالحجارةِ قَسوةً أو أشد من الحجارةِ، عندهم وعند مَنْ عرف شأنهم.

وقد قال في ذلك جماعةٌ من أهلِ العربية أقوالاً. فقال بعضهم: إنما أراد الله جلّ ثناؤه بقوله «فهي كالحجارة أو أشدُّ قَسوةً»، وما أشبه ذلك من الأخبار التي تأتي بـ«أو» كقوله: ﴿وأَرْسَلْنَاهُ إلى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]، وكقولِ الله جلّ ذكره: ﴿وإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي

ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤] الإبهامَ على مَنْ خَاطَبَهُ، فهو عالمٌ أيٌّ ذلك كان. قالوا: ونظيرُ ذلك قولُ القائل: «أكلتُ بُسْرة أو رُطبة»، وهو عالم أيَّ ذَلك أكل، ولكنه أبهم على المخاطب.

وقال بعضهم: ذلك كقول القائل: «ما أطعمتك إلا حُلواً أو حامضاً»، وقد أطعمه النوعين جميعاً. فقالوا: فقائلُ ذلك لم يكن شاكاً أنَّه قد أطْعم صاحبَه الحُلوَ والحامضَ كليهما، ولكنه أراد الخبر عَمَّا أطْعمه إياهُ أنه لم يَخْرُجْ عن هذين النوعين. قالوا: فكذلك قوله: «فهي كالحجارةِ أو أشد قسوة»، إنما معناه: فقلوبُهم لا تخرجُ من أحدِ هذين المِثْلين، إما أنْ تكون مِثْلاً للحجارة في القسوة، وإما أنْ تَكون أشد منها قسوة. ومعنى ذلك على هذا التأويل: فبعضُها كالحجارةِ قسوةً، وبعضُها أشد قسوةً من الحجارة.

وقال بعضهم: «أو» في قوله: «أو أشد قسوة»، بمعنى، وأشد قَسوة، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ولَا تُطِعْ مِنْهُم آثِماً أوْ كَفُوراً﴾ [الإنسان: ٢٤] بمعنى: وكفُوراً.

وقال آخرون: «أو» في هذا الموضع بمعنى «بل»، فكأن تأويله عندهم: فهي كالحجارة بَلْ أشَدُّ قسوةً، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿وأَرْسَلناه إلى مِئَة ألفٍ أو يَزِيدُون﴾ [الصافات: ١٤٧]، بمعنى: بل يزيدون.

وقال آخرون: معنى ذلك فهي كالحجارة، أو أشد قسوَةً عندكم.

ولِكُلٍّ مما قِيلَ من هذه الأقوالِ التي حَكَيْنَا وجهٌ ومَخرجٌ في كلام العرب. غير أنَّ أعجبَ الأقوالِ إليَّ في ذلك ما قلناهُ أولاً، ثم القولُ الذي ذكرناه عَمَّنْ وَجَّهَ ذلك إلى أنه بمعنى: فهي أوجُهُ في القسوة: إما أن تكون كالحجارة، أو أشد، على تأويل أنَّ منها كالحجارة، ومنها أشد قسوةً. لأن «أو»، وإن استُعملت في أماكنَ من أماكن «الواو» حَتى يلتبسَ مَعناها ومعنى «الواو»، لتقارب معنييهما

في بعض تلك الأماكن ـ فإنَّ أصلها أنْ تأتيَ بمعنى أحد الاثنين. فتوجيهها إلى أصلهـا ـ ما وَجدْنَا إلى ذلك سبيلاً ـ أعجبُ إليَّ من إخراجِها عن أصلها، ومعناها المعروف لها.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾

يعني بقوله جَلَّ ذِكْرُه «وإنَّ من الحجارة لما يتفجَّر منه الأنهار»: وإن من الحجارة حجارةً يتفجرُ منها الماءُ الذي تكون منه الأنهار، فاستغنى بذكر الأنهار عن ذكر الماء. وإنما ذَكَّرَ فقال «منه»، للفظ «ما».

«والتفجُّر»: «التفعُّل» من «تفجَّر الماء»، وذلك إذا تَنَزَّلَ خارجاً من مَنبعه. وكل سائلٍ شَخَصَ خارجاً من موضعِهِ ومكانِهِ، فقد «انفجر»، ماءً كان ذلك أو دماً أو صَديداً أو غير ذلك.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾

يعني بقوله جلّ ثناؤه: «وَإنَّ منها لما يَشَّقَّق»، وإنَّ مِنَ الحجارة لحجارة يَشقَّقُ. وتشقُّقها: تَصَدُّعها. وإنما هي: لَما يتشقّق، ولكن التاء أدغمت في الشين فصارت شيناً مشددة.

وقوله: «فيخرُجُ منهُ الماء»، فيكون عيناً نابعةً وأنهاراً جاريةً.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾

البقرة: ٧٤.

يعني بذلك جلّ ثناؤه: وإنَّ من الحجارةِ لما يَهبطُ - أي يتردَّى من رَأسِ الجبلِ إلى الأرضِ والسفحِ - من خوفِ الله وَخَشيتِهِ. وقد دللنا على معنى «الهبوط» فيما مضى، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

وأُدخلت هذه «اللامات» اللواتي في «ما»، توكيداً للخبر.

وإنما وصف اللهُ تعالى ذكره الحجارةَ بما وصفها به - من أنَّ منها المتفجرَ منه الأنهار، وأنَّ منها المتشققَ بالماء، وأنَّ منها الهابطَ من خشيةِ الله، بعد الذي جَعل منها لقلوبِ الذين أخبر عن قسوةِ قلوبهم من بني إسرائيل، مثلاً - معذرةً منه جَلَّ ثناؤُه لها، دون الذين أخبر عن قسوة قلوبهم من بني إسرائيل، إذْ كانوا بالصفة التي وصفهم اللهُ بها من التكذيب لرُسله، والجحودِ لآياته، بعد الذي أراهم من الآياتِ والعبر، وعاينوا من عجائب الأدلةِ والحجج، مع ما أعطاهم تعالى ذِكْرُهُ من صِحَّةِ العقولِ، ومَنَّ به عليهم من سَلامة النفوس التي لم يعطها الحجر والمدَر، ثم هو مع ذلك منهُ ما يتفجَّرُ بالأنهار، ومنهُ ما يتشقَّقُ بالماء، ومنه ما يهبطُ من خشيةِ الله، فأخبر تعالى ذِكْرُه أنَّ منَ الحجارة ما هو أليَنُ من قُلوبهم لما يُدْعَوْنَ إليه من الحق.

وقد دللنا فيما مضى على معنى «الخشية»، وأنها الرهبة والمخافة، فكرهنا إعادة ذلك في هذا الموضع.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ٧٤﴾

يعني بقوله: «وما الله بغافل عَما تعملون»، وما الله بغافل - يَا معشر المُكَذِّبينَ بآياتهِ، والجاحدين نُبُوَّة رسولهِ محمدٍ ﷺ، والمُتَقَوِّلينَ عليه الأباطيلَ من بني إسرائيل وأحبارِ اليهود عما تعملون من أعمالكم الخبيثة، وأفعالكم الرديئة، ولكنه مُحْصِيها عليكم، فَمُجَازِيكم بها في الآخرة، أو مُعَاقِبُكم بها في الدنيا.

وأصل «الغَفْلة» عن الشيء، تَرْكُهُ على وجهِ السَّهْوِ عنه، والنسيان له.

فأخبرهم تعالى ذكره أنه غيرُ غافلٍ عن أفعالهم الخبيثة، ولا سَاهٍ عنها، بل هو لها مُحْصٍ، وَلها حافظٌ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ﴾

يعني بقوله جلّ ثناؤه: «أفتطمعون» يا أصحابَ محمد، أي: أفَتَرْجُونَ يا معشرَ المؤمنين بمحمدٍ ﷺ، والمُصَدِّقينَ ما جاءكم به من عند الله، أنْ يُؤْمِنَ لكم يهودُ بني إسرائيل؟

ويعني بقوله: «أنْ يُؤمنوا لكم»، أنْ يُصَدِّقُوكم بما جاءكم به نبيكم محمد ﷺ من عند ربكم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾

أما «الفريق» فَجَمْعٌ، كالطائفة، لا واحدَ له من لفظه. وهو «فعيل» من «التفرق»، سُمِّي به الجِماع، كما سميت الجماعة بـ«الحزب»، من «التحزُّب»، وما أشبه ذلك.

وإنما جَعَل الله الذين كانوا على عهدِ موسى وَمَنْ بَعدهم من بني إسرائيل، من اليهود الذين قالَ اللهُ لأصحابِ محمد ﷺ: «أفتطمعون أن يؤمنوا لكم» ـ لأنهم كانوا آباءَهُم وأسلافَهُم، فجعلهم منهم، إذْ كانوا عَشائرَهُم وفَرَطهم وأسلافَهم، كما يذكر الرَّجلُ اليوم الرَّجلَ، وقد مَضى على منهاج الذاكر وطريقته. وكان من قومه وعشيرته، فيقول: «كان مِنَّا فلانٌ»، يعني أنه كان من أهلِ طريقتهِ ومذهبه، أو من قومهِ وعشيرته فكذلك قوله: «وقد كان فريقٌ منهم».

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٥﴾

إنَّ الله تعالى ذِكْرُه إنما عَنى بذلك من سَمِعَ كلامَهُ من بني إسرائيل، سماعَ موسى إياهُ منه، ثم حَرَّفَ ذلك وبدَّل، من بعد سماعِهِ وعِلْمِهِ به وفَهْمِه إياه. وَذلك أنَّ الله جلّ ثناؤه إنما أخبرَ أنَّ التحريفَ كان من فريقٍ منهم كانوا يسمعون كلامَ الله عزّ وجل، استعظاماً من الله لِمَا كانوا يأتون من البُهْتَانِ، بعد توكيدِ الحجـة عليهم والبرهان، وإيذاناً منه تعالى ذِكْرُه عبادَهُ المؤمنينَ، قَطْعَ أطماعهم من إيمانِ بَقايا نَسْلِهم بما أتاهم به محمد من الحَقِّ والنورِ والهدى، فقال لهم: كيف تطمعون في تصديقِ هؤلاء اليهود إياكم، وإنما تُخبرونهم - بالـذي تُخبـرونهم من الأنباء عن الله عزّ وجل - عن غيب لم يُشَاهِدُوه ولم يُعَاينوه، وقد كان بعضُهم يسمعُ من الله كلامَهُ وأمْرَهُ ونَهْيَهُ، ثم يُبدِّله ويُحَرِّفه ويجحده؟ فهؤلاء الذين بين أظهُرِكم من بقايا نَسْلِهم، أحرى أنْ يَجْحَدُوا ما أَتَيْتُموهم به من الحق، وهم لا يسمعونَهُ من الله، وإنما يسمعونه منكم - وأقربُ إلى أنْ يُحَرِّفُوا ما في كتبهم من صفةِ نبيكم محمد ﷺ ونَعْتِه ويُبَدِّلُوه، وهم به عالِمون، فيجحدوه ويكذبوا - من أوائِلهم الذين بَاشَرُوا كلامَ الله من اللهِ جَلَّ ثناؤُه، ثم حَرَّفُوه من بعد ما عَقَلُوه وعَلِمُوه، مُتَعَمِّدِينَ التحريفَ.

ويعني بقوله: «ثم يحرِّفونه»، ثم يبدلون معناهُ وتأويلَهُ ويغيِّرونه. وأصله من «انحـرافِ الشيءِ عن جهتِهِ»، وهو مَيْلُه عنها إلى غيرها. فكذلك قوله: «يحرِّفونه» أي يُميلُونَهُ عن وجهه ومعناهُ الذي هو معناه، إلى غيره. فأخبر الله جلّ ثناؤه أنهم فعلوا ما فعلوا من ذلك، على عِلْمٍ منهم بتأويلِ ما حَرَّفوا، وأنه بخلاف ما حَرَّفوه إليه. فقال: «يحرِّفونه من بعد ما عَقلوه»، يعني: من بعد ما عقلوا تأويله، «وهم يعلمون»، أي: يعلمون أنهم في تحريفهم ما حَرَّفُوا من ذلك مُبْطِلُونَ كاذبون.

وذلـك إخبـارٌ من الله جلّ ثناؤه عن إقدامهم على البَهْتِ، ومناصبتهم العداوةَ له ولرسوله موسى ﷺ، وأنَّ بقاياهم ـ من مُناصبتهم العداوةَ لله ولرسولِه محمدٍ ﷺ بَغياً وَحسداً ـ على مِثْلِ الذي كان عليه أوائلهم من ذلك في عَصر موسى عليه الصلاة والسلام.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾

أما قوله: «وَإذا لَقُوا الذينَ آمَنوا قالوا آمَنا»، فإنه خَبَرٌ من الله جلّ ذكره عن الذين أَيْأَس أصحابَ محمد ﷺ من إيمانهم ـ من يهودِ بني إسرائيل، الذين كان فريقٌ منهم يسمعون كلامَ الله ثم يحرفونه من بعد ما عَقلوه وهم يعلمون ـ وهُم الـذين إذا لَقُوا الذين آمنوا بالله ورسوله محمد ﷺ قالوا: آمنا. يعني بذلك: أنهم إذا لَقُوا الذين صَدَّقوا بالله وبمحمدٍ ﷺ وبما جاءَ به من عند الله، قالوا: آمنا ـ أي صَدَّقْنَا بمحمدٍ وبما صدَّقتم به، وأقررنا بذلك. أخبرَ الله عزّ وجل أنهم تخلَّقوا بأخلاق المنافقين، وسلكوا منهاجَهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾

يعني بقوله: «وإذا خَلا بعضُهم إلى بَعض» أي: إذا خلا بعضُ هؤلاء اليهود ـ الذين وصف اللهُ صِفَتهم ـ إلى بعض منهم، فصاروا في خَلاءٍ من الناس غيرهم، وذلك هو الموضع الذي ليس فيه غيرهم ـ «قالوا» يعني: قال بعضُهم لبعضٍ: «أتُحدِّثونهم بما فَتحَ الله عليكم».

وأصلُ «الفتح» في كلام العرب: النصرُ، والقضَاءُ، والحُكم. يقال منه: «اللهم افْتَحْ بيني وبين فلان»، أي احْكُمْ بيني وبينه.

ويقال للقاضي: «الفتَّاح». ومنه قول الله عزّ وجل ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الفَاتِحِين﴾ [الأعراف: ٨٩] أي: احْكُمْ بيننا وبينهم.

فإذا كان معنى الفتح ما وصفنا، تَبَيَّنَ أنَّ معنى قوله: «قالوا أتُحدِّثونهم بما فَتحَ الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم»، إنما هو: أَتُحَدِّثُونَهم بما حَكم الله به عليكم، وَقضَاه فيكم؟ ومِنْ حُكمهِ جَلَّ ثناؤه عليهم ما أخذ به ميثاقَهم من الإيمان بمحمد ﷺ، وبما جاء به في التوراة. ومن قَضَائه فيهم أنْ جعلَ منهم القِرَدَة والخنازير، وغير ذلك من أحكامهِ وقضائه فيهم. وكُلُّ ذلك كان لرسولِ الله ﷺ وللمؤمنينَ به، حُجةً على المُكَذِّبينَ به من اليهود المُقِرِّينَ بحُكْمِ التوراة، وغير ذلك[1].

فإذْ كان ذلك كذلك. فالذي هو أولى عندي بتأويل الآية: أتحدثونهم بما فتحَ الله عليكم من بَعْثِ محمد ﷺ إلى خَلْقِه؟ لأنَّ الله جَلَّ ثناؤه إنما قَصَّ في أول هذه الآية الخبرَ عن قولهم لرسولِ الله ﷺ ولأصحابه: آمنا بما جاء به محمد ﷺ؛ فالذي هو أوْلى بآخِرها أنْ يكونَ نظيرَ الخبرِ عما ابتُدىء به أوَّلُها.

وإذا كان ذلك كذلك، فالواجبُ أنْ يكونَ تلاوُمهم، كان فيما بينهم، فيما كانوا أظهروهُ لرسولِ الله ﷺ ولأصحابه من قولهم لهم: آمنا بمحمدٍ ﷺ وبما جاء به. وكان قِيلُهم ذلك، مِنْ أجلِ أنهم يجدون ذلك في كتُبهم، وكانوا يخبرُون أصحابَ رسولِ الله ﷺ بذلك. فكان تلاوُمهم ـ فيما بينهم إذا خَلوا ـ على ما كانوا يُخبرونهم بما هو حُجَّةٌ للمسلمين عليهم عند رَبِّهم. وذلك أنهم

---

(١) أي من أحكامه وقضائه.

كانوا يخبرونهم عن وجُودِ نَعْتِ محمدٍ ﷺ في كتبهم، ويكفرون به. وكان فتحُ الله الذي فَتحه للمسلمين على اليهود، وحُكمه عليهم لهم في كتابهم، أنْ يؤمنوا بمحمدٍ ﷺ إذا بُعث. فلما بُعِثَ كفروا به، مع عِلْمِهم بنبوتهِ.

وقوله: «أفَلا تَعقلون»، خبرٌ من الله تعالى ذكره - عن اليهود اللائمينَ إخوانَهم على ما أخبرُوا أصحابَ رسولِ الله ﷺ بما فَتَحَ الله لَهم عليهم - أنهم قالوا لهم: أفَلا تفقهونَ أيها القومُ وتعقلون، أنَّ إخبارَكم أصحابَ النبي ﷺ بما في كُتُبِكُم أنه نبيٌّ مبعوثٌ، حجةٌ لَهم عليكم عند ربكم، يحتجون بها عليكم؟ أي: فلا تفعلوا ذلك، ولا تقولوا لَهُمْ مِثْلَ ما قلتم، ولا تُخْبِرُوهم بمثل ما أخبرتموهم به من ذلك. فقال جلّ ثناؤه: «أوَ لَا يَعلمون أنَّ الله يَعْلَمُ مَا يُسِرُّون وَما يُعلنون».

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٧٧﴾

يعني بقوله جلّ ثناؤه: «أَوَ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ»، أوَ لا يَعلم - هؤلاء اللائمُونَ من اليهود إخْوانَهم من أهلِ مِلَّتهم، على كونهم إذا لَقُوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وعلى إخبارهم المؤمنينَ بما في كتبهم من نَعْتِ رسولِ الله ﷺ ومبعثه، القائلون لهم: أَتُحَدِّثونَهُم بما فَتَحَ الله عليكم ليحاجُّوكم به عندَ ربِّكم - أنَّ الله عالمٌ بما يُسِرُّون، فيخفونَه عن المؤمنين في خَلائهم - مِنْ كُفْرِهم، وتَلاوُمِهم بينهم على إظهارِهم ما أظهرُوا لرسولِ الله وللمؤمنينَ به من الإقرارِ بمحمدٍ ﷺ، وعلى قِيلهم لهم: آمنا، ونَهْيِ بعضِهم بعضاً أنْ يخبروا المؤمنين بما فتحَ اللهُ للمؤمنين عليهم، وقضى لهم عليهم في كتبهم، من حقيقةِ نبوةِ محمدٍ ﷺ ونَعتهِ ومبعثهِ - وما يُعلنون، فَيُظْهِرُونَهُ لمحمدٍ

ﷺ ولأصحابهِ المؤمنين به إذا لَقُوهم، من قِيلِهم لهم: آمنَّا بمحمدٍ ﷺ وبما جاء به، نِفَاقاً وخِداعاً لله ولرسوله وللمؤمنين؟

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾

يعني بقوله جلّ ثناؤه: «ومنهم أمِّيون»، ومن هؤلاء اليهود ـ الذين قَصَّ الله قَصَصهم في هذه الآيات، وأَيأَسَ أصحابَ رسول الله ﷺ من إيمانهم فقال لهم: أفتطمعون أن يُؤمنوا لكم وقد كان فريقٌ منهم يَسمعون كلامَ الله، ثم يُحَرِّفُونه من بعد ما عَقلوه، وهم إذا لقوكم قالوا: آمنا.

وأرى أنه قيل للأمي «أمي»؛ نِسْبةً له بأنه لا يكتبُ إلى «أمه»، لأنَّ الكتابَ كان في الرجالِ دون النساء، فنُسِب مَنْ لا يكتبُ ولا يَخُطُّ من الرجال ـ إلى أُمِّهِ ـ في جهلهِ بالكتابة، دونَ أبيهِ، كما ذكر عن النبي ﷺ من قوله: «إنَّا أمةٌ أميةٌ لا نكتبُ ولا نحسب»[1]، وكما قال: ﴿هُوَ الذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتِهِ ويُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ والْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢].

فإذا كان معنى «الأمي» في كلام العرب ما وصفنا، فالذي هو أولى بتأويل قوله: «ومنهم أميون»: ومنهم من لا يُحْسِنُ أنْ يَكْتُبَ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾

يعني بقوله: «لا يَعلمون الكتاب»، لا يعلمون ما في الكتابِ الذي أنزلَهُ الله، ولا يَدْرُونَ ما أَوْدَعَهُ اللهُ من حدودهِ وأحكامهِ وفرائضه، كهيئة البهائم،

(١) حديث صحيح من حديث ابن عمر، أخرجه أحمد: ٤٣/٢ و٥٢، والبخاري: ٣٥/٣ و١٢٣ و١٢٤، وأبو داود (٢٣١٩)، والنسائي: ١٣٩/٤ و١٤٠.

وإنما عنى بـ «الكتاب» التوراةَ، ولذلك أُدخلت فيه «الألف واللام»، لأنه قُصِدَ به كتابٌ معروف بعينه.

ومعناه: ومنهم فريقٌ لا يكتبون، ولا يَدْرُونَ ما في الكتاب الذي عرفتموه الذي هو عندهم ـ وهم ينتحلونه ويَدَّعُونَ الإقرارَ به ـ من أحكام الله وفرائضه، وما فيه من حدودهِ التي بَيَّنَها فيه.

وأولى ما يقالُ في تأويلِ قوله: «إلا أمانِيَّ»، بالحَقِّ، وأشبَهُهُ بالصوابِ: إن «الأميِّين» الذين وصفهم اللهُ بما وَصَفَهم به في هذه الآية، أنهم لا يفقهون من الكتابِ الذي أنزله اللهُ على موسى شيئاً، ولكنهم يَتخَرَّصُونَ الكَذِبَ ويَتَقَوَّلُونَ الأباطيلَ كذباً وزوراً.

و«التمني» في هذا الموضع، هو تَخَلُّقُ الكذبِ وتَخَرُّصُه وافتعالُه. يقال منه: «تمنَّيت كذا»، إذا افتعلته وتخرَّصته.

والذي يدلُّ على صِحَّةِ ما قُلْنا في ذلك ـ وأنه أوْلى بتأويل قوله: «إلا أماني» مِنْ غَيرِهِ من الأقوال ـ قولُ الله جلّ ثناؤه: «وَإنْ هُم إلا يظُنُّون». فأخبر عنهم جَلَّ ثناؤهُ أنهم يتمنَّون ما يتمنَّون من الأكاذيبِ، ظناً منهم لا يقيناً. ولوْ كان معنى ذلك أنهم «يَتلُونه»، لم يكونوا ظانِّين، وكذلك لو كان معناه «يَشتهونه». لأن الذي يتلوه، إذا تَدَبَّرهُ عَلِمَهُ. ولا يستحق ـ الذي يتلو كتاباً قرأه، وإنْ لم يتدبَّره ـ بتركه التدبُّرَ أنْ يقال: هو ظانٌّ لما يتلو، إلا أنْ يكونَ شاكاً في نَفْسِ ما يتلوه، لا يدري أحَقٌّ هو أم باطل. ولم يكنِ القومُ ـ الذين كانوا يتلون التوراةَ على عَصْرِ نَبِيِّنَا محمدٍ ﷺ من اليهود ـ فيما بَلَغَنا ـ شَاكِّينَ في التوراة أنها من عندِ الله. وكذلك «المتمني» الذي هو في معنى «المتشهي» غير جائزٍ أن يقال: هو ظَانٌّ في تَمَنِّيهِ. لأنَّ التمنِّي من المُتَمَنِّي، إذا تَمَنَّى ما قد وجدَ عينَه. فغيرُ جائزٍ أن يقال: هو شاكٌّ، فيما هُوَ به عالِمٌ. لأنَّ العِلْمَ والشكَّ

معنيان ينفي كُلُّ واحـدٍ منهمـا صاحِبَهُ، لا يجوزُ اجتماعهما في حَيِّزٍ واحد. والمتمني في حال تمنِّيهِ، موجودٌ تمنيه، فغيرُ جائز أن يقال: هو يظنُّ تمنيه.

وإنما قيل: «لا يعلمونَ الكتابَ إلا أماني»، و«الأماني» من غير نوع «الكتاب»، كما قال رَبُّنا جَلَّ ثناؤه: ﴿وَما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إلا ٱتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ [النساء: ١٥٧]، و«الظنُّ» من «العلم» بمعزل. وكما قال: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إلا ٱبْتِغَاءَ وَجهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ [الليل: ١٩-٢٠]، في نظائرَ لما ذَكَرْنَا يَطُولُ بإحصائِها الكتابُ.

القول في تأويل قوله تعالى: وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾

يعني بقوله جلّ ثناؤه: «وإنْ هم إلا يظنون»، وما هم، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إنْ نَحْنُ إلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [إبراهيم: ١١]، يعني بذلك: مَا نحن إلا بشر مثلكم.

ومعنى قوله: «إلا يَظنُّون»: إلا يَشُكُّون، ولا يعلمون حقيقته وصِحَّتَهُ. و«الظن» ـ في هذا الموضع ـ الشك.

فمعنى الآية: ومنهم مَنْ لا يكتبُ ولا يخُط ولا يعلم كتابَ الله ولا يدري ما فيه، إلا تَخَرُّصاً وتَقَوُّلاً ـ على اللهِ ـ الباطلَ، ظناً منه أنه مُحِقٌّ في تَخَرُّصِه وتَقَوُّلِهِ الباطل.

وإنما وصفهم الله تعالى ذكرهُ بأنهم في تخرُّصهم على ظن أنهم مُحِقُّونَ وهم مُبْطِلون، لأنهم كانوا قد سمعوا من رؤسائهم وأحبارهم أموراً حَسِبُوها من كتابِ الله، ولم تَكُنْ من كتابِ الله، فوصفهم جلّ ثناؤه بأنهم يتركون التصديق بالذي يُوقِنون به أنه من عند الله مما جاء به محمد ﷺ، ويتَّبعون ما هم فيه شاكُّون، وفي حقيقتهِ مرتابون، مما أخبرهم به كُبراؤُهم ورؤساؤهم وأحبارُهم،

عِناداً منهم لله ولرسوله، ومخالفة منهم لأمرِ الله، واغتراراً منهم بإمهالِ اللهِ إياهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ﴾

و«الويل»: هو العذاب ـ الذي هو شُربُ صديدِ أهلِ جهنمَ في أسفلِ الجحيم ـ لليهودِ الذين يكتبون الباطلَ بأيديهم، ثم يقولون: هذا من عند الله.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾

يعني بذلك: الذين حَرَّفُوا كتابَ الله من يَهودِ بني إسرائيل، وكتبوا كتاباً على ما تأولوه من تأويلاتهم، مخالفاً لما أنزل الله على نبيه موسى ﷺ، ثم باعُوه من قومٍ لا عِلْمَ لهم بها، ولا بما في التوراة، جُهَّالٍ بما في كتبِ الله ـ لِطَلَبِ عَرَضٍ من الدنيا خسيس، فقال الله لهم: «فويلٌ لهم مما كتبتْ أيديهم وَويلٌ لهم مما يَكسبون».

فإنْ قال لنا قائل: وما وَجْهُ قولِهِ: «فَويلٌ للذين يَكتبون الكتاب بأيديهم»؟ وهل تكونُ الكتابةُ بغير اليد، حتى احتاج المخاطَبُونَ بهذه المخاطبة، إلى أنْ يُخبَرُوا عن هؤلاء القوم ـ الذين قَصَّ قصتهم ـ أنهم كانوا يكتبون الكتابَ بأيديهم؟

قيل له: إنَّ الكتابَ من بني آدمَ، وإنْ كان منهم باليدِ، فإنه قد يُضَافُ الكتابُ إلى غيرِ كاتبهِ وغير المتولِّي رَسْمَ خَطِّهِ فيقال: «كتب فلان إلى فلان بكـذا»، وإنْ كان المتـولِّي كتابته بيده، غيرَ المضاف إليه الكتاب، إذا كان

الكاتبُ كتبه بأمرِ المضافِ إليه الكتاب. فأعْلَمَ ربُّنا بقوله: «فَوَيلٌ للذين يكتبون الكتابَ بأيديهم» عبادَهُ المؤمنين، أنَّ أحبارَ اليهود تَلِي كتابةَ الكذب والفِرْية على الله بأيديهم، على عِلْمٍ منهم وعَمْدٍ للكذبِ على الله، ثم تَنْحَلُه إلى أنه مِنْ عندِ الله وفي كتابِ الله، تكذّباً على الله وافتراءً عليه. فنفى جَلَّ ثناؤُه بقوله: «يكتبـون الكتـابَ بأيديهم»، أن يكـونَ ولى كتـابةَ ذلك بعضَ جُهَّالهم بأمرِ علمـائهم وأحبارهم. وذلك نظيرُ قول القائل: «بَاعني فلانٌ عينَه كذا وكذا، فاشترى فلانٌ نفسهُ كذا»، يُرادُ بإدخال «النفس والعين» في ذلك، نفيُ اللَّبْسِ عن سامعـهِ، أنْ يكون المتولِّي بيعَ ذلك أو شراءَه، غيرُ الموصوف له أمره، ويُوجب حقيقةَ الفعل للمُخبَّر عنه. فكذلك قوله: «فويلٌ للذين يكتبون الكتابَ بأيديهم».

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ۝٧٩﴾

يعني جلّ ثناؤه بقوله: «فويلٌ لهم مما كتبت أيديهم»، أي: فالعذابُ ـ في الوادي السائل من صديدِ أهل النار في أسفل جهنم ـ لهم، يعني: للذين يكتبون الكتابَ، من يهودِ بني إسرائيل محرَّفاً، ثم قالوا: هذا من عند الله، ابتغاءَ عَرَضٍ من الدنيا به قليل ممن يبتاعه منهم.

وقوله: «مِمَّا كتبت أيْديهم»، يقول: من الذي كَتَبَتْ أيديهم من ذلك، وويلٌ لهم أيضاً «مما يَكسِبون»، يعني: مما يعملونَ من الخطايا، ويجترحون من الآثامِ، ويكسبون من الحرامِ، بكتابهم الذي يكتبونَهُ بأيديهم بخلافِ ما أنزلَ اللهُ، ثم يأكلونَ ثمنه، وقد باعوه مِمَّنْ بَاعوهُ منهم على أنه من كتابِ الله.

وأصل «الكَسْب»: العملُ. فكُلُّ عاملٍ عملاً، بمباشرةٍ منه لِمَا عَمل،

ومُعاناةٍ باحترافٍ، فهو كاسبٌ لما عمل.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾

يعني بقوله: «وقالوا»، اليهودَ. يقول: وقالت اليهودُ: «لن تمسنا النارُ» يعني: لن تُلاقي أجْسَامَنا النارُ ولن نَدْخُلَها، «إلا أياماً معدودة». وإنما قيل «معدودة»، وإنْ لم يكن مبيّناً عددها في التنزيل، لأنَّ الله جَلَّ ثناؤه أخبر عنهم بذلك، وهم عارفون عَددَ الأيام التي يُوقِّتونها لمكْثِهم في النار. فلذلك ترَكَ ذِكْرَ تَسميةِ عددِ تلك الأيام، وسمَّاها «معدودةً»، لما وصفنا.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾

لما قالت اليهودُ ما قالت من قولها: «لَنْ تمسنا النارُ إلا أياماً معدودة» قال اللهُ لنبيه محمد ﷺ: قلْ يا محمد، لمعشر اليهود: «أَتَّخَذْتُم عند الله عهداً»: أأخَذْتُم بما تقولون من ذلك من الله ميثاقاً، فاللهُ لا يَنقُضُ ميثاقه، ولا يبدِّلُ وَعْدَهُ وعقده، أم تَقولون على الله الباطلَ جهلاً وَجَرَاءةً عليه؟.

وإن مما أعطاهُ الله عبادَهُ من ميثاقه: أنَّ مَنْ آمن به وأطاع أمره، نَجَّاهُ من ناره يوم القيامة. ومن الإيمانِ به، الإقرارُ بأنْ لَا إله إلا الله. وكذلك من ميثاقه الذي وَاثَقهم به: أنَّ مَنْ أتى الله يوم القيامة بحجة تكون له نجاةً من النار، فَيُنجِّيه منها.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً

وقول: «بَلى مَنْ كسبَ سَيئة»، تكذيبٌ من الله القائلين من اليهود: «لن تَمسنا النارُ إلا أياماً معدودةً»، وإخبارٌ منه لهم أنه معذِّبٌ مَنْ أشرك ومَنْ كَفَر به وبرسُلِه، وأحاطت به ذنوبه، فَمُخَلِّده في النار، فإنَّ الجنة لا يسكنها إلا أهلُ الإيمانِ به وبرسوله، وأهلُ الطاعة له، والقائمون بحدوده.

وأمـا «بلى»، فإنهـا إقـرارٌ في كُلِّ كلامٍ في أولـه جَحْدٌ، كما «نعم» إقرار في الاستفهـام الـذي لا جَحْـد فيه. وأصلها «بل» التي هي رجوع عن الجحد المحض في قولك: «ما قام عمرو بَلْ زيد». فزيدت فيها «الياء» ليصلح عليها الوقوف، إذْ كانت «بل» لا يصلحُ عليها الوقوف، إذ كانت عطفاً ورجوعاً عن الجحد. ولتكون ـ أعني «بلى» ـ رجوعاً عن الجحد فقط، وإقراراً بالفعل الذي بعد الجحد، فدلَّت «الياء» منها على معنى الإقرار والإنعام. ودَلَّ لفظُ «بل» على الرجوعِ عن الجحد.

وأما «السيئة» التي ذكرَ اللهُ في هذا المكان، فإنها الشِّرْكُ بالله.

وإنما قلنا إنَّ «السيئة» ـ التي ذكر الله جلّ ثناؤه أنَّ من كسبها وأحاطتْ به خطَيئتُه، فهو من أهل النار المُخَلَّدِينَ فيها ـ في هذا الموضع، إنما عَنَى اللهُ بها بعض السيئات دون بعض، وإنْ كان ظاهرُها في التلاوة عاماً، لأنَّ الله قَضى على أهلها بالخلود في النار. والخلود في النار لأهلِ الكفر بالله دونَ أهلِ الإيمان به، لتظاهرِ الأخبارِ عن رسولِ الله ﷺ بأنَّ أهلَ الإيمان لا يُخَلَّدونَ فيها، وأنَّ الخلودَ في النار لأهل الكفرِ بالله دون أهلِ الإيمان. فإنَّ الله جَلَّ ثناؤه قد قَرَن بقوله: «بَلَى مَنْ كسب سَيئة وأحَاطَتْ به خَطيئته فأولئك أصحابُ النار هم فيها خالدون» ـ قولَهُ ـ «والذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحاتِ أولئكَ أصْحابُ الجنة هُم فيها خالدون». فكان معلوماً بذلك أنَّ الذين لهم الخلودُ في النار من أهلِ السيئات، غيرُ الذين لهم الخلود في الجنة من أهل الإيمان.

فإنْ ظَنَّ ظانٌّ أنَّ الذين لهم الخلودُ في الجنة من الذين آمنوا، هم الذين عملوا الصالحات، دون الذين عملوا السيئات، فإنَّ في إخبارِ الله ـ أنه مُكَفِّرٌ، باجتنابنا كبائرَ ما نُنْهَىٰ عنه، سيئاتِنا، ومُدْخِلُنا المدْخلَ الكريم ـ ما يُنْبِىءُ عن صِحَّةِ ما قلنا في تأويل قوله: «بلى مَنْ كسب سَيئة»، بأنَّ ذلك على خاص من السيئات دون عامِّها.

فإنْ قال لنا قائل: فإنَّ الله جلّ ثناؤه إنما ضَمِن لنا تكفيرَ سيئاتنا باجتنابنا كبائرَ ما نُنْهَىٰ عنه، فما الدلالة على أن الكبائر غيرُ داخلةٍ في قوله: «بلى مَن كسب سيئة»؟

قيل: لما صَحَّ أنَّ الصغائرَ غير داخلةٍ فيه، وأنَّ المعني بالآية خاصٌّ دون عامٍّ، ثَبت وصحَّ أنَّ القضاء والحُكْمَ بها غيرُ جائز لأحدٍ على أحد، إلا على مَنْ وَقَفَهُ اللهُ عليه بدلالةٍ من خبرٍ قاطعٍ عُذْرَ مَنْ بَلَغه. وقد ثَبت وصَحَّ أنَّ الله تعالى ذكره قد عنى بذلك أهلَ الشرك والكفر به، بشهادةِ جميعِ الأمة. فوَجبَ بذلك القضاءُ على أنَّ أهل الشرك والكفر مِمَّنْ عَناهُ الله بالآية. فأما أهلُ الكبائر، فإنَّ الأخبار القاطعةَ عُذْرَ من بَلَغته، قد تظاهرت عندنا بأنهم غيرُ معنيِّين بها. فَمَنْ أنكر ذلك ـ ممن دافع حُجَّة الأخبارِ المستفيضة والأنباء المتظاهرة ـ فاللازم له تَرْكُ قطع الشهادة على أهلِ الكبائرِ بالخلودِ في النار، بهذه الآية وَنظائرها التي جاءت بعمومهم في الوعيد. إذْ كان تأويلُ القرآن غيرَ مدْرَك إلا ببيانِ مَنْ جعلَ اللهُ إليه بَيانَ القرآن، وكانت الآيةُ يأتي عاماً في صنفٍ ظاهرُها، وهي خاصٌّ في ذلك الصنف باطِنُها.

ويُسأل مُدَافعو الخبر بأنَّ أهلَ الكبائر من أهل الاستثناء، سُؤالنا مُنْكِرَ رَجْم الزاني المحْصن، وزوال فَرض الصلاة عن الحائض في حال الحيض. فإن السؤالَ عليهم، نظيرُ السؤال على هؤلاء، سَواءً.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾

يعني بقوله جلّ ثناؤه: «وأحَاطَتْ به خَطيئته»، اجتمعتْ عَليه **فمات عليها**، قبل الإنابةِ والتوبة منها.

وأصلُ «الإحاطة بالشيء»، الإحداقُ به، بمنزلة «الحائط» الذي تُحاطُ به الدارُ فتُحدِق به. ومنه قولُ الله جلّ ثناؤه: ﴿ناراً أَحاطَ بهِمْ سُرَادِقُها﴾ [الكهف: ٢٩].

فتأويلُ الآية إذاً: مَنْ أشرك بالله واقترف ذنوباً جَمَّةً فمات عليها قبل الإنابة والتوبة، فأولئك أصحابُ النار هم فيها مخلَّدون أبداً.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨١﴾

يعني بقوله جلّ ثناؤه: «فأولئك أصحابُ النار هُمْ فيها خالدون»، فأولئكَ الذين كسبوا السيئات وأحاطت بهم خطيئاتهم، أصحابُ النار هم فيها خالدون.

ويعني بقوله جلّ ثناؤه: «أصحابُ النار»، أهلُ النار. وإنما جَعلَهُم لها أصحاباً لإيثارِهم - في حياتهم الدنيا ما يُورِدُهُمُوها ويورِدُهم سعيرَها - على الأعمال التي توردهم الجنةَ فجعلهم جَلَّ ذِكْرُه - بإيثارهم أسبابَها على أسبابِ الجنة - لها أصحاباً، كصاحبِ الرجلِ الذي يُصاحبه مُؤْثِراً صُحْبَتَهُ على صُحْبةِ غيرِه، حتى يُعْرَفَ به.

«هُم فيها»، يعني: هم في النار خالدون. ويعني بقوله: «خالدون» مقيمون.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٨٢﴾

ويعني بقوله: «والذين آمنوا»، أي صَدَّقُوا بما جاء به محمدٌ ﷺ. ويعني بقوله: «وعَمِلُوا الصالحات»، أطاعوا الله فأقاموا حُدودَهُ، وأدَّوا فرائضه، واجتنبوا محارِمَهُ. ويعني بقوله: «فأولئك»، فالذين هم كذلك «أصحابُ الجنة هُم فيها خالدون»، يعني: أهلُها الذين هم أهلُها، هُم فيها خالدون»، مقيمون أبداً.

وإنما هذه الآية والتي قَبْلَها إخبارٌ من الله عبادَه عن بَقاءِ النارِ وبقاء أهلها فيها، وبقاء الجنة وبقاء أهلها فيها، وَدوام ما أعَدَّ في كُلِّ واحدةٍ منهما لأهلها، تكذيباً من الله جَلَّ ثناؤه القائلينَ من يهودِ بني إسرائيل: إنَّ النار لَنْ تَمَسَّهُم إلا أياماً معدودةً، وأنهم صائرون بعد ذلك إلى الجنة. فأخبرهم بخلودِ كفارِهم في النارِ، وخُلودِ مؤمنيهم في الجنة.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾

قد دَلَّلْنَا ـ فيما مضى من كتابنا هذا ـ على أنَّ «الميثاق» «مِفْعال» من «التَّوَثُّقِ باليمين» ونحوِهَا من الأمور التي تُؤَكِّدُ القولَ. فمعنى الكلام إذاً: واذكروا أيضاً يا معشرَ بني إسرائيل، إذْ أخذنا ميثاقكم لا تعبدون إلا الله.

والقَرَأَةُ مختلفة في قراءة قوله: «لا تعبدون». فبعضهم يقرؤها بالتاء، وبعضهم يقرؤها بالياء، والمعنى في ذلك واحدٌ. وإنما جازت القراءة بالياء والتاء، وأنْ يُقال «لا تعبدون» و«لا يعبدون» وهم غَيَبٌ[1]، لأنَّ أخْذَ الميثاق،

---

(١) غَيَبٌ: جمع غائب.

بمعنى الاستحلاف. فكما تقول: «استحلفتُ أخاكَ ليقومَنَّ» - فتخبر عنه خبرَكَ عن الغائبِ لغيبتهِ عنكَ. وتقول: «استحلفته لتقومَن»، فتخبرُ عنه خَبرَكَ عن المخاطَب، لأنك قد كنتَ خاطبته بذلك - فيكون ذلك صحيحاً جائزاً. فكذلك قوله: «وإذْ أخذنا ميثاقَ بني إسرائيلَ لا تعبدون إلا الله» و«لا يَعبدون». من قرأ ذلك «بالتاء» فمعنى الخطاب، إذْ كان الخطاب قد كان بذلك. ومن قرأ «بالياء»، فلأنهم ما كانوا مخاطَبين بذلك في وقت الخبر عنهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾

وقوله جلّ ثناؤه: «وبالوالدين إحساناً»، عطفٌ على موضع «أنْ» المحذوفة في «لا تَعبدون إلا الله». فكان معنى الكلام: وإذْ أخذنا ميثاقَ بني إسرائيل بأنْ لا تعبدُوا إلا اللهَ، وبالوالدين إحساناً، فرفع «لا تعبدون» لَمَّا حذفَ «أن»، ثم عطف «بالوالدين» على موضعها.

وأما «الإحسان» فمنصوبٌ بفعلٍ مُضْمَرٍ يؤدي معناه قوله: «وبالوالدين»، إذْ كان مفهوماً معناهُ. فكان معنى الكلام - لو أظهر المحذوف -: وإذْ أخذنا ميثاقَ بني إسرائيل بأنْ لا تَعبدوا إلا الله، وبأنْ تُحسِنُوا إلى الوالدين إحساناً فاكتفى بقوله: «وَبالوالدين» من أن يقال: وبأنْ تُحسِنُوا إلى الوالدين إحساناً إذْ كان مفهوماً أنَّ ذلك معناه بما ظَهرَ من الكلام.

فإنْ قال قائل: وَما ذَلك «الإحسانُ» الذي أخذ عليهم بالوالدين الميثاقَ؟

قيل: نظيرُ ما فَرض اللهُ على أمَّتنا لهما من فِعْلِ المعروف لهما، والقول الجميل، وخفضِ جَناح الذل رحمةً بهما، والتحنُّن عليهما، والرأفة بهما، والدعاءِ بالخير لهما، وما أشبه ذلك من الأفعال التي نَدَبَ اللهُ عباده أن يفعلوا بهما.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾

يعني بقوله: «وذي القُرْبى»، وبذي القربى أنْ يَصِلُوا قرابته منهم وَرَحِمَهُ.

و«القُرْبى» مصدر على تقدير «فُعْلى»، من قولك، «قَرُبت مني رَحِمُ فلان قَرَابةً وقُرْبى وقُرْباً»، بمعنى واحد.

وأمـا «اليتامى». فهم جمع «يَتيم»، مثل «أسير وأسارى». ويدخل في اليتامى الذكور منهم والإناث.

ومعنى ذلك: وإذْ أخذنا ميثاقَ بني إسرائيل لا تَعبدون إلا الله وحده دونَ مَنْ سِواهُ من الأنداد، **وبالوالـدين** إحساناً، وبذي القربى: أنْ تَصِلُوا رَحمه، وتعرفوا حَقَّهُ، وباليتامى: أنْ تَتعطَّفوا عليهم بالرحمة والرأفة، وبالمساكين: أن تُؤتوهم حقوقَهم التي ألزمها الله أموالكم.

و«المسكين»، هو المُتَخَشِّعُ المتذلِّلُ من الفاقةِ والحاجة، وهو «مِفْعيل» من «المسكنة». و«المسكنة» هي ذلُّ الحاجةِ والفاقة.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾

إن قال قائل: كيف قيل: «وقُولوا للناس حُسْناً»، فأخرجَ الكلامَ أمراً ولَمَّا يتقدمه أمر، بل الكلامُ جارٍ من أولِ الآية مجرى الخبر؟

قيل: إنَّ الكلامَ، وإنْ كان قد جرى في أولِ الآية مجريِ الخبر، فإنه مما يَحْسُنُ في مَوْضعهِ الخطابُ بالأمر والنهي. فلو كان مكانَ: «لاتعبدون إلا الله»، لا تعبدوا إلا الله ـ على وَجْهِ النَّهْيِ من الله لهم عن عبادةِ غيره ـ كان حَسَناً صواباً. وقد ذُكر أنَّ ذلك كذلك في قراءةِ أُبيٍّ بن كعب. وإنما حَسُنَ

ذلك وجاز ـ لو كانَ مقروءاً به ـ لأنَّ أخْذَ الميثاق قولٌ.

فكان معنى الكلام ـ لو كان مقروءاً كذلك ـ: وإذ قلنا لبني إسرائيل: لا تعبـدوا إلا الله، كما قال جَلَّ ثناؤه في موضع آخر: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ ورَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣]. فلما كان حسناً وضـعُ الأمـر والنهي في موضع: «لا تعبدون إلا الله»، عطف بقوله: «وقُولُوا للناس حُسْناً»، على موضع «لا تعبدون»، وإنْ كان مخالفاً كل واحد منهما معناه معنى ما فيهِ، لِمَا وَصَفْنَا من جوازِ وَضْعِ الخطاب بالأمر والنهي موضع «لا تعبدون». فكأنه قيل: وإذ أخَذنا ميثاقَ بني إسرائيل لا تعبدوا إلا الله، وقولوا للناس حُسناً. وهو نظيرُ ما قَدَّمنا البيانَ عنه: من أنَّ العربَ تَبتدىء الكلامَ أحياناً على وجهِ الخبرِ عن الغائبِ في موضع الحكايةِ لما أخبرت عنه، ثم تعود إلى الخبر على وجهِ الخطابِ؛ وتبتدىء أحياناً على وجهِ الخطاب، ثم تعود إلى الإخبار على وجهِ الخبر عن الغائبِ، لما في الحكاية من المعنيين.

وأما «الحسن» فإنَّ القَرَأَة اختلفت في قراءته. فقرأته عامة قَرَأَةِ الكوفة غير عاصم: «وقولوا للناس حَسَناً» بفتح الحاء والسين. وقرأته عامة قرَّاء المدينة: «حُسْناً» بضم الحاء وتسكين السين. وقد رُوي عن بعض القَرَأَةِ أنه كان يقرأ: «وقولوا للناس حُسْنَى» على مثال «فُعْلى».

والصوابُ من القراءة في قوله: «وقُولُوا للناس حَسَناً»، لأنَّ القومَ إنما أُمِرُوا في هذا العهد الذي قيل لهم: «وقولوا للناس» باستعمال الحَسَن من القولِ، دونَ سائرِ معاني الحسن الذي يكون بغير القول. وذلك نَعْتٌ لخاص من معاني الحُسْنِ، وهو القول. فلذلك اخترتُ قراءته بفتح الحاء والسين، على قراءته بضم الحاء وسكون السين.

وأما تأويل القول الحسن الذي أمرَ الله به الذين وصف أمْرَهم من بني

إسـرائيل في هذه الآية، أنْ يقولوه للناس فهو أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، مع الأدبِ الحسن الجميل والخُلُقِ الكريم، وهو مما ارتضاه الله.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾

يعني بقوله: «وأقيموا الصلاة»، أدُّوها بحقوقها الواجبة عليكم فيها من ركوعٍ، وسجودٍ، وخشوعٍ، واقبالٍ عليها.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾

قد بيَّنا فيما مضى قَبْلُ، معنى «الزكاة» وما أصلها.

وأما الزكاة التي كان اللهُ أمر بها بني إسرائيلَ الذين ذَكَرَ أمْرَهم في هذه الآية، فهي ما كانَ اللهُ فَرَضَ عليهم في أموالِهم من الزكاة، وهي سُنَّةٌ كانت لهم غير سُنَّةِ محمدٍ ﷺ. كانت زكاة أموالهم قربَاناً تهبطُ إليه نارٌ فتحملها، فكـان ذلك تقبُّلَه. ومَنْ لم تفعل النارُ به ذلك كان غير مُتقَبَّلٍ، وكان الذي قُرِّبَ، منْ مكسبٍ لا يَحلُّ: من ظُلم أو غَشْم، أو أخْذٍ بغير ما أمره اللهُ به وبيَّنه له.

القـول في تأويل قولـه تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ۝٨٣﴾

وهـذا خَبَرٌ من الله جلّ ثناؤه عن يهود بني إسرائيل، أنهم نكثوا عَهْدَهُ ونقضوا ميثاقه، بعد ما أخذ اللهُ ميثاقهم على الوفاءِ له، بأنْ لا يعبدُوا غيرَهُ، وأن يُحسنـوا إلى الآبـاء والأمهات، ويَصِلُوا الأرْحامَ، ويتعطفوا على الأيتام، ويؤدُّوا حُقوقَ أهلِ المسكنة إليهم، ويأمرُوا عبادَ الله بما أمرهم الله به وَيحثُّوهم

على طاعتهِ، ويُقيموا الصلاة بحدودها وفرائضها، ويؤتوا زكاة أموالهم - فخالفوا أمْرَهُ في ذلك كُلِّهِ، وتولَّوا عنه معرضين، إلا مَنْ عَصَمه الله منهم، فوَفَى لله بعهدهِ وميثاقه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾

قوله: «وإذْ أخذنا ميثاقكمْ لا تَسفكون دماءَكم» في المعنى والإعراب نظيرُ قوله: «وإذْ أخَذنا ميثاق بَني إسرائيل لا تَعبدون إلا الله».

وأما «سفك الدم»، فإنه صَبُّه وإراقته.

فإنْ قال قائل: وما معنى قوله: «لا تَسفكون دماءكم ولا تُخرجون أنفسَكمْ من دياركم»؟ وقال: أوَ كانَ القومُ يقتلون أنفسهم ويخرجونها من ديارها، فنُهُوا عن ذلك؟

قيل: ليس الأمرُ في ذلك على ما ظَنَنْتَ، ولكنهم نُهُوا عن أنْ يقتلَ بعضُهم بعضاً. فكان في قتلِ الرجلِ منهم الرجلَ قتلُ نفسه، إذ كانت مِلَّتُهما واحدة، فهما بمنزلةِ رجلٍ واحد. كما قال عليه السلام:

«إنما المؤمنون في تراحُمهم وتعاطُفهم بَينهم بمنزلة الجسد الواحد، إذا اشتكى بعضُه تَداعى له سَائر الجسد بالحمَّى والسهر»[1].

(١) هكذا رواه الطبري، بهذا اللفظ، والمحفوظُ الصحيح هو ما رواه الشعبي عن النعمان ابن بشير، قال قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» أخرجه الحميدي (٩١٩)، وأحمد ٢٦٨/٤ و٢٧٠ و٢٧٦، والبخاري ١١/٨-١٢، ومسلم (٢٥٨٦) واللفظ له. وله طرق أخرى عن خيثمة وسماك بن حرب عن النعمان، بمعناه.

وقد يجوز أن يكون معنى قوله: «لا تَسفكون دماءكم»، أي: لا يقتل الرجلُ منكم الرجلَ منكم، فيقادَ به قِصاصاً، فيكون بذلك قاتلاً نَفْسَهُ، لأنه كان الذي سبَّب لنفسه ما استحقَّت به القتلَ. فأُضيفَ بذلك إليه، قتلُ وليّ المقتول إياه قِصاصاً بوليِّهِ. كما يقال للرجل يركبُ فعلاً من الأفعال يستحق به العقوبة، فيعاقب العقوبة: «أنت جنيتَ هذا على نفسك».

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾

يعني بقوله: «ثم أقررتم»، ثم أقررتم بالميثاقِ الذي أخَذْنَا عليكم: لا تسفكونَ دِماءكم ولا تُخرجون أنفسكم من دياركم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ۝٨٤﴾

وأَوْلى الأقوال في تأويل ذلك بالصوابِ عندي: أنْ يكون قوله: «وأنتم تَشهدون» خبراً عن أسلافهم، وداخلاً فيه المُخَاطَبُونَ منهم، الذين أدركوا رسول الله ﷺ، كما كان قوله: «وإذْ أخذنا ميثاقكم» خبراً عن أسلافِهم، وإنْ كان خطاباً للذين أدركوا رسولَ الله ﷺ. لأنَّ الله تعالى أخذَ ميثاقَ الذين كانوا على عهدِ رسولِ الله مُوسى ﷺ من بني إسرائيل ـ على سبيل ما قد بَيَّنَهُ لنا في كتابه ـ فألزم جميعَ مَنْ بعدَهم من ذُرِّيتهم من حُكْمِ التوراة، مِثْلَ الذي ألزم منه مَنْ كان على عهدِ موسى منهم ثم أَنَّبَ الذين خاطبهم بهذه الآياتِ على نَقضِهم ونقض سَلفهم ذلك الميثاقَ، وتكذيبهم ما وَكَّدوا على أنفسهم له بالوَفاءِ من العهودِ، بقوله: «ثم أقررتم وأنتم تَشهدون». فإذْ كان خارجاً على وجهِ الخطابِ للذين كانوا على عهدِ نبينا ﷺ منهم، فإنه معنيٌّ به كُلُّ مَنْ وَاثَقَ بالميثاقِ منهم على عهدِ موسى ومن بَعده، وكُلُّ مَنْ شهدَ منهم بتصديقِ ما في التوراة. لأنَّ

الله جلّ ثناؤه لم يخصص بقوله: «ثم أقررتم وأنتم تشهدون» ـ وما أشْبَهَ ذلك من الآيِ ـ بعضَهم دون بعضٍ. والآيةُ محتملةٌ أنْ يكونَ أُرِيدَ بها جميعهم. فإذْ كان ذلك كذلك، فليس لأحدٍ أنْ يَدَّعي أنه أُرِيدَ بها بعضٌ منهم دون بعض. وكذلك حُكم الآية التي بعدها، أعني قوله: «ثم أنتم هؤلاء تَقتلونَ أنْفسكم» الآية. لأنه قد ذَكَرَ لنا أنَّ أوائِلَهُم قد كانوا يفعلون من ذلك ما كان يفعله أواخرُهم، الذين أدركوا عصرَ نبينا محمد ﷺ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾

يتَّجه في قوله «ثم أنْتُمْ هؤلاء» وجهان:

أحدهما: أن يكون أُرِيدَ به: ثم أنتم يا هؤلاء، فترك «يا» استغناءً بدلالة الكلام عليه، كما قال ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ [يوسف: ٢٩]، وتأويله: يا يوسف أعرض عن هذا. فيكون معنى الكلام حينئذ: ثم أنتم يا معشر يهود بني إسرائيل ـ بعد إقرارِكم بالميثاقِ الذي أخَذْتُه عليكم: لا تسفكون دماءكم، ولا تُخرجون أنفسكم من دياركم، ثم أقررتم، بَعدَ شهادتكم على أنفسكم، بأنَّ ذلك حقٌّ لي عليكُم، لازمٌ لكم الوفاءُ لي به ـ تقتلون أنفسكم، وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم، متعاونين عليهم، في إخراجكم إياهم، بالإثم والعدوان.

والتعاونُ هو «التظاهر». وإنما قيل للتعاون «التظاهر»، لتقوية بعضِهم ظهرَ بعضٍ. فهو «تفاعل» من «الظهر»، وهو مساندةُ بعضِهم ظهرَه إلى ظَهر بعض.

والوجه الآخر: أنْ يكون معناه: ثم أنتم قَومٌ تقتلون أنفسكم. فيرجعُ إلى الخبر عن «أنتم». وقد اعتُرض بينهم وبين الخبرِ عنهم «بهؤلاء»، كما تقول العرب: «أنَا ذا أقُوم، وأنَا هذا أجلس». وإذ قيل: «أنا هذا أجلس»، كان صحيحاً جائزاً كذلك: «أنتَ ذَاك تقوم».

وأما «العدوان» فهو «الفُعلان» من «التعدِّي» يقال منه: «عَدَا فلان في كذا عَدْواً وَعُدْواناً، واعتَدَى يَعتدي اعتداءً»، وذلك إذا جاوز حدَّه ظُلماً وَبغياً.

وقد اختلف القرَأَةُ في قراءة «تظاهرون». فقرأها بعضهم: «تَظَاهَرُون» على مثال «تَفاعلون» فحذف التاء الزائدة، وهي التاء الآخرة. وقرأها آخرون: «تَظَّاهرُون» فشدَّد، بتأويل: تَتظاهرون، غير أنهم أدغَموا التاء الثانية في الظاء، لتقارب مخرجيهما، فَصَيَّروهما ظاء مشددة. وهاتان القراءتان، وإن اختلفتْ ألفاظهما، فإنهما مُتفقتا المعنى. فسواءٌ بأيِّ ذلك قرأ القارىء، لأنهما جميعاً لُغتان معروفتان، وقراءتان مستفيضتان في أمصار الإسلام بمعنى واحد، ليس في إحداهما معنى تستحقُّ به اختيارَها على الأخرى، إلا أن يختارَ مُختارٌ «تَظَّاهرُون» المشدَّدةَ، طلباً منه تتمةَ الكلمة.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾

يعني بقوله جلّ ثناؤه: «وإنْ يأتوكم أسارَى تُفادوهم»، اليهودَ. يُوَبِّخُهم بذلك، ويُعَرِّفُهم به قبيحَ أفعالهم التي كانوا يفعلونها، فقال لهم: ثم أنتم ـ بعد إقرارِكم بالميثاقِ الذي أخذتُه عليكم: أنْ لا تسفكوا دماءَكم، ولا تخرجوا أنفسكم من دياركم ـ تقتلون أنفسكم، يعني به: يقتلُ بعضُكم بعضاً، وأنتم، مع قتلِكم مَنْ تَقتلون منكم، إذا وجدتم الأسيرَ منكم في أيدي غيركم من

أعـدائكم، تَفْدُونَهُ، ويُخْرِجُ بعضكم بعضاً من ديارِهِ. وقتلكُم إياهم وإخراجُكُموهم من ديارهم، حرامٌ عليكم، وتركهم أسرى في أيدي عَدوِّكم حرامٌ عليكم، فكيف تستـجـيزونَ قتـلَهـم، ولا تسـتجيزون ترك فدائهم من عدوِّهم؟ أم كيف لا تستجيزون ترك فدائهم، وتستجيزون قتلهم؟ وهما جميعاً ـ في اللازم لكم من الحكم فيهم ـ سواءٌ. لأن الـذي حَرَّمْتُ عليكم من قتلِهم وإخـراجِهم من دورهـم، نظيرُ الـذي حرمتُ عليكم من تركهم أسـرى في أيدي عدوهم، أَفَتؤمِنُون ببعضِ الكتاب ـ الذي فرضتُ عليكم فيه فرائضي، وبيَّنتُ لكم فيه حدودي، وأخـذتُ عليكم بالعمـلِ بما فيه ميثاقي ـ فتصدِّقون به، فَتُفَادُونَ أَسْراكم من أيدي عدوكم وتكفرون ببعضه، فتجحدون، فتقتلون مَنْ حرَّمتُ عليكم قتلَه من أهل دينكم ومن قومكم، وتخرجونهم من ديارهم، وقد علمتم أنَّ الكفر منكم ببعضه نقضٌ منكم عهدي وميثاقي؟

واختلف القَـرَأَةُ في قراءة قولـه: «وإنْ يَأتـوكم أسارى تفدوهم». فقرأه بعضهم: «أسرىٰ تَفْدُوهم»، وبعضهم: «أسَارىٰ تُفادُوهم»، وبعضهم «أُسَارىٰ تَفدُوهم»، وبعضهم «أسْرىٰ تُفادوهم».

وأولى بالصواب في ذلك قراءةُ من قرأ «وإنْ يَأتوكم أسْرى»، لأن «فعالى» في جمع «فعيل» غيرُ مستفيض في كلام العرب، فإذْ كان ذلك غير مستفيض في كلامهم، وكان مُسْتَفِيضاً فاشياً فيهم جمعُ ما كانَ من الصفاتِ ـ التي بمعنى الآلام والزمانة ـ وواحدُه على تقدير «فعيل»، على «فعلى»، كالذي وصفنا قبل، وكـانَ أحد ذلك «الأسير»، كان الواجبُ أن يُلحق بنظائرِهِ وأشكاله، فيجمع جَمعَها دون غيرها ممن خالفها.

وأما مَنْ قرأ «تُفادُوهم»، فإنه أراد: إنكم تَفْدُونهم من أسْرهم، ويفدِي منكم ـ الذين أسروهم ففادوكم بهم ـ أسرَاكم منهم.

وأما من قرأ ذلك «تَفدوهم»، فإنه أراد: إنكم يا معشرَ اليهود، إنْ أتاكمُ الذين أخرجتموهم منكم من ديارهم أسْرى فدَيْتموهم فاستنقذتموهم.

وهذه القراءةُ أعجبُ إليَّ من الأولى ـ أعني: «أسرى تُفادُوهم» ـ لأنَّ الذي على اليهودِ في دينهم فداء أسراهم بكلِّ حالٍ، فَدَى الآسرون أسْراهم منهم أم لم يَفْدُوهم.

وأما قوله: «وَهو مُحرَّمٌ عليكم إخراجهم»، فإنَّ في قوله: «وهو» وجهين من التأويل.

أحدهما: أنْ يكون كنايةً عن الإخراج الذي تقدم ذكره. كأنه قال: وتُخرجون فريقاً منكم من ديارهم، وإخراجهم مُحَرَّمٌ عليكم. ثم كرر «الإخراج» الذي بعد «وهُو محرم عليكم»، تكريراً على «هو»، لَمَّا حَالَ بين «الإخراجِ» و«هُوَ» كلامٌ.

والتأويل الثاني: أن يكون عماداً، لَمَّا كانت «الواو» التي مع «هو» تقتضي اسماً يَلِيها دون الفعل. فلما قدَّم الفِعْلَ قبل الاسم ـ الذي تقتضيه «الواو» أن يليَها ـ أولِيَت «هو»، لأنه اسم، كما تقول: «أتيتُك وهو قائمٌ أبوك» بمعنى: «وأبُوك قائم» إذْ كانت «الواو» تقتضي اسماً، فعُمدت بـ «هو»، إذ سبق الفعلُ الاسمَ، ليصلح الكلام.

القول في تأويل قوله تعالى: **فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا**

يعني بقوله جلّ ثناؤه: «فما جزاء من يفعل ذلك منكم»: فليسَ لمن قتلَ منكم قتيلاً ـ فكفر بقتلِهِ إياه، بنقضِ عهدِ الله الذي حَكَمَ به عليه في التوراة ـ وأخرج

منكم فريقاً من ديارِهم مُظَاهِراً عليهم أعداءَهُم من أهل الشرك ظُلماً وعُدواناً وخلافاً لما أَمَرَهُ اللهُ به في كتابهِ الذي أنزله إلى موسى - جَزَاءٌ - يعني «بالجزاء»: الثواب، وهو العِوَضُ مِمَّا فَعل من ذلك والأجر عليه - إلا خزيٌ في الحياة الدنيا. «والخِزي»: الذُّلُّ والصَّغَارُ، يقال منه: «خُزِيَ الرجل يَخْزَىٰ خزياً»، «في الحياة الدنيا»، يعني: في عاجل الدنيا قبل الآخرة.

ثم اختلف في الخِزْي الذي أخزاهم الله بما سَلَفَ من معصِيتهم إياه. فقال بعضهم: ذلك هو حُكمُ اللهِ الذي أنزله إلى نَبيِّهِ محمدٍ ﷺ: من أَخْذِ القاتلِ بِمَنْ قتل، والقَوَد به قصاصاً، والانتقام للمظلوم من الظالم.

وقال آخرون: بل ذلك، هو أخذُ الجزيةِ منهم ما أقامُوا على دِينهم، ذلةً لهم وصَغاراً.

وقال آخرون: بل ذلك الخزي الذي جُوزُوا به في الدنيا: إخراج رسولِ الله ﷺ النضيرَ من ديارهم لأوَّلِ الحَشْرِ، وقتل مقاتِلَةِ قُرَيظة وَسَبي ذراريهم، فكان ذلك خزياً في الدنيا، ولهم في الآخرة عذابٌ عظيمٌ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾

يعني بقوله: «ويوم القيامة يُرَدُّون إلى أشدِّ العذاب»: ويوم تَقوم الساعةُ يُرَدُّ مَنْ يفعل ذلك منكم - بعد الخِزْيِ الذي يَحلُّ به في الدنيا جزاءً على معصية الله - إلى أشدِّ العذابِ الذي أعدَّ الله لأعدائه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٨٥﴾

اختلف القَـرَأَةُ في قراءة ذلـك. فقـرأه بعضهم: «ومـا الله بغـافل عمَّا يَعملون» بـ«الياء»، على وجه الإخبارِ عنهم. فكأنهم نَحَوْا بقراءتهم معنى: «فما جَزَاءُ من يَفْعلُ ذلك منكم إلا خِزْيٌ في الحياة الدنيا ويَومَ القيامة يُردُّون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما يَعملون»، يعني: عما يعمله الذين أخبرَ اللهُ عنهم أنه ليس لهم جزاءٌ على فِعْلِهم إلا الخزيُ في الحياةِ الدنيا، ومرجعهم في الآخرة إلى أشَدِّ العذاب.

وقرأه آخرون: «وما اللهُ بغافل عمَّا تَعملون» بـ«التاء» على وجه المخاطبة، وكـأنهم نَحَوْا بقراءتهم: «أفَتؤمنون ببعض الكتاب وتَكفُرون ببعض». وما اللهُ بغافلٍ، يَا معشرَ اليهود، عما تَعملون أنتم.

وأعجب القراءتين إليَّ قراءةُ مَنْ قرأ بـ«الياء»، إتباعاً لقوله: «فما جزاء من يفعلُ ذلك منكم»، ولقوله: «ويوم القيامة يردُّون». لأن قوله: «وما الله بغافلٍ عما يَعملون» إلى ذلك، أقربُ منه إلى قوله: «أفتُؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض»، فإتباعه الأقربَ إليه، أوْلى من إلحاقهِ بالأبعد منه. والوجه الآخر غيرُ بعيدٍ من الصواب.

وتأويل قوله: «وما الله بغافل عما يَعملون»، وما الله بساهٍ عن أعمالهم الخبيثة، بلْ هُو مُحْصٍ لها، وحافظُها عليهم حتى يجازيَهُم بها في الآخرة، ويخزيَهم في الدنيا، فَيُذِلَّهم ويفضَحهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٨٦﴾

يعني بقـولـه جلّ ثنـاؤه أولئـك الـذين أخبرَ عنهم أنهم يؤمنون ببعض الكتاب، فيفادُون أسْراهم من اليهود، ويكفرونَ ببعض، فيقتلون مَنْ حَرَّمَ الله

عليهم قتله من أهل مِلَّتهم، ويخرجون من دارِه مَنْ حَرَّمَ الله عليهم إخراجَهُ من داره، نقضاً لعهدِ الله وميثاقِهِ في التوراة إليهم. فأخبر جلّ ثناؤه أنَّ هؤلاء هم الذين اشتروا رياسةَ الحياةِ الدنيا على الضعفاء وأهلِ الجهل والغباء من أهل ملتهم، وابتاعوا المآكلَ الخسيسة الرديئة فيها بالإيمان، الذي كان يكونُ لهم به في الآخرة - لو كانوا أتَوْا به مكانَ الكفر - الخلودُ في الجنان. وإنما وصفَهم الله جَلَّ ثناؤه بأنهم اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، لأنهم رضُوا بالدنيا بكفرهم باللهِ فيها، عِوَضاً من نعيمِ الآخرة الذي أعَدَّهُ الله للمؤمنين. فجعل حُظوظَهم من نعيمِ الآخرة بكفرهم بالله، ثمناً لما ابتاعوه به من خسيسِ الدنيا.

ثم أخبر الله جلّ ثناؤه أنهم إذْ باعوا حُظوظهم من نَعيم الآخرة - بتركهم طاعتَهُ، وإيثارِهم الكُفْرَ به والخسيسَ من الدنيا عليه - لا حظَّ لهم في نعيم الآخرة، وأنَّ الذي لهم في الآخرة العذابُ، غيرَ مُخَفَّفٍ عنهم فيها العذاب. لأن الذي يُخَفَّفُ عنه فيها من العذاب، هو الذي له حظٌّ في نعيمها، ولا حظَّ لهؤلاء، لاشترائهم - بالذي كان في الدنيا - دنياهم بآخرتهم.

وأما قوله: «ولا هم يُنصرون» فإنه أخبر عنهم أنه لا ينصُرهم في الآخرة أحدٌ، فيدفعُ عنهم بِنُصرته عذابَ الله - لا بقوته ولا بشفاعته ولا غيرهما.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾

يعني بقوله جلّ ثناؤه: «آتينا مُوسَى الكتاب»: أنزلناه إليه. وقد بيَّنا أنَّ معنى «الإيتاء» الإعطاء، فيما مضى قَبْلُ.

و«الكتاب» الذي آتاه اللهُ موسى عليه السلام، هو التوراةُ.

وأما قوله: «وَقَفَّيْنا»، فإنه يعني: وأرْدَفنا، وأتْبَعْنَا بعضَهم خلف بعض، كما يَقْفُو الرجلُ الرجلَ: إذا سار في أثره من ورائه.

ويعني بقوله: «من بعده»، من بعد موسى.

ويعني بـ «الرسل»: الأنبياء، وهم جمع «رسول». يقال: هو «رَسولٌ وهم رُسُلٌ»، كما يقال: «هو صبورٌ وهُم قوم صُبُر، وهو رجل شكور وهم قوم شُكُر».

وإنما يعني جلّ ثناؤه بقوله: «وقفَّينا من بَعده بالرسل»، أي أتبعنا بعضَهم بعضاً على منهاجٍ واحدٍ وشريعةٍ واحدة. لأنَّ كُلَّ مَنْ بعثه الله نبياً بعد موسى ﷺ إلى زمان عيسى بن مريم، فإنما بَعثه بأمر بني إسرائيل بإقامةِ التوراة، والعملِ بما فيها، والدعاء إلى ما فيها. فلذلك قيل: «وَقَفَّيْنا من بعده بالرسل»، يعني على منهاجهِ وشريعتِه، والعمل بما كان يعملُ به.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾

يعني بقوله: «وآتَينا عيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ البيِّنات»، أعطينا عيسى بن مريم.

ويعني بـ «البينات» التي آتاه الله إياها: ما أظهرَ على يديهِ من الحججِ والدلالة على نبوته: من إحياءِ الموتى، وإبراء الأكمه، ونحو ذلك من الآيات، التي أبانت مَنْزِلَتَهُ من اللهِ، ودَلَّتْ على صِدْقِه وصحة نبوته.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾

أما معنى قوله: «وأيَّدْناه»، فإنه قَوَّيْناهُ فَأعَنَّاهُ، يقال منه: «أيَّدَكَ الله»، أي قوَّاك، «وهو رَجُل ذو أيْدٍ، وذُو آدٍ»، يُراد: ذو قوة.

ثم اختلف في تأويل قولـه: «بـروح القـدس». فقـال بعضهـم: «روح

القدس» الذي أخبر الله تعالى ذكره أنه أيَّدَ عيسى به، هو جبريلُ عليه السلام.

وقال آخرون: «الروح» الذي أيَّد الله به عيسىٰ، هو الإنجيل، وقال آخرون: هو الاسم الذي كان يحيي به الموتىٰ.

وأوْلى التأويلات في ذلك بالصواب قولُ مَنْ قال: «الروح» - في هذا الموضع - جبريل. لأنَّ الله جلّ ثناؤه أخبر أنه أيَّدَ عيسى به، كما أخبر في قوله: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ القُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي المَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ والإِنْجِيلَ﴾ [المائدة: ١١٠]، فلو كان الرُّوح الذي أيَّده اللهُ به هو الإنجيل، لكان قوله: «إذ أيَّدتُك برُوح القُدُس»، و«إذْ علَّمتك الكتاب والحكمةَ والتوراةَ والإنجيل»، تكريرُ قول لا معنى له. وذلك أنه على تأويل قول من قال: معنى: «إذ أيّدتك برُوح القدس»، إنما هو: إذ أيَّدتُك بالإنجيل - وإذْ علَّمْتُكَ الإنجيل. وهو لا يكون به مُؤيَّداً إلا وهو معلَّمه، فذلك تكريرُ كلامٍ واحد، من غيرِ زيادةِ معنى في أحدهما على الآخر. وذلك خَلفٌ[1] من الكلام، والله تعالى ذِكْرُه يتعالى عن أنْ يُخاطِبَ عبادَهُ بما لا يفيدُهم به فائدةً. وإذْ كان ذلك كذلك، فَبيِّنٌ فسادُ قولِ مَنْ زعم أن «الروح» في هذا الموضع، الإنجيلُ، وإنْ كان جميع كُتُبِ الله التي أوحاها إلى رسُله رُوحاً منه، لأنها تحيا بها القلوبُ الميِّتةُ، وتنتعش بها النفوسُ المولِّية، وتهتدي بها الأحلامُ الضَّالة.

وإنما سمَّىٰ اللهُ تعالى جبريل «رُوحاً» وأضافه إلى «القدس»، لأنه كان بتكوينِ اللهِ له رُوحاً من عنده، من غير وِلادةِ والدٍ ولَدَهُ، فسماه بذلك «رُوحاً»، وأضافه إلى «القدس» - و«القدس»، هو الطُّهْرُ - كما سَمّى عيسى بن مريم

---

(١) الخلف: الرديء الفاسد من القول. يقال في المثل: «سكتَ ألفاً ونطق خلفاً»، للرجل يُطيلُ الصمت، فإذا تكلم تكلم بالخطأ والخطل.

«روحاً» لله، من أجلِ تكوينهِ له رُوحاً من عنده من غير ولادةِ والدٍ وَلَدَه.

وقد بيَّنا فيما مضى من كتابنا هذا، أن معنى «التقديس»: التطهير، و«القدس»: الطهر، من ذلك.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾

يعني جلّ ثناؤه بقوله: «أفكلما جَاءكم رسولٌ بما لا تَهوى أنفسُكم»، اليهودَ من بني إسرائيل.

يقول الله جلّ ثناؤه لهم: يا معشرَ يهودِ بني إسرائيل، لقد آتينا موسى التوراةَ، وتَابَعنا من بعدهِ بالرُّسُلِ إليكم، وآتينا عيسى بن مريم البيِّنَات والحجج، إذ بعثناهُ إليكم، وقوَّيناه برُوح القدس، وأنتم كلما جاءكم رسُولٌ من رُسُلي بغير الذي تَهْوَاهُ نُفُوسُكم استكبرتُمْ عليهم - تَجَبُّراً وبغياً - استكبارَ إمامِكُم إبليس - فكذَّبتم بعضاً منهم وقتلتم بعضاً. فهذا فِعْلُكم أبداً برُسلي.

وقوله: «أفكلَّما»، وإنْ كان خَرَجَ مَخرج التقرير في الخطاب، فهو بمعنى الخبر.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾

اختلفت القـرَأَةُ في قراءة ذلـك. فقرأه بعضهم: «وَقَالوا قُلوبنا غُلْف» مخففة اللام ساكنة. وهي قراءةُ عامةِ الأمصار في جميع الأقطار. وقرأه بعضهم: «وقالوا قُلوبنا غُلُف» مثقلة اللام مضمومة.

فأما الذين قرأوها بسكونِ اللام وتخفيفها، فإنهم تأوَّلُوها، أنهم قالوا:

قلوبنا في أكِنَّة وأغطية وغلْف. و«الغُلْف» ـ على قراءة هؤلاء ـ جمع «أغْلف»، وهو الذي في غلاف وغطاء، كما يقال للرجل الذي لم يُخْتَتَنْ «أغلف»، والمرأة «غلفاء». وكما يقال للسيف إذا كان في غلافه: «سيف أغْلف، وقوسٌ غَلفاء» وجمعها «غُلْف». وكذلك جمع ما كان من النعوتِ ذكرُه على «أفعل» وأنثاه على «فعلاء»، يجمع على «فُعْل» مضمومة الأول ساكنة الثاني، مثل: «أحمر وحُمر، وأصفر وصُفر»، فيكون ذلك جماعاً للتأنيث والتذكير. ولا يجوز تثقيل عين «فُعْل» منه، إلا في ضرورة شعر.

وَأما الذين قرأوها «غُلُف» بتحريكِ اللام وضَمِّها، فإنهم تَأوَّلُوها أنهم قالوا: قُلوبنا غُلُفٌ للعلمِ، بمعنى أنها أوعيةٌ.

و«الغلف» على تأويل هؤلاء جمع «غلاف». كما يجمع «الكتاب كُتُب، والحجاب حُجُب، والشهابُ شُهُب». فمعنى الكلام على تأويل قراءة من قرأ «غُلُف» بتحريك اللام وضمها، وقالت اليهود: قلوبنا غُلُفٌ للعِلْمِ وأوعيةٌ له ولغيره.

والقراءة التي لا يجوز غيرها في قوله: «قلوبنا غُلف»، هي قراءة من قرأ «غلْف» بتسكين اللام ـ بمعنى أنها في أغشيةٍ وأغطية، لاجتماع الحجة من القَرَأَةِ وأهلِ التأويل على صحتها، وشذوذِ مَنْ شَذَّ عنهم بما خالفه، من قراءة ذلك بضم «اللام».

وقد دَلَّلْنا على أنَّ ما جَاءت به الحجة متفقة عليه، حجةٌ على مَنْ بلغه. وما جاء به المنفردُ، فغير جائز الاعتراضُ به على ما جاءت به الجماعةُ التي تقوم بها الحجة نقلاً وقولاً وعملاً، في غير هذا الموضع، فأغنى ذلك عن إعادته في هذا المكان.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾

يعني جلّ ثناؤه بقوله: «بل لعنهم الله»، بل أقصاهم الله وأبعدَهم وطرَدهم وأخزاهُم وأهْلَكَهُمْ بكفرهم، وجُحودهم آيات الله وَبَيناته، وما ابتعث به رُسُلَهُ، وتكذيبهم أنبياءَه. فأخبر تعالى ذِكْرُهُ أنه أبعدهم منه ومن رحمته بما كانوا يفعلون من ذلك.

وأصلُ «اللعن» الطردُ والإبعادُ والإقصاءُ يقال: «لعن الله فلاناً يلعنه لعناً، وهو ملعون». ثم يُصرف «مفعول»: فيقال: هو «لَعين».

فقول الله تعالى ذكرهُ «بل لَعنهُمُ الله بكفرهم» تكذيبٌ منه للقائلين من اليهود: «قلوبنا غلف». لأن قوله: «بَلْ» دلالةٌ على جَحْدِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ وإنكاره ما ادَّعَوْا من ذلك، إذ كانت «بل» لا تدخلُ في الكلامِ إلا نقضاً لمجحود. فإذْ كان ذلك كذلك، فبيِّنٌ أنَّ معنى الآية: وقالت اليهود: قُلوبنا في أكِنَّةٍ مما تَدْعُونا إليه يا محمد. فقال الله تعالى ذكره: ما ذلك كما زعموا، ولكنَّ الله أقصَى اليهودَ وأبعدَهم من رَحمتِهِ، وطردهم عنها، وأخزاهم بجحودِهم له ولرسله، فقليلاً ما يؤمنون.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ۝٨٨﴾

إنَّ الله جلّ ثناؤه أخبرَ أنه لَعَن الذين وَصَف صِفَتَهُم في هذه الآية، ثم أخبر عنهم أنهم قَليلُو الإيمانِ بما أنزل الله إلى نبيه محمد ﷺ. ولذلك نصب قوله: «فقليلاً»، لأنه نعتٌ للمصدرِ المتروك ذكره. ومعناه: بل لعنهم الله بكفرهم، فإيماناً قليلاً ما يؤمنون. فقد تبيَّن إذاً بما بيَّنا فسادُ قولِ مَن قال: إنه يعني به: فلا يؤمن منهم إلا قليلٌ، أو فقليلٌ منهم من يؤمن، لأنه لو كان ذلك كذلك، لكان «القليل» مرفوعاً لا منصوباً. لأنه إذا كان ذلك تأويله، كان

«القليل» حينئذٍ مرافعاً «ما». فإذ نصب «القليل» ـ و«ما» في معنى «مَنْ» أو «الذي» ـ فقد بقيت «ما» لا مُرافع لها. وذلك غير جائز في لغةِ أحدٍ من العرب.

فأما أهلُ العربية فإنهم اختلفوا في معنى «ما» التي في قوله: «فقليلاً ما يؤمنون». فقال بعضهم: هي زائدة لا معنى لها، وإنما تأويل الكلام: فقليلاً يُؤمنون، كما قال جلّ ذكره ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وما أشبه ذلك، فزعم أن «ما» في ذلك زائدة، وأن معنى الكلام: فبرحمةٍ من الله لِنْتَ لهم.

ولعل قائلاً أن يقول: هل كان للذين أخبرَ اللهُ عنهم أنهم قَليلاً ما يؤمنون ـ من الإيمانِ قليل أو كثير، فيقال فيهم: «فقليلاً مَا يؤمنون»؟

قيل: إنَّ معنى «الإيمان» هو التصديق. وقد كانت اليهودُ التي أخبر الله عنها هذا الخبر تُصَدِّقُ بوحدانيةِ الله، وبالبعثِ والثوابِ والعقاب، وتكفر بمحمد ﷺ ونبوته، وكُلُّ ذلك كان فرضاً عليهم الإيمانُ به، لأنه في كتبهم، ومما جاءهم به موسى، فَصَدَّقُوا ببعضٍ ـ وذلك هو القليل من إيمانهم ـ وكَذَّبُوا ببعضٍ، فذلك هو الكثيرُ الذي أخبر الله عنهم أنهم يكفرون به.

وقد قال بعضهم: إنهم كانوا غير مؤمنين بشيء، وإنما قيل: «فقليلاً مَا يُؤمنون»، وهم بالجميع كافرون، كما تقول العرب: «قَلَّما رأيتُ مثلَ هذا قط». وقد روى عنها سماعاً منها: «مررتُ ببلادٍ قَلَّما تُنْبِتُ إلا الكراث والبصل» يعني: ما تُنبتُ غيرَ الكراث والبصل، وما أشبه ذلك من الكلام الذي يُنطق به بوصف الشيء بـ«القلة»، والمعنى فيه نفي جميعه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾

يعني جلَّ ثناؤه بقوله: «ولما جاءَهُم كتابٌ من عند الله مُصدق لما مَعهم»، ولما جاء اليهودَ من بني إسرائيل الذين وَصَفَ جَلَّ ثناؤه صِفَتَهم - «كتابٌ من عند الله» - يعني بـ «الكتاب» القرآن الذي أنزله اللهُ على محمدٍ ﷺ - «مصدق لما معهم»، يعني مُصَدِّقٌ للذي معهم من الكتبِ التي أنزلها الله من قبل القرآن.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «وكانوا من قَبْلُ يَستفتحون على الذين كفروا»، أي: وكان هؤلاء اليهود - الذين لمّا جاءهم كتابٌ من عند الله مُصَدِّقٌ لما مَعهم، من الكتبِ التي أنزلها الله قبل الفُرْقان، كَفَرُوا به - يَستفتحون بمحمد ﷺ - ومعنى «الاستفتاح»، الاستنصار - يستنصرونَ اللهَ به على مُشركي العرب من قبل مبعثه، أي من قبل أن يُبْعَثَ.

فإنْ قال لنا قائل: فأين جوابُ قوله: «ولما جَاءَهم كتابٌ من عند الله مُصدِّقٌ لما معهم»؟

قيل: قد اختلف أهلُ العربية في جوابه. فقال بعضهم: هو مما تُرِكَ جوابُه، استغناءً بمعرفةِ المخاطَبينَ به بمعناه، وبما قد ذكر من أمثاله في سائر القرآن. وقد تفعلُ العربُ ذلك إذا طال الكلام، فتأتي بأشياء لها أجوبة، فتحذفُ أجوبتها، لاستغناءِ سامعيها - بمعرفتهم بمعناها - عن ذِكْر الأجوبةِ، كما قال جَلَّ ثناؤه: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الجبَالُ أَو قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ المَوْتَى بَلْ للهِ الأَمْرُ جَمِيعاً﴾ [الرعد: ٣١]، فترك جوابه. والمعنى: ولو أن قرآناً سوى هذا القرآنِ سُيِّرت به الجبالُ، لَسُيِّرَتْ بهذا القرآن - استغناءً بِعِلْمِ

السامعين بمعناه. قالوا: فكذلك قوله: «ولما جاءَهم كتابٌ من عند الله مصدقٌ لما معهم».

وقال آخرون: جوابُ قوله: «ولِما جَاءَهم كتابٌ من عند الله» في «الفاء» التي في قوله: «فَلما جَاءَهم ما عَرَفوا كفروا به»، وجواب الجزاءَيْن في «كفروا به»، كقولك: «لما قمتَ، فلما جئتنا أحسنتَ»، بمعنى: لما جئتنا إذ قمتَ أحسنتَ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٨٩﴾

قد دللنا فيما مضى على معنى: «اللعنة»، وعَلى معنى «الكفر»، بما فيه الكفاية.

فمعنى الآية: فخِزْيُ الله وإبعاده على الجاحدين ما قد عَرَفُوا من الحق عليهم لله ولأنبيائه، المنكرين لما قد ثَبتَ عندهم صِحَّتُه من نبوةِ محمدٍ ﷺ. ففي إخبارِ الله عزّ وجلّ عن اليهود ـ بما أخبر الله عنهم بقوله: «فلما جاءَهم ما عرفوا كفروا به» ـ البيانُ الواضحُ أنهم تَعَمَّدُوا الكفر بمحمد ﷺ، بعد قيام الحجةِ بنبوته عليهم، وقَطْعِ الله عُذرَهم بأنه رَسولُه إليهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا﴾

ومعنى قوله جَلَّ ثناؤه: «بئسَ مَا اشتروا به أنفسهم»: ساء ما اشْتَرَوْا به أنفسَهم.

وأصل «بِئْسَ» «بَئِسَ» من «البؤس»، سُكِّنت همزتها، ثم نُقلت حركَتُها

إلى «الباء»، كما قيل في «ظَلِلت» «ظِلْت»، وكما قيل «للكَبِدْ» «كِبْد» ـ فنقلت حركة «الباء» إلى «الكاف»، لما سُكِّنت «الباء».

وقد يحتمل أن تكون «بئس»، وإن كان أصلها «بَئِس»، من لغة الذين ينقلون حركةَ العينِ من «فَعِل» إلى الفاء، إذا كانت عين الفعل أحد حروف الحَلْقِ الستة، كما قالوا من «لَعِبَ» «لِعْبَ» ومن «سَئِمَ» «سِئْمَ»، وذلك ـ فيما يقال ـ لُغةٌ فَاشية في تميم.

ثم جُعلت دَالةً على الذم والتوبيخ، وَوُصِلَتْ بـ «ما».

وأوْلى الأقوالِ عندي بالصواب، قول من جعل «بئسما» مرفوعاً بالراجع من «الهاء» في قوله: «اشتروا به»، كما رفعوا ذلك بـ «عبدالله» إذ قالوا: «بئسما عبدُالله»، وجعل «أن يكفروا» مترجمة عن «بئسما». فيكون معنى الكلام حينئذ: بئس الشيءُ باعَ اليهودُ به أنفُسَهُم، كُفْرُهُم بما أنزلَ الله بغياً وَحسَداً أنْ يُنَزِّلَ اللهُ من فَضْلهِ. وتكون «أن» التي في قوله: «أن ينزل الله»، في موضع نصب. لأنه يعني به «أن يكفروا بما أنزل الله»: من أجل أن ينزل الله من فَضله عَلى مَنْ يَشاءُ من عباده. موضع «أن» جَزاءٌ. وكان بعضُ أهلِ العربية من الكوفيين يزعم أن «أن» في موضعِ خفض بنية «الباء». وإنما اخترنا فيها النصبَ لتمام الخبرِ قَبْلَها، ولا خافضَ معها يخفضها. والحرف الخافض لا يخفضُ مضمراً.

وأما قوله: «اشتروا به أنفسهم»، فإنه يعني به: بَاعُوا أَنْفُسَهُم، والعربُ تقول: «شَرَيْتُه»، بمعنى بِعْتُه. و«اشتروا»، في هذا الموضع، «افتعلوا» من «شَريت». وكلام العرب ـ فيما بلغنا ـ أن يقولوا: «شَريت» بمعنىٰ: بعت، و«اشتريتُ» بمعنى: ابْتَعْتُ. وقيل: إنما سُمي «الشاري»، «شارياً»، لأنه باع نفسه ودُنياه بآخرته.

وأما معنى قوله: «بغياً»، فإنه يعني به: تَعَدِّياً وَحسَداً.

فمعنى الآية: بئسَ الشيء باعوا به أنفسَهم، الكفرُ بالذي أنزل اللهُ في كتابه على موسى ـ من نبوة محمد ﷺ، والأمر بتصديقهِ واتِّباعه ـ من أجل أن أنزل الله من فَضْله، وفضله: حِكْمتُه وآياتُه ونبوته، على مَنْ يشاء من عباده ـ يعني به: على محمدٍ ﷺ ـ بغياً وحسداً لمحمد ﷺ، من أجل أنه كان من ولدِ إسماعيلَ، ولم يَكُنْ من بني إسرائيل.

فإنْ قال قائل: وكيف باعت اليهودُ أنفسها بالكفر، فقيل: «بئسَ ما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله»؟ وهل يُشترَى بالكفر شيءٌ؟.

قيل: إن معنى: «الشراء» و«البيع» عند العرب، هو إزالةُ مالكٍ مِلكَه إلى غيرِه، بعِوَضٍ يَعْتَاضُه منه. ثم تستعمل العربُ ذلك في كُلِّ معتاضٍ من عمله عِوَضاً، شراً أو خيراً. فتقول: «نعم ما باع به فلانٌ نفسَهُ» و«بئس مَا باع به فلانٌ نفسه»، بمعنى: نعم الكسب أكسبها، وبئس الكسب أكسبها ـ إذا أورثها بسَعْيِهِ عليها خيراً أو شراً. فكذلك معنى: قوله جَلَّ ثناؤه: «بئس ما اشتروا به أنفسهم» ـ لما أوْبَقوا أنفسهم بكفرهم بمحمدٍ ﷺ فأهلكوها، خاطبهم الله والعرب بالذي يعرفونه في كلامِهم، فقال: «بئس ما اشْتَرَوْا به أنفسهم»، يعني بذلك: بئس ما أكْسَبُوا أنفسهم بسعيهم، وبئس العوض اعتاضوا، من كفرهم بالله في تكذيبهم محمداً، إذْ كانوا قد رَضُوا عِوَضاً من ثوابِ الله وما أعَدَّ لهم ـ لو كانوا آمنوا بالله وما أنزل على أنبيائه ـ بالنار وما أعَدَّ لهم بكفرهم بذلك.

وهذه الآية ـ وما أخبر الله فيها عن حَسد اليهود محمداً ﷺ وقومَه من العرب، من أجلِ أنَّ الله جعل النبوةَ والحِكْمةَ فيهم دونَ اليهودِ من بني إسرائيل، حتى دعاهم ذلك إلى الكفر به، مع عِلْمِهم بصدقه، وأنه لله نبيٌّ مبعوثٌ ورسولٌ مُرسل ـ نظيرهُ الآية الأخرى في سورة النساء، وذلك قوله: ﴿أَلَمْ

تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ويقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً. أُولٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً. أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ المُلْكِ فَإِذاً لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً. أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الكِتَابَ والحِكْمَةَ وآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً﴾ [النساء: ٥١-٥٤].

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ﴾

قد ذكرنا تأويلَ ذلك وبيَّنا معناه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍۚ﴾

يعني بقوله: «فباؤوا بغضَب على غضَب»، فرَجعت اليهودُ من بني إسرائيل - بعد الذي كانوا عليه منَ الاستنصارِ بمحمدٍ ﷺ والاستفتاحِ به، وبعد الذي كانوا يُخبرون به الناسَ من قَبل مبعثه أنه نبيٌّ مبعوث - مُرْتَدِّين على أعقابهم حين بعثه اللهُ نبياً مُرسلاً، فباؤوا بغضب من الله - استحقوه منه بكفرهم بمحمد حين بُعث، وجُحودهم نبوته، وإنكارهم إياه أن يكون هو الذي يجدون صِفَتَهُ في كتابهم، عِناداً منهم له وبغياً، وحسداً له وللعرب - على غضبٍ سالفٍ، كان من اللهِ عليهم قبل ذلك، سابقٍ غضبَهُ الثاني، لِكُفْرِهم الذي كان قبلَ عيسى بن مريم، أو لعبادَتِهم العِجْلَ، أو لغير ذلك من ذنوبٍ كانت لهم سَلفت، يستحقون بها الغضبَ من الله.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٩٠﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «وللكافرين عَذابٌ مُهين»، وللجاحدين نبوةَ محمد ﷺ من الناس كلهم، عذابٌ من الله، إما في الآخرة، وإما في الدنيا والآخرة، «مهين» هو المُذِلُّ صاحِبَهُ، المخزي، المُلْبِسُهُ هَواناً وذِلةً.

فإنْ قال قائل: وأي عذابٍ هُو غيرُ مُهينٍ صاحبَهُ، فيكون للكافرين المهين منه؟

قيل: إن المهين هو الذي قد بيَّنا أنه المورثُ صاحِبَهُ ذِلةً وهواناً، الذي يَخْلُدُ فيه صاحبه، لا ينتقل من هوانهِ إلى عِزٍّ وكرامة أبداً. وهو الذي خَصَّ الله به أهلَ الكفر به وبرسله. وأما الذي هو غير مهين صاحبَه، فهو ما كان تمحيصاً لصاحبه. وذلك هو كالسارق من أهل الاسلام، يسرق ما يجب عليه به القطعُ فتقطعُ يده، والزاني منهم يزني فيقام عليه الحَدُّ، وما أشبه ذلك من العذابِ والنَّكال الذي جعله الله كفاراتٍ للذنوب التي عُذِّب بها أهلُها، وكأهلِ الكبائرِ من أهلِ الإسلام الذين يُعَذَّبون في الآخرة بمقادير أجرامهم التي ارتكبوها، لِيُمَحَّصُوا من ذنوبهم، ثم يدخلون الجنة. فإنَّ كُلَّ ذلك، وإنْ كان عذاباً، فغيرُ مهين مَنْ عُذِّبَ به. إذ كان تعذيبُ الله إياه به ليمحِّصه من آثامه، ثم يُورِدَه مَعدِنَ العِزِّ والكرامة، ويخلِّده في نعيم الجنان.

القول في تأويل قوله تعالى: **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا**

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «وإذا قيلَ لهم»، وإذا قيل لليهود من بني إسرائيل - الذين كانوا بين ظَهْراني مُهَاجَرِ رسولِ الله ﷺ -: «آمنوا»، أي صَدِّقُوا، «بما أنزَل الله»، يعني بما أنزل الله من القرآنِ على محمدٍ ﷺ، «قالوا: نؤمن»، أي نصدِّق «بما أُنْزِلَ علينا»، يعني: بالتوراة التي أنزلها الله على موسى.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾

يعني جَلَّ ثناؤه: بقوله: «وَيَكفرون بما وَرَاءه»، ويجحدون، «بما وراءه»، يعني: بما وراء التوراة.

وتأويل «وَرَاءه» في هذا الموضع: «سِوَى». كما يُقالُ للرجل المتكلم بالحسن: «ما وراء هذا الكلام شيء» يراد به: ليس عند المتكلم به شيء سوى ذلك الكلام. فكذلك معنى قوله: «ويكفرون بما وَراءه»، أي بما سوى التوراة، وبما بَعده من كُتب الله التي أنزلها إلى رسله.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾.

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «وهُوَ الحَقُّ مُصَدقاً»، أي: ما وراء الكتاب ـ الذي أنزل عليهم من الكتبِ التي أنزلها اللهُ إلى أنبيائه ـ الحقُّ. وإنما يعني بذلك تعالى ذِكْرُه القرآنَ الذي أنزله إلى محمد ﷺ.

وذلك خبرٌ من الله أنهم من التكذيب بالتوراة، على مِثْلِ الذي هُمْ عليه من التكـذيب بالإنجيل والفُرقان، عِناداً لله، وخِلافاً لأمره، وَبَغياً على رُسله صلوات الله عليهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٩١﴾

يعني جَلَّ ذكره بقوله: «قُلْ فلم تقتلون أنبياءَ الله»، قل يا محمد، ليهود بني إسرائيل ـ الذين إذا قُلْتَ لهم: آمنوا بما أنزَل اللهُ قَالوا: نؤمنُ بما أُنْزِلَ علينا ـ: لِمَ تقتلون ـ إنْ كنتم يا معشر اليهود مؤمنين بما أنزل الله عليكم ـ

أنبياءَهُ، وقد حَرَّمَ اللهُ في الكتابِ الذي أنزَل عليكم قَتْلَهُم، بل أمركم فيه باتباعهم وطاعَتِهم وتصديقهم؟ وذلك من الله جَلَّ ثناؤه: تكذيبٌ لهم في قوله: «نُؤمنُ بما أنزِلَ عَلينا»، وتعييرٌ لهم.

وتأويل قوله «من قبل»، أي: من قبل اليوم.

وأما قوله: «إن كنتمْ مُؤمنين»، فإنه يعني: إنْ كنتم مؤمنينَ بما نَزَّلَ اللهُ عليكم كما زعمتم. وإنما عنى بذلك اليهودَ الذين أدركُوا رسولَ الله ﷺ وأسلافَهم - إنْ كانوا وكنتم، كما تزعمون أيها اليهودُ، مؤمنينَ. وإنما عيَّرهم جَلَّ ثناؤه: بقتلِ أوائلهم أنبياءَه، عند قولهم حين قِيلَ لهم: آمنوا بما أنزل الله. قالوا: نؤمنُ بما أُنْزِلَ علينا. لأنهم كانوا لأوائلهم - الذين تولَّوا قَتْلَ أنبياء الله، مع قِيلِهم: نؤمنُ بما أُنزِلَ علينا - متولِّين، وبفعلهم راضين. فقال لهم: إنْ كنتم كما تزعمون مُؤمنين بما أُنْزِل عليكم، فلم تتولَّون قَتَلَةَ أنبياءِ اللهِ؟ أي: تَرضَوْنَ أفعالهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «ولقد جَاءكمْ مُوسَى بالبينات»، أي جاءكم بالبيناتِ الدالَّةِ على صِدْقِهِ وصِحَّةِ نُبُوَّتِهِ، كالعصا التي تحولَّتْ ثعباناً مُبيناً، ويده التي أخرجها بيضاء للناظرين. وفَلْقِ البحرِ ومصيرِ أرضِه له طريقاً يَبَساً، والجراد والقُمَّل والضفادع، وسائر الآيات التي بَيَّنَتْ صِدْقَهُ وصحة نبوته.

وإنما سماها الله «بينات»، لِتَبَيُّنِها للناظرينَ إليها معجزةً لا يَقْدرُ على أنْ يأتيَ بها بَشرٌ، إلا بتسخيرِ اللهِ ذلك لَهُ. وإنما هي جمع «بينة»، مثل: «طيبة. وَطيبات».

ومعنى الكلام: ولقد جاءكم - يا معشرَ يهود بني إسرائيل - موسى بالآياتِ البيناتِ على أمرِهِ وصدقِهِ وصحةِ نبوته.

وقوله: «ثم اتخذتُم العِجْلَ من بَعده وَأنتم ظَالمون»، يقول جَلَّ ثناؤه: ثم اتخذتم العجل من بعد مُوسى إلهاً. فـ«الهاء» التي في قوله: «من بعده»، من ذكر موسى. وإنما قال: من بعد موسى، لأنهم اتخذوا العجلَ من بَعد أنْ فارقهم موسى ماضياً إلى رَبِّهِ لموعدِهِ - على ما قد بيَّنا فيما مضى من كتابنا هذا.

وقد يجوز أن تكون «الهاء» التي في «بعده» إلى ذِكْرِ المجيء. فيكون تأويل الكلام حينئذٍ: ولقد جاءكم موسى بالبينات، ثم اتخذتم العجلَ من بعد مجيءِ البَيِّنَاتِ وأنتم ظالمون. كما تقول: «جئتني فكرهتُه»، يعني: كرهتُ مجيئَكَ.

وأما قوله: «وأنتم ظَالمون»، فإنه يعني بذلك: أنكم فعلتم ما فعلتم من عبادةِ العجلِ وليس ذلكم، وعبدتم غيرَ الذي كان ينبغي لكم أنْ تعبدوه. لأنَّ العبادةَ لا تنبغي لغير الله. وهذا توبيخٌ من الله اليهود، وتعبير منه لهم، وإخبارٌ منه لهم أنهم إذا كانوا فعلوا ما فعلوا - من اتخاذ العجل إلهاً وهو لا يملكُ لهم ضرّاً ولا نفعاً، بعد الذي علموا أنَّ رَبَّهم هو الربُّ الذي يفعلُ من الأعاجيبِ وبدائعِ الأفعالِ ما أجراه على يدي موسى صلوات الله عليه، من الأمورِ التي لا يقدر عليها أحدٌ من خَلْقِ الله، ولم يقدر عليها فرعونُ وجُنده مع بطشهِ وكثرةِ أتباعه، وقُرْبِ عهدهم بما عَايَنُوا من عجائبِ حِكم الله - فهم إلى تكذيبِ محمدٍ ﷺ وجحودِ ما في كتبهم - التي زعموا أنَّهم بها مؤمنون - من صِفَتِه ونَعْتِهِ، مع بُعْدِ ما بينهم وبين عهد موسى من المدة - أسْرَع، وإلى التكذيبِ بما جاءهم به موسى من ذلك أقرب.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «وإذ أخذنا ميثاقكم»، واذكروا إذ أخذْنا عُهودكم، بأنْ خُذُوا ما آتيناكم من التوراة - التي أنزلتها إليكم أنْ تعملوا بما فيها من أمري، وَتنتهوا عما نَهَيْتُكم فيها - بجدٍّ منكم في ذلك ونشاط، فأَعْطَيْتُم على العملِ بِذلك ميثاقَكُم، إذ رفعنا فوقكُمُ الجبلَ.

وأما قوله: «وَاسمعوا»، فإنَّ معناه: واسمعوا ما أمرتكم به وتَقَبَّلُوه بالطاعةِ، كقولِ الرجل للرجل يأمره بالأمر: «سمعت وأطعتُ»، يعني بذلك سمعتُ قولك، وأطعتُ أمرك، فكذلك معنى قوله: «واسمعوا»، اقْبَلُوا ما سمعتم واعْمَلُوا به.

فمعنى الآية: وإذ أخذنا ميثاقكم أنْ خُذوا ما آتيناكم بقوة، واعملوا بما سمعتم، وأطيعوا الله، ورفعنا فوقكم الطورَ من أجل ذلك.

وأما قوله: «قالوا سَمعنا»، فإنَّ الكلامَ خرج مخرج الخبرِ عن الغائب بعد أنْ كان الابتداء بالخطاب، فإن ذلك كما وصفنا، من أن ابتداء الكلام، إذا كان حكايةً، فالعربُ تُخاطب فيه ثم تَعود فيه إلى الخبر عن الغائب، وتخبر عن الغائب ثم تخاطب، كما بيَّنا ذلك فيما مضى قبل. فكذلك ذلك في هذه الآية، لأن قوله: «وإذ أخذنا ميثاقكم»، بمعنى: قلنا لكم، فأَجَبْتُمُونا.

وأمـا قولـه: «قالوا سَمعنا»، فإنه خبرٌ من الله - عن اليهودِ الذين أخذ ميثاقهم أنْ يعملوا بما في التوراة، وأنْ يُطِيعُوا الله فيما يسمعون منها - أنهم قالوا حين قيل لهم ذلك: سمعنا قولك، وعصينا أمرك.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك. فقال بعضهم: وأُشْرِبُوا في قلوبهم حُبَّ العجل.

وقال آخرون: معنى ذلك أنهم سُقُوا الماءَ الذي ذُرِّي فيه سُحالة العجل.

وأولى التأويلين اللذين ذكرت بقولِ الله جَلَّ ثناؤه: «وأُشْرِبُوا في قلوبهم العجل» تأويلُ مَنْ قال: وأشربوا في قلوبهم حُب العجل. إن الماءَ لا يقال منه: أشْرِبَ فلانٌ في قلبه، وإنما يقال ذلك في حب الشيء، فيقال منه: «أُشْرِبَ قلبُ فلانٍ حُبَّ كذا»، بمعنى: سُقِيَ ذلك حتى غَلَبَ عليه وخَالط قلبه، ولكنه ترك ذكر «الحب» اكتفاءً بفهمِ السامعِ لمعنى الكلام. إذْ كان معلوماً أنَّ العجلَ لا يُشْربُ القلبَ، وأن الذي يُشْربُ القلبَ منه حُبُّه، كما قال جَلَّ ثناؤه: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عن القَرْيَةِ التي كَانَتْ حاضِرَةَ البَحْرِ﴾ [الأعراف: ١٦٣]، ﴿وَاسْأَلِ القَرْيَةَ الَّتي كُنَّا فِيها والعِيرَ الَّتي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢].

وقد تقولُ العرب: «إذا سَرَّكَ أنْ تنظر إلى السَّخاء فانظر إلى هَرِم، أو إلى حاتم»، فتجتزىء بذكر الاسم من ذكر فعله، إذا كان معروفاً بشجاعة أو سخاء أو ما أشبه ذلك من الصفات.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٩٣﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: قُلْ، يا محمدُ ليهودِ بني إسرائيل: بئس الشيء يأمركم به إيمانكم؛ إنْ كان يَأمركم بقتلِ أنبياءِ الله ورُسُله، والتكذيب بكتبه،

وجحودِ ما جاء من عنده. ومعنى «إيمانهم»: تصديقهم الذي زعموا أنهم به مصدقون من كتاب الله، إذ قيل لهم: آمنوا بما أنزَل الله. فقالوا نؤمن بما أُنْزِلَ علينا. وقوله: «إنْ كنتم مُؤمنين»، أي: إن كنتم مصدِّقينَ كما زعمتم بما أنزلَ اللهُ عليكم، وإنما كذبهم الله بذلك ـ لأن التوراة تنهى عن ذلك كله، وتأمر بخلافه. فأخبرهم أنَّ تصديقَهُم بالتوراة، إنْ كان يأمرهم بذلك فبئس الأمر تأمر به. وإنما ذلكَ نَفْيٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن التوراة، أنْ تكون تأمر بشيء مما يكرهه الله من أفعالهم، وأن يكون التصديقُ بها يدل على شيءٍ من مخالفة أمر الله؛ وإعلامٌ منه جَلَّ ثناؤه أنَّ الذي يأمرهم بذلك أهواؤُهم، والذي يحملهم عليه البغيُ والعدوان.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾

وهذه الآيةُ مما احتج الله بها لنبيه محمد ﷺ على اليهود الذين كانوا بين ظَهْرَاني مُهاجَرِهِ، وَفضحَ بها أحبارَهُم وعلماءَهم. وذلك أنَّ الله جَلَّ ثناؤه أمر نبيه ﷺ أن يدعوَهم إلى قضيةٍ عادلة بينه وبينهم، فيما كان بينه وبينهم من الخلاف. كما أمره الله أن يدعوَ الفريقَ الآخر من النصارى ـ إذْ خالفوه في عيسى صلوات الله عليه وجادَلوا فيه ـ إلى فَاصلةٍ بينه وبينهم من المباهَلة. وقال لفريق اليهود: إنْ كنتم مُحِقِّينَ فتمنَّوا الموتَ، فإن ذلك غير ضارِّكم، إنْ كنتم مُحِقِّين فيما تَدَّعُونَ من الإيمان وقُرْبِ المنزلةِ من الله. بَلْ إنْ أُعْطِيتُم أمنيَّتكم من الموتِ إذا تمنيتم، فإنما تصيرون إلى الراحةِ من تَعَبِ الدنيا ونَصَبها وكدَر عيشها، والفوزِ بجوارِ الله في جنانه، إنْ كان الأمر كما تزعمون: من أنَّ الدارَ الآخرةَ لكم خالصةٌ دُوننا. وإنْ لم تُعْطَوْهَا عَلِمَ الناسُ أنكم المُبْطِلُونَ ونحن المُحِقُّونَ في دَعْوانا، وانكشف أمرُنا وأمركم لهم. فامتنعت اليهود من إجابةِ

النبيِّ ﷺ، إلى ذلك، لعلمها أنها إنْ تمنَّت الموتَ هلكَتْ، فذهبت دُنياها، وصارت إلى خِزْي الأبد في آخرتها. كما امتنع فريقُ النصارى - الذين جادَلُوا النبي ﷺ في عيسى، إذْ دُعوا إلى المباهلة - من المباهلة.

فانكشف - لِمَنْ كان مشكلاً عليه أمرُ اليهود يومئذ - كَذِبُهم وَبهتهم وبغيهم على رسولِ الله ﷺ، وظهرت حجةُ رسولِ الله وحجة أصحابه عليهم، ولم تزل والحمد لله ظاهرةً عليهم وعلى غيرهم من سائر أهل الملل.

وإنما أمر رسولُ الله ﷺ أن يقول لهم: «فتمنوا الموت إن كنتم صادقين»، لأنهم - فيما ذكر لنا - قالوا ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ الله وأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]، وقالوا: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إلاَّ من كَان هُوداً أو نَصَارَى﴾ [البقرة: ١١١].

فقال الله لنبيه محمد ﷺ: قُلْ لهم: إنْ كنتم صادقين فيما تزعمون، فَتَمَنَّوُا الموتَ. فأبانَ اللهُ كَذِبَهُم بامتناعهم من تَمَنِّي ذَلك، وأفلجَ حجةَ رسولِ الله ﷺ.

وأما تأويلُ قوله: «قُلْ إن كانتْ لكمُ الدارُ الآخرةُ عندَ الله خَالصَةً»، فإنه يقول: قُلْ يا محمد: إنْ كان نعيمُ الدارِ الآخرةِ وَلَذاتها لكم يا مَعشَرَ اليهود عند الله. فاكتفى بذكر «الدار»، من ذكر نعيمها، لمعرفة المخاطبين بالآية معناها.

وقد بيَّنا معنى «الدار الآخرة». فيما مضى، بما أَغْنَى عن إعادتهِ في هذا الموضع.

وأما تأويل قوله: «خَالصَةً»، فإنه يعني به: صَافيةً. كما يقال: «خَلصَ لي فلان»، بمعنى صار لي وحدي وصَفَا لي. يقال منه: «خَلص لي هذا الشيءُ فهو يَخلُصُ خُلوصاً وخَالصَة»، «والخالصةُ» مصدر مثل «العافية». ويقال للرجل: «هذا خُلْصَاني»، يعني: خالِصَتي من دون أصحابي.

وقد روي عن ابن عباس أنه كان يتأول قوله: «خالصة»: خاصةً.

وأما قوله: «من دُونِ الناسِ»، فإنَّ الذي يدل عليه ظاهرُ التنزيل أنهم قالوا: لنا الدارُ الآخرةُ عند الله خالصةً من دونِ جميعِ الناس. ويبيِّن أنَّ ذلك كان قولهم ـ من غير استثناءٍ منهم من ذلك أحداً من بني آدم ـ إخبارُ الله عنهم أنهم قالوا: «لنْ يدخل الجنة إلا مَنْ كان هُوداً أو نَصارى».

وأما قوله: «فتمَّنُوا الموتَ» فإنَّ تأويله: تَشَهَّوه وأَرِيدُوهُ. (وقد قيل: إن) تأويله: فَسَلُوا الموتَ. ولا يعرف «التمني» بمعنى «المسألة» في كلام العرب.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۝٩٥﴾

وهذا خبرٌ من الله جَلَّ ثناؤه عن اليهودِ وكراهتهم الموتَ، وامتناعهم عن الإجابة إلى ما دُعُوا إليه من تمني الموت، لعلمهم بأنهم إنْ فعلوا ذلك فالوعيدُ بهم نازلٌ، والموتُ بهم حالٌّ؛ ولمعرفتهم بمحمدٍ ﷺ أنه رسولٌ من الله إليهم مرسلٌ، وهم به مكذبون، وأنه لم يخبرهم خبراً إلا كان حقاً كما أخبَرَ. فهم يحذَرُون أنْ يَتمنوا الموتَ، خوفاً أنْ يحلَّ بهم عقابُ الله بما كَسَبَتْ أيديهم من الذنوب.

وأما قوله: «بما قدَّمتْ أيديهم»، فإنه يعني به: بما أَسْلَفَتْهُ أيديهم. وإنما ذلك مَثَلٌ، على نحوِ ما تتمثلُ به العربُ في كلامها. فتقول للرجل يُؤخذ بجريرةٍ جرَّها أو جنايةٍ جَناها فيعاقبُ عليها: «نالَك هذا بما جَنتْ يَدَاك، وبما كسبت يداك، وبما قَدمَت يَدَاك»، فتضيف ذلك إلى «اليد». ولعل الجناية التي جَناها فاستحق عليها العقوبةَ، كانت باللسانِ أو بالفرج أو بغير ذلك من أعضاء جسده سِوَى اليد.

وإنما قيل ذلك بإضافته إلى «اليد»، لأنَّ عُظْمَ جناياتِ الناسِ بأيديهم، فجرى الكلامُ باستعمال إضافةِ الجناياتِ التي يَجنيها الناسُ إلى «أيديهم»، حتى أُضيفَ كل ما عُوقِبَ عليه الإنسانُ مما جَناهُ بسائر أعضاء جسده، إلى أنها عقوبةٌ على ما جَنَتْهُ يده.

فلذلك قال جَلَّ ثناؤه للعرب: «ولن يَتمنَّوه أبداً بما قَدَّمَتْ أيديهم»، يعني به: ولن يتمنى اليهود الموتَ بما قَدَّمُوا أمامهم في حياتهم من كفرهم بالله، في مخالفتهم أمرَهُ وطاعته في اتباع محمد ﷺ وما جاء به من عند الله، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة، ويعلمون أنه نبيٌّ مبعوث. فأضاف جَلَّ ثناؤه ما انْطوَت عليه قُلوبهم، وأضمرته أنفسهم، ونطقت به ألسنتهم - من حَسَدِ محمدٍ ﷺ، والبغي عليه، وتكذيبه وجحود رسالته - إلى أيديهم، وأنه مما قدمته أيديهم، لعلم العرب معنى ذلك في منطقها وكلامها. إذْ كان جَلَّ ثناؤه إنما أنزل القرآنَ بلسانها وبلغتها.

وأما قوله: «والله عليمٌ بالظالمين»، فإنه يعني جَلَّ ثناؤه: والله ذُو عِلْمٍ بظَلَمَةِ بني آدم - يهودها ونَصَاراها وسائر أهلِ المللِ غيرها - وما يعملون.

وظلم اليهود: كفرهم بالله في خِلافهم أمرَهُ وطاعَته في اتباع محمد ﷺ، بعد أنْ كانوا يستفتحون به وَبمبعثه، وجحودهم نبوته وهم عالمون أنه نبيُّ الله ورسوله إليهم.

وقد دللنا على معنى «الظلم» فيما مضى بما أغنى عن إعادته.

القول في تأويل قوله تعالى: وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «وَلتجدنهم أحْرَصَ الناس عَلى حَياة» - اليهودَ - يقول: يا محمد، لتجدنَّ أشَدَّ الناس حِرْصاً على الحياة في الدنيا، وأشدهم كراهةً للموت، اليهود، وإنما كراهتهم الموتَ، لِعِلْمِهم بما لهم في الآخرةِ من الخزيِ والهَوَانِ الطويل.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «ومنَ الذينَ أشْركوا»، وَأحرصَ من الذين أشركوا على الحياة، كما يقال: «هو أشجعُ الناسِ ومِنْ عَنترة» بمعنى: هو أشجع من الناس ومن عنترة. فكذلك قوله: «ومنَ الذين أشركوا». لأن معنى الكلام: ولتجدن - يا محمدُ - اليهودَ من بني إسرائيل، أحرصَ من الناسِ على حياةٍ ومن الذين أشركوا. فلما أُضيفَ «أحرص» إلى «الناس» وفيه تأويل «من»، أظهرت بعد حرف العطف، رَدّاً - على التأويل الذي ذكرنا.

وإنما وصف الله جَلَّ ثناؤه اليهودَ بأنهم أحرصُ الناسِ على الحياة، لعِلْمِهم بما قد أعدَّ لهم في الآخرة على كفرهم بما لا يقرُّ به أهل الشرك، فهم للموت أكْرَهُ من أهل الشرك الذين لا يؤمنون بالبعث، لأنهم يؤمنون بالبعثِ، ويعلمون ما لهم هنالك من العذاب. والمشركون لا يصدقون بالبعثِ ولا العقابِ، فاليهودُ أحرصُ منهم على الحياةِ وأكرهُ للموت.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾

هذا خَبَرٌ من الله جَلَّ ثناؤه عن الذين أشركوا - الذين أخبر أن اليهودَ أحرص منهم على الحياة. يقول جَلَّ ثناؤه: يَوَدُّ أحدُ هؤلاء الذين أشركوا - الآيِسُ، بفناءِ دنياه وانقضاء أيامِ حياته، أنْ يكونَ له بعد ذلك نُشُور أو محيا

أو فرَحٌ أو سرور ـ لَو يُعَمَّرُ ألفَ سنة، حتى جَعل بعضهم تحيَّة بعض: «عَشرة آلاف عام»، حِرْصاً منهم على الحياة.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «وما هو بمزحزحه من العذاب أن يُعمَّر»، وما التعميرُ ـ وهو طولُ البقاء ـ بِمُزَحْزِحِه من عذابِ الله.

وقوله «هو» عِمادٌ[1]، لِطَلَبِ «ما» الاسم أكثرَ من طَلَبِهَا الفِعْلَ.

«وأن» التي في «أنْ يُعَمَّر»، رَفْعٌ، بـ«مزحزحه»، و«هو» الذي مع «ما» تكرير، عِمادٌ للفعل، لاستقباحِ العربِ النكرةَ قبل المعرفة.

وأما تأويل قوله: «بمزحزحه»، فإنه بِمُبْعِدِهِ ومُنَحِّيهِ، يقال منه: «زحزحه يُزَحْزِحُه زَحزحةً وَزحزاحاً»، «وهو عنك مُتزحزح»، أي: متباعد.

فتأويل الآية ـ وما طولُ العمر بِمُبْعِدِه من عذابِ الله، ولا مُنَحِّيهِ منه، لأنه لابُدَّ للعمرِ من الفناء، ومصيره إلى الله.

القول في تأويل قوله جَلَّ ثناؤه: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ٩٦﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «والله بصير بما يعملون»، والله ذُو إبصارٍ بما يعملون، لا يَخْفَى عليه شيءٌ من أعمالهم، بل هو بجميعها مُحيطٌ، ولها حافظٌ ذاكر، حتى يُذِيقَهُمْ بها العقابَ جزاءَها.

---

(١) العماد، هو ما اصطلح عليه البصريون بقولهم: «ضمير الفصل»، ويسمى أيضاً: «دعامة» و«صفة».

وأصل «بصير» «مُبْصر» ـ من قول القائل: «أبصرت فأنا مُبصر»، ولكن صُرف إلى «فعيل»، كما صرف «مُسمع» إلى «سميع»، و«عذاب مؤلم» إلى «أليم»، و«مُبدع السموات» إلى «بديع»، وما أشبه ذلك.

القول في تأويل قوله جَلَّ ثناؤه: **﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾**

أجمع أهلُ العلم بالتأويل جميعاً على أنَّ هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بني إسرائيل، إذْ زعموا أن جبريلَ عدوٌّ لهم، وأنَّ ميكائيلَ وليٌّ لهم.

وأما تأويل الآية ـ أعني قوله: «قُلْ من كان عدواً لجبريل فإنه نَزَّله على قلبكَ بإذن الله» ـ فهو: أنَّ الله يقولُ لنبيه: قل يا محمد ـ لمعاشرِ اليهودِ من بني إسرائيل، الذين زعموا أنَّ جبريلَ لهم عدو، من أجل أنه صاحب سَطَواتٍ وعذابٍ وعقُوبات، لا صاحب وحْيٍ وتنزيلٍ ورحمة، فأبوا اتِّباعَكَ، وجحدوا نبوتك، وأنكروا ما جئتَهم به من آياتي وبينات حُكمي، من أجل أنَّ جبريل وليُّكَ وصاحب وحْيِي إليكَ، وزعموا أنه عدوٌّ لهم ـ: مَنْ يَكُنْ من الناس لجبريلَ عدواً، ومنكراً أن يكون صاحبَ وحيِ اللهِ إلى أنبيائه، وصاحبَ رحمتِهِ، فإنِّي لَهُ وليٌّ وخليلٌ، ومقرٌّ بأنه صاحبُ وَحي إلى أنبيائه ورسله، وأنه هو الذي ينزل وَحْيَ الله على قَلبي من عند ربي، بإذنِ ربي له بذلك، يربطُ به على قلبي، ويَشُدُّ فؤادي.

وإنما قال جَلَّ ثناؤه: «فإنه نزَّله على قَلبك» ـ وهو يعني بذلك قلب محمدٍ ﷺ، وقد أمرَ محمداً في أولِ الآية أن يُخبر اليهودَ بذلك عَنْ نفسه ـ ولم يقل: فإنه نزله على قلبي، ولو قيل: «على قلبي» كان صواباً من القول، لأنَّ من شأنِ العرب إذا أمرت رجلاً أن يحكي ما قِيلَ له عن نفسه، أن تخرج فعلَ المأمور

مرةً مضافاً إلى كنايةِ نفسِ المُخْبِرِ عن نفسه، إذ كانَ المخبرَ عن نفسه؛ ومرةً مضافاً إلى اسمه، كهيئة كناية اسم المخاطب، لأنه به مخاطب. فتقول في نظير ذلك: «قُلْ للقوم إنَّ الخير عندي كثير» ـ فتخرج كناية اسم المخبر عن نفسِه، لأنه المأمورُ أنْ يُخبرَ بذلك عن نفسه ـ: و«قل للقوم إن الخير عندك كثير» ـ فتخرج كناية اسمه كهيئةِ كنايةِ اسمِ المخاطب، إنه وإنْ كان مأموراً بقِيلِ ذلك، فهو مخاطَبٌ مأمورٌ بحكايةِ ما قِيلَ له. وكذلك «لا تقل للقوم إني قائم» و«لا تقل لهم إنك قائم»، و«الياء» من «إني» اسم المأمور بقول ذلك، على ما وصفنا. ومن ذلك قول الله عزّ وجل: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَيُغْلَبُونَ﴾ و«تُغْلَبُونَ﴾ [آل عمران: ١٢]، بالياء والتاء.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «مُصَدِّقاً لما بين يديه»، القرآنُ. وَنَصَب «مُصَدقاً» على القطع من «الهاء» التي في قوله: «نَزَّلَه على قلبك».

فمعنى الكلام: فإنَّ جبريلَ نَزَّلَ القرآنَ على قلبكَ، يا محمدُ، مُصَدِّقاً لما بين يَدَي القرآن. يعني بذلك: مصدِّقاً لما سَلَفَ من كُتُبِ الله أمامه، ونزلت على رسله الذين كانوا قبل محمدٍ ﷺ. وتصديقُه إياها، موافقة معانيه معانيها في الأمرِ باتباعِ محمدٍ ﷺ وما جاء به من عند الله، وهي تصدِّقه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «وهُدىً» ودليلٌ وبرهان. وإنما سَماه الله جَلَّ ثناؤه «هُدىً»، لاهتداءِ المؤمنِ به. و«اهتداؤه به» اتخاذه إياه هَادياً يتبعه، وقائداً ينقادُ لأمره ونهيه وحَلاله وحَرامه. و«الهادي» من كُلِّ شيءٍ: ما تَقَدَّمَ أمامه. ومن ذلك

قيل لأوائـلِ الخيل: «هـواديهـا»، وهو ما تقدم أمامَها. وكذلك قيل للعُنُقِ: «الهادي»، لتقدمها أمامَ سائرِ الجسد.

وأما «البُشْرى» فإنها البشارة. أخبر اللهُ عبادَه المؤمنينَ جَلَّ ثناؤه أن القرآنَ لهم بُشرَى منه، لأنه أعْلَمَهُم بما أعَدَّ لهم من الكرامة عنده في جناته، وما هُمْ إليه صائـرون في مَعـادهم من ثوابِهِ، وذلك هو «البُشرى» التي بَشَّرَ اللهُ بها المؤمنين في كتابه.

لأن «البشارة» في كلامِ العرب، هي: إعلامُ الرجلِ بما لم يَكُنْ به عالماً مما يَسُرُّه من الخبر، قبل أن يسمعه من غيره، أو يعلمه من قِبَلِ غيره.

القول في تأويل قوله جَلَّ ذكره: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾

وهذا خبرٌ من الله جَلَّ ثناؤه مَنْ كانَ عدواً لله، مَنْ عاداه، وَعادَى جميع ملائكته ورُسله؛ وإعلامٌ منه أنَّ مَنْ عادى جبريلَ فقد عَاداه وعادى ميكائيل، وعادى جميعَ ملائكتهِ ورسله. لأنَّ الذين سَمَّاهم الله في هذه الآية هم أولياءُ اللهِ وأهلُ طاعتهِ، ومَنْ عادَى لله وَلياً فقد عَادى الله وَبارزه بالمحاربة، ومن عَادى الله فقد عادى جميعَ أهل طاعته ووَلايته. لأن العدوَّ لله عدوٌّ لأوليائهِ، والعدوُّ لأولياءِ اللهِ عدوٌّ له. فكذلك قال لليهود ـ الذين قالوا: إنَّ جبريلَ عدوُّنا من الملائكة، وميكائيل وليُّنا منهم ـ: «مَنْ كانَ عدواً لله وَملائكته ورُسُله وجبريلَ وميكالَ فإنَّ الله عدوٌّ للكافرين»، من أجل أنَّ عَدُوَّ جبريل عدوٌّ كل وليٍّ لله. فأخبرهم جَلَّ ثناؤه أنَّ مَنْ كان عدوًّاً لجبريل، فهو لكل مَنْ ذكره ـ من ملائكتهِ ورُسُلهِ وميكالَ ـ عدوٌّ، وكذلك عدوٌّ بعضِ رُسُلِ الله، عَدُوٌّ لله ولكل وَلِيٍّ.

فإنْ قالَ قائلٌ: أو ليس جبريل وميكائيل من الملائكة؟

قيل: بلىٰ.

فإنْ قال: فما مَعنى تكرير ذكرهما بأسمائهما، وقد مضى ذِكْرُهما في الآية في جُملة أسماء الملائكة؟

قيل: معنى إفراد ذِكْرهما بأسمائهما، أنَّ اليهودَ لما قالت: «جبريل عدوُّنا، وميكائيل وَلِيُّنا» - وزعَمتْ أنها كفرتْ بمحمدٍ ﷺ، من أجل أنْ جبريلَ صاحبُ محمد ﷺ - أعْلَمَهُمُ اللهُ أنَّ مَنْ كان لجبريلَ عدواً، فإنَّ اللهُ له عَدُوٌّ، وأنه من الكافرين. فنصَّ عليه باسمهِ وعلى ميكائيلَ باسمه، لئلا يقولَ منهم قائل: إنما قال الله: مَنْ كان عدواً لله وملائكته ورسله، ولسنا للهِ ولا لملائكتهِ ورسلهِ أعداءً. لأنَّ الملائكة اسم عام محتملٌ خاصاً، وجبريل وميكائيل غير داخلين فيه. وكذلك قوله: «ورسله»، فلستَ يا محمد داخلاً فيهم. فَنَصَّ اللهُ تعالى على أسماء مَنْ زعموا أنهم أعداؤه بأعيانهم، ليقطع بذلك تلبيسَهم على أهلِ الضعف منهم، ويحسم تمويههم أمورَهم على المنافقين.

وأما إظهار اسم الله في قوله: «فإنَّ الله عَدُوٌّ للكافرين»، وتكريره فيه - وقد ابتدأ أولَ الخَبر بذكره فقال: «مَنْ كانَ عَدُواً لله وملائكته» - فلئلاَّ يلتبسَ لو ظهر ذَلك بكناية، فقيل: «فإنه عدوٌّ للكافرين»، على سامعِه، مَن المعنيّ بـ «الهاء» التي في «فإنه»: أاللهُ، أم رُسُلُ اللهِ جَلَّ ثناؤه، أم جبريلُ، أم ميكائيلُ؟ إذْ لو جاء ذلك بكناية على ما وصفت، فإنه يلتبسُ معنى ذلك على مَنْ لم يُوقَّف على المعنيِّ بذلك، لاحتمالِ الكلام ما وصفت.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «ولَقد أنزلنا إليك آيات»، أي أنزلنا إليك يا محمدُ علاماتٍ واضحاتٍ دالَّاتٍ على نُبوتكَ: وتلكَ الآياتُ هي ما حَوَاهُ كتابُ الله الذي أنزله إلى محمدٍ ﷺ من خَفايا علوم اليهود ومَكنونِ سرائرِ أخبارهم وأخبار

أوائلهم من بني إسرائيل، والنبأ عمَّا تَضَمَّنَتْهُ كُتُبهم التي لم يكن يعلمها إلا أحبارُهم وعلماؤهم - وما حَرَّفَهُ أوائِلهم وأواخرهم وبَدَّلوه، من أحكامِهم التي كانت في التوراة. فأطلعها الله في كتابهِ الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ. فكان، في ذلك من أمره، الآياتُ البينات لمن أنصف نفسه، ولم يَدْعُه إلى إهلاكِها الحَسَدُ والبغيُ. إذْ كان في فطرةِ كُلِّ ذي فِطرةٍ صحيحةٍ، تصديقُ مَنْ أتى بمثلِ الذي أتى به محمدٌ ﷺ من الآياتِ البيناتِ التي وصفتُ، من غير تَعلُّمٍ تَعَلَّمَهُ من بَشَرٍ، ولا أخذ شيء منه عن آدمي.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «وما يكفر بها إلا الفاسقون»، وما يَجحد بها. وقد دَلَّلْنَا فيما مضى من كتابنا هذا على أن معنى «الكفر» الجحود، بما أغنى عن إعادته هنا. وكذلك بيَّنا معنى «الفِسْق»، وأنه الخروجُ عن الشيءِ إلى غيره.

فتأويل الآية: ولقد أنزلنا إليكَ، فيما أوحينا إليكَ من الكتابِ، علاماتٍ واضحاتٍ تبيِّنُ لعلماءِ بني إسرائيل وأحبارهم - الجاحدينَ نبوتَك، والمُكَذِّبينَ رِسَالتَك - أنكَ لي رسولٌ إليهم، ونبيٌّ مبعوثٌ، وما يجحدُ تلك الآيات - الدالاتِ على صِدْقِكَ ونبوتك، التي أنزلتها إليك في كتابي فيكذب بها منهم - إلا الخارجُ منهم من دينه، التارك منهم فرائضي عليه في الكتاب الذي يَدين بتصديقِهِ. فأما المتمسكُ منهم بدينه، والمتبعُ منهم حُكْمَ كتابه، فإنه بالذي أنزلتُ إليكَ من آياتي مصدِّقٌ. وهم الذين كانوا آمنوا بالله وصدَّقوا رسولَهُ محمداً ﷺ من يهودِ بني إسرائيل.

القول في تأويل قوله جَلَّ ذكره: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

«العهد»: الميثاقُ الذي أعطته بنو إسرائيل ربَّهم ليعمَلُنَّ بما في التوراة مرةً بعد أخرى، ثم نقض بعضُهم ذلك مرَّة بعد أخرى. فوبَّخهم جَلَّ ذِكْرُه بما كان منهم من ذلك، وعَيَّرَ به أبناءَهم، إذْ سلكوا منهاجَهم في بعض ما كان جَلَّ ذِكْرُه أخذَ عليهم الإيمانِ به من أمرِ محمدٍ ﷺ من العهدِ والميثاق، فكفروا وجحدوا ما في التوراة من نَعْتِه وصِفَتِهِ، فقال تعالى ذكره: أوَ كُلَّما عاهَدَ اليهودُ من بني إسرائيل ربَّهم عهداً، وأوثقوه ميثاقاً، نَبذه فريقٌ منهم، فتركه وَنَقضه؟

وأما «النَّبْذ» فإنَّ أصله ـ في كلام العرب ـ الطَّرْح، ولذلك قيل للملقوط: «المنبوذ»، لأنه مطروحٌ مرميٌّ به. ومنه سمي النبيذ «نبيذاً»، لأنه زبيبٌ أو تَمْرٌ يُطرح في وعاء، ثم يعالج بالماء. وأصله «مفعول» صُرِفَ إلى «فعيل»، أعني أنَّ «النبيذَ» أصلُه «مَنْبُوذٌ» ثم صرف إلى «فعيل» فقيل: «نَبيذ» كما قيل: «كَفٌّ خَضيب، ولحيةٌ دَهِين» ـ يعني: مخضوبةٌ ومدهونةٌ. يقال منه: «نبذته أنبِذُه نَبْذاً».

فمعنىٰ قولـه جل ذكره: «نَبذه فريقٌ منهم»، طرحه فريقٌ منهم، فتركه ورفضَه ونَقضه.

و«الهاء» التي في قوله: «نبذه»، من ذِكْرِ العهد. فمعناه أوَ كلما عاهدوا عهداً نبذ ذلك العهدَ فريق منهم.

و«الفريق»: الجماعةُ، لا واحدَ له من لفظه، بمنزلة «الجيش» و«الرَّهْط» الذي لا واحدَ له من لفظه.

و«الهاء والميم» اللتان في قوله: «فريق منهم»، من ذكر اليهود من بني إسرائيل.

وأما قوله: «بل أكثرُهم لا يؤمنون» فإنه يعني جَلَّ ثناؤه: بل أكثر هؤلاء ـ الذين كُلَّما عاهدُوا الله عهداً ووَاثقوه مَوثِقاً، نقضه فريق منهم ـ لا يؤمنون.

ولذلك وَجهان من التأويل:

أحدهما: أنْ يكونَ الكلام دلالةً على الزيادة والتكثير في عدد المُكَذِّبينَ الناقضينَ عهدَ اللهِ، على عَدَد الفريق. فيكون الكلام حينئذٍ معناه: أو كلما عاهدتِ اليهودُ من بني إسرائيل رَبَّها عَهداً نقض فريقٌ منهم ذلك العهدَ؟ لا - مَا ينقض ذلك فريقٌ منهم، ولكن الذي ينقضُ ذلك فيكفرُ بالله، أكثرهُم، لا القليل منهم. فهذا أحدُ وجهيه.

والوجه الآخر: أنْ يكون معناه: أوَ كلما عاهدت اليهود ربَّها عهداً، نبذ ذلك العهدَ فريقٌ منهم؟ لا - ما ينبذ ذلك العهد فريق منهم فَينقضُه - على الإيمانِ منهم بأنَّ ذلكَ غير جائز لهم - ولكن أكثرهم لا يصدِّقون بالله ورُسله، ولا وَعْدِهِ ووعيدِهِ. وقد دللنا فيما مضى من كتابنا هذا معنى «الإيمان»، وأنه التصديق.

القول في تأويل قوله جَلَّ ذكره: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «ولما جاءهم»، أحبارَ اليهود وعلماءَها من بني إسرائيل - «رسولٌ»، يعني بالرسول: محمداً ﷺ.

وأمـا قولـه: «مُصَدِّقٌ لما معهم»، فإنه يعني به أن محمداً ﷺ يُصدِّق التوراةَ والتوراةُ تُصَدِّقُه، في أنه لله نبيٌّ مبعوثٌ إلى خَلْقِهِ.

وأما تأويل قوله: «ولما جاءَهم رسول من عند الله مصدق لما معهم»، فإنه للذي هو مع اليهودِ، وهو التوراةُ. فأخبر الله جَلَّ ثناؤه أنَّ اليهودَ لما جاءهم

رسولُ الله ﷺ من اللهِ بتصديقِ ما في أيديهم من التوراة، أنّ محمداً ﷺ نبيٌّ لله، «نبذ فريق»، يَعني بذلك: أنهم جَحَدُوه ورفضوه بعد أنْ كانوا به مُقِرِّينَ، حسداً منهم له وبغياً عليه. وقوله: «من الذين أوتوا الكتاب». وهم علماءُ اليهود الذين أعطاهم الله العِلْمَ بالتوراةِ وما فيها. ويعني بقوله: «كتاب الله»، التوراةَ.

وقوله: «وَرَاء ظُهورهم»، جعلوه وراء ظهورهم. وهذا مَثَلٌ، يقال لكل رافضٍ أمراً كان منه على بَال: «قد جَعل فلان هذا الأمرَ منه بظَهْر، وجعله وراء ظهره»، يعني به: أعْرَضَ عنه وصَدَّ وانصرف.

ومعنى قوله: «كأنهم لا يعلمون»، كأنَّ هؤلاء الذين نبذوا كتابَ الله من علماء اليهود ـ فنقضوا عهدَ الله بتركهم العمل بما وَاثقوا الله على أنفسهم العملَ بما فيه ـ لا يعلمون ما في التوراة من الأمرِ باتباعِ محمدٍ ﷺ وتصديقه. وهذا من الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ إخبارٌ عنهم أنهم جحدوا الحقَّ على عِلْمٍ منهم به ومعرفة، وأنهم عاندوا أمرَ اللهِ فخالفوا على علمٍ منهم بوجوبه عليهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾

يعني بقوله: «واتبعوا ما تَتلو الشياطين»، الفريقَ من أحبارِ اليهود وعلمائها، الذين وصفهم جَلَّ ثناؤه بأنهم نبذوا كتابه الذي أنزله على موسى، وراء ظهورهم، تجاهلاً منهم وكفراً بما هُمْ به عالمون، كأنهم لا يعلمون. فأخبر عنهم أنهم رَفَضُوا كتابَهُ الذي يعلمون أنه منزلٌ من عنده على نبيه ﷺ، ونقضوا عهدَه الذي أخذه عليهم في العملِ بما فيه، وآثروا السِّحْرَ الذي تَلَتْهُ الشياطينُ في مُلْكِ سليمان بن داود فاتبعوه، وذلك هو الخَسَارُ والضلالُ المبين.

واختلف أهلُ التأويل في الذين عنوا بقوله: «واتَّبعوا ما تَتلو الشياطين على

مُلك سُليمان». والصواب أنَّ ذلك توبيخٌ من الله لأحبارِ اليهودِ الذين أدركوا رسولَ الله ﷺ، فجحدوا نبوته، وهم يعلمون أنه لله رسولٌ مُرسَلٌ؛ وتأنيبٌ منهُ لهم في رفضِهم تنزيلَهُ، وهجرهم العملَ به، وهو في أيديهم يعلمونه ويعرفونَ أنه كتابُ الله، واتِّباعِهم واتِّباع أوائلهم وأسلافِهم مَا تلته الشياطينُ في عهد سليمان. وقد بيَّنا وجْه جَوَاز إضَافةِ أفعالِ أسلافِهم إليهم فيما مضى، فأغنى ذلك عن إعادتهِ في هذا الموضع.

وإنما اخترنا هذا التأويلَ، لأن المتَّبعةَ ما تَلَتْهُ الشياطينُ، في عهد سليمان وبَعده إلى أنْ بعث الله نبيه بالحق، وأمْرُ السحرِ لم يَزلْ في اليهود. ولا دلالةَ في الآية أنَّ اللهَ تعالى أرادَ بقولِهِ: «واتبعوا» بعضاً منهم دون بعض. إذْ كان جائزاً فصيحاً في كلام العرب إضافة ما وَصفنا ـ من اتِّباعِ أسلافِ المخبر عنهم بقوله: «واتبعوا ما تتلو الشياطين» ـ إلى أخلافهم بعدهم، ولم يكن بخصوص ذلك عن رسول الله ﷺ أثرٌ منقول، ولا حجةٌ تدلُّ عليه. فكان الواجبُ من القولِ في ذلك أنْ يقالَ: كُلُّ مُتَّبِعٍ ما تَلَتْهُ الشياطينُ على عهدِ سليمانَ من اليهودِ، داخلٌ في معنى الآية، على النحو الذي قلنا.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «ما تتلو الشياطين»، الذي تَتلو. فتأويل الكلام إذاً: اتبعوا الذي تتلو الشياطين.

واختُلف في تأويل قولـه: «تتلو». فقال بعضهم: يعني بقوله: «تَتلو»، تُحدِّثُ وتروي، وتتكلم به وتخبر. نحو «تِلاوة» الرجل للقرآن، وهي قراءته. وَوَجَّه قائِلُو هذا القول تأويلَهم ذلك، إلى أنَّ الشياطين هي التي علَّمت الناسَ السحرَ ورَوته لهم.

وقال آخرون: معنى قوله: «ما تتلو» ما تَتَّبعهُ وتَرويه وتعمل به.

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله عز وجل أخبر عن الذين أخبر عنهم أنهم اتَّبعوا ما تَتلو الشياطينُ على عهد سليمان، باتباعهم ما تلَته الشياطين.

ولقول القائل: «هو يتلو كذا» في كلام العرب مَعنيان.

أحدهما: الاتِّباعُ، كما يقال: «تَلوتُ فلاناً» إذا مشيتَ خلفه وتبعتَ أثره، كما قال جَلَّ ثناؤه: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ﴾ [يونس: ٣٠]، يعني بذلك تتَّبع.

والآخر: القراءةُ والدراسة، كما تقول: «فلان يَتلو القرآنَ»، بمعنى: أنه يقرؤه ويدرسه.

ولم يخبرنا اللهُ جَلَّ ثناؤه ـ بأنَّ معنى «التلاوة» كانت تلاوةَ الشياطين الذين تَلوْا ما تَلوه من السحرِ على عهد سليمان ـ بخبرٍ يقطعُ العذر. وقد يجوزُ أنْ تكونَ الشياطينُ تلت ذلك درَاسةً وروايةً وعملاً، فتكون كانت متَّبعَتَهُ بالعمل، ودارِسَتَهُ بالرواية. فاتبعت اليهود منهاجَها في ذلك، وعملت به، ورَوَته.

القول في تأويل قوله تعالى: عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «على مُلك سليمان»، في مُلْكِ سليمان. وذلك أنَّ العربَ تضعُ «في» موضع «على»، و«على» في موضع «في». من ذلك قَولُ الله جَلَّ ثناؤه: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] يعني به: على جذوع النخل، وكما قالوا: «فعلت كذا في عهد كذا، وعلى عهد كذا»، بمعنى واحد.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾

إن قال لنا قائلٌ: وما هذا الكلام، من قوله: «واتَّبَعُوا ما تَتلو الشياطينُ عَلى مُلك سُليمان»، ولا خبرَ مَعنا قَبْلُ عن أحدٍ أنه أضَافَ الكفرَ إلى سليمان، بل إنما ذكر اتباع مَنِ اتبع من اليهود ما تلته الشياطينُ؟ فما وَجْهُ نفيِ الكفرِ عن سليمانَ، بعقبِ الخبرِ عن اتباعِ من اتبعت الشياطينَ في العملِ بالسحرِ وروايتِهِ من اليهود؟

قيل: وجْـهُ ذلـك، أنَّ الذين أضافَ اللهُ جَلَّ ثناؤه إليهم اتباعَ ما تلته الشياطينُ على عَهد سليمانَ من السحرِ والكفرِ من اليهودِ، نسبوا ما أضافه اللهُ تعالى ذِكْرُه إلى الشياطين من ذلك، إلى سليمان بن داود. وزعموا أنَّ ذلك كان من عِلْمِـه وروايته، وأنه إنما كانَ يستعبدُ مَنْ يستعبد من الإنس والجن والشياطين وسائر خلق الله بالسِّحْرِ. فَحَسَّنُوا بذلك ـ من ركوبهم ما حرَّم اللهُ عليهم من السحر ـ أنفسَهم، عند مَنْ كان جاهلاً بأمرِ الله ونهيه، وعِنْدَ مَنْ كان لا عِلْمَ له بمـا أنزل اللهُ في ذلك من التوراة. وتَبَرَّأ بإضافةِ ذَلك إلى سليمان ـ من سليمان، وهو نبيّ الله ﷺ ـ منهم بَشرٌ، وأنكروا أنْ يكونَ كانَ للهِ رسولاً، وقالوا: بل كان سَاحراً! فبرَّأ اللهُ سليمانَ بن داود من السحرِ والكفرِ عند مَن كان منهم ينسبه إلى السحرِ والكفرِ ـ لأسبابٍ ادَّعوها عليه قد ذكرنا بعَضها، وسنذكر باقي ما حَضَرنا ذِكْرُه منها ـ، وأكذب الآخرين الذين كانوا يَعملون بالسحر متزيِّنين عند أهل الجهلِ في عملهم ذلك، بأنَّ سليمانَ كان يعمله. فنفى اللهُ عن سليمان عليه السلام أنْ يَكونَ كانَ ساحراً أو كافراً، وأعْلَمَهُم أنهم إنما اتبعوا ـ في عملهم بالسحر ـ ما تَلَتْهُ الشياطينُ في عهدِ سليمان، دون ما كان سليمان يأمـرُهم من طاعةِ الله، واتباع ما أمَرَهُم به في كتابه الذي أنزله على مُوسى

صلوات الله عليه.

فإذْ كان الأمر في ذلك على ما وصفنا ـ وتأويل قوله: «واتبعوا ما تَتلو الشياطين على مُلك سليمان وما كفر سليمانُ ولكن الشياطينَ كفرُوا» ما ذكرنا ـ فَبيِّنٌ أنَّ في الكلام متروكاً، ترك ذكره اكتفاءً بما ذكر منه، وأن معنى الكلام: واتَّبَعُوا ما تتلو الشياطينُ من السحر على ملك سليمان، فَتُضِيفُهُ إلى سليمانَ، وما كَفَرَ سليمانُ، فيعمل بالسحر، ولكنَّ الشياطينَ كفروا يعلِّمونَ الناس السحر.

وأما معنى قوله: «مَا تتلو»، فإنه بمعنى: الذي تتلو، وهو السحر.

ولعل قائلاً أن يقول: أوَ ما كان السحرُ إلا أيامَ سليمان؟

قيل له: بلى، قد كان ذلك قبل ذلك، وقد أخبر الله عن سَحَرةِ فرعونَ ما أخبر عنهم، وقد كانوا قبل سُليمان، وأخبر عن قومِ نوحٍ أنهم قالوا لنوح إنه ساحر.

فإن قال: فكيف أخبرَ عن اليهودِ أنهم اتبعوا ما تَلَتْهُ الشياطينُ على عهد سليمان؟

قيل: لأنهم أضافوا ذلك إلى سليمان،على ما قد قَدَّمْنَا البيانَ عنه. فأراد الله تعالى ذِكْرُه تَبرئةَ سُليمانَ مما نَحَلُوهُ وأضافوا إليه، مما كانوا وجدُوه، إما في خزائنه، وإما تحت كرسيه، على ما جاءتْ به الآثارُ التي قد ذكرناها من ذلك. فحصر الخبر عما كانت اليهود اتبعته، فيما تلته الشياطين أيام سليمان دون غيره لذلك السبب، وإنْ كانت الشياطينُ قد كانت تاليةً للسحرِ والكُفرِ قبل ذلك.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾

وتأويل «ما» التي في قوله: «ومَا أنزِل على الملكين» بمعنى «الذي».

وإنما اخترت ذلك، من أجل أن «ما»، إنْ وجِّهتْ إلى معنى الجحد، تنفي عن «المَلَكين» أن يكونا مُنْزلاً إليهما، ولم يخل الاسمان اللذان بعدهما ـ أعني «هاروت وماروت» ـ من أنْ يكونا بدلاً منهما وترجمةً عنهما أو بدلاً من «الناس» في قوله: «يُعَلِّمون الناسَ السحر»، وترجمة عنهما.

فإنْ جعلا بدلاً من «الملكين» وترجمة عنهما، بطل معنى قوله: «وما يُعَلِّمانِ منْ أحدٍ حتى يَقولا إنما نحنُ فتنة فلا تكفُر فيتعلمون منهما ما يفرِّقُون به بين المرء وزَوجه». لأنهما إذا لم يكونا عالمين بما يُفرَّقُ به بين المرء وزوجه، فما الذي يَتعلَّم منهما من يفرق بين المرء وزوجه؟

فإذْ كان ذلك كذلك فإن: «هاروتَ وماروتَ»، مترجمٌ بهما عن المَلَكين، ولذلك فُتِحَتْ أواخرُ أسمائهما، لأنهما في موضع خَفض على الرَّد على «الملكين». ولكنهما لما كانا لا يُجرَّان، فتحت أواخر أسمائهما.

فإن التَبَسَ على ذي غَباء ما قُلنا فقال: وكيف يَجوز لملائكةِ الله أن تُعلِّم الناسَ التفريقَ بين المرء وزوجه؟ أم كيف يجوز أن يُضافَ إلى الله تبارك وتعالى إنزالُ ذَلك على الملائكة؟

قيل له: إنَّ الله جَلَّ ثناؤه عَرَّفَ عباده جميعَ ما أمرَهم به وجميعَ ما نهاهم عنه، ثم أمرهم ونَهاهم بعد العِلْم منهم بما يؤمرون به ويُنهون عنه. ولو كان الأمر على غير ذلك، لما كان للأمر والنهي معنى مفهوم. فالسحر مما قد نَهى عبادَه من بني آدم عنه، فغير منكر أن يكونَ جَلَّ ثناؤه عَلَّمه الملكين اللذين سماهما في تنزيله، وجعلهما فتنةً لعبادِه من بني آدم ـ كما أخبرَ عنهما أنهما يقولان لمن يتعلم ذلك منهما: «إنما نَحنُ فتنةٌ فلا تكفُر» ـ ليختبر بهما عباده الذين نهاهم عن التفريق بين المرء وزوجه، وعن السحر، فيمحِّصَ المؤمنَ

بتركـه التعلمَ منهمـا، ويُخـزيَ الكافرَ بتعلُّمه السحرَ والكفرَ منهما. ويكون الملكان ـ في تعليمهما مَنْ عَلَّما ذلك ـ لله مُطِيعين، إذْ كانا ـ عن إذْنِ الله لهما بتعليم ذلك مَنْ عَلَّماه ـ يعلمان. وقد عُبد من دُون الله جماعةٌ من أولياء الله، فلم يَكُنْ ذلك لهم ضائراً، إذْ لم يكن ذلك بأمرهم إياهم به، بل عُبد بعضُهم والمعبود عنه نَاهٍ. فكذلك الملكان، غيرُ ضائِرِهما سِحْرُ مَنْ سَحَر ممن تعلَّم ذلك منهما، بعد نَهْيِهما إياهُ عنه، وعِظَتِهما له بقولهما: «إنما نحنُ فتنة فلا تكفُر»، إذْ كانا قد أدَّيا ما أُمِرَا به بقِيلهما ذلك.

وأما قوله «ببابل»، فإنه اسم قرية أو موضع من مَوَاضع الأرضِ.

وأما «السحر» فإنه خُدَعٌ وَمَخاريقُ وَمَعانٍ يفعلها الساحرُ، حتى يُخيل إلى المسحورِ الشيءُ أنه بخلافِ ما هُوَ به، نظيرَ الذي يرَى السَّراب من بعيد فيخيَّل إليه أنه ماءٌ، ويرى الشيءَ من بعيد فيُثْبته بخلافِ ما هو على حقيقته. وكراكب السفينـةِ السائرةِ سيراً حثيثاً، يخيلُ إليه أنَّ ما عاينَ من الأشجارِ والجبالِ سائرٌ معه. فكذلك المسحورُ ذلك صِفَتُه: يَحْسبُ بعدَ الذي وَصَل إليه من سحرِ الساحر، أنَّ الذي يراهُ أو يفعله بخلافِ الذي هو به على حقيقته.

القول في تأويل قوله تعالى: **﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾**

وتأويل ذلك: وما يُعَلِّمُ الملكان أحداً من الناس الذي أُنزلَ عليهما من التَّفريق بين المرء وزوجه، حتى يقولا له: إنما نحنُ بَلاءٌ وفتنةٌ لبني آدم، فلا تكفر بربك.

وأما «الفتنة» في هذا الموضع، فإن معناها: الاختبارُ والابتلاء، من ذلك

قولك: «فتنتُ الذَّهبَ في النار»، إذا امْتَحَنْتَها لتعرفَ جَوْدَتَها[1] من رداءتها، «أفتنها فِتنة وفُتوناً».

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾

وقوله جَلَّ ثناؤه: «فيتعلَّمون منهما»، خبرٌ مبتدأٌ عن المتعلِّمين من المَلَكين ما أُنزِلَ عليهما، وليس بجوابٍ لقوله: «وما يعلِّمان من أحدٍ»، بل هو خبرٌ مُستأنفٌ، ولذلك رُفع فقيل: «فيتعلَّمون». فمعنى الكلام إذاً: وما يعلِّمان من أحَدٍ حتى يقولا إنما نحنُ فتنة، فيأبَوْنَ قَبُولَ ذلك منهما، فيتعلَّمونَ منهما ما يُفَرِّقُونَ به بين المرء وزوجه.

و«الهاء» و«الميم» و«الألف» من قوله: «منهما»، من ذكر الملكين. ومعنى ذلك: فيتعلم الناسُ من الملكين الذي يفرِّقون به بين المرء وزوجه.

و«ما» التي مع «يفرقون» بمعنى «الذي». وقيل: معنى ذلك: السحرُ الذي يفرقون به. وقيل: هو معنى غير السحر.

وأما «المرء»، فإنه بمعنى: رجل من أسماء بني آدم، والأنثى منه «المرأة». يُوَحَّد ويُثَنَّى ولا تُجمعُ ثلاثته على صورته، يقال منه: «هذا امرؤٌ صالح، وهذان امرآن صالحان». ولا يقال: هؤلاء امرؤو صدق، ولكن يقال: «هؤلاء رجالُ صِدق وقَوْم صِدق». وكذلك المرأة تُوحد وتُثنى ولا تُجمع على صورتها. يقال: «هذه امرأة، وهاتان امرأتان». ولا يقال: هؤلاء امرآت، ولكن: «هؤلاء نسوة».

---

(١) في الأصل: جودتهما، لعله من غلط الطبع.

وأما «الزوج»، فإنَّ أهلَ الحجاز يقولون لامرأة الرجل: «هي زوجه» بمنزلة الـزوج الـذَّكـر، ومن ذلـك قول الله تعـالى ذكره: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وتميمٌ وكثير من قَيْسٍ وأهل نجد يقولون: «هي زوجته».

فإن قال قائل: وكيف يُفَرِّقُ الساحرُ بين المرء وزَوجه؟

قيل إنَّ معنى «السحر»: تخييلُ الشيءِ إلى المرءِ بخلافِ ما هُوَ بهِ في عَينه وحقيقته. فإذْ كان ذلك صحيحاً فتفريقه بين المرء وزوجه: تخييلُه بسحره إلى كُلِّ واحدٍ منهما شخصَ الآخر على خِلافِ ما هُوَ به في حقيقته، من حُسْنٍ وجمال، حتى يُقَبِّحَهُ عنده، فينصرف بوجهه ويعرض عنه، حتى يُحدِث الزوجُ لامرأته فراقاً. فيكون الساحر مفرِّقاً بينهما بإحداثهِ السببَ الذي كان منه فُرْقَة ما بينهما. وقد دَللنا، في غير موضعٍ من كتابنا هذا، على أنَّ العربَ تضيفُ الشيءَ إلى مُسَبِّبِهِ من أجلِ تَسبّبه، وإنْ لم يكن باشَرَ ما حدَث عن السَّبب ـ بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع. فكذلك تفريقُ الساحرِ بسحرِه بين المرء وزوجه.

القول في تأويل قوله عزّ وجل: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «وما هُمْ بضَارِّين به من أحَدٍ إلا بإذن الله»، وما المُتَعَلِّمُـونَ من الملكين هاروت ومـاروت مَا يُفَـرِّقـون به بين المرء وزوجه. بضارِّينَ ـ بالذي تَعَلَّمُوه منهما، من المعنى الذي يُفَرِّقُونَ به بين المرء وزوجه ـ مِنْ أحدٍ مِنَ الناس إلاَّ مَنْ قَضى اللهُ عليه أنَّ ذلك يَضُرُّهُ. فأما مَنْ دفعَ اللهُ عنه ضَرَّه، وَحَفِظَهُ من مكرُوهِ السحرِ والنفثِ والرُّقى، فإنَّ ذلك غيرُ ضارِّه، ولا نائِله أذاه.

ولِـ «الإذن» في كلام العرب أوجه:

منها: الأمرُ على غيرِ وَجه الإلزام. وغيرُ جائز أن يكون منه قوله: «وما هُمْ بضارِّينَ به منْ أحدٍ إلا بإذن الله»، لأنَّ الله جَلَّ ثناؤه قد حرَّم التفريقَ بين المرء وَحليلته بغيرِ سحرٍ ـ فكيفَ به على وَجْهِ السحر؟ ـ على لسان الأمة.

ومنها: التخليةُ بين المأذون له، والمخلَّى بينه وبينه.

ومنها: العِلْمُ بالشيء، يقال منه: «قد أذِنْت بهذا الأمر» إذا علمت به «آذن به إذْناً» ومنه قوله جَلَّ ثناؤه: ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِن اللهِ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، وهذا هو معنى الآية، كأنه قال جَلَّ ثناؤه: وما هُمْ بضارِّينَ، بالذي تَعَلَّمُوا من المَلَكين، من أحدٍ إلا بِعِلْمِ الله. يعني: بالذي سَبَق له في عِلْمِ الله أنه يضره.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «ويتعلَّمون»، الناسَ الذين يتعلمون من المَلَكين ما أنزل عليهما من المعنى الذي يفرقون به بين المرء وزوجه، يتعلمون منهما السحر الذي يَضُرُّهم في دِينهم، ولا ينفعهم في مَعَادهم. فأمَّا في العاجلِ في الدنيا، فإنهم قد كانوا يكسبون به ويُصيبون به معاشاً.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «وَلَقد عَلِمُوا لَمَن اشْتَراهُ مَالهُ في الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ»، الفريقَ الذين لما جَاءهم رسولٌ من عندِ الله مصدقٌ لِمَا معهم، نَبذوا

كتابَ الله وراءَ ظهورهم كأنَّهم لا يعلمون، واتَّبعُوا مَا تَتلو الشياطينُ على مُلْكِ سليمان، فقال جَلَّ ثناؤه: لقد عَلِمَ النابذون ـ من يهودِ بني إسرائيل ـ كتابي وراءَ ظهورهم تجاهلاً منهم ـ التاركونَ العملَ بما فيه من اتباعِكَ يا محمدُ واتبّاع ما جِئْتَ به، بعدَ إنزالي إليكَ كتابي مُصَدِّقاً لما معهم، وبعد إرسالكَ إليهم بالإقـرارِ بمـا معهم ومـا في أيديهم، المؤثرونَ عليه اتِّبَاعَ السحر الذي تَلَتْهُ الشياطينُ على عَهد سليمان، والذي أُنْزِلَ على المَلَكين ببابلَ هاروتَ وماروتَ ـ لَمَنِ اشترى السحرَ بكتابي الذي أنزلتُه عَلى رسولي فآثرَهُ عليه، مَا لَهُ في الآخرةِ من خَلاقٍ.

أما قوله: «لَمَن اشتراه»، فإن «من» في موضع رفع، وليس قوله: «ولقد عَلموا» بعاملٍ فيها. لأن قوله: «ولقد علموا»، بمعنى اليمين، فلذلك كانت في موضع رفع. لأنَّ الكلام بمعنى: والله لمن اشترى السحر ما لَهُ في الآخرةِ من خَلاق. ولِكَوْن قوله: «قد علموا» بمعنى اليمين، حُقِّقت بـ «لام اليمين»، فقيل: «لَمَن اشتراه»، كما يُقال: «أقسم لَمَنْ قام خيرٌ مِمَّنْ قَعدَ». وكما يقال: «قَدْ علمت، لعمرٌو خيرٌ من أبيك».

ومعنى «الخَلَاق» في هذا الموضع: النصيب. وذلك أنَّ ذلك معناه في كلام العرب.

فقولهُ: «ما له في الآخرة من خَلاق»: ما لَهُ في الدارِ الآخرةِ حظٌّ من الجنةِ، مِنْ أجلِ أنه لم يكنْ له إيمانٌ ولا دِينٌ ولا عملٌ صالح يجازَى به في الجنة ويُثَاب عليه، فيكون له حظٌّ ونصيب من الجنة. وإنما قال جَلَّ ثناؤه: «ما له في الآخرة من خَلاق»، فوصفه بأنه لا نصيبَ له في الآخرة، وهو يعني به: لا نصيب لَهُ من جزاءٍ وثوابٍ وجنةٍ دون نصيبه من النارِ، إذْ كان قد دَلَّ ذمُّه جَلَّ ثناؤه أفعالَهم ـ التي نفى من أجلها أن يكون لهم في الآخرة نصيبٌ

ـ على مُرادِه من الخبر، وأنه إنما يعني بذلك أنه لا نصيبَ لهم فيها من الخيراتِ، وأما من الشرورِ فإنَّ لهم فيها نصيباً.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

قد دللنا فيما مضى قَبْلُ على أنَّ معنى «شَرَوْا»: «باعوا». فمعنى الكلام إذاً: ولَبِئْسَ ما باعَ به نَفْسَهُ مَنْ تَعَلَّمَ السحر، لو كان يعلم سُوء عاقبته.

فإنْ قال لنا قائل: وكيف قال جَلَّ ثناؤه: «ولبئس ما شَرَوْا به أنفسهم لو كانوا يَعلمون»؟ وقد قال قبل: «ولقدْ علموا لَمَنِ اشتراه ما لَهُ في الآخرة من خلاق»، فكيف يكونون عالمين بأنَّ مَنْ تعلم السحر فلا خلاقَ لَهم، وهم يجهلون أنهم بئس مَا شَرَوا بالسحر أنفسهم؟

قيل: إنَّ معنى ذلك على غير الوجهِ الذي توهمته، من أنهم موصوفون بالجهل بما هم موصوفون بالعلم به. ولكن ذلك من المُؤَخَّرِ الذي معناهُ التقديمُ. وإنما معنى الكلامِ: وما هم ضارُّون به مِنْ أحدٍ إلا بإذن الله، ويتعلمون ما يَضُرُّهم ولا ينفعهم، ولبئس ما شَرَوْا به أنفسهم لو كانوا يعلمون، ولقد علموا لَمَنِ اشتراهُ ما لَهُ في الآخرة من خلاق. فقوله: «لبئس مَا شَرَوْا به أنفسَهُم لو كانوا يَعلمون»، ذمٌّ من الله تعالى ذِكْرُه فِعْلَ المتعلِّمين من المَلَكين التفريقَ بين المرء وزوجه، وخبرٌ منه جَلَّ ثناؤه عنهم أنهم بِئْسَ ما شَرَوْا به أنفسهم، برِضَاهم بالسحرِ عِوَضاً عن دِينهم الذي به نجاةُ أنفسهم من الهلكة، جهلاً منهم بسوء عاقبةِ فِعْلِهم، وخسارةِ صَفقةِ بَيْعهم. إذْ كان قد يتعلَّم ذلك منهما من لا يعرفُ الله، ولا يعرفُ حلالَهُ وحرامه، وأمْرَهُ ونهيه. ثم عاد إلى الفريق ـ الذين أخبر اللهُ عنهم أنهم نَبذُوا كتابَهُ وراءَ ظُهورِهم كأنهم لا

يعلمون، واتَّبَعُوا ما تتلو الشياطينُ على مُلْكِ سليمانَ وما أنزلَ على الملكين - فأخبر عنهم أنهم قد عَلموا أنَّ من اشترى السحر، ما لَهُ في الآخرة من خلاق؛ ووصفهم بأنهم يركبون معاصيَ الله على عِلْمٍ منهم بها، ويكفرون بالله ورسله، ويؤثرون اتباعَ الشياطين والعملَ بما أحْدَثَتْهُ من السِّحْرِ، على العملِ بكتابهِ ووَحْيِهِ وتنزيلِهِ، عِناداً منهم، وبغياً على رسله، وتَعَدِّياً منهم لحدودِهِ، على معرفةٍ منهم بما لِمَنْ فَعَلَ ذلك عندَ اللهِ من العقابِ والعذابِ. فذلك تأويل قوله.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «ولو أنهم آمنوا واتقوا»، لو أن الذينَ يتعلَّمون من الملكين ما يفرِّقون به بين المرء وزوجه، «آمنوا» فصدَّقوا الله ورسوله وما جاءهم به من عند ربهم، «واتقوا» ربَّهم فخافوهُ فخافوا عِقَابَهُ فأطاعوه بأداءِ فرائضهِ وتجنَّبُوا معاصيَه - لكان جزاءُ الله إياهم، وثوابُه لهم على إيمانِهم به وتقواهم إياه، خيراً لهم من السِّحْرِ وما اكتسبوا به، «لو كانوا يعلمون» أن ثوابَ الله إياهم على ذلك خيرٌ لهم من السحر ومما اكتسبوا به. وإنما نَفَى بقولِهِ: «لو كانوا يعلمون» العِلْمَ عنهم: أن يكونوا عالمينَ بمبلغِ ثوابِ الله، وقدر جزائه على طاعته.

و«المَثُوبَةُ» في كلام العرب، مصدر من قول القائل: «أَثَبْتُك إثابةً وثَواباً ومَثُوبة». فأصل ذلك من: «ثابَ إليكَ الشيءُ» بمعنى: رجع. ثم يقال: «أثَبْتُه إليكَ»: أي، رَجَعْتُه إليكَ ورَدَدْتُه. فكان معنى: «إثابة الرجل الرجلَ على الهدية وغيرها»: إرجاعه إليه منها بدلاً، وردّه عليه منها عِوَضاً. ثم جعل كل

مُعَوِّضٍ غيرَهُ من عمله أو هديته أو يدٍ له سَلَفَتْ منه إليه: مُثيباً له. ومنه «ثواب» الله عز وجل عبادَه على أعمالهم، بمعنى: إعطائه إياهم العِوَضَ والجزاءَ عليه، حتى يرجع إليهم بَدَلٌ من عملهم الذي عملوا له.

القول في تأويل قوله تعالى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا

نهى الله جَلَّ ثناؤه المؤمنينَ أن يقولوا لنبيه: «رَاعِنَا» لأنها كلمةٌ كَرِهَهَا لهم، نظيرَ الذي ذُكر عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تقولوا: للعنب الكَرْم، ولكن قُولُوا: الحبَلة»[1]. و«لا تقولوا: عَبْدِي، ولكن قولوا: فتايَ»[2]. وما أشبه ذلك، من الكلمتين اللتين تكونان مستعملتين بمعنى واحدٍ في كلامِ العرب، فتأتي الكراهةُ أو النهيُ باستعمال إحداهما، واختيار الأخرى عليها في المخاطبات.

فإنْ قال لنا قائل: فإنَّا قد عَلِمْنَا معنى نَهْيِ النبيِّ ﷺ في «العنب» أنْ يقال له «كرم»، وفي «العبد» أن يقال له «عبد»، فما المعنى الذي في قوله: «راعنا» حينئذٍ، الذي من أَجْلِهِ كان النهيُ من الله جَلَّ ثناؤه للمؤمنين عَنْ أن

(١) حديث صحيح، أخرجه مسلم (٢٢٤٨) من حديث علقمة بن وائل عن أبيه بلفظ لا تقـولوا: الكَرْمُ، ولكن قولوا: «الحَبَلَةُ» يعني: العِنَبُ، وفي لفظ آخر: «لا تقولوا: الكَرْمُ، ولكن قولوا: العِنَبُ والحَبَلَةُ»، وأخرجه البخاري ٨/٥١، ٥٢ ومسلم (٢٢٤٧) عن أبي هريرة بألفاظ متقاربة.

(٢) قطعة من حديث طويل، أخرجه أحمد ٢/٣١٦، والبخاري ٣/١٩٦، ومسلم تحت الحديث (٢٢٤٩) عن أبي هريرة بلفظ «لا يقل أحدُكم: أَطعِمْ رَبَّك وَضِّىء رَبَّكَ، اسقِ ربّك، [ولا يقل أحدُكم: ربّي]، وليقل: سَيِّدي، مَولاي. ولا يقل أحدُكم: عبدي، أمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي» والزيادة لمسلم، وأخرجه أحمد ٢/٤٢٣ و٤٤٤ و٤٦٢ و٤٦٣ و٤٨٤ و٤٩١ و٤٩٦ و٥٠٨ ومسلم (٢٢٤٩) وأبو داود (٤٩٧٥) عن أبي هريرة أيضاً بألفاظ متقاربة.

يقولوه، حتى أمرهم أن يؤثروا قوله: «انْظُرْنا»؟

قيل: الذي فيه من ذلك، نظيرُ الذي في قول القائل: «الكرم» للعنب، و«العبد» للمملوك. وذلك أن قول القائل: «عبدي» لجميعِ عبادِ الله، فكره النبي ﷺ أنْ يُضافَ بعضُ عبادِ الله - بمعنى العبُودية - إلى غير الله، وأمر أن يضافَ ذلك إلى غيره، بغير المعنى الذي يضاف إلى الله عزَّ وجل، فيقال: «فَتَايَ». وكذلك وجه نهيه في «العنب» أن يقال: «كرم»، خوفاً من تَوَهُّمِ وَصْفِهِ بالكَرَم، وإن كانت مُسَكَّنةً، فإنَّ العرب قد تُسَكِّنُ بعض الحركاتِ إذا تتابعت على نوعٍ واحد. فكره أن يتصف بذلك العنب. فكذلك نهى الله عزَّ وجل المؤمنين أن يقولوا: «راعنا»، لَمَّا كان قولُ القائل: «راعنا» محتملاً أن يكون بمعنى احفظنا ونحفظكَ، وارقُبْنا ونرقبك. من قولِ العرب بعضِهم لبعض: «رعاك الله»: بمعنى حَفِظَكَ الله وكَلأَكَ - ومحتملاً أن يكون بمعنى: أرِعْنَا سَمْعَكَ، من قولهم: «أرعيتُ سَمعي إرعاءً - أو - رَاعيته سَمْعي رِعَاء أو مُرَاعاة» بمعنى: فَرَّغْتُه لسماعِ كلامِهِ.

وكان الله جَلَّ ثناؤه قد أَمَر المؤمنين بتوقير نبيه ﷺ وتعظيمه، حتى نهاهم جَلَّ ذِكْرُه فيما نهاهم عنه عَنْ رفعِ أصواتِهم فوقَ صَوته، وأن يَجْهَرُوا له بالقولِ كجهرِ بعضهم لبعضٍ، وخوفهم على ذَلك حُبوطَ أعمالهم. فتقدم إليهم بالزجرِ لهم عن أنْ يقولوا له من القولِ ما فيه جَفاءٌ، وأمرَهُم أن يتخيَّرُوا لخطابهِ من الألفاظِ أحْسَنَها، ومن المعاني أرَقَّها. فكان من ذلك قولهم: «راعنا» لما فيه من احتمال معنى: ارعنا نَرْعاك، إذ كانتِ المُفَاعَلَةُ لا تكون إلا من اثنين، كما يقول القائل: «عاطِنا، وحادثنا، وجالسنا»، بمعنى: افعل بنا نفعل بك - ومعنى: أرْعِنا سمعك، حتى نفهمكَ وتَفْهَمَ عنا. فنهى الله تعالى ذِكْرُه أصحابَ محمدٍ أن يقولوا ذلك كذلك، وأن يفردوا مسألته بانتظارهم وإمهالهم، ليعقِلُوا عنه، بتبجيلٍ منهم له وتعظيم، وأنْ لا يسألوهُ ما سَألوه من ذلك على وجهِ الجفاءِ

والتَّجَهُّمِ منهم له، ولا بالفظاظةِ والغِلْظَةِ، تَشَبُّهاً منهم باليهود في خطابهم نبيَّ الله ﷺ، بقولهم له: «اسْمَعْ غَير مُسمع ورَاعنا».

يَدُلُّ على صِحَّةِ ما قلنا في ذلك قوله: «ما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أهْلِ الكِتَابِ وَلاَ المُشْرِكينَ أنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيرٍ مِنْ رَبِّكُمْ»، فدلَّ بذلك أنَّ الذي عاتبهم عليه، مما يسرُّ اليهودَ والمشركين.

القول في تأويل قوله تعالى: وَقُولُوا انظُرْنَا

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «وقولوا انْظُرنا»، وقولوا أيها المؤمنون لنبيِّكم ﷺ: انْظُرْنا وارقبنا، نفهم ونتبين ما تقول لنا، وتُعلِّمنا، يقال منه «نظرت الرجلَ أنْظُرُه نَظِرَةً» بمعنى انتظرته ورقَبْته، ومنه قول الله عزَّ وجل: ﴿يوم يقُولُ المُنَافِقُونَ والمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُواانْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]، يعني به: انتظرونا.

القول في تأويل قوله جَلَّ ثناؤه: وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «واسمعوا»، واسمعوا ما يُقالُ لكم ويُتلى عليكم من كتابِ ربكم، وعُوه وافهموه.

فمعنى الآية إذاً: يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا لنبيكم: رَاعِنَا سَمْعَكَ وفرِّغْهُ لنا نفهمك وتفهمْ عنا ما نقول. ولكن قولوا: انتظرنا وترقَّبْنا حتى نفهمَ عنك ما تعلّمنا وتبيِّنُهُ لنا. واسمعوا منه ما يقولُ لكم، فَعُوهُ واحفظوهُ وافهموه. ثم أخبرهم جَلَّ ثناؤه أنَّ لمن جحدَ منهم ومن غيرهم آياته، وخالف أمْرَهُ ونهيه، وكَذَّبَ رسوله، العذابَ المُوجِعَ في الآخرةِ، فقال: وللكافرين بي وبرسولي

عَذابٌ أليم. يعني بقوله: «الأليم»، الموجع.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾

يعني بقوله «ما يود»، ما يُحِبُّ، أي: ليس يُحب كثيرٌ من أهل الكتاب. يقال منه: «وَدَّ فلانٌ كذا يَوَدُّهُ وُدّاً وَوِدّاً ومَوَدَّة».

وأمَّا «المشركين»، فإنهم في موضع خفضٍ بالعطفِ على «أهل الكتاب».

فتأويل الكلام: ما يحبُّ الكافرون من أهلِ الكتاب ولا المشركين بالله من عَبَدَةِ الأوثانِ، أنْ يُنَزَّلَ عليكم من الخير الذي كان عند الله فنَزَّلَهُ عليكم. فتمنَّى المشركون وكَفَرَةُ أهلِ الكتابِ أنْ لا يُنَزِّلَ الله عليكم الفرقانَ، وما أوحاهُ إلى محمدٍ ﷺ من حِكَمِهِ وآياتهِ، وإنما أحَبَّتِ اليهودُ وأتباعُهم من المشركين ذلك، حسداً وبغياً منهم على المؤمنين.

وفي هذه الآية دلالةٌ بيِّنَةٌ على أنَّ الله تبارك وتعالى نَهى المؤمنين عن الرُّكونِ إلى أعدائهم من أهل الكتاب والمشركين، والاستماع من قولهم، وقبول شيءٍ مما يأتونهم به على وجه النصيحة لهم منهم، بإطلاعهِ جَلَّ ثناؤه إياهم على ما يَسْتَبْطِنُهُ لهم أهلُ الكتابِ والمشركون من الضِّغْنِ والحسد، وإن أظهروا بألسنتهم خِلافَ ما هم مُستبطنون.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «والله يختص برحْمَته منْ يَشاء»: والله يختص منْ يشاءُ بنبوتهِ ورِسالتهِ فيرسله إلى مَنْ يشاءُ من خَلْقِهِ فيتفضلُ بالإيمان على مَنْ أحبَّ فيهديه له و«اختصاصُه» إياهم بها إفرادُهم بها دون غيرِهم من خَلْقِه. وإنما جعل الله رسالته إلى مَنْ أرْسل إليه من خَلْقِه وهدايتَهُ مَنْ هدى من عباده، رحمةً منه له، ليصيِّرَهُ بها إلى رِضاه ومحبته وفوزِهِ بها بالجنة، واستحقاقِهِ بها ثناءَه. وكُلُّ ذلك رحمةً من الله له.

وأما قوله: «والله ذُو الفضلِ العظيم». فإنه خبرٌ من الله جَلَّ ثناؤه عن أنَّ كُلَّ خيرٍ ناله عبادُه في دِينهم ودُنياهم، فإنه من عنده ابتداءً وتفضُّلاً منه عليهم، من غيرِ استحقاقٍ منهم ذلك عليه.

وفي قولـه: «والله يختص برحْمَتـه مَنْ يَشاء وَالله ذُو الفضْل العظيم»، تعريضٌ من الله تعـالى ذِكْرُه بأهلِ الكتاب: أنَّ الذي آتى نبيه محمداً ﷺ والمؤمنين به من الهـداية، تفضُّلٌ منه، وأنَّ نِعَمَهُ لا تُدْرَكُ بالأمانيِّ، ولكنها مَواهب منه يختصُّ بها مَنْ يشاءُ من خلقه.

القول في تأويل قوله تعالى: مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «ما نَنْسخْ مِنْ آيةٍ»: ما ننقل من حُكمِ آيةٍ، إلى غيره فنبدِّله ونغيِّره. وذلك أنْ يحوِّلَ الحلالَ حراماً، والحرام حلالاً، والمباحَ محظوراً، والمحظورَ مباحاً. ولا يكون ذلك إلاّ في الأمرِ والنهي، والحَظْرِ والإطلاقِ، والمنعِ والإباحةِ. فأما الأخبار، فلا يكونُ فيها ناسخ ولا منسوخ.

وأصـل «النسـخ» من «نسخ الكتاب»، وهوَ نَقْلُه من نُسخةٍ إلى أخرى غيرها. فكذلك معنى «نسخ» الحكم إلى غيره، إنما هو تحويلُه ونَقْلُ عبارته

عنه إلى غيرها. فإذا كان ذلك معنى نسخ الآية، فسواءٌ - إذا نُسِخَ حُكْمُهَا فغُيِّرَ وبُدِّلَ فرضها، ونُقل فرضُ العباد عن اللازم كان لهم بها - أُقِرَّ خَطُّها فترك، أو مُحِيَ أثرُها فعُفِّيَ ونُسِيَ، إذْ هي حينئذٍ في كِلْتَا حالتيها منسوخة، والحكم الحادث، المبدَل به الحكم الأول، والمنقول إليه فرضُ العبادِ، هو الناسخ. يقال منه: «نسخَ اللهُ آيةَ كذا وكذا يَنسخها نَسخاً» و«النُّسخة» الاسم.

القول في تأويل قوله تعالى: أَوْ نُنسِهَا

وتأويل: «أو نُنسِها» بمعنى: نتركها. لأنَّ الله جَلَّ ثناؤه أخبرَ نبيه ﷺ أنَّه مهما بَدَّلَ حُكْماً أو غيَّره، أو لم يبدله ولم يغيره، فهو آتيهِ بخيرٍ منه أو بِمِثْلِه. فالذي هو أولى بالآية، إذْ كان ذلك معناها، أن يكون - إذْ قَدَّمَ الخبرَ عما هو صانعٌ إذا هوَ غيَّرَ وبدل حُكْمَ آيةٍ - أن يُعقِّبَ ذلك بالخبرِ عَمَّا هو صانعٌ إذْ هو لم يبدِّل ذلك ولم يغيِّر. فالخبرُ الذي يجبُ إنْ يكونَ عَقيب قوله: «ما ننسخ من آية». قولـه: أو نترك نسخها، إذْ كان ذلك المعروف الجاري في كلامِ الناس. مع أن ذلك إذا قُرِىءَ كذلك بالمعنى الذي وصفت، فهو يشتمل على معنى «الإنساء» الذي هو بمعنىٰ الترك، ومعنى «النَّساء» الذي هو بمعنى التأخير إذْ كان كل متروك فمؤخَّرٌ على حالٍ مَا هو متروكٌ.

القول في تأويل قوله تعالى: نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ

ومعنى ذلك عندنا: مَا نُبَدِّل من حُكْمِ آيةٍ فنغيره، أَوْ نَتْرُكْ تبديلَهُ فنقرّه بحاله، نأتِ بخيرٍ منها لكم - من حكم الآية التي نسخنا فغيَّرنا حُكْمَها - إمَّا في العاجلِ، لِخِفَّتِهِ عليكم، مِنْ أجلِ أنه وَضْعُ فَرْضٍ كان عليكم، فأسقطَ ثِقْلَهُ عنكم، وذلك كالذي كان على المؤمنين من فَرْضِ قيامِ الليلِ، ثم نسخ ذلك فوضع عنهم، فكان ذلك خيراً لهم في عاجِلهم، لسقوطِ عِبْءِ ذلك وثِقْلِ

حمله عنهم، وإمَّا في الآجل، لِعِظَمِ ثوابه، من أجل مَشَقَّةِ حمله وثِقَل عبئه على الأبدان. كالذي كان عليهم من صيامِ أيامٍ معدوداتٍ في السنة، فنسخ وفرض عليهم مكانه صوم شهرٍ كامل في كل حَوْل. فكان فرضُ صومِ شهرٍ كامل كُلَّ سنة، أثقلَ على الأبدانَ من صيام أيام معدودات. غيرَ أن ذلك وإن كان كذلك، فالثوابُ عليه أجزل، والأجر عليه أكثر، لفَضْلِ مَشَقَّتِه على مكلَّفيه من صومِ أيام معدوداتٍ. فذلك وإنْ كان على الأبدان أشقَّ، فهو خيرٌ من الأول في الأجلِ لفضلِ ثوابِهِ وعِظَمِ أجْرِهِ، الذي لم يكن مثلُه لصوم الأيام المعدودات. فذلك معنى قوله: «نأتِ بخيرٍ منها». لأنه إمَّا بخيرٍ منها في العاجل لخفَّتِه علىٰ مَنْ كُلِّفَهُ، أو في الأجلِ لعِظَمِ ثوابِهِ وكثرةِ أجرِهِ.

أو يكون مثلها في المشقة على البَدنِ واستواءِ الأجرِ والثوابِ عليه، نظيرَ نَسْخِ الله تعالى ذِكْرُه فرضَ الصلاةِ شَطْرَ بيتِ المقدس، إلى فرضها شَطْرَ المسجدِ الحرام. فالتوجُّهُ شطرَ بيت المقدس، وإنْ خالف التوجُّه شَطْر المسجد، فكُلْفة التوجُّه ـ شطرَ أيِّهما توجّه شطْرَه ـ واحدة. لأن الذي على المُتوجِّهِ شطر البيت المقدس من مَؤُونة توجُّهه شطره، نظيرُ الذي على بَدَنِهِ من مؤونة توجُّهه شطرَ الكعبة، سواء. فلذلك هو معنى «المِثْل» الذي قال جَلَّ ثناؤه: «أو مِثْلِها».

وإنما عَنى جَلَّ ثناؤه بقوله: «ما نَنسخ من آية أو نُنسها»: ما ننسخ من حُكمِ آيةٍ أو نُنْسِه. غير أنَّ المخاطبينَ بالآية لما كان مفهوماً عندهم معناها، اكتفى بدلالة ذكر «الآية» من ذكر «حُكْمِهَا». وذلك نظير سائر ما ذكرنا من نظائره فيما مضى من كتابنا هذا، كقوله: ﴿وأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ العِجْلَ﴾ [البقرة: ٨٣]، بمعنى حُبَّ العجل، ونحو ذلك.

فتأويلُ الآية إذاً: ما نغيرْ من حُكْمِ آيةٍ فنُبدِّلَهُ، أو نتركه فلا نبدله، نأتِ

بخيرٍ لكم ـ أيها المؤمنون ـ حُكْماً منها، أو مِثْل حكمها في الخفَّةِ والثِّقل والأجرِ والثواب.

فإنْ قال قائل: فإنَّا قد علمنا أنَّ العِجْلَ لا يُشْرَبُ في القلوبِ، وأنه لا يلتبس على مَنْ سَمع قوله: «وأشْرِبوا في قُلوبهم العجل»، أن معناه: وأشربوا في قلوبهم حُبَّ العجل، فما الذي يدلّ على أنَّ قوله: «ما نَنسخْ من آيةٍ أو نُنْسِها نأتِ بخيرٍ منها» ـ لذلك نظيرٌ؟

قيل: الذي دلَّ على أنَّ ذلك كذلك قوله: «نأتِ بخيرٍ منها أو مِثْلِها»، وغيرُ جائزٍ أنْ يكونَ من القرآنِ شيءٌ خيرٌ من شيء، لأن جَميعه كلام الله، ولا يجوزُ في صِفاتِ الله تعالى ذكره أن يُقال: بعضها أفضلُ من بعض، وبعضُها خيرٌ من بعض.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ١٠٦﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «ألم تَعْلَمْ أن الله عَلى كل شيء قَدير»، ألم تعلم يا محمد أنِّي قادرٌ على تعويضكَ مما نسختُ من أحكامي، وغَيَّرته من فرائِضِي التي كنتُ افْتَرَضْتُها عليكَ، ما أشاءُ مما هو خيرٌ لك ولعبادي المؤمنين معك، وأنفعُ لكَ ولهم، إمَّا عاجلاً في الدنيا، وإما آجلاً في الآخرة ـ أو بأن أُبَدِّلَ لكَ ولهم مكانه مثله في النفع لهم ـ عاجلاً في الدنيا وآجلاً في الآخرة ـ وشَبيهَهُ في الخِفَّةِ عليكَ وعَليهم؟ فاعلمْ يا محمد أنِّي على ذلك وعلى كُلِّ شيءٍ قديرٌ.

ومعنى قوله: «قدير» في هذا الموضع: قويٌّ. يقال منه: «قد قَدَرت على كذا وكذا»، إذا قَويتَ عليه، «أقدرُ عليه وأقدُرُ عليه قُدْرة وقدْرَاناً ومَقْدِرَة»، وبنو مُرّة من غَطفان تقول: «قَدِرْت عليه» بكسر الدال.

فأما من «التقدير» من قول القائل: «قَدَرْتُ الشيءَ»، فإنه يقال منه قَدَرْته أقدِرُه قَدْراً وقَدَراً.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾

إنْ قال لنـا قائل: أوَلم يكن رسولُ الله ﷺ يعلم أنَّ الله على كُلِّ شيءٍ قدير، وأنهُ له مُلْكُ السماوات والأرض، حتى قيل له ذلك؟

قيل: بلى! فقد كان بعضُهم يقولُ: إنما ذلك من الله جَلَّ ثناؤه خبرٌ عن أنَّ محمداً قد عَلِمَ ذلك، ولكنه قد أخرج الكلامَ مُخرج التقرير، كما تفعلُ مِثْلَهُ العربُ في خطابِ بعضِها بعضاً، فيقول أحدهم لصاحبه: «أَلَمْ أُكْرِمْكَ؟ ألم أَتَفَضَّـلْ عليكَ؟» بمعنى إخباره أنه قد أكرمه وتفضَّل عليه، يريد: أليس قد أكرمتُكَ؟ أليس قد تفضلتُ عليك؟ بمعنى: قد علمت ذلك.

وهذا لا وجه لَهُ عندنا. وذلك أنَّ قوله جَلَّ ثناؤه: «ألم تعلم»، إنما معناه: أمَا علمتَ. وهو حرف جَحْدٍ أُدْخلَ عليه حرفُ استفهام، وحروف الاستفهام إنما تدخـلُ في الكـلام إمَّـا بمعنى الاستثبـات، وإما بمعنى النفي، فأما بمعنى الإثبات، فذلك غير معروفٍ في كلامِ العرب، ولاسيما إذا دخلتْ على حروفِ الجحد. ولكن ذلك عندي، وإن كانَ ظهر ظهورَ الخطابِ للنبيِّ ﷺ، فإنما هو معنيٌّ به أصحابه الذين قال لهمُ اللهُ جَلَّ ثناؤه: «لا تَقولوا رَاعِنا وقُولوا انْظُرنا واسْمَعوا». والذي يدلُّ على أنَّ ذلكَ كذلك، قولُه جَلَّ ثناؤه: «ومَا لكم مِنْ دُون الله من وَليٍّ وَلاَ نَصير»، فعاد بالخطابِ في آخرِ الآية إلى جميعهم، وقد ابتدأ أولها بخطابِ النبي ﷺ بقوله: «ألم تَعلم أن الله لهُ مُلْكُ السموات والأرض»، لأنَّ المُـرَادَ بذلك الذين وصفتْ أمرَهم من أصحابه. وذلك من كلام العرب

مستفيضٌ بينهم فصيحٌ: أنْ يُخْرِجَ المتكلمُ كلامَه على وجهِ الخطابِ منه لبعض الناسِ وهو قاصدٌ به غيرَهُ، وعلى وجهِ الخطابِ لواحدٍ وهو يقصدُ به جماعةً غيره، أو جماعة والمخاطبُ به أحدُهم ـ وعلى وجه الخطاب للجماعة، والمقصودُ به أحدهم. من ذلك قول الله جَلَّ ثناؤه: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلاَ تُطِعِ الكَافِرِينَ وَالمُنَافِقِينَ﴾ ثم قال: ﴿واتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ [الأحزاب: ١-٢]، فرجع إلى خطاب الجماعة، وقد ابتدأ الكلام بخطاب النبي ﷺ، فكذلك قوله: «ألم تَعلم أنَّ اللهَ على كل شيء قدير* ألم تَعلم أن الله لَه مُلْكُ السماوات والأرض»، وإن كان ظاهرُ الكلام على وَجْهِ الخطابِ للنبي ﷺ، فإنه مقصودٌ به قَصْد أصحابه. وذلك بَيِّنٌ بدلالة قوله: «ومَا لكم من دُون الله من وَلِيٍّ ولا نصير* أم تريدون أنْ تسألوا رَسولَكُم كما سُئل مُوسى مِنْ قَبْلُ» الآيات الثلاث بعدها ـ على أنَّ ذلك كذلك.

أما قوله: «لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض» ولم يقل: ملك السماوات، فإنه عَنَى بذلك «مُلْكُ» السلطانِ والمملكةِ دون «المِلْك». والعرب إذا أرادت الخبرَ عن «المملكة» التي هي مملكة سلطان، قالت: «ملَكَ اللهُ الخَلْقَ مُلكاً». وإذا أرادت الخبر عن«المِلك» قالت: «مَلَكَ فلان هذا الشيءَ فهو يَمْلِكُه مِلْكاً وَمَلَكة وَمَلْكاً».

فتأويل الآية إذاً: ألم تعلم يا محمدُ أنَّ لي مُلك السماواتِ والأرض وسُلطانهما دون غيري، أحكمُ فيهما وفيما فيهما ما أشاء، وآمُر فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وأنهى عمّا أشاء، وأنسخ وأبدِّل وأغيِّر من أحكامي التي أحكُم بها في عبادي ما أشاء إذا أشاء، وأقِرُّ منها ما أشاء؟

وهذا الخبر وإنْ كان من الله عزَّ وجل خطاباً لنبيِّه محمد ﷺ على وَجْهِ الخبر عن عظمته، فإنه منه جَلَّ ثناؤه تكذيبٌ لليهودِ الذين أنكروا نَسْخ أحكام

التوراة، وجَحدوا نبوَّةَ عيسى، وأنكروا محمداً ﷺ، لمجيئهما بما جاءا به من عند الله بتغييرِ ما غيَّر الله من حُكْمِ التوراة. فأخبرهم الله أنَّ له مُلك السماوات والأرض وسلطانهما، فإنَّ الخَلْقَ أهل مَملكته وطاعته، عليهم السَّمعُ له والطاعةُ لأمرِهِ ونهيِهِ، وأنَّ له أمْرَهم بما شاء، ونهيَهُم عَمَّا شاء، ونسخَ ما شَاء، وإقرارَ ما شاء، وإنساءَ ما شاء من أحكامِهِ وأمرِهِ ونهيِهِ. ثم قال لنبيه ﷺ وللمؤمنين معه: انقادوا لأمري، وانتهوا إلى طاعتي فيما أنسخُ، وفيما أتركُ فلا أنسخُ، من أحكامي وحدودي وفرائضي، ولا يَهُولَنكم خلافُ مخالفٍ لكم في أمري ونهيِي وناسخِي ومنسوخي، فإنَّهُ لا قيِّمَ بأمرِكم سوايَ، ولا ناصرَ لكم غيري، وأنا المنفردُ بوَلَايتكم، والدفاع عنكم، والمتوحِّدُ بِنُصْرَتِكُم بعزِّي وسلطاني وقوّتي على مَنْ نَاوَأَكُمْ وحادَّكُم، ونَصبَ حَرْبَ العداوةِ بينهُ وبينكم، حتى أُعْلِيَ حُجَّتَكُم، وأجعَلَها عليهم لَكُمْ.

و«الوليُّ» معناه «فعيل» من قول القائل: «وَلِيتُ أمرَ فلان»، إذا صِرْتَ قيِّماً به، «فأنا أليه، فهو وَليّه» وقيِّمه. ومن ذلك قيل: «فلان وَليُّ عهد المسلمين»، يعني به: القائم بما عُهِدَ إليه من أمر المسلمين.

وأما «النصير» فإنه «فعيل» من قولك: «نَصرتُك أنصُرك، فأنا ناصرك ونصيرك»، وهو المؤيِّد والمقوِّي.

وأما معنى قوله: «من دون الله»، فإنه سوَى الله، وبعد الله.

فمعنى الكلام إذاً: وليس لكم، أيها المؤمنون، بعدَ الله من قيِّمٍ بأمركم، ولا نَصيرٍ فيؤيِّدَكم ويقوِّيكم، فيعينكم على أعدائكم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾

وتأويل ذلك: أنّه استفهامٌ مبتدأً، بمعنى: أتريدون أيُّها القومُ أنْ تسألوا رَسُولكم؟ وإنما جَازَ، أن يستفهم القوم بـ «أمْ»، وإنْ كانت «أم» أحد شروطها أن تكون نَسَقاً في الاستفهام لتقدُّمِ ما تَقَدَّمَها من الكلام، لأنها تكون استفهاماً مُبتدأً إذا تقدمها سابقٌ من الكلام. ولم يُسمع من العرب استفهامٌ بها ولم يتقدمها كلام. ونظيره قوله جَلَّ ثناؤه: ﴿الٓمٓ* تَنْزِيلُ الكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ العَالمِين* أمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ [السجدة: ١-٣].

وقد تكون «أم» بمعنى «بل»، إذا سبقها استفهامٌ لا يصلح فيه «أيّ»، فيقولون: «هل لَكَ قِبَلنا حقٌّ، أم أنتَ رجلٌ معروفٌ بالظلم».

وقد كان بعضهم يقول ـ مُنْكِراً قولَ مَنْ زعم أنَّ «أم» في قوله: «أم تريدون» استفهام مستقبَلٌ منقطع من الكلام، يميل بها إلى أوّله ـ: إنَّ الأول خبر، والثاني استفهام، والاستفهامُ لا يكونُ في الخبر، والخبر لا يكون في الاستفهام، ولكن أدرَكه الشكُّ ـ بزعمه ـ بعد مُضيِّ الخبر، فاستفهم.

فإذْ كان معنى «أم» ما وصفنا، فتأويلُ الكلام: أتريدون أيها القومُ أنْ تَسألوا رسولَكُم من الأشياءِ نظيرَ ما سألَ قومُ موسى من قبلكم، فتكفروا ـ إنْ مُنِعْتُموه ـ في مسألتكم ما لا يجوز في حِكْمةِ الله إعطَاؤُكُموهُ، أو أنْ تهلكوا إنْ كان مما يجوز في حكمته عَطاؤُكُموه، فأعطاكُمُوه، ثم كفرتم من بعد ذلك، كما هَلَكَ مَنْ كان قبلكم من الأمم التي سألت أنبياءَها ما لم يَكُنْ لها مسألتُها إياهم، فلما أعطيت كفرت، فَعُوجِلَتْ بالعقوباتِ لكفرها، بعد إعطاءِ الله إيَّاها سُؤْلَها.

القول في تأويل قوله تعالى: وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «ومَنْ يَتبدَّل»، ومَنْ يستبدل «الكفر»، ويعني

بـ «الكفر» الجحودَ بالله وبآياته، «بالإيمان»، يعني بالتصديقِ باللهِ وبآياتهِ والإقرارِ به.

وقد قيل: عَنى بـ «الكفر» في هذا الموضع: الشِدَّةَ، وبـ «الإيمان» الرخاء. ولا أعرفُ الشِدَّةَ في معاني «الكفر»، ولا الرخاءَ في معنى «الإيمان»، إلا أنْ يكون قائلُ ذلك أرَاد بتأويلهِ «الكفر» بمعنى الشدة في هذا الموضع، وبتأويله «الإيمان» في معنى الرخاء ـ: ما أعَدَّ الله للكفار في الآخرة من الشدائد، وما أعَدَّ الله لأهلِ الإيمان فيها من النعيم، فيكون ذلك وجهاً، وإنْ كان بعيداً من المفهوم بظاهر الخطاب.

وفي قوله: «ومَنْ يتبدَّلِ الكفرَ بالإيمان فَقدْ ضَلَّ سَواء السبيل»، دليلٌ واضح على ما قلنا: من أنَّ هذه الآيات من قوله: «يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا رَاعِنا»، خطابٌ من اللهِ جَلَّ ثناؤه المؤمنينَ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ، وعتابٌ منهُ لهم على أمر سَلَفَ منهم، مما سُرَّ به اليهودُ، وكرهه رسولُ الله ﷺ لهم، فكرهه الله لهم، فعاتَبهم على ذلك، وأعْلَمَهُم أن اليهود أهلُ غِشٍّ لهم وحسدٍ وبَغْيٍ، وأنهم يتمنَّونَ لهم المكارهَ، ويبغونهم الغوائلَ ونهاهم أنْ ينتصحوهم، وأخبرهم أنَّ مَنِ ارتدَّ منهم عن دينه فاستبدل بإيمانهِ كفراً، فقد أخطأ قَصْدَ السبيل.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١٠٨﴾

أما قوله: «فقد ضَلَّ»، فإنه يعني به: ذهب وحادَ. وأصلُ «الضلال عن الشيء»، الذهابُ عنه والحَيْد، ثم يُستعملُ في الشيءِ الهالك، والشيء الذي لا يُؤبَه له، كقولهم للرجل الخامل الذي لا ذِكْرَ له ولا نَباهة: «ضُلُّ بن ضُلّ» و«قُلُّ بنَ قُلّ».

والذي عَنَى اللهُ تعالى ذِكْرُه بقوله: «فقد ضَلَّ سَواءَ السبيل»، فقد ذهب عن سواء السبيل وحَادَ عنه.

وأما تأويلُ قوله: «سَواء السبيل»، فإنه يعني بـ«السواء»، القصدَ والمنهجَ. وأصْل «السواء» الوسط. ذُكر عن عيسى بن عمر النحويّ أنه قال: «ما زلت أكتبُ حتى انقطع سَوائِي»، يعني: وسطي، والعربُ تقول: «هو في سَواء السبيل»، يعني في مستوى السَّبيل، و«سواء الأرض»: مستواها، عندهم.

وأمّا «السَّبيل»، فإنها الطريقُ المسبولُ، صُرف من «مَسبول» إلى «سبيل».

فتأويل الكلام إذاً: ومن يستبدل بالإيمان بالله وبرسوله الكفرَ، فيرتدَّ عن دِينِه، فقد حَادَ عن مَنهَجِ الطريقِ ووَسطِهِ الواضحِ المسبول.

وهذا القولُ ظاهرُه الخبرُ عن زوالِ المستبدِلِ بالإيمانِ الكفرَ عن الطريق، والمعنيُّ به الخبرُ عنه أنه تَرك دِينَ اللهِ الذي ارتضاه لعباده، وجعله لهم طريقاً يَسْلُكونه إلى رِضَاهُ، وسبيلاً يركبونها إلى محبته والفوز بجناته. فجعل جَلَّ ثناؤه الطريقَ ـ الذي إذا ركبَ محجَّته السائرُ فيه، ولزم وَسَطه المجتازُ فيه، نَجَا وبلغَ حاجَتَهُ، وأدرك طلبته ـ لدِينِهِ الذي دعا إليه عبادَهُ، مثلاً، لإدراكِهم بلزومهِ واتِّباعِه، طَلِباتهم في آخرتهم، كالذي يُدرك اللازم محجَّة السبيلِ ـ بلزومهِ إيَّاها ـ طلبتَهُ من النجاةِ منها، والوصول إلى الموضعِ الذي أمَّهُ وقصده. وجعل مثل الحَائِدِ عن دِينِهِ، الجائرِ عن اتِّباعِ ما دَعاه إليه من عبادته ـ في إخطائِه ما رجَا أن يدركه بعمله في آخرتهِ وينال به في معادِهِ، وذهابه عما أمَّلَ من ثواب عمله، وبُعْدِه به من رَبِّه ـ مثلَ الحائدِ عن منهجِ الطريقِ وقَصْدِ السبيلِ، الذي لا يزدادُ وُغُولاً في الوجهِ الذي سَلكه، إلاّ ازدادَ من موضعِ حاجتهِ بُعْداً، وعن المكانِ الذي أمَّهُ وأراده نَأْياً.

وهذا السبيلُ التي أخبرَ اللهُ عنها، أنَّ مَنْ يَتَبَدَّلِ الكفرَ بالإيمان فقد ضلَّ سَواءَها هي «الصِّراط المستقيم»، الذي أمرنا بمسألته الهدايةَ له بقوله: «اهْدِنَا الصِراطَ المستقيم، صِراطَ الذين أنْعمتَ عَليهم».

القول في تأويل قوله تعالى: وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا

وقَدْ صَرَّح هذا القولُ من قولِ الله جَلَّ ثناؤه، بأنَّ خطابه بجميع هذه الآيات من قوله: «يا أيها الذين آمنوا لا تَقولوا رَاعِنا» - وإن صَرَفَ في نَفسه الكلامَ إلى خطابِ النبيِّ ﷺ - إنما هو خطابٌ منه للمؤمنين من أصحابِهِ، وعتابٌ منه لهم، ونهيٌ عن انتصاحِ اليهود ونظرائِهم من أهلِ الشركِ وقَبُولِ آرائِهم في شيءٍ من أمور دينهم - ودليلٌ على أنهم كانوا استعملوا أو مَنِ استعمل منهم في خطابِهِ ومسألته رسولَ الله ﷺ الجفاءَ، وما لم يكن له استعماله معه، تأسِّياً باليهودِ في ذلك أو ببعضِهم. فقال لهم رَبُّهم ناهياً عن استعمال ذلك: لا تقولوا لنبيِّكم ﷺ كما تقولُ له اليهود: «رَاعِنا»، تأسِّياً منكم بهم، ولكن قولوا: «انْظُرنا واسمعوا» فإنَّ أذى رسولِ الله ﷺ كفرٌ بي، وجحودٌ لحقِّي الواجبِ لي عليكم في تعظيمِه وتوقيرِهِ، ولمن كَفَرَ بي عذابٌ أليم؛ فإنَّ اليهودَ والمشركين ما يودُّون أنْ يُنَزَّلَ عليكم من خيرٍ من رَبِّكم، ولكنَّ كثيراً منهم وَدُّوا أنهم يَرُدُّونكم مِنْ بَعْدِ إيمانكم كفاراً، حَسَداً من عند أنفسهم لكم ولنبيكم محمد ﷺ، من بعد ما تَبيَّنَ لهم الحَقُّ في أمرِ محمدٍ، وأنه نبيٌّ إليهم وإلى خَلْقِي كافةً.

القول في تأويل قوله تعالى: حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم

ويعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «حَسداً من عند أنفسهم»، أنَّ كثيراً من أهل

الكتاب يَودُّون للمؤمنين ما أخبر الله جَلَّ ثناؤه عنهم أنهم يودونه لهم، من الردّةِ عن إيمانِهم إلى الكفرِ، حَسَداً منهم وبغياً عليهم.

وأما قوله: «من عند أنفُسِهم»، فإنه يعني بذلك: من قِبَلِ أنْفُسِهم، كما يقولُ القائل: «لي عِندكَ كذا وكذا»، بمعنى: لي قِبَلَكَ.

وإنما أخبرَ اللهُ جَلَّ ثناؤه عنهم المؤمنين أنَّهم ودُّوا ذلك للمؤمنين، من عند أنفسهم، إعْلاماً منه لهم بأنهم لم يُؤْمَرُوا بذلك في كتابهم، وأنهم يأتون ما يأتون من ذلك على عِلْمٍ منهم بنهي الله إياهم عنه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «من بَعد مَا تَبينَ لَهُمُ الحقُّ»، أي من بعد ما تَبيَّنَ بهؤلاء الكثيرِ من أهلِ الكتاب ـ الذين يودُّون أنَّهم يردُّونكم كفاراً من بعد إيمانكم ـ الحقُّ في أمرِ محمدٍ ﷺ، وما جاءَ بهِ من عند ربه، والملة التي دعا إليها فأضاءَ لهم: أنَّ ذلك الحق الذي لا يمترون فيه.

فَدَلَّ بقوله ذلك: أنَّ كُفْرَ الذين قَصَّ قِصَّتهم في هذه الآية بالله وبرسوله، عنادٌ، وعلى عِلْمٍ منهم ومعرفةٍ بأنهم على الله مفترون.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «فاعفوا»، فتجاوزوا عما كان منهم من إساءةٍ وخطأ في رأيٍ أشاروا به عليكم في دِينكم، إرادةَ صَدِّكم عنه، ومحاولة ارتدادكم بعد إيمانكم ـ وعَمَّا سَلَفَ منهم من قِيلهم لنبيِّكم ﷺ: ﴿ٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا

لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِم وَطَعْناً فِي الدِّين﴾ [النساء: ٤٦]، واصفحوا عمَّا كان منهم من جهلٍ في ذلك - حتى يأتيَ الله بأمره، فيحدث لكم من أمره فيكم ما يشاء، ويقضي فيهم ما يريد. فقضى فيهم تعالى ذِكْرُه وأتى بأمره، فقال لنبيه ﷺ وللمؤمنين به: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]. فنسخ الله جَلَّ ثناؤه العفو عنهم والصفح، بفرض قِتالِهم على المؤمنين، حتى تصيرَ كلمتُهم وكلمةُ المؤمنين واحدة، أو يؤدُّوا الجزيةَ عن يَدٍ صَغاراً.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ١٠٩﴾

قد دللنا فيما مضى على معنى «القدير»، وأنه القويّ.

فمعنى الآية ههنا: إنَّ الله - على كل ما يَشاء بالذين وصفتُ لكم أمْرَهُمْ من أهلِ الكتاب وغيرهم - قديرٌ، إنْ شاء انتقم منهم بعنادهم ربَّهم، وإنْ شاء هَدَاهُم لما هداكم الله له من الإيمان، لا يتعذَّرُ عليه شيءٌ أراده، ولا يتعذرُ عليه أمرٌ شَاءَ قضاءه، لأنَّ له الخَلق والأمرَ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾

قد دللنا فيما مضى على معنى «إقامَة الصلاة»، وأنها أداؤها بحدودها وفروضها، وعلى تأويلِ «الصلاة» وما أصلها، وعلى معنى «إيتاء الزكاة»، وأنه إعطاؤها بطيبِ نَفْسٍ عَلى ما فُرِضَتْ وَوَجبت، وعلى معنى «الزكاة»، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

وأما قوله: «وَمَا تُقدِّموا لأنفسكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجدوهُ عندَ الله»، فإنه يعني جَلَّ ثناؤه بذلك: ومهما تعملوا من عَملٍ صالحٍ في أيامِ حياتكم، فتقدِّمُوه قبلَ وفـاتكم ذُخْـراً لأنفسكم في مَعـادِكم، تجـدوا ثوابَـهُ عند ربكم يوم القيامة، فيجازيكم به.

و«الخير» هو العملُ الذي يرضاه الله. وإنما قال: «تَجِدُوه»، والمعنى: تجدوا ثوابَهُ، لاستغناء سامِعي ذلك بدليل ظاهرٍ على مَعنى المراد منه.

وإنما أمرَهم جَلَّ ثناؤه في هذا الموضع بما أمرهم به، من إقامِ الصلاة وإيتاء الزكاةِ وتقديمِ الخيرات لأنفسهم، لِيُطَهِّرُوا بذلك من الخطأ الذي سَلَفَ منهم في استنصاحهم اليهود، ورُكونِ مَنْ كان ركن منهم إليهم، وجفاءِ مَنْ كان جَفا منهم في خطابه رَسولَ الله ﷺ بقوله: «راعِنا»، إذْ كانت إقامةُ الصلوات كفارةً للذنوب، وإيتاءُ الزكاة تطهيراً للنفوس والأبدانِ من أدْناسِ الآثام، وفي تَقديمِ الخيراتِ إدراكُ الفوْز برضوان الله.

القول في تأويل قوله تعالى: إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾

وهذا خبرٌ من الله جَلَّ ثناؤه للذين خاطبهم بهذه الآيات من المؤمنين، أنهم مَهما فَعلُوا من خيرٍ وشـرٍّ سِرّاً وعلانيةً، فهو بصيرٌ لا يخفى عليه منه شيء، فيجزيهم بالإحسان خيراً، وبالإساءة مثلها.

وهذا الكلام، وإنْ كان خَرَجَ مخرجَ الخبر، فإن فيه وَعْداً ووعيداً وأمراً وزجراً. وذلك أنه أعْلَمَ القومَ أنه بصيرٌ بجميعِ أعمالهم، ليَجِدُّوا في طاعته، إذْ كان ذلك مذخـوراً لهم عنـده حتى يُثِيبهم عليه، كمـا قال: «وما تُقَدِّمُوا لأنْفُسِكم من خيرٍ تجـدوه عند الله»؛ وليَحْذَرُوا معصيتَهُ، إذْ كان مُطَّلِعاً على راكبها، بعد تقدُّمِه إليها فيها بالوعيد، وما أوْعدَ عليه ربُّنا جَلَّ ثناؤه فمنهيٌّ عنه، وما وَعَد عليه فمأمورٌ به.

أما قوله: «بَصير»، فإنه «مُبصر» صُرِف إلى «بصير»، كما صرف «مُبدع» إلى «بديع» و«مؤلم» إلى «أليم».

القول في تأويل قوله تعالى جلَّ ذِكرُهُ: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «وقالوا»، وقالت اليهودُ والنصارى «لن يدخل الجنة».

فإنْ قال قائلٌ: وكيف جمع اليهود والنصارى في هذا الخبر، مع اختلافِ مقالةِ الفريقين؛ واليهود تدفَع النصارى عن أنْ يكونَ لها في ثوابِ الله نصيبٌ، والنصارَى تدفعُ اليهودَ عن مثل ذلك؟

قيل: إنَّ معنى ذلك بخلافِ الذي ذهبتَ إليه. وإنما عنَى به: وقالت اليهودُ: لن يدخلَ الجنةَ إلا مَنْ كان هُوداً؛ وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا النصارى. ولكن معنى الكلام لمَّا كان مفهوماً عند المخاطبين به معناه، جُمع الفريقان في الخبرِ عنهما، فقيل: «وقالوا لَنْ يَدخل الجنةَ إلا مَنْ كان هُوداً أو نَصارَى» الآية ـ أي قالت اليهود: لن يدخل الجنةَ إلَّا من كان يهودياً، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلَّا من كان نصرانياً.

وأما قوله: «مَن كان هُوداً»، فإن في «الهود» قولين:

أحدهما: أنْ يكونَ جمع «هائد» كما جاء «عُوط» جمع «عائط» و«عوذ» جمع «عائذ» و«حول» جمع «حائل»، فيكون جمعاً للمذكر والمؤنث بلفظٍ واحد. و«الهائد». التائبُ الراجعُ إلى الحق.

والآخر: أن يكون مَصدراً عن الجميعِ، كما يقال: «رَجُلٌ صَوْم، وقَوْمٌ

صَوْم»، و«رجل فِطْرٌ وقومٌ فِطْرٌ، ونِسوة فِطْرٌ».

وقد قيل: إنَّ قَوله: «إلا مَنْ كان هُوداً»، إنما هو قوله، إلاّ مَنْ كان يَهوداً، ولكنه حذف الياء الزائدة، ورَجع إلى الفعل من اليهودية. وقيل: إنه في قراءة أبي: «إلا من كان يَهودياً أو نَصرانياً».

وقد بيَّنا فيما مضى معنى «النصارى»، ولِمَ سُمِّيَتْ بذلك، وجُمِعَتْ كذلك، بما أغنى عن إعادته.

وأما قوله: «تلك أمانيُّهم»، فإنه خَبَرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن قول الذين قالوا: «لن يدخل الجنةَ إلاَّ مَنْ كان هُوداً أو نَصارَى»، أنه أمانيّ منهم يتمنَّونَهَا على اللهِ بغيرِ حقٍ ولا حجةٍ ولا برهان، ولا يقين علم بصحة ما يَدَّعُونَ، ولكن بادِّعاءِ الأباطيلِ وأمانيّ النفوس الكاذبة.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾

وهذا أمرٌ من الله جَلَّ ثناؤه لنبيه ﷺ بدعاءِ الذين قالوا: «لن يدخلَ الجنة إلاَّ مَنْ كان هُوداً أو نَصارَى» - إلى أمرٍ عدلٍ بين جميع الفرق: مسلمها، ويَهودها، ونَصارَاها، وهو إقامةُ الحجة على دَعواهم التي ادَّعوا: من أنَّ الجنة لا يَدْخُلُها إلاَّ مَنْ كان هُوداً أو نصارى. يقول الله لنبيه محمد ﷺ: يا محمد، قُلْ للزاعمينَ أنَّ الجنة لا يدخُلها إلاَّ مَنْ كان هوداً أو نصارى، دُونَ غيرهم من سَائر البشر: «هَاتُوا بُرهانكم» على ما تزعمون من ذلك، فنسلِّمَ لكم دَعْواكم إنْ كنتم في دَعواكم - من أنَّ الجنةَ لا يدخلها إلاَّ مَنْ كان هوداً أو نصارى - مُحِقِّينَ.

و«البرهان»، هو البيانُ والحجة والبيِّنة.

وهـذا الكلام، وإنْ كان ظاهرهُ ظاهر دُعاء القائلين: «لن يدخُلَ الجنة إلا مَنْ كان هُوداً أو نَصارَى» - إلى إحضار حُجة على دعواهم ما ادَّعوا من ذلك، فإنه بمعنَى تكذيبٍ من اللهِ لهم في دعواهم وقِيلهم، لأنهم لم يكونوا قادرينَ على إحضارِ برهانٍ على دعواهم تلك أبداً. وَقد أبان قوله: «بَلى مَنْ أسْلَمَ وجْههُ لله وهُـو مُحْسِنٌ»، عن أنَّ الـذي ذكرنا من الكلام، بمعنى التكذيبِ لليهودِ والنصارى في دعواهُم وما ذكر الله عنهم.

وأما تأويل قوله: «قل هَاتُوا بُرهانكم»، فإنه: أَحْضِرُوا وَأْتُوا به.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «بَلى مَنْ أسلم»، أنه ليس كما قال الزاعمون: «لَنْ يَدْخُلَ الجنةَ إلاَّ مَنْ كان هُوداً أو نَصارَى»، ولكن من أسْلَمَ وجههُ للهِ وهو مُحْسِنٌ، فهو الذي يدخلها وينعم فيها.

وقد بيَّنا معنى «بلى» فيما مضى قَبْلُ.

وأما قوله: «مَنْ أسلم وجهه لله»، فإنه يعني بـ«إسلام الوجه»: التذلُّل لطاعتـهِ، والإذعان لأمره. وأصلُ «الإسلام» الاستسلامُ، لأنه من «استسلمتُ لأمرهِ» وهو الخضوع لأمره. وإنما سُمِّيَ «المسلمُ» مسلماً، بخضوعِ جوارحهِ لطاعةِ ربه.

وخصَّ اللهُ جَلَّ ثناؤه بالخبر عمن أخبر عنه بقوله: «بَلى مَنْ أسْلَم وَجهه لله»، بإسلام «وجهه» له دونَ سائرِ جوارحه، لأنَّ أكرمَ أعضاءِ ابنِ آدمَ وجوارحه وَجهه، وَهو أَعْظَمُهَا عليه حُرْمَةً وحقاً. فإذا خضَع لشيءٍ وجهه الذي هو أكرمُ

أجزاء جسدهِ عليه، فغيرُه من أجزاءِ جسده أحرَى أنْ يكون أخضع له، ولذلك تذكر العرب في منطقها الخبرَ عن الشيءِ فتضيفُه إلى «وجههِ»، وهي تعني بذلك نَفْسَ الشيء وَعيْنَهُ، فكذلك معنى قوله جَلَّ ثناؤه: «بَلى من أسْلم وَجْهَهُ لله»، إنما يعني: بلى مَنْ أسلم لله بَدَنَـهُ، فخضع له بالطاعةِ جسدُه، وهو محسنٌ في إسلامه له جَسدَه، فله أجرهُ عند ربه. فاكتفى بذكر «الوَجه» من ذكر «جَسده»، لدلالةِ الكلامِ على المعنى الذي أُريدَ به بذكر «الوجه».

وأما قوله: «وهو محسنٌ»، فانه يعني به: في حال إحسانه وتأويل الكلام: بلى مَنْ أخْلَصَ طَاعَتَهُ للهِ وعبادته له، محسناً في فعله ذلك.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «فله أجْرُه عندَ ربه»، فللمُسَلِّمِ وجْهَهُ لله محسناً، جزاؤهُ وثوابه على إسلامه وطاعته ربه، عندَ الله في معاده.

ويعني بقـولـه: «ولا خوفٌ عليهم» ـ على المسلمين وجوههم لله وهم محسنون، المخلصين له الدِّينَ في الآخرة ـ من عقابهِ وعذابِ جحيمه، ومَا قدموا عليه من أعمالهم.

ويعني بقوله: «ولَا هُمْ يحزنون»، ولا هم يحزنون على ما خَلَّفُوا وراءهم في الدنيا، ولا أن يُمْنَعُوا ما قَدِمُوا عليه من نعيمِ ما أعدَّ اللهُ لأهلِ طاعته.

وإنما قال جَلَّ ثناؤه: «ولا خوفٌ عليهم ولا هُم يَحزنون»، وقد قال قَبْلُ: «فلهُ أجرهُ عند ربِّه»، لأنَّ «مَنْ» التي في قوله: «بَلى مَنْ أسلم وجْهَهُ لله» في لفظِ واحدٍ ومعنًى جميعٍ، فالتوحيدُ في قوله: «فله أجره» للفظ، والجمع في قوله: «ولا خَوفٌ عليهم» للمعنى.

البقرة: ١١٣

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾

ذُكر أنَّ هذه الآية نزلت في قَوْمٍ من أهل الكتابين، تَنازعُوا عندَ رسول الله ﷺ فقال بعضهم لبعض ذلك.

وأمّا تأويل الآية فإنه: قالت اليهود: ليست النصارى في دِينها على صوابٍ! وقالت النصارى: ليست اليهود في دينها على صواب! وإنما أخبر الله عنهم بقِيلِهم ذلك للمؤمنين، إعلاماً منه لهم بتضييعِ كُلٍّ فريقٍ منهم حُكْمَ الكتاب الذي يُظهر الإقرارَ بصحته، وأنه من عند الله، وجحودِهم مع ذلك ما أنزل الله فيه من فروضه. لأنَّ الإنجيلَ الذي تَدِينُ بصحته وحقيَّته النصارى، يحققُ ما في التوراة من نبوَّةِ موسى عليه السلام، وما فَرَضَ الله على بني إسرائيل فيها من الفرائضِ، وأنَّ التوراةَ التي تَدِينُ بصحتها وحَقِّيتها اليهودُ، تحققُ نبوَّةَ عيسى عليه السلام، وما جاء به من عندِ اللهِ من الأحكام والفرائض.

ثم قال كُلُّ فريقٍ منهم للفريق الآخر ما أخبر الله عنهم في قوله: «وقالتِ اليهودُ لَيست النصارى عَلَى شيء، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء»، مع تلاوةِ كُلِّ واحدٍ من الفريقين كتابَه الذي يشهد على كذبه في قِيلِه ذلك. فأخبر جَلَّ ثناؤه أنَّ كُلَّ فريقٍ منهم قال ما قال من ذلك، على عِلْمٍ منهم أنَّهم فيما قالوه مُبْطِلُون؛ وأتوا ما أَتَوْا من كُفْرِهم بما كفروا به، على معرفةٍ منهم بأنهم فيه مُلْحِدُون.

فإنْ قال لنا قائل: أوَ كانتِ اليهودُ والنصارى بعد أن بَعث الله رسولَهُ على شيءٍ، فيكون الفريق القائل منهم ذلك للفريق الآخر، مُبْطِلاً في قِيلِه ما قالَ من ذلك؟

قيل: إنَّ إنكارَ كُلِّ فريقٍ منهم، إنما كان إنكاراً لنبوَّةِ النبيِّ الذي ينتحلُ التصديقَ به وبما جاء به الفريقُ الآخر، لا دفعاً منهم أن يكون الفريق الآخر - في الحال التي بعث الله فيها نبينا ﷺ - على شيءٍ من دينه، بسبب جحودهِ نبوَّةَ نبيِّنا محمدٍ ﷺ. وكيف يجوزُ أنْ يكون معنى ذلك إنكارَ كل فريقٍ منهم أن يكونَ الفريقُ الآخر على شيءٍ بعد بعثه نبينا ﷺ، وكلا الفريقين كان جاحداً نبوةَ نبينا محمدٍ ﷺ، في الحالِ التي أنزل الله فيها هذه الآية؟ ولكن معنى ذلك: وقالت اليهود: ليست النصارى على شيءٍ من دِينِها مُنذُ دانت دينها! وقالت النصارى: ليست اليهود على شيءٍ مُنذ دانت دينها! فكذَّبَ اللهُ الفريقين في قِيلِهما ما قالا.

وأما قوله: «وهُم يَتلونَ الكتابَ»، فإنه يعني به كتابَ الله التوراةَ والإنجيلَ، وهما شاهدان على فريقي اليهود والنصارى بالكفر، وخلافِهم أمرَ اللهِ الذي أمرهم به فيه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ﴾

إن الله تبارك وتعالى أخبر عن قَوم - وَصَفَهم بالجهلِ، ونَفى عنهم العلم بما كانت اليهود والنصارى به عالمين - أنهم قالوا بجهلهم نظيرَ ما قال اليهود والنصارى بعضُها لبعضٍ، مِمَّا أخبر عنهم أنهم قالوهُ في قوله: «وقالت اليهودُ ليست النصارى على شَيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء». وجائزٌ أن يكونوا هم المشركينَ من العربِ، وجائزٌ أن يكونوا أُمَّةً كانت قبلَ اليهودِ والنصارى، ولا أمَّة أَوْلى أنْ يُقالَ هي التي عُنيت بذلك من أخرى، إذْ لم يكن في الآيةِ دلالةٌ على أيٍّ من أيٍّ، ولا خبرَ بذلك عن رسولِ الله ﷺ ثبتت حُجَّتُه من جهةِ نقلِ الواحدِ العَدْلِ، ولا من جهة النقل المستفيض.

وإنمـا قصـدَ اللهُ جَلَّ ثنـاؤه بقوله: «كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قَولِهم»، إعلامَ المؤمنين أنَّ اليهودَ والنصارى قد أتوا ـ من قِيلِ الباطل، وافتراءِ الكذبِ على الله، وجحودِ نبوةِ الأنبياء والرسل، وهم أهلُ كتابٍ يعلمون أنهم فيما يقولون مُبْطِلُونَ، وبجحودهم ماَ يجحدون من مِلَّتِهم خارجون، وعلى الله مُفترون ـ مثل الذي قاله أهلُ الجهل بالله وكتبه ورسله، الذين لم يبعث الله لهم رسولاً ولا أوحى إليهم كتاباً.

وهذه الآيةُ تنبىء عن أنَّ مَنْ أتى شيئاً من معاصي الله على علم منه بنهيِ اللهِ عنها، فمصيبته في دينه أعظمُ من مصيبةِ مَنْ أتى ذلك جاهلاً به. لأن الله تعالى ذِكْرُه عَظَّمَ توبيخَ اليهودِ والنصارى بما وَبَّخَهُمْ به ـ في قِيلِهم ما أخبـرَ عنهم بقـولـه: «وقـالتِ اليهـودُ ليست النصارى على شيء، وقالتِ النصارى ليستِ اليهودُ على شيء» ـ من أجل أنهم أهلُ كتابٍ، قالوا ما قالوا من ذلك على عِلْمٍ منهم أنهم مُبطلون.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١١٣﴾

يعني بذلـك جَلَّ ثناؤه: فالله يَقضي فيفصل بين هؤلاء المختلفين، ـ القائلِ بعضُهم لبعضٍ: لستم على شيءٍ من دِينكم، يومَ قِيامِ الخَلْقِ لربِّهم من قُبورِهم، فيتبيَّنُ المُحِقُّ منهم من المُبْطِلِ، بإثابتهِ المُحِقَّ ما وَعدَ أهلَ طاعتهِ على أعمـالهِ الصالحة، ومجازاتهِ المُبْطِلَ منهم بما أوعد أهلَ الكفر به على كُفْرِهم به ـ فيما كانوا فيه يختلفون من أديانِهم ومِلَلِهم في دار الدنيا.

وأما «القيامةُ» فهي مصدر من قولِ القائل: «قمت قياماً وقيامة»، كما يقال: «عُدْتُ فلاناً عِيادة» و«صنتُ هذا الأمرَ صيانةً».

وإنمـــا عنى «بـالقيامـة» قيامَ الخَلْقِ من قبـورهم لربهم. فمعنى «يوم القيامة»: يوم قيام الخلائق من قُبورهم لِمَحْشَرِهم.

القول في تأويل قوله تعالى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ

قد دَلَّلنا فيما مضى قَبْلُ، على أنَّ تأويلَ «الظلم»، وضعُ الشيءِ في غيرِ موضعه. وتأويل قوله: «ومَنْ أظلم»، وأيُّ امرىء أشدّ تَعدِّياً وَجراءة على الله وخِلافاً لأمرهِ، من امرىءٍ مَنَعَ مساجدَ الله أنْ يُعبَدَ الله فيها؟

و«المساجد» جَمْعُ «مسجد»: وهو كُلُّ موضع عُبِدَ الله فيه. وقد بيَّنا معنى «السجود» فيما مضى. فمعنى «المسجد»: الموضع الذي يُسْجَدُ للهِ فيه، كما يُقالُ للموضع الذي يُجْلَسُ فيه: «المجلس»، وللموضع الذي يُنْزَلُ فيه «منزل» ثم يجمع: «منازل ومجالس»، نظيرَ مَسجدٍ وَمَساجد. وقد حكي سماعاً من بعض العرب «مساجد»، في واحدِ المساجدِ، وذلك كالخطأ من قائلهِ.

وأما قوله: «أنْ يُذْكَرَ فيها اسمه»، فإنَّ فيه وجهين من التأويل.

أحدهما: أن يكون معناه: ومَنْ أظلمُ ممن مَنع مساجد الله منَ أن يُذْكَرَ فيهـا اسمُـه، فتكون «أن» حينئذ نصباً، من قولِ بعضِ أهلِ العربية بفَقْدِ الخافض، وتعلُّقِ الفعلِ بها.

والوجه الآخر: أن يكون معناه: ومَنْ أظلمُ مِمَّنْ مَنع أنْ يُذْكَرَ اسمُ الله في مسـاجـدهِ، فتكـون «أن» حينئـذٍ في موضع نصب، تكريراً على موضعِ المساجدِ وردًّاً عليه.

وأما قوله: «وسعى في خرابها» فإنَّ معناه: ومَنْ أظلم ممن منع مساجدَ الله أن يُذْكَر فيها اسمُه، ومِمَّنْ سَعى في خرابِ مساجدِ الله. فـ«سعى» إذاً، عطفٌ على «منع».

فإنْ قال قائل: ومَن الّذي عنى بقوله: «ومنْ أظلمُ ممن مَنع مَساجد الله أنْ يُذكر فيها اسْمُه وسَعى في خرابها»؟ وأيُّ المساجد هيَ؟

قيل: إنَّ الـذين منعوا مساجدَ الله أن يُذْكَرَ فيها اسمُه هم النصارى، والمسجدُ بيت المقدس، وذلك أنهم هُم الذين سعوا في خرابِ بيتِ المقدس، وأعَـانُـوا بُخْتُنَصَّر على ذلك، ومَنعوا مُؤمني بني إسرائيل من الصلاةِ فيه بعد مُنصرَفِ بختنصَّر عنهم إلى بلاده.

والدليلُ على صِحَّةِ ما قلنا في ذلك، قيامُ الحُجة بأنْ لا مسجدَ عَنَى اللهُ عَزَّ وجـلَّ بقـوله: «وسَعى في خَرَابها» إلاّ أحد المسجدين: إمَّا مسجد بيت المقدس، وإمَّا المسجد الحرام. وإذْ كان ذلك كذلك ـ وكان معلوماً أنَّ مشركي قريش لم يسعَوْا قطُّ في تخريبِ المسجد الحرام، وإنْ كانوا قد مَنعوا في بعض الأوقاتِ رسولَ الله ﷺ وأصحابَهُ من الصلاةِ فيه ـ صَحَّ وثبت أنَّ الذين وصَفهم اللهُ عَزَّ وجل بالسعيِ في خرابِ مساجدِهِ، غيرُ الذين وصفهم الله بعمارتها. إذْ كان مشـركـو قريش بَنَـوا المسجـد الحرامَ في الجاهلية، وبِعمارته، كان افتخارهم، وإن كان بعضُ أفعالهم فيه، كان منهم على غير الوجه الذي يرضاه الله منهم.

وأخرَى، أنَّ الآية التي قبل قوله: «ومَنْ أظلمُ ممن مَنع مساجدَ الله أن يُذكر فيها اسمُه»، مضَت بالخبرِ عن اليهود والنصارى وذمِّ أفعالهم، والتي بعدَها نبَّهت بذمِّ النصـارى والخبـر عن افتـرائِهم على ربهم، ولم يجر لقريش ولا لمشركي العرب ذِكْرٌ، ولا للمسجد الحرام قبلها، فيوجَّه الخبرُ ـ بقول الله عَزَّ

وجـل: «ومَنْ أظلمُ ممن مَنَعَ مساجدَ الله أن يُذكر فيها اسمه» - إليهم وإلى المسجد الحرام.

وإذا كان ذلك كذلك، فالذي هو أولى بالآية أن يوجَّه تأويلها إليه، وهو ما كان نظيرَ قِصَّة الآية قبلها والآية بعدَها، إذْ كان خبرُها لخبرهما نظيراً وشكلاً، إلاّ أنْ تقومَ حُجةٌ يجبُ التسليم لها بخلاف ذلك، وإن اتفقت قصصها فاشتبهت.

فإنْ ظنَّ ظانٌّ أنَّ ما قلنا في ذلك ليس كذلك - إذْ كان المسلمون لم يَلزمهم قطُّ فَرْضُ الصلاة في المسجد المقدس، فمنعوا من الصلاة فيه فيلجئون توجيه قوله: «ومَنْ أظلم ممن مَنع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه»، إلى أنه معنيٌّ به مسجد بيت المقدس - فقد أخطأ فيما ظن من ذلك. وذَلك أن الله جَلَّ ذِكْرُه إنما ذكر ظُلْمَ مَنْ مَنع مَنْ كان فرضَه الصلاةُ في بيتِ المقدس من مؤمني بني إسرائيل، وإياهم قَصَدَ بالخبر عنها بالظلمِ والسعيِ في خَرَاب المسجد. وإنْ كان قَدْ دَلَّ بعموم قوله: «ومَنْ أظْلَمُ مِمَّنْ مَنع مساجدَ الله أنْ يُذكر فيها اسمه»، أنَّ كُلَّ مانعٍ مُصلِّياً في مسجدٍ لله، - فرضاً كانتْ صلاتهُ فيه أو تطوُّعاً - وكل ساعٍ في إخرابه، فهو من المعتدين الظالمين.

القول في تأويل قوله جَلَّ ذِكْرُه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾

وهذا خبرٌ من الله عَزَّ وجل عَمَّنْ مَنع مساجدَ الله أن يُذْكَرَ فيها اسمه، أنـه قد حرَّم عليهم دخـول المساجد التي سعوا في تخريبها ومنعوا عبادَ الله المؤمنين من ذِكْرِ الله عَزَّ وجل فيها، ما داموا على مُناصبةِ الحربِ إلاّ على خوفٍ وَوَجل من العقوبةِ على دُخُولِهُمُوها.

وإنما قيل «أولئك ما كان لهم أن يَدخلوها إلاّ خائفين» فأخرج على وجهِ الخبرِ عن الجميع وهو خبرٌ عن «من مَنع مَساجد الله أن يُذْكَرَ فيها اسمه» لأن «مَنْ» في معنى الجميع، وإن كان لفظه واحداً.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾

أما قوله عَزَّ وجل: «لهم»، فإنَّه يعني: الذين أخبر عنهم أنهم منعوا مساجد الله أنْ يُذْكَرَ فيها اسمُه. أما قوله: «لهم في الدنيا خزيٌ»، فإنه يعني بـ «الخزي»: العارَ والشر والذلة، إمّا القتلُ والسِّباء، وإمّا الذِّلة والصَّغار بأداء الجزية.

وتأويل الآية: لهم في الدنيا الذِّلَّةُ والهوانُ والقتل والسبي ـ على منعِهم مساجدَ الله أنْ يُذْكَرَ فيها اسمُه وسَعيهم في خرابها، ولهم ـ على معصيتهم وكفرهم بربهم وسعيهم في الأرض فساداً ـ عذابُ جهنم، وهو العذاب العظيم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «ولله المشرق والمغرب»، لله مِلكُهما وتدبيرُهما، كما يقال: «لفلانٍ هذه الدارُ». يعني بها: أنها له، مِلْكاً. فذلك قوله: «ولله المشرقُ والمغرب»، يعني أنهما له، ملكاً وخَلقاً.

و«المشرق» هو موضعُ شروقِ الشمسِ، وهو موضعُ طلوعها، كما يقال لموضع طُلوعها منه: «مَطلعِ»، بكسر اللام، وكما بيَّنا في معنى «المساجد» آنفاً.

فإن قال قائل: أوَ ما كانَ للهِ إلا مشرقٌ واحدٌ ومغرب واحدٌ، حتى قيل: «ولله المشرق والمغرب»؟

قيل: إنَّ معنى ذلك غير الذي ذهبت إليه. وإنما معنى ذلك: ولله المشرقُ الذي تُشْرِقُ منه الشمس كل يوم، والمغرب الذي تغرب فيه كل يوم. فتأويله، إذْ كان ذلك معناه: ولله ما بَين قُطْري المشرق وما بين قُطْري المغرب، إذْ كان شرُوق الشمس كل يوم من موضع منه لا تعود لشروقها منه إلى الحوْل الذي بعده، وكذلك غروبها كل يوم.

فإنْ قال: أوَ لَيس وإنْ كان تأويل ذلك ما ذكرت، فلله كل ما دونه؟ الخلقُ خَلقُه!

قيل: بَلىٰ

فإنْ قال: فكيف خصَّ المشارق والمغارب بالخبرِ عنها أنها له في هذا الموضع، دونَ سائرِ الأشياء غيرها؟

قيل: إنَّ الله تعالى ذكره إنَّما خَصَّ الخبرَ عن المشرق والمغرب في هذه الآية بأنهما له مِلْكاً ـ وإنْ كان لا شيء إلاّ وهُوَ له مَلك ـ إعلاماً منه عبادَهُ المؤمنينَ أنَّ له مِلكهما ومِلك ما بينهما من الخَلْق، وأنَّ على جمِيعهم ـ إذْ كان له ملكهم ـ طاعتَه فيما أمَرَهم ونهاهم، وفيما فَرَضَ عليهم من الفرائضِ، والتوجُّهِ نحو الوجه الذي وُجِّهوا إليه، إذْ كان من حُكم المماليك طاعةُ مالِكِهم. فأخرج الخبر عن «المشرق والمغرب» والمراد به: مَنْ بينهما من الخلق، على النحو الذي قد بيَّنتُ، من الاكتفاءِ بالخبرِ عن سَبَب الشيءِ، من ذكره والخبر عنه، كما قيل: «وأشْرِبُوا في قُلوبهم العِجْلَ»، وما أشبه ذلك.

ومعنى الآية إذاً: ولله مِلْك الخَلْقِ الذي بين المشرق والمغرب، يَتَعَبَّدُهم بما شاء، ويحكمُ فيهم ما يريد، عليهم طاعته، فَوَلُّوا وجوهَكُم ـ أيها المؤمنون

ـ نحو وجهي، فإنكم أينما تُوَلوا وجوهَكُمْ فهنالك وجهي.

فأما القولُ في هذه الآية ناسخةٌ أم منسوخةٌ، أم لا هيَ ناسخة ولا منسوخة؟ فالصواب فيه من القول أنْ يقالَ: إنها جاءت مجيءَ العُموم، والمرادُ الخاصُّ. وذلك أن قوله: «فأينما تُولوا فثَمَّ وجْهُ الله» مُحتمِل: أينما تُوَلوا ـ في حال سيْرِكُمْ في أسفارِكم في صلاتِكم التطوعَ، وفي حال مُسَايفتكم عدوَّكم في تطوعكم ومكتوبتكم ـ فَثَمَّ وجهُ الله.

ومحتمل: «فأينما تولوا ـ من أرضِ الله فتكونوا بها ـ فَثَمَّ قبلةُ الله التي تُوجِّهون وُجُوهكم إليها، لأن الكعبةَ ممكنٌ لكم التوجُّه إليها منها.

ومُحتمل: فأينما تُوَلُّوا وجوهَكُم في دُعائِكم فهنالك وجهي، أستجيبُ لكم دعاءكم.

فإذْ كان قوله عَزَّ وجل: «فأينما تولوا فَثَمَّ وجه الله»، مُحْتَمِلاً ما ذكرنا من الأوجه، لم يكنْ لأحدٍ أنْ يزعم أنها ناسخةٌ أو منسوخةٌ، إلّا بحجةٍ يجبُ التسليمُ لها.

لأنَّ الناسخ لا يكون إلّا بمنسوخ، ولم تقم حجةٌ يجبُ التسليمُ لها بأنَّ قوله: «فأينما تولوا فثم وجه الله» معنيٌّ به: فأينما تُوَجِّهوا وجوهَكم في صلاتِكم فثَمَّ قبلتكم؛ ولا أنها نزلتْ بعد صلاةِ رسولِ الله ﷺ وأصحابه نحو بيت المقدس، أمراً من الله عَزَّ وجل لهم بها أن يتوجهوا نحو الكعبة، فيجوز أن يقال: هي ناسخةٌ الصلاةَ نحو بيتِ المقدس، إذْ كان من أهلِ العلمِ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ وأئمةِ التابعين مَنْ ينكر أنْ تكون نزلت في ذلك المعنى، ولا خبرَ عن رسول الله ﷺ ثابتٌ بأنها نزلت فيه. وكان الاختلاف في أمرها موجوداً على ما وصفتُ، ولا هي ـ إذْ لم تكن ناسخةً لما وصفنا ـ قامت حجَّتها بأنها منسوخة، إذْ كانت محتملةً ما وصفنا: بأنْ تكونَ جَاءت بعمومٍ،

ومعناها: في حالٍ دون حال - إن كان عُني بها التوجه في الصلاة - وفي كُلِّ حال، إنْ كان عُني بها الدعاء وغير ذلك من المعاني التي ذكرنا.

وقد دللنا في كتابنا (كتاب البيان عن أصول الأحكام) على أنْ لا ناسخَ من آيِ القرآنِ وأخبارِ رسولِ الله ﷺ إلّا ما نَفى حكماً ثابتاً، وأُلزم العبادُ فَرْضَهُ، غير محتمل بظاهره وباطنه غيرَ ذلك. فأما إذا ما احتمل غيرَ ذلك - من أنْ يكون بمعنى الاستثناء، أو الخصوص والعموم، أو المُجْمَل، أو المفسَّر - فمن الناسخ والمنسوخ بمعزل. بما أغنى عن تكريرهِ في هذا الموضعِ، ولا منسوخَ إلّا المنفيّ الذي قد كان ثبت حُكْمُه وفرضه.

ولم يصحَّ واحدٌ من هذين المعنيين لقوله: «فأينما تُولوا فثَمَّ وجه الله»، بحجة يجبُ التسليم لها، فيقال فيه: هو ناسخ أو منسوخ.

وأما قوله: «فأينما»، فإن معناه: حيثما.

وأما قوله: «تُوَلُّوا»، فإن الذي هو أوْلى بتأويله أنْ يكون: تولون نحوه وإليه، كما يقول القائل: «ولَّيتُهُ وجهي ووَلَّيته إليه»، بمعنى قابلته وواجهته. وإنما قُلنا ذلك أولى بتأويل الآية، لإجماعِ الحجةِ على أنَّ ذلك تأويلُه، وشذوذِ مَنْ تأوَّله بمعنى: تولُّون عنه فتستدبرونه، فالذي تتوجهون إليه وَجه الله، بمعنى قبلة الله.

وأما قوله: «فثم»، فإنه بمعنى: هنالك.

فإن قالَ قائل: وما هذه الآية من التي قبلها؟

قيل: هي لها مُواصلة. وإنما معنى ذلك: ومَنْ أظلمُ من النصارى الذين مَنعوا عبادَ الله مساجدَه أنْ يُذْكَرَ فيها اسمه، وَسَعَوْا في خرابها، ولله المشرقُ والمغرب، فأينما توجَّهوا وُجُوهَكُم فاذكروهُ، فإنَّ وَجْهه هنالك، يَسعكُم فَضْلهُ وأرضُه وبلادُه، ويعلم ما تعملون، ولا يمنعْكم تخريب مَنْ خَرَّبَ مسجدَ بيت

المقدس، ومَنْعُهم مَنْ مَنعُوا من ذِكْرِ الله فيه - أنْ تذكروا الله حيثُ كنتم من أرضِ الله، تَبتغون به وجهه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ١١٥﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «واسعٌ»، يَسَعُ خَلْقَهُ كلهم بالكفايةِ والإفضالِ والجودِ والتدبير.

وأما قوله: «عليم» فإنه يعني: أنه عليم بأفعالهم، لا يغيبُ عنه منها شيء ولا يعزبُ عن عِلْمِهِ، بل هو بجميعها عليمٌ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «وقالوا اتخذَ اللهُ وَلداً»، الذين مَنعوا مساجدَ الله أنْ يُذكرَ فيها اسمُه. و«قالوا»: معطوف على قوله: «وسعى في خرابها».

وتأويل الآية: ومَنْ أظلمُ ممن مَنع مساجدَ الله أنْ يُذكر فيها اسمُه وسعى في خَرابها، وقالوا اتخذَ الله ولداً؛ وهُمُ النصارى الذين زعموا أنَّ عيسى ابنُ الله، فقال الله جَلَّ ثناؤه - مُكَذِّباً قِيلهم ما قالوا من ذلك، ومُنتفياً مِمَّا نَحلوه وأضافوا إليه بكذبهم وفِرْيتهم -: «سبحانه»، يعني بها: تنزيهاً وتبريئاً من أنْ يكونَ له ولدٌ، وعلواً وارتفاعاً عن ذلك. وقد دَللنا فيما مضى على معنى قول القائل: «سبحان الله»، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

ثم أخبر جَلَّ ثناؤه أنَّ له ما في السماوات والأرض مِلكاً وخَلقاً. ومعنى ذلك: وكيف يكون المسيحُ لله ولداً، وهو لا يخلو: إمَّا أنْ يكونَ في بعض هذه

الأماكن، إما في السماوات، وإما في الأرض، ولله مِلك ما فيهما. ولو كان المسيحُ ابناً كما زعمتم، لم يكن كسائر ما في السماوات والأرض من خَلْقِه وعبيدِهِ، في ظهورِ آياتِ الصنعةِ فيه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾

لـ «القنوت» في كلام العرب معانٍ. أحدها: الطاعة، والآخر: القيام، والثالث: الكَفُّ عن الكلامِ والإمساكُ عنه.

وتأويل قوله: «كلٌّ له قانتون»، الطاعةُ والإقرارُ لله عَزَّ وجل بالعبودية، بشهادةِ أجسامِهم، بما فيها من آثارِ الصنعةِ والدلالةِ على وحدانيةِ الله عَزَّ وجل، وأنَّ الله تعالى بارئها وخَالقها. وذلك أن الله جَلَّ ثناؤه أكْذَبَ الذين زعموا أنَّ لله ولداً بقوله: «بل لَهُ ما في السموات والأرض» مِلكاً وخلقاً. ثم أخبر عن جميع ما في السماوات والأرض أنها مُقِرَّةٌ بدلالتها على ربِّها وخالقها، وأنَّ اللهَ تعالى بارئها وصانعها. وإنْ جَحد ذلك بعضُهم، فألسنتهم مُذعِنةٌ له بالطاعة، بشهادتها لَهُ بآثارِ الصنعة التي فيها بذلك، وأنَّ المسيح أحدُهم، فأنَّى يكون لله ولداً وهذه صفته؟

وقد زعم بعض مَنْ قصرت مَعرفته عن توجيهِ الكلام وِجْهَتَهُ، أنَّ قوله: «كلٌّ له قانتون»، خاصَّةٌ لأهلِ الطاعة وليست بعامة. وغير جائزٍ ادعاء خُصوص في آيةٍ عامٍّ ظاهرُها، إلَّا بحجةٍ يجبُ التسليمُ لها، لما قد بَيَّنا في كتابنا (كتاب البيان عن أصول الأحكام).

وهذا خبرٌ من الله جَلَّ وعزَّ عن أنَّ المسيح ـ الذي زعمت النصارى أنه ابنُ الله ـ مُكَذِّبُهم هو والسماوات والأرض وما فيها، إمَّا باللسان، وإمَّا بالدَّلالة. وذلك أنَّ الله جَلَّ ثناؤه أخبرَ عن جميعهم، بطاعتهم إيَّاهُ، وإقرارهم له

بالعبودية، عَقِيب قوله: «وقالوا اتخذ الله ولداً»، فدلَّ ذلك على صحة ما قلنا.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «بَديع السَّماواتِ والأرضِ»، مُبدِعها.

وإنما هو «مُفعِل» صُرف إلى «فعيل» كما صرف «المؤلم» إلى «أليم» و«المسمع» إلى «سميع». ومعنى «المُبدع»: المُنْشِىءُ والمحدِثُ ما لم يَسْبقه إلىٰ إنشاءِ مِثْلِه وإحداثِه أحدٌ. ولذلك سمي المُبْتَدِعُ في الدين «مبتدعاً»، لإحداثه فيه ما لم يسبقه إليه غيره. وكذلك كل محدث فعلاً أو قولاً لم يتقدمه فيه متقدم، فإنَّ العربَ تسميه «مبتدعاً».

فمعنى الكلام: سبحان الله أنَّى يكونُ له ولدٌ وهو مالكُ ما في السماوات والأرض، تَشْهَدُ له جميعاً بدلالتها عليه بالوَحْدانية، وتقرُّ له بالطاعة، وهو بارئها وخالقها ومُوجدها من غير أصْلٍ ولا مثالٍ احتذاها عليه؟

وهذا إعلامٌ من الله جَلَّ ثناؤه عبادَه أنَّ مما يشهدُ له بذلك: المسيحَ، الذي أضافوا إلى الله جَلَّ ثناؤه بُنُوَّته؛ وإخبارٌ منه لهم أنَّ الذي ابتدع السماواتِ والأرضَ من غير أصْلٍ وعلى غير مثالٍ، هو الذي ابتدع المسيحَ من غيرِ والدٍ بقدرته.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «وإذا قَضى أمراً»، وإذا أحكم أمراً وَحَتَمه.

وأصل كل «قضاء أمرٍ»: الإحكامُ، والفراغُ منه. ومن ذلك قيل للحاكم

بين الناس: «القاضي» بينهم، لِفَصْلِه القضاءَ بين الخصوم، وقَطْعِهِ الحُكْمَ بينهم، وفراغِه منه به، ومنه قيل للميت: «قد قضى»، يراد به: قد فرغَ من الدنيا وفصل منها. ومنه قيل: «ما يَنقضي عجبي من فلان»، يراد: ما ينقطع. ومنه قيل: «تَقضَّى النهار»، إذا انصرم، ومنه قول الله عزَّ وجل: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، أي: فَصَل الحكم فيه بين عباده، بأمرِهِ إيَّاهم بذلك، وكذلك قوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ [الإسراء: ٤]، أي أعلمناهم بذلك وأخبرناهم به، ففرَغنا إليهم منه.

ويعني بقوله: «قضاهما» أحْكَمهما.

وأما قوله: «فإنما يَقول لَه كنْ فيكونُ»، فإنه يعني بذلك: وإذا أحْكَمَ أمراً فحتَمَه، فإنما يقولُ لذلك الأمر: «كُنْ»، فيكون ذلك الأمر على ما أمرَه الله أنْ يكونَ، وأراده.

فإن قال لنا قائل: وما معنى قَوله: «وإذا قَضى أمراً فإنما يَقول له كُنْ فَيكون»؟ وفي أيِّ حالٍ يقول للأمر الذي يقيضه: «كن»؟ أفي حالِ عدمه - وتلك حالٌ لا يجوزُ فيها أمره، إذْ كان مُحالاً أن يأمر إلا المأمورَ، فإذا لم يكن المأمورُ استحال الأمر؛ وكما محالٌ الأمرُ من غيرِ آمرٍ، فكذلك محالٌ الأمر من آمرٍ إلّا لمأمور - أم يقول له ذلك في حالِ وجودِه؟ وتلك حالٌ لا يجوز أمره فيها بالحدوث، لأنه حادِثٌ موجودٌ. ولا يقال للموجود: «كن موجوداً»، إلا بغير معنى الأمر بحدوث عَينه؟

قيل: إن هذا عامٌّ في كل ما قضاه الله وبَرَأه. لأن ظاهرَ ذلك ظاهرُ عُمومٍ، وغير جائزة إحالةُ الظاهر إلى الباطن من التأويل، بغير برهانٍ، لِمَا قد بيَّنا في كتابنا (كتاب البيان عن أصول الأحكام). وإذْ كان ذلك كذلك، فأمر الله جَلَّ وعَزَّ لشيءٍ إذا أراد تكوينه موجوداً بقوله: «كن» في حال إرادته إيّاه مكـوّنـاً، لا يتقـدَّمُ وجُـودَ الـذي أراد إيجادَه وتكـوينـه، إرادتـه إياه ولا

أمرَهُ بالكون والوجود ـ ولا يتأخَّر عنه. فغير جائزٍ أنْ يكون الشيءُ مأموراً بالوجود مُراداً كذلك، إلا وهُوَ موجود؛ ولا أنْ يكون موجوداً، إلا وهو مأمور بالوجود مُرَادُ كذلك.

ونظيرُ قوله: «وإذا قَضى أمراً فإنما يقول له كنْ فَيكون» قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُم إذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنْ الأَرْضِ إذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥]، فإنَّ خروجَ القومِ من قبورهم، لا يَتقدَّمُ دُعاءَ اللهِ ولا يتأخرُ عنه.

وإذْ كان الأمر في قوله جَلَّ ثناؤه: «وإذَا قَضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون»، هو ما وصفنا، من أنَّ حالَ أمرهِ الشيءَ بالوجودِ حالُ وجودِ المأمورِ بالوجود، فبَيِّنٌ بذلك أنَّ الذي هو أوْلى بقوله «فيكون»، الرفعُ على العطفِ على قوله: «يقول». لأنَّ «القولَ» و«الكونَ» حالهما واحد. وهو نظيرُ قولِ القائل: «تاب فلان فاهتدى» و«اهتدى فلان فتاب»، لأنه لا يكون تائباً إلا وهو مهتدٍ، ولا مهتدياً إلَّا وهو تائبٌ. فكذلك لا يكون أنْ يكون الله آمراً شيئاً بالوجود إلا وهو موجود، ولا موجوداً إلا وهو آمرُه بالوجود.

ولذلك استجاز من استجازَ نَصْب «فيكونَ» مَنْ قرأ ﴿إنَّما قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إذا أَرَدْنَاهُ أَنْ نقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، بالمعنى الذي وصفنا، على معنى: أن نقول فَيكون.

وأمَّا رَفْع من رفَع ذلك، فإنه رأى أنَّ الخبر قد تَمَّ عند قوله: «إذَا أردناهُ أنْ نقولَ له كن». إذْ كان معلوماً أنَّ الله إذا حَتَم قضاءَهُ على شيءٍ، كان المحتومُ عليه موجوداً. ثم ابتدأ بقوله: «فيكون»، كما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ في الأَرْحَامِ مَا نَشَاء﴾ [الحج: ٥].

فمعنى الآية إذاً: وقالوا اتخذ الله ولداً، سبحانه أن يكونَ له ولدٌ، بَلْ

هو مالكُ السماواتِ والأرض وما فيهما، كل ذلك مُقِرٌّ له بالعبودية بدلالته على وحدانيته. وأنّى يكون له ولد! وهو الذي ابتدعَ السماواتِ والأرضَ من غير أصلٍ، كالذي ابتدع المسيحَ من غير والدٍ بمقدرته وسلطانِه، الذي لا يتعذرُ عليه به شيءٌ أراده، بل إنما يقول له إذا قضاه فأراد تكوينه: «كُنْ»، فيكون موجوداً كما أراده وشاءه.

فكذلك كان ابتداعه المسيحَ وإنشاؤه، إذ أراد خَلْقه من غير والد.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾

إن الله تعالى عنى بقوله: «وقال الذين لا يعلمون» النصارى دونَ غيرِهم؛ لأنَّ ذلك في سياقِ خبرِ اللهِ عنهم، وعن افترائِهم عليه، وادِّعائهم له ولداً، فقال جَلَّ ثناؤه مُخْبِراً عنهم فيما أخبر عنهم من ضلالتهم: أنهم مَعَ افترائِهم على الله الكذبَ بقولهم: «اتخذ الله ولداً»، تمنَّوا على اللهِ الأباطيلَ، فقالوا جهلاً منهم بالله. وبمنزلتهم عنده، وهم بالله مشركون: «لولا يكلمنا الله» كما يُكَلِّمُ رُسُلَهُ وأنبياءه، أوْ تأتينا آيةٌ كما أتتهم؟ ولا ينبغي لله أنْ يُكَلِّمَ إلا أولياءه، ولا يؤتي آيةً مُعْجزةً على دعوى مُدَّعٍ إلاّ لِمَنْ كان مُحِقّاً في دعواه وداعياً إلى الله وتوحيده؛ فأما مَنْ كان كاذباً في دَعواه وداعياً إلى الفِرْيةِ عليه، وادعاءِ البنينَ والبناتِ له، فغير جائزٍ أنْ يكلمه اللهُ جَلَّ ثناؤه، أو يؤتيه آيةً معجزةً تكون مؤيِّدة كذبَهُ وفرِيتَه عليه.

وأما معنى قوله: «لولا يُكَلِّمنا الله» فإنه بمعنى: هَلاَّ يكلمنا الله.

وأما «الآية»، فقد ثَبت فيما قَبْلُ معنى «الآية»، أنها العلامة. وإنما أخبر الله عنهم أنهم قالـوا: هلا تَأتينـا آيةٌ على ما نريدُ ونسأل، كما أتت الأنبياءَ

والرُّسُلَ! فقال عزَّ وجل: «كذلك قال الَّذين منْ قبلهم مثل قولهم».

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾

قد دَللنا على أنّ الـذين عنى الله تعالى ذكره بقوله: «وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله»، هم النصارى، والذين قالوا مِثْلَ قولهم هم اليهود: سألتْ موسى ﷺ أنْ يريهم ربهم جَهرة، وأن يسمعهم كلام ربهم ـ كما قد بيَّنا فيما مضى من كتابنا هذا ـ وسألوا من الآيات ما ليس لهم مسألته تحكماً منهم على ربهم. وكذلك تَمنَّت النصارى على رَبِّها تَحكُّماً منها عليه، أنْ يُسْمِعَهُم كلامَهُ، ويُريهم ما أرادوا من الآيات. فأخبر الله جَلَّ ثناؤه عنهم أنهم قالوا من القولِ في ذلك، مِثْل الذي قالته اليهود، وتمنَّت على ربها مثل أمانيِّها، وأنَّ قولهم الذي قالوه من ذلك، إنما يشابه قَول اليهود، من أجلِ تشابُهِ قلوبِهم في الضلالةِ والكفر بالله. فهم وإنْ اختلفتْ مذاهبهم في كذبهم على الله وافترائهم عليه، فقلوبهم متشابهةٌ في الكفر بربهم والفريةِ عليه، وتَحكُّمِهم على أنبياء الله ورسله عليهم السلام.

فمعنى الآية: وقالت النصارى، الجُهَّالُ بالله وبعظمته: هلاَّ يُكَلِّمُنَا اللهُ رَبُّنا، كما كَلَّمَ أنبياءه ورُسُلَهُ، أو تَجيئنا علامةٌ من الله نعرفُ بها صِدْقَ ما نحنُ عليه على ما نسـألُ ونريد؟ قال الله جَلَّ ثناؤه: فكما قال هؤلاء الجهالُ من النصارى وتمنَّوا على ربهم، قال مَنْ قبلهم من اليهود، فسألوا رَبَّهم أنْ يُريهم اللهُ نَفْسَـهُ جَهْرَةً، ويؤتيهم آيةً، واحتكموا عليه وعلى رسُله، وتَمنَّوا الأماني. فاشتبهت قلوبُ اليهود والنصارى في تمرُّدِهم على الله، وقلة معرفتهم بعظمته، وجرأتهم على أنبيائهِ ورسلهِ، كما اشتبهت أقوالهم التي قالوها.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ﴿١١٨﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «قد بيَّنا الآياتِ لقوم يُوقنون»، قد بيّنا العلامات التي من أجْلها غَضِبَ الله على اليهود، وجَعَلَ منهم القِرَدَة والخَنازيرَ، وأعَدَّ لهم العذابَ المهين في معادهم؛ والتي من أجلها أخزَى الله النصارَى في الدنيا، وأعَدَّ لهم الخِزْيَ والعذابَ الأليم في الآخرة؛ والتي مِنْ أجلها جَعل سكان الجنان، الذين أسلموا وُجُوهَهُمْ لله وهُم مُحسنون - في هذه السورة وغيرها. فأُعْلِموا الأسبابَ التي من أجلها استحقَّ كُلُّ فريقٍ منهم من الله ما فعل به من ذلك، وخصَّ الله بذلك القومَ الذين يُوقنون، لأنهم أهلُ التَّثَبُّتِ في الأمور، والطالبون معرفةَ حقائق الأشياء على يقين وصحة. فأخبر الله جَلَّ ثناؤه أنَّه بَيَّنَ لمن كانت هذه الصفةُ صفتهُ مَا بيَّن من ذلك، ليزولَ شَكُّه ويعلم حقيقةَ الأمر، إذْ كان ذلك خبراً من الله جَلَّ ثناؤه، وخبرُ اللهِ الخبرُ الذي لا يُعذَرُ سامِعُهُ بالشكِّ فيه. وقد يحتمل غيرُه من الأخبار ما يحتمل من الأسباب العارضة فيه من السهوِ والغلط والكذبِ، وذلك مَنْفِيٌّ عن خبرِ الله عَزَّ وجل.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾

ومعنى قوله جَلَّ ثناؤه: «إنَّا أرْسلناك بالحق بَشيراً ونَذيراً»: إنا أرسلناك يا محمدُ بالإسلامِ الذي لا أقْبَلُ من أحدٍ غيرَهُ من الأديانِ، وهو الحَقُّ؛ مُبشِّراً مَنِ اتَّبَعَكَ فأطاعكَ، وقَبِلَ منك ما دَعَوْتَهُ إليه من الحق - بالنَّصْرِ في الدنيا، والظَّفَرِ بالثوابِ في الآخرة، والنعيمِ المُقيمُ فيها - ومنذراً مَنْ عصاكَ فخالفك، وردَّ عليك ما دعوته إليه من الحق - بالخزي في الدنيا، والذل فيها، والعذاب المهين في الآخرة.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾

إنَّ الله جَلَّ ثناؤه قَصَّ قَصَصَ أقوامٍ من اليهود والنصارى، وذكر ضلالتَهم وكُفْرَهم بالله وجراءتهم على أنبيائه، ثم قال لنبيه ﷺ: «إنا أرْسلناك» يا محمدُ «بالحقِّ بشيراً» مَنْ آمَنَ بكَ واتَّبعك، مِمَّنْ قَصَصْتُ عليك أنباءه ومَنْ لم أَقْصُصْ عليكَ أنباءَه «ونذيراً» مَنْ كَفَرَ بك وخَالَفَك. فبلِّغْ رسالتي، فليس عليك من أعمال مَنْ كَفَرَ بكَ - بعد إبلاغِك إيَّاهُ رسالتي - تَبِعةٌ، ولا أنت مسؤولٌ عما فعل بعد ذلك.

وأمّا «أصحاب الجحيم»، فـ«الجحيم»، هي النار بعينها إذا شَبَّت وَقُودَها.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «ولن تَرْضَى عنك اليهُودُ ولاَ النَصَارَى حتى تَتبع ملتهم»، وليست اليهودُ، يا محمد، ولا النصارى براضيةٍ عنكَ أبداً، فَدَعْ طَلَبَ ما يُرضيهم ويُوافقهم، وأقبلْ على طَلَبِ رضا الله في دُعائِهم إلى ما بعثَكَ اللهُ به من الحق، فإن الذي تَدْعُوهم إليه من ذلك لهو السبيلُ إلى الاجتماع فيه معكَ على الأُلْفَةِ والدِّينِ القيِّم، ولا سبيلَ لك إلى إرضائهم باتِّباعِ مِلَّتِهم، لأنَّ اليهودية ضِدُّ النصرانية، والنصرانية ضِدُّ اليهودية، ، ولا تجتمعُ النصرانية واليهودية في شخصٍ واحد، في حالٍ واحدة. واليهود والنصارى لا تجتمع على الرِّضا بك، إلا أنْ تكون يهودياً نصرانياً، وذلك مما لا يكونُ منكَ أبداً، لأنك شخص واحد، ولن يجتمعَ فيك دِينان متضادَّان في حالٍ واحدة. وإذا لم يَكُنْ إلى اجتماعهما فيكَ في وقتٍ واحدٍ سبيلٌ، لم يكن لكَ إلى إرضاءِ

الفريقين سبيلٌ. وإذا لم يكن لك إلى ذلك سبيل، فالزَمْ هُدَى الله الذي لجميعِ الخَلْقِ إلى الألْفَةِ عليه سبيلٌ.

وأما «الملة» فإنها الدِّينُ، وجَمْعُها المِلَلَ.

ثم قال جَلَّ ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد ـ لهؤلاء النصارى واليهود الذين قالوا: «لنْ يَدْخلَ الجنةَ إلاّ مَنْ كان هُوداً أوْ نصَارَى» ـ: «إن هدى الله هو الهـدى». يعني: إنَّ بيانَ الله هو البيانُ المقنع، والقضاءُ الفاصلُ بيننا، فهلمُّوا إلى كتابِ الله وبيانه ـ الذي بَيَّنَ فيه لعباده ما اختلفوا فيه وهو التوراةُ التي تُقِرُّون جميعاً بأنها من عند الله ـ يتضحْ لكم فيها المُحِقُّ منّا من المُبْطِلِ، وأيُّنا أهل الجنة وأيُّنا أهل النار وأيُّنا على الصواب وأيُّنا على الخطأ.

وإنما أمر الله نبيه ﷺ أن يدعوهم إلى هدى الله وبيانه، لأن فيه تكذيبَ اليهـودِ والنصـارى فيما قالوا: من أنَّ الجنة لن يدخلها إلا مَنْ كان هوداً أو نصارى، وبيانَ أمر محمد ﷺ، وأنَّ المُكَذِّب به من أهلِ النار دون المصدِّق به.

القـول في تأويل قولـه تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝١٢٠﴾

يعني جَلَّ ثنـاؤه بقـوله: «ولئن اتبعت»، يا محمدُ، هَوَى هؤلاء اليهود والنصـارى ـ فيمـا يُرْضِيهم عنـكَ ـ من تهوُّدٍ وتنصُّرٍ، فَصِرْتَ من ذلك إلى إرضـائهم، ووافقتَ فيه محبتهم ـ من بعد الذي جاءك من العلم بضلالتهم وكُفْرِهم بربهم، ومن بعد الذي اقتصصتُ عليك من نَبَئِهم في هذه السورة ـ ما لَكَ من الله من وليٍّ ـ يعني بذلك: ليس لك يا محمد من وليٍّ يَلِي أمرَكَ، وقَيِّمٍ يقومُ به ـ ولا نصيرٍ، ينصركَ من الله فيدفَعُ عنكَ ما ينزل بكَ من عقوبته،

ويمنعُك من ذلك، إنْ أحَلَّ بك ذلك ربك. وقد بيَّنا معنى «الولي» و«النصير» فيما مضى قبل.

وقد قيل: إنَّ الله تعالى ذكره أنزل هذه الآية على نبيه محمد ﷺ، لأنَّ اليهودَ والنصارى دعته إلى أديانها، وقال كلُّ حزب منهم: إن الهدى هو ما نحنُ عليه، دونَ ما عليه غيرنا من سائر الملل. فوعظه الله أنْ يفعل ذلك، وعلَّمه الحجةَ الفاصلة بينهم فيما ادَّعى كُلُّ فريق منهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾

عَنى الله بذلك علماءَ بني إسرائيل، الذين آمنوا بالله وصدَّقُوا رُسله، فأقرُّوا بحكم التوراة. فعملوا بما أمر الله فيها من اتباع محمد ﷺ، والإيمانِ به، والتصديقِ بما جاء به من عند الله، وذلك لأنَّ الآيات قَبْلَها مضت بأخبارِ أهلِ الكتابين، وتبديل مَنْ بَدَّلَ منهم كتابَ الله، وتأوُّلِهم إيَّاهُ على غير تأويلِهِ، وادّعائِهم على الله الأباطيل.

فإذْ كان ذلك كذلك، فالذي هو أوْلى بمعنى الآية، أنْ يكون موجَّهاً إلى أنه خبرٌ عَمَّنْ قَصَّ الله جَلَّ ثناؤه قصصهم في الآية قبلها والآية بعدها، وهم أهلُ الكتابين التوراة والإنجيل. وإذْ كان ذلك كذلك، فتأويل الآية: الذين آتيناهم الكتابَ الذي قد عرفته يا محمد ـ وهو التوراة ـ فقرأوه واتَّبَعُوا ما فيه، فَصَدَّقوك وآمنوا بك وبما جئتَ به من عندي، أولئك يتلُونه حَقَّ تلاوته.

وإنما أدخلت «الألف واللام» في «الكتاب»، لأنه معرفة. وقد كان النبي ﷺ وأصحابه عرفوا أيَّ الكُتُبِ عَنَى به.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾

وتأويل ذلك أنه بمعنى: يتبعونه حقَّ اتباعه، من قول القائل: «ما زلتُ أتْلُو أثره»، إذا اتَّبعَ أثَرَهُ، لإجماعِ الحجةِ من أهلِ التأويلِ على أنّ ذلك تأويله.

وإذْ كان ذلك تأويله، فمعنى الكلام: الذين آتيناهُمُ الكتابَ، يا محمد من أهل التوراة الذين آمنوا بك وبما جِئْتَهُمْ به من الحَقِّ من عندي، يتبعونَ كتابي الذي أنزلتُه على رسولي موسى صلوات الله عليه، فيؤمنونَ به ويُقِرُّونَ بما فيه من نَعْتِكَ وصفتك، وأنك رسولي، فرضٌ عليهم طاعتي في الإيمان بك والتصديق بما جئتهم به من عندي، ويَعمَلون بما أحْللتُ لهم، ويجتنبون ما حَرَّمتُ عليهم فيه، ولا يُحَرِّفُونَهُ عن مواضِعِه، ولا يُبَدِّلُونَهُ ولا يغيرونه ـ كما أنزلته عليهم ـ بتأويلٍ ولا غيره.

أما قوله: «حَقَّ تِلاوته»، فمبالغةٌ في صفة اتِّباعِهم الكتابَ ولزومهم العملَ به، كما يقال. «إنَّ فلاناً لعالم حقُّ عالم»، وكما يقال: «إن فلاناً لفاضل كلُّ فَاضل»، ومعنى ذلك: أيُّ تلاوَةٍ، بمعنى مدح التلاوة التي تَلوْها وتفضيلها.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «أولئك»، هؤلاء الذين أخبرَ عنهم أنهم يتلون ما آتاهُم من الكتابِ حَقَّ تلاوته، وأما قوله: «يُؤمنون به»، فإنه يعني: يُصَدِّقُون به. و«الهاء» التي في قوله: «به» عائدة على «الهاء» التي في «تلاوته»، وهما جميعاً من ذكر الكتاب الذي قال الله: «الذين آتيناهم الكتاب».

فأخبر الله جَلَّ ثناؤه أنَّ المؤمنَ بالتوراة، هو المُتَّبِعُ مَا فيها من حَلالِها وحَرامِها، والعاملُ بما فيها من فرائض الله التي فَرَضَها فيها على أهلها، وأنَّ أهلها الذين هُم أهلُها مَنْ كان ذلك صفتَه، دونَ مَنْ كان مُحَرِّفاً لها، مُبَدِّلاً

تأويلها، مغيِّراً سُننها، تاركاً ما فرض الله فيها عليه.

وإنما وصَف جَلَّ ثناؤه مَنْ وَصَفَ بما وُصف به من مُتَّبِعي التوراة، وأثنى عليهم بما أثنى به عليهم، لأنَّ في اتباعها اتِّباعَ محمدٍ نبيِّ الله ﷺ وتصديقَه، لأنَّ التوراةَ تأمرُ أهلَها بذلك، وتخبرهم عن الله تعالى ذكره بنبوته، وفرض طاعته على جميعِ خَلْق الله من بني آدم، وأنَّ في التكذيب بمحمدٍ التكذيبَ لها. فأخبر جَلَّ ثناؤه أنَّ متَّبِعي التوراة هم المؤمنون بمحمدٍ ﷺ، وهم العاملون بما فيها.

القــول في تأويل قولــه تعــالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ١٢١﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «ومن يَكْفُر به»، ومن يكفر بالكتابِ الذي أخبرَ أنه يتلوه ـ مَن آتاه من المؤمنينَ ـ حَقَّ تلاوته. ويعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «يكفر»، يَجْحد ما فيه من فرائضِ الله ونبوةِ محمدٍ ﷺ وتصديقه، ويبدِّله فيحرف تأويلَهُ، أولئك هم الذين خسروا عِلمهم وعَملهم، فَبَخَسُوا أنفسَهُم حُظوظَها من رحمةِ الله، واستبدلوا بها سَخَط الله وغَضَبه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ١٢٢﴾

وهذه الآية عِظةٌ من الله تعالى ذِكْرُه لليهودِ الذين كانوا بين ظهراني مُهَاجَرِ رسولِ الله ﷺ، وتذكيرٌ منه لهم ما سَلَفَ من أياديهِ إليهم في صُنْعِه بأوائِلهم، استعطافاً منه لهم على دِينهِ وتصديق رسولِهِ محمدٍ ﷺ، فقال: يا بني إسرائيل اذكـروا أيادي لدَيكم، وصنائعي عندكم، واستنقاذي إياكم من أيدِي عدوِّكم

فرعون وقومه، وإنزالي عليكمُ المَنَّ والسلوى في تِيهكم، وتَمْكِيني لكم في البلاد بعد أنْ كنتم مذلَّلين مقهورين، واختصاصي الرُّسُلَ منكم، وتفضيلي إيَّاكم على عالم مَنْ كنتم بين ظهرَانيه، أيامَ أنتم في طاعتي - باتباع رسولي إليكم، وتصديقه وتصديق ما جاءكم به من عندي، ودَعُوا التمادِي في الضلالِ والغيِّ.

وقد ذكرنا فيما مضى النِّعم التي أنعمَ اللهُ بها على بني إسرائيل، والمعاني التي ذَكَّرَهُم جَلَّ ثناؤه من آلائه عِنْدَهم، والعالَم الذي فُضِّلوا عليه - فيما مضى قَبْلُ - فكرهنا تطويلَ الكتاب بإعادته، إذ كان المعنى في ذلك في هذا الموضع وهنالك واحداً.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

وهذه الآية ترهيبٌ من الله جَلَّ ثناؤه للذين سَلفت عِظَتُه إياهم بما وعظهم به في الآية قبلها. يقول الله لهم: واتقوا - يا معشرَ بني إسرائيل - المُبَدِّلينَ كتابي وتنزيلي، المُحَرِّفينَ تأويلَهُ عن وجههِ المُكَذِّبينَ برسولي محمد ﷺ - عذابَ يومٍ لا تقضي فيه نفس عن نفس شيئاً، ولا تغني عنها غناءً أنْ تهلِكُوا على ما أنتم عليه من كُفْرِكم بي، وتكذيبكم رسولي، فتموتوا عليه، فإنه يومٌ لا يُقبلُ من نفسٍ فيما لزمها فِدْيةٌ، ولا يَشفع فيما وَجَب عليها من حَقٍّ لها شافعٌ، ولا هي ينصرها ناصر من الله إذا انتقم منها بمعصيتها إيّاه.

وقد مضى البيان عن كل معاني هذه الآية في نظيرتها قَبْلُ، فأغنى ذلك عن إعادته في هذا الموضع.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «وإذ ابتلى»، وإذ اخْتَبَر.

يقال منه: «ابتليتُ فلاناً أبتليه ابتلاء»، ومنه قول الله عَزَّ وجل: ﴿وَٱبْتَلُوا الْيَتَامَى﴾ [النساء: ٦]، يعني به: اختبروهم.

وكان اختبار الله تعالى ذِكْرُه إبراهيمَ، اختباراً بفرائض فَرَضَها عليه، وأمرٍ أَمَرَهُ به. وذلك هو «الكلمات» التي أَوْحاهُنَّ إليه، وكَلَّفَهُ العملَ بهن، امتحاناً منه له واختباراً، فأتَمَّهُنَّ، كما أخبر اللهُ جَلَّ ثناؤه عنه أنه فعل.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «فأتمهن»، فأتَمَّ إبراهيمُ الكلمات. و«إتمامه إيَّاهن»، إكمالُهُ إيَّاهُنَّ، بالقيامِ لله بما أوجبَ عليه فيهن، وهو الوفاءُ الذي قال الله جَلَّ ثناؤه: ﴿وإبْرَاهِيمَ الَّذِي وفَّى﴾ [النجم: ٣٧]، يعني وفَّى بما عهد إليه، «بالكلمات»، بما أمره به من فرائضه ومحنته فيها.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «إنِّي جَاعلك للناس إماماً، فقال الله: يا إبراهيم، إني مُصَيِّرُكَ للناسِ إماماً، يُؤْتَمُّ به ويُقتدى به. يقال منه: «أممتُ القومَ فأنا أَؤُمُّهم أمّاً وإِمَامة»، إذا كنت إمامهم.

وإنما أراد جَلَّ ثناؤه بقوله لإبراهيم: «إنِّي جاعِلك للناسِ إماماً»، إنِّي مصيِّرُك تَؤُم مَن بعْدك من أهل الإيمانِ بي وبرسلي، تتقدَّمُهم أنتَ، ويَتَّبعون هَدْيَك، ويَسْتَنُّون بسُنتك التي تعملُ بها، بأمري إيَّاك ووحيِي إليك.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بذلك: قال إبراهيم ـ لَمَّا رفع الله منزلته وكَرَّمه، فأعلمه ما هو صانعٌ به، من تَصييرِه إماماً في الخيراتِ لمن في عصره ولمن جاء بَعْدَهُ من ذريته وسائر الناس غيرهم، يُهْتَدَى بهَديِهِ، ويُقْتَدَى بأفعالهِ وأخلاقه ـ: يا رب، ومن ذُرِّيتي فاجعلْ أئمةً يُقتدى بهم، كالذي جعلتني إماماً يُؤتَمُّ بي ويُقْتَدى بي. مسألةٌ من إبراهيم ربَّه سأله إيَّاها.

وقد زعم بعض الناس أنَّ قولَ إبراهيم: «ومن ذرِّيتي» مسألة منه ربَّه لعقِبِه أنْ يكونوا على عَهدِهِ ودينه، كما قال ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، فأخبر الله جَلَّ ثناؤه أنَّ في عَقِبه الظالِمَ المخالفَ له في دِينه، بقوله: «لا يَنالُ عَهدي الظالمين».

والظاهرُ من التنزيل يدلُّ على غير الذي قاله صاحب هذه المقالة. لأنَّ قولَ إبراهيم صلوات الله عليه: «ومن ذُريتي»، في إثر قولِ الله جَلَّ ثناؤه: «إنِّي جَاعِلُكَ للناس إماماً». فمعلوم أن الذي سأله إبراهيم لذرِّيته، لو كان غيرَ الذي أخبرَ ربُّه أنه أعطاهُ إياه، لكان مُبيَّناً. ولكن المسألة لما كانت مما جرَى ذِكْرُه، اكتفى بالذِّكرِ الذي قد مضى، مِنْ تكريره وإعادته، فقال: «ومن ذريتي»، بمعنى: ومن ذريتي فاجعل مثلَ الذي جعلتني به، من الإمامةِ للناس.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾

هذا خبرٌ من الله جَلَّ ثناؤه عن أنَّ الظالمَ لا يكون إماماً يقتدي به أهلُ الخيرِ. وهو من الله جَلَّ ثناؤه جوابٌ لما يُتَوَهَّمُ في مسألته إياه: أن يجعل من ذريته أئمةً مِثْلَهُ. فأخبر أنه فاعلٌ ذلك، إلا بمن كان من أهل الظلم منهم، فإنَّهُ غير مُصَيِّرَه كذلك، ولا جاعِلِه في محلِّ أوليائه عنده، بالتكرمةِ بالإمامةِ.

لأنَّ الإمامةَ إنما هي لأوليائِه وأهلِ طاعته، دون أعدائه والكافرين به.

واختلف أهلُ التأويل في العهد الذي حَرَّمَ اللهُ جَلَّ ثناؤه الظالمين أنْ ينالوه. فقال بعضهم: ذلك «العهد»، هو النبوة.

وقال آخرون: معنى «العهد»: عهد الإمامة.

وقال آخرون: معنى ذلك: أنَّهُ لا عَهْدَ عليكَ لظالمٍ أنْ تُطِيعَهُ في ظُلمه.

وقال آخرون: بل «العهد» الذي ذَكَرَهُ اللهُ في هذا الموضع: دِينُ الله.

وهذا الكلام، وإنْ كان ظاهرُه ظاهر خَبرٍ - عن أنه لا ينال مِنْ وَلَدِ إبراهيم صلوات الله عليه عهدُ الله، الذي هو النبوة والإمامة لأهل الخير، بمعنى الاقتداء به في الدنيا، والعهد الذي بالوفاء به ينجو في الآخرةِ مَنْ وَفَى للهِ به في الدنيا، مَنْ كان منهم ظالماً مُتَعَدِّياً جائراً عن قَصْدِ سبيلِ الحق - فهو إعلامٌ من الله تعالى ذِكْرُه لإبراهيمَ: أنَّ من ولده من يُشرك به، ويجورُ عن قَصْدِ السبيل، ويظلمُ نفسه وعبادَه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾

أما قوله: «وإذْ جَعلنا البيت مَثابة»، فإنه عطف بـ«إذ» على قوله: «وإذ ابتلَى إبراهيمَ ربُّه بكلمات». وقوله: «وإذ ابتلى إبراهيم» معطوف على قوله: «يا بَني إسرائيلَ اذكروا نعمتي»، واذكروا «إذِ ابتلى إبراهيمَ ربُّه»، «وإذْ جعلنا البيتَ مَثابة».

و«البيت» الذي جعله الله مثابةً للناس، هو البيتُ الحرام.

و«المثابة» «مفعلة» من «ثاب القوم إلى الموضع»، إذا رجعوا إليه، «فهم يثوبون إليه مَثاباً ومَثابةً وثواباً».

فمعنى قوله: «وإذ جَعلنا البيتَ مَثابة للناس»: وإذْ جعلنا البيتَ مرجعاً للناس ومعاذاً، يأتونه كُلَّ عامٍ ويَرجعون إليه، فلا يَقْضُونَ منه وطراً، ومنه قيل: «ثابَ إليه عقله»، إذا رجع إليه بعد عزُوبه عنه.

القول في تأويل قوله تعالى: وَأَمْنًا

و «الأمن» مصدرٌ من قول القائل: «أمِنَ يأمَنُ أمْناً».

وإنما سماه الله «أمْناً»، لأنه كان في الجاهلية مَعَاذاً لمن استعاذ به. وكان الرجلُ منهم لو لقيَ به قاتلَ أبيهِ أو أخيهِ، لم يَهجْهُ ولم يعرض له حتى يخرج منه، وكان كما قال الله جَلَّ ثناؤه: ﴿أوَ لَمْ يرَوْا أنَّا جعَلْنا حَرماً آمِناً وَيُتَخطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

القول في تأويل قوله تعالى: وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى

«واتخِذوا» بكسر «الخاء»، على تأويلِ الأمرِ باتخاذِ مقامِ إبراهيم مصلى.

و«مقام إبراهيم»، هو المقامُ المعروف بهذا الاسم، الذي هو في المسجد الحرام.

وأما قوله تعالى: «مُصَلًّى» يعني مصلى تُصَلُّون عنده.

(فتأويل الآية إذاً): اتخذوا أيها الناسُ من مقام إبراهيم مصلًّى تُصَلُّونَ عنده، عبادةً منكم، وتكرمةً مني لإبراهيم.

القول في تأويل قوله تعالى: وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وعَهِدْنا»؛ «وأَمَرْنَا».

فمعنى الآية: وأمرنا إبراهيمَ وإسماعيلَ بتطهيرِ بيتيَ للطائفين. «والتطهير» الذي أمَرَهُمَا اللهُ به في البيت، هو تطهيرُه من الأصنامِ، وعبادةِ الأوثان فيه، ومن الشركِ بالله.

فإنْ قال قائل: وما معنى قوله: «وعَهِدنا إلى إبْراهيمَ وإسماعيل أن طَهرا بَيتيَ للطائفين»؟ وهل كان أيامَ إبراهيم - قَبْلَ بنائهِ البيتَ - بيتٌ يُطَهَّرُ من الشركِ وعبادةِ الأوثان في الحرم، فيجوز أن يكونا أُمِرَا بتطهيرهِ؟

قيل: لذلك وجهان من التأويل، قد قال بكل واحد من الوجهين جماعةٌ من أهل التأويل.

أحدهما: أن يكون معناه: وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن ابنيا بيتيَ مُطَهَّراً من الشِّركِ والرَّيْب، كما قال تعالى ذكره: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ [التوبة: ١٠٩]، فكذلك قوله: «وعَهِدْنَا إلى إبراهيمَ وإسماعيل أنْ طهِّرا بيتي»، أي: ابنيا بَيتيَ على طُهْرٍ من الشركِ بي والرَّيْب.

والوجه الآخر منهما: أن يكونَا أُمِرَا بأنْ يُطَهِّرَا مكانَ البيت قبل بُنيانهِ، والبيتَ بعدَ بنيانهِ، مما كان أهلُ الشرك بالله يجعلونه فيه - على عَهدِ نوحٍ ومَن قَبْلَهُ - من الأوثانِ، ليكون ذلك سُنَّةً لِمَنْ بَعْدَهُمَا، إذ كان الله تعالى ذكره قد جعلَ إبراهيمَ إماماً يقتدي به مَنْ بعدَهُ.

القول في تأويل قوله تعالى: لِلطَّآئِفِينَ

«والطائفون» هُمُ الذين يطوفون به، غُرباءَ كانوا أو منْ أهلِه، لأنَّ «الطائف» هو الذي يطوفُ بالشيءِ دُون غيره.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «والعاكفين»، والمقيمينَ به. «والعاكفُ على الشيء»، هو المقيمُ عليه، وإنما قيل للمعتكف «معتكف»، من أجل مقامه في الموضع الذي حبسَ فيه نَفْسَهُ لله تعالى.

و«العاكف» في هذا الموضع، المقيمُ في البيت مجاوراً فيه بغير طَوافٍ ولا صلاة. لأنَّ صفة «العكوف» ما وصفنا: من الإقامة بالمكان. والمقيمُ بالمكان قد يكون مقيماً به وهو جالِسٌ ومصلٍّ وطائفٌ وقائمٌ، وعلى غير ذلك من الأحوال. فلما كان تعالى ذِكْرُه قد ذكر ـ في قوله: «أنْ طَهِّرَا بَيتيَ للطائفين والعاكفينَ والرُّكَّعِ السجود» ـ المصلِّين والطائفين، علم بذلك أنَّ الحالَ التي عَنى اللهُ تعالى ذكره من «العاكف»، غير حال المصلي والطائف، وأنَّ التي عَنَى من أحواله، هو العكوفُ بالبيت، على سبيلِ الجوارِ فيه، وإنْ لم يكن مصلِّياً فيه ولا راكعاً ولا ساجداً.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «والركَّع»، جماعةَ القومِ الراكعينَ فيه له، واحِدُهم «راكع». وكذلك «السجود» هم جماعةُ القومِ الساجدين فيه له، واحدهم «ساجد» ـ كما يقال: «رجلٌ قاعدٌ ورجالٌ قعود» و«رجل جَالس ورجال جُلوس»، فكذلك «رجل ساجد ورجال سجود».

وقد بيَّنا فيما مضى بَيَان معنى «الركوع» و«السجود»، فأغنى ذلك عن إعادته ههنا.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وإذْ قَالَ إبراهيمُ رَبِّ اجعلْ هذا بلداً آمناً»، واذكروا إذْ قال إبراهيم: رَبِّ اجعلْ هذا البلد بلداً آمناً.

ويعني بقوله «آمناً»، آمناً من الجبابرةِ وغيرهم، أنْ يُسَلَّطُوا عليه، ومن عقوبةِ الله أنْ تناله كما تنالُ سائرَ البلدانِ، من خَسْفٍ وائتفاكٍ وغرق، وغير ذلك من سخط الله وَمَثُلاتهِ التي تصيبُ سائرَ البلاد غيرَه.

فإن قال لنا قائل: أَوَ مَا كانَ الحَرَمُ آمناً إلاّ بعد أن سأل إبراهيمُ ربَّه له الأمان؟

قيل له: إنّ الله تعالى ذِكْرُه جعل مكةَ حرَماً حين خَلقها وأنشأها، كما أخبر النبيُّ ﷺ، «أنه حرَّمها يوم خَلَقَ السمواتِ والأرض»[1]، بغير تحريمٍ منه لها على لسانِ أحدٍ من أنبيائه ورسله، ولكنْ بمَنْعِه مَنْ أرادَها بسوء، وبدفعِهِ عنها من الآفاتِ والعقوباتِ وعن ساكِنيها، ما أحلَّ بغيرها وغير ساكنيها من النقمات. فلم يزل ذلك أمْرَها حتى بَوَّأها الله إبراهيمَ خليلَه، وأسكن بها أهلَهُ هاجرَ وولده إسماعيل فسأل حينئذٍ إبراهيمُ ربَّه إيجابَ فرضِ تحريمها على عبادِه على لسانهِ، ليكون ذلك سُنةً لمن بعده من خَلْقِه يستنُّون به فيها، إذ كان تعالى ذِكْرُه قد اتَّخذَهُ خليلاً، وأخبره أنه جاعله للناسِ إماماً يُقتدى به. فأجابه رَبُّه إلى ما سأله، وألزمَ عبادَه حينئذٍ فرض تحريمه على لسانه.

فصارَت مكة ـ بعد أنْ كانت ممنوعةً بِمَنْعِ الله إياها، بغيرِ إيجابِ الله فرضَ الامتناعِ منها على عبادِه، ومحرَّمةً بدفع الله عنها، بغير تحريمه إياها

---

(١) مسند أحمد: ٤/٣٢.

على لسانِ أحدٍ من رسله ـ فرضٌ تحريمها على خَلْقِه على لسانِ خليله إبراهيم عليه السلام، وواجبٌ على عبادِه الامتناعُ من استحلالها، واستحلال صيدها وعِضَاهها لها بإيجابهِ الامتناعَ من ذلك، ببلاغِ إبراهيمَ رسالةَ اللهِ إليه بذلك إليهم.

فلذلك أضيفَ تحريمها إلى إبراهيم، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله حَرَّم مكة». لأن فرض تَحريمها الذي ألزَمَ اللهُ عبادَهُ على وجهِ العبادةِ له به ـ دون التحريمِ الذي لم يَزَل مُتعبَّداً لها به على وجه الكِلاءة والحِفْظِ لها قبلَ ذلك ـ كان عن مسألةِ إبراهيمَ ربَّه إيجابَ فرضِ ذلك على لسانه، وهو الذي لزم العبادَ فرضُه دون غيره.

فقد تبين إذاً بما قُلنا صحّةُ معنى الخبرَيْن ـ أعني خبر أبي شريح وابن عباس عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إن الله حرّم مكة يوم خلق الشمسَ والقمر»[1] وخبر جابر وأبي هريرة ورافع بن خديج وغيرهم: أن النبيَّ ﷺ قال: «اللهم إنَّ إبراهيم حرَّم مكة»[2]؛ وأنْ ليس أحدهما دافعاً صِحَّةَ معنى الآخر، كما ظنه بعض الجُهَّال.

وغيرُ جائز في أخبار رسولِ الله ﷺ أنْ يكونَ بعضُها دافعاً بعضاً، إذا ثبت صِحَّتُها. وقد جاء الخبران اللذان رُويا في ذلك عن رسول الله ﷺ، مجيئاً ظَاهراً مستفيضاً يقطعُ عُذرَ من بَلغه.

---

(١) أما حديث أبي شريح فقد أخرجه البخاري ١/٣٧ و٣/١٧ و٥/١٩٠، ومسلم (١٣٥٤) والترمذي والنسائي، وأما حديث ابن عباس فقد أخرجه البخاري ٢/١٨١ و٣/١٨ و٤/١٢٧ ومسلم (١٣٥٣)، وأبو داود (٢٤٨٠) والنسائي ٥/٢٠٤.

(٢) أما حديث جابر ورافع بن خديج فقد أخرجهما مسلم، وأما حديث أبي هريرة فقد أخرجه البخاري ومسلم.

وأمّا قولُ إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، فإنه، إنْ يَكُنْ قاله قبل إيجابِ الله فَرْضَ تحريمِهِ على لسانه على خَلْقِه، فإنما عَنى بذلك تحريم الله إياه الذي حرَّمه بحِياطته إياه وكلاءته، من غير تحريمِهِ إياه على خَلْقِه على وجه التعبُّد لهم بذلك ـ وإنْ يكن قال ذلك بعد تحريم الله إياه على لسانِه على خلقه على وجه التعبُّد، فلا مسألةَ لأحدٍ علينا في ذلك.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾

وهذه مسألة من إبراهيم ربَّه: أنْ يرزقَ مؤمني أهل مكة من الثمرات، دون كافريهم. وخصَّ بمسألة ذلك للمؤمنين دون الكافرين، لمَّا أعلمه الله ـ عند مسألته إيَّاهُ أنْ يجعلَ من ذريته أئمةً يُقْتَدى بهم ـ أنَّ منهم الكافرَ الذي لا ينالُ عهدَه، والظالمَ الذي لا يُدركُ ولايته. فلمَّا أنْ عَلِمَ أنَّ من ذريتِهِ الظالمَ والكافرَ، خَصَّ بمسألتِهِ ربَّه أنْ يرزق من الثمراتِ من سُكَّانِ مكة، المؤمنَ منهم دونَ الكافرِ. وقال الله له: إنِّي قد أجبتُ دعاءكَ، وسأرزقُ مع مؤمني أهل هذا البلد كافرَهم، فأُمَتِّعُهُ به قليلاً.

وأمّا «مَنْ» من قوله: «مَنْ آمن منهم بالله واليوم الآخر»، فإنه نصبٌ على الترجمةِ والبيان عن «الأهل»، كما قال تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، بمعنى يسئلونك عن قتالٍ في الشهر الحرام، وكما قال تعالى ذكره: «وللهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ [آل عمران: ٩٧]. بمعنى: وللهِ حِجُّ البيت على مَنِ استطاع إليه سبيلا.

وإنما سأل إبراهيمُ رَبَّهُ ما سألَ من ذلك، لأنه حَلَّ بوادٍ غير ذي زَرْعٍ

ولا ماء ولا أهلٍ، فسألَ أن يرزق أهله ثمراً، وأن يجعلَ أفئدةً من الناس تَهوي إليهم.

القول في تأويل قوله تعالى: قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا

وتأويلُ الآية: قال الله: يا إبراهيم، قد أجبتُ دَعْوتك، ورزقتُ مؤمِنِي أهل هذا البلد من الثمراتِ وكفارهم، متاعاً لهم إلى بُلوغ آجالهم، ثم أَضْطرُّ كُفَّارَهم بعد ذلك إلى النار.

وأما قوله: «فأمتِّعهُ قَليلًا» يَعني: فأجعل ما أرزقه من ذلك في حَياته مَتاعاً يتمتع به إلى وقت مماته.

وإنما قلنا إنَّ ذلك كذلك، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه إنما قالَ ذلك لإبراهيم، جواباً لمسألته ما سَأل من رزق الثمرات لمؤمني أهل مكة. معلوماً بذلك أن الجوابَ إنما هو فيما سألَهُ إبراهيم لا في غيرِه.

القول في تأويل قوله تعالى: ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «ثم أضْطرُّه إلى عذاب النارِ»، ثم أدفعه إلى عذابِ النار وأسوقه إليها، كما قال تعالى ذِكْرُه: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إلى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣].

ومعنى «الاضطرار»، الإكراه. يقال: «اضطررت فلاناً إلى هذا الأمر»، إذا أَلْجأْتَهُ إليه وحَملته عليه.

فذلك معنى قوله: «ثم أضطرُّه إلى عذابِ النار»، أدفعه إليها وأسوقه، سَحْباً وجَرًّاً على وجهه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ ﴿١٢٦﴾

قد دللنا على أنَّ «بِئْسَ» أصله «بَئِسَ» من «البُؤس» سُكِّن ثانيه، ونقلت حركةُ ثانيهِ إلى أوله، كما قيل للكَبد كِبْد، وما أشبه ذلك.

ومعنى الكلام: وساءَ المصيرُ عذابُ النار، بعد الذي كانوا فيه من متاع الدنيا الذي متَّعتهم فيها.

وأما «المصير»، فإنه «مَفْعِل» من قول القائل: «صِرْت مَصِيراً صالحاً»، وهو الموضع الذي يَصير إليه الكافرُ بالله من عذابِ النار.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾

يعني بقوله تعالى ذِكْرُه: «وإِذْ يَرْفَعُ إبْراهيمُ القواعدَ منَ البيت»، واذكروا إذ يرفعُ إبراهيم القواعدَ من البيت.

و«القواعد» جمع «قاعدة»، يقال للواحدة من «قواعد البيت» «قاعدة»، وللواحدة من «قواعد النساء» وعجائزهن «قاعد»، فتلغى هاء التأنيث، لأنها «فاعل» من قول القائل: «قعدت عن الحَيض»، ولاحظَّ فيه للذكورة، كما يقال: «امرأة طَاهِرٌ وَطامثٌ»، لأنه لاحظَّ في ذلك للذكور، ولو عنى به «القعود» الذي هو خلاف «القيام»، لقيل: «قاعدة»، ولم يجز حينئذٍ إسقاط هاء التأنيث. و«قواعد البيت» أساسه.

ثم اختلف أهل التأويل في «القواعد» التي رفعها إبراهيم وإسماعيل من البيت. أَهُمَا أَحْدَثَا ذلك، أم هي قواعدُ كانت لهُ قبلهما؟

والصوابُ من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى ذِكْرُه أخبرَ

عن إبراهيم خليله أنه وابنه إسماعيل، رفعا القواعدَ من البيت الحرام. وجائزٌ أن يكونَ ذلك قواعدَ بيتٍ كان أَهْبَطَهُ مع آدمَ، فجعله مكانَ البيت الحرَام الذي بمكة. وجائزٌ أن يكون ذلك كان القُبة التي أنشأها الله من زَبَد الماء. وجائزٌ أن يكـون ياقوتة أو دُرَّةً أهبِطا من السماء. وجائزٌ أن يكون كان آدم بناه ثم انهدم، حتى رفع قواعِدَهُ إبراهيمُ وإسماعيل. ولا عِلْمَ عندنا بأيٍّ ذلك كان من أيٍّ، لأنَّ حقيقـة ذلـك لا تُدْرَكُ إلا بخبرٍ عن الله وعن رسوله ﷺ، بالنَّقْلِ المُستفيض. ولا خبرَ بذلك تقومُ به الحجةُ فيجب التسليم لها، ولا هو - إذ لم يكن به خبرٌ، على ما وَصَفْنَا - مما يُدَلُّ عليه بالاستدلالِ والمقاييس، فَيُمَثَّلُ بغيرِه، ويُسْتَنْبَطُ عِلْمُهُ من جهةِ الاجتهاد. فلا قولَ في ذلك هو أولى بالصواب مما قُلنا. والله تعالى أعلم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: وإذْ يرفع إبراهيمُ القواعدَ من البيت وإسماعيل يَقولان ربنا تَقبَّلْ منا. وذكر أنَّ ذلك كذلك في قراءة ابن مسعود.

ثم اختلف أهلُ التأويل في الذي رَفع القواعد، بعدَ إجماعِهم على أنَّ إبراهيمَ كان مِمَّنْ رَفعها.

فقال بعضهم: رفعها إبراهيمُ وإسماعيل جميعاً.

وقال آخرون: بل رفع قواعد البيت إبراهيم، وكان إسماعيل يُناوله الحِجارةَ.

وقال آخرون: بل الذي رفع قواعدَ البيت إبراهيمُ وحده وإسماعيل يومئذٍ طفلٌ صغير.

فمن قال: رفع القواعدَ إبراهيمُ وإسماعيلُ، أو قال: رفعها إبراهيمُ وكان إسماعيل يُناوله الحجارةَ، فالصوابُ في قوله أنْ يكونَ المضمرُ من القول لإبراهيم وإسماعيل. ويكون الكلامُ حينئذٍ: «وإذ يرفع إبراهيمُ القواعدَ من البيت وإسماعيل» يقولان ربَّنا تَقَبَّلْ منا. وقد كان يحتمل، على هذا التأويل، أن يكون المضمرُ من القول لإسماعيل خاصةً دون إبراهيم، ولإبراهيمَ خاصةً دون إسماعيل، لولا ما عليه عامةُ أهلِ التأويل من أن المضمرَ من القول لإبراهيم وإسماعيل جميعاً.

وأما على تأويل:ـ أنَّ إبراهيمَ هو الذي رَفَعَ القواعدَ دون إسماعيل ـ فلا يجوز أن يكون المضمر من القول عندَ ذلك إلاّ لإسماعيل خاصة.

والصوابُ من القول عندنا في ذلك: أنّ المضمر من القول لإبراهيمَ وإسماعيلَ وأنَّ قواعدَ البيت رفعها إبراهيمُ وإسماعيلُ جميعاً. وذلك أنَّ إبراهيمَ وإسماعيلَ إنْ كانا هما بنياها ورَفعاها، فهو ما قلنا. وإنْ كان إبراهيمُ تَفَرَّدَ ببنائها، وكان إسماعيلُ يناوله، فهما أيضاً رفعاها، لأنَّ رَفْعَها كان بهما: مِنْ أَحَدِهما البناء، ومن الآخر نَقلُ الحجارة إليها، ومعونة وضعِ الأحجارِ مواضِعَها. ولا تمتنعُ العرب من نِسْبَةِ البناءِ إلى مَنْ كان بسببه البناء ومَعونته.

وإنما قُلنا ما قلنا من ذلك، لإجماعِ جميعِ أهل التأويل على أنَّ إسماعيل معنيٌّ بالخبر الذي أخبر الله عنه وعن أبيه، أنهما كانا يقولانه، وذلك قولهما: «ربَّنا تَقبَّل منا إنك أنتَ السميعُ العليم». فمعلوم أن إسماعيلَ لم يَكُنْ ليقولَ ذلك، إلاّ وهو: إمّا رجُلٌ كامل، وإمَّا غلام قد فَهِمَ مواضعَ الضَّر من النفع، ولزمته فرائضُ الله وأحكامه. وإذا كان ـ في حالِ بناء أبيه ما أمَرَه الله ببنائه ورَفعِه قواعدَ بيت الله ـ كذلك، فمعلومٌ أنه لم يكن تاركاً معونةَ أبيه: إمَّا على البناء، وإمَّا على نقلِ الحجارة. وأيُّ ذلك كان منه، فقد دخل في مَعنى

مَنْ رَفَع قواعدَ البيت، وثبَت أنَّ القولَ المضمرَ خبرٌ عنه وعن والدهِ إبراهيم عليهما السلام.

فتأويل الكلام: وإذْ يرفعُ إبراهيمُ القواعدَ من البيت وإسماعيل يَقولان: ربَّنا تَقَبَّلْ منا عَمَلنا، وطاعتنا إياك، وعبادَتَنا لك، في انتهائنا إلى أمرك الذي أمرتنا به، في بناءِ بيتكَ الذي أمَرْتَنا ببنائه، إنك أنتَ السميعُ العليم.

وفي إخبار الله تعالى ذِكْرُه أنهما رَفعا القواعدَ من البيت وهما يقولان: ربَّنا تقبَّلْ منا إنك أنت السميع العليم - دليلٌ واضحٌ على أن بناءهما ذلك لم يكن مَسْكَناً يَسْكُنَانِه ولا منزلاً ينزلانه بل هو دليلٌ على أنهما بنياه ورفعا قواعده لكل مَنْ أراد أن يعبدَ الله، تقرُّباً منهما إلى الله بذلك. ولذلك قالا: «ربَّنا تَقبَّلْ منا». ولو كانا بَنياه مسكناً لأنفسهم، لم يكن لقولهما: «تقبَّل منا» وجهٌ مفهوم. لأنه كانا يكونان - لو كان الأمرُ كذلك - سائلينَ أن يَتقبَّلَ منهما ما لا قُرْبَةَ فيه إليه. وليس موضعهما مَسألة الله قبولَ ما لا قربةَ إليه فيه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ١٢٧﴾

وتأويل قوله: «إنك أنتَ السميع العليم»، إنك أنتَ السميعُ دُعاءنا ومسألتنا إياكَ قَبُولَ ما سألناكَ قبوله منا، مِنْ طاعتكَ في بناء بَيتك الذي أمرتنا ببنائهِ - العليمُ بما في ضمائرِ نُفوسنا مِنْ الإذعانِ لكَ في الطاعة، والمصيرِ إلى ما فيه لكَ الرِّضَا والمحبة، وما نُبدي ونُخْفِي من أعمالنا.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾

وهذا أيضاً خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن إبراهيمَ وإسماعيل: أنهما كانا

يرفعان القواعدَ من البيت وهما يقولان: «رَبنا وَاجعلنا مُسْلِمَيْن لكَ»، يعنيان بذلك: واجعلنا مُسْتَسْلِمَيْنِ لأمرِكَ، خاضِعَيْنِ لطاعتك، لا نُشرك معك في الطاعة أحداً سواك، ولا في العبادة غَيْرَك.

وقد دللنا فيما مضى على أن معنى «الإسلام»: الخضوع لله بالطاعة.

وأما قوله: «ومِنْ ذُرِّيتنا أمَّةً مسلمةً لك»، فإنهما خَصَّا بذلك بعضَ الذرية، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه قد كانَ أعْلَمَ إبراهيمَ خليلَه ﷺ قبل مسألته هذه، أنَّ مِنْ ذريته مَنْ لا ينالُ عهدَهُ لظُلمِهِ وفجورِهِ. فخصَّا بالدَّعوة بعضَ ذُرِّيتهما.

وأما «الأمَّة» في هذا الموضع، فإنه يعني بها الجماعة من الناس، من قول الله: ﴿ومِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٥٩].

القول في تأويل قوله تعالى: وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا

اختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك. فقرأه بعضهم: «وأرنا مناسكنا»، بمعنى رؤية العين، أي أَظْهِرْها لأَعْيُنِنَا حتى نَراها. وذلك قراءةُ عامة أهلِ الحجاز والكوفة.

وكان بعضُ مَنْ يُوَجِّهُ تأويلَ ذلك إلى هذا التأويل، يُسَكِّن الراء من «أرْنا»، غيرَ أنه يُشِمُّها كسرة.

وقرأ آخرون: «وأرْنا مَناسكنا» بتسكين «الراء»، وزعموا أن معنى ذلك: وعلِّمنا، ودُلَّنا عليها ـ لا أنَّ معناه: أرِنَاها بالأبصار، وهذه قراءة رُويت عن بعض المتقدمين.

والقول واحدٌ: فمن كسر «الراء» جعل علامة الجزم سقوط «الياء» التي في قول القائل: «أَرِنيه» «أرِنه»، وأقرَّ الراء مكسورة كما كانت قبل الجزم. ومن

سكن «الراء» من «أرْنا»، توهم أنَّ إعرابَ الحرف في «الراء»، فَسَكَّنها في الجزم، كما فعلوا ذلك في «لم يكُن» و«لم يكُ».

وسواء كانَ ذلكَ من رُؤيةِ العين أو من رؤيةِ القلب. ولا معنى لفرق من فَرَّقَ بين رؤية العين في ذلك ورؤية القلب.

وأمّا «المناسك» فإنها جمع «مَنْسِك»، وهو الموضع الذي يُنْسكُ لله فيه، ويُتَقَرَّبُ إليه فيه بما يُرضيه من عمل صالح: إمّا بذبْحِ ذبيحةٍ له، وإما بصَلاةٍ أو طوافٍ أو سعي، وغير ذلك من الأعمال الصالحة. ولذلك قيل لمشاعرِ الحج «مناسكه»، لأنها أماراتٌ وعلاماتٌ يعتادها الناس ويتردَّدُون إليها.

وأصل «المَنْسِك» في كلام العرب: الموضعُ المعتاد الذي يَعتاده الرجلُ ويألَفُه، يقال: «لفلان مَنْسِك»، وذلك إذا كان له موضعٌ يعتاده لخيرٍ أو شر. ولذلك سميت «المناسكُ» «مناسك»، لأنها تُعْتَادُ، ويُتَرَدَّدُ إليها بالحَجِّ والعمرة، بالأعمالِ التي يُتقرَّبُ بها إلى الله.

وقد قيل إن معنى «النُّسك»: عبادةُ الله. وأن «الناسك» إنما سُمِّيَ «ناسكاً» بعبادةِ ربه.

فتأوَّل قائلو هذه المقالة: قولَه: «وأرنا مناسكنا»، وعَلِّمْنا عبادتَك، كيف نعبُدك؟ وأين نَعبدك؟ وما يرضيك عنا منفعله؟

وهذا القول، وإنْ كان مذهباً يحتمله الكلامُ، فإنَّ الغالب على معنى «المناسك» ما وصفنا قبل، من أنها «مناسك الحج» التي ذكرنا معناها.

وخرج هذا الكلام من قولِ إبراهيمَ وإسماعيلَ على وجهِ المسألة منهما ربَّهما لأنفسهما. وإنما ذلك منهما مسألةُ ربِّهما لأنفسهما وذرِّيتهما المسلمين. فلما ضَمَّا ذُرِّيتهما المسلمين إلى أنفسهما، صارا كالمخبرِيْن عن أنفسهما بذلك. وإنما قلنا إنَّ ذلك كذلك، لِتَقَدُّمِ الدعاءِ منهما للمسلمين من ذريتهما

قَبْلُ في أولِ الآية، وتأخُّرِه بَعْدُ في الآية الأخرى. فأما الذي في أول الآية فقـولهما: «ربَّنا واجعلنا مُسْلِمَيْن لك ومِنْ ذُريتنا أمةً مسلمةً لك»، ثم جمعا أنفسهما والأمةَ المسلمةَ من ذُريتهما، في مسألتهما ربَّهما أن يُريهم مَناسكَهم فقـالا: «وأرنا مناسكنا». وأما التي في الآية التي بعدها: «ربَّنا وابعثْ فيهمْ رَسولاً منهم»، فجعلا المسألة لذريتهما خاصة.

وقد ذُكر أنها في قراءة ابن مسعود: «وأرِهِمْ مناسكهُم»، يعني بذلك وأرِ ذريتَنا المسلمةَ مَناسكهم.

القـول في تأويل قولـه تعـالى: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨﴾

أمّا «التوبة»، فأصلهـا الأوْبةُ من مكروهٍ إلى محبوبٍ. فتوبةُ العبد إلى ربـه، أوبتُه مما يكرهُه الله منه، بالندمِ عليه، والإقلاعِ عنه، والعزمِ على تَرْكِ العَوْدِ فيه. وتوبة الرب على عبده: عودُه عليه بالعفوِ له عن جُرْمِه، والصفحِ له عن عُقوبةِ ذنبه، مغفرةً له منه، وتفضلاً عليه.

فإنْ قال لنا قائل: وهلْ كان لهما ذُنوبٌ فاحتاجا إلى مسألةِ ربهما التوبة؟

قيل: إنه ليس أحدٌ من خَلْقِ الله، إلّا وله من العمل ـ فيما بينه وبين ربه ـ ما يجبُ عليه الإنابةُ منه والتوبةُ. فجائزٌ أنْ يكونَ ما كان من قِيلهما ما قالا من ذلك، إنما خَصَّا به الحالَ التي كانا عليها، من رفعِ قواعدِ البيت. لأنَّ ذلك كان أحرى الأماكنِ أنْ يستجيبَ الله فيها دُعاءَهُما، وليجعلا مَا فَعلا من ذلـك سُنةً يُقتدى بها بعدَهُمَا، وتتخذ الناسُ تلك البقعةَ بعدهما موضعَ تَنصُّلٍ من الذنوبِ إلى الله. وجائز أن يكونا عَنيَا بقولهما: «وتُبْ عَلينا»، وتُبْ على الظَّلَمَةِ من أولادِنا وذريتنا ـ الذين أعْلَمْتَنَا أمْرَهُم ـ من ظُلْمِهم وشِرْكِهم،

حتى يُنيبوا إلى طاعتكَ. فيكون ظاهرُ الكلام على الدعاء لأنفسهما، والمعنيُّ به ذريتهما. كما يقال: «أكرمني فلان في ولدي وأهلي، وبَرَّني فلان»، إذا بَرَّ ولده.

وأما قوله: «إنك أنتَ التوّاب الرحيم»، فإنه يعني به: إنك أنت العائدُ على عبادكَ بالفضل، والمتفضلُ عليهم بالعفوِ والغفران ـ الرحيمُ بهم، المستنقذُ مَنْ تشاء منهم برحمتكَ من هَلكته، المُنجي مَنْ تريدُ نجاتَهُ منهم برأفتكَ من سَخَطك.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾

وهذه دعوة إبراهيم وإسماعيل لنبينا محمد ﷺ خاصة.

ويعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «يتلو عَليهم آياتك»: يقرأ عليهم كتابكَ الذي تُوحيه إليه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾

ويعني بـ «الكتاب»: القرآن.

قد بَيَّنْتُ فيما مضى لم سُمِّيَ القرآنُ «كتاباً»، وما تأويله.

ثم اختلف أهل التأويل في معنى «الحكمة» التي ذكرها الله في هذا الموضع.

فقال بعضهم: هي السُّنة.

وقال بعضعم: «الحكمة»، هي المعرفةُ بالدين والفقه فيه.

والصواب من القول عندنا في «الحكمة» أنها العِلْمُ بأحكامِ الله التي لا يُدرك عِلْمها إلا ببيانِ الرسول ﷺ، والمعرفة بها، وما دلَّ عليه ذلك من نظائره. وهو عندي مأخوذٌ من «الحُكْم» الذي بمعنى الفَصْل بين الحق والباطل، بمنزلة «الجِلْسة والقعدة» من «الجلوس والقعود»، يقال منه: «إنَّ فلاناً لحكيمٌ بَيِّنُ الحِكْمة»، يعني به: إنه لبيِّنُ الإصابةِ في القول والفعل.

وإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الآية: ربَّنا وابعثْ فيهم رسولاً منهم يَتلو عليهم آياتك، ويعلمهم كتابكَ الذي تُنَزِّلُهُ عليهم، وفصْلَ قضائك وأحكامك التي تُعلِّمه إياها.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾

قد دللنا فيما مضى قبل على أن معنى «التزكية»: التطهير، وأن معنى «الزكاة»، النماء والزيادة.

فمعنى قولـه: «ويُزكيهم» في هذا الموضع: ويُطَهِّرهم من الشركِ باللهِ وعبادةِ الأوثان، ويُنمِّيهم ويكثرهم بطاعةِ الله.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١٢٩﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: إنك يا رَبِّ أنتَ «العزيز» القويُّ الذي لا يُعْجِزُه شيءٌ أراده، فافعلْ بنا وبذريتنا ما سَألناه وطلبناه منك؛ و«الحكيم» الذي لا يدخلُ تدبيرَهُ خللٌ ولا زَللٌ، فأعْطِنَا ما ينفعنا وينفعُ ذريتنا، ولا ينقُصك ولا ينقُص خَزَائنك.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «ومنْ يرغَبُ عَنْ ملة إبراهيم»، وأيُّ الناس يَزْهَدُ في ملةِ إبراهيمَ، ويَتركها رغبةً عنها إلى غيرها؟

وإنما عنى الله بذلك اليهودَ والنصارى، لاختيارهم ما اختاروا من اليهودية، والنصرانية على الاسلام. لأنَّ «ملة إبراهيم» هي الحنيفية المسلمة، كما قال تعالى ذِكْرُه: ﴿مَا كَانَ إبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً ولاَ نَصْرَانِيّاً ولكِنْ كَانَ حَنيفاً مُسْلِماً﴾ [آل عمران: ٦٧]، فقال تعالى ذِكْرُه لهم: وَمَنْ يَزْهدُ عن ملة إبراهيمَ الحنيفيةِ المسلمةِ إلاّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «إلا مَن سفه نفسه»، إلا من سَفهتْ نفسُه. وقد بَيَّنا فيما مضى أن معنى «السَّفَه»، الجهل.

فمعنى الكلام: ومَا يرغبُ عن ملةِ إبراهيمَ الحنيفية، إلاّ سفيهٌ جاهلٌ بموضع حَظِّ نفسهِ فيما يَنْفَعُهَا، ويضرها في مَعَادِها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وَلَقَدْ اصطفيناهُ في الدنيا»، ولقد اصطفينا إبراهيمَ. و«الهاء» التي في قوله «اصطفيناه»، من ذكر إبراهيم.

و«الاصطفاء» «الافتعال» من «الصفوة»، وكذلك «اصطفينا» «افتعلنا» منه، صُيِّرت تاؤها طاءً لِقُرْبِ مخرجها من مخرج الصاد.

ويعني بقوله: «اصطفيناه»: اخترناه واجتبيناه للخُلَّةِ، ونُصَيِّرُهُ في الدنيا لِمَنْ بَعدَه إماماً.

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن أنَّ مَنْ خالفَ إبراهيمَ فيما سَنَّ لمن

بعده، فهو لله مخالفٌ، وإعلامٌ منه خَلْقَهُ أنَّ مَنْ خالف ما جاء به محمد ﷺ، فهو لإبراهيمَ مخالفٌ. وذلك أن الله تعالى ذِكْرُه أخبرَ أنه اصطفاه لخُلته، وجَعله للناسِ إماماً، وأخبر أنَّ دينه كانَ الحنيفيّة المسلمة. ففي ذلك أوضحُ البيان من الله تعالى ذِكْرُه عن أنَّ مَنْ خالفه فهو لله عدوٌّ، لمخالفته الإمامَ الذي نَصبَهُ اللهُ لعباده.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ١٣٠﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وإنه في الآخرةِ لَمِنَ الصالحين»، وإن إبراهيم في الدار الآخرة لمن الصالحين.

و«الصالح» من بني آدم: هو المُؤدِّي حُقُوقَ الله عليه.

فأخبر تعالى ذِكْرُه عَنْ إبراهيمَ خليله، أنه في الدنيا صَفيٌّ، وفي الآخرة وليٌّ، وأنه واردٌ مواردَ أوليائهِ الموفِّين بعهده.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ١٣١﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «إذْ قال له ربه أسلم»، إذ قال له ربه: أخْلِصْ لي العبادةَ، واخضعْ لي بالطاعة. وقد دللنا فيما مضى على معنى «الإسلام» في كلام العرب، فأغنى عن إعادته.

وأما معنى قوله: «قالَ أسلمتُ لرَبِّ العالمين»، فإنه يعني تعالى ذِكْرُه، قال إبراهيم مجيباً لربه: خضعتُ بالطاعَة، وأخلصتُ العبادة، لمالك جميع الخلائق ومُدَبِّرها دون غيره.

فإنْ قال قائل: قد علمتَ أنَّ «إذْ» وقتٌ، فما الذي وُقِّت به؟ وما الذي هو له صلة؟

قيل: هو صلة لقوله: «ولقد اصطفيناهُ في الدنيا». وتأويل الكلام: ولقد اصطفيناهُ في الدنيا، حين قال له رَبُّهُ: أسْلِمْ. قال: أسلمتُ لرب العالمين. وإنما معنى الكلام: ولقد اصطفيناه: في الدنيا حين قلنا له: أسلم. قال: أسلمتُ لِرب العالمين. فأظهر اسم «الله» في قوله: «إذ قَال له ربه أسلم»، على وجهِ الخبرِ عن غائبٍ، وقد جرى ذِكْرُه قَبْلُ على وجه الخبر عن نفسه.

فإن قال لنا قائل: وهل دعا اللهُ إبراهيم إلى الإسلام؟

قيل له: نعم، قد دَعاهُ إليه.

فإن قال: وفي أيِّ حالٍ دعاه إليه؟

قيل حين قال: ﴿يَا قَوْمِ إنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ* إنِّي وَجَّهْتُ وجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ حَنِيفاً ومَا أَنَا مِنَ المُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٨-٧٩]، وذلك هو الوقتُ الذي قال له ربه: أسْلِمْ - من بعد ما امتحنه بالكوكب والقمر والشمس.

القول في تأويل قوله تعالى: وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «ووصَّى بها»، ووصى بهذه الكلمة. عَنى بـ«الكلمة» قوله: «أسلمتُ لرَبِّ العالمين»، وهي «الإسلامُ» الذي أمر به نبيه ﷺ، وهو إخلاصُ العبادةِ والتوحيدِ لله، وخضوع القلبِ والجوارحِ له.

ويعني بقوله: «ووصَّى بها إبراهيمُ بَنيه»، عَهِدَ إليهم بذلك وأمرهم به.

وأما قوله: و«يعقوب»، فإنه يعني: ووصى بذلك أيضاً يعقوبُ بَنيه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «إنّ الله اصطفى لكم الدين»، إنَّ الله اختارَ لكم هذا الدين الذي عَهِدَ إليكم فيه، واجتباهُ لكم.

وإنما أدخل «الألف واللام» في «الدين»، لأن الذين خُوطِبُوا من ولَدهما وبَنِيهما بذلك، كانوا قد عرفوه بوصيَّتهما إياهُم به، وعَهدهما إليهم فيه، ثم قالا لهم ـ بعد أن عَرّفاهُمُوه ـ إنَّ الله اصطفى لكم هذا الدين الذي قد عهدَ إليكُم فيه، فاتقوا الله أنْ تَموتُوا إلاّ وأنتم عليه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢﴾

إنْ قال لنا قائل: أَوَ إلى بني آدمَ الموت والحياةُ، فَيُنْهَى أحدُهم أنْ يموتَ إلاّ على حالةٍ دون حالة؟

قيل له: إنَّ معنى ذلك على غير الوجه الذي ظَنَنْتَ. وإنما معنى: «فلاَ تَمُوتُنَّ إلاّ وأنتم مسلمون»، أي: فلا تُفارِقُوا هذا الدين ـ وهو الإسلام ـ أيامَ حياتكم. وذلك أنَّ أحداً لا يدري مَتى تأتيه منيَّتُه، فلذلك قالا لهم: «فلا تَموتُنَّ إلاّ وأنتم مسلمون»، لأنكم لا تدرون متى تأتيكم مَناياكم من ليلٍ أو نهارٍ، فلا تفارقوا الإسلام، فتأتيكم منايَاكم وأنتم على غير الدين الذي اصطفاه لكم رَبُّكم، فتموتوا ورَبُّكم ساخطٌ عليكم، فتهلكوا.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «أمْ كنتم شُهداء»، أكنتم. ولكنه استفهم بـ «أم»، إذْ كان استفهاماً مستأنَفاً على كلامٍ قد سبقه، كما قيل: ﴿الٓمٓ * تَنْزِيلُ الكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ [السجدة: ١-٣]، وكذلك تفعل العرب في كل استفهام لبتدأته بعذ كلامٍ قد سبقه، تستفهم فيه بـ «أم».

«والشهداء» جَمْعُ «شهيد»، كما «الشركاءُ» جمع «شريك» و«الخصماءُ» جمع «خَصيم».

وتأويل الكلام: أكنتم ـ يا معشرَ اليهود والنصارى، المُكَذِّبينَ بمحمدٍ ﷺ، الجاحدينَ نبوَّتَهُ ـ حُضورَ يعقوبَ وشُهودَهُ إذْ حَضَرَهُ الموتُ. أي أنكم لم تحضروا ذلك، فلا تَدَّعُوا على أنبيائي ورسلي الأباطيلَ، وتَنحلوهم اليهوديةَ والنصرانية، فإني ابتعثتُ خَليلي إبراهيمَ ـ وولدَهُ إسحاقَ وإسماعيلَ وذريتهم ـ بالحنيفيةِ المسلمةِ، وبذلك وصَّوْا بَنِيهم، وبه عَهِدُوا إلى أولادِهم من بَعدهم. فلو حَضَرْتُموهم فسمعتم منهم، علمتم أنَّهم على غيرِ ما نَحَلْتُموهم من الأديانِ والمِللِ من بعدهم.

وهذه آياتٌ نزلتْ، تكذيباً من الله تعالى لليهودِ والنصارى في دعواهم في إبراهيم وولده يعقوب: أنَّهم كانوا على مِلَّتهم، فقال لهم في هذه الآية: «أَمْ كُنتم شُهداءَ إذْ حضرَ يعقوبَ الموت»، فتعلموا ما قَال لولدِه وقالَ له وَلَدُه؟ ثم أَعْلَمَهُم ما قالَ لهم وما قالوا لَه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «إذْ قال لبنيه»، إذ قال يعقوبُ لبنيه.

و«إذْ» هذه مُكَـرَّرةٌ إبـدالاً من «إذْ» الأولى، بمعنى: أم كنتم شُهـداءَ يعقوبَ، إذ قال يعقوبُ لبنيه حين حضورِ موتِهِ.

ويعني بقوله: «مَا تَعبُدونَ من بَعدي» - أيَّ شيء تعبدون، «من بعدي»؟ أي مِنْ بَعدِ وَفاتي؟ قالوا: «نَعبدُ إلهك»، يعني به: قال بَنُوهُ له: نَعبدُ مَعبودَكَ الـذي تعبده، ومعبودَ آبائِكَ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ، «إلهاً واحداً» أي: نُخْلِصُ له العبادةَ، ونوحِّد له الربوبية، فلا نُشرك به شيئاً، ولا نتخذ دونه ربّاً.

ويعني بقوله: «ونحن له مسلمون»، ونحن له خاضعون بالعبودية والطاعة.

ويحتمـل قوله: «ونحن له مسلمون»، أنْ تكونَ بمعنى الحال، كأنهم قالـوا: نعبد إلهكَ مُسلمين له بطاعتنا وعبادتنا إياه. ويحتمل أنْ يكون خبراً مستأنفاً، فيكون بمعنى: نعبدُ إلهكَ بعدَك، ونحنُ له الآن وفي كُلِّ حالٍ مسلمون.

وأحسن هذين الوجهين - في تأويل ذلك - أنْ يكونَ بمعنى الحال، وأن يكون بمعنى: نعبدُ إلهكَ وإلهَ آبائِكَ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ، مسلمين لعبادته.

وقيل: إنما قَدَّم ذِكْرَ إسماعيلَ على إسحاق، لأنَّ إسماعيلَ كان أَسَنَّ من إسحاق.

القـول في تأويل قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٣٤﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «تلكَ أمَّة قد خَلتْ»، إبراهيمَ وإسماعيل وإسحاق ويعقوبَ ووَلَدَهم.

يقول لليهود والنصارى: يا معشرَ اليهود والنصارى، دَعُو ذِكْرَ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويَعقوبَ والمسلمينَ من أولادِهم بغير ما هم أهلُه، ولا تنحَلُوهم كفرَ اليهوديةِ والنصرانيةِ، فتضيفونها إليهم، فإنهم أمَّةٌ - ويعني: بـ «الأمة» في هذا الموضع: الجماعةَ والقرنَ من الناس - قد خَلتْ: مضَتْ لسبيلها.

وإنما قيل للذي قد مات فذهب: «قد خلا»، لتخلِّيه من الدنيا وانفراده، عَمَّا كان من الأُنْسِ بأهلِهِ وقرنائِهِ في دُنياه.

وأصله من قولهم: «خَلاَ الرجل»، إذ صارَ بالمكان الذي لا أنيسَ له فيه، وانفردَ من الناس. فاستعمل ذلك في الذي يموت، على ذلك الوجه.

ثم قال تعالى ذِكْرُه لليهود والنصارى: إنَّ لِمَنْ نَحلتموهُ - ضلالَكُمْ وكفرَكُمْ الذي أنتم عليه - من أنبيائي ورُسلي، ما كسب.

و«الهاء والألف» في قوله: «لها»، عائدة إن شئت على «تلك»، وإن شئت على «الأمة».

ويعني بقوله: «لها ما كسبت»، أي ما عَمِلَتْ من خيرٍ، ولكم يا معشرَ اليهود والنصارى مثلَ ذلك مَا عملتم، ولا تؤاخَذون أنتم - أيها النَّاحِلُونَ ما نحلتموهم من المِللِ - فتسألوا عما كان إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوبُ وَوَلدهم يعملون. فيكسبون من خيرٍ وشر، لأنَّ لِكُلِّ نفسٍ ما كَسَبَتْ وعليها ما اكتسبت. فدَعُوا انتحالَهُم وانتحالَ مِلَلِهم، فإنَّ الدعاوَى غير مُغْنِيَتِكُم عند الله، وإنما يُغني عنكم عنده ما سَلَفَ لكم من صالحِ أعمالكم، إنْ كنتم عملتموها وقدَّمتموها.

القول في تأويل قوله تعالى ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وقالوا كونُوا هوداً أو نصارى تَهتدوا»، وقالت اليهودُ لمحمدٍ ﷺ وأصحابه من المؤمنين: كونوا هُوداً تَهتدوا؛ وقالت النصارى لهم: كونوا نصارى تهتدوا.

تعني بقولها: «تهتدوا»، أي تُصِيبُوا طَريقَ الحق.

احتج الله لنبيه ﷺ أبلغَ حجة وأوجزَها وأكملها، وعلَّمها محمداً نبيه ﷺ فقال: يا محمد، قُلْ ـ للقائلين لك من اليهود والنصارى ولأصحابك: «كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا» ـ: بل تعالوا نتَّبع مِلَّةَ إبراهيمَ التي يُجمِعُ جميعُنَا على الشهادةِ لها بأنها دِينُ الله الذي ارتضاه واجتباه وأَمَرَ به ـ فإنَّ دينه كان الحنيفية المسلمة ـ ونَدَعْ سائرَ المِلَلِ التي نختلفُ فيها، فينكرها بعضنا، ويُقِرُّ بها بعضُنا. فإنَّ ذلك ـ على اختلافهِ ـ لا سبيلَ لنا على الإجماعِ عليه، كما لنا السبيلُ إلى الاجتماع على ملةِ إبراهيم.

وفي نصب قوله: «بَلْ ملة إبراهيم» أوجه ثلاثة:

أحدها: أنْ يوجّه معنى قوله: «وقالوا كونوا هوداً أو نصارى»، إلى معنى: وقالوا اتَّبِعُوا اليهوديةَ والنصرانية. لأنهم إذ قالوا: «كونوا هوداً أو نَصارى»، إلى اليهودية والنصرانية دَعَوْهُمْ، ثم يُعطف على ذلك المعنى بالملة. فيكون معنى الكلام حينئذ: قُلْ يا محمد، لا نتبعُ اليهوديةَ والنصرانية، ولا نَتخذها مِلَّةً، بل نتبع ملةَ إبراهيم حنيفاً، ثم يحذف «نتبع» الثانية، ويعطف بـ«الملة» على إعراب اليهودية والنصرانية.

والآخر: أن يكون نصبه بفعل مضمر بمعنى «نتبع».

والثالث: أن يكون أريد: بل نَكون أصحابَ ملة إبراهيم، أو أهلَ ملة

إبراهيم. ثم حذف «الأهل» و«الأصحاب»، وأقيمت «الملة» مقامهم، إذ كانت مؤدية عن معنى الكلام.

وقد يجوز أن يكون منصوباً على وجه الإغراءِ باتِّباع ملةِ إبراهيم.

وقرأ بعض القُرَّاء ذلك رفعاً. فتأويله ـ على قراءة مَنْ قرأ رفعاً: بل الهُدى ملة إبراهيم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١٣٥﴾

و«الملة»، الدِّينُ.

وأما «الحنيف»، فإنه المستقيمُ من كل شيء.

فمعنى الكلام إذاً: قُلْ يا محمد، بل نَتَّبِعُ مِلَّةَ إبراهيمَ مستقيماً.

فإنْ قال قائل: أوَ ما كان مَنْ كانَ من قبل إبراهيم ﷺ، من الأنبياء وأتباعهم، مستقيمينَ على ما أُمِرُوا به من طاعةِ الله استقامةَ إبراهيم وأتباعه؟

قيل: بَلى.

فإن قال: فكيف أضيف «الحنيفية» إلى إبراهيم وأتباعه على ملته خاصةً، دون سائر الأنبياء قبله وأتباعهم؟

قيل: إنَّ كُلَّ مَنْ كان قبل إبراهيمَ من الأنبياء كان حنيفاً مُتَّبِعاً طاعةَ الله، ولكن الله تعالى ذِكْرُه لم يجعل أحداً منهم إماماً لِمَنْ بَعْدَهُ من عباده إلى قيام الساعة، كالذي فعل من ذلك بإبراهيمَ، فجعله إماماً فيما بَيَّنَهُ من مناسكِ الحجِّ والختان، وغير ذلك من شرائع الإسلام، تَعَبُّداً به أبداً إلى قيام الساعة. وجعل ما سَنَّ من ذلك عَلَماً مميّزاً بين مؤمني عبادِه وكُفَّارِهم، والمطيعِ منهم

له والعاصي. فسمِّيَ الحنيفُ من الناس «حنيفاً» باتباعِهِ ملتهُ، واستقامته على هَدْيِه ومنهاجِه، وسُمِّي الضالُّ عن ملته بسائرِ أسماءِ المِلل، فقيل: «يهوديٌّ، ونصرانيٌّ، ومجوسيٌّ»، وغير ذلك من صنوف الملل.

وأما قوله: و«ما كانَ مِن المشركين»، يقول: إنه لم يكن مِمَّنْ يَدِينُ بعبادةِ الأوثان والأصنام، ولا كانَ من اليهودِ ولا النصارى، بل كان حَنيفاً مُسلماً.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: «قولوا» - أيها المؤمنون، لهؤلاء اليهودِ والنصارَى، الذين قالوا لكم: «كونوا هُوداً أو نصارى تَهتدوا» -: «آمنا»، أي: صدَّقنا «بالله».

وقد دللنا فيما مضى أنَّ معنى «الإيمان»، التصديقُ، بما أغنى عن إعادته.

«وما أنزل إلينا»، يقول أيضاً: صَدَّقْنَا بالكتابِ الذي أنزل الله إلى نبيِّنا محمد ﷺ. فأضاف الخطابَ بالتنزيلِ إليهم، إذ كانوا مُتَّبعيهِ، ومأمورينَ مَنْهيينَ به. فكان - وإنْ كان تنزيلاً إلى رسول الله ﷺ - بمعنى التنزيلِ إليهم، للذي لهم فيه من المعاني التي وصفت.

ويعني بقوله: «ومَا أُنْزِلَ إلى إبراهيم»، صدَّقنا أيضاً وآمنا بما أنزل إلى إبراهيم «وإسماعيل وإسحاق ويَعقوبَ والأسباط»، وهم الأنبياء من ولد يَعقوب.

وقوله: «وَما أُوتِيَ مُوسَى وعيسى»، يعني: وآمنا أيضاً بالتوراة التي آتاها الله موسى، وبالإنجيل الذي آتاهُ الله عيسى، والكُتُبَ التي آتى النبيينَ كُلَّهم، وأقْرَرْنَا وصَدَّقنا أنَّ ذلك كله حَقٌّ وهُدى ونور من عند الله، وأنَّ جَميعَ مَنْ ذَكَرَ اللهُ من أنبيائه كانوا على حَقٍّ وهدى، يُصَدِّق بعضُهم بعضاً، على منهاجٍ واحدٍ في الدعاء إلى توحيدِ الله، والعملِ بطاعته، «لَا نُفَرِّق بَينَ أحد منهم»، يقول: لا نؤمنُ ببعضِ الأنبياء ونكفرُ ببعضٍ، ونتبرأ من بعضٍ ونتولى بعضاً، كما تبرأت اليهودُ من عيسى ومحمد عليهما السلام وأقرَّت بغيرهما من الأنبياء، وكما تبرأتِ النصارَى من محمد ﷺ وأقرَّت بغيرهِ من الأنبياءِ، بل نشهدُ لجميعِهم أنَّهم كانوا رُسُلَ الله وأنبياءَه، بُعِثُوا بالحق والهدى.

وأما قوله: «ونحنُ لَهُ مُسلمون»، فإنه يعني تعالى ذكره: ونحنُ له خاضعون بالطاعة، مُذْعِنُونَ له بالعبودية.

وأما «الأسباط» الذين ذكرهم، فهم اثنا عشر رَجلاً من ولَدِ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. وَلَد كُلُّ رجلٍ منهم أمَّةً من الناس، فَسُمُّوا «أسباطاً».

القول في تأويل قوله تعالى: فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به» فإنْ صَدَّقَ اليهودُ والنصارَى بالله، ومَا أنزل إليكم، وما أنزل إلى إبراهيمَ وإسماعيل وإسحاق ويعقوبَ والأسباط ومَا أُوتِيَ مُوسى وعيسى، وما أُوتِيَ النبيون من ربهم وأقَرُّوا بذلك، مِثْلَ مَا صدَّقْتُم أنتم به أيُّها المؤمنون وأقررتم، فقد وُفِّقُوا ورَشِدُوا، ولَزِمُوا طريقَ الحق، واهتدوا، وهم حينئذٍ منكم وأنتم منهم، بدخولهم في مِلَّتكم بإقرارهم بذلك.

فَدَلَّ تعالى ذِكْرُه بهذه الآية، على أنه لم يَقْبَلْ من أحدٍ عَملاً إلاَّ بالإيمانِ بهذه المعاني التي عَدَّها قَبْلَها.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وإن تَوَلَّوْا»، وإن تولى ـ هؤلاء الذين قالوا لمحمد ﷺ وأصحابه: «كونوا هوداً أو نصارَى» ـ فأعْرَضُوا، ـ فلم يؤمنوا بمِثْلِ إيمانِكم أيُّها المؤمنونَ بالله، وبما جاءت به الأنبياءُ وابتُعِثت به الرُّسُلُ، وفرَّقُوا بين رُسُلِ الله وبين الله ورسله، فَصَدَّقُوا ببعضٍ وكفروا ببعضٍ ـ فاعلموا، أيها المؤمنون، أنهم إنما هُمْ في عصيانٍ وفِرَاقٍ وحَربٍ للهِ ولرسولهِ ولكم.

وأصلُ «الشقاق» عندنا، واللهُ أعلم، مأخوذٌ من قولِ القائل: «شَقَّ عليه هذا الأمر» إذا كَرَبَهُ وآذاه. ثم قيل: «شاقَّ فلانٌ فلاناً»، بمعنى: نالَ كُلُّ واحدٍ منهما مِنْ صاحبه ما كرَبه وآذاه، وأثقلته مَساءتُه. ومنه قول الله تعالى ذِكْرُه: ﴿وإنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ [النساء: ٣٥] بمعنى: فراق بَينهما.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ١٣٧﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «فسيكفيكهمُ الله»، فسيكفيكَ اللهُ يا محمد، هؤلاء الذين قالوا لَكَ ولأصحابك: «كونوا هوداً أو نَصارَى تهتدوا»، من اليهود والنصارى، إنْ هُمْ تَوَلَّوْا عن أنْ يُؤْمِنُوا بِمِثْلِ إيمانِ أصحابك بالله، وبما أنزل إليك، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وسائر الأنبياء غيرهم، وفرَّقُوا بين الله ورُسُله ـ إما بقتل السيف، وإما بجلاءٍ عن جوارك، وغير ذلك من العقوبات؛ فإن الله هو «السميع» لما يقولون لك بألسنتهم، ويُبْدُونَ لك

بأفواههم، من الجهلِ والدعاء إلى الكفر والملل الضَّالةِ ـ «العليمُ» بما يُبطنون لك ولأصحابك المؤمنين في أنفسهم من الحَسد والبغضاء.

ففعل الله بهم ذلك عَاجلاً، وأنجزَ وَعْدَه، فَكَفَى نبيَّهُ ﷺ بتسليطه إيَّاه عليهم، حتى قَتَلَ بعضهم، وأجلَى بعضاً، وأذلَّ بعضاً وأخزاه بالجزية والصَّغار.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ١٣٨﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بـ«الصبغة»، صِبْغَةَ الإسلام. وذلك أنَّ النصارى إذا أرادت أنْ تنصِّر أطفالهم، جعلتهم في ماءٍ لهم تزعمُ أنَّ ذلك لها تقديسٌ، بمنزلةِ غُسْلِ الجنابةِ لأهلِ الإسلام، وأنه صبغة لهم في النصرانية.

فقال الله تعالى ذِكْرُه ـ إذ قالوا لنبيه محمد ﷺ وأصحابه المؤمنين به: «كونوا هوداً أو نَصَارَىٰ تَهتدوا» ـ: قل لهم يا محمد: أيها اليهود والنصارى، بل اتَّبِعُوا مِلَّةَ إبراهيمَ، صِبْغَةَ الله التي هي أَحْسَنُ الصِّبَغ، فإنها هي الحنيفيةُ المسلمة، ودَعُوا الشِّرْكَ بالله، والضلالَ عن محجَّة هُداه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ١٣٨﴾

وقوله تعالى ذِكْرُه: «ونَحنُ له عَابدون»، أمرٌ من الله تعالى ذِكْرُه نبيَّه ﷺ أنْ يقولَه لليهود والنصارى، الذين قالوا له ولِمَنْ تَبِعَهُ من أصحابه: «كونوا هوداً أو نَصارَى». فقال لنبيه محمد ﷺ: قُلْ: بل نتبعُ ملةَ إبراهيمَ حنيفاً، صبغةَ الله، ونحنُ له عابدون. يعني: ملة الخاضعين لله، المستكينين له، في اتِّباعنا ملةَ إبراهيم ودَيْنُونتنا له بذلك، غير مستكبرينَ في اتباع أمرِه، والإقرار برسالته

رُسُلَهُ، كما استكبرت اليهودُ والنصارَى، فكفروا بمحمد ﷺ استكباراً وبغياً وحسداً.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ١٣٩﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «قُلْ أتُحاجُّونَنا فِي اللهِ»، قل يا محمد ـ لمعاشرِ اليهود والنصارى، الذين قالوا لكَ ولأصحابك: «كونوا هُوداً أو نَصارَى تَهتدوا»، وزعموا أن دينهم خيرٌ من دينكم، وكتابهم خيرٌ من كتابكم، لأنه كان قبلَ كتابكم، وزعموا أنهم من أجل ذلك أولى بالله منكم ـ: «أتحاجوننا في الله وهو رَبُّنا وربكم»، بيدهِ الخيرات، وإليه الثوابُ والعقابُ، والجزاءُ على الأعمال ـ الحسنات منها والسيئات، فتزعمون أنكم بالله أوْلى منا، من أجلِ أنَّ نبيكم قَبْلَ نَبيِّنا، وكتابكم قبل كتابنا، وربكم وربنا واحدٌ، وأنَّ لكلِّ فريقٍ منا ما عمل واكتسب من صالحِ الأعمالِ وسَيِّئها، يجازى عليها فيثابُ أو يعاقبُ، ـ لا على الأنساب وقِدَمِ الدِّينْ والكتاب.

ويعني بقوله: «قُلْ أتحاجوننا»، قل: أتُخاصموننا وتجادلوننا؟

فأما قوله: «ونحن لهُ مُخْلِصُون»، فإنه يعني: ونحنُ لله مخلصو العبادةِ والطاعة، لا نشرك به شيئاً، ولا نعبد غيره أحداً، كما عَبَدَ أهلُ الأوثان معه الأوثانَ، وأصحابُ العِجل معه العجلَ.

وهذا من الله تعالى ذِكْرُه توبيخٌ لليهود، واحتجاجٌ لأهل الإيمان، بقوله تعالى ذِكْرُه للمؤمنين من أصحابِ محمد ﷺ: قولوا ـ أيها المؤمنون، لليهود والنصارى الذين قالوا لكم: «كونوا هوداً أو نصارَى تهتدوا» ـ: «أتحاجوننا في الله»؟ يعني بقوله: «في الله»، في دِينِ الله الذي أمرنا أنْ ندينه به، وربنا وربكم

واحد عَدْلٌ لا يجور، وإنما يجازي العباد على ما اكتسبوا. وتزعمون أنكم أولى بالله منا، لِقِدَمِ دينكم وكتابكم ونبيكم، ونحن مخلصون له العبادة، لم نشرك به شيئاً، وقد أشركتم في عبادتكم إياه، فَعَبَدَ بعضُكم العجلَ، وبعضُكم المسيحَ، فأنّى تكونون خيراً منا، وأَوْلى بالله منا؟

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ﴾

بمعنى: أي هذين الأمرين تفعلون؟ أتجادلوننا في دِينِ الله، فتزعمونَ أنكم أَوْلى منا وأهدى منا سبيلاً ـ وأمرنا وأمركم ما وصفنا، على ما قد بَيَّنّاهُ آنفاً ـ أم تزعمون أنَّ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، ومن سمى الله، كانوا هوداً أو نصارى على مِلَّتكم، فيصبح للناس بَهْتُكُمْ وكَذِبكُم، لأنَّ اليهودية والنصرانية حَدَثَتْ بعد هؤلاء الذين سماهم الله من أنبيائه.

وهذه الآية أيضاً احتجاجٌ من الله تعالى ذِكْرُه لنبيه ﷺ على اليهود والنصارى، الذين ذَكَرَ اللهُ قَصَصهم. يقول الله لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد ـ لهؤلاء اليهود والنصارى ـ: أتحاجُّونَنا في الله، وتزعمونَ أنَّ دينكم أفضل من ديننا، وأنكم على هُدى ونحن على ضلالةٍ، ببرهانٍ من الله تعالى ذكره، فتدعوننا إلى دينكم؟ فهاتوا برهانكم على ذلك فنتبعكم عليه، أم تقولون: إنَّ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هُوداً أو نصارى على دينكم؟ فهاتوا ـ على دَعْواكُم ما ادَّعَيْتُم من ذلك ـ برهاناً، فنصدقكم، فإنَّ الله قد جعلهم أئمةً يُقْتَدى بهم.

ثم قال تعالى ذِكْرُه لنبيِّهِ ﷺ: قُل لهم يا محمد - إن ادَّعوا أنَّ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوبَ والأسباطَ كانوا هوداً أو نصارَى: أأنتم أعْلَمُ بهم وبِمَا كانُوا عليه من الأديان، أم الله؟

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾

يعني: فإنْ زَعمتْ يا محمــدُ اليهــودُ والنصَــارى - الـذين قالوا لكَ ولأصحابِكَ: «كُونُوا هوداً أو نصارى» أنَّ إبراهيمَ وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباطَ كانوا هوداً أو نصارى، فمن أظلمُ منهم؟ يقول: وأيُّ امرىءٍ أظلمُ منهم؟ وقد كَتَمُوا شهادةً عندهم من الله بأنَّ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاق ويعقوبَ والأسباطَ كانوا مسلمين، فكتموا ذلك، ونحلُوهم اليهوديةَ والنصرانية.

وإنما عنى تعالى ذِكْرُه بذلك أنَّ اليهود والنصارَى، إنِ ادَّعوْا أنَّ إبراهيم ومن سُمِّي مَعه في هذه الآية، كانوا هُوداً أو نصارى، تبيَّنَ لأهل الشرك الذين هم نُصراؤُهم، كَذِبُهم وادِّعَاؤُهم على أنبياءِ الله الباطلَ - لأنَّ اليهوديةَ والنصرانية حدثتْ بعدَهم - وإنْ هُم نَفوْا عنهم اليهوديةَ والنصرانية، قيل لهم: فَهَلمُّوا إلى ما كانوا عليه من الدِّينِ، فإنا وأنتم مُقِرُّونَ جميعاً بأنهم كانوا على حَقٍّ، ونحن مختلفون فيما خالف الدِّينَ الذي كانوا عليه.

فإن قال قائل: وأية شهادةٍ عندَ اليهودِ والنصارى من الله في أمرِ إبراهيمَ وإسماعيل وإسحاق ويعقوبَ والأسباط؟

قيل: الشهادةُ التي عندهم من الله في أمرهم، ما أنزل الله إليهم في التوراةِ والإنجيل، وأمرُهم فيهما بالاستنانِ بسُنَّتهم واتباعِ ملتهم، وأنهم كانوا حنفاء مسلمين. وهي الشهادةُ التي عندهم من الله التي كَتَمُوها، حين دَعَاهم

نبيُّ الله ﷺ إلى الإسلامِ، فقالوا له: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١١١]، وقالوا له ولأصحابه: «كُونوا هوداً أو نصارى تَهْتَدُوا»، فأنزلَ الله فيهم هذه الآيات، في تكذِيبهم، وكتمانِهم الحق، وافترائِهم على أنبياء الله الباطلَ والزُّورَ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝١٤٠﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: وقُلْ - لهؤلاء اليهود والنصارَى، الذين يحاجُّونك يا محمد -: «وما الله بغافلٍ عما تعملون»، من كتمانِكم الحَقَّ فيما ألزمكم في كتابِهِ بيانَهُ للناسِ من أمرِ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاق ويعقوبَ والأسباطِ في أمرِ الإسلام، وأنهم كانوا مُسلمين، وأنَّ الحنيفية المسلمة دينُ الله الذي على جميع الخَلْقِ الدينُونةُ به، دون اليهودية والنصرانية وغيرهما من المللَ - ولا هُو سَاهٍ عن عقابِكم على فِعْلِكم ذلك، بل هو مُحْصٍ عليكم حتى يُجازيكم به من الجزاء ما أنتمْ له أهلٌ في عاجلِ الدنيا وآجلِ الآخرة. فجازاهم عاجلاً في الدنيا، بقتلِ بعضِهم وإجلائِهِ عن وطنه وداره، وهو مُجازيهم في الآخرة العذابَ المهين.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٤١﴾ ۞

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «تلك أمة»، إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوبَ والأسباطَ.

وقد بيَّنا فيما مضى أنَّ «الأمة»، الجماعة.

فمعنى الآية إذاً: قلْ يا محمـد ـ لهؤلاء الذين يُجادلونَكَ في الله من اليهودِ والنصارى، إنْ كَتَمُوا ما عندَهم من الشهادة في أمر إبراهيم ومن سَمَّينا مَعه، وأنهم كانوا مسلمين، وزعموا أنهم كانوا هوداً أو نصارى فكذبوا ـ: إنَّ إبـراهيم وإسمـاعيل وإسحـاق ويعقوبَ والأسباط أُمَّةٌ قد خَلتْ أي: مَضَتْ لسبيلها ـ فصارتْ إلى رَبِّها، وخَلتْ بأعمالها وآمالها، لها عند الله ما كَسَبَتْ من خيرٍ في أيامِ حياتِها، وعليها ما اكتسبتْ من شر، لا ينفعها غيرُ صالح أعمالها، ولا يضرها إلّا سيِّئها. فاعلموا أيها اليهود والنصارى ذلك، فإنكم، إنْ كان هؤلاء ـ وهم الذين بهم تَفتخرون، وتزعمون أنَّ بهم تَرْجُونَ النجاةَ من عذابِ ربكم، مع سيئاتِكم وعظيمِ خطيئاتكم ـ لَا ينفعهم عند الله غيرُ ما قدَّموا من صالح الأعمال، ولا يضرهم غير سَيِّئها، فأنتم كذلك أحرَى أنْ لا ينفعكم عند الله غير ما قَدَّمْتُم من صالـح الأعمالِ، ولا يضرُّكم غير سَيِّئها فاحذروا على أنفسِكم، وبادروا خروجَها بالتوبةِ والإنابةِ إلى الله مما أنتمْ عليه من الكفرِ والضلالةِ والفِرْيةِ على الله وعلى أنبيائه ورُسُله، ودَعُوا الاتِّكالَ على فَضَائلِ الآباءِ والأجدادِ، فإنمـا لكم ما كسبتم، وعليكم ما اكتسبتم، ولا تُسـألـون عمـا كان إبراهيمُ وإسمـاعيلُ وإسحاق ويعقوبُ والأسباط يَعملون من الأعمال، لأنَّ كل نَفْسٍ قَدِمت على الله يوم القيامة، فإنما تُسألُ عَمَّا كسبتْ وأسلفتْ، دونَ ما أسلفَ غيرُها.

القول في تأويل قوله تعالى: سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «سيقول السفهاء»، سيقول الجُهَّالُ «مِنَ الناس»، وهم اليهودُ وأهلُ النفاق.

وإنمـا سَمَّاهم الله عَزَّ وجل «سُفهاء»، لأنهم سَفِهوا الحق. فتجاهلت

أحبارُ اليهود، وتعاظمت جُهَّالُهم وأهلُ الغباء منهم، عن اتِّباعِ محمدٍ ﷺ، إذْ كان من العربِ ولم يكن من بني إسرائيل، وتَحيَّرَ المنافقون فتبلَّدوا.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «ما ولَّاهم»: أيُّ شيء صَرَفَهُم عن قِبْلَتِهم؟ وهو من قول القائل: «ولَّاني فلان دُبُرَهُ»، إذا حَوَّلَ وَجْهَهُ عنه واستدبره فكذلك قوله: «ما ولَّاهم»؟ أيّ شيء حَوَّل وجُوههم؟

وأما قوله: «عن قبلتهم»، فإنَّ «قبلة» كل شيء ما قابلَ وجهه.

فتأويلُ الكلام إذاً ـ إذ كان ذلك معناه ـ: سيقولُ السفهاء من الناس لكم، أيها المؤمنون بالله ورسوله، إذا حَوَّلْتُمْ وجوهكم عَن قبلة اليهودِ التي كانتْ لكم قِبلةً، قَبْلَ أمري إياكم بتحويلِ وجوهِكُم عنها شَطْرَ المسجد الحرام ـ: أيّ شيء حَوَّلَ وجُوه هؤلاء، فصَرَفَها عن الموضع الذي كانوا يستقبلونه بوجوههم في صلاتهم؟

فأعلم الله جَلَّ ثناؤه نبيَّه ﷺ، مَا اليهودُ والمنافقون قائلون من القولِ عند تحويلِ قبلتهِ وقبلةِ أصحابهِ عن الشام إلى المسجد الحرام، وعَلَّمَهُ ما ينبغي أنْ يكونَ من رَدِّهِ عليهم من الجواب. فقال له: إذا قالوا ذلك لكَ يا محمدُ، فَقُلْ لهم: «للهِ المشرقُ والمغرب يَهدي مَنْ يَشاء إلى صرَاط مستقيم».

وكان سببُ ذلك أنَّ النبيَّ ﷺ صلَّى نحو بيتِ المقدس مُدَّةً سنذكر مَبْلَغها فيما بَعْدُ إنْ شاء الله تعالى، ثم أراد الله تعالى صَرْفَ قبلة نبيِّه ﷺ إلى المسجدِ الحرام. فأخبره عما اليهودُ قائِلُوهُ من القولِ عند صَرْفِه وَجْهَهُ ووجهَ أصحابهِ شطرَهُ، وما الذي ينبغي أنْ يكون مِنْ ردِّهِ عليهم من الجواب.

عن البراء بن عازب: أنَّ رسولَ الله ﷺ كان أوَّلَ ما قَدِمَ المدينةَ، نزلَ على أجدادِه - أو أخواله - من الأنصار، وأنه صَلَّى قِبَلَ بيتِ المقدس ستةَ عشر شهراً، وكان يعجبه أنْ تكونَ قبلته قِبَلَ البيت، وأنه صلى صلاة العصر ومعه قومٌ، فخرج رجلٌ ممن صلَّى معه، فَمَرَّ على أهل المسجد وهم رُكوع فقال: أشهدُ لقد صلَّيتُ مع رسول الله ﷺ قِبَلَ مكةَ. فداروا كماهُمْ قِبَلَ البيتِ. وكانَ يُعجبه أن يحوَّل قِبَلَ البيت، وكان اليهودُ أعجبهم أنَّ رسولَ الله ﷺ يُصَلِّي قِبَلَ بيت المقدس وأهلُ الكتاب، فلما ولَّى وجْهه قِبَلَ البيتِ أنكروُا ذلك[1].

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾

يعني بذلك عَزَّ وجل: قُلْ يا محمد - لهؤلاء الذين قالوا لكَ ولأصحابك: ما ولَّاكُم عن قِبْلَتِكُمْ من بيتِ المقدس، التي كنتم على التوجُّه إليها إلى التوجُّه إلى شطرِ المسجدِ الحرام؟ -: لله مُلك المشرق والمغرب - يعني بذلك: ملكُ ما بين قُطرَيْ مَشرقِ الشمسِ وقُطرَيْ مغربها، وما بينهما من العالم - يَهدي مَنْ يشاء من خَلْقِه، فيُسدده ويوفِّقه إلى الطريق القويم، وهو «الصراط المستقيم» - ويعني بذلك: إلى قِبْلَةِ إبراهيمَ الذي جعله للناسِ إماماً - ويخذُل مَنْ يشاء منهم، فيضلُّه عن سبيل الحق.

وإنّما عنى جَلَّ ثناؤه بقوله: «يَهدي من يَشاء إلى صراط مُستقيم»، قُلْ يا محمد: إنَّ الله هَدانا بالتوجُّه شطرَ المسجد الحرام لقبلة إبراهيم، وأضلَّكم - أيها اليهودُ والمنافقون وجماعةُ الشرك بالله - فخذلكم عما هَدَانا لهُ من ذلك.

---

(١) حديث البراء أخرجه الإمام أحمد ٢٨٣/٤ و٣٠٤/٤، والبخاري ١٦/١، و٢٥/٦ و١١٠/١، ومسلم (٥٢٥)، والنسائي ٢٤٣/١ و٦٠/٢، وابن خزيمة ٤٣٧.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «وكذلك جَعلناكم أمة وسطاً»، كما هديناكم أيُّها المؤمنون بمحمدٍ عليه السلام وبما جاءكم به من عندِ الله، فَخَصَصْنَاكم بالتوفيقِ لِقبلة إبراهيمَ ومِلَّتِهِ، وفَضَّلْنَاكُمْ بذلك على مَنْ سِواكم من أهلِ الملل، كذلك خصصناكم ففضَّلناكم على غيركم من أهل الأديان، بأنْ جعلناكم أمة وسطاً.

وقد بَيَّنا أنَّ «الأمة»، هي القرن من الناس والصِّنف منهم وغَيرهم.

وأما «الوسَط»، فإنه في كلام العرب الخيارُ. يقال منه: «فلان وَسَطُ الحسب في قومه»، أي متوسط الحسب، إذا أرادوا بذلك الرفع في حسبه، و«هو وَسَطٌ في قومه، وواسطٌ»، كما يقال: «شاة يابسةُ اللبن ويَبَسةُ اللبن»، وكما قال جَلَّ ثناؤه: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً﴾ [طه: ٧٧].

وأنا أرى أنَّ «الوسَط» في هذا الموضع، هو «الوسط» الذي بمعنى: الجزءُ الذي هو بين الطرفين، مثل «وسَط الدار» محرَّك الوسَط مُثَقَّله، غيرَ جائز في «سينه» التخفيف.

وأرى أنَّ الله تعالى ذِكْرُه إنما وصفهم بأنهم «وسَط»، لتوسطهم في الدين، فلا هُمْ أهلُ غُلوٍّ فيه، غلوَّ النصارى الذين غلوا بالتَّرَهُّب، وقِيلهم في عيسى ما قالوا فيه ـ ولا هُم أهلُ تقصيرٍ فيه، تقصيرَ اليهود الذين بدَّلوا كتابَ الله، وقتلوا أنبياءَهم، وكذبوا على ربهم، وكفروا به؛ ولكنهم أهلُ تَوَسُّطٍ واعتدالٍ فيه. فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحبَّ الأمورِ إلى الله أوْسطها.

وأما التأويل، فإنه جاء بأن «الوسط» العدلُ. وذلك معنى الخيار، لأن الخيارَ من الناس عُدولهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾

«والشهداء» جمع «شهيد».

فمعنى ذلك: وكذلك جَعلناكم أمَّة وسَطاً عُدولاً، لتكونوا شُهداءَ لأنبيائي ورُسلي على أممها بالبلاغ، أنها قد بَلَّغَتْ ما أُمِرَتْ ببلاغه من رسالاتي إلى أممها، ويكونَ رسولي محمدٌ ﷺ شهيداً عليكم، بإيمانكم به وبما جاءكم به من عندي، وعن أبي سعيد قال، قال رسول الله ﷺ: يُدعى بنوحٍ عليه السلام يومَ القيامة فيُقال له: هل بلَّغتَ ما أُرسِلْتَ به؟ فيقول: نعم. فيقال لقومه: هل بَلَّغَكُمْ؟ فيقولون: ما جاءنا من نذير! فيقال له: مَنْ يعلم ذاك؟ فيقول: محمدٌ وأمته. فهو قوله: «وكذلك جعلناكم أمَّةً وسَطاً لتكونوا شُهداء على الناس ويكونَ الرسولُ عليكم شهيداً»[1].

وعن أبي هريرة قال: خرجتُ مع النبي ﷺ في جنازة، فلما صلى على الميت قال الناس: نِعْمَ الرجلُ! فقال النبي ﷺ: وجَبت! ثم خرجت مَعه في جنازةٍ أخرى، فلما صَلُّوا على الميتِ قال الناس: بئس الرجل! فقال النبي ﷺ وجَبت. فقام إليه أبيٌّ بن كعب فقال: يا رسولَ الله، ما قولك وجبت؟ قال: قول الله عَزَّ وجل: «لتكونوا شُهداءَ على الناس»[2].

---

(١) لفظ الطبري، والحديث أخرجه البخاري (٤٤٨٧) وأحمد ٢/٣٢، ٥٨.

(٢) لفظ الطبري، وحديث أبي هريرة أخرجه الإمام أحمد ٢/٥٢٨ وابن ماجة (١٤٩٢) وابن حبـان (٣٠٢٤) وهو في الصحيحين البخاري (٢٦٤٢)، ومسلم (٩٤٩) من حديث أنس.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «وما جَعلنا القبلة التي كنتَ عليها»، ولم نجعل صَرْفك عَن القبلة التي كنتَ على التوجُّهِ إليها يا محمد، فصرفْناك عنها، إلا لنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُكَ ممن لا يتَّبعك، ممن يَنقلبُ على عقبيه.

والقبلة التي كان رسولُ الله ﷺ عليها، التي عناها الله بقوله: «وما جعلنا القِبلةَ التي كنتَ عليها»، هي القبلةُ التي كنت تتوجَّه إليها قبل أن يصرفك إلى الكعبة.

وإنما ترك ذكر «الصرف عنها»، اكتفاء بدلالة ما قد ذكر من الكلام على معناه، كسائرِ ما قَدْ ذَكَرْنَا فيما مضى من نَظائره.

وإنما قُلنا: ذلك معناه، لأن محنةَ الله أصحابَ رسولِهِ في القِبلة، إنما كانت ـ فيما تظاهَرتْ به الأخبارُ ـ عند التحويلِ من بيتِ المقدسِ إلى الكعبة، حتى ارتدَّ ـ فيما ذكر ـ رجالٌ مِمَّنْ كان قد أسلمَ واتَّبع رسولَ الله ﷺ، وأظهرَ كثيرٌ من المنافقين ـ من أجل ذلك ـ نِفَاقَهم، وقالوا: ما بَال مُحمدٍ يُحَوِّلُنَا مرةً إلى ههنا ومرة إلى ههنا! وقال المسلمون، فيمن مضى من إخوانهم المسلمين وهم يصلون نحو بيتِ المقدس: بطلت أعمالُنا وأعمالُهم وضاعت! وقال المشركون: تَحَيَّرَ محمدٌ ﷺ في دينه! فكان ذلك فتنةً للناس، وتمحيصاً للمؤمنين.

فلذلك قال جَلَّ ثناؤه: «ومَا جَعلنا القِبلةَ التي كنتَ عليها إلا لنعلمَ مَنْ يتَّبع الرسول ممن ينقلب على عَقبيه»، أي: ومَا جعلنا صَرْفَكَ عن القِبلة التي كنتَ عليها، وتحويلك إلى غيرها، كما قال جَلَّ ثناؤه: ﴿ومَا جَعلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]، بمعنى: وما جعلنا خَبرَكَ عن الرؤيا

التي أريناك. وذلك أنه لو لم يكن أخبرَ القومَ بما كان أُرِي، لم يكن فيه على أحدٍ فتنةٌ. وكذلك القبلة الأولى التي كانت نحو بيت المقدس، لو لم يكن صرفٌ عنا إلى الكعبة، لم يكن فيها على أحد فتنةٌ ولا محْنة.

فإن قال لنا قائل: أوَ مَا كان الله عالماً بِمَنْ يتّبع الرسولَ مِمَّنْ ينقلب على عقبيه، إلّا بعد اتباعِ المُتَّبِع، وانقلابِ المُنْقَلِبِ على عقبيه، حتى قال: ما فعلنا الذي فعلنا من تحويلِ القِبلة إلا لنعلمَ المتَّبِعَ رسولَ الله ﷺ من المنقلبِ على عقبيه؟

قيل: إنَّ الله جَلَّ ثناؤه هو العالمُ بالأشياء كلها قَبل كونها، وليس قوله: «وما جعلنا القبلةَ التي كنتَ عليها إلا لنعلمَ مَنْ يتّبع الرسولَ ممن يَنقلب على عَقبيه»، بخبر عن أنه لم يعلم ذلك إلّا بعد وجُوده.

فإن قال: فما معنىٰ ذلك؟

قيل له: أما معناه عندنا، فإنه: وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلّا ليعلم رَسولي وحزبي وأوليائي مَنْ يتبع الرسولَ مِمَّنْ ينقلب على عَقبيه، فقال جَلَّ ثناؤه: «إلا لنعلم»، ومعناه ليعلمَ رَسولي وأوليائي. إذْ كان رسولُ الله ﷺ وأولياؤهُ من حزبه، وكان من شَأنِ العربِ إضافة ما فعلته أتباعُ الرئيسِ إلى الرئيس، ومَا فعل بهم إليه، نحو قولهم: «فتح عُمر بن الخطاب سَوادَ العراق وجَبى خَرَاجها»، وإنَّما فَعَلَ ذلك أصحابُه، عن سببٍ كان منه في ذلك، وكالذي رُوي في نظيره عن النبي ﷺ أنه قال: يقول الله جَلَّ ثناؤه: مَرِضْتُ فلم يَعُدْني عَبدي، واستقرضته فلم يقرضني، وشتمني ولم يَنبغِ له أن يشتمني[1].

(١) أخرجه الطبري بإسنادين صحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (٢٢٠٦) و(٢٢٠٧) وهو في مستدرك الحاكم ٤١٨/١ وصححه ووافقه الذهبي. والنهي عن سب الدهر ثابت من أوجهٍ في الصحيحين.

فأضاف تعالى ذِكْرَه الاستقراض والعيادة إلى نفسه، وقد كان ذلك بغيره، إذ كان ذلك عن سببه.

وقد حكي عن العرب سماعاً: «أجوعُ في غَيْر بَطني، وأعرى في غير ظهْري»، بمعنى: جُوع أهله وعياله وعُرْي ظهورهم.

فكذلك قوله: «إلَّا لنعلم»، بمعنى: يعلم أوليائي وحزبي.

وأما قوله: «مَنْ يتَّبع الرسول». فإنه يعني: الذي يتبع محمداً ﷺ فيما يأمره الله به، فيوجِّه نحو الوَجه الذي يتوَجَّه نحوه محمدٌ ﷺ.

وأما قوله: «ممن يَنقلب على عَقبيه»، فإنه يعني: من الذي يرتدُّ عن دِينهِ فينافق، أو يكفر، أو يخالف محمداً ﷺ في ذلك، ممن يظهر اتِّباعه.

وأصلُ «المرتد على عقبيه»، هو «المنقلب على عقبيه»، الراجع مستدبراً في الطريق الذي قد كان قطعه، منصرفاً عنه. فقيل ذلك لكل راجع عن أمرٍ كانَ فيه، من دِينٍ أو خير. ومن ذلك قوله: ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً﴾ [الكهف: ٦٤]، بمعنى: رَجعا في الطريق الذي كانا سَلكاه، وإنما قيل للمرتد: «مرتد»، لرجوعهِ عن دِينهِ ومِلَّته التي كان عليها.

وإنما قيل: «رجع على عَقبيه»، لرجوعه دُبُراً على عَقبيه، إلى الوجه الذي كان فيه بَدْءُ سيرهِ قبل مَرْجعه عنه. فيجعل ذلك مثلاً لكل تاركٍ أمراً وآخذٍ آخرَ غيره، إذا انصرف عَمَّا كان فيه، إلى الذي كان له تاركاً فأخذه. فقيل: «ارتد فلانٌ على عَقِبه، وانقلب على عَقبيه».

القول في تأويل قوله عزَّ وجل: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾

وتـأويل ذلـك: ومـا جعلنـا تحـويلتنا إياكَ عن القِبلة التي كُنْتَ عليها وتَوْلِيَتَنَاكَ عنها، إلا لنعلمَ مَنْ يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، وإن كانت تحويلتُنا إياكَ عنها وتوليتُناكَ «لكبيرة إلّا على الذين هدى الله».

وهذا التأويل أوْلَى التأويلات عندي بالصواب. لأنَّ القوم إنما كبُرَ عليهم تحويلُ النبيِّ ﷺ وَجْهَهُ عن القِبلة الأولى إلى الأخرى، لا عين القبلةِ، ولا الصلاة. لأنَّ القِبلة الأولى والصلاة، قد كانت وهي غير كبيرة عليهم.

ومعنى قوله: «كبيرة»، عظيمة.

وأما قوله: «إلّا عَلَى الذين هَدى الله»، فإنه يعني به: وإن كان تَقْلِيبَتُناكَ عن القِبلة التي كنتَ عليها، لعظيمة إلا على مَنْ وفَّقَهُ اللهُ جَلَّ ثناؤه، فهداهُ لتصديقك والإيمان بك وبذلك، واتباعِك فيه، وفيما أنزل الله تعالى ذكره عليك.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾

قيل: عنى بـ الإيمان ، في هذا الموضع: الصلاةَ.

قد دللنـا فيما مضى على أنَّ «الإيمان»، التصديق. وأن التصديق قد يكون بالقولِ وحده، وبالفعلِ وحده، وبهما جميعاً.

فمعنى قوله: «وما كان الله ليُضيع إيمانكم» ـ على ما تظاهرت به الرواية من أنه الصلاة ـ: وما كان الله ليُضيع تصديقَ رَسوله عليه السلام، بصَلاتكم التي صَلَّيْتُمُـوهـا نحـو بيتِ المقدس عن أمره، لأن ذلك كان منكم تصديقاً لرسولي، واتِّباعاً لأمْري، وطاعةً منكم لي.

قال: «وإضاعته إياه» جَلَّ ثناؤه ـ لو أضاعه ـ: تركُ إثابةِ أصْحابهِ وعامليه عليه، فيذهب ضياعاً، ويصير باطلاً، كهيئة «إضاعة الرجل مَالَهُ»، وذلك إهلاكه إياه فيما لَا يعتاضُ منه عِوَضاً في عاجلٍ ولا آجل.

فأخبر الله جَلَّ ثناؤه أنه لم يكن يُبطل عَمَلَ عاملٍ عَمِلَ له عملاً وهو له طاعة، فلا يُثِيبهُ عليه، وإنْ نُسخ ذلك الفرضُ بعد عملِ العاملِ إياه على ما كلفه من عمله.

فإنْ قال قائل: وكيفَ قال الله جَلَّ ثناؤه: «وما كان الله ليُضيع إيمانكم»، فأضاف الإِيمانَ إلى الأحياء المُخَاطَبين، والقومُ المخاطَبُون بذلك إنما كانوا أشفقوا على إخوانهم الذين كانوا ماتوا وهم يُصَلُّون نحو بيتِ المقدس، وفي ذلك من أمرِهم أُنزلت هذه الآية؟

قيل: إن القومَ وإنْ كانوا أشفقُوا من ذلك، فإنهم أيضاً قد كانوا مُشفقين من حُبُـوطِ ثواب صلاتهم التي صلوها إلى بيت المقدس قبل التحويل إلى الكعبة، وظَنُّوا أنَّ عملهم ذلك قد بطلَ وذهبَ ضياعاً. فأنزل الله جَلَّ ثناؤه هذه الآية حينئذٍ فوجَّه الخِطابَ بها إلى الأحياء ودخل فيهم الموتى منهم. لأنَّ مِنْ شأنِ العربِ ـ إذا اجتمع في الخبر المخاطَبُ والغائبُ ـ أنْ يُغَلِّبُوا المخاطَبَ فيدخل الغائب في الخطاب. فيقولوا لرجلٍ خاطبوه على وجه الخبر عنه وعن آخر غائب غير حاضر: «فعلنا بكما وصنعنا بكما»، كهيئة خطابهم لهما وهما حاضران، ولا يستجيزون أن يقولوا: «فعلنا بهما»، وهم يخاطبون أحدهما، فيردُّوا المخاطب إلى عِدَاد الغَيب.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٤٣﴾

ويعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «إنَّ الله بالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحيمٌ»: أن الله بجميعِ عبادهِ ذُو رأفة.

و«الرأفة»، أعلى مَعاني الرحمة، وهي عَامَّةٌ لجميعِ الخَلْقِ في الدنيا، ولبعضِهم في الآخرة.

وأما «الرحيم»: فإنه ذُو الرحمةِ للمؤمنين في الدنيا والآخرة، على ما قد بَيَّنا فيما مضى قبل.

وإنما أراد جَلَّ ثناؤه بذلك أنَّ الله عَزَّ وجل أرْحمُ بعباده منْ أن يُضِيعَ لهم طاعةً أطاعُوه بها فلا يُثيبهم عليها، وأرأفُ بهم من أنْ يُؤاخذهم بترك ما لم يفرضه عليهم ـ أيْ: ولا تأسوا عَلى مَوتاكم الذين ماتوا وهم يُصَلُّونَ إلى بيتِ المقدس ـ، فإني لهم ـ على طاعتهم إيايَ بصَلاتهم التي صلوها كذلك ـ مثيبٌ، لأني أرحمُ بهم من أنْ أُضِيعَ لهم عملاً عَمِلُوه لي، ولا تحزنوا عليهم، فإني غيرُ مُؤَاخِـذهم بترْكِهم الصلاةَ إلى الكعبة، لأني لم أكنْ فرضتُ ذلك عليهم، وأنا أرأفُ بخلْقِي من أنْ أعاقبهم على تَرْكِهم ما لَمْ آمرهم بعملهْ.

وفي «الـرؤوف» لغات. إحداها «رَؤُف» على مثال «فَعُل»، وهي قراءةُ عامةِ قُرَّاءِ أهلِ الكوفة. والأخرى «رَؤوف» على مثال «فعول»، وهي قراءة عامة قُرَّاءِ المدينة، و«رَئِف»، وهي لغة غطفان، على مثال «فَعِل» مثل حَذِر. و«رَأْف» على مثال «فَعْل» بجزم العين، وهي لغة لبني أسد.

والقراءة على أحد الوجهين الأوَّلين.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: قد نرى يا محمد نحنُ تقلُّبَ وجهك في السماء.

ويعني: بـ«التقلب»، التحوُّل والتصرُّف.

ويعني بقوله: «في السماء»، نحو السماء وقِبَلها.

وإنما قيل له ذلك ﷺ - فيما بلغنا - لأنه كان - قَبل تحويلِ قبلته من بيتِ المقدس إلى الكعبة - يرفعُ بَصَرَهُ إلى السماءِ ينتظرُ من الله جَلَّ ثناؤه أمْرَهُ بالتحويلِ نحو الكعبة.

ثم اختلف في السبب الذي من أجله كان ﷺ يهوى قبلة الكعبة.

قال بعضهم: كره قبلةَ بيتِ المقدس، من أجل أنَّ اليهودَ قالوا: يتَّبع قِبْلَتَنا ويُخالفنا في دِيْنِنَا!

وقال آخرون: بل كان يهوى ذلك، من أجل أنه كان قبلةَ أبيه إبراهيم عليه السلام.

فأمـا قولـه: «فلنوَلينَّك قِبْلَةً تَرْضَاها»، فإنه يعني: فلنصرفنَّك عن بيتِ المقدس، إلى قبلةٍ «ترضاها»: تَهواها وتُحبها.

وأما قوله: «فوَلِّ وَجهك»، يعني: اصْرفْ وجهكَ وحَوِّله.

وقوله: «شَطرَ المسجد الحَرَام»، يعني: بـ «الشطر»، النحوَ والقصدَ والتِّلقاء.

ثم اختلفـوا في المكان الذي أمر الله نبيّه ﷺ أن يولِّيَ وجهَهُ إليه من المسجد الحرام.

فقال بعضهم: القبلةُ التي حُوِّل إليها النبيُّ ﷺ، وعناها الله تعالى ذكره بقوله: «فلنولينَّك قبلة تَرْضاها»، حيالَ مِيزابِ الكعبة.

وقال آخرون: بل ذلك البيت كله قبلةٌ، وقبلةُ البيت الباب.

والصوابُ من القول في ذلك عندي ما قال الله جَلَّ ثناؤه: «فوَلِّ وجهك

شَطر المسجـد الحرام»، فالمولِّي وجهه شطرَ المسجد الحرام، هو المصيبُ القبلةَ. وإنما عَلى مَنْ تَوَجَّهَ إليه النيةُ بقلبه أنه إليه متوجِّه، كما أن على مَن ائتمَّ بإمام فإنما عليه الائتمامُ به، وإن لم يكن مُحاذياً بدنُه بدنَه، وإنْ كان في طَرَف الصَّفِّ والإمام في طرف آخر، عن يمينه أو عن يساره، بعد أنْ يكون من خلفه مؤتَمّاً به، مصلياً إلى الوجه الذي يصلِّي إليه الإمام. فكذلك حكمُ القبلة، وإنْ لم يكن يحاذيها كل مُصَلٍّ ومتوَجِّه إليها ببدنه، غير أنه متوجِّه إليها. فإنْ كان عن يمينها أو عن يسارها مقابلَها، فهو مستقبلها بَعُدَ ما بينه وبينها أو قَرُبَ، مِنْ عن يمينها أو عن يسارها، بعد أن يكون غيرَ مُسْتَدْبِرِها ولا مُنْحَرِفٍ عنها ببدنه ووَجهه.

وقبلة البيت: بابه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾

يعني جَلَّ ثنـاؤه بذلك: فأينما كنتم من الأرضِ أيها المؤمنونَ فحوِّلُوا وجُوهَكُمْ في صلاتكم نَحو المسجد الحرام وتلقاءَه.

و«الهاء» التي في «شَطْرِه» عائدةٌ إلى المسجد الحرام.

فأوجب جَلَّ ثناؤه بهذه الآية على المؤمنين، فرضَ التوجُّه نحو المسجدِ الحرامِ في صلاتهم حيث كانوا من أرضِ الله تبارك وتعالى.

وأدخلت «الفاء» في قوله: «فولوا» جواباً للجزاء. وذلك أن قوله: «حيثما كنتم» جزاء، ومعناه: حيثما تكونوا فَوَلُّوا وجوهَكُم شطره.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: «وإنَّ الذين أوتُوا الكتاب»، أحبارَ اليهود وعلماء النصارى.

وقوله: «لَيَعْلَمُونَ أنَّهُ الحَقُّ من ربهم»، يعني هؤلاء الأحبارَ والعلماءَ من أهلِ الكتاب يعلمون أن التوجُّهَ نحو المسجد، الحقُّ الذي فرضه الله عَزَّ وجل على إبراهيم وذريته وسائر عباده بعده.

ويعني بقـولـه: «من رَبِّهم»، أنه الفرضُ الواجبُ على عباد الله تعالى ذكره، وهو الحقُّ من عند ربهم، فَرَضَه عليهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ١٤٤﴾

يعني بذلك تبارك وتعالى: وليس الله بغافلٍ عما تعملون أيها المؤمنون، في اتِّباعكم أَمْرَهُ، وانتهائكم إلى طاعته، فيما ألزمكم من فرائضهِ، وإيمانكم به في صَلاتكم نحو بيتِ المقدس، ثم صلاتكم من بعد ذلك شطرَ المسجد الحرام، ولا هو ساهٍ عنه، ولكنه جَلَّ ثناؤه يُحصيه لكم ويدَّخره لكم عنده، حتى يجازيَكم به أحسنَ جزاء، ويثيبكم عليه أفضلَ ثواب.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ﴾

يعني بذلك تبارك اسمه: ولئن جئتَ، يا محمدُ، اليهودَ والنصارَى، بكل برهانٍ وحُجة - وهي «الآية» - بأنَّ الحَقَّ هو ما جئتهم به، من فرض التحوُّلِ من قبلة بيت المقدس في الصلاة، إلى قبلة المسجد الحرام، ما صَدَّقُوا به، ولا اتَّبَعُوا - مع قيام الحجة عليهم بذلِك - قبلتَك التي حوَّلتُك إليها، وهي التوجُّه شَطرَ المسجد الحرام.

فكانَ مَعنى الكلام - إذ كان الأمر على ما وصفنا -: لو أتيتَ الذين أوتوا الكتاب بِكُلِّ آيةٍ ما تَبِعُوا قِبْلَتَكَ.

وأما قوله: «وما أنتَ بتابعٍ قِبلتهم»، يقول: وما لكَ من سبيلٍ يا محمدُ إلى اتِّباعِ قبلتهم. وذلك أنَّ اليهودَ تستقبل بيت المقدس بصلاتها، وأن النصارى تستقبل المشرقَ، فأنّى يكونُ لك السبيلُ إلى اتباع قبلتهم، مع اختلاف وجوهها؟ يقول: فالْزَمْ قبلتَك التي أُمِرْتَ بالتوجه إليها، ودَعْ عنك ما تقولُه اليهود والنصارى وتدعُوك إليه من قبلتهم واستقبالها.

وأما قوله: «وما بعضُهم بتابعٍ قبلةَ بعض»، فإنه يعني بقوله: وما اليهودُ بتابعةٍ قبلةَ النصارى، ولا النصارى بتابعةٍ قبلةَ اليهود فمتوجِّهة نحوها.

وإنما يعني جَلَّ ثناؤه بذلك: أنَّ اليهودَ والنصارى لا تجتمع على قِبْلَةٍ واحدة، مع إقامةِ كُلِّ حزبٍ منهم على مِلَّتهم. فقال تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ: يا محمد، لا تُشعر نفسك رضَا هؤلاء اليهود والنصارى، فإنه أمرٌ لا سبيلَ إليه. لأنهم مع اختلاف مِلَلِهم لا سبيلَ لكَ إلى إرضاء كُلِّ حزبٍ منهم. مِنْ أجل أنك إنِ اتَّبَعْتَ قبلةَ اليهود أسخطتَ النصارى، وإن اتَّبعتَ قبلة النصارى أسخطتَ اليهود، فَدَعْ ما لا سبيلَ إليه، وادْعُهم إلى ما لهم السبيل إليه، من الاجتماعِ على مِلَّتكَ الحنيفيَّةِ المسلمة، وقبلتِك قبلةِ إبراهيم والأنبياء من بعده.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «ولئن اتبعت أهواءهم»، ولئن التمستَ يا محمدُ رِضَا هؤلاء اليهود والنصارى، الذين قالوا لك ولأصحابك: «كونوا هُوداً أو نصارى تهتدوا»، فاتبعتَ قِبْلَتهم ـ يعني: فرَجعت إلى قبلتهم.

ويعني بقوله: «مِنْ بَعْدِ مَا جاءك من العلم»، من بعد ما وصَل إليك من العلم، بإعلامي إياكَ أنهم مُقيمُونَ على باطلٍ، وعلى عنادٍ منهم للحق، ومعرفةٍ منهم أنَّ القبلةَ التي وَجَّهْتُكَ إليها هي القبلةُ التي فرضتُ على أبيكَ إبراهيم عليه السلام وسائر ولده من بعده من الرسل ـ التوجُّهَ نحوها، «إنك إذاً لمن الظالمين»، يعني: إنك إذا فعلتَ ذلك، من عبادي الظَّلمةِ أنفسَهُم، المخالفينَ أمرِي، والتاركين طاعتي، وأحدُهم، وفي عِدادِهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه»، أحبارَ اليهود وعلماء النصارى: يقول: يعرفُ هؤلاء الأحبارُ من اليهود، والعلماءُ من النصارى: أن البيتَ الحرام قبلتُهم وقبلةُ إبراهيمُ وقبلةُ الأنبياء قبلك، كما يعرفون أبناءَهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾

يقول جَلَّ ثناؤه: وإنَّ طائفةً من الذين أوتوا الكتاب ـ وهُمُ اليهود والنصارى.

وقوله: «ليكتمون الحق»، ـ وذلك الحقُّ هو القِبلة ـ التي وجَّه الله عَزَّ وجل إليها نبيَّهُ محمداً ﷺ. يقول: فَولِّ وجهكَ شطرَ المسجدِ الحرام ـ التي كانت الأنبياءُ من قبل محمدٍ ﷺ يتوجَّهون إليها، فكتمتها اليهودُ والنصارى، فوجَّه بعضُهم شرقاً، وبعضُهم بيتَ المقدس، ورَفَضُوا ما أمرهم الله به، وكتموا مَعَ ذلك أمرَ محمدٍ ﷺ وهم يجدونَه مكتوباً عندهم في التوراةِ والإنجيل. فأطلع الله عَزَّ وجل نبيه محمداً ﷺ وأُمَّتَهُ على خيانتهم الله تبارك وتعالى، وخيانتهم عبادَه، وكتمانِهم ذلك، وأخبر أنهم يفعلون ما يَفعلون من ذلك على عِلْمٍ منهم بأنَّ الحَقَّ غيرُه، وأنَّ الواجبَ عليهم من الله جَلَّ ثناؤه خلافُه، فقال: «ليكتمونَ الحق وهم يعلمون»، أنْ لَيس لَهم كتمانه، فيتعمَّدون معصيةَ الله تبارك وتعالى.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ١٤٧﴾

يعني تعالى ذِكْرُه: اعلمْ يا محمد أنَّ الحَقَّ ما أعلمك رَبُّكَ وأتاك من عندِهِ، لا ما يقولُ لكَ اليهودُ والنصارى.

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه لنبيه عليه السلام: عن أنَّ القِبلةَ التي وَجَّهَهُ نحوها، هي القبلةُ الحقُّ التي كان عليها إبراهيمُ خليلُ الرحمن ومَنْ بعده من أنبياء الله عَزَّ وجل.

يقول الله تعالى ذِكْرُه له: فاعمل بالحقِّ الذي أتاكَ مِنْ رَبِّكَ يا محمد، ولا تَكونَنَّ من الممترين.

يعني بقوله: «فلا تكونن من الممترين»، أي فلا تكونن من الشاكّين في أنَّ القِبلةَ التي وجَّهتك نَحوها قبلةُ إبراهيم خليلي عليه السلام وقبلة الأنبياء غيره.

فإنْ قالَ لنا قائلٌ: أوَ كان النبيُّ ﷺ شاكّاً في أنَّ الحَقَّ من ربه، أو في أنَّ القبلةَ التي وجَّهه اللهُ إليها حَقٌّ من الله تعالى ذِكْرُه حتى نُهيَ عن الشك في ذلك، فقيل له: «فلا تكونن من الممترين»؟

قيل: ذلك من الكلام الذي تُخرجه العربُ مخرَجَ الأمر أو النهي للمخاطب به، والمراد به غيره، كما قال جَلَّ ثناؤه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلَا تُطِعِ الكافِرِينَ وَالمُنافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١]، ثم قال: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللهَ كانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ [الأحزاب: ٢]. فخرج الكلامُ مخرجَ الأمرِ للنبيِّ ﷺ والنهي له، والمراد به أصحابه المؤمنون به. وقد بيّنا نظيرَ ذلك فيما مضى قبل بما أغنى من إعادته.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾

يعني بقوله تعالى ذِكْرُه: «ولكلٍّ»، ولِكُلِّ أهلِ مِلَّةٍ، فحذف «أهل الملة»، واكتفى بدلالة الكلام عليه.

فتأويلُ أهلِ هذه المقالة في هذه الآية: ولِكُلِّ أهلِ ملة قبلةٌ هو مستقبلها، وموَلٍّ وَجْهَهُ إليها.

وقال آخرون: «ولكل وجهة هو موليها»: هي صلاتهم إلى بيت المقدس، وصلاتهم إلى الكعبة.

وتأويلُ قائلِ هذه المقالة: ولكلٍّ ناحيةٍ وجَّهكَ إليها رَبُّكَ يا محمد قبلة، اللهُ عَزَّ وجل مُولِّيها عبادَه.

وأمـا «الوجهة»، فإنها مصدر مثل «القعدة» و«المشية»، من «التوجّه». وتأويلها: مُتوَجَّهٌ إليه بوَجهه في صلاته.

وأما قوله: «هو مُولِّيها»، فإنه يعني هو مولٍّ وَجْهَهُ إليها ومستقبلها. ومعنى «التـوْلية» ههنا الإقبال، كما يقول القائل لغيره: «انصرِف إليَّ» بمعنى: أقبل إليَّ. «والانصراف» المستعمل، إنما هو الإنصراف عن الشيء، ثم يقال: «انصرفَ إلى الشيء»، بمعنى: أقبل إليه منصرفاً عن غيرِه. وكذلك يقال «ولَّيت عنه»، إذا أدبرت عنه. ثم يقال: «ولَّيت إليه»، بمعنى أقبلت إليه مولِّياً عن غيره[1].

فمعنى الكلام إذاً: ولِكُلِّ أهلِ مِلة وجهةٌ، الكلُّ منهم مولُّوها وُجوهَهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «فاستبقوا»، فبادروا وسَارعوا، من «الاستباق»، وهو المبادرة والإسراع.

وإنما يعني بقوله: «فاستبقوا الخيرات»، أي: قد بَيَّنْتُ لكم أيها المؤمنون الحقَّ، وهَـدَيْتُكم للقِبلة التي ضلَّت عنها اليهودُ والنصارى وسائرُ أهل الملل غيركم، فبادروا بالأعمال الصالحة، شكراً لربكم، وتزوّدوا في دنياكم لآخرتكم، فإني قد بيّنت لكم سُبُلَ النجاة، فلا عُذْرَ لكم في التفريط، وحافِظُوا على قبلتكم، فلا تُضَيِّعوها كما ضَيَّعتها الأممُ قبلكم، فتضلُّوا كما ضلت.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾

---

(١) انظر معاني القرآن للفراء: ١/ ٨٥.

ومعنى قوله: «أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً»، في أيِّ مكانٍ وبقعةٍ تهلكون فيه، يأتِ بكمُ اللهُ جميعاً يوم القيامة، إنَّ الله على كل شيء قدير.

وإنما حَضَّ الله عَزَّ وجل المؤمنين بهذه الآية على طاعته، والتزوُّدِ في الدنيا للآخرة، فقال جَلَّ ثناؤه لهم: فاسْتَبِقُوا أيها المؤمنون إلى العمل بطاعةِ ربكم، ولزومِ ما هداكم له من قِبْلَةِ إبراهيمَ خليله وشرائع دينه، فإن الله تعالى ذكره يأتي بكم وبِمَنْ خالفَ قبلتكم ودينكم وشريعتكم جميعاً يوم القيامة، من حيث كنتُم من بقاع الأرض، حتى يوفِّي المحسنَ منكم جزاءه بإحسانه، والمسيءَ عقابه بإساءته، أو يتفضَّلَ فيصفحَ.

وأما قوله: «إنَّ الله على كل شيء قدير»، فإنه تعالى ذكره يعني: إنَّ الله تعالى على جَمْعِكم - بعد مماتكم - من قبوركم إليه، من حيث كنتم وكانت قبوركم، وعلى غير ذلك مما يشاء، قديرٌ. فبادروا خروجَ أنفسِكم بالصالحاتِ من الأعمالِ قبل مماتِكم، ليوم بَعثكم وحَشركم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «ومن حيث خرجت»، ومن أيِّ موضعٍ خرَجْتَ إلى أيِّ موضع وجَّهتَ، فَوَلِّ يا محمدُ وَجهكَ - يقول: حوِّلْ وَجْهك. وقد دللنا على أن «التولية» في هذا الموضع شطر المسجد الحرام، إنما هي: الإقبالُ بالوجه نحوه. وقد بيَّنا معنى «الشطر» فيما مضى.

وأما قوله: «وإنه لَلْحَقُّ من ربك»، فإنه يعني به تعالى ذكره: وإنَّ التوجه

شَطرَهُ لَلْحَقُّ الذي لا شَكَّ فيه من عند ربك، فحافظوا عليه، وأطيعوا الله في توجهكم قِبَله.

وأما قوله: «ومَا اللهُ بغافلٍ عَما تَعملون»، فإنه يقول: فإنَّ الله تعالى ذِكْرُه لَيس بساهٍ عن أعمالكم، ولا بغافلٍ عنها، ولكنه مُحْصِيها لكم، حتى يجازيكم بها يوم القيامة.

القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾

يعني بقوله تعالى ذِكْرُه: «ومن حَيثُ خرجت فَوَلِّ وَجْهكَ شَطْرَ المسجد الحرام»، من أيِّ مكان وبُقعة شَخصتَ فخرجت يا محمد، فولِّ وجهكَ تِلْقَاءَ المسجدِ الحرام، وهو شَطره.

ويعني بقوله: «وحيث ما كنتم فولُّوا وجُوهكم»، وأينما كنتم أيها المؤمنون من أرضِ الله، فولُّوا وجوهَكُم في صلاتكم تُجاهه وقِبَله وقَصْده.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾

عنى الله تعالى بـ «الناس» في قوله: «لئلا يكون للناس»، أهلَ الكتابِ.

فإنْ قال قائـل: فأيَّةُ حُجَّـةٍ كانت لأهل الكتاب بصلاة رسول الله ﷺ وأصحابه نحوَ بيتِ المقدس، على رسولِ الله ﷺ وأصحابه؟

قيل: إنهم كانـوا يقـولـون: ما درَى مُحمد وأصحابهُ أين قِبلتهم حتى هَدَيْنَاهُم نحنُ! وقولهم: يُخالفنا مُحمد في دِيننا ويتبعُ قِبلتنا! فهي الحجةُ التي

كانوا يحتجُّون بها على رسولِ الله ﷺ وأصحابه، على وجه الخصومة منهم لهم، والتمويه منهم بها على الجُهَّالِ وأهلِ الغباء من المشركين.

وقد بيّنا فيما مضى أنَّ معنى حِجاجِ القومِ إيَّاه، الذي ذكره الله تعالى ذكره في كتابه، إنَّما هيَ الخُصوماتُ والجدال. فقطع الله جَلَّ ثناؤه ذلك من حُجَّتهم وحَسَمَهُ، بتحويلِ قبلةِ نبيِّهِ ﷺ والمؤمنين به، من قِبلةِ اليهود إلى قبلةِ خليلهِ إبراهيم عليه السلام. وذلك هو معنى قول الله جَلَّ ثناؤه: «لئلا يكون للناسَ عليكم حجة»، يعني: بـ«الناس»، الذين كانوا يَحتجُّون عليهم بما وصفت.

وأما قوله: «إلا الذين ظَلمُوا منهم»، فإنهم مُشْرِكُو العرب من قريش، فيما تأوَّله أهلُ التأويل.

فإنْ قال قائـلٌ: وأيّة حُجة كانت لمشركي قريش على رسولِ الله ﷺ وأصحـابـه، في تَوَجُّهِهم في صَلاتِهم إلى الكعبـة؟ وهـل يجـوز أن يكـون للمشركين على المؤمنين ـ فيما أمرهم الله به أو نهاهم عنه ـ حُجة؟

قيل: إنَّ معنى ذلك بخلافِ ما توهمتَ وذهبتَ إليه. وإنما «الحُجَّة» في هذا الموضع، الخصومةُ والجدال. ومعنى الكلام: لئلا يكونَ لأحدٍ من الناس عليكم خُصُومةٌ ودعوى باطل[1] غير مشركي قريش فإنَّ لهم عليكم دعوى بَاطلاً وخصومةً بغير حق، بقِيلِهم لكم: «رَجَع محمد إلى قبلتنا، وسيرجع إلى ديننا». فذلك من قولهم وأمانيِّهم الباطلة، هي «الحجة» التي كانت لقريش على رسول الله ﷺ وأصحابه. ومن أجل ذلك استثنى الله تعالى ذكره «الذين ظلموا» من قريش من سائر الناسِ غيرهم، إذْ نفى أنْ يكونَ لأحدٍ منهم في قِبْلَتهم التي وجَّهَهُم إليها حُجة.

---

(١) يقال: دعوى باطل وباطلة.

وإذ كان ذلك معنى الآية بإجماعِ الحُجَّةِ من أهلِ التأويل، فبَيِّنٌ خطأُ قولِ مَنْ زعم أنَّ معنى قوله: «إلا الذين ظلموا منهم»: ولا الذين ظلموا منهم، وأن «إلا» بمعنى «الواو». لأن ذلك لو كان معناه، لكان النفيُ الأول عن جميع الناس ـ أنْ يكون لَهم حُجة على رسولِ الله ﷺ وأصحابه في تحوُّلهم نحو الكعبةِ بوجوههم ـ مبيِّناً عن المعنى المراد، ولم يكن في ذكر قوله بعد ذلك: «إلا الذين ظَلموا منهم» إلا التلبيس الذي يتعالى عن أنْ يُضافَ إليه أو يوصف به.

وأما قوله: «فلا تَخْشَوْهُم واخشَوْني»، يعني: فلا تخشوا هؤلاء الذين وصفتُ لَكم أمْرَهُم من الظَّلَمَةِ في حُجَّتِهم وجِدالهم وقولِهم ما يقولون: في أنَّ محمداً ﷺ قد رجع إلى قبلتنا، وسيرجع إلى ديننا! ـ أو أن يَقدروا لكم على ضرٍّ في دِينكم، أو صدِّكم عما هَدَاكم اللهُ تعالى ذكره له من الحق، ولكن اخشوني فخافوا عقابي، في خلافكم أمرِي إنْ خالفتموه.

وذلك من الله جَلَّ ثناؤه تقدُّمٌ إلى عبادِه المؤمنين، بالحضِّ على لزوم قبلتهم والصلاة إليها، وبالنهي عن التوجُّه إلى غيرها. يقول جَلَّ ثناؤه: واخشَوْني أيها المؤمنون، في تركِ طاعَتِي فيما أمرتُكم به من الصلاة شَطرَ المسجد الحرام.

القول في تأويل قوله عَزَّ وجل: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥٠﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «ولأتمَّ نعمتي عليكم»، ومِنْ حيثُ خرجتَ من البلاد والأرض، وإلى أيِّ بقعة شخصتَ، فولِّ وجهكَ شطرَ المسجد الحرام، وحيثُ كنت، يا محمد والمؤمنون، فَوَلُّوا وجوهَكُمْ في صلاتِكم شَطرَه، واتخذوه

قبلةً لكم، كيلا يكونَ لأحدٍ من الناس - سوى مشركي قريش - حجةٌ، ولأُتِمَّ بذلك - من هدايتي لكم إلى قبلةِ خليلي إبراهيم عليه السلام، الذي جعلته إماماً للناس - نِعْمتي، فأكمل لكم به فضلي عليكم، وأتممَ به شرائعَ مِلَّتكم الحنيفية المسلمة التي وصيتُ بها نوحاً وإبراهيمَ وموسى وعيسى وسائر الأنبياء غيرهم. وذلك هو نعمته التي أخبر جَلَّ ثناؤه أنه مُتِمُّها على رسولهِ ﷺ والمؤمنينَ به من أصحابه.

وقوله: «ولعلكم تهتدون»، يعني: وكي تَرْشُدُوا للصوابِ من القِبلة. و«لعلكم» عَطْفٌ على قوله: «ولأُتِمَّ نعمتي عليكم»، «ولأتم نعمتي عليكم» عَطْفٌ على قوله: «لئلا يكون».

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «كما أرسلنا فيكم رسولاً»، ولأتِمَّ نعمتي عليكم ببيانِ شرائعِ مِلَّتِكم الحنيفيةِ، وأهديَكم لدينِ خليلي إبراهيم عليه السلام، فأجعل لكم دَعوتَهُ التي دعاني بها ومسألتَهُ التي سَأَلَنِيهَا فقال: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨]، كما جعلت لكم دعوته التي دعاني بها، ومسألته التي سَأَلَنِيهَا فقال: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩]، فابتعثتُ منكم رَسُولي الذي سألني إبراهيمُ خليلي وابنُهُ إسماعيل، أنْ أبعثَهُ من ذرِّيتهما.

فـ «كما» ـ إذ كان ذلك معنى الكلام ـ صلةٌ لقول الله عَزَّ وجل: «ولأتِمَّ نعمتي عليكم». ولا يكون قوله: «كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم»، متعلقاً بقوله: «فاذكروني أذكركم».

وقوله: «كما أرسلنا فيكم رَسولاً منكم»، فإنه يعني بذلك العرب، قال لهم جَلَّ ثناؤه: الْزَمُوا أيُّها العربُ طاعتي، وتَوجَّهُوا إلى القبلة التي أمرتكم بالتوجُّه إليها، لتنقطع حُجةُ اليهود عنكم، فلا تكون لهم عليكم حجةٌ، ولأتم نعمتي عليكم، وتهتدوا، كما ابتدأتكم بنعمتي، فأرسلتُ فيكم رسولاً منكم. وذلك الرسول أَرْسَلَهُ إليهم منهم: محمد ﷺ.

وأمّا قوله: «يتلو عليكم آياتنا»، فإنه يعني آياتِ القرآن، وبقوله: «ويُزَكِّيكم» ويُطَهِّرُكم من دَنَسِ الذنوب، و«يعلمكم الكتاب» وهو الفرقان، يعني: أنه يُعَلِّمُهُم أحكامَهُ. ويعني: بـ «الحِكمة» السننَ والفقهَ في الدين. وقد بَيَّنا جميعَ ذلك فيما مضى قَبْلُ.

وأما قوله: «ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون»، فإنه يعني: ويعلمكم من أخبارِ الأنبياءِ وقَصَص الأممِ الخاليةِ، والخبر عما هو حادثٌ وكائنٌ من الأمورِ التي لم تكن العربُ تعلمها، فَعَلِمُوها من رسولِ الله ﷺ. فأخبرهم جَلَّ ثناؤه أنَّ ذلك كله إنما يدركونه برَسوله ﷺ.

القول في تأويل قوله عَزَّ وجل: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: فاذكروني أيها المؤمنون بطاعتكم إياي فيما آمُرُكُمْ به وفيما أنْهَاكُمْ عنه، أَذْكُرْكُمْ برحمتي إياكم ومغفرَتِي لكم. وقد كان بعضهم يتأوّل ذلك أنه من الذِّكْرِ بالثناءِ والمدح.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ۝١٥٢﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: اشكروا لي أيها المؤمنون فيما أنعمتُ عليكم من الإسلام، والهداية للدِّينِ الذي شرعته لأنبيائي وأصفيائي، «ولا تكفرون»، يقول ولا تَجْحَدُوا إحساني إليكم، فأسلبكم نعمتي التي أنعمتُ عليكم، ولكن اشْكُروا لي عليها، وأزيدكم فَأُتَمِّمَ نعمتي عليكم، وأهديكم لما هديتُ له مَنْ رَضيتُ عنه من عبادي، فإنِّي وعدتُ خلقي أنَّ مَنْ شكر لي زِدْتُه، ومن كَفَرني حَرَمْتُه وسلبته ما أعطيتُه.

والعرب تقول: «نَصحتُ لك وشكرتُ لك»، ولا تكاد تقول: «نصحتك»، وربما قالت: «شكرتك ونصحتك». وقد دللنا على أن معنى «الشكر»، الثناء على الرجل بأفعاله المحمودة، وأنَّ معنى «الكفر» تغطية الشيء، فيما مضى قَبْلُ، فأغنى ذلك عن إعادتِه ههنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٣﴾

وهذه الآية حضٌّ من الله تعالى ذِكْرُه على طاعته، واحتمال مَكْرُوهِها على الأبدانِ والأموال، فقال: «يا أيها الذينَ آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة» على القيام بطاعتي، وأداءِ فرائضي في ناسخِ أحكامي، والانصراف عَما أنسخهُ منها إلى الذي أُحْدِثُه لكم من فرائضي، وأنقلكم إليه من أحكامي، والتسليم لأمري فيما آمركم به في حينِ إلزامِكم حُكْمَهُ، والتحول عنه بعد تحويلي إياكم عنه ـ وإنْ لَحِقَكُمْ في ذلك مكروهٌ من مقالةِ أعدائكم من الكفارِ بقَذْفِهم لكم الباطل، أو مشقةٌ على أبدانكم في قيامِكم به، أو نقصٌ في أموالكم ـ وعلى جهاد أعدائكم وحربهم في سبيلي، بالصبر منكم لي على مكروهِ ذلك وَمَشَقَّتِهِ عليكم، واحتمالِ عَنَائِه وثقْلِه، ثم بالفزع منكم فيما يَنوبكم من مُفظِعات الأمور

الى الصلاة لي. فانكم بالصبر على المكاره تدركون مرضاتي، وبالصلاة لي تستنجحون طلباتكم قِبَلي، وتدركون حاجاتكم عندي، فإني مع الصابرينَ على القيام بأداءِ فرائضي وتركِ معاصيَّ، أنْصُرهُم وأرْعَاهم وأكلَؤهم، حتى يَظْفروا بما طلبوا وأمَّلُوا قِبَلي. وأما قوله: «إن الله مع الصابرين»، فإن تأويله: فإن الله نَاصرُه وظَهيرُهُ وراضٍ بفعله، كقول القائل: «افعل يَا فلان كذا وأنا معك»، يعني: إني ناصرُكَ على فِعْلِكَ ذلك ومُعينكَ عليه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه: يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر على طاعتي في جهادِ عدوِّكم، وتركِ معاصيَّ، وأداءِ سائرِ فرائضي عليكم، ولا تقولوا لمن يقتلُ في سبيل الله: هو ميتٌ، فإنَّ الميتَ من خَلْقِي مَنْ سلبته حياتَه وأعدمتهُ حواسَّه، فلا يلتذُّ لذةً ولا يُدرك نعيماً، فإنَّ مَنْ قُتل منكم ومن سائر خَلْقي في سبيلي، أحياءٌ عندي، في حياةٍ ونعيمٍ، وعيشٍ هَنِيٍّ، ورزقٍ سَنِيٍّ، فَرِحينَ بما آتيتهم من فضلي، وَحَبَوْتُهم به من كرامتي.

فإن قال لنا قائل: وما في قوله: «ولا تقولوا لمن يُقتل في سبيل الله أمواتٌ بل أحياء»، من خصوصيةِ الخبرِ عن المقتولِ في سبيل الله الذي لم يَعُمَّ به غيره؟ وقد علمت تظاهُر الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه وَصَفَ حالَ المؤمنين والكافرين بعد وفاتهم، فأخبر عن المؤمنين أنهم يُفْتَحُ لهم من قبورهم أبوابٌ إلى الجنة يَشمون منها رَوْحها، ويستعجلون الله قيامَ الساعة، لِيَصِيرُوا إلى مساكِنِهم منها، ويجمع بينهم وبين أهاليهم وأولادهم فيها ـ وعن الكافرين أنهم يُفتح لهم من قبورِهم أبوابٌ إلى النار يَنظرون إليها، ويُصِيبهم من نَتنها ومكروهها، ويُسلط عليهم فيها إلى قيام الساعة مَنْ يَقمَعُهم فيها، ويسألون الله

فيها تأخيرَ قيامِ الساعة، حِذاراً من المصيرِ إلى ما أعد الله لهم فيها، مع أشباهِ ذلك من الأخبار. وإذا كانت الأخبار بذلك متظاهرةً عن رسولِ الله ﷺ، فما الذي خُصَّ به القتيلُ في سبيل الله، مِمَّا لم يعم به سائر البشر غيره من الحياةِ، وسائرُ الكفار والمؤمنين غيرُه أحياءٌ في البرزخ، أما الكفار فَمُعَذَّبُونَ فيه بالمعيشةِ الضَّنْكِ، وأما المؤمنون فَمُنَعَّمُونَ بالروح والريحان ونَسيم الجنان؟

قيل: إنَّ الذي خَصَّ اللهُ به الشهداءَ في ذلك، وأفادَ المؤمنين بخبره عنهم تعالى ذِكْرُه، إعلامُهُ إياهم أنهم مرزوقون من مآكلِ الجنة ومطاعمها في بَرْزَخِهم قَبل بعثهم، ومُنَعَّمُونَ بالذي يُنَعَّمُ به داخلوها بعد البعثِ من سائر البشر، من لذيذِ مطاعِمها التي لم يُطعمها اللهُ أحداً غيرَهم في برزخهِ قبل بعثهِ. فذلك هو الفضيلةُ التي فضَّلهم بها وخَصَّهُم بها من غيرهم، والفائدة التي أفادَ المؤمنين بالخبر عنهم، فقال تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ: ﴿ولَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُون* فَرِحِينَ بِما آتَاهُمُ اللهِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧٠].

فإنْ قال قائل: فإنَّ الخبرَ عما ذكرتَ أنَّ الله تعالى ذِكْرُه أفاد المؤمنينَ بخبرهِ عن الشهداءِ من النعمةِ التي خَصَّهم بها في البرزخ، غيرُ موجودٍ في قوله: «ولا تَقولوا لمنْ يُقتل في سبيل الله أموات بل أحياء»، وإنما فيه الخبرُ عن حَالهم، أمواتٌ هم أم أحياءٌ.

قيل: إنَّ المقصود بذكر الخبر عن حياتهم، إنما هو الخبر عَمَّا هم فيه من النِّعمة، ولكنه تعالى ذِكْرُه لما كان قد أنبأ عبادَه عما خَصَّ به الشهداء في قولـه: ﴿ولَا تَحْسَبَنَّ الَّـذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْـوَاتـاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وعلموا حالهم بخبرهِ ذلك، ثم كان المراد من الله تعالى ذِكْرُه في قوله: «ولا تقولوا لِمَنْ يُقتل في سبيل الله أمواتٌ بل أحياء»،

نَهْيُ خَلْقِه عن أنْ يقولوا للشهداء أنهم موتى - تَرَكَ إعادة ذكر ما قد بَيَّنَ لهم من خبرهم.

وأما قوله: «ولكنْ لا تَشعرُون»، فإنه يعني به: ولكنكم لا تَرونهم فتعلموا أنهم أحياءٌ، وإنما تعلمون ذلك بخبري إياكم به.

القــول في تأويل قولـه تعـالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾

وهذا إخبار من الله تعالى ذِكْرُه أتباعَ رَسوله ﷺ، أنه مُبْتَلِيهم ومُمْتَحِنُهم بشدائد من الأمور، ليعلم من يتبع الرسولَ مِمَّنْ ينقلب على عقبيه، كما ابتلاهم فامتحنهم بتحويلِ القبلةِ من بيتِ المقدس إلى الكعبة، وكما امتحن أصفياءَه قَبلهم. ووَعدهم ذلك في آية أخرى فقال لهم: ﴿أمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ ولَمَّـا يأتكم مَثَـلُ الَّـذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ البَـأْسَاءُ والضَّرَّاءُ وزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ والَّذينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

ومعنى قوله: «وَلنبلونكم»، ولنختبرنكم. وقد أتينا على البيان عن أن معنى «الابتلاء»، الاختبار، فيما مضى قبل.

وقوله: «بشيء من الخوف»، يعني من الخوف من العدو، وبالجوع - وهو القحط - يقول: لنختبرنكم بشيءٍ من خوفٍ ينالكم من عدوكم، وبسَنَةٍ تُصيبكم ينـالكم فيها مجاعةٌ وشِدَّةٌ، وتتعذر المطالب عليكم، فتنقص لذلك أموالكم؛ وحروبٌ تكون بينكم وبين أعدائكم من الكفار، فينقص لها عَدَدُكم؛ وموتُ ذَرارِيكم وأولادكم، وجُدوب تحدُث فتنقص لها ثِمارُكم. كل ذلك امتحانٌ مني

لكم، واختبارٌ مني لكم، فيتبيّن صادِقُوكم في إيمانهم من كاذبيكم فيه، ويُعرف أهلُ البصائر في دينهم منكم، من أهل النفاق فيه والشك والارتياب.

كل ذلك خطابٌ منه لأتباع رَسولِ الله ﷺ وأصحابه.

وإنما قال تعالى ذِكْرُه: «بشيء من الخوف» ولم يقل: بأشياء، لاختلافِ أنواعِ ما أعلم عبادَه أنه مُمْتَحِنُهم به. فلما كان ذلك مختلفاً ـ وكانت «من» تَدلُّ على أنَّ كُلَّ نوعٍ منها مُضمر «شيء»، فإنَّ معنى ذلك: ولنبلونكم بشيء من الخوف، وبشيء من الجوع، وبشيء من نقص الأموال ـ اكتفى بدلالة ذكر «الشيء» في أوله، من إعادته مع كل نوع منها.

ففعل تعالى ذِكْرُه كُلَّ ذلك بهم، وامتحنهم بضروب المِحَن.

ثم قال تعالى ذِكْرُه لنبيه ﷺ: يا محمد، بَشِّرِ الصابرين على امتحاني بما أمتحنهم به، والحافظين أنفسهم عن التقدم على نَهْيِي عما أنهاهم عنه، والآخذينَ أَنْفُسَهُم بأداءِ ما أكلفهم من فرائضي، مع ابتلائي إياهم بما أبتليهم به، القائلين إذا أصابتهم مصيبة: «إنا لله وإنا إليه راجعون». فأمر الله تعالى ذِكْرُه بأن يَخُصَّ ـ بالبشارة على ما يمتحنهم به من الشدائد ـ أهلَ الصبر، الذين وصف الله صفتهم.

وأصل «التبشير»: إخبار الرجل الرجلَ الخبرَ، يَسُرُّهُ أو يَسُوؤُهُ، لم يسبقه به إلى غيره.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾

يعني تعالى ذِكْرُه: وبَشِّرْ، يا محمدُ، الصابرين الذين يعلمون أنَّ جميع

ما بهم من نعمةٍ فمنّي، فَيُقِرُّونَ بعبوديتي، ويوحِّدونني بالربوبية، ويصدقون بالمعادِ والرجوعِ إليَّ، فيستسلمونَ لقضائي، ويرجون ثَوابي، ويخافون عقابي، ويقولون ـ عند امتحاني إياهم ببعض محَني، وابتلائي إياهم بما وَعَدْتُهم أنْ أبتليهم به من الخوفِ والجوعِ ونَقصِ الأموالِ والأنْفُسِ والثمراتِ وغير ذلك مَن المصائبِ التي أنا مُمْتَحِنُهُم بها ـ: إنا مماليكُ رَبِّنا ومعبودنا أحياء، ونحن عبيدُه وإنا إليه بعد مَماتنا صائرون ـ تسليماً لقضائي ورضاً بأحكامي.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «أولئك»، هؤلاء الصابرون، الذين وصفهم ونَعتهم. «عليهم»، يعني: لَهم. «صلواتٌ»، يعني: مغفرة. «وصلوات الله» على عباده، غُفرانه لعباده، كالذي روي عن النبي ﷺ أنه قال: «اللهم صَلِّ على آلِ أبي أوْفى»[1].

يعني: اغفر لَهم. وقد بَيَّنا «الصلاة» وما أصلها في غير هذا الموضع.

وقوله: «ورحمة»، يعني: ولَهُم مع المغفرة، التي بها صَفح عن ذُنُوبِهم وتغمَّدها، رحمة من الله ورأفة.

ثم أخبر تعالى ذِكْرُه ـ مع الذي ذكر أنه مُعْطِيهم على اصْطبارهم على محنة، تسليماً منهم لقضائه، من المغفرة والرحمة ـ أنهم هم المهتدون،

---

(١) جزء من حديث صحيح: أخرجه ـ عن عبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنه ـ البخاري في أربعة مواضع ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجة. انظر: المنتقى من حديث المصطفى للدكتور بشّار عواد معروف. حديث رقم ٥٦.

المصيبون طريقَ الحَق، والقائلون مَا يُرْضِي عنهم، والفاعلون ما استوجبوا به من الله الجزيل من الثواب.

وقد بيَّنا معنى «الاهتداء»، فيما مضى، فإنه بمعنى الرشد للصواب.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾

«والصفا» جمع «صَفاة»، وهي الصخرةُ الملساء.

وأما «المروة»، فإنها الحصاةُ الصغيرة، يُجْمَعُ قَليلها «مَروات»، وكثيرها «المَرْو»، مثل «تمرة وتمرَات وتمر».

وإنما أعلم الله تعالى ذِكْرُه بقوله: ﴿إِنَّ الصَّفا وَالمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللهِ﴾ عبادَهُ المؤمنينَ أنَّ السعيَ بينهما من مشاعرِ الحجِّ التي سَنَّهَا لهم، وأمرَ بها خليلَهُ إبراهيم ﷺ، إذ سأله أن يريه مناسك الحج، وذلك وإن كان مخرجه مخرجَ الخبرِ، فانه مرادٌ به الأمر لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه قد أمر نبيه محمداً ﷺ باتباعِ ملةِ إبراهيم عليه السلام، فقال له: ثم أوحينا إليكَ أن اتَّبِعْ مِلَّةَ إبراهيم حنيفاً، وجعل تعالى ذِكْرُه إبراهيم إماماً لِمَنْ بعده، فإذا كان صحيحاً أنَّ الطوافَ والسعيَ بين الصفا والمروة من شعائر الله ومن مناسك الحج، فمعلومٌ أنَّ إبراهيمَ ﷺ، قد عمل به، وسَنَّهُ لِمَنْ بعده، وقد أمر نبينا ﷺ أمته باتباعه، فعليهم العملُ بذلك على ما بَيَّنَهُ رسولُ الله ﷺ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «فمن حجَّ البيت»، فمن أتاه عائداً إليه بَعدَ بدء. وكذلك كل مَنْ أكثرَ الاختلافَ إلى شيءٍ فهو «حَاجٌّ إليه».

يعني بقوله: «يحجون»، يكثرون الترددَ إليه لسُؤْدده ورياسته. وإنما قيل للحاج «حاجّ»، لأنه يَأتي البيتَ قَبل التعريف، ثم يعود إليه لطوَافِ يومِ النحر بعد التعريف، ثم ينصرف عنه إلى مِنى، ثم يعود إليه لطوَاف الصَّدَر.

فلتكراره العودَ إليه مَرَّةً بعد أخرى قيل له: «حاجٌّ».

وأما «المعتمر»، فإنما قيل له: «معتمر»، لأنه إذا طاف به انصرف عنه بعد زيارته إياه. وإنما يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «أو اعتمر»، أو اعتمرَ البيتَ، ويعني بـ «الاعتمار» الزيارة. فَكُلُّ قاصدٍ لشيءٍ فهو له «معتمر».

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «فلا جُنَاحَ عليه أن يَطَّوَّفَ بهما»، يقول: فلا حَرَج عليه ولا مَأثم في طَوَافه بهما.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾

معنى ذلك: ومن تطوع بالحج والعمرة بعد قَضَاء حجته الواجبة عليه، فإنَّ الله شاكرٌ له على تَطَوُّعِهِ له بِمَا تطوعَ به من ذلك ابتغاءَ وجهه، فمجازيهِ به، عليمٌ بما قصد وأرادَ بتطُّوعه بما تطوع به.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾

يعني بقوله: «إنّ الذين يَكتمون مَا أنزلنا من البينات»، علماءَ اليهود

وأحبارَهم، وعلماءَ النصارى، لكِتْمانِهم الناسَ أمْرَ محمدٍ ﷺ، وتركهم اتِّبَاعَهُ وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل.

و«البيِّنات» التي أنزلها الله: ما بَيَّنَ من أمرِ نبوةِ محمدٍ ﷺ ومبعثه وصفته، في الكتابين اللذين أخبر الله تعالى ذكره أنَّ أهلهما يجدون صفته فيهما.

ويعني تعالى ذِكْرُه بـ «الهدى» ما أوضح لَهم من أمره في الكتبِ التي أنزلها على أنبيائهم، فقال تعالى ذكره: إنَّ الذين يكتمون الناسَ الذي أنزلنا في كُتُبهم من البيانِ عن أمرِ محمدٍ ﷺ ونبوته، وصِحَّةِ المِلَّةِ التي أرسَلْتُه بها وحَقِّيَّتِها فلا يخبرونهم به، ولا يعلنونه من بعد تبييني ذلك للناس وإيضاحيه لهم، في الكتاب الذي أنزلتُه إلى أنبيائهم، «أولئك يَلعنهم الله وَيلعنهم اللاعنون إلاّ الذين تابوا» الآية.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَـٰبِ﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «من بعد ما بيّناه للناس»، بعضَ الناس، لأن العِلْمَ بنبوةِ محمدٍ ﷺ وصفته وَمبعثه لم يكن إلاّ عندَ أهلِ الكتاب دون غيرهم، وإياهم عَنَى تعالى ذِكْرُه بقوله: «للناس في الكتاب»، ويعني بذلك: التوراة والإنجيل.

وهذه الآيةُ وإنْ كانت نَزلت في خاصٍّ من الناس، فإنها معنيٌّ بها كل كاتمٍ علماً فرضَ الله تعالى للناس وذلك نظير الخبر الذي رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: من سُئل عَن علمٍ يَعْلَمُهُ فكَتَمَهُ، أُلْجِمَ يوم القيامة بلجامٍ من نار[1].

---

(١) هو من حديث أبي هريرة، وذكره الطبري هنا بغير إسناد، وهو حديث صحيح أخرجه أحمد ٢/٢٦٣ و٣٠٥ و٣٤٤ و٣٥٣، وأبو داود (٣٦٥٨) والترمذي (٢٦٤٩)، وابن ماجة (٢٦١)، وابن حبان (٩٥)، وغيرهم.

وكان أبو هريرة يقول: لولا آيتان أنزلهما الله في كتابه ما حدَّثت شيئاً: ﴿إنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِن البيِّنَاتِ﴾ إلى آخر الآية، والآية الأخرى: ﴿وإذْ أخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاس﴾ إلى آخر الآية [آل عمران: ١٧٨].

القـول في تأويل قولـه تعـالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ ١٥٩﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «أولئك يَلعنهم الله»، هؤلاء الذين يكتمون ما أنزلهُ الله من أمر محمد ﷺ وصفته وأمر دينه، أنه الحق ـ من بعد ما بيَّنه الله لهم في كتبهم ـ يلعنهم بكتمانهم ذلك، وتركهم تَبيينه للناس.

و«اللعنة» «الفَعْلة»، من «لعنة الله» بمعنى أقصاه وأبعده وأسْحَقه. وأصل «اللعن». الطرْد.

فمعنى الآية إذاً: أولئك يُبعدهم الله منه ومن رحمته، ويسألُ ربهم اللاعنون أنْ يلعنهم، لأن لعنةَ بني آدم وسائر خَلق الله مَا لَعنوا أن يقولوا: «اللهم العنه» إذْ كان معنى «اللعن» هو ما وصفنا من الإقصاء والإبعاد.

و«اللاعنون»، الملائكةُ والمؤمنون. لأن الله تعالى ذكره قد وصف الكفار بأن اللعنة التي تحلّ بهم إنما هي من الله والملائكة والناس أجمعين، فقال تعالى ذكره: ﴿إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاس أجْمَعِين﴾ [البقرة: ١٦١]، فكذلك اللعنة التي أخبر الله تعالى ذِكْرُه أنها حَالَّة بالفريق الآخر: الذين يكتمون ما أنزل الله من البيِّنات والهدى من بعدما بيّنه للناس، هي لعنة الله، ولعنة الذين أخبر أن لعنتهم حالَّة بالذين كفروا وماتوا وهم كفار، وهم «اللاعنون»، لأن الفريقين جميعاً أهلُ كفر.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: أنَّ الله واللاعنين يَلعنون الكاتمينَ الناسَ ما علموا من أمرِ نبوةِ محمدٍ ﷺ وصِفَتِه ونَعْتِه في الكتابِ الذي أنزله الله وَبيَّنه للناس، إلاّ مَنْ أناب من كتمانهِ ذلك منهم، وَراجَعَ التوبةَ بالإيمانِ بمحمدٍ ﷺ، والإقرار به وبنبوَّتِهِ وتصديقهِ فيما جاء به من عند الله، وبيان ما أنزل الله في كتبه التي أنزل إلى أنبيائه، من الأمر باتِّباعهِ، وأصلح حالَ نفسه بالتقربِ إلى الله من صَالح الأعمال بما يُرضيه عنه، وبيَّن الذي عَلم من وَحيِ الله الذي أنزله إلى أنبيائهِ وعهد إليهم في كُتُبِهِ فلم يكتمه، وأظهرَه فلم يُخْفِه - «فأولئك»، يعني: هؤلاء الذين فَعلُوا هذا الذي وصفت منهم، هم الذين أتوبُ عليهم، فأجعلهم من أهل الإيابِ إلى طاعتي، والإنابةِ إلى مَرضَاتي.

ثم قال تعالى ذِكْرُه: «وأنا التوابُ الرحيم»، يقول: وأنا الذي أرجع بقلوبِ عَبيدي المنصرفة عَنّي إليَّ، والرادُّها بعد إدبارِها عَن طاعتي إلى طَلَبِ مَحبَّتِي، والرحيم بالمُقْبِلينَ بعد إقبالهم إليَّ، أتَغَمَّدُهم مني بعفوٍ، وأصفحُ عن عظيمِ ما كانوا اجترموا فيما بيني وبينهم، بفضلِ رحمتي لهم.

فإنْ قال قائل: وكيف يُتابُ على مَنْ تاب؟ وما وَجه قوله: «إلّا الذينَ تابوا فأولئك أتوبُ عليهم»؟ وهل يكون تائب إلا وهو مَتوُبٌ عليه، أو متوبٌ عليه إلا وهو تائب؟

قيل: ذلك مما لا يكون أحدهُما إلا والآخر معه، فسواء قيل: إلّا الذين تِيبَ عليهم فتابوا - أو قيل: إلا الذين تابوا فإني أتوب عليهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ

﴿عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «إنَّ الذين كفروا»، إنَّ الذين جَحَدُوا نبوة محمدٍ ﷺ وكذبوا به - من اليهود والنصارى وسائر أهل الملل، والمشركين من عَبدة الأوثان - «وماتوا وهم كفار»، يعني: وماتوا وهم على جُحودهم ذلك وتكذيبهم محمداً ﷺ، «أولئك عَليهم لَعنةُ الله والملائكة»، يعني: فأولئك الذين كفروا وماتوا وهم كفارٌ عليهم لعنةُ الله، يقول: أبْعَدَهُم اللهُ وأسحقهم من رحمتهِ، «والملائكة»، يعني: وَلعنهم الملائكةُ والناس أجمعون. ولعنة الملائكة والناس إياهم قولهم: «عليهم لعنةُ الله».

فإنْ قال قائـل: وكيف تَكُونُ على الذي يموتُ كافراً بمحمدٍ ﷺ لعنةُ الناسِ أجمعين من أصنافِ الأمم، وأكثرهم مِمَّنْ لا يؤمن به ويصدقه؟

قيل عَنَى اللهُ بذلك جَميعَ الناس، بمعنى لعنهم إياهم بقولهم: «لعن الله الظالم - أو الظالمين». فإنَّ كُلَّ أحدٍ من بني آدم لا يمتنع من قِيلِ ذلك كائناً مَنْ كان، وَمِنْ أيِّ أهلِ ملةٍ كان، فيدخل بذلك في لعنته كلّ كافرٍ كائن مَنْ كان لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه أخبر عَمَّنْ شَهدهم يوم القيامة أنهم يلعنونهم فقال: ﴿ومَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ٱفْتَـرَى عَلَى اللهِ كَذِبـاً أُولئِـكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

القـول في تأويل قولـه عَزَّ وجل: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ١٦٢﴾

قوله: «لا يُخَفَّفُ عنهم العذاب»، فإنه خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن دَوَام العذاب أبداً من غير توقيتٍ ولا تخفيفٍ، كما قال تعالى ذِكْرُه: ﴿والَّذِينَ كَفَرُوا

﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]، وكما قال: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦].

وأما قوله: «ولا هم يُنظرون»، فإنه يعني: ولا هُم يُنظرون بمعذرةٍ يَعتذرون، كقوله: ﴿هَـٰذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ* وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥-٣٦].

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَـٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾

قد بَيَّنا فيما مضى معنى «الألوهية»، وأنها اعتباد الخلق.

فمعنى قوله: «وإلهكم إلهٌ وَاحدٌ لا إلهَ إلا هو الرحمن الرحيم»: والذي يَستحقُّ عَليكم أيها الناسُ الطاعةَ له، ويستوجبُ منكم العبادَةَ، معبودٌ واحدٌ وربٌّ واحد، فلا تعبدوا غيرَهُ، ولا تُشرِكُوا معه سواه، فإنَّ مَنْ تُشْرِكُونَهُ معه في عبادَتِكُم إياه، هو خَلْقٌ من خَلْقِ إلهكم مثلكم، وإلهكم إلهٌ واحد، لا مِثْلَ لهُ وَلا نَظير.

واختُلِف في معنى وَحدانيته تعالى ذِكْرُه.

فقال بعضهم: معنى وحدانية الله، معنى نَفي الأشباهِ والأمثالِ عنه، كما يقال: «فلانٌ واحدُ الناسِ ـ وهو وَاحِدُ قومِهِ»، يعني بذلك أنه ليسَ له في الناسِ مِثْلٌ، ولا له في قومِهِ شَبيهٌ ولا نظيرٌ. فكذلك معنى قول «اللهُ واحد»، يعني به: الله لا مِثْلَ له ولا نظير.

وأما قوله: «لا إله إلا هو»، فإنه خبرٌ منه تعالى ذِكْرُه أنه لا رَبَّ للعالمين غيرُه، ولا يستوجبُ على العبادِ العبادةَ سواه، وأنَّ كُلَّ ما سواه فَهُمْ خَلْقُه،

والواجبُ على جميعِهم طاعتُه والانقيادُ لأمره، وتَرْكُ عبادة ما سواه من الأنداد والآلهـة، وهَجْـر الأوثـانِ والأصنـام. لأنَّ جميع ذلك خَلْقُه، وعلى جميعِهم الدينونةُ له بالوحدانيةِ والألوهةِ، ولا تَنبغي الألوهةُ إلّا له، إذْ كان ما بهم من نعمةٍ في الدنيا فَمِنْهُ، دونَ ما يعبدون من الأوثان ويشركون معه من الأشراكِ؛ وما يصيرون إليه من نعمةٍ في الآخرة فمنه، وأنَّ ما أشركوا معه من الأشراكِ لا يضر ولا ينفعُ في عاجلٍ ولا في آجل، ولا في دنيا ولا في آخرة.

وهذا تنبيه من الله تعالى ذِكْرُه أهلَ الشرك به على ضلالهم، ودعاءٌ منه لهم إلى الأوبةِ من كُفْرِهم، والإنابةِ من شِرْكِهم.

ثم عَرَّفهم تعالى ذِكْرُه بالآية التي تتلوها، موضعَ استدلال ذوي الألبابِ منهم على حقيقةِ ما نَبَّههم عليه من توحيدِهِ وحُجَجِه الواضحةِ القاطعةِ عُذرَهُم، فقال تعالى ذِكْرُه: أيها المشركون، إنْ جهلتم أو شَكَكْتُم في حقيقةِ ما أخبرتُكم من الخبرِ: من أنَّ إلهكم إلهٌ واحد، دونَ ما تَدَّعُونَ ألوهيته من الأندادِ والأوثانِ، فتدبَّرُواحُججيوفكِّرُوا فيها، فإن مِنْ حُججي خَلْق السموات والأرض، واختلاف الليلِ والنهار، والفلك التي تجري في البحر بما يَنفعُ الناسَ، وما أنزلتُ من السمـاء من ماءٍ فأحييتُ به الأرضَ بعد موتها، وما بَثَثْتُ فيها من كُلِّ دابةٍ، والسحاب الذي سَخَّرْتُه بين السماءِ والأرض. فإنْ كان ما تعبدونه من الأوثان والآلهة والأنداد وسائر ما تشركون به، إذا اجتمع جميعُه فتظاهرَ أو انفردَ بعضُه دون بعضٍ، يقدرُ على أنْ يخلقَ نَظيرَ شيءٍ من خَلْقِي الذي سميتُ لكم، فلكم بعبادتكم ما تعبدون من دوني حينئذٍ عُذْرٌ، وإلَّا فلا عُذْرَ لكم في اتخاذ إلهٍ سِوايَ، ولا إله لكم ولما تعبدونَ غيري.

فليتـدبـر أولُو الألبابِ إيجازَ الله احتجاجَهُ على جميعِ أهلِ الكُفْر به والملحدين في توحيده، في هذه الآية وفي التي بعدها، بأوْجز كلامٍ، وأبلغِ حُجَّةٍ، وألطفِ معنى يشرف بهم على مَعرفة فَضْلِ حكمةِ الله وبَيانه.

القول في المعنى الذي من أجله أنزل الله على نبيه ﷺ قوله ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ . . . الآية.

إنّ الله تعالى ذِكْرُه نَبَّه عبادَهُ ـ على الدلالةِ على وَحدانيته وتَفَرُّدِه بالألوهية، دونَ كُلِّ ما سواه من الأشياء ـ بهذه الآية.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «إنَّ في خَلْقِ السموات والأرض»، إن في إنشاء السماوات والأرض وابتداعهما.

ومعنى «خلق» الله الأشياء: ابتداعُه وإيجادُه إيَّاها، بعد أنْ لم تَكُنْ موجودةً.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «واختلاف الليل والنهار»، وتعاقب الليل والنهار عليكم أيها الناسُ.

وإنما «الاختلاف» في هذا الموضع «الافتعال»، من «خُلوف» كُلِّ واحدٍ منهما الآخَرَ، كما قال تعالى ذِكْرُه: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾ [الفرقان: ٦٢].

بمعنى: أنَّ كُلَّ واحدٍ منهما يخلف مَكان صاحبه، إذا ذهب الليلُ جَاء النهارُ بعده، وإذا ذهب النهارُ جاء الليل خَلْفَهُ. ومن ذلك قيل: «خَلَفَ فلانٌ فلاناً في أهلهِ بسوء».

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه: إنَّ في الفلك التي تجري في البحر.

و«الفُلك» هو السُّفن، واحدهُ وجمعه بلفظٍ واحد، ويُذَكَّرُ ويؤنَّثُ، كما قال تعالى ذِكْرُه في تذكيره في آية أخرى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الفُلْكِ المَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١]، فَذَكَّره.

وقد قال في هذه الآية: «والفلكِ التي تجري في البحر»، وهي مُجْراة، لأنها إذا أُجْرِيَتْ فهي «الجارية»، فأضيف إليها من الصفة ما هو لها.

وأما قوله: «بما ينفع الناس»، فإنَّ معناه: ينفعُ الناسَ في البحر.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وما أنزل اللهُ من السماء من مَاءٍ»، وفيما أنزلهُ اللهُ من السماء من ماء، وهو المطرُ الذي يُنزله الله من السماء.

وقوله: «فأحيا به الأرضَ بَعدَ موتها»، وإحياؤها عمارَتُها، وإخراجُ نباتها.

و«مـوت الأرض»، خَرَابُهـا، ودُثُور عمارتها، وانقطاعُ نباتها، الذي هو للعبادِ أقواتٌ، وللأنامِ أرزاقٌ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾

يعني تعـالى ذِكْرُه بقوله: «وبَثَّ فيها منْ كُلِّ دَابةٍ»، وإنَّ فيما بَثَّ في الأرضِ من دابةٍ.

ومعنى قولـه: «وبَثَّ فيهـا»، وفَرَّق فيها، من قول القائل: «بَثَّ الأمير سراياه»، يعني: فَرَّقَ.

«والدابة»، اسمٌ لكلِّ ذِي رُوحٍ كان غيرَ طائرٍ بجناحيه، لدبيبهِ على الأرض.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وتصريف الرياح»، وفي تصريفهِ الرياحَ، فأسقط ذكر الفاعل وأضافَ الفِعْلَ إلى المفعول، كما تقول: «يعجبني إكرام أخيكَ»، تريد: إكرامُك أخَاك.

«وتصريف» الله إياها، أنْ يُرْسِلَها مَرَّة لَواقحَ، ومرةً يجعلها عَقيماً، ويبعثها عذاباً تُدمِّرُ كُلَّ شيءٍ بأمر ربها.

القـول في تأويل قولـه تعالى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

يعني تعـالى ذِكْرُه بقوله: «والسحاب المسخر»، وفي السحاب، جمع «سحـابـة». يدل على ذلـك قولـه تعالى ذِكْرُه: ﴿ويُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ [الرعد: ١٢].

وإنما قيل للسحاب «سحاب» إنْ شاء الله، لِجَرِّ بعضِه بعضاً وسَحْبِه إياه، من قول القائل: «مَرَّ فلان يَجُرُّ ذَيْلَهُ»، يعني: «يسحبه».

فأما معنى قوله: «لآيات»، فإنه عَلامات ودلالاتٌ على أنَّ خالِقَ ذلك كلّه ومنشئه، إلهٌ واحدٌ.

«لقوم يعقلون»، لِمَنْ عَقل مَوَاضع الحُجَج، وفَهِمَ عن الله أَدِلَّتَهُ على وحدانيته. فأعلم تعالى ذِكْرُه عبادَه، بأنَّ الأدلة والحجج إنما وضعت مُعتَبراً لذوي العقولِ والتمييز، دونَ غيرهم من الخَلْق، إذْ كانوا هم المخصوصين بالأمرِ والنهي، والمُكَلَّفينَ بالطاعةِ والعبادة، ولهم الثوابُ، وعليهم العقاب.

فإنْ قال قائلٌ: وكيف احتج على أهلِ الكفر بقوله: «إنَّ في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار» الآية، في توحيد الله؟ وقد علمتَ أنَّ أصنافاً من أصنافِ الكَفَرةِ تدفعُ أنْ تكون السماوات والأرض وسائر ما ذكر في هذه الآية مخلوقةً؟

قيل: إنَّ إنكارَ مَنْ أنكر ذلك غيرُ دافعٍ أنْ يكون جميعُ ما ذكَرَ تعالى ذِكْرُه في هذه الآية، دليلاً على خالقِه وصانعِه، وأنَّ له مُدَبِّراً لا يشبههُ شيءٌ، وبارئاً لا مِثْلَ له. وذلك وإنْ كان كذلك، فإنَّ الله إنما حَاجَّ بذلك قوماً كانوا مُقِرِّين بأنَّ الله خالقهم، غير أنهم يُشركون في عبادَتِه عبادَة الأصنامِ والأوثان. فحاجَّهم تعالى ذِكْرُه فقال - إذْ أنكروا قوله: «وإلهكم إلهٌ واحد»، وزعموا أنَّ له شُركاء من الآلهة -: إنَّ إلهكم الذي خلق السموات وأجرى فيها الشمسَ والقمرَ لكم بأرزاقكم دائبين في سيرهما. وذلك هو معنى اختلافِ الليل والنهار في الشمس والقمر، وذلك هو معنى قوله: «والفلك التي تجري في البحر بما ينفعُ الناس» - وأنزل إليكم الغيثَ من السماء، فأخصب به جنابكم بعد جُدوبه، وأمْرَعَهُ بعد دُثوره، فَنَعَشكم به بعد قُنوطكم -، وذلك هو معنى قوله: «ومَا أنزَل الله من السماء من مَاءٍ فأحيا به الأرضَ بعد موتها» - وسخَّر لكم الأنعامَ فيها لكم مطاعمُ ومَآكل، ومنها جمَالٌ ومراكبُ، ومنها أثاثٌ وملابس - وذلك هو معنى قوله: «وبَثَّ فيها من كُلِّ دابة» - وأرْسل لكم الرياحَ لواقحَ لأشجارِ ثمارِكم وغذائِكم وأقواتِكم، وسيَّرَ لكم السحاب الذي بوَدْقِهِ حَياتكم وحياةُ نَعَمِكُم ومواشيكم - وذلك هو معنى قوله: «وتصريف الرياح والسحاب

المسخَّر بين السماء والأرض».

فأخبرهم أنَّ إلههم هو الله الذي أنعمَ عليهم بهذه النعم، وتفرَّدَ لهم بها. ثم قال: هل مِنْ شُركائكم مَنْ يفعلُ مِنْ ذلكم مِنْ شيءٍ، فَتُشرِكُوه في عبادَتِكُم إيايَ، وتجعلوه لي نِدَّاً وعِدْلاً؟

فإنْ لم يَكُنْ من شُركَائكم مَنْ يفعل مِنْ ذلكم من شيء، ففي الذي عَددتُ عليكم من نعمتي، وتفردتُ لكم بأياديَّ، دلالاتٌ لكم إنْ كنتم تَعقلون مواقِعَ الحَقِّ والباطل، والجور والإنصاف. وذلك أني لكم بالإحسان إليكم مُتَفَرِّدٌ دونَ غيري، وأنتم تجعلونَ لي في عبادتكم إيايَ أنداداً. فهذا هو معنى الآية.

والذين ذُكِّروا بهذه الآية واحتج عليهم بها، هُمُ القومُ الذين وصفتُ صِفَتَهُم، دون المُعَطِّلةِ والدُّهْرية، وإن كان في أصغر ما عَدَّ الله في هذه الآية، من الحجج البالغة المَقْنَعُ لجميعِ الأنام، تركنا البيان عنه، كراهةَ إطالةِ الكتابِ بذكره.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: أنَّ مِنَ الناس مَنْ يَتَّخِذُ من دون الله أنداداً له ـ وقد بَيَّنا فيما مضى أنَّ «النِّدَّ»، العدل، فكرهنا إعادته ـ وأن الذين اتَّخَذُوا هذه «الأنداد» من دُون الله، يحبون أندادَهم كَحُبِّ المؤمنين الله. ثم أخبرَهم أنَّ المؤمنينَ أشَدُّ حباً لله، من مُتَّخِذِي هذه الأنداد لأندادهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾

والصواب من القراءة عندنا في ذلك: «ولو تَرى الذين ظلموا» - بالتاء من «ترى» - «إذ يرون العذاب أنَّ القوةَ لله جميعاً وأن الله شديد العَذاب» بمعنى: لرأيتَ أنَّ القوةَ لله جميعاً وأنَّ الله شديد العذاب. فيكون قوله: «لرأيتَ» الثانية، محذوفةً مستغنىً بدلالة: «ولو ترى الذين ظلموا»، عن ذِكْرِه، إذْ كان جواباً لـ «لو».

ويكون الكلام، وإنْ كان مخرجهُ مَخرجَ الخطابِ لرسولِ الله ﷺ - معنيّاً به غيره. لأنَّ النبيَّ ﷺ كان لاشك عالماً بأنَّ القوة لله جميعاً، وأنَّ الله شديدُ العذاب. ويكون ذلك نظيرَ قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَم أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰاتِ وَالأرْضِ﴾ [البقرة: ١٠٧] وقد بَيَّنّاه في موضعه.

وإنما اخترنا ذلك على قراءة «الياء»، لأنَّ القومَ إذا رَأوا العذابَ، قَد أيقنوا أنَّ القوةَ لله جميعاً وأنَّ الله شديد العذاب، فلا وجه أنْ يُقالَ: لو يرون أنَّ القوة لله جميعاً - حينئذٍ. لأنه إنما يقال: «لو رأيت»، لِمَنْ لم يَرَ، فأما مَنْ قد رآهُ، فلا معنى لأنْ يُقالَ له: «لو رأيت».

ومعنى قوله: «إذ يرون العذاب»، إذ يُعاينُونَ العذاب.

وإنما عنى تعالى ذِكْرُه بقوله: «ولو تَرَى الذين ظلموا»، ولو ترى، يا محمد، الذين ظلموا أنفسهم، فاتَّخَذُوا من دوني أنداداً يحبونهم كَحُبِّكُم إيايَ، حين يُعايِنُون عَذابي يومَ القيامةِ الذي أعددتُ لهم، لَعَلِمْتُم أنَّ القوةَ كلها لي دُون الأندادِ والآلهة، وأنَّ الأندادَ والآلهة لا تُغني عنهم هنالك شيئاً، ولا تَدْفَعُ عنهم عذاباً أحللتُ بهم، وأيقنتم أنِّي شديدٌ عذابي لِمَنْ كَفَرَ بي، وادَّعى مَعي إلـهاً غيري.

القول في تأويل قوله عَزَّ وجل: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «إذْ تبرّأ الذين اتُّبِعُوا منَ الذين اتبعوا ورَأوا العذاب»، إذْ تبرأ الذين اتُّبِعُوا من الذين اتَّبَعُوهم.

إنَّ الله تعالى ذِكْرُه أخبرَ أنَّ المتَّبَعين على الشِّرْكِ بالله يتبرأونَ من أتباعِهم حين يُعَايِنُونَ عذابَ الله. ولم يخصص بذلك منهم بعضاً دون بعضٍ، بل عَمَّ جميعَهُم. فداخلٌ في ذلك كُلُّ متبوعٍ على الكفرِ بالله والضلالِ أنه يتبرأُ من أتباعِهِ الذين كانوا يتَّبعونه على الضلالِ في الدنيا، إذا عاينوا عَذابَ الله في الآخرة.

وأما دلالة الآية فيمن عَنَى بقوله: «إذ تَبرأ الذين اتُّبِعُوا من الذين اتَّبعوا»، فإنها إنما تدلُّ على أنَّ الأندادَ الذين اتخذهم مِن دُون الله مَنْ وَصَفَ تعالى ذِكْرُه صِفَتَهُ بقوله: «ومِنَ الناسِ مَنْ يَتَّخِذُ من دُون الله أنداداً»، هم الذين يتبرأون من أتباعهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ١٦٦﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: أن الله شديد العذاب، إذ تبرأ الذين اتُّبِعُوا، وإذ تَقَطَّعت بهمُ الأسبابُ.

«والأسباب»، الشيء يُتعلَّقُ به و«السبب» الحبل، «والأسباب» جمع «سَبب»، وهو كل ما تسبب به الرجل إلى طَلْبته وحاجته. فيقال للحبل «سبب»، لأنه يُتسبب بالتعلقِ به إلى الحاجةِ التي لا يُوصَلُ إليها إلا بالتعلقِ به. ويقال للطريق «سبب»، للتسبب بركوبه إلى ما لا يُدْرَكُ إلا بقطعه. وللمصاهرة «سبب»، لأنها سَببٌ للحرمة. وللوسيلة «سَبب»، للوصولِ بها إلى الحاجة، وكذلك كُلُّ ما كان به إدراكُ الطَلْبة، فهو «سبب» لإدراكها.

فإذْ كان ذلك كذلك، فالصوابُ من القول في تأويل قوله: «وتقطعت بهم

الأسباب» أن يقال: إن الله تعالى ذِكْرُه أخبرَ أن الذين ظلموا أنفسهم - من أهلِ الكفر الذين ماتوا وهم كفار، يتبرأ - عند معاينتهم عذابَ الله - المتبوعُ من التابع، وتَتَقطَّعُ بهم الأسباب.

وقد أخبر تعالى ذِكْرُه في كتابه أنَّ بَعضهم يلعنُ بعضاً، وأخبر عن الشيطان أنه يقول لأوليائه: ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وأخبر تعالى ذِكْرُه أنَّ الأخِلَّاءَ يومئذٍ بعضُهم لبعضٍ عدوٌّ إلا المتقينَ، وأنَّ الكافرينَ لا ينصرُ يومئذٍ بعضُهم بعضاً، فقال تعالى ذِكْرُه: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ* مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصافات: ٢٤-٢٥]، وأنَّ الرجلَ منهم لا ينفعه نَسِيبُه ولا ذو رَحِمِه، وإنْ كان نسيبُهُ لله وليّاً، فقال تعالى ذِكْرُه في ذلك: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤]، وأخبر تعالى ذِكْرُه أنَّ أعمالَهم تَصيرُ عليهم حَسَراتٍ.

وكل هذه المعاني أسبابٌ يتسبب في الدنيا بها إلى مطالب، فقطعَ اللهُ منافعها في الآخرة عن الكافرينَ بهِ، لأنها كانت بخلافِ طاعتهِ ورضاه، فهي منقطعةٌ بأهلها فلا خِلالُ بعضِهم بعضاً نَفَعَهُم عند ورُودِهم على رَبِّهم، ولا عبادتُهم أندادَهُم ولا طاعتهم شياطِينَهُم ولا دافعت عنهم أرحامٌ فَنَصرَتْهُمْ من انتقامِ اللهِ منهم، ولا أغْنَتْ عنهم أعمالُهم، بل صارت عليهم حَسَراتٍ. فكلُّ أسبابِ الكُفَّارِ منقطعةٌ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾

يعني بقوله تعالى ذِكْرُه: «وقَال الذين اتَّبعوا»، وقال أتباعُ الرجالِ - الذين

كانوا اتخذوهم أنداداً من دونِ الله، يطيعونهم في معصيةِ الله، ويَعصُون رَبَّهم في طاعتهم، إذْ يَرَوْنَ عَذابَ الله في الآخرة ـ: «لو أنَّ لنا كَرَّةً».

يعني «بالكرَّة»، الرجعةَ إلى الدنيا.

وقوله: «فنتبرأ منهم»، منصوبٌ، لأنه جوابٌ للتمني بـ «الفاء». لأن القوم تمنوا رجعةً إلى الدنيا ليتبرأوا من الذين كانوا يطيعونهم في معصية الله، كما تبرأ منهم رؤساؤهم الذين كانوا في الدنيا، المَتْبُوعونَ فيها على الكفر بالله، إذْ عاينوا عَظيمَ النازلِ بهم من عذابِ الله، فقالوا: يا ليتَ لنا كرّة إلى الدنيا فنتبرأ منهم، و﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧].

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾

ومعنى قوله: «كذلك يُريهمُ آلله أعمالَهم»، يقول: كما أراهم العذابَ الذي ذكره في قوله: «ورأوا العذاب»، الذي كانوا يُكَذِّبُونَ به في الدنيا فكذلك يُريهم أيضاً أعمالَهم الخبيثةَ التي استحقُّوا بها العقوبةَ من الله «حسرات عليهم»، يعني: نَدامات.

وقيل: إنَّ «الحسرة» أشَدُّ الندامة.

فإنْ قال لنا قائل: فكيف يَرَون أعمالَهم حَسراتٍ عليهم، وإنما يتندمُ المتندمُ عَلى تَرْكِ الخيراتِ وفَوْتها إياه؟ وقد علمت أنَّ الكفار لم يكن لهم من الأعمالِ ما يتندَّمونَ على تَرْكِهم الازديادَ منه، فيريهم الله قليلَهُ! بل كانت أعمالُهم كلها معاصيَ لله، ولا حسرةَ عليهم في ذلك، وإنما الحسرةُ فيما لم يَعملوا من طاعةِ الله؟

(قيل): إن معنى قوله: «كذلك يُريهم الله أعمالَهمْ حَسراتٍ عليهم»، كذلك يُري اللهُ الكافرينَ أعمالَهم الخبيثةَ حسراتٍ عليهم، لِمَ عَمِلُوا بها؟ وهَلاًّ عَمِلُوا بغيرِها؟ فندموا على ما فرطَ منهم من أعمالهم الرديئة، إذْ رأوا جزاءَهَا من اللهِ وعقابَها، لأنَّ الله أخبر أنه يريهم أعمالَهم ندماً عليهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: وما هؤلاء الذين وَصَفتهم من الكفار ـ وإنْ نَدِمُوا بعد معاينتهم مَا عاينوا من عذابِ الله، فاشتدت ندامتهم على ما سَلَفَ منهم من أعمالِهم الخبيثة، وتَمَنَّوا إلى الدنيا كَرَّةً لِيُنِيبُوا فيها، ويتبرأوا من مُضِلِّيهم وسادَتِهم الذين كانوا يطيعونهم في معصيةِ الله فيها ـ بخارجينَ من النار التي أصْلاَهُمُوهَا اللهُ بِكُفْرِهم به في الدنيا، ولا ندمُهم فيها بِمُنْجِيهم من عذابِ الله حينئذٍ، ولكنهم فيها مخلدون.

وفي هذه الآية الدلالةُ على تكذيبِ الله الزاعمينَ أنَّ عَذابَ الله أهلَ النار من أهلِ الكفر مُنْقَضٍ، وأنه إلى نهايةٍ، ثم هو بعدَ ذلك فانٍ. لأن الله تعالى ذِكْرُه أخبرَ عن هؤلاء الذين وصف صِفَتَهم في هذه الآية، ثم ختمَ الخبرَ عنهم بأنهم غيرُ خارجينَ من النار، بغيرِ استثناءٍ منه وَقتاً دونَ وقتٍ. فذلك إلى غير حَدٍّ ولا نهاية.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: يا أيها الناسُ كُلُوا مِمَّا أحللتُ لكم من الأطعمةِ على لسانِ رسولي محمد ﷺ، فطيَّبْتُه لكم ـ مما تُحَرِّمونَهُ عَلى أنفسِكُم من

البحائر والسوائبِ والوصائلِ وما أشبه ذلك مما لم أحرمه عليكم ـ دونَ مَا حَرَّمته عليكم من المطاعمِ والمآكل فنجَّسته من مَيتة ودَمٍ ولحمِ خنزيرٍ وما أُهِلَّ به لغيري. ودَعُـوا خُطواتِ الشيطان ـ الـذي يُوبِقُكم فَيُهْلِكُكُم، ويُوردُكم مَواردَ العطب، ويُحَرِّمُ عليكم أموالكم ـ فلا تتبعوها ولا تعملوا بها، إنه ـ يعني بقوله «أنه» إنَّ الشيطان، و«الهاء» في قوله: «أنه» عائدةٌ على الشيطان ـ لكم أيها النـاس «عـدوٌّ مُبين»، يعني: أنـه قد أبـان لكم عَداوته، بإبائهِ عن السجودِ لأبيكم، وغُروره إياه حَتى أخرجَهُ من الجنةِ، واسْتَزَلَّهُ بالخطيئة، وأكل من الشجرة.

يقول تعالى ذِكْرُه: فلا تَنْتَصِحُوه، أيها الناسُ، مع إبانتهِ لكم العداوةَ، ودَعُوا ما يأمركم به، والتزموا طاعتي فيما أمَرْتُكم به ونَهَيْتُكم عنه مما أحْلَلْتُه لكم وحَـرَّمْتُه عليكم، دون ما حرمتموه أنتم على أنفسكم وحللتموه، طاعةً منكم للشيطان واتباعاً لأمره.

ومعنى قوله: «حَلالاً»، طِلْقاً. وهو مصدر من قول القائل: «قد حَلَّ لك هذا الشيء»، أي صار لك مُطْلَقاً، «فهو يَحِلُّ لك حَلالاً وحِلاًّ»، ومن كلام العرب: «هو لك حِلٌّ»، أي: طِلْق.

وأما قوله: «طيِّباً»، فإنه يعني به: طاهراً غير نَجس ولا مُحَرَّمٍ.

وأمـا «الخـطوات» فإنـه جمـع «خُطوة»، و«الخطوة» بُعْدُ ما بين قدمي الماشي. و«الخَطوة» بفتح «الخاء» «الفعلة» الواحدة من قول القائل: «خَطوت خَطوة واحدةً». وقد تجمع «الخُطْوة» «خُطاً» و«الخَطْوة» تجمع «خَطوات»، «وخِطاء».

والمعنى في النهي عن اتباع خُطواته، النهيُ عن طريقهِ وأثرِهِ فيما دَعَا إليه، مما هو خلافُ طاعةِ الله تعالى ذِكْرُه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «إنما يأمُرُكم»، الشيطان، «بالسوء والفحشاء وأنْ تَقُولوا على الله ما لا تعلمون».

«والسوء» الإثم، مثل «الضُّرّ»، من قولِ القائل: «ساءك هذا الأمرُ يسوؤك سُوءاً»، وهو ما يَسوء الفاعل.

وأما «الفحشاء»، فهي مصدرٌ مثل «السراء والضراء»، وهي كل ما استُفْحِشَ ذِكْرُه، وقَبُحَ مَسموعُهُ.

وقيل: إن «السوء» الذي ذكره الله، هو معاصي الله. فإنْ كان ذلك كذلك، فإنما سَمّاها الله «سوءاً» لأنها تسوءُ صاحِبَها بسوءِ عاقِبَتِهَا له عند الله. وقيل: إن «الفحشاء»، الزنا: فإنْ كان ذلك كذلك، فإنما يُسمى كذلك، لِقُبْحِ مسموعه، ومكرُوه ما يُذْكَر به فاعلُه.

وأما قوله: «وأنْ تَقولوا على الله مَا لا تعلمون»، فهو ما كانوا يُحَرِّمونَ من البحائرِ والسوائبِ والوَصائلِ والحوامي، ويزعمون أن الله حرَّم ذلك. فقال تعالى ذِكْرُه لهم: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ ولكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

فأخبرهم تعالى ذِكْرُه في هذه الآية، أنَّ قِيلَهم: «إنَّ الله حَرَّمَ هذا» من الكذبِ الذي يأمرهم به الشيطانُ، وأنه قد أحلَّه لهم وَطَيَّبه، ولم يحرم أكله عليهم، ولكنهم يقولون على اللهِ ما لا يعلمون حقيقتَهُ، طاعةً منهم للشيطان، واتباعاً منهم خطواتهِ، واقتفاءً منهم آثارَ أسلافِهم الضُّلَّالِ وآبائهم الجُهَّال، الذين كانوا بالله وبما أنزل على رسوله جُهالاً، وعن الحق ومنهاجه ضُلَّالاً ـ

وإسرافاً منهم، كما أنزل الله في كتابِه على رسولِه ﷺ فقال تعالى ذِكْرُه: «وإذا قِيلَ لهمُ اتبعوا ما أنزل الله قَالوا بَلْ نَتبع مَا أَلفيْنا عليه آباءنا».

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

وفي هذه الآية وجهان من التأويل:ـ

أحدهما: أنْ تكونَ «الهاء والميم» من قوله: «وإذا قِيلَ لهم» عائدة على «من» في قولـه: «ومِنَ الناسِ مَنْ يَتخذُ من دون الله أنداداً»، فيكون معنى الكلام: ومن الناس مَنْ يَتخذُ من دُون الله أنداداً، وإذا قيل لهم: اتبعوا ما أنزل الله. قالوا: بل نتبعُ ما أَلْفَيْنَا عَليه آباءنا.

والآخر: أن تكون «الهاء والميم» اللتان في قوله: «وإذا قيل لهم»، من ذكر «الناس» الذين في قوله: «يا أيها الناس كُلوا مما في الأرض حَلالاً طيباً»، فيكون ذلك انصرافاً من الخطابِ إلى الخبر عن الغائبِ، كما في قوله تعالى ذِكْرُه: ﴿حَتى إِذَا كُنْتُمْ فِي الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢].

وأشبه عندي بالصواب وأولى بتأويل الآية: أن تكون «الهاء والميم» في قوله: «لهم»، مِنْ ذِكْرِ «الناس»، وأن يكونَ ذلك رجوعاً من الخطابِ إلى الخبر عن الغائبِ. لأن ذلكَ عَقيب قوله: «يا أيها الناس كُلُوا مما في الأرض». فلأنْ يكونَ خبراً عنهم، أَوْلى من أنْ يكونَ خبراً عن الذين أخبرَ أنَّ منهم «مَنْ يَتخذُ من دُون الله أنداداً»، مع ما بينهما من الآيات، وانقطاع قَصَصهم بقصةٍ مستأنفة غيرِها ـ وأنها نَزَلت في قومٍ من اليهود قالوا ذلك، إذْ دُعُوا إلى الإسلام.

وأما تأويل قوله: «اتَّبِعُوا ما أنزلَ الله»، فإنه: اعْمَلُوا بما أنزل اللهُ في كتابه على رسوله، فأحِلُّوا حلاله، وحرِّموا حرامه، واجعلوه لكم إماماً تأْتَمُّونَ به، وقائداً تتبعون أحكامه.

وقوله: «ألفينا عَليه آباءنا»، يعني: وَجَدنا.

فمعنى الآية: وإذا قيل لهؤلاء الكفار: كُلُوا مما أحلَّ اللهُ لكم، وَدَعُوا خُطواتِ الشيطانِ وطريقَهُ، واعْمَلُوا بما أنزلَ اللهُ على نبيه ﷺ في كتابه - استكبروا عن الإذعانِ للحقِّ وقالوا: بل نأتَمُّ بآبائِنا فنتَّبع ما وجدناهم عليه، من تحليلِ ما كانوا يُحِلُّون، وتحريمِ ما كانوا يُحَرِّمُونَ.

قال الله تعالى ذِكْرُه: «أوَ لو كانَ آباؤهم» - يعني: آباء هؤلاء الكفار الذين مَضَوا على كُفْرِهم بالله العظيم - «لا يعقلون شيئاً» من دينِ الله وفرائضِه، وأمرِه ونهيِه، فيُتَّبعون على ما سَلَكوا من الطريق، ويؤتَمُّ بهم في أفعالهم - «ولا يَهتدون» الرُّشْدَ، فيهتدي بهم غَيْرُهم، ويَقتدي بهم مَنْ طَلب الدين، وأرادَ الحَقَّ والصوابَ؟

يقول تعالى ذِكْرُه لهؤلاء الكفار: فكيف أيها الناس تَتَّبعونَ ما وجدتم عليه آباءكم فتتركون ما يأمركم به ربُّكم، وآباؤكم لا يعقلون من أمر الله شيئاً، ولا هم مُصيبون حقاً، ولا مُدْرِكون رشداً؟ وإنما يَتَّبِعُ المتبعُ ذا المعرفةِ بالشيء المستعمل له في نفسه، فأما الجاهل فلا يتبعه - فيما هو به جاهل - إلا مَنْ لا عقل له ولا تمييز.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾

إن معنى الآية: ومثل وعَظ الكافر وواعظه، كمثل الناعق بغنمه ونَعيقه، فإنه يسمع نَعقه ولا يَعقلُ كلامه، على ما قد بَيَّنا قبل.

فأما وَجه جَواز حذف «وعظ» اكتفاء بالمثل منه، فقد أتينا على البيانِ عنه في قولـه: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً﴾ [البقرة: ١٧]، وفي غيره من نظائره من الآيات، بما فيه الكفاية من إعادته.

وإنما اخترنا هذا التأويل، لأنَّ هذه الآيةَ نزلت في اليهود، وإياهم عَنى الله تعـالى ذِكْـرُه بهـا، ولم تكن اليهودُ أهلَ أوثانٍ يَعبدونها، ولا أهلَ أصنام يُعظِّمونها ويرجون نَفعها أو دَفع ضُرِّها. ولا وجه ـ إذ كان ذلك كذلك ـ لتأويل مَن تأوَّل ذلك أنه بمعنى: مَثل الذين كفروا في ندائِهم الآلهة ودُعائهم إياها.

فإن قال قائلٌ: وما دليلكَ على أنّ المقصود بهذه الآية اليهود؟

قيل: دليلُنا على ذلك ما قبلَها من الآياتِ وما بَعدَها، فإنهم هم المَعْنيون به. فكان ما بينهما بأن يكون خبراً عنهم، أحقَّ وأولى من أن يكون خبراً عن غيرهم، حتى تأتي الأدلةُ واضحةً بانصراف الخبرِ عنهم إلى غيرِهم.

وأما قوله: «يَنْعِقُ»، فإنه: يُصوِّت بالغنم، «النَّعيق، والنُّعاق».

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ»، هؤلاء الكفارَ الذين مَثَلُهم كمثل الذي يَنْعِق بما لا يسمع إلا دُعاءً ونداءً «صُمٌّ» عن الحق فهم لا يسمعون «بُكمٌ» يعني: خُرسٌ عن قِيلِ الحقِّ والصَّواب، والإقرار بما أمرهم الله أن يُقرُّوا به، وتَبْيين ما أَمَرَهُم الله تعالى ذِكْرُه أن يُبينوه من أمر محمد ﷺ للناس، فلا

ينطقون به ولا يقولونه، ولا يبينونه للناس، «عُميٌ» عن الهُدَىٰ وطريقِ الحق فلا يُبصرونه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ١٧٢﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «يا أيها الذين آمنوا»، يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسولَه، وأقرُّوا لِلّهِ بالعبودية، وأذعنوا له بالطاعة.

«كلوا من طيبات ما رَزَقناكم»، يعني: اطْعَمُوا من حَلال الرِّزق الذي أحللناهُ لكم، فطابَ لكم بتحليلي إياهُ لكم، مما كنتم تُحَرِّمونَ أنتم، ولم أكن حَرَّمْتُه عليكم، من المطاعمِ والمشاربِ. «واشكروا لله»، يقول: وأثنوا على الله بما هو أهله منكم، على النِّعم التي رزقكم وَطَيَّبها لكم. «إن كنتم إياه تعبدون»، يقول: إن كنتم مُنْقادين لأمرِه سامعين مطيعينَ، فكلوا مما أباحَ لكم أكلَهُ وحَلَّله وطَيَّبَهُ لكم، ودعوا في تحريمه خُطوات الشيطان.

وقد ذكرنا بعض ما كانوا في جاهليتهم يحرِّمونه من المطاعِم، وهو الذي نَدَبهم إلى أكله ونهاهُم عن اعتقادِ تحريمه، إذْ كان تحريمهم إياهُ في الجاهلية طاعةً منهم للشيطان، واتباعاً لأهلِ الكُفر منهم بالله من الآباء والأسلاف. ثم بيَّنَ لهم تعالى ذِكْرُه ما حَرَّم عليهم، وفَصَّله لهم مُفَسَّراً.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: لا تُحَرِّموا على أنفسكم ما لم أُحَرِّمه عليكم أيها المؤمنون بالله وبرسوله من البَحَائِرِ والسَّوائبِ ونحو ذلك، بَل كُلُوا ذلك فإني لم أُحرِّم عليكم غير المَيْتَة والدَّم ولحم الخنزير، ومَا أُهِلَّ به لغيري.

ومعنى قوله: «إنما حَرَّم عليكم الميتةَ»، ما حَرَّمَ عليكم إلا الميتةَ.

وأما قوله: «وَمَا أُهِلَّ به لغير الله»، فإنه يعني به: وما ذُبِحَ للآلهة والأوثان يُسَمَّى عليه بغير اسمه، أو قُصِدَ به غيرهُ من الأصنام.

وإنما قيل: «وما أُهِلَّ به»، لأنهم كانوا إذا أرادوا ذبحَ ما قَرَّبُوه لآلهتهم، سَمَّوا اسمَ آلهتِهم التي قَرَّبوا ذلك لها، وجَهَرُوا بذلك أصْواتَهم، فجرى ذلك من أمرهم على ذلك، حتى قيل لكلِّ ذابحٍ، سَمَّى أو لم يُسَمِّ، جهرَ بالتسمية أو لم يجهر ـ: «مُهِلٌّ». فَرَفْعُهم أصواتَهم بذلك هو «الإهلالُ» الذي ذكره الله تعالى فقال: «وما أُهِلَّ به لغير الله». ومن ذلك قيل للمُلَبِّي في حَجةٍ أو عُمْرةٍ «مُهِلٌّ»، لرفعه صوتَهُ بالتلبيةِ. ومنه «استهلالُ» الصَّبيِّ، إذا صاحَ عند سقوطه من بَطن أمه، «واستهلالُ» المَطَر، وهو صوت وقُوعه على الأرض.

واختلفَ أهلُ التأويل في ذلك، فقال بعضُهم: يعني بقوله: «وما أُهِلَّ به لغير الله»، ما ذُبِحَ لغير الله.

وقال آخرون: معنى ذلك: ما ذُكِرَ عليه غير اسم الله.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «فمن اضطر»، فمن حَلَّتْ به ضَرورةُ مجاعةٍ إلى ما حرَّمتُ عليكم من المَيْتَةِ والدَّمِ ولحم الخِنزير وما أُهلَّ به لغير الله ـ وهو

بالصفة التي وصفنا - فلا إثمَ عليه في أكلِهِ إنْ أكله.

وقوله: فمن «اضطر» «افتعل» من «الضَّرورة».

و«غيرَ بَاغ» نُصِب على الحال مِنْ «مَنْ»، فكأنه قيل: فمن اضطرَّ لا باغياً ولا عادياً فأكلَهُ، فهو له حلالٌ.

وقد قيل إن معنى قوله: «فمن اضطر»، فمن أُكْرِهَ على أكله فأكلَهُ، فلا إثمَ عليه.

وأما قوله: «غيرَ باغٍ ولا عَاد»، فإن أهلَ التأويل في تأويله مختلفون.

فقال بعضُهم: يعني بقوله: «غيرَ باغ»، غيرَ خارجٍ على الأئمةِ بسيفه باغياً عليهم بغير جَوْر، ولا عادياً عليهم بحربٍ وعدوان، فمفسدٌ عليهم السبيلَ.

وقال آخرون في تأويل قوله: «غيرَ باغٍ ولا عاد»: غيرَ باغٍ الحرامَ في أكله، ولا معتدٍ الذي أُبيحَ له منه.

وقال آخرون وتأويل ذلك: فمن اضطر غيرَ باغ في أكله شهوةً، ولا عادٍ فوقَ ما لابُدَّ له منه.

وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية قول مَنْ قال: فمن اضطر غير باغٍ بأكلهِ ما حُرم عليه من أكله، ولا عادٍ في أكله، ولَهُ عن تَرْكِ أكلِهِ - بوجودِ غيرِهِ مما أَحَلَّهُ اللهُ له - مندوحةٌ وغِنًى.

وذلك أن الله تعالى ذِكْرُه لم يُرَخِّصْ لأحدٍ في قتل نفسه بحال. وإذْ كان ذلك كذلك، فلاشك أن الخارجَ على الإمام والقاطعَ الطريقَ، وإنْ كانا قد أتيا ما حرَّم الله عليهما: من خروجِ هذا على مَنْ خرجَ عليه، وسَعي هذا بالإفساد في الأرض، فغيرُ مبيحٍ لهمـا فعلهمـا ما فعلا مما حَرَّمَ اللهُ عليهما، ما كان حَرَّم الله

عليهما قبل إتيانهما ما أتيا من ذلك، من قتلِ أنفسهما، ورَدُّهما إلى محارم الله عليهما بعد فعلهما ما فعلا، وإنْ كان قد حرَّمَ عليهما ما كان مُرَخَّصاً لهما قبل ذلك من فعلهما، وإن لم نَرَ رَدَّهما إلى محارم الله عليهما تحريماً، فغير مرخَّص لهما ما كان عليهما قبل ذلك حراماً. فإذْ كان ذلك كذلك، فالواجبُ على قُطاعِ الطريقِ والبُغاةِ على الأئمة العادلة، الأَوبةُ إلى طاعةِ الله، والرجوعُ إلى ما ألزمهُما الله الرجوعَ إليه، والتوبةُ من معاصي الله، لا قتلُ أنفسهما بالمجاعة، فيزدادان إلى إثمهما إثماً، وإلى خلافِهما أمرَ اللهِ خلافاً.

وأما الذي وجَّه تأويلَ ذلك إلى أنه باغ في أكله شهوة، فأكل ذلك شهوة، لا لدفع الضَّرورة المخوف منها االهلاك ـ مما قد دخل فيما حرمه الله عليه ـ فهو بمعنى ما قلنا في تأويله، وإنْ كان للفظهِ مُخالفاً.

فأما توجيه تأويل قوله: «ولا عاذٍ»، ولا آكلٍ منه شبعةً، ولكن ما يمسك به نفسه، فإن ذلك، بعض معاني الاعتداء في أكله. ولم يخصص الله من معاني الاعتداء في أكله معنًى، فيقال عَنَى به بعض معانيه.

فإذْ كان ذلك كذلك، فالصوابُ من القول ما قلنا: من أنه الاعتداء في كل معانيه المحرَّمَة.

وأما تأويل قوله: «فلا إثم عليه»، يقول: مَنْ أكلَ ذلك على الصِّفةِ التي وصفنا، فلا تَبِعةَ عليه في أكله ذلك كذلك ولا حَرَج.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٧٣﴾

يعني بقوله تعالى ذِكْرُه: «إنّ الله غَفور رَحيم»، «إنّ اللهَ غفورٌ» إنْ أطعتُم الله في إسلامكم، فاجتنبتم أكلَ ما حَرَّم عليكم، وتركتم اتباعَ الشيطان فيما كنتم تُحَرِّمُونَهُ في جاهليتكم، طاعةً منكم للشيطان واقتفاءً منكم خُطواته، مما

لم أُحَرِّمه عليكم، لما سَلَفَ منكم، في كفركم وقبل إسلامكم، في ذلك من خطأ وذَنْبٍ ومعصية، فصافحٌ عنكم، وتاركُ عقوبَتكم عليه، «رحيم» بكم إن أطعتموه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «إنَّ الذينَ يَكتمون ما أنزل الله من الكتاب»، أحبارَ اليهود الذين كَتَموا الناسَ أمرَ محمدٍ ﷺ ونبوَّتَه، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة، بِرُشَىً كانوا أُعطوها على ذلك.

وأما تأويل قولـه: «ويَشْتَرون به ثمناً قليلاً»، فإنه يعني: يبتاعون به. «والهاء» التي في «به»، من ذِكْر «الكِتْمان». فمعناه: ابتاعوا بكتمانهم ما كتموا الناسَ من أمرِ محمدٍ ﷺ وأمر نبوَّته ثمناً قليلاً. وذلك أنَّ الذي كانوا يُعْطَوْن، على تحريفهم كتابَ الله وتأويلِهِمُوهُ على غيرِ وجههِ، وكتمانهم الحَقَّ في ذلك، اليسير من عَرَضِ الدنيا.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «أولئك»، هؤلاء الذين يكتمون ما أنزل اللهُ من الكتاب في شأنِ محمدٍ ﷺ بالخَسيس من الرِّشْوة يُعْطَوْنَها، فيحرِّفون لذلك آياتِ الله ويُغَيِّرون معانيها. «ما يأكلون في بطونهم»، بأكلهم ما أكلوا من الرُّشَى على ذلـك والجعالة، وما أخذوا عليه من الأجر. «إلا النار» ـ يعني: إلا ما

يُوردُهم النـارَ ويُصْلِيهمُـوها، كما قال تعالى ذِكْرُه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾ [النساء: ١]، معناه: ما يأكلون في بطونهم إلا ما يوردهم النارَ بأكْلِهم، فاستغنى بذكر «النار» وفَهْمِ السامعينَ معنى الكلام، عن ذكرَ «ما يوردهم، أو يدخلهم». وبنحو الذي قلنا في ذلك قال جماعةٌ من أهل التأويل.

وأما قوله: «ولا يُكلِّمهمُ الله يَومَ القيامة»، يقول: ولا يكلمهم بما يُحِبُّونَ ويَشْتَهُونَ، فأما بما يسُوءهم ويكرَهون، فإنه سيكلمهم. لأنه قد أخبر تعالى ذِكْرُه أنه يقول لهم - إذا قالوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾. قال: ﴿اخْسَؤُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ الآيتين [المؤمنون ١٠٧، ١٠٨].

وأمـا قولـه: «ولا يُزكِّيهم»، فإنـه يعني: ولا يُطَهِّرهم من دَنِس ذنوبهم وكفرهم، «ولهم عذاب أليم»، يعني: مُوجِع.

القـول في تأويل قولـه تعـالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «أولئك الذين اشتَرَوُا الضلالة بالهدى»، أولئك الذين أخذوا الضلالةَ، وتركوا الهدى، وأخذوا ما يُوجِبُ لهم عذابَ الله يوم القيامـة، وتـركـوا ما يُوجب لهم غفـرانه ورضْوَانه. فاستغنى بذكر «العذاب» و«المغفرة»، من ذكر السبب الذي يُوجبهما، لفهم سامعي ذلك لمعناه والمراد منه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ١٧٥﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك. فقال بعضهم معنى ذلك: فما أجْرَأَهُم على العملِ الذي يُقَرِّبُهم إلى النار.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: فما أَعْمَلَهُمْ بأعمالِ أهلِ النار.

واختلفوا في تأويل «ما» التي في قوله: «فما أصبرهم على النار».

فقال بعضهم: هي بمعنى الاستفهام، وكأنه قال: فما الذي صَبَّرهم؟ أيُّ شيء صبرهم؟

وقال آخرون: هو تعجُّب. يعني: فما أَشَدَّ جراءتهم على النار بعَملهم أعمالَ أهلِ النار!

فمن قال: هو تعجُّب ـ وجَّه تأويلَ الكلام إلى: «أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذابَ بالمغفرة»، فما أشد جراءتهم ـ بفعلِهم ما فَعَلُوا من ذلك ـ على ما يُوجِبُ لهم النارَ! كما قال تعالى ذِكْرُه: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس: ١٧]، تعجباً من كُفْرِهِ بالذي خَلقه وسَوَّى خَلْقَهُ.

فأما الذين وجهوا تأويله إلى الاستفهام، فمعناه: هؤلاء الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة، فما أصبرهم على النار ـ والنارُ لا صبرَ عليها لأحدٍ ـ حتى استبدلوها بمغفرةِ الله فاعتاضوها منها بدلاً؟

وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية قول مَنْ قال: ما أجرأهم على النار، بمعنى: ما أجرأهم على عَذاب النار وأعملهم بأعمال أهلها. وذلك أنه مسموع من العرب: «ما أصبرَ فلاناً على الله»، بمعنى: ما أجرأ فلاناً على الله! وإنما يعجب الله خَلقه بإظهارِ الخبرِ عن القومِ الذين يكتمون ما أنزل الله تبارك وتعالى من أمرِ محمدٍ ﷺ ونبوَّته، واشترائِهم بكتمانِ ذلك ثَمناً قليلاً من السحت والرُّشَى التي أعطوها ـ على وَجه التعجب من تقدمهم على ذلك. مع علمهم بأنَّ ذلك موجبٌ لهم سَخط اللهِ وأليمَ عقابهِ.

وإنما معنى ذلك: فما أجرأهم على عذاب النار! ولكن اجتزىء بذكر «النار» من ذكر «عذابها»، كما يقال: «ما أشبه سخاءك بحاتم»، بمعنى: ما أشبه سَخاءك بسخاء حاتم، «وما أشبه شَجاعتك بعنترة».

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾

إن الله تعالى ذِكْرُه أشار بقوله: «ذلك»، إلى جميع ما حواه قوله: «إنّ الذين يَكتمونَ مَا أنزلَ الله من الكتاب»، إلى قوله: «ذلك بأنَّ الله نَزَّلَ الكتابَ بالحق»، من خبره عن أفعالِ أحبار اليهود، وذكره ما أعَدَّ لهم تعالى ذِكْرُه من العقاب على ذلك، فقال: هذا الذي فعلته هؤلاء الأحبارُ من اليهود ـ بكتمانهم الناسَ ما كتموا من أمرِ محمدٍ ﷺ ونبوته مع علمهم به، طلباً منهم لعرَضٍ من الدنيا خسيس ـ وبخلافهم أمري وطاعتي ـ وذلك ـ من تركي تطهيرَهم وتزكيتَهُم وتكليمَهُم، وإعدادي لهم العذابَ الأليم ـ بأني أنزلتُ كتابي بالحق، فكفروا به واختلفوا فيه.

فيكـون في «ذلـك» حينئـذٍ وجهان من الإعراب: رفعٌ ونَصب. والرفع بـ«الباء»، والنصب بمعنى: فعلت ذلك بأني أنزلتُ كتابي بالحق، فكفروا به واختلفوا فيه. وتركَ ذكر «فكفروا به واختلفوا»، اجتزاءً بدلالة ما ذكر من الكلام عليه.

وأما قوله: «وإنّ الذينَ اختلفوا في الكتاب لفي شِقاقٍ بعيد»، يعني بذلك اليهودَ والنصارى. اختلفوا في كتاب الله، فكفرت اليهودُ بما قصَّ الله فيه من قَصَصِ عيسى بن مريم وأمه. وصَدَّقَتِ النصارى ببعض ذلك، وكفروا ببعضه، وكفروا جميعاً بما أنزل الله فيه من الأمرِ بتصديقِ محمدٍ ﷺ. فقال لنبيه محمدٍ

ﷺ: إن هؤلاء الذين اختلفوا فيما أنزلتُ إليك يا محمد لفي منازعةٍ ومفارقةٍ للحق بعيدة من الرشد والصواب، كما قال الله تعالى ذِكْرُه: ﴿فإنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ [البقرة: ١٣٧].

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله ذلك. فقال بعضهم: معنى ذلك: ليس البرَّ الصلاةُ وحدها. ولكن البرّ الخصال التي أُبيِّنُها لكم.

وقال آخرون: عنى الله بذلك اليهود والنصارى. وذلك أن اليهودَ تُصلي فتوجّه قِبَلَ المغربِ، والنصارى تصلي فَتَوَجَّهُ قبل المشرق، فأنزل الله فيهم هذه الآية، يخبرهم فيها أن البرّ غير العمل الذي يعملونه، ولكنه ما بيناه في هذه الآية.

وأولى هذين القولين بتأويل الآية، القول الذي قاله قتادة والربيع بن أنس: أن يكون عنى بقوله: «ليس البرّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب»، اليهودَ والنصارَى. لأن الآيات قَبْلَها مضت بتوبيخِهم ولَومهم، والخبر عنهم وعما أُعِدَّ لهم من أليمِ العذابِ. وهذا في سياق ما قبلها. إذْ كان الأمر كذلك، ـ «ليس البر»، ـ أيها اليهود والنصارى، أنْ يولي بعضُكم وجهه قِبَلَ المشرق وبعضُكم قبل المغرب، «ولكنّ البرّ منْ آمن بالله واليوم الآخر وَالملائكة والكتاب» الآية.

وقد يجوز أن يكون معنى الكلام: ولكن البارَّ مَنْ آمن بالله، فيكون «البر» مصدراً وُضع موضعَ الاسم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وآتَى المالَ على حُبه»، وأعطى مَاله في حين محبته إياه، وضنّه به، وشُحِّه عليه.

فتأويل الآية: وأعطى المال - وهو له محب، حريصٌ على جمعه، شحيح به - ذَوي قَرابته، فوصل به أرحامهم.

وأما «اليتامى» «والمساكين»، فقد بينا معانيهما فيما مضى.

وأما «ابن السبيل»، فإنه المجتاز بالرَّجل. ثم اختلف أهل العلم في صفته.

فقال بعضهم: هو الضيفُ من ذلك.

وقال بعضهم: هو المسافر يمر عليك.

وإنما قيل للمسافر «ابن السبيل»، لملازمتهِ الطريقَ - والطريقُ هو «السبيل» - فقيل لملازمته إياه في سفره: «ابنه»، كما يقال لطير الماء «ابن الماء»، لملازمته إياه، وللرجل الذي أتت عليه الدهور «ابن الأيام والليالي والأزمنة».

وأما قوله: «والسائلين»، فإنه يعني به: المستطعمين الطالبين.

وأما قوله وفي «الرقاب»، فإنه يعني بذلك: وفي فك الرقاب من العبودة، وهم المُكَاتَبونَ الذين يسعون في فَكِّ رقابهم من العبودة، بأداءِ كتاباتهم التي فارقوا عليها سادَاتهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وأقامَ الصلاة»، أدامَ العملَ بها بحدودها. وبقوله: «وآتى الزكاة»، أعطاها على مَا فَرضها الله عليه.

فإن قال قائل: وهل من حقٍ يجب في مال إيتاؤه فرضاً غير الزكاة؟

قيل: قد اختلفَ أهلُ التأويل في ذلك:

فقال بعضهم فيه حقوقٌ تجبُ سوى الزكاة، واعتلُّوا لقولهم ذلك بهذه الآية، وقالوا: لما قالَ اللهُ تبارك وتعالى: «وآتى المالَ على حُبِّهِ ذَوي القُربى»، ومَنْ سَمَّى اللهُ معهم، ثم قال بعدُ: «وأقامَ الصَّلاةَ وآتىٰ الزكاة»، عَلِمنا أنَّ المالَ ـ الذي وَصَفَ المؤمنينَ به أنهم يُؤْتُونَهُ ذَوي القُربى ومَن سَمَّى معهم ـ غيرُ الزكاة التي ذكر أنهم يؤتونها؛ لأن ذلك لو كان مالاً واحداً لم يكن لتكريره معنى مفهوم. قالوا: فلما كان غيرَ جائز أن يقول تعالى ذِكْرُه قولاً لا معنى له، علمنا أنَّ حُكمَ المال الأول غيرُ الزكاة، وأن الزكاةَ التي ذكرَها بَعْدُ غيره. قالوا: وبعد، فقد أبانَ تأويلُ أهلِ التأويل صِحَّةَ ما قلنا في ذلك.

وقال آخرون: بل المال الأول هو الزكاة، ولكنَّ الله وصَفَ إيتاء المؤمنين مَنْ آتوه ذلك في أول الآية. فعرَّف عبادَهُ ـ بوصْفِه ما وصفَ من أمرِهم ـ المواضعَ التي يجبُ عليهم أن يَضَعُوا فيها زَكَواتِهم، ثم دَلَّهم بقوله بعد ذلك: «وآتى الزكاة»، أن المال الذي آتاه القومُ هو الزكاةُ المفروضةُ ـ كانت ـ عليهم، إذْ كان أهلُ سُهْمَانِها هم الذين أخبرَ في أول الآية أنَّ القومَ آتوهم أموالهم.

وأما قوله: «والموفون بعهدهم إذا عاهدوا»، فإنه يعني تعالى ذِكْرُه: والذين لا ينقضون عَهدَ الله بعد المعاهدة، ولكن يوفُون به ويُتِمُّونَهُ على ما عاهدوا عليه إنْ عاهدوه عليه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾

وإن أهل التأويل تَأَوَّلُوا «البأساء» بمعنى: البؤس، «والضراء» بمعنى: الضر في الجسد. وذلك مَنْ تأويلهم مَبْنِيٌّ على أنهم وجَّهُوا «البأساءَ والضراء» إلى أسماء الأفعال، دون صفات الأسماء ونعوتها. فالذي هو أولى بـ«البأساء والضراء»، على قولِ أهلِ التأويل، أن تكون «البأساء والضراء» أسماء أفعال، فتكون «البأساء» اسماً «للبؤس»، و«الضراء» اسماً «للضر».

وأما «الصابرين» فنصبٌ، وهو من نعت «مَن» على وجه المدح. لأن من شأن العرب ـ إذا تطاولت صفةُ الواحد ـ الاعتراضُ بالمدحِ والذم بالنصب أحياناً، وبالرفع أحياناً.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وحين البأس»، والصابرين في وقت البأس، وذلك وَقت شدة القتال في الحرب.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ١٧٧﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «أولئك الذين صدقوا»، من آمن بالله واليوم الآخر، ونعتهم النعتَ الذي نعتهم به في هذه الآية. يقول: فمن فعل هذه الأشياء، فهم الذين صدقوا الله في إيمانهم، وحققوا قولهم بأفعالهم لا مَنْ ولَّى وجهه قِبَلَ المشرقِ والمغرب وهو يخالفُ الله في أمرِه، وينقضُ عَهْدَهُ وميثاقَهُ، ويكتمُ الناسَ بيانَ ما أمره الله ببيانه، ويكذِّب رُسُلَهُ.

وأما قوله: «وأولئك هُم المتقون»، فإنه يعني: وأولئك الذين اتقوا عقابَ الله، فتجنَّبُوا عصيانه، وحَذِروا وعده، فلم يتعدَّوْا حدودَهُ. وخافوه، فقاموا بأداء فرائضه.

القـول في تأويل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «كتب عليكم القصاص في القتلى»، فُرِض عليكم.

فإن قال قائل: أفرضٌ على وليِّ القتيل القصاصُ من قاتلِ وَلِيِّهِ؟

قيل: لا، ولكنه مباحٌ له ذلك، والعفو، وأخذُ الدية.

فإن قال قائل: وكيف قال: «كُتِبَ عليكم القصاص»؟

قيل: إن معنى ذلك على خلاف ما ذهبتَ إليه، وإنما معناه: يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم القصَاصُ في القتلى الحرّ بالحرّ والعبدُ بالعبد والأنثى بالأنثى، أي: أن الحر إذا قتل الحرَّ، فَدَمُ القاتل كفءٌ لدمِ القتيل، والقصاصُ منه دون غيره من الناس، فلا تجاوزوا بالقتلِ إلى غيرهِ مِمَّنْ لم يقتلْ، فإنه حرامٌ عليكم أن تقتلوا بقتيلِكم غيرَ قاتِلهِ.

والفرض الذي فرضَ الله علينا في القصاص، هو ما وصفتُ من تَرْكِ المجاوزةِ بالقصاص قَتلَ القاتل بقتيله إلى غيره، لا أنه وَجَبَ علينا القصاصُ فرضاً وُجوبَ فرضِ الصلاة والصيام، حتى لا يكون لنا تَرْكُهُ، ولو كان ذلك فرضاً لا يجوزُ لنا تركُهُ، لم يكن لقوله: «فَمن عُفيَ لهُ من أخيه شيءٌ»، معنىً مفهوم. لأنه لا عفوَ بعد القصاص فيقال: «فمن عفي له من أخيه شيء».

وقد قيل إن معنى القصاص في هذه الآية، مقاصَّة دياتِ بعض القتلى بدياتِ بعض. وذلك أن الآية عندهم نزلت في حِزبين تحاربوا على عهدِ رسولِ الله ﷺ، فقتل بعضهم بعضاً، فأمرَ النبيُّ ﷺ أن يُصْلح بينهم بأن تَسقط دياتُ نسـاءِ أحـدِ الحزبين بدياتِ نساءِ الآخرين، ودياتُ رجالِهم بدياتِ رجالهم، وديات عبيدهم بديات عبيدهم، قصاصاً. فذلك عندهم مَعنى «القصاص» في هذه الآية.

فإن قال قائل: فإنه تعالى ذِكْرُه قال: «كُتب عليكم القصَاص في القتْلى الحر بالحرّ والعبدُ بالعبد والأنثى بالأنثى»، فما لنا أنْ نقتص للحُرِّ إلا من الحر، ولا للأنثى إلا من الأنثى؟

قيل: بل لنا أن نقتص للحر من العبد، وللأنثى من الذكر بقول الله تعالى ذِكْرُه: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً﴾ [الإسراء: ٣٣]، وبالنقل المستفيض عن رسول الله ﷺ أنه قال: المسلمون تتكافأ دماؤهم[1].

فإن قال: فإذ كان ذلك، فما وجه تأويل هذه الآية؟

قيل: اختلف أهلُ التأويل في ذلك.

فقال بعضهم: نَزلت هذه الآية في قومٍ كانوا إذا قَتَلَ الرجلُ منهم عَبْدَ

---

(١) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ، وهو حديث حسن. أخرجه ابن ماجة (٢٦٨٥)، وانظر صحيح أبي داود للعلامة الألباني (٢٤٥٧).

قومٍ آخرين، لم يرضوا من قتيلهم بدمِ قاتله، من أجلِ أنه عَبْدٌ، حتى يقتلوا به سَيِّدَهُ. وإذا قتلت المرأةُ من غيرِهم رجلاً، لم يرضوا من دم صاحبهم بالمرأةِ القاتلة، حتى يقتلوا رجلاً من رهطِ المرأة وعشيرتها. فأنزل الله هذه الآية، فأعلمهم أن الذي فُرض لهم من القصِاص أن يقتلوا بالرجلِ الرجلَ القاتلَ دون غيرِه، وبالأنثى الأنثى القاتلةَ دون غيرها من الرجال، وبالعبدِ العبدَ القاتلَ دون غيره من الأحرار. فنهاهم أن يَتَعَدَّوْا القاتلَ إلى غيرِه في القصاص.

وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية في فريقين كان بينهم قتالٌ على عهد رسول الله ﷺ، فقتل من كلا الفريقين جماعةٌ من الرجال والنساء، فامِر النبي ﷺ أنْ يُصلح بينهم، بأن يجعل ديات النساء من كل واحدٍ من الفريقين قصاصاً بديات النساء من الفريق الآخر، وديات الرجال بالرجال، وديات العبيد بالعبيد، فذلك معنى قوله: «كتب عليكم القصاص في القتلى».

وقال آخرون: بل ذلك أمرٌ من الله تعالى ذِكْرُه بمقاصَّة ديةِ الحرِّ ودية العبد، ودية الذَّكرِ ودية الأنثى، في قتل العمد - إن اقتُصَّ للقتيل من القاتل، والتراجع بالفضل والزيادة بين ديتي القتيل والمقتص منه.

وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية في حال مَا نزلت: والقومُ لا يقتلون الـرجـل بالمرأة، ولكنهم كانوا يقتلون الرجلَ بالرجلِ ، والمرأةَ بالمرأة، حتى سَوَّى الله بين حُكْمِ جميعهم بقوله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥]، فجعل جميعَهم قَوَدَ بعضهم ببعض.

فإذْ كان مُختلفَـاً الاختـلافُ الذي وصفتُ، فيما نزلت فيه هذه الآية، فالواجب علينا استعمالها، فيما دلت عليه من الحُكم، بالخبر القاطعِ العذرَ. وقد تظاهرت الأخبار عن رَسولِ الله ﷺ بالنقلِ العامِّ: أن نفس الرجل الحر قَوَدٌ قصَاصاً بنفس المرأة الحرة. فإذْ كان ذلك كذلك، وكانت الأمَّة مختلفة في

التراجع بفضل مَا بين دِيَةِ الرجلِ والمرأة، كان واضحاً فسادُ قول مَنْ قال بالقصاص في ذلك والتراجع بفضل ما بين الديتين، بإجماع جميع أهلِ الإسلام: على أن حراماً على الرجل أنْ يُتلفَ من جَسدهِ عضواً بِعِوَضٍ يأخذهُ على إتلافه، فدعْ جميعَه ـ وعلى أن حراماً على غيره إتلاف شيء منه ـ مثل الذي حُرِّم من ذلك ـ بعوَض يُعطيه عليه. فالواجبُ أنْ تكون نفسُ الرجل الحر بنفس المرأة الحرة قَوَداً.

وإذْ كان ذلك كذلك، كان بيّناً بذلك أنه لم يرد بقوله تعالى ذِكْرُه: «الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى» أنْ لا يُقادَ العبدُ بالحرِّ، وأنْ لا تُقتلَ الأنثى بالذكر ولا الذكر بالأنثى. وإذْ كان ذلك كذلك، كان بيِّناً أن الآية معنيٌّ بها أحد المعنيين الآخرين. إمّا قولنا: من أنْ لا يُتعدَّى بالقصاصِ إلى غيرِ القاتلِ والجاني، فيؤخذ بالأنثى الذكر وبالعبد الحر. وإمّا القول الآخر: وهو أن تكون الآيةُ نزلت في قوم بأعيانهم خاصة أُمِرَ النبيُّ ﷺ أن يجعل ديات قتلاهم قصَاصاً بعضها من بعض.

وقد أجمع الجميع ـ لا خلاف بينهم ـ على أن المقاصَّة في الحقوق غير واجبة، وأجمعوا على أن الله لم يقض في ذلك قضاء ثم نَسخه. وإذْ كان كذلك، وكان قوله تعالى ذِكْرُه: «كُتب عليكم القصَاص» يُنْبِىءُ عن أنه فَرضٌ، كان معلوماً أنَّ القولَ خلافُ ما قاله قائل هذه المقالة. لأنَّ ما كان فرضاً على أهل الحقوق أنْ يفعلوه، فلا خيارَ لهم فيه. والجميع مُجْمِعُونَ على أنَّ لأهلِ الحقوق الخيارَ في مقاصَّتهم حقوقهم بعضَها من بعض. فإذْ تبيَّنَ فسادُ هذا الوجه الذي ذكرنا، فالصحيح من القول في ذلك هو ما قلنا.

وأما «القصاص» فإنه من قول القائل: «قاصصتُ فلاناً حقّي قِبَلهُ من حَقه قِبَلي، قصاصاً ومُقاصَّة». فقتل القاتل بالذي قتله «قصاص»، لأنه مفعول به

مثلُ الذي فعَل بمن قتله، وإن كان أحد الفعلين عُدواناً والآخر حَقّاً. فهما وإنِ اختلفا من هذا الوجه، فهما متفقان في أنَّ كُلًّ واحدٍ قد فعلَ بصاحبه مثلَ الذي فعل صاحبُه به. وجعل فعل وَليِّ القتيلِ الأوّل إذا قَتَلَ قاتلَ وليه ـ قصاصاً، إذ كان بسبب قتله استحق قتلَ من قتله، فكأن وليّه المقتول هو الذي وَلى قَتل قاتله، فاقتص منه.

وأما «القتلى» فإنها جَمْعُ «قتيلٍ» كما «الصرعى» جمع «صريع»، والجرحى جمع «جريح». وإنما يجمع «الفعيل» على «الفعلى» إذا كان صفة للموصوف به، بمعنى الزمانة والضرر الذي لا يقدر معه صاحبه على البراح من موضعه ومصرعه، نحو القتلى في معاركهم، والصرعى في مواضعهم، والجرحى، وما أشبه ذلك.

فتأويل الكلام إذاً: فُرض عليكم، أيها المؤمنون، القصاصُ في القتلى: أن يُقْتَصَّ الحُرُّ بالحرِّ، والعبدُ بالعبد، والأنثى بالأنثى. ثم ترك ذكر «أن يقتص» اكتفاءً بدلالة قوله: «كُتب عليكم القصاص» ـ عليه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك:

فقال بعضهم: تأويله: فمن تُرك له من القتل ظلماً، من الواجب كان لأخيه عليه من القصَاص ـ وهو الشيء الذي قال الله: «فمن عُفِيَ له من أخيهِ شيءٌ» ـ فاتباعٌ من العافي للقاتل بالواجب له قِبَلَهُ من الدية، وأداءٌ من المعفوِّ عنه ذلك إليه بإحسان.

وقال آخرون معنى قوله: «فمن عُفي»، فمن فَضَل له فضل، وبقيتْ له بقية. وقالوا: معنى قوله: «من أخيه شيء»: من ديةِ أخيه شيء، أو من أرْشِ[1] جراحتِهِ، فاتباعٌ منه القاتلَ أو الجارحَ الذي بَقي ذلك قِبَلَهُ ـ بمعروفٍ، وأداءٌ ـ من القاتلِ أو الجارحِ ـ إليه ما بقي قبله له من ذلك بإحسان.

وأولى الأقوال عندي بالصواب في قوله: «فمن عُفي له من أخيه شيء»: فمن صُفِح له ـ من الواجب كان لأخيه عليه من القود ـ عن شيءٍ من الواجب، على ديةٍ يأخذها منه، فاتباعٌ بالمعروف ـ من العافي عن الدم، الراضي بالديةِ من دم وَلِيِّهِ ـ وأداءٌ إليه ـ من القاتل ـ ذلك بإحسان. لما قد بَيَّنَّا من العللِ فيما مضى قَبْلُ: من أنَّ معنى قولِ الله تعالى ذِكْرُه: «كُتب عليكم القصاص»، إنما هو القصَاص من النفوس القاتلة أو الجارحة أو الشاجَّة عمداً. كذلك «العفو» أيضاً عن ذلك.

وأما معنى قَوله: «فاتباع بالمعروف»، فإنه يعني: فاتباع على ما أوجبه الله لَهُ من الحقِّ قِبَلَ قاتلِ وليه، من غير أن يزداد عليه ما ليس له عليه ـ في أسنان الفرائض أو غير ذلك ـ أو يكلفه ما لم يوجبه الله له عليه.

وأما إحسان الآخر في الأداء، فهو أداءُ ما لَزِمه بقتله لولي القتيل، على ما ألزمه اللهُ وأوجبه عليه، من غيرِ أنْ يبخسه حقًّا له قبله بسبب ذلك، أو يحوجه إلى اقتضاءٍ ومطالبة.

فإن قال لنا قائل: وكيف قيل: «فاتباعٌ بالمعروف وأداءٌ إليه بإحسان»، ولم يَقُـلْ فاتباعاً بالمعروف وأداءً إليه بإحسان، كما قال: ﴿فإذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤]؟

---

(١) الأرش: ديةُ الجنايات والجراحات كالشَّجَّةِ ونحوها.

قيل: لو كان التنزيل جاء بالنصب، وكان: فاتباعاً بالمعروف وأداءً إليه بإحسان ـ كان جائزاً في العربية صحيحاً، على وجْه الأمر، كما يقال: «ضرباً ضرباً، وإذا لقيتَ فلاناً فتبجيلاً وتعظيماً»، غير أنه جاءَ رفعاً، وهو أفصح في كلام العرب من نَصْبِه. وكذلك ذلك في كُلِّ ما كان نظيراً له، مما يكون فرضاً عامًّا ـ فيمن قد فعل، وفيمن لم يفعل إذا فعل ـ لا ندباً وحثًّا. ورفعه على معنى: فمن عفي له من أخيه شيء، فالأمر فيه: اتباعٌ بالمعروف وأداءٌ إليه بإحسان، أو فالقضاء والحكم فيه: اتباع بالمعروف.

وقد قال بعض أهل العربية[1]: رفع ذلك على معنى: فمن عُفِيَ له من أخيه شيء، فعليه اتباعٌ بالمعروف. وهذا مذهب، والأول الذي قلناه هو وجه الكلام. وكذلك كلّ ما كان من نظائر ذلك في القرآن، فإن رفعَه على الوجه الذي قُلناه. وذلك مثل قوله: ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ [المائدة: ٩٥]، وقوله: ﴿فإمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإحْسَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. وأما قوله: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾، فإن الصواب فيه النصب، وهو وجه الكلام، لأنه على وجه الحثّ من الله تعالى ذِكْرُه عبادَهُ على القتلِ عند لقاء العدو، كما يقال: «إذا لقيتم العَدُوَّ فتكبيراً وتهليلاً»، على وجه الحضِّ على التكبير، لا على وجه الإيجاب والإلزام.

القول في تأويل قوله تعالى: ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «ذلك»، هذا الذي حكمتُ به وَسَنَنْتُه لكم، من إباحتي لكم ـ أيتها الأمة ـ العفوَ عن القصاص من قاتل قتيلكم، على ديةٍ تأخذونها فتملكونها مُلْكَكُمْ سائرَ أموالِكم التي كنتُ مَنعتها مَن قَبْلَكُمْ من الأممِ

---

(١) انظر معاني القرآن للفراء ١: ١٠٩-١١٠.

السالفة. «تخفيف من ربكم»، يقول: تخفيفٌ مني لكم مما كنت ثقَّلته على غيركم، بتحريم ذلك عليهم. «ورحمةٌ»، مني لكم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٨﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «فمن اعتدى بعد ذلك»، فمن تجاوز ما جَعله الله له بعدَ أخذِهِ الدِّية، اعتداءً وظلماً إلى ما لم يُجعل له من قتل قاتِلِ وليه وسفكِ دمه، فله بفعله ذلك وتعدِّيه إلى ما قد حَرَّمْتُه عليه، عذابٌ أليم.

واختلفوا في معنى «العذاب الأليم» الذي جعله الله لمن اعتدى بعد أخذهِ الديةَ من قاتل وليِّه.

فقال بعضهم: ذلك «العذابُ» هو القتلُ بمن قتله بعد أخذ الدية منه، وعفوه عن القصاص منه بدم وليِّه.

وقال بعضهم: ذلك «العذابُ» عقوبة يعاقبه بها السلطانُ على قدر ما يَرَى من عقوبته.

وأولى التأويلين بقوله: «فمن اعتدى بعد ذلك فله عذابٌ أليم»، تأويلُ من قال: فمن اعتـدى بعد أخذِهِ الديةَ فَقتلَ قاتلَ وليه، فله عذابٌ أليم في عاجـل الدنيا، وهو القتل. لأن الله تعالى جعل لكل وليِّ قتيلٍ قُتِلَ ظلماً، سلطاناً على قاتل وَلِيِّه، فقال تعالى ذِكْرُه: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِفْ فِي القَتْلِ﴾ [الإسراء: ٣٣].

فإذْ كان ذلك كذلك، وكان الجميعُ من أهلِ العلم مُجْمِعِينَ على أنَّ من قَتل قاتلَ وليه بعد عفوِهِ عنه وأخذِهِ منه ديةَ قتيلِهِ، أنه بقتلهِ إياهُ له ظالمٌ

في قتله - كان بَيِّناً أن لا يولَّى من قَتله ظُلماً كذلك، السلطانَ عليه في القصاص والعفو وأخذ الدية، أيّ ذلك شاء[1]. وَإذْ كان ذلك كذلك، كان معلوماً أن ذلك عذابُه. لأن مَنْ أقيمَ عليه حدُّه في الدنيا، كان ذلك عقوبته من ذنبه، ولم يكن به متَّبعاً في الآخرة، على ما قد ثبت به الخبر[2] عن رسول الله ﷺ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «ولكم في القصَاص حَياةٌ يا أولي الألباب»، ولكم يا أولي العقول، فيما فرضت عليكم وأوجبتُ لبعضكم على بعض، من القصاصِ في النفوس والجراح والشجاج، مَا مَنع به بعضكم من قتل بعض، وقَدَع بعضكم عن بعض، فحييتم بذلك، فكان لكم في حكمي بينكم بذلك حياةٌ.

وأما تأويل قوله: «يا أولي الألباب»، فإنه: يا أولي العقول. «والألباب» جمع «اللب»، و«اللب» العقل.

---

(١) قال العلامة محمود شاكر: في هذه العبارة غموض، وأخشى أن يكون قد سقط من الكلام شيء، ولكن المعنى العام ظاهر.

(٢) كالذي رواه البخاري (٦٧٨٤) من حديث عبادة بن الصامت قال: «بايعتُ رسول الله ﷺ في رهط، فقال: أبايعكم على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفَّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فأخذ به في الدنيا، فهو كفارةٌ له وطهور، ومن ستره الله فذلك إلى الله، إن شاء الله عذّبه وإن شاء غفر له.

وخَصَّ اللهُ تعالى ذِكْرُه بالخطابِ أهلَ العقول، لأنهم هم الذين يعقلون عن الله أمره ونهيه، ويتدبَّرون آياته وحججه دونَ غيرهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾

وتأويل قوله: «لعلكم تتقون»، أي تتقون القصاص، فتنتهون عن القتل.

القول في تأويل قوله جَلَّ ذِكْرُه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ١٨٠﴾

يعني بقوله تعالى ذِكْرُه: «كُتب عليكم»، فُرض عليكم، أيها المؤمنون، الـوصيةُ «إذا حَضَـرَ أحَدَكُمُ الموتُ إنْ تَرَكَ خيراً» والخيرُ: المالُ، «للوالدين والأقربين» الذين لا يرثونه، «بالمعروف»: وهو مَا أذِنَ اللهُ فيه وأجازه في الوصيةِ مما لم يجاوز الثلث، ولم يتعمّد المُوصي ظُلم وَرَثته. «حقًّا على المتقين» يعني بذلك: فرض عليكم هذا وأوجبه، وجعله حقًّا واجباً على مَن اتقى الله فأطاعه أن يعمل به.

فإن قال قائل: أوَ فرضٌ على الرجل ذي المال أن يُوصي لوالديه وأقربيه الذين لا يرثونه؟

قيل: نعم.

فإن قال: فإنْ هو فرَّطَ في ذلك فلم يُوصِ لهم، أيكونُ مُضَيِّعاً فرضاً يَحْرَج بتضييعه؟

قيل: نعم.

فإن قال: وما الدلالةُ على ذلك؟

قيل: قول الله تعالى ذِكْرُه: «كُتبَ عليكم إذا حَضر أحدَكُم الموتُ إنْ تَرَكَ خيراً الوصيَّةُ للوالدين والأقربين»، فأعلم أنه قد كتبه علينا وفَرَضَهُ، كما قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، ولا خلافَ بين الجميع أن تاركَ الصيامِ وهو عليه قادرٌ، مُضَيِّعٌ بتركهِ فَرْضاً للهِ عليه. فكذلك هو بتركِ الوصية لوالديه وأقربيه ولهُ ما يوصي لهم فيه، مُضِيعٌ فَرْضَ الله عَزَّ وجل.

فإن قال: فإنك قد علمت أنِ جماعة من أهل العلم قالوا: الوصيةُ للوالدين والأقربين منسوخةٌ بآية الميراث؟

قيل: له: وخالفهم جماعةٌ غيرهم فقالوا: هي محكمةٌ غيرُ منسوخة. وإذا كان في نسخ ذلك تنازعٌ بين أهل العلم، لم يكن لنا القضاءُ عليه بأنه منسوخٌ إلا بحجةٍ يجبُ التسليمُ لها، إذْ كان غيرَ مستحيل اجتماعُ حكمِ هذه الآية وحكمِ آية المواريث في حال واحدةٍ على صحةٍ، بغير مدافعةِ حُكْمِ إحداهما حُكمَ الأخرى - وكان الناسخُ والمنسوخ هما المعنيان اللذان لا يجوز اجتماع حكمهما على صحةٍ في حالةٍ واحدة، لنفي أحدهما صاحبَه.

واختلف أهل العلم في حكم هذه الآية.

فقال بعضهم: لم ينسخِ الله شيئاً من حُكْمِها، وإنما هي آيةٌ ظاهرُها ظاهرُ عمومٍ في كل والد ووالدة والقريب، والمرادُ بها في الحكم البعضُ منهم دون الجميع، وهو مَنْ لا يرثُ منهم الميت دون مَنْ يَرث.

وقال آخرون: بل هي آية قد كان الحكم بها واجباً وعُمل به بُرهةً، ثم نَسخ اللهُ منها بآية المواريث الوصيةَ لوالدي المُوصِي وأقربائه الذين يرثونه، وأقرَّ

فرضَ الوصية لمن كان منهم لا يرثه.

وقال آخرون: بل نَسخ الله ذلك كله وفرضَ الفرائض والمواريث، فلا وصية تجب لأحدٍ على أحد قريبٍ ولا بعيدٍ.

وأما «الخير» الذي إذا تركه تاركٌ وَجَبَ عليه الوصيةُ فيه لوالِدَيه وأقرَبِيه الذين لا يرثون، فهو: المال.

ثم اختلفوا في مبلغ المال الذي إذا تركه الرجل كان ممن لزمه حكم هذه الآية.

فقال بعضهم: ذلك ألف درهم.

وقال بعضهم: ذلك ما بين خمس مئة درهم إلى الألف.

وقال بعضهم: الوصية واجبة من قليلِ المالِ وكثيرِه.

وأولى هذه الأقوال بالصواب في تأويل قوله: «كُتِبَ عَليكم إذا حَضر أحدَكُم الموتُ إنْ ترك خيراً الوصية» القول بأن الله لم يحدَّ ذلك بحدٍّ، ولا خص منه شيئاً فيجوز أن يحال ظاهر إلى باطن. فكلُّ مَنْ حضرته منيَّته وعنده مالٌ قَلَّ ذلك أو كثر، فواجبٌ عليه أن يوصي منه لمن لا يرثه من آبائهِ وأمهاتهِ وأقربائه الذين لا يرثونه بمعروف، كما قال الله جَلَّ ذِكْرُه وأمرَ به.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: فمن غيَّر ما أوصَى به الموصي - من وصيتهِ بالمعروفِ لوالديهِ أو أقربيهِ الذين لا يرثونه - بعد ما سمع الوصيةَ، فإنما إثمُ التبديلِ على مَنْ بَدَّل وصيته.

البقرة: ١٨١

فإن قال لنا قائل: وعلامَ عادت «الهاء» التي في قوله: «فمن بَدَّلَهُ»؟

قيل: على محذوفٍ من الكلامِ يدلُّ عليه الظاهرُ. وذلك هو أمر الميت، وإيصاؤه إلى من أوصَى إليه، بما أوصَىٰ به. لمن أوْصَى له.

ومعنى الكلام: «كُتب عليكم إذا حَضر أحدكم الموت إنْ ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقًّا عَلى المتقين»، فَأَوْصُوا لهم، فمن بَدَّلَ ما أوصيتُمْ به لهم بعد ما سَمعكم تُوصُونَ لَهم، فإنما إثمُ ما فعلَ من ذلك عليه دونكم.

وإنما قلنا إن «الهاء» في قوله: «فمن بدله» عائدةٌ على محذوفٍ من الكلام يدل عليه الظاهرُ، لأن قوله: «كُتب عليكم إذا حَضر أحدكمْ الموتُ إن ترك خيراً الوصية» من قول الله، وأنّ تبديل المبدِّل إنما يكون لوصية الموصِي. فأما أمرُ الله بالوصية فلا يقدر هو ولا غيره أنْ يُبَدِّلَهُ، فيجوز أن تكون «الهاء» في قوله: «فمن بدله» عائدة على «الوصية».

وأما «الهاء» في قوله: «بعدما سمعه»، فعائدة على «الهاء» الأولى في قوله: «فمن بَدَّله».

وأما «الهاء» التي في قوله: «فإنما إثمه»، فإنها مكنيٌّ «التبديل»، كأنه قال: فإنما إثم ما بدَّل من ذلك على الذين يبدلونه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٨١﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: «إن الله سميع» لوصيتكم التي أمرتكم أن تُوصُوا بها لآبائكم وأمهاتِكم وأقرباِئكم حين تُوصُونَ بها، أتعدلون فيها على ما أذِنتُ لكم من فعل ذلك بالمعروف، أم تَحِيفُونَ فتمُيلون عن الحق وتجورون عن

القصد؟ «عليمٌ» بما تخفيه صدوركم من الميل إلى الحق، والعدل، أم الجور والحيْف.

القول في تأويل قوله تعالى: **فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾**

وأوْلى الأقوالِ في تأويل الآية أنْ يكونَ تأويلها: فَمَنْ خاف من مُوصٍ جَنفاً أو إثماً ـ وهو أنْ يميلَ إلى غير الحَقِّ خطأً منه، أو يتعمد إثماً في وصيته، بأنْ يُوصِي لوالديه وأقربيه الذين لا يَرِثُونَهُ بأكثرَ مما يجوزُ له أنْ يُوصِي لهم به من مالِه، وغير ما أَذِنَ اللهُ له به مما جاوز الثلث أو بالثلث كله، وفي المال قلة، وفي الوَرَثَة كثرةٌ ـ فلا بأس على مَنْ حَضَرَهُ أنْ يُصلحَ بين الذين يُوصَى لهم، وبين ورثةِ الميت، وبين الميتِ، بأن يأمرَ الميت في ذلك بالمعروف ويعرِّفه ما أباح اللهُ له في ذلك وأذِنَ له فيه من الوصيةِ في ماله، وينهاه أنْ يجاوزَ في وصيتِه المعروفَ الذي قال الله تعالى ذِكْرُه في كتابه: «كُتِبَ عليكم إذا حَضَرَ أحدَكُمُ الموتُ إنْ تركَ خيراً الوصيةُ للوالدين والأقربينَ بالمعروف»، وذلك هو «الإصلاحُ» الذي قال الله تعالى ذِكْرُه: «فأصلح بينهم فلا إثمَ عليه». وكذلك لمن كان في المـال فَضْل وكثرةٌ وفي الورثة قِلة، فأراد أنْ يقتصرَ في وصيتِه لوالديه وأقربيه عن ثُلُثِه، فأصلح مَنْ حَضَرَهُ بينه وبين ورثته وبين والديه وأقربيه الذين يريدُ أنْ يُوصِي لهم، بأنْ يأمرَ المريضَ أنْ يزيدَ في وصيته لهم، ويبلغ بها ما رَخَّصَ اللهُ فيه من الثلث. فذلك أيضاً هو من الإصلاحِ بينهم بالمعروف.

وإنما اخترنا هذا القولَ، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه قال: «فمن خَاف من مُوصٍ جَنفاً أو إثماً»، يعني بذلك: فمن خاف من موصٍ أن يَجْنَف أو يأثم. فخوفُ

الجنف والإثم من الموصِي، إنما هو كائنٌ قبلَ وقوعِ الجنف والإثم. فأما بعد وجودهِ منه، فلا وَجْهَ للخوفِ منه بأنْ يَجنف أو يأثم، بل تلك حالُ مَنْ قد جَنَفَ أو أثم. ولوْ كان ذلك معناه لقيل: فمن تبيّن من مُوصٍ جَنفاً أو إثماً - أو أيقنَ أو عَلِمَ - ولم يقل: فمن خَافَ منه جَنفاً.

فإنْ أشْكَلَ ما قلنا من ذلك على بعضِ الناسِ فقال: فما وجهُ الإصلاحِ حينئذٍ، والإصلاحُ إنما يكون بين المختلفين في الشيء؟

قيل: إنّ ذلك وإنْ كان من معاني الإصلاح، فمن الإصلاح الإصلاحُ بين الفريقين، فيما كان مخوفاً حدوثُ الاختلاف بينهم فيه، بما يُؤمَنُ معه حُدوث الاختلاف. لأنَّ «الإصلاح»، إنما هو الفعل الذي يكون معه إصلاحُ ذات البين، فسواء كان ذلك الفعل الذي يكون معه إصلاح ذات البين - قبلَ وقوع الاختلاف أو بعد وقوعه.

فإن قال قائــل: فكيف قيل: «فـأصلح بينهم»، ولم يجـر للورثـة ولا للمختلفين، أو المخوف اختلافهم، ذكرٌ؟

قيل: بل قد جرى ذِكْرُ الذين أمر الله تعالى ذِكْرُهُ بالوصيةِ لهم، وهم والدا المـوصي وأقْـربُـوه، والذين أمروا بالوصية في قوله: «كُتب عليكم إذا حَضر أحـدكم الموتُ إن تَرَكَ خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف»، ثم قال تعالى ذِكْرُه: «فمن خافَ من مُوص» - لمن أمرته بالوصية له - «جَنفاً أو إثماً فأصلح بينهم» - وبين من أمرته بالوصية له - «فلا إثم عليه». والإصلاح بينه وبينهم، هو إصلاح بينهم وبين ورثة الموصي.

وأما «الجنف»، فهو الجورُ والعدول عن الحق في كلام العرب، يقال منه: «جَنف الرجل على صاحبه يَجنَف» - إذا مال عليه وجَار - «جَنفاً».

فمعنى الكلام: من خاف من موصٍ جَنفاً له بموضع الوصية، وميلاً عن

الصواب فيها، وجوراً عن القصد أو إثماً بِتَعَمُّدِهِ ذلك على عِلْمٍ منه بخطأ ما يأتي من ذلك، فأصلح بينهم، فلا إثم عليه.

وأما قوله: «إنّ الله غَفورٌ رَحيم»، فإنه يعني: والله غَفورٌ للموصي - فيما كان حدَّثَ به نفسَهُ من الجنفِ والإثم، إذا تَرَكَ أن يأثم ويَجنف في وصيته، فتجاوزَ له عما كان حدَّث به نفسه من الجور، إذ لم يُمْضِ ذلك فيُغْفِل أن يؤاخذه به، «رحيمٌ» بالمصلح بينَ المُوصي وبين مَنْ أراد أن يَحيف عليه لغيره، أو يَأثَم فيه له.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «يا أيها الذين آمنوا»، يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله وصدقوا بهما وأقرُّوا.

ويعني بقوله: «كتب عليكم الصيام»، فُرِضَ عليكم الصيام.

و«الصيام» مصدر، من قول القائل: «صُمت عن كذا وكذا» - يعني: كففت عنه - «أصوم عَنه صَوْماً وصياماً». ومعنى «الصيام»، الكَفُّ عما أمَرَ الله بالكَفِّ عنه. ومن ذلك قيل: «صَامتِ الخيلُ»، إذا كَفَّتْ عن السيرِ، ومنه قول الله تعالى ذِكْرُه: ﴿إنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً﴾ [مريم: ٢٦] يعني: صمتاً عن الكلام.

وقوله: «كما كُتب على الذين من قبلكم»، يعني فُرِضَ عليكم مثل الذي فرض على الذين منْ قبلكم.

ومعنى الآية: يا أيها الذين آمنوا فُرِض عليكم الصيامُ كما فرض على

الذين من قبلكم من أهل الكتاب، «أياماً معدودات»، وهي شهر رمضان كله. لأن مَنْ بعدَ إبراهيم ﷺ كان مأموراً باتباع إبراهيم، وذلك أن الله جَلَّ ثناؤه كان جَعله للناس إماماً، وقد أخبرنا الله عَزَّ وجل أن دينه كان الحنيفية المسلمةَ، فأمر نبينا ﷺ بمثل الذي أمر به مَنْ قبله من الأنبياء.

وأما التشبيه، فإنما وقع على الوقت. وذلك أنَّ مَنْ كان قبلنا إنما كان فرِض عليهم شهر رمضان، مثل الذي فُرض علينا سواء.

وأما تأويل قوله: «لعلكم تَتقون»، فإنه يعني به: لتتقوا أكلَ الطعام وشربَ الشرابِ وجماعَ النساءِ فيه. يقول: فرضت عليكم الصوم والكف عَمَّا تكونون بترك الكف عنه مفطرين، لتتقوا ما يُفطركم في وقت صومكم.

القول في تأويل قوله تعالى: أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ

يعني تعالى ذِكْرُه: كتب عليكم أيها الذين آمنوا ـ الصيامُ أياماً معدودات.

وقوله: «كما كتب على الذين من قبلكم» من الصيام، كأنه قيل: كُتِبَ عليكم الذي هو مثل الذي كُتِبَ على الذين من قبلكم: أن تصوموا أياماً معدودات.

ثم اختلف أهل التأويل فيما عَنى الله عَزَّ وجل بقوله: «أياماً معدودات».

وأولى ذلك بالصواب عندي قولُ مَنْ قال: عنى الله جَلَّ ثناؤه بقوله: «أياماً معدودات»، أيامَ شهر رمضان. وذلك أنه لم يأت خبرٌ تَقوم به حُجةٌ، بأنَّ صوماً فُرِض على أهل الإسلام غير صوم شهر رمضان، ثم نُسِخَ بصوم شهر رمضان، وأن الله تعالى قَد بيَّن في سياق الآية أنَّ الصيامَ الذي أوجبه جَلَّ ثناؤه علينا هو صيام شهر رمضان دون غيره من الأوقات، بإبانته عن الأيام التي أخبر أنه كتب علينا صومَها بقوله: «شهرُ رَمضان الذي أُنزِلَ فيه القرآنُ». فمن ادَّعى أنَّ

صوماً كان قد لزم المسلمين فرضه غير صوم شهر رمضان الذي هم مجمعون على وجوبِ فرض صومه ـ ثم نسخ ذلك ـ سئل البرهانَ على ذلك من خبرٍ تقومُ به حُجة، إذْ كان لا يعلم ذلك إلا بخبرٍ يقطع العذرَ.

وإذ كان الأمر في ذلك على ما وصفنا للذي بيّنا، فتأويل الآية: كُتِبَ عليكم أيها المؤمنون الصيامُ كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون، أياماً معدودات هي شهر رمضان. وجائز أيضاً أن يكون معناه: «كتب عليكم الصيام»، كتب عليكم شهر رمضان.

وأما «المعدودات»، فهي التي تُعَدُّ مبالغها وساعاتُ أوقاتها. ويعني بقوله: «معدودات»، مُحْصَيَاتٍ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «فمن كان منكم مريضاً»، من كان منكم مريضاً، ممن كلِّف صَومه، أو كان صحيحاً غير مريض وكان على سَفر، «فَعِدَّةٌ من أيامٍ أخر»، يقول: فعليه صوم عدة الأيام التي أفطرها في مرضه أو في سفره، «من أيام أخر»، يعني: من أيامٍ أُخَرَ غيرِ أيامِ مرضهِ أو سفره.

وأما قوله: «وعَلى الذين يُطيقونه فديةٌ طَعامُ مسكين»، فإنّ قراءة كافة المسلمين: «وعلى الذين يُطيقونه»، وعلى ذلك خطوط مصاحفهم، وهي القراءة التي لا يجوز لأحدٍ من أهل الإسلام خلافُها، لنقل جميعهم تصويبَ ذلك قرناً عن قرن.

وأما معنى «الفدية» فإنه: الجزاء، من قولك: «فديت هذا بهذا»، أي جزيته به، وأعطيته بدلاً منه.

ومعنى الكلام: وعلى الذين يُطيقون الصيام جزاءُ طعام مسكين، لكلّ يوم أفطرَه من أيام صيامه الذي كتب عليه.

واختلف أهلُ العلم في مبلغ الطعام الذي كانوا يطعمون في ذلك إذا أفطروا.

فقال بعضهم: كان الواجبُ من طعام المسكين لإفطار اليوم الواحد نِصفَ صاعٍ من قمح.

وقال بعضهم: كان الواجب من طعام المسكين لإفطار اليوم، مُدّاً من قمحٍ ومن سائر أقواتهم.

وقال بعضهم: كان ذلك نصف صاع من قمح، أو صاعاً من تمر أو زبيب.

وقال بعضهم: ما كان المفطر يتقوَّته يومَه الذي أفطرَه.

وقال بعضهم: كان ذلك سحوراً وعَشاءً، يكون للمسكين إفطاراً.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾

إن الله تعالى ذِكْرُه عَمَّمَ بقوله: «فمن تطوع خيراً»، فلم يخصص بعضَ معاني الخير دون بعض. فإنَّ جَمْع الصَّوْم مع الفدية من تطوُّعِ الخير، وزيادةَ مسكينٍ على جزاء الفدية من تطوُّعِ الخير. وجائز أن يكون تعالى ذِكْرُه عَنى بقوله: «فمن تطوع خيراً»، أيَّ هذه المعاني تطوّع به المفتدي من صومه، فهو خيرٌ له. لأنَّ كل ذلك من تطوع الخير، ونوافل الفضل.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وَأنْ تَصوموا»، ما كُتِبَ عليكم من شهرِ رمضان، «فهو خيرٌ لكم» من أن تُفْطِرُوه وتفتدوا.

وأما قوله: «إن كنتم تعلمون»، فإنه يعني: إن كنتم تعلمون خيرَ الأمرين لكم أيها الذين آمنوا، من الإفطار والفدية، أو الصوم على ما أمركم الله به.

القول في تأويل قوله تعالى: **شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ**

و«الشهر»، فيما قيل، أصله من «الشهرة». يقال منه: «قد شَهر فلانٌ سَيْفه» - إذا أخرجه من غمده فاعترض به مَنْ أراد ضَرْبَهُ - «يشهرُه شهراً». وكذلك «شَهر الشهر»، إذا طلع هلاله، «وأشهرْنا نحن»، إذا دخلنا في الشهر.

وأما «رمضان»، فإنَّ بعضَ أهلِ المعرفة بلغة العرب كان يزعم أنه سمي بذلك لشدة الحرِّ الذي كان يكونُ فيه، حتى تَرْمَض فيه الفِصَال، كما يقال للشهر الذي يُحَجُّ فيه «ذو الحجة»، والذي يُرتبع فيه «ربيع الأول، وربيع الآخرة».

وأما قوله: «الذي أنزل فيه القرآن»، فإنه ذكر أنه نَزَل في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا، في ليلة القدر من شهر رمضان. ثم أنزِل إلى محمد ﷺ على ما أراد الله إنزاله إليه.

وأما قوله: «هُدى للناس»، فإنه يعني رَشاداً للناس إلى سبيل الحق وقَصْد المنهج.

وأما قوله: «وَبَيِّنات»، فإنه يعني: وواضحات «من الهدى» - يعني: من البيان الدالِّ على حدودِ الله وفرائضهِ وحلاله وحرامه.

وقوله: «والفرقان» يعني: والفصل بين الحق والباطل.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾

اختلف أهل التأويل في معنى «شهود الشهر».

(وأولى التأويلات عندي بالصواب) قول من قال: فمن شهد منكم الشهر فليصمه، جميعَ ما شهد منه مقيماً، ومَنْ كان مريضاً أو على سفر فعدةٌ من أيامٍ أخر.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: ومن كان مريضاً أو على سفر في الشهر فأفطر، فعليه صيامُ عدة الأيام التي أفطرها، من أيام أخرَ غير أيام شهر رمضان.

ثم اختلف أهلُ العلم في المرَض الذي أباح الله معه الإفطارَ، وأوجب معه عدة من أيامٍ أخر.

فقال بعضهم: هو المرض الذي لا يُطيق صاحبه معه القيامَ لصَلاته.

وقال بعضهم: هو كل مرض كان الأغلبُ من أمر صاحبه بالصوم الزيادة في عِلَّتِه زيادة غير مُحتملة.

وقال آخرون: هو كلّ مرض يسمى مرَضاً.

والصواب من القول في ذلك عندنا أن «المرض» الذي أذن الله تعالى ذِكْرُه بالإفطار معه في شهر رمضان، من كان الصومُ جاهدَهُ جَهداً غير محتمل،

فكل من كان كذلك فله الإفطار وقضاء عدة من أيام أخر. وذلك أنه إذا بلغ ذلك الأمرَ، فإن لم يكن مأذوناً له في الإفطار فقد كُلِّف عُسراً، ومُنع يُسراً. وذلك غير الذي أخبر الله أنه أراده بخلقه بقوله: «يُريدُ الله بكم اليسرَ وَلا يُريد بكم العسر». وأما مَنْ كان الصومُ غيرَ جَاهدِه، فهو بمعنى الصحيح الذي يُطيق الصوم، فعليه أداءُ فرضه.

وأما قوله: «فعدة من أيام أخر»، فإنّ معناها: أياماً معدودة سوى هذه الأيام.

وأما «الأُخَر» فإنها جمع «أخرى» كجمعهم «الكبرى» على «الكُبَر» و«القُربى» على «القُرَب».

فإن قال لنا قائل: فإن الله تعالى قال: «فمن كانَ منكم مريضاً أو عَلى سفر فعدةٌ من أيام أخر»، ومعنى ذلك عندك: فعليه عدةٌ من أيام أخر، كما قد وصفتَ فيما مضى. فإنْ كان ذلك تأويله، فما قولك فيمن كان مريضاً أو عَلى سَفر فَصَام الشهرَ، وهو ممن له الإفطار، أيجزيه ذلك من صيام عدة من أيام أخر، أو غيرُ مُجزيه ذلك، وفَرْضُ صوم عدة من أيام أخر ثابتٌ عليه بهيئته، وإنْ صام الشهر كله؟ وهل لِمَنْ كان مريضاً أو عَلَى سَفر صيامُ شهر رمضان، أم ذلك محظور عليه، وغير جائز له صومه، والواجب عليه الإفطار فيه، حتى يقيم هذا ويبرأ هذا؟

قيل: قد اختلف أهلُ العلم في كل ذلك، ونحن ذاكرُو اختلافِهم في ذلك، ومُخْبِرُونَ بأَوْلَاهُ بالصواب إنْ شاء الله.

فقال بعضهم: الإفطارُ في المرض عَزْمة من الله واجبةٌ، وليس بتَرْخيصٍ، فمن صام في السفر فعليه القضاءُ إذا أقام.

وعلة مَنْ قال هذه المقالة: أنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ فَرَضَ بقوله: «فمن شَهِدَ

مِنكُمُ الشهـرَ فليصمه» صومَ شهر رمضان على مَنْ شهده مُقيماً غير مسافرٍ، وجعل على مَنْ كان مريضاً أو مسافراً صومَ عدةٍ من أيامٍ أخر غير أيام شهر رمضان بقوله: «ومَنْ كان مريضاً أو على سَفر فعدةٌ من أيام أخر». قالوا: فكما غيرُ جائزٍ للمقيمِ إفطارُ أيام شهر رمضان وصَوم عدة أيام أخر مكانها ـ لأن الذي فرضَه الله عليه بشهوده الشهرَ صومُ الشهر دون غيره ـ فكذلك غير جائز لمن لم يشهده من المسافرين مقيماً، صوْمُه. لأن الذي فرضه الله عليه عدة من أيام أخر.

وقـال آخـرون: إبـاحةُ الإفطار في السفر رُخصة من الله تعالى ذِكْرُه، رَخَّصَها لعباده، والفرضُ الصوم. فمن صام فرضَه أدَّى، ومن أفطر فبرُخصةِ اللهِ له أفطر. قالوا: وإنْ صام في سفر فلا قَضاءَ عليه إذا أقام.

وهذا القولُ عندنا أولى بالصواب، لإجماعِ الجميع على أنَّ مريضاً لو صام شهرَ رمضان ـ وهو ممن له الإفطار لمرضه ـ أَنّ صومه ذلك مجزىءٌ عنه، ولا قضاءَ عليه إذا برأ من مرضه بعدة من أيام أخر. فكان معلوماً بذلك أنَّ حُكْمَ المسـافـر حكمه في أنْ لا قضاءَ عليه إنْ صامه في سفره. لأن الذي جعل للمسافر من الإفطار وأُمِرَ به من قضاء عدةٍ من أيام أخر، مثلُ الذي جعل من ذلـك للمـريض وأُمـر به من القضـاء. ثم في دلالـة الآية كفـايةٌ مُغْنيةٌ عن استشهادِ شاهدٍ على صحّة ذلك بغيرها. وذلك قول الله تعالى ذِكْرُه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾، ولا عُسرَ أعظم من أن يُلزم من صامه في سفره عدةً من أيام أخر، وقد تكلف أداءَ فَرْضِه في أثقل الحالين عليه حتى قضاه وأدَّاه.

فإن ظن ذو غَباوة أنَّ الذي صامه لم يكن فرضَهُ الواجبَ، فإن في قول الله تعالى ذِكْرُه: «يا أيها الذين آمنوا كُتِبَ عليكم الصيامُ» «شهرُ رَمضَان الذي أنزل فيه القرآن»، ما يُنْبِىءُ أنَّ المكتوبَ صومُه من الشهور على كل مُؤمن، هو

شهرُ رمضان مسافراً كان أو مقيماً، لعموم الله تعالى ذِكْرُه المؤمنينَ بذلك بقوله: «يا أيها الذين آمنوا كتب عليكمُ الصيام» «شهر رمضان» ـ وأن قوله: «ومَنْ كان مريضاً أو عَلى سفر فعدةٌ من أيام أخر» معناه: ومَنْ كان مريضاً أو على سفر فأفطرَ برُخصةِ الله، فعليه صوم عدة أيام أخر مكانَ الأيام التي أفطر في سفره أو مرضه ـ ثم في تظاهر الأخبار عن رسول الله ﷺ بقوله ـ إذ سئل عن الصوم في السفر: «إن شئتَ فصم، وإن شئت فأفطر»[1] ـ الكفايةُ الكافيةُ عن الاستدلال على صحة ما قُلنا في ذلك بغيره.

فإن قال قائل: إن الأخبار بما قلت، وإن كانت متظاهرةً، فقد تظاهرت أيضاً بقوله: «ليس من البِرِّ الصيامُ في السفر»[2]؟

قيل: إن هذا لمن بلغ منه الصوم ما بَلغ من الذي قال له النبي ﷺ ذلك، فليس من البر صومه. لأن الله تعالى ذِكْرُه قد حَرَّمَ على كل أحدٍ تعريضَ نَفسهِ لما فيه هلاكُها، وله إلى نجاتها سبيلٌ. وإنما يُطلبُ البِرُّ بما نَدب الله إليه وحَضَّ عليه من الأعمال، لا بما نهى عنه.

فإن قال قائل: وكيف عطف على «المريض»، وهو اسم بقوله: «أوْ على سفر» و«على» صفة لا اسم.

قيل: جاز أن ينسق بـ «على» «المريض»، لأنها في معنى الفعل. وتأويل ذلك: أو مسافراً، كما قال تعالى ذِكْرُه: ﴿دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً﴾ [يونس: ١٢]، فعطف بـ «القاعد، والقائم» على «اللام» التي في «لجنبه»، لأن معناها الفعل، كأنه قال: دعانا مضطجعا أو قاعداً أو قائماً.

---

(١) من حديث عائشة رضي الله عنها، وهو في البخاري (١٩٤٢) و(١٩٤٣)، ومسلم (١١٢١).

(٢) من حديث جابر بن عبدالله الأنصاري رضي الله عنه، وهو في البخاري (١٩٤٦)، ومسلم (١١١٥).

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: يريد الله بكم، أيها المؤمنون ـ بترخيصهِ لكم في حال مرضكم وسَفركم في الإفطار، وقضاء عدةٍ من أيامٍ أُخَر من الأيامِ التي أفطرتموها بعد إقامتكم وبعد بُرْئِكم من مرضكم ـ التخفيفَ عليكم، والتسهيلَ عليكم، لعلمه بمشقةِ ذلك عليكم في هذه الأحوال ـ «ولا يُريد بكم العُسْرَ»، يقول: ولا يريد بكم الشدةَ والمشقةَ عليكم، فيكلِّفكم صومَ الشهر في هذه الأحوال، مع علمه شِدَّةَ ذلك عليكم، وثقل حملهِ عليكم لو حَمَّلَكُمْ صومَهُ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «ولتكملوا العدة»، عدةَ ما أفطرتم، من أيام أُخَر، أوجبتُ عليكم قضاءَ عدةٍ من أيامٍ أخر بعد برئكم من مرضكم، أو إقامتكم من سفركم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه: ولتعظِّموا الله بالذِّكْرِ له بما أنعمَ عليكم به، من الهدايةِ التي خذل عنها غيركم من أهلِ الملل الذين كتب عليهم من صوم شهر رمضان مثلَ الذي كتب عليكم فيه، فضلُّوا عنه بإضلالِ الله إياهم، وخصَّكم بكرامته فهداكم له، ووفقكم لأداء ما كتبَ الله عليكم من صومهِ، وتشكروه على ذلك بالعبادةِ لهُ.

والذكر الذي حضهم الله على تعظيمه به، «التكبير» يوم الفطر، فيما تأوله جماعة من أهل التأويل.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ١٨٥﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: ولتشكروا الله على ما أنعم به عليكم من الهدايةِ والتوفيق، وتيسيرِ ما لو شاء عسَّر عليكم.

و«لعـل» في هذا الموضع بمعنى «كي»، ولذلك عطف به على قوله: «ولتكملوا العدة ولتكبروا الله عَلى ما هَداكم ولَعلكم تَشكرون».

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ١٨٦﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: وإذا سَألك يا محمد عبادي عَني: أين أنا؟ فإني قريبٌ منهم أسمعُ دُعاءهم، وأُجيبُ دعوةَ الداعي منهم.

وأما قوله: «فليستجيبوا لي»، فإنه يعني: فليستجيبوا لي بالطاعة. يقال منه: «استجبت له، واستجبته»، بمعنى أجبته.

وقال بعضهم: معنى «فليستجيبوا لي»: فليدعوني.

وأما قوله: «وليؤمنوا بي» فإنه يعني: وَليصدِّقوا أي: وليؤمنوا بي، إذا هُم استجابوا لي بالطاعة، أني لهم من وَرَاء طاعتهم لي في الثواب عليها، وإجزالي الكرامةَ لهم عليها.

وأما الذي تأول قوله: «فليستجيبوا لي»، إنه بمعنى: فليدعوني، فإنه كان يتأوَّل قـوله وليؤمنوا بي إني أستجيب لهم.

وأما قوله: «لعلهم يَرشُدُون» فإنه يعني: فليستجيبوا لي بالطاعة، وليؤمنوا بي فيصدِّقوا على طاعتهم إيايَ بالثوابِ مني لهم، وليهتدوا بذلك من فعلهم فيرشدوا.

فإن قال لنا قائل: وما معنى هذا القول من الله تعالى ذِكْرُه؟ فأنت ترى كثيراً من البشر يدعون الله فلا يجابُ لهم دُعاء، وقد قال: «أجيبُ دَعوة الداع إذا دَعان»؟

قيل: إن لذلك وجهين من المعنى:

أحدهما: أن يكون معنيّاً «بالدعوة»، العملُ بما نَدب اللهُ إليه وأمر به. فيكون تأويلُ الكلام: وإذا سألك عبادي عَني فإني قريبٌ ممن أطاعني وعَملَ بما أمرتُه به، أجيبه بالثوابِ على طاعته إيايَ إذا أطاعني. فيكون معنى «الدعاء»: مسألةُ العبدِ ربَّه ما وَعَدَ أولياءَهُ على طاعتهم بعملهم بطاعته، ومعنى «الإجابة» من الله التي ضمنها له، الوفاءُ له بما وَعَدَ العاملين له بما أمرهم به، كما روي عن النبي ﷺ من قوله: «إنّ الدعاء هو العبادة»[1].

فأخبر ﷺ أنّ دعاء الله إنما هو عبادته ومسألته، بالعمل له والطاعة.

والوجه الآخر: أن يكون معناه: أجيب دعوة الداع إذا دَعان إن شئت. فيكون ذلك، وإن كان عاماً مخرجُه في التلاوة، خاصاً معناهُ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «أحل لكم»، أطلق لكم وأبيح.

ويعني بقوله: «ليلة الصيام»، في ليلة الصيام.

(١) حديث صحيح، انظر صحيح ابن ماجة (٣٠٨٦) وصحيح أبي داود (١٣٢٩). كلاهما للعلامة الشيخ الألباني - طبع المكتب الإسلامي.

فأما «الرفث» فإنه كنايةٌ عن الجماع في هذا الموضع، يقال: «هو الرفثُ والرُّفوث».

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: نساؤكم لباسٌ لكُم وأنتم لباسٌ لهن.

فإن قال قائل: وكيف يكون نساؤنا لباساً لنا، ونحن لهن لباساً، و«اللباس» إنما هو ما لبس؟

قيل: لذلك وجهان من المعاني:

أحدهما: أن يكون كل واحدٍ منهما جُعل لصاحبه لباساً، لتجرُّدهما عند النوم، واجتماعهما في ثوب واحد، وانضمام جسد كل واحد منهما لصاحبه، بمنزلة ما يلبسه على جَسده من ثيابه، فقيل لكل واحد منهما: هو «لباس» لصاحبه، فكنى عن اجتماعهما متجردين في فراش واحد بـ«اللباس»، كما يكني بـ«الثياب» عن جسد الإنسان.

والوجه الآخر: أن يكون جَعل كلَّ واحد منهما لصاحبه «لباساً»، لأنه سَكنٌ له، كما قال جَلَّ ثناؤه: ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً﴾ [الفرقان: ٤٧]، يعني بذلك سكناً تسكنون فيه. وكذلك زوجةُ الرجل سَكنه يسكنُ إليها، كما قال تعالى ذِكْرُه: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، فيكون كل واحد منهما «لباساً» لصاحبه، بمعنى سكونه إليه. وبذلك كان مجاهد وغيره يقولون في ذلك.

وقد يُقالُ لما سَتر الشيءَ وواراهُ عَن أبصار الناظرين إليه: «هو لباسه، وغشاؤه»، فجائزٌ أن يكونَ قيل: «هنَّ لباسٌ لكم وأنتم لباس لهن»، بمعنى:

أنَّ كُلَّ واحدٍ منكم ستر لصاحبه ـ فيما يكون بينكم من الجماع ـ عن أبصارِ سائر الناس.

القـول في تأويل قولـه جَلَّ ذِكْرُه: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ﴾.

إن قال لنا قائل: وما هذه الخيانةُ التي كانَ القوم يختانونها أنفسَهُم، التي تابَ الله منها عليهم فعفا عنهم؟

قيل: كانت خيانتُهم أنفسَهُم التي ذكرها الله في شيئين:

أحدهما: جماع النساء.

والآخر: المطعم والمشربُ في الوقت الذي كان حَراماً ذلك عليهم.

فعن البراء قال: كان أصحاب محمد ﷺ إذا كان الرجل صائماً فنامَ قبل أن يفطر، لم يأكل إلى مثلها، وإنَّ قيس بن صِرْمة الأنصاري كان صائماً، وكان توجَّه ذلك اليوم فعمِلَ في أرضه، فلما حضر الإفطارُ أتى امرأتَهُ فقال: هل عندكم طعامٌ؟ قالت: لا، ولكن أنطلق فأطلب لكَ. فغلبته عَيْنُه فنام، وجاءت امرأته قالت: قد نمتَ! فلم ينتصف النهارُ حتى غُشيَ عليه، فَذُكِرَ ذلك للنبيِّ ﷺ، فنزلت فيه هذه الآية: «أُحِلَّ لكم ليلةَ الصيام الرفث إلى نسائكم» إلى «من الخيط الأسود» ففرحوا بها فرحاً شديداً[١].

فأما «المباشرة» في كلام العرب، فإنه مُلاقاة بَشَرة ببشَرة. و«بشرة» الرجل جلدته الظاهرة.

---

(١) أخرجه البخاري (١٩١٥) و(٤٥٠٨) وغيره.

وإنما كنى الله بقوله: «فالآن بَاشروهن» عن الجماع. يقول: فالآن إذ أحللتُ لكم الرفثَ إلى نسائكم، فجامعوهن في ليالي شهر رمضان حتى يطلع الفجر، وهو تبيُّنُ الخيطِ الأبيض من الخيطِ الأسود من الفجر.

واختلفوا في تأويل قوله: «وابتغوا مَا كَتَبَ اللهُ لكم». فقال بعضهم: الولد:

وقال بعضهم معنى ذلك: ليلة القدر.

وقال آخرون: بل معناه: ما أَحَلَّهُ اللهُ لكم، ورَخَّصه لكم.

وقرأ ذلك بعضهم: «وَٱتَّبِعُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ».

والصواب من القول في تأويل ذلك عندي أَنْ يُقالَ: إن الله تَعالى ذِكْرُه قال: «وابتغوا» ـ بمعنى: اطلبوا، «ما كتب الله لكم»، يعني: الذي قَضَى الله تعالى لكم.

وإنما يريد الله تعالى ذِكْرُه: اطلبوا الذي كتبتُ لكم في اللوح المحفوظ أنه يُباحُ فيطلقُ لكم. وَطَلَبُ الولدِ إنْ طلبه الرجلُ بجماعه المرأةَ، مما كتب الله له في اللوح المحفوظ. وكذلك إنْ طلب ليلةَ القدر، فهو مما كتب الله له. وكذلك إنْ طلب ما أحلَّ الله وأباحه، فهو مما كتبه له في اللوح المحفوظ.

وقد يدخل في قوله: «وابتغوا ما كتب الله لكم» جميعُ معاني الخير المطلوبة، غيرَ أنَّ أشبهَ المعاني بظاهرِ الآيةِ قولُ مَنْ قال: معناه وابتغوا ما كتب الله لكم من الولد، لأنه عَقِيبُ قوله: «فالآن باشرُوهن»، بمعنى جامعوهنَّ، فلأنْ يكون قوله: «وابتغوا ما كتب الله لكم»، بمعنى: وابتغوا ما كتب الله في مُباشرتِكُم إياهن من الولدِ والنسلِ، أشبهُ بالآية من غيره من التأويلات التي ليس على صِحَّتِهَا دلالةٌ من ظاهرِ التنزيل، ولا خبرٌ عن الرسول ﷺ.

البقرة: ١٨٧

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «حتى يتبيَّن لكم الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسود من الفجر».

فقال بعضهم: يعني بقوله: «الخيط الأبيض»، ضوءَ النهار، وبقوله: «الخيطِ الأَسود»، سوادَ الليل.

فتأويله على قول قائلي هذه المقالة: وكلوا بالليل في شهر صَوْمكم واشربوا وبَاشروا نساءكم مبتغين مَا كَتب اللهُ لكم من الولد، من أول الليل، إلى أنْ يقع لكم ضوءُ النهار بطلوع الفجر من ظلمة الليل وسواده.

وعلَّة مَنْ قال هذه المقالة، وتأوَّل الآية هذا التأويل، ما (ثبت) عن عَدِي ابن حاتِم قال: أتيتُ رسولَ الله ﷺ فعلَّمَني الإسلام، ونَعت ليَ الصلوات كيفَ أصَلي كلَّ صلاةٍ لوقتها، ثم قال: إذا جاء رمضان فكل واشرب حتى يتبين لك الخيطُ الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، ثم أتِمَّ الصيامَ إلى الليل. ولم أدر ما هو، ففتلتُ خَيطين من أبيض وأسود، فنظرتُ فيهما عند الفجر، فرأيتهما سواءً. فأتيتُ رسول الله ﷺ فقلت: يا رسولَ الله، كل شيءٍ أوْصَيْتَنِي قد حفظتُ، غير «الخيط الأبيض من الخيط الأسود»! قال: وما منعك يا ابنَ حاتم؟ وتبسَّم كأنه قد علم ما فعلتُ. قلتُ: فتلتُ خيطين من أبيض وأسود، فنظرتُ فيهما من الليل فوجدتهما سواء! فضحك رسول الله ﷺ حتى رُؤي نَواجذُه، ثم قال: ألم أَقُلْ لك «من الفجر»؟، إنما هو ضوء النهار وظلمة الليل[1].

(١) هو في الصحيحين: البخاري (١٩١٦) و(٤٥٠٩)، ومسلم (١٠٩٠).

وعن سهل بن سعد قال: نزلت هذه الآية: «وكُلُوا واشربوا حتى يتبيَّنَ لكمُ الخيطُ الأبيض من الخيط الأسود»، فلم ينزل «من الفجر». قال: فكان رجالٌ إذا أرادوا الصومَ ربط أحدهم في رجليه الخيطَ الأسود والخيط الأبيض، فلا يزال يأكل ويشرب حتى يتبيَّن له. فأنزل الله بعد ذلك: «من الفجر»، فعلموا أنما يعني بذلك الليلَ والنهارَ(١).

وقال متأولو قول الله تعالى ذِكْرُهُ: «حتى يتبيَّن لكمُ الخيطُ الأبيض من الخيط الأسود من الفجر»، إنه بياضُ النهارِ وسوادُ الليل ـ: صفةُ ذلك البياضِ أنْ يكون منتشراً مستفيضاً في السماء، يملأ بياضه وضوؤه الطُّرُقَ. فأما الضوء الساطع في السماء، فإن ذلك غير الذي عناه الله بقوله: «الخيط الأبيض من الخيط الأسود».

وسمع سمرة بن جندب النبي ﷺ يقول: لا يغرّنكم نداء بلال، ولا هذا البياضُ، حتى يبدوَ الفجرُ وَينفجر(٢).

وقال آخرون: الخيطُ الأبيض: هو ضوءُ الشمس. والخيط الأسود: هو سوادُ الليل.

وعِلَّةُ مَنْ قال هذا القول: أنَّ الوقتَ إنما هو النهارُ دون الليل. قالوا: وأول النهار طلوعُ الشمس، كما أنَّ آخرَه غروبُها. قالوا: ولو كان أوله طلوعُ الفجر، لوَجب أنْ يكون آخرَه غروبُ الشفق. قالوا: وفي إجماع الحجة على أنَّ آخرَ النهارِ غروب الشمس، دليلٌ واضح على أن أوله طلوعها.

وأولى التأويلين بالآية، التأويلُ الذي روي عن رسول الله ﷺ أنه قال:

---

(١) هو في الصحيحين: البخاري (١٩١٧) و(٤٥١١)، ومسلم (١٠٩١).

(٢) أخرجه مسلم (١٠٩٤) من طرق إلى سمرة رضي الله عنه.

«الخيط الأبيض» بياض النهار، «والخيط الأسود» سوادُ الليل. وهو المعروف في كلام العرب.

وأما الأخبارُ التي رويتْ عن رسولِ الله ﷺ أنه شرب أو تسحَّر، ثم خرج إلى الصلاة، فإنه غيرُ دافع صحةَ ما قلنا في ذلك. لأنه غير مستنكر أن يكون ﷺ شَرب قبل الفجر ثم خرج إلى الصلاة، إذ كانت الصلاةُ ـ صلاة الفجر ـ هي على عهده كانت تُصلى بعد ما يطلع الفجر ويتبيَّن طلوعه، ويؤذَّن لها قبل طلوعه.

وأما قوله: «من الفجر»، فإنه تعالى ذِكْرُه يعني: حتى يتبيَّن لكم الخيطُ الأبيضُ من الخيط الأسود الذي هو من الفجر، وليس ذلك هو جَميعَ الفجر، ولكنه إذا تبيَّن لكم أيها المؤمنون من الفجر ذلك الخيط الأبيض الذي يكون من تحت الليل الذي فوقه سواد الليل، فمن حينئذٍ فصُوموا، ثم أتِمُّوا صيامكم من ذلك إلى الليل.

وفي قوله تعالى ذِكْرُه: «وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيضُ من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيامَ إلى الليل»، أوضحُ الدلالة على خطأ قولِ مَنْ قال: حلالٌ الأكلُ والشربُ لمن أراد الصوم إلى طلوع الشمس. لأنَّ الخيطَ الأبيض من الفجر، يتبيَّنُ عند ابتداء طلوع أوائل الفجر. وقد جعل الله تعالى ذِكْرُه ذلك حداً لمن لزمَه الصومُ في الوقت الذي أباح إليه الأكل والشرب والمباشرة.

فمن زعم أنَّ له أنْ يتجاوزَ ذلك الحدَّ، قيل له: أرأيتَ إنْ أجازَ له آخَرُ ذلك ضحوةً أو نصف النهار؟

فإن قال: إنَّ قائلَ ذلك مخالفٌ للأمة.

وقيل له: وأنتَ لما دلَّ عليه كتابُ الله ونَقْلُ الأمةِ مخالفٌ، فما الفرقُ

بينك وبينه من أصْل أو قياس؟

فإن قال: الفرقُ بيني وبينه أن الله أمرَ بصوم النهار دون الليل، والنهارُ من طلوع الشمس.

قيل له: كذلك يقولُ مخالفوك، والنهار عندهم أوّله طلوع الفجر، وذلك هو ضوء الشمس وابتداءُ طلوعها دون أن يتتامَّ طلوعها، كما أن آخرَ النهار ابتداءُ غروبها دون أن يتتامَّ غروبها.

ويقال لقائلي ذلك: إن كان «النهار» عندكم كما وصفتم، هو ارتفاع الشمس، وتكامل طُلوعها، وذهاب جميع سُدْفة الليل وَغَبَس[1] سواده ـ فكذلك عندكم «الليل»: هو تتامُّ غروب الشمس، وذهاب ضيائها، وتكامل سواد الليل وظلامه؟

فإن قالوا: ذلك كذلك!

قيل لهم: فقد يجبُ أن يكون الصوم إلى مَغيب الشفق وذهاب ضوء الشمس وبياضها من أفق السماء!

فإن قالوا: ذلك كذلك! أوجبوا الصومَ إلى مغيبِ الشفق الذي هو بَياضٌ. وذلك قولٌ إنْ قالوه مدفوعٌ بنقلِ الحجة، التي لا يجوز فيما نقلته مُجمعةً عليه ـ الخطأ والسهوُ وكفى بذلك شاهداً على تخطئته.

وإن قالوا: «بل أول الليل» ابتداء سُدْفته وظلامه، ومَغيبُ عَين الشمس عنا.

---

(١) سُدْفة الليل: ظلام الليل. والغَبس: الظلام أيضاً. ويجوز أن تقرأ بالشين المعجمة: غبش، وهو مخالطة البياض سواد الليل، وكله بمعنى.

قيل لهم: وكذلك «أول النهار»: طلوع أوّل ضياء الشمس، ومغيب أوَائل سُدفة الليل.

ثم يعكس عليه القول في ذلك، ويُسأل الفرقَ بين ذلك، فلن يقول في أحدهما قولاً إلا أُلْزِمَ في الآخر مثله.

وأما «الفجر» فإنه مصدر من قول القائل: «تفجَّر الماءُ يتفجَّرُ فَجراً»، إذا انبعثَ وجرى. فقيل للطالعِ من تباشيرِ ضياء الشمس من مطلع الشمس «فجر» لانبعاثِ ضوئه عليهم، وتورُّده عليهم بطرقِهم ومحاجِّهم، تفجُّرَ الماء المتفجِّر من منبعه.

وأما قوله: «ثم أتِمُّوا الصيامَ إلى الليل»، فإنه تعالى ذِكْرُه حَدَّ الصومَ بأن آخرَ وقته إقبالُ الليل ـ كما حدَّ الإفطارَ وإباحةَ الأكل والشرب والجماع وأوَّل الصوم، بمجيء أول النهار وأوَّل إدبار آخر الليل. فدلَّ بذلك على أنْ لا صومَ بالليل، كما لا فِطْرَ بالنهار في أيام الصوم ـ وعلى أنَّ المُواصِلَ مجوِّعُ نفسه في غيرِ طاعةِ ربه، كما قال رسول الله ﷺ: «إذا أقبلَ الليلُ وأدبر النهارُ وغابت الشمس، فقد أفطر الصائم»[1].

وعن عبدالله بن أبي أوفى قال: كنا مع النبي ﷺ في مسير وهو صائم، فلما غَرَبت الشمسُ قال لرجل: انزل فاجدَحْ[2] لي. قالوا: لو أمسيتَ يا رسول الله! فقال: انزل فاجدح. قال الرجل: يا رسول الله إنَّ علينا نهاراً! فقال له الثالثة، فنزل فجدح له. ثم قال رسول الله ﷺ: إذا أقبل الليل من ههنا ـ وضرب بيده نحو المشرق فقد أفطر الصائم[3].

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٥٤)، ومسلم (١١٠٠) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) هو خلط الشيء بغيره، والمراد هنا: خلط السويق بالماء وتحريكه حتى يستوي.

(٣) أخرجه البخاري (١٩٤١) و(١٩٥٥) و(١٩٥٦) و(١٩٥٨) و(٥٢٩٧)، ومسلم (١١٠١).

فتأويل الآية إذاً: ثم أتِمُّوا الكَفَّ عما أمركم اللهُ بالكفِّ عنه، من حين يتبيَّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، إلى الليل. ثم حَلَّ لكم ذلك بعدَه إلى مثل ذلك الوقت.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه ـ بقوله: «ولا تباشرُوهن»، لا تجامعوا نساءكم.

وبقوله: «وأنتم عَاكفونَ في المساجد»، يقول: في حال عُكوفكم في المساجد، وتلك حال حَبْسِهم أنفسهم على عبادة الله في مساجدهم.

«والعكوف» أصله المقام، وحبسُ النفس على الشيء.

وقد اختلف أهل التأويل في معنى «المباشرة» التي عنى الله بقوله: «ولا تُباشروهن».

فقال بعضهم: معنى ذلك: الجماعُ دون غيره من معاني «المباشرة».

وقال آخرون: معنى ذلك على جميع معاني «المباشرة»، من لَمْسٍ وقُبلةٍ وجِماع.

وعلة مَنْ قال هذا القول: أن الله تعالى ذِكْرُه عَمَّ بالنهي عن المباشرة، ولم يُخَصِّصْ منها شيئاً دون شيء. فذلك على ما عَمَّهُ، حتى تأتي حُجةٌ يجبُ التسليمُ لها بأنه عنى به مباشرةً دون مباشرةٍ.

وأولى القولين عندي بالصواب قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: الجماعُ، أو ما قام مقامَ الجماع، مما أوجبَ غسلاً إيجابه. وذلك أنه لا قولَ في ذلك إلا أحد قولين:

إما جعلُ حُكْمِ الآيةِ عامّاً، أو جَعل حكمها في خاص من معاني المباشرة.

وقد تظاهرت الأخبار عن رسول الله ﷺ: أن نساءه كنّ يُرَجِّلْنه وهو معتكف. فلمّا صَحَّ ذلك عنه، عُلِمَ أنَّ الذي عني به من معاني المباشرة، البعض دون الجميع. فعن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا اعتكف يُدني إليَّ رأسه فأرَجِّله[1]. وعنها رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يُدني إليَّ رأسه وهو مُجاورٌ في المسجد، وأنا في حجرتي، وأنا حائضٌ، فأغسله وأرَجِّله[2].

فإذْ كان صحيحاً عن رسولِ الله ﷺ ما ذكرنا من غَسل عائشة رأسَهُ وهو معتكفٌ، فمعلومٌ أنَّ المراد بقوله: «ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد»، غيرُ جميع ما لزمه اسم «المباشرة» ـ وأنه معنيٌّ به البعض من معاني المباشرة دون الجميع. فإذْ كان ذلك كذلك، وكان مُجْمَعاً على أنّ الجماع مما عُني به، كان واجباً تحريمُ الجماع على المعتكفِ وما أشبهه، وذلك كلُّ ما قام في الالتذاذ مقامه منَ المباشرة.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: هذه الأشياء التي بيّنتها: من الأكل والشرب والجماع في شهر رمضان نهاراً في غير عذر، وجماع النساء في الاعتكاف في المساجد، يقول: هذه الأشياء حَدَّدتُها لكم، وأمرْتُكم أن تجتنبوها في الأوقاتِ التي أمرتكم أن تجتنبوها، وحرَّمتها فيها عليكم، فلا تقرَبُوها، وابعُدوا منها أن

(١) أخرجه البخاري (٢٠٢٩) و(٢٠٣٣) و(٢٠٣٤) و(٢٠٤١) و(٢٠٤٥)، ومسلم (٢٩٧).

(٢) نفسه.

تركبوها، فتستحقُّوا بها من العقوبة ما يستحقه من تعدّى حُدودي، وخالف أمري، وركب معاصيّ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: كما بيَّنت لكم أيها الناس واجبَ فرائضي عليكم من الصوم، وعرَّفتكم حدودَه وأوقاته، وما عليكم منه في الحَضَر، وما لكم فيه في السفر والمرض، وما اللازمُ لكم تجنُّبه في حال اعتكافِكم في مساجدكم، فأوضحتُ جميعَ ذلك لكم ـ فكذلك أبيِّنُ أحكامي، وحلالي وحَرامي، وحُدودي، وأمري ونهيي، في كتابي وتنزيلي، وعلى لسان رسولي ﷺ للناس.

ويعني بقوله: «لعلهم يتقون»، يقول: أبيِّنُ ذلك لهم ليتقوا مَحارمي ومعاصيّ، ويتجنَّبوا سَخطي وغَضبي، بتركهم رُكوبَ ما أبيِّنُ لهم في آياتي أني قد حرَّمته عليهم، وأمرتهم بهجره وتركه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: ولا يأكل بعضُكم مالَ بعض بالباطل. فجعل تعالى ذِكْرُه بذلك آكلَ مالِ أخيه بالباطل، كالآكلِ مالَ نَفسهِ بالباطل.

ونَظيرُ ذلك قولهُ تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١]،

وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، بمعنى: لا يلمزْ بعضكم بعضاً، ولا يقتُلْ بعضكم بعضاً. لأن الله تعالى ذِكْرُه جعل المؤمنين إخوةً، فقاتلُ أخيهِ كقاتلِ نفسه، ولامِزُهُ كلامزِ نفسه. وكذلك تفعل العرب، تكني عن نفسها بأخواتها، وعن أخواتها بأنفسها، فتقول: «أخي وأخوك أيُّنا أبطش».

يعني: أنا وأنت نصْطرع، فننظر أيُّنا أشدّ - فيكني المتكلم عن نفسه بأخيه، لأن أخا الرجل عندها كنفسه.

فتأويل الكلام: ولا يأكلْ بعضكم أموال بعضٍ فيما بينكم بالباطل.

«وأكله بالباطل» أكْلُهُ من غيرِ الوجهِ الذي أباحه اللهُ لآكليهِ.

وأما قوله: «وتُدلوا بها إلى الحكام»، فإنه يعني: وتخاصموا بها - يعني: بأموالكم - إلى الحكام «لتأكلوا فريقاً» - طائفة - من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون.

ويعني بقـولـه: «بالإثم»، بالحرام الذي قد حَرَّمَهُ اللهُ عليكم، «وأنتم تعلمون»، أي: وأنتم تَتعمَّدُونَ أكلَ ذلك بالإثم، على قَصْدٍ منكم إلى ما حَرَّم الله عليكم منه، ومعرفةٍ بأنَّ فِعْلَكُمْ ذلك معصية لله وإثم.

وأصل «الإدلاء»: إرسالُ الرجل الدلو في سَببٍ متعلقاً به في البئر. فقيل للمحتج لدعواه: «أدلى بحجة كيت وكيت»، إذا كان حجته التي يحتج بها سَبباً له، هو به متعلقٌ في خصومته، كتعلّق المستقي من بئر بدَلو قد أرسلها فيها بسببها الذي الدلو به متعلقة. يقال فيهما جميعاً - أعني من الاحتجاج، ومن إرسال الدلو في البئر بسبب: «أدلى فلان بحجته، فهو يُدلي بها إدلاء - وأدلى دلوه في البئر، فهو يدليها إدلاء».

فأما قوله: «وتدلوا بها إلى الحكام»، فإن فيه وَجهين من الإعراب:

أحدهما: أن يكون قوله: «وتُدْلوا» جزماً عطفاً على قوله: «ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل»، أي: ولا تدلوا بها إلى الحكام. وقد ذُكر أن ذلك كذلك في قراءة أُبَيٍّ بتكرير حرف النهي: «ولا تدلوا بها إلى الحكام».

والآخر منهما: النصب على الصرْف[1]، فيكون معناه حينئذ: لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وأنتم تدلون بها إلى الحكام.

وهو أنْ يكون في موضع جزم ـ على ما ذُكر في قراءة أُبَيّ ـ أحسن منه أن يكون نَصباً.

القول في تأويل قوله تعالى. ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾

وتأويل الآية: يسألونك يا محمد عن الأهلة ومحاقها وسِرَارِها وتَمامها واستوائها، وتغير أحوالها بزيادةٍ ونُقصانٍ ومَحاق واستسرار، وما المعنى الذي خَالف بينه وبين الشمس التي هي دائمة أبداً على حال واحدة لا تتغيرُ بزيادةٍ ولا نقصان؟ ـ فقل يا محمد: خالف بين ذلك ربُّكم لتصييره الأهلة ـ التي سألتم عن أمْرِهَا، ومخالفة ما بينها وبين غيرها فيما خالف بينها وبينه ـ مواقيتَ لكم ولغيركم من بني آدم في معايشهم، ترقبون بزيادتها ونقصانها ومحاقِها

---

(١) ذكر الفراء في كتابه «معاني القرآن» ١/٣٣: «فإن قلت: وما الصرف؟ قلت: أن تأتي بالواو معطوفاً على كلام في أوله حادثة لا تستقيم كعادتها على ما عطف عليها، فإذا كان كذلك فهو الصرف كقول الشاعر:

لا تنه عن خلق وتأتيَ مثله ... عارٌ عليك إذا فعلت عظيمُ

ألا ترى أنه لا يجوز إعادة «لا» في «تأتي مثله»، فلذلك سمي صرفاً، إذ كان معطوفاً، ولم يستقم أن يعاد فيه الحادث قبله».

واستسرارها وإهلالكم إياها، أوقاتَ حَلِّ ديونكم، وانقضاء مدة إجارة مَن استأجرتموه، وتصرُّم عدة نسائكم، ووقت صومكم وإفطاركم، فجعلها مواقيت للناس.

وأما قوله «والحج» فإنه يعني: وللحجِّ. يقول: جعلها أيضاً ميقاتاً لحجكم، تعرفون بها وقتَ مناسككم وحَجكم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾

نزلت هذه الآية في قوم كانوا لا يدخلون ـ إذا أحرموا ـ بيوتَهم من قبل أبوابها.

فعن البراء قال: كانت الأنصارُ إذا حَجُّوا ورَجعوا لم يدخلوا البيوتَ إلا من ظُهورها. قال: فجاء رجل من الأنصار فدخل من بابه، فقيل له في ذلك، فنزلت هذه الآية: «وليسَ البرُّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها»[1].

فتأويل الآية إذاً: وليس البر أيها الناس بأن تأتوا البيوتَ في حال إحرامكم من ظهورها، ولكن البر من اتقى الله، فخافَهُ وتَجَنَّبَ محارمه، وأطاعه بأداءِ فرائضه التي أمره بها. فأما إتيانُ البيوتِ من ظهورها فلا برَّ لله فيه، فأتوها من حيثُ شئتُم من أبوابها وغير أبوابها، ما لم تعتقدوا تحريم إتيانها من أبوابها في حالٍ من الأحوال، فإن ذلك غيرُ جائز لكم اعتقادُه، لأنه مما لم أحرمه عليكم.

(١) أخرجه البخاري (١٨٠٣) و(٤٥١٢)، ومسلم (٣٠٢٦).

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ١٨٩﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: واتقوا الله أيها الناسُ، فاحذروه وارهبوه، بطاعته فيما أمركم به من فرائضه، واجتناب ما نهاكم عنه، لتفلحوا فتنجحوا في طلباتكم لديه، وتُدْرِكُوا به البقاءَ في جَنَّاته، والخلودَ في نعيمه.

وقد بيَّنا معنى «الفلاح» فيما مضى قبلُ بما يدل عليه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ١٩٠﴾

وتأويل الآية: وقاتلوا أيها المؤمنون في سبيل الله وسبيلُه: طريقه الذي أوضحه، ودِينُه الذي شرعه لعباده ـ يقول لهم تعالى ذِكْرُه: قاتلوا في طاعتي وعَلى ما شرعتُ لكم من ديني، وادعوا إليه مَنْ وَلَّى عنه واستكبر بالأيدي والألسن، حتى يُنيبوا إلى طاعتي، أو يعطوكم الجزيةَ صَغاراً إنْ كانوا أهلَ كتاب. وأمرهم تعالى ذِكْرُه بقتال مَنْ كان منه قتالٌ من مُقاتِلة أهلِ الكفر، دون مَنْ لم يكن منه قتالٌ، من نسائهم وذراريهم، فإنهم أموال وخَوَلٌ لَهم، إذا غُلب المقاتلون منهم فقُهِروا. فذلك معنى قوله: «قاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم». لأنه أباح الكَفَّ عَمَّنْ كَفَّ فلم يُقاتل من مشركي أهل الأوثان، والكافِّين عن قتال المسلمين مِّمن كفار أهل الكتاب على إعطاء الجزية صَغاراً.

فمعنى قوله: «ولا تعتدوا»: لا تقتلوا وليداً ولا امرأةً، ولا من أعطاكم الجزية من أهل الكتابَين والمجوس، «إنَّ الله لا يُحب المعتدين»، الذين يجاوزون حدوده، فيستحلُّونَ ما حرَّمه الله عليهم من قتل هؤلاء الذين حَرَّم قتلهم من نساء المشركين وذراريهم.

القـــول في تأويل قولــه تعـــالـى: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾

يعني تعـالى ذِكْـرُه بذلـك: واقتلوا أيهـا المؤمنون الذين يقاتلونكم من المشركين حيثُ أصبتُم مَقاتِلَهم وأمْكَنَكُم قتلهم. وذلك هو معنى قوله: «حيث ثقفتموهم».

ومعنى «الثَّقْفَة» بالأمر: الحِذق به والبصر، يقال: «إنه لثَقِف لَقِفٌ»، إذا كان جَيِّدَ الحَذر في القتال، بصيراً بمواقع القتل. وأما «التَّثْقِيف»، فمعنى غير هذا، وهو التقويم.

فمعنى: «واقتلوهم حيث ثقفتموهم»، اقتلوهم في أيِّ مكان تمكنتم من قتلهم، وأبصرتم مقاتلهم.

وأما قوله: «وأخرجوهم من حيث أخرجوكم»، فإنه يَعني بذلك المهاجرينَ الذين أُخْرِجُوا من ديارهم ومنازلهم بمكة، فقال لهم تعالى ذِكْرُه: أخرجوا هؤلاء الـذين يقـاتلونكم - وقـد أخـرجوكم من دياركم - من مساكنهم وديارهم كما أخرجوكم منها.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «والفتنة أشد من القتل»، والشركُ بالله أشدُّ من القتل.

وقد بيَّنت فيما مضى أنَّ أصل «الفتنة»، الابْتلاءُ والاختبار.

فتأويل الكلام: وابتلاءُ المؤمن في دينه حتى يرجعَ عنه فيصيرَ مشركاً بالله من بعد إسلامه، أشدُّ عليه وأضرُّ من أنْ يُقتلَ مقيماً على دينه، متمسكاً عليه، مُحقّاً فيه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾﴾

والقَرَأَةُ مختلفةٌ في قراءة ذلك.

فقرأته عامَّة قراء المدينة ومكة: «ولا تُقاتلوهم عندَ المسجد الحرام حتى يُقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم»، بمعنى: ولا تبتدئوا - أيها المؤمنون - المشركينَ بالقتالِ عند المسجد الحرام، حتى يبدأوكم به، فإن بدأوكم به هناك عند المسجد الحرَام في الحرم، فاقتلوهم، فإنَّ الله جعلَ ثَوابَ الكافرِيَن على كفرهم وأعمالِهم السيئة، القتل في الدنيا، والخزي الطويل في الآخرة.

وقال بعضُهم: هذه آيةٌ محكمة غيرُ منسوخة.

وقرأ ذلك عُظْمُ قُرَّاءِ الكوفيين: «ولا تَقْتلوهم عند المسجد الحرام حَتى يَقْتُلوكم فيه فإنْ قَتلوكم فاقتلوهم»، بمعنى: ولا تبدأوهم بقتلٍ حتى يبدأوكم به.

وأولى هاتين القراءتين بالصواب، قراءةُ مَنْ قرأ: «ولا تُقاتلوهم عند المسجد الحرام حَتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم». لأن الله تعالى ذِكْرُه لم يأمر نبيَّه ﷺ وأصحابه في حالٍ - إذا قاتلهم المشركون - بالاستسلام لهم حتى يَقتلوا منهم قتيلاً، بعد ما أذن لَهُ ولهم بقتالهم، فتكونَ القراءة بالإذن بقتلهم بعد أن يقتلوا منهم، أولى من القراءة بما اخترنا. وإذ كان ذلك كذلك، فمعلومٌ أنه قد كان تعالى ذِكْرُه أذِن لهم بقتالهم، إذا كان ابتداء القتال من المشركين، قَبل أن يقتلوا منهم قتيلاً وبعد أن يقتلوا منهم قتيلاً.

وقد نسخ الله تعالى ذِكْرُه هذه الآية بقوله: «وقاتلوهم حَتى لا تكون فتنة»، وقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] ونحو ذلك من الآيات.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٩٢﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: فإن انتهى الكافرون الذين يقاتلونكم عن قتالكم وكفرهم بالله، فتركوا ذلك وتابوا، «فإنَّ الله غفورٌ» لذنوبِ مَنْ آمَنَ منهم وتابَ من شِرْكِهِ، وأناب إلى الله من معاصيه التي سلفت منه، وأيامه التي مَضت، «رحيم» به في آخرته، بفضلِهِ عليه، وإعطائِهِ ما يعطى أهلَ طاعتِهِ من الثواب، بإنابته إلى محبته من مَعصيته.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ: وقاتلوا المشركين الذين يقاتلونكم حتى لا تكون فتنة، يعني: حتى لا يكون شِرْكٌ بالله، وحتى لا يُعْبَدَ دونهُ أحدٌ، وتضمحلَّ عبادةُ الأوثانِ والآلهة والأنداد، وتكون العبادةُ والطاعة لله وحده دون غيره من الأصنام والأوثان.

وأما «الدين»، الذي ذكره الله في هذا الموضع، فهو العبادة والطاعة لله في أمره ونهيه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ۝١٩٣﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «فإن انتهوا»، فإن انتهى الذين يقاتلونكم من الكفار عن قتالِكم، وَدخلُوا في مِلَّتِكُمْ، وأقرُّوا بما ألزمكم الله من فرائضه، وتركوا ما هم عليه من عبادة الأوثان، فَدَعُوا الاعتداءَ عليهم وقتالَهم وجهادَهم،

فإنه لا ينبغي أن يُعتدى إلا على الظالمين ـ وهم المشركون بالله، والذين تركوا عبادته وعبدوا غيرَ خالِقِهم.

فإن قال قائل: وهل يجوز الاعتداء على الظالم فيقال: «فَلا عُدوان إلاّ على الظالمين»؟

قيل: إن المعنى في ذلك على غير الوجه الذي إليه ذهبتَ. وإنما ذلك على وَجه المجازاة، لما كان من المشركين من الاعتداء. يقول: افعلوا بهم مِثْلَ الذي فعلوا بكم، كما يقال: «إن تَعاطيتَ منّي ظلماً تعاطيته منك»، والثاني ليس بظلم، وإنما كان ذلك نظير قوله: ﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥]، وَ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩]، وقد بيَّنا وجه ذلك ونظائره فيما مَضى قبلُ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَـٰتُ قِصَاصٌ﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «الشهر الحرام بالشهر الحرام»، ذا القعدة، وهو الشهرُ الذي كان رسولُ الله ﷺ اعتمر فيه عُمْرَةَ الحُدَيبية، فصدَّهُ مشركو أهلِ مكةَ عن البيتِ ودخول مكة، سنة ستٍ من هجرته. وصالح رسولُ الله ﷺ المشركين في تلك السنة، على أنْ يعودَ من العام المقبل فيدخلَ مكةَ ويقيمَ ثلاثاً. فلما كان العامُ المقبل، وذلك سنة سبع من هجرته، خرج معتمراً وأصحابه في ذي القَعدة ـ وهو الشهر الذي كان المشركون صدُّوه عن البيت فيه في سنة ست ـ وأخلى له أهلُ مكة البلد حتى دخلها رسولُ الله ﷺ، فقضى حاجته منها، وأتَمَّ عمرته، وأقام بها ثلاثاً ـ ثم خرج منها منصرفاً إلى المدينة.

فقال الله جَلَّ ثناؤه لنبيِّه ﷺ وللمسلمين مَعه «الشهرُ الحرام» - يعني ذا القعدة، الذي أوصَلكم الله فيه إلى حَرمهِ وبيتهِ، على كراهة مشركي قُريش ذلك، حتى قضيتم منه وَطَركم - «بالشهر الحرام»، الذي صَدَّكُم مشركو قريش العامَ الماضيَ قَبله فيه حتى انصرفتم عن كُرْهٍ منكم عن الحرم، فلم تدخلوه، ولم تصلوا إلى بيت الله، فأقصَّكم الله أيها المؤمنون من المشركين بإدخالكم الحرم في الشهر الحرام على كرهٍ منهم لذلك، بما كان منهم إليكم في الشهر الحرام من الصَدِّ والمَنْعِ من الوصول إلى البيت.

وإنما سمى الله جَلَّ ثناؤه ذا القَعدة «الشهرَ الحرام»، لأن العرب في الجاهلية كانت تحرِّمُ فيه القتالَ والقتلَ، وتضعُ فيه السلاح، ولا يقتل فيه أحدٌ أحداً، ولو لقيَ الرجلُ فيه قاتلَ أبيه أو ابنه. وإنما كانوا سموه «ذا القَعدة» لقعودهم فيه عن المغازي والحروب، فسماه الله بالاسم الذي كانت العرب تُسَمِّيه به.

وأما «الحرمات» فإنها جمع «حرْمة»، «كالظلمات» جمع «ظلمة» و«الحجرات» جمع «حُجرة»، وإنما قال جَلَّ ثناؤه: «والحرمات قصاص» فجمع لأنه أراد: الشهرَ الحرام، والبلدَ الحرام، وحُرمةَ الإحرام.

فقال جَلَّ ثناؤه لنبيِّه محمد ﷺ والمؤمنين معه: دخولكم الحرَم، بإحرامكم هذا، في شهركم هذا الحرام، قصاصٌ مما مُنِعْتُمْ من مِثْلِهِ عامَكم الماضي. وذلك هو «الحرمات» التي جعلها الله قَصاصاً.

وقد بيَّنا أن «القصاص» هو المجازاةُ من جهة الفعل أو القول أو البَدن، وهو في هذا الموضع من جهة الفعل.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾

وقوله: «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم» مدنيّ لا مكّي، إذْ كان فرضُ قتال المشركين لم يكن وَجَب على المؤمنين بمكة، وأنّ قوله: «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم»، نظيرُ قوله: «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم»، وأن معناه: فمن اعتدى عليكم في الحرَم فقاتلَكم فاعتدوا عليه بالقتال نحو اعتدائِهِ عليكم بقتالِه إياكم، لأني قد جعلتُ الحُرمات قصاصاً، فمن استحلّ منكم أيها المؤمنون من المشركين حُرْمَةً في حَرَمي، فاسْتَحِلُّوا منه مِثْلَهُ. فيه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝١٩٤﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بذلك: واتقوا أيها المؤمنون في حُرماته وحدوده أن تعتَدُوا فيها، فتتجاوزوا فيها ما بيَّنه وحدَّه لكم، واعلموا أنَّ الله يُحب المتقين، الذين يتقونه بأداء فَرائضه وتجنب محارمه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٩٥﴾

والصواب من القول في ذلك عندي أنْ يُقال: إنَّ الله جَلَّ ثناؤه أمَر بالإنفاق في سبيله بقوله: «وأنفقوا في سبيل الله» - وسبيلُه: طريقه الذي شَرَعه لعباده وأوضحه لهم. ومعنى ذلك: وأنفقوا في إعزاز ديني الذي شرعتُه لكم، بجهاد عدوِّكم الناصبين لكم الحربَ على الكفر بي، ونَهاهم أنْ يُلْقُوا بأيديهم إلى التَّهْلُكَةِ فقال: «ولا تُلقوا بأيديكم إلى التهلكة».

وذلك مثلٌ: والعربُ تقول للمستسلم للأمر: «أعطَى فلان بيديه»،

وكذلك يقال للممكِّنِ من نفسهِ مما أُريدَ به: «أعطى بيديه».

فمعنى قوله: «ولا تُلقوا بأيديكم إلى التهلكة»، ولا تستسلموا للهلكة، فتُعطوها أزمَّتكم فتهلكوا.

والتاركُ النفقةَ في سبيلِ الله عند وجوبِ ذلك عليه، مستسلمٌ للهلكة بتركهِ أداءَ فرضِ الله عليه في ماله. وذلك أنَّ الله جَلَّ ثناؤه جَعل أحدَ سهام الصدقات المفروضات الثمانية «في سبيله»، فقال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ إلى قوله: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [التوبة: ٦٠] فمن ترك إنفاقَ ما لزمه من ذلك في سبيل الله على ما لزمه، كان للهلكةِ مستسلماً، وبيديهِ للتهلكةِ ملقياً.

وكذلك الآئسُ من رحمة الله لذنبٍ سَلَفَ منه، مُلْقٍ بيديه إلى التهلكة. لأن الله قد نهى عن ذلك فقال: ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وكذلك التاركُ غزوَ المشركين وجهادَهم، في حالِ وجوبِ ذلك عليه، في حال حاجة المسلمين إليه، مُضيعٌ فرضاً، مُلقٍ بيده إلى التهلكة.

فإذ كانت هذه المعاني كلها يحتملها قوله: «ولا تُلقوا بأيديكم إلى التهلكة»، ولم يكن الله عَزَّ وجل خصَّ منها شيئاً دون شيء، فالصوابُ من القول في ذلك أن يقال: إن الله نهى عن الإلقاء بأيدينا لما فيه هلاكُنا، والإستسلام للهلكة ـ وهي العذاب ـ بتركِ ما لزمنا من فرائضه. فغيرُ جائزٍ لأحدٍ منا الدخولُ في شيءٍ يكرهه اللهُ منا، مِمَّا نستوجبُ بدخولنا فيه عَذابَهُ.

غير أن الأمر وإنْ كان كذلك، فإنَّ الأغلبَ من تأويلِ الآية: وأنفقوا، أيها المؤمنون، في سبيل الله، ولا تتركوا النفقةَ فيها، فتهلكوا باستحقاقكم ـ بترككم ذلك ـ عذابي.

فيكون ذلك إعلاماً منه لهم - بعد أمره إياهم بالنفقة - ما لِمَنْ تَرَكَ النفقةَ المفروضة عليه في سبيله، منَ العقوبة في المعاد.

وأما «التهلكة»، فإنها «التفعُلة» من «الهلاك».

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٩٥﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «وأحسنوا»، أحسنوا أيها المؤمنون في أداء ما أَلْزَمْتُكُمْ من فرائضي، وتجنُّب ما أمرتكم بتجنبه من معاصيَّ، ومن الإنفاق في سبيلي، وعَوْدِ القوي منكم على الضعيف ذي الخَلَّة، فإنّي أحبّ المحسنين في ذلك.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾

(اختلف القَرَأَةُ في قراءة «العمرة» فقرأها عامتهم بالنصب وقرأها بعضهم بالرفع).

وأولى القراءتين بالصواب في ذلك عندنا، قراءةُ مَنْ قرأ بنصب «العمرة»، على العطف بها على «الحجّ»، بمعنى الأمر بإتمامهما له. ولا معنى لاعتلال من اعتلَّ في رفعها بأن «العمرة» زيارة البيت. فإن المعتمر متى بلغه، فلا عمل بقي عليه يؤمر بإتمامه. وذلك أنه إذا بلغ البيت فقد انقضت زيارته، وبقي عليه تمامُ العمل الذي أمره الله به في اعتماره وزيارَته البيت، وذلك هو الطوافُ بالبيت، والسعيُ بين الصفا والمروة، وتجنبُ ما أمر الله بتجنبه إلى إتمامه ذلك. وذلك عملٌ - وإن كان مما لزمه بإيجابِ الزيارةِ على نفسه - غيرُ الزيارة. هذا، مع إجماع الحجة على قراءة «العمرة» بالنصب، ومخالفة جميع قَرَأَةِ الأمصارِ قراءةَ مَنْ قرأ ذلك رفعاً. ففي ذلك مستغنى عن الاستشهاد على خطأ

من قرأ ذلك رفعاً.

وتأويل قوله: «والعمرةَ لله»، على قراءة من قرأ ذلك نصباً [يعني]: وأتِمُّوا الحج والعمرة لله إلى البيت، بعد إيجابكم إياهما ـ لا أنَّ ذلك أمرٌ من الله عَزَّ وجل ـ بابتداء عَمَلهما والدخول فيهما، وأداء عملهما بتمامه ـ بهذه الآية.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾

وتأويل قوله: «فإنْ أحْصرتم»، فإن أحْصَركم خوفُ عَدوٍّ أو مرضٌ أوْ علةٌ عن الوصولِ إلى البيت أي: صيَّركم خوفكم أو مرضكم تَحصُرون أنفسكم فتحبسونها عن النفوذ لما أوجبتُموه على أنفسكم من عمل الحج والعمرة. فلذا قيل: «أحصرتم»، لمَّا أسقط ذِكر الخوف والمرض. يقال منه: «أحصرني خوفي من فلان عن لقائك، ومَرَضي عن فلان»، يراد به: جعلني أحبسُ نفسي عن ذلك، فأما إذا كان الحابس الرجلُ والإنسانُ، قيل: «حَصرَني فلانٌ عن لقائك»، بمعنى: حبسني عنه.

فلو كان معنى الآية ما ظنه المتأوِّل من قوله: «فإن أحصِرْتم»، فإن حبسكم حابس من العدوِّ عن الوصولِ إلى البيت ـ لوجب أن يكون: فإن حُصِرْتم.

ومما يُبَيِّن صحةَ ما قلناه، من أن تأويل الآية مرادٌ بها إحصارُ غير العدوِّ، وأنه إنما يراد بها الخوفُ من العدو، قولُه: «فإذا أمِنْتُم فَمَنْ تَمَتَّعَ بالعُمْرة إلى الحج». و«الأمنُ» إنما يكونُ بزوالِ الخوف. وإذ كان ذلك كذلك، فمعلوم أنَّ الإحصارَ الذي عنى الله في هذه الآية، هو الخوفُ الذي يكون بزوالِه الأمنُ. وإذْ كان ذلك كذلك، لم يكن حَبسُ الحابس الذي ليس مع حَبْسه خوفٌ على

النفس من حبسه، داخلاً في حكم الآية بظاهرها المتْلوّ، وإنْ كان قد يُلحق حكمه عندنا بحكمه من وجه القياس، من أجل أن حَبْس مَنْ لا خَوفَ على النفس من حبسه، كالسلطان غير المَخُوفة عقوبته، والوالدِ، وزوج المرأة، إن كان منهم أو من بعضِهم حبس ومنعٌ عن الشخوصِ لعملِ الحج أو الوصولِ إلى البيتِ بعد إيجابِ الممنوع الإحرامَ، غيرُ داخلٍ في ظاهر قوله: «فإن أحصرتم»، لما وصفنا من أنَّ معناه: فإنْ أُحْصَرَكُمْ خوفُ عدوٍّ ـ بدلالة قوله: «فإذا أمنتم فمن تَمتَّع بالعمرة إلى الحج».

وإذ كان ذلك أولى التأويلين بالآية لما وصفنا، وكان ذلك منعاً من الوصول إلى البيت، فكل مانعٍ عَرضَ للمحرمِ فَصَدَّهُ عن الوصول إلى البيت، فهو له نظير في الحكم.

ثم اختلف أهل العلم في تأويل قوله: «فما اسْتَيْسَرَ من الهدي».

فقال بعضهم: هو شاةٌ.

وقال آخرون: «ما استيسر من الهدي»: من الإبل والبقر، سنٌّ دون سنٍ.

وأولى القولين بالصواب قول من قال: «ما استيسر من الهدي» شاة. لأن الله جَلَّ ثناؤه إنما أوجب ما استيسر من الهدي. وذلك على كل ما تيسَّر للمهدِي أن يهديَه، كائناً ما كان ذلك الذي يُهدِي، إلا أن يكون الله جَلَّ ثناؤه خصَّ من ذلك شيئاً، فيكون ما خصَّ من ذلك خارجاً من جملة ما احتمله ظاهرُ التنزيل، ويكون سائر الأشياء غيرُه مجزئاً إذا أهداه المهدي، بعد أن يستحق اسم «هدْي».

فإن قال قائل: فإنّ الذين أبوا أن تكون الشاة مما استيسر من الهدي، بأنه لا يستحق اسم «هَدْي»، كما أنه لو أهدَى دجاجةً أو بيضةً، لم يكن مُهدياً هَدْياً مُجزئاً.

قيل: لو كان في المهدِي الدجاجةَ والبيضة من الاختلاف، نحو الذي في المُهْدِي الشاة، لكان سبيلهما واحدة: في أن كلَّ واحد منهما قد أدَّى ما عليه بظاهـر التنزيل، إذ لم يكن أحد الهديين مُخْرِجَهُ من أنْ يكون مؤدياً - بإهدائه ما أهدى من ذلك - مما أوجبه اللهُ عليه في إحصاره. ولكن لما أُخرج المهدي ما دون الجَذَع من الضأن، والثّني من المعز والإبل والبقر فصاعداً من الأسنان - من أن يكون مهدياً ما أوجبه الله عليه في إحصاره أو متعته - بالحجة القاطعة العذرَ نقلاً عن نبيّنا ﷺ وراثةً، كان ذلك خارجاً من أن يكون مراداً بقوله: «فما استيسر من الهدْي»، وإن كان مما استيسر لنا من الهدايا.

ولما اختُلِف في الجذع من الضّأن والثّني من المعِز، كان مجزئاً ذلك عن مُهديه، لظاهر التنزيل، لأنه مما استيسر من الهدْي.

فإن قال قائل: فما محلّ «ما» التي في قوله جَلَّ وعزّ: «فما استيسر من الهدْي»؟

قيل: رفعٌ.

فإن قال: بماذا؟

قيل: بمتروكٍ، وذلك «فعَلَيْهِ»، لأنه تأويل الكلام: وأتموا الحج والعمرة، أيها المؤمنون، لله، فإنْ حَبَسَكُم عن إتمامِ ذلك حابسٌ من مَرَضٍ أو كسرٍ أو خوف عدّوٍ، فعليكم - لإحلالكم، إنْ أردتم الإحلالَ من إحرامكم - ما استيسر من الهدي. وإنما اخترنا الرفع في ذلك، لأنَّ أكثرَ القرآن جاء برفع نظائره، وذلك كقوله: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ﴾ وكقـولـه: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِـدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَـةِ أَيَّامٍ﴾، وما أشبه ذلك. مما يطولُ بإحصائه الكتابُ، تركنا ذكره استغناء بما ذكرنا عنه.

ولو قيل: موضع «ما» نصبٌ، بمعنى: فإن أحصرتم فَأهدُوا ما استيسر من

الهدي، لكان غير مخطىء قائلُه.

وأما «الهدي»، فإنه جمع، واحدها «هديّة»، على تقدير «جدِيَّة السرج» والجمع «الجَدْي» مخفف.

وبتخفيف «الياء» وتسكين «الدال» من «الهدي» قرأه القَرَأَةُ في كل مصر، إلا ما ذُكر عن الأعرج.

و«الهـدي» عنـدي إنمـا سمي «هدياً» لأنه تَقرَّب به إلى الله جَلَّ وعَزَّ مُهْـدِيهِ، بمنـزلـةِ الهـدية يُهديها الرجلُ إلى غيره متقرباً بها إليه. يقال منه: «أهديتُ الهدي إلى بيت الله، فأنا أهديه إهداء». كما يقال في الهدية يُهديها الرجلُ إلى غيره: «أهديتُ إلى فلان هَدِيَّةً وأنا أهديها»، ويقال للبدَنة «هدية».

القـول في تأويل قولـه تعـالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾

يعني بذلـك جَلَّ ثناؤه: فإنْ أُحْصرتم، فأردتم الإحلالَ من إحرامكم، فعليكم ما استيسر من الهدي. ولا تُحِلُّوا من إحرامكم إذا أُحصرتم حتى يَبلُغَ الهديُ ـ الذي أوجبتُه عليكم لإحلالكم من إحرامكم الذي أُحصرتم فيه، قبل تمـامِه وانقضاء مشاعره ومناسِكه ـ مَحِلَّهُ. وذلك أنَّ حَلْقَ الرأسِ إحلالٌ من الإحرامِ الذي كان المحرِمُ قد أوجبه على نفسه. فنهاه الله عن الإحلالِ من إحرامه بحِلاقهِ، حتى يبلغ الهديُ ـ الذي أباحَ الله جَلَّ ثناؤه له الإحلال بإهدائه ـ محلَّه.

ثم اختلف أهـلُ العلم في «مَحِلّ» الهدي الذي عناه الله جَلَّ اسمه، الذي متى بلغه كان للمحصر الإحلال من إحرامه الذي أحصر فيه.

فقال بعضهم: محلّ هدي المحصر الذي يَحلُّ به ويجوزُ له ببلوغهِ إياه حَلْقُ رأسه - إذا كان إحصارُه من خوفِ عَدُوٍّ منعه ذَبْحَه، إنْ كان مما يُذْبَح، أو نحرَه إن كان مما يُنْحَر، في الحل ذبح أو نحر أو في الحرم - حيث حبس وإن كان من غير خوف عدو، فلا يَحلّ حتى يَطوفَ بالبيت ويسعى بَين الصّفا والمروة. وهذا قولُ مَنْ قال: الإحصارُ إحصارُ العدوِّ دونَ غيرهِ.

وقال بعضهم: مَحِلُّ هَدي المحصر الحرمُ، لا محلَّ له غيره.

وأولى هذه الأقوال بالصواب في تأويل هذه الآية، قولُ من قال: إن الله عَزَّ وجل عَنى بقوله: «فإن أحصرتم فما استيْسر من الهدْي ولا تَحلِقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي مَحِله» - كُلَّ مُحْصَرٍ في إحرامٍ، بعمرةٍ كان إحرامُ المحصر أو بحجٍ. وجَعل مَحل هديه الموضعَ الذي أحصِر فيه، وجعل له الإحلال من إحرامه ببلوغ هديه مَحِلَّه - وتأوَّل بـ«المحلّ» المَنْحَرَ أو المَذْبَح، وذلك حينَ حلّ نحرُه أو ذبحُه، في حرم كان أو في حل، وألزمه قضاءَ ما حَلَّ منه من إحرامه قبل إتمامه إذا وجدَ إليه سبيلاً، وذلك لتواترِ الأخبارِ عن رسول الله ﷺ أنه صُدَّ عام الحديبية عن البيتِ وهو محرمٌ وأصحابه بعمرة، فنحر هو وأصحابُه بأمره الهديَ، وحلّوا من إحرامهم قبل وصولهم إلى البيت، ثم قضَوا إحرامهم الذي حَلُّوا منه في العام الذي بعده. ولم يدَّع أحدٌ من أهل العلم بالسِّير ولا غيرهم أنَّ رسولَ الله ﷺ ولا أحداً من أصحابه أقام على إحرامه انتظاراً للوصول إلى البيت، والإحلال بالطواف به وبالسعي بين الصفا والمروة، ولا تحفَّى وصولَ هَديه إلى الحرم.

فأولى الأفعال أن يُقْتَدَى به فعلُ رسول الله ﷺ، إذ لم يأت بحظره خبرٌ، ولم تَقُمْ بالمنْعِ منه حُجة. فإذْ كان ذلك كذلك، وكان أهل العلم مُختلفين فيما اخترنا من القول في ذلك - فمن متأوِّلٍ معنى الآية تأويلَنا، ومن مُخالفٍ ذلك، ثم كان ثابتاً بما قلنا عن رسول الله ﷺ النَّقلُ - كان الذي نُقل عنه أولى

الأمور بتأويل الآية، إذْ كانت هذه الآية لا يَتدافع أهل العلم أنها يَومئذ نزلت، وفي حُكم صدِّ المشركين إياهُ عن البيت أُوحِيَتْ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي، ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يَبلغ الهديُ مَحِله، إلا أن يُضطر إلى حلقه منكم مضطرٌ، إما لمرضٍ، وإما لأذىً برأسه من هوامّ أو غيرها، فيحلق هنالك للضرورة النازلة به، وإن لم يبلغ الهدي محِله، فيلزمه بحِلاق رأسه وهو كذلك، فديةٌ من صيام أو صدقة أو نُسُك.

فأما «المرض» الذي أُبيحَ معه العلاجُ بالطِّيب وحَلق الرأس، فكلُّ مرض كان صلاحه بحلقهِ، كالبِرْسام الذي يكون من صلاح صاحبه حَلْق رأسه وما أشبه ذلك، والجراحات التي تكون بجسد الإنسان التي يحتاج معها إلى العلاج بالدواء الذي فيه الطيب، ونحو ذلك من القُروح والعلل العارضة للأبدان.

وأما «الأذى» الذي يكون إذا كان برأس الإنسان خاصة له حَلْقه، فنحو الصداع والشَّقيقة وما أشبه ذلك، وأن يكثر صِئْبان الرأس، وكل ما كان للرأس مؤذِياً مما في حَلْقهِ صلاحُه ودفع المضرَّة الحالَّة به، فيكون ذلك بعموم قول الله جَلَّ وعز: «أو به أذى من رَأسه».

وقد تظاهرتِ الأخبارُ عن رسول الله ﷺ أن هذه الآية نزلت عليه بسبب كعب بن عُجْرَة، إذ شكا كثرةَ أذىً برأسِهِ من صئبانه، وذلك عام الحديبية.

فعن عبدالله بن معقل قال: قعدت إلى كعب وهو في المسجد، فسألته عن هذه الآية: «ففديةٌ من صيام أو صَدقةٍ أو نسك»، فقال كعب: نزلت فيَّ،

كان بي أذى من رأسي، فحملتُ إلى رسول الله ﷺ والقَمْلُ يتناثرُ على وجهي، فقال: ما كنتُ أرَى أنَّ الجهْدَ بَلَغَ منك ما أرى! أتجد شاة؟ فقلت: لا! فنزلت هذه الآية: «ففدية من صيام أو صدقة أو نسك»، قال: فنزلت فيَّ خاصة، وهي لكم عامة[1].

وقد بيَّنا قَبْلُ معنى «الفِدية»، وأنها بمعنى الجزاء والبدَل.

واختلف أهل العلم في مبلغ الصيام والطعام اللذين أوجبهما الله على مَنْ حَلق شعره من المحرمين في حال مرضه، أو مِنْ أذىً برأسه.

والصواب: من القول في ذلك عندنا ما ثبت به الخبرُ عن رسول الله ﷺ، وتظاهرت به عنه الرواية: أنه أمر كعبَ بن عُجْرة بحلق رأسه من الأذى الذي كان برأسه، ويفتدى إن شاء بنُسُك شاةٍ، أو صيامِ ثلاثةِ أيامٍ، أو إطعام فَرَقٍ من طعام بَين ستة مساكين، كل مسكين نصف صاع. وللمفتدي الخيارُ بين أيِّ ذلك شاء، لأن الله لم يَحْصُره على واحدةٍ منهن بعينها، فلا يجوزُ له أن يَعْدُوها إلى غيرها، بل جعل إليه فعلَ أيِّ الثلاثِ شاء.

ومن أبَى ما قلنا من ذلك قيل له: ما قلتَ في المُكَفِّرِ عن يمينهِ، أمخيَّرٌ - إذا كان موسراً - في أن يُكَفِّرَ بأيِّ الكفارات الثلاث شاء؟ فإنْ قال: «لا»، خرج من قولِ جميع الأمة. وإن قال: «بلى!»، سئل الفرقَ بينه وبين المفتدِي من حَلْق رأسه وهو محرم من أذىً به. ثم لن يقول في أحدهما شيئاً إلا إذا ألزم في الآخر مثله.

على أنّ ما قلنـا في ذلك إجماعٌ من الحجة، ففي ذلك مستغنىً عن

---

(١) أخرجه البخاري (١٨١٦) و(٤٥١٧)، ومسلم (١٢٠١) من طريق عبدالله بن معقل عن كعب رضي الله عنه، وله طرق أخرى في الصحيحين من غير طريق عبدالله بن معقل.

الاستشهاد على صحته بغيره.

واختلف أهلُ العلم في الموضع الذي أمر الله أن يَنْسُك نُسْك الحلْق ويُطعم فديته.

والصواب من القول في ذلك: أنّ الله أوجبَ على حالق رأسِه من أذى من المحرمين، فديةً من صيامٍ أو صدقةٍ أو نسك، ولم يشترط أن ذلك عليه بمكان دون مكان، بل أبهم ذلك وأطلقه، ففي أيِّ مكان نَسَكَ أو أطعم أو صام، فيجزي عن المفتدي وذلك لقيام الحجة على أنَّ الله إذْ حرَّم أمهات نسائنا فلم يَحصرهن على أنهن أمهات النساء المدخول بهن، لم يجب أن يكنَّ مردوداتِ الأحكام على الربائب المحصورات على أنَّ المُحَرَّمَةَ منهن المدخولُ بأمها.

فكـذلـك كل مُبْهَمَةٍ في القرآن، غيرُ جائز رَدُّ حكمهما على المفسَّرة قياساً. ولكن الواجب أن يحكم لكل واحدة منهما بما احتمله ظاهرُ التنزيل، إلّا أن يأتي في بعض ذلك خبرٌ عن الرسول ﷺ، بإحالة حُكْمِ ظاهره إلى باطنه، فيجبُ التسليمُ حينئذٍ لحكمِ الرسولِ ﷺ، إذ كان هو المبيِّنُ عن مُراد الله.

وأجمعوا على أن الصيام مُجزىءٌ عن الحالقِ رأسَهُ من أذىً حيثُ صام من البلاد.

واختلفـوا فيمـا يجب أن يفعـل بِنُسْك الفدية من الحلق، وهل يَجوز للمفتدي الأكل منه أم لا؟

والذي نقول به في ذلك: أنّ الله أوجبَ على المفتدي نُسكاً، إن اختارَ التكفير بالنسـك. ولن يخلو الواجبُ عليه في ذلك من أن يكون ذَبْحه دون غيره، أو ذَبْحه والتصدق به. فإن كان الواجب عليه في ذلك ذَبْحه، فالواجب

أن يكون إذا ذبحَ نُسكاً فقد أدَّى ما عليه، وإنْ أكلَ جميعَهُ ولم يطعم مسكيناً منه شيئاً. وذلك ما لا نعلمُ أحداً من أهلِ العلم قاله. أو يكون الواجبُ عليه ذبحه والصدقة به. فإن كان ذلك عليه، فغير جائزٍ له أكلُ ما عليه أن يتصدَّق به، كما لو لزمته زكاةٌ في ماله، لم يكن له أن يأكل منها، بل كان عليه أن يُعطيها أهلَها الذين جعلها الله لهم. ففي إجماعهم ـ على أنَّ ما ألزمه الله من ذلك، فإنما ألزمه لغيره ـ دلالةٌ واضحة على حُكم ما اختلفوا فيه من غيره.

ومعنى «النُّسُـك»، الذبح لله، في لغة العرب، يقال: «نَسَك فلانٌ لله نسيكةً» ـ بمعنى: ذبح لله ذبيحة ـ «يَنسكها نَسكاً».

القول في تأويل قوله تعالى: فَإِذَآ أَمِنتُمۡ

اختلف أهل التأويل في معنى ذلك.

فقال بعضهم: معناه: فإذا بَرَأتم من مرضكم الذي أحصَركم عن حَجّكم أو عُمرتكم.

وقال آخرون: معنى ذلك، فإذا أمنتم من خوفكم.

وهـذا القـول أشبه بتأويل الآية. لأن «الأمن» هو خِلافُ «الخوف» لا خلاف «المرض»، إلا أن يكون مَرَضاً مخوفاً منه الهلاك، فيقال: فإذا أمنتُم الهلاكَ من خوف المرض وشدَّته، وذلك معنى بعيدٌ.

وإنمـا قلنا إنَّ معناه: الخوفُ من العدوِّ، لأن هذه الآيات نَزلت على رسولِ الله ﷺ أيام الحديبية، وأصحابُهِ من العدوِّ خائفون، فعرَّفهم اللهُ بها ما عليهم إذا أحصرهم خوفُ عدوِّهم عَن الحج، وما الذي عليهم إذا هم أمنوا من ذلك فزال عنهم خوفهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾

يعني بذلـك جَلَّ ثنـاؤه: فإن أحصرتم أيها المؤمنون، فما استيسر من الهدْي، فإذا أمنتم فزال عنكم خوفُكم من عدوكم أو هلاككم من مرضكم، فتمتعتم بعمرتكم إلى حجكم، فعليكم ما استيسر من الهدْي:

ثم اختلف أهل التأويل في صفة «التمتُّع» الذي عنى اللهُ بهذه الآية.

وأولى الأقوال بتأويل الآية قولُ مَنْ قال: عنى بها: فإن أحصرتم أيها المؤمنون في حجكم فما استيسر من الهدي. فإذا أمنتم، فمن تمتَّع ممن حَلّ من إحـرامه بالحج ـ بسبب الإحصار، بعُمرة اعتمرها لفوتهِ الحج في السنة القابلة في أشهر الحج ـ إلى قضاء الحجة التي فاتته حين أحصر عنها، ثم دخل في عمرته فاستمتع بإحلاله من عمرته إلى أن يحج ـ فعليه ما استيسر من الهدي. وإنْ كان قد يكون مُتمتعاً مَنْ أنشأ عمرة في أشهر الحج وقضاها ثم حَلَّ من عمرته وأقام حلالاً حتى يحج من عامه. غيرَ أنَّ الذي هو أولى بالذي ذكره الله في قوله: «فمن تمتع بالعمرة إلى الحج»، هو ما وصفنا، من أجل أنَّ الله جَلَّ وعز، أخبر عما على المحصَر عن الحج والعمرة من الأحكام في إحصاره. فكان مما أخبر تعالى ذِكْرُه: أنه عليه ـ إذا أمِنَ من إحصاره فتمتع بالعمرة إلى الحج ـ ما استيسر من الهدي، فإنْ لم يجد فصيامُ ثلاثة أيام. وكان معلوماً بذلك أنه معنيٌّ به اللازمُ له ـ عند أمنه من إحصاره ـ من العمل بسبب الإحلال الذي كان منه في حجه الذي أحصِر فيه، دون المتمتع الذي لم يَتقدم عمرته ولا حجه إحصارُ مرض ولا خوف.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: فما استيسر من الهدي، فهديه جزاء لاستمتاعه بإحلاله من إحرامه الذي حَلَّ منه حين عاد لقضاء حَجته التي أحصِر فيها، وعمرته التي كانت لَزِمَتْهُ بفوتِ حجته. فإن لم يجد هدياً، فعليه صيامُ ثلاثةِ أيامٍ في الحج في حجه، وسبعة إذا رجع إلى أهله.

ثم اختلف أهل التأويل في الثلاثة الأيام التي أوجبَ الله عليه صَومهن في الحج: أي في أيام الحج هُنَّ؟

والصوابُ من القول في ذلك عندي: أنَّ للمتمتعِ أنْ يصوم الأيام الثلاثة التي أوجبَ الله عليه صَومهن لمتعته إذا لم يجد ما استيسر من الهدي، من أولِ إحرامـهِ بالحـج بعد قضاءِ عمرته واستمتاعه بالإحلال إلى حجه، إلى انقضاء آخرِ عملِ حجِّهِ، وذلك بعد انقضاء أيام منى سوى يوم النحر، فإنه غير جائز له صومُـه، ابتـدأ صَوْمَهُنَّ قبله، أو ترك صومَهنّ فأخَّـرَهُ حتى انقضـاء يوم عرفة.

فإن صامهن قَبـل إحـرامه بالحج، فإنه غير مجزىءٍ صَوْمُه ذلك، من الواجبِ عليه من الصومِ الذي فرضه اللهُ عليه لمتعته. وذلك أنَّ الله جَلَّ وعزَّ إنمـا أوجب الصـومَ على مَنْ لم يجد هدياً ممن استمتع بعمرته إلى حجه، فالمعتمـر قبـل إحلاله من عمرته، وقبل دخوله في حجه، غيرُ مستحقٍ اسمَ «مُتمتع» بعمرته إلى حجه. وإنما يقال له قبل إحرامه «معتمر»، حتى يدخل بعد إحلاله في الحج قَبل شخوصه عن مكة. فإذا دخل في الحجّ محرماً به ـ بعد قَضاء عمرته في أشهر الحج، ومقامه بمكة بعد قضاء عُمرته حَلالاً حتى حج من عامه ـ سُمي «متمتعاً». فإذا استحق اسم «متمتع» لزمه الهديُ. وحينئذٍ يكون له الصوم بعَدَمِهِ الهديَ، إن عَدمه فلم يجده.

فأما إن صامه قبل دخوله في الحج ـ وإن كان من نيته الحج ـ فإنما هو رجلٌ صَام صوماً ينوي به قضاءً عما عسى أنْ يلزمه أو لا يلزمه، فسبيلُه سبيلُ رجلٍ مُعسر صام ثلاثة أيام ينوي بصومهن كفارةَ يمينٍ، ليمينٍ يريدُ أنْ يحلف بها ويَحنَث فيها. وذلك ما لا خلافَ بين الجميع أنه غيرُ مجزىءٍ من كفارة، إن حلف بها بعد الصوم فحنِث.

فإنِ ظَنّ ظان أن صومَ المعتمر ـ بعد إحلاله من عمرته، أو قبله، وقبل دخوله في الحج ـ مجزىءٌ عنه من الصوم الذي أوجبه اللهُ عليه إنْ تمتع بعمرته إلى الحج، نظيرَ ما أجزأ الحالفَ بيمينٍ إذا كفَّر عنها قبل حَنْثه فيها بعد حلفه بهـا، فقد ظنّ خطأ. لأن الله جَلَّ ثناؤه جعل لليمين تحليلاً هو غيرُ تكفير، فالفاعل فيها قبل الحنْث فيها ما يفعله المكفِّر بعد حنْثه فيها، محلِّل غير مكفِّر. والمتمتع إذا صام قبل تمتعه، صائمٌ تكفيراً لما يظن أنه يلزمه ولَمَّا يلزمْه، وهو كالمُكَفِّرِ عن قَتلِ صيدٍ يريدُ قتله وهو محرمٌ قبل قتله، وعن تَطيُّبٍ قبل تَطيُّبه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بذلك: فمن لم يَجد ما استيسرَ من الهدي، فعليه صيام ثلاثة أيام في حجه، وصيام سبعة أيام إذا رجع إلى أهله ومصره.

فإن قال لنا قائل: أوَ ما يجبُ عليه صوم السبعة الأيام، بعد الأيام الثلاثة التي يصومهن في الحج، إلا بعد رجوعه إلى مصره وأهله؟

قيل: بلى، قد أوجبَ الله عليه صومَ الأيام العشرة بعدم ما استيسر من الهدي لمتعته، ولكن الله تعالى ذِكْرُه رَأفةً منه بعباده رَخص لمن أوجبَ ذلك عليه، كما رَخَّصَ للمسافر والمريض في شهر رمضان الإفطارَ وقضاء عدة ما أفطرَ من الأيام من أيام أُخَر. ولو تَحمَّل المتمتعُ فصامَ الأيام السبعة في سفره

قبل رُجوعه إلى وطنه، أو صامَهن بمكة، كان مؤدِّياً ما عليه من فرض الصوم في ذلك، وكان بمنزلة الصائم شهر رمضان في سفره أو مَرَضه مختاراً للعسر على اليسر.

وبالذي قلنا في ذلك قالت عُلماء الأمة.

فإن قال: وما بُرهانك على أن معنى قوله: «وسبعة إذا رجعتم»: إذا رجعتم إلى أهليكم وأمصاركم ـ دون أن يكون معناه: إذا رجعتم من منى إلى مكة؟ قيل: إجماع جميع أهل العلم على أن معناه ما قلنا دون غيره.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾

اختلف أهل التأويل في تأويل قوله «كاملة».

وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب قولُ من قال: معنى ذلك: تلك عشرةٌ كاملةٌ عليكم فَرَضْنَا إكمالَهَا. وذلك أنه جَلَّ ثناؤه، قال: فمن لم يَجِدِ الهديَ فعليه صيامُ ثلاثةِ أيامٍ في الحجِّ وسَبعة إذا رجع. ثم قال: تلك عشرة أيام عليكم إكمالُ صَومها لمتعتكم بالعمرة إلى الحج. فأخرجَ ذلك مخرج الخبر، ومعناه الأمر بها.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «ذلك»، أي: التمتع بالعمرة إلى الحج، لمن لم يكن أهلهُ حاضري المسجد الحرام.

ثم اختلف أهل التأويل فيمن عَنَى بقوله: «ذلك لمن لم يكن أهله

حاضري المسجد الحرام»، بعد جماعِ جميعهم على أنَّ أهل الحرم مَعنيون به، وأنه لا مُتعة لهم.

وأولى الأقوال في ذلك بالصحة عندنا قول من قال: إن حاضِري المسجد الحرام، مَنْ هو حوله ممن بينه وبينه من المسافة ما لا تقصَر إليه الصلوات. لأن «حاضر الشيء»، في كلام العرب، هو الشاهدُ له بنفسه. وإذْ كان ذلك كذلك ـ وكان لا يستحق أن يسمى «غائباً»، إلا مَنْ كان مُسافراً شاخصاً عن وطنه، وكان المسافر لا يكون مسافراً إلا بشخوصه عن وطنه إلى ما تُقْصَرُ في مثله الصلاة، وكان من لم يكن لا يستحق اسم «غائب» عن وطنه ومنزله ـ كان كذلك من لم يكن من المسجد الحرام على ما تقصر إليه الصلاة، غير مستحق أن يقال هو من غير حاضريه، إذا كان الغائب عنه هو مَنْ وصفنا صفته.

وإنما لم تكنِ المتعةُ لمن كان من حاضري المسجد الحرام، من أجل أنَّ «التمتع» إنما هو الاستمتاعُ بالإحلال من الإحرام بالعُمرة إلى الحج، مرتفقاً في ترك العَـود إلى المنـزل والوطن بالمقام بالحرم حتى ينشىء منه الإحرامَ بالحج. وكان المعتمر مَتى قضَى عُمرته في أشهر الحجِّ، ثم انصرف إلى وطنه أو شَخص عن الحرم إلى ما تقصر فيه الصلاة، ثم حَجَّ من عامه ذلك، بطل أن يكون مستمتعاً. لأنه لم يستمتع بالمرفق الذي جُعل للمستمتع من ترك العود إلى الميقـات، والـرجـوع إلى الـوطن بالمقـام في الحرم. وكان المكيُّ من حاضري المسجد الحرام لا يرتفق بذلك، من أجل أنه متى قضى عُمرته أقام في وطنهِ بالحرم، فهو غير مرتفقٍ بشيءٍ مما يرتفقُ به من لم يكن أهله من حاضري المسجد الحرام، فيكون متمتعاً بالإحلال من عُمرته إلى حجه.

القـول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ١٩٦﴾

يعني بذلك جَلَّ اسمه: «واتقوا الله»، بطاعته فيما ألزمكم من فرائضه وحدوده، واحذروا أن تعتدوا في ذلك وتتجاوزوا فيما بَيَّن لكم من مناسككم، فتستحِلُّوا ما حَرَّمَ فيها عليكم. «واعلموا»: تَيَقَّنُوا أنه تعالى ذِكْرُه شديدٌ عقابه لمن عاقبه على من انتهكَ مَحارمه، وركب من مَعَاصيه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بذلك: وقتُ الحج أشهر معلومات.

ثم اختلف أهلُ التأويل في قوله: «الحج أشهر مَعلومات».

والصواب من القول في ذلك عندنا، قولُ من قال: إن معنى ذلك: الحج شهران وعشرٌ من الثالث. لأن ذلك من الله خبرٌ عن ميقات الحج، ولا عملَ للحـج يُعمل بعد انقضاء أيام منى. فمعلومٌ أنه لم يَعْنِ بذلك جميع الشهر الثالث. وإذا لم يكن معنياً به جميعه، صَحَّ قولُ من قال: وعشر ذي الحجة.

فإن قال قائل: فكيف قيل: «الحج أشهر معلومات»، هو شهران وبعض الثالث؟

قيل: إن العرب لا تمتنع خاصة في الأوقات من استعمال مثل ذلك، فتقول: «لهُ اليومَ يومان منذ لم أره»، وإنما تعني بذلك: يوماً وبعضَ آخر، وكما قال جَلَّ ثناؤه: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ في يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٠٣] وإنما يتعجل في يوم ونصف. وقد يفعَلُ الفاعلُ منهم الفعل في الساعة، ثم يخرجه عامّاً على السنة والشهر فيقول: «زرته العام، وأتيته اليوم»، وهو لا يريد بذلك أنَّ فعله أخذ من أول الوقت الذي ذكره إلى آخره، ولكنه يعني أنه فعله إذ ذلك، وفي ذلك الحين. فكذلك «الحج أشهرٌ»، والمراد منه: الحج شهران وبعض آخر.

فمعنى الآية إذاً: ميقاتُ حَجكم أيها الناس شهران وبعض الثالث، وهو شوال وذو القعدة وعَشر ذي الحجة.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «فمن فَرض فيهن الحج»، فَمَنْ أوجبَ الحج على نفسه وألزمها إياه فيهنّ ـ يعني: في الأشهر المعلومات التي بيَّنها، وإيجابه إياه على نَفسه، العزمُ على عمل جميع ما أوجبَ الله على الحج عمله، وتَرك جميع ما أمرَه الله بتركه.

وقد اختلف أهلُ التأويل في المعنى الذي يكون به الرجلُ فارضاً الحجَّ، بعد إجماع جميعهم على أن معنى «الفرض»: الإيجاب والإلزام.

فقال بعضهم: فَرض الحج، الإهلال.

وقال آخرون: فرض الحج إحرامه.

وهذا القولُ الثاني يحتمل أن يكون بمعنى ما قلنا، من أنْ يكونَ الإحرامُ ـ كان عند قائله ـ الإيجاب بالعزم، ويحتمل أن يكون كان عنده بالعزم والتلبية، كما قال القائلون القولَ الأول.

وإنما قُلنا إنَّ فرضَ الحج الإحرام، لإجماع الجميع على ذلك. وقلنا: إنّ الإحرام هو إيجاب الرجل ما يلزم المحرمَ أن يوجبه على نفسه على ما وصفنا آنفاً، لأنه لا يخلو القول في ذلك من أحد أمور ثلاثة:

إما أن يكون الرجل غيرَ محرم إلا بالتلبية، وفعل جميع ما يجبُ على الموجب الإحرامَ على نفسه فعلُه، فإن يكن ذلك كذلك، فقد يجب أن لا يكون محرماً إلا بالتجرد للإحرام، وأن يكون من لم يكن له متجرداً فغير محرم.

وفي إجماع الجميع عَلى أنه قد يكون محرماً وإن لم يكن متجرداً من ثيابه، بإيجابه الإحرامَ - ما يدلُّ على أنه قد يكون محرماً وإنْ لم يُلَبِّ إذْ كانت التلبيةُ بعضَ مَشاعرِ الإحرام، كما التجرد له بعض مشاعره. وفي إجماعهم على أنه قد يكون محرماً بتركِ بعضِ مشاعر حجه، ما يدل على أنَّ حُكم غيره من مَشاعره حكمُه.

أو يكون - إذْ فسد هذا القول - قد يكون محرماً وإنْ لم يُلَبِّ ولم يتجرد ولم يعزم العزمَ الذي وصفنا. وفي إجماع الجميع على أنه لا يكون محرماً مَنْ لم يعزم على الإحرامِ ويوجبه على نفسه، إذا كان من أهل التكليف، ما ينبىء عن فساد هذا القول.

وإذْ فسد هذان الوجهان، فبيِّنَةٌ صِحَّةُ الوجه الثالث: وهو أن الرجل قد يكون محرماً بإيجابه الإحرام بعزمه، على سبيل ما بيَّنَّا، وإنْ لم يظهر ذلك بالتجرد والتلبية وصَنيع بعض ما عليه عمله من مَناسكه. وإذا صحَّ ذلك، صحَّ ما قلنا من أنَّ فرضَ الحجّ، هو ما قُرِنَ إيجابهُ بالعزم، على نحو ما بيّنا قبل.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾

اختلف أهل التأويل في معنى «الرفث» في هذا الموضع.

فقال بعضهم: هو الإفحاشُ للمرأة في الكلام، وذلك بأن يقول: «إذا حللنا فعلتُ بك كذا وكذا»، لا يكني عنه، وما أشبه ذلك.

وقال آخرون: «الرفث» في هذا الموضع: الجماع نفسه.

والصواب من القول في ذلك عندي، أن الله جَلَّ ثناؤه نهى - مَنْ فرض الحجَّ في أشهر الحج - عن الرفث فقال: «فمن فَرَض فيهن الحج فلا رفث». و«الرفث» في كلام العرب أصله: الإفحاشُ في المنطق، على ما قد بَيَّنا فيما

مضى، ثم تستعمله في الكناية عن الجماع. فإذ كان ذلك كذلك، وكان أهل العلم مختلفين في تأويله، وفي هذا النهي من الله: عن بَعض معاني «الرفث» أمْ عن جميع معانيه؟ ـ وجَب أنْ يكونَ على جميع معانيه، إذا لم يأت خبرٌ ـ بخصوص «الرفث» الذي هو بالمنطق عند النساء، من سائر معاني «الرفث» ـ يجبُ التسليم له. إذ كان غيرَ جائز نَقلُ حُكم ظاهر آية إلى تأويل باطن، إلا بحجة ثابتة.

فإن قال قائل: إن حُكمها من عموم ظَاهرها إلى الباطن من تأويلها، منقول بإجماع. وذلك أنَّ الجميعَ لا خلافَ بينهم في أنَّ «الرفث» عند غير النساء غير محظور على مُحرم، فكان معلوماً بذلك أنَّ الآية معنيٌّ بها بعض «الرفث» دون بعض. وإذ كان ذلك كذلك، وجَب أن لا يحرَّم من معاني «الرفث» على المحرِم شيء، إلا ما أُجْمِعَ على تحريمه عليه، أو قامت بتحريمه حجة يجب التسليم لها.

قيل: إنَّ ما خُصَّ من الآية فَأُبيحَ، خارجٌ من التحريم، والحظرُ ثابت لجميع ما لم تخصصه الحجة من معنى «الرفث» بالآية، كالذي كان عليه حكمه لو لم يُخَصَّ منه شيء، لأن ما خصَّ من ذلك وأخرج من عمومه، إنما لزمنا إخراج حكمه من الحظر بأمر من لا يجوز خلافُ أمره. فكان حُكم ما شمله معنى الآية ـ بعد الذي خُصَّ منها ـ على الحكم الذي كان يلزم العبادَ فرضُه بها، لو لم يخصص منها شيء، لأن العلة فيما لم يخصص منها بعدَ الذي خُصَّ منها، نظيرُ العلة فيه قبل أن يُخص منها شيء.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾

اختلف أهلُ التأويل في معنى «الفسوق»، التي نهى الله عنها في هذا الموضع.

وأولى الأقوال بتأويل الآية قولُ من قال: معنى قوله: «ولا فُسوق»، النهيُ عن معصية الله في إصابة الصيد وفعل ما نهى الله المحرمَ عن فعله في حال إحرامه.

وذلك أن الله جَلَّ ثناؤه قال: «فَمن فَرَضَ فيهن الحج فَلا رَفَث ولا فُسوق»، يعني بذلك: فلَا يرفُثْ ولا يَفْسُق، أي لا يفعل ما نَهاه الله عَنْ فعله في حال إحرامه، ولا يخرُجْ عن طاعةِ الله في إحرامه. وقد علمنا أن الله جَلَّ ثناؤه قد حرَّم معاصيه على كلِّ أحدٍ، محرِماً كان أو غيرَ محرمٍ، وكذلك حرَّم التنابز بالألقاب في حال الإحرام وغيرها بقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ [الحجرات: ١١]، وحرَّم على المسلم سِبابَ أخيه في كل حال، فَرَض الحجّ أو لم يَفرضه.

فإذْ كان ذلك كذلك، فلا شكّ أنَّ الذي نَهى الله عنه العبدَ من الفسوقِ في حال إحرامِهِ وفرضه الحجّ، وهو ما لم يكن فسوقاً في حال إحلاله وقبلَ إحرامِهِ بحجه، كما أن «الرفث» الذي نهاهُ عنه في حال فَرضه الحج، هو الذي كان له مُطلقاً قبل إحرامه. لأنه لا معنى لأن يقال فيما قَد حَرَّم الله على خلقه في كُلّ الأحوال: «لا يفعلن أحدُكم في حال الإحرام، ما هو حَرَام عليه فعلُه في كل حال». لأنَّ خصوصَ حال الإحرام به لا وجه له، وقد عُمَّ به جميع الأحوال من الإحلال والإحرام.

فإذ كان ذلك كذلك، فمعلومٌ أن الذي نُهي عنه المحرمُ من «الفسوق» فخُصَّ به حالُ إحرامه، وقيل له: «إذا فرضتَ الحجَّ فلا تفعله»، هو الذي كان له مطلقاً قبلَ حالِ فَرضه الحَجَّ، وذلك هو ما وصفنا وذكرنا، أن الله جَلَّ ثناؤه خَصَّ بالنهي عنه المحرمَ في حال إحرامه مما نهاه عنه: من الطِّيبِ، واللباسِ، والحَلْقِ، وقَصِّ الأظفار، وقَتل الصيد، وسائر ما خَصَّ الله بالنهي عنه المحرِمَ في حال إحرامه.

فتأويل الآية إذاً: فمن فرض الحج في أشهر الحجّ فأحرم فيهن، فلا يرفث عند النساء فيُصرِّح لهنَّ بجماعهن، ولا يُجامعهُن، ولا يفسق بإتيان ما نهاه الله في حال إحرامه بحجه: مِنْ قتلِ صيدٍ، وأخذ شَعر، وقَلم ظُفر، وغير ذلك مما حَرَّم الله عليه فعلَه وهو مُحرم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾

ومعنى ذلك: قد بطل الجدال في الحج ووقته، واستقام أمره ووقته على وقت واحد، ومناسك متفقة غير مختلفة، ولا تنازع فيه ولا مراء. وذلك أنّ الله تعالى ذِكْرُه أخبرَ أن وَقتَ الحج أشهرٌ معلوماتٌ، ثم نَفى عن وَقته الاختلاف الذي كانت الجاهلية في شركها تختلف فيه.

وإنما اخترنا هذا التأويل في ذلك، ورأيناه أولى بالصواب مما خالفه، لِمَا قد قَدَّمْنا من البيانِ آنفاً في تأويل قوله: «ولا فسوق»، أنه غير جائزٍ أنْ يكون الذي خَصَّ بالنهي عنه في تلك الحال إلا ما هو مُطلق مُباح في الحال التي يُخالفها، وهي حال الإحلال. وذلك أنَّ حُكم ما خُصَّ به من ذلك حُكم حال الإحرام، إن كان سواءً فيه حال الإحرام وحال الإحلال، فلا وجه لخصوصه به حالاً دون حال، وقد عمّ به جميع الأحوال.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: افعلوا أيها المؤمنون ما أَمَرْتُكُمْ به في حَجِّكم، من إتمامِ مناسككم فيه، وأداء فرضكم الواجب عليكم في إحرامكم، وتجنُّب ما أمرتكم بتجنبه من الرفث والفسوق في حجكم، لتستوجبوا به الثوابَ الجزيلَ، فإنكم مَهما تَفعلوا من ذلك وغيره من خيرٍ وعملٍ صالح ابتغاءَ

مَرْضاتي وطلب ثَوابي، فأنا به عالِمٌ، ولجميعه مُحْصٍ، حتى أوفِّيكم أجْرَهُ، وأجازيكم عليه، فإنِّي لا تخفى عليَّ خافية، ولا ينكتم عَنِّي ما أردتم بأعمالكم، لأني مُطَّلعٌ على سرائركم، وعالم بضمائر نفوسكم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾

وتأويل الآية: فمن فَرَضَ في أشهر الحجّ فأحرم فيهن، فلا يرفثنَّ ولا يفسقنَّ، فإنَّ أمر الحج قد استقام لكم، وعرَّفكم ربكم ميقاتَهُ وحدودَهُ، فاتقوا الله فيما أمركم بهَ ونهاكم عنه من أمر حجكم ومَناسككم، فإنكم مهما تفعلوا من خيرٍ أمرَكُم به أو به وندبكم إليه، يعلمه. وتَزَوَّدُوا من أقواتكم ما فيه بلاغُكم إلى أداء فرضِ ربكم عليكم في حَجِّكم ومناسككم، فإنه لا بِرَّ لله جَلَّ ثناؤهُ في ترككم التزوُّدَ لأنفسكم ومسألتِكم الناس، ولا في تضييع أقواتكم وإفسادها، ولكن البرَّ في تقوى رَبِّكم باجتنابِ ما نهاكم عنه في سفركم لحجكم، وفعل ما أمركم به فإنه خيرُ التزود، فمنه تزودوا.

وقد بينا معنى «التقوى» فيما مضى بما أغنى عن إعادته.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ۝١٩٧﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: واتقون يا أهل العقول والأفهام، بأداء فرائضي عليكم التي أوجَبْتُهَا عليكم في حَجِّكم ومناسككم، وغير ذلك من ديني الذي شرعتُه لكم ـ وخافوا عقابي باجتناب مَحارمي التي حرمتها عليكم، تَنْجُوا بذلك مما تخافون من غَضبي عليكم وعقابي، وتُدْرِكُوا ما تطلبونَ من الفوز بجناتي.

وخَصَّ جَلَّ ذِكْرُه بالخطابِ بذلك أُولي الألباب، لأنهم هم أهلُ التمييزِ

بين الحق والباطل، وأهلُ الفكر الصحيح والمعرفة بحقائق الأشياء التي بالعقول تُدْرَكُ، وبالألباب تُفهم. ولم يجعل لغيرهم من أهل الجهل في الخطاب بذلك حَظاً، إذ كانوا أشباحاً كالأنعام، وصُوراً كالبهائم، بل هُم منها أضلُّ سبيلا.

و«الألباب» جمع «لُبٍّ»، وهو العقل.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾

يعني بذلك جَلَّ ذِكْرُه: ليس عليكم أيها المؤمنون جُناحٌ.

و«الجناح»: الحرج.

وقوله: «أن تَبتغوا فَضْلا من ربكم»، يعني أن تَلتمسوا فضلاً من عند ربكم.

يقال منه: «ابتغيتُ فضلاً من الله ـ ومن فَضْلِ الله ـ أبتغيه ابتغاءً»، إذا طلبته والتمسته، «وبَغيته أبغيه بَغياً».

وقيل: إنَّ معنى «ابتغاء الفضل من الله»، التماس رزق الله بالتجارة، وأنَّ هذه الآية نزلت في قومٍ كانوا لا يرون أنْ يَتَّجِرُوا. إذا أحرَمُوا، يلتمسون البرَّ بذلك فأعلمهم جَلَّ ثناؤه أن لا برَّ في ذلك، وأنَّ لهم التماس فضله بالبيع والشراء.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «فإذا أفضتم»، فإذا رَجعتم من حيثُ بدأتم.

ولذلك قيل للذي يَضرب القداح بين الأيسار: «مفيض»، لجمعه

القداح، ثم إفاضته إياها بين الياسرين.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: فإذا أفضتم فكررتم رَاجعين من عَرفَة، إلى حيثُ بدأتم الشخوصَ إليها منه، «فاذكروا الله»، يعني بذلك: الصلاة والدعاء عند المشعر الحرام.

وقد بينا قَبْلُ أنَّ «المشاعر» هي المعالم، من قول القائل: «شعرت بهذا الأمر»، أي علمت، فـ«المشعر»، هو المعلَم. سمي بذلك، لأن الصلاةَ عنده والمقام والمبيتَ والدعاءَ، من مَعالم الحج وفروضه التي أمر الله بها عباده.

فأما «المشعر»: فإنه هو ما بين جَبلي المزدلفة من مَأزمَيْ عَرفَة إلى مُحسِّر. وليس مأزِمَا عَرفَة من «المشعر».

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ١٩٨﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: واذكروا الله أيها المؤمنون عند المشعر الحرام - بالثناءِ عليه والشكرِ له على أياديهِ عندكم، وليكن ذكركم إياه بالخضوع لأمره، والطاعة له، والشكر على ما أنعم عليكم من التوفيق لما وفقكم له من سُنن إبراهيمَ خليله، بعد الذي كنتم فيما كنتم فيه من الشرك والحيرةِ والعمى عن طريقِ الحق، وبَعد الضلالة - كذكره إياكم بالهُدى حتى استنقذكم من النار به، بعد أنْ كنتم على شَفا حفرةٍ منها، فنجَّاكم منها. وذلك هو معنى قوله: «كما هداكم».

وأما قوله: «وإنْ كنتم من قَبْلِهِ لمن الضالين»، فإنَّ من أهل العربية مَنْ يُوجِّهُ تأويل «إنْ» إلى تأويل «ما»، وتأويل «اللام» التي في «لمن» إلى «إلاَّ».

فتأويل الكلام على هذا المعنى: وما كنتم ـ من قبل هدايةِ الله إياكم لما هداكم لهُ من ملةِ خليلهِ إبراهيمَ التي اصطفاها لمن رضيَ عنه من خَلْقِهِ ـ إلاّ من الضالين.

ومنهم مَنْ يوجه تأويل «إنْ» إلى «قد».

فمعناه، على قول قائل هذه المقالة: واذكروا الله أيها المؤمنون، كما ذكركم بالهدي فهداكم لما رَضِيَهُ من الأديان والملل، وقد كُنْتُمْ من قبل ذلك من الضالِّين.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، ومَنِ المعنيُّ بالأمر بالإفاضة من حيثُ أفاض الناسُ؟ ومَن «الناس» الذين أُمروا بالإفاضة من مَوْضع إفاضتهم؟

فقال بعضهم: المعنيُّ بقوله: «ثم أفيضوا»، قريش ومَن ولَدَته قريش، الذين كانوا يُسَمَّوْنَ في الجاهليةِ «الحُمُس»، أُمروا في الإسلام أن يُفيضوا من عَرَفات، وهي التي أفاض منها سائرُ الناس غير الحُمس. وذلك أنَّ قريشاً ومَنْ ولدته قُريش كانوا يقولون: «لا نخرج من الحرم»، فكانوا لا يشهدون مَوقفَ الناس بعرفة معهم، فأمرهم الله بالوقوف معهم.

وقال آخرون: المخاطَبون بقوله: «ثم أفيضوا»، المسلمون كُلُّهم، والمعنيُّ بقوله: «من حيثُ أفاض الناس»، من جَمْع[1]، وبـ «الناس»، إبراهيم

---

(١) جَمْع: هي المزدلفة.

خليلُ الرحمن عليه السلام.

والذي نراه صَواباً من تأويل هذه الآية: أنه عُني بهذه الآية قريشٌ ومَنْ كان متحمساً معها من سائر العرب، لإجماع الحجة من أهل التأويل على أن ذلك تأويله.

وإذْ كان ذلك كذلك، فتأويلُ الآية: فمن فَرض فيهنَّ الحج فلا رَفثَ ولا فُسوقَ ولا جِدالَ في الحج، ثم أفيضوا من حَيْثُ أفاضَ الناس، واستغفروا الله إنَّ الله غفورٌ رحيم، وما تَفعلوا من خَيرٍ يعلمه الله.

وهذا، إذ كان ما وصفنا تأويله، فهو من المُقَدَّم الذي مَعناه التأخير، والمُؤَخَّـرِ الذي معناه التقديم، على نحو ما تقدم بياننا في مثله. ولولا إجماعُ من وصفتُ إجماعه على أن ذلك تأويله، لقلتُ: أولى التأويلين بتأويل الآية ما قاله الآخرون من أنَّ الله عنى بقوله: «من حيث أفاضَ الناس»، من حيث أفاضَ إبـراهيم. لأنَّ الإفاضةَ من عرفات لاشك أنها قبل الإفاضة من جَمْع، وقبل وجوب الذكر عند المشعر الحرام. وإذ كان ذلك لاشك كذلك، وكان الله عَزَّ وجل إنما أمر بالإفاضة من الموضع الذي أفاض منه الناسُ، بَعد انقضاء ذكر الإفاضة من عرفات، وبعد أمره بذكره عند المشعر الحرام، ثم قال بعد ذلك: «ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس» ـ كان معلوماً بذلك أنه لم يأمر بالإفاضة إلَّا من الموضع الذي لم يُفيضوا منه، دون الموضع الذي قد أفاضوا منه، وكان الموضعُ الذي قد أفاضوا منه فانقضى وَقتُ الإفاضة منه، لا وَجه لأنْ يقالَ: «أفِضْ منه».

فإذْ كان لا وَجه لذلك، وكان غير جائز أن يأمر الله جَلَّ وعزَّ بأمرٍ لا معنى له، كانت بيِّنـةً صحـةُ ما قالوه من التأويل في ذلك، وفسادُ ما خالفه، لولا الإجماع الذي وصفناه، وتظاهر الأخبار بالذي ذكرنا.

فإنْ قال لنا قائلٌ: وكيف يجوز أن يكون ذلك معناه، «والناس» جماعة «وإبراهيم» ﷺ واحد، والله تعالى ذِكْرُه بقوله: «ثم أفيضوا من حيث أفاضَ الناس»؟

قيل: إنَّ العربَ تفعلُ ذلك كثيراً، فتدلُّ بذكر الجماعةِ على الواحد، ومن ذلك قول الله عَزَّ وجل: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، والذي قال ذلك واحد، وهو فيما تظاهرت به الروايةُ من أهل السير ـ نعيم بن مسعود الأشجعي. ومنه قول الله عَزَّ وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَٱعْمَلُوا صَالِحَاً﴾ [المؤمنون: ٥١]، قيل: عنى بذلك النبي ﷺ ـ ونظائر ذلك في كلام العرب أكثر من أن تحصى.

القول في تأويل قوله تعالى: وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾

يعني بذلـك جَلَّ ثنـاؤه: فإذا أفضتم من عرفـاتٍ مُنصرفين إلى مِنى، فاذكـروا الله عند المشعرِ الحرام، وادعوهُ واعبدوه عنده، كما ذكركم بهدايته فَوفَّقكُمْ لما ارتضى لخليلهِ إبراهيم، فهداهُ له من شريعة دينه، بعد أن كنتم ضُلاَّلاً عنه.

وفي «ثم» في قوله: «ثم أفيضوا من حَيْثُ أفاضَ الناس»، من التأويل وجهان:

أحدهما أن معناه: ثم أفيضوا فانصرفوا راجعين إلى منى من حيث أفاضَ إبراهيمُ خليلي من المشعر الحرام، وسَلُوني المغفرةَ لذنوبكم، فإني لها غَفورٌ، وبكم رحيم.

وأما قوله: «فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشدَّ ذكراً»، فإنَّ أهل التأويل اختلفوا في صفة «ذكرِ القوم آباءهم»، الذين أمرَهُم الله أن يجعلوا ذكرهم إياه كذكرهم آباءَهم أو أشد ذكراً.

فقال بعضهم: كان القوم في جاهليتهم، بعد فراغهم من حجهم ومناسكهم، يجتمعون فيتفاخرون بمآثر آبائهم، فأمرهم الله في الإسلام أن يكون ذكرُهم بالثناء والشكر والتعظيم لربهم دون غيره، وأن يُلزموا أنفسهم من الإكثار من ذكره، نظيرَ ما كانوا ألزموا أنفسهم في جاهليتهم من ذكر آبائهم.

والآخر منهما: «ثم أفيضوا» من عرفة إلى المشعر الحرام، فإذا أفضتم إليه منها، فاذكروا الله عنده كما هداكم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: ﴿فإذا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ﴾، فإذا فرَغتم من حَجِّكم فذبحتم نِسائككم، فاذكروا الله.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: فاذكروا الله كذكر الأبناء والصِّبيانِ الآباءَ.

وقال آخرون: بل قيل لهم: «اذكروا الله كذكركم آباءكم»، لأنهم كانوا إذا قضوا مناسكهم فدعوا ربَّهم، لم يذكروا غيرَ آبائهم، فأمروا من ذكر الله بنظير ذكر آبائهم.

والصواب من القول عندي في تأويل ذلك أنْ يُقالَ: إن الله جَلَّ ثناؤه أمرَ عباده المؤمنين بذكره بالطاعةِ له، في الخضوعِ لأمرِهِ، والعبادةِ له، بعد قَضاء مَناسكهم. وذلك «الذكر» جائزٌ أنْ يكونَ هو التكبيرُ الذي أمَر به جَلَّ ثناؤه بقوله:

﴿وَٱذْكُرُوا ٱللهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٠٣] الذي أوجبه على من قضى نُسكه بعد قضائه نُسكه، فألزمه حينئذ مِنْ ذِكْره ما لم يكن له لازماً قبل ذلك، وحثَّ على المحافظةِ عليه مُحافظة الأبناء على ذكر الآباء في الإكثار منه، بالاستكانةِ له، والتضرعِ إليه، بالرغبة منهم إليه في حوائجهم، كتضرُّعِ الولدِ لوالدهِ، والصبيِّ لأمهِ وأبيه، أو أشد من ذلك، إذ كان ما كان بهم وبآبائهم من نعمة فمنه، وهو وليه.

وإنما قلنا: «الذكر» الذي أمر الله جَلَّ ثناؤه به الحاجَّ بعد قضاء مناسكه بقوله: «فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً»: «جائزٌ أن يكون هو التكبير الذي وَصَفنا»، من أجل أنه لا ذكر لله أمرَ العباد به بعد قَضاء مَناسكهم لم يكن عليهم من فرضه قبل قضائهم مناسكهم، سوى التكبير الذي خَصَّ الله به أيام منى. فإذ كان ذلك كذلك، وكان معلوماً أنه جَلَّ ثناؤه قد أوجبَ على خَلْقِه بعد قَضائهم مناسكهم من ذكره ما لم يكنْ واجباً عليهم قبل ذلك، وكان لا شيء من ذكره خَصَّ به ذلك الوقت سوى التكبير الذي ذكرناه ـ كانت بَيِّنةً صحةُ ما قلنا من تأويلِ ذلك على ما وصفنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۝٢٠٠﴾

يعني بذلك جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «فإذَا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ» أيها المؤمنونَ «فاذْكُروا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آباءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً» وارغبُوا إليهِ فيما لَدَيهِ مِنْ خيرِ الدُّنيا والآخرة بابتهالٍ وتمسْكُنٍ، واجعلوا أعمالَكُم لوجهِهِ خالِصاً ولِطَلبِ مرضاتهِ، وقولُوا ربَّنا آتِنا في الدُّنيا حسَنة، وفي الآخرةِ حسَنة، وقِنا عذابَ النَّار؛ ولا تكونُوا كمَن اشْتَرى الحياةَ الدُّنيا بالآخرةِ، فكانت أعمالهُم للدُنيا وزينَتِها، فلا يسألونَ ربَّهم إلا متاعها، ولا حظَّ لهم في ثوابِ اللهِ، ولا نصيبَ لهم في جناتهِ، وكريم ما

أعدَّ لأوليائِه، كما قال في ذلك أهل التأويل.

وأما معنى الخلاق فقد بيَّنَّاهُ في غير هذا الموضع، وذكرنا اختلاف المختلفينَ في تأويلِه، والصحيح لدينا من معناه بالشواهدِ من الأدلةِ، أنه النصيبُ بما فيه كفايةٌ عن إعادتِه في هذا الموضع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾

اختلف أهلُ التأويل في معنى الحسَنة التي ذكر الله في هذا الموضع، فقال بعضهم: يعني بذلك ومن الناس من يقول: ربَّنا أعطِنا عافيةً في الدُّنيا، وعافيةً في الآخرة.

وقال آخرون: بل عنى الله عَزَّ وجَلَّ بالحسَنة في هذا الموضع: في الدُّنيا: العِلم والعبادة، وفي الآخرة الجَنَّة.

وقال آخرون: الحسَنة في الدُّنيا: المال، وفي الآخرة: الجَنَّة.

والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ أخبر عن قومٍ من أهلِ الإيمان بهِ وبرسولِه، مِمَّن حجَّ بيته، يسألُونَ ربَّهم الحسَنة في الدُّنيا، والحسَنة في الآخرة، وأن يقيهم عذابَ النَّار، وقد تجمعُ الحسَنة من الله عَزَّ وجَلَّ العافية في الجسمِ والمعاشِ والرزق، وغير ذلك والعلم والعبادة. وأما في الآخرة فلاشكَّ أنها الجَنَّة، لأن من لم ينَلها يومئذٍ، فقد حُرِمَ جميع الحسنات، وفارقَ جميع معاني العافية.

وإنما قلنا إن ذلك أولى التأويلات بالآية، لأن الله عَزَّ وجَلَّ لم يخصصْ بقوله مخبراً عن قائل ذلك من معاني الحسَنة شيئاً، ولا نصب على خصوصه

دلالة دالة على أن المرادَ من ذلك بعض دونَ بعض، فالواجبُ من القولِ فيه ما قُلنا، من أنه لا يجوز أن يخصّ من معاني ذلك شيء، وأن يحكم بعمومه على ما عمَّه الله.

وأما قوله: «وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» فإنه يعني بذلك: اصرفْ عنَّا عذابَ النار، يقال منه: وقَيتَه، كذا أقيهِ وقايةً وواقية ووقاءً ممدوداً، وربما قالوا: وقاكَ اللهُ وَقْياً: إذا دفعتَ عنهُ أذى أو مكروهاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ٢٠٢﴾

يعني بقـوله جَلَّ ثناؤُهُ: «أولئك»، الذين يقولون بعد قضاء مناسِكِهم: «رَبَّنَا آتِنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً وَقِنا عذابَ النار»، رغبةً منهم إلى الله جَلَّ ثناؤُهُ فيما عنده، وعلماً منهم بأنَّ الخيرَ كله من عنده، وأنَّ الفضلَ بيده يُؤتيه مَنْ يَشاء. فأعْلَمَ جَلَّ ثناؤُهُ أنَّ لهم نصيباً وحظاً من حجِّهم ومناسكهم، وثواباً جزيلاً على عملهم الذي كسبوه وَباشروا معاناته بأموالهم وأنفسهم، خاصاً ذلك لهم دون الفريق الآخر، الذين عانوا ما عانوا من نَصَب أعمالهم وتعبها؛ وتكلّفُوا ما تكلفـوا من أسفارهم، بغير رغبةٍ منهم فيما عند رَبِّهم من الأجر والثواب، ولكن رَجاء خسيسٍ من عَرَضِ الدنيا، وابتغاء عَاجل حُطامها.

وأما قوله: «والله سريع الحساب»، فإنه يعني جَلَّ ثناؤُهُ أنه محيطٌ بعمل الفريقين كليهما اللذين من مسألة أحدهما: «رَبنا آتنا في الدنيا»، ومن مسألة الآخر: «رَبَّنَا آتِنَا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»، فَمُحْصٍ له بأسرعِ الحساب، ثم إنه مجازٍ كِلاَ الفريقين على عمله.

وإنمـا وصف جَلَّ ثناؤُهُ نفسه بسرعة الحساب، لأنه جل ذكره يُحصِي

ما يُحصي من أعمالِ عبادهِ بغير عَقْدِ أصابع، ولا فكرٍ ولا رَوية، فِعلَ العَجَزةِ الضَّعَفةِ من الخَلْقِ، ولكنه لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، ولا يَعزبُ عنه مثقالُ ذرة فيهما، ثم هو مُجازٍ عبادَه على كل ذلك. فلذلك امتدح نَفْسَهُ جَلَّ ذكره بسرعةِ الحساب، وأخبر خلقه أنه ليس لهم بمِثْلٍ، فيحتاجَ في حسابه إلى عَقْدِ كفٍّ أو وَعْي صَدْرٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾

يعني جَلَّ ذكره: اذكروا الله بالتوحيدِ والتعظيم في أيامٍ مُحصَيات، وهي أيامُ رَمي الجمار. أمَرَ عبادَهُ يومئذٍ بالتكبير أدبارَ الصلوات، وعند الرمي مع كل حَصَاةٍ من حَصى الجمار يرمي بها جَمرةً من الجمار.

وإنمـا قلنا إنَّ «الأيام المعدودات»، هي أيامُ مِنى وأيام رمي الجمار، لتظاهُرِ الأخبار عن رسولِ الله ﷺ أنه كان يقول فيها: إنها أيام ذِكْرِ الله عزَّ وجلَّ.

فإنْ قال قائل: إن النبي ﷺ إذ قال في أيام منى: إنها أيامُ أكلٍ وشرب وذكر الله، لم يخبر أُمَّته أنها «الأيام المعدودات» التي ذكرها الله في كتابه، فما تنكر أن يكون النبيُّ ﷺ عَنَى بقوله: «وذكْر الله»، «الأيام المعلومات»؟

قيل: غير جائز أن يكـون عَنَى ذلك؛ لأنَّ الله لم يكن يُوجب في «الأيام المعلومـات» من ذكـره فيها ما أوجبَ في «الأيام المعدودات»، وإنما وصف «المعلومـات» جَلَّ ذِكْرُهُ، بأنها أيامٌ يُذْكَرُ فيها اسمُ الله على بهائمِ الأنعام، فقال: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ الله فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾ [الحج: ٢٧]، فلم يُوجِبْ في «الأيام المعلومات» من ذِكْرِهِ كالذي أوجبه في «الأيام المعدودات» من ذكره، بل أخبر أنها أيام ذكره على بَهائم الأنعام؛ فكان معلوماً إذ قال ﷺ لأيام التشريق: «إنَّها أيامُ أكلٍ وشربٍ

وذِكْرِ الله»[1] فأخرج قوله: «وذكر الله» مطلقاً بغير شرط، ولا إضافة إلى أنه الذكر على بهائم الأنعام أنه عنى بذلك الذكر الذي ذكره الله في كتابه، فأوجبه على عبادِه مُطْلَقاً بغير شرطٍ، ولا إضافة إلى معنى في «الأيام المعدودات»، وأنه لو كان أراد بذلك ﷺ وَصْف «الأيام المعلومات» به، لوصل قوله: «وذكر» إلى أنه ذكر الله على ما رزقهم من بهائم الأنعام، كالذي وصف الله به ذلك، ولكنه أطلق ذلك باسم الذكر من غير وَصْلِهِ بشيءٍ، كالذي أطلقه تبارك وتعالى باسم الذكر فقال: «واذْكُرُوا الله في أيامٍ معدوداتٍ». فكان ذلك من أوضحِ الدليلِ على أنه عَنَى بذلك ما ذكره الله في كتابه، وأوجبه في «الأيام المعدودات».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾

وأولى الأقوالِ بالصحةِ قولُ مَنْ قال: تأويل ذلك: «فمن تَعَجَّلَ فِي يِوْمَيْنِ» من أيام منى الثلاثة فنفر في اليوم الثاني، «فلا إثمَ عليه»، لحطِّ الله ذنوبَه إنْ كان قد اتقى الله في حَجِّهِ، فاجتنب فيه ما أمره الله باجتنابه، وفَعَلَ فيه ما أمره الله بفعله، وأطاعَهُ بأدائِه على ما كَلَّفَهُ من حدوده. «ومن تأخر» إلى اليوم الثالث منهن، فلم ينفرْ إلى النفر الثاني حتى نفر من غدِ النفرِ الأول، «فلا إثم عليه»، لتكفيرِ الله له ما سَلَفَ من آثامهِ واجرامه، إنْ كان اتقى الله في حجه بأدائه بحدوده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٢٠٣﴾

(١) حديث صحيح من حديث نبيشة الهذلي، وعبدالله بن عمرو، وأبي هريرة، وكعب بن مالـك رضي الله عنهم. انـظر تحفة الأشراف الأحاديث رقم (٨٦٥٣) و (١١١٣٧) و (١١٥٨٧) و (١٥٠٤٤).

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: واتَّقوا الله، أيها المؤمنون، فيما فَرَضَ عليكم من فرائضـهِ، فخـافـوه في تضييعها والتفريطِ فيها، وفيما نهاكم عنه في حججكم ومناسككم أنْ ترتكبوه أو تأتوه، وفيما كَلَّفَكُمْ في إحرامكم لحجكم أن تقصِّروا في أدائِه والقيامِ به، «واعلموا أنكم إليه تُحشرون»، فَمُجَازيكم هو بأعمالكم ـ المحسنُ منكم بإحسانه، والمسيءُ بإساءته ـ وموفٍّ كلَّ نَفْسٍ منكم ما عَمِلَتْ وأنتم لا تُظْلَمُون.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾

وهذا نعتٌ من الله تبارك وتعالى للمنافقين. يقول جَلَّ ثناؤُهُ: ومن الناس مَنْ يعجبك يا محمدُ ظاهرُ قوله وعلانيته، ويستشهدُ الله على ما في قلبه، وهو أَلَدُّ الخِصَامِ، جَدِلٌ بالباطل.

وفي قوله: «وَيُشْهِدُ آللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ»، وجهان من القراءة:

فقرأته عامةُ القَرَأَة: «وَيُشْهِدُ آللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ»، بمعنى أن المنافق الذي يُعجب رسول الله ﷺ قولُهُ، يستشهدُ الله على ما في قلبه أن قوله موافقٌ اعتقادَه، وأنه مؤمن بالله ورسوله وهو كاذب.

وقرأ ذلك آخرون: ﴿وَيَشْهَدُ آللهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾، بمعنى: والله يشهدُ على الذي في قلبه من النفاقِ، وأنه مُضْمِرٌ في قلبه غيرَ الذي يُبديه بلسانه، وعلى كذبه في قلبه. وهي قراءة ابن مُحَيْصن.

والذي نختارُ في ذلك من قولِ القَرَأَةِ، قراءة من قرأ: «وَيُشْهِدُ آللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ»، بمعنى: يستشهدُ الله على ما في قلبه، لإجماعِ الحجة من القَرَأَةِ عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ۝٢٠٤﴾

«الألَدُّ» من الرجال: الشديدُ الخصومة، يقال: في «فعلت» منه: «قد لَدَدْتَ يا هذا، ولم تكن ألدَّ، فأنت تلُدُّ لَدَداً وَلَدادَةً». فأما إذا غلب من خاصمه فإنما يقال فيه: «لَدَدْت يا فلانُ فلاناً فأنت تَلُدُّهُ لَداً».

ثم اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك فقال بعضهم: تأويله: أنه ذُو جِدال.

وقال آخرون: معنى ذلك: أنه غيرُ مستقيمِ الخصومةِ، ولكنه مُعْوَجُّهَا.

وكلا هذين القولين متقاربُ المعنى، لأنَّ الاعوجاجَ في الخصومة من الجِدالِ واللَّدد.

وقال آخرون: معنى ذلك: وهو كاذبٌ في قوله.

وهذا القولُ يحتمل أنْ يكون معناه معنى القولين الأولين، إنْ كان أرادَ به قائله أنه يخاصمُ بالباطل من القول والكذب منه، جدلاً واعوجاجاً عن الحق.

وأما «الخِصَامِ» فهو مصدر من قول القائل: «خاصمت فلاناً خصاماً ومخاصمة».

وهذا الخبر من الله تبارك وتعالى عن المنافق الذي أخبر نبيه محمداً ﷺ أنه يُعجبه إذا تكلم قِيلُهُ ومَنْطِقُهُ، ويستشهدُ الله على أنه مُحِقٌّ في قِيله ذلك، لشدةِ خصومته وجداله بالباطل والزور من القول.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا

يعني بقوله جَلَّ ثناؤهُ: «وَإِذَا تَوَلَّى»، وإذا أدبر هذا المنافقُ من عندك يا محمد منصرفاً عنك.

فمعنى الآية: وإذا خرَج هذا المنافقُ من عندك يا محمد غضْبانَ، عَمل في الأرض بما حرَّم الله عليه، وحاول فيها معصيةَ الله وقطعَ الطريق وإفسادَ السبيل على عباد الله، كما قد ذكرنا آنفاً من فعلِ الأخنسِ بنِ شريقٍ الثقفي.

و«السعي» في كلام العرب: العملُ، يقال منه: «فلانٌ يسعى على أهلِهِ» يعني به: يعملُ فيما يعودُ عليهم نَفْعُهُ.

واختلف أهلُ التأويل في معنى «الإفساد» الذي أضافه الله عزَّ وجلَّ إلى هذا المنافق.

والصوابُ من القول في ذلك أنْ يُقال: إنّ الله تبارك وتعالى وَصَف هذا المنافقَ بأنه إذا تولّى مُدْبراً عن رسول الله ﷺ عَمِل في أرض الله بالفساد، وقد يدخلُ في «الإفساد» جميع المعاصي؛ وذلك أن العمل بالمعاصي إفسادٌ في الأرض، فلم يخصص الله وصفه ببعض معاني «الإفساد» دون بعض؛ وجائزٌ أن يكون ذلك الإفسادُ منه كان بمعنى قطع الطريق، وجائز أن يكون غير ذلك. وأيّ ذلك كان منه، فقد كان إفساداً في الأرض، لأن ذلك منه لله عزَّ وجلَّ معصيةٌ. غير أنَّ الأشبهَ بظاهرِ التنزيلِ أنْ يكونَ كان يقطعُ الطريقَ ويُخيف السبيل، لأن الله تعالى ذِكْرُهُ وصفَهُ في سياق الآية بأنه «سعى في الأرض ليفسدَ فيها ويُهلكَ الحَرْثَ والنسل»، وذلك بفعل مخيف السبيل، أشبهُ منه بفعل قَطَّاع الرحم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾

اختلف أهل التأويل في وجه «إهلاك» هذا المنافق الذي وصفه الله بما وصَفه به من صفة «إهلاك الحرث والنسل».

فقال بعضهم: كان ذلك منه إحراقاً لزرعِ قومٍ من المسلمين، وعقراً لِحُمُرِهم.

وقال آخرون: إذا تولى سعى في الأرض بالعدوان والظلم، فيحبسُ الله بذلك القَطْرَ، فيُهلك الحرثَ والنسلَ والله لايحبُّ الفساد.

وهذا وإنْ كان مذهباً من التأويل تَحْتَمِلُهُ الآيةُ، فإنَّ الذي هو أشبهُ بظاهر التنزيل من التأويل (هو الأول)، فلذلك اخترناه.

وأما «ٱلْحَرْثَ»: فإنه الزرعُ، «وَٱلنَّسْلَ»: العقب والولد.

«وإهلاكه الزرع» إحراقه، وقد يجوز أن يكون كان باحتباس القَطْرِ من أجل معصيته ربَّه وَسعيه بالإفسادِ في الأرض، وقد يحتمل أن يكون كان بقتلِهِ القُوَّام به والمتعاهدينَ له حتى فسد فهلك، وكذلك جائز في معنى: «إهلاكه النسل»: أن يكون كانَ بقتلِهِ أمهاته أو آباءه التي منها يكون النسل، فيكون في قَتْلِهِ الآباءَ والأمهات انقطاع نسلهما.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: والله لايحب المعاصيَ، وقطعَ السبيل، وإخافةَ الطريق.

و«ٱلْفَسَادَ» مَصْدَرٌ من قولِ القائل: «فَسَدَ الشيءُ يَفْسُد»، نظير قولهم: «ذهب يذهب ذهاباً»، ومن العرب من يجعل مصدر «فسد، فسوداً»، ومصدر «ذهب يذهب ذُهوباً».

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: وإذا قِيلَ لهذا المنافق الذي نعَتَ نعتَه لنبيه عليه السلام، وأخبره أنه يُعجبه قوله في الحياة الدنيا: اتَّقِ الله وخَفْهُ في إفسادكَ في

أرْضِ الله، وسعيكَ فيها بما حرَّم الله عليك من معاصيه، وإهلاكك حروثَ المسلمين ونسلهم - استكبر وَدَخَلَتْهُ عِزةٌ وحَميةٌ بما حرّم الله عليه، وتمادى في غيِّه وضلاله. قال الله جَلَّ ثناؤُهُ: فكفاه عقوبةً من غيِّهِ وضلالهِ، صِلِيُّ نارِ جهنمَ، ولَبِئْسَ المِهاد لصاليها.

وأما قوله: «وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ»، فإنه يعني: ولبئس الفراشُ والوِطاء جهنمُ التي أوعدَ بها جَلَّ ثناؤُهُ هذا المنافق، ووطَّأها لنفسه بنفاقه وفجوره وتمرُّده على ربه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ

يعني جَلَّ ثناؤُهُ: ومن الناس مَنْ يبيعُ نفسه بما وعدَ الله المجاهدينَ في سبيله وابتاع به أنْفُسَهُم بقوله: ﴿إِنَّ الله ٱشْتَرَى مِنَ ٱالْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

وقد دللنا على أنَّ معنى «شرى» باع، في غير هذا الموضع بما أغنى عن إعادته.

أما قوله: «ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللهِ»، فإنه يعني أنَّ هذا الشاري يشري، إذا اشترى طلبَ مرضاة الله.

ونصب «ٱبْتِغَـآءَ» بقوله: «يَشْرِي». فكأنه قال: ومن الناسِ مَنْ يَشري نفسه من أجل ابتغاء مرضاةِ الله، ثم تُرك «من أجل»، وعَملَ فيه الفعل.

والـذي هو أولى بظاهـر هذه الآية من التأويل، ما روي عن عمر بن الخطاب وعن عليٍّ بن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهم، مِنْ أنْ يكون عنيَ بها الآمِرُ بالمعروف والناهي عن المنكر.

وذلك أن الله جَلَّ ثناؤُهُ وصَف صفة فريقين: أحدهما منافقٌ يقول بلسانه خِلافَ ما في نفسه، وإذا اقتدر على معصية الله ركبها، وإذا لم يقتدر رَامَها، وإذا نُهِيَ أخذته العزّة بالإثم بما هو به آثم. والآخر منهما بائعٌ نَفْسَهُ، طالبٌ من الله رضا الله. فكان الظاهرُ من التأويل أنَّ الفريقَ الموصوف بأنه شرى نفسه لله وطلب رضـاه، إنمـا شراها للوثُوبِ بالفريقِ الفاجر طلبَ رضا الله. فهذا هو الأغلبُ. الأظهر من تأويل الآية.

فالصواب من القول في ذلك أن يقال: إنّ الله عَزَّ ذِكْرُهُ وصف شارياً نفسَه ابتغاء مرضاته؛ فَكُلُّ مَنْ باعَ نفسه في طاعته حتى قُتِلَ فيها، أو استقتل وإن لم يُقتل، فمعنيٌّ بقوله: «ومِنَ الناسِ مَنْ يشري نَفْسَهُ ابتغاءَ مرضاتِ الله» في جهادِ عَدُوٍّ المسلمين كانَ ذلكَ منه، أو في أمرٍ بمعروفٍ أو نهيٍ عن منكر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠٧﴾

قد دللنا فيما مضى على معنى «الرأفة»، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع، وأنها رقة الرحمة.

فمعنى ذلك: والله ذُو رحمةٍ واسعة بعبده الذي يَشْرِي نَفْسَهُ له في جهادِ مَنْ حادَّهُ في أمرهِ من أهلِ الشركِ والفُسوقِ، وبغيره من عباده المؤمنين في عاجلهم وآجل معادهم، فينجز لَهمُ الثوابَ على ما أبلَوا في طاعته في الدنيا، ويُسْكِنُهم جَنَّاتِهِ على ما عَمِلُوا فيها من مرضاته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً﴾

اختلف أهـلُ التـأويل في معنى «ٱلسِّلْمِ» في هذا المـوضـع. فقـال بعضهم: معناه الإسلام.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ادخلوا في الطاعة.

وقـد اختلفت القَـرَأَةُ في قراءةِ ذلك. فقرأته عامةُ قَرَأة أهلِ الحجاز، «ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسَّلْمِ كَآفَّةً» بفتح «السين»، وقرأته عامة قَرَأة الكوفيين بكسر «السين».

فأمـا الـذين فتحـوا «السين» من «السلم»، فإنهم وَجَّهُـوا تأويلهـا إلى المسالمة، بمعنى: ادخلوا في الصلحِ والمسالمةِ وتركِ الحربِ وإعطاءِ الجزية.

وأما الذين قرأوا ذلك بالكسر من «السين»، فإنهم مختلفون في تأويله، فمنهم مَنْ يُوجِّهُهُ إلى الإسلام، بمعنى: ادخلوا في الإسلامِ كافةً. ومنهم مَنْ يوجهّه إلى الصلح، بمعنى: ادخلوا في الصلح.

وأَوْلى التـأويلاتِ بقـوله: «ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ»، قولُ مَنْ قال: معناه: ادخلوا في الإسلام كافة.

وأمّا الذي هو أولى القراءتين بالصواب في قراءة ذلك، فقراءة مَنْ قرأ بكسر «السين»، لأن ذلك إذا قرئَ كذلك ـ وإن كان قد يحتمل معنى الصلح ـ فإن معنى الإسلام ودوامَ الأمرِ الصالح عند العرب، أغلبُ عليه من الصُّلْحِ والمسالمة.

وقد كان أبو عمرو بن العلاء يقرأ سائرَ ما في القرآن من ذكر «السلم» بالفتح، سوى هذه التي في «سورة البقرة»، فإنه كان يَخُصُّها بكسرِ سِينها، توجيهاً منه لمعناها إلى الإسلامِ دون ما سواها.

وإنما اخترنا ما اخترنا من التأويل في قوله: «ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ»، وصَرَفْنَا معناهُ إلى الإسلام، لأنَّ الآيةَ مخاطبٌ بها المؤمنون، فَلَنْ يعدوَ الخطاب، إذ كان خطاباً للمؤمنين، من أحدِ أمرين:

إما أن يكون خطاباً للمؤمنين بمحمدٍ المصدقينَ به وبما جاءَ به. فإنْ يَكُنْ ذلك كذلك، فلا معنى أنْ يقالَ لهم وهم أهلُ الإيمان: «ادخلوا في صلح المؤمنين ومسالمتهم»، لأنَّ المسالمةَ والمصالحةَ إنما يُؤْمَرُ بها مَنْ كان حرباً، بتركِ الحربِ، فأما المُوَالي فلا يجوز أنْ يقالَ له: «صالح فلاناً»، ولا حربَ بينهما ولا عداوة.

أو يكون خطاباً لأهلِ الإيمان بِمَنْ قَبْلَ محمدٍ ﷺ من الأنبياء المصدِّقينَ بهم وبما جاءوا به من عند الله، المنكرين محمداً ونبوته، فقيل لهم: ﴿ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ﴾، يعني به الإسلام، لا الصُّلح، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ إنما أمر عباده بالإيمانِ به وبنبيه محمد ﷺ وما جاء به، وإلى ذلك دعاهم، دون المسالمةِ و المصالحة. بل نهى نَبِيَّهُ ﷺ في بعض الأحوال عن دعاء أهل الكفر إلى الصلح فقال: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥]، وإنما أباحَ له ﷺ في بعض الأحوال، إذا دعَوهُ إلى الصلح، ابتداءَ المصالحة، فقال له جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١]، فأما دعاؤهم إلى الصُّلح ابتداءً، فغيرُ موجودٍ في القرآن، فيجوز توجيه قوله: «ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ» إلى ذلك.

فإن قال لنا قائل: فأيُّ هذين الفريقين دُعِيَ إلى الإسلام كافة؟

قيل: قد اخْتُلِفَ في تأويل ذلك.

فقال بعضهم: دُعِيَ إليه المؤمنون بمحمد ﷺ وما جاء به.

وقال آخرون: قيل: دُعي إليه المؤمنون بِمَنْ قَبْلَ محمدٍ ﷺ من الأنبياء، المُكَذِّبون بمحمد.

فإن قال: فما وجهُ دعاء المؤمن بمحمد وبما جاء به إلى الإسلام؟

قيل: وجهُ دعائه إلى ذلك، الأمرُ له بالعمل بجميع شرائعه، وإقامة جميع أحكامه وحدوده، دون تضييع بعضه والعمل ببعضه، وإذا كان ذلك معناه، كان قوله: «كَافَّةً» من صفة «ٱلسِّلْمِ»، ويكون تأويله: ادخلوا في العمل بجميع معاني السلم، ولا تضيعوا شيئاً منه يا أهلَ الإيمان بمحمد وما جاء به.

والصوابُ من القول في ذلك عندي أن يقال: إنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ أمر الذين آمنوا بالدخول في العملِ بشرائعِ الإسلام كُلِّها، وقد يدخل في «الذين آمنوا» المُصدِّقونَ بمحمد ﷺ وبما جاء به، والمُصَدِّقون بمن قَبْلَهُ من الأنبياء والرسل وما جاءوا به. وقد دعا الله عزَّ وجلَّ كِلاَ الفريقين إلى العمل بشرائعِ الإسلام وحدوده، والمحافظةِ على فرائضه التي فَرَضَها، ونهاهم عن تضييعِ شيءٍ من ذلك، فالآية عامة لكل مَنْ شمله اسم «الإيمان»، فلا وجه لخصوصِ بعضٍ بها دون بعض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: كَآفَّةً

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «كَافَّةً»، عامة، جميعاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بذلك: اعملوا، أيها المؤمنون، بشرائع الإسلام كُلِّها، وادخلوا في التَّصديق به قولاً وعملاً، ودعوا طرائق الشيطانِ وآثارَهُ أنْ تتبعوها، فإنه لكم عَدُوٌّ مبين لكم عداوته. وطريقُ الشيطان الذي نهاهم أن يتبعوه، هو ما خالفَ حُكْمَ الإسلامِ وشرائعه، ومنه تَسْبيتُ السَّبْتِ، وسائر سُنن أهلِ الملل التي تُخالفُ مِلَّةَ الإسلام.

وقد بَيَّنْتُ معنى «الخطوات» بالأدلة الشاهدة على صحته فيما مضى، فكرهتُ إعادته في هذا المكان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٠٩﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: فإنْ أخطأتم الحَقَّ، فضللتم عنه، وخالفتم الإسلام وشرائعه، من بعد ما جاءتكم حُجَجي وبيِّنات هداي، واتَّضَحَتْ لكم صحةُ أمر الإسلام بالأدلة التي قطعت عذركم أيها المؤمنون؛ فاعلموا أنَّ الله ذو عزةٍ لايمنعه من الانتقام منكم مانعٌ، ولا يدفعه عن عقوبتكم على مخالفتكم أمْرَهُ ومعصيتكم إيَّاهُ دافع. «حَكِيمٌ» فيما يفعلُ بكم من عقوبته على معصيتكم إياه، بعد إقامته الحُجَّةَ عليكم، وفي غيره من أموره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾

يعني بذلك جلَّ ثناؤُهُ: هل ينظرُ المُكَذِّبون بمحمدٍ ﷺ وما جاء به، إلا أنْ يأتيهم الله في ظُلَلٍ من الغمام والملائكة؟

ثم اختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: «وَالْمَلائِكَةُ».

فقرأ بعضهم: «هَلْ يَنظُرُونَ إلَّا أن يَأْتِيَهُمُ آللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ»، بالرفع، عطفاً بـ «الملائكة» على اسم الله تبارك وتعالى، على معنى: هل ينظرون إلا أنْ يأتيهم الله والملائكةُ في ظلل من الغمام.

وقرأ ذلك آخرون: «هَلْ يَنظُرُونَ إلَّا أن يَأْتِيَهُمُ آللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ

وَٱلْمَلاَئِكَةِ» بالخفض، عطفاً بـ «الملائكة» على «الظلل»، بمعنى: هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام وفي الملائكة.

وكذلك اختلفت القَرَأَةُ في قراءة «ظلل»: فقرأها بعضُهم: «فِي ظُلَلٍ»، وبعضهم: «فِي ظِلالٍ».

فمن قرأها «فِي ظُلَلٍ»، فإنه وَجَّهَهَا إلى أنها جمع «ظُلَّة»، و«الظُلَّة»، تجمع «ظُلل وظِلال»، كما تُجْمَعُ «الخُلَّة»، «خُلَل وخِلال»، و«الجلَّة»، «جُلَلُ وجِلال».

والصوابُ من القراءة في ذلك عندي: «هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ».

وأما الذي هو أَوْلَى القراءتين في «وَالْمَلاَئِكَةُ»، فالصوابُ بالرفع، عطفاً بها على اسم الله تبارك وتعالى، على معنى: هل ينظرون إلاّ أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام، وإلاّ أن تأتيهم الملائكة، على ما روي عن أُبيٍّ بن كعب. لأن الله جَلَّ ثناؤُهُ قد أخبر في غير موضعٍ من كتابه: أن الملائكة تأتيهم، فقال جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالمَلَكُ صَفاً صَفاً﴾ [الفجر:٢٢]، وقال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام:١٥٨].

فإن أشكلَ على امرىءٍ قولُ الله جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَالمَلَكُ صَفاً صَفاً﴾، فظن أنه مخالفٌ معناه معنى قوله: «هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلاَئِكَةُ»، إذ كان قوله: «وَالْمَلاَئِكَةُ» في هذه الآية بلفظ جميع، وفي الأخرى بلفظ الواحد، فإن ذلك خطأ من الظنّ، وذلك أن «الملك» في قوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالمَلَكُ﴾ بمعنى الجميع ومعنى «الملائكة»، والعرب تذكر الواحد بمعنى الجميع فتقول: «فلانٌ كثيرُ الدرهمِ والدينار»، يُرَادُ به: الدراهم والدنانير، و«هلك البعير والشاةُ»، بمعنى جماعة الإبل والشاء. فكذلك قوله:

«وَالْمَلَكُ» بمعنى «الملائكة».

ثم اختلف أهل التأويل في قوله: «ظُلل الغمام»، وهل هو من صِلَةِ فِعْلِ الله جَلَّ ثناؤُهُ، أو من صلة فعل «الملائكة». ومن الذي يأتي فيها؟

فقال بعضهم: هو من صلة فعل الله، ومعناه: هل ينظرون إلا أنْ يأتيهُم الله في ظلل من الغمام، وأنْ تأتيهم الملائكة.

وقال آخرون: بل قوله: «فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ» من صلة فعل «الملائكة» وإنما تأتي الملائكةُ فيها: وأما الرب تعالى ذِكْرُهُ فإنه يأتي فيما شاء.

وأولى التأويلين بالصوابِ في ذلك تأويلُ مَنْ وجَّه قوله: «فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ» إلى أنه من صلةِ فعل الرب عزَّ وجلَّ، وأن معناه: هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام وتأتيهم الملائكة.

وأما معنى قوله: «هَلْ يَنظُرُونَ»، فإنه: ما ينظرون. وقد بَيَّنَّا ذلك بعلله فيما مضى من كتابنا هذا قبل.

ثم اختلف في صفة إتيانِ الربِّ تبارك وتعالى الذي ذكره في قوله: «هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ آللهُ».

فقال بعضهم: لاصِفَةَ لذلك غير الذي وصَف به نَفْسَهُ عزَّ وجلَّ من المجيءِ والإتيانِ والنزول، وغيرُ جائز تكلُّفُ القولِ في ذلك لأحدٍ إلا بخبرٍ من الله جل جلاله أو من رسولٍ مرسل، فأما القول في صفات الله وأسمائه، فغيرُ جائز لأحدٍ من جهة الاستخراج إلا بما ذكرنا.

وقال آخرون: إتيانه عزَّ وجلَّ، نظيرُ ما يُعْرَفُ من مجيء الجائي من موضعٍ إلى موضع، وانتقاله من مكان إلى مكان.

وقال آخرون: معنى قوله : «هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ آللهُ»، يعني به:

هل ينظرون إلا أن يأتيهم أمرُ الله، كما يقال: «قد خشينا أن يأتينا بنو أُمية»، يراد به: حُكمهم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: هل ينظرون إلا أنْ يأتيهم ثوابُهُ وحسابه وعذابه، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ والنَّهارِ﴾ [سبأ: ٣٣]، وكما يقال: «قطع الوالي اللصَّ أو ضربه»، وإنما قَطَعَهُ أعوانُهُ.

فمعنى الكلام إذاً: هل ينظرُ التاركون الدخولَ في السلم كافة، والمتبعون خُطواتِ الشيطان، إلّا أنْ يأتيهم الله في ظُلَلٍ من الغمام، فيقضي في أمرهم ما هو قاضٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٢١٠﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بذلك: وفُصِلَ القضاءُ بالعدل بين الخَلْقِ، على ما ذكرناه قَبْلُ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ من أخْذِ الحَقِّ لكلِّ مظلومٍ من كل ظالم، حتى القصاص للجَمَّاء من القَرْنَاء من البهائم[1].

وأما قوله: «وَإِلَى ٱللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ»، فإنه يعني: وإلى الله يؤولُ القضاء بين خَلْقِهِ يومَ القيامة، والحكم بينهم في أمورهم التي جرت في الدنيا، من ظُلْمِ بعضِهم بعضاً، واعتداءِ المعتدي منهم حدودَ الله وخلافَ أمره، وإحسانِ المحسن منهم وطاعته إياه فيما أمرَه به ـ فيفصلُ بين المتظالمين، ويُجازي أهلَ الإحسان بالإحسان، وأهلَ الإساءة بما رأى، ويَتفضَّلُ على مَنْ لم يكن منهم كافراً فيعفو، ولذلك قال جَلَّ ثناؤُهُ: «وَإِلَى ٱللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ»، وإنْ كانت أمورُ الدنيا كلها والآخرةِ، من عنده مَبْدَؤُهَا، وإليه مصيرها، إذْ كان خَلْقُهُ في الدنيا يَتظالمون، ويَلِي النظرَ بينهم أحياناً في الدنيا بعضُ خَلْقِهِ، فيحكم بينهم بعضُ

---

(١) حديث صحيح. أخرجه أحمد ٢/٢٣٥ و ٣٠١ و ٣٢٣ و ٤١١، والبخاري في الأدب المفرد (١٨٣)، ومسلم (٨/١٨) والترمذي (٢٤٢٠) وغيرهم.

عبيده، فيجوزُ بعضٌ ويعدلُ بعضٌ، ويصيبُ واحدٌ ويخطئُ واحد، ويمكّن من تنفيذ الحكم على بعض، ويتعذَّر ذلك على بعض، لِمَنَعَةِ جانبِه وغلبتِه بالقوة، فأعلم عبادَه تعالى ذِكْرُهُ أنَّ مرجعَ جميع ذلك إليه في موقف القيامة، فينصفُ كُلًّا من كُلٍّ، ويجازي حَقَّ الجزاء كُلًّا حيثُ لا ظلمَ ولا مُمْتَنَعَ من نفوذِ حُكْمِه عليه، وحيثُ يستوي الضعيفُ والقويُّ والفقيرُ والغني، ويضمحلُّ الظلمُ، وينزلُ سلطانُ العدل.

وإنما أدخل جَلَّ وعزَّ «الألف واللام» في «الأمور»، لأنه جَلَّ ثناؤُهُ عَنَى بها جميعَ الأمور، ولم يَعْنِ بها بعضاً دون بعضٍ، فكان ذلك بمعنى قول القائل: «يعجبني العسل - والبغل أقوى من الحمار»، فيدخل فيه «الألف واللام»، لأنه لم يُقصد به قصد بعض دون بعض، إنما يُرادُ به العموم والجمع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: سَلْ يا محمد بني إسرائيل - الذين لاينتظرون - بالإنابةِ إلى طاعتي، والتوبةِ إليَّ بالإقرارِ بِنُبُوَّتِكَ وتَصديقكَ، فيما جِئْتَهُمْ به من عندي - إلا أنْ آتيهم في ظلل من الغمام وملائكتي، فأفصلُ القضاء بينك وبين مَنْ آمن بك وصدَّقك بما أنزلت إليك من كتبي، وفرضتُ عليك وعليهم من شرائع ديني، وبينهم - كم جئتهم به من قَبْلِكَ من آيةٍ وعلامة على ما فرضتُ عليهم من فرائضي، فأمرتهم به من طاعتي، وتابعتُ عليهم من حججي على أيدي أنبيائي ورسلي من قبلك، مؤيِّدةً لهم على صدقهم، بيِّنةً أنها من عندي، واضحةً أنها من أدلتي على صدق نُذُري ورُسلي فيما افترضتُ عليهم من تصديقهم وتصديقك، فكفروا حُجَجِي، وكذَّبوا رسلي، وغيَّروا نعمي قِبَلهم، وبدَّلوا عهدي ووصيتي إليهم.

وإنما أنبأ الله نبيه بهذه الآيات، فأمره بالصبرِ على مَنْ كذَّبه واستكبر على

ربـه، وأخبـره أنَّ ذلك فِعْل مَنْ قَبْلَهُ من أسلافِ الأمم قبلهم بأنبيائهم، مع مظاهرته عليهم الحجج؛ وأنّ من هو بين أظهُرهم من اليهود إنما هم من بقايا مَنْ جَرَتْ عاداتهم بذلك، ممن قص عليه قصصهم من بني إسرائيل.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٢١١﴾

يعني «بالنعم» جَلَّ ثناؤهُ: الإسلام، وما فرض من شرائع دينه.

ويعني بقوله: «وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللهِ»، ومَنْ يُغَيِّرْ ما عاهد الله في نعمته التي هي الإسلام، من العمل والدخول فيه فيكفر به، فإنه مُعَاقِبُه بما أوْعَدَ على الكفر به من العقوبة، والله شديدُ عقابهُ، أليمٌ عذابهُ.

فتـأويلُ الآية إذاً: يا أيها الذين آمنوا بالتوراة فصَدَّقُوا بها، ادْخُلُوا في الإسلامِ جميعاً، ودَعُوا الكفر وما دعاكم إليه الشيطانُ من ضلالته، وقد جاءتكم البينات من عندي بمحمد وما أظهرتُ على يديه لكم من الحجج والعِبَر، فلا تبـدِّلـوا عهـدي إليكم فيه وفيمـا جاءكم به من عنـدي في كتابكم بأنه نبيي ورسولي، فإنه مَنْ يبدِّلْ ذلك منكم فيغيره، فإني له معاقبٌ بالأليمِ من العقوبة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ﴾

يعني جَلَّ ثنـاؤهُ بذلـك: زُيِّنَ للذين كفروا حبُّ الحياةِ الدنيا العاجلة اللذات، فهم يبتغـون فيهـا المُكَـاثـرةَ والمفـاخـرةَ، ويطلبون فيها الرياسات والمباهاة، ، ويستكبرون عن اتِّباعكَ يا محمد والإقرار بما جئتَ به من عندي، تعظُّماً منهم على مَنْ صدَّقك واتبعك، ويسخرون بمن تَبِعَكَ من أهلِ الإيمانِ والتصـديق بك، في تَرْكِهم المكـاثـرةَ والمفاخرة بالدنيا وزينتَها من الرِّياشِ

والأموال بطلب الرياسات، وإقبالهم على طَلَبِهم ما عندي برفضِ الدنيا وتَرْكِ زينتها. والذين عملوا لي، وأقبلوا على طاعتي، ورفضوا لذات الدنيا وشهواتها، اتِّباعاً لكَ، وطلباً لما عندي، واتقاءً منهم بأداء فرائضي وتجنُّب معاصيَّ، فوق الذين كفروا يوم القيامة، بإدخال المتقين الجنةَ، وإدخال الذين كفروا النار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾

ويعني بذلك: والله يعطي الذين اتقوا يوم القيامة من نِعَمِهِ وكراماتِهِ وجزيل عطاياه، بغير محاسبةٍ منه لهم على ما مَنَّ به عليهم من كرامته.

فإنْ قال لنا قائل: وما في قوله: «يَرْزُقُ مَن يَشاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ» من المدح؟

قيل: المعنى الذي فيه من المدح، الخبرُ عن أنه غير خائفٍ نفادَ خزائنه، فيحتاج إلى حساب ما يخرج منها، إذ كان الحساب من المعطي إنما يكون ليعلم قَدْرَ العطاء الذي يخرج من ملكه إلى غيره، لئلا يتجاوز في عطاياه إلى ما يُجحف به، فربنا تبارك وتعالى غيرُ خائفٍ نفادَ خزائنه، ولا انتقاصَ شيء من مُلْكِهِ، بعطائهِ ما يُعطي عبادَهُ، فيحتاج إلى حساب ما يعطي وإحصاء ما يبقى. فذلك المعنى الذي في قوله: «وَٱللهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾

اختلف أهلُ التأويل في معنى: «الأمة» في هذا الموضع، وفي «الناس» الذين وصفهم الله بأنهم: كانوا أُمةً واحدة.

فقال بعضهم: هم الذين كانوا بين آدم ونوح، وهم عشرةُ قرونٍ، كُلُّهم كانوا على شريعةٍ من الحق، فاختلفوا بعد ذلك.

فكان تأويلُ الآية على معنى قول هؤلاء: كان الناس أُمَّةً مجتمعةً على ملةٍ واحدة ودينٍ واحد فاختلفوا، فبعث الله النبيين مُبَشِّرينَ ومُنْذِرينَ.

وأصلُ «الأُمة»، الجماعةُ تجتمع على دِيْنٍ واحد، ثم يُكتفى بالخبر عن «الأُمة»، من الخبر عن «الدين»، لدلالتها عليه، كما قال جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَلَوْ شَاءَ الله لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المائدة: ٤٨، النحل: ٩٣]، يُراد به: أهل دين واحد وملة واحدة. فوجَّه ابن عباس في تأويله قوله: «كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً»، إلى أنَّ الناسَ كانوا أهلَ دينٍ واحد حتى اختلفوا.

وقال آخرون: بل تأويلُ ذلك: كان آدمُ على الحقِّ، إماماً لذريته، فبعث الله النبيين في ولده، ووجهوا معنى «الأُمة» إلى الطاعة لله، والدعاء إلى توحيده واتباع أمره، من قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لله حَنِيفاً﴾ [النحل: ١٢٠]، يعني بقوله: «أُمة»، إماماً في الخير يُقتدى به ويُتَّبع عليه.

وكأنَّ مَنْ قال هذا القولَ، استجاز بتسميةِ الواحدِ باسمِ الجماعةِ، لاجتماعِ أخلاقِ الخير الذي يكون في الجماعة المفرَّقة فيمن سماه بـ «الأُمة»، كما يقالَ: «فلانٌ أمةٌ وحدَهُ»، يقوم مقام الأُمة.

وقد يجوز أن يكون سماه بذلك، لأنه سببٌ لاجتماع الأشتاتِ من الناس على ما دعاهم إليه من أخلاقِ الخير. فلما كان آدمُ ﷺ سبباً لاجتماع مَنِ اجتمع على دينه من ولده إلى حال اختلافهم، سماه بذلك «أُمة».

وقال آخرون: معنى ذلك: كان الناسُ أُمة واحدة على دينٍ واحد، يوم استخرَج ذُرِّيَةَ آدمَ من صُلْبِهِ فعرضهم على آدم.

وقال آخرون بخلافِ ذلك كله في ذلك، وقالوا: إنما معنى قوله: «كَانَ

النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً»، على دينٍ واحد، فبعث الله النبيين.

وأولى التأويلات في هذه الآية بالصواب أن يقال: إن الله عزَّ وجلّ أخبر عباده أنَّ الناسَ كانوا أمةً واحدة على دينٍ واحد وملةٍ واحدة وكان الدينُ الذي كانوا عليه دينَ الحق، فاختلفوا في دينهم، فبعث الله عند اختلافهم في دينهم النبيينَ مُبَشِّرينَ ومُنْذِرينَ، «وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَابَ بالحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ»، رحمةً منه جَلَّ ذكره بخلقه، واعتذاراً منه إليهم.

وقد يجوز أن يكون ذلك الوقتُ الذي كانوا فيه أُمةً واحدة من عهدِ آدمَ إلى عهد نوح عليهما السلام، وجائزٌ أن يكون كان ذلك حين عَرَضَ على آدمَ خلقه، وجائزٌ أن يكون كان ذلك في وقت غير ذلك ـ ولا دلالة من كتاب الله ولا خبر يثبت به الحجة، على أيِّ هذه الأوقات كان ذلك، فغيرُ جائز أنْ نقول فيه إلا ما قال الله عزَّ وجلَّ: من أنَّ الناس كانوا أُمةً واحدة، فبعث الله فيهم، لما اختلفوا، الأنبياءَ والرسل، ولا يضرُّنا الجهلُ بوقتِ ذلك، كما لا ينفعُنا العِلْمُ به، إذا لم يكن العلم به لله طاعةً[1].

غير أنه أيّ ذلك كان، فإنَّ دليلَ القرآن واضحٌ على أن الذين أخبر الله عنهم أنهم كانوا أُمةً واحدة، إنما كانوا أُمةً واحدةً على الإيمانِ ودينِ الحق، دون الكفر بالله والشرك به، وذلك أن الله جَلَّ وعَزَّ قال في السورة التي يذكر فيها «يونس»: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّـكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ١٩]. فتوعَّدَ جَلَّ ذكره على الاختلاف لا على الاجتماع، ولا على كونهم أُمة واحدة، ولو كان اجتماعُهم قبـل الاختلاف كان على الكفر، ثم كان الاختلاف بعد ذلك، لم يكن إلا

(١) قال العلامة محمود شاكر: هذه حجةُ رجلٍ تقي ورع عاقل، بصيرٍ بمواضع الزلل في العقـول، وبمـواطن الجـرأة على الحق من أهل الجرأة الذين يتهجمون على العلم بغياً بالعلم. ولو عقل الناس لأمسكوا فضلَ ألسنتهم، ولكنهم قَلَّما يفعلون.

بانتقال بعضهم إلى الإيمان. ولو كان ذلك كذلك، لكان الوعدُ أولى بحكمته جَلَّ ثناؤهُ في ذلك الحال من الوعيد، لأنها حال إنابة بعضهم إلى طاعته. ومحالٌ أنْ يتوعَّدَ في حال التوبة والإنابة، ويترك ذلك في حال اجتماع الجميع على الكفر والشرك.

وأما قوله: «فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ»، فإنه يعني أنه أرسل رسلاً يبشرون مَنْ أطاع الله بجزيلِ الثواب وكريمِ المآب. ويعني بقوله: «وَمُنْذِرِينَ»، ينذرون مَنْ عصى الله فكفرَ به بشدَّةِ العقاب وسوءِ الحساب والخلود في النار. «وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ»، يعني بذلك: ليحكم الكتابُ ـ وهو التوراةُ ـ بين الناس فيما اختلف المختلفون فيه، فأضاف جَلَّ ثناؤهُ «الحكم» إلى «الكتاب»، وأنه الذي يحكمُ بين الناس دون النبيين والمرسلين، إذْ كان مَنْ حَكم من النبيين والمرسلين بحُكمٍ، إنما يحكمُ بما دلَّهم عليه الكتابُ الذي أنزل الله عزَّ وجلَّ. فكان الكتابُ، بدلالته على ما دلَّ وصفه على صحته من الحكم، حاكماً بين الناس، وإن كان الذي يفصل القضاء بينهم غيرُه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ

يعني جَلَّ ثناؤهُ بقوله: «وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ»، وما اختلف في الكتابِ الذي أنزله، وهو التوراة، «إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ»، يعني بذلك اليهودَ من بني إسرائيل، وهم الذين أُوتُوا التوراةَ والعِلْمَ بها، و«الهاء» في قوله: «أُوتُوهُ» عائدةٌ على «الكتاب» الذي أنزله الله. «مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ»، يعني بذلك: من بعد ما جاءتهم حججُ الله وأدِلَّتُهُ أنَّ الكتابَ الذي اختلفوا فيه وفي أحكامه من عند الله، وأنه

الحَقُّ الذي لا يَسَعُهم الاختلافُ فيه ولا العملُ بخلافِ ما فيه. فأخبر عَزَّ ذِكْرُه عن اليهود من بني إسرائيل أنهم خالفوا الكتابَ التوراةَ، واختلفوا فيه على علمٍ منهم ما يأتونَ، مُتَعَمِّدِينَ الخلافَ على الله فيما خالفوه فيه من أمرِه وحُكْمِ كتابه.

ثم أخبر جَلَّ ذكره أنَّ تَعَمُّدَهم الخطيئةَ التي أتوها، وركوبَهم المعصية التي ركبوها، من خلافهم أمرَهُ، إنما كان منهم بغياً بينهم.

و«البغي» مصدرٌ من قول القائل: «بغى فلانٌ على فلان بغياً»، إذا طغى واعتدى عليه فجاوز حَدَّهُ. ومن ذلك قيل للجرح إذا أمدّ، وللبحر إذا كثر ماؤه ففاض، وللسحاب إذا وقع بأرض فأخصبت، «بَغَى»، كل ذلك بمعنى واحد، وهي زيادتُه وتجاوز حَدِّه.

فمعنى قوله جَلَّ ثناؤُهُ: «وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ»، من ذلك. يقول: لم يكن اختلافُ هؤلاء المختلفين من اليهود من بني إسرائيل، في كتابي الذي أنزلته مع نَبيٍّ، عن جهلٍ منهم به، بل كان اختلافهم فيه، وخلافُ حُكْمِه، من بعد ما ثبتت حجته عليهم، بغياً بينهم طلبَ الرياسة من بعضهم على بعض، واستذلالاً من بعضهم لبعض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «فَهَدَى ٱللَّهُ»، فوفّقَ [الله] الذين آمنوا وهم أهلُ الإيمان بالله ورسوله محمد ﷺ، المُصَدِّقينَ به وبما جاء به أنه من عندِ الله، لما اختلف الذين أُوتوا الكتاب فيه. وكان اختلافُهم الذي خَذَلَهم الله فيه،

وهَدَى له الذين آمنوا بمحمدٍ ﷺ فوفَّقهم لإصابته: «الجمُعة» ضَلُّوا عنها، وقد فُرِضتْ عليهم كالـذي فُرض علينـا، فجعلوهـا «السبت»، فقال ﷺ: «نحنُ الآخرونَ السابقون، بيدَ أنهم أُوتُوا الكتابَ من قَبْلِنَا، وأُوتِينَاهُ مِنْ بَعْدِهم، وهذا اليوم الذي اختلفوا فيه، فهدانا الله له، فلليهودِ غداً وللنصارى بعد غد»[(١)]

فكـانت هداية الله جَلَّ ثنـاؤُهُ الـذين آمنـوا بمحمدٍ وبما جاء به، لما اختلف ـ هؤلاء الأحزاب من بني إسرائيل الذين أُوتُوا الكتاب ـ فيه من الحق بإذنه أنْ وَفَّقَهُمْ لإصابةِ ما كان عليه من الحق مَنْ كان قبل المختلفين الذين وصف الله صفتهم في هذه الآية، إذْ كانوا أُمة واحدة، وذلك هو دينُ إبراهيم الحنيفِ المسلم خليلِ الـرحمٰن، فصاروا بذلك أُمةً وَسطاً، كما وصفهم به ربهم، ليكونوا شهداءَ على الناس.

وأمّا قوله: «بِإِذْنِهِ»، فإنه يعني جَلَّ ثناؤُهُ: بِعِلْمِهِ، بما هداهم له. وقد بَيَّنا معنى «الإذن» إذْ كان بمعنى العلم في غير هذا الموضع، بما أغنى عن إعادته هٰهنا.

وأما قوله: «وَٱللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِراطٍ مُّسْتَقِيمٍ»، فإنه يعني به: والله يُسَدِّدُ مَنْ يشاء من خَلْقِه ويُرشده إلى الطريق القويم على الحق الذي لا اعوجاجَ فيه، كما هدى الذين آمنوابمحمدٍ ﷺ لما اختلف الذين أُوتُوا الكتاب فيه بغياً بينهم، فسددهم لإصابةِ الحق والصواب فيه.

وفي هذه الآية البيانُ الواضح على صحة ما قاله أهل الحقّ: من أنَّ كُلَّ نعمةٍ على العباد في دينهم أو دنياهم فمن الله جَلَّ وعَزَّ.

فإن قال لنا قائل: وما معنى قوله: «فَهَدَى ٱللهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ»؟ أَهَدَاهُم للحق، أم هداهم للاختلاف؟ فإنْ كان هداهم للاختلاف، فإنما

(١) حديث متفق عليه، أخرجه البخاري ١/٦٨ و ٢/٢ و ٤/٦٠، ٨/١٥٩ و ٩/٥٣ و ١٧٥، ومسلم ٣/٧. وانظر المسند الجامع ١٦/٧٥٠-٧٥٥.

أضَلَّهُم! وإنْ كان هداهم للحق، فكيف قِيلَ: «فَهَدَى ٱللهُ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ»؟

قيل: إن ذلـك على غير الوجه الذي ذهبتَ إليه، وإنما معنى ذلك: فهدى الله الذين آمنوا للحقّ فيما اختلف فيه من كتاب الله الذين أُتوه، فكفرَ بتبـديلهِ بعضُهم، وثَبَتَ على الحق والصوابِ فيه بعضُهم ـ وهم أهلُ التوراة الذين بدّلوها ـ فهدى الله للحقّ مما بدَّلوا وحرَّفوا، الذين آمنوا من أُمةِ محمدٍ ﷺ.

فإن أشكل ما قلنا على ذي غَفلةٍ فقال: وكيف يجوز أن يكون ذلك كما قلت، و«مِنْ» إنما هي في كتاب الله في «الحق»، و«اللام» في قوله: «لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ»، وأنت تحول «اللام» في «الحق»، و«من» في «الاختلاف»، في التأويل الذي تتأوله فتجعله مقلوباً؟

قيل: ذلـك في كلام العرب موجودٌ مستفيضٌ، والله تبارك وتعالى إنما خاطبَهم بمنطقهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ٢١٤﴾

أما قوله: «أَمْ حَسِبْتُمْ»، كأنه استفهم بـ«أَمْ» في ابتداء لم يتقدمه حرفُ استفهام، لسبوقِ كلامٍ هو به متصلٌ. ولو لم يكن قبله كلام يكون به متصلاً، وكان ابتداءً، لم يكن إلا بحرف من حروف الاستفهام، لأن قائلا لو كان قال مبتدئاً كلاماً لآخر: «أم عندك أخوك»؟ لكان قائلاً ما لا معنى له. ولكن لو قال:

«أنتَ رجلٌ مُدِلٌ بقوتك، أم عندكَ أخوكَ يَنْصُركَ؟» كان مصيباً. وقد بيَّنا بعض هذا المعنى فيما مضى من كتابنا هذا، بما فيه الكفاية عن إعادته.

فمعنى الكلام: أم حسبتم أنكم أيها المؤمنون بالله ورسله تدخلون الجنة، ولم يُصِبْكُمْ مثلُ ما أصابَ مَنْ قَبْلَكُم مِن أتباعِ الأنبياء والرسل من الشدائدِ والمحنِ والاختبار، فَتُبْتلُوا بما ابْتُلُوا واخْتُبِرُوا به من «البأساء» ـ وهو شِدَّةُ الحاجةِ والفاقةِ ـ و«الضراء» ـ وهي العِلَلُ والأوصاب ـ ولم تزلزلوا زلزالهم ـ يعني: ولم يصبهم من أعدائهم من الخوف والرعب شدةٌ وجهدٌ حتى يستبطئ القومُ نصرَ الله إياهم فيقولون: متى الله ناصرنا؟ ثم أخبرهم الله أنَّ نصره منهم قريبٌ، وأنه مُعليهم على عدوِّهم، ومظهرهم عليه، فنجَّز لهم ما وعدهم، وأعلى كلمتهم، وأطفأ نارَ حربِ الذين كفروا.

وهذه الآية ـ فيما يزعمُ أهلُ التأويل ـ نزلت يومَ الخندق حين لقي المؤمنون ما لَقُوا من شدة الجهد من خوفِ الأحزاب، وشدة أذى البرد وضيق العيش الذي كانوا فيه يومئذ. يقول الله جلَّ وعزَّ للمؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُم جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا﴾ إلى قوله: ﴿وإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بالله الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ [الأحزاب: ٩-١١].

وأما قوله: «وَلَمَّا يَأْتِكُم»، فإنّ عامة أهل العربية يتأوّلونه بمعنى: ولم يأتكم، ويزعمون أن «ما» صلة وحشو.

وأما معنى قوله: «مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِنْ قَبْلِكُم»، فإنه يعني: شبه الذين خلوا فَمَضَوا قبلكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: يسألك أصحابُكَ يا محمد: أي شيء ينفقون من أموالهم، فيتصدقون به؟ وعلى مَنْ يُنفقونه فيما ينفقونه ويتصدقون به؟ فقل لهم: ما أنفقتم من أموالكم وتَصدَّقتم به، فأنفقوه وتصدقوا به واجعلوه لآبائكم وأمهاتكم وأقربيكم، ولليتامى منكم، والمساكين، وابن السبيل، فإنكم ما تأتوا من خير وتصنعوه إليهم، فإن الله به عليم، وهو مُحْصِيهِ لكم حتى يوفِّيَكم أجورَكُم عليه يوم القيامة، ويثيبكم على ما أطعتموه بإحسانكم عليه.

و«الخير» الذي قال جَلَّ ثناؤُهُ في قوله: «قُلْ مَا أَنْفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ»، هو المالُ الذي سأل رسولَ الله ﷺ أصحابُه من النفقةِ منه، فأجابهم الله عنه بما أجابهم به في هذه الآية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾

قال أبو جعفر: يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ»، فُرض عليكم القتال، يعني: قتال المشركين، «وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ».

واختلف أهل العلم في الذين عُنوا بفرض القتال.

فقال بعضهم: عني بذلك أصحابُ رسول الله ﷺ خاصةً دون غيرهم.

وهذا قول لا معنى له، لأن نسخَ الأحكام من قِبَل الله جلَّ وعزَّ، لا من قبل العباد. وقوله «قالوا سمعنا وأطعنا»، خَبَرٌ من الله عن عبادِهِ المؤمنين، وأنهم قالوه، لا نسخٌ منه.

وقال آخرون: هو على كل واحدٍ حتى يقومَ به من في قيامِهِ الكفايةُ، فيسقطُ فرضُ ذلك حينئذٍ عن باقي المسلمين، كالصلاةِ على الجنائز، وغسلهم الموتى ودفنهم، وعلى هذا عامةُ علماء المسلمين.

وذلك هو الصوابُ عندنا، لإجماعِ الحجةِ على ذلك، ولقولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [النساء: ٩٥]، فأخبر جَلَّ ثناؤُهُ أنَّ الفضلَ للمجاهدين، وأنَّ لهم وللقاعدين الحسنى، ولو كان القاعدون مُضَيِّعينَ فرضاً، لكان لهم السُّوأى لا الحسنى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: وهو ذو كُرْهٍ لكم. فترك ذكر «ذو» اكتفاءً بدلالة قوله: «كُرْهٌ لَّكُمْ»، عليه، كما قال: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢].

و«الكُرْه» بالضم: هو ما حَمَلَ الرجلُ نفسَه عليه من غير إكراهِ أحدٍ إياه عليه: و«الكَرْهُ» بفتح «الكاف»، هو ما حَمَلَهُ عليه فأدخله عليه كرهاً. وممن حكي عنه هذا القولُ معاذُ بن مسلم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: ولا تكرهوا القتالَ فإنكم لعلكم أنْ تَكرهوهُ وهو خيرٌ لكم، ولا تُحبوا تركَ الجهاد فلعلكم أنْ تُحِبُّوه وهو شَرٌّ لكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

٢١٦

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: والله يعلم ما هو خيرٌ لكم مما هو شَرٌّ لكم، فلا تَكرهُوا ما كتبتُ عليكم من جهادِ عدوكم وقتالِ مَنْ أمرتُكُمْ بقتاله، فإني أعلم أنَّ قتالكم إياهم هو خيرٌ لكم في عاجلكم ومَعادِكم، وتَرْكَكُمْ قتالَهُم شَرٌّ لكم، وأنتم لاتعلمون من ذلك ما أعلمُ. يَحُضُّهم جَلَّ ذِكْرُه بذلك على جهادِ أعدائه، ويُرَغِّبُهم في قتالِ مَنْ كفرَ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: **﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ﴾**

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: يسألك، يا محمد، أصحابُك عن الشهر الحرام ـ وذلك رَجبٌ ـ عن قتالٍ فيه.

وخفضُ «القتال» على معنى تكرير «عن» عليه.

أي «قُلْ» يا محمد: «قِتَالٌ فِيهِ» ـ يعني في الشهر الحرام «كَبِيرٌ»، أي عظيمٌ عند الله استحلالُه وسفكُ الدماء فيه. ومعنى قوله: «قِتَالٍ فِيهِ»، قل: القتالُ فيه كبير. وإنما قال: «قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ»، لأن العرب كانت لاتقرعُ فيه الأسنَّةَ، فَيَلْقَى الرجلُ قاتِلَ أبيهِ أو أخيه فيه فلاَ يهيجه تعظيماً له. وتُسَمِّيه مُضَرُ «الأصمَّ» لسكونِ أصواتِ السلاح وقَعْقَعتهِ فيه.

وقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ». ومعنى «الصدّ» عن الشيء، المنعُ منه والدفع عنه، ومنه قيل: «صَدَّ فلانٌ بوجهه عن فلان»، إذا أعرض عنه فمنعه من النظرِ إليه.

وقوله: «وَكُفْرٌ بِهِ»، يعني: وكفر بالله، و«الباء» في «به» عائدةٌ على اسم

الله الذي في «سَبِيلِ ٱللهِ». وتأويلُ الكلام: وصدٌّ عن سبيل الله وكُفْرٌ به، وعن المسجد الحرام، وإخراجُ أهلِ المسجد الحرام ـ وهم أهله وولاته ـ أكبرُ عند الله من القتالِ في الشهرِ الحرام.

فـ «الصدُّ عن سبيل الله» مرفوعٌ بقوله: «أَكْبَرُ عِندَ ٱللهِ». وقوله: «وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ» عَطْفٌ على «الصَدِّ». ثم ابتدأ الخبر عن الفتنة فقال: «وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ»، يعني الشرك أعظمُ وأكبرُ من القتل من الكفر بعينه. وذلك مما لا يُخيلِ على أحدٍ خطأهُ وفسادُه.

وكـان بعض أهـل العربية من أهل البَصرة يقول القولَ الأول في رفع «الصد»، ويزعم أنه معطوفٌ به على «الكبير»، ويجعل قوله: «وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ» مرفوعاً على الابتداء. وقد بينا فسادَ ذلك وخطأ تأويله.

ثم اختلف أهل التأويل في قوله: «يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ»، هل هو منسوخٌ أم ثابتُ الحكم؟

فقال بعضهم: هو مَنْسُوخٌ بقول الله جلَّ وعزَّ: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُم كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]، وبقوله: ﴿اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥].

وقال آخرون: بل ذلك حكم ثابتٌ، لا يحلّ القتال لأحدٍ في الأشهرِ الحرم بهذه الآية، لأن الله جعل القتال فيه كبيراً.

والصواب من القول في ذلك: أنَّ النهي عن قتال المشركين في الأشهر الحُرم منسوخٌ بقول الله جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ الله ٱثْنَا عَشَر شَهْراً فِي كِتَابِ الله يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦].

وإنما قلنا ذلك ناسخٌ لقوله: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ»، لتظاهُرِ الأخبارِ عن رسولِ الله ﷺ أنه غزا هَوازِنَ بحُنين وثَقيفاً بالطائفِ، وأرسل أبا عامرٍ إلى أَوْطاس لحربِ مَنْ بها من المشركين، في بعض الأشهر الحُرُمِ ، وذلك في شوال وبعض ذي القعدة، وهو من الأشهر الحرم، فكان معلوماً بذلك أنه لو كان القتالُ فيهن حراماً وفيه معصيةٌ، كان أبعدَ الناسِ من فِعْلِه ﷺ.

وأخرى، أن جميعَ أهل العلم بِسِيَر رسولِ الله ﷺ لا تتدافع أنَّ بيعةَ الرضوان على قتالِ قريش كانت في ذي القعدة، وأنه ﷺ إنما دعا أصحابَهُ إليها يومئذٍ، لأنه بلغه أنَّ عثمانَ بن عفان قتله المشركون إذْ أرسلَهُ إليهم بما أرسله به من الرسالة، فبايع ﷺ على أنْ يُنَاجِزَ القومَ الحربَ ويُحارِبَهم، حتى يرجع عثمان بالرسالة، جرى بين النبي ﷺ وقريش الصلح، فَكَفَّ عن حربهم حينئذٍ وقتالهم، وكان ذلك في ذي القعدة؛ وهو من الأشهر الحُرم.

فإذْ كان ذلك كذلك، فبيِّنٌ صحةُ ما قلنا في قوله: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ»، وأنه منسوخ.

فإن ظنّ ظانّ أنَّ النهي عن القتال في الأشهر الحُرم كان بعد استحلالِ النبيِّ ﷺ إياهن لما وصفنا من حروبه، فقد ظنّ جهلاً. وذلك أن هذه الآية ـ أعني قوله: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ» ـ في أمر عبدالله بن جحش وأصحابه، وما كان من أمرهم وأمرِ القتيلِ الذي قتلوه، فأنزل الله في أمره هذه الآية في آخر جمادى الآخرة من السنة الثانية من مَقْدَمِ رسولِ الله ﷺ المدينةَ وهجرته إليها، وكانت وقعةُ حُنين والطائف في شوال من سنة ثمان من مَقْدمِه المدينةَ وهجرته إليها، وبينهما من المدة ما لايَخفى على أحدٍ.

البقرة: ٢١٧

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾

يعني تعالى ذكره: ولا يزالُ مشركو قريش يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إنْ قدروا على ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «وَمَن يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ»، من يرجع منكم عن دينه، كما قال جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصاً﴾ [الكهف: ٦٤] يعني بقوله: «فَارْتَدَّا»، رَجَعَا. ومن ذلك قيل: «استردَّ فلانٌ حَقَّهُ من فلانٍ»، إذا استرجعه منه.

وإنما أظهر التضعيف في قوله: «يَرْتَدِدْ» لأنَّ لامَ الفعلِ ساكنة بالجزم، وإذا سُكِّنت فالقياسُ تركُ التضعيف، وقد تضعَّف وتدغم وهي ساكنة، بناء على التثنية والجمع.

وقوله: «فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ»، يقول: مَنْ يرجعْ عن دينهِ دين الإسلامِ، «فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ»، فَيَمُتْ قبل أنْ يتوبَ من كُفْرِهِ، فهم الذين حَبطت أعمالهم.

يعني بقوله: «حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ»، بطلت وذهبت. وبُطُولُهَا: ذهابُ ثوابِها، وبُطول الأجر عليها والجزاء في دار الدنيا والآخرة.

وقوله: «وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ»، يعني: الذين ارتدُّوا

عن دينهم فماتوا على كفرهم، هم أهل النار المُخَلَّدُونَ فيها.

وإنما جعلهم «أهلها» لأنهم لا يخرجون منها، فهم سكانها المقيمون فيها، كما يقال: «هؤلاء أهلُ محلّةِ كذا»، يعني: سكانها المقيمون فيها.

ويعني بقوله: «هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ»، هم فيها لابِثُونَ لَبْثاً، من غير أمَدٍ ولا نهاية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾

يعني بذلك جَلَّ ذكره: إنّ الذين صَدَّقُوا بالله وبرسوله وبما جاء به وبقوله: «وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ»، الذين هجروا مُساكنة المشركين في أمصارهم ومجاورتهم في ديارهم، فَتَحَوَّلُوا عنهم وعن جِوارهم وبلادهم، إلى غيرها هجرةً، (لِمَا كَرِهُوا من كُفرهم وشِركهم وإيثاراً للمؤمنين من أصحاب محمد ﷺ)[1] لما انْتُقِلَ عنه إلى ما انْتُقِلَ إليه. وأصلُ المهاجرة: «المفاعلة» من هجرةِ الرجلِ الرجلَ للشحناءِ تكونُ بينهما، ثم تستعمل في كل مَنْ هَجَرَ شيئاً لأمرٍ كرهه منه. وإنما سُمِّيَ المهاجرون من أصحابِ رسول الله ﷺ «مهاجرين»، لما وصفنا من هجرتهم دُورَهُم ومنازلهم كراهةً منهم النزولَ بين أظْهُرِ المشركين وفي سلطانهم، بحيث لا يأمنون فِتنتهم على أنفسِهم في ديارهم ـ إلى الموضع الذي يأمنون ذلك.

---

(١) ما بين الحاصرتين مما اقترحه العلامةُ محمود شاكر، لعدم اتصال الكلام في الأصل.

وأما قوله: «وَجَاهَدُواْ»، فإنه يعني: وقاتلوا وحاربوا.

وأصلُ «المجاهدة، المفاعلة» من قول الرجل: «قد جَهَدَ فلانٌ فلاناً على كذا» ـ إذا كَرَبَهُ وشقَّ عليه ـ «يجهده جهداً». فإذا كان الفعل من اثنين، كل واحد منهما يُكابِدُ من صَاحبه شِدَّةً ومَشقةً، قيل: «فلانٌ يجاهد فلاناً» ـ يعني: أنَّ كل واحدٍ منهما يفعل بصاحبه ما يجهده ويشق عليه ـ «فهو يُجاهده مجاهدة وجهاداً».

وأما «سَبِيلِ ٱللهِ»، فطريقُهُ ودِينُهُ.

فمعنى قولـه إذاً: «وَٱلَّـذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ في سَبِيلِ ٱللهِ»، والذين تَحَـوَّلُـوا من سلطانِ أهـلِ الشرك هجرةً لهم، وخوفَ فِتنتهم على أديانهم، وحاربوهم في دين الله لِيُدْخِلُوهم فيه وفيما يُرْضِي الله، «أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ ٱللهِ»، أي: يطمعون أنْ يرحمهم الله فيدخلهم جنته بفضلِ رحمته إياهم.

«وَٱللهُ غَفُورٌ»، أي ساترٌ ذُنوبَ عباده بعفوه عنها، مُتَفَضِّلٌ عليهم بالرحمة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: **يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَاۗ**

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: يسألُكَ أصحابُك يا محمد عن الخمر وشُربها.

و«ٱلْخَمْـرِ» كُلُّ شرابٍ خَمَّـرَ العقـلَ فسترهُ وغَطَّى عليه، وهو من قول القـائـل: «خَمَرت الإناء» إذا غطيته، و«خَمِرَ الرجلُ»، إذا دخل في الخَمَر. ويقال: «هو في خُمار الناس وغُمارهم»، يُرادُ به دخل في عُرضْ الناس. ويقال للضبـع: «خـامـري أُمَّ عامر»، أي استتري. وما خامرَ العقلَ من داء وسُكْرٍ فخالطه وغَمَره فهو «خمر».

ومن ذلك أيضاً «خِمارُ المرأة»، وذلك لأنها تستر به رأسَها فتغطيه، ومنه يقال: «هو يمشي لك الخمرَ»، أي مستخفياً.

وأما «الميسر» فإنها «المفعل» من قول القائل: «يسَرَ لي هذا الأمر»، إذا وَجَبَ لي «فهو يَيْسِر لي يَسَراً وَميسِراً» و«الياسر» الواجبُ، بقداحٍ وَجب ذلك، أو فُتاحةٍ أو غير ذلك. ثم قيل للمقامر، «ياسرٌ ويَسَر».

وأما قوله: «قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ»، فإنه يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: قُلْ يا محمد لهم: «فِيهِمَا»، يعني في الخمر والميسر «إِثْمٌ كَبِيرٌ».

والذي هو أولى بتأويل «الإثم الكبير» الذي ذكر الله جَلَّ ثناؤُهُ أنه في الخمر والميسر: في «الخمر» زوالُ عقلِ شارب الخمر إذا سكر من شربه إياها حتى يعزبَ عنه معرفةُ ربه، وذلك أعظمُ الآثام. وأما في «الميسر»، فما فيه من الشُّغلِ به عن ذكرِ الله وعن الصلاة، ووقوعِ العداوةِ والبغضاء بين المتياسرين بسببه، كما وصف ذلك به ربنا جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ والبَغْضَاءَ فِي الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ الله وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾ [المائدة: ٩١].

وأما قوله: «وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ»، فإنَّ منافعَ الخمر كانت أثمانها قبل تحريمها، وما يَصِلُون إليه بشربها من اللذةِ.

وأما الميسر، فما يصيبون فيه من أنصِباء الجَزُور، وذلك أنهم كانوا يُيَاسِرُونَ على الجزور، وإذا أفلجَ الرجلُ منهم صاحبَه نَحَرَهُ، ثم اقتسموا أعشاراً على عددِ القِداح.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾

يعني بذلك عَزَّ ذِكْرُه: والإثم بشرب [الخمر] هذه والقمار هذا، أعظمُ وأكبرُ مضرة عليهم من النفع الذي يتناولون بهما. وإنما كان ذلك كذلك، لأنهم كانوا إذا سكروا وَثَبَ بعضُهم على بعضٍ، وقاتَل بعضهم بعضاً، وإذا ياسرُوا وقع بينهم فيه بسببه الشرُّ، فأدَّاهم ذلك إلى ما يَأْثَمُونَ به.

ونزلت هذه الآية في الخمر قبل أن يُصرَّح بتحريمها، فأضاف الإثمَ جَلَّ ثناؤُهُ إليهما، وإنما الإثم بأسبابهما، إذْ كان عن سببهما يحدثُ.

وقد قال عددٌ من أهل التأويل: معنى ذلك: وإثمهما بعد تحريمهما أكبرُ من نفعهما قَبْلَ تحريمهما.

وإنما اخترنا ما قلنا في ذلك من التأويل لتواتر الأخبار وتظاهُرها بأنَّ هذه نزلت قبل تحريمِ الخمرِ والميسر، فكان معلوماً بذلك أنَّ الإثمَ الذي ذكره الله في هذه الآية فأضافه إليهما، إنما عَنَى به الإثمَ الذي يحدث عن أسبابهما ـ على ما وصفنا ـ لا الإثمَ بعد التحريمِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾

يعني جل ذكره بذلك ويسألك يا محمد أصحابك: أيّ شيءٍ يُنفقون من أموالهم فيتصدقون به؟ فقل لهم يا محمد: أنفقوا منها العفوَ.

واختلف أهل التأويل في معنى «الْعَفْوَ» في هذا الموضع.

فقال بعضهم: معناه الفَضْلُ.

وقال آخرون: معنى ذلك: ما كان عَفْواً لا يَبينُ على مَنْ أنفقه أو تَصَدَّقَ به.

وقال آخرون: معنى ذلك: الوسط من النفقة، ما لم يكن إسرافاً ولا إقتاراً.

وقال آخرون: معنى ذلك: «قُلِ ٱلْعَفْوَ»، خذ منهم ما أتوك به من شيء قليلاً أو كثيراً.

وقال آخرون: معنى ذلك: ما طابَ من أموالكم.

وقال آخرون: معنى ذلك: الصدقةُ المفروضة.

وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: معنى «الْعَفْوَ»: الفضلُ من مالِ الرجل عن نفسهِ وأهلهِ في مؤونتهم ما لا بُدَّ لهم منه. وذلك هو الفضلُ الذي تَظَاهرت به الأخبارُ عن رسولِ الله ﷺ بالإذن في الصدقة، وصَدقته في وجوه البر[1].

فإذا كان الذي أَذِنَ ﷺ لأمتهِ، الصدقةَ من أموالهم بالفضل عن حاجة المتصدق، فالفضلُ من ذلك هو «العفو» من مالِ الرجل، إذْ كان «العفو»، في كلام العرب، في المال وفي كل شيء: هو الزيادةُ والكثرة ـ ومن ذلك قوله جَلَّ ثناؤهُ: «حتى عَفَوْا» بمعنى: زَادُوا على ما كانوا عليه من العَددِ وكثروا.

ثم اختلف أهلُ العلم في هذه الآية: هل هي منسوخةٌ أم ثابتةُ الحكم على العباد؟

فقال بعضهم: هي منسوخة، نسختها الزكاةُ المفروضة.

وقال آخرون: بل مُثْبَتَةُ الحُكْمِ غير منسوخة.

والصواب من القول في ذلك ما قاله ابن عباس على ما رواه عنه عطية، من أن قوله: «قُلِ ٱلْعَفْوَ»، ليس بإيجابِ فَرْضٍ فُرض من الله حقاً في ماله، ولكنـه إعلامٌ منه ما يرضيه من النفقة مما يُسخطه، جواباً منه لمن سأل نبيه محمداً ﷺ عما فيه له رضاً. فهو أدبٌ من الله لجميعِ خَلْقِهِ على ما أدَّبهم

(١) يعني أن التصدق بالعفو في وجوه البر إذ الزكاة المفروضة لها شأن آخر.

به في الصدقات غير المفروضات ثابتُ الحكم، غيرُ ناسخٍ لحكمٍ كان قبله بخلافه، ولا منسوخ بحكم حدث بعده. فلا ينبغي لذي وَرَعٍ ودِينٍ أنْ يتجاوز في صدقاته التطوعَ وهباتِه وعطايا النفل وصدقته، ما أدَّبهم به نبيه ﷺ بقوله: «إذا كان عند أحدكم فَضْلٌ فليبدأ بنفسه، ثم بأهله، ثم بولده»[1]، ثم يسلك حينئذٍ في الفضل مسالكه التي تُرْضِي الله ويُحِبُّها. وذلك هو «القوَام» بين الإسرافِ والإقتار، الذي ذكره الله عز وجل في كتابه إن شاء الله تعالى.

ويقال لمن زعم أن ذلك منسوخ: ما الدلالةُ على نسخه، وقد أجمع الجميعُ لا خلافَ بينهم: على أنَّ للرجل أنْ ينفق من ماله صدقةً وهِبةً ووصيةً، الثلثَ؟ فما الذي دل على أن ذلك منسوخ؟

فإنْ زعم أنه يعني بقوله: «إنه منسوخ»، أنَّ إخراجَ العفو من المال غيرُ لازمٍ فرضاً، وأن فرض ذلك ساقطٌ بوجود الزكاة في المال قيل له: وما الدليلُ على أنَّ إخراجَ العفو كان فرضاً فأسقطه فرضُ الزكاة، ولا دلالةَ في الآية على أنَّ ذلك كان فرضاً، إذْ لم يكن أمرٌ من الله عزَّ ذكره، بل فيها الدلالة على أنها جوابُ ما سألَ عنه القومُ على وَجه التعرف لما فيه لله الرضا من الصدقات؟

ولا سبيل لمدَّعِي ذلك إلى دلالة تُوجِبُ صحةَ ما ادَّعى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ۝٢١٩ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾

يعني بقوله عز ذكره: «كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللهُ لَكُمُ ٱلأَيَاتِ»، هكذا يبين، أي: كما بَيَّنْتُ لكم أعلامي وحُججي ـ وهي «آياتُه» في هذه السورة ـ وعرَّفْتُكُم فيها

(١) حديث صحيح. أخرجه المؤلف والحميدي (١١٧٦)، وأحمد ٢/٢٥١ و ٤٧١. والبخاري في الأدب المفرد (١٩٧)، وأبو داود (١٦٩١) والنسائي ٥/٦٢.

ما فيه خَلاصُكم من عقابي، وبينتُ لكم حدودي وفرائضي، ونَبَّهتُكم فيها على الأدلـة على وحدانيتي، ثم على حُجج رسولي إليكم، فأرشدتكم إلى ظهور الهدى؛ فكذلك أُبَيِّنُ لكم في سائر كتابي الذي أنزلته على نبيِّي محمد ﷺ آياتي وحُججي وأُوضِّحُها لكم، لتتفكَّروا في وَعْدي ووعيدي، وثوابي وعقابي. فتختاروا طاعتي التي تنالون بها ثوابي في الدار الآخرة، والفوز بنعيم الأبد، على القليلِ من اللذاتِ واليسيرِ من الشهـواتِ، بركـوبِ معصيتي في الدنيا الفانية، التي مَنْ ركبها كان مَعادُهُ إليَّ، ومصيرهُ إلى ما لا قِبَلَ له به من عقابي وعذابي.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ عَزَّ ذِكْـرُه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾

يعني: ويسألك يا محمد أصحابُكَ عن مالِ اليتامى، وخلطهم أموالهم به في النفقةِ والمُطَاعمةِ والمُشَاربةِ والمُسَاكنةِ والخِدْمةِ، فَقُلْ لهم: تفضُّلكم عليهم بإصلاحِكُمْ أمـوالَهم ـ من غيرِ مَرْزِئَة[1] شيءٍ من أموالهم، وغير أخذِ عِوَضٍ من أموالهم على إصلاحكم ذلك لهم ـ خيرٌ لكم عند الله وأعظمُ لكم أجراً، لِمَا لكم في ذلك من الأجرِ والثواب ـ وخيرٌ لهم في أموالهم في عاجل دنياهم، لما في ذلك من توفر أموالهم عليهم ـ «وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ» فتشاركوهم بأموالِكم أموالَهم في نفقاتِكم ومطاعمكم ومشاربكم ومساكنكم، فتضمُّوا من أموالهم عِوَضاً من قيامكم بأمورِهم وأسبابهم وإصلاحِ أموالهم، فهم إخوانكم، والإخوانُ يُعينُ بعضهم بعضاً، ويَكْنُفُ بعضهم بعضاً[2]، فَذُو المالِ يُعِينُ ذا

(١) يعني: أصاب منه خيراً ما كان، فنقص من ماله.

(٢) أي: حاطه وصانه وكان إلى جنبه وعاونه.

الفاقةِ، وذو القوةِ في الجسم يعين ذا الضعف. يقول تعالى ذكره: فأنتم أيها المؤمنون وأيتامكم كذلك، إنْ خالطتموهم بأموالكم - فخلطتم طعامَكم بطعامهم، وشرابكم بشرابهم، وسائرَ أموالكم بأموالهم، فأصبتم مِنْ أموالهم فَضْل مَرْفَق بما كانَ منكم من قيامِكم بأموالهم ولائهم، ومعاناة أسبابهم، على النظر منكم لهم نَظَرَ الأخ الشفيق لأخيه، العامل فيما بينه وبينه بما أوجبَ الله عليه وألزمه - فذلكَ لكم حلالٌ، لأنكم إخوان بعضكم لبعض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عزَّ ذِكْرُه: وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ

يعني تعالى ذكره بذلك: إنَّ ربكم قد أَذِنَ لكم في مخالطتكم اليتامى على ما أذن لكم به، فاتَّقُوا الله في أنفسكم أنْ تخالطوهم وأنتم تريدون أكلَ أموالهم بالباطل، وتجعلون مخالطتكم إيَّاهم ذريعةً لكم إلى إفساد أموالهم وأكْلِهَا بغيرِ حَقِّهَا، فتستوجبوا بذلك منه العقوبةَ التي لا قِبَلَ لكم بها، فإنه يعلمُ مَنْ خالط منكم يتيمه - فشارَكَهُ في مطعمهِ ومشربهِ ومسكنه وخدمه ورعاته في حال مخالطته إياه - ما الذي يقصدُ بمخالطته إياه: أفَسَادَ مالهِ وأكلَهُ بالباطل، أم إصلاحَهُ وتثميره؟ لأنه لايخفى عليه منه شيء، ويعلم أيُّكم المريدَ صلاحَ ماله، من المريد إفسادَه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ

يعني تعالى ذكره بذلك: ولو شاء الله لحرَّم ما أَحَلَّهُ لكم من مخالطةِ أيتامِكم بأموالكم أموالَهم، فجَهَدكُم ذلكَ وشَقَّ عليكم، ولم تقدروا على القيام بالـلازم لكم من حَقِّ الله تعالى والواجب عليكم في ذلك من فرضه، ولكنه رخَّص لكم فيه وَسَهَّلَهُ عليكم، رحمةً بكم ورأفةً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: إنَّ الله «عَزِيزٌ» في سلطانه، لايمنعه مانعٌ مما أَحَلَّ بكم من عقوبةٍ لو أعْنَتَكُم بما يُجْهِدكم القيامُ به من فرائضهِ فقصَّرتم في القيام به، ولايقدرُ دافعٌ أنْ يدفعه عن ذلك ولا عن غيره مما يفعله بكم وبغيركم من ذلك لو فَعَلَهُ، ولكنه بفضل رحمته مَنَّ عليكم بتركِ تكليفهِ إياكم ذلك؛ وهو «حَكِيمٌ» في ذلك لو فعله بكم وفي غيرهِ من أحكامهِ وتدبيره، لايدخلُ أفعالَهُ خَلَلٌ ولا نَقْصٌ ولا وَهْيٌ ولا عيبٌ، لأنه فِعْلُ ذي الحكمةِ الذي لايجهلُ عواقبَ الأمور فيدخل تدبيره مذمّة عاقبة، كما يدخلُ ذلك أفعالَ الخَلْقِ لجهلهم بعواقبِ الأمور، لسوءِ اختيارِهم فيها ابتداءً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾

اختلف أهلُ التأويل في هذه الآية: هل نزلت مُراداً بها كل مُشْرِكَةٍ، أم مُرَادٌ بحكمها بعض المشركاتِ دون بعضٍ؟ وهل نُسِخَ منها بعد وجوبِ الحكم بها شيءٌ أم لا؟

فقال بعضهم: نزلت مراداً بها تحريم نِكَاحِ كُلِّ مشركةٍ على كلِّ مسلمٍ من أيِّ أجناسِ الشِّركِ كانت، عابدَة وثنٍ كانت، أو كانت يهوديةً أو نصرانيةً أو مجوسيةً أو من غيرهم من أصناف الشرك، ثم نسخ تحريم نكاح أهل الكتاب بقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ إلى ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُـوا الكِتَـابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَـامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالمُحْصَنَـاتُ مِنَ المُـؤْمِنَـاتِ وَالمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابِ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٤-٥].

وقال آخرون: بل أُنزلتْ هذه الآيةُ مراداً بحكمها مشركات العرب، لم ينسخ منها شيءٌ ولم يُستثن، وإنما هي آيةٌ عامٌّ ظاهرُها، خاصٌّ تأويلها.

وقال آخرون: بل أنزلت هذه الآية مُراداً بها كل مشركةٍ من أيِّ أصنافِ الشركِ كانت، غير مخصوص منها مشركةٌ دون مشركة، وثنيةً كانت أو مجوسية أو كتابيةً، ولا نُسخ منها شيءٌ.

وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية من قال: إن الله تعالى ذكره عَنَى بقوله: «وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ» مَنْ لم يكن من أهلِ الكتاب من المشركات - وأنَّ الآيةَ عامٌّ ظاهرها خاصٌّ باطنها، لم يُنْسَخْ منها شيء - وأنَّ نساءَ أهلِ الكتابِ غير داخلاتٍ فيها، وذلك أنّ الله تعالى ذِكْرُهُ أَحَلَّ بقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ للمؤمنين من نكاح محصناتهن، مثلَ الذي أباح لهم من نساء المؤمنات.

وقد بَيَّنا في غيرِ هذا الموضع من كتابنا هذا، وفي كتابنا «كتاب اللطيف من البيان»: أنَّ كُلَّ آيتين أو خبرين كان أحدهما نافياً حُكْمَ الآخر في فطرة العقل، فغير جائز أن يُقضَى على أحدهما بأنه ناسخُ حكم الآخر، إلّا بحجةٍ من خبرٍ قاطع للعذر مَجيئُه، وذلك غير موجود، أن[1] قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ﴾ ناسخُ ما كان قد وَجَبَ تحريمهُ من النساء بقوله: «وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ». فإذْ لم يكن ذلك موجوداً كذلك، فقولُ القائلِ: «هذه ناسخةُ هذه»، دعوى لابرهانَ له عليها، والمُدَّعي دعوَى لابرهانَ عليها مُتَحَكِّمٌ، والتحكم لايعجزُ عنه أحدٌ.

---

(١) قال العلامة محمود شاكر في قوله: «أن قوله» بدلاً من «بأن قوله» هو أعرق في العربية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ» بالله وبرسوله وبما جاء به من عند الله، خيرٌ عند الله وأفضل من حُرَّةٍ مشركةٍ كافرةٍ، وإن شَرُفَ نَسَبُها وكَرُمَ أَصْلُها. يقول: ولا تبتغوا المناكحَ في ذواتِ الشرفِ من أهلِ الشركِ بالله، فإنَّ الإماء المسلمات عند الله خيرٌ مَنكحاً منهن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: وإنْ أعجبتكم المشركةُ من غير أهل الكتاب في الجمال والحسب والمال، فلا تنكحوها، فإنَّ الأمَةَ المؤمنةَ خيرٌ عند الله منها.

وإنما وُضِعَتْ «لو» موضعَ «إنْ» لتقارب مخرجيهما، ومعنييهما، ولذلك تُجابُ كُلُّ واحدةٍ منهما بجواب صَاحبتها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: أنَّ الله قد حرَّم على المؤمنات أنْ ينكحن مشركاً كائناً مَنْ كان المشركُ، ومن أيِّ أصنافِ الشركِ كان، فلا تنكحوهنَّ أيها المؤمنون منهم، فإنَّ ذلك حرامٌ عليكم، ولأنْ تُزَوِّجُوهُنَّ من عبدٍ مؤمنٍ مُصَدِّقٍ بالله وبرسوله وبما جاء به من عند الله، خيرٌ لكم من أن تزوجوهن من حُرٍّ مشركٍ، ولو شَرُفَ نَسَبُهُ وكَرُمَ أصلُه، وإنْ أعجبكم حَسَبُهُ ونسبه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٢١﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «أُوْلَئِكَ»، هؤلاء الذين حَرَّمْتُ عليكم أيها المؤمنون مناكحتهم من رجالِ أهلِ الشركِ ونسائهم، يدعونكم إلى النار ـ يعني: يدعونكم إلى العمل بما يُدْخِلُكُم النارَ ـ وذلك هو العمل الذي هم به عاملون من الكفر بالله ورسوله. يقول: ولا تَقْبَلُوا منهم ما يقولون، ولاتستنصحوهم، ولا تنكحوهم ولا تنكحوا إليهم، فإنهم لايَأْلُونَكُمْ خَبَالاً، ولكن اقبلوا من الله ما أَمَرَكُم به فاعملوا به، وانتهوا عما نهاكم عنه، فإنه يدعوكم إلى الجنة، يعني بذلك: يدعوكم إلى العمل بما يُدْخلكم الجنةَ، ويوجبُ لكم النجاةَ إنْ عملتم به من النارِ، وإلى ما يمحو خطاياكم أو ذنوبكم، فيعفو عنها ويسترها عليكم.

وأما قوله «بإِذْنِهِ»، فإنه يعني: أنه يدعوكم إلى ذلك بإعلامِهِ إيَّاكم سبيلَهُ وطريقَهُ الذي به الوصولُ إلى الجنة والمغفرة.

ثم قال تعالى ذِكْرُهُ: «وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ»، يقول: ويُوضِّحُ حججه وأدلته في كتابه الذي أنزله على لسان رسوله لعباده، ليتذكَّرُوا فيعتَبِرُوا، ويُمَيِّزُوا بين الأمرين اللذين أحدهما دَعَّاءٌ إلى النار والخلودِ فيها، والآخرُ دَعَّاءٌ إلى الجنة وغفرانِ الذنوب، فيختاروا خيرهما لهم، ولم يجهل التمييزَ بين هاتين إلّا غبيٌّ غَبِينُ الرأي مدخولُ العقلِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ»، ويسألك يامحمدُ أصحابُكَ عن الحيضِ.

وإنما كان القومُ سألوا رسولَ الله ﷺ ـ فيما ذُكِرَ لنا ـ عن الحيض، لأنهم كانوا قبل بيانِ الله لهم ما يَتَبَيَّنُونَ من أمره، لايُساكنونَ حائضاً في بيتٍ، ولا يؤاكلونهنَّ في إناءٍ ولا يشاربونهن. فَعَرَّفهم الله بهذه الآية، أنَّ الذي عليهم في أيام حيضِ نسائهم: أن يتجنَّبوا جِماعَهُنَّ فقط، دون ما عدا ذلك من مضاجعتهن ومؤاكلتهن ومشاربتهن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ هُوَ أَذًى

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: قُلْ لِمَنْ سألَك من أصحابك يا محمد عن المحيض: «هُوَ أَذًى».

و«الأذى» هو ما يؤذِي به من مكروهٍ فيه. وهو في هذا الموضع يسمى «أَذًى» لِنتنِ ريحهِ وقذرهِ ونجاسته، وهو جامعٌ لمعانٍ شتى من خلال الأذى، غير واحدة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَاءَ فِي ٱلْمَحِيض»، فاعتزلوا جماعَ النساء ونكاحهن في محيضهنّ.

واختلف أهلُ العلم في الذي يجبُ على الرجلِ اعتزالُه من الحائض.

فقال بعضهم: الواجبُ على الرجل، اعتزالُ جميعِ بَدَنِهَا أنْ يباشره بشيءٍ من بدنه.

وقال آخرون: بل الذي أمر الله تعالى ذِكْرُهُ باعتزاله منهن، مَوْضِعُ الأذى، وذلك موضعُ مخرجِ الدم.

وقال آخرون: بل الذي أمر الله تعالى ذِكْرُهُ باعتزاله منهنّ في حال حيضهن، ما بين السُّرَّةِ إلى الركبة، وله ما فوقَ ذلك ودونَهُ منها.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: إنَّ للرجلِ من امرأته الحائض ما فوق المؤتَزَر ودونَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾

اختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك. فقرأه بعضهم: «حَتَّى يَطْهُرْنَ» بضم «الهاء» وتخفيفها. وقرأه آخرون بتشديد «الهاء» وفتحها.

وأما الذين قرأوه بتخفيف «الهاء» وضمها، فإنهم وَجَّهُوا معناه إلى: ولا تقربوا النساء في حالِ حيضهنَّ حتى ينقطع عنهن دَمُ الحيضِ وَيطهُرن.

وأما الذين قرأوا ذلك بتشديد «الهاء» وفتحها، فإنهم عنوا به: حتى يغتسلن بالماء. وشَدَّدُوا «الطاء» لأنهم قالوا: معنى الكلمة: حتى يتطهَّرْنَ، أُدغمت «التاء» في «الطاء» لتقاربِ مخرجيهما.

وأولى القراءتين بالصواب في ذلك قراءةُ مَنْ قرأ ﴿حَتَّى يَطَّهَّرْنَ﴾ بتشديدها وفتحها، بمعنى: حتى يغتسلن - لإجماعِ الجميعِ على أن حراماً على الرجلِ أنْ يقربَ امرأته بعد انقطاع دم حيضها حتى تطهر.

وإنما اختُلف في «التطهر» الذي عَنَاهُ الله تعالى ذِكْرُهُ، فأَحَلَّ له جماعها.

فقال بعضهم: هو الاغتسالُ بالماء، لايحل لزوجها أنْ يَقْرَبَها حتى تغسلَ جميعَ بدنها.

وقال بعضهم: هو الوضوء للصلاة.

وقال آخرون: بل هو غسل الفرج، فإذا غسلت فرجها، فذلك تَطَهُّرها الذي يحلُّ به لزوجها غشيانُها.

فإذْ كان إجماعٌ من الجميع أنها لاتحلُّ لزوجها بانقطاع الدم حتى تطَّهر، كان بَيِّناً أنَّ أولى القراءتين بالصواب أنفاهما للَّبْس عن فَهْم سامعها. وذلك هو الذي اخترنا، إذْ كان في قراءةِ قارئها بتخفيف «الهاء» وضمها، ما لايُؤْمَنُ معه اللبس على سامعها من الخطأ في تأويلها، فيرى أن لزوج الحائض غشيانَها بعد انقطاعِ دمِ حيضها عنها، وقبلَ اغتسالها وتطهُّرها.

فتأويل الآية إذاً: ويسألونك عن المحيض قل هو أذى، فاعتزلوا جماع نسائكم في وقت حيضهنّ، ولا تقربوهن حتى يغتسلن فيتطهرن من حيضهن بعد انقطاعه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ»، فإذا اغتسلن فتطهَّرن بالماءِ فجامِعُوهُنَّ.

فإنْ قال قائلٌ: أفرضٌ جماعهن حينئذ؟

قيل: لا

فإن قال: فما معنى قوله إذاً: «فَأْتُوهُنَّ»؟

قيل: ذلك إباحةٌ ما كان منَع قبل ذلك من جماعهن، وإطلاقٌ لما كان حَظَر في حال الحيض، وذلك كقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: ٢]، وقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠]، وما أشبه ذلك.

واختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «فَإِذَا تَطَهَّرْنَ».

فقال بعضهم: معنى ذلك، فإذا اغتسلن.

وقال آخرون: معنى ذلك: فإذا تطهّرن للصلاة.

وأولى التأولين بتأويل الآية، قولُ مَنْ قال: معنى قوله: «فَإِذَا تَطَهَّرْنَ»، فإذا اغتسلن، لإجماعِ الجميع على أنها لاتصيرُ بالوضوء بالماء طاهراً الطُّهرَ الذي يحلُّ لها به الصَلاةُ. وإنَّ القولَ لايخلو في ذلك من أحدِ أمرين:

إمـا أن يكون معناه: فإذا تطهَّرن من النجاسة فَأْتُوهُنَّ. فإنْ كان ذلك معناه، فقد ينبغي أن يكون متى انقطع عنها الدمُ فجائزٌ لزوجِهَا جماعُها، إذا لم تكن هنـالـك نجـاسـةٌ ظاهـرة. هذا، إن كان قوله: «فَإِذَا تَطَهَّرْنَ» جائزاً استعماله في التطهُّر من النجاسة، ولاأَعْلَمُهُ جائزاً إلا على استكراه الكلام.

أو يكون معناه: فإذا تطهَّرن للصلاة. وفي إجماع الجميع من الحجة على أنـه غيرُ جائزٍ لزوجها غشيانها بانقطاع دم حيضها، إذا لم يكن هنالك نجاسة، دون التطهرِ بالماء إذا كانت واجِدَتَهُ أدلُّ الدليل على أنَّ معناه: فإذا تطهرن الطُّهْرَ الذي يجزيهن به الصلاة. وفي إجماع الجميع من الأمة على أنَّ الصلاةَ لاتحلُّ لها إلا بالاغتسال، أوضحُ الدلالة على صحة ما قلنا: من أنَّ غشيانَها حرامٌ إلا بعد الاغتسال، وأن معنى قوله: «فَإِذَا تَطَهَّرْنَ»، فإذا اغتسلن فصرن طواهرَ الطهرَ الذي يجزيهنّ به الصلاة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُه: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ الله».

فقـال بعضهم: معنى ذلك: فَأْتُوا نساءكم إذا تطهَّرن من الوجه الذي

نهيتُكم عن إتيانهن منه في حالِ حيضهن، وذلك: الفرجُ الذي أمر الله بترك جماعِهنّ فيه في حال الحيض.

وقال آخرون: معناها: فأتوهن من الوجه الذي أمركم الله فيه أنْ تأتوهن منه. وذلك الوجه، هو الطهر دون الحيض. فكان معنى قائل ذلك في الآية: فأتوهنّ من قُبْل[1] طُهرهنّ لا من قُبْل حيضهن.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: فأتوا النساء من قِبل النكاح، لا من قِبل الفُجور.

وأولى الأقوالِ بالصوابِ في تأويل ذلك عندي قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: فَأْتُوهُنَّ من قُبْل طُهْرِهنَّ. وذلك أنَّ كُلَّ أمرٍ بمعنى، فَنَهْيٌ عن خِلافِهِ وضِدِّهِ. وكذلك النهيُ عن الشيء أمرٌ بضدهِ وخلافهِ. فلو كان معنى قوله: «فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ»، فأتوهن من قِبل مَخْرجِ الدمِ الذي نهيتكم أن تأتوهن من قبله في حال حيضهن ـ لوجب أن يكون قوله: «وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ»، تأويله: ولا تقربوهن في مخرج الدم، دون ما عدا ذلك من أماكن جسدها، فيكون مطلقاً في حال حيضها إتيانهن في أدبارهن. وفي إجماع الجميع ـ على أنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ لم يُطْلِق في حال الحيض من إتياهن في أدبارهن شيئاً حرَّمه في حال الطُّهر، ولا حرَّم من ذلك في حال الطهر شيئاً أحَلَّهُ في حال الحيض ـ ما يُعْلَمُ به فسادُ هذا القول.

وبَعْدُ، فلو كان معنى ذلك على ما تأوَّلَهُ قائلو هذه المقالة، لَوَجَبَ أنْ يكون الكلام: فإذا تطهرن فأتوهن في حيث أمركم الله حتى يكون معنى الكلام حينئذٍ على التأويل الذي تأوله، ويكون ذلك أمراً بإتيانهن في فروجهن. لأنّ

---

(١) القُبْل: بضم القاف وسكون الباء الموحدة وتضم أيضاً، نقيض الدُّبُر.

الكلام المعروفَ إذا أُريدَ ذلك، أن يقال: «أتى فلانٌ زَوجته من قِبَل فرجها» ـ ولا يقال: أتاها من فرجها ـ إلا أن يكون أتاها من قِبل فرجها في مكانٍ غيرِ الفرج.

فإن قال لنا قائـل: فإنَّ ذلك وإنْ كان كذلك، فليس معنى الكلام: فأتوهن في فروجهن ـ وإنما معناه: فأتوهن من قِبَل قُبُلهن في فروجهن ـ كما يقال: «أتيتُ هذا الأمرَ منَ مأتاه».

قيل له: إن كان ذلك كذلك، فلا شك أنَّ مأتى الأمر ووجهه غيره، وأن ذلك مطلبه. فإن كان ذلك على ما زعمتم، فقد يجب أن يكون معنى قوله: «فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ»، غير الذي زعمتم أنه معناه بقولكم: ائتوهن من قبل مخرج الدم، ومن حيث أُمِرْتُمْ باعتزالهن ـ ولكن الواجبُ أن يكون تأويلُه على ذلك: فأتوهن من قبل وُجوههنّ في أقبالهن، كما كان قول القائل: «ائتِ الأمرَ من مأتاه»، إنما معناه: اطلبه من مطلبه، ومطلبُ الأمر غيرُ الأمر المطلوب. فكذلك يجب أن يكون مأتى الفرج ـ الذي أمر الله في قولهم بإتيانه ـ غير الفرج.

وإذا كان كذلك، وكان معنى الكلام عندهم: فأتوهن من قبل وجوههن في فروجهن ـ وَجَبَ أنِ يكون على قولهم محرّماً إتيانهنّ في فروجهن من قِبل أدبارهن. وذلك إنْ قالوه، خرج مَنْ قاله من قِيل أهلِ الإسلام، وخالف نَصَّ كتاب الله تعالى ذكره، وقولَ رسولِ الله ﷺ. وذلك أن الله يقول: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾، وأذن رسولُ الله ﷺ في إتيانهن في فروجهن من قبل أدبارهن[1].

فقد تبين إذاً، إذْ كان الأمرُ على ما وصفنا، فسادُ تأويل مَنْ قال ذلك:

---

(١) انظر فتح الباري (٤٥٢٨) ومسلم (١٤٣٥).

فأتوهن في فروجهن حيثُ نَهيتكُمْ عن إتيانهنّ في حالِ حيضهن، وصحةُ القولِ الذي قلناه، وهو أن معناه: فأتوهن في فروجهنّ من الوجه الذي أذِنَ الله لكم بإتيانهن، وذلك حال طُهْرِهِنَّ وتَطَهُّرِهِنَّ، دونَ حالِ حيضهن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ۝٢٢٢﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «إنَّ الله يُحِبُّ ٱالتَّوَّابِينَ»، المُنِيبِينَ من الإدبارِ عن الله وعن طاعته، إليهِ وإلى طاعتهِ. وقد بَيَّنا معنى «التوبة» قَبْلُ.

واختلف في معنى قوله: «وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ».

فقال بعضهم: هم المُتَطهِّرُونَ بالماء.

وقال آخرون: معنى ذلك: «إنَّ الله يُحِبُّ التَّوَّابِينَ»، من الذنوب؛ «وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ»، من أدبار النساء أنْ يأتوها.

وقال آخرون: معنى ذلك: «وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ»، من الذنوب أن يعودوا فيها بعد التوبة منها.

وأوْلَى الأقوالِ في ذلك بالصواب قولُ مَنْ قال: «إنّ الله يحب التوابين من الذنوب، ويحب المتطهرين بالماء للصلاة». لأنَّ ذلك هو الأغلب من ظاهر معانيه.

وذلك أن الله تعالى ذِكْرُهُ ذَكَرَ أمرَ المحيض، فنهاهم عن أمورٍ كانوا يفعلونها في جاهليتهم: مِنْ تَرْكِهم مُساكنةَ الحائضِ ومؤاكَلتها ومشاربَتَها، وأشياء غير ذلك مما كان تعالى ذِكْرُهُ يكرهها من عباده، فلما استفتى أصحابُ رسولِ الله رسولَ الله ﷺ عن ذلك، أوحى الله تعالى إليه في ذلك، فبيَّن لهم

ما يكرهه مما يرضاه ويُحِبُّهُ، وأخبرهم أنه يُحِبُّ مِنْ خَلْقِهِ مَنْ أناب إلى رضاه ومحبته، تائباً مما يكرهه. وكان مما بيَّنَ لهم من ذلك، أنه قد حرّم عليهم إتيانَ نسائِهم وإنْ طَهُرن من حيضهن حتى يغتسلن، ثم قال: ولا تقربوهن حتى يَطْهُرْنَ، فإذا تطهَّرن فأتوهن، فإن الله يحب المتطهرين ـ يعني بذلك: المتطهرين من الجنابةِ والأحداثِ للصلاة، والمتطهرات بالماء ـ من الحيض والنفاس والجنابة والأحداث ـ من النساء.

وإنما قال: «وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ» ـ ولم يقل «المتطهرات» ـ وإنما جرى قبل ذلك ذكرُ التطهر للنساء، لأن ذلك بذِكرِ «الْمُتَطَهِّرِينَ» يجمعُ الرجالَ والنساء. ولو ذَكَرَ ذلك بذِكْرِ «المتطهرات»، لم يكنْ للرجالِ في ذلك حَظٌّ، وكان للنساء خاصةً. فذكر الله تعالى ذِكْرَهُ بالذِّكْرِ العام جميعَ عباده المكلفين، إذ كان قد تَعَبَّدَ جميعَهم بالتطهر بالماء، وإن اختلفت الأسبابُ التي تُوجِبُ التطهر عليهم بالماء في بعض المعاني، واتفقت في بعض.

المجلد الأول

فهرس المحتويات

تفسير الطبري

من كتابه

جامع البيان عن تأويل آي القرآن

هذبه وحققه وضبط نصه وعلق عليه

الدكتور بشار عواد معروف   عصام فارس الحرستاني

المجلد الثاني

البقرة إلى النساء

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير الطبري

٢

الطّبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

مؤسّسة الرّسالة للطباعة والنشر والتوزيع

مؤسّسة الرّسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٦٠٣٢٤٣ - ٨١٥١١٢ - ص.ب: ٧٤٦٠ - برقياً: بيوشران

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: نساؤكم مُزدَرَعُ أولادكم، فأتوا مُزْدَرَعكُم كيف شئتم، وأين شئتم.

وإنما عنى بـ «الحرث» المزدَرَع، و«الحرث» هو الزرع، ولكنهن لما كُنَّ من أسبابِ الحرث، جُعِلْنَ «حرثاً»، إذ كان مفهوماً معنى الكلام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: فانكحوا مزدرَع أولادكم من حيث شئتم من وجوه المأتى.

و«الإتيان» في هذا الموضع، كنايةٌ عن اسم الجماع.

واختلف أهل التأويل في معنى قوله: «أَنَّى شِئْتُمْ».

فقال بعضهم: معنى «أَنَّى»، كيف.

وقال آخرون: معنى «أَنَّى شِئْتُمْ»، من حيثُ شئتم، وأيِّ وجه أحببتم.

وقال آخرون معنى قوله: «أَنَّى شِئْتُمْ»، متى شئتم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أين شئتم، وحيثُ شئتم.

وقال آخرون: معنى ذلك: ائتوا حرثكم كيف شئتم ـ إن شئتم فاعْزلُوا، وإنْ شئتم فلا تعزلوا.

والصـوابُ من القـول فِي ذلك عندنا قولُ مَنْ قال: معنى قوله: «أَنَّى شِئْتُمْ»، من أيِّ وجهٍ شئتم، وذلك أن «أَنَّى» في كلام العرب كلمة تدلّ إذا ابْتُدِئَ بها في الكلام ـ على المسألةِ عن الوجوه والمذاهب. فكأنَّ القائل إذا قال لرجل: «أنَّى لكَ هذا المالُ»؟ يريدُ: من أيِّ الوجوه لك. ولذلك يجيب المجيبُ فيه بأن يقول: «من كذا وكذا»، كما قال تعالى ذِكْرُهُ مُخْبِراً عن زكريا في مسألته مريم: ﴿أَنَّى لَكِ هذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ [آل عمران: ٣٧]. وهي مُقاربة «أين» و«كيف» في المعنى، ولذلك تداخلت معانيها، فأشكلت ﴿أَنَّى﴾ على سامعيها ومتأوِّليها، حتى تأوَّلها بعضهم بمعنى: «أين»، وبعضهم بمعنى «كيف»، وآخرون بمعنى: «متى» ـ وهي مخالفةٌ جميعَ ذلك في معناها، وهُنَّ لها مخالفات.

وذلـك أن «أين» إنما هي حرف استفهام عن الأماكن والمحال ـ وإنما يستدل على افتراق معاني هذه الحروف بافتراق الأجوبةِ عنها. ألا ترى أنَّ سائلاً لو سأل آخـر فقـال: «أين مالك»؟ لقال: «بمكان كذا»، ولو قال له: «أين أخوك»؟ لكان الجواب أن يقول: «ببلدةِ كذا أو بموضعِ كذا»، فيجيبه بالخبر عن محل ما سأله عن محله. فيعلم أن «أين» مسألة عن المحل.

ولـو قال قائـل لآخر: «كيف أنت»؟ لقال: «صالحٌ، أو بخيرٍ، أو في عافيةٍ»، وأخبره عن حاله التي هو فيها، فيعلم حينئذ أن «كيف» مسألةٌ عن حالِ المسؤولِ عن حالهِ.

ولو قال له: «أنَّى يُحْيِي الله هذا الميت؟»، لكان الجوابُ أنْ يُقال: «من

وجه كذا ووجه كذا»، فيصف قولاً، نظيرَ ما وصف الله تعالى ذِكْرُهُ للذي قال: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] فعلاً، حين بعثه من بعد مماته.

والذي يدل على فسادِ قولِ مَنْ تأوّل قول الله تعالى ذِكْرُهُ: «فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ»، كيف شئتم، أو تأوله بمعنى: حيث شئتم، أو بمعنى: متى شئتم، أو بمعنى: أين شئتم، أنَّ قائلاً لو قال لآخر: «أنَّى تأتي أهلك؟»، لكان الجواب أن يقول: «من قُبُلها، أو: من دُبُرها»، كما أخبر الله تعالى ذِكْرُهُ عن مريم إذْ سُئِلَتْ: ﴿أَنَّى لَكِ هَٰذَا﴾ أنها قالت: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾.

وإذ كان ذلك هو الجواب، فمعلومٌ أن معنى قول الله تعالى ذِكْرُهُ: «فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ»، إنما هو: فأتوا حرثكم من حيثُ شئتم من وجوه المأتى ـ وأنّ ما عدا ذلك من التأويلاتِ فليس للآية بتأويل.

وإذ كان ذلك هو الصحيح، فبيِّنٌ خطأُ قولِ مَنْ زعم أن قوله: «فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ»، دليلٌ على إباحةِ إتيانِ النساء في الأدبار. لأن الدُّبُرَ لا مُحْتَرَثَ فيه، وإنما قال تعالى ذِكْرُهُ: «حَرْثٌ لَكُمْ»، فأتوا الحرث من أيِّ وجوهه شئتم. وأيُّ محترَثٍ في الدُبر فيقال: ائته من وجهه؟ وبيِّنٌ بما بينا، صحةُ معنى ما روي عن جابر وابن عباس: من أن هذه الآية نزلت فيما كانت اليهود تقوله للمسلمين: «إذا أتَى الرجلُ المرأةَ من دُبرها في قُبُلها، جاء الولد أحول»[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾

اختلف أهل التأويل في معنى ذلك:

فقال بعضهم: معنى ذلك: قَدِّمُوا لأنفسكم الخيرَ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وقَدِّموا لأنفسكم ذِكْرَ الله عند الجماع وإتيان الحرث قبل إتيانه.

والذي هو أولى بتأويل الآية هو أنَّ قوله: «وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ»، أمرٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ عِبادَهُ بتقديمِ الخيرِ والصالح من الأعمال ليومِ مَعَادهم إلى ربهم، عُدَّةً منهم ذلك لأنفسهم عند لقائهِ في موقف الحساب، فإنه قال تعالى ذِكْرُهُ: ﴿وَماتُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ﴾ [البقرة: ١١١، المزمل: ٢٠].

---

(١) قال العلامة الكبير محمود شاكر - حفظه الله - حجة أبي جعفر في هذا الفصل، من أحسن البيان عن معاني القرآن، وعن معاني ألفاظه وحروفه. وهي دليل على أنَّ معرفةَ العربية، وحذقَها، والتوغلَ في شعرها وبيانها وأساليبها، أصلٌ من الأصول، لايحل لمن يتكلم في القرآن أن يتكلم فيه حتى يحسنه ويحذقه. ورحم الله ابن إدريس الشافعي، حيث قال -: فيما رواه الخطيب البغدادي عنه في كتاب «الفقيه والمتفقه».

«لا يحلُّ لأحدٍ أنْ يُفْتِي في دينِ الله، إلّا رجلاً عارفاً بكتاب الله: بناسخه ومنسوخه، ومُحْكَمِهِ ومُتَشَابِهِهِ، وتأويلِهِ وتنزيله، ومكيِّهِ ومدنيِّه، وما أُريدَ به، ويكون بعد ذلك بصيراً بحديثِ رسولِ الله ﷺ، وبالناسخِ والمنسوخ، ويعرف من الحديث مثل ما عرف من القرآن، ويكون بصيراً باللغة، بصيراً بالشعر، ومايحتاج إليه للسنة والقرآن، ويستعملِ هذا مع الإنصاف، ويكون بعد هذا مشرفاً على اختلاف أهل الأمصار، وتكون له قريحةٌ بعد هذا. فإذا كانَ هكذا، فله أنْ يتكلّم ويفتي في الحلال والحرام، وإذا لم يكنْ هكذا، فليس له أن يفتي».

فليت من يتكلم في القرآن والدين من أهل زماننا، يتورع من مخافةِ ربه، ومن هول عذابه يوم يقومُ الناسُ لرب العالمين.

وإنمـا قلنا: ذلك أولى بتأويل الآية، لأن الله تعالى ذِكْرُهُ عَقَّبَ قوله: «وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ» بالأمر باتقائه في ركوب معاصيه، فكان الذي هو أولى بأن يكـون قبلَ التهدُّدِ على المعصية ـ إذ كان التهدُّدِ على المعصية عاماً ـ الأمرُ بالطاعة عاماً.

فإنْ قال لنا قائل: وما وجهُ الأمر بالطاعة بقوله: «وَقَدِّمُواْ لأَنفسكُمْ»، من قوله: «نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ»؟

قيل: إن ذلك لم يقصد به ما توهمتَه: وإنما عنى به: وقَدِّمُوا لأنفسكم من الخيراتِ التي نَدَبْنَاكُم إليها بقولنا: «يسألونك ماذا يُنفقون قُلْ ما أنفقتم من خيرٍ فللوالدين والأقربين»، وما بعده من سائر ما سألوا رسولَ الله ﷺ فَأُجيبُوا عنه، مما ذكره الله تعالى ذِكْرُهُ في هذه الآيات. ثم قال تعالى ذِكْرُهُ: قد بَيَّنا لكم ما فيه رَشَـدكم وهدايتكم إلى ما يُرضي رَبَّكم عنكم، فقدِّموا لأنفسكم الخيرَ الذي أمركم به، واتَّخِذُوا عنده به عهداً، لتجدوه لديه إذا لقيتموه في معادكم، واتقوه في معاصيه أن تقربوها، وفي حدوده أن تُضيعوها، واعلموا أنكم لا محالةَ مُلاقُوه فِي مَعَادكم، فَمُجازٍ المُحْسِنَ منكم بإحسانهِ، والمُسِيءَ بإساءته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٢٣﴾

وهذا تحذيرٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ عبادَه: أنْ يأتوا شيئاً مما نهاهم عنه من معاصيه ـ وتخويفٌ لهم عقابَهُ عند لقائهِ، كما قد بيَّنا قَبْلُ ـ وأمرٌ لنبيه محمد ﷺ

أنْ يُبَشِّرَ من عباده، بالفوز يوم القيامة وبكرامةِ الآخرة وبالخلودِ في الجنة، مَنْ كان منهم محسناً مؤمناً بكتبه ورسله، وبلقائه، مصدِّقاً إيمانَه قولاً، بعمله ما أمره به ربُّه، وافترض عليه من فرائضه فيما ألزمه من حقوقه، وبتجنُّبه ما أمره بتجنُّبه من معاصيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾

اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: «وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ».

فقال بعضهم معناه: ولا تجعلوه عِلَّة لأيمانكم، وذلك إذا سُئِلَ أحدكم الشيء من الخير والإصلاح بين الناس قال: «عليَّ يمينُ الله أنْ لا أفعلَ ذلك» ـ أو «قد حلفتُ بالله أن لا أفعله»، فيعتلُّ في تركهِ فِعْلَ الخير والإصلاح بين الناس بالحلفِ بالله.

وقال آخرون: معنى ذلك: ولا تعترضوا بالحلف بالله في كلامكم فيما بينكم، فتجعلوا ذلك حجة لأنفسكم في ترك فعل الخير.

وأولى التأويلين بالآية، تأويلُ مَنْ قال: معنى ذلك: «لاتجعلوا الحلفَ بالله حجةً لكم في ترك فعل الخير فيما بينكم وبينَ الله وبين الناس».

وذلك أن «العُرْضةَ»، في كلام العرب، القوة والشدة. يقال منه: «هذا الأمر عُرْضة لك» يعني بذلك: قوةٌ لك على أسبابكَ. ويقال: «فلانة عُرْضة للنكاح»، أي قوة.

فمعنى قوله تعالى ذِكْرُهُ: «وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ» إذًا:

لاتجعلوا الله قوةً لأيمانكم في أنْ لا تَبَرُّوا ولا تتقوا ولا تُصلحوا بين الناس، ولكن إذا حلف أحدكم فرأى الذي هو خيرٌ مما حَلَفَ عليه من تَرْكِ البر والإصلاح بين الناس، فليحنثْ في يمينه، وليبرَّ، وليتق الله، وليصلح بين الناس، وليكفِّرْ عن يمينه.

وأما قوله: «أَن تَبَرُّواْ»، فإنه اختلف في تأويل «البر»، الذي عناه الله تعالى ذِكْرُهُ.

فقال بعضهم: هو فِعْلُ الخيرِ كُلِّهِ. وقال آخرون: هو البر بذي رحمه، وقد ذكرتُ قائِلي ذلك فيما مضى.

وأولى ذلك بالصواب قول مَنْ قال: «عَنَى به فِعْلَ الخيرِ كله»، وذلك أن أفعال الخير كلها من «البر»، ولم يخصص الله في قوله: «أَن تَبَرُّواْ» معنىً دون معنى من معاني «البر»، فهو على عمومه. والبرُّ بذوي القرابة أحد معاني «البر».

وأما قوله: «وَتَتَّقُواْ»، فإنَّ معناه: أن تتقوا ربكم فَتَحْذَرُوهُ وتَحْذَرُوا عِقابَهُ في فرائضهِ وحدوده أنْ تضيعوها أو تتعدَّوْها، وقد ذكرنا تأويلَ مَنْ تأوَّل ذلك أنه بمعنى «التقوى» قبل.

وأما قوله: «وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ»، فهو الإصلاحُ بينهم بالمعروفِ فيما لا مَأْثَمَ فيه، وفيما يحبه الله دون ما يكرهه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: «وَٱلله سَمِيعٌ» لما يقوله الحالفُ منكم بالله إذا حلف فقال: «والله لا أَبَرُّ ولا أتقي ولا أصلحُ بين الناس»، لغير ذلك من قِيلِكُمْ

وأيمانكم؛ «عَلِيمٌ» بما تقصدون وتبتغون بحلفكم ذلك، ألخيرَ تُرِيدونَ أم غيره؟ لأني عَلاَّمُ الغيوبِ وما تُضمِرُهُ الصدورُ، لا تَخْفَى عليَّ خافية، ولاينكتمُ عني أمرٌ عَلَن فظهر، أو خَفِيَ فَبَطَن.

وهذا من الله تعالى ذِكْرُهُ تهدُّد ووعيدٌ. يقول تعالى ذِكْرُهُ: واتقون أيها الناسُ أنْ تُظْهِرُوا بألسنتكم من القول، أو بأبدانكم من الفعل، ما نَهيتُكم عنه ـ أو تضمروا في أنفسكم وتعزموا بقلوبكم من الإرادات والنيات بفعل ما زجرتُكُم عنه، فتستحقوا بذلك مني العقوبةَ التي قد عرَّفتكموها، فإنِّي مُطَّلِعٌ على جميع ما تعلنونه أو تُسرُّونه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللهُ بِٱللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ»، وفي معنى «اللغو».

فقال بعضهم في معناه: لا يؤاخذكم الله بما سَبقَتْكُم به ألسنتُكم من الأيمانِ على عجلةٍ وسرعة، فيوجبُ عليكم به كفارة إذا لم تقصدوا الحلفَ واليمينَ. وذلك كقولِ القائل: «فعلت هذا والله، أو: أفعله والله، أو: لا أفعله والله»، على سبوق المتكلم بذلك لسانُه، بما وصل به كلامه من اليمين.

وقال آخرون: بل اللغو في اليمين، اليمينُ التي يحلفُ بها الحالف وهو يرى أنه كما يحلف عليه، ثم يتبين غير ذلك؛ وأنه بخلاف الذي حلف عليه.

وقال آخرون: بل اللغو من الأيمان التي يحلف بها صاحبها في حال الغضب، على غير عقد قلب ولا عزم، ولكن وُصْلةً للكلام.

وقال آخرون: بل اللغو في اليمين: الحلفُ على فعلِ ما نهى الله عنه، وتركِ ما أمَرَ الله بفعله.

وقال آخرون: اللغو من الأيمان: كُلُّ يمينٍ وَصَل الرجلُ بها كلامه، على غير قصدٍ منه إيجابَها على نفسه.

وقال آخرون: اللغو من الأيمان، ما كان من يمينٍ بمعنى الدعاء من الحالف على نفسه: إنْ لم يفعل كذا وكذا، أو بمعنى الشرك والكفر.

وقال آخرون: اللغو من الأيمان ما كانت فيه كفارة.

وقال آخرون: اللغو من الأيمان: هو ما حنث فيه الحالف ناسياً.

و «اللغو» من الكلام في كلام العرب، كلّ كلام كان مذموماً وسَقَطاً لا معنى له مهجوراً، يقال منه: «لغا فلانٌ في كلامه يلغُوا لَغْواً» إذا قال قبيحاً من الكلام، ومنه قول الله تعالى ذِكْرُهُ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ [القصص: ٥٥]، وقوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾ [الفرقان: ٧٢]. ومسموع من العرب: «لَغَيْتُ باسم فلان»، بمعنى أُولِعْتُ بِذِكْرِه بالقبيح. فمن قال: «لَغَيْت»، قال: «أَلْغَى لَغاً» وهي لغةٌ لبعض العرب.

فإذا كان «اللغو» ما وصفت، وكان الحالفُ بالله: «ما فعلت كذا» وقد فعل، «ولقد فعلتُ كذا» وما فعل ـ واصلاً بذلك كلامه على سبيل سُبوق لسانه من غير تَعَمُّدِ إثمٍ في يمينه، ـ ولكنْ لعادةٍ قد جرت له عند عجلةِ الكلام، والقائلُ: «والله إنّ هذا لَفُلان» وهو يراه كما قال، أو: «والله ما هذا فلان!» وهو يراه ليس به، والقائلُ: «ليفعلنّ كذا والله ـ أو: لايفعل كذا والله» على سبيل ما وصفنا من عجلة الكلام وسبوق اللسان للعادة، على غير تعمدِ حلفٍ على باطل، والقائل: «هو مشرك، أو هو يهودي أو نصراني، إنْ لم يفعل كذا ـ أو إن فعل كذا» من غير عزمٍ على كفرٍ أو يهودية أو نصرانية ـ جميعهم قائلون هُجْراً من القول وذميماً من المنطق، وحالفونَ من الأيمانِ بألسنتهم ما لم تَتَعَمَّدْ فيه الإِثْمَ قلوبهم ـ كان معلوماً أنهم لُغاةٌ في أيمانهم، لا تلزمهم كفارة في

العاجل، ولا عقوبة في الآجل، لإخبار الله تعالى ذِكْرُهُ أنه غير مؤاخذٍ عبادَه، بما لغوا من أيمانهم، وأنَّ الذي هو مؤاخذهم به، ما تَعَمَّدَتْ فيه الإثمَ قلوبُهم.

وإذ كان ذلك كذلك لاشك عقوبةً كبعض العقوبات التي جعلها الله تعالى ذِكْرُهُ نكالاً لخلقه فيما تعدَّوا من حدوده، وإن كان يجمع جميعها أنها تمحيصٌ وكفاراتٌ لمن عُوقِبَ بها فيما عُوقبوا عليه كان بَيِّناً أنَّ من ألزم الكفارة في عاجل دنياه فيما حلف به من الأيمان فحنِث فيه، وإن كانت كفارة لذنبه، فقد واخذه الله بها بإلزامه إياه الكفارةَ منها، وإن كان ما عجَّل من عقوبته إياه على ذلك، مُسْقطاً عنه عقوبته في آجله. وإذ كان تعالى ذِكْرُهُ قد واخذه بها، فغيرُ جائزٍ لقائلٍ أن يقول وقد واخذه بها: هي من اللغو الذي لا يؤاخذ به قائله.

فإذْ كان ذلك غيرَ جائز، فبيِّنٌ فسادُ قولِ القائل: «اللغو الحلف على المعصية»، لأن ذلك لو كان كذلك، لم يكن على الحالفِ على معصية الله كفارة بحِنْثه في يمينه. وفي إيجاب الكفارة عليه دليلٌ واضح على أن صاحبها بها مُؤاخذٌ، لما وصفنا من أن من لزمه الكفارة في يمينه، فليس ممن لم يؤاخذ بها.

فإذْ كان «اللغو» هو ما وصفنا؛ مما أخبرنا الله تعالى ذِكْرُهُ أنه غير مؤاخذنا به - وكلُّ يمينٍ لزمت صاحبَها بحِنْثِهِ فيها الكفارةُ في العاجل، أو أوعد الله تعالى ذِكْرُهُ صاحبها العقوبةَ عليها في الآجل، وإن كان وَضَع عنه كفارتها في العاجل - فهي مما كسبته قلوبُ الحالفين، وتعمدت فيه الإثم نفوس المقسمين. وما عدا ذلك فهو «اللغو»، وقد بَيَّنا وجُوهَهُ.

فتأويل الكلام إذاً: لاتجعلوا الله أيها المؤمنون قوةً لأيمانكم، وحجةً لأنفسكم في إقسامكم، في أن لا تبُّروا ولا تتقوا ولاتُصلحوا بين الناس، فإنَّ

الله لا يؤاخذكم بما لَغَتْهُ ألسنتكم من أيمانكم فنطقت به من قبيح الأيمانِ وذميمها، على غير تعمُّدِكُم الإثمَ، وقصدِكم بعزائم صدروركم إلى إيجاب عَقْد الأيمان التي حلفتم بها، ولكنه إنما يؤاخذكم بما تَعَمَّدْتُم فيه عَقْدَ اليمين وإيجابها على أنفسكم، وعزمتم على الإتمام على ما حلفتم عليه بقصدٍ منكم وإرادة، فيلزمكم حينئذٍ إمّا كفارةٌ في العاجل، وإمّا عقوبةٌ في الآجل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾

إن الله تعالى ذِكْرُهُ أوعد عبادَهُ أن يؤاخذهم بما كسبت قلوبهم من الأيمان، فالذي تكسبه قلوبهم من الأيمان هو ما قَصَدَتْهُ وعزمتْ عليه على علمٍ ومعرفةٍ منها بما تقصده وتريده، وذلك يكون منها على وجهين:

أحدهما: على وجه العزم على ما يكون به العازم عليه في حال عزمه بالعزم عليه آثماً، وبفعله مستحقاً المؤاخذةَ من الله عليها، وذلك كالحالفِ على الشيء الذي لم يفعله أنه قد فعله، وعلى الشيء الذي قد فعله أنه لم يفعله، قاصداً قِيلَ الكذبِ، وذاكراً أنه قد فعلَ ما حلفَ عليه أنه لم يفعله، أو أنه لم يفعلْ ما حلفَ عليه أنه قد فعل، فيكون الحالفُ بذلك - إنْ كان من أهل الإيمان بالله وبرسوله - في مشيئةِ الله يومَ القيامة، إنْ شاء واخذه به في الآخرة، وإن شاء عفا عنه بتَفَضُّلِهِ، ولا كَفَّارةَ عليه فيها في العاجل، لأنها ليست من الأيمان التي يحنث فيها، وإنما تَجِبُ الكفارةُ في الأيمان بالحِنث فيها، والحالف الكاذب في يمينه، ليست يمينه مما يُبْتَدَأ فيه الحنث، فتلزم فيه الكفارة.

والوجه الآخر منهما: على وجه العزم على إيجابِ عقدِ اليمين في حال

عزمه على ذلك، فذلك مما لا يُؤاخذُ به صاحبه حتى يحنث فيه بعد حلفه، فإذا حنِث فيه بعد حلفه، كان مؤاخذاً بما كان اكتسبه قلبُهُ ـ من الحلفِ بالله على إثمٍ وكذب ـ في العاجل بالكفارة التي جعلها الله كفارةً لذنبه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۝٢٢٥﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: «وَٱللَّهُ غَفُورٌ» لعباده فيما لَغَواْ من أيمانهم التي أخبرَ الله تعالى ذِكْرُهُ أنه لا يؤاخذهم بها، ولو شاء وَاخذهم بها ـ ولما واخذهم به فكفَّروها في عاجل الدنيا بالتكفير فيه، ولو شاء واخذهم في آجلِ الآخرةِ بالعقوبةِ عليه، فساترٌ عليهم فيها، وصافحٌ لهم بعفوهِ عن العقوبة فيها، وغير ذلك من ذنوبهم. «حَلِيمٌ» في تَرْكِه معاجلةَ أهلِ معصيته العقوبةَ على معاصيهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ»، للذين يقسمون أليَّة، «والألية» الحلف.

ومعنى الكلام: للذين يُؤْلُون أنْ يعتزلوا من نسائهم تَرَبُّصُ أربعة أشهر، فترك ذكر «أن يعتزلوا»، اكتفاء بدلالة ما ظهر من الكلام عليه.

واختلف أهلُ التأويل في صفة اليمين التي يكون بها الرجل مولياً من امرأته.

فقال بعضهم: اليمين التي يكون بها الرجل مُولياً من امرأته: أن يحلف

عليها - في حال غضب على وجه الضِّرار - أن لا يجامعها في فرجها، فأما إنْ حلف على غير وجه الإضرار، وعلى غير غضبٍ، فليس هو مولياً منها.

وقال آخرون: سواءٌ إذا حلف الرجل على امرأته أن لايجامعها في فرجها، كان حلفه في غضب أو غير غضب، كلٌّ ذلك إيلاء.

وقال آخرون: كلُّ يمينٍ حلف بها الرجل في مَسَاءةِ امرأتهِ، فهي إيلاءٌ منه منها، على الجماع حلف أو غيره، في رضاً حَلَفَ أو سَخَطٍ.

وعِلَّةُ مَنْ قال: «إنما الإيلاء في الغضب والضَرار»: أنّ الله تعالى ذِكْرُهُ إنما جعل الأجلَ الذي أجَّل في الإيلاء مخرجاً للمرأة من عَضْلِ الرجل وضراره إياها[1]، فيما لها عليه من حُسْنِ الصحبة والعِشرة بالمعروف، وإذا لم يكن الرجلُ لها عاضلاً ولا مُضاراً بيمينه وحَلْفِهِ على تركِ جماعها، بل كان طالباً بذلك رِضَاها، وقاضياً بذلك حاجتها، لم يكن بيمينه تلك مُولياً. لأنه لا معنى هنالك لَحِقَ المرأةَ به من قِبَلِ بَعْلِها مساءةٌ وسوء عشرة، فيجعل الأجل - الذي جُعل للمولي - لها مخرجاً منه.

وأما علةُ مَنْ قال: «الإيلاء في حال الغضب والرضا سواء»، عموم الآية، وأن الله تعالى ذِكْرُهُ لم يخصص من قوله: «لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّص أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ» بعضاً دون بعض، بل عَمَّ به كلَّ مُولٍ ومُقسِم. فكلُّ مقسِمٍ على امرأته أنْ لا يغشاها مدةً هي أكثر من الأجل الذي جَعل الله له تربُّصه، فمُولٍ من امرأته عند بعضهم، وعند بعضهم: هو مُولٍ، وإن كانت مدة يمينه الأجل الذي جُعل له تربُّصه.

---

(١) العضل من الزوج لأمرأته: أن يُضَارَّها ولا يُحسن عشرتها، فهو لا يعاملها معاملةَ الأزواج، ولا يتركها تتصرف في نفسها.

وأما علة من قال بقول الشعبي والقاسم وسالم: أن الله تعالى ذِكْرُهُ جعل الأجلَ الذي حدَّهُ للمُولي مخرجاً للمرأة من سوء عشرة بعلها إياها وضِرارِهِ بها. وليست اليمين عليها بأنْ لا يجامعها ولا يقرَبها، بأوْلَى بأن تكون من معاني سوء العشرةِ والضِّرار، من الحلف عليها أنْ لا يكلمها أو يسوءَها أو يغيظها، لأن كل ذلك ضررٌ عليها وسوءُ عشرةٍ لها.

وأولى التـأويلات التي ذكرناها في ذلك بالصواب، قولُ مَنْ قال: كلُّ يمينٍ مَنعت المقسم الجماعَ أكثر من المدة التي جعل الله للمولي تربُّصَها، قائلاً في غضب كان ذلك أو رضاً. وذلك للعلة التي ذكرناها قَبْلُ لقائِلي ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٢٦﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: فإنْ رجعوا إلى ترك ما حلَفُوا عليه أن يفعلوه بهن من ترك جماعهن، فجامعوهن وحنِثُوا في أيمانهم، «فَإِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ»، لِمَا كان منهم من الكذبِ في أيمانهم بأنْ لا يأتوهُنَّ ثم أتوهُنَّ، ولما سلف منهم إليهن، من اليمينِ على ما لم يكن لهم أن يحلفوا عليه فحلفوا عليه، «رَّحِيمٌ» بهم وبغيرهم من عباده المؤمنين.

وأصل «الفيء»، الرجوعُ من حالٍ إلى حال، ومنه قوله تعالى ذِكْرُهُ: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ إلى قوله: ﴿حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ﴾ [الحجرات: ٩]، يعني: حتى ترجع إلى أمر الله.

يقال منه: «فاء فلانٌ يفيء فَيْئة» مثل «الجيئة» و«فَيْأً». و«الفَيْئة» المرة. فأما في الظلّ فإنه يقال: «فاء الظلّ يفيء فُيُوءاً وفَيْأً»، وقد يقال: «فيوءاً» أيضاً في المعنى الأول، لأن «الفيء» في كل الأشياء بمعنى الرجوع.

وبمثل الذي قلنا في ذلك قال أهلُ التأويل، غير أنهم اختلفوا فيما يكونُ

به المولى فايئاً.

فقال بعضهم: لا يكون فايئاً إلا بالجماع.

وقال آخرونَ: «الفيء»: المراجعةُ باللسان أو القلب في حال العذر، وفي غير حال العذر الجماع.

وقال آخرون: «الفيء» المراجعة باللسان بكلِّ حال.

وإنما اختلف المختلفون في تأويل «الفيء» على قدر اختلافهم في معنى اليمين التي تكون «إيلاءً».

فمن كان من قوله: إنَّ الرجلَ لا يكون مولياً من امرأته الإيلاءَ الذي ذكره الله في كتابه إلاّ بالحلفِ عليها أنْ لا يجامعها، جعل الفيءَ الرجوعَ إلى فِعْلِ ما حلفَ عليه أن لا يفعله من جماعها، وذلك الجماعُ في الفرج إذا قدر على ذلك وأمكنه ـ وإذا لم يقدرْ عليه ولم يمكنه، فإحداث النية أنْ يفعله إذا قدرَ عليه وأمكنه، وإبداء ما نوى من ذلك بلسانه ليعلمه المسلمون، في قولِ مَنْ قال ذلك.

وأما قولُ مَنْ رأى أنَّ الفيء هو الجماع دون غيره، فإنه لم يجعل العائقَ له عذراً، ولم يجعل له مخرجاً من يمينه غيرَ الرجوعِ إلى ما حلف على تَرْكِهِ، وهو الجماع.

وأما من كان من قوله أنه قد يكون مولياً منها بالحلفِ على تَرْكِ كلامها، أو على أنْ يسوءَها أو يغيظها أو ما أشبه ذلك من الأيمان، فإنَّ الفيء عنده الرجوعُ إلى تركِ ما حلفَ عليه أن يفعله ـ مما فيه من مساءتها ـ بالعزمِ على الرجوع عنه، وإبداء ذلك بلسانه، في كل حال عزم فيها على الفيء.

وأولى الأقوال بالصحة في ذلك عندنا، قولُ مَنْ قال: «الفيء هو

الجمـاع»، لأن الرجل لا يكونُ مولياً عندنا من امرأته إلا بالحلفِ على تركِ جماعها المدةَ التي ذكرنا، للعللِ التي وصفنا قَبْلُ. فإذْ كان ذلك هو الإيلاء، فالفيءُ الذي يُبطلُ حُكْمَ الإيلاء عنه، لاشك أنه غير جائزٍ أن يكون إلا ما كان للذي آلى عليه خلافاً. لأنه لما جعلَ حكمه إنْ لم يَفِيءْ إلى ما آلى على تَرْكِهِ، الحكمَ الذي بينه الله لهم في كتابه، كان الفيء إلى ذلك، معلومٌ أنه فعلُ ما آلى على تركه إنْ أطاقه، وذلك هو الجماع. غير أنه إذا حِيلَ بينه وبين الفيء ـ الذي هو جماعٌ بعذر، فغير جائزٍ أن يكون تاركاً جماعها على الحقيقة. لأن المرءَ إنما يكون تاركاً ماله إلى فعلهِ وتركهِ سبيلٌ. فأما مَنْ لم يكن له إلى فعل أمر سبيل، فغير كائنٍ تاركَهُ.

وإذ كان ذلك كذلك، فإحداثُ العزمِ في نفسه على جماعها، مُجْزِىءٌ عنه في حال العذر، حتى يجدَ السبيلَ إلى جماعها. وإنْ أبدى ذلك بلسانه وأشهدَ على نفسه في تلك الحال بالأوبة والفيء، كان أعجبَ إليَّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك.

فقال بعضهم: معنى ذلك: «فَإِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ» لكم فيما اجترمتم بفيئكم إليهنّ، من الحِنْث في اليمين التي حلفتم عليهن بالله أن لا تَغْشَوْهنَّ؛ «رَّحِيمٌ» بكم في تخفيفه عنكم كفَّارةَ أيمانكم التي حلفتم عليهن، ثم حنِثتم فيه.

وهذا التأويل الذي ذكرنا هو التأويلُ الواجبُ على قولِ مَنْ زعم أنَّ كُلَّ حانثٍ في يمينٍ هو في المُقام عليها حَرِجٌ، فلا كفارةَ عليه في حنثه فيها، وأن كفارتها الحنث فيها.

وأما على قول مَنْ أوجب على الحانث في كل يمين حلف بها [كفارة]، برًّا كان الحِنث فيها أو غير بِرّ، فإنَّ تأويله: «فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ» للمُولين من نسائهم فيما حنِثوا فيه من إيلائهم، بأنْ فاؤوا فكفَّروا أيمانهم، بما ألزم الله الحانثين في أيمـانهم من الكفارة؛ «رَّحِيمٌ» بهم، بإسقاطه عنهم العقوبةَ في العاجلِ والآجلِ على ذلك، بتكفيرهِ إياه بما فرض عليهم من الجزاء والكفارة، وبما جعـل لهم من المَهَل الأشهرَ الأربعة، فلم يجعل فيها للمرأة التي آلى منها زوجها ما جعل لها بعد الأشهر الأربعة.

وهذا التأويلُ الثاني هو الصحيح عندنا في ذلك، لما قد بَيَّنا من العلل في كتابنا: «كتاب الأيمان»، من أن الحنث موجبُ الكفارةَ في كل ما ابتدئ فيه الحنث من الأيمان بعد الحلف، على معصيةٍ كانتِ اليمينُ أو على طاعة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَـٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾

اختلف أهل التأويل في معنى قول الله تعالى ذِكْرُهُ: «وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَـٰقَ».

فقال بعضهم: معنى ذلك: للذين يُؤْلُونَ أنْ يعتزلوا من نسائهم تربُّصُ أربعةِ أشهرٍ، فإنْ فاؤوا فرجعوا إلى ما أوجَبَ الله لهنّ من العِشرةِ بالمعروفِ في الأشهر الأربعة التي جعل الله لهم تربُّصهم عنهن وعن جِماعهن، وعِشْرتهن في ذلك بالواجب «فإنَّ الله لهم غفور رحيم». وإنْ تركوا الفيء إليهن، في الأشهر الأربعة التي جعل الله لهم التربص فيهنّ حتى ينقضين، طُلِّق منهم نساؤهم اللاتي آلوا منهن بمضيهن. ومضيُّهن عند قائلي ذلك: هو الدلالةُ على عزم المُولي على طلاقِ امرأته التي آلى منها.

ثم اختلف متأوِّلو هذا التأويل بينهم في الطلاق الذي يلحقها بِمُضِيِّ الأشهر الأربعة.

فقال بعضهم: هو تطليقةٌ بائنة.

وقال آخرون: بل الذي يلحقها بمضيِّ الأربعة الأشهر: تطليقةٌ، يملك فيها الزوجُ الرجعةَ.

وقال آخرون: معنى قوله: «لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ» إلى قوله: «فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»؛ «لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ» على الاعتزالِ من نسائهم، تنظُّرُ أربعةِ أشهرٍ بأمره وأمرها؛ «فَإِن فَآءُوا» بعد انقضاء الأشهر الأربعة إليهنّ، فرجعوا إلى عِشْرتهن بالمعروفِ، وتركِ هجرانهن، وأتواْ إلى غشيانهن وجماعهن؛ «فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ❁ وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَاقَ» فأحْدَثُوا لهن طلاقاً بعد الأشهر الأربعة؛ «فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ» لطلاقهم إياهن؛ «عَلِيمٌ» بما فَعَلُوا بهن من إحسانٍ وإساءة.

وقـال متأوِّلو هذا التأويل: مُضِيُّ الأشهرِ الأربعة يوجبُ للمرأةِ المطالبةَ على زوجها المولي منها، بالفيءِ أو الطلاقِ. ويجبُ على السلطان أنْ يَقِفَ الزوجَ على ذلك، فإن فاء أو طلَّق، وإلا طلَّق عليه السلطانُ

وقال آخرون: ليس الإيلاءُ بشيء.

وأشْبَهُ هذه الأقوالِ بما دلَّ عليه ظاهرُ كتابِ الله تعالى ذِكْرُهُ، قولُ عمر ابن الخطاب وعثمان وعلي رضي الله عنهم، ومَنْ قال بقولهم في الطلاق، أن قوله: «فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ❁ وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَاقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»، إنما معناه، فإن فاؤوا بعد وَقفِ الإمامِ إياهم من بعد انقضاء الأشهر الأربعة، فرجعوا إلى أداء حَقِّ الله عليهم لنسائِهم اللاتي آلوا منهن، فإن الله لهم غفور رحيم، «وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَاقَ» فطلَّقوهن، «فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ»، لطلاقهم إذا طلَّقوا، «عَلِيمٌ» بما أتوا إليهن.

وإنما قلنا ذلك أشبه بتأويل الآية، لأن الله تعالى ذِكْرُهُ ذَكَرَ حين قال: «وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَاقَ فَإِنَّ ٱللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»(١). ومعلومٌ أنّ انقضاء الأشهر الأربعة غير مسموع، وإنما هو معلوم. فلو كان «عزم الطلاق» انقضاء الأشهر الأربعة، لم تكن الآية مختومة بذكر الله الخبرَ عن الله تعالى ذِكْرُهُ أنه «سَمِيعٌ عَلِيمٌ»، كما أنه لم يختم الآية التي ذكر فيها الفيء إلى طاعته ـ في مراجعة المولي زوجَتَهُ التي آلى منها، وأداء حَقِّها إليها ـ بذكْرِ الخبرِ عن أنه «شديدُ العقاب»، إذْ لم يكن موضعَ وعيدٍ على معصية، ولكنه ختم ذلك بذكر الخبر عن وصفه نفسه تعالى ذِكْرُهُ بأنه «غَفُورٌ رَّحِيمٌ» إذْ كان موضعَ وَعد المنيب على إنابته إلى طاعته. فكذلك ختم الآية، التي فيها ذِكْر القولِ والكلام، بصفةِ نفسهِ، بأَنَّهُ للكلامِ «سَمِيعٌ» وبالفعل «عَلِيمٌ»، فقال تعالى ذِكْرُهُ: وإنْ عَزَمَ المؤلون على نسائهم على طلاق مَنْ آلوا منه من نسائهم، ﴿فَإِنَّ ٱللهَ سَمِيعٌ﴾ لطلاقهم إيّاهن إنْ طَلَّقوهن، «عَلِيمٌ» بما أتوا إليهنّ، مما يحل لهم ويحرُم عليهم(٢).

وقد استقصينا البيانَ عن الدلالة على صحة هذا القول في كتابنا «كتاب اللطيف من البيان عن أحكام شرائع الدين»، فكرهنا إعادته في هذا الموضع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ

---

(١) تم الفصل بين شطري الآية، لأن ذلك مراد الطبري. يعني أن الله تعالى حين قال ﴿وإن عزموا الطلاق﴾ ـ ختم الآية بقوله: ﴿فإن الله سميعٌ عليم﴾.

(٢) قال العلامة محمود شاكر: هذا فقه أبي جعفر لمعاني كتاب ربه، وتجويده لدلائل البلاغة والبيان في كتاب لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه، فيه البرهان لمن طلب الحق من وجوهه، بالورع والصبر والبصر ومعرفة ما توجبه الألفاظ من المعاني.

يعني تعالى ذِكْرُهُ: «وَٱلْمُطَلَّقَاتُ» اللواتي طُلِّقْنَ بعد ابتناءِ أزواجهن بهنّ، وإفضائهم إليهن، إذا كُنَّ ذواتِ حيضٍ وطهر ـ «يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ»، عن نكاحِ الأزواج ـ «ثَلاَثَةَ قُرُوءٍ».

واختلف أهلُ التأويلِ في تأويل «القرء» الذي عَنَاهُ الله بقوله: «يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوءٍ».

فقال بعضهم: هو الحيض.

وقال آخرون: بل «القرء» الذي أَمَرَ الله تعالى ذِكْرُهُ المطلقاتِ أنْ يَعْتَدِدْنَ به، الطهر.

«والقُروء» في كلام العرب جمع «قُرْء»، وقد تجمعه العرب «أقراء». يقال في «فعل» منه: «أقرأتِ المرأةُ» ـ إذا صارتْ ذاتَ حيضٍ وطُهر ـ «فهي تقرىء إقراء». وأصل «القُرء» في كلام العرب: الوقتُ لمجيء الشيء المُعْتَادِ مَجِيئُهُ لوقتٍ معلوم، ولإدبارِ الشيء المعتادِ إدبارُه لوقتٍ معلوم. ولذلك قالت العرب: «قرأتْ حاجةُ فلان عندي»، بمعنى: دنا قضاؤُها وَحان وقتُ قضائها. «وأقرأ النجم» إذا جاء وقت أُفوله، «وأقرأ» إذا جاء وقت طلوعه.

وسمى آخرون من العرب وقتَ مجيءِ الطهر «قُرءاً»، إذْ كان وقت مجيئه وقتاً لإدبار الدم دم الحيض، وإقبال الطهر المعتاد مجيئُه لوقتٍ معلوم.

ولِمَا وصفنا من معنى: «القُرء» أشكل تأويلُ قولِ الله: «وَٱلْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوءٍ» على أهل التأويل.

فرأى بعضهم أن الذي أُمِرتْ به المرأةُ المطلقة ذات الأقراء من الأقراء، أقراء الحيض، وذلك وقت مجيئه لعادته التي تجيءُ فيه ـ فأوجب عليها تربُّص ثلاث حيَض بنفسها عن خطبة الأزواج.

ورأى آخرون: أنّ الذي أُمرت به من ذلك، إنما هو أقراءُ الطهر ـ وذلك وقت مجيئه لعادته التي تجيءُ فيه ـ فأوجب عليها تربُّص ثلاثة أطهار.

فإذْ كان معنى «القُرء» ما وصفنا لما بيَّنا، وكان الله تعالى ذِكْرُهُ قد أَمَرَ المريدَ طلاقَ امرأتهِ أنْ لا يُطَلِّقَها إلا طاهراً غير مُجامعة، وحرَّم عليه طلاقَها حائضاً ـ كان اللازمُ المطلقةَ المدخولَ بها إذا كانت ذات أقراء، تربُّص أوقات محدودة المبلغ بنفسها عَقيب طلاق زوجها إياها، أن تنظرَ إلى ثلاثة قروء بين طهريْ كل قرءٍ منهنّ قرءٌ، هو خلاف ما احتسبته لنفسها قروءاً تتربصهن. فإذا انقضينَ فقد حَلَّتْ للأزواج وانقضت عدّتها، وذلك أنها إذا فعلتْ ذلك فقد دخلت في عداد من تَرَبَّصُ من المطلقات بنفسها ثلاثةَ قروء، بين طُهريْ كل قرءٍ منهن قرءٌ له مخالفٌ. وإذا فعلت ذلك، كانت مؤديةً ما ألزمها رَبُّها تعالى ذِكْرُهُ بظاهرِ تنزيله.

فقد تبيَّن إذاً ـ إذا كان الأمر على ما وصفنا ـ أنّ القرءَ الثالثَ من أقرائها على ما بَيَّنا، الطهرُ الثالث، وأنّ بانقضائه ومجيء قرء الحيض الذي يتلوه، انقضاءُ عدّتها.

فإنْ ظَنَّ ذو غباءٍ أنَّا إذْ كنا قد نُسَمِّي وقتَ مجيء الطهر «قُرءاً»، ووقت مجيء الحيض «قرءاً»، أنه يلزمنا أنْ نجعلَ عدة المرأة منقضيةً بانقضاء الطهر الثـاني، إذ كان الطهرُ الذي طلقها فيه، والحيضة التي بعده، والطهر الذي يتلوها، «أقراءً» كلها فقد ظَنَّ جهلاً.

وذلك أن الحكم عندنا ـ في كل ما أنزله الله في كتابه ـ على ما احتمله ظاهرُ التنزيل، ما لم يبيّن الله تعالى ذِكْرُهُ لعباده أنَّ مراده منه الخصوص، إما بتنزيلٍ في كتابه، أو على لسانِ رسولهِ ﷺ. فإذا خصَّ منه البعض، كان الذي خصَّ من ذلك غيرَ داخل في الجملة التي أوجب الحكم بها، وكان سائرها على

عمومها، كما قد بيَّنا في كتابنا «كتاب لطيف القول من البيان عن أصول الأحكام» وغيرِهِ من كتبنا.

فـ «الأقراء» التي هي أقراءُ الحيض بين طُهريْ أقراء الطهر، غير مُحْتَسَبةٍ من أقراء المتربِّصةِ بنفسها بعد الطلاق، لإجماعِ الجميعِ من أهل الإسلام: أنَّ «الأقراء» التي أوجبَ الله عليها تربُّصهن، ثلاثة قروء، بين كل قرء منهن أوقات مخالفاتُ المعنى لأقرائها التي تربَّصُهن. وإذْ كن مستحقات عندنا اسم «أقراء»، فإن ذلك من إجماع الجميع لم يُجِزْ لها التربّصَ إلا على ما وصفنا قَبْلُ.

وفي هذه الآية دليل واضح على خطأ قولِ مَنْ قال: «إن امرأة المُولي التى آلى منها، تحل للأزواج بانقضاء الأشهر الأربعة، إذا كانت قد حاضت ثلاث حيضٍ في الأشهر الأربعة». لأن الله تعالى ذِكْرُهُ إنما أوجبَ عليها العدّة بعد عزم المُولي طلاقها وإيقاع الطلاق بها بقوله: «وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَاقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * وَٱلْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ»، فأوجب تعالى ذِكْرُهُ على المرأة إذا صارت مطلقة ـ تربُّصَ ثلاثةِ قروء. فمعلومٌ أنها لم تكن مطلقة يوم آلى منها زوجها، لإجماعِ الجميع على أنَّ الإيلاء ليس بطلاقٍ موجبٍ على المولى منها العِدّة. وإذ كان ذلك كذلك، فالعدةُ إنما تلزمها بعد الطلاقِ، والطلاقُ إنما يلحقها بما قد بيناه قَبْلُ.

وأما معنى قوله «وَٱلْمُطَلَّقَاتُ»، فإنه: والمُخَلَّيَاتُ السبيلِ، غير ممنوعات بأزواج ولا مخطوبات. وقول القائل: «فلانة مطلقة» إنما هو «مفعَّلة» من قول القائل: «طلَّق الرجل زوجته فهي مطلَّقة». وأما قولهم: «هي طالق»، فمن قولهم: «طلَّقها زوجها فطَلُقت هي، وهي تطلُقَ طلاقاً، وهي طالق». وقد حُكيَ عن بعض أحياء العرب أنها تقول: «طَلَقت المرأة». وإنما قيل ذلك لها، إذا

خلاَّهَـا زوجهـا، كما يُقالُ للنعجةِ المهملة بغير راعٍ ولا كالئ، إذا خرجت وحدها من أهلها للرعي مُخلاةً سبيلها: «هي طالق»، فمثلت المرأة المخلاّة سبيلهـا بها، وسُميت بما سُميت به النعجة التي وصفنا أمرها. وأما قولهم: «طُلِقت المـرأة»، فمعنى غير هذا، إنما يقال في هذا إذا نَفِسَتْ. هذا من «الطَّلْق»، والأول من «الطلاق».

وقد بينا أنَّ «التربُّصَ» إنما هو التوقفُ عن النكاح، وحبسُ النفس عنه، في غير هذا الموضع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾

اختلف أهلُ التأويلِ في تأويل ذلك:

فقال بعضهم: تأويله: «وَلَا يَحِلُّ»، لهن يعني للمطلقات «أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللهُ فِي أَرْحَـامِهِنَّ»، من الحيض إذا طُلِّقْنَ. حرّم عليهن أنْ يكتمن أزواجَهُنَّ الذين طلَّقوهن، في الطلاق الذي عليهم لهنّ فيه رجعةٌ، يبتغين بذلك إبطالَ حقوقهم من الرجعة عليهن.

وقال آخرون: بل المعنى الذي نُهِيتْ عن كتمانه زوجَها المطلِّقَ: الحبلُ والحيضُ جميعاً.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك الحبل.

ثم اختلف قائلو ذلك في السبب الذي من أجله نُهِيتْ عن كتمان ذلك الرجلَ.

فقال بعضهم: نهيت عن ذلك لئلا تُبْطِلَ حَقَّ الزوج من الرجعة، إذا أراد

رَجعتها قبل وضعها حملها.

وقال آخرون: السبب الذي من أجله نُهين عن كتمان ذلك: أنهن في الجاهلية كنَّ يكتمنَهُ أزواجهن، خوفَ مراجعتهم إياهُنَّ، حتى يتزوجن غيرهم، فيُلْحَقَ نَسَبُ الحملِ ـ الذي هو من الزوج المطلَّق ـ بمن تَزَوَّجَتْهُ. فَحَرَّمَ الله ذلك عليهن.

وقال آخرون: بل السبب الذي من أجله نُهين عن كتمان ذلك، هو أنّ الرجلَ كان إذا أراد طلاق امرأته سألها: هل بها حملٌ؟ كيلا يُطَلِّقها وهي حاملٌ منه، للضرر الذي يلحقُه وولدَه في فراقها إنْ فارقَها، فأُمِرْنَ بالصدقِ في ذلك، ونُهين عن الكذب.

وأَوْلَى هذه الأقوال بتأويل الآية، قولُ مَنْ قال: الذي نُهيت المرأة المطلَّقة عن كتمانه زوجَها المُطَلِّقَها تطليقةً أو تطليقتين مما خلق الله في رحمها ـ الحيضُ والحَبل. لأنه لا خلاف بين الجميع أنّ العِدّة تنقضي بوضع الولد الذي خلق الله في رحمها، كما تنقضي بالدم إذا رأته بعد الطهر الثالث، في قولِ مَنْ قال: «القُرء» الطهر، وفي قول من قال: هو الحيض، إذا انقطع من الحيضة الثالثة، فتطهرت بالاغتسال.

فإذْ كان ذلك كذلك ـ وكان الله تعالى ذِكْرُهُ إنما حرَّم عليهن كتمانَ المطلِّق الذي وصفنا أمره، ما يكونُ بكتمانهن إياه بُطُولُ حَقِّهِ الذي جعله الله له بعد الطلاق عليهن إلى انقضاء عِدَدهن، وكان ذلك الحق يبطل بوضعهن ما في بطونهن إنْ كُنَّ حواملَ، وبانقضاء الأقراء الثلاثة إنْ كن غيرَ حوامل ـ عُلِمَ أنهن مَنهيَّات عن كتمان أزواجهن المطلِّقيهنَّ من كل واحدٍ منهما، ـ أعني من الحيض والحبل ـ مثل الذي هنَّ مَنْهيَّاتٌ عنه من الآخر، وأنْ لا معنى لخصوصِ مَنْ خصّ بأن المراد بالآية من ذلك أحدهما دون الآخر، إذ كان

جميعاً مما خلق الله في أرحامهن، وأنّ في كل واحد منهما من معنى بُطُولِ حق الزوج بانتهائه إلى غاية، مثل ما في الآخر.

ويُسأل من خصّ ذلك ـ فجعله لأحدِ المعنيين دون الآخر ـ عن البرهانِ على صِحَّةِ دعواه من أصْلٍ أو حجةٍ يجبُ التسليم لها، ثم يُعْكَسُ عليه القولُ في ذلك، فلن يقول في أحدهما قولاً إلا أُلْزِمَ في الآخر مثله.

فإن قال قائل: ما معنى قوله: «إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ»؟ أوَ يحلُّ لهن كتمانُ ذلك أزواجهُنَّ إنْ كن لا يؤمنَّ بالله ولا باليومِ الآخر، حتى خصّ النهيُ عن ذلك المؤمنات بالله واليوم الآخر؟

قيل: معنى ذلك على غير ما ذهبتَ إليه. وإنما معناه: أن كتمان المرأة المطلَّقةِ زوجَها المطلِّقَها ما خلقَ الله في رحمها من حيضٍ وولدٍ في أيام عدتها من طلاقه ضراراً له، ليس من فعل مَنْ يؤمن بالله واليوم الآخر ولا من أخلاقه، وإنما ذلك من فِعْلِ مَنْ لا يؤمنُ بالله ولا باليوم الآخر وأخلاقِهنَّ من النساء الكوافر ـ فلا تتخلَّقن أيتها المؤمنات بأخلاقهنّ، فإنّ ذلك لا يحل لكنّ إنْ كُنْتُنَّ تُؤْمِنَّ بالله واليوم الآخر، وكنتن من المسلمات ـ لا أنَّ المؤمناتِ هُنَّ المخصوصات بتحريم ذلك عليهن دون الكوافر، بل الواجبُ على كُلِّ مَنْ لزمته فرائضُ الله من النساء اللواتي لهن أقراء ـ إذا طلِّقَتْ بعد الدخولِ بها في عدتها ـ أنْ لا تكتم زوجَها ما خلق الله في رحمها من الحيض والحَبل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا﴾

«والبعولة» جمع «بعل»، وهو الزوج للمرأة.

وأما تأويل الكلام، فإنه: وأزواج المطلقات ـ اللاتي فرضنا عليهن أنْ يتــربَّصن بأنفسهن ثلاثـة قروء، وحـرَّمنـا عليهنَّ أنْ يكتمن ما خلق الله في أرحامهن ـ أحَقّ وأولى بردهن إلى أنفسهم في حال تَرَبُّصِهنَّ إلى الأقراء الثلاثة وأيام الحبل، وارتجاعهن إلى حبالهم منهن بأنفسهن أن يمنعنهم من أنفسهن ذلك.

فإن قال لنا قائل: فما لزوج ـ طلق واحدة أو اثنتين بعد الإفضاء إليها ـ عليها رجعة في أقرائها الثلاثة، إلا أن يكون مريداً بالرجعة إصلاح أمرها وأمره؟

قيل: أما فيما بينه وبين الله تعالى، فغير جائز ـ إذا أراد ضِرارَها بالرجعة، لا إصلاحَ أمْرِهَا وأمره ـ مراجعتُها.

وأمـا في الحكم فإنـه مقضيٌّ له عليها بالرجعة، نظير ما حكمنا عليه بِبُطُولِ رَجعته عليها لو كَتَمَتْهُ حَمْلَها الذي خلقه الله في رحمها أو حيضها حتى انقضت عدتها ضراراً منها له، وقد نهى الله عن كتمانه ذلك. فكان سواءً في الحكم ـ في بُطُولِ رَجعة زوجها عليها، وقد أَثِمَتْ في كتمانها إياهُ ما كتمته من ذلك حتى انقضت عدتها ـ هي والتي أطاعت الله بتركها كتمانَ ذلك منه، وإن اختلفتا في طاعة الله في ذلك ومعصيته. فكذلك المراجعُ زوجتَه المطلقة واحدة أو ثنتين بعد الإفضاء إليها وهما حُرَّان ـ وإنْ أراد ضرارَ المُراجعة برجعتِهِ ـ فمحكومٌ له بالرجعة، وإن كان آثماً بريائه في فعله، ومُقْدِماً على ما لم يُبِحْهُ الله له، والله وليُّ مُجَازَاتِهِ فيما أتى من ذلك؛ فأما العباد، فإنهم غيرُ جائزٍ لهم الحـوْلُ بينـه وبين امرأته التي راجعها بحكم الله تعالى ذِكْرُهُ له بأنها حينئذٍ زوجتُه. فإنْ حاول ضِرَارها بعد المراجعة بغير الحقِّ الذي جعله الله له، أُخِذَ لهِا بالحقوق التي ألزم الله تعالى ذِكْرُهُ الأزواجَ للزوجات، حتى يعود ضررُ ما أراد من ذلك عليه دونها.

وفي قولـه: «وبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذلكَ» أبينُ الدلالة على صحةِ قولِ مَنْ قال: إنّ المولي إذا عزم الطلاقَ فطلق امرأته التي آلى منها، أنَّ له عليها الرّجعة في طلاقه ذلك، وعلى فسادِ قولِ مَنْ قال: إنَّ مُضِيَّ الأشهر الأربعة عزمُ الطلاق، وإنه تطليقةٌ بائنة، لأن الله تعالى ذِكْرُهُ إنما أعْلَمَ عبادَهُ ما يلزمُهم إذا آلوا من نسائهم، وما يلزم النساء من الأحكام في هذه الآية بإيلاء الرجال وطلاقهم، إذا عزموا ذلك وتركوا الفيء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ

اختلف أهلُ التأويلِ في تأويل ذلك:

فقال بعضهم: تأويله: ولهنّ من حُسْنِ الصحبة والعِشرة بالمعروف على أزواجهن، مِثْلُ الذي عليهنّ لهم من الطاعةِ فيما أوجبَ الله تعالى ذِكْرُهُ له عليهنَّ.

وقال آخرون: معنى ذلك: ولهنّ على أزواجهن من التَّصنُّع والمؤاتاة، مثل الذي عليهن لهم من ذلك.

والـذي هو أولى بتأويل الآية عندي: وللمطلقات واحدة أو ثنتين - بعد الإفضاء إليهن - على بعولتهن أنْ لا يراجعوهنّ في أقرائهن الثلاثة، إذا أرادوا رجْعتهن فيهن، إلا أنْ يُريدوا إصلاحَ أمرِهن وأمرهم، وأن لا يراجعوهن ضِراراً - كما عليهن لهم إذا أرادوا رجعتهنَّ فيهنَّ، أنْ لا يكتمنَ ما خلق الله في أرحامهنّ من الولد ودم الحيض، ضِراراً منهن لهم لِيَفُتْنَهُم بأنفسهنّ.

ذلك أن الله تعالى ذِكْرُهُ نهى المطلقاتِ عن كتمانِ أزواجهنّ في أقرائهنَّ ما خلق الله في أرحامهنَّ، إنْ كُنَّ يؤمنَّ بالله واليوم الآخر، وجعل أزواجهن أحق

بردّهن في ذلـك إنْ أرادوا إصلاحاً، فحرَّم الله على كل واحدٍ منهما مُضَارَّةَ صاحبِهِ، وعَرَّفَ كلَّ واحدٍ منهما ما له وما عليه من ذلك، ثم عقب ذلك بقوله: «ولَهُنَّ مِثْـلُ الـذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْـرُوفِ» فبيّن أنَّ الذي على كل واحدٍ منهما لصاحبه من تَرْكِ مُضَارَّتِهِ، مثلُ الذي له على صاحبه من ذلك.

فهذا التأويل هو أشبه بدلالة ظاهر التنزيل من غيره.

وقد يحتملُ أنْ يكونَ كل ما على كُلِّ واحدٍ منهما لصاحبه، داخلاً في ذلك، وإنْ كانت الآيةُ نزلت فيما وصفنا، لأن الله تعالى ذِكْرُهُ قد جعل لكلِّ واحدٍ منهما على الآخر حقاً، فلكل واحد منهما على الآخر من أداء حقه إليه، مثلُ الذي عليه له، فيدخل حينئذٍ في الآية ما قاله الضحاك وابن عباس وغير ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾

اختلف أهلُ التأويلِ في تأويل ذلك:

فقـال بعضهم: معنى «الـدرجـة» التي جعل الله للرجال على النساء، الفضلُ الذي فَضَّلهم الله عليهن في الميراث والجهاد وما أشبه ذلك.

وقال آخرون: بل تلك الدرجة، الإِمْرةُ والطاعة.

وقال آخرون: تلك الدرجة له عليها، بما ساق إليها من الصَّدَاقِ، وأنها إذا قذفته حُدَّتْ، وإذا قذفها لاعنَ.

وقال آخرون: تلك الدرجة التي له عليها، إفضالُه عليها، وأداءُ حَقِّها إليها، وصَفْحُهُ عن الواجبِ لهُ عليها أو عن بعضه.

وقال آخرون: بل تلك الدرجة التي له عليها، أنْ جعلَ له لحيةً وحرمها ذلك.

وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية أن «الدرجة» التي ذكر الله تعالى ذِكْرُهُ في هذا الموضع، الصفحُ من الرجل لامرأته عن بعض الواجب عليها، وإغضاؤه لها عنه، وأداء كل الواجب لها عليه.

وذلك أن الله تعالى ذِكْرُهُ قال: «ولِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ»، عَقيب قوله: «ولَهُنَّ مِثْلُ الذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ» فأخبر تعالى ذِكْرُهُ أنَّ على الرجل من تَرْكِ ضِرارها في مراجعتهِ إياها في أقرائها الثلاثة وفي غير ذلك من أمورها وحُقوقها، مثْلُ الذي له عليها من تركِ ضراره في كتمانها إياه ما خلقَ الله في أرحامهنّ وغير ذلك من حقوقه. ثم نَدَبَ الرجالَ إلى الأخذ عليهن بالفضل، إذا تركن أداءَ بعض ما أوجب الله لهم عليهن، فقال تعالى ذِكْرُهُ: «ولِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ»، بتفضُّلِهم عليهن، وصفحهم لهن عن بعض الواجب لهم عليهن. وهذا هو المعنى الذي قصده ابن عباس بقوله: «ما أحبُّ أنْ أستنظفَ جميعَ حقي عليها»، لأن الله تعالى ذِكْرُهُ يقول: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾.

ومعنى «الدرجة»: الرتبةُ والمنزلة.

وهذا القول من الله تعالى ذِكْرُهُ، وإن كان ظاهرُه ظاهر الخبر، فمعناه معنى نَدْبِ الرجالِ إلى الأخذِ على النساء بالفضل، ليكون لهم عليهن فضل درَجة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٢٨﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: «وَٱللهُ عَزِيزٌ» في انتقامه ممن خالف أمره وتعدَّى حدوده، فأتى النساءَ في المحيضِ، وجعل الله عُرضةً لأيمانهِ أنْ يبرَّ ويتقي ويصلح بين الناس، وعضَلَ امرأتَهُ بإيلائهِ، وضَارَّها في مُراجعتهِ بعد طلاقه،

ولمن كتم من النساء ما خلق الله في أرحامهن أزواجَهُنَّ، ونكحن في عِدَدهن وتركنَ التربُّصَ بأنفسهن إلى الوقت الذي حَدَّهُ الله لهن، وركبن غير ذلك من معاصيه؛ «حَكِيمٌ» فيما دبَّر في خلقه، وفيما حكم وقضَى بينهم من أحكامه.

وإنما توعَّد الله تعالى ذِكْرُهُ بهذا القول عباده، لتقديمه قَبْلَ ذلك بيانَ ما حرَّمَ عليهم أو نهاهم عنه، من ابتداء قوله: «وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ» إلى قوله: «وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ»، ثم أتبع ذلك بالوعيد، ليزدجر أولُو النهى، وليذَّكَّرَ أولو الحجى فَيَتَّقُوا عِقابه، ويحذروا عذابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾

اختلف أهلُ التأويلِ في تأويل ذلك:

فقال بعضهم: هو دلالة على عدد الطلاق الذي يكون للرجل فيه الرجعةُ على زوجته، والعدد الذي تَبِينُ به زوجته منه.

وقال آخرون: إنما أنزلت هذه الآية على نبيِّ الله ﷺ تعريفاً من الله تعالى ذِكْرُهُ عِبادَهُ سُنَّةَ طلاقهم نساءهم إذا أرادوا طلاقهن ـ لا دلالةً على العدد الذي تَبِينُ به المرأةُ من زوجها.

والذي هو أولى بظاهر التنزيل أن الآية إنما هي دليلٌ على عدد الطلاق الذي يكون به التحريمُ وبُطول الرجعةِ فيه، والذي يكون فيه الرجعة منه. وذلك أن الله تعالى ذِكْرُهُ قال في الآية التي تتلوها: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾، فعرَّف عبادَهُ القَدْرَ الذي به تحرُمُ المرأةُ على زوجها إلّا بعد زوجٍ ـ ولم يبين فيها الوقتَ الذي يجوزُ الطلاقُ فيه، والوقتَ الذي لا يجوز ذلك فيه.

وأما قوله: «فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ»، فإنّ في تأويله وفيما عُني به اختلافاً بين أهل التأويل.

فقال بعضهم: عنى الله تعالى ذِكْرُهُ بذلك، الدلالةَ على اللازم الأزواجَ للمطلقات اثنتين ـ: بعد مراجعتهم إياهن من التطليقة الثانية ـ من عشرتهن بالمعروف، أو فراقهن بطلاق.

وقال آخرون منهم: بل عنى الله بذلك الدلالةَ على أن يلزمهم لهن بعد التطليقة الثانية، من مراجعة بمعروف أو تسريح بإحسان، بترك رجعتهن حتى تنقضي عِدتهن، فَيَصِرْنَ أملكَ لأنفسهن، وأنكروا قول الأولين الذين قالوا: إنه دليل على التطليقة الثالثة.

وبَيِّنٌ أن تأويلَ الآية: الطلاقُ الذي لأزواج النساء على نسائهم فيه الرجعةُ، مرتان. ثم الأمرُ بعد ذلك إذا راجعوهن في الثانية، إما إمساكٌ بمعروف، وإما تسريحٌ منهم لهن بإحسان بالتطليقة الثالثة، حتى تبينَ منهم، فيبطل ما كان لهم عليهنّ من الرجعة، ويصرن أملكَ بأنفسهن منهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا»، ولا يحل لكم أيها الرجال، أن تأخذوا من نسائكم، إذا أنتم أردتم طلاقَهُنَّ ـ لطلاقِكم وفراقِكم إياهُنَّ، شيئاً مما أعطيتموهن من الصَّداق وسُقْتُمْ إليهن، بل الواجبُ عليكم تسريحهن بإحسانٍ. وذلك إيفاؤهن حُقوقَهُنَّ من الصَّداقِ والمتعةِ وغير ذلك مما يجب لهن عليكم، «إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللهِ».

واختلف أهلُ التأويلِ في معنى «الخوف» منهما أنْ لا يقيما حُدودَ الله.

فقال بعضهم: ذلك هو أنْ يظهرَ من المرأةِ سوءُ الخُلُقِ والعِشرة لزوجها، فإذا ظهر ذلك منها له، حَلَّ له أن يأخذ ما أعطته من فديةٍ على فراقها.

وقال آخرون: بل «الخوف» من ذلك: أن لا تُبِرَّ له قَسَماً، ولا تطيعَ له أمراً، وتقول: لا أغتسلُ لكَ من جنابة، ولا أطيعُ لك أمراً! فحينئذٍ يحل له عندهم أخذ ما آتاها على فراقه إياها.

وقال آخرون: بل «الخوف» من ذلك، أن تبتدئ له بلسانها قولاً: أنها له كارهة.

وقال آخرون: بل الذي يبيح له أخذ الفدية، أن يكون خوفٌ أنْ لا يقيما حدودَ الله منهما جميعاً، لكراهةِ كُلٍّ واحدٍ منهما صُحْبَةَ الآخرِ.

وأولى هذه الأقوال بالصحة قول من قال: لا يَحلُّ للرجلِ أخذُ الفدية من امرأته على فراقهِ إياها، حتى يكون خوفُ معصيةِ الله من كُلِّ واحدٍ منهما على نفسه ـ في تفريطه في الواجب عليه لصاحبه ـ منهما جميعاً، على ما ذكرنا عن طاووس والحسن، ومن قال في ذلك قولهما. لأن الله تعالى ذِكْرُهُ إنما أباح للزوج أخذ الفدية من امرأته، عند خوف المسلمين عليهما أن لا يُقيما حدودَ الله.

فإن قال قائل: فإن كان الأمر على ما وصفت، فالواجبُ أن يكون حراماً على الرجل قَبُولُ الفدية منها، إذا كان النشوزُ منها دونه، حتى يكون منه الكراهة لها مثل الذي يكون منها؟

قيل له: إن الأمر في ذلك بخلاف ما ظننت. وذلك أنَّ في نشوزها عليه داعيةً له إلى التقصيرِ في واجبها، ومجازاتها بسوءِ فِعْلِهَا به، وذلك هو المعنى الذي يوجبُ للمسلمين الخوفَ عليهما أنْ لا يقيما حدودَ الله، فأما إذا كان التفريط من كُلِّ واحدٍ منهما في واجب حق صاحبه قد وُجد، وسوء الصحبة

والعِشرة قد ظهر للمسلمين، فليس هناك للخوفِ موضعٌ، إذ كان المخوفُ قد وجد. وإنما يُخاف وقوعُ الشيءِ قبل حدوثِهِ، فأما بعد حدوثه فلا وجه للخوف منه ولا الزيادة في مكروهه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾

اختلف أهلُ التأويلِ في تأويل قوله: «فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ آللهِ» - التي إذا خِيف من الزوجِ والمرأةِ أن لا يقيماها، حلّت له الفدية من أجل الخوف عليهما، تضييعَها.

فقال بعضهم: هو استخفافُ المرأة بحقِّ زوجها، وسوء طاعتها إياه، وأذاها له بالكلام.

وقال آخرون: معنى ذلك: فإن خفتم أن لايطيعا الله.

والصواب من القول في ذلك: فإن خفتم أن لا يقيما ما أوجبَ الله عليهما من الفرائض، فيما ألزم كل واحدٍ منهما من الحق لصاحبه، من العِشرة بالمعروف والصُّحبة بالجميل، فلا جناح عليهما فيما افْتَدَتْ به؛ لأن من الواجب للزوج على المرأة - طاعتَهُ فيما أوجبَ الله طاعتَهُ فيه، ولا تُؤْذيه بقولٍ، ولا تمتنع عليه إذا دعاها لحاجته، فإذا خالفت ما أمرها الله به من ذلك، كانت قد ضَيَّعَتْ حدودَ الله التي أمرَها بإقامتها.

وأما معنى: «إقامة حدود الله»، فإنه العمل بها، والمخالفة عليها وترك تضييعها - وقد بيَّنا ذلك فيما مضى قبل من كتابنا هذا بما يدل على صحته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِۦ﴾

يعني قوله تعالى ذِكْرُهُ بذلك: فإن خفتم أيها المؤمنون أن لا يُقيم الزوجان ما حدَّ الله لكلٍّ واحدٍ منهما على صاحبه من حَقٍّ وألزمه له من فرضٍ، وخشيتم عليهما تضييعَ فَرْضِ الله وتعدِّي حُدودِه في ذلك، فلا جناحَ حينئذٍ عليهما فيما افتدت به المرأةُ نفسَها من زوجها، ولا حرجَ عليهما فيما أعطت هذه على فراق زوجها إياها، ولا على هذا فيما أخذ منها من الجُعل والعِوَضِ عليه.

فإنْ قال قائلٌ: وهل كانت المرأة حَرِجةً لو كان الضِّرارُ من الرجل بها فيما افتدت به نفسها، فيكون «لاجناحَ عليهما» فيما أعطته من الفدية على فراقها، إذا كان النشوز من قِبَلها.

قيل: لو علمتْ في حال ضِراره بها ليأخذ منها ما آتاها، أنَّ ضِراره ذلك إنما هو ليأخذَ منها ما حرَّم الله عليه أخْذَهُ على الوجهِ الذي نهاه الله عن أخذه منها، ثم قدرت أن تمتنع من إعطائه بما لا ضررَ عليها في نَفْسٍ ولا دِينٍ ولا حق عليها في ذهاب حقٍّ لها ـ لما حَلَّ لها إعطاؤُه ذلك إلاَّ على وجهِ طِيْبِ النفسِ منها بإعطائه إياه على ما يحل له أخذه منها. لأنها متى أعطته ما لا يحلُّ له أخذُه منها، وهي قادرة على منعه ذلك بما لا ضرَر عليها في نفسٍ ولا دينٍ ولا في حقٍّ لها تخافُ ذهابَهُ، فقد شاركته في الإثمِ بإعطائهِ ما لا يحل له أخذه منها على الوجه الذي أعطته عليه. فلذلك وضع عنها الجناحَ إذا كان النشوزُ من قِبَلِهَا، وأعطته ما أعطته من الفدية بطيب نفسٍ ابتغاءً منها بذلك سلامَتِها وسلامةَ صاحبها من الوِزر والمأثم. وهي ـ إذا أعطته على هذا الوجه ـ باستحقاق الأجر والثواب من الله تعالى ـ أولى إن شاء الله منَ الجُناح والحرج. ولذلك قال تعالى ذِكْرُهُ: «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا»، فوضع الحرَج عنها فيما أعطته على هذا الوجه من الفدية على فراقِهِ إياها، وعنه فيما قبض منها، إذْ كانت معطيةً على المعنى الذي وصفنا، وكان قابضاً منها ما أعطته من غير ضِرار،

بل طلبَ السلامة لنفسه ولها في أديانهما وحذارَ الأوزار والمأثم. وذلك قلب المفهوم من كلام الناس والمعروف من استعمالهم في مخاطباتهم. وغير جائزٍ حملُ كتاب الله تعالى ووحيه جَلَّ ذكره على الشواذ من الكلام، وله في المفهوم الجاري بين الناس وجه صحيح موجود.

ثم اختلف أهلُ التأويلِ في تأويل قوله: «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ»، أَمعنيٌّ به أنهما موضوع عنهما الجناحُ في كل ما افتدت به المرأةُ نفسها من شيء، أم في بعضه؟

فقال بعضهم: عنى بذلك: «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ» من صَداقها الذي كان آتاها زوجها الذي تَخْتَلِعُ منه. واحتجوا في قولهم ذلك، بأنَّ آخرَ الآية مردودٌ على أولها، وأنَّ معنى الكلام: ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلَّا أن يخافا أن لايُقيما حدودَ الله، فإنْ خفتم أن لا يقيما حدودَ الله فلا جُنَاحَ عليهما فيما افتدت به مما آتيتموهن. قالوا: فالذي أحلَّه الله لهما من ذلك ـ عند الخوف عليهما أن لايقيما حدود الله ـ هو الذي كان حظَر عليهما قبل حال الخوف عليهما من ذلك.

وقال آخرون: بل عنى بذلك: فلا جناح عليهما فيما افتدت به من قليلِ ما تَمْلِكُهُ وكثيرهِ. واحتجوا لقولهم ذلك بعموم الآية، وأنه غير جائزةٍ إحالة ظاهرٍ عامٍّ ـ إلى باطنٍ خاص إلا بحجةٍ يجبُ التسليم لها. قالوا: ولا حجة يجبُ التسليم لها بأنَّ الآية مُرادٌ بها بعض الفدية دون بعض، من أصلٍ أو قياس، فهي على ظاهرها وعمومها.

وقال آخرون: هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ [النساء: ٢٠].

وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: إذا خيف من الرجل والمرأة

أن لايقيما حدود الله ـ على سبيل ما قدَّمنا البيانَ عنه ـ فلا حرجَ عليهما فيما افتـدتْ به المـرأةُ نفسها من زوجها، من قليلِ ما تملكه وكثيرِهِ، مما يجوزُ للمسلمين أن يملكوه، وإنْ أتى ذلك على جميع مِلكها. لأن الله تعالى ذِكْرُهُ لم يخصَّ ما أباح لهما من ذلك على حدٍّ لا يُجَاوَزُ، بل أطلق ذلك في كل ما افتدت به. غير أني أختار للرجل ـ استحباباً لا تحتيماً، إذا تبيَّن من امرأته أنَّ افتداءها منه لغير معصيةٍ لله، بل خوفاً منها على دينها ـ أن يُفارقها بغير فديةٍ ولا جُعْلٍ. فإن شَحَّت نفسه بذلك، فلا يبلغ بما يأخذ منها جميع ما آتاها.

فأما ما قيل من أن هذا الحكم في جميع الآية منسوخ بقوله: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً﴾ فقولٌ لا معنى له، فنتشاغل بالإبانة عن خطئه، لمعنيين:

أحـدهمـا: إجمـاعُ الجميع من الصحـابـة والتـابعين ومَنْ بعدهم من المسلمين على تخطئته، وإجازةُ أخذِ الفدية من المفتديةِ نفسَها لزوجها، وفي ذلك الكفايةُ عن الاستشهاد على خطئه بغيره.

والآخر: أن الآية التي في «سورة النساء»، إنما حرم الله فيها على زوج المرأة أن يأخذ منها شيئاً مما آتاها، إنِ أراد الرجلُ استبدالَ زوجٍ بزوجٍ من غير أن يكون هنالك خوفٌ من المسلمين عليهما مُقامَ أحدهما على صاحبه أن لا يقيما حدود الله، ولا نشوزٌ من المرأة على الرجل. وإذا كان الأمر كذلك، فقد ثَبَتَ أنَّ أخذ الزوج من امرأتهِ مالاً على وجه الإكراه لها والإضرار بها حتى تعطيه شيئاً من مالها على فراقها حرامٌ، ولو كان ذلك حَبَّةَ فضةٍ فصاعداً.

وأما الآية التي في «سورة البقرة» فإنها إنما دلت على إباحةِ الله تعالى ذِكْرُهُ له أخذَ الفدية منها في حال الخوفِ عليهما أن لا يُقيما حدودَ الله، بنشوزِ المرأة وطلبها فِرَاقَ الرجل، ورغبته فيها. فالأمر الذي أذن به للزوج في أخذ

الفدية من المرأة في «سورة البقرة»، ضد الأمر الذي نهى من أجله عن أخذ الفـدية في «سـورة النسـاء»، كمـا الحظرُ في «سورة النساء»، غيرُ الإطلاق والإباحة في «سورة البقرة». وإنما يجوزُ في الحكمين أن يقال: أحدهما ناسخ، إذا اتفقت معاني المحكوم فيه، ثم خولف بين الأحكام فيه باختلاف الأوقات والأزمنة. وأما اختلاف الأحكام باختلاف معاني المحكوم فيه في حالٍ واحدة ووقتٍ واحد، فذلك هو الحكمة البالغة، والمفهوم في العقل والفطرة، وهو من الناسخ والمنسوخ بمعزل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: تلك معالم فصُوله بين ما أَحَلَّ لكم وما حَرَّمَ عليكم أيها الناسُ، فلا تعتدُوا ما أحلَّ لكم من الأمور التي بيَّنها وفصَّلها لكم من الحلال، إلى ما حَرَّمَ عليكم، فتُجاوزوا طاعتَهُ إلى معصيتِهِ.

وإنما عنى تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «تِلْكَ حُدُودُ ٱللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا»، هذه الأشياء التي بيّنتُ لكم في هذه الآيات التي مضت: من نكاحِ المشركاتِ الوثنياتِ، وإنكاح المشركينَ المسلماتِ، وإتيانِ النساء في المحيضِ، وما قد بيّن في الآيات الماضية قبل قوله: «تِلْكَ حُدُودُ ٱللهِ»، مما أحل لعباده وحرَّم عليهم، وما أمر ونهى. ثم قال لهم تعالى ذِكْرُهُ: هذه الأشياء ـ التي بَيَّنتُ لكم حلالَها من حرامِهَا ـ «حدودي» يعني به: معالم فصول ما بين طاعتي ومعصيتي «فَلَا تَعْتَدُوهَا» يقول: فلا تتجاوزوا ما أَحْلَلْتُه لكم إلى ما حَرَّمْتُه عليكم، وما أمرتكم به إلى ما نهيتكم عنه، ولا طاعتي إلى معصيتي، فإنَّ مَنْ تَعَدَّى ذلك ـ يعني مَنْ تَخَطَّاهُ وتجاوزه ـ إلى ما حرمتُ عليه أو نهيته، فإنه هو الظالم وهو الذي

فعل ما ليس له فعله، ووضع الشيءَ في غير موضعه. وقد دللنا فيما مضى على معنى «الظلم» وأصله بشواهده الدالة على معناه، فكرهنا إعادته في هذا الموضع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾

اختلف أهلُ التأويلِ فيما دل عليه هذا القول من الله تعالى ذِكْرُهُ.

فقال بعضهم: دلَّ على أنه إنْ طلق الرجلُ امرأته التطليقةَ الثالثة - بعد التطليقتين اللتين قال الله تعالى ذِكْرُهُ فيهما: «ٱلطَّلَاقُ مَرَّتَانِ» - فإنَّ امرأته تلك لا تحلُّ له بعد التطليقةِ الثالثة، حتى تنكح زوجاً غيره - يعني به: غيرَ المطلِّق.

وقال آخرون: بل دل هذا القولُ على ما يلزم مسرِّحَ امرأته بإحسان بعد التطليقتين اللتين قال الله تعالى ذِكْرُهُ فيهما: «ٱلطَّلَاقُ مَرَّتَانِ». قالوا: وإنما بيَّن الله تعالى ذِكْرُهُ بهذا القول عن حكم قوله: «أو تسريحٌ بإحسان»، وأعْلَمَ أنه إنْ سرَّح الرجلُ امرأته بعد التطليقتين، فلا تحلُّ له المُسَرَّحةُ كذلك إلا بعد زوج (وهو قول مجاهد).

والذي قاله مجاهدٌ في ذلك عندنا أولى بالصواب، للذي ذكرنا عن رسول الله ﷺ في الخبر الذي رويناه عنه أنه قال - أو سُئل فقيل: هذا قول الله تعالى ذِكْرُهُ: «ٱلطَّلَاقُ مَرَّتَانِ» فأين الثالثة؟ قال: «فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ»[1] فأخبر ﷺ أن الثالثة إنما هي قوله: «أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ». فإذْ كان

---

(١) يشير المؤلف إلى ثلاثة أحاديث أوردها في تفسيره بالأرقام ٤٧٩١ - ٤٧٩٣ هي حديث واحد مرسل لا يجوز الاحتجاجُ به، لعدم ثبوت صدوره عن النبي ﷺ، والتطليقة الثالثة ثابتة في الآية التي بعدها في سياق الكلام ﴿فإن طلقها فلا تحلُّ له من بَعْدُ حتى تنكح زوجاً غيره﴾ بموجب هذا الحديث - إنْ صَحَّ و لايصح - تصبح هذه طلقة رابعة، وهو خلاف الثابت المعلوم.

التسريحُ بالإحسان هو الثالثة، فمعلومٌ أن قوله: «فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ»، من الدلالةِ على التطليقةِ الثالثة بمعزل، وأنه إنما هو بيانٌ عن الذي يحل للمسرِّح بالإحسان إنْ سَرَّحَ زوجته بعد التطليقتين، والذي يحرم عليه منها، والحال التي يجوز له نكاحها فيها، وإعلامٌ عبادَه أن بعد التسريح على ما وصفت، لا رجعةَ للرجلِ على امرأتهِ.

فإن قال قائل: فأي النِّكاحين عنى الله بقوله: «فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ»، النكاح الذي هو جماع، أم النكاح الذي هو عقد تزويج؟

قيل: كلاهما: وذلك أن المرأة إنْ نكحت رجلاً نكاحَ تزويجٍ، ثم لم يطأها في ذلك النكاح ناكحُها، ولم يجامعها حتى يطلقها، لم تَحِلَّ للأول. وكذلك إن وَطئها واطىءٌ بغير نكاحٍ، لم تحلَّ للأول بإجماعِ الأمة جميعاً. فإذْ كان ذلك كذلك، فمعلوم أنّ تأويل قوله: «فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ» نكاحاً صحيحاً، ثم يجامعها فيه، ثم يطلِّقها.

فإن قال: فإنَّ ذكرَ الجماع غيرُ موجودٍ في كتاب الله تعالى ذِكْرُهُ، فما الدلالةُ على أنَّ معناه ما قلت؟

قيل: الدلالة على ذلك إجماعُ الأمة جميعاً على أنّ ذلك معناه. وبعدُ، فإن الله تعالى ذِكْرُهُ قال: «فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ»، فلو نكحت زوجاً غيرَه بعقب الطلاق قبل انقضاء عدتها، كان لا شك أنها ناكحة نكاحاً بغير المعنى الذي أباح الله تعالى ذِكْرُهُ لها ذلك به، وإنْ لم يكن ذِكْرُ العدة مقروناً بقوله: «فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ»، لدلالته على أن ذلك كذلك بقوله: «وَٱلْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ». وكذلك قوله: «فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ»، وإن لم يكن مقروناً به ذِكْرُ الجماعِ والمباشرةِ والإفضاءِ، فقد دَلَّ على أن ذلك

كذلك، بوحيهِ إلى رسولِ الله ﷺ، وبيانه ذلك على لسانه لعباده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «فَإِن طَلَّقَهَا»، فإن طلق المرأة ـ التي بانت من زوجها بآخرِ التطليقاتِ الثلاث، بعدما نَكَحَهَا مُطَلِّقُها الثاني ـ زوجُها الذي نكحها بعد بَيْنُونَتِهَا من الأول «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فلا حرجَ على المرأة التي طلقها هذا الثاني: من بعد بينونتها من الأول، وبعد نكاحه إياها ـ وعلى الزوجِ الأول الذي كانت حُرِّمَتْ عليه بينونتها منه بآخرِ التطليقاتِ أنْ يتراجعا بنكاحٍ جديد.

وأما قوله: «إن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱلله»، فإن معناه، إنْ رَجَوَا مطمعاً أن يقيما حدود الله. وإقامتهما حدود الله، العمل بها. وحدودُ الله ما أمرها به وأوجبَ لكلٍّ واحدٍ منهما على صاحبه، وألزم كُلَّ واحدٍ منهما بسبب النكاح الذي يكون بينهما.

وقد بينا معنى «الحدود»، ومعنى «إقامة» ذلك، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٢٣٠﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «وَتِلْكَ حُدُودُ ٱلله»: هذه الأمور التي بَيَّنَها لعبادِهِ في الطلاق والرجعة والفدية والعِدَّة والإيلاء وغير ذلك، مما يبيِّنه لهم في هذه

الآيات. «حُدُودُ ٱللهِ»: معالم فصول حلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته. «يُبَيِّنُهَا»: يفصِّلها فيميِّز بينها، ويعرِّفهم أحكامها، لقومٍ يعلمونها إذا بيَّنها الله لهم، فيعرفون أنها من عند الله فيصدقون بها، ويعملون بما أودعهم الله من علمه، دون الذين قد طبعَ الله على قلوبهم، وقضى عليهم أنهم لا يؤمنون بها، ولا يصدقون بأنها من عند الله، فهم يجهلون أنها من الله، وأنها تنزيلٌ من حكيم حميد. ولذلك خَصَّ القومَ الذين يعلمون بالبيان دون الذين يجهلون، إذْ كان الذين يجهلون أنها من عنده، قد آيس نبيَّه محمداً ﷺ من تصديقِ كثيرٍ منهم بها، وإنْ كان بيَّنها لهم من وَجْه الحجة عليهم، ولزومِ العملِ لهم بها. وإنما أخرجها من أن تكون بياناً لهم، من وجه تركهم الإقرارَ والتصديقَ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: «وَإِذَا طَلَّقْتُمُ»، أيها الرجالُ نساءكم، «فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ»، يعني: ميقاتَهن الذي وقَّته لهن، من انقضاء الأقراء الثلاثة، إنْ كانت من أهل القُرء، وانقضاءِ الأشهرِ، إنْ كانت من أهل الشهور، «فَأَمْسِكُوهُنَّ»، يقول: فراجعوهنّ إنْ أردتم رَجعتهن في الطلقة التي فيها رَجعة: وذلك إما في التطليقة الواحدة أو التطليقتين، كما قال تعالى ذِكْرُهُ: «ٱلطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكُۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَانٍ».

وأما قوله: «بِمَعْرُوفٍ»، فإنه عنى: بما أذِن به من الرجعة، من الإشهادِ على الرجعة قبل انقضاء العِدّة، دون الرجعة بالوطء والجماع، لأن ذلك إنما

يجوز للرجل بعد الرجعة، وعلى الصحبة مع ذلك والعِشرة بما أمر الله به وبيَّنه لكم أيها الناس، «أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ»، يقول: أو خَلُّوهُنَّ يقضين تمامَ عِدتهنّ وينقضي بقية أجلهن الذي أجلته لهنّ لعددهن، بمعروف. يقول: بإيفائهن تمام حقوقهن عليكم، على ما ألزمتكم لهنّ من مهرٍ ومتعةٍ ونفقةٍ وغير ذلك من حقوقهنّ قِبَلكم، «وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا» يقول: ولا تراجعوهن، إن راجعتموهنّ في عِدَدهن، مضارةً لهنّ، لتطوّلوا عليهنّ مدة انقضاء عِددهنّ، أو لتأخذوا منهن بعض ما آتيتموهن بطلبهن الخُلع منكم، لمضارتكم إياهن، بإمساككم إياهنّ، ومراجعتكموهنّ ضراراً واعتداءً.

وقوله: «لِتَعْتَدُوا»، يقول: لتظلموهن بمجاوزتكم في أمرهن حدودي التي بيَّنتها لكم.

وأصل «التسريح»، من «سَرْح القوم»، وهو ما أطلق من نَعَمهم للرعي. يقال للمواشي المرسلة للرعي: «هذا سَرْح القوم»، يراد به مواشيهم المرسلة للرعي. ومنه قول الله تعالى ذِكْرُهُ: ﴿وَٱلْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٥-٦]، يعني بقوله: «حِينَ تَسْرَحُونَ»، حين ترسلونها للرعي. فقيل للمرأة إذا خلّاها زوجها فأبانها منه: «سرَّحها»، تمثيلاً لذلك بـ«تسريح» المسرِّحِ ماشيتَهُ للرعي، وتشبيهاً به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: ومَنْ يراجع امرأته ـ بعد طلاقه إياها في الطلاق الذي له فيه عليها الرجعة ـ ضِراراً بها، ليعتدي حدَّ الله في أمرها، «فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ»، يعني: فأكسبها بذلك إثماً، وأوجب لها من الله عقوبة بذلك.

البقرة: ٢٣١

وقد بينا معنى «الظلم» فيما مضى، وأنه وضع الشيء في غير موضعه، وفعل ما ليس للفاعل فعله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ: ولا تتخذوا أعلامَ الله وفُصُوله بين حلاله وحرامه، وأمره ونهيه، في وحيه وتنزيله استهزاء ولعباً، فإنه قد بيَّن لكم في تنزيله وآي كتابه، ما لكم من الرجعةِ على نسائكم، في الطلاقِ الذي جعل لكم عليهن فيه الرجعة، وما ليس لكم منها، وما الوجهُ الجائزُ لكم منها، وما الذي لا يجوزُ، وما الطلاقُ الذي لكم عليهن فيه الرجعة، وما ليس لكم ذلك فيه، وكيف وجوه ذلك، رحمة منه بكم ونعمة منه عليكم، ليجعل بذلك لبعضكم ـ من مكروه، إنْ كان فيه من صاحبه ما يؤذيه ـ المخرَجَ والمخلَصَ بالطَّلاق والفراق، وجعلَ ما جعَلَ لكم عليهن من الرجعةِ سبيلاً لكم إلى الوصولِ إلى ما نازعه إليه ودعاه إليه هواه، بعد فراقه إياهن منهن، لتدركوا بذلك قضاءَ أوطاركم منهن، إنعاماً منه بذلك عليكم، لا لتتخذوا ما بيّنتُ لكم من ذلك في آيِ كتابي وتنزيلي ـ تفضُّلاً مني ببيانه عليكم وإنعاماً ورحمة مني بكم ـ لعباً وسُخريًا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: واذكروا نعمةَ الله عليكم بالإسلامِ الذي أنعم عليكم به فهداكم له، وسائرَ نِعَمِهِ التي خَصَّكُمْ بها دونَ غيركم من سائرِ خلقه، فاشكروهُ على ذلك بطاعتهِ فيما أمركم به ونهاكم عنه، واذكروا أيضاً مع ذلك ما أنـزلَ عليكم من كتابهِ، وذلك: القرآن الذي أنزلَهُ على نَبيِّه محمد ﷺ، واذكروا ذلك فاعملُوا به واحفظوا حدودَهُ فيه؛ وَ«ٱلْحِكْمَةِ»، يعني: وما أنزلَ

عليكم من الحكمةِ، وهي السُّننُ التي عَلَّمَكُمُوها رسولُ الله ﷺ وسَنَّها لكم.

وقد ذكرتُ اختلاف المختلفين في معنى «الحكمة» فيما مضى قَبْلُ في قوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ١٢٩]، فأغنى عن إعادته في هذا الموضع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «يَعِظُكُمْ بِهِ»، يعظكم بالكتابِ الذي أنزلَ عليكم، والهاء التي في قوله: «بِهِ»، عائدةٌ على الكتاب.

«وَٱتَّقُواْ ٱللهَ»، يقول: وخافوا الله فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه في كتابهِ الذي أنزلَهُ عليكم، وفيما أنزله فبيَّنَهُ على لسانِ رسولهِ ﷺ لكم أنْ تضيعوه وتتعدوا حدودَهُ، فتستوجبوا ما لا قِبَلَ لكم به من أليمِ عقابه ونكالِ عذابهِ.

وقوله: «وَٱعْلَمُواْ أَنَّ ٱللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ»، يقول: واعلموا أيها الناس أن ربكم الذي حَدَّ لكم هذه الحدود، وشرع لكم هذه الشرائعِ، وفرض عليكم هذه الفرائض، في كتابه وفي تنزيله على رسولِهِ محمد ﷺ بِكُلِّ ما أنتم عاملوهُ ـ من خير وشر، وحسن وسيء، وطاعة ومعصية ـ عالمٌ لا يخفى عليه من ظاهرِ ذلك وخَفِيِّهِ، وسرِّهِ وجهره، شيءٌ، وهو مُجازيكم بالإحسانِ إحساناً وبالسيء سيِّئاً، إلا أن يعفوا ويصفح، فلا تَتَعَرَّضُوا لعقابهِ وتَظلموا أنفسكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ﴾

ذُكر أن هذه الآية نزلت في رجلٍ كانت له أختٌ كان زوَّجها من ابن عمٍّ لها فطلَّقها، وتركها فلم يراجعها حتى انقضت عدَّتها، ثم خطبها منه، فأبى أنْ يزوجها إياه ومنعها منه، وهي فيه راغبة.

وقال آخرون: نزلت هذه الآية دلالةً على نهي الرجل مضارَّةَ وَلِيَّتِهِ من النساء، يَعْضُلُها عن النكاحِ.

والصوابُ من القولِ في هذه الآية أن يقال: إن الله تعالى ذِكْرُهُ أنزلها دلالـةً على تحريمه على أولياء النساء مضارَّةَ مَنْ كانوا له أولياء من النساء، بِعَضْلِهِنَّ عَمَّنْ أَرَدْنَ نكاحَهُ من أزواجٍ كانوا لهن، فَبِنَّ منهم بما تَبِينُ به المرأةُ من زوجها من طلاقٍ أو فسخِ نكاحٍ. وقد يجوزُ أن تكون نزلت في أمر معقلِ ابن يسار وأمرِ أخته، أو في أمر جابر بن عبدالله وأمرِ ابنةِ عمه. وأيُّ ذلكَ كان، فالآيةُ دالَّة على ما ذكرت.

ويعني بقوله تعالى: «فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ»، لا تُضَيِّقُوا عليهن بمنعكم إياهن أيها الأولياءُ من مراجعةِ أزواجهن بنكاحٍ جديد، تبتغون بذلك مضارَّتهن.

ومعنى قوله: «إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ»، إذا تراضى الأزواج والنساءُ بما يحلُّ ويجوز أن يكون عِوَضاً من أبضاعهن من المهور، ونكاح جديد مستأنف.

وفي هذه الآية الدلالةُ الواضحة على صحة قولِ مَنْ قال: «لانكاح إلا بوليٍّ من العَصَبة»[1]. وذلك أنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ منع الولي من عَضْلِ المرأةِ إنْ أرادت النكاحَ ونهاه عن ذلك. فلو كان للمرأة إنكاحُ نَفْسِهَا بغير إنكاحِ وليِّها إياها، أو كان لها توليةُ مَنْ أرادت توليتَه في إنكاحها ـ لم يكن لِنَهْيِ وليِّها عن

(١) هذا قول مالـك والشافعي وأحمد وإسحاق وسفيان الثوري والأوزاعي وغيرهم، وبه قال قبلهم من الصحابة عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وابن عباس وأبو هريرة، وانظر الترمذي (١١٠٢).

عَضْلها معنى مفهوم، إذْ كان لا سبيلَ له إلى عضلها. وذلك أنها إنْ كانت متى أرادتِ النكاحَ جاز لها إنكاحُ نفسها، أو إنكاحُ مَنْ تُوَكِّلُه بإنكاحها، فلا عضلَ هنالك لها من أحدٍ فيُنهى عاضلها عن عضْلها. وفي فساد القول بأن لا معنى لنهي الله عما نهى عنه، صحةُ القول بأن لوليِّ المرأة في تزويجها حقًّا لايصحُّ عقده إلا به. وهو المعنى الذي أمر الله به الولي: - مِنْ تزويجها إذا خطبها خاطبُها ورضيت به، وكان رضى عند أوليائها، جائزاً في حكم المسلمين لمثلها أن تنكح مثله - ونهاه عن خلافه: مِن عَضْلها، ومنعها عما أرادت من ذلك، وتراضت هي والخاطب به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ : ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله ذلك، ما ذكر في هذه الآية من نَهْي أولياء المرأة عن عَضْلها عن النكاح، يقول: فهذا الذي نَهيتُكم عنه من عَضْلِهِنّ عن النكاح، عِظَةٌ مني مَنْ كان منكم أيها الناس يؤمنُ بالله واليوم الآخر - يعني يُصَدِّقُ بالله، فيوحِّدُه ويقرُّ بربوبيته، - «وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ» يقول: ومَنْ يؤمن باليوم الآخر، فيصدِّق بالبعثِ للجزاء والثواب والعقاب، ليتقي الله في نفسه، فلا يظلمها بضرارِ وليَّتِه ومَنْعِها من نكاحِ مَنْ رَضِيَتْهُ لنفسها، ممن أذنتُ لها في نكاحه.

فإنْ قال لنا قائل: وكيف قيل: «ذٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ»، وهو خطاب الجميع، وقد قال من قَبْلُ: «فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ»؟ وإذا جاز أن يقال في خطاب الجميع «ذلِكَ»، أفيجوزُ أن تقولَ لجماعةٍ من الناس وأنت تخاطبهم: «أيها القوم، هذا غلامك، وهذا خادمك»، وأنت تريد: هذا خادمكم، وهذا غلامكم؟

قيل: لا، إنَّ ذلك غير جائز مع الأسماء الموضوعات[1]، لأنَّ ما أضيف له الأسماءُ غيرها، فلا يفهم سامعٌ سمع قولَ قائلٍ لجماعةٍ: «أيها القوم، هذا غلامك»، أنه عنى بذلك هذا غلامكم - إلّا على استخطاء الناطق في منطقه ذلك. فإن طلبَ لمنطقه ذلك وجهاً في الصواب، صرف كلامه ذلك إلى أنه انصرف عن خطاب القوم بما أراد خطابهم به، إلى خطاب رجل واحد منهم أو من غيرهم، وترك محاورة القوم بما أراد محاورتهم به من الكلام. وليس ذلك كذلك في «ذلِكَ»، لكثرة جَرْيِ «ذلِكَ» على ألسُنِ العربِ في منطقها وكلامها، حتى صارت «الكاف - التي هي كناية اسم المخاطب فيها - كهيئة حرفٍ من حروف الكلمة التي هي متصلة. وصارت الكلمة بها كقول القائل: «هذا»، كأنها ليس معها اسمٌ مخاطَبٌ. فمن قال: «ذلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ»، أقرّ «الكاف» من ﴿ذلِكَ﴾ موحَّدة مفتوحة في خطاب الواحدة من النساء، والواحد من الرجال، والتثنية، والجمع. ومن قال: «ذلِكم يُوعَظُ بِهِ»، كسر «الكاف» في خطاب الواحدة من النساء، وفتَح في خطاب الواحد من الرجال، وقال في خطاب الاثنين منهم: «ذلكما»، وفي خطاب الجمع: «ذلكم».

وقد قيل إنّ قوله: «ذلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ»، خطاب للنبي ﷺ، ولذلك وَحَّدَ، ثم رجع إلى خطاب المؤمنين بقوله: «مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ». وإذا وُجِّه التأويلُ إلى هذا الوجه، لم يكن فيه مؤونة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٢٣٢﴾

(١) قال العلامة محمود شاكر: «الأسماء الموضوعات»، كأن «الاسم الموضوع»، هو «الاسم المتمكن، أو المعرب»، ضريع «الاسم غير المتمكن، أوالمبني».

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «ذلِكُمْ»، ـ نكاحَهنَّ أزواجَهن ومراجعةَ أزواجهن إياهن، بما أباح لهن من نكاحٍ ومهرٍ جديد ـ «أَزْكَى لَكُمْ»، أيها الأولياء والأزواج والزوجات.

ويعني بقوله: «أَزْكَى لَكُمْ»، أفضلُ وخيرٌ عند الله من فُرقتهن أزواجَهن. وقد دللنا فيما مضى على معنى «الزكاة»، فأغنى ذلك عن إعادته.

وأما قوله: «وَاطْهَرُ»، فإنه يعني بذلك: أطهرُ لقلوبكم وقلوبهنّ وقلوب أزواجهنّ من الريبة. وذلك أنهما إذا كان في نفسِ كُلٍّ واحدٍ منهما ـ أعني الزوجَ والمرأة ـ عَلاقة حبٍّ، لم يُؤْمَن أنْ يتجاوزا ذلك إلى غير ما أحلَّه الله لهما، ولم يؤمن من أوليائهما أن يسبق إلى قلوبهم منهما ما لَعَلَّهُمَا أنْ يكونا منه بريئين. فأمرَ الله تعالى ذِكْرُهُ الأولياء ـ إذا أراد الأزواج التراجعَ بعد البينونةِ، بنكاحٍ مُسْتأنَفٍ، في الحال التي أذن لهما بالتراجع؛ أنْ لا يعضلَ وليَّته عما أرادت من ذلك، وأن يزوجها، لأن ذلك أفضل لجميعهم، وأطهرُ لقلوبهم مما يُخاف سُبوقه إليها من المعاني المكروهة.

ثم أخبرَ تعالى ذِكْرُهُ عبادَه أنه يعلم من سرائرهم وخفيَّات أمورهم ما لا يعلمه بعضُهم من بعض، ودلَّهم بقوله لهم ذلك في هذا الموضع، أنه إنما أمر أولياء النساء بإنكاح مَنْ كانوا أولياءه من النساء إذا تراضتِ المرأةُ والزوجُ الخاطبُ بينهم بالمعروف، ونهاهم عن عَضْلهن عن ذلك؛ لما علم مما في قلب الخاطب والمخطوبة من غَلَبَةِ الهوى والميل من كُلٍّ واحدٍ منهما إلى صاحبه بالمودة والمحبة، فقال لهم تعالى ذِكْرُهُ: افعلوا ما أمرتكم به، إنْ كنتم تؤمنون بي، وبثوابي وبعقابي في معادكم في الآخرة، فإنيّ أعلمُ من قلبِ الخاطب والمخطوبة ما لا تعلمونه من الهوى والمحبة. وفعلكم ذلك أفضلُ لكم عند الله ولهم، وأزكى وأطهر لقلوبكم وقلوبهن في العاجل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: والنساء اللواتي بِنَّ من أزواجِهِنَّ، ولهن أولادٌ قد ولَدْنَهُمْ من أزواجهن قبل بَيْنُونَتِهِنَّ منهم بطلاق، أو وَلَدْنَهُمْ منهم بعد فراقهم إياهن، من وَطْءٍ كان منهم لهنّ قبل البينونة «يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ»، يعني بذلك: أنهن أحَقُّ برضاعهم من غيرهنَّ.

وليس ذلك بإيجابٍ من الله تعالى ذِكْرُهُ عليهن رضاعَهم، إذا كان المولودُ له ولدٌ، حياً موسراً. لأن الله تعالى ذِكْرُهُ قال في «سورة النساء القُصرى»[1] ﴿وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى﴾ [الطلاق:٦]، فأخبر تعالى ذِكْرُهُ: أن الوالدةَ والمولودَ له إنْ تعاسَرا في الأجرةِ التي تُرْضِعُ بها المرأةُ ولَدَها، أنَّ أُخرى سِواها تُرْضِعُه، فلم يُوجِبْ عليها فرضاً رَضَاعَ ولدها. فكان معلوماً بذلك أنَّ قوله: «وَٱلْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ»، دلالةٌ على مبلغ غاية الرضاع التي متى اختلف الوالدان في رَضاع المولود بعده، جُعل حدًّا يُفصل به بينهما، لا دلالة على أن فرضاً على الوالداتِ رضاعُ أولادِهن.

وأما قوله: «حَوْلَيْنِ»، فإنه يعني به سنتين.

وأصل «الحوْل» من قول القائل: «حالَ هذا الشيء»، إذا انتقل. ومنه قيل: «تحوَّلَ فلانٌ من مكانِ كذا»، إذا انتقل عنه.

فإن قال لنا قائل: وما معنى ذِكْرِ «كَامِلَيْنِ»، في قولِه: «وَٱلْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ»، بعد قوله: «يرضعن حولين»، وفي ذكرهِ «الحولين»

---

(١) هي سورة الطلاق، وسموها «القصرى» لتسميتهم سورة النساء «الطولى»، للفرق بينهما.

مستغنًى عن ذكر «الكاملين»، إذْ كان غير مُشْكِلٍ على سامعٍ سَمِعَ قولَهُ: «وَٱلْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ» ما يُراد به؟ فما الوجه الذي من أجله زِيد ذِكْرُ «كَامِلَيْنِ»؟

قيل: إنَّ العربَ قد تقول: «أقام فلانٌ بمكان كذا حولين، أو يومين، أو شهرين»، وإنما أقام به يوماً وبعض آخر، أو شهراً وبعض آخر، أو حولاً وبعض آخر، فقيل: «حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ» ليعرف سامعو ذلك أنّ الذي أُريدَ به حولان تامَّان، لا حول وبعض آخر. وذلك كما قال الله تعالى ذِكْرُهُ: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة:٢٠٣]. ومعلومٌ أنَّ المُتَعَجِّلَ إنما يتعجلُ في يوم ونصف، وكذلك ذلك في اليوم الثالث من أيام التشريق، وأنه ليس منه شيء تام، ولكن العرب تفعل ذلك في الأوقات خاصة فتقول: «اليوم يومان منذ لم أره»، وإنما تعني بذلك يوماً وبعضَ آخر. وقد تُوقع الفعل الذي تفعله في الساعة أو اللحظة، على العام والزمان واليوم، فتقول: «زُرتُه عام كذا ـ وقَتل فلان فلاناً زمانَ صِفِّين»، وإنما تفعل ذلك، لأنها لا تقصد بذلك الخبرَ عن عدد الأيام والسنين، وإنما تعني بذلك الإخبارَ عن الوقتِ الذي كان فيه المخبَرُ عنه، فجاز أن ينطق «بالحولين»، و«اليومين»، على ما وصفت قبلُ. لأن معنى الكلام في ذلك: فعلته إذ ذاك، وفي ذلك الوقت.

فكذلك قوله: «وَٱلْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ»، لما جاز الرضاعُ في الحولين وليسا بالحولين ـ وكان الكلامُ لو أُطْلِقَ في ذلك، بغير تبيين الحولين بالكمال، وقيل: «وَٱلْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ»، محتمِلاً أنْ يكونَ معنيًّا به حولٌ وبعضُ آخرـ نفَى اللبسَ عن سامعيه بقوله: «كَامِلَيْنِ» أن يكون مراداً به حولٌ وبعضُ آخر، وأُبين بقوله: «كَامِلَيْنِ» عن وقتِ تمامِ حدِّ الرضاع، وأنه تمام الحولين بانقضائهما، دون انقضاء أحدهما وبعض الآخر.

ثم اختلف أهلُ التأويلِ في الذي دَلَّت عليه هذه الآية، من مبلغ غاية رضاع المولودين: أهو حدٌّ لكل مولود، أو هو حدٌّ لبعض دون بعض؟

فقال بعضهم: هو حَدٌّ لبعضٍ دون بعض.

وقال آخرون: بل ذلك حدُّ رضاع كل مولود اختلفَ والداه في رضاعه، فأراد أحدهما البلوغَ إليه، والآخرُ التقصيرَ عنه.

وقال آخرون: بل دلّ الله تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «وَٱلْوالِدات يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ»، على أنْ لا رضاعَ بعد الحولين، فإنَّ الرضاع إنما هو ما كان في الحولين.

وقال آخرون: بل كان قوله: «وَٱلْوالِدات يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ»، دلالةً من الله تعالى ذِكْرُهُ عِبادَه، على أنَّ فرضاً على والداتِ المولودين أنْ يُرْضِعْنَهُمْ حولين كاملين. ثم خَفَّفَ تعالى ذِكْرُهُ ذلك بقوله: «لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ»، فجعل الخيارَ في ذلك إلى الآباء والأمهات، إذا أرادوا الإتمامَ أكْمَلُوا حولين، وإنْ أرادوا قبل ذلك فَطْم المولود، كان ذلك إليهم على النظرِ منهم للمولود.

وأولى الأقوال بالصواب في قوله: «وَٱلْوالِدات يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ»، هو أنه دلالة على الغاية التي ينتهي إليها في رَضَاع المولود إذا اختلف والداه في رضاعه، وأنْ لا رَضَاعَ بعد الحولين يُحَرِّمُ شيئاً، وأنه معنيٌّ به كلُّ مولود، لستة أشهر كان وِلادُه أو لسبعة أو لتسعة.

فأما قولنا: «إنه دلالة على الغاية التي ينتهي إليها في الرضاع عند اختلاف الوالدين فيه»، فلأن الله تعالى ذِكْرُهُ لما حَدَّ في ذلك حداً، كان غير جائز أن يكون ما وراء حدِّه موافقاً في الحكم ما دونَهُ. لأن ذلك لو كان كذلك،

لم يكن للحدِّ معنى معقول. وإذْ كان ذلك كذلك، فلا شك أنَّ الذي هو دون الحولين من الأجل، لما كان وقت رضاع، كان ما وراءه غيرَ وقتٍ له، وأنه وقتٌ لترك الرضاع، وأنَّ تمامَ تمامِ الرضاعِ لما كان تمام الحولين، وكان التام من الأشياء لا معنى إلى الـزيادة فيه، كان لا معنى للزيادة في الـرضـاع على الحولين، وأنّ ما دون الحولين من الرضاع لما كان محرِّماً، كان ما وراءه غير محرِّم.

وإنما قلنا: «هو دلالة على أنه معنيّ به كل مولود، لأيّ وقت كان وِلادُه، لستـةِ أشهرٍ أو سبعةٍ أو تسعةٍ»، لأن الله تعالى ذِكْرُهُ عمَّ بقوله: «وَٱلْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ»، ولم يخصُص به بعضَ المولودين دون بعض.

وقد دللنا على فساد القول بالخصوص بغير بيان الله تعالى ذِكْرُهُ ذلك في كتابه، أو على لسانِ رسوله ﷺ - في كتابنا «كتاب البيان عن أصول الأحكام»، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

فإنْ قال لنا قائل: فإنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ: قد بيَّن ذلك بقوله: ﴿وَحَمْلُه وفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً﴾ [الأحقاف: ١٥]، فجعل ذلك حداً للمعنيين كليهما، فغيرُ جائزٍ أن يكون حملٌ ورضاعٌ أكثر من الحدّ الذي حدَّه الله تعالى ذِكْرُهُ. فما نقص من مدة الحمل عن تسعة أشهر، فهو مزيد في مدة الرضاع، وما زِيدَ في مدة الحمل، نقص عن مدة الرضاع. وغير جائز أن يُجَاوَز بهما كليهما مدة ثلاثين شهراً، كما حَدَّهُ الله تعالى ذِكْرُهُ.

قيل له: فقد يجب أن تكون مدة الحمل - على هذه المقالة - إن بلغت حولين كاملين، أن لا يرضع المولود إلا ستة أشهر، وإن بلغت أربع سنين، أن يبطل الرضاع فلا يرضع، لأن الحمل قد استغرق الثلاثين شهراً وجاوز غايته -

أو يزعم قائل هذه المقالة: أنّ مدة الحمل لن تجاوز تسعة أشهر، فيخرج من قول جميع الحجة، ويكابرَ الموجود والمشاهَد، وكفى بهما حجة على خطأ دعواه إن ادَّعى ذلك. فإلى أيِّ الأمرين لجأ قائلُ هذه المقالة، وضح لذوي الفهم فساد قوله.

فإن قال لنا قائل: فما معنى قوله ـ إن كان الأمر على ما وصفت ـ: «وَحَمْلُه وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً»، وقد ذكرت آنفاً أنه غير جائز أن يكون ما جاوز حد الله تعالى ذِكْرُهُ، نظيرَ ما دون حَدِّهِ في الحكم؟ وقد قلت: إن الحمل والفصال قد يجاوزان ثلاثين شهراً؟

قيل: إن الله تعالى ذِكْرُهُ لم يجعل قوله: «وحمله وفصَاله ثلاثون شهراً»، حدًّا تعبَّدَ عِبادَهُ بأنْ لايجاوزوه كما جعل قوله: «وَٱلْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ»، حدًّا لرضاع المولود الثابت الرضاع، وتعبّد العبادَ بحمل والديه عند اختلافهما فيه، وإرادة أحدهما الضرار به. وذلك أن الأمر من الله تعالى ذِكْرُهُ إنما يكون فيما يكون للعباد السبيلُ إلى طاعته بفعله والمعصية بتركه. فأما ما لم يكنْ لهم إلى فِعْله ولا إلى تَرْكِهِ سبيلٌ، فذلك مما لا يجوز الأمرُ به ولا النهيُ عنه ولا التعبُّدُ به.

فإذا كان ذلك كذلك، وكان الحملُ مما لا سبيلَ للنساء إلى تقصيرِ مُدَّتِهِ ولا إلى إطالتها، فَيَضَعْنَهُ متى شِئْنَ، ويتركن وَضعه إذا شئن ـ كان معلوماً أن قوله: «وَحَمْلُه وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً»، إنما هو خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ عن أن مِنْ خَلْقِهِ مَنْ حَمَلَتْهُ أمُّه وولدته وفصَلته في ثلاثين شهراً ـ لا أمرٌ بأن لا يُتجاوَز في مدة حمله وفصَاله ثلاثون شهراً، لما وصفناه. وكذلك قال ربنا تعالى ذِكْرُهُ في كتابه: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُه وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً﴾ [الأحقاف: ١٥].

فإنْ ظَنَّ ذو غباء أن الله تعالى ذِكْرُهُ إذْ وَصف أن من خلْقه مَنْ حملته أمـه ووضعته وَفصلتـه في ثلاثين شهـراً، فواجبٌ أن يكون جميعُ خَلْقِه ذلك صفتُهم ـ وأن ذلك دلالةٌ على أن حَملَ كل عباده وفصالَه ثلاثون شهراً ـ فقد يجب أن يكون كل عباده صفتهم أن يقولوا إذا بلغوا أشُدَّهُمْ وبلغوا أربعين سنة: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُـرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَل صَالِحاً تَرْضاهُ﴾ [الأحقاف: ١٥]، على ما وَصَف الله به الذي وُصف في هذه الآية.

وفي وُجودنا منْ يستحكم كفرُه بالله، وكفرانه نِعمَ رَبِّهِ عليه، وجرأته على والديه بالقتل والشتم وضروب المكاره، عند استكماله الأربعين من سِنِيهِ وبلوغه أشُدَّه ـ ما يُعلم أنه لم يَعْنِ الله بهذه الآية صفة جميع عباده، بل يُعلم أنه إنما وصف بها بعضاً منهم دون بعض، وذلك ما لا ينكره ولا يدفعه أحدٌ. لأن من يولد من الناس لسبعة أشهر، أكثر ممن يولد لأربع سنين ولسنتين؛ كما أن من يولد لتسعة أشهر، أكثر ممن يولد لستة أشهر ولسبعة أشهر.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ

يعني تعـالى ذِكْـرُهُ بقـولـه: «وَعَلَى ٱلْمَـوْلُودِ لَهُ»، وعلى آباء الصبيان للمراضع «رِزْقُهُنَّ»، يعني: رزقُ والدتهن.

ويعني بـ «الرزق»: ما يَقُوتهنَّ من طعامٍ، وما لا بُدَّ لَهُنَّ من غذاء ومطعم.

و «وَكِسْوَتُهُنَّ»، ويعني: بـ «الكسوة»: الملبس.

ويعني بقـوله: «بِالْمَعْرُوفِ»، بما يجب لمثلها على مثله، إذ كان الله تعـالى ذِكْـرُهُ قد علم تفاوتَ أحوالِ خَلْقِه بالغنى والفقر، وأنَّ منهم الموسِع والمقتِر وبين ذلك. فأمر كلًّا أن ينفق على مَنْ لزمته نفقتُه من زوجتِهِ ووَلده على قدر مَيْسَرتِه، كما قال تعالى ذِكْرُهُ: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلَّا مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق:٧].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: لا تحمَّل نفسٌ من الأمور إلا مالا يضيقُ عليها، ولا يتعذر عليها وجوده إذا أرادت. وإنما عنى الله تعالى ذِكْرُهُ بذلك: لا يُوجِبُ الله على الرجال من نفقةِ مَنْ أرضع أولادَهم من نسائهم البائنات منهم، إلّا ما أطاقُوه ووَجدوا إليه السبيل، كما قال تعالى ذِكْرُهُ: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ﴾ [الطلاق:٧].

فمعنى قوله: «لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إلَّا وُسْعَهَا»، هو ما وصفت: من أنها لا تكلَّف إلا ما يتسع لها بذل ما كُلِّفَتْ بَذْلَهُ، فلا يضيق عليها ولا يَجْهَدها ـ لا ما ظنَّه جهلةُ أهلِ القدَر من أنَّ معناه: لا تكلف نفس إلا ما قد أعطيت عليه القدرةَ من الطاعاتَ. لأن ذلكَ لو كان كما زعمتْ، لكان قوله تعالى ذِكْرُهُ: ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٤٨، الفرقان:٩]، ـ إذ كان دالًّا على أنهم غير مستطيعي السبيل إلى ما كُلِّفوه ـ واجباً أن يكونَ القوم في حالٍ واحدة، قد أعطوا الاستطاعة على ما مُنعوها عليه. وذلك من قائله إن قاله، إحالةٌ في كلامه، ودعوى باطلٍ لايُخِيل بُطوله[1]. وإذْ كان بيِّناً فسادُ هذا القول، فمعلومٌ أنَّ الذي أخبر تعالى ذِكْرُهُ أنه كلَّف النفوس

(١) لايخيل بُطولُه: أي لايُشْكل.

من وُسعها، غيرُ الذي أخبر أنه كلَّفها مما لا تستطيع إليه السبيل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَا تُضَآرَّ وَالِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ

وقال بعضهم: «الوالدة» التي نهىَ الرجلَ عن مضارّتها: ظِئْرُ الصبي. ذكر من قال ذلك: حدثني المثنى قال، حدثنا مسلم بن إبراهيم قال، حدثنا هٰرون النحوي قال، حدثنا الزبير بن الخِرِّيت، عن عكرمة في قوله: «لَا تُضارَّ والِدَةٌ بِوَلَدِهَا»، قال: هي الظئر.

يعني: لايُضـارِرْ والدُ مولودٍ والدتَه بمولودهِ منها، ولا والدةُ مولودٍ والدَه بمولودِهَا منه. ثم ترك ذكر الفاعل في «يضار»، فقيل: لا تضارَرْ والدةٌ بولدها ولا مولود له بولده، كما يقال إذا نُهي عن إكرام رجلٍ بعينه فيما لم يسمَّ فاعله، ولم يقصد بالنهي عن إكرامه قصد شخص بعينه: «لايُكرم عمرو، ولا يُجلس إلى أخيه»، ثم تُرِك التضعيف فقيل: «لَا تُضارَّ» فحركت الراء الثانية التي كانت مجزومة ـ لو أُظهر التضعيف ـ بحركة الراء الأولى.

فإذْ كان الله تعالى ذِكْرُهُ قد نهى كُلَّ واحدٍ من أبوي المولود عن مضارة صاحبه بسبب ولدهما، فحقٌّ على إمام المسلمين ـ إذا أراد الرجلُ نزعَ ولده من أُمهِ بعد بينونتها منه، وهي تحضنه وتكفله وتُرضعه، بما يحضنه به غيرها ويكفُله به ويُرضعه من الأجرة ـ أن يأخذ الوالدِ بتسليم ولدها، ما دام محتاجاً الصبيُّ إليها في ذلك بالأجرة التي يُعطاها غيرها وحقٌّ عليه ـ إذا كان الصبيُّ لا يقبلُ ثديَ غيرِ والدته، أو كان المولود له لا يجد مَنْ يرضع ولده وإنْ كـان يقبلُ ثديَ غيرِ أمه، أو كان معدِماً لا يجدُ ما يستأجر به مرضعاً، ولا يجد مَنْ يتبرع عليه برضاع مولودِهِ ـ أن يأخذ والدته البائنة من والده برضاعه وحضانته.

لأن الله تعالى ذِكْرُهُ إنْ حرّم على كل واحد من أبويه ضرار صاحبه بسببه، فالإضرار به أحرى أن يكون محرَّماً، مع ما في الإضرار به من مضارة صاحبه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ

اختلف أهلُ التأويلِ في «ٱلْوَارِثِ» الذي عنى الله تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذلِكَ»، وأي وارثٍ هو: ووارث مَن هو؟

فقال بعضهم: هو وارث الصبي. وقالوا معنى الآية: وعلى وارث الصبيّ إذا كان أبوه ميتاً، مِثْلُ الذي كان على أبيه في حياته.

ثم اختلف قائلو هذه المقالة في وارث المولود، الذي ألزمه الله تعالى مثل الذي وصف.

فقال بعضهم: هو وارث الصبي من قبل أبيه من عصَبته، كائناً مَنْ كان، أخاً كان، أو عمًّا، أو ابن عم، أو ابن أخ.

وقال آخرون منهم: بل ذلك على وارث المولود مَنْ كان، من الرجال والنساء.

وقال آخرون منهم: هو مِنْ ورثته، مَنْ كان منهم ذا رَحِمٍ محرم للمولود، فأما مَنْ كان ذا رحم منه وليس بمحرم، كابن العم والمولى ومَنْ أشبههما، فليس من عناه الله بقوله: «وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذلِكَ». والذين قالوا هذه المقالة: أبو حذيفة وأبو يوسف ومحمد.

وقالت فرقة أخرى: بل الذي عنى الله تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذلِكَ»، المولود نفسه.

قال أبو جعفر: وتأويل ذلك على ما تأوّله هؤلاء: وعلى الوارث المولود،

مثلَ ما كان على المولود له.

وقال آخرون: بل هو الباقي من والدي المولود، بعد وفاةِ الآخر منهما.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مِثْلُ ذَٰلِكَ

اختلف أهلُ التأويلِ في تأويل قوله: «مِثْلُ ذلِكَ».

فقال بعضهم: تأويله: وعلى وارث الصبي بعد وفاة أبويه، مثل الذي كان على والدِه من أجرِ رضاعهِ ونفقتِه، إذا لم يكن للمولود مالٌ.

وقال آخرون بل تأويل ذلك: وعلى الوارث مثلُ ذلك: أن لا يضارَّ. ذكر من قال ذلك.

وقال آخرون: بل تأويل ذلك: وعلى وارث المولود، مثلُ الذي كان على المولود له، مِنْ رزقِ والدتِه وكِسوتها بالمعروف.

وقال آخرون: معنى ذلك: وعلى الوارث مثلُ ما ذَكَرَهُ الله تعالى ذِكْرُهُ.

وأولى الأقوال بالصواب في تأويل قوله: «وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذلِكَ»: أن يكون المعنيّ بالوارث المولود، وفي قوله: «مِثْلُ ذلِكَ»، أن يكون معنيًّا به: مثل الذي كان على والده من رزق والدته وكِسوتها بالمعروف، إن كانتْ من أهلِ الحاجة، ومَنْ هي ذات زَمانةٍ وعاهة، ومن لا احترافَ فيها، ولا زوج لها تستغني به، وإنْ كانت من أهل الغنى والصحة، فمثل الذي كان على والده لها من أجر رضاعه.

وإنما قلنا: هذا التأويل أولى بالصواب مما عداه من سائرِ التأويلاتِ التي ذكرنا، لأنه غيرُ جائز أن يقال في تأويل كتاب الله تعالى ذِكْرُهُ قولٌ إلا بحجةٍ واضحة، على ما قد بيّنا في أول كتابنا هذا. وإذْ كان ذلك كذلك، وكان قوله:

«وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذلِكَ»، محتملاً ظاهره: وعلى وارث الصبي المولودِ مثلُ الذي كان على المولود له ـ ومحتملاً: وعلى وارثِ المولودِ له مثلُ الذي كان عليه في حياته من تَرْكِ ضرارِ الوالدةِ ومن نفقةِ المولود، وغير ذلك من التأويلات، على نحو ما قد قدمنا ذكرها ـ وكان الجميع[1] من الحجة قد أجمعوا على أن من ورثةِ المولود من لا شيءَ عليه من نفقته وأجر رضاعه ـ صحَّ بذلك من الدلالة على أن سائر ورثته، غيرآبائه وأمهاته وأجداده وجداته من قبل أبيه أو أمه، في حكمه في أنهم لا يلزمهم له نفقة ولا أجر رضاع، إذ كان مولى النعمة من ورثته، وهو ممن لا يلزمه له نفقةٌ ولا أجرُ رضاعٍ. فوجب بإجماعهم على ذلك أنّ حكم سائر ورثته غير من استثنى ـ حكمُه.

وكان إذا بطل أن يكون معنى ذلك ما وصفنا ـ من أنه معنيٌّ به ورثة المولود ـ فَبُطُول القولِ الآخر ـ وهو أنه معنيٌّ به ورثة المولود له سوى المولود ـ أحرَى. لأنّ الذي هو أقرب بالمولود قرابة ممن هو أبعد منه ـ إذا لم يَصِحَّ وجوبُ نفقتِهِ وأجرُ رضاعهِ عليه ـ فالذي هو أبعد منه قرابةً، أحرَى أن لا يصحّ وجوبُ ذلك عليه.

وأما الذي قلنا من وجوبِ رزقِ الوالدة وكِسوتها بالمعروف على ولدها ـ إذا كانت الوالدة بالصفة التي وصفنا ـ على مثل الذي كان يجب لها من ذلك على المولود له، فما لا خلافَ فيه من أهل العلم جميعاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾

---

(١) قوله: «وكان الجميع» معطوف على قوله: «وإذ كان ذلك كذلك».

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «فَإِنْ أَرَادَا»، إنْ أراد والدُ المولودِ ووالدته «فِصَالاً»، يعني: فصالَ ولدهما من اللبن.

ويعني بـ «الفصال»، الفِطام، وهو مصدر من قول القائل: «فاصَلتُ فلاناً أفاصِله مفاصلةً وفِصالاً إذا فارقه من خُلطة كانت بينهما. فكذلك «فصال الفطيم»، إنما هو مَنْعُهُ اللبنَ، وقطعهُ شربه، وفراقه ثدي أمه إلى الاغتذاء بالأقواتِ التي يغتذي بها البالغُ من الرجال.

وأما قوله: «عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ»، فإنه يعني بذلك: عن تراضٍ من والدي المولود وتشاوُرٍ منهما.

ثم اختلف أهلُ التأويلِ في الوقت الذي أسقط الله الجناح عنهما، إنْ فطماه عن تراضٍ منهما وتشاور، وأيُّ الأوقات الذي عناه الله تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا».

فقال بعضهم: عنى بذلك، فإنْ أرادا فصالاً في الحولين عن تراضٍ منهما وتشاورٍ فلا جناحَ عليهما.

وقال آخرون: معنىٰ ذلك: «فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا»، في أيِّ وقتٍ أرادا ذلك، قبل الحولين أرادا أم بعد ذلك.

وأما قوله: «عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ»، فإنه يعني: عن تراضٍ منهما وتشاور فيما فيه مصلحةُ المولودِ لفطمه.

وأولى التأويلين بالصواب تأويلُ مَنْ قال: «فإنْ أرادا فصالاً في الحولين عن تراضٍ منهما وتشاور»، لأنَّ تمامَ الحولين غايةٌ لتمامِ الرضاع وانقضائه، ولا تشاورَ بعدَ انقضائه، وإنما التشاورُ والتراضي قبل انقضاء نهايته.

فإنْ ظنّ ذو غفلة أن للتشاور بعد انقضاء الحولين معنًى صحيحاً ـ إذْ كان من الصبيان مَنْ تكونُ به عِلَّةٌ يُحتاجُ من أجلها إلى تركه والاغتذاء بلبنِ أُمِّهِ ـ فإنَّ ذلك إذا كان كذلك، فإنما هو علاجٌ، كالعلاجِ بشرب بعضِ الأدويةِ، لا رضـاعٌ. فأمـا الرضاعُ الذي يكون في الفصال منه قبل انقضاء آخره تراضٍ وتشـاور من والدي الطفل الذي أسقط الله تعالى ذِكْرُهُ لفطِمهما إياه الجُنَاحَ عنهما، قبل انقضاء آخر مدته، فإنما حدُّه الحدُّ الذي حدَّه الله تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «وَٱلْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ»، على ما قد أتينا على البيان عنه فيما مضى قبل.

وأما الجُنَاح، فالحرج.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ**

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم مَراضعَ غير أمهاتهم ـ إذا أَبَتْ أُمّهاتُهم أنْ يُرْضِعْنَهُمْ بالذي يرضعنهم به غيرُهن من الأجر، أو من خيفة ضَيْعة منكم على أولادكم بانقطاع ألبانِ أمهاتهم، أو غير ذلك من الأسباب ـ فلا حَرَجَ عليكم في استرضاعهن، إذا سلَّمتم ما آتيتم بالمعروف.

واختلفوا في قوله: «إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ».

فقال بعضهم: معناه: إذا سلمتم لأمهاتهم ما فارقتموهن عليه من الأجرة على رضاعهن، بحساب ما استحقته إلى انقطاعِ لبنها ـ أو الحال التي عُذِر أبو الصبي بطلب مرضعٍ لولدِهِ غير أُمِّهِ، واسترضاعه له.

وقال آخرون: معنى ذلك: إذا سلمتم للاسترضاع، عن مشورة منكم ومن

أمهات أولادكم الذين تسترضعون لهم، وتراض منكم ومنهنّ باسترضاعهم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف إلى التي استرضعتموها بعد إباء أمِّ المرضَعِ ، من الأجرة، بالمعروف.

وأولى الأقوال بالصواب في تأويل ذلك، قولُ مَنْ قال: تأويله: وإنْ أردتم أن تسترضعوا أولادكم إلى تمام رضاعهن، ولم تتَّفقوا أنتم ووالداتهم على فصالهم، ولم تروا ذلك من صلاحهم، فلا جناح عليكم أن تسترضعوهم ظُؤورة[1]، إن امتنعت أمهاتهم من رضاعهم لعلةٍ بهن أو لغيرِ علةٍ - إذا سلمتم إلى أمهاتهم وإلى المسترضَعَة الآخرة حقوقهن التي آتيتموهن بالمعروف. يعني بذلك المعنى: الذي أوجبه الله لهنّ عليكم، وهو أن يوفيهن أجورهن على ما فارقهنّ عليه، في حال الاسترضاع ووقت عقد الإجارة.

وإنما قضينا لهذا التأويل أنه أولى بتأويل الآية من غيره، لأن الله تعالى ذِكْرُهُ ذكر قبل قوله: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَادَكُمْ﴾ أمْرَ فِصَالِهم، وبَيَّنَ الحُكْمَ في فِطامهم قبل تمام الحولين الكاملين فقال: «فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا» في الحولين الكاملين «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا». فالذي هو أولى بحكم الآية - إذ كان قد بيَّن فيها وجه الفصالِ قبل الحولين - أنْ يكون الذي يتلو ذلك حكم تركِ الفصال وإتمامِ الرضاع إلى غاية نهايته - وأن يكون - إذْ كان قد بيَّن حكم الأمِّ إذا هي اختارت الرضاع بما يرضع به غيرها من الأجرة - أن يكون الذي يتلو ذلك من الحكم، بيان حكمها وحكم الولد إذا هي امتنعت من رضاعه، كما كان ذلك كذلك في غير هذا الموضع من كتاب الله تعالى، وذلك في قوله: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ

---

(١) الظُؤورة جمع ظئر (بكسر فسكون): وهي المرضعةُ غيرَ ولَدِها.

تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى﴾ [الطلاق: ٦] فأتبع ذِكْرَ بيانِ رضا الوالداتِ برضاع أولادهن، ذكرَ بيان امتناعهن من رضاعهن. فكذلك ذلك في قوله: «وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَادَكُمْ».

وإنما اخترنا - في قوله: «إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ» - ما اخترنا من التأويل، لأن الله تعالى ذِكْرُهُ فرَض على أبي المولود تسليمَ حقٍّ والدته إليها مما آتاها من الأجرة على رضاعها له بعد بَيْنُونتها منه، كما فرض عليه ذلك لمن استأجره لذلك ممن ليس منْ مولده بسبيل، وأمره بإيتاء كل واحدةٍ منهما حَقَّها بالمعروفِ على رضاعِ ولده. فلم يكن قوله: «إِذَا سَلَّمْتُم» بأن يكون معنيًا به: إذا سلمتم إلى أمهاتِ أولادكم الذين يرضعون حقوقَهنّ، بأولى منه بأن يكون معنيًّا به: إذا سلمتم ذلك إلى المراضع سِواهُنَّ - ولا الغرائبُ من المولود، بأولى أنْ يَكُنَّ معنيَّاتٍ بذلك من الأمهات[1] - إذْ كان الله تعالى ذِكْرُهُ قد أوجب على أبي المولود لكل من استأجره لرضاع ولده، من تسليم أجرتها إليها مثلَ الذي أوجبَ عليه من ذلك للأخرى. فلم يكن لنا أن نُحِيلَ ظاهر تنزيل إلى باطن، ولا نقلَ عامٍّ إلى خاصٍّ، إلا بحجةٍ يجبُ التسليمُ لها - فصحَّ بذلك ما قلنا.

وأما معنى قوله: «بِٱلْمَعْرُوفِ»، فإنَّ معناه: بالإجمال والإحسان، وترك البخس والظلم فيما وجب للمراضع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾

(١) هذه الجملة بين الخطين، معطوفة على الجملة الأولى، فيكون سياق معناها: ولم يكن الغرائب من المولود بأولى أن يكن معنيات بذلك من الأمهات.

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «وَٱتَّقُواْ ٱللهَ»، وخافوا الله فيما فرضَ لبعضكم على بعض من الحقوق، وفيما ألزم نساءَكم لرجالِكم ورجالَكم لنسائِكم، وفيما أوجبَ عليكم لأولادِكم، فاحذروه أنْ تخالفوه فتعتَدُوا في ذلك ـ وفي غيره من فرائضه وحقوقه ـ حدودَه، فتستوجبوا بذلك عقوبته ـ «وَٱعْلَمُواْ أَنَّ ٱللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ» من الأعمال، أيّها الناس، سرِّها وعلانيتها، وخَفِيِّها وظاهرها، وخَيْرِها وشرها ـ «بَصِيرٌ»، يراهُ ويعلمه، فلا يخفى عليه شيءٌ، ولا يَتَغيَّبُ عنه منه شيءٌ، فهو يُحصِي ذلك كله عليكم، حتى يجازيكم بخيرِ ذلك وشَرِّهِ.

ومعنى «بَصِيرٌ»، ذو إبصار، وهو في معنى «مُبصر».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًاۖ

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: والذين يتوفَّون منكم، من الرجال، أيها الناس، فيموتون، ويذرون أزواجاً، يتربَّصُ أزواجُهن بأنفسهن.

فإن قال قائل: فأين الخبر عن «وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ»؟

قيل: متروك، لأنه لم يقصد قَصْدَ الخبر عنهم، وإنما قصدَ قصد الخبر عن الواجب على المعتدَّاتِ من العدَّة في وفاة أزواجهن، فَصَرَفَ الخبرَ عن الذين ابتدأ بذكرهم من الأموات، إلى الخبرِ عن أزواجهم والواجب عليهنّ من العدة، إذْ كان معروفاً مفهوماً معنى ما أُريدَ بالكلام. وهو نظيرُ قولِ القائل في الكلام: «بعضُ جُبَّتك متخرِّقة»، في ترك الخبر عما ابتدئ به الكلام، إلى الخبر عن بعض أسبابه، وكذلك الأزواج اللواتي عليهن التربُّص، لمّا كان إنما ألزمهن التربُّص بأسباب أزواجهن، صرَفَ الكلامَ عن خبر من ابتدئ بذكره، إلى الخبر عمن قصدَ قصدَ الخبر عنه.

البقرة: ٢٣٤

وأما قوله: «يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ»، فإنه يعني به: يحتبسن بأنفسهن - معتدَّاتٍ عن الأزواج، والطِّيب، والزينة، والنُّقلة عن المسكن الذي كُنَّ يسكنه في حياة أزواجهن - أربعة أشهر وعشراً، إلا أن يكنّ حوامل، فيكون عليهنّ من التربُّص كذلك إلى حين وَضع حملهنّ. فإذا وضعن حملهنَّ، انقضت عددُهنَّ حينئذ.

فإن قال لنا قائل: وكيف قيل: «يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً»، ولم يقل: وعشرة؟ وإذ كان التنزيل كذلك: أفَبِاللَّيالي تعتدُّ المُتَوفَّى عنها العشرَ، أم بالأيامِ؟

قيل: بل تعتدُّ بالأيامِ بلياليها.

فإن قال: فإذْ كان ذلك كذلك، فكيف قيل: «وَعَشْراً»؟ ولم يقل: وعشرة؟ والعشر بغير «الهاء» من عدد الليالي دون الأيام؟ فإنْ جاز ذلك المعنى فيه ما قلت، فهل تجيز: «عندي عشر»، وأنت تريد عشرةً من رجال ونساء؟

قلت: ذلك جائزٌ في عدد الليالي والأيام، وغير جائز مثله في عدد بني آدم من الرجال والنساء، وذلك أن العرب في الأيام والليالي خاصة، إذا أبهمت العدد، غلبت فيه الليالي، حتى إنهم فيما روي لنا عنهم ليقولون: «صُمنا عشراً من شهر رمضان»، لتغليبهم الليالي على الأيام. وذلك أن العدد عندهم قد جرى في ذلك بالليالي دون الأيام. فإذا أظهروا مع العدد مفسِّره، أسقطوا من عدد المؤنث «الهاء»، وأثبتوها في عدد المذكر، كما قال تعالى ذِكْرُهُ: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً﴾ [الحاقة: ٧]، فأسقط «الهاء» من «سبع» وأثبتها في «الثمانية».

وأما بنو آدم، فإنَّ من شأن العرب إذا اجتمعت الرجالُ والنساء، ثم أبهمت عددها: أن نخرجه على عدد الذُّكران دون الإناث. وذلك أن الذُّكران

من بني آدم مَوْسومٌ واحدُهم وجمعه بغير سمة إناثهم، وليس كذلك سائر الأشياء غيرهم. وذلك أن الذكور من غيرهم ربما وُسم بِسِمة الأنثى، كما قيل للذكر والأنثى «شاة»، وقيل للذكور والإناثِ من البقر: «بقر»، وليس كذلك في بني آدم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: فإذا بلغن الأجلَ الذي أبيح لهن فيه ما كان حُظِر عليهنّ في عددهن من وفاة أزواجهن ـ وذلك بعد انقضاء عِدَدهن، ومضيِّ الأشهرِ الأربعة والأيام العشرة ـ «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ»، يقول: فلا حرجَ عليكم أيها الأولياء ـ أولياء المرأة ـ فيما فعل المُتَوفَّى عنهن حينئذٍ في أنفسهن، من تطيُّبٍ وتزيُّن ونُقْلة من المسكنِ الذي كُنَّ يعتددن فيه، ونكاح من يجوز لهن نكاحُه، «بِالْمَعْرُوفِ»، يعني بذلك: على ما أذِن الله لهن فيه وأباحه لهنّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: «وَٱللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ»، أيها الأولياء، في أمر من أنتم وليُّه من نسائكم، من عَضْلِهنّ وإنكاحهنّ ممن أردن نكاحَه بالمعروف، ولغير ذلك من أموركم وأمورهم، «خَبِيرٌ»، يعني ذو خبرة وعلم، لايخفى عليه منه شيء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: ولا جناحَ عليكم، أيها الرجالُ، فيما عرَّضتم به من خطبةِ النساء، للنساء المعتدَّات من وفاةِ أزواجهن في عِددهن، ولم تُصرِّحوا بعقد نكاح.

«والخِطبة» عندي هي «الفِعْلة» من قول القائل: «خطبت فلانة» كـ«الجِلسة»، من قوله: «جلس» أو «القِعدة» من قوله «قعد».

ومعنى قولهم: «خطب فلانٌ فلانة»، سألها خَطْبه إليها في نفسها، وذلك حاجته، من قولهم: «ماخَطْبك»؟ بمعنى: ما حاجتك، وما أمرك؟

وأما «التعريض»، فهو ما كان من لَحْن الكلام الذي يفهم به السامعُ الفَهِم ما يُفهم بصريحه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ»، أو أخفيتم في أنفسكم فأسررتموه، من خِطبتهن، وعَزْمِ نكاحهن وهن في عِددهن، فلا جُناحَ عليكم أيضاً في ذلك، إذا لم تعزموا عقدةَ النكاح حتى يبلغ الكتابُ أجله.

وفي إباحة الله تعالى ذِكْرُهُ ما أباحَ من التعريضِ بنكاح المعتدة لها في حال عدتها وحظره التصريح، ما أبان عن افتراقِ حكمِ التعريضِ في كل معاني الكلام وحكم التصريح، منه. وإذا كان ذلك كذلك، تبيّن أنَّ التعريضَ بالقذف غيرُ التصريح به، وأنَّ الحدَّ بالتعريض بالقذف لو كان واجباً وجوبَه بالتصريح به، لوجب من الجناح بالتعريض بالخطبة في العِدّة، نظيرُ الذي يجب بعزم عقدة النكاح فيها. وفي تفريق الله تعالى ذِكْرُهُ بين حكميهما في ذلك، الدلالة الواضحة على افتراق أحكام ذلك في القذف.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: عَلِمَ الله أنكم ستذكرون المعتدَّاتِ في عِددهن بالخطبة في أنفسكم وبألسنتكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا

اختلف أهلُ التأويلِ في معنى «السر» الذي نهى الله تعالى عباده عن مواعدةِ المعتداتِ به.

فقال بعضهم: هو الزِّنا.

وقال آخرون: بل معنى ذلك لا تأخذوا ميثاقهنّ وعهودهن في عِددهن أنْ لا ينكحن غيركم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أن يقول لها الرجل: «لا تسبقيني بنفسك».

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ولا تنكحوهن في عدتهن سراً.

وأولى الأقوال بالصواب في تأويل ذلك، تأويلُ مَنْ قال: «السر»، في هذا الموضع، الزنا. وذلك أن العرب تسمي الجماعَ وغشيانَ الرجلِ المرأة «سِراًّ»، لأن ذلك مما يكون بين الرجال والنساء في خفاءٍ غير ظاهرٍ مُطَّلَعٍ عليه، فَيُسَمَّى لخفائهِ «سِراً».

وكذلك يقال لِكُلِّ ما أخفاهُ المرءُ في نفسه: «سِراًّ». ويقال: «هو في سر قومه»، يعني: في خيارهم وشرفهم.

فلما كان «السر» إنما يوجه في كلامها إلى أحد هذه الأوجه الثلاثة، وكان

معلوماً أن أحدهن غير معنيٍّ به قوله: «وَلَكِن لا تُوَاعِدُوهُنَّ سِراً»، وهو السر الذي هو معنى الخيار والشرف، فلم يبق إلا الوجهان الآخران، وهو «السر» الذي بمعنى ما أخفته نفس المواعد بين المتواعدين، و«السر» الذي بمعنى الغشيان والجماع.

فلما لم يبق غيرهما، وكانت الدلالة واضحة على أن أحدهما غير معنيٍّ به، صحَّ أن الآخر هو المعنيُّ به.

فإن قال [قائل]: فما الدلالةُ على أنَّ مواعدةَ القولِ سراً، غير معنيٍّ به ـ على ما قال مَنْ قال إن معنى ذلك: أخذُ الرجلِ ميثاقَ المرأة أنْ لا تنكحَ غَيْرَهُ، أو على ما قال من قال: قول الرجل لها: «لاتسبقيني بنفسك»؟

قيل: لأن «السر» إذا كان المعنى الذي تأوَّله قائلو ذلك، فلن يخلو ذلك «السر» من أن يكون هو مواعدة الرجل المرأة ومسألته إيَّاها أنْ لا تنكحَ غيره، أو يكون هو النكاح الذي سألها أن تجيبه إليه، بعد انقضاء عدتها، وبعد عقده له، دون الناس غيره. فإن كان «السر» الذي نهى الله الرجلَ أنْ يُواعدَ المعتدَّاتِ، هو أخذُ العهدِ عليهنَّ أنْ لاينكحن غيره، فقد بطل أن يكون «السرُّ» معناه: ما أُخفِيَ من الأمور في النفوس، أو نطق به فلم يطَّلَع عليه، وصارت العلانية من الأمر سراً. وذلك خلاف المعقول في لغة من نزل القرآن بلسانه.

إلا أن يقول قائلُ هذه المقالة: إنما نهى الله الرجالَ عن مواعدتهن ذلك سراً بينهم وبينهن، لا أن نفس الكلام بذلك ـ وإن كان قد أعلن ـ سرٌّ.

فيقال له إن قال ذلك: فقد يجبُ أن تكون جائزة مواعدتهن النكاحَ والخطبةَ صريحاً علانية، إذ كان المنهيُّ عنه من المواعدة، إنما هو ما كان منها سراً.

فإن قال: إن ذلك كذلك، خرج من قول جميع الأمة. على أنّ ذلك ليس من قِيل أحدٍ ممن تأول الآية أن «السر» ها هنا بمعنى المعاهدة أنْ لا تنكحَ غير المعاهد.

وإن قال: ذلك غير جائز.

قيل له: فقد بطل أن يكون معنى ذلك: إسرارُ الرجل إلى المرأة بالمواعدة. لأن معنى ذلك، لو كان كذلك، لم يحرِّم عليه مواعدتها مجاهرة وعلانية، وفي كون ذلك عليه محرَّماً سرًّا وعلانية، ما أبان أنّ معنى «السر» في هذا الموضع، غير معنى إسرار الرجل إلى المرأة بالمعاهدة أن لا تنكح غيره إذا انقضت عدتها، أو يكون، إذا بطل هذا الوجهُ، معنى ذلك: الخطبة والنكاحُ الذي وعدت المرأة الرجل أن لا تعدوَه إلى غيره. فذلك إذا كان، فإنما يكون بوليٍّ وشهود علانية غير سرٍّ. وكيف يجوز أن يسمى سراً، وهو علانية لا يجوزُ إسراره؟

وفي بُطُولِ هذه الأوجه أن تكون تأويلاً لقوله: «وَلَكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِراً» بما عليه دللنا من الأدلة. وضوحُ صِحَّةِ تأويلِ ذلك أنه بمعنى الغِشيان والجماع.

وإذْ كان ذلك صحيحاً، فتأويل الآية: ولا جُناحَ عليكم، أيها الناس، فيما عرَّضتم به للمعتداتِ من وفاةِ أزواجهن، من خطبةِ النساء، وذلك حاجتُكم إليهن، فلم تُصَرِّحوا لهنَّ بالنكاح والحاجة إليهن، إذْ أكننتم في أنفسكم، فأسررتم حاجتَكم إليهن وخِطبتكم إياهن في أنفسكم، ما دُمْن في عِددهن؛ علم الله أنكم ستذكرون خِطبتهن وهُنَّ في عِددهن، فأباح لكم التعريضَ بذلك لهن، وأسقط الحرَج عما أضمرته نفوسُكم ـ حكمٌ منه ـ ولكن حرَّم عليكم أنْ تُواعِدُوهن جِماعاً في عِددهن، بأن يقول أحدكم لإحداهن في عِدتها: «قد

تزوجتك في نفسي، وإنما أنتظُر انقضاء عدتك»، فيسألها بذلك القول إمكانه من نفسها الجماعَ والمباضَعة، فحرَّم الله تعالى ذِكْرُهُ ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾

ثم قال تعالى ذِكْرُهُ: «إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا»، فاستثنى القولَ المعروفَ مما نهى عنه من مواعدة الرَّجل المرأة السرَّ، وهو من غير جنسه، ولكنه من الاستثناء الذي قد ذكرت قبل: أنه يأتي بمعنى خلاف الذي قبله في الصِّفة خاصة، وتكون «إلَّا» فيه بمعنى «لكن»، فقوله: «إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا» منه ـ ومعناه: ولكن قولوا قولًا معروفاً. فأباح الله تعالى ذِكْرُهُ أن يقولَ لها المعروفَ من القول في عِدتها، وذلك هو ما أَذِنَ له بقوله: «وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ»، ولا تُصحِّحوا عقدة النكاح في عدة المرأة المعتدة، فتُوجِبُوها بينكم وبينهن وتعقدوها قبل انقضاء العدة؛ «حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَابُ أَجَلَهُ»، يعني: يبلغن أجل الكتاب الذي بيَّنه الله تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً»، فجعل بلوغَ الأجل للكتاب، والمعنى للمتناكحين، أن لاينكح الرجلُ المرأةَ المعتدة، فيعزم عقدة النكاح عليها حتى تنقضي عدتها، فيبلغ الأجل الذي أجَّله الله في كتابه لانقضائها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۝٢٣٥﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: واعلموا، أيها الناس، أنَّ الله يعلم ما في أنفسكم من هواهُنَّ ونكاحهنّ وغير ذلك من أموركم، فاحذروه. يقول: فاحذروا الله واتقوه في أنفسكم أنْ تأتوا شيئاً مما نهاكم عنه، من عزم عُقدة نكاحهن، أو مُوَاعَدَتِهِنَّ السرَّ في عِددهن، وغير ذلك مما نهاكم عنه في شأنهنّ في حال ما هُنَّ مُعْتدَّاتٍ، وفي غير ذلك ـ «وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللهَ غَفُورٌ»، يعني: أنه ذو سترٍ لذنوبِ عباده وتغطيةٍ عليها، فيما تُكِنُّهُ نفوسُ الرجال من خطبةِ المعتدات، وذكرهم إياهنّ في حال عِددهنّ، وفي غير ذلك من خطاياهم، وقوله: «حَلِيمٌ»، يعني: أنه ذو أَنَاةٍ لا يعجَلُ على عبادهِ بعقوبتهم على ذنوبهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ»، لا حرج عليكم إنْ طلقتُم النساء. يقول: لا حرج عليكم في طلاقكم نساءَكم وأزواجَكم، «مَا لَمْ تُماسُّوهن»، يعني بذلك: ما لم تجامعوهن.

و«المماسَّة»، في هذا الموضع، كناية عن اسم الجماع.

وإنما عنى الله تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ»، المطلقات قبل الإفضاء إليهن في نكاح قد سُمِّيَ لهن فيه الصَّدَاقُ. وإنما قلنا: إنَّ ذلك كذلك، لأنَّ كل منكوحةٍ فإنما هي إحدى اثنتين: إما مسمًّى لها الصداقُ، أو غير مسمًّى لها ذلك، فعلمنا بالذي يتلو ذلك من

قوله تعالى ذِكْرُهُ، أنَّ المعنيةَ بقوله «لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ»، إنما هي المُسَمَّى لها. لأن المعنية بذلك، لو كانت غيرَ المفروض لها الصداق، لما كان لقوله: «أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً»، معنىً معقول. إذ كان لا معنى لقول قائل: «لا جناح عليكم إذا طلقتم النساء ما لم تفرضوا لهن فريضة في نكاح لم تُماسُّوهن فيه، أو ما لم تفرضوا لهن فريضة». فإذْ كان لا معنى لذلك، فمعلوم أنَّ الصحيحَ من التأويل في ذلك: لا جناح عليكم إن طلقتم المفروضَ لهن من نسائكم الصداقُ قبل أن تماسوهن، وغير المفروض لهن قبل الفرض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ»، أو تُوجِبُوا لهن. وبقوله: «فَرِيضَةً»، صداقاً واجباً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «وَمَتِّعُوهُنَّ»، وأعْطُوهُنَّ ما يتمتَّعن به من أموالكم، على أقداركم ومنازلكم من الغنى والإقتار.

ثم اختلف أهلُ التأويلِ في مَبْلَغِ ما أمرَ الله به الرجالَ من ذلك.

فقال بعضهم: أعلاه الخادمُ، ودون ذلك الوَرِقُ[1] ودونه الكُسوة.

---

(١) الوَرِق (بفتح فكسر): الدراهم المضروبة. والوَرَق (بفتحتين): المال الناطق من الإبل والغنم.

وقـال آخرون: مبلغ ذلك ـ إذا اختلف الزوجُ والمرأة فيه ـ قَدْرُ نصفِ صَدَاقِ مثل تلك المرأة المنكوحة بغير صداقٍ مُسَمًّى في عقده. وذلك قول أبي حنيفة وأصحابه.

والصواب من القول في ذلك: إنَّ الواجبَ من ذلك للمرأةِ المطلقةِ على الرجلِ على قَدْرِ عُسْرِهِ ويُسْرِهِ، كما قال الله تعالى ذِكْرُهُ: «عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ»، لا على قدر المرأة. ولو كان ذلك واجباً للمرأة على قدر صداق مثلها إلى قدر نصفه، لم يكن لقيله تعالى ذِكْرُهُ: «عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ»، معنىً مفهوم، ولكان الكلام: ومَتِّعوهُنَّ على قدرِهن وقدر نصف صَداق أمثالهن.

وفي إعلام الله تعالى ذِكْرُهُ عبادَه أن ذلك على قَدْرِ الرجلِ في عُسْرِهِ ويُسْرِهِ، لا على قدرها وقدر نصف صَداق مثلها، ما يُبين عن صحة ما قلنا، وفسادِ ما خالفه. وذلك أن المرأة قد يكون صَداقُ مثلها المال العظيم، والرجل في حال طلاقه إياها مقتِرٌ لا يملك شيئاً، فإن قُضيَ عليه بقَدْرِ نصفِ صَداقِ مثلها، أُلزِم ما يعجزُ عنه بعضُ مَنْ قد وُسِّع عليه، فكيف المقدورُ عليه؟[1] وإذا فُعل ذلك به، كان الحاكمُ بذلك عليه قد تعدَّى حُكمَ قولِ الله تعالى ذِكْرُهُ: «عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ» ـ ولكن ذلك على قَدْر عُسرِ الرجل ويُسره، لا يجاوز بذلك خادمٌ أو قيمتُها، إن كان الزوج موسَّعاً. وإن كان مُقتِراً، فأطـاق أدنى ما يكون كسوة لها، وذلك ثلاثة أثواب ونحو ذلك، قُضي عليه بذلك. وإن كان عاجزاً عن ذلك، فعلى قدر طاقته. وذلك على قدر اجتهاد الإمام العادل عند الخصومة إليه فيه.

---

(١) المقدور عليه: المضيق عليه رزقه.

واختلف أهـلُ التـأويلِ في تأويل قولـه: «وَمَتِّعُـوهُنَّ»، هلِ هو على الوجوبِ، أو على الندب؟

فقال بعضهم: هو على الوجوب، يُقضى بالمتعة في مال المطلِّق، كما يقضِي عليه بسائر الديون الواجبة عليه لغيره. وقالوا: ذلك واجب عليه لكل مطلقة، كائنة من كانت من نسائه.

وقال آخرون: المتعةُ للمطلقة على زوجها المطلِّقِها واجبةٌ، ولكنها واجبةٌ لكل مطلقةٍ سوى المطلَّقة المفروض لها الصداق. فأما المطلقة المفروضُ لها الصـداق إذا طُلِّقت قبـل الـدخول بها، فإنها لا مُتعةَ لها، وإنما لها نصفُ الصَّداق المسمَّى.

وقال آخرون: المتعة حَقٌّ لكل مطلَّقةٍ، غير أنّ منها ما يُقْضَى به على المطلِّق، ومنها ما لا يُقْضَى به عليه، ويلزمه فيما بينه وبين الله إعطاؤه.

وقـال آخـرون: لا يقضي الحـاكمُ ولا السلطان بشيء من ذلك على المطلِّق، وإنما ذلك من الله تعالى ذِكْرُهُ نَدْبٌ وإرشادٌ إلى أن تُمتَّعَ المطلَّقةُ.

وكأنَّ قائلي هذا القول ذهبوا في تركهم إيجابَ المتعة فرضاً للمطلقات، إلى أنَّ قولَ الله تعـالى ذِكْـرُهُ: «حَقًّـا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ»، وقوله: «حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ»، دلالة على أنها لو كانت واجبةً وجوبَ الحقوق اللازمة الأموالَ بكل حال، لم يُخصص المتقون والمحسنون بأنها حَقٌّ عليهم دون غيرهم، بل كان يكون ذلك معموماً به كلُّ أحدٍ من الناس.

وأما موجبوها على كُلِّ أحدٍ سوى المطلقة المفروض لها الصداق، فإنهم اعتلُّوا بأنَّ الله تعـالى ذِكْرُهُ لما قال: «وللمُطَلَقَاتِ مَتَاعٌ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ»، كان ذلـك دليلاً على أنَّ لكلِّ مطلقةٍ متاعاً سوى مَن استثناهُ الله تعالى ذِكْرُهُ في كتابه أو على لسانِ رسوله ﷺ. فلما قال: «وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن

تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ»، كان في ذلك دليل عندهم على أنَّ حَقَّها النصفُ مما فرض لها، لأن المتعة جعلها الله في الآية التي قبلها عندهم، لغير المفروض لها. فكان معلوماً عندهم بخصوص الله بالمتعة غير المفروض لها، أنَّ حكمها غير حُكم التي لم يفرض لها إذا طلَّقها قبل المسيس، فيما لها على الزوج من الحقوق.

والذي هو أولى بالصواب من القول في ذلك عندي، قولُ مَنْ قال: «لكل مطلَّقةٍ متعةٌ». لأن الله تعالى ذِكْرُهُ قال: «وَللمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ»، فجعل الله تعالى ذِكْرُهُ ذلك لكل مطلقة، ولم يخصص منهم بعضاً دون بعض، فليس لأحد إحالةُ ظاهرِ تنزيلٍ عام، إلى باطنٍ خاص، إلا بحجة يجبُ التسليمُ لها.

فإن قال قائل: فإن الله تعالى ذِكْرُهُ قد خَصَّ المطلقةَ قبل المسيس، إذا كان مفروضاً لها، بقوله: «وإنْ طَلَّقْتموهن من قبل أن تمسُّوهنَّ وقد فرضتُمْ لهن فريضةً فنصفُ ما فرضتم»، إذْ لم يجعل لها غيرَ النصف من الفريضة؟

قيل: إن الله تعالى ذِكْرُهُ إذا دلّ على وجوب شيء في بعض تنزيله، ففي دلالته على وجوبه في الموضع الذي دل عليه، الكفايةُ عن تكريره، حتى يدل على بُطُولِ فرضه. وقد دلّ بقوله: «وَللمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِٱلْمَعْرُوفِ»، على وجوب المتعة لكلِّ مطلقة، فلا حاجةَ بالعبادِ إلى تكريرِ ذلك في كل آية وسورة. وليس في دلالتـه على أن للمطلقةِ قبلَ المسيس المفروضِ لها الصداقُ نصف ما فرض لها، دلالةٌ على بُطُولِ المتعة عنه. لأنه غير مستحيلٍ في الكلام لو قيل: «وإنْ طَلَّقْتموهن من قبل أن تمسُّوهنَّ وقد فرضتُمْ لهن فريضةً فنصفُ ما فرضتم» والمتعة[1]. فلما لم يكن ذلك محالاً في الكلام، كان معلوماً أنّ نصف الفريضة

---

(١) يعني: بعطف «والمتعة» على قوله: ﴿فنصف ما فرضتم﴾.

إذا وجب لها، لم يكن في وجوبه لها نفيٌ عن حقها من المتعة، ولما لم يكن اجتماعهما للمطلقة محالاً ـ وكان الله تعالى ذِكْرُهُ قد دل على وجوبِ ذلك لها، وإن كانت الدلالة على وجوب أحدهما في آية غير الآية التي فيها الدلالة على وجوب الأخرى ـ ثبت وصحَّ وجوبُهما لها.

هذا، إذا لم يكن على أنَّ للمطلقة المفروض لها الصداق إذا طُلِّقت قبل المسيس، دلالـةٌ غير قول الله تعالى ذِكْرُهُ: «وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِٱلْمَعْرُوفِ»، فكيف وفي قول الله تعـالى ذِكْرُهُ: «لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ»، الدلالةُ الواضحةُ على أن المفروضَ لها إذا طُلِّقَتْ قبل المسيس، لها من المتعةِ مثلُ الذي لغير المفروضِ لها منها؟ وذلك أن الله تعالى ذِكْرُهُ لما قال: «لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً»، كان معلوماً بذلك أنه قد دلَّ به على حكم طلاق صِنفين من طلاق النسـاء: أحـدهما المفروض له، والآخر غيرُ المفروض له. وذلك أنه لما قال: «أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً»، عُلِمَ أنَّ الصنف الآخر هو المفروضُ له، وأنها المطلقةُ المفروضُ لها قبل المسيس. لأنه قال: «لَّا جُنَـاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَـاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ»، ثم قال تعالى ذِكْرُهُ: «وَمَتِّعُـوهُنَّ»، فأوجبَ المتعـة للصِّنفين منهن جميعاً، المفروضِ لهنَّ، وغيرِ المفروضِ لهن، فمن ادَّعى أن ذلك لأحدِ الصنفين، سُئِلَ البرهانَ على دعواه من أصلٍ أو نظيرٍ، ثم عُكس عليه القولُ في ذلك. فلن يقول في شيء منه قولاً إلا أُلزم في الآخر مثله.

وأرى أنَّ المتعة للمرأة حَقٌّ واجبٌ، إذا طلقت، على زوجها المطلِّقِها، على ما بيَّنا آنفاً ـ يؤخذ بها الزوج كما يؤخذ بصداقها، لا يُبرئه منها إلا أداؤه إليها أو إلى مَنْ يقوم مقامها في قبضها منه، أو ببراءة تكون منها له. وأرى أن سبيلها سبيل صداقها وسائر ديونها قِبَله، يحبس بها إن طلقها فيها، إذا لم يكن

له شيء ظاهر يُباع عليه، إذا امتنع من إعطائها ذلك.

وإنما قلنا ذلك، لأن الله تعالى ذِكْرُهُ قال: «وَمَتِّعُوهُنَّ»، فأمر الرجال أن يمتعوهن، وأمرُهُ فرضٌ إلا أنْ يُبيِّنَ تعالى ذِكْرُهُ أنه عنى به الندبَ والإرشاد، لما قد بينا في كتابنا المسمى بـ «لطيف البيان عن أصول الأحكام»، لقوله: «وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِٱلْمَعْرُوفِ». ولا خلافَ بين جميعِ أهلِ التأويل أنَّ معنى ذلك: وللمطلقاتِ على أزواجِهن متاعٌ بالمعروف. وإذا كان ذلك كذلك، فلن يبرأ الزوجُ مما لها عليه إلاّ بمَا وصفنا قَبْلُ، من أداءٍ أو إبراءٍ على ما قد بيَّنَّا.

فإنْ ظَنَّ ذو غباءٍ أنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ إذ قال: «حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ»، و«حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ»، أنها غير واجبةٍ، لأنها لو كانت واجبةً لكانت على المحسِن وغير المحسن، والمتَّقِي وغير المتقي، فإن الله تعالى ذِكْرُهُ قد أمرَ جميعَ خَلْقِه بأن يكونوا من المحسنين ومن المتقين، وماوَجَبَ من حقٍّ على أهلِ الإحسان والتُّقى، فهو على غيرهم أوجبُ ولهم ألزمُ.

وبعد فإن في إجماع الحجة على أن المتعة للمطلقة غير المفروض لها قبل المسيس واجبةٌ بقوله: «وَمَتِّعُوهُنَّ»، وجوبَ نصفِ الصَّدَاقِ للمطلقة المفروضِ لها قبل المسيس بقول الله تعالى ذِكْرُهُ: «فنصفُ ما فرضتم»، فيما أوجب لهما من ذلك، الدليلُ الواضح أن ذلك حَقٌّ واجبٌ لكل مطلقة بقوله: «وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِٱلْمَعْرُوفِ»، وإن كان قال: «حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ».

ومَنْ أنكر ما قلنا في ذلك، سئل عن المتعة للمطلقة غير المفروض لها قبلَ المسيس. فإنْ أنكر وجوب ذلك خرج من قول جميع الحجة، ونُوظِرَ مُنَاظَرَتَنَا المنكرينَ في عشرين ديناراً زكاة، والدافعين زكاة العروض إذا كانت للتجارة، وما أشبه ذلك. فإن أوجبَ ذلك لها، سُئِلَ الفرق بين وجوب ذلك لها، والوجوب لكل مطلَّقة، وقد شرط فيما جعل لها من ذلك بأنه حق على

المحسنين، كما شرط فيما جعل للآخر بأنه حقٌّ على المتقين. فلن يقول في أحدهما قولاً إلا أُلْزِمَ في الآخر مثله.

وأجمع الجميع على أن المطلقة غيرَ المفروض لها قبل المسيس، لا شيء لها على زوجها المُطَلِّقها غير المتعة.

وأما «ٱلْمُوسِعِ»، فهو الذي قد صار من عيشه إلى سَعَةٍ وغنًى، يقال منه: «أوسع فلانٌ فهو يُوسِع إيساعاً وهو مُوسِع».

وأما «ٱلْمُقْتِرِ»، فهو المُقِلُّ من المال، يقال: «قد أَقْتَر فهو يُقتر إقتاراً، وهو مُقْتِر».

فتأويلُ الآية إذاً: لا حرج عليكم، أيها الناس، إن طلقتم النساء وقد فرضتم لهن ما لم تماسوهن، وإن طلقتموهن ما لم تماسوهن قبل أنْ تفرضوا لهن، ومَتِّعُوهن جميعاً على ذي السعة والغِنى منكم من متاعهن حينئذٍ بِقَدْرِ غناه وسعته، وعلى ذي الإقتار والفاقة منكم منـــه بقدر فاقته وإقتاره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: ومتعوهنّ متاعاً. وقد يجوز أن يكون «مَتَاعاً» منصوباً قطعاً من «القَدَر». لأن «المتاع» نكرة، و«القَدر» معرفة.

ويعني بقوله: «بِٱلْمَعْرُوفِ»، بما أمركم الله به من إعطائكم إياهن ذلك، بغير ظلمٍ ولا مدافعةٍ منكم لهن به.

ويعني بقـولـه: «حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ»، متـاعاً بالمعروف الحق على المحسنين فلمـــا دل إدخـال «الألف والـلام» على «الحق»، وهـو من نعت

«المعروف»، و«المعروف» معرفة و«الحق» نكرة، نُصب على القطع منه، كما يقال: «أتاني الرجل راكباً».

ويعني بقوله: «ٱلْمُحْسِنِينَ»، الذين يحسنون إلى أنفسهم في المسارعة إلى طاعة الله فيما ألزمهم به، وأدائهم ما كلَّفهم من فرائضه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ

وهذا الحكم من الله تعالى ذِكْرُهُ، إبانةٌ عن قوله: «لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً». وتأويلُ ذلك: لا جُناح عليكم أيها الناس إن طلقتم النساء ما لم تُماسُّوهنَّ وقد فرضتم لهنّ فريضة، فلهن عليكم نصفُ ما كنتم فرضتم لهنّ من قبل طلاقكم إياهنّ، يعني بذلك: فلهن عليكم نصفُ ما أَصْدَقْتُموهن.

وإنما قلنا إن تأويل ذلك كذلك، لما قد قدمنا البيانَ عنه من أن قوله: «أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً»، بيانٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ لعبادِه حُكْمَ غير المفروضِ لهنّ إذا طلقهنّ قبـل المسيس. فكان معلوماً بذلك أن حكم اللواتي عطف عليهنّ بـ«أو»، غير حكم المعطوف بهنّ بها.

وإنما كرّر تعالى ذِكْرُهُ قوله: «وإنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً»، وقد مضى ذكرهنّ في قوله: «لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ»، ليزول الشك عن سامعيه واللبس عليهم، من أنْ يظنُّوا من أن التي حُكْمُهَا الحكمُ الذي وصفه في هذه الآية، هي غير التي ابتدأ بذكرها وذكر حكمها في الآية التي قبلَها.

وأما قوله: «إلَّآ أَن يَعْفُونَ»، فإنه يعني: إلاّ أن يعفو اللواتي وجبَ لهن

عليكم نصف تلك الفـريضة، فَيَتْرُكنهُ لكم ويَصْفَحْنَ لكم عنه تفضُّلاً منهنّ بذلك عليكم، إنْ كُنَّ ممن يجوز حكمه في ماله وهنّ بوالغ رشيدات، فيجوز عفوهنّ حينئذٍ ما عفون عنكم من ذلك، فيسقط عنكم ما كُنَّ عفون لكم عنه منه. وذلك النصفُ الذي كان وجب لهنّ من الفريضة بعد الطلاق وقبل العفو إنْ عَفَتْ عنه ـ أو ما عفت عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تعالى: أَوْيَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ

اختلف أهلُ التأويلِ فيمن عنى الله تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «ٱلَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ».

فقال بعضهم: هو وليُّ البكر. وقالوا: ومعنى الآية: أو يترك، الذي يلي على المرأةِ عقدَ نكاحها من أوليائها، للزوج النصفَ الذي وجب للمطلَّقة عليه قبل مسيسه فيصفحَ له عنه، إنْ كانت الجارية ممن لا يجوز لها أمرٌ في مالها.

وقال آخرون: بل الذي بيده عقدةُ النكاح، الزوج. قالوا: ومعنى ذلك: أو يعفو الذي بيده نكاح المرأة فيعطيها الصداقَ كاملاً.

وأولى القولين في ذلك بالصواب قولُ مَنْ قال: المعنيُّ بقوله: «ٱلَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ»، الزوجُ، وذلك لإجماع الجميع على أن وليَّ جاريةٍ بِكْرٍ أو ثيِّبٍ، صبيةً صغيرةً كانت أو مدركة كبيرة، لو أبرأ زوجها من مهرها قبل طلاقه إياها، أو وهبه له أو عفا له عنه ـ أنّ إبراءه ذلك وعفوه له عنه باطلٌ، وأنَّ صَدَاقها عليه ثابت ثبوته قبل إبرائه إياه منه. فكان سبيلُ ما أبرأه من ذلك بعد طلاقه إياها، سبيلَ ما أبرأه منه قبل طلاقه إياها.

وأخرى: أن الجميع مُجْمِعُونَ على أنَّ وليَّ امرأةٍ محجورٍ عليها أو غير محجور عليها، لو وهب لزوجها المطلِّقها بعد بينونتها منه درهماً من مالها، على

غير وجه العفو منه عما وجب لها من صداقها قِبَله، أنَّ هبته ما وهبَ من ذلك مردودةٌ باطلةٌ. وهم مع ذلك مجمعون على أنَّ صداقها مالٌ من مالها، فحكمه حكم سائر أموالها.

وأخـرى: أن الجميع مجمعون على أن بني أعمام المرأة البكر وبني إخوتها من أبيها وأمها من أوليائها، وأن بعضهم لو عفا عن مالها [لزوجها، قبل دخوله بها] أو بعد دخوله بها: أنَّ عفوهُ ذلك عما عفا له عنه منه باطل، وأنّ حق المرأة ثابتٌ عليه بحاله. فكذلك سبيلُ عفو كلِّ وليٍّ لها كائناً مَنْ كان من الأولياء، والداً كان أو جَداً أو خالاً. لأن الله تعالى ذِكْرُهُ لم يخصص بعضَ الذين بأيديهم عُقد النكاح دون بعضٍ في جوازِ عفوهِ، إذا كانوا ممن يجوزُ حكمه في نفسه وماله.

ويقال لمن أبى ما قلنا ـ ممن زعم أنَّ «ٱلَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ»، وليُّ المرأة ـ: هل يخلو القول في ذلك من أحد أمرين، إذ كان الذي بيده عقدة النكاح هو الولي عندك: إما أن يكون ذلك كلّ ولي جاز له تزويج وَلِيَّتِهِ، أو يكون ذلك بعضهم دون بعض؟ فلن يجد إلى الخروج من أحد هذين القسمين سبيلاً.

فإن قال: إن ذلك كذلك.

قيل له: فأي ذلك عُني به؟

فإن قال: لكل وليّ جاز له تزويج وليَّته.

قيل له: أفجائزٌ للمعتقِ أمةً تزويج مولاته بإذنها بعد عتقه إياها؟

فإن قال: نعم!

قيل له: أفجائزٌ عَفْوهُ إنْ عفا عن صَدَاقِها لزوجها بعد طلاقه إياها قبل المسيس؟

فإن قال: نعم خرجَ من قولِ الجميع. وإنْ قال: لا! قيل له: ولِمَ؟ وما الذي حظَر ذلك عليه وهو وليها الذي بيده عقدةُ نكاحها؟

ثم يعكس القول عليه في ذلك، ويسأل الفرقَ بينه وبين عفو سائر الأولياء غيره.

وإن قال: لبعضٍ دون بعض.

سُئِل البرهانَ على خصوصِ ذلك، وقد عَمَّهُ الله تعالى ذِكْرُهُ فلم يخصصْ بعضاً دون بعض.

ويقال له: مَن المعنيُّ به، إنْ كان المراد بذلك بعضَ الأولياء دون بعض؟

فإنْ أومأ في ذلك إلى بعض منهم، سُئل البرهان عليه، وعُكس القولُ فيه، وعُورِضَ في قوله ذلك بخلافِ دعواه. ثم لن يقولَ في ذلك قولاً إلا أُلزم في الآخر مثله.

فإن ظنّ ظان أن المرأة إذا فارقها زوجها فقد بطل أن يكون بيده عُقدة نكاحها، والله تعالى ذِكْرُهُ إنما أجاز عفوَ الذي بيده عقدة نكاحِ المطلَّقةِ، فكانَ معلوماً بذلك أنَّ الزوجَ غير معنيٍّ به. وأن المعنيَّ به هو الذي بيده عقدةُ نكاحِ المطلَّقة بعد بَيْنُونتها من زوجها. وفي بُطُولِ ذلك أن يكونَ حينئذ بيد الزوج، صحةُ القول أنه بيد الولي الذي إليه عَقْدُ النكاحِ إليها. وإذا كان ذلك كذلك، صَحَّ القولُ بأنَّ الذي بيده عقدة النكاح هو الولي ـ فقد أغفل وظن خطأ.

وذلك أن معنى ذلك: أو يعفوَ الذي بيده عُقدة نكاحه، وإنما أدخلت «الألف واللام» في «ٱلنِّكَاحِ» بدلاً من الإضافة إلى «الهاء» التي كان «ٱلنِّكَاحِ» ـ لو لم يكونا فيه ـ مضافاً إليها، كما قال الله تعالى ذِكْرُهُ: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤١]، بمعنى: فإنَّ الجنةَ مأواه.

فتأويلُ الكلام: إلا أن يعفونَ أو يعفوَ الذي بيده عقدة نكاحه، وهو الزوجُ الذي بيده عقدةُ نكاحِ نفسهِ في كل حال قبل الطلاق وبعده؛ لا أن معناه: أو يعفوَ الذي بيده عقدة نكاحهن، فيكون تأويل الكلام ما ظنه القائلون أنه الولي وليُّ المرأة. لأن وليَّ المرأةِ لايملكُ عقدة نكاح المرأة بغير إذنها، إلا في حالِ طُفولتها، وتلك حالٌ لا يملكُ العقدَ عليها إلا بعضُ أوليائها، في قول أكثر مَنْ رأى أنَّ الذي بيده عُقدة النكاح الولي. ولم يخصص الله تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ» بعضاً منهم، فيجوزُ توجيه التأويل إلى ما تأوّلوه، لو كانَ لِمَا قالوا في ذلك وَجْهٌ.

وبعد، فإن الله تعالى ذِكْرُهُ إنما كنى بقوله: «وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ» عن ذكر النساء اللاتي قد جرى ذكرهنّ في الآية قبلها، وذلك قوله: «لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ»، والصبايا لا يُسَمَّيْنَ «نساء»، وإنما يسمين صَبايا أو جواري، وإنما «ٱلنِّسَآءَ» في كلام العرب أجمع، اسم المرأة، ولا تقول العرب للطفلة والصبية والصغيرة «امرأة»، كما لا تقول للصبي الصغير «رجل».

وإذا كان ذلك كذلك، وكان قوله: «أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ»، عند الزاعمين أنه الوليُّ إنما هو: أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح عما وجب لوليته التي تستحق أن يولِّي عليها مالَها إمّا الصغرُ وإمّا السفهُ، والله تعالى ذِكْرُهُ إنما اقتص في الآيتين قَصص النساء المطلقاتِ لعمومِ الذِّكْرِ دون خصوصه، وجعل لهن العفو بقوله: «إِلَّآ أَن يَعْفُونَ»، كان معلوماً بقوله: «إِلَّآ أَن يَعْفُونَ»، أنَّ المعنياتِ منهن بالآيتين اللتين ذكرهن فيهما جميعهنّ دون بعض، إذْ كان معلوماً أنَّ عفو مَنْ تولّى عليه ماله منهن باطل.

وإذْ كان ذلك كذلك، فبيِّنٌ أنَّ التأويلَ في قوله: أو يعفو الذي بيده عقدة

نكاحهن. يوجبُ أنْ يكونَ لأولياء الثَّيِّبَاتِ الرُّشَّدِ البوالغ، من العفو عما وَجَبَ لهنّ من الصَّـدَاقِ بالطلاق قبل المسيس، مثل الذي لأولياء الأطفال الصِّغار المولَّي عليهن أموالَهنّ السفهُ. وفي إنكار القائلين: «إن الذي بيده عقدة النكاح الـوليّ»، عفـو أولياء الثيبـات الـرشَّـد البوالغ على ما وصفنا، وتفريقهم بين أحكامهم وأحكام أولياء الأخرَ ـ ما أبانَ عن فسادِ تأويلهم الذي تأولوه في ذلك.

ويسأل القائلون بقولهم في ذلك، الفرقَ بين ذلك من أصلٍ أو نظيرٍ، فلن يقولوا في شيء من ذلك قولاً إلا ألزموا في خلافه مثله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ

اختلف أهلُ التأويلِ فيمن خوطب بقوله: «وَأَنْ تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى».

فقال بعضهم: خُوطِبَ بذلك الرجالُ والنساء.

وقال آخرون: بل الذين خوطبوا بذلك أزواجُ المطلقات.

والذي هو أولى القولين بتأويل الآية عندي في ذلك: وأنْ يعفو بعضُكم لبعضٍ ـ أيها الأزواج والزوجات، بعد فراق بعضكم بعضاً عما وَجَبَ لبعضكم قِبَلَ بعضٍ، فيتركه له إنْ كان قد بقي له قِبَله. وإن لم يكن بقيَ له، فَبِأَنْ يُوفيه بتمامهِ ـ أقربُ لكم إلى تقوى الله.

فإن قال قائل: ما في الصفحِ عن ذلك من القُرْب من تقوى الله، فيقال للصافح العافي عما وجب له قِبَل صاحبِهِ: فِعْلُكَ ما فعلتَ أقربُ لكَ إلى تقوى الله؟

قيل له: الذي في ذلك من قربه من تقوى الله، مسارعتُه في عفوه ذلك إلى ما نَدَبَهُ الله إليه، ودعاه وحضَّه عليه. فكان فِعْلُهُ ذلك ـ إذا فعله ابتغاء

مرضاة الله، وإيثارَ ما ندبه إليه على هوى نفسه ـ معلوماً به، إذْ كان مُؤْثِراً فِعْلَ ما ندبه إليه مما لم يفرضه عليه على هوى نفسه: أنه لِمَا فَرَضَهُ عليه وأوجبه أشدّ إيثاراً، ولِمَا نهاهُ أشد تجنباً. وذلك هو قربه من التقوى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولا تُغفلوا، أيها الناسُ، الأخذَ بالفضلِ بعضكم على بعض فتتركوه، ولكن ليتفضَّل الرجلُ المطلق زوجتَه قبلَ مسيسها، فيكمل لها تمامَ صَدَاقها إنْ كان لم يُعْطِها جَميعَهُ، وإنْ كان قد ساق إليها جميعَ ما كان فَرَضَ لها، فليتفضلْ عليها بالعفو عما يجبُ له ويجوز له الرجوعُ به عليها، وذلك نصفه، فإنْ شحَّ الرجل بذلك وأبى إلا الرجوعَ بنصفه عليها، فلتتفضل المرأة المطلَّقة عليه بردِّ جميعهِ عليه، إنْ كانت قد قبضته منه، وإنْ لم تكن قبضته، فتعفو [عن] جميعه. فإن هما لم يفعلا ذلك وشحَّا وتركا ما نَدَبَهُمَا الله إليه ـ من أخْذِ أحدهما على صاحبه بالفضلِ ـ فلها نصفُ ما كان فرض لها في عقد النكاح وله نصفه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: «إِنَّ آللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ»، أيها الناس مما نَدَبكم إليه وحضَّكم عليه، من عفوِ بعضكم لبعضٍ عما وَجَبَ له قِبَلَه من حَقٍّ بسببِ النكاحِ الذي كان بينكم وبين أزواجكم، وتفضُّلِ بعضكم على بعضٍ في ذلك، وفي غيره مما تأتون وتذرون من أموركم في أنفسكم وغيركم مما حثَّكم الله عليه وأمركم به أو نهاكم عنه؛ «بَصِيرٌ»، يعني بذلك: ذو بصر، لا يخفى عليه منه شيء من ذلك، بل هو يُحصيه عليكم ويحفظه، حتى يجازي ذا الإحسانِ منكم على إحسانهِ، وذا الإساءةِ منكم على إساءته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: واظِبوا على الصلواتِ المكتوباتِ في أوقاتهن، وتعاهَدُوهُنَّ والزَمُوهن، وعلى الصلاة الوسطى منهنّ.

ثم اختلفوا في «وَٱلصَّلَاةِ ٱلْوُسْطَى». فقال بعضهم: هي صلاةُ العصر.

وقال آخرون: بل الصلاةُ الوسطى صلاةُ الظهر.

وقال آخرون: بل الصلاة الوسطى صلاةُ المغرب.

وقال آخرون: بل هي صلاة الغَداة.

وقال آخرون: هي إحدى الصلوات الخمس، ولا نعرفها بعينها.

والصوابُ من القولِ في ذلك ما تظاهرتْ به الأخبارُ عن رسولِ الله ﷺ هو أنها العصر.

والذي حثَّ الله تعالى ذِكْرُهُ عليه من ذلك، نظيرُ الذي رُوِي عن رسول الله ﷺ في الحَثِّ عليه.

وإنما قيل لها «ٱلْوُسْطَى» لِتَوَسُّطِها الصلواتِ المكتوباتِ الخمس، وذلك أن قبلها صلاتين، وبعدها صلاتين، وهي بين ذلك وُسطاهنّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾

اختلف أهلُ التأويلِ في معنى قوله: «قَانِتِينَ».

فقال بعضهم: معنى «القنوت»، الطاعة. ومعنى ذلك: وقوموا لله في

صلاتكم مُطيعين له فيما أمركم به فيها ونهاكم عنه.

وقال آخرون: «القنوت» في هذه الآية، السكوتُ. وقالوا: تأويل الآية: وقوموا لله ساكتين عما نَهاكُم الله أنْ تتكلموا به في صلاتكم.

وقال آخرون: «القنوت» في هذه الآية، الركودُ في الصلاة والخشوعُ فيها. وقالوا في تأويل الآية: وقوموا لله في صلاتكم خاشعينَ، خافضي الأجنحةِ، غيرَ عابثينَ ولا لاعبينَ.

وقال آخرون: بل «القنوت»، في هذا الموضع، الدُّعَاءُ. قالوا: تأويل الآية: وقوموا لله راغبين في صَلاتكم.

وأولى هذه الأقوال بالصواب في تأويل قوله: «وَقُومُواْ لله قَانِتِينَ»، قولُ مَنْ قال: تأويله: «مطيعين».

وذلك أنّ أصل «القنوت»، الطاعة، وقد تكون الطاعة لله في الصلاة بالسكوت عما نهاه الله عنه من الكلام فيها[١]. ولذلك وجَّه مَنْ وجّه تأويلَ «القنوت» في هذا الموضع، إلى السكوت في الصلاة ـ أحد المعاني التي فرضها الله على عباده فيها ـ إلاّ عن قراءةِ قرآنٍ أو ذكرٍ له بما هو أهله.

وقد تكون الطاعةُ لله فيها بالخشوعِ، وخفضِ الجناح، وإطالةِ القيام، وبالدعاء، لأنَّ كل ذلك غير خارج من أحدِ معنيين[٢]: من أنْ يكونَ مما أُمِرَ به المصلِّي، أو مما نُدِبَ إليه، والعبدُ بكل ذلك لله مطيعٌ، وهو لربه فيه قانتٌ.

---

(١) في المطبوعة: «عما نهى الله من الكلام»، وفي المخطوطة «عما نهاه الله»، والزيادة بين القوسين لابد منها، كأنها سقط من ناسخ.

(٢) في المطبوعة: «لأن كلًا غير خارج»، وفي المخطوطة: «لأن كل غير خارج»، فرجحت سقوط «ذلك» من ناسخ المخطوطة، واجتهد مصحح المطبوعة.

و«القنوت» أصله الطاعة لله، ثم يستعمل في كل ما أطاع الله به العبدُ.

فتأويل الآية إذاً: حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى، وقوموا لله فيها مطيعين، بتركِ بعضِكم فيها كلام بعض وغير ذلك من معاني الكلام، سوى قراءةِ القرآن فيها، أو ذكرِ الله بالذي هو أَهْلُهُ، أو دعائه فيها، غيرَ عاصين لله فيها بتضييعِ حدودها، والتفريطِ في الواجبِ لله عليكم فيها وفي غيرها من فرائضِ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: وقوموا لله في صلاتكم مطيعين له ـ لما قد بَيَّنّاه من معناه ـ فإنْ خفتم من عدوٍّ لكم، أيها الناس، تخشونهم على أنفسكم في حال التقائكم معهم أنْ تصلُّوا قياماً على أرجلكم بالأرض قانتين لله ـ فصلوا «رجالاً»، مُشَاةً على أرجلكم، وأنتم في حربكم وقتالكم وجهاد عدوكم ـ «أَوْ رُكْبَاناً»، على ظهورِ دوابكم، فإنَّ ذلك يجزيكم حينئذٍ من القيام منكم، قانتين.

والخوفُ الذي للمصلِّي أن يصلِّي من أجله المكتوبةَ ماشياً راجلاً، وراكباً جائلاً، الخوفُ على المهجةِ عند السَّلَّة والمسايفة[1] في قتال مَنْ أمر بقتاله، من عدوٍ للمسلمين، أو محارب، أو طَلب سبع، أو جملٍ صائل، أو سيلٍ سائل فخاف الغرقَ فيه.

وكل ما الأغلبُ من شأنهِ هلاك المرء منه إنْ صلى صلاة الأمن، فإنه

---

(١) المهجة: الروح، وخالص النفس. والسلة: استلالُ السيوف، يقال: «أتيناهم عند السلة»، أي عند استلال السيوف إذا حميَ الوطيس.

إذا كان ذلك كذلك، فله أنْ يُصلِّي صلاةَ شِدَّةِ الخوفِ حيثُ كان وجهُهُ، يُومئُ إيماء لعمومِ كتابِ الله: «فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً»، ولم يخص الخوف على ذلك على نوعٍ من الأنواع، بعد أن يكونَ الخوفُ، صفته ما ذكرت.

وأما عدد الركعات في تلك الحال من الصلاة، فإني أحب أنْ لا يُقصِّر من عَددها في حال الأمن، وإن قصَّر عن ذلك فصلى ركعة، رأيتها مجزئة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾

وتأويل ذلك: «فَإِذَا أَمِنْتُمْ»، أيها المؤمنون، من عدوِّكم أنْ يقدِرَ على قتلكم في حال اشتغالِكم بصلاتِكم التي فرضها عليكم ـ ومن غيره ممن كنتم تخافونه على أنفسكم في حال صلاتكم ـ فاطمأننتم، «فَٱذْكُرُواْ ٱللهَ» في صلاتكم وفي غيرها بالشكرِ له والحمدِ والثناءِ عليه، على ما أنعم به عليكم من التوفيقِ لإصابة الحق الذي ضَلَّ عنه أعداؤكم من أهلِ الكفر بالله، كما ذَكَركم بتعليمه إياكم من أحكامِه، وحلالهِ وحرامِه، وأخبارِ مَنْ قَبْلكم من الأممِ السالفة، والأنباءِ الحادثةِ بعدكم ـ في عاجل الدنيا وآجل الآخرة، التي جَهِلَهَا غيرُكم وبصَّركم، من ذلك وغيره، إنعاماً منه عليكم بذلك، فعلَّمكم منه ما لم تكونوا مِنْ قَبْلِ تعليمِهِ إياكم تعلمون.

وقوله هٰهنا: «فَٱذْكُرُواْ ٱللهَ»، قال: الصلاة، «كَمَا عَلَّمَكُمْ مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ».

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ

البقـرة: ٢٤٠

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: «وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ»، أيها الرجال ويذرُون أزواجاً ـ يعني زوجات كن له نساءً في حياته، بنكاح ـ لا ملك يمين. ثم صرف الخبر عن ذكر من ابتدأ الخبر بذكره. نظيرَ الذي مضى من ذلك في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْواجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً﴾ [البقرة: ٢٣٤] إلى الخبر عن ذكر أزواجهم. وقد ذكرنا وجه ذلك، ودللنا على صحة القولِ فيه في نظيره الذي قد تقدم قبله، فأغنى ذلك عن إعادته في هذا الموضع.

ثم قال تعالى ذكره: «وَصِيَّةً لأَزْواجِهِمْ». فاختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك:

فقرأ بعضهم: «وَصِيَّةً لأَزْواجِهِمْ»، بنصب «الوصية»، بمعنى: فليوصوا وصيةً لأزواجهم، أو: عليهم [أن يوصوا] وصية لأزواجهم.

وقرأ آخرون: ﴿وَصِيَّةٌ لأَزْواجِهِمْ﴾ برفع «الوصية».

وأولى القراءتين بالصواب في ذلك عندنا قراءة من قرأه رفعاً، لدلالةِ ظاهر القرآن على أن مُقام المتوفى عنها زوجها في بيت زوجها المتوفَّى حولاً كاملاً، كان حقاً لها قبل نزول قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْواجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً﴾ [البقرة: ٢٣٤]، وقبل نزول آية الميراث، ولتظاهرِ الأخبارِ عن رسولِ الله ﷺ بنحو الذي دل عليه الظاهرُ من ذلك، أوصى لهنَّ أزواجهنَّ بذلك قبل وفاتهن، أوْ لم يوصوا لهن به.

فإن قال قائل: وما الدلالة على ذلك؟

قيل: لمّا قال الله تعالى ذِكْرُهُ: «وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْواجاً وَصِيَّةً لأَزْواجِهِمْ»، وكان الموصي لاشك، إنما يُوصي في حياته بما يأمر بإنفاذه بعد وفاته، وكان محالاً أن يوصي بعد وفاتِه، وكان الله تعالى ذِكْرُهُ إنما جعل لامرأةِ الميتِ سكنَ الحول بعد وفاته، علمنا أنه حقٌّ لها وَجَبَ في ماله بغير

وصية منه لها، إذ كان الميت مستحيلاً أن تكون منه وصيةٌ بعد وفاته.

ولو كان معنى الكلام على ما تأوله مَنْ قال: «فليوص وصية»، لكان التنزيل والذين تَحْضُرهُمُ الوفاةُ ويَذَرُونَ أزواجاً، وصيةٌ لأزواجهم، كما قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾ [البقرة:١٨].

وبعدُ، فلو كان ذلك واجباً لهن بوصيةٍ من أزواجهن المتوفّين، لم يكن ذلك حقاً لهن إذا لم يوص أزواجهن لهن به قبل وفاتهم، ولكان قد كان لورثتهم إخراجهن قبل الحول، وقد قال الله تعالى ذِكْرُهُ: «غَيْرَ إِخْرَاجٍ». ولكن الأمر في ذلك بخلاف ما ظنه في تأويله قارئُه: «وَصِيَّةٌ لأَزْوَاجِهِمْ»، بمعنى: أن الله تعالى كان أمر أزواجهن بالوصية لهنّ. وإنما تأويل ذلك: والذين يُتوفَّون منكم ويذرون أزواجاً، كتب الله لأزواجهم عليكم وصيةً منه لهن أيها المؤمنون ـ أنْ لا تُخْرِجُوهن من منازل أزواجهن حولاً، كما قال تعالى ذِكْرُهُ في «سورة النساء» ﴿غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ ٱللهِ﴾ [النساء:١٢]، ثم ترك ذكر: «كتب الله»، اكتفاءً بدلالةِ الكلامِ عليه، ورفعت «الوصية» بالمعنى الذي قلنا قبل.

وقال بعضهم: إنَّ سُكنى حولٍ كاملٍ كان حقاً لأزواج المتوفّين بعد موتهم ـ على ما قلنا ـ أوصَى بذلك أزواجهن لهن أو لم يوصوا لهن به، وأنّ ذلك نُسخ بما ذكرنا من الأربعة الأشهر والعَشْر والميراث.

وقال آخرون: كان ذلك يكون لهن بوصية من أزواجهن لهن به.

وقال آخرون: نَسخ ذلك ما كان لهن من المتاع إلى الحول، من غير تبيينه على أيِّ وجهٍ كان ذلك لهن.

وقال آخرون: هذه الآية ثابتةُ الحكم، لم ينسخ منها شيء.

وأولى هذه الأقوال عندي في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذِكْرُهُ كان جعل لأزواج مَنْ مات من الرجال بعد موتهم، سُكنى حولٍ في منزله،

ونفقتها في مال زوجها الميت إلى انقضاء السنة، ووَجَبَ على ورثةِ الميت أنْ لا يُخرجوهن قبل تمامِ الحولِ من المسكن الذي يَسْكُنُهُ، وإنْ هن تركن حقهنّ من ذلك وخرجن، لم تكن ورثة الميت من خروجهن في حرج. ثم إن الله تعالى ذِكْرُهُ نَسَخَ النفقةَ بآيةِ الميرَاث، وأبطل ما كان جعل لهن من سكنى حول سبعة أشهر وعشرين ليلة، وردَّهن إلى أربعة أشهر وعشر، على لسانِ رسول الله ﷺ.

وأما قوله: «مَّتَاعاً»، فإنَّ معناه: جعل ذلك لهن متاعاً، أي الوصية التي كتبها الله لهنّ.

وقوله: «غَيْرَ إِخْرَاجٍ»، فإن معناه أنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ جعل ما جعل لهن من الوصيةِ متاعاً منه لهنّ إلى الحول، لا إخراجاً من مسكن زوجها - يعني: لا إخراجَ فيه منه حتى ينقضي الحول. فنصب «غيْرَ» على النعت لِـ «المتاع»، كقول القائل: «هذا قيامٌ غير قعود»، بمعنى: هذا قيامٌ لا قعودَ معه، أو: لا قعودَ فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: أنَّ المتاعَ الذي جعله الله لهنّ إلى الحول في مال أزواجهن بعد وفاتهم وفي مساكنهم، ونهى ورَثته عن إخراجهن، إنما هو لهنَّ ما أقمنَ في مساكن أزواجهنَّ، وأن حقوقهن من ذلك تَبْطُلُ بخروجهنَّ إنْ خرجنَ من منازل أزواجهن قَبْلَ الحول من قِبَلِ أنفسهن، بغير إخراجٍ من ورثةِ الميت.

ثم أخبر تعالى ذِكْرُهُ: أنه لا حَرَجَ على أولياءِ الميتِ في خروجهن وتركهنّ

الحدادَ على أزواجهن. لأنَّ المقامَ حولا في بيوت أزواجهن والحدادَ عليه تمام حولٍ كامل، لم يكنْ فرضاً عليهنّ، وإنما كان ذلك إباحة من الله تعالى ذِكْرُهُ لهن إنْ أقمن تمامَ الحولِ مُحِدَّات. فأما إنْ خرجن، فلا جناح على أولياء الميت ولا عليهن فيما فعلن في أنفسهن من معروف، وذلك ترك الحداد. يقول: فلا حرج عليكم في التزيُّن إنْ تَزَيَّنَّ وتَطَيَّبْنَ وتزوجن، لأن ذلك لهن.

وإنما قلنا: «لا حرج عليهن في خروجهن»، وإن كان إنما قال تعالى ذِكْرُهُ: «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ»، لأن ذلك لو كان عليهن فيه جناحٌ، لكان على أولياء الرجلِ فيه جناحٌ بتركهم إياهن والخروجَ، مع قدرتهم على مَنْعِهِنَّ من ذلك. ولكن لمّا لم يكن عليهن جناحٌ في خروجهن وترك الحداد، وُضِعَ عن أولياءِ الميتِ وغيرهم الحرجُ فيما فعلن من معروف، وذلك في أنفسهن.

وأما قوله: «وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ»، فإنه يعني تعالى ذِكْرُهُ: «وَٱللَّهُ عَزِيزٌ»، في انتقامهِ مِمَّنْ خالفَ أمرَهُ ونهيَهُ وتعدَّى حدودَهُ من الرجال والنساء، فمنع مَنْ كان من الرجال نساءَهم وأزواجهم ما فرض لهنّ عليهم في الآيات التي مضت قبلُ: من المتعة والصداق والوصية، وإخراجهن قبل انقضاء الحول، وترك المحافظة على الصلوات وأوقاتها، ومنع مَنْ كان من النساء ما ألزمهنّ الله من التربُّص عند وفاةِ أزواجهن عن الأزواجِ، وخالف أمره في المحافظة على أوقات الصلوات؛ «حَكِيمٌ» فيما قضى بين عباده من قضاياه التي قد تقدمت في الآيات قبل قوله: «وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ»، وفي غير ذلك من أحكامه وأقضيته.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُه: وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: ولمن طُلِّق من النساء على مطلِّقها من الأزواج،

«مَتَاعٌ». يعني بذلك: ما تستمتعُ به من ثيابٍ وكسوة أو نفقة أو خادمٍ، وغير ذلك مما يستمتع به.

وقد اختلف أهل العلم في المعنية بهذه الآية من المطلَّقات.

والصواب من القول في ذلك أن الله تعالى ذِكْرُهُ أنزلها دليلاً لعباده على أنَّ لِكُلِّ مطلقةٍ متعة، لأن الله تعالى ذِكْرُهُ ذَكَرَ في سائر آي القرآن التي فيها ذكر متعة النساء، خصوصاً من النساء، فبيَّن في الآية التي قال فيها: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [البقرة: ٢٣٦]، وفي قوله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٤٩]، ما لهن من المتعة إذا طُلِّقْنَ قبل المسيس، وبقوله: ﴿يَاأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٢٨]، حُكْمَ المدخولِ بهن، وبقي حُكْمُ الصبايا إذا طُلِّقْنَ بعد الابتناءِ بهنّ، وحكمُ الكوافر والإماء. فَعَمَّ الله تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِٱلْمَعْرُوفِ» ذكر جميعهن، وأخبر بأنَّ لهن المتاع، كما خصَّ المطلقات الموصوفات بصفاتهن في سائر آي القرآن، ولذلك كرر ذِكْرَ جميعهن في هذه الآية.

وأما قوله: ﴿حَقاً عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾، فإنا قد بيَّنا معنى قوله: «حَقاً»، ووجهَ نَصْبِهِ، والاختلاف من أهل العربية فيه في قوله: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦]، ففي ذلك مستغنًى عن إعادته في هذا الموضع.

فأما «المتقون»: فهم الذين اتقوا الله في أمرِهِ ونهيِهِ وحدودِهِ، فقاموا بها على ما كلَّفهم القيامَ بها خشيةً منهم له، ووجلاً منهم من عقابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: كما بَيَّنْتُ لكم ما يلزمكم لأزواجكم ويلزم أزواجكم لكم، أيها المؤمنون، وعرَّفتكم أحكامي والحقَّ الواجبَ لبعضِكم على بعضٍ في هذه الآيات، فكذلك أبيِّنُ لكم سائرَ الأحكام في آياتي التي أنزلتها على نبيِّي محمدٍ ﷺ في هذا الكتاب، لتعقلوا - أيها المؤمنون بي وبرسولي - حدودي، فتفهموا اللازم لكم من فرائضي، وتعرفوا بذلك ما فيه صلاحُ دينكم ودنياكم، وعاجلكم وآجلكم، فتعملوا به ليصلح ذات بينكم، وتنالوا به الجزيلَ من ثوابي في معادكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ: «أَلَمْ تَرَ»، ألم تعلم، يا محمد؟، وهو من «رؤية القلب» لا رؤية العين، لأن نبينا محمداً ﷺ لم يُدرك الذين أخبر الله عنهم هذا الخبر، و«رؤية القلب» ما رآه، علمه به. فمعنى ذلك: ألم تعلم يا محمد، الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف؟

ثم اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: «وَهُمْ أُلُوفٌ».

فقال بعضهم: في العدد، بمعنى جِماع «ألف».

وقال آخرون: معنى قوله: «وَهُمْ أُلُوفٌ»، وهم مؤتلفون.

وأولى القولين في تأويل قوله: ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ بالصواب، قولُ مَنْ قال: «عنى بالألوفِ كثرةَ العددِ» - دون قولِ مَنْ قال: «عنى به الائتلاف»، بمعنى ائتلاف قلوبهم، وأنهم خرجوا من ديارهم من غيرِ افتراقٍ كان منهم ولا تباغضٍ، ولكن فراراً: إمَّا مِنَ الجهادِ، وإما من الطاعون - لإجماع الحجة على أن ذلك تأويل الآية، ولا يعارَض بالقول الشاذ ما استفاض به القول من

الصحابة والتابعين.

وأولى الأقــوال ـ في مبلغ عدد القــوم الـذين وصف الله خروجهم من ديارهم ـ بالصواب، قولُ مَنْ حدَّ عددهم بزيادة عن عشرة آلاف، دونَ مَنْ حَدَّهُ بأربعة آلاف، وثلاثة آلاف، وثمانية آلاف. وذلك أن الله تعالى ذِكْرُهُ أخبر عنهم أنهم كانوا ألوفاً، وما دون العشرة آلاف لا يقال لهم: «ألوف». وإنما يقال «هم آلاف»، إذا كانوا ثلاثةَ آلافٍ فصاعداً إلى العشرة آلاف، وغير جائز أن يقال هم خمسة ألوف، أو عشرة ألوف.

وأما قوله: «حَذَرَ ٱلْمَوْتِ»، فإنه يعني أنهم خرجوا من حَذَرِ الموت، فراراً منه.

وإنما حَثَّ الله تعالى ذِكْرُهُ عبادَه بهذه الآية، على المواظبة على الجهادِ في سبيله، والصبرِ على قتالِ أعداء دينه. وشَجَّعَهُم بإعلامه إياهم وتذكيره لهم، أنَّ الإماتةَ والإحياءَ بيديه وإليه، دون خلقه ـ وأنّ الفرارَ من القتال والهربَ من الجهاد ولقاء الأعداء، إلى التحصُّن في الحصون، والاختباء في المنازل والدور، غيرُ مُنْجٍ أحداً من قضائه إذا حَلَّ بساحته، ولا دافعٍ عنه أسبابَ منيته إذا نزل بعَقْوته[1]، كما لم ينفع الهاربين من الطاعون ـ الذين وصف الله تعالى ذِكْرُهُ صِفَتَهُم في قوله: «أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ» فرارُهم من أوطانهم، وانتقالهم من منازلهم إلى الموضع الذي أمَّلوا بالمصير إليه السلامةَ، وبالموئل النجاةَ من المنية، حتى أتاهم أمرُ الله فتركهم جميعاً خموداً صرعى، وفي الأرض هَلْكَى، ونجا مما حلّ بهم الذين باشروا كَرْبَ الوباء، وخالطوا بأنفسهم عظيمَ البلاء.

---

(١) عقوةُ الدار: ساحتها وما حولها قريباً منها. يقال: نزل بعقوته، ونزلت الخيلُ بعقوة العدو.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: إن الله لذو فضل ومَنٍّ على خلقه، بتبصيرِه إياهم سبيلَ الهدى، وتحذيرِه لهم طريقَ الرَّدَى، وغير ذلك من نعمِهِ التي يُنْعمها عليهم في دنياهم ودينهم، وأنفسهم وأموالهم ـ كما أحيا الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوفٌ حَذَرَ الموتِ بعد إماتته إياهم، وجعلهم لخلقه مثلاً وعِظَةً يتعظون بهم، وعبرة يعتبرون بهم، وليعلموا أن الأمور كلها بيده، فيستسلموا لقضائهِ، ويصرفوا الرغبة كلها والرهبة إليه.

ثم أخبر تعالى ذِكْرُهُ أنَّ أكثرَ مَنْ يُنعم عليه من عباده بنعمه الجليلة، ويَمُنُّ عليه بمننه الجسيمة، يكفُر به ويصرف الرغبة والرهبة إلى غيره، ويتخذ إلهاً من دونه، كفراناً منه لنِعَمِهِ التي يُوجِبُ أصغرُها عليه من الشكرِ ما يفدَحُه، ومن الحمدِ ما يُثقله، فقال تعالى ذِكْرُهُ: «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ»، يقول: لا يشكرون نعمتي التي أنعمتها عليهم، وفضلي الذي تفضَّلتُ به عليهم، بعبادتهم غيري، وصرفهم رغبتهم ورهبتهم إلى مَنْ دوني مِمَّنْ لا يملكُ لهم ضَراً ولا نفعاً، ولا يملكُ موتاً ولا حياةً ولا نُشوراً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: وقاتلوا ، أيها المؤمنون «فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ»، يعني: في دينه الذي هداكم له، لا في طاعة الشيطان ـ أعداءَ دينكم، الصادِّينَ عن سبيلِ ربِّكم، ولاتحتموا عن قتالهم عند لقائهم، ولا تَجْبُنوا عن حربهم، فإنَّ بيدي حياتكم وموتكم، ولا يمنعنَّ أحدَكُم من لقائهم وقتالهم حَذَرُ الموت

وخوفُ المنيةِ على نفسه بقتالهم، فيدعوه ذلك إلى التَّعْريد [١] عنهم والفرار منهم، فتذلوا، ويأتيكم الموتُ الذي خِفْتُموه في مأمنكم الذي وَأَلْتُمْ [٢] إليه، كما أتى الذين خرجوا من ديارهم فراراً من الموت، الذين قصصتُ عليكم قصتهم، فلم يُنْجِهم فرارُهم منه من نزولِه بهم حين جاءهم أمري، وحَلَّ بهم قضائي؛ ولا ضَرَّ المتخلِّفين وراءهم ما كانوا لم يحذروه، إذ دافعت عنهم مناياهم، وصرفتُها عن حوبائهم [٣]، فقاتِلُوا في سبيلِ الله مَنْ أمرتكم بقتالِه من أعدائي وأعداء ديني، فإنّ من حَيِيَ منكم فأنا أحْيَيْتُهُ، ومَنْ قُتِلَ منكم فبقضائي كان قتلُه.

ثم قال تعالى ذِكْرُهُ لهم: واعلموا، أيها المؤمنون، أنَّ ربَّكم «سَمِيعٌ» لقول مَنْ يقول من منافقيكم لمن قُتِلَ منكم في سبيلي: لو أطاعونا فجلسوا في منازلهم ما قُتِلُوا؛ «عَلِيمٌ» بما تجنُّهُ صدورهم من النفاق والكفر وقلة الشكر لنعمتي عليهم، وآلائي لديهم في أنفسهم وأهليهم، ولغير ذلك من أمورهم وأمور عبادي.

يقول تعالى ذِكْرُهُ لعباده المؤمنين: فاشكروني أنتم بطاعتي فيما أمَرْتُكُمْ من جهادِ عدوكم في سبيلي، وغير ذلك من أمرِي ونهيي، إذ كَفَرَ هؤلاء نِعَمِي. واعلموا أنَّ الله سميعٌ لقولهم، وعليمٌ بهم وبغيرهم وبما هُم عليه مقيمون من الإيمان والكفر، والطاعة والمعصية، محيطٌ بذلك كله، حتى أجازي كلاً بعمله، إنْ خيراً فخيراً، وإنْ شراً فشراً.

---

(١) التعريد: الفرار وسرعة الذهاب في الهزيمة. يقال: عرد الرجل عن قرنه: إذا أحجم عنه ونكل وفرّ.

(٢) وأل إلى المكان يَئِلُ: لجأ إليه طلب النجاة، والموئل: الملجأ.

(٣) الحوباء: النفس، أو روع القلب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: من هذا الذي ينفق في سبيل الله، فيُعين مُضعِفاً. أو يُقوِّي ذا فاقةٍ أراد الجهادَ في سبيل الله، ويُعْطِي منهم مقتراً؟ وذلك هو القرض الحسن الذي يقرض العبدُ ربَّه.

وإنما سماه الله تعالى ذِكْرُهُ «قَرْضاً»، لأن معنى «القرض» إعطاء الرجلِ غيرَهُ مالَهُ مملَّكاً له، ليقضيه مِثْلَهُ إذا اقتضاه. فلما كان إعطاءُ مَنْ أعطى أهلَ الحاجة والفاقة في سبيل الله، إنما يُعطيهم ما يُعطيهم من ذلك ابتغاءَ ما وَعَدَهُ الله عليه من جزيلِ الثوابِ عنده يوم القيامة، سماه «قَرْضاً»، إذ كان معنى «القرض» في لغة العرب ما وصفنا.

وإنما جعله تعالى ذِكْرُهُ «حسناً»، لأنَّ المُعْطِي يُعطي ذلك عن نَدْبِ الله إياهُ وحثِّهِ له عليه، احتساباً منه، فهو لله طاعة، وللشيطان معصية. وليس ذلك لحاجة بالله إلى أحدٍ من خلقه، ولكن ذلك كقول العرب: «عندي لك قَرْضُ صِدْق، وقَرْضُ سَوْءٍ»، للأمر تأتي فيه للرجل مسرَّته أو مساءته.

فقرض المرء: ما سلف من صالحِ عمله أو سَيِّئه. وهذه الآية نظيرة الآية التي قال فيها تعالى ذِكْرُهُ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَٱللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَٱللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وأما قوله: «فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً»، فإنه عِدَةٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ مُقرِضَهُ ومنفقَ مالِهِ في سبيل الله من إضعافِ الجزاءِ له على قرضِهِ ونفقتِهِ، ما لاحَدَّ له ولا نهاية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: أنه الذي بيده قبضُ أرزاقِ العبادِ وبَسْطها، دونَ غيرِهِ ممن ادّعى أهلُ الشرك به أنهم آلهة، واتخذوه رَباً دونه يعبدونه.

وإنما أراد تعالى ذِكْرُهُ بقِيلِه ذلك، حَثَّ عبادِه المؤمنين ـ الذين قد بَسَط عليهم من فضله، فوسَّع عليهم من رزقه ـ على تقويةِ ذوي الإقتار منهم بماله، ومعونته بالإنفاق عليه وحمولته على النهوض لقتالِ عدوه من المشركين في سبيله، فقال تعالى ذِكْرُهُ: مَنْ يقدِّم لنفسه ذُخراً عندي بإعطائه ضُعَفاءَ المؤمنين وأهل الحاجةِ منهم ما يستعينُ به على القتالِ في سبيلي، فأضاعف له من ثوابي أضعافاً كثيرةً مما أعطاهُ وقوّاه به؟ فإني ـ أيها الموسع ـ الذي قبضتُ الرزقَ عَمَّنْ نَدَبْتُكَ إلى معونتهِ وإعطائهِ، لأبتليه بالصبرِ على ما ابتليته به ـ والذي بسطتُ عليكَ لأمتحنَكَ بعملكَ فيما بسطتُ عليك، فأنظر كيف طاعتكَ إيايَ فيه، فأجازي كل واحدٍ منكما على قدر طاعتكما فيما ابْتَلَيْتُكُما فيه وامْتَحَنْتُكُما به، من غنىً وفاقة، وسَعَةٍ وضيق، عند رجوعكما إليَّ في آخرتكما، ومصيركما إليَّ في معادكما.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: وإلى الله معادكم، أيها الناسُ، فاتقوا الله في أنفسكم أنْ تُضيعوا فرائضه وتتعدَّوا حدوده، وأن يعمل مَنْ بُسِطَ عليه منكم في رزقهِ بغير ما أَذِنَ له بالعملِ فيه رَبُّه، وأن يحمل المقتر منكم ـ إذ قبضَ عنه رزقه ـ إقتارُه على معصيته والتقدّم على ما نهاه، فيستوجب بذلك عند مصيره إلى خالقه، ما لا قِبَلَ له به من أليم عقابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «أَلَمْ تَرَ»، ألم تر، يا محمد، بقلبك، فتعلم بخبري إياك، يا محمد. «إِلَى ٱلْمَلأِ»، يعني: إلى وجوه بني إسرائيل وأشرافهم ورؤسائهم. «مِن بَعْدِ مُوسَى»، يقول: من بعد ما قُبض موسى فمات. «إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: قال النبيُّ الذي سألوه أن يبعث لهم مَلِكاً يقاتلوا في سبيل الله: «هَلْ عَسَيْتُمْ»، هل تَعِدُونَ «إِن كُتِبَ»، يعني: إنْ فُرض عليكم القتال «أَلَّا تُقَاتِلُواْ»، يعني: أن لا تَفُوا بما تَعِدون الله من أنفسكم، من الجهاد في سبيله، فإنكم أهلُ نَكْثٍ وغدْرٍ وقلَّةِ وفاء بما تَعِدُون؟ «قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللهِ»، يعني: قال الملأ من بني إسرائيل لنبيهم ذلك: وأيّ شيء يمنعنا أنْ لا نقاتلَ في سبيل الله عدوَّنا وعدوَّ الله. «وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا»، بالقهرِ والغلبة؟

وأما تأويل قوله: «وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا»، فإنه يعني: وقد أُخْرِجَ مَنْ غُلِبَ عليه من رجالنا ونسائنا من ديارهم وأولادهم، ومن سُبِي. وهذا الكلام ظاهره العموم وباطنه الخصوص، لأن الذين قالوا لنبيهم: «ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ

فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ»، كانوا في ديارهم وأوطانهم، وإنما كان أخرج من داره وولده من أُسِر وقُهر منهم.

وأما قوله: «فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ»، يقول: فلّما فُرِضَ عليهم قتالُ عدوهم والجهادُ في سبيله «تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ»، يقول: أدبروا مولِّين عن القتال، وضَيَّعُوا ما سألوه نَبِيَّهم من فرضِ الجهاد.

والقليل الذين استثناهم الله منهم، هم الذين عبروا النهر مع طالوت.

يقول الله تعالى ذِكْرُهُ: «وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ»، يعني: والله ذو عِلْمٍ بمن ظلم منهم نفسَهُ، فأخلفَ الله ما وعَدَهُ من نفسِه، وخالف أمرَ ربه فيما سأله ابتداءً أن يوجبه عليه.

وهذا من الله تعالى ذِكْرُهُ تقريعٌ لليهود الذين كانوا بين ظهرانَيْ مُهاجَرِ رسولِ الله ﷺ، في تكذيبهم نَبِيَّنا محمداً ﷺ، ومخالفتهم أمرَ ربهم. يقول الله تعالى ذِكْرُهُ لهم: إنكم، يا معشرَ اليهود، عصيتمُ الله وخالفتم أمرَهُ فيما سألتموه أن يفرضه عليكم ابتداء، من غير أنْ يبدِئَكُم ربكم بفرضٍ ما عصيتموه فيه، فأنتم بمعصيته ـ فيما ابتدأكم به من إلزام فرضه ـ أحرى.

وفي هذا الكلام متروكٌ قد استُغني بذكر ما ذكر عما ترك منه. وذلك أن معنى الكلام: «قالوا: وما لنا ألا نقاتلَ في سبيل الله وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا» ـ فسأل نبيُّهم ربَّهم أنْ يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله، فبعث لهم ملكاً، وكتب عليهم القتال ـ «فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: وقال للملأ من بني إسرائيل نبيُّهم شمويل: إن الله قد أعطاكم ما سألتم، وبعثَ لكم طالوتَ ملكاً. فلما قال لهم نبيهم شمويل ذلك، قالوا: أنّى يكونُ لطالوتَ المُلْكُ علينا، وهو من سبطِ بنيامين بن يعقوب - وسبط بنيامين سبطٌ لا مُلْكَ فيهم ولا نبوَّة - ونحنُ أحَقُّ بالمُلْكِ منه لأنَّا من سبط يهوذا بن يعقوب، «وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ»، يعني: ولم يؤت طالوتُ كثيراً من المال، لأنه سَقَّاء، وقيل: كان دبَّاغاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «إِنَّ ٱللهَ ٱصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ»، قال نبيُّهم شمويل لهم: «إِنَّ ٱللهَ ٱصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ»، يعني: اختاره عليكم.

وأما قوله: «وزاده بسطةً في العلم والجسم»، فإنه يعني بذلك أن الله بسَط له في العلم والجسم، وآتاه من العلم فضلاً على ما آتى غيره من الذين خُوطبوا بهذا الخطاب، وذلك أنه ذكر أنه أتاه وحي من الله، وأما «في الجسم»، فإنه أُوتيَ من الزيادةِ في طوله عليهم ما لم يُؤْته غيرُه منهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٢٤٧﴾

يعني تعالى ذكره بذلك: إن الملك لله وبيده دون غيره، «يؤتيه»، يقول: يُؤْتِي ذلك مَنْ يشاء، فيضعه عنده ويخصهُ به، ويمنحه[1] مَنْ أحبَّ من خَلقه.

---

(١) في المطبوعة «ويمنحه»، وفي المخطوطة: «يمنعه».

يقول: فلا تستنكروا، يامعشر الملأ من بني إسرائيل، أن يبعث الله طالوتَ ملكاً عليكم، وإنْ لم يَكُنْ من أهل بيتِ المملكة، فإنَّ الملك ليس بميراثٍ عن الآباء والأسلاف، ولكنه بيَدِ الله يُعطيه مَنْ يشاء من خلقه، فلا تتخيَّروا على الله.

وأما قوله: «والله واسعٌ عليم»، فإنه يعني بذلك: «والله واسع» بفضله فيُنْعِمُ به على مَنْ أَحَبَّ، ويزيد فيه من يشاء. «عليم» بمن هو أهلٌ لِمُلْكِهِ الذي يؤتيه، وفَضْلِهِ الذي يُعطِيه، فيعطيه ذلك لعلمه به، وبأنه لِمَا أعطاهُ أَهْلٌ: إما للإصلاحِ به، وإما لأن ينتفع هو به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ

وهذا الخبر من الله تعالى ذكره عن نَبِيِّهِ الذي أخبر عنه به، دليلٌ على أنَّ الملأ من بني إسرائيل الذين قيل لهم هذا القولُ، لم يُقِرُّوا ببعثةِ الله طالوتَ عليهم ملكاً إذْ أخبرهم نبيهم بذلك، وعَرَّفهم فضيلتَهُ التي فضَّلَهُ اللهُ بها، ولكنهم سألوه الدِّلالةَ على صِدْقِ ما قالَ لهم من ذلك وأخبرهم به. فتأويلُ الكلام، إذْ كان الأمرُ على ما وصفنا: «واللهُ يُوتي مُلْكَهُ مَنْ يشاءُ والله واسعٌ عليم»، فقالوا له: ما آيةُ ذلك إنْ كنتَ من الصادقين؟ «قال لهم نبيهم إنَّ آيَةَ مُلكه أنْ يأتيكم التابوت».

وهذه القصة وإنْ كانتْ خبراً من الله تعالى ذكره عن الملأ من بني إسرائيل ونَبيِّهِم، وما كان من ابتدائهم نبيهم بما ابتدأوا به من مسألته أنْ يسأل الله لهم أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه في سبيله، ونَبَأً عما كان منهم مِنْ تَكذِيبهم نبيهم بعد عِلْمِهم بنبوتهِ، ثم إخلافهم الموعدَ الذي وعدوا الله ووعدوا

رسوله، من الجهادِ في سبيل الله، بالتخلُّفِ عنه حين استُنْهِضُوا لحربِ من اسْتُنْهِضُوا لحربهِ، وفتح الله على القليلِ من الفئة، مع تخذيلِ الكثير منهم عن ملكهم وقعودهم عن الجهاد معه فإنه تأديبٌ لمن كان بين ظهراني مُهاجَرِ رسولِ الله ﷺ من ذراريهم وأبنائهم يهود قُرَيظة والنضير، وأنهم لن يَعْدُوا في تكذيبهم محمداً ﷺ فيما أمرهم به ونهاهم عنه ـ مع عِلْمِهم بصدقهِ، ومعرفتهم بحقيقةِ نُبُوَّتِهِ، بعد ما كانوا يستنصرون الله به على أعدائهم قبل رسالته، وقبل بِعْثَةِ الله إياه إليهم وإلى غيرهم أن يكونوا كأسلافهم وأوائلهم الذين كذبوا نبيهم شمويل بن بالي، مع عِلْمِهم بصدقهِ، ومعرفتهم بحقية نبوته، وامتناعهم من الجهاد مع طالوت لمّا ابتعثه الله ملكاً عليهم، بعد مسألتهم نبيَّهم ابتعاثَ ملكٍ يقاتلون معه عَدُوَّهم ويجاهدونَ معه في سبيل ربهم، ابتداءً منهم بذلك نبيَّهم، وبعد مراجعة نبيهم شمويل إياهم في ذلك؛ وحَضٌّ لأهلِ الإيمان بالله وبرسوله من أصحاب محمد ﷺ على الجهادِ في سبيله، وتحذيرٌ منه لهم أن يكونوا في التخلف عن نبيهم محمد ﷺ عند لقائه العدو، ومناهضته أهل الكفر بالله وبه، على مِثْلِ الذي كان عليه الملأُ من بني إسرائيل في تخلفهم عن ملكهم طالوت إذْ زحفَ لحربِ عدوِّ الله جالوت، وإيثارهم الدَّعَةَ والخفض على مباشرة حَرِّ الجهاد والقتال في سبيل الله؛ وشحذٌ منه لهم على الإقدامِ على مناجزةِ أهلِ الكفرِ به الحربَ، وترك تهيُّبِ قتالهم أنْ قلَّ عَدَدُهم وكَثُرَ عَدَدُ أعدائهم واشتدت شوكتهم بقوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وإعلامٌ منه تعالى ذِكْرُه عبادَه المؤمنين به أنَّ بيدهِ النصر والظفر والخير والشر.

وأما تأويل قوله: «قال لهم نبيهم»، فإنه يعني: للملأ من بني إسرائيل الذين قالوا لنبيهم: «ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله».

وقوله: «إنَّ آيةَ مُلْكِه»، إنَّ علامةَ مُلْكِ طالوتَ التي سألتُمونيها دلالةً،

على صدقي في قولي: إن الله بعثه عليكم ملكاً، وإنّ كان من غير سبط المملكة: «أنْ يأتيكمُ التابوتُ فيه سكينةٌ من ربكم»، وهو التابوتُ الذي كانت بنو إسرائيل إذا لَقُوا عدوًّا لهم قَدَّمُوه أمامهم، وزحفوا معه، فلا يقومُ لهم معهم عدوٌّ، ولا يظهر عليهم أحدٌ ناوأهُم، حتى ضَيَّعُوا أمرَ الله، وكَثُرَ اختلافهم على أنبيائهم، فسلبهمُ اللهُ إياه مرةً بعد مرة، يردُّه إليهم في كل ذلك، حتى سلبهم آخرَها مرةً فلم يردّه عليهم، ولن يردَّه إليهم آخر الأبد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ

يعني تعالى ذكره بقوله: «فيه»، في التابوت «سكينة من ربكم».

واختلف أهل التأويل في معنى «السكينة».

وأولى الأقوالِ بالحقِّ في معنى «السكينة»: من الشيء تسكنُ إليه النفوسُ من الآياتِ التي يعرفونها. وذلك أن «السكينةَ» في كلامِ العرب **«الفعيلة»**، من قول القائل: «سكن فلان إلى كذا وكذا» إذا اطمأنَّ إليه وهدأتْ عنده نفسه «فهو يسكن سكوناً وسَكينة»، مثل قولك: «عزم فلان على هذا الأمر عزماً وعزيمة»، و«قضى الحاكم بين القوم قضاءً وقضية».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ

يعني تعالى ذكره بقوله: «وبقية»، الشيء الباقي، من قولِ القائل: «قد بقيَ من هذا الأمرِ بقية»، وهي **«فعيلة»** منه، نظيرُ «السكينة» من «سكن».

وقوله: «مما تَرَكَ آلُ موسى وآل هرون»، يعني به: من تَرِكَةِ آلِ موسى وآل هرون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَٰٓئِكَةُ﴾

اختلف أهلُ التأويل في صفة حمل الملائكة ذلك التابُوت.

فقال بعضهم: معنى ذلك: تحمله بين السماء والأرض، حتى تضعه بين أظهُرِهم.

وقال آخرون: معنى ذلك: تسوق الملائكة الدوابَّ التي تحمله.

وأولى القولين في ذلك بالصواب قولُ مَنْ قال: «حملت التابوتَ الملائكةُ حتى وضعته لها في دار طالوت قائماً بين أظهر بني إسرائيل». وذلك أنَّ الله تعالى ذِكْرُه قال: «تحمله الملائكة»، ولم يقل: تأتي به الملائكة. وما جرَّته البقرُ على عجَل، وإنْ كانت الملائكة هي سائقتُها، فهي غيرُ حاملته. لأنَّ «الحمل» المعروف، هو مباشرةُ الحاملِ بنفسِه حَمْلَ ماحَمَلَ، فأما ما حمله على غيره، وإنْ كان جائزاً في اللغة أن يقال «حَمله» بمعنى: معونته الحامل، وبأن حَمله كان عن سببه، فليس سبيلُه سبيلَ ما باشر حَمْله بنفسه، في تعارفِ النـاسِ إياهُ بينهم. وتوجيهُ تأويلِ القرآنِ إلى الأشْهرِ من اللغاتِ، أولى من توجيههِ إلى الأنكَرِ، ماوُجِدَ إلى ذلك سبيلٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾

يعني تعـالى ذكـره بذلك: أنَّ نَبِيَّهُ شمويل قال لبني إسرائيل: إن في مجيئكم التابوتُ فيه سكينةٌ من رَبِّكُم وبقيةٌ مما تَرَكَ آلُ موسى وآلُ هرون حاملته الملائكة «لآيةً لكم»، يعني: لعلامةً لكم ودلالة، أيها الناس، على صِدْقي فيمـا أخبرتُكُم: أنّ الله بعث لكم طالوتَ ملكاً، أنْ كنتم قد كذَّبتموني فيما

أخبرتُكم به من تمليكِ الله إياهُ عليكم، واتَّهمتُموني في خبري إياكم بذلك «إن كنتم مؤمنين»، يعني بذلك: إنْ كنتم مصدقيَّ عند مجيء الآية التي سألتمونيها على صدقي فيما أخبرتكم به من أمر طالوت ومُلْكه.

وإنما قلنا ذلك معناه، لأنَّ القومَ قد كانوا كفروا بالله في تكذيبهم نبيَّهم وردِّهم عليه قولَهُ: «إنَّ الله قد بعث لكم طالوت ملكاً»، بقولِهم: «أنىَّ يكونُ له المُلْكُ علينا ونحنُ أحَقُّ بالمُلْكِ منه»، وفي مسألتِهم إياهُ الآيةَ على صِدْقهِ. فإذْ كان ذلك منهم كفراً، فغيرُ جائزٍ أن يقال لهم وهم كفارٌ: لكم في مجيء التابوتِ آيةٌ إنْ كنتم من أهلِ الإيمان بالله ورسوله: وليسوا من أهل الإيمان بالله ولا برسوله. ولكن الأمرَ في ذلك على ما وصفنا من معناه، لأنهم سألوا الآيةَ على صِدْقِ خبرهِ إياهم ليقرُّوا بصدقه، فقال لهم: في مجيء التابوت - على ماوصفه لهم - آيةٌ لكم إنْ كنتم عند مجيئهِ كذلك مصدقيَّ بما قلتُ لكم وأخبرتكم به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾**

وفي هذا الخبر من الله تعالى ذكره، متروك قد استُغني بدلالة ماذكر عليه عن ذكره. ومعنى الكلام: «إنَّ في ذلك لآيةً لكم إنْ كنتم مؤمنين»، فأتاهم التابوتُ فيه سكينةٌ من ربهم وبقيةٌ مما ترك آلُ موسى وآلُ هرون تحمله الملائكة، فصدَّقوا عند ذلك نَبِيَّهم وأقرُّوا بأنَّ الله قد بعث طالوت ملكاً عليهم، وأذعنوا له بذلك. يدل على ذلك قوله: «فلما فصَل طالوتُ بالجنود». وما كان ليفصل بهم إلا بعد رِضَاهم به وتسليمهم المُلْكَ له، لأنه لم يكن ممن يقدرُ

على إكراههم على ذلك، فيظنّ به أنه حملهم على ذلك كرهاً.

وأما قوله: «فصَل» فإنه يعني به: شَخَصَ بالجُنْدِ ورَحَلَ بهم.

قال أبو جعفر: فلما فصَل بهم طالوت على ما وصفنا، قال: «إن الله مُبْتَلِيكم بنهَر»، يقول: إنَّ اللهَ مُخْتَبِركم بنهر، ليعلمَ كيف طاعتكم له.

وأما قوله: «فمن شرب منهُ فليس مني ومَنْ لم يَطْعَمْهُ فإنه مني إلاَّ مَنِ اغترفَ غرْفةً بيده فشربوا منه إلاّ قليلاً منهم» فإنه خبرٌ من الله تعالى ذكره عن طالوتَ بما قال لجنوده، إذْ شكوا إليه العطشَ، فأخبرهم أنّ الله مبتليهم بنهر، ثم أعلمهم أنَّ الابتلاءَ الذي أخبرهم عن الله به من ذلك النهر، هو أنّ مَنْ شربَ من مائه فليس هو منه، يعني بذلك: أنه ليس من أهلِ وَلايتهِ وطاعتهِ، ولا من المؤمنين بالله وبلقائه. ويدلُّ على أنَّ ذلك كذلك قولُ الله تعالى ذِكْرُه: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَه هُوَ وَٱلذِينَ آمَنوا مَعَه﴾، فأخرج مَنْ لم يجاوز النهر من الذين آمنوا، ثم أخلصَ ذكر المؤمنين بالله ولقائه عند دُنُوِّهم من جالوتَ وجنوده بقوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُوا ٱللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللهِ﴾، وأخبرهم أنه مَنْ لم يَطْعَمْهُ، يعني: مَنْ لم يطعم الماء من ذلك النهر. «والهاء» في قوله: «فمن شرب منه»، وفي قوله: «ومن لم يطعمه»، عائدة على «النهر»، والمعنى لمائه. وإنما ترك ذكر «الماء» اكتفاءً بفهمِ السامعِ بذكر النهر لذلك: أنّ المراد به الماء الذي فيه.

ومعنى قوله: «لم يطعمه»، لم يَذُقْهُ، يعني: ومَنْ لم يذق ماءَ ذلك النهر فهو منِّي، يقول: هو من أهل ولايتي وطاعتي، والمؤمنين بالله وبلقائه، ثم استثنى مِن «مَنْ» في قوله: «ومن لم يطعمه»، المغترفينَ بأيديهم غرفةً، فقال: ومن لم يَطْعَمْ ماءَ ذلك النهر. إلا غرفةً يغترفها بيده، فإنه مني.

ثم اختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: «إلا مَنِ اغترفَ غرفةً بيده».

فقـرأه عامـةُ قَرَأَةِ أهلِ المدينة والبصرة: ﴿غَرْفَةً﴾ بنصب «الغين» من «الغـرفة» بمعنى الغَرفة الواحدة، من قولك، «اغترفت غَرفة»، و«الغرفة» هي الفعل بعينه من «الاغتراف».

وقـرأه آخـرون بالضم، بمعنى المـاء الـذي يصيرُ في كف المغترف. فـ «الغُرفة» «الاسم»، و«الغَرفة» المصدر.

وأعجب القراءتين في ذلك إليَّ، ضم «الغين» في «الغُرفة»، بمعنى: إلا من اغترف كفاً من ماء لاختلاف «غرفة» إذا فتحت غينها، وما هي له مصدر. وذلك أنّ مصدر «اغترف»، «اغترافة»، وإنما «غَرفة» مصدر: «غرفت». فلما كانت «غَرْفة» مخالفة مصدر «اغترف»، كانت «الغُرفة» التي بمعنى الاسم على ما قد وصفنا، أشبه منها بـ«الغَرفة» التي هي بمعنى الفعل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾

يعني تعـالى ذكره بقوله: «فلما جاوَزَهُ هو»، فلما جاوز النهرَ طالوتُ. «والهـاء» في «جاوزه» عائدة على «النهر»، و«هو» كناية اسم طالوت، وقوله: «والذين آمنوا معه»، يعني: وجاوز النهرَ معه الذين آمنوا، قالوا: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده.

وقد جاوز النهر مع طالوت المؤمنُ الذي لم يشربْ من النهر إلاّ الغرفة، والكافرُ الذي شرب منه الكثير. ثم وقَع التمييز بينهم بعد ذلك برؤية جالوت ولقائهِ، وانخزَل عنه أهلُ الشرك والنفاق وهم الذين قالوا: «لا طاقةَ لنا اليوم بجـالـوتَ وجنوده»، ومضى أهلُ البصيرة بأمرِ الله على بصائرهم، وهم أهلُ

الثباتِ على الإيمان، فقالوا: «كم من فئةٍ قليلةٍ غَلبتْ فئةً كثيرةً بإذن الله والله مع الصابرين».

فإنْ ظَنَّ ذو غفلةٍ أنه غير جائز أن يكون جاوز النهرَ مع طالوت إلا أهلُ الإيمان الذين ثبتوا معه على إيمانهم، ومَنْ لم يشرب منَ النهر إلا الغرفة، لأن الله تعالى ذكره قال: «فلما جاوَزه هو والذين آمنوا معه»، فكان معلوماً أنه لم يجاوز معه إلا أهلُ الإيمان، لأن أهلَ الكفر لو كانوا جاوزوا النهرَ كما جاوزه أهلُ الإيمان، لما خص الله بالذكر في ذلك أهل الإيمان فإن الأمر في ذلك بخلاف ماظن، وذلك أنه غير مستنكر أن يكون الفريقان ـ أعني فريقَ الإيمان وفريقَ الكفر ـ جاوزوا النهر. وأخبر الله نبيه محمداً ﷺ عن المؤمنين بالمجاوزة، لأنهم كانوا من الذين جاوزوه مع ملكهم، وترَكَ ذِكْرَ أهلِ الكفر، وإن كانوا قد جاوزوا النهر مع المؤمنين.

والذي يدل على صحة ما قلنا في ذلك، قول الله تعالى ذكره: «فلما جاوزَه هو والذين آمنوا معه قالوا: لا طاقةَ لنا اليوم بجالوتَ وجنوده قال الذين يظنون أنهم مُلاقُو الله كم مَنْ فئةٍ قليلةٍ غلبت فئةً كثيرة بإذن الله»، فأوجب الله تعالى ذكره أن «الذين يظنون أنهم ملاقو الله»، هم الذين قالوا: عند مجاوزة النهر: «كم من فئةٍ قليلةٍ غلبتْ فئةً كثيرة بإذن الله»، دون غيرهم الذين لا يظنون أنهم ملاقو الله ـ وأنَّ الذين لا يظنون أنهم ملاقو الله، هم الذين قالوا: «لا طاقةَ لنا اليوم بجالوتَ وجنوده». وغيرُ جائز أنْ يضافَ الإيمانُ إلى مَنْ جحد أنه ملاقي الله، أو شَكَّ فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ﴿٢٤٩﴾

اختلف أهلُ التأويل في أمر هذين الفريقين؛ أعني القائلين: «لا طاقةَ لنا اليوم بجالوت وجنوده»، والقائلين: «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله»، مَنْ هما؟

والأولى بالصواب أنهم أهلُ كفرٍ بالله ونفاق، وليسوا مِمَّنْ شهدَ قتالَ جالوتَ وجنوده، لأنهم انصرفوا عن طالوتَ ومَنْ ثبتَ معه لقتالِ عدوِّ الله جالوتَ ومَنْ معه، وهم الذين عصَوْا أمرَ الله لشربهم من النهر.

وأما تأويل قوله: «قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله»، فإنه يعني: قال الذين يعلمون ويستيقنون أنهم ملاقو الله.

فتأويلُ الكلام: قال الذين يُوقِنُونَ بالمَعَادِ ويصدِّقون بالمرجع إلى الله، للذين قالوا: «لا طاقةَ لنا اليوم بجالوت وجنوده» - «كم من فئة قليلة»، يعني بـ «كم»، كثيراً، غلبت فئةٌ قليلة - «فئة كثيرة بإذن الله»، يعني: بقضاء الله وقدره؛ «والله مع الصابرين»، يقول: مع الحابسين أنفسهم على رضاه وطاعته.

وأما «الفئة»، فإنهم الجماعة من الناس، لا واحدَ له من لفظه، وهو مثل «الرَّهْط» و«النفَر».

وأما قوله: «والله مع الصابرين» فإنه يعني: والله معينُ الصابرينَ على الجهادِ في سبيله وغير ذلك من طاعته، وظهورهم ونصرهم على أعدائه الصادِّين عن سبيله، المخالفين منهاج دينه.

وكـذلك يقال لكل مُعين رجلاً على غيره: «هو معه»، بمعنى هو معه بالعَوْن له والنصرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «ولما برزُوا لجالوتَ وجنوده»، ولما برز طالوتُ وجنودُه لجالوتَ وجنوده.

ومعنى قوله: «برزوا» صاروا بالبَرَازِ من الأرضِ، وهو ما ظهر منها واستوى. ولذلك قيل للرجل القاضي حاجته «تبرَّز»، لأن الناس قديماً في الجاهلية، إنما كانوا يقضون حاجتهم في البَرازِ من الأرض، فقيل: «قد تبرَّز فلان»، إذا خرج إلى البَراز من الأرض. وذلك كما قِيل: «تغوَّط»، لأنهم كانوا يقضون حاجَتهم في «الغائط» من الأرض، وهو المطمئنُّ منها، فقيل للرجل: «تغوَّط» أي صار إلى الغائط من الأرض.

وأما قوله: «رَبَّنَا أَفْرِغْ علينا صَبرًا»، فإنه يعني أنَّ طالوتَ وأصحابه قالوا: «ربنا أفرغ علينا صبراً»، يعني: أَنْزِلْ علينا صبراً.

وقوله: «وثَبِّتْ أقدامَنا»، يعني: وقَوِّ قلوبنا على جهادهم، لتثبت أقدامنا فلا ننهزم عنهم، «وانصرنا على القوم الكافرين»، الذين كفروا بك فجحدوك إلهاً وعبدوا غيركَ، واتخذوا الأوثان أرباباً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾

يعني تعالى ذكره بقوله «فهزموهم»، فهزم طالوت وجنوده أصحابَ جالوت، وقتل داودُ جالوتَ.

وفي هذا الكلام متروك، ترك ذكره اكتفاءً بدلالة ما ظهر منه عليه. وذلك أن معنى الكلام: «ولما برزوا لجالوتَ وجنودهِ قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبِّت أقدامنا وانصرنا على القومِ الكافرين»، فاستجابَ لهم ربهم، فأفرغَ عليهم صبرَهُ وثبَّتَ أقدامهم، ونصرهم على القوم الكافرين، «فهزموهم بإذن الله»، ولكنه ترك ذِكْرَ ذلك اكتفاء بدلالةِ قولهِ: «فهزموهم بإذن الله»، على أنَّ الله قد أجاب دعاءهم الذي دعوه به.

ومعنى قوله: «فهزموهم بإذن الله»، فَلُّوهم بقضاءِ الله وقدرهِ. يقال منه: «هزم القومُ الجيش هزيمة وهِزِّيمَى».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَءَاتَـٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾

يعني تعالى ذكره بذلك: وأعطى الله داودَ المُلْكَ والحكمةَ وعلمه مما يشاء، «والهاء» في قوله: «وآتاه الله»، عائدة على داود، «والملك»: السلطان، «والحكمة»: النبوة. وقوله: «وعَلَّمه مما يشاء»، يعني: علّمه صنعةَ الدروعِ والتقديرَ في السَّرْدِ، كما قال الله تعالى ذكره: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾

يعني تعالى ذكره بذلك: ولولا أنَّ الله يدفعُ ببعضِ الناس ـ وهم أهلُ الطاعة له والإيمان به ـ بعضاً ـ وهم أهلُ المعصية لله والشرك به ـ كما دفعَ عن

المتخلِّفين عن طالوتَ يوم جالوت من أهلِ الكفر بالله والمعصية له، وقد أعطاهم ما سألوا ربَّهم ابتداءً: من بَعْثة مَلِكٍ عليهم ليجاهدوا معه في سبيله ـ بمن جاهدَ معه من أهلِ الإيمان بالله واليقين والصبر ـ جالوتَ وجنوده «لفسدت الأرض»، يعني: لهلك أهلُها بعقوبةِ الله إياهم، ففسدت بذلك الأرضُ ولكن الله ذو مَنٍّ على خلقه وتطوُّلٍ عليهم، بدفعه بالبَرِّ من خلقه عن الفاجر، وبالمطيع عن العاصي منهم، وبالمؤمن عن الكافر.

وهذه الآية إعلامٌ من الله تعالى ذكره أهلَ النفاق الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ، المتخلِّفين عن مَشاهدِه والجهادِ معه للشكِّ الذي في نفوسهم ومرض قلوبهم، والمشركين وأهل الكفر منهم، وأنه إنما يدفع عنهم معاجَلَتهم العقوبةَ على كفرهم ونفاقهم بإيمان المؤمنين به وبرسوله، الذين هم أهلُ البصائر والجدّ في أمر الله، وذوو اليقين بإنجاز الله إياهم وَعْدَهُ على جهادِ أعدائهِ وأعداء رسوله، من النصر في العاجل، والفوزِ بجنانه في الآجل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٥٢﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «تلك آياتُ الله»، هذه الآيات التي اقتصَّ الله فيها أمرَ الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوفٌ حَذَرَ الموتِ، وأمرَ الملأ من بني إسرائيل من بعدِ موسى الذين سألوا نبيَّهم أنْ يبعثَ لهم طالوتَ ملكاً، وما بعدها من الآيات إلى قوله: «والله ذو فضل على العالمين».

ويعني بقوله: «آيات الله»، حججه وأعلامه وأدلته.

يقول الله تعالى ذكره: فهذه الحججُ التي أخبرتكَ بها، يامحمد،

وأعلمتُك ـ من قدرتي على إماتةِ مَنْ هَرب من الموتِ في ساعة واحدة وهم ألوفٌ، وإحيائي إياهم بعد ذلك، وتمليكي طالوتَ أمرَ بني إسرائيلَ بعد إذْ كان سَقَّاءً أو دَبَّاغاً من غيرِ أهلِ بيتِ المملكة، وسلبي ذلك إياهُ بمعصيته أمري، وصَرْفي مُلْكَهُ إلى داودَ لطاعته إيايَ، ونصرتي أصحابَ طالوت مع قِلَّةِ عددهم وضَعْفِ شوكتهم على جالوتَ وجنوده مع كثرةِ عَدَدهم وشِدَّةِ بطشهم ـ حججي على مَنْ جحد نعمتي، وخالفَ أمري، وكفرَ برسولي من أهلِ الكتابين التوراة والإنجيل، العالمين بما اقتصصتُ عليكَ من الأنباء الخفية التي يعلمون أنها من عندي، لم تتخرَّصْهَا ولم تتقوَّلْهَا أنتَ يامحمد، لأنك أميٌّ ولستَ ممن قرأ الكتبَ فيلتبس عليهم أمرُكَ، ويَدَّعُوا أنكَ قرأتَ ذلك فعلمته من بعضِ أسفارهم، ولكنها حججي عليهم أتلوها عليك يامحمد، بالحقِّ اليقين كما كان، لا زيادة فيه ولا تحريف ولا تغيير شيء منه عما كان؛ «وإنك» يامحمدُ «لَمِنَ المُرْسَلِينَ»، يقول: إنك لمرسَل متَّبعٌ في طاعتي وإيثار مرضاتي على هواك، فسالكٌ في ذلك من أمرك سبيلَ من قَبْلَكَ من رُسُلِي الذين أقاموا على أمري، وآثروا رضايَ على هواهم، ولم تغيِّرهم الأهواءُ ومطامعُ الدنيا، كما غيَّر طالوتَ هواهُ وإيثارُه مُلْكَهُ على ما عندي لأهل ولايتي، ولكنك مؤثر أمري كما آثره المُرْسَلُونَ الذين قبلكَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾**

يعنى تعالى ذكره بقوله: «تلك»، الرسل الذين قصَّ اللهُ قَصَصهم في هذه السورة، كموسى بن عمران، وإبراهيم، وإسمعيل، وإسحق، ويعقوب، وشمويل، وداود، وسائر مَنْ ذكر نبأهم في هذه السورة. يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاء رُسلي فَضَّلْتُ بعضَهم على بعض، فكلَّمتُ بعضَهم ـ والذي كلمته منهم

موسى ﷺ - ورفعتُ بعضهم درجاتٍ على بعض، بالكرامة ورِفْعةِ المنزلةِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «وآتينا عيسى ابن مريم البينات»، وآتينا عيسى ابن مريم الحججَ والأدلة على نبوّته: من إبراءِ الأكمهِ والأبرصِ وإحياءِ الموتى وما أشبه ذلك، مع الإنجيل الذي أنزلته إليه، فَبيَّنْتُ فيه مافرضتُ عليه.

ويعني تعالى ذكره بقوله: «وأيَّدناه»، وقويناه وأعنَّاهُ «بروح القدس»، يعني بروح الله، وهو جبريل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾

يعني تعالى ذكره بذلك: ولو أراد الله «ما اقتتلَ الذين من بعدهم» يعني: من بعد الرسل الذين وصفهم بأنه فَضَّلَ بعضهم على بعض ورفع بعضهم درجات، وبعد عيسى ابن مريم، وقد جاءهم من الآياتِ بما فيه مُزدَجَرٌ لمن هَدَاهُ الله ووفَّقه.

ويعني بقوله: «من بعد ما جاءتهم البينات»، يعني: من بعد ما جاءهم من آياتِ الله ما أبان لهم الحقَّ وأوضَحَ لهم السبيلَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾

يعني تعالى ذكره بذلك: ولكن اختلفَ هؤلاء الذينَ من بعد الرسل، لمّا لم يشأ الله منهم تعالى ذِكْرُه أن لا يقتتلوا، فاقتتلوا من بعد ما جاءتهم البيناتُ من عند ربهم بتحريمِ الاقتتالِ والاختلافِ، وبعد ثبوتِ الحجة عليهم بوحدانيةِ الله ورسالةِ رسله ووحي كتابه، فكفرَ باللهِ وبآياتهِ بعضُهم، وآمن بذلك بعضُهم. فأخبر تعالى ذِكْرُه أنهم أتَوْا ما أتوا من الكفرِ والمعاصي، بعد علمهم بقيامِ الحجةِ عليهم بأنهم على خطأ، تَعَمُّداً منهم للكفرِ بالله وآياته.

ثم قال تعالى ذكره لعباده: «ولو شاء الله ما اقتتلوا»، يقول: ولو أراد اللهُ أنْ يحجزَهم ـ بعِصْمتهِ وتوفيقهِ إياهم ـ عن معصيتهِ فلا يقتتلوا، ما اقتتلوا ولا اختلفوا، «ولكنّ الله يفعل ما يريد». بأن يوفق هذا لطاعته والإيمان به فيؤمن به ويطيعه، ويخذل هذا فيكفر به ويَعصيه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾

يعني تعـالى ذكـره بذلك: ياأيها الذين آمنوا أنفقوا في سبيل الله مما رَزَقَناكم من أموالكم، وتصدقوا منها، وآتوا منها الحقوق التي فرضناها عليكم «من قبل أن يأتي يومٌ لا بيعٌ فيه ولا خُلة ولا شفاعة»، يقول: ادَّخِرُوا لأنفسكم عندَ اللهِ في دنياكم من أموالكم، بالنفقةِ منها في سبيل الله، والصدقةِ على أهلِ المَسْكَنةِ والحاجةِ، وإيتاءِ ما فَرَضَ اللهُ عليكم فيها، وابتاعوا بها ما عِنْدَهُ مما أعدَّهُ لأوليائه من الكرامة، بتقديم ذلك لأنفسكم مادام لكم السبيلُ إلى ابتياعه بما نَدَبْتُكُم إليه وأمرتكم به من النفقةِ من أموالكم «من قبل أنْ يأتيَ يومٌ لا بيع فيه»، يعني: من قبلِ مجيءِ يومٍ لا بيع فيه، يقول: لا تقدرون فيه على ابتياع

ما كنتم على ابتياعه ـ بالنفقة من أموالكم التي رَزَقْتُكُموها ـ بما أمرتكم به أو ندبتكم إليه في الدنيا، قادرين، لأنه يومُ جزاءٍ وثوابٍ وعقاب، لا يومُ عملٍ واكتسابٍ وطاعة ومعصية، فيكون لكم إلى ابتياع منازل أهل الكرامة بالنفقة حينئذ ـ أو بالعمل بطاعة الله سبيلٌ.

ثم أعلمهم تعالى ذكره أنّ ذلك اليومَ ـ مع ارتفاعِ العملِ الذي ينال به رضى الله أو الوصول إلى كرامته بالنفقة من الأموال، إذْ كان لا مالَ هنالك يمكن إدراك ذلك به ـ يومٌ لا مُخالَّة فيه نافعةٌ كما كانت في الدنيا، فإنَّ خليلَ الرجل في الدنيا قد كان ينفعه فيها بالنصرة لهُ على مَنْ حاوله بمكروهٍ وأراده بسوء، والمظاهرة له على ذلك. فآيَسهم تعالى ذِكْرُه أيضاً من ذلك، لأنه لا أحدَ يوم القيامة ينصرُ أحداً من الله، بل ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ كما قال الله تعالى ذكره، وأخبرهم أيضاً أنهم يومئذ ـ مع فَقْدِهم السبيلَ إلى ابتياعِ ما كان لهم إلى ابتياعه سبيلٌ في الدنيا بالنفقة من أموالهم، والعمل بأبدانهم، وعدمهم النُّصراء من الخُلَّان، والظُّهراء[1] من الإخوان ـ لا شافعَ لهم يشفع عند الله، كما كان ذلك لهم في الدنيا، فقد كان بعضُهم يشفعُ في الدنيا لبعضٍ بالقرابة والجوار والخُلة وغير ذلك من الأسباب، فبطل ذلك كله يومئذٍ، كما أخبر تعالى ذكره عن قِيل أعدائهِ من أهلِ الجحيم في الآخرة إذا صاروا فيها: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١].

وهذه الآية مخرجها في الشفاعة عامٌّ، والمراد بها خاص، وإنما معناه: «مِنْ قبلِ أنْ يأتيَ يومٌ لا بَيْعٌ فيه ولا خلة ولا شفاعة»، لأهل الكفر بالله، لأن أهل ولاية الله والإيمان به، يشفع بعضهم لبعض.

وأما قوله: «والكافرون هم الظالمون»، فإنه يعني تعالى ذكره بذلك:

---

(١) جمع ظهير، وهو المُعينُ.

والجاحدون لله المكذبون به وبرسله، «هم الظالمون»، يقول: هُمُ الواضعون جحودَهم في غير موضعه، والفاعلون غيرَ ما لهم فِعْلُه، والقائلون ما ليس لهم قوله.

وفي قوله تعالى ذكره في هذا الموضع: «والكافرون هم الظالمون»، دلالةٌ واضحة على صحة ما قلناه، وأنَّ قوله: «ولا خلةٌ ولا شفاعة»، إنما هو مرادٌ به أهل الكفر، فلذلك أتبع قوله ذلك: «والكافرون هم الظالمون». فدل بذلك على أنَّ معنى ذلك: حَرَمْنَا الكفار النُّصْرةَ من الأخلاء، والشفاعةَ من الأولياء والأقرباء، ولم نكن لهم في فعلنا ذلك بهم ظالمين، إذْ كان ذلك جزاءً منا لما سلف منهم من الكفر بالله في الدنيا، بل الكافرون هم الظالمون أنفسهم بما أتوا من الأفعال التي أوجبوا لها العقوبة من ربهم.

فإن قال قائل: وكيف صرف الوعيدَ إلى الكفار، والآية مبتدأةٌ بِذِكْرِ أهلِ الإيمان؟

قيل له: إنّ الآية قد تَقَدَّمَهَا ذِكْرُ صنفين من الناس: أحدهما أهل كفر، والآخرُ أهل إيمان، وذلك قوله: «ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر»، ثم عقّب الله تعالى ذِكْرُه الصنفين بما ذكرهم به، بحضٍّ أهلِ الإيمانِ به على ما يقربهم إليه من النفقة في طاعته، وفي جهادِ أعدائه من أهل الكفر به، قبل مجيء اليوم الذي وصف صفته، وأخبر فيه عن حال أعدائه من أهل الكفر به، إذ كان قتالُ أهل الكفر به في معصيته، ونفقتهُم في الصدِّ عن سبيله، فقال تعالى ذكره: يا أيها الذين آمنوا أنفقوا أنتم مما رزقناكم في طاعتي، إذ كان أهل الكفر بي يُنفقونَ في معصيتي - مِنْ قبل أن يأتيَ يومٌ لا بيع فيه، فيدرك أهل الكفر فيه ابتياعَ ما فَرَّطُوا في ابتياعه في دنياهم - ولا خلة لهم يومئذٍ تنصرهم مني، ولا شافع لهم يشفع عندي فتنجيهم شفاعته لهم من عقابي.. وهذا يومئذٍ

فعِلي بهم جزاءً لهم على كفرهم، وهم الظالمون أنفسهم دوني، لأني غيرُ ظلَّام لعبيدي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾

تأويل قوله: «لا إله إلاّ هو»، معناه: النهي عن أن يُعبد شيءٌ غير الله الحيِّ القيوم الذي صفته ما وصفَ به نفسَهُ تعالى ذِكْرُه في هذه الآية. يقول: «الله» الذي له عبادة الخلق، «الحي القيوم»، لا إله سواه، لا معبودَ سواه. يعني: ولا تعبدوا شيئاً سوَى الحي القيوم الذي لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم، والذي صفته ما وصف في هذه الآية.

وهذه الآية إبانة من الله تعالى ذِكْرُه للمؤمنين به وبرسوله عما جاءت به المختلفين البيناتُ ـ من بعد الرسل الذين أخبرنا تعالى ذِكْرُه أنه فضّل بعضهم على بعض ـ واختلفوا فيه، فاقتتلوا فيه، كفراً به من بعض، وإيماناً به من بعض. فالحمد لله الذي هدانا للتصديق به، ووفقنا للإقرار به.

وأما قوله: «الحيّ»، فإنه يعني: الذي له الحياةُ الدائمة، والبقاء الذي لا أوَّل له بحدٍّ، ولا آخرَ له بأمدٍ، إذْ كان كُلُّ ما سواه فإنه وإنْ كان حياً فلحياته أولٌ محدود، وآخر ممدود ينقطع بانقطاع أمدها، وينقضي بانقضاء غايتها.

وقد اختلف أهل البحث في تأويل ذلك.

فقال بعضهم: إنما سمى الله نفسه «حياً»، لصرفه الأمور مصَارفها، وتقديره الأشياءَ مقاديرها، فهو حيٌّ بالتدبيرِ لا بحياة.

وقال آخرون: بل هو حي بحياةٍ هي له صفة.

وقال آخرون: بل ذلك اسمٌ من الأسماء تسمَّى به، فقلنا تسليماً لأمره.

ومعنى قوله: «القيوم»، القائم برزق ما خلق وحفظه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «لا تأخذه سِنَةٌ»، لا يأخذه نُعاسٌ فينعسُ، ولا نومٌ فيستثقل نوماً.

وإنما عنى تعالى ذكره بقوله: «لا تأخذه سنة ولا نوم»، لاتحُلّه الآفاتُ ولا تنالُه العاهاتُ. وذلك أن «السِنَةَ» و«النومَ»، معنيان يغمُران فَهْمَ ذي الفهم، ويُزيلان مَنْ أصاباهُ عن الحال التي كان عليها قبل أن يُصيباه.

فتأويل الكلام، إذْ كان الأمرُ على ماوصفنا: «الله لا إله إلا هو الحي» الذي لا يموتُ؛ «القيوم» على كُلِّ ماهو دونه بالرزقِ والكلاءةِ والتدبير والتصريفِ من حالٍ إلى حال، «لاتأخذه سِنَةٌ ولا نوم»، لا يغيِّرهُ ما يُغيِّرُ غيرَهُ، ولا يُزيله عما لم يزَل عليه تنقُّلُ الأحوالِ وتصريفُ الليالي والأيام، بل هو الدائمُ على حال، والقيُّوم على جميع الأنام. لو نام كان مغلوباً مقهوراً، لأن النومَ غالبُ النائمِ قاهرُه. ولو وَسَن لكانتِ السمواتُ والأرضُ وما فيهما دكاً، لأنّ قيام جميع ذلك بتدبيره وقدرته. والنومُ شاغلُ المُدَبِّرَ عن التدبيرِ، والنعاسُ مَانعُ المُقَدِّرَ عن التقدير بوَسَنِهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «له ما في السموات وما في الأرض»، أنه مالكُ جميعَ ذلك بغيرِ شريكٍ ولا نديد، وخالقُ جميعه دون كل آلهة ومعبود. وإنما

يعني بذلك: أنه لا تنبغي العبادةُ لشيءٍ سواهُ، لأنَّ المملوكَ إنما هو طَوْعُ يَدِ مالكهِ، وليس له خِدْمة غيره إلا بأمره. يقول: فجميع ما في السموات والأرض ملكي وخلقي، فلا ينبغي أن يَعْبُدَ أحدٌ من خلقي غيري وأنا مالكه، لأنه لا ينبغي للعبد أن يَعْبُدَ غيرَ مالكهِ، ولا يطيعَ سوى مولاه.

وأما قوله: «مَنْ ذا الذي يشفعُ عنده إلاّ بإذنه»، يعني بذلك: من ذا الذي يشفع لمماليكه إنْ أراد عقوبتهم، إلا أن يُخَلِّيه ويأذن له بالشفاعة لهم. وإنما قال ذلك تعالى ذِكْرُه، لأنَّ المشركين قالوا: مانعبُد أوثاننا هذه إلا لِيُقَرِّبُونَا إلى الله زُلفى! فقال الله تعالى ذكره لهم: لي ما في السموات وما في الأرض مع السموات والأرض مِلْكاً، فلا تنبغي العبادةُ لغيري، فلا تعبدوا الأوثان التي تزعمون أنها تُقَرِّبكم مني زُلْفى، فإنها لاتنفعكم عندي ولا تغني عنكم شيئاً، ولا يشفع عندي أحدٌ لأحدٍ إلاّ بتخليتي إياه والشفاعة لمن يشفع له، من رُسُلي وأوليائي وأهل طاعتي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾

يعني تعالى ذكره بذلك: أنه المحيطُ بكل ما كان وبكل ماهو كائن، علماً لا يخفى عليه شيء منه.

وأما قوله: «ولا يُحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء»، فإنه يعني تعالى ذكره: أنه العالمُ الذي لا يخفى عليه شيء، محيط بذلك كله، مُحصٍ له دون سائر مَن دونه، وأنه لا يعلم أحدٌ سواه شيئاً إلا بما شاء هو أن يُعْلمه، فأراد فعلَّمه. وإنما يعني بذلك: أنَّ العبادةَ لا تنبغي لمن كان بالأشياء جاهلاً، فكيف يُعبد مَنْ لا يعقل شيئاً البتة من وثنٍ وصنم؟! يقول: فأخلصوا العبادة

لمن هو محيطٌ بالأشياء كلها، يعلمها، لا يخفى عليه صغيرُها وكبيرها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾

اختلف أهلُ التأويل في معنى «الكرسي» الذي أخبر الله تعالى ذكرُه في هذه الآية أنه وَسِعَ السمواتِ الأرض.

فقال بعضهم: هو عِلْمُ الله تعالى ذِكْرُه (وهو قول ابن عباس).

حدثني به عبدالله بن أبي زياد القطواني قال، حدثنا عبيدالله بن موسى قال، أخبرنا إسرائيل، عن أبي إسحق، عن عبدالله بن خليفة قال: أتت امرأةٌ النبيَّ ﷺ فقالت: ادعُ الله أن يدخلني الجنة! فعظَّم الربَّ تعالى ذكره، ثم قال: إنَّ كُرْسِيَّهُ وَسِعَ السمواتِ والأرضَ، وإنه ليقعدُ عليه فما يَفضُل منه مقدار أربع أصابع ـ ثم قال بأصابعه فجمعها ـ وإن له أطيطاً كأطيطِ الرَّحلِ الجديد إذا رُكب، من ثِقْله.

وقال آخرون: «الكرسي» موضع القدمين.

وقال آخرون: «الكرسي»، هو العرشُ نفسه.

ولكل قول من هذه الأقوال وَجْهٌ ومذهب، غير أنَّ الذي هو أولى بتأويل الآية ما جاء به الأثرُ عن رسولِ الله ﷺ.

حدثني عبدالله بن أبي زياد قال، حدثنا يحيى بن أبي بكير، عن إسرائيل، عن أبي إسحق، عن عبدالله بن خليفة، عن عمر، عن النبي ﷺ بنحوه.

حدثنا أحمد بن إسحق قال، حدثنا أبو أحمد قال، حدثنا إسرائيل، عن

أبي إسحق، عن عبدالله بن خليفة قال: جاءت امرأة، فذكر نحوه[١].

وأما الذي يدلُّ على صحته ظاهرُ القرآن، فقولُ ابن عباس الذي رواه جعفر ابن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عنه أنه قال: «هو عِلْمُه»[٢]. وذلك لدلالةِ قولِهِ تعالى ذِكْرُه: «ولا يَؤُودُه حِفْظُهما» على أن ذلك كذلك: فأخبر أنه لا يؤوده حفظُ ما علم وأحاط به مما في السموات والأرض، وكما أخبر عن ملائكته أنهم قالوا في دعائهم: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً﴾ [غافر: ٧]، فأخبر تعالى ذكره: أنَّ عِلْمَهُ وسع كل شيء، فكذلك قوله: «وسع كرسيه السموات والأرض».

وأصل «الكرسي» العلم. ومنه قيل للصحيفة يكونُ فيها علمٌ مكتوب «كُرّاسة»[٣].

---

(١) قال بشار: هذه ثلاثة أسانيد لخبر واحد لايصح ولا يجوز الاحتجاج به، ومداره على عبدالله بن خليفة الهمداني الكوفي، قال الذهبي في الميزان: لايكاد يُعرف (٢/الترجمة ٤٢٩٠) وانظر تهذيب الكمال: ١٤/الترجمة ٣٢٤٥، وفي سماعه من عمر بن الخطاب نظر (انظر تفسير ابن كثير: ٢/١٣) فهو مرسل، أو موقوف كما رواه الطبري في الإسناد الأول وفي الخبر تجسيمٌ لا يُقبل.

(٢) قال العلامة محمود شاكر: العجب لأبي جعفر، كيف تناقض قولُه في هذا الموضع! فإنه بدأ فقال: إن الذي هو أولى بتأويلِ الآية ما جاء به الأثرُ عن رسولِ الله ﷺ، من الحديث في صفة الكرسي، ثم عاد في هذا الموضع يقول: وأما الذي يدل على صحته ظاهر القرآن، فقول ابن عباس أنه عِلْمُ الله سبحانه. فإما هذا وإما هذا، وغير ممكنٍ أن يكون أولى التأويلات في معنى «الكرسي» هو الذي جاء في الحديث الأول، ويكون معناه أيضاً «العلم»، كما زعم أنه دل على صحته ظاهرُ القرآن. وكيف يجمع في تأويل واحد، معنيان مختلفان في الصفة والجوهر!! وإذا كان خبر جعفر ابن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، صحيح الإسناد، فإن الخبر الآخر الذي رواه مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، صحيح الإسناد

على شرط الشيخين، كما قال الحاكم، وكما في مجمع الزوائد ٦:٣٢٣ «رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح»، كما بينته في التعليق على الأثر: ٥٧٩٢. ومهما قيل فيهما، فلن يكون أحدهما أرجح من الآخر إلا بمرجح يجبُ التسليم له. وأما أبو منصور الأزهري فقد قال في ذكر الكرسي: «والصحيح عن ابن عباس ماروواه عمار الدهني، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنه قال: «الكرسي موضع القدمين، وأما العرش فإنه لا يقدر قدره. قال: وهذه رواية اتفق أهلُ العلم على صحتها. قال: ومن روى عنه في الكرسي أنه العلم، فقد أبطل». وهذا هو قول أهل الحق إن شاء الله.

وقد أراد الطبري أن يستدل بعد بأن الكرسي هو «العلم»، بقوله تعالى: «ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً»، فَلِمَ لَمْ يجعل «الكرسي» هو «الرحمة»، وهما في آية واحدة؟ ولم يجعلها كذلك لقوله تعالى في سورة الأعراف: ١٥٦: «قال عذابي أصيبُ به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء»؟ واستخراج معنى الكرسي من هذه الآية كما فعل الطبري، ضعيف جداً، يجل عنه منْ كان مثله حذراً ولطفاً ودقة.

وأما ما ساقه بعد من الشواهد في معنى «الكرسي»، فإن أكثره لا يقوم على شيء، وبعضه منكر التأويل، كما سأبينه بعد إن شاء الله. وكان يحسبه شاهداً ودليلاً أنه لم يأتِ في القرآن في غير هذا الموضع، بالمعنى الذي قالوه، وأنه جاء في الآية الأخرى بما ثبت في صحيح اللغة من معنى «الكرسي»، وذلك قوله تعالى في «سورة ص»: «ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب».

قال بشار: الأفضل الأصوب في كل هذا القول ان الكرسي مخلوق استأثر الله تعالى بعلمه فنفوض علم حقيقته إليه مع كمال تنزيهه عن الجسمية وعن مشابهة المحدثات

(٣) قال العلامة محمود شاكر: أخشى أن يكون الصواب: «وأصل الكرس: العلم» (بفتح الكاف وسكون الراء) مما رواه ابن الأعرابي من قولهم: «كرِس الرجل» (بفتح ثم كسر): إذا ازدحم علمه على قلبه. وجعل أبي جعفر هذا أصلاً، عجبٌ أي عجب! فمادة اللغة تشهد على خلافه، وتفسير ابن الأعرابي هذا أيضاً شاهد على خلافه. وإنما أصل المادة (كرس) من تراكم الشيء وتلبد بعضه على بعض وتجمعه. وقوله بعد: «ومنه قيل للصحيفة كراسة»، والأجود أن يقال: إنه من تجمع أوراقه بعضها على بعض، أو ضم بعضها إلى بعض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ ﴿٢٥٥﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «ولا يؤوده حفظهما»، ولا يشقُّ عليه ولا يُثْقله.

يقال منه: «قد آدَنِي هذا الأمرُ فهو يؤودني أوْداً وإياداً»، ويقال: «ما آدَكَ فهو لي آئد»، يعني بذلك: ما أثقلك فهو لي مثقل.

«والهاء»، و«الميم» و«الألف» في قوله: «حِفْظُهما»، من ذكر «السموات والأرض». فتأويل الكلام: وسِع كرسيه السموات والأرض، ولا يثقل عليه حفظ السموات والأرض.

وأما تأويل قوله: «وهو العليُّ»، فإنه يعني: والله العليّ.

و«العلي» «الفعيل» من قولك: «علا يعلو عُلوًّا»، إذا ارتفع، «فهو عال وعليّ»، «والعلي» ذو العلو والارتفاع على خَلْقِه بقدرته.

وكـذلك قوله: «العظيم»، ذو العظمة الذي كل شيء دونه، فلا شيءَ أعظم منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّۚ﴾

اختلف أهل التأويل في معنى ذلك.

فقال بعضهم: نزلت هذه الآيةُ في قوم من الأنصار ـ أو في رجل منهم ـ كان لهم أولادٌ قد هَوَّدُوهم أو نَصَّروهم، فلما جاء الله بالإسلام أرادوا إكراههم عليه، فنهاهم الله عن ذلك حتى يكونوا هم يختارون الدُّخول في الإسلام.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: لا يُكرهُ أهلُ الكتابِ على الدين إذا بذلوا الجزية، ولكنهم يُقَرُّون على دينهم. وقالوا: الآية في خاصٍّ من الكفار، ولم

ينسخ منها شيء.

وقال آخرون: هذه الآية منسوخة. وإنما نزلت قبل أن يُفرضَ القتالُ.

وأولى هذه الأقوال بالصواب قولُ مَنْ قال: نزلت هذه الآية في خاصٍّ من الناس ـ وقال: عنى بقوله تعالى ذِكْرُه: «لا إكراه في الدين» أهل الكتابين والمجوسَ وكلَّ مَنْ جاء إقرارُه على دينه المخالف دين الحقّ وأخْذَ الجزية منه، وأنكروا أن يكون شيء منها منسوخاً.

وإنما قلنا: هذا القول أولى الأقوال في ذلك بالصواب، لما قد دللنا عليه في كتابنا «كتاب اللطيف من البيان عن أصول الأحكام»: من أنّ الناسخ غير كائن ناسخاً إلا مانفى حكم المنسوخ فلم يجز اجتماعهما. فأما ما كان ظاهرَه العمومُ من الأمر والنهي، وباطنه الخصوص، فهو من الناسخ والمنسوخ بمعزل.

وإذْ كان ذلك كذلك ـ وكان غير مستحيل أن يقال: لا إكراه لأحد ممن أُخِذَتْ منه الجزيةُ في الدين، ولم يكن في الآية دليلٌ على أنَّ تأويلها بخلاف ذلك، وكان المسلمون جميعاً قد نقلوا عن نبيهّم ﷺ أنه أكره على الإسلام قوماً فأبى أنْ يقبل منهم إلا الإسلام، وحكم بقتلهم إن امتنعوا منه، وذلك كَعَبَدةِ الأوثان من مشركي العرب، وكالمرتد عن دينه دين الحق إلى الكفر ومَنْ أشبههم، وأنه ترك إكراه آخرين على الإسلام بقبوله الجزية منه وإقراره على دينه الباطل، وذلك كأهل الكتابين ومن أشبههم ـ كان بيناً بذلك أنّ معنى قوله: «لا إكراه في الدين»، إنما هو لا إكراه في الدين لأحدٍ ممن حلَّ قبولُ الجزيةِ منه بأدائه الجزيةَ، ورِضَاهُ بحكمِ الإسلام.

ولا معنى لقول من زعم أنّ الآية منسوخة الحكم، بالإذن بالمحاربة.

فإنْ قال قائل: فما أنت قائلٌ من أنها نزلت في قومٍ من الأنصار أرادوا أن يُكْرِهُوا أولادَهم على الإسلام؟

قلنا: ذلك غير مدفوعة صحته، ولكن الآية قد تنزل في خاصٍّ من الأمر،

ثم يكون حكمها عاماً في كل ما جانس المعنى الذي أنزلت فيه. فالذين أنزلت فيهم هذه الآية إنما كانوا قوماً دانوا بدينِ أهلِ التوراة قبل ثبوتِ عقد الإسلام لهم، فنهى تعالى ذكره عن إكراههم على الإسلام، وأنزل بالنهي عن ذلك آيةً يَعُمُّ حُكْمها كلَّ مَنْ كان في مثل معناهم، ممن كان على دينٍ من الأديان التي يجوز أخذُ الجزية من أهلها، وإقرارهُم عليها، على النحو الذي قلنا في ذلك.

ومعنى قوله: «لا إكراه في الدين»، لا يكره أحد في دين الإسلام عليه. وإنما أدخلت «الألف واللام» في «الدين»، تعريفاً للدين الذي عنى الله بقوله: «لا إكراه فيه»، وأنه هو الإسلام.

وقد يحتمل أن يكون أدخلتا عقيباً من «الهاء» المنوية في «الدين»، فيكون معنى الكلام حينئذ: وهو العلي العظيم، لا إكراه في دينه، قد تبين الرشد من الغي. وكأن هذا القول أشبه بتأويل الآية عندي.

وأما قوله: «قد تبين الرشد»، فإنه مصدر من قول القائل: «رشِدت فأنا أرشَد رَشَداً ورُشْداً ورَشاداً»، وذلك إذا أصاب الحق والصواب.

وأما «الغي»، فإنه مصدر من قول القائل: «قد غَوَى فلان فهو يغوَى غَيًّا وغَواية»، وبعض العرب يقول: «غَوَي فلان يغوَى»، والذي عليه قراءة القَرَأَةِ: ﴿مَاضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ [النجم: ٢] بالفتح، وهي أفصح اللغتين، وذلك إذا عَدَا الحق وتجاوزه، فضلَّ.

فتأويلُ الكلام إذاً: قد وَضح الحق من الباطل، واستبان لطالبِ الحق والرشاد وَجْهُ مَطلبهِ، فتميَّزَ من الضلالة والغَواية، فلا تكرهوا من أهل الكتابين ـ ومن أبحتُ لكم أخذَ الجزية منه ـ، [أحداً] على دينكم دين الحق، فإن مَنْ حاد عن الرشادِ بعد استبانتهِ له، فإلى ربه أمرُهُ، وهو وليُّ عقوبته في معاده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ

البقرة: ٢٥٦

اختلف أهل التأويل في معنى «الطاغوت».

فقال بعضهم: هو الشيطان.

وقال آخرون: «الطاغوت» هو الساحر.

وقال آخرون: بل «الطاغوت» هو الكاهن.

والصواب من القول عندي في «الطاغوت»، أنه كُلُّ ذي طغيانٍ على الله، فعُبِد من دونه، إما بقهرٍ منه لمن عَبَدَهُ، وإما بطاعةٍ ممن عبده له، إنساناً كان ذلك المعبودُ، أو شيطاناً، أو وَثناً، أو صنماً، أو كائناً ما كان من شيء.

فتأويل الكلام إذاً: فمن يجحد رُبوبيةَ كُلِّ معبودٍ من دون الله، فيكفر به - «ويؤمن بالله»، يقول: ويصدق بالله أنه إلهه ورّبه ومعبوده - «فقد استمسك بالعروة الوثقى»، يقول: فقد تَمَسَّكَ بأوثقِ ما يتمسَّكُ به مَنْ طَلَبَ الخلاصَ لنفسه من عذاب الله وعقابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ

«والعـروة»، في هذا المكـان، مَثَلٌ للإيمان الذي اعتصم به المؤمن، فشبهه في تعلُّقه به وتمسُّكه به، بالمتمسك بعُروة الشيء الذي له عروة يُتَمسَّك بها، إذْ كان كلّ ذي عروة فإنما يتعلق من أراده بعروته.

وجعل تعالى ذِكْرُه الإيمانَ الذي تمسَّك به الكافرُ بالطاغوتِ المؤمنُ بالله، من أوثق عُرى الأشياء بقوله: «الوثقى».

و«الوثقى»، «فُعلى» من «الوثاقة». يقال في الذكر: «هو الأوثق»، وفي الأنثى: «هي الوثقى»، كما يقال: «فلان الأفضل، وفلانة الفضلى».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «لا انفصامَ لها»، لا انكسار لها. «والهاء والألف»، في قوله: «لها» عائدة على «العروة».

ومعنى الكلام: فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله، فقد اعتصمَ من طاعةِ الله بما لا يخشى مع اعتصامه خذلانَه إياه، وإسلامَه عند حاجته إليه في أهوال الآخرة، كالمتمسك بالوثيق من عُرَى الأشياء التي لا يخشى انكسار عُراها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٥٦﴾

يعني تعالى ذكره: «والله سميع»، إيمانَ المؤمن بالله وحدَه الكافرِ بالطاغوت، عند إقراره بوحدانية اللهِ وتبرُّئِه من الأنداد والأوثان التي تعبد من دون الله، «عليم» بما عَزَمَ عليه من توحيدِ الله وإخلاصِ ربوبيته قلبُه، وما انطوَى عليه من البراءة من الآلهةِ والأصنامِ والطواغيتِ ضميرُه، وبغير ذلك مما أخفته نفسُ كلِّ أحدٍ من خَلْقِه، لا ينكتم عنه سر، ولا يخفى عليه أمرٌ، حتى يجازي كلًّا يوم القيامة بما نَطَقَ به لسانُه، وأضمرته نفسه، إنْ خيراً فخيراً، وإن شرًّا فشرًّا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «الله وليُّ الذين آمنوا»، نصيرهم وظهيرهم، ويتولاهم بعونه وتوفيقه، «يخرجهم من الظلمات»: يعني بذلك: يخرجهم من

ظلماتِ الكفرِ إلى نورِ الإيمان. وإنما عنى: بـ «الظلمات» في هذا الموضع، الكفرَ. وإنما جعل «الظلمات» للكفر مثلًا، لأن الظلمات حاجبةٌ للأبصار عن إدراكِ الأشياء وإثباتها، وكذلك الكفرُ حاجبٌ أبصارَ القلوب عن إدراك حقائق الإيمان والعلم بصحته وصحة أسبابه. فأخبر تعالى ذكره عبادَه أنه وليُّ المؤمنين، ومُبَصِّرهم حقيقةَ الإيمان وسُبُله وشرائعه وحججه، وهاديهم فموفِّقهم لأدلته المزيلة عنهم الشكوك، بكشفهِ عنهم دواعيَ الكفر، وظُلَم سواتره عن أبصار القلوب.

ثم أخبر تعالى ذكره عن أهل الكفر به فقال: «والذين كفروا»، يعني: الجاحدين وحدانيته، «أولياؤُهُم»، يعني: نصراؤهم وظهراؤهم الذين يتولَّونهم، «الطاغوت»، يعني: الأنداد والأوثانُ الذين يعبدونهم من دون الله، «يخرجونهم من النور إلى الظلمات»، يعني: بـ «النور» الإيمان، على نحو ما بينا، «إلى الظلمات»، ويعني بـ «الظلمات» ظلمات الكفر وشكوكَه الحائلة دون أبصار القلوب ورؤية ضياء الإيمان، وحقائق أدلته وسُبُله.

وقد نزلت هذه الآية فيمن كفر من النصارى بمحمد ﷺ، وفيمن آمن بمحمد ﷺ من عَبَدَةِ الأوثان الذين لم يكونوا مُقِرِّين بنبوة عيسى، وسائر الملل التي كان أهلها يكذِّب بعيسى.

فإن قال قائل: أَوَ كانت النصارى على حقٍّ قبل أن يبعث محمد ﷺ فكذَّبوا به؟

قيل: من كان منهم على ملّة عيسى بن مريم ﷺ، فكان على حقّ، وإياهم عنى الله تعالى ذكره بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٧].

فإن قال قائل: فهل يحتمل أن يكون قوله: «والذين كفروا أولياؤُهُم

الطاغوتُ يخرجونهم من النور إلى الظلمات»، أن يكون معنيًا به غيرُ المؤمنين بعيسى، أو غير أهل الرِّدة في الإسلام؟

قيل: نعم، يحتمل أن يكون معنى ذلك: والذين: كفروا أولياؤُهُم الطاغوت، يحولون بينهم وبين الإيمان، ويضلُّونهم فيكفرون، فيكون تضليلهم إياهم حتى يكفروا، إخراجاً منهم لهم من الإيمان، يعني صدّهم إياهم عنه، وحرمانهم إياهم خيرَهُ، وإنْ لم يكونوا كانوا فيه قبل، كقول الرجل: «أخرجني والدي من ميراثه»، إذا مَلَك ذلك في حياته غيرُه، فحرمه منه حظَّه، ولم يملك ذلك القائل هذا الميراث قطُّ فيخرج منه، ولكنه لما حُرِمَهُ وحِيلَ بينه وبين ما كان يكون له لو لم يُحرَمْهُ، قيل «أخرجه منه»، وكقول القائل: «أخرجني فلان من كتيبته»، يعني: لم يجعلني من أهلها، ولم يكن فيها قط قبل ذلك. فكذلك قوله: «يخرجونهم من النور إلى الظلمات»، محتملٌ أن يكون إخراجهم من الإيمان إلى الكفر على هذا المعنى، وإن كان الذي قاله مجاهد وعبدَة أشبه بتأويل الآية.

فإن قال لنا قائل: وكيف قال: «والذين كفروا أولياؤُهُم الطاغوتُ يُخرجونهم من النور»، فجمع خبر «الطاغوت» بقوله: «يخرجونهم»، و«الطاغوت» واحد؟

قيل: إن «الطاغوت» اسم لجماعٍ وواحدٍ، وقد يجمع «طواغيت». وإذا جُعِلَ واحِدُه وجَمْعُه بلفظٍ واحد، كان نظير قولهم: «رجل عدل، وقوم عدل» و«رجل فِطر وقوم فِطر»، وما أشبه ذلك من الأسماء التي يأتي موحَّداً في اللفظ واحدُها وجمعها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٥٧﴾

يعني تعالى ذكره بذلك: هؤلاء الذين كفروا «أصحاب النار»، أهلُ النار الذين يخلدون فيها ـ يعني في نار جهنم ـ دون غيرهم من أهل الإيمان، إلى غير غاية ولا نهاية أبداً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «ألم تر إلى الذي حَاجَّ إبراهيمَ في رَبِّه»، ألم تر، يامحمد، بقلبك «الذي حاج إبراهيم»، يعني: الذي خاصم «إبراهيم»، يعني: إبراهيم نبي الله ﷺ «في رَبِّه أن آتاه الله الملك»، يعني بذلك: حاجَّه فخاصمه في ربِّه، لأنَّ الله آتاه الملك.

وهذا تعجيبٌ من الله تعالى ذِكْرُه نبيَّه محمداً ﷺ، من الذي حاجّ إبراهيم في ربه. ولذلك أدخلت «إلى» في قوله: «ألم تر إلى الذي حاج»، وكذلك تفعل العرب إذا أرادت التعجيب من رجل في بعضِ ما أنكرتْ من فعله، قالوا: «ما ترى إلى هذا»؟! والمعنى: هل رأيت مثلَ هذا، أو كهذا؟!

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾

يعني تعالى ذكره بذلك: ألم تر، يامحمد، إلى الذي حاج إبراهيم في ربه حين قال له إبراهيم: «ربي الذي يحيي ويميت»، يعني بذلك: ربي الذي

بيده الحياة والموت، يُحيي مَنْ يشاء، ويميتُ مَنْ أراد بعد الإحياء. قال: أنا أفعل ذلك، فأحيي وأمِيت، أستحيي مَنْ أردتُ قتله فلا أقتله، فيكون ذلك مني إحياءً له، وذلك عند العرب يسمى «إحياء»، كما قال تعالى ذكره: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾ [المائدة: ٣٢]، وأقتُل آخر، فيكونُ ذلك مني إماتةً له. قال إبراهيم ﷺ: فإن الله الذي هو ربي يأتي بالشمس من مشرقها، فَأْتِ بها ـ إن كنتَ صادقاً أنك إلهٌ ـ من مغربها! قال الله تعالى ذكره: «فَبُهِتَ الذي كفرَ»، يعني: انقطع وبطلت حُجَّتُهُ.

وقوله: «والله لا يهدي القوم الظالمين»، يقول: والله لا يهدي أهلَ الكفر إلى حجةٍ يُدحضون بها حجةَ أهلِ الحق عند المحاجّةِ والمخاصمة، لأن أهلَ الباطل حججهم داحضة.

وقد بينا أن معنى «الظلم» وضع الشيء في غير موضعه، والكافرُ وضع جحوده ماجحد في غير موضعه، فهو بذلك من فعله ظالمٌ لنفسه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ

يعني تعالى ذكره بقوله: «أو كالذي مرّ على قرية»، نظيرَ الذي عنى بقوله: «ألم تر إلى الذي حَاجَّ إبراهيمَ في ربه»، من تعجيب محمد ﷺ منه.

وإنّ الله تعالى ذِكْرُه عجَّب نبيَّه ﷺ ممن قال ـ إذْ رأى قرية خاوية على عروشها ـ «أنَّى يُحيي هذهِ اللهُ بعد موتها»، مع علمه أنه ابتدأ خلقها من غير شيء، فلم يقنعه علمه بقدرته على ابتدائها حتى قال: أَنَّى يحييها الله بعد موتها! ولا بيانَ عندنا من الوجه الذي يصحّ من قِبله البيانُ على اسم قائل ذلك. وجائزٌ أن يكون ذلك عُزَيراً، وجائز أن يكون أو رميا، ولا حاجة بنا إلى معرفة اسمه، إذْ لم يكن المقصود بالآية تعريف الخلق اسم قائل ذلك، وإنما

المقصود بها تعريف المنكرين قُدْرَةَ الله على إحيائه خلقَه بعد مماتهم، وإعادتهم بعد فنائهم، وأنه الذي بيده الحياة والموت ـ من قريش ومن كان يكذب بذلك من سائر العرب ـ وتثبيت الحجة بذلك على مَنْ كان بين ظهرانَيْ مُهاجَرِ رسولِ الله ﷺ من يهود بني إسرائيل، بإطلاعه نبيَّه محمداً ﷺ على مايُزيل شكهم في نبوته، ويقطعُ عذرهم في رسالته، إذْ كانت هذه الأنباء التي أوحاها إلى نبيه محمد ﷺ في كتابه، من الأنباء التي لم يكن يعلمها محمد ﷺ وقومُه، ولم يكن عِلْمُ ذلك إلاّ عند أهل الكتاب، ولم يكن محمد ﷺ وقومه منهم، بل كان أميًّا وقومه أمِّيُّون. فكان معلوماً بذلك عند أهلِ الكتابِ من اليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجَرِه، أنَّ محمداً ﷺ لم يعلم ذلك إلا بوحي من الله إليه. ولو كان المقصودُ بذلك الخبرَ عن اسم قائل ذلك، لكانت الدلالة منصوبةً عليه نصباً يقطعُ العذرَ ويزيلُ الشك، ولكن القصد كان إلى ذم قِيله، فأبان تعالى ذكره ذلك لخلقه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا

يعني تعالى ذكره بقوله: «وهي خاوية»، وهي خالية من أهلها وسكانها.

وأما «العُـرُوش»، فإنهـا الأبنيةُ والبيوت واحدها «عَرْش»، وجَمْعُ قليلهِ «أعرُش». وكل بناء فإنه: «عرش». ويقال: «عَرَش فلان داراً يعرِش ويعرُش عرشاً»، ومنه قول الله تعالى ذكره: ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، يعني يبنون، ومنه قيل: «عريش مكة»، يعني به: خيامها وأبنيتها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ

ومعنى ذلك فيما ذُكر لنا: أنَّ قائله لما مرَّ ببيت المقدس ـ أو بالموضع الذي ذكر الله أنه مرّ به ـ خراباً بعد ماعَهِدَهُ عامراً قال: أنَّى يُحْيِي هذه الله بعد خرابها؟

وقال بعضهم: كان قِيله ما قالَ مِنْ ذلك شكًّا في قدرةِ الله على إحيائه، فأراه الله قُدْرَتَهُ على ذلك بضربه المثلَ له في نفسه، ثم أراه الموضعَ الذي أنكر قُدرته على عمارته وإحيائه، أحيا ما رآه قبل خرابه، وأعمرَ ما كان قبل خرابه.

وذلك أنَّ قائلَ ذلك كان ـ فيما ذكر لنا ـ عَهِدَهُ عامراً بأهلِهِ وسكانه، ثم رآه خاوياً على عروشه قد بادَ أهلُه، وشتَّتهم القتلُ والسباء، فلم يبق منهم بذلك المكان أحدٌ، وخربت منازلهم ودورهم فلم يبقَ إلاّ الأثر. فلما رآه كذلك بعد الحالِ التي عهده عليها، قال: على أيِّ وَجهٍ يُحيي هذه اللهُ بعد خرابها فيعمُرها، استنكاراً ـ فيما قاله بعض أهل التأويل ـ فأراهُ كيفية إحيائه ذلك بما ضربه له في نفسهِ، وفيما كان في إداوته وفي طعامه، ثم عَرَّفَهُ قُدْرَتَهُ على ذلك وعلى غيره، بإظهاره على إحيائه ما كان عَجباً عنده في قدرة الله إحياءَهُ رَأْيَ عينه حتى أبصره ببصره. فلما رأى ذلك قال: «أعلمُ أنَّ الله على كل شيء قدير».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «ثم بعثه»، ثم أثاره حيًّا من بعد مماته.

وأما معنى قوله «كم لبثت»، فإن «كم» استفهام في كلام العرب عن مبلغ العدد، وهو في هذا الموضع نصب بـ«لبثت»، وتأويله: قال الله له: كم قدرُ

الزمان الذي لبثتَ ميتاً قبل أنْ أبعثكَ من مماتك حيًّا؟ قال المبعوث بعد مماته: لبثتُ ميتاً إلى أن بعثتني حيًّا يوماً واحداً أو بعضَ يوم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنَّه»، لم تُغَيِّرْهُ السِّنون التي أتت عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾

إن الله تعالى ذكره بعث قائل: «أنَّى يحيي هذه الله بعد موتها» من مماتِهِ، ثم أراه نظيرَ ما استنكر من إحياءِ الله القريةَ التي مَرَّ بها بعد مماتها، عياناً من نفسهِ وطعامهِ وحماره. فجعل تعالى ذِكْرُه ما أراه من إحيائه نفسه وحماره، مثلاً لما استنكر من إحيائه أهل القرية التي مرّ بها خاويةً على عروشها، وجعل ما أراه من العِبرة في طعامه وشرابه، عبرةً له وحجة عليه في كيفية إحيائه منازل القرية وجنانها.

وإنما ذلك أولى بتأويل الآية، لأنّ قوله: «وانظر إلى العظام»، إنما هو بمعنى: وانظر إلى العظام التي تراها ببصرك، كيف ننشزُها ثم نكسوها لحماً. وقد كان حمارُه أدركه من البلى ـ في قول أهل التأويل جميعاً ـ نظيرُ الذي لحق عظامَ مَنْ خُوطب بهذا الخطاب، فلم يمكن صرف معنى قوله: «وانظر إلى العظام»، إلى أنه أمرٌ له بالنظر إلى عظامِ الحمارِ دون عظامِ المأمور بالنظر إليها، ولا إلى أنه أمر له بالنظر إلى عظام نفسه دون عظام الحمار. وإذْ كان ذلك كذلك، وكان البِلَى قد لَحِقَ عظامَهُ وعظامَ حماره، كان الأولى بالتأويل

أن يكون الأمرُ بالنظر إلى كل ما أدركه طرفه مما قد كان البلى لحقه، لأن الله تعالى ذكره جعل جميع ذلك عليه حجة، وله عبرةً وعظةً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾

يعني تعالى ذكره بذلك: «ولنجعلك آيةً للناس»، أمتناك مئة عام ثم بعثناك.

وإنما عنى بقوله: «ولنجعلك آية»، ولنجعلك حُجَّةً على مَنْ جَهِلَ قُدرتي وشكَّ في عظمتي، وأنا القادرُ على فعل ما أشاء من إماتةٍ وإحياء، وإفناءٍ وإنشاء، وإنعامٍ وإذلال، وإقتارٍ وإغناء، بيدي ذلك كلُّه، لا يملكهُ أحد دوني، ولا يقدر عليه غيري.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾

قد دللنا فيما مضى قَبْلُ على أن العظام التي أُمِر بالنظرِ إليها، هي عظام نفسه وحماره.

وأما قوله: «كيف ننشزُها»، فإن القَرَأَةَ اختلفت في قراءته.

فقرأه بعضهم: ﴿وَٱنْظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا﴾، بضم النون، وبالزاي. وذلك قراءةُ عامةِ قَرَأَةِ الكوفيين، بمعنى: وانظر كيف نركِّبُ بعضَها على بعض، وننقل ذلك إلى مواضع من الجسم.

وقرأ ذلك آخرون: ﴿وَٱنْظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِرُهَا﴾ بضم النون (وبالراء). قالوا: من قول القائل، «أنشرَ اللهُ الموتى فهو يُنشِرهم إنشاراً»، وذلك قرأه عامة قَرَأَةِ أهلِ المدينة، بمعنى: وانظر إلى العظام كيف نحييها، ثم نكسوها لحماً.

واحتـج بعض قرأةِ ذلـك بالـراء وضم نون أوله، بقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ [عبس: ٢٢]، فرأى أنَّ من الصوابِ إلحاق قوله: «وانظر إلى العظام كيف ننشرها» به.

والقول في ذلك عندي أنَّ معنى «الإنشاز». ومعنى «الإنشار» متقاربان. لأن معنى «الإنشاز» التركيبُ والإثبات ورَدُّ العظام إلى العظام، ومعنى «الإنشار» إعادة الحياة إلى العظام. وإعادتها لا شك أنه ردُّها إلى أماكنها ومواضعها من الجسد بعد مفارقتها إياها. فهما، وإن اختلفا في اللفظ، فمتقاربا المعنى. وقد جاءت بالقـراءة بهمـا الأمـة مجيئاً يقطعُ العذر ويُوجِبُ الحجة. فبأيِّهما قرأ القـارىء فمصيبٌ، لانقيادِ معنييهمـا، ولا حجـة توجبُ لإحـداهمـا القضـاءَ بالصواب على الأخرى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾

يعني تعـالى ذكره بقوله: «ثم نكسوها»، أي العظام «لحماً»، «والهاء» التي في قوله: «ثم نكسوها لحماً»، من ذكر العظام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٥٩﴾

يعني تعـالى ذكره بقوله: «فلما تبيَّنَ له»، فلما اتَّضَحَ له عياناً ما كان مستنكراً من قدرةِ الله وعظمته عنده قبل عيانه ذلك «قال أعلم» الآن بعد المعاينة والإيضاح والبيان «أن الله على كل شيء قدير».

ثم اختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: «قال أعلم أن الله».

فقرأه بعضهم: ﴿قَالَ ٱعْلَمْ﴾ على معنى الأمر بوصل «الألف» من «اعلم»، وجزم «الميم» منها، وهي قراءة عامة قَرَأَةِ أهلِ الكوفة.

وقرأ ذلك آخرون: ﴿قَالَ أَعْلَمُ﴾، على وجه الخبر عن نفسه للمتكلم به، بهمز ألف «أعلم» وقَطْعِها، ورفع «الميم»، بمعنى: فلما تَبَيَّنَ له ما تَبَيَّنَ من قدرةِ اللهِ وعظيمِ سلطانه بمعاينته ما عايَنَهُ، قال: المتبيِّنُ ذلك: أعلم الآن أنا أنّ الله على كل شيء قدير.

وبذلك قرأ عامة قَرَأَةِ أهلِ المدينة، وبعض قَرَأَةِ أهلِ العراق.

وأولى القراءتين بالصواب في ذلك قراءة من قرأ ﴿ٱعْلَمْ﴾ بوصل «الألف» وجزم «الميم»، على وجه الأمر من الله تعالى ذكره للذي قد أحياه بعد مماته، بالأمر بأن يعلم أن الله ـ الذي أَراهُ بعينيه ما أراه من عظيمِ قدرتهِ وسلطانه، من إحيائه إياه وحمارَه بعد موتِ مئةِ عامٍ وبَلائه، حتى عادَا كهيئتهما يوم قبض أرواحهما، وحفظهِ عليه طعامه وشرابه مئة عام حتى ردّه عليه كهيئته يوم وضعه غير متغير ـ على كل شيء قادرٌ كذلك.

وإنما اخترنا قراءة ذلك كذلك، وحكمنا له بالصواب دون غيره، لأنّ ما قبله من الكلام أمرٌ من الله تعالى ذكره: قولاً للذي أحياه الله بعد مماته، وخطاباً له به، وذلك قوله: «فانظر إلى طعامك وشرَابك لم يتسنَّه وانظر إلى حمارك. . . وانظر إلى العظام كيف ننشزها»، فلما تبين ذلك له جواباً عن مسألته ربَّه: «أنى يحيي هذه الله بعد موتها»، قال الله له: «اعلم أن الله» ـ الذي فعل هذه الأشياء على ما رأيتَ ـ على غير ذلك من الأشياء قديرٌ كقدرته على مارأيت وأمثاله، كما قال تعالى ذكره لخليله إبراهيم ﷺ ـ بعد أنْ أجابه عن مسألته إياه في قوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ـ ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، فأمر إبراهيمَ بأنْ يعلمَ، بعد أنْ أراهُ كيفيةَ إحيائه الموتى، أنه عزيز حكيم. فكذلك

أمر الذي سأل فقال: «أنى يحيي هذه الله بعد موتها»؟ بعد أن أراه كيفية إحيائه إياها ـ أن يعلم أنّ الله على كل شيء قدير.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**

يعني تعالى ذكره بذلك: ألم تر إذْ قال إبراهيمُ: ربِّ أرني.

وإنما صلح أن يعطف بقوله: «وإذ قال إبراهيم» على قوله: «أو كالذي مرَّ على قرية»، وقوله: «ألم تر إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربه»، لأن قوله: «ألم تر» ليس معناه: ألم تر بعينيك، وإنما معناه: ألم تر بقلبك، فمعناه: ألم تعلم فتذكر، فهو وإنْ كان لفظه لفظ «الرؤية»، فيعطف عليه أحياناً بما يوافق لفظه من الكلام، وأحياناً بما يوافق معناه.

ومعنى قوله: «ليطمئن قلبي»: ليسكن ويهدأ باليقين الذي يستيقنه.

وأما تأويل قوله: «قال أَوَ لم تؤمن»، فإنه: أَوَ لَمْ تُصدق؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ**

يعني تعالى ذكره بذلك: قال الله له: «فَخُذْ أربعةً من الطير»، فُذكر أنَّ الأربعةَ من الطير: الديكُ، والطاوُوس، والغرابُ، والحَمَام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ**

اختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك، فقرأته عامة قرأةِ أهلِ المدينة والحجاز والبصرة: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ بضم «الصاد»، من قول القائل: «صُرْت إلى هذا

الأمر» إذا ملتُ إليه: «أَصُورُ صَوَرًا»، ويقال: «إنِّي إليكم لأَصْوَرُ»، أي: مشتاق مائل.

فمعنى قولـه: «فصُرْهن إليك»، اضْمُمْهُنَّ إليكَ ووجههن نحوك، كما يقال: «صُرْ وجهك إليّ»، أي أَقْبِلْ به إليَّ. ومن وَجّه قوله: فصرهن إليك إلى هذا التأويل، كان في الكلام عنده متروك قد ترك ذكرهُ استغناءً بدلالة الظاهر عليه ويكون معناه حينئذ عنده: «قال فخذ أربعةً من الطير فصرهن إليك»، ثم قطعهن، «ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً».

وقرأ ذلك جماعة من أهل الكوفة ﴿فَصِرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ بالكسر، بمعنى: قطعهن.

وسـواءٌ قرأ القـارىء ذلك بضم «الصاد»: «فصُرْهن إليك»، أو كسرها «فصِرْهن»، إذ كانتـا لغتين معـروفتين بمعنى واحد. غير أنَّ الأمر وإن كان كذلك، فإنَّ أَحَبَّهُمَا إليَّ أنْ أقرأ به: «فصرْهن إليك»، بضم «الصاد»، لأنها أعلى اللغتين وأشهرهما، وأكثرهما في أحياء العرب.

القـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾

إن الله تعالى ذكره أمرَ إبراهيم بتفريقِ أعضاء الأطيارِ الأربعة، بعد تقطيعه إياهن، على جميع الأجبالِ التي كان يصل إبراهيم في وقت تكليف الله إياه تفريقَ ذلك وتبديدَها عليها أجزاء. لأن الله تعالى ذِكْرُه قال له: «ثم اجعلْ على كل جبلٍ منهن جزءاً»، و«الكل» حرف يدل على الإحاطة بما أضيف إليه، لفظه واحد ومعناه الجمع.

وأما قوله: «ثم ادْعُهنَّ»، فإن معناه: هو أنه أُمِرَ أنْ يقول لأجزاءِ الأطيار بعد تفريقهن على كل جبل: «تعالين بإذنِ الله».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٦٠﴾

يعني تعالى ذكره بذلك: «واعلم»، ياإبراهيمُ، أنَّ الذي أحيا هذه الأطيار، بعد تمزيقكَ إياهن، وتفريقكَ أجزاءهن على الجبال، فجمعهن وردَّ إليهن الروحَ حتى أعادهن كهيئتهنَّ قبل تفريقكَهُنَّ «عزيز»، في بطشه إذا بطش بمن بطش من الجبابرةِ والمتكبرة، الذين خالفوا أمرَه، وعصوا رُسله، وعبدوا غيره، وفي نقمته حتى ينتقمَ منهم، «حكيم» في أمره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾

وهذه الآية مردودة إلى قوله: ﴿مَنْ ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَٱللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥]. والآياتُ التي بعدها إلى قوله: «مَثَلُ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله»، من قصص بني إسرائيل وخبرهم مع طالوت وجالوت، وما بعد ذلك من نبأ الذي حاجَّ إبراهيمَ مع إبراهيم، وأمْرِ الذي مرَّ على القريةِ الخاويةِ على عروشها، وقصة إبراهيم ومسألته ربَّه ما سأل، مما قد ذكرناه قبل، اعتراض من الله تعالى ذِكْرُه بما اعترضَ به من قصصهم بين ذلك، احتجاجاً منه ببعضه على المشركين الذين كانوا يكذبون بالبعثِ وقيام الساعة، وحضاً منه ببعضه للمؤمنين على الجهاد في سبيله الذي أمرهم به في قوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٤]، يُعَرِّفُهم فيه أنه ناصرهم وإنْ قَلَّ عددهم وكثر

عدَدُ عدوِّهم، ويَعِدُهم النُّصْرَةَ عليهم، ويعلّمهم سنته فيمن كان على منهاجهم من ابتغاء رضوان الله أنه مؤيدهم، وفيمن كان على سبيل أعدائهم من الكفار بأنه خاذلهم ومفرِّقُ جمعهم ومُوهِنُ كيدهم، وقطعاً منه ببعضه عذرَ اليهود الذين كانوا بين ظهرانْي مُهاجَر رسول الله ﷺ بما أطلع نبيَّه عليه من خفيِّ أمورهم لأنه كان عنها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾

والذي هو أولى بتأويل قوله: «والله يضاعفُ لمن يشاء»، والله يضاعف على السبعمئة إلى ما يشاء من التضعيف، لمن يشاء من المنفقين في سبيله. لأنه لم يَجْرِ ذكر الثوابِ والتضعيف لغيرِ المنفق في سبيل الله، فيجوز لنا توجيه ماوعد تعالى ذكره في هذه الآية من التضعيف، إلى أنه عِدَة منه على العمل (في غير سبيله، أو) على غير النفقة في سبيل الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١﴾

يعني تعالى ذكره بذلك: «والله واسع»، أن يزيد من يشاء من خلقه المنفقين في سبيله على أضعاف السبعمئة التي وعده أن يزيده؛ «عليم» من يستحق منهم الزيادة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٢٦٢﴾

يعني تعالى ذكره بذلك: المعطيَ مالَه المجاهدين في سبيل الله معونةً لهم على جهاد أعداء الله. يقول تعالى ذكره: الذي يعين المجاهدين في سبيل الله بالإنفاق عليهم وفي حَمُولاتهم وغير ذلك من مؤنهم، ثم لم يُتْبِعْ نفقتَهُ التي أنفقها عليهم، منًّا عليهم بإنفاق ذلك عليهم، ولا أذى لهم. فامتنانه به عليهم، بأن يظهر لهم أنه قد اصطنع إليهم، بفعله وعطائه الذي أعطاهموه تقويةً لهم على جهاد عدوهم، معروفاً، ويبدي ذلك إما بلسان أو فعل. وأما «الأذى» فهو شكايته إياهم بسبب ما أعطاهم وقوَّاهم من النفقة في سبيل الله، أنهم لم يقوموا بالواجب عليهم في الجهاد، وما أشبه ذلك من القول الذي يؤذي به من أنفقَ عليه.

وإنما شَرَط ذلك في المنفق في سبيل الله، وأوجبَ الأجر لمن كان غير مانٍّ ولا مؤذٍ مَن أنفق عليه في سبيل الله، لأن النفقة التي هي في سبيل الله: ما ابتغى به وجه الله وطلب به ماعنده. فإذا كان معنى النفقة في سبيل الله هو ما وصفنا، فلا وجه لمنِّ المنفق على مَنْ أنفق عليه، لأنه لايدَ له قِبَله ولا صَنيعة يستحق بها عليه - إنْ لم يكافئه عليها - المنُّ والأذى، إذ كانت نفقته ما أنفق عليه احتساباً وابتغاءَ ثواب الله وطلبَ مرضاته، وعلى الله مثوبته، دون من أنفق ذلك عليه.

ومعنى قوله: «لهم أجرهم عند ربهم»، لهم ثوابهم وجزاؤهم على نفقتهم التي أنفقوها في سبيل الله، ثم لم يُتْبِعُوها منًّا ولا أذى.

وقوله: «ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون»، يقول: وهم مع ما لهم من الجزاءِ والثوابِ على نفقتهم التي أنفقوها على ما شرطنا: «لا خوفٌ عليهم» عند مقدمهم على الله وفراقهم الدنيا، ولا في أهوالِ القيامة، وأنْ ينالهم من مكارِهها

أو يصيبهم فيها من عقابِ الله «ولا هم يحزنون» على ما خلفوا وراءهم في الدنيا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ٢٦٣﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «قول معروف»، قولٌ جميل، ودعاءُ الرجل لأخيه المسلم، «ومغفـرة»، يعني: وسترٌ منه عليه لما علم من خَلّته وسوءِ حالته، «خيرٌ» عند الله «من صدقةٍ» يتصدقها عليه «يتبعها أذى»، يعني: يشتكيه عليها، ويؤْذِيه بسببها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾

يعني تعالى ذكره بذلك: «يا أيها الذين آمنوا»، صدقوا الله ورسوله، «لا تبطلوا صدقاتكم»: يقول: لا تُبْطِلُوا أجورَ صدَقاتكم بالمنّ والأذى، كما أبطل كفر الذي ينفق ماله «رئاء الناس»، وهو مراآته إياهم بعمله، وذلك أنْ ينفقَ مالَهُ فيما يرى الناسُ في الظاهر أنه يريدُ اللهَ تعالى ذكره فيحمدونه عليه، وهو غيرُ مريدٍ به الله ولا طالب منه الثواب، وإنما ينفقه كذلك ظاهراً ليحمده الناس عليه فيقولوا: «هو سَخِيٌّ كريم، وهو رجل صالحٌ»، فيحسنوا عليه به الثناء، وهم لا يعلمون ماهو مستبطنٌ من النيةِ في إنفاقه ما أنفق، فلا يدرون ماهو عليه من التكذيبِ بالله تعالى ذكره واليوم الآخر.

وأما قوله: «ولا يؤمن بالله واليوم الآخر»، فإنَّ معناه: ولا يصدقُ بوحدانيةِ الله ورُبوبيته، ولا بأنه مبعوثٌ بعد مماتهِ فمجازى على عمله، فيجعل عمله لوجه الله وطلب ثوابه وما عنده في معاده. وهذه صفة المنافق. وإنما قلنا إنه منافق، لأن المُظْهِرَ كُفْرَهُ والمُعْلِنَ شِرْكَهُ، معلومٌ أنه لا يكون بشيء من أعماله مرائياً. لأن المرائي هو الذي يرائي الناس بالعمل الذي هو في الظاهر لله، وفي الباطن مريبةٌ سريرةُ عامله، مرادٌ به حمد الناس عليه. والكافر لايُخيلُ على أحدٍ أمرُه أن أفعاله كلها إنما هي للشيطان ـ إذا كان مُعْلِناً كفرَهُ ـ لا لله. ومن كان كذلك، فغير كائن مرائياً بأعماله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾**

يعني تعالى ذكره بذلك: فَمَثَلُ هذا الذي يُنفقُ مالَهُ رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخـر، «والهـاء» في قوله «فمثله»، عائدةٌ على «الذي»؛ «كمثل صفوانٍ»، «والصفوان» واحدٌ وجميعٌ، فمن جعله جميعاً فالواحدة «صفوانة»، بمنزلة «تمرة وتمر» و«نخلة ونخل». ومن جعله واحداً، جمعه «صِفْوان، وصُفِيّ، وصِفِيّ».

«والصفوان» هو «الصفا»، وهي الحجارة الملس.

وقـولـه: «عليه تراب»، يعني: على الصفوان ترابٌ، «فأصابه» يعني: أصابَ الصفوانَ. «وابلٌ»، وهو المطرُ الشديد العظيم.

وقوله: «فتركه صلداً» يقول: فترك الوابلُ الصفوانَ صَلداً.

«والصلد» من الحجارة، الصلبُ الذي لا شيءَ عليه من نباتٍ ولا غيره، وهو من الأَرَضين ما لاينبتُ فيه شيء، وكذلك من الرؤوس.

ثم رجع تعالى ذكره إلى ذكر المنافقين الذين ضرب المثلَ لأعمالهم، فقال: فكذلك أعمالهم بمنزلةِ الصَّفوان الذي كان عليه تراب، فأصابه الوابلُ من المطر فذهب بما عليه من التراب، فتركه نقيًّا لا ترابَ عليه ولا شيء، يراهمُ المسلمون في الظاهر أنَّ لهم أعمالاً ـ كما يُرى الترابُ على هذا الصفوان ـ بما يُرَاؤُونَهُمْ به، فإذا كان يوم القيامة وصاروا إلى الله، اضمحلَّ ذلك كله، لأنه لم يكن لله، كما ذهب الوابلُ من المطر بما كانَ على الصفوانِ من الترابِ، فتركه أملسَ لا شيءَ عليه.

فذلك قوله: «لا يقدرون»، يعني به: الذين ينفقون أموالهم رِئاءَ الناسِ، ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، يقول: لا يقدرون يوم القيامة على ثوابِ شيء مما كسبوا في الدنيا، لأنهم لم يعملوا لمعادهم، ولا لطلبِ ما عندَ الله في الآخرة، ولكنهم عملوه رِئاءَ الناسِ وطلبَ حمدهم، وإنما حظهم من أعمالهم، ما أرادوه وطلبوه بها.

ثم أخبر تعالى ذكره أنه «لا يهدي القوم الكافرين»، يقول: لا يُسَدِّدُهم لإصابةِ الحقِّ في نفقاتهم وغيرها، فيوفقهم لها، وهم للباطل عليها مُؤْثِرُونَ، ولكنه يتركهم في ضلالتهم يعمهون.

فقال تعالى ذكره للمؤمنين: لا تكونوا كالمنافقين الذين هذا المثل صفةُ أعمالهم، فَتُبْطِلُوا أجورَ صدقاتكم بمنِّكم على مَنْ تصدقتم بها عليه وأذاكم لهم، كما بطل أجر نفقة المنافق الذي أنفق ماله رئاء الناس، وهو غير مؤمن بالله واليوم الآخر، عند الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: «ومثل الذين ينفقون أموالهم» فيصَّدَّقون بها، ويحملون عليها في سبيل الله، ويقوُّون بها أهلَ الحاجة من الغزاة والمجاهدين في سبيل الله، وفي غير ذلك من طاعات الله، طَلَبَ مرضاتِهِ.

«وتثبيتاً من أنفسهم» يعني بذلك: وتثبيتاً لهم على إنفاق ذلك في طاعةِ الله وتحقيقاً، من قول القائل: «ثَبَّتُّ فلاناً في هذا الأمر» - إذا صححتُ عَزْمَهُ، وحققته، وقويت فيه رأيه - «أثبته تثبيتاً».

وإنما عنى الله جل وعز بذلك: أنّ أنفسهم كانت موقنةً مصدقة بوعد الله إياها فيما أنفقتْ في طاعته بغير مَنٍّ ولا أذى، فَثَبَّتَتْهُمْ في إنفاق أموالهم ابتغاء مرضاة الله، وصَحَّحَتْ عَزْمَهُمْ وآراءهم، يقيناً منها بذلك، وتصديقاً بوعدِ الله إياها ما وعدها. ولذلك قال مَنْ قال من أهل التأويل في قوله: «وتثبيتاً»، وتصديقاً؛ ومن قال منهم: ويقيناً لأن تثبيتَ أنفسِ المنفقين أموالَهم ابتغاء مرضاة الله إياهم، إنما كان عن يقينٍ منها وتصديقٍ بوعدِ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾

يعني بذلك جل وعز: ومثل الذين ينفقون أموالهم فيتصدقون بها ويُسبِّلُونها في طاعةِ الله بغير مَنٍّ على مَنْ تَصَدَّقُوا بها عليه، ولا أذى منهم لهم بها، ابتغاءَ رضوانِ الله وتصديقاً من أنفسهم بوعده، «كمثل جنة».

والجنة: البستان. «بربْوَة»، و«الرَّبوة» من الأرض: ما نشز منها فارتفع عن السيلِ. وإنمـا وصفها بذلك جَلَّ ثناؤه، لأنَّ ما ارتفع عن المسايل والأودية أغلظ، وجنانُ ما غلُظ من الأرض أحسنُ وأزكى ثمراً وغرساً وزرعاً، مما رقَّ منها.

وأما قوله: «أصابها وابلٌ»، فإنه يعني جَلَّ ثناؤه: أصابَ الجنةَ التي بالربوة من الأرض، وابلٌ من المطر، وهو الشديد العظيم القطر منه.

وقـولـه: «فآتت أُكلَها ضِعفين»، فإنه يعني الجنة: أنها أضعف ثَمَرُهَا ضِعفين حين أصابها الوابلُ من المطر.

وأما قوله: «فإنْ لم يُصِبْهَا وابلٌ فطلّ»، فإنَّ «الطَّلَّ»، هو النَّدَى، واللّيِّن من المطر.

وإنما يعني تعالى ذكره بهذا المثل: كما ضَعَّفتُ ثمرة هذه الجنة التي وصفتُ صفتها حين جاد الوابل، فإن أخطأ هذا الوابل، فالطل كذلك. يضعِّف الله صَدقةَ المتصدِّق والمنفق ماله ابتغاء مرضاته وتثبيتاً من نفسه، من غير مَنٍّ ولا أذى، قلَّت نفقته أو كثرت، لا تخيب ولا تُخلِف نفقته، كما تضعَّف الجنة التي وصف جل ثناؤه صفتها، قَلَّ ما أصابها من المطر أو كثُر، لا يُخلِف خيرُها بحال من الأحوال.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢٦٥﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: «والله بما تعملون»، أيها الناس، في نفقاتكم التي تنفقونها «بصيرٌ» لا يخفى عليه منها ولا من أعمالكم فيها وفي غيرها شيء، يعلم مَنِ المنفق منكم بالمنّ والأذى، والمنفق ابتغـاءَ مرضـاةِ الله وتثبيتاً من نفسـه، فيُحصي عليكم حتى يجـازيَ جميعَكم جزاءه على عمله، إنْ خيراً

فخيراً، وإن شرًّا فشرًّا.

وإنما يعني بهذا القول جل ذكره، التحذيرَ من عقابه في النفقات التي ينفقها عباده وغير ذلك من الأعمال: أن يأتيَ أحدٌ من خَلْقِهِ ما قد تقدَّم فيه بالنهي عنه، أو يفرِّطَ فيما قد أمر به، لأن ذلك بمرأى من الله ومَسمَع، يعلمه ويحصيه عليهم، وهو لخلقه بالمرصاد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾**

ومعنى ذلك: «يا أيها الذين آمنوا لا تُبْطِلُوا صدقاتكم بالمنّ والأذى كالذي ينفق ماله رئاءَ الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، فمثله كمثل صَفوان عليه تراب فأصابه وابلٌ فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا»، «أيودُّ أحدكم أنْ تكونَ له جنةٌ من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصَابه الكبر»، الآية.

ومعنى قوله: «أيود أحدكم» أيُحِبُّ أحدكم، «أنْ تكونَ له جنة»، يعني: بستاناً «من نخيلٍ وأعناب تجري من تحتها الأنهار»، يعني: من تحتِ الجنة «وله فيها من كل الثمرات». و«الهاء» في قوله «له» عائدة على «أحد»، و«الهاء» و«الألف» في «فيها» على «الجنة». «وأصابه»، يعني: وأصابَ أحدكم «الكبر وله ذرية ضعفاء».

وإنما جعل جل ثناؤه البستانَ من النخيل والأعناب ـ الذي قال جل ثناؤه لعباده المؤمنين: أيود أحدكم أن تكون له ـ مَثَلاً لنفقةِ المنافقِ التي يُنفقها رئاء الناس، لا ابتغاءَ مرضاةِ الله، فالناس ـ بما يظهر لهم من صدقته وإعطائه لما

يعطي وعمله الظاهر- يُثْنُونَ عليه ويحمدونه بعملهِ ذلك أيامَ حياته، في حُسْنِهِ كَحُسْنِ البستان، وهي الجنةُ التي ضربها الله عز وجل لعمله مثلاً، من نخيل وأعنابٍ له فيها من كل الثمرات، لأنَّ عمله ذلك الذي يعمله في الظاهر في الدنيا فيه من كُلِّ خيرٍ من عاجل الدنيا، يدفع به عن نفسه ودمه وماله وذريته، ويكتسبُ به المحمَدةَ وحُسْنَ الثناء عند الناس، ويأخذ به سهمَهُ من المغنم، مع أشياء كثيرة يكثر إحصاؤها، فله في ذلك من كل خير في الدنيا، كما وصف جل ثناؤه الجنة التي وصف مَثَلاً لعمله، بأنَّ فيها من كل الثمرات.

ثم قال جل ثناؤه: «وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء»، يعني أنَّ صاحبَ الجنة أصابه الكبر «وله ذرية ضعفاء»: صغارٌ أطفال، «فأصابها»، يعني: فأصابَ الجنةَ - «إعصارٌ فيه نار فاحترقت»، يعني بذلك أنَّ جنته تلك أحرقتها الريحُ التي فيها النارُ، في حال حاجتهِ إليها وضرورتهِ إلى ثمرتها بكبرهِ، وضَعْفِهِ عن عمارتها، وفي حال صغر ولده وعجزهِ عن إحيائها والقيامِ عليها. فبقي لا شيءَ له، أحوجَ ما كان إلى جنتهِ وثمارها، بالآفةِ التي أصابتها من الإعصار الذي فيه النار.

يقول: فكذلك المنفقُ مالَهُ رِئاءَ الناس، أطفأ الله نورَهُ، وأذهبَ بهاءَ عمله، وأحبطَ أجره، حتى لقيه وعاد إليه أحوجَ ما كان إلى عمله، حين لا مُسْتَعْتَبَ له، ولا إقالةَ من ذنوبهِ، ولا توبةَ، واضْمَحَلَّ عملُه، كما احترقت الجنة التي وصف جل ثناؤه صفتها عند كبر صاحبها وطفولة ذريته، أحوجَ ما كان إليها، فبطلت منافعها عنه.

وهذا المثل الذي ضربه الله للمنفقين أموالَهم رِئاء الناس في هذه الآية، نظير المثل الآخر الذي ضربه لهم بقوله: «فمثله كمثل صفوان عليه ترابٌ فأصابه وابلٌ فتركه صلدًا لا يقدرُون على شيء مما كسبوا».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: كما بيَّن لكم ربُّكم تبارك وتعالى أمرَ النفقة في سبيله، وكيف وجْهُها، وما لكم وما ليس لكم فِعْلُهُ فيها، كذلك يبين لكم الآيات سوى ذلك، فيعرِّفُكم أحكامَها وحلالَها وحرامها، ويوضح لكم حُجَجها، إنعاماً منه بذلك عليكم «لعلكم تتفكرون»، يقول: لتتفكروا بعقولكم، فتتدبَّروا وتعتبروا بحججِ الله فيها، وتعملوا بما فيها من أحكامها، فتطيعوا الله به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: «ياأيها الذين آمنوا»، صَدِّقوا بالله ورسوله وآيِ كتابه. ويعني بقوله: «أنفقوا»، زكُّوا وتصدقوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: زَكُّوا من طَيِّب ما كسبتم بتصرُّفكم إما بتجارةٍ، وإما بصناعة من الذهب والفضة.

ويعني بـ«الطيبات»، الجياد، يقول: زكوا أموالكم التي اكتسبتموها حلالاً وأعطوا في زكاتكم الذهبَ والفضة، الجيادَ منها دون الرديء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: وأنفقوا أيضاً مما أخرجنا لكم من الأرض،

فتصدَّقوا وزكُّوا من النخلِ والكرم والحنطة والشعير، وما أوجبتُ فيه الصدقةَ من نباتِ الأرض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا تَيَمَّمُوا ٱلْخَبِيثَ

يعني بقوله جل ثناؤه: «ولا تيمموا الخبيث»، ولا تَعَمَّدُوا، ولا تقصدوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا تَيَمَّمُوا ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ

يعني جل ثناؤه بـ «الخبيث»، الرديء، غير الجيد، يقول: لاتعمَّدوا الرديء من أموالكم في صدقاتكم فتصدقوا منه، ولكن تصدَّقوا من الطيبِ الجيد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ

يعني بذلك جل ثناؤه: ولستم بآخذي الخبيثِ في حقوقكم. «إلا أن تغمضوا فيه»، يعني: إلا أن تتجافوا في أخذِكم إياهُ عن بعض الواجبِ لكم من حقكم، فترخِّصوا فيه لأنفسكم. والذي هو أولى بتأويل ذلك عندنا، أن يقال:

إن الله عز وجل حَثَّ عباده على الصدقة وأداء الزكاة من أموالهم، وفرَضها عليهم فيها[1]، فصار ما فَرَضَ من ذلك في أموالهم، حقًّا لأهلِ سُهمانِ الصّدقة. ثم أمرهم تعالى ذكره أن يُخْرِجُوا من الطَّيِّبِ ـ وهو الجيد من أموالهم ـ الطَّيِّبَ. وذلك أنَّ أهل السُّهمان شُركاء أرباب الأموال في أموالهم، بما وَجَبَ

(١) يعني: فرض عليهم الزكاة في أموالهم.

لهم فيها من الصدقة بعد وجوبها. فلا شك أنَّ كل شريكين في مال، فلكلّ واحدٍ منهما بقدر ملكه، وليس لأحدهما منعُ شريكه من حقه من الملك الذي هو فيه شريكه، بإعطائه ـ بمقدار حقه منه ـ من غيره مما هو أردأ منه وأخسُّ. فكذلك المزكّي مالَه، حرّم الله عليه أن يعطي أهل السهمان ـ مما وجبَ لهم في ماله من الطيبِ الجيدِ من الحق فصاروا فيه شركاء ـ من الخبيث الرديء غيره، ويمنعهم ما هو لهم من حقوقهم في الطيِّبِ من ماله الجيد. كما لو كان مال ربِّ المال رديئاً كله غير جيد، فوجبت فيه الزكاة وصارَ أهل سهمان الصدقة فيه شركاءَ بما أوجبَ اللهُ لهم فيه، لم يكن عليه أن يعطيهم الطيب الجيد من غير مالهِ الذي منه حقُّهم.

فقال تبارك وتعالى لأرباب الأموال: زكُّوا من جَيِّدِ أموالكم الجيِّدَ، ولا تيمموا الخبيثَ الرديء تعطونه أهلَ سُهْمان الصدقة، وتمنعوهم الواجب لهم من الجيد الطيب في أموالكم، ولستم بآخذِيْ الرديء لأنفسكم مكانَ الجيد الواجبِ لكم قبل من وجب لكم عليه ذلك من شركائكم وغرمائكم وغيرهم، إلاّ عن إغماضٍ منكم وهَضْمٍ لهم وكراهةٍ منكم لأخذهِ. يقول: ولا تأتوا من الفعل إلى مَنْ وجبَ له في أموالكم حقٌّ، ما لا ترضون من غيركم أنْ يأتيه إليكم في حقوقكم الواجبة لكم في أموالهم.

فأما إذا تطوّع الرجلُ بصَدقَة غيرِ مفروضةٍ، فإنِّي وإنْ كرهتُ له أن يعطي فيها إلا أجودَ ماله وأطيبه، لأنَّ الله عز وجل أحقّ مَنْ تُقُرِّبَ إليه بأكرمِ الأموال وأطيبها، والصّدَقة قُرْبان المؤمن ـ فلستُ أحرِّمُ عليه أن يعطي فيها غيرَ الجيد، لأنَّ ما دون الجيد ربما كان أعمَّ نفعاً لكثرته أو لعظمَ خطره ـ وأحسنَ موقعاً من المسكين، وممن أعطيه قُرْبةً إلى الله عز وجل ـ من الجيد، لِقِلَّتِهِ أو لصغرِ خطره وقلة جدْوى نفعه على مَنْ أُعْطِيَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٢٦٧﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: واعلموا، أيها الناس، أن الله عز وجل غنيٌّ عن صدقاتكم وعن غيرها، وإنما أمركم بها وفرضَها في أموالكم، رحمة منه لكم ليُغنيَ بها عائلكم[1]، ويُقَوِّي بها ضعيفَكم، ويُجْزِل لكم عليها في الآخرة مثوبتكم، لا من حاجة به فيها إليكم.

ويعني بقوله: «حميد»، أنه محمود عند خَلْقِه بما أولاهم من نعمه، وبسط لهم من فضله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ﴾

يعني بذلك تعالى ذكره: «الشيطانُ يَعدكم»، أيها الناس ـ بالصدقة[2] وأدائكم الزكاة الواجبةَ عليكم في أموالكم ـ أنْ تَفْتَقِرُوا «ويأمركم بالفحشاء»، يعني: ويأمركم بمعاصي الله عز وجل وترك طاعته، «والله يَعِدُكم مغفرةً منه»، يعني: إن الله عز وجل يَعدكم، أيها المؤمنون، أن يستر عليكم فحشاءكم، بصفحهِ لكم عن عقوبتكم عليها، فيغفر لكم ذُنوبكم بالصدقة التي تتصدّقون؛ «وفضلاً» يعني: ويعدكم أنْ يخلفَ عليكم من صَدَقتكم، فيتفضل عليكم من عطاياه، ويُسبغ عليكم في أرزاقكم.

---

(١) العائل: الفقير.

(٢) قوله: بالصدقة: أي بسبب الصدقة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦٨﴾

يعني تعالى ذكره: «والله واسع» الفضل الذي يعدكم أن يُعْطِيكموهُ من فضلهِ وسَعةِ خزائنه؛ «عليم» بنفقاتكم وصدقاتكم التي تُنفقون وتصَّدَّقون بها، يحصيها لكم حتى يجازيكم بها عند مقدَمكم عليه في آخرتكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه يؤتي الله الإصابةَ في القول والفعل مَنْ يشاء من عباده، ومن يُؤتَ الإصابةَ في ذلك منهم فقد أوتي خيراً كثيراً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ٢٦٩﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: وما يتَّعظُ بما وعظ به ربُّه في هذه الآيات ـ التي وعَظ فيها المنفقين أموالَهم بما وعظهم به وغيرهم ـ فيها وفي غيرِها من آيِ ـ كتابه فيذكر وَعْدَهُ ووعيدَهُ فيها، فينزجر عما زَجره عنه ربه، ويطيعه فيما أمره به ـ «إلّا أولو الألباب»، يعني: إلّا أولو العقول، الذين عَقلوا عن الله عز وجل أمره ونهيه.

فأخبر جل ثناؤه أن المواعظ غيرُ نافعةٍ إلا أولي الحِجا والحُلوم، وأنَّ الذكرى غيرُ ناهيةٍ إلّا أهلَ النُّهى والعقول.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ٢٧٠﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: وأيّ نَفقة أنفقتم ـ يعني: أيّ صدَقة تصدّقتم ـ أو أيّ نَذْرٍ نذرتم يعني «بالنذر»، ما أوجبه المرءُ على نفسه تبرُّراً في طاعة الله، وتقرُّباً به إليه: منْ صدقةٍ أو عملِ خيرٍ، «فإن اللهَ يَعلمهُ»، أي أن جميع ذلك يعلمه الله، لايعزُبُ عنه منه شيءٌ، ولا يَخْفَى عليه منه قليلٌ ولا كثير، ولكنه يحصيه أيهـا الناس عليكم حتى يجازيكم جميعَكم على جميع ذلك. فمنْ كانت نفقتُه منكم وصدَقتهُ ونَذْرهُ ابتغاءَ مرضاةِ الله وتثبيتاً من نفسه، جازاه بالذي وعده من التضعيفِ، ومَنْ كانت نفقته وصدقته رئاءَ الناس ونذورُه للشيطان، جازاه بالذي أوْعدَه من العقابِ وأليم العذاب.

ثم أوعد جل ثناؤه مَنْ كانت نفقته رياءً ونذورُه طاعةً للشيطان فقال: «وَما للظالمين من أنصار»، يعني: وما لِمَنْ أنفقَ مالَهُ رِئاءَ الناس وفي معصية الله، وكـانت نذوره للشيطان وفي طاعتـه «من أنصـار»، وهم جمـع «نصير»، كما «الأشرافُ» جمع «شريف». ويعني بقوله: «من أنصَار»، مَنْ ينصرهم من الله يوم القيامة، فيدفعُ عنهم عقابَهُ يومئذٍ بقوةٍ وشدّة بطش، ولا بفدية.

وقد دللنا على أن «الظالم» هو الواضع للشيء في غير موضعه.

وإنما سَمَّى اللهُ المنفقَ رئاءَ الناس والناذرَ في غير طاعته، ظالماً، لوضعهِ إنفاق مالهِ في غير موضعه، ونذره في غيرِ مَالَهُ وَضْعُهُ فيه، فكان ذلك ظُلمَه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «إنْ تُبْدُوا الصَّدَقات»، إنْ تُعلنوا الصدقات فَتُعطوها مَنْ تصدقتم بها عليه «فنعِمَّا هي»، يقول: فنعم الشيء هي «وإنْ تُخفوها»، يقول: وإن تستروها فلم تعلنوها «وتؤتوها الفقراء»، يعني: وتعطوها الفقراء في

السر «فهو خيرٌ لكم»، يقول: فإخفاؤكم إياها خيرٌ لكم من إعلانها. وذلك في صَدَقة التطوّع.

وقال آخرون: إنما عنى الله عز وجل بقوله: «إنْ تُبْدوا الصدقات فنعمّا هي»، إنْ تبدُوا الصدقاتِ على أهل الكتابين من اليهود والنصارى فنعِمّا هيَ، وإنْ تُخفوها وتؤتوها فقراءَهم فهو خيرٌ لكم. قالوا: وأما ما أعطى فقراءَ المسلمين من زكاةٍ وصدقةِ تطوُّع، فإخفاؤه أفضلُ من علانيته.

ولم يخصص الله من قوله: «إن تبدوا الصدقات فنعما هي» [شيئاً دون شيء]، فذلك على العموم إلا ما كان من زكاةٍ واجبة، فإنَّ الواجبَ من الفرائض قد أجمع الجميعُ على أنَّ الفضل في إعلانه وإظهاره، سوى الزكاة التي ذكرنا اختلافَ المختلفين فيها، مع إجماعِ جميعهم على أنها واجبة، فحُكمها في أنّ الفضل في أدائها علانية، حكمُ سائر الفرائض غيرها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ﴾

اختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك.

فَرُوِيَ عن ابنِ عباس أنه كان يقرؤه: ﴿وتُكَفِّرُ عَنْكُمْ﴾ بالتاء. ومَنْ قرأه كذلك فإنه يعني به: وتكفِّرُ الصدقاتُ عنكم من سيئاتكم.

وقرأ آخرون: ﴿ويُكَفِّرُ عَنْكُمْ﴾ بالياء، بمعنى: ويكفر الله عنكم بصدقاتكم، على ما ذُكر في الآية، من سيئاتكم.

وقرأ ذلك بعدُ عامة قَرَأَةِ أهلِ المدينة والكوفة والبصرة، ﴿ونُكَفِّرْ عَنْكُمْ﴾ بالنون وجزم الحرف، يعني: وإنْ تُخفوها وتؤتوها الفقراءَ نُكفر عنكم من سيئاتكم - بمعنى مجازاة الله عز وجل مخفِي الصدقة بتكفيرِ بعض سيئاته

بصدَقته التي أخفاها.

وأولى القراءات في ذلك عندنا بالصواب قراءةُ منْ قرأ: ﴿ونُكَفِّرْ عَنْكُمْ﴾ بالنون وجزم الحرف، على معنى الخبر من الله عن نفسه أنه يُجازي المخفي صدقتَه من التطوّع ابتغاءَ وجهه من صدقته، بتكفير سيئاته. وإذا قرىء كذلك، فهو مجزوم على موضع «الفاء» في قوله: «فَهو خير لكم». لأن «الفاء» هنالك حلت محلّ جواب الجزاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ٢٧١﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: «والله بما تعملون» في صَدَقاتكم، من إخفائها، وإعلانٍ وإسرارٍ بها وجهار، وفي غير ذلك من أعمالكم «خبير» يعني بذلك: ذو خبرة وعلم، لا يخفى عليه شيءٌ من ذلك، فهو بجميعهِ محيطٌ، ولكله مُحْصٍ على أهله، حتى يوفّيهم ثوابَ جميعه، وجزاءَ قليلهِ وكثيرهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ٢٧٢﴾

يعني تعالى ذكره بذلك: ليس عليك، يامحمد، هُدى المشركين إلى الإسلام، فتمنعهم صَدَقة التطوُّع ولا تُعطيهم منها، ليدخلوا في الإسلام حاجةً منهم إليها، ولكن الله هو يهدي مَنْ يشاءُ من خلقه إلى الإسلام فيوفقهم له، فلا تمنعهم الصّدَقة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ

﴿ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ ﴿٢٧٣﴾

أما قوله: «للفقراء الذين أُحْصِرُوا في سبيل الله»، فبيانٌ من الله عز وجل عن سبيلِ النفقة ووجهِها. ومعنى الكلام: وما تُنْفِقُوا من خير، فلأنفسكم تنفقون للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله.

«واللام» التي في «الفقراء» مردودة على موضع «اللام» في «فلأنفسكم» كأنه قال: «وما تنفقوا من خير» يعني به: وما تتصدقوا به من مالٍ فللفقراء الذين أُحصروا في سبيل الله. فلما اعترض في الكلام بقوله: «فلأنفسكم»، فأدخل «الفاء» التي هي جوابُ الجزاء فيه، تُركت إعادتها في قوله: «للفقراء»، إذ كان الكلام مفهوماً معناه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾

يعني تعالى ذكره بذلك: الذين جَعلهم جهادُهم عدوَّهم يُحْصِرُونَ أنفسَهم فيحبسونها عن التصرُّفِ، فلا يستطيعون تصرّفاً.

وقد دللنا فيما مضى قَبْلُ على أن معنى «الإحصار»، تصيير الرجل المحصَر بمرضه أو فاقته أو جهاده عدوَّه، وغير ذلك من علله، إلى حالة يحبس نفسَه فيها عن التصرُّف في أسبابه، بما فيه الكفاية فيما مضى قبل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: لا يستطيعون تقلبُاً في الأرض وسفراً في البلاد، ابتغاءَ المعاش وطَلبَ المكاسب، فيستغنوا عن الصدقات، رهبةَ العدوِّ وخوفاً

على أنفسهم منهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾

يعني بذلك: «يحسبهم الجاهل» بأمرهم وحالهم «أغنياء» من تَعَفُّفِهم عن المسألةِ، وتَرْكِهم التعرضَ لما في أيدي الناس، صبراً منهم على البأساء والضراء.

ويعني بقوله: «منَ التعفف»، من تَرْك مسألة الناس.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾

إن الله عز وجل أخبر نبيَّه ﷺ أنه يعرفهم بعلاماتهم وآثار الحاجة فيهم. وإنما كان النبيُّ ﷺ يدركُ تلك العلاماتِ والآثار منهم عند المشاهدةِ بالعيان، فيعرفُهم وأصحابه بها، كما يُدركُ المريض فيعلم أنه مريضٌ بالمعاينة. وقد يجوز أن تكون تلك السيما كانت تخشُّعاً منهم، وأن تكون كانت أثر الحاجة والضرِّ، وأن تكون كانت رثاثةَ الثيابِ، وأن تكون كانت جميعَ ذلك. وإنما تُدرك علامات الحاجة وآثار الضر في الإنسان ويعلم أنها من الحاجة والضر، بالمعاينة دون الوصف. وذلك أن المريض قد يصير به في بعض أحوال مرضه من المرض، نظيرُ آثار المجهود من الفاقةِ والحاجة. وقد يلبس الغنيُّ ذو المال الكثير الثيابَ الرثة، فيتزيَّا بزيِّ أهلِ الحاجة، فلا يكون في شيء من ذلك دلالة بالصفَة على أنّ الموصوفَ به مختلٌّ ذو فاقة. وإنما يدري ذلك عند المعاينة بسيماه كما وصف الله، نظير ما يُعرف أنه مريضٌ عند المعاينة، دون وَصفْه بصفته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾

يقال: «قد ألحف السائل في مسألته»، إذا ألحّ «فهو يُلْحِفُ فيها إلحافاً».

فإن قال قائل: أفكان هؤلاء القوم يسألون الناس غيرَ إلحاف؟

قيل: غير جائز أن يكون كانوا يسألون الناس شيئاً على وجه الصدقة إلحافاً أو غير إلحافٍ. وذلك أن الله عز وجل وصفهم بأنهم كانوا أهلَ تَعَفُّفٍ، وأنهم إنما كانوا يُعرفون بسيماهم. فلو كانت المسألةُ من شأنهم، لم تكن صفتُهم التعففَ، ولم يكن بالنبيِّ ﷺ إلى عِلْمِ معرفتهم بالأدلة والعلامة حاجةٌ، وكانت المسألةُ الظاهرة تُنبىء عن حالهم وأمرهم.

فإن قال قائل: فإن كان الأمر على ما وصفتَ، فما وجهُ قوله: «لا يسألون الناس إلحافاً»، وهم لا يسألون الناس إلحافاً أو غير إلحاف.

قيل له: وجه ذلك: أنّ الله تعالى ذكره لما وصفهم بالتعفف، وعَرَّفَ عبادَه أنهم ليسوا أهلَ مسألةٍ بحالٍ بقوله: «يحسبهم الجاهلُ أغنياءَ من التعفف»، وأنهم إنما يُعرفون بالسيما ـ زاد عبادَه إبانةً لأمرهم وحُسْنَ ثناءٍ عليهم، بنفي الشَّره والضراعة التي تكون في المُلِحِّينَ من السُّؤَّال، عنهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾

(قيل):

عنى بذلك قوماً أنفقوا في سبيل الله في غير إسرافٍ ولا تقتير.

وقد قيل إنّ هذه الآيات من قوله: «إن تُبدوا الصّدقات فنعما هي» إلى

قوله: «ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون»، كان مما يُعمل به قبل نُزُول ما في «سورة براءة» من تفصيل الزَّكوات، فلما نزلت «براءة»، قُصِروا عليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: الذين يُرْبون.

و«الإرباء» الزيادة على الشيء، يقال منه: «أرْبى فلانٌ على فلان»، إذا زاد عليه، «يُرْبي إرباءً»، والزيادة هي «الربا».

وإنما قيل للمربي: «مُرْبٍ»، لتضعيفهِ المالَ، الذي كان له على غريمهِ حالًا، أو لزيادته عليه فيه لسبب الأجل الذي يؤخره إليه فيزيده إلى أجله الذي كان له قبلَ حَلّ دينه عليه. ولذلك قال جل ثناؤه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣١].

فقال جل ثناؤه: الذين يُرْبون الربا الذي وصفنا صفته في الدنيا، «لا يقـومـون» في الآخرة من قبورهم، «إلا كما يقومُ الذي يتخبَّطه الشيطانُ من المس»، يعني بذلك: يتخبَّله[1] الشيطان في الدنيا، وهو الذي يخنقه فيصرعه «من المَسِّ»، يعني: من الجنون.

ومعنى قوله: «يتخبطه الشيطانُ من المسّ»، يتخبله من مَسِّه إياه.

يقال منه: «قد مُس الرجل وأُلِقَ، فهو مَمسوس ومَألوق»، كل ذلك إذا ألمّ به اللَّمَمُ فجُنَّ. ومنه قول الله عز وجلّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ [الأعراف: ٢٠١].

---

(١) تَخبَّلَهُ: أفسد عقله وأعضاءه.

فإن قال لنا قائل: أفرأيتَ مَنْ عمل ما نهى اللهُ عنه من الرِّبا في تجارته ولم يأكله، أيستحقُّ هذا الوعيدَ من الله؟

قيل: نعم، وليس المقصود من الربا في هذه الآية الأكلُ، إلا أنَّ الذين نزلت فيهم هذه الآيات يوم نزلت، كانت طُعمتهم ومأكلُهم من الربا، فذكرهم بصفتهم، معظّماً بذلك عليهم أمرَ الرّبا، ومقبِّحاً إليهم الحال التي هم عليها في مطاعمهم. وفي قوله جل ثناؤه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِه﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩] الآية، مايُنْبِىءُ عن صِحَّةِ ما قلنا في ذلك، وأنّ التحريم من الله في ذلك كان لكل معاني الرّبا، وأنّ سواءً العملُ به وأكلُه وأخذُه وإعطاؤه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾

يعني بـ «ذلك» جَلَّ ثناؤه: ذلك الذي وصفهم به من قيامهم يوم القيامة من قبورهم، كقيام الذي يتخبطه الشيطان من المسِّ من الجنون. فقال تعالى ذكره: هذا الذي ذكرنا أنه يصيبهم يوم القيامة من قُبح حالهم، ووَحشةِ قيامهم من قبورهم، وسوءِ ما حلَّ بهم، من أجل أنهم كانوا في الدنيا يكذبون ويفترون ويقولون: «إنما البيعُ» الذي أحَلَّهُ اللهُ لعبادِهِ «مثلُ الرّبا». وذلك أن الذين كانوا يأكلون الرّبا من أهل الجاهلية، كان إذا حلّ مالُ أحدهم على غريمه، يقول الغَريم لغريم الحق: «زدني في الأجل وأزيدكَ في مالك». فكان يقال لهما إذا فعلا ذلك: «هذا رباً لا يحل». فإذا قيل لهما ذلك قالا: «سواءٌ علينا زدْنا في أولِ البيع، أو عند مَحِلّ المال»! فكذَّبهم الله في قيلهم فقال: وأحلّ الله البيع».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾

يعني جل ثناؤه: وأحلَّ اللهُ الأرباحَ في التجارة والشراء والبيع، «وحرّم الربا»، يعني الزيادةَ التي يزاد رب المال بسبب زيادته غريمه في الأجل، وتأخير دَيْنه عليه. يقول عز وجل: فليست الزيادتان اللتان إحداهما من وجه البيع، والأخرى من وجه تأخيرِ المال والزيادة في الأجل، سواء. وذلك أنِّي حرّمتُ إحدى الزيادتين وهي التي من وجه تأخيرِ المالِ والزيادةِ في الأجل، وأحللتُ الأخرى منهما، وهي التي من وجه الزيادة على رأس المَال الذي ابتاع به البائع سلعته التي يبيعها، فيستفضلُ فَضْلها. فقال الله عز وجل: ليست الزيادةُ من وجه البيع نظيرَ الزيادة من وجه الربا، لأنّي أحللتُ البيعَ وحرَّمتُ الرِّبا، والأمر أمري والخلق خلقي، أقضي فيهم ما أشاء، وأستعبدهم بما أريد، ليس لأحدٍ منهم أن يعترضَ في حكمي، ولا أن يخالفَ أمري، وإنما عليهم طاعتي والتسليمُ لحكمي.

ثم قال جل ثناؤه: «فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى»، يعني بـ«الموعظة»: التذكير، والتخويفَ الذي ذكرهم وخوَّفهم به في آيِ القرآن، وأوعدهم على أكلهم الربا من العقاب. يقول جل ثناؤه: فمن جاءه ذلك، «فانتهى» عن أكل الربا وارتدعَ عن العملِ به وانزجر عنه، «فله ماسَلفَ»، يعني: ما أكل وأخذ فمَضَى، قبل مجيءِ الموعظةِ والتحريمِ من ربه في ذلك «وأمرُه إلى الله»، يعني: وأمر آكله بعد مجيئه الموعظة من ربه والتحريم، وبعد انتهاء آكله عن أكله، إلى الله في عصمته وتوفيقه، إنْ شاء عصمه عن أكله وثبَّته في انتهائه عنه، وإن شاء خَذَله عن ذلك «ومن عاد»، يقول: ومَنْ عاد

لأكـلِ الـربـا بعد التحريم، وقال ما كان يقوله قبل مجيء الموعظة من الله بالتحـريم، من قوله: «إنما البيعُ مثل الربا» «فأولئك أصْحابُ النار هم فيها خالدون»، يعني: ففاعلو ذلك وقائلوهُ هم أهلُ النار، يعني نار جهنم، فيها خالدون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ٢٧٦﴾

يعني عز وجل بقوله: «يمحق الله الربا»، ينقُصُ الله الرِّبا فَيُذْهِبُهُ.

وأما قوله: «ويُرْبي الصَّدَقات»، فإنه جل ثناؤه يعني أنه يُضاعف أجرهَا، يَرُبُّها وينمِّيها له.

فإن قال لنا قائل: وكيف إرباء الله الصدقات؟

قيل: إضعـافـهُ الأجرَ لربِّها، كما قال جل ثناؤه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١]، وكما قال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وأما قوله: «والله لا يحبّ كل كفار أثيم»، فإنه يعني به: والله لا يحب كل مُصرٍّ على كفرٍ بربه مقيمٍ عليه، مستحِلٍّ أكلَ الربا وإطعامه «أثيم»، مُتَمادٍ في الإثم، فيما نهاهُ عنه من أكلِ الربا والحرام وغير ذلك من معاصيه، لا ينزجرُ عن ذلك ولا يرعوي عنه، ولا يَتَّعِظُ بموعظةِ ربه التي وعظه بها في تنزيله وآيِ كتابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٢٧٧﴾

وهـذا خبر من الله عز وجل بأنَّ الذين آمنوا، يعني الذين صَدَّقوا بالله وبرسوله، وبما جاء به من عند ربهم، من تحريم الربا وأكله، وغير ذلك من سائر شرائع دينه، «وعملوا الصالحات» التي أمرهم اللهُ عز وجل بها، والتي نَدَبهم إليهـا، «وأقـامـوا الصلاة» المفروضةَ بحدودِهَا، وأدّوها بسننها، «وآتوا الزكاة» المفروضةَ عليهم في أموالهم، بعد الذي سَلَفَ منهم من أكلِ الرِّبا قبل مجيءِ المـوعـظةِ فيه من عنـد ربهم، «لهم أجـرهم»، يعني ثوابِ ذلك من أعمالهم وإيمانهم وصَدَقتهم، «عند ربهم» يوم حاجَتِهم إليه في معادهم، «ولا خوفٌ عليهم» يومئذٍ من عقابه على ما كان سلف منهم في جاهليتهم، وكفرهم قبل مجيئهم موعظة ربهم، من أكلِ ما كانوا أكلوا من الربا، بما كان من إنابتهم وتوبتهم إلى الله عز وجل من ذلك عند مجيئهم الموعظة من ربهم، وتصديقهم بوعدِ الله ووعيده، «ولا هُمْ يحزنون» على تركِهم ما كانوا تركوا في الدنيا من أكـلِ الربا والعمل به، إذا عاينوا جزيلَ ثوابِ الله تبارك وتعالى، وهم على تَرْكِهم ماتركُوا من ذلك في الدنيا ابتغاءَ رضوانه في الآخرة، فوصلوا إلى ما وعدوا على تركه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾

يعني جل ثناؤه بذلك: «يا أيها الذين آمنو»، صدّقوا بالله وبرسوله؛ «اتقوا الله»، يقول: خافوا الله على أنفسكم، فاتقوه بطاعته فيما أمركم به، والانتهاء عما نهاكم عنه، «وذَرُوا»، يعني: ودَعُوا، «مابقي من الربا»، يقول: اتركوا طَلَبَ ما بقيَ لكم من فَضْلٍ على رؤوس أموالكم التي كانت لكم قبلَ أن تُربوا عليها، «إنْ كنتم مؤمنين»، يقول: إنْ كنتم مُحقِّقينَ إيمانكم قولاً وتصديقكم

بألسنتكم، بأفعالكم[1]

وذكر أنَّ هذه الآية نزلت في قومٍ أسلموا ولهم على قومٍ أموالٌ من رباً كانوا أرْبوه عليهم، فكانوا قد قبضوا بعضَهُ منهم، وبقي بعضٌ، فعفا الله جل ثناؤه لهم عما كانوا قد قبضوه قبل نُزول هذه الآية، وحرّم عليهم اقتضاءَ ما بقيَ منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: «فإنْ لم تفعلوا»، فإنْ لم تذَروا ما بقي من الربا.

واختلف القَرَأَةُ في قراءةِ قوله: «فأذنوا بحرب من الله ورسوله».

فقرأته عامةُ قَرَأَةِ أهلِ المدينة: ﴿فَأْذَنُواْ﴾ بقصر الألف من «فأذنوا»، وفتح ذالها، بمعنى: كونوا على علم وإذْن.

وقرأه آخرون، وهي قراءةُ عامةِ قَرَأَةِ الكوفيين: ﴿فَآذِنُوا﴾ بمدّ الألف من قوله: «فآذنوا»، وكسر ذالها، بمعنى: فآذنوا غيركم: أعلِمُوهم وأخبروهم بأنكم على حَرْبهم.

وأولى القراءتين بالصواب في ذلك قراءة مَنْ قرأ: «فأذَنوا» بقصر ألفها وفتح ذالها، بمعنى: اعلموا ذلك واستيقنوه، وكونوا على إذن من الله عز وجل لكم بذلك.

وإنما اخترنا ذلك، لأن الله عز وجل أمر نبيّه ﷺ أن يَنبذ إلى مَنْ أقام على شِرْكهِ الذي لا يُقَرُّ على المقام عليه، وأن يقتُل المرتدَّ عن الإسلام منهم

---

(١) أي: محققين ذلك بأفعالكم.

بكل حال إلا أن يراجع الإسلام، آذنه المشركون بأنهم على حربه أو لم يُؤذنوه. فإذْ كان المأمور بذلك لا يخلو من أحد أمرين: إما أن يكون كان مشركاً مقيماً على شركه الذي لا يُقَرُّ عليه، أو يكون كان مسلماً فارتدَّ وأذِن بحرب. فأي الأمرين كان، فإنما نُبذ إليه بحرب، لا أنه أمر بالإيذان بها إن عَزَم على ذلك. لأن الأمر إنْ كان إليه، فأقام على أكل الربا مستحلاً له ولم يُؤذَنِ المسلمون بالحربِ، لم يَلْزمهم حرْبُه. وليس حُكمه في واحدة من الحالين. فقد علم أنه المأذون بالحرب، لا الآذن بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾

يعني جل ثناؤه بذلك: «إن تبتم» فتركتم أكلَ الربا وأنبتم إلى الله عز وجل، «فلكم رؤوس أموالكم» من الديون التي لكم على الناس، دون الزيادة التي أحدثتموها على ذلك ربآً منكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ۝٢٧٩﴾

يعني بقوله: «لا تَظلمون» بأخْذِكُم رؤوسَ أموالكم التي كانت لكم قبلَ الإرباء على غُرمائكم منهم، دون أرباحها التي زدتموها رباً على مَنْ أخذتم ذلك منه من غرمائكم، فتأخذوا منهم ما ليس لكم أخذُه، أو لم يكن لكم قبلُ، «ولا تُظلمون»، يقول: ولا الغريم الذي يعطيكم ذلك دون الرّبا الذي كنتم ألزمتموه من أجل الزيادة في الأجل، يبخسُكم حقًّا لكم عليه فَيَمْنعكُموه، لأن مازاد على رؤوسِ أموالكم لم يكنْ حقًّا لكم عليه، فيكون بمنعه إياكم ذلك ظالماً لكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾

يعني جل ثناؤه بذلك: «وإنْ كان» ممن تقبضون منه من غرمائكم رؤوس أموالكم، «ذو عُسْرة» يعني: معسراً برؤوس أموالكم التي كانت لكم عليهم قبلَ الإرباء: فأنظروهم إلى ميسرتهم.

وأما قوله: «فنظرة إلى ميسرة»، فإنه يعني: فعليكم أن تُنظِروه إلى مَيسرة، كما قال: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيامٍ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وقد ذكرنا وجه رفعِ ما كان من نظائِرها فيما مضى قبلُ، فأغنى عن تكريره.

«والميسرة»، «المفعلة» من «اليُسر»، مثل «المرْحمة» و«المشأمة».

ومعنى الكلام: وإنْ كان من غرمائِكم ذُو عسرة، فعليكم أن تنظروه حتى يُوسر بالدَّين الذي لكم، فيصيرَ من أهل اليُسر به.

وقال آخرون: هذه الآية عامة في كل مَنْ كان له قِبَلَ رجلٍ معسر حقٌّ، من أيِّ وجهة كان ذلك الحق، من دَيْنٍ حَلال أو رباً.

والصوابُ من القول في قوله: «وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة»، أنه معنيٌّ به غرماء الذين كانوا أسلموا على عهدِ رسول الله ﷺ، ولهم عليهم ديونٌ قد أربَوْا فيها في الجاهلية، فأدركهم الإسلامُ قبل أن يقبضوها منهم، فأمر الله بوضعِ مابقي من الربا بعد ما أسلموا، وبقبضِ رؤوس أموالهم ممن كان منهم من غرمائهم مُوسراً، أو إنظارِ مَنْ كان منهم مُعسراً برؤوس أموالهم إلى ميسرتهم.

فذلك حكمُ كُلِّ مَنْ أسلم وله رباً قد أربى على غريم له، فإن الإسلام يبطل عن غريمه ما كان له عليه من قَبْل الربا، ويلزمه أداء رأس ماله ـ الذي كان أخَذَ منه أو لزمه من قبل الإرباء ـ إليه، إن كان موسراً. وإن كان مُعسراً، كان منظراً برأسِ مالِ صاحبه إلى ميسرته، وكان الفضلُ على رأس المال مبطلاً عنه.

غير أن الآية وإنْ كانت نزلت فيمن ذكرنا، وإياهم عَنى بها، فإنَّ الحكم الذي حكم الله به: من إنظارِهِ المُعْسِرَ برأسِ مالِ المربي بعد بُطُولِ الرّبا عنه، حكمٌ واجبٌ لكلِّ مَنْ كان عليه دَيْنٌ لرجلٍ قد حلَّ عليه، وهو بقضائه مُعسر: في أنه مُنظر إلى ميسرته. لأنّ دَيْنَ كلِّ ذي دَيْنٍ، في مال غريمه، وعلى غريمه قضاؤه منه ـ لا في رقبته. فإذا عُدم ماله، فلا سبيلَ له على رقبته بحبسٍ ولا بيع. وذلك أن مالَ ربِّ الدَّينِ لن يخلو من أحدِ وجوهٍ ثلاثة: إما أن يكون في رقبة غريمه، أو في ذمّته يقضيه من ماله، أو في مال بعينه.

فإن يكن في مال له بعينه، فمتى بطل ذلك المال وعُدِم، فقد بطل دَيْنُ ربِّ المال. وذلك ما لا يقوله أحد.

أو يكون في رَقبته، فإن يكن كذلك، فمتى عُدِمت نفسهُ، فقد بطل دَيْنُ ربِّ الدين، وإن خَلَّف الغريم وفاءً بحقه وأضعافَ ذلك. وذلك أيضاً لا يقوله أحدٌ.

فقد تبين إذاً، إذْ كان ذلك كذلك، أنَّ دَيْنَ ربِّ المال في ذمةِ غريمهِ يقضيه من ماله، فإذا عُدم ماله فلا سبيلَ له على رقبته، لأنه قد عُدم ما كان عليه أن يؤدِّي منه حقَّ صاحبِهِ لو كان موجوداً. وإذا لم يكن على رقبته سبيلٌ، لم يكن إلى حبسه وهو معدوم بحقه، سبيل. لأنه غير مانعه حقًّا، له إلى قضائه سبيل، فيعاقب بمَطْلهِ إياه بالحبس.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٨٠﴾

يعني جل وعز بذلك: وأن تتصدقوا برؤوس أموالكم على هذا المعسر، «خيرٌ لكم» أيها القوم من أن تنظرُوه إلى ميسرته، لتقبضوا رؤوس أموالكم منه

إذا أيسر، «إنْ كنتم تعلمون» موضعَ الفضل في الصدقة، وما أوجبَ الله من الثوابِ لمن وضع عن غريمه المعسر دَينه.

واختلف أهل التأويل في تأويل ذلك.

فقال بعضهم: معنى ذلك: «وأن تصدقوا» برؤوس أموالكم على الغنيِّ والفقير منهم؛ «خيرٌ لكم».

وقال آخرون: معنى ذلك: وأن تصدقوا به على المعسِر، خير لكم ـ نحو ما قلنا في ذلك.

وأولى التأويلين بالصواب تأويل مَنْ قال: معناه: «وأن تصدَّقُوا على المُعْسرِ برؤوسِ أموالكم خير لكم». لأنه يَلي ذكرَ حُكمه في المعنيين. وإلحاقُه بالذي يليه، أحبّ إليَّ من إلحاقهِ بالذي بَعُدَ منه.

وقد قيل إن هذه الآيات في أحكام الربا، هنّ آخر آيات نزلت من القرآن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾

وقيل: هذه الآية أيضاً آخر آية نزلت من القرآن.

يعني بذلك جل ثناؤه: واحذروا أيها الناس «يوماً تُرْجعون فيه إلى الله»، فتلقونه فيه، أن تَرِدُوا عليه بسيئاتٍ تُهْلِكُكم، أو بمخزياتٍ تُخْزِيكم، أو بفاضحاتٍ تفضحكم فتهتك أستاركم، أو بموبقاتٍ تُوبقكم فتوجب لكم من عقابِ الله ما لا قِبَلَ لكم به، وإنه يوم مجازاةٍ بالأعمال، لا يوم استعتابٍ، ولا يوم استقالة وتوبة وإنابة، ولكنه يوم جزاء وثواب ومحاسبة، توفَّى فيه كلُّ نفسٍ

أجرَها على ما قَدَّمَتْ واكتسبت من سيِّءٍ وصالح، لا تُغادَر فيه صغيرة ولا كبيرة من خير وشرّ إلا أُحضِرت، فوُفِّيَتْ جزاءَها بالعدلِ من ربها، وهم لا يظلمون. وكيف يُظلم مَنْ جُوزيَ بالإساءة مثلها، وبالحسنةِ عشر أمثالها؟! كلاَّ، بل عَدَل عليك أيها المسيء، وتَكَرَّمَ عليك فأفضل وأسبغَ أيها المحسن. فاتقى امرؤٌ ربه، وأخذ منه حذره، وراقبه أن يهجُم عليه يَومُه وهو من الأوزارِ ظهرهُ ثقيلٌ، ومن صالحاتِ الأعمالِ خفيفٌ، فإنه عز وجل حَذَّر فأعذرَ، ووعظَ فأبلغ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله: «إذا تداينتم»، يعني: إذا تبايعتم بدينٍ، أو اشتريتم به، أو تعاطيتم أو أخذتم به، «إلى أجل مسمى»، يقول: إلى وقتٍ معلوم وقتَّمُوه بينكم ـ وقد يدخلُ في ذلك القَرضُ والسَّلَم، وكلّ ما جاز [فيه] السلَم مُسمىً أجلُ بيعهِ، يصيرُ دَيْناً على بائع ما أسلم إليه فيه. ويحتملُ بيعَ الحاضرِ الجائزِ بيعهُ من الأملاك بالأثمان المؤجلة. كلُّ ذلك من الديون المؤجَّلة إلى أجل مسمى، إذا كانت آجالُها معلومةً بحدٍّ موقوف عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «فاكتبوه»، فاكتبوا الدَّيْنَ الذي تداينتموه إلى أجلٍ مسمى، من بيعٍ كان ذلك أو قرض.

واختلف أهلُ العلم في اكتتاب الكتاب بذلك على مَنْ هو عليه، هل هو واجبٌ أو هو نَدْبٌ.

فقال بعضهم: هو حق واجبٌ وفرضٌ لازم.

وقال آخرون: كان اكتتابُ الكتَاب بالدَّين فرضاً، فنسخه قوله: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: وليكتب كتابَ الدَّيْنِ إلى أجلٍ مسمى بين الدائن والمـدين «كاتبٌ بالعَدْل»، يعني: بالحق والإنصاف في الكتاب الذي يكتبه بينهما، بما لا يتحيَّف ذا الحق حقه ولا يَبخسه، ولا يوجب له حُجةً على مَنْ عليه دينه فيه بباطلٍ، ولا يُلزمه ما ليس عليه.

وأما قوله: «ولا يَأبَ كاتبٌ أنْ يكتب كما علمه الله»، فإنه يعني: ولا يأبينَّ كاتبٌ استُكْتِبَ ذلك، أن يكتب بينهم كتابَ الدّين، كما عَلَّمَهُ الله كتابته فخصَّهُ بعلم ذلك، وحَرَمه كثيراً مِنْ خَلْقِه.

وقـد اختلف أهلُ العلم في وجوب الكتاب على الكاتب إذا استكتِب ذلك، نَظير اختلافهم في وجوب الكتاب على الذي له الحق.

وقال آخرون: هو على الوجوب، ولكنه واجبٌ على الكاتب في حال فراغه.

والصواب من القول في ذلك عندنا: أنّ الله عز وجل أمر المتداينين إلى إجلٍ مسمى باكتتاب كُتُب الدَّيْنِ بينهم، وأمر الكاتب أن يكتبَ ذلك بينهم بالعدل. وأمرُ الله فرضٌ لازم، إلا أنْ تقومَ حجةٌ بأنه إرشادٌ ونَدْبٌ. ولا دلالةَ

تدلُّ على أنَّ أمرَهُ جل ثناؤه باكتتاب الكُتُبِ في ذلك، وأنَّ تقدّمه إلى الكاتب أن لا يأبى كتابة ذلك، ندبٌ وإرشادٌ. فذلك فرضٌ عليهم لا يَسَعُهم تضييعهُ، ومَنْ ضَيَّعه منهم كان حَرِجاً[1] بتضييعه.

ولا وجه لاعتلال من اعتلَّ بأنَّ الأمر بذلك منسوخ بقوله: «فإن أَمِنَ بعضُكم بعضاً فليؤدِّ الذي اؤتُمنَ أمانته». لأن ذلك إنما أَذِنَ الله تعالى ذكره به حيثُ لا سبيلَ إلى الكتاب أو إلى الكاتب. فأما والكتابُ والكاتبُ موجودان، فالفرضُ ـ إذا كان الدَّيْنُ إلى أجلٍ مسمى ـ ما أمرَ اللهُ تعالى ذكره به في قوله: «فاكتبوه وليكتبْ بينكم كاتبٌ بالعدل ولا يأبَ كاتبٌ أن يكتب كما علمه الله».

وإنما يكون الناسخُ، ما لم يجزْ اجتماعُ حُكمه وحكم المنسوخ في حالٍ واحدة، على السبيل التي قد بَيَّنَّاها. فأما ما كان أحدهما غير نافٍ حُكْمَ الآخر، فليس من الناسخِ والمنسوخِ في شيء.

ولو وجب أن يكون قولُه: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَه﴾ ناسخاً قولَهُ: «إذا تداينتم بدينٍ إلى أجلٍ مسمى فاكتبوه وليكتبْ بينكم كاتبٌ بالعدل ولا يأبَ كاتبٌ أن يكتب كما علمه الله» ـ لوجب أن يكون قولُه: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاء فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّباً﴾ [المائدة: ٦] ناسخاً الوضوء بالماء في الحضر عند وجود الماء فيه وفي السفر الذي فرضه الله عز وجل بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِلَى المَرَافِقِ﴾ [المائدة: ٦]، وأن يكون قوله في كفارة الظِّهار: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ [المجادلة: ٤] ناسخاً قولَه ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا﴾ [المجادلة: ٣].

---

(١) حرجاً: أي: آثماً.

فيُسْأل القائلُ إنَّ قولَ الله عز وجل: «فإنْ أمِنَ بعضُكم بعضاً فليؤدِّ الذي اؤتُمن أمانته» ناسخٌ قولَهُ: «إذا تداينتم بدينٍ إلى أجلٍ مسمى فاكتبوه»: ما الفرقُ بَينه وبين قائلٍ في التيمم وما ذكرنا قوله، فزعم أنَّ كل ما أُبيحَ في حال الضرورة لعلَّةِ الضرورة، ناسخ حكمُه في حال الضرورة حكمَه في كل أحواله: نظيرَ قوله في أنّ الأمر باكتتابِ كُتُبِ الديون والحقوق منسوخٌ بقوله: «وإن كنتم عَلى سَفر ولم تجدُوا كاتباً فرهانٌ مقبوضة فإن أمن بعضُكم بعضاً فليؤدّ الذي اؤتُمن أمانته»؟

فإن قال: الفرق بيني وبينه أن قوله: «فإنْ أمِنَ بعضُكم بعضاً» كلام منقطع عن قوله: «وإنْ كنتم على سَفرٍ ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة»، وقد انتهى الحكمُ في السفر إذا عُدم فيه الكاتبُ بقوله: «فرِهَانٌ مقبوضة». وإنما عنى بقوله: «فإنْ أمِنَ بعضكم بعضاً»: «إذا تداينتم بدَينٍ إلى أجلٍ مسمى»، فأمن بعضكم بعضاً، فليؤدِّ الذي اؤتمن أمانته.

قيل له: وما البرهان على ذلك من أصلٍ أو قياس، وقد انقضى الحكمُ في الدَّين الذي فيه إلى الكاتب والكتاب سبيلٌ بقوله: «ويُعلِّمكمُ اللهُ واللهُ بكل شيء عليم»؟[1].

وأما الذين زعموا أن قوله: «فاكتبوا»، وقوله: «ولا يأبَ كاتبٌ» على وجه الندب والإرشاد، فإنهم يُسألون البرهانَ على دعواهم في ذلك، ثم يعارَضون بسائر أمر الله عز وجل الذي أمر في كتابه، ويُسألون الفرقَ بين ما ادَّعوا في ذلك وأنكروه في غيره. فلم يقولوا في شيء من ذلك قولاً إلا أُلزموا في الآخر مثله.

---

(١) قال العلامة محمود شاكر: هذه حُجَّةُ رَبَّانِيٍّ بصيرٍ بمعاني الكلام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾

يعني بذلك: «فليكتب» الكاتب، «وليملل الذي عليه الحقُّ»، وهو الغريمُ المدينُ يقول: ليتولَّ المَدِينُ إملالَ كتاب ما عليه من دين ربِّ المالِ على الكاتب، «وليتق الله ربه» المملي الذي عليه الحقّ، فليحذر عقابه في بَخْسِ الذي له الحق من حقه شيئاً، أنْ ينقُصَه منه ظلماً أو يذهب به منه تعدّياً، فيؤخذ به حيث لا يقدرُ على قضائه إلّا من حسناتِه، أو أنْ يتحمل من سيئاته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «فإنْ كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً»، فإنْ كان المدين الذي عليه المال «سفيهاً»، يعني: جاهلاً بالصواب في الذي عليه أن يُملَّه على الكاتب.

وأما قوله: «فليملل وليه بالعدل»، فإنه يعني: بالحق.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: واستشهدوا على حقوقكم شاهِدَيْنِ.

وأما قوله: «مِنْ رجالكم»، فإنه يعني من أحراركم المسلمين، دون عبيدكم، ودون أحراركم الكفار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: فإنْ لم يكونا رجلين، فليكن رجلٌ وامرأتان على الشهادة. ورفع «الرجل والمرأتان»، بالرّد على «الكون». وإنْ شئتَ قلتَ: فإنْ لم يكونا رجلين، فليشهدْ رجلٌ وامرأتان على ذلك. وإنْ شئت: فإن لم يكونا رجلين فرجلٌ وامرأتان يُشهدون عليه. وإن قلت: فإن لم يكونا رجلين فهو رجلٌ وامرأتان،[1] كان صواباً. كل ذلك جائز.

وقوله: «ممن ترضون من الشهداء»، يعني: من العدول المرتضَى دِيْنُهُم وصلاحُهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾

(يعني): فإنْ لم يكونا رجلين، فليشهد رجلٌ وامرأتان، كي إنْ ضَلَّتْ إحداهما ذكّرتها الأخرى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾

اختلف أهل التأويل في الحال التي نَهى الله الشهداءَ عن إباء الإجابة إذا دعوا بهذه الآية.

وأولى هذه الأقـوال بالصـواب قول من قال: «(معنى) ذلك: ولا يأبَ

---

(١) انظر معاني القرآن للفراء: ١/١٨٤.

الشهداء من الإجابة، إذا دُعُوا لإقامةِ الشهادةِ وأدائها عند ذي سلطانٍ أو حاكم يأخذُ من الذي عليه ما عليه، للذي هو له».

وإنما قلنا هذا القول بالصواب أولى في ذلك من سائر الأقوال غيره، لأن الله عز وجل قال: «ولا يأب الشهداء إذا ما دُعوا»، فإنما أمرهم بالإجابةِ للدعاءِ للشهادةِ وقد ألزمهم اسم «الشهداء». وغير جائز أنْ يلزمهم اسم «الشّهداء» إلا وقد استُشهدوا قبل ذلك فشهدوا على ما ألزمتهم شهادتهم عليه اسم «الشهداء». فأما قبل أن يُستشهدوا على شيءٍ، فغيرُ جائزٍ أنْ يقال لهم «شهداء».. لأن ذلك الاسم لو كان يلزمهم ولمَّا يستشهدوا على شيء يستوجبون بشهادتهم عليه هذا الاسم، لم يكن على الأرض أحدٌ له عقلٌ صحيح إلا وهو مستحق أن يقال له «شاهد»، بمعنى أنه سيشهد، أو أنه يصلح لأَنْ يشهد. وإذْ كان خطأً أن يسمى بذلك الاسم إلاّ مَنْ عنده شهادةٌ لغيره، أو من قد أقام شهادته فلزمه لذلك هذا الاسم، كان معلوماً أن المعنيَّ بقوله: «ولا يأبَ الشهداءُ إذا مادُعُوا»، من وصفنا صفته ممن قد استُرْعِيَ شهادةً، أو شَهد، فدعي إلى القيام بها. لأن الذي لم يُستشْهد ولم يُستَرْعَ شهادةً قبل الإشهاد، غيرُ مستحقٍ اسمَ «شهيد» ولا «شاهد»، لما قد وصفنا قَبْلُ.

مع أن في دخول «الألف واللام» في «الشهداء»، دلالةً واضحةً على أن المسمَّى بالنهي عن ترك الإجابة للشهادة، أشخاصٌ معلومون قد عُرِفوا بالشهادة، وأنهم الذين أمر الله عز وجل أهلَ الحقوق باستشهادهم بقوله: «واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإنْ لم يكونا رجلين فرجلٌ وامرأتان ممن ترضونَ من الشهداء». وإذْ كان كذلك، كانَ معلوماً أنهم إنما أُمِرُوا بإجابةِ داعيهم لإقامةِ شهادتهم بعد ما استُشْهدوا فشهدوا. ولو كان ذلك أمراً لمن أعرضَ من الناس فدُعيَ إلى الشهادة يشهد عليها، لقيل: ولا يأبَ شاهد إذا ما دعيَ.

غيرَ أنّ الأمر وإن كان كذلك، فإنّ الذي نقولُ به في الذي يُدعى لشهادةٍ ليشهدَ عليها إذا كان بموضعٍ ليس به سواه ممن يصلحُ للشهادة، فإنّ الفرضَ عليه إجابةُ داعيه إليها، كما فَرضٌ على الكاتب إذا استُكْتِبَ بموضعٍ لا كاتبَ به سواه، ففرضٌ عليه أن يكتب، كما فرضٌ على مَنْ كان بموضع لا أحدَ به سواه يعرف الإيمان وشرائع الإسلام. فحضره جاهلٌ بالإيمان وبفرائض الله، فسأله تعليمه وبيان ذلك له، أنْ يعلمه ويبيِّنه له. ولم نُوجِبْ ما أوجبنا على الرجلِ من الإجابةِ للشهادة إذا دُعِيَ ابتداءً ليشهد على ما أشْهِد عليه بهذه الآية، ولكن بأدلة سواها، وهي ما ذكرنا. وإنَّ فرْضاً على الرجل إحياءُ ما قَدَر على إحيائهِ من حَقٍّ أخيه المسلم.

«والشهداء» جمع «شهيد».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: ولا تسأموا، أيها الذين تُداينون الناسَ إلى أجلٍ، أن تكتبوا صغيرَ الحق يعني: قليله، أو كبيره، يعني: أو كثيره إلى أجله إلى أجل الحق، فإنَّ الكتابَ أحصى للأجلِ والمالِ.

ومعنى قوله: «ولا تسأموا»: لا تملوا. يقال منه: «سئمتُ فأنا أسأم سَآمة وَسآمةً».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾

يعني جل ثناؤه: «ذلكم»، اكتتابُ كتابِ الدَّيْنَ إلى أجله.

ويعني بقوله: «أقسطُ»، أعدلُ عند الله.

يقال منه: «أقسطَ الحاكمُ فهو يُقسط إقساطاً، وهو مُقسط»، إذا عَدَلَ في حكمِهِ وأصابَ الحقَّ فيه. فإذا جار قيل: «قَسَط فهو يَقْسِط قُسوطاً». ومنه قول الله عز وجل: ﴿وَأَمَّا القَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾ [الجن: ١٥]، يعني: الجائرون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: وأصوبُ للشهادة.

وأصله من قول القائل: «أقمتُ من عَوَجِه»، إذا سَوَّيتهُ فاستوى.

وإنما كان الكتابُ أعدل عند الله، وأصوب لشهادة الشهود على ما فيه، لأنه يحوي الألفاظ التي أقرّ بها البائعُ والمشتري وربُّ الدَّيْنِ والمستدينُ على نفسه، فلا يَقع بين الشهود اختلافٌ في ألفاظهم بشهادتهم، لاجتماع شهادتهم على ماحواه الكتاب. وإذا اجتمعت شهادتهم على ذلك، كان فصلُ الحكم بينهم أبينَ لمن احتُكم إليه من الحكام، مع غير ذلك من الأسباب. وهو أعدل عند الله، لأنه قد أمر به. واتباعُ أمرِ الله لا شَكَّ أنه عند الله أقسطُ وأعدلُ من تركهِ والانحرافِ عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: «وأدنى»، وأقرب، من «الدنو»، وهو القرب.

ويعني بقوله: «أن لا ترتابوا»، أن لا تَشكوا في الشهادة.

ومعنى الكلام: ولا تملُّوا أيها القومُ أنْ تكتبوا الحقّ الذي لكم قِبَلَ مَنْ

دَاينتموهُ من الناس من أجل، صغيراً كان ذلك الحق أو كبيراً، قليلًا أو كثيراً، فإن كتـابكم ذلك أعدل عند الله، وأصوبُ لشهادة شهودكم عليه، وأقربُ لكم أن لا تشكوا فيها شهد به شهودكم عليكم من الحق والأجل إذا كان مكتوباً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾

ثم استثنى جل ذكره مما نهاهم عنه أن يسأموه من اكتتاب كتب حقوقهم على غرمائهم بالحقوق التي لهم عليهم ما وجب لهم قِبَلَهم من حقّ عن مُبايعةٍ بالنقودِ الحاضرة يداً بيد، فرخَّص لهم في ترك اكتتاب الكُتب بذلك. لأن كُلَّ واحدٍ منهم، أعني من الباعة والمشترين، يقبض ـ إذا كان الواجب بينهم فيما يتبايعونه نقداً ـ ما وجَبَ له قِبَلَ مُبَايِعيهِ قبْلَ المفارقةِ، فلا حاجةَ لهم في ذلك إلى اكتتابِ أحدِ الفريقين على الفريقِ الآخر كتاباً بما وَجَبَ لهم قبلهم، وقد تقـابضوا الواجبَ لهم عليهم. فلذلك قال تعالى ذِكْرُه: «إلاّ أنْ تكونَ تجارةً حاضرةً تُديرونها بينكم»، لا أجلَ فيها ولا تأخيرَ ولا نَسَاء، «فليس عليكم جُناح أن لا تكتبوها»، يقول: فلا حرجَ عليكم أن لا تكتبوها ـ يعني التجارة الحاضرةَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾

يعني بذلـك جل ثنـاؤه: وأَشْهِـدُوا على صغيرِ ما تبـايعتم وكبيرِهِ من حقوقكم، عاجلِ ذلك وآجلِه، ونقدِهِ ونَسَائِهِ، فإنَّ إرخاصي لكم في ترك اكتتابِ الكتب بينكم فيما كان من حقوقٍ تجري بينكم لبعضكم من قبل بعض عن تجارةٍ حاضرةٍ دائرةٍ بينكم يداً بيدٍ ونقداً، ليس بإرخاصٍ مني لكم في ترك الإِشهاد منكم على مَنْ بعتموه شيئاً أو ابتعتم منه. لأن في ترككم الإِشهاد على

ذلك خوفَ المضرّة على كل من الفريقين: أما على المشتري، فأنْ يجحد البائعُ البيعَ، وله بيِّنةٌ على ملكه ما قد باعَ، ولا بيِّنة للمشتري منه على الشراء منه، فيكـون القولُ حينئذٍ قولَ البائع مع يمينه ويُقضَى له به، فيذهب مالُ المشتري باطلاً ـ وأما على البائع، فأنْ يجحد المشتري الشراءَ وقد زال مُلْكُ البائعِ عما باعَ، ووجب له قِبَلَ المبتاع ثمن ما باع، فيحلفُ على ذلك، فيبطل حقّ البائع قِبَلَ المشتري من ثمن ما باعه. فأمر الله عز وجل الفريقين بالإشهاد، لئلا يضيعَ حَقُّ أحدِ الفريقين قِبَلَ الفريقِ الآخر.

ثم اختلفوا في معنى قوله: «وأشهدوا إذا تبايعتم»، أَهُوَ أمرٌ من الله واجبٌ بالإشهادِ عند المبايعة، أم هو نَدْبٌ؟

فقال بعضهم: «هو نَدْبٌ، إن شاء أَشْهَدَ، وإنْ شاء لم يُشهد».

وقال آخرون: «الإشهاد على ذلك واجب».

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: أنَّ الإشهادَ على كل مَبيع ومُشترًى؛ حقٌّ واجبٌ وفرضٌ لازم، لما قد بيَّنا: من أن كلَّ أمرٍ لله، ففرضٌ، إلا ما قامت حُجته من الوجه الذي يجبُ التسليم لهُ بأنه ندبٌ وإرشاد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: «ولا يضار كاتبٌ ولا شهيد»، بمعنى: ولا يضارهما من استكتَبَ هذا أو استشهدَ هذا، بأن يأبى على هذا إلا أن يكتبَ له وهو مشغول بأمر نفسه، ويأبى على هذا إلّا أن يجيبه إلى الشهادة وهو غير فارغ.

وإنما قلنا هذا القول أولى بالصواب من غيره، لأنَّ الخطابَ من الله عز وجل في هذه الآية من مُبتدئها إلى انقضائها على وجه: «افعلوا أو: لا تفعلوا»، إنما هو خطابٌ لأهلِ الحقوق والمكتوب بينهم الكتابُ، والمشهود لهم أو عليهم بالذي تَدَايُنوه بينهم من الديون. فأما ما كان من أمرٍ أو نهي فيها لغيرهم، فإنما هو على وجهِ الأمرِ والنهي للغائب غير المخاطب، كقوله: «وليكتب بينكم كاتب»، وكقوله: «ولا يأبَ الشهداءُ إذا مادُعُوا»، وما أشبه ذلك. فالوجهُ إذْ كان المأمورون فيها مخاطَبين بقوله: «وإنْ تفعلوا فإنه فُسوقٌ بكم» [بأن يكون الأمر مردوداً على المستكتب والمستشهد]، أشبه منه بأن يكون مردوداً على الكاتب والشهيد. ومع ذلك، فإنَّ الكاتبَ والشهيدَ لو كانا هما المنهيَّين عن الضرار لقيل: وإنْ يفعلا فإنه فسوقٌ بهما. لأنهما اثنان، وأنهما غير مخاطبين بقوله: «ولا يضارّ»، بل النهي بقوله: «ولا يضار»، نهيٌ للغائبِ غير المخاطب. فتوجيهُ الكلام إلى ما كان نظيراً لما في سياق الآية، أولى من توجيهه إلى ما كان مُنعدِلاً عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمْۗ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: وإن تضارّوا الكاتب أو الشاهدَ، .وما نُهيتم عنه من ذلك، «فإنه فسوقٌ بكم»، يعني: إثمٌ بكم ومعصيةٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٢٨٢﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «واتقوا الله»، وخافوا الله، أيها المتداينون في الكتاب والشهود، أن تضاروهم، وفي غير ذلك من حدود الله أن تُضيعوه،

ويعني بقوله: «ويُعلِّمكم الله»، ويبينُ لكم الواجبَ لكم وعليكم، فاعملوا به «والله بكل شيء عليم»، يعني: (بكل شيء)[1] من أعمالكم وغيرها، يحصيها عليكم، ليجازيكم بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: وإن كنتم، أيها المتداينون، في سفر بحيث لا تجدون كاتباً يكتبُ لكم، ولم يكنْ لكم إلى اكتتاب كتاب الدين الذي تداينتموه إلى أجلٍ مسمى بينكم الذي أَمَرْتُكُم باكتتابهِ والإشهادِ عليه سبيلٌ، فارتهنوا بديونكم التي تَدَاينتمُوها إلى الأجلِ المسمى رهوناً تقبضونها ممن تُدَايِنُونَهُ كذلك، ليكون ثقةً لكم بأموالكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: فإنْ كان المدينُ أميناً عند رب المال والدَّين فلم يرتهن منه في سفره رَهْناً بدينه لأمانتهِ عنده على ماله وثقته، «فليتق الله»، المدينُ «رَبّه»، يقول: فَلْيَخَفِ الله ربَّهُ في الذي عليه من دَيْنِ صاحبهِ أن يجحده، أو يَلُطّ دونه[2]، أو يحاول الذهاب به، فيتعرّض من عقوبة الله لما لا قِبَلَ له به، وليؤدِّ دَيْنَهُ الذي ائتمنه عليه، إليه.

---

(١) زيادة اقترحها العلامةُ محمود شاكر.

(٢) يعني: دفع ومنع الحق.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلْبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨٣﴾

وهذا خطابٌ من الله عز وجل للشهود الذين أمر المستدينَ وربَّ المال بإشهادهم، فقال لهم: «ولا يأبَ الشهداءُ إذا مادُعُوا»، ولا تكتموا، أيها الشهود، بعد ماشهدتم شهادَتكم عند الحكام، كما شهدتم على ماشهدتم عليه، ولكنْ أجيبوا مَنْ شَهدتُم له إذا دعاكم لإقامة شهادتكم على خصمه على حقه عند الحاكم الذي يأخذُ له بحقه.

ثم أخبر الشاهدَ جَلَّ ثناؤه ما عليه في كتمان شهادته، وإبائهِ من أدائها والقيام بها عند حاجة المستشهد إلى قيامه بها عند حاكمٍ أو ذي سلطانٍ، فقال: «ومن يَكتمها». يعني: ومن يكتم شهادته «فإنه آثمٌ قَلبه»، يقول: فاجرٌ قلبه، مكتسبٌ بكتمانه إياها معصيةَ الله.

وأما قوله: «والله بما تعملون عليمٌ»، فإنه يعني: «بما تعملون» في شهادتكم من إقامتها والقيام بها، أو كتمانكم إياها عند حاجة مَنِ استشهدكم إليها، وبغير ذلك من سرائرِ أعمالكم وعلانيتها، «عليمٌ»، يحصيه عليكم، ليجزيكم بذلك كله جزاءَكم، إما خيراً وإما شراً على قدر استحقاقكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: «لله ما في السموات وما في الأرض»، لله مُلْكُ كُلِّ ما في السمواتِ وما في الأرضِ من صغيرٍ وكبيرٍ، وإليه تدبيرُ جميعهِ، وبيده

صَرْفُه وتقليبهُ، لا يخفى عليه منه شيء، لأنه مُدَبِّرهُ ومالكه ومصرّفه.

وإنما عنى بذلك جل ثناؤه كتمانَ الشهودِ الشهادةَ، يقول: لا تكتموا الشهادة أيها الشهود، ومَنْ يكتمها يفجُرْ قلبه؛ ولن يخفى عليَّ كتمانه ذلك، لأني بكل شيءٍ عليم، وبيدي صَرْفُ كل شيء في السموات والأرض وملكه، أعلمُ خفيَّ ذلك وجَليَّهُ، فاتقوا عقابي إياكم على كتمانكم الشهادة وعيداً من الله بذلك مَنْ كتمها، وتخويفاً منه له به.

ثم أخبرهم عما هو فاعلٌ بهم في آخرتهم وبمن كان من نظرَائهم ممن انطوى كشحاً على معصيةٍ فأضمرها، أو أظهر مُوبقةً فأبداها من نفسه ـ من المحاسبة عليها فقال: «وإن تُبدُوا ما في أنفسكم أو تُخفوه»، يقول: وإن تظهروا فيما عندكم من الشهادة على حقٍّ ربِّ المالِ الجحودَ والإنكار، أو تخفوا ذلك فتضمروه في أنفسكم، وغير ذلك من سيِّئِ أعمالكم «يحاسبكم به الله»، يعني بذلك: يحتسب به عليكم من أعمالكم، فمجازٍ مَنْ شاء منكم من المسيئين بسوء عمله، وغافرٌ لمن شاء منكم من المسيئين.

ثم اختلف أهلُ التأويل فيما عنى بقوله: «وإن تُبدُوا ما في أنفسكم أو تُخْفُوه يحاسبكم به الله».

فقال بعضهم بما قلنا: من أنه عنى به الشهودَ في كتمانهم الشهادةَ، وأنه لاحقٌ بهم كل مَنْ كان من نُظرائِهم ممن أضمر معصيةً أو أبداها.

وقال آخرون: «بل نزلت هذه الآية إعلاماً من الله تبارك وتعالى عبادَه أنه مؤاخذهم بما كسبته أيديهم وحدثتهم به أنفسهم مما لم يعملوه».

ثم اختلف متأوِّلو ذلك كذلك.

فقال بعضهم: «ثم نسخ الله ذلك بقوله: ﴿لا يُكلِّفُ الله نَفْسًا إلاَّ وُسْعَهَا

لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقال آخرون ممن قال معنى ذلك: «الإعلامُ من الله عز وجل عبادَه أنه مُؤَاخِذُهم بما كسبتهُ أيديهم وعملته جوارحهم، وبما حدثتهم به أنفسهم مما لم يعملوه»: «هذه الآية محكمة غيرُ منسوخة، والله عز وجل محاسبُ خَلْقَهُ على ما عملوا من عملٍ وعلى ما لم يعملوه مما أصرُّوه في أنفسهم ونَوَوْهُ وأرادُوه، فيغفره للمؤمنين، ويؤاخذ به أهلَ الكفر والنفاق».

وقـال آخـرون ـ ممن قال: «هذه الآية مُحْكَمةٌ، وهي غير منسوخة»، ووافقوا الذين قالوا: «معنى ذلك: أن الله عز وجل أعلم عبادَه ماهو فاعلٌ بهم فيما أبدَوْا وأخفوا من أعمالهم» ـ معناها: إنَّ الله محاسبُ جميعَ خلقه بجميع ما أبدَوْا من سيِّئِ أعمالِهم وجميع ما أسروه، ومُعاقبهم عليه. غيرَ أن عقوبته إياهم على ما أخفوه مما لم يعملوه، ما يحدث لهم في الدنيا من المصائب والأمور التي يحزنون عليها ويألمون منها.

وأولى الأقـوال التي ذكرناها بتأويل الآية قول مَنْ قال: «إنها محكمة، وليست بمنسوخة». وذلك أن النسخ لا يكون في حُكْمٍ إلاّ بنفيهِ بآخرَ، هو له نافٍ من كُلِّ وجوهِهِ. وليس في قوله جل وعز: «لا يكلفُ الله نَفْساً إلا وُسْعَها لها ما كَسَبتْ وعليها ما اكتسبت»، نفي الحكم الذي أعلم عبادَه بقوله: «أو تُخْفُوه يحاسبكم به الله». لأنَّ المحاسبةَ ليست بموجبةٍ عقوبةً ولا مؤاخذةً بما حُوسِبَ عليه العبدُ من ذنوبه.

وقـد أخبـر الله عز وجل عن المجرمين أنهم حين تعرض عليهم كتب أعمالهم يوم القيامة يقولون: ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩]. فأخبر أنَّ كتبهم مُحْصِيَةٌ عليهم صغائرَ أعمالهم وكبائرها، فلم تكن الكتب ـ وإنْ أحصت صغائرَ الذنوب وكبائرها ـ

بموجبٍ إحصاؤها على أهلِ الإيمان بالله ورسوله، وأهل الطاعة له، أن يكونوا بكل ما أحصتهُ الكتبُ من الذنوب معاقبين. لأنَّ الله عز وجل وعَدهم العفوَ عن الصغائر، باجتنابهم الكبائر فقال في تنزيله: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً﴾ [النساء: ٣١]. فذلك محاسبةُ الله عبادَه المؤمنين بما هو مُحاسِبُهم به من الأمور التي أخفتها أنفسهم، غيرَ موجبٍ لهم منـه عقوبة، بل محاسبته إياهم ـ إن شاء الله ـ عليها، لِيُعَرِّفَهُمْ تَفَضُّلَهُ عليهم بعفوهِ لهم عنها. وأن الله يفعل بعبده المؤمن: من تعريفهِ إياهُ سيئات أعمالهِ، حتى يعرّفه تفضّله عليه بعفوه له عنها. فكذلك فِعْلُه تعالى ذِكْرُه في محاسبته إياه بما أبداه من نفسه وبما أخفاه من ذلك، ثم يغفر له كلّ ذلك بعد تعريفه تفضُّلَهُ وتكرُّمَهُ عليه، فيستره عليه. وذلك هو المغفرة التي وَعَدَ اللهُ عبادَهُ المؤمنين فقال: «فيغفر لمنْ يَشاء».

فإن قال قائل: فإنَّ قوله: «لها ما كسبت وعليها ما اكتسبتْ»، يُنْبِىءُ عن أنَّ جميعَ الخَلْقِ غير مؤاخذين إلا بما كسبته أنفسهم من ذنب، ولا مُثابين إلا بما كسبته من خير؟

قيل: إن ذلك كذلك، وغيرُ مؤاخَذٍ العبدُ بشيء من ذلك إلا بفعل ما نُهي عن فعله، أو تَرْك ما أُمِرَ بفعله.

فإن قال: فإذْ كان ذلك كذلك، فما معنى وعيدِ الله عز وجل إيَّانا على ما أخفته أنفسنا بقوله: «ويُعَذِّبُ مَنْ يشاء»، إنْ كان لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، وما أضمرته قلوبنا وأخفته أنفسنا ـ: من همّ بذنب، أو إرادةٍ لمعصية ـ لم تكتسبه جوارحُنا؟

قيل له: إن الله جل ثناؤه قد وعد المؤمنين أن يعفوَ لهم عما هو أعظم مما هَمَّ به أَحَدُهم من المعاصي فلم يفعله، وهو ما ذكرنا من وَعْده إياهم العفوَ

عن صغائر ذنوبهم إذا هم اجتنبوا كبائرها. وإنما الوعيد من الله عز وجل بقوله: «ويعذب من يشاء»، على ما أخفته نفوسُ الذين كانت أنفسُهم تخفي الشكَّ في الله، والمريةَ في وحدانيته، أو في نبوّةِ نبيه ﷺ وما جاء به من عند الله، أو في المعادِ والبعث ـ من المنافقين، على نحوِ ما قال ابنُ عباس ومجاهد ومَنْ قال بمثل قولهما، إن تأويل قوله: «أو تخفوه يحاسبكم به الله»، على الشك واليقين.

غير أنا نقولُ إنَّ المُتَوَعَّدَ بقولِهِ: «ويعذب من يشاء»، هو مَن كان إخفاءُ نفسه ماتخفيه الشكَّ والمريةَ في الله، وفيما يكون الشك فيه بالله كفراً ـ والموعودَ الغفران بقوله: «فيغفر لمن يشاء» هو الذي إخفاءُ مايخفيه، الهمّة بالتقدم على بعض مانهاه الله عنه من الأمور التي كان جائزاً ابتداءً تحليلهُ وإباحته، فحرّمه على خلقه جل ثناؤه ـ أو على تركِ بعضِ ما أمر الله بفعله، مما كان جائزاً ابتداءً إباحةُ تركه، فأوجب فعله على خلقه، فإنّ الذي يهمّ بذلك من المؤمنين ـ إذا هو لم يصحح همَّه بما يهمّ به، ويحقق ما أخفته نفسه من ذلك بالتقدم عليه، لم يكن مأخوذاً به.

فهذا الذي وصفنا هو الذي يحاسب الله به مؤمني عباده، ثم لا يعاقبهم عليه. فأما مَنْ كان ما أَخْفَتْهُ نَفْسُهُ شكاً في الله وارتياباً في نبوة أنبيائه، فذلك هو الهالكُ المُخَلَّدُ فيَ النار الذي أوعده جَلَّ ثناؤه العذاب الأليم بقوله: «ويعذب من يشاء».

فتأويل الآية إذاً: «وإنْ تُبْدُوا ما في أنفسكم»، أيها الناس، فتظهروه، «أو تخفوه»، فتنطوي عليه نفوسكم «يحاسبكم به الله»، فيعرِّفُ مؤمنكم تَفَضُّلَهُ بعفوِهِ عنه ومغفرتَهُ له فيغفره له، ويعذّب مُنَافِقَكم على الشك الذي انطوت عليه نفسه في وحدانيةِ خالقهِ ونبوّةِ أنبيائه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٨٤﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: والله عز وجل على العفو عما أخفته نفسُ هذا المؤمن من الهمَّةِ بالخطيئة، وعلى عقابِ هذا الكافر على ما أخفته نفسه من الشكِّ في توحيدِ الله عز وجل ونبوة أنبيائه، ومجازاةِ كل واحدٍ منهما على ما كان منه، وعلى غيرِ ذلك من الأمور قادرٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: صَدَّقَ الرسولُ ـ يعني رسولَ الله ﷺ، فأقرَّ «بما أُنـزِلَ إليه»، يعني: بما أوحيَ إليه من ربه من الكتاب، وما فيه من حلالٍ وحرام، ووعدٍ وعيد، وأمرٍ ونهي، وغير ذلك من سائر مافيه من المعاني التي حوَاها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤهُ: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾

وأما قوله: «لا نفرق بين أحد من رسله»، فإنه أخبر جل ثناؤه بذلك عن المؤمنين أنهم يقولون ذلك. ففي الكلام في قراءة مَنْ قرأ «لا نُفرّق بين أحدٍ من رسله» بالنون، متروكٌ، قد استغنى بدلالة ماذكر عنه. وذلك المتروك هو: «يقـولـون». وتأويل الكلام: والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، يقولون: لا نفرق بين أحد من رسله. وترك ذكر «يقولون» لدلالةِ الكلام عليه، كما ترك ذِكْرَهُ في قوله: ﴿وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ* سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، بمعنى: يقولون: سلامٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٢٨٥﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: وقال الكل من المؤمنين «سمعنا» قولَ رَبِّنَا وأَمْرَهُ إيَّانا بما أمرنا به، ونهيه عما نهانا عنه «وأطعنا» يعني: أطعنا رَبنا فيما ألزمنا من فرائضهِ واستعبَدَنَا به من طاعته، وسلمنا له، وقوله: «غُفرانك ربنا»، يعني: وقالوا: «غفرانك رَبنا»، بمعنى: اغفر لنا ربنا غُفرانك، كما يقال: «سبحانك»، بمعنى: نُسَبِّحُكَ سبحانكَ.

وقد بينا فيما مضى أن «الغفران» و «المغفرة»: السترُ من الله على ذنوب من غفر له، وصفحه له عن هتكِ سترهِ بها في الدنيا والآخرة، وعفوه عن العقوبة ـ عليه.

وأما قوله: «وإليك المصير»، فإنه يعني جل ثناؤه أنهم قالوا: وإليك ياربنا مَرْجِعُنَا وَمَعَادُنَا، فاغفرْ لنا ذنوبنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: لا يكلِّفُ الله نفساً فيتعبَّدها إلاّ بما يَسَعها، فلا يُضيق عليها ولا يَجهدها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «لها» للنفس التي أخبر أنه لا يكلفها إلا وسعها. يقول: لكلِّ نَفْسٍ ما اجترحَت وعملتْ من خيرٍ «وعليها»، يعني: وعلى كل نفسٍ «ما اكتسبت»، ماعَمِلَتْ من شرّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾

وهـذا تعليمٌ من الله عز وجل عبادَه المؤمنين دعاءَه كيف يدعونه، وما يقولونه في دعائهم إياه. ومعناه: قولوا: «رَبَّنَا لاتؤاخذنا إنْ نسينا» شيئاً فرضتَ علينا عَمَلَهُ فلم نَعْمَلْهُ، «أو أخطأنا» في فِعْلِ شيءٍ نهيتَنا عن فعله ففعلناه، على غيرِ قصدٍ منا إلى معصيتك، ولكن على جَهالَة منا به وخطأ.

إن قال لنا قائل: وهل يجوزُ أن يُؤاخذ الله عز وجل عبادَهُ بما نسوا أو أخطأوا، فيسألوه أنْ لا يؤاخذهم بذلك؟

قيل: إنّ «النسيان» على وجهين: أحدُهما على وجه التضييعِ من العبدِ والتفـريطِ، وَالآخـرُ على وجه عَجز الناسي عن حفظِ ما استُحْفِظَ ووكِّل به، وضعف عقله عن احتماله.

فأما الذي يكون من العبد على وجه التضييعِ منه والتفريط، فهو تَركٌ منه لما أُمِرَ بفعله. فذلك الذي يرغب العبدُ إلى الله عز وجل في تركه مُؤاخَذَتَهُ به، وهو «النسيانُ» الذي عاقب الله عز وجل به آدم صَلوات الله عليه فأخرجه من الجنة، فقال في ذلك: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ [طه: ١١٥]، وهو «النسيان» الذي قال جل ثناؤه: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ [الأعراف: ٥١]. فرغبةُ العبدِ إلى الله عز وجل بقوله: «ربنا لاتؤاخذنا إنْ نسينا أو أخطأنا»، فيما كان من نسيانٍ منه لما أُمِرَ بفعله على هذا الوجه الذي وصفنا، ما لم يكن تركُهُ ما ترك من ذلك تفريطاً منه فيه وتضييعاً، كفراً بالله عز وجل. فإنّ ذلك إذا كان كفراً بالله، فإن الرغبة إلى الله في تركهِ المؤاخذةَ به غير جائزة، لأن الله عز وجل قد أخبر عبادَهُ أنه لا يغفرُ لهم الشركَ

به، فمسألته فِعْلَ ماقد أعلمهم أنه لايفعله، خطأ. وإنما تكون مسألته المغفرة، فيما كان من مثل نسيانه القرآنَ بعد حفظهِ بتشاغلهِ عنه وعن قراءته، ومثل نسيانهِ صلاةً أو صياماً باشتغاله عنهما بغيرهما حتى ضيَّعهما.

وأما الذي العبدُ به غيرُ مؤاخذٍ، لعجز بِنْيته عن حفظهِ، وقلةِ احتمالِ عقلهِ ماوُكّل بمراعاته، فإنَّ ذلك من العبد غيرُ معصيةٍ، وهو به غير آثمٍ. فذلك الذي لا وجه لمسألة العبد ربَّه أنْ يغفره له، لأنه مسألة منه له أن يغفر له ماليس له بذنب. وذلك مثل الأمر يُغْلَبُ عليه وهو حريصٌ على تَذَكُّرِهِ وحفظه، كالرجل يحرصُ على حِفْظِ القرآن بجدّ منه فيقرأه، ثم ينساهُ بغيرِ تشاغلٍ منه بغيره عنه، ولكن بعجز بنيته عن حفظه، وقِلَّةِ احتمالِ عقله ذكرَ ما أودع قلبه منه، وما أشبه ذلك من النسيان، فإنَّ ذلك ما لا تجوزُ مسألة الربِّ مغفرته، لأنه لا ذنبَ للعبد فيه فيغفر له باكتسابه.

وكذلك لـ «الخطأ» وجهان:

أحدهما: من وجه ما نُهي عنه العبد فيأتيه بقصدٍ منه وإرادة، فذلك خطأ منـه، وهو به مأخوذ. يقال منه: «خَطِئَ فلان وأخطأ» فيما أتى من الفعل، و«أثم»، إذا أتى ما يأثم فيه وركبه، وهذا الوجه الذي يرغب العبد إلى ربه في صَفح ما كان منه من إثم عنه، إلا ما كان من ذلك كفراً.

والآخر منهما: ما كان منه على وجه الجهل به، والظنّ منه بأن له فعله، كالذي يأكل في شهر رمضان ليلاً وهو يحسب أن الفجرَ لم يطلع، أو يؤخّر صلاةً في يوم غيمٍ وهو ينتظرُ بتأخيره إياها دخولَ وقتها، فيخرج وقتها وهو يرى أنَّ وقتَها لم يدخل. فإنَّ ذلك من الخطأ الموضوعِ عن العبدِ، الذي وضعَ الله عز وجل عن عبادهِ الإثمَ فيه، فلا وجهَ لمسألةِ العبدِ ربَّهُ أنْ لا يؤاخذه به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا

ويعني بذلك جل ثناؤه: قولوا: «ربنا لا تحمل علينا إصراً»، يعني بـ «الإصر» العهد، كما قال جل ثناؤه: ﴿قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾ [آل عمران: ٨١]. وإنما عنى بقوله: «ولا تحمل علينا إصراً» ولا تحمِلْ علينا عهداً فنعجز عن القيامِ به ولا نستطيعه؛ «كما حملته على الذين من قبلنا»، يعني: على اليهودِ والنصارى الذين كُلِّفوا أعمالاً، وأخذت عهودهم ومواثيقهم على القيامِ بها، فلم يقوموا بها فَعُوجِلُوا بالعقوبة. فعلَّم الله عز وجل أمةَ محمدٍ ﷺ الرغبةَ إليه بمسألته أن لا يُحَمِّلَهُمْ من عهودِه ومواثيقِه على أعمالٍ - إنْ ضَيَّعُوها أو أخطأوا فيها أو نسوها - مثل الذي حَمَّلَ مَنْ قَبْلَهُمْ، فيحلُّ بهم بخطئهم فيه وتضييعهم إياه، مِثْلَ الذي أَحَلَّ بمن قبلهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ

يعني بذلك جل ثناؤه: وقولوا أيضاً: ربنا لا تكلفنا من الأعمالِ ما لانطيقُ القيامَ به، لثِقَل حمله علينا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا

وفي هذا أيضاً، من قول الله عز وجل، خبراً عن المؤمنين من مسألتهم إياه ذلك الدلالةُ الواضحة أنهم سألوه تيسيرَ فرائضهِ عليهم بقوله: «ولا تُحَمِّلْنا مالا طاقةَ لنا به»، لأنهم عَقَّبُوا ذلك بقولهم: «واعفُ عنا»، مسألةً منهم ربَّهم أنْ يعفوَ لهم عن تقصيرٍ إنْ كان منهم في بعض ما أمرهم به من فرائضهِ،

فيصفح لهم عنه ولا يعاقبهم عليه، وإنْ خَفَّ ما كلَّفهم من فرائضه على أبدانهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: تَغَمَّدْنَا منك برحمةٍ تُنجينا بها من عقابك، فإنه ليس بناجٍ من عقابك أحدٌ إلّا برحمتك إياه دُون عمله، وليست أعمالنا مُنْجِيتنا إنْ أنتَ لم ترحمنا، فَوَفِّقْنَا لما يُرضيكَ عنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢٨٦﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «أنت مَوْلانا»، أنت وليُّنا بنصرك، دون مَنْ عاداكَ وكَفَرَ بك، لأنا مؤمنون بك، ومُطِيعوكَ فيما أمرتنا ونهيتنا، فأنتَ وليُّ مَنْ أطاعكَ، وعدُو مَنْ كَفَرَ بكَ فعصاك. «فانصرنا»، لأنا حِزْبك «على القوم الكافرين»، الذين جحدوا وحدانيتك، وعبدوا الآلهةَ والأندادَ دونك، وأطاعوا في معصيتك الشيطان.

تفسير سورة آل عمران

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

قد أتينا على البيان عن معنى قوله: «ألم» فيما مضى، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع. وكذلك البيان عن قوله: «الله».

وأما معنى قوله: «لا إله إلّا هو»، فإنه خبرٌ من الله جل وعز، أخبرَ عبادَه أنَّ الألوهيةَ خاصةٌ به دون ماسواه من الآلهةِ والأنداد، وأنَّ العبادة لاتصلحُ ولا تجوزُ إلا له، لانفرادِه بالربوبية وتوحُّدِهِ بالألوهية، وأن كُلَّ مادونَهُ فملْكُهُ، وأنَّ كل ماسواه فَخَلْقُهُ، لا شريكَ له في سلطانه ومُلكه، احتجاجاً منه تعالى ذكره عليهم بأنَّ ذلك إذْ كان كذلك، فغيرُ جائزةٍ لهم عبادةُ غيره، ولا إشراكُ أحد معه في سلطانه، إذْ كان كل معبودٍ سواه فملكه، وكلّ مُعَظَّمٍ غيرُه فخلقهُ، وعلى المملوكِ إفرادُ الطاعةِ لمالكه، وصرفُ خدمته إلى مولاه ورازقه؛ ومعرِّفاً مَنْ كان مِنْ خَلْقِهِ ـ يَوم أنزل ذلك إلى نبيه محمد ﷺ بتنزيله ذلك إليه، وإرساله به إليهم على لسانه صلوات الله عليه وسلامه ـ مقيماً على عبادةِ وثنٍ أو صنم أو شمس أو قمر أو إنسي أو مَلَك أو غير ذلك من الأشياء التي كانت بنو آدم مقيمةً على عبادته وإلاهته[1] ـ ومُتَّخِذَهُ دون مالكهِ وخالقهِ إلهاً وربًّا ـ أنه مقيمٌ على ضلالةٍ، ومُنعدلٌ[2] عن المحجة، وراكبٌ غيرَ السبيلِ المستقيمة، بصرفهِ العبادةَ إلى غيرهِ، ولا أحدَ له الألوهةُ غيره.

---

(١) الإلاهة: عبادةُ إله.

(٢) منعدل: منحرف.

وقد ذُكر أن هذه السورة ابتدأ الله بتنزيله فاتحتها بالذي ابتدأ به: من نَفْي «الألوهية» أنْ تكونَ لغيرِهِ، ووصفه نفسه بالذي وصَفها به في ابتدائها، احتجاجاً منه بذلك على طائفة من النصارىَ قَدِمُوا على رسولِ الله ﷺ من نَجْرَان فحاجُّوه في عيسى صلواتُ الله عليه، وألحدوا في الله. فأنزل الله عز وجل في أمرهم وأمرِ عيسى من هذه السورة نيفاً وثمانين آية من أولها، احتجاجاً عليهم وعلى مَنْ كان على مِثْل مقالتهم، لنبيِّه محمد ﷺ، فأبوا إلا المقامَ على ضلالتهم وكفرهم، فدعاهم إلى المباهلةِ، فأبوا ذلك، وسألوا قَبولَ الجزية منهم، فقبلها ﷺ منهم، وانصرفوا إلى بلادهم.

غير أن الأمرَ وإنْ كان كذلك، وإياهم قصد بالحِجاج، فإنَّ مَنْ كان معناه من سائر الخلق معناهم في الكفر بالله، واتخاذ ماسوى الله ربًّا وإلهاً معبوداً، معمومون بالحجةِ التي حَجَّ اللهُ تبارك وتعالى بها من نزلت هذه الآياتِ فيه، ومحجوجون في الفُرْقان الذي فَرَق به لرسوله ﷺ بينه وبينهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢﴾

(ومعنى الحي) عندي: أنه وصف نفسه بالحياة الدائمة التي لا فناءَ لها ولا انقطاع، ونفى عنها ماهو حالٌّ بكل ذي حياةٍ من خلقه من الفناء وانقطاع الحياة عند مجيء أجله. فأخبر عبادَه أنه المستوجبُ على خَلْقِه العبادة والألوهة، والحي الذي لا يموت ولا يبيد، كما يموتُ كل من اتخذ من دونه ربًّا، ويبيد كلُّ مَنِ ادَّعى من دونه إلهاً. واحتج على خَلْقِه بأنَّ من كان يبيد فيزول ويموت فيفنى، فلا يكونُ إلهاً يستوجبُ أنْ يعبد دون الإله الذي لايبيد ولا يموت وأنّ الإله، هو الدائم الذي لا يموتُ ولا يبيد ولا يفنى، وذلك الله الذي لا إله إلّا هو.

(ومعنى القيوم) أنَّ ذلك وصفٌ من الله تعالى ذكره نفسه بأنه القائمُ بأمر كل شيء، في رزقه والدفع عنه، وكلاءَتِه وتدبيره وصرفه في قدرته، من قول العرب: «فلان قائم بأمر هذه البلدة»، يعني بذلك: المتولى تدبيرَ أمرها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾

يقول جل ثناؤه: يامحمد، إنَّ ربك وربَّ عيسى وربَّ كل شيء، هو الرَّبُّ الذي أنزل عليك الكتاب. يعني: بـ«الكتاب»: القرآن «بالحق» يعني: بالصِّدق فيما اختلف فيه أهلُ التوراة والإنجيل، وفيما خالفكَ فيه محاجُّوكَ من نصارى أهل نجران وسائر أهل الشرك غيرهم. «مُصَدّقاً لما بين يديه»، يعني بذلك القرآن، أنه مصدّق لما كان قَبْلَهُ من كُتُبِ الله التي أنزلها على أنبيائهِ ورسله، ومُحَقِّقٌ ما جاءتْ به رُسل الله من عنده. لأن مُنَزِّلَ جميعِ ذلك واحدٌ، فلا يكون فيه اختلاف، ولو كان من عند غيره كان فيه اختلافٌ كثير.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: «وأنزل التوراة»، على موسى، «والإنجيل» على عيسى. «من قَبْلُ»، يقول: من قبل الكتاب الذي نزله عليك. ويعني بقوله: «هُدًى للناس»، بياناً للناس من الله فيما اختلفوا فيه من توحيد الله وتصديق رسله، ونَعْتيك يامحمد بأنك نبيّي ورسولي، وفي غير ذلك من شرائع دين الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾

يعني جل ثناؤه بذلك: وأنزل الفصْل بين الحق والباطل فيما اختلفت فيه الأحزابُ وأهلُ الملل في أمر عيسى وغيره.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: إنّ الذين جحدوا أعلام الله وأدلته على توحيده وألوهته، وأن عيسى عبدٌ له، واتخذوا المسيح إلهاً وربًّا أو ادَّعوه لله ولداً، لهم عذاب من الله شديدٌ يوم القيامة.

و«الذين كفروا»، هم الذين جحدوا آيات الله. و«آيات الله»: أعلامُ الله وأدلته وحججه.

وهذا القول من الله عز وجل يُنْبِئُ عن معنى قوله: «وأنزلَ الفرقانَ» أنه معنِيٌّ به الفصل الذي هو حجة لأهل الحق على أهل الباطل. لأنه عقب ذلك بقـوله: «إن الذين كفروا بآياتِ الله»، يعني: إن الذين جحدوا ذلك الفصل والفرقانَ الذي أنزله فرقاً بين المُحِقِّ والمُبْطِلِ. «لهم عذاب شديدٌ»: وعيدٌ من الله لمن عانـد الحقَّ بعد وضوحِهِ له، وخالف سبيلَ الهدى بعد قيام الحجة عليه. ثم أخبرهم أنه «عزيز» في سلطانه لا يمنعه مانعٌ ممن أرادَ عذابه منهم، ولا يحولُ بينه وبينه حائلٌ، ولا يستطيع أن يعانده فيه أحدٌ، وأنه «ذو انتقام» مِمَّنْ جحدَ حججه وأدلته بعد ثبوتها عليه، وبعد وضوحها له ومعرفته بها.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٥﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: إن الله لا يخفى عليه شيءٌ هو في الأرض ولا شيء هو في السمـاء. يقول: فكيف يخفى عليَّ يامحمدُ ـ وأنا علاَّمُ جميع الأشياء ـ مايُضَاهي به هؤلاء الذين يجادلونك في آيات الله من نصارى نجران في عيسى بن مريم، في مقالتهم التي يقولونها فيه؟!

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: الله الذي يُصَوِّركم فيجعلكم صوراً أشباحاً في أرحام أمهاتكم كيف شاء وأَحَبَّ، فيجعل هذا ذكراً وهذا أنثى، وهذا أسود وهذا أحمر، يُعَرِّفُ عبادَهُ بذلك أنّ جميع مَنِ اشتملتْ عليه أرحامُ النساء، فَمِمَّنْ صَوَّرَهُ وخلقه كيف شاء، وأنَّ عيسى بن مريم ممن صوَّره في رَحِمِ أمهِ وخلقه فيها كيف شاء وأحبّ، وأنه لو كان إلهاً لم يكن ممن اشتملتْ عليه رَحِمُ أمه، لأن خَلاَّقَ ما في الأرحامِ لا تكون الأرحامُ عليه مُشْتَمِلة، وإنما تشتمل على المخلوقين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ٦﴾

وهذا القولُ تنزيهٌ من الله تعالى ذكره نفسَه أن يكون له في ربوبيته ندٌّ أو مِثْلٌ، أو أن تَجوز الألوهة لغيره، وتكذيبٌ منه للذين قالوا في عيسى ما قالوا، من وفد نجران الذين قَدِمُوا على رسول الله ﷺ، وسائر مَنْ كان على مثل الذي كانوا عليه من قولهم في عيسى، ولجميع من ادّعى مع الله معبوداً أو أقرَّ بربوبية غيره. ثم أخبر جل ثناؤه خلقه بصفته، وعيداً منه لمن عَبَدَ غَيْرَهُ، أو أشركَ في

عبادته أحداً سواه، فقال: «هو العزيزُ» الذي لا ينصر من أرادَ الانتقام منه أحدٌ، ولا ينجيه منه وَأْلٌ ولا لَجَأٌ[1]، وذلك لعزته التي يذلُّ لها كل مخلوقٍ، ويخضعُ لها كل موجود. ثم أعلمهم أنه «الحكيمُ» في تدبيره وإعذاره إلى خلقه، ومتابعة حججه عليهم، ليهلك مَنْ هلك منهم عن بيِّنةٍ، ويحيا مَنْ حَيَّ عن بينة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «هو الذي أنزل عليك الكتاب»: إن الله الذي لايخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، هو الذي أنزل عليك الكتاب، يعني بـ «الكتاب»: القرآن.

وأما قوله: «منه آياتٌ محكمات» فإنه يعني: من الكتاب آيات. يعني بـ «الآيات»: آيات القرآن.

وأما «المحكمات»: فإنَّهُنَّ اللواتي قد أُحْكِمْنَ بالبيانِ والتفصيلِ، وأُثْبِتَتْ حججهن وأدلتهن على ماجُعلن أدلـةً عليه من حلالٍ وحرام، ووعدٍ ووعيد، وثواب وعقاب، وأمرٍ وزجر، وخبر ومثل، وعظة وعِبر، وما أشبه ذلك.

ثم وصف جل ثنـاؤه: هؤلاء «الآيات المحكمـات»، بأنهن: «هُنَّ أمّ الكتاب». يعني بذلك: أنهن أصلُ الكتابِ الذي فيه عماد الدين والفرائض والحدود، وسائر ما بالخلقِ إليه الحاجةُ من أمرِ دينهم، وما كُلِّفُوا من الفرائض في عاجلهم وآجلهم.

---

(١) الوأل: الموئل، وهو الملجأ الذي يفر إليه الخائف. واللجأ: الملجأ.

وأما قوله: «وأُخَرُ»: فإنها جمعُ أُخْرَى.

وأما قوله: «متشابهات»، فإن معناه: متشابهاتٌ في التلاوة، مختلفاتٌ في المعنى، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً﴾ [البقرة: ٢٥]، يعني في المنظر، مختلفاً في المطعم، وكما قال مخبراً عمن أخبر عنه من بني إسرائيل أنه قال: ﴿إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٧٠]، يعنون بذلك: تشابه علينا في الصفة، وإن اختلفت أنواعه.

فتأويل الكلام إذاً: إن الذي لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، هو الذي أنزل عليك يامحمد القرآن، منه آياتٌ محكمات بالبيان، هُنَّ أصلُ الكتاب الذي عليه عمادُك وعماد أمتك في الدِّين، وإليه مفزعُك ومفزعهم فيما افترضتُ عليك وعليهم من شرائعِ الإسلام، وآيات أخر، هنّ متشابهاتٌ في التلاوة، مختلفات في المعاني.

وقد اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: «منه آياتٌ محكمات هنّ أم الكتاب وأخر متشابهات»، وما المحكم من آي الكتاب، وما المتشابه منه؟

فقال بعضهم: «المحكمات» من آي القرآن، المعمولُ بهن، وهُنَّ الناسخاتُ أو المثبتاتُ الأحكام، «والمتشابهات» من آيِه، المتروكُ العملُ بهنّ، المنسوخاتُ.

وقال آخرون: «المحكمات» من آي الكتاب: ما أحكم الله فيه بيانَ حلالِه وحرامِه، «والمتشابه» منها: ما أَشْبَهَ بعضُهُ بعضاً في المعاني، وإن اختلفت ألفاظه.

وقال آخرون: «المحكمات» من آي الكتاب: مالم يحتملْ من التأويلِ غير وجهٍ واحدٍ، «والمتشابه» منها: ما احتمل من التأويل أوجهاً.

وقـال آخـرون: معنى «المحكم»: ما أحكم الله فيه من آي القـرآن، وقَصص الأمم ورسُلهم الذين أرسلوا إليهم، ففصّله ببيان ذلك لمحمدٍ وأمته، «والمتشابه»، هو ما اشتبهت الألفاظُ به من قَصَصهم عند التكرير في السور، بقَصِّهِ باتفاق الألفاظِ واختلافِ المعاني، وبقصّه باختلافِ الألفاظ واتفاق المعاني.

وقـال آخرون: بل «المحكم» من آي القرآن: ماعرف العلماءُ تأويله، وفهموا معناه وتفسيره ـ و«المتشابه»: ما لم يكنْ لأحدٍ إلى علمه سبيلٌ، مما استأثر الله بعلمه دون خلقه، وذلك نحو الخبر عن وقت مَخْرج عيسى بن مريم، ووقت طُلوع الشمس من مغربها، وقيام الساعة، وفناءِ الدنيا، وما أشبه ذلك، فإن ذلك لا يعلمه أحدٌ. وقالوا: إنما سمى الله من آي الكتاب «المتشابه»، الحروف المقطّعة التي في أوائلِ بعض سور القرآن، من نحو «ألم» و«ألمص»، و«ألمـر»، و«ألـر»، ومـا أشبه ذلك، لأنهن متشابهاتٌ في الألفاظ، وموافقاتٌ حروفَ حسابِ الجُمَّل. وكان قومٌ من اليهود على عهد رسول الله ﷺ طَمِعوا أن يدركوا من قِبَلها معرفة مدّة الإسلام وأهله، ويعلموا نهايةَ أُكْلِ محمد وأمته، فأكْذَبَ الله أُحْدُوثَتَهم بذلك، وأعلمهم أنَّ ما ابتغوا علمه من ذلك من قِبَل هذه الحروفِ المتشابهة لايدركونه ولا من قبل غيرها، وأن ذلك لا يعلمه إلا الله.

وهذا القول الذي ذكرناه (أخيراً) أشبه بتأويل الآية؛ وذلك أن جميع ما أنزل الله عز وجل من آي القرآن على رسوله ﷺ، فإنما أنزله عليه بياناً له ولأمته وهدى للعالمين. وغيرُ جائز أنْ يكونَ فيه ما لا حاجة بهم إليه، ولا أن يكون فيه مابهم إليه الحاجةُ، ثم لا يكون لهم إلى عِلْمِ تأويلهِ سبيلٌ. فإذْ كان ذلك كذلك، فكل مافيه بخلقه إليه الحاجة، وإن كان في بعضه مابهم عن بعض معانيه الغنى، [وإن اضطرته الحاجة إليه في معان كثيرة]، وذلكَ كقول الله عز وجل: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ

أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، فأعلم النبيُّ ﷺ أمته أنَّ تلك الآية التي أخبر الله جل ثناؤه عبادَه أنها إذا جاءت لم ينفع نفساً إيمانُها لم تكن آمنتْ من قبل ذلك، هي طُلوع الشمس من مغربها. فالذي كانت بالعباد إليه الحاجةُ من علم ذلك، هو العلمُ منهم بوقت نَفع التوبةِ بصفته، بغير تحديده بعدد السنين والشهور والأيام. فقد بَيَّنَ اللهُ ذلك لهم بدلالة الكتاب، وأوضحه لهم على لسانِ رسوله ﷺ مفسَّراً. والذي لا حاجة بهم إلى علمه منه، هو العلمُ بمقدارِ المدةِ التي بين وقتِ نزولِ هذه الآيةِ ووقتِ حدوث تلك الآية، فإنَّ ذلك مما لا حاجةَ بهم إلى عِلْمِهِ في دين ولا دنيا. وذلك هو العِلْمُ الذي استأثر اللهُ جل ثناؤه به دون خَلْقِهِ، فحجبه عنهم. وذلك وما أشبهه، هو المعنى الذي طلبت اليهودُ معرفته في مدّة محمد ﷺ وأمته من قبل قوله: «ألم» و«ألمص» و«ألر» و«ألمر» ونحو ذلك من الحروف المقطّعة المتشابهات، التي أخبر الله جل ثناؤه أنهم لا يدركون تأويلَ ذلك من قبله، وأنه لا يعلم تأويله إلا الله.

فإذْ كان المتشابه هو ماوصفنا، فَكُلُّ ماعَدَاهُ فَمُحْكَمٌ. لأنه لن يخلو من أن يكون محكماً بأنه بمعنى واحد لا تأويلَ له غير تأويلٍ واحد، وقد استغنى بسماعه عن بيانٍ يُبينه، أو يكون محكماً، وإن كان ذا وُجوه وتأويلات وتصرف في معانٍ كثيرة. فالدلالة على المعنى المراد منه، إما من بيان الله تعالى ذكره عنه، أو بيان رسوله ﷺ لأمته. ولن يذهبَ علم ذلك عن علماء الأمة لما قد بيَّنَّا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: فأما الذين في قلوبهم ميل عن الحق وانحرافٌ عنه.

آل عمران: ٧

يقال منه: «زاغَ فلانٌ عن الحَقِّ، فهو يَزيغُ عنه زَيْغاً وزيَغاناً وزيْغوغَة وزُيوغاً»، و«أزاغه الله» ـ إذا أماله ـ «فهو يُزيغه»، ومنه قوله جل ثناؤه: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ لاتُمِلْها عن الحق ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «فيتبعون ما تشابه»، ما تشابهت ألفاظهُ وتصرَّفت معانيه بوجوه التأويلات، ليحققوا ـ بادّعائهم الأباطيلَ من التأويلات في ذلك ـ ماهم عليه من الضلالةِ والزّيغِ عن محجة الحقّ، تلبيساً منهم بذلك على مَنْ ضَعُفَتْ معرفتهُ بوجوه تأويلِ ذلك وتصاريفِ معانيه.

واختلف أهل التأويل فيمن عني بهذه الآية. والذي يدل عليه ظاهر هذه الآية، أنها نزلت في الذين جادَلوا رسولَ الله ﷺ بمتشابه ما أُنْزِلَ إليه من كتابِ الله، إمّا في أمر عيسى، وإما في مدة أُكله وأُكْل أمته[1]. وهو بأن تكون في الذين جادلوا رسول الله ﷺ بمتشابهه في مدّته ومدّةِ أُمته، أشبهُ. لأن قوله: «وما يعلَمُ تأويله إلاّ الله»، دالٌ على أن ذلك إخبارٌ عن المدةِ التي أرادوا عِلْمَها من قِبَل المتشابه الذي لا يعلمه إلاّ الله. فأما أمرُ عيسى وأسبابه، فقد أعْلَمَ اللهُ ذلك نَبِيَّهُ محمداً ﷺ وأمته، وبَيَّنَهُ لهم. فمعلومٌ أنه لم يعن به إلا ما كان عليه خفيًّا من الآجال.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾

(يعني): فأما الذين في قلوبهم مَيْلٌ عن الحق وحَيْفٌ عنه، فيتبعون من

---

(١) الأُكْل: الرزق، يقال للميت: انقطع أُكْلُه: أي: انقضت مدته وفني عمره.

آي الكتابِ ماتَشابهتْ ألفاظُهُ، واحتمل صَرْف صارفه في وجوه التأويلات ـ باحتماله المعاني المختلفة ـ إرادةَ اللبس على نفسه وعلى غيره، احتجاجاً به على باطله الذي مالَ إليه قلبه، دون الحق الذي أبانه الله فأوضحه بالمحكماتِ من آيِ كتابه.

وهذه الآية وإن كانت نزلت فيمن ذكرنا أنها نزلت فيه من أهلِ الشركِ، فإنه معنيّ بها كُلُّ مبتدع في دينِ الله بدعةً فمال قلبُه إليها، تأويلاً منه لبعض مُتشابه آي القرآن، ثم حاجّ به وجادل به أهلَ الحق، وعدل عن الواضحِ من أدلة آيهِ المحكمات، إرادةً منه بذلك اللبسَ على أهل الحق من المؤمنين، وطلباً لعلم تأويل ماتشابه عليه من ذلك، كائناً من كان، وأيّ أصناف المبتدعة كان: من أهل النصرانية كان أو اليهودية أو المجوسية، أو كان سَبئياً[1]، أو حروريًّا[2]، أو قدريًّا[3]، أو جهميًّا[4].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾

(يعني جل ثناؤه بذلك): إنَّ «ابتغاء التأويل» الذي طلبه القوم من المتشابه، هو معرفةُ انقضاء المدةِ ووقتِ قيام الساعة وأنهم طلبوا وأرادوا معرفة وقتٍ هو جَاءٍ قبل مجيئه.

---

(١) نسبة إلى عبدالله بن سبأ ـ رأس البلاء في تاريخ الإسلام ـ وهم غُلاةُ الشيعة.

(٢) الحرورية: فرقة من الخوارج.

(٣) هم نُفاةُ القدر والصفات، ومنهم المعتزلة.

(٤) نسبةً إلى جهم بن صفوان، والمعتزلة هم مخانيث الجهمية كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية يرحمه الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ﴾

يعني جل ثناؤه بذلك: وما يعلم وقت قيام الساعة، وانقضاء مدة أُكُلِ محمد وأمته، وما هو كائنٌ، إلا الله، دون مَنْ سواه من البشر الذين أمَّلوا إدراك علم ذلك من قبل الحساب والتنجيم والكهانة. وأما الراسخون في العلم فيقولون: «آمنا به، كُلٌّ من عندِ ربنا» ـ لا يعلمون ذلك، ولكن فَضْلَ عِلمهم في ذلك على غيرهم، العلمُ بأن الله هو العالم بذلك دون مَنْ سواه من خلقه.

واختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، وهل «الراسخون» معطوفٌ على اسم «الله»، بمعنى إيجابِ العلمِ لهم بتأويلِ المتشابهِ، أمْ هم مستأنَفٌ ذكرهم، بمعنى الخبر عنهم أنهم يقولون: آمنا بالمتشابه وصَدَّقْنا أنَّ عِلْمَ ذلك لا يعلمهُ إلا الله؟

فقال بعضهم: معنى ذلك: وما يعلمُ تأويلَ ذلك إلا الله وحده منفرداً بعلمه. وأما الراسخون في العلم، فإنهم ابتُدِئَ الخبرُ عنهم بأنهم يقولون: آمنا بالمتشابه والمحكم، وأنَّ جميع ذلك من عند الله.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وما يعلمُ تأويلَهُ إلا الله والراسخون في العلم، وهم مع عِلْمِهم بذلك ورسوخِهم في العلم يقولون: «آمنا به كلّ من عند ربنا».

فمن قال القول الأول في ذلك، وقال: إن الراسخين لا يعلمون تأويلَ ذلك، وإنما أخبر الله عنهم بإيمانهم وتصديقهم بأنه من عند الله، فإنه يرفع «الراسخين في العلم» بالابتداء في قول البصريين، ويجعل خبره: «يقولون آمنا به». وأما في قول بعض الكوفيين، فبالعائد من ذكرهم في «يقولون». وفي قول

بعضهم: بجملة الخبر عنهم، وهي: «يقولون».

ومن قال القول الثاني، وزعم أنّ الراسخين يعلمون تأويله، عطف بـ «الراسخين» على اسم «الله»، فرفعهم بالعطف عليه.

والصواب عندنا في ذلك أنهم مرفوعون بجملة خبرهم بعدهم وهو: «يقولون»، لما قد بينا قَبْلُ من أنهم لا يعلمون تأويل المتشابه الذي ذكره الله عز وجل في هذه الآية. وهو فيما بلغني مع ذلك في قراءة أبيّ: ﴿وَيَقُولُ ٱلرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾، وعن ابن عباس أنه كان يقرأه، وفي قراءة عبدالله: ﴿إِنْ تَأْوِيلُهُ إِلَّا عِنْدَ ٱللهِ وَٱلرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ﴾.

وأما معنى «التأويل» في كلام العرب، فإنه التفسيرُ والمرجعُ والمصيرُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ

يعني بـ «الراسخين في العلم»، العلماء الذين قد أتقنوا علمهم ووَعَوْه فحفظوه حفظاً، لا يدخلهم في معرفتهم وعلمهم بما علموه شَكٌّ ولا لبس.

وأما تأويل قوله: «يقولون آمنا به»، فإنه يعني أنّ الراسخين في العلم يقولون: صَدَّقْنَا بما تشابه من آيِ الكتاب، وأنه حقٌّ وإن لم نَعلمْ تأويله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا

يعني بقوله جل ثناؤه: «كُلٌّ من عند ربنا»، كلُّ المُحْكَمِ من الكتابِ والمتشابه منه «من عندِ ربنا»، وهو تنزيلهُ ووحيهُ إلى نَبيِّهِ محمدٍ ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: وما يتذكر ويتَّعِظُ وينزجر عن أن يقول في متشابه آيِ كتاب الله مالا عِلْمَ له به، إلّا أولو العقول والنهى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: أنَّ الراسخين في العلم يقولون: آمنا بما تشابه من آيِ كتابِ الله، وأنه والمحكم من آيِهِ من تنزيلِ رَبِّنا ووحيِهِ. ويقولون أيضاً: «ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذْ هديتنا»، يعني أنهم يقولون رغبةً منهم إلى ربهم في أن يصرفَ عنهم ما ابتلى به الذين زاغتْ قلوبُهم من اتِّباعِ متشابه آي القرآن، ابتغاءَ الفتنةِ وابتغاءَ تأويله الذي لا يعلمه غيرُ الله: ياربنا، لاَ تجعلنا مثلَ هؤلاء الذين زاغتْ قلوبهم عن الحق فصدوا عن سبيلك «لا تزغ قلوبنا»، لا تُمِلْهَا فتصرفها عن هُدَاكَ بعد إذْ هديتنا له، فَوَفِّقْنَا للإيمانِ بِمُحْكَمِ كتابكَ ومتشابهِهِ، «وهَبْ لنا» ياربنا «مِنْ لَدُنْكَ رحمةً»، يعني: مِنْ عِنْدِكَ رحمة، يعني بذلك: هب لنا من عندك توفيقاً وثباتاً للذي نحنُ عليه من الإقرار بمحكم كتابك ومتشابهه «إنك أنتَ الوهاب»، يعني: إنك أنت المعطي عبادَكَ التوفيقَ والسدادَ للثباتِ على دينك، وتصديق كتابك ورسلك.

وفي مدح الله جل ثناؤه هؤلاء القوم بما مدحهم به من رغبتهم إليه في أنْ لا يزيغَ قلوبَهم، وأن يعطيهم رحمةً منه معونةً لهم للثبات على ماهُم عليه من حُسْنِ البصيرةِ بالحق الذي هم عليه مقيمون، ما أبانَ عن خطأ قولِ الجهَلةِ من القَدَرية:ـ أنَّ إزاغةَ الله قلبَ مَنْ أزاغ قلبَهُ من عباده عن طاعته وإمالته له

عنها، جَوْرٌ. لأنَّ ذلك لو كان كما قالوا، لكان الذين قالوا: «ربنا لا تزغ قلوبنا بعدَ إذْ هدَيتنا»، بالذمِّ أولى منهم بالمدح. لأن القولَ لو كان كما قالوا، لكان القومُ إنما سألوا ربَّهم ـ بمسألتهم إياهُ أنْ لا يزيغَ قلوبَهم ـ أنْ لا يظلمهم ولا يجورَ عليهم. وذلك من السائل جهلٌ، لأن الله جل ثناؤه لا يظلم عبادَه ولا يجورُ عليهم. وقد أعلم عبادَه ذلك ونَفاه عن نفسهِ بقولِه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]. ولا وجهَ لمسألتهِ أن يكونَ بالصفةِ التي قد أخبرهم أنَّهُ بها. وفي فسادِ ما قالوا من ذلك، الدليلُ الواضح على أن عدلاً من الله عز وجل: إزاغةُ من أزاغَ قلبه من عباده عن طاعته، فلذلك استحقّ المدحَ مَنْ رغب إليه في أنْ لا يُزيغه، لتوجيههِ الرغبةَ إلى أهلها، ووضعهِ مسألتَهُ مَوْضِعَها، مع تظاهرِ الأخبارِ عن رسولِ الله ﷺ برغبتهِ إلى ربه في ذلك، مع محله منه وكرامته عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝٩﴾

يعني بذلك جل ثناؤه أنهم يقولون أيضاً مع قولهم: آمنا بما تشابه من آيِ كتابِ ربِّنا، كلّ المحكم والمتشابه الذي فيه من عند ربنا: ياربنا، «إنك جامعُ الناسِ ليومٍ لا ريبَ فيه إنَّ الله لا يُخْلِفُ الميعاد».

وهذا من الكلام الذي استُغني بذكر ماذكر منه عما ترك ذكره. وذلك أن معنى الكلام: ربنا إنك جامعُ الناسِ ليوم القيامة، فاغفر لنا يومئذٍ واعْفُ عنا، فإنك لا تُخْلِفُ وعَدْكَ: أنّ مَنْ آمن بك، واتَّبع رَسُولَكَ، وعمل بالذي أمرتَه به في كتابك، أنك غافِرُهُ يومئذٍ.

وإنما هذا من القوم مسألة ربِّهم أنْ يُثَبِّتَهُمْ على ماهم عليه من حُسْنِ

بَصيرتهم، بالإيمان بالله ورسوله، وما جاءهم به من تنزيله، حتى يقبضَهُمْ على أحسنِ أعمالهم وإيمانهم، فإنه إذا فعل ذلك بهم، وجبتْ لهمُ الجنةُ، لأنه قد وعد مَنْ فعل ذلك به من عباده أنه يُدخله الجنة.

فالآية، وإنْ كانت قد خرجت مخرج الخبر، فإن تأويلها من القوم: مسألةٌ ودعاءٌ ورغبة إلى ربهم.

وأما معنى قوله: «ليوم لا ريب فيه»، فإنه: لا شك فيه.

ومعنى قوله: «ليوم»، في يوم. وذلك يومٌ يجمع الله فيه خَلْقَهُ لفصلِ القضاءِ بينهم في موقف العَرْض والحساب.

«والميعاد» «المفعال»، من «الوعد».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: «إنّ الذين كفروا»، إن الذين جحدوا الحقَّ الذي قد عرفوه من نبوَّةِ محمد ﷺ من يهود بني إسرائيل ومنافقيهم ومنافقي العرب وكفارهم، الذين في قلوبهم زَيغٌ فهم يتَّبعون من كتابِ الله المتشابهَ ابتغاءَ الفتنةِ وابتغاءَ تأويلهِ «لنْ تُغنيَ عنهم أموالُهم ولا أولادُهم من الله شيئاً»، يعني بذلك أنَّ أموالَهم وأولادَهم لن تُنجيهم من عقوبةِ الله إنْ أحَلَّها بهم ـ عاجلاً في الدنيا على تكذيبهم بالحق بعد تَبيُّنِهم، واتباعهم المتشابهَ طَلَبَ اللبس ـ فتدفعها عنهم، ولا يغني ذلك عنهم منها شيئاً، وهم في الآخرةِ «وَقُودُ النار»، يعني بذلك: حَطبُها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً عند حلولِ عقوبتنا بهم، كسُنَّةِ آلِ فرعون وعادتهم[١] «والذين من قبلهم» من الأمم الذين كَذَّبُوا بآياتنا، فأخذناهم بذنوبهم، فأهلكناهم حين كَذَّبُوا بآياتنا، فلم تُغْنِ عنهم أموالُهم ولا أولادهم من الله شيئاً حين جاءهم بأسنا، كالذين عُوجِلُوا بالعقوبة على تكذيبهم ربَّهم من قبل آل فرعون: من قوم نوح وقوم هود وقوم لوط وأمثالهم.

وأما قوله: «واللهُ شديدُ العقاب»، فإنه يعني به: والله شديدُ عقابهُ لمن كفر به وكذّب رُسُلَهُ بعد قيامِ الحجة عليه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝١٢﴾

(يعني بذلك جل ثناؤه): قل يامحمد للذين كفروا من يهود بني إسرائيل الذين يتبعون ماتشابه من آي الكتاب الذي أنزلته إليك ابتغاءَ الفتنة وابتغاءَ تأويله «سَتُغْلَبُونَ وتُحشرون إلى جهنمَ وبِئْسَ المِهاد».

ومعنى قوله: «وتحشرون»، وتُجْمَعُونَ، فَتُجْلَبُونَ إلى جهنم.

وأما قوله: «وبئس المهاد»، وبئس الفراش جهنم التي تحشرون إليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾

---

(١) انظر مجاز القرآن لأبي عبيد: ١/٨٧.

يعني بذلك جل ثناؤه: قُلْ، يامحمد، للذين كفروا من اليهود الذين بين ظهرانَيْ بلدك: «قد كان لكم آية»، يعني: علامةٌ ودلالةٌ على صدق ما أقولُ: إنكم سَتُغْلَبُونَ، وعبرةٌ «في فئتين»، يعني: في فرقتين وحزبين، و«الفئة»: الجماعة من الناس. «الْتَقَتَا» للحرب، وإحدى الفئتين رسولُ الله ﷺ ومَنْ كان معه ممن شَهِدَ وقعةَ بدر، والأخرى مشركو قريش. «فئة تُقاتل في سبيل الله»، جماعةٌ تقاتل في طاعة الله وعلى دينه، وهم رسولُ الله ﷺ وأصحابه، «وأخرى كافرة»، وهم مشركو قريش.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾

(يعني جل ثناؤه): قد كان لكم، يامعشر اليهود، آيةٌ في فئتين التقتا: إحداهما مسلمةٌ والأخرى كافرةٌ، كثيرٌ عددُ الكافرةِ، قليلٌ عددُ المسلمة، ترى الفئة القليلُ عددُها الكثيرَ عددُها أمثالاً، أنها إنما تكثر من العدد بمثل واحد، فهم يرونهم مِثْلَيْهِم. فيكون أحدُ المثلين عند ذلك، العدد الذي هو مثل عدد الفئة التي رأتهم، والمثل الآخر الضعف الزائد على عددهم. فهذا أحد معنيي التقليل الذي أخبر الله عز وجل المؤمنين أنه قلَّلهم في أعينهم.

والمعنى الآخر منه: التقليل الثاني، على ماقاله ابن مسعود: وهو أنْ أراهم عددَ المشركين مثل عددهم، لا يزيدون عليهم. فذلك التقليل الثاني الذي قال الله جل ثناؤه: ﴿وإذْ يُريكُمُوهُمْ إذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً﴾.

وأما قوله: «رأيَ العين»، فمعنى ذلك: يرونهم ـ حيث تلحقهم أبصارُهم وتراهم عيونُهم ـ مِثْلَيْهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ١٣﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «والله يؤيد»، يقوِّي «بنصره من يشاء».

وتأويلُ الكلام: قد كان لكم ـ يامعشرَ اليهود، في فئتين التقتا، إحداهما تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة، يراهم المسلمون مِثْلَيْهم رأيَ أعينهم، فأيدنا المسلمةَ وهم قليلُ عَدَدُهم، على الكافرةِ وهم كثيرٌ عدَدُهم حتى ظفروا بهم - مُعْتَبَرٌ ومُتَفَكَّرٌ، والله يُقَوِّي بنصره مَنْ يشاء[1].

وقال جل ثناؤه «إنَّ في ذلك»، يعني: إنَّ فيما فعلنا بهؤلاء الذين وصفنا أمرهم: من تأييدِنَا الفئةَ المسلمة مع قِلَّةِ عَدَدِهَا، على الفئةِ الكافرةِ مع كثرةِ عددها «لعبرة»، يعني: لَمُتَفَكَّراً ومُتَّعظاً لمن عَقَلَ وادَّكَرَ فأبصرَ الحق.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ: زُيِّن للناس محبةُ مايشتهون من النساء والبنين وسائر ماعدَّ. وإنما أراد بذلك توبيخَ اليهودِ الذين آثَرُوا الدنيا وحبَّ الرياسة فيها، على اتِّباعِ محمدٍ ﷺ بعد عِلْمِهم بصِدْقِهِ.

وأما «القناطير» فإنها جمع «قنطار».

واختلف أهل التأويل في مبلغ القنطار.

والصواب في ذلك أن يقال: هو المال الكثير، ولا يُحَدُّ قَدْرُ وزنه بحدٍّ على تعسُّف.

وأما «المقنطرة»، فهي المضعَّفة، وكأن «القناطير» ثلاثة، و«المقنطرة»

(١) أعاد المؤلف هنا شيئاً مما سبق لضرورته في ربط الكلام.

تسعة[1]. وهو: المال الكثيرُ بعضه على بعض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾

اختلف أهل التأويل في معنى «المسوَّمة».

وأولى الأقوالِ بالصواب في تأويل قوله: «والخيل المسوَّمة»، المعلمَةُ بالشِّياتِ، الحِسَانُ، الرائعةُ حُسْناً مَنْ رآها. لأن «التسويم» في كلام العرب: هو الإعلامُ. فالخيلُ الحِسَان مُعلمَةٌ بإعلامِ الله إياها بالحُسْنِ من ألوانها وشياتها وهيئاتها، وهي «المُطَهَّمةُ»، أيضاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلْأَنْعَامِ وَٱلْحَرْثِ﴾

«الأنعام»: جمع «نَعَم»، وهي الأزواجُ الثمانية التي ذكرها في كتابه[2]: من الضّأن والمعزِ والبقر والإبل.

وأما «الحرث»، فهو: الزّرع.

وتأويل الكلام: زُيِّن للناس حُبُّ الشهواتِ من النساء، ومن البنين، ومِن كذا، ومن كذا، ومن الأنعام والحَرْث.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ۝١٤﴾

---

(١) انظر معاني القران للفرّاء: ١/١٩٥.

(٢) في سورة الأنعام: ١٤٢ ـ ١٤٤.

يعني بقوله جَل ثناؤه: «ذلك»، جميعَ ماذُكر في هذه الآية من النساء والبنين والقناطير المقنطرةِ من الذهب والفضّة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث. فكنى بقوله: «ذلك» عن جميعِهن. وهذا يدل على أن «ذلك» يشتملُ على الأشياء الكثيرةِ المختلفةِ المعاني، ويكنى به عن جميع ذلك.

وأما قوله: «متاع الحياة الدنيا»، فإنه خبرٌ من الله عن أنَّ ذلك كله مما يَستمتع به في الدنيا أهلها أحياءً، فيتبلَّغون به فيها، ويجعلونه وصلْةً في معايشهم، وسبباً لقضاء شهواتهم التي زُيِّن لهم حُبُّها في عاجل دنياهم، دون أن تكون عدّة لمعادهم، وقُرْبةً لهم إلى ربهم، إلاّ ماأُسلِكَ في سبيله، وأُنْفِقَ منه فيما أمرَ به.

وأما قوله: «والله عنده حسن المآب»، فإنه يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: وعند الله حُسْنُ المآب ـ يعني: حُسْن المرجْعِ.

فإن قال قائل: وكيف قيل: «والله عنده حسن المآب»، وقد علمتَ ماعنده يومئذٍ من أليمِ العذابِ وشديدِ العقاب؟

قيل: إن ذلك معنيٌّ به خاصٌّ من الناس، ومعنى ذلك: والله عنده حسن المآب للذين اتقوا رَبَّهُم. وقد أنبأنا عن ذلك في هذه الآية التي تليها.

فإن قال: وما «حُسْنُ المآبِ»؟ قيل: هو ماوصفه به جَلَّ ثناؤه، وهو المرجعُ إلى جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ مُخلَّداً فيها، وإلى أزواجٍ مُطَهَّرة ورضوان من الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾

يعني جل ثناؤه: قل، يامحمد، للناس الذين زُيِّنَ لهم حُبُّ الشهواتِ من النساء والبنين، وسائر ماذكر ربنا جَلَّ ثناؤه: «أَؤُنَبئكم»، أأُخبركم وأعلمكم «بخيرٍ من ذلكم»، يعني: بخير وأفضل لكم «من ذلكم»، يعني: مما زُيِّنَ لكم في الدنيا حبُّ شهوتِهِ من النساءِ والبنين والقناطير المقنطرةِ من الذهب والفضة، وأنواعِ الأموال التي هي متاعُ الدنيا.

ثم اختلف أهل العربية في الموضع الذي تناهى إليه الاستفهام من هذا الكلام.

وأولى الأقوال عندي بالصواب، قول من جعل الاستفهام متناهياً عند قوله: «بخيرٍ من ذلكم»، والخبر بعده مبتدأ عَمَّنْ له الجنات بقوله: «للذين اتقوا عند ربهم جناتٌ»، فيكون مخرج ذلك مخرج الخبر، وهو إبانة عن معنى «الخير» الذي قال: أؤنبئكم[1] به؟ فلا يكون بالكلام حينئذ حاجة إلى ضمير.

وأما قوله: «خالدين فيها»، فمنصوب على القطع[2].

ومعنى قوله: «للذين اتقوا»: للذين خافوا الله فأطاعوه بأداءِ فرائضهِ واجتنابِ معاصيه، «عند ربهم»، يعني بذلك: لهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهار عند ربهم.

«والجنات»: البساتين، وأنَّ قوله: «تجري من تحتها الأنهار»، يعني به: من تحتِ الأشجار، وأنَّ «الخلودَ» فيها دوامُ البقاء فيها، وأنَّ «الأزواج المطهرة»، هُنَّ نساء الجنة اللواتي طُهِّرْنَ من كُلِّ أذى يكون بنساء أهلِ الدنيا، من الحيضِ والمنيِّ والبوْلِ والنفاسِ وما أشبه ذَلك من الأذى.

---

(١) انظر معاني القرآن للفراء: ١/١٩٥ ـ ١٩٨ ففيه تفصيل.

(٢) القطع: يعني الحال.

وقوله: «ورِضْوَانٌ من الله»، يعني: ورضى الله، وهو مصدر من قول القائل: «رَضي اللهُ عن فلان فهو يَرْضى عنه رضِىً» منقوص «ورِضْواناً ورُضْواناً ومَرْضاةً». فأما «الرُّضوان» بضم الراء، فهو لغةُ قَيْسٍ، وبه كان عاصم يقرأ.

وإنما ذكر الله جل ثناؤه فيما ذكر للذين اتقوا عنده من الخير رضْوانَه، لأنَّ رضوانَهُ أعلى منازلِ كرامةِ أهل الجنة.

وقوله: «والله بصير بالعباد»، يعني بذلك: واللهُ ذو بصر بالذي يتقيه من عباده فيخافه، ـ فيطيعه، ويُؤْثِر ماعنده مما ذكر أنه أعدَّهُ للذين اتقوه على حُبِّ مازُيِّنَ له في عاجل الدنيا من شهواتِ النساء والبنين وسائر ماعدّد منها تعالى ذِكْرُه ـ وبالذي لايتقيه فيخافه، ولكنه يعصيه ويطيعُ الشيطانَ ويؤثر مازُيِّنَ له في الدنيا من حُبِّ شهوةِ النساء والبنين والأموال، على ماعنده من النعيمِ المقيمِ ـ عالمٌ تعالى ذِكْرُه بكلِّ فريقٍ منهم، حتى يجازي كلَّهم عند معادِهم إليه جزاءَهم، المحسَنَ بإحسانهِ، والمسيءَ بإساءته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾﴾

ومعنى ذلك: قل هَلْ أُنَبِّئُكُم بخيرٍ من ذلكم للذين اتقوا، (الذين) يقولون: «ربنا إننا آمنا فاغفرْ لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار».

ومعنى قوله: «الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا»: الذين يقولون: إننا صَدَّقْنَا بكَ وبنبيك وما جاء به من عندك «فاغفر لنا ذنوبنا»، يقول: فاسترْ علينا ذُنوبَنا، بعفوكَ عنها، وتَرْكِكَ عقوبَتَنا عليها، «وقِنَا عذابَ النار». ادفع عنا عذابكَ إيَّاها بالنارِ أنْ تعذبنا بها. وإنما معنى ذلك: لاتعذبنا ياربنا بالنار.

وإنما خصّوا المسألةَ بأنْ يقيهم عذاب النار، لأن مَنْ زُحْزِحَ يومئذٍ عن النار فقد فاز بالنجاةِ من عذابِ الله وحسن مآبه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ**

يعني بقوله «الصابرين»: الذين صبروا في البأساء والضراء وحين البأس.

ويعني بـ «الصادقين»: الذين صدقوا الله في قولهم بتحقيقهم الإقرارَ به وبرسوله وما جاء به من عنده، بالعملِ بما أَمَرَهُ به والانتهاءِ عما نهاهُ عنه.

ويعني بـ «القانتين»: المطيعين له.

وأما «المنفقون»، فهم: المُؤْتونَ زكواتِ أموالهم، وواضعوها على ما أمرهم الله بإتيانها، والمنفقون أموالهم في الوجوه التي أَذِنَ اللهُ لهم جل ثناؤه بإنفاقها فيها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾**

اختلف أهلُ التأويل في القومِ الذين هذه الصفةُ صِفَتُهم.

وأظهرُ معاني ذلك أنْ تكونَ مسألتهم إياهُ بالدعاء. وقد يحتمل أن يكون معناه: تعرّضهم لمغفرتهِ بالعملِ والصلاةِ، غيرَ أنَّ أظهرَ معانيهِ ماذكرنا من الدُّعاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾**

يعني بذلك جل ثناؤه: شَهِدَ اللهُ أنه لا إله إلا هو، وشهدت الملائكةُ وأولُو العلم.

وأما قوله: «قائماً بالقسط»، فإنه بمعنى: أنه الذي يلي العدلَ بين خَلْقِه.

«والقسط»، هو العدل من قولهم: «هو مقسط» و«قد أقسط»، إذا عَدَل.

وأما تأويل قوله: «لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم»، فإنه نفى أن يكون شيء يستحقُّ العُبودَة غير الواحد الذي لا شريكَ له في مُلْكِه.

ويعني بـ «العزيز»، الذي لايمتنعُ عليه شيءٌ أراده، ولا ينتصر منه أحد عاقبه أو انتقم منه، «الحكيم» في تدبيره، فلا يدخله خَلل.

وإنما عنى جل ثناؤه بهذه الآية نَفْيَ ما أضافت النصارَى الذين حاجُّوا رسولَ الله ﷺ في عيسى من البنوّة، وما نَسَبَ إليه سائرُ أهلِ الشرك من أنَّ له شريكاً، واتخاذهم دونه أرباباً. فأخبرهم الله عن نفسه أنه الخالقُ كلّ ماسواه، وأنه ربُّ كلِّ ما اتخذه كُلُّ كافرٍ وكل مشرك ربًّا دونه، وأنّ ذلك مما يشهد به هو وملائكته وأهلُ العلم به من خلقه. فبدأ جل ثناؤه بنفسه، تعظيماً لنفسه وتنزيهاً لها عما نَسَبَ الذين ذكرنا أمرهم من أهلِ الشرك به ـ مانسبوا إليها، كما سَنَّ لعباده أنْ يبدأوا في أمورهم بذكره قبل ذكر غيره، مؤدِّباً خلقه بذلك.

والمرادُ من الكلام، الخبرُ عن شهادةِ مَن ارتضاهم من خلقه فقدَّسُوه: من ملائكتهِ وعلماء عبادهِ. فأعْلَمهم أنَّ ملائكَتَهُ ـ التي يعظِّمها العابدون غيره من أهل الشرك ويعبدُها الكثير منهم ـ وأهْلَ العلمِ منهم، مُنْكِرون ماهم عليه مقيمون من كفرهم وقولهم في عيسى، وقولَ مَن اتخذ ربًّا غيره من سائر الخلق، فقال: شهدتِ الملائكةُ وأولُو العلم أنه لا إله إلا هو، وأن كل من اتخذ ربًّا دون الله فهو كاذبٌ احتجاجاً منه لنبيه عليه السلام على الذين حاجُّوه من

وفد نجران في عيسى.

واعترض بذكر الله وصفته، على مابيَّنتُ، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَه﴾ [الأنفال: ٤١]، افتتاحاً باسمه الكلام، فكذلك افتتح باسمه والثناء على نفسهِ الشهادةَ بما وصفناه: من نَفْيِ الألوهة عن غيره، وتكذيبِ أهلِ الشرك به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾

ومعنى «الدين»، في هذا الموضع: الطاعةُ والذِّلَّةُ.

وكذلك «الإسلام»، وهو الانقيادُ بالتذلل والخشوع، والفعلُ منه: «أسلم» بمعنى: دخل في السلم، كما يقال: «أقحط القومُ»، إذا دخلوا في القحط، «وأَرْبَعُوا»، إذا دخلوا في الربيع، فكذلك «أسلموا»، إذا دخلوا في السلم، وهو الانقيادُ بالخضوعِ وترك الممانعة.

فإذْ كان ذلك كذلك، فتأويل قوله: «إنَّ الدِّينَ عند الله الإسلام»: إنَّ الطاعةَ التي هي عنده، الطاعةُ له، وإقرار الألسن والقلوب له بالعبودية والذِّلة، وانقيادُها له بالطاعة فيما أمرَ ونَهى، وتذلُّلها له بذلك، من غير استكبارٍ عليه، ولا انحرافٍ عنه، دون إشراك غيره من خَلْقِه معه في العبودة والألوهة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: وما اختلف الذين أوتوا الإنجيل ـ وهو «الكتاب» الذي ذكره الله في هذه الآية ـ في أمر عيسى، وافترائهم على الله فيما قالوه

فيه من الأقوالِ التي كثر بها اختلافُهم بينَهُم، وتَشَتَّتْ بها كلمتُهم، وباينَ بها بعضُهم بعضاً حتى استحلَّ بها بعضُهم دماءَ بعضٍ «إلاّ مِنْ بعد ما جَاءهم العلمُ بغياً بينهم»، يعني: إلا من بعد ماعلموا الحقَّ فيما اختلفوا فيه من أمرهِ، وأيقنوا أنهم فيما يقولون فيه من عظيمِ الفِرْية مُبْطِلُونَ، فأخبر الله عباده أنهم أتوا ما أَتَوْا من الباطلِ، وقالوا من القولِ الذي هو كفرٌ بالله، على علمٍ منهم بخطأ ماقالوه، وأنهم لم يقولوا ذلك جهلاً منهم بخطئه، ولكنهم قالوه واختلفوا فيه الاختلافَ الذي هُمْ عليه، تعدِّياً من بعضِهم على بعض، وطلبَ الرياساتِ والملك والسلطان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ١٩﴾

يعني بذلك: ومَنْ يجحد حججَ الله وأعلامه التي نصَبها ذكرَى لمن عقل، وأدلةً لمن اعتبر وتذكَّرَ، فإنَّ الله مُحْصٍ عليه أعمالَهُ التي كان يعملها في الدنيا، فمجازيهِ بها في الآخرة، فإنه جَلَّ ثناؤه «سريعُ الحساب»، يعني: سريع الإحصاء. وإنما معنى ذلك أنه حافظٌ على كل عاملٍ عملَهُ، لا حاجة به إلى عقد كما يعقده خَلْقُه بأكُفِّهم، أو يَعُونَهُ بقلوبهم، ولكنه يحفظ ذلك عليهم، بغير كلفةٍ ولا مؤونة، ولا معاناةٍ لما يعانيه غيرُه من الحساب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: فإنْ حاجَّك: يامحمد، النفرُ من نصارى أهلِ نجران في أمر عيسى صلواتُ الله عليه، فخاصموك فيه بالباطل، فقل: انقدتُ

لله وحده بلساني وقلبي وجميع جوارحي. وإنما خَصّ جَلَّ ذِكْرُه بأمره بأنْ يقول: «أسلمتُ وجهي لله»، لأن الـوجـه أكـرمُ جوارحِ ابن آدم عليه، وفيه بهـاؤه وتعظيمه، فإذا خضع وجههُ لشيءٍ، فقد خضع له الذي هو دونه في الكرامة عليه من جوارح بدنه.

وأما قوله: «ومن اتبعني»، فإنه يعني: وأسلم مَنِ اتَّبعني أيضاً وجهَهُ لله معي. و«من» معطوف بها على «التاء» في «أسلمت».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: «وقل»، يامحمد، للذين أُوتُوا الكتابَ من اليهود والنصارى «والأميين» الذين لا كتابَ لهم من مشركي العربِ «أأسلمتم»، يقول: قُلْ لهم: هل أفردتمُ التوحيدَ وأخلصتم العبادةَ والألوهةَ لربِّ العالمين، دونَ سائرِ الأنـدادِ والأشـراكِ التي تشـركـونهـا معـه في عبـادتكم إياهم وإقراركم بربوبيتهم، وأنتم تعلمون أنه لا ربَّ غيرهُ ولا إله سواهُ «فإنْ أسلموا»، يقول: فإن انقـادُوا لإفرادِ الوحدانية لله وإخلاصِ العبادةِ والألوهةِ له «فقد اهتدوا»، يعني: فقد أصابوا سبيلَ الحق، وسلكوا مَحَجَّةَ الرشد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۝٢٠﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: «وإن تولوا»، وإنْ أدبروا مُعرضين عما تدعوهم إليه من الإسلام وإخلاصِ التوحيدِ لله رب العالمين، فإنما أنت رسولٌ مبلِّغٌ، وليس عليك غير إبلاغ الرسالة إلى من أرسلتك إليه من خلقي، وأداء ما كلَّفتُكَ من

طاعتي. «والله بصيرٌ بالعباد»، يعني بذلك: والله ذو علمٍ بمن يقبلُ من عباده ما أرسلتُكَ به إليه فيطيعك بالإسلام، وبمن يتولّى منهم عنه معرضاً فيردّ عليكَ ما أرسلتك به إليه، فيعصيكَ بإبائه الإسلامَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «إن الذين يكفرون بآيات الله»، أي: يجحدون حججَ الله وأعلامه فيُكَذِّبونَ بها، من أهلِ الكتابين التوراة والإنجيل، من اليهود والنصارى فقال: «إنّ الذين يكفرون بآياتِ الله ويقتلون النبيينَ بغير حقّ» إلى قوله: «قُلِ اللهم مالكَ الملك تُؤْتي المُلْكَ مَنْ تشاء».

وأمـا قوله: «ويقتلون النبيين بغير حقٍّ»، فإنه يعني بذلك ـ أنهم كانوا يقتلون رُسَل الله الذين كانوا يُرسَلون إليهم بالنهي عما يأتون من معاصي الله، وركوب ما كانوا يركبونه من الأمورِ التي قد تقدم الله إليهم في كتبهم بالزجر عنها، نحو زكريا وابنه يحيى، وما أشبههما من أنبياء الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾

(يعني تعالى ذكرُه): إنّ الذين يكفرون بآياتِ الله ويقتلون النبيين بغير حق، ويقتلون آمريهم بالعدلِ في أمر الله ونهيه، الذين يَنهونهم عن قتل أنبياء الله وركوب معاصيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «فبشِّرهم بعذابٍ أليم»، فأخبرهم يامحمدُ وأعْلِمهم: أنَّ لهم عند الله عذاباً مؤلماً لهم، وهو الموجع.

وأما قوله: «أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة»، فإنه يعني: بقوله: «أولئك»، الذين يكفرون بآياتِ الله. ومعنى ذلك: أنّ الذين ذكرناهم، هم «الذين حبطت أعمالهم»، يعني: بطلت أعمالُهم. «في الدنيا والآخرة». فأما في الدنيا، فلم ينالوا بها مَحْمدةً ولا ثناءً من الناس، لأنهم كانوا على ضلالٍ وباطل، ولم يرفع الله لهم بها ذِكْراً، بل لعنهم وهتكَ أستارَهم، وأبدى ما كانوا يُخْفُونَ من قبائحِ أعمالهم على ألسنِ أنبيائهِ ورسله في كتبه التي أنزلها عليهم، فأبقى لهم ما بقيتِ الدنيا مذمَّةً، فذلك حبوطها في الدنيا. وأما في الآخرة، فإنه أعَدَّ لهم فيها من العقابِ ماوصَفَ في كتابه، وأعلم عباده أنَّ أعمالهم تصير بُوراً لا ثوابَ لها، لأنها كانت كفراً بالله، فجزاءُ أهلها الخلودُ في الجحيم.

وأما قوله: «وما لهم من ناصرين»، فإنه يعني: وما لهؤلاء القوم من ناصرٍ ينصرُهم من الله، إذا هو انتقم منهم بما سَلَفَ من إجرامهم واجترائهم عليه، فيستنقذُهم منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ٢٣﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: «ألم تر»، يامحمد «إلى الذين أُوتُوا نصيباً من الكتاب»، يقول: الذين أُعْطُوا حظًّا من الكتاب «يُدْعون إلى كتابِ الله».

واختلف أهل التأويل في «الكتاب» الذي عنى الله بقولِهِ: «يُدْعَوْنَ إلى كتابِ الله».

فقال بعضهم: هو التوراة، دعاهم إلى الرضى بما فيها، إذ كانت الفِرَق المنتحِلةُ الكتبَ تُقِرُّ بها وبما فيها: أنها كانت أحكامَ الله قبل أن ينسخ منها مانُسخ.

وقال بعضهم: بل ذلك كتابُ الله الذي أنزله على محمد، وإنما دُعِيت طائفةٌ منهم إلى رسول الله ﷺ ليحكم بينهم بالحقّ، فأبتْ.

وأولى الأقوال في تأويل ذلك عندي بالصواب أن يقال: إن الله جل ثناؤه أخبر عن طائفةٍ من اليهود الذين كانوا بين ظَهراني مُهاجَرِ رسولِ الله ﷺ في عهده، ممن قد أُوتيَ عِلْماً بالتوراة أنهم دُعوا إلى كتابِ الله الذي كانوا يقرّون أنه من عند الله ـ وهو التوراة ـ في بعض ماتنازعوا فيه هم ورسولُ اللهِ ﷺ.

ومعنى قوله: «ثم يتولى فريقٌ منهم وهم مُعْرِضون»، ثم يستدبرُ عن كتابِ الله الذي دعا إلى حكمه، معرضاً عنه منصرفاً، وهو بحقيقته وحجته عالم.

وإنما قلنا إن ذلك «الكتاب» هو التوراة، لأنهم كانوا بالقرآن مكذبين، وبالتوراة بزعمهم مصدّقين، فكانت الحجةُ عليهم بتكذِيبهم بما هم به في زعمهم مُقِرّونَ، أبلغَ، وللعذرِ أقطعَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: «بأنهم قالوا»، بأنّ هؤلاء الذين دُعُوا إلى كتابِ الله ليحكُمَ بينهم بِالحقِّ فيما نازعوا رسول الله ﷺ، إنما أبوا الإجابةَ إلى حكمِ

التوراةِ وما فيها من الحق: من أجل قولهم: «لَنْ تَمسَّنا النارُ إلّا أياماً معدودات» وهي أربعون يوماً، وهُنَّ الأيام التي عبدوا فيها العِجْلَ، ثم يخرجنا منها رَبُّنَا، اغتراراً منهم «بما كانوا يفترون»، يعني: بما كانوا يختلقون من الأكاذيب والأباطيل، في ادعائهم أنهم أبناء الله وأحِبّاؤه، وأن الله قد وعد أباهم يعقوبَ أنْ لا يُدْخلَ أحَداً من ولدِهِ النارَ إلّا تَحِلَّةَ القسم. فأكْذَبهمُ الله على ذلك كله من أقوالهم، وأخبر نبيه محمداً ﷺ أنهم هم أهل النار هم فيها خالدون، دونَ المؤمنين بالله ورُسله وما جاؤوا به من عنده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٢٥﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «فكيف إذا جمعناهم»، فأيُّ حال يكون حالُ هؤلاء القوم الذين قالوا هذا القولَ، وفعلوا مافعلوا من إعراضِهم عن كتابِ الله، واغترارِهم بربهم، وافترائهم الكذب؟ وذلك من الله عز وجل وعيدٌ لهم شديد، وتهديدٌ غليظٌ.

وإنما يعني بقوله: «فكيف إذا جمعناهم» الآية: فما أعظمَ ما يَلْقَوْنَ من عقوبةِ الله وتنكيله بهم، إذا جمعهم ليومٍ يُوفَّى كلُّ عاملٍ جزاءَ عمله على قدر استحقاقه، غير مظلوم فيه، لأنه لا يُعاقَبُ فيه إلاّ على ما اجترمَ، ولا يؤاخذُ إلا بما عملَ، يُجزَى المحسنُ بإحسانهِ، والمسيءبإساءتهِ، لا يخافُ أحدٌ من خَلْقِهِ منه يومئذٍ ظُلماً ولا هَضْماً.

وأما تأويل قوله: «لا ريبَ فيه»، فإنه: لا شَكَّ في مجيئه.

وعنى بقوله: «ووُفِّيتْ»، ووَفَّى الله «كلَّ نفس ماكسبت»، يعني:

ماعملت من خيرٍ وشر، «وهم لا يظلمون»، يعني أنه لا يبخسُ المحسنَ جزاءَ إحسانه، ولا يعاقب مسيئاً بغير جرمه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ﴾

أما تأويل: «قل اللهم»، فإنه: قل يامحمد: ياالله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾

يعني بذلك: يامالكَ المُلْكِ، يامَنْ له مُلكُ الدنيا والآخرة خالصاً دون غيره.

وأما قوله: «تؤتي الملك مَنْ تشاء»، فإنه يعني: تُعطي الملك مَنْ تَشاء، فتملكه وتسلِّطه على مَنْ تشاء.

وقوله: «وتنزع الملك ممن تشاء»، يعني: وتنزعُ الملك ممن تشاء أنْ تَنْزَعَهُ منه، فترك ذكر «أن تنزعه منه»، اكتفاءً بدلالة قوله: «وتنزعُ الملك ممن تشاء»، عليه، كما يقال: «خُذْ ماشئتَ وكنْ فيما شئت»، يُرادُ: خُذْ ماشئت أنْ تأخذه، وكن فيما شئتَ أن تكونَ فيه؛ وكما قال جل ثناؤه: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨]، يعني: في أيِّ صورةٍ شاءَ أنْ يُركِّبَكَ فيها رَكَّبكَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٢٦﴾

يعني جل ثناؤه: «وتُعِزُّ مَنْ تشاءُ»، بإعطائِه المُلْكَ والسلطان، وبَسْطَ القدرةِ له. «وتذلُّ من تشاء» بسلبك مُلْكَهُ، وتسليط عدوِّه عليه. «بيدك الخيرُ»، أي: كُلُّ ذلك بيدكَ وإليكَ، لا يقدرُ على ذلك أحدٌ، لأنك على كل شيءٍ قديرٌ دون سائرِ خلقك، ودونَ مَنِ اتَّخذَهُ المشركون من أهلِ الكتاب والأميِّين من العربِ إلهاً وربًّا يعبدونه من دونك، كالمسيحِ والأندادِ التي اتخذها الأميونَ ربًّا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ﴾

ويعني بقوله: «تولج الليل في النهار» تُدْخِلُ مانقصتَ من ساعاتِ الليل في ساعات النهار، فتزيدُ من نقصانِ هذا في زيادةِ هذا. «وتولج النهارَ في الليل»، وتدخلُ مانقصتَ من ساعاتِ النهار في ساعات الليل، فتزيد في ساعات الليل مانقصت من ساعات النهار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ﴾

وأولى التأويلات التي ذكرناها في هذه الآية بالصواب، تأويل مَنْ قال: يُخْرِجُ الإنسانَ الحيَّ والأنعامَ والبهائم الأحياءَ من النُّطفِ الميتةِ وذلك إخراجُ الحيِّ من الميت، ويخرجُ النطفةَ الميتةَ من الإنسانِ الحيِّ والأنعام والبهائم الأحياء، وذلك إخراج الميت من الحيِّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ٢٧﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: أنه يُعطي مَنْ يشاء من خلقه فيجود عليه، بغير محاسبةٍ منه لمن أعطاهُ، لأنه لا يخاف دخولَ انتقاصٍ في خزائنهِ، ولا الفناءَ على مابيده.

فتـأويل الآية إذاً: اللهمَّ يامالكَ الملك تُؤتي الملكَ مَنْ تَشاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعزّ من تشاء، وتذل من تشاء، بيدكَ الخيرُ إنك على كل شيء قدير، دون مَنِ ادَّعى الملحـدون أنـه لهم إلهٌ وربٌّ وعَبَدُوه دونكَ، أو اتَّخَذُوه شريكاً معكَ، أو أنه لكَ ولدٌ، وبيدكَ القدرةُ التي تفعلُ هذه الأشياء وتقدر بها على كل شيء، تُولج الليلَ في النهار وتُولج النهارَ في الليل، فَتنْقصُ من هذا وتزيد في هذا، وتنقص من هذا وتزيد في هذا، وتُخْرِجُ من ميِّتٍ حيًّا ومن حيٍّ ميِّتاً وترزقُ مَنْ تشاء بغير حسابٍ من خلقك، لا يقدر على ذلك أحدٌ سواك، ولا يستطيعه غيرك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾

وهـذا نهيٌ من الله عز وجل المؤمنين أن يتخذوا الكفارَ أعواناً وأنصاراً وظهوراً، ولذلك كَسَرَ «يتخذِ»، لأنه في موضع جزم بالنهي، ولكنه كسر «الذال» منه، للساكنِ الذي لقيه وهي ساكنة.

ومعنى ذلـك: لاتتخذوا، أيها المؤمنون، الكفارَ ظهراً وأنصاراً تُوالُونهم على دينهم، وتُـظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين، وتدلُّونهم على عوراتِهم، فإنه مَنْ يفعل ذلك، «فليس من الله في شيء»، يعني بذلك: فقد بَرِئَ من الله وبَرِئَ اللهُ منه، بارتدادهِ عن دينه ودخولهِ في الكفر. «إلا أن تتقوا

منهم تُقَاةً»، إلاّ أن تكونوا في سلطانهم فَتخافُوهم على أنفسِكم، فَتُظْهِرُوا لهم الولايةَ بألسنتكم، وتُضْمِرُوا لهم العداوةَ، ولا تُشَايعوهم على ماهُمْ عليهِ من الكفرِ، ولا تُعِينُوهم على مُسلمٍ بفعل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك، ويُخَوِّفُكم اللهُ من نفسه أن تَرْكبوا معاصيه، أو تُوالُوا أعداءَهُ، فإنَّ لله مرجعكم ومَصيركم بعد مماتِكم، ويوم حشركم لموقف الحساب. يعني بذلك: متى صرتم إليه وقد خالفتم ما أمَرَكُم به، وأتيتم مانهاكم عنهُ من اتخاذِ الكافرينَ أولياءَ مِنْ دون المؤمنين، نالكم من عقابِ ربِّكم ما لا قِبَلَ لكم به. يقول: فاتقوه واحذرُوه أنْ ينالكم ذلك منه، فإنه شديدُ العقاب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: «قل» يامحمد، للذين أمَرْتهم أنْ لايتخذوا الكافرينَ أولياءَ من دون المؤمنين. «إن تُخْفُوا ما في صدوركم» من موالاةِ الكفار فتُسِرُّوه، أو تُبْدُوا ذلكم من نفوسكم بألسنتكم وأفعالكم فتظهروه. «يعلمه الله»، فلا يَخفى عليه. يقول: فلا تُضمروا لهم مودّةً ولا تُظْهِرُوا لهم مُوالاةً، فينالكم من عقوبةِ ربِّكم ما لا طاقةَ لكم به، لأنه يعلم سِرّكُم وعلانِيَتكُم، فلا يخفى عليه شيءٌ منه، وهو مُحْصِيه عليكم حتى يجازيَكم عليه بالإحسانِ إحساناً، وبالسيئةِ مِثْلَها.

وأما قوله: «ويعلمُ ما في السموات وما في الأرض»، فإنه يعني أنه إذْ كان لا يخفى عليه شيءٌ هو في سماءٍ أو أرضٍ أو حيثُ كان، فكيف يَخْفَى عليه ـ أيهـا القـومُ الذين يَتَّخذونَ الكافرينَ أولياء من دون المؤمنين ـ ما في صدورِكم من الميْلِ إليهم بالمودةِ وَالمحبةِ، أو ما تُبدونه لهم بالمعونةِ فِعلاً وقولاً؟

وأمـا قولـه: «والله على كل شيء قدير»، فإنـه يعني: والله قديرٌ على مُعَاجلتكُم بالعقوبةِ على مُوالاتِكم إيَّاهم ومُظَاهرتكُموهم على المؤمنينَ، وعلى ما يشاء من الأمور كلها، لا يتعذَّر عليه شيءٌ أراده، ولا يمتنعُ عليه شيءٌ طَلَبَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾

يعني بذلـك جل ثناؤه: ويُحَذِّرُكم الله نفسَهُ في يومٍ تجدُ كُلُّ نفسٍ ماعملتْ من خيرٍ مُحْضَراً موفَّراً، «وما عملت من سوءٍ تَوَدُّ لو أنَّ بينها وبينه أمداً بعيداً» يعني غايةً بعيدة، فإنَّ مصيركم أيهـا القومُ يومئذٍ إليه، فاحذروه على أنفسكم من ذنوبكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝٣٠﴾

يقول جل ثناؤه: ويحذركم الله نفسَهُ: أن تُسْخِطُوها عليكم بركوبكم ما يسخـطه عليكم، فتوافونه يومَ تَجدُ كلُّ نفسٍ ما عملت من خيرٍ مُحْضَراً وما عملتْ من سوءٍ تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً، وهو عليكم ساخطٌ، فينالكم من أليم عقابه ما لاقِبَلَ لكم به.

ثم أخبر عز وجل أنه رؤوف بعباده رحيمٌ بهم، وأنَّ من رأفته بهم، تحذيرهُ إياهم نفسه، وتخويفهم عقوبته، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معاصيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾

(يعني بذلك جَلَّ ثناؤه): قل يامحمد، للوفدِ من نصارى نجران: إنْ كنتم كما تزعمون أنكم تحبون الله، وأنكم تُعَظِّمون المسيحَ وتقولون فيه ما تقولون، حُبًّا منكم ربَّكم فَحَقِّقُوا قولَكُم الذي تقولونه، إنْ كنتم صادقين، باتِّباعكم إيَّايَ، فإنكم تعلمون أنِّي لله رسولٌ إليكم، كما كان عيسى رسولاً إلى مَنْ أُرسل إليه، فإنه إن اتَّبَعْتُموني وصدّقتموني على ما أتيتكم به من عند الله. يغفرُ لكم ذنوبكم، فيصفح لكم عن العقوبة عليها، ويعفو لكم عما مضى منها، فإنه غفورٌ لذنوبِ عباده المؤمنين، رحيمٌ بهم وبغيرهم من خَلْقِهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: قل، يامحمد، لهؤلاء الوفد من نصارى نجران: أطيعوا الله والرسول محمداً، فإنكم قد علمتم يقيناً أنه رسولي إلى خلقي، ابتعثتُه بالحق، تجدونه مكتوباً عندكم في الإنجيل؛ فإنْ تَوَلَّوْا فاستدبروا عما دعوتهم إليه من ذلك، وأعْرضُوا عنه، فأعلمهم أنَّ الله لا يحبُّ مَنْ كفرَ فَجَحَدَ ما عرفَ من الحق، وأنكرِه بعد علمه، وأنهم منهم، بجحودهم نُبوَّتَكَ، وإنكارِهم الحقَّ الذي أنتَ عليه، بعد عِلْمِهم بصحةِ أمرِكَ، وحقيقةِ نبوتك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: إنَّ الله اجتبى آدمَ ونوحاً واختارهما لدينهما وآلَ إبراهيمَ وآلَ عمران لدينهم الذي كانوا عليه، لأنهم كانوا أهل الإسلام. فأخبرَ الله عز وجل أنه اختار دين مَنْ ذَكَرْنَا على سائرِ الأديان التي خالفته. وإنما عنى بـ «آل إبراهيم وآل عمران»، المؤمنين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

يعني بذلك: إن الله اصطفى آلَ إبراهيم وآل عمران «ذريةً بعضها من بعض».

وإنما جعل «بعضهم من بعض» في الموالاة في الدين، والمؤازرة على الإسلام والحق، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، وقال في موضع آخر: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٦٧]، يعني: أنّ دينهم واحدٌ وطريقتهم واحدة، فكذلك قوله: «ذرية بعضها من بعض»، إنما معناه: ذرية دِينُ بعضِها دينُ بعضٍ، وكلمتهم واحدةٌ، وملتهم واحدة في توحيد الله وطاعته.

وقوله: «والله سميعٌ عليمٌ»، يعني بذلك: والله ذُو سَمْعٍ لقولِ امرأة عمران، وذو علمٍ بما تُضْمِرُه في نفسها، إذ نذَرتْ له ما في بطنها مُحرَّراً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «إذ قالت امرأةُ عمران ربِّ إني نذرتُ لك ما في بطني محرّراً فتقبلْ مني»، فـ «إذْ» من صلة «سميع».

وأمّـا «امـرأة عمـران»، فهي أمُّ مريمَ ابنةِ عمران، أم عيسى بن مريم صلوات الله عليه.

وأما قوله: «رَبِّ إني نذرتُ لك مافي بطني محرّراً»، فإنَّ معناه: إني جعلت لك يارب نَذْراً أنَّ لك الذي في بطني محرّراً لعبادتك. يعني بذلك: حبستُه على خدمتكَ وخدمةِ قُدْسك في الكنيسة، عتيقةً من خدمة كلِّ شيء سواك، مفرّغة لك خاصة.

«فتقبـل مني»، أي: فَتَقَبَّلْ مني مانذرتُ لك ياربّ «إنكَ أنتَ السميع العليم»، يعني: إنك أنتَ يارب «السميع» لما أقولُ وأدعو «العليمُ» لما أنوي في نفسي وأريدُ، لا يخفى عليك سرُّ أمرِي وعلانيته.

القـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤهُ: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾

ومعنى قوله: «وضعتها»، ولَدْتُها. يقال منه: «وضعت المرأةُ تَضَعُ وَضْعاً».

«قالت ربِّ إني وضعتها أنثى»، أي: ولدت النذيرة أنثى. «والله أعلمُ بما وضعت».

فتأويل الكلام إذاً: والله أعلمُ من كل خَلْقِه بما وضعت، ثم رجع جَلَّ ذِكْرُه إلى الخبر عن قولها، وأنها قالت ـ اعتذاراً إلى رَبِّها مما كانت نذرتْ في حملها فَحَرَّرَتْهُ لخدمةِ ربها ـ: «وليس الذكرُ كالأنثى»، لأن الذَّكَرَ أقوى على الخـدمـةِ وأقوم بها، وأنَّ الأنثى لاتصلحُ في بعض الأحوال لدخول القدْس

والقيامِ بخدمة الكنيسةِ، لما يعتريها من الحيضِ والنفاسِ. «وإني سميتها مريم».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦﴾

تعني بقولها: «وإني أُعِيذُهَا بكَ وذُريتها»، وإني أجعلُ مَعاذَها ومَعاذَ ذُرِّيتها من الشيطانِ الرجيم، بكَ.

وأصل «المعاذ»، المَوْئِلُ والملجأ والمعقلُ.

فاستجابَ الله لها، فأعاذها اللهُ وذرِّيَتَها من الشيطانِ الرجيم، فلم يجعلْ له عليها سبيلاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾

يعني بذلك: أنّ الله جل ثناؤه تقبّل مريمَ من أمها حَنَّة، وتحريرَها إياها للكنيسةِ وخِدْمَتَها وخدمةَ ربِّها، «بقبولٍ حَسن».

وأما قوله: «وأنبتها نباتاً حسناً»، فإنَّ معناه: وأنبتها رَبُّها في غذائهِ ورزْقهِ نباتاً حسناً، حتى تَمَّتْ فكملتْ امرأةً بالغةً تامة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾

اختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: «وكَفَّلها».

فقرأته عامةُ قَرَأَةِ أَهْلِ الحجاز والمدينة والبصرة: ﴿وَكَفَلَهَا﴾ مُخَفَّفَة

«الفاء». بمعنى: ضمها زكريا إليه، اعتباراً بقول الله عز وجل: ﴿يُلْقُون أقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

وقرأ ذلك عامة قَرَأَةِ الكوفيين. ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيًّا﴾، بمعنى: وكفَّلها الله زكريا.

قال أبو جعفر: وأولى القراءتين بالصواب في ذلك عندي، قراءةُ من قرأ: ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ مشددة «الفاء»، بمعنى: وكفَّلها الله زكريا، بمعنى: وضَمَّها الله إليه. لأنَّ زكريا أيضاً ضمها إليه بإيجابِ الله له ضَمَّها إليه بالقُرْعة التي أخرجها الله له، والآية التي أظهرَها لخصومهِ فيها، فجعله بها أولى منهم، إذْ قَرَعَ فيها من شاحَّه فيها[1].

وذلك أنه بلغنا أنَّ زكريا وخصومَه في مريمَ إذْ تنازعوا فيها أيّهم تكونُ عنده، تَسَاهموا بقِدَاحهم، فرموا بها في نهر الأردنّ. فقال بعضُ أهل العلم: ارتزّ قدح زكريا، فقام ولم يَجْرِ به الماءُ، وجرى بِقِدَاحِ الآخرينَ الماءُ. فجعل الله ذلك لزكريا عَلَماً أنه أحق المتنازعين فيها بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: أن زكريا كان كلما دخل عليها المحرابَ، بعد إدخالِهِ إياها المحرابَ، وَجَدَ عندها رِزْقاً من الله لغذائها.

---

(١) قال العلامة محمود شاكر: قرع (بفتح القاف والراء): أصابته القرعة دونهم. يقال: قارعني فلان فقرعته: خرجت لي القرعة دونه. وشاحه في الأمر وعليه، وتشاحَّا عليه وفيه (بتشديد الحاء): إذا تنازعاه، لا يريد كل واحدٍ منهما أن يفوته، كأن بعضهم يشح على بعض فيه.

وأما «المحراب»، فهو مُقدَّمُ كُلِّ مجلسٍ ومصلًّى، وهو سيدُ المجالس وأشرفُها وأكرمُها، وكذلك هو من المساجد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: «قال» زكريا: «يامريم أنَّى لك هذا»؟ من أيِّ وجهٍ لك هذا الذي أرَى عندك من الرزق؟ قالت مريمُ مجيبةً له: «هو من عندِ الله»، تعني: أن الله هو الذي رَزَقَها ذلك فساقه إليها وأعطاها.

وأما قوله: «إنَّ الله يَرْزُقُ مَن يشاء بغير حساب»، فخبرٌ من الله أنه يسوقُ إلى مَنْ يشاء من خَلْقِه رزقَه، بغيرِ إحصاءٍ ولا عدد يحاسب عليه عبدَه. لأنه جَلَّ ثناؤه لا ينقصُ سَوْقُه ذلك إليه كذلك خَزَائِنَهُ، ولا يزيدُ إعطاؤه إياه ومحاسَبته عليه في مُلْكِه وفيما لديه شيئاً، ولا يَعْزُبُ[1] عنه علمُ مايرزقه؛ وإنما يُحاسب مَنْ يعطي مَا يعطيه، مَنْ يخشى النقصانَ من مُلكِه، ودخولَ النفاد عليه بخروج ما خرجَ من عندهِ بغيرِ حسابٍ معروف، ومَنْ كان جاهلاً بما يعطي على غيرِ حساب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾

وأما قوله: «هنالك دعا زكريا ربه»، فمعناها: عند ذلك، أي: عند رؤية زكريا مارأى عند مريمَ من رزقِ الله الذي رَزَقها، وفضله الذي آتاها من غير تسبُّبِ أحدٍ من الآدميين في ذلك لها، ومعاينته عندَها الثمرةَ الرّطبةَ التي لا

(١) العزوب: الغيبة، يَعْزُبُ ويَعزِبُ، والذهاب.

تكون في حين رؤيته إياها عندها في الأرض، طمع بالولدِ، مع كِبَرِ سِنِّه، من المرأة العاقر. فرجا أنْ يرزقه اللهُ منها الولدَ، مع الحالِ التي هما بها، كما رزقَ مريمَ على تَخَلِّيها من الناسِ مارَزَقها من ثمرةِ الصيفِ في الشتاء وثمرةِ الشتاء في الصيف، وإنْ لم يكن مثله مما جَرَتْ بوجودِه في مثل ذلك الحين العاداتُ في الأرض، بل المعروفُ في الناسِ غيرُ ذلك، كما أنَّ ولادةَ العاقرِ غيرُ الأمر الجارية به العاداتُ في الناس. فرغب إلى الله جل ثناؤه في الولد، وسأله ذرّيةً طيبة.

وأما قوله: «ربِّ هَبْ لي من لَدُنْكَ ذريةً طيبة»، فإنه يعني بـ«الذرية» النسل، وبـ«الطيبة» المباركة.

وأما قوله: «من لدنك»، فإنه يعني: من عندكَ.

وأما «الذرية»، فإنها جمع، وقد تكون في معنى الواحد، وهي في هذا الموضع واحد. وذلك أنّ الله عز وجل قال في موضع آخر، مُخْبِراً عن دعاء زكريا: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٥]، ولم يَقُلْ: أولياءَ ـ فدلَّ على أنه سأل واحداً. وإنما أَنَّثَ «طيبة»، لتأنيثِ الذرّية.

وأما قوله: «إنك سميع الدعاء»، فإنَّ معناه: إنكَ سامعُ الدعاءِ، غير أنّ «سميع»، أمدَحُ، وهو بمعنى: ذُو سمعٍ له.

فتأويل الآية: فعند ذلك دعا زكريا رَبَّهُ فقال: رَبِّ هَبْ لي من عندك ولداً مباركاً، إنك ذو سَمعٍ دُعاءَ مَنْ دعَاكَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ

(يعني): إن الله جل ثناؤه أخبر أنّ الملائكةَ نادته. والظاهرُ من ذلك، أنها جماعةٌ من الملائكة دون الواحد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ

وتأويل قوله: «وهو قائم» فنادته الملائكة في حالِ قيامهِ مصلِّياً. فقوله: «وهو قائم»، خَبَرٌ عن وقتِ نداءِ الملائكةِ زكريا.

وقوله: «يُصَلي» في موضع نصب على الحال من «القيام»، وهو رفع بالياء.

وأما «المحراب»، فقد بَيَّنا معناه، وأنه مُقَدَّمُ المسجدِ.

وأما قوله: «بيحيى»، فإنه اسم، أصله يفعل، من قول القائل: حيي فلانٌ فهو يحيا، وذلك إذا عاش. «فيحيى» «يفعل» من قولهم «حيي».

وقيل: إن الله جَلَّ ثناؤه سَمَّاهُ بذلك، لأنه يتأوّل اسمه: أحياه بالإيمان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ

يعني بذلك جل ثناؤه: أنَّ الله يبشرك يازكريا بيحيى ابناً لك، «مصدّقاً بكلمةٍ من الله»، يعني: بعيسى بن مريم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَسَيِّدًا

يعني بقوله جل ثناؤه: «وسَيِّداً»، وشريفاً في العِلْمِ والعبادة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾

حصوراً: يعني بذلك: مُمْتَنِعاً من جماعِ النساء، من قول القائل: «حَصِرْتُ من كذا أَحْصَر»، إذا امتنع منه.

وأمّا قوله: «ونبيًّا من الصالحين» فإنه يعني: رسولاً لربه إلى قومه، ينبئهم عنه بأمرِهِ ونهيِهِ، وحلالِهِ وحرامِهِ، ويبلِّغهم عنه ما أرسله به إليهم.

ويعني بقوله: «من الصَّالحين»، من أنبيائه الصالحين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾

يعني أنَّ زكـريا قال إذْ نادتهُ الملائكةُ: «أنَّ الله يُبشِّرُك بيحيى مصدِّقاً بكلمةٍ من الله وسيداً وحصوراً ونبيًّا من الصالحين» «أنَّى يكونُ لي غلامٌ وقد بلغني الكبر»؟ يعني: مَنْ بلغ من السن ما بلغتُ لم يولد لهُ «وامرأتي عاقر».

«والعاقر» من النساء التي لا تَلِدُ. يقال منه: «امرأة عاقر، ورجلٌ عاقرٌ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۝٤٠﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: «كذلك الله»، أي هو ما وصفَ به نَفْسَهُ أنه هَيِّنٌ عليه أنْ يخلقَ ولداً من الكبيرِ الذي قد يَئِسَ من الولدِ، ومن العاقرِ التي لا يُرْجى من مِثْلِهَا الولادةُ، كما خلقك يازكريا من قبل خَلْقِ الولدِ منك ولم تَكُ شيئاً، لأنه الله الذي لا يتعذر عليه خَلْقُ شيءٍ أرادَهُ، ولا يمتنعُ عليه فِعْلُ شيءٍ شاءَه، لأنَّ قدرتَه القدرةُ التي لا تُشبهها قُدْرةٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾

يعني بذلك جل ثناؤه، خبراً عن زكريا، قال زكريا: ربِّ إنْ كان هذا النداءُ الذي نُودِيتُهُ، والصوتُ الذي سمعتُهُ، صوتَ ملائكتك وبشارةً منك لي،

فاجعلْ لي آيةً يقول: علامةً أنَّ ذلكَ كذلك، ليزول عنِّي ما قد وسوس إليَّ الشيطانُ فألقاه في قلبي، من أنَّ ذلك صوتُ غير الملائكة، وبشارةٌ من عند غيرك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾

فعاقبه الله بمسألته الآيةَ، بعد مشافهةِ الملائكةِ إياهُ بالبشارةِ، فجعل آيتَهُ ـ على تحقيق ماسمع من البشارة من الملائكة بيحيى أنه مِنْ عندِ الله ـ آيةً من نفسـه، جمعَ تعالى ذِكْرُه بها العلامةَ التي سألها ربَّه على ما يبيِّنُ له حقيقةَ البشارةِ أنها من عند الله، وتمحيصاً له من هفوته وخطأ قِيْلِهِ ومسألتهِ.

وأما «الرّمز»، فإنَّ الأغلب من معانيه عند العرب: الإيماءُ بالشفتين، وقد يُستعملُ في الإيماءِ بالحاجبين والعينين أحياناً، وذلك غير كثير فيهم. وقد يقال للخَفِيِّ من الكلام الذي هو مثلُ الهمس بخفض الصّوت: «الرمز».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾

يعني بذلك: قال الله جل ثناؤه لزكريا: يازكريا، «آيتكَ أنْ لاتكلمَ الناسَ ثلاثةَ أيام إلاّ رمزاً»، بغير خرسٍ ولا عاهةٍ ولا مرض، «واذكر ربك كثيراً»، فإنك لا تُمْنَعُ ذِكْرَهُ، ولا يُحالُ بينك وبين تسبيحه وغير ذلك من ذِكْره.

وأمـا قوله: «وسَبِّح بالعشي»، فإنه يعني: عَظِّمْ ربَّكَ بعبادتهِ بالعشي. والعشي: من حينِ نزولِ الشمس إلى أنْ تغيبَ.

وأما «الإبكار» فإنه مصدرٌ من قولِ القائل: «أبكر فلان في حاجةٍ فهو يُبْكِر إبكاراً»، وذلك إذا خرجَ فيها مِن بينِ مطلعِ الفجرِ إلى وقتِ الضُّحى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: «والله سميعٌ عليم* إذ قالت امرأةُ عمران ربِّ إنِّي نذرتُ لك ما في بطني محرَّراً»، «وإذ قالت الملائكة يامريمُ إن الله اصطفاكِ».

ومعنى قوله: «اصطفاكِ»، اختاركِ واجتباكِ لطاعتهِ وما خَصَّك به من كرامته.

وقوله: «وطهَّرك»، يعني: طهَّر دِينكِ من الرِّيبِ والأدناسِ التي في أديانِ نساء بني آدم.

«واصطفاكِ على نساء العالمين»، يعني: اختاركِ على نساءِ العالمين في زمانك، بطاعتكِ إياهُ، ففضَّلكِ عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

(يعني): يامريم أخلصي عبادَة ربك لوجهه خالصاً، واخشعي لطاعته وعبادته مع مَنْ خشع له من خلقه، شكراً له على ما أكرمكِ به من الاصطفاء والتَّطهيرِ من الأدناسِ، والتفضيل على نساء عالم دهَرك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾

يعني جل ثناؤه بقوله ذلك: الأخبارَ التي أخبرَ بها عبادَه عن امرأة عمران وابنتها مريم، وزكريا وابنه يحيى، وسائر ماقصَّ في الآيات من قوله: «إنَّ الله اصطفى آدمَ ونوحاً»، ثم جمعَ جميعَ ذلك تعالى ذِكْرُه بقوله: «ذلك»، فقال: هذه الأنباء من «أنباء الغيب»، أي: من أخبار الغيب.

ويعني بـ«الغيب»، أنهـا من خفيِّ أخبـارِ القـوم التي لم تطَّلع أنتَ، يامحمدُ، عليها ولا قومك، ولم يعلمها إلا قليلٌ من أحبارِ أهلِ الكتابين ورهبانهم.

ثم أخبر تعالى ذكره نبيه محمداً ﷺ أنه أوحى ذلك إليه، حجةً على نبـوتـهِ، وتحقيقـاً لِصِـدْقهِ، وقطعاً منه به عُذْرَ منكري رسالتهِ من كفارِ أهلِ الكتابين، الذين يعلمون أنّ محمداً لم يصل إلى عِلْمِ هذه الأنباء مع خفائها، ولم يدرك معرفتها مع خُمولها عند أهلها، إلا بإعلامِ الله ذلك إياه. إذ كان معلوماً عندهم أنَّ محمداً ﷺ أميٌّ لا يكتبُ فيقرأ الكتبَ، فيصل إلى علم ذلك من قِبَلِ الكتب، ولا صاحبَ أهل الكتُبِ فيأخذ عِلْمَهُ من قِبَلِهم.

وأما قوله: «نُوحيه إليك»، فإن تأويله: نُنْزله إليكَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ

يعني جل ثناؤه بقوله: «وما كنتَ لديهم»، وما كنتَ، يامحمدُ، عندهم فتعلم ما نعلِّمكهُ من أخبارِهم التي لم تَشْهدها، ولكنك إنما تعلمُ ذلك فتدركُ معرفته، بتعريفناكهُ.

ومعنى قوله: «لديهم»، عندهم.

ومعنى قوله: «إذْ يُلْقُون»، حينَ يُلْقُون أقلامَهم.

وأما «أقلامهم»، فَسِهامُهم التي استهم بها المُسْتَهِمُونَ من بني إسرائيلَ على كفالةِ مريمَ، على ماقد بَيَّنا قَبْلُ في قوله: «وكفَّلها زكريا».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: وما كنتَ، يامحمدُ، عند قومِ مريم، إذْ يختصمون فيها أَيُّهم أحقُّ بها وأولى.

وذلك من الله عز وجل، وإنْ كان خطاباً لنبيه ﷺ، فتوبيخٌ منه عز وجل للمكذبين به من أهلِ الكتابين. يقول: كيف يشكُّ أهلُ الكفر بكَ منهم وأنتَ تُنَبِّئُهم هذه الأنباءَ ولم تَشْهَدْهَا، ولم تَكُنْ معهم يوم فعلوا هذه الأمورَ، ولستَ ممن قرأ الكتبَ فعَلِمَ نبأهم، ولا جالَسَ أهلَها فسمع خبَرَهم؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾

(يعني): وما كنتَ، يامحمدُ، عند القومِ إذ قالتِ الملائكةُ لمريمَ: يامريمُ إنَّ الله يبشرك ببُشرى من عندهِ، هي ولدٌ لكِ اسمهُ المسيحُ عيسى بن مريم.

فسماه الله عز وجل «كلمته»، لأنه كان عن كلمتهِ، كما يقال لما قدّر الله من شيء: «هذا قدَرُ الله وقضاؤه»، يعني به: هذا عَنْ قَدَرِ الله وقضائهِ حَدَثَ، وكما قال جل ثناؤه: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: ٤٧/ والأحزاب: ٣٧]، يعني به: ما أمر الله به، وهو المأمور به الذي كان عن أمر الله عز وجل.

وأما قوله: «اسمهُ المسيح عيسى بن مريم»، فإنه جَلَّ ثناؤه أنبأ عباده عن نسبة عيسى، وأنه ابنُ أمِّهِ مريم، ونَفَى بذلك عنه ما أضافَ إليه الملحدون في الله جل ثناؤه من النصارى، من إضافَتِهم بُنُوَّتَهُ إلى الله عز وجل، وما قَرَفَتْ أُمَّهُ به المفتريةُ عليها من اليهود[1]

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ٤٥﴾

يعني بقوله: «وجيهاً»، ذا وَجْهٍ ومنزلةٍ عاليةٍ عند الله، وشرفٍ وكرامة.

وأما قوله: «ومنَ المُقَرَّبين»، فإنه يعني أنه ممن يُقَرِّبُهُ الله يوم القيامة، فيسكنه في جوارِهِ ويُدْنِيه منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٤٦﴾

وإنما عنى جل ثناؤه بقوله: «ويُكَلِّمُ الناسَ في المهد وكهلاً»، ويكلم الناس طفلاً في المهد ـ دلالةً على براءَةِ أمهِ مما قَرَفها به المفترون عليها، و حجةً له على نبوّته ـ وبالغاً[2] كبيراً بعد احتناكهِ، بوحيِ الله الذي يُوحيهِ إليه، وأمرِهِ ونهيه، وما ينزِّل عليه من كتابه.

وإنما أخبر الله عز وجل عبادَه بذلك من أمرِ المسيح، وأنه كذلك كان، وإنْ كان الغالبُ من أمرِ الناس أنهم يتكلمون كهولاً وشيوخاً، احتجاجاً به على القائلين فيه من أهل الكفر بالله من النصارى الباطلَ، وأنه كان ـ منذ أنشأه مولوداً طفلا، ثم كهلاً ـ يتقلبُ في الأحداثِ، ويتغير بمرُور الأزمنةِ عليه

---

(١) قَرَفَ الرجلَ بسوءٍ: رَمَاهُ به واتهمه فهو مقروف. وقوله: «المفتريةُ» مرفوعة فاعل «قرفت أمه به».

(٢) قوله: «وبالغاً» معطوف على قوله آنفاً: طفلاً.

والأيام، من صِغـرٍ إلى كِبَرٍ، ومن حالٍ إلى حال وأنـه لو كان، كمـا قال الملحدون فيه، كان ذلك غيرَ جائزٍ عليه. فكذَّبَ بذلك ما قاله الوفدُ من أهلِ نجران الذين حاجُّوا رسولَ الله ﷺ فيه، واحتج به عليهم لنبيه محمد ﷺ، وأعلمهم أنه كان كسائرِ بني آدم، إلّا ماخصه الله به من الكرامة التي أبانه بها منهم.

وأما قوله: «ومن الصالحين»، فإنه يعني: من عِدَادهم وأوليائهم، لأنَّ أهلَ الصلاحِ بعضُهم من بعضٍ في الدين والفضل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: قالت مريم ـ إذْ قالت لها الملائكةُ إنَّ الله يبشرك بكلمةٍ منه ـ: «ربِّ أنَّى يكونُ لي ولد»، من أيِّ وجهٍ يكونُ لي ولد؟ أمِن قِبَلِ زوجٍ أتزوجهُ وبعلٍ أنكحه، أمْ تبتدىء فيَّ خَلْقَهُ من غير بعلٍ ولا فحلٍ، ومن غير أن يمسَّني بشر؟ فقال الله لها: «كذلك اللهُ يخلقُ مايشاء»، يعني: هكذا يخلقُ الله منك ولداً لكِ من غير أن يمسَّك بشرٌ، فيجعله آيةً للناس وعبرة، فإنه يخلقُ مايشاء ويصنعُ مايريد، فيعطي الولد من يشاء من غير فحلٍ ومن فحلٍ، ويحرمُ ذلك من يشاءُ من النساء وإنْ كانت ذات بعلٍ، لأنه لا يتعذر عليه خلقُ شيءٍ أرادَ خَلْقَهُ، إنما هو أن يأمر إذا أراد شيئاً ماأراد خلقه فيقول له: «كن فيكون» ماشاء، مما يشاء، وكيف شاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾

وهذا ابتداءُ خبرٍ من الله عز وجل لمريم ماهو فاعلٌ بالولد الذي بَشَّرها به من الكرامةِ ورفعةِ المنزلةِ والفضيلةِ، فقال: كذلك الله يخلقُ منكِ ولداً من غير فحلٍ ولا بعلٍ، فيعلمه الكتاب، وهو الخطّ الذي يخطه بيده. والحكمة، وهي السنة التي يُوحيها إليه في غيرِ كتابٍ. والتوراة، وهي التوراة التي أنزلت على موسى، كانت فيهم من عهد موسى. والإنجيل، إنجيل عيسى ولم يكن قبله، ولكن الله أخبر مريمَ قبل خَلْقِ عيسى أنه مُوحِيهِ إليه.

وإنما أخبرها بذلك فسمَّاه لها، لأنها قد كانت علمتْ فيما نزلَ من الكتبِ أنَّ الله باعثٌ نبياً، يُوحِي إليه كتاباً اسمهُ الإنجيل، فأخبرها الله عز وجل أن ذلك النبي ﷺ الذي سَمعتْ بصفتهِ الذي وعد أنبياءه من قبل أنه منزلٌ عليه الكتابَ الذي يُسَمَّى إنجيلاً، هو الولد الذي وهبه لها وبشَّرها به.

القَوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «ورسولاً»، ونجعله رسولاً إلى بني إسرائيل، فترك ذكر «ونجعله» لدلالةِ الكلامِ عليه.

وقوله: «أني قد جئتكم بآيةٍ من ربكم»، يعني: ونجعله رسولاً إلى بني إسرائيل بأنه نبيِّي وبشيري ونذيري وحُجَّتي على صِدْقي في ذلك: «أني قد جئتكم بآيةٍ من ربكم»، يعني: بعلامةٍ من ربكم تحققُ قولي، وتصدقُ خبري أني رسولٌ من ربكم إليكم.

القَوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾

(يعني): ورسولاً إلى بني إسرائيل بأني قد جئتكم بآيةٍ من ربكم، بأنْ أخلق لكم من الطينِ كهيئةِ الطير.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ﴾

يعني بقوله: «وأبرىء»، وأشفي.

والمعروف عند العرب من معنى «الكمه»، العَمى.

وإنما أخبر الله عز وجل عن عيسى صلوات الله عليه أنه يقول ذلك لبني إسرائيل، احتجاجاً منه بهذه العِبر والآيات عليهم في نبوته. وذلك أن: الكَمَه والبرصَ لا علاجَ لهما فيقدرَ على إبرائه ذو طِبٍّ بعلاجٍ. فكان ذلك من أدلته على صِدْقِ قِيْلِه: إنه لله رسولٌ، لأنه من المعجزات، مع سائرِ الآياتِ التي أعطاه الله إياها دلالةً على نبوته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَأُحْيِ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾

وكان إحياءُ عيسى الموتَى بدعاءِ الله، يدعو لهم، فيستجيب له.

وأما قوله: «وأنبئكم بما تأكلون»، فإنه يعني: وأخبرُكم بما تأكلون، مما لم أعاينه وأشاهده معكم في وقتِ أَكْلِكُمُوه «وما تَدَّخِرُون»، يعني بذلك: وما ترفعونه فَتَخْبَأونَهُ ولا تأكلونَهُ.

يعلمهم أنّ من حجته أيضاً على نبوته ـ مع المعجزاتِ التي أعلمهم أنه يأتي بها حجةً على نبوتِهِ وصِدْقِهِ في خبرِهِ أنّ الله أرسله إليهم: من خَلْقِ الطيرِ من الطينِ، وإبراءِ الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذنِ الله، التي لا يُطِيقُها أحدٌ

من البشر، إلاّ مَنْ أعطاهُ الله ذلك عَلَماً له على صدْقهِ، وآيةً له على حقيقة قوله: من أنبيائهِ ورسله ومَنْ أحبَّ من خَلْقِه ـ إنباءَه[1] عن الغيبِ الذي لا سبيلَ لأحدٍ من البشر، الذين سبيلُهم سبيلُه، عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: إنّ في خلقي من الطين الطيرَ بإذن الله، وفي إبرائي الأكمهَ والأبرصَ، وإحيائي الموتى، وإنبائيَ إياكم بما تأكلون وما تَدَّخِرُونَ في بيوتكم، ابتداءً من غير حسابٍ وتنجيم، ولا كهانةٍ وعرافة لعبرةً لكم ومُتَفَكَّراً، تتفكرون في ذلك فتعتبرون به أنِّي محق في قولي لكم: «إني رسولٌ من ربكم إليكم»، وتعلمون به أني فيما أدعوكم إليه من أمر الله ونهيه صادق «إن كنتم مؤمنين»، يعني: إنْ كنتم مصدّقين حججَ الله وآياته، مُقِرِّينَ بتوحيدهِ، وبنبيه موسى والتوراة التي جاءكم بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: وبأني قد جئتكم بآيةٍ من ربكم، وجئتكم مصدقاً لما بين يديّ من التوراة، ولذلك نصب «مصدّقاً» على الحال من «جئتكم».

وإنما قيل: «ومصدّقاً لما بين يديَّ من التوراة»، لأن عيسى صلوات الله عليه، كان مؤمناً بالتوراة مُقِرّاً بها، وأنها من عندِ الله. وكذلك الأنبياء كلهم،

---

(١) قوله: «إنباءه» خبر «أنَّ» في أول الفقرة.

يُصَدِّقُون بكل ما كان قبلهم من كتبِ الله ورسلهِ، وإنْ اختلف بعضُ شرائع أحكامهم، لمخالفةِ الله بينهم في ذلك. مع أنَّ عيسى كان ـ فيما بلغنا ـ عاملاً بالتوراةِ لم يخالفْ شيئاً من أحكامِهَا، إلا ما خَفَّفَ الله عن أهلها في الإنجيل، مما كان مشدداً عليهم فيها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾

يعني بذلك: وجئتكم بحجةٍ وعبرةٍ من ربكم، تعلمون بها حقيقةَ ما أقولُ لكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝٥٠ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٥١﴾

يعني بذلك: وجئتكم بآيةٍ من ربكم تعلمون بها يقيناً صدقي فيما أقولُ. «فاتقوا الله»، يامعشرَ بني إسرائيل، فيما أمرَكُم به ونهاكم عنه في كتابهِ الذي أنزله على موسى، فأوفوا بعهدهِ الذي عاهدتُموه فيه، «وأطيعون»، فيما دعوتكم إليه من تصديقي فيما أرسلني به إليكم ربي وربكم، فاعبدوه، فإنه بذلك أرسلني إليكم، وبإحلالِ بعضِ ما كان مُحَرَّماً عليكم في كتابكم، وذلك هو الطريقُ القويمُ، والهدى المتينُ الذي لا اعوجاجَ فيه.

وهذه الآية وإنْ كان ظاهرُها خبراً، ففيه الحجةُ البالغة من الله لرسوله محمد ﷺ على الوفدِ الذين حاجُّوه من أهلِ نجران، بإخبار الله عزّ وجل عن أن عيسى كان بريئاً مما نَسَبَهُ إليه مَنْ نَسَبَهُ إلى غيرِ الذي وصفَ به نَفْسَهُ، من أنه لله عبدٌ كسائرِ عبيدهِ من أهلِ الأرضِ، إلا ما كان الله جل ثناؤه خَصَّهُ به من النبوةِ والحججِ التي آتاهُ دليلاً على صدقه ـ كما آتى سائرَ المرسلين غيره

من الأعلام والأدلة على صِدْقِهم ـ وحُجةً على نبوته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾

فلما وجَد عيسى ـ من بني إسرائيل الذين أرسله الله إليهم ـ جحوداً لنبوّته، وتكذيباً لقوله، وصدًّا عما دَعَاهم إليه من أمرِ الله، قال: «مَنْ أنصاري إلى الله»؟، يعني بذلك: قال عيسى: مَنْ أعواني على المُكَذِّبين بحجةِ الله، والمولِّين عن دينه، والجاحدين نبوةَ نبيهِ، «إلى الله» عز وجل؟

ويعني بقوله: ﴿إلى الله﴾، مع الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾

وهذا خبرٌ من الله عز وجل عن الحواريين أنهم قالوا: «ربنا آمنا»، أي: صَدَّقْنَا «بما أنزلتَ»، يعني: بما أنزلتَ على نبيك عيسى من كتابك. «واتبعنا الرسول»، يعني بذلك: صرنا أتباعَ عيسى على دينكَ الذي ابْتَعَثْتَهُ به، وأعوانه على الحق الذي أرسلتَهُ به إلى عبادكَ. وقوله: «فاكتبنا مع الشاهدين»، يقول: فأَثْبِتْ أسماءنا مع أسماءِ الذين شهدوا بالحق، وأقَرُّوا لكَ بالتوحيد، وصدَّقُوا رسلك، واتبعوا أمْرَكَ ونهيكَ، فاجعلنا في عِدادهم ومعهم فيما تكرمهم به من كرامتك، وأحِلَّنا محلهم، ولا تجعلنا مِمَّنْ كفرَ بك، وصدَّ عن سبيلك، وخالف أمرك ونهيك.

يُعرِّفُ خَلْقَهُ جَلَّ ثناؤه بذلك سبيلَ الذين رضيَ أقوالَهم وأفعالَهم، ليحتَذُوا طريقَهم، ويتبعوا منهاجهم، فيصلوا إلى مِثْلِ الذي وصلوا إليه من درجات كرامته، ويكذِّب بذلك الذين انتحلوا من الملل غير الحنيفية المسلمة، في دعواهم على أنبياءِ الله أنهم كانوا على غيرِهَا، ويحتجُّ به على الوفدِ الذين حاجوا رسولَ الله ﷺ من أهل نجران: بأنَّ قِيلَ مَنْ رضي الله عنه من أتباع عيسى كان خلاف قِيلِهم، ومنهاجُهم غير منهاجِهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ٥٤﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: ومكر الذين كفروا من بني إسرائيل، وهم الذين ذكر الله أنّ عيسى أحسَّ منهم الكفر.

وكان مكرهم الذي وصفهم الله به، مُواطأة بعضهم بعضاً على الفتكِ بعيسى وقَتْله. وذلك أن عيسى صلوات الله عليه، بعد إخراجِ قومه إياه وأمَّهُ من بين أظهُرِهم، عاد إليهم.

وأما مكرُ الله بهم: فإنه إلقاؤه شَبَه عيسى على بعضِ أتباعه حتى قتله الماكرون بعيسى، وهم يحسبونه عيسى، وقد رفع الله عز وجل عيسى قبل ذلك.

وقد يحتمل أن يكون معنى «مكر الله بهم»، استدراجهُ إيَّاهُم ليبلغ الكتابُ أجَلَهُ، كما قد بينا ذلك في قوله الله: «اللهُ يَسْتَهزِئُ بِهِمْ» [البقرة: ١٥].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ

﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

يعني بذلـك جل ثنـاؤه: ومكر الله بالقوم الذين حاولوا قتلَ عيسى مع كفرهم بالله، وتكذيبهم عيسى فيما أتاهم به من عند ربهم إذ قال الله جل ثناؤه: «إني متوفيك»، فـ «إذ» صلةٌ من قوله: «ومكر الله»، يعني: ومكر الله بهم حين قال الله لعيسى إنِّي مُتوفِّيكَ ورافعك إليَّ، فتوفاهُ ورفعه إليه.

ثم اختلف أهل التأويل في معنى «الوفاة» التي ذكرها الله عز وجل في هذه الآية.

وأولى الأقوال بالصحة عندنا، قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: إني قابِضُكَ من الأرضِ ورافعك إليَّ، لتواترِ الأخبارِ عن رسولِ الله ﷺ أنه قال: ينزلُ عيسى بن مريم فيقتلُ الدجال، ثم يمكث في الأرضِ مدة ذكرهَا[1]، اختلفت الرواية في مبلغها، ثم يموتُ فيصلي عليه المسلمون ويدفنونه.

ومعلومٌ أنـه لو كان قد أمـاته الله عز وجل، لم يكن بالذي يُميتهُ ميتةً أخرى، فيجمعُ عليه مِيتتين، لأنَّ الله عز وجل إنما أخبر عباده أنه يخلقهم ثم يُميتهم ثم يُحييهم، كمـا قال جلّ ثناؤه: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الروم: ٤٠].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾

(١) الأحاديث في نزول عيسى عليه السلام كما قال المؤلف متواترة وهي معروفة في الصحيحين. وانظر كتاب «التصريح بما تواتر في نزول المسيح» من تحقيق علّامة البلاد الشامية الشيخ عبد الفتاح أبو غُدة حفظه الله.

يعني بذلك جل ثناؤه: وجاعل الذين اتبعوك على منهاجِكَ ومِلَّتك من الإسلام وفطرته، فوق الذين جحدوا نبوّتكَ وخالفوا سبيلهم من جميع أهل الملل، فكذّبوا بما جئتَ به وصَدُّوا عن الإقرارِ به، فَمُصَيِّرُهُم فوقَهم ظاهرين عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: «ثم إليَّ»، ثم إلى الله، أيها المختلفون في عيسى. «مرجعكم»، يعني: مصيرُكم يومَ القيامة. «فأحكم بينكم»، يقول: فأقضي حينئذٍ بين جَميعكم في أمرِ عيسى بالحق. «فيما كنتم فيه تختلفون» من أمرِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «فأما الذين كفروا»، فأما الذين جَحدوا نبوَّتَكَ ياعيسى، وخالفوا مِلَّتكَ، وكذَّبُوا بما جئتهم به من الحق، وقالوا فيك الباطلَ، وأضافوك إلى غيرِ الذي ينبغي أن يُضيفوكَ إليه، من اليهود والنصارى وسائرِ أصنافِ الأديان، فإني أُعذِّبُهم عذاباً شديداً، أما في الدنيا فبالقتلِ والسباء والذلَّة والمسكنة، وأما في الآخرة فبنارِ جهنمَ خالدين فيها أبداً. «وما لهم من ناصرين»، يقول: وما لهم من عذابِ الله مانعٌ، ولا عن أليمِ عقابهِ لهم دافعٌ بقوة ولا شفاعة، لأنه العزيز ذُو الانتقام.

وأما قوله: «وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات»، فإنه يعني تعالى ذكره: وأما الذين آمنوا بك ياعيسى ـ يقول: صَدَّقُوك ـ فأقَرُّوا بنبوتك وبما جِئْتَهم به من الحقِّ من عندي، ودانوا بالإسلام الذي بعثتك به، وعملوا بما فرضتُ من فرائضي على لسانك، وشرعتُ من شرائعي، وسننتُ من سنني. «فيوفيهم أجورَهم»، يقول: فيعطيهم جزاءَ أعمالِهم الصالحة كاملاً، لا يُبْخَسُون منه شيئاً ولا يُنقصونه.

وأما قوله: «والله لا يحب الظالمين»، فإنه يعني: والله لا يحبُّ مَنْ ظلم غيرَه حقاً له، أو وضع شيئاً في غير موضعه.

فنفى جلَ ثناؤه عن نفسه بذلك أن يظلم عبادَه، فيجازي المسيءَ ممن كفر جزاءَ المحسنين ممن آمنَ به، أو يجازي المحسنَ ممن آمن به واتبعَ أمره وانتهى عما نهاه عنه فأطاعه، جزاءَ المسيئين ممن كفر به وكذَّبَ رُسُلَهُ وخالفَ أمْرَهُ ونهيه. فقال: إني لا أحبُّ الظالمين، فكيف أظلم خَلْقي؟

وهذا القولُ من الله تعالى ذكره، وإنْ كان خرج مخرجَ الخبرِ، فإنه وعيدٌ منه للكافرين به وبرسله، ووعدٌ منه للمؤمنين به وبرسله، لأنه أعلم الفريقين جميعاً أنه لا يبخسُ هذا المؤمنَ حَقَّهُ، ولا يظلمُ كرامَتَهُ فيضعها فيمن كفر به وخالف أمره ونهيه، فيكون لها بوضعها في غيرِ أهلِها ظالماً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ۝٥٨﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «ذلك»، هذه الأنباءَ التي أنبأ بها نبيه عن عيسى وأمِّه مريم، وأمِّها حَنَّة وزكريا وابنه يحيى، وما قصَّ من أمرِ الحواريين واليهود من بني إسرائيل «نتلوها عليك»، يامحمدُ، يقول: نقرؤها عليك يامحمدُ على

لسانِ جبريلَ ﷺ، بِوَحْيِنَاهَا إليكَ «من الآياتِ»، يقول: من العبر والحجج على مَنْ حاجَّك من وفد نصارى نجران، ويهود بني إسرائيل الذين كذَّبوك وكذبوا ماجئتهم به من الحق من عندي، «والذكر»، يعني: والقرآن. «الحكيم»، يعني: ذي الحكمة الفاصلة بين الحقّ والباطل، وبينك وبين ناسبي المسيحِ إلى غيرِ نَسَبِهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤهُ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾

يعني جل ثناؤه: إن شبه عيسى في خَلْقِي إياهُ من غير فحلٍ عندي، كَشَبهِ آدمَ الذي خلقتهُ من ترابٍ ثم قلتُ له: «كُنْ»، فكان من غير فحلٍ ولا ذكرٍ ولا أنثى. يقول: فليس خلقي عيسى من أمِّهِ من غير فحل، بأعجب من خلقي آدمَ من غير ذكرٍ ولا أنثى، وأمري إذْ أمرته أن يكون فكان لحماً. يقول: فكذلك خلقي عيسى: أمرتُه أن يكون فكانَ.

وذكر أهل التأويل أن الله عز وجل أنزل هذه الآية احتجاجاً لنبيه ﷺ على الوفد من نصارى نجران الذين حاجُّوه في عيسى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: الذي أنبأتك به من خبر عيسى، وأنَّ مَثَلَهُ كمثل آدم خلقهُ من تراب ثم قال له ربه «كن». هو الحقُّ من ربك، يقول: هو الخبر الذي هو من عِنْدِ رَبِّكَ. «فلا تكن من المُمْتَرينَ»، يعني: فلا تكن من الشاكِّين في أنّ ذلك كذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «فمن حاجَّكَ فيه»، فمن جادلَك، يامحمدُ، في المسيح عيسى بن مريم.

ويعني بقوله: «من بعد ما جاءك من العلم»، من بعد ما جاءك من العلم الذي قد بيَّنتهُ لكَ في عيسى أنه عبدُ الله. «فقل تعالوا»، هلموا فَلْنَدْعُ «أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل»، يقول: ثم نلتعن. «فنجعل لعنة الله على الكاذبين» منا ومنكم في أنه عيسى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: إن هذا الذي أنبأتك به، يامحمد، من أمر عيسى فَقَصَصْتُه عليك من أنبائِه، وأنه عبدي ورسولي وكلمتي ألقيتُهَا إلى مريم وروح منّي، لَهُوَ القَصَصُ والنبأُ الحَقُّ، فاعلمْ ذلك. واعلمْ أنه ليس للخَلْقِ معبودٌ يستوجبُ عليهم العبادةَ بملكه إياهم إلّا معبودك الذي تعبُدُه، وهو الله العزيز الحكيم.

ويعني بقوله: «العزيز»، العزيز في انتقامه مِمَّنْ عَصَاهُ وخالفَ أمره، وادَّعى معه إلهاً غيرَه، أو عَبَدَ ربًّا سواه، «الحكيم» في تدبيره، لا يدخل ما دَبَّرَهُ وَهَنٌ، ولا يلحقه خللٌ.

«فإن تولوا»، يعني: فإن أدبر هؤلاء الذين حاجُّوك في عيسى، عما جاءك من الحق من عند ربك في عيسى وغيره من سائر ما آتاك الله من الهدى والبيان، فأعرضوا عنه ولم يقبلوه. «فإنَّ الله عليمٌ بالمفسدين»، يقول: فإن الله ذو علم بالذين يعصون ربهم، ويعملون في أرضه وبلاده بما نهاهم عنه، وذلك هو إفسادهم. يقول تعالى ذِكْرُه: فهو عالمٌ بهم وبأعمالهم، يُحْصِيها عليهم ويحفظها، حتى يجازيهم عليها جزاءَهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: «قل»، يامحمد، لأهل الكتاب، وهم أهلُ التوراة والإنجيل. «تعالوا»، هلموا. «إلى كلمة سواء»، يعني: إلى كلمة عَدْلٍ بيننا وبينكم. والكلمة العدل: هي أن نُوحِّدَ اللهَ فلا نعبدَ غيره، ونبرأ من كل معبودٍ سواه، فلا نشرك به شيئاً.

وقوله: «ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً»، يقول: ولا يدين بعضُنا لبعض بالطاعة فيما أمر به من معاصي الله، ويعظِّمه بالسجودِ له كما يسجدُ لربه. «فإن تولوا»، يقول: فإن أعرضوا عما دعوتَهُمْ إليه من الكلمةِ السواء التي أمرتُكَ بدعائهم إليها، فلم يُجِيبوكَ إليها، «فقولوا»، أيها المؤمنون، للمتولِّين عن ذلك: «اشهدوا بأنا مسلمون».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «ياأهل الكتاب»، ياأهل التوراة والإنجيل. «لِمَ تُحاجون»، لِمَ تجادلون. «في إبراهيم» وتُخاصِمُونَ فيه، يعني: في إبراهيمَ خليلِ الرحمن صلوات الله عليه.

وكان حِجاجهم فيه: ادّعاءُ كُلِّ فريقٍ من أهل هذين الكتابين أنه كان منهم، وأنه كان يَدِينُ دِينَ أهلِ نِحْلته. فعابهم الله عز وجل بادِّعائهم ذلك، ودلَّ على مُناقضتهم ودعواهم، فقال: وكيف تَدَّعُونَ أنه كان على مِلَّتكم ودِينكم، ودينُكم إما يهودية أو نصرانية، واليهودي منكم يزعمُ أنّ دينه إقامةُ التوراة والعملُ بما فيها، والنصراني منكم يزعم أنّ دينه إقامةُ الإنجيل وما فيه، وهذان كتابان لم ينزلا إلّا بعد حينٍ من مَهلِكِ إبراهيمَ ووفاتِهِ؟ فكيف يكونُ منكم؟ وما وجهُ اختصامكم فيه. وادعاؤكم أنه منكم، والأمر فيه على ما قد علمتم؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «ها أنتم»، القومَ الذين قالوا في إبراهيم ما قالوا. «حاججتم»، خاصمتم وجادلتم. «فيما لكم به علم»، من أمرِ دينكم الذي وجدتموه في كتبكم، وأتتكم به رُسُلُ اللهِ من عنده، وفي غير ذلك مما أُوتيتُموهُ وثبتت عندكم صِحَّتُهُ. «فَلِمَ تُحاجُّونَ»، يقول: فَلِمَ تُجادلون وتخاصمون. «فيما ليسَ لكم به علمٌ»، يعني: في الذي لا علمَ لكم به من أمرِ إبراهيمَ ودينه، ولم تَجِدُوهُ في كتب الله، ولا أتتكم به أنبياؤكم، ولا شاهدتموه فتعلموه؟

وقوله: «والله يعلم وأنتم لا تعلمون»، يقول: والله يعلم ما غَاب عنكم فلم تشاهدوه ولم تروه، ولم تأتكم به رسلُه من أمر إبراهيم وغيره من الأمور ومما

تجادلون فيه، لأنه لا يغيبُ عنه شيءٌ، ولا يعزُبُ عنه عِلْمُ شيءٍ في السمواتِ ولا في الأرض «وأنتم لاتعلمون»، من ذلك إلا ماعاينتم فشاهدتم، أو أدركتم عِلْمَهُ بالإخبارِ والسَّماع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾

وهذا تكذيبٌ من الله عز وجل دعوَى الذين جادلوا في إبراهيم وملته من اليهـود والنصارى، وادَّعوا أنه كان على ملتهم، وتبرئةٌ لهم منه، وأنهم لدينه مخالفون، وقضاءٌ منه عَزَّ وجل لأهلِ الإسلام ولأمةِ محمدٍ ﷺ أنهم هم أهلُ دينهِ، وعلى منهاجهِ وشرائعهِ، دونَ سائرِ أهلِ المللِ والأديانِ غيرهم.

يقـول الله عز وجـل: ما كان إبـراهيمُ يهـوديًّا ولا نصرانيًّا ولا كان من المشركين، الذين يعبدون الأصنامَ والأوثانَ أو مخلوقاً دون خالقه الذي هو إله الخلق وبارئهم، «ولكن كان حنيفاً»، يعني: مُتَّبعاً أمرَ الله وطاعته، مستقيماً على محجَّةِ الهدى التي أُمِرَ بلزومها، «مسلماً»، يعني: خاشعاً لله بقلبه، متذللاً له بجوارحه، مُذْعِناً لما فَرَض عليه وألزمه من أحكامه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤهُ: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾

يعني جل ثنـاؤه بقـولـه: «إنَّ أوْلَى الناس بإبراهيم»، إنّ أحقَّ الناسِ بإبراهيمَ ونُصْرَتهِ وولايته «لَلَّذينَ اتَّبعوه»، يعني: الذين سلكوا طريقَه ومنهاجه، فوحَّدوا الله مخلصين له الدين، وسنُّوا سنُته، وشرَعُوا شرائعه، وكانوا لله حنفاء مسلمين غير مشركين به. «وهذا النبي»، يعني: محمداً ﷺ. «والذين آمنوا»،

يعني: والذين صدّقوا محمداً، وبما جاءهم به من عند الله. «والله ولي المؤمنين»، يقول: والله ناصرُ المؤمنين بمحمد، المصدِّقين له في نبوّتِهِ وفيما جاءهم به من عنده، على مَنْ خالَفَهُمْ من أهلِ المللِ والأديان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٦٩﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «ودّت»، تَمَنَّتْ. «طائفةٌ»، يعني جماعةٌ. «من أهلِ الكتاب»، وهم أهل التوراة من اليهود، وأهلُ الإنجيل من النصارى. «لو يضلُّونكم»، يقولون: لو يصدُّونكم أيها المؤمنون، عن الإسلامِ ويردُّونكم عنه إلى ما هُمْ عليهِ من الكفرِ، فيهلكونكم بذلك.

«والإضلال» في هذا الموضع، الإهلاكُ، من قول الله عز وجل: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِى الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة: ١٠].

«وما يُضِلُّون إلا أنفسهم»، وما يهلكون ـ بما يفعلون من محاولتهم صدّكم عن دينكم ـ أحداً غيرَ أنفسهم، يعني بـ«أنفسهم»: أتباعَهم وأشياعَهم على ملَّتِهم وأديانهم، وإنما أهلكوا أنفسَهم وأتباعهم بما حاولوا من ذلك، لاستيجابهم من الله بفعلهم ذلك سخَطَهُ، واستحقاقهم به غَضَبهُ ولعنته، لكفرهم بالله، ونقضهِم الميثاقَ الذي أخذ الله عليهم في كتابهم، في اتّباعِ محمدٍ ﷺ وتصديقه، والإقرار بنبوّته.

ثم أخبر جلّ ثناؤه عنهم أنهم يفعلون ما يفعلون، من محاولة صَدِّ المؤمنين عن الهدى إلى الضلالة والردى، على جهلٍ منهم بما الله بهم مُحِلٌّ من عقوبته، ومدَّخِرٍ لهم من أليمِ عذابه، فقال تعالى ذكره: «وما يشعرون» أنهم لا يُضِلُّونَ إلّا أنفسَهُم، بمحاولتهم إضلالكم أيها المؤمنون.

ومعنى قوله: «وما يشعرون»، وما يدرون ولا يَعلمون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: «ياأهل الكتاب»، من اليهود والنصارى «لم تكفرون»، يقول: لِمَ تَجْحدون «بآيات الله»، يعني: بما في كتاب الله الذي أنزله إليكم على ألسن أنبيائكم، من آيِه وأدلتِه «وأنتم تشهدون» أنه حَقٌّ من عند ربكم.

وإنما هذا من الله عز وجل، توبيخٌ لأهلِ الكتابين على كفرهم بمحمد ﷺ وجحودهم نبوَّتَهُ، وهم يجدونه في كتبهم، مع شَهادتهم أن ما في كتبهم حقٌّ، وأنه من عند الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ

يعني بذلك جل ثناؤه: ياأهل التوراة والإنجيل «لم تلبسون»، يقول: لِمَ تخلطون «الحق بالباطل».

وكان خلطهم الحقَّ بالباطلِ، إظهارهم بألسنتهم من التصديقِ بمحمدٍ ﷺ وما جاء به من عند الله، غيرَ الذي في قلوبهم من اليهودية والنصرانية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: ولم تكتمون، ياأهلَ الكتاب، الحقَّ؟

و«الحق» الذي كتموه: ما في كتُبهم من نعتِ محمدٍ ﷺ ومبعثه ونبوّته.

وأمـا قولـه: «وأنتم تعلمـون»، فإنـه يعني به: وأنتم تعلمون أنّ الذي تكتمونه من الحقِّ حقٌّ، وأنه من عند الله.

وهذا القول من الله عز وجل، خبرٌ عن تعمُّدِ أهلِ الكتابِ الكفرَ به، وكتمانِهم ماقد عَلِمُوا من نبوّةِ محمدٍ ﷺ وَوَجدوه في كتبهم، وجاءَتهم به أنبياؤهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾

وأمـا قولـه: «واكفـروا آخره»، فإنه يعني به، أنهم قالوا: واجحدوا ما صَدَّقْتُمْ به من دينهم في وجه النهار، في آخر النهار «لعلهم يرجعون»: يعني بذلك: لعلهم يرجعون عن دينهم معكم ويَدَعونه:

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: ولا تُصدِّقُوا إلا مَنْ تبِعَ دِينَكُم فكان يهوديًا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ﴾

اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يكون قوله: «قلْ إن الهدى هُدى الله» معترضاً به. وسائر الكلام متَّسِقٌ على سياقٍ واحد. فيكون تأويله حينئذٍ: ولا تُؤمنوا إلاّ لمن تَبِعَ دينكُم، ولا تؤمنوا أن يُؤتَى أحدٌ مثل ما أُوتيتم، بمعنى: لا يُؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم، «أو يحاجوكم

عند ربكم»، بمعنى: أو أن يحاجوكم عند ربكم حسداً لما آتاكم، لأنكم أكرمُ على الله بما فضلكم به عليهم[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٧٣﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: «قل» يامحمد، لهؤلاء اليهود الذين وصفتُ قولهم لأوليائهم: «إنَّ الفضلَ بيد الله»، إنَّ التوفيق للإيمان والهدايةَ للإسلام، بيدِ الله وإليه، دونكم ودون سائرِ خلقه، «يؤتيه مَنْ يشاء» مِنْ خَلْقِه، يعني: يعطيه مَنْ أراد من عباده، تكذيباً من الله عز وجل لهم في قولهم لتُبَّاعِهم: «لا يُؤتَى أحدٌ مثلَ ما أُوتيتم». فقال الله عز وجل لنبيه ﷺ: قل لهم: ليس ذلكَ إليكم، إنما هو إلى الله الذي بيده الأشياء كلها، وإليه الفضلُ وبيده، يُعطيه مَنْ يشاء. «والله واسع عليم»، يعني: والله ذُو سعةٍ بفضله على مَنْ يشاء أنْ يتفضَّلَ عليه. «عليم»، ذو عِلْمٍ بمن هو منهم للفضل أهل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾

يعني بقـولـه: «يختص برحمتـه من يشاء»، «يفتعل» من قول القائل: «خصصت فلاناً بكذا، أَخُصُّه به».

وأما «رحمته»، في هذا الموضع، فالإسلام والقرآن، مع النبوّة.

«والله ذو الفضل العظيم»، يقول: ذُو فضلٍ يتفضَّلُ به على مَنْ أحبَّ

(١) انظر أيضاً: «الأساس في التفسير» للعلامة الشيخ سعيد حوى: ٢/٨٠٠-٨٠١.

وشاء من خَلْقِه. ثم وصف فضله بالعظم فقال: «فضله عظيم»، لأنه غير مُشَبَّهٍ في عِظَمِ موقعه ممن أفضله عليه فضلٌ من إفضالِ خلقه، ولا يقاربه في جلالة خطره ولا يُدانيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾

(يعني): ومن أهل الكتاب الذي إنْ تَأْمَنْهُ، يامحمدُ، على عظيمٍ من المال كثيرٍ، يؤدِّه إليك ولا يخنْك فيه، ومنهم الذي إنْ تأمنه على دينارٍ يَخُنْكَ فيه فلا يؤدِّهِ إليك، إلا أنْ تُلحَّ عليه بالتقاضي والمطالبة.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: أنَّ من استحلَّ الخيانةَ من اليهود، وجحودَ حقوق العربيّ التي هي له عليه، فلم يؤدِّ ما ائتمنه العربيُّ عليه إلاّ مادامَ له متقاضياً مطالباً، من أجل أنه يقول: لا حرجَ علينا فيما أصبنا من أموالِ العربِ ولا إثمَ، لأنهم على غير الحق، وأنهم مشركون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٥﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: إن القائلين منهم: «ليس علينا في أموالِ الأميين من العرب حَرَجٌ أن نختانهم إياه»، يقولون الكذبَ على الله عامدين الإثمَ بِقِيلِ الكذبِ على الله، إنه أحلَّ ذلك لهم. وذلك قوله عز وجل: «وهم يعلمون».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ٧٦﴾

يقول: بلى مَنْ أوفى بعهدِ الله الذي عاهده في كتابه، فآمن بمحمدٍ ﷺ وصَدّق به وبما جاء به من الله، من أداءِ الأمانةِ إلى مَنْ ائتمنَهُ عليها، وغير ذلك من أمرِ الله ونهيه. «واتقى»، يقول: واتقى مانهاهُ اللهُ عنه من الكفر به، وسائر معاصيه التي حَرَّمها عليه، فاجتنبَ ذلك مراقبةَ وعيدِ الله وخوفَ عقابِهِ. «فإنَّ الله يحبُّ المتقين»، يعني: فإن الله يحب الذين يتقونه فيخافون عقابه ويحذرون عذابه، فيجتنبون مانهاهم عنه وحرَّمه عليهم، ويُطيعونه فيما أمرهم به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٧﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: إنّ الذين يستبدلون ـ بتَرْكِهم عهدَ الله الذي عَهِدَ إليهم، ووصيته التي أوصاهم بها في الكتب التي أنزلها الله إلى أنبيائه، باتباع محمدٍ وتصديقِهِ والإقرارِ به وما جاء به من عند الله ـ وبأيمانهم الكاذبة التي يستحلون بها ماحرّم الله عليهم من أموالِ الناس التي ائتُمِنُوا عليها. «ثمناً»، يعني: عِوَضاً وبدلاً خَسيساً من عَرَضِ الدنيا وحُطامها. «أولئك لا خَلاقَ لهم في الآخرة»، يقول: فإن الذين يفعلون ذلك لاحَظَّ لهم في خيرات الآخرة، ولا نصيبَ لهم من نعيم الجنةِ وما أعدَّ اللهُ لأهلها فيها دون غيرهم.

وأما قوله: «ولا يكلمهم الله»، فإنه يعني: ولا يكلمهم الله بما يسرُّهم «ولا ينظر إليهم»، يقول: ولا يعطفُ عليهم بخير، مَقْتاً من الله لهم.

وقـولـه: «ولا يُزكيهم»، يعني: ولا يطهرهم من دنَسِ ذنوبهم وكفرهم «ولهم عذاب أليم»، يعني: ولهم عذابٌ موجع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٨﴾

يعني بذلـك جل ثناؤه: وإنَّ من أهل الكتاب وهم اليهود الذين كانوا حوالى مدينة رسولِ الله ﷺ على عهده، من بني إسرائيل.

و«الهـاء والميم» في قوله: «منهم»، عائدةٌ على «أهل الكتاب» الذين ذكرهم في قوله: «ومن أهل الكتاب مَنْ إن تأمنه بقنطار يؤدّه إليك».

وقوله «لفريقاً»، يعني: جماعة. «يلوون»، يعني: يحرِّفون. «ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب»، يعني: لتظنوا أن الذي يحرّفونه بكلامهم من كتاب الله وتنزيله. يقول الله عز وجل: وما ذلك الذي لوَوْا به ألسنتهم فحرَّفُوه وأحدثوه من كتاب الله، ويزعمون أنَّ ما لَوَوْا به ألسنتَهُم من التحريفِ والكذبِ والباطلِ فألحقوهُ في كتابِ الله «من عندِ الله»، يقول: مماأنزلَهُ اللهُ على أنبيائهِ «وما هو من عندِ الله»، يقول: وما ذلك الذي لووا به ألسنتهم فأحدثوه، مما أنزله اللهُ إلى أحدٍ من أنبيائه، ولكنه مما أحدثوه من قِبَلِ أنفسهم افتراءً على الله.

يقول عز وجل: «ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون»، يعني بذلك: أنهم يتعمدون قِيلَ الكذبِ على الله، والشهادة عليه بالباطل، والإلحاقَ بكتاب الله ماليس منه، طلباً للرياسة والخسيس من حطام الدنيا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: وما ينبغي لأحد من البشر.

و«البشر» جمع بني آدم لا واحدَ له من لفظِهِ مثل: «القوم» و«الخلق». وقد يكونُ اسماً لواحد «أن يؤتيه الله الكتاب» يقول: أن يُنزلَ اللهُ عليه كتابَهُ «والحكم» يعني: ويعلمه فَصْلَ الحِكْمةِ. «والنبوة»، يقول: ويعطيه النبوّة. «ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله»، يعني: ثم يدعو الناسَ إلى عبادةِ نفسهِ دونَ الله، وقد آتاهُ الله ما آتاه من الكتابِ والحكمِ والنبوة. ولكن إذا آتاه الله ذلك، فإنما يدعوهم إلى العلم بالله، ويحدوهم على معرفةِ شرائعِ دينه، وأن يكونوا رؤساء في المعرفة بأمرِ الله ونهيهِ، وأئمةً في طاعته وعبادته، بكونهم معلِّمي الناس الكتابَ، وبكونهم دَارِسيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ﴾

وأولى الأقوالِ عندي بالصواب في «الربانيين» أنهم جمع «رباني»، وأن «الرباني» المنسوب إلى «الرَّبَّان»، الذي يربُّ الناسَ، وهو الذي يُصْلِحُ أمورهم، و«يربّها»، ويقوم بها.

و«الربّاني» هو المنسوب إلى مَنْ كان بالصفةِ التي وصفتُ، وكان العالم بالفقه والحكمة من المصلحين يَرُبّ أمورَ الناس، بتعليمه إياهم الخيرَ، ودعائهم إلى مافيه مصلحتهم، وكان كذلك الحكيمُ التقيُّ لله، والوالي الذي يلي أمورَ الناس على المنهاج الذي وَليه المُقْسِطُونَ من المُصْلحين أمورَ الخلق، بالقيامِ فيهم بما فيه صلاحُ عاجلهم وآجلهم، وعائدةُ النفع عليهم في

دينهم، ودنياهم، كانوا جميعاً يستحقون أن [يكونوا] ممن دَخل في قوله عز وجل: «ولكن كونوا ربانيين».

فـ«الربانيون» إذاً، هم عمادُ الناسِ في الفقه والعلم وأمورِ الدين والدنيا. ولذلك قال مجاهد: «وهم فوق الأحبار»، لأنَّ «الأحبار» هم العلماء، و«الرباني» الجامعُ إلى العلم والفقه، البصرَ بالسياسةِ والتدبير والقيام بأمور الرعية، وما يصلحهم في دُنياهم ودينهم[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۝٧٩﴾

معنى الآية: ولكن يقول لهم: كونوا، أيها الناسُ، سادةَ الناس، وقادَتَهم في أمر دينهم ودنياهم، ربَّانيِّين بتعليمكم إياهم كتابَ الله وما فيه من حلالٍ وحرام، وفَرْضٍ ونَدْبٍ، وسائر ماحواه من معاني أمور دينهم، وبتلاوتكم إياه ودراستِكُمُوهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝٨٠﴾

(يعني): وما كان للنبي أنْ يأمركم، أيها الناسُ، «أن تتخذوا الملائكةَ والنبيينَ أرباباً»، يعني بذلك آلهة يُعْبَدُون من دونِ الله، كما ليس له أن يقول لهم: كونوا عباداً لي من دونِ الله.

---

(١) قال العلامة محمود شاكر: هذا التفسير قَلَّ أنْ تجده في كتاب من كتب اللغة، وهو من أجود ماقرأت في معنى «الرباني»، وهو من أحسن التوجيه في فهم معاني العربية، والبصر بمعاني كتاب الله. فرحم الله أبا جعفر رحمةً ترفعه درجاتٍ عند ربه.

ثم قال جل ثناؤه ـ نافياً عن نبيّه ﷺ أن يأمرَ عبادَهُ بذلك ـ: «أيأمُركم بالكفر»، أيها الناسُ، نبيُّكم، بجحود وحدانيةِ الله. «بعد إذْ أنتم مسلمون»، يعني: بعد إذ أنتم له مُنقادون بالطاعةِ، مُتذَلِّلونَ له بالعبودةِ، أي أن ذلك غير كائنٍ منهُ أبداً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾

معنى ذلـك: الخبـرُ عن أخذ الله الميثاقَ من أنبيائه بتصديق بعضهم بعضاً، وأخذ الأنبياء على أُمَمِهَا وتُبَّاعها الميثاقَ بنحو الذي أخذَ عليها ربُّها من تصديقِ أنبياءِ الله ورسلهِ بما جاءتها به. لأنَّ الأنبياءَ عليهم السلام بذلك أُرْسِلَتْ إلى أممهـا. ولم يدَّعِ أحـدٌ ممن صدَّق المـرسلين، أن نبيًّا أُرسِلَ إلى أمةٍ بتكذيبِ أحدٍ من أنبياء الله عز وجل وحُجَجه في عباده، بل كُلُّها ـ وإنْ كَذَّبَ بعضُ الأمم بعضَ أنبياءِ الله، بجحودها نبوّته ـ مُقِرَّةٌ بأنَّ مَنْ ثبتت صحّة نبوته، فعليها الدينونةُ بتصديقهِ. فذلك ميثاقٌ مقرٌّ به جميعهم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: وإذْ أخذ الله ميثاقَ النبيين بما ذكر فقال لهم تعالى ذِكْرُه: أأقررتم بالميثاقِ الذي واثقتموني عليه: مِنْ أنكم مهما أتاكم رسولٌ من عندي مُصَدِّقٌ لما معكم «لَتُؤْمِنُنَّ به ولتنصُرُنَّهُ» «وأخذتم على ذلكم إصري»؟ يقول: وأخذتم على ما واثقتموني عليه من الإيمان بالرسل التي تأتيكم بتصديقِ

مامعكم من عندي والقيام بنصرتهم «إصري». يعني عهدي ووصيتي، وقبلتم في ذلك منّي ورضيتموه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: قال الله: فاشهدوا، أيها النبيون، بما أخذتُ به ميثاقكم من الإيمانِ بتصديقِ رُسلي التي تأتيكم بتصديقِ مامعكم من الكتابِ والحكمـة، ونُصرتهم على أنفسكم وعلى أتباعكم من الأمم إذا أنتم أخذتم ميثاقهم على ذلك، وأنا معكم من الشاهدين عليكم وعليهم بذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: فمن أعرضَ عن الإيمان برسلي الذين أرسلتُهم بتصديقِ ما كان مع أنبيائي من الكتب والحكمة، وعن نصرتهم، فأدبر ولم يؤمن بذلـك، ولم ينصر، ونكث عهدَه وميثاقه «بعد ذلك»، يعني بعد العهدِ والميثـاقِ الـذي أخذَهُ اللهُ عليه. «فأولئك هم الفاسقون»، يعني بذلك: أنَّ المتولِّينَ عن الإيمان بالرسل الذين وصف أمرَهم، ونُصرتهم بعد العهد والميثاق اللذين أخذَا عليهم بذلك. «هم الفاسقون»، يعني بذلك: الخارجونَ عن دينِ الله وطاعةِ ربهم.

وهاتان الآيتان، وإن كان مَخرَجُ الخبرِ فيهما من الله عز وجل بما أخبر أنه أشهدَ وأخذَ به ميثاقَ مَنْ أخذَ ميثاقَهُ به، عن أنبيائهِ ورسله، فإنه مقصودٌ به إخبارُ مَنْ كان حوالَي مهاجَرِ رسولِ الله ﷺ من يهود بني إسرائيل أيام حياته

ﷺ، عمَّا لله عليهم من العهد في الإيمان بنبوة محمد ﷺ، ومعنيٌّ [به] تذكيرُهم ما كانَ اللهُ آخذاً على آبائِهم وأسلافِهم من المواثيقِ والعهودِ، وما كانت أنبياءُ الله عَرَّفتهم وتقدَّمَتْ إليهم في تصديقِهِ واتِّباعه ونُصرته على مَنْ خالفه وكَذَّبه وتعريفهم ما في كتب الله، التي أنزلها إلى أنبيائه التي ابتعثها إليهم، من صفته وعلامته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ۝٨٣﴾

وتأويل الكلام: يامعشرَ أهل الكتاب «أفغيرَ دِينِ الله تبغون»، يقول: أفغيرَ طاعةِ الله تلتمسون وتُريدون، «وله أسلم من في السموات والأرض»، يقول: وله خَشع مَنْ في السموات والأرض، فخضع له بالعبودةِ، وأقرَّ له بإفراد الربوبية، وانقادَ له بإخلاصِ التوحيدِ والألوهية. «طوْعاً وكرهاً»، يقول أسلم لله طائعاً مَنْ كان إسلامهُ منهم له طائعاً، وذلك كالملائكةِ والأنبياءِ والمرسلينَ، فإنهم أسلموا لله طائعين. «وكرهاً»، مَنْ كان منهم كارهاً.

وأما قوله: «وإليه تُرجعون»، فإنه يعني: «وإليه»، يامعشر مَنْ يبتغي غيرَ الإسلام ديناً من اليهود والنصارى وسائر الناس. «تُرجَعُون»، يقول: إليه تَصِيُرونَ بعد مماتِكم، فَمُجَازيكم بأعمالِكم، المحسنَ منكم بإحسانِه، والمسيءَ بإساءَته.

وهذا من الله عز وجل تحذيرٌ خَلْقَهُ أنْ يرجعَ إليه أحدٌ منهم فيصيرَ إليه بعد وفاته على غير ملةِ الإسلام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ

عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٨٤﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: «أفغير دين الله تبغون»، يامعشر اليهود، «وله أسلم مَنْ في السمواتِ والأرضِ طَوْعاً وكرهاً وإليه ترجعون» فإن ابتغوا غيرَ دين الله، يامحمد، فقل لهم، «آمنا بالله»، فَترَكَ ذِكْرُ قوله: فإن قالوا: نعم، أو ذِكْرَ قوله: «فإن ابتغوا غير دين الله»، لدلالةِ ماظهرَ من الكلامِ عليه.

وقوله: «قل آمنا بالله»، يعني به: قل لهم، يامحمد، صَدَّقْنَا باللهِ أنه ربنا وإلهنا، لا إلهَ غيره، ولا نعبدُ أحداً سواه. «وما أُنْزِلَ علينا»، يقول: وقل: وصدَّقنا أيضاً بما أنزل علينا من وَحيه وتنزيله، فأقررنا به. «وما أنزل على إبراهيم»، يقول: وصدقنا أيضاً بما أنزل على إبراهيمَ خليلِ الله، وعلى ابنيه إسمعيل وإسحق، وابن ابنه يعقوب، وبما أنزل على «الأسباطِ»، وهم ولد يعقوب الاثنا عشر. «وما أُوتيَ موسى وعيسى»، يقول: وصدّقنا أيضاً مع ذلك بالذي أنزل الله على موسى وعيسى من الكتب والوَحْي، وبما أنزل على النبيين من عنده.

والذي آتى الله موسى وعيسى ـ مما أمرَ الله عز وجل محمداً بتصديقهما فيه، والإيمان به ـ التوراة التي آتاها موسى، والإنجيل الذي آتاه عيسى.

«لا نفرق بين أحد منهم»، يقول: لا نُصَدِّقُ بعضَهم ونكذّب بعضَهم، ولا نؤمن ببعضِهم ونكفرُ ببعضهم، كما كفرتِ اليهودُ والنصارى ببعض أنبياء الله وصدّقت بعضاً، ولكنا نؤمن بجميعهم ونصدّقهم. «ونحن له مسلمون». يعني: ونحنُ نَدينُ لله بالإسلام لا نَدينُ غيرَهُ، بل نتبرأُ إليه من كل دينٍ سواه، ومن كل ملة غيره.

ويعني بقوله: «ونحن له مسلمون». ونحن له منقادون بالطاعة، متذللون بالعبودة، مُقِرُّونَ لَهُ بالألوهةِ والربوبيةِ، وأنه لا إله غيره.

القَوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٨٥﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: ومَنْ يطلب ديناً غيرَ دينِ الإسلام ليدينَ به، فلن يقبل الله منه. «وهو في الآخرة من الخاسرين»، يقول: من الباخسين أنفسَهم حُظوظَها من رحمةِ الله عز وجل.

وذُكر أنَّ أهلَ كلِّ ملةٍ ادّعوا أنهم هم المسلمون، لما نزلت هذه الآية، فأمرهم الله بالحج إن كانوا صادقين، لأن من سنُة الإسلام الحج، فامتنعوا، فأدحض الله بذلك حجتهم.

القَوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٦ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝٨٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝٨٨ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٨٩﴾

يعني: كيف يُرشد اللهُ للصوابِ ويوفّق للإيمان، قوماً جَحدُوا نبوّةَ محمدٍ ﷺ. ﴿بعد إيمانهم﴾ أي: بعد تصديقهم إياه، وإقرارهم بما جاءَهم به من عند ربه. «وشَهدوا أن الرسول حقّ»، يقول: وبعد أن أقرّوا أن محمداً رسول الله ﷺ إلى خلقه حقًّا. «وجاءهم البينات»، يعني: وجاءهم الحججُ من عندِ

الله والدلائلُ بصحة ذلك؟. «والله لا يهدي القوم الظالمين»، يقول: والله لا يوفِّق للحق والصَّوابِ الجماعةَ الظَّلمة، وهم الذين بَدَّلُوا الحقَّ إلى الباطلِ، فاختارُوا الكفرَ على الإيمان.

وقد دللنا فيما مضى قَبْلُ على معنى «الظلم»، وأنه وضعُ الشيء في غير موضعه، بما أغنى عن إعادته.

«أولئك جزاؤهم»، يعني: هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم، وبعد أن شهدوا أن الرسول حَقٌّ. «جزاؤهم»، ثوابهم من عملهم الذي عملوه. «أنَّ عليهم لعنةَ الله»، يعني: أن يحلَّ بهم من الله الإقصاء والبعد، ومن الملائكة والناس الدعاءُ بما يسوؤهم من العقاب. «أجمعين»، يعني: من جميعهم، لا من بعض مَنْ سمَّاه جَلَّ ثناؤه من الملائكة والناس، ولكن من جميعهم. وإنما جعل ذلك جل ثناؤه ثواب عملهم، لأن عملهم كان بالله كفراً.

«خالدين فيها» يعني: ماكثين فيها، يعني في عقوبة الله. «لا يخفَّفُ عنهم العذابُ»، لا ينقصون من العذاب شيئاً في حال من الأحوال، ولا ينفَّسون فيه. «ولا هم يُنْظَرُونَ»، يعني: ولا هم ينظرون لمعذرة يعتذرون. وذلك كله عَينُ الخلود في العقوبة في الآخرة.

ثم استثنى جل ثناؤه الذين تابوا، من هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم فقال تعالى ذكره؛ «إلَّا الذين تَابوا من بعد ذلك وأصلحوا»، يعني: إلا الذين تابوا من بعد ارتدادهم عن إيمانهم، فراجعوا الإيمان بالله وبرسوله، وصدّقوا بما جاءهم به نبيهم ﷺ من عند ربهم. «وأصلحوا»، يعني: وعملوا الصالحات من الأعمال. «فإنّ الله غفور رحيم»، يعني: فإنَّ الله لمن فعل ذلك بعد كفرهِ «غفورٌ»، يعني: ساترٌ عليه ذَنْبَهُ الذي كان منه من الرِّدَّةِ، فتاركُ عقوبته عليه، وفضيحتَـهُ به يوم القيامة، غيرُ مؤاخذهِ به إذا مَات على التوبة منه «رحيم»، متعطِّف عليه بالرحمة.

آل عمران: ٩٠

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ۝٩٠﴾

(يعني): إن الذين كفروا من اليهود بمحمدٍ ﷺ عند مَبعثه، بعد إيمانهم به قبل مبعثه، ثم ازدادوا كفراً بما أصابوا من الذنوب في كفرهم ومُقامهم على ضلالتهم، لن تُقْبَلَ توبتهم من ذنوبهم التي أصابوها في كفرهم، حتى يتوبوا من كفرهم بمحمدٍ ﷺ، ويراجعوا التوبة منه بتصديقه بما جاء به من عند الله.

وإنما قلنا ذلك لأن الآيات قَبْلَها وبعدها فيهم نزلت، فأولى أن تكون هي في معنى ماقَبْلَها وبعدها، إذ كانت في سياق واحد.

وإنما قلنا: معنى ازديادهم الكفر: ما أصابوا في كفرهم من المعاصي، لأنه جل ثناؤه قال: «لن تُقْبَلَ توبتهم»، فكان معلوماً أن معنى قوله: «لن تقبل توبتهم»، إنما هو معنيٌّ به: لن تقبل توبتهم مما ازدادوا من الكفرِ على كفرهم بعد إيمانهم، لا من كفرهم. لأن الله تعالى ذِكْرُه وَعَدَ أنْ يقبلَ التوبةَ من عبادهِ فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى: ٢٥]، فمحالٌ أنْ يقول عز وجل: «أقبلُ» و«لا أقبلُ» في شيءٍ واحد. وإذْ كان ذلك كذلك ـ وكان من حُكم اللهِ في عبـاده أنه قابلُ توبةَ كُلِّ تائبٍ من كُلِّ ذَنْبٍ، وكان الكفر بعد الإيمان أحدَ تلك الذنوب التي وَعَدَ قَبولَ التوبةِ منها بقوله: «إلاّ الذين تابوا مِنْ بعدِ ذلك وأصلحوا فإنَّ الله غفورٌ رحيم» ـ علم أنّ المعنى الذي لا يقبل التوبةَ منه، غيرُ المعنى الذي يَقبل التوبة منه. وإذْ كان ذلك كذلك، فالذي لا يَقبلُ منه التوبةَ، هو الازديادُ على الكفرِ بعد الكفر، لا يقبلُ اللهُ توبةَ صاحبِهِ ما أقامَ على كفرِهِ، لأنَّ الله لا يقبل من مشرك عملاً ما أقامَ على شِرْكِهِ وضلاله. فأما إنْ تابَ من شِرْكِهِ وكفره وأصلح، فإنّ الله ـ كما وصف به نفسه ـ غفورٌ رحيمٌ.

وأما قوله: «وأولئك هم الضالون»، فإنه يعني بذلك: وهؤلاء الذين كفرُوا بعد إيمانهم، ثم ازدادوا كفراً، هم الذين ضلوا سبيلَ الحقّ فأخطأوا منهجه، وتركوا نِصْف السبيل[1] وهُدَى الدين، حَيرةً منهم، وعَمىً عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٩١﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: «إنّ الذين كفروا»، أي: جحدوا نبوة محمدٍ ﷺ ولم يُصَدِّقُوا به وبما جاء به من عندِ الله من أهلِ كُلِّ ملةٍ، يهودها ونصاراها ومجوسها وغيرهم. «وماتوا وهم كفار»، يعني: وماتوا على ذلك من جحود نبوته وجحود ما جاء به. «فلن يُقبلَ من أحدهم مِلْءُ الأرضِ ذَهباً ولو افتدى به»، يقول: فلن يُقْبَلَ مِمَّنْ كان بهذه الصفةِ في الآخرة جَزاءٌ ولا رِشْوةٌ على تركِ عقوبته على كفره، ولا جُعْلٌ على العفو عنه، ولو كان له من الذهبِ قَدْرُ ما يملأُ الأرضَ من مشرقها إلى مغربها، فرَشَا وجَزَى على ترك عقوبته وفي العفو عنه على كفرهِ عِوَضاً مما اللهُ مُحِلٌّ به من عذابهِ. لأنّ الرُّشا إنما يقبلها مَنْ كان ذَا حاجةٍ إلى مارُشي. فأما مَنْ له الدنيا والآخرة، فكيف يقبلُ الفديةَ، وهو خلاَّقُ كل فدية افتدَى بها مُفْتَدٍ منْ نفسه أو غيره؟

ثم أخبر عز وجل عما لهم عِنْدَهُ فقال: «أولئك»، يعني هؤلاء الذين كفروا وماتوا وهم كفار. «لهم عذابٌ أليم»، يقول: لهم عند الله في الآخرة عذابٌ مُوجِعٌ «وما لهم من ناصرين»، يعني: وما لهم من قريبٍ ولا حميم ولا صديق ينصرهُ فيستنقذه من الله ومن عذابهِ كما كانوا ينصرونه في الدنيا على مَنْ حاول أذاهُ ومكروهه؟

---

(١) قوله: «نصف السبيل»، يعني: وسطه، وهو سواءُ السبيل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: لن تدركوا، أيها المؤمنون، البرَّ وهو «البر» من الله الذي يطلبونه منه بطاعتهم إياهُ وعبادتهم له ويرجونه منه، وذلك تَفضُّلهُ عليهم بإدخالِهم جَنَّتَهُ، وصَرْف عذابهِ عنهم.

ولذلك قال كثير من أهلِ التأويلِ «البر»: الجنة، لأن برَّ الربِّ بعبدهِ في الآخرة، إكرامه إياه بإدخاله الجنة.

فتأويل الكلام: لن تنالوا، أيها المؤمنون، جنةَ رَبِّكم «حتى تنفقوا مما تحبون»، يقول: حتى تتصدقوا مما تحبون وتهوَوْن أنْ يكون لكم، من نفيسِ أموالكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: أنه لم يكن حرَّم على بني إسرائيل وهم ولد يعقوب بن إسحق بن إبراهيم خليل الرحمن شيئاً من الأطعمةِ من قبل أن تُنَزَّلَ التوراةُ، بل كان ذلك كله لهم حلالاً إلاّ ما كان يعقوبُ حَرَّمَهُ على نفسه، فإن وَلده حرَّموه استناناً بأبيهم يعقوب، من غيرِ تحريمِ الله ذلك عليهم في وحيٍ ولا تنزيلٍ، ولا على لسان رسولٍ له إليهم، من قبل نزول التوراة.

وأما قوله: «قُلْ فَأْتُوا بالتوراةِ فاتلوها إنْ كنتم صادقين»، فإن معناه: قل، يامحمد، للزاعمين من اليهود أنّ الله حرم عليهم في التوراة العروقَ ولحومَ الإبل

وألبانها: «ائتوا بالتوراة فاتلوها»، يقول: قل لهم: جِيئُوا بالتوراةِ فاتلُوها، حتى يتبين لمن خفيَ عليه كذبهم وقِيلهم الباطلَ على الله من أمرهم: أنَّ ذلك ليس مما أنزلته في التوراة. «إنْ كنتم صادقين»، يقول: إن كنتم مُحِقِّين في دعواكم أنَّ الله أنزل تحريمَ ذلك في التوراة، فأتونا بها، فاتلوا تحريمَ ذلك علينا منها.

وإنما ذلك خبرٌ من الله عن كَذِبهم، لأنهم لا يجيئون بذلك أبداً على صحّته، فأعْلَمَ اللهُ بكذبهم عليه نبيَّهُ ﷺ، وجعلَ إعلامَهُ إياه ذلك حجةً له عليهم. لأن ذلك إذْ كان يخفى على كثيرٍ من أهلِ ملتّهم، فمحمدٌ ﷺ وهو أميٌّ من غيرِ ملتهم، لولا أنَّ الله أعْلَمَهُ ذلك بوحيٍ من عندهِ كان أحرَى أن لا يعلمَه. فكان ذلك لَهُ ﷺ، من أعظمِ الحجةِ عليهم بأنه نبيٌّ لله، ﷺ، إليهم. لأن ذلك من أخبار أوائلهم كان من خفيِّ عُلومهم الذي لا يعلَمُه غيرُ خاصةٍ منهم، إلاّ مَنْ أعْلَمَهُ الذي لا يخفى عليه خافيةٌ من نبيٍّ أو رسول، أو مَنْ أطلعه الله على علمه ممن شاء من خلقه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩٤﴾

يعني جل ثناؤه بذلك: فمن كذبَ على الله منا ومنكم، من بعد مجيئكم بالتوراة وتلاوتكم إياها، وَعَدَمِكم ما ادَّعيتم من تحريمِ الله العروقَ ولحومَ الإبل وألبانها فيها، «فأولئك هم الظالمون»، يعني: فمن فعل ذلك منهم، «فأولئك»، يعني: فهؤلاء الذين يفعلون ذلك، «هم الظالمون»، يعني: فهم الكافرون، القائلون على الله الباطل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤهُ: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٩٥﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: «قل»، يامحمدُ «صَدَقَ الله»، فيما أخْبَرَنا به من قولهِ: «كُلُّ الطعام كان حِلاً لبني إسرائيل»، وأن الله لم يحرم على إسرائيل ولا على ولده العروقَ ولا لحومَ الإبل وألبانَها، وأنَّ ذلك إنما كان شيئاً حرّمه إسرائيلُ على نفسه وَوَلده بغير تحريمِ الله إياه عليهم في التوراة ـ وفي كل ما أخبر به عباده من خبر، دونكم. وأنتم، يامعشرَ اليهود، الكذبةُ في إضافتكم تحريم ذلك إلى الله عليكم في التوراة، المفتريةُ على الله الباطل في دعواكم عليه غير الحق، «فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين»، يقول: فإنْ كنتم، أيها اليهودُ مُحِقِّينَ في دعواكم أنكم على الدِّينِ الذي ارتضاه الله لأنبيائه ورُسله، «فاتبعوا ملة إبراهيم»، خليل الله، فإنكم تعلمون أنه الحَقُّ الذي ارتضَاهُ اللهُ مِنْ خَلْقِه ديناً، وابتعث به أنبياءَه، ذلك الحنيفية ـ يعني: الاستقامة على الإسلام وشرائعه ـ دون اليهودية والنصرانية والمشركة.

وقوله: «وما كان من المشركين»، يقول: لم يكن يشرك في عبادته أحداً من خلقه. فكذلك أنتم أيضاً، أيها اليهود، فلا يتخذ بعضكم بعضاً أرباباً من دون الله تُطيعونهم كطاعةِ إبراهيمَ ربَّهُ وأنتم يامعشرَ عَبَدَةِ الأوثان، فلا تتخذوا الأوثانَ والأصنامَ أرباباً، ولا تعبدوا شيئاً من دونِ الله، فإنَّ إبراهيمَ خليل الرحمن كان دينُه إخلاصَ العبادةِ لربه وحدَه، من غير إشراك أحد معه فيه. فكذلك أنتم أيضاً، فأخلصوا له العبادةَ ولا تشركوا معه في العبادةِ أحداً، فإنَّ جميعكم مُقِرُّونَ بأنَّ إبراهيمَ كان على حقٍّ وهَدْيٍ مستقيم، فاتبعوا ماقد أجمع جميعُكم على تصويبه من ملته الحنيفية، ودعوا ما اختلفتُمْ فيه من سائرِ الملل غيرها، أيها الأحزاب، فإنها بِدَعٌ ابتدعتموها إلى ماقد أجمعتم عليه أنه حق، فإن الذي أجمعتم عليه أنه صوابٌ وحقٌّ من ملةِ إبراهيم، هو الحق الذي ارتضيتُه وابتعثتُ به أنبيائي ورسلي، وسائرُ ذلك هو الباطل الذي لا أقبله من أحدٍ من خلقي جاءَني به يوم القيامة.

وإنما قال جل ثناؤه: «وما كان من المشركين»، يعني: وما كان من عَدَدهم وأوليائهم. وذلك أن المشركين بعضهم من بعض في التظاهر على كفرهم. ونصرةِ بعضهم بعضاً. فبرأ الله إبراهيمَ خليله أن يكون منهم أو [من] نصرائهم وأهل ولايتهم، وإنما عنى جل ثناؤه بالمشركين، اليهودَ والنصارَى وسائرَ الأديان، غير الحنيفية. قال: لم يكن إبراهيمُ من أهلِ هذه الأديان المشركة، ولكنه كان حنيفاً مسلماً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۝٩٦﴾

ومعنى ذلك: «إنَّ أول بيتٍ وضُعَ للناس»، أي: لعبادةِ الله فيه. «مباركاً وهدًى»، يعني بذلك: ومآباً لنُسْك الناسكين وطوافِ الطائفين، تعظيماً لله وإجلالاً له.

وأما قوله: «للذي ببكة مباركاً»، فإنه يعني: للبيت الذي بمُزْدَحم الناس لطوافهم في حجهم وعُمَرهم.

وأصلُ «البَكِّ» الزحم، يقال: منه: «بكَّ فلانٌ فلاناً» إذا زَحَمه وصَدَمه. «فهو يَبُكه بَكًّا، وهم يتباكُّون فيه»، يعني به: يتزاحمون ويتصادمون فيه فكأن «بَكَّة» «فَعْلة» من «بَكَّ فلان فلاناً» زحمه، سُميت البقعة بفعل المزدحمين بها.

فإذ كانت «بكة» ماوصفنا، وكان موضع ازدحام الناس حَوْل البيت، وكان لا طوافَ يجوزُ خارجَ المسجد كان معلوماً بذلك أن يكون ماحَوْل الكعبةِ من داخل المسجد، وأن ما كان خارجَ المسجد فمكة، لا «بكة». لأنه لا معنى خارجَه يُوجِبُ على الناس التَّباكَّ فيه. وإذْ كان ذلك كذلك، كان بَيِّناً بذلك فسادُ قولِ مَنْ قال: «بكة» اسم لبطنِ «مكة»، ومكة اسم للحرم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ﴾

(يعني): إنّ أول بيت وضع للناس مباركاً وهدًى للعالمين، للّذي ببكة، فيه علاماتٌ بيناتٌ من قدرةِ اللهِ وآثارِ خليله إبراهيم، منهن قَدَم خليله إبراهيم ﷺ في الحِجْرِ الذي قامَ عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ﴾

(يعني): فيه آيتٌ بينات مقامُ إبراهيم، ومَنْ يدخلهُ من الناسِ مستجيراً به، يكن آمناً مما استجارَ منه ما كانَ فيه، حتى يخرجَ منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: وفرضٌ واجبٌ لله ـ على مَنِ استطاع من أهلِ التكليفِ السبيلَ إلى حجّ بيته الحرام ـ الحجُّ إليه.

واختلف أهل التأويل في تأويل قوله عز وجل: «من استطاع إليه سبيلًا»، وما السبيل التي يجبُ مع استطاعتها فرض الحج؟

وأوْلى الأقوالِ في ذلك عندنا بالصواب: إنَّ ذلك على قَدْرِ الطاقة، لأنَّ «السبيلَ» في كلامِ العرب: الطريقُ، فَمَنْ كان واجداً طريقاً إلى الحج لا مانعَ له منه من زَمانةٍ، أو عَجْزٍ، أو عدوٍّ، أو قلةِ ماء في طريقه، أو زادٍ، أو ضَعْفٍ عن المشي، فعليه فرضُ الحج، لا يجزيه إلا أداؤهُ. فإنْ لم يكن واجداً سبيلاً ـ أعني بذلـك: فإن لم يكنْ مُطِيقاً الحجَّ، بتعذُّرِ بعضِ هذه المعاني التي

وصفناها عليه ـ فهو مِمَّنْ لا يجدُ إليه طريقاً ولا يستطيعه. لأنَّ الاستطاعةَ إلى ذلك، هو القُدرة عليه. ومَنْ كان عاجزاً عنه ببعضِ الأسبابِ التي ذكرنا أو بغير ذلك، فهو غير مُطيقٍ ولا مستطيعٍ إليه السبيلَ.

وإنما قلنا: هذه المقالة أوْلَى بالصحةِ مِمَّا خالفها، لأنَّ الله عَزَّ وجل لم يخصُص، إذ ألزم الناسَ فرضَ الحج، بعض مستطيعي السبيل إليه بسقوطِ فرضِ ذلك عنه. فذلك على كُلِّ مستطيعٍ إليه سبيلاً بعموم الآية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٩٧﴾

يعني بذلـك جل ثناؤه: ومَنْ جَحد ما ألزمه اللهُ من فَرْضِ حَجِّ بيته، فأنكرَهُ وكَفَرَ به، فإنَّ الله غنيٌّ عنه وعن حَجِّه وعملِهِ، وعن سائرِ خَلْقِه من الجن والإنس.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ۝٩٨﴾

يعني بذلـك: يامعشـر يهود بني إسرائيل وغيرهم من سائر مَنْ ينتحلُ الدِّيانة بما أنزلَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ من كتبه، مِمَّنْ كفرَ بمحمدٍ ﷺ وجحد نبوَّته: «لِمَ تكفـرون بآيات الله»، يقول: لِمَ تجحدون حُجج الله التي آتاها محمداً في كتبكم وغيرهـا، التي قد ثبتت عليكم بصدقهِ ونبوَّته وحُجتِهِ. وأنتم تعلمون: يقول: لِمَ تجحدون ذلك من أمرهِ، وأنتم تعلمون صِدْقَهُ؟ فأخبر جَلَّ ثناؤه عنهم أنهم متعمِّدون الكفرَ بالله وبرسوله على عِلْمٍ منهم، ومعرفةٍ من كفرهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: يامعشر يهود بني إسرائيل وغيرهم ممن ينتحلُ التصديقَ بكتب الله: «لم تصدُّون عن سبيل الله»، يقول: لم تُضِلُّون عن طريقِ الله ومحجَّته التي شرَعها لأنبيائه وأوليائه وأهل الإيمان. «مَنْ آمن»، يقول: من صَدَّقَ باللهِ ورَسوله وما جاءَ به من عندِ الله. «تَبْغُونَها عِوَجاً»، يعني: تبغون لها عِوَجاً[1].

وأما قوله: «وأنتم شهداء». فإنه يعني: شهداء على أنَّ الذي تَصُدُّونَ عنه من السبيلِ حقٌّ، تَعْلَمُونَهُ وتَجِدُونَهُ في كتبكم. «وما اللهُ بغافلٍ عما تعملون»، يقول: ليس الله بغافلٍ عن أعمالكم التي تعملونها مِمَّا لا يرضاه لعبادهِ وغير ذلك من أعمالكم، حتى يعاجِلَكُم بالعقوبةِ عليها معجَّلة، أو يُؤَخِّرَ ذلك لكم حتى تلقَوْهُ فيجازيكم عليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾

فتـأويل الآية: يا أيها الذين صَدَّقُوا الله ورسوله، وأقَرُّوا بما جاءهم به نَبيُّهم ﷺ من عند الله، إنْ تُطِيعوا جماعةً ممن ينتحلُ الكتابَ من أهلِ التوراةِ والإنجيلِ، فَتقبلُوا منهم ما يأمرونكم به، يُضِلُّوكم فيردُّوكم بعد تصديقكم رسولَ

---

(١) انظر معاني القرآن للزجاج: ١/٤٤٧.

رَبِّكم، وبعد إقراركم بما جاء به من عندِ رَبِّكم، كافرينَ، يقول: جاحدينَ لما قد آمنتم به وصدَّقتُموه من الحقِّ الذي جاءكم من عند ربكم. فنهاهم جَلَّ ثناؤه: أنْ ينتصِحُوهم ويقبلوا منهم رأياً أو مشورةً، ويعلِّمهم تعالى ذِكْرُه أنهم لهم منطوُون على غِلٍّ وغِشٍ وحسدٍ وبُغْض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ١٠١﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: «وكيف تكفرون»، أيها المؤمنون بعد إيمانِكم بالله وبرسوله، فترتدُّوا على أعقابِكم. «وأنتم تُتْلَى عليكم آياتُ الله»، يعني حججَ الله عليكم التي أنزلها في كتابِهِ على نبيهِ محمدٍ ﷺ. «وفيكم رسوله»، حجةٌ أخرَى عليكم لله، مع آيِ كتابه، يدعوكم جميعُ ذلك إلى الحقِّ، ويُبَصِّركُم الهدَى والرَّشاد، وينهاكم عن الغَيِّ والضلال؟ يقول لهم تعالى ذِكْرُه: فما وجه عُذْرِكُم عند رَبِّكم في جحودكم نُبُوَّةَ نبيِّكم، وارتدادكم على أعقابكم، ورجوعكم إلى أمْرِ جاهِلِيَّتكم، إنْ أنتم راجعتم ذلك وكفرتم، وفيه هذه الحججُ الواضحة والآياتُ البينة على خطأ فِعْلِكم ذلك إنْ فعلمتوه؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٠٢﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: يامَعْشَرَ مَنْ صَدَّقَ الله ورسوله. «اتقوا الله»، خَافُوا الله وراقبوه بطاعتهِ واجتنابِ معاصيه. «حَقَّ تُقاته»، حقَّ خوفهِ، وهو أن يُطاع فلا يُعْصَى، ويُشكر فلا يُكْفَر، ويُذكر فلا يُنسى. «ولا تموتن»، أيها المؤمنون

بالله ورسوله. «إلا وأنتم مسلمون» لربكم، مُذْعِنُونَ له بالطاعة، مخلصون له الألوهة والعبادة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: وتَعَلَّقُوا بأسبابِ الله جميعاً. يريد بذلك تعالى ذِكْرُه: وتمسَّكُوا بدين الله الذي أمركم به، وعهدِه[1] الذي عَهِدَهُ إليكم في كتابه إليكم، من الأُلْفَةِ والاجتماعِ على كلمة الحقِّ، والتسليمِ لأمر الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾

يعني جلَّ ثناؤُه: بقوله: «ولا تفرقوا»، ولا تتفرقوا عن دينِ الله وعهدِهِ الذي عَهِدَ إليكم في كتابِهِ، من الائتلافِ والاجتماعِ على طاعته وطاعة رسوله ﷺ، والانتهاء إلى أمره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾

وتأويل ذلك: واذْكُروا، أيها المؤمنونَ، نِعْمَةَ الله عليكم التي أنعمَ بها عليكم حين كنتم أعداء في شِرْكِكُم، يقتلُ بعضُكم بعضاً عصبيةً في غير طاعة الله ولا طاعةِ رسوله، فألَّفَ اللهُ بالإسلام بين قلوبكم، فجعل بعضكم لبعضٍ إخواناً بعد إذ كنتم أعداءً، تتواصلون بأُلْفَةِ الإسلامِ واجتماعِ كلمتِكم عليه.

---

(١) لأن الحبل في لغة العرب: العهد ويُنظر معاني القرآن للزجاج: ١/٤٥٠.

فَذَكَّرهم جَلَّ ثناؤه إذْ وَعَظَهُم، عظيمَ ما كانوا فيه في جاهليتهم من البلاءِ والشقاءِ بمعاداةِ بعضِهم بعضاً، وقَتْلِ بعضهم بعضاً، وخوفِ بعضِهم من بعض، وما صارُوا إليه بالإسلامِ واتباعِ الرَّسولِ ﷺ، والإيمانِ به وبما جاء به، من الائتلافِ والاجتماعِ، وأمْنِ بعضِهم من بعضٍ، ومصيرِ بعضِهم لبعضٍ إخواناً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «وكنتم على شفا حفرةٍ من النار»، وكنتم، يامعشرَ المؤمنينَ، من الأوسِ والخزرج، على حَرْف حُفرةٍ[1] من النار. وإنما ذلك مثَلٌ لِكُفْرِهم الذي كانوا عليه قبل أنْ يهديهم اللهُ للإسلام. يقول تعالى ذِكْرُه: وكنتم على طَرفِ جهنمَ بكفركم الذي كنتم عليه قبل أنْ يُنعم اللهُ عليكم بالإسلامِ، فتصيرُوا بائتلافكم عليه إخواناً، ليس بينكم وبين الوقوع فيها إلَّا أنْ تموتُوا على ذلك من كفركم، فتكونُوا من الخالدينَ فيها، فأنقذكم الله منها بالإيمان الذي هَدَاكُم له.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠٣﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: «كذلك»، كما بَيَّنَ لكم ربكم في هذه الآيات، أيها المؤمنون من الأوس والخزرج، من غِلِّ اليهود الذي يُضْمِرُونَهُ لكم،

---

(١) الحرف: هو من كل شيء طرفه وشفيره وحده وجانبه.

وغِشّهم لكم، وأمره إيَّاكُم بما أمَرَكُم به فيها ونهيه لكم عَمَّا نهاكم عنه، والحال التي كنتم عليها في جاهليتكم، والتي صرتم إليها في إسلامكم - مُعَرِّفَكم في كل ذلك مواقعَ نِعَمِهِ قِبَلكُم وصنائعه لديكم - فكذلك يبينُ سائر حججِه لكم في تنزيله وعلى لسانِ رسولِه ﷺ. «لعلكم تهتدون»، يعني: لتهتدُوا إلى سبيلِ الرَّشاد وتَسْلكوها، فلا تَضِلُّوا عنها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ١٠٤﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: «ولتكن منكم» أيها المؤمنون. «أمةٌ»، يقول: جماعةٌ. «يدعون» الناسَ. «إلى الخيرِ»، يعني إلى الإسلامِ وشرائعه التي شرعها الله لعباده. «ويأمرون بالمعروف»، يقول: يأمرون الناسَ باتباعِ محمدٍ ﷺ ودينه الذي جاء به من عند الله. «وينهون عن المنكر»، يعني: وينهون عن الكفر باللهِ والتكذيبِ بمحمدٍ وبما جاء به من عند الله، بجهادهم بالأيدي والجوارحِ حتى ينقادُوا لكم بالطاعة.

وقوله: «وأولئك هم المفلحون»، يعني المُنْجِحُونَ عند الله الباقون في جناته ونعيمه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٠٥﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: «ولا تكونوا»، يامعشرَ الذين آمنوا. «كالذين تفرقوا» من أهلِ الكتاب. «واختلفوا» في دينِ الله وأمرِهِ ونهيِهِ. «من بعد

ماجاءهم البينات»، من حججِ الله فيما اختلفوا فيه، وعَلِمُوا الحَقَّ فيه فَتَعَمَّدُوا خِلافَهُ، وخالَفُوا أمرَ الله، ونقضوا عَهْدَهُ وميثاقَهُ جَرَاءةً على الله. «وأولئك لهم»، يعني: ولهؤلاء الذين تفرقوا واختلفوا من أهلِ الكتاب من بعد ماجاءهم. «عذابٌ» من عند الله. «عظيم»، يقول جل ثناؤه: فلا تتفرقوا، يامعشرَ المؤمنين، في دينكم تفرُّق هؤلاء في دينهم، ولا تفعلوا فِعْلَهُم، وتَسْتَنُّوا في دينكم بِسُنَّتِهِم، فيكون لكم من عذابِ الله العظيم مثل الذي لهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

(يعني): أولئك لهم عذاب عظيمٌ في يومٍ تبيضُّ وجوهُ قومٍ وتسودُّ وجوه آخرين. فأما الذين اسْوَدَّتْ وجوههم، فيقال: أجَحدتم توحيدَ الله وعهدَهُ وميثاقَهُ الذي واثقتموه عليه، بأنْ لا تُشْرِكُوا به شيئاً، وتُخْلِصُوا له العبادةَ ـ بعد إيمانكم ـ يعني: بعد تصديقكم به؟ «فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون»، يقول: بما كنتم تجحدونَ في الدنيا ما كان الله قد أخذ ميثاقكم بالإقرار به والتصديق. «وأما الذين ابيضّت وجوههم» ممن ثبتَ على عهدِ الله وميثاقه، فلم يبدّل دينه، ولم ينقلب على عَقِبيه بعد الإقرار بالتوحيد، والشهادةِ لربه بالألوهة، وأنه لا إله غيره. «ففي رحمة الله»، يقول: فهمْ في رحمةِ الله، يعني: في جنته ونعيمها وما أعَدَّ اللهُ لأهلها فيها. «هم فيها خالدون»، أي: باقونَ فيها أبداً بغيرِ نهايةٍ ولا غاية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا

﴿ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٨﴾

وإنما يعني بقوله: «تلك آيات الله»، هذه الآيات التي ذكر فيها أمورَ المؤمنين من أنصارِ رسولِ الله ﷺ وأمور يهود بني إسرائيل وأهل الكتاب، وما هو فاعلٌ بأهلِ الوفاء بعهدِهِ، وبالمبدِّلينَ دِينَهُ، والناقضينَ عهدَهُ بعد الإقرار به. ثم أخبر عز وجل نبيه محمداً ﷺ أنه يتلو ذلك عليه بالحق، وأعلمه أنَّ مَنْ عاقبَ من خَلْقِه بما أخبر أنه مُعَاقِبُهُ به: من تسويدِ وجهِهِ، وتخليدِهِ في أليمِ عذابِهِ وعظيمِ عقابِهِ ـ ومَنْ جازاه منهم بما جازاه: من تبييضِ وجهِهِ وتكريمِهِ وتشريفِ منزلتِهِ لديه، بتخليدِهِ في دائمِ نعيمه، فبغيرِ ظلمٍ منه لفريقٍ منهم، بل بحقٍّ استوجبوه، وأعمالٍ لهم سلفت جازاهم عليها، فقال تعالى ذكره: «وما اللهُ يريدُ ظلماً للعالمين»، يعني بذلك: وليس الله يامحمد ـ بتسويدِ وجوهِ هؤلاء وإذاقَتِهم العذابَ العظيم، وتبييض وجوه هؤلاء وتنعيمه إيَّاهُم في جنته ـ طالباً وضعَ شيءٍ مما فعل من ذلك في غيرِ موضعِهِ الذي هو موضعه ـ إعلاماً بذلك عبادَهُ أنه لَنْ يصلح في حكمته بخلقه غير ماوَعَدَ أهلَ طاعتِهِ والإيمان به، وغير ما أوْعَدَ أهلَ معصيتِهِ والكفر به، وإنذاراً منه هؤلاء، وتبشيراً منه هؤلاء.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ١٠٩﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: أنه يعاقبُ الذين كفروا بعد إيمانهم بما ذكر أنه مُعَاقِبهم به من العذابِ العظيم وتسويدِ الوجوه، ويثيب أهلَ الإيمانِ به الذين ثبتُوا على التصديقِ والوفاءِ بعهودِهم التي عاهدوا عليها بما وصفَ أنه مُثِيبهم به من الخلودِ في جِنانِهِ، من غيرِ ظلمٍ منه لأحدِ الفريقين فيما فعل، لأنه لا

حاجةَ به إلى الظلم. وذلك أنَّ الظالمَ إنما يظلمُ غيرَهُ ليزدادَ إلى عِزِّهِ عزةً بظلمهِ إياه، أو إلى سلطانهِ سلطاناً، أو إلى مُلْكِه ملكاً، أو إلى نقصانٍ في بعض أسبابه يتمم بها ظُلْمَ غيره فيه ما كان ناقصاً من أسبابهِ عن التمام. فأما مَنْ كان له جميع ما بينَ أقطارِ المشارقِ والمغاربِ، وما في الدنيا والآخرة، فلا معنى لِظُلْمِهِ أحداً، فيجوز أنْ يظلمَ شيئاً، لأنه ليس من أسبابه شيءٌ ناقصٌ يحتاجُ إلى تمامٍ، فيتم ذلك بظُلْمِ غيره، تعالى اللهُ عُلُوًّا كبيراً. ولذلك قال جل ثناؤه عَقِيب قوله: «وما اللهُ يريدُ ظلماً للعالمين»، «ولله ما في السموات وما في الأرض وإلى الله تُرْجَعُ الأمورُ».

وأما قوله: «وإلى الله ترجع الأمور» فإنه يعني تعالى ذكره: إلى الله مصيرُ أمرِ جميعِ خَلْقِه، الصالح منهم والطالح، والمحسن والمسيء، فيجازي كلًّا على قَدْرِ استحقاقهم منه الجزاء، بغير ظلمٍ منه أحداً منهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ

اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: «كنتم خير أمة أخرجت للناس».

فقال بعضهم: هم الذين هَاجَرُوا مع رسولِ الله ﷺ من مكةَ إلى المدينة خاصةً، من أصحابِ رسول الله ﷺ.

وقال آخرون: معنى ذلك: كنتم خير أمة أخرجت للناس، إذا كنتم بهذه الشروطِ التي وصفهم جَلَّ ثناؤه بها. فكان تأويل ذلك عندهم: كنتم خير أمة تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله، أُخْرِجُوا للناس في زمانكم.

وقال آخرون: إنما قيل: «كنتم خير أمة أخرجت للناس»، لأنهم أكثر الأمم استجابةً للإسلام.

آل عمران: ١١٠

وقال بعضهم: عَنَى بذلك أنهم كانوا خير أمة أخرجت للناس.

وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية (قول من قال): إنهم كانوا خير أمةٍ أُخرجت للناس[1].

وأما قوله: «تأمرون بالمعروف»، فإنه يعني: تأمرون بالإيمانِ بالله ورسولِهِ والعملِ بشرائعه. «وتنهون عن المنكر»، يعني: وتنهون عن الشركِ بالله، وتكذيبِ رسولِهِ، وعن العملِ بما نهى عنه.

فإنْ سأل سائلٌ فقال: وكيف قِيلَ: «كنتم خير أمة»، وقد زَعَمْتَ أنَّ تأويلَ الآية: إنَّ هذه الأمةَ خيرُ الأممِ التي مضت، وإنما يقال: «كنتم خير أمة»، لقومٍ كانوا خياراً فتغيَّرُوا عما كانوا عليه؟

قيل: إنَّ معنى ذلك بخلافِ ماذهبتَ إليه: ، وإنما معناه: أنتم خير أمة، كما قيل: ﴿وَٱذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ﴾ [الأنفال: ٢٦]، وقد قال في موضع آخر: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦]، فإدخالُ «كان» في مِثْلِ هذا

---

(١) لحديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا إنكم وفيتم سبعين أمة، أنتم آخرها وأكرمها على الله». وهو حديث حسن أخرجه الطبري (٨٧٣) و(٧٦٢١) و(٧٦٢٢)، وأحمد: ٣/٥ و٢٥، والدارمي: ٣١٢/٢، وابن ماجة (٤٢٨٧) و(٤٢٨٨)، والترمذي (٣٠٠١) وحسّنه، والحاكم: ٨٤/٤ وصححه ووافقه الذهبي. وبهز يُتابع عليه عند أحمد: ٤٤٧/٤، وينظر فتح الباري: ٢٢٥/٨. وجده هو الصحابي معاوية بن حيدة القشيري كما في تهذيب الكمال: ١٧٢/٢٨.

وإسقاطها بمعنىً واحد، لأنَّ الكلامَ معروف معناه[1].

ولو قال أيضاً في ذلك قائل: «كنتم»، بمعنى التمام، كان تأويله: خُلِقْتُم خيرَ أمةٍ، أو: وُجِدْتُم خيرَ أمة، كان معنى صحيحاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾

يعني بذلك تعالى ذكره: ولو صدَّق أهلُ التوراةِ والإنجيل من اليهود والنصارى بمحمدٍ ﷺ وما جاءهم به من عند الله، لكان خيراً لهم عند الله في عاجلِ دُنْياهم وآجلِ آخرتهم. «منهم المؤمنون»، يعني: من أهلِ الكتابِ من اليهود والنصارى، المؤمنون المُصَدِّقُونَ رسولَ الله ﷺ فيما جاءهم به من عند الله، وهم: عبدالله بن سَلَام وأخوه، وثعلبة بن سَعْيَة وأخوه، وأشباههم مِمَّنْ آمنوا بالله وصَدَّقوا برسولِه محمدٍ ﷺ، واتَّبَعُوا ما جاءهم به من عندِ الله. «وأكثرهم الفاسقون»، يعني: الخارجون عن دينهم. وذلك أنَّ من دينِ اليهود اتباعُ ما في التوراةِ والتصديقُ بمحمدٍ ﷺ، ومن دينِ النصارى اتباعُ مافي الإنجيل، والتصديق به وبما في التوراة، وفي كلا الكتابين صفةُ محمدٍ ﷺ ونَعْته ومبعثه، وأنه نبيُّ الله. وكلتا الفرقتين ـ أعني اليهود والنصارى ـ مكذِّبةٌ، فذلك فِسْقُهم وخروجهم عن دينهم الذي يَدَّعُونَ أنهم يَدِينونَ به، الذي قال جَلَّ ثناؤه: «وأكثرهم الفاسقون».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ﴾

(١) ينظر معاني القرآن للفراء ١/٢٢٩.

يعني بذلك جل ثناؤه: لَنْ يضركم، ياأهلَ الإيمانِ باللهِ ورسولِهِ، هؤلاء الفاسقون من أهلِ الكتابِ بكفرهم وتكذيبهم نبيَّكم محمداً ﷺ شيئاً. «إلا أذى»، يعني بذلك: ولكنهم يُؤْذُونَكُم بشِرْكِهم، وإسماعِكُم كُفْرَهُم، وقولهم في عيسى وأمه وعُزير، ودعائِهم إيَّاكُم إلى الضلالةِ، ولَنْ يَضُرُّوكُم بذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ١١١﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: وإنْ يقاتلكم أهلُ الكتابِ من اليهودِ والنصارى يُهْزَمُوا عنكم، فَيُوَلُّوكُم أدبارَهُم انهزاماً.

فقوله: «يولوكم الأدبار»، كناية عن انهزامِهم، لأنَّ المنهزِمَ يُحوِّلُ ظَهْرَهُ إلى جهةِ الطالبِ هرباً إلى ملجأ وموئلٍ يَئِلُ إليه منه، خوفاً على نفسه، والطالبُ في أثره. فدبُرُ المطلوبِ حينئذٍ يكون محاذيَ وجهِ الطالبِ الهازِمِه.

«ثم لا يُنْصَرُونَ»، يعني: ثم لا ينصرهم الله، أيها المؤمنون، عليكم، لكفرهم بالله ورسوله، وإيمانكم بما آتاكم نَبيكم محمد ﷺ. لأنَّ الله عز وجل قد ألقى الرُّعْبَ في قلوبِهم، فأيَّدكُم أيها المؤمنون بنصركم.

وهذا وَعْدٌ من الله تعالى ذِكْرُه نبيه محمداً ﷺ وأهلَ الإيمانِ، نصرَهم على الكَفَرَةِ به من أهلِ الكتاب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «ضُربت عليهم الذلةُ»، أُلزِمُوا الذلَّةَ. «أينما ثُقِفُوا»

حيثما لُقُوا.

يعني جل ثناؤه: أُلزمَ اليهودُ المكذبون بمحمدٍ ﷺ الذلة أينما كانوا من الأرض، وبأيِّ مكانٍ من بقاعها، من بلاد المسلمين والمشركين «إلّا بحبلٍ من الله وحبلٍ من الناس».

وأما «الحبل» الذي ذكره الله في هذا الموضع، فإنه السبب الذي يأمنون به على أنفسهم من المؤمنين وعلى أموالهم وذراريهم، من عهدٍ وأمانٍ تَقَدَّمَ لهم عَقْدُه قبل أن يُثْقَفُوا في بلاد الإسلام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ﴾

فتأويل الكلام: أُلْزِمُوا الذِلَّةَ بأيِّ مكانٍ لُقوا، إلا بذمةٍ من الله وذمةٍ من الناس، وانصرفوا بغضبٍ من الله مُتَحَمِّلِيهِ، وأُلْزِمُوا ذُلَّ الفاقةِ وخشوعَ الفَقْرِ، بدلاً مما كانوا يجحدون بآياتِ اللهِ وأدلَّتِهِ وحُجَجِهِ، ويقتلون أنبياءَهُ بغير حَقٍّ ظُلماً واعتداءً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝١١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فَعَلْنا بهم ذلك بِكُفْرِهم، وقتلِهِم الأنبياءَ، ومعصيتهم ربَّهم، واعتدائهم أمرَ رَبِّهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۝١١٣﴾

وإنما قيل: «ليسوا سواء»، لأن فيه ذِكْرَ الفريقين من أهلِ الكتاب اللذين ذكرهما الله في قوله: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ثم أخبر جل ثناؤه عن حال الفريقين عنده، المؤمنة منهما والكافرة فقال: «ليسوا سواء»، أي: ليس هؤلاء سواء، المؤمنون منهم والكافرون. ثم ابتدأ الخبرَ جَلَّ ثناؤه عن صِفَةِ الفِرْقةِ المؤمنةِ من أهلِ الكتابِ، ومدحَهم وأثنى عليهم، بعد ما وصَفَ الفِرْقةَ الفاسقةَ منهم بما وصَفَهَا به من الهَلَعِ، ونَخْبِ[1] الجنَان، ومحالفةِ الذلِّ والصَّغَارِ، وملازمةِ الفاقةِ والمَسْكنةِ، وتحمل خِزْيِ الدنيا وفضيحةِ الآخرة، فقال: «مِنْ أهلِ الكتاب أمَّة قائمةٌ يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون»، الآيات الثلاث إلى قوله: «والله عليم بالمتقين»، وغير ذلك من أسبابِ الخيرِ، من صفةِ أهلِ الاستقامةِ على كتابِ الله وسنةِ رسولِ الله ﷺ.

فتأويل الكلام: مِنْ أهلِ الكتابِ جماعةٌ معتصمةٌ بكتابِ الله، متمسكةٌ به، ثابتةٌ على العملِ بما فيه وما سَنَّ لهم رسولُه ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۝١١٣﴾

يعني بقوله: «يتلون آيات الله»، يقرأون كتابَ الله آناءَ الليلِ. ويعني

---

(١) النخب: الجُبن وضَعْفُ القلب.

بقوله: «آيات الله»، ما أنزل في كتابه من العِبَر والمواعظِ. يقول: يتلون ذلك آناءَ الليلِ، يقول: في ساعاتِ الليلِ فيتدبَّرُونَهُ ويتفكَّرونَ فيه.

وأما «آناء الليل»، فساعاتُ الليل، واحدها «إِنْيٌ».

واختلف أهل التأويل في تأويل ذلك:

فقال بعضهم: تأويله: ساعات الليل، كما قلنا.

وقال آخرون: «آناء الليل»، جوف الليل.

وقال آخرون: بل عُنِيَ بذلك قومٌ كانوا يُصَلُّونَ العشاء الآخرة.

وهذه الأقوال التي ذكرتُها على اختلافِها، متقاربةُ المعاني. وذلك أنَّ الله تعالى ذِكْرُه وصَفَ هؤلاء القوم بأنهم يتلونَ آياتِ اللهِ في ساعاتِ الليلِ، وهي آناؤه، وقد يكون تَالِيها في صلاةِ العشاء تالياً لها آناءَ الليل، وكذلك مَنْ تلاها فيما بين المغرب والعشاء، ومَنْ تلاها جوفَ الليل، فكلٌّ تالٍ له ساعات الليل. غير أنَّ أوْلى الأقوالِ بتأويلِ الآية، قولُ مَنْ قال: «عَنَى بذلك تلاوةَ القرآن في صلاة العشاء»، لأنها صلاةٌ لا يصليِّها أحدٌ من أهل الكتاب، فوصف اللهُ أمةَ محمدٍ ﷺ بأنهم يصلونها دونَ أهلِ الكتابِ الذين كفروا بالله ورسوله.

وأما قوله: «وهم يسجدون»، فإنَّ بعضَ أهلِ العربيةِ زعم أنَّ معنى «السجود» في هذا الموضع، اسمٌ للصلاة لا للسجود، لأنَّ التلاوةَ لا تكون في السجود ولا في الركوع. فكان معنى الكلام عنده: يتلون آياتِ الله آناءَ الليلِ وهم يُصَلُّونَ[1].

وليس المعنى على ماذهب إليه، وإنما معنى الكلام: مِنْ أهلِ الكتاب

---

(١) هذا هو قول الفراء في معاني القرآن: ١/٢٣١.

أمةٌ قائمة يتلون آياتِ الله آناء الليل في صلاتهم، وهم مع ذلك يسجدونَ فيها، فـ «السجود»، هو «السجود» المعروفُ في الصلاة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٤﴾

يعني بقوله جل وعز: «يؤمنون بالله واليوم الآخر»، يُصَدِّقُونَ بالله وبالبعثِ بعد المماتِ، ويعلمون أنَّ الله مُجازِيهم بأعمالِهم، وليسوا كالمشركين الذين يَجْحدُون وحدانيةَ الله، ويعبدونَ معه غيره، ويكَذِّبون بالبعثِ بعد المماتِ، ويُنْكِرون المجازاة على الأعمال، والثوابَ والعقابَ.

وقوله: «ويأمرون بالمعروف»، يقول: يأمرون الناسَ بالإيمانِ بالله ورسولِهِ، وتصديق محمدٍ ﷺ وما جاءهم به. «وينهون عن المنكر»، يقول: وينهون الناسَ عن الكفرِ بالله، وتكذيبِ محمدٍ وما جاءهم به من عند الله، يعني بذلك: أنهم ليسوا كاليهود والنصارى الذين يأمرون الناس بالكفر وتكذيب محمد فيما جاءهم به، ويَنْهَونَهم عن المعروف من الأعمال، وهو تصديقُ محمدٍ فيما أتاهم به من عند الله. «ويسارعون في الخيرات»، يقول: ويبتدرون فِعْلَ الخيراتِ خشيةَ أنْ يفوتهم ذلك قبل معاجلتهم مَنَايَاهُم.

ثم أخبر جل ثناؤه أنَّ هؤلاء الذين هذه صِفَتُهم من أهلِ الكتابِ، هم من عِدَادِ الصالحينَ، لأنَّ مَنْ كان منهم فاسقاً، قد باء بغضبٍ من الله لِكُفْرِه بالله وآياتِهِ، وقتلهم بغير حق، وعصيانِهِ ربَّهُ واعتدائه في حدوده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾

(يعني): وما تفعل هذه الأمةُ من خير، وتعملْ من عملٍ لله فيه رضىً، فلن يَكْفُرَهم اللهُ ذلك. يعني بذلك: فلن يُبْطِلَ اللهُ ثوابَ عملِهم ذلك، ولا يَدَعُهم بغيرِ جزاءٍ منه لهم عليه، ولكنه يُجزِلُ لهم الثوابَ عليه، ويُسْنِي[1] لهم الكَرَامة والجزاء.

وأما قوله: «والله عليم بالمتقين»، فإنه يقول تعالى ذِكْرُه: والله ذُو عِلْمٍ بمن اتقاه، لطاعتهِ واجتنابِ معاصيه، وحافظٌ أعمالَهم الصالحةَ حتى يُثِيبَهُم عليها ويجازيهم بها، تبشيراً منه لهم جَلَّ ذِكْرُه في عاجلِ الدنيا، وحضًا لهم على التمسك بالذي هم عليه من صالحِ الأخلاقِ التي ارتضاها لهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾

وهذا وعيدٌ من الله عَزَّ وجل للأمةِ الأخرى الفاسقة من أهلِ الكتابِ، الذين أخبرَ عنهم بأنهم فاسقون، وأنهم قد بَاؤوا بغضبٍ منه، ولمن كان من نُظَرائِهم من أهلِ الكفرِ بالله ورسوله وما جاء به محمدٌ ﷺ من عند الله.

يقول تعالى ذكره: «إن الذين كفروا»، يعني: الذين جَحَدوا نبوةَ محمدٍ ﷺ وكَذَّبُوا به وبما جاءهم به من عندِ الله. «لن تغني عنهم أموالُهم ولا أولادهم

---

(١) السناء: الرفعة. وأسناه: رفعه، فمعناه: يرفع لهم الكرامة والجزاء.

من الله شيئاً»، يعني: لَنْ تدفعَ أموالُه التي جمعها في الدنيا، وأولادُه الذين ربَّاهم فيها، شيئاً من عقوبةِ اللهِ يومَ القيامةِ إنْ أخَّرَهَا لهم إلى يوم القيامة، ولا في الدنيا إنْ عَجَّلها لهم فيها.

وإنما خَصَّ أولادَهُ وأموالَهُ، لأنَّ أولادَ الرجلِ أقربُ أنسبائه إليه، وهو على مالِهِ أقْدَرُ منه على مالِ غيرِهِ، وأمرُهُ فيه أجوزُ من أمرِهِ في مالِ غيره. فإذا لم يُغْنِ عنه ولَدُهُ لِصُلْبِهِ، ومالُه الذي هو نافذُ الأمرِ فيه، فغيرُ ذلك من أقربائِهِ وسائرِ أنسبائِهِ وأموالِهم، أبعد من أنْ تُغْنِيَ عنه من الله شيئاً.

ثم أخبرَ جَلَّ ثناؤه أنهم هم أهل النار الذين هم أهلها بقوله: «وأولئك أصحابُ النارِ»، وإنما جَعلهم أصحابَها، لأنهم أهلها الذينَ لا يخرجون منها ولا يفارقونها، كصاحبِ الرجلِ الذي لا يفارقه، وقرينِه الذي لا يُزَايِلُه. ثم وَكَّدَ ذلك بإخبارِهِ عنهم أنهم «فيها خالدون»، أنَّ صُحْبَتَهُم إياها صحبةٌ لا انقطاعَ لها، إذْ كان من الأشياء ما يفارقُ صاحبَهُ في بعض الأحوالِ، ويُزايله في بعض الأوقات، وليس كذلك صُحبةُ الذين كفروا النارَ التي أُصْلُوها، ولكنها صحبةٌ دائمةٌ لا نهايةَ لها ولا انقطاع. نعوذُ باللهِ مِنها ومما قَرَّبَ منها مِنْ قولٍ وعملٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: شَبَهُ ما يُنْفِقُ الذين كفروا، أي: شَبَهُ ما يَتَصَدَّقُ به الكافرُ من مالِهِ، فيعطيه مَنْ يعطيه على وجه القُربةِ إلى ربِّهِ وهو لوحدانيةِ الله جاحـدٌ، ولمحمـدٍ ﷺ مُكَـذِّبٌ، في أنَّ ذلك غير نافعِهِ مع كُفْرِهِ، وأنه مُضْمَحِلٌّ عند حاجتِهِ إليه، ذاهبٌ بعد الذي كان يرجو من عائدةِ نفعِهِ عليه كَشَبه

ريحٍ فيهـا بردٌ شديدٌ، أصـابتْ هذه الـريحُ التي فيها البَرْد الشديد. «حَرْثَ قومٍ»، يعني: زَرْعَ قومٍ قد أَمَّلُوا إدراكَهُ، ورجَوْا رَيْعَهُ وعائدةَ نفعهِ. «ظلموا أنفسهم»، يعني: أصحـابَ الـزرع، عصـوا الله وتعدَّوا حدودَهُ. «فأهلكته»، يعني: فأهلكت الريحُ التي فيها الصِرُّ زَرْعَهم ذلك، بعد الذي كانوا عليه من الأملِ ورجاء عائدةِ نفعهِ عليهم.

يقول تعالى ذِكْرُه: فكذلك فَعَلَ اللهُ بنفقةِ الكافرِ وصدقتهِ في حياته، حين يلقاه، يبطل ثوابها ويخيب رجاؤه منها. وخرج المثَل للنفقة، والمراد بـ «المثل» صنيعُ اللهِ بالنفقةِ. فبيَّن ذلك قوله: «كَمَثَلِ ريحٍ فيها صِرٌّ»، فهو كما قد بَيَّنَّا في مثله قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً﴾ [البقرة: ١٧]، وما أشبه ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝١١٧﴾

يعني بذلـك جل ثنـاؤه: وما فعلَ اللهُ بهؤلاء الكفارِ ما فَعَلَ بهم، من إحباطِهِ ثوابَ أعمالِهم وإبطاله أُجُورَها ظُلْماً منه لهم يعني: وضعاً منه لما فعل بهم من ذلك في غيرِ مَوْضِعه وعند غيرِ أهله، بل وضعَ فعله ذلك في موضعه، وفعل بهم ماهُمْ أهلُهُ. لأنَّ عملَهم الذي عملوه لم يَكُنْ لله وهُمْ له بالوحدانيةِ دائنـون، ولأمـره مُتَّبعـونَ، ولِـرُسُلِهِ مُصَـدِّقُـونَ، بل كان ذلك منهم وهم به مشركونَ، ولأمرهِ مخالفون، ولرسله مُكَذِّبونَ، بعد تقدُّم منه إليهم أنه لايقبلُ عمـلاً من عامـلٍ إلاّ مع إخـلاصِ التوحيدِ له والإقرارِ بنبوةِ أنبيائهِ، وتصديقِ ما جاؤوهم به، وتوكيدِهِ الحُجَجَ بذلك عليهم. فلم يكن بفعلِهِ ما فَعَلَ بمن كَفَرَ به وخالفَ أمْرَهُ في ذلك بعد الإعذارِ إليه، من إحباطِ وَفْرِ عملِهِ له ظالماً، بل

الكافرُ هو الظالمُ نَفْسَهُ، لإكسابِها من معصيةِ الله وخلافِ أمرِهِ، ما أوردها به نارَ جهنمَ، وأصْلاها به سعيرَ سقَر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ﴾

يعني بذلك تعالى ذكره: ياأيها الذين صَدَّقُوا الله ورسوله، وأقَرُّوا بما جاءهم به نَبِيُّهم من عند ربهم. «لاتتخذوا بطانةً من دونكم»، يقول: لاتَتَّخِذُوا أولياءَ وأصدقاءَ لأنفسكم. «من دونكم» يقول: من دونِ أهلِ دينكم ومِلَّتكم، يعني من غير المؤمنين.

وإنما جعل «البطانةَ» مثلاً لخليلِ الرجل، فَشَبَّهَهُ بما وَلِيَ بَطْنَهُ من ثيابهِ، لحلوله منه ـ في اطِّلاعه على أسراره وما يطويه عَنْ أباعدِهِ وكثيرٍ من أقاربهِ ـ محلَّ ماوَلِيَ جَسده من ثيابه.

فنهى اللهُ المؤمنينَ به أنْ يَتَّخِذُوا من الكفارِ بهِ أخِلَّاء وأصفياء، ثم عَرَّفَهُم ماهُمْ عليه لهم مُنْطَوُونَ من الغِشِّ والخيانةِ، وبَغْيِهم إياهم الغوائلَ، فَحَذَّرهم بذلك منهم ومن مُخَالَّتِهم، فقال تعالى ذكره: «لا يألونكم خَبالاً»، يعني: لا يستطيعونكم شراً.

وأما قوله: «ودوا ماعنِتُّم»، فإنه يعني: وَدُّوا عَنَتَكم. يقول: يتمنون لكم العَنَتَ والشرَّ في دِينكم وما يسوؤكم ولا يسرُّكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: قد بَدَتِ بغضاءُ هؤلاء الذين نهيتكم أيها

المؤمنــون، أنْ تَتَّخِـذُوهم بطانـةً من دُونِكم لكم. «من أفـواههم»، يعني: بألسنتهم والذي بدا لهم منهم بألسنتهم، إقامتهم على كُفْرِهم، وعَدَاوتهم مَنْ خالفَ ماهُمْ عليه مُقيمونَ من الضلالةِ. فذلك مِنْ أوكدِ الأسبابِ في معاداتِهم أهلَ الإيمانِ، لأنَّ ذلك عداوةٌ على الدينِ، والعداوةُ على الدين العداوةُ التي لا زوالَ لها إلَّا بانتقالِ أحد المُتَعَادِيَيْنِ إلى مِلَّةِ الآخرِ منهما، وذلك انتقال من هُدِيَ إلى ضلالة كانت عند المنتقل إليها ضلالة قبل ذلك. فكان في إبدائهم ذلك للمؤمنين، ومقامهم عليه، أبينُ الدلالةِ لأهلِ الإيمانِ على ماهُمْ عليه لهم من البغضاء والعداوة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ

يعني تعالى ذكره بذلك: والذي تُخْفِي صُدُورُهم يعني: صُدور هؤلاء الذين نَهاهُم عن اتِّخاذِهم بطانةً، فتخفيه عنكم، أيها المؤمنون «أكبر»، يقول: أكبرُ مِمَّا قد بَدَا لكم بألسِنَتِهم من أفواهِهم من البغضاءِ وأعظم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: «قد بَيَّنَّا لكم» أيها المؤمنون. «الآيات»، يعني بـ «الآيات» العِبَر. قد بَيَّنا لكم من أمر هؤلاء اليهود الذين نهيناكم أنْ تَتَّخِذُوهم بطانةً من دون المؤمنين، ماتعتبرونَ وتَتَّعِظُونَ به من أمرهم. «إنْ كنتم تعقلون»، يعني: إنْ كنتم تعقلون عن اللهِ مواعظَهُ وأمْرَهُ ونَهْيَهُ، وتعرفون مواقعَ نفعِ ذلك منكم، ومبلغَ عائدتهِ عليكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: ها أنتم، أيها المؤمنون، الذين تُحِبُّونَهم، يقول: تُحِبُّونَ هؤلاء الكفار الذين نَهَيْتُكم عن اتخاذهم بطانةً من دون المؤمنين، فتودُّونَهُم وتُواصِلُونَهم وهم لا يُحبونكم، بل يُبْطِنُونَ لكم العداوةَ والغِشَّ «وتؤمنون بالكتاب كله».

ومعنى «الكتاب» في هذا الموضع معنى الجمع، كما يقال: «كَثُرَ الدِّرهمُ في أيدي الناس»، بمعنى الدراهم.

فكذلك قوله: «وتؤمنون بالكتاب كله»، إنما معناه: بالكتبِ كُلِّها، كتابكم الذي أنزلَ اللهُ إليكم، وكتابهم الذي أنزلَهُ إليهم، وغير ذلك من الكتبِ التي أنزلها اللهُ على عباده.

يقول تعالى ذِكْرُه: فأنتم إذْ كنتم، أيها المؤمنون، تؤمنون بالكتبِ كُلِّها، وتعلمون أنَّ الذين نَهَيْتُكم عن أنْ تَتَّخِذُوهم بطانةً من دونكم كفارٌ بذلك كله، بجحودهم ذلك كله من عهودِ اللهِ إليهم، وتبديلهم مافيه من أمرِ الله ونهيه أَوْلَى بعداوتِكم إيَّاهم وبغضائهم وغشهم، منهم بعداوتكم وبغضائكم، مع جحودِهم بعضَ الكتبِ وتكذيبهم ببعضها.

وفي هذه الآية إبانةٌ من الله عَزَّ وجَلَّ عن حالِ الفريقين ـ أعني المؤمنين والكافرين، ورحمة أهل الإيمان ورأفتهم بأهلِ الخلاف لهم، وقساوة قلوبِ أهلِ الكفرِ وغِلْظَتهم على أهلِ الإيمان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ﴾

يعني بذلك تعالى ذكره: أنَّ هؤلاء الذين نَهَى اللهُ المؤمنينَ أنْ يَتَّخِذُوهم بطانةً من دونِهم، ووَصَفَهم بِصِفَتِهم، إذا لَقُوا المؤمنينَ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ أعطوهم بألسنتهم تقيةً حذراً على أنفسهم منهم فقالوا لهم: «قد آمنا وصَدَّقْنَا بما جاءَ به محمدٌ ﷺ»، وإذا هُمْ خَلَوْا فصاروا في خلاء حيث لا يراهمُ المؤمنونَ، عَضُّوا ـ على مايَرَوْنَ من ائتلافِ المؤمنين واجتماعِ كلمتهم وصلاحِ ذاتِ بينهم ـ أناملَهُم، وهي أطرافُ أصابعهم، تَغَيُّظاً مما بهم من المَوْجَدةِ عليهم، وأسىً على ظهرٍ يُسندون إليه لمكاشفتهم العداوة ومناجزتهم المحاربة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: «قل»، يامحمد لهؤلاء اليهود الذين وصفتُ لك صِفَتَهم، وأخبرتكَ أنهم إذا لَقُوا أصحابكَ قالوا: آمنا، وإذا خَلَوْا عَضُّوا عليكمُ الأناملَ من الغيظِ: «موتوا بغيظكم» الذي بكم على المؤمنين لاجتماعِ كلمتهم وائتلاف جماعتهم.

وخَرَجَ هذا الكلام مخرجَ الأمر، وهو دعاءٌ من الله نبيَّه محمداً ﷺ بأنْ يدعوَ عليهم بأنْ يُهْلِكَهُم اللهُ، كَمَداً مما بهم من الغيظِ على المؤمنين، قبل أنْ يَرَوْا فيهم مايَتَمَنَّوْنَ لهم من العَنَتِ في دينهم، والضلالةِ بعد هُدَاهم، فقال لنبيه ﷺ: قل يامحمد: اهلكوا بغيظكم «إن الله عليم بذات الصدور»، يعني بذلك: إنَّ الله ذُو عِلْمٍ بالذي في صدورِ هؤلاء الذين إذا لَقُوا المؤمنين قالوا: «آمنا»، وما ينطوونَ لهم عليه من الغِلِّ والغَمِّ، ويعتقدون لهم من العداوةِ والبغضاء، وبما في صدورِ جميعِ خلقه، حافظٌ على جميعهم ماهوَ عليه مُنْطَوٍ من خيرٍ وشر. حتى يجازي جميعَهُم على ما قَدَّمَ من خيرٍ وشر، واعتقد من

إيمانٍ وكفرٍ، وانطوى عليه لرسولِهِ وللمؤمنينَ من نصيحةٍ، أو غِلٍّ وغِمْرٍ[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾

يعني بقوله تعالى ذكره: «إنْ تمسسكم حسنة تسؤهم»، إنْ تنالوا، أيها المؤمنون، سروراً بظهورِكم على عَدُوِّكُم، وتَتابُعِ الناسِ في الدخول في دينكم، وتصديقِ نَبِيِّكُم ومعاونتكم على أعدائكم يسؤهم. وإنْ تَنَلْكُم مساءةٌ بإخفاقِ سريةٍ لكم، أو بإصابةِ عدوٍّ لكم منكم، أو اختلافٍ يكون بين جماعتكم يَفْرَحُوا بها.

وأما قوله: «وإنْ تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً»، فإنه يعني بذلك جل ثناؤه: «وإنْ تَصْبِرُوا»، أيها المؤمنون، على طاعةِ اللهِ واتِّباعِ أمرهِ فيما أمرَكُم به، واجتنابِ مانهاكم عنه: من اتخاذِ بطانةٍ لأنفسكم من هؤلاءِ اليهودِ الـذين وصَفَ اللهُ صِفَتَهُم من دونِ المؤمنين، وغير ذلك من سائرِ مانهاكم. «وتتقوا» ربكم، فتخافوا التقدمَ بين يديه فيما ألزمكم وأوجبَ عليكم من حَقِّهِ وحَقِّ رسولِهِ. «لا يضركم كيدهم شيئاً»، أي: كيدُ هؤلاء الذين وَصَفَ صِفَتَهُم.

ويعني بـ«كيدهم»، غَوائِلَهم التي يَبْتَغُونَها للمسلمين، ومَكْرُهم بهم، ليصدُّوهم عن الهدى وسبيلِ الحق.

---

(١) الغمر: الحقد والغِلُّ الذي يغمر القلب غمراً.

وقوله: «إنَّ اللهَ بما يعملون محيطٌ»، يقول جل ثناؤه: إنَّ الله بما يعملُ هؤلاء الكفار في عبادهِ وبلادهِ من الفسادِ والصَّدِّ عن سبيلِه، والعداوةِ لأهلِ دِينهِ، وغيرِ ذلك من معاصي الله. «محيطٌ» بجميعهِ، حافظٌ له، لا يَعْزُبُ عنه شيءٌ منه، حتى يُوَفِّيهم جزاءهم على ذلك كُلِّهِ، ويُذِيقَهُم عقوبَتَهُ عليه.

القَــوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٢١﴾

يعني جل ثنـاؤه بقوله: «وإذْ غدوتَ من أهلك تبوىء المؤمنين»، وإنْ تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا لا يضرُّكُم، أيها المؤمنون، كَيْدُ هؤلاءِ الكفارِ من اليهودِ شيئاً، ولكنَّ الله ينصـرُكم عليهم إنْ صبـرتم على طاعتي واتبـاعِ أمرِ رسولي، كما نصرتكم ببدرٍ وأنتم أذِلَّةٌ. وإنْ أنتم خالفتم، أيها المؤمنون، أمري ولم تصبروا على ما كَلَّفْتُكم من فرائضي، ولم تَتَّقُـوا مانَهيتكم عنـه وخـالفتم أمري وأمرَ رسولي، فإنه نازلٌ بكم مانزل بكم بأحُدٍ. واذكروا ذلك اليومَ، إذ غدا نبيكم يبوىءُ المؤمنين.

فترك ذِكْرَ الخبرِ عن أمرِ القومِ إنْ لم يصبروا على أمرِ رَبِّهم ولم يتقوه، اكتفاءً بدلالةِ ماظهر من الكلامِ على معناه، إذ ذكر ماهو فاعلٌ بهم من صرفِ كيدِ أعدائهم عنهم إنْ صبروا على أمرهِ واتقوا محارِمَهُ، وتعقيبه ذلك بتذكيرهم ماحَلَّ بهم من البلاء بأحُدٍ، إذْ خالفَ بعضُهم أمرَ رسولِ الله ﷺ وتنازعوا الرأي بينهم.

وأخرج الخطاب في قوله: «وإذ غدوت من أهلك»، على وجه الخطاب لرسولِ الله ﷺ، والمراد بمعناه: الذين نهاهم أنْ يَتَّخِذُوا الكفارَ مِن اليهود بطانةً من دون المؤمنين. فقد بيَّن إذاً أن قوله: «وإذ»، إنما جرَّها في معنى الكلام

على ماقد بينتُ وأوضحتُ.

وقد اختلف أهل التأويل في اليوم الذي عَنَى الله عز وجل بقوله: «وإذْ غدوتَ من أهلك تُبَوِّىءُ المؤمنين مقاعدَ للقتال».

فقال بعضهم: عنَى بذلك يوم أُحدٍ.

وقال آخرون: عنَى بذلك يوم الأحزاب.

وأوْلى هذين القولين بالصواب قَولُ مَنْ قال: «عنَى بذلك يوم أحد». لأن الله عز وجل يقول في الآية التي بعدها: ﴿إذْ هَمَّتْ طَائِفَتَان مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلاَ﴾، ولا خلافَ بين أهلِ التأويلِ أنه عُنِيَ بالطائفتين: بنو سَلِمة وبنو حارثة، ولا خلافَ بين أهلِ السير والمعرفةِ بمغازي رسولِ الله ﷺ، أنّ الذي ذكر الله من أمرهما إنما كان يوم أحد، دون يوم الأحزاب.

فتأويل الكلام: واذكرْ إذْ غدوتَ، يامحمد، من أهلك تتخذُ للمؤمنين معسكراً وموضعاً لقتال عدوهم.

وقوله: «والله سميع عليم»، يعني بذلك تعالى ذِكْرُه: «والله سميع»، لِمَا يقول المؤمنون لكَ فيما شاوَرْتَهُمْ فيه، من موضعِ لقائِكَ ولقائِهم عَدُوَّكَ وعَدُوَّهم، من قولِ مَنْ قال: «اخرجْ بنا إليهم حتى نلقاهم خارجَ المدينة»، وقول مَنْ قال لك: «لا تخرج إليهم وأقم بالمدينةِ حتى يدخلوها علينا»، على ماقد بَيَّنا قَبْلُ، ولِمَا تشيرُ به عليهم أنت يامحمد. «عليم» بأصلح تلك الآراء لكَ ولهم، وبما تُخْفيه صُدورُ المشيرينَ عليك بالخروج إلى عدوك، وصدور المشيرين عليك بالمقام في المدينة، وغير ذلك من أمركَ وأمورهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: والله سميع عليم، حين هَمَّتْ طائفتانِ منكم أنْ تفشلا.

والطائفتان اللتان هَمَّتا بالفشل، ذُكِرَ لنا أنهم بنو سَلِمة وبنو حارثة.

وأما قوله: «أنْ تفشلا»، فإنه يعني: هَمَّا أنْ يَضْعُفَا ويَجْبُنَا عن لقاءِ عَدُوِّهما.

وكان همُّهما الذي هَمَّا به من الفشلِ، الانصرافَ عن رسولِ الله ﷺ والمؤمنين حين انصرف عنهم عبدالله بن أُبيّ بن سَلُول بمن معه، جُبْناً منهم، من غيرِ شكٍ منهم في الإسلامِ ولا نفاقٍ، فَعَصَمَهُم اللهُ مما هَمُّوا به من ذلك، ومَضَوْا مع رسولِ الله ﷺ لوجههِ الذي مضى له، وتركوا عبدالله بن أُبيّ بن سلول والمنافقينَ معه، فأثنى الله عز وجل عليهما بثبوتهما على الحق، وأخبر أنه وليُّهُمَا وناصِرُهُمَا على أعدائِهما من الكفارِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ١٢٣﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً، وينْصُركُم رَبُّكم، «ولقد نصركم الله ببدر» على أعدائِكم وأنتم يومئذٍ «أذلة» يعني: قليلون، في غير مَنَعَةٍ من الناسِ، حتى أظهركم الله على عدوكم، مع كثرةِ عددِهم وقلةِ عددكم، وأنتم اليوم أكثرُ عدداً منكم حينئذٍ، فإنْ تصبروا لأمرِ الله ينصركم كما نَصَرَكُم ذلك اليوم. «فاتقوا الله»، يقول تعالى ذِكْرُه: فاتقوا ربكم بطاعتهِ واجتنابِ محارمه. «لعلكم تشكرون»، يقول: لتشكروهُ على مامَنَّ به عليكم من النصر على أعدائِكم وإظهارِ دينكم، ولما هَدَاكُم له من الحَقِّ

الذي ضَلَّ عنه مُخَالِفُوكُم.

وأما قوله: «أذلة»، فإنه جمع «ذليل»، كما «الأعِزَّةُ» جمع «عزيز» «والألِبَّةُ» جمع «لبيب».

وإنما سماهم الله عز وجل «أذلة»، لِقِلَّةِ عَدَدِهم، لأنهم كانوا ثلاث مئة نفسٍ وبضعةَ عشر، وعدوهم مابين التسع مئة إلى الألف.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾

يعني تعالى ذكره: ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة، إذْ تقولُ للمؤمنين بكَ من أصحابك: أَلَنْ يَكْفِيَكُم أنْ يُمِدَّكُم رَبُّكم بثلاثةِ آلافٍ من الملائكة منزلين؟ وذلك يوم بدر.

ثم اختلف أهلُ التأويل في حضورِ الملائكة يوم بدر حَرْبَهُم، في أيِّ يومٍ وُعِدُوا ذلكَ؟

فقال بعضهم: إن الله عز وجل كان وَعَدَ المؤمنينَ يومَ بَدْرٍ أنْ يُمِدَّهُم بملائكتهِ، إنْ أتاهم العدوُّ من فَوْرِهم، فلم يأتوهم، ولم يُمَدُّوا.

وقال آخرون: كان هذا الوعدُ من الله لهم يوم بدر، فصبرَ المؤمنونَ واتقوا الله، فأَمَدَّهُم بملائكتهِ على ماوَعَدَهُم.

وقال آخرون: إن الله عز وجلّ: إنما وعدهم يوم بدر أنْ يُمِدَّهُم إنْ صبروا عند طاعتهِ وجهادِ أعدائهِ، واتقوه باجتنابِ محارمهِ، أنْ يمدهم في حروبهم

كُلِّها، فلم يصبروا ولم يتقوا إلا في يوم الأحزاب، فأمدَّهم حين حاصروا قريظة.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصواب أنْ يُقالَ: إنَّ الله أخبرَ عن نبيه محمدٍ ﷺ أنه قال للمؤمنين: أَلَنْ يَكفيَكُم أنْ يمدكم رَبُّكم بثلاثةِ آلافٍ من الملائكة؟ فوعدهم الله بثلاثةِ آلافٍ من الملائكة مدداً لهم، ثم وعدهم بعد الثلاثةِ الآلاف، خمسة آلاف إنْ صبروا لأعدائهم واتقوا الله. ولا دِلالةَ في الآيةِ على أنهم أُمِدُّوا بالثلاثةِ آلافٍ ولا بالخمسةِ آلافٍ، ولا على أنهم لم يُمَدُّوا بهم. وقد يجوز أنْ يكون الله عز وجل أَمَدَّهُم، على نحوِ مارواه الذين أثبتوا أنه أمدهم، وقد يجوز أنْ يكون لم يمدهم على نحو الذي ذكره مَنْ أنكر ذلك. ولا خبرَ عندنا صَحَّ من الوجهِ الذي يثبت أنهم أُمِدُّوا بالثلاثةِ الآلاف ولا بالخمسة الآلاف. وغير جائزٍ أنْ يقالَ في ذلك قولٌ إلا بخبرٍ تقومُ الحجةُ به. ولا خبرَ به كذلك، فنسلِّم لأحدِ الفريقين قوله. غير أنَّ في القرآن دلالةً على أنهم قد أُمِدُّوا يومَ بدر بألف من الملائكة، وذلك قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لكم أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ المَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]، فأما في يوم أُحُد فالدلالةُ على أنهم لم يمدوا أبينُ منها في أنهم أُمِدُّوا. وذلك أنهم لو أُمِدُّوا لم يُهْزَمُوا، ويُنالَ منهم ما نِيْلَ منهم. فالصوابُ فيه من القول أن يقال كما قال تعالى ذِكْرُه.

وأما قوله: «ويأتوكُم من فَوْرِهم هذا»، فإنَّ أهلَ التأويلِ اختلفوا فيه.

فقال بعضهم: معنى قوله: «من فورهم هذا»، من وَجْهِهم هذا.

وقال آخرون: معنى ذلك: من غضبهم هذا.

فالذي قال في هذه الآية: معنى قوله: «من فورهم هذا»، من «وجههم هذا». قصد إلى أنَّ تأويله: ويأتيكم كُرْز بن جابر وأصحابه يوم بدرٍ من ابتداء

مخرجهم الذي خَرَجُوا منه لنصرةِ أصحابِهم من المشركين.

وأما الذين قالوا: معنى ذلكِ: مِنْ غَضَبِهم هذا، فإنما عَنوا أنَّ تأويلَ ذلـك: ويأتيكم كفـارُ قريش وتُبَّـاعهم يوم أحدٍ من ابتداء غضبِهم الذي غضبوه لِقَتْلَاهُم الذين قُتلوا يومَ بدر بها، يُمْدِدْكُم ربُّكم بخمسة آلاف.

ولذلك من اختلافِ تأويلِهم في معنى قوله: «ويأتوكم من فورهم هذا»، اختلف أهلُ التأويلِ في إمدادِ الله المؤمنين بأحُدٍ بملائكته.

فقال بعضهم: لم يُمَدُّوا بهم، لأنَّ المؤمنينَ لم يصبروا لأعدائِهم ولم يتقوا اللهَ عَزَّ وجل، بتركِ مَنْ تَرَكَ من الرُّمَاةِ طاعةَ رسولِ الله ﷺ في ثبوتِهِ في الموضعِ الذي أَمَرَهُ رسولُ الله ﷺ بالثبوتِ فيه، ولكنهم أخَلُّوا به طلبَ الغنائم، فَقُتِلَ مَنْ قُتِلَ من المسلمينَ ونالَ المشركونَ منهم ما نالوا، وإنما كان الله عز وجل وَعَدَ نَبِيَّهُ ﷺ إمدادَهم بهم إنْ صبروا واتقوا الله.

وأما الذين قالوا: كان ذلك يوم بدر بسبب كُرْز بن جابر، فإنَّ بعضهم قالوا: لم يأتِ كرزٌ وأصحابهُ إخوانَهم من المشركين مَدَداً لهم ببدر، ولم يمد الله المؤمنين بملائكته. لأنَّ الله عز وجل إنما وَعَدَهم أنْ يُمِدَّهم بملائكتهِ إنْ أتاهم كرز ومدد المشركين من فورهم، ولم يأتِهم المَدَدُ.

وأما الذين قالوا: إنّ الله تعالى ذِكْرُه أَمَدَّ المسلمين بالملائكة يوم بدر، فإنهم اعْتَلُّوا بقـولِ الله عز وجـل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِـدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ المَـلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]، قال: فالألف منهم قد أتاهم مدداً. وإنما الوعدُ الذي كانت فيه الشروط، فما زادَ على الألفِ، فأما الألفُ فقد كانوا أُمِدُّوا به، لأنَّ الله عز وجل كان قد وَعَدَهم ذلك، ولن يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه: وما جعلَ اللهُ وَعْدَهُ إيَّاكم ما وعدكم من إمدادِهِ إياكم بالملائكةِ الذين ذكر عددهم. «إلا بُشْرى لكم»، يعني بشرى، يُبَشِّركم بها. «ولتطمئن قلوبكم به»، يقول: وكي تطمئن بوعدِهِ الذي وعدكم من ذلك قلوبُكم، فتسكن إليه، ولا تجزع من كثرةِ عَدَدِ عَدُوِّكُم وقِلَّةِ عَدَدِكُم «وما النصر إلا من عند الله»، يعني: وما ظفركم إنْ ظفرتم بعدوِّكُم إلا بعونِ الله، لا مِنْ قِبَلِ المَدَدِ الذي يأتيكم من الملائكة. يقول: فعلى الله فتوكَّلُوا، وبه فاستعينوا، لا بالجموعِ وكثرةِ العَدَدِ، فإنَّ نصركم إنْ كانَ إنما يكونُ باللهِ وبعونهِ ومعكم من ملائكته خمسة آلاف، فإنه إلى أنْ يكون ذلك بعونِ الله وبتقويتهِ إياكم على عدوكم، وإنْ كان معكم من البشر جُموعٌ كثيرةٌ أُخْرَى، فاتقوا الله واصبروا على جهاد عدوكم، فإنَّ الله ناصركم عليهم.

وأما معنى قوله: «العزيز الحكيم»، فإنه جَلَّ ثناؤه يعني: «العزيزُ» في انتقامهِ من أهلِ الكُفْرِ به بأيدي أوليائه من أهلِ طاعته. «الحكيمُ» في تدبيره لكم، أيها المؤمنون، على أعدائكم من أهل الكفر، وغير ذلك من أموره، فأبشروا أيها المؤمنون، بتدبيري لكم على أعدائكم ونَصْرِي إياكم عليهم، إنْ أنتم أطعتموني فيما أمرتكم به، وصبرتم لجهادِ عدوِّي وعدوِّكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾

فتأويلُ الكلام: ولقد نَصرَكم اللهُ ببدرٍ ليهلك فريقاً من الكفار بالسيفِ، أو يخـزيهم بخيبتهم ممـا طَمِعُـوا فيه من الظفر. «فينقلبوا خائبين»، يقول: فيرجِعُوا عنكم خائبينَ، لم يُصِيبُوا منكم شيئاً مما رجوا أنْ ينالوهُ منكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ١٢٨﴾

وتأويل قوله: «ليس لك من الأمر شيء»، ليس إليكَ، يامحمد، من أمرِ خَلْقي إلَّا أنْ تنفذ فيهم أمري، وتنتهيَ فيهم إلى طاعتي، وإنما أمرهم إليَّ، والقضاء فيهم بيدي دون غيري، أقضي فيهم وأحكمُ بالذي أشاء، من التوبةِ على مَنْ كفَرَ بي وعصاني وخالفَ أمري، أو العذاب إما في عاجلِ الدنيا بالقتل والنِّقَمِ المُبيرةِ، وإما في آجلِ الآخرة بما أعددتُ لأهلِ الكفر بي.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ١٢٩﴾

يعني بذلك تعالى ذِكْرُه: ليس لكَ، يامحمد، من الأمرِ شيء، ولله جميع ما بين أقطارِ السموات والأرض مِنْ مَشْرقِ الشمسِ إلى مغربها. دونك ودونهم، يحكمُ فيهم بما يشاء، ويقضي فيهم ما أَحَبَّ، فيتوبُ على من أَحَبَّ من خَلْقِه العاصينَ أمرَهُ ونهيَهُ، ثم يغفر له، ويعاقبُ مَنْ شاء منهم على جُرْمِه فينتقم منه، وهو الغفورُ الذي يستر ذنوبَ مَنْ أَحَبَّ أنْ يسترَ عليه ذنوبَهُ من خَلْقِه بفضله عليهم بالعَفْو والصَّفْح، والرحيم بهم في تَرْكه عقوبتهم عاجلاً على عظيمِ ما يأتون من المآثم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله، لا تأكلوا الرِّبا في إسلامكم بعد إذْ هَدَاكم له، كما كنتم تأكلونَهُ في جاهليتكم.

وكان أكلهم ذلك في جاهليتهم: أنَّ الرجلَ منهم كان يكونُ له على الرجلِ مالٌ إلى أجلٍ، فإذا حَلَّ الأجلُ طلبه من صاحبه، فيقول له الذي عليه المال: أَخِّرْ عني دَيْنَكَ وأَزِيدَكَ على مالِكَ. فيفعلان ذلك. فذلك هو «الربا أضعافاً مضاعفة»، فنهاهم الله عز وجل في إسلامهم عنه.

وأما قوله: «واتقوا الله لعلكم تفلحون»، فإنه يعني: واتقوا الله أيها المؤمنون في أمرِ الربا فلا تأكلوهُ، وفي غيره مما أمركم به أو نهاكم عنه، وأطيعوه فيه «لعلكم تفلحون»، يقول: لتنجحوا فتنجوا من عقابه، وتُدْرِكُوا ما رَغَّبَكُم فيه من ثوابِهِ والخلود في جِنانِهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنين: واتقوا، أيها المؤمنون، النارَ أنْ تَصْلَوْهَا بأكْلِكُم الربا بعد نَهْيِي إيَّاكم عنه التي أعددتُهَا لِمَنْ كَفَرَ بي، فتدخلوا مَدْخَلَهم بعد إيمانكم بي، بخلافِكم أمري، وتركِكم طاعتي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ١٣٢﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: وأطيعوا الله، أيها المؤمنون، فيما نهاكم عنه من أكل الرِّبَا وغيره من الأشياء، وفيما أمركم به الرسولُ. يقول: وأطيعوا الرسولَ أيضاً كذلك. «لَعَلَّكم تُرْحَمُونَ»، يقول: لِتُرْحَمُوا فلا تُعَذَّبُوا.

وقد قيل إنَّ ذلك معاتبةٌ من الله عز وجل أصحابَ رسولِ الله ﷺ الذين خالفوا أمرَهُ يومَ أُحدٍ، فأخلُّوا بمراكزهم التي أُمِرُوا بالثباتِ عليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ١٣٣﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وسارعوا»، وبادروا وسابقوا. «إلى مغفرةٍ من ربكم»، يعني: إلى مايسترُ عليكم ذنوبَكم من رحمته، وما يُغَطِّيها عليكم من عفوهِ عن عقوبتكم عليها. «وجنةٍ عَرْضُها السموات والأرض»، يعني: وسارعوا أيضاً إلى جنةٍ عرضها السمواتُ والأرض.

وذُكِـرَ أن معنى ذلك: وجنةٍ عرضها كعرض السموات السبع والأرضين السبع، إذا ضُمَّ بعضها إلى بعض.

وإنما قيل: «وجنة عرضها السموات والأرض»، فوصف عَرْضَها بالسمواتِ والأرضين، والمعنى ماوصفنا: من وصف عرضها بعرضِ السمواتِ والأرض. تشبيهاً به في السَّعَةِ والعِظَمِ، كما قيل: ﴿مَاخَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، يعني: إلاَّ كَبَعْثِ نَفْسٍ واحدة.

وأما قوله: «أعدت للمتقين» فإنه يعني: أنَّ الجنةَ التي عَرْضُها كعرضِ السمواتِ والأرضين السبع، أعدَّها اللهُ للمتقين، الذين اتقوا الله فأطاعوه فيما أمرهم ونهاهم، فلم يتعدوا حدودَهُ، ولم يُقصِّرُوا في واجبِ حَقِّهِ عليهم فيضيِّعُوه.

القَوْلُ في تَأْويلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: «الذين ينفقون في السراء والضراء»، أُعِدَّت الجنةُ التي عرضُهَا السمواتُ والأرض للمتقين، وهم المنفقونَ أموالَهم في سبيلِ الله، إما في صَرْفِهِ على محتاجٍ، وإما في تقويةِ مُضعِفٍ على النهوضِ لجهادِهِ في سبيل الله.

وأما في قوله: «في السراء»، فإنه يعني: في حال السرور، بكثرةِ المال ورخاء العيش.

«والضراء» مصدر من قولهم: «قد ضُرَّ فلان فهو يُضَرّ»، إذا أصابه الضُّر، وذلك إذا أصابه الضيقُ، والجَهْدُ في عيشه .

فأخبر جل ثناؤه أن الجنة التي وصف صِفَتَها، لِمَنِ اتَّقَاهُ وأنفقَ مالَهُ في حال الرخاء والسعة، وفي حالِ الضيقِ والشدةِ، في سبيله.

وقوله: «والكاظمينَ الغيظ»، يعني: والجارعينَ الغيظَ عند امتلاء نُفوسِهم منه.

و«الغيظ» مصـدر من قولِ القائل: «غاظني فلانٌ فهو يغيظني غيظاً»،

وذلك إذا أحفظه وأغضبه.

وأما قوله: «والعافينَ عن الناس»، فإنه يعني: والصافحينَ عن الناسِ عقوبةَ ذُنوبِهم إليهم وهُمْ على الانتقامِ منهم قادرون، فتارِكُوهَا لهم.

وأما قوله: «والله يحب المحسنين»، فإنه يعني: فإنَّ الله يَحبُّ مَنْ عَمِلَ بهـذه الأمـور التي وصف أنه أعدَّ للعاملين بها الجنةَ التي عرضُها السمواتُ والأرض، والعاملون بها هم «المحسنون»، وإحسانهم، هو عملهم بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «والذين إذا فعلوا فاحشة»، أنَّ الجنةَ التي وَصَفَ صِفتَها أُعِدَّتْ للمتقين، المنفقينَ في السرَّاءِ والضَرَّاء، والذين إذا فعلوا فاحشةً. وجميعُ هذه النعوت من صفةِ «المتقين»، الذين قال تعالى ذِكْرُه: «وجنة عرضُها السموات والأرض أعدت للمتقين».

ومعنى «الفاحشة»، الفعلةُ القبيحةُ الخارجةُ عما أَذِنَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ فيه. وأصلُ «الفحش»: القُبْح، والخروجُ عن الحَدِّ والمقدارِ في كل شيءٍ. ومنه قيل للطويل المُفْرِطِ الطولِ: «إنه لفاحشُ الطول»، يُرادُ به: قبيحُ الطول، خارجٌ عن المقدار المُسْتَحْسَنِ. ومنه قيل للكلام القبيح غير القصد: «كلامٌ فاحش»، وقيل للمتكلم به: «أفحشَ في كلامه»، إذا نطق بفُحْشٍ.

وقيل: إن «الفاحشة» في هذا الموضع، معنيٌّ بها الزنا.

وقـوله: «أو ظلموا أنفسهم»، يعني به: فعلوا بأنفسهم غيرَ الذي كان

ينبغي لهم أنْ يفعلوا بها. والذي فعلوا من ذلك، ركوبهم من معصيةِ الله ما أوجبوا لها به عقوبته.

وقوله: «ذكروا الله»، يعني بذلك: ذكروا وعيدَ الله على ماأَتَوْا من معصيتهم إياه. «فاستغفروا لذنوبهم»، يقول: فسألوا رَبَّهُم أنْ يَسْتُرَ عليهم ذنوبَهُم بصفحهِ لهم عن العقوبة عليها. «ومن يغفر الذنوب إلا الله»، يقول: وهَلْ يغفرُ الذنوبَ ـ أي يعفو عن راكبها فيسترها عليه ـ إلاّ اللهُ. «ولم يصروا على ما فعلوا»، يقول: ولم يُقِيمُوا على ذنوبهم التي أتوها، ومَعْصِيَتِهم التي ركبوها. «وهم يعلمون»، يقول: لم يُقِيمُوا على ذنوبهم عامدينَ للمقام عليها، وهم يعلمون أنَّ الله قد تقدم بالنهي عنها، وأوعدَ عليها العقوبةَ مَنْ ركبها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾**

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «أولئك»، الذين ذكر أنه أَعَدَّ لهم الجنةَ التي عَرْضُها السمواتُ والأرض، من المتقين، ووصَفَهُم بما وصَفَهم به. ثم قال: هؤلاء الذين هذه صِفَتُهم. «جزاؤهم»، يعني: ثوابُهم من أعمالهم التي وصفَهم تعالى ذِكْرُه أنهم عَمِلُوها. «مغفرةٌ من ربهم»، يقول: عفوٌ لهم من الله عن عقوبتهم على ما سَلَفَ من ذنوبهم، ولهم على ما أطاعوا الله فيه من أعمالِهم بالحسن منها. «وجناتٌ»، وهي البساتينُ. «تجري من تحتها الأنهار»، يقول: تجري خلالَ أشجارها الأنهارُ وفي أسافلها، جزاءً لهم على صالح أعمالهم. «خالدين فيها» يعني: دائمي المقامِ في هذه الجناتِ التي وصفها. «ونِعْمَ أجرُ العاملين»، يعني: ونِعْمَ جزاءُ العاملينَ لله، الجناتُ التي وصفها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ۝١٣٧﴾

يعني بقوله تعالى ذِكْرُه: «قد خلت من قبلكم سنن»، مَضَتْ وسَلَفَتْ مني فيمنْ كان قبلكم، يامعشرَ أصحابِ محمدٍ وأهلِ الإيمان به، من نحو قوم عادٍ وثمود وقومِ هودٍ وقوم لوط، وغيرهم من سُلَّافِ[1] الأمم قبلكم. «سنن» يعني: مَثُلات سِيرَ بها فيهم وفيمن كَذَّبُوا به من أنبيائهم الذين أُرسِلُوا إليهم، بإمهالي أهلَ التكذيب بهم، واستدراجي إياهم، حتى بلغ الكتابُ فيهم أَجَلَهُ الذي أَجَّلْتُه لإدالةِ أنبيائهم وأهلِ الإيمان بهم عليهم، ثم أحللتُ بهم عقوبتي، وأنزلتُ بساحتهم نِقَمِي، فتركتهم لمن بعدهم أمثالاً وعِبَراً. «فسيروا في الأرض فانظروا كيف كانَ عاقبة المكذبين»، يقول: فسيروا ـ أيها الظانُّونَ، أنَّ إدالتي مَنْ أَدَلْتُ من أهلِ الشركِ يوم أُحُدٍ على محمدٍ وأصحابه، لغيرِ استدراجٍ مني لمن أشرك بي، وكفرَ برسلي، وخالفَ أمري ـ في ديارِ الأممِ الذين كانوا قَبْلَكُم، ممنْ كان على مِثْلِ الذي عليه هؤلاء المكذِّبُونَ برسولي والجاحدون وحدانيتي، فانظروا كيف كان عاقبةُ تكذيبهم أنبيائي، وما الذي آلَ إليه غِبُّ[2] خلافِهم أمري، وإنكارهم وحدانيتي، فتعلَمُوا عند ذلك أنَّ إدالتي[3] مَنْ أدلتُ من المشركين على نبيي محمدٍ وأصحابه بأُحُدٍ، إنما هي استدراجٌ وإمهالٌ ليبلغ الكتابُ أجَلَهُ الذي أجَّلْتُ لهم. ثم إما أنْ يؤولَ حالهم إلى مِثْلِ ما آلَ إليه حالُ الأمم الذين سَلَفُوا قَبْلَهم: من تعجيلِ العقوبةِ عليهم، أو يُنِيبُوا إلى طاعتي واتباعِ رسولي.

---

(١) جمع سلف، ويجمع أسلاف أيضاً.

(٢) الغب: العاقبة.

(٣) الإدالة: الغلبة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾

قولـه: «هـذا»، إشـارةٌ إلى ماتَقَدَّمَ هذه الآيةَ من تذكيرِ الله جَلَّ ثناؤُه المؤمنينَ، وتعـريفهم حُدودَهُ، وحضِّهم على لزومِ طاعتهِ والصبرِ على جهادِ أعدائهِ وأعدائهم. لأنَّ قوله: «هذا»، إشارةٌ إلى حاضرٍ: إمَّا مرئيّ وإما مسموع، وهو في هذا الموضع إلى حاضرٍ مسموع من الآيات المتقدمة.

فمعنى الكلام: هذا الذي أوضحتُ لكم وعرفتكموه، بيانٌ للناس ـ يعني بـ«البيان»، الشرح والتفسير.

وأما قوله: «وهدى وموعظة»، فإنه يعني بـ«الهُدى»، الدلالةَ على سبيل الحقِّ ومنهج الدين، وبـ«الموعظة»، التذكرة للصواب والرشاد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾

وهذا من الله تعالى ذِكْرُه تعزيةٌ لأصحابِ رسولِ الله ﷺ على ما أصابهم من الجراحِ والقتلِ بأُحُد.

قال: «ولا تهنـوا ولا تحـزنوا»، ياأصحابَ محمد، يعني: ولا تضعفوا بالـذي نالكم من عَدُوِّكُم بأُحُـد، من القتـلِ والقـروح ـ عن جهـادِ عدوكم وحربهم. «ولا تحزنوا»، ولا تَأْسَوْا فتجزَعُوا على ما أصابكم من المصيبة يومئذٍ، فإنكم «وأنتم الأعلون»، يعني: الـظاهـرُونَ عليهم، ولكم العُقبى في الظفر والنُّصرة عليهم. «إنْ كنتم مؤمنين»، يقول: إنْ كنتم مُصَدِّقِي نَبِيِّي محمدٍ ﷺ فيما يَعِدُكُم، وفيما يُنْبِئُكُم من الخبر عما يؤولُ إليه أمركم وأمرهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾

يعني: إنْ يَمْسَسْكُم القتلُ والجراح، يامعشرَ أصحابِ محمدٍ، فقد مَسَّ القومَ من أعدائِكم من المشركين قَرْحٌ - قَتْلٌ وجراحٌ - مِثْلُه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وتلك الأيام نداولها بين الناس»، أيام بدرٍ وأُحُد.

ويعني بقوله: «نداولها بين الناس»، نجعلها دُوَلاً بين الناس مُصَرَّفة. ويعني بـ«الناس»، المسلمينَ والمشركينَ. وذلك أنَّ الله عَزَّ وجَلَّ أدالَ المسلمينَ من المشركين ببدر، فقتلوا منهم سبعينَ وأَسَرُوا سبعين. وأدالَ المشركين من المسلمين بأحُدٍ، فقتلوا منهم سبعينَ، سوى مَنْ جرحوا منهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠﴾

(يعني): «وليعلمَ اللهُ الذين آمنوا» منكم، أيها القوم، من الذين نَافَقُوا منكم.

وأما قوله: «ويتخذ منكم شهداء»، فإنه يعني: «وليعلم اللهُ الذين آمنوا» وليتَّخِذَ منكم شهداء، أي: ليكرم منكم بالشهادة مَنْ أراد أن يكرمه بها.

وأما قوله: «واللهُ لا يحبُّ الظالمين»، فإنه يعني به: الذين ظَلَمُوا أَنْفسَهُم

بمعصيتِهم رَبَّهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٤١﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وليمحِّصَ اللهُ الذين آمنوا»، وليختبرَ اللهُ الذين صَدَّقُوا الله ورسوله، فيبتليهم بإدالةِ المشركين منهم، حتى يَتَبَيَّنَ المؤمن منهم المخلصَ الصحيحَ الإيمان، من المنافق.

وأما قوله: «ويمحق الكافرين»، فإنه يعني به: أنه يُنْقِصُهُم ويُفْنِيهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: «أم حسبتم»، يامعشرَ أصحابِ محمدٍ، وظننتم «أنْ تدخلوا الجنة»، وتنالوا كرامةَ رَبِّكم، وشرفَ المنازلِ عنده «ولَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الذين جاهدوا منكم»، يقول: ولَمَّا يتبيَّنْ لعبادي المؤمنين المجاهدُ منكم في سبيلِ الله على ما أَمَرَهُ به.

وقوله: «ويعلم الصابرين»، يعني: الصابرينَ عند البأسِ على ما ينالهم في ذاتِ الله من جرحٍ وألمٍ ومكروه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ١٤٣﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «ولقد كنتم تمنون الموت»، ولقد كنتم، يامعشرَ أصحابِ محمد. «تَمَنَّوْنَ الموتَ»، يعني أسبابَ الموت، وذلك: القتالُ. «فقد رأيتمـوه»، فقد رأيتم ماكنتم تمنونه ـ و«الهاء» في قوله: «رأيتموه» عائدةٌ على «الموت»، والمعنيُّ: القتال. «وأنتم تنظرون»، يعني: قد رأيتموه بمرأىً منكم ومنظر، أي بِقُرْبٍ منكم.

وإنما قيل: «ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أنْ تَلْقَوْهُ»، لأنَّ قوماً من أصحابِ رسولِ الله ﷺ مِمَّنْ لم يشهدْ بدراً، كانوا يتمنون قبلَ أُحُدٍ يوماً مثل يوم بدر، فيُبْلُوا الله من أنفسِهم خيراً، وينالوا من الأجرِ مثلَ ما نالَ أهل بدر. فلما كان يوم أُحد فَرَّ بعضُهم، وصبرَ بعضُهم حتى أوفَى بما كانَ عَاهَدَ الله قبل ذلك، فعاتب الله مَنْ فَرَّ منهم فقال: «ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه»، الآية، وأثنى على الصابرين منهم والموفين بعهدهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ١٤٤﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: وما محمدٌ إلا رسولٌ كبعضِ رُسُلِ الله الذين أرسلهم إلى خَلْقِه، داعياً إلى الله وإلى طاعته، الذين حين انْقَضَتْ آجالُهم ماتوا وقَبَضَهُم الله إليه. يقول جل ثناؤه: فمحمدٌ ﷺ إنما هو فيما الله به صانعٌ من قَبْضِهِ إليه عند انقضاءِ مدةِ أجله، كسائرِ رُسُلِه إلى خَلْقِه الذين مَضَوْا قبله، وماتوا عند انقضاءِ مدةِ آجالهم.

ثم قال لأصحاب محمد، مُعَاتِبَهُم على ما كانَ منهم من الهَلَعِ والجزع حين قيلَ لهم بأُحُد: «إنَّ محمداً قُتل»، ومُقبِّحاً إليهم انصرافَ مَن انصرفَ

منهم عن عَدُوِّهم وانهزامه عنهم: أفإنْ ماتَ محمدٌ، أيها القومُ، لانقضاءِ مدةِ أجله، أو قتَلَهُ عَدُوٌّ. «انقلبتم على أعقابكم»، يعني: ارتددتم عن دِينكم الذي بعث اللهُ محمداً بالدعاء إليه ورجعتم عنه كفاراً بالله بعد الإيمانِ به، وبعد ماقد وَضَحتْ لكم صحةُ ما دَعَاكُم محمد إليه، وحقيقةُ ماجاءكم به من عند ربه.

«ومَنْ ينقلب على عقبيه»، يعني بذلك: ومَنْ يَرْتَدِدْ منكم عن دِينِهِ ويرجع كافراً بعد إيمانه، «فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شيئاً» يقول: فلن يُوهِنَ ذلك عِزَّةَ اللهِ ولا سلطانه، ولا يدخل بذاك نقصٌ في مُلْكِه، بَلْ نَفْسَهُ يَضُرُّ بردَّتِه، وحَظَّ نَفْسِه يُنْقِصُ بكُفْرِهِ. «وسيجزي الله الشاكرين»، يقول: وسَيُثِيبُ اللهُ مَنْ شَكَرَهُ على توفيقِهِ وهدايتِهِ إياه لدينه، بثبوتِهِ على ماجاء به محمدٌ ﷺ إنْ هو ماتَ أو قُتِلَ، واستقامته على منهاجه، وتمسكه بدينه وملته بعده.

وذُكِرَ أنَّ هذه الآية أُنزلتْ على رسول الله ﷺ فيمن انهزمَ عنه بأُحُدٍ من أصحابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: وما يموتُ محمدٌ ولا غيره من خَلْقِ الله إلا بعد بلوغ أجله الذي جعله الله غايةً لحياتِهِ وبقائه، فإذا بلغ ذلك من الأجلِ الذي كتبه اللهُ له، وأذِنَ له بالموت، فحينئذٍ يموتُ. فأما قَبْلَ ذلك، فلن يموتَ بكيدِ كائدٍ ولا بحيلةِ محتال[1].

---

(١) هذا مذهب أهل السنة والجماعة، وخالفهم المعتزلة برأي فاسد مفاده أن المقتول ليس بميت، لأن القتل فعل العبد، والموت فعل الله سبحانه، وأنه لو لم يقتل لعاش إلى أجله الذي هو الموت!

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٥﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: ومَنْ يُرِدْ منكم، أيها المؤمنونَ، بعمله جزاءً منه بعضَ أعراضِ الدنيا، دونَ ماعندَ اللهِ من الكرامة لمن ابتغى بعملهِ ماعِنْدَهُ. «نُؤْتِهِ منها»، يقول: نُعْطِهِ منها، يعني من الدنيا، يعني أنه يعطيه منها ماقُسِمَ له فيها من رزقٍ أيامَ حياته، ثم لا نصيبَ له في كرامةِ الله التي أعَدَّهَا لمن أطاعَهُ وطَلَبَ ماعِنْدَهُ في الآخرة. «ومَنْ يُرِدْ ثوابَ الآخرة»، يقول: ومَنْ يُرِدْ منكم بعمله جزاءً منه ثواب الآخرة، يعني: ماعِنْدَ الله من كرامته التي أعَدَّها للعاملين له في الآخرة. «نُؤْتِهِ منها»، يقول: نُعْطِه منها، يعني من الآخرة. والمعنى: من كرامةِ الله التي خصَّ بها أهلَ طاعته في الآخرة. فخرج الكلامُ على الدنيا والآخرة، والمعنيُّ ما فيهما.

وأما قوله: «وسنجزي الشاكرين»، يقول: وسأُثِيبُ مَنْ شكر لي ما أوْلَيْتُه من إحساني إليه بطاعتهِ إيَّايَ، وانتهائه إلى أمري، وتجنُّبه محارمي في الآخرة مثل الذي وعدتُ أوليائي من الكرامةِ على شكرِهم إياي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ﴾

اختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك:

فقرأه بعضهم: ﴿وَكَأَيِّنْ﴾، بهمز «الألف» وتشديد «الياء».

وقرأه آخرون بمدِّ «الألف» وتخفيفِ «الياء».

وهما قراءتان مشهورتان في قَرَأَةِ المسلمين، ولغتان معروفتان، لا اختلافَ في معناهما، فبأيِّ القراءتين قرأ ذلك قارئٌ فمصيبٌ. لاتفاق معنى

ذلك، وشهرتهما في كلام العرب. ومعناه: وكَمْ مِنْ نَبِيٍّ[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾

اختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: «قتل معه ربيون».

فقرأ ذلك جماعة من قَرَأَةِ الحجاز والبصرة: ﴿قُتِلَ﴾، بضم القاف.

وقرأهُ جماعةٌ أُخَر بفتح «القاف» و«بالألف». وهي قراءةُ جماعة من قَرَأَةِ الحجاز والكوفة.

فأما من قرأ ﴿قَاتَلَ﴾، فإنه اختار ذلك، لأنه قال: لو قُتلوا لم يكنْ لقولِهِ: «فما وهنوا»، وجهٌ معروف. لأنه يستحيلُ أن يُوصَفُوا بأنهم لم يَهِنوا ولم يضعفوا بعد ماقتلوا.

وأما الذين قرأوا ذلك: ﴿قُتِلَ﴾ فإنهم قالوا: إنما عنَى بالقتلِ النبيَّ وبعضَ مَنْ معه من الرِّبِّيينَ دونَ جميعهم، وإنما نفى الوَهْنَ والضعفَ عمن بقيَ من الربيين ممن لم يقتل.

وأوْلى القراءتين في ذلك عندنا بالصواب، قراءة مَنْ قرأ بضم «القاف»[2]: ﴿قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾، لأنَّ الله عز وجل إنما عاتب بهذه الآية والآياتِ التي قبلها ـ من قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجنَّة ولمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ ـ الذين انهزموا يوم أُحُد وتركوا القتال، أو سمعوا الصائحَ يصيح: «إن محمداً قد قُتِلَ». فَعَذَلهم الله عَزَّ وجل على فِرارهم وتَرْكهم القتال فقال: **أفإنْ**

---

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج: ١/ ٤٧٥.

(٢) حَسّن الفراء هذه القراءة (معاني القُران: ١/ ٢٣٧)، وكذلك الزجاج في معاني القرآن: ١/ ٤٧٦.

ماتَ محمدٌ أو قُتِلَ، أيها المؤمنون، ارْتَدَدْتُم عن دِينكم وانقلبتم على أعقابكم؟ ثم أخبرهم عما كان مِنْ فِعْلِ كثيرٍ من أتباع الأنبياء قبلهم، وقال لهم: هلاَّ فعلتم كما كان أهلُ الفضلِ والعلم من أتباعِ الأنبياء قَبْلَكُم يفعلونه إذا قُتِلَ نبيهم - من المُضِيِّ على منهاجِ نبيهم، والقتالِ على دينه أعداءَ دينِ الله، على نحو ماكانوا يقاتلون مع نبيهم - ولم تهنوا ولم تضعفوا، كما لم يَضْعُفِ الذين كانوا قَبْلَكُم من أهلِ العلم والبصائرِ من أتباعِ الأنبياء إذا قُتِلَ نبيهم، ولكنهم صَبروا لأعدائِهم حتى حكم الله بينهم وبينهم؟ وبذلك من التأويل جاء تأويلُ المتأوِّلين.

وأما «الربيون»، فإنهم مرفوعون بقوله: «معه» لا بقوله: «قتل». وإنما تأويل الكلام: وكأين من نبيٍّ قُتل، ومعه رِبِّيون كثير فما وَهَنُوا لِمَا أصابهم في سبيل الله. وفي الكلام إضمار «واو»، لأنها «واو» تدل على معنى حال قَتْل النبيِّ ﷺ، غير أنه اجتزأ بدلالةِ ماذَكَرَ من الكلامِ عليها من ذِكْرِهَا، وذلك كقولِ القائلِ في الكلام: «قُتِلَ الأميرُ معه جيشٌ عظيم»، بمعنى: قُتِلَ ومعه جيشٌ عظيم[1].

و«الربيون» عندنا، الجماعاتُ الكثيرة، واحدهم «رِبِّي»، وهم الجماعة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾

يعني بقوله تعالى ذِكْرُه: «فما وَهَنُوا لما أصابهم في سبيل الله»، فما

(١) لو كان محقق «معاني القرآن» للزجاج اطلع على هذا لما غَلَّط رأي الزجاج بسبب خلو الجملة من واو الحال.

عجزوا ـ لِمَا نالهم من ألمِ الجِراحِ الذي نالهم في سبيل الله، ولا لقتلِ مَنْ قُتِلَ منهم ـ عن حربِ أعداءِ الله، ولا نَكَلُوا عن جهادهم. «وما ضعفوا»، يقول: وما ضعفت قُواهم لقتلِ نبيهم. «وما استكانوا»، يعني وما ذَلُّوا فيتخشَّعُوا لعدوِّهم بالدخولِ في دِينهم ومداهنتهم فيه خِيفةً منهم، ولكن مضوا قُدُماً على بصائرهم ومنهاجِ نبيِّهم، صبراً على أمرِ الله وأمرِ نبيهم، وطاعةً لله واتباعاً لتنزيلهِ ووحيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «وما كان قولَهم»، وما كان قول الرِّبِّيين ـ و«الهاء والميم» من ذكر أسماء الربيين. «إلا أنْ قالوا»، يعني: ما كان لهم قولٌ سوى هذا القول، إذْ قُتِلَ نبيهم. وقوله: «ربنا اغفر لنا ذنوبنا»، يقول: لم يعتصموا، إذ قُتِلَ نَبِيُّهم، إلا بالصبرِ على ما أصابهم، ومجاهدةِ عدوهم، وبمسألةِ رَبِّهم المغفرةَ والنصرَ على عَدُوِّهم. ومعنى الكلام: وما كان قولهم إلَّا أنْ قالوا ربنا اغفرْ لنا ذنوبنا.

وأما «الإسرافُ»، فإنه الإفراطُ في الشيء: يقال منه: «أسرف فلانٌ في هذا الأمر»، إذا تجاوزَ مِقْدَارَهُ فأفرطَ.

ومعناه ههنا: اغفرْ لنا ذنوبنا: الصغارَ منها، وما أسرفنا فيه منها فَتَخَطَّيْنَا إلى العِظام. وكان معنى الكلام: اغفرْ لنا ذنوبنا، الصغائرَ منها والكبائر.

وأما قوله: «وثَبِّتْ أقدامنا»، فإنه يقول: اجعلنا مِمَّنْ يَثْبُتُ لحربِ عَدُوِّكَ وقتالهم، ولا تجعلنا مِمَّنْ ينهزمُ فيفرّ منهم ولا يثبتُ قَدَمُهُ في مكانٍ واحدٍ

لحربهم. «وانصرنا على القوم الكافرين»، يقول: وانصرنا على الذين جَحَدُوا وَحْدَانِيَّتَكَ ونُبُوَّةَ نبيك.

وإنما هذا تأنيبٌ من الله عز وجل عبادَه الذين فرُّوا عن العدو يوم أُحُدٍ وتركوا قتالهم، وتأديبٌ لهم. يقول الله عز وجل: هَلَّا فعلتم إذ قيل لكم: «قُتِلَ نبيكم» ـ كما فعل هؤلاء الرِّبِّيُّونَ الذين كانوا قَبْلَكُم من أتباعِ الأنبياء إذْ قُتِلَتْ أنبياؤُهم، فصبرتم لعدوكم صَبْرَهم، ولم تَضْعفُوا وتستكينوا لعدوكم فتحاولوا الارتدادَ على أعقابِكم، كما لم يضعفْ هؤلاء الرِّبِّيون ولم يستكينوا لعدوهم، وسألتم رَبَّكُم النصرَ والظفرَ كما سألوا، فينصركم الله عليهم كما نُصِرُوا، فإن الله يحب من صَبر لأمرِه وعلى جهادِ عدوه، فيعطيه النصرَ والظفرَ على عدوه؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

يعني بذلك تعالى ذكره: فأعطى اللهُ الذين وَصَفَهم بما وَصَفَهم، من الصبرِ على طاعةِ الله بعد مقتلِ أنبيائهم، وعلى جهادِ عدوهم، والاستعانةِ بالله في أمورهم، واقتفائِهم مناهجَ إمامِهم على ما أبلوا في الله ـ «ثوابَ الدنيا»، يعني: جزاء في الدنيا: وذلك: النصرُ على عَدُوِّهم وعَدُوِّ الله، والظفرُ، والفتح عليهم، والتمكين لهم في البلاد. «وحسن ثواب الآخرة»، يعني: وخير جزاء الآخرة على ما أسلفوا في الدنيا من أعمالهم الصالحة، وذلك: الجنةُ ونعيمُها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

يعني بذلك تعالى ذِكْرُه: يا أيها الذين صَدَّقُوا الله ورسوله في وَعْدِ الله ووعيده وأمره ونهيه. «إنْ تُطِيعُوا الذين كفروا»، يعني: الذين جحدوا نبوة نبيكم محمد ﷺ من اليهود والنصارى ـ فيما يأمرونكم به وفيما ينهونكم عنه ـ فَتَقْبَلُوا رَأْيَهُم في ذلك وتَنْتَصِحُوهم فيما يزعمون أنهم لكم فيه ناصحون. «يردوكم على أعقابكم»، يقول: يَحْمِلُوكم على الرِّدَّةِ بعد الإيمانِ، والكفرِ بالله وآياتِه وبرسولِه بعد الإسلام. «فتنقلبوا خاسرين»، يقول: فترجعوا عن إيمانكم ودينكم الذي هداكم اللهُ له. «خاسرين»، يعني: هالكين، قد خسرتم أنفسكم، وضَلَلْتُم عن دِينكم، وذهبتْ دُنْياكُم وآخرتكم.

ينهى بذلك أهلَ الإيمانِ بالله أنْ يُطيعوا أهلَ الكفر في آرائهم وينتصحوهم في أديانهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ۝١٥٠﴾

ويعني بقوله: «بل الله مولاكم»، وليُّكم وناصركم على أعدائِكم الذين كفروا، «وهو خير الناصرين»، لا مَنْ فَرَرْتُم إليه من اليهودِ وأهلِ الكفرِ بالله. فبالله الذي هو نَاصِرُكُم ومولاكم فاعتصِمُوا، وإياهُ فاستنصروا، دونَ غيرِه ممن يبغيكم الغوائلَ، ويرصدكم بالمكاره.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝١٥١﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: سيلقي اللهُ، أيها المؤمنون، «في قلوب الذين كفروا» بربهم، وجَحَدُوا نُبُوَّةَ محمدٍ ﷺ، ممن حاربكم بأُحُد، «الرعبَ»، وهو الجـزعُ والهلع. «بما أشركوا بالله»، يعني: بشركهم بالله وعبادَتِهم الأصنامَ، وطاعَتِهم الشيطانَ التي لم أجعلْ لهم بها حُجَّةً ـ وهي «السلطان» ـ التي أخبر عز وجل أنه لم ينزله بكفرهم وشركهم.

وهـذا وعـدٌ من الله جَلَّ ثنـاؤه أصحـابَ رسـولِ الله ﷺ بالنصر على أعـدائهم، والفَلْج[1] عليهم، ما استقاموا على عَهْدِهِ، وتَمَسَّكُوا بطاعته. ثم أخبرهم ماهو فاعلٌ بأعدائِهم بعد مصيرِهِم إليه، فقال جل ثناؤه: «ومأواهم النار»، يعني: ومرجعهم الذي يرجعون إليه يوم القيامة، النارُ. «وبئس مثوى الظالمين»، يقول: وبئس مقام الظالمين ـ الذين ظلموا أنْفُسَهُم باكتسابِهم ما أوجبَ لها عقابَ الله ـ النارُ[2].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾

يعني بقوله تعالى ذكره: «ولقد صَدَقكم الله»، أيها المؤمنون من أصحابِ محمدٍ ﷺ بأُحُد، وَعْدَهُ الذي وعدهم على لسان رسوله محمد ﷺ.

و«الوعد» الذي كان وعَدهم على لسانهِ بأُحُد، قولُه للرماة: «اثبتوا مكانكم ولا تَبْرَحُوا، وإنْ رأيتمونا قد هزمناهم، فإنَّا لن نزال غالبين ماثَبَتُّمْ مكانَكُم»[3]. وكان وعَدَهُم رسولُ الله ﷺ النصرَ يومئذٍ إن انتهوا إلى أمره.

---

(١) الفلج: الظفر والفوز.

(٢) تأمل أيها القارىء جيداً التحذير الرباني من موالاة الكافرين، وإعلام الله بولايته لنا ونصرته إيانا عاجلاً أو آجلاً.

(٣) أخرج البخاري ٤/٥٩ و ٥/١٠٠ و ١٢٦ و ٦/٤٨ وغيره من حديث البراء بن عازب بمعنى هذا الحديث.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: ولقد وَفَى اللهُ لكم، أيها المؤمنون من أصحابِ رسولِ الله ﷺ، بما وَعَدَكُم من النصرِ على عَدُوِّكم بأُحُد حين «تَحُسُّونهم»، يعني: حين تقتلونهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «حتى إذا فشلتم»، حتى إذا جبنتم وضَعُفْتُم. «وتنازعتم في الأمر»، يقول: واختلفتم في أمرِ الله، يقول: وعَصَيْتُم وخالفتم نبيكم، فتركتم أمْرَهُ وما عَهِدَ إليكم. وإنما يعني بذلك الرماة الذين كان أمَرَهُم ﷺ بلزومِ مركزِهم ومقعدِهم مِنْ فَمِ الشِّعْبِ بأُحُد بإزاءِ خالد بن الوليد ومَنْ كان معه من فرسانِ المشركين.

وأما قوله: «مِنْ بعد ما أراكم ماتحبون»، فإنه يعني بذلك: من بعد الذي أراكم الله، أيها المؤمنون بمحمدٍ، من النصرِ والظفرِ بالمشركين، وذلك هو الهزيمةُ التي كانوا هزموهم عن نسائهم وأموالهم قبل تَرْكِ الرُّمَاةِ مقاعِدَهُم التي كان رسولُ الله ﷺ أقعدهم فيها، وقبل خروجِ خيلِ المشركين على المؤمنين من ورائهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «منكم مَنْ يريد الدنيا»، الذين تركوا مقعدهم الذي

أقعدهم فيه رسولُ الله ﷺ في الشِّعب من أُحُد لخيلِ المشركين، ولَحِقُوا بعسكرِ المسلمين طَلَبَ النَّهْبِ إذْ رأوا هزيمةَ المشركين. «ومنكم مَنْ يريدُ الآخرة»، يعني بذلك: الذين ثبتوا من الرماة في مقاعدهم التي أقعدهم فيها رسولُ ﷺ: واتَّبعوا أمْرَهُ، محافظةً على عهدِ رسولِ الله ﷺ، وابتغاءَ ماعندَ الله من الثوابِ بذلك من فعلهم والدار الآخرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: ثم صَرَفَكُم، أيها المؤمنون، عن المشركين بعد ماأراكم ماتحبون فيهم وفي أنفسكم، من هزيمتِكُم إيَّاهم وظهوركم عليهم، فردَّ وجوهَكُم عنهم لمعصيتكم أمرَ رسولي، ومخالفتكم طاعته، وإيثاركم الدنيا على الآخرة، عقوبةً لكم على مافعلتم، «ليبتليكم»، يقول: لِيَخْتَبِرَكُم، فيتميز المنافقُ منكم من المخلص الصادقِ في إيمانهِ منكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ۝١٥٢﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «ولقد عفا عنكم»، ولقد عفا الله ـ أيها المخالفون أمرَ رسولِ الله ﷺ، والتاركونَ طاعته فيما تقدم به إليكم من لزومِ الموضعِ الذي أمركم بلزومه عنكم، فصفح لكم من عقوبةِ ذنبكم الذي أتيتموه، عما هو أعظم مما عاقبكم به من هزيمةِ أعدائِكم إياكم، وصرفِ وجوهكم عنهم، إذْ لم يستأصل جَمْعَكَم.

وأما قوله: «والله ذُو فضلٍ على المؤمنين»، فإنه يعني: والله ذو طَوْل على أهلِ الإيمانِ به وبرسوله، بعفوه لهم عن كثيرِ ما يستوجبون به العقوبةَ عليه من

ذنوبهم، فإنْ عاقبهم على بعضِ ذلك، فذُو إحسانٍ إليهم بجميلِ أياديهِ عندهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: ولقد عفا عنكم، أيها المؤمنون، إذْ لم يستأصلكم إهلاكاً منه جَمْعَكُم بذنوبكم وهربكم. «إذ تصعدون ولا تلوون على أحد».

وأما قوله: «ولا تلوون على أحد»، فإنه يعني: ولا تعطفون على أحدٍ منكم، ولا يلتفت بعضُكم إلى بعضٍ، هَرَباً من عدوِّكم مُصْعِدينَ في الوادي.

ويعني بقوله: «والرسولُ يدعوكم في أُخْرَاكم» ورسول الله ﷺ يدعوكم أيها المؤمنون به من أصحابه. «في أخراكم»، يعني: أنه يناديكم من خَلْفِكم: «إليَّ عبادَ الله، إليَّ عِبادَ الله[1]»!

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

معنى قوله: «فأثابكم غمًّا بغم» أيها المؤمنون، بحرمانِ الله إياكم غنيمةَ المشركين والظفر بهم والنصر عليهم، وما أصابكم من القتلِ والجراحِ يومئذٍ - بعد الذي كان قد أراكم في كُلِّ ذلك ماتحبون - بمعصيتكم ربَّكم وخلافكم أمْـرَ نبيكم ﷺ، غمَّ ظنِّكم أنَّ نبيكم ﷺ قد قتـل، وميل العدوِّ عليكم بعد فلولكم منهم».

---

(١) في المطبوع: «عبدالله»، لعله من غلط الطبع.

وأما قوله: «والله خبير بما تعملون»، فإنه يعني جل ثناؤه: والله بالذي تعملون، أيها المؤمنون ـ من إصعادِكم في الوادي هرباً من عَدُوِّكُم، وانهزامكم منهم، وتركِكم نبيكم وهو يَدْعُوكُم في أُحراكم، وحزنكم على مافاتكم من عدوكم وما أصابكم في أنفسكم ـ ذُو خبرةٍ وعِلْمٍ، وهو مُحْصٍ ذلك كله عليكم، حتى يجازيكم به: المحسنَ منكم بإحسانِهِ، والمسيءَ بإساءته، أو يعفو عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: ثم أنزل الله. أيها المؤمنون. مِنْ بعد الغَمِّ الذي أثابكم رَبُّكم بعد غَمٍّ تقدمه قبله. «أمنةً»، وهي الأمانُ. على أهلِ الإخلاصِ منكم واليقين، دون أهلِ النفاق والشك.

ثم بَيَّنَ جَلَّ ثناؤه، عن «الأمنة» التي أنزلها عليهم، ماهي؟ فقال: «نعاساً»، بنصب «النعاس» على الإبدال من «الأمنة»[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: «وطائفة منكم»، أيها المؤمنون. «قد أَهَمَّتْهُم أنفسهم»، يقول: هم المنافقون، لا همَّ لهم غير أنفسهم، فهم من حَذَرِ القتل على أنفسهم وخوفِ المنية عليها في شغل، قد طار عن أعينهم الكرى، يظنون

---

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج: ١/٤٧٩.

بالله الظنونَ الكاذبة، ظَنَّ الجاهليةِ من أهلِ الشرك بالله، شكاً في أمر الله، وتكذيباً لنبيه ﷺ، ومَحْسَبةً منهم أنَّ الله خاذلُ نبيه ومُعْلٍ عليه أهلَ الكفرِ به، يقولون: هَلْ لنا من الأمرِ من شيء!

وأما قوله: «ظنّ الجاهلية»، فإنه يعني أهل الشرك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا**

يعني بذلك الطائفةَ المنافقةَ التي قد أهمَّتهم أنفسهم، يقولون: ليس لنا من الأمرِ من شيءٍ، قُلْ إنَّ الأمرَ كُلَّهُ لله، ولو كان لنا من الأمرِ شيءٌ ماخرجنا لقتالِ مَنْ قاتلنا فقتلونا.

وهذا أمر مبتدأ من الله عز وجل، يقولُ لنبيهِ محمدٍ ﷺ: قُلْ، يامحمد، لهؤلاء المنافقين: «إنَّ الأمرَ كله لله»، يُصرفه كيف يشاء ويُدَبِّرُهُ كيف يحبُّ.

ثم عاد إلى الخبر عن ذِكْرِ نفاقِ المنافقين، فقال: «يُخْفُونَ في أنفسهم مالا يُبْدُونَ لك» يقول: يُخْفِي، يامحمدُ، هؤلاء المنافقون الذين وَصَفْتُ لكَ صِفَتَهم، في أنفسهم من الكفرِ والشَّكِّ في الله، مالا يُبْدُونَ لكَ. ثم أظهر نبيَّهُ ﷺ على ماكانوا يُخْفُونَهُ بينهم من نِفَاقِهم، والجسرة التي أصابتهم على حضورهم مع المسلمين مشهدهم بأُحد، فقال مخبراً عن قِيلهم الكفرَ وإعلانِهم النفاقَ بينهم: «يقولون لو كان لنا من الأمرِ شيءٌ ماقُتِلْنَا ههنا»، يعني بذلك، أنَّ هؤلاء المنافقين يقولون: لو كان الخروجُ إلى حربِ مَنْ خَرَجْنَا لحربهِ من المشركينَ إلينا، ماخرجنا إليهم، ولا قُتِلَ مِنَّا أحدٌ في الموضعِ الذي قُتِلُوا فيه بأُحُد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: قُلْ، يامحمد، للذين وَصَفْتُ لكَ صِفَتَهم من المنافقين: لو كنتم في بيوتكم لم تَشْهَدُوا مع المؤمنين مشهدَهم، ولم تحضروا معهم حربَ أعدائِهم من المشركين، فيظهرَ للمؤمنين ماكنتم تُخْفُونَهُ من نِفاقِكم، وتكتمونه من شَكِّكُم في دِينكم ـ «لبرَزَ الذين كُتِبَ عليهم القَتْلُ»، يقول: لَظَهَرَ للموضعِ الذي كُتب عليه مَصْرَعُه فيه، مَنْ قد كُتِبَ عليه القتلُ منهم، ولخرجَ من بيتهِ إليه حتى يُصْرَعَ في الموضع الذي كُتب عليه أن يُصْرَعَ فيه.

ويعني بقوله: «وليبتليَ الله ما في صدوركم»، وليختبر الله الذي في صدوركم من الشك، فيميِّزَكُم ـ بما يُظْهِرُه للمؤمنين من نِفَاقِكم ـ من المؤمنين. «وليمحص ما في قلوبكم»، يقول: وليتبينوا مافي قلوبكم من الاعتقاد لله ولرسوله ﷺ وللمؤمنين من العداوة أو الولاية[1]. «واللهُ عليمٌ بذات الصدور»، يقول: والله ذُو عِلْمٍ بالذي في صدور خَلْقِهِ من خيرٍ وشر، وإيمانٍ وكفر، لا يخفى عليه شيءٌ من أمورهم، سرائرها وعلانيتها، وهو لجميع ذلك حافظٌ، حتى يجازي جميعهم جزاءهم على قَدْرِ استحقاقهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ۖ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

---

(١) انظر لزاماً ماكتبه صاحب «الظلال» عن «التمحيص» عند تفسيره لهذه الآية ففيه فائدة وبعد نظر.

حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: إنَّ الذين ولَّوا عن المشركين، من أصحابِ رسولِ الله ﷺ يوم أُحُد وانهزموا عنهم.

وقوله: «يوم التقى الجمعان»، يعني: يوم التقى جمعُ المشركينَ والمسلمين بأُحُدٍ «إنما استزلهم الشيطان»، أي: إنما دعاهم إلى الزلَّة الشيطانُ. «ببعض ماكسبوا»، يعني ببعضِ ماعَمِلُوا من الذنوبِ. ﴿ولقد عفا الله عنهم﴾، يقول: ولقد تجاوز اللهُ عن عقوبة ذنوبهم فصفحَ لهم عنه. «إن الله غفور»، يعني به: مُغَطٍّ على ذنوبِ مَنْ آمنَ به واتَّبَعَ رسولَهُ، بعفوهِ عن عقوبتهِ إياهم عليها. «حليم»، يعني أنه ذُو أَنَاةٍ لا يعجلُ على مَنْ عصاه وخالفَ أمره بالنقمة.

وأما قوله: «ولقد عفا الله عنهم»، فإنَّ معناه: ولقد تجاوز اللهُ عن الذين وَلَّوا منكم يوم التقى الجمعان، أنْ يِعَاقِبَهُم بتولِّيهم عن عَدُوِّهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ

يعني بذلك جل ثناؤه: يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسولَهُ وأقرُّوا بما جاء به محمدٌ من عندِ الله، لاتكونوا كَمَنْ كَفَرَ بالله وبرسوله، فجحدَ نبوَّةَ محمدٍ ﷺ، وقال لإخوانه من أهل الكفر. «إذا ضَرَبُوا في الأرض» فخرجوا من بلادهم سَفَراً في تجارة. «أو كانوا غُزًّى»، يقول: أو كانَ خروجُهم مِنْ بلادِهم غُزَاةً فهلكوا فماتوا في سفرهم، أو قُتِلُوا في غزوهم. «لو كانوا عندنا ما ماتوا وما

قُتِلُوا»، يخبر بذلك عن قولِ هؤلاء الكفار أنهم يقولون لمن غزا منهم فَقُتِلَ، أو ماتَ في سفر خرج فيه في طاعةِ الله، أو تجارةٍ: لو لم يكونوا خرجوا من عندنا وكانوا أقاموا في بلادهم ما ماتوا وما قُتِلُوا. «ليجعلَ اللهُ ذلك حَسْرةً في قلوبهم»، يعني: أنهم يقولون ذلك، كي يجعل الله قولَهم ذلك حُزْناً في قلوبهم وغَمًّا، ويجهلون أنَّ ذلك إلى اللهِ جَلَّ ثناؤه وبيدهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤهُ: ﴿وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ١٥٦﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: «والله يُحْيِي ويميتُ»، واللهُ المُعَجِّلُ الموتَ لمن يشاءُ من حيثُ يشاء، والمميتُ مَنْ يشاءُ كُلَّمَا شاء، دونَ غيرِهِ من سائرِ خَلْقِه.

وهذا من الله عز وجل ترغيبٌ لعباده المؤمنينَ على جهادِ عَدُوِّهِ والصبر على قتـالهم، وإخـراجِ هَيْبَتِهم من صدورهم، وإنْ قَلَّ عَدَدُهم وكَثُـرَ عَدَدُ أعدائِهم وأعداءِ الله، وإعلامٌ منه لهم أنَّ الإماتةَ والإحياءَ بيدِهِ، وأنه لَنْ يموتَ أحدٌ ولا يقتل إلا بعد فناءِ أَجَلِهِ الذي كتب له، ونهيٌ منه لهم، إذْ كان كذلك، أنْ يَجْزَعُوا لموتِ مَنْ مات منهم أو قتل مَنْ قُتِلَ منهم في حربِ المشركين.

ثم قال جل ثنـاؤه: «والله بمـا تعملون بصيرٌ»، يقـول: إنَّ الله يرى ماتعملون من خيرٍ وشـر، فاتقوه أيها المؤمنون، إنه مُحْصٍ ذلك كُلّه، حتى يجازي كُلَّ عاملٍ بعمله على قَدْرِ استحقاقه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤهُ: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ١٥٧﴾

يخاطب جَلَّ ثناؤه عباده المؤمنين، يقول لهم: لاتكونوا، أيها المؤمنون، في شَكٍّ من أنَّ الأمورَ كُلَّها بيدِ الله، وأنَّ إليه الإحياء والإماتة، كما شَكَّ المنافقون في ذلك، ولكنْ جاهدوا في سبيل الله وقاتلوا أعداءَ الله، على يقينٍ منكم بأنه لا يُقْتَلُ في حربٍ ولا يموتُ في سفرٍ إلا مَنْ بلغَ أجلَهُ وحانت وفاتُه. ثم وَعَدَهُم على جهادِهم في سبيله المغفرةَ والرحمةَ، وأخبرهم أنَّ موتاً في سبيلِ الله أو قَتْلاً في الله، خيرٌ لهم مما يجمعون في الدنيا من حُطامها ورَغيدِ عَيْشِها الذي من أجله يتثاقلون عن الجهادِ في سبيلِ الله، ويتأخرون عن لقاءِ العدو.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: ولَئِنْ مُتم أو قُتلتم، أيها المؤمنون، فإنَّ إلى الله مَرْجعكم ومحشركم، فيجازيكم بأعمالِكُم، فآثروا مايُقَرِّبُكم من الله ويوجبُ لكم رِضَاهُ ويقربكم من الجنة، من الجهادِ في سبيلِ الله والعملِ بطاعته، على الركونِ إلى الدنيا وما تجمعون فيها مِنْ حُطامِهَا الذي هو غير باقٍ لكم، بل هو زائلٌ عنكم، وعلى تَرْكِ طاعةِ الله والجهاد، فإنَّ ذلك يُبْعِدُكم عن رَبِّكم، ويوجبُ لكم سخطه، ويقرِّبكم من النار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: «فبما رحمة من الله»، فبرحمةٍ من الله، و«ما» صلة.

وأما قوله: «ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك»، فإنه يعني بـ«الفظ» الجافي، وبـ«الغليظ القلب»، القاسي القلب، غير ذي رحمة ولا رأفة. وكذلك كانت صفته ﷺ، كما وصفه الله به: ﴿بالمؤمنين رؤوفٌ رحيم﴾. [التوبة: ١٢٨].

فتأويل الكلام: فبرحمة الله، يامحمد، ورأفته بك وبمن آمن بك من أصحابك «لِنْتَ لهم»، لتبَّاعِكَ وأصحابِكَ، فَسَهُلَتْ لهم خلائِقُكَ، وحَسُنَتْ لهم أخلاقك، حتى احتملتَ أذى مَنْ نالك منهم أذاهُ، وعفوتَ عن ذي الجرم منهم جرمَهُ، وأغضيتَ عن كثيرٍ ممن لو جفوتَ به وأغلظتَ عليه لتركَكَ ففارقَكَ ولم يتَّبعكَ ولا مابُعثت به من الرحمة، ولكنَّ الله رحمهم ورحمك معهم، فبرحمةٍ من الله لِنْتَ لهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾

إن الله عز وجل أمرَ نبيه ﷺ بمشاورة أصحابه فيما حَزَبَهُ من أمر عدوه ومكايدِ حربه، تألُّفاً منه بذلك مَنْ لم تكن بصيرتُه بالإسلام البصيرةَ التي يُؤْمَنُ عليه معها فتنةُ الشيطان وتعريفاً منه أُمَّتَهُ مَأْتى الأمور التي تَحْزُبُهم من بعده ومطلبها، ليقتدوا به في ذلك عند النوازلِ التي تنزلُ بهم، فيتشاوروا فيما بينهم، كما كانوا يرونه في حياته ﷺ يفعله. فأما النبيُّ ﷺ، فإنَّ الله كان يُعَرِّفه مطالبَ وجوهِ ماحَزَبَهُ من الأمورِ بوحيهِ أو إلهامهِ إياه صوابَ ذلك. وأما أمته، فإنهم إذا تشاوروا مُسْتَنِّينَ بفعله في ذلك، على تصادُقٍ وتأخٍ[1] للحقِّ، وإرادةِ جميعهم

(١) توخّى الأمر: تحراه وقَصَدَهُ ويَمَّمَهُ.

للصوابِ، من غير ميلٍ إلى هوى، ولا حَيْدٍ عن هدى، فالله مُسَدِّدُهم وموفِّقُهم[(١)].

وأما قوله: «فإذا عزمت فتوكل على الله»، فإنه يعني: فإذا صحَّ عَزْمُكَ بتَثْبِيتِنَا إياكَ، وتَسْدِيدِنَا لكَ فيما نَابَكَ وحَزَبَكَ من أمرِ دينكَ ودُنياكَ، فامضِ لما أمرناكَ به على ما أمرناكَ به، وافقَ ذلك آراءَ أصحابِكَ وما أشاروا به عليكَ، أو خالفها. «وتوكل»، فيما تأتي من أمورِكَ وتَدَع، وتحاول أو تزاول، على ربك، فَثِقْ به في كل ذلك، وارضَ بقضائهِ في جميعه، دون آراء سائرِ خَلْقِه ومعونتهم «فإنَّ الله يحب المتوكلين»، وهم الراضونَ بقضائهِ، والمستسلمونَ لِحُكْمِه فيهم، وافق ذلك منهم هوىً أو خالفه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ١٦٠﴾

يعني تعالى ذكره بذلك: «إن ينصركم الله»، أيها المؤمنون بالله ورسوله، على مَنْ ناوأكم وعاداكم من أعدائه والكافرين به. «فلا غالب لكم» من الناس، يقول: فَلَنْ يغلبكم مع نَصْرِه إياكم أحدٌ، ولو اجتمع عليكم مَن بين أقطارِها من خَلْقِه، فلا تهابُوا أعداءَ الله لقلةِ عَدَدِكُم وكثرةِ عَدَدِهم، ماكنتم على أمرِهِ واستقمتم على طاعتهِ وطاعةِ رسوله، فإنَّ الغَلَبَة لكم والظَّفر، دونهم. «وإن يخذُلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده»، يعني: إنْ يخذلكم رَبُّكم بخلافِكم أمره وترككم طاعتَهُ وطاعةَ رسوله، فَيَكِلَكُم إلى أنفسكم، «فمن ذا الذي ينصركم من بعده»، يقول: فَأَيِّسُوا من نُصْرَة الناسِ، فإنكم لاتجدون ناصراً من بعد

---

(١) لذلك ذهب ابن تيمية إلى أن المشاورة بين المسلمين مأمور بها، وأن الحاكم اذا استشار أهل المشورة فعليه اتباع ذلك، إن كان موافقاً للكتاب والسنة (انظر السياسة الشرعية: ١٨٣ ـ ١٨٤).

خِذْلانِ الله إياكم إنْ خَذَلكم، يقول: فلا تتركوا أمري وطاعتي وطاعة رسولي فتهلكوا بخِذْلاني إياكم. «وعلى الله فليتوكل المؤمنون»، يعني: ولكن على ربكم، أيها المؤمنون، فتوكَّلُوا دونَ سائرِ خلقه، وبه فارضوا من جميع مَنْ دونه، ولقضائهِ فاستسلموا، وجاهدوا فيه أعداءَهُ، يَكْفِكُم بعونهِ، ويُمْدِدْكُم بنصرهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ

إن معنى ذلك هو أنَّ الله عَزَّ وجل نفى بذلك أنْ يكون الغُلُولُ والخيانةُ من صفاتِ أنبيائه، ناهياً بذلك عبادَه عن الغُلُول، وآمراً لهم بالاستنان بمنهاجِ نبيهم، ثم عقَّب تعالى ذِكْرُه نهيَهم عن الغُلُولِ بالوعيدِ عليه فقال: «ومَنْ يغللْ يأتِ بما غَلَّ يوم القيامة»، الآيتين معاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ

يعني بذلك تعالى ذكره: ومَنْ يَخُنْ من غنائمِ المسلمين شيئاً وفيئهم وغير ذلك، يأتِ به يومَ القيامة في المحشر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «ثم تُوفَّى كل نفس»، ثم تُعطَى كُلُّ نفسٍ جزاءَ ماكسبت بكسبها، وافياً غيرَ منقوصٍ مما استحقهُ واستوجبَهُ من ذلك. «وهُمْ لايُظلمون»، يقول: لايُفْعَلُ بهم إلا الذي ينبغي أنْ يُفْعَلَ بهم، من غير أنْ يُعْتَدَى عليهم فيُنقصوا عما استحقُّوه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ١٦٢﴾

معنى قوله: «أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله» إذاً: أفمن تركَ الغلولَ وما نهاه اللهُ عنه من معاصيه، وعَمِلَ بطاعةِ الله في تَرْكِهِ ذلك، وفي غيرِهِ مما أمرهُ به ونهاه من فرائضه، مُتَّبِعاً في كُلِّ ذلك رضى الله، ومجتنباً سخطه «كمن باء بسخط من الله»، يعني: كمن انصرف متحمِّلاً سَخَطَ الله وغضبه، فاستحق بذلك سُكْنَى جهنم؟ يقول: ليسا سواءً.

وأما قوله: «وبئس المصير»، فإنه يعني: وبئس المصير ـ الذي يصيرُ إليه ويؤوبُ إليه مَنْ باء بسخط من الله ـ جهنم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ١٦٣﴾

يعني تعالى ذكره بذلك: أنَّ مَنِ اتَّبَعَ رِضوانَ الله ومَنْ باء بسَخَطٍ من الله، مختلفو المنازل عند الله. فلمن اتبع رِضوان الله، الكرامةُ والثوابُ الجزيلُ، ولمن باءَ بسَخَطٍ من الله، المهانةُ والعقابُ الأليمُ.

وأما قوله: «والله بصير بما يعملون»، فإنه يعني: والله ذُو عِلْمٍ بما يعملُ أهلُ طاعتِهِ ومعصيته، لايخفى عليه من أعمالهم شيءٌ، يُحْصِي على الفريقين جميعاً أعمالَهم، حتى تُوَفَّى كُلُّ نفسٍ منهم جزاء ماكسبتْ من خيرٍ وشر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ

وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾

يعني بذلك: لقد تَطَوَّلَ[1] اللهُ على المؤمنين «إذْ بعث فيهم رسولا»، حين أرسل فيهم رسولاً. «مِن أنفسهم»، نبيًّا من أهلِ لسانهم، ولم يجعله من غيرِ أهلِ لسانهم فلا يفقهوا عنه مايقول. «يتلو عليهم آياته»، يقول: يقرأ عليهم آيَ كتابِهِ وتنزيله. «ويُزَكِّيهم»، يعني: يُطَهِّرُهُم من ذنوبهم باتباعهم إياه وطاعتهم له فيما أمرهم ونهاهم. «ويعلمهم الكتاب والحكمة»، يعني: ويعلمهم كتابَ الله الذي أنزله عليه، ويبين لهم تأويله ومعانيه. «والحكمة»، ويعني بالحكمة، السُّنةَ التي سَنَّها اللهُ جل ثناؤه للمؤمنين على لسان رسولِ الله ﷺ، وبيانَه لهم. «وإنْ كانوا من قَبْلُ لفي ضلالٍ مبين»، يعني: وإنْ كانوا من قبل أنْ يَمُنَّ اللهُ عليهم بإرساله رسوله الذي هذه صفته. «لفي ضلال مبين»، يقول: في جهالةٍ جهلاء، وفي حيرةٍ عن الهدى عمياء لا يعرفون حقًّا، ولا يبطلون باطلاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: أوَ حِينَ أصابتكُم، أيها المؤمنون، «مصيبةٌ»، وهي القتلى الذين قُتِلُوا منهم يوم أُحُد، والجرحى الذين جرحوا منهم بأُحُد، وكان المشركون قَتَلُوا منهم يومئذٍ سبعين نفراً - «قد أصبتم مِثْلَيْهَا»، يقول: قد أصبتم، أنتم أيها المؤمنون، من المشركين مثلي هذه المصيبة التي أصابوا هم

(١) هي معنى «مَنَّ»، والتطول: التفضل، كما في معجمات اللغة.

منكم، وهي المصيبةُ التي أصابَها المسلمونَ من المشركينَ ببدر، وذلك أنهم قتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين. «قلتم أنَّى هذا»، يعني: قلتم لما أصابتكم مصيبتكم بأُحُد. «أنَّى هذا»، من أيِّ وجه هذا؟ ومِنْ أين أصابنا هذا الذي أصابنا، ونحن مسلمون وهم مشركون، وفينا نبيُّ اللهِ ﷺ يأتيه الوحيُ من السماء، وعدوُّنا أهل كفر بالله وشِرك؟. «قل» يامحمد للمؤمنين بك من أصحابك. «هو مِنْ عندِ أنفسِكُم»، يقول: قل لهم: أصابكم هذا الذي أصابكم من عند أنفسكم، بخلافِكُم أمري وتَرْكِكم طاعتي، لا من عندِ غيركم، ولا مِنْ قِبَلِ أحدٍ سواكم. «إن الله على كل شيء قدير»، يقول: إن الله على جميع ماأراد بخلقهِ من عفوٍ وعقوبةٍ، وتفضلٍ وانتقام. «قدير»، يعني: ذو قدرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٦٦ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: والذي أصابكم «يوم التقى الجمعان»، وهو يوم أُحُد، حين التقى جَمْع المسلمين والمشركين. ويعني بـ «الذي أصابهم»، مانالَ من القتل مَنْ قُتِلَ منهم، ومن الجِراحِ مَنْ جُرِح منهم. «فبإذن الله»، يقول: فهو بإذن الله كانَ، يعني: بقضائه وقَدَرِهِ فيكم.

«وليعلمَ المؤمنين * وليعلمَ الذين نافقوا»، بمعنى: وليعلم اللهُ المؤمنين، وليعلم الذين نافقوا، أصابكم ما أصابكم يوم التقى الجمعان بأُحُد، ليميِّزَ أهلَ الإيمانِ بالله ورسوله: المؤمنينَ منكم من المنافقين فيعرفونهم، لا يخفى عليهم أمرُ الفريقين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ

﴿ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك عبدَالله بن أبيّ بن سلول المنافق وأصحابَه، الذين رجعوا عن رسولِ الله ﷺ وعن أصحابه، حين سار نبيُّ اللهِ ﷺ إلى المشركينَ بأُحُد لقتالهم، فقال لهم المسلمون: تعالوا قاتِلُوا المشركينَ معنا، أو ادفعوا بتكثيركُم سَوَادَنَا! فقالوا: لو نعلمُ أنكم تقاتلونَ لَسِرْنَا معكم إليهم، ولكنَّا معكم عليهم، ولكنْ لا نرى أنه يكونُ بينكم وبين القومِ قتالٌ! فأبدوْا من نفاقِ أنفسهم ماكانوا يكتمونه، وأبدوا بألسنتهم بقولهم: «لو نعلم قتالاً لاتبعانكم»، غيرَ ماكانوا يكتمونه ويُخْفُونَهُ من عداوةِ رسولِ الله ﷺ وأهلِ الإيمان به.

وأما قوله: «والله أعلم بما يكتمون»، فإنه يعني به: والله أعلم من هؤلاء المنافقين الذين يقولون للمؤمنين: «لو نعلمُ قتالاً لاتبعناكم»، بما يُضْمِرُونَ في أنفسهم للمؤمنين ويكتمونه فَيَسْتُرونَهُ من العداوةِ والشنآنِ، وأنهم لو علموا قتالاً ماتَبِعُوهم ولا دافعوا عنهم، وهو تعالى ذِكْرُه محيطٌ بما هم مُخْفُوهُ من ذلك، مُطَّلِعٌ عليه، ومُحْصِيه عليهم، حتى يهتكَ أستارهم في عاجل الدنيا فيفضحهم به، ويُصليهم به الدركَ الأسفلَ من النار في الآخرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾

معنى الآية: وليعلمَ اللهُ الذين قالوا لإخوانِهم الذين أُصِيبُوا مع المسلمينَ في حربهم المشركينَ بأُحُدٍ يوم أحد فقتلوا هنالك من عشائرهم وقومهم

«وقعدوا»، يعني: وقعد هؤلاء المنافقون القائلون ماقالوا ـ مما أخبر اللهُ عَزَّ وجل عنهم من قِيلِهم ـ عن الجهادِ مع إخوانهم وعشائرهم في سبيل الله. «لو أطاعونا»، يعني: لو أطاعنا مَنْ قُتِلَ بأحُدٍ من إخواننا وعشائرنا. «ماقُتِلُوا» يعني: ماقُتِلُوا هنالك ـ قال الله عَزَّ وجَلَّ لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ»، يامحمد، لهؤلاء القائلينَ هذه المقالةَ من المنافقين ـ «فادْرَأُوا»، يعني: فادفعوا.

يقول تعالى ذِكْرُه: قل لهم: فادفعوا ـ إنْ كنتم، أيها المنافقون، صادقين في قِيلِكم: لو أطاعنا إخواننا في تَرْكِ الجهادِ في سبيل الله مع محمدٍ ﷺ وقتالهم أبا سفيان ومَنْ مَعَهُ من قريش، ماقُتِلُوا هنالك بالسيف، ولكانوا أحياء بقعودِهم معكم، وتَخَلُّفهم عن محمدٍ ﷺ وشهود جهادِ أعداءِ الله معه ـ عن أنفسكم الموتَ، فإنكم قد قعدتم عن حربهم وقد تَخَلَّفْتُم عن جهادِهم، وأنتم لا محالةَ ميتون

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾

يعني تعالى ذكره: «ولا تحسبن»، ولا تَظُنَنَّ.

وقوله: «الذين قتلوا في سبيل الله»، يعني: الذين قُتِلُوا بأُحُدٍ من أصحاب رسولِ الله ﷺ[1]. «أمواتاً»، يقول: ولا تحسبنَّهم، يامحمد، أمواتاً لايُحِسُّون شيئاً ولا يلتذُّونَ ولا يَتَنَعَّمُونَ، فإنهم أحياء عندي، متنعمون في رزقي، فَرِحُونَ مسرورون بما آتَيْتُهم من كرامتي وفضلي، وحَبَوْتُهم به من جزيلِ ثوابي وعطائي.

---

(١) وكذلك كل من مات في سبيل الله، أي من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا، لتواتر الأحاديث النبوية الشريفة في ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ١٧٠﴾

يعني بذلك تعالى ذِكْرُه: يفرحون بمن لم يَلْحَقْ بهم من إخوانهم الذين فارقوهم وهم أحياء في الدنيا على مناهجهم من جهادِ أعداءِ الله مع رسوله، لعلمهم بأنهم إن استشهدوا فَلَحِقُوا بهم صارُوا من كرامةِ الله إلى مِثْلِ الذي صاروا هم إليه، فهم لذلك مستبشرون بهم، فَرِحُونَ أنهم إذا صاروا كذلك. «ألا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون»، يعني بذلك: لا خوف عليهم، لأنهم قد أَمِنُوا عقابَ الله، وأيقنوا برضاه عنهم، فقد أَمِنُوا الخوفَ الذي كانوا يخافونه من ذلك في الدنيا، ولا هم يحزنون على ماخَلَّفُوا وراءهم من أسبابِ الدنيا ونَكَدِ عيشها، للخفضِ الذي صارُوا إليه والدَّعةِ والزُّلْفَةِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ١٧١﴾

يقول جَلَّ ثناؤُه: «يستبشرون»، يفرحون. «بنعمة من الله»، يعني: بما حَبَاهم به تعالى ذِكْرُه من عظيم كرامتهِ عند ورودهم عليه. «وفضل» يقول: وبما أسبغ عليهم من الفضلِ وجزيلِ الثوابِ على ماسَلَفَ منهم من طاعةِ الله ورسوله ﷺ وجهادِ أعدائه، «وأنَّ الله لا يضيع أجر المؤمنين».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ١٧٢﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: «وأنَّ الله لايضيعُ أجر المؤمنين»، المستجيبين لله

والرسول من بعد ما أصابهم الجراح والكُلُوم.

فوعد تعالى ذكره، مُحْسِنَ مَنْ ذكرنا أمْرَهُ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ، الذين استجابوا لله والرسولِ من بعد ما أصابهم القَرْح، إذا اتقى الله فَخَافَهُ، فأدّى فرائِضَـهُ وأطاعه في أمره ونهيِهِ فيما يستقبلُ من عمره - «أجراً عظيما»، وذلك الثوابُ الجزيل، والجزاءُ العظيم على ماقَدَّمَ من صالحِ أعماله في الدنيا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾

يعني تعالى ذكره: «وأنَّ الله لا يضيع أجر المؤمنين»، «الذين قال لهم الناس إنَّ الناس قد جمعوا لكم».

و«الـذين» في موضعِ خفض مردود على «المؤمنين»، وهذه الصفةُ من صفةِ الذين استجابوا لله والرسول.

و«الناس» الأوّل، هم قومٌ - فيما ذُكِرَ لنا - كان أبو سفيان سألهم أن يُثَبِّطُوا رسولَ الله ﷺ وأصحابه الذين خرجوا في طلبه بعد مُنْصَرَفِهِ عن أُحُدٍ إلى حمراء الأسد.

و«الناس» الثاني، هم أبو سفيان وأصحابهُ من قريش، الذين كانوا معه بأُحُد.

ويعني بقوله: «قد جمعوا لكم»، قد جمعوا الرجالَ لِلَقَائِكُم والكرَّة إليكم لحربكم. «فاخشوهم»، يقول: فاحذروهم، واتقوا لقاءَهُم، فإنه لا طاقةَ لكم بهم «فـزادهم إيماناً»، يقول: فزادهم ذلك من تخويف مَنْ خَوَّفهم أمرَ أبي سفيان وأصحابه من المشركين، يقيناً إلى يقينهم، وتصديقاً لله ولَوَعْدِهِ ووعدِ

رسولِه إلى تصديقهم، ولم يُثْنِهم ذلك عن وجههم الذي أمرهم رسولُ الله ﷺ بالسيرِ فيه، ولكن ساروا حتى بَلَغُوا رضوانَ الله منه «وقالوا» ثقةً بالله وتوكلاً عليه، إذْ خوَّفهم مَنْ خَوَّفهم أبا سفيان وأصحابه من المشرْكين: «حَسْبُنَا اللهُ ونعم الوكيل»، يعني بقوله: «حسبنا الله»، كفانا الله، يعني: يكفينا الله. «ونعم الوكيل»، يقول: ونعم المولى لمنْ وليَهُ وكَفِلَهُ.

وإنما وصف تعالى نفسَهُ بذلك، لأنَّ «الوكيل»، في كلام العرب، هو المسنَدُ إليه القيامُ بأمرِ مَنْ أسند إليه القيامُ بأمره. فلما كان القوم الذين وَصَفَهم الله بما وصفهم به في هذه الآيات، قد كانوا فَوَّضُوا أمرَهُم إلى اللهِ ووثِقُوا به، وأسندوا ذلك إليه، وصف نفسه بقيامِهِ لهم بذلك، وتفويضِهِم أمْرَهُم إليهِ بالوكالةِ فقال: ونعم الوكيلُ الله تعالى لهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ١٧٤﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: «فانقلبوا بنعمة من الله»، فانصرفَ الذين استجابُوا للهِ والرسولِ من بعد ما أصابَهُمُ القَرْحُ، من وجههم الذي تَوَجَّهُوا فيه ـ وهو سيرهم في أثرِ عدوهم ـ إلى حمراءِ الأسد. «بنعمةٍ من الله»، يعني: بعافيةٍ من ربهم، لم يَلْقَوْا بها عدوًّا. «وفضلٍ»، يعني: أصابوا فيها من الأرباح بتجارتهم التي تَجَرُوا بها، الأجرَ الذي اكتسبوه: «لم يمسسهم سوء» يعني: لم يَنَلْهُمْ بها مكروهٌ من عدوِّهم ولا أذىً. «واتبعوا رضوان الله»، يعني بذلك: أنهم أرضوا اللهَ بفعلِهم ذلك، واتباعِهم رسولَهُ إلى مادَعَاهم إليه من اتباع أثرِ العدوِّ، وطاعتهم. «والله ذو فضلٍ عظيم»، يعني: والله ذو إحسان وطَوْل عليهم ـ بِصَرْفِ عَدُوِّهم الذي كانوا قد همُّوا بالكرةِ إليهم، وغير ذلك من أياديه عندهم وعلى غيرهم ـ بنعَمِهِ. «عظيم» عند من أنعم به عليه من خَلْقِه

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾

يعني بذلك تعالى ذِكْرُه: إنما الذي قال لكم، أيها المؤمنون: «إن الناس قد جمعوا لكم»، فَخَوَّفُوكم بجموعِ عدوِّكم ومسيرهم إليكم، من فِعْلِ الشيطانِ ألقاهُ على أفواه مَنْ قال ذلك لكم، يخوفكم بأوليائه من المشركين ـ أبي سفيان وأصحابه من قريش ـ لترهبوهم وتجبُنوا عنهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾

يقول: فلا تخافوا، أيها المؤمنون، المشركين، ولا يعظُمَنَّ عليكم أمرهم، ولا تَرْهَبُوا جَمْعَهم، مع طاعتكم إياي، ما أطعتموني واتبعتم أمري، وإني متكفِّلٌ لكم بالنصر والظفر. ولكنْ خافونِ واتقوا أنْ تعصوني وتخالفوا أمري فتهلكوا «إن كنتم مؤمنين»، يقول: ولكن خافونِ دون المشركينَ ودون جميع خَلْقي، أنْ تُخالِفُوا أمري، إنْ كنتم مُصَدِّقي رسولي وما جاءكم به من عندي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ﴾

يقول جل ثناؤه: ولا يحزنك، يامحمد، كُفْرُ الذين يسارعون في الكُفْر مرتدِّين على أعقابهم من أهلِ النفاق، فإنهم لن يضروا الله بمسارعتهم في الكُفر شيئاً، وكما أنَّ مسارعتهم لو سارعوا إلى الإيمان لم تكن بنافعته. كذلك مسارعتهم إلى الكفر غير ضارَّته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: يريد الله أنْ لا يجعلَ لهؤلاء الذين يسارعون في الكفر، نصيباً في ثوابِ الآخرة، فلذلك خَذَلهم فسارعوا فيه. ثم أخبر أنهم مع حرمانهم ماحرموا من ثواب الآخرة، لهم عذابٌ عظيمٌ في الآخرة، وذلك عذابُ النار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه المنافقين الذين تقدَّم إلى نبيه ﷺ فيهم: أنْ لا يُحْـزِنَهُ مُسارَعَتُهم إلى الكفر، فقال لنبيه ﷺ: إنَّ هؤلاء الذين ابتاعوا الكفرَ بإيمانهم فارتدوا عن إيمانِهم بعد دخولهم فيه، ورَضُوا بالكفرِ بالله وبرسوله عوضاً من الإيمـان، لن يَضُـرُّوا الله بكفرِهم وارتدادِهم عن إيمانهم شيئاً، بَلْ إنَّما يضرون بذلك أنفسَهُم، بإيجابِهم بذلك لها من عقابِ الله مالا قِبَلَ لها به.

وإنما حَثَّ الله جَلَّ ثناؤه بهذه الآيات من قوله: ﴿وما أَصَابكم يَوْمَ ٱلْتقى الجَمْعَانِ فَبإِذْنِ الله﴾ إلى هذه الآية، عبادَه المؤمنين على إخلاصِ اليقين، والانقطاع إليه في أمورهم، والرضى به ناصراً وحدَهُ دونَ غيرِهِ من سائر خلقه، ورغَّب بها في جهادِ أعدائه وأعداء دينه، وشجَّع بها قلوبهم، وأعلمهم أنَّ مَنْ وليه بنصره فلن يخذل ولو اجتمع عليه جميعُ مَنْ خالفه وحادَّهُ، وأنَّ مَنْ خذله فَلَنْ يَنْصُرَهُ ناصرٌ ينفعُه نصرُه، ولو كَثُرَتْ أعوانُه ونصراؤه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾

يعني بذلك تعالى ذِكْرُه: ولا يَظُنَّنَّ الذين كفروا بالله ورسوله وما جاء به

من عند الله، أنَّ إملاءنا لهم خيرٌ لأنفسهم.

وتأويل قوله: «إنما نُملي لهم ليزدادوا إثماً»، إنما نُؤَخِّرُ آجالهم فَنُطِيلُها ليزدادوا إثماً، يقول: ليكتسبوا المعاصي فتزداد آثامُهم وتَكْثُر. «ولهم عذاب مهين»، يقول: ولهؤلاء الذين كفروا بالله ورسوله في الآخرة عقوبة لهم مهينة مذلة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾

يعني بقوله: «ما كان الله ليذر المؤمنين»، ما كان الله لِيَدَعَ المؤمنين. «على ماأنتم عليه» من التباسِ المؤمنِ منكم بالمنافقِ، فلا يعرف هذا من هذا. «حتى يميز الخبيثَ من الطيب»، يعني بذلك: «حتى يميز الخبيث» وهو المنافق المُسْتَسِرُّ للكفرِ. «من الطيب»، وهو المؤمنُ المخلصُ الصادقُ الإيمان بالمحن والاختبار، كما ميَّز بينهم يوم أُحُد عند لقاء العدوِّ عند خروجهم إليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾

وما كان الله لِيُطْلِعَكُم على ضمائرِ قلوبِ عباده فتعرفوا المؤمنينَ منهم من المنافقِ والكافرِ، ولكنه يميزُ بينهم بالمحن والابتلاء ـ كما مَيَّزَ بينهم بالبأساءِ يوم أُحُد ـ وجهاد عدوه، وما أَشْبَهَ ذلك من صنوفِ المحن، حتى تعرفوا مؤمنهم وكافرهم ومنافقهم. غير أنه تعالى ذِكْرُه يجتبي من رُسُلِه مَنْ يشاء فيصطفيه، فَيُطْلِعُه على بعض مافي ضمائرِ بعضِهم، بوحيِه ذلك إليه ورسالته[1].

---

(١) فهذا خاص بالرسلِ عليهم السلام لا يتعدى إلى أحدٍ من خلقه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: «وإن تؤمنوا»، وإنْ تُصَدِّقُوا من اجتبيتهُ من رُسلي بعلمي وأطلعتهُ على المنافقين منكم. «وتتقوا» رَبَّكُم بطاعته فيما أمركم به نبيكم محمد ﷺ وفيما نهاكم عنه. «فلكم أجر عظيم»، يقول: فلكم بذلك من إيمانِكم واتقائِكم رَبَّكُم، ثوابٌ عظيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾

(يعني): ولا تحسبن، يامحمد، بُخْلَ الذين يبخلون بما أعطاهم الله في الدنيا من الأموال، فلا يُخْرِجُونَ منه حَقَّ الله الذي فَرَضَهُ عليهم فيه من الزكواتِ، هو خيراً لهم عندَ اللهِ يومَ القيامةِ، بَلْ هو شَرٌّ لهم عنده في الآخرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «سيطوَّقون»، سيجعل الله مابَخِلَ به المانعونَ الزكاةَ، طوقاً في أعناقهم كهيئةِ الأطواقِ المعروفة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: أنه الحَيُّ الذي لا يموتُ، والباقي بعد فَناء جميع

خَلْقِه.

فإنْ قالَ قائلٌ: فما معنى قولِه: «ولله ميراثُ السموات والأرض»، و«الميراث» المعروف، هو ما انتقلَ مِن مُلْكِ مالكٍ إلى وارثِه بموتِه، ولله الدنيا قبل فناء خَلْقِه وبعده؟

قيل: إنَّ معنى ذلك ماوصفنا، مِنْ وَصْفِهِ نَفْسَهُ بالبقاء، وإعلام خَلْقِه أنه كُتِبَ عليهم الفناءُ. وذلك أنَّ مُلْكَ المالكِ إنما يصيرُ ميراثاً بعد وفاته، فإنما قال جل ثناؤه: «ولله ميراثُ السموات والأرض»، إعلاماً بذلك منه عبادَه أنَّ أملاك جميع خَلْقِه منتقلة عنهم بموتهم، وأنه لا أحدَ إلَّا وهو فانٍ سواه، فإنه الذي إذا أهلك جميع خَلْقِه فزالت أملاكُهم عنهم، لم يَبْقَ أحدٌ يكون له ما كانوا يملكونه غيره.

وإنما معنى الآية: «لاتحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضلهِ هو خيراً لهم بَلْ هو شَرٌّ لهم سيطوقون مابخلوا به يوم القيامة»، بعد ما يهلكون وتزولُ عنهم أملاكُهم، في الحين الذي لا يملكون شيئاً، وصار لله ميراثه وميراث غيره من خلقه.

ثم أخبر تعالى ذِكْرُه أنه بما يعمل هؤلاء الذين يبخلون بما آتاهمُ اللهُ من فضل وغيرهم من سائرِ خَلْقِه، ذُو خبرةٍ وعلم، محيط بذلك كله، حتى يجازيَ كلًّا منهم على قَدْرِ استحقاقه، المحسنَ بالإحسان، والمسيءَ على مايرى تعالى ذِكْرُه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾

ذُكِرَ أنَّ هذه الآية وآيات بعدها نَزَلَتْ في بعضِ اليهود الذين كانوا على

عهدِ رسولِ الله ﷺ.

فتأويل الآية إذاً: لقد سمع الله قولَ الذين قالوا من اليهود: «إنَّ الله فقيرٌ إلينا ونحنُ أغنياء عنه»، سنكتبُ ماقالوا من الإفكِ والفِرْيةِ على ربهم، وقتلهم أنبياءَهُم بغير حق.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَـى: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: «ونقول» للقائلين بأنَّ الله فقيرٌ ونحنُ أغنياء، القائلينَ أنبياءَ الله بغير حقٍّ يوم القيامة. «ذوقوا عذاب الحريق»، يعني بذلك: عذاب نار محرقة ملتهبة.

و«النار» اسمٌ جامع للمُلْتَهِبَةِ منها وغير الملتهبة، وإنما «الحريق» صفةٌ لها يراد أنها محرقة، كما قيل: «عذابٌ أليم» يعني: مؤلم، و«وجيع»، يعني: موجع.

وأما قوله: «ذلك بما قدمت أيديكم»، أي: قولنا لهم يوم القيامة، «ذوقوا عذاب الحريق»، بما أسلفت أيديكم واكتسبتها أيام حياتكم في الدنيا، وبأن الله عَدْلٌ لايجورُ فيعاقب عبداً له بغير استحقاقٍ منه العقوبةَ، ولكنه يجازي كُلَّ نفسٍ بما كسبت، ويوفِّي كُلَّ عاملٍ جزاءَ ما عَمِلَ، فجازى الذين قال لهم ذلك يوم القيامة من اليهود الذين وَصَفَ صِفَتَهُم، فأخبر عنهم أنهم قالوا: «إنَّ الله فقير ونحن أغنياء»، وقتلوا الأنبياءَ بغير حَقٍّ بما جازاهم به من عذاب الحريق، بما اكتسبوا من الآثامِ، واجترحوا من السيئاتِ، وكذبوا على الله بعد الإعذار إليهم بالإنذار. فلم يكن تعالى ذِكْرُه بما عاقبهم به من إذاقَتِهم عذابَ الحريق ظالماً، ولا واضعاً عقوبَتَهُ في غير أهلها. وكذلك هو جَلَّ ثناؤه، غيرُ ظَلَّامٍ أحداً

من خَلْقِه، ولكنه العادلُ بينهم، والمتفضلُ على جميعهم بما أحبَّ من فَوَاضلِهِ ونِعمه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٨٣﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: لقد سمع اللهُ قولَ الذين قالوا: «إن الله عهد إلينا أن لانؤمن لرسول».

وقوله: «الذين قالوا إن الله»، في موضعِ خفض ردًّا على قوله: «الذين قالوا إن الله فقيرٌ».

ويعني بقوله: «قالوا إنَّ الله عهد إلينا أنْ لا نؤمنَ لرسول»، أوصانا، وتقدم إلينا في كتبه وعلى ألسن أنبيائه «أن لا نؤمن لرسول»، يقول: أن لا نصدِّق رسولاً فيما يقول إنه جاء به من عند الله من أمرٍ ونهي وغير ذلك. «حتى يأتينا بقربانٍ تأكله النار»، يقول: حتى يجيئنا بقربانٍ: وهو ماتَقَرَّبَ به العبدُ إلى ربه من صَدَقة.

فقال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: قل، يامحمد، للقائلين: إنَّ اللهَ عَهِدَ إلينا أنْ لا نؤمنَ لرسولٍ حتى يأتينا بقربان تأكله النار: «قد جاءكم رُسُلٌ من قبلي بالبينـات»، يعني: بالحجـج الـدالـة على صِدْقِ نبوتهم وحقيقة قولهم «وبالذي قلتم»، يعني: وبالذي ادَّعيتم أنه إذا جاءَ به لزمكم تَصْدِيقهُ والإقرار بنبوتهِ، من أكلِ النار قُربانَهُ إذا قرَّب لله دلالةً على صِدْقِه، «فَلِمَ قتلتموهم إنْ كنتم صادقين»، يقول له: قل لهم: قد جاءتكم الرسلُ الذين كانوا من قبلي بالذي زعمتم أنه حُجَّةٌ لهم عليكم، فقتلتموهم، فَلِمَ قتلتموهم وأنتم مُقِرُّونَ بأنَّ

الذي جاؤوكم به من ذلك كان حجةً لهم عليكم. «إنْ كنتم صادقين» في أنَّ اللهَ عَهِدَ إليكم أنْ تؤمنوا بمن أتاكم من رُسُلِه بقُربانٍ تأكلهُ النارُ حجةً له على نبوته؟

وإنما أعلمَ اللهُ عبادَهُ بهذه الآية: أنَّ الذين وصف صِفَتهم من اليهودِ الذين كانوا على عهدِ رسولِ الله ﷺ، لن يَعْدُوا أنْ يكونوا في كَذِبهم على الله وافترائهم على ربهم وتكذيبهم محمداً ﷺ، وهم يعلمونه صادقاً محقًّا، وجحودهم نُبُوَّتَهُ وهم يجدونه مكتوباً عندهم في عهدِ الله تعالى إليهم أنه رسولُه إلى خَلْقِه، مفروضة طاعته إلَّا كمن مضى مِنْ أسلافِهم الذين كانوا يقتلون أنبياءَ الله بعد قَطْعِ الله عُذْرَهُم بالحججِ التي أيَّدَهُم اللهُ بها، والأدلة التي أبانَ صِدْقَهُم بها، افتراءً على الله، واستخفافاً بحقوقه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾

وهذا تعزيةٌ من الله جَلَّ ثناؤه نبيَّه محمداً ﷺ على الأذى الذي كان ينالُه من اليهودِ وأهلِ الشركِ باللهِ من سائرِ أهلِ المللِ. يقول الله تعالى له: لايحزنك، يامحمد، كَذِبُ هؤلاء الذين قالوا: «إن الله فقير»، وقالوا: «إنَّ الله عَهِدَ إلينا أنْ لا نؤمنَ لرسولٍ حتى يأتينا بقربان تأكله النار»، وافتراؤهم على رَبِّهم اغتراراً بإمهالِ اللهِ إياهم، ولا يَعْظُمَنَّ عليكَ تكذيبُهم إياكَ، وادعاؤهم الأباطيلَ من عهودِ الله إليهم، فإنهم إنْ فعلوا ذلك بك فَكَذَّبوكَ وكذبُوا على الله، فقد كذَّبتْ أسلافُهم من رُسُلِ الله قَبْلَكَ مَنْ جاءهم بالحججِ القاطعةِ العُذْرَ، والأدلةِ الباهرةِ العقلَ، والآياتِ المعجزة الخَلْقَ، وذلك هو البينات.

وأما «الزبر» فإنه جمع «زبور»، وهو الكتابُ، وكل كتاب فهو: «زبور».

وإنما قال: «تأكله النار»، لأنَّ أكلَ النارِ ما قَرَّبَهُ أحَدُهم لله في ذلك الزمان، كان دليلاً على قَبُولِ الله منه ماقُرِّبَ له، ودلالةً على صِدْقِ المُقرِّبِ فيما ادَّعى أنه مُحِقٌّ فيما نازعَ أو قال.

ويعني: بـ «الكتاب»، التوراة والإنجيل. وذلك أنَّ اليهودَ كذَّبَتْ عيسى وما جاء به، وحرَّفتْ ماجاء به موسى عليه السلام من صِفَةِ محمدٍ ﷺ، وبَدَّلَتْ عَهْدَهُ إليهم فيه، وأن النصارى جحدت مافي الإنجيل من نَعْتِه، وغَيَّرتْ ماأمرهم به في أمره.

وأما قوله: «المنير»، فإنه يعني: الذي يُنير فيبينُ الحَقَّ لمن التبسَ عليه ويُوَضِّحه.

القَوْلُ في تَأْويلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ١٨٥﴾

يعني بذلك تعالى ذِكْرُه: أنَّ مصيرَ هؤلاء المفترين على الله من اليهود، المُكَذِّبينَ برسوله، الذين وَصَفَ صِفَتَهُم، وأخبر عن جراءتهم على ربهم ومصير غيرهم من جميع خَلْقِه تعالى ذِكْرُه، ومرجع جميعهم، إليه. لأنه قد حَتم الموت على جميعهم، فقال لنبيه ﷺ: لا يحزنك تكذيبُ مَنْ كَذَّبكَ، يامحمد، من هؤلاء اليهود وغيرهم، وافتراء مَنِ افترى عليَّ، فقد كُذِّب قبلك رُسُلٌ جاؤوا من الآياتِ والحجج من أرسلوا إليه، بمثلِ الذي جئتَ مَنْ أُرْسِلْتَ إليه. فَلَكَ فيهم أسوةٌ تَتعزَّى بهم، ومصيرُ مَنْ كذَّبك وافترى عليَّ وغيرهم ومرجعهم إليَّ، فأوفِّي كُلَّ نفسٍ منهم جزاءَ عمله يوم القيامـة، كمـا قال جل ثناؤه: «وإنما تُوَفَّوْنَ أجوركم يوم القيامة»، يعني: أجورَ أعمالِكم، إنْ خيراً فخيرٌ، وإن شرًّا فشر.

«فمن زُحزحَ عن النار»، يقول: فمن نُحِّيَ عن النار وأُبْعِدَ منها. «فقد فاز»، يقول: فقد نجا وظفر بحاجته.

وإنما معنى ذلك: فمن نُحِّيَ عن النار فأُبْعِدَ منها وأُدخلَ الجنة، فقد نجا وظفر بعظيم الكرامة. «وما الحياةُ الدنيا إلَّا متاع الغرور»، يقول: وما لذَّاتُ الدنيا وشهواتها وما فيها من زينتها وزخارفها. «إلا متاعُ الغرور»، يقول: إلا متعة يُمَتِّعُكُمُوها الغرورُ والخِداعُ المضمحلُّ الذي لا حقيقةَ له عند الامتحان، ولا صحةَ له عند الاختبار. فأنتم تلتذون بما مَتَّعكم الغرورُ من دنياكم، ثم هو عائدٌ عليكم بالفجائع والمصائب والمكاره. يقول تعالى ذِكْرُه: ولا تركَنُوا إلى الدنيا فتسكنوا إليها، فإنما أنتم منها في غرورٍ تُمَتَّعُونَ، ثم أنتم عنها بعد قليل راحلون.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾

يعني بقوله تعالى ذِكْرُه: «لَتُبْلَوُنَّ في أموالكم»، لَتُخْتَبَرُنَّ بالمصائبِ في أمـوالكم. «وأنفسكم»، يعني: وبهـلاكِ الأقرباءِ والعشائرِ من أهلِ نُصْرتِكم ومِلَّتكم. «ولتسمعن من الـذين أوتوا الكتاب من قبلكم»، يعني: من اليهودِ وقولهم: «إنَّ الله فقير ونحن أغنياء»، وقولهم: «يَدُ الله مغلولة»، وما أشْبَهَ ذلك من افترائِهم على الله. «ومن الذين أشركوا»، يعني النصارى. «أذىً كثيراً»، والأذى من اليهود ماذكرنا، ومن النصارى قولهم: «المسيحُ ابن الله»، وما أشبه ذلك من كفرهم بالله. «وإنْ تصبروا وتتقوا»، يقول: وإن تصبروا لأمرِ الله الذي أمركم به فيهم وفي غيرِهم من طاعتهِ. «وتتقوا»، يقول: وتتقوا الله فيما أمركم

ونهاكم، فتعملُوا في ذلك بطاعته. «فإنّ ذلك من عزمِ الأمور»، يقول: فإنّ ذلك الصبرَ والتقوى مما عزم الله عليه وأمركم به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

يعني بذلك تعالى ذِكْرُه: واذْكُرْ أيضاً من أمرِ هؤلاء اليهود وغيرهم من أهلِ الكتابِ منهم، يامحمد، إذ أخذ الله ميثاقهم لَيُبَيِّنُنَّ للناسِ أمْرَكَ الذي أخذ ميثاقَهم على بيانـهِ للناسِ في كتابهم الذي في أيديهم، وهو التوراةُ والإنجيل، وأنكَ لله رسولٌ مُرْسَلٌ بالحقِّ ولا يكتمونه. «فنبذوه وراء ظهورهم»، يقول: فتركوا أمْرَ اللهِ وضَيَّعُوه، ونقضوا ميثاقَهُ الذي أخذ عليهم بذلك، فكتموا أمرك، وكذبوا بك. «واشتروا به ثمناً قليلاً»، يقول: وابتاعوا بكتمانهم ما أخذَ عليهم الميثاق أنْ لا يكتموه من أمرِ نُبُوَّتِكَ، عِوَضاً منه خسيساً قليلاً من عَرَضِ الدنيا، ثم ذَمَّ جَلَّ ثناؤه شراءهم ما اشتروا به من ذلك فقال: «فبئس مايشترون».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾

(يعني): لا تحسبن، يامحمد، الذين يفرحون بما أتوا من كتمانِهم الناسَ أمركَ، وأنكَ لي رسولٌ مرسلٌ بالحق، وهم يجدونك مكتوباً عندهم في كتبهم، وقد أخذتُ عليهم الميثاقَ بالإقرارِ بنبوتك، وبيانِ أمْرِكَ للناسِ، وأنْ لا يكتموهم

ذلك، وهم مع نقضِهم ميثاقي الذي أخذتُ عليهم بذلك، يفرحونَ بمعصيتهم إياي في ذلك، ومخالفتهم أمري، ويحبون أنْ يَحْمَدَهُمُ الناسُ بأنهم أهلُ طاعةِ لله وعبادةٍ وصلاةٍ وصومٍ، واتباعٍ لوحيهِ وتنزيلهِ الذي أنزله على أنبيائه، وهم من ذلك أبرياء أخلياء، لتكذيبهم رسولَهُ، ونَقْضِهم ميثاقَهُ الذي أخذ عليهم، لم يفعلوا شيئاً مما يحبون أنْ يَحْمَدَهم الناسُ عليه. «فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم».

وقوله: «فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب»، فلا تَظُنَّهُم بِمَنْجَاةٍ من عذابِ الله الذي أَعَدَّهُ لأعدائهِ في الدنيا، من الخَسْفِ والمَسْخِ والرَّجفِ والقتل، وما أشبه ذلك من عقابِ الله، ولا هم ببعيد منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ١٨٩﴾

وهذا تكذيبٌ من الله جل ثناؤه الذين قالوا: «إنَّ الله فقيرٌ ونحنُ أغنياء». يقول تعالى ذِكْرُه، مُكَذِّباً لهم: لله مُلْكُ جميع ماحوته السمواتُ والأرض. فكيف يكون، أيها المفترون على الله، من كان مُلْكُ ذلك له فقيراً؟

ثم أخبر جل ثناؤه أنه القادرُ على تعجيلِ العقوبةِ لقائلي ذلك، ولِكُلِّ مُكَذِّبٍ به ومُفْتَرٍ عليه، وعلى غير ذلك مما أرادَ وأحَبَّ، ولكنه تفضل بحلمهِ على خلقه فقال: «والله على كل شيء قدير»، يعني: من إهلاك قائلي ذلك، وتعجيل عقوبته لهم، وغير ذلك من الأمور.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠﴾

وهذا احتجاجٌ من الله تعالى ذِكْرُه على قائلِ ذلك، وعلى سائرِ خَلْقِه، بأنه المُدَبِّرُ المُصَرِّفُ الأشياءَ والمسخِّرُ ماأحَبَّ، وأنَّ الإغناءَ والإفقارَ إليه وبيده، فقال جَلَّ ثناؤه: تَدَبَّرُوا أيها الناسُ واعتبروا، ففيما أنشأته فخلقته من السمواتِ والأرض لمعاشكم وأقواتكم وأرزاقكم، وفيما عَقَّبْتُ بينه من الليلِ والنهارِ فجعلتهما يختلفان ويعتقبان عليكم، تتصرفون في هذا لمعاشكم، وتسكنون في هذا راحةً لأجسادكم مُعْتَبَرٌ ومُدَّكَرٌ وآياتٌ وعِظَاتٌ. فمن كان منكم ذا لُبٍّ وعقلٍ، يعلم أنَّ مَنْ نَسَبني إلى أنّي فقيرٌ وهو غنيٌّ، كاذبٌ مُفْتَرٍ، فإنَّ ذلك كله بيدي أقلِّبه وأصرِّفه، ولو أبطلتُ ذلك لهلكتم، فكيف يُنْسَبُ إلى فقرٍ مَنْ كان كُلُّ مابه عيشُ مافي السمواتِ والأرضِ بيدهِ وإليهِ؟ أَمْ كيف يكونُ غنيًّا مَنْ كان رِزْقُه بيدِ غيرِه، إذا شاء رزقه، وإذا شاء حَرَمه؟ فاعتبروا ياأولي الألباب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾

معنى الآية: إنَّ في خَلْق السمــوات والأرض واختــلاف الليل والنهــار لآيات لأولي الألباب، الذاكرينَ الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم يعني بذلك: قياماً في صلاتهم، وقعوداً في تَشَهُّدِهم وفي غير صلاتهم، وعلى جنوبهم نياماً.

وأما قوله: «ويتفكرون في خلق السموات والأرض»، فإنه يعني بذلك أنهم يعتبرون بصنعةِ صانعِ ذلك، فيعلمون أنه لايصنعُ ذلك إلا مَنْ ليس كمثله شيءٌ، ومَنْ هو مالكُ كُلِّ شيءٍ ورازقُه، وخالِقُ كُلِّ شيءٍ ومُدَبِّرُه، ومَنْ هو على كل شيء قدير، وبيده الإغناءُ والإفقارُ، والإعزازُ والإذلالُ، والإحياءُ والإماتةُ، والشقاءُ والسعادة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾

يعني بذلك تعالى ذِكْرُه: «ويتفكرون في خلق السموات والأرض» قائلينَ: «ربنا ماخلقت هذا باطلاً»، فتَرَكَ ذِكْرَ «قائلين»، إذْ كان فيما ظهرَ من الكلام دلالةٌ عليه.

وقوله: «ما خلقت هذا باطلًا»، يقول: لم تَخْلُقْ هذا الخَلْقَ عَبَثاً ولا لعباً، ولم تَخْلُقه إلاّ لأمرٍ عظيمٍ من ثوابٍ وعقابٍ ومحاسبةٍ ومُجازاة، وإنما قال «ماخلقتَ هذا باطلًا»، ولم يقل: «ماخلقت هذه، ولا: هؤلاء»، لأنه أراد بـ «هذا» ألخَلْقَ الذي في السموات والأرض. يَدلُّ على ذلك قوله: «سبحانك فقنا عذاب النار»، ورغبتهم إلى ربهم في أنْ يَقِيهم عذابَ الجحيم. ولو كان المعنيّ بقوله: «ماخلقت هذا باطلًا»، السموات والأرض، لما كان لقولِهِ عَقِيبَ ذلك: «فقنا عذاب النار»، معنىً مفهوم. لأنَّ «السموات والأرض» أدلةٌ على بارئها، لا على الثوابِ والعقاب، وإنما الدليلُ على الثواب والعقاب، الأمرُ والنهي.

وإنما وصف جَلَّ ثناؤه: «أولي الألباب» الذين ذكرهم في هذه الآية: أنهم إذا رأوا المأمورين المنهيِّينَ قالوا: «ياربنا لم تَخْلُقْ هؤلاء باطلاً عبثاً سبحانك»، يعني: تنزيهاً لكَ من أن تفعلَ شيئاً عبثاً، ولكنكَ خلقتهم لعظيمٍ من الأمرِ، لجنةٍ أو نار.

ثم فَزِعوا إلى ربهم بالمسألة أنْ يُجيرهم من عذابِ النار، وأنْ لا يجعلهم مِمَّنْ عَصَاهُ وخالفَ أَمْرَهُ، فيكونوا من أهلِ جهنم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝١٩٢﴾

(يعني): إنَّ مَنْ أُدْخِلَ النار فقد أُخزيَ بدخوله إياها وإنْ أُخْرِجَ منها. وذلك أنَّ «الخزي» إنما هو هَتْكُ ستر المخزيِّ وفضيحته، ومَنْ عاقبه رَبُّهُ في الآخرةِ على ذنوبهِ، فقد فَضَحَهُ بعقابهِ إياه، وذلك هو «الخزي».

وأما قوله: «وما للظالمين من أنصار»، يقول: وما لِمَنْ خالفَ أمرَ الله فعصاه، من ذِي نُصرةٍ له ينصرهُ من الله، فيدفع عنه عقابه، أو ينقذه من عذابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ۝١٩٣﴾

(يعني): رَبَّنَا سمعنا داعياً يدعو إلى الإيمانِ يقول: إلى التصديق بكَ، والإقرارِ بوحدانيتكَ، واتباعِ رسولكَ، وطاعته فيما أمرنا به ونهانا عنه مما جاء به من عنـدك «فآمنا ربنا»، يقول: فَصَدَّقْنَا بذلك يارَبَّنَا. «فاغفرْ لنا ذنوبنا»، يقول: فاسترْ علينا خَطايانا، ولا تفضحنا بها في القيامةِ على رؤوسِ الأشهادِ، بعقـوبتـكَ إيَّانـا عليها، ولكن كَفِّرْهَا عَنَّا، وسيئات أعمالنا، فامْحُهَا بفضلكَ ورحمتـكَ إيانـا. «وتَوفَّنَا مع الأبرار»، يعني بذلك: واقبضنا إليكَ إذا قَبَضْتَنَا إليكَ، في عِدَادِ الأبرارِ، واحْشُرْنا مَحْشَرَهُم ومعهم.

و«الأبـرار» جمـع «بَـرّ» وهم الذين بَرُّوا الله تبارك وتعالى بطاعَتِهم إياهُ وخدمتهم له، حتى أرضوه فرضي عنهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ١٩٤﴾

(يعني): ربنا أعْطِنَا ما وَعَدْتَنَا على أَلْسُنِ رسلك: أنكَ تُعْلي كلمتكَ كلمة الحق، بتأييدنا على مَنْ كَفَرَ بكَ وحادَّكَ وعَبَدَ غيرَكَ وعجِّلْ لنا ذلك، فإنَّا قد عَلِمنا أنَّك لا تُخْلِفُ ميعادك، ولا تُخْزِنَا يومَ القيامة فتفضحنا بذنوبنا التي سلفت منا، ولكن كَفِّرْهَا عنا، واغفر لنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ﴾

يعني تعالى ذكره: فأجابَ هؤلاء الداعينَ ـ بما وصف من أدعيتهم أنهم دعوا به ـ رَبُّهم: بأنِّي لا أضيعُ عملَ عاملٍ منكم عَمِلَ خيراً ذكراً كان العاملُ أو أنثى.

وأما قوله: «بعضكم من بعض»، فإنه يعني: بعضكم أيها المؤمنون الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم من بعضٍ، في النُّصْرَةِ والمِلَّةِ والدين، وحُكْم جميعكم فيما أنا بكم فاعلٌ، على حُكْمِ أحدكم في أنِّي لا أضيعُ عَمَلَ ذكرٍ منكم ولا أنثى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ١٩٥﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «فالذين هاجروا» قومَهم من أهلِ الكُفْرِ وعشيرتهم

في الله، إلى إخوانِهم من أهلِ الإيمانِ باللهِ والتصديقِ برسوله. «وأُخْرِجُوا من ديارهم»، وهم المهـاجرونَ الذين أخرجهم مشركو قريش من ديارِهم بمكةَ. «وأُوذُوا في سبيلي»، يعني: وأُوذُوا في طاعتهم ربَّهم، وعبادتِهم إياه مُخلصين له الـدِّينَ، وذلـك هو «سبيل الله» التي آذى فيهـا المشركون من أهلِ مكةَ المؤمنينَ برسولِ الله ﷺ من أهلها. «وقاتلوا» يعني: وقاتلوا في سبيل الله. «وقُتِلُوا» فيهـا. «لأُكَفِّرَنَّ عنهم سيئاتِهم»، يعني: لأَمْحُوَنَّهَا عنهم، ولأتَفَضَّلَنَّ عليهم بعفوي ورحمتي، ولأغْفِرَنَّها لهم. «ولأُدْخِلَنَّهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار ثواباً»، يعني: جزاء لهم على ماعَمِلُوا وأبلوا في الله وفي سبيله. «من عند الله»، يعني: من قِبَلِ اللهِ لهم. «والله عنده حُسْنُ الثواب»، يعني: أنَّ الله عنده من جزاء أعمالهم جميع صنوفه، وذلك ما لايبلغه وَصْفُ واصفٍ، لأنه مما لا عينٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سمعتْ، ولا خَطَر على قلبِ بَشَر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾

يعني بذلـك جل ثناؤه: «ولا يغرنك» يامحمد «تَقَلُّبُ الذين كفروا في البلاد»، يعني: تَصَرُّفُهم في الأرض وضَرْبُهم فيها.

فنهى الله تعالى ذِكْرُه نبيَّهُ ﷺ عن الاغترارِ بضربِهم في البلاد، وإمهالِ اللهِ إيَّاهُم، مع شِرْكِهم، وجُحـودِهم نِعَمَهُ، وعبادَتِهم غَيْرَهُ. وخرج الخطابُ بذلك للنبي ﷺ، والمعنيُّ به غيره من أتباعهِ وأصحابه، كما قد بَيَّنا فيما مضى قَبْلُ من أمرِ الله، ولكن كان بأمر الله صادعاً، وإلى الحق داعياً.

وأما قوله: «متاع قليل»، فإنه يعني: أنَّ تَقَلُّبَهُم في البلاد وتَصَرُّفَهُم فيها، متعـةٌ يُمَتَّعُونَ بها قليلاً حتى يبلُغُوا آجالَهم، فتخترمهم مَنِيَّاتُهم. «ثم مأواهم

جهنم»، بعد مماتهم.

و«المأوى»: المصير الذي يأوونَ إليه يومَ القيامة، فيصيرون فيه.

ويعني بقوله: «وبئس المهاد»، وبئس الفراش والمضجع جهنم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «لكن الذين اتقوا ربهم»، لَكِنِ الذين اتقوا اللهَ بطاعتهِ واتِّباعِ مَرْضَاتهِ، في العمل بما أمرهم به، واجتنابِ مانهاهم عنه. «لهم جناتٌ» يعني: بساتين: «تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها»، يقول: باقينَ فيها أبداً. «نُزُلاً من عند الله»، يعني: إنزالاً من الله إياهم فيها، أنزلوها.

وقـولـه: «من عند الله»، يعني: مِنْ قِبَلِ الله، ومن كرامةِ الله إياهم، وعطاياه لهم.

وقوله: «وما عند الله خيرٌ للأبرار»، يقول: وما عند الله من الحياةِ والكرامةِ وحُسْنِ المآب، «خيرٌ للأبرار»، مما يتقلَّبُ فيه الذين كفروا، فإن الذي يتقلبون فيه زائلٌ فانٍ، وهو قليلٌ من المتاع خسيس، وما عندَ الله من كرامتهِ للأبرار ـ وهم أهلُ طاعته ـ باقٍ، غيرُ فانٍ ولا زائل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾

(يعني بقوله جل ثناؤه): «وإن من أهل الكتاب»: التوراة والإنجيل. «لَمَنْ يؤمنُ بالله» فيقرُّ بوحدانيته. «وما أنزل إليكم»، أيها المؤمنون، يقول: وما أنزل إليكم من كتابه ووحيه على لسانِ رسولِهِ محمدٍ ﷺ. «وما أنزل إليهم»، يعني: وما أُنزلَ على أهلِ الكتابِ من الكتبِ، وذلك التوراة والإنجيل والزبور. «خاشعينَ لله»، يعني: خاضعين لله بالطاعة، مستكينينَ له بها متذلِّلين.

(وقوله): «لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلا»: لا يُحَرِّفون ما أنزلَ إليهم في كتبه من نعتِ محمدٍ ﷺ فَيُبَدِّلُونَهُ، ولا غيرَ ذلك من أحكامِهِ وحُججه فيه، لعَرَضٍ من الدنيا خَسيسٍ يُعْطَوْنَهُ على ذلك التبديلِ، وابتغاءَ الرياسةِ على الجُهَّالِ، ولكن ينقادون للحقِّ، فيعملون بما أمرهم الله به فيما أُنزلَ إليهم من كُتُبِه، وينتهون عما نَهاهم عنه فيها، ويُؤْثِرُونَ أمرَ الله تعالى على هَوَى أنفسهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ١٩٩﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «أولئك لهم أجرهم»، هؤلاء الذين يؤمنونَ باللهِ وما أُنزلَ إليكم وما أنزلَ إليهم. «لهم أجْرُهُم عند ربهم»، يعني: لهم عِوَضُ أعمالِهم التي عملوها، وثوابُ طاعتهم ربَّهم فيما أطاعوهُ فيه. «عند ربهم» يعني: مذخورٌ ذلك لهم لديه، حتى يَصِيرُوا إليه في القيامة، فَيُوَفِّيهم ذلكَ. «إنَّ الله سريعُ الحساب»، وسرعةُ حسابه تعالى ذِكْرُه: أنه لا يَخْفَى عليه شيءٌ من أعمالهم قبل أنْ يعملوها وبعد ماعملوها، فلا حاجةَ به إلى إحصاء عَدَدِ ذلك، فيقع في الإحصاء إبطاءٌ، فلذلك قال: «إنَّ الله سريعُ الحساب».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ

وَرَابِطُوا۟

(يعني): يا أيها الذين صَدَقُوا الله ورسولَهُ. «اصبروا» على دينكم وطاعةِ رَبِّكم. وذلك أنَّ الله لم يُخصِّص من معاني «الصبر» على الدين والطاعة شيئاً، فيجوز إخراجهُ من ظاهرِ التنزيل. فلذلك قلنا إنَّهُ عَنَى بقوله: «اصبروا»: الأمرَ بالصَّبرِ على جميعِ معاني طاعةِ الله فيما أمَرَ ونَهَى، صَعْبِها وشديدِها، وسَهْلِها وخفيفِها.

«وصابروا»، يعني: وصابروا أعداءَكُم من المشركين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

يعني بذلـك تعـالى ذِكْـرُه: «واتقوا الله»، أيها المؤمنون، واحذروه أنْ تُخالِفُوا أمْرَهُ أو تتقدَّموا نَهْيَهُ. «لعلكم تفلحون»، يقول: لِتُفْلِحُوا فتبقوا في نعيمِ الأبدِ، وتَنْجحوا في طلباتِكم عنده.

تفسير سورة النساء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾

يعني بقـوله تعالى ذكره: «يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفسٍ واحدة»، احذروا، أيها الناسُ، رَبَّكُم. في أنْ تخالِفُوهُ فيما أمركم وفيما نهاكم، فيحلَّ بكم من عقوبتهِ مالا قِبَلَ لكم به.

ثم وصف تعالى ذكره نفسه بأنه المتوحِّدُ بخلْقِ جميعِ الأنام من شخص واحد، مُعَرِّفاً عبادَهُ كيف كان مُبْتَدأُ إنشائهِ ذلك من النفسِ الواحدة، ومُنَبِّهَهُم بذلك على أنَّ جميعهم بَنُو رجلٍ واحدٍ وأمٍّ واحدة، وأنَّ بعضَهم من بعضٍ، وأنَّ حَقَّ بعضِهم على بعضٍ واجبٌ وجوبَ حَقِّ الأخِ على أخيه، لاجتماعهم في النسبِ إلى أبٍ واحدٍ وأمٍ واحدةٍ، وأنَّ الذي يلزمهم من رعايةِ بعضِهم حَقَّ بعضٍ، وإنْ بَعُـدَ التـلاقي في النسب إلى الأبِ الجامع بينهم، مثل الذي يلزمهم من ذلك في النسب[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾

(١) هذه قاعدة عظمى لوحدة النوع الانساني يفاخر بها المسلمون على مر الدهور.

يعني بقوله جل ثناؤه: «وخلق منها زوجها»، وخلق من النفسِ الواحدةِ زَوْجَها يعني بـ«الزوج»، الثاني لها. وهو فيما قال أهل التأويل، امرأتها حواء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤهُ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾

تأويله: واتقوا الله، أيها الناسُ، الذي إذا سأل بعضُكم بعضاً سأل به، فقال السائلُ للمسؤول: «أسألُك بالله، وأنشدكَ بالله، وأعزِمُ عليكَ بالله»، وما أشبه ذلك. يقول تعالى ذِكرُه: فكما تُعَظِّمُون، أيها الناس، رَبَّكم بألسنتكم حتى تروا أنَّ مَنْ أعطاكم عَهْدَهُ فأخفرَكُمُوهُ[1]، فقد أتى عظيماً. فكذلك فعظِّمُوه بطاعتكم إياه فيما أمركم، واجتنابكم ما نهاكم عنه، واحذروا عقابَهُ من مخالفتِكم إياهُ فيما أمركم به أو نهاكم عنه.

وأما قوله: «والأرحام»، فإن معناه: واتقوا الأرحام أن تقطعوها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾

يعني بذلك تعالى ذكره: إنَّ الله لم يَزَلْ عليكم رقيباً.

ويعني بقوله: «عليكم»، على الناس الذين قال لهم جَلَّ ثناؤه: «يا أيها الناس اتقوا ربكم».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ۖ﴾

يعني بذلك تعالى ذكره أوصياءَ اليتامى. يقول لهم: وأعطوا، يامعشر أوصياءِ اليتامى أموالَهم إذا هم بَلَغُوا الحُلُمَ، وأُونِسَ منهم الرشد. «ولا تتبدلوا

(١) أخفرَ الذمة والعهد: نقضه وغدره وخاسَ به، ولم يَفِ بعهده.

الخبيثَ بالطيب»، يقول: ولا تستبدلوا الحرامَ عليكم من أموالهِم بأموالِكم الحلال لكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾

يعني بذلك تعالى ذِكْرُه: ولا تَخْلِطُوا أموالَهم ـ يعني أموالَ اليتامى بأموالكم ـ فتأكلُوها مع أموالِكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝٢﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «إنه كان حُوباً كبيراً»، إنَّ أكْلَكُم أموالَ أيتامِكم، حُوبٌ كبير. والحُوب: الإثم. والكبير: العظيم.

فمعنى ذلك: إنَّ أكْلَكُم أموالَ اليتامى مع أموالكم، إثمٌ عند الله عظيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾

(يعني): وإنْ خفتم ألا تقسطوا في اليتامى، فكذلك فخافوا في النساء، فلا تنكحوا منهن إلا ما لا تخافونَ أنْ تجورُوا فيه منهن، من واحدةٍ إلى الأربع. فإنْ خفتمُ الجورَ في الواحدة أيضاً، فلا تنكحوها، ولكن عليكم بما ملكت أيمانكم، فإنه أحرى أنْ لاتجوروا عليهن.

وإنما قلنا ذلك، لأنَّ الله جَلَّ ثناؤه افتتح الآيةَ التي قبلها بالنهي عن أكلِ أموالِ اليتامى بغير حَقِّها وخلَطها بغيرها من الأموال، فقال تعالى ذكره: ﴿وَآتوا

الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾. ثم أَعْلَمَهُم أنهم إنِ اتقوا الله في ذلك فَتَحَرَّجُوا فيه، فالواجبُ عليهم من اتقاء الله والتحرُّج في أمرِ النساء، مِثْلُ الذي عليهم من التَّحَرُّجِ في أمرِ اليتامى. وأعلمهم كيف التخلص لهم من الجور فيهن، كما عَرَّفَهُم المَخْلَصَ من الجَوْرِ في أموال اليتامى، فقال: انكحوا إنْ أَمِنْتُم الجورَ في النساء على أنفسكم، ماأبحتُ لكم منهن وحَلَّلْتُه، مَثْنَى وثُلاثَ ورباع، فإنْ خفتم أيضاً الجور على أنفسكم في أمرِ الواحدة، بأنْ لاتقدروا على إنصافها، فلا تنكحوها، ولكن تَسَرَّوْا من المماليكِ، فإنكم أحرى أنْ لا تجوروا عليهن، لأنهن أملاككم وأموالكم، ولا يَلْزَمُكُم لَهُنَّ من الحقوقِ كالذي يلزمكم للحرائرِ، فيكون ذلك أقرب لكم إلى السلامة من الإثمِ والجور.

ومعنى «الإقساط» في كلام العرب: العَدْلُ والإنصاف، ومعنى «القسط»: الجَوْرُ والحَيْفُ.

وأما «اليتامى»، فإنها جَمْعٌ لذكرانِ الأيتامِ وإناثِهم في هذا الموضع.

وأما قوله: «فانكحوا ماطاب لكم من النساء»، فإنه يعني: فانكحوا ماحلَّ لكم منهن، دون ماحُرِّمَ عليكم منهنَّ.

وأما قوله: «مثنى وثلاث ورباع»، فإنما تُرِك إجراؤهن، لأنهن معدولات عن «اثنين»، و«ثلاث» و«أربع»، كما عُدِلَ «عمر» عن «عامر»، و«زُفَر» عن «زافِر» فتُرِكَ إجراؤه. وكذلك، «أحاد» و«ثناء» و«مَوْحد» و«مثنى» و«مَثْلث» و«مَرْبع»، لايجري ذلك كله للعلة التي ذكرتُ من العدول عن وجوهه. ومما يدلُّ على أنَّ ذلك كذلك، وأنَّ الذكرَ والأنثى فيه سواء، ماقِيلَ في هذه السورة و«سورة فاطر»، [١]: «مثنى وثلاث ورباع» يراد به «الجناح»، و«الجناح» ذكر، وأنه أيضاً لا يضاف إلى مايضاف إليه «الثلاثة» و«الثلاث» وأنَّ «الألف واللام»

لا تدخله، فكان في ذلك دليلٌ على أنه اسمٌ للعددِ معرفة، ولو كان نكرةً لدخله «الألف واللام»، وأضيفَ كما يضافُ «الثلاثة» و«الأربعة».

وأما قوله: «فإنْ خفتم أنْ لا تعدلوا فواحدةً»، فإن نصب «واحدة»، بمعنى: فإنْ خفتم أن لا تعدلوا فيما يلزمكم من العدلِ فيما زادَ على الواحدةِ من النساء عندكم بنكاحٍ ـ فيما أوجبه اللهُ لهن عليكم ـ فانكحوا واحدةً منهن.

ولو كانت القراءة جاءت في ذلك بالرفع، كان جائزاً، بمعنى: فواحدةٌ كافية، أو: فواحدةٌ مُجْزِئَةٌ، كما قال جل ثناؤه: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وإنْ قال لنا قائلٌ: قد علمتَ أنَّ الحلالَ لكم من جميع النساء الحرائر، نكاحُ أربع، فكيف قيل: «فانكحوا ماطابَ لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع»، وذلك في العدد تِسْعٌ؟

قيل: إنَّ تأويلَ ذلك: فانكحوا ماطاب لكم من النساء، إما مثنى إنْ أَمِنتم الجَوْرَ من أنفسكم فيما يجبُ لهما عليكم، وإما ثلاث، إنْ لم تخافوا ذلك، وإما أربع، إن أَمِنتم ذلك فيهن.

يدلُّ على صِحَّةِ ذلك قوله: «فإنْ خفتم ألا تعدلوا فواحدة»، لأن المعنى: فإنْ خفتم في الثنتين فانكحوا واحدة، ثم قال: وإنْ خفتم أنْ لا تعدلوا أيضاً في الواحدة، فما ملكت أيمانكم.

فإنْ قالَ قائلٌ: فإنَّ أمرَ الله ونَهْيَهُ على الإيجابِ والإلزامِ حتى تقومَ حُجَّةٌ بأنَّ ذلك على التأديبِ والإرشادِ والإعلامِ، وقد قال تعالى ذِكْرُه: «فانكحوا ماطاب لكم من النساء»، وذلك أمرٌ، فهل مِنْ دليلٍ على أنه من الأمرِ الذي هو على غير وجهِ الإلزام والإيجاب؟

قيل: نعم، والدليلُ على ذلك، قوله: «فإنْ خفتم ألا تعدلوا فواحدة». فكـان معلومـاً بذلك أنَّ قوله: «فانكحوا ماطابَ لكم من النساء»، وإنْ كان مخرجه مخرجَ الأمرِ، فإنه بمعنى الدِّلالة على النهي عن نِكاحِ ماخافَ الناكحُ الجَوْرَ فيه من عددِ النساء، لا بمعنى الأمرِ بالنكاح، فإنَّ المعنيَّ به: وإنْ خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى، فتحرجتم فيهن، فكذلك فَتَحَرَّجُوا في النساء، فلا تنكحوا إلا ما أَمِنتم الجَوْرَ فيه منهن، ما أحللتُه لكم من الواحدة إلى الأربع.

وقد بَيَّنا في غير هذا الموضع أنَّ العربَ تُخْرِجُ الكلامَ بلفظِ الأمرِ ومعناها فيه النهي أو التهديد والوعيد، كما قال جل ثناؤه: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُـرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، وكمـا قال: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُون﴾ [النحل: ٥٥/ والروم: ٣٤]، فخرج ذلك مخرج الأمرِ، والمقصود به التهـديدُ والـوعيدُ والـزجـر والنهي، فكذلك قوله: «فانكحوا ماطاب لكم من النساء»، بمعنى النهي: فلا تنكحوا إلا ماطاب لكم من النساء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ۝٣﴾

يعني بذلك تعالى ذِكْرُه: وإنْ خفتم أنْ لا تعدلوا في مثنى أو ثلاث أو رباعَ فنكحتم واحـدةً، أو خفتم أنْ لا تعـدلـوا في الـواحدة فتسررتم مُلْكَ أيمانِكم، فهو «أدنى» يعني: أقرب، «ألا تعولوا»، يقول: أنْ لا تَجُورُوا ولا تَمِيلُوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾

يعني بذلك تعالى ذِكْرُه: وأعطوا النساء مُهورَهُنَّ عَطِيَّةً واجبةً، وفريضةً لازمة.

وهذا أمرٌ من الله أزواجَ النساء المدخول بهن والمسمَّى لهن الصَّداق، أنْ يؤتوهن صَدُقَاتِهن، دونَ المطلقاتِ قبل الدخولِ ممن لم يُسَمَّ لها في عقدِ النكاحِ صَداقٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ۝٤﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: فإنْ وَهَبَ لكم، أيها الرجالُ، نساؤكم شيئاً من صدقاتهن، طيبةً بذلك أنفُسُهُنَّ، فَكُلُوهُ هنيئاً مريئاً.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ﴾

إن الله جل ثناؤه عم بقوله: «ولا تؤتوا السفهاء أموالكم»، فلم يخصصْ سفيهاً دون سفيه. فغيرُ جائزٍ لأحدٍ أن يؤتي سفيهاً مالَهُ، صبياً صغيراً كانَ أو رجلًا كبيراً، ذَكَراً كان أو أنثى.

و«السفيه» الـذي لا يجـوز لوليِّه أنْ يُؤتيه مالـه، هو المستحقُّ الحَجْـرَ بتضييعِه مالَه وفسادِه وإفسادِه وسوءِ تدبيره ذلك.

وإنمـا قلنا ما قلنا، من أنَّ المعنيَّ بقوله: «ولا تؤتوا السفهاء» هو مَنْ وَصَفْنَا دونَ غيرِه، لأنَّ الله جَلَّ ثناؤه قال في الآية التي تتلوها: «وابْتَلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النِّكاحَ فإنْ بلغوا النكاح وأُونِسَ منهم الرشد، وقد يدخل في «اليتـامى» الـذكـورُ والإناث، فلم يخصصْ بالأمرِ بدفع مالَهُم من الأموالِ، الذكورَ دونَ الإناث، ولا الإناث دون الذكور.

وإذْ كان ذلك كذلك، فمعلومٌ أنَّ الذين أُمِرَ أولياأُوهم بدفعهم أموالَهم، إليهم، وأُجيزَ للمسلمين مبايعتهم ومعاملتهم، غير الذين أمر أولياؤهم بمنعهم أموالهم، وحُظِرَ على المسلمين مداينتهم ومعاملتهم.

فإنْ كان ذلك كذلك، فَبَيِّنٌ أنَّ «السفهاء» الذين نهى اللهُ المؤمنينَ أنْ يُؤْتُوهم أموالَهم، هم المُستحِقُّونَ الحَجْرَ والمستوجبون أنْ يُولى عليهم أموالهم، وهم مَنْ وصفنا صِفَتَهم قَبْلُ، وأنَّ مَنْ عدا ذلك فغيرُ سفيهٍ، لأنَّ الحَجْرَ لا يستحقه مَنْ قد بلغ وأُونسَ رُشْدُه.

وقد يدخل في قوله: «ولا تؤتوا السفهاء أموالكم»، أموالُ المنهيِّينَ عن أنْ يُؤتوهم ذلك، وأموال «السفهاء». لأن قوله: «أموالكم» غير مخصوص منها بعض الأموالِ دونَ بعضٍ. ولا تمنع العرب أن تخاطب قوماً خِطاباً، فيخرج الكلامُ بعضُه خبرٌ عنهم، وبعضُه عن غُيَّب، وذلك نحو أن يقولوا: «أكلتم يافلان أموالكم بالباطل»، فيخاطب الواحد خطاب الجمع، بمعنى: أنك وأصحابك أو وقومك أكلتم أموالكم. فكذلك قوله: «ولا تؤتوا السفهاء»، معناه: لا تؤتوا، أيها الناس، سفهاءَكُم أموالَكم التي بعضُها لكم وبعضها لهم، فيضيعوها.

وإذ كان ذلك كذلك، وكانَ اللهُ تعالى ذِكْرُه قد عَمَّ بالنهي عن إيتاء السفهاء الأموال كلَّها، ولم يخصصْ منها شيئاً دون شيء، كان بَيِّناً بذلك أنَّ معنى قوله: «التي جعلَ اللهُ لكم قياماً»، إنما هو التي جعل الله لكم ولهم قياماً، ولكن السفهاء دخل ذِكْرُهم في ذِكْرِ المخاطَبين بقوله: «لكم».

وتأويل قوله: «وارزقوهم فيها واكسوهم»، على التأويل الذي قلنا في قوله: «ولا تؤتوا السفهاء أموالكم»، وأنفقوا على سفهائكم من أولادكم ونسائكم الذين تَجِبُ عليكم نفقتهم من طعامِهم وكِسْوَتِهم في أموالكم، ولا تُسَلِّطُوهم على أموالكم فيهلكوها، وعلى سفهائِكم منهم ممن لا تجبُ عليكم نفقته، ومن

غيرهم الـذين تَلُونَ أنتم أمورَهُم، من أموالهم فيما لابُدَّ لهم من مؤنهم في طعامهم وشرابهم وكسوتهم. لأنَّ ذلك هو الواجب من الحكم في قولِ جميع الحُجَّةِ، لا خلافَ بينهم في ذلك، مع دلالةِ ظاهرِ التنزيلِ على ماقُلْنَا في ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٥﴾

إن معنى قولـه: «وقـولـوا لهم قولا معروفاً»، أي: قولوا، يامعشرَ ولاةِ السفهـاءِ قولاً معروفاً للسفهاء: «إنْ صَلحتم ورَشدتم سلَّمنا إليكم أموالَكم، وخَلَّيْنَا بينكم وبينها، فاتقوا الله في أنفسكم وأموالكم»، وما أشبه ذلك من القول الذي فيه حَثٌّ على طاعةِ الله، ونهيٌ عن معصيته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «وابتلوا اليتامى»، واختبروا عقولَ يَتَامَاكُم في أفهامِهم، وصلاحهم في أديانهم، وإصلاحهم أموالَهُم.

وقد دَلَّلْنَا فيما مضى قَبْلُ على أنَّ معنى «الابتلاء» الاختبار.

وأمّا قوله: «إذا بلغوا النكاح»، فإنه يعني: إذا بلغوا الحُلُمَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾

يعني بقوله: «فإنْ آنستم منهم رُشداً»، فإنْ وجدتم منهم وعرفتم.

و«الـرشد» في هذا الموضع: العَقْلُ وإصلاحُ المال، لإجماعِ الجميع على أنه إذا كان كذلك، لم يكن ممن يستحقُ الحجرَ عليه في ماله، وحَوْزَ

مافي يده عنه، وإنْ كان فاجراً في دينه. وإذْ كان ذلك إجماعاً من الجميع، فكذلك حُكْمُه إذا بلغ وله مالٌ في يَدي وَصِيٍّ أبيه، أو في يدِ حاكمٍ قد وَلِيَ مالَـهُ لطفـولته، واجبٌ عليه تسليمُ مالهِ إليه، إذا كان عاقلاً، بالغاً، مُصْلِحاً لماله. غيرَ مفسدٍ، لأن المَعْنَى الذي به يستحقُّ أنْ يولَّى على مالهِ الذي هو في يدهِ، هو المعنَى الذي به يستحق أن يمنع يده من ماله الذي هو في يد وليّ، فإنه لا فرقَ بين ذلك.

وفي إجماعهم على أنه غيرُ جائزٍ حيازةُ مافي يدهِ في حالِ صحةِ عقلهِ وإصلاحِ مافي يده، الدليلُ الواضحُ على أنه غيرُ جائز منْع يدهِ مما هوَ له في مثلِ ذلك الحالِ، وإنْ كان قبل ذلك في يد غيره، لا فَرْقَ بينهما. ومَنْ فرَّقَ بين ذلك، عُكِسَ عليه القول في ذلك، وسُئِلَ الفرقَ بينهما من أصلٍ أو نَظيرٍ، فلن يقول في أحدهما قولاً إلا أُلْزِمَ في الآخرِ مِثْلَهُ.

فإذ كان ما وصفنا من الجميع إجماعاً، فَبَيِّنٌ أنَّ «الرُّشد» الذي به يستحقُّ اليتيم، إذا بلغ فأُونِسَ منه، دَفْعَ مالهِ إليه، ما قلنا من صحةِ عقلهِ وإصلاحِ ماله.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ جَلَّ ثنـاؤُهُ: ﴿فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا﴾

يعني بذلك تعالى ذِكْرُه ولاةَ أموالِ اليتامى. يقولُ اللهُ لهم: فإذا بلغ أيتامكم الحُلُمَ، فآنستم منهم عقلاً وإصلاحاً لأموالهم، فادفعوا إليهم أموالَهم ولا تحبسوها عنهم.

وأما قوله: «فلا تأكلوها إسرافاً»، يعني: بغيرِ ما أباحَهُ اللهُ لك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: «وبِدَاراً»، ومبادرة.

وإنما يعني بذلك جل ثناؤه وُلَاةَ أموالِ اليتامى. يقول لهم: لا تأكلوا أموالَهم إسرافاً ـ يعني ما أباحَ اللهُ لكم أكله ـ ولا مبادرةً منكم بلوغَهم وإيناسَ الرشدِ منهم، حذراً أنْ يبلُغُوا فيلزمكم تسليمُهُ إليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «ومَنْ كان غنيًّا»، من وُلَاةِ أموالِ اليتامى على أموالهم، فليستعففْ بمالهِ عن أكلها ـ بغيرِ الإسرافِ والبدارِ أن يكبروا ـ بما أباح اللهُ له أكلها به.

ثم اختلف أهل التأويل في «المعروف» الذي أَذِنَ اللهُ جل ثناؤه لولاةِ أموالهم أكلها به، إذا كانوا أهلَ فقرٍ وحاجةٍ إليها.

وأولى الأقوال بالصواب، قولُ مَنْ قال: «المعروف» الذي عناه الله تبارك وتعالى في قوله: «ومَنْ كان فقيراً فليأكل بالمعروف»، أكل مال اليتيم عند الضرورةِ والحاجةِ إليه، على وجهِ الاستقراضِ منه ـ فأما على غير ذلك الوجه، فغيرُ جائزٍ له أكله.

وذلك أنَّ الجميعَ مُجْمِعُونَ على أن والي اليتيم لا يملكُ من مالِ يتيمه إلّا القيام بمصلحته. فلما كان إجماعاً منهم أنه غير مالكه، وكان غيرَ جائزٍ لأحدٍ أنْ يستهلكَ مالَ أحدٍ غيره، يتيماً كان ربُّ المال أو مدركاً رشيداً ـ وكان عليه إنْ تَعَدَّى فاستهلكه بأكلٍ أو غيره، ضمانُه لمن استهلكه عليه، بإجماعٍ من الجميع ـ وكان والي اليتيم سبيلُه سبيل غيرهِ في أنه لا يملكُ مالَ يتيمهِ ـ كان كذلك حُكْمُه فيما يلزمه من قضائهِ إذا أكل منه، سبيلُه سبيلُ غيره، وإنْ

فَارَقَهُ في أنَّ له الاستقراضَ منه عندَ الحاجةِ إليه، كما له الاستقراض عليه عند حاجته إلى مايستقرض عليه، إذا كان قيِّماً بما فيه مصلحته.

ولا معنى لقولِ مَنْ قال: «إنما عنى بالمعروف في هذا الموضع، أكل والي اليتيم من مال اليتيم، لقيامهِ عليه على وجه الاعتياض على عَمله وسعيه». لأنَّ لوالي اليتيم أنْ يُؤاجرَ نفسه منه للقيام بأموره، إذا كان اليتيمُ محتاجاً إلى ذلك، بأجرةٍ معلومة، كما يستأجر له غيره من الأُجَراء، وكما يشتري له مَن يُعِينُه، غنيًّا كان الوالي أو فقيراً.

وإذ كان ذلك كذلك، وكان الله تعالى ذِكْرُه قد دَلَّ بقوله: «ومَنْ كان غنيًّا فليستعففْ ومَنْ كان فقيراً فليأكل بالمعروف»، على أنَّ أكلَ مالِ اليتيم إنما أذن لمن أذن له من وُلاتهِ في حالِ الفقرِ والحاجةِ، وكانت الحالُ التي للولاة أن يُؤجروا أنفسهم من الأيتام مع حاجةِ الأيتام إلى الأجراء، غير مخصوصٍ بها حال غنًى ولا حال فقر؛ كان معلوماً أنَّ المعنى الذي أُبيحَ لهم من أموالِ أيتامهم في كل أحوالهم، غير المعنى الذي أُبيحَ لهم ذلك فيه في حالٍ دون حالٍ.

ومن أبى ما قلنا، مِمَّنْ زَعَمَ أنَّ لوليِّ اليتيمِ أكل مالِ يتيمهِ عند حاجته إليه على غير وجهِ القَرْضِ، استدلالاً بهذه الآية، قيل له: أَمُجْمَعٌ على أنَّ الذي قلتَ تأويل قوله: «ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف»؟

فإن قال: لا!

قيل له: فما بُرْهانُكَ على أنَّ ذلك تأويله، وقد علمتَ أنه غيرُ مالك مالَ يتيمه؟

فإن قال: لأنَّ الله أَذِنَ له بأكله!

قيل له: أَذِنَ له بأكلهِ مُطْلَقاً أم بشرطٍ؟

فإن قال: بشرطٍ، وهو أن يأكله بالمعروف.

قيل له: وما ذلك «المعروف»؟ وقد علمتَ القائلين من الصحابةِ والتابعينَ ومَنْ بَعْدَهُم من الخالفينَ أنَّ ذلك هو أكله قَرْضاً وسلَفاً؟

ويقال لهم أيضاً مع ذلك: أرأيتَ المُوَلَّىٰ عليهم في أموالهم من المجانين والمَعَاتيه، أللولاةِ أموالهِم أنْ يأكلوا من أموالهِم عند حاجتهم إليه على غيرِ وجهِ القرضِ لا الاعتياض من قيامهم بها، كما قلتم ذلك في أموالِ اليتامى فأبحتموها لهم؟

فإن قالوا: ذلك لهم - خرجوا من قولِ جميعِ الحُجَّةِ.

وإن قالوا: ليس ذلك لهم.

قيل لهم: فما الفرقُ بين أموالهم وأموالِ اليتامى، وحكمُ ولاتهم واحدٌ: في أنهم ولاةُ أموالِ غيرهم؟

فلن يقولوا في أحدهما شيئاً إلا أُلْزِمُوا في الآخرِ مثله.

ويُسْألون كذلك عن المَحْجور عليه: هل لمن يَلي مالَهُ أنْ يأكلَ ماله عند حاجته إليه؟ نحو سُؤَالِنَاهُمْ عن أموالِ المجانين والمعاتيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: وإذا دفعتم، يامعشرَ ولاةِ أموالِ اليتامى، إلى اليتامى أموالَهم. «أشْهِدُوا عليهم»، يقول: فأشهدوا على الأيتامِ باستيفائهم ذلك منكم، ودَفْعكُمُوهُ إليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وكفى بالله كافياً من الشهودِ الذين يشهدهم والي اليتيم على دفعهِ مالَ يتيمهِ إليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝٧﴾

يعني بذلك تعالى ذِكْرُه: للذكورِ من أولادِ الرجلِ الميِّتِ حصةٌ من ميراثه، وللإناثِ منهم حصةٌ منه، من قليلِ ما خلَّفَ بَعْدَهُ وكثيرِه، حصةٌ مفروضة، واجبةٌ معلومة مؤقتة.

وذُكِرَ أنَّ هذه الآية نَزلتْ من أجلِ أنَّ أهلَ الجاهلية كانوا يُورِّثونَ الذكورَ دون الإناث.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٨﴾

اختلف أهلُ التأويل في حكم هذه الآية، هل هو مُحْكَمٌ أو منسوخ؟

فقال بعضهم: هو محكم.

وقال آخرون: منسوخة.

وقال آخرون: «هي محكمة وليست بمنسوخة، غير أنَّ معنى ذلك: «وإذا حضر القسمة»، يعني بها قسمة الميت ماله بوصيته لمن كان يوصى له به».

قالوا: وأمر بأنْ يجعل وصيته في ماله لمن سَمَّاهُ الله تعالى في هذه الآية.

وأوْلى الأقوال في ذلك بالصحة، قولُ مَنْ قال: «هذه الآية محكمة غير منسوخة، وإنما عَنَى بها الوصيةَ لأولي قُرْبَى المُوصِي، وعَنَى باليتامى والمساكين: أن يقال لهم قول معروف».

وإنما قلنا ذلك أوْلى بالصحةِ من غيره، لما قد بَيَّنا في غير موضعٍ من كتابنا هذا وغيره، أنَّ شيئاً من أحكام الله تبارك وتعالى التي أثبتها في كتابهِ أو بَيَّنها على لسانِ رسولهِ ﷺ،غيرُ جائز فيه أنْ يقال له ناسخٌ لحكم آخرَ، أو منسوخٌ بحكمٍ آخرَ، إلا والحكمان اللذان قضى لأحدهما بأنه ناسخ والآخر بأنه منسوخ نافٍ كل واحد منهما صاحبه، غيرُ جائز اجتماع الحكم بهما في وقتٍ واحدٍ بوجهٍ من الوجوه، وإنْ كان جائزاً صَرْفه إلى غيرِ النسخِ أو تقولَ بأنَّ أحدهما ناسخ والآخر منسوخ، حجة يجب التسليم لها.

وإذْ كان ذلك كذلك، لما قد دَلَّلْنَا في غير موضع وكان قوله تعالى ذِكْرُه: «وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه»، محتملاً أن يكون مراداً به: وإذا حضر قسمة مال قاسمٍ مالَه بوصيةٍ، أُولُو قرابتهِ واليتامى والمساكين، فارزقوهم منه ـ يراد: فَأَوْصُوا لأولي قرابتكم الذين لا يرثونكم منه، وقولوا لليتامى والمساكين قولاً معروفاً، كما قال في موضع آخر: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]، ولا يكون منسوخاً بآية الميراث لم يكن لأحدٍ[1] صرفه إلى أنه منسوخٌ بآيةِ الميراث، إذْ كان لا دلالةَ على أنه منسوخٌ بها من كتابٍ أو سنةٍ ثابتةٍ، وهو محتمل من التأويل ما بَيَّنَّا.

وإذْ كان ذلك كذلك، فتأويل قوله: «وإذا حضر القسمة»، قسمة الموصي مالَهُ بالوصية، أولُو قرابتهِ «واليتامى والمساكين فارزقوهم منه»، يقول: فاقسموا

(١) السياق: «وإذا كان ذلك كذلك لما قد دللنا في غير موضع. . . . لم يكن لأحد . .»

لهم منه بالوصية، يعني: فأوصوا لأولي القربى من أموالكم. «وقولوا لهم»، يعني الآخرين، وهم اليتامى والمساكين. «قولاً معروفاً»، يعني يُدْعَى لهم بخير.

وأما الذين قالوا: «إنَّ الآيةَ منسوخة بآيةِ المواريث»، والذين قالوا: «هي مُحْكَمةٌ، والمأمور بها ورثة الميت» فإنهم وَجَّهُوا قولَهُ: «وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه»، يقول: فأعطوهم منه «وقولوا لهم قولا معروفاً».

ثم اختلف الذين قالوا: «هذه الآية محكمةٌ، وأنَّ القسمةَ لأولي القربى واليتامى والمساكين واجبةٌ على أهلِ الميراث، إنْ كان بعضُ أهل الميراث صغيراً فقسم عليه الميراث وليُّ ماله».

فقال بعضهم: ليس لوليِّ ماله أنْ يقسمَ من مالِهِ ووصيته شيئاً، لأنه لا يملكُ من المال شيئاً، ولكنه يقول لهم قولاً معروفاً. قالوا: والذي أمرَه اللهُ بأنْ يقـولَ لهم معروفاً، هو وليُّ مالِ اليتيم إذا قسم مالَ اليتيم بينه وبين شركاء اليتيم، إلا أن يكون وليُّ مالِهِ أحدَ الورثةِ، فيعطيهم من نصيبِهِ، ويعطيهم مَنْ يجوز أمره في ماله من أنصبائهم. قالوا: فأما من مالِ الصغير، فالذي يولَّى عليه ماله، لا يجوز لوليِّ مالِهِ أنْ يعطيهم منه شيئاً.

وقال آخرون منهم: ذلك واجب في أموالِ الصغارِ والكبارِ لأولي القربى واليتامى والمساكين، فإنْ كان الورثةُ كباراً تولَّوا عند القسمةِ إعطاءَهُم ذلك، وإنْ كانوا صغاراً تولَّى إعطاءَ ذلك منهم وليُّ مالِهِم.

فكأن مَن ذهبَ من القائلين القولَ الذي ذكرناه أولاً، ومن قال: «يرضخ عند قسمة الميراث لأولي القُرْبَى واليتامى والمساكين»، تأوَّلَ قوله: «فارزقوهم منـه»، فأعـطوهم منـه وكـأن الـذين ذهبـوا إلى (القول الآخَر)، تأولوا قوله:

«فارزقوهم منه»، فأطعموهم منه.

واختلفوا في تأويل قوله: «وقولوا لهم قولاً معروفًا».

فقال بعضهم: هو أمرٌ من الله تعالى ذِكْرُه ولاةَ اليتامى أنْ يقولوا لأولي قرابتهم ولليتامى والمساكين إذا حَضَرُوا قسمتهم مالَ مَنْ وَلُوا عليه ماله من الأموال بينهم وبين شركائِهم من الورثةِ فيها، أنْ يعتذروا إليهم، على نحوِ ماقد ذَكَرْنَاهُ فيما مضى من الاعتذار.

وقال آخرون: بل المأمورُ بالقولِ المعروفِ الذي أمَرَ جَلَّ ثناؤُه أنْ يقال له، هو الرجل الذي يُوصي في ماله. و«القول المعروف»، هو الدعاء لهم بالرزق والغِنَى وما أشبه ذلك من قولِ الخير.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾

تأويل ذلك: ولْيَخْشَ الذين لو تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهم ذريةً ضِعافاً خافوا عليهم العَيْلَةَ لو كانوا فَرَّقُوا أموالَهم في حياتهم، أو قَسموها وصيةً منهم بها لأولي قرابتهم وأهلِ اليُتْمِ والمَسْكنةِ، فأبقوا أموالهم لوَلَدِهم خشيةَ العَيْلَةِ عليهم بعدهم، مع ضَعْفِهم وعجزهم عن المطالب، فليأمروا مَنْ حضروه وهو يوصِي لذوي قرابته ـ وفي اليتامى والمساكين وفي غير ذلك ـ بمالِه بالعدلِ وليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً، وهو أنْ يُعَرِّفُوه ما أباحَ اللهُ له من الوصيةِ، وما اختاره للموصين من أهلِ الإيمان بالله وبكتابه وسنته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً»، يقول: بغير حق. «إنما يأكلون في بطونهم ناراً» يوم القيامة، بأكلهم أموالَ اليتامى ظُلْماً في الدنيا، نارَ جهنم. «وسيصلون» بأكلهم «سعيراً».

وأما قوله: «وسيصلون سعيراً»، فإنه مأخوذٌ من «الصَّلا»، و«الصلا» الاصطلاءُ بالنار، وذلك التسخنُ بها.

وأما «السعير» فإنه شدة حر جهنم، ومنه قيل: «اسْتَعَرَتِ الحربُ» إذا اشتدت، وإنما هو «مَسعور»، ثم صُرِفَ إلى «سعير»، كما قيل: «كَفٌّ خَضِيبٌ» و«لحِيةٌ دَهينٌ»، وإنما هي «مخضوبةٌ»، صرفت إلى «فعيل».

فتأويل الكلام إذاً: وسيصلون ناراً مُسَعَّرةً، أي: موقودةً مشعلة شديداً حرُّها.

وإنما قلنا إنَّ ذلك كذلك، لأنَّ الله جل ثناؤه قال: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾، [التكوير: ١٢]، فوصفها بأنها مسعورةٌ.

ثم أخبر جل ثناؤه أنَّ أَكَلَةَ أموالِ اليتامى يَصْلَونها وهي كذلك. فـ «السعير» إذاً في هذا الموضع، صِفَةٌ للجحيم على ماوصفنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: «يوصيكم الله»، يَعْهَدُ الله إليكم «في أولادكم للذكر مِثْلُ حَظِّ الأنثيين»، يقول: يعهد إليكم ربكم إذا ماتَ الميتُ منكم وخلَّفَ أولاداً ذكوراً وإناثاً، فلولدهِ الذكور والإناث ميراثه أجمع بينهم، للذكر منهم مِثْلُ حَظِّ الأنثيين، إذا لم يكن له وارثٌ غيرُهم، سواء فيه صغار ولده

وكبارهم وإناثهم، في أن جميع ذلك بينهم، للذكر مثل حظ الأنثيين.

وقد ذُكِرَ أنَّ هذه الآيةَ نَزَلَتْ على النبيِّ ﷺ، تبييناً من الله الواجبَ من الحُكْمِ في ميراثِ مَنْ مات وخَلَّفَ ورثةً، على مابيَّن. لأن أهلَ الجاهلية كانوا لا يقسمون من ميراثِ الميتِ لأحدٍ من ورثته بعده، ممن كان لا يلاقي العدوَّ ولا يقاتلُ في الحروب من صغارِ ولدِهِ، ولا للنساءِ منهم. وكانوا يَخصُّونَ بذلك المُقَاتِلَةَ دون الذريةِ. فأخبرَ الله جَلَّ ثناؤه أنَّ ما خَلَّفَهُ الميتُ بين من سَمَّى وفرض له ميراثاً في هذه الآية، وفي آخر هذه السورة، فقال في صغار ولد الميتِ وكبارهم وإناثهم: لهم ميراثُ أبيهم، إذا لم يكنْ له وارثٌ غيرهم، للذكر مِثْلُ حَظِّ الأُنثيين.

وقال آخرون: بل نزل ذلك من أجلِ أنَّ المالَ كان للولد قبل نزوله، وللوالدين الوصية، فنسخ الله تبارك وتعالى ذلك بهذه الآية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تعَالَى: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾

يعني بقوله: «فإن كُنَّ»، فإنْ كان المتروكات. «نساء فوق اثنتين»، ويعني بقوله: «نساءً»، بنات الميت، «فوق اثنتين»، يقول: أكثر في العدد من اثنتين. «فلهن ثُلُثَا ماتَرَكَ»، يقول: فلبناتِهِ الثلثان مما ترك بعده من ميراثِهِ، دونَ سائرِ ورثته، إذا لم يَكُنْ الميتُ خَلَّفَ ولداً ذكراً معهن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تعَالَى: ﴿وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾

يعني بقوله: «وإنْ كانت»، وإنْ كانت المتروكةُ ابنةً واحدة «فلها النصف»، يقول: فلتلك الواحدة نصفُ ماترك الميتُ من ميراثه، إذا لم يكن معها غيرها من ولَدِ الميتِ ذكرٌ ولا أنثى.

فإن قال قائل: فهذا فرضُ الواحدةِ من النساء وما فوقَ الاثنتين، فأين فريضةُ الاثنتين؟

قيل: فريضتهما بالسنة المنقولةِ نَقْلَ الوراثة التي لا يجوز فيها الشك[1].

وأما قوله: «ولأبويه»، فإنه يعني: ولأبوي الميت ـ «لكلِّ واحدٍ منهما السُّدسُ»، من تَرِكته وما خلَّفَ من ماله، سواءٌ فيه الوالدة والوالد، لا يزدادُ واحد منهما على السدس ـ «إن كان له ولد»، ذكراً كان الولد أو أنثى، واحداً كان أو جماعة.

فإنْ قالَ قائلٌ: فإن كان كذلك التأويل، فقد يجب أن لا يزاد الوالدُ مع الابنة الواحدة على السدس من ميراثه عن ولده الميت. وذلك إن قلته، قولٌ خلافٌ لما عليه الأمةُ مُجْمعة، من تصييرهم باقي تركةِ الميتِ مع الابنةِ الواحدة بعد أخذها نصيبها منها لوالدِهِ أجمع!

قيل: ليس الأمر في ذلك كالذي ظننتَ، وإنما لكلِّ واحدٍ من أبوي الميت السُّدُسُ من تركتهِ مع ولده، ذكراً كان الولد أو أنثى، واحداً كان أو جماعة، فريضةً من الله له مُسَمَّاة، فإمَّا زِيْدَ على ذلك من بقيةِ النصف مع الابنة الواحدة إذا لم يكن غيره وغير ابنة للميت واحدة، فإنما زيدها ثانياً بِقُرْبِ

---

(١) أي جعلوا لهما الثلثين، فألحقوهما بالبنات فوق الاثنتين. وأيضاً: فإن الله تعالى حكم في الآية الأخيرة من سورة النساء ـ للأختين بالثلثين. وإذا ورث الأختان الثلثين، فلأن يرث البنتان الثلثين بالطريق الأولى. (ينظر الأساس للعلامة الشيخ سعيد حوى: ٢/١٠١٠).

عَصَبَةِ الميتِ إليه، إذْ كان حُكْمُ كُلِّ ما أبقته سهامُ الفرائض، فلأولي عصبَةِ الميتِ وأقْرَبِهِم إليه، بِحُكْمِ ذلكَ لها على لسانِ رسولِ الله ﷺ، وكان الأبُ أقربَ عصبَةِ ابنهِ وأوْلَاها به، إذا لم يكن لابنهِ الميت ابنٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: «فإن لم يكن له»، فإن لم يكن للميتِ «ولد» ذكر ولا أنثى «وورثه أبواه»، دون غيرهما من ولد وارث. «فلأمه الثلث»، يقول: فلأمه مِنْ تَرِكَتهِ وما خَلَّفَ بعده، ثلث جميعِ ذلك.

فإنْ قال قائل: فمنِ الذي له الثلثان الآخران.

قيل له: الأب.

فإن قال: بماذا؟

قلت: بأنه أقرب أهلِ الميت إليه، ولذلك ترك ذكر تسمية مَنْ له الثلثان الباقيان، إذْ كان قد بَيَّن على لسانِ رسولِ الله ﷺ لعباده: أن كُلَّ ميِّتٍ فأقربُ عصبتهِ به، أوْلى بميراثِهِ، بعد إعطاءِ ذوي السهامِ المفروضةِ سهامَهُم من ميراثِه[1].

وهذه العِلَّةُ، هي العلةُ التي من أجلها سُمِّيَ للأمِّ ماسُمِّيَ لها، إذا لم يكن الميتُ خَلَّفَ وارثاً غيرَ أبويه، لأنَّ الأم ليست بعصبة في حالٍ للميت. فبيَّن الله جل ثناؤه لعباده مافَرَضَ لها من ميراثِ ولدها الميت، وترك ذكرَ مَنْ له الثلثان الباقيان منه معها، إذْ كان قد عَرَّفَهُم في جملةِ بيانهِ لهم مَنْ له بقايا

---

(١) ينظر البخاري (٦٧٣٥) و(٦٧٣٧) وغيره في هذا الباب.

تركة الأموالِ بعد أخذِ أهلِ السهام سهامَهُم وفرائِضَهم. وكان بيانُه ذلك، مُغْنِياً لهم عن تكريرِ حُكْمِه مع كل مَنْ قَسَم له حقاً من ميراثِ ميتٍ، وسَمَّى له منه سهماً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾

إن قال قائل: وما المعنى الذي من أجله ذَكَرَ حُكْمَ الأبوين مع الإخوة، وتَرَكَ ذِكْرَ حُكْمِهما مع الأخِ الواحد؟

قلت: اختلاف حكمهما مع الإخوة الجماعة والأخ الواحد، فكان في إبانة الله جل ثناؤه لعباده حكمهما فيما يَرِثَانِ من وَلدهما الميت مع إخوته، غِنًى وكفايةً عن أنَّ حكمهما فيما ورثا منه غير متغيِّرٍ عما كان لهما، ولا أَخَ للميتِ ولا وارثَ غيرهما. إذْ كان معلوماً عندهم أنَّ كُلَّ مستحقٍ حقاً بقضاء الله ذلك له، لا ينتقلُ حقُّه الذي قَضى به له رَبُّهُ جَلَّ ثناؤه عما قَضى به له إلى غيره، إلا بنقلِ الله ذلك عنه إلى مَنْ نقله إليه من خَلْقِه. فكان في فرضه تعالى ذِكْرُه للأمِّ مافَرَضَ ـ إذا لم يكن لولدها الميتِ وارثٌ غيرها وغير والده، ولا أخ ـ الدلالةُ الواضحة للخَلْقِ أنَّ ذلك المفروضَ ـ وهو ثلثُ مالِ ولدها الميت ـ حَقٌّ لها واجب، حتى يغيِّر ذلك الفرض من فَرَض لها. فلما غيَّرَ تعالى ذِكْرُه مافَرَضَ لها من ذلك مع الإخوة الجماعة، وترك تغييره مع الأخِ الواحد، عُلِمَ بذلك أن فرضها غير متغيِّرٍ عما فرض لها إلا في الحال التي غيَّره فيها مَنْ لَزِمَ العبادَ طاعتُه، دون غيرها من الأحوال.

وإن الله تعالى ذكره فَرَضَ للأم مع الإخوةِ السدس، لما هو أعلم به من مصلحة خلقه. وقد يجوز أن يكون ذلك كان لما ألزم الآباء لأولادهم. وقد يجوز أن يكون ذلك لغير ذلك. وليس ذلك مما كلَّفنا علمه، وإنما أمرنا بالعمل بما علمنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: «من بعد وصية يوصي بها أو دين»، أنَّ الذي قسم الله تبارك وتعالى لولد الميتِ الذكور منهم والإناث ولأبويه مِنْ تركتهِ من بعد وفـاته، إنما يقسمه لهم على ماقسمه لهم في هذه الآية من بعد قضاءِ دَيْنِ الميت الذي ماتَ وهو عليه من تركته، ومن بعد تنفيذ وصيته في بابها بعد قضاء دَيْنِهِ كُلِّه. فلم يجعل تعالى ذِكْرُه لأحدٍ من ورثة الميت، ولا لأحدٍ ممن أوصى له بشيء، إلا مِنْ بَعْدِ قضاءِ دَيْنِهِ من جميعِ تركته، وإنْ أحاطَ بجميعِ ذلك. ثم جعلَ أهلَ الوصايا بعد قضاءِ دينه شُركاءَ ورثتِهِ فيما بقي لما أوصى لهم به، ما لم يجاوزْ ذلك ثُلُثَهُ. فإنْ جاوزَ ذلك ثلثه، جعل الخيار في إجازة مازاد على الثلث من ذلك أو ردِّه إلى ورثته: إنْ أَحَبُّوا أجازوا الزيادةَ على ثُلُثِ ذلك، وإنْ شاءوا رَدُّوه. فأما ما كان من ذلك إلى الثلث، فهو ماضٍ عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: «آباؤكم وأبناؤكم»، هؤلاء الذين أوصاكم الله به فيهم ـ من قِسْمَةِ ميراثِ مَيِّتكم فيهم على ماسمَّى لكم وبَيَّنَهُ في هذه الآية ـ آباؤكم وأبناؤكم. «لاتدرون أيهم أقربُ لكم نفعاً»، يقول: أعطوهم حقوقَهُم من ميراثِ مَيِّتِهم الذي أوصيتُكُم أنْ تُعْطُوهُمُوها، فإنكم لا تعلمونَ أيهم أدنى وأشد نفعاً لكم في عاجلِ دنياكم وآجلِ أُخْرَاكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١١﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «فريضةً من الله»، «وإن كان له إخوةٌ فلأمه السُّدُسُ»، فريضةً، يقول: سهاماً معلومة موقتة بيَّنها الله لهم.

وأما قوله: «إن الله كان عليماً حكيماً»، فإنه يعني جَلَّ ثناؤه: إنَّ الله لم يَزَلْ ذا عِلْمٍ بما يصلحُ خَلْقَهُ، أيها الناس، فانتهوا إلى ما يأمركم، يصلح لكم أموركم. «حكيماً»، يقول: لم يَزَلْ ذا حِكْمةٍ في تدبيره، وهو كذلك فيما يقسمُ لبعضكم من ميراثِ بعضٍ، وفيما يقضي بينكم من الأحكام، لا يدخلُ حكمه خَلَلٌ ولا زلل، لأنه قضاء مَنْ لا تَخْفَى عليه مواضعُ المصلحةِ في البدء والعاقبة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه، «ولكم» أيها الناس. «نِصْفُ ماتركَ أزواجكم»، بعد وفاتِهنَّ من مالٍ وميراث. «إنْ لم يكن لَهُنَّ ولَدٌ»، يومَ يحدثُ بهن الموت، لا ذكر ولا أنثى. «فإنْ كان لهن ولَدٌ»، أي: فإنْ كان لأزواجكم يوم يحدث بهن الموت، ولَدٌ ذكرٌ أو أنثى. «فلكم الربع مما تركن»، من مالٍ وميراث، ميراثاً لكم عنهن. «من بعد وصيةٍ يُوصِينَ بها أو دَيْنٍ»، يقول: ذلكم لكم ميراثاً عنهنَّ، مما يبقى من تركاتهن وأموالهن، من بعد قضاءِ دُيونِهن التي يَمُتْنَ وهي عَلْيهِنَ، ومن بعدِ إنفاذِ وصَاياهُنَّ الجائزة إنْ كُنَّ أَوْصَيْنَ بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم

﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: «ولهن الربع مما تركتم إنْ لم يكن لكم ولد» ولأزواجكم، أيها الناسُ، ربعُ ماتركتم بعد وفاتكم من مالٍ وميراث، إنْ حدث بأحدكم حَدَثُ الوفاةِ ولا ولدَ له ذكر ولا أنثى. «فإنْ كان لكم ولد»، يقول: فإنْ حَدَثَ بأحدكم حَدَثُ الموتِ وله ولدٌ ذكرٌ أو أنثى، واحداً كان الولدُ أو جماعة. «فلهن الثمنُ مما تركتم»، يقول: فلأزواجكم حينئذٍ من أموالكم وتركتكم التي تخلفُونَها بعد وفاتكم، الثُّمُنُ من بعدِ قضاءِ ديونِكم التي حدث بكم حَدَثُ الوفاةِ وهيَ عليكم، ومن بعد إنفاذِ وصاياكم الجائزة التي تُوصُونَ بها.

وإنما قيل: «من بعد وصيةٍ تُوصون بها أو دين»، فَقَدَّمَ ذِكْر الوصيةِ على ذكر الدَّيْن، لأنَّ معنى الكلام: إن الذي فرضتُ لمن فرضتُ له منكم في هذه الآيات، إنما هُوَ لَهُ من بعد إخراجِ أيٍّ هذين كانَ في مال الميتِ منكم، من وصيةٍ أو دَيْنٍ. فلذلك كان سواءً تقديم ذِكْرِ الوصيةِ قبل ذِكْرِ الدَّيْنِ، وتقديم ذكر الدين قبل ذكر الوصية، لأنه لم يرد من معنى ذلك إخراج الشيئين: «الدين والوصية» من مالهِ، فيكون ذِكر الدَّيْنِ أوْلى أن يُبْدَأَ به من ذكر الوصية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: وإنْ كان رجلٌ أو امرأة يُورَثُ كَلالَةً. والكَلاَلَةُ: الذين يَرِثُونَ الميتَ، من عدا ولدِهِ ووالده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «وله أخ أو أخت»، وللرجل الذي يورث كلالة أخ أو أخت، يعني: أخاً أو أختاً من أمه.

وقوله: «فلكل واحدٍ منهما السدس»، إذا انفرد الأخُ وحده أو الأختُ وحدها، ولم يكن أخ غيره أو غيرها من أمه، فله السدس من ميراثِ أخيهِ لأمِّهِ. فإن اجتمع أخٌ وأختٌ، أو أخوان لا ثالثَ معهما لأمِّهِمَا، أو أختان كذلك، أو أخ وأخت ليس معهما غيرهما من أمهما، فلكلٍّ واحدٍ منهما من ميراثِ أخيهما لأمِّهما السدس. «فإنْ كانوا أكثر من ذلك»، يعني: فإنْ كان الإخوةُ والأخواتُ لأمِّ الميتِ الموروث كلالة أكثرَ من اثنين. «فهم شركاء في الثلث»، يقول: فالثُّلث الذي فرضت لاثْنَيْهِم إذا لم يكن غيرهما من أُمِّهما ميراثاً لهما من أخيهما الميتِ الموروثِ كلالةً، شركة بينهم، إذا كانوا أكثر من اثنين إلى مابلغ عددهم على عدد رؤوسهم، لا يُفَضَّلُ ذَكَرٌ منهم على أنثى في ذلك، ولكنه بينهم بالسويَّة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: «من بعد وصية يُوصَى بها»، أي: هذا الذي فرضت لأخي الميتِ الموروثِ كلالةً وأخته أو إخوته وأخواته من ميراثه وتركته، إنما هو لهم من بعد قضاءِ دينِ الميتِ الذي كان عليه يوم حَدَثَ به حَدَثُ الموتِ من تركتهِ، وبعد إنفاذِ وصاياه الجائزة التي يُوصي بها في حياته لمن أوصى له بها بعد وفاته.

وأما قوله: «غير مضارٍّ»، فإنه يعني تعالى ذِكْرُه: من بعد وصية يُوصِي بها، غيرَ مضَارٍّ ورثَتَهُ في ميراثِهم عنه.

ويعني بقوله تعالى ذكره: «وصية من الله»، عهداً من الله إليكم فيما يجبُ لكم من ميراثِ مَنْ مات منكم. «والله عليم»، يقول: والله ذُو عِلْمٍ بمصالحِ خَلْقِه ومضارِّهم، ومَنْ يستحقُّ أنْ يُعْطَى من أقرباءِ مَنْ مات منكم وأنسبائه من ميراثه، ومَنْ يُحرم ذلك منهم، ومبلغ مايستحقُّ به كُلُّ مَن استحقَّ منهم قسماً، وغير ذلك من أمور عباده ومصالحهم. «حليم»، يقول: ذو حِلْمٍ على خَلْقِه، وذُو أنَاةٍ في تَرْكِه مُعَاجَلَتَهُم بالعقوبةِ على ظلمِ بعضِهم بعضاً، في إعطائهم الميراث لأهل الجَلَدِ والقوةِ من ولدِ الميت، وأهلِ الغناءِ والبأسِ منهم، دونَ أهلِ الضعفِ والعجزِ من صغارِ ولدِه وإناثِهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾﴾

فتأويل الآية إذاً: هذه القسمةُ التي قسم بينكم، أيها الناسُ، عليها رَبُّكم مواريثَ مَوْتَاكُم، فصولٌ فصَل بها لكم بين طاعتهِ ومعصيتهِ، وحدودٌ لكم تنتهونَ إليها فلا تَتَعدَّوْهَا، ليعلم منكم أهلَ طاعتهِ من أهلِ معصيتهِ، فيما أمركم به من قسمةِ مواريثِ موتاكم بينكم، وفيما نهاكُم عنه منها.

ثم أخبر جَلَّ ثناؤه عما أعَدَّ لكلِّ فريقٍ منهم فقال لفريقِ أهلِ طاعتهِ في ذلك: «ومَنْ يُطعِ الله ورسولَهُ» في العملِ بما أمره به، والانتهاءِ إلى ماحَدَّهُ له في قسمةِ المواريثِ وغيرها، ويجتنبْ مانهاه عنه في ذلك وغيره. «يُدْخِلْهُ جناتٍ تجري من تحتها الأنهار».

فقـولـه: «يدخله جنـات»، يعني: بسـاتين تجـري من تحتِ غُروسِها وأشجارِها الأنهارُ. «خالدينَ فيها»، يقول: باقينَ فيها أبداً لا يموتونَ فيها ولا يفنون، ولا يُخْرجونَ منها. «وذلك الفوز العظيم».

يقول: وإدخالُ اللهِ إياهم الجنانَ التي وصفها على ماوَصَفَ من ذلك: «الفوز العظيم»، يعني: الفَلَح العظيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: «ومَنْ يعصِ الله ورسوله» في العمل بماأمراه به من قِسْمَةِ المواريثِ على ماأمراه بقسمةِ ذلك بينهم وغير ذلك من فرائضِ الله، مخالفاً أمرهما إلى مانَهياهُ عنه. «ويتعدَّ حدوده»، يقول: ويتجاوز فصُول طاعتهِ التي جعلها تعالى فاصلةً بينها وبينَ معصيتهِ، إلى مانهاهُ عنه من قسمةِ تركاتِ موتاهم بين ورثتهم وغير ذلك من حدوده. «يُدْخِلْهُ ناراً خالداً فيها»، يقول: باقياً فيها أبداً لا يموتُ ولا يخرج منها أبداً. «وله عذابٌ مهين»، يعني: وله عذابٌ مُذِلٌ من عُذِّبَ به مُخْزٍ لَهُ.

فإنْ قال قائل: أوَ مُخَلَّدٌ في النار مَنْ عَصَى الله ورسولَهُ في قسمة المواريث؟

قيل: نعم، إذا جمع إلى معصيتهما في ذلك شكاً في أنَّ الله فَرَضَ عليه مافرض على عبادهِ في هاتين الآيتين، أو علم ذلك فحادَّ الله ورسوله في أمرهما مِمَّنْ خالفَ قِسْمةَ الله ماقسمَ من ميراثِ أهلِ الميراثِ بينهم على ماقسمه في كتـابـه، وخالفَ حُكْمَهُ في ذلك وحُكْمَ رسولِه، استنكاراً منه حُكْمَهُمَا، كما استنكره ممن كان بين أظهُرِ أصحابِ رسولِ الله ﷺ من المنافقينَ الذين فيهم

نزلَتْ وفي أشكالهم هذه الآية، فهو من أهلِ الخلودِ في النار، لأنه باستنكارِهِ حُكْمَ الله في تلك، يصيرُ بالله كافراً، ومن مِلَّةِ الإسلامِ خارجاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّـٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ١٥﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «واللاتي يأتينَ الفاحشة»، والنساء اللاتي يأتين بالزنا، أي: يزنين. «من نسائكم»، وهُنَّ محصنات ذوات أزواجٍ أو غير ذواتِ أزواجٍ. «فاستشهدوا عليهن أربعة منكم»، يقول: فاستشهدوا عليهن بما أَتَيْنَ بهِ من الفاحشةِ أربعةَ رجالٍ من رجالكم، يعني: من المسلمين. «فإن شهدوا» عليهن. «فأمسكوهن في البيوتِ»، يقول: فاحبسوهن في البيوت. «حتى يتوفَّاهُنَّ الموتُ»، يقول: حتى يَمُتْنَ. «أو يجعلَ اللهُ لهن سبيلاً»، يعني: أو يجعل اللهُ لهن مخْرجاً وطريقاً إلى النجاة مما أتينَ به من الفاحشةِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: «واللذان يأتيانها منكم»، والرجل والمرأة اللذان يأتيانها، يقول: يأتيانِ الفاحشةَ. و«الهاء» و«الألف» في قوله: «يأتيانها» عائدةٌ على «الفاحشةِ» التي في قوله: «واللاتي يأتينَ الفاحشةَ من نسائكم». والمعنى: واللذان يأتيان منكم الفاحشةَ فآذُوهُمَا.

وعِنُيَ به البِكْران غير المُحْصَنَيْنِ إذا زَنَيا، وكان أحدهما رجلاً والآخر امرأة، لأنه لو كان مقصوداً بذلك قصد البيان عن حُكْمِ الزُّنَاةِ من الرجالِ، كما كان مقصوداً بقوله: «واللاتي يأتينَ الفاحشةَ من نسائكم» قصد البيان عن

حُكْمِ الزواني، لقيل: «والذين يأتونها منكم فآذوهم»، أو قيلَ: «والذي يأتيها منكم»، كما قيل في التي قبلها: «واللاتي يأتين الفاحشة»، فأخرج ذِكْرَهُنَّ على الجميعِ، ولم يقل: «واللتان يأتيان الفاحشة».

وكذلك تفعلُ العربُ إذا أرادت البيانَ على الوعيدِ على فِعْلٍ أو الوعد عليه، أخرجتْ أسماءَ أهلهِ بذكْرِ الجميعِ أو الواحد ـ وذلك أنَّ الواحدَ يدلُّ على جنسهِ ـ ولا تُخْرجها بذكر اثنين. فتقول: «الذين يفعلونَ كذا فلهم كذا»، «والذي يفعلُ كذا فله كذا»، ولا تقول: «اللذان يفعلان كذا فلهما كذا»، إلا أنْ يكون فعلاً لا يكون إلا من شخصين مختلفين، كالزنا لا يكون إلا من زانٍ وزانية. فإذا كانَ ذلك كذلك قِيلَ بذكرِ الاثنين، يراد بذلك الفاعل والمفعول به. فأما أنْ يذكر بذكر الاثنين، والمراد بذلك شخصان في فعلٍ قد ينفردُ كُلُّ واحدٍ منهما به، أو في فِعْلٍ لا يكونان فيه مشتركين، فذلك مالا يُعْرف في كلامها

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ١٦﴾

إنَّ الله تعالى ذِكْرُه كانَ أَمَرَ المؤمنينَ بأذى الزانيين المذكورين، إذا أَتيَا ذلك وهُمَا من أهلِ الإسلامِ. و«الأذى» قد يقعُ لِكُلِّ مكروهٍ نال الإنسانَ، من قولٍ سيءٍ باللسانِ أو فِعْل. وليسَ في الآية بيانُ أيِّ ذلك كان أُمِرَ به المؤمنونَ يومئـذٍ، وَلا خبـر به عن رسولِ الله ﷺ من نقلِ الواحدِ ولا نقلِ الجماعةِ الموجب مجيئهما قطعَ العُذْرِ.

وأهل التأويل في ذلك مختلفون، وجائزٌ أنْ يكونَ ذلك أذىً باللسانِ أو اليد، وجائزٌ أنْ يكون كان أذىً بهما. وليس في العلم بأيِّ ذلك كان من أيِّ

نفعٌ في دِينٍ ولا دنيا، ولا في الجهل به مَضَرَّةٌ، إذْ كان اللهُ جَلَّ ثناؤه قد نسخ ذلك من مُحْكَمِه بما أوجبَ من الحكم على عباده فيهما وفي اللائي قبلهما. فأما الذي أوجبَ من الحُكْمِ عليهم فيهما، فما أوجب في «سورة النور: ٢» بقوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدة﴾. وأمَّا الذي أوجبَ في اللائي قبلهما، فالرجم الذي قضى به رسولُ الله ﷺ فيهما. وأجمعَ أهلُ التأويلِ جميعاً على أنَّ الله تعالى ذِكْرُه قد جعل لأهلِ الفاحشةِ من الزناة والزواني سبيلاً بالحدود التي حكم بها فيهم.

وقال جماعةٌ من أهل التأويل: إن الله سبحانه نسخ بقوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢]، قوله: «واللذان يأتيانها منكم فآذوهما».

وأما قوله: فإنْ تَابا وأصْلَحَا فأعْرِضُوا عنهما، فإنه يعني به جَلَّ ثناؤه: فإنْ تابا من الفاحشة التي أتيا فراجعا طاعةَ الله بينهما «واصلحا»، يقول: وأصلحا دِينَهُمَا بمراجعةِ التوبة من فاحِشَتِهما، والعمل بما يُرْضِي الله «فأعرضوا عنهما»، يقول: فاصْفَحُوا عنهما، وكُفُّوا عنهما الأذى الذي كنتُ أمَرْتُكم أنْ تُؤْذُوهما به عقوبةً لهما على ماأتيا من الفاحشةِ، ولا تُؤْذُوهُمَا بعد توبتهما.

وأما قوله: «إن الله كان تواباً رحيماً»، فإنه يعني: إن الله لم يَزَلْ راجعاً لعبيده إلى مايحبون إذا هم راجعوا مايُحِبُّ منهم من طاعتهِ. «رحيماً» بهم، يعني: ذا رحمةٍ ورأفة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء

بجهالة»، ما التوبةُ على اللهِ لأحدٍ من خَلْقِه، إلا للذين يعملونَ السُّوءَ من المؤمنينَ بجهالةٍ. «ثم يتوبونَ من قريبٍ»، يقول: ما الله براجعٍ لأحدٍ من خَلْقِه إلى مايحبُّهُ من العفوِ عنه والصفحِ عن ذنوبهِ التي سَلَفَتْ منه، إلا للذين يأتونَ مايأتونه من ذُنوبِهم جهالةً منهم وهم بربهم مؤمنون، ثم يُراجعونَ طاعةَ الله ويتوبون منه إلى ما أمرهم الله به من الندم عليه والاستغفار وترك العَوْدِ إلى مِثْلِه من قبل نزول الموت بهم. وذلك هو «القريب» الذي ذكره الله تعالى ذِكْرُه فقال: «ثم يتوبون من قريب».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ

تأويله: ثم يتوبونَ قَبْلَ مَمَاتِهم، في الحال التي يفهمون فيها أمرَ الله تبارك وتعالى ونهيَهُ، وقبل أنْ يُغْلَبُوا على أنفسهم وعقولهم، وقبل حال اشتغالهم بِكَرْبِ الحَشْرجةِ وغَمِّ الغرغرة، فلا يعرفوا أمرَ اللهِ ونهيه، ولا يعقلوا التوبةَ، لأنَّ التوبةَ لا تكون توبةً إلا من ندمٍ على ماسلف منه، وعزمٍ منه على تَرْكِ المعاودة، وهو يعقل الندم، ويختار ترك المعاودة: فأما إذا كان بكربِ الموتِ مشغولاً، وبغَمِّ الحشرجةِ مغموراً، فلا إخالُه إلاَّ عن الندم على ذنوبه مغلوباً. ولذلك قال مَنْ قال: «إنَّ التوبةَ مقبولةٌ، مالم يُغَرْغِرِ العبدُ بنفسه»، فإنْ كان المرءُ في تلك الحال يعقلُ عَقْلَ الصحيح، ويفهم فَهْمَ العاقل الأريب، فأحْدَثَ إنابةً من ذنوبهِ، ورجعةً من شرودهِ عن ربِّه إلى طاعتهِ، كان إنْ شاء الله ممن دخل في وَعْدِ الله الذي وعد التائبينَ إليه من إجرامهم من قريب بقوله: «إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «فأولئك»، فهؤلاء الذين يَعملونَ السُّوءَ بجهالةٍ ثم يتوبون من قريب. «يتوبُ الله عليهم»، دونَ مَنْ لم يَتُبْ حتى غُلِبَ على عقلهِ، وغَمَـرتهُ حشرجةُ مِيْتَتِه، فقال وهو لا يفقه مايقول: «إني تبتُ الآن»، خداعاً لربه، ونفاقاً في دِينه.

ومعنى قوله: «يتوبُ الله عليهم»، يرزقهم إنابةً إلى طاعته، ويتقبلُ منهم أوْبَتَهُم إليه وتوبتهم التي أحدثُوها من ذنوبهم.

وأما قوله: «وكان الله عليماً حكيماً»، فإنه يعني: ولم يزل الله جل ثناؤه «عليماً» بالناسِ من عبادِه المنيبينَ إليه بالطاعةِ، بعد إدبارهم عنه، المقبلينَ إليه بعد التوليةِ، وبغيرِ ذلك من أمور خَلْقِه. «حكيماً»، في توبته على مَنْ تاب منهم من معصيته، وفي غير ذلك من تدبيره وتقديره، ولا يدخل أفعاله خَلَلٌ، ولا يُخالطه خطأ ولا زلل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: وليست التوبةُ للذين يعملون السيئاتِ من أهلِ الإصرارِ على معاصي الله. «حتى إذا حَضَرَ أحدَهُمُ الموتُ»، يقول: إذا حَشْرَجَ أحَدُهم بنفسهِ، وعَاينَ ملائكةَ رَبِّهِ قد أقبلوا إليه لقبضِ رُوحهِ، قال وقد غُلِبَ على نفسه، وحِيْلَ بينه وبين فَهْمِه، بِشُغْلِه بِكَرْبِ حَشْرَجَتِه وغَرْغَرتهِ «إني تبتُ الآن»، يقول: فليسَ لهذا عندَ الله تبارك وتعالى توبةٌ، لأنه قالَ ما قالَ في غيرِ حالِ توبة.

واختلف أهلُ التأويل فيمن عُنِيَ بقوله: «وليست التوبةُ للذين يعملون السيئاتِ حتى إذا حَضَرَ أحدَهُم الموتُ قال إني تبتُ الآن».

فقال بعضهم: عُني به أهلُ النفاق.

وقال آخرون: بل عُني بذلك أهلُ الإسلام.

وقال آخرون: بَلْ هذه الآيةُ كانت نزلت في أهلِ الإيمان، غير أنها نسخت.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك عندي بالصواب (قولُ مَنْ قال: هُمُ المسلمون)، وذلك أنَّ المنافقينَ كُفَّارٌ، فلو كان مَعْنيًّا به أهلُ النفاقِ لم يكن لقوله: «ولا الذينَ يموتونَ وهم كفارٌ» معنًى مفهوم، إذْ كانوا والذين قَبْلَهُم في معنًى واحدٍ: مِنْ أنَّ جميعَهُم كفارٌ. ولا وجهَ لتفريقِ أحكامِهم، والمعنى الذي من أجلهِ بَطَلَ أنْ تكونَ لهم توبةٌ، واحدٌ. وفي تفرقةِ الله جَلَّ ثناؤه بين أسمائِهم وصِفاتهم، بأنْ سَمَّى أحدَ الصنفين كافراً، ووصفَ الصِنْفَ الآخرَ بأنهم أهل سيئات، ولم يُسَمِّهم كُفَّاراً مادَلَّ على افتراقِ معانيهم. وفي صحةِ كونِ ذلك كذلك، صحةُ ماقُلْنا وفسادُ ماخَالَفَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: ولا التوبةُ للذين يموتونَ وهم كُفَّارٌ فَمَوْضِعُ «الذين» خَفْضٌ، لأنه معطوفٌ على قولِهِ: «للذين يعملونَ السيئاتِ».

وقوله: «أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً»، يقول: هؤلاء الذين يموتونَ وهُمْ كفارٌ «أعتدنا لهم عذاباً أليماً»، لأنهم من التوبةِ أبعدُ، لموتِهم على الكفرِ.

ومعنى قوله: «أعتدنا لهم»، أعْدَدْنَا لهم. «عذاباً أليماً»، يقول: مُؤْلِماً مُوجِعاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾

يعني تبارك وتعالى بقوله: «يا أيها الذين آمنوا»، يا أيها الذين صَدَّقُوا الله ورسولَهُ. «لايَحِلُّ لكم أنْ تَرِثُوا النساء كَرهاً»، يقول: لا يَحِلُّ لكم أنْ ترثوا نكاحَ نساء أقاربكم وآبائكم كَرْهاً.

فإن قال قائل: كيف كانوا يَرِثُونهن؟ وما وجهُ تحريمِ وراثَتِهِنَّ؟ فقد علمت أنَّ النساءَ مُوَرَّثات كما الرجال مُوَرَّثُونَ!

قيل: إنَّ ذلك ليس من معنى وراثتهن إذا هُنَّ مِتْنَ فتركنَ مالاً، وإنما ذلكَ أنهن في الجاهليةِ كانتْ إحداهُنَّ إذا ماتَ زَوْجُهَا، كان ابنهُ أو قريبهُ أوْلى بها من غيرهِ، ومنها بنَفْسِهَا، إنْ شاء نكحها، وإنْ شاء عَضَلَها فَمَنَعَها مِنْ غيرهِ ولم يُزَوِّجْهَا حتى تموتَ. فَحَرَّمَ اللهُ تعالى ذلك على عباده، وحظرَ عليهم نكاحَ حلائلِ آبائهم، ونهاهم عن عَضْلِهِنَّ عن النكاحِ.

وأما قوله تعالى: «ولا تَعْضُلوهُنَّ لتذهبوا ببعضِ ما آتيتموهُنَّ»، فإنَّ أهلَ التأويلِ اختلفوا في تأويله.

وأوْلى الأقوال بالصحة قولُ مَنْ قال: نهى الله جَلَّ ثناؤُه زوجَ المرأةِ عن التضييقِ عليها والإضرار بها، وهو لِصُحْبَتِهَا كارِهٌ ولفراقها مُحِبٌّ، لتفتديَ منه ببعضِ ما آتاها من الصَّداقِ.

وإنما قلنا ذلك أوْلى بالصحةِ، لأنه لا سبيلَ لأحدٍ إلى عَضْلِ امرأةٍ إلاَّ لأحدِ رجلين: إمَّا لزوجِها بالتضييقِ عليها وحَبْسِهَا على نفسهِ وهو لها كارهٌ، مُضَارَّةً منه لها بذلك، ليأخذ منها ما آتاهَا بافتدائِها منه نَفْسَهَا بذلك أو لِوَليِّها الذي إليه إنكاحُهَا.

وإذا كان لا سبيلَ إلى عَضْلِهَا لأحدٍ غيرهما، وكان الوليُّ معلوماً أنه ليس ممن آتـاهـا شيئاً فيقال إنْ عَضَلَها عن النكاحِ: «عَضَلها ليذهب ببعضِ ما آتاها»، كان معلوماً أنَّ الذي عَنَى اللهُ تبارك وتعالى بنهيهِ عن عَضْلِهَا، هو زوجها الذي له السبيلُ إلى عَضْلها ضِراراً لتفتديَ منه.

وإذا صَحَّ ذلك، وكان معلوماً أنَّ الله تعالى ذِكْرُه لم يجعلْ لأحدٍ السبيلَ على زوجتهِ بعد فراقهِ إياها وبَيْنُونتهَا منه، فيكون له إلى عَضْلِها سبيلٌ لتفتدي منه من عَضْله إياها، أتَتْ بفاحشةٍ أمْ لم تَأْتِ بها، وكان الله جَلَّ ثناؤه قد أباح للأزواجِ عضلهن إذا أتين بفاحشةٍ مبيّنةٍ حتى يفتدينَ منه، كان بَيِّناً بذلك خطأُ التأويلِ الذي تأوَّلَهُ ابنُ زيد، وتأويلِ مَنْ قال: «عَنَى بالنهي عن العَضْلِ في هذه الآية أولياء الأيامى»، وصحةُ ماقلنا فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾

ومعنى «الفـاحشـة» التي ذكـرهـا الله جل ثنـاؤه في هذا المـوضع كل «فاحشة»: من بَذاءٍ باللسان على زوجها، وأذىً له، وزِناً بفَرْجِهَا. وذلك أنَّ الله جَلَّ ثناؤه عَمَّ بقوله: «إلا أنْ يأتين بفاحشة مبينة»، كلَّ فاحشةٍ متبيّنةٍ ظاهرة، فكُلُّ زوجِ امرأةٍ أتت بفاحشةٍ من الفواحش التي هي زِناً أو نشوز، فله عَضْلُهَا على مابَيَّنَ اللهُ في كتـابـه، والتضييقُ عليهـا حتى تفتـديَ منـه، بأيِّ معاني الفواحشِ أتَتْ، بعد أن تكون ظاهرة مبيِّنة.

فمعنى الآية: ولا يَحِلُّ لكم، أيها الذين آمنوا، أنْ تعضلُوا نساءَكم لِتُضَيِّقُوا عليهن وتَمْنَعُوهُنَّ رِزْقَهُنَّ وكِسْوتَهُنَّ بالمعروفِ، لتذهبوا ببعضِ ما آتيتموهن من صَدُقَاتكم، إلَّا أنْ يأتينَ بفاحشةٍ من زِنًا أو بَذاءٍ عليكم، وخلافٍ لكم فيما يجبُ عليهن لكم - مبيِّنة ظاهرة، فيحلُّ لكم حينئذٍ عَضْلهن والتضييق عليهن، لتذهبوا ببعضِ ما آتيتموهن مِنْ صَدَاق إنْ هُنَّ افتدين منكم به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «وعاشروهن بالمعروف»، وخالقوا، أيها الرجال، نساءَكُم وصاحِبُوهُنَّ. «بالمعروف»، يعني بما أمرتُكم به من المصاحبة، وذلك: إمساكُهن بأداءِ حُقوقهن التي فَرَضَ اللهُ جَلَّ ثناؤه لهنَّ عليكم إليهن، أو تسريحُ منكم لَهُنَّ بإحسان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾

يعني بذلك تعالى ذِكْرُه: لا تَعْضُلُوا نساءَكم لتذهبوا ببعضِ ما آتيتموهن من غير رِيبةٍ ولا نشوزٍ كانَ منهُنَّ، ولكن عاشروهُنَّ بالمعروفِ وإنْ كَرِهْتُموهُنَّ، فلعلَّكُم أنْ تكرهوهن فتمسكوهن، فيجعل الله لكم في إمساكِكم إياهُنَّ على كُرْهٍ منكم لهن خيراً كثيراً، من ولدٍ يرزقكم منهن، أو عَطْفِكم عليهن بعد كراهتكم إياهن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: «وإنْ أردتمُ استبدالَ زوجٍ مكانَ زوجٍ»، وإنْ أردتم، أيها المؤمنون، نكاحَ امرأةٍ مكانَ امرأةٍ لكم تطلقونها. «وآتيتم إحداهن»، يقول: وقد أعطيتم التي تريدونَ طَلاقَها من المهرِ. «قنطاراً» و«القنطار» المال الكثير. «فلا تأخذوا منه شيئاً»، يقول: فلا تضرُّوا بِهِنَّ إذا أردتم طلاقَهُنَّ ليفتدينَ منكم بما آتيتموهن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾

يعني بقوله تعالى ذِكْرُه: «أتأخُذُونَهُ»، أتأخذون ما آتيتموهن من مُهُورِهنَّ. «بهتاناً»، يقول: ظلماً بغير حَقٍّ. «وإثماً مبيناً»، يعني: وإثماً قد أبان أمرُ آخذِهِ أنه بأخذِهِ إياه لمن أخذَهُ منه ظالمٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ

يعني جل ثناؤه بقوله: «وكيف تأخذونه»، وعلى أيِّ وجهٍ تأخذونَ من نسائِكم ما آتيتموهُنَّ من صدقاتهن، إذا أردتم طلاقهن واستبدالَ غيرهن بهن أزواجاً. «وقد أفضى بعضُكم إلى بعضٍ»، فتباشرتم وتلامستم.

وهـذا كلامٌ وإنْ كان مخرجه مخرجَ الاستفهامِ، فإنه في معنى النكيرِ والتغليظِ، كما يقولُ الرجلُ لآخرَ: «كيف تفعلُ كذا وكذا، وأنا غيرُ راضٍ به؟»، على معنى التهدُّدِ والوعيدِ.

وأما «الإفضاء» إلى الشيء، فإنه الوصولُ إليه بالمباشرة له.

فتأويلُ الكلام إذْ كان ذلك معناه: وكيفَ تأخذونَ ما آتيتموهن، وقد

أفضى بعضُكم إلى بعضٍ بالجماع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٢١﴾

أيْ: ماوثَّقتم به لهنَّ على أنْفُسِكم، من عَهْدٍ وإقرارٍ منكم بما أقررتم به على أنفسِكم، من إمساكِهِنَّ بمعروفٍ، أو تسريحهنَّ بإحسان.

وكان في عَقْدِ المسلمينَ النكاحَ قديماً فيما بلغنا ـ أنْ يقال لناكح: «آللهُ عليك لتمسكنَّ بمعروفٍ أو لتسرِّحَنَّ بإحسان»!

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ۝٢٢﴾

قد ذُكِرَ أنَّ هذه الآية نزلتْ في قومٍ كانوا يَخْلُفُون على حلائلِ آبائِهم، فجاءَ الإسلامُ وهم على ذلك، فحرَّمَ اللهُ تبارك وتعالى عليهم المُقام عليهن، وعفا لهم عما كان سَلَفَ منهم في جاهليتهم وشِرْكهم من فِعْلِ ذلك، لم يُؤاخِذْهُمْ به، إن هم اتَّقوا اللهَ في إسلامِهم وأطاعوه فيه.

وقال آخرون: معنى ذلك: ولا تنكحوا نكاحَ آبائكم ـ بمعنى: ولا تنكحوا كنكاحهم، كما نكحوا على الوجوهِ الفاسدةِ التي لا يجوزُ مِثْلُها في الإسلام ـ «إنه كانَ فاحشةً ومَقْتاً وساءَ سبيلًا»، يعني: أنَّ نِكاحَ آبائكم الذي كانوا ينكحونه في جاهليتهم، كان فاحشةً ومقتاً وساء سبيلاً ـ إلا ماقد سَلَفَ منكم في جاهليتكم من نكاحٍ، لايجوزُ ابتداءُ مِثْلِه في الإسلام، فإنه مَعْفُوٌّ لكم عنه.

وقالوا: قوله: «ولا تَنْكِحُوا ما نكحَ آباؤكم من النساء»، كقولِ القائلِ للرجلِ: «لاتفعلْ مافعلتُ»، و«لا تأكلْ ما أكلتُ»، بمعنى: لا تأكل كما أكلتُ، ولا تفعلْ كما فعلتُ.

وقال آخرون: معنى ذلك: ولا تنكحوا ما نكحَ آباؤكم من النساء بالنكاحِ الجائز كان عَقْدُهُ بينهم، إلاَّ ماقد سَلَفَ منهم من وجوه بالزنا عندهم، فإنَّ نكاحَهُنَّ لكم حلالٌ، لأنهن لم يَكُنَّ لهم حلائلَ، وإنما كانَ ما كانَ من آبائكم ومنهن من ذلك، فاحشةً ومقتاً وساء سبيلاً.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصواب، على ماقاله أهلُ التأويلِ في تأويله، أن يكون معناه: ولا تنكحوا من النساء نكاحَ آبائكم، إلا ماقد سَلَفَ منكم فَمَضى في الجاهلية، فإنه كان فاحشةً ومقتاً وساء سبيلاً ـ فيكون قوله: «من النساء» مِنْ صلة قوله: «ولا تنكحوا» ويكون قوله: «مانكح آباؤكم» بمعنى المصدر، ويكون قوله: «إلا ماقد سَلَفَ» بمعنى الاستثناء المنقطع، لأنه يحسن في موضعه: «لكن ماقد سلف فمضى» ـ «إنه كان فاحشةً ومقتاً وساء سبيلاً».

فإنْ قال قائل: وكيف يكونُ هذا القولُ موافقاً قولَ مَنْ ذكرتَ قولَهُ مِنْ أهلِ التأويل، وقد علمتَ أنَّ الذين ذكرتَ قولَهم في ذلك، إنما قالوا: أُنزلتْ هذه الآيةُ في النَّهي عن نكاحِ حلائلِ الآباء، وأنتَ تذكرُ أنهم إنما نُهُوا أنْ ينكحوا نكاحَهم؟

قيل له: إنما قلنا إنَّ ذلك هو التأويلُ الموافق لظاهرِ التنزيلِ، إذْ كانت «ما» في كلامِ العربِ لغير بني آدم، وأنه لو كان المقصودَ بذلك النهيُ عن حلائلِ الآباء، دونَ سائرِ ما كانَ من مناكحِ آبائِهم حراماً ابتداءُ مِثْلِه في الإسلام بِنَهْي الله جَلَّ ثناؤه عنه، لقيلَ: «ولا تنكحوا مَنْ نكحَ آباؤكم من النساء إلا ماقد سلف»، لأن ذلك هو المعروفُ في كلامِ العربِ، إذْ كان «مَنْ» لبني

آدم، و«ما» لغيرهم، ولم يُقلْ: «ولا تنكحوا مانكح آباؤكم من النساء». وأما قوله تعالى ذِكْرُه: «ولا تنكحوا مانكح آباؤكم من النساء»، فإنه يدخل في «ما»، ما كانَ من مناكحِ آبائهم التي كانوا يتناكَحُونَها في جاهليتهم. فَحَرَّمَ عليهم في الإسلام بهذه الآية، نكاحَ حلائلِ الآباء وكُلَّ نكاحٍ سواه نهى اللهُ تعالى ذِكْرُه عن ابتداءِ مِثْلِهِ في الإسلامِ، مما كان أهلُ الجاهليةِ يتناكحونه في شِرْكِهم.

ومعنى قوله: «إلا ماقد سلف»، إلا ما قَدْ مَضَى. «إنه كان فاحشة»، يقول: إنَّ نكاحَكُم الذي سَلَفَ منكم كنكاحِ آبائكم المحرَّمِ عليكم ابتداءُ مِثْلِهِ في الإسلام بعد تحريمي ذلك عليكم. «فاحشة»، يقول: معصيةً. «ومقتاً وساء سبيلاً»، أي: بِئْسَ طريقاً ومنهجاً، ماكنتم تفعلونَ في جاهليتكم من المناكحِ التي كنتم تناكحونها[1].

---

(١) . عَلَّقَ العلامةُ محمود شاكر ـ حفظه الله ـ في هذا الموضع تعليقاً نفيساً على رأي أبي جعفر الطبري فقال:

حجة أبي جعفر في هذا الموضع، حجةُ رجلٍ بصيرٍ عارفٍ بالكلامِ ومنازلهِ، متمكن من أصولِ الاستنباط، قادر على ضبط ماينتشر من المعاني، متابع لسياقِ الأحكامِ والأخبار في كتابِ ربه، خبير بما كانَ عليه العربُ في جاهليتهم.

وقد رَدَّ العلماءُ على أبي جعفر قوله، وقال بعضهم: هو قولٌ غير وجيه. وذكروا أن «ما» تقعُ على أنواع مَنْ يعقل، وإنْ كانت لا تقع على آحادِ مَنْ يعقل، عند مَنْ يذهبُ هذا المذهبَ. فجعلوا قول الطبري أن «ما» مصدريةً باقية على معنى المصدر، قولاً ضعيفاً. بيد أنَّ مذهبَ أبي جعفر صحيحٌ مستقيم لا ينال منه احتجاجهم عليه. وإنما ساقهم إلى ذلك، تَرْكُ أبي جعفر البيانَ عن حجته، وأنا قائلٌ في ذلك ما يشفي إنْ شاء الله.

وذلك أنَّ الذين رَدُّوا مقالةَ أبي جعفر، أرادوا أنَّ هذه الآية نَصٌّ في تحريمِ نكاحِ حلائل الآباء وحده، وكأنهم حسبوا أن لو جعلوا «ما» مصدرية، لم يكن في الآيات نص صريحٌ في تحريم حلائل الآباء غيرها. والصواب غير ذلك. فإنَّ الله سبحانه =

= وتعالى قد حَرَّمَ نكاحَ حلائل الآباء الذي كان أهلُ الجاهلية يرتكبونه بقوله في الآية التاسعة عشرة من سورة النساء فيما مضى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾، وقال أبو جعفر في تفسيرها: «لايحل لكم أنْ ترثوا نكاح نساء أقاربكم وآبائكم كرهاً»، وساق هناك الآثار المبينة عن صورةِ نكاحِ حلائل الآباء والأقارب جميعاً. وهذا الذي ساق هناك فيه البيانَ عن صورةِ نكاح حلائل الآباء والأقارب بالوراثة، كما كان أهلُ الجاهلية يعرفونه. فكانت هذه الآيةُ نصاً قاطعاً بيناً في تحريم نكاح حلائل الآباء والأقارب بالوراثة، كما عرفه أهل الجاهلية، لأنهم لم يعرفوا نكاح حلائل الآباء إلا على هذه الصورةِ التي بينها الله في كتابه، والتي أجمعت الأخبارُ على صفتها، أنْ يخلفَ الرجلُ على امرأةِ أبيه.

وأنا أرجِّحُ أنَّ الله تبارك وتعالى إنما قال: «لا يحلُّ لكم أنْ ترثوا النساء كرهاً»، فذكرَ وراثتهن كرهاً، ثم أتبعَ ذلك بالنهي عن عَضْلِ النساء عامة، وبالبيان عن مقصدهم من عضل النساء، وهو الذهابُ ببعضِ ماأُوتينَ من صدقاتهن ـ لأنَّ أهلَ الجاهلية، إنما تورطوا في نكاحِ حلائلِ الآباء، لشيءٍ واحد: هو أخذُ ما آتاهن الآباءُ من المالِ، ولئلا تذهبَ المرأةُ بما عندها من مالِ آبائهم، فلذلك أتبعه بالنهي عن العَضْلِ عامة، لأنَّ فِعْلَهُم بحلائلِ آبائهم عَضْلٌ أيضاً، ومقصدهم منه هو مقصدهم من عضل نسائهم.

وأيضاً، فإنَّ أهلَ الجاهلية لم يرتكبوا نكاحَ العماتِ والخالاتِ والأخوات، كما سترى بعد، بل استنكروه، فاستنكارهم نكاحَ حلائل الآباء ـ وهُنَّ بمنزلةِ أمهاتهم في حياة آبائهم ـ كان خليقاً أن يكون من فعلهم وعادتهم، ولكن حَمَلَهُم حبُّ المالِ على مخالفةِ ذلك.

ثم أتبع الله ذلك ـ كما قال أبو جعفر «بالنهي عن مناكحِ آبائهم التي كانوا يتناكحونها في الجاهلية، فحرم عليهم بهذه الآية نكاحَ حلائلِ الآباء وكُلَّ نكاحٍ سواه، نهى الله عن ابتداء مثله في الإسلام، مما كان أهل الجاهلية يتناكحونه». وقد ذكرت عائشة رضي الله عنها في حديث البخاري (الفتح ٩:١٥٨) أنَّ نكاحَ الجاهلية كان على أربعة أنحاء، منها: «نكاحُ الناس اليوم»، ثم عَدَّدَتْ ضُروبَ النكاح ووصفتها، فأقر الإسلامُ منها نكاحاً واحداً: يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته، فيصدقها، ثم ينكحها. =

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ

= فهـذه الآيةُ مُبْطِلَةٌ ضروبَ نكاحِ الجاهلية جميعاً، ما كانَ منها نكاحاً فاسداً، كالاستبضاع، ونكاح البغايا، ونكاح البدل، والشغار، فكل ذلك كان: فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً، كما تعرفه من صفته في حديث عائشة، ويدخل فيه، كما قال أبو جعفر، نكاح حلائل الآباء.

ثم أتبعَ الله سبحانه وتعالى هذه الآية التي حرمت جميع نكاح الجاهلية، آيةً أخرى حَرَّمَتْ كُلَّ نكاحٍ كان معروفاً في الأمم الأخرى، غير العرب، أو في الملل الأخرى غير ملة الإسلام فقال: «حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم» إلى آخرِ الآية. والعربُ لم تعرف قط نكاحَ الأمهاتِ، أو البناتِ أو الأخواتِ أو العماتِ أو الخالاتِ، بل كان ذلك في غيرهم كالمصريين واليهود وأشباههم، ينكحُ الرجلُ أختَهُ أو عمته أو خالته. ومن الدليل على أنَّ العربَ لم تعرف نكاح الأخوات، ولا نكاح العمات أو الخالات، أنهم كانوا في جاهليتهم، يقسمون على طلاق نسائهم أو تحريمهن على أنفسهم، أو هجرانهن، بقولهم للزوجة: «أنت عليَّ كظهرِ أختي، أو كظهرِ عمتي، أو كظهرِ خالتي»، فكان ذلك عندهم تحريماً على أنفسهم غشيان الزوجة. وهذا باب لم أجدْ أحداً وَفَّاهُ حَقَّهُ، فعسى أنْ أُوَفَّقَ في موضعٍ آخر إلى استيعابهِ إنْ شاء الله. وهو بابٌ مهم في تفسير هذه الآيات، والله المستعان.

وإذن فهذه الآيةُ الأخيرة، غير خاصة في نكاح أهل الجاهلية، بل هي تحريمٌ لكل نكاحٍ كرهه الله للمؤمنين، مما كان عند الأمم قَبْلَهم جائزاً أو مرتكباً، أو كان بعضُه عندهم قليلاً غير مشهورٍ شهرةَ أنكحةِ الجاهلية التي ذكرها الله في وراثةِ حلائل الآباء والأقارب، والتي ذكرتها عائشة في حديثها، والتي جاء تحريمها عاماً في قوله: «ولا تنكحوا مانكح آباؤكم من النساء» بمعنى «ما» المصدرية، كما ذهب إليه أبو جعفر.

وكتبه: محمود محمد شاكر.

﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَآئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾

فكل هؤلاء اللواتي سَمَّاهُنَّ الله تعالى وبَيَّنَ تحريمَهُنَّ في هذه الآيةِ، مُحَرَّمات، غيرُ جائز نكاحُهنَّ لمن حَرَّم الله ذلك عليه من الرجالِ، بإجماعِ جميعِ الأمة، لا اختلافَ بينهم في ذلك: إلَّا في أمهات نسائِنا اللواتي لم يَدْخُـلْ بهن أزواجُهنَّ، فإنَّ في نكـاحهن اختـلافاً بين بعض المتقدِّمينَ من الصحابة: إذا بانتِ الابنةُ قبلَ الدخولِ بها من زوجها، هل هُنَّ من المُبْهماتِ، أمْ هُنَّ من المشروطِ فيهن الدخول ببناتهنّ؟

فقال جميعُ أهلِ العلمِ مُتَقَدِّمهم ومتأخرهم: من المُبْهَمات[1]، وحرامٌ على مَنْ تزوَّج امرأةً أمُّها، دخلَ بامرأتِهِ التي نكحها أو لم يَدْخُلْ بها. وقالوا: شرطُ الدخولِ في الرَّبيبةِ دونَ الأم، فأما أمُّ المرأة فمُطْلقة بالتحريم. قالوا: ولو جازَ أنْ يكون شرطُ الدخول في قوله: «وربائبكم اللاتي في حُجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن»، يرجع موصولاً به قوله: «وأمهات نسائكم»، جازَ أنْ يكون الاستثناء في قوله: «والمحصنات من النساءِ إلا ما مَلَكَتْ أيمانُكم» من جميع المُحَـرَّمـات بقـوله: «حُرِّمَتْ عليكم»، الآية: قالوا: وفي إجماعِ الجميع على أنَّ الاستثناء في ذلك إنما هو مما وَلِيَه من قوله: «والمحصنات»،

---

(١) المُبْهمات: هُنَّ من المحرمات مالا يحلُّ بوجهٍ ولا سبب. كتحريم والأم والأخت وما أشبهه. والمبهم: الذي لا بابَ فيه ولا طريق إليه.

أبينُ الدِّلالةِ على أنَّ الشرطَ في قوله: «من نسائكم اللاتي دخلتم بهن»، مما وَليه من قوله: «وربائبكم اللاتي في حجوركم من نِسَائِكم اللاتي دخلتمْ بهن»، دون أمَّهاتِ نسائنا.

وأما «الربائب» فإنه جَمْعُ «ربيبة»، وهي ابنةُ امرأةِ الرجلِ. قيل لها «ربيبة» لتربيتهِ إيَّاها، وإنما هي «مربوبةٌ» صُرِفَتْ إلى «ربيبة»، كما يقال: «هي قتيلة» من «مقتولة». وقد يُقالُ لزوجِ المرأة: «هو ربيب ابن امرأته»، يعني به: «هو رَابُّهُ»، كما يقال: «هو خابر، وخبير» و«شاهد، وشهيد».

وأما قوله: «فإنْ لم تكونوا دخلتم بهن فلا جُناحَ عليكم»، فإنه يقول: فإنْ لم تكونوا، أيها الناسُ، دخلتم بأمهاتِ ربائبكم اللاتي في حجوركم فجامعتموهُنَّ حتى طَلَّقْتُمُوهُنَّ «فلا جُناحَ عليكم»، يقول: فلا حَرَجَ عليكم في نكاح مَنْ كان من ربائبكم كذلك.

وأما قوله: «وحلائلُ أبنائكم الذين من أصلابكم»، فإنه يعني: وأزواج أبنائكم الذين من أصلابكم.

وهي جَمْعُ «حليلة» وهي امرأته. وقيل: سُمِّيَت امرأةُ الرجل «حليلته»، لأنها تحلُّ معه في فراشٍ واحد.

ولا خلافَ بين جميعِ أهلِ العلم أنَّ حليلةَ ابنِ الرجلِ، حرامٌ عليه نكاحُها بعقدِ ابنهِ عليها النكاحَ، دخلَ بها أو لم يدخلْ بها.

فإنْ قال قائلٌ: فما أنتَ قائلٌ في حلائلِ الأبناء من الرضاع، فإنَّ الله تعالى إنما حَرَّمَ حلائلَ أبنائِنا من أصلابنا؟

قيل: إنَّ حلائلَ الأبناء من الرضاع وحلائلَ الأبناءِ من الأصلاب، سواءٌ في التحريمِ. وإنما قال: «وحلائلُ أبنائكم الذين من أصلابكم»، لأنَّ معناه: وحلائلُ أبنائِكم الذين ولدتموهم، دونَ حلائلِ أبنائِكم الذين تَبَنَّيْتُمُوهم.

وأما قوله: «وأنْ تَجْمَعُوا بين الأختين» فإنَّ معناه: وحرمَ عليكم أنْ تجمعوا بين الأختين عندكم بنكاحٍ.

«إلا ماقد سَلَفَ» لكن ماقد مضى منكم. «إنَّ الله كان غفوراً» لذنوبِ عبادهِ إذا تابوا إليه منها. «رحيماً» بهم فيما كلَّفَهُم من الفرائضِ، وخَفَّفَ عنهم فلم يُحَمِّلْهُمْ فوقَ طاقتهم.

يخبر بذلك جَلَّ ثناؤه: أنه غفورٌ لمن كان جمَعَ بين الأختين بنكاحٍ في جاهليتـهِ، وقبلَ تحريمهِ ذلك، إذا اتقى اللهَ تباركَ وتعالى بعدَ تحريمهِ ذلك عليه، فأطاعه باجتنابهِ. رحيمٌ به وبغيرهِ من أهلِ طاعتهِ من خَلْقِه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ

يعني بذلـك جَلَّ ثنـاؤه: حُرِّمَتْ عليكم المحصناتُ من النساءِ إلّا ما ملكت أيمانكم.

فأما «المحصنات»، فإنَّهن جَمْعُ «مُحْصَنة»، وهي التي قد مُنِعَ فَرْجُهَا بزوجٍ.

ويقال أيضاً، إذا هي عَفَّتْ وحَفِظَتْ فرجها من الفجور: «قد أحصَنَتْ فرجها فهي مُحْصِنة»، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [التحريم: ١٢]، بمعنى: حَفِظَتْهُ من الرِّيبةِ، ومَنَعَتْهُ من الفجورِ.

فإذْ كان أصلُ «الإحصان» ماذكرنا من المنعِ والحِفْظِ، فَبَيِّنٌ أنَّ معنى قوله: «والمحصناتُ من النساء»: والممنوعاتُ من النساءِ حرامٌ عليكم إلاَّ ما ملكتْ أيمانُكم.

وإذْ كان ذلك معناه، وكان الإحصانُ قد يكونُ بالحرّية، كما قال جَلَّ ثناؤه: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥]، ويكونُ بالإسلام، كما قال تعالى ذِكْرُه: ﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَاعَلَى الْمُحَصَنَاتِ مِنَ العَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥]، ويكونُ بالعِفَّةِ، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ المُحصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ [النور: ٤]، ويكونُ بالزوجِ ولم يكن تبارك وتعالى خَصَّ محصَنَةً دونَ محصنةٍ في قوله: «والمحصناتُ من النساء»، فواجبٌ أنْ تكونَ كُلُّ مُحْصنةٍ بأيِّ معاني الإحصانِ كانَ إحصانُها، حراماً علينا سفاحاً أو نِكاحاً إلّا ما مَلَكَتْهُ أيمانُنا منهن بشراء، كما أباحَهُ لنا كتابُ الله جَلَّ ثناؤه، أو نكاح على ما أطلقهُ لنا تنزيلُ الله.

فالذي أباحَهُ الله تبارك وتعالى لنا نكاحاً من الحرائر: الاربعُ، سوى اللَّواتي حُرِّمْنَ علينا بالنسب والصهر ومن الإماءِ: ماسَبَيْنَامن العَدُوِّ، سوى اللواتي وافق معناهن معنى ماحُرِّمَ علينا من الحرائرِ بالنسبِ والصهر، فإنهن والحرائر فيما يَحِلُّ ويَحْرُم بذلك المعنى، متفقاتُ المعاني، وسوى اللّواتي سَبَيْنَاهُنَّ من أهلِ الكتابين ولهن أزواج، فإنَّ السِّباء يحلُّهن لمن سبَاهن بعد الاستبراء، وبعد إخراجِ حَقِّ الله تبارك وتعالى الذي جعله لأهلِ الخُمس منهنَّ.

فأما السِّفاحُ، فإنَّ الله تبارك وتعالى حَرَّمَهُ من جميعِهن، فلم يحلَّهُ من حُرَّةٍ ولا أمَةٍ، ولا مسلمةٍ، ولا كافرةٍ مشركة.

وأما الأمَةُ التي لها زوجٌ، فإنها لا تَحِلُّ لمالكها إلا بعد طلاقِ زوجِها إيَّاها، أو وفاتهِ وانقضاءِ عدَّتها منه. فأمَّا بيع سَيِّدِهَا إيَّاها، فغيرُ مُوجِبٍ بينها وبين زوجها فراقاً ولا تحليلاً لمشتريها، لِصِحَّةِ الخبرِ عن رسولِ الله ﷺ: أنه خَيَّرَ بَريرة[1] إذْ أعتقتها عائشة، بين المُقامِ مع زوجها الذي كان سادَتُها زَوَّجُوهَا

(١) بَريرة ـ بفتح الباء الموحدة وكسر الراء المهملة ـ مولاةُ عائشةَ رضي الله عنها. «تهذيب الكمال: ٣٥/١٣٦ ـ ١٣٧».

منه في حال رِقِّها، وبين فراقه[٢] ولم يجعلْ ﷺ عِتْقَ عائشةَ إيَّاها لها طلاقاً. ولو كان عِتْقُها وزوالُ مِلكِ عائشةَ إياها لها طلاقاً، لم يكن لتخيير النبيِّ ﷺ إياها بين المقامِ مع زوجها والفراق، معنًى، ولوَجَبَ بالعتق الفراقُ، وبزوالِ ملكِ عائشةَ عنها الطلاقُ. فلما خَيَّرها النبيُّ ﷺ بين الذي ذكرنا وبين المَقام مع زوجها والفراق، كان معلوماً أنه لم يُخَيِّرْ بين ذلك إلاَّ والنكاحُ عَقْدُهُ ثابتٌ كما كان قبل زوالِ ملكِ عائشةَ عنها. فكان نظيراً للعتق ـ الذي هو زوال مِلك مالكِ المملوكةِ ذاتِ الزوج عنها ـ البيعُ، الذي هو زوالُ ملكِ مالِكها عنها، إذْ كان أحدهما زوالاً ببيعٍ، والآخرُ بعتقٍ ـ في أن الفُرْقة لاتجبُ بينها وبين زوجها بهما ولا بواحد منهما، [ولا يجبُ بهما ولا بواحدٍ منهما طلاقٌ]، ـ وإن اختلفا في معانٍ أُخر: من أنَّ لها في العتق الخيار في المقام مع زوجها والفراق، لعلةٍ مفارقة معنى البيع، وليس ذلك لها في البَيْع.

فإنْ قال قائل: وكيف يكون معنيًّا بالاستثناء من قوله: «والمحصناتُ من النساء»، ماوراء الأربع، من الخمس إلى مافوقهن بالنكاح، والمنكوحات به غير مملوكاتٍ؟.

قيل له: إنَّ الله تعالى لم يخصَّ بقوله: «إلاَّ ما ملكت أيمانكم»، المملوكات الرقاب، دونَ المملوك عليها بعقدِ النكاح أمرُها، بل عَمَّ بقوله: «إلاَّ ما ملكتْ أيمانكم»، كلا المعنيين ـ أعني ملك الرقبة، وملك الاستمتاع بالنكاح ـ لأنَّ جميع ذلك ملكته أيماننا. أما هذه فملكُ استمتاع، وأما هذه فملكُ استخدامٍ واستمتاعٍ وتصريفٍ فيما أُبيحَ لمالكها منها. ومَن ادَّعى أنَّ الله تبارك وتعالى عَنَى بقوله: «والمحصناتُ من النساء» محصنةً وغير محصنة سوى مَنْ ذكرنا أولاً، بالاستثناء بقوله: «إلاَّ ما ملكت أيمانكم»، ـ بعضَ أملاك أيماننا

---

(٢) متفق عليه: البخاري (٢٢٣٦) و(٥٢٧٩)، ومسلم (١٥٠٤).

دون بعض غيرَ الذي دللنا على أنه غير معنيٍّ به ـ سُئِلَ البرهانَ على دعواه من أصل أو نظير[1]، فلن يقولَ في ذلك قولاً إلّا أُلزِمَ في الآخر مثله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه: كتاباً من الله عليكم، فأخرجَ «الكتابَ» مُصَدَّراً من غيرِ لفظه. وإنما جازَ ذلك لأنَّ قولَهُ تعالى: «حُرِّمَتْ عليكم أمهاتكم»، إلى قوله: «كتابَ الله عليكم»، بمعنى: كَتب الله تحريمَ ماحَرَّمَ من ذلك وتحليلَ ماحَلَّلَ من ذلك عليكم، كتاباً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم﴾

إن الله جل ثناؤه بَيَّنَ لعبادِه المحرَّمات بالنسبِ والصهرِ، ثم المحرماتِ من المُحْصَناتِ من النساء، ثم أخبرهم جَلَّ ثناؤه أنه قد أَحَلَّ لهم ماعدا هؤلاء المحرَّماتِ المبيَّناتِ في هاتين الآيتين، أن نَبْتغيه بأموالنا نِكاحاً وملكَ يمينٍ، لا سِفاحاً.

فإنْ قال قائلٌ: عرفنا المحلَّلات اللواتي هُنَّ وراء المحرَّمات بالأنسابِ والأصهارِ، فما المحلَّلاتُ من المحصَناتِ والمحرماتِ منهنَّ؟

قيل: هو مادونَ الخمسِ من واحدةٍ إلى أربع من الحرائرِ. فأما ماعَدَا ذواتِ الأزواجِ، فغير عدد محصور بملك اليمين. وإنما قلنا إنَّ ذلك كذلك، لأنَّ قوله: «وأُحِلَّ لكم ماوراءَ ذلكم»، عامٌّ في كُلِّ مُحَلَّلٍ لنا من النساءِ أنْ

---

(١) السياق: «ومن ادعى. . . سُئِل البرهان».

نبتغيها بأموالنا. فليس توجيه معنى ذلك إلى بعضٍ منهن بأوْلى من بعضٍ، إلَّا أنْ تقومَ بأنَّ ذلك كذلك حجَّة يجبُ التسليم لها. ولا حُجة بأنَّ ذلك كذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «مُحْصِنينَ»، أعفَّاءَ بابتغائِكم ماوراءَ ماحَرَّمَ عليكم من النساءِ بأموالكم. «غيرَ مسافحينَ»، يقول: غير مُزانينَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «فما استمعتم به منهن».

فقال بعضهم: معناه: فما نكحتم منهن فجامَعْتُموهُنَّ - يعني: من النساء: «فآتوهُنَّ أجورَهُنَّ فريضةً»، يعني: صَدُقَاتِهنَّ، فريضةً معلومة.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: فما تمتَّعتم به منهن بأجرٍ تمتُّعَ اللَّذَّةِ، لا بنكاحٍ مُطْلَقٍ على وجه النكاحِ الذي يكون بولِيٍّ وشهودٍ ومَهْرٍ.

وأوْلى التأويلين في ذلك بالصواب، تأويل مَنْ تأوَّله: فما نكحتموه منهن فجامعتموه، فآتوهُنَّ أجورهنَّ لقيامِ الحجةِ بتحريمِ الله متعةَ النساءِ على غيرِ وجهِ النكاحِ الصحيحِ أو المُلْكِ الصحيحِ على لسان رسوله[1] ﷺ.

---

(١) من ذلك حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الصحيحين: البخاري (٥١١٥) وغيره، ومسلم (١٤٠٧)، وحديث الربيع بن سبرة الجهني، عن أبيه عند مسلم (١٤٠٦) وغيرهما، وهو أمر مستفيض عند أهل السنة والجماعة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾

معنى ذلك: ولا حَرَجَ عليكم، أيها الناسُ، فيما تراضيتُمْ به أنتم ونساؤكم من بعد إعطائِهنَّ أجورهُنَّ على النكاح الذي جَرَى بينكم وبينهن، مِنْ حَطٍّ ماوجبَ لهنَّ عليكم، أو إبراء، أو تأخيرٍ ووضع. وذلك نظير قولِهِ جَلَّ ثناؤه: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكمْ عَنْ شيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً﴾ [النساء: ٤].

وأما قوله: «إنَّ الله كان عليماً حكيماً»، فإنه يعني: إنَّ الله كان ذا عِلْمٍ بما يُصلحكم، أيها الناسُ، في مناكِحِكُم وغيرها من أمورِكم وأمورِ سائرِ خلقه، «حكيماً» فيما يُدَبِّرُ لكم ولهم من التدبير، وفيما يأمركم وينهاكم، لا يدخل حِكْمَتهُ خَلَلٌ ولا زَلَلٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾

ومعنى «الطَّوْل» في هذا الموضع، السَّعَةُ والغِنى من المالِ، لإِجماعِ الجميع على أنَّ الله تباركَ وتعالى لم يُحَرِّمْ شيئاً من الأشياء سوى نكاحِ الإِماءِ لواجدِ الطَّوْلِ إلى الحُرَّةِ فأحَلَّ ماحَرَّمَ من ذلك عند غَلَبَةِ المُحرَّمِ عليه له، لقضاءِ لذةٍ. فإذْ كان ذلك إجماعاً من الجميع فيما عدا نكاح الإِماء لواجدِ الطول، فَمِثْلُهُ في التحريمِ نكاحُ الإماءِ لواجدِ الطَّوْل: لا يَحِلُّ له من أجل غَلَبَةِ هوًى عنده فيها. لأنَّ ذلك مع وجوده الطَّوْلَ إلى الحرةِ منه قضاءُ لذةٍ وشهوةٍ، وليس بموضعِ ضرورةٍ تُرْفَعُ برخصةٍ، كالْمَيْتَةِ للمضطرِ الذي يخافُ هلاكَ نفسه، فيترخص في أكْلِها ليحييَ بها نَفْسَهُ، وما أشْبَهَ ذلك من المحرماتِ

اللواتي رَخَّصَ الله لعبادِهِ في حالِ الضرورةِ والخوفِ على أنفسهم الهلاكَ منه، ماحرم عليهم منها في غيرها من الأحوال. ولم يُرَخِّص الله تبارك وتعالى لعبدٍ في حرامٍ لقضاءِ لذةٍ، وفي إجماعِ الجميع على أن رجلًا لو غلبَه هوى امرأةٍ حرّةٍ أو أمَةٍ، أنها لا تَحِلُّ له إلّا بنكاحٍ أو شراءٍ على ماأذِنَ الله به، مايُوضِّحُ فسادَ قولِ مَنْ قال: «معنى الطول، في هذا الموضع: الهوى»، وأجاز لواجد الطَّوْلِ لحرةٍ نكاحَ الإماء.

فتأويلُ الآية إذْ كان الأمرُ على ماوصفنا: ومَنْ لم يَجِدْ منكم سَعَةً من مالٍ لنكاحِ الحرائرِ، فلينكحْ مما مَلَكَتْ أيمانكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾

يعني بذلك: ومَنْ لم يستطعْ منكم، أيها الناسُ، طَوْلًا ـ يعني من الأحرار. «أنْ ينكحَ المحصناتِ»، وهُنَّ الحرائرُ. «المؤمنات» اللواتي قد صَدَّقْنَ بتوحيدِ الله وبما جاء به رسولُ الله ﷺ من الحقِّ.

وأما «الفتيات»، فإنهنَّ جَمْعُ «فتاة»، وهُنَّ الشوابُّ من النساء. ثم يقالُ لِكُلِّ مملوكةٍ ذاتِ سِنٍّ أو شابة: «فتاة»، والعبد: «فتًى».

ثم اختلف أهلُ العلمِ في نكاحِ الفتياتِ غير المؤمنات، وهل عَنَى الله بقوله: «من فتياتكم المؤمنات»، تحريمَ ماعدا المؤمنات منهن، أم ذلك من الله تأديبٌ للمؤمنين؟

فقال بعضهم: ذلك من الله تعالى ذِكْرُه دلالةٌ على تحريمِ نكاحِ إماءِ المشركينَ.

وقال آخرون: ذلك من الله على الإرشادِ والنَّدْب، لا على التحريم. ومِمَّنْ قال ذلك جماعةٌ من أهلِ العراقِ. ومنهم أبو حنيفةَ وأصحابُه، واعْتَلُّوا لقولِهم بقولِ الله: «أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ» [المائدة: ٥]. قالوا: فقد أحل الله محصناتِ أهلِ الكتاب عامًّا، فليس لأحدٍ أنْ يخص منهن أمَةً ولا حُرَّةً. قالوا: ومعنى قوله: «فتياتكم المؤمنات»، غير المشركاتِ من عَبَدَةِ الأوثان.

وأَوْلى القولين في ذلك بالصواب، قولُ مَنْ قال: هو دِلالةٌ على تحريمِ نكاحِ إماءِ أهلِ الكتابِ، فإنَّهُنَّ لا يحللن إلا بملْكِ اليمين. وذلك أنَّ الله جَلَّ ثناؤه أحلَّ نِكاحَ الإماءِ بشروطٍ، فما لم تجتمع الشروطُ التي سَمَّاهُنَّ فيهن، فغيرُ جائزٍ لمسلمٍ نكاحهن.

فإنْ قال قائلٌ: فإنَّ الآيةَ التي في «المائدة» تدلُّ على إباحتهن بالنكاحِ؟

قيل: إنَّ التي في «المائدة»، قد أبانَ أنَّ حُكْمَها في خاصٍّ من مُحْصَناتهم، وأنها معنيٌّ بها حَرائِرَهُم دونَ إمائِهم، قولُه: «من فتياتِكم المؤمنات». وليست إحدى الآيتين دافعاً حُكْمُها حُكْمَ الأخرى، بَلْ إحداهُما مبينةٌ حُكْمَ الأخرى. وإنما تكونُ إحداهما دافعةً حُكْمَ الأخرى، لو لم يكنْ جائزاً اجتماع حُكْمَيْهِمَا على صِحَّةٍ. فأمَّا وهما جائزٌ اجتماعُ حُكْمَيْهما على الصحةِ، فغيرُ جائزٍ أنْ يحكم لإحداهما بأنها دافعة حكمَ الأُخرى، إلا بحجةٍ يجبُ التسليمُ لها من خبرٍ أو قياسٍ. ولا خبرَ بذلك ولا قياسَ. والآيةُ محتملةٌ ما قلنا: والمُحْصنات من حرائر الذين أوتوا الكتاب من قبلكم دونَ إمائهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾

يقول: فلينكح مَنْ لم يستطع منكم طَوْلاً لحرةٍ من فتياتكم المؤمنات. لينكح هذا المقترُ الذي لا يجدُ طَوْلاً لحرةٍ، من هذا الموسر، فتاتَهُ المؤمنةَ التي قد أبْدَت الإيمانَ فأظهرته، وكِلوا سرائرهُنَّ إلى الله، فإنَّ عِلْمَ ذلك إلى الله دونَكم، والله أعلمُ بسرائركم وسرائرهن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «فانكحوهن»، فتزوجوهن وبقوله: «بإذن أهلهن»، بإذنِ أربابهنَّ وأمرهم إيَّاكُم بنكاحِهن ورِضَاهم، ويعني بقوله: «وآتُوهُنَّ أجورَهُنَّ»، وأعطوهُنَّ مهورهن.

ويعني بقوله: «بالمعروف» على ماتَرَاضَيْتُم به، مما أحَلَّ اللهُ لكم، وأباحه لكم أنْ تجعلوه مُهُوراً لهن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾

يعني بقوله: «محصنات»، عفيفات. «غيرَ مسافحات»، غير مزانياتٍ. «ولا مُتَّخِذاتِ أخدانٍ»، يقول: ولا متخذات أصدقاء على السفاح.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾

قال أبو جعفر: اختلفت القَرَأَةُ في قراءةِ ذلك.

فقرأه بعضهم: ﴿فَإِذَا أَحْصَنَّ﴾، بفتح «الألف»، بمعنى: إذا أَسْلَمْنَ،

فصرنَ ممنوعاتِ الفروجِ من الحرامِ بالإسلام.

وقرأه آخرون: ﴿فَإِذَا أُحْصَنَّ﴾ بمعنى: فإذا تَزَوَّجْنَ، فصرنَ ممنوعاتِ الفروجِ من الحرامِ بالأزواج.

والصوابُ من القول في ذلك عندي، أنهما قراءتان معروفتان مستفيضتانِ في أمصارِ الإسلامِ، فبأيَّتِهما قرأ القارئُ فمصيبٌ في قراءته الصوابَ.

وذلك أنَّ معنيي ذلك وإنْ اختلفا، فغير دافعٍ أحدهُما صاحِبَهُ. لأنَّ الله قد أوجبَ على الأمَةِ ذاتِ الإسلامِ وغير ذاتِ الإسلام على لسان رسوله ﷺ، الحَدَّ[1] فلم يخصصْ بذلك ذاتَ زوجٍ منهن ولا غيرَ ذاتِ زوجٍ. فالحدودُ واجبةٌ على مَوالي الإماء إقامتها عليهن، إذا فَجَرْنَ، بكتابِ الله وأمرِ رسولِ الله ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: «فإنْ أتينَ بفاحشة»، فإنْ أتت فتياتكم - وهُنَّ إماؤكم - بعد ما أحصَنَّ بإسلام، أو أحْصِنَّ بنكاح - «بفاحشة»، وهي الزنا - «فعليهن نصفُ ما على المحصنات من العذاب»، يقول: فعليهن نصفُ ما على الحرائرِ من الحَدِّ، إذا هُنَّ زَنينَ قبل الإحصانِ بالأزواج.

و«العذاب» الذي ذكره الله تبارك وتعالى في هذا الموضع، هو الحَدّ، وذلك النصفُ الذي جعله اللهُ عذاباً لمن أتى بالفاحشةِ من الإماءِ إذا هُنَّ

---

(١) الأحاديث الصحيحة في ذلك مستفيضة، منها حديث: «إذا زنت أمةُ أحدكم فليجلدها» الذي ساقه المؤلف (٩٠٨٤)، وهو في الصحيحين: البخاري (٦٨٣٩) ومسلم (١٧٠٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أحصن: خمسون جلدةً، ونَفْيُ ستة أشهر، وذلك نصف عام. لأنَّ الواجبَ على الحرة إذا هي أتت بفاحشةٍ قبلَ الإحصانِ بالزوج، جلد مئةٍ ونفي حَوْلٍ. فالنصفُ من ذلك خمسون جلدةٍ، ونفي نصف سنة. وذلك الذي جعله الله عذاباً للإماءِ المحصناتِ إذا هُنَّ أتينَ بفاحشة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «ذلك»، هذا الذي أَبَحْتُ أيها الناس، من نكاحِ فتياتِكم المؤمناتِ لمن لا يستطيعُ منكم طَوْلاً لنكاحِ المُحْصَناتِ المؤمناتِ أبحتهُ لمن خشيَ العنتَ منكم، دونَ غيرِهِ ممن لا يخشى العنتَ.

وقد عَمَّ الله بقوله: «لمن خشيَ العنتَ منكم»، جميعَ معاني العنت. ويجمع جميعَ ذلك الزّنا، لأنه يُوجِبُ العقوبةَ على صاحبِهِ في الدنيا بما يُعنت بدنه، ويكتسب به إثماً ومضرَّةً في دِينه ودنياه. وقد اتفق أهلُ التأويلِ الذين هم أهلُه، على أنَّ ذلك معناه. فهو وإنْ كان في عينه لذةً وقضاءَ شهوةٍ، فإنه بأدائه إلى العنت، منسوبٌ إليه موصوف به، إذْ كان للعنتِ سبباً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٥﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بذلك: «وأنْ تصبروا»، أيها الناسُ، عن نكاحِ الإماء. «خيرٌ لكم». «والله غفورٌ» لكم نِكاحَ الإماءِ أنْ تَنْكِحُوهُنَّ على ما أَحَلَّ لكم وأذِنَ لكم به، وما سَلَفَ منكم في ذلك، إنْ أصلحتم أمورَ أنفسكم فيما بينكم وبين الله. «رحيمٌ» بكم، إذْ أذِنَ لكم في نِكاحِهنَّ عند الافتقارِ وعدمِ الطَّوْلِ للحُرَّة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٢٦﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «يريدُ الله ليبين لكم»، حلالَهُ وحرامَهُ. «ويَهديَكُم سُنَنَ الذين من قبلكم»، يقول: وليسددكم. «سُنن الذين من قبلكم»، يعني: سُبُلَ مَنْ قَبْلَكُم من أهلِ الإيمانِ باللهِ وأنبيائهِ، ومناهِجَهُم فيما حَرَّمَ عليكم من نكاحِ الأمهاتِ والبناتِ والأخواتِ وسائرِ ما حَرَّمَ عليكم في الآيتين اللتين بَيَّنَ فيهما ما حَرَّمَ من النساءِ. «ويتوبَ عليكم»، يقول: يريدُ اللهُ أنْ يرجعَ بكم إلى طاعتهِ في ذلك، مما كُنْتُمْ عليه من معصيتهِ في فِعْلِكُم ذلكَ قبلَ الإسلام، وقبل أنْ يُوحي ما أوحَى إلى نبيهِ من ذلك. «عليكم»، ليتجاوز لكم بتوبتكم عما سَلَفَ منكم من قبيحِ ذلك قبلَ إنابَتِكُم وتوبتكم. «والله عليمٌ»، يقول: والله ذُو عِلْمٍ بما يصلحُ عبادَهُ في أديْانِهم ودُنياهم وغير ذلك من أمورهم، وبما يأتون ويَذَرُونَ مما أَحَلَّ أو حَرَّمَ عليهم، حافظ ذلك كله عليهم. «حكيمٌ» بتدبيرهِ فيهم، في تصرِيفهم فيما صَرَّفَهُمْ فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ۝٢٧﴾

يعني بذلك تعالى ذِكْرُه: واللهُ يريدُ أنْ يراجع بكم طاعته والإنابةَ إليه، ليعفوَ لكم عما سَلَفَ من آثامكم، ويتجاوز لكم عما كان منكم في جاهليتكم، من استحلالِكُم ماهو حَرامٌ عليكم من نِكاحِ حلائلِ آبائِكم وأبنائِكم وغير ذلك مما كنتم تَسْتَحِلُّونَهُ وتأتونه، مما كانَ غيرَ جائزٍ لكم إتيانهُ من معاصي الله. «ويريد الذين يَتَّبعونَ الشهوات»، يقول: ويريدُ الذين يطلبون لذَّاتِ الدنيا وشهواتِ أنفسهم فيها. «أنْ تَميلُوا» عن أمرِ الله تبارك وتعالى، فَتَجُورُوا عنه

بإتيانكم ماحَرَّمَ عليكم وركوبكم معاصيه. «ميلاً عظيماً»، جَوْراً وعُدُولاً عنه شديداً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «يريدُ الله أنْ يُخَفِّفَ عنكم»، يريدُ الله أنْ يُيَسِّرَ عليكم، بإذنهِ لكم في نكاحِ الفتياتِ المؤمناتِ إذا لم تستطيعوا طَوْلاً لحرةٍ. «وخُلِقَ الإنسانُ ضعيفاً»، يقول: يَسَّرَ ذلك عليكم إذا كنتم غيرَ مستطيعي الطَّوْلِ للحرائرِ، لأنكم خُلِقتم ضُعفاءَ عَجَزةً عن تركِ جماعِ النساءِ، قليلي الصبرِ عنه، فأذِنَ لكم في نكاحِ فتياتكم المؤمنات عند خوفكم العَنَتَ على أنفسِكم، ولم تَجِدُوا طَوْلاً لحرةٍ، لئلا تَزْنُوا، لِقِلَّةِ صبركم على تَرْكِ جماعِ النساء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «يا أيها الذين آمنوا»، صَدَّقُوا اللهَ ورسولَهُ. «لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل»، يقول: لا يأكلْ بعضُكم أموالَ بعضٍ بما حَرَّمَ عليه، من الرِّبا والقمار، وغير ذلك من الأمورِ التي نهاكُمُ اللهُ عنها. «إلاَّ أنْ تكونَ تجارةً».

وفي هذه الآيةِ إبانةٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن تكذيبِ قولِ الجَهَلَةِ من المُتَصَوِّفَةِ المُنْكِرينَ طَلَبَ الأقواتِ بالتجاراتِ والصناعاتِ، والله تعالى يقول: «ياأيها الذين آمنوا لا تأكُلوا أموالَكُم بينكم بالباطلِ إلاَّ أنْ تكونَ تجارةً عن

تراضٍ منكم»، اكتساباً منا ذلك بها.

وأما قوله: «عن تراضٍ»، فإنَّ معناهُ: في تجارةِ بيعٍ أو عطاءٍ يُعطيه أحدٌ أحداً.

والتجارة التي هي عن تَرَاضٍ بين المتبايعين: ما تَفَرَّقَ المتبايعان عن المجلسِ الـذي تواجبَـا فيه بينهما عُقْدَةَ البيعِ بأبدانهما، عن تراضٍ منهما بالعقدِ الذي جَرَى بينهما، وعن تخييرِ كُلٍّ واحدٍ منهما صاحِبَهُ لصحَّةِ الخبرِ عن رسولِ الله ﷺ عن ابنِ عمرَ قال: قال رسول الله ﷺ: «البَيِّعانِ بالخيار مالم يَتَفَرَّقَا أو يكون بيعَ خيارٍ». وربما قال: أو يقول أحدهما للآخر اخْتَرْ[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ٢٩﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: «ولا تقتلوا أنفسكم»، ولا يقتلْ بعضُكم بعضاً، وأنتم أهـلُ مِلَّةٍ واحـدةٍ، ودعـوةٍ واحدةٍ، ودينٍ واحد. فجعل جَلَّ ثناؤه أهلَ الإسـلامِ كلهم بعضَهم من بعضٍ. وجعلَ القاتلَ منهم قتيلاً ـ في قتله إياه منهم ـ بمنزلةِ قَتله نَفْسَهُ، إذْ كان القاتلُ والمقتولُ أهلَ يدٍ واحدةٍ على مَنْ خالف مِلَّتَهُما.

وأما قوله: جَلَّ ثناؤه: «إنَّ الله كان بكم رحيماً»، فإنه يعني: إنَّ الله تبارك وتعـالى لم يزل «رحيمـاً» بِخَلْقِـهِ، ومِنْ رحمتـهِ بكم كفُّ بعضِكم عن قَتْلِ بعضٍ، أيها المؤمنون، بتحريمِ دماءِ بعضِكم على بعضٍ إلَّا بحقِّها، وحظْرِ أكلِ مالِ بعضِكم على بعضٍ بالباطل، إلا عن تجارةٍ يملكُ بها عليه بِرِضَاه

(١) رواه مالك وأيوب، عن نافع عن ابن عمر، وهي من أصحِّ الأسانيد، أخرجه مالك في «الموطأ» (٢٦٦٤) برواية أبي مصعب الزهري، وهو في الصحيحين وغيرهما.

وطيبِ نَفْسِه. لولا ذلكَ هَلَكْتُمْ وأهلكَ بعضُكم بعضاً قتلاً وسلباً وغصباً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝٣٠﴾

معناه: ومَنْ يفعل ماحَرَّمَ اللهُ عليه، من قوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً﴾ إلى قوله: «ومَنْ يفعلْ ذلك»، من نكاحِ المحرماتِ، وعَضْلِ المُحَرَّمِ عَضْلُها من النساءِ، وأكلِ المالِ بالباطلِ، وقَتْلِ المُحَرَّمِ قَتْلُه من المؤمنينَ لأنَّ كُلَّ ذلك مما وَعَدَ اللهُ عليه أهلَه العقوبةَ.

وأما قوله: «عُدْواناً»، فإنه يعني به تجاوزاً لما أباحَ اللهُ له، إلى ماحَرَّمَهُ عليه. «وظُلماً»، يعني: فِعْلاً منه ذلكَ بغيرِ ما أذِنَ اللهُ به، ورُكُوباً منه ماقد نَهاهُ اللهُ عنه. وقوله: «فسوفَ نُصليه نَاراً»، يقول: فسوف نُورِدُهُ ناراً يَصْلَى بها فيحترق فيها. «وكان ذلك على الله يسيراً»، يعني: وكان إصلاءُ فاعلِ ذلك النارَ وإحراقهُ بها، على الله سَهْلاً يسيراً، لأنه لا يقدرُ على الامتناعِ على رَبِّه مما أرادَ به من سوء. وإنما يصعبُ الوفاءُ بالوعيدِ لمن تَوَعَّدَهُ، على مَنْ كان إذا حاول الوفاءَ به قَدَر المُتوَعَّدُ من الامتناعِ منه. فأما مَنْ كان في قبضةِ مُوعِدِهِ، فيسيرٌ عليه إمضاءُ حُكْمِه فيه، والوفاءُ له بوعيدِهِ، غيرُ عسيرٍ عليه أمرٌ أرادَهُ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ۝٣١﴾

اختلف أهلُ التأويل في معنى «الكبائر» التي وَعَدَ اللهُ جَلَّ ثناؤه عبادَهُ باجتنابها تكفيرَ سائرِ سيآتهم عنهم.

وأَوْلى ماقيلَ في تأويل «الكبائر» بالصحة، ماصَحَّ به الخبرُ، عن رسولِ الله ﷺ، دونَ ما قالَهُ غيرُه، وإنْ كانَ كل قائلٍ فيها قولاً، قد اجتهدَ وبالغَ في نفسه، ولقوله في الصحة مذهبٌ. فالكبائر إذن: الشركُ بالله، وعقوقُ الوالدين، وقَتْلُ النفس المحرّم قتلُها، وقولُ الزور[1] وقد يدخلُ في «قول الزور»، شهادةُ الزور، وقذفُ المحصنة، واليمينُ الغموسُ، والسِّحْرُ، ويدخل في قتل النفسِ المُحَرَّمِ قتلها، قتلُ الرجلِ ولدَهُ من أجل أنْ يَطْعَمَ معه والفرارُ من الزحف، والزنا بحليلةِ الجار.

وإذْ كان ذلك كذلك، صحَّ كل خبر رُوي عن رسولِ الله ﷺ في معنى الكبائر، وكان بعضه مصدِّقاً بعضاً. وذلك أن الذي روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «هي سبع»[2] يكون معنى قوله حينئذٍ: «هي سبع» على التفصيلِ، ويكون معنى قوله في الخبر الذي روي عنه أنه قال: «هي الإشراكُ بالله، وقتلُ النفس، وعقوقُ الوالدين، وقولُ الزور» على الإجمالِ، إذْ كان قوله: «وقول الزور» يحتمل معاني شتى، وأنْ يجمعَ جميعَ ذلك «قول الزور».

فمن اجتنبَ الكبائرَ التي وعد الله مُجْتَنِبَها تكفيرَ ماعَدَاها من سيئاتِه، وإدخاله مُدخلاً كريماً، وأدّى فرائضه التي فَرَضَها اللهُ عليه، وَجَدَ الله لِمَا وَعَدَهُ من وَعْدٍ مُنْجَزاً، وعلى الوفاءِ له ثابتاً.

وأما قوله: «نُكَفِّرْ عنكم سيئاتِكم»، فإنه يعني به: نُكَفِّرْ عنكم، أيها

---

(١) حديث أنس بن مالك المرفوع، وهو في الصحيحين: البخاري (٢٦٥٣) و(٥٩٧٧) و(٦٨٧١)، ومسلم (٨٨)، وغيرهما.

(٢) إشارة إلى حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري المرفوع الذي أخرجه المؤلف (٩١٨٥)، والنسائي ٥/٨، وابن خزيمة (٣١٥)، وابن حبان (١٧٤٨)، وإسناده صحيح.

المؤمنـونَ، باجتنـابِكم كبائرَ ما يَنهاكُم عنه رَبُّكم، صغائرَ سيئاتِكم. يعني: صغائرَ ذُنوبِكُم.

وأمـا «المدخلُ الكريم»، فهو: الطيب الحسن، المُكَرَّمُ بنفي الآفاتِ والعاهاتِ عنه، وبارتفاعِ الهمومِ والأحزانِ ودخولِ الكدرِ في عيش مَنْ دَخله، فلذلك سماه الله كريماً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: ولا تَتَشَهَّوا ما فَضَّلَ اللهُ به بعضَكم على بعضٍ.

وذُكِرَ أنَّ ذلك نزلَ في نساءٍ تَمَنَّيْنَ منازلَ الرجالِ، وأن يكونَ لهم ما لهم، فنَهَى اللهُ عبادَهُ عن الأماني الباطلةِ، وأمرهم أنْ يسألُوه مِنْ فَضْلِهِ، إذْ كانت الأمانيّ تُورِثُ أهلِها الحَسَدَ والبغيَ بغيرِ الحَقِّ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: لا يَتَمَنَّ بعضُكم ماخصَّ الله بعضاً من منازلِ الفضل.

فتأويلُ الكلام على هذا التأويل: ولا تتمنوا، أيها الرجالُ والنساء، الذي فَضَّلَ اللهُ به بعضَكم على بعضٍ من منازلِ الفضلِ ودرجاتِ الخير، وليرضَ أحدكم بما قَسَمَ اللهُ له من نصيبٍ، ولكن سَلُوا اللهَ من فَضْلِهِ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾

معناه: للرجالِ نصيبٌ من ثوابِ الله وعقابِهِ مما اكتسبُوا فَعَمِلُوهُ من خيرٍ

أو شرٍّ، وللنساءِ نصيبٌ مما اكتسبنَ من ذلك كما للرجال.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: واسألوا اللهَ مِنْ عونِهِ وتوفيقِهِ للعملِ بما يرضيه عنكم من طاعتِهِ. فَفَضْلُه في هذا الموضع: تَوفيقُه ومعونتُهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ۝٣٢﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: إنَّ اللهَ كان بما يصلحُ عباده ـ فيما قَسَمَ لهم من خيرٍ، ورفَعَ بعضَهم فوق بعضٍ في الدين والدنيا، وبغيرِ ذلك من قضائهِ وأحكامهِ فيهم. «عليماً»، يقول: ذا عِلْمٍ. فلا تتمنوا غيرَ الذي قضى لكم، ولكنْ عليكُم بطاعتِهِ، والتسليم لأمره، والرِّضَى بقضائهِ، ومسألته من فَضْلِهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «ولكلٍّ جعلنا مواليَ»، ولِكُلِّكُم، أيها الناسُ. «جعلنا مواليَ»، يقول: ورثةً من بني عَمِّهِ وإخوتهِ وسائرِ عصبته غيرهم.

والعربُ تسمي ابنَ العم «المولى».

ويعني بقوله: «مما ترك الوالدان والأقربون»، مما تَرَكَهُ والداه وأقرباؤه من الميراثِ.

فتأويلُ الكلام: ولِكُلِّكُم، أيها الناسُ، جعلنا عَصَبة يرثون به مما ترك والداه وأقرباؤه من ميراثهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾

(يعني): والذين عقدت أيمانُكُم على المحالفةِ، وهم الحلفاءُ. وذلكَ أنه معلومٌ عند جميعِ أهلِ العلمِ بأيامِ العربِ وأخبارِها، أنَّ عقدَ الحلفِ بينها كان يكونُ بالأيمانِ والعُهودِ والمواثيق.

وأما قوله: «فآتوهم نصيبهم»، فإنَّ أوْلى التأويل به، ما عليه الجميعُ مُجْمِعُونَ من حُكْمِه الثابت، وذلك إيتاءُ أهلِ الحلف الذي كان في الجاهلية دونَ الإسلامِ، بعضِهم بعضاً أنصباءَهم من النُّصْرَةِ والنصيحةِ والرأي، دونَ الميراث. وذلك لِصِحَّةِ الخبرِ عن رسولِ الله ﷺ أنه قال: «لا حِلْفَ في الإسلامِ، وما كانَ من حِلْفٍ في الجاهلية، فلم يَزِدْهُ الإسلامُ إلّا شدّة»[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ۝٣٣﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: فآتوا الذين عَقَدَتْ أيمانُكم نَصِيبَهُم من النُّصْرَةِ والنصيحةِ والرأي، فإنَّ الله شاهدٌ على ما تفعلونَ من ذلك، وعلى غيرِهِ من أفعالكم، مُرَاعٍ لِكُلِّ ذلكَ، حافظٌ، حتى يُجازي جميعَكم على جميعِ ذلك

---

(١) ساقه الطبري من طرق عديدة، وهو عند مسلم (٢٥٣٠) وغيره من حديث جبير بن مطعم.

جزاءه، أما المُحْسِن منكم المتبع أمري وطاعتي فبالحُسْنَى، وأما المسيء منكم المخالف أمري ونهيي فبالسُّوأَى.

ومعنى قوله: «شَهيداً»، ذُو شهادةٍ على ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «الرجال قَوَّامُونَ على النساء»، الرجالُ أهلُ قيامٍ على نسائهم، في تأديبِهنَّ والأخذِ على أيديهن فيما يجبُ عليهن لله ولأنفسهم. «بما فَضَّلَ اللهُ بعضَهم على بعض»، يعني: بما فَضَّلَ اللهُ به الرجالَ على أزواجهم: من سَوْقِهم إليهنَّ مُهُورَهُنَّ، وإنفاقهم عليهنَّ أموالهم، وكفايتهم إياهن مُؤَنهنَّ. وذلك تفضيل الله تبارك وتعالى إياهم عليهنَّ، ولذلك صارُوا قُوَّاماً عليهن، نافذي الأمر عليهن فيما جعلَ اللهُ إليهم من أمورهن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «فالصالحاتُ»، المستقيماتُ الدينِ، العاملاتُ بالخيرِ.

وقوله: «قانتات»، يعني: مطيعاتٌ لله ولأزواجِهنَّ.

وأما قوله: «حافظاتٌ للغيب»، فإنه يعني: حافظاتٌ لأنفسهنَّ عند غيبةِ أزواجهن عنهن، في فُرُوجِهِنَّ وأموالهم، وللواجبِ عليهن مِنْ حَقِّ اللهِ في ذلك وغيره.

وأما قوله: «بما حفظ الله»، (فإنه يعني): بحفظِ الله إياهن إذ صَيَّرهنَّ كذلك.

وفي الكلام متروكٌ استُغْنِيَ بدلالةِ الظاهرِ من الكلامِ عليه من ذِكْرِه، ومعناه: فالصالحاتُ قانتاتٌ حافظاتٌ للغيبِ بما حَفِظَ اللهُ، فأَحْسِنُوا إليهن وأَصْلِحُوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ

قوله: «نشوزهن»، فإنه يعني: استعلاءَهن على أزواجِهِنَّ، وارتفاعَهُنَّ عن فُرُشِهم بالمعصيةِ منهن، والخلاف عليهم فيما لَزِمَهُنَّ طاعتهم فيه، بغضاً منهن وإعراضاً عنهم.

وأصلُ «النشوز» الارتفاعُ. ومنه قِيلَ للمكانِ المرتفعِ من الأرضِ: «نَشْز» و«نَشَاز».

«فَعِظُوْهُنَّ»، يقول: ذَكِّرُوهُنَّ الله، وخَوِّفُوهُنَّ وَعِيْدَهُ، في ركوبها ماحرَّمَ اللهُ عليها من معصيةِ زوجها فيما أوجبَ عليها طاعتَهُ فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ

واللاتي تخافون نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ في نشوزهن عليكم. فإن اتَّعَظْنَ فلا سبيلَ لكم عليهنَّ، وإنْ أَبَيْنَ الأَوْبَـةَ من نشـوزهن فاستوثِقُوا منهنّ رباطاً في مضاجعهن. يعني: في منازلهن وبُيوتهن التي يَضطجِعْنَ فيها ويُضاجعن فيها أزواجهنَّ[1].

---

(١) هذا التفسير الذي أورده الطبري تفسير شاذ لم يُعرف عن أحدٍ ممن سبقه، وإن أطال القـولَ في إثبـاته. وقد رَدَّهُ العلماء وعَدُّوه من هفواته. انظر «أحكام القرآن» لابن العربي ١/١٧٥.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: فَعِظُوهُنَّ، أيها الرجالُ، في نشوزهن، فإنْ أبينَ الإيابَ إلى ما يلزمهن لكم، فَشُدُّوهُنَّ وثاقاً في منازلهن، واضْربُوهُنَّ لِيُؤبْنَ إلى الواجبِ عليهنَّ من طاعةِ الله في اللازمِ لَهُنَّ من حقوقكم.

وقال أهل التأويل: صِفَةُ الضربِ التي أباحَ اللهُ لزوجِ الناشز أنْ يضربها: الضربُ غيرُ المبرِّح.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: فإنْ أَطَعْنَكُم، أيها الناسُ، نساؤكم اللاتي تخافونَ نُشوزهن عند وَعْظِكم إياهُنَّ، فلا تهجروهن في المضاجع. فإنْ لم يُطِعْنَكُمْ، فاهجروهنَّ في المضاجعِ واضربوهن. فإنْ راجعنَ طاعتكم عند ذلك وفِئْنَ إلى الواجبِ عليهن، فلا تطلبوا طريقاً إلى أذَاهُنَّ ومكروهِهِنَّ، ولا تلتمسُوا سبيلاً إلى مالا يَحِلُّ لكم من أبدانهنَّ وأموالهنَّ بالعللِ. وذلك أنْ يقولَ أحَدُكم لإحداهن وهي له مطيعةٌ: «إنكِ لستِ تحبِّيني، وأنتِ لي مُبْغِضَةٌ»، فيضربها على ذلك أو يُؤذيها. فقال الله تعالى للرجال: «فإنْ أطعنَكُم» أي: على بُغْضِهِنَّ لكم فلا تَجَنَّوْا عليهن، ولا تُكَلِّفُوهُنَّ مَحَبَّتَكُم، فإنَّ ذلكَ ليس بأيديهن، فتضربوهن أو تُؤْذُوهُنَّ عليه.

ومعنى قوله: «فلا تبغوا»، لا تلتمسوا ولا تطلبوا، من قولِ القائلِ: «بغَيتُ الضالةَ»، إذا التمستُها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ۝٣٤﴾

إنَّ الله ذُو عُلُوٍّ على كل شيءٍ، فلا تبغوا، أيها الناسُ، على أزواجكم إذا أطَعْنَكُم فيما ألزمَهُنَّ الله لكم من حقٍّ سبيلاً، لِعُلُوِّ أيديكم على أيديهن، فإنَّ اللهَ أعلى منكم ومِنْ كُلِّ شيءٍ عليكم، منكم عليهن، وأكبر منكم ومن كُلِّ شيءٍ، وأنتم في يدهِ وقبضتهِ، فاتقوا الله أنْ تَظْلِمُوهُنَّ وتَبْغُوا عليهن سبيلاً. وهُنَّ لكم مطيعاتٌ، فينتصرَ لَهُنَّ منكم ربُّكم الذي هو أعلى منكم ومن كل شيءٍ، وأكبر منكم ومن كل شيء.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾

يعني بقـولـه جَلَّ ثنـاؤه: «وإنْ خفتم شِقـاقَ بينهما»، وإنْ علمتم أيها الناسُ. «شقاقَ بينهما»، وذلك مشاقةُ كُلِّ واحدٍ منهما صاحبَهُ، وهو إتيانه مايشقُّ عليه من الأمورِ. فأما من المرأة، فالنشوزُ وتركُها أداءَ حَقِّ الله عليها الذي أَلْزَمَهَا اللهُ لزوجِهَا. وأما من الزوج، فتركُه إمساكها بالمعروفِ أو تسريحها بإحسان.

وأما قوله: «فابعثوا حَكَماً من أهلِهِ وحكماً من أهلها»، فإنَّ أهلَ التأويلِ اختلفوا في المخاطَبينَ بهذه الآية: مَنِ المأمورُ ببعثة الحَكَمين؟

فقال بعضهم: المأمورُ بذلك، السلطانُ الذي يُرْفَعُ ذلك إليه.

وقال آخرون: بل المأمور بذلك: الرجلُ والمرأة.

ثم اختلف أهـلُ التـأويل فيمـا يُبعث له الحكمـان، ومـا الذي يجوزُ للحكَمين من الحكم بينهما، وكيف وَجْهُ بَعْثِهما بينهما؟

فقال بعضهم: يبعثهما الزوجان بتوكيلٍ منهما إياهما بالنظر بينهما. وليس لهما أنْ يعملا شيئاً في أمرهما إلا ما وكَّلاهُمَا به، أو وَكَّلَهُ كُلّ واحدٍ منهما بما إليه، فيعملان بما وَكَّلَهما به مَنْ وَكَّلَهُما من الرجلِ والمرأةِ فيما يجوزُ توكيلهما فيه، أو توكيل من وُكل منهما في ذلك.

وقال آخرون: إنَّ الذي يبعثُ الحَكَمين هو السلطانُ، غير أنه إنما يبعثهما ليعرفا الظالمَ من المظلومِ منهما، ليحملهما على الواجبِ لكلِّ واحدٍ منهما قِبَلَ صاحبهِ، لا التفريقَ بينهما.

وقال آخرون: بَلْ إنما يبعثُ الحكمينِ السلطانُ، على أنَّ حُكْمهما ماضٍ على الزوجين في الجمعِ والتفريقِ.

وأَوْلى الأقوالِ بالصواب في قوله: «فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها»، أنَّ الله خاطبَ المسلمينَ بذلك، وأمرهم ببعثةِ الحَكَمين عند خوفِ الشِّقاقِ بين الزوجين للنظرِ في أمرهما، ولم يخصصْ بالأمرِ بذلك بعضَهم دونَ بعضٍ.

وقد أجمع الجميعُ على أنَّ بعثةَ الحكمين في ذلك ليست لغير الزوجين، وغير السلطان الذي هو سائسُ أمرِ المسلمين، أو مَنْ أقامَهُ في ذلك مقامَ نفسه.

واختلفوا في الزوجين والسلطان، ومَنِ المأمورُ بالبعثةِ في ذلك: الزوجان، أو السلطان؟ ولا دلالةَ في الآية تدلُّ على أنَّ الأمرَ بذلك مخصوصُ به أحدُ الزوجين، ولا أثرَ به عن رسولِ الله ﷺ، والأمةُ فيه مختلفةٌ.

وإذْ كان الأمرُ على ما وصَفْنَا، فأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصواب: أنْ يكون مخصوصاً من الآية ما أجمعَ الجميعُ على أنه مخصوصٌ منها. وإذْ كان ذلك كذلك، فالواجبُ أنْ يكون الزوجانِ والسلطانُ مِمَّنْ قد شَملهُ حُكْم الآية، والأمرُ بقوله: «فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها»، إذْ كان مختلفاً بينهما:

هل هما مَعْنِيَّانِ بالأمرِ بذلك أم لا؟ وكان ظاهر الآية قد عَمَّهما، فالواجبُ من القولِ، إذْ كان صحيحاً ما وصفنا، صحيحاً أنْ يقال: إنْ بعثَ الزوجان كل واحدٍ منهما حَكَماً من قِبَلِهِ لينظر في أمرهما، وكان كُلُّ واحدٍ منهما قد بعثه من قِبلِهِ في ذلك، لما لَهُ على صاحبِهِ ولصاحبِهِ عليه، فتوكيلُه بذلك مَنْ وكَّلَ جائزٌ له وعليه.

وإنْ وكَّله ببعضٍ ولم يوكله بالجميع، كان مافعله الحَكَمُ مما وَكَّلَهُ به صاحبهُ ماضياً جائزاً على ما وَكَّلَهُ به. وذلك أن يوكله أحدهما بما له دون ما عليه.

وإنْ لم يوكل كُلُّ واحدٍ من الزوجين بماله وعليه. أو بما له، أو بما عليه إلا الحكمين كليهما، لم يَجُزْ إلَّا ما اجتمعا عليه، دونَ ما انفردَ به أحَدُهُمَا.

وإنْ لم يوكلهما واحدٌ منهما بشيء، وإنما بعثاهما للنظرِ بينهما، ليعرفا الظالمَ من المظلومِ منهما، ليشهدا عليهما عند السلطانِ إن احتاجا إلى شهادَتِهما لم يكنْ لهما أنْ يُحْدِثَا بينهما شيئاً غير ذلك من طلاقٍ، أو أخذِ مالٍ، أو غير ذلك، ولم يلزم الزوجين ولا واحداً منهما شيء من ذلك.

فإنْ قال قائل: وما معنى الحكمين، إذْ كان الأمرُ على ما وصفتَ؟

قيل: قد اختلف في ذلك.

فقال بعضهم: معنى «الحكم»، النظرُ العدلُ.

وقال آخرون: معنى ذلك: أنهما القاضيان، يقضيان بينهما ما فَوَّضَ إليهما الزوجان.

وأي الأمرين كانَ، فليس لهما، ولا لواحدٍ منهما، الحكم بينهما بالفرقةِ،

ولا بأخذِ مالٍ إلا برضى المحكوم عليه بذلك، وإلا ما لزم من حَقٍّ لأحدِ الزوجين على الآخر في حكم الله، وذلك ما لزم الرجلَ لزوجتهِ من النفقةِ والإمساكِ بمعروف، إنْ كان هو الظالمَ لها.

فأما غير ذلك، فليس ذلك لهما، ولا لأحدٍ من الناسِ غيرهما، لا السلطان ولا غيره. وذلكَ أنَّ الزوجَ إنْ كان هو الظالمَ للمرأةِ، فللإمام السبيلُ إلى أخذه بما يجبُ لها عليه من حَقٍّ. وإنْ كانت المرأةُ هي الظالمةَ زوجَها الناشزةَ عليه، فقد أباح اللهُ له أخذَ الفديةِ منها، وجعلَ إليه طلاقَها، على ما قَدْ بَيَّناهُ في «سورة البقرة».

وإذْ كان الأمرُ كذلك، لم يكن لأحدٍ الفرقةُ بين رجلٍ وامرأةٍ بغير رضى الزوجِ، ولا أخذُ مالٍ من المرأةِ بغير رِضَاها بإعطائهِ، إلا بحجةٍ يجبُ التسليمُ لها من أصلٍ أو قياس.

وإنْ بعثَ الحكمين السلطانُ، فلا يجوزُ لهما أن يحكما بين الزوجين بفرقةٍ إلا بتوكيلِ الزوجِ إيَّاهُمَا بذلك، ولا لهما أنْ يحكما بأخذِ مالٍ من المرأةِ إلا برضى المرأةِ. ولكن لهما أنْ يُصْلِحَا بين الزوجين، ويتعرفا الظالمَ منهما من المظلومِ، ليشهدَا عليه إن احتاج المظلومُ منهما إلى شهادتهما.

وإنما قلنا: «ليس لهما التفريق»، للعلة التي ذكرناها آنفاً، وإنما يبعثُ السلطانُ الحكمين إذا بَعَثَهُمَا، إذا ارتفعَ إليه الزوجان، فَشَكَا كُلُّ واحدٍ منهما صاحِبَهُ، وأشكلَ عليه المُحِقُّ منهما من المُبْطِلِ. لأنه إذا لم يشكل المحق من المبطل، فلا وجهَ لبعثهِ الحكمين في أمرٍ قد عرف الحكم فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «إن يريدا إصلاحاً»، إنْ يُرِدِ الحَكَمانِ إصلاحاً بين

الرجل والمرأة أعني: بين الزوجين المخوف شقاقُ بينهما يقول: «يوفق الله» بينَ الحكمين فيَتَّفِقَا على الإصلاحِ بينهما. وذلك إذا صَدَقَ كُلُّ واحدٍ منهما فيما أفضى إليه: مَنْ بُعِثَ للنظر في أمر الزوجين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾

يعني جل ثناؤه: «إنَّ الله كان عليماً»، بما أرادَ الحكمان من إصلاحٍ بين الزوجينِ وغيره. «خبيراً»، بذلك وبغيره من أمورهما وأمور غيرهما، لا يَخْفَى عليه شيءٌ منه، حافظ عليهم، حتى يجازي كلًّا منهم جزاءه، بالإحسانِ إحساناً، وبالإساءةِ غفراناً أو عقاباً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ: وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ

يعني بذلك جل ثناؤه: وذِلُّوا للهِ بالطاعةِ، واخْضَعُوا له بها، وأفردوهُ بالربوبيةِ، وأخْلِصُوا له الخضوع والذلة، بالانتهاءِ إلى أمرِه، والانزجارِ عن نهيه، ولا تجعلوا له في الربوبيةِ والعبادةِ شريكاً تُعَظِّمُونَهُ تعظيمَكُم إياه.

«وبالوالدين إحساناً»، يقول: وأَمَرَكُم بالوالدين إحساناً ـ يعني بِرًّا بهما ـ ولذلك نصب «الإحسان»، لأنه أمْرٌ منه جَلَّ ثناؤهُ بلزومِ الإحسانِ إلى الوالدين، على وجهِ الإغراء.

وقد قال بعضهم: معناه: «واستوصوا بالوالدين إحساناً»، وهو قريب المعنى مما قلناه.

وأما قوله: «وبذي القربى»، فإنه يعني: وأمرَ أيضاً بذي القربى ـ وهم

ذَوُو قرابةِ أحدنا من قِبَلِ أبيهِ أو أمهِ، ممن قربت منه قرابته برحمهِ من أحدِ الطرفين ـ إحساناً بصلةِ رَحِمهِ.

وأما قوله: «واليتامى»، فإنهم جمعُ «يتيم»، وهو الطفلُ الذي قد ماتَ والدهُ وهلك.

«والمساكين» وهو جَمْعُ «مسكين»، وهو الذي قد رَكِبَهُ ذلُّ الفاقةِ والحاجةِ، فتمسكن لذلك.

يقول تعالى ذكره: استوصوا بهؤلاء إحساناً إليهم، وتَعَطَّفُوا عليهم، والْزَمُوا وصيتي في الإحسانِ إليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ

معنى ذلك: والجارِ ذي القرابةِ والرحمِ منكَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ

معنى الجُنُب، في هذا الموضع: الغريبُ البعيد، مسلماً كان أو مشركاً، يهوديًا كان أو نصرانياً، لما بَيَّنا قَبْلُ مِنْ أنَّ «الجار ذا القربى»، هو الجار ذو القرابة والرحم. والواجب أنْ يكونَ «الجار ذو الجنابة»، الجار البعيد، ليكون ذلك وصيةً بجميعِ أصنافِ الجيران قَرِيبهم وبعيدهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ

اختلف أهل التأويل في المَعْنِيِّ بذلك.

فقال بعضهم: هو رفيقُ الرجلِ في سَفرِهِ.

وقال آخرون: بل هو امرأةُ الرجلِ التي تكونُ معه إلى جنبه.

وقال آخرون: هو الذي يَلْزَمُكَ ويَصْحَبُكَ رَجاء نَفْعِكَ.

والصواب من القول في تأويل ذلك عندي: أنَّ معنى «الصاحب بالجنب»، الصاحب إلى الجنب، كما يقال: «فلان بجَنب فلان، وإلى جنبه»، وهو من قولهم: «جَنَب فلانٌ فلاناً فهو يجنُبُه جَنْباً»، إذا كان لجنبه. ومن ذلك: «جَنَب الخيل»، إذا قاد بعضها إلى جنب بعض. وقد يدخلُ في هذا: الرفيقُ في السفر، والمرأةُ، والمنقطعُ إلى الرجل الذي يلازمه رجاءَ نفعه، لأن كلهم بجنب الذي هو معه وقريبٌ منه. وقد أوصى اللهُ تعالى بجميعهِم، لوجوبِ حَقِّ الصاحبِ على المصحوب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾

إن «ابن السبيل»، هو صاحب الطريق ـ و«السبيل»: هو الطريق، وابنه: صاحبه الضاربُ فيه ـ فله الحَقُّ على مَنْ مَرَّ به محتاجاً منقطعَاً به، إذا كانَ سفرهُ في غيرِ معصيةِ الله، أنْ يُعِينَهُ إن احتاجَ إلى معونةٍ، ويضيفه إن احتاج إلى ضيافةٍ، وأنْ يحملَهُ إن احتاجَ إلى حُمْلان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: والذين ملكتموهم من أرِقَّائِكُم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ٣٦﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «إنَّ الله لا يحبُّ من كان مختالًا»، إنَّ الله لا يُحِبُّ مَنْ كان ذَا خُيَلاء.

وأما «الفخور»، فهو المفتخرُ على عبادِ الله بما أنْعَمَ اللهُ عليه من آلائِهِ، وبَسَطَ له من فضله، ولا يحمده على ما آتاه من طَوْلِهِ، ولكنه به مختالٌ مستكبرٌ، وعلى غيرِهِ به مُسْتطيلٌ مفتخر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾

إنَّ الله وصفَ هؤلاء القوم الذين وصف صِفَتهم في هذه الآية، بالبُخْلِ بتعريفِ مَنْ جَهِلَ أمرَ محمدٍ ﷺ أنه حقٌّ، وأنَّ محمداً لله نبيٌّ مبعوثٌ، وغير ذلك من الحق الذي كان الله تعالى ذِكْرُه قد بَيَّنه فيما أوحى إلى أنبيائهِ من كتبه. فبخلَ بتبيينهِ للناسِ هؤلاء، وأمروا مَنْ كانت حَاله حالَهم في معرفتهم به: أنْ يكتموه مَنْ جَهِل ذلك، ولا يُبَيِّنُوهُ للناسِ، لأنَّ الله جَلَّ ثناؤهُ وصفهم بأنهم يأمـرونَ الناسَ بالبخلِ، ولم يَبْلُغْنَا عن أمةٍ من الأممِ أنها كانت تأمرُ الناسَ بالبخل ديانةً ولا تخلُّقاً، بل ترى ذلك قبيحاً وتذمّ فاعله؛ وتَمتدح ـ وإن هي تخلَّقَت بالبخل واستعملته في أنفسها ـ بالسخاء والجود، وتعدُّه من مكارمِ الأفعال وتحثُّ عليه. ولذلك قلنا: إنَّ بُخْلَهم الذي وصفهم اللهُ به، إنما كان بُخْلًا بالعلم الذي كان الله آتاهُموه فَبَخلُوا بتبيينهِ للناسِ وكتموه، دونَ البُخْلِ بالأموالِ إلَّا أنْ يكون معنى ذلك: الذين يبخلون بأموالهم التي ينفقونها في حقوق الله وسُبُله، ويأمرونَ الناسَ من أهلِ الإسلامِ بتركِ النفقة في ذلك. فيكون بخلهم بأموالهم، وأمرهم الناسَ بالبخلِ، بهذا المعنى فيكون لذلك وجهٌ مفهومٌ في وصفهم بالبخل وأمرِهم به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ۝٣٧﴾

يعني: بذلك جَلَّ ثناؤه: «وأعتدنا»، وجعلنا للجاحدينَ نعمةَ الله التي أنعم بها عليهم، من المعرفةِ بنبوةِ محمدٍ ﷺ، المُكَذِّبينَ به بعد عِلْمِهم به، الكاتمينَ نَعْتَهُ وصِفَتَهُ مَنْ أمرَهم الله ببيانه له من الناس. «عذاباً مهيناً»، يعني: العقابَ المُذِلَّ مَن عُذِّب بخلوده فيه، عَتاداً له في آخرته، إذا قَدِم على رَبِّه وَجدَه، بما سَلَفَ منه من جحودهِ فرضَ الله الذي فرضَهُ عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: وأعتدنا للكافرين بالله من اليهود الذين وَصَفَ الله صِفَتهم، عذاباً مهيناً. «والذين ينفقون أموالهم رئاءَ الناس.»

وقوله: «رئاء الناس»، يعني: يُنْفِقُه مُراءاةَ الناسِ، في غيرِ طاعةِ اللهِ أو غير سبيله، ولكنْ في سبيلِ الشيطان. «ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر»، يقول: ولا يُصَدِّقُونَ بوحدانيةِ الله، ولا بالمَعَادِ إليه يوم القيامة ـ الذي فيه جزاءُ الأعمال ـ أنه كائن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ۝٣٨﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: ومَنْ يَكُنِ الشيطانُ له خليلاً وصاحباً، يعملُ

بطاعته، ويتبعُ أمْرَهُ، ويتركُ أمْرَ الله في إنفاقهِ مالَهُ رئاءَ الناسِ في غير طاعته، وجحوده وحدانيةَ الله والبعثَ بعد الممات. «فساء قريناً»، يقول: فساء الشيطان قريناً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: وأيّ شيءٍ على هؤلاء الذين ينفقون أموالَهم رِئاءَ الناس ولا يؤمنونَ باللهِ ولا باليوم الآخر. «لو آمنوا بالله واليوم الآخر»، لو صَدَّقُوا بأنَّ الله واحدٌ لا شريكَ له، وأخلصوا له التوحيدَ، وأيقنوا بالبعثِ بعد المماتِ، وصَدَّقُوا بأنَّ الله مُجازِيهم بأعمالهم يوم القيامة وأنفقوا مما رزقهم الله»، يقول: وأدّوا زكاةَ أموالهم التي رَزَقهم الله وأعْطَاهُموهَا، طيبةً بها أنْفُسُهم، ولم ينفقوها رِئاءَ الناس، التماسَ الذِّكْرِ والفخرِ عند أهلِ الكفرِ بالله، والمَحْمَدَةِ بالباطلِ عند الناس. «وكان الله»، بهؤلاء الذين وصَف صِفَتَهُم أنهم ينفقونَ أموالَهم رئاءَ الناس نفاقاً، وهم بالله واليوم الآخر مُكَذِّبُونَ. «عليماً»، يقول: ذا عِلْمٍ بهم وبأعمالهم، وما يقصدونَ ويُريدونَ بإنفاقِهم ماينفقونَ من أموالهم، وأنهم يريدون بذلك الرِّياءَ والسُّمعةَ والمحمدةَ في الناس، وهو حافظٌ عليهم أعمالَهم، لا يَخْفَى عليه شيءٌ منها، حتى يجازيهم بها جزاءهم عند مَعادهم إليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: «وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما

رزقهم الله»، فَإنَّ الله لا يبخسُ أحداً من خَلْقِه أنفقَ في سبيلِهِ مما رزقه، من ثوابِ نفقتهِ في الدنيا، ولا مِنْ أجْرِها يوم القيامة. «مثقالَ ذرّة»، أي: مايزنها ويكون على قدر ثِقَلها في الوزن ولكنه يجازيه به ويُثيبه عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: إنَّ اللهَ لا يظلمُ عباده مثقالَ ذرّةٍ، فكيف بهم. «إذا جئنا من كل أمةٍ بشهيد»، يعني: بمن يشهد عليها بأعمالها، وتصديقها رُسُلَها أو تكذيبها. «وجئنا بك على هؤلاء شهيداً»، يقول: وجِئْنَا بكَ، يامحمد، «على هؤلاء»، أي: على أمتك «شهيداً»، يقول شاهداً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: يوم نجيءُ من كُلِّ أمةٍ بشهيد، ونجيءُ بكَ على أمتك يامحمد شهيداً. «يَوَدُّ الذين كفروا»، يقول: يتمنى الذين جَحَدُوا وحدانيةَ الله وعصوا رسوله، «لو تُسَوَّى بهم الأرض».

وأما قوله: «ولا يكتمون الله حديثاً»، فإنَّ أهلَ التأويل تأوّلوه بمعنى: ولا تكتم اللهَ جَوارحُهم حديثاً، وإنْ جَحَدتْ ذلك أفواهُهم.

فتأويلُ الآية: يومئـذٍ يَوَدُّ الذين كفروا وعصوا الرسول، لو تُسَوَّى بهم الأرضُ ولم يكتموا الله حديثاً ـ كأنهم تمنوا أنهم سُوُّوا مع الأرضِ، وأنهم لم يكونوا كَتَمُوا الله حديثاً.

وقال آخرون: معنى ذلك: يومئذ لا يكتمونَ الله حديثاً ويودُّونَ لو تُسَوَّى بهم الأرض. وليسَ بمنكتمٍ عن اللهِ شيءٌ من حديثهم، لعلمه جَلَّ ذِكْرُه بجميع حديثهم وأمرهم، فإنْ هُمْ كتموه بألسنتهم فجحدوه، لا يخفى عليه شيءٌ منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «يا أيها الذين آمنوا»، صَدَّقُوا الله ورسولَهُ. «لا تقربوا الصلاة»، لا تُصَلُّوا. «وأنتم سكارى»، وهو جَمْعُ «سكران» «حتى تَعْلَمُوا ماتقولون»، في صلاتكم فتُمَيِّزُونَ فيها ما أمَرَكُمُ اللهُ به أو نَدَبَكُم إلى قِبْلِهِ فيها، مما نَهَاكُم عنه وزَجَركم.

ثم اختلف أهلُ التأويل في «السكر» الذي عناه الله بقوله: «لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى».

فقال بعضهم: عَنَى بذلك السُّكْرَ من الشراب.

وقال آخرون: معنى ذلك: لا تقربوا الصلاة وأنتم سُكارى من النوم.

وأَوْلى القولين في ذلك بتأويل الآية، تأويل مَنْ قال: ذلك نهيٌ من الله المؤمنين عن أنْ يَقْرَبُوا الصلاةَ وهم سكارى من الشرابِ قبل تحريمِ الخمر.

فإنْ قالَ لنا قائلٌ: وكيف يكون ذلك معناه، والسكرانُ في حالِ زوال عقله، نظيرُ المجنون في حالِ زوالِ عقلِهِ، وأنتَ مِمَّنْ يُحيلُ تكليفَ المجانين لِفَقْدِهم الفهمَ لما يُؤمر وينهى؟

قيل له: إنَّ السكرانَ لو كان في معنى المجنون، لكان غير جائزٍ أمرهُ ونهيه. ولكنَّ السكرانَ هو الذي يفهمُ ما يأتي ويذَر، غير أنَّ الشرابَ قد أثقلَ لسانَهُ وأجزاءَ جسمه وأخْدَرها، حتى عجزَ عن إقامةِ قراءتهِ في صلاته، وحدودها

الواجبة عليه فيها، من غيرِ زوالِ عقله، فهو بما أمر به ونهي عنه عارفٌ فَهِمٌ، وعن أداء بعضِه عاجزٌ بخدَرِ جسمهِ من الشرابِ. وأما مَنْ صار إلى حدٍّ لا يعقلُ ما يأتي ويَذَر، فذلك منتقلٌ من السكرِ إلى الخَبلِ ومعاني المجانين، وليس ذلك الذي خُوطِبَ بقوله: «لاتقربوا الصلاة»، لأنَّ ذلك مجنونٌ، وإنما خُوطِبَ به السكرانُ، والسكرانُ ماوصفنا صفته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَاجُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ۚ

(يعني): يا أيهـا الذين آمنوا، لا تَقْرَبُوا المساجدَ للصلاة مُصَلِّينَ فيها وأنتم سكارى حتى تَعْلَمُوا ما تقولونَ، ولا تقربوها أيضاً جُنُباً حتى تَغْتَسِلُوا، إلَّا عابري سبيل.

و«العابر السبيل»: المجتازُه مَرًّا وقَطْعاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ

(يعني): وإنْ كنتم جَرْحى أو بكم قُروحٌ، أو كَسْرٌ، أو عِلَّةٌ لا تقدرونَ معها على الاغتسالِ من الجنابة، وأنتم مقيمونَ غيرُ مسافرينَ، فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً.

وأما قوله: «أو على سَفَرٍ»، فإنه يعني: أو إنْ كنتم مسافرينَ وأنتم أصِحَّاءُ جنب، فتيمموا صعيداً.

وكذلك تأويل قوله: «أو جاءَ أحدٌ منكم من الغائط»، يقول: أو جاء أحدٌ منكم من الغائط، قد قضى حاجَتَهُ وهو مسافرٌ صحيحٌ، فَلْيَتَيَمَّمْ صَعيداً أيضاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾

اختلف أهلُ التأويل في «اللمس» الذي عَنَاهُ الله بقوله: «أو لامستم النساء».

فقال بعضهم: عَنَى بذلك الجماع.

وقال آخرون: عنى اللهُ بذلك كُلَّ لَمْسٍ، بيدٍ كانَ أو بغيرها من أعضاءِ جَسَدِ الإنسان وأوجبوا الوضوءَ على مَنْ مَسَّ بشيء من جسدهِ شيئاً من جسدها مُفْضِياً إليه.

وأَوْلى القولين في ذلكَ بالصوابِ، قولُ مَنْ قال: عنى الله بقولِهِ: ﴿أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾، الجماعَ دونَ غيرهِ من معاني اللمس، لِصِحَّةِ الخبرِ عن رسولِ الله ﷺ، أنه قَبَّلَ بعضَ نسائهِ ثم صَلَّى ولم يتوضأ[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «فَتَيَمَّمُوا»، فتعمَّدوا.

وأما «الصعيد»، فهو وجه الأرض[2] الخالية من النبات والغروس والبناء، المستوية.

---

(١) حديث عروة عن عائشة رضي الله عنها، أخرجه الطبري (٩٦٢٩) و(٩٦٣٠). وهو عند أحمد ٦/٢١٠، وابن ماجة (٥٠٢)، وأبو داود (١٧٩)، والترمذي (٨٦)، وله شواهد ومتابعات، وانظر تعليق العلامة أحمد شاكر على الترمذي، وراجع صحيح الترمذي للعلامة ناصر الدين الألباني، وتخريج مشكاة المصابيح له (٣٢٣).

(٢) قال الزجاج: «لا أعلم بين أهل اللغة اختلافاً في أنَّ الصعيد وجه الأرض» (معاني القرآن: ٥٦/٢).

وأما قوله: طيباً فإنه يعني به: طاهراً من الأقذار والنجاسات.

ومعنى الكلام: فإنْ لم تجدوا ماء، أيها الناسُ، وكنتم مرضى، أو على سفر، أو جاء أحدٌ منكم من الغائطِ، أو لمستم النساء، فأردتم أن تُصَلُّوا «فَتَيَمَّمُوا»، يقول: فتعمدوا وجهَ الأرضِ الطاهرة، «فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: فامسحوا منه بوجوهكم وأيديكم: ولكنه تَرَكَ ذِكْرَ «منه»، اكتفاءً بدلالةِ الكلام عليه.

و «المسح منه بالوجه»، أنْ يضربَ المتيممُ بيديهِ على وجهِ الأرضِ الطاهر، أو ما قام مقامه، فيمسحَ بما عَلقَ من الغُبار وَجْهَهُ. فإنْ كان الذي علق به من الغُبار كثيراً فنفخَ عن يديه أو نفضه، فهو جائزٌ. وإنْ لم يعلَقْ بيديهِ من الغبارِ شيءٌ وقد ضرب بيديه أو إحداهما الصعيدَ، ثم مَسَحَ بهما أو بها وجهه، أجْزَأَهُ ذلك، لإجماعِ الحجَّةِ على أنَّ المتيممَ لو ضربَ بيديهِ الصعيدَ - وهو أرض رمل - فلم يَعْلَقْ بيديهِ منها شيءٌ فتيممَ به، أنَّ ذلك مُجْزِئهُ، لم يخالفْ ذلك مَنْ يجوز أن يُعْتَدَّ خلافاً[1]. فلما كان ذلك إجماعاً منهم، كان معلوماً أنَّ الذي يُرادُ به من ضَرْبِ الصعيد باليدين، مباشرةُ الصعيدِ بهما، بالمعنى الذي أمرَ الله بمباشرتهِ بهما، لا لأخْذِ ترابٍ منه.

وأما «المسح باليدين»، فإنَّ أهلَ التأويلِ اختلفوا في الحَدِّ الذي أمر الله بمسحهِ من اليدين.

---

(١) يعني: يحسب خلافاً، ومعناه: الذي يُعَدُّ خلافه خلافاً.

فقال بعضهم: حَدُّ ذلك الكَفَّان إلى الزَّندين، وليس على المتيممِ مَسْحُ ما وراء ذلك من الساعدين.

وقالوا: أمرَ الله في التيمم بمسحِ الوجهِ واليدين، فما مسح من وجهه ويديه في التيمم أجزأه، إلا أنْ يمنعَ من ذلك ما يجب التسليمُ له من أصلٍ أو قياس.

وقال آخرون: حَدُّ المسحِ الذي أمرَ الله به في التيمم، أنْ يمسحَ جميعَ الوجهِ واليدين إلى المرفقين.

وعِلَّةُ مَنْ قالَ هذه المقالةَ: أنَّ التيممَ بَدَلٌ من الوضوء، وعلى المتيمم أنْ يبلغ بالتراب من وجهه ويديه ما كانَ عليهِ أنْ يبلغه بالماءِ منهما في الوضوء.

وقال آخرون: الحدُّ الذي أمرَ الله أنْ يبلغ بالترابِ إليه في التيمم: الآباط.

وعلة مَنْ قال ذلك: أنَّ الله أمر بمسح اليدِ في التيمم، كما أمرَ بمسحِ الوجه. وقد أجمعوا أنَّ عليه أنْ يمسحَ جميعَ الوجه، فكذلك عليه جميع اليد، ومن طرف الكفِّ إلى الإبطِ «يَدٌ».

والصوابُ من القول في ذلك: أنَّ الحدَّ الذي لايجزئ المتيممَ أنْ يقصِّر عنه في مسحهِ بالترابِ من يديه: الكَفَّان إلى الزَّندين، لإجماعِ الجميعِ على أنَّ التقصيرَ عن ذلك غير جائز. ثم هو فيما جاوز ذلك مُخَيَّرٌ، إنْ شاء بلغ بمسحهِ المرفقين، وإنْ شاءَ الآباطَ. والعلةُ التي من أجلها جعلناه مخيراً فيما جاوزَ الكَفَّين: أنَّ الله لم يحدَّ في مسحِ ذلكَ بالتراب في التيمم حداً لا يجوزُ التقصير عنه. فما مَسَحَ المتيممُ من يديه أجزأه، إلا ما أُجمع عليه، أو قامت الحُجَّـةُ بأنـه لا يجـزئـه التقصيرُ عنـه وقد أجمع الجميعُ على أنَّ التقصيرَ عن الكفين غير مجزئ، فخرج بذلك بالسنة، وما عدا ذلك فَمُخْتَلَفٌ فيه. وإذا كان مختلفاً

فيه، ـ وكان الماسحُ بكفيهِ داخلاً في عموم الآية ـ كان خارجاً مما لزمه من فرض ذلك.

واختلفَ أهلُ التأويلِ في الجُنُبِ، هل هو مِمَّنْ دخلَ في رُخْصَةِ التيممِ إذا لم يجدِ الماءَ أم لا؟

فقال جماعةٌ من أهل التأويلِ من الصحابةِ والتابعين ومَنْ بعدهم من الخالِفين: حُكْمُ الجُنُبِ فيما لَزِمَهُ من التيممِ إذا لم يجدِ الماءَ، حُكْمُ مَنْ جاء من الغائطِ وسائر مَنْ أحدَث مِمَّنْ جُعلَ التيممُ له طهوراً لصلاته.

واعتلَّ قائلو هذه المقالة، بأنَّ للجنب التيممَ إذا لم يجد الماء في سفره، بإجماع الحُجَّةِ على ذلك نقلاً عن نَبِيِّها ﷺ، الذي يقطعُ العذرَ ويزيلُ الشكَ[١].

وقال جماعةٌ من المتقدمين: لا يجزىءُ الجُنُبَ غيرُ الاغتسالِ بالماء، وليس له أنْ يصلي بالتيمم، والتيمم لايطهره. قالوا: وإنما جُعِلَ التيممُ رخصةً لغيرِ الجنب. وتأولوا قول الله: «ولا جنباً إلّا عابري سبيل». قالوا: وقد نهى الله الجُنُبَ أن يقرب مصَلَّى المسلمين إلا مجتازاً فيه حتى يغتسل، ولم يرخِّص له بالتيمم. قالوا: وتأويل قوله: «أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ» أو لامستموهن باليد، دونَ الفَرْجِ، ودونَ الجِماع. قالوا: فلم نَجِدِ الله رَخَّصَ للجُنُبِ في التيمم، بل أمره بالغُسْلِ، وأن لايقرب الصلاةَ إلّا مغتسلاً. قالوا: والتيمم لا يطهِّره لصلاته.

والصوابُ من القول في ذلك: أنَّ الجُنُبَ ممن أمرهُ الله بالتيممِ إذا لم يجد الماء، والصلاةِ[٢]، بقوله: «أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً

---

(١) انظر البخاري (٢٣٨) و(٣٣٩) و(٣٤٠) و(٣٤١) و(٣٤٢) و(٣٤٣) و(٣٤٥) و(٣٤٦)، و(٣٤٧)، ومسلم (٣٦٨).

(٢) قوله: «والصلاةِ» مجروراً عطفاً على «أمره الله بالتيمم... والصلاةِ».

طَيِّباً». وقد بَيَّنا ثَمَّ أن معنى «الملامسة»، في هذا الموضع: الجماع، بنقلِ الحُجَّـةِ التي لا يجوزُ الخطأ فيما نقلته مجمعةً عليه، ولا السهو ولا التواطؤ والتشاعر[1]، بأنَّ حُكْمَ الجُنُبِ في ذلك حكم سائرِ مَنْ أحدث فَلَزِمَهُ التطهرُ لصلاته.

واختلفَ أهلُ التأويلِ في تأويلِ قوله: «فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا»، وهل ذلك أمرٌ من الله بالتيممِ كلما لَزِمَهُ طَلَبُ الماء، أم ذلك أمرٌ منه بالتيمم كلما لزمه الطلبُ وهو مُحْدِث حَدَثاً يجبُ عليه منه الوضوء بالماء، لو كان للماء واجداً؟

فقال بعضهم: ذلك أمرٌ من الله بالتيممِ كلما لزمه فرضُ الطلبِ بعدَ الطلبِ، مُحْدِثاً كان أو غيرَ محدث.

وقال آخرون: بل ذلك أمرٌ من الله بالتيمم بعد طلبِ الماء مَنْ لزمه فرض الطلب إذا كان مُحْدِثاً. فأما مَنْ لم يكن أَحْدَثَ بعد تطهرِهِ بالتراب، فلزمه فرضُ الطلب، فليس عليه تجديدُ تيممه، وله أنْ يُصلِّي بتيممه الأول.

وأَوْلى القولين في ذلك عندنا بالصواب، قَولُ مَنْ قال: «يتيممُ المصلي لكلِّ صلاةٍ لزمه طَلَبُ الماءِ للتطهرِ لها فرضاً»، لأنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ أمر كُلَّ قائمٍ إلى الصلاة بالتطهرِ بالماء، فإنْ لم يجدِ الماء فالتيمم. ثم أخرج القائمَ إلى الصلاةِ من كان قد تَقَدَّمَ من قيامهِ إليها الوضوء بالماء سنةُ[2] رسولِ الله ﷺ، إلا أنْ يكونَ قد أحدثَ حَدَثاً ينقضُ طهارته، فيسقط فرضُ الوضوءِ عنه بالسنة. وأما القائم إليها وقد تقدم قيامه إليها التيمم لصلاةٍ قَبْلَها، ففرضُ التيممِ له لازمٌ بظاهرِ التنزيلِ، بعد طلبه الماء إذا أعوزه.

---

(١) التشاعر: التعالم.

(٢) مرفوع فاعل: «ثم أخرج القائم... سنةُ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ۝٤٣﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: إنَّ الله لم يزل «عَفُوًّا»، عن ذنوبِ عبادِه، وتركه العقوبة على كثيرٍ منها ما لم يُشْرِكُوا به، كما عفا لكم، أيها المؤمنونَ، عن قيامِكم إلى الصلاةِ التي فرضها عليكم في مساجدكم وأنتم سكارى. «غَفُوراً»، يقول: فلم يزلْ يسترُ عليهم ذنوبَهم بتركهِ معاجَلَتَهُم العذابَ على خطاياهم، كما سترَ عليكم، أيها المؤمنون، بتركه معاجلتكم على صلاتِكم في مساجدكم سكارى. يقول: فلا تَعُودُوا لمثلها، فينالكم بعودكم لما قَدْ نَهيتكم عنه من ذلك، مُنَكِّلَة[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾

معنى قوله جَلَّ ثناؤُهُ: «أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ»، ألم تَرَ بقلبكَ، يا محمد، عِلْماً، «إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً».

وأما تأويل قوله: «إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ»، فإنه يعني: إلى الذين أُعْطُوا حَظّاً مِن كتابِ الله فَعَلِمُوه.

وذكر أنَّ الله عَنَى بذلك طائفةً من اليهود الذين كانوا حواليْ مُهاجَرِ رسولِ الله ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ۝٤٤ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ۝٤٥﴾

---

(١) من التنكيل، وهو إنزال العقاب الشديد.

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَالَةَ»، اليهود الذين أُوتُوا نصيباً من الكتابِ، يختارونَ الضلالةَ، وذلك: الأخذُ على غيرِ طريقِ الحقِّ، وركوبُ غير سبيلِ الرُّشْدِ والصوابِ، مع العلمِ منهم بِقَصْدِ السبيلِ ومنهجِ الحق. وإنما عَنَى الله بوصفهم باشترائهم الضلالة: مقامَهم على التكذيبِ بمحمدٍ ﷺ، وتَرْكهم الإيمانَ به، وهم عالمون أنَّ السبيلَ الحقَّ الإيمانُ به، وتصديقه بما قَدْ وَجَدُوا مِنْ صِفَتِه في كتبهم التي عندهم.

وأما قوله: «وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ»، يعني بذلك تعالى ذِكْرُهُ: ويريد هؤلاء اليهودُ الذين وصَفهم جَلَّ ثناؤُهُ بأنهم أُوتوا نصيباً من الكتاب. «أَن تَضِلُّواْ» أنتم، يا معشرَ أصحابِ محمدٍ ﷺ، المُصَدِّقينَ به. «أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ»، يقول: أنْ تَزُولُوا عن قَصْدِ الطريقِ ومَحَجَّةِ الحقِّ، فَتُكَذِّبُوا بمحمدٍ، وتكونوا ضُلَّالًا مثلهم.

وهذا من الله تعالى ذِكْرُهُ تحذيرٌ منه عبادَهُ المؤمنينَ، أنْ يَسْتَنْصِحُوا أحداً من أعداءِ الإسلامِ في شيءٍ من أمرِ دينهم، أو أنْ يسمعوا شيئاً من طعنهم في الحق.

ثم أخبر الله جَلَّ ثناؤُهُ عن عداوةِ هؤلاء اليهودِ الذين نهى المؤمنينَ أنْ يستنصحوهم في دينهم إياهم، فقال جَلَّ ثناؤُهُ: «وَٱللهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ»، يعني بذلك تعالى ذِكْرُهُ: والله أعلمُ منكم بعداوَةِ هؤلاءِ اليهودِ لكم، أيها المؤمنون. يقول: فانتهوا إلى طاعتي فيما نَهَيْتُكُمْ عنه من استنصاحِهم في دِينكم، فإني أعلمُ بما هم عليه لكم من الغشِّ والعداوَةِ والحسدِ، وأنهم إنما يبغونكمُ الغوائلَ، ويطلبون أنْ تَضِلُّوا عن محجةِ الحق فتهلكوا.

وأما قوله: «وَكَفَى بِٱللهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِٱللهِ نَصِيراً»، فإنه يقولُ: فبالله، أيها المؤمنونَ، فَثِقُوا، وعليه فَتَوكَّلُوا، وإليه فارْغَبُوا، دونَ غيرِهِ، يَكْفِكُم مهمَّكم،

ويُنصركم على أعدائكم. «وَكَفَى بِٱللهِ وَلِيًّا»، يقول: وكَفاكم وحَسْبكم بالله ربكم وليًّا يَليكُم ويَلِي أُمورَكُم بالحِياطةِ لكم، والحراسةِ منْ أنْ يستفزَّكُمْ أعداؤكُم عن دينكم، أو يَصدُّوكم عن اتباع نبيكم. «وَكَفَى بِٱللهِ نَصِيراً»، يقول: وحَسْبكم بالله ناصراً لكم على أعدائكم وأعداء دينكم، وعلى مَنْ بغاكم الغوائلَ، وبغى دينكم العوَج.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾

ولقوله جَلَّ ثناؤهُ: «مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ»، وجهان من التأويل.

أحدهما: أنْ يكونَ معناهُ: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ»، «مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ»، فيكون قوله: «مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا»، من صِلَة «الَّذِينَ». وإلى هذا القولِ كانت عامةُ أهلِ العربيةِ من أهلِ الكوفة يُوَجِّهونَ قوله: «مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ».

والآخر منهما: أن يكون معناه: من الذين هادوا مَنْ يُحرِّفُ الكَلِمَ عن مواضعهِ، فتكون «مَن» محذوفةً من الكلام، اكتفاء بدلالةِ قوله: «مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا» عليها[1].

والقول الذي هو أوْلى بالصواب عندي في ذلك: قولُ مَنْ قال: قوله: «مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا»، من صِلَة «ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ»، لأنَّ الخبرين جميعاً والصفتين، من صفةِ نوعٍ واحدٍ من الناس، وهُم اليهودُ الذين وَصَفَ الله صِفَتَهُم في قوله: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ»، وبذلك جاء

(١) ذكر الفراء (معاني القرآن: ١/٢٧١) والزجاج (معاني القرآن: ٢/٥٧ـ٥٨) هذين القولين.

تأويلُ أهلِ التأويل، فلا حاجةَ بالكلام إذْ كان الأمر كذلك إلى أن يكون فيه متروكٌ.

وأما تأويل قوله: «يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ»، فإنه يقول: يُبَدِّلُون معناها ويُغَيِّرُونَها عن تأويله.

و«الكَلِمُ» جِماعُ «كلمة».

وأما قوله: «عَن مَّوَاضِعِهِ»، فإنه يعني: عن أماكنِه ووجوهِهِ التي هي وجوهه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: من الذين هادوا يقولون: سمعنا يا محمد قولَك، وعَصَيْنَا أمركَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾

وهذا خبرٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ عن اليهودِ الذين كانوا حوالَيْ مُهَاجَرِ رسولِ الله ﷺ في عصره: أنهم كانوا يسبُّونَ رسولَ الله ﷺ ويُؤْذُونَهُ بالقبيحِ من القولِ، ويقولون له: اسمع منا غير مسمع، كقولِ القائلِ للرجلِ يَسُبُّه: «اسمعْ، لا أسمعَكَ الله».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي ٱلدِّينِ﴾

يعني بقوله: «وَراعِنَا»، أي: رَاعِنَا سَمْعَكَ، افْهَمْ عَنَّا وأَفْهِمْنَا.

ثم أخبر الله جَلَّ ثناؤُهُ عنهم أنهم يقولون ذلك لرسولِ الله ﷺ، «لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ»، يعني تحريكاً منهم بألسنتهم بتحريفٍ منهم لمعناهُ إلى المكروهِ من مَعْنَيَيْهِ، واستخفافاً منهم بحقِّ النبيِّ ﷺ وطعناً في الدين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: ولو أنَّ هؤلاء اليهود الذين وَصَفَ الله صِفتهم، قالوا لنبيِّ الله: «سمعنا يا محمدُ قولكَ، وأطعنا أمركَ، وقبلنا ما جِئْتَنا به من عند الله، واسمعْ منا، وانظرنا ما نقولُ، وانتظرنا نَفْهَمْ عنكَ ما تقولُ لنا» «لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَقْـوَمَ»، يقول: لكان ذلك خيراً لهم عند الله. «وَأَقْوَمَ»، يقول: وأعدلَ وأصوبَ في القولِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾

يعني بذلك: ولكن الله تبارك وتعالى أَخْزَى هؤلاء اليهود الذين وَصَفَ صِفَتهم في هذه الآية، فأقصاهم وأبعدهم من الرشد واتباع الحقِّ «بِكُفْرِهِمْ»، يعني: بجحودِهم نُبُوَّةَ نبيهِ محمدٍ ﷺ وما جاء به من عند ربهم من الهدى والبيان. «فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً»، يقول: فلا يُصَدِّقُونَ بمحمدٍ ﷺ وما جاءهم به من عند ربهم، ولا يُقِرُّونَ بنبوته. «إِلَّا قَلِيلاً»، يقول: لا يصدقون بالحق الذي جئتهم به، يا محمد إلَّا إيماناً قليلاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ»، اليهود من بني إسرائيل، الذين كانوا حواليْ مُهاجَرِ رسولِ الله ﷺ، قال الله لهم: يا أيها الذينَ أُنزلَ إليهمُ الكتابُ فأُعْطُوا العِلْمَ به. «آمِنُواْ»، يقول: صَدِّقُوا بما نزلنا إلى محمدٍ من الفرقان. «مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ»، يعني: مُحَقِّقاً للذي معكم من التوراةِ التي أنزلتها إلى موسى بن عمران. «مِّن قَبْلِ أن نَّطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا».

ومعنى قوله: «مِّن قَبْلِ أن نَّطْمِسَ وُجُوهاً»، من قبل أن نطمس أبصارَها ونمحو آثارها فنسوِّيها كالأقفاء. «فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا»، فنجعل أبصارَها في أدبارها، يعني بذلك: فنجعل الوجوهَ في أدبارِ الوجوهِ، فيكون معناه: فَنُحَوِّلُ الوجوهَ أقْفاءً والأقفاءَ وجوهاً، فيمشون القَهْقَرى، لأنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ خاطبَ بهذه الآية اليهودَ الذين وَصَفَ صِفَتَهُم بقوله: «أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَالَةَ»، ثم حَذَّرهم جلَّ ثناؤُهُ بقوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أن نَّطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا» الآية، بأسَه وسَطْوتَهُ وتعجيلَ عِقابه لهم، إنْ هُمْ لم يُؤْمِنُوا بما أمرهم بالإيمانِ به، ولا شك أنهم كانوا لَمَّا أَمَرَهُم بالإيمانِ به يومئذٍ كفاراً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «أَوْ نَلْعَنَهُمْ»، أو نَلْعنكم فَنُخْزيَكُم ونجعلكم قِردةً. «كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ»، يقول: كما أخزينا الذين اعتدوا في السبتِ من أسلافكم. قِيلَ ذلك على وجهِ الخطابِ في قوله: «آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ»، كما قال: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرينَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ [يونس: ٢٢].

وقـد يحتمل أن يكون معناه: «من قبل أن نطمسَ وجوهاً فنردَّها على أدبـارهـا»، أو نلعن أصحـابَ الـوجوهِ، فجعَل «الهاء والميم» في قوله: «أَوْ نَلْعَنَهُمْ»، من ذِكْرِ أصحابِ الوجوه، إذْ كان في الكلام دلالةٌ على ذلك.

وأما قوله: «وَكَانَ أَمْرُ آللهِ مَفْعُولاً»، فإنه يعني: وكانَ جميعُ ما أمرَ الله أنْ يكونَ، كائناً مخلوقاً موجوداً، لايمتنع عليه خَلْقُ شيءٍ شاءَ خَلقَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ» ـ وإنَّ الله لايغفرُ أنْ يُشْرَكَ به، فإنَّ الله لايغفرُ الشركَ به والكفر، ويغفرُ ما دونَ ذلك الشرك لمن يشاء من أهلِ الذنوبِ والآثام.

وقد أبانت هذه الآية أنَّ كُلَّ صاحبِ كبيرةٍ ففي مشيئةِ الله، إنْ شاء عفا عنه، وإنْ شاء عاقَبَهُ عليه، ما لم تَكُنْ كبيرتُه شِرْكاً بالله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: «وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ» في عبادتهِ غَيْرَهُ مِنْ خَلْقِهِ. «فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً»، يقول: فقد اخْتَلَقَ إثماً عظيماً. وإنما جعله الله تعالى ذِكْرُهُ «مُفْترياً»، لأنه قالَ زُوراً وإفْكاً بجحودِهِ وحدانيةَ الله، وإقراره بأنَّ لله شريكاً من خَلْقِه وصاحبةً أو ولداً. فقائلُ ذلك مُفترٍ. وكذلك كُلُّ كاذبٍ، فهو مُفْترٍ في كذبه مختلقٌ له.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: ألم تَرَ، يامحمد بقلبكَ، الذين يُزَكُّونَ أنفسهم من اليهودِ فَيُبَرِّئُونَها من الذنوبِ ويُطَهِّرُونَها.

ومعنى «تزكية القوم»، الذين وَصَفَهُمُ الله بأنهم يُزَكُّونَ أنفسهم، وَصْفهم إيَّاها بأنها لا ذنوبَ لها ولا خَطايا، وأنهم لله أبناءُ وأحِبَّاء، كما أخبرَ الله عنهم أنهم كانوا يقولونه، لأن ذلك هو أظهر معانيه، لإخبارِ الله عنهم أنهم إنما كانوا يُزَكُّونَ أنفسَهُم دون غيرها.

وأما قوله جَلَّ ثناؤُهُ: «بَلِ ٱللهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ»، فإنه تكذيبٌ من المُزَكِّينَ أَنْفُسَهم من اليهودِ والنصارى، المُبَرِّئِيها من الذنوب. يقولُ الله لهم: ما الأمرُ كما زعمتم أنه لا ذنوبَ لكم ولا خطايا، وأنكم بُرَآءُ مما يكرهه الله، ولكنكم أهلُ فِرْيةٍ وكَذِبٍ على الله، وليس المزكَّى مَنْ زَكَّى نَفْسَهُ، ولكنه الذي يُزَكِّيه الله، والله يُزكي مَنْ يشاء من خَلْقِه فيطهره ويبرِّئه من الذنوب، بتوفيقه لاجتناب ما يكرهه من معاصيه، إلى ما يرضاه من طاعته.

وإنما قلنا إنَّ ذلك كذلك، لقولِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: «انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللهِ الكَذِبَ»، وأخبر أنهم يفترون على الله الكذب بدعواهم أنهم أبناءُ الله وأحباؤه، وأن

الله قد طَهَّرهم من الذنوب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٤٩﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: ولا يظلمُ الله هؤلاء الذين أخبرَ عنهم أنهم يُزَكُّونَ أنفسهم ولا غيرهم من خَلْقه، فَيَبْخَسهم في تَرْكِه تزكيتهم، وتزكية مَنْ ترك تزكيته، وفي تزكية مَنْ زكى من خَلْقِه ـ شيئاً من حقوقهم، ولا يضع شيئاً في غيرِ موضعِه، ولكنه يزكي مَنْ يشاء من خلقه، فيوفِّقه، ويخذل مَنْ يشاء من أهل معاصيه. كُلُّ ذلك إليه وبيده، وهو في كُلِّ ذلك غير ظالمٍ أحداً ـ مِمَّنْ زَكَّاهُ أو لم يُزَكِّهِ ـ فتيلاً.

واختلف أهلُ التأويل في معنى «الفتيل».

فقال بعضهم: هو ما خرجَ من بينِ الإصبعين والكفين من الوسخ، إذا فتلتَ إحدَاهُمَا بالأخرى.

وأناس يقولون: الذي يكون في بَطن النواة[1].

وإذْ كان ذلك كذلك ـ وكان الله جَلَّ ثناؤُهُ إنما قصد بقوله: «وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلًا»، الخبرَ عن أنه لا يظلمُ عبادَهُ أَقَلَّ الأشياء التي لا خطرَ لها، فكيف بما له خطر؟ ـ وكان الوسخُ الذي يخرج من بين إصبعي الرجل أو مِنْ بين كَفَّيْهِ إذا فَتَلَ إحْدَاهُمَا على الأخرى، كالذي هو في شق النواة وبطنها، وما أشبه ذلك من الأشياء التي هي مفتولةٌ، مما لا خطرَ له، ولا قيمة ـ فواجبٌ أنْ يكونَ كُلُّ ذلك داخلاً في معنى «الفتيل»، إلا أنْ يخرجَ شيئاً من ذلك ما يجبُ التسليمُ له، مما دَلَّ عليه ظاهرُ التنزيل.

---

(١) ذكر الفراء (معاني القرآن: ١/٢٧٣) والزجاج (معاني القرآن: ٢/٦٠) هذين المعنيين، ولم يُرَجّحا أو يُوجِّها الكلام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ۝٥٠﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: انظر، يامحمد، كيف يفتري هؤلاء الذين يزكُّونَ أنفسهم من أهلِ الكتابِ ـ القائلونَ: «نحنُ أبناءُ الله وأَحِبَّاؤه»، وأنه لن يدخلَ الجنةَ إلَّا مَنْ كان هُوداً أو نصارى، الزاعمونَ أنه لا ذنوبَ لهم ـ الكذبَ والزورَ من القولِ، فيختلقونه على الله. «وَكَفَى بِهِ»، يقول: وحَسْبُهم بِقيلهم ذلكَ الكذبَ والزُّورَ على الله. «إِثْماً مُّبِيناً»، يعني أنه يبين كذبهم لسامعيه، ويُوَضِّح لهم أنهم أفَكَةٌ فَجَرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: ألم تَرَ به بقلبكَ، يامحمدُ، إلى الذين أُعْطُوا حظًّاً من كتابِ الله فعلموه. «يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ»، يعني: يُصَدِّقُونَ بالجبت والطاغوت، ويكفرونَ بالله، وهُمْ يعلمونَ أنَّ الإيمانَ بهما كفرٌ، والتصديقَ بهما شِرْكٌ.

ومعنى: «يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ»، يُصَدِّقُونَ بمعبودَيْنِ من دونِ الله، يعبدونهما من دونِ الله، ويتخذونهما إلهين.

وذلك أنَّ «الجبت» و«الطاغوت»: اسمان لِكُلِّ مُعَظَّمٍ بعبادةٍ من دونِ الله، أو طاعةٍ، أو خضوعٍ له، كائناً ما كانَ ذلك المُعَظَّم، من حجرٍ أو إنسانٍ أو شيطان. وإذْ كان ذلك كذلك، وكانت الأصنامُ التي كانت الجاهلية تعبدها،

كانت مُعَـظَّمَـةً بالعبـادةِ من دونِ الله ـ فقـد كانت جُبـوتاً وطواغيت. وكذلك الشياطينُ التي كانتِ الكفارُ تُطيعها في معصيةِ الله، وكذلك الساحرُ والكاهنُ اللذان كان مقبولاً منهما ما قالا في أهلِ الشركِ بالله. وكذلك حُيَي بن أَخْطب وكعبُ بن الأشـرف[1]، لأنهمـا كانا مُطَاعَيْنِ في أهلِ مِلَّتِهما من اليهودِ في معصيةِ الله والكفر به وبرسوله، فكانا جِبْتَيْنِ وطاغوتين[2].

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ٥١﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: ويقولون للذين جَحَدُوا وحدانيةَ الله ورسالةَ رسولهِ محمـدٍ ﷺ ـ: «هَؤلاءِ»، يعني بذلـك: هؤلاء الـذين وصفهم الله بالكفـر. «أَهْدَى»، يعني: أقوم وأعدل. «مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ»، يعني: من الذين صَدَّقُوا الله ورسولَهُ وأقرُّوا بما جاءهم به نبيهم محمد ﷺ. «سَبِيلاً»، يعني: طريقاً.

وإنما ذلك مَثَلٌ. ومعنى الكلام: أنَّ الله وصفَ الذين أُوتوا نصيباً من الكتابِ من اليهودِ ـ بتعظيمِهم غيرَ الله بالعبادةِ والإذعان له بالطاعة ـ في الكفرِ بالله ورسوله ومعصيتهما، بأنهم قالوا: إنَّ أهلَ الكفرِ بالله أَوْلى بالحقِّ من أهلِ الإيمانِ به، وأنَّ دينَ أهلِ التكذيبِ لله ولرسوله، أعدلُ وأصوبُ من دين أهلِ التصديقِ لله ولرسوله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ٥٢﴾

(١) من زعمـاء يهود على عهد رسول الله ﷺ، وجزم الفراء بأنهما مَنْ عُنِيا بهذه الآية (معاني القرآن: ١/٢٧٣).

(٢) هذا المعنى العام ذكره الزجاج في: (معاني القرآن: ٢/٦١).

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «أُوْلَئِكَ»، هؤلاء الذين وَصَفَ صِفَتَهُم أنهم أُوتوا نصيباً من الكتاب وهم يؤمنون بالجِبْتِ والطاغوت، هُمُ «الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ»، يقول: أخزاهم الله فأبعدهم من رحمتِهِ، بإيمانِهم بالجبتِ والطاغوتِ، وكُفْرِهم باللهِ ورسولِهِ عِناداً منهم لله ولرسوله، وبقولِهم للذين كفروا: ﴿هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلًا﴾. «وَمَن يَلْعَنِ اللهُ»، يقول: ومَنْ يُخْزِهِ الله فيبعده من رحمته. «فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً»، يقول: فلن تجدَ له، يامحمدُ، ناصراً ينصرهُ من عقوبةِ الله ولعنتهِ التي تحلُّ به، فيدفع ذلك عنه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ»، أم لهم حَظٌّ من المُلْكِ، يقول: ليس لهم حَظٌّ من الملك.

واختلف أهلُ التأويل في معنى: «النقير».

فقال بعضهم: هو النقطة التي في ظهر النواة.

وقال آخرون: «النقير»، الحبة التي تكون في وَسَط النواة.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصواب أنْ يُقالَ: إنَّ الله وصفَ هؤلاء الفرْقة من أهلِ الكتابِ بالبُخْلِ باليسيرِ من الشيءِ الذي لا خَطَرَ له، ولو كانوا ملوكاً وأهلَ قدرةٍ على الأشياء الجليلة الأقدار.

فإذْ كان ذلك كذلك، فالذي هو أَوْلى بمعنى «النقير»، أنْ يكونَ أصغرَ ما يكون من النُّقر. وإذا كان ذلك أولى به، فالنقرةُ التي في ظهر النواة من صغار النُّقر، وقد يدخل في ذلك كُلُّ ما شَاكلها من النُّقر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ»، أم يَحْسُدُ هؤلاء الذين أُوتُوا نصيباً من الكتابِ من اليهود.

وأما قوله: «النَّاسَ»، فإنَّ أهلَ التأويل اختلفوا فيمن عَنَى الله به.

فقال بعضهم: عَنَى الله بذلك محمداً ﷺ خاصةً.

وقال آخرون: بل عَنَى الله به العربَ.

وأَوْلى الأقوال في ذلك بالصواب أن يُقالَ: إنَّ الله عاتبَ اليهودَ الذين وصف صِفَتَهم في هذه الآياتِ، فقال لهم في قِيلهم للمشركين من عَبَدَةِ الأوثان إنهم أهدى من محمدٍ وأصحابه سبيلاً، على عِلْمٍ منهم بأنهم في قِيلهم ما قالوا من ذلك كَذَبَةٌ: أتحسدون محمداً وأصحابه على ما آتاهم الله من فضله.

وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب، لأنَّ ما قَبْلَ قولِهِ: «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ الله مِن فَضْلِهِ»، مضى بِذَمِّ القائلينَ من اليهودِ للذين كفروا: «هَؤلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً»، فإلحاقُ قولِهِ: «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ الله مِن فَضْلِهِ»، بذمِّهم على ذلكَ، وتقريظ الذين آمنوا الذين قِيلَ فيهم ما قِيلَ ـ أشبهُ وأَوْلى، ما لم تأتِ دلالةٌ على انصرافِ معناهُ عن معنى ذلك.

واختلف أهلُ التأويل في «الفضل» الذي أخبر الله أنه آتى الذينَ ذكرهم في قوله: «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ الله مِن فَضْلِهِ».

فقال بعضهم: ذلك «الفضلُ»، هو النبوّةُ.

وقال آخرون: بل ذلك «الفضل» الذي ذكر الله أنه آتَاهُمُوهُ، هو إباحتهُ ما أباحَ لنبيهِ محمدٍ ﷺ من النساء، ينكحُ منهن ما شاءَ بغير عدد. قالوا: وإنما يعني: بـ «النَّاسَ»، محمداً ﷺ، على ما ذَكرتُ قبل[1].

وأولى التأويلين في ذلك بالصواب، قولُ مَنْ قال: إنَّ معنى «الفضل» في هذا الموضع: النبوَّةُ التي فَضَّلَ الله بها محمداً، وشَرَّفَ بها العربَ، إذ آتاها رجلاً منهم دون غيرهم ـ لِما ذكرنا مِنْ أنَّ دلالةَ ظاهرِ هذه الآيةِ، تدلُّ على أنها تقريظٌ للنبيِّ ﷺ وأصحابه رحمةُ الله عليهم، على ما قَدْ بَيَّنا قَبْلُ. وليس النكاح وتزويجَ النساء، وإنْ كان من فَضْلِ الله جَلَّ ثناؤُهُ الذي آتاهُ عبادَهُ ـ بتقريظٍ لهم ومدح.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ۝٥٤﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: أمْ يَحسدُ هؤلاء اليهودُ ـ الذين وصف صِفَتهم في هذه الآياتِ ـ الناسَ على ما آتاهمُ الله من فضلِه، مِنْ أجلِ أنهم ليسوا منهم؟ فكيفَ لا يحسدونَ آلَ إبراهيم، فقد آتيناهمُ الكتابَ. ويعني بقوله: «فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْراهِيمَ»، فقد أعطينا آلَ إبراهيم، يعني: أهلَهُ وأتباعَهُ على دينهِ «الْكِتَابَ»، يعني كتابَ الله الذي أوحاهُ إليهم، وذلك كصحفِ إبراهيمَ وموسى والزّبور، وسائر ما آتاهم من الكتب.

وأما «الحكمة»، فما أوْحَى إليهم مما لم يَكُنْ كتاباً مقروءاً. «وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيمًا».

---

(١) هذا رأي الفراء في: (معاني القرآن: ١/٢٧٥)، وذكر الزجاج القولين ولم يرجح (معاني القرآن: ٢/٦٤).

واختلف أهلُ التأويل في معنى «الملك العظيم» الذي عَنَاهُ الله في هذه الآية.

فقال بعضهم: هو النبوّةُ.

وقال آخرون: بل ذلك تحليلُ النساء. قالوا: وإنما عَنَى الله بذلك: أَمْ يحسدونَ محمداً على ما أَحَلَّ الله له من النساء، فقد أَحَلَّ الله مِثْلَ الذي أَحَلَّهُ له منهن، لداودَ وسليمانَ وغيرهم من الأنبياء، فكيف لم يَحْسُدوهم على ذلك، وحَسَدُوا محمداً عليه السلام؟

وقال آخرون: بل معنى قوله: «وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيمًا»، الذي آتى سليمانَ ابن داود.

وقال آخرون: بل كانوا أُيِّدُوا بالملائكة.

وأَوْلى هذه الأقوالِ بتأويلِ الآية وهي قوله: «وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيمًا» قول مَنْ قال: «يعني ملك سليمان». لأَنَّ ذلك هو المعروفُ في كلامِ العربِ، دونَ الذي قال إنه مُلْكُ النبوّةِ، ودونَ قولِ مَنْ قال: إنه تحليلُ النساء والملك عليهن. لأَنَّ كلامَ الله الذي خُوطِبَ به العربُ، غيرُ جائزٍ توجيههُ إلاَّ إلى المعروف المستعمل فيهم من معانيه، إلاَّ أَنْ تأتيَ دلالةٌ أو تقومُ حُجَّةٌ على أنَّ ذلك بخلافِ ذلك، يجبُ التسليم لها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ وجلَّ: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: فمن الذين أوتوا الكتاب من يهودِ بني إسرائيل، الذين قال لهم جَلَّ ثناؤُهُ: «آمِنواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ

وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا». «مَّنْ آمَنَ بِهِ»، يقول: مَنْ صدَّق بما أنزلنا على محمدٍ ﷺ مصدِّقاً لما معهم. «وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ»، ومنهم من أعرَض عن التصديقِ به.

وفي هذه الآية دلالةٌ على أنَّ الذين صَدُّوا عما أنزل الله على محمدٍ ﷺ، من يهود بني إسرائيل الذين كانوا حواليْ مُهَاجَرِ رسولِ الله ﷺ، إنما رَفَعَ عنهم وعيدَ الله الذي تَوَعَّدَهُم به في قوله: ﴿آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ آللهِ مَفْعُولاً﴾ - في الدنيا، وأخرت عقوبتهم إلى يوم القيامةِ، لإيمانِ مَنْ آمنَ منهم، وأنَّ الوعيدَ لهم من الله بتعجيلِ العقوبةِ في الدنيا، إنما كان على مقام جميعهم على الكفرِ بما أنزل على نبيه محمدٍ ﷺ. فلما آمَنَ بعضهُم، خرجوا من الوعيدِ الذي توعَّدهُ في عاجلِ الدنيا، وأخرت عقوبةُ المقيمينَ على التكذيبِ إلى الآخرة، فقال لهم: كَفَاكُمْ بجهنمَ سعيراً.

ويعني بقوله: «وَكَفَى بِجَهنَّمَ سَعِيراً»، وحَسْبُكم، أيها المُكَذِّبونَ بما أنزلتُ على محمد نبيِّ ورسولي. «بِجَهنَّمَ سَعِيرًا»، يعني: بنارِ جهنمَ، تُسَعَّرُ عليكم. أي: تُوقَدُ عليكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾

هذا وعيدٌ من الله جَلَّ ثناؤهُ للذين أقامُوا على تَكْذيبِهم بما أنزلَ الله على محمدٍ من يهودِ بني إسرائيلَ وغيرِهم من سائرِ الكفارِ، وبرسولِه. يقولُ الله لهم: إنَّ الذين جَحَدُوا ما أنزلتُ على رسولي محمدٍ ﷺ، من آياتي - يعني: من آياتِ تنزيلِه، ووَحي كتابه، وهي دلالاتُه وحُجَجُهُ على صِدْقِ محمدٍ ﷺ - فلم

يُصَـدِّقُوا به من يهودِ بني إسرائيل وغيرهم من سائرِ أهلِ الكفرِ به. «سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً»، يقول: سوف نُنْضِجُهم في نارٍ يُصلون فيها ـ أي يشوون فيها ـ «كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ»، يقول: كلما انشوتْ بها جُلودُهُم فاحترقتْ. «بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا»، يعني: غيرَ الجلودِ التي قد نضجت فانشوت.

فإنْ سألَ سائل فقال: وما معنى قوله جَلَّ ثناؤُهُ: «كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ»؟ وهل يجوز أنْ يُبَدَّلُوا جلوداً غيرَ جلودهم التي كانت لهم في الدنيا، فَيُعَذَّبُوا فيها؟ فإنْ جاز ذلك عندك، فأجِزْ أنْ يُبدَّلوا أجساماً وأرواحاً غيرَ أجسامِهم وأرواحِهم التي كانت لهم في الدنيا فتعذَّب! وإنْ أجزتَ ذلك، لَزِمَكَ أنْ يكونَ المعذبون في الآخرة بالنار، غيرُ الذين أوعدهم الله العقابَ على كفرهم به ومعصيتهم إياه، وأنْ يكون الكفار قد ارتفعَ عنهم العذاب!!

قيل: إنَّ الناسَ اختلفوا في معنى ذلك.

فقـال بعضهم: العـذاب إنما يصل إلى الإنسان الذي هو غير الجلد واللحم، وإنمـا يحـرق الجلد ليصـلَ إلى الإنسانِ ألمُ العذاب. وأما الجلد واللحم، فلا يألمان. قالوا: فسواءٌ أُعيدَ على الكافرِ جِلْدُهُ الذي كان له في الدنيا أو جلدٌ غيره، إذْ كانت الجلودُ غير آلمةٍ ولا معذَّبةٍ، وإنما الآلمةُ المعذبةُ: النفسُ التي تُحِسُّ الألَمَ، ويصلُ إليها الوجعُ. قالوا: وإذا كان ذلك كذلك، فغيرُ مستحيلٍ أنْ يُخْلق لِكُلِّ كافرٍ في النار في كل لحظةٍ وساعةٍ من الجلود مالا يُحْصَى عَدَدُهُ، ويحرق ذلك عليه، ليصلَ إلى نَفْسِه ألمُ العذابِ، إذْ كانت الجلودُ لا تألَمُ.

وقال آخرون: بل الجلودُ تَأْلَمُ، واللحمُ وسائرُ أجزاء جِرْمِ بني آدم. وإذا أحـرقَ جلدهُ أو غيره من أجزاء جسده، وصَلَ ألمُ ذلك إلى جميعه. قالوا·

ومعنى قوله: «كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بدَّلْنَاهم جُلُوداً غَيْرَهَا»: بَدَّلْنَاهم جلوداً غيرَ محترقةٍ. وذلك أنها تُعَادُ جديدةً، والأولى كانت قد احترقتْ، فأُعيدت غيرَ محترقةٍ، فلذلك قيل: «غَيْرَهَا»، لأنها غير الجلود التي كانت لهم في الدنيا، التي عصوا الله وهي لهم. قالوا: وذلك نظيرُ قولِ العربِ للصّائغ إذا استصاغته خاتماً من خَاتمٍ مَصُوغٍ، بتحويلِهِ عن صياغتِهِ التي هُوَ بها، إلى صياغةٍ أخرى: «صُغ لي من هذا الخاتم خاتماً غيره»، فيكسره ويصوغُ له منه خاتماً غيره، والخاتمُ المَصُوغُ بالصّياغة الثانية هو الأول، ولكنه لما أُعيدَ بعد كسره خاتماً قيل: «هو غيره». قالوا: فكذلك معنى قوله: «كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا»، لما احترقت الجلود ثم أُعيدت جديدةً بعد الاحتراق، قيل: «هي غيرها»، على ذلك المعنى[1].

وقال آخرون: معنى قوله: «كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ»، سرابيلهم، بَدَّلناهم سرابيلَ من قَطِرانٍ غيرها. فَجُعِلَت السرابيلُ [من] القطران لهم جلوداً، كما يقالُ للشيء الخاص بالإنسان: «هو جِلدة ما بين عينيه ووجهه»، لخصُوصهِ به. قالوا: فكذلك سرابيلُ القطران التي قال الله في كتابه: ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، لَمَّا صارتْ لهم لباساً لا تفارقُ أجسامَهم، جُعِلَتْ لهم جُلوداً، فقيل: كلما اشتعلَ القَطِرانُ في أجسامهم واحترقَ، بُدِّلُوا سرابيلَ من قطرانٍ آخرَ. قالوا: وأما جلودُ أهلِ الكفرِ من أهلِ النارِ، فإنها لا تحترقُ، لأنَّ في احتراقها ـ إلى حال إعادتها ـ فناءَها، وفي فنائها رَاحتها. قالوا: وقد أخبر الله تعالى ذِكْرُهُ عنها: أنهم لايموتونَ ولا يُخَفَّفُ عنهم من عذابها. قالوا: وجلودُ الكفار أحد أجسامهم، ولو جازَ أنْ يحترقَ منها شيءٌ فيفنى ثم يُعاد بعد الفناء في النار، جاز ذلك في جميع أجزائها. وإذا جاز ذلك، وَجَبَ أنْ يكونَ جائزاً عليهم الفناءُ، ثم الإعادةُ والموتُ، ثم

---

(١) انظر قريباً من هذا المعنى عند الزجاج في: (معاني القرآن: ٢/٦٥).

الإحياءُ، وقد أخبر الله عنهم أنهم لايموتون. قالوا: وفي خبرهِ عنهم أنهم لا يموتون، دليلٌ واضحٌ أنه لايموتُ شيءٌ من أجزاءِ أجسامِهم، والجلودُ أحدُ تلك الأجزاء.

وأما معنى قوله: «لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ»، فإنه يقول: فَعَلْنَا ذلكَ بهم، ليجدوا ألَمَ العذابِ وكَرْبَهُ وشِدَّتَهُ، بما كانوا في الدنيا يُكَذِّبُونَ آياتِ الله ويجحدونها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾

يقـول: إنَّ الله لم يزلْ «عَزِيزاً» في انتقامه ممن انتقم منه من خَلْقِه، لايقدرُ على الامتناعِ منه أحدٌ أرادَه بِضُرٍ، ولا الانتصار منه أحدٌ أحَلَّ به عقوبةً. «حَكِيماً» في تدبيرهِ وقضائِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ»، والذين آمنوا بالله ورسولِه محمدٍ ﷺ، وصَدَّقُوا بما أنزلَ الله على محمدٍ مصدِّقاً لما معهم من يهود بني إسرائيل وسائر الأمم غيرهم «وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ»، يقول: وأدَّوا ما أمرهم الله به من فرائضهِ، واجتنبوا ما حرَّمَ الله عليهم من معاصيه، وذلك هو «الصـالـح» من أعمالهم. «سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ»، يقول: سوف يُدْخلهم الله يومَ القيامة. «جَنَّاتٍ»، يعني: بساتينَ. «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ»، يقولُ: تجري من تحتِ تلك الجناتِ الأنهارُ. «خَالِدِينَ فِيهَا

أَبَداً»، يقول: باقينَ فيها أبداً بغيرِ نهايةٍ ولا انقطاعٍ، دائماً ذلك لهم فيها أبداً. «لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ»، يقول: لهم في تلك الجنات التي وَصَفَ صِفَتَها. «أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ»، يعني: بريئات من الأدناس والرَّيْب والحيضِ والغائطِ والبولِ والحَبَلِ والبُصاقِ، وسائرِ ما يكونُ في نساءِ أهلِ الدنيا.

وأما قوله: «وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً»، فإنه يقولُ: وندخلهم ظلاً كَنِيناً، كما قال جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ

هو خطابٌ من الله ولاةَ أمورِ المسلمين بأداءِ الأمانةِ إلى مَنْ وَلُوا أمْرَهُ في فَيْئِهم وحقوقِهم، وما ائْتُمِنُوا عليه من أمورهم، بالعدلِ بينهم في القضية، والقَسْم بينهم بالسويَّة. يدلُّ على ذلك ما وَعظ به الرعيةَ في: ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الْأَمْرِ مِنْكُم﴾، فأمرهم بطاعتهم، وأوصى الرَّاعيَ بالرعيةِ، وأوصى الرعيةَ بالطاعةِ.

فتأويل الآية إذاً ـ إذْ كانَ الأمرُ على ما وَصَفْنَا ـ: إنَّ الله يأمركم، يا معشرَ وُلاةِ أمورِ المسلمينَ، أنْ تُؤَدُّوا ما ائْتَمَنَتْكُمْ عليه رَعِيَّتُكُم من فَيْئِهم وحُقوقِهم وأموالِهم وصدقاتِهم إليهم، على ما أَمَرَكُم الله بأداءِ كُلِّ شيءٍ من ذلك مَنْ هوَ له، بعد أنْ تصيرَ في أيديكم، لا تظلموها أهلَها، ولا تستأثروا بشيءٍ منها، ولا تضعوا شيئاً منها في غيرِ موضعهِ، ولا تأخذوها إلاَّ مِمَّنْ أَذِنَ الله لكم بأخذها منه قبل أنْ تصيرَ في أيديكم، ويأمركم إذا حكمتمْ بين رعيتكم أنْ تَحْكُموا بينهم بالعدلِ والإنصافِ، وذلك حكمُ الله الذي أنزله في كتابه، وبَيَّنَهُ على لسانِ رسولِهِ، لا تَعْدُوا ذلك فتجورُوا عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٥٨﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: يا معشرَ وُلاةِ أمورِ المسلمينَ، إنَّ الله نِعْمَ الشيء يَعِظُكم به، ونِعْمَتِ العِظَةُ يَعِظُكم بها في أمرِهِ إياكم أنْ تُؤَدُّوا الأماناتِ إلى أهلها، وأنْ تحكموا بين الناسِ بالعدلِ. «إنَّ الله كَانَ سَمِيعاً»، يقول: إنَّ الله لم يَزَلْ سميعاً بما تقولونَ وتنطقونَ، وهو سميعٌ لذلك منكم إذا حكمتم بين الناسِ ولِمَا تُحاورونهم به. «بَصِيراً» بما تفعلون فيما ائْتُمِنْتُمْ عليه من حقوقِ رعيتكم وأموالهم، وما تقضون به بينهم من أحكامكم: بعدلٍ تحكمونَ أو جَوْرٍ، لا يَخْفى عليه شيءٌ من ذلــك، حافظٌ ذلـك كُلَّهُ، حتى يجـازي مُحْسِنَكُم بإحسانِهِ، ومسيئكم بإساءته، أو يعفو بفضله.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله رَبَّكم فيما أمَرَكُمْ به وفيما نهاكم عنه، وأطيعوا رسولَهُ محمداً ﷺ، فإنَّ في طاعتكم إياهُ لربكم طاعة، وذلك أنكم تطيعونه لأمرِ الله إياكم بطاعته.

وهو أمرٌ من الله بطاعةِ رسولهِ في حياتهِ فيما أمَرَ ونهى، وبعد وفاته باتباعِ سُنَّتِه. وذلك أنَّ الله عَمَّ بالأمر بطاعته، لم يخصصْ بذلك في حالٍ دون حال، فهو على العموم حتى يخصَّ ذلك ما يجبُ التسليم له.

واختلف أهلُ التأويل في «أولى الأمر» الذين أمر الله عبادَهُ بطاعتهم في هذه الآية.

فقال بعضهم: هم الأمراء.

وقال آخرون: هم أهلُ العلم والفقة.

وقال آخرون: هم أصحابُ محمدٍ ﷺ.

وقال آخرون: هم أبو بكر وعمر رحمهما الله.

وأوْلى الأقوال في ذلك بالصواب، قولُ مَنْ قال: هم الأمراء والولاةُ لصحةِ الأخبارِ عن رسولِ الله ﷺ بالأمرِ بطاعةِ الأئمةِ والولاةِ فيما كان [لله] طاعةً، وللمسلمينَ مصلحةً، كالذي حدثنا ابن المثنى قال: حدثنا يحيى، عن عبيدالله قال: أخبرني نافع، عن عبدالله، عن النبي ﷺ قال: «على المرء المسلم، الطاعةُ فيما أَحَبَّ وكَرِهَ، إلاَّ أنْ يُؤْمَرَ بمعصيةٍ، فمن أمر بمعصية فلا طاعة»[1].

فإذْ كان معلوماً أنه لا طاعة واجبة لأحدٍ غير الله أو رسوله أو إمامٍ عادل، وكان الله قد أمر بقوله: «أَطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ» بطاعة ذَوِي أمرنا ـ كان معلوماً أنَّ الذين أمرَ بطاعتهم تعالى ذِكْرُهُ من ذوي أمرنا، هم الأئمةُ ومن ولَّوْه المسلمينَ، دونَ غيرِهم من الناسِ، وإنْ كان فرضاً القبولُ من كُلِّ مَنْ أمر بتركِ معصيةِ الله ودعا إلى طاعةِ الله، وأنه لا طاعةَ تَجبُ لأحدٍ فيما أمَرَ ونهى فيما لم تَقُمْ حجةُ وجوبِه، إلاَّ للأئمةِ الذين ألزمَ الله عبادَهُ طاعتهم فيما أمروا به رَعِيَّتهم مما هو مصلحةٌ لعامةِ الرعيَّة، فإنَّ على مَنْ أمروه بذلك طاعتهم، وكذلك في كُلِّ ما لم يكنْ لله معصية.

وإذْ كان ذلك كذلك، كان معلوماً بذلك صحةُ ما اخترنا من التأويلِ دونَ غيرِه.

---

(١) هو في الصحيحين: البخاري (٢٩٥٥) و(٧١٤٢)، ومسلم (١٨٣٩). وابن المثنى هو محمد بن المثنى العنزي، ويحيى هو ابن سعيد القطان، وعبيدالله هو ابن عمر ابن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب، ونافع هو مولى ابن عمر، وعبدالله هو ابن عمر بن الخطاب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: فإن اختلفتم، أيها المؤمنونَ، في شيءٍ من أمرِ دينكم: أنتم فيما بينكم، أو أنتم وولاة أمرِكم، فاشْتَجَرْتُمْ فيه. «فَرُدُّوهُ الَى الله»، يعني بذلك: فارتادوا معرفةَ حُكْمِ ذلك الذي اشتجرتم ـ أنتم بينكم، أو أنتم وأُولُو أمْرِكُم ـ فيه من عند الله، يعني بذلك: من كتابِ الله، فاتَّبِعُوا ما وجدتم. وأما قوله: «وَالرَّسُولِ»، فإنه يقول: فإنْ لم تجدوا إلى عِلْمِ ذلك في كتابِ الله سبيلاً، فارتادوا معرفةَ ذلك أيضاً من عند الرسولِ إنْ كان حياً، وإنْ كان ميتاً فمن سُنَّتِه. «إن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِالله وَاليَوْمِ الآخِرِ»، يقول: افعلوا ذلك إنْ كنتم تُصَدِّقُونَ بالله. «وَاليَوْمِ الآخِرِ»، يعني: بالمعادِ الذي فيه الثوابُ والعقابُ، فإنكم إنْ فعلتم ما أمرتم به من ذلك. فَلَكُم من الله الجزيل من الثواب، وإنْ لم تفعلوا ذلك فلكم الأليم من العقاب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «ذلِكَ»، فَرَدُّ ما تنازعتم فيه من شيءٍ إلى الله والرسول، «خَيْرٌ» لكم عند الله في مَعادِكم، وأصلحُ لكم في دنياكم، لأنَّ ذلك يدعوكم إلى الأُلْفَةِ، وتَرْكِ التنازعِ والفرقةِ. «وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً»، يعني: وأحمدُ مَوْئِلاً ومغبَّةً، وأجملُ عاقبة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ

أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴿٦٠﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: «أَلَمْ تَرَ»، يا محمد، بقلبكَ، فتعلم - إلى الذين يزعمون أنهم صَدَّقُوا بما أُنزلَ إليك من الكتاب، وإلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزلَ من قَبْلِكَ من الكتب، يريدون أنْ يتحاكموا في خصومتهم إلى الطاغوت - يعني إلى: مَنْ يُعَظِّمُونَهُ، ويَصْدُرونَ عن قولهِ، ويَرْضونَ بحكمهِ من دونَ حُكْمِ الله ، «وَقَدْ أُمِرُوا أن يَكْفُرُوا بِهِ»، يقول: وقد أمرهم الله أنْ يكذبوا بما جاءهم به الطاغوتُ الذي يتحاكمونَ إليه، فتركوا أمرَ الله واتبعوا أمرَ الشيطان. «وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً»، يعني: أن الشيطان يريدُ أن يصدَّ هؤلاء المتحاكمينَ إلى الطاغوتِ عن سبيلِ الحق والهدى، فيضلهم عنها، «ضَلالاً بَعِيداً» يعني: فيجور بهم جوراً شديداً.

وقد ذكر أنَّ هذه الآية نزلتْ في رجلٍ من المنافقين دعا رجلاً من اليهود في خصومةٍ كانت بينهما إلى بعضِ الكُهَّان، ليحكمَ بينهم، ورسولُ الله ﷺ بين أظْهُرِهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ﴿٦١﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: ألم تَرَ، يا محمدُ، إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزلَ إليكَ من المنافقين، وإلى الذين يزعمونَ أنهم آمنوا بما أُنزلَ من قَبْلِكَ من أهلِ الكتابِ، يريدون أنْ يتحاكموا إلى الطاغوت. «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوا إِلَى مَا أَنْزَلَ الله»، يعني بذلك: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوا»، هَلُمُّوا إلى حُكْمِ الله الذي أنزله في كتابه، وإلى الرسول ليحكم بيننا. «رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ

عَنْكَ»، يعني بذلك: يمتنعون من المصيرِ إليكَ لِتَحْكُمَ بينهم، ويَمنعونَ من المصير إليكَ كذلك غيرَهُم. «صُدُوداً».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: فكيف بهؤلاء الذين يُريدونَ أَنْ يتحاكموا إلى الطاغوت، وهم يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزلَ إليك وما أُنزلَ من قبلك. «إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ»، يعني: إذا نزلت بهم نقمةٌ من الله. «بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ»، يعني: بذنوبهم التي سَلَفَتْ منهم. «ثُمَّ جَاؤُوكَ يَحْلِفُونَ بالله»، يقول: ثم جاؤوك يحلفونَ بالله كذباً وزوراً. «إِنْ أَرِدْنَا إِلَّا إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً». وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ عن هؤلاء المنافقين أنهم لا يردعهم عن النفاقِ العِبر والنِّقم، وأنهم إنْ تأْتِهم عقوبةٌ من الله على تحاكمهم إلى الطاغوتِ لم يُنِيبُوا ولم يتوبوا، ولكنهم يَحلفونَ بالله كذباً وجراءةً على الله: ما أردنا باحتكامِنَا إليهِ إلَّا الإحسانَ من بعضنا إلى بعضٍ، والصوابَ فيما احتكمنا فيه إليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «أُوْلَئِكَ»، هؤلاء المنافقونَ الذينَ وصفتُ لكَ، يا محمدُ، صِفتَهم ـ «يَعْلَمُ الله مَا فِي قُلُوبِهِمْ» في احتكامهم إلى الطاغوت،

وتركهم الاحتكامَ إليك، وصدودهم عنكَ ـ من النفاقِ والزيغِ ، وإنْ حلفوا بالله: ما أردنا إلَّا إحساناً وتوفيقاً. «فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ»، يقول: فَدَعْهُم فلا تُعَاقِبْهُمْ في أبدانهم وأجسامهم، ولكن عِظْهم بتخويفكَ إياهم بأسَ الله أنْ يحَلَّ بهم، وعقوبته أنْ تنزلَ بدارهم، وحَذِّرْهُمْ من مكروهِ ما هُمْ عليه من الشكِّ في أمرِ الله وأمرِ رسولِهِ. «وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً»، يقول: مُرْهُمْ باتقاءِ الله والتصديقِ به وبرسولِهِ ووعدِهِ ووعيده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: ولم نُرْسِلْ، يا محمد، رسولاً إلَّا فرضتُ طاعتَهُ على مَنْ أرسلتهُ إليه، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فأنتَ، يا محمد، من الرُّسُلِ الذين فرضتُ طاعتهم على مَنْ أرسلتهُ إليه.

وإنما هذا من الله توبيخٌ للمحتكمينَ من المنافقينَ ـ الذين كانوا يزعمون أنهم يؤمنون بما أنزل إلى النبي ﷺ ـ فيما اختصموا فيه إلى الطاغوت، صُدوداً عن رسولِ الله ﷺ. يقولُ لهم تعالى ذِكْرُهُ: ما أرسلتُ رسولاً إلَّا فرضتُ طاعتَهُ على مَنْ أرسلتهُ إليه، فمحمدٌ ﷺ من أولئك الرسل، فَمَنْ تركَ طاعته والرِّضَى بحكمِهِ واحتكمَ إلى الطاغوتِ، فقد خالفَ أمري، وضيَّع فرضي.

ثم أخبر جَلَّ ثناؤُهُ: أنَّ مَنْ أطاعَ رسله، فإنما يطيعهم بإذنه ـ يعني: بتقديرِهِ ذلك وقضائِه السابق في عِلْمِهِ ومشيئته.

وإنما هذا تعريضٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ لهؤلاء المنافقين، بأنَّ تَرْكَهُم طاعةَ الله وطاعةَ رسولِهِ والرِّضَى بحكمِهِ، إنما هو للسابقِ لهم من خِذْلانِهِ وغَلَبَةِ الشقاءِ

عليهم، ولولا ذلك لكانوا ممن أذِنَ له في الرِّضَى بحكمِهِ، والمسارعةِ إلى طاعتهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: ولو أنَّ هؤلاء المنافقينَ - الذين وصفَ صِفَتهم في هاتين الآيتين، الذين إذا دُعُوا إلى حُكْمِ الله وحكمِ رسولِهِ صَدُّوا صدوداً، «إِذْ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ»، باكتسابِهم إياها العظيم من الإثمِ في احتكامهم إلى الطاغوت، وصدودهم عن كتابِ الله وسنةِ رسولهِ إذا دُعُوا إليها، «جَاؤوكَ»، يا محمدُ، حين فَعَلُوا ما فعلوا من مصيرهم إلى الطاغوتِ راضينَ بحكمهِ دون حُكْمِكَ، جاؤوكَ تائبينَ مُنيبينَ، فسألوا الله أنْ يصفحَ لهم عن عقوبةِ ذَنْبهم بتغطيته عليهم، وسألَ لهم الله رسولُه ﷺ مِثْلَ ذلك. وذلك هو معنى قوله: «فَاسْتَغْفَرُوا الله وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ الرَّسُولُ».

وأما قوله: «لَوَجَدُوا الله تَوَّاباً رَّحِيماً»، فإنه يقول: لو كانوا فعلوا ذلك فتابوا من ذَنْبِهم. «لَوَجَدُوا الله تَوَّاباً»، يقول: راجعاً لهم مما يَكرهونَ إلى ما يُحِبُّون. «رَّحِيماً» بهم، في تركهِ عقوبتَهم على ذَنْبِهم الذي تابُوا منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «فَلَا»، فليس الأمرُ كما يزعمون: أنهم يؤمنونَ بما

أُنزلَ إليكَ، وهم يتحاكمونَ إلى الطاغوتِ، ويصدّون عنك إذا دُعُوا إليك يا محمدُ ـ واستأنف القَسَمَ جَلَّ ذِكْرُه فقال: «وَرَبِّكَ»، يا محمدُ. «لَا يُؤْمِنُونَ»، أي: لا يُصَدِّقُونَ بَي وبكَ وبما أُنزلَ إليك. «حتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ»، يقول: حتى يجعلوكَ حَكَماً بينهم فيما اختلطَ بينهم من أمورِهم، فالتبسَ عليهم حُكْمُه.

«ثُمَّ لَا يَجِـدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجـاً مِّمَّا قَضَيْتَ»، يقول: لا يجدوا في أنفسهم ضِيقاً مما قضيتَ. وإنما معناه: ثم لا تُحْرَجَ أنفسُهم مما قضيتَ أي: لا تأثمْ بإنكارها ما قضيتَ، وشَكِّها في طاعتك، وأنَّ الذي قضيتَ به بينهم حقٌّ لا يجوزُ لهم خِلافُه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلـهِ تَعَـالَى: وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوٓا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ»، ولو أنَّا فرضنا على هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزلَ إليك، المحتكمين إلى الطاغوتِ، أنْ يَقْتُلُوا أنفُسَهُم وأمرناهم بذلك أو أنْ يخرجُوا من ديارهم مهاجرينَ منها إلى دارٍ أخرى سواها. «مَّا فَعَلُوهُ»، يقول: ما قَتَلُوا أنفسهم بأيديهم، ولا هاجروا من ديارِهم فيخرجوا عنها إلى الله ورسولِه، طاعةً لله ولرسولِه. «إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بذلك: ولو أنَّ هؤلاءِ المنافقينَ الذين يزعمونَ أنهم آمنوا

بما أُنزلَ إليك، وهم يتحاكمونَ إلى الطاغوتِ، ويَصُدُّونَ عنك صدوداً، «فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ»، يعني: ما يذكّرون به من طاعةِ الله والانتهاءِ إلى أمرِهِ. «لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ»، في عاجل دنياهم وآجل معادهم. «وأَشَدَّ تَثْبِيتاً»، وأثبت لهم في أمورهم، وأقوم لهم عليها. وذلك أنَّ المنافقَ يعملُ على شك، فَعَمَلُهُ يذهبُ باطلاً، وعناؤه يضمحلُّ فيصير هباءً، وهو بشكه يعمل على وناءٍ[1] وضَعْفٍ. ولو عَمِلَ على بصيرةٍ، لاكتسبَ بعمله أجراً، ولكان له عند الله ذُخْراً، وكان على عمله الذي يعملُ أقوى، ولنفسه أشدَّ تثبيتاً، لإيمانِه بوعدِ الله على طاعته، وعمله الذي يعمله. ولذلك قال مَنْ قال: معنى قوله: «وأَشَدَّ تَثْبِيتاً»، تصديقاً، لأنه إذا كان مُصَدِّقاً، كان لنفسه أشد تثبيتاً، ولعزمه فيه أشدّ تصحيحاً، وهو نظير قوله جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُم ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاةِ الله وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٦٧ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٦٨﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: ولو أنهم فَعَلُوا ما يُوعَظُونَ به لكان خيراً لهم، لإيتائنا إياهم على فِعْلِهم ما وُعِظُوا به من طَاعَتِنَا والانتهاءِ إلى أَمْرِنَا. «أجراً» يعني: جزاء وثواباً عظيماً ـ وأشد تثبيتاً لعزائمهم وآرائهم، وأقوى لهم على أعمالهم، لهدايتنا إياهم صِراطاً مستقيماً ـ يعني: طريقاً لا اعْوِجَاجَ فيه، وهو دينُ الله القويم الذي اختارهُ لعبادِه وشَرْعِه لهم، وذلك الإسلام.

ومعنى قوله: «وَلَهَدَيْنَاهُمْ»، ولوفَّقناهم للصراطِ المستقيم.

ثم ذَكَرَ جَلَّ ثناؤُهُ ما وَعَدَ أهلَ طاعتِهِ وطاعة رسولِهِ عليه السلام، من

---

(١) الونى والوناء: الكلال والإعياء والضعف.

الكرامةِ الدائمةِ لديه، والمنازلِ الرفيعةِ عنده، فقال: ﴿وَمَنْ يُطعِ الله والرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ الله عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ﴾ الآية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: «وَمَنْ يُطعِ الله والرَّسُولَ» بالتسليمِ لأمرهما، وإخلاص الرِّضَى بِحُكْمِهما، والانتهاء إلى أمرهما، والانزجارِ عما نهيا عنه من معصيةِ الله، فهو مع الذين أنعمَ الله عليهم بهدايتهِ والتوفيق لطاعته في الدنيا من أنبيائه، وفي الآخرة إذا دخل الجنة. «والصِّدِّيقِينَ» وهم جمع «صِدِّيق».

واختلف في معنى: «الصديقين»

فقال بعضهم: «الصديقون»، تُبَّاعُ الأنبياء الذين صدّقوهم واتبعوا مناهجهم بعدهم حتى لَحِقُوا بهم. فكأن «الصدِّيقَ»، «فعِيِّل»، على مذهبِ قائلي هذه المقالة، من «الصدق»، كما يقال: «رجل سِكّير» من «السُّكر»، إذا كان مُدْمناً على ذلك، و«شِرِّيبٌ»، و«خِمِّيرٌ».

وقال آخرون: بل هو «فِعِّيل» من «الصَّدَقة».

فإذْ كان ذلك كذلك، فالذي هو أولى بـ«الصديق»، أن يكون معناه: المصدِّق قوله بفعله. إذْ كان «الفعِّيل» في كلام العرب، إنما يأتي، إذا كانَ مأخوذاً من الفعل، بمعنى المبالغة، إمَّا في المدح، وإما في الذم، ومنه قولُه جَلَّ ثناؤُهُ في صفة مريم: ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥].

وإذا كان معنى ذلك ما وصفنا، كان داخلاً مَنْ كان موصوفاً بما قلنا في صِفَةِ المتصدقين والمصدقين.

«وَالشُّهَدَاءِ»، وهم جمع «شهيد»، وهو المقتولُ في سبيل الله، سُمِّيَ بذلك لقيامهِ بشهادةِ الحَقِّ في جَنْبِ الله حتى قتل.

«وَالصَّالِحِينَ»، وهم جَمْع «صالح»، وهو كُلُّ مَنْ صَلحتْ سريرتُه وعلانيته.

وأما قوله جَلَّ ثناؤُهُ: «وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً»، فإنه يعني: وحسن، هؤلاء الذين نعتهم ووصفهم، رفقاء في الجنة.

و«الرفيق» في لفظ واحدٍ بمعنى الجميع.

وأما قوله: «ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ الله»، فإنه يقول: كون مَنْ أطاعَ الله والرسول مع الذين أنعمَ الله عليهم من النَبِيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشهداء والصالحين. «الْفَضْلُ مِنَ الله»، يقول: ذلك عطاءُ الله إياهم وفضله عليهم، لا باستيجابِهم ذلكَ لسابقةٍ سَبَقَتْ لهم.

فإنْ قال قائلٌ: أَوَ ليسَ بالطاعةِ وَصَلُوا إلى ما وصلوا إليه من فضله؟

قيل له: إنهم لم يُطيعوه في الدنيا إلا بفضلهِ الذي تَفَضَّلَ به عليهم، فهداهم به لطاعتهِ، فكلُّ ذلك فضلٌ منه تعالى ذِكْرُه.

وقوله: «وَكَفَى بِالله عَلِيماً»، يقول: وحسب العباد بالله الذي خلقهم. «عَلِيماً» بطاعةِ المطيعِ منهم ومعصيةِ العاصي، فإنه لا يَخْفَى عليه شيءٌ من ذلك، ولكنه يُحْصيهِ عليهم ويحفظه، حتى يجازي جميعهم، جزاءَ المحسنينَ منهم بالإحسان، والمسيئينَ منهم بالإساءةِ، ويعفو عَمَّنْ شاءَ من أهلِ التوحيد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ۝٧١﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا»: صدَّقوا الله ورسوله. «خُذُوا حِذْرَكُمْ» خذوا جُنَّتَكُم وأسلحتَكُم التي تَتَّقُونَ بها من عَدُوِّكُم لغزوهم وحربهم. «فَانْفِرُوا إليهم ثُبَاتٍ».

وهي جمعُ «ثُبة»، و«الثبة»، العُصْبة.

ومعنى الكلام: فانفروا إلى عَدُوِّكُم جماعةً بعد جماعةٍ متسلحينَ.

«أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً»، يقول: أو انفروا جميعاً مع نَبِيِّكُم ﷺ لقتالهم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ۝٧٢﴾

وهـذا نَعْتٌ من الله تعـالى ذِكْرُهُ للمنافقينَ، نعتهم لنبيه ﷺ وأصحابه ووصفهم بصفتهم فقـال: «وَإِنَّ مِنكُمْ»، أيها المؤمنون، يعني: من عِدَادكم وقومكم، ومَنْ يتشَّبه بكم، ويُظْهِر أنه من أهلِ دعوتكم ومِلَّتكم، وهو منافقٌ يُبَطِّئُ مَنْ أطاعه منكم عن جهادِ عَدُوِّكُم وقتالهم إذا أنتم نَفرتُمْ إليهم. «فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ»، يقول: فإنْ أصابتكم هزيمةٌ، أو نالكم قَتْلٌ أو جِراحٌ من عدوكم. «قَالَ قَدْ أَنْعَمَ الله عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيداً»، فيصيبني جراحُ أو ألمٌ أو قتلٌ، وسَرَّهُ تَخَلُّفهُ عنكم، شَماتةً بكم، لأنه من أهلِ الشكِّ في وَعْدِ الله الذي وعدَ المؤمنينَ على ما نالهم في سبيله من الأجرِ والثواب، وفي وعيده، فهو غيرُ راجٍ ثواباً، ولا خائف عقاباً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ: «وَلَئِنْ أَصابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ الله»، ولئن أَظْفَرَكُم الله بعدوِّكم فأصبتمْ منهم غنيمةً، ليقولَنَّ هذا المُبَطِّئُ المسلمينَ عن الجهادِ معكم في سبيل الله، المنافقُ. «كَأَن لَّمْ يَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ»، بما أُصيبُ معهم من الغنيمة. «فَوْزاً عَظِيماً».

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ عن هؤلاء المنافقين: أنَّ شُهودَهم الحربَ مع المسلمينَ إنْ شَهِدُوها، لطلبِ الغنيمةِ وإنْ تخلَّفوا عنها، فللشَكِّ الذي في قلوبهم، وأنهم لا يرجون لحضورها ثواباً، ولا يخافونَ بالتخلُّفِ عنها من الله عقاباً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾

وهذا حَضٌّ من الله المؤمنينَ على جهادِ عَدُوِّهِ من أهلِ الكفرِ به على أحايينهم غالبينَ كانوا أو مغلوبين، والتهاونِ بأقوالِ المنافقين في جهادِ مَنْ جاهدوا من المشركين وأنَّ لهم في جهادهم إياهم ـ مغلوبين كانوا أو غالبين ـ منزلةً من الله رفيعة.

يقول الله لهم جَلَّ ثناؤُهُ: «فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ»، يعني: في دِينِ الله والدعاء إليه، والدخول فيما أمر به أهلَ الكفر به. «الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ»، يعني: الذين يبيعونَ حياتهم الدنيا بثوابِ الآخرةِ وما وَعَدَ الله أهلَ طاعته فيها. وبيعُهم إياها بها: إنفاقهم أموالهم في طلبِ رضى الله، لجهادِ مَنْ أمر بجهادِهِ من أعدائهِ وأعداءِ دينهِ، وبَذْلهم مُهَجَهُم له في ذلك.

أخبر جَلَّ ثناؤُهُ بما لهم في ذلك إذا فعلوه فقال: «وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً»، يقول: ومَنْ يقاتل - في طلب إقامةِ دينِ الله وإعلاءِ كلمةِ الله - أعداءَ الله. «فَيُقْتَلْ»، يقول: فيقتلهُ أعداءُ الله، أو يغلبهم فيظفر بهم. «فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً»، يقول: فسوف نُعطيه في الآخرةِ ثواباً وأجراً عظيماً. وليس لما سَمَّى جَلَّ ثناؤُهُ «عَظِيماً»، مقدارٌ يعرفُ مَبْلَغَهُ عبادُ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ۝٧٥﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: «وَمَا لَكُمْ» أيها المؤمنون. «لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ»، وفي «المستضعفين»، يقول: عن المستضعفين منكم. «مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ وَٱلْوِلْدَانِ»، فأمَّا من «ٱلرِّجَالِ»، فإنهم كانوا قد أسلموا بمكة، فَغَلَبتهم عشائرهم على أنفسهم بالقهر لهم، وآذوهم، ونالوهم بالعذابِ والمكارهِ في أبدانهم لِيَفْتِنُوهُم عن دِينهم، فَحَضَّ الله المؤمنينَ على استنقاذِهم من أيدي مَنْ قد غَلَبهم على أنفسهم من الكفار، فقال لهم: وما شأنكم لا تقاتلونَ في سبيلِ الله، وعن مُسْتَضْعَفِي أهلِ دِينكم ومِلَّتِكم الذين قد استضعفهم الكفارُ

فاستذلُّوهم ابتغاءَ فتنتهم وصَدِّهم عن دينهم؟. «مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ وَٱلْوِلْدَانِ»، جمع «ولد»: وهم الصبيان. «ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا»، يعني بذلك أنَّ هؤلاء المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، يقولون في دعائهم رَبَّهم بأنْ يُنجيهم من فتنةِ مَنْ قد استضعفهم من المشركينَ: «يا رَبَّنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها».

«وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا»، يعني: أنهم يقولون أيضاً في دعائهم: يا رَبَّنا، واجعلْ لنا من عندك وليًّا، يَلِي أمْرَنا بالكفايةِ مما نحنُ فيه من فتنةِ أهلِ الكُفْرِ بكَ. «وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ نَصِيراً»، يقولون: واجعلْ لنا من عندك مَنْ ينصرنا على مَنْ ظَلَمنا من أهلِ هذه القريةِ الظالمِ أهلها، بِصَدِّهم إيَّانا عن سبيلكَ، حتى تُظْفِرَنا بهم، وتُعْلِي دِينكَ.

القَوْلُ فِي تَأْويل قَوْلِهِ تَعَالَى: «ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾

قال أبو جعفر:

يعني تعالى ذِكْرُهُ: الذين صَدَّقُوا الله ورسولَهُ، وأيقنوا بموعودِ الله لأهلِ الإيمانِ به. «يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللهِ»، يقول: في طاعةِ الله ومنهاجِ دِينهِ وشريعتهِ التي شرعَهَا لعبادِهِ. «وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّاغُوتِ»، يقول: والذين جَحَدُوا وحدانيةَ الله وكَذَّبُوا رسولَهُ وما جاءهم به من عند رَبِّهم «يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّاغُوتِ»، يعني: في طاعةِ الشيطانِ وطريقهِ ومنهاجهِ الذي شَرعَهُ لأوليائهِ من أهلِ الكفر بالله. يقولُ الله، مُقَوِّياً عَزْمَ المؤمنينَ به من أصحابِ رسولِ الله ﷺ، ومُحَرِّضَهُمْ على أعدائهِ وأعداءِ دينهِ من أهلِ الشركِ به:

«فَقَاتِلُوا» أيها المؤمنون، «أَوْلِيَاءَ ٱلشَّيْطَانِ»، يعني بذلك: الذين يتولَّونه ويُطيعونَ أمْرَهُ، في خلاف طاعة الله، والتكذيب به، وينصرونه. «إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً»، يعني بكيده: ما كادَ به المؤمنينَ، من تحزيبِهِ أولياءَهُ من الكفارِ بالله على رسولِهِ وأوليائهِ أهلِ الإيمان به. يقول: فلا تَهابُوا أولياءَ الشيطان، فإنما هم حِزْبُه وأنصارهُ، وحزبُ الشيطانِ أهلُ وَهَنٍ وضَعْف.

وإنما وصفهم جَلَّ ثناؤهُ بالضَّعْفِ، لأنهم لا يقاتلون رجاءَ ثوابٍ، ولا يتركون القتالَ خوفَ عقابٍ، وإنما يقاتلون حَمِيَّةً أو حَسَداً للمؤمنينَ على ما آتاهم الله من فضله. والمؤمنون يقاتلُ مَن قاتلَ منهم رجاءَ العظيمِ من ثوابِ الله، ويتركُ القتالَ إنْ تركه على خوفٍ من وعيدِ الله في تركهِ، فهو يقاتلُ على بصيرةٍ بما لَهُ عندَ الله إنْ قُتِلَ، وبما له من الغنيمةِ والظَّفَرِ إنْ سَلِمَ. والكافرُ يُقاتلُ على حَذَرٍ من القتلِ، وإياسٍ من مَعادٍ، فهو ذُو ضَعْفٍ وخوف.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ**

ذُكِرَ أنَّ هذه الآيةَ نزلتْ في قومٍ من أصحابِ رسول الله ﷺ كانوا قد آمنوا به وصَدَّقُوه قبلَ أنْ يفرضَ عليهم الجهاد، وقد فرض عليهم الصلاة والزكاة، وكانوا يسألون الله أن يفرضَ عليهم القتالَ، فلما فَرَضَ عليهم القتالَ شَقَّ عليهم ذلك، وقالوا ما أخبرَ الله عنهم في كتابه.

فتأويل قوله: «أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُم»، ألم تَرَ بقلبك، يا محمد، فتعلم «إِلَىٰ ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ»، من أصحابكَ حين سألوكَ أنْ تسألَ رَبَّكَ أن يفرض عليهم القتال. «كُفُّوا أَيْدِيَكُم»، فأمسكوها عن قتالِ المشركينَ

وحربهم. «وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ»، يقول: وأدُّوا الصلاةَ التي فَرَضَها الله عليكم بحدودها. «وآتُوا ٱلزَّكَاةَ»، يقول: وأعطوا الزكاة أهلَها الذين جعلها الله لهم من أموالِكم، تطهيراً لأبدانكم وأموالِكم، كَرِهُوا ما أُمِرُوا به من كَفِّ الأيدي عن قتالِ المشركينَ وشَقَّ ذلك عليهم. «فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ»، يقول: فلما فُرِضَ عليهم القتالُ الذي كانوا سألوا أنْ يُفْرَضَ عليهم. «إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ»، يعني: جماعةٌ منهم. «يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ»، يقول: يخافون الناسَ أنْ يقاتلوهم «كَخَشْيَةِ ٱللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً»، أو أشد خوفاً، وقالوا جزعاً من القتال الذي فرض الله عليهم: «لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ»، لِمَ فرضتَ علينا القتالَ؟ رُكوناً منهم إلى الدنيا، وإيثاراً للدَّعَةِ فيها والخَفْضِ، على مكروهِ لقاءِ العدوِّ ومشقةِ حربهم وقتالهم. «لَوْلَآ أَخَّرْتَنَا»، يخبر عنهم، قالوا: هَلَّا أخَّرتنا «إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ»، يعني: إلى أنْ يموتوا على فُرُشِهم وفي منازلهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «قُلْ مَتَاعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ»، قُلْ، يا محمدُ، لهؤلاء القومِ الذين قالوا: «رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَا إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ»: عيشكم في الدنيا وَتَمتُّعكم بها قليلٌ، لأنها فانيةٌ وما فيها فانٍ. «وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ»، يعني: ونعيمُ الآخرةِ خير، لأنها باقية ونعيمها باقٍ دائم. وإنما قيل: «وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ»، ومعنى الكلام ما وصفت، من أنه معنيٌّ به نعيمها ـ لدلالة ذِكْرِ «الآخرة» بالذي ذكرت به، على المعنى المراد منه. «لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ»، يعني: لمن اتقى الله بأداءِ فرائضهِ واجتنابِ معاصيه، فأطاعه في كل ذلك. «وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا»، يعني: ولا ينقصكم الله من أجورِ أعمالِكم فتيلا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْله تَعالَى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: حيثما تكونوا يَنَلْكُم الموتُ فتموتوا. «وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ»، يقول: لاتجزعوا من الموتِ، ولا تهربوا من القتالِ، وتَضْعُفوا عن لقاءِ عدوِّكم، حَذَراً على أنفسكم من القتلِ والموتِ، فإنَّ الموتَ بإزائكم أين كنتم، وواصلٌ إلى أنفسكم حيثُ كنتم، ولو تَحَصَّنْتُم منه بالحصونِ المنيعة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ»، وإنْ يَنَلْهُم رخاءٌ وظَفَرٌ ويُصيبوا غنيمةً. «يَقُولوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ»، يعني: من قِبَلِ الله ومن تقديرِهِ. «وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ»، يقول: وإنْ تَنَلْهُم شِدَّةٌ من عيشٍ وهزيمةٌ من عدوٍ وجراحٍ وألم، يقولوا لك يا محمد: «هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ»، بخطئك التدبير.

وإنما هذا خبر من الله تعالى ذِكْرُهُ عن الذين قال فيهم لنبيه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُم﴾.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ ٱللهِ»، قل، يا محمد، لهؤلاء

القائلين إذا أصابتهم حَسَنةٌ: «هَذِهِ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ»، وإذا أصابتهم سيئة: «هَذِهِ مِنْ عِنْـدِكَ». كُلُّ ذلـك من عنـد الله، دوني ودونَ غيري، مِنْ عنده الرخاءُ والشدةُ، ومنه النصرُ والظفرُ، ومن عنده الفَلُّ والهزيمة.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ۝٧٨﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «فَمَالِ هَٰٓؤُلَاءِ ٱلْقَوْمِ»، فما شأنُ هؤلاء القوم الذين إنْ تُصبهم حسنةٌ يقولوا: «هَذِهِ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ»، وإنْ تُصبهم سيئةٌ يقولوا: «هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ». «لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً»، يقول: لا يكادون يعلمونَ حقيقةَ ما تُخْبِرُهم به، مِنْ أنَّ كُلَّ ما أصابَهم من خيرٍ أو شر، أو ضرٍّ وشدة ورخاء، فمن عند الله، لا يقدرُ على ذلك غيرهُ، ولا يصيبُ أحداً سيئةٌ إلَّا بتقديرِهِ، ولا ينالُ رخاءً ونعمة إلا بمشيئتهِ.

وهذا إعلامٌ من الله عبادَهُ أنَّ مفاتحَ الأشياءِ كُلَّها بيدِهِ، لا يملكُ شيئاً منها أحدٌ غيره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَّفْسِكَ»، ما يُصِيبُكَ، يا محمد، من رخاءٍ ونعمةٍ وعافيةٍ وسلامة، فَمِنْ فضلِ الله عليكَ، يتفضلُ به عليكَ إحساناً منه إليكَ، وأما قوله: «وَمَا أَصَـابَـكَ مِن سَيِّئَـةٍ فَمِنْ نَّفْسِكَ»، يعني: وما أصابك من شِدَّةٍ ومَشَقَّةٍ وأذى ومكروه. «فَمِنْ نَّفْسِكَ»، يعني: بذنبٍ استوجبتها به، اكتسبته نفسك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ۝٧٩﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً»، إنما جعلناكَ، يا محمدُ، رسولاً بيننا وبين الخَلْقِ، تُبَلِّغُهم ما أرسلناكَ به من رسالة، وليس عليكَ غيرُ البلاغ وأداء الرسالة إلى مَنْ أرسلت، فإنْ قَبِلُوا ما أُرسلتَ به فلأنفسهم، وإنْ رَدُّوا فعليها. «وَكَفَىٰ بِاللهِ» عليكَ وعليهم. «شَهِيداً»، يقول: حسبك الله تعالى ذِكْرُهُ، شاهداً عليكَ في بلاغك ما أَمَرْتُكَ ببلاغهِ من رسالته ووحيه، وعلى مَنْ أُرسلتَ إليه في قبولهم منك ما أرسلت به إليهم، فإنه لا يخفى عليه أَمْرُكَ وأمرهم، وهو مُجازيكَ ببلاغك ما وعدَكَ، ومُجَازِيهم ما عملوا من خيرٍ وشر، جزاء المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۝٨٠﴾

وهذا إعذارٌ من الله إلى خَلْقِه في نبيه محمدٍ ﷺ، يقول الله تعالى ذِكْرُهُ لهم: مَنْ يُطِعْ منكم، أيها الناسُ، محمداً فقد أطاعني بطاعته إياه، فاسمعوا قولَهُ وأطيعوا أمرَهُ، فإنه مهما يأمركم به من شيءٍ فمن أمري يأمركم، وما نهاكم عنه من شيءٍ فمن نَهْيِي، فلا يقولنَّ أحدكم: «إنما محمد بشرٌ مثلنا يريدُ أنْ يتفضَّلَ علينا»!

ثم قال جَلَّ ثناؤُهُ لنبيه: ومَنْ تولَّى عن طاعتكَ، يا محمدُ، فأَعْرَضَ عنك، فإنَّا لم نُرسِلكَ عليهم «حَفِيظاً»، يعني: حافظاً لما يعلمون محاسباً، بل إنما أرسلناكَ لِتُبَيِّنَ لهم ما نُزِّلَ إليهم، وكفى بنا حافظين لأعمالهم، ولهم عليها محاسبين.

ونزلت هذه الآية، فيما ذكر، قبل أن يؤمر بالجهاد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ»، يعني: الفريق الذين أخبر الله عنهم أنهم لما كُتِبَ عليهم القتالُ خَشُوا الناسَ كخشيةِ الله أو أشد خشية، يقولون لنبيِّ الله ﷺ إذا أمرهم بأمرٍ: أَمْرُكَ طاعةٌ، ولكَ منا طاعةٌ فيما تأمرنا به وتنهانا عنه. «فَإِذا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ»، يقول: فإذا خرجوا من عندك، يا محمد «بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِي تَقُولُ»، يعني: بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: غيَّرَ جماعةٌ منهم ليلاً الذي تقولُ لهم.

يقول الله جَلَّ ثناؤُهُ: «وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ»، يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: والله يكتب ما يُغَيِّرُونَ من قولك ليلاً في كُتب أعمالهم التي تكتبها حَفَظَتُه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٨١﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ لمحمدٍ ﷺ: «فَأَعْرِضْ»، يا محمدُ، عن هؤلاء المنافقينَ الذين يقولون لكَ فيما تأمرهم: «أمرك طاعة»، فإذا برزوا من عندك خالفُوا ما أمرتهم به، وغيَّروهُ إلى ما نَهيتَهُمْ عنه، وخَلِّهِمْ وما هُمْ عليهِ من الضلالةِ، وارْضَ لهم بي منتقماً منهم. «وَتَوَكَّلْ» أنتَ يا محمدُ. «عَلَىٰ ٱللهِ»، يقول: وفَوِّضْ أنتَ أمركَ إلى الله، وثِقْ به في أمورك، وَوَلِّهَا إياهُ. «وَكَفَىٰ بِٱللهِ وَكِيلاً»، يقول: وكفاكَ بالله. أي: وحسبك بالله. «وَكِيلًا»، أي: فيما يأمرك، ووليًّا لها، ودافعاً عنك وناصراً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْآنَ»، أفلا يتدبرُ المُبَيِّتُونَ غيرَ الذي تقولُ لهم، يا محمدُ، كتابَ الله، فيعلموا حُجَّةَ الله عليهم في طاعتك واتباع أمرك، وأنَّ الذي أتيتهم به من التنزيلِ من عند رَبِّهم، لاتِّساقِ معانيه، وائتلافِ أحكامه، وتأييد بعضه بعضاً بالتصديق، وشهادة بعضه لبعضٍ بالتحقيق، فإنَّ ذلك لو كان من عند غيرِ الله لاختلفتْ أحكامُه، وتَناقضتْ معانيه، وأبانَ بعضُه عن فسادِ بعض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ»، وإذا جاء هذه الطائفة المبيِّتة غيرَ الذي يقولُ رسولُ الله ﷺ. «أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ»، فالهاء والميم في قوله: «وَإِذَا جَاءَهُمْ»، من ذِكْرِ الطائفةِ المُبَيِّتة. يقولُ جَلَّ ثناؤُهُ: وإذا جاءهم خبرٌ عن سريةٍ للمسلمينَ غازية بأنهم قد أمنوا من عدوهم بغلبتهم إياهم. «أَوِ ٱلْخَوْفِ»، يقول: أو تخوّفهم من عدوهم بإصابةِ عدوهم منهم. «أَذَاعُوا بِهِ»، يقول: أفشوه وبَثُّوهُ في الناس قبل رسول الله ﷺ، وقبل مأتَى سرايا رسول الله ﷺ. و«الهاء» في قوله: «أَذَاعُوا بِهِ»، من ذِكْرِ «الأمر». وتأويله: أذاعوا بالأمر من الأمن أو الخوف الذي جاءهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ

﴿مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقولـه: «وَلَـوْ رَدُّوهُ»، الأمـر الذي نالهم من عَدُوِّهم والمسلمين، إلى رسـولِ الله ﷺ وإلى أولي أمرِهم - يعني: وإلى أمرائهم - وسكتوا فلم يُذِيعُوا ما جاءهم من الخبر، حتى يكون رسول الله ﷺ، أو ذَوُو أمْرِهم، هم الذين يتولَّون الخبرَ عن ذلك، بعد أن تَثْبُتَ عندهم صِحَّتُه أو بُطُولُـه، فَيُصَحِّحُوه إنْ كان صحيحاً، أو يُبْطِلُوه إنْ كان باطلاً «لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَـهُ مِنْهُمْ»، يقول: لَعَلِمَ حقيقةَ ذلك الخبر الذي جاءهم به، الذين يبحثون عنه ويستخرجونه. «مِنْهُمْ»، يعني: أولى الأمر - «والهاء» «والميم» في قوله: «مِنْهُمْ»، من ذكر أولي الأمر - يقول: لعلم ذلك من أولي الأمر مَنْ يستنبطه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٣﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: ولولا إنعامُ الله عليكم، أيها المؤمنونَ، بفضلهِ وتوفيقهِ ورحمتهِ، فأنقذكم مما ابتلى به هؤلاء المنافقينَ - الذين يقولون لرسول الله ﷺ إذا أمرهم بأمر: «طاعة»، فإذا برزوا من عنده بَيَّتَ طائفةٌ منهم غيرَ الذي يَقول - لكنتم مِثْلَهُم، فاتَّبعتُم الشيطانَ إلا قليلا، كما اتَّبعهُ هؤلاء الذين وَصَفَ صِفَتهم.

وخـاطب بقوله تعالى ذِكْرُهُ: «وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَانَ»، الذينَ خاطبهم بقولهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَٱنْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ ٱنْفِرُوا جَمِيعاً﴾ [النساء: ٧١].

ثم اختلف أهلُ التأويل في «القليل»، الذين استثناهم في هذه الآية: من هم؟ ومن أيِّ شيء من الصفات استثناهم؟

فقال بعضهم: هم المستنبطون من أولي الأمر، استثناهم من قوله: «لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ»، ونفى عنهم أنْ يعلموا بالاستنباطِ ما يعلمُ به غيرهم من المستنبطين من الخبرِ الواردِ عليهم من الأمنِ أو الخوف.

وقال آخرون: بل هم الطائفةُ الذين وصفهم الله أنهم يقولونَ لرسولِ الله ﷺ: «طاعة»، فإذا برزوا من عنده بَيَّتُوا غيرَ الذي قالوا. ومعنى الكلام: وإذا جاءهم أمرٌ من الأمن أو الخوف أذاعوا به إلَّا قليلاً منهم.

وقال آخرون: بل ذلك استثناءٌ من قوله: «لَاتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَانَ». وقالوا: الذين استثنوا هم قومٌ لم يكونوا هَمُّوا بما كانَ الآخرون هَمُّوا به من اتباع الشيطان. فَعرَّفَ الله الذين أنقذهم من ذلك موقعَ نعمتِهِ منهم، واستثنى الآخرينَ الذين لم يكن منهم في ذلك ما كان من الآخرين.

وقال آخرون معنى ذلك: ولولا فضلُ الله عليكم ورحمته لاتَّبعتُم الشيطانَ جميعاً. قالوا: وقوله: «إِلَّا قَلِيلًا»، خرجَ مخرجَ الاستثناء في اللفظ، وهو دليل على الجميع والإحاطة، وأنه لولا فضلُ الله عليهم ورحمته لم يَنْجُ أحدٌ من الضلالة، فجعل قوله: «إِلَّا قَلِيلًا»، دليلاً على الإحاطةِ، واستشهدوا على ذلك بقول الطرِمّاح بن حكيم[1]، في مدح يزيد بن المهلب:

أَشَمُّ كَثِيرُ يُدِيِّ النَّوَالِ ... قَلِيلُ المَثَالِبِ وَالقَادِحَه

قالوا: فظاهرُ هذا القولِ وصفُ الممدوحِ بأنَّ فيه المثالب والمعايب، ومعلومٌ أنَّ معناه أنه لا مثالبَ فيه ولا معايبَ. لأنَّ مَنْ وصفَ رجلاً بأنَّ فيه معايب، وإن وصف الذي فيه من المعايب بالقلة، فإنما ذمَّه ولم يمدحه. ولكن

(١) ديوانه ١٣٩.

ذلك على ما وصفنا من نفي جميع المعايب عنه. قالوا: فكذلك قوله: «لَاتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا»، إنما معناه: لاتبعتم جميعكم الشيطان.

وأولى هذه الأقوالِ بالصوابِ في ذلك عندي، قولُ مَنْ قال: عنى باستثناء «القليل» من «الإذاعة»، وقال: معنى الكلام: وإذا جاءهم أمرٌ من الأمن أو الخوف أذاعوا به إلاَّ قليلاً، ولو رَدُّوه إلى الرسول.

وإنما قلنا إن ذلك أوْلى بالصواب، لأنه لا يخلو القولُ في ذلك من أحد الأقوال التي ذكرنا. وغير جائز أن يكون من قوله: «لَاتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَانَ»، لأن مَنْ تَفَضَّلَ الله عليه بفضله ورحمته، فغيرُ جائزٍ أنْ يكون من تُبَّاع الشيطان.

وغيرُ جائزٍ أن نحملَ معاني كتاب الله على غير الأغلبِ المفهوم بالظاهر من الخطابِ في كلام العرب، ولنا إلى حمل ذلك على الأغلب من كلام العرب، سبيل، فنوجِّهه إلى المعنى الذي وجهه إليه القائلون: «معنى ذلك: لاتبعتمُ الشيطان جميعاً»، ثم زعم أن قوله: «إِلَّا قَلِيلًا»، دليل على الإحاطة بالجميع. هذا مع خروجه من تأويل أهل التأويل.

وكذلك لا وجهَ لتوجيهِ ذلك إلى الاستثناء من قوله: «لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ»، لأنَّ عِلْمَ ذلك إذا رُدَّ إلى الرسولِ وإلى أولي الأمر منهم، فبيَّنه رسولُ الله ﷺ وأولُو الأمرِ منهم بعد وضوحهِ لهم، استوى في عِلْمِ ذلك كل مستنبطٍ حقيقتَه، فلا وجهَ لاستثناء بعض المستنبطين منهم، وخصوصِ بعضهم بعلمهِ، مع استواءِ جميعِهم في علمه.

وإذْ كان لا قولَ في ذلك إلاَّ ما قلنا، ودخَل هذه الأقوالَ الثلاثةَ ما بَيَّنَّا من الخلل، فَبَيِّنٌ أنَّ الصحيحَ من القولِ في ذلك هو الرابع، وهو القول الذي قضينا له بالصواب من الاستثناء من «الإذاعة».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تعالَى: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ٨٤﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ»، فجاهد، يا محمدُ، أعداءَ الله من أهلِ الشركِ به. «فِي سَبِيلِ ٱللهِ»، يعني: في دينه الذي شرعَهُ لكَ، وهو الإسلامُ، وقاتلهم فيه بنفسك.

فأما قوله: «لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ» فإنه يعني: لا يكلفك الله فيما فرضَ عليكَ من جهادِ عدوِّهِ وعدوك، إلا ما حَمَّلكَ من ذلك دون ما حَمَّلَ غيرَكَ منه، أي: أنك إنما تُتَّبع بما اكتسبته دون ما اكتسبه غيرك، وإنما عليك ما كُلِّفْتَهُ دون ما كُلِّفَهُ غيرُكَ.

ثم قال له: «وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ»، يعني: وحُضَّهُمْ على قتالِ مَنْ أَمَرْتُكَ يقتالِهم معكَ. «عَسَى ٱللهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا»، يقول: لعلَّ الله أنْ يكفَّ قتالَ مَنْ كفرَ بالله وجحد وحدانيته وأنكر رسالتك، عنك وعنهم، ونكايتهم.

«وَٱللهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً»، يقول: والله أشد نكايةً في عدوه، من أهل الكفرِ به، منهم فيكَ يا محمدُ وفي أصحابك، فلا تَنْكُلَنَّ عن قِتالهم، فإني راصِدُهم بالبأسِ والنكايةِ والتنكيلِ والعقوبةِ، لأُوهِنَ كيدَهم، وأُضْعِفَ بأسَهم، وأُعْلِي الحقَّ عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تعالَى: ﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا»، من يَصِرْ، يا محمد، شَفْعاً لوتر أصحابك[1]، فيشفعهم في جهاد عدوهم وقتالهم في سبيل الله، وهو «الشفاعة الحسنة». «يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا»، يقول: يكن له من شفاعتهِ تلكَ نصيبٌ ـ وهو الحَظُّ ـ من ثوابِ الله وجزيلِ كرامته. «وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً»، يقول: ومَنْ يشفع وتر أهل الكفر بالله على المؤمنين به، فيقاتلهم معهم، وذلك هو «الشفاعة السيئة». «يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا».

يعني: بـ «الكِفْل»، النصيب والحظ من الوزر والإثم. وهو مأخوذٌ من «كِفل البعير والمركب»، وهو الكساءُ أو الشيء يُهَيَّأُ عليه شَبِيهٌ بالسرجِ على الدابة. يقال منه: «جاء فلان مكتَفلاً»، إذا جاء على مركب قد وُطِّئ له ـ على ما بَيَّنَّا ـ لركوبه[2].

وقد قيل إنه عَنَى بقوله: «مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا» الآية، شفاعةَ الناسِ بعضهم لبعض. وغير مُسْتَنْكَرٍ أنْ تكونَ الآيةُ نزلت فيما ذكرنا، ثم عُمَّ بذلك كل شافعٍ بخيرٍ أو شر.

وإنما اخترنا ما قلنا من القولِ في ذلك، لأنه في سياق الآية التي أمر الله نبيه ﷺ فيها بحضِّ المؤمنين على القتال، فكان ذلك بالوعد لمن أجاب رسولَ الله ﷺ، والوعيد لمن أبى إجابته، أشبه منه من الحثِّ على شفاعةِ الناسِ بعضهم لبعض، التي لم يجر لها ذِكْرٌ قَبْلُ، ولا لها ذِكْرٌ بَعْدُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾

---

(١) أي معيناً لهم.

(٢) انظر مجاز القرآن لأبي عبيدة: ١/١٣٥.

ومعنى «المقيت»، القدير. وذلك أنَّ ذلك فيما يُذكر، كذلك بلغة قريش.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وَإِذَا حُيِيتُمْ بتَحِيَّةٍ»، إذا دُعِيَ لكم بطولِ الحياةِ والبقاءِ والسلامةِ. «فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْها أَوْ رُدُّوهَا»، يقول: فادعوا لمن دعا لكم بذلك بأحسن مما دعا لكم. «أَوْ رُدُّوهَا»، يقول: أو ردُّوا التحيةَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: إنَّ الله كان على كل شيءٍ مما تعملون، أيها الناس، من الأعمالِ، من طاعةٍ ومعصيةٍ، حفيظاً عليكم، حتى يجازيكم بها جزاءه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «آللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ»، المعبود الذي لا تنبغي العُبودةُ إلَّا لَهُ، هو الذي له عبادةُ كُلِّ شيءٍ وطاعة كل طائع.

وقوله: «لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ»، يقول: لَيَبْعَثَنَّكُمْ من بعد مَماتِكم، وليحشرنَّكم جميعاً إلى موقفِ الحسابِ الذي يجازي الناس فيه بأعمالهم، ويقضي فيه بين أهلِ طاعته ومعصيته، وأهل الإيمان به والكفر. «لَا رَيْبَ فِيهِ»، يقول: لاشكَّ في حقيقة ما أقولُ لكم من ذلك وأُخبركم من خبري: أنّي

جامِعُكُم إلى يوم القيامـة بعد مماتكم. «وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللهِ حَدِيثاً»، يعني بذلك: فاعلموا حقيقةَ ما أُخبركم من الخبرِ، فإني جامعكم إلى يومِ القيامةِ للجزاءِ والعرضِ والحساب والثواب والعقاب يقيناً، فلا تشكوا في صحته ولا تمتـروا في حقيقتـه، فإنَّ قولي الصـدق الذي لا كذبَ فيه، ووعدي الصدق الذي لا خُلْفَ له ـ «وَمَنْ أَصْـدَقُ مِنَ ٱللهِ حَدِيثاً»، يقول: وأيّ ناطقٍ أصدق من الله حديثاً؟ وذلك أنَّ الكاذبَ إنما يكذبُ ليجتلبَ بكذبهِ إلى نفسه نفعاً، أو يدفع به عنها ضراً. والله تعالى ذِكْرُهُ خالقُ الضُرِّ والنفعِ، فغيرُ جائز أنْ يكون منه كَذِبٌ، لأنه لا يدعوه إلى اجتلابِ نفعٍ إلى نفسهِ أو دفعِ ضُرٍّ عنها داعٍ. وما مِنْ أحدٍ لايدعوه داعٍ إلى اجتلابِ نفعٍ إلى نفسه، أو دفع ضُرٍّ عنها، سواه تعالى ذِكْرُهُ، فيجوز أنْ يكون له في استحالة الكذب منه نظيراً، فقال: «وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللهِ حَدِيثاً»، وخبراً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ۚ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «فَمَا لَكُم فِي ٱلْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْن»، فما شأنكم، أيها المؤمنون، في أهلِ النفاق فئتين مختلفتين. «وَٱللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا»، يعني بذلك: والله رَدَّهم إلى أحكامِ أهلِ الشركِ، في إباحةِ دمائهم وسَبْي ذَرارِيهم.

و«الإركاس» الردُّ.

(وقد) نزلت هذه الآية في اختلافِ أصحاب رسولِ الله ﷺ في قومٍ كانوا ارتدُّوا عن الإسلامِ بعد إسلامهم من أهلِ مكة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن

﴿يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ۝٨٨﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «أَتُرِيدُونَ أن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ ٱلله»، أتريدون أيها المؤمنون، أن تهدوا إلى الإسلامِ فتوفقوا للإقرارِ به والدخولِ فيه، مَنْ أَضَلَّهُ الله عنه. يعني بذلك: مَنْ خَذَله الله عنه، فلم يوفقه للإقرار به؟

وإنما هذا خطابٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ للفئةِ التي دافعت عن هؤلاء المنافقين الذين وَصَفَ الله صِفَتهم في هذه الآية. يقول لهم جَلَّ ثناؤُهُ: أتبغون هدايةَ هؤلاء الذين أضَلَّهم الله فخذلهم عن الحق واتباع الإسلام، بمدافعتكم عن قتالهم مَنْ أرادَ قتالَهم من المؤمنين؟. «وَمَن يُضْلِلِ ٱلله فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا»، يقول: ومَن خذله عن دينهِ واتِّباع ما أمرهُ به، من الإقرارِ به وبنبيِّه محمدٍ ﷺ وما جاء به من عنده، فأضَلَّهُ عنه. «فَلَن تَجِدَ لَهُ»، يا محمد، «سَبِيلًا»، يقول: فلن تجدَ له طريقاً تهديه فيها إلى إدراكِ ما خذله الله عنه، ولا منهجاً يصلُ منه إلى الأمرِ الذي قد حرمه الوصول إليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾

يعني جَلَّ ثناؤهُ بقوله: «وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا»، تمنَّى هؤلاء المنافقون الذين أنتم، أيها المؤمنون، فيهم فئتانِ أنْ تكفروا فتجحدوا وحدانيةَ رَبِّكم، وتصديقَ نبيِّكم محمدٍ ﷺ. «كَمَا كَفَرُوا»، يقول: كما جَحَدُوا هم ذلك. «فَتَكُونُونَ سَوَاءً»، يقول: فتكونون كُفَّاراً مثلهم، وتَستوونَ أنتم وهم في الشركِ بالله. «فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ ٱلله»، يقول: حتى يخرجُوا من دارِ الشركِ ويفارقوا أهلها الذين هم بالله مشركون، إلى دارِ

الإسلام وأهلِها. «فِي سَبِيلِ ٱللهِ»، يعني: في ابتغاء دينِ الله، وهو سبيلُه، فيصيروا عند ذلك مثلكم، ويكون لهم حينئذٍ حُكْمكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: فإنْ أدبرَ هؤلاء المنافقونَ عن الإقرارِ بالله ورسولِه، وتَوَلَّوا عن الهجرةِ من دارِ الشركِ إلى دارِ الإسلام ومن الكفرِ إلى الإسلام. «فَخُذُوهُمْ» أيها المؤمنون. «وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ»، من بلادِهم وغير بلادهم، أينَ أصَبْتُموهم من أرضِ الله. «وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا»، يقول: ولا تتخذوا منهم خليلاً يواليكم على أموركم، ولا ناصراً ينصركم على أعدائكم، فإنهم كفارٌ لا يألونكم خَبالاً، وَدُّوا ما عنِتُّمْ.

وهـذا الخبرُ من الله جَلَّ ثناؤُهُ، إبانةٌ عن صحةِ نفاقِ الذين اختلف المؤمنون في أمرهم، وتحذيرٌ لمن دافع عنهم عن المدافعة عنهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ»، فإنْ تولىَّ هؤلاء المنافقونَ الذين اختلفتم فيهم عن الإيمانِ بالله ورسوله، وأبوا الهجرةَ فلم يهاجروا في سبيل الله، فَخُذُوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم، سوى مَنْ وَصل منهم إلى قومٍ بينكم وبينهم مُوادعةٌ وعهدٌ وميثاق، فدخلوا فيهم، وصاروا منهم، ورَضُوا بحكمهم، فإنَّ لمن وصلَ إليهم فدخلَ فيهم من أهلِ

الشرك راضياً بحكمهم في حقنِ دمائهم بدخولهِ فيهم: أنْ لا تُسبى نساؤُهم وذراريهم، ولا تغنم أموالهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «أَوْ جَاؤوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ»، «فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ»، «إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ»، أو: إلَّا الذين جاؤوكم منهم قد حَصِرتْ صدورُهم عن أنْ يقاتلوكم أو يقاتلوا قومَهم فدخلوا فيكم.

ويعني بقوله: «حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ»، ضَاقتْ صدورهم عن أنْ يُقَاتِلوكُم أو أنْ يقاتلوا قومَهُم.

والعربُ تقول لكلِّ مَنْ ضاقتْ نفسُهُ عن شيءٍ من فعلٍ أو كلام: «قد حَصِرَ»، ومنه «الحَصَرُ» في القراءة.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَـٰتَلُوكُمْ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ: «وَلَوْ شَاءَ ٱللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ»، ولو شاء الله لسلَّطَ هؤلاء الذين يصلون إلى قومٍ بينكم وبينهم ميثاقٌ فيدخلون في جوارِهم وذِمَّتهم، والـذين يجيئـونكم قد حَصِرَتْ صدورهم عن قتالكم وقتالِ قومهم عليكم، أيها المؤمنونَ، فقاتلوكم مع أعدائِكم من المشركينَ، ولكنَّ الله تعالى

ذِكْرُهُ كَفَّهم عنكم. يقول جَلَّ ثناؤُهُ: فأطيعوا الذي أنعم عليكم بكفِّهم عنكم مع سائرِ ما أنعمَ به عليكم، فيما أمَرَكُمْ بهِ من الكَفِّ عنهم إذا وصلوا إلى قومٍ بينكم وبينهم ميثاق، أو جاؤوكم حَصِرَتْ صدورهم عن قتالِكم وقتالِ قومهم. ثم قال جَلَّ ثناؤُهُ: «فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ»، يقول: فإن اعتزلكم هؤلاء الذينَ أمَرْتُكم بالكَفِّ عن قتالِهم من المنافقينَ، بدخولهم في أهلِ عهدِكم، أو مصيرهم إليكم حَصِرَتْ صدورهم عن قتالِكم وقتالِ قومهم. «فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ»، يقول: وصالحوكم.

و«السَّلَمَ»، هو الاستسلامُ. وإنما هذا مَثَلٌ، كما يقولُ الرجل للرجل: «أعطيتك قِيادي»، و«ألقيتُ إليك خِطَامي»، إذا استسلمَ له وانقادَ لأمرِهِ. فكذلك قوله: «وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ»، إنما هو: ألقوا إليكم قِيادَهم واستسلموا لكم، صُلْحاً منهم لكم وسَلَماً.

ثم نسخ الله جميعَ حُكْمِ هذه الآية والتي بعدها بقوله تعالى ذِكْرُهُ: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا

وهؤلاء فريقٌ آخرُ من المنافقينَ، كانوا يُظْهِرُونَ الإسلامَ لرسولِ الله ﷺ وأصحابه ليأمَنُوا به عندهم من القتلِ والسباءِ وأخذِ الأموالِ وهم كفار، يعلم ذلك منهم قومهم، إذا لَقُوهم كانوا معهم وعَبَدُوا ما يعبدونه من دونِ الله، ليأْمَنُوهم على أنفسِهم وأموالهم ونسائهم وذراريهم. يقول الله: «كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا»، يعني: كلما دعاهم قومهم إلى الشرك بالله، ارتدُّوا فصاروا

مشركين مثلهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: فإنْ لم يعتزلكم، أيها المؤمنون، هؤلاء الذين يريدون أنْ يأمنوكُم وَيَأْمَنُوا قومهم، وهم كلما دُعُوا إلى الشركِ أجابوا إليه. «وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ»، ولم يستسلموا إليكم فَيُعْطُوكُم المَقَادَ ويصالحوكم، «وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ»، يقول: ويكفوا أيديهم عن قتالكم، «فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: إنْ لم يفعلوا، فخذوهم أين أصبتموهم من الأرض ولَقِيتُموهم فيها، فاقتلوهم، فإنَّ دماءَهُم لكم حينئذٍ حلالٌ. «وَأُوْلَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُبِيناً»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: وهؤلاء الذين يريدون أنْ يَأْمَنُوكُم ويأمنوا قومهم، وهُمْ على ما هم عليه من الكفرانِ، ولم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلمَ ويكفوا أيديهم، جعلنا لكم حجةً في قتلهم أينما لقيتموهم، بمقامهم على كفرهم، وتركهم هجرةَ دارِ الشركِ. «مُّبِيناً»، يعني: أنها تبين عن استحقاقهم ذلكَ منكم، وإصابتكم الحَقَّ في قتلهم. وذلك قوله: «سُلْطَاناً مُّبِيناً»، و«السلطانُ» هو الحجةُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ ۚ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً أَلَّا خَطَئاً»، وما

أَذِنَ الله لمؤمنٍ ولا أباحَ له أنْ يقتُلَ مؤمناً. يقول: ما كان ذلك له فيما جعل له ربه وأذِنَ له فيه من الأشياء البتة.

وأما قوله: «إلَّا خَطَئاً»، فإنه يقول: إلَّا المؤمن قد يقتل المؤمن خطأً، وليس له مما جعل له ربه فأباحه له. وهذا من الاستثناء الذي يُسميه أهل العربية «الاستثناء المنقطع».

ثم أخبر جَلَّ ثناؤهُ عباده بحكم من قُتِلَ من المؤمنينَ خطأً، فقال: «وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً فَتَحْرِيرُ»، يقول: فعليه تحريرُ «رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ»، في ماله. «وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ»، تؤديها عاقلته. «إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا»، يقول: إلا أن يصدق أهل القتيل خطأ على مَنْ لَزِمَتْهُ ديةُ قَتِيلهم، فَيَعْفُوا عنه ويتجاوزُوا عن ذنبه، فيسقط عنه.

وأما «الرقبة المؤمنة»، فإنَّ أهلَ العلم مختلفون في صفتها.

فقال بعضهم: لا تكون الرقبةُ مؤمنةً حتى تكونَ قد اختارت الإيمانَ بعد بلوغها. وصَلَّت وصامت، ولا يستحقّ الطفل هذه الصفة.

وقال آخرون: إذا كانَ مولوداً بين أبوين مسلمين فهو مؤمنٌ، وإنْ كان طفلاً.

وأوْلى القولين بالصوابِ في ذلك، قول مَنْ قال: لا يجزئ في قتل الخطأ من الرقاب إلا مَنْ قد آمَنَ وهو يعقلُ الإيمانَ من بالغي الرجالِ والنساء، إذا كانَ مِمَّنْ كانَ أبواهُ على مِلَّةٍ من المللِ سوى الإسلام، وولد بينهما وهما كذلك، ثم لم يُسْلِمَا ولا أحدٌ منهما حتى أُعتِقَ في كفارة الخطأ. وأما من وُلِدَ بين أبوين مسلمين، فقد أجمع الجميعُ من أهلِ العلم أنه وإنْ لم يبلغ حَدَّ الاختيارِ والتمييز، ولم يدرك الحُلُمَ، فمحكومٌ له بحكمِ أهلِ الإيمانِ في الموارثة، والصلاة عليه إنْ ماتَ، وما يجب عليه إنْ جَنَى، ويجب له إن جُنِيَ عليه، وفي

المناكحة. فإذْ كان ذلك من جميعهم اجماعاً، فواجبُ أنْ يكونَ له من الحكم فيما يجزئ فيه من كفارةِ الخطأ إنْ أعتق فيها من حكمِ أهلِ الإيمان، مِثْلُ الذي له من حكم الإيمان في سائر المعاني التي ذكرناها وغيرها. ومَنْ أبى ذلك، عُكِس عليه الأمرُ فيه، ثم سئل الفرق بين ذلك من أصلٍ أو قياس. فلن يقول في شيءٍ من ذلك قولاً إلاَّ أُلزمَ في غيره مثله.

وأما «الديةُ المسلمة» إلى أهلِ القتيلِ، فهي المدفوعةُ إليهم، على ما وَجَبَ لهم، موفَّرةً غير منتقصةٍ حقوقُ أهْلِها منها.

وأما قوله: «إلَّا أَن يَصَّدَّقُوا»، فإنه يعني به: إلَّا أنْ يَتَصدقوا بالدية على القـاتـل، أو على عاقِلته، فأُدغمت «التاء» من قوله: «يتصدقوا» في «الصاد» فصارتا «صاداً».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ»، فإنْ كانَ هذا القتيلُ الذي قتله المؤمنُ خطأ، «مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ»، يعني: من عِدَادٍ قومٍ أعـداء لكم في الدين مشركينَ قد نابَذُوكم الحربَ على خلافكم على الإسلام. «وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ»، يقول: فإذا قتل المسلم خطأ رجلاً من عِدادِ المشركين، والمقتولُ مؤمنٌ، والقاتلُ يحسبُ أنه على كُفْرِهِ، فعليه تحريرُ رقبةٍ مؤمنة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ»، وإنْ كان القتيلُ الـذي قتله المؤمن خطأً. «مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ» أيهـا المؤمنـونَ. «وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ»، أي: عَهْدٌ وذِمَّةٌ، وليسوا أهلَ حربٍ لكم. «فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ»، يقـول: فعلى قاتلِه ديةٌ مسلمـةٌ إلى أهله، يتحملهـا عاقلتـه. «وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ»، كفارة لقتله.

ثم اختلف أهلُ التأويل في صِفَةِ هذا القتيلِ الذي هو من قومٍ بيننا وبينهم ميثاقٌ، أَهُوَ مؤمنٌ أو كافر؟

فقال بعضهم: هو كافر، إلاَّ أنه لزمت قاتلَه ديته، لأنَّ له ولقومِهِ عَهْداً، فواجبٌ أداءُ دِيَتِهِ إلى قومِهِ للعهدِ الذي بينهم وبين المؤمنين، وأنها مال من أموالهم، ولا يحلُّ للمؤمنين شيءٌ من أموالهم بغير طِيْبِ أنفسهم.

وقــال آخـرون: بل هو مؤمنٌ، فعلى قاتلِهِ ديةٌ يُؤَدِّيهـا إلى قومـِهِ من المشركين، لأنهم أهلُ ذمة.

وأوْلى القولين في ذلك بتأويل الآية، قولُ مَنْ قال: عَنَى بذلك المقتولَ من أهلِ العهد. لأنَّ الله أبهمَ ذلك فقال: «وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ»، ولم يقل: «وهو مؤمنٌ»، كما قالَ في القتيل من المؤمنين وأهل الحرب، وعَنَى المقتولَ منهم وهو مؤمن. فكان في تركه وصفه بالإيمان الذي وصفَ به القتيلين الماضي ذِكْرُهما قَبْلُ، الدليلُ الواضحُ على صحةِ ما قلنا في ذلك.

فإنْ ظَنَّ ظانٌّ أنَّ في قوله تبارك وتعالى: «فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ»، دليلاً على أنه من أهلِ الإيمان، لأنَّ الديةَ عنده لا تكونُ إلاَّ لمؤمن فقد ظَنَّ خطأً. وذلـك أنَّ ديةَ الذميّ وأهل الإسلام سواءٌ، لإجماعِ جميعهم على أنَّ دياتِ عبيدهم الكفار وعبيدِ المؤمنين من أهلِ الإيمانِ سواء. فكذلك حُكْمُ دياتِ أحـرارِهم سواءٌ، مع أن دياتهم لو كانت على ما قال مَنْ خالفنـا في ذلك،

فجعلها على النِّصفِ من دياتِ أهلِ الإيمانِ أو على الثُّلُثِ، لم يكنْ في ذلك دليلٌ على أنَّ المعنيَّ بقوله: «وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ»، من أهلِ الإيمان، لأنَّ ديةَ المؤمنة لا خلافَ بين الجميع ـ إلَّا من لا يُعدُّ خلافاً[1] ـ أنها على النصفِ من ديةِ المؤمنِ، وذلك غير مُخْرِجها من أنْ تكونَ ديةً. فكذلك حُكْمُ دياتِ أهلِ الذمة، لو كانت مقصِّرة عن دياتِ أهلِ الإيمان، لم يخرجها ذلك من أن تكون ديات. فكيف والأمرُ في ذلك بخلافه، ودياتهم وديات المؤمنين سواء؟

وأما «الميثاق» فإنه العهدُ والذمة.

فإن قال قائل: وما صفة الخطأ، الذي إذا قتل المؤمنُ المؤمنَ أو المعاهدَ لزمته ديتُه والكفارة؟

قيل: أن يرمي الشيءَ فيصيب إنساناً وهو لا يُريدهُ.

فإن قال: فما الديةُ الواجبة في ذلك؟

قيل: أما في قتل المؤمن، فمئةٌ من الإبل، إنْ كان من أهلِ الإبلِ، على عاقلةِ قاتله. لا خلافَ بين الجميع في ذلك، وإنْ كان في مبلغِ أسنانها اختلافٌ بين أهل العلم.

وإن كانت عاقلة القاتلِ من أهلِ الذهبِ، فإنَّ لورثةِ القتيلِ عليهم عندنا ألفَ دينار. وعليه علماء الأمصار.

وقال بعضهم: ذلك تقويمٌ من عمر رحمةُ الله عليه، للإبلِ على أهلِ الذهبِ في عصره[2]. والواجبُ أن يُقَوَّمَ في كل زمانٍ قيمتها، إذا عدم الإبلَ

---

(١) يعني: إلا من لا يُعَدُّ خلافه خلافاً. وقد مَرَّ مثل ذلك.

(٢) انظر سنن البيهقي: ٨/٧٦ـ٨٠.

عاقلةُ القاتل.

وأما الـذين أوجبوها في كل زمان على أهل الذهب ذهباً ألف دينار، فقالوا: ذلك فريضةٌ فرضها الله على لسانِ رسوله، كما فرضَ الإبلَ على أهلِ الإبلِ. قالوا: وفي إجماعِ علماءِ الأمصارِ في كل عصرٍ وزمان، إلَّا من شَذَّ عنهم، على أنها لا تُزادُ على ألفِ دينار ولا تنقص عنها أوضحُ الدليل على أنها الواجبةُ على أهلِ الذهب، وجوبَ الإبل على أهلِ الإبل، لأنها لو كانت قيمة لمئةٍ من الإبلِ، لاختلفَ ذلك بالزيادة والنقصان لِتَغَيُّرِ أسعارِ الإبل.

وهذا القولُ هو الحق في ذلك، لما ذكرنا من إجماعِ الحُجَّةِ عليه.

وأما من الوَرِق[1] على أهل الوَرِق عندنا، فاثنا عشرَ ألف درهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ»، فمن لم يجد رقبةً مؤمنة يُحَرِّرُهَا كَفارةً لخطئهِ في قتله مَنْ قَتَلَ مِنْ مؤمنٍ أو معاهد، لعُسْرته بثمنها. «فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ»، يقول: فعليه صيامُ شهرين متتابعين.

و«المتابعة» صوم الشهرين، وأنْ لا يقطعه بإفطارِ بعضِ أيامه لغير عِلَّةٍ حائلةٍ بينه وبين صومه.

ثم قال جَلَّ ثناؤُهُ: «تَوْبَةً مِّنَ آللهِ وَكَانَ آللهُ عَلِيماً حَكِيماً»، يعني: تجاوزاً

(١) الـوَرِقُ: الفضة، وهي الدراهم المضروبة من الفضة، وإنما قال ذلك لأن الدينار يساوي اثني عشر درهماً.

من الله لكم إلى التيسيرِ عليكم، بتخفيفهِ عنكم ما خَفَّفَ عنكم من فرضِ تحريرِ الرقبة المؤمنة إذا أعسرتم بها، بإيجابه عليكم صومَ شهرين متتابعين. «وَكَانَ آللهُ عَلِيماً حَكِيماً»، يقول: ولم يَزَلِ الله. «عَلِيماً»، بما يُصْلِحُ عبادَهُ فيما يُكَلِّفُهم من فرائضهِ وغير ذلك. «حَكِيماً»، بما يَقضي فيهم ويريد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾**

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: ومن يقتل مؤمناً عامداً قتله، مريداً إتلافَ نفسهِ. «فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ»، يقول: فثوابهُ من قَتْلِهِ إياهُ. «جَهَنَّمُ»، يعني: عذاب جهنم. «خَالِداً فِيهَا»، يعني: باقياً فيها. و«الهاء» و«الألف» في قوله: «فيها» من ذكر «جَهَنَّمُ». «وَغَضِبَ آللهُ عَلَيْهِ»، يقول: وغضبَ الله عليه بقتله إياه متعمداً. «وَلَعَنَهُ»، يقول: وأبعدَهُ من رحمتهِ وأخزاهُ. «وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً»، وذلكَ ما لا يعلمُ قَدْر مبلغهِ سواهُ تعالى ذِكْرُهُ.

وأما قوله: «فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا»، فإنَّ أهلَ التأويل اختلفوا في معناه.

فقال بعضهم معناه: فجزاؤه جهنم إنْ جازاه.

وقال آخرون: عني بذلك رجلٌ بعينه، كانَ اسلمَ فارتدَّ عن إسلامهِ، وقتل رجلاً مؤمناً. قالوا: فمعنى الآية: ومَنْ يقتل مؤمناً مُسْتَحِلاً قَتْلَهُ، فجزاؤُهُ جهنم خالداً فيها.

وقال آخرون: معنى ذلك: إلاَّ مَنْ تابَ.

وقال آخرون: ذلك إيجابٌ من الله الوعيدَ لقاتلِ المؤمن متعمّداً، كائناً مَنْ كان القاتلُ، على ما وَصَفَهُ في كتابه، ولم يجعل له توبةً من فِعْلِه. قالوا: فَكُلُّ قاتلِ مؤمنٍ عمداً، فَلَهُ ما أوعده الله من العذابِ والخلودِ في النار، ولا توبةَ له. وقالوا: نزلت هذه الآية بعد التي في «سورة الفرقان».

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصواب، قولُ مَنْ قال: معناه: ومَنْ يقتل مؤمناً متعمداً، فجزاؤُهُ إن جزاه جهنم خالداً فيها، ولكنه يعفو ويتفضَّل على أهلِ الإيمان به وبرسوله، فلا يُجازيهم بالخلود فيها، ولكنه عَزَّ ذِكْرُهُ إما أَنْ يعفوَ بفضلِهِ فلا يُدْخله النارَ، وإما أَنْ يُدْخله إيَّاها ثم يخرجه منها بفضلِ رحمته، لِمَـا سَلَفَ من وعـدِهِ عبـادَهُ المؤمنينَ بقوله: ﴿يَا عِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ ٱللهِ إِنَّ ٱللهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ [الزمر: ٥٣].

فإنْ ظَنَّ ظانٌّ أَنَّ القاتلَ إنْ وجبَ أَنْ يكونَ داخلاً في هذه الآية، فقد يجب أَنْ يكونَ المشركُ داخلاً فيه، لأن الشرك من الذنوب، فإنَّ الله عَزَّ ذِكْرُهُ قد أخبر أنه غير غافرِ الشركَ لأحدٍ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، والقتل دون الشرك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا»، يا أيها الذين صَدَّقُوا الله وصدَّقوا رسوله فيما جاءهم به من عند ربهم. «إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ»، يقول: إذا سرتم مسيراً لله في جهادِ أعدائكم. «فَتَبَيَّنُوا»، يقول: فَتَأَنَّوْا في قَتْلِ مَنْ أشكلَ عليكم أمرُه، فلم تَعْلَمُوا حقيقةَ إسلامِه ولا كفره، ولا تعجلوا فتقتلوا مَن التبسَ عليكم أمرُه، ولا تتقدموا على قتلِ أحدٍ إلاَّ على قتلِ مَنْ علمتموه يقيناً حَرْباً لكم ولله ولرسوله، «وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ»، يقول: ولا تقولوا لمن استسلم لكم فلم يقاتلكم، مُظْهِراً لكم أنه من أهلِ مِلَّتِكم ودَعوتكم. «لَسْتَ مُؤْمِناً»، فتقتلوه ابتغاء «عَرَضَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنيَا»، يقول: طلبَ متاعِ الحياة الدنيا، فإنَّ. «عِنْدَ ٱللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ»، مِنْ رزقِهِ وفواضلِ نِعَمه، فهي خيرٌ لكم إنْ أطعتم الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، فأثابكم بها على طاعتكم إياه، فالتمسوا ذلك من عنده. «كَذَٰلِكَ كُنْتُمْ مِّنْ قَبْلُ»، يقولُ: كما كان هذا الذي ألقى إليكم السلم فقلتم له: «لَسْتَ مُؤْمِناً» فقتلتموهُ، كذلك كنتم أنتم من قَبْلُ، يعني: مِنْ قَبْلِ إعزازِ الله دِينَهُ بتُبَّاعِهِ وأنصارِه، تستخفُونَ بدينكم، كما استخفى هذا الذي قتلتموهُ وأخذتم مالَهُ، بدينِهِ من قومِهِ أن يُظْهِرَهُ لهم، حَذَراً على نفسِهِ منهم. وقد قيل إنَّ معنى قوله: «كَذَٰلِكَ كُنْتُمْ مِّنْ قَبْلُ»، كنتم كفاراً مثلهم. «فَمَنَّ ٱللهُ عَلَيْكُمْ»، يقول: فتفضَّلَ الله عليكم بإعزازِ دينه بأنصاره وكثرة تُبَّاعه. وقد قيل، فَمَنَّ الله عليكم بالتوبةِ من قتلكم هذا الذي قتلتموهُ وأخذتُمْ مالَهُ بعد ما ألقى إليكم السلم. «فَتَبَيَّنُوا»، يقول: فلا تَعْجَلُوا بقتلِ مَنْ أردتم قتلَه مِمَّن التبسَ عليكم أمرُ إسلامِه، فلعلَّ الله أنْ يكونَ قد مَنَّ عليه من الإسلامِ بمثلِ الذي مَنَّ به عليكم، وهداه لمثل الذي هداكم له من الإيمان. «إِنَّ ٱللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً»، يقول: إنَّ الله كان بقتلِكم مَنْ تقتلون، وكَفِّكم عَمَّنْ تكفُّون عن قتلِهِ من أعداءِ الله وأعدائكم، وغير ذلك من أموركم وأمور غيركم. «خَبِيراً»، يعني: ذا خبرةٍ وعلمٍ به، يحفظهُ عليكم

وعليهم، حتى يجـازي جميعكم به يومَ القيامـةِ جزاءه، المحسنَ بإحسـانه، والمسيءَ بإساءته.

وذكر أن هذه الآية نزلت في سببِ قتيلٍ قتلته سريّةٌ لرسولِ الله ﷺ بعدما قال: «إنِّي مسلم»، أو بعدما شَهِدَ شهادةَ الحَقِّ، أو بعدما سلَّم عليهم، لغنيمةٍ كانت معه، أو غير ذلك من ملكه، فأخذوه منه.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءةِ قوله: «فَتَبَيَّنُوا».

فقـرأ ذلـك عامةُ قَرَأَةِ المكيين والمدنيين وبعضُ الكوفيين والبصريين: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ بالياء والنون، من «التبين» بمعنى، التأني والنظر والكشف عنه حتى يتَّضح.

وقرأ ذلك عُظْم قَرَأَةِ الكوفيين: «فَتَثَبَّتُوا»، بمعنى التثبُّت، الذي هو خلاف العَجَلة.

والقـولُ عنـدنـا في ذلك أنهما قراءتان معروفتان مستفيضتان في قَرَأَةِ المسلمينَ بمعنىً واحد، وإن اختلفتْ بهما الألفاظُ. لأنَّ «المتثبت» متبيِّنٌ، و«المتبيِّن» متثبِّتٌ، فبأيِّ القراءتين قرأَ القارئُ، فمصيبٌ صوابَ القراءة في ذلك.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءةِ قوله: «وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ».

فقرأ ذلك عامةُ قَرَأَةِ المكيين والمدنيين والكوفيين: ﴿ٱلسَّلَمَ﴾ بغير ألف، بمعنى الاستسلام.

وقرأ بعض الكوفيين والبصريين: «السَّلَامَ» بألف، بمعنى التحية.

والصوابُ من القراءة في ذلك عندنا: «لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ»، بمعنى: مَن استسلمَ لكم، مُذْعِناً لله بالتوحيدِ، مُقِراً لكم بملَّتِكم.

وإنما اخترنا ذلك، لاختلافِ الرواية في ذلك: فمن راوٍ روَى أنه استسلم بأنْ شَهِدَ شهادةَ الحقِّ وقال : «إنيِّ مسلم»، ومن راوٍ روى أنه قال: «السلام عليكم»، فَحَيَّاهُم تحيةَ الإسلام ومن راوٍ رَوى أنه كان مسلماً بإسلامٍ قد تَقَدَّمَ منه قبلَ قَتْلِهم إياهُ، وكل هذه المعاني يجمعه «السَّلَمَ»، لأنَّ المسلم مستسلمٌ، والمُحَيِّ بتحيةِ الإسلامِ مستسلمٌ، والمتشهدُ شهادةَ الحقِّ مستسلمٌ لأهلِ الإسلام، فمعنى: «آلسَّلَمَ» جامع جميع المعاني التي رُويت في أمرِ المقتول الذي نزلت في شأنه هذه الآية. وليس ذلك في «السلام»، لأن «السلام» لا وجه له في هذا الموضع إلا التحية. فلذلك وصفنا «آلسَّلَمَ»، بالصواب.

واختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِّنْ قَبْلُ».

فقال بعضهم: معناه: كما كان هذا الذي قتلتموه بعدما ألقَى إليكم، السَّلَمَ، مستخفياً في قومه بدينهِ خوفاً على نفسهِ منهم، كنتم أنتم مُسْتَخْفِينَ بأديانكم من قومكم حَذَراً على أنفسكم منهم، فَمَنَّ الله عليكم.

وقال آخرون: معنى ذلك: كما كان هذا الذي قتلتموه، بعدما ألقى إليكم، السلم، كافراً، كنتم كفاراً، فَهَدَاهُ كما هَدَاكم.

وأوْلى هذين القولين بتأويل الآية، القول الأول، وهو قولُ مَنْ قال: كذلك كنتم تُخْفُونَ إيمانكم في قومكم من المشركين وأنتم مقيمون بين أظهرهم، كما كان هذا الذي قتلتموه مقيماً بين أظهرِ قومهِ من المشركين مستخفياً بدينه منهم.

وإنما قلنا: «هذا التأويل أولى بالصواب»، لأنَّ الله عَزَّ ذِكْرُهُ إنما عاتبَ الذين قتلوه من أهلِ الإيمان بعد إلقائهِ إليهم السلم ولم يُقَدْبه قاتِلُوه، لِلَّبْسِ الذي كان دَخَلَ في أمرهِ على قاتليهِ بمقامهِ بين أظهرِ قومهِ من المشركينَ، وظَنِّهم أنه ألقى السلم إلى المؤمنين تَعَوُّذاً منهم، ولم يعاتبهم على قتلهم إياه

مشركاً فيقال: «كما كان كافراً كنتم كفاراً»، بل لا وجهَ لذلك، لأنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ لم يعاتبْ أحداً من خَلْقِه على قتلِ محاربٍ لله ولرسولِهِ من أهلِ الشركِ، بعد إذْنِهِ له بقتله.

وأما قوله: «فَمَنَّ ٱللهُ عَلَيْكُمْ»، فإنه يعني بذلك: فَمَنَّ الله عليكم بإظهارِ دينه وإعزازِ أهلِهِ، حتى أظهروا الإِسلامَ بعدما كانوا يكتتمون به من أهل الشرك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَاعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَاهِدُونَ»، لا يعتدلِ المتخلِّفُونَ عن الجهادِ في سبيلِ الله من أهلِ الإيمانِ بالله وبرسوله، المُؤْثِرُونَ الدَّعةَ والخَفْض وَالقُعودَ في منازلهم على مُقاساةِ حُزُونة الأسفارِ والسير في الأرض، ومَشَقَّةِ ملاقاةِ أعداءِ الله بجهادهم في ذاتِ الله، وقتالهم في طاعة الله، إلَّا أهلَ العذر منهم بذَهَاب أبصارهم، وغير ذلك من العِلل التي لا سبيلَ لأهلها ـ للضَّرَر الذي بهم ـ إلى قتالِهم وجهادِهم في سبيلِ الله. «وَٱلْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللهِ»، ومنهاج دينه، لتكونَ كلمةُ الله هي العليا، المستفرغونَ طاقَتهم في قتالِ أعداءِ الله وأعداءِ دينهم ـ بأموالِهم، إنفاقاً لها فيما أوهَنَ كيدَ أعداءِ أهلِ الإيمان بالله ـ وبأنفسِهم، مباشرة بها قتالهم، بما تكونُ به كلمةُ الله العالية، وكلمة الذين كفروا السافلة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «فَضَّلَ ٱللهُ ٱلْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَىٰ ٱلْقَاعِدِينَ دَرَجَةً»، فَضَّلَ الله المجاهدينَ بأموالهم وأنفسهم، على القاعدينَ من أولي الضرر، درجةً واحدةً، يعني: فضيلةً واحدة، وذلك بفضلِ جهاده بنفسه، فأما فيما سوى ذلك، فهما مستويان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾:

يعني جَلَّ ثناؤُهُ: «وَكُلًّا وَعَدَ ٱللهُ ٱلْحُسْنَىٰ»، وَعَدَ الله الكلَّ من المجاهدينَ بأموالهم وأنفسهم، والقاعدينَ من أهلِ الضرر، «ٱلْحُسْنَىٰ»، ويعني جَلَّ ثناؤُهُ: بـ«ٱلْحُسْنَىٰ»، الجنة.

وأما قوله: «وَفَضَّلَ ٱللهُ ٱلْمُجَاهِدِينَ عَلَىٰ ٱلْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً»، فإنه يعني: وفَضَّلَ الله المجاهدينَ بأموالهم وأنفسهم على القاعدينَ من غيرِ أولى الضرر، أجراً عظيماً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾

معنى الكلام: وفَضَّلَ الله المجاهدينَ في سبيل الله على القاعدين من غيرِ أولي الضرر، أجراً عظيماً، وثواباً جزيلاً، وهو درجات أَعْطَاهُمُوها في الآخرةِ من درجات الجنة، رَفَعَهم بها على القاعدينَ بما أَبْلَوا في ذاتِ الله.

«وَمَغْفِرَةً»، يقول: وصفح لهم عن ذنوبهم، فتفضَّلَ عليهم بترك عقوبتهم عليها. «وَرَحْمَةً»، يقول: ورأفة بهم. «وَكَانَ ٱللهُ غَفُوراً رَّحِيماً»، يقول: ولم

يَزَلِ الله غفوراً لذنوبِ عبادِه المؤمنينَ، يصفح لهم عن العقوبة عليها. «رَّحِيماً» بهم، يتفضلُ عليهم بنعمه، مع خلافهم أمره ونهيه، وركوبهم معاصيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ»، إنَّ الذين تقبضُ أرواحَهم الملائكةُ. «ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ»، يعني: مُكسِبي أنفسِهم غضبَ الله وسخطه.

«قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ»، يقولُ: قالتِ الملائكة لهم: «فِيمَ كُنْتُمْ»، في أيِّ شيءٍ كنتم من دينكم. «قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ»، يعني: قال الذين توفّاهم الملائكة ظالمي أنفسهم: «كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ»، يَسْتَضْعِفُنَا أهلُ الشرك بالله في أرضنا وبلادنا بكثرةِ عددهم وقوتهم، فيمنعونا من الإيمانِ بالله، واتباع رسولـه ﷺ، معـذرةً ضعيفةً وحُجَّة واهية. «قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا»، يقول: فتخرجُوا من أرضِكم ودُورِكم، وتُفَارِقُوا مَنْ يمنعكم بها من الإيمانِ بالله واتباع رسوله ﷺ، إلى الأرضِ التي يمنعكم أهلُهَا من سلطانِ أهلِ الشركِ بالله، فَتُوَحِّدُوا الله فيها وتعبدوه، وتتبعوا نبيَّه؟

يقول الله جَلَّ ثناؤُهُ: «فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ»، أي: فهؤلاء الذين وصفتُ لكم صِفَتَهم الذين تَوَفَّاهُم الملائكة ظالمي أنفسهم «مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ»، يقول:

مصيرهم في الآخرة جهنم، وهي مسكنهم. «وَسَاءَتْ مَصِيراً»، يعني: وساءت جهنم لأهلها الذين صاروا إليها. «مَصِيراً»، ومسكناً ومأوى.

ثم استثنى جَلَّ ثناؤُهُ المستضعفين الذين استضعفهم المشركون. «مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ وَٱلْوِلْدَانِ»، وهم العَجَزَةُ عن الهجرةِ بالعُسْرة، وقِلَّةِ الحيلة، وسوء البصر والمعرفةِ بالطريقِ من أرضِهم أرضِ الشركِ إلى أرضِ الإسلام، من القومِ الذين أخبر جَلَّ ثناؤُهُ أنَّ مأواهم جهنم: أنْ تكون جهنم مأواهم، للعذر الذي هم فيه على ما بَيَّنَهُ تعالى ذِكْرُهُ.

يقول الله جَلَّ ثناؤُهُ: «فَأُوْلَٰئِكَ عَسَىٰ ٱللهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ»، يعني: هؤلاء المستضعفين، يقول: لعلَّ الله أنْ يعفو عنهم، للعذرِ الذي هُمْ فيه مؤمنون، فيفضل عليهم بالصفح عنهم في تركهم الهجرة، إذْ لم يتركوها اختياراً ولا إيثاراً منهم لدارِ الكفر على دارِ الإسلام، ولكنْ للعجزِ الذي هُمْ فيه عن النّقلة عنها. «وَكَانَ ٱللهُ عَفُوّاً غَفُوراً»، يقول: ولم يَزَلِ الله «عَفُوّاً»، ذَا صَفْحٍ بفضله عن ذنوبِ عباده، بتركهِ العقوبةَ عليها. «غَفُوراً»، ساتراً عليهم ذنوبهم بعفوه لهم عنها.

وذكر أنَّ هاتين الآيتين والتي بعدهما، نزلتْ في أقوامٍ من أهل مكة كانوا قد اسلموا وآمنوا بالله وبرسوله، وتَخَلَّفُوا عن الهجرةِ مع رسولِ الله ﷺ حين هاجَر، وعُرِضَ بعضُهم على الفتنة فافْتُتِنَ، وشَهِدَ مع المشركينَ حربَ المسلمين، فأبى الله قبولَ معذرتهم التي اعتذروا بها، التي بَيَّنَها في قولِهِ خبراً عنهم: «قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ»، ومَنْ يُفارق أرضَ الشِّرْكِ وأهلَها هرباً بدينهِ منها ومنهم، إلى أرضِ الإسلامِ وأهلها المؤمنينَ. «فِي سَبِيلِ ٱللهِ»، يعني: في منهاجِ دِينِ الله وطريقهِ الذي شَرَعَهُ لِخَلْقِهِ، وذلك الدين القَيِّم. «يَجِدْ فِي ٱلأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً»، يقول: يجد هذا المهاجرُ في سبيلِ الله. «مُرَاغَماً كَثِيراً»، وهو المُضْطَّربُ في البلادِ والمذْهب.

ثم أخبر جَلَّ ثناؤُهُ عَمَّنْ خرجَ مهاجراً من أرضِ الشركِ فارًّا بدينه إلى الله وإلى رسوله، إنْ أدْرَكَتْهُ مَنِيَّتُهُ قبلَ بلوغهِ أرضَ الإسلام ودارَ الهجرة فقال: مَنْ كان كذلك. «فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى ٱللهِ»، وذلك ثوابُ عملهِ وجزاءُ هجرتهِ وفراق وطنه وعشيرته إلى دارِ الإسلام وأهل دينه. يقول جَلَّ ثناؤُهُ: ومَنْ يخرج مهاجراً من دارهِ إلى الله وإلى رسولهِ، فقد استوجبَ ثوابَ هجرتهِ إنْ لم يَبْلُغْ دارَ هجرته باخترامِ المنية إيَّاهُ قبلَ بلوغهِ إياها على ربه. «وَكَانَ ٱللهُ غَفُوراً رَّحِيماً»، يقول: ولم يَزَلِ الله تعالى ذِكْرُهُ. «غفوراً»، يعني: ساتراً ذنوبَ عباده المؤمنينَ بالعفوِ لهم عن العقوبة عليها. «رَّحِيماً»، بهم رفيقاً.

وذُكِرَ أنَّ هذه الآيةَ نزلت بسببِ بعضِ مَنْ كان مقيماً بمكة وهو مسلمٌ، فخرج لما بلغه أنَّ الله أنزل الآيتين قبلها، وذلك قوله: «إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ» إلى قوله: «وكانَ الله عَفُوًّا غفوراً»، فمات في طريقه قبلَ بلوغه المدينة.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصواب أن يقال: إنَّ الله أخبرَ أنَّ مَنْ هاجر في سبيله يجد في الأرض مُضْطَرَباً ومتَّسَعاً. وقد يدخل في «السعة»، السعةُ في الرزق، والغنى من الفقر، ويدخلُ فيه السَّعةُ من ضيقِ الهَمِّ والكَرْبِ الذي كان فيه أهلُ الإيمانِ بالله من المشركين بمكة، وغير ذلك من معاني «السعة»، التي هي بمعنى الرَّوْح والفَرَج من مكروهِ ما كره الله للمؤمنين بمقامهم بين ظَهْري

المشركين وفي سلطانهم. ولم يضع الله دِلالة على أنه عَنَى بقوله: «وَسَعَةً»، بعضَ معاني «السعة» التي وصفنا. فكِل معاني «السعة» التي هي بمعنى الرَّوح والفرج مما كانوا فيه من ضيق العيش، وغَمِّ جِوار أهلِ الشرك، وضيقِ الصدرِ بتعذُّرِ إظهارِ الإيمانِ بالله وإخلاصِ توحيده وفراقِ الأنداد والآلهة، داخلٌ في ذلك.

وقد تأوَّلَ قومٌ من أهلِ العلم هذه الآيةَ ـ أعني قوله: «وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلى ٱللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى ٱللهِ» ـ أنها في حكم الغازي يخرجُ للغزو، فيدركهُ الموتُ بعدما يخرج من منزله فاصلاً فيموت، أنَّ له سَهْمه من المغنَم، وإنْ لم يكنْ شَهدَ الوقعةَ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقـوله: «وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلأَرْضِ»، وإذا سرتم أيها المؤمنونَ في الأرض، «فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ»، يقول: فليس عليكم حَرَجٌ ولا إثم. «أَن تَقْصُرُوا مِنَ ٱلصَّلاَةِ»، يعني: أن تقصروا من عددها، فَتُصَلُّوا ما كَانَ لكم عَدَدُهُ منها في الحضر وأنتم مقيمون أربعاً، اثنتين، في قولِ بعضهم.

وقيل: معناه: لا جُناحَ عليكم أنْ تَقْصُروا من الصلاةِ إلى أقلِّ عددها في حال ضَرْبِكم في الأرض ـ أشار إلى واحدة، في قولِ آخرين.

وقال آخرون: معنى ذلك: لا جُنَاحَ عليكم أنْ تَقْصُروا من حدودِ الصلاة.

«إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا»، يعني: إنْ خشيتم أن يفتنكم الذين

كفروا في صلاتكم. وفِتْنَتُهم إياهم فيها: حَمْلُهم عليهم وهم فيها ساجدونَ حتى يَقْتُلوهم أو يأسروهم، فيمنعوهم من إقامَتِهَا وأدائها، ويحولُوا بينهم وبين عبادةِ الله وإخلاص التوحيد له.

ثم أخبرهم جَلَّ ثناؤُهُ عما عليه أهلُ الكفر لهم فقال: «إِنَّ ٱلْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُواً مُّبِينـاً»، يعني: الجاحدينَ وحدانيةَ الله. «كَانُوا لَكُمْ عَدُواً مُّبِيناً»، يقول: عدواً قد أبانوا لكم عداوتهم بمنُاصبتهم لكمُ الحربَ على إيمانِكم بالله وبرسولهِ، وتَرْكِكم عبادةَ ما يعبدونَ من الأوثانِ والأصنام، ومخالفتكم ما هُمْ عليه من الضلالة.

واختلف أهلُ التأويل في معنى: «القصر» الذي وضع الله الجُنَاحَ فيه عن فاعله.

وأَوْلى الأقوال قولُ مَنْ قال: «عَنَى بالقصر فيها، القصرَ من حدودها. وذلـك ترك إتمام ركوعها وسجودها، وإباحة أدائها كيف أمكن أداؤها، مستقبلَ القبلةِ فيها ومستدبرَها، وراكباً وماشياً، وذلك في حال السَّلَّة والمسايفة والتحام الحرب وتزاحف الصفوف، وهي الحالة التي قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً﴾ [البقرة: ٢٣٩]، وأذن بالصلاةِ المكتوبةِ فيها راكباً، إيماءً بالركوع والسجود.

وإنما قلنا ذلك أولى التأويلات بقوله: «وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ ٱلصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا»، لدلالةِ قولِ الله تعالى: «فَإِذَا ٱطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلاَةَ»، على أنَّ ذلك كذلك. لأنَّ إقامتها: إتمامُ حُدودِها من الركوعِ والسجودِ وسائرِ فُروضِهَا، دونَ الزيادةِ في عددها التي لم تكن واجبةً في حال الخوف.

فإنْ ظَنَّ ظَانٌ أنَّ ذلك أمرٌ من الله بإتمامِ عددها الواجب عليه في حال

الأمن بعد زوال الخوف، فقد يجب أن يكون المسافر في حال قصره صلاته عن صلاةِ المقيم، غيرَ مقيمٍ صلاتَهُ، لنقصِ عدد صلاته من الأربع اللازمة كانت له في حالِ إقامته إلى الركعتين. وذلك قولٌ إنْ قاله قائلٌ، مخالفٌ لما عليه الأمةُ مُجْمِعَةٌ: من أنَّ المسافرَ لا يستحق أنْ يقالَ له - إذا أتى بصلاتِهِ بكمالِ حدودِهَا المفروضةِ عليه فيها، وقصر عددَهَا عن أربعٍ إلى اثنتين -: «إنه غيرُ مقيمٍ صلاتَهُ».

وإذا كان ذلك كذلك، وكانَ الله تعالى قد أمر الذي أباح له أن يقصر صلاتَهُ خوفاً من عدوه أنْ يَفْتِنَهُ، أنْ يقيمَ صلاتَه إذا اطمأن وزالَ الخوفُ، كان معلوماً أن الذي فرض عليه من إقامة ذلك في حال الطمأنينة، عين الذي كان أسقط عنه حال الخوفِ. وإذْ كان الذي فرض عليه في حال الطمأنينة: إقامة صلاته، فالذي أسقط عنه في غير حال الطمأنينة: ترك إقامتها. وقد دللنا على أنَّ تركَ إقامتها، إنما هو ترك حدودها، على ما بَيَّنًا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: وإذا كنتَ في الضاربينَ في الأرضِ من أصحابك، يا محمدُ، الخائفينَ عدوهم أنْ يفتنهم. «فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَاةَ»، يقول: فأقمتَ لهم الصلاةَ بحدودها وركوعها وسجودها، ولم تقصرها القصرَ الذي أبحتُ لهم أن يقصروها في حال تلاقيهم وعَدُوَّهم وتَزَاحُفِ بعضِهم على

بعضٍ، من تركِ إقامةِ حدودها وركوعها وسجودها وسائر فروضها. «فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ»، يعني: فلتقم فرقةٌ من أصحابك الذين تكونُ أنتَ فيهم معكَ في صلاتكَ، وليكن سائرهم في وجوه العدو.

وترك ذِكر ما ينبغي لسائرِ الطوائفِ غير المصلِّية مع النبي ﷺ أنْ يفعله، لدلالـةِ الكلامِ المذكورِ على المرادِ به، والاستغناءِ بما ذكر عما ترك ذكره. «وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ».

فتـأويلُ الآية، على قولِ هؤلاء الـذين قالـوا هذه المقـالةَ ورووا هذه الروايةَ: وإذا كنت يا محمد، فيهم يعني: في أصحابكَ خائفاً. «فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ»، يعني: مِمَّنْ دخلَ معك في صلاتك. «فَإِذَا سَجَـدُوا»، يقـول: فإذا سجدتْ هذه الطائفةُ بسجودكَ، ورفَعتْ رؤوسَها من سجودها. «فَلْيَكُونُوا مِن وَرَآئِكُمْ»، يقول: فَلْيَصِرْ مَنْ خلفكَ خَلْفَ الطائفةِ التي حرستـكَ وإياهم إذا سجـدتَ بهم وسجدُوا معكَ. «وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا»، يعني: الطائفةَ الحارسةَ التي صَلَّتْ معه، غير أنها لم تسجدْ بسجودِهِ. فمعنى قولـه: «لَمْ يُصَلُّوا» ـ على مذهب هؤلاء ـ: لم يسجـدوا بسجـودكَ. «فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ»، فإذا سجدت الطائفةُ التي قامت معك في صلاتها. «فَلْيَكُونُوا مِن وَرَآئِكُمْ»، يعني: من خلفكَ وخلفِ مَنْ يدخلُ في صلاتك مِمَّنْ لم يُصَلِّ معكَ الركعةَ الأولى بإزاء العدو، وبعد فراغها من بقية صلاتها. «وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ»، وهي الطائفةُ التي كانت بإزاء العدو. «لَمْ يُصَلُّوا»، يقول: لم يصلوا معك الركعةَ الأولى «فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ»، يقول: فليصلوا معكَ الركعةَ التي بقيت عليكَ. «وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ»، لقتال عدوهم، بعدما يفرغون من صلاتهم.

وذلك نظير الخبرِ الذي رُويَ عن رسولِ الله ﷺ، أنه فعله يوم ذَاتِ

الرِّقاع[١]، والخبر الذي روى سهل بن أبي حثمة[٢].

وإنما قلنا: ذلك أولى بتأويلِ الآية، لأنَّ الله عز ذِكْرُهُ قال: «وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَاةَ»، وقد دللنا على أنَّ «إقامتها»، إتمامها بركوعها وسجودها، ودَللنا مع ذلك على أنَّ قولَهُ: «فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ ٱلصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا»، إنما هو إذنٌ بالقصرِ من ركوعها وسجودها في حال شِدَّةِ الخوف.

وأما قوله: «وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ»، فإنه يعني: تَمَنَّى الذين كفروا بالله. «لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ»، يقول: لو تَشْتَغِلُونَ بصلاتكم عن أسلحتكم التي تقاتلونهم بها، وعن أمتعتكم التي بها بَلاغُكُم في أسفاركم فتسهونَ عنها. «فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَّيْلَةً وَاحِدَةً»، يقول: فيحملونَ عليكم وأنتم مشاغيلُ بصلاتِكم عن أسلحتِكم وأمتعتكم حملةً واحدة، فيصيبون منكم غِرَّة بذلك، فيقتلونكم ويستبيحون عسكركم.

يقول جَلَّ ذِكْرُهُ: فلا تفعلوا ذلك بعد هذا، فتشتغلوا جميعكم بصلاتِكُم إذا حَضَرَتْكُم صلاتُكم وأنتم مُواقِفُو العدوِّ، فَتُمَكِّنُوا عَدُوَّكُم من أنفسِكم وأسلحتكم وأمتعتكم، ولكنْ أقيموا الصلاةَ على ما بَيَّنْتُ لكم، وخُذُوا من عدوكم حذْركم وأسلحتكم.

---

(١) أخرجه المؤلف (١٠٣٤٥)، وهو في الصحيحين: البخاري (٤١٢٩)، ومسلم (٨٤١).

(٢) الخبر الذي روي عن سهل بن أبي حثمة صحيح المتن، وهو الحديث السابق في صلاة الخوف بذات الرقاع الذي جاء فيه «عمن صلى مع النبي ﷺ» وهو في الأصح خوات بن جبير، لا سهل بن أبي حثمة حيث إنه كان صغيراً آنذاك، إذ توفي رسول الله ﷺ وهو ابن ثمان سنين فقط. (انظر فتح الباري: ٤٢٢/٧)، وراجع ترجمة سهل في تهذيب الكمال: ١٧٧/١٢-١٧٩.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ»، ولا حَرَجَ عليكم ولا إثمَ. «إِن كَانَ بِكُمْ أَذىً مِّن مَّطَرٍ»، يقول: إنْ نالكم أذى من مطرٍ تُمْطَرُونَهُ وأنتم مُواقِفُـو عَدُوِّكم. «أَوْ كُنْتُمْ مَّرْضَى»، يقـول: أو كنتم جرحى أو أعِلَّاء. «أن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ»، إنْ ضعفتم عن حَمْلِهَا، ولكنْ إنْ وضعتم أسلحتكم من أذى مطرٍ أو مرضٍ، فَخُذُوا من عَدُوِّكم «حِذْرَكُمْ»، يقول: احترسوا منهم أنْ يميلُوا عليكم وأنتم عنهم غافلون غارّون. «إِنَّ ٱللهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً»، يعني بذلك: أعَدَّ لهم عذاباً مُذِلاً يبقون فيه أبداً، لا يخرجون منه. وذلك هو عذابُ جهنم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: فإذا فرغتم، أيها المؤمنونَ، من صلاتِكم وأنتم مواقفـو عدوِّكم التي بَيَّناها لكم، فاذكروا الله على كُلِّ أحوالِكم قياماً وقعوداً ومضـطجعينَ على جُنـوبكم، بالتعـظيم له، والـدعاءِ لأنفسِكم بالظفرِ على عدوكم، لَعَلَّ الله أنْ يظفركم وينصركم عليهم. وذلك نظير قوله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

وأما قوله: «فَإِذَا ٱطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ»، فإنَّ أهل التأويل اختلفوا في تأويله.

فقال بعضهم: معنى قوله: «فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ»، فإذا استقررتم في أوطانِكم وأقمتم في أمصاركم. «فَأَقِيمُوا»، يعني: فَأَتِمُّوا الصلاةَ التي أذن لكم بِقَصْرِهَا في حالِ خوفِكم في سفركم وضربكم في الأرض.

وقال آخرون: معنى ذلك: فإذا استقررتم. «فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ»، أي: فأتِمُّوا حُدودَها بركوعها وسجودها.

وأولى التأويلين بتأويلِ الآية، تأويل مَنْ تأوَّلَهُ: فإذا زال خَوْفُكم من عدوكم وأَمِنْتُم، أيها المؤمنونَ، واطمأنتْ أنفسكم بالأمنِ. «فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ»، فأتموا حُدودَها المفروضةَ عليكم، غير قَاصِرِيهَا عن شيءٍ من حدودها.

وإنما قلنا ذلك أوْلى التأويلين بالآية، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ عَرَّفَ عباده المؤمنينَ الواجبَ عليهم من فرضِ صَلاتهم بهاتين الآيتين في حالين:

إحداهما: حالُ شِدَّةِ خوف، أَذِنَ لهم فيها بقصرِ الصلاةِ، على ما بيَّنت من قَصْرِ حدودها عن التمام.

والأخرى: حالُ غيرِ شِدَّةِ الخوفِ، أَمَرهم فيها بإقامةِ حدودها وإتمامها، على ما وصَفَهُ لهم جَلَّ ثناؤُهُ، من معاقبةِ بعضِهم بعضاً في الصلاة خلفَ أئمتهم، وحراسة بعضهم بعضاً من عدوهم. وهي حالة لا قَصْرَ فيها، لأنه يقول جَلَّ ثناؤُهُ: لنبيهِ ﷺ في هذه الحال: «وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَاةَ». فمعلومٌ بذلك أن قوله: «فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ»، إنما هو: فإذا اطمأننتم من الحالِ التي لم تكونوا مقيمينَ فيها صلاتكم، فأقيموها. وتلك حالة شدةِ الخوفِ، لأنه قد أمرهم بإقامتها في حال غير شدةِ الخوفِ بقوله: «وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَاةَ» الآية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا

مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك.

فقال بعضهم: معناه: إنَّ الصلاةَ كانت على المؤمنين فريضةً مفروضة.

وقال آخرون: معنى ذلك: إنَّ الصلاةَ كانت على المؤمنين فرضاً واجباً.

وقال آخرون: معنى ذلك: إنَّ الصلاةَ كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً، مُنَجَّماً يُؤَدُّونَها في أنجمها[1].

وهـذه الأقـوال قريب معنى بعضهـا من بعض. لأنَّ ما كان مفـروضـاً فواجب، وما كان واجباً أداؤه في وقتٍ بعد وقتٍ فَمُنَجَّمٌ.

غيرَ أنَّ أولى المعاني بتأويلِ الكلمة، قولُ مَنْ قال: «إنَّ الصلاة كانت على المؤمنين فرضـاً منجَّماً»، لأنَّ «المـوقـوتَ» إنما هو «مفعول» من قولِ القائل: «وَقَتَ الله عليك فرضه فهو يَقِته»، ففرضه عليكَ «موقوت»، إذا أخَّرْتَهُ، جعل له وقتاً يجبُ عليكَ أداؤه. فكذلك معنى قوله: «إِنَّ ٱلصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَىٰ ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً»، إنما هو: كانت على المؤمنين فرضاً وقَّت لهم وقتَ وجوبِ أدائه، فَبَيَّنَ ذلك لهم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وَلَا تَهِنُوا»، ولا تَضْعُفُوا.

وقـولـه: «في ٱبْتِغَـاءِ ٱلْقَـوْمِ»، يعني: في التمـاسِ القـوم وطلبهم،

(١) النجم: هو الوقت المضروب. وجمعه: نجوم وأنجم.

و «ٱلْقَوْمِ» هم أعداءُ الله وأعداءُ المؤمنينَ من أهلِ الشرك بالله. «إن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ»، يقول: إنْ تكونوا أيها المؤمنون، تَيْجعون[1] مما ينالكم من الجراح منهم في الدنيا. «فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ»، يقول: فإنَّ المشركين يَيْجعون مما يَنالُهم منكم من الجِراحِ والأذى مثل ما تَيْجَعُونَ أنتم من جِراحهم وأذاهم فيها. «وَتَرْجُونَ»، أنتم أيها المؤمنون. «مِنَ ٱللهِ» من الثوابِ على ما ينالكم منهم. «مَالاَ يَرْجُونَ» هُمْ على ما ينالُهم مِنْكُم. يقول: فأنتم إذْ كنتم مُوقِنينَ من ثوابِ الله لكم على ما يُصِيبُكُم منهم، بما هم به مُكَذِّبُونَ أَوْلى وأحرَى أنْ تَصبرُوا على حَرْبِهم وقتالهم، منهم على قتالكم وحربكم، وأنْ تَجِدُّوا في طَلَبِهم وابتغائِهم، لقتالهم على ما يَهِنُونَ فيه ولا يَجِدُّون، فكيف على ما جَدُّوا فيه ولم يَهِنُوا؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٠٤﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: ولم يَزَلِ الله. «عَلِيماً» بمصالح خَلْقِه. «حَكِيماً»، في تدبيرِه وتقديرِه، ومن علمه، أيها المؤمنون، بمصالحكم عَرَّفكم عندَ حُضورِ صلاتكم وواجبِ فرضِ الله عليكم، وأنتم مُواقِفُو عَدُوِّكم ما يكون به وصولكم إلى أداءِ فرضِ الله عليكم، والسلامة من عدوكم. ومن حكمته بَصَّرَكُم ما فيه تأييدكم وتوهينُ كيدِ عَدُوِّكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ١٠٥ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ١٠٦﴾

---

(١) أي: تألمونَ، ويقال: «وجع الرجل يوجع ويَيْجَعُ وياجع وجعاً»، كله صواب جيد.

يعني جَلَّ ثناؤهُ بقوله: «إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَا أَرَاكَ ٱللهُ»، «إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ» يا محمدُ. «ٱلْكِتَابَ»، يعني: القرآن. «لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ»، لتقضي بين الناس فتفصل بينهم. «بِمَا أَرَاكَ ٱللهُ»، يعني: بما أنزل الله إليكَ من كتابه. «وَلَا تَكُنْ لِّلْخَائِنِينَ خَصِيماً»، يقول: ولا تَكُنْ لمن خانَ مسلماً أو معاهداً في نفسه أو ماله. «خَصِيماً» تخاصم عنه، وتدفع عنه من طالبه بحقِّه الذي خانه فيه. «وَٱسْتَغْفِرِ ٱللهَ»، يا محمدُ، وسَلْهُ أَنْ يصفحَ لكَ عن عقوبةِ ذنبكَ في مخاصمتك عن الخائنِ مَنْ خان مالاً لغيرهِ. «إِنَّ ٱللهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً»، يقول: إنَّ الله لم يَزَلْ يصفحُ عن ذنوبِ عبادِهِ المؤمنينَ، بتركهِ عقوبتهم عليها إذا استغفروه منها. «رَّحِيماً» بهم، فافعلْ ذلكَ أنتَ، يا محمدُ، يغفر الله لكَ ما سَلَفَ من خصومتكَ عن هذا الخائن.

وقد قيل إنَّ النبيَّ ﷺ لم يَكُنْ خاصمَ عن الخائن، ولكنه هَمَّ بذلك، فأمره الله بالاستغفار مما هَمَّ به من ذلك.

وذكر أنَّ الخائنين الذين عاتبَ الله جَلَّ ثناؤهُ نَبيَّهُ ﷺ في خصومته عنهم: بنو أُبَيْرِق[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤهُ: «وَلَا تُجَادِلْ» يا محمدُ، فتخاصم. «عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُم»، يعني: يُخَوِّنُونَ أنفسهم، يجعلونها خَوَنة بخيانتهم ما خانوا من أموالِ مَنْ خانوه مالَه، وهم بنو أُبيرق. يقول: لا تخاصم عنهم من يطالبهم

(١) حيث جَحَدُوا وديعة أودعوها، فَبَيَّنَ الله خيانتهم.

بحقوقهم وما خانوه فيه من أموالهم. «إِنَّ ٱللهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً»، يقول: إنَّ الله لا يحبُّ مَنْ كان مِنْ صِفَتِه خِيَانة الناسِ في أموالهم، وركوب الإثم في ذلك وغيره مما حَرَّمه الله عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ»، يستخفي هؤلاء الذين يختانونَ أنفسهم، ما أَتَوْا من الخيانةِ، وركبوا من العار والمعصية. «مِنَ ٱلنَّاسِ»، الذين لا يقدرون لهم على شيء، إلا ذِكْرهم بقبيحِ ما أَتَوْا من فِعْلِهم، وشنيع ما رَكِبُوا من جُرْمهم إذا اطَّلَعُوا عليه، حياءً منهم وحَذَراً من قبيحِ الأُحدوثةِ. «وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللهِ» الذي هو مُطَّلِعٌ عليهم، لا يخفى عليه شيءٌ من أعمالهم، وبيده العقابُ والنَّكالُ وتعجيلُ العذابِ، وهو أَحَقُّ أن يُسْتَحيا منه من غيرِهِ، وأَوْلى أنْ يُعَظَّمَ بأنْ لا يراهم حيثُ يكرهون أنْ يراهم أحدٌ من خَلْقِه، «وَهُوَ مَعَهُمْ»، يعني: والله شاهدهم. «إِذْ يُبَيِّتُونَ مَالَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ»، يقول: حين يُسَوُّون ليلاً مالا يَرضى من القول، فَيُغَيِّرونَهُ عن وجهِهِ، ويكذبون فيه.

«وَكَانَ ٱللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً»، يعني جَلَّ ثناؤُهُ: وكان الله بما يعملُ هؤلاء المُسْتَخْفُونَ من الناسِ، فيما أَتَوْا من جُرْمهم، حياءً منهم، من تَبْييتهم ما لايَرْضَى من القولِ، وغيره من أفعالهم. «مُحِيطاً»، مُحْصِياً لا يَخْفَى عليه شيءٌ منه، حافظاً لذلك عليهم، حتى يجازيهم عليه جزاءهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «هاأَنْتُمْ هؤُلاءِ جادَلْتُم عَنْهُمْ فِي ٱلْحَياةِ ٱلدُّنْيَا»، هاأنتم الذين جادلتم، يا معشرَ مَنْ جادل عن بني أُبيرق. «فِي ٱلْحَياةِ ٱلدُّنْيَا»، و«الهاء» و«الميم» في قوله: «عَنْهُمْ» من ذِكْرِ الخائنين.

«فَمَن يُجَادِلُ آللهَ عَنْهُمْ»، يقول: فَمَنْ ذَا يخاصمُ الله عنهم، «يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ»، أي: يومَ يقومُ الناسُ من قبورهم لمحشرهم، فيدافع عنهم ما الله فاعلٌ بهم ومعاقبهم به. وإنما يعني بذلك: إنكم أيها المدافعونَ عن هؤلاءِ الخائنينَ أنفسهم، وإنْ دافعتم عنهم في عاجلِ الدنيا، فإنهم سيصيرونَ في آجلِ الآخرةِ إلى مَنْ لا يدافعُ عنهم عندَهُ أحدٌ فيما يَحُلُّ بهم من أليمِ العذابِ ونَكالِ العقاب.

وأما قوله: «أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً»، فإنه يعني: ومَنْ ذا الذي يكونُ على هؤلاء الخائنين وكيلاً يومَ القيامة. أي: ومَنْ يتوكَّلُ لهم في خصومةِ ربِّهم عنهم يوم القيامة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: ومَنْ يعملْ ذنباً، وهو «السوء»، «أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ»، بإكسابهِ إيَّاها ما يستحق به عقوبة الله. «ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ آللهَ»، يقول: ثم يتوبُ إلى

الله بإنابتهِ مما عملَ من السوءِ وظُلْمِ نَفْسِهِ، ومراجعته ما يحبهُ الله من الأعمالِ الصالحةِ التي تمحو ذَنْبَهُ وتُذْهب جُرْمَهُ. «يَجِد آللهَ غَفُوراً رَّحِيماً»، يقول: يجد رَبَّهُ ساتراً عليه ذنبه بصفحهِ له عن عقوبةِ جرمه، رحيماً به.

(وقد) عَنَى الله بهذه الآية كُلَّ مَنْ عملَ سوءاً أو ظلم نفسه، وإنْ كانتْ نزلت في أمرِ الخائنينَ والمجادلين عنهم الذين ذَكَرَ الله أمرَهم في الآياتِ قبلها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: ومَنْ يأتِ ذنباً على عَمْدٍ منه له ومعرفةٍ به، فإنما يجترحُ وَبَالَ ذلك الذَّنْبِ وضُرَّهُ وخِزْيه وعارَهُ على نفسه، دون غيره من سائر خلق الله، يقول: فلا تجادلوا، أيها الذين تجادلونَ، عن هؤلاء الخونة، فإنكم وإنْ كنتم لهم عشيرةً وقرابةً وجيراناً، برآء مما أتوه من الذنب ومن التَّبِعة التي يُتّبعون بها، وإنكم متى دافعتم عنهم أو خاصمتم بسببهم، كُنْتُمْ مِثْلَهم، فلا تدافعوا عنهم ولا تخاصموا.

وأما قوله: «وَكَانَ آللهُ عَلِيماً حَكِيماً»، فإنه يعني: وكان الله عالماً بما تفعلونَ، أيها المجادلون عنِ الذين يختانونَ أنفسهم، في جِدالكم عنهم وغير ذلك من أفعالِكم وأفعالِ غيركم، وهو يُحْصِيها عليكم وعليهم، حتى يجازي جميعكم بها. «حَكِيماً»، يقول: وهو حكيمٌ بسياستكم وتدبيركم وتدبير جميع خَلْقِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: ومَنْ يعملْ خطيئةً، وهيِ الذنبُ. «أَوْ إِثْماً»، وهو ما لايحل من المعصية.

وإنما فَرَّقَ بين «الخطيئة» و«الإثم»، لأنَّ «الخطيئة»، قد تكونُ من قبل العَمْد وغير العمد، و«الإثم» لا يكونُ إلاَّ من العَمْد، ففصَلَ جَلَّ ثناؤُهُ لذلك بينهما فقال: ومَنْ يأتِ «خطيئة» على غيرِ عَمْدٍ منه لها. «أَوْ إِثْماً» على عمد منه.

«ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً»، يعني: ثم يُضيفُ ماله من خطئه أو إثمه الذي تَعَمَّدَهُ «بَرِيئاً» مما أضافه إليه ونَحَلَهُ إياه. «فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً»، يقول: فقد تَحَمَّلَ بفعله ذلك فِرْيَةً وكذباً وإثماً عظيماً. يعني، وجُرْماً عظيماً، على عِلْمٍ منه وعَمْدٍ لما أتى من معصيته وذنبه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾**

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ»، ولولا أنَّ الله تَفَضَّلَ عليكَ، يا محمدُ، فَعَصَمَكَ بتوفيقه وتبيانهِ لكَ أمرَ هذا الخائن، فكففتَ لذلك عن الجدالِ عنه، ومدافعة أهل الحق عن حقهم قِبَله «لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ»، يقول: لَهَمَّتْ فرقةٌ منهم، يعني: من هؤلاء الذين يختانون أنفسهم. «أَن يُضِلُّوكَ»، يقول: يُزِلُّوكَ عن طريقِ الحق، وذلك لتلبيسهم أمرَ الخائنِ عليه ﷺ، وشهادَتِهم للخائنِ عنده بأنه بريءٌ مما ادُّعيَ عليه، ومسألتِهم إياه أنْ يعذره

ويقوم بمعذرته في أصحابه. فقال الله تبارك وتعالى: وما يُضِلُّ هؤلاء الذين هَمُّوا بأنْ يُضِلُّوكَ عن الواجبِ من الحكم في أمرِ هذا الخائنِ دِرْعَ جاره، «إلَّا أَنفُسَهُمْ».

فإنْ قال قائلٌ: ما كان وجه إضلالهم أنفسَهم؟

قيل: وجهُ إضلالهم أنفسهم: أخذُهم بها في غير ما أباحَ الله لهم الأخذَ بها فيه من سُبُلِه. وذلك أنَّ الله جَلَّ ثناؤهُ قد كان تَقَدَّمَ إليهم فيما تقدّم في كتابه على لسان رسوله إلى خلقه، بالنهي عن أنْ يتعاونوا على الإثم والعدوان، والأمر بالتعاون على الحق. فكان من الواجب لله فيمن سعى في أمر الخائنين الذين وَصَفَ الله أمرهم بقوله: «وَلَا تَكُنْ لِّلْخَائِنِينَ خَصِيماً»، معاونة مَنْ ظلموه، دونَ مَنْ خاصمهم إلى رسول الله ﷺ في طلب حَقِّه منهم. فكان سعيهم في معونتهم، دون معونةِ مَنْ ظلموه، أخذاً منهم في غير سبيل الله. وذلك هو إضلالُهم أنفُسَهم الذي وصفه الله فقال: «وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ».

«وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ»، وما يَضُرُّكَ هؤلاء الذين هَمُّوا لكَ أنْ يُزِلُّوكَ عن الحَقِّ في أمر هذا الخائن من قومه وعشيرته. «مِن شَيْءٍ»، لأنَّ الله مُثَبِّتُكَ ومُسَدِّدُكَ في أمورِكَ، ومُبَيِّنٌ لكَ أمرَ مَنْ سَعَوْا في إضلالكَ عن الحقِّ في أمرِه وأمرهم، ففاضِحهُ وإياهم.

وقوله: «وَأَنْزَلَ ٱللهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ»، يقول: ومِنْ فَضْلِ الله عليك، يا محمدُ، مع سائر ما تفضَّلَ به عليك من نِعَمِهِ، أنه أنزل عليك «ٱلْكِتَابَ»، وهو القرآنُ الذي فيه بيانُ كُلِّ شيءٍ وهدىً وموعظة. «وَٱلْحِكْمَةَ»، يعني: وأنزل عليك مع الكتاب الحكمة، وهي ما كانَ في الكتابِ مُجْملاً ذكره، مِنْ حَلالِه وحرامِهِ، وأمرِهِ ونهيِهِ، وأحكامِهِ، ووعدِهِ ووعيدِهِ. «وَعَلَّمَكَ مَالَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ» من خبرِ الأولينَ والآخرينَ، وما كانَ وما هو كائنٌ، فكلُّ ذلك

من فضلِ الله عليكَ، يا محمدُ، مُذْ خلقكَ، فاشكره على ما أولاكَ من إحسانهِ إليكَ، بالتمسُّكِ بطاعته، والمسارعة إلى رِضاهُ ومحبته، ولزومِ العملِ بما أنزل إليكَ في كتابه وحكمته، ومخالفة مَنْ حاول إضلالكَ عن طريقهِ ومنهاج دينه، فإنَّ الله هو الذي يتولَّاكَ بفضلهِ، ويكفيكَ غائلةَ مَنْ أرادكَ بسوءٍ وحاولَ صَدَّكَ عن سبيلهِ، كما كفاكَ أمرَ الطائفةِ التي هَمَّتْ أنْ تُضِلَّكَ عن سبيلهِ في أمرِ هذا الخائن. ولا أحد دونه ينقذك من سوءٍ إنْ أرادَ بكَ، إنْ أنتَ خالَفْتَهُ في شيءٍ من أمرهِ ونهيهِ، واتَّبَعْتَ هوى مَنْ حاول صَدَّكَ عن سبيلهِ.

وهذه الآية تنبيهٌ من الله نبيَّه محمداً ﷺ على موضع خطئه، وتذكيرٌ منه له الواجبَ عليه من حقه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤهُ بقوله: «لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ»، لاخير في كثيرٍ من نجوى الناسِ جميعاً. «إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ»، و«المعروف»، هو كُلُّ ما أمرَ الله به أونَدَبَ إليه من أعمالِ البر والخير. «أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ»، وهو الإصلاحُ بين المتباينين أو المختصمين، بما أباحَ الله الإصلاحَ بينهما، ليتراجعا إلى ما فيه الأُلْفَةُ واجتماعُ الكلمة، على ما أَذِنَ الله وأمرَ به.

ثم أخبر جَلَّ ثناؤهُ بما وَعَدَ مَنْ فعلَ ذلك فقال: «وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ ٱللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً»، يقول: ومَنْ يأمر بصدقةٍ أو معروفٍ من الأمر، أو يصلح بين الناس. «ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ ٱللهِ»، يعني: طَلَبَ رِضَى الله بفعلهِ ذلك. «فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً»، يقول: فسوف نُعطيهِ جزاءً لِمَا فعلَ

من ذلك عظيماً، ولاحدَّ لمبلغ ما سمى الله «عَظِيماً» يَعْلَمهُ سواه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ»، ومَنْ يُباينِ الرسولَ محمداً ﷺ، مُعادِياً له، فيفارقه على العداوة له. «مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ»، يعني: من بعد ما تَبيَّنَ له أنه رسولُ الله، وأنَّ ما جاءَ به من عندِ الله يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم. «وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ»، يقول: ويتبع طريقاً غيرَ طريقِ أهلِ التصديقِ، ويسلك منهاجاً غيرَ منهاجِهم، وذلك هو الكفرُ بالله، لأنَّ الكفرَ بالله ورسوله غير سبيل المؤمنينَ وغير منهاجهم. «نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ»، يقول: نجعل ناصره ما استنصره واستعان به من الأوثان والأصنام، وهي لا تغنيه ولا تدفع عنه من عذابِ الله شيئاً، ولا تنفعه.

«وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ»، يقول: ونجعلهُ صِلاءَ نارِ جهنمَ، يعني: نحرقهُ بها.

«وَسَاءَتْ مَصِيراً»، يقول وساءت جهنم. «مَصِيراً»، موضعاً يَصِيرُ إليه مَنْ صار إليه.

ونـزلت هذه الآية في الخائنينَ الذين ذكرهم الله في قوله: «وَلَا تَكُنْ لِّلْخَائِنِينَ خَصِيماً»، لَمَّا أَبَى التوبةَ مَنْ أبى منهم، وهو طُعْمَةُ بنُ الأُبيرق، ولَحِقَ بالمشركينَ من عَبَدَةِ الأوثان بمكة مرتداً، مُفَارِقاً لرسولِ الله ﷺ ودينه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ

﴿ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١١٦﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: إنَّ الله لا يغفرُ لِطُعْمَةَ إذْ أشركَ وماتَ على شِرْكهِ بالله، ولا لغيره من خَلْقِه بِشِرْكِهم وكفرهم به. «وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ»، يقول: ويغفرُ ما دونَ الشرك بالله من الذنوبِ لمن يشاء. يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: أنَّ طُعمةَ لولا أنه أشركَ بالله وماتَ على شِرْكِه، لكان في مشيئة الله على ما سَلَفَ من خيانته ومعصيته، وكان إلى الله أمره في عذابه والعفو عنه. وكذلك حُكْمُ كُلِّ من اجترمَ جُرْماً، فإلى الله أمرهُ، إلَّا أن يكون جُرْمُه شِرْكاً بالله وكفراً، فإنه مِمَّنْ حَتْمٌ عليه أنه من أهلِ النارِ إذا ماتَ على شِرْكِه. فأما إذا مات على شركه، فقد حرَّم الله عليه الجنةَ ومأواهُ النار.

وأما قوله: «وَمَن يُشْرِكْ بالله فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً»، فإنه يعني: ومن يجعل لله في عبادتهِ شريكاً، فقد ذهبَ عن طريق الحقِّ وزالَ عن قَصْدِ السبيل، ذهاباً بعيداً وزوالاً شديداً، وذلك أنه بإشراكهِ بالله في عبادته قد أطاعَ الشيطانَ وسَلَكَ طريقَهُ، وتركَ طاعةَ الله ومنهاجَ دينهِ. فذاك هو الضلالُ البعيدُ والخُسران المبين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا﴾

يقول: ما يدعو الذين يُشَاقونَ الرسولَ وَيَتَّبعونَ غيرَ سبيل المؤمنين شيئاً. «من دون الله»، بعد الله وسواه، «إِلَّا إِنَاثاً»، يعني: إلا ما سَمَّوه بأسماءِ الإناثِ كاللات والعزى وما أشبه ذلك. يقول جَلَّ ثناؤُهُ: فَحَسْبُ هؤلاء الذين أشركوا بالله، وعَبَدُوا ما عبدوا من دونهِ من الأوثانِ والأندادِ، حجّة عليهم في ضلالتهم وكفرهم وذهابهم عن قَصْدِ السبيل، أنهم يعبدون إناثاً ويدعونها آلهةً وأرباباً،

والإناثُ من كُلِّ شيءٍ أَخَسُّهُ، فهم يُقِرُّونَ للخسيسِ من الأشياءِ بالعُبودةِ، على عِلْمٍ منهم بخساسته، ويمتنعون من إخلاصِ العبودةِ للذي له ملكُ كُلِّ شيءٍ، وبيده الخَلْقُ والأمرُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ١١٧﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَاناً مَّرِيداً»، وما يَدْعُو هؤلاء الـذين يَدْعُـونَ هذه الأوثان الإناث من دونِ الله بدعائهم إياها. «إِلَّا شَيْطَاناً مَّرِيداً»، يعني: متمرداً على الله في خلافه فيما أمره به، وفيما نهاه عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ١١٨﴾

معنى الكلام: «وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَاناً مَّرِيداً»، قد لَعَنَهُ الله وأَبْعَدَهُ من كُلِّ خير.

«وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ»، يعني بذلك: أنَّ الشيطانَ المريدَ قال لربِّهِ إذْ لَعَنَهُ: «لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً».

فإنْ قالَ قائلٌ: وكيف يَتَّخِذُ الشيطانُ من عبادِ الله نصيباً مفروضاً؟

قيل: يَتَّخِذُ منهم ذلكَ النصيبَ، بإغوائهِ إياهم عن قَصْدِ السبيل، ودعائه إياهم إلى طاعتهِ، وتزيينه لهم الضلالَ والكفرَ حتى يُزيلهم عن منهجِ الطريق، فَمَنْ أجابَ دعاءَه واتَّبع ما زَيَّنَهُ له، فهو من نصيبهِ المعلوم، وحَظِّهِ المقسوم.

وإنما أخبر جَلَّ ثناؤُهُ في هذه الآية بما أخبَر به عن الشيطان من قِيلِهِ: «لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً»، ليعلمَ الذين شاقُّوا الرسولَ من بَعْدِ ما تبين لهم الهدى، أنهم من نصيبِ الشيطانِ الذي لعنه الله، المفروضِ[1]، وأنهم مِمَّنْ صَدَّقَ عليهم ظَنَّهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾

يعني بقـوله جَلَّ ثناؤُهُ: مُخْبِراً عن قِيلِ الشيطانِ المريدِ الذي وَصَفَ صِفَتَهُ في هذه الآية: «وَلأُضِلَّنَّهُمْ»، ولأَصُدَّنَّ النصيبَ المفروضَ الذي أَتَّخِذُهُ من عبـادك عن محجـةِ الهـدى إلى الضـلال، ومن الإسـلامِ إلى الكفـر. «وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ»، يقـول: لأُزِيغَنَّهُم ـ بمـا أجعـلُ في نفـوسهم من الأماني ـ عن طاعتـكَ وتـوحيدكَ، إلى طاعتي والشِـرْكِ بكَ، «وَلآمُـرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ ٱلأَنْعَامِ»، يقول: ولآمُرَنَّ النصيبَ المفروضَ لي من عبادكَ، بعبادةِ غيركَ من الأوثـانِ والأنـدادِ حتى يَنْسُكوا له، ويُحَرِّمُوا ويُحَلِّلُوا له، ويَشْرَعُوا غيرَ الذي شرعته لهم، فيتبعوني ويخالفوك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ آللهِ»، دِينَ الله. وذلك لدلالـةِ الآيةِ الأخرى على أنَّ ذلك معناه، وهي قوله: ﴿فِطْرَةَ الله الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

وإذا كان ذلك معناه، دخل في ذلك فِعْلُ كُلِّ ما نهى الله عنه: من خِصَاءِ

(١) «المفروض» صفة قولِه: «نصيب الشيطان».

ما لايجوزُ خِصاؤُه، ووَشْم ما نهى عن وَشْمِه ووَشْرِه[١]، وغير ذلك من المعاصي، ودخل فيه تَرْكُ كُلِّ ما أمرَ الله به. لأنَّ الشيطانَ لا شك أنه يدعو إلى جميع معاصي الله ويَنْهى عن جميعِ طاعتِه. فذلك معنى أمْرِه نصيبَهُ المفروضَ من عبادِ الله، بتغييرِ ما خَلَقَ الله من دينِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾**

وهذا خَبَرٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ، عن حالِ نصيبِ الشيطانِ المفروضِ من الذين شَاقُّوا الله ورسولَهُ من بعد ما تَبَيَّنَ لهم الهدى. يقول الله: ومَنْ يَتَّبع الشيطانَ فيطيعهُ في معصيتِه الله وخلافِ أمرِه، ويُواليه فيتخذه ولياً لنفسِه ونصيراً من دون الله. «فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُّبِيناً»، يقول: فقد هلك هلاكاً، وبخس نفسَهُ حَظَّها فأوْبَقَها بخساً. «مُّبِيناً». يبين عن عَطَبِه وهلاكِه، لأنَّ الشيطانَ لا يملكُ له نصراً من الله إذا عاقبه على معصيتِه إياه في خِلافه أمرَهُ، بل يَخْذُله عند حاجتِه إليه. وإنما حاله معه ما دام حَياً مُمْهَلاً بالعقوبةِ، كما وصفه الله جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً»، يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: يَعِدُ الشيطانُ المَرِيدُ أولياءَهُ الذين هم نصيبهُ المفروض: أن يكون لهم نصيراً ممن أرادَهُم بسوء، وظهيراً لهم عليه، يمنعهم منه ويدافع عنهم، ويُمَنِّيهم الظفرَ على مَنْ حاول مكروههم والفَلَجَ عليهم.

ثم قال: «وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً»، يقول: وما يعد الشيطانُ أولياءَهُ. الذين اتخذوه ولياً من دون الله. «إِلَّا غُرُوراً»، يعني: إلَّا باطلاً.

---

(١) الوشر: حَدُّ الإنسان وترقيقها بالمنشار، وهو المبرد.

وإنما جعل عِدَتَهُ إيَّاهم جَلَّ ثناؤُهُ ما وَعَدَهُم «غُروراً»، لأنهم كانوا يحسبون أنهم في اتِّخاذِهم إياهُ ولياً على حقيقةٍ من عِداتِهِ الكذبَ وأمانيه الباطلة، حتى إذا حَصْحَصَ الحَقُّ، وصاروا إلى الحاجةِ إليه، قال لهم عَدُوُّ الله: ﴿إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢]. وكما قالَ للمشركينَ ببدر، وقد زيَّن لهم أعمالَهم: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ اليَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الفِئَتَانِ﴾، وحَصْحَصَ الحقُّ، وعايَنَ جِدَّ الأمرِ ونزولَ عذابِ الله بحزبه: ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَالَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ وَاللهُ شَدِيدُ العِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨]، فصارتْ عِداتُهُ، عدُوِّ الله إياهم عند حاجتهم إليه غروراً: ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ [النور: ٣٩].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ١٢١﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «أُوْلَئِكَ»، هؤلاء الذين اتَّخذُوا الشيطانَ ولياً من دونِ الله. «مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ»، يعني: مصيرهم الذين يصيرونَ إليه جهنم.

«وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصاً»، لا يجدون عن جهنم - إذا صَيَّرهم الله إليها يومَ القيامة - مَعْدِلاً يَعْدِلونَ إليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ»، والذين صَدَّقُوا الله ورسوله، وأقَرُّوا له بالوحدانيةِ، ولرسولهِ ﷺ بالنبوةِ. «وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ»، يقـول: وأدَّوا فرائضَ الله التي فَرَضَها عليهم. «سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلإِنْهَارُ»، يقول: سوف ندخلهم يومَ القيامةِ إذا صاروا إلى الله، جزاءً بما عَمِلُوا في الدنيا من الصالحات. «جَنَّاتٍ»، يعني: بساتين. «تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلإِنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً»، يقول: باقينَ في هذه الجناتِ التي وصفها. «أَبَداً»، دائماً.

وقوله: «وَعْدَ ٱللهِ حَقاً»، يعني: عِدَةٌ من الله لهم ذلك في الدنيا «حَقاً»، يعني: يقيناً صادقاً، لا كَعِدَةِ الشيطانِ الكاذبةِ التي هي غرور مَنْ وُعِدَها من أوليائه، ولكنها عِدَةُ مِمَّنْ لا يكذبُ ولا يكونُ منه الكذبُ، ولا يُخْلفُ وعده.

وإنما وصف جَلَّ ثناؤُهُ وَعْدَهُ بالصدقِ والحق في هذه، لما سَبَقَ من خبرهِ جَلَّ ثناؤُهُ عن قولِ الشيطانِ الذي قَصَّهُ في قولِهِ: «وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً * وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ ٱلأَنْعَامِ»، ثم قال جَلَّ ثناؤُهُ: «يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً»، ولكنَّ الله يَعِدُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات أنه سيدخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدينَ فيها أبداً، وَعْداً منه حقاً، لا كوعدِ الشيطانِ الذي وَصَفَ صفته.

فوصف جَلَّ ثنـاؤُهُ الـوَعْـدَيْنِ والوَاعِدَيْنِ، وأخبرَ بحكمِ أهلِ كُلِّ وعدٍ منهما، تنبيهاً منه جَلَّ ثناؤُهُ خَلْقَهُ على ما فيه مصلحتُهم وخلاصُهم من الهلكةِ والمعطبةِ، لينزجروا عن معصيتهِ ويعملوا بطاعتهِ، فيفوزوا بما أعدَّ لهم في جنانِه من ثوابه.

ثم قال لهم جَلَّ ثناؤُهُ: «وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللهِ قِيلًا»، يقول: ومَنْ أصدقُ، أيها الناسُ، من الله قيلاً، أي: لا أحدَ أصدق منه قيلًا! فكيف تتركون العملَ بما وَعَدَكُم على العملِ به رَبُّكم جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ خالدينَ فيها أبداً، وتكفرونَ به وتخالفونَ أمره، وأنتم تعلمون أنَّه لا أحد أصدق منه قيلاً، وتعملون بما يأمركم به الشيطانُ رجاءً لإدراكِ ما يَعِدكُم من عِدَاتِهِ الكاذبةِ وأمانيهِ الباطلةِ، وقد علمتم أنَّ عِدَاتَهُ غُرورٌ لا صحةَ لها ولا حقيقة، وتتخذونه وليّاً من دون الله، وتتركون أنْ تُطيعوا الله فيما يأمركم به وينهاكم عنه، فتكونوا له أولياء؟

ومعنى «القِيل» و«القول» واحدٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ

اختلف أهلُ التأويل في الذين عُنوا بقوله: «لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ».

فقال بعضهم: عُني بقوله: «لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ»، أهلُ الإسلام.

وقال آخرون: بل عَنَى الله بقوله: «لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ»، أهلَ الشركِ به من عَبَدةِ الأوثان.

وقال آخرون: عُني به أهلُ الكتابِ خاصَّة.

قال أبو جعفر.

وأَوْلى التأويلين بالصواب في ذلك أنه عَنَى مشركي قريش.

وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب، لأنَّ المسلمينَ لم يَجْرِ لأمانيهم ذِكْرٌ فيما مضى من الآي قبلَ قوله: «لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ»، وإنما جرى ذِكْرُ أمانيِّ نصيب

الشيطان المفروض، وذلك في قوله: «وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ ٱلْأَنْعَامِ»، وقوله: «يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ»، فإلحاقُ معنى قوله جَلَّ ثناؤُهُ: «لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ» بما قد جرى ذِكْرُه قَبْلُ، أَحَقُّ وأولى من ادِّعاء تأويلٍ فيه، لا دلالةَ عليه من ظاهرِ التنزيلِ، ولا أثر عن الرسولِ ﷺ، ولا إجماع من أهلِ التأويل.

وإذْ كان ذلك كذلك، فتأويلُ الآية إذاً: ليس الأمرُ بأمانيكم، يا معشرَ أولياءِ الشيطانِ وحزبه، التي يُمَنِّيكُمُوها وليُّكم عَدُوُّ الله، من إنقاذِكم مِمَّنْ أرادَكُم بسوءٍ، ونُصْرَتِكم عليه وإظفاركم به ولا أمانيِّ أهلِ الكتابِ الذين قالوا اغتراراً بالله وبحلمه عنهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً﴾ وَ﴿لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى﴾، فإنَّ الله مجازي كُلَّ عاملٍ منكم جزاءَ عمله، مَن يعمل منكم سوءاً، ومن غيركم، يُجْزَ بِهِ، ولا يَجِدْ له من دونِ الله ولياً ولا نصيراً، ومَنْ يعملْ من الصالحاتِ من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فأولئك يدخلون الجنة.

ومما يدلُّ أيضاً على صحة ما قلنا في تأويل ذلك، وأنه عُني بقوله: «لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ» مشركو العربِ: أنَّ الله وصفَ وَعْدَ الشيطانِ ما وعدَ أولياءَهُ وأخبرَ بحالِ وعده، ثم أَتْبَعَ ذلك بصفةِ وعدِهِ الصادق بقوله: «وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ ٱللهِ حَقّاً»، وقد ذَكَرَ جَلَّ ثناؤُهُ مع وصفه وَعْدَ الشيطانِ أولياءَهُ، تَمْنِيَتَهُ إياهم الأمانيَّ بقوله: «يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ»، كما ذكر وعده إياهم. فالذي هو أشبهُ: أن يتبع تمنيتَه إياهم من الصفةِ، بمثل الذي أتبع عِدَتَهُ إياهم به من الصفة.

وإذْ كان ذلك كذلك، صَحَّ أنَّ قوله: «لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ» الآية، إنما هو خبرٌ من الله عن أماني أولياء الشيطان، وما إليه صائرةٌ أمانِيُّهم مع سيءِ أعمالِهم من سوء الجزاءِ، وما إليه صائرةٌ أعمالُ أولياءِ الله من حُسْنِ الجزاء. وإنما ضَمَّ جَلَّ ثناؤُهُ أهلَ الكتاب إلى

المشركين في قوله: «لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ»، لأنَّ أمانيَّ الفريقين من تمنيةِ الشيطانِ إياهم التي وعدهم أن يُمَنِّيَهُمُوهَا بقوله: «وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ

(يعني): إنَّ كُلَّ مَنْ عَمِلَ سوءاً صغيراً أو كبيراً من مؤمنٍ أو كافر، جُوزِيَ به لعمومِ الآية كُلَّ عاملِ سوءٍ، من غير أنْ يُخَصَّ أو يستثنى منهم أحدٌ. فهي على عمومها، إذْ لم يكن في الآية دلالةٌ على خصوصها، ولا قامت حجةٌ بذلك من خبرٍ عن الرسولِ ﷺ.

فإنْ قالَ قائلٌ: وأين ذلك من قول الله: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّآتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]؟ وكيف يجوزُ أن يجازي على ما قد وَعَدَ تكفيرَهُ؟

قيل: إنه لم يَعِدْ بقوله: ﴿نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّآتِكُمْ﴾، تركَ المجازاةِ عليها، وإنما وَعَدَ التكفيرَ بتركِ الفضيحةِ منه لأهلها في معادهم، كما فضحَ أهلَ الشرك والنفاق. فأما إذا جازاهم في الدنيا عليها بالمصائبِ ليكفرها عنهم بها، ليوافوه ولا ذَنْبَ لهم يستحقُّونَ المجازاةَ عليه، فإنما وفَى لهم بما وَعدَهُم بقوله: ﴿نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّآتِكُمْ﴾، وأنجزَ لهم ما ضَمِنَ لهم بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ﴾ [النساء: ١٢٢].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: ولا يجد الذي يعمل سوءاً من معاصي الله وخلاف ما أمره به. «مِن دُونِ ٱللهِ»، يعني: من بعد الله، وسواه. «وَلِياًّ» يَلِي أمرَهُ، ويحمي عنه ما ينزل به من عقوبةِ الله. «وَلاَ نَصِيراً»، يعني: ولا ناصراً ينصره مما يحلُّ به من عقوبةِ الله وأليمِ نَكالهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ١٢٤﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: الذين قال لهم: «لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ»، يقول الله لهم: إنما يدخلُ الجنةَ ويُنَعَّمُ فيها في الآخرة، مَنْ يعملْ من الصالحاتِ من ذكورِكم وإناثِكم، وذكورِ عبادي وإناثِهم، وهو مؤمنٌ بي وبرسولي محمدٍ، مصدق بوحدانيتي وبنبوّةِ محمدٍ ﷺ وبما جاء به من عندي لا أنتم أيها المشركونَ بي، المكذبونَ رسولي، فلا تَطْمَعُوا أنْ تحلّوا، وأنتم كفارٌ، مَحلَّ المؤمنينَ بي، وتدخلوا مداخلهم في القيامة، وأنتم مُكَذِّبونَ برسولي.

وأما قوله: «وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً»، فإنه يعني: ولا يظلم الله هؤلاء الذين يعملون الصالحات من ثوابِ عملهم، مقدارَ النُّقرةِ التي تكونُ في ظهر النَّواة في القلة، فكيف بما هو أعظم من ذلك وأكثر؟ وإنما يخبر بذلك جَلَّ ثناؤُهُ عبادَهُ أنه لا يبخَسهم من جزاءِ أعمالِهم قليلاً ولا كثيراً، ولكن يُوفِّيهم ذلك كما وَعَدَهم.

فإنْ قال لنا قائلٌ: ما وجه دخول: «مِنَ» في قوله: «وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّالِحَاتِ»، ولم يقل: «ومن يعمل الصالحات»؟

قيل: لدخولها وجهان:

أحدهما: أنْ يكونَ الله قد علم أنَّ عبادَهُ المؤمنينَ لن يُطيقوا أنْ يعملوا جميعَ الأعمالِ الصالحات، فأوجب وَعْدَهُ لِمَنْ عَمِلَ ما أطاقَ منها، ولم يحرمه من فضلِهِ بسبب ما عجزتْ عن عملِهِ منها قُوَّتُهُ.

والآخرمنهما: أنْ يكونَ تعالى ذِكْرُهُ أوجبَ وَعْدَهُ لمن اجتنبَ الكبائرَ وأدَّى الفرائضَ، وإنَّ قَصَّرَ في بعضِ الواجبِ له عليه، تَفَضُّلاً منه على عبادِهِ المؤمنين، إذْ كان الفضلُ به أولى، والصفح عن أهل الإيمان به أحرَى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾

وهذا قضاءٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ للإسلامِ وأهلِه بالفضلِ على سائرِ الملل غيره وأهلِها، يقول الله: «وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً» أيها الناسُ، وأصوبُ طريقاً، وأهدى سبيلاً. «مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله»، يقول: ممن استسلم وجهه لله فانقادَ له بالطاعةِ، مُصَدِّقاً نَبِيَّهُ محمداً ﷺ فيما جاءَ به من عند ربه. «وَهُوَ مُحْسِنٌ»، يعني: وهو عاملٌ بما أمره به ربه، محرِّمٌ حرامه ومحلِّل حلاله. «وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً»، يعني بذلك: واتبعَ الدِّينَ الذي كان عليه إبراهيمُ خليلُ الرحمن، وأمرَ به بنيه من بعدهِ وأوصاهم به. «حَنِيفاً»، يعني: مستقيماً على منهاجه وسبيله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: واتخذ الله إبراهيمَ ولياً.

فإن قال قائل: وما معنى «الخُلَّة» التي أُعْطِيَها إبراهيمُ؟

قيل: ذلك من إبراهيم عليه السلام: العداوةُ في الله والبُغْضُ فيه، والولايةُ في الله والحبُّ فيه، على ما يعرف من معاني «الخلة». وأما من الله لإبراهيم، فَنُصْرته على مَنْ حَاولَهُ بسوءٍ، كالذي فعلَ به إذْ أراده نمرود بما أرادَه به من الإحراقِ بالنارِ فأنقذَهُ منها، أو على حجته عليه إذ حَاجَّهُ وكما فعل بملك مصر إذْ أرادَهُ عن أهلِه وتمكينِه مما أَحَبَّ وتصييرهُ إماماً لمن بَعْدَهُ من عبادِه، وقدوةٍ لمن خَلْفَهُ في طاعتِه وعبادته. فلذلك معنى مُخَالَّته إياه.

وقد قيل: سَمَّاهُ الله «خَلِيلاً»، من أجل أنه أصابَ أهلَ ناحيتِه جَدْبٌ، فارتحلَ إلى خليلٍ له من أهلِ الموصل وقال بعضهم: من أهلِ مصرَ في امتيارِ طعامٍ لأهلِه من قِبله، فلم يُصِبْ عنده حاجَتَهُ. فلما قَرُبَ من أهلِه مَرَّ بمفازةٍ ذاتِ رملٍ، فقال: لو ملأت غرائري من هذا الرمل، لئلا أُغُمَّ أهلي برجوعي إليهم بغير مِيرَةٍ، وليظنوا أنِّي قد أتيتهم بما يُحِبُّونَ! ففعلَ ذلك، فتحوَّل ما في غرائرِه من الرملِ دقيقاً، فلما صار إلى منزله نامَ. وقامَ أهلهُ، ففتحوا الغرائر، فوجدوا دقيقاً، فعجنوا منه وخبزوا. فاستيقظ، فسألهم عن الدقيقِ الذي منه خبزوا، فقالوا: من الدقيقِ الذي جئتَ به من عند خليلكَ! فعلم، فقال: نعم! هو من خليلي الله! قالوا: فسماه الله بذلك «خَلِيلاً».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٖ مُّحِيطٗا ١٢٦﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: «وَٱتَّخَذَ ٱللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً»، لطاعتِه ربَّهُ، وإخلاصِه العبادةَ له، والمسارعةِ إلى رضاه ومحبته، لا من حاجةٍ به إليه وإلى خُلَّته. وكيف يحتاجُ إليه وإلى خلَّته، ولَهُ ما في السموات وما في الأرض من قليل وكثير مِلْكاً، والمالك الذي إليه حاجة مُلْكه، دون حاجته إليه؟ يقول:

فكذلك حاجةُ إبراهيم إليه، لا حاجته إليه فيتخذه من أجلِ حاجتهِ إليه خليلاً، ولكنه اتَّخَذَهُ خليلاً لمسارعتهِ إلى رِضاهُ ومحبته. يقول: فكذلك فسارعوا إلى رضايَ ومحبتي لأتَّخِذَكُم لي أولياءَ. «وَكَانَ ٱللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً»، ولم يزل الله مُحْصِياً لكل ما هو فاعله عبادهُ من خيرٍ وشرٍّ، عالماً بذلك، لا يَخْفَى عليه شيءٌ منه، ولا يعزبُ عنه منه مثقال ذرَّة.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾

(يعني): ويستفتونك في النساء، قُلِ الله يُفتيكم فيهن وفيما يُتْلَى عليكم في كتابِ الله الذي أنزله على نبيه في أمرِ يتامى النساء اللاتي لا تُعْطُونَهُنَّ ما كتبَ لهن. يعني: ما فرض الله لهن من الميراث عَمَّنْ وَرِثْنَهُ.

ويعني بقوله: «وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ»، «وترغبون عن أن تنكحوهن». لأنَّ حبسهم أموالَهنَّ عنهن مع عضلهن إياهُنَّ، إنما كانوا لِيَرِثُوا أموالَهن، دونَ زوجٍ إنْ تزوجن. ولو كان الذين حبسوا عنهن أموالهن، إنما حَبَسُوها عنهن رغبةً في نكاحهن، لم يكن للحبسِ عنهن وجهُ معروف، لأنهم كانوا أولياءهن، ولم يكن يمنعهم من نِكَاحِهِنَّ مانعٌ، فيكون به حاجة إلى حبسِ مالها عنها، لِيَتَّخِذَ حبسها عنها سبباً إلى إنكاحِهَا نَفْسَها منهُ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن ـ وفيما يُتْلَى عليكم في الكتاب ـ وفي المستضعفين من الولدانِ وفي أنْ تَقُومُوا لليتامى بالقسط.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: ومهما يَكُنْ منكم، أيها المؤمنونَ، من عدلٍ في أموال اليتامى، التي أمركم الله أنْ تقومُوا فيهم بالقسطِ، والانتهاء إلى أمر الله في ذلك وفي غيره وإلى طاعته. «فَإِنَّ آللهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً»، لم يزلْ عالماً بما هو كائنٌ منكم، وهو مُحْصٍ ذلك كله عليكم، حافظ له، حتى يجازيكم به جزاءكم يومَ القيامة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: وإنْ خافتْ امرأةٌ من بعلها، يقول: عَلِمَتْ من زوجِها. «نشُوزاً»، يعني: استعلاءً بنفسهِ عنها إلى غيرها، أثَرةً عليها، وارتفاعاً بها عنها، إمَّا لِبُغْضةٍ، وإما لكراهةٍ منه بعضَ أسبابها: إما دَمامتها، وإما سِنَّها وكبرها، أو غير ذلك من أمورها. «أَوْ إِعْرَاضاً»، يعني: انصرافاً عنها بوجهِ أو ببعضِ منافعهِ التي كانتْ لها مِنْهُ. «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً»، يقول: فلا حَرَجَ عليهما، يعني: على المرأة الخائفةِ نُشُوزَ بَعْلِها أو إعراضه عنها. «أن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً»، وهو أنْ تتركَ له يَوْمَها، أو تضعَ عنه بعضَ الواجبِ لها من حقٍّ عليه، تَسْتَعطِفهُ بذلك وتستديم المُقامَ في حباله،

والتمسك بالعقد الذي بينها وبينه من النكاح، يقول: « وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ»، يعني: والصلحُ بتركِ بعضِ الحقِّ استدامةً للحُرْمةِ، وتماسكاً بعقد النكاح، خيرٌ من طَلَبِ الفرقةِ والطلاق.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: «أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً».

فقرأ ذلك عامة قَرَأَةِ أهلِ المدينة وبعض أهلِ البصرة بفتح «الياء» وتشديد «الصاد»، بمعنى: أنْ يَتَصَالحا بينهما صلحاً، ثم أُدغمت «التاء» في «الصاد»، فَصُيِّرتا «صاداً» مُشَدَّدة.

وقرأ عامة قرأة أهل الكوفة: ﴿أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً﴾، بضم «الياء» وتخفيف «الصاد»، بمعنى: أصلح الزوج والمرأة بينهما.

وأعجبُ القراءتين في ذلك إليَّ قراءة مَنْ قرأ: «أَن يَصَّالَحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً»، بفتح «الياء» وتشديد «الصاد»، بمعنى: يتصالحا. لأن «التصالح» في هذا الموضع أشهر وأوضح معنى، وأفصح وأكثرُ على ألسنِ العربِ من «الإصلاح». و«الإصلاح» في خلاف «الإفساد» أشهر منه في معنى «التصالح».

فإن ظَنَّ ظانٌ أنَّ في قوله: «صُلْحاً»، دلالة على أنَّ قراءةَ مَنْ قرأ ذلك ﴿يُصْلِحَا﴾ بضم «الياء» أولى بالصواب، فإنَّ الأمرَ في ذلك بخلافِ ما ظَنَّ. وذلك أنَّ «الصلح» اسم وليس بفعل، فيستدلّ به على أولى القراءتين بالصوابِ في قوله: «يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾

معناه: وأحضرت أنفس النساءِ الشح على أنصبائهن من أنفس أزواجهن وأموالهم.

و «الشُّحّ»: الإفراطَ في الحِرْصِ على الشيء، وهو في هذا الموضع: إفراط حرصِ المرأة على نصيبها من أيامها من زوجها ونفقتها.

فتـأويلُ الكلام: وأحضرت أنفس النساء أهواءهن، من فَرْطِ الحرصِ على حقوقهن من أزواجهن، والشح بذلك على ضَرائرهن.

وأما قوله: «وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا»، فإنه يعني: وإن تحسنوا، أيها الرجالُ، في أفعالكم إلى نسائكم، إذا كرهتم منهن دَمامةً أو خُلُقاً أو بعضَ ما تكرهون منهن بالصبرِ عليهن، وإيفائِهِنَّ حقوقهنَّ وعِشْرتهن بالمعروف، «وَتَتَّقُوا»، يقول: وتتقوا الله فيهن بترك الجَوْر منكم عليهن فيما يجبُ لمن كَرهتموه منهن عليكم، من القسمـةِ له، والنفقـةِ، والعِشْـرةِ بالمعـروفِ. «فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً»، يقول: فإنَّ الله كان بما تعملون في أمور نسائكم، أيها الرجالُ، من الإحسانِ إليهن والعشرة بالمعروف، والجَوْرِ عليهن فيما يلزمكم لَهُنَّ ويجب. «خَبِيراً»، يعني: عالماً خابراً، لا يَخْفَى عليه منه شيءٌ، بل هو به عالمٌ، وله مُحْصٍ عليكم، حتى يوفِّيكم جزاءَ ذلك: المحسنَ منكم بإحسانه، والمسيءَ بإساءته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِۚ

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ ٱلنِّسَاءِ»، لن تُطِيقوا، أيها الرجالُ أنْ تسوُّوا بين نسائِكم وأزواجكم في حُبِّهِنَّ بقلوبكم حتى تَعْدِلُوا بينهنّ في ذلـك، فلا يكـون في قلوبكم لبعضهنَّ من المحبـةِ إلا مثلُ ما لِصَواحبها، لأنَّ ذلك مما لا تملكونه، وليس إليكم. «وَلَوْ حَرَصْتُمْ»، يقول: ولو حرصتم في تسويتكم بينهن في ذلك.

«فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ ٱلْمَيْلِ»، يقول: فلا تميلوا بأهوائكم إلى مَنْ لم تملكوا محبته منهن كُلَّ الميلِ، حتى يحملكم ذلك على أنْ تَجُوروا على صواحبها في تركِ أداءِ الواجبِ لهن عليكم من حق: في القسم لَهُنَّ، والنفقةِ عليهن، والعشرة بالمعروف. «فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ»، يقول: فَتَذَرُوا التي هي سوى التي مِلْتُمْ بأهوائكم إليها «كَٱلْمُعَلَّقَةِ»، يعني: كالتي لا هَي ذات زوجٍ، ولا هي أَيِّمٌ.

وإنما أمر الله جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ»، الرجالَ بالعدلِ بين أزواجهن فيما استطاعوا فيه العدلَ بينهن من القسمةِ بينهن، والنفقةِ، وتركِ الجَوْرِ في ذلك بإرسالِ إحداهُنَّ على الأخرى فيما فرض عليهم العدلَ بينهن فيه، إذْ كان قد صفح لهم عَمّا لا يُطيقونَ العدلَ فيه بينهنّ مما في القلوبِ من المحبةِ والهوى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: «وَإِن تُصْلِحُوا» أعمالكم، أيها الناس، فتعدلوا في قَسْمكم بين أزواجكم، وما فَرَضَ الله لهن عليكم من النفقة والعشرة بالمعروف، فلا تجوروا في ذلك. «وَتَتَّقُوا»، يقول: وتتقوا الله في الميلِ الذي نهاكم عنه، بأنْ تَميلُوا لإحداهُنَّ على الأخرى، فتظلموها حَقَّها مما أوجبَهُ الله لها عليكم. «فَإِنَّ ٱللهَ كَانَ غَفُوراً»، يقول: فإنَّ الله يسترُ عليكم ما سَلَفَ منكم من مَيْلِكم وجَوْرِكم عليهن قبل ذلك، بتركهِ عقوبتكم عليه، ويُغَطِّي ذلك عليكم بعفوهِ عنكم ما مضى منكم في ذلك قَبْلُ. «رَّحِيماً»، يقول: وكان رحيماً بكم، إذْ تابَ عليكم، فَقَبِلَ توبتكم مِنَ الذي سَلَفَ منكم من جَوْرِكم في ذلك

عليهن، وفي ترخيصه لكم الصلحَ بينكم وبينهن، بصفحهنَّ عن حقوقِهنَّ لكم من القَسْم على أنْ لايُطلَّقْن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾.

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: فإنْ أبتِ المرأةُ التي قد نَشَزَ عليها زوجُها - إذْ أعرضَ عنها بالميلِ منه إلى ضرَّتِهَا لجمالها أو شبابها، أو غير ذلك مما تميلُ النفوسُ له إليها - الصلحَ بصفحِهَا لزوجِهَا عن يومِها وليلتها، وطلبتْ حَقَّها منه من القَسْمِ والنفقة، وما أوجبَ الله لها عليه - وأبى الزوجُ الأخذَ عليها بالإحسانِ الذي نَدَبَهُ الله إليه بقوله: «وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ آللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً»، وإلحاقَها في القَسْم لها والنفقةِ والعشرةِ بالتي هو إليها مائلٌ، فَتَفَرَّقَا بطلاقِ الزوجِ إيَّاهَا. «يُغْنِ آللهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ»، يقول: يُغْنِ الله الزوجَ والمرأة المطلقةَ من سَعَةِ فضلِه. أما هذه، فبزوجٍ هو أصلح لها من المُطَلِّقِ الأول، أو برزقٍ أوسع وعصمة. وأما هذا فبرزقٍ واسعٍ وزوجةٍ هي أصلح له من المطلقة، أو عِفَّةٍ. «وَكَانَ آللهُ وَاسِعاً»، يعني: وكان الله واسعاً لهما، في رزقِهِ إياهما وغيرهما من خلقه. «حَكِيماً»، فيما قضى بينه وبينها من الفرقةِ والطلاقِ، وسائر المعاني التي عرفناها من الحكمِ بينهما في هذه الآياتِ وغيرها، وفي غيرِ ذلك من أحكامِهِ وتدبيرِهِ وقضاياه في خَلْقِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾﴾.

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: ولله جميع مُلْك ما حَوَتْهُ السمواتُ السبع والأرضُونَ السبع من الأشياء كلها. وإنما ذَكَرَ جَلَّ ثناؤُهُ ذلك بعقبِ قوله: «وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ»، تنبيهاً منه خَلْقَهُ على موضعِ الرغبةِ عند فراقِ أحدهم زوجته، ليفزعوا إليه عند الجزعِ من الحاجةِ والفاقةِ والوَحْشةِ بفراقِ سَكنهِ وزوجتهِ وتذكيراً منه له أنه الذي له الأشياءُ كُلُّها، وأنَّ مَنْ كان له ملكُ جميع الأشياء، فغير مُتَعَذِّرٍ عليه أنْ يُغْنِيَهُ وكُلَّ ذي فاقةٍ وحاجة، ويُؤْنِسَ كُلَّ ذي وحشة.

ثم رجع جَلَّ ثناؤُهُ إلى عَذْلِ مَنْ سعى في أمر بني أُبيرق وتوبيخهم، ووعيدِ مَنْ فعل ما فعل المرتد منهم، فقال: «وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ»، يقول: ولقد أمرنا أهلَ الكتاب، وهم أهلُ التوراةِ والإنجيلِ. «وَإِيَّاكُمْ»، يقول: وأمرناكم وقلنا لكم ولهم: «ٱتَّقُوا ٱللَّهَ»، يقول: احذروا الله أنْ تَعْصَوه وتخالِفُوا أمْرَهُ ونهيه. «وَإِن تَكْفُرُوا»، يقول: وإنْ تَجْحَدُوا وصيته إياكم، أيها المؤمنون، فتخالفوها. «فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ»، يقول: فإنكم لا تَضُرُّونَ بخلافكم وَصِيَّتَهُ غير أنفسِكُم، ولا تَعْدُونَ في كُفْرِكم ذلك أنْ تكونوا أمثالَ اليهود والنصارى. في نزولِ عقوبته بكم، وحلولِ غَضَبه عليكم، كما حَلَّ بهم إذْ بَدَّلوا عَهْدَهُ ونقضوا ميثاقه، فغيَّر بهم ما كانوا فيه من خَفْضِ العيش وأمْنِ السِّرْب، وجعل منهم القِرَدَةَ والخنازيرَ. وذلك أنَّ له ملكَ جميعِ ما حَوَتْهُ السمواتُ والأرض، لا يمتنعُ عليه شيءٌ أراده بجميعهِ وبشيءٍ منه، من إعزازِ مَنْ أرادَ إعزازَهُ، وإذلالِ مَنْ أراد إذلالَهُ، وغير ذلك من الأمور كلها، لأنَّ الخَلْقَ خَلْقهُ، بهم إليه الفاقةُ والحاجةُ، وبه قِوَامُهم وبقاؤهم، وهَلاَكُهم وفناؤهم وهو «الغنيُّ» الذي لا حاجةَ تحلُّ به إلى شيءٍ، ولا فاقة تنزلُ به تضطرُّه إليكم، أيها الناس، ولا- إلى غيركم. «والحميدُ» الذي استوجبَ عليكم أيها الخَلْقُ الحَمدَ بصنائعهِ الحميدةِ إليكم، وآلائهِ الجميلة

لديكم، فاستديموا ذلك، أيها الناسُ، باتقائه، والمسارعةِ إلى طاعتهِ فيما يأمركم به وينهاكم عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ١٣٢﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: ولله مِلكُ جميع ما حوته السمواتُ والأرض، وهو القَيِّمُ بجميعه، والحافظُ لذلك كله، لايعزبُ عنه عِلْمُ شيءٍ منه، ولا يؤودُهُ حِفْظُه وتدبيرهُ.

فإنْ قال قائل: وما وجه تكرار قوله: «وَللهِ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ» في آيتين، إحداهما في إثرِ الأخرى؟

قيل: كَرَّرَ ذلك، لاختلافِ معنى الخبرين عما في السمواتِ والأرضِ في الآيتين. وذلك أنَّ الخبرَ عنه في إحدى الآيتين: ذكرُ حاجته إلى بارئهِ، وغِنَى بارئهِ عنه ـ وفي الأخرى: حفظ بارئه إياه، وعلمه به وبتدبيره.

فإنْ قال: أفلا قيل: «وَكَانَ ٱللهُ غَنِيًّا حَمِيداً»، وكفى بالله وكيلاً؟

قيل: إن الذي في الآية التي قال فيها: «وَكَانَ ٱللهُ غَنِيًّا حَمِيداً»، مما صلح أن يختم ما ختم به من وَصْفِ الله بالغنى وأنه محمودٌ، ولم يذكر فيها ما يصلح أن يختم بوصفهِ معه بالحِفْظِ والتدبير. فلذلك كَرَّرَ قوله: «وَللهِ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ١٣٣﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: إنْ يشأ الله، أيها الناسُ، «يُذْهِبْكُمْ»، أي: يذهبكم بإهلاكِكم وإفنائِكم. «وَيَأْتِ بِآخَرِينَ»، يقول: ويأتِ بناسٍ آخرينَ غيركم لمؤازرةِ نبيه محمدٍ ﷺ ونصرته. «وَكَانَ آللهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيراً»، يقول: وكان الله على إهلاكِكم وإفنائِكم واستبدالِ آخرينَ غيركم بكم. «قَدِيراً»، يعني: ذا قُدْرةٍ على ذلك.

وإنما وَبَّخ جَلَّ ثناؤُهُ بهذه الآيات، الخائنينَ الذين خانوا الدِّرع التي وَصَفْنا شأنها، الذين ذكرهم الله في قوله: ﴿وَلَا تَكُنْ لِّلْخَائِنِينَ خَصِيماً﴾ [النساء: ١٠٥] وحَذَّر أصحابَ محمدٍ ﷺ أنْ يكونوا مثلهم، وأن يفعلوا فِعْلَ المرتدِّ منهم في ارتدادهِ ولحاقهِ بالمشركين، وعَرَّفهم أنَّ مَنْ فعلَ فِعْلَهُ منهم، فلن يَضُرَّ إلا نفسَهُ، ولن يُوبِقَ بردَّتِهِ غيرَ نفسِه، لأنه المحتاجُ ـ مع جميع ما في السمواتِ وما في الأرض ـ إلى الله، والله الغنيُّ عنهم. ثم تَوَعدَّهُمْ في قوله: «إن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا آلنَّاس وَيَأْتِ بِآخَرِينَ»، بالهلاكِ والاستئصالِ، إنْ هُمْ فعلوا فِعْلَ ابن أُبيرق طُعْمة المرتدِّ ـ وباستبدال آخرين غيرهم بهم، لنصرة نبيهِ محمدٍ ﷺ وصحبته ومؤازرته على دينه، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: «مَّن كَانَ يُرِيدُ»، ممن أظهرَ الإيمانَ بمحمدٍ ﷺ من أهلِ النفاق، الذين يستبطنون الكفرَ وهم مع ذلك يظهرون الإيمانَ. «ثَوَابَ آلدُّنْيَا»، يعني: عَرَض الدنيا، بإظهارهِ مَا أظهر من الإيمانِ بلسانهِ. «فَعِنْدَ آللهِ ثَوَابُ آلدُّنْيَا»، يعني: جزاؤه في الدنيا منها وثوابه فيها، وهو ما يصيبُ من

المغنم إذا شَهِـد مع النبيِّ مشهداً، وأمنه على نفسهِ وذريتهِ وماله، وما أشبه ذلك، وأما ثوابه في الآخرة، فنارُ جهنم.

فمعنى الآية: مَنْ كانَ من العاملينَ في الدنيا من المنافقينَ يريدُ بعمله ثوابَ الدنيا وجزاءَها من عمله، فإنَّ الله مُجازِيه به جزاءَه في الدنيا من الدنيا، وجزاءه في الآخرة من الآخرة من العقابِ والنكال. وذلك أنَّ الله قادرٌ على ذلك كله، وهو مالك جميعه، كما قال في الآية الأخرى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وزِينَتَها نُوَفِّ إلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعمَلُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦].

وإنما عَنَى بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: الذين تَتَيَّعُوا[١] في أمر بني أُبيرق، والذين وصفهم في قوله: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ الله لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً * يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ الله وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَالَا يَرْضَى مِنَ القَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٧-١٠٨]، ومَنْ كان من نظرائهم في أفعالهم ونفاقهم.

وقوله: «وَكَانَ آللهُ سَمِيعاً بَصِيراً»، يعني: وكان الله سميعاً لما يقولُ هؤلاء المنافقون الذين يُريدون ثوابَ الدنيا بأعمالِهم، وإظهارهم للمؤمنينَ ما يُظهرونَ لهم إذا لَقُوا المؤمنينَ، وقولِهم لهم: «آمَنَّا». «بَصِيراً»، يعني: وكان ذَا بَصَرٍ بهم وبما هم عليه مُنْطَوُونَ للمؤمنين، فيما يَكْتُمونَهُ ولا يُبْدُونَهُ لهم من الغشِّ والغِلِّ الذي في صدورهم لهم.

---

(١) تَتَيَّع فلان في الأمر وتتايع: إذا أسرع إليه وتهافت فيه من غير فكرٍ ولا روية، ولا يكون ذلك إلا في الشر، لا يقال في الخير.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ﴾

وهذا تقدّم من الله تعالى ذِكْرُهُ إلى عبادهِ المؤمنين به وبرسوله: أن يفعلوا فِعْلَ الذين سَعَوا إلى رسولِ الله ﷺ في أمرِ بني أُبيرقٍ أنْ يقوم بالعذر لهم في أصحابه، وذَبّهُمْ عنهم، وتحسينهم أمرهم بأنهم أهل فاقةٍ وفقر. يقول الله لهم: «يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِٱلْقِسْطِ»، يقول: ليكن من أخلاقِكم وصفاتكم القيام بالقسط ـ يعني: بالعدل ـ «شُهَدَاءَ لله».

و«الشهداء» جمع «شهيد».

ونصبت «الشهداء» على القطع مما في قوله: «قَوَّامِينَ» من ذكر «يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا»، ومعناه: قُومُوا بالقسطِ لله عند شهادتكم أو: حين شهادتكم.

«وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ»، يقول: ولو كانت شهادتكم على أنفسِكم، أو على والدينَ لكم أو أَقْرَبيكم، فَقُومُوا فيها بالقسط والعدل، وأقيموها على صِحَّتها بأنْ تقولوا فيها الحق، ولا تميلوا فيها لغنيٍّ لِغِنَاهُ على فقيرٍ، ولا لفقيرٍ لفقرِهِ على غنيٍّ، فتجوروا. فإنَّ الله الذي سوَّى بين حُكْمِ الغنيِّ والفقير فيما ألزمكم، أيها الناسُ، من إقامةِ الشهادةِ لكلٍّ واحدٍ منهما بالعدل. «أَوْلَىٰ بِهِمَا»، وأحق منكم، لأنه مالكهما وأولى بهما دونَكم، فهو أعلمُ بما فيه مصلحةُ كلٍّ واحدٍ منهما في ذلك وفي غيره من الأمور كلها منكم، فلذلك أمركم بالتسويةِ بينهما في الشهادة لهما وعليهما. «فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا»، يقول: فلا تتبعوا أهواءَ أنفسكم في الميلِ في شهادَتِكم إذا قمتم بها ـ لغنيٍّ على فقير، أو لفقيرٍ على غني ـ إلى أحدِ الفريقين، فتقولوا غيرَ الحقِّ، ولكنْ قُومُوا فيه بالقسطِ،

وأدُّوا الشهادةَ على ما أمركم الله بأدائها، بالعدلِ لمن شَهِدتُمْ له وعليه.

فإن قال قائل: وكيف يقومُ بالشهادةِ على نفسهِ الشاهدُ بالقسطِ؟ وهل يشهدُ الشاهدُ على نفسه؟

قيل: نعم، وذلك أنْ يكونَ عليه حَقٌّ لغيرهِ فيقّر له به، فذلك قيامٌ منه له بالشهادةِ على نفسه.

وهـذه الآية عنـدي تأديبٌ من الله جَلَّ ثنـاؤُهُ عبـادَهُ المؤمنينَ أنْ يفعلوا ما فَعَلَهُ الذين عَذَرُوا بني أُبيرق - في سَرِقَتِهم ما سَرَقُوا، وخيانَتِهم ما خَانُوا عندَ رسولِ الله ﷺ، وشهادتهم لهم عنده بالصلاحِ. فقال لهم: إذا قمتم بالشهادةِ لإنسانٍ أو عليه، فقـولـوا فيهـا بالعَـدْلِ، ولو كانت شهادتكم على أنفسِكم وآبائِكم وأمهاتكم وأقربائكم، ولا يحملنكم غِنَى مَنْ شهدتُمْ له أو فقره أو قرابته ورَحِمهُ منكم، على الشهادةِ له بالزورِ، ولا على تركِ الشهادةِ عليه بالحَقِّ وكتمانها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ١٣٥﴾

تأويلُ الكلام: وإنْ تَدْفَعُوا القيامَ بالشهادةِ على وجهها لِمَنْ لَزِمَكُم القيامُ له بها، فتغيروها وتبدلوا، أو تُعْرِضُوا عنها فتتركوا القيامَ له بها، كما يلوي الرجلُ دينَ الرجل فيدافعه بأدائه إليه على ما وَجَبَ عليه له مطْلاً منه له.

وأما تأويل قوله: «فَإِنَّ آللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً»، فإنه أراد: «فَإِنَّ آللهَ كَانَ بِمَـا تَعْمَلُونَ»، مِنْ إقـامتِكم الشهادةَ وتحريفكم إياها، وإعراضكم عنها بِكِتْمَانِكُمُوهَا. «خَبِيراً»، يعني ذا خبرةٍ وعِلْمٍ به، يحفظ ذلك منكم عليكم، حتى يجـازيكم به جزاءكم في الآخـرة، المحسنَ منكم بإحسانه، والمسيء بإساءته، يقول: فاتقوا ربكم في ذلك.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: «يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا»، بِمَنْ قَبْلَ محمدٍ من الأنبياءِ والرسلِ، وصدَّقُوا بما جاؤوهم به من عند الله. «آمِنُوا بِٱللهِ وَرَسُولِهِ»، يقول: صَدِّقُوا بالله وبمحمدٍ رسوله، أنه لله رسولٌ، مُرْسَل إليكم وإلى سائرِ الأممِ قبلكم. «وَٱلْكِتَابِ ٱلَّـذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ»، يقول: وصَدِّقُوا بما جاءكم به محمدٌ من الكتابِ الذي نَزَّلَهُ الله عليه، وذلك القرآن. «وَٱلْكِتَابِ ٱلَّذِي أَنْزَلَ مِن قَبْلُ»، يقول: وآمنوا بالكتابِ الذي أنزل الله من قَبْلِ الكتابِ الذي نَزَّلَهُ على محمدٍ ﷺ، وهو التوراةُ والإنجيل.

فإنْ قال قائلٌ: وما وجهُ دُعاءِ هؤلاءِ إلى الإيمانِ بالله ورسولِهِ وكتبه، وقد سَمَّاهم «مؤمنين»؟

قيل: إنه جَلَّ ثناؤُهُ لم يُسَمِّهم «مؤمنينَ»، وإنما وَصَفَهُمْ بأنهم «آمَنُوا»، وذلـك وصفٌ لهم بخصوصٍ من التصديق. وذلك أنهم كانوا صنفين: أهلُ توراةٍ مُصَـدِّقِينَ بهـا وبِمَنْ جاء بها، وهم مُكَذِّبُونَ بالإنجيلِ والقرآن وعيسى ومحمد صلوات الله عليهما. وصنفُ أهلِ إنجيلٍ، وهم مُصَدِّقُونَ به وبالتوراةِ وسائرِ الكتب، مُكَذِّبُونَ بمحمدٍ ﷺ والفرقان، فقال جَلَّ ثناؤُهُ لهم: «يَا أَيُّهَا ٱلَّـذِينَ آمَنُـوا»، يعني: بمـا هم به مؤمنـون من الكتب والرسل. «آمِنُوا بِٱللهِ وَرَسُولِهِ» محمد ﷺ. «وَٱلْكِتَابِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ»، فإنكم قد علمتم أنَّ

محمداً رسولُ الله، تجدونَ صِفَتَهُ في كُتُبكم، وبالكتابِ الذي أنزل من قبلُ الـذي تزعمـون أنكم به مؤمنـون، فإنكم لن تكونوا به مؤمنينَ وأنتم بمحمدٍ مُكَذِّبُونَ، لأنَّ كتابكم يأمُركم بالتصديقِ به وبما جاءكم به، فآمنوا بكتابِكم في اتِّباعكم محمداً، وإلا فأنتم به كافرون. فهذا وجهُ أمرهم بالإيمانِ بما أمرهم بالإيمانِ به، بعد أنْ وَصَفَهم بما وصفهم بقوله: «يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا».

وأما قوله: «وَمَن يَكْفُرْ بِٱللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَٱلْيَوْمِ الآخِرِ»، فإن معناه: ومن يكفر بمحمد ﷺ فيجحد نبوّته فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً.

وإنما قال تعالى ذِكْرُهُ: «وَمَن يَكْفُرْ بِٱللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَٱلْيَوْمِ الآخِرِ»، ومعناه: ومَنْ يكفرْ بمحمدٍ وبما جاءَ به من عندِ الله ـ لأنَّ جحودَ شيءٍ من ذلك بمعنى جحودِ جميعهِ، ولأنه لا يَصِحُّ إيمانُ أحدٍ من الخَلْقِ إلا بالإيمانِ بما أمره الله بالإيمانِ به، والكفرُ بشيءٍ منه كفرٌ بجميعهِ، فلذلك قال: «وَمَن يَكْفُرْ بِٱللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَٱلْيَوْمِ الآخِرِ»، بِعَقِبِ خطابهِ أهلَ الكتابِ وأمرِهِ إياهم بالإيمانِ بمحمدٍ ﷺ، تهديداً منه لهم، وهم مُقِرُّونَ بوحدانيةِ الله والملائكةِ والكتبِ والرسلِ واليومِ الآخر، سِوى محمدٍ ﷺ وما جاء به من الفرقان.

وأما قوله: «فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً»، فإنه يعني: فقد ذهبَ عن قَصْدِ السبيلِ، وجارَ عن محجَّةِ الطريق، إلى المهالكِ ـ ذهاباً وجوراً بعيداً. لأنَّ كُفْرَ مَنْ كفرَ بذلك، خروجٌ منه عن دينِ الله الذي شَرعَهُ لعبادِه. والخروجُ عن دينِ الله: الهلاكُ الذي فيه البوار، والضلال عن الهدى هو الضلال.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾

عَنَى بذلك أهلَ الكتابِ الذين أقرُّوا بحكمِ التوراة، ثم كَذَّبُوا بخلافِهم إياه، ثم أقرَّ مَنْ أقرَّ منهم بعيسى والإنجيل، ثم كَذَّبَ به بخلافه إياه، ثم كَذَّبَ بمحمدٍ ﷺ والفرقان، فازدادَ بتكذيبه به كُفْراً على كفرهِ لأنَّ الآية قبلها في قصص أهلِ الكتابين أعني قوله: «يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِٱللهِ وَرَسُولِهِ»، ولا دلالةَ تدلُّ على أنَّ قوله: «إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا»، منقطعٌ معناهُ من معنى ما قبله، فإلحاقُه بما قَبْلَهُ أوْلى، حتى تأتيَ دلالةٌ دالَّة على انقطاعهِ منه.

وأما قوله: «لَّمْ يَكُنِ ٱللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ»، فإنه يعني: لم يكن الله ليسترَ عليهم كُفْرَهم وذنوبهم، بعفوهِ عن العقوبةِ لهم عليه، ولكنه يفضحهم على رؤوسِ الأشهادِ «وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً»، يقول: ولم يَكُنْ لِيُسَدِّدهُم لإصابةِ طريقِ الحقِّ فيوفقهم لها، ولكنه يخذلهم عنها، عقوبةً لهم على عظيمِ جُرْمِهم، وجرأتهم على ربهم.

وقد ذهبَ قومٌ إلى أنَّ المرتدَّ يُسْتَتَابُ ثلاثاً، انتزاعاً منهم بهذه الآية[1]، وخالفهم على ذلك آخرون، فقالوا: يُسْتتابُ كلما ارْتَدَّ.

وفي قيامِ الحُجَّةِ بأنَّ المرتد يُستتابُ المرَّة الأولى، الدليل الواضح على أنَّ حُكْمَ كلِّ مرة ارتـدَّ فيهـا عن الإسلامِ حكمُ المرة الأولى، في أنَّ توبتَهُ مقبولةٌ، وأنَّ إسلامَهُ حَقَن له دَمَهُ. لأنَّ العِلَّةَ التي حَقَنَتْ دمه في المرةِ الأولى إسلامُه، فغيرُ جائزٍ أنْ توجد العلة التي من أجلها كان دمه مَحْقُوناً في الحالة الأولى، ثم يكون دمه مباحاً مع وجودها، إلَّا أنْ يفرِّق بين حُكْمِ المرة الأولى وسائر المرات غيرها، ما يجبُ التسليم له من أصل محكمٍ، فيخرج من حكمِ القياسِ حينئذٍ.

---

(١) يعني: استنباطاً من هذه الآية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣٨﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «بَشِّرِ ٱلْمُنَافِقِينَ»، أخبرِ المنافقين. «بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً»، يعني: بأنَّ لهم يومَ القيامةِ من الله على نفاقهم. «عَذَاباً أَلِيماً»، وهو المُوجِعُ، وذلك عذابُ جهنم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۝١٣٩﴾

أما قوله جَلَّ ثناؤُهُ: «ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ»، فمن صفة المنافقين. يقولُ الله لنبيه: يا محمدُ، بَشِّرِ المنافقينَ الذين يتخذون أهلَ الكفرِ بي والإلحاد في ديني. «أَوْلِيَاءَ» يعني: أنصاراً وأخِلَّاء. «مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ»، يعني: من غير المؤمنينَ. «أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ ٱلْعِزَّةَ»، يقول: أيطلبونَ عندهم المنعةَ والقُوَّةَ، باتخاذِهم إياهم أولياءَ من دونِ أهلِ الإيمانِ بي؟ «فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لله جَمِيعاً»، يقول: فإنَّ الذين اتخذوهم من الكافرين أولياء ابتغاءَ العِزَّةِ عندهم، هم الأذلَّاءُ الأقِلَّاء، فَهلَّا اتَّخذُوا الأولياءَ من المؤمنينَ، فيلتمسوا العِزَّةَ والمنعةَ والنُّصْرَةَ من عندِ الله الذي له العزةُ والمنعة، الذي يُعِزُّ مَنْ يشاء ويُذِلُّ مَنْ يشاء، فيعزُّهم ويمنعهم؟

وأصل «ٱلْعِزَّة»، الشِدَّةُ. ومنه قِيلَ للأرضِ الصلبة الشديدة، «عَزاز». وقيل «قد استُعِزَّ على المريض»، إذا اشتدَّ مرضه وكاد يُشْفِي[1]. ويقال: «تعزز اللحمُ»، إذا اشتد. ومنه قيل: «عَزَّ عليَّ أنْ يكون كذا وكذا»، بمعنى: اشتد عليَّ.

(١) كاد يشفي: أي: يشرف على الهلاك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: «بشر المنافقين» الذين يتخذون الكافرينَ أولياءَ من دون المؤمنين، «وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَابِ»، يقول: أخبر مَنِ اتَّخَذَ من هؤلاءِ المنـافقينَ الكفار أنصاراً وأولياءَ بعدما نزل عليهم من القرآن، «أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ الله يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ»، يعني: بعدما عَلِمُوا نَهْيَ الله عن مجالسةِ الكفار الذين يكفرونَ بحججِ الله وآيِ كتابِهِ ويستهزئون بها. «حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ»، يعني بقوله: «يَخُوضُوا»، يتحدثوا حديثاً غيرَهُ. «بأنَّ لهم عذاباً أليماً».

وقوله: : «إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ»، يعني: وقد نزل عليكم أنكم إنْ جالستم مَنْ يكفر بآياتِ الله ويستهزئ بها وأنتم تسمعون، فأنتم مِثْله. يعني: فأنتم إنْ لم تقـومـوا عنهم في تلك الحـال، مثلُهم في فِعْلِهم، لأنكم قد عَصَيْتُم الله بجلوسكم معهم وأنتم تسمعـونَ آياتِ الله يُكْفَرُ بها ويُستهزأُ بها، كما عصوه باستهزائهم بآياتِ الله. فقد أتيتم من معصيةِ الله نحو الذي أتَوْه منها، فأنتم إذاً مِثْلُهم في رُكُوبِكم معصيةَ الله، وإتيانكم ما نهاكم الله عنه.

وفي هذه الآية، الدلالةُ الواضحةُ على النهي عن مجالسةِ أهلِ الباطلِ من كُلِّ نوعٍ، من المبتدعة والفَسَقَةِ، عند خوضِهم في باطلهم.

وقوله: «إِنَّ ٱلله جَامِعُ ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً»، يقول: إنَّ الله جامعُ الفريقين من أهلِ الكفرِ والنفاقِ في القيامة في النار، فموفِّقٌ بينهم

في عقابهِ في جهنم وأليمِ عذابه، كما اتفقوا في الدنيا فاجتمعوا على عَداوةِ المؤمنين، وتَوازرُوا على التخذيلِ عن دينِ الله ـ وعن الذي ارتضاهُ وأمَرَ به ـ وأهلِه.

واختلفت القَرَأَةُ فِي قراءةِ قوله: «وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَابِ».

فقرأ ذلك عامة القَرَأَةِ بضم «النون» وتثقيل «الزاي» وتشديدها، على وجْه ما لم يُسَمَّ فاعلهُ.

وقرأ بعض الكوفيين بفتح «النون» وتشديد «الزاي»، على معنى: وقد نَزَّل الله عليكم.

وقرأ بعض المكيين: «وَقَدْ نَزَلَ عَلَيْكُمْ» بفتح «النون»، وتخفيف «الزاي»، بمعنى: وقد جاءكم من الله أنْ إذا سمعتم.

وليس في هذه القراآت الثلاث وجهٌ يَبْعدُ معناه مما يَحْتَمِلُهُ الكلامُ. غير أنَّ الذي أختارُ القراءةَ به، قراءة من قرأ: ﴿وَقَدْ نُزِّلَ﴾ بضم «النون» وتشديد «الزاي»، على وَجْه ما لم يُسَمَّ فاعلُه. لأنَّ معنى الكلام فيه التقديم على ما وصفت قَبْلُ، على معنى: «ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ».

«وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا» إلى قوله: «حَدِيثٍ غَيْرِهِ». «أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ ٱلْعِزَّةَ». فقوله: «فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ للهِ جَمِيعاً»، يعني التأخير، فلذلك كان ضَمُّ «النون» من قوله: «نزّل» أصوب عندنا في هذا الموضع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ

عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ»، الذين ينتظرون، أيها المؤمنون، بكم، «فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللهِ»، يعني: فإنْ فتحَ الله عليكم فتحاً من عدوكم، فأفاءَ عليكم فَيْئاً من المغانمِ. «قَالُوا» لكم. «أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ»، نجاهد عَدُوَّكُم ونغزوهم معكم، فأعطونا نصيباً من الغنيمة، فإنا قد شَهِدْنَا القتالَ معكم. «وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ»، يعني: وإنْ كان لأعدائكم من الكافرينَ حَظٌّ منكم، بإصابتهم منكم. «قَالُوا»، يعني: قال هؤلاء المنافقون للكافرين. «أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ»، ألم نغلب عليكم حتى قهرتم المؤمنين. «ونمنعكم» منهم، بتخذيلنا إيَّاهُم، حتى امتنعوا منكم فانصرفوا. «فَٱللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ»، يعني: فالله يحكمُ بين المؤمنينَ والمنافقين يومَ القيامة، فيفصل بينكم بالقضاء الفاصل، بإدخالِ أهلِ الإيمانِ جنَّتَهُ، وأهلِ النفاقِ مع أوليائِهم من الكفارِ نارَهُ. «وَلَنْ يَجْعَلَ ٱللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَىٰ ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً»، يعني: حجة يوم القيامة.

وذلك وَعْدٌ من الله المؤمنين أنه لن يُدْخِلَ المنافقين مدخلَهم من الجنة، ولا المؤمنين مدخَلَ المنافقين، فيكون بذلك للكافرينَ على المؤمنينَ حُجَّةٌ بأنْ يقولوا لهم، إنْ أُدْخِلُوا مدخلهم: ها أنتم كنتم في الدنيا أعداءَنا، وكان المنافقون أولياءنا، وقد اجتمعتم في النار، فجمع بينكم وبين أوليائنا! فأينَ الذي كنتم تزعمونَ أنكم تقاتلوننا من أجلِهِ في الدنيا؟ فذلك هو «السبيل» الذي وَعَدَ الله المؤمنينَ أنْ لا يجعلها عليهم للكافرين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ١٤٢﴾

تأويل ذلـك: إنَّ المنـافقينَ يُخـادعونَ الله، بإحرازهم بنفاقهم دماءَهُم وأموالَهم، والله خادِعُهم بما حكَمَ فيهم من مَنْع دِمائهم بما أظهروا بألسنتهم من الإيمان، مع عِلْمِه بباطنِ ضمائرهم واعتقادهم الكفرَ، استدراجاً منه لهم في الدنيا، حتى يلقوه في الآخرة، فيوردهم بما استنبطوا من الكفر نارَ جهنم.

وأمـا قوله: «وَإِذَا قَامُوا إِلَىٰ ٱلصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاؤُونَ ٱلنَّاسَ»، فإنه يعني: أنَّ المنافقينَ لا يعملون شيئاً من الأعمال التي فرضها الله على المؤمنينَ على وجهِ التقرُّبِ بها إلى الله، لأنهم غير مُوقِنينَ بمعَادٍ ولا ثوابٍ ولا عقاب، وإنما يعملون ما عملوا من الأعمالِ الظاهرة إبقاءً على أنفسهم، وحذاراً من المؤمنينَ عليها أن يُقْتَلُوا أو يُسْلَبُوا أموالَهم. فهم إذا قاموا إلى الصلاةِ التي هيَ من الفـرائضِ الـظاهرةِ، قاموا كُسالى إليها، رياءً للمؤمنينَ ليحسبوهم منهم وليسوا منهم، لأنهم غير معتقدي فَرْضِها ووجوبها عليهم، فهم في قيامِهم إليها كُسالى.

وأما قوله: «وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللهَ إِلَّا قَلِيلًا»، فلعلَّ قائلاً أنْ يقولَ: وهَلْ من ذكر الله شيء قليل؟

قيل له: إنَّ معنى ذلك، بخلافِ ما ذهبتَ: ولا يذكرونَ الله إلا ذِكْرَ رياء، لِيَدْفَعُـوا به عن أنفسِهم القتـلَ والسباءَ وسَلْبَ الأموالِ، لا ذِكْرَ مُوقِنٍ مُصَدِّقٍ بتوحيدِ الله، مخلصٍ له الربوبيةَ. فلذلك سَمَّاهُ الله «قَلِيلًا»، لأنه غيرُ

مقصودٍ به الله، ولا مبتغىً به التقرُّب إلى الله، ولا مرادٌ به ثواب الله وما عنده. فهو. وإنْ كثُرَ، من وجه نَصَب عامله وذاكره، في معنى السراب الذي له ظاهرٌ بغير حقيقة ماء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾

وإنما عَنَى الله بذلك: أنَّ المنافقينَ مُتَحَيِّرونَ في دينهم، لا يرجعون إلى اعتقادِ شيءٍ على صحة، فهم لا مَعَ المؤمنينَ على بصيرةٍ، ولا مع المشركينَ على جهالةٍ، ولكنهم حيارَى بين ذلك، فَمثَلهم المثلُ الذي ضرب لهم رسولُ الله ﷺ، الذي قال: مَثَلُ المنافقِ كمثل الشَّاةِ العائرةِ بين الغنمين، تَعِيرُ إلى هذه مرة، وإلى هذه مرة، لا تدري أيَّهُمَا تَتْبَع[١]!

وأما قوله: «وَمَن يُضْلِلِ ٱللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً»، فإنه يعني: مَنْ يخذُله الله عن طريقِ الرشاد، وذلك هو الإسلامُ الذي دعا الله إليه عبادَهُ. يقول: من يخذله الله عنه فلم يُوَفِّقْهُ له «فَلَنْ تَجِدَ لَهُ»، يا محمدُ. «سَبِيلاً»، يعني: طريقاً يسلكُه إلى الحَقِّ غيره. وأيّ سبيلٍ يكونُ له إلى الحق غير الإسلام؟ وقد أخبر الله جَلَّ ثناؤُهُ: أنه مَنْ يبتغِ غيرَهْ دِيناً فلن يُقبلَ منه، ومَنْ أضَلَّهُ الله عنه فقد غَوَى فلا هاديَ له غيره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ

---

(١) أخرجه الطبري من حديث نافع عن ابن عمر (١٠٧٢٨) و(١٠٧٢٩) و(١٠٧٣٠)، وهو عند مسلم (٢٧٨٤) من غير قوله: «لاتدري أيهما تتبع».

سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾

وهذا نهيٌ من الله عبادَهُ المؤمنينَ أنْ يتخلَّقُوا بأخلاقِ المنافقين، الذين يتخذون الكافرينَ أولياءَ من دونِ المؤمنين، فيكونوا مِثْلَهُمْ في ركوبِ ما نهاهم عنه من موالاة أعدائه.

يقول لهم جَلَّ ثناؤُهُ: يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله، لا تُوالُوا الكفَّارَ فتؤازروهم من دونِ أهلِ ملَّتكم ودينكم من المؤمنين، فتكونوا كمن أوجبتُ له النارَ من المنافقين.

ثم قال جَلَّ ثناؤُهُ: متوعِّداً مَنِ اتَّخَذَ منهم الكافرينَ أولياء من دون المؤمنين، إنْ هو لم يَرْتَدِعْ عن موالاتهِ، وينزجِرْ عن مُخَالَّته أنْ يلحقه بأهلِ ولايتهم من المنافقين الذين أمر نبيه ﷺ بتبشيرهم بأنَّ لهم عذاباً أليماً. «أَتُرِيدُونَ»، أيها المُتَّخِذُونَ الكافرينَ أولياءَ من دونِ المؤمنينَ مِمَّنْ قد آمَنْ بي وبرسولي «أَنْ تَجْعَلُوا لله عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً»، يقول: حجة، باتِّخاذكم الكافرينَ أولياء من دونِ المؤمنين، فتستوجِبُوا منه ما استوجبه أهلُ النفاق الذين وَصَفَ لكم صفتهم، وأخبركم بمحلِّهم عنده. «مُبِيناً»، يعني: يبين عن صحتها وحقيقتها. يقول: لاتَعَرَّضُوا لغضبِ الله، بإيجابكم الحُجَّةَ على أنفسِكم في تقدمكم على ما نهاكم ربكم من موالاةِ أعدائهِ وأهلِ الكفرِ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ»، إنَّ المنافقين في الطَّبَقِ الأسفلِ من أطباقِ جهنم.

وأمـا قولـه: «وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً»، فإنه يعني: ولَنْ تجد لهؤلاء المنافقين، يا محمدُ، من الله إذا جعلهم في الدرك الأسفل من النار ناصراً ينصُرهم منه، فينقذهُمْ من عذابِه، ويدفع عنهم أليمَ عقابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾**

وهذا استثناءٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ، استثنى التائبين من نفاقهم إذا أصلحوا، وأخلصوا الدينَ لله وحده، وتبرأوا من الآلهةِ والأندادِ، وصَدَّقُوا رسولَهُ، أن يكونوا مع المُصِرِّينَ على نفاقهم حتى تُوافيهم مناياهم - في الآخرة[1]، وأن يدخلوا مَداخلهم من جهنم. بَلْ وَعَدَهُمْ جَلَّ ثناؤُهُ أنْ يُحِلَّهم مع المؤمنينَ محلَّ الكرامة، ويُسْكِنَهُمْ معهم مساكنهم في الجنة. ووعدهم من الجزاء على توبتهم الجزيلَ من العطاء فقال: «وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً».

فتأويل الآية: «إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا»، أي: راجعوا الحق، وآبوا إلى الإقرارِ بوحدانيةِ الله وتصديق رسوله وما جاء به من عند ربه من نفاقهم. «وَأَصْلَحُوا»، يعني: وأصلحوا أعمالهم، فَعَمِلُوا بما أمرهم الله به. وأدَّوْا فرائِضَهُ، وانتهوا عما نَهاهُمْ عنه، وانزجروا عن معاصيه. «وَٱعْتَصَمُوا بِٱللهِ»، يقول: وتَمَسَّكُوا بعهدِ الله.

وقد دَلَّلْنَا فيما مضى قَبْلُ على أنَّ «الاعتصام» التَّمَسُّك والتعلُّق. فالاعتصام بالله: التمسك بعهدِهِ وميثاقِهِ الذي عَهِدَ في كتابِهِ إلى خَلْقِه، من طاعتِهِ وتركِ معصيته.

---

(١) سياق الجملة: أن يكونوا مع المصرين.. في الآخرة».

«وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لله»، يقول: وأخلصوا طاعتَهم وأعمالَهم التي يعملونها لله، فأرادوه بها، ولم يعملوها رِئاءَ الناسِ، ولا على شَكٍّ منهم في دينهم، وامتراءٍ منهم في أنَّ الله مُحْصٍ عليهم ما عملوا، فمجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ولكنهم عملوها على يقينٍ منهم في ثوابِ المحسنِ على إحسانهِ، وجزاء المسيء على إساءته، أو يتفضَّل عليه ربه فيعفو ـ متقرِّبينَ بها إلى الله، مُريدينَ بها وجهَ الله. فذلك معنى: «إخلاصهم لله دينهم».

ثم قال جَلَّ ثناؤُهُ: «فَأُوْلَئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ»، يقولُ: فهؤلاء الذين وَصَفَ صِفَتَهم من المنافقينَ بعد توبتهم وإصلاحِهم واعتصامِهم بالله وإخلاصِهم دِينَهم أي: مع المؤمنينَ في الجنة، لا معَ المنافقينَ الذين ماتوا على نفاقهم، الذين أوعدهم الدَرْكَ الأسفلَ من النارِ.

ثم قال: «وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً»، يقول: وسوف يُعطي الله هؤلاء الـذين هذه صِفَتُهم، على توبتهم وإصـلاحهم واعتصـامهم بالله وإخلاصهم دينهم له، وعلى إيمانهم، ثواباً عظيماً، وذلك: درجات في الجنة، كما أعطى الذين ماتوا على النِّفاقِ منازلَ في النارِ، وهي السفلى منها. لأنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ وَعَدَ عبادَهُ المؤمنينَ أنْ يؤتيهم على إيمانِهم ذلك، كما أوعدَ المنافقينَ على نِفاقهم ما ذكر في كتابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «مَّا يَفْعَلُ ٱللهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ»، ما يصنع الله، أيها المنافقونَ، بعذابكم، إنْ أنتم تُبْتُمْ إلى الله ورجعتم إلى الحَقِّ الـواجبِ لله عليكم، فشكـرتُمـوهُ على ما أنعمَ عليكم من نِعَمِهِ في أنفسكم

وأهاليكم وأولادِكم، بالإنابةِ إلى توحيدِهِ، والاعتصامِ به، وإخلاصِكُمْ أعمالَكم لوجهِهِ، وتركِ رياءِ الناسِ بها، وآمنتم برسولِهِ محمدٍ ﷺ فَصَدَّقتُمُوهُ، وأقررتم بما جاءكم به من عنده فعملتم به؟

يقول: لا حاجةَ باللهِ أنْ يجعلكم في الدَّركِ الأسفلِ من النارِ، إنْ أنتم أَنَبْتُمْ إلى طاعتِهِ، وراجعتم العملَ بما أمَرَكُمْ به، وتركِ ما نهاكم عنه. لأنه لا يجتلبُ بعـذابكم إلى نفسـهِ نفعـاً، ولا يدفـعُ عنها ضُراً، وإنما عقوبته مَنْ عاقب من خَلْقِـه، جزاءُ منـه له على جراءتـه عليه، وعلى خلافـه أمره ونهيه، وكفرانِهِ شُكْرَ نِعَمِهِ عليه. فإنْ أنتم شكرتُمْ له على نعمه، وأطعتموه في أمرِهِ ونهيِهِ، فلا حاجةَ به إلى تعذيبكم، بل يشكر لكم ما يكونُ منكم من طاعةٍ له وشكرٍ، بمجازاتِكُم على ذلك بما تقصر عنه أمانيكم، ولم تبلغه آمالكم. «وَكَانَ ٱللهُ شَاكِراً» لكم ولعبادِهِ على طاعتهم إياه، بإجزالِهِ لهم الثوابَ عليها، وإعظامه لهم العِوَضَ منها. «عَلِيماً» بما تعملون، أيها المنافقون، وغيركم من خيرٍ وشر، وصالح وطالح، مُحْصٍ ذلك كله عليكم، محيط بجميعه، حتى يجازيكم جزاءَكم يومَ القيامة، المحسنَ بإحسانِهِ، والمسيء بإساءته.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ١٤٨﴾

تأويل ذلك: لا يحبُّ الله، أيها الناسُ، أن يجهرَ أحدٌ لأحدٍ بالسوء من القول «إلَّا مَن ظُلِمَ»، بمعني: إلا مَنْ ظُلِمَ، فلا حَرَجَ عليه أن يخبر بما أُسيء عليه.

وإذا كان ذلك معناه، دخل فيه إخبار من لم يُقْرَ، أوْ أُسِيءَ قِراهُ[1]، أو

---

(١) القِرى: الضيافةُ، يعني: لم يُحْسنْ ضيافته.

نِيلَ بظلمٍ في نفسِهِ أو مالِهِ - غيرَه من سائرِ الناس. وكذلك دعاؤه على مَنْ نالَه بظلم: أنْ ينصرَهُ الله عليه، لأنَّ في دعائه عليه إعلاماً منه لمن سَمِعَ دعاءَهُ عليه بالسوء له.

وأما قوله: «وَكَانَ ٱللهُ سَمِيعاً عَلِيماً»، فإنه يعني: «وَكَانَ ٱللهُ سَمِيعاً عَلِيماً»، لِمَا تجهرونَ به من سوءِ القولِ لمن تَجهرونَ له به، وغير ذلك من أصواتِكم وكلامِكم. «عَلِيماً»، بما تُخْفُونَ من سُوءِ قولِكم وكلامِكم لمن تُخْفُونَ له به فلا تجهرون له به، مُحْصٍ كُلَّ ذلك عليكم، حتى يجازيكم على ذلك كُلِّه جزاءَكم، المسيءَ بإساءته، والمحسنَ بإحسانِهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ١٤٩﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «إن تبدوا» أيها الناسُ. «خيراً»، يقول: إنْ تَقُولُوا جميلاً من القولِ لمن أحسنَ إليكم، فَتُظْهِرُوا ذلك شكراً منكم له على ما كانَ منه من حسن إليكم، «أو تخفوه»، يقول: أو تتركوا إظهارَ ذلك فلا تُبْدُوهُ. «أو تَعْفُوا عن سوء»، يقول: أو تَصْفَحُوا لِمَنْ أساءَ إليكم عن إساءته، فلا تجهروا له بالسوءِ من القولِ الذي قد أَذِنْتُ لكم أنْ تجهروا له به. «فإنَّ الله كان عفواً»، يقول: لم يَزَلْ ذا عَفْوٍ عن خَلْقِه، يصفح عَمَّنْ عصَاهُ وخالفَ أمره. «قديراً»، يقول: ذا قدرةٍ على الانتقامِ منهم.

وإنما يعني بذلك: أنَّ الله لم يَزَلْ ذا عفوٍ عن عبادِه، مع قدرتهِ على عقابِهم على معصيتهم إيّاه.

يقول: فاعْفُوا، أنتم أيضاً، أيها الناسُ، عَمَّنْ أتى إليكم ظلماً، ولا تجهروا له بالسوء من القول، وإنْ قَدرتُمْ على الإساءةِ إليه، كما يعفو عنكم

رَبُّكُم مع قُدْرتِهِ على عقابِكم، وأنتم تَعْصُونَهُ وتخالفونَ أمره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾

يعني بقوله جَلّ ثناؤُهُ: «إنَّ الذين يكفرون بالله ورسله»، من اليهود والنصارى. «ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله»، بأنْ يكذبوا رُسُلَ الله الذين أرسلهم إلى خَلْقِه بوحيِهِ، ويزعموا أنهم افتروا على ربهم. وذلك هو معنى إرادتهم التفريقَ بين الله ورُسُلِه، بنِحْلتهم إياهم الكذبَ والفريةَ على الله، وادِّعائهم عليهم الأباطيلَ. «وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ»، يعني: أنهم يقولون: «نُصَدِّقُ بهذا ونكذِّب بهذا»، كما فعلت اليهودُ من تكذيبهم عيسى ومحمداً صلى الله عليهما وسلم، وتصديقهم بموسى وسائر الأنبياء قبله بزعمهم. وكما فعلتِ النصارى من تكذِيبهم محمداً ﷺ، وتصديقهم بعيسى وسائرِ الأنبياءِ قَبْلَهُ بزعمهم. «وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً»، يقول: ويُريدُ المُفَرِّقونَ بين الله ورسله، الزاعمونَ أنهم يؤمنون ببعضٍ ويكفرون ببعض، أنْ يَتَّخِذُوا بين أضعافِ قولهم: «نؤمنُ ببعضِ الأنبياءِ ونكفرُ ببعضٍ». «سبيلاً»، يعني: طريقاً إلى الضلالة التي أحدثوها، والبدعة التي ابتدعوها، يدعون أهلَ الجهلِ من الناس إليه.

فقال جَلَّ ثناؤُهُ لعبادِهِ، مُنَبِّهاً لهم على ضلالتهم وكفرهم: «أُوْلَئِكَ هُمُ ٱلْكَافِرُونَ حَقاً»، يقول: أيها الناسُ، هؤلاء الذين وصفتُ لكم صِفَتهم، هم أهلُ الكفر بي، المستحقون عذابي والخلود في ناري حقاً. فاستيقنوا ذلك،

ولا يُشَكِّكَنَّكُمْ في أمرهم انتحالهم الكذبَ، ودعواهم أنهم يُقِرُّونَ بما زَعَمُوا أنهم به مُقِرُّونَ من الكتبِ والرسل، فإنهم في دعواهم ما ادعوا من ذلك كَذَبَةٌ. وذلك أنَّ المؤمنَ بالكتبِ والرسل، هو المُصَدِّقُ بجميعِ ما في الكتاب الذي يزعم أنه به مصدق، وبما جاء به الرسولُ الذي يزعم أنه به مؤمن. فأمَّا مَنْ صَدَّقَ ببعضِ ذلك وكذَّب ببعض، فهو لنبوةِ مَنْ كَذَّبَ ببعضِ ما جاءَ به جاحدٌ، ومَنْ جحدَ نبوةَ نبيٍّ فهو به مكذب. وهؤلاء الذين جحدوا نبوةَ بعض الأنبياء، وزعموا أنهم مُصَدِّقُونَ ببعض، مكذبون مَنْ زعموا أنهم به مؤمنون، لتكذيبهم ببعضِ ما جاءهم به من عند رَبِّهم، فهم بالله وبرسله الذين يزعمون أنهم بهم مصدقون، والذين يزعمون أنهم بهم مكذبون كافرونَ، فهم الجاحدونَ وحدانيةَ الله ونبوّةَ أنبيائهِ حَقَّ الجحود، المكذبونَ بذلك حَقَّ التكذيب. فاحذروا أنْ تَغْتَرُّوا بهم وببِدْعتِهم، فإنا قد أعتدنا لهم عذاباً مهيناً.

وأما قوله: «وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً»، فإنه يعني: «وَأَعْتَدْنَا» لمن جحدَ بالله ورسوله جحودَ هؤلاء الذين وصفتُ لكم، أيها الناسُ، أمرَهم من أهلِ الكتابِ، ولغيرهم من سائرِ أجناسِ الكفار. «عَذَاباً»، في الآخرةِ «مُّهِيناً»، يعني: يهين مَنْ عُذِّب به بخلوده فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ١٥٢﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: والذين صَدَّقُوا بوحدانيةِ الله، وأقَرُّوا بنبوةِ رُسُلِه أجمعينَ، وصَدَّقُوهم فيما جاؤوهم به من عندِ الله من شرائعِ دينه. «وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ»، يقول: ولم يُكَذِّبُوا بعضَهم ويصدقوا بعضَهم، ولكنهم أقرُّوا أنَّ كُلَّ ما جاؤوا به من عند رَبِّهم حَقٌّ. «أُوْلَئِكَ»، يقول: هؤلاء الذين هذه صِفَتُهم من المؤمنينَ باللهِ ورسلهِ. «سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ»، يقول: سوف يعطيهم.

«أُجُورَهُمْ»، يعني: جزاءهم وثوابهم على تصديقهم الرسلَ في توحيدِ الله وشرائع دينه، وما جاءت به من عند الله. «وَكَانَ ٱللهُ غَفُوراً»، يقول: ويغفر لمن فعلَ ذلك من خَلْقِهِ ما سَلَفَ له من آثامه، فيستر عليه بعفوِه له عنه، وتركه العقوبة عليه، فإنه لم يَزَلْ لذنوبِ المُنيبينَ إليه من خَلْقِهِ غفوراً. «رَّحِيماً»، يعني: ولم يزل بهم رحيماً، بتفضُّلِهِ عليهم بالهدايةِ إلى سبيلِ الحَقِّ، وتوفيقه إياهم لما فيه خلاص رِقابِهم من النار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾

(يعني): إنَّ أهلَ التوراة سألوا رسولَ الله ﷺ أنْ يسأل رَبَّهُ أنْ ينزِّلَ عليهم كتاباً من السماء، آيةً معجزةً جميعَ الخلق عن أنْ يأتوا بمثلها، شاهدةً لرسولِ الله ﷺ بالصدقِ، آمرةً لهم باتباعه.

وجائزٌ أنْ يكونَ الذي سألوه من ذلك كتاباً مكتوباً يُنَزَّلُ عليهم من السماء إلى جماعتهم، وجائزٌ أنْ يكون ذلك كتباً إلى أشخاصٍ بأعينهم. بل الذي هو أوْلى بظاهرِ التلاوةِ، أنْ تكونَ مسألتهم إياهُ ذلك كانت مسألة لتنزيل الكتابِ الواحد إلى جماعتهم، لِذِكْرِ الله تعالى في خَبرهِ عنهم «الكتاب» بلفظِ الواحدِ بقوله: «يَسْأَلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ ٱلسَّمَاءِ»، ولم يَقُلْ «كتباً».

وأما قوله: «فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ»، فإنه توبيخٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ سائلي الكتاب الذي سألوا رسولَ الله ﷺ أن ينزله عليهم من السماء، في

مسألتهم إياه ذلك وتقرعٌ منه لهم. يقولُ الله لنبيه ﷺ: يا محمد، لايَعْظُمَنَّ عليكَ مسألتهم ذلك، فإنهم من جَهْلِهم بالله وجَرَاءَتِهم عليه واغترارهم بحلمه، لو أنـزلتَ عليهم الكتابَ الذي سألوكَ أن تُنَزِّلَهُ عليهم، لخالفُوا أمرَ الله كما خالفوه بعد إحياءِ الله أوائلهم من صعقتهم، فعبدوا العِجْلَ واتخذوه إلهاً يعبدونه من دون خالقهم وبـارئهم الذي أَرَاهم من قُدْرَتِه وعظيمِ سلطانه ما أراهم، لأنهم لَنْ يعدُوا أن يكونوا كأوائلهم وأسلافهم.

ثم قَصَّ الله من قصتهم وقصة موسى ما قصَّ، يقول الله: «فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ»، يعني: فقد سأل أسلافُ هؤلاء اليهود وأوائلهم موسى عليه السلام، أعظمَ مما سألوكَ من تنزيلِ كتابٍ عليهم من السماء، فقالوا له: «أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً»، أي: عِياناً نُعَايِنُه وننظرُ إليه.

وأما قوله: «ثُمَّ ٱتَّخَذُوا ٱلْعِجْلَ»، فإنه يعني: ثم اتَّخَذَ هؤلاء الذين سألوا موسى ما سألوهُ من رؤيةِ رَبِّهم جهرةً، بعدما أحياهم الله فبعثهم من صَعْقَتِهم العِجْـلَ ـ الذي كان السامريُّ نَبَذَ فيه ما نبذَ من القَبْضَةِ التي قبضها من أثرِ فرسِ جبريلَ عليه السلام ـ إلهاً يعبدونه من دون الله.

وقوله: «مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ»، يعني: من بعد ما جاءت هؤلاء الذين سألوا موسى ما سألوا، البينات من الله، والدلالاتُ الواضحات بأنهم لن يروا الله عياناً جهاراً.

وإنمـا عنى بـ«البينات»: أنها آيات تبينُ عن أنهم لن يروا الله في أيام حياتهم في الدنيا جهرة. وكانت تلك الآياتُ البيناتُ لهم على أنَّ ذلك كذلك: إصعاقَ الله إياهم عند مسألتهم موسى أنْ يريهم رَبَّهُ جهرةً، ثم إحياءه إياهم بعد مماتهم، مع سائرِ الآياتِ التي أراهم الله دلالةً على ذلك.

يقـول الله، مُقَبِّحـاً إليهم فِعْلَهم ذلك، ومُوضِّحاً لعباده جَهْلَهم ونقصَ

عُقولهم وأحلامهم: ثم أقرُّوا للعجلِ بأنه لهم إلهٌ، وهم يرونه عياناً، وينظرون إليه جِهَاراً، بعد ما أراهم ربُّهم من الآياتِ البينات ما أراهم: أنهم لا يرون ربهم جهرةً وعِياناً في حياتهم الدنيا، فعكفوا على عبادتِه مُصَدِّقين بألوهته!!

وقوله: «فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ»، يقول: فَعَفَوْنَا لِعَبَدَةِ العجلِ عن عبادَتِهم إياه، وللمُصَدِّقينَ منهم بأنه إلهُهُم بعد الذي أراهم الله أنهم لا يرون رَبَّهم في حياتِهم من الآياتِ ما أراهم عن تصديقهم بذلك، بالتوبةِ التي تابوها إلى رَبِّهم بقتلِهم أَنْفُسَهُم، وصبرهم في ذلك على أمر ربهم. «وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَاناً مُّبِيناً»، يقول: وآتينا موسى حجةً تبينُ عن صِدْقِهِ وحقيقةِ نُبُوَّتِه، وتلك الحجةُ هي: الآياتُ البيناتُ التي آتاه الله إياها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ»، يعني: الجبل، وذلك لما امتنعوا من العملِ بما في التوراةِ وقبول ما جاءهم به موسى فيها «بِمِيثَاقِهِمْ»، يعني: بما أعطوا الله الميثاقَ والعهد: لنعملن بما في التوراة. «وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّداً»، يعني: «باب حِطَّة»، حين أُمِرُوا أنْ يدخلوا منه سجوداً، فدخلوا يزحفون على أستاههم. «وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي ٱلسَّبْتِ»، يعني بقوله: «لَا تَعْدُوا فِي ٱلسَّبْتِ»، لا تتجاوزوا في يوم السبت ما أُبيحَ لكم إلى ما لم يُبَحْ لكم.

«وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي ٱلسَّبْتِ»، أَمَرَ القومَ أنْ لا يأكلوا الحِيتانَ يومَ السبتِ ولا يعرضوا لها، وأَحَلَّ لهم ما وراء ذلك.

وقوله: «وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً»، يعني: عهداً مُؤَكَّداً شديداً، بأنهم يعملون بما أمرهم الله به، وينتهون عما نهاهم الله عنه، مما ذُكِرَ في هذه الآيةِ، ومما في التوراة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ: فبنقضِ هؤلاء الذين وصفتُ صِفَتَهُمْ من أهلِ الكتابِ «مِّيثَاقَهُمْ»، يعني: عهودهم التي عاهدوا الله أن يعملوا بما في التوراة. «وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ ٱللهِ»، يقول: وجحودهم. «بِآيَاتِ ٱللهِ»، يعني: بأعلام الله وأدِلَّتِهِ التي احتج بها عليهم في صِدْقِ أنبيائهِ ورسله، وحقيقة ما جاؤوهم به من عنده. «وَقَتْلِهِمُ ٱلأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ»، يقول: وبقتلِهم الأنبياءَ بعد قيامِ الحُجَّةِ عليهم بنبوّتهم. «بِغَيْرِ حَقٍّ»، يعني: بغير استحقاقٍ منهم ذلك لكبيرةٍ أتوها، ولا خطيئة استوجبوا القتلَ عليها. «وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ»، يعني: وبقَولِهم «قُلُوبُنَا غُلْفٌ»، يعني: يقولون: عليها غِشاوةٌ وأغطيةٌ عَمَّا تَدْعُونَا إليه، فلا نفقَهُ ما تقولُ ولا نعقلهُ.

«بَلْ طَبَعَ ٱللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ»، يقول: جَلَّ ثناؤُهُ: كَذَبُوا في قولهم: «قُلُوبُنَا غُلْفٌ»، ما هي بغلف، ولا عليها أغطيةٌ، ولكنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ جعل عليها طابعاً بكفرهم بالله.

«فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً»، يقول: فلا يؤمن - هؤلاء الذين وَصَفَ الله صِفَتَهم، لطبعهِ على قلوبهم، فيصدقوا بالله ورُسُلِه وما جاءتهم به من عند الله - إلا إيماناً قليلاً، يعني: تصديقاً قليلاً.

وإنمـا صار «قَلِيلاً»، لأنهم لم يُصَـدِّقُوا على ما أمرهم الله به، ولكن صَدَّقُوا ببعضِ الأنبياء وببعضِ الكتبِ، وكذبوا ببعض. فكان تصديقهم بما صَدَّقوا به قليلاً، لأنهم وإنْ صدقوا به من وجهٍ، فهم به مُكَذِّبُونَ من وجهٍ آخر، وذلك من وجهِ تكذِيبهم مَنْ كذَّبُوا به من الأنبياء وما جاؤوا به من كتبِ الله، ورسل الله يُصَدِّقُ بعضهم بعضاً. وبذلك أمَرَ كُلّ نبيٍّ أمته. وكذلك كُتُبُ الله يُصَـدِّقُ بعضُهـا بعضـاً، ويحققُ بعضها بعضاً. فالمُكَـذِّبُ ببعضهـا مكـذبٌ بجميعها، من جهة جحودهِ ما صدقه الكتاب الذي يقرّ بصحته، فلذلك صار إيمانهم بما آمنوا من ذلك قليلاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ۝١٥٦﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: وبكفرِ هؤلاء الذين وَصَفَ صِفَتَهُمْ «وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً»، يعني: بِفِرْيَتِهم عليها، ورَمْيِهم إيَّاها بالزنا، وهو «البهتان العظيم»، لأنهم رموها بذلك، وهي مما رموها به بغير ثَبْتٍ ولا برهانٍ بريئةٌ، فَبَهتُوها بالباطلِ من القول.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: وبقولهم إنَّا قتلنا المسيحَ عيسى بنَ مريم رسولَ الله. ثم كَذَّبهم الله في قِيلهم، فقال: «وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ»، يعني: وما قتلوا عيسى وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم.

أمّا صفةُ التشبيه الذي شُبِّه لليهودِ في أمرِ عيسى فهو أنَّ شَبَه عيسى أُلقيَ على جميعِ مَنْ كان في البيتِ مع عيسى حين أُحيطَ به وبهم، من غيرِ مسألةِ عيسى إيَّاهم ذلك. ولكنْ ليخزيَ الله بذلك اليهودَ، وينقذَ به نبيهُ عليه السلام من مكروهِ ما أرادوا به من القتلِ، ويبتلي به مَنْ أرادَ ابتلاءَهُ من عبادهِ في قِيله في عيسى، وصِدْقِ الخبرِ عن أمره. لأنَّ الذين شهدوا عيسى من الحواريين، لو كانوا في حالِ ما رُفِعَ عيسى وأُلْقِيَ شَبَهُهُ على مَنْ أُلْقِيَ عليه شَبَهُهُ، كانوا قد عاينوا وهو يُرْفَعُ من بينهم، وأثبتوا الذي أُلقيَ عليه شبهه، وعاينوه مُتَحَوِّلاً في صورتهِ بعد الذي كان به من صورةِ نفسهِ بمحضرِ منهم، لم يَخْفَ ذلك من أمرِ عيسى وأمرِ مَنْ أُلقيَ عليه شَبَهُهُ عليهم، مع معايَنتِهم ذلك كله، ولم يلتبسْ ولم يُشْكِلْ عليهم، وإنْ أشكلَ على غيرهم من أعدائِهم من اليهودِ أنَّ المقتولَ والمصلوبَ كان غير عيسى، وأنَّ عيسى رُفِعَ من بينهم حيًّا.

أو أنَّ القومَ الذين كانوا مع عيسى في البيت، تَفرَّقُوا عنه قبلَ أنْ يدخلَ عليه اليهودُ، وبقيَ عيسى، وأُلقيَ شَبَهُهُ على بعضِ أصحابهِ الذين كانوا معه في البيت بعدما تَفَرَّقَ القومُ غيرَ عيسى، وغيرَ الذي أُلقيَ عليه شَبهُهُ. ورُفِعَ عيسى، فَقُتِلَ الذي تَحوَّلَ في صورةِ عيسى من أصحابه، وظَنَّ أصحابهُ واليهودُ أنَّ الذي قُتِلَ وصُلِبَ هو عيسى، لِمَا رأوا من شَبَهِه به، وخَفاءِ أمرِ عيسى عليهم. لأنَّ رَفْعَهُ وتَحوُّلَ المقتولِ في صورته، كان بعدَ تَفَرُّقِ أصحابهِ عنه، وقد كانوا سمعوا عيسى من الليل ينعَى نفسه، ويحزن لما قد ظَنَّ أنه نازلٌ به من الموتِ، فحكوا ما كان عندهم حقًّا، والأمرُ عند الله في الحقيقة بخلافِ ما حكوا. فلم يستحق الذين حكوا ذلك من حوارييه أنْ يكونوا كَذَبَةً، إذ حكوا ما كان حقًّا عندهم في الظاهر، وإنْ كانَ الأمرُ عندَ الله في الحقيقة بخلافِ الذي حكوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۝١٥٧﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ»، اليهودَ الذين أحاطوا بعيسى وأصحابه حين أرادوا قَتْلَهُ. وذلك أنهم كانوا قد عرفوا عدة من في البيت قبل دخولهم، فيما ذُكِرَ. فلما دخلوا عليهم، فقدوا واحداً منهم، فالتبسَ أمرُ عيسى عليهم بفقدِهم واحداً من العدّةِ التي كانوا قد أحصوها، وقتلوا مَنْ قتلوا على شَكٍّ منهم في أمر عيسى.

وهذا التأويلُ على قولِ مَنْ قال: لم يُفارِق الحواريون عيسى حتى رُفِعَ ودخل عليهم اليهود.

وأما تأويله على قولِ مَنْ قال: تفرَّقوا عنه من الليل، فإنه: «وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا»، في عيسى، هل هو الذي بقيَ في البيتِ منهم بعد خروجِ مَنْ خرج منهم من العدَّة التي كانت فيه، أم لا؟ «لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ»، يعني: من قتله، لأنهم كانوا أحصوا من العدّةِ حين دخلوا البيتَ أكثر ممن خرج منه ومَنْ وُجِدَ فيه، فَشَكُّوا في الذي قتلوه: هل هو عيسى أم لا؟ من أجل فَقْدِهم مَنْ فقدوا من العـدد الذي كانوا أحصوه، ولكنهم قالوا: «قتلنا عيسى»، لمشابهةِ المقتولِ عيسى في الصورة. يقولُ الله جَلَّ ثناؤُهُ: «مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ»، يعني: أنهم قتلوا مَنْ قتلوهُ على شَكٍّ منهم فيه واختلافٍ، هل هو عيسى أم هو غيره؟ من غير أن يكون لهم بمَنْ قتلوهُ عِلْم، مَنْ هُوَ؟ هو عيسى أم هو غيره؟ «إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ»، يعني: جَلَّ ثناؤُهُ: ما كان لهم بمن قتلوه مِنْ علمٍ، ولكنهم اتبعوا ظَنَّهُم فقتلوهُ، ظنًّا منهم أنه عيسى، وأنه الذي يُريدونَ قَتْلَهُ، ولم يكن به. «وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً»، يقول: وما قتلوا ـ هذا الذي اتبعوه في المقتولِ الذي قتلوه وهم

يحسبونه عيسى - يقيناً أنه عيسى ولا أنه غيره، ولكنهم كانوا منه على ظَنٍّ وشُبهةٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ۝١٥٨﴾

أما قوله جَلَّ ثناؤُهُ: «بَل رَّفَعَهُ ٱللهُ إِلَيْهِ»، فإنه يعني: بل رفع الله المسيحَ إليه. يقول: لم يقتلوه ولم يصلبوه، ولكنَّ الله رفعه إليه فَطَهَّرَهُ من الذين كفروا.

وأما قوله: «وَكَانَ ٱللهُ عَزِيزاً حَكِيماً»، فإنه يعني: ولم يزل الله منتقماً من أعدائه، كانتقامه من الذين أخذتهم الصاعقةُ بظُلْمِهم، وكلعنهِ الذين قصَّ قصتهم بقوله: «فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ ٱللهِ». «حَكِيماً»، يقول: ذا حِكْمةٍ في تدبيرهِ وتصريفهِ خَلْقَهُ في قضائه. يقول: فاحْذَرُوا أيها السائلونَ محمداً أن ينزل عليكم كتاباً من السماء، من حلولِ عقوبتي بكم، كما حَلَّ بأوائلكم الذين فعلوا فِعْلَكُم، في تكذيبهم رسلي وافترائهم على أوليائي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ﴾

(يعني): وإن من أهلِ الكتاب إلاَّ ليؤمنن بعيسى قبل موتِ عيسى، وإنما قلنا ذلك لأنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ حكم لكلِّ مؤمنٍ بمحمدٍ ﷺ بحكمِ أهلِ الإيمانِ، في الموارَثةِ والصلاةِ عليه، وإلحاق صغار أولاده بحكمه في الملة. فلو كان كُلُّ كتابيٍّ يؤمنُ بعيسى قبلَ موته، لوَجَبَ أنْ لا يرثَ الكتابيَّ إذا مات على مِلّته إلاَّ أولادهُ الصغار، أو البالغون منهم من أهلِ الإسلام، وإنْ كان له ولد صغير أو بالغٌ مسلم. وإنْ لم يكن له ولدٌ صغير ولا بالغٌ مسلم، كان ميراثُه مصروفاً حيث يُصْرَفُ مالُ المسلمِ يموتُ ولا وارثَ له، وأنْ يكونَ حُكْمُه حكمَ

المسلمين في الصلاةِ عليه وغَسْله وتقبيره. لأنَّ مَنْ ماتَ مؤمناً بعيسى، فقد ماتَ مؤمناً بمحمدٍ وبجميعِ الرسل. وذلك أنَّ عيسى صلواتُ الله عليه، جاء بتصديقِ محمدٍ وجميع المرسلين صلوات الله عليهم، فالمُصَدِّقُ بعيسى والمؤمنُ به، مُصَدِّقٌ بمحمدٍ وبجميع أنبياء الله ورسله. كما أنَّ المؤمنَ بمحمد، مؤمنٌ بعيسى وبجميع أنبياءِ الله ورسله. فغيرُ جائزٍ أنْ يكونَ مؤمناً بعيسى مَنْ كان بمحمدٍ مُكَذِّباً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ١٥٩﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: ويوم القيامة يكونُ عيسى على أهلِ الكتاب «شَهِيداً»، يعني: شاهداً عليهم بتكذيبِ مَنْ كذَّبه منهم، وتصديق مَنْ صَدَّقَهُ منهم، فيما أتاهم به من عندِ الله، وبإبلاغهِ رسالةَ رَبِّهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ١٦٠ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٦١﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: فَحَرَّمنا على اليهودِ الذين نَقَضُوا ميثاقَهم الذي واثَقُوا رَبَّهم، وكفروا بآياتِ الله، وقتلوا أنبياءهم، وقالوا البهتانَ على مريمَ، وفعلوا ما وصفهم الله في كتابه ـ طيباتٍ من المآكلِ وغيرها، كانت لهم حلالاً، عقوبةً لهم بظُلمهم، الذي أخبر الله عنهم في كتابه.

وقوله: «وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ آللهِ كَثِيراً»، يعني: وبصدِّهم عبادَ الله عن

دينه وسُبُله التي شرعَها لعباده، صداً كثيراً. وكان صدُّهم عن سبيلِ الله: بقولهم على الله الباطل، وادِّعائهم أنَّ ذلك عن الله، وتبديلهم كتابَ الله، وتحريف معانيه عن وجوهه. وكانَ من عظيمِ ذلك: جحودُهم نُبُوَّةَ نَبِيِّنا محمدٍ ﷺ، وتركهم بيانَ ما قد عَلِمُوا من أمرِهِ لمن جَهِل أمره من الناس.

وقوله: «وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَا»، وهو أخذهم ما أفضلوا على رؤوسِ أموالهم، لفضلِ تأخيرٍ في الأجل بعد مَحِلِّها. «وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ»، يعني: عن أخذ الربا.

وقوله: «وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَاطِلِ»، يعني ما كانوا يأخذون من الرُّشَى على الحُكْمِ، كما وصفهم الله به في قوله: ﴿وَتَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:٦٢]. وكان من أكلِهِم أموالَ الناس بالباطل، ما كانوا يأخذونَ من أثمانِ الكتبِ التي كانوا يكتبونها بأيديهم، ثم يقولون: «هذا من عند الله»، وما أشْبَهَ ذلك من المآكلِ الخسيسةِ الخبيثة. فعاقبهم الله على جميعِ ذلك، بتحريمِهِ ما حَرَّمَ عليهم من الطيبات التي كانت لهم حلالاً قبل ذلك.

وإنما وصفهم الله بأنهم أكلوا ما أكلوا من أموالِ الناس كذلك بالباطل، لأنهم أكلوه بغير استحقاقٍ، وأخذوا أموالهم منهم بغير استيجاب.

وقوله: «وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً»، يعني: وجعلنا للكافرين بالله ورسوله محمد ﷺ من هؤلاء اليهود، العذابَ الأليمَ ـ وهو الموجع ـ من عذابِ جهنمَ عِنْدَهُ، يَصْلَوْنَهَا في الآخرةِ، إذا وردوا على ربهم، فيعاقبهم بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

هذا من الله جَلَّ ثناؤُهُ استثناء، استثنى من أهل الكتاب من اليهود الذين وصَفَ صِفتهم في هذه الآيات التي مضت، من قوله: «يسألك أهلُ الكتابِ أن تُنزل عليهم كتاباً من السماء».

ثم قال جَلَّ ثناؤُهُ لعباده، مبيِّناً لهم حُكْمَ مَنْ قد هداه لدينه منهم ووفقه لرشده: ما كلُّ أهلِ الكتابِ صِفتهم الصفةُ التي وصفتُ لكم، «لَّكِنِ ٱلرَّاسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ»، وهم الذين قد رَسخوا في العلم بأحكامِ الله التي جاءت بها أنبياؤه، وأتقنوا ذلك، وعرفوا حقيقته. «وَٱلْمُؤْمِنُونَ»، يعني: والمؤمنون بالله ورُسُلِه، هم يؤمنون بالقرآنِ الذي أنزل الله إليك، يا محمدُ، وبالكتبِ التي أنزلها على مَنْ قبلكَ من الأنبياء والرسل، ولا يسألونك كما سألك هؤلاء الجهلة منهم: أنْ تنزل عليهم كتاباً من السماء، لأنهم قد عَلِمُوا بما قرأوا من كتبِ الله وأتتهم به أنبياؤهم، أنك لله رسولٌ، واجبٌ عليهم اتباعك، لايَسَعُهم غير ذلك، فلا حاجةَ بهم إلى أنْ يسألوكَ آيةً معجزةً ولا دلالة غير الذي قد عَلِمُوا من أمركَ بالعلم الراسخ في قلوبهم من إخبارِ أنبيائهم إياهم بذلك، وبما أعطيتك من الأدلّةِ على نبوتكَ، فهم لذلك من علمهم ورسوخهم فيه، يؤمنونَ بكَ وبما أُنزلَ إليك من الكتاب، وبما أُنزلَ من قبلك من سائر الكُتب.

و «وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَاةَ»: الملائكة.

فيكـون تأويل الكـلام: «والمؤمنـون منهم يؤمنون بما أُنزلَ إليك»، يا محمـدُ، من الكتاب. «وبما أُنزلَ من قبلك»، من كتبي، وبالملائكة الذين يقيمـون الصـلاة. ثم يرجع إلى صفة «الراسخين في العلم»، فيقول: لكنِ الـراسخونَ في العلم منهم والمؤمنونَ بالكتبِ والمؤتونَ الزكاةَ والمؤمنون بالله واليوم الآخر.

وأما قوله: «وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ»، فإنه معطوفٌ به على قوله: «وَٱلْمُؤْمِنُونَ

يُؤْمِنُون»، وهو مِنْ صِفَتِهم.

وتـأويله: والـذين يُعْطونَ زكاةَ أموالِهم مَن جَعَلَها الله له وصرفها إليه. «وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ»، يعني: والمُصدِّقُونَ بوحدانيةِ الله وألوهته، والبعثِ بعـد الممـاتِ، والثـواب والعقـاب. «أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً»، يقـول: هؤلاء الـذين هذه صِفَتُهم. «سَنُؤْتِيهِمْ»، يقـول: سَنُعطيهم. «أَجْراً عَظِيمـاً»، يعني: جزاءً على ما كان منهم من طاعـةِ الله واتباع أمره، وثواباً عظيماً، وذلك الجنة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إلى نُوحٍ»، إنا أرسلنا إليكَ يا محمد، بالنبوةِ كما أرسلنا إلى نوح، وإلى سائرِ الأنبياءِ الذين سَمَّيتهم لك من بعده، والذين لم أُسَمِّهم لك.

وذُكِـرَ أنَّ هذه الآية نزلتْ على رسولِ الله ﷺ، لأنَّ بعضَ اليهودِ لَمَّا فَضَحَهم الله بالآياتِ التي أنزلها على رسوله ﷺ ـ وذلك من قوله: «يسألك أهل الكتاب أن تنزِّل عليهم كتاباً من السماء» ـ فتلا ذلك عليهم رسولُ الله ﷺ، قالوا: «ما أنزل الله على بشرٍ من شيء بعد موسى»! فأنزل الله هذه الآيات، تكذيباً لهم، وأخبر نبيَّه والمؤمنين به أنه قد أنزل عليه بعد موسى وعلى مَنْ سَمَّاهم في هذه الآية، وعلى آخرين لم يُسَمِّهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: إنا أوحينا إليكَ، كما أوحينا إلى نُوحٍ وإلى رسلٍ قد قَصَصناهم، ورسل لم نَقْصُصْهُمْ عليك.

وأما قوله: «وَكَلَّمَ ٱللهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً»، فإنه يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: وخاطب الله بكلامهِ موسى خطاباً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بذلك: إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده، ومن ذكر من الرسلِ. «رُّسُلاً»، فنصب «الرسل» على القطع من أسماء الأنبياء الـذين ذكر أسماءهم. «مُّبَشِّرِينَ»، يقول: أرسلتُهم رسلاً إلى خَلْقي وعبـادي، مبشـرين بثوابي لمن أطاعني واتبع أمري وصدَّق رسلي، ومنذرين عقابي لمَنْ عصاني وخالف أمري وكَذَّبَ رسلي. «لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ٱللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ»، يقول: أرسلتُ رسلي إلى عبادي مبشرين ومنذرين، لئلا يحتجّ مَنْ كَفَرَ بي وعبد الأندادَ من دوني، أو ضَلَّ عن سبيلي بأنْ يقول إن أردتُ عقـابـه: ﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ [طه: ١٣٤]. فقطع حُجَّةَ كُلِّ مبطلٍ ألحدَ في توحيده وخالف أمره، بجميع معاني الحجج القاطعة عذرَه، إعذاراً منه بذلك إليهم، لتكون لله الحجةُ البالغة عليهم وعلى جميع خَلْقِه.

«وَكَانَ ٱللهُ عَزِيزاً حَكِيماً»، يقول: ولم يزل الله ذا عِزة في انتقامه ممن انتقم منه من خلقه، على كُفْره به، ومعصيتِهِ إياهُ، بعد تثبيته حجَّتَهُ عليه برسله وأدلَّته. «حَكِيماً»، في تدبيره فيهم ما دَبَّرَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: إنْ يَكْفُرْ بالذي أوحينا إليك، يا محمد، اليهود الذين سألوكَ أنْ تُنَزِّلَ عليهم كتاباً من السماء، وقالوا لك: «ما أنزلَ الله على بشرٍ من شيء» فكذَّبوكَ، فقد كذبوا. ما الأمر كما قالوا: لكن الله يشهدُ بتنزيلهِ إليك ما أنـزلَ من كتابِهِ ووحيه، أنزلَ ذلك إليكَ بعلمٍ منه بأنك خِيرتُهُ من خَلْقِهِ، وصفيُّه من عبادِهِ، ويشهدُ لك بذلك ملائكتُه، فلا يَحْزُنْكَ تكذيبُ مَنْ كذَّبك، وخلافُ مَنْ خالفك. «وَكَفَىٰ بِٱللهِ شَهِيداً»، يقول: وحَسْبُكَ بالله شاهداً على صِدْقِكَ دونَ ما سواه من خَلْقِهِ، فإنه إذا شهدَ لك بالصدق رَبُّكَ، لم يَضِرْكَ تكذيبُ مَنْ كذَّبك.

وقد قيل: إنَّ هذه الآية نزلت في قومٍ من اليهود، دعاهم النبيُّ ﷺ إلى اتباعه، وأخبرهم أنهم يعلمون حقيقة نبوّته، فجحدوا نُبُوَّته وأنكروا معرفته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: إنَّ الذين جَحَدُوا، يا محمد، نبوتك بعد عِلْمِهم بها، من أهلِ الكتابِ الذين اقتصصتُ عليك قصتهم، وأنكروا أنْ يكون الله

جَلَّ ثناؤُهُ أوحى إليك كتابَهُ. «وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللهِ»، يعني: عن الدِّين الذي بعثَكَ الله به إلى خَلْقِه، وهو الإسلامُ. وكان صدُّهم عنه، قِيلُهم للناسِ الذين يسـألـونهم عن محمد من أهلِ الشرك: «ما نجدُ صِفةَ محمدٍ في كتابنا!»، وادعاؤهم أنهم عُهِدَ إليهم أنَّ النبوّةَ لا تكونُ إلا في ولد هرون ومن ذرية داود، وما أشبهَ ذلك من الأمورِ التي كانوا يُثَبِّطُونَ الناسَ بها عن اتِّباعِ رسولِ الله ﷺ والتصديقِ به وبما جاء به من عند الله.

وقوله: «قَد ضَلُّوا ضَلالاً بَعِيداً»، يعني: قد جاروا عن قَصْدِ الطريقِ جوراً شديداً، وزالوا عن المَحجَّةِ.

وإنما يعني جَلَّ ثناؤُهُ بجورهم عن المحجةِ وضلالهم عنها، إخطاءَهم دِينَ الله الذي ارتضاهُ لعبادِه، وابتعث به رُسُلَهُ. يقول: مَنْ جحدَ رسالةَ محمدٍ ﷺ، وصَدَّ عما بُعِثَ به من المِلَّة مَنْ قَبِلَ منه[1]، فقد ضَلَّ فذهبَ عن الدينِ الذي هو دينُ الله الذي ابتعث به انبياءه، ضلالاً بعيداً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: إنَّ الذين جحدوا رسالةَ محمد ﷺ، فكفروا بالله بجحودِ ذلك، وظلموا بمُقامِهم على الكفرِ على علمٍ منهم، بظلمهم عبادَ الله، وحَسَـداً للعـرب، وبغياً على رسولِهِ محمدٍ ﷺ. «لَمْ يَكُنِ ٱللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ»،

---

(١) يعني: أن الذي جحد رسالة محمد ﷺ وصَدَّ الناسَ الذين قبلوا منه هذه الرسالةَ فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً.

يعني: لم يكن الله ليعفوَ عن ذُنوبِهم بتركه عقوبتهم عليها، ولكنه يفضحهم بها بعقوبتهِ إياهم عليها. «وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً»، يقول: ولم يكن الله تعالى ذِكْرُه ليهديَ هؤلاء الذين كَفَرُوا وظَلَمُوا، الذين وصفنا صِفَتهم، فيوفِّقَهُم لطريقٍ من الطرقِ التي ينالون بها ثوابَ الله، ويَصِلُونَ بلزومِهم إياه إلى الجنة، ولكنه يخذلهم عن ذلك، حتى يسلكوا طريقَ جهنم. وإنما كنى بذكر «الطريق» عن الدين. وإنما معنى الكلام: لم يكن الله ليوفِّقَهُمْ للإسلامِ، ولكنه يخذلهم عنه إلى «طريق جهنم»، وهو الكفر، يعني: حتى يكفروا بالله ورسله، فيدخلوا جهنم. «خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً»، يقول: مقيمينَ فيها أبداً. «وَكَانَ ذَلِكَ عَلَىٰ آللهِ يَسِيراً»، يقول: وكان تخليدُ هؤلاء الذين وصفتُ لكم صِفَتهم في جهنم، على الله يسيراً، لأنه لا يقدرُ مَنْ أرادَ ذلكَ بهِ على الامتناعِ منه، ولا لَهُ أحدٌ يمنعهُ منه، ولا يستصعبُ عليه ما أراد فعله به من ذلك، وكان ذلك على الله يسيراً، لأنَّ الخَلْقَ خَلْقُهُ، والأمرَ أمرُه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٧٠﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «يَاأَيُّهَا آلنَّاسُ»، مشركي العرب، وسائرَ أصناف الكفر. «قَدْ جَاءَكُمُ آلرَّسُولُ»، يعني: محمداً ﷺ، قد جاءكم. «بِآلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ»، يقول: بالإسلام الذي ارتضاهُ الله لعباده ديناً، يقول: «مِن رَّبِّكُمْ»، يعني: من عند ربكم. «فَآمِنُوا خَيْراً لَّكُمْ»، يقول: فَصَدِّقُوه وصَدِّقُوا بما جاءكم به من عند ربكم من الدين، فإنَّ الإيمانَ بذلك خيرٌ لكم من الكفر به. «وَإِنْ تَكْفُرُوا»، يقول: وإنْ تَجْحَدُوا رسالتَه وتُكَذِّبُوا به وبما جاءكم به من عند ربكم،

فإنَّ جحودَكم ذلك وتكذيبَكُم به، لن يضرَّ غيركم، وإنما مكروهُ ذلك عائدٌ عليكم، دونَ الذي أمركم بالذي بعث به إليكم رسوله محمداً ﷺ، وذلك أنَّ لله ما في السمواتِ والأرضِ، ملكاً وخلقاً، لا يَنْقُصُ كُفْرُكُم بما كفرتم به من أمرِهِ، وعصيانكم إياه فيما عَصَيْتُموه فيه، من مِلْكِهِ وسلطانه شيئاً. «وكان الله عليماً حكيماً»، يقول: «وَكَانَ ٱللهُ عَلِيماً»، بما أنتم صائرونَ إليه من طاعتِهِ فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه، ومعصيته في ذلك، على عِلْمٍ منه بذلك منكم، أمركم ونهاكم. «حكِيماً»، يعني: حكيماً في أمره إياكم بما أمركم به، وفي نهيِهِ إياكم عما نَهاكم عنه، وفي غير ذلك من تدبيرِهِ فيكم وفي غيركم من خَلْقِهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «يا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ»، يا أهلَ الإنجيل من النصارى. «لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ»، يقول: لا تجاوزُوا الحَقَّ في دينكم فتفرطوا فيه، ولا تقولوا في عيسى غيرَ الحَقِّ، فإنَّ قِيلَكم في عيسى إنه ابن الله، قولٌ منكم على الله غيرَ الحق، لأنَّ الله لم يَتَّخِذْ ولداً فيكون عيسى أو غيره من خَلْقِهِ له ابناً «وَلَا تَقُولُوا عَلَىٰ ٱللهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ».

وأصلُ «الغُلُوِّ»، في كل شيء مجاوزةُ حَدِّهِ الذي هو حَدُّهُ. يقال منه في الدِّين: «قد غلا فهو يغلو غُلُوّاً».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ»، ما المسيحُ، أيها الغَالُونَ في دِينهم من أهلِ الكتاب، بابنِ الله، كما تَزعمونَ، ولكنه عيسى بن مريم، دون غيرها من الخلق، لا نَسَبَ له غير ذلك. ثم نَعَتَهُ الله جَلَّ ثناؤُهُ بنعته ووصَفَهُ بصفتهِ فقال: هو رسولُ الله أرسلَهُ الله بالحَقِّ إلى مَنْ أرسله إليه من خَلْقِه.

وأصلُ «المسيح»، «الممسوح»، صُرِفَ من «مفعول» إلى «فعيل». وسَمَّاهُ الله بذلك لتطهيرهِ إياهُ من الذنوبِ. وقيل: مُسِحَ من الذنوبِ والأدناسِ التي تكون في الآدميين، كما يُمْسَحُ الشيءُ من الأذى الذي يكون فيه، فيطهر منه. ولذلك قال مجاهد ومَنْ قال مثل قوله: «المسيح»، الصِّدِّيقُ.

وقد زعم بعض الناس أنَّ أصلَ هذه الكلمة عبرانية أو سريانية «مشيحا»، فَعُرِّبَتْ فقيل: «المسيح»، كما عُرِّبَ سائرُ أسماء الأنبياء التي في القرآن مثل: «إسماعيل» و «إسحق» و «موسى» و «عيسى».

وليس ما مثّل به من ذلك لـ «المسيح» بنظير. وذلك أنَّ «إسماعيل» و «إسحق» وما أشبه ذلك، أسماءٌ لا صِفاتٌ، و «المسيح» صِفَةٌ. وغيرُ جائزٍ أن تُخَاطَبَ العربُ، وغيرها من أجناسِ الخَلْقِ، في صفة شيءٍ إلا بمثل ما تَفْهَمُ عَمَّنْ خاطَبها. ولو كانَ «المسيحُ» من غيرِ كلامِ العربِ، ولم تكن العرب تَعقِلُ معناه، ما خُوطِبَتْ به.

وأما «المسيح الدجال»، فإنه أيضاً بمعنى: الممسوح العين، صُرِفَ من «مفعول» إلى «فعيل». فمعنى: «المسيح» في عيسى ﷺ: الممسوح البدنِ من الأدناسِ والآثامِ. ومعنى: «المسيح» في الدجال: الممسوح العين اليمنى أو اليسرى، كالذي روي عن رسولِ الله ﷺ في ذلك[1].

(١) أحاديث الدجال الصحيحة كثيرة، وهي تشير إلى أنه أعور العين.

وأما قوله: «وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ»، فإنه يعني بـ «الكلمة»، الرسالةَ التي أمرَ الله ملائكته أنْ تأتيَ مريمَ بها، بشارةً من الله لها، التي ذكر الله جَلَّ ثناؤُهُ في قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٤٥]، يعني: برسالةٍ منه، وبشارة من عنده.

وقوله: «أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ»، يعني: أَعْلَمَهَا بها وأخبرها، كما يقال: «ألقيتُ إليكَ كلمةً حسنة»، بمعنى: أخبرتُك بها وكَلَّمْتُكَ بها.

وأما قوله: «وَرُوحٌ مِّنْهُ»، فإنَّ أهلَ العلم اختلفوا في تأويله:

فقال بعضهم: معنى قوله: «وَرُوحٌ مِّنْهُ»، ونفخةٌ منه، لأنه حدث عن نَفْخَةِ جبريلَ عليه السلام في دِرْعِ مريم[1] بأمرِ الله إياهُ بذلك، فنسب إلى أنه «روح من الله»، لأنه بأمْرِهِ كان. قال: وإنما سَمَّى النفخَ «روحاً»، لأنها ريحٌ تخرج من الرُّوح.

وقال بعضهم يعني بقوله: «وَرُوحٌ مِّنْهُ» إنه كان إنساناً بإحياءِ الله له بقوله: «كُنْ». قالوا: وإنما معنى قوله: «وَرُوحٌ مِّنْهُ»، وحياة منه، بمعنى إحياءِ الله إياه بتكوينه.

وقال آخرون: معنى قوله: «وَرُوحٌ مِّنْهُ»، ورحمةٌ منه، كما قال جَلَّ ثناؤُهُ في موضعٍ آخر: ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]. قالوا: ومعناه في هذا الموضع: ورحمة منه. قالوا: فجعلَ الله عيسى رحمةً منه على مَنِ اتَّبَعَهُ وآمَن به وصَدَّقَهُ، لأنه هداهم إلى سبيلِ الرشاد.

وقال آخرون: معنى ذلك: وروح من الله خَلَقَها فَصَوَّرَها، ثم أرسلها إلى مريمَ فدخلت في فِيها، فَصَيَّرَهَا الله تعالى روحَ عيسى عليه السلام.

---

(١) درع المرأة: قميصها الذي يحميها من أعين الفُسَّاق.

•قال آخرون: معنى «الروح» ههنا، جبريلُ عليه السلام. قالوا: ومعنى الكـلام: وكلمتهُ ألقاها إلى مريمَ، وألقاها أيضاً إليها روحٌ من الله. قالوا: فـ «الروح» معطوف به على ما في قوله: «ألقاها» من ذِكْرِ الله، بمعنى: أنَّ إلقاءَ الكلمةِ إلى مريمَ كان من الله، ثم مِنْ جبريلَ عليه السلام.

ولكلٍّ هذه الأقوالِ وجهٌ ومذهبٌ غيرُ بعيدٍ من الصواب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾

يعني بِقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «فَآمِنُوا بِٱللهِ وَرُسُلِهِ»، فَصَدِّقُوا، يا أهلَ الكتابِ، بوحدانية الله وربوبيته، وأنه لا وَلَدَ له، وصَدِّقُوا رُسُلَهُ فيما جاؤوكم به من عند الله، وفيما أخبرتكم به أنَّ الله واحدٌ لا شريكَ له، ولا صاحبةَ له، ولا ولدَ له «وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ»، يعني: ولا تقولوا: الأربابُ ثلاثة.

ثم قال لهم جَلَّ ثناؤُهُ: مُتَوَعِّداً لهم في قولهم العظيم الذي قالوه في الله: «ٱنْتَهُوا»، أيها القائلونَ: الله ثالثُ ثلاثة، عَمَّا تقولونَ من الزُّورِ والشركِ بالله، فإنَّ الانتهاءَ عن ذلك خيرٌ لكم من قِيلِهِ، لما لكم عندَ الله من العقابِ العاجلِ لكم على قِيلِكُم ذلـكَ، إنْ أَقَمْتُمْ عليه، ولم تُنِيبُوا إلى الحق الذي أمرتكم بالإنابةِ إليه والآجلِ في معادكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾

يعني بقـولـه: «إِنَّمَا ٱللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ»، ما الله، أيها القائلونَ: الله ثالثُ ثلاثـة، كمـا تقولونَ، لأنَّ مَنْ كانَ له ولدٌ، فليس بإلهٍ. وكذلك مَنْ كان له

صاحبة، فغير جائزٍ أنْ يكونَ إلهاً معبوداً. ولكن الله الذي له الألوهةُ والعبادة، إلهٌ واحدٌ معبود، لا ولدَ له، ولا والدَ، ولا صاحبة، ولا شريك.

ثم نَزَّهَ جَلَّ ثناؤُهُ نفسَهُ وعظَّمها ورفَعَها عَمَّا قال فيه أعداؤُه الكفَرَةُ به فقال: «سُبْحَانَهُ أن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ»، يقول: عَلاَ الله جَلَّ وعزَّ وتَعَظَّم وتنزَّه عن أنْ يكونَ له ولدٌ أو صاحبة.

ثم أخبر جَلَّ ثناؤُهُ عبادَهُ: أنَّ عيسى وأُمَّه ومَنْ في السمواتِ ومَنْ في الأرض، عبيدهُ وإماؤُه وخَلْقُه، وأنه رازقهم وخالقهم، وأنهم أهلُ حاجةٍ وفاقةٍ إليه احتياجاً منه بذلك على مَنِ ادَّعى أنَّ المسيح ابنه، وأنه لو كان ابنه كما قالوا، لم يكن ذا حاجةٍ إليه، ولا كان له عبداً مملوكاً، فقال: «لَّهُ مَا فِي ٱلسَّمَوات وَمَا فِي ٱلأَرْضِ»، يعني: لله ما في السموات وما في الأرض من الأشياء كلها ملكاً وخلقاً، وهو يَرْزُقُهم ويَقُوتُهم ويُدَبِّرهم، فكيف يكون المسيحُ ابناً لله، وهو في الأرضِ أو في السموات، غيرُ خارجٍ من أن يكون في بعض هذه الأماكن؟

وقوله: «وَكَفَىٰ بِٱللهِ وَكِيلاً»، يقول: وحسب ما في السموات وما في الأرض بالله قَيِّماً ومدبِّراً ورازقاً، من الحاجة معه إلى غيره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «لَّن يَسْتَنْكِفَ ٱلْمَسِيحُ»، لَنْ يأنفَ ولنْ يستكبرَ المسيحُ. «أن يَكُونَ عَبْداً لله»، يعني: من أنْ يكونَ عبداً لله.

وأما قوله: «وَلاَ ٱلْمَلاَئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ»، فإنه يعني: ولن يستنكفَ أيضاً من الإقرارِ لله بالعُبودةِ والإذعانِ له بذلك، رُسُلُهُ «المقربون»، الذين قَرَّبَهُم الله ورفَعَ منازلهم على غيرِهم من خَلْقِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بذلك: ومَنْ يَتعظَّمْ عن عبادةِ ربه، ويأنفْ من التذلُّلِ والخضوع له بالطاعةِ من الخَلْقِ كلهم، ويستكبرْ عن ذلك «فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً»، يقول: فسيبعثهم يومَ القيامةِ جميعاً، فيجمعهُم لموعدِهم عنده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بذلك: فأما المؤمنون المُقِرُّونَ بوحدانيةِ الله، الخاضعونَ له بالطاعة، المتذلِّلونَ له بالعبوديةِ، والعاملونَ الصالحاتِ من الأعمالِ، وذلك: أن يَرِدُوا على رَبِّهم قد آمنوا به وبرسله، وعملوا بما أتاهم به رسله من عندِ رَبِّهم، مِنْ فعلِ ما أمرَهُمْ به، واجتنابِ ما أمرهم باجتنابه. «فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ»، يقول: فيؤتيهم جزاءَ أعمالهم الصالحة وافياً تامًّا. «وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ»، يعني جَلَّ ثناؤُهُ: ويزيدُهم على ما وَعَدَهُم من الجزاءِ على أعمالهم الصالحة والثواب عليها، من الفضلِ والزيادةِ ما لم يُعَرِّفْهُمْ مبلغَهُ، ولم يحدَّ لهم مُنْتَهاه. وذلك أنَّ الله وعدَ مَنْ جاء من عبادهِ المؤمنين بالحسنةِ الواحدة عشرَ أمثالِها من الثواب والجزاء. فذلك هو أجر كلِّ عاملٍ على عملهِ الصالح من أهلِ الإيمان المحدود مبلغه، والزيادة على ذلك تفضُّلٌ من الله عليهم، وإنْ

كان كل ذلك من فضله على عباده. غيرَ أن الذي وَعَدَ عبادَه المؤمنين أنْ يُوفِّيهم فلا ينقصهم من الثوابِ على أعمالهم الصالحة، هو ما حَدُّ مبلغه من العَشْر، والزيادة على ذلك غير محدودٍ مبلغها، فيزيدُ مَنْ شاء من خَلْقِه على ذلك **قَدْرَ ما يشاء**، لا حَدَّ لقَدْرِه يوقف عليه.

وقوله: «وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا وَٱسْتَكْبَرُوا»، فإنه يعني: وأما الذين تعظَّموا عن الإقرارِ لله بالعُبودةِ، والإذعانِ له بالطاعة، واستكبروا عن التذلُّلِ لأُلوهته وعبادته، وتسليم الربيبيَّةِ والوحدانية له. «فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً»، يعني: عذاباً مُوجعاً. «وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيراً»، يقول: ولا يجد المستنكفونَ من عبادته والمستكبرونَ عنها، إذا عَذَّبهم الله الأليمَ من عذابه، سوى الله لأنفسهم وليًّا يُنْجيهم من عذابِهِ وينقذهم منه. «وَلَا نَصِيراً»، يعني: ولا ناصراً ينصُرُهم فَيَسْتَنْقِذُهُمْ من رَبِّهم، ويدفع عنهم بقوَّته ما أحلَّ بهم من نقمته، كالذي كانوا يفعلونَ بهم إذا أرادهم غيرُهم من أهلِ الدنيا في الدنيا بسوءٍ، من نُصْرَتِهم والمدافعةِ عنهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ»، يا أيها الناسُ من جميعِ أصناف الملل، يهودِها ونصاراها ومشركيها، الذين قَصَّ جَلَّ ثناؤُهُ قَصَصهم في هذه السورة «قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ»، يقول: قد جاءتكم حُجَّةٌ من الله تبرهنُ لكم بُطُولَ ما أنتم عليه مقيمونَ من أديانِكم ومللكم، وهو محمدٌ ﷺ، الذي جعله الله عليكم حجةً قطع بها عُذْرَكُم، وأبلغَ إليكم في المعذرة بإرسالِهِ إليكم، مع تعريفِهِ إياكم صحةَ نبوته، وتحقيقَ رسالتِهِ. «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نوراً مُّبيناً»، يقول: وأنزلنا إليكم معهُ «نُوراً مُّبيناً»، يعني:

يبين لكم المحجَّةَ الواضحةَ، والسُّبل الهاديةَ إلى ما فيه لكم النجاةُ من عذابِ الله وأليم عقابه. إنْ سَلَكْتُموها واسْتَنرتُمْ بضوئه.

وذلك «النور المبين»، هو القرآنُ الذي أنزله الله على محمدٍ ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: فأما الذين صدَّقوا الله وأقَرُّوا بوحدانيته، وما بعثَ به محمداً ﷺ من أهلِ المللِ. «وَٱعْتَصَمُوا بِهِ»، يقول: وتَمَسَّكُوا بالنورِ المبين الذي أنزله إلى نبيه.

«فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ»، يقول: فسوف تنالهم رحمته التي تُنجيهم من عقابِهِ، وتوجبُ لهم ثوابَهُ ورحمته وجنته، ويلحقهم من فضلِهِ ما لَحِقَ أهـلَ الإيمـانِ به والتصديق برسله. «وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً»، يقول: ويوفقهم لإصابةِ فَضْلِه الذي تَفضَّلَ به على أوليائه، ويُسدِّدهم لسلوكِ منهجِ مَنْ أنْعمَ عليه من أهلِ طاعته، ولاقتفاء آثارهم واتباع دينهم، وذلك هو «الصراط المستقيم»، وهو دين الله الذي ارتضاه لعباده، وهو الإسلام.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «يَسْتَفْتُونَكَ»، يسألونك، يا محمدُ، أنْ تفتيهم في الكلالة.

«إِنِ ٱمْرُؤٌا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ»، يعني بقوله: «إِنِ ٱمْرُؤٌا هَلَكَ»، إن إنسانٌ من الناسِ مات.

«لَيْسَ لَهُ وَلَـدٌ» ذكر ولا أنثى «وَلَهُ أُخْتٌ»، يعني: وللميت أختٌ لأبيه وأمه، أو لأبيه. «فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ»، يقول: فلأخته التي تركها بعده بالصِّفَةِ التي وَصَفنا، نصف تركتهِ ميراثاً عنه، دون سائر عَصَبَتِه. وما بقي فلعصبته.

فإن قال قائلٌ: فما وجه قوله جَلَّ ثناؤُهُ: «وإِنِ ٱمْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ»، ولقد علمت اتفاقَ جميعِ أهلِ القبلة ما خلا ابن عباس وابن الزبير رحمة الله عليهما على أنَّ الميتَ لو ترك ابنةً وأختاً، أنَّ لابنتهِ النصف، وما بقي فلأختهِ، إذا كانت أخته لأبيه وأمه، أو لأبيه؟ وأين ذلك من قوله: «إِنِ ٱمْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ»، وقد ورَّثوها النصفَ مع الولد؟

قيل: إنّ الأمر في ذلك بخلاف ما ذهبتَ إليه. إنما جعل الله جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «إِنِ ٱمْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ»، إذا لم يكن للميتِ ولـدٌ ذَكَرٌ ولا أنثى، وكان موروثاً كلالة، النصفَ من تركتهِ فريضةً لها مسَّماة. فأما إذا كان للميتِ ولد أنثى، فهي معها عَصَبَةٌ، يصير لها ما كان يصيرُ للعَصَبةِ غيرها، لو لم تكن. وذلك غير محدود بحدٍّ، ولا مفروض لها فرضَ سهام أهلِ الميراث بميراثهم عن ميِّتهم. ولم يقل الله في كتابه: «فإِنْ كان له ولدٌ فلا شيءَ لأخته معه»، فيكون لما رويَ عن ابنِ عباس وابن الزبير في ذلك وجهٌ يوجَّه إليه. وإنما بيَّن جَلَّ ثناؤُهُ، مبلغ حقِّها إذا وُرث الميت كلالةً، وترك بيان ما لها من حَقٍّ إذا لم يورث كلالةً في كتابه، وبيَّنه بوحيهِ على لسانِ رسوله ﷺ، فجعلهـا عَصَبـةً مع إناثِ ولدِ الميت. وذلك معنًى غير معنى وراثتها الميت، إذا كان موروثاً كلالةً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بذلك: وأخو المرأة يَرِثُها إنْ ماتت قَبْلَهُ، إذا وُرِثت كلالة، ولم يكن لها ولدٌ ولا والد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ»، فإن كانت المتروكةُ من الأخواتِ لأبيه وأمه أو لأبيه. «اثنتين» فلهما ثلثا ما ترك أخوهما الميت، إذا لم يكن له ولد، وورث كلالة. «وَإِن كَانُوا إِخْوَةً»، يعني: وإنْ كان المتروكون من إخوته. «رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ» منهم بميراثهم عنه من تركته. «مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ»، يعني: مثل نصيب اثنتين من أخواته. وذلك إذا ورث كلالةً، والإخوة والأخوات إخوته وأخواته لأبيه وأمه، أو: لأبيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: يُبَيِّنُ الله لكم قسمةَ مواريثكم، وحُكْمَ الكلالة، وكيف فرائضهم. «أَن تَضِلُّوا»، بمعنى: لئلا تَضِلُّوا في أمرِ المواريثِ وقسمتها، أي: لئلا تجوروا عن الحق في ذلك وتخطئوا الحكمَ فيه، فَتَضِلُّوا عن قصد السبيل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ۝١٧٦﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: «وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ» من مصالحِ عبادِه في قسمة مواريثهم وغيرها، وجميع الأشياء. «عَلِيمٌ»، يقول: هو بذلك كله ذو عِلْمٍ.

المجلد الثاني

فهرس المحتويات

تفسير الطبري

من كتابه

جامع البيان عن تأويل آي القرآن

هذبه وحققه وضبط نصه وعلق عليه

الدكتور بشار عواد معروف   عصام فارس الحرستاني

المجلد الثالث

المائدة إلى الأعراف

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير الطبري

٣

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع

مؤسّسة الرّسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٦٠٣٢٤٣ - ٨١٥١١٢ - ص.ب: ٧٤٦٠ - برقياً: بيوشران

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

• القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا»، يا أيها الذين أقَرُّوا بوحدانيةِ الله، وأذعنوا له بالعبوديةِ، وسَلَّمُوا له الألوهةَ، وصَدَّقُوا رسولَهُ محمداً ﷺ في نبوته وفيما جاءهم به من عند ربهم من شرائع دينه. «أَوْفُوا بِٱلْعُقُودِ»، يعني: أوفوا بالعهودِ التي عاهدتموها رَبَّكُم، والعقود التي عاقدتموها إياه، وأوجبتم بها على أنفسكم حقوقاً، وألزمتم أنفسَكُم بها لله فروضاً، فأتِمُّوها بالوفاءِ والكمالِ والتمامِ منكم لله بما ألزمكم بها، ولمن عاقدتموهُ منكم، بما أوجبتموه له بها على أنفسكم، ولا تَنْكُثُوها فتنقضوها بعد توكيدها.

و«الإيفاء بالعهد»، إتمامه على ما عقد عليه من شروطه الجائزة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾

اختلف أهلُ التأويل في «بهيمة الأنعام» التي ذكر الله عَزَّ ذِكْرُه في هذه الآية أنه أحَلَّها لنا.

فقال بعضهم: هي الأنعامُ كُلُّها.

وقال آخرون: بل عَنَى بقوله: «أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَامِ»، أجِنَّة الأنعام التي توجدُ في بطون أمهاتها ـ إذا نُحرت أو ذُبحت ـ ميتةً.

وأولى القولين بالصواب في ذلك، قولُ من قال: عَنَى بقوله: «أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَامِ»، الأنعام كلها: أجنّتها وسِخَالها[1] وكبارها. لأنَّ العربَ لا تمتنعُ من تسميةِ جميعِ ذلك «بهيمة وبهائم»، ولم يُخَصِّص الله منها شيئاً دون شيء. فذلكَ على عُمومِهِ وظاهرِهِ، حتى تأتيَ حُجةٌ بخصوصه يجبُ التسليم لها.

وأما «النَّعَم» فإنها عند العرب، اسمٌ للإبلِ والبقر والغنم خاصة، كما قال جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥]، ثم قال: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨]، ففصل جنس النعم من غيرها من أجناس الحيوان.

وأما «بهائمها»، فإنها أولادها. وإنما قلنا يلزم الكبار منها اسم «بهيمة»، كما يلزم الصغار، لأنَّ معنى قولِ القائل: «بهيمة الأنعام»، نظير قوله: «ولد الأنعام». فلما كان لا يسقط معنى الولادةِ عنه بعد الكبرِ، فكذلك لا يسقطُ عنه اسمُ البهيمةِ بعد الكبر.

وقد قال قوم: «بهيمة الأنعام»، وَحْشِيُّها، كالظباء وبقر الوحش والحُمُر.[2]

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ

عَنَى بذلك: إلا ما يُتْلَى عليكم من تحريمِ الله ما حَرَّمَ عليكم بقوله: «حُرِّمَتْ عليكم الميتة» الآية. لأنَّ الله عزَّوجلَّ استثنى مما أباح لعباده من بهيمة الأنعام، ما حرَّم عليهم منها. والذي حرّم عليهم منها، ما بَيَّنَهُ في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ [المائدة: ٣]. وإن كان حرَّمه الله

---

(١) السَّخْلَةُ: ولد الشاة، من المعز والضأن، ذكراً كان أو انثى.

(٢) هذه مقالة الفراء في (معاني القرآن: ١/٢٨٩).

علينا، فليسَ من بهيمة الأنعام فيستثنى منها. فاستثناءُ ما حرِّم علينا مما دخل في جملة ما قَبْلَ الاستثناء، أشبهُ من استثناءِ ما حَرَّمَ مما لم يدخلْ في جملة ما قبل الاستثناء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾

(يعني): يا أيها الذين آمنوا أوفوا بعقودِ الله التي عقد عليكم مما حَرَّمَ وأحَلَّ، لا مُحِلِّينَ الصيدَ في حرمكم، ففيما أحَلَّ لكم من بهيمةِ الأنعام المذكَّاة دون ميتتها، مُتَّسَعٌ لكم ومُسْتَغْنًى عن الصيدِ في حالِ إحرامكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: إنَّ الله يقضي في خَلْقِه ما يشاء، من تحليلِ ما أرادَ تحليلَهُ، وتحريمِ ما أرادَ تحريمَهُ، وإيجابِ ما شاء إيجابَهُ عليهم، وغير ذلك من أحكامه وقضاياه، فأوفوا، أيها المؤمنونَ، لَهُ بما عَقَدَ عليكم من تحليلِ ما أحَلَّ لكم وتحريمِ ما حَرَّمَ عليكم، وغير ذلك من عقوده، فلا تَنْكُثوها ولا تنقضوها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾

معنى الكلام: لا تَسْتَحِلُّوا، أيها الذين آمنوا، معالمَ الله، فيدخل في ذلك معالم الله كلها في مناسك الحج: من تحريمِ ما حَرَّمَ الله إصابتَهُ فيها على المحرم، وتضييعِ ما نهى عن تضييعهِ فيها، وفيما حرَّم من استحلالِ حُرمات حَرَمه، وغير ذلك من حدودهِ وفرائضهِ، وحلالهِ وحرامهِ، لأنَّ كُلَّ ذلك

من معالمهِ وشعائرِهِ التي جعلها أماراتٍ بين الحقِّ والباطل، يُعْلَم بها حلالُه وحرامه، وأمرُه ونَهْيُهُ. لأنَّ الله نهى عن استحلالِ شعائره ومعالمِ حدوده وإحلالها نهياً عامًّا، من غيرِ اختصاصِ شيءٍ من ذلك دون شيء، فلم يَجُز لأحدٍ أن يوجِّه معنى ذلك إلى الخصوص إلا بحجةٍ يجبُ التسليمُ لها، ولا حُجَّةَ بذلك كذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ»، ولا تستحِلُّوا الشهرَ الحرام بقتالكم فيه أعداءكم من المشركين، وهو كقوله: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة:٢١٧].

وأما «ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ» الذي عَنَاهُ الله بقوله: «وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ»، فرَجَبُ مُضَر، وهو شهرٌ كانت مضر تحرِّمُ فيه القتال.

وقد قيل: هو في هذا الموضع «ذو القعدة».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ

«أما الهدي»، فهو ما أهداهُ المرءُ من بَعيرٍ أو بقرةٍ أو شاةٍ أو غير ذلك، إلى بيت الله، تَقَرُّباً به إلى الله، وطلبَ ثوابه.

يقول الله عزَّ وجلَّ: فلا تستحِلُّوا ذلك، فتغصبوه أهلَهُ غَلَبَةً، ولا تَحُولُوا بينهم وبين ما أهدوا من ذلك أنْ يبلُغوا به المحِلَّ الذي جعله الله جلّ وعزّ مَحِلَّه من كعبته.

وأما قولُه: «وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ»، فإنه يعني: ولا تحلوا أيضاً القلائد.

فإذْ كان ذلك تأويله، فمعلوم أنه نَهْيٌ من الله جَلَّ ذِكْرُهُ عن استحلالِ حرمة المقلَّد، هَدْياً كانَ ذلك أو إنساناً، دونَ حُرْمةِ القلادة، وإنَّ الله عَزَّ ذِكْرُه، إنما دَلَّ بتحريمهِ حرمةَ القلادة، على ما ذكرنا من حرمة المقلَّد، فاجتزأ بذكره «القلائد» من ذكرِ «المقلد»، إذْ كان مفهوماً عند المخاطَبين بذلك معنى ما أريد به.

فمعنى الآية ـ إذْ كان الأمرُ على ما وصفنا ـ: يا أيها الذين آمنوا لا تُحِلُّوا شعائرَ الله، ولا الشهرَ الحرام، ولا الهديَ، ولا المقلَّد نفسَه بقلائد الحرم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا

يعني بقوله عَزَّ ذِكْرُه: «وَلَآ آمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ»، ولا تُحِلُّوا قاصدي البيت الحرام العَامِدِيه.

«والبيت الحرام»، بيت الله الذي بمكة.

«يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ»، يعني: يلتمسون أرباحاً في تجاراتهم من الله.

«وَرِضْوَاناً»، يقول: وأنْ يرضَى الله عنهم بنسكهم.

ثم اختلف أهلُ العلم فيما نسخ من هذه الآية ، بعد إجماعهم على أنَّ منها منسوخاً.

فقال بعضهم: نُسِخَ جميعُها.

وقال آخرون: الذي نسخ من هذه الآية قوله: «وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْيَ وَلَا ٱلْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ».

وقال آخرون: لم يُنسخ من ذلك شيءٌ، إلا القلائد التي كانت في الجاهلية يتقلَّدونها من لِحَاء الشجر.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصحة، قولُ مَنْ قالَ: نسخ الله من هذه الآية قوله: «وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْيَ وَلَا ٱلْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ»، لإجماعِ الجميعِ على أنَّ الله قد أحَلَّ قتالَ أهلِ الشرك في الأشهر الحرم وغيرها من شهور السنة كلها. وكذلك أجمعوا على أن المشركَ لو قَلَّد عُنقه أو ذِراعيه لحاء جميع أشجار الحرم، لم يكن ذلك له أماناً من القتلِ، إذا لم يكن تَقَدَّمَ له عَقْدُ ذمةٍ من المسلمين أو أمان، وقد بيَّنَّا فيما مضى معنى «القلائد» في غير هذا الموضع.

وأما قوله: «وَلَا آمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ»، فإنه محتملٌ ظاهره: ولا تُحِلُّوا حُرْمَةَ آمِّين البيت الحرام من أهل الشرك والإسلام لعمومه، جميعَ مَنْ أَمَّ البيتَ. وإذا احتمل ذلك، فكان أهل الشرك داخلينَ في جملتهم، فلا شك أن قوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾، ناسخٌ له. لأنه غيرُ جائزٍ اجتماع الأمرِ بقتلِهم وتَرْكِ قتلهم في حالٍ واحدة ووقتٍ واحد. وفي إجماعِ الجميعِ على أنَّ حُكْمَ الله في أهل الحرب من المشركين قتلُهم، أمُّوا البيتَ الحرام أو البيتَ المقدس، في الأشهر الحرم وغيرها ما يُعلم أنَّ المنعَ من قتلِهم إذا أمُّوا البيتَ الحرام منسوخٌ ومحتملٌ أيضاً: ولا آمينَ البيت الحرام من أهلِ الشرك.

وأكثر أهل التأويل على ذلك.

وإن كان عُني بذلك المشركون من أهلِ الحربِ، فهو أيضاً لا شَكَّ منسوخ.

وإذْ كان ذلك كذلك وكان لا اختلافَ في ذلك بينهم ظاهر، وكان ما كان مستفيضاً فيهم ظاهراً حجةً، فالواجبُ، وإن احتملَ ذلك معنًى غيرَ الذي قالوا، التسليمُ لما استفاض بصحته نَقْلُهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾

يعني بقوله: «يَبْتَغُونَ»، يطلبون ويلتمسون. و«الفضل» الأرباحُ في التجارة. و«الرضوان»، رِضَى الله عنهم، فلا يُحِلُّ بهم من العقوبةِ في الدنيا ما أحلَّ بغيرِهم من الأممِ في عاجل دنياهم، بحجِّهم بيتَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: وإذا حللتم فاصطادوا الصيدَ الذي نَهَيْتُكم أنْ تُحِلُّوه وأنتم حُرُمٌ. يقول: فلا حرجَ عليكم في اصطيادهِ، واصطادوا إنْ شئتم حينئذٍ، لأن المعنَى الذي من أجله كنتُ حرَّمتُه عليكم في حالِ إحرامكم قد زال.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ»، ولا يحمِلَنَّكُمْ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿شَنَآنُ قَوْمٍ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ: بُغْض قوم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾

(يعني): ولا يَحْمِلَنَّكُمْ بُغْض قَومٍ، لأنْ صَدُّوكم عن المسجدِ الحرام، أيها المؤمنون، أنْ تعتدوا حُكْمَ الله فيهم، فتجاوزُوه إلى ما نَهاكم عنه، ولكن الزمُوا طاعةَ الله فيما أحببتم وكرهتم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾

معنى الكلام: ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شنآنُ قومٍ أنْ صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا، ولكن لِيُعِنْ بعضُكم بعضاً بالأمر بالانتهاءِ إلى ما حَدَّهُ الله لكم في القومِ الذين صَدُّوكم عن المسجدِ الحرام وفي غيرهم، والانتهاء عما نهاكم الله أن تَأتوا فيهم وفي غيرهم، وفي سائر ما نهاكم عنه، ولا يُعِنْ بَعْضُكُمْ بعضاً على خلاف ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٢﴾

وهذا وعيدٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ وتهدُّدٌ لمن اعتدى حَدَّهُ وتجاوز أمره. يقول عَزَّ ذِكْرُه: «وَاتَّقُوا اللهَ»، يعني: واحْذَروا الله، أيها المؤمنون، أنْ تلقوه في معادِكم وقد اعتديتم حَدَّهُ فيما حَدَّ لكم، وخالفتم أمرَهُ فيما أمركم به، أو نهيَهُ فيما نهاكم عنه، فتستوجبوا عقابه، وتستحقوا أليمَ عذابه، ثم وصَفَ عِقابَهُ بالشِّدَّةِ فقال عَزَّ ذِكْرُه: إنَّ الله شديدٌ عقابه لِمَنْ عاقَبَهُ من خَلْقِه، لأنها نارٌ لا

يطفأ حَرُّها، ولا يخمد جمرها، ولا يسكن لهبها، نعوذ بالله منها ومن عَمَلٍ يُقَرِّبُنا منها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: حَرَّم الله عليكم، أيها المؤمنون، الميتةَ.

و«الْمَيْتَةُ»: كُلُّ ما له نَفْسٌ سائلةٌ من دوابِ البَرِّ وطيرهِ، مما أباحَ الله أَكْلَها، أهليَّها ووحشيَّها، فارقتها روحُها بغيرِ تذكية[1].

وأما «الدَّمُ»، فإنه الدمُ المسفوحُ، دونَ ما كان منه غير مسفوحٍ، لأنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ قال: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُه إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، فأما ما كان قد صار في معنى اللحم، كالكَبِدِ والطِّحالِ، وما كانَ في اللحم غير منسفحٍ، فإنَّ ذلك غير حرام، لإجماعِ الجميع على ذلك.

وأما قوله: «وَلَحْمُ ٱلْخِنْزِيرِ»، فإنه يعني: وحُرِّم عليكم لحمُ الخنزير، أهليُّهُ وبَرِّيُّه.

فالميتةُ والدمُ مخرجهما في الظاهر مخرجُ عمومٍ، والمرادُ منهما الخصوصُ. وأما لحم الخنزير، فإنَّ ظاهره كباطنه، وباطنه كظاهره، حرامٌ جميعه، لم يخصص منه شيء.

عنى بقوله: «وَما أُهِلَّ لِغَيْرِ آللهِ بِهِ»، وما ذُبِحَ للآلهةِ وللأوثان، يُسَمَّى عليه غيرُ اسمِ الله.

---

(١) التذكية: الذبح.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱلْمُنْخَنِقَةُ

وهي التي تختنقُ، إمَّا في وثاقها، وإما بإدخالِ رأسَها في الموضع الذي لا تقدر على التخلص منه، فتختنق حتى تموت.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱلْمَوْقُوذَةُ

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وَٱلْمَوْقُوذَةُ»، والميتةُ وقيذاً.

يقال منه: «وقَذَهُ يَقِذُه وقْذاً»، إذا ضَرَبَهُ حتى أشرفَ على الهلاك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: وحُرِّمَتْ عليكم الميتةُ تردِّياً من جبلٍ أو في بئر، أو غير ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱلنَّطِيحَةُ

يعني بقوله: «النَّطِيحَةُ»، الشاةُ التي تنطحها أخرى فتموت من النطاحِ بغيرِ تذكيةٍ. فَحَرَّمَ الله جَلَّ ثناؤُهُ ذلك على المؤمنين، إنْ لم يدركوا ذكاته قبل موته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وَمَا أَكَلَ ٱلسَّبُعُ»، وحرّم عليكم ما أكلَ السبع غير المعَلَّمِ من الصوائد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ»، إلا ما طَهَّرْتُموهُ بالذبح الذي جعله الله طهوراً.

فتأويل الآية: وحرم عليكم ما أُهِلَّ لغيرِ الله به والمنخنقة وكذا وكذا، إلا ما ذَكَّيتم من ذلك.

وإذْ كان الأمرُ على ما وصفنا، فكُلُّ ما أُدْرِكَتْ ذَكاتُه من طائرٍ أو بهيمةٍ قبل خروج نَفَسِه، ومفارقةِ روحه جسدَه، فحلالٌ أكلُه، إذا كان مما أَحَلَّهُ الله لعباده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ»، وحرم عليكم أيضاً الذي ذُبِحَ على النُّصُب.

و«النُّصُب»، الأوثـانُ من الحجـارة، جمـاعة أنصاب كانت تجمع في الموضع من الأرضِ، فكان المشركون يُقَرِّبونَ لها، وليست بأصنام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾

يعني بقوله: «وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِٱلْأَزْلَامِ»، وأنْ تطلبوا عِلْمَ ما قُسم لَكُمْ أو لم يُقْسَمْ، بالأزلام.

وهـو «استفعلت» من «القَسْم» قَسْم الرزقِ والحاجات. وذلك أنَّ أهلَ الجاهلية كان أحدُهم إذا أرادَ سفراً أو غزواً أو نحو ذلك، أَجالَ القِداحَ وهي

«الأزلام» وكانت قِداحاً مكتوباً على بعضِها: «نهاني ربّي»، وعلى بعضها: «أمرني ربّي» فإنْ خرجَ القدحُ الذي هو مكتوبٌ عليه: «أمرني ربي»، مضى لما أرادَ من سفرٍ أو غزوٍ أو تزويجٍ وغير ذلك. وإنْ خرجَ الذي عليه مكتوبٌ: «نهاني ربي»، كَفَّ عن المُضِيِّ لذلك وأمسك، فقيل: «وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِٱلْأَزْلَامِ»، لأنهم بفِعْلِهم ذلك كانوا كأنهم يسألون أزلامَهُم أن يَقْسِمن لهم.

وأما «الأزلام»، فإنَّ واحدها «زَلَم»، ويقال: «زُلَم»، وهي القِداحُ التي وصفنا أمرها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «ذَٰلِكُمْ»، هذه الأمورُ التي ذكرها، وذلك: أكلُ الميتةِ، والدم، ولحم الخنزير، وسائر ما ذكر في هذه الآية مما حرم أكله، والاستقسام بالأزلام، «فِسْقٌ»، يعني: خروجٌ عن أمرِ الله عَزَّ ذِكْرُه وطاعته، إلى ما نهى عنه وزجر، إلى معصيته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ»، الآن انقطعَ طَمَعُ الأحزابِ وأهلِ الكفرِ والجحود، أيها المؤمنون. «مِن دِينِكُمْ»، يقول: من دينكم أنْ تتركُوه فترتدُّوا عنه راجعينَ إلى الشِرْكِ.

فإنْ قال قائلٌ: وأيُّ يوم هذا اليوم الذي أخبرَ الله أنَّ الذين كفروا يئسوا فيه من دِينِ المؤمنين؟

قيل: ذُكِرَ أنَّ ذلك كان يوم عرفة، عام حج النبيّ ﷺ حجة الوداع، وذلك بعد دخولِ العربِ في الإسلام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ

يعني بذلك: فلا تَخْشوا، أيها المؤمنون، هؤلاء الذين قد يَئِسُوا من دِينكم أنْ تَرجعُوا عنه من الكفار، ولا تخافوهم أنْ يَظْهَرُوا عليكم، فيقهروكم ويردُّوكم عن دِينكم. «وَٱخْشَوْنِ»، يقول: ولكن خَافونِ، إنْ أنتم خالفتم أمري واجترأتم على معصيتي، وتَعَدَّيتم حُدودي، أنْ أُحِلَّ بكم عقابي، وأُنْزِلَ بكم عذابي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ

اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك:

فقال بعضهم: يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ»، اليوم أكملتُ لكم، أيها المؤمنون، فرائضي عليكم وحُدودي، وأمْرِي إياكم ونهيي، وحلالي وحرامي، وتنزيلي مِنْ ذلكَ ما أنزلتُ منه في كتابي، وتبياني ما بيَّنتُ لكم منه بوحيي على لِسانِ رسولي، والأدلة التي نصبتُها لكم على جميع ما بكم الحاجة إليه من أمر دينكم، فأتممتُ لكم جميعَ ذلك، فلا زيادةَ فيه بعد هذا اليوم. قالوا: وكان ذلك في يوم عرفة، عام حجَّ النبي ﷺ حجة الوَدَاع. وقالوا: لم ينزل على النبي ﷺ بعد هذه الآية شيءٌ من الفرائض، ولا تحليل شيء ولا تحريمه، وأنَّ النبيَّ ﷺ لم يَعِشْ بعد نزولِ هذه الآية إلَّا إحدى وثمانين ليلة.

وقال آخرون: معنى ذلك: «ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ»، حَجَّكم، فأفردتم بالبلد الحرام تحُجُّونه، أنتم أيها المؤمنون، دونَ المشركين، لا يخالطُكُمْ في حَجِّكم مشرك.

وأَوْلى الأقوال في ذلك بالصواب، أن يقال: إنَّ الله عزَّ وجلَّ أخبر نبيَّه ﷺ والمؤمنين به، أنه أكمل لهم - يوم أنزل هذه الآية على نبيه - دينَهم، بإفرادِهم البلدَ الحرام، وإجلائِه عنه المشركينَ، حتى حَجَّهُ المسلمونَ دونهم لا يخالطهم المشركون.

ولا يَدْفَعُ ذُو عِلْمٍ أنَّ الوحيَ لم ينقطعْ عن رسولِ الله ﷺ إلى أنْ قُبِضَ، بل كان الوحيُ قبلَ وفاتِه أكثر ما كان تتابعاً. فإذْ كان ذلك كذلك وكان قوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ آخرَها نزولاً[1]، وكان ذلك من الأحكامِ والفرائض كان معلوماً أنَّ معنى قوله: «ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ»، على خلافِ الوجه الذي تأوَّله مَنْ تأوَّله أعني: كمالَ العباداتِ والأحكام والفرائض.

فإنْ قال قائلٌ: فما جعل قولَ مَنْ قال: «قد نزل بعد ذلك فرض»، أَوْلى من قولِ مَنْ قال: «لم ينزل»؟

قيل: لأنَّ الذي قال: «لم ينزل»، مخبرٌ أنه لا يعلمُ نزولَ فَرْضٍ، والنفي لا يكون شهادة، والشهادةُ قولُ مَنْ قال: «نزل». وغير جائز دفعُ خبرِ الصادقِ فيما أمكن أن يكون فيه صادقاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بذلك: وأتممتُ نعمتي، أيها المؤمنون، بإظهارِكم على عدوِّي وعدوِّكم من المشركينَ، ونفيي إياهم عن بلادكم، وقطعي طمعهم من

---

(١) حديث البراء بن عازب عن النبي ﷺ الذي ساقه المؤلف (١٠٨٧٠-١٠٨٧٣) وهو في الصحيحين: البخاري (٤٣٦٤) و(٤٦٠٥) و(٤٦٥٤) و(٦٧٤٤)، ومسلم (١٦١٨).

رجوعكم وعَوْدِكم إلى ما كُنْتُمْ عليه من الشرك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: ورضيتُ لكم الاستسلامَ لأمري، والانقيادَ لطاعتي، على ما شرعتُ لكم من حدودهِ وفرائضِه ومعالمه. «دِيناً»، يعني بذلك: طاعة منكم لي.

فإنْ قال قائل: أوَ ما كانَ الله راضياً الإسلامَ لعبادِهِ إلا يوم أنزل هذه الآية؟

قيل: لم يَزَلِ الله راضياً لخلْقِه الإسلامَ ديناً، ولكنه جَلَّ ثناؤُهُ لم يزل يُصَرِّفُ نبيه محمداً ﷺ وأصحابه في درجاتِ الإسلام ومراتبه درجةً بعد درجة، ومرتبةً بعد مرتبة، وحالاً بعد حالٍ، حتى أكملَ لهم شرائعه ومعالمه، وبلغ بهم أقصى درجاته ومراتبه، ثم قال حين أنزل عليهم هذه الآية: «وَرَضِيتُ لَكُمْ ٱلإِسْلَامَ» بالصفة التي هو بها اليوم، والحال التي أنتم عليها اليوم منه. «دِيناً» فالزموه ولا تفارقوه.

ونزلت هذه الآية بعرفة في حجة الوداع على رسول الله ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «فَمَنِ ٱضْطُرَّ»، فَمَنْ أصابَهُ ضُرٌّ. «فِي مَخْمَصَةٍ»، يعني: في مجاعة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍۙ

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: فمن اضْطُرَّ في مَخْمصةٍ إلى أكلِ ما حَرَّمتُ عليه منكم، أيها المؤمنون، من الميتةِ، والدمِ ولحمِ الخنزير وسائر ما حرمتُ عليه بهذه الآية. «غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ»، يقول: لا متجانفاً لإثم.

وأما «المتجانف للإثم»، فإنه المتمايلُ له، المنحرفُ إليه. وهو في هذا الموضع مُرَادٌ به المتعمِّدُ له، القاصدُ إليه، من «جَنَفَ القومُ عليَّ»، إذا مالوا. وكل أعوج فهو «أجنف»، عند العرب.

وأما تجانفُ آكلِ الميتةِ في أكْلِها وفي غيرِها مما حَرَّمَ الله أكْلَهُ على المؤمنينَ بهذه الآية، للإثم في حالِ أكله، فهو: تَعَمُّدُهُ أكلَ ذلك لغيرِ دفعِ الضرورةِ النازلةِ به، ولكن لمعصيةِ الله، وخلافِ أمره فيما أمره به من تركِ أكلِ ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣﴾

وفي هذا الكلام متروك، اكتفى بدلالة ما ذكر عليه منه. وذلك أنَّ معنى الكلام: فمن اضطر في مخمصة إلى ما حرمتُ عليه مما ذكرتُ في هذه الآية، غيرَ متجانفٍ لإثمٍ فأكلَهُ، فإنَّ الله له غفورٌ رحيم فترك ذِكْرَ «فأكله»، وذكر «له»، لدلالةِ سائرِ ما ذكرَ من الكلامِ عليهما.

وأما قوله: «فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ»، فإنَّ معناه: فإنَّ الله لمن أكلَ ما حرمتُ عليه بهذه الآية أكلَهُ، في مخمصةٍ، غيرَ متجانفٍ لإثم. «غَفُورٌ رَّحِيمٌ»، يقول: يسترُ له عن أكلهِ ما أكلَ من ذلك، بعفوه عن مؤاخذتهِ إياه، وصَفْحِه عنه وعن عقوبته عليه. «رَّحِيمٌ»، يقول: وهو به رفيقٌ. ومِنْ رحمتهِ ورِفْقِه به، أباحَ له أكلَ ما أباحَ له أكله من الميتةِ وسائرِ ما ذكر معها في هذه الآية، في حالِ خوفه على نفسه من كَلَبِ الجوع وضُرِّ الحاجةِ العارضةِ ببدنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: يسألك، يا محمدُ، أصحابُكَ: ما الذي أحل لهم أكله من المطاعم والمآكل؟ فَقُلْ لهم: أُحِلَّ لكم منها. «الطَّيِّبَاتُ»، وهي الحلال الذي أذن لكم رَبُّكُمْ في أكلِهِ من الذبائح، وأحل لكم أيضاً مع ذلك، صيدُ ما عَلَّمْتُم من «الجوارح»، وهُنَّ الكَواسب من سباعِ البهائم.

وترك من قوله: «وَمَا عَلَّمْتُم»، «وصَيْدُ» ما عَلَّمتم من الجوارحِ، اكتفاءً بدلالةِ ما ذكر من الكلام على ما تُرِك ذِكْرُه.

وذلك أنَّ القومَ، فيما بَلَغنا، كانوا سألوا رسولَ الله ﷺ حين أمرهم بقتل الكِلاب، عما يحلُّ لهم اتخاذُه منها وصَيْدُه، فأنزل الله عَزَّ ذِكْرُه فيما سألوا عنه من ذلك هذه الآية. فاستثنى مما كان حرّم اتخاذه منها، وأمر بقُنْيَةِ[1] كلابِ الصيد، وكلابِ الماشية، وكلابِ الحَرْثِ، وأَذِنَ لهم باتخاذ ذلك.

وكُلُّ ما صادَ من الطيرِ والسِّباعِ فمن الجوارح، وأنَّ صيدَ جميعِ ذلك حلالٌ إذا صادَ بعد التعليم، لأنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ عَمَّ بقوله: «وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ»، كُلَّ جارحةٍ، ولم يخصص منها شيئاً. فكلُّ «جارحة»، كانت بالصفةِ التي وصفَ الله من كُلِّ طائرٍ وسبع، فحلالٌ أكْلُ صَيدِها.

فإنْ ظَنَّ ظانٌّ أن في قوله: «مُكَلِّبِينَ»، دلالةً على أنَّ الجوارحَ التي ذكرت في قوله: «وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ»، هي الكلابُ خاصة، فقد ظَنَّ غيرَ الصواب.

(١) يعني: اقتناء.

وذلك أنَّ معنى الآية: قُلْ أُحِلَّ لكم، أيها الناسُ، في حالِ مصيرِكُم أصحابَ كلابِ الطيباتُ، وصيدُها ما عَلَّمْتُموه الصيدَ من كواسبِ السباعِ والطير. فقوله: «مُكَلِّبِينَ»، صِفَةٌ للقانص، وإن صاد بغير الكلاب في بعض أحيانه. وهو نظيرُ قولِ القائل يخاطبُ قوماً: أُحِلَّ لَكُمُ الطيباتُ وما علمتم من الجوارح مكلبين مؤمنين. فمعلومٌ أنه إنما عَنَى قائلُ ذلك، إخبارَ القوم أنَّ الله جَلَّ ذِكْرُهُ أحَلَّ لهم، في حالِ كونهم أهلَ إيمان، الطيبات وصيد الجوارح التى أعلَمهم أنه لا يحلُّ لهم منه إلا ما صادوه به. فكذلك قوله: «أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ» لذلك نظيره، في أنَّ التكليبَ للقانصِ بالكلاب كان صيده أو بغيرها، لَا أنه إعلامٌ من الله عَزَّ ذِكْرُه أنه لايحلُّ من الصيد إلا ما صادته الكلاب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: تُعَلِّمُونَهُنَّ»، تؤدِّبون الجوارحَ فتعلمونهن طَلَبَ الصيد لكم. «مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللهُ»، يعني بذلك: من التأديبِ الذي أدَّبكم الله، والعلمِ الذي عَلَّمكم[1].

وأنَّ «التعليم» الذي ذكره الله في هذه الآية للجوارح، إنما هو أنْ يعلِّمَ الرجلُ جارحَهُ الاستشلاء إذا أُشلي على الصيد[2]، وطلبه إياه إذا أُغري، أو إمساكه عليه، إذا أخذه من غير أنْ يأكلَ منه شيئاً، وأنْ لا يفرَّ منه إذا أراده، وأنْ يجيبَهُ إذا دَعَاهُ. فذلك، هو تعليمُ جميع الجوارح، طيرها وبهائمها. فإنْ أكَلَ من الصيدِ جارحةُ صائدٍ. فجارحَتُهُ حينئذٍ غير مُعَلَّمٍ. فإنْ أدرك صيده صاحبُه حياً فَذَكَّاهُ، حَلَّ له أكْلُه. وإنْ أدركه ميتاً، لم يَحِلَّ له أكله، لأنه مما

(١) انظر معاني القرآن للفراء: ١/٣٠٢.

(٢) يعني: أُغري بطلب الصيد.

أكله السَّبعُ الذي حَرَّمَهُ الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾، ولم يدرك ذكاته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾

يعني بقوله: «فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ»، فكلوا، أيها الناسُ، مما أمسَكَتْ عليكُم جوارحُكُم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وَٱذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللهِ عَلَيْهِ»، على ما أمسكتْ عليكم جوارحُكم من الصيد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ: واتقوا الله، أيها الناسُ، فيما أمَرَكُمْ به وفيما نَهَاكم عنه، فاحذروه في ذلك أنْ تُقْدِمُوا على خِلافِه، وأنْ تأكُلوا من صيدِ الجوارح غيرِ المعلَّمةِ، أو مما لم تُمْسِكْ عليكم من صيدها وأمسكته على أنفسها، أو تطعَمُوا ما لم يُسَمَّ الله عليه من الصيدِ والذبائح مما صادَهُ أهلُ الأوثان وعَبَدَةُ الأصنامِ ومَنْ لم يُوَحِّد الله من خَلْقِه، أو ذبحوه، فإنَّ الله قد حرَّم ذلك عليكم فاجتنبوه.

ثم خَوَّفهم إنْ هم فعلوا ما نهاهم عنه من ذلك ومن غيره. فقال: اعلموا أنَّ الله سريعٌ حسابهُ لمن حاسَبَهُ على نِعَمه عليه منكم، وشكرِ الشاكر منكم ربَّهُ على ما أنعمَ به عليه بطاعته إياه فيما أمر ونهى، لأنه حافظٌ لجميع ذلك فيكم، فيحيط به، لا يخفى عليه منه شيء، فيجازي المطيعَ منكم بطاعته، والعاصيَ بمعصيته، وقد بيَّن لكم جزاء الفريقين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَاتُ»، اليوم أُحِلَّ لكم، أيها المؤمنون، الحلالُ من الذبائحِ والمطاعم دونَ الخبائثِ منها.

وقوله: «وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ»، وذبائحُ أهلِ الكتاب من اليهود والنصارى، وهم الذين أُوتُوا التوراةَ والإنجيل وأنزل عليهم، فَدَانُوا بهما أو بأحدهما. «حِلٌّ لَّكُمْ»، يقول: حلالٌ لكم، أكلُه دونَ ذبائحِ سائرِ أهلِ الشرك الذين لا كتابَ لهم من مشركي العرب وَعَبَدَةِ الأوثانِ والأصنام. فإنَّ مَنْ لم يكن منهم مِمَّن أقرَّ بتوحيد الله عَزَّ ذِكْرُه ودانَ دينَ أهلِ الكتابِ، فحرامٌ عليكم ذبائحهم.

ثم اختلف فيمن عَنَى الله عَزَّ ذِكْرُه بقوله: «وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ»، من أهل الكتاب.

فقال بعضُهم: عَنَى الله بذلك ذبيحةَ كلِّ كتابيٍ ممن أنزل عليه التوراة والإنجيل، أو ممن دخل في مِلَّتهم فدان دِينَهم، وحَرَّم ما حَرَّموا، وحَللَّ ما حَلَّلُوا، منهم ومن غيرهم من سائرِ أجناسِ الأمم.

وقال آخرون: إنما عَنَى بالذين أُوتوا الكتاب في هذه الآية، الذين أنزل عليهم التوراةَ والإنجيلَ من بني إسرائيل وأبنائهم، فأما مَنْ كان دخيلاً فيهم من سائر الأمم ممن دانَ بدينهم وهم من غيرِ بني إسرائيل، فلم يُعْنَ بهذه الآية، وليس هو ممن يَحِلُّ أكلُ ذبائحِهِ، لأنه ليس ممن أوتِيَ الكتابَ من قَبْل المسلمين. وهذا قولٌ كان محمدٌ بن إدريس الشافعي يقوله: حدثنا بذلك عنه

الربيع، ويتأولُ في ذلك قولَ مَنْ كره ذبائحَ نصارى العرب من الصحابة والتابعين[١].

قال عليٌّ رضوان الله عليه: لا تأكلوا ذبائحَ نصارى بني تغلب، فإنهم إنما يتمسكون من النصرانية بشرب الخمر[٢].

وهذه الأخبار عن عليٍّ رضوانُ الله عليه، إنما تدل على أنه كان ينهى عن ذبائحِ نصارى بني تغلب، من أجلِ أنهم ليسوا على النصرانيةِ، لتركِهم تحليلَ ما تُحلِّلُ النصارى، وتحريم ما تُحَرِّمُ، غير الخمر. ومَنْ كان منتحلاً مِلَّةً هو غير متمسكٍ منها بشيءٍ، فهو إلى البراءةِ منها أقرب منه إلى اللحاقِ بها وبأهلها. فلذلك نهىَ عليٌّ عن أكلِ ذبائحِ نصارى بني تغلب، لا مِنْ أجلِ أنهم ليسوا من بني إسرائيل.

فإذْ كان ذلك كذلك، وكان إجماعاً من الحُجَّةِ أنْ لا بأسَ بذبيحةِ كُلِّ نصرانيٍّ ويهوديٍّ دانَ دينَ النصرانيِّ أو اليهودي، فأحَلَّ ما أحلُّوا وحَرَّمَ ما حرموا، من بني إسرائيل كان أو من غيرهم، فَبَيِّنٌ خطأُ ما قال الشافعي في ذلك، وتأويله الذي تأوّله في قوله: «وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ»، أنه ذبائح الـذين أوتـوا الكتابَ التوراة والإنجيل من بني إسرائيل، وصوابُ ما خالف تأويله ذلك: وقول مَنْ قال: إنَّ كلَّ يهودي ونصراني فحلالٌ ذبيحتُه، من أيِّ أجناس بني آدم كان.

وأمّا «الطعامُ» الذي قال الله: «وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ»، فإنه الذبائح.

---

(١) راجع الأم للشافعي: ٢/١٩٦.

(٢) ساقـه الـطبري بأسانيد عديدة (١١٢٣٠-١١٢٣٤) ورواه الشافعي في «الأم»: ١٩٦/٢، وساق أثراً عن ابن عباس أيضاً بهذا المعنى (١١٢٣٥).

وأما قوله: «وَطَعَامُكُم حِلٌّ لَّهُمْ»، فإنه يعني: ذبائحكم، أيها المؤمنون، حِلٌّ لأهلِ الكتاب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَاتِ»، أحل لكم، أيها المؤمنون، المحصنات من المؤمنات وهُنَّ الحرائِرُ مِنْهُنَّ أن تنكحوهن «وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ»، يعني: والحرائر من الذين أُعْطوا الكتابَ، وهمْ اليهودُ والنصارى الذين دَانُوا بما في التوراةِ والإنجيلِ من قبلكم، أيها المؤمنون بمحمدٍ ﷺ من العربِ وسائرِ الناس، أنْ تَنْكِحُوهُنَّ أيضاً. «إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجورَهُنَّ»، يعني: إذا أعطيتم مَنْ نكحتم من مُحْصَناتِكم ومحصناتِهم. «أُجورَهُنَّ»، وهي مُهُورهُن.

واختلف أهلُ التأويل في المحصناتِ اللاتي عَناهُنَّ الله عَزَّ ذِكْرُه بقوله: «وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَاتِ وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ».

فقال بعضهم: عَنَى بذلك الحرائرَ خاصة، فاجرةً كانتْ أو عفيفةً. وأجاز قائلو هذه المقالةِ نِكَاح الحرة، مؤمنةً كانتْ أو كتابيةً من اليهود والنصارى، من أيِّ أجناسِ الناسِ كانت، بعد أن تكونَ كتابية، فاجرةً كانت أو عفيفةً. وحَرَّمُوا إماءَ أهلِ الكتاب أن يُتَزَوَّجن بكلِّ حالٍ، لأن الله جَلَّ ثناؤُهُ شرطَ في نكاحِ الإماء الإيمانَ بقوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء: ٢٥].

وقال آخرون: إنما عَنَى الله بقوله: «وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَاتِ وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ»، العفائفَ من الفريقين، إماءً

كُنَّ أو حرائرَ. فأجاز قائلو هذه المقالةِ نكاحَ إماء أهلِ الكتابِ الدائناتِ دِينَهم بهذه الآية، وحَرَّموا البغايا من المؤمناتِ وأهلِ الكتاب.

ثم اختلف أهلُ التأويل في حكم قوله عزَّ ذِكْرُه: «وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ»، أعامٌّ أم خاصٌّ؟

فقال بعضهم: هو عامٌّ في العفائفِ منهن، لأنَّ «المحصنات»، العفائف. وللمسلم أنْ يتزوجَ كُلَّ حُرَّةٍ وأَمَةٍ كتابيةٍ، حربيةً كانتْ أو ذميَّةً.

واعتلُّوا في ذلك بظاهرِ قوله تعالى: «وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ»، وأن المعنيَّ بهن العفائف، كائنةً مَنْ كانت منهن. وهذا قولُ مَنْ قال: عَنَى بـ«المحصنات» في هذا الموضع: العفائف.

وقال آخرون: بل اللواتي عَنَى بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ»، الحرائر منهن، والآيةُ عامة في جميعهن. فنكاح جميع الحرائرِ اليهود والنصارى جائزٌ، حربيّات كُنَّ أو ذميات، من أيِّ أجناسِ اليهود والنصارى كُنَّ. وهذا قولُ جماعةٍ من المتقدمين والمتأخرين.

وقال آخرون منهم: بل عَنَى بذلك نِكاحَ نساء بني إسرائيل الكتابياتِ منهن خاصةً، دونِ سائرِ أجناسِ الأممِ الذين دانوا باليهودية والنصرانية. وذلك قول الشافعي[1] ومَنْ قال بقوله.

وقال آخرون: بل ذلك معنيٌّ به نساءُ أهلِ الكتاب الذين لهم من المسلمين ذِمَّةٌ وعهدٌ. فأما أهلُ الحرب، فإنَّ نساءهم حرام على المسلمين.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك عندنا بالصواب، قولُ مَنْ قال: عَنَى بقوله: «وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ»، حرائرَ المؤمنين وأهلِ

---

(١) الأم: ٥/٦، وسنن البيهقي: ٧/١٧٣.

الكتـاب. لأنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ لم يأذَنْ بنكاحِ الإماء الأحرارِ في الحالِ التي أباحهن لهم، إلا أنْ يَكُنَّ مؤمناتٍ، فقال عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ فَمِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ المُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء: ٢٥]، فلم يُبِحْ منهن إلا المؤمنات. فلو كان مراداً بقوله: «وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَاتِ وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ»، العفائف، لدخل العفائفُ من إمائِهم في الإباحة، وخرج منها غيرُ العفائفِ من حرائرهم وحرائرِ أهلِ الإيمان. وقد أحَلَّ الله لنا حرائرَ المؤمنات، وإنْ كُنَّ قد أتينَ بفاحشةٍ بقوله: ﴿وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ [التوبة: ٢٩].

فنكـاحُ حرائـرِ المسلمين وأهلِ الكتاب حلالٌ للمؤمنين، كُنَّ قد أتينَ بفاحشةٍ أو لم يأتين بفاحشة، ذمية كانتْ أو حربيّةً، بعد أنْ تكون بموضعٍ لا يخافُ الناكحُ فيه على ولده أن يُجْبَرَ على الكفر، بظاهر قولِ الله جَلَّ وعزَّ: «وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَاتِ وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ».

فأما قولُ الذي قال: «عَنَى بذلك نساءَ بني إسرائيل، الكتابيّات منهن خاصـة»[1] فقولٌ لا يوجبُ التشاغل بالبيانِ عنه، لشذوذهِ والخروجِ عما عليه علماءُ الأمة، من تحليلِ نساء جميعِ اليهودِ والنصارى.

وأما قوله: «إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ»، فإنَّ «الأجر»: العِوَض الذي يبذله الزوجُ للمرأة للاستمتاعِ بها، وهو المهر.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍۗ

---

(١) يعني قول الشافعي.

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: أُحِلَّ لكم المحصناتُ من المؤمنات والمحصنات من الذين أُوتوا الكتابَ من قَبْلِكم، وأنتم محصنون غير مسافحين ولا مُتَّخِذي أخدان.

ويعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «مُحْصِنِينَ»، أعِفَّاء. «غَيْرَ مُسَافِحِينَ»، يعني: لا معالنينَ بالسِّفاحِ بكُلِّ فاجرةٍ، وهو الفجور. «وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ»، يقول: ولا منفردينَ ببغيَّةٍ واحدةٍ، قد خَادَنَها وخَادَنَتْهُ، واتخذها لنفسه صديقةً يفجرُ بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «وَمَن يَكْفُرْ بِٱلإِيمَانِ» ومَنْ يجحد ما أمَرَ الله بالتصديقِ به، من توحيدِ الله ونبوّةِ محمدٍ ﷺ وما جاء به من عند الله، وهو «الإيمان»، الذي قال الله جَلَّ ثناؤُهُ: «وَمَن يَكْفُرْ بِٱلإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ»، يقول: فقد بَطلَ ثوابُ عمله الذي كان يعمله في الدنيا، يرجو أن يُدْرِكَ به منزلةً عند الله. «وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ»، يقول: وهو في الآخرة من الهالكين، الذين غَبَنوا أَنْفُسَهم حظوظَها من ثوابِ الله بكفرِهم بمحمدٍ ﷺ، وعملِهم بغير طاعةِ الله.

وقد ذكر أن قوله: «وَمَن يَكْفُرْ بِٱلإِيمَانِ»، عَنَى به أهلَ الكتاب، وأنه أنزل على رسول الله ﷺ من أجلِ قوم تَحَرَّجُوا نِكاحَ نساءِ أهل الكتاب لما قيل لهم: «أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُم حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَاتِ وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ».

قيل: وجه تأويله ذلك كذلك، أنَّ «الإيمانَ» هو التصديقُ بالله وبرسله

وما ابتغاهم به من دِينه. و«الكفرَ» جحودُ ذلك. قالوا: فمعنى «الكفر بالإيمان»، هو جحود الله وجحوده توحيده. فَفَسَّرُوا معنى الكلمةِ بما أُرِيدَ بها، وأعرضوا عن تفسيرِ الكلمةِ على حقيقةِ ألفاظها وظاهرها في التلاوة.

فإنْ قال قائل: فما تأويلها على ظاهرها وحقيقة ألفاظها؟

قيل: تأويلها: ومَنْ يأبَ الإيمانَ بالله، ويمتنع من توحيدهِ والطاعةِ له فيما أمَرَهُ به ونَهاهُ عنه. فقد حَبِطَ عَملهُ. وذلك أن «الكُفْرَ» هو الجحودُ في كلام العربِ، و«الإيمان» التصديق والإقرار. ومَنْ أبى التصديقَ بتوحيدِ الله والإقرارَ به، فهو من الكافرينَ. فلذلك تأويلُ الكلام على وجهه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: يا أيها الذين آمنوا، إذا قُمْتُمْ إلى الصلاةِ، وأنتم على غيرِ طهرِ الصلاةِ، فاغسلُوا وجوهَكُمْ بالماءِ وأيديكم إلى المرافق.

ثم اختلف أهلُ التأويل في قوله: «إِذَا قُمْتُمْ إِلَىٰ ٱلصَّلَاةِ»، أمرادٌ به كُلَّ حالٍ قامَ إليها، أو بعضها؟ وأيّ أحوالِ القيام إليها؟

فقال بعضهم في ذلكِ بنحوِ ما قُلْنَا فيه، من أنه مَعْنيٌّ به بعضُ أحوالِ القيام إليها دونَ كُلِّ الأحوال، وأنّ الحالَ التي عُني بها، حالُ القيامِ إليها على غير طُهْر.

وقال آخرون: معنى: ذلك: يا أَيُّها الذينَ آمنوا إذا قمتم من نومِكم إلى الصلاة.

وقال آخرون: بل ذلكَ معنيٌّ به كل حال قيامِ المرءِ إلى صلاته، أنْ يجدِّد لها طُهْراً.

وقال آخرون: بل كان هذا أمراً من الله عَزَّ ذِكْرُه نبيَّهُ ﷺ والمؤمنينَ به: أنْ يتوضّأ لِكُلِّ صلاةٍ، ثم نُسخ ذلك بالتخفيف.

وأَوْلى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب، قولُ مَنْ قال: إن الله عَنَى بقوله: «إِذَا قُمْتُمْ إِلَىٰ ٱلصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا»، جميعَ أحوالِ قيامِ القائمِ إلى الصلاة، غير أنه أمرُ فرضٍ بغسل ما أمرَ الله بغسلهِ القائمَ إلى صلاته، بعد حَدَثٍ كانَ منه ناقضٍ طهارتَهُ، وقبل إحداثِ الوضوءِ منه ـ وأمرُ نَدْبٍ لمن كان على طُهْرٍ قد تَقَدَّمَ منه، ولم يكن منه بعده حَدَثٌ ينقضُ طهارته. ولذلك كان عليه السلام يتوضأ لكل صلاةٍ قبل فتحِ مكة، ثم صلَّى يومئذ الصلوات كلها بوضوء واحد، ليعلم أمّتَهُ أنَّ ما كان يفعل عليه السلام من تجديدِ الطهر لكلِّ صلاةٍ، إنما كان منه أخذاً بالفضل، وإيثاراً منه لأحَبِّ الأمرين إلى الله، ومسارعةً منه إلى ما ندبه إليه ربّه ـ لا على أنَّ ذلك كان عليه فرضاً واجباً.

فإنْ ظَنَّ ظانٌّ أن في الحديث الذي ذكرناه عن عبدالله بن حنظلة أن النبيَّ ﷺ أمر بالوضوء عند كل صلاة[1]، دلالةً على خلافِ ما قلنا منْ أنَّ ذلك كان ندباً للنبيِّ عليه السلام وأصحابه ـ وخُيِّلَ إليه أنَّ ذلك كان على الوجوب ـ فقد ظَنَّ غيرَ الصواب.

وذلك أنَّ قولَ القائلِ: «أمرَ الله نبيه ﷺ بكذا وكذا»، محتملٌ من وجوهٍ لأمرِ الإيجابِ، والإرشادِ والندبِ، والإباحةِ، والإطلاق. وإذ كان محتملاً ما ذكرنا من الأوجه، كان أولى وجوهه به ما على صحته الحجةُ مُجْمعةٌ، دونَ ما

---

(١) أخرجه الطبري (١١٣٢٨) و(١١٣٢٩)، وهو عند أبي داود (٤٨)، وصحح ابن كثير إسناده في تفسيره (٣/٨٣). وانظر فتح الباري: ١/٢٣٢.

لم يكن على صحته برهانٌ يوجب حقيقة مدَّعيه[١]. وقد أجمعت الحُجَّةُ على أنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يوجب على نبيه ﷺ ولا على عباده، فرضَ الوضوء لكلِّ صلاةٍ، ثم نسخ ذلك. ففي إجماعها على ذلك، الدلالةُ الواضحةُ على صِحَّةِ ما قلنا: مِنْ أنَّ فِعْلَ النبيِّ ﷺ ما كان يفعل من ذلك، كان على ما وصَفْنَا، من إيثارهِ فِعْلَ ما نَدَبَهُ الله عَزَّ ذِكْرُه إلى فِعْلِهِ وندبَ إليه عبادَهُ المؤمنين بقوله: «يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق» الآية، وأنَّ تَرْكَهُ في ذلك الحال الذي تركه، كان ترخيصاً لأمته، وإعلاماً منه لهم أنَّ ذلك غير واجبٍ ولا لازمٍ له ولا لهم، إلاّ من حَدَثٍ يوجب نقضَ الطُّهْرِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾

اختلف أهلُ التأويل في حَدِّ «الوجه» الذي أمر الله بغسله القائمَ إلى الصلاةِ بقوله: «إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم».

فقال بعضهم: هو ما ظهر من بَشَرةِ الإنسان، من قُصَاص شعر رأسه[٢]، منحدراً إلى مُنْقَطعِ ذَقَنه طولاً، وما بين الأذنين عرضاً. قالوا: فأمَّا الأذنُ وما بطن من داخلِ الفم والأنفِ والعينِ، فليس من الوجه. وغير واجب غسلُ ذلك ولا غسل شيءٍ منه في الوضوء. قالوا: وأما ما غطاه الشعر منه، كالذقن الذي غطاه شعر اللحية، والصُّدغين اللذين قد غطاهما عِذَار اللحية[٣]، فإنَّ إمرارَ الماء على ما علا ذلك من الشعر، مجزِىءٌ من غسل ما بطن منه من بشرة

---

(١) يعني: حق مُدَّعيه، والطبري يستعمل حقيقة بمعنى حق.

(٢) قصاص الشعر: نهاية منبته من مقدم الرأس.

(٣) عذار اللحية: جانبا اللحية.

الوجه، لأنَّ «الوجه» عندهم: هو ما عَنَّ لعينِ الناظرِ مَن ذلك فقابلها، دونَ غيره.

وقال آخرون: «الوجه»، كُلُّ ما دونَ منابتِ شعرِ الرأسِ إلى منقطع الذَّقَن طولاً، ومن الأذن إلى الأذن عرضاً، ما ظهر من ذلك لعينِ الناظرِ وما بَطَن منه من منابتِ شعرِ اللحية النابتِ على الذَّقَن وعلى العارضين، وما كان منه داخل الفم والأنف، وما أقبل من الأذنين على الوجه. كل ذلك عندهم من «الوجه» الذي أمر الله بغسله بقوله: «فاغسلوا وجوهكم». وقالوا: إن ترك شيئاً من ذلك المتوضِّئ فلم يغسله، لم تُجْزِه صلاتُه بوضوئِه ذلك.

وأوْلى الأقوالِ بالصوابِ في ذلك عندنا، قولُ من قال: «الوجه» الذي أمر الله جَلَّ ذِكْرُهُ بغسله القائمَ إلى صلاته: كُلُّ ما انحدرَ عن منابتِ شَعَر الرأسِ إلى مُنقطع الذَّقَن طولاً، وما بين الأذنين عرضاً، مما هو ظاهرٌ لعينِ النـاظـر، دونَ ما بطن من الفم والأنف والعين، ودون ما غَطَّاهُ شعـرُ اللحيةِ والعارضين والشاربين فستره عن أبصارِ الناظرين، ودونَ الأُذنين.

وإنما قلنا ذلك أوْلى بالصواب ـ وإنْ كان ما تحت شعر اللحية والشاربين قد كان «وجهاً» يجب غسلهُ قبل نباتِ الشعرِ الساتر عن أعين الناظرين، على القائم إلى صلاته ـ لإجماعِ جميعِهم على أنَّ العينين من الوجه، ثم هم ـ مع إجماعهم على ذلك ـ مُجْمِعُونَ على أنَّ غسلَ ما عَلاَهما من أجفانهما دون إيصالِ الماء إلى ما تحت الأجفان منهما، مُجْزِئٌ.

فإذْ كان ذلك منهم إجماعاً بتوقيفِ الرسولِ ﷺ أُمَّتَهُ على ذلك، فنظير ذلك كل ما عَلاَهُ شيءٌ من مواضعِ الوضوءِ من جَسَدِ ابن آدمَ من نفس خَلْقِه ساتِرَه، لا يصلُ الماء إليه إلا بكُلْفةٍ ومؤونةٍ وعلاجٍ، قياساً لما ذكرنا من حكم العينين في ذلك.

فإذا كان ذلك كذلك، فلا شك أنَّ مِثْلَ العينين في مؤونة إيصالِ الماء إليهما عند الوضوء، ما بَطَنَ من الأنفِ والفم وشَعَر اللحيةِ والصدغين والشاربين، لأنَّ كُلَّ ذلك لا يصلُ الماءُ إليه إلا بعلاجٍ لإيصالِ الماء إليه، نحو كلفة علاج الحدقتين لإيصالِ الماء إليهما أو أشدّ.

وإذا كان ذلك كذلك، كان بَيِّناً أنَّ غسلَ مَنْ غسل من الصحابة والتابعين ما تحتَ منابتِ شعرِ اللحية والعارضين والشاربين، وما بطن من الأنف والفم، إنما كان إيثاراً منه لأشَقِّ الأمْرَيْنِ عليه: من غسل ذلك، وترك غسله، كما آثر ابنُ عمر غسلَ ما تحت أجفانِ العينين بالماء بصبِّه الماء في ذلك ـ لا على أنَّ ذلك كان عليه عنده فرضاً واجباً.

فأما مَنْ ظَنَّ أنَّ ذلك من فِعْلِهم كان على وجه الإيجابِ والفرض، فإنه خالف في ذلك بقوله منهاجَهم، وأغفل سبيلَ القياس، لأنَّ القياسَ هو ما وصفنا من تمثيل المختلف فيه من ذلك، بالأصلِ المُجْمَعِ عليه من حكم العينين، وأنْ لا خبرَ عن واحدٍ من أصحاب رسولِ الله ﷺ أوجب على تاركِ إيصالِ الماء في وضوئه إلى أصولِ شعرِ لحيته وعارضيه، وتارك المضمضة والاستنشاق، إعادةَ صلاته إذا صَلَّى بطهره ذلك. ففي ذلك أوضحُ الدليلِ على صحة ما قلنا من أنَّ فِعْلَهم ما فعلوا من ذلك، كان إيثاراً منهم لأفضل الفعلين، من الترك والغسل.

فإنْ ظَنَّ ظانٌّ أنَّ في الأخبار التي رُويت عن رسولِ الله ﷺ أنه قال: «إذا توضأ أحدكم فليستنثر»[1]، دليلاً على وجوب الاستنثار: فإنَّ في إجماعِ الحُجَّة على أنَّ ذلك غيرُ فرض واجب، يجب على مَنْ تَرَكَهُ إعادة الصلاةِ التي

---

(١) هكذا رواه الطبري معلقاً، وهو قطعة من حديث أبي هريرة عند البخاري (١٦١) و(١٦٢)، ومسلم (٢٣٧) و(٢٣٨).

صَلَّاها قَبْلَ غسله، ما يُغْني عن إكثارِ القولِ فيه[١].

وأما الأذنان، فإنَّ في إجماع جميعهم على أنَّ تَرْكَ غسلهما، أو غسلَ ما أقبل منهما مع الوجه، غير مُفْسِدٍ صلاةَ مَنْ صَلَّى بطهرهِ الذي ترك فيه غسلهما ـ مع إجماعهم جميعاً على أنه لو ترك غسلَ شيءٍ مما يجب عليه غسله من وجهه في وضوئه، أنَّ صلاته لا تجزئه بطهوره ذلك ـ ما يُنبىءُ عن أنهما ليسا من الوجه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ

اختلف أهلُ التأويل في «المرافق»، هل هي من اليدِ الواجبِ غسلها، أم لا؟ بعد إجماع جميعهم على أنَّ غسلَ اليدِ إليها واجب.

فقال مالك بن أنس ـ وسئل عن قولِ الله: «فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق»، أترى أن يخلف المرفقين في الوضوء؟ ـ قال: الذي أمر به أن يُبْلغ «المرفقين»، قال تبارك وتعالى: «فاغسلوا وجوهكم»، فذهب هذا يغسل خلفه!!![٢]. فقيل له: فإنما يغسل إلى المرفقين والكعبين لا يجاوزهما؟ فقال: لا أدري «ما لايجاوزهما»، أما الذي أمر به أن يبلغ به فهذا: إلى المرفقين والكعبين.

وقال الشافعي: «لم أعلمْ مخالفاً في أنَّ المرافق فيما يغسل»، كأنه يذهب إلى أن معناها: فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى أن تُغْسَل المرافق.

وقال آخرون: إنما أوجب الله بقوله: «وأيديكم إلى المرافق»، غسلَ اليدين إلى المرفقين، فالمرفقان غايةٌ لما أوجبَ الله غسلَهُ من آخرِ اليدِ، والغايةُ

---

(١) وانظر فتح الباري (١/٢٦٢) ففيه تفصيل.

(٢) يعني: قفاه!

غيرُ داخلةٍ في الحدِّ، كما غير داخل الليلُ فيما أوجبَ الله تعالى على عبادِه من الصوم بقوله: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة:١٨٧]. لأنَّ الليلَ غايةٌ لصومِ الصائم، إذا بلغه فقد قضى ما عليه. قالوا: فكذلك المرافق في قوله: «فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق»، غاية لما أوجبَ الله غسلَهُ من اليد. وهذا قول زُفَر بن الهذيل[١].

والصوابُ من القول في ذلك عندنا: أنَّ غسلَ اليدين إلى المرفقين من الفرضِ الذي إنْ تركه أو شيئاً منه تاركٌ، لم تجزه الصلاة مع تركه غسلَهُ. فأما المرفقان وما وراءهما، فإنَّ غسل ذلك من الندب الذي نَدَبَ إليه ﷺ أمته بقوله: «أمتي الغرُّ المحجلون من آثار الوضوء، فمن استطاع منكم أن يُطيل غُرَّته فليفعل»[٢].

فلا تفسد صلاة تاركِ غسلِهما وغسل ما وراءهما، لما قد بيَّنا قَبْلُ فيما مضى: مِنْ أنَّ كُلَّ غايةٍ حُدَّتْ بـ«إلى»، فقد تحتمل في كلامِ العرب دخول الغاية في الحدِّ وخروجها منه. وإذا احتمل الكلام ذلك، لم يجز لأحدٍ القضاء بأنها داخلة فيه، إلا لمن لا يجوز خلافه فيما بيَّن وحكَم ـ ولا حُكمَ بأنَّ المرافقَ داخلةٌ فيما يجب غسله عندنا ـ ممن يجبُ التسليمُ بحكمه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ

اختلف أهلُ التأويل في صفة «المسح» الذي أمر الله به بقوله: «وَٱمْسَحُوا بِرُؤوسِكُمْ».

---

(١) زفر بن الهذيل العنبري، الفقيه المشهور من أجلاء أصحاب أبي حنيفة.

(٢) ذكره المؤلف معلقاً، وهو في الصحيحين: البخاري (١٣٦)، ومسلم (٢٤٦) من حديث أبي هريرة.

فقال بعضهم: وامسَحُوا بما بَدَا لكم أنْ تمسحوا به من رؤوسكم بالماء، إذا قمتم إلى الصلاة.

وقال آخرون: معنى ذلك: فامسحوا بجميعِ رؤوسكم. قالوا: إنْ لم يمسح بجميعِ رأسهِ بالماء، لم تجزه الصلاةُ بوضوئهِ ذلك.

وقال آخرون: لايجزئ مسح الرأسِ بأقلَّ من ثلاثِ أصابع. وهذا قولُ أبي حنيفة، وأبي يوسف، ومحمد.

والصوابُ من القول في ذلك عندنا، أنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ أمرَ بالمسح برأسه القائمَ إلى صلاته، مع سائر ما أمره بغسلهِ معه أو مسحهِ، ولم يحدَّ ذلك بحدٍّ لا يجوزُ التقصيرُ عنه ولا يجاوزه. وإذْ كان ذلك كذلك، فما مسح به المتوضىءُ من رأسه فاستحقَّ بمسحهِ ذلك أنْ يقال: «مسح برأسه»، فقد أدَّى ما فرض الله عليه من مسحِ ذلك، لدخولهِ فيما لزمه اسم «ماسحٍ برأسه» إذا قام إلى صلاته.

فإنْ قال لنـا قائل: فإنَّ الله قد قال في التيمم: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ [النساء: ٤٣]، أفيجزىءُ المسحُ ببعضِ الوجهِ واليدين في التيمم؟

قيل له: كلّ ما مسح من ذلك بالتراب، فيما تنازعت فيه العلماء ـ فقال بعضهم: «يجزيه ذلك من التيمم»، وقال بعضهم: «لايجزيه» ـ فهو مُجْزِئه، لدخوله في اسم «الماسحين به».

ومـا كان من ذلك مُجْمَعاً على أنه غير مُجْزِئه، فمسلَّمٌ لِمَا جاءت به الحجةُ نقلاً عن نبيِّها ﷺ. ولا حجةَ لأحدٍ علينا في ذلك، إذ كان من قولنا: إنَّ ما جاء في آي الكتـاب عامّـاً في معنىً، فالواجبُ من الحُكْمِ أنه على عُمومهِ، حتى يَخُصَّهُ ما يجبُ التسليمُ له. فإذا خُصَّ منه شيءٌ كان ما خُصَّ منه خارجاً من ظاهرهِ وحُكْم سائرهِ على العموم.

المائدة: ٦

و«الـرأس» الـذي أمـر الله جلّ وعـزّ بالمسـح به بقـولـه: «وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ»، هو منابتُ شعرِ الرأس، دونَ ما جاوزَ ذلك إلى القفا ممَّا استدبر، ودونَ ما انحدر عن ذلك مما استقبلَ من قبلِ وجه إلى الجبهةِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ

اختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك:

فقـرأهُ جمـاعةٌ من قَرَأَةِ الحجازِ والعراق: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾، نصباً، فتأويله: إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديَكم إلى المرافق وأرجلَكم إلى الكعبين، وامسحوا برؤوسكم. وإذا قرئَ كذلك، كان من المُؤَخَّرِ الـذي معناه التقديمُ، وتكون «الأرجل» منصوبة عطفاً على «الأيدي». وتأوَّلَ قارِئُو ذلك كذلك، أنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ: إنما أمر عباده بغسلِ الأرجل دونَ المسح بها.

وقـرأ ذلـك آخـرون من قَرَأَةِ الحجـاز والعـراق: ﴿فَـامْسَحُـوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ﴾، بخفضِ «الأرجل». وتأول قارئو ذلك كذلك: أنَّ الله إنما أمرَ عبـادَهُ بمسح الأرجل في الوضوء دونَ غَسْلِها، وجعلوا «الأرجلَ» عطفاً على «الرأسِ»، فخفضوها لذلك.

والصواب من القول عندنا في ذلك. أنَّ الله عَزَّ ذِكْرُه أمر بعمومِ مسحِ الرجلين بالماء في الوضوء، كما أمر بعمومِ مسح الوجه بالتراب في التيمم. وإذا فعـل ذلـك بهمـا المتـوضئ، كان مستحقًّا اسم «ماسحٍ غاسلٍ»، لأنَّ «غسلهما»، إمرارُ الماء عليهما أو إصابتهما بالماء، و«مسحهما»، إمرارُ اليدِ أو ما قامَ مقامَ اليدِ عليهما. فإذا فعل ذلك بهما فاعلٌ فهو «غاسلٌ ماسح».

ولـذلـك ـ من احتمـال «المسح» المعنيين اللذين وصفتُ من العمومِ

والخصوص، اللذين أحدهما مسح ببعض، والآخر مسح بالجميع - اختلفت قراءةُ القَرَأَةِ في قوله: «وأرجلكم»، فَنَصَبها بعضُهم، توجيهاً منه ذلك إلى أنَّ الفرضَ فيهما الغسلُ، وإنكاراً منه المسحَ عليهما، مع تظاهرِ الأخبارِ عن رسولِ الله ﷺ بعمومِ مسحهما بالماء. وخفضها بعضهم، توجيهاً منه ذلك إلى أنَّ الفرضَ فيهما المسحُ.

ولما قلنا في تأويل ذلك - إنه معنيٌّ بِهِ عموم مسحِ الرجلين بالماء - كَرِهَ مَنْ كره للمتوضىءَ الاجتزاءَ بإدخالِ رجليه في الماء دونَ مَسْحِهما بيدِهِ أو بما قامَ مقامَ اليد، توجيهاً منه قوله: «وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين»، إلى مسح جميعهما عامًّا باليد، أو بما قامَ مقامَ اليدِ، دونَ بعضهما، مع غسلهما بالماء.

فإذا كان «المسحَ» المَعْنَيان اللذان وصفنا: من عمومِ الرجلينِ بالماء، وخصوص بعضهما به، وكان صحيحاً، أنَّ مُرادَ الله من مسحهما العمومُ، وكان لعمومهما بذلك معنى «الغسل» و«المسح»، فبيِّنٌ صوابُ قَرَأَةِ القراءتين جميعاً، أعني النصبَ في «الأرجل» والخفض. لأنَّ في عموم الرجلين بمَسحهما بالماء غسلُهما، وفي إمرارِ اليد وما قام مقامَ اليدِ عليهما مسحُهما.

فوجهُ صواب قراءة مَنْ قرأ ذلك نصباً، لما في ذلك من معنى عمومها بإمرارِ الماء عليهما.

ووجهُ صواب قراءةِ مَنْ قرأه خفضاً، لما في ذلك من إمرارِ اليد عليهما، أو ما قام مقام اليد، مسحاً بهما.

غير أنَّ ذلكَ وإنْ كان كذلك، وكانت القراءتان كلتاهما حسناً صواباً، فأعجبُ القراءتين إليَّ أنْ أقرأها، قراءة مَنْ قرأ ذلك خفضاً، لما وصفتُ من جمع «المسح» المَعْنَيين اللذين وصفتُ، ولأنه بعد قوله: «وامسحوا

برؤوسكم»، فالعطفُ به على «الرؤوس» مع قُرْبِه منه، أَوْلى من العطفِ به على «الأيدي»، وقد حِيْلَ بينه وبينها بقوله: «وامسحوا برؤوسكم».

فإنْ قال قائل: وما الدليلُ على أنَّ المرادَ بالمسح في الرجلين العموم، دونَ أن يكون خصوصاً، نظيرَ قولك في المسح بالرأس؟

قيل: الدليلُ على ذلك، تظاهرُ الأخبارِ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ويل للأعقابِ وبُطونِ الأقدامِ من النار»[1]. ولو كان مسحُ بعضِ القدمِ مجزئاً من عمومها بذلك، لما كان لها الويلُ بتركِ ما تُرك مَسْحُهُ منها بالماء بعد أنْ يُمسحَ بعضُها، لأنَّ مَنْ أدَّى فَرْضَ الله عليه فيما لزمه غُسْلُه منها، لم يستحق الويلَ، بل يجب أنْ يكونَ له الثوابُ الجزيل. وفي وجوب الويل لعَقِب تارك غسل عَقِبه في وضوئه، أوضحُ الدليلِ على وجوب فرض العمومِ بمسح جميعِ القدم بالماء، وصحةِ ما قلنا في ذلك، وفسادِ ما خالفه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾

واختلف أهلُ التأويل في «الكعب»:

والصوابُ من القول في ذلك، أنَّ «الكعبين»، هما العظمان اللذان في مفصل الساق والقدم، تُسَمِّيهما العربُ «المِنْجَمين». وكان بعضُ أهلِ العلم بكلام العرب يقول: هما عظما الساق في طرفها.

---

(١) ساقه المؤلف من حديث أبي هريرة (١١٤٩٧-١١٥٠٤)، وعائشة (١١٥٠٥-١١٥١٠)، وجابر بن عبدالله الأنصاري (١١٥١١-١١٥١٨)، وعبدالله بن عمرو بن العاص (١١٥٢٠-١١٥٢٤)، وأبي أُمامة (١١٥٢٥). وهو في الصحيحين من حديث أبي هريرة: البخاري: (١٦٥)، ومسلم (٢٤٢)، ومن حديث عبدالله بن عمرو بن العاص: البخاري (١٦٣)، ومسلم (٢٤١). وأخرجه مسلم (٢٤٠) من حديث عائشة.

واختلف أهلُ العلم في وجوبِ غسلهما في الوضوء، وفي الحدِّ الذي ينبغي أن يبلغ بالغسـل إليه من الـرجلين، نحو اختلافِهم في وجوبِ غسلِ المرفقين، وفي الحدِّ الذي ينبغي أن يبلغ بالغسل إليه من اليدين. وقد ذكرنا ذلك، ودَلَّلْنا على الصحيحِ من القولِ فيه بعلله فيما مضى قبل، بما أغنى عن إعادته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «وإنْ كنتم جنباً»، وإن كنتم أصابتكم جنابةٌ قبلَ أنْ تقومُوا إلى صلاتِكم فقمتم إليها. «فاطَّهَّروا»، يقول: فَتَطَهَّرُوا بالاغتسالِ منها قبل دخولِكم في صلاتِكم التي قمتم إليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: وإنْ كنتم جَرْحَى أو مُجَدَّرين، وأنتم جنب.

وأما قوله: «أو على سَفَرٍ»، فإنه يقول: وإنْ كنتم مسافرين وأنتم جنب. «أو جاء أحدٌ منكم من الغائط»، يقول: أو جاء أحدكم من الغائطِ وقد قَضَى حاجَتَـهُ فيه وهو مسافر. وإنما عَنَى بذكر مجيئهِ منه، قضاء حاجته فيه. «أو لامستم النساء»، يقول أو جامعتم النساء وأنتم مسافرون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَآءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً»، فإنْ لم تجدوا أيها المؤمنون، إذا قمتم إلى الصلاةِ وأنتم مَرْضَى مقيمونَ، أو على سفرٍ أصحَّاء، أو قد جاء أحدٌ منكم من قضاءِ حاجته، أو جامَعَ أهلَهُ في سفرهِ. «مـاء فتيمموا صعيداً طيباً»، يقول: فَتَعَمَّدُوا واقصدوا وجهَ الأرض. «طيباً»، يعني: طاهراً نظيفاً غير قذرٍ ولا نجسٍ، جائزاً لكم حلالاً. «فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منـه»، يقـول: فاضـربوا بأيديكم الصعيدَ الذي تَيَمَّمْتُموه وتَعَمَّدْتُموه بأيديكم، فامسحُوا بوجوهكم وأيديكم مما عَلِقَ بأيديكم. «منه»، يعني: من الصعيدِ الذي ضربتموه بأيديكم، من تُرابهِ وغباره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «ما يريدُ الله ليجعل عليكم من حرج»، ما يريدُ الله بما فَرَضَ عليكم من الوضوءِ إذا قمتم إلى صلاتكم، والغُسل من جنابتكم، والتيمم صَعيداً طيباً عند عدمكم الماء. «ليجعلَ عليكم من حَرَجٍ»، ليلزمكم في دينكم من ضِيقٍ ولا ليعنتَكُمْ فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾

يعني جَلَّ ثنـاؤُهُ بقـولـه: «ولكن يريد ليطهـركم»، ولكن الله يريد أن يطهِّركم، بما فَرَضَ عليكم من الوضوء من الأحداث، والغسلِ من الجنابة، والتيمم عند عدم الماء، فَتَنَظَّفُوا وتطهَّرُوا بذلك أجسامكم من الذنوب.

وقوله: «وليتم نِعْمَتَهُ عليكم»، فإنه يقول: ويريدُ رَبُّكم مع تطهيركم من ذنوبكم بطاعتِكم إياهُ فيما فَرَضَ عليكم من الوضوءِ والغسل إذا قمتم إلى الصلاة، بالماء إنْ وجدتموه، وتَيَمُّمكُم إذا لم تَجِدُوه أنْ يُتِمَّ نعمتهُ عليكم بإباحتِهِ لكم التيممَ، وتَصْيِيرهُ لكم الصعيدَ الطيبَ طهوراً، رخصةً منه لكم في ذلك، مع سائر نِعَمه التي أنعم بها عليكم، أيها المؤمنون. «لَعَلَّكُمْ تشكرون»، يقول: لكي تشكروا الله على نِعَمِه التي أنعمها عليكم، بطاعتِكم إياه فيما أمركم ونهاكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بذلك: واذكروا نعمةَ الله عليكم، أيها المؤمنون، بالعقودِ التي عقدتموها لله على أنفسكم، واذكروا نعمته عليكم في ذلك بأنْ هَدَاكُم من العقودِ لما فيه الرِّضَى، ووفَّقَكُمْ لما فيه نَجاتُكم من الضلالةِ والرَّدَى، في نِعمٍ غيرها جَمَّة.

وأما قوله: «وميثاقه الذي واثَقَكُمْ به»، فإنه يعني: واذكروا أيضاً، أيها المؤمنون في نعم الله التي أنعم عليكم. «ميثاقه الذي واثقكم به»، وهو عهدُه الذي عاهدكم به.

وأما قوله: «واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور»، فإنه وعيدٌ من الله جَلَّ اسمه للمؤمنين كانوا برسولِهِ ﷺ من أصحابه، وتَهَدُّداً لهم أنْ ينقضوا ميثاقَ الله الذي واثقهم به في رسوله[1]، وعهدهم الذي عاهدوه فيه ـ بأن يضمروا له

(١) قوله: «بأن يضمروا...» متعلق «أن ينقضوا ميثاق الله...» بأن يضمروا.

خِلَافَ ما أبدوا له بألسنتهم.

يقول لهم جَلَّ ثناؤُهُ: واتقو الله، أيها المؤمنون، فخافوهُ أنْ تُبَدِّلُوا عهدَهُ وتنقضـوا ميثـاقَهُ الذي واثقكم به، أو تخالفوا ما ضَمِنْتُمْ له بقولكم: «سمعنا وأطعنا»، بأنْ تُضْمِرُوا له غيرَ الوفاءِ بذلك في أنفسكم، فإنَّ الله مُطَّلِعٌ على ضمائرِ صدوركم، وعالِمٌ بما تُخْفِيه نفوسُكم، لا يَخْفى عليه شيءٌ من ذلك، فيُحِل بكم من عقوبته ما لا قِبَلَ لكم به، كالذي حَلَّ بمن قبلكم من اليهودِ من المَسْخِ وصنوفِ النِّقم، وتصيروا في معادِكم إلى سخطِ الله وأليمِ عقابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ﴾

يعني بذلـك جَلَّ ثنـاؤُهُ: يا أيها الذين آمنوا بالله وبرسوله محمد ﷺ، لِيَكُنْ من أخلاقِكم وصفاتكم القيامُ لله شهداء بالعدلِ في أوليائكم وأعدائكم، ولا تَجُورُوا في أحكامِكم وأفعالِكم فتجاوزوا ما حددتُ لكم في أعدائكم لعداوتهم لكم، ولا تقصِّروا فيما حددتُ لكم من أحكامي وحدودي في أوليائكم لولايتهم لكم، ولكن انتهوا في جميعهم إلى حَدِّي، واعملوا فيه بأمري.

وأما قوله: «ولا يجرمنكم شنآنُ قومٍ على أن لا تعدلوا»، فإنه يقول: ولا تحملنكم عداوةُ قومٍ على أنْ لا تعدلوا في حكمكم فيهم وسيرتكم بينهم، فتجوروا عليهم من أجلِ ما بينكم وبينهم من العداوة.

وقد قيل: إنَّ هذه الآية نزلتْ على رسولِ الله ﷺ حين هَمَّت اليهودُ بقتله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «اعدلوا»، أيها المؤمنون، علَى كُلِّ أحدٍ من الناس، وليًّا لكم كان أو عدوًّا، فاحملوهم على ما أمرْتُكم أنْ تَحْمِلُوهم عليه من أحكامي، ولا تجوروا بأحدٍ منهم عنه.

وأما قوله: «هو أقربُ للتقوى»، فإنه يعني بقوله: «هو»، العدلُ عليهم أقرب لكم، أيها المؤمنون، إلى التقوى، يعني: إلى أنْ تكونوا عند الله باستعمالكم إياه من أهلِ التقوى، وهم أهلُ الخوفِ والحذر من الله أنْ يخالفوه في شيء من أمره، أو يأتوا شيئاً من معاصيه.

وإنما وصف جَلَّ ثناؤُهُ «العَدْل» بما وصفه به من أنه «أقرب للتقوى» من الجور، لأنَّ مَنْ كان عادلاً، كان لله بعدله مطيعاً، ومَنْ كان لله مطيعاً، كان لا شَكَّ من أهلِ التقوى، ومَنْ كان جائراً كان لله عاصياً، ومَنْ كان لله عاصياً، كان بعيداً من تقواه.

وأما قوله: «واتقوا الله إنَّ الله خبير بما تعملون»، فإنه يعني: واحذروا، أيها المؤمنون، أنْ تجوروا في عباده فتجاوزوا فيهم حُكْمَهُ وقَضَاءَهُ الذي بَيَّنَ لكم، فَيُحِلَّ بكم عقوبَتَهُ، وتستوجبوا منه أليمَ نكالِهِ. «إنَّ الله خبير بما تعملون»، يقول: إنَّ الله ذُو خبرةٍ وعلم بما تعملون، أيها المؤمنون، فيما أمَرَكُم به وفيما نهاكم عنه، من عملٍ به أو خلافٍ له، مُحْصٍ ذلكم عليكم كلَّه، حتى يجازيكم به، جزاءَكم، المحسنَ منكم بإحسانهِ، والمسيءَ بإساءته، فاتقوا أنْ تُسِيئُوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٩﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات»، وَعَدَ الله، أيها الناسُ، الذين صَدَّقُوا الله ورسوله، وأقَرُّوا بما جاءهم به من عندِ رَبِّهم، وعملوا بما وَاثَقَهُم الله به، ووفوا بالعقودِ التي عاقدَهم عليها بقولهم: «لنسمعنَّ ولنطيعنَّ الله ورسوله»، فسمعوا أمرَ الله ونهيه وأطاعوه، فعملوا بما أمرهم الله به، وانتهوا عما نهاهم عنه.

ويعني بقوله: «لهم مغفرة»، لهؤلاء الذين وفوا بالعقودِ والميثاقِ الذي واثقهم به ربهم. «مغفرة»، وهي ستر ذنوبهم السالفة منهم عليهم وتغطيتها، بعفوهِ لهم عنها، وتركه عقوبتهم عليها وفضيحتهم بها. «وأجر عظيم»، يقول: ولهم مع عفوهِ لهم عن ذنوبِهم السالفةِ منهم، جزاءً على أعمالهم التي عملوها، ووفائهم بالعقود التي عاقدوا ربهم عليها. «أجر عظيم». و«العظيم» من خيرهِ غير محدودٍ مَبْلَغُه، ولا يعرفُ مُنْتَهاهُ غيرهُ تعالى ذِكْرُهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۝١٠﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «والذين كفروا»، والذين جَحَدُوا وحدانيةَ الله ونقضوا ميثاقه وعقودَه التي عاقدوها إياهُ. «وكذبوا بآياتنا»، يقول: وكذبوا بأدلَّةِ الله وحُجَجِهِ الدالة على وحدانيتهِ التي جاءت بها الرسلُ وغيرها. «أولئك أصحاب الجحيم»، يقول: هؤلاء الذين هذه صِفَتُهم أهلُ «الجحيم»، يعني: أهل النار الذين يخلُدونَ فيها ولا يخرجونَ منها أبداً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «يا أيها الذين آمنوا»، يا أيها الذين أقَرُّوا بتوحيدِ الله ورسالةِ رسوله ﷺ وما جاءهم به من عند ربهم. «اذكروا نعمت الله عليكم»، اذكروا النعمةَ التي أنعمَ الله بها عليكم، فاشكروه عليها بالوفاءِ له بميثاقهِ الذي واثَقَكُم به، والعقود التي عاقَدْتُم نبيكم ﷺ عليها. ثم وصف نعمته التي أمرهم جَلَّ ثناؤُهُ بالشكرِ عليها مع سائرِ نعمهِ، فقال: هي كَفُّهُ عنكم أيدي القومِ الذين هَمُّوا بالبطشِ بكم، فَصَرَفَهُمْ عنكم، وحالَ بينهم وبين ما أرادوه بكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١١﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ: واحذَرُوا الله، أيها المؤمنون، أنْ تُخالِفُوهُ فيما أمَرَكُم ونهاكم، وأنْ تنقضوا الميثاقَ الذي واثَقَكُم به، فتستوجِبُوا منه العقابَ الذي لا قِبَلَ لكم به. «وعلى الله فليتوكل المؤمنون»، يقول: وإلى الله فلْيُلْقِ أزِمَّةَ أمورهم، ويستسلم لقضائه، ويَثِقْ بنصرته وعونه المُقِرُّونَ بوحدانيَّةِ الله ورسالة رسوله، العاملونَ بأمرهِ ونهيه، فإنَّ ذلك من كمالِ دينهم وتمامِ إيمانهم وأنَّهم إذا فعلوا ذلك كَلأَهُم ورَعَاهم، وحفظهم مِمَّنْ أرادَهُمْ بسوءٍ، كما حفظكم ودافعَ عنكم، أيها المؤمنون، اليهودَ الذين هَمُّوا بما هَمُّوا به من بسطِ أيديهم إليكم، كلاءَةً منهُ لكم، إذْ كنتم من أهلِ الإيمانِ به وبرسولِه، دونَ غيره، فإنَّ غيره لايطيقُ دَفْعَ سوءٍ أراد بكم ربُّكم، ولا اجتلابَ نفعٍ لكم لم يَقْضِهِ لكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾

وهذه الآية أُنزلتْ إعلاماً من الله جَلَّ ثناؤُهُ نبيَّه ﷺ والمؤمنينَ به، أخلاقَ الذين هَمُّوا ببسطِ أيديهم إليهم من اليهود وأنَّ الذي هَمُّوا به من الغدرِ ونقضِ العهدِ الذي بينهم وبينه، من صفاتهم وصفاتِ أوائلهم وأخلاقِهم وأخلاقِ أسلافهم قديماً واحتجاجاً لنبيه ﷺ على اليهود بإطلاعه إيَّاه على ما كانَ عِلْمهُ عندَهم دونَ العرب، من خَفِيِّ أمورِهم ومكنونِ علومهم وتوبيخاً لليهود في تَماديهم في الغيِّ وإصرارهم على الكفرِ، مع علمهم بخطأ ما هُمْ عليه مُقيمون.

يقول الله لنبيه ﷺ: لا تستعظموا أمرَ الذين هَمُّوا ببسط أيديهم إليكم من هؤلاء اليهودِ بما هَمُّوا به لكم، ولا أمرَ الغدر الذي حاولوه وأرادوه بكم، فإنَّ ذلك من أخلاقِ أوائلهم وأسْلافهم، لا يَعْدُونَ أنْ يكونوا على منهاج أوَّلهم وطريق سَلَفِهم.

ثم ابتدأ الخبر عَزَّ ذِكْرُه عن بعضِ غَدَراتهم وخياناتِهم، وجراءتهم على رَبِّهم، ونقضهم ميثاقَهم الذي واثَقَهم عليه بَارِئُهم، مع نعمهِ التي خَصَّهم بها، وكراماته التي طَوَّقهم شكرها، فقال: ولقد أخذ الله ميثاقَ سَلَف مَنْ هَمَّ ببسطِ يدهِ إليكم من يهودِ بني إسرائيل، يا معشر المؤمنين، بالوفاءِ له بعهودهِ، وطاعته فيما أمرهم ونهاهم.

«وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً» يعني بذلك: وبعثنا منهم اثني عشر كفيلاً، كفلوا عليهم بالوفاءِ لله بما واثَقُوه عليه من العهودِ فيما أَمَرَهم به وفيما نهاهم عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾

يقول تعالى ذكره: وقال الله لبني إسرائيل: «إني معكم»، يقول: إني ناصركم على عدوِّكم وعدوِّي الذين أمرتكم بقتالهم، إنْ قاتلتموهم ووفيتم بعهدِي وميثاقي الذي أخذته عليكم.

وفي الكلام محذوف، استغنى بما ظهرَ من الكلامِ عما حذف منه. وذلك أنَّ معنى الكلام: وقال الله لَهُمْ إني معكم فترك ذكر «لهم»، استغناءً بقولِهِ: «ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل»، إذ كان مُتقدِّم الخبرِ عن قومٍ مسمَّين بأعيانهم، فكان معلوماً أنَّ ما في سياق الكلام من الخبر عنهم، إذ لم يكن الكلامُ مصروفاً عنهم إلى غيرهم.

ثم ابتدأ ربُّنا جَلَّ ثناؤُهُ القسمَ فقال: قَسَماً لَئِنْ أقمتم، معشرَ بني إسرائيل، الصلاة. «وآتيتم الزكاة»، أي: أعطيتموها مَنْ أمرتُكُم بإعطائِها. «وآمنتم برسلي»، يقول: وصدَّقتم بما أتاكم به رسلي من شرائع ديني.

وأما قوله: «وعَزَّرتُموهم»، فإنه يقول: نَصَرْتُموهم.

وأما قوله: «وأقرضتم الله قرضاً حسناً»، فإنه يقول: وأنفقتم في سبيل الله، وذلك في جهادِ عَدُوِّه وعدوكم. «قرضاً حسناً»، يقول: وأنفقتم ما أنفقتم في سبيله، فأصبتم الحق في إنفاقكم ما أنفقتم في ذلك، ولم تَتَعَدَّوْا فيه حُدودَ الله وما نَدَبَكُم إليه وحثَّكمِ عليه، إلى غيره.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ عَزَّ ذِكْـرُه: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بذلك بني إسرائيلَ، يقولُ لهم جَلَّ ثناؤُهُ: لَئِنْ أقمتمُ الصلاةَ، أيها القومُ الذين أعطوني ميثاقَهم بالوفاء بطاعتي واتِّباع أمري، وآتيتم الزكاة، وفعلتم سائرَ ما وعدتكم عليه جنّتي. «لأُكَفِّرَنَّ عنكم سيآتكم»، يقول: لأُغَطِّيَنَّ بعفوي عنكم ـ وصفحي عن عقوبتكم، على سَالفِ أجرامكم التي أجرمتموها فيما بيني وبينكم ـ على ذنوبِكم التي سَلَفَتْ منكم من عبادة العجل وغيرها من موبقاتِ ذُنوبِكم. «ولأدخلنكم» مع تغطيتي على ذلك منكم بفضلي يومَ القيامة. «جناتٍ تجري من تحتها الأنهار».

فـ «الجنات»، البساتين.

وإنمـا قلتُ معنى قولـه: «لأكفـرنَّ»، لأغـطين، لأنَّ «الكفـر»، معنـاه الجحود، والتغطية، والستر.

وقوله: «تجري من تحتها الأنهار»، يقول: تجري من تحتِ أشجار هذه البساتين التي أُدْخِلُكُمُوها، الأنهارُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾

يقول عز ذكره: فَمَنْ جَحَدَ منكم، يا معشرَ بني إسرائيل، شيئاً مما أمرتُه به فتـركَهُ، أو ركبَ ما نهيتهُ عنه فعملَهُ، بعد أخذِي الميثاقَ عليهِ بالوفاء لي بطاعتي واجتنابِ معصيتي. «فقد ضَلَّ سواءَ السبيل»، يقول: فقد أخطأ قَصْدَ الطريق الواضحِ، وزَلَّ عن منهجِ السبيل القاصد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: يا محمد، لا تَعْجَبَنَّ من هؤلاءِ اليهودِ الذين هَمُّوا أنْ يَبْسُطوا أيديهم إليكَ وإلى أصحابكَ، ونكثوا العهدَ الذي بينكَ وبينهم، غدراً منهم بك وبأصحابك، فإنَّ ذلك من عاداتهم وعاداتِ سَلَفهم، ومن ذلك أنِّي أخذتُ ميثاقَ سَلَفهم على عهدِ موسى ﷺ على طاعتي، وبعثتُ منهم اثني عشر نقيباً قد تُخُيِّرُوا من جميعِهم ليتحسَّسوا أخبارَ الجبابرةِ، ووعدتُهم النصرَ عليهم، وأنْ أُورثهم أرضَهم وديارهم وأموالهم، بعد ما أريتهم من العِبَر والآيات ـ بإهلاكِ فرعون وقومِه في البحر، وفلق البحرِ لهم، وسائرِ العبر ـ ما أريتهم، فنقضوا مِيثاقَهم الذي واثقوني، ونَكَثُوا عهدي، فلعنتهم بنقضهم ميثاقهم. فإذْ كان ذلك من فِعْلِ خيارهم، مع أياديَّ عندهم، فلا تستنكروا مِثْلَهُ من فعلِ أراذِلهم.

وفي الكلام محذوف، اكتُفِيَ بدلالةِ الظاهر عليه. وذلك أنَّ معنى الكلام: «فَمَنْ كفرَ بعد ذلك منكم فقد ضَلَّ سواءَ السبيل» ـ فنقضوا الميثاق، فَلَعَنْتُهم. «فبما نَقْضِهم ميثاقَهم لعناهم»، فاكتفى بقوله: «فبما نقضهم ميثاقهم» من ذكر «فنقضوا».

ويعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «فبما نقضهم ميثاقهم»، فَبِنَقْضِهم ميثاقَهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾

اختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك:

فقرأته عامةُ قَرَأَةِ أهلِ المدينةِ وبعض أهلِ مكة والبصرة والكوفة: ﴿قَاسِيَةً﴾ بالألف على تقدير «فاعلة» مِنْ «قسوةِ القلب»، من قولِ القائل:

«قَسَا قلبه، فهو يقسُو، وهو قاسٍ»، وذلك إذا غَلُظَ واشتدَّ وصار يابساً صلباً.

فتأويلُ الكلام على هذه القراءة: فَلَعَنَّا الذينَ نَقَضُوا عهدي ولم يَفُوا بميثاقي من بني إسرائيل، بنقضِهم ميثاقَهم الذي واثقوني. «وجعلنا قلوبهم قاسيةً»، غليظة يابسةً عن الإيمانِ بي، والتوفيق لطاعتي، منزوعةً منّها الرأفةُ والرحمة.

وقرأ ذلك عامةُ قَرَأةِ الكوفيين: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَسِيَّةً﴾.

ثم اختلف الذين قرأوا ذلك كذلك في تأويله.

فقال بعضهم: معنى ذلك «القسوة»، لأنَّ «فعيلة»، في الذم أبلغ من «فاعلة»، فاخترنا قراءتها «قسية» على «قاسية»، لذلك.

وقال آخرون منهم: بل معنى «قسِيَّة» غير معنى «القسوة» ، وإنما «القسية» في هذا الموضع: القلوبُ التي لم يَخْلُصْ إيمانُها بالله، ولكن يخالط إيمانَها كُفْرٌ، كالدراهم «القَسيَّة»، وهي التي يخالط فِضَّتها غِشٌّ من نحاسٍ أو رَصاص وغير ذلك.

وأعجبُ القراءتين إليَّ في ذلك قراءة مَنْ قرأ: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَسِيَّةً﴾ على «فعيلة»، لأنها أبلغ في ذم القوم من «قاسية». وأولى التأولين في ذلك بالصواب، تأويل مَنْ تأوله: «فعيلة» من «القسوة»، كما قيل «نفس زَكِيَّة» و«زاكية»، و«امرأة شاهدة»، و«شهيدة»، لأنَّ الله جَلَّ ثناؤهُ وصف القومَ بنقضِهم ميثاقَهم وكفرهم به، ولم يَصِفْهُمْ بشيءٍ من الإيمانِ، فتكون قلوبهم موصوفة بأنَّ إيمانها يخالطهُ كفرٌ، كالدراهم القَسِيَّة التي يخالط فِضَّتها غشٌّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾

يقول عَزَّ ذِكْرُه: وجعلنا قلوبَ هؤلاء الذين نقضوا عهودَنا من بني إسرائيل قَسِيَّة، منزوعاً منها الخيرُ، مرفوعاً منها التوفيقُ، فلا يؤمنون ولا يهتدون، فهم لنزعِ الله عزَّ وجلَّ التوفيقَ من قلوبهم والإيمانَ، يُحَرِّفُون كلامَ ربِّهم الذي أنزله على نبيهم موسى ﷺ، وهو التوراةُ، فيبدِّلُونَهُ، ويكتبونَ بأيديهم غير الذي أنزله الله جلَّ وعَزَّ على نبيهم، ثم يقولون لِجُهَّالِ الناسِ: «هذا هو كلامُ الله الذي أنزله على نبيه موسى ﷺ، والتوراة التي أوحاها إليه». وهذا من صفةِ القرونِ التي كانت بعد موسى من اليهود، ممن أدرك بعضُهم عصرَ نبينا محمدٍ ﷺ، ولكنَّ الله عَزَّ ذِكْرُه أدخلهم في عِدَادِ الذين ابتدأ الخبر عنهم ممن أدركَ موسى منهم، إذْ كانـوا من أبنائهم، وعلى منهاجِهم في الكذبِ على الله، والفريةِ عليه، ونقضِ المواثيق التي أخذها عليهم في التوراة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «ونَسُوا حظًّا»، وتركوا نصيباً، وهو كقوله: ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، أي: تركوا أمرَ الله فتركَهُم الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾

يقول تبارك وتعالى لنبيه محمدٍ ﷺ: ولا تزالُ يا محمدُ، تَطَّلعُ من اليهود ـ الذين أنبأتُكَ نبأهُم، من نقضِهم ميثاقي، ونكثهم عهدي، مع أياديَّ عندهم، ونعمتي عليهم ـ على مِثْلِ ذلك من الغدرِ والخيانةِ «إلا قليلاً منهم»، إلا قليلاً

منهم لم يخونوا.

و«الخائنة» في هذا الموضع: الخيانة، وُضع ـ وهواسمٌ ـ مَوْضِعَ المصدرِ، كما قيل: «خاطئة»، للخطيئة، و«قائلة»، للقيلولة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣﴾

وهذا أمرٌ من الله عَزَّ ذِكْرُه نبيَّه محمداً ﷺ بالعفوِ عن هؤلاء القومِ الذين هَمُّوا أن يبسطوا أيديهم إليه من اليهود. يقول الله جلَّ وعزَّ له: اعفُ، يا محمد، عن هؤلاء اليهود الذين هَمُّوا بما هَمُّوا به من بسطِ أيديهم إليكَ وإلى أصحابكَ بالقتل، واصفحْ لهم عن جُرْمِهم بتركِ التعرُّضِ لمكروههم، فإني أحِبُّ مَنْ أحسنَ العفوَ والصَّفحَ إلى مَنْ أساءَ إليه.

وكان قتادة يقول: هذه منسوخة. ويقول: نسختها آية «براءة»: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾، الآية [التوبة: ٢٩].

والذي قاله قتادة غير مدفوعٍ إمكانهُ، غيرَ أنَّ الناسخ الذي لا شك فيه من الأمرِ، هو ما كانَ نافياً كُلَّ معاني خلافهِ الذي كان قبله، فأمَّا ما كان غيرَ نافٍ جميعَه، فلا سبيلَ إلى العلم بأنه ناسخ إلَّا بخبرٍ من الله جلَّ وعزَّ أو من رسولهِ ﷺ. وليس في قوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾، دلالةٌ على الأمر بنفي معاني الصَّفح والعفو عن اليهود.

وإذْ كان ذلك كذلك ـ وكان جائزاً، مع إقرارهم بالصَّغار وأدائهم الجزية بعد القتال، الأمرُ بالعفو عنهم في غَدْرة هَمُّوا بها، أو نكثة عَزَمُوا عليها، ما لم يَنْصِبُوا حرباً دون أداء الجزية، ويمتنعوا من الأحكام اللَّازِمَتِهِم ـ لم يكن

واجباً أنْ يحكم لقوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالله وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ الآية، بأنه ناسخٌ قولَهُ: «فاعفُ عنهم واصفحْ إنَّ الله يحب المحسنين».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾

يقول عَزَّ ذِكْرُه: وأخذنا من النصارى الميثاقَ على طاعتي وأداء فرائضي، واتباع رسلي والتصديق بهم، فسلكوا في ميثاقهم الذي أخذتُه عليهم منهاجَ الأمَةِ الضالَّةِ من اليهودِ، فَبَدَّلُوا كذلك دِينَهم، ونَقَضُوه نقضَهم، وتركوا حَظَّهم من ميثاقي الذي أخذتُه عليهم بالوفاءِ بعهدي، وضيَّعوا أمري.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «فأغرينا بينهم»، حَرَّشْنَا بينهم وألقينا، كما تغري الشيء بالشيء.

يقول جَلَّ ثناؤُهُ: لما ترك هؤلاء النصارى، الذين أخذتُ ميثاقَهم بالوفاءِ بعهدي، حَظَّهم مما عهدتُ إليهم من أمري ونهي، أغريتُ بينهم العداوةَ والبغضاء.

وأولى التأويلين في ذلك عندنا بالحق، تأويلُ مَنْ قال: «أغرى بينهم بالأهواء التي حدثت بينهم»، كما قال إبراهيم النخعي، لأنَّ عداوةَ النصارى بينَهم، إنما هي باختلافِهم في قولهم في المسيح، وذلك أهواءٌ، لا وحْيٌ من الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ۝١٤﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: اعفُ عن هؤلاءِ الذين هَمُّوا ببسطِ أيديهم إليكَ وإلى أصحابكَ واصفح، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ من وراءِ الانتقامِ منهم، وسَيُنَبِّئُهم الله عند ورودِهم عليه في معادِهم، بما كانوا في الدنيا يصنعون، من نقضِهم ميثاقه، ونكثِهم عهده، وتبديلهم كتابه، وتحريفهم أمره ونهيه، فيعاقبهم على ذلك حَسْبَ استحقاقِهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾

يقول عَزَّ ذِكْرُه لجماعة أهلِ الكتاب من اليهودِ والنصارى الذين كانوا في عصرِ رسولِ الله ﷺ: «يا أهل الكتاب» من اليهودِ والنصارى. «قد جاءكم رسولنا»، يعني محمّداً ﷺ.

وقوله: «يبين لكم كثيراً مما كنتم تُخْفُونَ من الكتاب»، يقول: يبينُ لكم محمّد رسولنا، كثيراً مما كنتم تَكتمونَهُ الناسَ ولا تُبَيِّنُونَهُ لهم ممّا في كتابكم. وكان مما يُخْفونَهُ من كتابِهم فبيَّنه رسولُ الله ﷺ للناس: رَجْمُ الزَّانيين المحصنين.

وقيل: إنَّ هذه الآية نزلت في تبيينِ رسولِ الله ﷺ ذلك للناس، من إخفائهم ذلك من كتابِهم.

وقوله: «ويعفو عن كثير»، يعني بقوله: «ويعفو»، ويترك أَخْذَكُم بكثيرٍ مما كنتم تُخْفُونَ من كتابِكم الذي أنزلَهُ الله إليكم، وهو التوراةُ، فلا تعملون به حتى يأمره الله بأخذكم به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ لهؤلاء الذين خاطبهم من أهلِ الكتاب: «قد جاءكم»، يا أهلَ التوراة والإنجيل. «من الله نور»، يعني بالنور، محمداً ﷺ الذي أنار الله به الحَقَّ، وأظهرَ به الإسلامَ، ومَحَقَ به الشرك، فهو نورٌ لمن استنار به يبيِّن الحق. ومن إنارته الحق، تبيينُه لليهودِ كثيراً مما كانوا يُخْفُونَ من الكتابِ.

وقوله: «وكتاب مبين»، يقول، جَلَّ ثناؤُهُ: قد جاءكم من الله تعالى النورُ الذي أنار لكم به معالمَ الحقِّ. «وكتاب مبين»، يعني كتاباً فيه بيان ما اختلفوا فيه بينهم: من توحيدِ الله، وحلالِه وحرامِه، وشرائعِ دينه، وهو القرآنُ الذي أنـزله على نبينا محمدٍ ﷺ، يبينُ للناسِ جميعَ ما بهم الحاجةُ إليه من أمرِ دينهم، ويوضحه لهم، حتى يعرفوا حقَّه من باطله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾

يعني عَزَّ ذِكْرُه: يهدي بهذا الكتاب المبين الذي جاء من الله جل جلاله. ويعني بقوله: «يهدي به الله»، يرشد به الله ويسدد به، و«الهاء» في قوله: «به» عائدة على «الكتاب». «من اتبع رضوانه»، يقول: من اتبع رِضَى الله.

ويعني بقوله: «سُبُلَ السلام»، طُرُقَ السلام. و«السلام»، هو الله عَزَّ ذِكْرُه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ﴾

يقول عَزَّ ذِكْرُه: يهدي الله بهذا الكتاب المبين، من اتبع رضوان الله إلى سُبُلِ السلام وشرائع دينه. «ويخرجهم»، يقول: ويخرج من اتَّبَعَ رِضْوانَهُ. و«الهاء والميم» في: «ويخرجهم» إلى من ذُكر. «من الظلمات إلى النور»، يعني: من ظلماتِ الكفرِ والشركِ، إلى نورِ الإسلام وضيائه. «بإذنه»، يعني: بإذنِ الله جلَّ وعزَّ. و«إذنه» في هذا الموضع: تَحْبيبه إياهُ الإيمانَ برفع طابعِ الكفرِ عن قلبه، وخاتم الشركِ عنه، وتوفيقه لإبصار سُبُلِ السّلام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾

يعني عَزَّ ذِكْرُه بقوله: «ويهديهم»، ويُرْشِدُهم ويُسَدِّدُهم. «إلى صراطٍ مستقيم»، يقول: إلى طريقٍ مستقيم، وهو دينُ الله القويم الذي لا اعوجاجُ فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾

هذا ذمٌّ من الله عَزَّ ذِكْرُه للنصارى والنصرانية، الذين ضَلُّوا عن سُبُلِ

السلام، واحتجاجٌ منه لنبيه محمد ﷺ في فِرْيتهم عليه بادِّعائِهم له ولداً.

يقول جَلَّ ثناؤُهُ: أقسم، لقد كَفَرَ الذين قالوا: إنَّ الله هو المسيح بن مريم و«كفرهم» في ذلك، تغطيتهم الحقَّ في تركِهم نفيَ الولدِ عن الله جلَّ وعزَّ، وادِّعائهم أنَّ المسيحَ هو الله، فِرْيةً وكذباً عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ، لنبيه محمد ﷺ: قُلْ يا محمدُ، للنصارى الذين افتروا عليَّ، وضَلُّوا عن سواءِ السبيلِ بقِيلهم: إنَّ الله هو المسيح بن مريم: «من يملك من الله شيئاً»، يقول: مَنِ الذي يُطيقُ أنْ يدفعَ من أمرِ الله جَلَّ وعَزَّ شيئاً، فيردَّهُ إذا قضاه.

وقوله: «إنْ أراد أنْ يُهلكَ المسيحَ بن مريم وأمَّهُ ومَنْ في الأرض جميعاً»، يقول: مَنْ ذا الذي يقدرُ أنْ يَرُدَّ من أمرِ الله شيئاً، إنْ شاء أن يهلك المسيح بن مريم، بإعدامِهِ من الأرضِ وإعدام أمه مريم، وإعدامِ جميعِ مَنْ في الأرض من الخَلْقِ جميعاً.

يقول جَلَّ ثناؤُهُ لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء الجَهَلَةِ من النصارى: لو كان المسيحُ كما تزعمون ـ أنّه هو الله، وليس كذلك ـ لقدر أنْ يردَّ أمرَ الله إذا جاءه بإهلاكِه وإهلاكِ أمه. وقد أهلك أمَّهُ فلم يَقْدِرْ على دفعِ أمرِهِ فيها إذْ نزلَ ذلك. ففي ذلك لكم معتَبرٌ إن اعتبرتم، وحجةٌ عليكم إنْ عقلتم: في أنَّ المسيحَ، بَشَرٌ كسائر بني آدم، وأنَّ الله عزَّ وجلَّ هو الذي لايُغلبُ ولا يُقهرُ ولا يُردُّ له أمرٌ، بل هو الحيُّ الدائمُ القيُّومُ الذي يُحيي ويُميتُ، ويُنشيءُ ويُفني، وهو حيٌّ لا يموت.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾

يعني تبارك وتعالى بذلك: والله له تصريفُ ما في السموات والأرض وما بينهما - يعني: وما بينَ السماءِ والأرضِ - يهلك مَنْ يشاء من ذلك ويبقي ما يشاء منه. ويُوجِدُ ما أرادَ ويعدمُ ما أحبَّ، لا يمنعه من شيءٍ أراد من ذلك مانعٌ، ولا يدفعه عنه دافعٌ، يُنْفِذ فيهم حُكْمَهُ، ويُمضي فيهم قضاءه، لا المسيح الذي إنْ أراد إهلاكَهُ رَبُّهُ وإهلاكَ أمِّهِ، لم يملك دفعَ ما أرادَ به ربُّه من ذلك.

يقول جلَّ وعزَّ: كيف يكون إلهاً يُعبدُ مَنْ كان عاجزاً عن دفعِ ما أرادَ به غيرهُ من السوء، وغير قادرٍ على صَرْفِ ما نزلَ به من الهلاكِ؟ بل الإلهُ المعبود الذي له ملكُ كُلِّ شيءٍ، وبيده تصريفُ كُلِّ مَنْ في السماءِ والأرضِ وما بينهما.

فقال جَلَّ ثناؤُهُ: «وما بينهما»، وقد ذكر «السموات» بلفظِ الجمع، ولم يقل: «وما بينهن»، لأن المعنى: وما بينَ هَذينِ النوعينِ من الأشياء.

وقوله: «يخلقُ ما يشاء»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: ويُنشيءُ ما يشاء ويوجده، ويخرجهُ من حالِ العدم إلى حالِ الوجود، ولن يقدر على ذلك غيرُ الله الواحدِ القهَّار. وإنما يعني بذلك، أنَّ له تدبيرَ السمواتِ والأرض وما بينهما وتصريفه، وإفناءه وإعدامه، وإيجادَ ما يشاء مما هو غير موجودٍ ولا مُنْشأ. يقول: فليس ذلك لأحدٍ سواي، فكيف زعمتم، أيها الكَذَبَةُ، أنَّ المسيحَ إلهٌ، وهو لا يطيقُ شيئاً من ذلك، بل لا يقدرُ على دفعِ الضرَرِ عن نفسهِ ولا عن أمهِ، ولا اجتلابِ نفعٍ إليها إلا بإذني؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٧﴾

يقول عَزَّ ذِكْرُه: الله المعبودُ، هو القادرُ على كل شيء، والمالكُ كلَّ شيء، الذي لا يعجزُه شيءٌ أرادَهُ، ولا يغلبه شيءٌ طلبه، المقتدرُ على هلاكِ المسيح وأمه ومَنْ في الأرض جميعاً - لا العاجز الذي لايقدرُ على منعِ نفسهِ من ضُرٍّ نزلَ به من الله، ولا منْعِ أمِّهِ من الهلاك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ﴾

يقول الله لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ» لهؤلاء الكَذَبَةِ المفترين على رَبِّهم. «فلم يعذبكم» رَبُّكم، يقول: فلأيِّ شيءٍ يعذبكم رَبُّكم بذنوبِكم، إنْ كان الأمرُ كما زعمتم أنكم أبناؤُه وأحبَّاؤُه، فإنَّ الحبيبَ لا يعذِّبُ حبيبه، وأنتم مُقِرُّون أنه معذبكم؟ وذلك أنَّ اليهود قالت: إنَّ الله معذبنا أربعينَ يوماً عَدَدَ الأيامِ التي عبدنا فيها العجلَ، ثم يخرجنا جميعاً منها، فقال الله لمحمدٍ ﷺ: قُلْ لهم: إنْ كنتم، كما تقولون، أبناء الله وأحباءه، فَلِمَ يعذبكم بذنوبكم؟ يُعْلِمهُمْ عَزَّ ذِكْرُه أنَّهم أهلُ فِرْيَةٍ وكذبٍ على الله جلَّ وعزَّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ، قل لهم: ليس الأمرُ كما زعمتم أنكم أبناءُ الله وأحباؤه. «بل أنتم بَشَرٌ مِمَّنْ خلَقَ»، يقول: خَلْقٌ من بني آدم، خَلَقَكُم

الله مثل سائر بني آدم، إنْ أحسنتم جُوزِيتم بإحسانِكم، كما سائر بين آدم مَجْزِيُّونَ بإحسانِهم، وإنْ أسأتم جُوزيتم بإساءتكم، كما غيركم مجزيٌّ بها، ليس لكم عندَ الله إلاَّ ما لغيرِكم من خَلْقِه، فإنهُ يغفرُ لمن يشاءُ من أهلِ الإيمانِ به ذنوبَه، فيصفح عنه بفضله، ويسترها عليه برحمته، فلا يعاقبه بها.

«ويعذب من يشاء»، يقول: ويعدل على مَنْ يشاء من خَلْقِه فيعاقبه على ذنوبِه، ويفضَحهُ بها على رؤوسِ الأشهادِ فلا يسترها عليه.

وإنما هذا من الله عزَّ وجلَّ وعيدٌ لهؤلاء اليهود والنصارى المُتَّكِلينَ على منازلِ سَلَفهم الخيارِ عندَ الله، الذين فَضَّلَهُم الله جَلَّ وعَزَّ بطاعتهم إياهُ، واجتباهم لمسارعتهم إلى رِضاهُ، واصطبارهم على ما نابهم فيه. يقول لهم: لا تغتروا بمكانِ أولئك مني ومنازلهم عندي، فإنهم إنما نَالُوا ما نالوا منيّ بالطاعةِ لي، وإيثار رضاي على محابِّهم لا بالأماني، فجدُّوا في طاعتي، وانتهوا إلى أمري، وانزَجرُوا عَمَّا نهيتُهم عنه، فإني إنما اغفرُ ذنوبَ مَنْ أشاءُ أنْ أغفر ذنوبه من أهل طاعتي، وأعذِّب مَنْ أشاء تعذيبه من أهل معصيتي لا لمن قرَّبتْ زُلْفَةُ آبائه مني، وهو لي عدوٌّ، ولأمري ونهيي مخالفٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤهُ: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ١٨﴾

لله تدبيرُ ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وتصريفهُ، وبيده أمره، وله ملكهُ، يُصَرِّفهُ كيف يشاءُ ، ويدبرهُ كيف أَحَبَّ، لا شريكَ له في شيءٍ منه، ولا لأحدٍ معهُ فيه ملكٌ، فاعلموا أيها القائلون: «نحنُ ابناء الله وأحباؤه»، أنه إنْ عَذَّبكم بذنوبكم، لم يكن لكم منه مانعٌ، ولا لكم عنه دافع، لأنه لا نسبَ بين أحدٍ وبينه فيحابيه لسبب ذلك، ولا لأحدٍ في شيءٍ دونه ملك، فيحول بينه

وبينه إنْ أرادَ تعـذيبَـهُ بذنوبِه، وإليه مصيرُ كُلِّ شيءٍ ومَرْجِعهُ. فاتَّقُوا، أيها المفترون، عقابَه، إياكم على ذنوبِكم بعد مرجعكم إليه، ولا تغترُّوا بالأمانيِّ وفضائلِ الآباء والأسلاف.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقول: «يا أهل الكتاب»، اليهودَ الذين كانوا بين ظهرانَيْ مُهَاجَرِ رسولِ الله ﷺ يوم نزلت هذه الآية. وذلك أنهم أو: بعضهم، فيما ذكر لما دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإيمان به وبما جاءهم به من عند الله، قالوا: ما بعثَ الله من نبيّ بعد موسى، ولا أنزل بعد التوراة كتاباً!

ويعني بقـولـه جَلَّ ثناؤُهُ: «قد جاءكم رسولنا»، قد جاءكم محمد ﷺ رسـولنـا. «يبيّن لكم»، يقـول: يعرفكم الحقَّ، ويوضح لكم أعلامَ الهدى، ويرشدكم إلى دين الله المرتضى.

«على فترة من الرسل»، يقول: على انقطاعٍ من الرسل. و«الفترةُ» في هذا الموضع الانقطاعُ. يقول: قد جاءكم رسولنا يبينُ لكم الحَقَّ والهدى، على انقطاعٍ من الرسل.

ويعني بقوله: «أنْ تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير»، أنْ لا تقولوا، وكي لا تقولوا، كما قال جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦]، بمعنى: أن لا تَضِلُّوا، وكي لا تضلوا.

فمعنى الكلام: قد جاءكم رسولُنا يبينُ لكم على فترةٍ من الرسل، كي لا تقولوا ما جاءَنا من بشيرٍ ولا نذير. يعلمهم عَزَّ ذِكْرُه أنه قد قطعَ عُذْرَهُم برسوله ﷺ، وأبلغ إليهم في الحجة.

ويعني بـ «البشير»، المُبَشِّر مَنْ أطاعَ الله وآمنَ به وبرسوله، وعملَ بما آتاهُ من عند الله، بعظيمِ ثوابهِ في آخرته، وبـ «النذير»، المنذر مَنْ عصاه وكذَّبَ رسولَه ﷺ، وعملَ بغيرِ ما أتاهُ من عند الله من أمرِه ونهيه، بما لا قِبَلَ له به من أليم عقابهِ في معادِه، وشديدِ عذابهِ في قيامته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٩﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ لهؤلاء اليهود الذين وصفنا صِفَتهم: قد أعذَ[illegible] إليكم، واحتججنا عليكم برسولنا محمدٍ ﷺ إليكم، وأرسلناه إليكم ليبيِّنَ لكم ما أشكلَ عليكم من أمرِ دِينكم، كيلا تقولوا: «لم يأتِنَا من عندك رسولٌ يبيِّنُ لنا ما نحنُ عليه من الضلالة»، فقد جاءكم من عندي رسولٌ يُبَشِّرُ مَنْ آمنَ بي وعمل بما أمرتُه وانتهى عما نهيتُه عنه، وينذر مَنْ عصاني وخالف أمري، وأنا القادر على كل شيء، أقدرُ على عقابِ مَنْ عصاني، وثواب من أطاعني، فاتَّقُوا عقابي على معصيتكم إيايَ وتكذيبكم رسولي، واطلبوا ثوابي على طاعتكم إياي وتصديقكم بشيري ونذيري، فإنِّي أنا الذي لايعجزه شيءٌ أرادَه، ولا يفوته شيءٌ طَلَبَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾

وهذا ايضاً تعريفٌ من الله لنبيه محمدٍ ﷺ، قَديمَ تمادِي هؤلاء اليهودِ في الغيّ، وبُعْدِهم عن الحقِّ، وسوء اختيارهم لأنفسهم، وشدة خلافهم لأنبيائهم، وبطء إنابتِهم إلى الرشادِ، مع كثرةِ نعمِ الله عندهم، وتتابعِ أياديه

وآلائهِ عليهم، مُسَلِّياً بذلك نبيَّهُ محمداً ﷺ عما يحلُّ به من علاجهم، وينزل به من مقاساتِهم في ذاتِ الله. يقولُ الله له ﷺ: لا تأسَ على ما أصابكَ منهم، فإنَّ الذهابَ عن الله، والبُعْدَ من الحق، وما فيه لهم الحظ في الدنيا والآخرة، من عاداتهم وعـادات أسْـلافهم وأوائلهم وتَعَـزَّ بمـا لاقى منهم أخـوكَ موسى ﷺ، واذْكُر إذْ قال موسى لهم: «يا قوم اذكُروا نعمةَ الله عليكم»، يقول: اذكروا أيادي الله عندكم، وآلاءه قبلكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: أنَّ موسى ذكَّر قومَهُ من بني إسرائيل بأيَّام الله عندهم، وبآلائه قبلهم، مُحَرِّضهم بذلك على اتباع أمرِ الله في قتال الجبارين، فقال لهم: اذكروا نعمةَ الله عليكم أنْ فضَّلكم، بأنْ جعلَ فيكم أنبياء يأتونكم بوحيِهِ، ويخبرونكم بأنباءِ الغيبِ، ولم يُعْطِ ذلك غيرَكُم في زمانكم هذا.

فقيل: إنَّ الأنبياء الـذين ذكـرهم موسى أنهم جُعِلُوا فيهم: هم الذين اختارهم موسى إذْ صار إلى الجبل، وهم السبعونَ الذين ذكرهم الله فقال: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٥٣].

«وجعلكم ملوكاً»، سَخَّرَ لكم من غيرِكم خَدَماً يخدمونكم.

وقيل: إنمـا قال ذلك لهم موسى، لأنه لم يكن في ذلك الزمان أحدٌ سواهم يخدمُه أحد من بني آدم.

وقال آخرون: كُلُّ مَنْ ملك بيتاً وخادماً وامرأةً، فهو «ملك»، كائناً مَنْ كان من الناس.

فقال قائلو هذه المقالة: إنما قال لهم موسى ذلك، لأنهم كانوا يملكون الدُّورَ والخَدَمَ، ولهم نساءٌ وأزواج.

وقال آخرون: إنما عَنَى بقوله: «وجعلكم ملوكاً»، أنهم يملكون أنفُسَهُم وأَهْلِيهم وأموالهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: وَءَاتَـٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾

اختلف فيمن عنوا بهذا الخطاب.

فقال بعضهم: عَنَى به أمةَ محمدٍ ﷺ.

وقال آخرون: عُنِي به قومُ موسى ﷺ.

وأَوْلى التأويلين في ذلك عندي بالصواب، قولُ مَنْ قال: «وآتاكم ما لم يؤتِ أحداً من العالمين»، في سياق قوله: «اذكروا نعمةَ الله عليكم»، ومعطوفٌ عليه.

ولا دلالةَ في الكلام تدلُّ على أنَّ قوله: «وآتاكم ما لـم يؤتِ أحداً من العالمين»، مصروفٌ عن خطابِ الذين ابتدئ بخطابِهم في أوّلِ الآية. فإذْ كان ذلك كذلك، فأنْ يكون خطاباً لهم، أوْلى من أن يقال: هو مصروفٌ عنهم إلى غيرهم.

فإنْ ظَنَّ ظانٌّ أنَّ قوله: «وآتاكم ما لم يؤتِ أحداً من العالمين»، لا يجوزُ أنْ يكون لهم خطاباً، إذ كانت أمةُ محمَّدٍ قد أُوتيتْ من كرامةِ الله جَلَّ وعَزَّ بنبيِّها عليه السلام محمّدٍ، ما لم يُؤْتَ أحدٌ غيرهم ـ وهم من العالمين ـ فقد ظَنَّ غير الصواب. وذلك أن قوله: «وآتاكم ما لم يؤتِ أحداً من العالمين»، خطابٌ من موسى ﷺ لقومِه يومئذٍ، وعَنَى بذلك عالمي زمانه، لا عالمي كُلِّ زمان. ولم يكن أوتيَ في ذلك الزمان من نِعَمِ الله وكرامته، ما أوتيَ قومُه ﷺ، أحد من العالمين، فخرج الكلام منه ﷺ على ذلك، لا على جميع عالمِ كُلِّ زمان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾

وهذا خبرٌ من الله عَزَّ ذِكْرُه عن قولِ موسى ﷺ لقومه من بني إسرائيل، وأمرِه إياهم ـ عن أمر الله إياه ـ بأمرهم بدخولِ الأرضِ المقدسة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ۝٢١﴾

وهذا خبرٌ من الله عَزَّ ذِكْرُه عن قِيلِ موسى عليه السلام لقومِه من بني إسرائيل، إذْ أمرهم الله عَزَّ ذِكْرُه إيّاه بدخولِ الأرضِ المقدسة، أنه قال لهم: امضُوا، أيها القومُ، لأمرِ الله الذي أمركم به من دخولِ الأرض المقدسة. «ولا ترتدوا»، يقول: لاتَرْجِعُوا القَهْقَرى مُرْتَدِّينَ. «على أدباركم»، يعني: إلى ورائكم، ولكن امضُوا قُدُماً لأمرِ الله الذي أمركم به، من الدخولِ على القومِ الذين أمركم الله بقتالِهم والهجومِ عليهم في أرضهم، وإنَّ الله عَزَّ ذِكْرُه قد كتبها لكم مَسْكناً وقراراً.

ويعني بقوله: «فتنقلبوا خاسرين»، أي: تنصرفوا خائبين هُلَّكاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾

وهـذا خبرٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ عن جوابِ قومِ موسى عليه السلام، إذ أمرهم بدخولِ الأرض المقدسة: أنهم أَبَوْا عليه إجابَتَهُ إلى ما أمَرَهُم به من ذلك، واعْتَلُّوا عليه في ذلك بأنْ قالوا، إنَّ في الأرضِ المقدسة التي تأمرنا

بدخولها، قوماً جَبَّارينَ لا طاقةَ لنا بحربهم، ولا قوةَ لنا بهم. وسموهم «جبّارين»، لأنهم كانوا لشدةِ بطشهم وعظيمِ خلقهم، فيما ذكر لنا، قد قَهَرُوا سائرَ الأمم غيرهم.

وأصلُ «الجبار»، المصلحُ أمرَ نَفْسِه وأمرَ غيرِه، ثم استعمل في كُلِّ مَنِ اجترَّ نفعاً إلى نفسهِ بحقٍّ أو باطل طلبَ الإصلاح لها، حتى قيل للمتعدِّي إلى ما ليسَ له ـ بغياً على الناس، وقهراً لهم، وعُتُوًّا على رَبِّهِ ـ «جبار».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾

وهذا خبرٌ من الله عَزَّ ذِكْرُه عن قولِ قومِ موسى لموسى، جواباً لقوله لهم: «ادخلوا الأرضَ المقدسة التي كتب الله لكم»، فقالوا: «إنَّا لن ندخلها حتى يخرجوا منها»، يعنون: حتى يخرجَ من الأرضِ المقدسة الجبارونَ الذين فيها، جُبْناً منهم، وجَزَعاً من قتالهم. وقالوا له: إنْ يَخْرُجْ منها هؤلاء الجبارون دخلناها، وإلا فإنَّا لا نُطيقُ دخولَها وهم فيها، لأنه لا طاقةَ لنا بهم ولا يَدَان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا

وهـذا خبـرٌ من الله عَزَّ ذِكْرُه عن الرجلين الصَّالحين من قومِ موسى: «يوشع بن نون» و«كالب بن يوفنا»[1]، أنهما وفَيَا لموسى بما عهد إليهما من ترك إعلام قومِه بني إسرائيل الذين أمرَهم بدخولِ الأرضِ المقدسةِ على الجبابرةِ

(١) هذان الرجلان مذكوران في سفر العدد من التوراة الحالية (الإصحاح الثالث عشر والرابع عشر).

من الكنعانيين. بما رأيا وعاينا من شِدَّةِ بَطشِ الجبابرةِ وعِظم خلقهم، ووصفهما الله عزَّ وجلَّ بأَنَّهُمَا مِمَّنْ يخافُ الله ويراقبه في أمره ونهيه.

وأما قوله: «أنعم الله عليهما»، فإنه يعني: أنعم الله عليهما بطاعةِ الله في طاعةِ نبيهِ موسى ﷺ، وانتهائِهم إلى أمرِهِ، والانزجارِ عما زَجَرَهُمَا عنه ﷺ، من إفشاءِ ما عاينا من عجيبِ أمرِ الجبارين إلى بني إسرائيل، الذي حدّث عنه أصحابهما الآخرون الذين كانوا معهما من النقباء.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ جَلَّ ثنـاؤُهُ: ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ﴾

وهذا خبرٌ من الله عَزَّ ذِكْرُه عن قولِ الرجلين اللذين يخافان الله لبني إسرائيل، إذ جَبُنُوا وخَافُوا من الدخولِ على الجبارين، لَمَّا سمعوا خبرهم، وأخبرهم النقباءُ الذين أفشَوْا ما عاينوا من أمرِهم فيهم، وقالوا: «إنَّ فيها قوماً جبارين وإنا لَنْ ندخلها حتى يخرجوا منها»، فقالا لهم: ادخلوا عليهم، أيها القوم بابَ مدينتهم، فإنَّ الله معكم، وهو ناصِرُكم، وإنكم إذا دخلتُم البابَ غلبتموهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾

وهذا أيضاً خبرٌ من الله جَلَّ وعَزَّ عن قولِ الرجلين اللذين يخافان الله، أنهما قالا لقومِ موسى يُشَجِّعَانِهم بذلك، ويُرَغِّبانهم في المضيِّ لأمرِ الله بالدخولِ على الجبارين في مدينتهم ـ تَوَكَّلُوا أيها القومُ، على الله في دخولكم عليهم، فيقولان لهم: ثِقُوا بالله، فإنه معكم إنْ أطعتموه فيما أمركم من جهادِ

عَدُوِّكم. وعنيا بقولهما: «إنْ كنتم مؤمنين»، إنْ كنتم مصدِّقي نبيكم ﷺ فيما أنبأكم عن رَبِّكم من النصرةِ والظفرِ عليهم، وفي غيرِ ذلك من إخباره عن ربه ـ ومؤمنين بأنَّ ربَّكم قادر على الوفاء لكم بما وَعَدَكُم من تمكينِكم في بلادِ عدوِّه وعدوِّكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ٢٤﴾

وهذا خبرٌ من الله جَلَّ ذِكْرُهُ عن قولِ الملأ من قومِ موسى لموسى، إذ رُغِّبوا في جهادِ عَدُوِّهم، وَوُعِدُوا نصرَ الله إيَّاهم إنْ هُمْ ناهضوهم ودخلوا عليهم بابَ مدينتِهم أنهم قالوا له: «إنا لن ندخلها أبداً»، يعنون: إنا لَنْ ندخل مدينتهم أبداً.

و«الهاء والألف» في قوله: «إنا لن ندخلها»، من ذكر «المدينة».

ويعنون بقولهم: «أبداً»، أيامَ حياتنا. «ما داموا فيها»، يعنون: ما كانَ الجبارُونَ مُقيمينَ في تلك المدينةِ التي كتبها الله لهم وأُمِروا بدخولها. «فاذهب أنت وربك فقاتلا إنَّا ههنا قاعدون»، لانجيءُ معكَ يا موسى إنْ ذهبتَ إليهم لقتالهم، ولكن نتركك تذهب أنت وحدكَ وربُّك فتقاتِلانهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ٢٥﴾

وهذا خبرٌ من الله جَلَّ وعَزَّ عن قِيلِ قومِ موسى حين قال له قومُه ما قالوا، من قولهم: «إنَّا لَنْ ندخلها أبداً ماداموا فيها فاذهب أنتَ وربك فقاتلا إنَّا ههنا قاعدون» ـ أنه قال عندَ ذلك، وغضب من قِيلهم له، داعياً: يا رب

إني لا أملكُ إلا نفسي وأخي ـ يعني بذلك، لا أقدرُ على أحدٍ أنْ أحملَهُ على ما أُحِبُّ وأريدُ من طاعتكَ واتِّباعِ أمركَ ونهيك، إلا على نفسي وعلى أخي.

ويعني بقوله: «فافْرُقْ بيننَا وبين القومِ الفاسقين»، افْصِلْ بيننا وبينهم بقضاءٍ منك تقضيه فينا وفيهم، فتبعِدُهم منّا.

وعَنَى بقوله: «الفاسقين»، الخارجين عن الإيمانِ بالله وبه إلى الكفرِ بالله وبه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾

قوله: «محرمة عليهم أربعين سنة»، معنيٌّ به جميع قوم موسى، لا بعض دونَ بعضٍ منهم. لأنَّ الله عزَّ ذِكْرُه عَمَّ بذلك القومَ ولم يخصص منهم بعضاً دون بعضٍ. وقد وفَى الله جَلَّ ثناؤُهُ بما وعَدَهُم به من العقوبةِ، فتَيَّهَهُم أربعينَ سنة، وحَرَّمَ على جميعِهم، في الأربعين سنة التي مكثوا فيها تائهينَ، دخولَ الأرضِ المقدَّسة، فلم يدخلها منهم أحدٌ، لا صغير ولا كبير، ولا صالح ولا طالح، حتى انقضت السنون التي حَرَّمَ الله عزَّ وجلَّ عليهم فيها دخولها. ثم أَذِنَ لمن بقيَ منهم وذراريهم بدُخولها مع نبيِّ الله موسى والرجلين اللَّذَيْن أنعمَ الله عليهما، وافتتح قريةَ الجبارين، إن شاء الله، نبيُّ الله موسى ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «فلا تأسَ»، فلا تَحْزَن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٢٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمد ﷺ: واتْلُ على هؤلاء اليهود الذين هَمُّوا أنْ يبسطُوا أيديهم إليكم، وعلى أصحابك معهم ـ وعَرِّفْهُم مكروهَ عاقبةِ الظلمِ والمكرِ، وسوء مغبَّة الخَتْرِ[1] ونقضِ العهد، وما جزاء الناكثِ وثوابُ الوافي ـ خبرَ ابني آدم، هابيل وقابيل، وما آل إليه أمرُ المطيع منهما ربَّه الوافي بعهده، وما إليه صار أمرُ العاصي منهما ربَّهُ الخاترِ الناقضِ عهده. فلتعرف بذلك اليهود وخامةَ غِبِّ غَدْرهم ونقضهم ميثاقَهم بينك وبينهم، وهَمِّهم بما هَمُّوا به من بسطِ أيديهم إليك وإلى أصحابك، فإنَّ لك ولهم ـ في حسن ثوابي وعِظَم جزائي على الوفاء بالعهد الذي جازيت المقتولَ الوافِيَ بعهدِه من ابني آدم، وعاقبتُ به القاتلَ الناكثَ عهده ـ عزاءً جميلاً.

ويعني بقوله: «من المتقين»، من الذين اتقوا الله وخافوه، بأداءِ ما كَلَّفَهُم من فرائضِه، واجتنابِ ما نهاهم عنه من معصيته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عزَّ ذِكْرُه: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٨﴾

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ عن المقتولِ من ابنَيْ آدم أنه قالَ لأخيهِ ـ لمـا قال له أخوهُ القاتل: لأقتلنَّكَ ـ: والله، «لئن بسطتَ إليَّ يدكَ»، يقول:

(١) الخَتْر: أسوأُ الغَدْر.

مددتَ إليَّ يدك. «لتقتلني ما أنا بباسطٍ يديَ إليك»، يقول: ما أنا بمادٍّ يدي إليكَ. «لأقتلك».

وقد اختلف في السبب الذي من أجله قالَ المقتولُ ذلك لأخيهِ، ولم يمانعه ما فَعَلَ به.

فقال بعضهم: قال ذلك، إعلاماً منه لأخيهِ أنه لا يستحلُّ قتلَهُ ولا بَسْطَ يدهِ إليه بما لم يأْذَن الله جَلَّ وعَزَّ له به.

وقال آخرون: : لم يَمْنَعْهُ مِمَّا أرادَ من قَتْلِهِ، وقالَ ما قالَ له مما قَصَّ الله في كتابه: إلاَّ أنَّ الله عَزَّ ذِكْرُه فرضَ عليهم أنْ لايمتنعَ مَنْ أُريدَ قتله ممن أراد ذلك منه.

وأولى القولين في ذلك بالصواب أنْ يُقالَ: إنَّ الله عَزَّ ذِكْرُه قد كان حرَّم عليهم قتلَ نفسٍ بغيرِ نفسٍ ظُلماً، وأنَّ المقتولَ قال لأخيه: «ما أنا بباسط يديَ إليكَ إنْ بسطتَ إليَّ يدكَ»، لأنه كان حراماً عليه من قتل أخيه مثلُ الذي كان حراماً على أخيهِ القاتل من قتله. فأمَّا الامتناع من قتله حين أراد قتله، فلا دلالَة على أنَّ القاتلَ حين أراد قتله وعَزَمَ عليه، كان المقتولُ عالماً بما هو عليه عازمٌ منه ومحاولٌ من قتلهِ، فترك دَفْعَهُ عن نفسهِ. بل قد ذكر جماعةٌ من أهلِ العلم أنه قَتَلَهُ غِيلةً، اغتالَهُ وهو نائمٌ، فشدَخَ رأسه بصخرةٍ. فإذْ كان ذلك ممكناً، ولم يكن في الآيةِ دلالةٌ على أنه كان مأموراً بتركِ منعِ أخيه من قتله، ولم يكن جائزاً ادعاءُ ما ليسَ في الآية، إلاَّ ببرهانٍ يجب تسليمُه.

وأما تأويل قوله: «إنِّي أخافُ الله رب العالمين»، فإنه يعني: إنِّي أخافُ الله في بَسْطِ يدي إليكَ إنْ بسطتها لقتلك. «رَبَّ العالمين»، يعني: مالكَ الخلائق كلها، أنْ يعاقبني على بَسْطِ يدي إليك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩﴾

تأويله: إني أريدُ أن تنصرفَ بخطيئتكَ في قَتْلِكَ إيايَ ـ وذلك هو معنى قوله: «إني أريدُ أن تبوء بإثمي» ـ وأما معنى: «وإثمك»، فهو إثمه بغير قتلِه، وذلك معصيته الله جَلَّ ثناؤُهُ في أعمالٍ سِوَاه، لإجماعِ أهلِ التأويل عليه، ولأنَّ الله عَزَّ ذِكْرُه قد أخبرنا أنَّ كُلَّ عاملٍ فجزاءُ عمله لَه أو عليه. وإذا كان ذلك حكمه في خَلْقِه، فغيرُ جائزٍ أن يكون آثام المقتول مأخوذاً بها القاتل، وإنما يُؤْخَذُ القاتلُ بإثمهِ بالقتلِ المحرمِ وسائرِ آثامِ معاصيهِ التي ارتكبها بنفسه، دون ما ركِبَهُ قتيلُه.

فإن قال قائل: أو ليس قتلُ المقتول من بني آدمَ كان معصيةً لله من القاتلِ؟

قيل بلى: وأعْظِمْ بها معصيةً!

فإنْ قال: فإذا كان لله جَلَّ وعَزَّ معصيةً، فكيف جازَ أن يُريد ذلك منه المقتول، ويقول: «إني أريد أن تبوء بإثمي»، وقد ذكرتَ أنَّ تأويلَ ذلك، إني أريدُ أنْ تبوءَ بإثمِ قتلي؟

قِيلَ: معناه: إني أريدُ أنْ تبوءَ بإثمِ قتلي إنْ قَتَلْتَنِي، لأنِّي لا أقتلكَ، فإنْ أنتَ قتلتني، فإني مريدٌ أنْ تبوء بإثمِ معصيتكَ الله في قتلك إياي. وهو إذا قتله، فهو لا محالة باءَ به في حُكْمِ الله، فإرادته ذلك غير موجبةٍ له الدخولَ في الخطأ.

ويعني بقوله: «فتكونَ من أصحابِ النار وذلك جزاء الظالمين»، يقول: فتكون بقتلكَ إيايَ من سكانِ الجحيمِ، ووقودِ النار المُخَلَّدينَ فيها. «وذلك

جزاء الظالمين»، يقول: والنارُ ثوابُ التاركينَ طريقَ الحَقِّ، الزائلينَ عن قَصْدِ السبيل، المُتَعَدِّينَ ما جُعِل لهم إلى ما لم يُجْعَلْ لهم.

وهذا يدل على أنَّ الله عَزَّ ذِكْرُه قد كان أمرَ ونهى آدم بعد أنْ أهبطَهُ إلى الأرض، ووعد وأوعد. ولولا ذلك ما قالَ المقتولُ للقاتل: «فتكونَ من أصحابِ النار» بقتلكَ إيايَ، ولا أخبره أنَّ ذلك جزاءُ الظالمين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٣٠﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «فطوّعت»، فآتَتْهُ وساعَدَتْهُ عليه.

وأما قوله: «فأصْبَحَ من الخاسرين»، فإن تأويله: فأصبح القاتلُ أخاهُ من ابْنَيْ آدمَ، من حزبِ الخاسرين، وهم الذين بَاعُوا آخِرَتَهُم بدُنْياهم، بإيثارِهم إياها عليها، فوُكِسُوا في بيعهم، وغبنوا فيه، وخابوا في صفقتهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ۝٣١﴾

تأويل الكلام: فأثارَ الله للقاتل - إذْ لم يَدْرِ ما يصنع بأخيه المقتول. «غُراباً يبحث في الأرض»، يقول: يحفر في الأرض فيثير ترابها. «ليريه كيف يواري سوأةَ أخيه»، يقول: ليريه كيف يواري جِيفةَ أخيه.

وفي ذلك محذوفٌ ترك ذكره، استغناء بدلالة ما ذكر منه، وهو: «فأراه بأنْ بَحَثَ في الأرض لغرابٍ آخَرَ ميتٍ فَوَاراهُ فيها»، فقال القاتلُ أخاه حينئذٍ:

«يا ويلتى أعجـزتُ أنْ أكـونَ مثلَ هذا الغراب»، الذي وارى الغرابَ الآخر الميتَ. «فأُواريَ سوأةَ أخي»، فواراه حينئذ. «فأصبح من النادمين»، على ما فرطَ منه، من معصيةِ الله عَزَّ ذِكْرُه في قتلِه أخاه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾

فمعنى الكلام: من جنايةِ ابن آدم القاتل أخاهُ ظلماً، حَكَمْنَا على بني إسرائيل أنه مَنْ قتلَ منهم نَفْساً ظُلماً، بغيرِ نفسٍ قُتِلَتْ، فقتل بها قصاصاً. «أو فسادٍ في الأرض»، يقول: أو قتل منهم نفساً بغير فسادٍ كان منها في الأرض، فاستحقت بذلك قتلها. و «فسادها في الأرض»، إنما يكونُ بالحرب لله ولرسوله، وإخافة السبيل.

ثم اختلف أهلُ التأويلِ في تأويلِ قوله جَلَّ ثناؤُهُ: «ومَنْ قتل نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتلَ الناسَ جميعاً ومَنْ أحياها فكأنما أحيا الناسَ جميعاً».

وأَوْلى الأقوال عندي بالصواب، قولُ مَنْ قال: تأويلُ ذلك: أنه مَنْ قتل نفساً مؤمنةً بغير نفسٍ قَتَلتها فاستحقتِ القَوَد بها والقتلَ قِصاصاً. أو بغيرِ فسادٍ في الأرضِ، بحربِ الله ورسوله وحربِ المؤمنينَ فيها، فكأنما قَتَلَ الناسَ جميعاً فيما استوجبَ من عظيمِ العقوبةِ من الله جَلَّ ثناؤُهُ، كما أوعده ذلك من فعله ربُّه بقوله: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾ [النساء: ٩٣].

وأما قوله: «ومَنْ أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً»، فأوْلى التأويلات به، قول مَنْ قال: مَنْ حَرَّمَ قَتْلَ مَنْ حَرَّمَ الله عَزَّ ذِكْرُه قتله على نفسه، فلم يتقدّم على قتله، فقد حَيِيَ الناسُ منه بسلامتهم منه، وذلك إحياؤه إياها. وذلك نظير خَبرِ الله عَزَّ ذِكْرُه عَمَّنْ حاجَّ إبراهيمَ في ربِّهِ إذْ قال له إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]. فكان معنى الكافر في قِيلِهِ: «أنا أحيي»، أنا أتركُ مَنْ قَدِرت على قتله ـ وفي قوله: «وأُميتُ»، قتله من قتله. فكذلك معنى «الإحياء» في قوله: «ومَنْ أحياها»، من سَلِمَ الناسُ من قَتْلِه إياهم، إلاَّ فيما أذِنَ الله في قتله منهم. «فكأنما أحْيَا الناس جميعاً».

وإنما قلنا ذلك أوْلى التأويلات بتأويلِ الآية، لأنه لا نفسَ يقومُ قَتْلُها في عاجلِ الضُّرِّ مقامَ قَتْلِ جميعِ النفوس، ولا إحياؤُها مقامَ إحياء جميعِ النفوس في عاجل النفع. فكان معلوماً بذلك أنَّ معنى: «الإحياء»: سلامة جميع النفوس منه، لأنه مَنْ لم يتقدم على نفسٍ واحدة، فقد سَلِمَ منه جميع النفوس ـ وأنَّ الواحدة منها التي يقوم قتلُها مقامَ جميعها إنما هو في الوزْر. لأنه لا نفسَ من نفوسِ بني آدم يقومُ فَقْدُها مقامَ فَقْدِ جميعها، وإنْ كان فَقْدُ بعضِها أعمّ ضرراً من فقدِ بعض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾

وهذا قسم من الله جَلَّ ثناؤُهُ أقسم به: أنَّ رُسُلَهُ صلواتُ الله عليهم قد أتت بني إسرائيل الذين قَصَّ الله قَصَصهم وذَكَرَ نبأهم في الآياتِ التي تَقَدَّمتْ، من قوله: «يا أيُّها الذين آمنوا اذْكُروا نعمةَ الله عليكم إذْ هَمَّ قومٌ أن يبسطُوا إليكم أيديهم» إلى هذا الموضع. «بالبينات»، يعني: بالآياتِ الواضحة

والحجج البيِّنة على حقيقة ما أرسلوا به إليهم، وصحة ما دَعوهُمْ إليه من الإيمانِ بهم، وأداءِ فرائضِ الله عليهم.

يقول الله عَزَّ ذِكْرُه: «ثم إنَّ كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون»، يعني: أن كثيراً من بني إسرائيل.

«بعد ذلك»، يعني: بعد مجيء رُسُلِ الله بالبينات.

«في الأرض لمسرفون»، يعني: أنهم في الأرض لعاملون بمعاصي الله، ومخالفون أمرَ الله ونهيه، ومحادُّو الله ورسله، باتِّباعِهم أهواءَهم. وخلافهم على أنبيائهم، وذلك كان إسرافَهم في الأرض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾

وهذا بيانٌ من الله عَزَّ ذِكْرُه عن حُكْمِ «الفساد في الأرض»، الذي ذكره في قوله: «من أجلِ ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه مَنْ قتلَ نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض» أعْلَمَ عبادَهُ: ما الذي يستحقُّ المُفْسِدُ في الأرض من العقوبةِ والنكال، فقال تبارك وتعالى: لا جزاءَ له في الدنيا إلاَّ القتلُ، والصلبُ، وقطعُ اليد والرِّجل من خلافٍ، أو النفي من الأرضِ، خزياً لهم. وأما في الآخرة إنْ لم يَتُبْ في الدنيا، فعذابٌ عظيم.

و«المحاربُ لله ورسوله»، هو مَنْ حارب في سابلة المسلمين وذِمَّتهم، والمغير عليهم في أمصارِهم وقراهم حِرَابةً. لأنه لا خلافَ بين الحُجَّةِ أنَّ مَنْ نَصَبَ حرباً للمسلمين على الظلم منه لهم، أنه لهم محاربٌ، ولا خلافَ فيه. فالذي وصفنا صِفَتَهُ، لا شك فيه أنه لهم نَاصبٌ حرباً ظلماً. وإذْ كان ذلك

كذلـك، فسـواء كان نَصْبَـهُ الحربَ لهم في مِصْرِهم وقُراهم، أو في سُبلِهم وطُرقِهم: في أنه لله ولرسوله محاربٌ، بحربه مَنْ نَهاه الله ورسوله عن حربِهِ.

وأما قوله: «ويسعون في الأرض فساداً»، فإنه يعني: ويعملون في أرض الله بالمعـاصي: من إخافةِ سُبُل عبادِه المؤمنينَ به، أو سُبُل ذمتهم، وقطعِ طُرُقِهم، وأخذِ أموالِهم ظلماً وعدواناً، والتوثُّبِ على حرمهم فجوراً وفُسُوقاً.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ

يقـول تعـالى ذِكْـرُهُ: ما لِلَّذِي حاربَ الله ورسوله، وسعى في الأرض فساداً، من أهلِ ملَّةِ الإسلام أو ذمتهم - إلاَّ بعض هذه الخلال التي ذكرها جَلَّ ثناؤُهُ.

ثم اختلف أهلُ التأويل في هذه الخلال، أتلزم المحاربَ باستحقاقه اسم «المحاربة»، أم يلزمه ما لَزِمَهُ من ذلكم على قَدْرِ جُرْمِهِ، مختلفاً باختلافِ أجرامه؟

فقال بعضهم: تَجِبُ على المحارب العقوبةُ على قَدْرِ استحقاقِهِ، ويلزمه ما لزمه من ذلك على قَدْرِ جُرْمه، مختلفاً باختلاف أجرامه.

واعتـلَّ قائلو هذه المقالة لقولهم هذا، بأنْ قالوا: إن الله أوجبَ على القاتلِ القَودَ، وعلى السارقِ القَطْعَ. وقالوا: قال النبيُّ ﷺ: «لايحل دَمُ امرىءٍ مسلمٍ إلاَّ بإحـدى ثلاث خِلال: رجـل قتل فقتل، ورجل زنى بعد إحصان فرُجم، ورجل كفر بعد إسلامه»[(1)]. قالوا: فحظر النبيُّ ﷺ قَتْلَ رجلٍ مسلمٍ

---

(١) هكذا ساقه المؤلف معلقاً من غير إسناد، وهو في الصحيحين: البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه بمعناه.

إلَّا بإحدى هذه الخلال الثلاث. فأما أن يُقْتَلَ من أجلِ إخافتهِ السبيلَ من غيرِ أن يقتـل أو يأخذ مالاً، فلذلك تقدُّمٌ على الله ورسوله بالخلافِ عليهما في الحكم. قالـوا: ومعنى قول مَنْ قال: «الإمـام فيه بالخيار، إذا قَتل وأخافَ السبيل وأخـذَ المال»، فهنالك خيارُ الإمامِ في قولهم بين القتل، أو القتلِ والصلب، أو قطعِ اليدِ والرِّجْلِ من خِلاف. وأما صلبه باسم المحاربة، من غير أنْ يفعلَ شيئاً من قتلٍ أو أخذ مالٍ، فذلك ما لم يَقُلْهُ عالمٌ.

وقال آخرون: الإمام فيه بالخيار: أنْ يفعل أيَّ هذه الأشياء التي ذكرَها الله في كتابه.

واعتلَّ قائلو هذه المقالة بأنْ قالوا: وجدنا العطوف التي بـ «أو» في القرآن بمعنى التخيير، في كل ما أوجبَ الله به فرضاً منها، وذلك كقوله في كفارةِ اليمين: ﴿فَكَفَّـارَتُـهُ إطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة: ٨٩]، وكقوله: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وكقوله: ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِياماً﴾ [المائدة: ٩٥]. قالوا: فإذا كانت العُطوفُ التي بـ «أو» في القرآن، في كل ما أوجبَ الله به فرضاً منها في سائر القرآن، بمعنى التخيير، فكذلك ذلك في آية المحاربين ـ الإمام مخير فيما رأى الحكم به على المحارب إذا قَدر عليه قبل التوبة.

وأَوْلى التأويلين بالصواب في ذلك عندنا، تأويلُ مَنْ أوجب على المحارب من العقـوبـة على قَدْرِ استحقـاقـه، وجعـل الحُكْمَ على المحاربين مختلفاً باختلافِ أفعالهم. فأوجب على مُخيفِ السبيلِ منهم إذا قُدِرَ عليه قبل التوبة، وقبل أخذ مالٍ أو قتل ـ النفيَ من الأرض. وإذا قُدر عليه بعد أخذ المال وقتل

النفس المحرم قتلُها ـ الصلب، لما ذكرتُ من العلة قَبْلُ لقائلي هذه المقالة.

فأما ما اعتلَّ به القائلون: إنَّ الإمامَ فيه بالخيار، من أن «أو» في العطف تأتي بمعنى التخيير في الفرض، فقولٌ لا معنى له، لأن «أو» في كلام العرب قد تأتي بضروبٍ من المعاني، لولا كراهة إطالةِ الكتابِ بذِكْرِها لذكَرْتُها، وقد بينتُ كثيراً من معانيها فيما مضى، وسنأتي على باقيها فيما يستقبل في أماكنها إنْ شاء الله.

فأما في هذا الموضع، فإنَّ معناها التعقيب، وذلك نظير قولِ القائل: «إنَّ جزاءَ المؤمنين عند الله يوم القيامة أنْ يُدْخِلهم الجنةَ، أو يرفع منازلهم في عِلِّيينَ، أو يسكنهم مع الأنبياءِ والصديقين»، فمعلومٌ أنَّ قائلَ ذلك غير قاصد بقِيله إلى أنَّ جزاءَ كُلِّ مؤمنٍ آمنَ بالله ورسوله فهو في مرتبةٍ واحدة من هذه المراتب، ومنزلة واحدة من هذه المنازل بإيمانه، بل المعقولُ عنه أنَّ معناه: أنَّ جزاء المؤمن لن يخلُو عند الله عَزَّ ذِكْرُه من بعضِ هذه المنازل. فالمقتصدُ منزلتهُ دونَ منزلةِ السابق بالخيراتِ، والسابقُ بالخيرات أعلى منه منزلةً، والظالمُ لنفسه دونهما، وكلٌّ في الجنة كما قال جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [فاطر:٣٣]. فكذلك معنى المعطوف بـ«أو» في قوله: «إنما جزاءُ الذين يحاربون الله ورسوله»، الآية، إنما هو التعقيب.

فتأويله: إنَّ الذي يحاربُ الله ورسولَهُ ويسعى في الأرض فساداً، لن يخلو من أنْ يستحق الجزاءَ بإحدى هذه الخلال الأربع التي ذكرها الله عَزَّ ذِكْرُه ـ لا أن الإمام محكم فيه ومخيَّرٌ في أمره ـ كائنةً ما كانت حالتُه، عظمت جريرته أو خفَّتْ، لأنَّ ذلك لو كان كذلك، لكانَ للإمامِ قتل مَنْ شَهر السلاح مخيفاً السبيلَ وصلبَهُ، وإنْ لم يأخذ مالاً ولا قتلَ أحداً، وكان له نفيُ مَنْ قَتَل وأخذَ المال وأخافَ السبيل. وذلك قولٌ إنْ قاله قائلٌ، خلافُ ما صَحَّتْ به

الآثارُ عن رسولِ الله ﷺ من قوله: «لايحل دَمُ امرىءٍ مسلم إلا بإحدى ثلاث: رجل قتل رجلاً فقتل به، أو زنى بعد إحصان فرجم، أو ارتَدَّ عن دينه»[1]، وخلاف قولِهِ: «القطعُ في رُبْع دينارٍ فصاعداً»[2]، وغيرُ المعروف من أحكامه[3].

فإنْ قال قائلٌ: فإنَّ هذه الأحكام التي ذكرتَ، كانت عن رسولِ الله ﷺ في غير المحارب، وللمحارب حكم غير ذلك منفرد به.

قيل له: فما الحكمُ الذي انفردَ به المحارب في سننه؟

فإن ادَّعى عنه ﷺ حُكماً خلافَ الذي ذكرنا، أكْذَبَهُ جميعُ أهلِ العلم، لأنَّ ذلك غير موجودٍ بنقلِ واحدٍ ولا جماعة.

وإنْ زعم أنَّ ذلك الحكمَ هو ما في ظاهر الكتاب، قيل له: فإنَّ أحسنَ حالاتكَ إنْ سُلِّمَ لك، أنَّ ظاهر الآية قد يحتملُ ما قُلْتَ وما قاله مَنْ خالفكَ فما برهانُكَ على أنَّ تأويلكَ أوْلى بتأويلِ الآيةِ من تأويله؟

وبعد، فإذْ كان الإمامُ مخيَّراً في الحكم على المحارب، من أجل أنَّ «أو» بمعنى التخيير في هذا الموضع عندك، أفَلَهُ أنْ يَصْلبَهُ حيًّا، ويتركه على الخشبةِ مصلوباً حتى يموتَ من غير قَتْلِه.

فإن قال: «ذلك له»، خالفَ في ذلك الأمَّةَ.

وإنْ زعم أنَّ ذلكَ ليسَ له، وإنما له قتله ثم صلبه، أو صلبه ثم قتله ـ ترك علَّته من أنَّ الإمامَ إنما كان له الخيارُ في الحكم على المحارب من أجل أن «أو» تأتي بمعنى التخيير.

---

(١) تقدم تخريجه قبل قليل.

(٢) هكـذا ساقه المؤلف معلقاً من غير إسناد وهو في الصحيحين: البخاري (٦٧٨٩) و(٦٧٩٠) و(٦٧٩١)، ومسلم (١٦٨٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) معطوف على قوله: خلاف ما صحَّت به الآثار.

وقيل له: فكيف كان له الخيار في القتل أو النفي أو القطع، ولم يكن له الخيار في الصلبِ وحده، حتى تجمع إليه عقوبة أخرى؟

وقيل له: هل بينكَ وبين مَنْ جعل الخيارَ حيثُ أبيتَ، وأبى ذلك حيثُ جعلتَهُ له ـ فرقٌ من أصلٍ أو قياس؟ فلن يقول في أحدهما قولاً إلا أُلْزِمَ الآخر مثله.

وأما قوله: «أو تُقَطَّعَ أيديهم وأرجلهم من خلاف»، فإنه يعني به جَلَّ ثناؤُهُ: أنه تقطع أيديهم مخالِفاً في قطعها أرجُلهم. وذلك أنْ تقطع أَيْمُنُ أيديهم، وأشمُلُ أرجلهم. فذلك «الخلاف» بينهما في القطع.

واختلف أهلُ التأويل في معنى «النفي» الذي ذكر الله في هذا الموضع.

فقال بعضهم: هو أنْ يُطْلَبَ حتى يُقْدَرَ عليه، أو يهربَ من دارِ الإسلام.

وقال آخرون: معنى «النفي» في هذا الموضع: أنَّ الإمامَ إذا قدر عليه نَفَاهُ من بلدته إلى بلدةٍ أخرى غيرها.

وقال آخرون: معنى: «النفي من الأرض»، في هذا الموضع: الحبس.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك عندي بالصواب، قولُ مَنْ قال: معنى «النفي من الأرض»، في هذا الموضع، هو نفيهُ من بلدٍ إلى بلدٍ غيره، وحَبْسُه في السجن في البلدِ الذي نُفيَ إليه، حتى تَظْهَرَ توبتُه من فسوقه، ونُزُوعه عن معصيته رَبَّهُ.

وإنما قلتُ ذلك أَوْلى الأقوالِ بالصحة، لأنَّ أهلَ التأويل اختلفوا في معنى ذلك على أحدِ الأوجه الثلاثة التي ذكرتُ. وإذْ كان ذلك كذلك ـ وكان معلوماً أنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ إنما جعل جزاءَ المحارب: القتل أو الصلبَ أو قطعَ اليد والرجل من خلافٍ، بعد القدرةِ عليه، لا في حال امتناعه ـ كان معلوماً أنَّ النفيَ أيضاً إنما هو جزاؤُه بعد القُدرةِ عليه، لا قبلها. ولو كان هَرَبُهُ من

الطلب نفياً له من الأرض، كان قطع يده ورجله من خلافٍ في حالِ امتناعه وحربهِ على وجهِ القتال، بمعنى إقامةِ الحدِّ عليه بعد القُدْرةِ عليه. وفي إجماع الجميع أنَّ ذلك لا يقومُ مقامَ نفيهِ الذي جعله الله عزَّ وجلَّ حداً له بعد القدرةِ عليه، بطل أنْ يكونَ نفيُه من الأرض، هربَهُ من الطلبِ.

وإذْ كان كذلك، فمعلومٌ أنه لم يَبْقَ إلاَّ الوجهان الآخران، وهو النفي من بلدةٍ إلى أخرى غيرها، أو السِّجْن. فإذْ كان ذلك كذلك، فلا شك أنه إذا نُفيَ من بلدةٍ غيرها، فلم ينف من الأرض، بل إنما نفي من أرضٍ دون أرض. وإذ كان ذلك كذلك ـ وكان الله جَلَّ ثناؤُهُ إنما أمر بنفيهِ من الأرض ـ كان معلوماً أنه لا سبيلَ إلى نفيهِ من الأرض إلا بحبسهِ في بُقْعة منها عن سائرها، فيكون منفيًّا حينئذٍ عن جميعها، إلاَّ مما لا سبيلَ إلى نفيهِ منه.

وأما معنى «النفي»، في كلام العرب، فهو الطرد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٣٣﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «ذلك»، هذا الجزاء الذي جازيتُ به الذين حاربوا الله ورسولَهُ، وسَعَوْا في الأرضِ فساداً في الدنيا، من قتلٍ أو صلبٍ أو قطعِ يدٍ ورجلٍ من خِلاف. «لهم»، يعني: لهؤلاءِ المحاربينَ. «خِزْيٌ في الدنيا»، يقول: هو لهم شرٌّ وعارٌ وذلةٌ ونكالٌ وعقوبةٌ في عاجل الدنيا قبل الآخرة.

وقوله: «ولهم في الآخرةِ عذاب عظيم»، يقول عَزَّ ذِكْرُه: لهؤلاء الذين حاربوا الله ورسولَه وسعوا في الأرضِ فساداً، فلم يَتُوبُوا من فِعْلِهم ذلك حتى هَلَكُوا ـ في الآخرة، مع الخزي الذي جازَيْتُهم به في الدنيا، والعقوبة التي عاقبتهم بها فيها ـ «عذابٌ عظيم»، يعنى: عذاب جهنم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٤﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك:

فقال بعضهم: معنى ذلك: إلَّا الذين تابوا من شِرْكِهم ومناصَبتهم الحربَ لله ولرسولِه والسَّعي في الأرض بالفساد، بالإسلامِ والدخولِ في الإيمان، مِنْ قَبْلِ قُدرةِ المؤمنينَ عليهم، فإنه لا سبيلَ للمؤمنين عليهم بشيءٍ من العقوباتِ التي جعلهَا الله جزاءً لِمَنْ حاربَه ورسولَهُ وسعَى في الأرض فساداً، من قتلٍ، أو صلب، أو قطع يدٍ ورجلٍ من خلافٍ، أو نفيٍ من الأرض فلا تِباعَةَ قِبلَهُ لأحدٍ فيما كان أصابَ في حالِ كفره وحربه المؤمنين، في مالٍ ولا دم ولا حرمةٍ. قالوا: فأما المسلمُ إذا حاربَ المسلمين أو المعاهدين، وأتى بعضَ ما يجبُ عليه العقوبةُ، فلن تَضَعَ توبتُه عنه عقوبةَ ذَنْبه، بل تَوْبتُه فيما بينه وبينَ الله، وعلى الإمامِ إقامةُ الحدِّ الذي أوجبه الله عليه، وأخذُه بحقوقِ الناس.

وقال آخرون: بل هذه الآية معنيٌّ بالحكمِ بها، المُحارِبون الله ورسولَهُ: الحُرَّابُ من أهلِ الإسلام، مَنْ قَطَعَ منهم الطريقَ وهو مقيمٌ على إسلامه، ثم استأمن فأُومِنَ على جناياتِهِ التي جناها، وهو للمسلمين حربٌ ـ ومَن فعل ذلك منهم مرتدًّا عن الإسلام، ثم لَحِقَ بدارِ الحرب، ثم استأمنَ فأُومِنَ. قالوا: فإذا أمَّنه الإمامُ على جناياته التي سلفت، لم يكن قِبَله لأحدٍ تَبِعة في دمٍ ولا مالٍ أصابه قبل توبته، وقبلَ أمانِ الإمام إيَّاه.

وقال آخرون: معنى ذلك: كلُّ مَنْ جاء تائباً من الحُرَّاب قبل القُدْرة عليه، استأمن الإمام فأمَّنه أو لَمْ يستأمنه، بعدَ أن يجيءَ مستسلماً تاركاً للحرب.

وقال آخرون: بل عَنَى بالاستثناء في ذلك، التائبَ من حربه الله ورسولَه والسعي في الأرض فساداً بعد لحاقهِ في حربه بدارِ الكفر. فأما إذا كانت حِرَابتُه وحربُه وهو مقيمٌ في دار الإسلام. وداخلٌ في غمارِ الأمةِ، فليست توبتُه واضعةً عنه شيئاً من حدودِ الله جَلَّ وعَزَّ، ولا من حقوقِ المسلمينَ والمعاهدين، بل يُؤْخَذُ بذلك.

وقال آخرون: إنْ كانت حِرَابته وحربُه في دارِ الإسلام، وهو في غير مَنْعةٍ من فئةٍ يلجأُ إليها، ثم جاء تائباً قَبْلَ القُدْرَةِ عليه، فإنَّ توبتَهُ لا تضعُ عنه شيئاً من العقوبةِ ولا من حقوقِ الناس، وإنْ كانت حِرَابته وحَرْبه في دار الإسلام، أو هو لاحقٌ بدارِ الكفر، غير أنه في كُلِّ ذلك كان يلجأُ إلى فئةٍ تمنعه مِمَّنْ أرادَهُ من سلطانِ المسلمين، ثم جاء تائباً قبل القُدْرَةِ عليه، فإنَّ توبته تضعُ عنه كُلَّ ما كان من أحْداثه في أيامِ حِرابته تلك، إلا أنْ يكونَ أصابَ حَداً، أو أمَرَ الرُّفقة بما فيه عقوبة، أو غُرْم لمسلم أو معاهد وهو غير ملتجىءٍ إلى فئة تمنعه، فإنه يُؤْخَذُ بما أصابَ من ذلك وهو كذلك، ولا يضعُ ذلك عنه توبتُه.

وقال آخرون: تضع توبته عنه حَدَّ الله الذي وَجَبَ عليه بمحاربته، ولا يسقطُ عنه حقوق بني آدم.

وأوْلى هذه الأقوالِ في ذلك بالصواب عندي، قولُ مَنْ قال: توبةُ المحاربِ الممتنعِ بنفسه أو بجماعةٍ معه قبل القُدرةِ عليه، تضعُ عنه تَبِعاتِ الدنيا التي كانت لزمته في أيام حربه وحِرَابته، من حدودِ الله، وغُرْمٍ لازم، وقَوَدٍ وقصاص، إلَّا ما كان قائماً في يده من أموال المسلمين والمعاهدين بعينه. فيردّ على أهلهِ لإجماعِ الجميعِ على أنَّ ذلك حكم الجماعةِ الممتنعةِ المحاربةِ لله ولرسوله، الساعيةِ في الأرض فساداً على وجه الردة عن الإسلام. فكذلك حُكْمُ كُلِّ ممتنعٍ سَعَى في الأرض فساداً، جماعةً كانوا أو واحداً.

فأمَّا المستخفي بسرقته، والمتلصِّصُ على وجه اغتفال مَن سرقَهُ، والشاهرُ السلاحَ في خلاء على بعضِ السَّابلةِ، وهو عند الطلب غيرُ قادرٍ على الامتناع، فإنَّ حُكْمَ الله عليه تابَ أو لم يَتُبْ ماضٍ، وبحقوق من أخذ ماله، أو أصاب وليَّه بدم أو خَتْلٍ، مأخوذ، وتوبتهُ فيما بينه وبين الله جَلَّ وعَزَّ قياساً على إجماعِ الجميعِ على أنه لو أصابَ شيئاً من ذلك وهو للمسلمينَ سِلْمٌ، ثم صار لهم حربـاً: أنَّ حربه إياهم لن يضعَ عنه حقاً لله عَزَّ ذِكْرُه، ولا لآدمي. فكذلك حكمهُ إذا أصاب ذلك في خلاء أو باستخفاء، وهو غيرُ ممتنعٍ من السلطان بنفسه إنْ أراده، ولا له فئةٌ يلجأ إليها مانعةٌ منه.

وفي قوله: «إلَّا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم»، دليلٌ واضح لمن وُفِّق لفهمه، أنَّ الحكمَ الذي ذكره الله جَلَّ وعَزَّ في المحاربين، يجري في المسلمينَ والمعاهدين، دون المشركينَ الذين قد نَصَبُوا للمسلمين حرباً، وذلك أن ذلك لو كان حكماً في أهل الحرب من المشركين، دونَ المسلمين ودون ذمتهم، لوجَبَ أنْ لا يُسْقِطَ إسلامُهم عنهم ـ إذا أسلموا أو تابوا بعد قُدْرَتِنَا عليهم ـ ما كانَ لهم قبل إسلامهم وتوبتهم من القتل، وما للمسلمين في أهل الحرب من المشركين. وفي إجماع المسلمين أنَّ إسلامَ المشركِ الحربيِّ يضع عنه، بعد قدرةِ المسلمين عليه، ما كان واضعه عنه إسلامهُ قبلَ القُدْرَةِ عليه ما يدلُّ على أنَّ الصحيحَ من القـولِ في ذلـك قولُ مَنْ قال: «عَنَى بآية المحاربين في هذا الموضع، حُرَّاب أهل الملة أو الذمة، دونَ مَنْ سواهم من مشركي أهل الحرب».

وأمـا قولـه: «فاعلموا أنَّ الله غفور رحيم»، فإنَّ معناه: فاعلموا، أيها المؤمنونَ، أنَّ الله غير مؤاخذٍ مَنْ تابَ من أهلِ الحرب لله ولرسوله، الساعينَ في الأرض فساداً، وغيرهم بذنوبهِ، ولكنه يعفو عنه فيسترها عليه، ولا يفضحهُ بها بالعقوبةِ في الدنيا والآخرة رحيمٌ به في عفوهِ عنه، وتركه عقوبته عليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بذلك: يا أيها الذين صَدَّقُوا الله ورسوله فيما أخبرهم ووعَدَ من الثوابِ وأوعدَ من العقاب. «اتقوا الله»، يقول: أجيبوا الله فيما أمَرَكُم ونهاكم بالطاعةِ له في ذلك، وحَقِّقُوا إيمانَكم وتصديقكم ربَّكم ونبيَّكم بالصالح من أعمالكم. «وابتغوا إليه الوسيلة»، يقول: واطلبوا القُرْبَةَ إليه بالعملِ بما يُرْضيه.

و«الوسيلة»: هي «الفعيلة» من قولِ القائل: «توسلتُ إلى فلان بكذا»، بمعنى: تقرَّبتُ إليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَجَـٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٣٥﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ للمؤمنين به وبرسوله: وجاهدوا، أيها المؤمنون، أعدائي وأعداءكم في سبيلي، يعني في دِينهِ وشَريعتِه التي شرعها لعبادِه، وهي الإسلام، يقول: أتعِبُوا أنفسكم في قتالهم وحملهم على الدخولِ في الحنيفية المسلمة، «لعلكم تفلحون»، يقول: كيما تنجحوا، فتدركوا البقاء الدَّائم والخلود في جنانه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ

﴿مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٣٦﴾

يقـول عَزَّ ذِكْرُه: إنَّ الذين جَحَدُوا ربوبية ربِّهم وعبدوا غيرَه، من بني إسرائيل الذين عبدوا العجلَ، ومن غيرهم الذين عبدوا الأوثان والأصنام، وهلكوا على ذلك قبل التوبة، لو أنَّ لهم مِلكَ ما في الأرض كلِّها وضعفَهُ معه، ليفتدوا به من عقابِ الله إياهم على تركِهم أمرَهُ، وعبادَتِهم غيرَهُ يومَ القيامة، فافتدوا بذلك كُلِّهِ، ما تقبَّل الله منهم ذلك فداءً وعِوضاً من عذابِهم وعقابهم، بل هو مُعَذِّبهم في حَمِيم يوم القيامة عذاباً موجعاً لهم.

وإنما هذا إعلامٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ لليهودِ الذين كانوا بين ظهرانَيْ مُهاجَرِ رسولِ الله ﷺ: أنَّهم وغيرهم من سائر المشركين به، سواءٌ عنده فيما لهم من العذابِ الأليم والعقاب العظيم. وذلك أنهم كانوا يقولون: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً﴾، اغتراراً بالله جَلَّ وعَزَّ وكذباً عليه. فَكَذَّبهم تعالى ذِكْرُهُ بهذه الآية وبالتي بعدها، وحَسَم طمعهم، فقال لهم ولجميع الكَفَرَةِ به وبرسوله: «إنَّ الذين كَفَرُوا لو أنَّ لهم ما في الأرضِ جميعاً ومِثْلَهُ مَعَهُ ليفْتَدُوا به من عذابِ يومِ القيامةِ ما تُقُبِّلَ منهم ولهم عذابٌ أليم. يُريدون أنْ يَخْرُجُوا من النارِ وما هم بخارجينَ منها ولهم عذابٌ مقيم»، يقول لهم جَلَّ ثناؤُهُ: فلا تطمعوا أيُّها الكفرةُ في قَبُول الفديةِ منكم، ولا في خروجكم من النارِ بوسائل آبائِكم عندي بعد دُخُولِكُمُوها، إنْ أنتم مُتّم على كُفْرِكم الذي أنتم عليه، ولكن تُوبُوا إلى الله توبةً نَصُوحاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٣٧﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «يريدون أن يخرجوا من النار»، يريد هؤلاء الذين كفروا بربِّهم يوم القيامةِ، أنْ يخرجُوا من النارِ بعد دخولها، وما هم بخارجينَ منها. «ولهم عذابٌ مقيم»، يقول: لهم عذابٌ دائم ثابتٌ لايزولُ عنهم ولا ينتقلُ أبداً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ۝٣٨﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ: ومَنْ سرقَ من رجلٍ أو امرأة، فاقطعوا، أيها الناسُ، يَدَهُ ولذلك رفع «السارق والسارقة»، لأنهما غير مُعَيَّنَيْنِ، ولو أُريدَ بذلك سارقٌ وسارقةٌ بأعيانِهما، لكان وجهُ الكلام النَّصب.

وقال تعالى ذِكْرُهُ: «فاقطعوا أيديهما»، والمعنى: أيديهما اليمنى.

وقوله: «جزاءً بما كسبا نكالاً من الله»، يقول: مكافأةً لهما على سرقتهما وعملهما في التلصُّصِ بمعصيةِ الله. «نكالاً من الله»، يقول: عقوبةً من الله على لُصُوصيتهما.

وقوله: «والله عزيز حكيم»، يقولُ جَلَّ ثناؤُهُ: «والله عزيزٌ»، في انتقامهِ من هذا السارقِ والسارقةِ وغيرهما من أهلِ معاصيه. «حكيمٌ»، في حُكْمِه فيهم وقضائهِ عليهم.

يقول: فلا تُفَرِّطُوا أيها المؤمنون، في إقامة حكمي على السُّرَّاقِ وغيرهم من أهـلِ الجـرائم الذين أوجبتُ عليهم حدوداً في الدنيا عقوبةً لهم، فإني بحكمتي قضيتُ ذلك عليهم، وعلمِي بصلاحِ ذلك لهم ولكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عزَّ ذِكْرُه: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ: «فمن تاب»، من هؤلاء السراقِ، يقول: مَنْ رجع منهم عمَّا يكرههُ الله من معصيتهِ إيَّاه، إلى ما يرضاهُ من طاعته. «من بعد ظُلْمه»، و«ظلمه»، هو اعتداؤُه وعمله ما نهاهُ الله عنه من سرقةِ أموالِ الناس.

«وأصلح»، يقول: وأصلح نَفْسَهُ بحملها على مكروهها في طاعة الله، والتوبة إليه مما كان عليه من معصيته.

وقوله: «فإنَّ الله يتوب عليه»، يقول: فإنَّ الله جَلَّ وعَزَّ يرْجعه إلى ما يحبّ ويرضى، عما يكرَه ويسخط من معصيته.

وقوله: «إنَّ الله غفور رحيم»، يقول: إن الله عَزَّ ذِكْرُه ساترٌ على مَنْ تاب وأناب عن معاصيه إلى طاعته ذنوبَه، بالعفو عن عقوبته عليها يوم القيامة، وتركه فضيحتَه بها على رؤوسِ الأشهاد. «رحيمٌ»، به وبعبادهِ التائبينَ إليه من ذنوبهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عزَّ ذِكْرُه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ لنبيه محمد ﷺ: ألم يعلمْ هؤلاء ـ يعني القائلينَ: «لن تَمَسَّنَا النارُ إلا أياماً معدودة»، الزاعمينَ أنهم أبناءُ الله وأحباؤُه ـ أنَّ الله مدبِّر ما في السمواتِ وما في الأرض، ومصرفه وخالقه، لا يمتنعُ شيءٌ مما في واحدةٍ

منهما مما أرادَه، لأنَّ كُلَّ ذلك ملكهُ، وإليه أمره، ولا نسبَ بينه وبين شيءٍ مما فيهما ولا مِمًّا في واحدةٍ منهما، فيحابيه بسببِ قرابتهِ منه، فينجيهِ من عذابهِ، وهو به كافرٌ، ولأمره ونهيه مخالِفٌ أو يدخله النار وهو له مطيعٌ لِبُعْدِ قرابتهِ منه، ولكنـه يعـذِّب مَنْ يشـاء من خَلْقِهِ في الدنيا على معصيته بالقتلِ والخسفِ والمسخِ وغير ذلك من صنوف عذابه، ويغفر لمن يشاء منهم في الدنيا بالتَّوبةِ عليه من كفره ومعصيته، فينقذه من الهَلَكةِ، وينجيه من العقوبة. «والله على كل شيء قدير»، يقول: والله جَلَّ وعَزَّ على تعذيبِ مَنْ أرادَ تعذيبه من خَلْقِهِ على معصيته، وغفرانِ ما أراد غفرانَهُ منهم باستنقاذِهِ من الهلكة بالتوبةِ عليه وغير ذلك من الأمورِ كلها قادرٌ، لأنَّ الخَلْقَ خلقُه، والملكَ مُلْكُه، والعباد عباده.

وخرج قوله: «ألم تعلم أنَّ الله له ملكُ السموات والأرض»، خطاباً له ﷺ، والمعنيُّ به مَنْ ذكرتُ من فِرَقِ بني إسرائيلَ الذين كانوا بمدينة رسولِ الله ﷺ وما حَوَاليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾

تأويلُ الآية: يا أيُّها الرسولُ لا يحزنك الذين يُسارعونَ في جحودِ نُبُوَّتِكَ، والتكـذيبِ بأنكَ لي نبيٌّ، من الذين قالوا: صدَّقنا بك، يا محمدُ، أنك لله رسولٌ مبعوث، وعلمنا بذلك يقيناً، بوجودنا صِفَتَكَ في كتابنا.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ عَزَّ ذِكْـرُه: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ لنبيه محمد ﷺ: يا أيها الرسولُ لا يحزنك تسرُّع مَنْ

تسرَّع من هؤلاء المنافقينَ الذين يُظْهِرُونَ بألسنتهم تصديقَك، وهم مُعتقدونَ تكذيبكَ إلى الكفرِ بك، ولا تسرُّعُ اليهودِ إلى جحودِ نُبُوَّتِكَ. ثم وصف جَلَّ وعَزَّ له صِفَتهم، ونعتهم له بنعوتهم الذَّميمة وأفعالهم الرديئة، وأخبره مُعَزِّياً له على ما ينالُـه من الحـزنِ بتكـذيبهم إياه، مع علمهم بصـدقـه، أنَّهم أهلُ استحـلالِ الحرامِ والمآكلِ الرديئةِ والمطاعمِ الدنيئة من الرُّشَى والسُّحْت، وأنهم أهلُ إفكٍ وكذبٍ على الله، وتحريفٍ لكتابه. ثم أَعْلَمَهُ أنه مُحِلٌّ بهم خِزْيَهُ في عاجـلِ الـدنيا، وعقـابـه في آجـل الآخرة، فقال: هم «سَمَّاعُونَ للكـذب»، يعني هؤلاء المنـافقين من اليهود، يقول: هم يسمعون الكذب، و«سمعهم الكـذب»، سمعُهم قولَ أحبـارِهم: أنَّ حُكْمَ الزاني المحصن في التوراة، التحميمُ والجلد. «سماعون لقومٍ آخرين لم يأتوك»، يقول: يسمعون لأهلِ الزاني الذين أرادوا الاحتكامَ إلى رسول الله ﷺ، وهم القومُ الآخرون الذين لم يكونوا أَتوا رسولَ الله ﷺ، وكانوا مُصِرِّينَ على أنْ يأتوهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: يُحَرِّفُ هؤلاء السَّماعونَ للكذب، السماعون لقومٍ آخرين منهم لم يأتوك بَعْدُ من اليهود. «الكَلِمَ» وكان تحريفُهم ذلك، تغييرَهم حُكْمَ الله تعالى ذِكْرُهُ الذي أنزله في التوراةِ في المحصَناتِ والمحصَنينَ من الـزُّنـاةِ بالرجمِ إلى الجَلْدِ والتحميم. فقال تعالى ذِكْرُهُ: «يحرفون الكلم»، يعني: هؤلاء اليهود، والمعنيُّ حكم الكَلِم، فاكتفى بِذِكْرِ الخبرِ من «تحريف الكلم» عن ذِكْرِ «الحكم»، لمعرفةِ السامعينَ لمعناهُ. وكذلك قوله: «من بعد مواضعه»، والمعنى: من بعد وضْعِ الله ذلك مواضِعَهُ، فاكتفى بالخبر من ذِكْرِ «مواضعه»، عن ذكرِ «وضع ذلك»، كما قال تعالى ذِكْرُهُ: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ

بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [البقرة:١٧٧]، والمعنى: ولكن البِرَّ برُّ مَنْ آمنَ بالله واليومِ الآخر.

وقد يحتمل أنْ يكون معناه: يحرفون الكلم عن مواضعه فتكون «بعد» وضعت موضع «عن»، كما يقال: «جئتك عن فراغي من الشغل»، يريد: بعد فراغي من الشُّغل.

ويعني بقوله: «إنْ أُوتيتم هذا فخذوه وإنْ لم تؤتوه فاحذروا»، يقول هؤلاء الباغُون السَّماعون للكذب: إنْ أفتاكم محمدٌ بالجلدِ والتحميمِ في صاحبنا، «فَخُذُوه»، يقول: فاقبلوهُ منه، وإنْ لم يُفْتِكُمْ بذلك وأفتاكم بالرجم، فاحذروا[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ وعَزَّ: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾

وهذا تسليةٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ نبيَّه محمداً ﷺ من حزنِه على مسارعةِ الذين قَصَّ قصتهم من اليهود والمنافقين في هذه الآية. يقول له تعالى ذِكْرُهُ: لا يحزنك تسرُّعهم إلى جحودِ نبوَّتك، فإني قد حَتَمْتُ عليهم أنهم لا يتوبون من ضلالتهم، ولا يرجعون عن كُفْرِهم، للسابقِ من غضبي عليهم. وغير نافِعهم حزنُكَ على ما ترى من تَسَرُّعهم إلى ما جعلته سبباً لهلاكِهم واستحقاقِهم وَعِيدي.

ومعنى «الفتنة» في هذا الموضع: الضلالة عن قَصْدِ السبيل.

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومَنْ يُرِدِ الله، يا محمدُ، مَرْجعه بضلالتهِ عن سبيلِ

(١) انظر السيرة لابن هشام: ٢/٢١٤.

الهدى، فلنْ تملكَ له من الله استنقاذًا مما أرادَ الله به من الحيرةِ والضلالة، فلا تشعر نفسكَ الحزنَ على ما فاتكَ من اهتدائهِ للحق.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ وعَزَّ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: لا يحزُنك الذين يسارعون في الكفرِ من اليهودِ الذين وصفتُ لك صِفَتهم. وإنَّ مسارَعَتَهُم إلى ذلك، أنَّ الله قد أرادَ فتنتهم، وطَبَع على قلوبهم، ولا يهتدون أبداً. «أولئك الذين لم يُردِ الله أنْ يُطَهِّرَ قلوبهم»، يقول: هؤلاء الذين لم يرد الله أن يطهِّر من دَنَسِ الكفر ووَسخِ الشرك قُلوبَهم، بطهارةِ الإسلام ونظافةِ الإيمان، فيتوبوا، بَلْ أراد بهم الخِزْيَ في الدنيا وذلك الذلّ والهوان وفي الآخرة عذابُ جهنم خالدين فيها أبداً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِۚ﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: هؤلاء اليهودُ الذين وصفتُ لكَ، يا محمدُ، صِفَتهم، سَمَّاعونَ لِقيلِ الباطلِ والكذب، من قِيْلِ بعضِهم لبعضٍ: «محمدٌ كاذبٌ، ليس بنبيٍّ»، وقِيْلِ بعضِهم: «إنَّ حكم الزاني المحصن في التوراة الجلد والتحميم»، وغير ذلك من الأباطيلِ والإفكِ ويقبلون الرُّشَى فيأكلونها على كَذِبهم على الله وفريتهم، عليه.

وأصل «السحت»: كَلَبُ الجوع، يقال منه: «فلان مسحُوت المَعِدَة»، إذا كانَ أَكُولاً لا يُلْفَى أبداً إلا جائعاً، وإنما قيل للرشوة: «السحت»، تشبيهاً بذلك، كأن بالمسترشي من الشَّرهِ إلى أَخْذِ ما يُعطاهُ من ذلك، مثل الذي

بالمسحوتِ المعدةِ من الشَّرَهِ إلى الطعام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٤٢﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «فإنْ جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرِضْ عنهم»، إنْ جاء هؤلاء القوم الآخرون الذين لم يأتوك بعد - وهم قومُ المرأة البغيَّةِ - محتكمينَ إليك، فاحكمْ بينهم إنْ شئتَ بالحقِّ الذي جعلَهُ الله حُكماً له فيمن فَعَلَ فِعْلَ المرأة البغيَّة منهم - أو أعرِضْ عنهم فدع الحُكْمَ بينهم إنْ شئتَ والخيارُ إليكَ في ذلك.

ثم اختلف أهلُ التأويلِ في حكم هذه الآية، هل هو ثابتٌ اليوم؟ وهل للحكام من الخيارِ في الحكم والنظرِ بين أهل الذمّة والعهد إذا احتكموا إليهم، مثلُ الذي جعلَ لنبيه ﷺ في هذه الآية، أم ذلك منسوخٌ؟

فقال بعضهم: ذلك ثابتٌ اليوم، لم ينسخه شيءٌ، وللحكام من الخيار في كُلِّ دهرٍ بهذه الآية، مثلُ ما جعلَه الله لرسولِه ﷺ.

وقال آخرون: بل التخييرُ منسوخٌ، وعلى الحاكمِ إذا احتكم إليه أهلُ الذمة أن يحكُمَ بينهم بالحق، وليس له ترك النَّظرِ بينهم.

وأَوْلى القولين في ذلك عندي بالصواب، قول مَنْ قال: إنَّ حكم هذه الآية ثابتٌ لم ينسخ، وأنَّ للحكّام من الخيارِ في الحكم بين أهل العهد إذا ارتفعوا إليهم فاحتكموا، وتركِ الحكم بينهم والنظر، مثل الذي جعله الله لرسولِهِ ﷺ من ذلك في هذه الآية.

المائدة: ٤٢

وإنما قلنا ذلك أوْلاهما بالصواب، لأنَّ القائلين إنَّ حكم هذه الآية منسوخ، زَعموا أنه نسخ بقوله: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ﴾ [المائدة: ٤٩] وقد دَلَّلْنَا في كتابنا «كتاب البيان عن أصول الأحكام»: أنَّ النسخَ لا يكون نسخاً، إلا ما كانَ نفياً لحكمٍ غَيْرِه بكلِّ معانيه، حتى لا يجوز اجتماع الحكم بالأمرين جميعاً على صِحّته بوجهٍ من الوجوه بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

وإذْ كان ذلك كذلك وكان غير مستحيل في الكلام أن يقالَ: «وأن احكم بينهم بما أنزل الله»، ومعناه: وأنِ احكمْ بينهم بما أنزلَ الله إذا حكمتَ بينهم، باختيارك الحكم بينهم، إذا اخترتَ ذلك، ولم تختر الإعراضَ عنهم، إذ كان قد تقدَّم إعلامُ المَقُولِ لَهُ ذلك من قائلِه: إنَّ له الخيار في الحكم وترك الحكم. كان معلوماً بذلك أنْ لا دلالةَ في قوله: «وأن احكم بينهم بما أنزل الله»، أنه ناسخٌ قوله: «فإن جاؤوك فاحْكُمْ بينهم أو أَعْرِضْ عنهم وإن تُعْرِضْ عنهم فلن يضروك شيئاً وإنْ حكمتَ فاحكم بينهم بالقسط»، لما وصفنا من احتمالِ ذلك ما بَيَّنَّا، بل هو دليلٌ على مثل الذي دلَّ عليه قوله: «وإنْ حكمتَ فاحكم بينهم بالقسط».

وإذْ لم يكن في ظاهر التنزيلِ دليلٌ على نسخِ إحدى الآيتين الأخرى، ولا نفي أحدِ الأمريْنِ حُكْم الآخرِ ولم يكن عن رسولِ الله ﷺ خبرٌ يصحُّ بأنَّ أحدهما ناسخٌ صاحبَه ـ ولا من المسلمين على ذلك إجماعٌ ـ صَحَّ ما قلنا من أنَّ كِلاَ الأمرين يؤيِّد أحدهما صاحبه، ويوافق حكمُه حكمَه، ولا نسخَ في أحدهما للآخر.

وأما قوله: «وإن تُعْرِضْ عنهم فلن يضروك شيئاً»، فإنَّ معناه: وإن تعرض يا محمد، عن المحتكمينَ إليك من أهلِ الكتاب، فتدعَ النظرَ بينهم فيما

احتكموا فيه إليك، فلا تحكم فيه بينهم. «فلن يضروك شيئاً»، يقول: فلن يَقْدِرُوا لك على ضُرٍّ في دِينٍ ولا دنيا، فَدَعِ النظرَ بينهم إذا اخترتَ تَرْكَ النظرِ بينهم.

وأما قوله: «وإنْ حكمتَ فاحكم بينهم بالقسط»، فإنَّ معناه: وإن اخترتَ الحكم والنَظَر، يا محمدُ، بين أهلِ العهدِ إذا أتوك. «فاحكم بينهم بالقسط»، وهو العدلُ، وذلك هو الحكمُ بما جعله الله حكماً في مثله على جميع خَلْقِه من أمةِ نبيِّنا ﷺ.

وأما قوله: «إن الله يحب المقسطين»، فمعناه: إنَّ الله يُحِبُّ العادلينَ في حكمهم بين الناس، القاضينَ بينهم بحكمِ الله الذي أنزله في كتابه وأَمْرِه أنبياءَه صلوات الله عليهم.

يقال منه: «أقسط الحاكم في حكمه»، إذا عَدَلَ وقضى بالحق، «يُقْسِط إقساطاً» وأما «القَسْطُ»، فمعناه: الجور، ومنه قول الله تعالى ذِكْرُهُ: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾ [الجن: ١٥]، يعني بذلك: الجائرينَ عن الحق.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ: وكيف يُحَكِّمُكَ هؤلاء اليهود، يا محمد، بينهم، فيرضونَ بك حكماً بينهم. «وعندهم التوراةُ»، التي أنزلتها على موسى، التي يقرُّون بها أنها حق، وأنها كتابي الذي أنزلتهُ إلى نبيّي، وأنَّ ما فيه من حكمٍ فمن حكمي، يعلمونَ ذلك لا يتناكرونه ولا يتدافعونه، ويعلمون أنَّ حُكْمي فيها على الزاني المحصن الرجم، وهم مع علمهم بذلك. «يَتَوَلَّوْنَ»، يقول:

يتركون الحكمَ به، بعد العلمِ بحكمي فيه، جراءةً عليَّ وعصياناً لي.

وهـذا، وإنْ كان من الله تعالى ذِكْرُهُ خطاباً لنبيه ﷺ، فإنه تقريعٌ منه لليهودِ الذين نزلت فيهم هذه الآية. يقول لهم تعالى ذِكْرُهُ: كيف تُقِرُّونَ، أيها اليهود، بحكم نبيِّي محمد ﷺ، مع جحودكم نبوته وتكذيبكم إياه، وأنتم تتركون حُكْمي الذي تُقِرُّونَ به أنه حَقٌّ عليكم واجبٌ، جاءكم به موسى من عندِ الله؟ يقول: فإذْ كنتم تتركون حكمي الذي جاءكم به موسى الذي تقرّون بنبوّته في كتابي، فأنتم بتركِ حكمي الذي يخبركم به نبيِّي محمدٌ أنه حُكْمي - أحْرَى، مع جحودكم نبوّته.

ثم قال تعالى ذِكْرُهُ مخبراً عن حالِ هؤلاء اليهود الذين وصف صِفَتهم في هذه الآية عنـده، وحال نظرائِهم من الجائرينَ عن حُكْمِهِ، الزائلينَ عن محجَّةِ الحق. «وما أولئك بالمؤمنين»، يقول: ليس مَنْ فَعَلَ هذا الفعل - أي: مَنْ تَوَلَّى عن حكم الله، الذي حكم به في كتابه الذي أنزله على نبيه، في خلقه بالذي صدَّق الله ورسوله فأقرَّ بتوحيدِه ونبوّةِ نبيه ﷺ، لأنَّ ذلك ليس من فِعْلِ أهلِ الإيمان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنا أنزلنا التوراة فيها بيانُ ما سألكَ هؤلاء اليهود عنه من حُكْمِ الزانيين المحصنين. «ونورٌ»، يقول: فيها جَلَاء ما أظلمَ عليهم، وضياءُ ما التبسَ من الحكم. «يحكمُ بها النبيون الذين أسلموا»، يقول: يحكمُ بحكمِ التوراةِ في ذلك، أي: فيما احتكموا إلى النبيِّ ﷺ فيه من أمر الزانيين: «النبيُّونَ الذين أسلموا»، وهم الذين أذْعَنُوا لحكمِ الله وأقَرُّوا به.

وإنما عَنَى الله تعالى ذِكْرُهُ بذلك نبيّنا محمداً ﷺ، في حُكْمِهِ على الزانيين المحصنين من اليهود بالرجم، وفي تسويته بين دمِ قتلى النَّضير وقريظة في القِصاص والدِّية، ومَنْ قبل محمد من الأنبياء يحكم بما فيها من حكم الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ويحكمُ بالتوراةِ وأحكامِها التي أنزل الله فيها في كل زمان ـ على ما أمر بالحكم به فيها ـ مع النبيينَ الذين أسلَمُوا. «الربانيون والأحبار».

و«الربانيون» جمع «ربَّانيّ»، وهم العُلماء الحكماءُ البُصَراء بسياسةِ الناس، وتدبير أمورهم، والقيام بمصالحهم. و«الأحبار»، هم العلماء.

وأما «الأحبار»، فإنهم جمع «حَبْر»، وهم العالمُ المحكم للشرع، ومنه قيل لِكَعْب: «كعب الأحبار».

وأما قوله: «بما اسْتُحْفِظُوا من كتابِ الله»، فإن معناه: يحكم النبيون الذين أسلموا بحكمِ التوراة، والربانيون والأحبار ـ يعني العلماء ـ بما استُودِعُوا علمه من كتابِ الله الذي هو التوراة.

و«الباء» في قوله: «بما استحفظوا»، من صلة «الأحبار».

وأما قوله: «وكانوا عليه شهداء»، فإنه يعني: أنَّ الربانيين والأحبار بما استودِعُوا من كتاب الله، يحكمون بالتوراةِ مع النبيين الذين أسلموا للذين هادوا، وكانوا على حُكْمِ النبيين الذين أسلموا للذين هادوا شهداء أنهم قَضوا عليهم بكتابِ الله الذي أنزله على نَبِيِّهِ موسى وقضائه عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لعلماءِ اليهودِ وأحبارهم: لا تخشوا الناسَ في تنفيذ حكمي الذي حكمتُ به على عبادي، وإمضائه عليهم على ما أمرتُ، فإنهم لا يقدرون لكم على ضرٍّ ولا نفعٍ إلَّا بإذني، ولا تكتموا الرجمَ الذي جعلتهُ حُكماً في التوراة على الزانيين المحصنين، ولكن اخشوني دونَ كُلِّ أحدٍ من خَلْقِي، فإنَّ النفعَ والضرَ بيدي، وخافوا عقابي في كتمانكم ما استُحفِظتم من كتابي.

وأما قوله: «ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً»، يقول: ولا تأخذوا بتركِ الحُكْمِ بآياتِ كتابي الذي أنزلتهُ على موسى، أيها الأحبارُ، عِوَضاً خسيساً وذلك هو «الثمنُ القليل».

وإنما أراد تعالى ذِكْرُهُ، نَهْيَهُمْ عن أكلِ السُّحْتِ على تحرِيفهم كتابَ الله، وتغييرهم حُكْمَهُ عما حكم به في الزانيين المحصنين، ، وغير ذلك من الأحكام التي بَدَّلُوها طلباً منهم للرشَى.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومَنْ كتم حُكمَ الله الذي أنزله في كتابه وجعله حَكَماً بين عباده، فأخفاهُ وحكَمَ بغيرِهِ، كحكمِ اليهودِ في الزانيين المحصنين بالتجبيةِ والتحميم، وكتمـانهم الرجم، وكقضائِهم في بعضٍ قتلاهم بديةٍ كاملةٍ وفي بعضٍ بنصفِ الدية، وفي الأشراف بالقِصاص، وفي الأدنياء بالديةِ، وقد سوَّى

الله بين جميعهم في الحكم عليهم في التوراة. «فأولئك هم الكافرون»، يقول: هؤلاء الذين لم يَحْكُموا بما أنزلَ الله في كتابه، ولكن بَدَّلُوا وغَيَّرُوا حكمه، وكتموا الحقَّ الذي أنزله في كتابه. «هم الكافرون»، يقول: هم الذين سَتَروا الحَقَّ الذي كان عليهم كشفُه وتبيينهُ، وغطَّوهُ عن الناسِ، وأظهروا لهم غيره، وقضوا به، لسحتٍ أخذُوه منهم عليه.

وقد اختلف أهلُ التأويل في تأويل «الكفر» في هذا الموضع:

فقال بعضهم بنحوِ ما قُلْنا في ذلك، من أنه عَنَى به اليهودَ الذين حَرَّفوا كتابَ الله وبدَّلُوا حكمه.

وقال بعضهم: عَنَى بـ «الكافرين»، أهلَ الإسلام، وبـ «الظالمين» اليهود، وبـ «الفاسقين» النصارى.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك: كفرٌ دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسقٌ دون فسق.

وقال آخرون: بل نزلت هذه الآياتُ في أهلِ الكتاب، وهي مرادٌ بها جميعُ الناس، مسلموهم وكُفَّارهم.

وقال آخرون: معنى ذلك: ومَنْ لم يحكمْ بما أنزلَ الله جاحداً به. فأما «الظلم» و«الفسق»، فهو للمُقِرِّ به.

وأوْلى هذه الأقوال عندي بالصواب، قولُ مَنْ قال: نزلت هذه الآيات في كفَّارِ أهلِ الكتابِ، لأنَّ ما قَبْلَها وما بَعْدَها من الآياتِ ففيهم نزلتْ، وهم المعنيُّونَ بها، وهذه الآياتُ سياقُ الخبرِ عنهم، فكونُها خبراً عنهم أوْلى.

فإنْ قال قائل: فإنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ قد عَمَّ بالخبرِ بذلك عن جميعِ مَنْ لم يَحْكُمْ بما أنزلَ الله، فكيف جعلته خاصًّا؟

قيل: إنَّ الله تعالى عَمَّ بالخبر بذلك عن قومٍ كانوا بحكم الله الذي حكم به في كتابهِ جاحدينَ، فأخبر عنهم أنهم بتركِهم الحكمَ، على سبيلِ ما تركوه، كافرونَ. وكذلك القولُ في كُلِّ مَنْ لم يحكمْ بما أنزلَ الله جاحداً به، هو بالله كافر، كما قال ابن عباس، لأنه بجحودهِ حُكْمَ الله بعدَ عِلْمِه أنه أنزله في كتابه، نظير جحودهِ نبوَّة نبيِّه بعد عِلْمِهِ أنه نبيٌّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ عَزَّ ذِكْـرُه: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وكتبنا على هؤلاء اليهود الذين يُحَكِّمونكَ، يا محمدُ، وعندهم التوراةُ فيها حكمُ الله.

ويعني بقوله: «وكتبنا»، وفَرَضْنَا عليهم فيها أنْ يحكموا في النَّفس إذا قتلت نفساً بغير حق. «بالنفس»، يعني: أنْ تُقْتَلَ النفسُ القاتلةُ بالنفسِ المقتولةِ، «والعين بالعين»، يقول: وفرضنا عليهم فيها أنْ يفقأوا العينَ التي فقأ صاحبها مِثْلَها من نفسٍ أخرَى بالعينِ المفقوءة ـ ويُجْدَع الأنفُ بالأنف ـ وتُقْطَع الأذنُ بالأذن ـ وتُقْلَع السنُّ بالسنّ ـ ويُقْتَصَّ من الجارحِ غيره ظلماً للمجروح.

وهذا إخبارٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ عن اليهودِ وتعزية منه له عن كُفْرِ مَنْ كَفَرَ منهم به بعد إقرارهِ بنبوته، وإدباره عنه بعد إقباله ـ وتعريفٌ منه له جراءتهم قديماً وحديثاً على ربِّهم وعلى رُسُلِ ربِّهم، وتقدُّمهم على كتابِ الله بالتحريف والتبديل.

يقول تعالى ذِكْرُهُ له: وكيف يرضى هؤلاء اليهود، يا محمدُ، بحكمكَ،

إذْ جاؤوا يُحَكِّمـونكَ وعندهم التوراةُ التي يُقِرُّونَ بها أنها كتابي ووحيي إلى رسولي موسى ﷺ، فيها حُكْمِي بالرجمِ على الزُّنَاةِ المحصنين، وقضائي بينهم أنَّ مَنْ قتَلَ نفساً ظلماً فهو بها قَوَدٌ، ومن فقأ عيناً بغير حَقٍّ فعينه بها مفقوءة قِصَاصاً، ومَنْ جَدَعَ أنفاً فأنفهُ به مجدوع، ومَنْ قلع سنًّا فسنُّه بها مقلوعة، ومَنْ جَرَحَ غيره جرحاً فهو مقتصٌّ منه مثل الجرح الذي جرحه؟ - ثم هم مع الحكم الذي عندهم في التوراة من أحكامي، يتولون عنه ويتركون العملَ به، يقول: فهم بتركِ حكمكَ، وبسخطِ قضائكَ بينهم، أحْرَى وأولَى.

فهذا يستوي فيه أحرارُ المسلمينَ فيما بينهم، رجالهم ونساؤهم، إذا كان في النفس وما دون النفس، ويستوي فيه العبيدُ رجالهم ونساؤهم فيما بينهم، إذا كان عمداً في النفس وما دون النفس.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ

اختلف أهلُ التأويل في المعنيِّ به: «فمن تصدق به فهو كفارة له».

فقال بعضهم: عَنَى بذلك المجروحَ ووليَّ القتيل.

وقال آخرون: عَنَى بذلك الجارحَ. وقالوا: معنى الآية: فمن تَصَدَّقَ بما وَجَبَ له من قوَدٍ أو قصاصٍ على مَنْ وَجَبَ ذلك له عليه، فعفا عنه، فعفوهُ ذلك عن الجاني كفّارة لذنبِ الجاني المجرم، كما القِصاص منه كفّارةٌ له. قالوا: فأما أجْر العافِي المتصدِّق، فَعَلى الله.

وأوْلى القولين في ذلك عندي بالصواب، قولُ مَنْ قال: عَنَى بقوله: «فمن تصدّق به فهو كفارة له»، المجروح فلأن تكون «الهاء» في قوله: «له» عائدةً على «مَنْ»، أوْلى من أن تكون مِنْ ذِكْر مَنْ لم يجر له ذِكْرٌ إلاَّ بالمعنى دون التصريح، وأحْرَى، إذِ الصدقةُ هي المُكَفِّرةُ ذنبَ صاحبها دونَ المتصدِّقِ عليه

في سائرِ الصدقات غير هذه، فالواجبُ أنْ يكون سبيلُ هذه سبيلَ غيرها من الصَّدقات.

فإنْ ظَنَّ ظانٌّ أنَّ القِصاصَ إذْ كان يكفّر ذنبَ صاحبهِ المقتصّ منه الذي أتاه في قتل مَنْ قتله ظلماً، لقولِ النبيِّ ﷺ إذْ أخذَ البيعةَ على أصحابه: «أنْ لاتقتلوا ولا تزنُوا ولا تسرقوا»، ثم قال: «فمن فَعَل من ذلك شيئاً فأقيمَ عليه حَدُّهُ فهو كَفَّارته»[1] فالواجب أن يكونَ عفوُ العافي المجنيِّ عليه، أو ولي المقتول عنه نظيرَه، في أنَّ ذلك له كفارة. فإنَّ ذلك لو وجب أن يكون كذلك، لوجب أن يكون عفوُ المقذوفِ عن قاذفهِ بالزنا، وتَركه أخذه بالواجبِ له من الحدِّ وقد قذفـه قاذِفُـه وهو عفيفٌ مسلم مُحْصَن، كفَّارةً للقاذفِ من ذنبهِ الذي ركبه، ومعصيته التي أتاها. وذلك ما لا نعلمُ قائلاً من أهلِ العلم يقوله.

فإذْ كان غير جائـزٍ أن يكون المقذوف ـ الذي وصفنا أمره ـ أخذَ قاذفه بالواجب له من الحَدِّ كفارةً للقاذفِ من ذنبه الذي ركبه، كان كذلك غير جائزٍ أنْ يكون تركُ المجروحِ أخذَ الجارح بحقِّه من القصاص، كفارةً للجارح من ذنبه الذي ركبه.

فإنْ قال قائل: أَوَ ليسَ للمجروح عندك أخْذُ جارحه بديةِ جُرْحِه مكانَ القصاص؟

قيل له: بلى!

فإنْ قال: أفـرأيتَ لو اختـار الـدِّيةَ ثم عفـا عنهـا، أكانت له قِبلَه في الآخرةِ تَبعةٌ؟

---

(١) قطعـة من حديث رواه المؤلف معلقاً غير مسند، وهو في الصحيحين: **البخاري** (٦٧٨٤) ومسلم (١٧٠٩) من حديث عبادة بن الصامت. وانظر طرقه الأخرى في فتح الباري: ٨٤/١٢.

قيل له: هذا كلامٌ عندنا محالٌ. وذلك أنه لا يكونُ عندنا مختاراً لديةٍ إلّا وهو لها آخِذٌ. فأما العفوُ فإنما هو عَفْوٌ عن الدمِ ـ وقد دلَّلْنا على صحة ذلك في موضع غيرِ هذا، بما أغْنَى عن تكريرهِ في هذا الموضع ـ إلا أنْ يكونَ مُراداً بذلك هِبَتُها لمن أُخِذَتْ منه بعد الأخذِ. مع أنَّ عفوه عن الديةِ بعد اختيارهِ إياها لو صَحَّ، لم يكن في صحة ذلك ما يوجبُ أنْ يكون المعفوُّ له عنها بريئاً من عقوبةِ ذنبهِ عند الله، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ أوعدَ قاتلَ المؤمنِ بما أوعدَهُ به إن لم يَتُبْ من ذنبهِ، والديةُ مأخوذةٌ منه، أَحَبَّ أم سخط. والتوبةُ من التائب إنما تكون توبةً إذا اختارها وأرادَها وآثرها على الإصرار.

فإنْ ظَنَّ ظانٌّ أنَّ ذلك وإنْ كان كذلك، فقد يجب أن يكون له كفارةً، كما كان القصاص له كفارةً، فإنَّا إنما جعلنا القِصاص له كفارةً مع نَدَمهِ وبَذْله نفسَه لأخذِ الحق منها تَنَصُّلاً من ذنبهِ، بخبرِ النبيِّ ﷺ. فأما الدية إذا اختارها المجروحُ ثم عفا عنها، فلم يُقْض عليه بحدِّ ذنبه، فيكون مِمَّنْ دخلَ في حكم النبيِّ ﷺ وقوله: «فَمَنْ أُقيمَ عليه الحَدُّ فهو كفارته»[1].

وقد يجوز أنْ يكون القائلون إنه عَنَى بذلك الجارحَ، أرادوا المعنى الذي ذُكر عن عروة بن الزبير الذي أخبر به عبدالله بن كثير، عن مجاهد قال: إذا أصابَ رجلٌ رجلاً، ولا يعلم المُصابُ مَنْ أصابه، فاعترف له المصيبُ، فهو كفارةٌ للمُصيب. قال: وكان مجاهد يقول عند هذا: أصاب عروة بن الزبير عينَ إنسانٍ عند الركن فيما يستلمون، فقال له: يا هذا، أنا عروةُ بن الزبير، فإنْ كان بعينكَ بأسٌ فأنَا بها!

وإذا كان الأمرُ من الجارحِ على نحوِ ما كانَ من عروةَ من خطأ فعلٍ على غيرِ عَمْدٍ، ثم اعترفَ للذي أصابه بما أصابه، فعفا له المصابُ بذلك عن

---

(١) تقدم تخريجه.

حقِّه قِبَلَهُ، فلا تبعةَ له حينئذٍ قِبَلَ المُصيبِ في الدنيا ولا في الآخرة. لأنَّ الذي كان وجب له قبله مالٌ لا قِصاص، وقد أبرأَهُ منه: فإبراؤُه منه، كفَّارةٌ للمبرَّأ من حَقِّهِ الذي كان له أخذه به، فلا طَلِبَةَ له بسببِ ذلك قِبَلَهُ في الدنيا ولا في الآخرة، ولا عقوبةَ تلزمهُ بها بما كانَ منه إلى مَنْ أصابه، لأنه لم يَتَعَمَّدْ إصابتَهُ بما أصابَهُ به، فيكون بفعله آثماً يستحقُّ به العقوبةَ من ربه. لأنَّ الله عزَّ وجلَّ قد وضع الجُناحَ عن عبادهِ فيما أخطأوا فيه ولم يتعمَّدُوه من أفعالِهم، فقال في كتابه: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥].

و«التصدق»، في هذا الموضع، بالدم، العفو عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومَنْ لم يحكم بما أنزلَ الله في التوراةِ من قَوَدِ النفس القاتلة قِصاصاً بالنفسِ المقتولة ظلماً، ولم يفقأ عينَ الفاقئ بعين المفقوء ظلماً، قِصاصاً ممن أمَرَهُ الله به بذلك في كتابه، ولكنْ أقادَ من بعضٍ ولم يُقِدْ من بعضٍ، أو قتل في بعض اثنين بواحد، فإنَّ مَنْ يفعل ذلك من «الظالمين». يعني: مِمَّنْ جارَ عن حُكْمِ الله، ووضع فِعْلَهُ ما فعلَ من ذلك في غيرِ موضعهِ الذي جعله الله له موضعاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾

يعني تعـالى ذِكْـرُهُ بقوله: «وقَفَّيْنا على آثارهم»، أتبعنا. يقول: أتبعنا عيسى بنَ مريم على آثارِ النبيين الذين أسلموا من قبلك، يا محمدُ، فبعثناه نبيًّا مُصَدِّقاً لكتابنا الذي أنزلناهُ إلى موسى من قبله أنَّهُ حَقٌّ، وأنَّ العملَ بما لم ينسخه الإنجيلُ منه فرضٌ واجب. «وآتيناهُ الإنجيل»، يقول: وأنزلنا إليه كتابنا الذي اسمه «الإنجيل». «فيه هدى ونور»، يقول: في الإنجيل «هدىً»، وهو بيانُ ما جَهِلَهُ الناسُ من حُكْمِ الله في زمانه. «ونور»، يقول: وضياءٌ منْ عَمَى الجهالةِ. «ومصدقاً لما بين يديه»، يقول: أوحينا إليه ذلك وأنزلناهُ إليه بتصديقِ ما كانَ قَبْلَهُ من كُتُبِ الله التي كان أنزلها على كُلِّ أمةٍ أُنزل إلى نبيِّها كتابٌ للعملِ بما أنزل إلى نبيهم في ذلك الكتاب، من تحليلِ ما حَلَّلَ، وتحريمِ ما حَرَّمَ. «وهدى وموعظة»، يقول: أنزلنا الإنجيلَ إلى عيسى مصدِّقاً للكتب التي قبله، وبيانـاً لحكم الله الـذي ارتضاهُ لعباده المتَّقين في زمان عيسى. «وموعظة»، لهم يقول: وزَجْراً لهم عَمَّا يكرهه الله إلى ما يحبُّه من الأعمالِ، وتنبيهاً لهم عليه.

و«المتقـون»، هـم الذين خافوا الله وحَذِروا عِقابَهُ، فاتقوه بطاعته فيما أمرهم، وحذروه بتركِ ما نهاهم عن فعله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾

اختلفت القَرَأَةُ في قراءةِ قوله: «وليحكم أهلُ الإنجيل».

فقـرأتـه قَرَأَةُ الحجـازِ والبصرة وبعض الكوفيين: ﴿وَلْيَحْكُمْ﴾ بتسكين «اللام»، على وجهِ الأمرِ من الله لأهلِ الإنجيل: أنْ يحكموا بما أنزلَ الله فيه من أحكامه. وكأنَّ مَنْ قرأ ذلك كذلك، أراد: وآتيناهُ الإنجيلَ فيه هدى ونورٌ

ومُصَدِّقاً لما بينَ يديه من التوراةِ، وأمرنا أهْلَهُ أنْ يحكموا بما أنزلَ الله فيه فيكون في الكلام محذوف، ترك استغناءً بما ذكر عما حُذِف.

وقرأ ذلك جماعةٌ من أهل الكوفة: ﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الإنْجِيلِ﴾ بكسر «اللام»، من «ليحكم»، بمعنى: كي يحكمَ أهلُ الإنجيل. وكأنَّ معنى مَنْ قرأ ذلك كذلكَ: وآتيناه الإنجيلَ فيه هدى ونورٌ ومُصَدِّقاً لما بين يديهِ من التوراة، كي يَحْكُمَ أهلُه بما فيه من حُكْمِ الله.

والذي نقول به في ذلك، أنهما قراءتان مشهورتان متقاربتا المعنى، فبأيِّ ذلك قرأ قارئٌ فمصيبٌ فيه الصوابَ.

وذلك أن الله تعالى لم ينزل كتاباً على نبيٍّ من أنبيائهِ إلَّا ليعمل بما فيه أهلُه الذين أُمِرُوا بالعملِ بما فيه، ولم ينزله عليهم إلَّا وقد أمرهم بالعمل بما فيه، فللعمل بما فيه أنزله، وأمراً بالعملِ بما فيه أنزله[1]. فكذلك الإنجيلُ، إذ كان من كُتُبِ الله التي أنزلها على أنبيائه، فللعمل بما فيه أنزلَهُ على عيسى، وأمراً بالعملِ به أهلَه أنزله عليه. فسواءٌ قُرِىء ذلك على وَجْهِ الأمرِ بتسكين «اللام»، أو قُرِىءَ على وجه الخبر بكسرها، لاتفاق معنييهما.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾

وهذا خطابٌ من الله تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ. يقول تعالى ـ ذِكْرُه: أنزلنا إليك، يامحمدُ، «الكتابَ»، وهو القرآنُ الذي أنزله عليه ويعني بقوله: «بالحق»، بالصدقِ ولا كَذِبَ فيه، ولا شَكَّ أنه من عند الله، «مصدقاً لما بين يديه من الكتاب»، يقول: أنزلناه بتصديقِ ماقَبْلَهُ من كُتُبِ الله التي أنزلها إلى

(١) ذكر ذلك ليبين تقارب معنى القراءتين.

أنبيائـه. «ومهيمناً عليه»، يقول: أنزلنا الكتاب الذي أنزلناه إليكَ، يامحمدُ، مُصَدِّقاً للكتبِ قبله، وشهيداً عليها أنها حَقٌّ من عند الله، أميناً عليها، حافظاً لها.

وأصـلُ «الهيمنـة»، الحفظ والارتقاب. يقال، إذا رَقَب الرجلُ الشيءَ وحفظه وشَهِده: «قد هَيْمَن فلانٌ عليه، فهو يُهَيْمِنُ هيمنة، وهو عليه مهيمن».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾

وهذا أمرٌ من الله تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ، أنِ يحكم بين المحتكمينَ إليه من أهلِ الكتاب وسائرِ أهلِ الملل بكتابه الذي أنزلهِ إليه، وهو القرآن الذي خصّه بشريعته. يقول تعالى ذِكْرُه: احكم، يامحمدُ، بين أهلِ الكتاب والمشركين بما أُنزل إليكَ من كتابي وأحكامي في كُلِّ ما احتكموا فيه إليك، من الحدود والجُرُوح والقَوَدِ والنفوس، فارْجُمِ الزاني المحصَن، واقتلِ النفسَ القاتلةَ بالنفسِ المقتولةِ ظُلْماً، وافقأ العينَ بالعينِ، واجدع الأنفَ بالأنفِ، فإني أنزلتُ إليك القرآن مصدّقاً في ذلك مابين يديه من الكتبِ، ومهيمناً عليه رقيباً، يقضي على ماقَبْلَهُ من سائرِ الكتب قبلَه، ولا تَتَّبِعْ أهواءَ هؤلاء اليهود ـ الذين يقـولـون: إنْ أُوتيتم الجلدَ في الـزاني المحصن دونَ الرجم، وقتلَ الوضيعِ بالشريفِ إذا قتله، وتركَ قَتْلِ الشريفِ بالوضيع إذا قتله، فَخُذُوهُ، وإنْ لم تُؤْتَوهُ فاحْذَرُوا[1] ـ عن الذي جاءكَ من عندِ الله من الحَقِّ، وهو كتابُ الله الذي أنزله إليك. يقول له: اعملْ بكتابي الذي أنزلته إليكَ إذا احتكموا إليك فاخترتَ

(١) قطعة من حديث البراء بن عازب الذي أخرجه مسلم في تغيير اليهود لحكم الزاني وتلاعبهم فيه (١٧٠٠).

الحُكْمَ عليهم، ولا تتركنَّ العملَ بذلك اتباعاً منكَ أهواءَهم، وإيثاراً لها على الحَقِّ الذي أنزلتهُ إليكَ في كتابي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لِكُلِّ قومٍ منكم جعلنا شرعةً.

و«الشرعةُ» هي «الشريعة» بعينها، تُجْمَعُ «الشِّرعةُ» «شِرَعاً»، «والشريعةُ» «شرائعَ». ولو جمعت «الشرعة» «شرائع»، كان صواباً، لأنَّ معناها ومعنى «الشريعة» واحدٌ، فيردّها عند الجمع إلى لفظِ نظيرها. وكُلُّ ماشرعت فيه من شيء فهو «شريعة». ومن ذلك قيل: لشريعةِ الماء «شريعة»، لأنه يُشْرع منها إلى الماء. ومنه سُمِّيَتْ شرائعُ الإسلام «شرائع»، لشروع أهله فيه. ومنه قيل للقوم إذا تساووا في الشيء: «هم شَرَعٌ»، سواءٌ.

وأما «المنهاج»، فإنَّ أصله: الطريقُ البَيِّنُ الواضحُ، يقال منه: «هو طريق نَهْجٌ، ومَنْهجٌ»، بَيِّنٌ.

فمعنى الكلام: لكلِّ قومٍ منكم جعلنا طريقاً إلى الحَقِّ يَؤُمُّهُ، وسبيلاً واضحاً يعمل به.

ثم اختلف أهلُ التأويل في المعنيِّ بقوله: «لكلٍّ جعلنا منكم».

فقال بعضهم: عَنَى بذلك أهلَ المللِ المختلفة، أي: أنَّ الله جعل لكل مِلَّةٍ شريعةً ومنهاجاً.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك أُمَّةَ محمدٍ ﷺ. وقالوا: إنما معنى الكلام: قد جعلنا الكتابَ الذي أنزلناه إلى نبينا محمدٍ ﷺ، أيها الناس، لكُلِّكم - أي لِكُلِّ مَنْ دخل في الإسلام وأقرَّ بمحمدٍ ﷺ أنه لي نبيٌّ - شِرْعةً ومنهاجاً.

وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب، قولُ مَنْ قال: معناه: لِكُلِّ أهلِ ملة منكم أيها الأممُ، جعلنا شِرعةً ومنهاجاً.

وإنما قلنا ذلك أوْلى بالصواب، لقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، ولو كان عَنَى بقوله: «لكل جعلنا منكم»، أمّة محمد، وهم أمّة واحدةٌ، لم يكن لقوله: «ولو شاء الله لجعلكم أمةً واحدة»، وقد فعل ذلك فجعلهم أمةً واحدة ـ معنىً مفهوم. ولكن معنى ذلك، على ماجَرَى به الخطابُ من اللهِ لنبيهِ محمدٍ ﷺ: أنه ذكر ماكتب على بني إسرائيل في التوراةِ، وتقدم إليهم بالعملِ بما فيها، ثم ذكر أنه قَفَّى بعيسى بنِ مريمَ على آثارِ الأنبياءِ قَبْلَهُ، وأنزل عليه الإنجيلَ، وأمر مَنْ بَعثه إليه بالعملِ بما فيه. ثم ذكر نبيَّنا محمداً ﷺ، وأخبره أنه أنزلَ إليه الكتابَ مصدِّقاً لما بين يديه من الكتاب، وأمره بالعملِ بما فيه، والحكم بما أنزل إليه فيه دونَ ما في سائرِ الكتب غيره ـ وأعلمه أنه قد جعل له ولأمته شريعةً غيرَ شرائع الأنبياء والأممِ قبلَهُ الذين قَصَّ عليه قصصَهُم، وإنْ كان دِيْنُهُ ودِيْنُهم ـ في توحيدِ الله، والإقرارِ بما جاءهم به من عنده، والانتهاء إلى أمرِهِ ونهيه ـ واحداً، فهم مختلفُو الأحوالِ فيما شرع لكم واحد منهم ولأمته، فيما أحلَّ لهم وحرَّمَ عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولو شاء ربكم لجعلَ شرائعكم واحدةً، ولم يجعل لكل أمة شريعةً ومنهاجاً غيرَ شرائع الأمم الأخر ومنهاجهم، فكنتم تكونون أمةً واحدةً لا تختلفُ شرائعكم ومنهاجكم، ولكنه تعالى ذِكْرُه يعلمُ ذلك، فخالفَ بين شرائِعكم ليخْتَبِرَكُم، فيعرف المطيعَ منكم من العاصي، والعاملَ بما أمَرَهُ في الكتاب الذي أنزله إلى نبيِّه ﷺ من المخالِفِ.

و«الابتلاء»، هو الاختبار.

وقوله: «فيما آتاكم»، يعني: فيما أنزلَ عليكم من الكتب.

فإنْ قال قائل: وكيف قال: «ليبلوكم فيما آتاكم»، ومَن المخاطبُ بذلك؟ وقد ذكرت أنّ المعنيَّ بقوله: «لِكُلٍّ جعلنا منكم شِرْعةً ومنهاجاً»، نبيُّنا مع الأنبياء الذين مضوا قبله وأممهم، والذين قبل نبيّنا ﷺ على حِدَةٍ؟

قيل: إنَّ الخطابَ وإنْ كان لنبينا ﷺ: فإنه قد أُريدَ به الخبر عن الأنبياء قبله وأممهم. ولكنَّ العربَ مِنْ شأنها إذا خاطبتْ إنساناً وضَمَّتْ إليه غائباً، فأرادت الخبرَ عنه، أن تغلِّبَ المخاطبَ، فيخرج الخبرُ عنهما على وجهِ الخطاب، فلذلك قال تعالى ذِكْرُه: «لكلٍّ جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فبادروا، أيها الناسُ، إلى الصالحاتِ من الأعمالِ، والقُرَبِ إلى ربكم، بإدمانِ العمل بما في كتابكم الذي أنزله إلى نبيكم، فإنه إنما أنزله امتحاناً لكم وابتلاءً، ليتبينَ المحسنُ منكم من المسيءِ، فيجازي جميعكم على عمله جزاءَه عند مصيرِكم إليه، فإنَّ إليه مصيركم جميعاً، فيخبر كلَّ فريقٍ منكم بما كان يخالفُ فيه الفرقَ الأخرى، فيفْصل بينهم بفصلِ القضاء، وتُبينُ المحقَّ مجازاته إياهُ بجناتِهِ، من المسيءِ بعقابهِ إياهُ بالنارِ، فيتبين حينئذٍ كل حزب عياناً، المحقّ منهم من المُبْطِل.

فإنْ قالَ قائلٌ: أو لم ينبئنا ربُّنا في الدنيا قبل مَرْجِعنَا إليه ما نحنُ فيه مختلفون؟

قيل: إنه بيَّنَ ذلك في الدنيا بالرُّسُلِ والأدلةِ والحجج، دونَ الثوابِ والعقاب عياناً، فَمُصَدِّقٌ بذلكَ ومُكَذِّبٌ. وأما عند المرجعِ إليه، فإنه ينبئهم بذلك بالمجازاةِ التي لا يَشُكُّونَ معها في معرفة المُحِقِّ والمبطل، ولا يقدرون على إدخالِ اللبس معها على أنفسهم. فكذلك خبرُه تعالى ذكره أنه ينبئنا عند المرجعِ إليه بما كنَّا فيه نختلف في الدنيا. وإنما معنى ذلك: إلى الله مرجعكم جميعاً، فتعرفون المحقَّ حينئذٍ من المبطل منكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ۝٤٩﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «وأنِ احكمْ بينهم بما أنزلَ الله»، وأنزلنا إليكَ، يامحمدُ، الكتابَ مُصَدِّقاً لما بين يديهِ من الكتابِ، وأنِ احكُمْ بينهم. فـ«أنْ» في موضعِ نصبٍ بـ«التنزيل».

ويعني بقوله: «بما أنزلَ الله»، بحكمِ اللهِ الذي أنزلَهُ إليكَ في كتابه.

وأما قوله: «ولا تتبع أهواءهم»، فإنه نهيٌ من الله نبيَّهُ محمداً ﷺ أنْ يتَّبعَ أهواءَ اليهودِ الذين احتكموا إليه في قتيلهم وفاجِرَيْهِم، وأمرٌ منه له بلزومِ العمل بكتابهِ الذي أنزله إليه.

وقوله: «واحذرهم أن يفتِنُوك عن بعضِ ما أنزل الله إليك»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: واحذَرْ، يامحمدُ، هؤلاء اليهود الذين جاؤوك مُحْتكِمينَ إليك. «أن يفتنوك»، فيصدُّوك عن بعضِ ما أنزلَ اللهُ إليكَ من حُكْمِ كتابه، فيحملوكَ على تَرْكِ العملِ به واتّباع أهوائهم.

وقوله: «فإنْ تَوَلَّوا فاعلمْ أنما يريدُ الله أن يُصِيبهم ببعض ذنوبهم»، يقول تعالى ذكره: فإنْ تَوَلَّى هؤلاء اليهود الذين اختصموا إليكَ عنكَ، فتركوا العملَ بما حكمتَ به عليهم وقضيتَ فيهم. «فاعلمْ أنما يريدُ الله أنْ يُصيبهم ببعضِ ذنوبهم»، يقول: فاعلم أنهم لم يتولوا عن الرضى بحكمكَ وقد قضيتَ بالحقِّ، إلَّا من أجلِ أنَّ اللهَ يريدُ أنْ يتعجَّلَ عقوبتهم في عاجلِ الدنيا ببعضِ ماقد سَلَفَ من ذنـوبهم. «وإن كثيراً من الناس لفاسقون»، يقول: وإنَّ كثيراً من اليهود. «لفاسقون»، يقول: لتارِكُو العمل بكتابِ الله، ولخارجونَ عن طاعتهِ إلى معصيته.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ عَزَّ ذِكْـرُه: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أيبغي هؤلاء اليهود الذين احتكموا إليك، فلم يرضوا بحكمك، إذْ حكمتَ فيهم بالقسطِ. «حكم الجاهلية»، يعني: أحكامَ عبَدَةِ الأوثـانِ من أهـلِ الشـرك، وعندهم كتابُ الله فيه بيانُ حقيقةِ الحكم الذي حكمتَ به فيهم، وأنه الحقُّ الذي لا يجوزُ خِلافُه.

ثم قال تعالى ذِكْرُه موبِّخاً لهؤلاء الذين أبوا قَبُولَ حُكْمِ رسولِ الله ﷺ عليهم ولهم من اليهود، ومُسْتَجْهِلاً فِعْلَهم ذلك منهم ـ: ومَنْ هذا الذي هو أحسنُ حكمـاً، أيها اليهودُ، من اللهِ تعالى ذِكْرُه عند مَنْ كان يُوقِنُ بوحدانيةِ الله، ويقرُّ بربوبيته؟ يقول تعالى ذِكْرُه: أيُّ حُكْمٍ أحسنُ من حُكْمِ الله، إنْ كنتم موقنين أنَّ لكم ربًّا، وكنتم أهلَ توحيدٍ وإقرارٍ به؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾

إنَّ الله تعالى ذكره نهَى المؤمنين جميعاً أنْ يَتَّخِذُوا اليهودَ والنصارى أنصاراً وحلفاءَ على أهلِ الإيمان بالله ورسوله وغيرَهم، وأخبر أنه مَن اتخذهم نصيراً وحليفاً ووليًّا من دونِ الله ورسوله والمؤمنين، فإنه منهم في التحزُّبِ على الله وعلى رسوله والمؤمنين، وأنَّ الله ورسوله منه بريئان.

ولا شكَّ أنَّ الآيةَ نزلتْ في منافقٍ كان يوالي يهوداً أو نصارى خوفاً على نفسه من دوائر الدهر، لأنَّ الآية التي بَعْدَ هذه تدلُّ على ذلك، وذلك قوله: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ الآية.

وأما قوله: «بعضهم أولياء بعض»، فإنه عَنَى بذلك: أنَّ بعض اليهودِ أنصارُ بعضِهم على المؤمنين، ويدٌ واحدةٌ على جميعِهم وأنَّ النصارى كذلك، بعضهم أنصارُ بعضٍ على مَنْ خالف دِينَهم وملتهم مُعَرِّفاً بذلك عبادَهُ المؤمنينَ: أنَّ مَنْ كان لهم أو لبعضهم وليًّا، فإنما هو وليُّهم على مَنْ خالف ملتهم ودينهم من المؤمنين، كما اليهود والنصارى لهم حَرْبٌ. فقال تعالى ذِكْرُه للمؤمنين: فكونوا أنتم أيضاً بعضُكم أولياءُ بعضٍ، ولليهوديّ والنصراني حرباً كما هم لكم حَرْبٌ، وبعضهم لبعض أولياء، لأنَّ مَنْ والاهم فقد أظهرَ لأهلِ الإيمانِ الحربَ، ومنهم البراءة، وأبانَ قطع وَلايتهم[1].

---

(١) كتب الشيخ سليمان حفيد الإمام المجدد محمد بن عبدالوهاب رسالة نفيسة في حكم موالاة أهل الإشراك، نشرتها دار عمار للنشر والتوزيع في عمان (سنة ١٩٩٠). راجعها تجد فائدة كبيرة إن شاء الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «ومَنْ يتولَّهم منكم فإنه منهم»، ومَنْ يتولَّ اليهودَ والنصارى دونَ المؤمنين، فإنه منهم. يقول: فإنَّ مَنْ تولاهم ونصرَهم على المؤمنين، فهو من أهلِ دِينهم وملتهم، فإنه لا يتولى متولٍّ أحداً إلا وهو به وبدينه وما هُوَ عليه رَاضٍ. وإذا رضيه ورضيَ دينَهُ، فقد عادى ما خالفه وسَخِطه، وصار حكمُه حُكمَه، ولذلك حَكَم مَنْ حكم من أهلِ العلم لنصارى بني تغلب في ذبائِحهم ونكاحِ نسائهم وغير ذلك من أمورهم، بأحكامِ نصَارَى بني إسرائيل، لموالاتِهم إياهم، ورِضَاهم بملَّتِهم، ونصرتهم لهم عليها، وإنْ كانت أنسابُهم لأنسابِهم مخالفة، وأصل دينهم لأصل دينهم مفارقاً.

وفي ذلك الدلالةُ الواضحة على صحّة ما نقولُ، من أنَّ كُلَّ مَنْ كان يدينُ بدينٍ فله حكمُ أهلِ ذلك الدين، كانت دينونَتُه به قَبْلَ مجيءِ الإسلام أو بَعْدَهُ. إلا أنْ يكون مسلماً من أهل ديننا انتقل إلى ملّة غيرِها، فإنه لايُقَرُّ على مادانَ به فانتقلَ إليه، ولكنْ يُقتَل لردَّتهِ عن الإسلامِ ومفارقتهِ دينَ الحَقِّ، إلا أن يرجعَ قبل القَتْلِ إلى الدينِ الحَقِّ وفسادِ ما خالفه من قولِ مَنْ زعم: أنه لا يحكم بحكم أهل الكتابين لمن دان بدينهم، إلا أنْ يكون إسرائيليًّا أو منتقلاً إلى دينهم من غيرهم قبلَ نزولِ الفرقان. فأما مَنْ دان بدينهم بعد نزولِ الفُرْقان، ممن لم يكن منهم، ممن خالف نسبُه نَسَبَهم وجِنْسُه جِنْسَهم، فإنَّ حكمه لحكمهم مخالفٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: إنَّ الله لا يوفِّقُ مَنْ وضع الولاية في غير موضعها، فوالى اليهودَ والنصارى ـ مع عدواتهم الله ورسولَهُ والمؤمنينَ ـ على

المؤمنينَ، وكان لهم ظهيراً ونصيراً، لأنَّ مَنْ تَولَّاهم فهو لله ولرسوله وللمؤمنين حَرْبٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾

إنَّ ذلك من الله خَبَرٌ عن ناسٍ من المنافقين كانوا يوالون اليهودَ والنصارى ويغشُّون المؤمنينَ، ويقولون: نَخْشَى أنْ تدورَ دوائر ـ إما لليهود والنصارى، وإما لأهل الشرك من عبدة الأوثان، أو غيرهم ـ على أهلِ الإسلام، أو تنزل بهؤلاء المنافقين نازلةٌ، فيكون بنا إليهم حاجةٌ.

فتأويل الكلام إذاً: فترى، يامحمدُ، الذين في قلوبهم شكٌّ، ومرضُ إيمانٍ بنبوتِّكَ وتصديق ماجِئْتَهُمْ به من عند ربكَ. «يسارعون فيهم»، يعني في اليهود والنصارى ويعني بمسارعتهم فيهم: مسارعتهم في مُوالاتهم ومصانعتهم. «يقولون نخشى أنْ تصيبنا دائرةٌ»، يقول هؤلاء المنافقون: إنما نسارعُ في موالاةِ هؤلاء اليهودِ والنصارى، خوفاً من دائرةٍ تدورُ علينا من عَدُوِّنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «فعسى الله أن يأتي بالفتحِ أو أمرٍ من عنده»، فَلَعَلَّ الله أنْ يأتي بالفتح.

ثم اختلفوا في تأويلِ «الفتح» في هذا الموضع.

فقال بعضهم: عُني به ههنا، القضاء.

وقال آخرون: عُني به فَتْحُ مكة.

و«الفتـح» في، كلام العرب، هو القضاءُ، ومنه قول الله تعالى ذكره: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٨٩].

وقد يجوز أن يكونَ ذلك القضاء الذي وعدَ الله نبيهُ محمداً ﷺ بقوله: «فعسى الله أن يأتي بالفتح» فتح مكة، لأنَّ ذلك كان من عظيمِ قضاءِ الله، وفَصْلِ حُكمهِ بين أهلِ الإيمانِ والكفرِ، ومقرِّراً عند أهل الكفر والنفاق، أن الله مُعْلي كَلِمَته ومُوهِنُ كيدِ الكافرين.

وقد يحتمل أنْ يكونَ «الأمر» الذي وَعَدَ اللهُ نبيهُ محمداً ﷺ أنِ يأتيَ به هو الجزية، ويحتمل أن يكون غيرها. غير أنه أيِّ ذلك كانَ، فهو مما فيه إدالةُ المؤمنينَ على أهلِ الكفرِ بالله وبرسوله، ومما يسوءُ المنافقينَ ولا يسرُّهم. وذلك أنَّ الله تعالى ذِكْرُه قد أخبر عنهم أنَّ ذلك الأمرَ إذا جاء، أَصْبَحُوا على ما أَسَرُّوا في أنفسهم نادمينَ.

وأما قوله: «فيصبحوا على ما أَسَرُّوا في أنفسهم نادمين»، فإنه يعني هؤلاء المنافقينَ الذين كانوا يوالون اليهودَ والنصارى. يقول تعالى ذِكْرُه: لعلَّ الله أن يأتيَ بأمرٍ من عنده يُديلُ به المؤمنين على الكافرينَ من اليهود والنصارى وغيرهم من أهلِ الكفر، فيصبح هؤلاء المنافقونَ على ما أسَرُّوا في أنفسهم من مخالَّةِ اليهودِ والنصارى ومودَّتِهم، وبُغْضَة المؤمنين ومُحَادَّتهم، «نادمين».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ۝٥٣﴾

(يعني): فيصبحوا على ماأَسَرُّوا في أنفسِهم نادمينَ، ويقولُ المؤمنون:

أهؤلاء الذين حَلَفوا لنا بالله جهد أيمانهم كَذِباً إنَّهُمْ لَمَعَنا؟

يقول الله تعالى ذكره، مُخْبِراً عن حالهم عنده بنفاقِهم وخُبْثِ أعمالهم. «حبطت أعمالهم»، يقول: ذهبت أعمالهم التي عملوها في الدنيا باطلاً لا ثوابَ لها ولا أجر، لأنهم عملوها على غيرِ يقينٍ منهم بأنها عليهم لله فرضٌ واجب، ولا على صِحّة إيمانٍ بالله ورسوله، وإنما كانوا يعملونها ليدفعوا المؤمنينَ بها عن أنفسِهم وأموالهم وذراريهم، فأحبط الله أجْرها، إذ لم تكن له. «فأصبحوا خاسرين»، يقول: فأصبح هؤلاء المنافقون، عند مجيء أمرِ الله بإدالةِ المؤمنين على أهلِ الكفر، قد وُكِسُوا في شرائهم الدنيا بالآخرة، وخابت صفقتهم، وهَلَكوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ بالله وبرسوله: «يا أيها الذين آمنوا»، أي: صَدَّقُوا الله ورسوله، وأقَرُّوا بما جاءهم به نبيُّهم محمد ﷺ. «مَنْ يَرْتَدَّ منكم من دينه»، يقول: مَنْ يرجع منكم عن دينهِ الحق الذي هو عليه اليوم، فيبدِّله ويغيره بدخوله في الكفرِ، إما في اليهودية أو النصرانية أو غيرِ ذلك من صنوفِ الكفر، فلن يَضُرَّ الله شيئاً، وسيأتي الله بقومٍ يحبهم ويحبونه، يقول: فسوف يجيءُ الله بدلاً منهم، المؤمنين الذين لم يُبَدِّلُوا ولم يُغَيِّرُوا ولم يرتدوا، بقومٍ خير من الذين ارتدُّوا وبدَّلوا دينهم، يحبهم الله ويحبون الله.

وكان هذا الوعيدُ من الله لمن سَبَقَ في علمه أنه سيرتدُّ بعد وفاةِ نبيِّه محمد ﷺ. وكذلك وعدُه مَنْ وعدَ من المؤمنين ماوعدَه في هذه الآية، لمن سَبَقَ له في علمه أنه لا يبدِّلُ ولا يغير دينه، ولا يرتدّ. فلما قَبَض الله نبيَّه ﷺ،

ارتد أقوامٌ من أهل الوبَرِ، وبعضُ أهل المَدَر، فأبدلَ اللهُ المؤمنين بخيرٍ منهم كما قال تعالى ذِكْرُه، ووفى للمؤمنينَ بوعدِه، وأنفذ فيمن ارتدَّ منهم وعيدَه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

يعني تعالى ذكره بقولِه: «أذلة على المؤمنين»، أرِقَّاءَ عليهم، رحماءَ بهم.

ويعني بقوله: «أعِزَّةٍ على الكافرين»، أشِدَّاء عليهم، غُلَظاء بهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «يجاهدون في سبيل الله»، هؤلاء المؤمنين الذين وَعَدَ اللهُ المؤمنينَ أنْ يأتيهم بهم إن ارتدّ منهم مرتدٌّ، بدلاً منهم، يجاهدونَ في قتالِ أعداءِ الله على النحو الذي أمر الله بقتالهم، والوجه الذي أُذِنَ لهم به، ويجاهدون عدوَّهم. فذلك مجاهدتهم في سبيل الله. «ولا يخافون لومة لائم»، يقول: ولا يخافونَ في ذاتِ الله أحداً، ولا يصدُّهم عن العملِ بما أمرهم اللهُ به من قتالِ عدوهم، لومةُ لائم لهم في ذلك.

وأما قوله: «ذلك فضل الله»، فإنه يعني هذا النعتَ الذي نعتهم به تعالى ذكره ـ من أنهم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، يجاهدونَ في سبيلِ الله ولا يخافون في الله لومة لائم ـ فضلُ الله الذي تَفَضَّلَ به عليهم، والله يؤتي فضله مَنْ يشاءُ مِنْ خَلْقِه مِنّةً عليه وتطوّلاً. «والله واسع»، يقول: والله جواد بفضله على من جادَ به عليه. لا يخاف نَفاد خزائنهِ فتَتْلف في عطائه. «عليم»،

بموضع جُودِه وعطائِه، فلا يبذله إلا لمن استحقَّهُ، ولا يبذل لمن استحقه إلّا على قَدْرِ المصلحة، لعلمه بموضعِ صلاحه له من موضع ضرِّهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ۝٥٥﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «إنما وليكمُ اللهُ ورسوله والذين آمنوا»، ليس لكم، أيها المؤمنونَ، ناصرٌ إلا الله ورسوله، والمؤمنونَ الذين صِفَتُهم ماذَكَرَ تعالى ذِكْرُه. فأما اليهودُ والنصارى الذين أمركم الله أَنْ تَبَرَّأوا من وَلايتهم، ونهاكم أن تَتخِذُوا منهم أولياءَ، فليسوا لكم أولياء ولاأنْصَراءَ، بَلْ بعضُهم أولياءُ بعض، ولا تتخذوا منهم وليًّا ولا نصيراً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَٰلِبُونَ ۝٥٦﴾

وهذا إعلامٌ من الله تعالى ذِكْرُه عبادَهُ جميعاً الذين تبرأوا من حلفِ اليهود وخلعوهم رضًى بولاية الله ورسوله والمؤمنين، والذين تَمَسَّكُوا بحلفهم وخافوا دوائر السوء تدور عليهم، فسارعوا إلى موالاتِهم ـ أنّ مَن وثق بالله وتولّى الله ورسولَهُ والمؤمنينَ، ومَنْ كان على مِثْل حاله من أولياءِ الله من المؤمنين، لهم الغلبةُ والدوائرُ والدولةُ على مَنْ عاداهم وحادَّهم، لأنهم حزبُ الله، وحزبُ الله هم الغالبون، دونَ حزبِ الشيطان:

ويعني بقوله: «فإن حزب الله»، فإن أنصار الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ به وبرسولِهِ محمدٍ ﷺ: «يا أيها الذين آمنوا»، أي: صَدَّقُوا الله ورسوله. «لاتتخذوا الذين اتخذوا دينكم هُزواً ولعباً من الذين أُوتُوا الكتابَ من قبلكم»، يعني اليهودِ والنصارى الذين جاءتهم الرسلُ والأنبياءُ، وأنزلت عليهم الكتب من قبل بَعْثِ نبينا ﷺ، ومن قَبْلِ نزولِ كتابنا. «أولياء»، يقول: لاتتخذوهم، أيها المؤمنون، أنصاراً أو إخواناً أو حُلفاء، فإنهم لا يألُونَكُمْ خَبَالاً، وإنْ أظهروا لكم مودَّةً وصداقة.

وكان اتخاذُ هؤلاءِ اليهودِ الذين أخبر الله عنهم المؤمنينَ أنهم اتَّخَذُوا دِينَهم هُزُواً ولعباً بالدين على ماوَصَفَهم به رَبُّنا تعالى ذِكْرُه، أن أحدهم كان يظهر للمؤمنين الإيمان وهو على كُفْرِهِ مقيمٌ، ثم يراجع الكفرَ بعد يسيرٍ من المدة بإظهارِ ذلك بلسانِهِ قولاً، بعد أن كان يُبدي بلسانه الإيمانَ قولاً وهو للكفرِ مستبطنٌ تَلَعُّباً بالدين واستهزاءً به، كما أخبر تعالى ذِكْرُه عن فِعْلِ بعضِهم ذلك بقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُون * ٱللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٤، ١٥].

وأمّا «الكفار» الذين ذكرهم الله تعالى ذِكْرُه في قوله: «من الذين أُوتوا الكتابَ من قبلكم والكفار أولياء»، فإنهم المشركون من عَبَدَةِ الأوثان. نهى الله المؤمنينَ أن يتخذوا من أهلِ الكتاب ومن عَبَدَةِ الأوثان وسائر أهل الكفر، أولياءَ دون المؤمنين.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك.

فقرأته جماعةٌ من أهلِ الحجاز والبصرة والكوفة: ﴿وَالْكُفَّارِ أَوْلِيَاءَ﴾، بخفض «الكفار»، بمعنى: يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم، ومن الكفارِ، أولياءَ.

وكذلك ذلك في قراءة أبيٍّ بن كعب فيما بلغنا: ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلْكُفَّارِ أَوْلِياءَ﴾.

وقرأ ذلك عامةُ قَرَأَةِ أهلِ المدينة والكوفة: ﴿وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِياءَ﴾، بالنصب، بمعنى: يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً والكفارَ عطفاً بـ«الكفار» على «الذين اتخذوا».

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان متفقتا المعنى، صحيحتا المخرجِ، قد قرأ بكلٍّ واحدةٍ منهما علماء من القَرَأَةِ، فبأي ذلك قرأ القارىءُ فقد أصابَ. لأنَّ النهيَ عن اتخاذ وليٍّ من الكفار، نهيٌ عن اتخاذ جميعهم أولياء. والنهي عن اتخاذ جميعهم أولياء، نهيٌ عن اتخاذِ بعضِهم وليًّا. وذلك أنه غير مشكل على أحدٍ من أهلِ الإسلام أنَّ الله تعالى ذِكْرُه إذا حرَّمَ اتخاذ وليٍّ من المشركينَ على المؤمنين، أنه لم يُبِحْ لهم اتخاذَ جميعِهم أولياءَ ـ ولا إذا حرَّم اتخاذ جميعِهم أولياءَ، أنه لم يخصص إباحةَ اتخاذِ بعضِهم وليًّا، فيجب من أجلِ إشكالِ ذلك عليهم، طلبُ الدليلِ على أَوْلى القراءتين في ذلك بالصواب. وإذ كان ذلك كذلك، فسواء قرأ القارىء بالخفض أو بالنصب، لما ذِكَرْنَا من العلة.

وأما قوله: «واتقوا الله إنْ كنتم مؤمنين»، فإنه يعني: وخافوا الله، أيها المؤمنون، في هؤلاء الذين اتخذوا دِينَكُم هُزُواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب ومن الكفار، أن تتخذوهم أولياءَ ونُصَراء، وارهبوا عقوبتَهُ في فعلِ ذلكَ إنْ فعلتموه

بعد تقدُّمِهِ إليكم بالنهي عنه، إنْ كنتم تؤمنونَ باللهِ وتُصَدِّقُونَهُ على وعيدِهِ على معصيته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ۝٥٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا أذَّنَ مؤذنكم، أيها المؤمنونَ، بالصلاةِ، سَخِرَ من دعوتِكُم إليها هؤلاءِ الكفارُ من اليهودِ والنصارى والمشركين، ولعبوا من ذلك. «ذلك بأنهم قوم لا يعقلون»، يعني تعالى ذكره بقوله: «ذلك»، فِعْلهم الذي يفعلونه، وهو هزؤهم ولعبهم من الدعاءِ إلى الصلاةِ، وإنما يفعلونه بجهلِهِم بربِّهم، وأنهم لا يعقلون ما لهم في إجابتهم إنْ أجابوا إلى الصلاة، وما عليهم في استهزائِهم ولعبهم بالدعوة إليها، ولو عَقَلوا ما لِمَنْ فَعَلَ ذلك منهم عند الله من العقابِ، مافعلوه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ۝٥٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه ﷺ: قُلْ، يامحمدُ، لأهلِ الكتاب من اليهودِ والنصارى: ياأهلَ الكتاب، هل تكرهون منا أو تجدون علينا في شيء إذ تستهزئون بديننا، وإذْ أنتم إذا نادينا إلى الصلاة اتخذتُمْ نِدَاءَنَا ذلك هزواً ولعباً. «إلّا أن آمنا بالله»، يقول: إلّا أنْ صَدَّقْنا وأقْرَرْنا باللهِ فوحَّدْناهُ، وبما أنزل إلينا من عندِ الله من الكتاب، وما أنزل إلى أنبياء الله من الكُتُبِ من قبل كتابنا. «وأنَّ أكثرَكُمْ فاسقونَ»، يقول: وإلا أنَّ أكثرَكُمْ مخالفونَ أمرَ الله، خارجونَ عن طاعتِهِ، تكذبون عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ: «قل»، يامحمدُ، لهؤلاء الذين اتخذوا دينَكُمْ هُزُواً ولعباً من الذين أُوتُوا الكتاب من قبلكم والكفار. «هل أنبئكم»، يامعشرَ أهلِ الكتاب، بِشَرٍّ من ثوابِ ماتنقِمُونَ منا من إيماننا بالله وما أنزل إلينا من كتابِ الله، وما أنزل من قبلنا من كتبه؟

وأما معنى قوله: «مَنْ لعنه الله»، فإنه يعني: مَنْ أبعدَهُ الله وأسْحَقهُ من رحمته. «وغضب عليه وجعل منهم القِرَدَةَ والخنازير»، يقول: وغضب عليه، وجعل منهم المُسوخَ القردة والخنازير، غضباً منه عليهم وسخطاً، فعجَّلَ لهم الخزيَ والنكال في الدنيا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ۝٦٠﴾

(يعني): قُلْ هل أنبئكُم بشرٍ من ذلك مثوبةً عند الله، مَنْ لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير، ومَن عبدالطاغوت.

وأما قوله: «أولئك شر مكاناً وأضلُّ عن سواء السبيل»، فإنه يعني بقوله: «أولئك»، هؤلاء الذين ذكرهم تعالى ذِكْرُه، وهم الذين وصفَ صفتهم فقال: «مَنْ لَعَنَهُ الله وغضبَ عليه وجعلَ منهم القردةَ والخنازيرَ وعَبَدَالطاغوت»، وكل ذلك من صفة اليهود من بني إسرائيل.

يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاء الذين هذه صفتهم. «شَرٌّ مكاناً»، في عاجل

الدنيا والآخرة عند الله ممن نَقَمتم عليهم، يامعشرَ اليهود، إيمانَهم بالله، وبما أنزل إليهم من عند الله من الكتاب، وبما أنزل إلى مَنْ قبلهم من الأنبياء. «وأضَلُّ عن سواء السبيل»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأنتم مع ذلك، أيها اليهود، أشَدُّ أخذاً على غير الطريق القويم، وأجورُ عن سبيلِ الرشدِ والقَصْدِ منهم.

وهذا من لَحْنِ الكلام[1]. وذلك أنَّ الله تعالى ذِكْرُه إنما قصد بهذا الخبر إخبارَ اليهود الذين وَصَفَ صِفَتَهم في الآيات قبل هذه، بقبيحِ فِعالهم وذميمِ أخلاقهم، واستيجابهم سخطه بكثرةِ ذنوبهم ومعاصيهم، حتى مُسِخَ بعضُهم قردةً وبعضهم خنازير، خطاباً منه لهم بذلك، تعريضاً بالجميل من الخطاب، ولَحَن لهم بما عَرَفوا معناه من الكلامِ بأحسنِ اللحن، وعلَّم نبيهُ ﷺ من الأدب أحسنَهُ فقال له: قُلْ لهم، يامحمدُ، أهؤلاء المؤمنون بالله وبكتبه الذين تستهزئون منهم، شرٌّ أم مَنْ لَعَنَهُ الله؟ وهو يعني المقولَ ذلك لهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا جاءكم، أيها المؤمنونَ، هؤلاء المنافقونَ من اليهودِ قالوا لكم: «آمنا»، أي صَدَّقْنا بما جاء به نبيكم محمد ﷺ واتبعناهُ على دينه، وهم مُقيمونَ على كفرهم وضلالتهم، قد دخلوا عليكم بكفرهم الذي يعتقدونه بقلوبهم ويُضمرونَهُ في صدورهم، وهم يُبْدونَ كَذِباً التصديقَ لكم بألسنتهم. «وقد خرجوا به»، يقول: وقد خرجوا بالكفرِ من عندِكم كما دخلوا به عليكم، لم يرجعوا بمجيئهم إليكُمْ عن كُفْرِهم وضلالَتِهم، يظنون أن ذلك من فِعْلِهم يَخْفى على الله، جهلاً منهم بالله. «والله أعلم بما كانوا يكتمون»،

(١) اللحن هنا بمعنى التعريض والإيماء، عدولاً عن تصريح القول، وللحن معان مختلفة كما هو معروف.

يقول: والله أعلمُ بما كانوا - عند قولهم لكم بألسنتهم: «آمنا بالله وبمحمد وصدّقنا بما جاء به» - يكتمونَ منهم، بما يُضْمِرُونَهُ من الكفرِ، بأنفسهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾﴾

تأويل ذلك: أنَّ هؤلاء اليهود الذين وصَفَهُم في هذه الآيات بما وصفهم به تعالى ذِكْرُه، يسارعُ كثيرٌ منهم في معاصي الله وخلاف أمره، ويتعدُّون حدودَه التي حدَّ لهم فيما أحلَّ لهم وحرَّمَ عليهم، في أكلهم «السُّحْتَ»، وذلك الرشوة التي يأخذونها من الناسِ على الحكم بخلافِ حُكْمِ الله فيهم.

يقول الله تعالى ذكره: «لبئس ماكانوا يعملون»، يقول: أقسم لَبِئس العملُ ما كان هؤلاء اليهود يعملونَ، في مسارعتهم في الإثمِ والعدوان، وأكْلِهم السُّحْتَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هلاَّ يَنْهى هؤلاء الذين يُسارعونَ في الإثمِ والعدوان وأكلِ الرشى في الحكم، من اليهودِ من بني إسرائيل، ربانيوهم وهم أئمتهم المؤمنونَ، وساستهم العلماءُ بسياستهم وأحبارهم، وهم علماؤهم وقوادهم. «عن قولهم الإثم» يعني: عن قولِ الكذبِ والزور، وذلك أنهم كانوا يحكمونَ فيهم بغيرِ حكمِ الله، ويكتبونَ كتباً بأيديهم ثم يقولون: «هذا من حُكْمِ الله، وهذا من كتبه». يقول الله: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

وأما قوله: «وأكلهم السحت»، فإنه يعني به الرشوةَ التي كانوا يأخذونها على حُكْمِهم بغيرِ كتابِ الله لمن حَكَمُوا له به.

«لبئس ما كانـوا يصنعون»، وهذا قَسَمٌ من الله أقسمَ به، يقول تعالى ذِكْرُه: أقسم: لبئسَ الصنيعُ كان يصنع هؤلاء الربانيونَ والأحبارُ، في تركهم نهيَ الذين يُسارعونَ منهم في الإثمِ والعدوانِ وأكلِ السحتِ، عما كانوا يفعلون من ذلك.

وكان العلماء يقولون: ما في القرآن آية أشدّ توبيخاً للعلماء من هذه الآية ولا أخوف عليهم منها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُۚ

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن جراْةِ اليهودِ على رَبِّهم، ووصفهم إياه بمـا ليس من صفته، توبيخاً لهم بذلك، وتعريفاً منه نبيَّه ﷺ قديمَ جَهْلِهم واغترارِهم به، وإنكارهم جميعَ جميلِ أياديهِ عندهم، وكثرة صَفْحِهِ عنهم وعفوه عن عظيمِ إجرامهم. واحتجاجاً لنبيه محمدٍ ﷺ بأنه له نبيٌّ مبعوثٌ ورسولٌ مُرْسَلٌ: أنْ كانت هذه الأنباءُ التي أنبأهم بها كانت من خفيِّ علومهم ومكنونها التي لا يعلمها إلّا أحبارهم وعلماؤهم دون غيرهم من اليهود، فضلاً عن الأمةِ الأميَّةِ من العربِ الذين لم يقرأوا كتاباً، ولا وَعَوْا من علومِ أهلِ الكتابِ علماً، فأطلع الله على ذلك نبيهُ محمداً ﷺ، ليقرِّرَ عندهم صدقه، ويقطع بذلك حجتهم.

يقول تعالى ذِكْرُه: «وقالت اليهود»، من بني إسرائيل. «يد الله مغلولة»، يعنون: أنَّ خيرَ الله مُمْسَكٌ وعطاءه محبوسٌ عن الاتساع عليهم، كما قال تعالى

ذِكْرُه في تأديب نبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩].

وإنما وصف تعالى ذِكْرُه «اليد» بذلك، والمعنى العَطاء، لأنَّ عطاءَ الناسِ وبذلَ معروفهم الغالبَ بأيديهم. فجرى استعمال الناس في وصفِ بعضِهم بعضاً، إذا وصفوه بجودٍ وكرمٍ، أو ببخلٍ وشحٍّ وضيق، بإضافةِ ما كان من ذلك من صفةِ الموصوفِ إلى يديه، ومثل ذلك من كلام العرب في أشعارها وأمثالها أكثر من أن يُحْصى. فخاطبهم الله بما يَتعارفونه ويتحاورونه بينهم في كلامهم فقال: «وقالتِ اليهودُ يَدُ الله مغلولة»، يعني بذلك: أنهم قالوا: إنَّ الله يبخلُ علينا، ويمنعنا فَضْلَهُ فلا يُفْضِل، كالمغلولةِ يدهُ الذي لا يقدر أنْ يبسطَها بعطاءٍ ولا بذلِ معروف، تَعَالى اللهُ عَمَّا قالوا، أعداءَ الله! فقال الله مكذِّبَهم ومخبِرَهم بسخَطه عليهم: «غُلَّتْ أيديهم»، يقول: أمسكت أيديهم عن الخيراتِ، وقُبِضتْ عن الانبساطِ بالعطيات. «ولُعِنُوا بما قالوا»، وأُبْعِدُوا من رحمة الله وفضله بالذي قالوا من الكفر، وافتروا على اللهِ ووصفُوهُ به من الكذبِ والإفكِ. «بَلْ يداه مبسوطتان»، يقول: بَلْ يداهُ مبسوطتانِ بالبذل والإعطاء وأرزاقِ عباده وأقواتِ خلقه، غيرُ مغلولتين ولا مقبوضتين. «ينفقُ كيف يشاء»، يقول: يعطي هذا، ويمنعُ هذا فيقتِّر عليه.

وأما قوله: «ينفق كيف يشاء»، يقول: يرزق كيف يشاء.

واختلف أهلُ الجَدَلِ[1] في تأويل قوله: بَلْ يداهُ مبسوطتان».

فقال بعضهم: عَنَى بذلك: نِعْمتاهُ. وقال: ذلك بمعنى: «يَدُ اللهِ على خَلْقِه»، وذلك نِعَمُهُ عليهمْ. وقال: إنَّ العربَ تقول: «لك عندي يَدٌ»، يعنون بذلك: نعمة.

---

(١) يعني: علماء الكلام.

وقال آخرون منهم: عَنَى بذلك القوة. وقالوا: ذلك نظير قولِ الله تعالى ذكره: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي ٱلْأَيْدِي﴾ [ص: ٤٥].

وقال آخرون منهم: بل «يده»، مُلْكُه. وقال: معنى قوله: «وقالت اليهود يد الله مغلولة»، مُلْكُهُ وخزائنه.

وقالوا: وذلك كقولِ العربِ للمملوك: «هو مِلْكُ يمينِهِ»، و«فلانٌ بيدهِ عُقدةُ نكاحِ فلانة»، أي يملكُ ذلك، وكقولِ الله تعالى ذِكْرُه: ﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾، [المجادلة: ١٢].

وقال آخرون منهم: بل «يد الله» صِفَةٌ من صفاتهِ، هي يَدٌ، غيرَ أنها ليست بجارحةٍ كجوارحِ بني آدم.

قالوا: وذلك أنَّ الله تعالى ذِكْرُه أخبرَ عن خُصُوصِهِ آدمَ بما خَصَّهُ به من خَلْقِهِ إياه بيده.

قالوا: ولو كان معنى «اليد»، النعمة، أو القوة، أو الملك، ما كان لخصوصِه آدمَ بذلك وجهٌ مفهوم، إذ كان جميع خَلْقِه مخلوقينَ بِقُدْرَتِهِ، ومشيئتُهُ في خلقه نعمةٌ، وهو لجميعهم مالك.

قالوا: وإذ كان تعالى ذِكْرُه قد خَصَّ آدمَ بذِكْرِهِ خلقَه إياه بيدهِ دونَ غيرهِ من عباده، كان معلوماً أنه إنما خَصَّهُ بذلك لمعنى به فَارَقَ غيرَهُ من سائرِ الخَلْق.

قالوا: وإذا كان ذلك كذلك، بطل قولُ مَنْ قال: معنى «اليد» من الله، القوة والنعمة أو الملك، في هذا الموضع.

قالوا: وأحرى أنَّ ذلك لو كانَ كما قالَ الزاعمونَ أنَّ: «يد الله» في قوله: «وقالت اليهود يد الله مغلولة»، هي نعمتُه، لقيل: «بل يده مبسوطة»، ولم يقل: «بل يداه»، لأن نعمة الله لا تُحْصَى كثرةً. وبذلك جاءَ التنزيلُ، يقول الله

المائدة: ٦٤

تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤/ والنحل: ١٨].

قالوا: ولو كانت نعمتين، كانتا محصاتين.

قالوا: فإنْ ظَنَّ ظانٌّ أنَّ النعمتين بمعنى النعمِ الكثيرةِ، فذلك منه خطأٌ، وذلك أنَّ العربَ قد تخرج الجميعَ بلفظِ الواحد لأداء الواحد عن جميعِ جنسه، وذلك كقول الله تعالى ذِكْرُه: ﴿وَٱلْعَصْرِ إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ١، ٢] وكقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ﴾، [الحجر: ٢٦] وقوله: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً﴾ [الفرقان: ٥٥]، قال: فلم يُرَدْ بـ «الإنسان» و«الكافر» في هذه الأماكن إنسـانٌ بعينه، ولا كافرٌ مُشَارٌ إليه حاضر، بل عَنَى به جميعَ الإنسِ وجميعَ الكفارِ، ولكن الواحد أدَّى عن جنسه، كما تقولُ العربُ: «ما أكثرَ الدِرْهَمَ في أيدي الناس»، وكذلك قوله: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ﴾، معناه: وكان الذين كفروا.

قالوا: فأما إذا ثَنَّى الاسمَ، فلا يؤدي عن الجنس، ولا يؤدِّي إلا عن اثنين بأعيانِهما دونَ الجميعِ ودونَ غيرِهما.

قالـوا: وخطأ في كلام العرب أن يقال: «ما أكثرَ الدرهمينِ في أيدي الناس»، بمعنى: ما أكثر الدراهم في أيديهم.

قالوا: وذلك أن الدرهم إذا ثُنِّيَ لا يؤدي في كلامها إلَّا عن اثنين بأعيانهما.

قالـوا: وغيرُ محـالٍ: «مـا أكثـر الدرهمَ في أيدي الناس»، و«ما أكثر الدراهم في أيديهم»، لأن الواحد يؤدي عن الجميع.

قالوا: ففي قول الله تعالى: «بل يداه مبسوطتان»، مع إعلامِهِ عبادَهُ أنَّ نِعَمَهُ لا تُحْصَى، مع ماوصفنا من أنه غيرُ معقولٍ في كلام العرب أنَّ اثنين يُؤَدِّيانِ عن الجميع ـ ماينبىءُ عن خطأ قولِ مَنْ قال: معنى «اليد»، في هذا

الموضع، النعمة، وصحةِ قولِ مَنْ قال: إن «يد الله»، هي له صِفَةٌ.

قالوا: وبذلك تظاهرتِ الأخبارُ عن رسولِ الله ﷺ، وقال به العلماء وأهل التأويل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۚ

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: إنَّ هذا الذي أطلعناكَ عليه من خفيِّ أمورِ هؤلاءِ اليهودِ، مما لا يعلمُه إلا علماؤهم وأحبارهم، احتجاجاً عليهم لصحةِ نبوتك، وقطعاً لِعُذْرِ قائلٍ منهم أنْ يقول: «ما جاءنا من بشيرٍ ولا نذير»: «وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً». يعني بـ «الطغيان»: الغلو في إنكار ماقد عَلِمُوا صِحَّتَهُ من نبوةِ محمدٍ ﷺ والتمادي في ذلك. «وكفراً»، يقول: ويزيدهم مع غُلُوِّهم في إنكارِ ذلك، جحودَهم عظمةَ الله ووصفهم إياه بغيرِ صفته، بأنْ يَنْسبُوه إلى البُخْلِ، ويقولوا: «يَدُ الله مغلولة». وإنما أعْلَمَ تعالى ذِكْرُه نبيَّهُ ﷺ أنهم أهلُ عُتُوٍّ وتمرُّدٍ على ربهم، وأنهم لا يُذْعِنُونَ لحقٍّ وإنْ عَلِمُوا صحته، ولكنهم يعاندونه، يُسَلِّي بذلك نبيه محمداً ﷺ عن الموجِدة بهم في ذهابهم عن الله، وتكذيبهم إياه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَـٰمَةِ ۚ

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وألقينا بينهم العداوةَ والبغضاء إلى يوم القيامة»، بين اليهود والنصارى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: كلما جمع أمرهم على شيءٍ فاستقامَ واستوى، فأرادوا مناهضةَ مَنْ نَاوأَهُمْ، شَتَّتَهُ اللهُ عليهم وأفسده، لسوءِ فِعالهم وخُبْثِ نياتهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويعمل هؤلاء اليهود والنصارى بمعصية الله، فيكفرون بآياتـه، ويكذبونَ رُسُلَهُ، ويخالفونَ أمْرَهُ ونهيه، وذلك سعيُهم فيها بالفساد. «والله لا يحب المفسدين»، يقول: والله لا يُحِبُّ مَنْ كان عامِلاً بمعاصيه في أرضه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَـٰهُمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «ولو أنَّ أهلَ الكتاب»، وهُمُ اليهودُ والنصارى. «آمنوا» باللهِ وبرسولهِ محمدٍ ﷺ، فصدَّقُوه واتبعوهُ وما أنزل عليه. «واتقوا» مانَهاهم اللهُ عنـه فاجتنبـوه. «لكفَّرنا عنهم سيئاتهم»، يقول: مَحَوْنَا عنهم ذُنوبَهم فَغَطَّيْنَا عليهـا، ولم نَفْضَحهم بها. «ولأدخلناهم جناتِ النعيم»، يقول: ولأدخلناهم بساتِينَ ينعَمُونَ فيها في الآخرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾

يعني تعـالى ذِكْرُه بقوله: «ولو أنهم أقامُوا التوراةَ والإنجيلَ»، ولو أنهم عَمِلُوا بما في التوراة والإنجيل «وما أُنزلَ إليهم من ربهم»، يقول: وعملوا بما أنزل إليهم من ربهم من الفرقانِ الذي جاءهم به محمدٌ ﷺ.

فإنْ قالَ قائلٌ: وكيف يُقيمونَ التوراةَ والإنجيل وما أُنزلَ إلى محمدٍ ﷺ، مع اختلافِ هذه الكتب، ونسخِ بعضِها بعضاً؟

قيل: إنها وإنْ كانت كذلك في بعض أحكامها وشرائعها، فهي متَّفِقة في الأمرِ بالإيمان برُسُل الله، والتصديقِ بما جاءتْ به من عند الله. فمعنى إقامتهم التوراةَ والإنجيل وما أُنزلَ إلى محمدٍ ﷺ: تصديقُهُم بما فيها، والعملُ بما هي متفقة فيه، وبكلِّ واحدٍ منها في الحين الذي فرض العمل به.

وأمـا معنى قوله: «لأكَلُوا من فوقِهم ومن تحتِ أرجلهم»، فإنه يعني: لأنزلَ اللهُ عليهم من السماءِ قَطْرَها، فأنبتتْ لهم به الأرضُ حَبَّها ونباتَها، فأخرج ثمارَها.

وأما قوله: «ومن تحت أرجلهم»، فإنه يعني تعالى ذِكْرُه: لأكلوا من بركةِ ماتحتَ أقدامِهم من الأرضِ، وذلك ماتُخْرِجُه الأرضُ من حَبِّها ونباتها وثمارِها وسائرِ ما يُؤكَلُ مما تخرجه الأرض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ٦٦﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «منهم أمةٌ»، منهم جماعةٌ. «مقتصدة»، يقول: مقتصدة في القولِ في عيسى بن مريم، قائلةٌ فيه الحقَّ أنه رسولُ الله وكلمته ألقاها إلى مريمَ وروحٌ منه، لا غاليةٌ قائلةٌ: إنه ابنُ الله، تعالى الله عما قالوا

من ذلك، ولا مقصرة قائلةٌ: هو لغير رِشْدَة. «وكثير منهم»، يعني: من بني إسرائيل من أهلِ الكتابِ اليهودِ والنصارى. «ساء ما يعملون»، يقول: كثير منهم سيّء عملهم، وذلك أنهم يكفرونَ بالله، فتكذب النصارى بمحمدٍ ﷺ، وتزعمُ أنَّ المسيحَ ابن الله وتكذِّب اليهود بعيسى وبمحمدٍ صلى الله عليهما. فقال الله تعالى فيهم ذامًّا لهم: «ساء ما يعملون»، في ذلك من فعلهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾

وهذا أمر من الله تعالى ذِكْرُه نبيَّهُ محمداً ﷺ، بإبلاغِ هؤلاءِ اليهودِ والنصارى من أهلِ الكتابين الذين قَصَّ تعالى ذِكْرُه قصَصهم في هذه السورة، وذكَرَ فيها معايبهم وخُبْثَ أديانهم، واجتراءَهم على رَبِّهم، وتوثُّبهم على أنبيائِهم، وتبديلَهم كتابَهُ، وتحريفَهم إياه، ورداءةَ مطاعِمهم ومآكلهم ـ وسائرِ المشركينَ غيرِهم، ما انزل عليه فيهم من معايبهم، والإزراءِ عليهم، والتقصيرِ بهم، والتهجينِ لهم، وما أمرهم به ونهاهم عنه، وأن لا يُشْعر نفسَه حَذَراً منهم أنْ يُصيبوه في نفسهِ بمكروهٍ ما قامَ فيهم بأمرِ الله، ولا جَزعاً من كثرةِ عددهم وقلّةِ عَدَدِ مَنْ معه، وأن لا يتّقي أحداً في ذاتِ الله، فإنَّ الله تعالى ذِكْرُه كافيه كُلَّ أحدٍ من خَلْقِه، ودافعٌ عنه مكروهَ كل مَنْ يبغي مكروهه. وأعلمه تعالى ذِكْرُه أنه إنْ قصَّر عن إبلاغِ شيءٍ مما أنزل إليه إليهم، فهو في تركه تبليغَ ذلك ـ وإنْ قَلَّ ما لم يبلِّغ منه ـ فهو في عظيم ما ركب بذلك من الذَّنْب بمنزلته لو لم يبلِّغ من تنزيله شيئاً.

ويعني بقوله: «والله يعصمكَ من الناس»، يَمْنَعُكَ من أنْ ينالوكَ بسوءٍ.

وأما قوله: «إن الله لا يهدي القوم الكافرين»، فإنه يعني: إنَّ الله لا يوفِّقُ للرُّشْد مَنْ حاد عن سبيلِ الحقِّ، وجارَ عن قَصْدِ السبيل، وجَحَدَ ماجئته به من عند الله، ولم يَنْتَهِ إلى أمرِ اللهِ وطاعته فيما فَرَضَ عليه وأوجبه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾

وهذا أمرٌ من الله تعالى ذِكْرُه نبيَّه محمداً ﷺ بإبلاغِ اليهود والنصارى الذين كانوا بين ظهرانَيْ مُهاجَره. يقول تعالى ذِكْرُه له: «قل»، يامحمدُ، لهؤلاء اليهود والنصارى. «ياأهلَ الكتاب»، التوراة والإنجيل. «لستم على شيء»، مما تَدَّعُونَ أنكم عليه مما جاءكم به موسى ﷺ، معشرَ اليهود، ولا مِمَّا جاءكم به عيسى، معشرَ النصارى. «حتى تُقِيمُوا التوراةَ والإنجيل وما أُنزِلَ إليكم من ربكم»، مما جاءكم به محمد ﷺ من الفرقانِ، فتعملوا بذلك كله، وتؤمنوا بما فيه من الإيمانِ بمحمدٍ ﷺ وتصديقه، وتُقِرُّوا بأنَّ كل ذلك من عند الله، فلا تكذِّبوا بشيءٍ منه، ولا تُفرِّقوا بين رسلِ الله فتؤمنوا ببعضٍ وتكفروا ببعضٍ، فإنَّ الكفر بواحدٍ من ذلك كفرٌ بجميعهِ، لأنَّ كُتبَ اللهِ يُصَدِّقُ بعضها بعضاً، فمن كذَّب ببعضِها فقد كَذَّبَ بجميعها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً»، وأقسم: لَيَزِيْدَنَّ كثيراً من هؤلاء اليهودِ والنصارى الذين قَصَّ قَصَصهم في هذه الآياتِ، الكتابُ الذي أنزلتهُ إليك، يامحمد. «طغياناً»،

يقول: تجاوزاً وغلوًّا في التكذيبِ لكَ، على ماكانوا عليه لكَ من ذلك قبلَ نزولِ الفرقان «وكفراً»، يقول: وجحوداً لنبوتك.

وأما قوله: «فلا تَأْسَ على القومِ الكافرينَ»، يعني بقوله: «فلا تأس»، فلا تَحْزَنْ.

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه: لا تحزن، يامحمدُ، على تكذيبِ هؤلاء الكفار من اليهودِ والنصارى من بني إسرائيل لكَ، فإنَّ مثلَ ذلك منهم عادةٌ وخُلُقٌ في أنبيائهم، فكيفَ فِيكَ؟

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين صَدَّقُوا الله ورسوله، وهم أهلُ الإسلام. «والذين هادوا»، وهم اليهود. «والصابئون»، وقد بيَّنَّا أمرهم. «والنصارى مَنْ آمن منهم باللهِ واليومِ الآخـر»، فَصَـدَّقَ بالبعثِ بعد المماتِ. «وعمل»، من العمل. «صالحاً»، لمعادهِ. «فلا خوفٌ عليهم»، فيما قَدِموا عليه من أهوالِ القيامـة. «ولا هم يحـزنون»، على ماخَلَّفُوا وراءهـم من الدنيا وعيشها، بعد معاينتهم ما أكرمهم الله به من جزيلِ ثوابه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ۝٧٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أقسم: لقد أخذنا ميثاقَ بني إسرائيلَ على الإخلاصِ في توحيدنا، والعملِ بماأمرناهم به، والانتهاءِ عما نَهَيْنَاهم عنه - وأرسلنا إليهم بذلك رُسُلاً، ووعدناهم على ألسُنِ رُسُلِنَا إليهم على العملِ بطاعتنا الجزيلَ من الثواب، وأوعدناهم على العملِ بمعصيتنا الشديدَ من العقابِ كلما جاءهم رسولٌ لنا بما لا تشتهيه نفوسهم ولا يوافق محبَّتهم، كَذَّبُوا منهم فريقاً، ويقتلون منهم فريقاً، نقضاً لميثاقنا الذي أخذناهُ عليهم، وجرأةً علينا وعلى خلافِ أمرنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ٧١﴾

يقول تعالى: وظَنَّ هؤلاء الإسرائيليون الذين وَصَفَ تعالى ذِكْرُه صِفتهم: أنه أخذ مِيثَاقَهم: وأنه أرسلَ إليهم رسلاً، وأنهم كانوا كلما جاءهم رسولٌ بما لا تَهْوى أنفسُهم كَذَّبوا فريقاً وقتلوا فريقاً - أنْ لا يكونَ من الله لهم ابتلاءٌ واختبارٌ بالشدائدِ من العقوباتِ بما كانوا يفعلون. «فَعَمُوا وصَمُّوا»، يقول: فَعَمُوا عن الحَقِّ والوفاءِ بالميثاقِ الذي أخذتهُ عليهم، من إخلاصِ عبادتي، والانتهاء إلى أمري ونهيي، والعمل بطاعتي، بحسبانهم ذلك وظَنِّهم. «وصموا» عنه ثم تبتُ عليهم. يقول: ثم هَدَيْتُهم بلطفٍ مني لهم حتى أَنَابُوا ورجَعُوا عما كانوا عليه من معـاصيَّ وخلاف أمري والعمل بما أكرهُهُ منهم، إلى العملِ بما أحبه، والانتهاء إلى طاعتي وأمري ونهيي. «ثم عَمُوا وصموا كثيرٌ منهم»، يقول: ثم عموا أيضاً عن الحَقِّ والوفاءِ بميثاقي الذي أخذتهُ عليهم: من العملِ بطاعتي، والانتهاء إلى أمري، واجتنابِ معاصيَّ. «وصموا كثير منهم»، يقول: عميَ كثيرٌ من هؤلاء الذين كنتُ أخذتُ ميثاقَهم من بني إسرائيل، باتباع رسلي والعمل بما أنزلتُ إليهم من كتبي عن الحق وصموا، بعد تَوْبتي عليهم، واستنقاذي

إياهم من الهلكَةِ. «واللهُ بصيرٌ بما يعملون»، يقول «بصير»، فيرى أعمالَهم خيرَها وشرَّها، فيجازِيهم يومَ القيامة بجميعها، إنْ خيراً فخيراً، وإن شرًّا فشرًّا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن بعضِ مافَتَن به الإسرائيليينَ الذين أخبرَ عنهم أنهم حسبوا أنْ لا تكونَ فتنةٌ. يقول تعالى ذِكْرُه: فكان مما ابتليتُهم واختبرتُهم به، فنقضوا فيه ميثاقي، وغيَّروا عهدي الذي كنتُ أخذته عليهم بأنْ لا يعبدوا سواي، ولا يتخذوا ربًّا غيري، وأنْ يُوحِّدُوني، وينتهوا إلى طاعتي - عبدي عيسى بن مريم، فإني خلقتُه، وأجريتُ على يدِهِ نحوَ الذي أجريتُ على يدِ كثيرٍ من رسلي، فقالوا كفراً منهم: «هو الله».

وهذا قولُ اليعقوبيَّةِ من النصارى عليهم غَضَبُ الله.

يقول الله تعالى ذِكْرُه: فلما اختبرتُهم وابتليتُهم بما ابتليتهم به، أشْركوا بي، وقالوا لِخَلْقٍ من خَلْقي، وعبدٍ مثلهم من عبيدي، وبشرنحوهم معروفِ نسبه وأصله، مولود من البشر، يدعوهم إلى توحيدي، ويأمرهم بعبادتي وطاعتي، ويقرّ لهم بأني ربه وربهم، وينهاهم عن أنْ يُشْرِكُوا بي شيئاً: «هو إلههم»، جهلاً منهم بالله وكفراً به، ولا ينبغي لله أنْ يكون والداً ولا مولوداً.

ويعني بقـوله: «وقال المسيح يابني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربّكم»، يقول: اجعلوا العبادةَ والتذلُّلَ للذي له يَذِلُّ كُلُّ شيءٍ، وله يخضعُ كُلُّ موجود. «ربيّ وربكم»، يقـول: مالكي ومـالككم، وسيدي وسيدكم، الـذي خلقني

وإياكم. «إنه مَنْ يُشْرِكْ بالله فقد حَرَّمَ الله عليه الجنة»، أنْ يسكنها في الآخرة. «ومأواه النار»، يقول: ومرجعه ومكانه ـ الذي يأوي إليه ويصير في مَعادِه، مَنْ جعلَ لله شريكاً في عبادته ـ نارُ جهنم. «وما للظالمين»، يقول: وليس لِمَنْ فعلَ غير ما أباحَ الله له، وعَبَدَ غيرَ الذي له عبادةُ الخَلْقِ. «من أنصار»، ينصرونه يومَ القيامةِ من الله، فينقذونه منه إذا أورده جهنم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

وهذا أيضاً خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن فريقٍ آخرَ من الإسرائيليينَ الذين وصَفَ صِفَتهم في الآيات قبل: أنه لما ابتلاهم بعد حِسْبَانهم أنهم لا يُبْتَلُونَ ولا يُفْتَنُونَ، قالوا كفراً بربهم وشركاً: «الله ثالثُ ثلاثة».

وهـذا قولٌ كان عليه جمـاهيرُ النصـارى قبل افتراقِ اليعقوبيةِ والملكيةِ والنَّسـطورية. كانـوا فيما بلغنا يقولون: «الإلهُ القديم جوهرٌ واحد يعم ثلاثة أقانيم: أباً والداً غيرَ مولودٍ، وابناً مولوداً غير والدٍ، وزوجاً متتبَّعة بينهما».

يقول الله تعالى ذِكْرُه، مُكَذِّباً لهم فيما قالُوا من ذلك: «وما مِنْ إلهٍ إلّا إله واحد»، يقول: مالكم معبودٌ، أيها الناسُ، إلا معبودٌ واحد، وهو الذي ليس بوالـد لشيء ولا مولـود، بَلْ هو خالقُ كل والد ومولود. «وإنْ لم ينتهوا عما يقولون»، يقول: إنْ لم يـنتـهِ قائلُو هذه المقالةِ عما يقولون من قولهم: «الله ثالث ثلاثة». «لَيَمَسَّنَّ الذين كَفَرُوا منهم عذابٌ أليم»، يقول: ليمسَّنَّ الذين يقولون هذه المقالة، والذين يقولون المقالة الأخرى: «هو المسيح بن مريم»، لأنَّ الفـريقين كلاهمـا كَفَرَةٌ مشركون، فلذلك رجع في الوعيد بالعذاب إلى

العمـوم، ولم يقل: «ليمسنَّهم عذابٌ أليم»، لأنَّ ذلك لو قيل كذلك، صار الوعيدُ من الله تعالى ذِكْرُه خاصًّا لقائلِ القولِ الثاني، وهم القائلون: «الله ثالثُ ثلاثة»، ولم يدخل فيهم القائلون: «المسيح هو الله». فَعَمَّ بالوعيدِ تعالى ذِكْـرُه كُلَّ كافـرٍ، ليعلم المخـاطبونَ بهذه الآياتِ أنَّ وعيدَ اللهِ قد شملَ كلا الفريقين من بني إسرائيل، ومَنْ كان من الكفار على مِثْلِ الذي هُمْ عليه.

فإنْ قال قائل: وإنْ كان الأمر على ماوصفت، فعلى مَنْ عادت «الهاء والميم» اللتان في قوله: «منهم»؟

قيل: على بني إسرائيل.

فتـأويلُ الكـلام، إذْ كان الأمـرُ على ماوصفنـا: وإنْ لم ينتـه هؤلاء الإسـرائيليون عَمَّـا يقـولونَ في الله من عظيمِ القولِ، ليمسنَّ الذين يقولون منهم: «إن المسيح هو الله»، والذين يقولون: «إن الله ثالث ثلاثة»، وكل كافرٍ سَلَكَ سبيلهم - عذابٌ أليم، بكفرهم بالله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أفلا يرجع هذانِ الفريقانِ الكافرانِ القائل أحدهما: «إن الله هو المسيح بن مريم»، والآخر القائل: «إنَّ الله ثالث ثلاثة» عما قالا من ذلك؛ ويَتُوبانِ مما قالا ونَطَقَا به من كفرهما، ويسألان رَبَّهما المغفرةَ مما قالا «والله غفـور»، لذنـوبِ التـائبينَ من خَلْقِـه، المنيبينَ إلى طاعتـه بعـد معصيتهم. «رحيم» بهم، في قبوله توبتَهم ومراجعتهم إلى مايحبُّ مِمَّا يكره، فيصفح بذلك من فِعْلِهم عما سلَف من أجرامهم قبل ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾

وهـذا خَبَـرٌ من الله تعالى ذِكْرُه، احتجاجاً لنبيِّه محمدٍ ﷺ على فِرَقِ النصارى في قولهم في المسيح.

يقول: مكذِّباً لليعقوبية في قِيلهم: «هو الله» والآخرين في قِيلهم: «هو ابن الله»: ليس القولُ كما قال هؤلاء الكفرةُ في المسيح، ولكنه ابنُ مريمَ ولدته ولادةَ الأمهاتِ أبناءَهن، وذلك من صِفَةِ البشر لا مِنْ صِفَةِ خالقِ البشر، وإنما هو لله رسولٌ كسائرِ رُسُلِه الذين كانوا قبلَه فمضوا وخَلَوْا، أجرى على يدهِ ما شاءَ أنْ يجريه عليها من الآياتِ والعِبر، حجةً له على صدقه، وعلى أنه لله رسولٌ إلى مَنْ أرسله إليه من خَلْقِه، كما أجرى على أيدي مَنْ قَبْلَهُ من الرُّسُلِ من الآياتِ والعِبر، حجةً لهم على حقيقةِ صِدْقِهم في أنهم لله رسلٌ. «وأمه صِدِّيقةٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه وأمّ المسيح صِدِّيقةٌ.

وقوله: «كانا يأكلان الطعام»، خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن المسيح وأمّه: أنهما كانا أهلَ حاجةٍ إلى ما يَغْذُوهما وتقومُ به أبدانهما من المطاعمِ والمشاربِ كسائرِ البشرِ من بني آدم، فإنَّ مَنْ كان كذلك، فغيرُ كائنٍ إلهاً، لأنَّ المحتاجَ إلى الغذاء قِوَامه بغيرِه. وفي قوامهِ بغيرهِ وحاجته إلى مايقيمه، دليلٌ واضحٌ على عجزه. والعاجزُ لا يكونُ إلا مربوباً لا ربًّا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْأَيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٧٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: انظر، يامحمدُ، كيف نبينُ لهؤلاء

الكَفَرةِ من اليهود والنصارى. «الآيات»، وهي الأدلَّةُ، والأعلام والحُججُ على بُطُولِ مايقـولـونَ في أنبياء الله، وفي فِرْيَتِهم على الله، وادِّعـائهم له ولداً، وشهادتهم لبعضِ خَلْقهِ بأنه لهم ربٌّ وإله، ثم لا يرتدعون عن كذبهم وباطلِ قيلهم، ولا ينزجرونَ عن فِرْيَتِهم على ربِّهم وعظيم جهلهم، مع ورودِ الحججِ القاطعةِ عذرَهم عليهم. يقول تعالى ذِكْرُه لنبيِّه محمدٍ ﷺ: «ثم انظر»، يامحمدُ «أنّى يؤفكون»، يقول: ثم انظر، مع تبييننا لهم آياتنا على بُطول قولهم، أيَّ وجهٍ يُصرَفون عن بياننا الذي نبيِّنُهُ لهم؟ وكيف عن الهدى الذي نهديهم إليه من الحق يضلُّون؟

والعربُ تقولُ لكل مصروفٍ عن شيءٍ: «هو مأفُوكٌ عنه». يقال: «قد أفَكت فلاناً عن كذا»، أي: صرفته عنه، «فأنا آفِكه أفْكاً، وهو مأفوك». و«قد أُفِكت الأرضُ»، إذا صُرِفَ عنها المطرُ[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٧٦﴾

وهذا أيضاً احتجاجٌ من الله تعالى ذِكْرُه لنبيه ﷺ على النصارى القائلينَ في المسيح ماوَصَفَ من قيلهم فيه قَبْلُ.

يقـول تعـالى ذِكْـرُه لمحمدٍ ﷺ: «قُلْ»، يامحمدُ، لهؤلاء الكفرةِ من النصارى، الزاعمينَ أنَّ المسيحَ ربهم، والقائلينَ إنَّ الله ثالث ثلاثة ـ أتعبدون سوى الله الـذي يملك ضركم ونفعكم، وهـو الـذي خلقكم ورزقكم، وهـو يحييكم ويميتكم شيئاً لا يملكُ لكم ضرًّا ولا نفعاً؟ يخبرهم تعالى ذكره أنَّ المسيحَ الذي زعم مَنْ زعم من النصارى أنه إلهٌ، والذي زعم من زعم منهم

(١) انظر مجاز القرآن لأبي عبيدة: ١/١٧٤ ـ ١٧٥.

أنه لله ابنٌ، لايملكُ لهم ضرًّا يدفعهُ عنهم إنْ أحلَّهُ الله بهم، ولا نفعاً يجلبه إليهم إنْ لم يَقْضِه الله لهم. يقول تعالى ذكره: فكيف يكون ربًّا وإلهاً مَنْ كانت هذه صِفَته؟ بل الربُّ المعبودُ: الذي بيده كُلُّ شيءٍ، والقادرُ على كُلِّ شيءٍ. فإياهُ فاعبدُوا وأخلِصُوا له العبادةَ، دونَ غيرِه من العجزَةِ الذين لا ينفعونكم ولا يضرون.

وأما قوله: «والله هو السميع العليم»، فإنه يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: «والله هو السميع»، لاستغفارِهم لو استغفروه من قيلهم ما أخبرَ عنهم أنهم يقولونه في المسيح، ولغير ذلك من منطقهم ومنطق خلقه. «العليم»، بتوبتهم لو تابوا منه، وبغيرِ ذلك من أمورهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾

وهذا خطابٌ من الله تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ. يقول تعالى ذِكْرُه: «قُلْ»، يامحمدُ، لهؤلاء الغاليةِ من النصارى في المسيح «ياأهلَ الكتاب»، يعني بـ«الكتاب»، الإنجيل «لاتَغْلُوا في دِينكم»، يقول: لا تفرِطوا في القول فيما تَدِينُونَ به من أمرِ المسيح، فتجاوزوا فيه الحقَّ إلى الباطلِ، فتقولوا فيه: «هو الله»، أو: «هو ابنه»، ولكن قولوا: «هو عبدُ الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه». «ولا تَتَّبِعُوا أهواءَ قومٍ قد ضَلُّوا من قَبْلُ وأضلوا كثيراً»، يقول: ولا تتبعوا أيضاً في المسيح أهواءَ اليهودِ الذين قد ضلوا قَبْلَكُم عن سبيلِ الهدى في القول فيه، فتقولون فيه كما قالوا: «هو لغير رَشْدة»، وتبهتوا أمَّه كما بَهَتُوها بالفِرْيَةِ وهي صِدِّيقة، «وأضلوا كثيراً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأضل هؤلاء اليهود

كثيراً من النـاس، فحـادوا بهم عن طريقِ الحق، وحملوهم على الكفرِ بالله والتكذيبِ بالمسيح. «وضَلُّوا عن سواءِ السبيل»، يقول: وضَلَّ هؤلاء اليهود عن قَصْدِ الطريقِ، وركبوا غير محجَّة الحق.

وإنما يعني تعالى ذِكْرُه بذلك، كُفْرَهم باللهِ، وتكذيبَهم رُسُلَهُ: عيسى ومحمداً ﷺ، وذهابَهم عن الإيمانِ وبُعْدَهُم منه. وذلك كان ضلالهم الذي وصَفَهُم الله به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ، قُلْ لهؤلاء النصارى الذين وصفَ تعالى ذِكْرُه صِفَتَهم: لاتَغْلُوا فتقولوا في المسيح غيرَ الحَقِّ، ولا تقولوا فيه ما قالتِ اليهودُ الذين قد لعنهم الله على لسانِ أنبيائهِ ورسلهِ، داود وعيسى بن مريم.

فتأويل الكلام إذًا: لَعَنَ اللهُ الذين كفروا ـ من اليهود ـ بالله على لسانِ داودَ وعيسى بن مريم، ولُعِنَ والله آباؤهم على لسان داودَ وعيسى بن مريم، بما عصوا الله فخالفوا أمره. «وكانوا يعتدون»، يقول: وكانوا يتجاوزون حدودَه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾

تأويل الكلام: كانوا لا ينتهون عن مُنْكَرٍ أتَوْهُ. «لبئسَ ما كانوا يفعلون».

وهذا قَسَمٌ من الله تعالى ذِكْرُه يقول: أقسم: لَبِئْسَ الفعلُ كانوا يفعلون، في تركِهم الانتهاءَ عن معاصي الله تعالى ذِكْرُه، وركوب محارمه، وقتل أنبياءِ الله ورسله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «ترى»، يامحمدُ، كثيراً من بني إسرائيل. «يتولَّون الذين كفروا»، يقول: يتولَّوْنَ المشركينَ من عَبَدةِ الأوثانِ، ويعادون أولياءَ اللهِ ورسله. «لبئس ماقدمت لهم أنفسهم»، يقول تعالى ذِكْرُه: أقسم: لبئسَ الشيءُ الـذي قَدَّمَتْ لهم أنفسُهم أمـامهم إلى معادِهم في الآخرة. «أنْ سَخِطَ الله عليهم»، يقول: قَدَّمَتْ لهم أنفسُهم سخطَ اللهِ عليهم بما فعلوا.

«وفي العذاب هم خالدون»، يقول: وفي عذابِ الله يوم القيامة. «هم خالدون»، دائمٌ مُقامهم ومُكثهم فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ ۞

يقـول تعـالى ذِكْرُه: ولو كان هؤلاء الذين يتولَّوْنَ الذين كفروا من بني إسـرائيل «يؤمنـون بالله والنبي»، يقـول: يُصَدِّقُونَ الله ويُقِرُّونَ به ويوحِّدُونَهُ، ويصدقون نبيَّه محمداً ﷺ بأنه لله نبيٌّ مبعوث، ورسولٌ مرسل. «وما أُنزلَ إليه»، يقـول: ويُقِرُّونَ بما أُنزلَ إلى محمدٍ ﷺ من عند الله من آيِ الفرقان. «ما اتخـذوهم أولياء»، يقـول: ما اتَّخَذُوهم أصحاباً وأنصاراً من دونِ المؤمنين.

«ولكنَّ كثيراً منهم فاسقون»، يقول: ولكن كثيراً منهم أهل خروج عن طاعةِ الله إلى معصيتهِ، وأهلُ استحلالٍ لما حرَّم الله عليهم من القول والفعل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: لَتَجِدَنَّ، يامحمدُ، أشدَّ الناسِ عداوةً للذين صَدَّقُوكَ واتَّبعوكَ وصَدَّقُوا بما جِئْتَهم به من أهلِ الإسلام. «اليهودَ والذين أشركوا»، يعني: عَبَدَةَ الأوثانِ الذين اتخذوا الأوثانَ آلهةً يعبدونها من دونِ الله. «ولتجدن أقربَهم مودةً للذين آمنوا»، يقول: ولتجدن أقربَ الناس مودةً ومحبة.

«وللذين آمنوا» يقول: للذين صَدَّقُوا الله ورسولَهُ محمداً ﷺ «الذين قالوا إنَّا نصارى ذلك بأنَّ منهم قِسِّيسِينَ ورهباناً وأنهم لا يستكبرون»، عن قبولِ الحق واتباعهِ والإذعانِ به.

وأما قوله: تعالى: «ذلك بأنَّ منهم قسيسين ورهباناً»، فإنه يقول: قَرُبت مودَّة هؤلاء الذين وَصَفَ الله صِفَتَهُم للمؤمنينَ، من أجلِ أنَّ منهم قسيسين ورهباناً.

و«القِسِّيسُونَ» جمع «قسيس». وقد يجمع «القسيس»، «قسوساً»، لأن «القَسّ» و«القسيس»، بمعنًى واحد.

وأما «الرهبان»، فإنه يكون واحداً وجمعاً. فأما إذا كان جمعاً، فإنَّ واحدهم يكون «راهباً»، ويكون «الراهب»، حينئذٍ «فاعلاً» من قولِ القائلِ:

«رَهب الله فلان»، بمعنى خَافَهُ، «يرهبه رَهَباً ورَهْباً»، ثم يجمع «الراهب»، «رهبان» مثل «راكب» و«ركبان» و«فارس» و«فرسان».

(وتأويل ذلك): إنَّ الله تعالى ذِكْرُه أخبرَ عن النفرِ الذين أثنى عليهم من النصارى بقربِ مَودَّتِهم لأهلِ الإيمان بالله ورسوله، أنَّ ذلك إنما كان منهم لأنَّ منهم أهلَ اجتهادٍ في العبادة، وترهُّب في الدياراتِ والصوامعِ، وأنَّ منهم علماء بكتبهم وأهل تلاوةٍ لها، فهم لا يبعدون من المؤمنين لتواضعهم للحقِّ إذا عَرَفُوهُ، ولا يستكبرونَ عن قَبُولِه إذا تَبيَّنُوه، لأنهم أهلُ دِينٍ واجتهادٍ فيه، ونصيحة لأنفسهم في ذاتِ الله، وليسوا كاليهود الذين قد دَرِبُوا بقتلِ الأنبياءِ والرسلِ، ومعاندةِ الله في أمرهِ ونهيه، وتحريفِ تنزيلهِ الذي أنزله في كتبه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا سمع هؤلاء الذين قالوا: «إنا نَصَارى» الذين وصفتُ لكَ، يامحمدُ، صِفتَهم أنك تجدهم أقرب الناسِ مودةً للذين آمنوا ما أنزل إليك من الكتابِ يُتْلى «ترى أعينهم تفيض من الدمع».

و«فيض العين من الدمع»، امتلاؤُهَا منه، ثم سَيَلاَنُه منها، كفيضِ النهر من الماء، وفيضِ الإناء، وذلك سيلانه عن شدةِ امتلائه.

وقوله: «مما عَرَفُوا من الحقِّ»، يقول: فيض دموعهم، لمعرفتهم بأنَّ الذي يُتْلَى عليهم من كتابِ الله الذي أنزله إلى رسول الله حقٌّ.

ويعني بقوله تعالى ذِكْرُه: «يقولون ربنا آمنا»، أنهم يقولون: ياربنا، صَدَّقْنَا لما سمعنا ما أنزلتَهُ إلى نَبِيِّكَ محمدٍ ﷺ من كتابكَ، وأقْرَرْنَا به أنه من

عندكَ، وأنه الحقُّ لا شكَّ فيه.

وأما قوله: «فاكتبنا مع الشاهدين»، يقول: فاجعلنا مع الشاهدين، وأثْبِتْنَا معهم في عِدَادِهِم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٤﴾

وهذا خبرٌ من اللهِ تعالى ذِكْرُه عن هؤلاءِ القومِ الذين وَصَف صِفَتهم في هذه الآياتِ، أنهم إذا سمعوا ما أنزلَ إلى رسولِه محمدٍ ﷺ من كتابِه، آمنوا به وصَدَّقُوا كتابَ الله، وقالوا: «ما لنا لانؤمنُ بالله»، يقول: لانُقِرُّ بوحدانيةِ الله. «وما جاءَنا من الحق»، يقول: وما جاءنا من عند الله من كتابه وآيِ تنزيلِه، ونحن نطمَعُ بإيماننا بذلك أنْ يُدْخِلَنا ربُّنا مع القومِ الصالحين.

يعني بـ «القوم الصالحين»، المؤمنينَ بالله، المطيعينَ له، الذين استحقُّوا من اللهِ الجنةَ بطاعتِهم إياهُ.

وإنما معنى ذلك: ونحن نطمعُ أنْ يُدْخِلَنا ربُّنا مع أهلِ طاعتهِ مداخِلَهم من جنتِهِ يوم القيامة، ويلحق منازلَنا بمنازلهم، ودرجاتنا بدرجاتهم في جنَّاته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٨٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فجزاهم الله بقولهم: «ربَّنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين. وما لنا لا نؤمنُ بالله وما جاءَنا من الحقِّ ونطمع أنْ يدخلَنا ربُّنا مع القوم الصالحين». «جناتٍ تجري من تحتها الأنهار»، يعني: بساتين تجري من تحتِ أشجارِها الأنهار. «خالدينَ فيها»، يقول: دائماً فيها مُكْثُهم، لا يخرجون منها

ولا يُحَوِّلُونَ عنها. «وذلك جزاء المحسنين»، يقول: وهذا الذي جَزَيتُ هؤلاء القائلينَ بما وصفتُ عنهم من قِيلهم على ما قالوا، من الجناتِ التي هم فيها خالدون، جزاءُ كل محسنٍ في قِيله وفِعله.

و«إحسان المحسن» في ذلك، أنْ يوحِّدَ الله توحيداً خالصاً محضاً لا شِرْكَ فيه، ويقرّ بأنبياءِ اللهِ وما جاءتْ به من عندِ الله من الكتب، ويؤدِّي فرائضَه، ويجتنب معاصيه. فذلك كمالُ إحسانِ المحسنينَ الذين قالَ اللهُ تعالى ذِكْرُه: «جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ٨٦﴾

يقول تعالى ذكره: وأما الذين جَحَدوا توحيدَ الله، وأنكروا نبوّةَ محمدٍ ﷺ، وكذبوا بآياتِ كتابه، فإنَّ أولئك «أصحابُ الجحيم». يقول: هم سُكّانُهَا واللابثونَ فيها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ٨٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يا أيها الذين صَدَّقُوا الله ورسولَهُ، وأقَرُّوا بما جاءهم به نبيهُم ﷺ أنه حَقٌّ من عندِ الله. «لاتُحَرِّمُوا طيباتِ ما أَحَلَّ اللهُ لكم»، يعني: بـ«الطيبات»، اللذيذات التي تشتهيها النفوسُ، وتميلُ إليها القلوبُ، فتمنعوها إيَّاها، كالذي فعله القِسِّيسُونَ والرُّهبان، فحرَّموا على أنفسِهم النساءَ والمطاعمَ الطيِّبة، والمشاربَ اللذيذة، وحبَس في الصَّوامع بعضُهم أنفسَهم، وساحَ في الأرض بعضهم. يقول تعالى ذِكْرُه: فلا تفعلوا أيُّها المؤمنون، كما فعلَ أولئك،

ولا تعتدُوا حَدَّ اللهِ الذي حَدَّ لكم فيما أَحَلَّ لكم وفيما حَرَّمَ عليكم، فتجاوزوا حَدَّهُ الذي حَدَّهُ، فتخالفوا بذلك طاعتَهُ، فإنَّ الله لا يحبُّ من اعتدى حَدَّهُ الذي حَدَّهُ لِخَلْقِه، فيما أَحَلَّ لهم وحرَّم عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه، لهؤلاء المؤمنين الذين نَهَاهم أنْ يُحَرِّمُوا طيباتِ ما أحلَّ اللهُ لهم: كُلُوا، أيها المؤمنون، من رِزْقِ الله الذي رَزقكم وأحله لكم، حلالاً طيِّباً.

وأما قوله: «واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون»، فإنه يقول: وخَافُوا، أيها المؤمنون، أنْ تعتدوا في حدودِهِ، فتُحِلُّوا ماحُرِّم عليكم، وتُحَرِّموا ما أُحِلَّ لكم، واحذروه في ذلك أن تُخَالِفُوهُ، فينزل بكم سَخَطُه، أو تستوجبوا به عقوبته. «الذي أنتم به مؤمنون»، يقول: الذي أنتم بوحدانيَّتِهِ مُقِرُّونَ، وبربُوبيته مصدِّقون.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه، للذين كانوا حرَّموا على أنفسهم الطيِّبات من أصحابِ رسول الله ﷺ، وكانوا حَرَّمُوا ذلك بأيمانٍ حَلَفوا بها، فنهاهم عن تحرِيمها وقال لهم: لا يُؤَاخذكم ربُّكم باللغو في أيمانكم.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءةِ ذلك.

فقرأته عامة قَرَأة الحجاز وبعض البَصْريين: ﴿ولَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ﴾، بتشديد «القاف»، بمعنى: وَكَّدْتُمُ الأيمانَ وردّدتموها.

وقرأه قَرَأَةُ الكوفيين: ﴿بِمَا عَقَدْتُمُ الأَيْمَانَ﴾، بتخفيف «القاف»، بمعنى: أَوْجَبْتُموها على أنفسكم، وعَزَمتْ عليها قلوبكم.

وأَوْلى القراءتين بالصواب في ذلك، قراءةُ مَنْ قرأ بتخفيف «القاف».

وذلك أنَّ العربَ لا تكادُ تستعمل «فعَّلت» في الكلام، إلا فيما يكون فيه تردُّدٌ مرةً بعد مرةٍ، مثل قولهم: «شدَّدتُ على فلان في كذا»، إذا كُرِّر عليه الشدّة مرة بعد أخرى. فإذا أرادوا الخبرَ عن فِعْلِ مرّةٍ واحدةٍ قيل: «شدَدَت عليه»، بالتخفيف.

وقد أجمع الجميعُ لا خِلافَ بينهم: أنَّ اليمينَ التي تجبُ بالحِنْثِ فيها الكفارةُ، تلزم بالحنث في حلف مرةٍ واحدة، وإنْ لم يكرّرها الحالفُ مرات. وكان معلوماً بذلك أنَّ الله مؤاخِذُ الحالفَ العاقدَ قلبَه على حلفه، وإن لم يكرِّره ولم يردِّدْه.

وإذا كان ذلك كذلك، لم يكن لتشديدِ «القاف» من «عقّدتم»، وجهٌ مفهومٌ.

فتأويلُ الكلام إذاً: لا يؤاخذكُمُ الله، أيها المؤمنونَ، من أيمانكم بما لَغَوْتُم فيه، ولكن يؤاخذكم بما أوْجَبْتُموه على أنفسِكم منها، وعَقَدَت عليه قلوبكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ

المائدة: ٨٩

اختلف أهلُ التأويلِ في «الهاء» التي في قوله: «فكفارته»، على ماهي عائدة، ومن ذكر ما؟

فقال بعضهم: هي عائدة على «ما» التي في قوله: «بما عقدتم الأيمان».

فمعنى الكلام على هذا التأويل: «لا يؤاخذكمُ اللهُ باللغوِ في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتمُ الأيمانَ»، فكفارةُ ما عقدتُمْ منها إطعامُ عَشَرة مساكين.

وقال آخرون: «الهاء» في قوله: «فكفارته»، عائدةٌ على «اللغو»، وهي كناية عنه. قالوا: وإنما معنى الكلام: لا يؤاخذكُم اللهُ باللغوِ في أيمانكم إذا كَفَّرْتُموهُ، ولكن يؤاخذكم إذا عقدتم الأيمان، فأقمتم على المُضِيِّ عليه بتركِ الحِنْثِ والكفارةِ فيه. والإقامةُ على المضيِّ عليه، غير جائزةٍ لكم. فكفارةُ اللغو منها إذا حَنِثْتُمْ فيه، إطعامُ عشرة مساكين.

والذي هو أَوْلى عندي بالصوابِ في ذلك، أنْ تكونَ «الهاء» في قوله: «فكفارته» عائدةً على «ما» التي في قوله: «بما عقدتم الأيمان»، لما قَدَّمْنَا فيما مضى قَبْلُ: أنَّ مَنْ لزمته في يمينه كفَّارةٌ وأُوخِذَ بها، غيرُ جائز أن يقال لمن قد أُوخِذَ: «لايؤاخذه الله باللغو». وفي قوله تعالى: «لايؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم»، دليلٌ واضحٌ أنه لا يكونُ مُؤَاخَذاً بوجهٍ من الوجوه، مَنْ أخبرنا تعالى ذِكْرُه أنه غيرُ مؤاخذِه.

فإنْ ظَنَّ ظانٌّ أنه إنما عَنَى تعالى ذِكْرُه بقوله: «لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم»، بالعقوبةِ عليها في الآخرة إذا حنثْتُم وكفَّرتم ـ إلا أنه لا يؤاخذهم بها في الدنيا بتكفير ـ فإنَّ إخبارَ الله تعالى ذِكْرُه وأمرَه ونهيَه في كتابه، على الظاهرِ العامِّ عندنا، بما قد دللنا على صحّةِ القولِ به في غيرِ هذا الموضعِ ، فأغنى

عن إعادته ـ دونَ الباطنِ العامٌ الذي لا دلالةَ على خصوصهِ في عقلٍ ولا خبر. ولا دلالةَ من عقلٍ ولا خبرٍ أنه عَنى تعالى ذِكْرُه بقوله: «لايؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم»، بعضَ معاني المؤاخذةَ دونَ جَمِيعها.

وإذ كان ذلك كذلك، وكان مَنْ لَزِمَتْهُ كفّارةٌ في يمينٍ حنث فيها مؤاخذٍ بها بعقوبةٍ في ماله عاجلة، كان معلوماً أنه غيرُ الذي أخبرنا تعالى ذِكْرُه أنه لا يؤاخذه بها.

وإذْ كان الصحيح من التأويل في ذلك ما قلنا بالذي عليه دللنا، فمعنى الكلام إذاً: لا يؤاخذُكُم اللهُ، أيها الناسُ، بلغوٍ من القولِ والأيمان، إذا لم تَتَعَمَّدُوا بها معصيةَ الله تعالى ذِكْرُه ولا خِلافَ أمره، ولم تقصدوا بها إثماً، ولكن يؤاخذكم بما تعمَّدتم به الإِثمَ، وأوجبتموه على أنفسِكُم، وعزمتْ عليه قلوبُكم، ويكفر ذلك عنكم، فيغطِّي على سيِّء ما كانَ منكم من كذبٍ وزُورِ قولٍ، ويمحوه عنكم فلا يتبعكم به ربكم. «إطعامُ عشرة مساكين من أوسط ماتطعمون أهليكم».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «من أوسط ماتطعمونَ أهليكم»، من أَعْدَلِهِ.

واختلف أهلُ التأويل في معنى قوله: «من أوسط ما تطعمون أهليكم».

فقال بعضهم: معناه: من أوْسَطِ مايُطعم من أجناسِ الطعامِ الذي يقتاته أهلُ بلدِ المُكَفِّرِ، أهالِيهم.

ثم اختلف قائلو ذلك في مبلغه.

فقال بعضهم: مبلغُ ذلك، نصفُ صاعٍ من حنطة، أو صاعٌ من سائرِ الحبوبِ غيرها.

وقال آخرون: بل مبلغُ ذلك من كُلِّ شيءٍ من الحبوب، مُدٌّ واحد.

وقال آخرون: بل ذلك غَداء وعشاء.

وقال آخرون: إنما عَنَى بقوله: «من أوْسَطِ ماتطعمون أهليكم»، من أوسطِ مايطعم المكفِّرُ أهلَهُ. قال: إن كان ممن يشبعُ أهلَهُ، أشبعَ المساكينَ العشرة. وإن كان مِمَّنْ لا يُشْبِعُهم لعجزهِ عن ذلك، أطعمَ المساكينَ على قَدْرِ ما يفعلُ من ذلك بأهلِه في عسره ويُسره.

وأولى الأقوال في تأويل قوله: «من أوسط ماتطعمون أهليكم» عندنا، قولُ مَنْ قال: «من أوسط ماتطعمون أهليكم في القِلَّه والكثرة». وذلك أنَّ أحكامَ رسولِ الله ﷺ في الكفارات كلُّها بذلك وردت. وذلك كَحُكْمِه ﷺ في كفارة الحلق من الأذى بفَـرَقٍ[1] من طعامٍ بين ستة مساكين، لِكُلِّ مسكينٍ نصف صاع[2]، وكحُكْمِـه في كفارة الوطء في شهرِ رمضان بخمسةَ عشرَ صاعاً بين ستين مسكيناً، لِكُلِّ مسكينٍ رُبْع صاع[3]. ولا يُعْرف له ﷺ شيء من الكفارات، أمرٌ بإطعام خبز وإدام، ولا بغداء وعشاء.

فإذْ كان ذلك كذلك، وكانت كفارةُ اليمين إحدى الكفارات التي تلزمُ مَنْ لَزِمَتْهُ، كان سبيلُها سبيلَ ماتولّى الحكم فيه ﷺ: من أنَّ الواجبَ على مُكَفِّرها من الطعامِ، مُقَدَّراً للمساكين العشرة محدوداً بكيل، دون جَمْعِهم على غداءٍ أو عشاءٍ مخبوزٍ مأدوم، إذ كانت سنَّته ﷺ في سائر الكفارات كذلك.

---

(١) الفَرَق: مكيال معروف بالمدينة، وهو ستة عشر رطلاً.

(٢) البخاري (١٨١٥) و(١٨١٦).

(٣) انظر البيهقي: ٤/٢٢١ ـ ٢٢٨.

فإذْ كان صحيحاً ما قلنا بما به استشهدنا، فَبَيِّنٌ أنَّ تأويلَ الكلام: ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان، فكفارتُه إطعامُ عشرة مساكين من أعدلِ إطعامِكم أهْلِيكُم، وأن «ما» التي في قوله: «من أوسط ماتطعمون أهليكم»، بمعنى المصدر، لا بمعنى الأسماء.

وإذا كان ذلك كذلك، فأعدلُ أقواتِ الموسِّع على أهله مُدَّانِ، وذلك نصف صاعٍ في ربُعه إدامه، وذلك أعلى ماحكم به النبيُّ ﷺ في كفارة في إطعام مساكين. وأعدلُ أقواتِ المقتِّرِ على أهله، مُدٌّ، وذلك ربع صاع، وهو أدنى ماحكم به في كفارة في إطعام مساكين.

وأما الذين رأوا إطعامَ المساكين في كفارةِ اليمينِ، الخبزَ واللحمَ وما ذكرنا عنهم قَبْلُ، والذين رأوا أن يغدّوا أو يعشوا، فإنهم ذهبوا إلى تأويل قوله: «من أوسط ماتطعمون أهليكم»، من أوسط الطعام الذي تطعمونه أهليكم، فجعلوا «ما» التي في قوله: «من أوسط ماتطعمون أهليكم»، اسماً لا مصدراً، فأوجبوا على المكفِّر إطعامَ المساكينِ من أعدلِ مايُطعم أهله من الأغذية. وذلك مذهبٌ، لولا ماذكرنا من سننِ رسولِ الله ﷺ في الكفارات غيرها، التي يجب إلحاقُ أشكالها بها، وأنَّ كفارةَ اليمينِ لها نظيرةٌ وشبيهةٌ يجبُ إلحاقها بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَوْ كِسْوَتُهُمْ

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: فكفارةُ ماعقدتم من الأيمان: إطعامُ عشرة مساكين، أو كسوتهم. يقول: إما أنْ تطعموهم أو تكسوهم. والخيار في ذلك إلى المكفِّر.

واختلف أهلُ التأويلِ في «الكسوة» التي عَنَى الله تعالى ذِكْرُه بقوله: «أو كسوتهم».

فقال بعضهم: عَنى بذلك: كسوةَ ثوبٍ واحد.

وقال بعضهم: عَنَى بذلك: الكسوةَ، ثوبين ثوبين.

وقال آخرون: بل عنى بذلك كسوتهم «ثوب جامع»، كالملحفة والكساء، والشيء الذي يصلحُ للّبسِ والنومِ.

وقال آخرون: عنى بذلك: كسوةَ إزارٍ ورداءٍ وقميص.

وقال آخرون: كل ما كسا فيجزىء، والآية على عمومها.

وأوْلى الأقوال في ذلك عندنا بالصحة وأشبهها بتأويلِ القرآن، قولُ مَنْ قال: عَنَى بقوله: «أو كسوتهم»، ماوقع عليه اسمُ كسوة، مما يكونُ ثوباً فصاعداً لأن مادونَ الثوبِ، لا خِلافَ بين جميعِ الحُجَّةِ أنه ليس مما دخلَ في حكمِ الآية، فكان مادونَ قدر ذلك، خارجاً من أن يكون الله تعالى عَنَاهُ، بالنقلِ المستفيضِ. والثوبُ وما فوقه داخلٌ في حكم الآية، إذْ لم يأتِ من الله تعالى ذِكْرُه وحيٌ، ولا من رسولِه ﷺ خَبَرٌ، ولم يكن من الأمةِ إجماعٌ بأنه غير داخلٍ في حكمها. وغير جائز إخراج ما كان ظاهرُ الآية محتملَهُ من حكمِ الآية، إلا بحجةٍ يجبُ التسليمُ لها. ولا حجةَ بذلك.

القَوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: أو فكّ عبدٍ من أسرِ العبودةِ وذلِّها.

فإنْ قال قائلٌ: أفكُلّ الرقابِ معنيٌّ بذلك أو بعضه؟

قيل: بل معنيٌّ بذلك كل رقبةٍ كانت سليمةً من الإقعادِ[١]، والعمىَ والخرسِ، وقَطْعِ اليدينِ أو شَلَلِهما، والجنون المطبق، ونظائر ذلك. فإنَّ مَنْ كان به ذلك أو شيء منه من الرقاب، فلا خلافَ بين الجميعِ من الحُجَّةِ أنه لا يجزىءُ في كفارة اليمين. فكان معلوماً بذلك أنَّ الله تعالى ذِكْرُه لم يعْنه بالتحريرِ في هذه الآية. فأما الصغيرُ والكبيرُ والمسلمُ والكافرُ، فإنهم مَعْنِيُّونَ به.

والمكفِّر مخيَّرٌ في تكفير يمينه التي حنث فيها بإحدى هذه الحالات الثلاث التي سماها الله في كتابه، وذلك: إطعام عشرة مساكين من أوسطِ مايطعم أهله، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة ـ بإجماعٍ من الجميعِ، لا خلافَ بينهم في ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ

يقول تعالى ذِكْرُه: «فمن لم يجد»، لكفارةِ يمينِه التي لزمه تكفيرُها من الطعامِ والكسوةِ والرقابِ مايُكَفِّرُهَا به على مافَرَضْنَا عليه وأوجبناه في كتابِنا وعلى لسانِ رسولنا محمدٍ ﷺ. «فصيامُ ثلاثة أيام»، يقول: فعليه صيامُ ثلاثةِ أيام.

ثم اختلف أهلُ العلم في معنى قوله: «فمن لم يجد»، ومتى يستحقُّ الحانثُ في يمينِه الذي قد لَزِمَتْهُ الكَفَّارةُ، اسم «غير واجد»، حتى يكونَ ممن له الصيام في ذلك.

فقال بعضهم: إذا لم يكن للحانثِ في وقتِ تكفيرِه عن يمينه إلا قَدْر

---

(١) الإقعاد: الداء الذي يُقْعِد فيحيل بينه وبين المشي.

قُوتِهِ وقوت عياله يومَه وليلته، فإنَّ له أنْ يكفر بالصيامِ . فإنْ كان عنده في ذلك الـوقت قوتـه وقوت عيالِهِ يومه وليلته، ومنَ الفضلِ مايطعمُ عشرةَ مساكين أو مايَكْسُوهم، لَزِمَهُ التكفيرُ بالإطعامِ أو الكسوةِ، ولم يجزه الصيامُ حينئذٍ. وممن قال ذلك الشافعي.

وقال آخرون: جائزٌ لمن لم يَكُنْ عنده مائتا درهم أنْ يصومَ، وهو ممن لا يجد.

وقال آخرون: جائزٌ لمن لم يَكُنْ عنده فَضْلٌ عن رأسِ مالِهِ يتصرفُ به لمعـاشـهِ مايكفرُ به بالإطعامِ ، أنْ يصومَ إلَّا أن يكون له كفاية، ومن المال مايتصرفُ به لمعاشهِ، ومن الفضلِ عن ذلك مايكفِّرُ به عن يمينه. وهذا قولٌ كان يقوله بعضُ متأخري المُتَفَقِّهة.

والصوابُ من القولِ في ذلك عندنا، أنَّ مَنْ لم يكنْ عنده في حالِ حنْثِهِ في يمينه إلا قَدْر قوتِهِ وقوت عياله يومه وليلته، لا فضلَ له عن ذلك، يصوم ثلاثة أيام، وهو ممن دخلَ في جملة مَنْ لا يجد مايطعم أو يكسو أو يعتق. وإنْ كان عنده في ذلك الوقت من الفضلِ عن قوتِهِ وقوتِ عياله يومَه وليلته، ما يطعمُ أو يكسو عشرةَ مساكين، أو يعتق رقبة، فلا يجزيه حينئذٍ الصوم، لأنَّ إحدى الحالاتِ الثلاث حينئذٍ من إطعامٍ أو كسوةٍ أو عتقٍ، حَقٌّ قد أوجبه الله تعالى ذِكْرُه في ماله وجوبَ الدين. وقد قامت الحُجَّةُ بأنَّ المفلسَ إذا فَرَّقَ ماله بين غرمائه: أنه لا يترك ذلك اليومَ إلّا ما لابُدَّ له من قوتِهِ وقوتِ عياله يومَه وليلته. فكذلك حُكْمُ المُعْدمِ بالدَّيْنِ الذي أوجبه الله تعالى ذِكْرُه في ماله بسببِ الكفارةِ التي لزمت ماله.

واختلف أهلُ العلم في صفة الصومِ الذي أوجبه اللهُ في كفارة اليمين.

فقال بعضهم: صفته أن يكون مواصلاً بين الأيامِ الثلاثة غير مُفَرِّقها.

وقال آخرون: جائزٌ لمن صامَهُنَّ أنْ يصومَهُنَّ كيف شاء، مجتمعاتٍ ومفترقات.

والصوابُ من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى ذِكْرُه أوجب على مَنْ لَزِمَتْهُ كفَّارةُ يمينٍ، إذا لم يجد إلى تكفيرها بالإطعامِ أو الكسوة أو العتقِ سبيلاً، أنْ يُكَفِّرَهَا بصيامِ ثلاثةِ أيام، ولم يشرطْ في ذلك متتابعة. فكيفما صامَهُنَّ المكفِّرُ مفرَّقة ومتتابعة، أجزأه. لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه إنما أوجبَ عليه صيامَ ثلاثةِ أيام، فكيفما أتى بصومهنّ أجزأ.

فأما ماروي عن أبيٍّ وابنِ مسعود من قراءتهما: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مُتَتَابِعَاتٍ﴾، فذلك خلافُ مافي مصاحفنا. وغيرُ جائزٍ لنا أن نشهدَ لشيءٍ ليس في مصاحفنا من الكلام أنه من كتابِ الله. غيرَ أني أختارُ للصائمِ في كفَّارة اليمين أن يُتَابع بين الأيام الثلاثة، ولا يفرِّق. لأنه لا خلافَ بين الجميعِ أنه إذا فعلَ ذلك فقد أجزأ ذلك عنه من كَفَّارتِهِ، وهم في غير ذلك مختلفون. فَفِعْلُ مالا يُخْتلفُ في جوازه، أحبُّ إليَّ، وإنْ كان الآخرُ جائزاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «ذلك»، هذا الذي ذكرتُ لكم أنه كفارةُ أيمانِكم، من إطعامِ العشرةِ المساكين، أو كِسْوتهم، أو تحرير الرقبة، وصيام الثلاثة الأيام إذا لم تجدوا من ذلك شيئاً ـ هو كفارةُ أيمانِكم التي عقدتموها إذا حلفتم ـ واحفظوا، أيها الذين آمنوا أيمانَكُم أنْ تحنثوا فيها، ثم تُضِيعُوا الكفارةَ فيها بما وصفتُه لكم. «كذلك يبينُ الله لكم آياته»، كما بَيَّنَ لكم كفارةَ

أيمانكم، كذلك يبينُ الله لكم جميعَ آياته - يعني أعلامَ دِينه فيوضِّحها لكم - لئلا يقولَ المضيعُ المفرِّطُ فيما ألزمه الله: «لم أعلَمْ حُكْمَ الله في ذلك!» . «لعلكم تشكرون»، يقول: لتشكروا الله على هدايتِه إياكم وتوفيقِه لكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعـالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠﴾

وهذا بيانٌ من اللهِ تعالى ذِكْرُه للذين حَرَّمُوا على أنفسِهم النساءَ والنومَ واللحمَ من أصحاب النبيِّ ﷺ، تشبُّهاً منهم بالقِسِّيسينَ والرهبان، فأنزل الله فيهم على نبيِّه ﷺ كتابَه يَنْهاهم عن ذلك فقال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَاأَحَلَّ اللهُ لَكُمْ﴾، [المائدة: ٨٧]. فنهاهم بذلك عن تحريمِ ما أحلَّ اللهُ لهم من الطيبات. ثم قال: ولا تعتدوا أيضاً في حدودي، فَتُحِلُّوا ماحرَّمتُ عليكم، فإنَّ ذلك لكم غير جائزٍ، كما غيرُ جائزٍ لكم تحريم ماحلّلتُ، وإنيّ لا أحبُّ المعتدينَ. ثم أخبرهم عن الذي حَرَّمَ عليهم مما إذا استحلُّوه وتَقَدَّموا عليه، كانـوا من المعتـدينَ في حدودِه - فقال لهم: ياأيها الذين صَدَّقُوا الله ورسولَهُ، إنَّ الخمرَ التي تشربونها، والميسِرَ الذي تَتَياسرونه، والأنصابَ التي تذبحُـون عنـدها، والأزلامَ التي تَسْتَقْسِمُونَ بها. «رِجْسٌ»، يقول: إثمٌ ونَتْنٌ سَخِطَهُ الله وكَرِهَهُ لكم. «من عملِ الشيطان»، يقول: شربُكُم الخمرَ، وقماركم على الجُزُرِ، وذبحكم للأنصابِ، واستقسامُكم بالأزلام، من تزيينِ الشيطانِ لكم، ودعـائِـه إياكم إليه، وتحسينه لكم، لا من الأعمال التي نَدَبَكُم إليها ربُّكم، ولا ممـا يرضاهُ لكم، بل هو مما يسخطه لكم. «فاجتنبوه»، يقول: فاتركوه وارفضُوه ولا تعملوه. «لعلَّكم تفلحون»، يقول: لكي تنجَحُوا فتدركوا الفلاحَ عند ربكم بترككم ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنما يُريدُ لكم الشيطانُ شربَ الخمر والمياسرةَ بالقِداح، ويحسِّنُ ذلك لكم، إرادةً منه أن يُوقِعَ بينكم العَداوَة والبغضاءَ في شربكم الخمرَ ومياسرتكم بالقِداحِ، ليعادي بعضُكم بعضاً، ويبغِّض بعضَكم إلى بعضٍ، فيشتِّتَ أمركم بعد تأليفِ الله بينكم بالإيمان، وجمعه بينكم بأُخوَّةِ الإسلام. «ويصدَّكم عن ذِكْرِ الله»، يقول: ويصرفكم بغَلَبَةِ هذه الخمرِ بسكرها إياكم عليكم، وباشتغالكم بهذا الميسر، عن ذِكْرِ الله الذي به صلاحُ دنياكم وآخرتكم. «وعن الصلاةِ»، التي فرضها عليكم ربكم. «فهل أنتم منتهون»، يقول: فهل أنتم مُنْتَهُونَ عن شربِ هذه، والمياسرة بهذا، وعاملونَ بما أمركم به ربُّكم من أداءِ مافَرض عليكم من الصلاةِ لأوقاتها، ولزوم ذِكْرِه الذي به نُجْحُ طلباتكم في عاجلِ دنياكم وآخرتكم؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «إنما الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ رِجْسٌ من عملِ الشيطان فاجتنبوه». وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول»، في اجتنابكم ذلك، واتباعكم أمْرَهُ فيما أمركم به من الانزجارِ عما زجَركم عنه من هذه المعاني التي بيَّنها لكم في هذه الآية وغيرها، وخالِفوا الشيطانَ في أمره إيَّاكم بمعصيةِ الله في ذلك وفي غيره، فإنه إنما يبغي لكمُ العداوةَ والبغضاءَ بينكم بالخمرِ والميسرِ. «واحذروا»، يقول: واتَّقُوا الله وراقبوه أنْ يَرَاكُم عندَ مانَهَاكُم عنه من

هذه الأمور التي حَرَّمَها عليكم في هذه الآية وغيرها، أو يفقِدَكُمْ عندَ ما أمركم به، فتُوبِقُوا أنفسَكُم وتهلكوها. «فإن توليتم»، يقول: فإنْ أنتم لم تَعْمَلُوا بما أمرنـاكم به، وتنتهـوا عما نَهيناكُمْ عنه، ورجعتم مُدْبِرينَ عما أنتم عليه من الإيمانِ والتصديقِ بالله وبرسوله، واتبَاعِ ماجاءكم به نبيكم. «فاعلموا أنَّما على رسولنا البلاغُ المبين»، يقول: فاعلموا أنه ليس على مَنْ أرسلناهُ إليكم بالنِّذارة غير إبلاغِكم الرسالةَ التي أُرسلَ بها إليكم، مبينةً لكم بياناً يُوضِّح لكم سبيلَ الحقِّ، والـطريقَ الذي أُمِرْتُمْ أنْ تسلكُوه. وأما العقاب على التولية والانتقام بالمعصية، فعلى المُرْسَل إليه دونَ الرُّسُلِ.

وهذا من الله تعالى وعيدٌ لمن تولَّى عن أمرِهِ ونهيه. يقول لهم تعالى ذِكْرُه: فإنْ تولَّيْتُمْ عن أمرِي ونهيي، فتوقَّعُوا عِقابي، واحذَرُوا سَخَطي.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للقوم الذين قالوا ـ إذْ أنزلَ اللهُ تحريمَ الخمرِ بقوله: «إنما الخمرُ والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عملِ الشيطان فاجتنبوه»: كيفَ بمن هَلَكَ من إخوانِنا وهم يشربونها؟ وبِنَا وقد كُنَّا نَشْرَبُهَا؟ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات منكم حرجٌ فيما شربوا من ذلك، في الحال التي لم يكن الله تعـالى حَرَّمَـهُ عليهم. «إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات»، يقول: إذا ما اتَّقَى الله الأحياءُ منهم فخافوه، وراقبوه في اجتنابهم ماحَرَّمَ عليهم منـه، وصَـدَّقُـوا اللهَ ورسولَهُ فيما أمراهم ونهياهم، فأطاعوهما في ذلك كله. «وعملوا الصالحات»، يقول: واكتسبوا من الأعمالِ مايرضاهُ الله في ذلك مما

كلفهم بذلك ربُّهم. «ثم اتقوا وآمنوا»، يقول: ثم خَافُوا الله وراقبوهُ باجتنابهم محارِمَهُ بعد ذلك التكليفِ أيضاً، فثبتوا على اتِّقَاءِ الله في ذلك والإيمانِ به، ولم يغيِّرُوا ولم يبـدِّلُوا. «ثم اتقوا وأحسنوا»، يقول: ثم خافوا الله، فدعاهم خوفُهم الله إلى الإحسانِ، وذلك «الإحسان»، هو العملُ بما لم يَفْرِضْهُ عليهم من الأعمالِ، ولكنه نوافلُ تَقَرَّبُوا بها إلى رَبِّهم طلبَ رِضاه، وهرباً من عقابه. «والله يحب المحسنين»، يقول: والله يحب المتقرِّبينَ إليه بنوافلِ الأعمال التي يرضاها.

فالاتقاء الأوّل: هو الاتقاء بتلقِّي أمرِ الله بالقَبُولِ والتصديقِ، والدينونةِ به والعمل.

والاتقاء الثاني: الاتقاءُ بالثباتِ على التصديقِ، وتركِ التبديلِ والتغيير.

والاتقاء الثالث: هو الاتقاء بالإحسان، والتقرُّب بنوافلِ الأعمال.

فإنْ قال قائلٌ: ما الدليلُ على أنَّ «الاتقاء» الثالث، هو الاتقاءُ بالنوافل، دونَ أنْ يكون ذلك بالفرائضِ؟

قيل: إنه تعالى ذِكْرُه قد أخبر عن وضعه الجناحَ عن شاربي الخمرِ التي شربوها قبل تحريمهِ إيَّاها، إذا هم اتقوا الله في شربها بعد تحريمِها، وصَدَّقُوا الله ورسوله في تحريمها، وعَمِلُوا الصالحاتِ من الفرائضِ. ولا وجهَ لتكرير ذلك وقد مضى ذكرهُ في آيةٍ واحدة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يا أيها الذين صَدَّقُوا اللهَ ورسوله. «ليبلونَّكُمُ الله بشيءٍ

من الصيد»، يقول: ليختبرنَّكُمُ الله. «بشيءٍ من الصيد»، يعني: ببعض الصيد.

وإنما أخبرهم تعالى ذِكْرُه أنه يَبْلُوهم بشيءٍ، لأنه لم يَبْلُهُمْ بصيدِ البحر، وإنما ابتلاهم بصيد البرِّ، فالابتلاءُ ببعض لا بجميع.

وقوله: «تناله أيديكم»، فإنه يعني: إما باليدِ، كالبيض والفراخ ـ وإما بإصابةِ النَّبْلِ والرماحِ، وذلك كالحُمُرِ والبقرِ والظباءِ، فيمتحنكم به في حالِ إحرامكم بعمرتكم أو بحجّكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه: ليختبرنكم اللهُ، أيها المؤمنونَ، ببعض الصيد في حالِ إحرامكم، كي يعلم أهلَ طاعةِ الله والإيمان به، والمنتهين إلى حدوده وأمره ونهيه، ومَنْ الذي يخاف الله فَيَتَّقِي مانهاهُ عنه، ويجتنبه خوف عقابه «بالغيب»، بمعنى: في الدنيا، بحيث لا يراه.

فتأويلُ الكلام إذاً: ليعلم أولياء الله مَنْ يخافُ الله فيتقي محارمَهُ التي حَرَّمَها عليه من الصيدِ وغيره، بحيث لا يراهُ ولا يُعاينه.

وأما قوله: «فمن اعتدى بعد ذلك»، فإنه يعني: فَمَنْ تجاوزَ حَدَّ الله الذي حَدَّهُ له، بعد ابتلائهِ بتحريمِ الصيدِ عليه وهو حرام، فاستحلَّ ماحَرَّمَ اللهُ عليه منه بأخذِه وقتله. «فله عذابٌ»، من الله. «أليم»، يعني: مؤلمٌ موجعٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ

المائدة: ٩٥

يقول تعالى ذِكْرُه: يا أيها الذين صَدَّقُوا الله ورسوله. «لاتقتلوا الصيدَ»، الذي بينتُ لكم، وهو صيد البرِّ دونَ صيدِ البحر. «وأنتم حُرُم»، يقول: وأنتم مُحْرِمُونَ بحجٍ أو عمرة.

وقوله: «ومَنْ قتله منكم متعمداً»، فإنَّ هذا إعلامٌ من الله تعالى ذِكْرُه عبادَهُ حكمَ القاتلِ من المحرمين الصيدَ الذي نهاه عن قتله متعمداً.

ثم اختلف أهل التأويل في صفة «العَمْد» الذي أوجب الله على صاحبه به الكفارةَ والجزاءَ في قتله الصيد.

فقال بعضهم: هو العمد لقتلِ الصيد، مع نسيانِ قاتِلِهِ إحرامَه في حالِ قتله. وقال: إنَّ قتله وهو ذاكر إحرامه متعمداً قتله، فلا حُكْمَ عليه، وأمره إلى الله. قالوا: وهذا أجلُّ أمراً من أن يحكم عليه، أو يكونَ له كفارة.

وقال آخرون: بل ذلك هو العمد من المحرِم لقتلِ الصيد، ذاكراً لحُرْمه.

والصوابُ من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى ذِكْرُه حَرَّمَ قَتْلَ صيدِ البَرِّ على كُلِّ مُحْرِمٍ في حال إحرامِهِ مادامَ حراماً بقوله: «يا أيها الذين آمنوا لاتقتلوا الصيد». ثم بَيَّنَ حُكْمَ مَنْ قتل ماقتل من ذلك في حالِ إحرامِهِ متعمداً لقتلِهِ، ولم يخصصْ به المتعمِّد قتلَه في حال نسيانـهِ إحرامَهُ، ولا المخطىءَ في قتلِهِ في حال ذِكْرِهِ إحرامَهُ، بل عَمَّ في التنزيل بإيجابِ الجزاء، كُلَّ قاتلِ صيدٍ في حال إحرامِهِ مُتَعَمِّداً. وغير جائزٍ إحالةُ ظاهرِ التنزيلِ إلى باطنٍ من التأويلِ لا دلالةَ عليه من نصِّ كتابٍ، ولا خبرٍ لرسولِ الله ﷺ، ولا إجماعٍ من الأمة. ولا دلالةَ من بعض هذه الوجوه.

فإذْ كان ذلك كذلك، فسواءٌ كانَ قاتل الصيدِ من المحرمينَ عامداً قتلَه ذاكراً لإحرامهِ، أو عامداً قتله ناسياً لإحرامهِ، أو قاصداً غيره فقتله ذاكراً لإحرامه ـ في أنَّ على جميعِهم من الجزاء ما قال رَبُّنَا تعالى ذِكْرُه، وهو: مِثْلُ ماقتلَ

من النَّعَمِ يحكمُ به ذوا عدلٍ من المسلمين، أو كفارةٌ طعامُ مساكين، أو عَدْلُ ذلك صياماً.

وأما قوله: «فجزاءٌ مثلُ ماقتل من النعم»، فإنه يقول: وعليه كِفاءٌ وبَدَلٌ، يعني بذلك جزاء الصيد المقتولِ. يقول تعالى ذِكْرُه: فعلى قاتلِ الصيدِ جزاءُ الصيدِ المقتولِ، مثل ماقتل من النعم.

ثم اختلف أهلُ العلم في صفة «الجزاء»، وكيف يجزي قاتلُ الصيد من المحرمين ماقتلَ مِثْلَهُ من النَّعَم.

فقال بعضهم: ينظر إلى أشبه الأشياء به شَبَهاً من النعم، فيجزيهِ به، ويهديهِ إلى الكعبة.

وقال آخرون: بل يُقَوَّمُ الصيدُ المقتول قيمتَه من الدراهم، ثم يشتري القاتلُ بقيمته نِدًّا من النعم، ثم يهديه إلى الكعبة.

وأوْلى القولين في تأويل الآية قول من قال: إنَّ المقتول من الصيد يُجْزَى بمثْلِهِ من النَّعم، كما قال الله تعالى ذِكْرُه: «فجزاءٌ مِثْلُ ماقتلَ من النعم». وغيرُ جائـزٍ أنْ يكونَ مثل الذي قتل من الصيد دراهم، وقد قال الله تعالى: «من النعم»، لأن الدراهم ليست من النعم في شيء.

فإنْ قال قائلٌ: فإنَّ الدراهمَ وإنْ لم تكن مِثْلاً للمقتول من الصيد، فإنه يشتري بها المِثْلَ من النعم، فيهديه القاتل، فيكون بفعله ذلك كذلك جازياً بما قتل من الصيد مثلاً من النعم!

قيل له: أفرأيتَ إنْ كان المقتول من الصيد صغيراً أو معيباً، ولا يُصابُ بقيمته، من النَّعم إلاَّ كبيراً، أو سليماً ـ أو كان المقتولُ من الصيد كبيراً أو سليماً، ولا يُصابُ بقيمته من النعم إلا صغيراً أو معيباً ـ أيجوزُ له أنْ يشتريَ

بقيمته خلافَهُ وخِلافَ صفته فيهديه، أم لا يجوز ذلك له، وهو لا يجد إلّا خلافه؟

فإنْ زعم أنه لا يجوزُ له أن يشتري بقيمته إلّا مثله، ترك قوله في ذلك. لأنّ أهلَ هذهِ المقالةِ يزعمون أنه لا يجوز له أن يشتري بقيمة ذلك فيهديه، إلّا ما يجوز في الضحايا. وإذا أجاز شراءَ مِثْل المقتولِ من الصيد بقيمته وإهداءها وقد يكون المقتول صغيراً معيباً، أجاز في الهدي مالا يجوز في الأضاحي.

وإنْ زعمَ أنه لا يجوزُ أن يشتري بقيمته فيهديه إلّا مايجوزُ في الضحايا، أوضحَ بذلكَ من قولِهِ الخلافَ لظاهرِ التنزيل. وذلك أنَّ الله تعالى ذِكْرُه، أوجبَ على قاتلِ الصيدِ من المُحْرِمينَ عمداً، المِثْلَ من النَّعَمِ إذا وجده. وقد زعمَ قائلُ هذه المقالة أنه لا يجبُ عليه المِثْلُ من النعم، وهو إلى ذلك واجدٌ سبيلاً.

ويقالُ لقائلِ ذلك: أرأيتَ إنْ قال قائل آخر: «ما على قاتل مالا تبلُغ من الصيد قيمتُه مايصاب به من النَّعم مايجوز في الأضاحي، من إطعامٍ ولا صيام. لأنَّ الله تعالى إنما خَيَّرَ قاتلَ الصيدِ من المحرمين في أحد الثلاثة الأشياء التي سماها في كتابه، فإذا لم يكن له إلى واحدٍ من ذلك سبيلٌ، سَقَطَ عنه فَرْضُ الآخرَيْنِ. لأنَّ الخيار إنما كان له، وله إلى الثلاثةِ سبيلٌ. فإذا لم يكن له إلى بعض ذلك سبيلٌ، بطل فَرْضُ الجزاء عنه، لأنه ليس ممن عُني بالآية - نظيرَ الذي قلت أنت: «إنه إذا لم يكن المقتولُ من الصيد تبلغُ قيمته مايصاب من النعم مما يجوزُ في الضحايا، فقد سقطَ فرضُ الجزاءِ بالمِثْلِ من النَّعَمِ عنه، وإنما عليه الجزاءُ بالإطعامِ أو الصيام»، هل بينكَ وبينَهُ فرقٌ من أصلٍ أو نظيرٍ؟ فلن يقول في أحدهما قولاً إلّا أُلزمَ في الآخر مثله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يحكم بذلك الجزاء الذي هو مِثْلُ المقتولِ من الصيد من النعم عَدْلانِ منكم. يعني: فقيهـان عالمـان من أهـلِ الدينِ والفضل. «هَدْياً»، يقول: يقضي بالجزاء ذوا عدل، أيْ يُهْدَى فيبلغ الكعبةَ. و«الهاء» في قوله: «يحكم به»، عائدة على «الجزاء».

ووجه حُكْمِ العَدْلَين إذا أرادا أنْ يحكما بمثلِ المقتولِ من الصيد من النَّعَمِ على القاتل: أن يَنْظُرَا إلى المقتولِ ويَسْتَوْصِفَاهُ، فإنْ ذُكِرَ أنه أصابَ ظبياً صغيراً، حَكَمَا عليه من ولـدِ الضـأن بنـظيرِ ذلك الذي قتله في السن والجسم. فإنْ كان الذي أصاب من ذلك كبيراً، حكما عليه من الضأنِ بكبيرٍ. وإنْ كان الذي أصابَ حمارَ وَحْشٍ، حكما عليه ببقرةٍ. إنْ كان الذي أصاب كبيراً، فكبيراً من البقر، وإن كان صغيراً فصغيراً. وإنْ كان المقتولُ ذكراً فَمِثْلُه من ذكورِ البقر. وإنْ كان أنثى فمثله من البقر أنثى. ثم كذلك ذلك، ينظران إلى أشْبَهِ الأشياءِ بالمقتولِ من الصيد شبهاً من النعم، فيحكمانِ عليه به، كما قال تعالى ذِكْرُه.

وقـال آخـرون: بل ينـظر العَدْلان إلى الصيدِ المقتول، فيقوِّمانه قيمته دراهمَ، ثم يأمـران القـاتـلَ أنْ يشتـري بذلـك من النعم هَدْياً. فالحـاكمان يحكمان، في قول هؤلاء، بالقيمة. وإنما يحتاجُ إليهما لتقويمِ الصيدِ قيمتَه في الموضع الذي أصابه فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَوْكَفَّـٰرَةٌ طَعَـامُ مَسَـٰكِينَ

واختلف أهل التأويل في معنى قوله: «أو كفارة طعام مساكين».

فقال بعضهم: معنى ذلك: أنَّ القاتلَ وهو مُحْرِمٌ صيداً عمداً، لا يخلو من وجـوبِ بعضِ هذه الأشياء الثـلاثة التي ذكر الله تعالى ذِكْرُه: من مِثْلِ

المقتولِ هدياً بالغَ الكعبة، أو طعامُ مساكينَ كفارةً لما فعل، أو عدلُ ذلك صياماً - إلّا أنـه مخيَّرٌ في أيِّ ذلك شاء فعل، وأنه بأيِّها كان كَفَّرَ فقد أدَّى الواجبَ عليه. وإنما ذلك إعلامٌ من الله تعالى ذكره عبادَهُ أنَّ قاتلَ ذلك كما وصف، لن يخرُجَ حكمُه من إحدى الخلالِ الثلاثة. قالوا: فحكمه إنْ كان على المِثْلِ قادراً، أن يحكم عليه بمثل المقتول من النعم، لا يجزيه غيرُ ذلك مادام للمِثْلِ واجداً. قالوا: فإن لم يكن له واجداً، أو لم يكن للمقتول مِثْلٌ من النعم، فكفارتُه حينئذٍ إطعامُ مساكين.

وقال آخرون: معنى ذلك: أنَّ للقاتل صيداً عمداً وهو محرم، الخيارُ بين إحدى الكفاراتِ الثلاث، وهي: الجزاءُ بمثله من النعم، والطعام، والصوم. قالوا: وإنما تأويلُ قوله: «فجزاءٌ مثلُ ماقتلَ من النعم أو كفارةٌ طعامُ مساكينَ أو عَدْلُ ذلـك صياماً»، فعليه أن يَجْـزي بمثله من النعم، أو يُكَفِّر بإطعامِ مساكين، أو بعدل الطعام من الصيام.

واختلفَ القائلون بتخييرِ قاتلِ الصيد من المحرمين بين الأشياء الثلاثة، في صفةِ اللازمِ له من التكفير بالإطعام والصوم، إذا اختار الكَفَّارة بأحدهما دونَ الهدي.

فقال بعضهم: إذا اختار التكفيرَ بذلك، فإنَّ الواجبَ عليه أن يقوِّم المثلَ من النعم طعاماً، ثم يصوم مكان كُلِّ مُدٍّ يوماً.

وقال آخرون: بل الواجبُ عليه إذا أراد التكفيرَ بالإطعامِ أو الصومِ، أنْ يقوِّمَ الصيدَ المقتولَ طعاماً، ثم الصدقةَ بالطعام إنْ اختار الصدقة. وإنْ اختار الصومَ صام.

ثم اختلفوا أيضاً في الصوم.

فقال بعضهم: يصوم لكل مُدٍّ يوماً.

وقال آخرون: يصومُ مكانَ كُلِّ نصفِ صاعٍ يوماً.

وقال آخرون: يصوم مكان كُلِّ صاع يوماً.

وقال آخرون: لا معنى لتكفيرِ بالإطعام، لأنَّ مَنْ وجدَ سبيلاً إلى التكفير بالإطعام، فهو واجدٌ إلى الجزاءِ بالمِثْلِ من النَّعَمِ سبيلاً. ومَنْ وَجَدَ إلى الجزاءِ بالمثل من النعم سبيلاً، لم يجزه التكفيرُ بغيرِه. قالوا: وإنما ذَكَر اللهُ تعالى ذِكْرُه الكفَّارةَ بالإطعامِ في هذا الموضع، ليدلَّ على صِفَةِ التكفيرِ بالصوم لا أنه جعلَ التكفيرَ بالإطعامِ إحدى الكفَّاراتِ التي يكفر بها قتل الصيد. وقد ذكرنا تأويلَ ذلك فيما مضى قَبْلُ.

وأَوْلى الأقوال بالصوابِ عندي في قول الله تعالى ذِكْرُه: «فجزاءٌ مِثْلُ ماقتلَ من النعم»، أنْ يكون مُراداً به: فعلى قاتلِه متعمِّداً مِثْلُ الذي قتل من النعم - لا القيمة، إن اختار أنْ يجزيه بالمِثْلِ من النعم. وذلك أن القيمةَ إنما هي من الدنانير أو الدراهم. والدراهمُ أو الدنانير ليست للصيدِ بمِثْلٍ، والله تعالى ذِكْرُه إنما أوجبَ الجزاءَ مِثْلاً من النعم.

وأَوْلى الأقوال بالصواب عندي في قوله: «أو كفَّارةٌ طعامُ مساكينَ أو عدلُ ذلك صياماً»، أنْ يكون تخييراً، وأن يكون للقاتلِ الخيارُ في تكفيرِه بقتلِه الصيدَ وهو مُحْرِمٌ بأيِّ هذه الكفاراتِ الثلاثِ شاء. لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه، جعلَ ما أوجبَ في قتلِ الصيد من الجزاءِ والكفَّارةِ عقوبةً لفعله، وتكفيراً لذنبه، في إتلافه ما أتلفَ من الصيدِ الذي كان حراماً عليه إتلافُه في حالِ إحرامِه، وقد كان حلالاً له قَبْلُ حالَ إحرامه، كما جعل الفِديةَ من صيامٍ أو صدقةٍ أو نُسُكٍ في حلقِ الشعر الذي حلقه المحرمُ في حال إحرامه، وقد كان له حلالاً قَبْلَ حال إحرامه عقوبةً لفعله، وتكفيراً لذنبه، في حلق الشعر الذي حلقه المحرم في حال إحرامه، وقد كان له حَلْقُه قبل حال إحرامه، ثم مُنِعَ من حلقهِ في حال إحرامه، نظيرَ الصيد. ثم جعل عليه إنْ حلقه جزاءً من حلقِه إياه. فأجمعَ

الجميعُ على أنه في حلقه إياه إذا حلقه من أَذَاته، مخيَّرٌ في تكفيره فِعْلَهُ ذلك بأيِّ الكفاراتِ الثلاثِ شاء، فمثله فيما ناله قاتلُ الصيد من المحرمين، وأنه مخيَّرٌ في تكفيره قتلَه الصيدَ بأيِّ الكفاراتِ الثلاثِ شاء، لا فرقَ بين ذلك.

ومَنْ أبى ما قلنا فيه، قيل له: حَكَمَ الله تعالى ذِكْرُه على قاتلِ الصيدِ بالمِثْلِ من النعم، أو كفارة طعام مساكين، أو عدله صياماً ـ كما حكم على الحالق بفديةٍ من صيامٍ أو صدقةٍ أو نُسُكٍ، فزعمتَ أنَّ أحدهما مخيَّرٌ في تكفير ماجعل منه عِوَضٌ بأيِّ الثلاثِ شاء، وأنكرتَ أن يكونَ ذلك للآخر، فهل بينك وبين مَنْ عكس عليك الأمر في ذلك ـ فجعل الخيارَ فيه حيث أبيتَ، وأبى حيث جعلته له ـ فرقٌ من أصلٍ أو نظير؟ فلن يقولَ في أحدهما قولاً إلَّا ألزم في الآخر مثله.

ثم اختلفوا في صفة التقويم إذا أراد التكفيرَ بالإطعام.

فقال بعضهم: يُقَوَّمُ الصيد قيمةَ الموضعِ الذي أصابه فيه.

وقال آخرون: بل يقوَّم ذلك بسعرِ الأرضِ التي يكفِّرُ فيها.

والصواب من القول في ذلك عندنا، أنَّ قاتلَ الصيد إذا جزاه بمِثْلِه من النَّعم، فإنما يَجْزِيه بنظيره في خَلْقِه وقَدْرِه في جسمه، من أقربِ الأشياء به شَبَهاً من الأنعام. فإنْ جَزاهُ بالإطعامِ، قَوَّمَهُ قيمتَهُ بموضعِهِ الذي أصابَهُ فيه، لأنه هنالك وَجَبَ عليه التكفيرُ بالإطعام. ثم إنْ شاء أطعم بالموضعِ الذي أصابه فيه، وإنْ شاء بمكة وإن شاء بغير ذلك من المواضعِ حيث شاء، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه؛ إنما شَرَط بلوغَ الكعبةِ بالهديِ في قتلِ الصيدِ دون غيرِه من جزائِهِ، فللجازي بغير الهدي أن يجزيه بالإطعامِ والصومِ حيث شاء من الأرض.

فأما الهدي، فإنَّ مَنْ جَزَى به ماقتل من الصيد، فلن يُجْزِئَهُ من كفارةِ

ماقتـلَ من ذلكَ إلاَّ أن يبلغه الكعبة كما قال تعالى ذِكْرُه، وينحره أو يذبحه ويتصدق به على مساكينِ الحَرَمِ ـ وعَنَى بالكعبة في هذا الموضع، الحَرَمَ كله.

ولمن قَدَّمَ بهديهِ الواجبَ من جزاء الصيد، أنْ ينحره في كُلِّ وقتٍ شاء، قبل يوم النحر وبعده، ويطعمه. وكذلك إنْ كَفَّرَ بإطعام، فله أنْ يكفر به متى أحَبَّ وحيثُ أحَبَّ. وإنْ كَفَّرَ بالصوم فكذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا

يعني تعـالى ذِكْـرُه بذلـك: أو على قاتل الصيد محرِماً، عدلُ الصَّيدِ المقتولِ من الصيام. وذلك أن يقوِّم الصيد حيًّا غير مقتولٍ قيمته من الطعام بالموضعِ الذي قتله فيه المحرم، ثم يصوم مكان كُلِّ مُدٍّ يوماً. وذلك أنَّ النبي ﷺ عَدَلَ المُدَّ من الطعامِ بصومِ يومٍ في كفَّارة المُوَاقع في شهر رَمَضان[١].

فإنْ قال قائل: فَهَلاَّ جعلتَ مكانَ كُلِّ صاعٍ في جزاءِ الصيد، صومَ يوم، قياساً على حكم النبيِّ ﷺ في نظيره، وذلك حكمه على كَعْب بن عُجْرة إذ أمره أن يطعم إنْ كفَّر بالإطعام فَرَقاً[٢] من طعام، وذلك ثلاثة آصُعٍ[٣] بين ستَّة مساكين[٤]. إنْ كفر بالصيام أنْ يصومَ ثلاثة أيام، فجعل الأيام الثلاثة في الصوم عَدْلاً من إطعـامِ ثلاثةِ آصع، فإنَّ ذلك بالكفارة في جزاءِ الصيد، أشبهُ من الكفارة في قتلِ الصيد بكفَّارة المُواقع امرأتَهُ في شهر رمضان؟.

---

(١) تقدم تخريج ذلك، وانظر البيهقي: ٤/٢٢١.

(٢) في المـطبوع: «فَرْقاً» بتسكين الراء، وهو جائز عند المحدثين، لكن كلام العرب بالفتح، وهو مكيال معروف بالمدينة، وهو ستة عشر رطلاً.

(٣) جمع صاع.

(٤) البخاري (١٨١٥) و(١٨١٦)، وقد تقدم ذكره.

قيل: إنَّ «القياس»، إنما هو رَدُّ الفروع المختلَفِ فيها، إلى نظائرِها من الأصولِ المُجْمَعِ عليها. ولا خلافَ بين الجميعِ من الحُجَّةِ أنه لا يجزىء مُكَفِّراً كَفَّرَ في قتلِ الصيدِ بالصومِ، أنْ يعدِلَ صومَ يومٍ بصاعِ طعامٍ. فإذْ كان ذلك كذلك، وكان غير جائزٍ خلافها فيما حدَّثتْ به من الدين مجمعةً عليه، صَحَّ بذلك أنَّ حكم معادلةِ الصوم الطعامَ في قتل الصيد، مخالف حكم معادلته إيَّاه في كَفَّارةِ الحَلْقِ، إذْ كان غير جائز ردّ أصْلٍ على أصلٍ قياساً. وإنما يجوزُ أن يقاسَ الفرعُ على الأصل.

وسواء قال قائل: «هلاَّ رددتَ حُكْمَ الصومِ في كفارة قتلِ الصيد، على حكمه في حَلْقِ الأذى فيما يُعْدل به من الطعام»؟ - وآخر قال: «هلاَّ رددتَ حُكْمَ الصومِ في الحلق، على حكمه في كفارةِ قتل الصيد فيما يُعدلُ به من الطعام، فتُوجب عليه مكان كُلِّ مُدٍّ أو مكان كل نصفِ صاعٍ صومَ يوم»؟

وقد بَيَّنا فيما مضى قَبْلُ أنَّ «العَدْل» في كلامِ العرب بالفتح، هو قَدْرُ الشيء من غير جنسهِ، وأن «العِدْل»، هو قدره من جنسه.

وقد كان بعضُ أهلِ العلم بكلامِ العرب يقول: «العدل» مصدر من قول القائل: «عَدَلت هذا بهذا عَدْلاً حسناً». قال: «والعَدْل» أيضاً بالفتح المِثْلُ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ

يقـول: فألزمتُه الكفارةَ التي ألزمتُه إياها، لأُذِيقَهُ عقوبةَ ذنبه.، بإلزامهِ الغرامةَ والعملَ ببدنه مما يتعبه ويشق عليه.

وقـد بَيَّنَ تعالى ذِكْرُه بقوله: «ليذوقَ وبالَ أمره»، أنَّ الكفاراتِ اللازمةَ الأموالَ والأبْدَانَ، عقوباتٌ منه لخَلْقِه، وإنْ كانت تمحيصاً لهم، وكفارةً لذُنُوبهم التي كفَّروها بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾

يقول جَلَّ مِنْ قائلٍ لعبادِهِ المؤمنينَ به وبرسولِهِ ﷺ: عفا الله، أيها المؤمنونَ، عمَّا سَلَفَ منكم في جاهليتكم، من إصابتِكم الصيدَ وأنتم حُرُم، وقتلِكُموه، فلا يؤاخذكُمْ بما كانَ منكم في ذلك قبل تحريمهِ إياهُ عليكم، ولا يلزمكم له كفارة في مالٍ ولا نفس. ولكن مَنْ عاد منكم لقتلهِ وهو مُحْرِمٌ، بعد تحريمهِ بالمعنى الذي كان يَقْتُله في حال كفره، وقبلَ تحريمه عليه، من استحلاله قتلَه، فينتقم الله منه.

وقد يحتمل أنْ يكون معناه: مَنْ عاد لقتله بعد تحريمه في الإسلام، فينتقم الله منه في الآخرة. فأما في الدنيا، فإنَّ عليه من الجزاءِ والكفَّارةِ فيها مابيَّنتُ.

فإنْ ظَنَّ ظانٌّ أنَّ الكفارةَ مزيلةٌ العقابَ، ولو كانت الكفارةُ لازمةً له في الدنيا، لبطلَ العقابُ في الآخرة، فقد ظَنَّ خطأً. وذلك أنَّ لله عَزَّ وجلَّ أنْ يُخالفَ بين عقوباتِ معاصيه بما شاءَ وأَحَبَّ، فيزيد في عقوبته على بعض معاصيهِ مما ينقصُ من بعضٍ، ويَنْقصُ من بعضٍ مما يزيدُ في بعض، كالذي فعل من ذلك في مخالفته بين عقوبته الزانيَ البكْرَ والزانيَ الثيِّبَ المحصن، وبين سارق ربع دينار وبين سارق أقلَّ من ذلك. فكذلك خالف بين عقوبته قاتلَ الصيدِ من المحرمين عمداً ابتداءً، وبين عقوبتهِ عَوْداً بعدَ بدءٍ. فأوجبَ على البادىء المِثْلَ من النَّعم، أو الكفارةَ بالإطعامِ أو العدلَ من الصيام، وجعلَ ذلك عقوبةَ جُرْمه بقوله: «ليذوقَ وبالَ أمره»، وجعل على العائد بعد البدء، وزاده من عقوبته ماأخبر عبادَه أنه فاعلٌ به من الانتقام، تغليظاً منه عَزَّ وجَلَّ للعودِ بعد البدء. ولو كانت عقوباته على الأشياء متفقةً، لوجَبَ أنْ لا يكون حَدٌّ في شيءٍ، مخالفاً حداً في غيرهِ، ولا عقابٌ في الآخرةِ، أغلظ من عقابٍ.

وذلك خلاف ماجاء به مُحْكَمُ الفرقان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾

يقول عَزَّ وجَلَّ: والله منيعٌ في سلطانه، لا يقهره قاهرٌ، ولا يمنعه من الانتقام ممن انتقم منه، ولا من عقوبةِ مَنْ أراد عقوبته، مانعٌ. لأنَّ الخَلْقَ خلقه، والأمرَ أمره، له العزة والمَنَعة.

وأما قوله: «ذو انتقام»، فإنه يعني به معاقبتَه لِمَنْ عَصَاهُ على معصيته إياه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ

يقـول تعـالى ذِكْرُه: «أُحِلَّ لكم»، أيها المؤمنون، «صيدُ البحر» ـ وهو ماصِيدَ طريًّا.

وعَنَى بـ «البحر»، في هذا الموضع، الأنهار كلها. والعربُ تسمي الأنهار «بحاراً»، كما قال تعالى ذِكْرُه: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾.

فتأويل الكلام: أُحِلَّ لكم، أيها المؤمنون، طريّ سمك الأنهار الذي صدتُموه في حالِ حِلِّكُم وحَرَمِكم، وما لم تصيدوه من طعامه الذي قتله ثم رَمى به إلى ساحله.

واختلف أهلُ التأويل في معنى قوله: «وطعامه».

فقال بعضهم: عَنَى بذلك: ماقذف به إلى ساحله ميتاً، نحو الذي قلنا في ذلك.

وقال آخرون: عَنَى بقوله: «وطعامه»، المليح من السمك، فيكون تأويلُ

الكلام على ذلك من تأويلهم: أحل لكم سمك البحر ومَليحه في كُلِّ حالٍ، في حالِ إحلالِكم وإحرامِكم.

وقال آخرون: «طعامه»، مافيه.

وأوْلى هذه الأقـوالِ بالصواب عندنا، قولُ مَنْ قال: «طعامه»، ماقذفه البحر، أوحَسَر عنه فوُجِدَ ميتاً على ساحله. وذلك أنَّ الله تعالى ذِكْرُه ذكر قبله صيدَ الذي يصاد، فقال: «أُحِلَّ لكم صيد البحر»، فالذي يجبُ أن يعطف عليه في المفهـوم مالم يُصَدْ منه، فقال: أُحِلَّ لكم ماصدتموه من البحر، وما لم تصيدوه منه.

وأما «المليح»، فإنه ما كان منه مُلِّح بعد الاصطيادِ، فقد دخل في جملة قوله: «أُحِلَّ لكم صيدُ البحر»، فلا وجه لتكريره، إذْ لا فائدةَ فيه، وقد أعلم عبادَه تعالى ذِكْرُه: إحلالَه ماصِيدَ من البحر بقوله: «أُحِلَّ لكم صيد البحر». فلا فائدةَ أنْ يقالَ لهم بعد ذلك: «ومليحه الذي صِيْدَ حلالٌ لكم»، لأنَّ ماصِيدَ منه فقد بُيِّن تحليلُه، طريًّا كان أو مليحاً، بقوله: «أُحل لكم صيدُ البحر» والله يتعالى عن أنْ يخاطِبَ عبادَهُ بما لا يفيدهم به فائدة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «متاعاً لكم»، منفعةً لمن كان منكم مقيماً أو حاضراً في بلده، يستمتعُ بأكله وينتفع به. «وللسيارة»، يقول: ومنفعةً أيضاً ومتعةً للسائرين من أرضٍ إلى أرض، ومسافرينَ يتزوَّدُونَهُ في سفرهم مليحاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا

يعني تعالى ذِكْرُه: وحَرَّمَ الله عليكم، أيها المؤمنونَ، صيدَ البَرِّ. «مادمتم

حرماً»، يقول: ماكنتم مُحْرِمينَ، لم تحِلُّوا من إحرامكم.

ثم اختلف أهلُ العلم في المعنى الذي عَنى الله تعالى ذِكْرُه بقوله: «وحُرِّم عليكم صيدُ البر».

فقال بعضهم: عَنَى بذلك أنه حرَّم علينا كل معاني صيد البر: من اصطياد، وأكلٍ، وقتلٍ، وبيعٍ، وشراء، وإمساكٍ، وتملُّك.

وقال آخرون: إنما عَنَى الله تعالى ذِكْرُه بقوله: «وحرم عليكم صيد البر مادمتم حرماً»، ما استحدَث المحرم صيدَه في حال إحرامِهِ أو ذبحِهِ، أو استُحْدِثَ له ذلك في تلك الحال. فأما ماذَبْحُه حلالٌ وللحلالِ، فلا بأسَ بأكلِهِ للمُحْرِم. وكذلك ما كان في مِلْكِه قبل حال إحرامه، فغير مُحَرَّمٍ عليه إمساكه.

وقال آخرون: إنما عَنَى اللهُ تعالى بقوله: «وحرم عليكم صيد البر مادمتم حرماً»، وحرم عليكم اصطياده. قالوا: فأما شراؤُه من مالكٍ يملكه وذبحه وأكله، بعد أن يكون مِلكه إياهُ على غيرِ وجهِ الاصطيادِ له، وبيعه وشراؤه جائزٌ. قالوا: والنهيُ من الله تعالى ذِكْرُه، عن صيدِهِ في حالِ الإحرامِ دونَ سائرِ المعاني.

والصوابُ في ذلك من القولِ عندنا أنْ يقالَ: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه، عَمَّ تحريمَ كُلِّ معاني صيد البرِّ على المحرم في حال إحرامه، من غير أن يخصَّ من ذلك شيئاً دونَ شيء. فكلُّ معاني الصيدِ حرامٌ على المُحْرِمِ مادامَ حراماً، بيعُه وشراؤُه واصطيادُه وقتله، وغير ذلك من معانيه، إلاّ أنْ يجده مذبوحاً قد ذبحه حلال لحلال، فيحلُّ له حينئذٍ أكله.

واختلفوا في صفة الصيدِ الذي عَنَى الله تعالى بالتحريمِ في قوله: «وحُرِّمَ عليكم صيدُ البر مادمتم حرماً».

فقال بعضهم: «صيد البر»، كُلُّ ما كان يعيش في البَرِّ والبحر، وإنما «صيد البحر»، ما كان يعيشُ في الماء دون البَرِّ ويأوي إليه.

وقال بعضهم: صيد البر ما كان كونه في البرّ أكثر من كونه في البحر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٩٦﴾

وهذا تقدُّمٌ من الله تعالى ذِكْرُه إلى خَلْقِه بالحَذَرِ من عقابِهِ على معاصيه.

يقول تعالى ذِكْرُه: واخشوا الله، أيها الناسُ، واحذروه بطاعتِهِ فيما أمركم به من فرائضِه، وفيما نهاكم عنه في هذهِ الآياتِ التي أنزلها على نبيكم ﷺ، من النهي عن الخمرِ والميسرِ والأنصابِ والأزلام، وعن إصابةِ صيدِ البرِّ وقتلِهِ في حال إحرامكم وفي غيرها، فإنَّ لله مصيرَكم ومرجعَكم، فيعاقبكم بمعصيتكم إياهُ، ويجازيكم فيثيبكم على طاعتكم له.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: صَيَّرَ اللهُ الكعبةَ البيتَ الحرام قواماً للناسِ الذين لا قِوام لهم من رئيسٍ يحجزُ قَوِيُّهم عن ضَعِيفهم، ومُسِيئُهُمْ عن محسنهم، وظالمهم عن مظلومهم. «والشهر الحرام والهدي والقلائد»، فحجز بكلٍّ واحدٍ من ذلك بعضهم عن بعض، إذْ لم يكن لهم قيامٌ غيره، وجعلها معالمَ لدينهم، ومصالح أمورهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٩٧﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «ذلك»، تصييرَه الكعبةَ البيتَ الحرام قياماً للناسِ والشهرَ الحرام والهديَ والقلائد. يقول تعالى ذِكْرُه: صيرتُ لكم، أيها الناسُ، ذلك قياماً، كي تعلموا أنَّ مَنْ أحدثَ لكم لمصالحِ دُنياكم ما أحدثَ، مِمَّا به قوامكم، علماً منه بمنافعِكم ومضارِّكُم، أنه كذلك يعلمُ جميعَ ما في السمواتِ وما في الأرضِ مما فيه صلاحُ عاجِلِكم وآجِلكم، ولتعلمُوا أنه بكلِّ شيءٍ «عليم»، لا يَخْفى عليه شيءٌ من أمورِكم وأعمالكم، وهو مُحْصِيها عليكم، حتى يجازي المحسنَ منكم بإحسانه، والمسيءَ منكم بإساءته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: اعلموا، أيها الناسُ، أنَّ ربكم الذي يعلمُ مافي السمواتِ وما في الأرضِ ، ولا يَخْفَى عليه شيءٌ من سرائرِ أعمالكم وعلانيتها، وهو يُحْصِيها عليكم ليجازيكم بها، شديد عقابُه [على] من عصاه وتمرَّد عليه، على معصيته إياه ـ وهو غفورٌ لذنوبِ مَنْ أطاعه وأنابَ إليه، فساترٌ عليه، وتاركٌ فضيحته بها ـ رحيمٌ به أن يعاقبه على ماسَلَفَ من ذنوبه بعد إنابتهِ وتوبته منها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾

وهذا من الله تعالى ذِكْرُه تهديدٌ لعبادِه ووعيدٌ. يقول تعالى ذِكْرُه: ليس على رسولنا الذي أرسلناهُ إليكم، أيها الناسُ، بإنذارِكم عقابَنا بين يدي عذابٍ شديد، وإعذارنا إليكم بما فيه قطع حُجَجِكُم ـ إلَّا أن يؤدي إليكم رسالتنا، ثم إلينا الثوابُ على الطاعة، وعلينا العقابُ على المعصية. «والله يعلم ماتُبْدُون

وما تَكتمون»، يقول: وغيرُ خفيٍّ علينا المطيعُ منكم، القابلُ رسالَتنا، العاملُ بمـا أمـرته بالعمل به ـ من المُعَاصي الآبي رسالَتنا، التارك العمل بما أمرتُه بالعمل به، لأنَّا نعلمُ ماعمله العاملُ منكم فأظهره بجوارحه ونطق به بلسانه. «وما تكتمون»، يعني: وما تُخْفُونَهُ في أنفسكم من إيمانٍ وكفر، أو يقينٍ وشك ونفاق.

يقول تعالى ذِكْرُه: فَمَنْ كان كذلك، لا يَخْفَى عليه شيءٌ من ضمائرِ الصـدور، وظواهر أعمال النفوس، مما في السمواتِ وما في الأرض، وبيده الثوابُ والعقاب ـ فحقيق أن يُتَّقى، وأن يطاع فلا يُعْصَى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه لنبيه محمـدٍ ﷺ، قُلْ يامحمدُ: لا يعتدلُ الرديءُ والجيدُ، والصالحُ والطالح، والمطيعُ والعاصي. «ولو أعجبكَ كثرةُ الخبيث»، يقول: لا يعتدل العاصي والمطيعُ للهِ عند اللهِ، ولو كثر أهل المعاصي فعجبت من كثرتهم، لأنَّ أهلَ طاعةِ الله هم المفلحونَ الفائزونَ بثوابِ الله يومَ القيامةِ وإنْ قَلُّوا، دونَ أهلِ معصيته ـ وإنَّ أهلَ معاصيهِ هم الأخسرونَ الخائبون وإنْ كثروا.

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه ﷺ: فلا تَعْجَبَنَّ من كثرةِ مَنْ يعصِي الله فيُمْهِلهُ ولا يعاجِلهُ بالعقوبةِ، فإنَّ العُقْبَى الصالحة لأهلِ طاعةِ الله عنده دونهم.

وهذا الكلام وإنْ كان مخرجه مخرجَ الخطابِ لرسولِ الله ﷺ، فالمراد به بعض أتباعه، يدلُّ على ذلك قوله: «فاتَّقُوا الله ياأولي الألبابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: واتقوا الله بطاعتهِ فيما أمركم ونهاكم، واحذَروا أنْ يستحوذَ عليكم الشيطانُ بإعجابِكم كثـرة الخبيث، فتصيروا منهم. «ياأولي الألباب»، يعني بذلك أهلَ العقولِ والحِجىَ الذين عَقلُوا عن اللهِ آياته، وعرفوا مواقعَ حُجَجِه. «لعلكم تفلحون»، يقول: اتقوا الله لِتُفْلِحُوا، أي: كي تَنْجَحُوا في طلبكم ماعنده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾

ذُكِرَ أنَّ هذه الآية أُنزلتْ على رسولِ الله ﷺ بسببِ مسائلَ كان يسألها إياه أقوامٌ، امتحاناً له أحياناً، واستهزاءً أحياناً. فيقولُ له بعضُهم: «مَنْ أبي»؟ ويقول له بعضُهم إذا ضَلَّتْ ناقتهُ: «أين ناقتي؟ فقال لهم تعالى ذِكْرُه: لا تسألوا عن أشياءَ من ذلـك كمسـألـة عبدالله بن حُذافة إياه مَنْ أبوه[1] «إنْ تُبْدَ لكم تَسُؤْكُمْ»، يقول: إنْ أبدينا لكم حقيقةَ ما تسألونَ عنه، ساءكم إبداؤُها وإظهارها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾

---

(١) انظر البخاري (٤٦٢١) و(٤٦٢٢)، ومسلم (٢٣٥٩)، وراجع تهذيب الكمال: ٤١٢/١٤.

يقول تعالى ذِكْرُه لِلَّذينَ نَهاهم من أصحابِ رسولِ الله ﷺ عن مسألةِ رسولِ الله ﷺ عَمَّا نَهاهم عن مسألتهم إياهُ عنه، من فرائضَ لم يفرضها الله عليهم، وتحليل أمورٍ لم يحلّلها لهم، وتحريم أشياء لم يحرِّمها عليهم قبلَ نزولِ القرآنِ بذلك: أيها المؤمنونَ السائلون عما سألوا عنه رسولي مما لم أُنَزِّلْ به كتاباً ولا وحياً، لا تسألوا عنه، فإنكم إنْ أظهرَ ذلك لكم تبيانٌ بوحيٍ وتنزيل ساءكم لأنَّ التنزيلَ بذلك إذا جاءكم إنما يجيئكم بما فيه امتحانُكم واختباركم، إما بإيجابِ عملٍ عليكم ولزومِ فرضٍ لكم، وفي ذلك عليكم مَشَقَّةٌ ولزومُ مؤونةٍ وكلفة ـ وإما بتحريم ما لو لم يأتكم بتحريمهِ وحيٌ، كنتم من التقدمِ عليه في فُسْحـةٍ وسعَـة ـ وإما بتحليلِ ماتعتقدون تحريمَهُ، وفي ذلك لكم مساءةٌ لنقلكم عما كنتم ترونه حقًّا إلى ماكنتم ترونَهُ باطلاً، ولكنكم إنْ سألتم عنها بعد نزولِ القرآنِ بها، وبعد ابتدائِكم ببيانِ أمرها في كتابي إلى رسولي إليكم، ليسَّرَ عليكم ما أنزلتهُ إليه من بيانِ كتابي، وتأويل تنزيلي ووحيي.

وأما قوله: «عفا الله عنها»، فإنه يعني به: عَفَا اللهُ لكم عن مسألتكم عن الأشياءِ التي سألتم عنها رسولَ الله ﷺ، الذي كَرِه الله لكم مسألتكم إياهُ عنها إنْ يؤاخـذَكُمْ بها، أو يعاقِبَكُمْ عليها، إذْ عرف منها توبتكم وإنابتكم. «والله غفورٌ»، يقول: والله ساترٌ ذنوبَ مَنْ تابَ منها، فتاركٌ أنْ يفضحَهُ في الآخرة. «حليم» ذُو أنـاةٍ عن أنْ يعـاقبه بها، لِتَغَمُّدِهِ التائبَ منها برحمتهِ، وعفوه عن عقوبته عليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قد سألَ الآيات قومٌ من قَبْلِكم، فلما آتاهمُوها الله

أصبحوا بها جاحدينَ، مُنْكِرينَ أنْ تكونَ دلالةً على حقيقة ما احتُجَّ بها عليهم، وبرهاناً على صِحَّةِ ماجُعلت برهاناً على تصحيحه ـ كقومِ صالح الذين سألوا الآيَةَ، فلما جاءتهمُ الناقةُ آيةً عَقَرُوهَا ـ وكالذين سألوا عيسى مائدةً تنزلُ عليهم من السماء، فلما أُعْطُوها كَفَرُوا بها، وما أشبه ذلك.

فَحَذَّرَ الله تعالى المؤمنين بنبيه ﷺ أنْ يسلكوا سبيلَ مَنْ قَبْلَهُمْ من الأممِ التي هَلكتْ بكفرهم بآياتِ الله لما جاءتهم عند مَسْأَلَتِهُموها، فقال لهم: لاتسألوا الآيات، ولا تبحثوا عن أشياءَ إنْ تُبْدَ لكم تَسُؤْكُمْ، فقد سأَلَ الآياتِ مِنْ قبلكم قومٌ، فلما أُوتُوها أصبحوا بها كافرينَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ما بَحَرَ اللهُ بحيرةً، ولا سيَّبَ سائبةً، ولا وَصَلَ وصيلةً، ولا حَمَى حامياً ولكنكم الذين فعلتم ذلك، أيها الكفرةُ، فحرَّمْتُموه افتراءً على ربكم.

و«البحيرة» «الفعيلة» من قولِ القائلِ: «بَحَرْت أُذنَ هذه الناقةِ»، إذا شَقَّها، «أبحرُها بحراً»، والناقة «مبحورة».

وأما «السائبة»، فإنها المُسَيَّبة المُخَلَّاة. وكانت الجاهلية يفعل ذلك أحدُهم ببعضِ مواشيهِ، فيحرِّمُ الانتفاعَ به على نفسه، كما كان بعضُ أهلِ الإسلام يعتق عبدَهُ سائبةً، فلا ينتفعُ به ولا بولائه.

وأما «الوصيلة»، فإنَّ الأنثى من نَعَمهم في الجاهلية كانت إذا أَتْأَمَتْ بطناً بذكرٍ وأنثى، قيل: «قد وصلت الأنثى أخاها»، بدفْعِهَا عنه الذَّبْحَ، فَسَمَّوْهَا «وَصيلة».

وأما «الحامي»، فإنه الفحل من النَّعَمِ يُحْمَى ظهرُه من الركوبِ والانتفاع، بسبب تتابُعِ أولادٍ تحدُث من فِحْلته.

وهذه أمورٌ كانت في الجاهلية فأبطلها الإسلامُ، فلا نعرف قوماً يعملون بها اليوم.

فإذْ كان ذلك كذلك ـ وكانَ ما كانت الجاهليةُ تعملُ به لا يوصلُ إلى علمه ـ إذْ لم يكن له في الإسلام اليومَ أثرٌ، ولا في الشرك، نعرفه ـ إلا بخبر، وكانت الأخبارُ عَمَّا كانوا يفعلون من ذلك مختلفة، فالصوابُ من القولِ في ذلك أن يقال: أما معاني هذه الأسماء فما بَيَّنَّا في ابتداءِ القولِ في تأويلِ هذه الآية، وأما كيفيةُ عملِ القوم في ذلك، فما لا عِلْمَ لنا به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ١٠٣﴾.

إنَّ المَعْنِيِّينَ بقوله: «ولكن الذينَ كفروا يفترونَ على الله الكذبَ»، الذين بحروا البحائرَ، وسَيَّبُوا السوائبَ، ووصلوا الوصائلَ، وحموا الحوامي، مثل عمرو ابن لحي وأشكالِهِ مِمَّنْ سَنَّ لأهلِ الشرك السننَ الرديئةَ، وغيَّرَ دِينَ الله دِينَ الحقِّ، وأضافوا إلى الله تعالى ذِكْرُه: أنه هو الذي حَرَّمَ ماحَرَّمُوا، وأحلَّ ما أَحَلُّوا، افتراءً على الله الكذبَ وهم يعلمون، واختلاقاً عليه الإفكَ وهم يفهمون، فَكَذَّبهم اللهُ تعالى ذِكْرُه في قِيلهم ذلك، وإضافتهم إليه ما أضافوا من تحليلِ ما أَحَلُّوا وتحريمِ ماحَرَّمُوا، فقال تعالى ذِكْرُه: ماجعلتُ من بحيرةٍ ولا سائبةٍ، ولكن الكُفَّارَ هم الذين يفعلونَ ذلك، ويفترونَ على الله الكذب.

وإنَّ المعنيين بقوله: «وأكثرهم لا يعقلون»، هُمْ أتباعُ مَنْ سَنَّ لهم هذه

السُّنَنَ من جَهَلَةِ المشركين، فهم لا شك أنهم أكثر من الذين سَنُّوا ذلك لهم، فوصفَهُم الله تعالى بأنهم لا يعقلون، لأنهم لم يكونوا يعقلون أنَّ الذين سنوا لهم تلك السننَ وأخبروهم أنها من عندِ الله، كَذَبةٌ في أخبارهم، أَفَكَةٌ، بل ظنوا أنهم فيما يقولون مُحِقُّون، وفي أخبارهم صادقون. وإنما معنى الكلام: وأكثرهم لا يعقلون أنَّ ذلك التحريم الذي حرَّمه هؤلاء المشركون وأضافوه إلى الله تعالى ذِكْرُه كذب وباطل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ١٠٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا قِيلَ لهؤلاء الذين يبحرون البحائرَ ويُسَيِّبون السوائبَ؟ الذين لا يعقلون أنهم بإضافتهم تحريمَ ذلك إلى الله تعالى ذِكْرُه يفترونَ على الله الكَذِبَ: تعالوا إلى تنزيلِ الله وآيِ كتابِهِ وإلى رسولِهِ، ليتبيَّنَ لكم كَذِبُ قِيلكم فيما تُضِيفُونَهُ إلى الله تعالى ذِكْرُه من تحريمكم ما تُحَرِّمونَ من هذهِ الأشياء ـ أجابوا مَنْ دَعَاهم إلى ذلك بأنْ يقولوا: حَسْبُنَا ماوجدنا عليه مَنْ قَبْلَنَا آباءَنَا يعملون به، ويقولون: «نحنُ لهم تَبَعٌ وهم لنا أئمةٌ وقادة، قد اكتفينا بما أخذنا عنهم، ورضينا بما كانوا عليه من تحريمٍ وتحليل»، قال الله تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: أَوَ لَوْ كان آباءنا هؤلاء القائلينَ هذه المقالــة لا يعلمونَ شيئاً؟ يقول: لم يكونوا يعلمون أنَّ مايُضيفونه إلى الله تعالى ذِكْرُه من تحريمِ البحيرةِ والسائبةِ والوصيلةِ والحامِ، كذبٌ وفريةٌ على الله، لا حقيقة لذلك ولا صحة، لأنهم كانوا أتباعَ المفترينَ الذين ابتدأوا تحريمَ ذلك، افتراءً على الله بقِيلِهم ماكانوا يقولون من إضافَتِهم إلى الله تعالى ذِكْرُه مايُضِيفُونَ ـ

ولا كانوا فيما هُمْ به عاملونَ من ذلك على استقامةٍ وصواب، بل كانوا على ضلالة وخطأ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يا أيها الذينَ آمنوا عليكم أَنْفُسَكُمْ فأصلِحُوهَا، واعملوا في خلاصِهَا من عقابِ الله تعالى ذِكْرُه، وانظروا لها فيما يُقَرِّبُهَا من رَبِّها. فإنه «لايضركم مَنْ ضَلَّ»، يقول: لا يضركم مَنْ كفر وسلك غيرَ سبيلِ الحق، إذا أنتم اهتديتم وآمنتم بربكم، وأطعتموه فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه، فحرمتم حرامَهُ وحَلَّلْتُمْ حلالَهُ.

واختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك.

فقال بعضهم معناه: «يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم»، إذا أمرتُم بالمعروفِ ونهيتم عن المنكرِ فلم يُقبل منكم.

وقال آخرون: معنى ذلك أنَّ العبدَ إذا عملَ بطاعةِ الله لم يضره مَنْ ضَلَّ بعده وهلك.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: «يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم»، فاعملوا بطاعـةِ الله. «لا يضركم مَنْ ضَلَّ إذا اهتديتم»، فأمرتم بالمعروف، ونهيتم عن المنكر.

وقال آخرون: بل معنى هذه الآية: لا يَضُرُّكُمْ مَنْ حَادَ عن قَصْدِ السبيلِ وكَفَرَ بالله من أهلِ الكتاب.

وقال آخرون: عَنَى بذلك كُلَّ مَنْ ضَلَّ عن دِينِ الله الحق.

وأَوْلى هذه الأقوالِ وأصحّ التأويلات عندنا بتأويلِ هذه الآية، مارُويَ عن أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنه فيها، وهو: «يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم»، الزَمُوا العملَ بطاعةِ الله وبما أمركم به، وانتهوا عما نَهاكُمْ الله عنه. «لا يضركم مَنْ ضَلَّ إذا اهتديتم»، يقول: فإنه لا يضركم ضلالُ مَنْ ضَلَّ إذا أنتم لَزِمْتُم العملَ بطاعةِ الله، وأدَّيتم فيمن ضَلَّ من الناسِ ما ألزمكم اللهُ به فيه، من فرض الأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر الذي يركبه أو يحاول ركوبه، والأخذ على يديه إذا رامَ ظُلْماً لمسلمٍ أو مُعَاهَدٍ ومنعه منه فأبى النزوعَ عن ذلك، ولا ضيرَ عليكم في تماديه في غيِّه وضلاله، إذا أنتم اهتديتم وأدَّيتم حَقَّ الله تعالى ذِكْرُه فيه.

وإنما قلنا ذلك أولى التأويلات في ذلك بالصواب، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه أمرَ المؤمنين أنْ يقوموا بالقسطِ، ويتعاونوا على البر والتقوى. ومن القيامِ بالقسط، الأخذُ على يدي الظالم. ومن التعاونِ على البر والتقوى، الأمرُ بالمعروف. وهذا مع ما تظاهرتْ به الأخبارُ عن رسولِ الله ﷺ من أمرِهِ بالأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر. ولو كان للناسِ تركُ ذلك، لم يكن للأمرِ به معنىً، إلا في الحالِ التي رخَّص فيه رسولُ الله ﷺ تركَ ذلك، وهي حالُ العجز عن القيامِ به بالجوارح الظاهرة، فيكون مرخصاً له تركه، إذا قام حينئذٍ بأداء فرض الله عليه في ذلك بقلبه.

وإذا كان ماوصفنا من التأويلِ بالآية أولى، فبيِّنٌ أنه قد دخل في معنى قوله: «إذا اهتديتم»، ما قاله (بعضهم) من أنَّ ذلك: «إذا أمرتم بالمعروفِ ونهيتم عن المنكر».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ به من عبادِه: اعملوا، أيها المؤمنون، بما أمرتُكم به، وانتهوا عما نَهيتُكم عنه، ومُرُوا أهلَ الزَّيغِ والضلالِ ومَنْ حاد عن سبيلي بالمعروف، وانهوهم عن المنكر. فإنْ قبلوا، فلهم ولكم، وإنْ تمادَوْا في غيِّهم وضلالهم، فإنَّ إليَّ مرجع جميعكم ومصيركم في الآخرة ومصيرهم، وأنا العالمُ بما يعملُ جميعُكم من خيرٍ وشر، فأخبرُ هناك كُلَّ فريقٍ منكم بما كان يعملُه في الدنيا، ثم أُجازِيه على عملِه الذي قَدِمَ به عليَّ جزاءه حَسبَ استحقاقِه، فإنه لا يخفى عليَّ عملُ عاملٍ منكم من ذكرٍ أو أنثى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ به: «يا أيها الذين آمنوا شهادةُ بينِكم»، يقول: ليشهد بينكم. «إذا حضرَ أحدَكُمُ الموتُ حين الوصيةِ»، يقول: وقت الوصية. «اثنان ذوا عَدْلٍ منكم»، يقول: ذوا رشْدٍ وعقلٍ وحجىً من المسلمين.

واختلف أهلُ التأويل في تأويلِ قوله: «ذوا عدلٍ منكم».

فقال بعضهم: عَنَى به: من أهلِ مِلَّتكم.

وقال آخرون: عَنَى بذلك: ذوا عدلٍ من حَيِّ الموصِي.

واختلفوا في صفة «الاثنين» اللَّذَيْن ذكرهما اللهُ في هذه الآية، ماهيَ، وما هما؟

فقال بعضهم: هما شاهدانِ يشهدانِ على وصيةِ الموصي.

وقال آخرون: هما وصيَّان.

وتـأويل الـذين زعمـوا أنهمـا شاهدان. قولَه: «شهادةُ بينكم»، ليشهدْ شاهدانِ ذوا عَدْلٍ منكم على وصيتكم.

وتـأويل الذين قالوا: «هما وصيان لا شاهدان» قولَه: «شهادة بينكم»، بمعنى الحضور والشهود لما يُوصِيهما به المريضُ، من قولك: «شهدتُ وصيةَ فلان»، بمعنى حَضَرْتُه.

وأوْلى التأويلين بقوله: «اثنان ذوا عدل منكم»، تأويلُ مَنْ تأوَّلَهُ بمعنى أنهما من أهلِ الملة، دونَ مَنْ تأوَّلَهُ أنهما من حَيٍّ الموصي.

وإنما قلنا ذلك أولى التأويلين بالآية، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه، عَمَّ المؤمنينَ بخطابهم بذلك في قوله: «يا أيها الذين آمنوا شهادةُ بينِكم إذا حضرَ أحدكمُ الموتُ حين الوصيةِ اثنان ذوا عَدْلٍ منكم» فغيرُ جائزٍ أنْ يصرفَ ماعَمَّهُ اللهُ تعالى ذِكْـرُه إلى الخصوصِ إلا بحجةٍ يجبُ التسليمُ لها. وإذْ كان ذلك كذلك، فالواجبُ أنْ يكونَ العائدُ من ذكره على العموم، كما كان ذكرهم ابتداءً على العموم.

وأوْلى المعنيين بقوله: «شهادةُ بينكم» اليمينُ، لا «الشهادة» التي يقومُ بها مَنْ عنده شهادة لغيره، لمن هي عنده، على مَن هي عليه عند الحكام. لأنَّا لا نعلمُ للهِ تعـالى ذِكْرُه حُكْماً يجبُ فيه على الشاهدِ اليمينُ، فيكون جائزاً صرفُ «الشهادة» في هذا الموضع، إلى «الشهادة» التي يقومُ بها بعضُ الناس عندَ الحكامِ والأئمة.

وفي حكم الآية في هذه، اليمينَ على ذوي العــدلِ ـ وعلى مَنْ قام مقامهم، باليمينِ بقوله: «تَحْبِسُونَهما من بعدِ الصلاةِ فيقسمانِ بالله» ـ أوضحُ الـدليلِ على صِحَّـةِ ماقُلْنَا في ذلك، من أنَّ «الشهادة» فيه: الأيمان، دونَ الشهادةِ التي يُقْضَى بها للمشهودِ له على المشهودِ عليه ـ وفسادِ ما خالفه.

فإنْ قال قائلٌ: فهل وجدتَ في حكم الله تعالى ذِكْرُه يميناً تجبُ على المدَّعى، فتوجه قولكَ في الشهادة في هذا الموضع إلى الصحة؟

فإن قلتَ: «لا»، تَبَيَّنَ فسادُ تأويلكَ ذلك على ما تأوَّلتَ، لأنه يجب على هذا التأويل أن يكون المقسمان في قوله: «فإنْ عُثِرَ على أنهما استحقا إثماً فآخرانِ يقومان مقامهما من الذين استحقَّ عليهم الأوْلَيان فيقسمانِ بالله لشهادَتُنا أحقُّ من شهادتهما»، هما المدعيين.

وإنْ قلت: «بلى»، قِيلَ لك: وفي أيِّ حُكْمٍ لله تعالى ذِكْرُه وجدتَ ذلك؟

قيل: وجدنا ذلك في أكثر المعاني. وذلك في حكم الرجلِ يدَّعي قِبلَ رجلٍ مالاً فيقرّ به المُدَّعَى عليه قِبَله ذلك، ويدّعي قضاءه. فيكون القولُ قول ربِّ الدَّيْنِ - والرجل يعرّف في يد الرجلِ السلعةَ، فيزعم المعرّف في يده أنه اشتراهـا من المُـدَّعِي، أو أنَّ المـدعي وَهَبَها له، وما أشبه ذلك مما يكثر إحصاؤه. وعلى هذا الوجه أوجبَ الله تعالى ذِكْرُه في هذا الموضع اليمين على المدعيين اللذين عثرا على الخائنين فيما خانا فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ

يقـول تعـالى ذِكْرُه للمؤمنين: ليشهد بينكم إذا حَضَرَ أحدكُمُ الموتُ، عَدْلانِ من المسلمين، أو آخرانِ من غيرِ المسلمين.

وقد اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «أو آخران من غيرِكم».

فقال بعضهم: معناه: أو آخرانِ من غيرِ أهلِ مِلَّتِكم، نحو الذي قلنا فيه.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أو آخرانِ من غير حَيِّكُم وعَشِيرتكم.

وأولى التأويلين في ذلك عندنا بالصواب، تأويلُ مَنْ تأوّله: أو آخرانِ من غيرِ أهـلِ الإسلام. وذلك أنَّ الله تعالى عرَّف عبادَهُ المؤمنينَ عند الوصيةِ، شهادة اثنين من عدولِ المؤمنين، أو اثنين من غيرِ المؤمنينَ. ولا وجهَ لأنْ يُقالَ في الكـلام صِفة شهادةِ مؤمنَيْنِ منكم، أو رَجُلَيْنِ من غيرِ عشيرتِكم، وإنما يقال: صفةُ شهادةِ رجلين من عشيرتِكم أو من غير عشيرتِكم - أو رجلينِ من المؤمنينَ أو من غيرِ المؤمنين.

فإذْ كان لا وجـهَ لذلك في الكلام، فغيرُ جائزٍ صرفُ معنى كلامِ الله تعالى ذِكْرُه إلا إلى أحسنِ وجوهِهِ.

وقد دللنا قَبْلُ على أنَّ قوله تعالى: «ذوا عدلٍ منكم»، إنما هو من أهلِ دِينكم وملتكم، بما فيه كفايةٌ لمن وُفِّقَ لفهمه.

وإذ صَحَّ ذلـك بما دللنا عليه، فمعلومٌ أن معنى قوله: «أو آخران من غيركم»، إنمـا هو: أو آخـرانِ من غيرِ أهـلِ دِينكم وملتكم. وإذْ كان ذلك كذلك، فسواء كان الآخرانِ اللذان من غيرِ أهلِ ديننا، يهوديين كانا أو نصرانيين أو مجوسيين أو عابَدي وثَنٍ، أو على أيِّ دِينٍ كانا. لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه لم يخصص آخرين من أهلِ ملةٍ بعينها دونَ ملة، بعد أنْ يكونا من غيرِ أهلِ الإسلام.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ﴾

يقول تعالى ذكره للمؤمنين: صِفةُ شهادةِ بينكم إذا حضر أحدكمُ الموتُ

وقتَ الوصية، أنْ يشهدَ اثنانِ ذوا عدلٍ منكم، أيها المؤمنونَ، أو رجلانِ آخران من غيرِ أهلِ ملتكم، إنْ أنتم سافرتم ذاهبينَ وراجعينَ في الأرض.

«فأصابتكم مصيبةُ الموت»، يقول: فنزلَ بكم الموتُ.

ووجَّه أكثرُ أهلِ التأويلِ هذا الموضع إلى معنى التعقيبِ دون التخيير، وقالوا: معناه: شهادةُ بينِكم إذا حضرَ أحدَكُم الموتُ حين الوصية، اثنان ذوا عدلٍ منكم إنْ وُجِدَا، فإنْ لم يُوجَدَا فآخرانِ من غيرِكم - وإنما فعلَ ذلك مَنْ فَعَلَهُ، لأنه وجَّه معنى «الشهادة» في قوله: «شهادة بينكم»، إلى معنى الشهادة التي تُوجِبُ للقوم قيامَ صاحبها عند الحاكم، أو يُبطلها.

ووجَّه ذلك آخرون إلى معنى التخيير، وقالوا: إنما عَنَى بالشهادة في هذا الموضع، الأيمانَ على الوصية التي أوصى إليهما، وائتمانَ الميتِ إياهما على ما ائتَمَنَهُمَا عليه من مالٍ ليؤدِّياهُ إلى ورثته بعد وفاته، إنْ ارتِيبَ بهما. قالوا: وقد يَتَّمِنُ الرجلُ على مالهِ مَنْ رآه موضعاً للأمانةِ من مؤمنٍ وكافرٍ في السفر والحضر. وقد ذكرنا الروايةَ عن بعضِ مَنْ قال هذا القولَ فيما مضى، وسنذكر بقيته إن شاء الله تعالى بعد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنين به وبرسوله: شهادة بينكم إذا حضرَ أحدكمُ الموتُ، إنْ شهد اثنان ذوا عَدْلٍ منكم، أو كان أوصى إليهما - أو آخران من غيركم إن كنتم في سفرٍ فحضرَتْكُم المنيّةُ، فأوصيتم إليهما، ودفعتم إليهما ما كانَ معكم من مالٍ وتركةٍ لورثتكم. فإذا أنتم أوصيتم إليهما ودفعتم إليهما ما كان معكم من مالٍ، فأصابتكم مصيبةُ الموت، فأدَّيه إلى وَرَثِتِكُم ما أتَمَنْتُموهما

وادَّعوا عليهما خيانةً خاناها ما ائْتُمِنَا عليه، فإنَّ الحكم فيهما حينئذٍ أنْ تحبسوهما. ـ يقول: تستوقفونهما بعد الصلاة. وفي الكلام محذوف اجتزىء بدلالة ماظهرَ منه على ماحذف، وهو: «فأصابتكم مصيبةُ الموتِ، وقد أسندتم وَصِيَّتكم إليهما، ودفعتم إليهما ما كان معكم من مال»، فإنكم تحبسونهما من بعدِ الصلاة. فيقسمانِ بالله إن ارتبتم»، يقول: فيحلفانِ باللهِ إن اتُّهِمْتُموهما بخيانة فيما ائْتُمِنَّا عليه من تغييرِ وصية أوصى إليهما بها أو تبديلها، و«الارتيابُ»، هو الاتهامُ. «لا نشتري به ثمناً»، يقول: يحلفانِ بالله لا نشتري بأيماننا بالله ثمناً، يقول: لا نحلفُ كاذبينَ على عِوَضٍ نأخذهُ عليه، وعلى مالٍ نذهبُ به، أو لحقٍّ نجحده لهؤلاء القومِ الذين أوصى إلينا وَلِيُّهم وميِّتهم.

«ولو كان ذا قربى»، يقول: يقسمانِ بالله لا نطلبُ بأقسامنا بالله عِوَضاً فنكذب فيها لأحدٍ، ولو كان الذي نقسم به له ذا قرابةٍ منا.

واختلفوا في «الصلاة» التي ذكرها الله تعالى في هذه الآية، فقال: «تحبسونهما من بعد الصلاة».

فقال بعضهم: هي صلاة العصر.

وقال آخرون: بل يستحلفان بعد صلاةِ أهلِ دِينهِما وملتهما.

وأوْلى القولين في ذلك بالصوابِ عندنا، قولُ مَنْ قال: «تحبسونهما من بعد صلاة العصر». لأنَّ الله تعالى عرَّف «الصلاة» في هذا الموضع بإدخال «الألف واللام» فيها، ولا تدخلهما العربُ إلاّ في معروف، إما في جنس، أو في واحدٍ معهودٍ معروفٍ عند المتخاطبين. فإذ كان كذلك، وكانت «الصلاة» في هذا الموضع مُجمعاً على أنه لم يُعْنَ بها جميع الصلواتِ، لم يَجُزْ أنْ يكونَ مُراداً بها صلاة المستحلَفِ من اليهودِ والنصارى، لأنَّ لهم صلوات ليست واحدة، فيكون معلوماً أنها المعنيَّة بذلك. فإذْ كان ذلك كذلك، صَحَّ أنها صلاةٌ

بعينها من صلواتِ المسلمين. وإذ كان ذلك كذلك، وكان النبي ﷺ صحيحاً عنـه أنـه إذْ لاعَنَ بين العَجْـلانيين، لاعَن بينهمـا بعد العصرِ دونَ غيره من الصلوات[1] كان معلوماً أنَّ التي عنيت بقوله: «تحبسونهما من بعد الصلاة»، هي الصـلاةُ التي كان رسـولُ الله ﷺ يتخيَّرها لاستحلافِ مَنْ أراد تغليظَ اليمينِ عليه. هذا ماعنـدَ أهلِ الكُفر بالله من تعظيم ذلك الوقت، وذلك لقربه من غروب الشمس.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ۝١٠٦﴾

يعني: ولا نكتمُ شهادةَ الله، وإنْ كان (صاحبها) بعيداً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «فإن عُثِر»، فإن اطُّلعَ منهما أو ظهر.

وأما قوله: «على أنهما استحقا إثماً»، فإنه يقول تعالى ذِكْرُه: فإن اطلع من الوصيين اللذين ذكرَ الله أمرهما في هذه الآية ـ بعد حَلْفِهمَا باللهِ لا نشتري بأيماننا ثمناً ولو كان ذا قُربى، ولا نكتمُ شهادةَ الله. «على أنهما استحقا إثماً»، يقول: على أنهما استوجبا بأيمانهما التي حلفا بها إثماً، وذلك أن يطلع على أنهما كانا كاذِبَيْنِ في أيمانِهما بالله ماخُنَّا ولابدَّلْنا ولا غيَّرْنا. فإنْ وُجِدَا قد خانا من مالِ الميتِ شيئاً، أو غَيَّرا وصيَّتَهُ، أو بدّلا، فأثِمَا بذلك من حَلْفِهما بربهما.

---

(١) انظر البيهقي: ٧/٣٩٨.

«فآخران يقومان مقامهما»، يقول، يقوم حينئذٍ مقامهما من ورثةِ الميت، الأوليان الموصَى إليهما.

واختلف أهلُ التأويل في المعنى الذي له حَكَم اللهُ تعالى ذِكْرُه على الشاهدين بالأيمان فنقلها إلى الآخرين، بعد أنْ عُثِرَ عليهما أنهما استحقا إثماً.

فقال بعضهم: إنما ألزمهما اليمين، إذا ارتيبَ في شهادتهما على الميت في وصيته أنه أوصى بغيرِ الذي يجوزُ في حُكْمِ الإسلام. وذلك أن يشهد أنه أوصى بمالِه كله، أو أوصى أن يُفَضِّلَ بعض ولده ببعض ماله.

وقال آخرون: بل إنما ألزم الشاهدان اليمين، لأنهما ادَّعيا أنه أوصى لهما ببعضِ المال. وإنما ينقل إلى الآخرين من أجلِ ذلك، إذا ارتابوا بدعواهما.

والصوابُ من القول في ذلك عندنا، أنَّ الشاهدين أُلْزِمَا اليمينَ في ذلك باتهام ورثةِ الميتِ إياهما فيما دَفَعَ إليهما الميتُ من ماله، ودعواهم قِبَلَهُمَا خيانةَ مالٍ معلومِ المبلغ، ونقلت بعد إلى الورثة عند ظهورِ الريبةِ التي كانت من الورثةِ فيهما، وصحة التهمة عليهما بشهادةِ شاهدٍ عليهما أو على أحدهما، فيحلف الوارث حينئذٍ مع شهادةِ الشاهد عليهما، أو على أحدهما، إنما صحح دعـواه إذْ حُقِّق حقـه - أو: الإقرار يكون من الشهود ببعض ما ادَّعى عليهما الوارثُ أو بجميعه، ثم دعواهما في الذيِ أقَرَّا به من مالِ الميت مالا يقبل فيه دعواهما إلا ببينة، ثم لايكون لهما على دعواهما تلك بيِّنة، فينقل حينئذٍ اليمين إلى أولياء الميت.

وإنما قلنا ذلك أوْلى الأقوالِ في ذلك بالصحة، لأنَّا لا نعلمُ من أحكامِ الإسلام حكماً يجبُ فيه اليمين على الشهود، ارتيبَ بشهادَتِهما أو لم يُرْتَبْ بهـا، فيكـون الحكم في هذه الشهـادة نظيراً لذلك - ولا - إذ لم نجد ذلك

كذلك - صحَّ بخبرٍ عن الرسولِ ﷺ، ولا بإجماع من الأمة. لأنَّ استحلافَ الشهـودِ في هذا الموضع من حُكْمِ الله تعالى ذِكْرُه، فيكون أصلاً مُسَلَّماً. والقول إذا خرج من أن يكون أصلاً أو نظيراً لأصلٍ فيما تنازعتْ فيه الأمةُ، كان واضحاً فسادُه.

وإذا فَسَدَ هذا القولُ بما ذكرنا،.فالقولُ بأن الشاهدين استحلفا من أجل أنهما ادَّعيا على الميتِ وصيةً لهما بمالٍ من ماله، أفسد[1] من أجلِ أنَّ أهلَ العلمِ لا خِلافَ بينهم في أنَّ مِنْ حكم الله تعالى ذِكْرُه أنَّ مُدَّعِياً لو ادَّعى في مالِ ميتٍ وصيةً، أنَّ القولَ قولُ ورثةِ المدعى في ماله الوصية مع أيمانهم، دونَ قولِ مدعي ذلك مع يمينه، وذلك إذا لم يكن للمدعي بينة. وقد جعل الله تعالى اليمينَ في هذه الآيةِ على الشهود إذا ارتيبَ بهما، وإنما نُقِل الأيمانُ عنهم إلى أولياءِ الميتِ، إذا عثر على أنَّ الشهودَ استحقوا إثماً في أيمانهم. فمعلومٌ بذلـك فسادُ قولِ مَنْ قال: «ألزم اليمينَ الشهودُ، لدعواهم لأنفسِهم وصيةً أوصى بها لهم الميت من ماله».

على أنَّ ما قلنا في ذلك عن أهلِ التأويلِ هو التأويلُ الذي وردت به الأخبارُ عن بعضِ أصحابِ رسول الله ﷺ: أنَّ رسولَ الله ﷺ قَضَى به حين نزلت هذه الآية، بين الذي نزلت فيهم وبسببهم[2].

---

(١) يعني: أفسد من القول السابق.

(٢) ساق الطبري حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس قصة تميم الداري وعدي بن بَدَّا في الشهادة (١٢٩٦٦) و(١٢٩٦٧) و(١٢٩٦٨) بأسانيد فيها مقال. ورواه البخاري في صحيحه معلقاً (٢٧٨٠)، وفي تاريخه الكبير (١/الترجمة ٦٧٦)، وإنما علقه، والله أعلم، لكون إسناده عنده فيه نظر بسبب محمد بن أبي القاسم الطويل، كما في تهذيب الكمال للمزي: ٣٠٦/٢٦، ورواه أبو داود (٣٦٠٦)، والترمذي (٣٠٦٠) وقال: حسن غريب

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: «من الذين استحق عليهم الأوليان».

فقرأ ذلك قَرَأَةُ الحجازِ والعراق والشام: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُحِقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَانِ﴾، بضم «التاء».

وروي عن عليٍّ، وأبيّ بن كعب، والحسن البصري أنهم قرأوا ذلك: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾، بفتح «التاء».

وأَوْلى القراءتين بالصواب في قوله: «من الذين استحق عليهم»، قراءة من قرأ بضم «التـاء»، لإجماعِ الحُجَّةِ من القراءةِ عليه، مع مشايعةِ عامةِ أهلِ التأويلِ على صحة تأويله، وذلك إجماعُ عامتهم على أنَّ تأويله: فآخران من أهلِ الميتِ، الذين استحق المؤتمنان على مالِ الميت الإثم فيهم، يقومان مقام المستحقِّي الإثم فيهما، بخيانتهما ما خانَا من مالِ الميت.

وأحسب أن الذين قرأوا ذلك بفتح «التاء»، أرادوا أنْ يُوجِّهُوا تأويلَه إلى: «فـآخران يقومان مقامهما»، مقامَ المؤتمنين اللذين عُثِر على خيانتهما في القَسم، و«الاستحقاق به عليهما»، دعواهما قِبَلهما ـ من «الذين استحقَّ» على المؤتمنين على المالِ على خيانتهما القيامَ مقامهما في القَسَم والاستحقاق، الأوليان بالميتِ.

وكذلك كانت قراءة من رُويت هذه القراءةُ عنه، فقرأ ذلك: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ﴾ بفتح «التاء» و«الأوليان»، على معنى: الأوليان بالميتِ ومالهِ.

وذلـك مذهبٌ صحيحٌ، وقـراءةٌ غير مدفـوعـة صحّتهـا، غير أنَّا نختارُ الأخرى، لإجماع الحجةِ من القَرَأَةِ عليها، مع موافقتها التأويلِ الذي ذكرْنا عن الصحابة والتابعين.

وأما قوله: «عليهم» في هذا الموضع، فإنَّ معناها: فيهم، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾، [البقرة: ١٠٢]، يعني: في ملك سليمان، وكما قال: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]. فـ «في» توضع موضع «على»، و«على» في موضع «في»، كل واحدة منهما تعاقب صاحبتها في الكلام.

وأما قوله: «الأوليان»، فإنَّ معناه عندنا: الأوْلى بالميتِ من المقسمين الأولين فالأولى. وقد يحتمل أن يكون معناه: الأولى باليمين منهما فالأولى ـ ثم حذف «منهما»، والعربُ تفعل ذلك فتقولُ: «فلان أفضل»، وهي تريدُ: «أفضل منك»، وذلك إذا وضع «أفعل» موضع الخبر. وإنْ وقع موقع الاسم و أدخلت فيه «الألف واللام»، فعلوا ذلك أيضاً، إذا كان جواباً لكلام قد مضى، فقالوا: «هذا الأفضل، وهذا الأشرف»، يريدون: هو الأشرفُ منك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ١٠٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فيقسم الآخران اللذان يقومان مقامَ اللذين عثر على أنهما استحقا إثماً بخيانتهما مالَ الميت، الأوْليان باليمين والميِّت من الخائنين: «لشهادتنا أحقُّ من شهادتهما»، يقول: لأَيْمانُنَا أحقُّ من أيمانِ المُقْسِمَين المستحقَّين الإثم، وأيمانِهما الكاذبة ـ في أنَّهما قد خانا في كذا وكذا من مالِ مَيِّتنا، وكذا في أيمانِهما التي حلفا بها. «وما اعتدينا»، يقول: وما تجاوزنا الحقَّ في أيماننا.

«إنا إذا لمن الظالمين» يقول: إنَّا إنْ كُنَّا اعتدينا في أيماننا، فحلفنا مُبْطِلينَ فيها كاذبين، «لَمِنَ الظالمين»، يقول: لَمِنْ عِدَادِ مَنْ يأخذ ما ليسَ له

أخذُه، ويقتطع بأيمانهِ الفاجرةِ أموالَ الناس

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْۗ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «ذلك»، هذا الذي قلتُ لكم في أمر الأوصياء - إذا ارتبتم في أمرهم، واتهمتموهم بخيانةٍ لمالِ مَنْ أوصى إليهم، من حَبْسِهم بعدَ الصلاةِ، واستحلافِكُمْ إيَّاهم على ما ادَّعى قِبَلهم أولياءُ الميت. «أدنى» لهم «أنْ يأتوا بالشهادة على وجهها»، يقول: هذا الفعل، إذا فعلتم بهم، أقربُ لهم أن يَصْدُقُوا في أيمانهم، ولا يكتموا، ويُقِرُّوا بالحق ولا يخونوا. «أو يخافوا أنْ تُرَدَّ أيمانٌ بعد أيمانهم»، يقول: أو يخاف هؤلاء الأوصياءُ إنْ عثر عليهم أنهم استحقُّوا إثماً في أيمانهم بالله، أنْ تُرَدَّ أيمانُهم على أولياءِ الميتِ، بعد أيمانهم التي عُثِر عليها أنها كذبٌ، فيستحقُّوا بها ما ادَّعوا قِبَلهم من حقوقهم، فيصدقوا حينئذٍ في أيمانهم وشهادتهم، مخافةَ الفضيحةِ على أنفسهم، وحذراً أنْ يستحقَّ عليهم ما خانُوا فيه أولياءَ الميِّتِ وورثته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ١٠٨﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: وخَافُوا اللهَ، أيها الناسُ، وراقبوه في أيمانكم أنْ تحلفوا بها كاذبةً، وأن تُذْهبوا بها مالَ مَنْ يَحْرم عليكم ماله، وأن تخونوا من ائْتَمَنَكُم. «واسمعوا»، يقول: اسمعوا ما يُقالُ لكم وما تُوعَظُونَ به، فاعملوا به، وانتهوا إليه. «والله لا يهدي القوم الفاسقين»، يقول: والله لا يوفِّق مَنْ فَسَق عن أمر ربِّه، فخالفه وأطاع الشيطانَ وعصى ربَّه.

ثم اختلف أهلُ العلم في حكم هاتين الآيتين، هل هو منسوخٌ، أو هو مُحْكَمٌ ثابت؟

فقال بعضهم: هو منسوخ.

وقال جماعة: هي محكمةٌ وليست بمنسوخة. وقد ذكرنا قولَ أكثرهم فيما مضى.

والصوابُ من القولِ في ذلك أنَّ حُكْمَ الآية غيرُ منسوخ. وذلك أنَّ من حكمِ الله تعالى ذِكْرُه الذي عليه أهلُ الإسلام، من لدن بعث الله تعالى ذِكْرُه نبيَّه محمداً ﷺ إلى يومنا هذا، أنَّ مَنِ ادُّعي عليه دَعْوى ممَّا يملكه بنو آدم، أنَّ المدَّعَى عليه لا يبرئه مما ادُّعي عليه إلا اليمينُ، إذا لم يكن للمدَّعِي بيّنةٌ تصححُ دَعواه - وأنه إن اعترف في يَدِ المدَّعى عليه سلعةً له، فادَّعَى أنها له دونَ الذي في يده، فقال الذي هيَ في يدِهِ: «بل هي لي، اشتريتها من هذا المدَّعي»، أنَّ القولَ قول مَنْ زَعَم الذي هي في يده أنه اشتراها منه، دونَ مَنْ هي في يده مع يمينه، إذا لم يكن للذي هي في يده بَيِّنَةٌ تحققُ به دعواه الشراءَ منه.

فإذا كان ذلـك حكم الله الذي لا خِلافَ فيه بين أهل العلم، وكانت الآيتـان اللتان ذكر الله تعالى ذِكْرُه فيهما أمرَ وصية الموصِي إلى عَدْلين من المسلمين، أو إلى آخرين من غيرهم، إنما ألزَم النبي ﷺ، فيما ذكر عنه، الوصيَّين اليمينَ حين ادَّعَى عليهما الورثةُ ما ادَّعوا، ثم لم يلزم المدَّعَى عليهما شيئاً إذ حلفا، حتى اعترفتِ الورثةُ في أيديهما ما اعترفُوا من الجامِ أو الإبريقِ أو غيرِ ذلك من أموالهم؛ فزعما أنهما اشترياه من ميتهم، فحينئذٍ ألزم النبيُّ ﷺ ورثَةَ الميِّتِ اليمينَ، لأنَّ الوصيين تحوَّلاَ مُدَّعِيين بدعواهما ما وَجَدا في أيديهمـا من مالِ الميِّت أنـه لهمـا، اشتريَا ذلك منه، فصارَا مُقِرَّيْنِ بالمال

للميِّت، مدَّعيين منه الشراءَ، فاحتاجا حينئذٍ إلى بيِّنةٍ تصحِّحُ دعواهما، وصارتْ ورثة الميتِ ربَّ السلعة، أوْلى باليمين منهما. فذلك قوله تعالى ذِكْرُه: «فإن عُثِرَ على أنهما استحقا إثماً فآخران يقومانِ مقامهما من الذين استحق عليهم الأوْليانِ فيقسمان بالله لَشهادَتُنا أحَقُّ من شهادتهما»، الآية.

فإذْ كان تأويل ذلك كذلك، فلا وجه لدعوَى مُدَّعٍ أنَّ هذه الآية منسوخةٌ، لأنه غير جائز أن يُقْضَى على حُكمٍ من أحكامِ الله تعالى ذِكْرُه أنه منسوخ، إلا بخبَرٍ يقطعُ العذرَ: إمَّا من عند الله، أو من عندِ رسولِهِ ﷺ، أو بورودِ النَّقل المستفيض بذلك، فأمَّا ولا خبرَ بذلك، ولا يدفع صحته عقل، فغير جائز أنْ يُقْضَى عليه بأنه منسوخ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ١٠٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: واتقوا الله، أيها الناسُ. واسمعوا وَعْظه إياكم وتذكيرَه لكم، واحذروا يَوْم يَجْمع الله الرسل ـ ثم حذف «واحذروا»، واكتفى بقوله: «واتقوا الله واسمعوا»، عن إظهاره.

وأما قوله: «ماذا أُجبتم»، فإنه يعني به: ما الذي أجابتكم به أممكم، حين دعـوتموهم إلى توحيدي، والإقرار بي، والعمل بطاعتي، والانتهاء عن معصيتي؟ «قالوا لا عِلْمَ لنا».

ومعناه: لا عِلْمَ لنا، إلاّ علم أنت أعلم به مِنَّا»، لأنه تعالى ذِكْرُه أخبر عنهم أنهم قالوا: «لا علم لنا إنَّك أنتَ علامُ الغيوب: أي: إنك لايَخْفَى عليكَ ما عندنا من علمٍ ذلك ولا غيره من خفيِّ العلومِ وجَلِيِّها. فإنما نَفى القومُ أنْ

يكون لهم بما سُئِلُوا عنه من ذلك علم لا يعلمه هو تعالى ذِكْرُه ـ لا أنَّهم نَفَوا أن يكونوا عَلِمُوا ماشاهدُوا. وكيف يجوز أن يكون ذلك كذلك، وهو تعالى ذِكْرُه يخبر عنهم أنَّهم يُخْبرون بما أجابتهم به الأمم، وأنهم يسْتشهدون على تبليغهم الرسالةَ شهداء، فقال تعالى ذِكْرُه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ [البقرة: ١٤٣].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾

معنى الكلام: «إذْ قال الله»، حين قال. «ياعيسى بن مريم اذكر نعمتي عليكَ وعلى والـدتكَ إذْ أيدتك بروحِ القدس»، يقول: ياعيسى اذكر أياديَّ عندك وعند والدتك، إذ قوَّيتُكَ برُوح القُدس وأَعَنْتُكَ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه، مخبراً عن قيله، لعيسى: «اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتُك بروح القدس»، في حالِ تكليمكَ الناسَ في المهدِ وكهلاً.

وإنما هذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه: أنه أيده بروحِ القدس صغيراً في المهد، وكهلاً كبيراً ـ فردّ «الكهل» على قوله: «في المهد»، لأنَّ معنى ذلك: صغيراً، كما قال تعالى ذكره: ﴿دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً﴾، [يونس: ١٢].

وقوله: «وإذْ علمتكَ الكتابَ والحكمةَ والتوراةَ والإنجيلَ»، يقول: واذكر أيضاً نعمتي عليك «إذ علمتك الكتاب»، وهو الخطّ. «والحكمة»، وهي الفهم بمعاني الكتاب الذي أنزلتُه إليكَ، وهو الإنجيلُ. «وإذْ تَخْلُقُ من الطينِ كهيئه الطير»، يقول: كصورةِ الطير. «بإذني». يعني بقوله: «تخلق» تعملُ وتصلح - «من الطين كهيئة الطير بإذني»، يقول: بعوني على ذلك، وعلمٍ منّي به. «فتنفخُ فيها»، يقول: فتنفخُ في الهيئة، فتكون الهيئةُ والصورةُ طيراً بإذني. «وتبرىءُ الأكمه»، يقول: وتشفي «الأكمهَ»، وهو الأعمى الذي لا يبصرُ شيئاً، المطموس البصر. «والأبرص بإذني».

وقوله: «وإذ كففتُ بني إسرائيلَ عنكَ إذْ جئتهم بالبينات»، يقول: واذكر أيضاً نعمتي عليك بكفِّي عنكَ بني إسرائيل إذْ كففتهم عنك، وقد هموا بقتلك. «إذ جئتهم بالبينات»، يقول: إذ جئتهم بالأدِلة والأعلامِ المعجزة على نبوّتك، وحقيقة ما أرسلتكَ به إليهم. «فقال الذين كفروا منهم»، يقولُ تعالى ذِكْرُه: فقال الذين جَحَدُوا نبوَّتكَ وكَذَّبوكَ من بني إسرائيل. «إنْ هذا إلا سحر مبين».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾

(يعني): وإذْ ألقيتُ إلى الحواريين أنْ صَدِّقُوا بي وبرسولي عيسى، فقالوا: «آمنا»، أي: صدقنا بما أمرتنا أن نؤمنَ ياربنا. «واشهدْ» علينا «بأننا

مسلمون»، يقول: واشهدْ علينا بأننا خاضِعُونَ لكَ بالذّلةِ، سامعونَ مطيعُون لأمرك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: واذكر، ياعيسى، أيضاً نعمتي عليك، إذ أوحيتُ إلى الحواريين أنْ آمنوا بي وبرسولي، إذْ قالوا لعيسى بن مريم هل يستطيعُ رَبُّكَ أنْ يُنزِّلَ علينا مائدة من السماء - فـ «إذ»، الثانية من صلة «أوحيتُ».

وأما قوله: «قال اتقوا الله إنْ كنتم مؤمنين»، فإنه يعني: قال عيسى للحواريِّين القائلين له: «هل يستطيع رَبُّكَ أن ينزِّل علينا مائدةً من السماء» - راقبوا الله، أيها القومُ، وخافوه، أن يَنْزل بكم من الله عقوبة على قولكم هذا، فإنَّ الله لا يعجزه شيءٌ أراده. وفي شَكِّكم في قدرةِ الله على إنزالِ مائدةٍ من السماء، كفرٌ به، فاتقوا الله أن يُنْزِلَ بكم نِقْمَتَهُ. «إنْ كنتم مؤمنين»، يقول: إن كنتم مصدقي على ما أَتوعَّدُكُمْ به من عقوبةِ الله إياكم على قولكم: «هل يستطيعُ ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء»؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝١١٣﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: قال الحواريونُ مُجيبي عيسى على قولِهِ لهم: «اتقوا الله إنْ كنتم مؤمنين»، في قولكم لي: «هل يستطيعُ ربك أن ينزل علينا

مائدةً من السماء» -: إنا إنما قلنا ذلك، وسألناك أن تسألَ لنا رَبَّكَ لنأكلَ من المائدة، فنعلم يقيناً قدرته على كل شيء. «وتطمئن قلوبنا»، يقول: وتسكن قلوبنـا، وتستقـرّ على وحدانيته وقدرته على كل ماشاء وأراد. «ونعلم أنْ قد صدقتنا»، ونعلم أنك لم تَكْذِبْنَا في خبركَ أنكَ للهِ رسولٌ مُرْسَلٌ ونبيٌّ مبعوثٌ. «ونكون عليها»، يقول: ونكون على المائدةِ. «من الشاهدين»، يقول: ممن يشهد أنَّ الله أنزلها حجةً لنفسهِ علينا في توحيده وقدرته على ماشاء، ولك على صدقكَ في نبوّتك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن نبيه عيسى ﷺ، أنه أجابَ القومَ إلى ماسألوه من مسألةِ ربه مائدةً تنزلُ عليهم من السماء.

وقوله: «تكونُ لنا عيداً» معناه: تكون لنا عيداً، نعبدُ رَبَّنا في اليوم الذي تنزلُ فيه، ونصلي له فيه، كما يعبد الناس في أعيادهم»، لأنَّ المعروفَ من كلام الناس المستعمل بينهم في «العيد»، ماذكرنا.

وأمـا قوله: «لأوَّلِنا وآخِرنا»، فإنَّ الأولى من تأويله بالصواب، قولُ مَنْ قال: «تأويله: للأحياءِ منا اليومَ، ومَنْ يجيءُ بعدنا منا».

وأمـا قوله: «وآيةً منك»، فإنَّ معناه: وعلامةً وحجةً منك يارب، على عبـادكَ في وحدانيتك، وفي صدقي على، أنّي رسولٌ إليهم بما أرسلتني به. «وارزقنا وأنت خير الرازقين»، وأعطنا من عَطائِكَ، فإنك يارب خيرُ مَنْ يُعطي، وأجودُ من تفضَّل، لأنه لا يدخلُ عطاءه مَنٌّ ولا نكَد.

القَوْلُ فِي تأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾

وهـذا جوابٌ من الله تعـالى ذِكْرُه القومَ فيما سألوا نبيَّهم عيسى مسألةَ ربهم، من إنـزالِه مائدةً عليهم. فقال تعالى ذِكْرُه: إني مُنَزِّلُها عليكم، أيها الحواريونَ، فَمُطْعِمُكُمُوهَا. «فمن يكفرْ بَعْدُ منكم»، يقول: فمن يجحد بعدَ إنزالها عليكم، وإطعامِيكُمُوها ـ منكم رسالتي إليه، وينكر نبوة نبيِّي عيسى ﷺ، ويخـالفْ طاعتي فيمـا أمـرتُه ونهيته. «فإني أُعذِّبُهُ عذاباً لا أعذبه أحداً من العـالمين»، من عالمي زمـانـه. ففعل القوم، فجحدوا وكفروا بعد ما أُنزلتْ عليهم، فيما ذُكِرَ لنا، فعُذِّبوا، فيما بَلَغنا، بأنْ مُسِخُوا قِردةً وخنازير.

القَوْلُ فِي تأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾

تأويل الكلام: «أأنْتَ قلتَ للناس اتخذوني وأمي إلهين»، أي: معبودين تعبدونهما من دون الله. قال عيسى: تنزيهاً لك يارب وتعظيماً أنْ أفعلَ ذلك أو أتكلم به. «ما يكونُ لي أن أقولَ ما ليسَ لي بحق»، يقول: ليس لي أن أقولَ ذلك، لأني عبدٌ مخلوق، وأمي أَمَةٌ لكَ، وكيف يكونُ للعبدِ والأَمةِ ادِّعاء ربوبية؟. «إنْ كنتُ قلته فقد عَلِمْتَهُ»، يقول: إنك لا يَخْفَى عليك شيءُ، وأنتَ عالم أني لم أَقُلْ ذلكَ ولم آمرهُم به.

القَوْلُ فِي تأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾

﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ١١٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه، مُخْبِراً عن نبيه عيسى ﷺ: أنه يبرأُ إليه مما قالتْ فيه وفي أمه الكَفَـرَةُ من النصـارى، أنْ يكونَ دعاهم إليه أو أمرهم به، فقال: «سبحانكَ مايكونُ لي أنْ أقولَ ما ليس لي بحق إنْ كنتُ قلته فقد علمته». ثم قال: «تعلمُ مافي نفسي»، يقول: إنك يارب، لا يَخْفَى عليكَ ما أضمرتْهُ نفسي مما لم أنطقْ به ولم أظهره بجوارحي، فكيف بما قد نطقتُ به وأظهرته بجوارحي؟ يقول: لو كنتُ قد قلتُ للناس: «اتخذوني وأميَ إلهين من دون الله»، كنت قد علمته، لأنكَ تعلمُ ضمائرَ النفوسِ مما لم تنطقْ به، فكيف بما قد نطقتْ به؟ «ولا أعلم ما في نفسك»، يقول: ولا أعلم أنا ما أخفيته عني فلم تُطْلِعني عليه، لأني إنما أعلمُ من الأشياء ما أَعْلَمْتَنِيه. «إنكَ أنتَ عَلَّامُ الغيوب»، يقول: إنك أنت العالم بخفيَّاتِ الأمورِ التي لا يطلعُ عليها سِواكَ، ولا يعلمها غيرك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ١١٧﴾

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن قول عيسى، يقول: ماقلتُ لهم إلا الذي أمرتني به من القولِ أنْ أقوله لهم، وهو أن قلت لهم: «اعبدوا الله ربي وربكم». «وكنتُ عليهم شهيداً مادمتُ فيهم»، يقول: وكنتُ على ما يفعلونه وأنا بين أظهرهم شاهداً عليهم وعلى أفعالهم وأقوالهم. «فلما توَفَّيتني»، يقول: فلمـا قَبَضْتَنِي إليكَ. «كنتَ أنتَ الرقيبَ عليهم»، يقول: كنت أنت الحفيظَ عليهم دوني، لأني إنما شهدتُ من أعمالهم ماعملوه وأنا بين أظهرهم.

وفي هذا تبيانُ أنَّ الله تعالى ذِكْرُه إنما عَرَّفَهُ أفعالَ القومِ ومقالتهم بعد ماقَبَضَهُ إليه وتوفاه بقوله: «أأنتَ قلتَ للناس اتخذوني وأُمِّيَ إلهينِ من دون الله».

«وأنتَ على كُلِّ شيءٍ شهيد» يقول: وأنتَ تشهدُ على كل شيءٍ، لأنه لا يَخْفَى عليك شيءٌ. وأما أنا، فإنما شهدتُ بعضَ الأشياءَ، وذلك ما عاينتُ وأنا مقيمٌ بين أظهرِ القومِ، فإنما أنا أشهدُ على ذلك الذي عاينتُ ورأيتُ وشهدت.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾

يقول تعالى ذكره: إنْ تُعَذِّبْ هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة، بإماتتك إياهم عليها. «فإنهم عبادُكَ»، مُستسلمونَ لك، لا يمتنعونَ مما أردتَ بهم، ولا يدفعون عن أنفسهم ضرًّا ولا أمراً تنالهم به. «وإنْ تغفرْ لهم»، بهدايتك إياهم إلى التوبة منها، فتستر عليهم. «فإنك أنتَ العزيز»، في انتقامه ممن أرادَ الانتقامَ منه، لا يقدرُ أحدٌ يدفعه عنه. «الحكيم»، في هدايته مَنْ هَدَى من خَلْقِه إلى التوبة، وتوفيقه مَنْ وفَّق منهم لسبيلِ النجاة من العقاب.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾

اختلفت القَـرَأَةُ في قراءة قوله: «هذا يومُ ينفع الصادقين». فقرأ ذلك بعض أهل الحجاز والمدينة: ﴿هٰذَا يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ﴾، بنصب «يوم».

وقرأه بعضُ أهلِ الحجازِ وبعضُ أهل المدينة، وعامة قَرأَةِ أهلِ العراق: ﴿هٰـذَا يَوْم يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ﴾، برفع «يوم». فمن رفعه رفعه بـ«هذا»، وجعل «يوم» اسماً، وإن كانت إضافته غير محضة، لأنه قد صار كالمنعوت.

وكأن من قرأ هذا هكذا رفعاً، وجَّه الكلامَ إلى أنه من قِيلِ اللهِ يومَ القيامة.

وأما النصب في ذلك، فإنه يتوجه من وجهين:

أحدهما: أن إضافة «يوم» ما لم تكن إلى اسم، تجعله نصباً، لأن الإضافة غير محضة. وإنما تكون الإضافة محضة، إذا أضيف إلى اسم صحيح ونظير «اليوم» في ذلك: «الحِين» و«الزمان»، وما أشبههما من الأزمنة.

والوجه الآخر: أن يكون مراداً بالكلام: هذا الأمر وهذا الشأن، يومَ ينفع الصادقين ـ فيكون «اليوم» حينئذٍ منصوباً على الوقتِ والصفة، بمعنى: هذا الأمر في يوم ينفع الصادقينْ صدقهم.

وأوْلى القراءتين في ذلك عندي بالصواب: ﴿هٰذَا يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ﴾، بنصب «اليوم»، على أنه منصوب على الوقت والصفة. لأنَّ معنى الكلام: إنّ الله جَلَّ وتعالى ذِكْرُه، أجاب عيسى حين قال: «سبحانكَ مايكونُ لي أنْ أقولَ ما ليسَ لي بحقٍّ إنْ كنتُ قلتـهُ فقد عَلِمْتَه»، إلى قوله· «فإنكَ أنتَ العزيز الحكيم»، فقال له عز وجل: هذا القولُ النافعُ ـ أو هذا الصدق النافع ـ يوم ينفعُ الصادقينَ صِدْقُهم. فـ«اليوم» وقت القول والصدق النافع.

فإن قال قائل: فما موضع «هذا»؟

قيل: رفع.

فإن قال: فأين رَافعه؟

قيل: مضمر. وكأنه قال: قال الله عز وجل: هذا، هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم.

فتأويلُ الكلامِ، إذْ كان الأمر على ماوصفنا لما بينا: قال الله لعيسى: هذا القولُ النافعُ في يوم ينفع الصادقينَ في الدنيا صِدْقُهم ذلك، في الآخرة عند الله. «لهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهار»، يقول: للصادقين في الدنيا، جنات تجري من تحتها الأنهارُ في الآخرة، ثواباً لهم من الله عز وجل على ما كان من صِدْقِهم الذي صدقوا الله فيما وعدوه، فوفوا به لله، فوفى الله عَزَّ وجل لهم ما وَعَدَهُم من ثوابه. «خالدين فيها أبداً»، يقول: باقين في الجنات التي أعطاهُمُوها. «أبداً»، دائماً، لهم فيها نعيمٌ لا ينتقل عنهم ولا يزول.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ١١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: رَضيَ اللهُ عن هؤلاء الصادقين الذين صدقوا في الوفاء له بما وعدوه، من العملِ بطاعتِهِ واجتنابِ معاصيه. «ورضوا عنه»، يقول: ورَضُوا هم عن الله تعالى ذِكْرُه في وفائه لهم بما وَعَدَهم على طاعتِهم إياه فيما أمَرهُم ونَهاهم، من جزيلِ ثوابهِ. «ذلك الفوز العظيم»، يقول: هذا الذي أعطاهم اللهُ من الجناتِ التي تجري من تحتها الأنهارُ، خالدينَ فيها مرضيًّا عنهم وراضينَ عن رَبِّهم، هو الظفرُ العظيمُ بالطَّلبة، وإدراكُ الحاجةِ التي كانوا يطلبونها في الدنيا، ولها كانوا يعملونَ فيها، فنالُوا ماطَلَبُوا، وأدركوا ما أمَّلُوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ١٢٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أيها النصارى، «لله ملكُ السمواتِ والأرض»، يقول: له سلطانُ السمـوات والأرض. «ومـا فيهن»، دون عيسى الـذي تزعمون أنه إلهكم، ودونَ أمـهِ، ودونَ جميعِ مَنْ في السمـوات ومَنْ في الأرض، فإنَّ السمـواتِ والأرض خَلْقٌ من خَلْقِـه ومـا فيهن، وعيسى وأمُّه من بعض ذلك بالحلول والانتقـال، يدلَّان بكـونهمـا في المكان الذي هما فيه بالحلول فيه والانتقـال، أنهما عبدان مملوكان لِمَنْ له ملكُ السموات والأرض وما فيهن. ينبِّههم وجميعَ خَلْقِه على موضعِ حُجَّتِه عليهم، ليدَّبروه ويعتبروه فيعقلوا عنه.

«وهو على كل شيءٍ قدير»، يقول تعالى ذِكْرُه: والله الذي له ملكُ السموات والأرض وما فيهن، قادرٌ على إفنائهن وعلى إهلاكهن، وإهلاكِ عيسى وأمهِ ومَنْ في الأرض جميعاً كما ابتدأ خَلْقَهُم، لا يعجزه ذلك ولا شيء أراده، لأنَّ قُدْرته القدرةُ التي لا تشبهها قدرة، وسلطانه السلطان الذي لا يشبهه سلطان ولا مملكة.

تفسير سورة الأنعام

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (١)

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «الحمدُ لله»، الحمدُ الكاملُ للهِ وحده لا شريكَ له دونَ جميعِ الأندادِ والآلهةِ، ودونَ ماسواهُ مما تعبدهُ كَفَرةُ خَلْقِه من الأوثانِ والأصنام.

وهذا كلامٌ مخرجه مَخرجُ الخبرِ، يُنْحَى به نحو الأمر. يقول: أَخْلِصُوا الحمدَ والشكرَ لِلَّذي خَلَقَكم، أيها الناسُ، وخلقَ السمواتِ والأرضَ، ولا تشركوا معه في ذلك أحداً أو شيئاً، فإنه المستوجبُ عليكم الحمدَ بأياديهِ عندكم ونعمه عليكم، لا مَنْ تعبدونه من دونِه، وتجعلونه له شريكاً من خَلْقِه.

---

(١) ذكر الزجاج أن أكثر سورة الأنعام احتجاج على مشركي العرب، على مَنْ كَذَّبَ بالبعث والنشور (معاني القرآن: ٢/٢٢٧).

وذكر صاحب «الظلال» أن موضوعها الذي تعالجه من مبدئها إلى منتهاها هو موضوع العقيدة بكل مقوماتها وبكل مكوناتها... إنها تطوف بالنفس البشرية في ملكوت السموات والأرض تلحظ فيها الظلمات والنور وترقب الشمس والقمر والنجوم، وتسرح في الجنات المعروشات وغير المعروشات، والمياه الهاطلة عليها والجارية فيها. وتقف على مصارع الأمم الخالية، وآثارها البائدة والباقية. ثم تسبح بها في ظلمات البر والبحر، وأسرار الغيب والنفس، والحي يخرج من الميت، والميت يخرج من الحي، والحبة المستكنَّة في ظلمات الأرض، والنطفة المستكنة في ظلمات الرحم. ثم تموجُ بالجن والإنس، والطير والوحش، والأولين والآخرين، والموتى والأحياء... إنه الحشدُ الكوني الذي يزحم أقطار النفس.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الحمد لله الذي خلق السموات والأرض، وأظلم الليلَ، وأنارَ النَّهار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه، مُعَجِّباً خَلْقه المؤمنينَ من كفَرَةِ عبادِهِ، ومحتجًّا على الكافرين: إنَّ الإله الذي يجبُ عليكم، أيها الناسُ، حَمْدُه، هو الذي خلَقَ السموات والأرض، الذي جعل منهما معايشَكم وأقواتكم، وأقواتَ أنعامكِم التي بها حياتكُم. فمن السمواتِ ينزلُ عليكمُ الغيثُ، وفيها تجري الشمسُ والقمرُ باعتِقابٍ واختلافٍ لمصالحكم. ومن الأرضِ ينبُتُ الحَبُّ الذي به غذاؤكم، والثمارُ التي فيها ملاذُّكم، مع غير ذلك من الأمور التي فيها مصالحكم ومنافعكم بها ـ والذينَ يَجْحَدُونَ نعمةَ الله عليهم بما أنعمَ به عليهم مِنْ خَلْقِ ذلكَ لهم ولكم، أيها الناسُ. «بربهم»، الذي فعلَ ذلك وأحدثه. «يعدلون»، يجعلونَ له شَريكاً في عبادَتِهم إياهُ، فيعبدونَ معه الآلهةَ والأندادَ والأصنامَ والأوثانَ، وليس منها شيءٌ شَرِكَهُ في خَلْقِ شيءٍ من ذلك، ولا في إنعامه عليهم بما أنعمَ به عليهم، بَلْ هو المنفردُ بذلك كله، وهم يشركون في عبادتهم إيَّاهُ غيرَهُ. فسبحانَ الله ما أبلغها من حُجَّةٍ، وأوجزها من عِظَةٍ، لمن فَكَّرَ فيها بعقلٍ، وتَدَبَّرها بفهم!

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «هو الذي خلقكم من طين»، أنَّ الله الذي خلق السمواتِ والأرضَ، وأظلَمَ ليلهما وأنَارَ نهارهما، ثم كَفَرَ به مع إنعامه عليهم الكـافـرونَ، وعَـدَلُوا به مَنْ لا ينفعهم ولا يضرُّهم، هو الذي خلقكم، أيها الناس، من طين. وإنما يعني بذلك تعالى ذِكْرُه: أنَّ الناس ولَدُ مَنْ خَلَقَهُ من طينٍ، فأخرج ذلك مخرجَ الخطابِ لهم، إذ كانوا وَلَده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ﴾

معناه: ثم قضى أجلَ الحياةِ الدنيا. «وأجلٌ مسمى عنده»، وهو أجل البَعْث عنده لأنه تعالى ذِكْرُه نبَّه خلقَه على موضع حُجَّته عليهم من أنفسهم فقال لهم: أيها الناسُ، إنَّ الذي يعدِلُ به كفارُكم الآلهةَ والأندادَ، هو الذي خلقكم فابتدَأَكُم وأنشأكم من طينٍ، فجعلكم صُوراً أجساماً أحياءً، بعد إذْ كنتم طِيناً جماداً، ثم قضى آجالَ حياتِكم لفنائِكم ومماتِكم، ليعيدكم تراباً وطيناً كالذي كنتم قبل أنْ ينشئكم ويخلقكم ـ وأجل مسمىً عندَهُ لإعادتِكُمْ أحياءً وأجساماً كالذي كُنْتُمْ قَبْلَ مماتِكم. وذلك نظير قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، [البقرة: ٢٨].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ثم أنتم تَشكُّون في قُدْرَةِ مَنْ قَدَر على خَلْقِ السمواتِ والأرض، وإظلامِ الليل وإنارةِ النهار، وخَلَقَكُمْ من طينٍ حتى صَيَّركم بالهيئةِ التي أنتم بها ـ على إنشائهِ إياكم من بعد مماتكم وفنائكم، وإيجاده إيَّاكم بعد عدمكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣﴾

يقول تعالى ذكره: إنَّ الذي له الألوهةُ التي لا تنبغي لغيره، المستحقَّ عليكم إخلاصَ الحمد له بآلائه عندكم، أيها الناسُ، الذي يعدِل به كُفَّارُكم مَن سواه، هو الله الذي هو في السموات وفي الأرض يعلم سِرَّكم وجَهْرَكم، فلا يخفى عليه شيء. يقول: فربكم الذي يستحقُّ عليكم الحمدَ، ويجبُ عليكم إخلاصُ العبادةِ له، هُوَ هذا الذي صِفَتُه ـ لا مَنْ لا يقدرُ لكم على ضُرٍّ ولا نفعٍ، ولا يعملُ شيئاً، ولا يدفعُ عن نفسه سُوءًا أُريدَ بها.

وأما قوله: «ويعلم ماتكسبون»، يقول: ويعلمُ ما تَعمَلُونَ وتَجْرَحُونَ، فَيُحْصِي ذلك عليكم ليجازيكم به عندَ معادِكم إليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وما تأتي هؤلاء الكفار الذين بربهم يعدِلون أوثانهم وآلهتهم. «آية من آيات ربهم»، يقول: حجّةٌ وعلامةٌ ودلالة من حُجج رَبِّهم ودلالاتِه وأعلامِه على وحدانيته، وحقيقةِ نبوتكَ، يامحمدُ، وصِدْق ما أَتيتَهُمْ به من عندي. «إلا كانُوا عنها مُعرضينَ»، يقول: إلا أعرضوا عنها، يعني عن الآية، فَصَدُّوا عن قَبُولها، والإقرار بما شهدتْ على حقيقتهِ ودلَّتْ على صحتهِ، جهلاً منهم بالله، واغتراراً بحلمِهِ عنهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فقد كَذَّبَ هؤلاء العادلونَ بالله، الحقَّ لما جاءهم، وذلك «الحق»، هو محمدٌ ﷺ: كَذَّبُوا به، وجحدوا نُبُوَّتَهُ لما جاءهم. قالَ الله لهم مُتَوَعِّداً على تكذيبهم إياهُ وجُحُودِهم نبوَّتَهُ: سوف يأتي المكذِّبينَ بك، يامحمدُ، من قومِكَ وغيرهم. «أنْباءُ ما كانوا به يستهزئون»، يقول: سوف يأتيهم أخبارُ استهزائِهم بما كانوا به يستهزئون من آياتي وأدلَّتي التي آتيتهم. ثم وفى لهم بوعيده لمّا تمادَوا في غيِّهم، وعتَوْا على رَبِّهم، فقتلتهم يوم بدرٍ بالسَّيف.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ألم يرَ هؤلاء المُكَذِّبُونَ بآياتي، الجاحدونَ نبوّتَكَ، كثرةَ مَنْ أهلكتُ من قَبْلِهم من القُرون ـ وهم الأمم ـ الذين وطَّأتُ لهم البلادَ والأرضَ توطئةً لم أوطِّئْهَا لهم، وأعطيتهم فيها ما لم أُعْطِهِم؟ أمطرتْ فأخرجتْ لهم الأشجارُ ثمارَهَا، وأعطتهم الأرضُ رَيْعَ نَباتها، وجابوا صخورَ جبالها، ودَرَّتْ عليهم السماءُ بأمطارها، وتفجرت من تحتهم عيونُ المياه بينابيعها بإذني، فغمَطُوا نعمةَ ربهم، وعصوا رسولَ خالِقهم، وخالفوا أمرَ بارئهم، وبغَوْا حتى حَقَّ عليهم قَوْلي، فأخذتُهم بما اجترحوا من ذُنوبِهم،

وعاقبتهم بما اكتسبتْ أيديهم، وأهلكتُ بعضَهم بالرَّجفةِ، وبعضهم بالصَّيْحَةِ، وغير ذلك من أنواعِ العذاب.

ومعنى قولـه: «وأرسلنـا السماء عليهم مدراراً»، المطرَ. ويعني بقوله: «مدراراً»، غزيرة دائمةً. «وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين»، يقول: وأحْدَثْنا من بعد الذين أهلكناهم قرناً آخرينَ، فابتدأنَا سِواهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾

وهذا إخبارٌ من الله تعالى ذِكْرُه نبيَّه محمداً ﷺ، عن هؤلاء القوم الذين يعـدلـون بربِّهم الأوثانَ والآلهةَ والأصنامَ. يقول تعالى ذِكْرُه: وكيف يتفقهونَ الآياتِ، أم كيف يستدلُّون على بُطْلان ماهُمْ عليه مُقيمونَ من الكفرِ بالله وجحودِ نبوتكَ، بحججِ اللهِ وآياتهِ وأدلته، وهم لعنادهم الحقَّ وبعدِهم من الرشد، لو أنزلتُ عليكَ، يامحمدُ، الوحيَ الذي أنزلته عليك مع رسولي، في قِرْطاسٍ يُعَـاينـونَـهُ ويمسُّـونـه بأيديهم، وينظرون إليه ويقرأونه منه، مُعَلَّقاً بين السماءِ والأرضِ، بحقيقةِ ما تَدْعُوهم إليه، وصحَّةِ ما تأتيهم به من توحيدِي وتنزيلي، لقال الذين يَعْدِلُون بي غيري فيشركون في توحيدي سواي: «إنْ هذا إلا سحرٌ مبينٌ»، أي: ماهذا الذي جِئْتَنَا به إلا سِحْرٌ سحرتَ به أعيننا، ليست له حقيقةٌ ولا صحة. «مبين»، يقول: مبين لمن تَدَبَّرَهُ وتأمَّله أنه سحرٌ لا حقيقةَ له.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال هؤلاء المُكَذِّبُونَ بآياتي، العادلونَ بي الأندادَ والآلهةَ، يامحمدُ، لك، لو دعوتهم إلى توحيدي والإقرار بربوبيتي، وإذا أتيتهم من الآياتِ والعبر بما أتيتَهُمْ به، واحتججتَ عليهم بما احتججت عليهم مما قطعتَ به عُذْرَهم: هَلاَّ نُزِّلَ عليكَ ملكٌ من السماء في صورته، يُصَدِّقُكَ على ماجِئْتَنَا به، ويشهد لك بحقيقة ماتدَّعي من أنَّ الله أرسلكَ إلينا! كما قال تعالى ذِكْرُه مخبراً عن المشركين في قِيلهم لنبيِّ الله ﷺ: ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً﴾ [الفرقان: ٧]، «ولو أنزلنا مَلَكاً لَقُضِيَ الأمرُ ثم لا يُنْظَرُون»، يقول: ولو أنزلنا مَلَكاً على مَا سَأَلُوا، ثم كفروا ولم يؤمنوا بي وبرسولي، لجاءهم العذابُ عاجلاً غيرَ آجل، ولم يُنْظروا فيؤَخَّروا بالعقوبةِ مراجعةَ التوبةِ، كما فعلت بمن قبلهم من الأمم التي سألت الآيات، ثم كفرت بعد مجيئها، مِنْ تعجيلِ النقمة، وترك الإنظار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولو جعلنا رسولَنا إلى هؤلاء العادلينَ بي، القائلين: لولا أنزل على محمّدٍ ﷺ مَلَكٌ بتصديقه ـ ملكاً ينزلُ عليهم من السماء، يشهدُ بتصديقِ محمدٍ ﷺ، ويأمرهم باتباعه. «لجعلناه رجلاً»، يقول: لجعلناهُ في صورةِ رجلٍ من البشر، لأنهم لا يقدرون أنْ يروا المَلَك في صورته. يقول: وإذْ كان ذلك كذلك، فسواء أنزلت عليهم بذلك ملكاً أو بشراً، إذْ كنتُ إذا أنزلتُ عليهم مَلَكاً إنما أُنْزِلُهُ بصورةِ إنسيٍّ، وحججي في كِلْتَا الحالتين عليهم ثابتةٌ: بأنكَ صادقٌ، وأنَّ ما جِئْتَهم به حَقٌّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وللبسنا عليهم»: ولو أنزلنا مَلَكاً من السماء مُصَدِّقاً لك، يامحمدُ، شاهداً لك عند هؤلاء العادلينَ بي، الجاحدينَ آياتِك على حقيقةِ نبوّتك، فجعلناه في صورةِ رجلٍ من بني آدم، إذ كانوا لا يُطيقون رؤيةَ الملك بصورتِه التي خلقتُه بها ـ التبس عليهم أمرهُ، فلم يَدْرُوا أَمَلَكٌ هو أمْ إنسيٌّ! فلم يُوقِنُوا به أنَّه ملك، ولم يُصَدِّقُوا به، وقالوا: «ليس هذا ملكاً»! وللبسنا عليهم ما يلبسونه على أنفسهم من حقيقةِ أمرك، وصحة برهانك وشاهدك على نبوّتك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيِّه محمدٍ ﷺ، مسلياً عنه بوعيده المستهزئينَ به عقوبةَ ما يَلْقَى منهم من أذى الاستهزاءِ به، والاستخفاف في ذاتِ الله: هَوِّنْ عليكَ، يامحمدُ، ما أنتَ لاقٍ من هؤلاء المستهزئينَ بك، المستخفِّينَ بحقكَ فيَّ وفي طاعتي، وامضِ لما أمرتُكَ به من الدُّعاء إلى توحيدي والإقرارِ بي والإذعانِ لطاعتي، فإنهم إنْ تمادوا في غيِّهم، وأصَرُّوا على المقامِ على كُفْرِهم، نَسْلُكْ بهم سبيلَ أسلافِهم من سائر الأمم من غيرهم، من تعجيلِ النقمةِ لهم، وحلول المَثُلاتِ بهم. فقد استهزأتْ أُمَمٌ من قبلك برُسُلٍ أرسلتهم إليهم بمثلِ الذي أرسلتكَ به إلى قومكَ، وفعلوا مِثْلَ ما فعلَ قومُكَ بك. «فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون»، يعني بقوله: «فحاق»، فنزلَ وأحاطَ بالذين هَزِئُوا من رُسُلِهم. «ما كانوا به يستهزئون»، يقول: العذابُ الذي كانوا يهزأون به، وينكرون أنْ يكونَ واقعاً بهم على ما أنْذَرَتْهُمْ رُسُلهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «قل»، يامحمدُ، لهؤلاء العادلين بيَ الأوثانَ والأندادَ، المكذِّبينَ بكَ، الجاحدينَ حقيقةَ ما جِئْتَهُمْ به من عندي «سيروا في الأرض»، يقول: جُولُوا في بلاد المكذِّبين رُسُلَهم، الجاحدينَ آياتي مِنْ قبلهم من ضُرَبائهم وأشكالِهم من الناسِ. «ثم انظروا كيف كان عاقبةُ المكذبين»، يقول: ثم انظروا كيف أعقَبَهُمْ تكذيبُهم ذلك، الهلاكَ والعطبَ وخزيَ الدنيا وعارَها، وما حَلَّ بهم من سَخَطِ اللهِ عليهم، من البوارِ وخَرابِ الديار وعُفُوِّ الآثار. فاعتبروا به، إنْ لم تَنْهَكُمْ حُلُومكم، ولم تزجركم حُججُ الله عليكم، عمَّا أنتم عليه مُقيمونَ من التكذيب، فاحذروا مِثْلَ مصارعهم، واتقوا أنْ يحلَّ بكم مثلُ الذي حَلَّ بهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قل»، يامحمدُ، لهؤلاء العادلين بربهم. «لمن مافي السموات والأرض»، يقول: لمن مُلْكُ ما في السموات والأرض؟ ثم أخبرهم أنَّ ذلك لله الذي استعبدَ كُلَّ شيءٍ، وقَهَرَ كُلَّ شيءٍ بملكه وسلطانه ـ لا للأوثانِ والأندادِ، ولا لِمَا يعبدونَهُ ويَتَّخِذُونَهُ إلهاً من الأصنامِ التي لا تملكُ لأنفسها نفعاً ولا تدفعُ عنها ضُرًّا.

وقوله: «كتب على نفسه الرحمة»، يقول: قَضَى أنَّه بعبادهِ رحيمٌ، لا يعجلُ عليهم بالعقوبةِ، ويقبلُ منهم الإنابةَ والتوبة.

وهذا من الله تعالى ذِكْرُه استعطافٌ للمُعْرِضينَ عنه إلى الإقبالِ إليه بالتوبة.

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ هؤلاء العادلينَ بي، الجاحدينَ نبوتَك، يامحمدُ، إنْ تابوا وأنابوا قبلتُ توبتهم، وإني قد قضيتُ في خَلْقي أنَّ رحمتي وَسِعَتْ كُلَّ شيءٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾

وهذه «اللام» التي في قوله: «ليجمعنكم»، لامُ قَسَم.

ومعنى الكلام: لَيَجْمَعَنَّكُم اللهُ، أيها العادلونَ باللهِ، ليوم القيامة الذي لا ريبَ فيه، لينتقم منكم بكفركم به.

وأما تأويل قوله: «لا ريبَ فيه»، فإنه: لا شَكَّ فيه. يقول: في أنَّ الله يجمعكم إلى يوم القيامة، فيحشركم إليه جميعاً، ثم يؤتي كُلَّ عاملٍ منكم أجرَ ما عمل من حسن أو سيىء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٢﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «الذين خسروا أنفسهم»، العادلينَ به الأوثانَ والأصنامَ. يقول تعالى ذِكْرُه: لَيَجْمَعَنَّ اللهُ. «الذين خسروا أنفسهم»، يقول: الذين أهلكُوا أنفسَهُم وغَبَنُوها بادِّعائِهم لله النِّدَّ والعَدِيلَ، فأَوْبَقُوها باستِيجَابِهم سَخَطَ الله وأليمَ عقابِهِ في المعاد.

وقوله: «فهم لا يؤمنون»، يقول: «فهم»، لإهلاكِهم أنفسَهُم وغَبْنهم إياها حَظَّها. «لا يؤمنون»، أي لا يُوحِّدُونَ الله، ولا يصدِّقُونَ بوعدِهِ ووعيدِهِ، ولا يُقِرُّون بنبوةِ محمدٍ ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: لا يؤمنُ هؤلاء العادلونَ بالله الأوثانَ، فَيُخْلِصُوا له التوحيدَ، ويُفْرِدوا له الطاعةَ، ويُقِرُّوا بالألوهيةِ، جهلاً. «وله ماسَكَنَ في الليلِ والنهار»، يقول: وله ملكُ كُلِّ شيءٍ، لأنه لا شيءَ من خَلْقِ الله إلا وهو ساكنٌ في الليل والنهار. فمعلومٌ بذلك أنَّ معناه ماوصفنا. «وهو السميع»، يقول: وهو السميعُ مايقولُ هؤلاءِ المشركونَ فيه، من ادِّعائِهم له شريكاً، وما يقول غيرهم من خَلْقِه. «العليم»، بما يُضمِرُونَهُ في أنفسهم، وما يُظْهِرونَهُ بجوارِحِهم، لا يخفى عليه شيءٌ من ذلـك، فهو يُحْصِيه عليهم، ليوفِّي كُلَّ إنسان ثوابَ ما اكتسبَ، وجزاءَ ما عَمِلَ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ»، يامحمدُ، لهؤلاء المشركينَ العـادلينَ بربِّهم الأوثانَ والأصنامَ، والمُنْكِرينَ عليك إخلاصَ التوحيدِ لربِّك، الداعينَ إلى عبادةِ الآلهةِ والأوثانِ: أشيئاً غيرَ الله تعالى ذِكْرُه: «أَتَّخِذُ وليًّا»، أستنصرهُ وأستعينُه على النوائبِ والحوادث.

ويعني بقوله: «فاطر السموات والأرض»، مبتدعهما ومبتدئهما وخالقهما.

وأما قوله: «وهو يطعم ولا يطعم»، فإنه يعني: وهو يَرْزُقُ خَلْقَهُ ولا يُرْزَقُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ»، يامحمدُ، للذين يَدْعُونكَ إلى اتخاذِ الآلهةِ أولياءَ من دونِ الله، ويَحُثُّونَكَ على عبادتها: أغيرَ الله فاطر السموات والأرض، وهو يرزقني وغيري ولا يرزقه أحد، أتَّخِذُ وليًّا هو له عبدٌ مملوكٌ وخَلْقٌ مخلوق؟ وقُلْ لهم أيضاً: إني أمرني ربي: «أنْ أكونَ أول مَنْ أسلم» يقول: أوَّل مَنْ خضع له بالعبودية، وتَذَلَّلَ لأمرِه ونهيِه، وانقاد له من أهل دهري وزماني. «ولا تكونَنَّ من المشركين»، يقول: وقل: وقيل لي: لا تكونَنَّ من المشركينَ بالله، الذين يجعلون الآلهةَ والأنداد شركاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء المشركينَ العادلينَ بالله، الذين يَدْعُونَكَ إلى عبادةِ أوثانهم: إنّ ربي نَهاني عن عبادةِ شيءٍ سواه. «وإني أخافُ إنْ عصيتُ ربي»، فعبدتها. «عذابَ يومٍ عظيم»، يعني: عذاب يوم القيامة. ووصفه تعالى بـ«العظم» لِعِظَمِ هَوْلِهِ، وفظاعةِ شأنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾

اختلف القَرَأَةُ في قراءة ذلك.

فقرأته عامةُ قَرَأَةِ الحجازِ والمدينة والبصرة: ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ﴾، بضم «الياء» وفتح «الراء»، بمعنى: مَنْ يُصرف عنه العذابُ يومئذٍ.

وقرأ ذلك عامةُ قَرَأَةِ الكوفة: ﴿مَنْ يَصْرِفْ عَنْهُ﴾، بفتح «الياء» وكسر «الراء»، بمعنى: مَنْ يصرف الله عنه العذاب يومئذٍ.

وأَوْلى القراءتين في ذلك بالصوابِ عندي، قراءة مَنْ قرأه: ﴿يَصْرِفْ عَنْهُ﴾، بفتح «الياء» وكسر «الراء»، لدلالة قوله: «فقد رحمه» على صحة ذلك، وأنَّ القراءة فيه بتسميةِ فاعله. ولو كانت القراءة في قوله: «من يصرف»، على وجه ما لم يُسَمَّ فاعلُه، كان الوجه في قوله: «فقد رحمه» أن يقال: «فقد رُحِم» غير مسمى فاعله. وفي تسمية الفاعل في قوله: «فقد رحمه»، دليلٌ بَيِّنٌ على أن ذلك كذلك في قوله: «من يَصرف عنه».

وإذ كان ذلك هو الوجه الأَوْلَى بالقراءة، فتأويل الكلام: مَنْ يصرف عنه من خَلْقِه يومئذٍ عذابه فقد رحمه. «وذلك هو الفوز المبين»، ويعني بقوله: «وذلك»، وصرفُ اللهِ عنه العذابَ يومَ القيامة، ورحمتُه إياه. «الفوز»، أي: النجاةُ من الهلكة، والظفر بالطلبة. «المبين»، يعني الذي بَيَّنَ لِمَنْ رآهُ أنه الظَّفَرُ بالحاجةِ وإدراك الطَّلِبة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: يامحمد، إنْ يُصِبْكَ اللهُ. «بِضُرٍّ»، يقول: بشدةٍ في دنياكَ، وشظَفٍ في عيشك وضِيقٍ فيه فلن يكشف ذلكَ عنك إلّا اللهُ الذي أمركَ أنْ تكون أوَّلَ مَنْ أسلم لأمرِهِ ونهيِهِ، وأذعنَ له من أهلِ زمانك، دونَ ما يَدْعُوكَ العادلونَ به إلى عبادتهِ من الأوثانِ والأصنامِ، ودونَ كُلِّ شيءٍ سواها من خلقه. «وإنْ يمسسك بخير»، يقول: وإنْ يُصِبْكَ بخيرٍ، أي: برخاءٍ في عيشٍ، وسَعَةٍ في الرزق، وكثرةٍ في المال، فتقرّ أنه أصابكَ بذلك. «فهو على كل شيء قدير»، يقول تعالى ذِكْرُه: واللهُ الذي أصابكَ بذلك، فهو على كل شيء قدير، هو القادرُ على نَفْعِكَ وضرِّكَ، وهو على كُلِّ شيءٍ يريده قادرٌ، لا يعجزه شيءٌ يريده، ولا يمتنع منه شيءٌ طَلَبَهُ، ليس كالآلهةِ الذليلةِ المَهينة التي لا تقدرُ على اجتلابِ نَفْعٍ على أنفسها ولا غيرها، ولا دفع ضُرٍّ عنها ولا غيرها. يقول تعالى ذِكْرُه: فكيف تعبد من كان هكذا، أم كيف لا تخلص العبادة، وتُقِرُّ لمن كان بيده الضُّرُّ والنفعُ، والثوابُ والعقابُ، وله القدرةُ الكاملة، والعزة الظاهرة؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٨﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وهو»، نفسَه، يقول: والله الظاهرُ فوقَ عبادهِ ـ ويعني بقوله: «القاهر»، المُذَلِّلُ المُسْتَعْبِدُ خَلْقَهُ، العالي عليهم. وإنما قال: «فوق عباده»، لأنه وَصَفَ نفسه تعالى ذِكْرُه بقهرِهِ إياهم. ومن صِفَةِ كُلِّ قاهرٍ شيئاً، أنْ يكونَ مُسْتعلياً عليه.

فمعنى الكلام إذاً: والله الغالبُ عبادَه المُذَلِّلهم، العالي عليهم بتذليلهِ لهم، وخلقه إياهم، فهو فوقَهم بقهرِهِ إياهم، وهم دونَهُ. «وهو الحكيم»،

يقـول: واللهُ الحكيمُ في عُلُوِّهِ على عبـاده، وقهرِهِ إياهم بقدرته، وفي سائر تدبيره. «الخبير»، بمصـالـح الأشياء ومضارِّها، الذي لا يَخْفَى عليه عواقب الأمور وبواديها، ولا يقعُ في تدبيره خَلَلٌ، ولا يدخلُ حُكْمَهُ دَخَلٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يامحمد، لهؤلاءِ المشركينَ الذين يُكذِّبونَ ويجحدون نبوتَّكَ من قومك: أيُّ شيءٍ أعظمُ شهادةً وأكبر؟ ثم أخبرهم بأنَّ أكبرَ الأشياء شهادة: «الله»، الذي لا يجوز أنْ يقعَ في شهادته مايجوزُ أنْ يقعَ في شهادة غيره من خَلْقِه من السهو والخطأ، والغلط والكذب. ثم قُلْ لهم: إنَّ الذي هو أكبر الأشياء شهادة، شهيدٌ بيني وبينكم، بالمُحِقِّ منا من المُبْطِلِ، والرشيدِ منا في فِعْلِه وقولِهِ من السفيه، وقد رضينا به حَكَماً بيننا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ لهؤلاء المشركين الذين يكذبونك: «الله شهيدٌ بيني وبينكم». «وأُوحِيَ إليَّ هذا القرآنُ لأُنذركم به» عقابَه، وأُنذر به مَنْ بَلَغه من سائرِ الناس غيركم ـ إنْ لم يَنْتَهِ إلى العملِ بما فيه، وتحليل حلاله وتحريم حرامه، والإيمان بجميعه ـ نزولَ نقمةِ اللهِ به.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾

﴿أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ لهؤلاء المشركينَ، الجاحدينَ نبوتَّكَ، العادلينَ بالله، ربًّا غيره: «أئنكم»، أيها المشركونَ. «لَتشهدونَ أنَّ مع الله آلهةً أخرى»، يقول: تشهدون أنَّ مَعَهُ معبوداتٍ غيره من الأوثان والأصنام.

وقال: «أُخْرَى»، ولم يقل «أُخَر»، و«الآلهة» جمع، لأنَّ الجموع يلحقها، التـأنيثُ، كما قال تعالى ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ [طه: ٥١]، ولم يقل: «الأُوَل» ولا «الأوَّلين».

ثم قال لنبيِّهِ محمد ﷺ: «قُلْ»، يامحمدُ. «لا أشهدُ»، بما تشهدونَ: أنَّ مع اللهِ آلهةً أخرى، بل أجْحَدُ ذلك وأُنكِرهُ. «قُلْ إنما هُوَ إلهٌ واحد»، يقول: إنما هو معبودٌ واحد، لا شريكَ له فيما يستوجبُ على خَلْقِه من العبادة. «وإنني بريء مما تشركون»، يقول: قل: وإنني بريءٌ من كُلِّ شريكٍ تَدْعُونه لله، وتُضِيفونه إلى شركته، وتعبدونَهُ معه، لا أعبدُ سِوى الله شيئاً، ولا أدعو غيرَهُ إلهاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٢٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الذين «آتيناهُمُ الكتابَ»، التوراة والإنجيل ـ يعرفون أنَّما هُوَ إلهٌ واحد ـ، لا جماعة الآلهة، وأنَّ محمداً نبيٌّ مبعوث. «كما يعرفون أبناءهم».

ويعني بقـولـه: «خَسِـرُوا أنفسهم»، أَهْلَكُـوهـا وألقوها في نارِ جهنم،

بإنكـارِهم محمداً أنه لله رسولٌ مُرسَلٌ، وهم بحقيقةِ ذلك عارفون. «فهم لا يؤمنون»، يقول: فهم بخسارتهم بذلك أنفسهم لا يؤمنون.

وقد قيل: إنَّ معنى «خسارتهم أنفسهم»، أنَّ كُلَّ عبدٍ له منزلٌ في الجنة ومنزلٌ في النار. فإذا كان يوم القيامة، جعلَ اللهُ لأهلِ الجنة منازلَ أهلِ النار في الجنـة، وجعـل لأهـل النـار منازلَ أهل الجنة في النار، فذلك خسرانُ الخاسرين منهم، لبيعِهم منازِلَهم من الجنةِ بمنازلِ أهلِ الجنة من النار، بما فَرَطَ منهم في الدنيا من معصيتهم الله، وظُلْمِهم أنْفُسَهم، وذلك معنى قولِ الله تعالى ذِكْرُه: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، [المؤمنون: ١١].

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومَنْ أَشَدُّ اعتداءً، وأخطأُ فِعْلاً، وأخطلُ قولاً. «ممن افترى على الله كذباً»، يعني: مِمَّن اختلقَ على الله قِيلَ باطلٍ، واخترقَ من نفسهِ عليه كَذِباً، فزعم أنَّ له شريكاً من خَلْقِه، وإلهاً يعبد من دونه ـ كما قاله المشركون من عَبَدَةِ الأوثان ـ أو ادَّعى له ولداً أو صاحبةً، كما قالته النصارى. «أو كذب بآياته»، يقول: أو كَذَّبَ بحججه وأعلامه وأدلتِهِ التي أعطاها رسلَهُ على حقيقةِ نبوتهم، كَذَّبَتْ بها اليهود. «إنه لا يفلح الظالمون»، يقول: إنه لا يفلح القائلون على الله الباطلَ، ولا يُدْرِكُونَ البقاءَ في الجنان، والمفترونَ عليه الكَذِبَ، والجاحدون بنبوة أنبيائه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا

﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ هؤلاء المفترينَ على الله كَذِباً، والمُكَذِّبينَ بآياتهِ، لا يُفلحونَ اليومَ في الدنيا، ولا يومَ نحشرهم جميعاً ـ يعني: ولا في الآخرة.

ففي الكلام محذوف قد استغني بذكر ماظَهر عما حذف.

وتأويلُ الكلام: إنه لا يفلحُ الظالمونَ اليومَ في الدنيا، «ويومَ نحشرهم جميعاً»، فقوله: «ويوم نحشرهم»، مردودٌ على المراد في الكلام. لأنه وإنْ كان محذوفاً منه، فكأنه فيه، لمعرفةِ السامعين بمعناه. «ثم نقولُ للذين أشركوا أين شركـاؤكم»، يقول: ثم نقول، إذا حشرنا هؤلاء المفترينَ على اللهِ الكذبَ، بادِّعائهم له في سلطانه شريكاً، والمُكَذِّبينَ بآياته ورسله، فجمعنا جميعهم يوم القيامة. «أين شركاؤُكُم الذين كنتم تزعمون»، أنهم لكم آلهة من دون الله، افتراء وكذباً، وتدعونهم من دونه أرباباً؟ فَأْتُوا بهم إنْ كنتم صادقين!

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ۝٢٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ثم لم يكن قولهم إذْ قلنا لهم: «أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون»؟ـ إجابةً منهم لنا عن سؤالِنا إيَّاهُمْ ذلكَ، إذْ فَتَنَّاهُمْ فاختبرناهم، «إلّا أن قالوا والله رَبِّنا ماكنا مشركين»، كَذباً منهم في أيمانهم على قِيلهم ذلك.

ثم اختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك.

فقرأته جماعة من قَرَأَةِ المدينة والبصرة وبعض الكوفيين: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتَهُمْ﴾ بالتاء، بالنصب، بمعنى: لم يكن اختبارَناهُم إلّا قِيلُهم: «والله رَبِّنا

ما كنا مشركين» ـ غير أنهم يقرأون «تكن» بالتاء على التأنيث. وإنْ كانت للقولِ لا للفتنةِ، لمجاورته الفتنة، وهي خبرٌ. وذلك عند أهلِ العربيةِ شاذٌّ غير فصيحٍ في الكلام.

وقرأ ذلك جماعة من قَرَأةِ الكوفيين: ﴿ثُمَّ لَمْ يَكُنْ﴾ بالياء، ﴿فِتْنَتَهُمْ﴾ بالنصب، ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾، بنحو المعنى الذي قصده الآخرون الذين ذكرنا قراءتهم. غيرَ أنهم ذكَّروا «يكون» لتذكير «أن».

وهذه القراءة عندنا أَوْلى القراءتين بالصواب، لأن «أنْ» أثبت في المعرفة من «الفتنة»[1].

واختلفَ أهلُ التأويل في تأويل قوله: «ثم لم تكن فتنتهم».

فقال بعضهم: معناه ثم لم يكن قَوْلُهم.

وقال آخرون: معنى ذلك: مَعْذِرَتُهم.

والصواب من القول في ذلك أن يقال: معناه: ثم لم يكن قِيلُهم عند فِتنتنا إياهم، اعتذاراً مما سَلَفَ منهم من الشركِ بالله. «إلا أنْ قالوا والله رَبِّنا ما كنا مشركين»، فَوُضِعت «الفتنةُ» موضعَ «القول»، لمعرفةِ السامعينَ معنى الكلام.

وإنما «الفتنة»، الاختبارُ والابتلاء. ولكن لما كان الجوابُ من القومِ غيرَ واقع هنالك إلا عند الاختبار، وضعت «الفتنة» التي هي الاختبار، موضع الخبر عن جوابهم ومعذرتهم.

واختلفت القَرَأَةُ أيضاً في قراءة قوله: «والله رَبِّنا ما كُنَّا مشركين».

---

(١) أغفل المؤلف قراءة الرفع في «فتنتهم» وهي قراءتنا في مصحفنا، قراءة حفص.

فقرأ ذلك عامةُ قَرَأةِ المدينة وبعض الكوفيين والبصريين: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا﴾، خفضاً، على أنَّ «الربَّ» نَعْتٌ لله.

وقرأ ذلك جماعة من التابعين: ﴿وَاللهِ رَبَّنَا﴾، بالنصب، بمعنى: والله يارَبَّنا. وهي قراءةُ عامة قَرَأةِ أهلِ الكوفة[1].

وأَوْلى القراءتين عندي بالصواب في ذلك، قراءةُ من قرأ: ﴿وَاللهِ رَبَّنَا﴾، بنصب «الـرب»، بمعنى: ياربَّنا ذلك أنَّ هذا جوابٌ من المسئولينَ المَقُولِ لهم: «أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون»؟ وكان من جوابِ القومِ لربهم: والله يارَبَّنا ما كُنَّا مشركين ـ فَنَفَوْا أن يكونوا قالوا ذلك في الدنيا.

يقول الله تعالى ذِكْرُه لمحمدٍ ﷺ: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

ويعني بقوله: «ما كنا مشركين»، ما كُنَّا ندعو لكَ شريكاً، ولا ندعو سِواكَ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَـلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: انظر، يامحمدُ، فاعلَمْ، كيف كذَب هؤلاء المشركون العادِلُونَ بربهم الأوثانَ والأصنامَ، في الآخرة عند لقاء الله ـ على أنفسِهم بقِيلِهم: «والله ياربنا ما كنا مشركين»، واستعملوا هنالك الأخلاقَ التي كانوا بها يتخلَّقُونَ في الدنيا، من الكذب والفرية.

---

(١) انظر (معاني القرآن للفراء: ١/٣٣٠). وقال الزجاج: ويجوز نصبه على أعني، أعني ربَّنا وأذكرُ ربَّنا (معاني القرآن: ٢/٢٣٦).

ومعنى «النظر» في هذا الموضع، النظر بالقلب، لا النظر بالبصر. وإنما معناه: تبين فاعلم كيف كَذَبُوا في الآخرة.

وقال: «كذبوا»، ومعناه: يكذبون، لأنه لَمَّا كانَ الخبرُ قد مضى في الآية قبلها، صار كالشيء الذي قد كانَ ووُجِدَ.

«وضَلَّ عنهم ما كانوا يفترون»، يقول: وفَارَقَهم الأندادُ والأصنامُ، وتبرأوا منها، فسلكُوا غيرَ سبيلها، لأنها هلكت، وأعيد الذين كانوا يعبدونها اجتراءً، ثم أخذوا بما كانوا يفترونه من قِيلهم فيها على الله، وعبادتهم إياها، وإشراكِهم إيَّاها في سلطانِ الله، فَضَلَّتْ عنهم، وعُوقِبَ عَابِدُوها بِفِرْيَتِهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومِنْ هؤلاءِ العادلينَ بربِّهم الأوثانَ والأصنامَ من قومك، يامحمدُ. «من يستمع إليك»، يقول: من يستمع القرآنَ منكَ، ويستمع ماتدعوهُ إليه من توحيدِ رَبِّكَ، وأمرِهِ ونهيِهِ، ولا يفقه ماتقولُ ولا يُوعِيه قلبُه، ولا يَتَدَبَّرُهُ، ولا يُصْغِي له سمعه، ليتفقهه فيفهم حُجَجَ الله عليه في تنزيلِهِ الذي أنزله عليك، إنما يسمعُ صوتكَ وقراءتك وكلامكَ، ولا يعقلُ عنكَ ماتقولُ، لأنَّ الله قد جعل على قلبِهِ «أكنَّةً».

وهي جمع «كنان»، وهو الغطاء، مثل: «سِنان»، «وأسِنَّة».

«وفي آذانهم وقراً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وجعل في آذانهم ثِقلاً وصَمَماً عن فَهْمِ ما تتلو عليهم، والإصغاءِ لِمَا تَدْعُوهم إليه.

والعربُ تفتح «الواو» من «الوَقْر» في الأذن، وهو الثِقلُ فيها ـ وتكسرها في الحمل فتقول: «هو وِقْرُ الدابة».

وقال تعالى ذِكْرُه: «وجعلنا على قلوبهم أكنةً أنْ يفقهوه»، بمعنى: أن لا يفقهوه، كما قال ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦]، بمعنى: أن لا تضلوا، لأن «الكنَّ» إنما جُعِلَ على القلب، لئلاَّ يُفَقِّهُهُ، لا ليفقهه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٢٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإنْ يَرَ هؤلاء العادلونَ بربِّهم الأوثانَ والأصنامَ، الذين جعلت على قلوبهم أكِنَّةً أنْ يفقهوا عنكَ مايسمعونَ منك. «كل آية»، يقول: كُلُّ حجةٍ وعلامة تدلُّ أهلَ الحِجَى والفهم على توحيدِ الله وصِدْقِ قولكَ وحقيقةِ نبوتكَ. «لا يؤمنوا بها»، يقول: لا يُصَدِّقُونَ بها، ولا يُقِرُّونَ بأنها دالّة على ماهي عليه دالة. «حتى إذا جاؤوك يجادلونك»، يقول: حتى إذا صاروا إليكَ بعد معاينتهم الآيات الدالة على حقيقةِ ما جِئْتَهُمْ به. «يجادلونك»، يقول: يخاصمونك. «يقول الذين كفروا»، يعني بذلك: الذين جَحَدُوا آيات الله وأنكروا حقيقتها، يقولون لنبيِّ الله ﷺ إذا سمعوا حججَ الله التي احتجَّ بها عليهم، وبيانَه الذي بَيَّنه لهم. «إنْ هذا إلا أساطير الأوّلين»، أي: ماهذا إلا أساطير الأوّلين.

و«الأساطير» جمع «إسْطارة» و«أسطُورة» مثل «أفكوهة» و«أضحوكة»، وجائز أن يكون الواحد «أسطارًا»[1] مثل «أبيات»، و«أبابيت»، و«أقوال وأقاويل»،

---

(١) جمع سطر.

من قول الله تعالى ذِكْرُه: ﴿وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾، [الطور: ٢]. من: «سَطَرَ يَسْطُرُ سَطْراً».

فإذْ كان من هذا: فإنَّ تأويله: ماهذا إلّا ما كتبه الأوَّلون.

وقد ذكر عن ابن عباس وغيره أنهم كانوا يتأوَّلونه بهذا التأويل، ويقولون: معناه: إنْ هذا إلّا أحاديثُ الأوَّلين.

وكان بعضُ أهلِ العلمِ ـ وهو أبو عبيدة معمر بن المثنى ـ بكلامِ العربِ يقول: «الإسطارةُ» لغةٌ، ومجازُها مجازُ الترَّهات[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

(يعني): وإنْ يَرَ هؤلاء المشركون، يامحمدُ، كُلَّ آيةٍ لا يؤمنوا بها، حتى إذا جاؤوكَ يجادلونك يقولون: «إن هذا الذي جئتنا به إلّا أحاديث الأوَّلين وأخبارهم»! وهم يَنْهونَ عن استماعِ التنزيلِ، ويَنْأَوْنَ عنكَ فيبعدونَ منكَ ومن اتباعك. «وإن يهلكون إلّا أنفسهم»، يقول: وما يهلكونَ بصدِّهم عن سبيلِ الله، وإعراضِهم عن تنزيلهِ، وكفرهم بربهم ـ إلّا أنفسهم لا غيرها، وذلك أنهم يكسِبُونها بفعلهم ذلك، سَخَطَ الله وأليمَ عقابِه، وما لا قِبَلَ لها به. «وما يشعرون»، يقول: وما يَدْرُونَ ما هُمْ مُكْسِبُوها من الهلاكِ والعطبِ بفعلهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾

---

(١) مجاز القرآن: ١/١٨٩.

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيّه محمدٍ ﷺ: «ولو ترى»، يامحمدُ، هؤلاء العادلين بربهم الأصنامَ والأوثانَ، الجاحدينَ نُبُوَّتَكَ، الذين وصفتُ لكَ صِفَتِهم «إذ وُقِفوا»، يقول: إذ حُبِسُوا «على النار»، يعني: في النار ـ فوضعت «على» موضع «في» كما قال: ﴿وَٱتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا ٱلشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾، [البقرة: ١٠٢]، بمعنى: في ملك سليمان.

وقيل: «ولو تَرَى إذْ وُقِفُوا»، ومعناه: إذا وقفوا ـ لما وصفنا قَبْلُ فيما مضى: أنَّ العربَ قد تضع «إذ» مكان «إذا»، «وإذا» مكان «إذ».

وقيل: «وقفوا»، ولم يُقَل: «أُوقِفوا»، لأنَّ ذلك هو الفصيحُ من كلامِ العرب. يقال: «وقَفتُ الدابة وغيرها»، بغير ألف، إذا حبستها. وكذلك: «وقفت الأرضَ»، إذا جعلتها صدقةً حَبيساً، بغير ألف.

«فقالوا ياليتنا نُرَدُّ»، يقول: فقالَ هؤلاء المشركونَ بربِّهم، إذ حُبِسُوا في النار: «ياليتنا نردُّ»، إلى الدنيا حتى نتوبَ ونراجعَ طاعة الله. «ولا نُكَذِّبَ بآياتِ ربنا»، يقول: ولا نكذّب بحججِ رَبِّنَا ولا نجحدها. «ونكون من المؤمنين»، يقول: ونكون من المُصَدِّقين بالله وحججهِ ورسله، مُتَّبعي أمره ونهيه.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك.

فقرأته عامةُ قَرَأَةِ الحجاز والمدينة والعراقيين: ﴿يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، بمعنى: ياليتنا نُرَدُّ، ولسنا نُكَذِّبُ بآياتِ ربنا، ولكنَّا نكونُ من المؤمنين.

وقرأ ذلك بعضُ قَرَأَةِ الكوفة: ﴿يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، بمعنى: ياليتنا نرد، وأن لا نكذب بآياتِ ربنا، ونكونَ من المؤمنين.

والقراءة التي لا أختار غيرها في ذلك: ﴿يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالرفع في كليهما، بمعنى: ياليتنا نُرَدُّ، ولسنا نُكَذِّبُ بآياتِ ربِّنـا إنْ رددنا، ولكنا نكون من المؤمنين ـ على وجهِ الخبرِ منهم عَمَّا يفعلونَ إنْ هم رُدُّوا إلى الدنيا، لا على التمنِّي منهم أنْ لا يُكَذِّبُوا بآياتِ ربهم ويكونوا من المؤمنين. لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه قد أخبر عنهم أنهم لو رُدُّوا لعادوا لمـا نُهُـوا عنه، وأنهم كَذَبَةٌ في قِيلهم ذلك. ولو كان قِيلهم ذلك على وجهِ التمني، لاستحالَ تكذيبُهم فيه، لأنَّ التمني لا يُكَذَّبُ، وإنما يكون التصديقُ والتكذيبُ في الأخبار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝٢٨﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: ما بهؤلاءِ العـادلينَ بربِّهم، الجـاحـدينَ نبوتكَ، يامحمـدُ، في قِيلهم إذا وُقِفُوا على النار: «ياليتنا نردُّ ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين» ـ الأسَى والندمُ على تركِ الإيمانِ بالله والتصديقِ بكَ، لكن بهم الإشفاق مما هو نازِلٌ بهم من عقابِ الله وأليمِ عذابه، على معاصِيهم التي كانـوا يُخْفُونَها عن أعينِ الناسِ ويسترونها منهم، فأبداها الله منهم يومَ القيامةِ وأظْهَرَها على رؤوسِ الأشهاد، ففضَحَهُم بها، ثم جازاهم بها جزاءَهم.

يقول: بل بَدَا لهم ما كانوا يُخْفُونَ من أعمالِهم السيئة التي كانوا يُخفونها من قبـل ذلـك في الدنيا، فَظَهَرتْ. «ولو رُدُّوا»، يقول: ولو رُدُّوا إلى الدنيا فَأُمْهِلُوا. «لعادوا لما نُهُوا عنه»، يقول: لرجعوا إلى مِثْلِ العملِ الذي كانوا يعملونه في الدنيا قبلَ ذلك، من جحودِ آياتِ الله، والكفرِ به، والعملِ بما يُسْخِطُ عليهم ربَّهم. «وإنهم لكاذبون»، في قِيلهم: «لو رُدِدْنَا لم نُكَذِّبْ بآياتِ

رَبِّنَا وكنا من المؤمنين»، لأنهم قالوه حين قالوه خَشْيَةَ العذاب، لا إيماناً بالله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٢٩﴾

وهذا خَبَرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن هؤلاء المشركينَ، العادلينَ به الأوثانَ والأصنامَ، الذين ابتدأ هذه السورة بالخبرِ عنهم.

يقول تعالى ذِكْرُه: «وقالوا إنْ هي إلا حياتُنا الدنيا»، يخبرُ عنهم أنهم ينكرون أنَّ الله يُحيي خَلْقَهُ بعد أن يُميتهم، ويقولون: «لا حياةَ بعد المماتِ، ولا بعثَ ولا نشورَ بعدَ الفناء». فهم بجحودِهم ذلك، وإنكارِهم ثوابَ الله وعقابَهُ في الدار الآخرة، لا يُبَالُونَ ما أَتَوْا وما ركبوا من إثمٍ ومعصيةٍ، لأنهم لا يَرْجُونَ ثواباً على إيمانٍ بالله وتصديقٍ برسوله وعملٍ صالح بعد موت، ولا يخافون عقاباً على كُفْرِهم بالله وبرسوله وسيِّيءٍ من عملٍ يَعْمَلُونه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝٣٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «لو ترى»، يامحمدُ، هؤلاء القائلين: ماهي إلا حياتُنا الدنيا وما نحنُ بمبعوثين. «إذْ وُقِفُوا»، يوم القيامة، أي: حُبِسُوا. «على رَبِّهم»، يعني على حُكْمِ الله وقضائه فيهم. «قال أليس هذا بالحَقِّ»، يقول: فقيل لهم: أليس هذا البعثُ والنشرُ بعد المماتِ الذي كنتم تُنْكِرُونَهُ في الدنيا، حقًّا؟ فأجابوا، فقالوا: بَلَى والله إنه لَحَقٌّ. «قال فذوقوا العذاب»، يقول: فقال الله تعالى ذِكْرُه لهم: فَذُوقُوا العذابَ الذي كنتم به في الدنيا تكذبون. «بما كنتم

تكفرون»، يقول: بتكذِيبكم به وجَحْدِكُموه الذي كان منكم في الدنيا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله»، قد هَلَكَ ووكِسَ، في بيعِهم الإيمانَ بالكفرِ. «الذين كذبوا بلقاء الله»، يعني: الذينَ أنكروا البعثَ بعد المماتِ، والثوابَ والعقابَ، والجنةَ والنارَ، من مشركي قريش ومَنْ سَلَكَ سبيلهم في ذلك. «حتى إذا جاءَتهم الساعة»، يقول: حتى إذا جاءتهم السَّاعةُ الَّتي يَبْعث اللهُ فيها الموتى من قبورهم.

وإنما أدخلت «الألف واللام» في «الساعة»، لأنها معروفة المعنى عند المخاطبينَ بها، وأنها مقصود بها قصدُ الساعة التي وصفت.

ويعني بقوله: «بغتة»، فجأةً، من غيرِ عِلْمِ مَنْ تَفْجَؤُه بوقتِ مفاجأتها إيَّاهُ.

«قالوا يا حَسْرَتَنا على مافَرَّطْنَا فيها»، يقول تعالى ذِكْرُه: وُكِسَ الذين كذبوا بلقاءِ اللهِ ببيعِهم منازِلَهم من الجنةِ بمنازل مَنِ اشتروا منازله من أهلِ الجنة من النار، فإذا جاءتهم الساعةُ بغتةً قالوا إذا عَاينُوا ما باعوا وما اشتروا، وتبيَّنُوا خسارةَ صفقةِ بَيْعِهم التي سَلَفَتْ منهم في الدنيا، تَنَدُّماً وتَلَهُّفاً على عظيمِ الغَبْن الذي غبنوه أنفسهم، وجليلِ الخسرانِ الذي لا خسرانَ أَجَلَّ منه. «ياحسرتنا على مافرطنا فيها»، يقول: يانَدَامتنا على ما ضَيَّعْنا فيها، يعني: صفقتهم تلك.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى ذكره: وهؤلاء الذين كذَّبوا بلقاء الله، «يحملون أوزارهم على ظهورهم». وقوله: «وهم» من ذكرهم. «يحملون أوزارهم»، يقول: آثامهم وذنوبهم.

وأما قوله تعالى ذِكْرُه: «أَلَا ساءَ ما يزرون»، فإنه يعني: ألا سَاء الوزر الذي يزرون ـ أي: الإثم الذي يأثمونه بربهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾

وهـذا تكـذيبٌ من الله تعالى ذِكْرُه هؤلاء الكفارَ المُنْكِرِينَ البعثَ بعد المماتِ في قولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المائدة: ٢٩].

يقول تعالى ذكره، مكذباً لهم في قِيلهم ذلك: «ما الحياةُ الدنيا»، أيها الناسُ. «إلَّا لعب ولهو»، يقول: ما باغي لذاتِ الحياة التي أدْنيتُ لكم وقرَّبتُ منكم في داركم هذه، ونعيمها وسرورها فيها، والمتلذذُ بها[1]، والمنافسُ عليها إلا في لعب ولهـو، لأنهـا عمـا قليل تزولُ عن المستمتـع بها والمتلذذِ فيها

---

(١) سياق الجملة: «ما باغي لذات الحياة... ونعيمها وسرورها» بالعطف ثم قوله: «فيها» سياقه: «ما باغي لذات الحياة... فيها»، وقوله بعد: «والمتلذذ بها» مرفوع معطوف على قوله: «ما باغي لذات الحياة».

بملاذِّها، أو تأتيه الأيامُ بفجائِعها وصُرُوفِها، فتمرُّ عليه وتكدُر، كاللاعبِ اللاهي الذي يسرع اضمحلال لهوه ولعبه عنه، ثم يعقبه منه ندماً، ويُورثه منه تَرَحاً.

يقول: لا تغتروا، أيها الناسُ، بها، فإنَّ المُغْتَرَّ بها عَمَّا قليلٍ يندم. «وللدار الآخرة خيرٌ للذين يتقون»، يقول: ولَلْعَمَلُ بطاعتِه، والاستعدادُ للدارِ الآخرةِ بالصالحِ من الأعمالِ التي تَبقى منافعُها لأهلها، ويدوم سرورُ أهلها فيها، خيرٌ من الدار التي تفنى وشيكاً، فلا يبقى لِعُمَّالِها فيها سرورٌ، ولا يدومُ لهم فيها نعيمٌ. «للذين يتقون»، يقول: للذين يخشونَ الله فيتقونه بطاعتِه واجتنابِ معاصيه، والمسارعة إلى رضاه. «أفلا تعقلون»، يقول: أفلا يعقلُ هؤلاء المُكَذِّبُونَ بالبعثِ حقيقةَ مانُخْبِرهُم به، من أنَّ الحياةَ الدنيا لَعِبٌ ولهوٌ، وهم يرونَ مَنْ يُخْتَرمُ منهم، ومَنْ يهلكُ فيموت، ومَنْ تنوبه فيها النوائبُ وتصيبهُ المصائبُ وتفجعه الفجائعُ. ففي ذلك لِمَنْ عَقَلَ مُدَّكَرٌ ومُزْدَجَرٌ عن الركونِ إليها، واستعبادِ النفس لها ـ ودليلٌ واضحٌ على أنَّ لها مُدَبِّراً ومصرفاً يلزم الخلقَ إخلاصُ العبادةِ له، بغيرِ إشراكِ شيءٍ سواه معه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قد نعلم»، يامحمدُ، إنه ليحزنك الذي يقولُ المشركونَ، وذلك قولهم له: إنه كذّاب. «فإنهم لا يكذبونك».

وأما قوله: «ولكنَّ الظالمينَ بآياتِ الله يجحدون»، فإنه يقول: ولكنَّ المشركينَ بالله، بحججِ الله وآيِ كتابهِ ورسولِه يجحدون، فَيُنْكِرُونَ صِحَّة ذلك كُلِّه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾

وهذا تسليةٌ من الله تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ، وتعزيةٌ له عَمَّا ناله من المساءةِ بتكذيبِ قومهِ إيَّاهُ على ما جاءَهُمْ به من الحَقِّ من عندِ الله.

يقول تعالى ذِكْرُه: إنْ يُكذبكَ، يامحمدُ، هؤلاء المشركونَ من قومكَ، فيجحدوا نبوَّتَكَ، ويُنكِرُوا آيات الله أنَّها من عنده، فلا يَحْزُنْكَ ذلك، واصبرْ على تَكذِيبهم إياكَ وما تَلْقَى منهم من المكروه في ذاتِ الله، حتى يأتيَ نصرُ الله، فقد كُذِّبَتْ رُسُلٌ من قبلك أرسلتهم إلى أممهم، فنالُوهم بمكروهٍ، فصبروا على تكذيبِ قومِهم إياهم، ولم يثْنِهم ذلكَ من المُضِيِّ لأمرِ الله الذي أمرهم به من دعاء قومهم إليه، حتى حكم الله بينهم وبينهم. «ولا مُبَدِّلَ لكلماتِ الله»، يقول: ولا مُغَيِّرَ لكلماتِ الله، و«كلماته» تعالى ذِكْرُه: ما أنزل الله إلى نبيه محمدٍ ﷺ، مِنْ وعدِهِ إياه النصرَ على مَنْ خَالفه وضَادَّهُ، والظفرَ على مَنْ تولَّى عنه وأدبر. «ولقد جاءكَ من نبأ المُرسلينَ»، يقول: ولقد جاءك، يامحمدُ، من خَبرِ مَنْ كان قبلك من الرسلِ، وخبر أممهم وما صنعتُ بهم ـ حين جَحَدُوا آياتي وتمادَوا في غيِّهم وضلالهم ـ أنباءٌ ـ وترك ذكر «أنباء»، لدلالة «مِنْ» عليها. يقول تعالى ذِكْرُه: فانتظرْ أنتَ أيضاً من النُّصْرَةِ والظفرِ مِثْلَ الذي كان مِنِّي فيمن كانَ قَبْلَكَ من الرسلِ إذْ كذَّبهم قومُهم، واقْتَدِ بهم في صبرهم على ما لَقُوا من قومهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ

﴿أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنْ كان عَظُمَ عليكَ، يامحمدُ، إعراض هؤلاء المشركين عنكَ، وانصرافهم عن تصديقكَ فيما جِئْتَهُمْ به من الحقِّ الذي بعثتُكَ به، فَشَقَّ ذلكَ عليكَ، ولم تصبرْ لمكروهِ ما ينالكَ منهم. «فإنِ استطعتَ أنْ تبتغيَ نفقاً في الأرض»، يقول: فإن استطعت أن تَتَّخِذَ سَرَباً في الأرض مثلَ نَافِقاء اليَرْبُوع، وهي أحد جِحَرَته فتذهب فيه. «أو سُلَّماً في السماء»، يقول: أو مصعداً تصعدُ فيه، كالدَّرَج وما أشبهها. «فتأتيهم بآية»، منها ـ يعني بعلامةٍ وبرهانٍ على صِحَّةِ قولكَ، الذي أتيتُكَ ـ فافعل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٣٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذينَ يُكَذِّبُونكَ من هؤلاء الكفار، يامحمدُ، فيحزنك تكذيبُهم إياكَ، لو أشاء أنْ أجمعهم على استقامةٍ من الدِّين، وصوابٍ من محجةِ الإسلام، حتى تكونَ كلمةُ جميعكم واحدة، وملَّتكم وملتهم واحدة، لجمعتُهم على ذلك، ولم يكن بعيداً عليَّ، لأني القادرُ على ذلك بلطفي، ولكني لم أفعلْ ذلك لسابقِ عِلْمي في خَلْقي، ونافذِ قضائي فيهم من قَبْل أن أخلقهم وأصور أجسامَهُم. «فلا تكونَنَّ»، يامحمدُ، «من الجاهلينَ»، يقول: فلا تكونن مِمَّنْ لا يعلم أنَّ الله لو شاءَ لجمعَ على الهدى جميعَ خَلْقِه بلُطْفِه، وأنَّ مَنْ يكفر به من خَلْقِه إنما يكفر به لسابقِ عِلْم الله فيه، ونافذِ قضائه بأنه كائنٌ من الكافرينَ به اختياراً لا اضطراراً، فإنكَ إذا علمتَ صحَّةَ ذلك، لم يكبر عليك إعراضُ مَنْ أعرضَ من المشركينَ عَمَّا تَدْعُوه إليه من الحق، وتكذيبُ مَنْ كذَّبكَ منهم.

وفي هذا الخبر من الله تعالى ذِكْرُه، الدلالةُ الواضحةُ على خطأ ما قالَ أهلُ التَّفْويض من القدرية[1]، المنكِرُونَ أنْ يكون عند الله لطائف لمن شاءَ توفيقه من خَلْقِه، يلطفُ بها له حتى يهتديَ للحقِّ فينقادَ له، وينيبَ إلى الرشاد فيذعن به ويؤثره على الضلالِ والكفرِ بالله. وذلك أنه تعالى ذِكْرُه أخبر أنه لو شاءَ الهدايةَ لجميع مَنْ كَفَرَ به، حتى يجتمعُوا على الهدى، فعلَ. ولا شك أنه لو فَعَلَ ذلك بهم، كانوا مهتدينَ لا ضُلَّالاً. وهم لو كانوا مهتدين، كان لا شك أنَّ كونهم مهتدين كان خيراً لهم. وفي تَرْكِه تعالى ذِكْرُه أنْ يجمَعَهُمْ على الهدى، تَرْكٌ منه أنْ يفعل بهم في دِينهم بعض ماهو خيرٌ لهم فيه، مما هو قادرٌ على فِعْلِه بهم، وقد ترك فعله بهم. وفي تركه فعله ذلك بهم، أوضحُ الدليلِ أنه لم يُعْطِهم كُلَّ الأسبابِ التي بها يصلون إلى الهداية، ويتسبَّبُونَ بها إلى الإيمان.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ۝٣٦﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه لنبيه محمـدٍ ﷺ: لا يكبُرنَّ عليكَ إعراضُ هؤلاء المعرضينَ عنك، وعن الاستجابةِ لدعائكَ إذا دَعَوْتَهُم إلى توحيدِ رَبِّهم والإقرار بنبوّتكَ، فإنه لا يستجيبُ لدعائكَ إلى ماتدعوهُ إليه من ذلك، إلّا الذين فتحَ اللهُ أسماعَهم للإصغاءِ إلى الحَقِّ، وسَهَّل لهم اتباعَ الرُّشد، دونَ مَنْ ختم اللهُ على سمعِهِ، فلا يفقه من دعائِكَ إياهُ إلى اللهِ وإلى اتباعِ الحق إلا ما تَفْقَهُ

(١) أهل التفويض: هم الذين يقولون: إن الأمر فوض إلى الإنسان فإرادته كافية في إيجاد فعله، طاعة أو معصية، وهو خالق لأفعاله، والاختيار بيده.
والقدرية: هم نُفاة القدر.

الأنعامُ من أصواتِ رُعاتها، فهم كما وَصَفَهم به الله تعالى ذِكْرُه: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]. «والموتى يبعثهم الله»، يقول: والكفارُ يبعثهم الله مع الموتى، فجعلهم تعالى ذِكْرُه في عِدَادِ الموتى الذين لا يسمعونَ صوتاً، ولا يعقلونَ دُعاءً، ولا يفقهون قولاً، إذْ كانوا لا يتدبرون حُججَ الله، ولا يعتبرونَ آياتهِ، ولا يتذكرون فينزجرون عما هُمْ عليه من تكذيبِ رُسلِ الله وخلافهم.

وأما قوله: «ثم إليه يرجعون»، فإنه يقول تعالى ذِكْرُه: ثم إلى الله يرجع المؤمنونَ الذين استجابُوا للهِ والرسولِ، والكفارُ الذين يحولُ الله بينهم وبين أنْ يفقهوا عنكَ شيئاً، فيثيب هذا المؤمن على ما سَلَفَ من صالحِ عملهِ في الدنيا بما وَعَدَ أهلَ الإيمانِ به من الثواب، ويعاقب هذا الكافرَ بما أوعدَ أهلَ الكفرِ به من العقاب، لا يظلمُ أحداً منهم مِثْقالَ ذرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقالَ هؤلاء العادلونَ بربِّهم، المعرِضُونَ عن آياته: «لولا نُزِّلَ عليه آيةٌ من ربه»، يقول: قالوا: هَلَّا نزل على محمد آية من ربه؟

و«الآية»، العلامة.

وذلك أنهم قالوا: ﴿مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً* أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان: ٧، ٨]. قال الله تعالى لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ، يامحمدُ، لقائلي هذه المقالة لكَ: «إنَّ الله قادرٌ على أنْ يُنَزِّلَ آيةً»، يعني: حُجَّةً على مايُريدونَ ويسألون. «ولكن أكثرهم لا يعلمون»، يقول: ولكن أكثرَ الذين يقولون ذلك

فيسألونك آيةً، لا يعلمونَ ما عليهم في الآيةِ إنْ نزَّلها من البلاءِ، ولا يَدْرُونَ ماوجـه تركِ إنـزالِ ذلك عليكَ. ولو عَلِمُوا السببَ الذي من أجله لم أنزلها عليكَ، لم يقولوا ذلك، ولم يَسْأَلُوكَهُ، ولكنَّ أكثرهم لا يعلمونَ ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ۝٣٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ لهؤلاء المعرضينَ عنك، المُكَذِّبينَ بآياتِ الله: أيها القومُ، لا تَحْسَبُنَّ الله غافلاً عَمَّا تعملون، أو أنه غير مُجازِيكم على ماتكسبون! وكيف يَغْفُلُ عن أعمالِكم، أو يترك مُجازاتكُم عليها، وهو غيرُ غافلٍ عن عملِ شيءٍ دَبَّ على الأرض صغيرٍ أو كبيرٍ، ولا عملِ طائرٍ طارَ بجناحيهِ في الهواء، بل جعل ذلك كله أجناساً مجنَّسة وأصنافاً مصنفة، تعرفُ كما تعرفون، وتتصرفُ فيما سُخِّرَتْ له كما تتصرفون، ومحفوظ عليها ما عَمِلَتْ من عملٍ لها وعليها، ومُثْبَت كُلُّ ذلك من أعمالها في أُمِّ الكتابِ، ثم إنه تعالى ذِكْـرُه مُميتُهـا ثم مُنْشِرُها ومجازيها يومَ القيامةِ جزاءَ أعمالها. يقول: فالرب الذي لم يُضَيِّعْ حِفْظَ أعمالِ البهائمِ والدوابِّ في الأرض، والطير في الهواء، حتى حَفِظَ عليها حركاتها وأفعالها، وأثبت ذلك منها في أُمِّ الكتابِ، وحشرها ثم جازاها على ما سَلَفَ منها في دار البلاء، أحْرَى أنْ لا يُضيعَ أعمالَكُمْ، ولا يُفَرِّطَ في حِفْظِ أفعـالكم التي تجترحونها، أيها الناسُ، حتى يحشركم فيجازيكم على جميعها، إنْ خيراً فخيراً، وإنْ شرًّا فشرًّا، إذْ كان قد خَصَّكُم من نِعَمِهِ، وبَسَطَ عليكم من فضلهِ، ما لم يعمَّ به غيركم في الدنيا، وكنتم بشكرهِ أحقَّ، وبمعرفةِ واجبـهِ عليكم أوْلى، لِمَا أعطاكم من العقلِ الذي به بين الأشياء تُمَيِّزُونَ،

والفَهْمِ الذي لم يُعْطِه البهائمَ والطيرَ، الذي به بين مَصَالِحكم ومَضَارِّكُمْ تُفَرِّقُونَ.

وأما قوله: «ما فَرَّطْنَا في الكتابِ من شيءٍ»، فإنَّ معناه: ما ضَيَّعْنَا إثباتَ شيء منه.

وأما قوله: «ثم إلى رَبِّهم يُحشَرونَ»، فإنَّ أهلَ التأويل اختلفوا في معنى «حشرهم»، الذي عناه الله تعالى ذِكْرُه في هذا الموضع.

فقال بعضهم: «حشرها»، موتها.

وقال آخرون: «الحشر» في هذا الموضع، يعني به الجمع لبعثِ الساعة وقيامِ القيامة.

والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه أخبر أنَّ كُلَّ دابة وطائرٍ محشورٌ إليه. وجائزٌ أنْ يكونَ معنيًّا بذلك حشر القيامة. وجائز أن يكون معنيّاً به حشر الموت، وجائز أن يكون معنيًّا به الحشران جميعاً، ولا دلالةَ في ظاهر التنزيل، ولا في خبرٍ عن الرسولِ ﷺ أيُّ ذلك المُرَادُ بقوله: «ثم إلى رَبِّهم يُحشرون»، إذْ كان «الحشر»، في كلامِ العربِ الجمع، من ذلك قولُ الله تعالى ذِكْرُه: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٩]، يعني: مجموعة. فإذْ كان الجمع هو «الحشر»، وكان الله تعالى ذِكْرُه جامعاً خلْقَهُ إليه يومَ القيامة، وجامعهم بالموت، كان أصوبُ القولِ في ذلك أنْ يُعَمَّ بمعنى الآيةَ ما عَمَّهُ الله بظاهرها ـ وأن يقال: كل دابة وكل طائر محشورٌ إلى الله بعد الفناء وبعد بعث القيامة، إذْ كان الله تعالى ذِكْرُه قد عَمَّ بقوله: : «ثم إلى ربهم يحشرون»، ولم يخصص به حَشْراً دونَ حَشْرٍ.

فإنْ قالَ قائلٌ: فما وجهُ قولِهِ: «ولا طائر يطير بجناحيه»؟ وهل يطيرُ الطائرُ إلا بجناحيهِ؟ فما في الخبرِ عن طيرانهِ بالجناحينِ من الفائدةِ؟

قيل: قد قدَّمْنا القولَ فيما مضى أنَّ اللهَ تعالى ذِكْرُه أنزلَ هذا الكتابَ بلسانِ قوم، وبلغاتِهم وما يتعارفُونَهُ بينهم ويستعملونه في مَنْطِقِهم خاطبهم. فإذْ كان مِنْ كلامِهم إذا أرادوا المبالغةَ في الكلامِ أنْ يقولوا: «كلمتُ فلاناً بفمي»، و«مشيتُ إليه برجلي»، و«ضربته بيدي»، خاطبهم تعالى بنظير ما يتعارفونه في كلامِهم، ويستعملونه في خطابهم، ومن ذلك قوله تعالى ذكره: ﴿«إنَّ هٰذَا أَخِي لَه تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً «أُنْثَى»﴾[1] [سورة ص: ٢٣].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والذين كَذَّبُوا بحججِ اللهِ وأعلامهِ وأدلته. «صُمٌّ»، عن سماعِ الحَقِّ. «بُكْمٌ»، عن القِيلِ به. «في الظلمات»، يعني: في ظُلْمَةِ الكفرِ حائراً فيها، يقول: هو مرتطمٌ في ظُلُمَاتِ الكفر، لا يُبصرُ آياتِ الله فيعتبر بها، ويعلم أنَّ الذي خلقه وأنشأه فَدَبَّرَهُ وأحكم تدبيره، وقَدَّرَهُ أحسنَ تقدير، وأعطاه القوةَ، وصَحَّحَ له آلةَ جسمهِ ـ لم يَخْلُقْهُ عَبَثاً، ولم يتركه سُدًى، ولم يُعْطِهِ ما أعطاهُ من الآلاتِ إلا لاستعمالها في طاعته وما يرضيه، دونَ معصيته وما يسخطه. فهو لحيرته في ظلماتِ الكفر، وتردُّدِه في غَمَراتها، غافلٌ عمَّا الله قد أثبتَ له في أمِّ الكتاب، وما هُوَ به فاعلٌ يوم يُحْشَرُ إليه مع سائرِ الأمم. ثم

---

(١) استند الطبري رحمه الله على قراءة عبدالله بن مسعود بإضافة كلمة «أنثى» وذلك على سبيل توكيد العرب الكلمة، كقولهم: «هذا رجلٌ ذَكَرٌ» ولا يكادون يفعلون ذلك إلا في المؤنث والمذكرِ الذي تذكيرهُ وتأنيثه في نفسه، كالمرأة والرجل والناقة. وهذه زيادة تفسيرية من ابن مسعود.

أخبر تعالى ذِكْرُه أنه المُضِلُّ مَنْ يشاء إضلالَهُ من خَلْقِه عن الإيمانِ إلى الكفرِ، والهادي إلى الصراطِ المستقيمِ منهم مَنْ أَحَبَّ هدايته، فموفِّقه بفضلِهِ وَطَوْله للإيمانِ به، وترك الكفرِ به وبرسلِهِ وما جاءتْ به أنبياؤه، وأنه لا يهتدي من خَلْقِه أحدٌ إلا مَنْ سَبَقَ له في أمِّ الكتاب السعادة، ولا يَضِلُّ منهم أحدٌ إلا مَنْ سبق له فيها الشقاء، وأنَّ بيده الخيرَ كلَّه، وإليه الفضلُ كله، له الخَلْقُ والأمر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٠﴾

تأويلُ الكلام: قُلْ، يامحمدُ، لهؤلاء العادلينَ بالله الأوثانَ والأصنامَ: أخبروني، إنْ جاءكم، أيها القومُ، عذابُ الله كالذي جاء من قبلكم من الأمم اا لذين هَلَكَ بعضُهم بالرجفةِ، وبعضهم بالصاعقة ـ أو جاءتكم الساعةُ التي تُنشرونَ فيها من قبورِكم، وتُبعثونَ لموقفِ القيامةِ، أغيرَ الله هناك تَدْعُونَ لكشفِ مانزل بكم من البلاءِ، أو إلى غيرِهِ من آلهتِكم تَفزعونَ لِيُنَجِّيكُمْ مما نزلَ بكم من عظيمِ البلاء؟. «إنْ كنتم صادقين»، يقول: إنْ كنتم مُحِقِّينَ في دَعْوَاكُم وزعمكم أنَّ آلهتكم التي تدعونها من دونِ الله تنفع أو تضر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ۝٤١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه، مُكَذِّباً لهؤلاء العادلينَ به الأوثان: ما أنتم، أيها المشركونَ باللهِ الآلهةَ والأندادَ، إنْ أتاكم عذابُ الله أو أتتكم الساعةُ، بمستجيرينَ بشيءٍ غير الله في حالِ شِدَّةِ الهولِ النازل بكم من آلهةٍ ووثنٍ وصنم، بل تَدْعُونَ هناك رَبَّكم الذي خَلَقَكم، وبه تستغيثونَ، وإليه تفزعونَ،

دونَ كُلِّ شيءٍ غيره. «فيكشفُ ما تدعـون إليه»، يقـول: فيفـرِّج عنكم عند استغاثَتِكُمْ به وتَضَرُّعِكُمْ إليه، عظيمَ البلاء النازلِ بكم إنْ شاء أن يفرج ذلك عنكم، لأنه القادرُ على كُلِّ شيءٍ، ومالكُ كل شيء، دونَ ما تدعونه إلهاً من الأوثان والأصنام. «وتنسون ما تُشْرِكُونَ»، يقول: وتنسون حين يأتيكم عذابُ الله أو تأتيكم الساعةُ بأهوالها، ماتشركونه مع الله في عبادتِكُمْ إياهُ، فتجعلونه له نِدًّا من وثنٍ وصَنم، وغير ذلك مما تعبدونَهُ مِنْ دونه وتدعونه إلهاً.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۝٤٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ـ مُتَوعِّداً لهؤلاء العادلينَ به الأصنامَ ـ ومحذِّرَهُمْ أنْ يسلكَ بهم إنْ هُمْ تمـادَوْا في ضلالهم سبيلَ مَنْ سلك سبيلَهُمْ من الأممِ قَبْلَهُمْ، في تعجيلِ الله عقوبته لهم في الدنيا ـ ومخبراً نبيَّهُ عن سنته في الذين خَلَوْا قبلهم من الأممِ على منهـاجهم من تكـذيبِ الرسل ـ: «لقد أرسلنا»، يامحمـدُ، «إلى أمم»، يعني: إلى جمـاعاتٍ وقرون. «مِنْ قَبْلِكَ فأخذناهم بالبـأسـاء»، يقـول: فأمرناهم ونهيناهم، فكذَّبُوا رسلنا، وخالفوا أمرنا ونهينا، فامتحناهم بالابتـلاء. «بـالبـأسـاء»، وهي شِدَّةُ الفقرِ والضيق في المعيشة. «والضراء»، وهي الأسقامُ والعلل العارضة في الأجسام.

وقـولـه: «لعلهم يتضـرعـون» يقـول: فعلنـا ذلك بهم ليتضَرَّعُوا إليَّ، ويُخْلِصُـوا لي العبـادة، ويُفْـرِدُوا رغبتهم إليَّ دون غيري، بالتذللِ منهم لي بالطاعة، والاستكانة منهم إليَّ بالإنابة.

وفي الكـلام محذوفٌ قد استغني بما دلَّ عليه الظاهر من إظهاره دون قولـه: «ولقـد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم»، وإنما كان سبب أخذِه

إياهم، تَكْذِيبهم الرسلَ وخلافهم أمرَهُ ـ لا إرسال الرسل إليهم. وإذْ كان ذلك كذلك، فمعلومٌ أنَّ معنى الكلام: «ولقد أرسلنا إلى أممٍ من قبلك» رسلاً فكذبوهم، «فأخذناهم بالبأساء».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

وهذا أيضاً من الكلامِ الذي فيه متروك استغني بدلالة الظاهر عن ذِكْرِ ماترُك. وذلك أنه تعالى ذِكْرُه أخبرَ عن الأممِ التي كَذَّبَتْ رُسُلَهَا أنه أخذهم بالبأساءِ والضراء ليتضرعوا له، ثم قال: «فلولا إذْ جاءهم بأسنا تضرعوا»، ولم يخبر عَمَّا كان منهم من الفعلِ عند أخذهِ إياهم بالبأساء والضراء. ومعنى الكلام: «ولقد أرسلنا إلى أممٍ من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون»، فلم يتضرعوا، «فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا».

ومعنى: «فلولا»، في هذا الموضع، فَهَلَّا. والعرب إذا أوْلَتْ «لولا» اسماً مرفوعاً، جعلت مابعدها خبراً، وتلقتها بالأمر، فقالت: «لولا أخوك لزرتك» و«لولا أبوك لضربتك»، وإذا أوْلتها فعلاً، أو لم تُولها اسماً، جعلوها استفهاماً فقالوا: «لولا جئتنا فنكرمك» و«لولا زرت أخاك فنزورك»، بمعنى: «هلاَّ»، كما قال تعالى ذِكْرُه: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ﴾ [المنافقون: ١٠]. وكذلك تفعل بـ «لَوْمَا» مثل فِعْلِهَا بـ «لولا».

فتأويلُ الكلام إذاً: فَهَلَّا إذْ جاء بأسنا هؤلاء الأمم المكذبة رُسُلَها، الذينَ لم يتضرعوا عند أخذِنَاهُمْ بالبأساءِ والضراء. «تضرعوا»، فاستكانوا لربهم، وخضعوا لطاعته، فيصرف رَبُّهم عنهم بأسَهُ، وهو عذابه.

«ولكنْ قَسَتْ قلوبهم،» يقـول: ولكنْ أقـامـوا على تكذِيبهم رُسُلَهُم، وأصَرُّوا على ذلك، واستكبروا عن أمرِ رَبِّهم، استهانةً بعقابِ الله، واستخفافاً بعـذابه، وقساوةَ قلبٍ منهم. «وزَيَّنَ لهمُ الشيطانُ ما كانوا يعملون»، يقول: وحَسَّنَ لهمُ الشيطانُ ما كانوا يعملون من الأعمالِ التي يكرهها الله ويسخطها منهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «فلما نَسُوا ما ذُكِّرُوا به»، فلما تَرَكُوا العملَ بما أمرناهم به على ألسنِ رُسُلِنَا.

«فتحنا عليهم أبوابَ كُلِّ شيء»، يقول: بَدَّلْنا مكانَ البأساءِ الرخاءَ والسعةَ في العيش، ومكانَ الضرَّاءِ الصِحَّةَ والسلامةَ في الأبدانِ والأجسام، استدراجاً مِنَّا لهم.

فإنْ قال لنـا قائلٌ: وكيف قيل: «فتحنا عليهم أبوابَ كُلِّ شيء»، وقد علمتَ أنَّ بابَ الرحمةِ وبابَ التوبةِ لم يُفْتَحَا لهم، ولم تُفْتَحْ لهم أبواب أُخَرُ غيرهما كثيرة؟

قيل: إنَّ معنى ذلك على غيرِ الوجهِ الذي ظننتَ من معناه، وإنما معنى ذلك: فتحنا عليهم، استدراجاً مِنَّا لهم، أبوابَ كُلِّ ما كُنَّا سَدَدْنَا عليهم بابَهُ، عند أخذِنا إياهم بالبأساءِ والضراءِ ليتضرعوا، إذْ لم يتضرعوا وتركوا أمرَ الله تعالى

ذِكْرُه، لأنَّ آخر هذا الكلام مردودٌ على أوله. وذلك كما قال تعالى ذِكْرُه في موضعٍ آخر من كتابه: ﴿وَما أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ* ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ والسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، [الأعراف: ٩٤، ٩٥]، ففتح الله على القومِ الذين ذكر في هذه الآية أنهم نَسُوا ماذكرهم، بقوله: «فلما نَسُوا ماذُكِّرُوا به فتحنا عليهم أبوابَ كُلِّ شيءٍ»، هو تبديله لهم مكانَ السيئةِ التي كانوا فيها حال امتحانهِ إياهم، من ضيقِ العيشِ إلى الرخاءِ والسعة، ومن الضُرِّ في الأجسام إلى الصحةِ والعافية، وهو «فتح أبواب كل شيء» كان أغلق بابه عليهم، مما جرى ذِكْرُه قبل قوله: «فتحنا عليهم أبواب كل شيء»، فَرَدَّ قوله: «فتحنا عليهم أبواب كل شيء» عليه.

ويعني تعالى بقوله: «حتى إذا فَرِحُوا بما أُوتُوا»، يقول: حتى إذا فَرِحَ هؤلاء المكذِّبُونَ رسلَهم بفتْحِنَا عليهم أبوابَ السَّعة في المعيشة، والصحة في الأجسام.

ويعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «أخذناهم بغتة»، أتيناهم بالعذاب فجأة، وهم غارُّون لا يشعرون أنَّ ذلك كائن، ولا هو بهم حالٌّ.

وأما قوله: «فإذا هم مُبْلِسُونَ»، فإنهم هالكونَ، منقطعة حُججهم، نادمون على ما سَلَفَ منهم من تكذِيبهم رُسُلَهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «فَقُطِعَ دابرُ القومِ الذين ظلموا»، فاستُؤصِلَ القومُ الذين عَتَوا على رَبِّهم، وكَذَّبُوا رسلَهُ، وخالفوا أمره، عن آخرِهم، فلم

يُتْرَكْ منهم أحدٌ إلا أُهلكَ بغتةً إذْ جاءهم عذابُ الله.

«والحمدُ لله رَبِّ العالمين»، يقول: والثناءُ الكاملُ التام. «لله رب العالمين»، على إنعامهِ على رُسُلِه وأهلِ طاعتهِ، بإظهارِ حججهم على مَنْ خالفهم من أهلِ الكفرِ، وتحقيق عِدَاتِهم ما وَعدهم على كفرهم بالله وتكذيبهم رسلَهُ من نِقمِ الله وعاجلِ عذابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ، يا محمدُ، لهؤلاء العادلينَ بي الأوثانَ والأصنامَ، المكذبينَ بك: أرأيتم، أيها المشركونَ بالله غيرَه، إنْ أصَمَّكُم الله فذهبَ بأسماعِكم، وأعماكم فذهبَ بأبصارِكم، وختمَ على قلوبكم فطبعَ عليها، حتى لا تفقهوا قولاً، ولا تُبْصِرُوا حجةً، ولا تفهموا مفهوماً، أيّ إلهٍ غير الله الذي له عبادةُ كُلِّ عابد. «يأتيكم به» يقول: يَرُدُّ عليكم ماذهب الله به منكم من الأسماعِ والأبصارِ والأفهام، فتعبدوه أو تشركوه في عبادة رَبِّكم الذي يقدرُ على ذهابه بذلك منكم، وعلى رَدِّهِ عليكم إذا شاء؟

وهذا من الله تعالى ذِكْرُهُ، تعليم نبيِّه الحجةَ على المشركينَ به، يقولُ له: قُلْ لهم: إنَّ الذين تعبدونهم من دونِ الله لا يملكونَ لكم ضرًّا ولا نفعاً، وإنما يستحق العبادةَ عليكم مَنْ كان بيدهِ الضرُّ والنفعُ، والقبضُ والبسطُ، القادرُ على كُلِّ ما أراد، لا العاجز الذي لا يقدرُ على شيء.

ثم قال تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: «انظر كيف نُصَرِّفُ الآياتِ»،

يقول: انظر كيف نتابعُ عليهم الحججَ، ونضربُ لهم الأمثال والعِبَرَ، ليعتبروا ويذكروا فَيُنِيبُوا. «ثم هم يَصْدِفُون»، يقول: ثم هُمْ مع متابعتنا عليهم الحججَ، وتنبيهنا إياهم بالعبرِ، عن الادّكارِ والاعتبارِ يُعْرِضون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ، يامحمدُ، لهؤلاء العادلينَ بربهم الأوثانَ، المكذبينَ بأنك لي رسولٌ إليهم: أخبروني. «إنْ أتاكم عذابُ الله»، وعقابه على ما تُشْرِكُونَ به ما تشركون من الأوثانِ والأندادِ، وتكذيبكم إيايَ بعد الذي قد عاينتم من البرهانِ على حقيقة قولي. «بغتة»، يقول: فجأة على غِرَّةٍ[1] لا تشعرون. «أو جهرة»، يقول: أو أتاكم عذابُ الله وأنتم تعاينونه وتنظرون إليه. «هل يهلكُ إلا القومُ الظالمون»، يقول: هل يُهْلِكُ الله منا ومنكم إلّا مَنْ كان يعبدُ غيرَ مَنْ يستحقُّ علينا العبادةَ، ويترك عبادةَ من يستحق علينا العبادة؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما نرسلُ رُسُلَنَا إلّا ببشارةِ أهلِ الطاعةِ لنا بالجنةِ والفوز المبين يومَ القيامة، جزاءً مِنَّا لهم على طاعتنا ـ وبإنذار مَنْ عصَانا وخالف أمرنا، عقوبتنا إياهُ على معصيتنا يومَ القيامة، جزاءً منا على معصيتنا، لنعذر إليه فيهلك إنْ هلكَ عن بَيِّنةٍ. «فمن آمن وأصلح»، يقول: فمن صَدَّقَ مَنْ أرسلنا إليه من رسلنا إنذارَهُمْ إياهُ، وقَبِلَ منهم ما جاؤوه به من عندِ الله، وعملَ صالحاً

(١) الغِرة بالكسر: الغفلة. والغارُّ: الغافل. واغترَّ الرجل، واغتر بالشيء: خُدِعَ به.

في الدنيا. «فلا خوفٌ عليهم»، عند قدومِهم على ربهم، من عقابهِ وعذابهِ الذي أعدَّهُ الله لأعدائه وأهلِ معاصيه. «ولا هم يحزنون»، عند ذلك على ما خَلَّفُوا وراءَهم في الدنيا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ۝٤٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأما الذين كَذَّبُوا بمن أرسلنا إليه من رسلنا، وخالفوا أمرنا ونهينا، ودافعوا حجتنا، فإنهم يباشرهم عذابُنا وعقابنا، على تكذِيبهم ما كَذَّبُوا به من حججنا. «بما كانوا يفسقون»، يقول: بما كانوا يُكَذِّبُون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ۝٥٠﴾

يقـول تعالى ذِكْرُهُ: قُلْ لهؤلاء المنكرين نُبُوَّتَكَ: لستُ أقولُ لكم إنِّي الربُّ الذي له خزائنُ السمواتِ والأرض، فأعلم غيوبَ الأشياءِ الخَفيَّةِ التي لا يعلمها إلا الربُّ الذي لا يَخْفَى عليه شيءٌ، فتكذِّبُوني فيما أقولُ من ذلك، لأنه لا ينبغي أنْ يكون ربًّا إلا مَنْ ملك كُلَّ شيءٍ، وبيده كُلُّ شيءٍ، ومَنْ لا يخفى عليه خافيةٌ، وذلك هو الله الذي لا إله غيرهُ. «ولا أقول لكم إني ملك»، لأنه لا ينبغي لملك أنْ يكونَ ظاهراً بصورتِهِ لأبصارِ البشرِ في الدنيا، فتجحدوا ما أقولُ لكم من ذلك. «إنْ أتَّبعُ إلَّا ما يُوحَى إليَّ»، يقول قُلْ لهم: ما أتبع فيما أقولُ لكم وأدعوكم إليه، إلاّ وحي الله الذي يوحيه إليَّ، وتنزيله الذي ينزله

عليَّ، فأمضي لوحيهِ وأئتمر لأمرِهِ، وقد أتيتكم بالحججِ القاطعةِ من الله عُذْرَكُم على صِحَّةِ قولي في ذلك، وليس الذي أقولُ من ذلك بمنكرٍ في عقولكم ولا مستحيل كونه، بل ذلك مع وجودِ البرهانِ على حقيقته هو الحكمةُ البالغة، فما وجهُ إنكارِكم ذلك؟

وذلك تنبيهٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ نبيَّه ﷺ على موضعِ حُجَّتِه على منكري نبوّته من مشركي قومه.

«قل هل يستوي الأعمى والبصير»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: قُلْ، يامحمدُ، لهم: هل يستوي الأعمى عن الحق، والبصير به. «والأعمى»، هو الكافرُ الذي قد عَميَ عن حجج الله فلا يتبيَّنها فيتبعها. «والبصير»، المؤمن الذي قد أبصرَ آيات الله وحججه، فاقتدى بها واستضاء بضيائها. «أفلا تتفكرون»، يقولُ لهؤلاء الذين كَذَّبُوا بآياتِ الله: أفلا تتفكرون فيما أحتجُّ عليكم به، أيها القومُ، من هذه الحججِ، فتعلموا صحةَ ما أقولُ وأدعوكم إليه، من فسادِ ما أنتم عليه مُقيمونَ من إشراكِ الأوثانِ والأندادِ بالله رَبِّكم، وتكذيبكم إيايَ مع ظهورِ حججِ صِدْقي لأعينكم، فَتَدَعُوا ما أنتمْ عليه من الكفرِ مقيمون، إلى ما أدعوكم إليه من الإيمانِ الذي به تفوزون؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: وأنذِرْ، يامحمدُ، بالقرآنِ الذي أنزلناهُ إليكَ، القومَ الذين يخافونَ أنْ يُحْشَرُوا إلى رَبِّهم، علماً منهم بأنَّ ذلك كائنٌ، فهم مُصَدِّقونَ بوعدِ الله ووعيده، عاملونَ بما يُرْضِي الله، دائبون في السعي، فيما ينقذُهم في مَعَادِهم من عذابِ الله. «ليس لهم من دونه وليٌّ»، أي ليس

لهم من عذابِ الله إنْ عَذَّبهم، «وليٌّ»، ينصرهم فيستنقذهم منه. «ولا شفيعٌ»، يشفعُ لهم عند الله تعالى ذِكْرُهُ فيخلصهم من عقابه. «لعلهم يتقون»، يقول: أنذرهم كي يَتَّقُوا اللهَ في أنفسِهم، فيطيعوا رَبَّهم، ويعملُوا لمعادِهم، ويَحْذَرُوا سَخطهُ باجتنابِ معاصيه.

وقيل: «وأنـذر به الـذين يخافون أن يحشروا»، ومعناه، يعلمون أنهم يُحشـرونَ، فوضعت «المخـافة» موضعَ «العلم»، لأنَّ خوفهم كان من أجلِ عِلْمِهم بوقوعِ ذلك ووجوده من غير شَكٍّ منهم في ذلك.

وهذا أمرٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ نبيَّه محمداً ﷺ بتعليمِ أصحابهِ ما أنزل الله إليه من وحيهِ، وتذكيرهم، والإقبال عليهم بالإنذار ـ وصدَّ عنه المشركونَ به، بعدَ الإعذارِ إليهم، وبعد إقامةِ الحجةِ عليهم، حتى يكونَ اللهُ هو الحاكمُ في أمرهم بما يشاءُ من الحكمِ فيهم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

ذُكِـرَ أنَّ هذه الآية نزلت على رسـولِ الله ﷺ، في سببِ جماعةٍ من ضعفاءِ المسلمينَ، قال المشركون له: لو طردتَ هؤلاء عنكَ لغشيناكَ وحَضَرْنَا مجلسكَ!

واختلف أهلُ التأويل في الدعاء الذي كان هؤلاء الرَّهط، الذين نهى اللهُ نبيَّهُ ﷺ عن طردِهم، يدعونَ رَبَّهم به.

فقال بعضهم: هي الصلواتُ الخمس.

وقال آخرون: هي الصلاة، ولكنَّ القومَ لم يسألوا رسولَ الله ﷺ طردَ هؤلاء الضعفاءِ عن مجلسهِ، ولا تأخيرهم عن مجلسهِ، وإنما سألوه تأخيرَهُمْ عن الصفِّ الأولِ، حتى يكونوا وراءَهُمْ في الصفِّ.

وقال آخرون: بل معنى «دعائهم» كان، ذِكْرُهم الله تعالى ذِكْرُهُ.

وقال آخرون: بل كان ذلك، تَعَلُّمهم القرآنَ وقراءته.

وقال آخرون: بل عَنَى بدعائهم رَبَّهم، عبادَتَهُمْ إياهُ.

والصواب من القول في ذلك أنْ يقالَ: إنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ نهى نبيهُ محمداً ﷺ أنْ يطرُدَ قوماً كانوا يدعون رَبَّهم بالغَداةِ والعشيِّ، و«الدعاء لله»، يكون بذكرهِ وتمجيدهِ والثناءِ عليه قولاً وكلاماً ـ وقد يكونُ بالعملِ له بالجوارحِ الأعمالَ التي كان عليهم فرضها، وغيرها من النوافلِ التي تُرْضِي عن العاملِ له عابدَهُ بما هو عاملٌ له. وقد يجوز أنْ يكونَ القومُ كانوا جامعينَ هذه المعاني كلها، فوصفهم اللهُ بذلك بأنهم يَدْعُونَهُ بالغداةِ والعشيِّ، لأنَّ اللهَ قد سَمَّى «العبادَةَ»، «دعاءً»، فقال تعالى ذِكْرُهُ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُم ٱدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، [غافر: ٦٠]. وقد يجوز أن يكون ذلك على خاصٍّ من الدعاء.

ولا قولَ أَوْلى بذلك بالصحة، من وَصْفِ القومِ بما وصفهم اللهُ به: من أنهم كانوا يدعون رَبَّهم بالغَداةِ والعشي، فيعمُّون بالصفة التي وصفهم بها ربهم، ولا يخصُّون منها بشيءٍ دون شيء.

فتأويلُ الكلام إذاً: يامحمد، أنذر بالقرآنِ الذي أنزلتهُ إليكَ، الذين يعلمونَ أنهم إلى رَبِّهم محشورون ـ فهم من خوفِ ورودِهم على الله الذي لا شفيعَ لهم من دونهِ ولا نصير، في العملِ له دائبونَ ـ إذْ أعْرضَ عن إنذارك

واستماعِ ما أنزل الله عليكَ المكذِّبُونَ باللهِ واليومِ الآخرِ من قومك، استكباراً على الله ـ ولا تَطْردهم ولا تُقْصِهم، فتكـونَ ممن وَضَـعَ الإقصـاءَ في غير موضعهِ، فأقصى وطرد مَنْ لم يَكُنْ له طردُه وإقصاؤه، وقَرَّبَ مَنْ لم يكن له تقديمه بقربه وإدناؤه، فإنَّ الذين نهيتُكَ عن طردهم هم الذين يَدْعُونَ رَبَّهم فيسألونَهُ عفوه ومغفرته بصالحِ أعمالِهم، وأداءِ ما ألزمهم من فرائضهِ، ونوافلِ تَطوّعِهم، وذِكْرِهم إياهُ بألسنتهم بالغداة والعشيِّ، يلتمسونَ بذلك القُرْبَةَ إلى الله، والدنوَّ من رِضَاهُ. «ما عليكَ من حسابِهم من شيءٍ»، يقول: ما عليكَ من حسابِ ما رزقتهم من الرزق من شيءٍ وما عليهم من حسابِ ما رزقتكَ من الرزق من شيء. «فتطردهم»، حذارَ محاسبتي إياك بما خَوَّلتهم في الدنيا من الرزق.

وقوله: «فتطردهم»، جوابٌ لقوله: «ما عليكَ من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء».

وقوله: «فتكون من الظالمين» جوابٌ لقوله: «ولا تطرد الذين يدعون ربهم».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ ۝٥٣﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «وكذلك فَتَنَّا بعضَهم ببعض»، وكذلك اختبرنا وابتلينا.

وإنما فتنةُ الله تعالى ذِكْرُهُ بعضَ خَلْقِه ببعضٍ، مخالفتهُ بينهم فيما قَسَمَ لهم من الأرزاقِ والأخلاق، فجعل بعضاً غنيًّا وبعضاً فقيراً، وبعضاً قويًّا، وبعضاً ضعيفاً، فأحوجَ بعضَهم إلى بعضٍ، اختباراً منه لهم بذلك.

وأما قوله: «ليقولوا أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا»، يقول تعالى: اختبرنا الناسَ بالغنى والفقر، والعزِّ والذلِّ، والقوةِ والضعفِ، والهدى والضلال، كي يقــول مَنْ أضلَّهُ الله وأعمـاهُ عن سبيلِ الحق، لِلَّذِينَ هَدَاهُمُ الله ووفَّقهم: «أهؤلاء مَنَّ الله عليهم»، بالهدى والرشد، وهم فقراءُ ضعفاء أذلاء. «مِنْ بيننا»، ونحنُ أغنياءُ أقوياء؟ استهزاءً بهم، ومعاداةً للإسلام وأهله.

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «أليس الله بأعلم بالشاكرين»، وهذا منه تعالى ذِكْرُهُ إجابة لهؤلاء المشركين الذين أنكروا أنْ يكونَ الله هَدَى أهلَ المسكنةِ والضعفِ للحق، وخذلهم عنه وهم أغنياء ـ وتقريرٌ لهم: أنا أعلمُ بمَنْ كان من خَلْقي شاكراً نعمتي، مِمَّنْ هو لها كافرٌ. فَمَنِّي على مَنْ مَنَنْتُ عليه منهم بالهدايةِ، جزاء شكرهِ إيايَ على نعمتي، وتخذيلي مَنْ خذلتُ منهم عن سبيلِ الرشاد، عقوبة كُفْرانهِ إياي نعمتي، لا لغنى الغنيِّ منهم ولا لفقرِ الفقير، لأنَّ الثوابَ والعقابَ لا يستحقُّهُ أحدٌ إلا جزاءً على عملهِ الذي اكتسبه، لا على غِناه وفقره، لأنَّ الغنى والفقرَ والعجزَ والقوةَ ليس من أفعالِ خَلْقي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾

اختلف أهلُ التأويل في الذين عَنَى الله تعالى ذِكْرُهُ بهذه الآية.

فقال بعضهم: عَنَى بها الذين نهى الله نبيَّه عن طردهم.

وقال آخرون: عَنَى بها قوماً استفتوا النبيَّ ﷺ في ذنوبٍ أصابوها عظامٍ، فلم يُؤْيِسْهُم الله من التوبة.

وقال آخرون: بل عُني بها قومٌ من المؤمنين كانوا أشاروا على النبيِّ ﷺ بطرد القومِ الذين نهاهُ الله عن طردهم، فكان ذلك منهم خطيئة، فغفرها الله لهم وعفا عنهم، وأمرَ نبيَّهُ ﷺ إذا أتوه أنْ يُبَشِّرَهُمْ بأنْ قد غَفَرَ لهم خطيئتهم التي سَلَفَتْ منهم بمشورتهم على النبيِّ ﷺ بطردِ القومِ الذين أشاروا عليه بطردهم.

وأوْلى الأقـوالِ في ذلك عندي بتأويل الآية، قولُ مَنْ قال: المعنيُّون بقَوله: «وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فَقُلْ سلامٌ عليكم»، غيرُ الذين نَهَى اللهُ النبيَّ ﷺ عن طردِهم. لأنَّ قولـه: «وإذا جاءك الـذين يؤمنون بآياتنا»، خبرٌ مستأنَفٌ بعد تقضّي الخبرِ عن الذين نهَى اللهُ نبيَّهُ ﷺ عن طردهم. ولو كانوا هم، لقيل: «وإذا جاؤوك فقل سلامٌ عليكم». وفي ابتداء الله الخبرَ عن قصةِ هؤلاء، وتَرْكِهِ وَصْلَ الكلامِ بالخبر عن الأولين، ما ينبىءُ عن أنهم غيرُهم.

فتأويلُ الكلام إذاً ـ إذْ كان الأمر على ما وصفنا ـ: وإذا جاءكَ، يامحمدُ، القـومُ الـذين يصـدِّقُونَ بتنزيلنا وأدلتنا وحججنا، فَيُقِرُّونَ بذلك قولاً وعملاً، مُسْتَرْشِدِيكَ عن ذنوبهم التي سلفت منهم بيني وبينهم، هل لهم منها توبةٌ، فلا تُؤْيِسْهُمْ منها، وقُلْ لهم: «سلام عليكم»، أمَنَةُ اللهِ لكم من ذنوبِكم، أنْ يعـاقبكم عليها بعد توبتكم منها. «كتبَ رَبُكم على نفسهِ الرحمةَ»، يقولِ: قضى ربكم الرحمةَ بخلقِه. «أنه مَنْ عَمِلَ منكم سوءاً بجهالةٍ ثم تابَ من بعده وأصلح فإنه غفورٌ رحيم».

واختلفت القَرَأةُ في قراءة ذلك.

فقرأته عامةُ قَرَأةِ المدنيين: ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً﴾، فيجعلون «أنَّ»

منصوبةً على الترجمة بها عن «الرحمة» ـ ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، على ائتنافِ «إنه» بعد «الفاء» فيكسرونها، ويجعلونها أداةً لا موضع لها، بمعنى: فهو له غفور رحيم ـ أو: فله المغفرة والرحمة[1].

وقـرأهما بعض الكوفيين بفتح «الألف» منهما جميعاً، بمعنى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ ثم ترجم بقـولـه: ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ﴾، عن الرحمة، ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، فيعطف بـ «أَنَّهُ» الثانية على «أنه» الأولى، ويجعلهما اسمين منصوبين.

وقرأ ذلك بعض المكيين وعامةُ قَرَأَةِ أهلِ العراقِ من الكوفة والبصرة: بكسر «الألف» من «إنه» و«إنه» على الابتداء، وعلى أنهما أداتان لا موضعَ لهما.

وأَوْلى القـراءات في ذلك عندي بالصوابِ، قراءةُ مَنْ قرأهما بالكسر: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ إِنَّهُ﴾، على ابتداءِ الكلامِ، وأنَّ الخبرَ قد انتهى عند قولِهِ: «كتب ربكم على نفسه الرحمة»، ثم استؤنِفَ الخبرُ عمَّا هو فاعلٌ تعالى ذِكْرُهُ بِمَنْ عَمِلَ سوءاً بجهالة ثم تابَ وأصلحَ منه.

ومعنى قوله: «إنه من عمل منكم سوءاً بجهالة»، إنه مَن اقترفَ منكم ذنباً فجهـل باقترافه إياه، ثم تابَ وأصلحَ. «فإنه غفورٌ»، لذنبِهِ إذا تابَ وأنابَ، وراجع العمل بطاعةِ الله، وتركَ العودَ إلى مِثْلِه، مع الندمِ على ما فَرَطَ منه. «رحيمٌ»، بالتائبِ أن يعاقبه على ذَنْبِه بعد توبتِهِ منه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٥٥﴾

---

(١) انظر معاني القرآن للفراء: ١/٢٣٦.

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «وكذلك نُفَصِّلُ الآيات»، وكما فصلنا لكَ في هذه السورةِ من ابتدائِها وفاتحتها، يامحمدُ، إلى هذا الموضع، حُجَّتَنا على المشركينَ من عَبَدَةِ الأوثانِ، وأدلتَنا، وميَّزناها لك وبَيَّناها، كذلك نفصِّلُ لك أعلامنا وأدلتنا في كل حقّ يُنْكِرُه أهلُ الباطل من سائرِ أهلِ المللِ غيرهم، فَنُبَيِّنُهَا لكَ، حتى يبين حقُّه من باطلهِ، وصحيحهُ من سقيمهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ، يامحمدُ، لهؤلاء المشركينَ بربِّهم من قومِكَ، العادلينَ به الأوثانَ والأندادَ، الذين يدعونَكَ إلى موافَقَتِهم على دِينهم وعبادةِ الأوثان: إنَّ الله نهاني أنْ أعبدَ الذين تدعون من دونه، فلن أتبعكم على ماتدعونني إليه من ذلك، ولا أوافقكم عليه، ولا أعطيكم محبّتكم وهواكم فيه. وإنْ فعلتُ ذلك، فقد تركتُ محجَّةَ الحق، وسلكتُ على غيرِ الهدى، فصرتُ ضالاً مثلكم على غير استقامة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه ﷺ: «قُلْ»، يامحمدُ، لهؤلاء العادلينَ بربِّهم، الداعينَ لكَ إلى الإشراكِ بربِّكَ. «إنّي على بَيِّنةٍ من ربي»، أي إني على بيانٍ قد تَبَيَّنْتُهُ، وبرهانٍ قد وضحَ لي. «من ربي»، يقول: من توحيدي، وما أنا عليه

من إخلاصِ عُبُودَتِه من غير إشراكِ شيءٍ به.

«وكذبتم به» يقول: وكذبتم أنتم بربكم. و«الهاء» في قوله «به» من ذكر الربِّ جَلَّ وعَزَّ «ما عندي ما تستعجلون به»، يقول: ما الذي تستعجلون من نِقمِ الله وعذابه بيدي، ولا أنا على ذلك بقادرٍ. وذلك أنهم قالوا حين بعثَ اللهُ نبيَّه محمداً ﷺ بتوحيده، فدعاهم إلى اللهِ، وأخبرهم أنه رسولُه إليهم: ﴿هَلْ هٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣]. وقالوا للقرآن: هو أضغاثُ أحلام. وقال بعضهم: بل هو اختلاقٌ اختلقَهُ. وقال آخرون: بل محمدٌ شاعرٌ، فليأتِنا بآيةٍ كما أُرسِلَ الأولونَ ـ فقال اللهُ لنبيهِ ﷺ: أَجِبْهُمْ بأنَّ الآياتِ بيدِ الله لا بيدكَ، وإنما أنتَ رسولٌ، وليس عليكَ إلا البلاغ لما أرسلتَ به، وأنَّ الله يقضي الحقَّ فيهم وفيك، ويفصلُ به بينك وبينهم، فيتبين المُحِقُّ منكم والمُبْطِلُ. «وهو خيرُ الفاصلين»، أي: وهو خير مَنْ بَيَّنَ ومَيَّزَ بين المحق والمبطل وأعدلهم، لأنه لا يقعُ في حُكْمِه وقضائه حَيْفٌ إلى أحدٍ لوسيلةٍ له إليه ولا لقرابةٍ ولا مناسبة، ولا في قضائه جَوْرٌ، لأنه لا يأخذُ الرشوةَ في الأحكامِ فيجور، فهو أعدلُ الحكام وخيرُ الفاصلين.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: «يَقُصُّ الحق».

فقرأ عامةُ قرأةِ الحجازِ والمدينةِ وبعض قرأةِ أهلِ الكوفة والبصرة: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلا للهِ يَقُصُّ الْحَقَّ﴾، بالصاد، بمعنى «القصص»، وتأَوَّلُوا في ذلك قولَ الله تعالى ذِكْرُهُ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾، [يوسف: ٣].

وقرأ ذلك جماعة من قرأة الكوفة والبصرة: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلا للهِ يَقْضِي الْحَقَّ﴾ بالضاد، من «القضاء»، بمعنى الحكم والفصل بالقَضَاء، واعتبروا صحة ذلك بقوله: «وهو خير الفاصلين»، وأنَّ «الفصل» بين المختلفين إنما يكونُ بالقضاء لا بالقَصَص.

وهذه القراءة عندنا أَوْلى القراءتَين بالصواب، لما ذكرنا لأهلِها من العلّة.

فمعنى الكلام إذاً: ما الحكم فيما تستعجلونه به، أيها المشركونَ، من عذابِ الله وفيما بيني وبينكم، إلّا لله الذي لا يجورُ في حكمه، وبيده الخَلْقُ والأمر، يقضي الحَقَّ بيني وبينكم، وهو خيرُ الفاصلين بيننا بقضائهِ وحُكْمه.

القَوْلُ فِي تَأْويل قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ، يامحمد، لهؤلاء العادلينَ بربِّهم الآلهةَ والأوثانَ، المُكَذِّبيك فيما جِئْتَهُمْ به، السائِليكَ أنْ تأتيهم بآيةٍ استعجالاً منهم بالعذاب: لو أنَّ بيدي ما تستعجلونَ به من العذابِ. «لقضي الأمر بيني وبينكم»، ففصل ذلك أسرع الفصل، بتعجيلي لكم ما تسألوني من ذلك وتستعجلونه، ولكن ذلك بيد الله، الذي هو أعلمُ بوقتِ إرسالهِ على الظالمين، الذين يضعونَ عبادتهم التي لا تنبغي أنْ تكونَ إلّا لله في غيرِ موضعها، فيعبدون من دونهِ الآلهةَ والأصنامَ، وهو أعلمُ بوقتِ الانتقامِ منهم، وحالِ القضاء بيني وبينهم.

القَوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ﴾

يقول: وعند الله مفاتحُ الغيب.

و«المفاتح» جمع «مِفْتَح»، يقال فيه: «مِفْتح» و«مِفْتَاح». فَمَنْ قال: «مِفْتَح»، جمعه «مفاتح»، ومَنْ قال: «مفتاح»، جمعه «مفاتيح».

ويعني بقوله: «وعنده مفاتح الغيب»، خزائنُ الغيبِ.

فتأويل الكلام إذاً: واللهُ أعلمُ بالظالمينَ من خَلْقِه، وما هُمْ مستحقُّوه وما هو بهم صانعٌ، فإنَّ عنده عِلْم ما غاب علمه عن خَلْقِه فلم يَطَّلِعُوا عليه ولم يُدْرِكُوه، ولن يعلموه ولن يدركوه. «ويعلم ما في البر والبحر»، يقول: وعنده عِلْمُ ما لم يغب أيضاً عنكم، لأنَّ ما في البر والبحر مما هو ظاهر للعين، يعلمُه العبادُ. فكأنَّ معنى الكلام: وعند الله عِلْم ما غابَ عنكم، أيها الناسُ، مما لا تعلمونه ولن تعلموه مما استأثرَ بعلمِه نفسَهُ، ويعلمُ أيضاً مع ذلك جميعَ ما يعلمه جميعُكم، لا يَخْفى عليه شيءٌ، لأنه لا شيءَ إلا ما يخفى عن الناس أو مالا يخفى عليهم. فأخبر تعالى ذِكْرُه أن عنده علم كُلِّ شيءٍ كانَ ويكونُ، وما هو كائنٌ مما لم يكن بَعْدُ، وذلك هو الغيب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾

يقول تعالى ذكره: ولا تسقط ورقةٌ في الصحاري والبراري، ولا في الأمصار والقرى، إلا اللهُ يعلمها. «ولا حبةٍ في ظُلماتِ الأرضِ ولا رطبٍ ولا يابس إلا في كتاب مبين»، يقول: ولا شيء أيضاً مما هو موجود، أو ممّا سيوجدُ ولم يوجدْ بَعْدُ، إلا وهو مثبتٌ في اللوحِ المحفوظ، مكتوبٌ ذلك فيه، ومرسوم عددُه ومبلغه، والوقت الذي يوجدُ فيه، والحالُ التي يفنى فيها.

ويعني بقوله: «مبين»، أنه يبين عن صِحَّةِ ما هُوَ فيه، بوجود ما رُسم فيه على ما رُسم.

فإنْ قال قائل: وما وجهُ إثباتهِ في اللوح المحفوظِ والكتابِ المبين، مالا يَخْفَى عليه، وهو بجميعه عالمٌ لا يُخَاف نسيانه؟

قيل له: لله تعالى ذِكْرُه فِعْل ما شاء. وجائزٌ أنْ يكونَ كانَ ذلك منه امتحاناً منه لحفَظَتِه، واختباراً للمتوكلينَ بكتابةِ أعمالهم، فإنهم فيما ذُكِرَ مأمورونَ بكتابةِ أعمالِ العبادِ، ثم بعرضها على ما أثبته الله من ذلك في اللوحِ المحفوظ، حتى أثبت فيه ما أثبت كل يوم. وقيل إن ذلك معنى قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، [الجاثية: ٢٩]. وجائزٌ أنْ يكونَ ذلك لغير ذلك، مما هو أعلمُ به، إمّا بحجةٍ يحتجُّ بها على بعضِ ملائكته، وإما على بني آدم وغير ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه ﷺ: وقُلْ لهم، يامحمدُ، والله أعلم بالظالمين، والله هو الذي يتوفى أرواحكم بالليل فيقبضها من أجسادكم. «ويعلمُ ماجرحتم بالنهار»، يقول: ويعلمُ ماكسبتم من الأعمال بالنهار.

وأما «الاجتراح» عند العربِ، فهو عملُ الرجلِ بيده أو رجله أو فمه، وهي «الجوارح» عندهم، جوارح البدن فيما ذُكِرَ عنهم. ثم يقال لِكُلِّ مكتسبٍ عملاً «جارح»، لاستعمالِ العربِ ذلك في هذه «الجوارح»، ثم كَثُرَ ذلك في الكلام حتى قِيلَ لكل مُكْتَسِبٍ كَسْباً، بأيِّ أعضاءِ جسمِه اكتسب: «مُجْتَرِحٌ».

وهذا الكلامُ وإنْ كان خبراً من الله تعالى ذِكْرُهُ عن قُدْرتهِ وعلمه، فإنَّ فيه احتجاجاً على المشركينَ به، الذين كانوا يُنكرونَ قدرته على إحيائِهم بعد مماتهم وبعثهم بعد فنائهم. فقال تعالى ذِكْرُهُ محتجاً عليهم: «وهو الذي

يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى»، يقول: فالذي يقبضُ أرواحكم بالليل ويبعثكم في النهار لتبلغوا أجلاً مسمى، وأنتم ترون ذلك وتعلمون صحّتَهُ، غير منكرٍ له القدرة على قبضِ أرواحِكم وإفنائكم، ثم رَدِّها إلى أجسادِكم، وإنشائِكم بعد مماتِكم، فإنَّ ذلك نظير ما تُعاينونَ وتشاهدون. وغير منكر لمن قَدَرَ على ما تعاينون من ذلك، القدرةُ على ما لم تُعاينوه. وإنَّ الذي لم تروه ولم تعاينوه من ذلك، شبيه مارأيتم وعاينتم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٦٠﴾

يعني تعالى ذِكْرُه: «ثم يبعثكم»، يثيركم ويوقظكم من منامكم. «فيه» يعني: في النهار، و«الهاء» التي في «فيه» راجعةٌ على «النهار». «ليقضى أجلٌ مسمى»، يقول: ليقضيَ اللهُ الأجلَ الذي سَمَّاهُ لحياتكم، وذلك الموت، فيبلغ مدته ونهايته. «ثم إليه مرجعكم»، يقول: ثم إلى الله مَعَادكم ومصيركم. «ثم ينبئكم بما كنتم تعملون»، يقول: ثم يخبركم بما كنتم تعملون في حياتكم الدنيا، ثم يجازيكم بذلك، إنْ خيراً فخيراً وإنْ شرًّا فشرًّا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ٦١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وهو القاهر»، والله الغالبُ خَلْقَهُ، العالي عليهم بقدرته، لا المقهور من أوثانهم وأصنامهم، المذلَّل المَعْلُوّ عليه لِذِلَّتِهِ. «ويرسل عليكم حفظة»، وهي ملائكتُه الذين يَتَعاقَبُونَكُمْ ليلاً ونهاراً، يحفظونَ أعمالَكُمْ ويحصونها، ولا يفرطون في حِفْظِ ذلك وإحصائهِ ولا يُضيعون.

فإنْ قال قائل: أَوَ ليسَ الذي يقبضُ الأرواحَ مَلَكُ الموتِ، فكيف قيل: «توفته رسلنا»، «والرسلُ» جملة وهو واحدٌ؟ أو ليس قد قال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾، [السجدة: ١١]؟

قيل: جائزٌ أنْ يكونَ الله تعالى ذِكْرُهُ أعانَ مَلَكَ الموت بأعوانٍ من عنده، فيتولون ذلك بأمرِ ملك الموت، فيكون «التوفي» مضافاً ـ وإنْ كان ذلك من فعل أعوانِ ملك الموت ـ إلى ملك الموت، إذْ كان فعلهم ما فَعَلُوا من ذلك بأمره، كما يضافُ قَتْلُ مَنْ قَتَلَ أعوانُ السلطان وجَلْدُ مَنْ جلدوه بأمرِ السلطان، إلى السلطانِ، وإنْ لم يكن السلطانُ باشرَ ذلك بنفسه، ولا وليه بيده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: ثم ردت الملائكة الذين توفَّوهم فقبضوا نفوسهم وأرواحهم، إلى الله سيدهم الحق. «ألا له الحكم»، يقـول: ألا له الحُكْمُ والقضاءُ دون مَنْ سواه من جميع خلقه. «وهو أسرعُ الحاسبين»، يقول: وهو أسـرع مَنْ حَسَبَ عددكم وأعمـالكم وآجـالكم وغير ذلك من أموركم، أيها الناسُ، وأحصاها، وعَرَفَ مقاديرها ومبالغها، لأنه لا يحسبُ بعقدِ يدٍ، ولكنه يعلمُ ذلك ولا يَخْفَى عليه منه خافيةٌ، و﴿لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَلاَ أَصْغَرُ مِنْ ذٰلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه لنبيهِ ﷺ: قُلْ، يامحمدُ، لهؤلاء العادلينَ بربهم، الداعينَ إلى عبادةِ أوثانهم: من الذي ينجيكم. «من ظلمات البر»، إذا ضللتم فيه فتحيَّرتم، فأظلم عليكم الهدى والمحجة، ومن ظلماتِ البحرِ إذا ركبتموهُ، فأخطأتم فيه المحجةَ، فأظلم عليكم فيه السبيلُ، فلا تهتدون له ـ غير الله الذي إليه مفزعكم حينئذ بالدعاء. «تضرعاً»، منكم إليه واستكانةً جهراً. «وخفية»، يقول: وإخفاء للدعاء أحياناً، وإعلاناً وإظهاراً تقولون: لَئِنْ أنجيتَنَا من هذه يارب ـ أي من هذه الظلماتِ التي نحنُ فيها. «لنكونن من الشاكرين»، يقول: لنكونن ممن يُوَحِّدُكَ بالشكرِ، ويخلصُ لكَ العبادةَ، دونَ مَنْ كُنّا نشركه معكَ في عبادتك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝٦٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ لهؤلاء العادلينَ بربِّهم سِواهُ من الآلهة، إذا أنتَ استفهمتَهُمْ عَمَّنْ به يَستعينونَ عند نزولِ الكربِ بهم في البر والبحر: الله القادرُ على فَرَجكم عند حُلولِ الكرب بكم، ينجيكم من عظيمِ النازلِ بكم في البر والبحر مِنْ هَمِّ الضلالِ وخوفِ الهلاكِ، ومن كُلِّ كربٍ سوى ذلك وهَمٍ ـ لا آلهتكُم التي تُشْرِكُونَ بها في عبادته، ولا أوثانكُم التي تعبدونَها من دونه، التي لا تقدرُ لكم على نفعٍ ولا ضُرٍّ، ثم أنتم بعد تَفَضُّلِه عليكم بكشفِ النازلِ بكم من الكربِ، ودفعِ الحالِّ بكم من جسيمِ الهَمِّ، تَعْدِلُونَ به آلهتَكُم وأصنامَكُم، فتشركونها في عبادَتِكم إياهُ. وذلك منكم جهلٌ بواجبِ حقهِ عليكم، وكفرٌ لأياديهِ عندكم، وتعرضٌ منكم لإنزالِ عقوبتهِ عاجلاً بكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ لهؤلاء العادلينَ بربهم غيره من الأصنامِ والأوثان، يامحمد، إنَّ الذي ينجيكم من ظلماتِ البرِّ والبحرِ ومِن كُلِّ كربٍ، ثم تعـودون للإشراكِ به، هو القادرُ على أن يرسلَ عليكم عذاباً من فوقِكم أو من تحتِ أرجلكم، لِشِـرْكِكُمْ به، وادِّعـائِكم معه إلهاً آخرَ غيره، وكفرانِكم نِعَمَهُ، مع إسباغهِ عليكم آلاءَهُ ومِنَنَهُ.

وقد اختلف أهلُ التأويل في معنى «العذاب» الذي تَوَعَّدَ اللهُ به هؤلاء القومِ أنْ يبعثَهُ عليهم من فوقهم أو من تحتِ أرجلِهم.

فقال بعضهم: أما العذاب الذي توعدهم به أن يبعثه عليهم من فوقهم، فالرجم، وأما الذي توعدهم أن يبعثه عليهم من تحتهم، فالخسف.

وقـال آخـرون: عَنَى بالعذاب من فوقكم، أئمة السوء. «أو من تحت أرجلكم»، الخدم وسفلة الناس.

وأَوْلى التأويلين في ذلك بالصواب عندي، قولُ مَنْ قالَ: عَنَى بالعذاب من فوقهم، الرجمَ أو الطوفانَ وما أشبه ذلك ممـا ينزل عليهم من فوق رؤوسهم - ومن تحت أرجلهم، الخسفَ وما أشبهه. وذلك أن المعروفَ في كلامِ العربِ من معنى «فوق» و«تحت» الأرجل، هو ذلك، دونَ غيرِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أو يخلطكم «شيعاً»، فرقاً، واحدتها «شيعة».

وأما قوله: «يلبسكم» فهو من قولك: «لَبَسْتُ عليه الأمرَ»، إذا خلطت، «فأنا ألبِسه». وإنما قلتُ إنَّ ذلك كذلك، لأنه لا خِلافَ بين القَرَأةِ في ذلكَ بكسرِ «الباء»، ففي ذلك دليلٌ بَيِّنٌ على أنه من: «لبسَ يلبِس»، وذلك هو معنى الخلط. وإنما عَنَى بذلك: أو يخلطكم أهواءً مختلفةً وأحزاباً مفترقة.

وأما قوله: «ويُذِيقَ بعضَكم بأسَ بعض»، فإنه يعني: يقتلُ بعضَكم بيدِ بعضٍ.

ثم اختلف أهلُ التأويل فيمن عنى بهذه الآية.

فقال بعضهم: عُني بها المسلمون من أمةِ محمدٍ ﷺ، وفيهم نزلت.

وقال آخرون: عُني ببعضِها أهلُ الشرك، وببعضها أهلُ الإسلام.

والصوابُ من القول عندي أنْ يقالَ: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه تَوَعَّدَ بهذه الآيةِ أهلَ الشركِ به من عَبَدَةِ الأوثانِ، وإيَّاهُمْ خاطبَ بها، لأنها بين إخبارٍ عنهم وخطابٍ لهم، وذلك أنها تتلو قولَهُ: «قُلْ مَنْ ينجيكم من ظُلمات البَرِّ والبحرِ تَدْعُونه تضرعاً وخُفْيَةً لئن أنجانا من هذه لنكونَنَّ من الشاكرين* قُلِ اللهُ ينجيكم منها ومِنْ كل كَرْبٍ ثم أنتم تشركون»، ويتلوها قوله: «وكَذَّبَ به قومُكَ وهو الحَقُّ». وغيرُ جائزٍ أنْ يكون المؤمنون كانوا به مكذبين، فإذا كان غير جائزٍ أن يكونَ ذلك كذلك، وكانت هذه الآيةُ بين هاتين الآيتين، كان بَيِّناً أنَّ ذلك وعيدٌ لمن تَقَدَّمَ وصف الله إياهُ بالشركِ، وتأخر الخبرُ عنه بالتكذيب ـ لا لِمَنْ لم يَجْرِ له ذِكْرٌ. غير أنَّ ذلكَ وإنْ كان كذلك، فإنه قد عَمَّ وعيدُه بذلك كُلَّ مَنْ سلكَ سبيلهم من أهلِ الخلافِ على الله وعلى رسوله، والتكذيب بآياتِ الله من هذه وغيرها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: انظر، يامحمدُ، بعينِ قلبكَ إلى ترديدنا حُجَجنا على هؤلاءِ المكذبين بربِّهم - الجاحدين نعمه، وتَصْريفناها فيهم. «لعلهم يفقهون»، يقول: ليفقهوا ذلك ويعتبروه، فيذَّكروا ويَزْدَجِرُوا عما هُمْ عليه مُقيمونَ مما يسخطه الله منهم، من عبادةِ الأوثانِ والأصنامِ، والتكذيبِ بكتابِ الله تعالى ذِكْرُه ورسوله ﷺ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وكَذَّبَ، يامحمد، قومُكَ بما تقولُ وتُخْبِرُ وتُوعِدُ من الـوعيدِ. «وهـو الحق»، يقـول: والـوعيدُ الذي أوعدناهم على مقامهم على شركهم: من بعثِ العذابِ من فوقِهم، أو من تحتِ أرجلهم، أو لبسهم شيعاً، وإذاقة بعضِهم بأسَ بعض. «الحق الذي لا شَكَّ فيه أنه واقعٌ إنْ هُمْ لم يتوبوا ويُنِيبوا مما هُمْ عليه مقيمونَ من معصيةِ الله والشرك به، إلى طاعةِ الله والإيمانِ به. «قل لستُ عليكم بوكيل»، يقول: قُلْ لهم، يامحمدُ، لست عليكم بحفيظٍ ولا رقيبٍ، وإنما أنا رسولٌ أبلِّغُكم ما أُرسِلْتُ به إليكم. «لِكُلِّ نبأٍ مستقر»، يقول: لكلِّ خبرٍ مستقرٌ، يعني: قرارٌ يستقرُّ عنده، ونهايةٌ ينتهي إليه، فيتبين حَقُّه وصِدْقُه، مِنْ كَذبهِ وباطِله. «وسوف تعلمون»، يقول: وسوف تعلمونَ، أيهـا المكـذِّبُونَ بصحةِ ما أخبركُمْ به من وعيدِ الله إياكم، أيها المشركونَ،

حقيقته عند حلولِ عذابهِ بكم، فرأوا ذلك وعاينوه، فقتلهم يومئذٍ بأيدي أوليائه من المؤمنين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وإذا رأيتَ، يامحمدُ، المشركينَ الذين يخوضون في آياتنا التي أنزلناها إليكَ، ووحينا الذي أوحيناهُ إليكَ، و«خوضهم فيها»، كان استهزاءَهم بها، وسبَّهم مَنْ أنزلها وتكلم بها، وتكذيبهم بها. «فأعرض عنهم»، يقول: فَصُدَّ عنهم بوجهك، وقُمْ عنهم، ولا تجلسْ معهم. «حتى يخوضوا في حديثٍ غيره»، يقول: حتى يأخذوا في حديث غير الاستهزاءِ بآياتِ الله من حديثهم بينهم. «وإما يُنْسِيَنَّكَ الشيطانُ»، يقول: وإنْ أنساكَ الشيطان نَهْيَنَا إياكَ عن الجلوسِ معهم والإعراض عنهم في حال خوضهم في آياتنا، ثم ذكرتَ ذلك، فَقُمْ عنهم، ولا تقعد بعد ذكرك ذلك مع القومِ الظالمينَ الذين خاضوا في غير الذي لهم الخوضُ فيه بما خاضوا به فيه. وذلك هو معنى «ظلمهم» في هذا الموضع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومَن اتَّقى الله فَخَافَهُ، فأطاعه فيما أَمَرَهُ به، واجتنبَ ما نَهاهُ عنه، فليس عليه بتركِ الإعراضِ عن هؤلاء الخائضينَ في آياتِ الله في حال خوضهم في آياتِ الله، شيءٌ من تَبِعَةٍ فيما بينه وبين الله، إذا لم يَكُنْ

تركه الإعراضَ عنهم رِضًى بما هُمْ فيه، وكان لله بحقوقه متقياً، ولا عليهِ من إثمهم بذلك حَرَجٌ، ولكن ليعرضوا عنهم حينئذٍ ذكرى لأمرِ الله «لعلهم يتقون»، يقول: لِيَتَّقوا.

وقد ذُكِرَ أنَّ النبيَّ ﷺ إنما أُمِرَ بالقيام عن المشركين إذا خَاضُوا في آياتِ الله، لأنَّ قيامه عنهم كانْ مما يَكْرَهُونَهُ، فقال اللهُ له: إذا خاضُوا في آياتِ الله فَقُمْ عنهم، ليتقوا الخوضَ فيها ويتركوا ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: ذَرْ هؤلاء الذين اتَّخَذُوا دِينَ الله وطاعتهم إياه لَعِباً ولهواً، فجعلوا حظوظهم من طاعتهم إياه اللعبَ بآياتِهِ، واللهوَ والاستهزاء بها إذا سمعوها وتُلِيَتْ عليهم، فأعرِضْ عنهم، فإنِّي لهم بالمرصاد، وإني لهم من وراء الانتقامِ منهم والعقوبة لهم على ما يفعلون، وعلى اغترارهم بزينةِ الحياةِ الدنيا، ونسيانهم المعادَ إلى الله تعالى ذِكْرُه والمصيرَ إليه بعد الممات.

وقد نسخ الله تعالى ذِكْرُه هذه الآيةَ بقوله: ﴿ٱقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾، [التوبة: ٥].

وأما قوله: «وذَكِّرْ به أنْ تُبْسَلَ نفسٌ بما كسبت»، فإنه يعني به: وذَكِّرْ، يامحمدُ، بهذا القرآن هؤلاء المولِّين عنكَ وعنه «أن تبسل نفس»، بمعنى: أنْ لا تُبْسَلَ، كما قال: ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾، [النساء: ١٧٦]، بمعنى: أن لا تضلوا ـ وإنما معنى الكلام: وذَكِّرْهُمْ به ليؤمنوا ويتبعوا ما جاءهم من عند

الله من الحق، فلا تُبسل أنفُسُهم بما كسبتْ من الأوزار ولكن حذفت «لا»، لدلالةِ الكلامِ عليها.

واختلف أهلُ التأويل في تأويلِ قوله: «أنْ تُبْسَلَ نفس».

فقال بعضهم: معنى ذلك: أن تُسْلَمَ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: تُحْبَسَ.

وقال آخرون: معناه: تُفْضَحَ.

وقال آخرون: معناه: أن تُجْزَى.

وأصلُ «الإبسال» التحريم، يقال منه: «أبسلت المكان»، إذا حَرَّمته فلم يُقْرَب.

فتأويلُ الكلام إذاً: وذكِّرْ بالقرآنِ هؤلاء الذين يخوضون في آياتنا وغيرهم ممن سلكَ سبيلَهُمْ من المشـركينَ، كيلا تُبسلَ نفسٌ بذنوبها وكفرها بربها، وترتهن فتغلق بما كسبتْ من إجرامها في عذاب الله «ليس لها من دون الله»، يقول: ليس لها، حين تسلم بذنوبها فترتهن بما كسبتْ من آثامها، أحدٌ ينصرها فينقذها من الله الذي جازاها بذنوبها جزاءها «ولا شفيع»، يشفعُ لها لوسيلة له عنده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ

يقول تعالى ذِكْرُه: وإنْ تَعْدِل النفسُ التي أُبسلتْ بما كسبت: يعني: «وإنْ تعدل كل عدل»، يعني: كل فداء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمۡ

﴿شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ۝٧٠﴾

يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين إنْ فَدَوْا أنفُسَهم من عذاب الله يومَ القيامة كُلَّ فداءٍ لم يُؤخَذْ منهم، هم «الذين أُبْسِلُوا بما كسبوا»، يقول: أُسْلِمُوا لعذابِ الله، فرهنوا به جزاءً بما كَسَبُوا في الدنيا من الآثام والأوزار. «لهم شرابٌ من حميم». و«الحميم» هو الحارّ، في كلام العرب، وإنما هو «محموم» صرف إلى «فعيل».

وإنما جعل تعالى ذِكْرُه لهؤلاء الذين وَصَفَ صِفَتهم في هذه الآية شراباً من حميم، لأنَّ الحارَّ من الماءِ لا يروي من عَطَشٍ. فأخبرَ أنهم إذا عطشوا في جهنمَ لم يُغَاثُوا بماءٍ يرويهم، ولكن بما يَزِيُدونَ به عطشاً على ما بِهِمْ من العطش «وعذاب أليم»، يقول: ولهم أيضاً مع الشرابِ الحميمِ من الله العذابُ الأليم والهوانُ المقيم «بما كانوا يكفرون»، يقول: بما كان من كُفْرِهم في الدنيا بالله، وإنكارِهم توحيدَهُ، وعبادَتِهم مَعَهُ آلهةً دونه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا اللَّهُ كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِى الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا﴾

وهذا تنبيه من الله تعالى ذِكْرُه نبيه ﷺ على حُجَّتِه على مُشْرِكي قومِهِ من عَبَدَةِ الأوثانِ. يقول له تعالى ذِكْرُه: قُلْ، يامحمدُ، لهؤلاء العادلينَ بربِّهم الأوثانَ والأندادَ، والآمرينَ لكَ باتِّباعِ دِينهم وعبادةِ الأصنامِ معهم: أَنَدْعُو من دونِ الله حجراً أو خشباً لا يقدرُ على نَفْعِنَا أو ضرنا، فَنَخُصّه بالعبادةِ دون الله، وندع عبادةَ الذي بيدهِ الضَّرُّ والنفعُ والحياةُ والموت، إنْ كنتم تَعقلونَ فتميِّزُون

بين الخير والشـرِ؟ فلا شَكَّ أنكم تعلمون أنَّ خدمةَ ما يُرْتَجَى نفعهُ ويُرْهَبَ ضُرُّهُ، أحَقُّ وأولى من خدمةِ مَنْ لا يُرْجَى نفعهُ ولا يُخْشَى ضُره!

«ونردّ على أعقابنا»، يقول: ونرد إلى أدبارنا، فنرجع القهقرى خَلْفَنا، لم نظفر بحاجتنا.

وإنما يراد به في هذا الموضع: ونرد من الإسلام إلى الكفرِ «بعد إذْ هدانا الله»، فوفَّقَنـا له، فيكون مثلنا في ذلك مثل الرجل الذي استتبعه الشيطانُ، يهوي في الأرض حيران.

وقوله: «استهوته»، «استفعلته»، من قولِ القائل: «هوى فلانٌ إلى كذا يهـوي إليه»، ومن قولِ الله تعـالى ذكره: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾، [إبراهيم: ٣٧]، بمعنى: تَنْزِعُ إليهم وتريدهم.

وأما «حيران»، فإنه «فعلان» من قول القائل: «قد حار فلان في الطريق، فهو يَحَار فيه حَيرة وحَيَرَاناً وحَيرُورة»، وذلك إذْ ضَلَّ فلم يَهْتَدِ للمحجَّةِ.

«له أصحابٌ يدعونه إلى الهدى»، يقول: لهذا الحيرانِ الذي قد استهوتهُ الشياطينُ في الأرض، أصحابٌ على المحجةِ واستقامةِ السبيلِ، يَدْعُونَهُ إلى المَحَجَّةِ لطريقِ الهدى الذي هُمْ عليه، يقولونه له: ائتنا.

وهـذا مَثَـلٌ ضَرَبَـهُ الله تعـالى ذِكْرُه لِمَنْ كَفَـرَ بالله بعد إيمانه، فاتبعَ الشياطينَ، من أهـلِ الشـركِ بالله ـ وأصحابه الذين كانوا أصحابه في حالِ إسـلامـه، المقيمـونَ على الدينِ الحقِّ، يَدْعُونَهُ إلى الهدى الذي هُمْ عليه مُقِيمونَ، والصوابِ الذي هم به مُتَمَسِّكُونَ، وهو له مفارقٌ وعنه زائلٌ، يقولونه له: «ائتنـا فَكُنْ معنـا على استقـامةٍ وهدى»! وهو يأبى ذلك، ويتبع دواعي الشيطان، ويعبد الآلهة والأوثان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه ﷺ: قُلْ، يامحمدُ، لهؤلاء العادلينَ بربِّهم الأوثان، القائلينَ لأصحابكَ: «اتَّبعُوا سبيلَنا ولنحملْ خطاياكم، فإنَّا على هدى» ـ: ليسَ الأمرُ كما زعمتم ـ «إنَّ هُدى الله هو الهدى»، يقول: إنَّ طريقَ الله الذي بَيَّنَهُ لنا وأوضَحَهُ، وسبيله الذي أمرنا بلزومهِ، ودِينهُ الذي شَرَعَهُ لنا فَبَيَّنَهُ، هو الهُدَى والاستقامةُ التي لا شَكَّ فيها، لا عبادة الأوثانِ والأصنام التي لا تضرُّ ولا تنفع، فلا نترك الحَقَّ ونتبع الباطلَ. «وأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لربِّ العالمين»، يقول: وأمرَنا رَبُّنَا وربّ كُلِّ شيءٍ تعالى وَجْهُه، لِنُسْلِمَ له، لنخضعَ له بالذلَّةِ والطاعةِ والعبوديةِ، فنخلصَ ذلك له دونَ ماسِواهُ من الأندادِ والآلهة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

(يعني): وأمرنا بإقامةِ الصلاة، وذلك أداؤها بحدودها التي فرضت علينا. «واتقوه»، يقول: واتقوا رَبَّ العالمينَ الذي أمرنا أنْ نسلم له، فَخَافُوه واحْذَرُوا سَخطه، بأداءِ الصلاةِ المفروضةِ عليكم، والإذعانِ له بالطاعة، وإخلاصِ العبادةِ له. «وهو الذي إليه تُحْشَرُونَ»، يقول: ورَبُّكم رَبُّ العالمين، هو الذي إليه تُحشرونَ فَتُجْمَعُونَ يومَ القيامة، فيجازي كُلَّ عاملٍ منكم بعمله، وتُوفَّى كُلُّ نفسٍ ما كسبت.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ

﴿بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾

إن الله تعالى ذِكْرُه أخبرَ أنه المنفردُ بخلقِ السمواتِ والأرض دونَ كُلِّ ماسِواهُ، مُعَرِّفاً مَنْ أشركَ به من خَلْقِه جهلَهُ في عبادةِ الأوثانِ والأصنام، وخطأَ ما هُمْ عليه مُقيمونَ من عبادة مالا يَضُرُّ ولا ينفع، ولا يقدرُ على اجتلابِ نفعٍ إلى نفسه، ولا دفع ضُرٍّ عنها ـ ومُحْتَجًّا عليهم في إنكارهم البعثَ بعد المماتِ والثوابَ والعقاب، بقدرتِه على ابتداعِ ذلك ابتداءً، وأنَّ الذي ابتدع ذلك غير متعذرٍ عليه إفناؤه ثم إعادتُه بعد إفنائهِ، فقال: «وهو الذي خلق»، أيها العادلونَ بربِّهم مَنْ لا ينفعُ ولا يضرُّ ولا يقدرُ على شيءٍ. «السمواتِ والأرض بالحق»، حجة على خلقه، ليعرفوا بها صانعها، وليستدلُّوا بها على عظيمِ قُدْرتِهِ وسلطانِهِ، فيخلِصُوا له العبادة «ويوم يقول كُنْ فيكون»، يقول: ويوم يقولُ حين تُبَدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسمواتُ كذلك: «كُنْ فيكون»، كما شاء تعالى ذِكْرُه، فتكون الأرض غير الأرض ـ ويكون الكلام عند قوله: «كن فيكون» متناهياً.

وإذا كان كذلك معناه، وجب أن يكونَ في الكلام محذوفٌ يدلّ عليه الظاهر، ويكون معنى الكلام: ويوم يقول كذلك: «كن فيكون» تُبَدَّلُ السمواتُ والأرض غيرَ السمواتِ والأرض. ويدلُّ على ذلك قوله: «وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق»، ثم ابتدأ الخبرَ عن القولِ فقال: «قولُه الحق»، بمعنى وعدُهُ هذا الذي وعَدَ تعالى ذِكْرُه، من تبديلِهِ السمواتِ والأرض غيرَ الأرضِ والسموات، الحقُّ الذي لا شَكَّ فيه. «وله المُلْكُ يوم ينفخ في الصور» فيكون قوله: «يوم ينفخ في الصور»، من صلة «الملك» ويكون معنى الكلام: ولله الملكُ يومئذٍ، لأنَّ النفخةَ الثانيةَ في الصور حال تبديلِ الله السموات

والأرض غيرهما.

وجائزٌ أنْ يكونَ «القول» أعني: «قوله الحق»، مرفوعاً بقوله: «ويومَ يقولُ كُنْ فيكـون»، ويكون قوله: «كُنْ فيكون» محلاً للقول مرافعاً، فيكون تأويلُ الكلام: وهو الذي خَلَقَ السمواتِ والأرض بالحق، ويومَ يُبَدِّلها غيرَ السموات والأرض، فيقول لذلك: «كُنْ فيكون»، «قولُه الحق».

وأما قوله: «وله الملكُ يومَ ينفخ في الصور»، فإنه خُصَّ بالخبرِ عن ملكه يومئذٍ، وإنْ كان الملكُ له خالصاً في كُلِّ وقتٍ في الدنيا والآخرة، لأنه عَنَى تعالى ذِكْرُه أنه لا مُنازِعَ له فيه يومئذٍ ولا مُدَّعى له، وأنهُ المنفردُ به دونَ كُلِّ من كان ينازعهُ فيه في الدنيا من الجبابرةِ، فأذعنَ جميعُهم يومئذٍ له به، وعَلِمُوا أنَّهم كانوا من دَعْواهُمْ في الدنيا في باطل.

معنى «الصور» في هذا الموضع: هو قرنٌ يُنفخ فيه نفختان: إحداهما لفنـاءِ مَنْ كان حيًّا على الأرض، والثانية لنشرِ كُلِّ مَيْتٍ واعْتَلُّوا لقولهم ذلك بقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَاهُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، وبالخبرِ الذي روي عن رسولِ الله ﷺ أنه قال إذ سئل عن الصور: هو قرن يُنفخ فيه[1].

ويعني بقوله: «عالم الغيب والشهادة»، عالم ما تعاينون: أيها الناسُ، فتشاهدونَهُ، وما يغيبُ عن حواسِّكُم وأبصارِكم فلا تحسونه ولا تبصرونه «وهو الحكيمُ»، في تدبيرِهِ وتصريفِهِ خَلْقَهُ من حالِ الوجودِ إلى العَدَمِ، ثم من حالِ العدم والفناء إلى الوجود، ثم في مجازاتهم بما يجازيهم به من ثوابٍ أو عقاب.

---

(١) أخرجه أحمد: ١٩٢/٢، والترمذي من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص وحَسَّنه (٢٤٣٠)، وأبو داود، والنسائي في الكبرى (كما في التحفة ٨٦٠٨). والحاكم في المستدرك: ٥٦٠/٤، وصححه، ووافقه الذهبي. قلنا: رجاله ثقات فهو صحيح.

«الخبير»، بِكُلِّ ما يعملونه ويكسبونه من حسنٍ وسيىء، حافظ ذلك عليهم ليجازيهم على كل ذلك. يقول تعالى ذكره: فاحذروا، أيها العادلون بربكم، عقابَه، فإنه عليم بكل ما تأتون وتذرون، وهو لكم من وراء الجزاء على ماتعملون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: واذْكُرْ، يامحمدُ ـ لحِجَاجِكَ الذي تحاجُّ به قومكَ، وخصومتكَ إيَّاهُمْ في آلهتهم، وما تراجعهم فيها، مما نُلْقِيه إليكَ ونُعَلمكَهُ من البرهانِ والدلالةِ على باطلِ ما عليه قومكَ مُقيمونَ، وصِحَّةِ ما أنتَ عليه مقيمٌ من الدين، وحقيقة ما أنتَ به عليهم محتجٌّ حِجاجَ إبراهيم خليلي قومَهُ، ومراجعَتَهُ إياهم في باطلِ ما كانوا عليه مقيمينَ من عبادةِ الأوثان، وانقطاعه إلى الله والرِّضَى به وليًّا وناصراً دونَ الأصنامِ، فاتخِذْهُ إماماً واقْتَدِ به، واجعلْ سيرته في قومهِ لنفسكَ مثالاً ـ إذ قال لأبيه مفارقاً لدينه، وعائباً عبادته الأصنامَ دونَ بارئهِ وخالقهِ: ياآزر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن قِيلِ إبراهيم لأبيهِ آزر أنه قال: «أتتخذُ أصناماً آلهة»، تعبدها وتتخذها ربًّا دونَ اللهِ الذي خلقك فسوَّاك ورزقك؟

«إني أراك وقومَك في ضلال مبين»، يقول: «إني أراك»، ياآزرُ، «وقومَك». الذين يعبدونَ معكَ الأصنامَ ويَتَّخِذُونَها آلهةً. «في ضلال»، يقول: في زوالٍ عن محجَّةِ الحقِّ، وعدولٍ عن سبيلِ الصواب. «مبين»، يقول:

يتبين لمن أبصَره أنه جَوْرٌ عن قصدِ السبيل، وزوالٌ عن محجةِ الطريق القويم. يعني بذلك أنه قد ضَلَّ هو وهم عن توحيدِ الله وعبادته، الذي استوجبَ عليهم إخلاصَ العبادةِ له بآلائهِ عندهم، دونَ غيرِهِ من الآلهةِ والأوثان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وكذلك»، وكما أريناه البصيرةَ في دينه، والحقَّ في خِلافهِ ما كانوا عليه من الضلالِ، نُرِيه ملكوتَ السموات والأرض ـ يعني: ملكه.

وأما قوله: «وليكون من الموقنين»، فإنه يعني أنه أراهُ ملكوتَ السمواتِ والأرض، ليكون مِمَّنْ يُقِرُّ بتوحيدِ الله، ويعلم حقيقةَ ما هداهُ له وبَصَّرَهُ إياه، من معرفةِ وحدانيتهِ، وما عليه قومُه من الضلالَةِ، من عبادَتِهم الأصنامَ، واتخاذهم إياها آلهةً دونَ الله تعالى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما واراه الليلُ وغَيَّبَهُ.

وقوله: «رأى كوكباً»، يقول: أبصر كوكباً حين طلع. «قال هذا ربي».

وأما قوله: «فلما أفَلَ»، فإنَّ معناه: فلما غابَ وذهبَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ

﴿أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ۝٧٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فلما طلع القمرُ فرآهُ إبراهيمُ طالعاً، وهو «بُزُوغه». «قال هذا ربي فلما أفل»، يقول: فلما غابَ «قال»، إبراهيمُ، «لئن لم يَهْدِني ربي»، ويوفّقني لإصابةِ الحَقِّ في توحيدِه. «لأكونَنَّ من القومِ الضالين»، أيْ: من القومِ الذين أخطأوا الحَقَّ في ذلك، فلم يُصِيبُوا الهدى، وعبدوا غيرَ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَءَا الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٧٨﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «فلما رأى الشمس بازغة»، فلما رأى إبراهيمُ الشمسَ طالعةً، قال: هذا الطالعُ رَبِّي «هذا أكبرُ»، يعني: هذا أكبرُ من الكوكبِ والقمرِ ـ فحذف ذلك لدلالة الكلام عليه ـ «فلما أفلت»، يقول: فلما غابَتْ، قال إبراهيمُ لقومه «ياقوم إنّي بريءٌ مما تُشركون»، أي: من عبادةِ الآلهةِ والأصنامِ ودعائه إلهاً مع الله تعالى ذِكْرُه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝٧٩﴾

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن خليلِهِ إبراهيمَ عليه السلام: أنه لما تَبيَّنَ لهُ الحَقُّ وعرفَهُ، شَهِدَ شهادةَ الحقِّ، وأظهرَ خِلافَ قومِه أهلِ الباطل وأهلِ الشركِ بالله، ولم يأخذْهُ في اللهِ لومةُ لائمٍ، ولم يستوحشْ من قِيلِ الحقِّ والثباتِ عليه، مع خلافِ جميعِ قومِهِ لقولِه، وإنكارِهم إياهُ عليه، وقال لهم: «ياقوم إنِّي بريء مما تشركون» مع اللهِ الذي خلقني وخلقكم في عبادته من

آلهتكم وأصنامكم، إني وجهتُ وجهيَ في عبادتي إلى الذي خَلَقَ السمواتِ والأرض، الدائم الذي يبقى ولا يفنى، ويُحْيي ويميت ـ لا إلى الذي يفنى ولا يبقى، ويزول ولا يدوم، ولا يضر ولا ينفع.

ثم أخبرهم تعالى ذِكْرُه: أنَّ توجيهَهُ وَجْهَهُ لعبادتِه، بإخلاصِ العبادةِ له، والاستقامةِ في ذلك لربِّهِ على ما يحبُّ من التوحيدِ، لا على الوجه الذي يوجِّه له وَجْهه مَنْ ليس بحنيفٍ، ولكنه به مشرك إذْ كان توجيهُ الوجهِ على غيرِ التحنُّفِ غير نافعٍ موجِّهَهُ، بل ضارّه ومهلكه. «وما أنا من المشركين»، ولستُ منكم، أي: لستُ مِمَّنْ يَدينُ دِينَكُم، ويَتَّبعُ مِلَّتَكُم أيُّها المشركون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَحَاجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وجادل إبراهيمُ قومَهُ في توحيدِ الله وبراءته من الأصنام، وكان جِدالهم إياه قولُهم: أنَّ آلهتهم التي يعبدونها خيرٌ من إلههِ. قال إبراهيمُ: «أتحاجُّونّي في الله»، يقول: أتجادلونني في توحيدي الله وإخلاصي العملَ له دونَ ماسواه من آلهة. «وقد هدان»، يقول: وقد وفَّقني ربي لمعرفةِ وحدانيتهِ، وبَصَّرني طريقَ الحقِّ حتى أيقنتُ أنْ لا شيءَ يستحقُّ أنْ يُعْبَدَ سِواهُ. «ولا أخافُ ما تشركون به»، يقول: ولا أرهبُ من آلهتكم التي تَدْعُونَها من دونه شيئاً ينالني به في نفسي من سوء ومكروه. وذلك أنهم قالوا له: إنا نخافُ أنْ تَمَسَّك آلهتنا بسوءٍ من بَرَصٍ أو خَبَلٍ، لِذِكْرِكَ إياها بسوء! فقال لهم إبراهيم: لا أخافُ ما تشركون بالله من هذه الآلهة أن تنالَني بضر ولا مكروه، لأنها لا تنفعُ ولا تضر. «إلا أن يشاء ربي شيئاً»، يقول: ولكن خوفي من الله الذي

خلقني وخلقَ السموات والأرض، فإنه إنْ شاء أنْ ينالني في نفسي أو مالي بما شاء من فناءٍ أو بقاءٍ، أو زيادةٍ أو نقصان أو غير ذلك، نالني به، لأنه القادرُ على ذلك.

«وسع ربي كُلَّ شيءٍ علماً»، يقول: وعلم ربي كلَّ شيء، فلا يخفى عليه شيءٌ، لأنه خالقُ كُلِّ شيء، ليس كالآلهة التي لا تضرُّ ولا تنفع ولا تفهم شيئاً، وإنما هي خشبة منحوتةٌ، وصورة ممثلة. «أفلا تتذكرون»، يقول: أفلا تعتبرون، أيها الجهلةُ، فتعقِلُوا خطأً ما أنتم عليه مُقيمونَ، من عبادتكم صورةً مصوَّرةً وخشبةً منحوتة، لا تقدرُ على ضر ولا على نفع، ولا تفقه شيئاً ولا تعقله ـ وترككم عبادةَ من خلقكم وخَلَقَ كُلَّ شيء، وبيدهِ الخيرُ، وله القدرةُ على كل شيء، والعالم بكل شيء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾

وهذا جوابُ إبراهيمَ لقومهِ حين خَوَّفُوه من آلهتهم أنْ تَمَسَّه، لذكرهِ إياها بسوء، في نفسِه بمكروه، فقال لهم: وكيف أخافُ وأرهبُ ما أشركتموه في عبادتكم ربَّكم فعبدتموه من دونه، وهو لا يضرُّ ولا ينفع؟ ولو كانتْ تنفعُ أو تضر، لَدَفَعَتْ عن أنفسها كَسْرِي إياها وضربي لها بالفأس! وأنتم لا تخافونَ الله الذي خلقكم ورزقكم، وهو القادرُ على نفعكم وضركم في إشراككم في عبادتكم إياه. «ما لم ينزِّلْ به عليكم سلطاناً»، يعني: ما لم يُعْطِكم على إشراكِكم إياهُ في عبادته حُجّة، ولم يضع لكم عليه برهاناً، ولم يجعل لكم به عذراً. «فأيُّ الفريقين أحقُّ بالأمن»، يقول: أنا أحَقُّ بالأمن من عاقبةِ عبادتي

ربِّي مخلصاً له العبادة، حنيفاً له ديني، بريئاً من عبادةِ الأوثانِ والأصنام، أم أنتم الذين تعبدون من دونِ الله أصناماً لم يجعل الله لكم بعبادتكم إياها برهاناً ولا حجة. «إنْ كنتم تعلمون»، يقول: إنْ كنتم تعلمون صِدْقَ ما أقول، وحقيقةَ ما أحتجُّ به عليكم، فقولوا وأخبروني: أيُّ الفريقين أحق بالأمن؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾

اختلف أهلُ التأويل في الذي أخبر تعالى ذِكْرُه عنه أنه قال هذا القول ـ أعني: «الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم»، الآية.

فقال بعضهم: هذا فصلُ القضاء من الله بين إبراهيم خليله ﷺ، وبين مَنْ حاجَّهُ من قومه من أهلِ الشرك بالله، إذْ قال لهم إبراهيم: «وكيف أخافُ ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم يُنَزِّلْ به عليكم سلطاناً فأيُّ الفريقين أحَقُّ بالأمن إنْ كنتم تعلمون»؟ فقال الله تعالى ذِكْرُه، فاصلاً بينه وبينهم: الذين صدَّقوا الله وأخلصُوا له العبادةَ، ولم يخلطوا عبادتهم إياهُ وتصديقَهم له بظلمٍ ـ يعني: بشركٍ ـ ولم يشركوا في عبادته شيئاً، ثم جعلوا عبادتهم لله خالصاً، أحقُّ بالأمنِ من عقابهِ مكروهَ عبادتهِ رَبَّهُ، من الذين يُشركونَ في عبادتهم إياهُ الأوثانَ والأصنامَ، فإنهم الخائفونَ من عقابهِ مكروهَ عبادتهم ـ أمَّا في عاجلِ الدنيا فإنهم وَجِلُونَ من حلولِ سَخَطِ الله بهم، وأما في الآخرة، فإنهم الموقِنُونَ بأليمِ عذابِ الله.

وقال آخرون: هذا جوابٌ من قومِ إبراهيمَ ﷺ لإبراهيم، حين قال لهم: «أيّ الفريقين أحَقُّ بالأمن»؟ فقالوا له: الذين آمنوا بالله فوحَّدُوه أحق بالأمن، إذْ لم يلبسوا إيمانَهم بظلم.

وأَوْلى القولين في ذلك عندي بالصواب، قولُ مَنْ قال: هذا خبرٌ من الله، تعالى ذِكْرُه عن أولى الفريقين بالأمن، وفصل قضاءٍ منه بين إبراهيم ﷺ وبين قومه. وذلك أنَّ ذلك لو كان من قولِ قومِ إبراهيم الذين كانوا يعبدون الأوثانَ ويشركونها في عبادة الله، لكانوا قد أَقَرُّوا بالتوحيدِ واتبعوا إبراهيم على ما كانوا يخالفونه فيه من التوحيدِ، ولكنه كما ذكرت من تأويله بَدِيًّا.

واختلف أهلُ التأويل في المعنى الذي عناه الله تعالى بقوله: «ولم يلبسوا إيمانهم بظلم».

فقال بعضهم: بشركٍ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ولم يخلطوا إيمانهم بشيءٍ من معاني الظلم، وذلك: فِعْلُ ما نهى الله عن فعله، أو ترك ما أمر الله بفعله. وقالوا: الآية على العموم، لأنَّ الله لم يخصَّ به معنىً من معاني الظلم.

قالوا: فإنْ قال لنا قائلٌ: أفلا أمْنَ في الآخرة، إلَّا لمن لم يَعْصِ الله في صغيرةٍ ولا كبيرة، وإلا لمن لقيَ الله ولا ذنبَ له؟

قلنا: إنَّ الله عَنَى بهذه الآية خاصًّا من خَلْقِه دون الجميع منهم، والذي عنى بها وأراده بها، خليلَه إبراهيم ﷺ، فأما غيره، فإنه إذا لقيَ الله لا يشرك به شيئاً فهو في مشيئتِهِ إذا كان قد أتى بعض معاصيه التي لا تبلغ أنْ تكونَ كفراً، فإنْ شاء لم يؤمنه من عذابه، وإن شاء تَفَضَّلَ عليه فعفا عنه.

قالوا: وذلك قولُ جماعةٍ من السلف، وإنْ كانوا مختلفين في المعنيِّ بالآية.

فقال بعضهم: عُني بها إبراهيم.

وقال بعضهم: عُني بها المهاجرون من أصحابِ رسول الله ﷺ.

وأولى القولين بالصحة في ذلك، ماصَحَّ به الخبرُ عن رسول الله ﷺ، وهو الخبر الذي رواه ابن مسعود عنه أنه قال: الظلمُ الذي ذكره الله تعالى ذِكْرُه في هذا الموضع، هو الشرك[1].

وأما قوله: «أولئك لهم الأمن وهم مهتدون»، فإنه يعني: هؤلاء الذين آمنوا ولم يخلطُوا إيمانَهم بشركٍ. «لَهُمُ الأمنُ» يومَ القيامةِ من عذابِ الله. «وهم مهتدون»، يقول: وهُمُ المصيبونَ سبيلَ الرشادِ، والسالكونَ طريقَ النجاة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وتلك حجتنا»، قولَ إبراهيم لمخاصميهِ من قومهِ المشركينَ: «أيُّ الفريقين أحَقُّ بالأمنِ»، أمَّنْ يعبدُ ربًّا واحداً مخلصاً له الدين والعبـادة، أم من يعبدُ أرباباً كثيرة؟ وإجابتهم إياه بقولهم: «بل مَنْ يعبدُ ربًّا واحداً أحق بالأمن»، وقضاؤهم له على أنفسهم، فكان في ذلك قطع عُذْرِهم وانقطاع حُجَّتهم، واستعلاء حجةِ إبراهيمَ عليهم[2]. فهي الحجة التي آتاها الله إبراهيمَ على قومه.

وأمـا قولـه: «إن ربك حكيم عليم»، فإنه يعني: إنَّ ربك، يامحمدُ،

(١) أخرجه الطبري من طرق (١٣٤٧٦ ـ ١٤٨٠، ١٤٨٣) وهو في الصحيحين: البخاري (٣٢) و(٣٣٦٠) و(٣٤٢٨) و(٣٤٢٩) و(٤٦٢٩) و(٤٧٧٦) و(٦٩١٨) و(٦٩٣٧)، ومسلم (١٢٤).

(٢) هذا تناقض من أبي جعفر في تفسيره، فقد ذكر قبل قليل أن الصواب في قوله تعالى: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ أنه خبر من الله تعالى ذكره عن أولى الفريقين بالأمن، ثم عاد هنا فزعم أن ذلك من إجابة قوم إبراهيم لإبراهيم

«حكيم»، في سياسته خلقَه، وتلقينه أنبياءه الحججَ على أممهم المكذِّبةِ لهم، الجاحدة توحيدَ ربهم، وفي غير ذلك من تدبيره. «عليم»، بما يؤولُ إليه أمرُ رُسُلِه والمرسل إليهم، من ثباتِ الأمم على تكذيبهم إياهم، وهلاكهم على ذلك، أو إنابتهم وتوبتهم منه بتوحيد الله تعالى ذِكْرُه وتصديق رسله، والرجوع إلى طاعته.

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: فَأْتَسِ، يامحمدُ، في نفسكَ وقومكَ المُكَـذِّبيكَ، والمشركين، بأبيكَ وخليلي إبراهيم ﷺ، واصبرْ على ما ينوبكَ منهم صَبْرَهُ، فإني بالذي يؤولُ إليه أمرُكَ وأمرُهُمْ عالِمٌ، وبالتدبيرِ فيكَ وفيهم حكيمٌ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فجزينا إبراهيمَ ﷺ على طاعتهِ إيانا، وإخلاصه توحيدَ ربه، ومفارقته دينَ قومهِ المشركينَ بالله، بأنْ رفعنا درجته في عِلِّيينَ، وآتيناهُ أجْرَهُ في الدنيا، ووهبنا له أولاداً خصصناهم بالنبوّةِ، وذريةً شَرَّفناهم منا بالكرامة، وفَضَّلناهم على العالمينَ، منهم: ابنه إسحق، وابن ابنه يعقوب. «كُلًّا هدينا»، يقول: هَدَينا جميعَهم لسبيلِ الرشاد، فوفقناهم للحقِّ والصوابِ من الأديان. «ونـوحـاً هَدَينـا من قَبْـلُ»، يقول: وهدينا لمثل الذي هدينا إبراهيم وإسحق ويعقوب من الحق والصواب، فوفقناه لهـ نوحاً، من قبل إبراهيم وإسحق ويعقوب.

«ومن ذريته داود»، و«الهاء» التي في قوله: «ومن ذريته»، من ذِكْرِ نوح.

وذلك أنَّ الله تعالى ذِكْرُه ذَكَرَ في سياقِ الآيات التي تتلو هذه الآيةَ لوطاً فقال: «وإسمعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلًّا فضلنا على العالمين». ومعلوم أنَّ لوطاً لم يكن من ذريةِ إبراهيم صلى الله عليهم أجمعين. فإذْ كان ذلك كذلك، وكان معطوفاً على أسماء مَنْ سمَّينا من ذريتهِ، كان لا شك أنه لو أُريدَ بالذريةِ ذريةَ إبراهيمَ، لما دخل يونس ولوط فيهم. ولا شك أنَّ لوطاً ليس من ذرّيةِ إبراهيمَ، ولكنه من ذرية نوح. فلذلك وجب أن تكون «الهاء» في «الذرية»، من ذكر نوح.

فتـأويل الكلام: ونوحاً وَفَّقْنَا للحقِّ والصواب من قبل إبراهيم وإسحق ويعقوب، وهَدَينا أيضاً من ذرِّيةِ نوح، داود وسليمان.

«وكذلك نجزي المحسنين»، يقول: تعالى ذِكْرُه: جَزَيْنَا نُوحاً بصبره على ما امتُحِنَ به فينا، بأنْ هديناه فوفَّقناهُ لإصابةِ الحق الذي خذلنا عنه مَنْ عصانا فخالفَ أمرنا ونهينا من قومه، وهَدَيْنَا من ذريته من بعده مَنْ ذَكَرَ تعالى ذِكْرُه من أنبيائهِ لمِثْلِ الذي هديناهُ له. وكما جزينا هؤلاء بِحُسْنِ طاعتهِم إيانا وصبرهم على المِحَنِ فينا، كذلك نجزي بالإحسانِ كُلَّ محسن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: وهدينا أيضاً لمثل الذي هدينا له نوحاً من الهدى والرشاد من ذريته: زكريا بن إدُّو بن برخيًّا، ويحيى ين زكريا، وعيسى بن مريم ابنة عمران بن ياشهم بن أمون بن حزقيا. «وإلياس».

وقوله: «كُلٌّ من الصالحين»، يقول: مَنْ ذكرنا من هؤلاء الذين سَمَّيْنَا «من الصالحين»، يعني: زكريا ويحيى وعيسى وإلياس صلى الله عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ٨٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وهَدَينَا أيضاً من ذرية نوح «إسمعيل» وهو: إسمعيل بن إبراهيم. «واليسع»، هو: اليسع بن أخْطُوب بن العجوز. و«يونس» هو: يونس بن متى. «ولوطاً وكلاًّ فضلنا»، من ذرية نوح ونوحاً، لهم بَيَّنَّا الحَقَّ ووفَّقناهُمْ له، وفَضَّلنا جميعَهُم «على العالمين»، يعني: على عالمِ أزمانِهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٨٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وهَدَيْنَا أيضاً من آباءِ هؤلاء الذين سماهم تعالى ذِكْرُه. «ومن ذُرِّياتِهم وإخوانهم»، آخرينَ سِواهم، لم يُسَمِّهم، للحق والدين الخالص الذي لا شِرْكَ فيه، فوفَّقناهم له. «واجتبيناهم»، يقول: واخْتَرناهُمْ لديننا وبلاغِ رسالتِنا إلى مَنْ أرسلناهم إليه، كالذي اخترنا مِمَّنْ سمَّينا.

«وهديناهم إلى صراطٍ مستقيم»، يقول: وسَدَّدناهم فأرشدناهم إلى طريقٍ غير معوجٍّ، وذلك دينُ الله الذي لا عِوَج فيه، وهو الإسلامُ الذي ارتضاهُ الله ربُّنا لأنبيائهِ، وأمرَ به عبادَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٨٨﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «ذلك هدى الله»، هذا الهدى الذي هديتُ به

مَنْ سَمَّيْتُ من الأنبياءِ والرسل، فوفقتُهم به لإصابةِ الدينِ الحقِّ الذي نالوا بإصابتهم إياهُ رِضَى رَبِّهم، وشرفَ الدنيا، وكرامةَ الآخرة، هو «هدى الله»، يقول: هو توفيقُ الله ولُطْفه الذي يوفِّقُ به مَنْ يشاء، ويلطفُ به لمن أَحَبَّ من خَلْقِه، حتى ينيبَ إلى طاعةِ الله، وإخلاصِ العمل له، وإقراره بالتوحيد، ورفضِ الأوثان والأصنام. «ولو أشركوا لحبطَ عنهم ما كانوا يعملون»، يقول: ولو أشركَ هؤلاء الأنبياءُ الذين سَمَّيناهم، بربِّهم تعالى ذِكْرُه، فعبدوا معه غيرَهُ. «لَحَبِطَ عنهم»، يقول: لبطلَ فذهبَ عنهم أجرُ أعمالِهم التي كانوا يعملون، لأنَّ الله لا يقبلُ مع الشركِ به عملاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «أولئك»، هؤلاء الذين سَمَّيناهم من أنبيائهِ ورسلهِ، نوحاً وذريته الذين هَدَاهم لدينِ الإسلام، واختارهم لرسالتهِ إلى خَلقِه، هم «الذين آتيناهُمُ الكتابَ»، يعني: بذلك: صُحُفَ إبراهيمَ وموسى، وزبورَ داود، وإنجيلَ عيسى صلوات الله عليهم أجمعين. «والحكم»، يعني: الفهمَ بالكتابِ، ومعرفةَ مافيه من الأحكام.

وعَنَى بذلك مجاهد، إنْ شاء الله، ما قلتُ، لأنَّ «اللب» هو «العقل»، فكأنه أراد: أنَّ الله آتاهم العقلَ بالكتابِ، وهو بمعنى ما قلنا من أنه الفهمُ به.

وقد بَيَّنَّا معنى «النبوة» و«الحكم»، فيما مضى بشواهدهما، فأغنى ذلك عن إعادته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ۝٨٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فإنْ يَكْفُرْ: يامحمدُ، بآياتِ كتابي الذي أنزلتُه إليكَ فيجحد هؤلاء المشركونَ العادلونَ بربِّهم.

ثم اختلف أهلُ التأويل في المعنى بـ «هؤلاء».

فقال بعضهم: عُني بهم كفارُ قريش، وعنى بقوله: «فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين»، الأنصار.

وقال آخرون: معنى ذلك: فإنْ يكفُرْ بها أهلُ مكة، فقد وَكَّلْنَا بها الملائكةَ.

وقال آخرون: عنى بقوله: «فإن يكفر بها هؤلاء»، يعني قريشاً وبقوله: «فقد وكلنا بها قوماً»، الأنبياء الذين سَمَّاهم في الآيات التي مضت قبْلَ هذه الآية.

وأولى هذه الأقوال في تأويلِ ذلك بالصواب، قولُ مَنْ قال: عنى بقوله: «فإنْ يكفُرْ بها هؤلاء»، كفار قريش. «فقد وَكَّلْنَا بها قوماً ليسوا بها بكافرين»، يعني به الأنبياء الثمانية عشر الذين سَمَّاهُم الله تعالى ذِكْرُه في الآيات قبل هذه الآية. وذلك أنَّ الخبرَ في الآياتِ قبلها عنهم مَضَى، وفي التي بعدها عنهم ذكر، فما بينها بأنْ يكونَ خبراً عنهم، أوْلى وأحق مِنْ أنْ يكونَ خبراً عن غيرهم.

فتأويلُ الكلام، إذْ كان ذلك كذلك: فإنْ كَفَرَ قومُكَ من قريش، يامحمدُ، بآياتنا، وكَذَّبُوا وجَحَدُوا حقيقَتها، فقد استحفظناها واسترعَيْنَا القيامَ بها رُسلَنا وأنبياءَنا من قبلك، الذين لا يجحدونَ حقيقتَها، ولا يُكَذِّبونَ بها، ولكنهم يصدقون بها ويؤمنون بصحتها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ

يقول تعالى ذِكْرُه: «أولئك»، هؤلاء القوم الذين وَكَّلْنَا بآياتِنا وليسوا بها بكافرينَ، همُ الذين هداهمُ اللهُ لدينهِ الحقِّ، وحفظِ ما وُكِّلُوا بحفظه من آياتِ كتابه، والقيامِ بحدوده، واتباع حلالهِ وحرامهِ، والعمل بما فيه من أمرِ الله، والانتهاءِ عما فيه من نهيه، فوفَّقهم جَلَّ ثناؤه لذلك. «فبهداهم اقتده»، يقول تعالى ذِكْرُه: فبالعملِ الذي عَمِلُوا، والمنهاجِ الذي سلكوا، وبالهدى الذي هديناهم، والتوفيقِ الذي وفقناهم. «اقتده»، يامحمدُ، أي: فاعملْ، وخُذْ به واسلكه، فإنه عملٌ لله فيه رِضىً، ومنهاجُ مَنْ سلكه اهتدى.

وهذا التأويلُ على مذهب مَنْ تأوَّلَ قوله: «فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكـافـرينَ»، أنهم الأنبياء المُسَمَّـوْنَ في الآياتِ المتقدمة. وهو القولُ الذي اخترناه في تأويل ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ» لهؤلاء الذين أمرتُكَ أنْ تُذَكِّرَهُمْ بآياتي، أنْ تُبْسَلَ نفسٌ بما كَسَبتْ، من مشركي قومكَ يامحمد: «لا أسألكم»، على تذكيري إياكم، والهـدى الذي أدعوكُم إليه، والقرآن الذي جئتكم به، عِوَضاً أعتاضُهُ منكم عليه، وأجراً آخذهُ منكم، وما ذلكَ مني إلا تذكيرٌ لكم، ولكـلِّ مَنْ كان مثلكم ممن هو مقيمٌ على باطلٍ، بأسَ الله أن يَحُلَّ بكم، وسَخَطه أنْ ينزلَ بكم على شِرْكِكُمْ به وكفركم ـ وإنذارٌ لجميعكم بين يدي عذابٍ شديد، لتذكروا وتنزجروا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ

﴿عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾

يقول تعالى ذكره: «وما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قدره»، وما أجَلُّوا الله حَقَّ إجلالِه، ولا عَظَّمُوه حَقَّ تعظيمِه. «إذْ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء»، يقول: حين قالوا: لم ينزل الله على آدميّ كتاباً ولا وحياً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ»، يامحمدُ، لمشركي قومكَ القائلينَ لك: «وما أنزل الله على بشر من شيء» - قُلْ: «مَنْ أنزلَ الكتابَ الذي جاء به موسى نوراً»، يعني: جلاءً وضياء من ظُلْمَةِ الضلالةِ. «وهدى للناس»، يقول: بياناً للناس، يبينُ لهم به الحَقَّ من الباطلِ فيما أشكل عليهم من أمرِ دينهم. «تجعلونه قراطيسَ تُبْدُونَها». والمرادُ منه المكتوب في القراطيس، يراد: يُبْدُونَ كثيراً مما يكتبونَ في القراطيس فَيُظْهِرُونَهُ للناسِ، ويُخْفُونَ كثيراً مما يثبتونه في القراطيس فَيُسِرُّونَهُ ويكتمونه الناس.

ومما كانوا يكتمونه إياهم، ما فيها من أمر محمد ﷺ ونبوّته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ۝٩١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وعَلَّمَكم اللهُ جَلَّ ثناؤه بالكتابِ الذي أنزلَهُ إليكم، ما لم تَعْلَمُوا أنتم من أخبارِ مَنْ قَبْلَكُم، ومن أنباءِ مَنْ بَعْدَكُم، وما هو كائنٌ في

مَعَادِكم يوم القيامة. «ولا آباؤكم»، يقول: ولم يعلمه آباؤكم، أيها المؤمنون بالله من العربِ وبرسولِهِ ﷺ.

وأما قوله: «قُلِ اللهُ»، فإنه أمرٌ من الله جَلَّ ثناؤه نبيَّه محمداً ﷺ أن يجيبَ استفهامَه هؤلاء المشركينَ عما أمره باستفهامِهم عنه بقوله: «قُلْ من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس يجعلونه[1] قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً»، بِقِيلِ الله، كأمرِهِ إياه في موضعٍ آخر في هذه السورة بقوله: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾، [الأنعام: ٦٣]. فأمره باستفهام المشركين عن ذلك، كما أمره باستفامِهم إذْ قالوا: «ما أنزلَ اللهُ على بشرٍ من شيء»، عَمَّنْ أنزلَ الكتابَ الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس. ثم أمره بالإجابةِ عنه هنالك بقيلِه: ﴿قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٤]، كما أمره بالإجابة ههنا عن ذلك بقِيلِه: الله أنزله على موسى.

وأما قوله: «ثم ذَرْهُمْ في خَوْضِهم يلعبون»، فإنه يقولُ لنبيه محمدٍ ﷺ: ثم ذَرْ هؤلاء المشركينَ العادلينَ بربِّهم الأوثانَ والأصنامَ، بعد احتجاجِكَ عليهم في قِيلِهم: «ما أنزلَ اللهُ على بشرٍ من شيء» بقولك: «مَنْ أنزلَ الكتابَ الذي جاء به موسى نوراً وهُدًى للناس»، وإجابتك ذلك بأنَّ الذي أنزله: اللهُ الذي أنزل عليكَ كتابه. «في خوضهم»، يعني: فيما يخوضونَ فيه من باطِلهم وكُفْرِهم بالله وآياته. «يلعبون»، يقول: يستهزئون ويسخرون.

وهذا من الله وعيدٌ لهؤلاء المشركينَ وتهدُّدٌ لهم. يقول الله جَلَّ ثناؤه: ثم دَعْهُمْ لاعبينَ، يامحمدُ، فإني من وراء ماهُمْ فيه من استهزائِهم بآياتي بالمرصاد، وأُذِيقُهم بأسي، وأُحلُّ بهم إنْ تمادوا في غَيِّهم سَخَطي.

---

(١) قوله «يجعلونه... يبدونها... ويخفون» كلها على قراءة المؤلف الطبري.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وهذا القرآنُ، يامحمدُ. «كتابٌ». «أنزلناه»، يقول: أوحيناهُ إليكَ. «مبارَكٌ»، وهو «مفاعل» من «البركة». «مُصَدِّقُ الذي بين يديه»، يقول: صَدَّقَ هذا الكتابُ ما قَبْلَهُ من كُتبِ الله التي أنزلها على أنبيائهِ قبلك، ولم يخالفها دلالةً ومعنى « نوراً وهدى للناس»، يقول: هو الذي أنزل إليك، يامحمدُ، هذا الكتابَ مباركاً، مصدقاً كتابَ موسى وعيسى وغير ذلك من كُتُبِ الله. ولكنه جَلَّ ثناؤه ابتدأ الخبر عنه، إذ كان قد تقدم من الخبرِ عن ذلك ما يدل على أنـه له مواصلٌ، فقال: «وهذا كتابٌ أنزلناه إليك مبارك»، ومعناه: وكـذلك أنزلتُ إليك كتابي هذا مباركاً، كالذي أنزلتُ من التوراة إلى موسى هدى ونوراً.

وأمـا قولـه: «ولتنـذر أمَّ القرى ومَنْ حولها»، فإنه يقول: أنزلنا إليك، يامحمدُ، هذا الكتاب مصدِّقاً ما قَبْلَهُ من الكتبِ، ولتنذِرَ به عذابَ الله وبأسَهُ مَنْ في أُمِّ القرى، وهي مكة. «ومَنْ حولَها»، شرقاً وغرباً، من العادلينَ بربِّهم غيرَهُ من الآلهة والأندادِ، والجاحدينَ برسلهِ، وغيرهم من أصنافِ الكفار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومَنْ كان يؤمنُ بقيام الساعةِ والمعادِ في الآخرةِ إلى الله، ويُصَدِّقُ بالثوابِ والعقاب، فإنه يؤمنُ بهذا الكتابِ الذي أنزلناه إليك، يامحمدُ، ويصدقُ به، ويقرُّ بأنَّ الله أنزله، ويحافظُ على الصلوات المكتوبات

التي أمرَهُ الله بإقامتها، لأنه منذرُ مَنْ بلغه وعيدَ اللهِ على الكفرِ به وعلى معاصيه، وإنما يجحدُ به وبما فيه ويكذِّب، أهلُ التكذيب بالمعاد، والجحودِ لقيامِ الساعة، لأنه لا يرجو من اللهِ إنْ عَمِلَ بما فيه ثواباً، ولا يخاف إنْ لم يجتنبْ ما يأمره باجتنابهِ عقاباً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾

يعني جَلَّ ذِكْرُه بقوله: «ومَنْ أظلمُ ممن افترى على الله كذباً»، ومَنْ أخطأُ قولاً وأجهل فعلاً. «ممن افترى على الله كذباً»، يعني: ممن اختلقَ على الله كذباً، فادَّعى عليه أنه بعثه نبيًّا وأرسله نذيراً، وهو في دعواه مُبْطِلٌ، وفي قِيلهِ كاذبٌ.

وهـذا تسفيهٌ من الله لمشركي العرب، وتجهيلٌ منه لهم، في معارضةِ عبدالله بن سعد بن أبي سرح، والحنفيِّ مسيلمةَ، لنبيِّ الله ﷺ، بدعوى أحدهما النبوَّةَ، ودعوى الآخر أنه قد جاء بمثْلِ ما جاءَ به رسولُ الله ﷺ - ونفْيٌ منه عن نبيه محمدٍ ﷺ اختلاقَ الكذبِ عليه ودعوى الباطل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ولو تَرَى، يامحمدُ، حين يغمرُ الموتُ بسكراتهِ هؤلاءِ الظالمينَ العادلينَ بربِّهم الآلهةَ والأندادَ، والقائلين: «ما أنزلَ الله على بَشَرٍ من شيء»، والمفترينَ على الله كذباً، الزاعمينَ أنَّ الله أوحى إليه

ولم يُوحَ إليه شيءٌ، والقائلينَ: «سأُنزِلُ مِثْلَ ما أنزلَ اللهُ»، فتعاينَهُمْ وقد غَشِيتهم سكراتُ الموت، ونزل بهم أمرُ الله، وحان فناءُ آجالهم، والملائكة باسطو أيديهم يضربون وجوههم وأدبارهم، كما قال جَلَّ ثناؤه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُم وَأَدْبَارَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾، [محمد: ٢٧، ٢٨]. يقولون لهم: أخرجوا أنفسكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾

وهذا خبرٌ من الله جَلَّ ثناؤه عما تقولُ رسلُ الله التي تقبضُ أرواحَ هؤلاء الكفار لها، يخبر عنها أنها تقولُ لأجسامِها ولأصحابِها: «أَخْرِجُوا أنفسَكم»، إلى سخطِ الله ولعنتهِ، فإنكم اليومَ تُثابون على كُفْرِكم بالله، وقيلِكُمْ عليه الباطلَ، وزَعْمِكُم أنَّ الله أوحى إليكم ولم يُوحِ إليكم شيئاً، وإنكاركم أنْ يكونَ اللهُ أنزلَ على بشرٍ شيئاً، واستكباركم عن الخضوعِ لأمرِ الله وأمرِ رسوله، والانقيادِ لطاعته «عـذابَ الهون»، وهو عذابُ جهنم الذي يُهينُهم فيذلّهم حتى يعرفوا صَغار أنفسهم وذِلَّتها.

والعـرب إذا أرادت بـ«الهـون» معنى «الهوان»، ضمت «الهاء»، وإذا أرادت به الرِّفْقَ والدَّعَةَ وخِفَّةَ المؤونة، فتحت «الهاء»، فقالوا: هو «قليل هَوْن المؤونة»، ومنه قول الله: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً﴾ [الفرقان: ٦٣]، يعني: بالرفق والسكينة والوقار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾

وهذا خبرٌ من الله جَلَّ ثناؤه عَمَّا هو قائلٌ يومَ القيامة لهؤلاء العادلينَ به الآلهةَ والأنداد، يخبرُ عبادَهُ أنه يقولُ لهمْ عند ورودِهم عليه: «لقد جئتمونا فُرادى».

ويعني بقوله: «فرادى»، وُحداناً لا مالَ معهم، ولا إناثَ، ولا رقيق، ولا شيء مما كان الله خَوَّلَهُمْ في الدنيا «كما خلقناكم أوَّلَ مرة»، عُراةً غُلْفاً غُرلاً حُفاة، كما ولدتهم أُمَّهاتُهم[1]، وكما خَلَقهم جَلَّ ثناؤُه في بطون أمهاتهم لا شيء عليهم ولا معهم مما كانوا يتباهَوْن به في الدنيا.

وأما قوله: «وتركتم ما خَوَّلْنَاكُمْ وراءَ ظهوركم»، فإنه يقول: خلفتم أيها القوم ما مكناكم في الدنيا مما كنتم تَتَبَاهَوْنَ به فيها، خَلْفَكُمْ في الدنيا فلم تحملوهُ معكم.

وهـذا تعبيرٌ من الله جَلَّ ثنـاؤه لهؤلاء المشـركينَ بمباهاتِهم التي كانوا يتباهون بها في الدنيا بأموالهم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لهؤلاء العادلينَ بربهم الأنداد يوم القيامة: ما نَرَى معكم شفعاءكم الذين كنتم في الدنيا تزعمون أنهم يشفعون لكم عند ربكم يوم القيامة.

---

(١) غلف: جمع أغلف، وهو الذي لم يُخْتَنْ، والغُرْل: جمع أغرل: وهو أيضاً الذي لم يختن، وهو مستفادٌ من حديث عائشة رضي الله عنها: «يُحشرُ الناسُ يومَ القيامة حُفاةً عُراةً غُرْلاً»، الذي أخرجه مسلم (٢٨٥٩).

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه، مُخْبِراً عن قِيله يومَ القيامةِ لهؤلاء المشركينَ به الأنداد: «لقد تَقَطَّعَ بينكم»، يعني تَواصُلَهم الذي كان بينهم في الدنيا، ذهب ذلك اليوم، فلا تواصلَ بينهم ولا تَوادَّ ولا تناصُرَ، وقد كانوا في الدنيا يتواصلُونَ ويتناصرونَ، فاضمحلَّ ذلك كله في الآخرة، فلا أحدَ منهم ينصرُ صاحِبَهُ، ولا يواصله.

وأما قوله: «وضَلَّ عنكم ما كنتم تزعمون»، فإنه يقول: وحَادَ عن طريقِكم ومنهاجِكم ما كنتم من آلهتكم تزعمون أنَّهُ شريكُ رَبِّكم، وأنه لكم شفيعٌ عند ربكم، فلا يشفع لكم اليوم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾

وهذا تنبيهٌ من الله جَلَّ ثناؤه هؤلاء العادلينَ به الآلهةَ والأوثانَ على موضعِ حجَّتِه عليهم، وتعريفٌ منه لهم خطأَ ماهُمْ عليه مُقيمونَ من إشراكِ الأصنامِ في عبادتهم إياه. يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذي له العبادةُ، أيها الناسُ، دونَ كُلِّ ما تعبدونَ من الآلهةِ والأوثانِ، هو اللهُ الذي فَلَقَ الحَبَّ ـ يعني: شَقَّ الحبَّ من كل ما ينبتُ من النباتِ، فأخرج منه الزرعَ. «والنوى»، من كُلِّ ما يغرس مما له نَواةٌ، فأخرج منه الشجرَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يخرجُ السُّنْبُلَ الحيَّ من الحَبِّ الميت، ومخرج الحبِّ الميتِ من السنبل الحيِّ، والشجرِ الحيّ من النوى الميت، والنوى الميِّت من الشجر الحيّ.

والشجرُ مادام قائماً على أصوله لم يجفَّ، والنباتُ على ساقه لم ييبس، فإنَّ العرب تسميه «حَيًّا»، فإذا يبسَ وجفَّ أو قطع من أصله، سمّوه «ميتاً».

وأمـا قوله: «ذلكم الله»، فإنه يقول: فاعلُ ذلك كُلِّهِ اللهُ جَلَّ جلاله. «فأنَّى تؤفكون»، يقول: فأيّ وجوه الصدِّ عن الحقِّ، أيها الجاهلون، تصدُّونَ عن الصوابِ وتصرفون، أفلا تتدبرونَ فتعلمونَ أنَّه لا ينبغي أن يُجعل لمن أنعم عليكم بفلق الحَبِّ والنوى، فأخرجَ لكم من يابسِ الحب والنوى زُرُوعاً وحُرُوثاً وثِماراً تتغذون ببعضه وتفكَّهُونَ ببعضه، شريكٌ في عبادته ما لا يضر ولا ينفع، ولا يسمع ولا يبصر؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا

يعني بقوله: «فالق الإصباح»، شاقٌّ عمودَ الصُّبْحِ عن ظُلْمَةِ الليلِ وسواده.

و«الإصباح» مصدر من قول القائل: «أصبحنا إصباحاً».

وأخبر جل ثناؤه أنه جعل الليلَ سكناً، لأنه يسكنُ فيه كل مُتَحَرِّكٍ بالنهار، ويهدأ فيه، فيستقرُّ في مسكنه ومأواه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا

اختلف أهلُ التأويل في ذلك:

فقال بعضهم: معنى ذلك: وجعلَ الشمسَ والقمرَ يجريان في أفلاكِهما بحسابٍ.

وقال آخرون: معنى ذلك: وجعل الشمس والقمر ضياء.

وأوْلى القولين في تأويل ذلك عندي بالصواب، تأويلُ مَنْ تأوَّله: وجعلَ الشمسَ والقمرَ يجريان بحسابٍ وعددٍ لبلوغِ أمرهما ونهايةِ آجالهِما، ويدورانِ لمصالحِ الخَلْقِ التي جُعِلا لها.

وإنما قلنا ذلك أوْلى التأويلين بالآية، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه، ذكرَ قبلَه أياديه عند خَلْقِه، وعظم سلطانه، بفلقِه الإصباحَ لهم، وإخراجِ النباتِ والغِراسِ من الحَبِّ والنوى، وعَقَّبَ ذلك بذكرهِ خَلْقَ النجومِ لهدايتِهم في البرِّ والبحر. فكان وصفُه إجراءَهُ الشمسَ والقمرَ لمنافِعهم، أشبه بهذا الموضع من ذِكْرِ إضاءتهما، لأنه قد وَصَفَ ذلك قَبْلُ بقوله: «فالق الإصباح»، فلا معنى لتكريرهِ مرةً أخرى في آيةٍ واحدة لغير معنى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٩٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وهذا الفعلُ الذي وصفه أنه فعله، وهو فَلْقُه الإصباحَ، وجَعْلُه الليلَ سكناً والشمسَ والقمرَ حسباناً، تقديرُ الذي عَزَّ سلطانه، فلا يقدرُ أحدٌ أرادَهُ بسوءٍ وعقابٍ أو انتقام، من الامتناعِ منه. «العليم»، بمصالحِ خَلْقِه وتدبيرهم - لا تقديرُ الأصنامِ والأوثان التي لا تسمعُ ولا تبصر، ولا تفقه شيئاً ولا تعقله، ولا تضرُّ ولا تنفع، وإنْ أُرِيدتْ بسوءٍ لم تقدرْ على الامتناعِ منه مِمَّنْ أرادَها. يقول جل ثناؤه: فأَخْلِصُوا، أيها الجَهَلَةُ، عبادتَكم لفاعلِ هذه الأشياء، ولا تُشْرِكُوا في عبادته شيئاً غيره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: واللهُ الذي جعل لكم، أيها الناسُ، النجومَ أدلةً في البر والبحر إذا ضللتم الطريقَ، أو تحيرتم فلم تهتدوا فيها ليلًا، تستدلُّونَ بها على المحجَّةِ، فتهتدونَ بها إلى الطريقِ والمحجة، فتسلكونه وتنجون بها من ظلماتِ ذلك، كما قال جَلَّ ثناؤه: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]، أي: من ضلالِ الطريق في البرِّ والبحر وعَنَى بالظلمات، ظُلْمَةَ الليلِ، وظلمةَ الخطأ والضلالِ، وظلمةَ الأرضِ أو الماء.

وقوله: «قد فَصَّلْنَا الآياتِ لقومٍ يعلمون»، يقول: قد مَيَّزنا الأدلةَ، وفرَّقنا الحججَ فيكم وبيَّنَّاها، أيها الناسُ، ليتدبَّرَهَا أولُو العِلْمِ بالله منكم، ويفهمها أُولُو الحِجى منكم، فَيُنِيبُوا من جهلهم الذي هم مُقيمونَ عليه، وينزجروا عن خطأ فِعْلِهم الذي هم عليه ثابتون، ولا يتمادوا عناداً لله ـ مع عِلْمِهم بأنَّ ما هُمْ عليه مقيمون خطأ ـ في غَيِّهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإلهكم، أيها العادلونَ باللهِ غيرَهُ «الذي أنشأكم»، يعني: الذي ابتدأ خَلْقَكُمْ من غير شيءٍ، فأوجدكم بعد أنْ لم تكونوا شيئاً «من نَفْسٍ واحدة»، يعني: من آدم.

وأما قوله: «فمستقرٌّ ومستودع»، فإنَّ أهلَ التأويل في تأويله مختلفون.

فقال بعضهم: معنى ذلك: وهو الذي أنشأكم من نفسٍ واحدة، فمنكم مُسْتَقِرٌّ في الرحم، ومنكم مستودع في القبر حتى يبعثَهُ اللهُ لنَشْرِ القيامة.

وقال آخرون: «المستودع»، ما كان في أصلاب الآباء، و«المستقر»، ما كان في بطون النساء، وبطون الأرض، أو على ظهورها.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: فمستقر في الأرض على ظهورها، ومستودع عند الله.

وقال آخرون: معنى ذلك: فمستقر في الرحم، ومستودع في الصُّلْب.

وأَوْلى التأويلاتِ في ذلك بالصواب أنْ يُقالَ: إنَّ الله جَلَّ ثناؤه عَمَّ بقوله: «فمستقر ومستودع»، كُلَّ خَلْقِه الذي أنشأ من نفسٍ واحدة، مستقرًّا ومستودعاً، ولم يخصص من ذلك معنىً دون معنى. ولا شكَّ أنَّ من بني آدم مستقراً في الرحم، ومستودَعاً في الصلب، ومنهم مَنْ هو مستقرٌّ على ظهرِ الأرضِ أو بطنها، ومستودع في أصلابِ الرجال، ومنهم مستقر في القبرِ، مستودع على ظهرِ الأرض. فكلُّ «مستقر» أو «مستودع» بمعنىً من هذه المعاني، فداخلٌ في عمومِ قولِهِ: «فمستقر ومستودع» ومُرَادٌ به، إلَّا أن يأتي خبرٌ يجبُ التسليمُ له بأنه معنيٌّ به معنىً دون معنى، وخاص دون عام.

وأما قوله: «قد فَصَّلْنَا الآياتِ لقوم يفقهون»، يقول تعالى: قد بَيَّنَّا الحججَ، ومَيَّزْنَا الأدلةَ والأعلامَ وأحكمناها. «لقومٍ يفقهون»، مواقعَ الحجج ومواضعَ العِبَر ويفهمونَ الآياتِ والذكر، فإنهم إذا اعتبروا بما نَبَّهْتُهم عليه من إنشائي من نفسٍ واحدة ما عَايَنُوا من البشرِ، وخلقي ما خلقتُ منها من عجائبِ الألوانِ والصورِ، عَلِمُوا أنَّ ذلك من فعلِ مَنْ ليس له مِثْلٌ ولا شريكٌ فيشركوهُ في عبادتهم إياه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والله الذي له العبادةُ خالصة لا شريكَ فيها لشيءٍ سِواهُ، هو الإلـهُ الذي أنزلَ من السماءِ ماءً. «فأخرجنا به نباتَ كل شيء»، فأخرجنا بالماء الذي أنزلناهُ من السماء من غذاءِ الأنعامِ والبهائمِ والطيرِ والوحشِ وأرزاقِ بني آدمَ وأقواتِهم، ما يتغذونَ به ويأكلونه فينبتون عليه وينمون. وإنما معنى قوله: «فأخرجنا به نباتَ كُلِّ شيء»، فأخرجنا به ماينبتُ به كُلُّ شيء وينمو عليه ويصلحُ.

ولو قيل: معناه: فأخرجنا به نباتَ جميعِ أنواعِ النبات، فيكون «كل شيء»، هو أصناف النبات ـ كان مذهباً، وإنْ كان الوجهُ الصحيح هو القولَ الأول[1].

وقوله: «فأخرجنا منه خَضِراً»، يقول: «فأخرجنا منه»، يعني: من الماء الذي أنزلناه من السماء «خَضِراً»، رطباً من الزرع.

قوله: «نُخرجُ منه حَبًّا متراكباً»، يقول: نخرجُ من الخضر حبًّا ـ يعني: ما في السنبلِ، سنبلِ الحنطةِ والشعيرِ والأرزِ، وما أشبه ذلك من السنابلِ التي حبُّها يركب بعضه بعضاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومِنَ النخلِ مَنْ طَلْعُهَا قنوانُهُ دانية. و«القنوان» جمع

(١) انظر معاني القرآن للفراء: ١/٣٤٧.

«قِنْو»، كما «الصنوان» جمع «صِنْو»، وهو العِذْق، ويعني بقوله: «دانية»، قريبةٌ مُتَهدِّلَةٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأخرجنا أيضاً جناتٍ من أعنابٍ ـ يعني: بساتينَ من أعناب.

وقوله: «والزيتون والرمان»، عطف بـ «الزيتون» على «الجنات»، بمعنى: وأخرجنا الزيتونَ والرمان مُشْتَبِهاً وغيرَ متشابه.

ومعنى الكلام: وشجر الزيتون والرمان، فاكتفى من ذِكْرِ «الشجر» بذكرِ ثمرِهِ، كما قيل: ﴿وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾، [يوسف: ٨٢]، فاكتفى بذكر «القرية» من ذِكْرِ «أهلها»، لمعرفةِ المخاطَبينَ بذلك بمعناه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾

اختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك:

فقرأته عامةُ قَرَأَةِ أهلِ المدينة وبعض أهلِ البصرة: ﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ﴾، بفتح «الثاء» و«الميم».

وقرأه بعض قَرَأَةِ أهلِ مكة وعامة قرأة الكوفيين: ﴿إِلَى ثُمُرِهِ﴾، بضم «الثاء» و«الميم»

فكأنّ مَنْ فتحَ «الثاء» و«الميم» من ذلك، وَجَّهَ معنى الكلام: انظروا إلى ثمرِ هذهِ الأشجارِ التي سَمَّيْنَا من النخلِ والأعنابِ والزيتونِ والرمانِ إذا أثمرَ ـ

وأنَّ «الثمر» جمعُ «ثمرة»، كما «القصبُ»، جمع «قصبة»، و«الخشب» جمع «خشبة».

وكأنَّ مَنْ ضَمَّ «الثاء» و«الميم»، وجَّه ذلك إلى أنه جمع «ثِمَار»، كما «الحُمرُ» جمع «حمار»، والجُرُب» جمع «جراب».

وأَوْلى القراءتين في ذلك عندي بالصواب، قراءةُ مَنْ قرأ: ﴿ٱنْظُرُوا إِلَى ثُمُرِهِ﴾ بضم «الثاء» و«الميم»، لأنَّ الله جَلَّ ثناؤه وصفَ أصنافاً من الطعامِ كما قال يحيى بن وَثَّاب، وكذلك حبَّ الزرعِ المتراكب، وقِنوانَ النخلِ الدانية، والجنات من الأعنابِ والزيتونِ والرمان، فكان ذلك أنواعاً من الثمر، فجمعت «الثمرة» «ثمراً»، ثم جمع «الثمر» «ثماراً»، ثم جمع ذلك فقيل: ﴿انْظُرُوا إِلَى ثُمُرِهِ﴾، فكان ذلك جمع «الثمار» و«الثمار» جمع «الثمر»، و«إثماره» عقدُ الثمر.

وأما قوله: «ويَنْعه»، فإنه نُضْجُهُ وبلوغُه حين يبلغ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٩٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ في إنزالِ الله من السماء الماءَ الذي أخرجَ به نباتَ كُلِّ شيءٍ، والخضِرَ الذي أخرجَ منه الحَبَّ المتراكبَ، وسائرَ ما عدَّدَ في هذه الآية من صنوفِ خَلْقِه «لآيات»، يقول: في ذلكم، أيها الناسُ، إذا أنتم نظرتم إلى ثمرهِ عند عقدِ ثمرهِ، وعند يَنْعِه وانتهائه، فرأيتم اختلافَ أحوالِه وتصرفه في زيادته ونموّه، علمتم أنَّ له مُدَبِّراً ليس كمثله شيءٌ، ولا تصلحُ العبادة إلَّا له دونَ الآلهةِ والأندادِ، وكان فيه حجج وبرهان وبيان. «لقوم يؤمنون»، يقول: لقومٍ يُصَدِّقُونَ بوحدانيةِ الله وقُدْرَتِهِ على ما يشاء.

وخصَّ بذلك تعالى ذِكْرُه القومَ الذين يؤمنون، لأنهم هم المنتفعون بحججِ الله والمعتبرون بها، دونَ مَنْ قد طَبَعَ اللهُ على قلبِهِ، فلا يعرفُ حقًّا

من باطلٍ، ولا يتبين هدًى من ضلالة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: وجعل هؤلاء العادلونَ بربِّهم الآلهةَ والأندادَ، لله شركاء، الجنَّ، كما قالَ جَلَّ ثناؤه: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَباً﴾، [الصافات: ١٥٨].

وأما قوله: «وخَرَقُوا له بنينَ وبناتٍ بغير علم»، فإنه يعني بقوله: «خرقوا». اختلَقُوا.

فتأويلُ الكلام إذاً: وجعلوا لله الجنَّ شركاءَ في عبادتهم إياهُ، وهو المنفردُ بخلقهم بغيرِ شريكٍ ولا مُعينٍ ولا ظهير. «وخرقوا له بنين وبنات»، يقول: وتَخَرَّصُوا لله كذباً، فافتعلوا له بنينَ وبناتٍ، بغيرِ علمٍ منهم بحقيقةِ مايقولونَ، ولكنْ جهلاً بالله وبعظمته، وأنه لا ينبغي لمن كان إلهاً أنْ يكونَ له بنونَ وبنات ولا صاحبة، ولا أنْ يَشركه في خَلْقِه شريكٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تعَالَى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٠٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: تَنَزَّهَ اللهُ، وعَلاَ فارتفعَ عن الذي يَصِفُه به هؤلاء الجَهَلَةُ من خَلْقِه، في ادِّعائِهم له شركاءَ من الجِنِّ، واختراقهم له بنينَ وبناتٍ، وذلك لا ينبغي أن يكون من صفته، لأنَّ ذلك من صفة خَلْقِه الذين يكونُ منهم الجماعُ الذي يحدث عنه الأولادُ، والذين تضطرّهم لضعفِهم الشهواتُ إلى اتخاذِ الصاحبةِ لقضاءِ اللذاتِ، وليس الله تعالى ذِكْرُه بالعاجزِ فيضطره شيءٌ إلى

شيءٍ، ولا بالضعيفِ المحتـاجِ فتدعوهُ حاجته إلى النساءِ إلى اتخاذِ صاحبةٍ لقضاءِ لذة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الله، الذي جعلَ هؤلاء الكَفَرةُ به له الجِنَّ شركاءَ، وخرقوا له بنينَ وبناتٍ بغير علمٍ. «بديعُ السمواتِ والأرض»، يعني: مُبْتَدِعُهَا ومُحْدِثُهَا وموجِدُهَا بعد أنْ لم تَكُنْ.

«أنَّى يكون له ولدٌ ولم تكن له صاحبةٌ»، والولدُ إنما يكونُ من الذكر من الأنثى، ولا ينبغي أنْ يكونَ لله سبحانه صاحبةٌ، فيكون له ولد. وذلك أنه هو الذي خَلَقَ كُلَّ شيءٍ. يقول: فإذا كان لا شيء إلا اللهُ خلقه، فأنَّى يكونُ لله ولد، ولم تكنْ له صاحبةٌ فيكون له منها ولد؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝١٠١﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُهُ: واللهُ خَلَقَ كُلَّ شيءٍ، ولا خالقَ سِواهُ. وكـلُّ ما تَدْعُونَ، أيها العادلونَ بالله الأوثانَ من دونهِ، خَلْقُهُ وعبيدُه مِلْكاً، كان الذي تدعونه ربًّا وتزعمون أنه له ولد، أو جنيًّا أو إنسيًّا. «وهو بكلِّ شيءٍ عليم»، يقول: والله الذي خلق كُلَّ شيءٍ، لا يَخْفَى عليه ما خلق ولا شيء منه، ولا يعزبُ عنه مثقالُ ذرةٍ في الأرضِ ولا في السماء، عالم بعددِكُمْ وأعمالِكم، وأعمال من دَعَوْتُموهُ رَبًّا أو لله ولداً، وهو مُحْصِيها عليكم وعليهم، حتى يجازيَ كلًّا بعمله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ١٠٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الذي خَلَقَ كُلَّ شيءٍ وهو بكل شيءٍ عليم، هو اللهُ ربُّكم، أيها العادلونَ بالله الآلهةَ والأوثانَ، والجاعلونَ له الجِنَّ شركاءَ، وآلهتَكم التي لا تملكُ نفعاً ولا ضرًّا، ولا تفعلُ خيراً ولا شرًّا. «لا إله إلاَّ هو».

وهذا تكذيبٌ من الله جَلَّ ثناؤه للذين زعموا أنَّ الجِنَّ شركاء الله. يقول جَلَّ ثناؤه لهم: أيها الجاهلونَ، إنه لا شيءَ له الألوهيةُ والعبادةُ، إلا الذي خلق كل شي، وهو بكل شيءٍ عليم، فإنه لا ينبغي أنْ تكونَ عبادَتُكم وعبادةُ جميع مَنْ في السمواتِ والأرض إلا له خالصة بغيرِ شريكٍ تشركونه فيها، فإنه خالقُ كل شيء وبارئه وصانعه. وحَقٌّ على المصنوعِ أن يُفْرِدَ صانِعَهُ بالعبادةِ «فاعبدوه»، يقول: فَذِلُّوا له بالطاعةِ والعبادةِ والخدمةِ، واخضعوا له بذلك. «وهو على كُلِّ شيءٍ وكيل»، يقول: والله على كُلِّ ما خلق من شيءٍ رقيبٌ وحفيظ، يقوم بأرزاقِ جميعهِ وأقواتهِ وسياستهِ وتدبيرهِ وتصريفه بقدرته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ١٠٣﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار».

فقال بعضهم: معناه لا تحيطُ به الأبصارُ، وهو يُحِيطُ بها.

واعْتَلَّ قائلو هذه المقالةِ لقولهم هذا، بأنْ قالوا: إنَّ الله قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ

أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ﴾، [يونس: ٩٠]. قالوا: فوصف اللهُ تعالى ذِكْرُه الغرقَ بأنه أدركَ فرعونَ. ولا شك أنَّ الغرقَ غير موصوفٍ بأنه رآه، ولا هو مما يجوزُ وصفُه بأنه يَرَى شيئاً. قالوا: فمعنى قوله: «لا تدركه الأبصار»، بمعنى: لا تراه، بعيد. لأنَّ الشيءَ قد يدرك الشيءَ ولا يراه، كما قال جَلَّ ثناؤه مُخْبراً عن قِيلِ أصحــاب موسى ﷺ لمـوسى حين قَرُب منهم أصحـاب فرعـون: ﴿فَلَمَّـا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾، [الشعراء: ٦١]، لأنَّ الله قد كان وَعَدَ نبيَّهُ موسى ﷺ أنهم لا يُدْرَكون لقوله: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَى﴾، [طه: ٧٧].

قالوا: فإنْ كان الشيء قد يرى الشيء ولا يدركه، ويدركه ولا يراه، فكان معلومـاً بذلـك أن قولـه: «لا تدركـه الأبصار»، من معنى: لا تراه الأبصار، بمعزل ـ وأنَّ معنى ذلك: لا تحيطُ به الأبصار، لأن الإحاطةَ به غير جائزة.

قالوا: فالمؤمنون وأهلُ الجنةِ يرون رَبَّهم بأبصارِهم، ولا تدركه أبصارهم، بمعنى: أنها لا تُحِيطُ به، إذْ كان غير جائز أن يوصفَ الله بأن شيئاً يحيط به.

قالوا: ونظيرُ جواز وصفه بأنه يُرَى ولا يُدْرَك، جوازُ وصفه بأنه يعلم ولا يحـاط بعلمـه، وكما قال جَلَّ ثناؤه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾، [البقرة: ٢٥٥]. قالوا: فنفى جَلَّ ثناؤه عن خَلْقِه أنْ يكونُوا يحيطون بشيءٍ من عِلْمِه إلا بما شاء. قالوا: ومعنى «العلم» في هذا الموضع، المعلوم. قالوا: فلم يكن في نفيهِ عن خَلْقِه أنْ يُحيطوا بشيءٍ من علمه إلا بما شاء، نَفْيٌ عن أنْ يعلموه. قالوا: فإذا لم يكنْ في نفيِ الإحاطةِ بالشيءِ علماً نَفْيٌ للعلمِ به، كان كذلك، لم يكن في نفي إدراكِ الله عن البصر، نفيُ رؤيتهِ له. قالوا: وكما جاز أنْ يعلمَ الخلقُ أشياءَ ولا يُحيطونَ بها عِلْماً، كذلك جائزٌ أنْ يَرَوْا ربَّهم بأبصارِهم ولا يدركوه بأبصارهم، إذْ كان معنى «الرؤية» غير معنى

«الإدراك»، ومعنى «الإدراك» غير معنى «الرؤية»، وأنَّ معنى «الإدراك»، إنما هو الإحاطة.

قالـوا: فإنْ قال لنا قائل: وما أنكرتم أن يكون معنى قوله: «لا تُدركه الأبصار»، لا تَراهُ الأبصار؟

قلنا له: أنكرنا ذلك، لأنَّ الله جَلَّ ثناؤه أخبر في كتابه أن وجوهاً في القيامـة إليه ناظـرة[1]، وأنَّ رسـولَ الله ﷺ أخبرَ أُمَّتَهُ أنهم سيرونَ رَبَّهم يومَ القيامةِ، كما يُرَى القمرُ ليلةَ البدر[2]، وكما ترونَ الشمسَ ليسَ دونها سحاب[3]. قالوا: فإذْ كان اللهُ قد أخبر في كتابه بما أخبر، وحققتْ أخبارُ رسولِ الله ﷺ بمـا ذكرنا عنه من قِيلِه ﷺ: أنَّ تأويلَ قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، [القيامة: ٢٢، ٢٣]، أنه نَظَرُ أبصارِ العيون لله جَلَّ جلاله[4]، وكان كتاب الله يُصَدِّقُ بعضُه بعضاً، وكان مع ذلك غير جائزٍ أنْ يكون أحدُ هذين الخبرين ناسخاً للآخر، إذْ كان غير جائزٍ في الأخبار ـ لما قد بَيَّنَّا في كتابنا: «كتاب لطيف البيان، عن أصول الأحكام»، وغيره ـ عُلِمَ، أن معنى قوله: «لا تدركه الأبصار»، غير معنى قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، فإنَّ أهل الجنة ينظرون بأبصارهم يومَ القيامةِ إلى الله، ولا يدركونه بها، تصديقاً لله في كِلَا الخبرين، وتسليماً لما جاء به تنزيله على ما جاء به في السورتين.

ـوقال، آخرون: معنى ذلك: لا تراهُ الأبصارُ، وهو يرى الأبصار.

---

(١) يعني قوله تعالى: ﴿وجوهٌ يومئذٍ ناضرة، إلى ربها ناظرة﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣].

(٢) البخاري (٧٤٣٤) وغيره من حديث جرير بن عبدالله.

(٣) البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢) من حديث أبي هريرة.

(٤) الأحاديث الصحاح في رؤية الله سبحانه يوم القيامة كثيرة معروفة لا ينكرها إلا جاحد بالسنة المطهرة.

فقال قائلو هذه المقالة: معنى «الإدراك» في هذا الموضع، الرؤية ـ وأنكروا أن يكون الله يُرَى بالأبصارِ في الدنيا والآخرة ـ وتأوَّلُوا قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ* إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، بمعنى انتظارِهَا رحمةَ الله وثوابَه.

وتأول بعضُهم في الأخبارِ التي رُويت عن رسولِ الله ﷺ بتصحيحِ القولِ برؤيةِ أهلِ الجنةِ ربهم يومَ القيامةِ تأويلات، وأنكر بعضُهم مجيئها، ودافعوا أنْ يكونَ ذلك من قولِ رسولِ الله ﷺ، ورَدُّوا القولَ فيه إلى عقولهم، فزعموا أنَّ عقولَهم تُحِيل جوازَ الرؤيةِ على اللهِ عَزَّ وجَلَّ بالأبصارِ، وأتوا في ذلك بضُرُوبٍ من التمويهات، وأكثروا القولَ فيه من جهة الاستخراجات.

وكان من أجلِّ ما زَعَمُوا أنهم عَلِمُوا به صِحَّةَ قولهم ذلك من الدليل، أنهم لم يجدوا أبصارهم ترى شيئاً إلاّ ما بَايَنَها دون مالاَصَقَهَا، فإنها لا ترى مالاصقها. قالوا: فما كان للأبصار مُبايناً مما عاينته، فإنَّ بينه وبينها فضاءً وفرجةً. قالوا: فإنْ كانت الأبصارُ ترى رَبَّها يوم القيامة، على نحو ما ترى الأشخاص اليوم، فقد وجب أنْ يكونَ الصانع محدوداً. قالوا: ومن وصفه بذلك، فقد وصفه بصفاتِ الأجسام التي يجوز عليها الزيادة والنقصان.

قالوا: وأخرى، أنَّ مِنْ شأنِ الأبصارِ أنْ تُدْرِكَ الألوانَ، كما من شأنِ الأسماعِ أن تدرِكَ الأصواتَ، ومن شأن المُتَنَسِّمِ أنْ يدرك الأعراف[1]. قالوا: فمن الوجه الذي فسد أن يكون جائزاً أن يُقْضَى للسمعِ بغيرِ إدراكِ الأصواتِ، وللمتنسِّمِ إلاّ بإدراكِ الأعراف. فسد أن يكون جائزاً القضاءُ للبصر بإدراك الألوان. قالوا: ولما كانَ غير جائزٍ أنْ يكونَ الله تعالى ذِكْرُه موصوفاً بأنه ذو لون، صَحَّ أنه غير جائزٍ أن يكون موصوفاً بأنه مرئيٌّ.

---

(١) الأعراف: الروائح.

وقال آخرون: معنى ذلك: لا تدركه أبصارُ الخلائق في الدنيا، وأما في الآخرة فإنها تدركه. وقال أهلُ هذه المقالةِ: «الإدراكُ»، في هذا الموضع، الرؤيةُ.

واعْتَلَّ أهلُ هذه المقالةِ لقولهم هذا بأنْ قالوا: «الإدراك»، وإنْ كان قد يكون في بعضِ الأحوالِ بغيرِ معنى الرؤية، فإنَّ الرؤيةَ من أحدِ معانيه. وذلك أنه غير جائزٍ أن يلحق بصرُه شيئاً فيراه، وهو لِمَا أبْصَرَهُ وعايَنَهُ غير مُدْرِكٍ، وإنْ لم يُحِطْ بأجزائهِ كلها رؤيةً. قالوا: فرؤيةُ ما عاينَهُ الرائي إدراكٌ له، دونَ ما لم يَرَهُ قالوا: وقد أخبرَ الله أنَّ وجوهاً يومِ القيامة إليه ناظرةٌ. قالوا: فَمُحَالٌ أنْ تكون إليه ناظرة وهي له غير مدركةٍ رؤيةً. قالوا: وإذا كان ذلك كذلك، وكان غير جائزٍ أنْ يكونَ في أخبار الله تَضَادٌّ وتعارضٌ، وَجَبَ وصَحَّ أنَّ قوله: «لاتدركه الأبصار»، على الخصوصِ لا على العمومِ، وأنَّ معناه: لا تدركه الأبصارُ في الدنيا، وهو يدركُ الأبصار في الدنيا والآخرة، إذ كان الله قد استثنى ما استثنى منه قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ* إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.

وقال آخرونَ: من أهلِ هذه المقالة: الآيةُ على الخصوص، إلا أنه جائزٌ أنْ يكـون معنى الآية: لا تدركه أبصارُ الظالمينَ في الدنيا والآخرة، وتدركه أبصارُ المؤمنينَ وأولياء الله. قالوا: وجائز أن يكون معناها: لا تدركه الأبصار بالنهايةِ والإحاطةِ، وأما بالرؤية فَبَلَى. قالوا: وجائز أنْ يكونَ معناها: لا تدركه الأبصار في الدنيا، وتدركه في الآخرة ـ وجائزٌ أن يكون معناها: لا تدركه أبصارُ مَنْ يراهُ بالمعنى الذي يدركُ به القديم أبصارَ خَلْقِه ـ فيكون الذي نفى عن خَلْقِه من إدراكِ أبصارهم إياه، هو الذي أثبته لنفسه، إذْ كانت أبصارُهم ضعيفةً لا تنفـذ إلاَّ فيما قوَّاها جَلَّ ثناؤه على النفوذ فيه، وكانت كلها متجلية لبصره لا يَخْفَى عليه منها شيءٌ. قالوا: ولا شَكَّ في خصوص قوله: «لاتدركه الأبصار»،

وأنَّ أولياء الله سيرونَـهُ يومَ القيامـةِ بأبصـارهم، غير أنَّـا لا ندري أيَّ معاني الخصـوص الأربعـة أُريدَ بالآيةِ. واعْتَلُّوا لتصحيحِ القـولِ بأنَّ الله يرى في الآخرة، بنحو عِلَلِ الذينَ ذكرنا قَبْلُ.

وقـال آخرون: الآيةُ على العموم، ولن يدرك الله بصرُ أحدٍ في الدنيا والآخـرة، ولكنَّ الله يُحْدِثُ لأوليائهِ يومَ القيامة حاسّةً سادسة سوى حواسِّهم الخمس، فيرونَهُ بها.

واعتلوا لقولهم هذا بأنَّ الله تعالى ذِكْرُه نفى عن الأبصارِ أنْ تدركه، من غيرِ أنْ يدلَّ فيها أو بآية غيرها على خصوصها. قالوا: وكذلك أخبرَ في آيةٍ أخرى أنَّ وجوهاً إليه يومَ القيامة ناظرة. قالوا: فأخبارُ الله لا تتنافى ولا تتعارض، وكِـلا الخبرين صحيحٌ معناهُ على ما جاءَ به التنزيلُ. واعتلُّوا أيضاً من جهةِ العقل بأنْ قالوا: إنْ كان جائزاً أن نراه في الآخرةِ بأبصارنا هذه وإنْ زِيدَ في قواها، وجب أنْ نراهُ في الدنيا وإنْ ضَعُفَتْ، لأنَّ كُلَّ حاسةٍ خُلِقَتْ لإدراكِ معنىً من المعاني، فهي وإنْ ضَعفَتْ كُلَّ الضعفِ، فقد تُدركُ مع ضعفها ما خُلِقَتْ لإدراكهِ وإنْ ضعف إدراكُها إياه، ما لم تُعْدم. قالوا: فلو كان في البصر أن يُدركَ صانعه في حالٍ من الأحوال أو وقتٍ من الأوقات ويراه، وجب أن يكون يدركه في الدنيا ويراه فيها وإنْ ضعف إدراكُه إياه. قالوا: فلما كان ذلك غير موجودٍ من أبصارنا في الدنيا، كان غير جائزٍ أن تكونَ في الآخرة إلا بهيئتها في الدنيا في أنها لا تدركُ إلّا ما كانَ من شأنها إدراكُه في الدنيا. قالوا: فلما كان ذلك كذلك، وكان الله تعالى ذِكْرُه قد أخبر أنَّ وجوهاً في الآخرة تراه، علم أنها تراهُ بغيرِ حاسةِ البصر، إذ كان غير جائز أن يكون خبرُه إلا حقًّا.

والصوابُ من القولِ في ذلك عندنا، ما تظاهرت به الأخبارُ عن رسولِ

الله ﷺ أنه قال: «إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر»[1] - «وكما ترون الشمس ليس دونها سحاب»[2]، فالمؤمنون يرونه، والكافرونَ عنه يومئذٍ محجوبونَ، كما قال جل ثناؤه: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾، [المطففين: ١٥].

فأما ما اعتلَّ به مُنْكِرُو رؤية اللهِ يومَ القيامةِ بالأبْصار، لما كانت لا ترى إلا ما بَايَنَها وكان بينها وبينه فضاءٌ وفُرجة، وكان ذلك عندهم غير جائزٍ أنْ تكون رؤيةُ الله بالأبصار كذلك، لأنَّ في ذلك إثبات حَدٍّ له ونهايةٍ، فبطل عندهم لذلك جوازُ الرؤيةِ عليه - فإنه يُقَالُ لهم: هل علمتم موصوفاً بالتدبيرِ سوى صانعكم، إلا مُمَاسًّا لكم أو مبايناً؟

فإنْ زعموا أنهم يعلمون ذلك، كُلِّفُوا تبيينه، ولا سبيلَ إلى ذلك.

وإنْ قالوا: لا نعلمُ ذلك.

قيل لهم: أوَ ليسَ قد علمتموه لا مُمَاسًّا لكم ولا مبايناً، وهو موصوفٌ بالتدبيرِ والفعل، ولم يجب عندكم إذْ كنتم لم تعلموا موصوفاً بالتدبير والفعلِ غيره إلا مماسًّا لكم أو مبايناً، أنْ يكون مستحيلاً العلم به، وهو موصوفٌ بالتدبيرِ والفِعْلِ لا مماس ولا مباين؟

فإن قالوا: ذلك كذلك.

قيل لهم: فما تنكرون أنْ تكونَ الأبصارُ كذلك لا ترى إلا ما باينها وكانت بينهوبينها فُرْجَةٌ، قد تراه وهو غير مباين لها ولا فرجة بينها وبينه ولا فضاء، كما لا تعلمُ القلوبُ موصوفاً بالتدبير إلا مماسًّا لها أو مبايناً، وقد علمتْه عندكم

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

لا كذلك؟ وهل بينكم وبين مَنْ أنكر أنْ يكونَ موصوفاً بالتدبيرِ والفعلِ معلوماً، إلا مُمَاسًّا للعالم به أو مبايناً - وأجاز أن يكونَ موصوفاً برؤيةِ الأبصار، لا مماسًّا لها ولا مبايناً، فرق؟

ثم يُسألون الفرقَ بين ذلك، فلن يقولوا في شيءٍ من ذلك قولاً إلا أُلْزِمُوا في الآخرِ مثله.

وكـذلـك يسألون فيما اعتلوا به في ذلك: أنَّ من شأن الأبصار إدراك الألوانِ، كما أنَّ من شأنِ الأسماع إدراك الأصوات، ومن شأن المتنسِّم درك الأعرافِ، فمن الوجه الذي فسد أن يُقْضَى للسمعِ بغيرِ درك الأصوات، فسد أن يُقْضَى للأبصار بغير درك الألوان.

فيقـال لهم: ألستم لم تعلمـوا فيما شاهدتم وعاينتم، موصوفاً بالتدبيرِ والفعلِ إلا ذَا لونٍ، وقد علمتموه موصوفاً بالتدبير لا ذا لونٍ؟

فإن قالـوا: «نعم» - لا يجـدون من الإقرار بذلك بُدًّا، إلا أنْ يكذبوا فيزعموا أنهم قد رأوا وعاينوا موصوفاً بالتدبيرِ والفعلِ غير ذي لون، فيكلفون بيانَ ذلك، ولا سبيلَ إليه.

فيقـال لهم: فإذْ كان ذلك كذلك، فما أنكرتم أنْ تكون الأبصار فيما شاهـدتم وعاينتم لم تجدوها تدرك إلَّا الألوان، كما لم تجدوا أنفسكم تعلمُ موصوفاً بالتدبيرِ إلا ذَا لونٍ، وقد وجدتموها عَلِمَتْهُ موصوفاً بالتدبير غير ذي لونٍ. ثـم يسألون الفرق بين ذلك، فلن يقولوا في أحدهما شيئاً إلا أُلْزِمُوا في الآخر مثله.

ولأهلِ هذه المقالة مسائلُ فيها تلبيسٌ، كرهنا ذِكْرَها وإطالةَ الكتابِ بها وبـالجـواب عنهـا، إذ لم يكن قَصْـدُنَـا في كتـابِنـا هذا قصـدَ الكشفِ عن تمويهاتهم، بل قصدنا فيه البيان عن تأويلِ آيِ الفرقان. ولكنا ذكرنا القَدْرَ

الذي ذكرنا، ليعلم الناظرُ في كتابنا هذا أنهم لا يرجعونَ من قولهم إلّا إلى ما لبَّس عليهم الشيطانُ، مما يسهلُ على أهلِ الحق البيانُ عن فسادِه، وأنهم لا يرجعونَ في قولهم إلى آيةٍ من التنزيلِ مُحْكَمَة، ولا رواية عن رسولِ الله ﷺ صحيحة ولا سقيمة، فهم في الظلمات يَخْبطونَ، وفي العمياء يَتَرَدَّدُونَ، نعوذُ بالله من الحيرةِ والضلالة.

وأما قوله: «وهو اللطيف الخبير»، فإنه يقول: والله تعالى ذِكْرُه المتيسرُ له من إدراكِ الأبصار، والمتأتِّي له من الإحاطةِ بها رؤيةُ ما يَعْسُرُ على الأبصار من إدراكهـا إياهُ وإحاطتها به ويتعذر عليها. «الخبير»، يقول: العليم بخلقه وأبصارهم، والسبب الذي له تعذر عليها إدراكه، فلطف بقدرته فَهَيَّأَ أبصارَ خَلْقِه هيئة لا تدركه، وخَبرَ بعلمهِ كيف تدبيرها وشؤونها وما هو أصلح بخلقه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ١٠٤﴾

وهذا أمرٌ من الله جل ثناؤه نبيَّه محمداً ﷺ أنْ يقول لهؤلاء الذين نبَّههم بهذه الآياتِ من قوله: «إنَّ الله فالقُ الحَبِّ والنوى» إلى قوله: «وهو اللطيف الخبير»، على حُجَجِه عليهم، وعلى سائرِ خَلْقِه معهم، العادلينَ به الأوثانَ والأندادَ، والمكذبينَ باللهِ ورسولهِ محمدٍ ﷺ وما جاءهم من عند الله ـ قُلْ لهم يامحمد: «قد جاءكم»، أيها العادلونَ بالله، والمكذبون رسولَهُ. «بصائر من ربكم»، أي: ماتبصرون به الهدى من الضلال، والإيمان من الكفر.

وقوله: «فمن أبصره فلنفسه»، يقول: فمن تَبَيَّنَ حُجَجَ الله وعرَفها وأقرَّ بها، وآمن بما دلّته عليه من توحيدِ الله وتصديق رسولهِ وما جاء به، فإنما أصابَ حَظَّ نفسه، ولنفسه عمل، وإياها بَغَى الخير. «ومن عَمِيَ فعليها»، يقول: ومَنْ

لم يستدلَّ بها، ولم يصدق بما دلته عليه من الإيمانِ بالله ورسوله وتنزيله، ولكنه عميَ عن دلالتها التي تدلُّ عليها، يقول: فنفسَه ضَرَّ، وإليها أساءَ لا إلى غيرها.

وأما قوله: «وما أنا عليكم بحفيظ»، يقول: وما أنا عليكم برقيبٍ أُحصِي عليكم أعمالَكُم وأفعالَكُم، وإنما أنا رسولٌ أُبَلِّغُكم ما أُرسلتُ به إليكم، والله الحفيظُ عليكم، الذي لا يَخْفَى عليه شيءٌ من أعمالكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ١٠٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: كما صرفتُ لكم، أيها الناسُ، الآياتِ والحججَ في هذه السورة، وبَيَّنْتُهَا، فَعَرَّفْتُكُمُوها، في توحيدي وتصديقِ رسولي وكتابي ووقَّفتكم عليها، فكذلك أبيِّنُ لكم آياتي وحججي في كل ما جَهِلْتُموه فلم تعرفوه من أمري ونهيي.

وأما تأويل قوله: «ولنبينه لقومٍ يعلمون»، يقول: تعالى ذِكْرُه: كما صرفنا الآياتِ والعبرَ والحججَ في هذه السورةِ لهؤلاء العادلينَ بربِّهم الآلهةَ والأندادَ، كذلك نصرفُ لهم الآياتِ في غيرها، كيلا يقولوا لرسولِنا الذي أرسلناهُ إليهم: «إنما تعلمتَ ما تأتينا به تتلوه علينا من أهلِ الكتاب»، فينزجروا عن تكذيبهم إياه، وتَقَوُّلِهم عليه الإفكَ والزورَ، ولِنُبَيِّنَ بتصريفنا الآياتِ الحقَّ، لقومٍ يعلمون الحق إذا تبيَّن لهم فَيَتَّبِعُوه ويقبلوه، وليسوا كمن إذا بُيِّنَ لهم عَمُوا عنه فلم يَعْقِلُوه، وازدادوا من الفهمِ له بُعْداً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا

﴿هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: اتَّبِعْ، يامحمدُ، ما أمرك به رَبُّكَ في وحيِهِ الذي أوحاهُ إليكَ، فاعملْ به، وانزجر عما زَجَركَ عنه فيه، ودَعْ ما يدعوكَ إليه مشركو قومكَ من عبادةِ الأوثانِ والأصنام، فإنه لا إله إلا هو. يقول: لا معبودَ يستحقُّ عليكَ إخلاصَ العبادةِ له إلَّا الله الذي هو فالقُ الحَبِّ والنوى، وفالق الإصباح، وجاعلُ الليل سكناً، والشمس والقمر حسباناً. «وأعرض عن المشركين»، يقول: ودَعْ عنكَ جِدالهم وخصومتهم. ثم نسخ ذلك جل ثناؤه بقوله في براءة: ﴿ٱقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾، الآية، [التوبة: ٥].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾

يقول جَلَّ ثناؤه لنبيه محمدٍ ﷺ: أعرض عن هؤلاءِ المشركينَ بالله، ودَعْ عنكَ جِدالهم وخصومتهم ومسابَّتهم. «ولو شاء الله ما أشركوا»، يقول: لو أرادَ ربُّكَ هِدايتَهم واستنقاذَهُم من ضلالتهم، للطف لهم بتوفيقه إياهم فلم يُشْرِكُوا به شيئاً، ولآمنوا بكَ فاتبعوكَ وصَدَّقُوا ما جِئْتَهُمْ به من الحَقِّ من عند ربك. «وما جعلناكَ عليهم حفيظاً»، يقول جل ثناؤه: وإنما بعثتك إليهم رسولاً مبلِّغاً، ولم نبعثكَ حافظاً عليهم ماهم عاملوهُ، تُحصي ذلك عليهم، فإنَّ ذلك إلينا دونك. «وما أنتَ عليهم بوكيل»، يقول: ولستَ عليهم بقيِّمٍ تقوم بأرزاقِهم وأقواتِهم ولا بحفظهم، فيما لم يُجْعَلْ إليكَ حفظُه من أمرهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ

﴿فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ وللمؤمنين به: ولا تَسُبُّوا الذين يدعو المشركون من دونِ الله من الآلهةِ والأندادِ، فيسبَّ المشركونَ اللهَ جهلاً منهم بربِّهم، واعتداءً بغير عِلْمٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٠٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: كما زَيَّنا لهؤلاء العادلينَ بربِّهم الأوثانَ والأصنام، عبادةَ الأوثانِ و طاعةَ الشيطانِ بخذلاننا إيَّاهم عن طاعةِ الرحمن، كذلك زيَّنا لكلِ جماعةٍ اجتمعتْ على عملٍ من الأعمالِ من طاعةِ الله ومعصيته، عملَهم الذي هم عليه مجتمعونَ، ثم مرجعهم بعد ذلك ومصيرهم إلى ربهم. «فينبئهم بما كانوا يعملون». يقول: فيُوقِفهم ويخبرهم بأعمالِهم التي كانوا يعملونَ بها في الدنيا، ثم يجازيهم بها، إنْ كان خيراً فخيراً، وإنْ كان شرًّا فشرًّا، أو يعفو بفضلِه، ما لم يكن شِرْكاً أو كفراً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وحَلَفَ بالله هؤلاء العادلونَ باللهِ جَهْدَ حَلِفهم، وذلك أوكدُ ماقَدَرُوا عليه من الأيمانِ وأصعبُهَا وأشدُّها. «لئن جاءتهم آية»، يقول: قالوا: نقسمُ بالله لئن جاءتنا آيةٌ تُصدِّقُ ما تقولُ، يامحمدُ، مثل الذي جاء مَنْ

قَبْلَنا من الأمم. «ليؤمنن بها»، يقول: قالوا: لَنُصَدِّقَنَّ بمجيئها بكَ، وأنكَ للهِ رسولٌ مُرْسَلٌ، وأنَّ ما جِئْتَنا به لَحَقٌّ من عندِ الله.

وقيل: «ليؤمنن بها»، فأخرج الخبرَ عن «الآية»، والمعنى لمجيء الآية.

يقول لنبيه ﷺ: «قُلْ إنما الآياتُ عند الله»، وهو القادرُ على إتيانِكم بها دونَ كُلِّ أحدٍ من خَلْقِهِ «وما يُشعركم»، يقول: وما يُدْرِيكم «أنها إذا جاءت لا يؤمنون»؟

وذكر أنَّ الذين سألوه الآيةَ من قومه، هم الذين آيسَ اللهُ نبيَّه من إيمانِهم من مشركي قومه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

معنى الكلام: وما يُدْرِيكم، أيها المؤمنونَ، لعل الآياتِ إذْ جاءت هؤلاء المشركينَ لا يؤمنون، فيعاجَلُوا بالنقمةِ والعذاب عند ذلك، ولا يؤخَّروا به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾

إنَّ الله جلَّ ثناؤه، أخبر عن هؤلاء الذينَ أقسموا باللهِ جَهْدَ أيمانِهم لئن جاءتهم. آيةٌ ليؤمنن بها: أنَّه يقلبُ أفئدتَهم وأبصارهم ويُصَرِّفُها كيف شاء، وأنَّ ذلكَ بيدِهِ يقيمه إذا شاء، ويزيغهُ إذا أراد - وأنَّ قوله: «كما لم يؤمنوا به أولَ مرة»، دليلٌ على محذوفٍ من الكلام - وأنَّ قوله: «كما» تشبيه ما بعده بشيءٍ قبله.

وإذْ كان ذلك كذلك، فالواجبُ أنْ يكونَ معنى الكلام: ونقلبُ أفئدتَهم،

فنزيغها عن الإيمانِ، وأبصارَهم عن رؤيةِ الحَقِّ ومعرفةِ موضعِ الحجة، وإنْ جاءتهم الآية التي سألوها، فلا يؤمنوا بالله ورسولِه وما جاءَ به من عند الله، كما لم يؤمنوا بتقليبنا إياها قبلَ مجيئها مرَّة قبلَ ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ونذر هؤلاءِ المشركينَ الذين أقسموا بالله جَهْدَ أيمانهم: لئن جاءتهم آيةٌ ليؤمنن بها عند مجيئها - في تمرُّدهم على الله واعتدائِهم في حدوده، يتردَّدونَ، لا يهتدونَ لحقٍّ، ولا يبصرون صواباً، قد غَلَبَ عليهم الخِذْلانُ، واستحوذَ عليهم الشيطانُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ۝١١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: يامحمد، آيِسْ من فَلاحِ هؤلاء العادلينَ بربهم الأوثانَ والأصنامَ، القائلينَ لك: «لئن جئتنا بآيةٍ لنؤمنن لك»، فإننا نَزَّلْنَا إليهمُ الملائكةَ حتى يَرَوْهَا عياناً، وكَلَّمهم الموتى بإحيائِنا إياهم حُجَّةً لكَ، ودلالةً على نبوَّتِكَ، وأخبروهم أنك مُحِقٌّ فيما تقولُ، وأن ماجئتهم به حقٌّ من عند الله، وحشرنا عليهم كُلَّ شيءٍ فجعلناهُم لك قبلاً، ما آمنوا ولا صَدَّقُوكَ ولا اتبعوكَ إلا أنْ يشاء الله ذلك لمن شاء منهم. «ولكن أكثرهم يجهلون»، يقول: ولكن أكثرَ هؤلاء المشركين يجهلون أنَّ ذلك كذلك، يحسبون أنَّ الإيمانَ إليهم، والكفرَ بأيديهم، متى شَاؤُوا آمنوا، ومتى شاؤوا كفروا. وليس

ذلك كذلك، ذلك بيدي، لا يؤمنُ منهم إلا مَنْ هَدَيْتُه له فوفَّقْتُهُ، ولا يكفر إلاَّ مَنْ خذلته عن الرشدِ فأضللته.

وقيل إنَّ ذلك نزل في المستهزئينَ برسولِ الله ﷺ، وما جاءَ به من عندِ الله، من مشركي قريش.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًاۚ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ، مُسَلِّيَه بذلك عما لَقِيَ من كَفَرَةِ قومِهِ في ذاتِ الله، وحاثًّا له على الصبرِ على ما نالَ فيه: «وكذلك جعلنا لكل نبيٍّ عدوًّا»، يقول: وكما ابتليناكَ، يامحمدُ، بأنْ جعلنا لك من مشركي قومكَ أعداء شياطينَ يُوحي بعضُهم إلى بعضٍ زُخْرُفَ القولِ، ليصدُّوهم بمجادلتهم إياكَ بذلك عن اتِّباعِكَ والإيمانِ بكَ وبما جئتهم به من عند ربِّكَ، كذلك ابتلينا من قبلك من الأنبياء والرُّسُلِ، بأنْ جعلنا لهم أعداءً من قومهم يُؤْذُونَهم بالجِدالِ والخصومات. يقول: فهذا الذي امتحنتُكَ به، لم تخصص به من بينِهم وحدكَ، بل قَدْ عَمَّمْتُهم بذلكَ معكَ لأبتليهم وأختبرهم، مع قُدْرتي على منعِ مَنْ آذاهُم من إيذائِهم، فلم أفعلْ ذلك إلا لأعرفَ أولي العزمِ منهم من غيرهم. يقول: فاصبرْ أنتَ كما صبرَ أُولُو العزمِ من الرسل.

وأما «شياطين الإنس والجن»، فإنهم مَرَدَتُهُمْ.

وأما قوله: «يُوحِي بعضُهم إلى بعضٍ زخرف القول غروراً»، فإنه يعني أنَّه يُلقي المُلْقِي منهم القَولَ، الذي زَيَّنَهُ وحَسَّنَهُ بالباطلِ إلى صاحبِهِ، ليغترَّ به مَنْ سمعه، فيضلَّ عن سبيلِ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۝١١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولو شئتُ، يامحمد، أنْ يؤمنَ الذين كانوا لأنبيائي أعداءً من شياطينِ الإنسِ والجن فلا ينالهم مَكْرُهم ويأمنوا غَوائِلهم وأذاهم، فعلتُ ذلك، ولكني لم أشأ ذلك، لأبتليَ بعضَهم ببعضٍ، فيستحق كُلُّ فريقٍ منهم ما سَبَقَ له في الكتابِ السابق. «فَذَرهم»، يقول: فَدَعْهُمْ - يعني الشياطين الذين يجادلونكَ بالباطلِ من مشركي قومكَ ويخاصمونك بما يُوحي إليهم أولياؤهم من شياطينِ الإنسِ والجنِ. «وما يفترون»، يعني: وما يختلقون من إفكٍ وزور.

يقول له ﷺ: اصبرْ عليهم، فإني من وراءِ عقابِهم على افترائِهم على الله، واختلاقِهم عليه الكذبَ والزور.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وكذلك جعلنا لكل نبيٍّ عدوًّا شياطينَ الإنس والجن يُوحي بعضُهم إلى بعضٍ زخرفَ القولِ غروراً». «ولِتَصْغَى إليه»، يقول: جَلَّ ثناؤه: يُوحي بعضُ هؤلاء الشياطين إلى بعضٍ المُزَيَّنَ من القولِ بالباطل، ليغرُّوا به المؤمنينَ من أتباعِ الأنبياء فيفتنوهم عن دينهم. «ولتصغى إليه أفئدةُ الذين لا يؤمنون بالآخرة»، يقول: ولتميلَ إليه قلوبُ الذين لا يؤمنون بالآخرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ۝١١٣﴾

يقول تعالى ذكره: وليكتسِبُوا من الأعمالِ ما هم مُكْتسِبُونَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه لنبيه محمـدٍ ﷺ: قُلْ لهؤلاء العادلينَ باللهِ الأوثانَ والأصنامَ، القائلينَ لك: «كُفَّ عن آلهتنا، ونكف عن إلهكَ»: إنَّ الله قد حَكَمَ عليَّ بذكرِ آلهتكم بما يكونُ صَدًّا عن عبادَتِها. «أفغيرَ الله أبتغي حكماً»، أي: قل: فليسَ لي أنْ أتعدَّى حُكْمَهُ وأتجاوزه، لأنه لا حَكَم أعدل منه، ولا قائلَ أصدق منه. «وهو الذي أنزل إليكمُ الكتابَ مفصلاً»، يعني القرآن. «مفصَّلاً»، يعني: مُبَيّناً فيه الحكمَ فيما تختصمونَ فيه من أمري وأمركم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنْ أنكرَ هؤلاء العادلونَ باللهِ الأوثانَ من قومكَ توحيد الله، وأشركوا معه الأندادَ، وجَحَدُوا ما أنزلته إليك، وأنكروا أنْ يكون حقاً وكذَّبوا به ـ فالذين آتيناهُم الكتابَ، وهو التوراةُ والإنجيلُ من بني إسرائيلَ. «يعلمون أنه منزل من ربِّكَ»، يعني القرآن وما فيه. «بالحق» يقول: فصلاً بين أهلِ الحقِّ والباطلِ، يدلُّ على صِدْقِ الصادقِ على الله، وكَذِبِ الكاذبِ المفتري عليه. «فلا تكونن من الممترين»، يقول: فلا تكونَنَّ، يامحمدُ، من الشاكِّينَ في حقيقةِ الأنباء التي جاءتك من اللهِ في هذا الكتاب، وغيرِ ذلك مما تَضَمَّنَهُ، لأنَّ الذين آتيناهُم الكتابَ يعلمون أنَّه مُنَزَّلٌ من رَبِّكَ بالحق.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وكَمُلَتْ. «كلمةُ ربك»، يعني القرآن. «صِدْقاً وعَدْلًا»، يقول: كملتْ كلمةُ ربك من الصدقِ والعدل.

«لا مبدِّل لكلماته»، يقول: لا مُغَيِّرَ لما أخبرَ في كتبه أنه كائنٌ، من وقوعِهِ في حِينه وأجَلِهِ الذي أخبر اللهُ أنه واقعٌ فيه، وذلك نظيرُ قولِهِ جَلَّ ثناؤه ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ﴾، [الفتح: ١٥]، فكانت إرادتُهم تبديلَ كلام الله، مسألتهم نبيَّ الله أنْ يتركهم يحضرونَ الحربَ معه، وقولهم له ولمن معه من المؤمنين: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُم﴾، بعد الخبرِ الذي كان اللهُ أخبرهم تعالى ذكره في كتابه بقوله: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ إلى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ الآية، [التوبة: ٨٣]، فحاولوا تبديلَ كلام الله وخبره بأنهم لَنْ يخرجوا مع نبيِّ الله في غَزاةٍ، ولن يقاتلوا معه عدوًّا بقولهم لهم: «ذرونا نتبعكم»، فقال اللهُ جَلَّ ثناؤه لنبيه محمدٍ ﷺ: «يريدون أنْ يُبَدِّلُوا» ـ بمسألتهم إياهم ذلك ـ كلامَ الله وخَبَرَهُ: «قُـلْ لن تَتَّبِعُـونَـا كذلكم قالَ اللهُ من قَبْـلُ». فكذلك معنى قوله: «لا مُبَدِّلَ لكلماتِهِ»، إنما هو لا مُغَيِّرَ لما أخبرَ عنه من خبرٍ أنه كائنٌ، فيبطل مجيئه وكونه ووُقُوعه على ما أخبرَ جَلَّ ثناؤه، لأنه لا يزيد المفترونَ في كُتُبِ الله ولا ينقصون منها. وذلك أنَّ اليهودَ والنصارى لا شَكَّ أنهم أهلُ كتب الله التي أنزلها على أنبيائِهِ، وقد أخبر جَلَّ ثناؤه أنهم يُحَرِّفُونَ غيرَ الذي أخبر أنَّه لا مُبَدِّلَ له.

وأما قوله: «وهو السميع العليم»، فإنَّ معناه: واللهُ «السميع»، لما يقولُ هؤلاء العادلونَ بالله، المُقْسِمُونَ باللهِ جَهْدَ أيمانِهم لئن جاءتهم آيةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بها، وغير ذلك من كلامِ خَلْقِهِ. «العليم»، بما تؤولُ إليه أيمانُهم من برٍّ وصِدْقٍ

وكَذِبٍ وحِنْثٍ، وغير ذلك من أمورِ عباده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾

يقولُ تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: لا تُطِعْ هؤلاء العادلينَ باللهِ الأندادَ، يامحمـدُ، فيما دعوكَ إليه من أكلِ ماذبحوا لآلهتِهم، وأهَلُّوا به لغيرِ رَبِّهم، وأشكالَهم من أهلِ الزَّيْغِ والضلال، فإنك إنْ تُطِعْ أكثرَ مَنْ في الأرضِ يُضِلُّوكَ عن دينِ الله، ومحجة الحَقِّ والصوابِ، فيصدُّوكَ عن ذلك.

وإنما قال اللهُ لنبيه: «وإنْ تُطِعْ أكثرَ مَنْ في الأرض»، من بني آدمَ، لأنهم كانوا حينئذٍ كفاراً ضُلَّالاً، فقال له جَلَّ ثناؤه: لاتُطِعْهُمْ فيما دَعَوْكَ إليه، فإنك إنْ تُطِعْهُمْ ضللت ضلالَهُمْ، وكنتَ مِثْلَهُمْ، لأنهم لا يدعونك إلى الهدى وقد أخطأُوه. ثم أخبرَ جَلَّ ثناؤه عن حالِ الذين نَهَى نبيَّهُ عن طاعتهم فيما دعوه إليه في أنفسهم، فقال: «إنْ يتبعون إلَّا الظنَّ»، فأخبر جَلَّ ثناؤُه أنهم من أمرهم على ظَنٍّ عند أنفسهم، وحسبانٍ على صحة عزمٍ عليه، وإن كان خطأً في الحقيقـة. «وإنْ هم إلا يخـرصـون»، يقـول: ماهم إلَّا مُتَخَـرِّصونَ، يظنون ويتوقعون حَزْراً، لا يقينَ علمٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: يامحمدُ، إنَّ ربكَ الذي نهاكَ أنْ تُطيعَ هؤلاء العادلينَ باللهِ الأوثانَ، لئلا يُضِلُّوكَ عن سبيلِهِ، هو أعلمُ منكَ ومن

جميع خَلْقِه من يَضِلُّ عن سبيله بزخرفِ القولِ الذي يوحِي الشياطينُ بعضُهم إلى بعضٍ، فيصدُّوا عن طاعتِه واتباعِ ما أمر به. «وهو أعلمُ بالمهتدين»، يقول: وهو أعلمُ أيضاً منكَ ومنهم بمن كان على استقامةٍ وسدادٍ، لا يَخْفَى عليه منهم أحدٌ. يقول: واتبع، يامحمدُ، ما أمرتُكَ به، وانْتَهِ عما نَهَيْتُكَ عنه من طاعةِ مَنْ نهيتُكَ عن طاعتِه، فإني أعلمُ بالهادي والمضلِّ من خَلْقي، منك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ وعباده المؤمنينَ به وبآياته: «فكلوا»، أيها المؤمنونَ، مما ذَكَّيْتُمْ من ذبائِحكم وذبحتموه الذبحَ الذي بينتُ لكم أنه تحلُّ به الذبيحةُ لكم، وذلك ما ذَبَحَهُ المؤمنونَ بي من أهلِ دِينكم دينِ الحق، أو ذبحه مَنْ دانَ بتوحيدي من أهلِ الكتاب، دونَ ماذبحه أهلُ الأوثانِ ومَنْ لا كِتابَ له من المجوس. «إن كنتم بآياته مؤمنين»، يقول: إنْ كنتم بحججِ الله التي أتتكم وأعلامه، بإحلالِ ما أحللتُ لكم، وتحريم ما حرمتُ عليكم من المطاعمِ والمآكلِ، مُصَدِّقينَ. ودَعوا عنكم زخرفَ ماتُوحيه الشياطينُ بعضها إلى بعضٍ من زخرفِ القولِ لكم، وتلبيس دِينكم عليكم غروراً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾

معنى قوله: «وما لكم»، في هذا الموضع: وأيُّ شيءٍ يمنعكم أنْ تأكلوا مما ذُكِرَ اسمُ الله عليه. وذلك أنَّ الله تعالى ذِكْرُه تَقَدَّمَ إلى المؤمنينَ بتحليلِ ما ذُكِرَ اسمُ الله عليه، وإباحة أكلِ ماذُبِحَ بدينِه أو دِينِ مَنْ كان يَدِينُ ببعضِ

شرائعِ كتبه المعروفة، وتحريم ما أُهِلَّ به لغيرِهِ، من الحيوان - وزَجَرهُمْ عن الإصغاء لما يوحي الشياطينُ بعضُهم إلى بعضٍ من زُخْرُفِ القول في الميتةِ والمنخنقة والمتردِّيةِ، وسائرِ ماحَرَّمَ الله من المطاعم. ثم قال: وما يمنعكم من أكل ما ذُبِحَ بديني الذي ارتضيتُه، وقد فَصَّلْتُ لكم الحلالَ من الحرامِ فيما تطعمون، وبينتُه لكم بقولي: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ﴾، إلى قوله: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾، [المائدة: ٣]، فلا لبسَ عليكم في حرام ذلك من حلاله، فتتمنَّعُوا من أكلِ حلالِهِ حَذَراً من مواقعةِ حرامه.

وأما قوله: «إلا ما اضطررتم إليه»، فإنه يعني تعالى ذِكْرُه: أنَّ ما اضطُرِرْنَا إليه من المطاعمِ المُحَرَّمةِ التي بَيَّنَ تحريمَها لنا في غيرِ حالِ الضرورة، لنا حلالٌ ما كنا إليه مُضطرينَ، حتى تزولَ الضرورة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: وإنَّ كثيراً من الناس [الذين] يجادلونكم في أكلِ ماحَرَّمَ اللهُ عليكم، أيها المؤمنونَ بالله، من الميتةِ، لَيُضِلُّونَ أتباعَهم بأهوائِهم من غيرِ عِلْمٍ منهم بصحة ما يقولون، ولا برهانَ عندهم بما فيه يجادلون، إلا رُكوباً منهم لأهوائِهم، واتِّباعاً منهم لدواعي نفوسِهم، اعتداءً وخِلافاً لأمر الله ونهيه، وطاعةً للشياطين. «إنَّ ربك هو أعلمُ بالمعتدين»، يقول: إنَّ رَبَّكَ، يامحمدُ، الذي أَحَلَّ لكَ ما أحلَّ وحَرَّمَ عليك ما حرمَ، هو أعلمُ بمن اعتدى حدوده فتجاوزَهَا إلى خِلافها، وهو لهم بالمرصاد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾

يقول تعالى ذكره: ودعوا، أيها الناسُ[1]، علانيةَ الإثم ِ، وذلك ظاهرهُ ـ وسِرَّهُ، وذلك باطنُه.

ثم اختلف أهلُ التأويلِ في المعنيِّ بالظاهرِ من الإثمِ والباطن منه، في هذا الموضع.

فقال بعضهم: «الظاهر منه»، ماحَرَّمَ جَلَّ ثناؤه بقوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾، [سورة النساء: ٢٢]، وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾، الآية، [سورة النساء: ٢٣]، و«الباطن منه»، الزنا.

وقال آخرون: «الظاهر»، أولاتُ الراياتِ[2] من الزَّواني، «والباطن»، ذواتُ الأخدان[3].

وقال آخرون: «الظاهر»، التعرِّي والتجرد من الثياب، وما يستر العورة في الطواف ـ و«الباطن»، الزنا.

والصوابُ من القول في ذلك عندنا أن يقال: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه تَقَدَّمَ إلى خَلْقِه بتركِ ظاهرِ الإثمِ وباطنه، وذلك سره وعلانيته. و«الإثم» كل ماعُصِيَ الله به من محارمهِ، وقد يدخل في ذلك سِرُّ الزنا وعلانيته، ومعاهرةُ أهلِ الراياتِ وأولات الأخدانِ منهن، ونكاحُ حلائلِ الآباءِ والأمهاتِ والبنات، والطواف بالبيت عرياناً، وكل معصيةٍ لله ظَهَرَتْ أو بَطنتْ. وإذ كان ذلك كذلك، وكانَ جميعُ ذلك «إثماً»، وكان الله عَمَّ بقوله: «وذَرُوا ظاهرَ الإثم وباطنه»، جميعَ ما

---

(١)

(٢) أولات الرايات: البغايا في الجاهلية، كُنَّ ينصبن رايات عند خيامهن أو عند بيوتهن، يُعْرَفنَ بها.

(٣) الأخدان: الأصدقاء، وذات الخدن: التي تتخذ صديقاً يأتيها سراً.

ظهرَ من الإثم وجميع ما بطن ـ لم يكن لأحدٍ أنْ يخصَّ من ذلك شيئاً دونَ شيءٍ، إلا بحجةٍ للعذرِ قاطعة.

غير أنه لو جاز أنْ يوجَّه ذلك إلى الخصوصِ بغيرِ برهانٍ، كان توجيهه إلى أنه عَنَى بظاهرِ الإثمِ وباطنهِ في هذا الموضع، ما حَرَّمَ اللهُ من المطاعمِ والمآكلِ من الميتةِ والدمِ، وما بَيَّنَ اللهُ تحريمه في قوله: «حُرِّمَتْ عليكم الميتةُ»، إلى آخر الآية، أولى، إذ كان ابتداء الآياتِ قَبْلَها بذكرِ تحريمِ ذلك جرى، وهذه في سياقها. ولكنه غير مستنكرٍ أنْ يكون عَنَى بها ذلك، وأدخلَ فيها الأمرَ باجتنابِ كُلِّ ما جَانَسَهُ من معاصي الله، فخرج الأمرُ عامًّا بالنهي عن كُلِّ ما ظهر أو بطن من الإثم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ١٢٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين يعملون بما نَهاهم اللهُ عنه، ويركبون معاصيَ الله، ويأتون ما حرَّم الله. «سَيُجْزَوْنَ»، يقول: سَيُثِيبُهم اللهُ يومَ القيامةِ بما كانُوا في الدنيا يعملون من معاصيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ١٢١﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «ولا تَأْكُلوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسمُ الله عليه»، لا تأكلوا، أيها المؤمنونَ، مما ماتَ فلم تَذْبَحُوه أنتم، أو يَذْبَحهُ مُوَحِّدٌ يَدِينُ للهِ بشرائع شَرَعها له في كتابٍ منزل، فإنه حرام عليكم ـ ولا ما أُهِلَّ به لغيرِ الله مما ذبحه

المشركون لأوثانهم، فإنَّ أَكْلَ ذلك «فِسْقٌ»، يعني: معصية كفرٍ.

(ويعني بقوله): «وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم»: إنَّ الله أخبرَ أنَّ الشياطينَ يُوحُونَ إلى أوليائهم لِيُجَادِلُوا المؤمنينَ في تحريمهم أكلَ الميتةِ، بما ذكرنا من جِدَالِهِم إياهم - وجائزٌ أنْ يكونَ الموحون كانوا شياطينَ الإنسِ يوحون إلى أوليائهم منهم - وجائزٌ أنْ يكونوا شياطينَ الجن أوحوا إلى أوليائهم من الإنس - وجائزٌ أنْ يكون الجنسانِ كلاهما تَعَاوَنَا على ذلك، كما أخبرَ اللهُ عنهما في الآية الأخرى التي يقول فيها: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾، [الأنعام: ١١٢]. بل ذلك الأغلبُ من تأويلهِ عندي، لأنَّ اللهَ أخبرَ نبيه أنه جعل له أعداء من شياطين الجن والإنس، كما جعلَ لأنبيائهِ من قبله، يوحي بعضهم إلى بعض المزيَّنَ من الأقوالِ الباطلة، ثم أعلمه أنَّ أولئك الشياطين يُوحون إلى أوليائهم من الإنس ليجادلوه ومَنْ تبعه من المؤمنينَ فيما حرمَ الله من الميتة عليهم.

ويعني بقوله: «ليجادلوكم»، ليخاصموكم.

وأما قوله: «وإن أطعتموهم إنكم لمشركون»، فإنه يعني: وإن أطعتموهم.

وأما قوله: «إنكم لمشركون»، يعني: إنكم إذاً مِثْلُهم، إذْ كان هؤلاء يأكلونَ الميتةَ استحلالاً. فإذا أنتم أكلتموها كذلك، فقد صرتُمْ مِثْلَهُمْ مشركين.

واختلف أهلُ العلم في هذه الآية، هل نُسِخَ من حُكْمِهَا شيءٌ أم لا؟

والصوابُ من القولِ في ذلك عندنا، أنَّ هذه الآية مُحْكَمَةٌ فيما أنزلت، لم يُنْسَخْ منها شيءٌ، وأنَّ طعامَ أهلِ الكتاب حلالٌ، وذبائحهم ذكيَّةٌ. وذلك مما حَرَّمَ الله على المؤمنين أكله بقوله: «ولا تأكلوا مِمَّا لم يُذْكَر اسمُ الله عليه»، بمعزلٍ. لأنَّ الله إنما حَرَّمَ علينا بهذه الآيةِ المَيْتَةَ، وما أُهِلَّ به للطواغيتِ،

وذبائحُ أهلِ الكتاب ذكيةٌ سَمَّوا عليها أو لم يُسَمُّوا، لأنهم أهلُ توحيدٍ وأصحابُ كُتُبٍ لله، يَدِينونَ بأحكامها، يذبحون الذبائحَ بأديانهم، كما يذبحُ المسلمُ بدينه، سَمَّى اللهَ على ذبيحتهِ أو لم يُسَمِّهِ، ألا أنْ يكونَ تركَ من ذكر تسمية الله على ذبيحته على الدينونة بالتعطيلِ، أو بعبادة شيءٍ سوى الله، فيحرم حينئذٍ أكلُ ذبيحتهِ، سَمَّى الله عليها أو لم يُسَمِّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾

وهذا الكلامُ من الله جَلَّ ثناؤه يدلُّ على نهيهِ المؤمنينَ برسولهِ يومئذٍ عن طاعةِ بعضِ المشركينَ الذين جادلُوهم في أكلِ الميتة، بما ذكرنا عنهم من جدالهم إياهم به، وأمرهِ إياهم بطاعةِ مؤمنٍ منهم كان كافراً، فهدَاهُ جَلَّ ثناؤه لِرُشْده، ووفَّقَهُ للإيمان. فقال لهم: أطاعةُ مَنْ كان ميتاً، يقول: من كان كافراً؟ فجعله جَلَّ ثناؤه لانصرافه عن طاعته، وجهله بتوحيده وشرائع دينه، وتركه الأخذَ بنصيبهِ من العملِ لله بما يؤديه إلى نجاتهِ، بمنزلةِ «الميت» الذي لا ينفعُ نفسه بنافعةٍ، ولا يدفعُ عنها من مكروه نازلة. «فأحييناه»، يقول: فهديناهُ للإسلام، فأنعشناه، فصار يعرف مضارَّ نفسهِ ومنافعها، ويعملُ في خلاصها من سَخَط الله وعقابه في معاده. فجعلَ إبصارَهُ الحَقَّ تعالى ذِكْرُه بعد عَمَاه عنه، ومعرفته بوحدانيتهِ وشرائع دينهِ بعد جهلهِ بذلك، حياةً وضياءً يستضيء به فيمشي على قَصْدِ السبيل، ومنهج الطريق في الناس. «كَمَنْ مَثَلُه في الظلماتِ»، لا يدري كيف يتوجَّه، وأي طريقٍ يأخذ، لشدةِ ظُلْمَةِ الليل وإضلاله الطريق. فكذلك هذا الكافرُ الضالُ في ظلماتِ الكفر، لا يبصرُ رشداً، ولا يعرف حقًّا، ـ يعني في ظلمات الكفر. يقول: أَفَطَاعةُ هذا الذي هديناهُ للحقِّ وبَصَّرناهُ الرشادَ، كطاعةِ مَنْ مثلهُ مثلُ مَنْ هو في الظلمات متردِّدٌ، لا يعرفُ المخرجَ منها، في

دعاء هذا إلى تحريمِ ماحرم الله، وتحليلِ ما أَحَلَّ، وتحليل هذا ماحرم الله، وتحريمه ما أحلّ؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ١٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: كما خذلتُ هذا الكافرَ الذي يُجادِلُكم ـ أيها المؤمنونَ بالله ورسوله، في أكلِ ما حَرَّمتُ عليكم من المطاعم ـ عن الحقِّ، فزينتُ له سُوءَ عمله فرآه حسناً، ليستحقَّ به ما أعددتُ له من أليمِ العقابِ، كذلك زيَّنتُ لغيرِهِ مِمَّنْ كان على مِثْلِ ماهو عليه من الكفرِ بالله وآياته، ما كانوا يعملونَ من معاصي الله ليستوجبوا، بذلك من فِعْلِهم، ما لهم عند رَبِّهم من النَّكال.

وفي هذا أوضحُ البيان على تكذيبِ الله الزاعمينَ[1] أنَّ الله فوَّض الأمورَ إلى خَلْقِهِ في أعمالهم، فلا صُنْعَ له في أفعالهم، وأنه قد سَوَّى بين جميعِهم في الأسبابِ التي بها يصلون إلى الطاعةِ والمعصية. لأنَّ ذلك لو كانَ كما قالوا، لكان قد زَيَّن لأنبيائهِ وأوليائهِ من الضلالةِ والكفرِ، نظيرَ مازيَّن من ذلك لأعدائهِ وأهلِ الكفرِ به، وزيَّنَ لأهلِ الكفر به من الإيمان به، نظيرَ الذي زَيَّنَ منه لأنبيائه وأوليائه. وفي إخبارِهِ جَلَّ ثناؤُه أنه زين لكلِّ عاملٍ منهم عمله، ما يُنْبِىءُ عن تزيين الكفرِ والفسوق والعصيان، وخَصَّ أعداءه وأهل الكفر، بتزيينِ الكفر لهم والفسوق والعصيان، وكَرَّهَ إليهم الإيمانَ به والطاعة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ

---

(١) الزاعمون هم: القدرية والمعتزلة والشيعة الإمامية، المعروفون بالمفوِّضة.

﴿مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

يقول جَلَّ ثناؤه: وكما زَيَّنا للكافرينَ ما كانوا يعملون، كذلك جعلنا بكلِّ قريةٍ عظماءَها مجرميها - يعني أهلَ الشركِ بالله والمعصية له. «ليمكروا فيها»، بغرورٍ من القولِ أو بباطلٍ من الفعلِ، بدينِ الله وأنبيائه. «وما يمكرون»، أي ما يحيقُ مَكْرُهم ذلك إلا بأنفسِهم، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه من وراء عقوبتهم على صدِّهم عن سبيله. «وهم لا يشعرون»، يقول: لا يدرونَ ماقد أعَدَّ الله لهم من أليمِ عذابه، فهم في غيِّهم وعُتُوِّهم على الله يتمادَوْن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا جاءت هؤلاءِ المشركينَ الذين يجادلون المؤمنينَ بزخرفِ القولِ فيما حرم الله عليهم، ليصدُّوا عن سبيلِ الله. «آية»، يعني حُجَّةً من اللهِ على صِحَّةِ ما جاءهم به محمدٌ ﷺ من عندِ الله وحقيقته قالوا لنبيِّ الله وأصحابه: «لن نؤمن»، يقول: لن نُصَدِّقَ بما دعانا إليه محمدٌ ﷺ من الإيمانِ به، وبما جاءَ به من تحريمِ ماذكر أنَّ الله حَرَّمهُ علينا. «حتى نُؤْتَى»، يعنون: حتى يُعطيهم اللهُ من المعجزاتِ مِثْلَ الذي أعطى موسى من فَلْقِ البحر، وعيسى من إحياءِ الموتى، وإبراءِ الأكمه والأبرص. يقول تعالى ذِكْرُه: «اللهُ أعلمُ حيث يجعلُ رسالته». يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: إنَّ آياتِ الأنبياء والرسل لن يُعْطَاهَا من البشر إلَّا رسولٌ مُرْسَلٌ، وليس العادلون بربِّهم الأوثانَ والأصنام منهم فيعطوها. يقول جَلَّ ثناؤه: فأنا أعلمُ بمواضعِ رسالاتي، ومَنْ هو لها أهلٌ،

فليس لكم أيها المشركونَ أنْ تَتَخَيَّرُوا ذلك عليَّ أنتم، لأنَّ تخيُّرَ الرسولِ إلى المرسِلِ دون المرسَلِ إليه، والله أعلمُ إذا أرسلَ رسالةً بموضعِ رسالاته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ١٢٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ، معلِّمَهُ ما هو صانعٌ بهؤلاءِ المتمردينَ عليه: «سيصيبُ»، يامحمدُ، الذين اكتسبوا الإثمَ بشِرْكِهم باللهِ وعبادَتِهم غيرَهُ. «صَغَارٌ»، يعني: ذِلَّةٌ وهوان.

وقولـه: «وعـذاب شديد بمـا كانـوا يمكـرون»، يقول: يصيبُ هؤلاء المكذبينَ بالله ورسوله، المُسْتَحلِّينَ ماحَرَّمَ الله عليهم من المَيْتَةِ، مع الصَّغَارِ عذابٌ شديد، بما كانوا يَكيدونَ للإسلامِ وأهلِه بالجدالِ بالباطلِ، والزخرفِ من القولِ، غروراً لأهلِ دينِ الله وطاعته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾

ويقول تعالى ذِكْرُه: فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أنْ يهديه للإيمانِ به وبرسولِهِ وما جاءَ به من عند رَبِّهِ، فيوفِّقهُ له. «يشرح صدره للإسلام»، يقول: فَسَحَ صَدْرَهُ لذلك وهَوَّنَهُ عليه، وسَهَّلَهُ له، بِلُطْفِه ومعونتِهِ، حتى يستنيرَ الإسلامُ في قلبه، فيضيءَ له، ويَتَّسِعَ له صدُره بالقبول.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومَنْ أراد الله إضلالَهُ عن سبيلِ الهدى، يَشغله بكفرهِ وصدِّهِ عن سبيلهِ، ويجعلْ صدرَهُ بخِذْلانهِ وغَلَبَةِ الكفرِ عليه، حَرَجاً.

و«الحرج»، أشَدُّ الضِّيقِ، وهو الذي لا ينفذهُ، من شِدَّةِ ضِيقهِ، وهو ههنا الصدرُ الذي لا تصلُ إليه الموعظةُ، ولا يدخله نورُ الإيمانِ، لِرَيْنِ الشركِ عليه. وأصله من «الحرج»، و«الحرج» جمع «حَرَجة»، وهي الشجرةُ الملتف بها الأشجار، لا يدخل بينها وبينها شيءٌ لشدةِ التفافها بها.

وفي هذه الآية أبينُ البيانِ لمن وُفِّقَ لفهمها، عن أنَّ السببَ الذي به يُوصلُ إلى الإيمان والطاعة، غير السبب الذي به يُوصَلُ إلى الكفرِ والمعصية، وأنَّ كِلَا السببينِ من عندِ الله. وذلك أنَّ الله جل ثناؤه أخبر عن نفسه أنه يشرح صدرَ مَنْ أراد هدايتَهُ للإسلام، ويجعل صدرَ مَنْ أراد إضلالَهُ ضَيِّقاً عن الإسلامِ حَرَجاً كأنَّما يَصَّعَّدُ في السماء. ومعلومٌ أنَّ شرحَ الصدرِ للإيمانِ خِلافُ تضييقِهِ له، وأنه لو كان يوصل بتضييق الصدر عن الإيمان إليه، لم يكن بين تضييقِهِ عنه وبين شرحهِ له فَرْقٌ، ولكان مَنْ ضُيِّقَ صدرُه عن الإيمانِ، قد شُرِحَ صدرُه له، ومَنْ شرح صدره له، فقد ضُيِّقَ عنه، إذْ كان موصولاً بكلٍّ واحدٍ منهما - أعني من التضييقِ والشرح - إلى مايُوصَل به إلى الآخر. ولو كان ذلك كذلك، وَجَبَ أنْ يكونَ الله قد كان شرحَ صدرَ أبي جهلٍ للإيمان به، وضَيَّقَ صدرَ رسولِ الله ﷺ عنه. وهذا القولُ من أعظمِ الكفرِ بالله. وفي فساد ذلك أن يكون كذلك، الدليلُ الواضح على أنَّ السَّبب الذي به آمنَ المؤمنونَ بالله ورسله، وأطاعَهُ المطيعونَ، غير السببِ الذي كفرَ به الكافرونَ بالله وعَصَاهُ

العاصون، وأنَّ كِلَا السببين من عند الله وبيده، لأنه أخبر جَلَّ ثناؤه أنه هو الذي يشرحُ صدرَ هذا المؤمنِ به للإيمانِ إذا أرادَ هِدايتَهُ، ويضيِّق صدرَ هذا الكافرِ عنه إذا أراد ضلالَه[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾

وهذا مَثَلٌ من الله تعالى ذِكْرُه، ضربه لقلبِ هذا الكافرِ في شِدَّةِ تَضييقهِ إياهُ عن وصوله إليه، مثل امتناعه من الصُّعود إلى السماء وعجزه عنه، لأنَّ ذلك ليس في وُسْعِه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ١٢٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: كما يجعلُ اللهُ صدرَ مَنْ أراد إضلالَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً، كأنما يَصَّعَّدُ في السماء من ضِيقهِ عن الإيمانِ فيجزيه بذلك، كذلك يُسَلِّطُ اللهُ الشيطانَ عليه وعلى أمثاله مِمَّنْ أَبَى الإيمانَ بالله ورسوله، فيغويه ويصدّه عن سبيلِ الحق.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦﴾ ۞

يقول تعالى ذِكْرُه: وهذا الذي بَيَّنا لكَ، يامحمدُ، في هذه السورةِ وغيرها من سورِ القـرآن ـ هو صراطُ رَبِّكَ، يقول: طريق ربِّك، ودِينه الذي ارتضاهُ

---

(١) هذا ردٌّ بليغ على المعتزلة، ومَنْ قال بمقالتهم في هذا.

لنفسـه دينـاً، وجعله مستقيمـاً لا اعوجاجَ فيه. فاثْبُتْ عليه، وحرِّم ما حَرَّمْتُه عليكَ، وأحلل ما أحللتـهُ لكَ، فقـد بيَّنا الآياتِ والحجج على حقيقةِ ذلك وصحته. «لقومٍ يذكرون»، يقول: لِمَنْ يتذكر ما احتجَّ اللهُ به عليه من الآياتِ والعبرِ فيعتبر بها. وخَصَّ بها «الذين يتذكرون»، لأنهم هم أهلُ التمييزِ والفهمِ، وأولو الحِجَى والفضل.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٢٧﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «لهم»، للقومِ الذين يذكرون آياتِ الله فيعتبرونَ بها، ويُوقنون بدلالتها على مادَلَّتْ عليه من توحيدِ الله ومن نبوَّةِ نبيهِ محمدٍ ﷺ وغيرِ ذلك، فيصدِّقونَ بما وصلوا بها إلى علمه من ذاك.

وأما «دار السلام»، فهي دار الله التي أعدَّها لأوليائهِ في الآخرة، جزاءً لهم على ما أبلوا في الدنيا في ذاتِ الله، وهي جنته. و«السلام»، اسمٌ من أسماء الله تعالى.

وأمـا قولـه: «وهـو وليُّهم»، فإنه يقول: والله ناصرُ هؤلاء القومِ الذين يذكـرونَ آياتِ الله. «بما كانوا يعملون»، يعني: جزاءً بما كانوا يعملون من طاعةِ الله ويتبعون رضوانه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ﴾

يعني تعـالى ذِكْـرُه بقوله: «ويوم يحشرهم جميعاً»، ويومَ يحشر هؤلاء

العادلينَ باللهِ الأوثانَ والأصنامَ وغيرَهم من المشركينَ، مع أوليائِهم من الشياطينِ الذين كانوا يُوحُونَ إليهم زُخْرُفَ القولِ غُروراً ليجادِلُوا به المؤمنينَ، فيجمعهم جميعـاً في موقفِ القيامـة ـ يقـولُ للجن: «يامعشـرَ الجن قد استكثرتم من الإنسِ»، وحذف «يقول للجن» من الكلامِ، اكتفاءً بدلالة ماظهرَ من الكلامِ عليه منه.

وعَنَى بقوله: «قد استكثرتم من الإنس»، استكثرتم من إضلالِهم وإغوائِهم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعـالَى: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فيجيبُ أولياءُ الجن من الإنسِ فيقولون: رَبَّنا استمتعَ بعضُنا ببعضٍ في الدنيا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قالوا: بَلَغْنَا الوقتَ الذي وَقَّتَ لموتِنَا. وإنما يعني جَلَّ ثناؤه بذلك: أنهم قالوا: استمتعَ بعضُنا ببعضٍ أيّامَ حياتِنَا إلى حالِ موتنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ١٢٨﴾

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عَمَّا هو قائلٌ لهؤلاءِ الذينَ يحشرهم يومَ القيامةِ من العادلينَ به في الدنيا الأوثانَ، ولقُرَنائِهم من الجِنِّ، فأخرج الخبرَ

عما هو كائنٌ، مُخْرَجَ الخبرِ عما كانَ، لتقدُّمِ الكلامِ قَبْلَه بمعناه والمراد منه، فقـال: قال الله لأولياءِ الجنِّ من الإنسِ الذين قد تَقَدَّمَ خبرُه عنهم: «النارُ مثواكم»، يعني نار جهنم. «مثواكم»، الذي تثوون فيه، أي تُقِيمونَ فيه.

«خالدين فيها»، يقول: لابثينَ فيها. «إلَّا ما شاء الله»، يعني إلا ماشاء الله من قَدْر مُدَّة ما بينَ مبعثهم من قبورِهم، إلى مصيرِهم إلى جهنم، فتلك المدة التي استثناها الله من خلودِهم في النار. «إنَّ ربكَ حكيم»، في تدبيرِهِ في خَلْقِه، وفي تصريفهِ إيَّاهم في مشيئتهِ من حالٍ إلى حال، وغير ذلك من أفعالهِ. «عليمٌ»، بعواقبِ تدبيرِهِ إياهم، وما إليه صائرةٌ أمرِهم من خيرٍ وشر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾

معناه: وكذلك نجعلُ بعضَ الظالمينَ لبعضٍ أولياءَ. لأنَّ الله ذَكَرَ قَبْلَ هذه الآيةِ ما كانَ من قولِ المشـركينَ، فقال جَلَّ ثناؤه: «وقال أولياؤُهم من الإنس رَبَّنَا استمتعَ بعضُنا ببعضٍ»، وأخبر جَلَّ ثناؤه: أنَّ بعضَهم أولياءُ بعضٍ، ثم عَقَّبَ خبره ذلك عن أنَّ ولايةَ بعضِهم بعضاً بتوليتهِ إياهم، فقال: وكما جعلنا بعضَ هؤلاء المشركين من الجن والإنس أولياءَ بعضٍ يستمتعُ بعضُهم ببعضٍ، كذلك نجعلُ بعضَهم أولياءَ بعضٍ في كل الأمور. «بما كانوا يكسبون»، من معاصي الله ويعملونه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ

وهذا خبر من الله جَلَّ ثناؤه عما هو قائلٌ يومَ القيامة لهؤلاء العادلينَ به من مشـركي الإنس والجن، يخبر أنه يقول لهم تعالى ذِكْرُه يومئذٍ: «يامعشرَ الجن والإنس ألم يأتكم رسلٌ منكم يَقُصُّونَ عليكم آياتي»، يقول: يُخْبِرُونَكم بما أوحي إليهم من تنبيهي إياكم على مواضعِ حججي، وتعريفي لكم أدلَّتي على توحيدي، وتصـديق أنبيائي، والعمـل بأمـري، والانتهاء إلى حدودي. «وينذرونكم لِقاءَ يومِكم هذا»، يقول: يُحَذِّرُونَكُمْ لِقاءَ عذابي في يومكم هذا، وعقابي على معصيتِكُمْ إيَّايَ، فتنتهوا عن معاصيَّ.

وهذا من الله جَلَّ ثناؤه تقريعٌ وتوبيخٌ لهؤلاء الكَفَرَةِ على ما سَلَفَ منهم في الدنيا من الفسوق والمعاصي. ومعناه: قد أتاكم رُسُلٌ منكم ينبِّهونكم على خطأ ماكُنْتُمْ عليه مقيمينَ بالحججِ البالغة، وينذرونكم وعيدَ الله على مقامكم على ماكنتم عليه مقيمينَ، فلم تقبلوا ذلك، ولم تتذكروا ولم تعتبروا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ١٣٠﴾

وهذا خَبَرٌ من الله جل ثناؤه عن قولِ مشركي الجن والإنس عند تقريعهِ إياهم «شهدنا على أنفسنا»، بأنَّ رُسُلَكَ قد أتتنا بآياتكَ، وأنْذَرَتْنا لِقاءَ يومِنا هذا، فَكَذَّبناها وجَحَدْنا رسالتها، ولم نَتَّبِعْ آياتكَ ولم نُؤمنْ بها.

قال الله خبـراً مبتـدأ: وغَـرَّتْ هؤلاءِ العـادلينَ بالله الأوثـانَ والأصنامَ، وأولياءَهم من الجن. «الحياةُ الدنيا»، يعني: زينةُ الحياةِ الدنيا، وطلبُ الرياسةِ فيها والمنافسة عليها، أنْ يسلموا لأمرِ الله فيطيعوا فيها رُسُلَهُ، فاستكبروا وكانوا قوماً عالينَ. فاكتفى بذكرِ «الحياة الدنيا» من ذكرِ المعاني التي غرَّتهم وخَدَعتهم فيها، إذْ كان في ذكرها. مكتفىً عن ذِكْرِ غيرِها، لدلالةِ الكلامِ على ماتُرك

ذكره - يقول الله تعالى ذِكْرُه: «وشهدوا على أنفسهم»، يعني: هؤلاء العادلينَ به يومَ القيامة - أنهم كانوا في الدنيا كافرين به وبرسله، لِتَتِمَّ حُجَّةُ الله عليهم بإقرارِهم على أنفسِهم بما يوجبُ عليهم عقوبتَهُ وأليمَ عذابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾.

يقول تعالى ذِكْرُه: «ذلك أنْ لم يكن رَبُّكَ مُهْلِكَ القرى بظلم»، أي: إنما أرسلنا الرسلَ، يامحمدُ، إلى مَنْ وصفتُ أمرَه، وأعلمتُكَ خبرَهُ من مشركي الإنسِ والجن، يَقُصُّون عليهم آياتي وينذرونهم لقاءَ مَعَادِهم إليَّ، من أجلِ أنَّ ربَّكَ لم يكن مُهْلِكَ القرى بظلمٍ.

وقد يتَّجه من التأويل في قوله: «بظلم»، وجهان:

أحدهما: «ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم»، أي: بِشِرْكِ مَنْ أشركَ، وكُفْرِ مَنْ كفر من أهلها، كما قال لقمان: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، [لقمان: ١٣]. «وأهلُها غافلون»، يقول: لم يكن يعاجِلهم بالعقوبةِ حتى يبعثَ إليهم رسلاً تُنَبِّهُهم على حججِ الله عليهم، وتُنْذِرهم عذابَ الله يومَ مَعَادِهم إليه، ولم يكنْ بالذي يأخذهم غَفْلَةً فيقولوا: «ما جاءنا من بَشِيرٍ ولا نذير».

والآخر: «ذلك أنْ لم يكن ربكَ مُهلكَ القرى بظلم»، يقول: لم يكن ليهلكهم دونَ التنبيهِ والتذكيرِ بالرُّسل والآياتِ والعبرِ، فيظلمهم بذلك، والله غير ظَلَّامٍ لعبيده[1].

وأولى القولين بالصوابِ عندي، القولُ الأول: أنْ يكونَ معناه: أنْ لم

---

(١) هذه مقالة الفراء في معاني القرآن: ١/٣٥٥.

يكن ليهلكهم بشركِهم، دونَ إرسالِ الرسل إليهم، والإعذار بينه وبينهم. وذلك أنَّ قوله: «ذلك أن لم يكن رَبُّكَ مُهْلِكَ القرى بظلم»، عقيبَ قوله: «ألم يأتكم رُسُلٌ منكم يَقُصُّونَ عليكم آياتي»، فكان في ذلكَ الدليلُ الواضحُ على أنَّ نَصَّ قوله: «ذلك أنْ لم يكن ربك مهلك القرى بظلم»، إنما هو: إنما فعلنا ذلكَ من أجلِ أنَّا لا نهلكُ القرى بغيرِ تذكيرٍ وتنبيهٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولِكُلٍّ عاملٍ في طاعةِ الله أو معصيته، منازلُ ومراتبُ من عملهِ يبلغه الله إياها، ويثيبه بها، إنْ خيراً فخيراً، وإنْ شرًّا فشرًّا. «وما رَبُّكَ بغافلٍ عما يعملون»، يقول جَلَّ ثناؤه: وكُلُّ ذلك من عملهم، يامحمدُ، بعلمٍ من ربِّك، يُحْصِيها ويُثْبِتُهَا لهم عنده، ليجازيهم عليها عند لقائهم إياه ومَعَادِهم إليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ: «وربُّكَ»، يا محمدُ، الذي أمرَ عبادَهُ بما أمرَهُمْ به، ونهاهم عما نهاهم عنه، وأثابَهُمْ على الطاعةِ، وعاقبهم على المعصيةِ. «الغنيُّ»، عن عبادهِ الذين أمرهم بما أمرَ، ونهاهم عما نهى، وعن أعمالِهم وعبادتهم إياهُ، وهم المحتاجونَ إليه، لأنه بيدهِ حياتُهم ومماتُهم، وأرزاقُهم

وأقواتُهم ونفعهم وضرهم. يقول عزَّ ذِكْرُه: فلم أخلقهم، يا محمدُ، ولم آمرهم بما أمرتُهُمْ به، وأنْهَهُمْ عما نَهيْتُهُمْ عنه، لحاجةٍ لي إليهم، ولا إلى أعمالهم، ولكن لأتفضَّلَ عليهم برحمتي، وأثيبهم على إحسانِهم إنْ أحسنوا، فإنِّي ذُو الرَّأفةِ والرحمة.

وأما قوله: «إنْ يشأ يُذْهبكم ويستخلِفْ من بعدكم ما يشاء»، فإنه يقول: إنْ يشأ ربُّك، يا محمدُ، الذي خلق خَلْقَهُ لغيرِ حاجةٍ منه إليهم وإلى طاعتهم إياه. «يُذْهِبْكُمْ»، يقول: يهلك خَلْقَهُ هؤلاء الذين خلقهم من ولدِ آدم. «ويستخلفْ من بعدكم ما يشاء»، يقول: ويأتِ بخَلْقٍ غيرِكم وأممٍ سواكم، يخلفُونكم في الأرض. «من بعدكم»، يعني: من بعد فنائِكم وهلاكِكم. «كما أنشأكم من ذرّية قومٍ آخرين»، كما أحدثكم وابتدعكم من بعد خَلْقٍ آخرينَ كانوا قبلَكم.

ومعنى «مِنْ» في هذا الموضع التعقيب، كما يقال في الكلام: «أعطيتك من دينارك ثوباً»، بمعنى: مكانَ الدينار ثوباً، لا أنَّ الثوبَ من الدينارِ بعضٌ. كذلك الذين خوطبوا بقوله: «كما أنشأكم»، لم يُرِدْ بإخبارِهم هذا الخبرَ أنهم أُنْشِئُوا من أصلابِ قومٍ آخرين، ولكن معنى ذلك ما ذكرنا من أنَّهم أُنْشِئُوا مكانَ خَلْقٍ خَلَفَ قومٍ آخرين قد هلكوا قَبْلَهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمشركين به: أيها العادلونَ بالله الأوثانَ والأصنامَ، إنَّ الذي يُوعِدُكم به رَبُّكم من عقابهِ على إصرارِكم على كُفْرِكم، واقعٌ بكم. «وما أنتم بمعجزين»، يقول: لن تعجزوا ربَّكُم هَرَباً منه في الأرض فتفوتوه، لأنكم

حيثُ كنتم في قَبْضَتِه، وهو عليكم وعلى عقوبتكم بمعصيتكم إيَّاهُ قادرٌ. يقول: فاحذرُوه وأنيبوا إلى طاعتهِ، قبلَ نزولِ البلاء بكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ: «قل»، يا محمدُ، لقومك من قريش الذين يجعلونَ مع اللهِ إلهاً آخر: «اعملوا على مكانَتِكم»، يقول: اعملوا على حِيالكم وناحيتكم.

«إني عامل»، يقول جَلَّ ثناؤُه، لنبيه: قل لهم اعملُوا ما أنتم عاملونَ، فإني عاملٌ ما أنا عامِلُهُ مما أمرني به رَبي. «فسوف تعلمون»، يقول: فسوفَ تعلمونَ عند نزولِ نقمةِ اللهِ بكم، أيُّنا كان المحقّ في عمله، والمصيب سبيلَ الرشاد، أنا أم أنتم.

وقوله تعالى ذِكْرُه لنبيه: قُلْ لقومكَ، «يا قوم اعملوا على مكانتكم»، أمرٌ منه له بوعِيدهم وتهدُّدِهم، لا إطلاقٌ لهم في عمل ما أرادُوا من معاصي الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝١٣٥﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «من تكون له عاقبة الدار»، فسوف تعلمون، أيها الكَفَرَةُ باللهِ، عند معايَنَتِكُم العذابَ، مَن الذي تكونُ له عاقبةُ الدارِ مِنَّا ومنكم. يقول: من الذي تُعقبه دنياهُ ما هو خير له منها أو شر منها بما قَدَّمَ فيها من صالحِ أعماله أو سَيِّئها.

ثم ابتدأ الخبر جَلَّ ثناؤُهُ فقال: «إنه لا يفلحُ الظالمون»، يقول: إنه لا ينجحُ ولا يفوزُ بحاجته عند الله مَنْ عَمِلَ بخلافِ ما أمرهُ الله به من العمل في الدنيا، وذلك معنى: «ظلم الظالم»، في هذا الموضع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ١٣٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وجعل هؤلاء العادلونَ بربهم الأوثانَ والأصنامَ لربِّهم «مما ذَرأ» خالقهم، يعني: مما خَلَقَ من الحرثِ والأنعام. «نصيباً»، يعني: قسماً وجزءاً.

وأما قوله: «ساء ما يحكمون»، فإنه خبرٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ عن فِعْلِ هؤلاء المشركينَ الذين وصفَ صِفَتهم. يقول جَلَّ ثناؤُه: وقد أساءُوا في حكمهم، إذْ أخذوا من نصيبي لشركائِهم، ولم يُعْطُوني من نصيبِ شركائِهم. وإنما عَنَى بذلك تعالى ذِكْرُه الخَبرَ عن جَهْلِهم وضلالتهم، وذهابِهم عن سبيل الحقِّ، بأنهم لم يرضوا أنْ عدلوا بمن خَلَقَهم وغذاهم، وأنعمَ عليهم بالنعم التي لا تُحْصَى، ما لا يضرهم ولا ينفعهم، حتى فَضَّلُوهُ في أقسامِهم عند أنفسِهم بالقَسْم عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ١٣٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وكما زيَّن شركاءُ هؤلاءِ العادلينَ بربهم الأوثانَ والأصنامَ لهم ما زَيَّنُوا لهم، من تصييرِهم لربِّهم من أموالهم قَسْماً بزعمهم، وتركهم ما وَصَلَ من القَسْم الذي جعلوه لله إلى قسم شركائهم في قسمهم، وردِّهم ما وَصَل من القسَم الـذي جعلوه لشـركـائهم إلى قسم نصيبِ الله، إلى قسم شركـائهم. «كـذلـك زين لكثيرٍ من المشركينَ قتلَ أولادهم شركاؤهم»، من الشياطين، فَحَسَّنُوا لهم وأدَ البناتِ. «لِيُرْدُوهُمْ»، يقول ليهلكوهم. «وليلبسُوا عليهـم دِينَـهم»، فعلوا ذلــك بهم، ليخلطوا عليهم دِينهم فيلتبس، فَيَضلُّوا ويهلكوا، بفعلِهم ما حَرَّمَ اللهُ عليهم، ولو شاء الله أنْ لا يفعلوا ما كانوا يفعلون من قتلهم لم يفعلوه، بأنْ كان يهـديهم للحقِّ، ويوفقهم للسـداد، فكانوا لا يقتلونهم، ولكن الله خذلهم عن الرشاد فقتلوا أولادَهُم، وأطاعوا الشياطينَ التي أغوتهم.

يقول الله لنبيه، مُتَوعِّداً لهم على عظيمِ فِرْيَتِهم على رَبِّهم فيما كانوا يقـولـون في الأنصبـاء التي يقسِمونها: «هذا لله وهذا لشركائنا»، وفي قتلهم أولادهم. «ذَرْهُمْ»، يا محمدُ، «وما يَفترونَ»، وما يَتقوَّلُونَ عليَّ من الكذبِ والزورِ، فإني لهم بالمرصاد، ومن وراء العذاب والعقاب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ﴾

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن هؤلاء الجَهَلَةِ من المشركينَ أنهم كانوا يُحَرِّمُونَ ويحلِّلونَ من قِبَلِ أنفُسِهم، من غيرِ أنْ يكون الله أذِنَ لهم بشيءٍ من ذلك.

يقـول تعـالى ذِكْرُه: وقال هؤلاء العادلونَ بربهم من المشركينَ، جهلاً

منهم، لأنعامٍ لهم وحرثٍ: هذه أنعامٌ وهذا حَرْثٌ حِجْرٌ يعني: بـ«الأنعام» و«الحرث» ما كانوا جعلوهُ لله ولآلهتهم، التي قد مضى ذِكْرُهَا في الآية قبل هذه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وحَرَّمَ هؤلاء الجَهَلَةُ من المشركينَ ظهورَ بعضِ أنعامهم، فلا يركبون ظهورها، وهم ينتفعون برِسْلِها ونِتَاجها وسائرِ الأشياء منها غير ظهورِها للركوبِ، وحَرَّمُوا من أنعامهم أنعاماً أُخَر، فلا يحجُّون عليها، ولا يذكرونَ اسمَ الله عليها إنْ ركبوها بحالٍ، ولا إنْ حلبوها، ولا إنْ حمَلوا عليها.

وأما قوله: «افتراء على الله»، فإنه يقول: فعل هؤلاء المشركون ما فعلوا من تحريمهم ما حَرَّمُوا، وقالوا ما قالوا من ذلك، كَذِباً على الله، وتَخَرُّصاً الباطلَ عليه، لأنهم أضافوا ما كانوا يُحَرِّمُونَ من ذلك، على ما وَصَفَهُ عنهم جَلَّ ثَنَاؤُهُ في كتابه، إلى أنَّ اللهَ هو الذي حَرَّمَهُ، فنفى الله ذلك عن نفسه، وأكْذَبَهُمْ، وأخبر نبيه والمؤمنينَ أنهم كَذَبَةٌ فيما يَدَّعُونَ.

ثم قال عَزَّ ذِكْرُه: «سيجزيهم»، يقول: سَيُثِيبُهم ربُّهم بما كانوا يفترونَ على الله الكَذِبَ ثوابَهم، ويجزيهم بذلك جزاءهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾

الأنعام: ١٣٩

اختلف أهلُ التأويل في المعنيِّ بقوله: «ما في بطون هذه الأنعام».

فقال بعضهم: عَنَى بذلك اللَّبن.

وقال آخرون: بل عَنى بذلك ما في بطونِ البحائرِ والسوائبِ من الأجِنَّةِ.

وأَوْلى الأقوال في تأويلِ ذلك بالصوابِ أنْ يقالَ: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه أخبرَ عن هؤلاءِ الكَفَرَةِ أنهم قالوا في أنعام بأعيانها: «ما في بطونِ هذه الأنعام خالصة لذكورنا دون إناثنا»، واللبنُ مما في بطونها، وكذلك أجنتها. ولم يخصُص الله بالخبرِ عنهم أنهم قالوا: بعضُ ذلك حرام عليهن دون بعض.

وإذ كان ذلك كذلك، فالواجبُ أنْ يقال إنهم قالوا: ما في بطون تلك الأنعـام من لبنٍ وجنينٍ حِلٌّ لذكـورِهم ـ خالصـة، دونَ إناثهم، وإنهم كانوا يؤثِرُونَ بذلك رجالَهم، إلا أنْ يكونَ الذي في بطونها من الأجنة ميتاً، فيشترك حينئذٍ في أكلهِ الرجال والنساء.

والصوابُ من القول في ذلك أن يقال: إنَّ الله أخبر عن هؤلاء المشركينَ أنهم كانوا يقولون لما في بطونِ هذه الأنعام ـ يعني أنعامهم ـ: «هذا محرم على أزواجنا»، و«الأزواج»، إنما هي نساؤهم في كلامهم، وهن لاشك بناتُ مَنْ هُنَّ أولاده، وحلائلُ مَنْ هُنَّ أزواجُه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾

يقول جَلَّ ثناؤُه: «سيجزي»، أي: سيثيبُ ويكافىءُ هؤلاءِ المفترينَ عليه الكذب في تحريمهم ما لم يحرِّمه الله، وتحليلهم ما لم يحلله الله، وإضافتهم كَذِبَهم في ذلك إلى الله، وقوله: «وصفهم»، يعني بـ«وصفهم»، الكذبَ على

الله، وذلك كما قال جَلَّ ثناؤُهُ في موضعٍ آخرَ من كتابه: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ [النحل: ٦٢].

وأما قوله: «إنه حكيم عليم»، فإنه يقولُ جَلَّ ثناؤُهُ: إنَّ الله في مجازاتهم على وَصْفِهم الكذب وقِيلِهم الباطلَ عليه. «حكيم»، في سائرِ تدبيرِهِ في خَلْقِه. «عليمٌ»، بما يُصْلِحُهم، وبغيرِ ذلكَ من أمورِهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قد هَلَكَ هؤلاء المفترونَ على رَبِّهم الكذبَ، العادلونَ به الأوثانَ والأصنام، الذين زَيَّنَ لَهُمْ شركاؤُهم قتلَ أولادِهم، وتحريمَ ما أنعمتُ به عليهم من أموالهم، فقتلوا طاعةً لها أولادَهم، وحَرَّمُوا ما أَحَلَّ اللهُ لهم وجعله لهم رِزْقاً من أنعامِهم. «سَفَهاً»، منهم. يقول: فعلوا ما فعلوا من ذلكَ جهالةً منهم بما لهم وعليهم، ونقصَ عقولٍ وضعفَ أحلامٍ منهم، وقِلَّةَ فَهْمٍ بعاجلِ ضرِّهِ وآجلِ مكروهه، من عظيمِ عقابِ الله عليه لهم. «افتراء على الله»، يقول: تَكَذُّباً على اللهِ وتَخَرُّصاً عليه الباطلَ. «قد ضَلُّوا»، يقول: قد تركوا مَحجَّةَ الحقِّ في فِعْلِهم ذلكَ، وزالوا عن سواءِ السبيل. «وما كانوا مهتدين»، يقول: ولم يَكُنْ فاعِلُو ذلك على هدىً واستقامةٍ في أفعالهم التي كانوا يفعلون قبل ذلك، ولا كانوا مهتدينَ للصوابِ فيها، ولا مُوَفَّقِينَ له.

ونزلت هذه الآيةُ في الذين ذَكَرَ اللهُ خَبرهم في هذه الآياتِ من قوله: «وجعلوا لله مما ذرأ من الحَرْثِ والأنعامِ نصيباً»، الذين كانوا يُبَحِّرونَ البحائرَ، ويُسَيِّبونَ السوائبَ، ويَئِدُونَ البناتِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾

وهذا إعلامٌ من الله تعالى ذِكْرُه ما أنعمَ به عليهم من فضله، وتنبيهٌ منه لهم على موضعِ إحسانهِ، وتعريفٌ منه لهم ما أحَلَّ وحَرَّمَ وقسمَ في أموالهم من الحقوقِ لمن قسم له فيها حقًّا.

يقول تعالى ذِكْرُه: وربكم، أيها الناسُ. «أنشأ»، أي أحدثَ وابتدعَ خلقاً، لا الآلهة والأصنام. «جناتٍ»، يعني بساتين. «معروشات»، وهي ما عَرَش الناسُ من الكروم. «وغير معروشات»، غيرَ مرفوعاتٍ مبنيَّات، لا ينبته الناسُ ولا يرفعونه، ولكنَّ الله يرفعهُ وينبته وينميِّه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾

يقول جَلَّ ثناؤُه: وأنشأ النخلَ والزرعَ مختلفاً أُكُلُه ـ يعني بـ«الأكل»، الثمرَ. يقول: وخَلقَ النخلَ والزرعَ، مختلفاً ما يخرجُ منه مما يُؤكَلُ من الثمرِ والحَبِّ. «والزيتونَ والرمانَ متشابهاً وغير متشابه»، في الطَّعْمِ، منه الحلوُ، والحامض، والمُزّ[1].

وأما قوله: «كُلُوا من ثمره إذا أثمر»، فإنه يقولُ: كُلُوا من رطبه ما كانَ رطباً ثمرهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾

---

(١) المز ـ بضم الميم وبالزاي ـ ما كان طعمُه بين الحلو والحامض.

اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك.

فقال بعضهم: هذا أمرٌ من اللهِ بإيتاءِ الصدقةِ المفروضةِ من الثمر والحَبِّ.

وقال آخرون: بل ذلك حَقٌّ أوجبه اللهُ في أموالِ أهلِ الأموالِ، غيرُ الصدقةِ المفروضة.

وقال آخرون: كان هذا شيئاً أمَرَ اللهُ به المؤمنينَ قبل أنْ تُفْرَضَ عليهم الصدقةُ المؤقتة. ثم نَسَخَتْهُ الصدقةُ المعلومةُ، فلا فَرْضَ في مالٍ كائناً ما كانَ، زَرْعاً كان أو غرساً، إلا الصدقة التي فَرَضَها اللهُ فيه.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك عندي بالصواب، قولُ مَنْ قال: كان ذلك فرضاً فَرَضَهُ اللهُ على المؤمنين في طعامهم وثمارِهم التي تُخْرجها زُرُوعهم وغرُوسهم، ثم نَسَخَهُ الله بالصدقةِ المفروضة، والوظيفةِ المعلومةِ من العُشْرِ ونصفِ العشر. وذلك أنَّ الجميعَ مُجْمِعُونَ لا خِلافَ بينهم: أنَّ صدقة الحَرْثِ لا تُؤْخَذُ إلا بعد الدِّياسِ والتنقيةِ والتذريةِ، وأنَّ صدقةَ التمر لا تُؤْخَذُ إلا بعد الإجزاز.

فإذا كان ذلك كذلك، وكان قوله جَلَّ ثناؤُهُ: «وآتوا حَقَّهُ يومَ حَصادِه»، يُنْبِىءُ عن أنه أمرٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ بإيتاءِ حقه يومَ حصادِه، وكانَ يوم حصادِه هو يوم جَدِّه وقَطْعِه، والحبُّ لاشَكَّ أنه في ذلك اليوم في سُنْبُلِه، والتَّمر وإنْ كان ثمر نخل أو كَرْم غيرُ مستحكم جُفوفُه ويبْسُه، وكانت الصدقة من الحَبِّ إنما تُؤْخَذُ بعد دياسهِ وتذريتهِ وتنقيتهِ كيلاً، والتمرُ إنما تُؤْخَذُ صدقته بعد استحكامِ يبسه وجُفُوفه كَيْلاً ـ عُلِمَ أنَّ ما يؤخذُ صدقةً بعد حين حَصْده، غير الذي يجب إيتاؤه المساكينَ يومَ حَصاده.

فإن قال قائل: وما تُنْكِرُ أنْ يكونَ ذلك إيجاباً من اللهِ في المالِ حقًّا سوى الصدقةِ المفروضة؟

قيل: لأنه لا يخلو أنْ يكونَ ذلك فرضاً واجباً، أو نفْلاً.

فإنْ يَكُنْ فَرْضَاً واجباً، فقد وجبَ أنْ يكونَ سبيلُه سبيلَ الصدقات المفروضات التي مَنْ فرَّطَ في أدائها إلى أهلها كان بربِّه آثماً، ولأمرِه مُخَالفاً. وفي قيام الحجة بأنْ لا فرضَ للهِ في المالِ بعدَ الزكاةِ يجبُ وجوبَ الزكاة سِوى ما يجبُ من النفقةِ لمن يلزم المرءَ نفقته، ما يُنْبِيءُ عن أنَّ ذلك ليس كذلك.

أو يكون ذلك نَفْلاً. فإنْ يكن ذلك كذلك، فقد وجبَ أنْ يكون الخيارُ في إعطاءِ ذلك إلى رَبِّ الحرثِ والثمرِ. وفي إيجابِ القائلينَ بوجوب ذلك، ما ينبيءُ عن أنَّ ذلك ليسَ كذلك.

وإذا خرجت الآيةُ من أن يكون مُراداً بها النَّدْبُ، وكان غير جائزٍ أنْ يكونَ لها مخرجٌ في وجوب الفَرْضِ بها في هذا الوقت، عُلِمَ أنها منسوخة.

ومما يؤيدُ ما قلنا في ذلك من القولِ دليلاً على صحته، أنه جَلَّ ثناؤُهُ أتبع قوله: «وآتوا حَقَّهُ يومَ حصاده»، «ولا تُسْرِفُوا إنه لا يحبُّ المسرفينَ»، ومعلومٌ أنَّ من حُكْمِ اللهِ في عبادِه مُذْ فَرَضَ في أموالهم الصدقةَ المفروضةَ المؤقتةَ القَدْرِ، أنَّ القائمَ بأخذِ ذلك ساسَتُهم ورُعاتهم. وإذا كان ذلك كذلك، فما وجهُ نهيِ رَبِّ المالِ عَن الإسرافِ في إيتاء ذلك، والآخذُ مُجْبِرٌ، وإنما يأخذُ الحَقَّ الذي فُرِضَ لله فيه؟

وإنْ ظَنَّ ظانٌّ أنَّ ذلك إنما هو نهيٌ من الله القيِّمَ بأخذِ ذلك من الرعاةِ عن التعدِّي في مالِ رَبِّ المال، والتجاوز إلى أخذِ ما لم يُبَحْ له أخذُه، فإنَّ آخرَ الآية وهو قوله: «ولا تسرفوا»، معطوف على أوله، وهو قوله: «وآتوا حقه يوم حصاده». فإنْ كان المنهيَّ عن الإسرافِ القيِّمُ بقبضِ ذلك، فقد يجبُ أنْ يكونَ المأمورَ بإيتائه، المنهيَّ عن الإسرافِ فيه، وهو السلطانُ.

وذلك قولٌ إنْ قاله قائلٌ، كان خارجاً من قولِ جميعِ أهلِ التأويل، ومخالفاً المعهودَ من الخطابِ، وكفى بذلك شاهداً على خَطَئِه.

فإنْ قالَ قائلٌ: وما تُنْكِرُ أنْ يكونَ معنى قوله: «وآتوا حقه يوم حصاده»، وآتوا حقه يومَ كَيْلِهِ، لا يومَ قَصْله[1] وقَطْعِه، ولا يومَ جِدَادِه وقِطافه؟

قيل: لأنَّ يومَ كَيْلِه غير يومِ حَصادِه. ولَنْ يخلوَ معنى قائلي هذا القولِ من أحدِ أمرين: إما أنْ يكونوا وَجَّهُوا معنى «الحصاد»، إلى معنى «الكيل»، فذلك ما لا يُعْقَلُ في كلامِ العرب، لأنَّ «الحصاد» و«الحصد» في كلامهم: الجدّ والقطع، لا الكيل - أو يكونوا وَجَّهُوا تأويل قوله: «وآتوا حَقَّهُ يومَ حصاده». إلى: وآتوا حَقَّهُ بعدَ يومِ حصادِه إذا كِلْتُموه، فذلك خلافُ ظاهرِ التنزيلِ. وذلك أنَّ الأمرَ في ظاهرِ التنزيل بإيتاءِ الحقِّ منه يومَ حصاده، لا بعدَ يوم حصاده. ولا فرقَ بين قائلٍ: إنما عَنَى الله بقوله: «وآتوا يوم حصاده»، بعدَ يومِ حصادِه - وآخرَ قال: عَنَى بذلك قبلَ يومِ حصاده، لأنهما جميعاً قائلان قولاً، دليلُ ظاهرِ التنزيل بخلافه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ١٤١﴾

اختلف أهلُ التأويلِ في «الإسراف»، الذي نهى الله عنه بهذه الآية، ومَنِ المنهيُّ عنه.

فقال بعضهم: المنهيُّ عنه: ربُّ النخل والزرع والثمر - و«السرف» الذي

---

(١) قصلَ النبات: قَطَعَهُ وهو أخضر، وفي عامية العراق اليوم: القصيل أو «الكصيل» هو قطعُ الشعير وهو أخضر قبل ظهور سنابله تُعلف به الحيوانات في أول الربيع.

نهى اللهُ عنه في هذه الآية، مجاوزةُ القَدْرِ في العطِيَّةِ إلى ما يجحفُ بربِّ المالِ.

وقال آخرون: «الإسراف» الذي نهى اللهُ عنه في هذا الموضع، مَنْعُ الصدقةِ والحقِّ الذي أمر الله ربَّ المالِ بإيتائه أهلَهُ بقوله: «وآتوا حقه يوم حصاده».

وقال آخرون: إنما خُوطِبَ بهذا السلطانُ. نُهِيَ أن يأخذَ من ربِّ المالِ فوقَ الذي ألزمَ الله مالَه.

والصوابُ من القولِ في ذلك عندي أنْ يقال: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه نهى بقوله: «ولا تسرفوا»، عن جميع معاني «الإسراف»، ولم يخصصْ منها معنىً دونَ معنى.

وإذ كان ذلك كذلك، وكان «الإسراف» في كلام العرب: الإخطاء بإصابةِ الحَقِّ في العطيَّةِ، إما بتجاوزِ حَدِّهِ في الزيادة، وإما بتقصير عن حَدِّهِ الواجب، كان معلوماً أنَّ المفرِّقَ مالَه مباراةً، والباذلَهُ للناسِ حتى أجحفتْ به عَطِيَّتُه، مسرفٌ بتجاوزِه حَدَّ الله إلى ما ليس له. وكذلك المُقَصِّرُ في بذلِه فيما ألزمه اللهُ بَذْله فيه، وذلك كمنعِه ما ألزمه إيتاءَهُ منه أهلَ سُهْمَانِ الصدقةِ إذا وَجَبَتْ فيه، أو منعه مَنْ ألزمه الله نفقتَهُ من أهلِهِ وعياله وما ألزمه منها. وكذلك السلطان في أخـذه من رعيتـه ما لم يأذن اللهُ بأخذِهِ. كُلُّ هؤلاء فيما فعلوا من ذلك مسرفونَ، داخلونَ في معنى مَنْ أتى ما نهى اللهُ عنه من الإسرافِ بقوله: «ولا تُسْرِفُوا»، في عَطِيَّتِكُم من أموالكم ما يجحفُ بكم ـ إذْ كان ما قَبْلَهُ من الكلامِ أمراً من الله بإيتاءِ الواجبِ فيه أهله يومَ حصادِهِ. فإنَّ الآية قد كانت تنزلُ على رسولِ الله ﷺ بسببٍ خاصٍّ من الأمورِ، والحكمُ بها على العامِّ، بل عامّةُ آيِ القرآنِ كذلك. فكذلك قوله: «ولا تسرفوا إنه لا يحبِ المسرفين».

ومن الدليل على صِحَّةِ ما قلنا من معنى: «الإسراف» أنه على ما قُلْنَا، قولُ الشاعر:

أَعْطَوا هُنَيْدَةَ يَحْدُوهَا ثَمَانِيَةً ... مَا فِي عَطَائِهِمُ مَنٌّ وَلَا سَرَفُ

يعني بـ «السرف»: الخطأ في العطيّة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأنشأ من الأنعامِ حَمُولةً وفَرْشاً، مع ما أنشأ من الجناتِ المعروشاتِ وغيرِ المعروشات.

و«الحمولة»، ما حُمِلَ عليه من الإبلِ وغيرها.

و«الفرش»، صِغَارُ الإبلِ التي لم تدرك أن يُحْمَل عليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾

يقول جَلَّ ثناؤُه: كُلُوا مما رزقكمُ الله، أيها المؤمنونَ، فأحلَّ لكم ثمراتِ حُرُوثِكم وغُروسِكم، ولحومِ أنعامِكم، إذْ حَرَّمَ بعضَ ذلك على أنفسهم المشركون بالله، فجعلوا للهِ مما ذَرَأَ من الحرثِ والأنعامِ نصيباً وللشيطانِ مثله، فقالوا «هذا للهِ بزعمِهم وهذا لشركائنا». «ولا تتبعوا خُطواتِ الشيطان»، كما اتبعها باحِرُو البحيرةِ، ومُسَيِّبُو السوائب، فتجرموا على أنفسكم من طيبِ رزقِ الله الذي رزقكم ما حرموه، فتُطِيعُوا بذلك الشيطانَ، وتَعْصُوا به الرحمنَ.

إنَّ الشيطان لكم عدوٌّ يبغي هلاكَكُم وصَدَّكم عن سبيلِ ربكم. «مبينٌ»،

قد أبانَ لكم عَدَاوَتَهُ، بمناصبتهِ أباكُم بالعداوةِ، حتى أخرجه من الجنةِ بكيدهِ، وخَدَعه حَسَداً منه له، وبغياً عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١٤٣﴾

وهـذا تقريعٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ العادلينَ به الأوثانَ من عَبَدَةِ الأصنامِ، الذين بحروا البحائرَ، وسَيَّبوا السوائبَ، ووصَلُوا الوصائلَ - وتعليمٌ منه نبيَّهُ ﷺ والمؤمنين به، الحجة عليهم في تحريمهم ما حَرَّمُوا من ذلك. فقالَ للمؤمنينَ به وبرسوله: وهو الذي أنشأ جناتٍ معروشاتٍ وغيرَ معروشاتٍ، ومِنَ الأنعامِ أنشأ حَمُولةً وفَرْشاً. ثم بَيَّنَ جَلَّ ثناؤُهُ «الحمولة» و«الفرش»، فقال: «ثمانية أزواج».

«من الضأن اثنين ومن المعز اثنين»، فذلك أربعة، لأنَّ كُلَّ واحدٍ من الاثنين من الضـأنِ زوجٌ، فالأنثى منـه زوجُ الذكر، والذكر منه زوجُ الأنثى، وكـذلـك ذلك من المعز ومن سائرِ الحيوان. فلذلك قال جَلَّ ثناؤُهُ: «ثمانية أزواج»، كما قال: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾، [الذاريات: ٤٩]، لأنَّ الذكر زوجُ الأنثى، والأنثى زوج الذكر، فهما وإنْ كانا اثنين فهما زوجان، كما قال جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَها لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾، [الأعراف: ١٨٩]، وكما قال: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾، [الأحزاب: ٣٧].

ثم قال لهم: كُلُوا مما رَزَقَكُم اللهُ من هذه الثمارِ واللحومِ، واركبوا هذه الحَمُولةَ، أيها المؤمنونَ، فلا تَتَّبِعُوا خُطواتِ الشيطانِ في تحريمِ ما حَرَّمَ هؤلاءِ الجَهَلَةُ بغيرِ أمري إياهم بذلك.

قل، يا محمدُ، لهؤلاء الذين حَرَّمُوا ما حرموا من الحرثِ والأنعام اتباعاً للشيطانِ، من عَبَدَةِ الأوثانِ والأصنام الذينَ زعموا أنَّ الله حَرَّمَ عليهم ما هم مُحَرِّمُونَ من ذلك ـ: الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ رَبُّكم، أيها الكَذَبَةُ على الله، من الضأنِ والمعز؟ فإنهم إنْ ادَّعوا ذلك وأقَرُّوا به، كذبوا أنفسهم وأبانوا جَهْلَهم. لأنهم إذا قالوا: «يحرمُ الذكرين من ذلك»، أوجبوا تحريمَ كُلِّ ذَكَرَيْنِ من ولدِ الضأنِ والمعزِ، وهم يستمتعونَ بلحومِ الذُّكْرَانِ منها وظهورها. وفي ذلك فسادُ دعواهم وتكذيب قولهم. «أم الأنثيين»، فإنهم إنْ قالوا: «حَرَّمَ ربنا الأنثيين»، أوجبوا تحريمَ لحومِ كُلِّ أنثى من ولدِ الضأنِ والمعزِ على أنفسهم وظهورها. وفي ذلك أيضاً تكذيبٌ لهم، ودَحْضُ دعواهم أنَّ رَبَّهم حَرَّمَ ذلك عليهم، إذْ كانوا يستمتعون بلحومِ بعضِ ذلك وظهوره. «أم ما اشتملتْ عليه أرحامُ الأُنثيين»، يقول: أم حرم ما اشتملتْ عليه أرحامُ الأنثيين، يعني أرحام أنثى الضأنِ وأنثى المعزِ، فلذلك قال: «أرحام الأنثيين»، وفي ذلك أيضاً لو أقَرُّوا به فقالوا: «حرم علينا ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين»، بطُولُ قولهم وبيانُ كَذِبهم، لأنهم كانوا يُقِرُّونَ بإقرارهم بذلك أنَّ الله حَرَّمَ عليهم ذكورَ الضأنِ وإناثها، أنْ يأكلوا لحومها أو يركبوا ظهورها، وقد كانوا يستمتعونَ ببعضِ ذكورِها وإناثها.

«نَبِّئُوني بعلم»، يقول: قُلْ لهم: خَبِّرُوني بعلمِ ذلك على صحته: أيَّ ذلك حَرَّمَ رَبُّكم عليكم، وكيف حَرَّمَ؟ «إنْ كنتم صادقينَ»، فيما تَنْحلُونه رَبَّكُمْ من دَعْواكم، وتُضِيفُونَهُ إليه من تحريمكم.

وإنما هذا إعلامٌ من الله جَلَّ ثناؤهُ نبيَّه أنَّ كُلَّ ما قاله هؤلاءِ المشركونَ في ذلك وأضافوهُ إلى الله، فهو كَذِبٌ على الله، وأنه لم يُحَرِّمْ شيئاً من ذلك، وأنهم إنما اتَّبَعُوا في ذلك خُطواتِ الشيطانِ، وخالفوا أمره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾

﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

وتـأويلُ قوله: «ومن الإبل اثنين ومن البقرِ اثنين قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أم الأنثيين أما اشتملتْ عليه أرحامُ الأنثيين»، نحو تأويل قوله: «من الضأنِ اثنين ومن المعز اثنين»، وهذه أربعةُ أزواج، على نحوِ ما بَيَّنا من الأزواجِ الأربعةِ قَبْلُ من الضأنِ والمعزِ، فذلك ثمانيةُ أزواج، كما وصفَ جَلَّ ثناؤُهُ.

وأما قوله: «أم كنتم شهداء إذْ وصَّاكم اللهُ بهذا فَمَنْ أظلمُ مِمَّنْ افترى على اللهِ كذباً لِيُضِلَّ الناسَ بغير علم»، فإنه أمرٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ نبيَّه ﷺ أنْ يقولَ لهؤلاء الجَهَلَةِ من المشركينَ الذين قَصَّ قَصَصهم في هذه الآياتِ التي مضَتْ. يقول له عَزَّ ذِكْرُه: قُلْ لهم، يا محمدُ: أيَّ هذه سألتكم عن تحريمهِ حَرَّمَ رَبُّكم عليكم من هذه الأزواج الثمانية؟ فإنْ أجابوكَ عن شيءٍ مما سألتهم عنه من ذلك، فقل لهم: أَخَبَراً قُلْتُمْ: «إنَّ الله حَرَّمَ هذا عليكم»، أخبركم به رسـولٌ عن رَبِّكم، أم شَهِـدْتُمْ رَبَّكُمْ فرأيتمـوهُ فَوَصَّـاكُمْ بهـذا الذي تقولونَ وتُزَوِّرُونَ على الله؟ فإنَّ هذا الذي تقولون من أخباركم عن الله أنه حرامٌ بما تزعمـونَ على ما تزعمـون، لا يُعلَمُ إلا بوحي من عنـده مع رسـولٍ يُرْسِلُه إلى خَلْقِـه، أو بسماعٍ منه، فبأيِّ هذين الوجهينِ عَلِمْتُمْ أنَّ الله حَرَّمَ ذلك كذلك، برسولٍ أرسَلَهُ إليكم، فأنبؤني بعلمٍ إنْ كنتم صادقين؟ أم شهدتم رَبَّكم فأوصَاكم بذلك، وقال لكم: «حَرَّمْتُ ذلك عليكم»، فسمعتُمْ تحريمَهُ منه، وعهدَهُ إليكم بذلك؟ فإنه لم يكنْ واحدٌ من هذينِ الأمرين. يقول جَلَّ ثناؤُهُ: «فَمَنْ أظلمُ ممن افترى على الله كذباً»، يقول: فمن أشَدُّ ظلماً لنفسه، وأبعدُ

عن الحقِّ ممن تخرَّصَ على الله قِيْلَ الكَـذِبِ، وأضافَ إليه تحريمَ ما لم يُحَرِّمْ، وتحليلَ ما لم يُحَلِّلْ. «ليضل الناسَ بغيرِ علم»، يقول: ليصدَّهُمْ عن سبيلهِ. «إنَّ الله لا يهدي القومَ الظالمين»، يقول: لا يوفّق الله للرشد مَن افترى على اللهِ وقال عليه الزُّورَ والكَذِبَ، وأضافَ إليه تحريمَ ما لم يُحَرِّمْ، كفراً بالله، وجُحُوداً لنبوةِ نبيِّه محمد ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ

يقول جَلَّ ثناؤُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ، يا محمدُ، لهؤلاء الذين جعلوا لله مِمَّـا ذَرأ من الحـرثِ والأنعـامِ نصيباً، ولشركائِهم من الآلهةِ والأندادِ مثله ـ والقائلينَ: هذه أنعامٌ وحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُهَا إلاَّ مَنْ نشاء بزعمهم ـ والمحرِّمينَ من أنعام أُخَرَ ظهورهَا ـ والتاركينَ ذِكْرَ اسمِ اللهِ على أُخر منها ـ والمحرِّمينَ بعضَ ما في بطون بعض أنعامِهم على إناثِهم وأزواجِهم، ومُحِلِّيهِ لذكورِهم، المحرِّمينَ ما رزقهم اللهُ افتراءً على الله، وإضافةً منهم ما يُحَرِّمُونَ من ذلك إلى أن اللهَ هُوَ الذي حَرَّمَهُ عليهم ـ: أجاءكم من الله رسولٌ بتحريمه ذلك عليكم، فأنبئونا به، أمْ وَصَّاكم الله بتحريمهِ مشاهدةً منكم له، فسمعتم منه تحريمَهُ ذلك عليكم فحرمتموه؟ فإنكم كَذَبَةٌ إن ادَّعَيْتُمْ ذلكَ، ولا يمكنكم دعواه، لأنكم إذا ادَّعيتُموه عَلِمَ الناسُ كَذِبَكُمْ ـ فإني لا أجدُ فيما أوحى إليَّ من كتابهِ وآيِ تنزيلهِ، شيئاً مُحَرَّماً على آكلٍ يأكلُه مما تَذْكُرونَ أَنَّهُ حَرَّمَهُ من هذه الأنعامِ التي تَصِفُونَ تحـريمَ ما حَرَّمَ عليكم منهـا بزعْمِكم. «إلا أنْ يكونَ مَيْتَةً»، قد ماتتْ بغيرِ تذكيةٍ. «أو دماً مسفوحاً»، وهو المُنصبُّ ـ أو إلاَّ أنْ يكونَ لحمَ خنزيرٍ. «فإنه رجسٌ أو فسقاً»، يقول: أو إلاَّ أنْ يكونَ فِسْقاً يعني، بذلك: أو إلاَّ أنْ يكونَ

مذبوحاً ذَبَحَهُ ذابحٌ من المشركينَ من عَبَدَةِ الأوثانِ لصنمِهِ وآلهتِه، فذكرَ عليه اسمَ وثنِه، فإنَّ ذلك الذبح فِسْقٌ نهى الله عنه وحَرَّمَهُ، ونهى مَنْ آمَنَ به عن أكلِ ما ذُبِحَ كذلك، لأنه ميتةٌ.

وهذا إعلامٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ للمشركينَ الذين جادلوا نبيَّ الله وأصحابه في تحريمِ الميتةِ بما جادَلوهم به، أنَّ الذي جادلوهم فيه من ذلك هو الحرامُ الذي حَرَّمَهُ الله، وأنَّ الذي زعموا أنَّ الله حَرَّمَهُ حلالٌ قد أحلَّهُ الله، وأنهم كَذَبَةٌ في إضافتهم تحريمَهُ إلى الله.

وفي اشتراطه جَلَّ ثناؤُهُ في الدم عند إعلامه عبادَهُ تحريمَهُ إياهُ، المسفوحَ منه دونَ غيرِه، الدليلُ الواضحُ أنَّ ما لم يَكُنْ منه مسفوحاً، فحلالٌ غيرُ نَجِسٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٤٥﴾

وقد ذكرنا اختلافَ أهلِ التأويل في تأويل قوله: «فمن اضْطُرَّ غيرَ باغٍ ولا عَادٍ»، والصوابُ من القولِ فيه عندنا فيما مضى من كتابنا هذا، في «سورة البقرة»، بما أغنى عن إعادتِه في هذا الموضع - وأن معناه: فمن اضطر إلى أكلِ ما حَرَّمَ اللهُ من أكلِ المَيْتَةِ والدم المسفوحِ أو لحمِ الخنزير أو ما أُهِلَّ لغيرِ اللهِ به، غيرَ باغٍ في أكله إيَّاهُ تَلَذُّذاً، لا لضرورةٍ حالّةٍ من الجوعِ، ولا عادٍ في أكلِهِ بتجاوزِهِ ما حَدَّهُ اللهُ وأباحه له من أكله، وذلك أن يأكلَ منه ما يدفعُ عنه الخوفَ على نفسه بتركِ أكلِه من الهلاكِ، لم يتجاوزْ ذلك إلى أكثرَ منه، فلا حَرَجَ عليه في أكلِه ما أكلَ من ذلك. «فإنَّ الله غفور»، فيما فعلَ من ذلك، فساترٌ عليه بتركِهِ عقوبَتَهُ عليه، ولو شاء عاقبه عليه. «رحيم»، بإباحتِهِ إياهُ أكلَ ذلك عند حاجته إليه، ولو شاء حرَّمه عليه ومنعه منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾

قال أبو جعفر:

يقول تعالى ذِكْرُه: وحَرَّمْنا على اليهودِ «كُلَّ ذي ظُفُرٍ»، وهو من البهائمِ والطيرِ ما لم يكن مشقُوقَ الأصابعِ، كالإبلِ والنَّعام والاوزِ والبَطِّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾

إنَّ الله أخبرَ أنه كان حَرَّمَ على اليهودِ من البقرِ والغنمِ شحومَهُمَا، إلَّا ما استثناهُ منها مما حملتْ ظهورُهُمَا أو الحَوَايا أو ما اختلطَ بعظيمٍ. فكل شحمٍ سِوى ما استثناهُ اللهُ في كتابه من البقرِ والغنمِ، فإنه كان مُحَرَّماً عليهم.

وبنحو ذلك من القولِ تظاهرت الأخبارُ عن رسولِ الله ﷺ، وذلك قوله: «قاتلَ الله اليهودَ، حُرِّمَتْ عليهم الشحومُ فجملوها ثم باعوها وأكَلُوا أثمانها»[1].

وأما قوله: «إلَّا ما حَمَلَتْ ظهورُهُما»، فإنه يعني: إلا شحوم الجَنْبِ وما علقَ بالظهرِ، فإنها لم تُحَرَّمْ عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾

---

(١) هو في الصحيحين من حديث ابن عباس: البخاري (٢٢٢٣) و(٣٤٦٠)، ومسلم (١٥٨٢)، ومن حديث أبي هريرة: البخاري (٢٢٢٤)، ومسلم (١٥٨٣)، وأخرجه مسلم (١٥٨١) من حديث جابر أيضاً.

و«الحـوايا» جَمْـعُ، واحـدها «حاوِياء»، و«حاوية»، و«حَوِيَّة»، وهي ما تحوَّى من البطنِ فاجتمعَ واستدارَ، وهي بناتُ اللبن، وهي «المباعر»، وتسمى «المرابض»، وفيها الأمعاء.

ومعنى الكلام: ومن البقر والغنم حَرَّمْنَا عليهم شحومهما، إلا ما حملتْ ظهورُهُمَا، أو ما حملت الحوايا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْمَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومن البقرِ والغنمِ حَرَّمْنَا على الذينَ هَادُوا شحومَهُمَا، سِوى ما حملتْ ظهورُهما، أو ما حملتْ حواياهما، فإنَّا أحْلَلْنَا ذلكَ لهم، وإلاَّ ما اختلطَ بعظمٍ، فهو لهم أيضاً حلالٌ.

وعَنَى بقوله: «أو ما اختلطَ بعظم»، شحم الألية والجنبِ، وما أشبه ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝١٤٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فهذا الذي حَرَّمْنَا على الذين هَادُوا من الأنعامِ والطيرِ ذواتِ الأظافيرِ غير المنفرجةِ، ومن البقرِ والغنمِ ما حَرَّمْنَا عليهم من شحومهما، الذي ذكرنا في هذه الآية، حَرَّمْنَاهُ عليهم عقوبةً مِنَّا لهم، وثواباً على أعمالِهم السيئة، وبَغْيِهم على رَبِّهم.

وقوله: «وإنا لصادقون»، يقول: وإنا لصادقون في خبرنا هذا عن هؤلاءِ اليهـودِ عَمَّا حَرَّمْنَا عليهم من الشحومِ ولحومِ الأنعامِ والطيرِ التي ذكرنا أنَّا

حَرَّمنا عليهم، وفي غير ذلك من أخبارنا، وهم الكاذبونَ في زعمِهم أنَّ ذلك إنما حَرَّمَهُ إسرائيلُ على نفسِه، وأنهم إنما حَرَّمُوهُ لتحريمِ إسرائيلَ إياهُ على نفسه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

يقول جَلَّ ثناؤه: لنبيه محمدٍ ﷺ: فإنْ كَذَّبكَ، يا محمدُ، هؤلاء اليهودُ فيما أخبرناكَ أنَّا حَرَّمْنَا عليهم وحَلَّلْنَا لهم، كما بَيَّنا في هذه الآية. «فَقُلْ رَبُّكم ذُو رحمةٍ»، بنَا، وبِمَنْ كانَ به مؤمناً من عباده، وبغيرهم من خَلْقه. «واسعة»، تَسَعُ جميعَ خَلْقِه، المحسنَ والمسيءَ، لا يعاجلُ مَنْ كفرَ به بالعقوبةِ، ولا مَنْ عَصَاهُ بالنِّقمة، ولا يَدَعُ كرامة مَنْ آمن به وأطاعه، ولا يحرمه ثوابَ عمله، رحمةً منه بِكِلا الفريقين، ولكنَّ بأسَهُ ـ وذلك سطوته وعذابه ـ لا يردُّه إذا أحلَّهُ عند غضبه على المجرمينَ بهم عنهم شيءٌ، و«المجرمون» هم الذين أجرَمُوا فاكتسبوا الذنوبَ واجترحُوا السيئاتِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾

يقول جَلَّ ثناؤه: «سيقولُ الذين أشركوا»، وهم العادلونَ باللهِ الأوثانَ والأصنامَ من مشركي قريش. «لو شاء الله ما أشركنا»، يقول: قالوا احتجازاً من الإذعان للحقِّ بالباطلِ من الحجة، لما تَبَيَّنَ لهم الحق، وعلموا باطلَ ما كانوا عليه مقيمينَ من شِرْكِهم، وتحريمهم ما كانوا يُحَرِّمُونَ من الحروثِ والأنعام،

على ما قد بَيَّنَ تعالى ذِكْرُه في الآياتِ الماضيةِ قَبْلَ ذلك: «وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً»، وما بعدَ ذلك: لو أراد الله منها الإيمانَ به، وإفرادَهُ بالعبادةِ دونَ الأوثانِ والآلهة، وتحليلَ ما حَرَّمَ من البحائرِ والسوائبِ وغير ذلك من أموالنا، ما جعلنا لله شريكاً، ولا جعلَ ذلك له آباؤُنا من قبلنا، ولا حَرَّمْنَا ما نُحَرِّمُه من هذه الأشياءِ التي نحنُ على تحريمها مقيمون، لأنه قادرٌ أنْ يحول بيننا وبين ذلك، حتى لا يكون لنا إلى فِعْلِ شيءٍ من ذلك سبيل: إما بأن يضطرنا إلى الإيمانِ وتركِ الشركِ به، وإلى القولِ بتحليلِ ما حَرَّمنا ـ وإما بأن يَلْطُفَ بنا بتوفيقهِ، فنصيرَ إلى الإقرارِ بوحدانيتهِ، وترك عبادةِ ما دونه من الأندادِ والأصنام، وإلى تحليلِ ما حرمنا، ولكنه رضي منا ما نحنُ عليه من عبادةِ الأوثان والأصنامِ واتخاذِ الشريكِ له في العبادة والأنداد، وأراد ما نحرّم من الحروث والأنعام، فلم يَحُلْ بيننا وبين ما نحنُ عليه من ذلك.

قال الله مُكَذِّباً لهم في قِيْلِهم: «إنَّ الله رضيَ منا ما نحنُ عليه من الشرك، وتحريم ما نحرّم» ـ ورادًّا عليهم باطل ما احتجوا به من حُجَّتِهم في ذلك «كذلك كَذَّبَ الذين من قَبْلِهم»، يقول: كما كَذَّبَ هؤلاء المشركون، يا محمدُ، ما جئتهم به من الحَقِّ والبيان، كَذَّبَ مَنْ قَبْلَهم من فَسَقَةِ الأممِ الذين طَغَوا على رَبِّهم ما جاءتهم به أنبياؤُهم من آياتِ الله وواضحِ حججه، وردُّوا عليهم نصائِحَهُم. «حتى ذاقوا بأسنا»، يقول: حتى أسخطونا فغضبنا عليهم، فأحللنا بهم بأسَنَا فذاقوه، فعطبوا بذوقِهم إياهُ، فخابوا وخَسِرُوا الدنيا والآخرة. يقول: وهؤلاء الآخرونَ مَسْلُوكٌ بهم سبيلهم، إنْ هُمْ لم يُنِيبُوا فيومنوا ويُصَدِّقُوا بما جِئْتَهُمْ به من عند رَبِّهم.

فإنْ قال قائل: وما برهانكَ على أنَّ الله تعالى إنما كَذَّبَ من قِيْلِ هؤلاء المشركين قولهم: «رضيَ اللهُ منا عبادةَ الأوثانِ، وأراد منا تحريمَ ما حَرَّمْنَا من الحروثِ والأنعام»، دونَ أنْ يكونَ تكذيبه إياهُمْ كان على قولهم: «لو شاء الله

ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حَرَّمْنَا من شيءٍ»، وعلى وَصْفِهم إياهُ بأنه قد شاء شِرْكَهُمْ وشِركَ آبائِهم، وتحريمهم ما كانوا يحرمون؟

قيل له: الدلالةُ على ذلك قوله: «كذلك كَذَّبَ الذين من قَبْلِهم»، فأخبرَ جَلَّ ثناؤُهُ عنهم أنهم سَلَكُوا في تكذيبهم نَبِيَّهم محمداً ﷺ فيما أتاهم به من عند الله ـ من النهيِ عن عبادةِ شيءٍ غير الله تعالى ذِكْرُه، وتحريم غير ما حَرَّمَ اللهُ في كتابه وعلى لسانِ رسوله ـ مسلك أسلافِهم من الأمم الخاليةِ المُكَذِّبَةِ اللهَ ورسولَه. والتكذيبُ منهم إنما كان لمكذِّب، ولو كان ذلك خَبَراً من الله عن كذبهم في قِيلهم: «لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا»، لقال: «كذلك كذَبَ الذين من قبلهم»، بتخفيفِ «الذال»، وكان ينسبهم في قِيلهم ذلك إلى الكذبِ على الله، لا إلى التكذيبِ مع عِلَلٍ كثيرةٍ يَطُولُ بذكرها الكتابُ، وفيما ذكرنا كفايةٌ لمن وُفِّق لفهمهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ۝١٤٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ، يا محمدُ، لهؤلاءِ العادلينَ بربِّهم الأوثانَ والأصنامَ، المُحَرِّمينَ ما هُمْ مُحَرِّمُونَ من الحرُوثِ والأنعام، القائلينَ: «لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حَرَّمْنَا من شيء»، ولكنه رضيَ منا ما نحنُ عليه من الشركِ وتحريم ما نُحَرِّمُ: «هل عندكم». بدعواكم ما تَدَّعُونَ على اللهِ من رِضَاهُ بإشراكِكُمْ في عبادته ما تشركون، وتحريمكم من أموالِكم ما تُحَرِّمُونَ ـ علمٌ يقينٍ من خبرِ مَنْ يقطعُ خَبَرُهُ العُذْرَ، أو حجةٌ تُوجِبُ لنا اليقينَ، من العلم. «فتخرجوهُ لنا»، يقول: فَتُظْهِرُوا ذلك لنا وتُبَيِّنُوهُ، كما بَيَّنا لكم مواضعَ خطأ قولِكُم وفِعْلِكم، وتناقضَ ذلِك واستحالته في المعقولِ والمسموعِ. «إنْ

تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ»، يقولُ له: قُلْ لهم: إنْ تقولونَ ما تقولونَ، أيها المشركونَ، وتَعبدونَ من الأوثانِ والأصنامِ ما تعبدون، وتُحَرِّمونَ من الحروثِ والأنعامِ ما تُحَرِّمُونَ، إلَّا ظنًّا وحسباناً أنه حَقٌّ، وأنكم على حق، وهو باطلٌ، وأنتم على باطل. «وإنْ أنتم إلَّا تخرصون»، يقول: «وإن أنتم»، وما أنتم في ذلك كله. «إلَّا تخرصون»، يقول: إلا تَتَقَوَّلُون الباطلَ على الله، ظنًّا بغيرِ يقينِ عِلْمٍ ولا برهانٍ واضح.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ١٤٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ، يا محمدُ، لهؤلاء العادلينَ بربهم الأوثـانَ والأصنامَ، القائلينَ على رَبِّهم الكذبَ، في تحريمهم ما حَرَّمُوا من الحروثِ والأنعام، إنْ عجزوا عن إقامةِ الحجةِ عند قِيْلِكَ لهم: «هل عندكم مِنْ علمٍ بما تَدَّعُونَ على رَبِّكم فَتُخْرِجُوه لنا»، وعن إخراجِ علمِ ذلكَ لكَ وإظهاره، وهُمْ لاشَكَّ عن ذلك عَجَزَةٌ، وعن إظهارِهِ مُقَصِّرُونَ، لأنه باطلٌ لا حقيقةَ له. «فللَّه»، الذي حَرَّمَ عليكم أن تُشْرِكُوا به شيئاً، وأن تتبعوا خطواتِ الشيطانِ في أموالكم من الحروثِ والأنعامِ. «الحجةُ البالغة»، دونكم أيها المشركون.

ويعني: بـ«البالغة»، أنها تبلغُ مراده في ثبوتها على مَنْ احتجَّ بها عليه من خَلْقِه، وقَطْعِ عُذْرِه إذا انتهت إليه فيما جُعِلت حجةً فيه.

«فلو شاء لهـداكم أجمعين»، يقـول: فلو شاء رَبُّكم لوفَّقكم أجمعينَ للإجماعِ على إفرادِهِ بالعبادةِ، والبراءةِ من الأنداد والآلهةِ، والدينونةِ بتحريمِ ما حَرَّمَ اللهُ وتحليلِ ما حَلَّلَهُ اللهُ، وتركِ اتباع خطواتِ الشيطانِ، وغيرِ ذلك

من طاعاتِه، ولكنه لم يَشَأْ ذلك. فخالفَ بين خَلْقِه فيما شاء منهم، فمنهم كافرٌ ومنهم مؤمنٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ١٥٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ»، يا محمدُ، لهؤلاء المفترينَ على رَبِّهم من عَبَدَةِ الأوثان، الزاعمينَ أنَّ الله حَرَّمَ عليهم ما هم مُحَرِّمُوهُ من حُروثِهم وأنعامِهم. «هَلُمَّ شهداءكم» يقول: هاتوا شهداءَكُم الذين يَشهدونَ على اللهِ أنه حَرَّمَ عليكم ما تَزعمون أنه حَرَّمَهُ عليكم.

قال الله لنبيه: «فإنْ شَهِدُوا»، يقول: يا محمدُ، فإنْ جاءوكَ بشهداء يَشْهدونَ أنَّ الله حَرَّمَ ما يزعمون أنَّ الله حَرَّمَهُ عليهم. «فلا تَشْهَدْ معهم»، فإنهم كَذَبَةٌ، وشهودُ زُورٍ في شهادتهم بما شَهِدُوا به من ذلك على الله. وخاطب بذلك جَلَّ ثناؤُهُ نَبيَّهُ ﷺ، والمرادُ به أصحابه والمؤمنون به. «ولا تَتَّبِعْ أهواءَ الذين كَذَّبُوا بآياتنا»، يقول: ولا تُتَابِعْهُمْ على ما هُمْ عليه من التكذيبِ بوحي الله وتنزيله، في تحريم ما حَرَّمَ، وتحليلِ ما أُحَلَّ لهم، ولكن اتبع ما أُوحِيَ إليك من كتابِ ربكَ الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه. «والذين لا يؤمنون بالآخرة»، يقول: ولا تَتَّبِعْ أهواءَ الذين لا يؤمنون بالآخرة، فتكذب بما هُمْ به مكذبون من إحياءِ الله خَلْقَهُ بعد مماتِهم، ونشره إياهم بعد فنائهم. «وهم بربهم يعدلون»، يقول: وهم مع تكذيبهم بالبعثِ بعد المماتِ، وجحودِهم قيامَ الساعة، بالله يعدلون الأوثانَ والأصنامَ، فيجعلونها له عِدْلاً، ويتخذونها له ندًّا، يعبدونها من دونه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ، يا محمدُ، لهؤلاء العادلينَ بربهم الأوثـانَ والأصنامَ، الزاعمينَ أنَّ الله حَرَّمَ عليهم ما هم مُحَرِّمُوه من حُروثِهم وأنعـامِهم، على ما ذكرتُ لك في تنزيلي عليك ـ: تعالوا، أيها القومُ، أقرأ عليكم ما حَرَّمِ رَبُّكم حقاً يقيناً، لا الباطل تَخَرُّصاً، تخرُّصَكم على الله الكذبَ والفريةَ ظنًّا، ولكنْ وحياً من الله أوحاهُ إليَّ، وتنزيلاً أنزله عليَّ: أن لا تُشركوا بالله شيئـاً من خَلْقِه، ولا تعدلوا به الأوثانَ والأصنامَ، ولا تعبدوا شيئاً سواه. «وبـالـوالـدين إحسـاناً»، يقول: وأوصى بالوالدينِ إحساناً ـ وحَذَفَ «أوصى» و«أمر»، لدلالةِ الكلامِ عليه ومعرفةِ السامعِ بمعناه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾

يعني تعـالى ذِكْـرُه بقـولـه: «ولا تقتلوا أولادَكُم من إملاق»، ولا تَئِدُوا أولادَكُم فتقتلوهم من خشيةِ الفقرِ على أنفسكم بنفقاتهم، فإنَّ الله هو رازقكم وإياهم، ليس عليكم رِزْقُهم، فتخافوا بحياتِهم على أَنْفُسِكم العجزَ عن أرزاقِهم وأقواتهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولا تَقْرَبُوا الظاهر من الأشياء المُحَرَّمةِ عليكم التي هي

علانية بينكم لا تناكرون ركوبها، والباطنَ منها الذي تأتونَهُ سِرًّا في خفاءٍ لا تُجاهرونَ به، فإنَّ كُلَّ ذلك حرامٌ.

وقد قيل: إنما قيل: لا تقربوا ما ظهرَ من الفواحشِ وما بَطَنَ، لأنهم كانوا يستقبحون من معاني الزنا بعضاً دونَ بعضٍ.

وليس ما قالوا من ذلك بمدفوعٍ، غير أنَّ دليلَ الظاهر من التنزيلِ على النهي عن ظاهرِ كُلِّ فاحشةٍ وباطنها، ولا خبرَ يقطعُ العذرَ، بأنه عُنيَ به بعضٌ دون جميع. وغير جائـزٍ إحالةُ ظاهرِ كتابِ الله إلى باطنٍ، إلاَّ بحجةٍ يجبُ التسليمُ لها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «قل تعالوا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكم عليكم أنْ لا تُشركوا به شيئاً»، «ولا تقتلوا النفس التي حَرَّمَ اللهُ إلا بالحق»، يعني بالنفس التي حَرَّمَ الله قَتْلَهَا، نفسَ مؤمنٍ أو مُعاهد ـ وقوله: «إلاَّ بالحق»، يعني بما أباحَ قَتْلَها به: من أن تقتل نفساً فتقتل قَوَداً بها، أو تزني وهي محصنة فَتُرْجَمَ، أو ترتدَّ عن دينها الحقِّ فتقتل. فذلك «الحق» الذي أباح الله جَلَّ ثناؤُهُ قَتْلَ النفسِ التي حرم على المؤمنينَ قَتْلَها به. «ذلكم»، يعني هذه الأمور التي عَهِدَ إلينا فيها ربُّنا أنْ لا نأتيه وأنْ لا ندعه، هي الأمور التي وَصَّانا والكافرينَ بها أن نعمل جميعاً به. «لعلكم تعقلون»، يقول: وَصَّاكم بذلك لتعقلوا ما وصاكم به ربكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «ولا تَقْرَبُوا مالَ اليتيمِ إلا بالتي هي أحسنُ»، ولا تقربوا ماله إلَّا بما فيه صلاحهُ وتثميره.

وأما قوله: «حتى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ»، فإنَّ «الأَشُدَّ» جمع «شَدٍّ»، كما «الأَضُرَّ» جمع «ضر»، وكما «الأَشُرَّ» جمع «شر»، و«الشد» القوة، وهو استحكامُ قوةِ شبابه وسنه، كما «شَدُّ النهار» ارتفاعُه وامتدادُه.

وفي الكلام محذوف، تُرِكَ ذِكْرُه اكتفاءً بدلالةِ ما ظهر عما حذف. وذلك أنَّ معنى الكلام: «ولا تقربوا مالَ اليتيمِ إلا بالتي هي أحسنُ حتى يبلغ أشده»، فإذا بلغ أشده فآنستم منه رُشْداً، فادفعوا إليه ماله ـ لأنه جَلَّ ثناؤُهُ لم يَنْهَ أنْ يُقْرَبَ مالُ اليتيمِ في حال يُتْمِه إلا بالتي هي أحسنُ حتى يبلغ أشده، ليحِلَّ لوليِّه بعد بلوغِه أَشُدَّهُ أنْ يقربه بالتي هي أسوأ، ولكنه نهاهم أنْ يقرَبُوه حياطةً منه له، وحِفْظاً عليه، ليسلِّموه إليه إذا بلغ أشده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «قُلْ تعالوا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكم عليكم أنْ لا تُشْرِكُوا به شيئاً» ـ وأنْ أوفُوا الكيلَ والميزانَ. يقول: لا تَبْخَسُوا الناسَ الكيلَ إذا كِلْتُموهم، والوزنَ إذا وَزَنْتُموهم، ولكنْ أوفوهم حقوقَهُم. وإيفاؤُهم ذلكَ، إعطاؤُهم حقوقَهُمْ تامةً. «بالقسطِ»، يعني بالعدل.

وأما قوله: «لا نكلف نفساً إلَّا وسعها»، فإنه يقول: لا نكلف نفساً، من إيفاءِ الكيلِ والوزن، إلا ما يَسَعُهَا فيحلُّ لها ولا تُحْرَجُ فيه. وذلكَ أنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ، عَلِمَ من عبادِه أنَّ كثيراً منهم تَضِيقُ نفسُه عن أنْ تطيبَ لغيرِه بما لا يجبُ عليها له، فأمر المعطي بإيفاءِ رَبِّ الحَقِّ حَقَّهُ الذي هُوَ له، ولم يكلِّفه الزيادةَ،

لما في الزيادةِ عليه من ضِيقِ نفسه بها. وأمَرَ الذي له الحق، بأخذِ حقه، ولم يكلفه الرضى بأقلَّ منه، لما في النقصانِ عنه من ضِيْقِ نفسِه. فلم يكلف نفساً منهما إلَّا ما لا حرجَ فيه ولا ضيق، فلذلك قال: «لا نكلف نفساً إلَّا وسعها».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١٥٢﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وإذا قلتم فاعدلوا»، وإذا حكمتم بين الناسِ فتكلمتم فقولوا الحَقَّ بينهم، واعدلوا وأنصفوا ولا تَجُوروا، ولو كان الذي يتوجَّهُ الحَقُّ عليه والحكم، ذا قرابةٍ لكم، ولا تحملنَّكُمْ قرابةُ قريبٍ أو صداقةُ صديقٍ حكمتم بينه وبين غيره، أنْ تقولوا غيرَ الحَقِّ فيما احتكم إليكم فيه. «وبعهدِ الله أوفوا»، يقول: وبوصيةِ الله التي أوصاكم بها فأوفوا. وإيفاء ذلك: أن يُطِيعُوه فيما أمَرَهُمْ به ونهاهم، وأنْ يعملوا بكتابهِ وسنةِ رسولهِ ﷺ، وذلك هو الوفاءُ بعهدِ الله.

وأما قوله: «ذلكم وَصَّاكم به»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ للعادلينَ بالله الأوثان والأصنامَ من قومكَ: هذه الأمور التي ذكرت لكم في هاتين الآيتين، هي الأشياءُ التي عَهِدَ إلينا رَبُّنَا، ووصَّاكُمْ بها رَبُّكم، وأمركم بالعملِ بها ـ لا بالبحائرِ، والسوائبِ، والوصائلِ، والحامِ، وقتلِ الأولاد، ووأدِ البناتِ، واتباعِ خطواتِ الشيطان. «لعلكم تذكَّرون»، يقول: أمركم بهذه الأمورِ التي أمركم بها في هاتين الآيتين، ووصَّاكُمْ بها وعَهِدَ إليكم فيها، لتتذكروا عواقبَ أمركم، وخطأَ ما أنتم عليه مُقِيمونَ، فتنزجروا عنها، وترتدعوا وتُنيبوا إلى طاعة ربكم.

وكان ابن عباس يقول: هذه الآيات، هُنَّ الآيات المحكمات.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وهذا الذي وَصَّاكم به ربكم، أيها الناسُ، في هاتين الآيتين من قوله: «قُلْ تعالوا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكم عليكم»، وأمركم بالوفاءِ به، هو «صراطه» - يعني: طريقه ودِينه الذي ارتضاهُ لعباده. «مستقيماً»، يعني: قويماً لا اعـوجاجَ به عن الحق. «فاتبعوه»، يقول: فاعملوا به، واجعلوه لأنفسِكم منهاجاً تسلكونه، فاتبعوه. «ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ»، يقول: ولا تَسْلُكُوا طريقاً سواه، ولا تركبوا منهجاً غيره، ولا تبغوا دِيناً خِلافَهُ، من اليهوديةِ والنصرانيَةِ والمجوسيةِ وعبادةِ الأوثان، وغير ذلك من المللِ، فإنها بِدَعٌ وضلالاتٌ. «فتفرق بكم عن سبيله»، يقول، فيشتّت بكم، إن اتبعتم السبل المحدثة التي ليست لله بسبل ولا طرق ولا أديان، اتباعُكم إياها. «عن سبيله»، يعني: عن طريقهِ ودِينهِ الذي شَرَعَهُ لكم وارتضاهُ، وهو الإسلامُ الذي وَصَّى به الأنبياءَ، وأمر به الأممَ قبلكم. «ذلكم وَصَّاكم به»، يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الذي وَصَّاكم به رَبُّكم من قولهِ لكم: «إنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السُّبُلَ»، وَصَّاكم به «لعلكم تتقون»، يقول: لتتقوا اللهَ في أنفسكم فلا تُهْلِكُوها، وتَحْذَرُوا رَبَّكم فيها فلا تسخطوهُ عليها، فيحلَّ بكم نِقْمَتهُ وعذابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «ثم آتينا موسى الكتابَ»، ثم قُلْ بعد ذلك يا محمدُ: آتى رَبُّكَ موسى الكتابَ - فترك ذِكْرَ «قُلْ»، إذ كان قد تَقَدَّمَ في أولِ

القصّة ما يدلُّ على أنه مُرَادٌ فيها، وذلك قوله: «قُلْ تعالوا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكم عليكم»، فَقَصَّ ما حَرَّمَ عليهم وأَحَلَّ، ثم قال: ثم قل: «آتينا موسى»، فحذف «قل» لدلالةِ قوله: «قل» عليه، وأنه مُرَادٌ في الكلام.

وإنما قلنا: ذلك مُرَادٌ في الكلام، لأنَّ محمداً ﷺ لاشك أنه بُعث بعد موسى بدهرٍ طويل، وأنه إنما أمرَ بتلاوةِ هذه الآياتِ على مَنْ أمر بتلاوتها عليه بعد مبعثه. ومعلومٌ أنَّ موسى أوتي الكتابَ من قبل أمرِ الله محمداً بتلاوةِ هذه الآياتِ على مَنْ أمر بتلاوتها عليه. و«ثم»، في كلام العرب، حرفٌ يدلُّ على أنَّ ما بعده من الكلام والخبر، بعد الذي قبلها.

ثم اختلف أهلُ التأويل في معنى قوله: «تماماً على الذي أحسن».

فقال بعضهم: معناه: تماماً على المحسنين.

وقال آخرون: معنى ذلك: «تماماً على الذي أحسن»، موسى، فيما امْتَحَنَهُ اللهُ به في الدنيا من أمرِهِ ونهيِهِ.

وقال آخرون: في ذلك: معناه: ثم آتينا موسى الكتابَ تماماً على إحسانِ الله إلى أنبيائهِ وأياديه عندهم.

وأَوْلى هذه الأقوالِ عندي بالصواب، قولُ مَنْ قال: معناه: ثم آتينا موسى الكتابَ تماماً لِنِعَمِنَا عندهُ، على الذي أحسن موسى في قيامهِ بأَمْرِنَا ونَهْيِنَا ـ لأنَّ ذلك أظهرُ معانيه في الكلام، وأنَّ إيتاءَ موسى كتابه نعمةٌ من الله عليه ومِنَّةٌ عظيمة. فأخبرَ جَلَّ ثناؤُهُ أنه أنعم بذلك عليه لِمَا سَلَفَ له من صالحِ عملٍ وحُسْنِ طاعةٍ.

وأما قوله: «وتفصيلاً لكل شيء»، فإنه يعني: وتبييناً لكلِّ شيءٍ من أمرِ الدين الذي أُمِرُوا به.

فتأويلُ الكلام إذاً: ثم آتينا موسى التوراةَ تماماً لنعمنا عنده وأيادينا قِبَله، تَتِمُّ به كرامتنا عليه على إحسانِه وطاعتِه ربَّهُ وقيامه بما كَلَّفَهُ من شرائعِ دينِه، وتبييناً لكلِّ ما بقومِهِ وأتباعه إليه الحاجة من أمرِ دينهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: آتينا موسى الكتابَ تماماً وتفصيلاً لكل شيء. «وهدى»، يعني بقوله: «وهدى»، تقويماً لهم على الطريقِ المستقيم، وبياناً لهم سُبُلَ الرشادِ لئلا يَضِلُّوا. «ورحمة»، يقول: ورحمةً منا بهم ورأفة، لِنُنَجِّيهم من الضلالةِ وعَمى الحيرة.

وأما قوله: «لَعَلَّهُم بلقاءِ رَبِّهم يؤمنون»، فإنما يعني: إيتائي موسى الكتابَ تماماً لكرامةِ الله موسى، على إحسانِ موسى، وتفصيلاً لشرائعِ دينه، وهُدًى لمن اتبعه، ورحمةً لمن كان منهم ضالاً لينجيه اللهُ به من الضلالة، وليؤمن بلقاءِ ربه إذا سمع مواعظَ اللهِ التي وعظ بها خَلْقَهُ فيه، فيرتدع عَمَّا هو عليه مقيمٌ من الكفرِ به، وبلقائِه بعد مماتِه، فيطيع ربه، ويصدِّقَ بما جاءه به نبيهُ موسى ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وهذا كتابٌ أنزلناه مبارك»، وهذا القرآنُ الذي أنزلناه إلى نبينا محمدٍ ﷺ. «كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه»، يقول: فاجعلوه إماماً تَتَّبِعُونَهُ وتعملونَ بما فيه، أيها الناسُ. «واتقوا»، يقول: واحْذَرُوا الله في

أنفسكم، أنْ تضِيعُوا العملَ بما فيه، وتتعدّوا حدودَه، وتستحلُّوا محارمه.

وقوله: «لعلكم ترحمون»، يقول: لِتُرْحَمُوا، فتنجوا من عذابِ الله، وأليمِ عقابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ١٥٦﴾

فأما الطائفتان اللتان ذَكَرهما اللهُ، وأخبرَ أنه إنما أنزل كتابَهُ على نبيه محمدٍ ﷺ لئلا يقول المشركون: «لم ينزلْ علينا كتابٌ فَنَتَّبِعَهُ، ولم نُؤْمَرْ ولم نُنْه، فليس علينا حجةٌ فيما نأتي ونَذَر، إذْ لم يأتنا من الله كتابٌ ولا رسول»، وإنما الحجةُ على الطائفتين اللتين أنزل عليهما الكتاب من قبلنا - فإنهما اليهود والنصارى، وكذلك قال أهلُ التأويل.

وأما «وإنْ كُنَّا عن دِراستهم لغافلين»، فإنه يعني: أنْ تقولوا: وقد كُنَّا عن تلاوةِ الطائفتين الكتابَ الذي أنزلتُ عليهم. «غافلين»، لا ندري ما هيَ، ولا نعلمُ ما يقرأونَ، وما أنزل إليهم في كتابهم، لأنهم كانوا أهله دوننا، ولم نُعْنَ به ولم نُؤْمَرْ بما فيه، ولا هو بلساننا، فيتخذوا ذلك حُجَّةً. فقطع اللهُ بإنزالهِ القرآنَ على نبيه محمدٍ ﷺ حجتهم تلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وهذا كتابٌ أنزلناهُ مبارك»، لئلا يقولَ المشركونَ من عَبَدَةِ الأوثانِ من قريش: «إنما أُنزلَ الكتابُ على طائفتين من قبلنا»، أو: لئلا يقولوا: لو أنَّا أُنْزلَ علينا الكتابُ كما أُنْزلَ على هاتين الطائفتين من قبلنا، فأُمرنا

فيه ونُهينا، ويُبَيِّنَ لنا فيه خطأً ما نحنُ فيه من صوابه. «لَكُنَّا أهدى منهم»، أي: لكنا أشدَّ استقامةً على طريق الحق، واتباعاً للكتاب، وأحسن عملاً بما فيه، من الطائفتينِ اللتين أُنزلَ عليهما الكتابُ من قبلنا. يقول الله: «فقد جاءكم بينةٌ من ربكم» يقول: فقد جاءكم كتابٌ بلسانكم عربيّ مبين، حُجَّة عليكم واضحة بَيِّنة من رَبِّكم. «وهدى»، يقول: وبيانٌ للحق، وفُرْقانٌ بين الصواب والخطأ، «ورحمة» لمن عَمِلَ به واتَّبعهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَاۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ١٥٧﴾

يقـول جَلَّ ثناؤه: فمن أخطأُ فِعْلاً وأشدُّ عدواناً منكم، أيها المشركونَ المُكَذِّبُونَ بحججِ الله وأدلته ـ وهي آياته. «وصَدَفَ عنها»، يقول: وأعرضَ عنها بعد ما أَتَتْهُ، فلم يُؤْمِنْ بها، ولم يصدِّقْ بحقيقتها.

وأخرج جَلَّ ثناؤُهُ الخبرَ بقوله: «فمن أظلمُ ممن كذب بآياتِ الله»، مخرجَ الخبرِ عن الغائب، والمعنيُّ به المخاطبونَ به من مشركي قريش.

وقوله: «سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سُوءَ العذاب»، يقول: سَيُثِيبُ الله الذين يعرضون عن آياتِهِ وحججِهِ ولا يتدبرونها، ولا يَتَعَرَّفُونَ حقيقتَها فيؤمنوا بما دَلَّتْهُمْ عليه من توحيدِ الله، وحقيقةِ نبوةِ نبيه، وصِدْقِ ما جاءهم به من عند ربهم. «سُوءَ العذاب»، يقول: شديدَ العقابِ، وذلك عذابُ النارِ التي أعدَّهَا الله لكفَرَةِ خَلْقِه به. «بما كانوا يصدفون»، يقول: يفعل الله ذلك بهم جزاء بما كانوا يُعْرِضُونَ عن آياتِهِ في الدنيا، فلا يقبلون ما جاءهم به نَبِيُّهُم محمد ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾

يقول جَلَّ ثناؤه: هل ينتظرُ هؤلاء العادلونَ بربِّهم الأوثان والأصنام. «إلَّا أنْ تأتيهم الملائكةُ»، بالموتِ فتقبضَ أرواحَهُم - أو أن يأتيهم رَبُّكَ، يا محمدُ، بين خلقه في موقف القيامة. «أو يأتي بعضُ آياتِ ربك»، يقول: أو أنْ يأتيهم بعضُ آياتِ ربك. وذلك فيما قال أهلُ التأويل: طلوعُ الشمس من مغربها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «يوم يأتي بعضُ آياتِ رَبِّكَ»، لا ينفع مَنْ كان قبل ذلك مشركاً بالله، أنْ يؤمنَ بعد مجيء تلك الآية.

وقيل: إنَّ تلك الآية التي أخبر الله جَلَّ ثناؤُهُ أنَّ الكافرَ لا ينفعهُ إيمانه عند مجيئها: طلوعُ الشمس من مغربها.

وأما قوله: «أو كسبت في إيمانها خيراً»، فإنه يعني: أو عَمِلَتْ في تصديقها بالله خيراً، من عملٍ صالح يُصَدِّقُ قِيلَه ويُحققه، من قبلِ طلوعِ الشمس من مغربها. ولا ينفعُ كافراً لم يَكُنْ آمنَ بالله قبلَ طلوعها كذلك، إيمانُه بالله إنْ آمنَ وصَدَّقَ بالله ورسله، لأنها حالةٌ لا تمتنع نفسٌ من الإقرارِ بالله، لعظيمِ الهولِ الواردِ عليهم من أمرِ الله، فَحُكْمُ إيمانهم، كحكمِ إيمانِهم عند قيامِ الساعة، وتلك حالٌ لا يمتنعُ الخَلْقُ من الإقرارِ بوحدانيةِ الله، لمعاينتهم من أهوالِ ذلك اليومِ ما ترتفعُ معه حاجتهم إلى الفكر والاستدلالِ والبحثِ والاعتبار، ولا ينفعُ مَنْ كان بالله وبرسله مصدِّقاً، ولفرائضِ الله مُضَيِّعاً، غير

مكتسب بجوارحِهِ لله طاعة، إذا هي طلعتْ من مغربها - أعمالُه إنْ عَمِلَ، وكسبُه إن اكتسبَ، لتفريطِهِ الذي سَلَفَ قبل طلوعها في ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلِ انتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ١٥٨﴾

يقـولُ تعالى لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ، يا محمدُ، لهؤلاء العادلينَ بربهم الأوثانَ والأصنامَ: انتظروا أنْ تأتيكم الملائكةُ بالموتِ فتقبض أرواحكم، أو أنْ يأتيَ رَبُّكم لفصلِ القضاء بيننا وبينكم في موقفِ القيامة، أو أنْ يأتيكم طلوعُ الشمسِ من مغربها، فَتُطْوى صحفُ الأعمال، ولا ينفعكم إيمانُكم حينئذٍ إنْ آمنتم، حتى تعلموا حينئذٍ المُحِقَّ منا من المُبْطِلِ، والمسيءَ من المحسنِ، والصادقَ من الكاذبِ، وتَتَبَيَّنُوا عند ذلك بمن يحيقُ عذابُ الله وأليم نكاله، ومَنِ الناجي منا ومنكم ومَنِ الهالك - إنا مُنْتَظِرُو ذلكَ، ليجزلَ اللهُ لنا ثوابَهُ على طاعتنا إياه، وإخلاصنا العبادةَ له، وإفرادِنَاهُ بالربوبيةِ دونَ ما سِواهُ، ويفصل بيننا وبينكم بالحق، وهو خيرُ الفاصلين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ١٥٩﴾

اختلف أهلُ التأويل في المَعْنِيِّينَ بقوله: «إنَّ الذين فَرَّقُوا دِينهم».

فقال بعضهم: عَنَى بذلك اليهودَ والنصارى.

وقال آخرون: عَنَى بذلك أهلَ البدعِ من هذه الأمة، الذين اتَّبَعُوا مُتَشابِهَ القرآنِ دونَ مُحْكَمِه.

والصوابُ من القولِ في ذلك عندي أنْ يُقالَ: إنَّ الله أخبر نبيه ﷺ أنه بريءٌ مِمَّنْ فارقَ دِينه الحق وفَرَّقَهُ، وكانوا فِرَقاً فيه وأحزاباً شِيَعاً، وأنه ليس منهم. ولا هُمْ منه، لأنَّ دِينَهُ الذي بعثه الله به هو الإسلامُ، دين إبراهيم الحنيفية، كما قال له رَبُّه وأمره أنْ يقولَ: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

فكان مَنْ فارقَ دِينه الذي بعث به ﷺ من مشركٍ ووثنيٍّ يهوديٍّ ونصرانيٍّ ومتحنِّفٍ، مبتدع قد ابتدعَ في الدينِ ما ضَلَّ به عن الصراطِ المستقيم والدينِ القيمِ ملةَ إبراهيمَ المسلم، فهو بريءٌ من محمدٍ ﷺ، ومحمدٌ منه بريءٌ، وهو داخلٌ في عموم قوله: «إنَّ الذين فَرَّقُوا دِينهم وكانوا شيعاً لستَ منهم في شيء».

وأما قوله: «لستَ منهم في شيءٍ إنما أمرهم إلى الله»، فإنَّ أهلَ التأويل اختلفوا في تأويله.

فقال بعضهم: نزلت هذه الآيةُ على نبيِّ الله بالأمرِ بتركِ قتالِ المشركينَ قبلَ وُجوبِ فَرْضِ قتالهم، ثم نسخها الأمر بقتالهم في «سورة براءة»، وذلك قوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

وقال آخرون: بَلْ نزلتْ على النبيِّ ﷺ إعلاماً من الله له أنَّ من أمته مَنْ يُحْدث بعده في دينه. وليست بمنسوخةٍ، لأنها خبرٌ لا أمر، والنسخُ إنما يكونُ في الأمر والنهي.

والصوابُ من القولِ في ذلك أن يقال: إنَّ قوله: «لست منهم في شيء»، إعلامٌ من الله نبيَّه محمداً ﷺ أنه من مُبْتَدِعَةِ أُمتهِ الملحدةِ في دينهِ بريءٌ، ومن الأحزابِ من مشركي قومه، ومن اليهودِ والنصارى. وليس في إعلامِه ذلكَ ما يوجبُ أنْ يكونَ نهاهُ عن قتالهم، لأنه غير محالٍ أنْ يقالَ في

الكلام: «لستَ من دينِ اليهودِ والنصارى في شيءٍ فقاتلهم، فإنَّ أمرهم إلى الله في أنْ يتفضلَ على مَنْ شاء منهم فيتوب عليه، ويهلك مَنْ أراد إهلاكَهُ منهم كافراً فيقبض رُوحَهُ، أو يقتله بيدكَ على كُفْرِه، ثم ينبئهم بما كانوا يفعلونَ عند مقدَمِهم عليه». وإذْ كان غير مستحيلٍ اجتماعُ الأمر بقتالهم، وقوله: «لستَ منهم في شيء إنما أَمْرُهُمْ إلى الله»، ولم يكنْ في الآيةِ دليلٌ واضحٌ على أنها منسوخةٌ، ولا وَرَدَ بأنها منسوخةٌ عن الرسول خبرٌ - كان غير جائز أن يُقْضى عليها بأنها منسوخة، حتى تقومَ حجةٌ موجبةٌ صحةَ القولِ بذلك، لما قد بَيَّنَّا من أنَّ المنسوخَ هو ما لم يَجُزْ اجتماعُه وناسخه في حالٍ واحدة، في كتابنا: «كتاب اللطيف من البيان عن أصول الأحكام».

وأما قوله: «إنما أَمْرُهُم إلى الله»، فإنه يقول: أنا الذي إليَّ أمرُ هؤلاءِ المشركينَ الذين فارقوا دِينهم وكانوا شِيَعاً، والمبتدعة من أُمَّتِكَ الذين ضَلُّوا عن سبيلِكَ، دونكَ ودونَ كُلِّ أحدٍ. إما بالعقوبةِ إنْ أقامُوا على ضلالَتِهم وفُرْقتِهم دينهم فأهلكَهُمْ بها، وإما بالعفوِ عنهم بالتوبةِ عليهم والتفضل مني عليهم. «ثم يُنَبِّئُهم بما كانوا يفعلون»، يقول: ثم أخبرهم في الآخرةِ عند ورودِهم عليَّ يومَ القيامةِ بما كانوا يفعلون، فأجازي كُلًّا منهم بما كانوا في الدنيا يفعلون، المحسنَ منهم بالإحسانِ، والمسيءَ بالإساءةِ. ثم أخبر جَلَّ ثناؤه ما مبلغ جزائهِ مَنْ جازى منهم بالإحسان أو بالإساءة فقال: «مَنْ جاء بالحسنةِ فله عَشْرُ أمثالها ومَنْ جاء بالسيئةِ فلا يُجْزَى إلاَّ مِثْلَها وهم لا يُظْلَمُونَ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مَنْ وافَى رَبَّهُ يومَ القيامة في موقفِ الحساب، من هؤلاءِ الذين فارقوا دِينَهم وكانوا شيعاً، بالتوبةِ والإيمانِ والإقلاعِ عَمَّا هو عليه

مقيمٌ من ضلالتهِ، وذلك هو الحسنةُ التي ذَكَرها الله فقال: مَنْ جاء بالحسنة فله عَشْرُ أمثالها.

ويعني بقوله: «فله عشر أمثالها»، فله عشر حسناتٍ أمثال حسنتهِ التي جاء بها. «ومن جاء بالسيئة»، يقول: ومَنْ وافى يومَ القيامةِ منهم بفراقِ الدِّينِ الحقِّ والكفر بالله، فلا يُجْزَى إلا ما ساءَهُ من الجزاء، كما وافى الله به من عمله السيء. «وهُمْ لا يُظلمونَ»، يقول: ولا يظلمُ اللهُ الفريقين، لا فريقَ الإحسان، ولا فريقَ الإساءة، بأنْ يُجازي المحسنَ بالإساءةِ، والمسيءَ بالإحسانِ، ولكنه يجازي كلا الفريقين من الجزاء ما هُوَ له، لأنه جَلَّ ثناؤُهُ حكيمٌ لا يضع شيئاً إلا في موضعه الذي يستحقُّ أن يَضَعَهُ فيه، ولا يجازي أحداً إلا بما يستحقُّ من الجزاء.

فإنْ قال قائلٌ: فإنْ كان الأمرُ كما ذكرت، من أنَّ معنى «الحسنة» في هذا الموضع: الإيمان بالله، والإقرار بوحدانيته، والتصديق برسوله. «والسيئة» فيه: الشرك به، والتكذيب لرسوله ـ أَفَللإيمانِ أمثالٌ فَيُجَازى بها المؤمن؟ وإنْ كان له مِثْلٌ، فكيف يُجَازَى به، و«الإيمان»، إنما هو عندك قولٌ وعمل، والجزاءُ من الله لعبادِهِ عليه الكرامة في الآخرة، والإنعام عليه بما أَعَدَّ لأهلِ كرامتهِ من النعيم في دارِ الخلود، وذلك أعيانٌ تُرَى وتُعَايَنُ وتُحَسُّ ويلتذُّ بها، لا قولٌ يسمع، ولا كسبُ جوارح؟

قيل: إنَّ معنى ذلك غير الذي ذهبتَ إليه. وإنما معناه: مَنْ جاء بالحسنَةِ فوافَى اللهَ بها له مُطيعاً، فإنَّ له من الثوابِ ثواب عشرِ حسناتٍ أمثالها.

فإن قال: قلت فهل لقولِ «لا إله إلَّا الله» من الحسناتِ مِثْلٌ؟

قيل: له مِثْلٌ هو غيرُه، ولكنْ له مِثْلٌ هو قولُ لا إله إلا الله، وذلك هو الذي وَعَدَ اللهُ جَلَّ ثناؤُهُ مَنْ أتاهُ به أن يجازيه عليه من الثوابِ بمثل عشرة

أضعافِ ما يستحقه قائله. وكذلك ذلك فيمَنْ جاءَ بالسيئةِ التي هي الشرك، إلا أنه لا يجازى صاحبها عليها إلَّا ما يستحقه عليها من غيرِ إضعافه عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ»، يا محمدُ، لهؤلاء العادلينَ بربِّهم الأوثانَ والأصنامَ. «إنني هَدَاني رَبِّي إلى صراطٍ مستقيم»، يقول: قُلْ لهم إنني أرشدني ربي إلى الطريقِ القويم، هو دينُ الله الذي ابتعثه به، وذلك الحنيفيةُ المسلمة، فوفقني له. «ديناً قيماً»، يقول: مستقيماً. «ملة إبراهيم»، يقـول: دين إبراهيم. «حنيفاً»، يقول: مستقيماً. «وما كان من المشركين»، يقول: وما كانَ من المشركينَ بالله، يعني إبراهيم صلواتُ الله عليه، لأنه لم يكنْ ممن يعبدُ الأصنامَ.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: دِيناً قيماً».

فقـرأ ذلـك عامة قَرَأَةِ المدينة وبعض البصريين: ﴿دِيناً قَيِّماً﴾ بفتح «القاف» وتشديد «الياء»، إلحاقاً منهم ذلك بقول الله: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [التوبة: ٣٦ / يوسف: ٤٠ / الروم: ٣٠]. وبقوله، ﴿ذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

وقرأ ذلك عامةُ قَرَأَةِ الكوفيين: ﴿دِيناً قِيَماً﴾ بكسر «القاف» وفتح «الياء» وتخفيفها. وقالوا «القيِّم» و«القِيَم» بمعنى واحدٍ، وهما لغتان معناهما: الدِّينُ المستقيم.

والصـوابُ من القول في ذلك عندي أنهما قراءتان مشهورتان في قَرَأَةِ الأمصار، متفقتا المعنى، فبأَيَّتِهمَا قرأ القارىءُ فهو للصواب مصيبٌ، غير أن

فتح «القاف» وتشديد «الياء» أعجبُ إليَّ، لأنه أفصح اللغتين وأشهرهما.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قل»، يا محمدُ، لهؤلاء العادلينَ بربِّهم الأوثانَ والأصنام، الذين يسألونك أنْ تتَّبعَ أهواءهم على الباطلِ من عبادةِ الآلهة والأوثانِ. «إنَّ صلاتي ونُسُكي»، يقول: وذبحي. «ومحياي»، يقول: وحياتي. «ومماتي» يقول: ووفاتي. «لله رب العالمين»، يعني: أن ذلك كُلَّهُ له خالصاً دونَ ما أشركتم به، أيها المشركونَ، من الأوثانِ. «لا شريكَ له» في شيءٍ من ذلكَ من خَلْقِه، ولا لشيءٍ منهم فيه نصيبٌ، لأنه لا ينبغي أنْ يكونَ ذلك إلَّا له خالصاً. «وبذلك أُمِرْتُ»، يقول: وبذلك أمرني ربي. «وأنا أولُ المسلمين»، يقول: وأنا أوَّلُ مَنْ أقرَّ وأذْعنَ وخضعَ من هذه الأمة لربه بأنَّ ذلكَ كذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾

يقولُ تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قل»، يا محمدُ، لهؤلاء العادلينَ بربِّهم الأوثانَ، الداعيكَ إلى عبادةِ الأصنامِ واتباعِ خطواتِ الشيطان. «أغيرَ الله أبغي رَبًّا»، يقولُ: أَسِوى اللهِ أطلبُ سَيِّداً يسودني؟. «وهو رَبُّ كل شيء»، يقول: وهو سَيِّدُ كُلِّ شيءٍ دونه ومدبِّره ومُصْلِحُه. «ولا تكسب كُلُّ نفسٍ إلَّا عليها»، يقول: ولا تجترح نفسٌ إثماً إلا عليها، أي: لا يؤخذ بما أتَتْ من معصية الله تبارك وتعالى، وركبتْ من الخطيئةِ، سِواها، بل كُلُّ ذي إثمٍ فهو

المعاقَبُ بإثمهِ والمأخوذُ بذنبه. «ولا تَزِرُ وازرةٌ وزرَ أخرى»، يقول: ولا تأثم نفسٌ آثمةٌ بإثمِ نفس أخرى غيرها، ولكنها تأثمُ بإثمها، وعليه تُعاقَبُ، دونَ إثم أخرى غيرها.

وإنما يعني بذلك المشركينَ الذين أمرَ اللهُ نبيه ﷺ أنْ يقولَ هذا القولَ لهم. يقول: قُلْ لهم: إنَّا لسنا مأخوذينَ بآثامِكم، وعليكم عقوبةُ إجرامِكم، ولنا جزاءُ أعمالِنَا. وهذا كما أمره اللهُ جَلَّ ثناؤهُ في موضعٍ آخرَ أنْ يقولَ لهم: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ١٦٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ لهؤلاء العادلينَ بربهم الأوثانَ: كُلُّ عاملٍ منا ومنكم فله ثوابُ عمله، وعليه وزرهُ، فاعملوا ما أنتم عاملوه. «ثم إلى ربكم»، أيها الناسُ. «مَرْجِعُكم»، يقول: ثم إليه مَصِيرُكُم ومنقلبكم. «فينبئكم بما كنتم فيه»، في الدنيا، «تختلفون» من الأديانِ والمللِ، إذْ كانَ بعضُكم يَدِينُ باليهوديةِ، وبعضٌ بالنصرانيةِ، وبعضٌ بالمجوسية، وبعضٌ بعبادةِ الأصنام وادِّعاء الشركاءِ مع اللهِ والأنداد، ثم يُجازي جميعَكم بما كان يعملُ في الدنيا من خيرٍ أو شرٍّ، فتعلموا حينئذٍ مَنِ المحسنُ منَّا والمسيء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ وأمته: والله الذي جعلكم، أيها الناسُ، «خلائفَ الأرض»، بأنْ أهلكَ مَنْ كان قَبْلَكُمْ من القرونِ والأممِ الخاليةِ،

واستخلفكم، فجعلكم خلائفَ منهم في الأرض، تخلفونهم فيها وتعمرُونَها بعدَهم.

وأما قوله: «ورفع بعضَكم فوقَ بعضٍ درجات»، فإنه يقولُ: وخالف بين أحوالكم، فجعل بعضَكم فوقَ بعض، بأنْ رفع هذا على هذا، بما بسطَ لهذا من الرزقِ ففضَّلَهُ بما أعطاهُ من المالِ والغِنى، على هذا الفقيرِ فيما خَوَّله من أسبابِ الدنيا، وهذا على هذا بما أعطاهُ من الأيْدِ والقوةِ على هذا الضعيفِ الواهنِ القُوى. فخالفَ بينهم بأنْ رَفَعَ من درجةِ هذا على درجةِ هذا، وخَفَضَ من درجةِ هذا عن درجةِ هذا.

وأما قوله: «ليبلوكم فيما آتاكم»، فإنه يعني ليختبركم فيما خَوَّلَكُمْ من فَضْلِه، ومنحكم من رِزْقِهِ، فيعلم المطيعَ له منكم فيما أَمَرَهُ به ونهاه عنه، والعاصي؛ ومَنِ المؤدِّي مما آتاهُ الحق الذي أمره بأدائهِ منه، والمفرِّط في أدائه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

يقول جَلَّ ثناؤه لنبيه محمدٍ ﷺ: «إنَّ ربك»، يا محمدُ، لسريعُ العقابِ لمن أسخطه بارتكابهِ معاصيه، وخلافه أمْرَهُ فيما أَمَرَهُ به ونهاه، ولمن ابتلى منه فيما مَنَحَهُ من فَضْلِهِ وطَوْله توليًا وإدباراً عنه، مع إنعامهِ عليه، وتمكينهِ إياهُ في الأرض، كما فعلَ بالقرونِ السالفة. «وإنه لغفور»، يقول: وإنه لساترٌ ذُنوبَ من ابتلى منه إقبالاً إليه بالطاعةِ عند ابتلائهِ إياهُ بنعمته، واختباره إياه بأمره ونهيه، فَمُغَطٍّ عليهِ فيها، وتاركٌ فضيحتَهُ بها في موقفِ الحساب. «رحيم» بتركهِ عقوبته على سالفِ ذنوبهِ التي سَلَفَتْ بينه وبينه، إذْ تاب وأنابَ إليه قبلَ لقائهِ ومصيرهِ إليه.

تفسير سورة الأعراف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ وتقدَّست أسماؤه: ﴿الٓمٓصٓ ١﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويلِ قولِ الله تعالى ذِكْرُه: «ألمص».

فقال بعضهم: معناه: أنا الله أفصل.

وقال آخرون: هو هجاءُ حروفِ اسمِ الله تبارك وتعالى الذي هو «المُصَوِّرُ».

وقال آخرون: هي اسم من أسماء الله، أقسمَ رَبُّنا به.

وقال آخرون: هو اسمٌ من أسماءِ القرآن.

وقال آخرون: هي حروفُ هجاءٍ مُقَطَّعة.

وقال آخرون: هي من حساب الجُمَّل.

وقال آخرون: هي حروفٌ تحوي معانيَ كثيرة، دَلَّ اللهُ بها خَلْقَهُ على مُرادِه من كُلِّ ذلك.

وقال آخرون: هي حروفُ اسم الله الأعظم.

وقد ذكرنا الصوابَ من القولِ عندنا في ذلك فيما مضى، بما أَغْنَى عن إعادتِه في هذا الموضع[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه: هذا القرآنُ، يا محمدُ، كتابٌ أنزله اللهُ إليكَ.

---

(١) انظر أول تفسير سورة البقرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾

يقول جَلَّ ثناؤُه لنبيه محمدٍ ﷺ: فلا يَضِقْ صَدْرُكَ، يا محمدُ، من الإنذارِ بهِ مَنْ أرسلتُكَ لإنذارِه به، وإبلاغه مَنْ أمرتُكَ بإبلاغهِ إيَّاهُ، ولا تَشُكَّ في أنه من عندي، واصبرْ للمُضِيِّ لأمرِ الله واتباعِ طاعتهِ فيما كَلَّفَكَ وحَمَّلَكَ من عِبْءِ أثقالِ النبوة، كما صبرَ أُولُو العزمِ من الرسلِ، فإنَّ الله معكَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾

يعني بذلك تعالى ذِكْرُه: هذا كتابٌ أنزلناهُ إليكَ، يا محمدُ، لتنذرَ به مَنْ أمرتُكَ بإنذاره، «وذكرى للمؤمنين» - وهو من المُؤَخَّرِ الذي معناهُ التقديمُ. ومعناه: «كتابٌ أُنزلَ إليكَ لِتُنْذِرَ به»، و«ذكرى للمؤمنين»، «فلا يَكُنْ في صدرك حَرَجٌ منه».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾

يقول جَلَّ ثناؤُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ، يا محمدُ، لهؤلاء المشركين من قومك الذين يعبدون الأوثانَ والأصنام: اتبعوا، أيها الناسُ، ما جاءكم من عند رَبِّكُمْ بالبَيِّناتِ والهدى، واعملوا بما أَمَرَكُمْ به رَبُّكم، ولا تتبعوا شيئاً من دونه - يعني: شيئاً غيرَ ما أنزلَ إليكم رَبُّكُم. يقول: لا تتبعوا أمرَ أوليائِكم الذين يأمرونكم بالشِّرْكِ بالله وعبادةِ الأوثان، فإنهم يُضِلُّونَكُمْ ولا يهدونكم.

فإنْ قالَ قائلٌ: وكيف قلتَ: «معنى الكلام: قل اتبعوا»، وليس في الكلام موجوداً ذِكْرُ «القول»؟

قيل: إنه وإنْ لم يَكُنْ مذكوراً صريحاً، فإنَّ في الكلام دلالة عليه، وذلك قوله: «فلا يَكُنْ في صدرِكَ حَرَجٌ منه لتنذر به»، ففي قوله «لتنذر به»، الأمرُ بالإنـذارِ، وفي الأمرِ بالإنذار، الأمرُ بالقولِ، لأنَّ الإنذارَ قولٌ. فكأن معنى الكلام: أنذر القومَ وقُلْ لهم: اتَّبِعُوا ما أُنزِلَ إليكم من رَبِّكم.

ولو قيل: معناه: لِتُنْذِرَ به وتُذَكِّرَ به المؤمنينَ فتقول لهم: اتَّبِعُوا ما أُنزل إليكم ـ كان غيرَ مدفوع.

وقوله: «قليلاً ما تَذَكَّرُونَ»، يقول: قليلاً ما تَتَّعِظُونَ وتعتبرونَ فتراجعون الحقَّ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: حَذِّرْ هؤلاء العابدينَ غيري، والعادلينَ بي الآلهةَ والأوثانَ، سَخَطي لا أُحِلُّ بهم عقوبتي فأهلكهم، كما أهلكتُ مَنْ سَلَكَ سبيلَهم من الأممِ قَبْلهم، فكثيراً ما أهلكتُ قَبْلَهُمْ من أهلِ قُرَىً عَصَوْني وكَـذَّبُوا رُسُلي وعبدوا غيري. «فجاءها بأسنا بياتاً»، يقول: فجاءتهم عقوبَتُنا ونِقْمَتُنَا ليلاً قبل أنْ يُصْبِحُوا ـ أو جاءتهم «قائلين»، يعني: نهاراً في وقتِ القائلة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلم يكن دعوى أهلِ القريةِ التي أهلكناها، إذْ جاءهم

بأسُنَا وسطوتُنا بياتاً أو هم قَائِلُونَ، إلا اعترافُهُمْ على أنفسهم بأنهم كانوا إلى أنفسهم مُسيئِينَ، وبربِّهم آثمينَ، ولأمرِه ونهيهِ مخالفين.

وعَنَى بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «دَعْوَاهُم»، في هذا الموضع دُعَاءَهم.

ولـ «الـدعوى» في كلام العرب وجهان: أحدهما: الدعاء، والآخر: الإدِّعاء للحق. ومن «الـدعوى» التي معناها الدعاء، قولُ الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾ [الأنبياء: ١٥].

فإنْ قال قائلٌ: وكيف قيل: «فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلاَّ أنْ قالوا إنا كنا ظالمين»؟ وكيف أمكنتهم الدعوى بذلك، وقد جاءهم بأسُ الله بالهلاكِ؟ أَقالُوا ذلكَ قبل الهلاك؟ فإنْ كانوا قالوه قبلَ الهلاك، فإنهم قالوا قبلَ مجيءِ البأسِ، والله يخبرُ عنهم أنهم قالوه حين جاءهم، لا قَبْلَ ذلك؟ أو قالوه بعد ما جاءهم، فتلك حالةٌ قد هَلَكُوا فيها، فكيف يجوز وَصْفُهم بِقِيْلِ ذلكَ إذا عاينوا بأسَ الله، وحقيقة ما كانت الرسل تَعِدُهُمْ من سطوةِ الله؟

قيل: ليس كُلُّ الأممِ كان هلاكُهَا في لحظةٍ ليس بين أوَّله وآخرِه مَهَلٌ، بل كان منهم مَنْ غرق بالطوفانِ. فكان بين أوَّلِ ظهورِ السببِ الذي علموا أنهم به هالكون، وبين آخرِه الذي عَمَّ جميعَهُم هَلاكُه، المدة التي لا خفاءَ بها على ذي عقلٍ. ومنهم مَنْ مُتِّعَ بالحياةِ بعد ظهورِ علامةِ الهلاك لأعينهم أياماً ثلاثة، كقومِ صالح وأشباهِهم. فحينئذ لما عاينوا أوائلَ بأسِ الله الذي كانت رُسُلُ الله تَتَوَعَّدُهُمْ به، وأيقنوا حقيقةَ نزولِ سطوةِ الله بهم، دَعَوْا: «يا وَيْلَنا إنَّا كنا ظالـمين»، فلم يَكُ ينـفعُهم إيمـانُهم مع مجيءِ وعيدِ الله وحلولِ نقمتـه بساحتهم. فَحَذَّرَ رَبُّنَا جَلَّ ثناؤُهُ الذين أرسلَ إليهم نبيه محمداً ﷺ من سَطْوَتِه وعقابِهِ على كُفْرِهم به وتكذيبهم رسوله، ما حَلَّ بِمَنْ كان قَبْلَهُمْ من الأممِ إذْ عصوا رُسله، واتبعوا أمر كُلِّ جبارٍ عنيد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لنسألَنَّ الأممَ الذين أرسلت إليهم رسلي: ماذا عَمِلَتْ فيما جاءتهم به الرسلُ من عندي من أمري ونهيي؟ هَلْ عَمِلُوا بما أمرتهم به، وانتهوا عما نهيتهم عنه، وأطاعوا أمري، أم عصوني فخالفوا ذلك؟ «ولنسألن المُـرْسَلين»، يقول: ولنسألن الرُّسُلَ الذين أرسلتهم إلى الأمم: هل بَلَّغَتْهُم رسالاتي، وأدَّتْ إليهم ما أمرتُهم بأدائهِ إليهم، أم قَصَّرُوا في ذلك فَفَرَّطُوا ولم يبلغوهم؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: فلنخبرن الرُّسُلَ ومَنْ أرسلتهم إليه بيقين علمٍ بما عملوا في الدنيا فيما كنتُ أمرتُهم به، وما كنتُ نَهَيْتُهُمْ عنه. «وما كنا غائبين»، عنهم وعن أفعالِهم التي كانوا يفعلونها.

فإنْ قالَ قائلٌ: وكيف يسأل الرسلَ، والمرسل إليهم، وهو يخبرُ أنه يَقُصُّ عليهم بعلمٍ بأعمالِهم وأفعالِهم في ذلك؟

قيل: إنَّ ذلكَ منه تعالى ذِكْرُه ليس بمسألةِ استرشادٍ، ولا مسألة تَعَرُّفٍ منهم ما هوَ به غيرُ عَالِمٍ، وإنما هو مسألةُ توبيخٍ وتقريرٍ معناها الخبر، كما يقول الرجل للرجل: «ألم أُحْسِنْ إليكَ فأسأتَ؟»، و«ألم أَصِلْكَ فقطعتَ؟». فكذلك مسألة الله المرسلَ إليهم، بأنْ يقول لهم: «ألم يَأْتِكُمْ رُسُلي بالبيناتِ؟ ألم أبعث إليكم النذر فتنذركم عذابي وعقابي في هذا اليوم من كَفَرَ بي وعَبَدَ

غيري»؟ كما أخبر جَلَّ ثناؤُهُ أنه قائل لهم يومئذٍ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَلَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ* وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠، ٦١]، ونحو ذلك من القول الذي ظاهره ظاهرُ مسألة، ومعناه الخبر والقصص، وهو بعدُ توبيخٌ وتقرير.

وأما مسألةُ الرسل الذي هو قَصَصٌ وخَبَرٌ، فإنَّ الأممَ المُشْرِكَةَ لما سُئِلَتْ في القيامةِ قِيلَ لها: «ألم يأتكم رُسلٌ منكم يَتْلُونَ عليكم آياتِ رَبِّكم»؟ أنكر ذلك كثيرٌ منهم وقالوا: «ما جاءنا من بشيرٍ ولا نذير». فقيل للرسل: «هل بَلَّغْتُمْ ما أُرسِلتم به»؟ أو قيل لهم: «ألم تُبَلِّغُوا إلى هؤلاءِ ما أُرسلتُمْ به؟»، كما جاء الخبرُ عن رسول الله ﷺ، وكما قال جَلَّ ثناؤُهُ لأمةِ نبينا محمدٍ ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ [البقرة: ١٤٣]. فكلُّ ذلك من اللهِ مسألةٌ للرسلِ على وجهِ الاستشهاد لهم على مَنْ أُرسِلُوا إليه من الأمم، وللمرسَلِ إليهم على وجهِ التقرير والتوبيخِ، وكُلُّ ذلك بمعنى القصصِ والخبر.

فأما الذي هو عن الله منفيٌّ من مسألتهِ خَلْقَهُ، فالمسألةُ التي هي مسألةُ استرشادٍ واستثبات فيما لا يعلمه السائلُ عنها ويعلمه المسؤولُ، ليعلمَ السائلُ عِلْمَ ذلك من قِبَله، فذلك غيرُ جائزٍ أنْ يُوصَفَ اللهُ به، لأنه العالمُ بالأشياءِ قبلَ كونها وفي حال كونها وبعد كونها، وهي المسألةُ التي نفاها جَلَّ ثناؤُهُ عن نفسه بقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩]، وبقوله: ﴿وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨]، يعني: لا يَسأل عن ذلك أحداً منهم مسألة مستثبت، ليعلمَ عِلْمَ ذلك من قبل من سأل منه، لأنه العالمُ بذلك كله وبكلِّ شيءٍ غيره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾﴾

معنى الكلام: والوزن يومَ نسألُ الذين أُرسلَ إليهم والمرسلينَ، الحق ويعني بـ«الحق»، العدلَ.

واختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «فمن ثَقُلَتْ مَوازِينه».

فقال بعضهم: معناه: فمن كَثُرَتْ حسناتُه.

وقال آخرون: معنى ذلك: فمن ثقلت موازينه التي تُوزَنُ بها حسناتُه وسيئاته. قالوا: وذلك هو «الميزان» الذي يعرفهُ الناسُ، له لسانٌ وكِفَّتان. والصواب من القول في ذلك عندي، أنَّ ذلك هو «الميزان» المعروفُ الذي يُوزَنُ به، وأنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ يَزِنُ أعمالَ خَلْقِه الحسنات منها والسيئات، كما قال جَلَّ ثناؤُهُ: «فمن ثقلت موازينه»، موازين عمله الصالح. «فأولئك هم المفلحون»، يقول: فأولئك هم الذين ظفروا بالنجاحِ، وأدركوا الفوزَ بالطلباتِ، والخلودَ والبقاء في الجنات، لتظاهُرِ الأخبارِ عن رسولِ الله ﷺ بقوله: «ما وُضِعَ في الميزان شيء أثقل من حسن الخُلق»[1]، ونحو ذلك من الأخبار التي تحقق أن ذلك ميزانٌ يوزن به الأعمال، على ما وصفت.

فإنْ أنكرَ ذلك جاهلٌ بتوجيه معنى خبرِ الله عن الميزانِ وخبرِ رسولِه ﷺ عنه، وِجْهَتَهُ، وقال: أوَ باللهِ حاجةٌ إلى وزنِ الأشياء، وهو العالمُ بمقدارِ كُلِّ شيءٍ قبلَ خَلْقِه إياهُ وبعده، وفي كل حال؟ ـ أو قال: وكيف تُوزَنُ الأعمالُ،

(١) حديث صحيح أخرجه ابن أبي شيبة: ٥١٦/٨، وعبدالرزاق (٢٠١٥٧)، وأحمد: ٤٤٦/٦ و٤٤٨ و٤٥١، وأبو داود (٤٧٩٩)، والترمذي (٢٠٠٢) وقال: حسن صحيح، وابن حبان (٤٨١) و(٥٦٩٣) و(٥٦٩٥) من حديث أبي الدرداء. وفي الباب عن عائشة وأبي هريرة وأنس وأسامة بن شريك.

والأعمال ليست بأجسامٍ تُوصَفُ بالثقلِ والخِفَّةِ، وإنما توزنُ الأشياءُ لِيُعْرَف ثقلها من خفتها، وكثرتها من قلتها، وذلك لا يجوزُ إلا على الأشياء التي تُوصَفُ بالثقل والخفة، والكثرةِ والقلة.

قيل له في قوله: «وما وجهُ وزنِ الله الأعمالَ، وهو العالمُ بمقاديرها قبل كَوْنِها»: وَزْنُ ذلك، نظيرُ إثباته إياهُ في أمِّ الكتابِ واستنساخه ذلك في الكتب، من غيرِ حاجةٍ به إليه، ومن غير خوفٍ من نسيانه، وهو العالمُ بكلِّ ذلكَ في كُلِّ حالٍ ووقتٍ قبلَ كونه وبعد وجودِه، بل ليكون ذلك حُجَّةً على خَلْقِه، كما قال جَلَّ ثناؤُهُ في تنزيله: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ* هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٨، ٢٩] الآية. فكذلك وَزْنُه تعالى أعمالَ خَلْقِه بالميزانِ، حجة عليهم ولهم، إما بالتقصيرِ في طاعته والتضييع، وإما بالتكميل والتتميم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾

يقول جَلَّ ثناؤُه: ومَنْ خَفَّتْ موازينُ أعمالِهِ الصالحة، فلم تَثْقُلْ بإقرارِه بتوحيدِ الله، والإيمانِ به وبرسوله، واتباعِ أمره ونهيه، فأولئكَ الذين غَبَنُوا أنفسهم حظوظَها من جزيلِ ثوابِ الله وكرامته. «بما كانوا بآياتنا يظلمون»، يقول: بما كانوا بحججِ الله وأدلته يجحدون، فلا يُقِرُّونَ بصحتها، ولا يوقنون بحقيقتها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد وطَّأنا لكم، أيها الناسُ، في الأرضِ، وجعلناها لكم قراراً تستقرُّونَ فيها، ومِهاداً تمتهدونَها، وفراشاً تفترشونها. «وجعلنا لكم فيها معايش»، تعيشون بها أيامَ حياتِكم، من مطاعمَ ومشاربَ، نعمةً مني عليكم، وإحساناً مني إليكم. «قليلاً ما تشكرون»، يقول: وأنتم قليلٌ شُكْرُكُمْ على هذه النعمِ التي أنعمتُها عليكم لعبادَتِكُمْ غيري، واتخاذكم إلهاً سواي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «ولقد خلقناكم»، ولقد خلقنا آدمَ. «ثم صورناكم»، بتصويرنا آدمَ، كما قد بَيَّنَّا فيما مضى من خطابِ العرب الرجلَ بالأفعالِ تُضِيفُهَا إليه، والمعنيُّ في ذلك سلفه، وكما قال جَلَّ ثناؤُهُ لمن بين أظهُرِ المؤمنينَ من اليهودِ على عهدِ رسولِ الله ﷺ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُم الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾، [البقرة: ٦٣]. وما أشبه ذلك من الخطابِ الموجَّه إلى الحيِّ الموجودِ، والمرادُ به السَلَفُ المعدومُ، فكذلك ذلك في قوله: «ولقد خلقناكم ثم صَوَّرناكم»، معناه: ولقد خلقنا أباكم آدم ثم صوَّرناهُ.

وإنما قلنا هذا القولَ، لأنَّ الذي يتلو ذلك قوله: «ثم قلنا للملائكةِ اسجدوا لآدمَ»، ومعلومٌ أنَّ الله تبارك وتعالى قد أمرَ الملائكةَ بالسجودِ لآدمَ، قبلَ أنْ يُصَوِّرَ ذُرِيَّتَهُ في بطونِ أمهاتهم، بل قبلَ أنْ يخلُقَ أمهاتهم.

وأما قوله للملائكة: «اسجدوا لآدم»، فإنه يقول جَلَّ ثناؤُهُ: فلما صَوَّرْنَا آدمَ، وجعلناهُ خَلْقاً سَوِيًّا، ونفخنا فيه من روحنا، قلنا للملائكة: «اسجدوا

لآدم»، ابتلاءً منا واختباراً لهم بالأمرِ، ليعلم الطائع منهم من العاصي.

«فسجدوا»، يقول: فسجد الملائكةُ، إلا إبليس فإنه لم يكن من الساجدين لآدم، حين أمره الله مع مَنْ أمرَ من سائرِ الملائكة غيره بالسجود.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾

وهذا خَبَرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن قِيْلِه لإبليسَ، إذْ عَصَاهُ فلم يسجدْ لآدمَ إذْ أمره بالسجودِ له. يقول: قال الله لإبليس: «ما منعكَ»، أيّ شيءٍ منعكَ. «أنْ لا تسجد»، أنْ تَدَعَ السجودَ لآدم «إذْ أمرتُكَ» أنْ تسجدَ. «قال أنا خيرٌ منه»، يقول: قال إبليس: أنا خيرٌ من آدمَ. «خلقتني من نارٍ وخلقته من طين».

فإنْ قال قائل: أخبرنا عن إبليس، أَلَحِقَتْهُ الملامةُ على السجودِ، أمْ على تَرْكِ السجود؟ فإنْ تكن لحقته الملامةُ على تركِ السجود، فكيف قيل له: «ما منعكَ أنْ لا تسجد إذ أمرتُكَ»؟ وإنْ كان النكير على السجود، فذلك خلافُ ما جاء به التنزيلُ في سائرِ القرآن، وخلاف ما يعرفه المسلمون!

قيل: إنَّ الملامةَ لم تَلْحَقْ إبليسَ إلا على معصيتِهِ رَبَّهُ بتركِهِ السجودَ لآدمَ إذْ أمَرَهُ بالسجودِ له.

وأما قوله: «أنا خيرٌ منه خلقتني من نارٍ وخلقته من طين»، فإنه خبر من الله جَلَّ ثناؤُهُ عن جوابِ إبليسَ إياه إذ سأله: ما الذي منعه من السجود لآدم، فأحوجه إلى أنْ لا يسجدَ له، واضطره إلى خِلافه أمرَهُ به، وتركه طاعته - أنَّ المانعَ كان له من السجود، والداعيَ له إلى خِلافهِ أمر رَبِّه في ذلك: أنه أشد منه أيْداً[1]، وأقوى منه قوةً، وأفضل منه فضلاً، لفضلِ الجنسِ الذي منه خُلِقَ،

(١) الأيد: القوة.

وهو النارُ، على الذي خُلِقَ منه آدمُ، وهو الطينُ. فَجَهِلَ عدوُّ الله وجهَ الحَقِّ، وأخطأ سبيلَ الصواب. إذْ كان معلوماً أنَّ من جوهرِ النارِ الخِفَّةَ والطيشَ والاضطراب والارتفاع عُلُوًّا، والذي في جوهرها من ذلك هو الذي حملَ الخبيثَ بعد الشقاءِ الذي سَبَقَ له من الله في الكتابِ السابق، على الاستكبارِ عن السجودِ لآدمَ، والاستخفافِ بأمرِ ربه، فأورثه العَطَبَ والهلاكَ. وكان معلوماً أنَّ من جوهرِ الطينِ الرزانةَ والأناةَ والحلمَ والحياءَ والتثبُّتَ، وذلك الذي هو في جوهره من ذلك، كان الداعي لآدم بعدَ السعادةِ التي كانت سبقت له من رَبِّهِ في الكتابِ السابق، إلى التوبةِ، من خطيئته، ومسألته ربَّه العفوَ عنه والمغفرة. ولذلك كان الحسن وابن سيرين يقولان: «أولُ مَنْ قاسَ إبليسُ»، يعنيان بذلك: القياسَ الخطأ[1]، وهو هذا الذي ذكرنا من خطأ قولِه، وبُعْدِهِ من إصابةِ الحَقِّ، في الفضل الذي خصَّ اللهُ به آدمَ على سائرِ خَلْقِه: من خَلْقِه إياهُ بيدِهِ، ونفخهِ فيه من روحِهِ، وإسجادِهِ له الملائكةَ، وتعليمه أسماءَ كلِّ شيءٍ، مع سائرِ ما خَصَّهُ به من كرامته. فضرب عن ذلك كلِّه الجاهلُ صَفْحاً، وقَصَدَ إلى الاحتجاجِ بأنه خُلِقَ من نارٍ وخُلِقَ آدمُ من طين!! وهو في ذلك أيضاً له غير كفؤٍ، لو لم يكن لآدم من الله جَلَّ ذِكْرُهُ تكرمة شيء غيره، فكيفَ والذي خُصَّ به من كرامته يكثرُ تَعدادُهُ، ويُمَلُّ إحصاؤه.

وهذا الذي قاله عَدُوُّ الله ليس لما سأله عنه بجواب. وذلك أنَّ الله تعالى ذِكْرُه قال له: ما منعكَ من السجودِ؟ فلم يُجِبْ بأنَّ الذي منعه من السجود أنه خُلِقَ من نارٍ وخُلِقَ آدمُ من طينٍ، ولكنه ابتدأ خبراً عن نفسه، فيه دليلٌ على موضعِ الجوابِ فقال: «أنا خيرٌ منه خلقتني من نارٍ وخلقته من طين».

---

(١) هذه التفاتةُ فقيهٍ عارف، فليس المقصود به كل قياس كما يفسره الجَهَلَةُ، هذا إذا صَحَّ عنهما رحمهما الله أنهما قالا ذلك!

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝١٣﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: قال الله لإبليسَ عند ذلك: «فاهبط منها». «فما يكونُ لكَ أنْ تتكبرَ فيها»، يقول الله تعالى ذِكْرُه: فقال الله له: «اهبطْ منها»، يعني من الجنة. «فما يكونُ لك»، يقول: فليس لكَ أنْ تستكبرَ في الجنة عن طاعتي وأمري.

فإنْ قال قائلٌ: هل لأحدٍ أنْ يتكبرَ في الجنة؟

قيل: إنَّ معنى ذلك بخلاف ما إليه ذهبتَ، وإنما معنى ذلك: فاهبطْ من الجنةِ، فإنه لا يسكنُ الجنةَ متكبرٌ عن أمرِ الله، فأما غيرها، فإنه يسكنها المستكبرُ عن أمرِ الله، والمستكينُ لطاعته.

وقوله: «فاخرُجْ إنكَ من الصاغرين»، يقول: فاخرجْ من الجنةِ، إنك من الذين قد نالَهُمْ من اللهِ الصَّغَارُ والذلُّ والمَهانة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝١٥﴾

وهذه أيضاً جَهْلَةٌ أخرى من جَهَلاتهِ الخبيثة. سأل رَبَّهُ ما قد عَلِمَ أنه لا سبيلَ لأحدٍ من خَلْقِ الله إليه. وذلك أنه سأل النَّظِرة إلى قيامِ الساعة، وذلك هو يوم يبعث فيه الخلق. ولو أُعطيَ ما سألَ من النَّظِرة، كان قد أُعْطِيَ الخلودَ وبقاءً لا فناءَ معه، وذلك أنه لا موتَ بعد البعثِ. فقال جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ* إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [سورة الحجر: ٣٧، ٣٨ / سورة ص: ٨٠، ٨١]، وذلك إلى اليومِ الذي قد كتبَ اللهُ عليه فيه الهلاكَ والموتَ

والفناء، لأنه لا شيءَ يبقى فلا يفنى، غير رَبِّنا الحيِّ الذي لا يموتُ. يقول الله تعالى ذِكْرُه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾، [آل عمران: ١٨٥ / الأنبياء: ٣٥ / العنكبوت: ٥٧]. و«الإنظار» في كلام العرب، التأخيرُ. يقال منه: «أَنْظَرْتُهُ بحقي عليه أُنْظِرُهُ به إنظاراً»[1].

فإنْ قال قائل: فإنَّ الله قد قال له إذ سأله الإنظارَ إلى يوم يُبعثونَ: «إنك من المنظرين» في هذا الموضع، فقد أجابه إلى ما سَألَ؟

قيل له: ليس الأمرُ كذلك، وإنما كان مُجيباً له إلى ما سألَ لو كان قال له: «إنك من المنظرين إلى الوقتِ الذي سألتَ - أو: إلى يوم البعث - أو: إلى يوم يبعثون»، أو ما أشبه ذلك، مما يدلُّ على إجابتهِ إلى ما سألَ من النظرةِ. وأما قوله: «إنك من المنظرين»، فلا دليلَ فيه لولا الآية الأخرى التي قد بَيَّنَ فيها مُدَّةَ إنظارهِ إياهُ إليها، وذلك قوله: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ* إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾، [الحجر: ٣٧، ٣٨ / ص: ٨٠، ٨١]، كم المدة التي أنظره إليها، لأنه إذا أنظره يوماً واحداً أو أَقَلَّ منه أو أكثر، فقد دخلَ في عِدادِ المنظرين، وتَمَّ فيه وَعْدُ اللهِ الصادق، ولكنه قد بَيَّنَ قَدْرَ مُدَّةِ ذلك بالذي ذكرناه، فعلم بذلك الوقت الذي أُنظِر إليه.

فتأويلُ الكلام: قال إبليسُ لربه: «أنظرني»، أي أَخِّرْني وأَجِّلْني، وأَنْسِئْ في أجلي، ولا تُمِتْنِي. «إلى يوم يبعثون»، يقول: إلى يوم يُبْعَثُ الخَلْقُ. فقال تعالى ذِكْرُه: «إنك من المنظرين»، إلى يوم يُنْفَخُ في الصُّور، فَيُصْعَقُ من في السموات ومن في الأرض إلَّا مَنْ شاء الله.

فإن قال قائل: فهل أَحَدٌ مُنْظَرٌ إلى ذلك اليوم سوى إبليس، فيقال له: «إنك منهم»؟

---

(١) انظر مفردات الراغب: ٨١٣ ففيه مزيد دلالات على ذلك من الآيات الكريمات.

قيل: نعم، مَنْ لم يقبضْ الله روحه من خَلْقِه إلى ذلك اليوم، ممن تقومُ عليه الساعة، فهم من المُنْظَرينَ بآجالِهم إليه. ولذلك قيل لإبليسَ: «إنك من المنظرين»، بمعنى: إنك مِمَّنْ لا يُميتُه الله إلَّا ذلكَ اليوم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ١٦﴾

يقول جَلَّ ثناؤه: قال إبليسُ لربه: «فبما أغويتني»، يقول: فَبِمَا أَضْلَلْتَنِي.

وفي هذا بيانٌ واضح على فسادِ ما يقولُ القَدَريةُ، من أنَّ كُلَّ مَنْ كفرَ أو آمنَ فبتفويضِ الله أسبابَ ذلكَ إليهِ، وأنَّ السببَ الذي به يصلُ المؤمنُ إلى الإيمان، هو السببُ الذي به يصلُ الكافرُ إلى الكفرِ. وذلك أنَّ ذلك لو كان كما قالوا: لكان الخبيثُ قد قال بقوله: «فبما أغويتني»، «فبما أصلحتني»، إذ كان سبب «الإغواء» هو سبب «الإصلاح»، وكان في إخبارِه عن الإغواءِ إخبارٌ عن الإصلاحِ، ولكنْ لما كان سبباهما مختلفين، وكان السببُ الذي به غوَى وهلك من عند الله. أضافَ ذلك إليه فقال: «فبما أغويتني».

وأما قوله: «لأقعُدَنَّ لهم صِراطَكَ المستقيم»، فإنه يقول: لأَجْلِسَنَّ لبني آدمَ «صِراطكَ المستقيم»، يعني: طريقكَ القويم، وذلك دِينُ الله الحق، وهو الإسلامُ وشرائعه. وإنما معنى الكلام: لأَصُدَّنَّ بني آدم عن عبادتكَ وطاعتكَ، ولأغوينَّهم كما أغويتني، ولأُضِلَّنَّهُمْ كما أضللتني.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ١٧﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: ثم لآتينَّهُمْ من جميعِ وجوهِ الحقِّ والباطلِ، فأَصُدُّهُمْ عن الحَقِّ، وأحسِّنَ لهم الباطلَ. وذلك أنَّ ذلك عَقِيب قوله: «لأقعدن لهم صراطك المستقيم»، فأخبر أنه يِقعدُ لبني آدمَ على الطريقِ الذي أمرَهم اللهُ أنْ يسلكُوه، وهو ما وصفنا من دينِ الله دينِ الحق، فيأتيهم في ذلك من كُلِّ وجـوههِ، من الوجهِ الذي أمرهم اللهُ به، فيصدُّهم عنه، وذلك «مِنْ بين أيدِيهم وعن أيمانِهم» ـ ومن الوجهِ الذي نهاهم اللهُ عنه، فيزيّنه لهم ويَدْعُوهم إليه، وذلك «من خَلْفِهم وعن شمائلهم».

وأما قوله: «ولا تجدُ أكثرهم شاكرينَ». فإنه يقولُ: ولا تجدُ، ربِّ، أكثَرَ بني آدمَ شاكـرينَ لكَ نِعْمَتَكَ التي أنعمتَ عليهم، كَتَكْرِمَتِكَ أباهم آدم بما أكرمتَهُ به، من إسجادِكَ له ملائكتَكَ، وتفضيلكَ إياهُ عليَّ ـ و«شكرهم إياه»، طاعتُهم له بالإقرارِ بتوحيدِه، واتِّباعِ أمرِه ونهيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن إحلالهِ بالخبيثِ عدوِّ الله ما أُحَلَّ به من نِقْمَتِهِ ولعنتهِ، وطردِهِ إياهُ عن جنته، إذْ عَصَاهُ وخالَفَ أمره، وراجعه من الجـواب بما لم يكن له مراجعته به. يقول: قال اللهُ له عند ذلك: «اخرجْ منها»، أي من الجنة. «مذؤوماً مدحوراً»، يقول: مَعِيباً.

و«الذأم» العيبُ. يقال منه: «ذأمهُ يذأمه ذأماً فهو مذؤوم»، ويتركون الهمز فيقولون: «ذِمْته أُذِيمه ذَيْماً وذاماً»، و«الذأم» و«الذيم»، أبلغ في العيب من «الذمّ».

وأما «المدحور»، فهو المُقْصَى، يقال: «دَحَرَهُ يدحَرُه دَحْراً ودُحُوراً»، إذا أقصاهُ وأخرجَهُ، ومنه قولهم: «ادحَرْ عنكَ الشيطان»[1].

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ۝١٨﴾

وهذا قَسَمٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ. أقسم أنَّ مَنْ اتَّبَعَ من بني آدمَ عدوَّ الله إبليس وأطاعَهُ وصَدَّقَ ظَنَّهُ عليه، أنْ يملأ من جميعِهم ـ يعني: من كَفَرةِ بني آدم تُبَّاعِ إبليسَ، ومن إبليسَ وذريته ـ جهنم. فَرحمَ الله امرأً كَذَّبَ ظَنَّ عدوِّ اللهِ في نفسه، وخيَّبَ فيها أمله وأمنيته، ولم يمكِّن من طمعَ طمعٍ فيها عدوَّه، واستغشَّه ولم يستنصحه، فإنَّ الله تعالى ذِكْرُه إنما نَبَّهَ بهذه الآياتِ عبادَهُ على قِدَم عداوةِ عدوِّه وعدوهم إبليس لهم، وسالفِ ما سَلَفَ من حَسدِه لأبيهم، وبَغْيِهِ عليه وعليهم، وعَـرَّفَهُمْ مواقعَ نعمهِ عليهم قديماً في أنفسهم ووالدهم ليدَّبَـرُوا آياتـهِ، وليتذكَّرَ أولُو الألباب، فينزجروا عن طاعةِ عدوهِ وعدوهم إلى طاعتهِ ويُنيبوا إليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٩﴾

يقول الله تعالى ذِكْرُه: وقال الله لآدم: «يا آدمُ اسكُنْ أنتَ وزوجُكَ الجنةَ فكلا من حيث شئتما»، فأسكنَ جَلَّ ثناؤُهُ آدمَ وزوجتَهُ الجنةَ بعد أنْ أهبطَ منها إبليسَ وأخرجه منها، وأباح لهما أنْ يأكُلَا من ثمارِها من أيِّ مكانٍ شاءا منها،

---

(١) أنظر مجاز القرآن لأبي عبيدة: ٢١٢/١.

ونَهاهُمَا أنْ يَقْرَبَا ثمرَ شجرةٍ بعينها.

«فتكونا من الظالمين»، يقول: فتكونا مِمَّنْ خالفَ أمرَ رَبِّه، وفعلَ ما ليس له فعله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾

معنى الكلام: فجذبَ إبليسُ إلى آدم حوّاء، وألقى إليهما: ما نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عن أكلِ ثمرِ هذه الشجرة، إلا أنْ تكونا مَلَكين أو تكونا من الخالدين - ليبديَ لهما ما واراهُ الله عنهما من عوراتهما فَغَطَّاهُ بسترِهِ الذي ستره عليهما.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾

يقول جَلَّ ثناؤُه: وقال الشيطانُ لآدمَ وزوجتهِ حواء: ما نهاكُمَا رَبُّكُمَا عن هذه الشجرةِ أنْ تأكلا ثمرَها، إلا لئلا تكونا مَلَكَيْنِ.

وأسقطت «لا» من الكلام، لدلالةَ ما ظهرَ عليها، كما أسقطت من قوله: ﴿يُبَيِّنُ الله لَكُمْ أنْ تَضِلُّوا﴾، [النساء: ١٧٦]. والمعنى: يبينُ الله لكم أنْ لا تَضِلُّوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وقاسَمَهُمَا»، وحَلَفَ لهما، كما قال في موضع آخر: ﴿تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ﴾، [النمل: ٤٩]، بمعنى تحالفوا بالله.

وقوله: «إني لكما لمن الناصحين» أي: لَمِمَّنْ يَنصحُ لكما في مشورته لكما، وأمره إياكما بأكلِ ثمرِ الشجرةِ التي نُهيتُمَا عن أكلِ ثمرها، وفي خبري إياكما بما أخبركما به، من أنكما إنْ أكلتماه كنتما مَلَكَين أو كنتما من الخالدين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «فَدَلَّاهُما بغرور»، فَخَدَعهما بغرور.

«فلما ذاقا الشجرة»، يقول: فلما ذاقَ آدم وحواء ثمرَ الشجرةِ، يقول: طَعماهُ.

«بَدَتْ لهما سوآتهما»، يقول: انكشفتْ لهما سوآتُهمَا، لأنَّ الله أعراهما من الكسوةِ التي كان كساهُمَا قبلَ الذنب والخطيئةِ، فسلبهما ذلك بالخطيئةِ التي أخطآ والمعصيةِ التي ركبا. «وطَفِقَا يَخْصِفَانِ عليهما من ورق الجنة»، يقول: أقبلا وجعلا يشدَّانِ عليهما من ورقِ الجنة، ليواريا سوآتهما.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ونادى آدمَ وحواءَ ربُّهما: أَلَمْ أَنْهَكُمَا عن أكلِ ثمرةِ الشجرةِ التي أكَلْتُمَا ثمرها، وأُعْلِمْكُمَا أنَّ إبليسَ لكما عَدُوٌّ مبين ـ يقول: قد أبان عداوته لكما، بترك السجود لآدم حسداً وبغياً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

وهذا خبرٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ عن آدمَ وحواء فيما أجابَاهُ به، واعترافِهما على أنفسِهما بالذَّنْبِ، ومسألتِهِمَا إياهُ المغفرةَ منه والرحمة، خِلافَ جوابِ اللعينِ إبليس إياه.

ومعنى قوله: «قالا رَبَّنَا ظلمنا أنفسنا»، قال آدمُ وحواء لربهما: يا رَبَّنَا، فعلنا بأنفسنا من الإساءةِ إليها بمعصيتكَ وخِلافِ أمركَ، وبطاعتنا عَدُوَّنا وعدوّكَ فيما لم يكنْ لنا أنْ نُطيعه فيه، من أكلِ الشجرة التي نَهَيْتَنَا عن أَكْلِهَا. «وإن لم تغفر لنا»، يقول: وإنْ أنتَ لم تَسْتُرْ علينا ذَنْبَنَا فتغطيه علينا، وتترك فضيحتَنا به بعقوبتكَ إيَّانَا عليه. «وترحمنا»، بتعطُّفِكَ علينا، وتَرْكِكَ أَخْذَنَا به. «لنكونَنَّ من الخاسرين»، يعني: لنكونن من الهالكين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن فعله بإبليسَ وذُرِّيتهِ، وآدمَ وولده، والحية.

يقول تعالى ذِكْرُه لآدمَ وحواء وإبليس والحية: اهبطُوا من السماءِ إلى الأرض، بعضُكم لبعضٍ عدوٌّ.

وقوله: «ولكم في الأرض مستقر»، يقول: ولكم، يا آدمُ وحواء، وإبليس والحية ـ في الأرضِ قرارٌ تستقرونه، وفراشٌ تَمْتهدونَهُ.

وأما قوله: «ومتاع إلى حين»، فإنه يقول جَلَّ ثناؤُه: «ولكم فيها متاع»، تستمتعون به إلى انقطاعِ الدنيا، وذلك هو الحِينُ الذي ذكره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال الله للذين أَهبَطَهُمْ من سمواتِهِ إلى أرضه: «فيها تَحْيَوْنَ»، يقول: في الأرض تحيون، يقول: تكونونَ فيها أيامَ حياتِكم. «وفيها تموتون»، يقول: في الأرضِ تكونُ وفاتكم. «ومنها تُخْرَجُونَ»، يقول: ومن الأرضِ يُخرجِكم رَبُّكم ويحشركم إليه لبعثِ القيامةِ أحياء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ

يقول جَلَّ ثناؤُه للجَهَلَةِ من العربِ الذين كانوا يَتَعَرَّونَ للطوافِ، اتِّباعاً منهم أمرَ الشيطان، وتركاً منهم طاعة الله، فَعَرَّفَهُمْ انخداعَهُم بغرورِهِ لهم، حتى تَمكَّنَ منهم فَسَلَبهم من سترِ الله الذي أنعمَ به عليهم، حتى أبدى سوآتِهم وأظهرها من بعضِهم لبعضٍ، مع تَفَضُّلِ الله عليهم بتمكينهم مما يسترونها به، وأنه قد سار بهم سِيرتَهُ في أبويهم آدم وحواء اللذين دَلَّاهُما بغرورٍ حتى سَلَبَهُمَا سترَ الله الذي كان أنعمَ به عليهما حتى أبدى لهما سوآتِهما فَعَرَّاهُمَا منه: «يا بني آدمَ قد أنزلنا عليكم لباساً»، يعني بإنزاله عليهم ذلك، خَلْقَهُ لهم، ورِزْقَهُ إياهم - و«اللباس» ما يلبسونَ من الثياب. «يُواري سوآتكم»، يقول: يسترُ عوراتِكم عن أعينكم - وكَنَّى بـ«السوآت»، عن العورات.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرِيشًا﴾

و«الرياشُ»، في كلام العرب، الأثاثُ، وما ظهرَ من الثيابِ من المتاعِ مما يُلْبَسُ أو يُحْشى من فراشٍ أو دِثَار.

و«الريش» إنما هو المتاعُ والأموالُ عندهم. وربما استعملوه في الثيابِ والكسوة دونَ سائرِ المال. يقولون: «أعطاء سرجاً بريشه»، و«رحْلاً بريشه»، أي بكسوتِهِ وجهازه. ويقولون: «إنه لَحَسَنُ ريشِ الثيابِ»، وقد يستعمل «الرياش» في الخِصْبِ ورَفاهة العيش.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾

اختلفت القَرَأَةُ في قراءةِ ذلك.

فقرأته عامة قرأةِ المكيين والكوفيين والبصريين: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾، برفع «ولباس».

وقرأ ذلك عامة قَرَأَةِ المدينةِ: ﴿وَلِبَاسَ التَّقْوَى﴾، بنصب «اللباس»، وهي قراءة بعض قَرَأَةِ الكوفيين.

فتأويل ـ الكلام ـ إذا رفع «لباس التقوى» ـ: ولباس التقوى ذلك الذي قد عَلِمْتُموه، خيرٌ لكم يا بني آدم، من لباسِ الثياب التي تُواري سوآتكم، ومن الرياشِ التي أنزلناها إليكم، هكذا فالبَسُوه.

وأما تأويلُ مَنْ قرأه نصباً، فإنه: «يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً ولباس التقوى»، هذا الذي أنزلنا عليكم من اللباسِ الذي يواري سوآتكم والريش، ولباسُ التقوى خيرٌ لكم من التعرِّي والتَّجرُّدِ من الثيابِ في طوافكم بالبيتِ، فاتقوا الله والبسوا ما رَزَقكم الله من الرياشِ، ولا تطيعوا

الشيطانَ بالتجرد والتعرِّي من الثياب، فإنَّ ذلك سخريةٌ منه بكم وخدعةٌ، كما فعـلَ بأبويكم آدم وحواء، فَخَدَعَهُمَا حتى جَرَّدَهُمَا من لباسِ الله الذي كان ألبسهما بطاعتهما له، في أكلِ ما كان الله نهاهما عن أكلِهِ من ثمرِ الشجرةِ التي عصَياهُ بأكلها.

وهذه القراءةُ أوْلى القراءتين في ذلك عندي بالصواب، أعني نَصْبَ قوله: ﴿وَلِبَاسَ التَّقْوَى﴾، لصحة معناهُ في التأويل على ما بَيَّنتُ، وأنَّ الله إنما ابتدأ الخبرَ عن إنزالهِ اللباسَ الذي يواري سوآتنا والرياش، توبيخاً للمشركين الذين كانوا يتجرّدونَ في حالِ طوافِهم بالبيتِ، ويأمرهم بأخذِ ثيابهم والاستتار بها في كُلِّ حال، مع الإيمانِ به واتباع طاعته ـ ويعلمهم أنَّ كُلَّ ذلك خيرٌ من كلِّ ما هُمْ عليه مقيمون من كُفْرِهم بالله، وتَعَرِّيهم، لا أنه أعلمهم أنَّ بعضَ ما أنزلَ إليهم خيرٌ من بعض.

ومما يدلُّ على صحةِ ما قلنا في ذلك، الآياتُ التي بعد هذه الآية، وذلك قوله: «يا بني آدم لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشيطانُ كما أخرجَ أبويكم من الجنةِ ينزعُ عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما» وما بعدَ ذلك من الآياتِ إلى قوله: «وأنْ تقولوا على اللهِ ما لا تعلمون»، فإنه جَلَّ ثناؤُهُ يأمرُ في كل ذلك بأخذِ الزينةِ من الثيابِ، واستعمالِ اللباسِ، وتركِ التجرُّدِ والتعرِّي، وبالإيمان به، واتباعِ أمرِه والعملِ بطاعته، وينهى عن الشركِ به واتباعِ أمرِ الشيطان، مؤكِّداً في كُلِّ ذلك ما قد أجْمَلَهُ في قوله: «يا بني آدمَ قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً ولباسَ التقوى ذلك خير».

وأوْلى الأقوالِ بالصحـة في تأويلِ قولـه: «ولباس التقوى»، استشعار النفوسِ تقوى الله، في الانتهاءِ عما نهى الله عنه من معاصيه، والعمل بما أمرَ به من طاعته، وذلك يجمعُ الإيمانَ، والعملَ الصالح، والحياءَ، وخشيةَ الله، والسمتَ الحسن. لأنَّ مَن اتَّقى اللهَ كان به مؤمناً، وبما أمره به عاملاً، ومنه

خائفاً، وله مراقباً، ومن أنْ يُرَى عند ما يكرهه من عباده مُسْتَحْيِياً. ومَنْ كان كذلك ظهرتْ آثارُ الخيرِ فيه، فَحَسُنَ سَمْته وهَدْيه، ورُئِيَتْ عليه بهجةُ الإيمانِ ونوره.

وإنما قلنا عَنَى بـ«لباس التقوى»، استشعارَ النفسِ والقلبِ ذلك - لأنَّ «اللباس»، إنما هو ادِّراعُ ما يلبس، واجتياب(١) ما يكتسى، أو تغطية بدنه أو بعضه به. فكل مَنِ ادَّرع شيئاً واجتابهُ حتى يُرَى عَيْنُه أو أثرُه عليه، فهو له «لابس». ولذلك جعلَ جَلَّ ثناؤُهُ الرجالَ للنساءِ لباساً، وهُنَّ لهم لباساً، وجعل الليل لعباده لباساً(٢).

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ٢٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ذلك الذي ذكرتُ لكم أنِّي أنزلتُه إليكم، أيها الناسُ، من اللباسِ والرِّياشِ، من حججِ الله وأدلته التي يعلمُ بها مَنْ كفرَ صحةَ توحيد الله، وخطأَ ما هُمْ عليه مقيمون من الضلالةِ. «لعلهم يذكرون»، يقول جَلَّ ثناؤُه: جعلتُ ذلك لهم دليلاً على ما وصفتُ، ليذَّكَّروا فيعتبروا ويُنِيبُوا إلى الحَقِّ وتركِ الباطلِ، رحمةً مني بعبادي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾

---

(١) اجتاب الثوب اجتياباً: لَبِسَهُ.

(٢) في قوله تعالى: ﴿هُنَّ لباس لكم وأنتم لباسٌ لهن﴾ [البقرة: ١٨٧]، وفي قوله سبحانه: ﴿وجعلنا الليل لباساً﴾ [النبأ: ١٠].

يقول تعالى ذِكْرُه: يا بني آدمَ: لا يَخْدَعَنَّكُمُ الشيطانُ فَيُبْدِي سوآتكم للناسِ بطاعتكم إياهُ عند اختبارِه لكم، كما فعل بأبويكم آدم وحواء عند اختبارِه إياهما فأطاعاهُ وعَصَيَا رَبَّهُمَا، فأخرجهما بما سَبَّبَ لهما من مَكْرِه وخدعِهِ، من الجنـةِ، ونـزعَ عنهما ما كان ألبسَهُمَا من اللباسِ، لِيُرِيَهُمَا سوآتِهما بكشف عورتهما، وإظهارِها لأعينهما بعد أنْ كانت مستترةً.

وقد اختلف أهلُ التأويلُ في صفة «اللباس» الذي أخبر اللهُ جَلَّ ثناؤهُ أنه نزعه عن أبَوَيْنَا، وما كانَ.

فقال بعضهم: كان ذلك أظفاراً.

وقال آخرون: كان لباسهما نوراً.

وقال آخرون: إنما عَنَى اللهُ بقوله: «ينزعُ عنهما لباسهما»، يَسْلُبُهُمَا تقوى الله.

والصوابُ من القولِ في تأويلِ ذلك عندي أن يقالَ: إنَّ الله تعالى حَذَّرَ عبادَهُ أنْ يفتنهم الشيطانُ كما فتنَ أبويهم آدم وحواء، وأنْ يُجَرِّدهم من لباسِ الله الذي أنزله إليهم، كما نزعَ عن أبويهم لباسهما. «اللباس» المطلق من الكلامِ بغيرِ إضافةٍ إلى شيءٍ في متعارف الناس، وهو ما اجتابَ فيه اللابسُ من انواع الكُسى، أو غَطَّى بدنه أو بعضه.

وإذْ كانَ ذلك كذلك، فالحق أنْ يقالَ: إنَّ الذي أخبر اللهُ عن آدمَ وحواء من لباسهما الذي نزعه عنهما الشيطان، هو بعض ما كانا يُوارِيانِ به أبدانَهُمَا وعورَتهما.

وقد يجوز أن يكون ذلك كان ظفراً ـ ويجوز أنْ يكونَ كان ذلك نوراً ـ ويجوز أن يكون غير ذلك ـ ولا خبرَ عندنا بأيِّ ذلك تثبتُ به الحجةُ، فلا قولَ في ذلك أصوب من أن يقالَ كما قالَ جَلَّ ثناؤهُ: «ينزعُ عنهما لباسهما».

وأضاف جَلَّ ثناؤُهُ إلى إبليسَ إخراجَ آدمَ وحواء من الجنة، ونزعَ ما كانَ عليهما من اللباسِ عنهما، وإنْ كان اللهُ جَلَّ ثناؤُهُ هو الفاعلُ ذلك بهما عقوبةً على معصيتهما إياه، إذْ كان الذي كان منهما في ذلك عن تَسْنيةِ[1] ذلك لهما بمكرهِ وخداعِهِ، فأُضيفَ إليه أحياناً بذلك المعنى، وإلى الله أحياناً بفعلهِ ذلكَ بهما.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بذلك: إنَّ الشيطانَ يراكم هو ـ و«الهاء» في «إنه» عائدةٌ على الشيطان ـ و«قبيله»، يعني: وصِنْفُه وجنسهُ الذي هُوَ منه واحدٌ جَمْعه قبل، وهم الجن.

وقوله: «من حيثُ لا ترونهم» يقول: من حيث لا ترونَ أنتم، أيها الناسُ، الشيطانَ وقبيله. «إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون»، يقول: جعلنا الشياطين نُصَراءَ الكفارِ الذين لا يُوَحِّدونَ الله ولا يُصَدِّقُونَ رُسُلَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾

قال: كان نساؤُهم يَطُفْنَ بالبيتِ عُراةً، فتلك الفاحشةُ التي وجدوا عليها آباءهم: «قُلْ إنَّ الله لا يأمرُ بالفحشاء»، الآية.

---

(١) سَنَى له الأمرَ: سَهَّلَهُ ويَسَّرَهُ وفتحه.

(يعني): وإذا فعلَ الذين لا يؤمنونَ بالله، الذين جعلَ اللهُ الشياطينَ لهم أولياءَ، قبيحاً من الفعل، وهو «الفاحشة»، وذلك تَعَرِّيهم للطوافِ بالبيتِ وتجردهم له، فعُذِلُوا على ما أتوا من قبيحِ فِعْلِهم وعُوتبوا عليه، قالوا: «وجدنا على مِثْلِ ما نفعلُ آباءَنا، فنحنُ نفعلُ مثلَ ما كانوا يفعلون، ونقتدي بهديِهم، ونستنُّ بسنتهم، والله أمرنا به، فنحن نتبعُ أمرَهُ فيه».

يقول الله جَلَّ ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ»، يا محمدُ، لهم: «إنَّ الله لا يأمرُ بالفحشاء»، يقول: لا يأمرُ خَلْقَهُ بقبائحِ الأفعالِ ومساويها. «أتقولون»، أيها الناسُ، «على الله ما لا تعلمون»، يقول: أَتروُونَ على اللهِ أنه أمَرَكُمْ بالتعرِّي والتجردِ من الثيابِ واللباسِ للطوافِ، وأنتم لا تعلمونَ أنه أمركم بذلك؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه: قُلْ، يا محمدُ، لهؤلاء الذين يزعمونَ أنَّ الله أمرهم بالفحشاءِ كَذِباً على الله: ما أمرَ ربي بما تقولونَ، بَلْ «أمرَ ربي بالقسط»، يعني: بالعدل.

وأما قوله: «وأقيموا وُجوهَكم عند كُلِّ مسجد»، فإنَّ أهلَ التأويلِ اختلفوا في تأويله.

فقال بعضهم: معناه: وَجِّهُوا وجوهَكُمْ حيثُ كنتم في الصلاةِ إلى الكعبةِ.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك: واجعلوا سُجودَكُمْ للهِ خالصاً، دونَ ما سواه من الآلهةِ والأنداد.

وأَوْلى هذين التأويلين بتأويلِ الآية: أنَّ القومَ أُمِرُوا أنْ يتوجَّهُوا بصلاتِهم إلى رَبِّهم، لا إلى ما سواهُ من الأوثانِ والأصنام، وأنْ يجعلوا دعاءهم لله خالصاً، لا مُكاءً ولا تصديةً.

وإنما قلنا ذلك أوْلى التأويلين بالآية، لأنَّ الله إنما خاطبَ بهذه الآية قوماً من مشركي العرب، لم يكونوا أهلَ كنائسَ وبِيَعٍ، وإنما كانت الكنائسُ والبِيَعُ لأهلِ الكتابين. فغير معقولٍ أنْ يقالَ لمن لا يصلي في كنيسةٍ ولا بِيعة: «وجِّهْ وجهكَ إلى الكعبةِ في كنيسةٍ أو بِيعةٍ».

وأما قوله: «وادْعُوه مخلصينَ له الدِّينَ»، فإنه يقول: واعملوا لربِّكُمْ مخلصينَ له الدينَ والطاعةَ، لا تخلطوا ذلك بشرك، ولا تجعلوا في شيءٍ مما تعملون له شريكاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۝٢٩ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَٰلَةُ﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «كما بدأكم تعودون».

فقال بعضهم: تأويلُه: كما بَدَأكم أشقياءَ وسُعَداء، كذلك تُبعثونَ يومَ القيامة.

وقال آخرون: معنى ذلك: كما خَلَقكم ولم تكونوا شيئاً، تَعودونَ بعد الفناء.

وأوْلى الأقوالِ في تأويل ذلك بالصواب، القولُ الذي قاله مَنْ قال: معناه: كما بَدَأكم الله خَلْقاً بعد أنْ لم تكونوا شيئاً، تعودون بعد فنائِكم خَلْقاً مثله، يحشركم إلى يومِ القيامة - لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه: أَمَر نبيه ﷺ أنْ يُعْلِمَ

بما في هذه الآيةِ قوماً مشركين أهلَ جاهلية، لا يؤمنونَ بالمعاد، ولا يُصَدِّقونَ بالقيامة. فأمره أنْ يدعوَهم إلى الإقرارِ بأنَّ الله باعثهم يومَ القيامة، ومثيبُ مَنْ أطاعه، ومعاقبُ مَنْ عصاه. فقال له: قُلْ لهم: أمرَ ربي بالقسطِ، وأنْ أقيموا وجوهَكُمْ عندَ كُلِّ مسجد، وأنِ ادعوهُ مخلصينَ له الدين، وأنْ أقِرُّوا بأنْ كما بَدَأكم تعودونَ ـ فتركَ ذِكْرَ «وأنْ أقِرُّوا بأنْ»، كما تركَ ذِكْرَ «أن» مع «أقيموا»، إذْ كان فيما ذكر دلالة على ما حذف منه.

وإذ كان ذلك كذلك، فلا وجهَ لأنْ يؤمَرَ بدعاءِ مَنْ كان جاحداً النشورَ بعد المماتِ، إلى الإقرارِ بالصفةِ التي عليها يُنْشَر من نُشِر، وإنما يُؤمَرُ بالدعاءِ إلى ذلك مَنْ كان بالبعثِ مُصَدِّقاً، فأما مَنْ كان له جاحداً، فإنما يُدْعَى إلى الإقرارِ به، ثم يُعَرَّفُ كيف شرائط البعث.

ثم ابتدأ الخبر جَلَّ ثناؤُهُ عما سَبَقَ من عِلْمِه في خَلْقِه، وجرى به فيهم قضاؤُه، فقال: هَدَى الله منهم فريقاً فوفَّقهم لصالحِ الأعمالِ فهم مهتدون، وحقَّ على فريقٍ منهم الضلالة عن الهدى والرشاد، باتخاذهم الشيطانَ من دونِ الله وليًّا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝٣٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إن الفريقَ الذي حَقَّ عليهم الضلالةُ، إنما ضَلُّوا عن سبيلِ الله وجارُوا عن قَصْدِ المحجة، باتخاذِهم الشياطينَ نُصراءَ من دون الله، وظُهراءَ، جهلاً منهم بخطأ ما هُمْ عليه من ذلك، بل فعلوا ذلك وهم يظنون أنهم على هُدى وحَقٍّ، وأنَّ الصوابَ ما أتوه وركبوا.

وهذا من أبْيَنِ الدلالةِ على خطأ قولِ مَنْ زعمَ أنَّ الله لا يُعذِّبُ أحداً

على معصيةٍ ركبهـا أو ضلالـةٍ اعتقدها، إلا أنْ يأتيها بعد عِلْمٍ منه بصوابِ وجهها، فيركبها عناداً منه لربِّه فيها. لأنَّ ذلك لو كان كذلك، لم يَكُنْ بين فريقِ الضلالة الذي ضَلَّ وهو يحسَبُ أنه هادٍ وفريقِ الهدى، فَرْقٌ. وقد فرَّق الله بين أسمائِهما وأحكامهما في هذه الآية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ٣١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لهؤلاء الذين يَتَعَرَّوْنَ عند طوافِهم ببيتِه الحرام، ويُبْدُونَ عوراتهم هنالك من مشركي العربِ، والمُحَرِّمينَ منهم أكلَ ما لم يُحَرِّمْهُ الله عليهم من حلالِ رزقِهِ، تبرُّراً عند نفسه لربه: «يا بني آدمَ خُذوا زينتكم»، من الكسـاءِ واللباس. «عند كل مسجدٍ وكُلوا»، من طيباتِ ما رَزَقْتُكُم، وحَلَّلْته لكم. «واشربوا»، من حلالِ الأشربةِ، ولا تُحَرِّمُوا إلا ما حرمتُ عليكم في كتابي أو على لسانِ رسولي محمد ﷺ.

وقوله: «إنه لا يحب المسرفين»، يقول: إنَّ الله لا يحب المُتَعدِّينَ حَدَّهُ في حلالٍ أو حرام، الغالينَ فيما أحلَّ اللهُ أو حَرَّمَ، بإحلالِ الحرامِ وبتحريمِ الحلال، ولكنه يحبُّ أنْ يُحَلَّلَ ما أَحَلَّ ويُحَرَّمَ ما حَرَّمَ، وذلك العدلُ الذي أمرَ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ، يا محمدُ، لهؤلاء الجَهَلَةِ من العربِ الذين يَتعرَّوْنَ عند طوافِهم بالبيتِ، ويُحَرِّمُونَ على أنفسهم ما أحللتُ

لهم من طيباتِ الرزق: مَنْ حرَّمَ، أيها القومُ، عليكم زينةَ اللهِ التي خَلَقها لعبادِه أنْ تتـزيَّنـوا بهـا وتتجمَّلُوا بلبـاسها، والحلال من رزقِ الله الذي رزقَ خَلْقَهُ لمطاعمهم ومشاربهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ، يا محمدُ ـ لهؤلاء الذين أمرتُكَ أنْ تقولَ لهم: «مَنْ حَرَّمَ زينةَ الله التي أخرجَ لعبادِه والطيبات من الرزق»، إذْ عَيُّوا بالجوابِ، فلم يَدْرُوا ما يُجيبونَكَ ـ: زينة الله التي أخرجَ لعبادِه وطيبات رزقه، للذينَ صَدَّقُوا الله ورسولَهُ، واتَّبَعُوا ما أُنْزِلَ إليك من رَبِّكَ، في الدنيا، وقد شَرَكَهُمْ في ذلك فيها مَنْ كَفَرَ بالله ورسوله وخالف أمرَ ربه، وهي للذين آمنوا بالله ورسوله خالصة يومَ القيامة، لا يشركهم في ذلك يومئذٍ أحدٌ كَفَرَ بالله ورسولِه وخالفَ أمرَ ربه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: كما بينتُ لكم الواجبَ عليكم في اللباسِ والزينةِ، والحلالِ من المطاعم والمشاربِ والحرامِ منها، وميزتُ بين ذلك لكم، أيها الناسُ، كذلك أبيِّنُ جميعَ أدلتي وحججي، وأعلامَ حلالي وحرامي وأحكامي، لقومٍ يعلمون ما يُبَيَّنُ لهم، ويفقهون ما يُمَيَّزُ لهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ: قُلْ، يا محمدُ، لهؤلاءِ المشركينَ الذين يتجرّدونَ من ثيابهم للطوافِ بالبيت، ويحرمون أكلَ طيباتِ ما أحلَّ اللهُ لهم من رِزْقه: أيها القومُ، إنَّ الله لم يُحَرِّمْ ما تحرمونه، بل أحلَّ ذلك لعبادِه المؤمنينَ وطيَّبه لهم، وإنما حَرَّمَ رَبِّيَ القبائحَ من الأشياء ـ وهي «الفواحش» «ما ظهرَ منها»، فكان علانيةً. «وما بطن»، منها فكان سِرًّا في خفاء.

وأما «الإثم»، فإنه المعصية. «والبغي»، الاستطالة على الناس.

يقول تعالى ذِكْرُه: إنما حَرَّمَ ربي الفواحشَ مع الإثم والبغي على الناس.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

يقول جَلَّ ثناؤُه: إنما حَرَّمَ ربي الفواحشَ والشركَ به، أنْ تعبدوا مع اللهِ إلهاً غيره. «ما لم يُنَزِّلْ به سلطاناً»، يقول: حَرَّمَ رَبُّكم عليكم أنْ تجعلوا معه في عبادته شِرْكاً لشيءٍ لم يجعلْ لكم في إشراكِكم إياهُ في عبادته حجةً ولا برهاناً ـ وهو «السلطان». «وأنْ تقولوا على الله ما لا تعلمون»، يقول: وأنْ تقولوا إنَّ اللهَ أمركم بالتعرِّي والتجرُّدِ للطوافِ بالبيت، وحَرَّمَ عليكم أكلَ هذه الأنعامِ التي حَرَّمْتُموها وسيَّبْتُموها وجعلتموها وصائلَ وحوامي، وغير ذلك مما لا تعلمون أنَّ الله حَرَّمه، أو أمرَ به، أو أباحَهُ، فَتُضِيفُوا إلى الله تحريمه وحَظْره والأمرَ به، فإنَّ ذلك هو الذي حَرَّمه اللهُ عليكم دونَ ما تزعمون أنَّ الله حرمه، أو تقولون إنَّ الله أمركم به، جهلاً منكم بحقيقةِ ما تقولون وتضيفونه إلى الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: تهدُّداً للمشركينَ الذين أخبرَ جَلَّ ثناؤُهُ عنهم أنهم كانوا إذا فعلوا فاحشةً قالوا: «وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها». ووعيداً منه لهم على كَذِبهم عليه، وعلى إصرارِهم على الشركِ به والمقامِ على كُفْرِهم - ومُذَكِّراً لهم ما أَحَلَّ بأمثالهم من الأممِ الذين كانوا قبلهم: «ولِكُلِّ أمةٍ أجل»، يقول: ولكل جماعةٍ اجتمعت على تكذيبِ رُسلِ الله، وردِّ نصائِحهم، والشركِ بالله، مع متابعةِ رَبِّهم حججه عليهم. «أجلٌ»، يعني: وقتٌ لحلولِ العقوباتِ بساحتهم، ونزولِ المَثُلاتِ بهم على شِرْكهم. «فإذا جاء أجلهم»، يقول: فإذا جاء الوقتُ الذي وَقَّتَهُ الله لهلاكِهم، وحلول العقابِ بهم. «لا يستأخرونَ ساعةً ولا يستقدمون»، يقول: لا يتأخرونَ بالبقاء في الدنيا، ولا يُمَتَّعونَ بالحياةِ فيها عن وقتِ هلاكهم وحينَ حُلولِ أجلِ فنائهم، ساعة من ساعاتِ الزمان. «ولا يستقدمون»، يقول: ولا يَتقدَّمُونَ بذلك أيضاً عن الوقتِ الذي جعلَهُ الله لهم وقتاً للهلاك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مُعَرِّفاً خَلْقَهُ ما أَعَدَّ لحزبِهِ وأهلِ طاعتهِ والإيمانِ به وبرسوله، وما أَعَدَّ لحزبِ الشيطانِ وأوليائه والكافرينَ به وبرسله: «يا بني آدم إمَّا يأتينكم رُسُلٌ منكم»، يقول: إنْ يَجِئْكُمْ رُسُلِي الذين أرسلهم إليكم بدعائِكم إلى طاعتي، والانتهاء إلى أمري ونهيي. «منكم»، يعني: من أنفسِكم

ومن عشائركم وقبائلكم. «يَقُصُّونَ عليكم آياتي»، يقول: يتلونَ عليكم آياتِ كتابي، ويُعَرِّفُونكم أدلتي وأعلامي على صِدْقِ ما جاؤوكم به من عندي، وحقيقة ما دعوكم إليه من توحيدي. «فمن اتقىَ وأصلح»، يقول: فَمَنْ آمَنَ منكم بما أتـاهُ به رُسلي ممـا قص عليه من آياتي وصـدَّقَ، واتقى اللهَ فَخـافَـهُ بالعملِ بما أمره به والانتهاء عما نهاهُ عنه على لسانِ رسوله. «وأصلحَ»، يقول: وأصلحَ أعماله التي كان لهـا مفسـداً قبل ذلك من معاصي الله بالتحوُّبِ منها. «فلا خوفٌ عليهم»، يقول: فلا خوفٌ عليهم يومَ القيامةِ من عقابِ الله إذا وردوا عليه. «ولا هم يحزنون»، على ما فَاتَهُمْ من دُنياهم التي تركوها، وشهواتهم التي تَجَنَّبوها، اتباعاً منهم لنهي الله عنها، إذا عاينوا من كرامةِ الله ما عاينوا هنالك.

فإنْ قال قائل: ما جوابُ قوله: «إما يأتينكم رُسُلٌ منكم»؟

قيل: قد اختلف أهلُ العربية في ذلك.

فقال بعضُهم في ذلك: الجوابُ مضمرٌ، يدلُّ عليه ما ظهرَ من الكلام، وذلك قوله: «فمن اتقى وأصلح». وذلك لأنه حين قال: «فمن اتقى وأصلح»، كأنه قال: فأطيعوهم.

وقال آخرون منهم: الجواب: «فمن اتقى»، لأنَّ معناه: فمن اتقى منكم وأصلحَ. قال: ويدل على أنَّ ذلك كذلك، تبعيضُه الكلامَ. فكان في التبعيض اكتفاء من ذكر «منكم».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ٣٦﴾

يقــول جَلَّ ثنـاؤه: وأمـا مَنْ كَذَّبَ بآيات[1] رسلي التي أرسلتهـا إليه، وجَحَـدَ

(١) في المطبوع: «بإيتاء» كأنه من غلط الطبع.

توحيدي، وكفر بما جاء به رُسُلي، واستكبرَ عن تصديقِ حُجَجي وأدلّتي. «فأولئكَ أصحابُ النار هم فيها خالدون»، يقول: هم في نار جهنم ماكثونَ لا يخرجون منها أبداً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فَمَنْ أخطأُ فِعلاً، وأجهلُ قولاً، وأبعدُ ذهاباً عن الحَقِّ والصواب. «مِمَّنِ افترى على الله كذباً»، يقول: ممن اختلقَ على الله زُوراً من القولِ، فقالَ إذا فعلَ فاحشةً: إنَّ الله أمَرَنا بها. «أو كَذَّبَ بآياته»، يقول: أو كَذَّبَ بأدلتهِ وأعلامه الدالَّةِ على وحدانيتهِ ونبوّةِ أنبيائه، فجحدَ حقيقتَها ودافعَ صِحَّتَها. «أولئك»، يقول: مَن فعل ذلك، فافترى على الله الكذبَ وكَذَّبَ بآياتهِ. «أولئك ينالُهم نصيبُهم من الكتابِ»، يقول: : يَصِلُ إليهم حَظُّهم مما كتبَ اللهُ لهم في اللوحِ المحفوظ.

ثم اختلف أهلُ التأويل في صفة ذلك «النصيب»، الذي لهم في «الكتاب»، وما هو؟

فقال بعضُهم: هو عذابُ الله الذي أعدَّهُ لأهلِ الكفرِ به.

وقال آخرون: معنى ذلك: أولئك يَنالُهم نصيبُهم مما سَبَقَ لهم من الشقاءِ والسعادةِ.

وقال آخرون: معنى ذلك، أولئك ينالهم نصيبُهم من كتابِهم الذي كتب لهم أو عليهم، بأعمالِهم التي عَمِلُوها في الدنيا من خيرٍ وشر.

وقال آخرون: معنى ذلك: ينالهم نصيبهم مما وُعِدُوا في الكتابِ من خيرٍ أو شرّ.

وقال آخرون: معنى ذلك: أولئك ينالهم نصيبهم من الكتابِ الذي كتبه اللهُ على مَنِ افترى عليه.

وقال آخرون: معنى ذلك: أولئك ينالهم نصيبهم مما كتبَ لهم من الرِّزْقِ والعمر والعمل.

وأَوْلى هذه الأقوالِ عندي بالصوابِ، قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: أولئك ينالُهم نصيبُهم من الكتابِ، مما كتب لهم من خيرٍ وشرٍ في الدنيا، ورزقٍ وعمل وأجل. وذلك أنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ أتبع ذلك قوله: «حتى إذا جاءتهم رُسُلنا يَتَوفَّوْنَهُمْ قالوا أينَ ما كنتم تَدْعُونَ من دون الله»، فأبان بإتباعه ذلك قولَه: «أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب»، أنَّ الذي ينالهم من ذلك إنما هو ما كانَ مقضيًّا عليهم في الدنيا أنْ ينالهم، لأنه قد أخبر أنَّ ذلك ينالهم إلى وقتِ مجيئِهم رُسُلَهُ لتقبضَ أرواحَهُمْ. ولو كان ذلك نصيبهم من الكتاب، أو مما قد أعدَّ لهم في الآخرة، لم يكن محدوداً بأنه ينالهم إلى مجيء رُسُلِ الله لوفاتهم، لأنَّ رُسُلَ الله لا تجيئهم للوفاةِ في الآخرة، وأنَّ عذابهم في الآخرة لا آخرَ له ولا انقضاء، فإنَّ الله قد قضى عليهم بالخلودِ فيه. فَبَيِّنٌ بذلك أنَّ معناه ما اخترنا من القولِ فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ٣٧﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «حتى إذا جاءتهم رسلنا»، إلى أنْ جاءتهم رسلنا. يقول جَلَّ ثناؤُهُ: وهؤلاء الذين افتروا على الله الكذبَ، أو كَذَّبُوا بآياتِ ربِّهم، ينالهم حظوظهم التي كتبَ الله لهم، وسَبَقَ في عِلْمِه لهم من رزقٍ وعملٍ وأجل

وخيرٍ وشرٍ في الدنيا، إلى أنْ تأتيهم رُسُلُنَا لقبضِ أرواحهم. فإذا جاءتهم رسلنا، يعني مَلَك الموت وجُنْده. «يَتوفَّونَهم»، يقول: يستوفونَ عَدَدهم من الدنيا إلى الآخرة. «قالوا أين ما كنتم تَدْعُونَ من دون الله»، يقول: قالت الرسلُ: أين الذين كنتم تَدْعُونَهُمْ أولياءَ من دونِ الله وتعبدونهم، لا يدفعونَ عنكم ما قد جاءكم من أمرِ الله الذي هو خالقكم وخالقهم، وما قد نزلَ بساحتِكم من عظيمِ البلاء؟ وهلا يُغِيثونَكُمْ من كربِ ما أنتم فيه فينقذونكم منه؟ فأجابهم الأشقياءُ فقالوا: ضَلَّ عنا أولياؤنا الذين كنا ندعو من دونِ الله. يعني بقوله: «ضلوا»، جَارُوا وأخذوا غيرَ طريقنا، وتركونا عند حاجتنا إليهم فلم ينفعونا. يقولُ الله جَلَّ ثناؤُهُ: وشهدَ القومُ حينئذٍ على أنفسهم أنهم كانوا كافرينَ بالله، جاحدينَ وحدانيتَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾

وهذا خبرٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ عن قِيْلِهِ لهؤلاء المفترينَ عليه، المُكَذِّبينَ آياتهِ يومَ القيامة. يقول الله تعالى ذِكْرُه، قال لهم حين وَرَدُوا عليه يومَ القيامة، ادخلوا، أيها المفترونَ على رَبِّكم، المُكَذِّبُونَ رُسُلَهُ، في جماعاتٍ من ضُرَبائكم. «قد خَلَتْ من قَبْلِكم»، يقول: قد سَلَفَتْ من قبلكم «من الجِنِّ والإنس في النار»، ومعنى ذلك: ادخلوا في أمم هي في النار، قد خَلَتْ من قبلكم من الجِنِّ والإنس ـ وإنما يعني بـ«الأمم»، الأحزابَ وأهلَ المللِ الكافرةِ. «كلما دخلت أمةٌ لَعَنَتْ أُختها»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: كلما دخلت النارَ جماعةٌ من أهلِ مِلَّةٍ. «لعنت أختها»، يقول: شتمت الجماعةَ الأخرى من أهلِ ملتها، تَبَرِّياً منها.

وإنما عنى بـ«الأخت»، الأُخُوَّةَ في الدِّينِ والملة، وقيل: «أُختها»، ولم

يقل: «أخاها»، لأنه عَنَى بها «أمة» وجماعة أخرى، كأنه قيل: كلما دخلتْ أمةٌ لعنتْ أمةً أخرى من أهلِ ملتها ودينها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: حتى إذا تداركتِ الأممُ في النـارِ جميعاً، يعني اجتمعت فيها.

يقول: اجتمع فيها الأَوَّلونَ من أهلِ المللِ الكافرةِ والآخِرون منهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ٣٨﴾

وهذا خبرٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ عن محاورةِ الأحزابِ من أهلِ الملل الكافرة في النار يوم القيامة. يقول الله تعالى ذِكْرُه: فإذا اجتمع أهلُ الملل الكافرةِ في النار فادَّاركُوا، قالت أخرى أهلِ كُلِّ ملةٍ دخلت النار ـ الذين كانوا في الدنيا بعد أُولى منهم تَقَدَّمتها وكانتْ لها سَلَفاً وإماماً في الضلالة والكفر ـ لأُولاَهَا الذين كانوا قَبْلَهُمْ في الدنيا: رَبَّنَا هؤلاء أَضَلُّونا عن سبيلكَ، ودعونا إلى عبادةِ غيركَ، وزَيَّنُوا لنا طاعةَ الشيطان، فآتِهِم اليومَ من عذابكَ الضِّعْفَ على عذابنا.

وأما قوله: «قال لِكُلٍّ ضِعفٌ ولكن لا تعلمون»، فإنه خبرٌ من الله عن جوابه لهم. يقول: قال الله للذين يَدْعُونه فيقولون: «رَبَّنا هؤلاء أَضَلُّونا فآتِهم عذابـاً ضِعْفـاً من النـار»ـ: لِكُلِّكُم، أَوَّلكم وآخـركم، وتـابعوكم ومُتَّبَعوكم ـ «ضِعْفٌ»، يقول: مكرر عليه العذاب.

وقوله: «ولكن لا تعلمون»، يقول: ولكنكم، يا معشرَ أهلِ النار، لا تعلمونَ ما قَدْرُ ما أعدَّ الله لكم من العذابِ، فلذلك تسأل الضِّعْفَ منه الأمةُ الكافرةُ الأخرى لأُخْتِها الأولى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾

يقول جَلَّ ثناؤه: وقالتْ أُولى كُلِّ أمةٍ ومِلَّةٍ سبقتْ في الدنيا، لأُخْرَاها الـذين جاؤوا من بَعْدِهم، وحَدَثوا بعد زمانهم فيها، فسلكُوا سبيلَهم واسْتَنُّوا سُنَّتَهم: «فما كانَ لكم علينا من فَضْلٍ»، وقد علمتم ما حَلَّ بنا من عقوبةِ الله جَلَّ ثناؤُهُ بمعصيتنا إياهُ وكُفْرِنَا بآياتهِ، بعدما جاءتنا وجاءتكم بذلك الرسلُ والنُّذُرُ، فهل أَنَبْتُمْ إلى طاعةِ الله، وارتدعتم عن غوايتكم وضلالتكم؟ فانقضتْ حُجَّةُ القوم وخُصِمُوا ولم يُطِيقُوا جواباً بأنْ يقولوا: «فُضِّلْنَا عليكم إذ اعتبرنا بكم فآمنا بالله وصَدَّقْنَا رسله»، قال الله لجميعهم: فذوقوا جميعكم، أيها الكَفَرةُ، عذابَ جهنم، بما كنتم في الدنيا تكسبونَ من الآثامِ والمعاصي، وتَجترحونَ من الذنوبِ والإجرام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين كذبوا بحججنا وأدلَّتنا فلم يُصَدِّقُوا بها، ولم يتبعوا رسلنا. «واستكبروا عنها»، يقول: وتكبروا عن التصديقِ بها وأَنِفُوا من اتِّبـاعِهـا والانقيادِ لهـا تَكَبُّـراً. «لا تُفَتَّـحُ لهم»، لأرواحِهم إذا خَرجتْ من

أجسادِهم. «أبوابُ السماء»، ولا يصعدُ لهم في حياتهم إلى الله قولٌ ولا عملٌ، لأنَّ أعمالَهم خبيثةٌ، وإنما يُرْفَعُ الكَلِمُ الطيبُ والعملُ الصالح، كما قال جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٤٠﴾

يقول جَلَّ ثناؤه: ولا يدخل هؤلاء الذين كَذَّبُوا بآياتنا واستكبروا عنها، الجنةَ التي أعَدَّها الله لأوليائهِ المؤمنينَ أبداً، كما لا يلجُ الجملُ في سَمِّ الخِياطِ أبداً، وذلك ثَقب الإبرة.

«وكذلك نَجْزي المجرمينَ»، يقول: وكذلك نُثِيبُ الذين أجرَمُوا في الدنيا ما استحقُّوا به من الله العذابَ الأليمَ في الآخرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤١﴾

يقول جَلَّ ثناؤه: لهؤلاءِ الذين كَذَّبُوا بآياتنا واستكبروا عنه. «من جهنمَ مِهادٌ» - وهو ما امتَهدُوه مما يقعدُ عليه ويضطجع، كالفراشِ الذي يفرش، والبساطِ الذي يبسط.

«ومن فوقهم غواشٍ». وهو جمعُ «غاشية»، وذلك ما غَشَّاهم فَغطَّاهُمْ من فوقهم.

وإنما معنى الكلام: لهم من جهنمَ مِهادٌ من تحتهم فُرُشٌ، ومن فوقهم منها لُحُفٌ، وإنهم بين ذلك.

وأما قوله: «وكذلك نجزي الظالمين»، فإنه يقول: وكذلك نُثِيبُ ونكافىءُ مَنْ ظلم نَفْسَهُ، فأكسَبَها من غضبِ الله ما لا قِبَلَ لها به بِكُفْرِه بربِّه، وتكذيبه أنبيائه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾

يقول جَلَّ ثناؤُه: «والذين صَدَّقُوا الله ورسولَهُ، وأقَرُّوا بما جاءهم به من وحي اللهِ وتنزيله وشرائعِ دينه، وعملوا ما أمرهم اللهُ به فأطاعوه، وتَجَنَّبُوا ما نهاهم عنه. «لا نكلفُ نفساً إلا وسعها»، يقول: لا نكلفُ نفساً من الأعمالِ إلا ما يَسَعُها فلا تحرج فيه. «أولئك»، يقول: هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات. «أصحابُ الجنة»، يقول: هم أهلُ الجنة الذين هم أهلها، دونَ غيرِهم مِمَّنْ كفرَ بالله وعمل بسيئاتهم. «هُمْ فيها خالدون»، يقول: هم في الجنة ماكثون، دائمٌ فيها مكثهم، لا يخرجونَ منها، ولا يُسْلَبونَ نعيمها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أَذْهَبْنا من صدورِ هؤلاءِ الذين وَصَفَ صِفَتَهُم، وأخبرَ أنهم أصحابُ الجنة، ما فيها من حقدٍ وغِمْرٍ[1] وعَداوةٍ كان من بعضِهم في الدنيا على بعضٍ، فجعلهم في الجنةِ إذا أُدْخِلُهُمُوها على سُرُرٍ متقابلينَ، لا

(١) الغمر: الحقد الذي يغمر القلب.

يحسدُ بعضُهم بعضاً على شيءٍ خَصَّ اللهُ به بعضَهم وفَضَّلَهُ من كرامتِهِ عليه، تجري من تحتهم أنهارُ الجنة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقال هؤلاء الذينَ وَصَفَ جَلَّ ثناؤُهُ، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ، حين أُدْخِلُوا الجنةَ ورأوا ما أكرمهم اللهُ به من كرامته، وما صَرَفَ عنهم من العذابِ المهين الذي ابتلى به أهلَ النارِ بكفرهم بربّهم، وتكذيبهم رُسُلَهُ: «الحمدُ لله الذي هدانا لهذا»، يقول: الحمدُ لله الذي وَفَّقنا للعملِ الذي أكسبنا هذا الذي نحنُ فيه من كرامةِ الله وفضلهِ، وصرف عذابه عنا. «وما كنا لنهتديَ لولا أنْ هدانا الله»، يقول: وما كنا لنرشد لذلك، لولا أنْ أرشدنا الله له ووفقنا بمنِّهِ وطَوْله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مُخْبِراً عن هؤلاءِ الذين آمنوا وعملوا الصالحات أنهم يقولون عند دخولهم الجنةَ، ورؤيتهم كرامةَ الله التي أكرمهم بها، وهو أنَّ أعداءَ الله في النار: والله لقد جاءتنا في الدنيا، وهؤلاء الذين في النار، رُسُلُ رَبِّنا بالحقِّ من الأخبارِ عن وَعْدِ الله أهلَ طاعتهِ والإيمان به وبرسله، ووعيدِهِ أهلَ معاصيهِ والكفر به.

وأمـا قولـه: «ونُودُوا أنْ تِلْكُمُ الجنةُ أُورِثْتُموها بما كنتم تعملون»، فإنَّ معناه: ونادى مُنَادٍ هؤلاءِ الذين وَصَفَ اللهُ صِفَتَهم، وأخبرَ عَمَّا أعَدَّ لهم من

كرامتهِ: أنْ يا هؤلاء، هذه تلكم الجنةُ التي كانت رُسُلي في الدنيا تُخْبِرُكُمْ عنهـا، أُورِثْتُمُـوهَـا اللهُ عن الـذين كَذَّبُوا رُسُلَهُ، لتصديقِكُمْ إياهم وطاعتكم رَبَّكم. وذلك هو معنى قوله: «بما كنتم تعلمون».

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ونادى أهلُ الجنةِ أهلَ النارِ بعد دُخُولِهُمُوهَا: يا أهلَ النار، قد وجدنا ما وَعَدنا رَبُّنا حقًّا في الدنيا على ألسن رُسُلِهِ، من الثوابِ على الإيمانِ به وبهم، وعلى طاعتِه، فهل وجدتم ما وَعَدَ رَبُّكم على ألسنَتِهم على الكُفْر وعلى معاصيهِ من العقاب؟ فأجابهم أهلُ النار: بأنْ نعم، قد وجدنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حقًّا.

وأما قوله: «فأَذَّنَ مُؤَذِنٌ بينهم»، يقول: فنادى مُنَادٍ، وأعلم مُعْلِمٌ بينهم - «أن لعنةُ الله على الظالمين»، يقول: غَضَبُ الله وسخطُه وعقوبته على مَنْ كَفَرَ به.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ٤٥﴾

يقول جَلَّ ثناؤُه: إنَّ المؤذنَ بين أهلِ الجنةِ والنارِ يقول: «أن لعنة الله على الظالمين»، الذين كفروا بالله وصَدُّوا عن سبيلهِ. «ويبغونها عوجاً»، يقول: حاولوا سبيل الله - وهو دِينُه. «أنْ يُغَيِّرُوهُ ويُبَدِّلُوه عما جعله الله له من استقامته.

«وهم بالآخرة كافرون»، يقول: وهُمْ لقيامِ الساعةِ والبعثِ في الآخرةِ والثوابِ والعقابِ فيها جاحدون.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وبينهما حجاب»، وبين الجنةِ والنارِ حجابٌ، يقول: حاجزٌ، وهو: السورُ الذي ذكره الله تعالى فقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾، [الحديد: ١٣]. وهو «الأعراف» التي يقول الله فيها: «وعلى الأعرافِ رجالٌ»، كذلك.

وأمـا قولـه: «وعلى الأعـراف رجـال»، فإنَّ «الأعرافَ» جَمْعٌ، واحِدُها «عُرْف»، وكل مُرْتَفَعٍ من الأرضِ عند العرب فهو «عُرْف»، وإنما قيل لعُرف الديك «عرف»، لارتفاعه على ما سِواهُ من جسده.

وكان السُّدِّيُّ يقول: إنما سمى «الأعراف» أعرافاً، لأنَّ أصحابه يعرفون الناس.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ۝٤٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وعلى الأعرافِ رجالٌ يعرفونَ أهلَ الجنة بسيماهم، وذلـك بياضُ وجـوههم، ونضـرةُ النعيمِ عليهـا ـ ويعـرفون أهلَ النارِ كذلك بسيماهم، وذلك سوادُ وجوههم، وزرقةُ أعينهم. فإذا رأوا أهلَ الجنةِ نادوهم: «سلامٌ عليكم».

وأمـا قولـه: «ونادوا أصحابَ الجنةِ أنْ سلامٌ عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون»، أي: حَلَّتْ عليكم أَمَنَةُ الله من عقابِهِ وأليمِ عذابه.

واختلف أهلُ التأويل في المعنيِّ بقوله: «لم يدخلوها وهم يطمعون».

فقال بعضهم: هذا خبرٌ من الله عن أهلِ الأعراف: أنهم قالوا لأهلِ الجنةِ ما قالوا قبلَ دخولِ أصحابِ الأعراف، غير أنهم قالوه وهم يطمعون في دخولها.

وقال آخرون: إنما عَنَى بذلك أهلَ الجنة، وأنَّ أصحابَ الأعراف يقولون لهم قبل أنْ يدخلوا الجنةَ: «سلامٌ عليكم»، وأهلُ الجنة يطمعون أنْ يدخلوها، ولم يدخلوها بَعْدُ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا صُرِفَتْ أبصارُ أصحابِ الأعراف تِلْقَاءَ أصحابِ النار ـ يعني: حِيالَهم ووِجاهَهم ـ فنظروا إلى تشويه الله لهم. «قالوا رَبَّنا لا تجعلنا مع القومِ الظالمين»، الذين ظلموا أنفسهم، فأكسبوها من سخطكَ ما أورثهم من عذابكَ ما هُمْ فيه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

يقول جَلَّ ثناؤه: «ونادى أصحابُ الأعرافِ رجالًا»، من أهلِ الأرضِ.

«يعرفونهم بسيماهم»، سِيمَا أهلِ النار. «قالوا ما أغنى عنكم جَمْعُكم»، ما كنتم تجمعونَ من الأموالِ والعَدَد في الدنيا. «وما كنتم تستكبرون»، يقول: وتَكَبُّرُكُم الذي كنتم تتكبرونَ فيها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۝٤٩﴾

اختلف أهلُ التأويل في المعنيِّين بهذا الكلام.

فقال بعضهم: هذا قِيلُ الله لأهلِ النار، توبيخاً على ما كانَ من قِيلهم في الدنيا، لأهلِ الأعراف، عند إدخالهِ أصحابَ الأعرافِ الجنة.

فتأويلُ الكلام على هذا التأويل: قال اللهُ لأهلِ التكبر عن الإقرارِ بوحدانيةِ الله، والإذعانِ لطاعتهِ وطاعةِ رُسُلِه، الجامعينَ في الدنيا الأموالَ مُكاثرةً ورِياءً: أيها الجبابرة كانوا في الدنيا، أهؤلاء الضعفاء الذين كنتم في الدنيا أقسمتم لا ينالهم اللهُ برحمة؟ قال: قد غفرتُ لهم ورحمتهم بفضلي ورحمتي، ادخلوا يا أصحابَ الأعرافِ الجنةَ لا خوفٌ عليكم بعدها من عقوبةٍ تعاقبون بها على ما سَلَفَ منكم في الدنيا من الآثام والأجرام، ولا أنتم تحزنون على شيءٍ فاتكم في دنياكم.

وقال أبو مجلز[1]: بَلْ هذا القولُ خبرٌ من الله عن قِيْلِ الملائكةِ لأهلِ النار، بعد ما دخلوا النارَ، تعييراً منهم لهم على ما كانوا يقولونَ في الدنيا للمؤمنينَ الذين أدخلهم اللهُ يومَ القيامةِ جَنَّتَهُ. وأما قوله: «ادْخُلُوا الجنةَ لا خوفٌ عليكم ولا أنتم تحزنون»، فخبرٌ من اللهِ عن أمرِه أهلَ الجنةِ بدخولها.

(١) أبو مجلز لاحق بن حميد السدوسي البصري، الإمام التابعي الثقة المتوفى بُعيد سنة ١٠٠ (تهذيب الكمال: ٣١/١٧٦-١٨٠).

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن استغاثةِ أهلِ النار بأهلِ الجنة، عند نزولِ عظيمِ البلاءِ بهم من شِدَّةِ العطشِ والجوع، عقوبةً من الله لهم على ما سَلَفَ منهم في الدنيا من تركِ طاعةِ الله، وأداءِ ما كان فَرَضَ عليهم فيها في أموالهم من حقوقِ المساكين من الزكاةِ والصدقة.

يقول تعالى ذِكْرُه: «ونادى أصحابُ النار»، بعد ما دخلوها. «أصحابَ الجنة»، بعد ما سكنوها. «أنْ»، يا أهلَ الجنة. «أفيضُوا علينا من الماءِ أو مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ»، أي: أطعمونا مما رزقكم الله من الطعام.

فأجابهم أهلُ الجنة، إنَّ الله حَرَّمَ الماءَ والطعامَ على الذين جَحَدُوا توحيده، وكَذَّبُوا في الدنيا رُسُلَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾

وهذا خبرٌ من الله عن قِيلِ أهلِ الجنة للكافرين.

يقول تعالى ذِكْرُه: فأجابَ أهلُ الجنة أهلَ النار: «إنَّ الله حَرَّمهما على الكافرين»، الذين كفروا بالله ورسله، الذين اتَّخَذُوا دِينهم الذي أمرهم اللهُ به لهواً ولعباً، يقول: سخريةً ولعباً.

«وغَرَّتْهُم الحياةُ الدنيا»، يقول: وخَدَعهم عاجلُ ما هُمْ فيه من العيشِ والخفضِ والدَّعة، عن الأخذِ بنصيبِهم من الآخرةِ، حتى أتتهم المنيةُ - يقولُ الله جَلَّ ثناؤُهُ: «فاليومَ ننساهم كما نَسُوا لقاءَ يومهم هذا»، أي ففي هذا اليوم، وذلك يوم القيامة «ننساهم»، يقول: نتركهم في العذابِ المبينِ جِياعاً عِطاشاً بغيرِ طعامٍ ولا شراب، كما تركوا العملَ للقاءِ يومِهم هذا، ورفضوا الاستعدادَ له بإتعابِ أبدانِهم في طاعةِ الله.

وأما قوله: «وما كانوا بآياتنا يجحدون»، فإنَّ معناه: «اليوم ننساهم كما نَسُوا لقاء يومهم هذا»، وكما كانوا بآياتنا يجحدون.

وتأويلُ الكلام: فاليومَ نتركهم في العذابِ، كما تركوا العملَ في الدنيا للقاءِ الله يومَ القيامة، وكما كانوا بآيات الله يجحدون - وهي حججه التي احتجَّ بها عليهم، من الأنبياءِ والرسلِ والكتبِ وغير ذلك. «يجحدون»، يُكَذِّبُونَ ولا يُصَدِّقُونَ بشيءٍ من ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أقسم، يا محمدُ، لقد جئنا هؤلاء الكَفَرَةَ بكتابٍ - يعني القرآن الذي أنزَلَهُ إليه. يقول: لقد أنزلنا إليهم هذا القرآنَ، مفصَّلاً مبيَّناً فيه الحَقُّ من الباطل. «على علم»، يقول: على عِلْمٍ منا بحقٍّ ما فُصِّل فيه، من الباطلِ الذي مَيَّز فيه بينه وبين الحق. «هدىً ورحمة»، يقول: بَيَّناهُ ليُهْدى ويُرْحَم به قومٌ يُصَدِّقُونَ به، وبما فيه من أمرِ الله ونهيِه، وأخبارِه، ووعدِه ووعيدِه، فينقذهُمْ به من الضلالةِ إلى الهدى.

وهذه الآيةُ مردودةٌ على قوله: ﴿كِتابٌ أُنْزِلْنَاهُ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ

حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢]. «ولقد جِئناهُمْ بكتابٍ فَصَّلناهُ على عِلْمٍ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «هل ينظرون إلا تأويله»، هل ينتظرُ هؤلاءِ المشركونَ الذين يُكَذِّبُونَ بآياتِ الله ويجحدونَ لقاءه. «إلا تأويله»، يقول: إلا ما يؤولُ إليه أمرهم، من ورودهم على عذابِ الله، وصِلِيِّهم جَحيمَهُ، وأشباه هذا مما أوعدهم الله به.

وأما قوله: «يوم يأتي تأويلُهُ يقولُ الذين نَسُوهُ من قَبْلُ»، فإنَّ معناه: يومَ يجيءُ ما يؤولُ إليه أمرهم من عقابِ الله. «يقول الذين نَسُوهُ من قبل»، أي: يقولُ الذين ضيَّعوا وتركوا ما أُمِرُوا به من العملِ المُنَجِّيهِم مما آلَ إليه أمرُهُم يومئذٍ من العذابِ، من قبل ذلك في الدنيا. «لقد جاءت رُسُلُ رَبِّنَا بالحقِّ»، أقسم المساكينُ حين عاينوا البلاءَ وحَلَّ بهم العقاب: أنَّ رُسُلَ الله التي أتتهم بالنِّذارةِ وبَلَّغَتْهُم عن اللهِ الرسالةَ، قد كانت نَصَحَتْ لهم وصَدَقَتْهُمْ عن الله، وذلك حين لا ينفعهم التصديقُ. ولا يُنَجِّيهم من سَخَطِ الله وأليمِ عقابه كثرةُ القالِ والقيلِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن هؤلاءِ المشركينَ الذين وَصَفَ صِفَتَهم، أنهم يقولون عند حلولِ سَخَطِ الله بهم، وورودِهم أليمَ عذابِهِ، ومُعَايَنَتِهم تأويلَ ما كانتْ رسلُ الله تَعِدُهُمْ: هل لنا من أصدقاءَ وأولياءَ اليومَ فيشفعوا لنا عندَ رَبِّنَا، فَتُنَجِّينا شفاعَتُهم عندهُ مما قد حَلَّ بنا من سوءِ فِعالنا في الدنيا - أو نردّ إلى الدنيا مرةً أخرى، فنعمل فيها بما يُرْضِيه ويُعْتِبُه من أنفسنا؟ قال هذا القولَ المساكينُ هنالكَ، لأنهم كانوا عَهِدُوا في الدنيا أنفسهم لها شفعاء تشفعُ لهم في حاجاتهم، فيذكروا ذلك في وقتٍ لا خُلةَ فيه لهم ولا شفاعة.

يقول الله جَلَّ ثناؤُهُ وتقدست أسماؤه: «قد خسروا أنفسهم»، يقول: غَبَنُوا أنفسَهُم حظوظَها، ببيعِهم ما لا خطرَ له من نعيمِ الآخرةِ الدائمِ، بالخسيسِ من عَرَضِ الدنيا الزائلِ. «وضَلَّ عنهم ما كانوا يفترون»، يقول: وأَسْلَمَهُمْ لعذابِ الله، وحارَ عنهم أولياؤهم، الذينَ كانوا يعبدونهم من دونِ الله، ويزعمونَ كَذِباً وافتراء أنهم أربابُهم من دونِ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ سَيِّدَكُمْ ومُصْلِحَ أمورِكم، أيها الناسُ، هو المعبودُ الذي له العبادةُ من كل شيء. «الذي خلقَ السمواتِ والأرضَ في ستة أيام»، وذلك يوم الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة.

«ثم استوى على العرش». وقد ذكرنا معنى «الاستواء» بما أَغْنَى عن إعادته.

وأما قوله: «يُغْشِي الليلَ النهارَ يطلبه حثيثاً»، فإنه يقول: يُورِدُ الليلَ غلى النهار فيلبسه إياه، حتى يُذْهِبَ نَضْرَتَهُ ونوره. «يطلبه»، يقول: يطلبُ الليلُ النهارَ «حثيثاً»، يعني: سريعاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٥٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الذي خَلقَ السمواتِ والأرض والشمسَ والقمرَ والنجومَ، كُلُّ ذلك بأمره، أمرهن اللهُ فأطعْنَ أمرَهُ، ألا للهِ الخلقُ كُلُّهُ، والأمرُ الذي لا يخالفُ ولا يردّ أمره، دونَ ما سِواهُ من الأشياءِ كلها، ودونَ ما عَبَدَهُ المشركونَ من الآلهةِ والأوثانِ التي لا تَضُرُّ ولا تنفعُ، ولا تَخْلُقُ ولا تأمرُ، تباركَ اللهُ معبودُنا الذي له عبادةُ كُلِّ شيءٍ، ربُّ العالمين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ٥٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ادعُوا، أيها الناسُ، ربَّكم وحدَهُ، فأخْلِصُوا له الدعاءَ، دونَ ما تَدْعُونَ من دونهِ من الآلهةِ والأصنامِ. «تضرعاً»، يقول: تذلُّلاً واستكانة لطاعته. «وخُفْيَةً»، يقول بخشوعِ قلوبكم، وصِحَّةِ اليقينِ منكم بوحدانيتهِ فيما بينكم وبينه، لا جهاراً ومراءاةً، وقلوبكم غيرُ مُوقنةٍ بوحدانيتهِ وربوبيته، فِعْلَ أهلِ النفاقِ والخداعِ للهِ ولرسوله.

وأما قوله: «إنه لا يحب المعتدين»، فإنَّ معناه: إنَّ رَبَّكم لا يحبُّ مَن اعتدى فتجاوزَ حَدَّهُ الذي حَدَّهُ لعبادِهِ في دعائه ومسألته ربَّه، ورفعه صوتَهُ فوقَ الحَدِّ الذي حَدَّ لهم في دعائِهم إياه، ومسألتهم، وفي غير ذلك من الأمور.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها»، لا تُشْرِكُوا باللهِ في الأرض ولا تَعْصُوه فيها، وذلك هو الفسادُ فيها. «بعد إصلاحها» يقول: بعد إصلاح الله إياها لأهلِ طاعتِه، بابتعاثِه فيهم الرُّسُلَ دُعاةً إلى الحق، وإيضاحِه حُجَجَهُ لَهم. «وادعوه خوفاً وطمعاً»، يقول: وأَخْلِصُوا له الدعاءَ والعملَ، ولا تشركوا في عملكم له شيئاً غيرَهُ من الآلهةِ والأصنامِ وغير ذلك، وليكُنْ ما يكونُ منكم في ذلكَ خوفاً من عقابِه، وطمعاً في ثوابه. وإنَّ مَنْ كان دعاؤُه إياه على غيرِ ذلك، فهو بالآخرةِ من المكذِّبينَ، لأنَّ مَنْ لم يَخَفْ عقابَ الله ولم يَرْجُ ثوابه، لم يُبَال ما ركبَ من أمر يَسْخَطُهُ اللهُ ولا يرضاه. «إنَّ رحمةَ الله قريبٌ من المحسنين»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ ثوابَ الله الذي وَعَدَ المحسنينَ على إحسانِهم في الدنيا، قريبٌ منهم، وذلك هو رحمته، لأنه ليس بينهم وبين أنْ يصيروا إلى ذلك من رحمته وما أعَدَّ لهم من كرامتِهِ إلَّا أنْ تفارقَ أرواحُهم أجسادَهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الذي خلقَ السموات والأرضَ والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، هو الذي يرسلُ الرياح نَشْراً[1] بين يدي رحمته.

(١) إنما قال ذلك لأنه لم يستجزْ إلا قراءتها بالنون، وهي في مصحفنا بالباء كما ترى.

و«النشر» بفتحِ «النونِ» وسكونِ «الشين»، في كلام العرب، من الرياحِ الطيبةِ اللينةِ الهبوبِ، التي تنشئُ السحابَ. وكذلك كُلُّ ريحٍ طيبةٍ عندهم فهي «نشر».

وبهذه القراءة قرأ ذلك عامةُ قَرَأةِ الكوفيين، خَلاَ عاصم بن أبي النجود، فإنه كان يقرؤه: «بشراً» على اختلافٍ عنه فيه.

فروى ذلك بعضهم عنه: ﴿بُشْراً﴾، بالباء وضمها، وسكون الشين.

وبعضهم، بالباء وضمها وضم الشين.

وكان يتأوّل في قراءته ذلك كذلك قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ [الروم: ٤٦]، تُبَشِّرُ بالمطرِ، وأنه جمع «بشير» يبشر بالمطر، جُمع «بُشُراً»، كما يجمع «النذير» «نُذُراً».

وأما قَرَأَةُ المدينةِ وعامة المكيين والبصريين، فإنهم قرأوا ذلك: ﴿وَهُوَ الَّـذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ نُشُراً﴾، بضم «النون»، و«الشين» بمعنى جمع «نَشور» جمع «نشراً»، كما يجمع «الصبور» «صُبُراً» و«الشكور» «شُكُراً».

وكان بعضُ أهلِ العلمِ بكلامِ العرب يقول: معناها إذا قرئت كذلك: أنها الرياحُ التي تهبُّ من كُلِّ ناحيةٍ، وتجيءُ من كُلِّ وجهٍ.

وكان بعضهم يقول: إذا قرئت بضم النون، فينبغي أنْ تُسَكَّنَ شِينُها، لأنَّ ذلك لغة بمعنى «النَّشْر» بالفتح. وقال: العرب تضم النون من «النُّشْر» أحياناً، وتفتح أحياناً بمعنى واحد. قال: فاختلافُ القَرَأةِ في ذلك على قدر اختلافها في لغتها فيه. وكان يقول: هو نظير «الخَسْف»، «والخُسْف»، بفتح الخاء وضمها.

والصوابُ من القولِ في ذلك أنْ يقالَ: إنَّ قراءةَ مَنْ قرأ ذلِك: ﴿نَشْراً﴾

الأعراف: ٥٧

و«نُشُراً»، بفتح «النون» وسكون «الشين»، وبضم «النون» و«الشين» قراءتان مشهورتان في قَرَأةِ الأمصار.

أما «بُشْراً»[1] بالباء وضمها فلا أحِبُّ القراءةَ بها، وإنْ كان لها معنى صحيح ووجهٌ مفهوم في المعنى والإعراب.

وأما قوله: «بين يدي رحمته»، فإنه يقول: قُدَّامَ رحمتِه وأمامها.

و«الرحمة» التي ذكرها جَلَّ ثناؤُهُ في هذا الموضع، المطر.

فمعنى الكلام إذاً: والله الذي يرسلُ الرياح لَيِّناً هبوبُهَا، طَيِّباً نسيمُهَا، أمامَ غيْثِه الذي يسوقه بها إلى خَلْقِه، فينشىءُ بها سَحَاباً ثِقالاً حتى إذا أَقَلَّتْهَا. و«الإقلال» بها، حَمْلُها، كما يقال: «استقلَّ البعير بحمله»، و«أقله»، إذا حمله فقام به - ساقَهُ اللهُ لإحياءِ بلدٍ ميتٍ، قد تَعَفَّتْ مزارِعُه، ودَرَستْ مشاربه، وأجدبَ أهلُه، فأنزلَ به المطرَ، وأخرجَ به من كُلِّ الثمرات.

وأما قوله: «كذلك نُخْرِجُ الموتى لعلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ»، فإنه يقول تعالى ذِكْرُه: كما نحيي هذا البلدَ الميتَ بما ننزلُ به من الماءِ الذي ننزله من السحابِ، فنخرجُ به من الثمراتِ بعد موتهِ وجدوبتهِ وقُحُوطِ أهله، كذلك نخرجُ الموتى من قبورِهم أحياءً بعد فنائِهم ودُرُوسِ آثارِهم. «لعلكم تذكرون»، يقول تعالى ذِكْرُه للمشركينَ به من عَبَدَةِ الأصنام، المكذبينَ بالبعثِ بعد المماتِ، المنكرين للثوابِ والعقاب: ضربتُ لكم، أيها القومُ، هذا المثل الذي ذكرتُ لكم: من إحياءِ البلدِ الميتِ بقَطْرِ المطرِ الذي يأتي به السحابُ الذي تنشرهُ الرياحُ التي وصفتُ صِفَتَها، لتعتبروا فتذكَّرُوا وتعلموا أنَّ مَنْ كان ذلك من

---

(١) سقط في هذا الموضع وقبله من المخطوط والمطبوع كلام، فوضعنا العبارة التي بين القوسين ليكونَ الكلام متصلاً.

قدرته، فيسيرٌ في قدرته إحياءُ الموتى بعد فنائها، وإعادتها خَلْقاً سويًّا بعد دُرُوسها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ۝٥٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والبلدُ الطيبةُ تُرْبَتُه، العذبةُ مشاربه، يخرجُ نباته إذا أنزلَ اللهُ الغيثَ وأرسلَ عليه الحَيَا، بإذنه، طيباً ثمرُه في حينه ووقته. والذي خَبُثَ فَرَدُؤَتْ تُربته، ومَلحتْ مشاربه، لا يخرجُ نباته إلا نكداً - يقول: إلا عَسِراً في شدة.

وقوله: «كذلك نُصَرِّفُ الآيات لقومٍ يشكرون»، يقول: كذلك: نُبين آية بعد آيةٍ، وندلي بحجةٍ بعد حجة، ونضربُ مثلاً بعد مَثَلٍ، لقومٍ يشكرونَ اللهَ على إنعامِه عليهم بالهدايةِ، وتبصيره إياهم سبيلَ أهلِ الضلالة، باتباعهم ما أمرَهُمْ بإتباعه، وتجنُّبهم ما أمرهم بتجنبهِ من سُبُلِ الضلالة. وهذا مَثَلٌ ضربَه اللهُ للمؤمنِ والكافر، فالبلدُ الطيبُ الذي يخرجُ نباته بإذنِ ربه، مَثَلٌ للمؤمن - والذي خَبُثَ فلا يخرجُ نباته إلا نكداً، مَثَلٌ للكافر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥٩﴾

أقسم رَبُّنا جَلَّ ثناؤُهُ للمخاطبينَ بهذه الآية: أنه أرسلَ نوحاً إلى قومه، مُنْذِرَهُمْ بأسَهُ، ومخوِّفَهم سَخَطه، على عبادتهم غيره، فقال لِمَنْ كفرَ منهم:

يا قوم، اعبدُوا الله الذي له العبادةُ، وذِلُّوا له بالطاعةِ، واخضعوا له بالاستكانةِ، ودَعُوا عبادةَ ما سواه من الأندادِ والآلهة، فإنه ليس لكم معبودٌ يستوجبُ عليكم العبادةَ غيرُه، فإني أخافُ عليكم إنْ لم تفعلوا ذلك «عذابَ يوم عظيم»، يعني: عذابَ يوم يَعْظُمُ فيه بلاؤكم بمجيئِهِ إياكم بسخَطِ ربِّكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٦٠﴾

وهـذا خبرٌ من الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ، عن جواب مشركي قومِ نوحٍ لنوحٍ، وهم «الملأ»، و«الملأ»، الجماعةُ من الرجالِ، لا امرأةَ فيهم - أنهم قالوا له حين دعاهم إلى عبادةِ الله وحدَهُ لا شريكَ له: «إنَّا لنراكَ»، يا نوحُ. «في ضلالٍ مبين»، يعنون في أمرٍ زائلٍ عن الحَقِّ، مبين زوالهُ عن قَصْدِ الحقّ لمن تأمَّلَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦١﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: قال نوحٌ لقومِهِ مجيباً لهم: يا قوم، لم آمُرْكُمْ بما أمَرْتُكم به من إخلاصِ التوحيدِ لله، وإفرادِه بالطاعةِ دونَ الأندادِ والآلهة، زوالاً مني عن مَحَجَّةِ الحقِّ، وضلالاً لسبيلِ الصواب، وما بي ما تَظُنُّونَ من الضلالِ، ولكنّي رسـولٌ إليكم من رَبِّ العـالمين بما أمرتكم به: من إفرادِه بالطاعة، والإقرارِ له بالوحدانية، والبراءةِ من الأندادِ والآلهة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ

مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾

وهذا خبرٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ عن نبيه نوح عليه السلام أنه قال لقومه الذين كفروا بالله وكَذَّبُوه: «ولكني رسولٌ من رَبِّ العالمين»، أرسلني إليكم، فأنا أُبَلِّغُكم رسالاتِ ربي، وأنصحُ لكم في تحذيري إياكم عقابَ الله على كُفْرِكُمْ به، وتكذيبكم إيايَ، وردّكم نصيحتي. «وأعلمُ من الله ما لا تعلمون»، من أنَّ عِقابَهُ لا يُرَدُّ عن القومِ المجرمين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾

وهذا أيضاً خبرٌ من الله عَزَّ ذِكْرُه عن قِيْلِ نوحٍ لقومِهِ أنه قال لهم، إذْ رَدُّوا عليه النصيحةَ في الله، وأنكروا أنْ يكونَ اللهُ بعثه نبيًّا، وقالوا له: ﴿مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾، [هود: ٢٧]: «أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جاءكم ذِكْرٌ من ربكم»، يقول: أوعجبتم أنْ جاءكم تَذكيرٌ من اللهِ وعِظةٌ، يُذَكِّركم بما أنزلَ رَبُّكم. «على رجلٍ»، قيل: معنى قوله «على رجل منكم»، مع رجل منكم.

«لينذركم»، يقول: لينذركم بأسَ الله ويُخَوِّفَكُمْ عِقابه على كُفْرِكم به.

«ولتتقوا»، يقول: وكي تَتَّقُوا عِقابَ الله وبأسَهُ، بتوحيدِه وإخلاصِ الإيمانِ به، والعملِ بطاعته. «ولعلكم ترحمون»، يقول: وليرحمكم رَبُّكم إنِ اتَّقيتم اللهَ، وخِفْتُموه وحَذِرتُمْ بأسَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فكذَّبَ نوحاً قومُه إذْ أخبرهم أنه للهِ رسولُ إليهم، يأمرهم بخلعِ الأنداد، والإقرارِ بوحدانيةِ الله، والعملِ بطاعته، وخالفوا أمرَ ربِّهم، ولَجُّوا في طغيانهم يعمهون، فأنجاهُ اللهُ في الفُلْكِ والذين معه من المؤمنينَ به، وكانوا بنوح عليه السلام أنفساً عشرة.

وكان حَمَلَ معه في الفلك من كل زوجين اثنين، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَن آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إلاَّ قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

و«الفُلْكُ»، هو السفينة.

«وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا»، يقول: وأغرقَ اللهُ الذين كَذَّبُوا بحججه، ولم يَتَّبِعُوا رُسُلَهُ، ولم يقبلوا نصيحتَهُ إياهم في الله بالطوفان.

«إنهم كانو قوماً عمين»، يقول: عَمِينَ عن الحَقِّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٦٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد أرسلنا إلى عادٍ أخاهم هوداً ـ ولذلك نَصَبَ «هوداً»، لأنه معطوفٌ به على «نوح» عليه السلام ـ قال هود: يا قوم، اعبدُوا الله فأفردوا له العبادةَ، ولا تجعلوا معه إلهاً غيره، فإنه ليس لكم إلهٌ غيره. «أفلا تتقون»، ربَّكم فَتَحْذَرُونَهُ، وتَخافونَ عقابه بعبادتكم غيره، وهو خالِقُكُم ورازقكم دونَ كُلٍّ ما سواه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٦٦ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ

بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مُخْبِراً عما أجاب هوداً به قومُه الذين كفروا بالله: «قال الملأ الذين كفروا»، يعني: الذين جحدوا توحيدَ الله وأنكروا رسالةَ الله هوداً إليهم. «إنَّا لنراكَ»، يا هودُ «في سفاهةٍ»، يعنون: في ضلالةٍ عن الحَقِّ والصوابِ بتركك دِينَنا وعبادةَ آلهتنا. «وإنَّا لنظنُّك من الكاذبينَ»، في قِيلِكَ: «إنِّي رسولٌ من رب العالمين» قال: «يا قوم ِ ليس بي سَفاهةٌ»، يقول: أي ضلالةٌ عن الحَقِّ والصواب. «ولكني رسولٌ من رَبِّ العالمين»، أرسلني، فأنا أُبَلِّغُكم رسالاتِ ربي، وأُؤدِّيها إليكم كما أمرني أنْ أؤدِّيَها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾

يعني بقوله: «أبلغكم رسالاتِ ربِّي»، أؤدي ذلك إليكم، أيها القومُ. «وأنا لكم ناصحٌ»، يقول: وأنا لكم في أمري إياكم بعبادةِ الله دونَ ما سِواهُ من الأندادِ والآلهة، ودعائكم إلى تصديقي فيما جئتكم به من عند الله، ناصحٌ، فاقبلوا نصيحتي، فإني أمينٌ على وحي الله، وعلى ما ائْتَمَنَنِي اللهُ عليه من الرسالةِ، لا أكذبُ فيه ولا أزيدُ ولا أبدِّلُ، بل أُبَلِّغُ ما أُمِرت كما أُمرتُ. «أوَ عجبتم أنْ جاءكم ذِكْرٌ من رَبِّكم على رجلٍ منكم لينذركم»، يقول: أو عجبتم أنْ أنزلَ الله وَحْيَهُ بتذكِيركُمْ وعِظَتِكُمْ على ما أنتم عليه مُقيمونَ من الضلالة، على رجلٍ منكم لينذركم بأسَ الله ويُخَوِّفَكُمْ عِقابه. «واذكروا إذْ جعلكم خُلفاءَ من بعدِ قومِ نوحٍ»، يقول: فاتقوا الله في أنفسكم، واذكروا ما حَلَّ بقومِ نوحٍ

من العذابِ إذْ عَصَوْا رسولهم، وكفروا بربهم، فإنكم إنما جعلكم رَبُّكم خلفاءَ في الأرضِ منهم لَمَّا أهلكهم أبدلكم منهم فيها، فاتقوا الله أنْ يحلَّ بكم نظير ما حَلَّ بهم من العقوبةِ، فيُهْلِككم ويبدل منكم غيركم، سُنَّته في قوم نوحٍ قَبْلَكم، على معصيتكم إياهُ وكفركم به. «وزادكم في الخَلْقِ بَسْطةً»، زاد في أجسامكم طولاً وعِظَماً على أجسامِ قومِ نوحٍ، وفي قُواكُمْ على قواهم، نعمةً منه بذلك عليكم، فاذكروا نِعَمَهُ وفضله الذي فَضَّلكم به عليهم في أجسامِكم وقُوَاكم، واشكروا الله على ذلك بإخلاصِ العبادةِ له، وتركِ الإشراك به، وهجرِ الأوثانِ والأندادِ. «لعلكم تفلحون»، يقول: كي تُفْلِحُوا فتدركوا الخلودَ والبقاءَ في النعيمِ في الآخرة، وتنجحوا في طلباتكم عنده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قالَتْ عادٌ له: أَجِئْتَنَا تَتوعَّدُنَا بالعقابِ من الله على ما نحنُ عليه من الدين، كي نعبدَ الله وحده، ونَدينَ له بالطاعةِ خالصاً، ونهجرَ عبادةَ الآلهةِ والأصنامِ التي كان آباؤنا يعبدونها، ونتبرَّأ منها؟ فلسنا فاعِلي ذلك، ولا نحنُ مُتَّبِعُوكَ على ما تَدْعُونَا إليه، فائتِنَا بما تَعِدُنَا من العقابِ والعذابِ على تَرْكِنَا إخلاصَ التوحيدِ لله، وعبادتنا ما نعبدُ من دونه من الأوثان، إنْ كنتَ من أهلِ الصدق على ما تقول وتَعِدُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٧١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال هودٌ لقومه: قد حَلَّ بكم عذَابٌ وغضبٌ من الله.

وأما قوله: «أتجادلونني في أسماء سَمَّيتُموها أنتم وآباؤكم»، فإنه يقول: أتخاصمونني في أسماء سَمَّيتموها أصناماً، لا تَضُرُّ ولا تنفعُ. «أنتم وآباؤكم ما نَزَّلَ الله بها من سُلطان»، يقول: ما جَعَلَ اللهُ لكم في عبادَتِكم إياها من حجةٍ تحتجُّونَ بها، ولا معذرة تعتذرونَ بها، لأنَّ العبادةَ إنما هي لمن ضَرَّ ونفعَ، وأثابَ على الطاعةِ وعاقبَ على المعصية، ورزقَ ومنَع. فأما الجمادُ من الحجارةِ والحديد والنحاس، فإنه لا نَفْعَ فيه ولا ضرٌّ، إلا أنْ تتخذ منه آلةٌ، ولا حُجَّةَ لعابدٍ عَبَدَهُ من دونِ الله في عبادته إياه، لأنَّ الله لم يأذَنْ بذلك، فيعتذر مَنْ عَبَدَهُ بأنه يعبدهُ اتباعاً منه أمرَ الله في عبادته إياه. ولا هو ـ إذْ كان الله لم يأذَنْ في عبادته ـ مما يُرْجَى نفعه، أو يُخَافُ ضُرُّه، في عاجلٍ أو آجل، فَيُعْبَدَ رَجاءَ نفعهِ، أو دفعَ ضُرِّهِ ـ «فانتظروا إني معكم من المنتظرين»، يقول: فانتظروا حُكْمَ الله فينا وفيكم. «إني معكم من المنتظرين»، حُكْمَهُ وفصلَ قضائِه فينا وفيكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٧٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فأنجينا هوداً والذينَ معه من أتباعهِ على الإيمانِ به والتصديقِ به وبما دَعَا إليه، من توحيدِ الله، وهَجْرِ الآلهةِ والأوثان. «برحمةٍ مِنَّا وقطعنا دابرَ الذين كَذَّبُوا بآياتنا»، يقول: وأهلكنا الذين كذَّبُوا من قومِ هودٍ بحججنا جميعاً عن آخِرِهم، فلم نُبْقِ منهم أحداً.

«وما كانوا مؤمنين»، يقول: لم يكونوا مُصَدِّقينَ بالله ولا برسولِهِ هود.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تعَالَى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد أرسلنا إلى ثمودَ أَخاهُم صالحاً.

«قال يا قومِ اعبدوا اللهَ ما لكم من إلهٍ غيرُه»، يقول: قال صالح لثمود: يا قومِ اعبدوا اللهَ وحدَهُ لا شريكَ له، فما لكم إلهٌ يجوزُ لكم أنْ تعبدوه غيره، وقد جاءتكم حُجَّةٌ وبرهانٌ على صِدْقِ ما أقولُ، وحقيقةِ ما إليهِ أدعو، من إخلاصِ التوحيدِ لله، وإفرادِه بالعبادةِ دونَ ما سِواهُ، وتصديقي على أني له رسولٌ. وبَيِّنتي على ما أقولُ وحقيقة ما جِئْتُكم به من عند ربي، وحجتي عليه، هذه الناقةُ التي أخرجَها الله من هذه الهَضْبة، دليلاً على نُبُوَّتي وصِدْقِ مقالتي، فقد عَلِمْتُمْ أنَّ ذلك من المعجزاتِ التي لا يقدرُ على مِثْلِها أحدٌ إلا الله.

وإنمـا استشهـدَ صالح، فيما بلغني، على صِحَّةِ نُبُوَّته عند قومهِ ثمود بالناقةِ، لأنهم سألُوهُ إيَّاها آيةً ودلالةً على حقيقةِ قولِه.

وأما قوله: «ولا تَمَسُّوها بسوءٍ»، فإنه يقول: ولا تَمَسُّوا ناقةَ اللهِ بعقرٍ ولا نَحْرٍ. «فيأخذكم عذابٌ أليم»، يعني: موجع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مخبراً عن قِيْلِ صالحٍ لقومِه، واعظاً لهم: واذكروا،

أيها القومُ، نعمةَ الله عليكم. «إذ جعلكم خلفاء»، يقول: تَخْلفونَ عاداً في الأرضِ بعد هلاكها.

وأما قوله: «وبَوَّأكُم في الأرض»، فإنه يقول: وأنزلكم في الأرض، وجعلَ لكم فيها مساكنَ وأزواجاً. «تَتَّخِذُونَ من سهولها قُصوراً وتَنْحِتُونَ الجبالَ بيوتاً»، ذكر أنهم كانوا يَنْقُبونَ الصخرَ مساكن.

وقوله: «فاذكروا آلاءَ الله»، يقول: فاذكروا نعمةَ الله التي أنعم بها عليكم. «ولا تَعْثَوْا في الأرضِ مُفسدينَ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «قال الملأ الذين استكبروا من قومه»، قال: الجماعةُ الذين استكبروا من قومِ صالحٍ عن اتباعِ صالح والإيمانِ باللهِ وبه. «للذينَ استُضْعِفُوا»، يعني: لأهلِ المسكنةِ من تُبَّاعِ صالحٍ والمؤمنينَ به منهم، دونَ ذوي شرفهم وأهلِ السُّؤدد منهم. «أتعلمونَ أنَّ صالحاً مرسلٌ من ربه»، أرسلهُ اللهُ إلينا وإليكم، قال الذين آمنوا بصالح من المُستضعفينَ منهم: إنَّا بما أَرسلَ اللهُ به صالحاً من الحقِّ والهدى مؤمنونَ، يقول: مُصَدِّقُونَ مُقِرُّونَ أنه من عندِ الله، وأنَّ الله أمرَ به، وعن أمرِ الله دعانا صالحٌ إليه. «قال الذين استكبروا»، عن أمرِ الله وأمر رسولِهِ صالح ـ «إنَّا»، أيها القومُ، «بالذي آمنتم به»، يقول: صَدَّقْتُمْ به من نُبُوَّةِ صالح، وأنَّ الذي جاء به حَقٌّ من عند الله. «كافرون»، يقول: جَاحدونَ مُنْكِرُونَ، لا نُصَدِّقُ به ولا نُقِرُّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فَعقرتْ ثمودُ الناقةَ التي جعلها الله لهم آيةً. «وعَتَوْا عن أمرِ رَبِّهم»، يقول: تَكَبَّرُوا وتَجَبَّرُوا عن اتباعِ الله، واستعلوا من عذابِ الله ونقمته، استعجالاً منهم للعذاب. «إنْ كنتَ من المرسلين»، يقول: إنْ كنتَ لله رسولاً إلينا، فإنَّ الله ينصرُ رُسُلَهُ على أعدائه، فعجِّلَ ذلك لهم كما استعجلوه، يقول جَلَّ ثناؤه: «فأخذتهم الرجفةُ فأصْبَحُوا في دارِهم جاثمين».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٧٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فأخذتِ الذين عَقَرُوا الناقةَ من ثمود «الرجفةُ»، وهي الصيحةُ.

وقوله: «فأصبحوا في دارهم جاثمين»، يقول: فأصبحَ الذين أهلكَ اللهُ من ثمود -. «في دارهم»، يعني في أرضهم التي هَلَكُوا فيها وبلدتهم.

وقوله: «جاثمين» يعني: سُقوطاً صَرْعَى لا يتحركون، لأنهم لا أرواحَ فيهم، قد هلكوا. والعرب تقول للبارِكِ على الركبة: «جاثم».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٧٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فأدبرَ صالحُ عنهم حينَ استعجلوه العذابَ وعقروا ناقة

الله، خارجاً عن أرضِهم من بين أظهُرِهم، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه أوحَى إليه: إنِّي مُهْلِكُهم بعد ثالثة.

وقيل: إنه لم تهلك أمةٌ ونَبِيُّها بين أظهُرِها[1].

فأخبرَ اللهُ جَلَّ ثناؤُهُ عن خروجِ صالح من بين قومِهِ الذين عَتَوْا على رَبِّهم حين أرادَ اللهُ إحلالَ عقوبتِهِ بهم، فقال: «فتولَّى عنهم» صالح ـ وقال لقومه ثمود. «لقد أبلغتكُمْ رسالةَ ربي»، وأدَّيْتُ إليكم ما أمرني بأدائِهِ إليكم ربِّي من أمرِه ونهيِهِ. «ونصحتُ لكم»، في أدائي رسالةَ اللهِ إليكم، في تحذيركم بأسَهُ بإقامتِكم على كُفْرِكُمْ به وعبادَتِكم الأوثانَ. «ولكنْ لا تُحبونَ الناصحينَ»، لكم في الله، الناهينَ لكم عن اتباعِ أهوائِكم، الصادِّينَ لكم عن شهواتِ أنفسكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد أرسلنا لوطاً.

ولو قيل: معناه: واذكُرْ لوطاً، يا محمدُ، «إذْ قال لقومِهِ» إذ لم يكن في الكلام صلة «الرسالة»، كما كان في ذِكْرِ عادٍ وثمود ـ كان مذهباً.

وقوله: «إذ قال لقومه»، يقول: حين قال لقومِهِ من سَدُوم، وإليهم كان أُرسلَ لوطٌ. «أتأتونَ الفاحشةَ»، وكانت فاحشتهم التي كانوا يأتونها، التي عاقبهم اللهُ عليها، إتيانَ الذكورِ. «ما سَبَقَكُمْ بها من أحدٍ من العالمين»، يقول: ما سبقكم بفِعْلِ هذه الفاحشةِ أحدٌ من العالمين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ

(١) أنظر معاني القرآن للفراء: ١/٣٨٥.

ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿٨١﴾

يخبر بذلك تعالى ذِكْرُه عن لوطٍ أنه قال لقومه، توبيخاً منه لهم على فِعْلِهم: إنكم، أيها القومُ، لتأتونَ الرجالَ في أدبارهم، شهوةً منكم لذلك، من دونِ الذي أباحهُ اللهُ لكم وأحَلَّهُ من النساء. «بل أنتم قوم مسرفون»، يقول: إنكم لقومٌ تأتونَ ما حَرَّمَ اللهُ عليكم، وتعصونه بفِعْلِكُمْ هذا.

وذلك هو «الإسراف»، في هذا الموضع

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وما كان جواب قوم لُوطٍ لِلُوطٍ، إذْ وَبَّخَهُم على فِعْلهم القبيح، وركوبهم ما حَرَّمَ اللهُ عليهم من العملِ الخبيثِ، إلا أنْ قال بعضُهم لبعض: أخرجوا لوطاً وأهله ـ ولذلك قيل: «أخرجوهم»، فجمع، وقد جرى قَبْلُ ذِكْرُ «لوط» وحدَهُ دونَ غيرِه.

وقد يحتمل أنْ يكونَ إنما جمع بمعنى؛ أخْرِجُوا لوطاً ومَنْ كان معه على دِينِهِ من قريتكم ـ فاكتفى بذكر «لوطٍ» في أولِ الكلامِ عن ذِكْرِ أتباعِه، ثم جمع في آخر الكلام كما قيل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾، [الطلاق: ١].

«إنهم أناسٌ يتطهرون»، يقول: إنَّ لوطاً ومَنْ تَبِعَهُ، أناسٌ يَتَنَزَّهُونَ عَمَّا نفعله نحنُ من إتيانِ الرجالِ في الأدبار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما أبى قومُ لوط - مع توبيخِ لوطٍ إياهم على ما يأتونَ من الفاحشة، وإبلاغه إياهم رسالةَ رَبِّه بتحريمِ ذلك عليهم - إلَّا التمادي في غيِّهم، أنجينا لوطاً وأهلَهُ المؤمنينَ به، إلَّا امرأتَهُ، فإنها كانت للوطٍ خائنةً، وبالله كافرةً.

وقوله: «من الغابرينَ»، يقول: من الباقينَ.

فإنْ قال قائلٌ: فكانت امرأةُ لوط مِمَّنْ نجا من الهلاك الذي هَلَكَ به قومُ لوط؟

قيل: لا، بل كانتْ فيمَنْ هلك.

فإن قال: فكيف قيل: «إلا امرأته كانتْ من الغابرين»، وقد قلت إنَّ معنى «الغابر»، الباقي؟ فقد وَجَبَ أنْ تكونَ قد بقيت؟

قيل: إنَّ معنى ذلك غير الذي ذهبتَ إليه، وإنما عَنَى بذلك، إلا امرأته كانت من الباقينَ قبلَ الهلاكِ، والمعمَّرينَ الذين قد أتى عليهم دَهْرٌ كبيرٌ، ومَرَّ بهم زمنٌ كثيرٌ، حتى هَرِمَتْ فيمن هَرِمَ من الناس، فكانت مِمَّنْ غبرَ الدهرَ الطويلَ قبل هلاكِ القوم، فهلكتْ مع مَنْ هلك من قومِ لوط حين جاءهم العذاب.

وقيل: معنى ذلك: من الباقينَ في عذابِ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأمطرنا على قومِ لوطٍ الذينَ كَذَّبُوا لوطاً ولم يؤمنوا به، مَطَراً من حجارةٍ من سِجِّيلٍ أهلكناهم به. «فانْظُرْ كيف كان عاقبةُ

المجرمينَ»، يقول جَلَّ ثناؤه: فانظر، يا محمدُ، إلى عاقبةِ هؤلاء الذين كذبوا الله ورسوله من قوم ِ لوط، فاجترموا معاصيَ الله، وركبوا الفواحشَ، واستحلُّوا ما حَرَّمَ اللهُ من أدبارِ الرجال، كيف كانت؟ وإلى أيِّ شيءٍ صارت؟ هل كانت إلَّا البوار والهلاك؟ فإنَّ ذلك أو نظيرَهُ من العقوبة، عاقبةُ مَنْ كَذَّبكَ واستكبر عن الإيمانِ بالله وتصديقك إنْ لم يتوبوا، من قومك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾

(يعني): ولقد أرسلنا إلى ولدِ مَدْيَنَ، أخاهُم شعيبَ بنَ ميكيل، يَدْعُوهم إلى طاعةِ الله، والانتهاءِ إلى أمرِه، وترك السعي في الأرضِ بالفسادِ، والصدِّ عن سبيله، فقال لهم شعيب: يا قوم ِ، اعبدُوا اللهَ وحدَهُ لا شريكَ له، ما لكم من إلهٍ يستوجبُ عليكم العبادةَ غير الإلهِ الذي خلقكم، وبيده نَفْعُكم وضركم. «قد جاءتكم بَيِّنَةٌ من ربكم»، يقول: قد جاءتكم علامةٌ وحجةٌ من اللهِ بحقيقةِ ما أقولُ، وصِدْقِ ما أدعُوكم إليه. «فأوفُوا الكيلَ والميزان»، يقول: أَتِمُّوا للناسِ حقوقَهم بالكيلِ الذي تكيلون به، وبالوزنِ الذي تَزِنُونَ به. «ولا تبخسوا الناسَ أشياءَهُم»، يقول: ولا تظلموا الناسَ حقوقَهم، ولا تنقصوهم إياها.

وقوله: «ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها»، يقول: ولا تعملوا في أرض الله بمعاصيه، وما كنتم تعملونه قبل أنْ يبعثَ الله إليكم نبيه، من عبادةِ غيرِ الله، والإشراكِ به، وبَخْسِ الناسِ في الكيلِ والوزن. «بعد إصلاحها»، يقول بعدَ أنْ قد أصلحَ اللهُ الأرضَ بابتعاثِ النبيِّ عليه السلام فيكم، يَنهاكُمْ

عَمَّا لا يحلُّ لكم، وما يكرهه الله لكم. «ذلكم خيرٌ لكم»، يقول: هذا الذي ذكرتُ لكم وأمرتكم به، من إخلاصِ العبادةِ لله وحدَهُ لا شريكَ له، وإيفاءِ الناسِ حقوقَهم من الكيلِ والوزنِ، وتركِ الفسادِ في الأرضِ، خيرٌ لكم في عاجلِ دنياكم وآجلِ آخرتكم عند الله يوم القيامة. «إنْ كنتم مؤمنين»، إنْ كنتم مُصدِّقِيَّ فيما أقولُ لكم، وأؤدِّي إليكم عن الله من أمره ونهيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٨٦﴾

يعني بقوله: «ولا تقعدُوا بكل صِراطٍ تُوعِدُون»، ولا تجلسوا بكلِّ طريقٍ - وهو «الصراط» - تُوعِدُونَ المؤمنينَ بالقتل.

وكانوا، فيما ذُكِرَ، يقعدونَ على طريق مَنْ قَصَدَ شُعيباً وأراده ليؤمنَ به، فيتوعَّدُونَهُ ويُخَوِّفُونَهُ، ويقولون: إنه كَذَّاب!

وأما قوله: «وتَصُدُّونَ عن سبيلِ الله مَنْ آمَنَ به»، فإنه يقول: وتردُّون عن طريقِ الله، وهو الردُّ عن الإيمانِ بالله والعمل بطاعته. «مَنْ آمَنَ به»، يقول: تَرُدُّونَ عن طريقِ الله مَنْ صَدَّقَ بالله ووحَّـدَهُ. «وتبغـونهـا عوجـاً»، يقـول: وتلتمسون لِمَنْ سلكَ سبيلَ الله وآمنَ به وعملَ بطاعتِهِ. «عِوَجاً». عن القصد والحق، إلى الزيغ والضلال.

وقوله: «واذكروا إذْ كنتم قليلاً فَكَثَّركُم»، يُذَكِّرُهم شعيب نعمةَ الله عندهم بأنْ كَثَّرَ جماعتهم بعد أن كانوا قليلاً عددهم، وأنْ رَفَعهم من الذلَّةِ والخساسةِ، يقول لهم: فاشكروا الله الذي أنعمَ عليكم بذلك، وأخلصوا له العبادة، واتقوا عقـوبتَهُ بالطاعة، واحذروا نقمته بترك المعصية، - «وانظروا كيف كان عاقبةُ

المفسدينَ»، يقول: وانظروا ما نزلَ بِمَنْ كان قَبْلَكم من الأمم حين عَتَوْا على رَبِّهم وعَصَوا رسُلَهُ، من المَثُلاتِ والنقماتِ، وكيف وجدوا عُقْبَى عصيانهم إياه؟ ألم يُهلك بعضَهم غَرَقاً بالطوفانِ، وبعضهم رجماً بالحجارة، وبعضهم بالصيحة؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨٧﴾

يعني بقوله تعالى ذِكْرُهُ: «وإنْ كان طائفة منكم»، وإنْ كانت جماعةٌ منكم وفرقة. «آمنوا»، يقول: صَدَّقُوا بالذي أُرسلتُ به من إخلاصِ العبادةِ لله، وتركِ معاصيهِ، وظلم الناس، وبخسهم في المكاييل والموازين، فاتَّبعوني على ذلك. «وطائفةٌ لم يؤمنوا»، يقول: وجماعة أخرى لم يُصَدِّقُوا بذلك ولم يتبعوني عليه. «فاصبروا حتى يحكمَ اللهُ بيننا»، يقول: فاحتبسوا على قضاء الله الفاصلِ بيننا وبينكم. «وهو خيرُ الحاكمينَ»، يقول: والله خيرُ مَنْ يفصلُ وأعدلُ مَنْ يقضي، لأنه لا يقعُ في حُكْمِه مَيْلٌ إلى أحدٍ، ولا محاباةٌ لأحدٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ۝٨٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «قال الملأُ الذين استكبروا»، يعني بالملأ، الجماعة من الرجال، ويعني بالذين استكبروا، الذين تكبروا عن الإيمانِ بالله، والانتهاءِ إلى أمرِه، واتباعِ رسوله شعيب، لما حَذَّرهم شعيبٌ بأسَ الله، على خِلافِهم أمرَ رَبِّهم، وكفرهم به. «لَنُخرِجَنَّكَ يا شعيبُ»، ومَنْ تَبِعَكَ وصَدَّقَكَ وآمَنَ بك

وبما جئتَ به معك. «من قريتنا أو لتعودُنَّ في ملتنا»، يقول: لترجعن أنتَ وهُمْ في دِيننا وما نحنُ عليه. قال شعيب مجيباً لهم: «أَوَ لَوْ كُنَّا كارهين».

ومعنى الكلام: أنَّ شعيباً قال لقومه: أَتُخْرِجُونَنَا من قريتكم، وتَصُدُّونَنَا عن سبيلِ الله، ولو كُنَّا كارهينَ لذلك؟ ـ ثم أدخلت «ألف» الاستفهام على «واو» «ولو».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾

يقـول جَلَّ ثنـاؤه: قال شعيب لقـومـهِ إذ دَعَوْهُ إلى العَوْدِ إلى مِلَّتِهم، والدخول فيها، وتوعَّدُوه بطردِه ومَنْ تَبِعَهُ من قريتهم إنْ لم يفعلْ ذلك هو وهم: «قد افترينا على الله كَذِباً»، يقول: قد اختلقنا على الله كذباً، وتَخَرَّصْنَا عليه من القولِ باطلاً ـ إنْ نحنُ عُدْنَا في ملتكم، فرجعنا فيها بعد إذْ أنقذنا الله منها، بأنْ بَصَّرنَا خطأها وصوابَ الهدى الذي نحنُ عليه ـ وما يكونُ لنا أنْ نرجعَ فيها فندينَ بها، ونتركَ الحَقَّ الذي نحنُ عليه. «إلا أنْ يشاء الله ربنا»، إلا أنْ يكونَ سَبَقَ لنا في عِلْمِ الله أنَّا نعودُ فيها، فيمضي فينا حينئذٍ قضاءُ الله، فينفذ مشيئته علينا. «وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شيءٍ علماً»، يقول: فإنَّ عِلْمَ رَبِّنَا وسعَ كُلَّ شيءٍ فأحاطَ به، فلا يخفى عليه شيءٌ كان، ولا شيء هو كائن. فإنْ يَكُنْ سَبَقَ لنا في علمه أنَّا نعودُ في مِلَّتكم، ولا يخفى عليه شيءٌ كان ولا شيء هو كائن، فلابد من أنْ يكون ما قد سبق في علمه، وإلاَّ فإنَّا غير عائدينَ في مِلَّتِكم.

وقوله: «على الله توكلنا»، يقول: على الله نعتمدُ في أمورنا، وإليه نستندُ فيما تَعِدُونَنَا به من شَرِّكم، أيها القومُ، فإنه الكافي مَنْ توكَّلَ عليه.

ثم فزع صلواتُ الله عليه إلى رَبِّــه بالـدعـاءِ على قومِـه إذْ أَيِسَ من فَلاحِهم، وانقطع رجاؤُه من إذعانِهم لله بالطاعةِ، والإقرارِ له بالرسالةِ، وخافَ على نفسه وعلى مَن اتَّبعهُ من مؤمني قومِه من فَسَقَتِهم العطبَ والهلكةَ بتعجيلِ النقمـةِ، فقال: «رَبَّنا افتحْ بيننا وبين قومنا بالحق»، يقول احكم بيننا وبينهم بحُكْمِكَ الحقِّ الـذي لا جورَ فيه ولا حَيْفَ ولا ظُلْمَ، ولكنه عَدْلٌ وحق. «وأنت خيرُ الفاتحين»، يعني: خير الحاكمين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: وقال الجماعةُ من كَفَرَةِ رجالِ قومِ شعيب - وهم «الملأ» - الذين جَحَدُوا آياتِ الله، وكَذَّبُوا رسولَهُ، وتمادوا في غيِّهم، لآخرينَ منهم: لَئِنْ أنتم اتَّبعتُم شُعَيباً على ما يقولُ، وأجبتموه إلى ما يَدْعُوكم إليه من توحيدِ الله، والانتهاءِ إلى أمرِه ونهيه، وأقررتم بنبوَّتِه. «إنكم إذاً لخاسرون»، يقول: لمغبونونَ في فِعْلِكم، وترككم مِلَّتكم التي أنتم عليها مُقيمونَ، إلى دِينه الذي يدعوكم إليه - وهالِكُون بذلك من فعلكم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾

يقول: فأخذَتِ الذينَ كفروا من قومِ شعيبٍ، الرجفةُ. وقد بَيَّنْتُ معنى «الرجفة» قَبْلُ، وأنها الزلزلةُ المحركةُ لعذابِ الله.

«فأصبحوا في دارهم جاثمين»، على رُكَبِهم، مَوْتَى هَلْكَى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٩٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فأهلكَ الذين كَذَّبُوا شُعيباً فلم يؤمنوا به، فأبادَهم، فصارتْ قريتُهم منهم خاويةً خلاءً. «كأنْ لم يَغْنَوْا فيها»، يقول: كأنْ لم ينزلوا قَطُّ ولم يعيشوا بها حِينَ هَلَكُوا.

وقوله: «الذين كَذَّبُوا شعيباً كانوا هم الخاسرينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لم يكن الذين اتَّبعُوا شُعيباً الخاسرينَ، بل الذين كَذَّبُوهُ كانوا هم الخاسرينَ الهالكين. لأنه أخبرَ عنهم جَلَّ ثناؤُهُ: أنَّ الذين كَذَّبُوا شعيباً قالوا للذين أرادُوا اتِّباعَهُ: «لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون»، فكذَّبهم اللهُ بما أَحَلَّ بهم من عاجلِ نَكاله، ثم قال لنبيه محمدٍ ﷺ: ما خسر تُبَّاعُ شعيب، بل كانَ الذين كذبوا شعيباً لما جاءتْ عقوبةُ الله، هم الخاسرينَ، دونَ الذينَ صَدَّقُوا وآمنوا به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ۝٩٣﴾

فأدبرَ شعيب عنهم، شاخصاً من بين أَظْهُرِهم حين أتاهم عذابُ الله، وقال لما أيقن بنزولِ نقمةِ اللهِ بقومِهِ الذين كَذَّبُوه، حزناً عليهم: «يا قوم لقد أبلغتكم رسالاتِ ربي»، وأَدَّيْتُ إليكم ما بعثني به إليكم، من تحذيركُمْ غَضَبَهُ على إقامتكم على الكفرِ به، وظلم الناسِ أشياءهم. «ونصحتُ لكم»، بأمري

إياكم بطاعةِ الله، ونهيكم عن معصيته. «فكيفَ آسَى»، يقول: فكيف أحزنُ على قومٍ جَحَدُوا وحدانيةَ الله وكَذَّبُوا رسوله، وأتوجَّع لهَلاكهم؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لنبيه محمدٍ ﷺ، معرِّفَهُ سُنَّتَهُ في الأمم التي قد خَلَتْ من قبل أمتِه، ومُذكِّرَ مَنْ كفرَ به من قريش، لينزجروا عما كانوا عليه مقيمينَ من الشركِ بالله، والتكذيبِ لنبيه محمدٍ ﷺ: «وما أرسلنا في قرية من نبي»، قَبْلَكَ. «إلَّا أخذنا أهلَهَا بالبأساءِ والضراءِ»، وهو البؤسُ وشَظَفُ المعيشةِ وضِيقُهَا، و«الضراء»، وهي الضُّرُّ وسوءُ الحالِ في أسبابِ دُنياهم. «لعلهم يَضَّرَّعونَ»، يقول: فعلنا ذلك ليتضرَّعُوا إلى رَبِّهم، ويستكينوا إليه، وينيبوا، بالإقلاعِ عن كُفْرِهم، والتوبةِ من تكذيبِ أنبيائِهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «ثم بَدَّلْنَا»، أهلَ القرية التي أخذنا أهْلَها بالبأساءِ والضراء. «مكانَ السيئة»، وهي البأساء والضراء - وإنما جعلَ ذلك سيئة، لأنه مِمَّا يسوء الناس - ولا تسوؤهم «الحَسَنَة»، وهي الرخاءُ والنعمةُ والسَّعَةُ في المعيشة. «حتى عَفَوْا»، يقول: حتى كَثُرُوا.

وأما قوله: «وقالوا قد مَسَّ آباءَنَا الضَّراءُ والسراء»، فإنه خبرٌ من الله عن هؤلاء القومِ الذين أبدلهم مكانَ الحسنةِ السيئةَ التي كانوا فيها، استدراجاً

وابتلاءً، أنهم قالوا إذْ فعل ذلك بهم: هذه أحوالٌ قد أصابتْ مَنْ قَبْلَنا من آبائنا، ونالتْ أسلافَنا، ونحنُ لا نعدُو أن نكونَ أمثالَهم يصيبنا ما أصابَهُمْ من الشدةِ في المعايشِ والرخاء فيها ـ وهي «السراء»، لأنها تَسُرُّ أهلَها.

وجهل المساكينُ شكرَ نعمةِ الله، وأغفلوا من جهلهم استدامةَ فَضْلِه بالإنابةِ إلى طاعتهِ، والمسارعةِ إلى الإقلاعِ عما يكرهُهُ بالتوبةِ، حتى أتاهم أمرُه وهُمْ لا يشعرون.

يقول جَلَّ جلاله: «فأخذناهُم بَغْتَةً وهم لا يشعرون»، يقول: فأخذناهم بالهلاكِ والعذابِ فجأةً، أتاهم على غِرّةٍ منهم بمجيئِهِ، وهم لا يَدْرُونَ ولا يعلمون أنّه يجيئهم، بل هُمْ بأنه آتِيهِمْ مُكَذِّبُونَ حتى يُعَايِنُوه ويَرَوه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾

[(١)] يعني: ولو أنَّ أهلَ القرى الذين كَذَّبُوا فأهلكوا آمنوا واتقوا الشِّرْكَ فكان ارتكابه «لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماء والأرض»، يقول: لأتاهُم الغيثُ من السماء، والنباتُ من الأرض، وجعل ذلك زاكياً كثيراً. «ولكنْ كَذَّبوا» الله ورسوله. «فأخذناهم بما كانوا يكسبون»، يعني: بكفرهم وسوءِ كَسْبِهم.

---

(١) سقط تفسير الآيات الثلاث من المخطوط والمطبوعات، وهو كما استرجح العلامة محمود شاكر نقصٌ قديم. وقد وضعنا بين قوسين تفسيراً مختصراً صنفناه من معاني القرآن للزجاج: ٢/٣٦٠، وتفسير النسفي: ٢/٦٦ وغيرهما، لئلا يبقى خالياً من تفسير.

وقوله «أَفَأَمِنَ أهلُ القرى أنْ يأتيهم بأسُنَا بياتاً وهم نائمون» يعني: أَفَأَمِنَتِ الأمةُ التي كَذَّبت الله ورسولَهُ أنْ يأتيهم عذابنا ليلاً وهم نائمون. «أو ضُحى وهم يلعبون»، يقول: نهاراً وهم في غيرِ ما يُجدي عليهم مشغولون).

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أفأَمِنَ، يا محمدُ، هؤلاء الذين يُكَذِّبُونَ اللهَ ورسولَهُ، ويجحُدونَ آياتهِ، استدراجَ اللهِ إيَّاهُمْ بما أنعم به عليهم في دنياهم من صِحَّةِ الأبدان ورخاءِ العيش، كما استدرجَ الذين قَصَّ عليهم قصَصهم من الأممِ قَبْلَهم، فإنَّ مَكْرَ الله لا يأمنه، يقول: لا يأمنُ من ذلك أنْ يكونَ استدراجاً، مع مقامِهم على كُفْرِهم، وإصرارِهم على معصيتهم. «إلا القومُ الخاسرون»، وهم الهالكون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝١٠٠﴾

يقول: أوَ لَمْ يَبِنْ للَّذين يُسْتخلفون في الأرض بعد هلاكِ آخرينَ قَبْلَهُمْ كانُوا أهلَها، فساروا سِيرتهم، وعملوا أعمالهم، وعَتَوْا عن أمرِ رَبِّهم. «أنْ لو نشاءُ أصبناهم بذنوبهم»، يقول: أنْ لو نشاءُ فَعَلْنَا بهم كما فعلنا بِمَنْ قبلَهم، فأخذناهم بذنوبِهم، وعَجَّلْنَا لهم بأسَنا كما عَجَّلناهُ لِمَنْ كان قَبْلَهم ممن وَرِثُوا عنه الأرضَ، فأهلكناهم بذنوبهم. «ونطبعُ على قلوبهم»، يقول: ونختمُ على قلوبِهم. «فهم لا يسمعون»، موعظةً ولا تذكيراً، سماعَ مُنْتَفعٍ بهما.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هذه القرى التي ذكرتُ لكَ، يا محمدُ، أمْرَها وأمْرَ أهلِهَا - يعني: قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وشعيب. «نَقُصُّ عليكَ من أنبائها»، فنخبركَ عنها وعن أخبارِ أهلها، وما كانَ من أمْرِهم وأمرِ رُسِلِ الله التي أرسلتُ إليهم، لتعلمَ أنا ننصرُ رُسُلَنا والذينَ آمنوا في الحياةِ الدنيا على أعدائِنا وأهلِ الكفرِ بنا، ويعلمَ مُكَذِّبُوكَ من قومكَ ما عاقبةُ أمرِ مَنْ كَذَّبَ رُسُلَ الله، فيرتدعوا عن تكذيبكَ، ويُنيبُوا إلى توحيدِ الله وطاعته. «ولقد جاءتهم رُسُلُهم بالبيناتِ»، يقول: ولقد جاءتْ أهلَ القرى التي قصصتُ عليك نبأها، «رسلهم بالبينات»، يعني بالحجج البَيِّناتِ. «فما كانوا ليؤمنوا بما كَذَّبُوا من قَبْلُ»، يقول: فما كانوا ليؤمنوا عند مجيء الرسل، بما سبقَ في عِلْمِ الله أنهم يكذبون به يومَ أخرجهم من صلب آدمَ عليه السلام.

وأما قوله: «كذلك يطبعُ اللهُ على قلوبِ الكافرينَ»، فإنه يقول تعالى ذِكْرُه: كما طبعَ الله على قلوبِ هؤلاء الذين كفروا بربِّهم وعصوا رُسُله من هذه الأمم التي قَصَصْنَا عليكَ نبأهم، يا محمدُ، في هذه السورة، حتى جاءهم بأسُ الله فهلكوا به. «كذلك يطبعُ الله على قلوبِ الكافرينَ»، الذين كتب عليهم أنهم لا يؤمنون أبداً من قومك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: ولم نَجِـدْ لأكثرِ أهلِ هذه القرى التي أهلكناها واقْتَصَصْنَا عليكَ، يا محمدُ، نبأَهَا «من عهدٍ»، يقول: من وفاءٍ بما وَصَّيْنَاهُمْ به، من توحيدِ الله، واتِّباعِ رسله، والعَملِ بطاعتِه، واجتنابِ معاصيه، وهجرِ عبادةِ الأوثانِ والأصنام.

«وإنْ وجـدنـا أكثرهم»، يقول: وما وجدنا أكثرهم إلا فَسَقَةً عن طاعةِ رَبِّهم، تاركينَ عهدَهُ ووصيته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝١٠٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ثم بعثنا من بعدِ نوحٍ وهود وصالح ولوط وشعيب، موسى بن عِمْرانَ.

«بآياتنا» يقول: بِحُجَجِنَا وأدلَّتنا. «إلى فرعونَ ومَلَئِه»، يعني: إلى جماعةِ فرعونَ من الرجالِ. «فظلموا بها»، يقول: فكفروا بها.

ومعنى ذلك: فظلموا بآياتنا التي بعثنا بها موسى إليهم، وإنما جاز أنْ يقالَ: «فظلموا بها»، بمعنى: كَفَرُوا بها، لأنَّ الظلم وَضْعُ الشيءِ في غيرِ موضعه.

والكفـرُ بآيات الله، وَضْـعٌ لها في غيرِ موضعها، وصَرْفٌ لها إلى غيرِ وجهها الذي عُنِيت به. «فانظُرْ كيفَ كانَ عاقبةُ المفسدين»، يقول جَلَّ ثناؤه لنبيه محمدٍ ﷺ: فانظر، يا محمدُ، بعينِ قلبكَ، كيف كان عاقبةُ هؤلاء الذين أفسدوا في الأرض؟ - يعني فرعون وملأه، إذْ ظلموا بآياتِ الله التي جاءهم بها موسى عليه السلام، وكان عاقبتهم أنهم أُغْرِقُوا جميعاً في البحر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٤﴾

يقول جَلَّ ثناؤه: وقال موسى لفرعون: يا فرعون إنِّي رسولٌ من رَبِّ العالمين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٠٥ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٠٦﴾

اختلفت القَرَأَةُ في قراءةِ قوله: «حقيقٌ على أنْ لا أقولَ على اللهِ إلَّا الحَقَّ».

فقرأه جماعةٌ من قَرَأَةِ المكيين والمدنيين والبصرة والكوفة: ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ﴾، بإرسالِ «الياء» من «على»، وترك تشديدها، بمعنى: أنا حقيقٌ بأنْ لا أقولَ على الله إلا الحق - فوجهوا معنى «على» إلى معنى «الباء» كما يقال: «رميتُ بالقوس» و«على القوس» - و«جئتُ على حالٍ حسنة» و«بحال حسنة»[1].

وكان بعضُ أهلِ العلم بكلامِ العرب يقول: إذا قرىء ذلك كذلك، فمعناه: حريصٌ على أنْ لا أقولَ، أو: فحق أنْ لا أقولَ[2].

وقرأ ذلك جماعة من أهل المدينة: ﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ أَلَّا أَقُولَ﴾، بمعنى: واجبٌ عليَّ أن لا أقولَ، وحق عليَّ أنْ لا أقول.

(١) انظر معاني القرآن للفراء: ١/٣٨٦.

(٢) مجاز القرآن لأبي عبيدة: ١/٢٢٤.

والصوابُ من القول في ذلك أنهما قراءتان مشهورتان متقاربتا المعنى، قد قرأ بكلٍّ واحدةٍ منهما أئمةٌ من القَرَأَةِ، فبأيَّتِهِمَا قرأ القارئُ فمصيبٌ في قراءته الصوابَ.

وقوله: «قد جئتكم ببيِّنةٍ من ربِّكم»، يقول: قال موسى لفرعونَ ومَلَئِه: قد جئتكم ببرهانٍ من ربِّكم، يشهدُ، أيها القومُ، على صِحَّةِ ما أقولُ، وصِدْقِ ما أذكرُ لكم من إرسالِ الله إيايَ إليكم رَسولاً، فأرسِلْ يا فرعونُ معي بني إسرائيلَ. فقال له فرعونُ: «إنْ كنتَ جئتَ بآيةٍ»، يقول: بحجةٍ وعلامةٍ شاهدةٍ على صِدْقِ ما تقولُ. «فَأْتِ بها إنْ كنتَ من الصادقين».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

يقول جَلَّ ثناؤُه: فألقى موسى عَصَاهُ. «فإذا هي ثعبانٌ مبين»، يعني حية. «مبين»، يقول: تَتَبَيَّنُ لمن يراها أنها حيةٌ.

وأما قوله: «ونزَع يده فإذا هي بيضاء للناظرين»، فإنه يقول: وأخرجَ يده، فإذا هي بيضاء تلوحُ لمن نظرَ إليها من الناس.

وكان موسى، فيما ذُكِرَ لنا، آدمَ[٢]، فجعل الله تَحَوُّلَ يدهِ بيضاءَ من غير بَرَصٍ، له آيةً، وعلى صِدْقِ قوله: «إني رسولٌ من رب العالمين»، حُجةً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾

---

(٢) الأدم: الأسمر.

يقول تعالى ذِكْرُه: قالت الجماعةُ من رجالِ قومِ فرعونَ والأشراف منهم. «إنَّ هذا»، يَعْنُونَ موسى صلواتُ الله عليه. «لساحرٌ عليم»، يعنون أنه يأخذُ بأعينِ الناسِ بخداعهِ إياهم، حتى يُخَيل إليهم العصا حيّة، والآدم أبيض، والشيء بخلافِ ما هُوَ به.

وقوله: «عليم»، يقول: ساحرٌ عليمٌ بالسحر. «يريدُ أنْ يخرجكم من أرضكم»، أرضِ مصرَ، معشرَ القبطِ السحرة، وقال فرعونُ للملأ: «فماذا تأمرون»، يقول: فأي شيءٍ تأمرون أنْ نفعلَ في أمره؟ بأي شيءٍ تشيرون فيه؟

وقيل: «فماذا تأمرون»، والخبرُ بذلك عن فرعون، ولم يذكر فرعون، وقَلَّمَا يجيءُ مثل ذلك في الكلام، وذلك نظير قوله: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ* ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾، [يوسف: ٥١، ٥٢]. فقيل: ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب»، من قولِ يوسف، ولم يذكر يوسف، ومن ذلك أن يقول: «قلتُ لزيدٍ قُمْ، فإني قائم»، وهو يريدُ: «فقال زيد إنِّي قائم».

القَوْلُ فى تَأْويل قَوْلِه تَعَالَى: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال الملأُ من قومِ فرعونَ لفرعونَ: أرجئه، أي: أَخِّرْهُ.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك.

فقرأته عامة قرأة المدينة وبعض العراقيين: ﴿أرْجِهِ﴾ بغيرِ الهمزِ، وبجرِّ «الهاء».

وقرأه بعض قَرَأَةِ الكوفيين: ﴿أَرْجِهْ﴾ بترك الهمز وتسكين «الهاء»، على لغةِ مَنْ يقف على الهاءِ في المكنيِّ في الوصل، إذا تحركَ ما قَبْلَها.

وقرأه بعض البصريين: ﴿أَرْجِئْهُ﴾ بالهمز وضم «الهاء»، على لغة قيس.

وأولى القراءات في ذلك بالصواب، أشهرها وأفصحها في كلام العرب، وذلك ترك الهمز وجرُّ «الهاء»، وإنْ كانت الأخرى جائزة، غير أن الذي اخترنا أفصح اللغات وأكثرها على ألسنِ فصحاءِ العرب.

وأما قوله: «وأرسل في المدائنِ حاشرين»، يقول: مَنْ يحشرُ السَّحَرَةَ فيجمعهم إليك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾﴾

وهـذا خبـرٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ عن مشورةِ الملأ من قومِ فرعونَ على فرعونَ، أنْ يرسلَ في المدائنِ حاشرينَ يحشرونَ كُلَّ ساحرٍ عليم.

وفي الكلام محذوف، اكتفى بدلالةِ الظاهر من إظهارِهِ، وهو: فأرسل في المدائن حاشرين، يحشرون السحرة.

«فجاء السحرةُ فرعونَ قالوا إنَّ لنا لأجراً»، يقول: إنَّ لنا لثواباً على غَلَبَتِنا موسى عندكَ. «إنْ كنا»، يا فرعونُ، «نحن الغالبين».

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَـى: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾﴾

يقول جَلَّ ثناؤه: قال فرعونُ للسحرةِ، إذ قالوا له: إنَّ لنا عندكَ ثواباً إنْ نحنُ غلبنا موسى؟ قال: نعم، لَكُمْ ذلكَ، وإنكم لَمِمَّنْ أُقَرِّبُه وأُدْنيه مني. «قالوا يا موسى»، يقول: قالتِ السحرةُ لموسى: يا موسى، اخترْ أنْ تُلْقِي عصاكَ، أو نُلقي نحنُ عِصِيَّنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَلْقُوا۟ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال موسى للسحرةِ: أَلْقُوا ما أنتم مُلْقُونَ! فالقتِ السحرةُ ما معهم، فلما ألقوا ذلك. «سَحَرُوا أعينَ الناس»، خَيَّلُوا إلى أعينِ الناسِ بما أحدثوا من التخييلِ والخُدَع أنها تسعى. «واسترهبوهم»، يقول: واسترهبوا الناسَ بما سحروا في أعينهم، حتى خافوا من العصيِّ والحبال، ظنًّا منهم أنها حَيَّات. «وجاؤوا»، كما قال اللهُ، «بسحرٍ عظيم»، بتخييلٍ عظيمٍ كبيرٍ من التخييلِ والخداع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأوحينا إلى موسى أنْ ألقِ عصاكَ، فألقاها فإذا هي تلقمُ وتبتلعُ ما يسحرون كذباً وباطلاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فظهرَ الحَقُّ وتبين لمن شهده وحضره في أمرِ موسى، وأنه لله رسولٌ يدعو إلى الحق. «وبَطَلَ ما كانوا يعملون»، من إفْكِ السحرِ وكَذِبهِ ومخايله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ۝١١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فغلب موسى فرعونَ وجموعَهُ. «هنالك»، عندَ ذلك «وانقلبوا صاغرين»، يقول: وانصرفوا عن موطِنهم ذلك بصغَرٍ مقهورينَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝١٢٠ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأُلقيَ السحرةُ عند ما عَاينُوا من عظيمِ قُدْرَةِ الله، ساقطينَ على وجوههم سُجَّداً لربهم، يقولون: «آمنا بربِّ العالمين»، يقولون: صَدَّقْنَا بما جاءنا به موسى، وأنَّ الذي علينا عبادته، هو الذي يملكُ الجنَّ والإنسَ وجميعَ الأشياءِ، وغير ذلك، ويُدَبِّرُ ذلك كله. «رَبِّ موسى وهارون»، لا فرعونَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝١٢٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال فرعونُ للسحرةِ إذْ آمنوا بالله ـ يعني صَدَّقُوا رسولَهُ

موسى عليه السلام، لما عاينوا من عظيمِ قُدْرةِ الله وسلطانه: «آمنتم به»، يقول: أَصدَّقْتُمْ بموسى وأقررتم بنبوَّته. «قبلَ أنْ آذَنَ لكم»، بالإيمانِ به. «إن هذا»، يقول: تَصْدِيقُكم إياهُ، وإقراركم بنبوَّته. «لمكرٌ مكرتمُوه في المدينة»، يقول: لخدعةٌ خَدَعتم بها مَنْ في مدينتنا، لِتُخْرِجُوهم منها. «فسوفَ تعلمون»، ما أفعلُ بكم، وما تَلْقَوْنَ من عقابي إياكم على صنيعكم هذا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مخبراً عن قِيْلِ فرعونَ للسحرةِ إذْ آمنوا بالله وصَدَّقُوا رسوله موسى: «لأُقَطِّعَنَّ أيديكم وأرجلكم من خِلاف»، وذلك أنْ يقطعَ من أحدهم يَدَهُ اليمنى ورِجْلَهُ اليسرى، أو يقطع يده اليسرى ورجله اليمنى، فيخالفَ بين العضوين في القَطْع، فمخالفته في ذلك بينهما هو «القطعُ من خِلافٍ».

ويقال: إنَّ أوَّلَ مَنْ سَنَّ هذا القطعَ فرعون. «ثم لأُصَلِّبَنَّكُمْ أجمعينَ»، وإنما قال هذا فرعونُ، لما رأى من خذلانِ اللهِ إياهُ، وغَلَبَةِ موسى عليه السلام وقهره له.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال السحرةُ مُجيبةً لفرعونَ، إذْ تَوَعَّدَهُمْ بقطعِ الأيدي

والأرجلِ من خِلاف، والصلب: «إنَّا إلى رَبِّنا منقلبون»، يعني بالانقلابِ إلى الله، الرجوع إليه والمصير. وقوله: «وما تَنْقِمُ مِنَّا إلاَّ أنْ آمنا بآياتِ ربنا»، يقول ما تُنْكِرُ منا، يا فرعون، وما تَجدُ علينا، إلاَّ من أجلِ أنْ آمنا، أي صَدَّقْنَا. «بآياتِ ربنا»، يقول: بحججِ رَبِّنَا وأعلامِه وأدلتِه التي لا يقدرُ على مِثْلِهَا أنتَ ولا أحدٌ، سِوى الله الذي له ملكُ السمواتِ والأرض. ثم فزعوا إلى الله بمسألتهِ الصبرَ على عذابِ فرعونَ، و قبض أرواحِهم على الإسلام، فقالوا: «رَبَّنَا أفرِغْ علينا صبراً»، يعنون بقولهم: «أفرغ»، أَنْزِلْ علينا حَبْساً يَحْبِسُنَا عن الكفرِ بكَ، عند تعذيبِ فرعونَ إيَّانَا. «وتَوَفَّنَا مسلمين»، يقول: واقبضنا إليك على الإسلامِ دِينِ خليلكَ إبراهيم ﷺ، لا على الشِّرْكِ بِكَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقالت جماعةُ رجالٍ من قوم فرعونَ لفرعونَ: أَتَدَعُ موسى وقـومَـهُ من بني إسرائيل. «ليفسدوا في الأرض»، يقول: كي يفسدوا خَدَمَـكَ وعبيدكَ عليكَ في أرضـك من مصـر. «ويَذَرَكَ وآلهتَـكَ»، يقـول: «ويذرك»، ويدع خِدْمتك موسى وعبادتَكَ وعبادَةَ آلهتك.

وفي قوله: «ويذرك وآلهتك»، وجهان من التأويل.

أحدهما: أَتَذَرُ موسى وقومَهُ ليفسدوا في الأرض، وقد تركَكَ وتركَ عبادتك وعبادةَ آلهتك ـ وإذا وُجِّه الكلامُ إلى هذا الوجهِ من التأويلِ، كان النصبُ في قوله: «ويذرك»، على الصرف، لا على العطفِ به على قوله: «ليفسدوا».

والثاني: أتذرُ موسى وقومه ليفسدوا في الأرض، وليذرك وآلهتك كالتوبيخ

منهم لفرعونَ على تركِ موسى ليفعلَ هذين الفِعْلَيْنِ. وإذا وجِّه الكلامُ إلى هذا الوجه، كان نصب «ويذرك» على العطف على «ليفسدوا».

والوجه الأول أَوْلى الوجهين بالصوابِ، وهو أن يكون نصب «ويذرك» على الصرف، لأنَّ التأويلَ من أهلِ التأويل به جاء.

كأنه وجَّه تأويله إلى: أتذر موسى وقومه، ويذرك وآلهتك، ليفسدوا في الأرض.

وقد تحتمل هذه القراءة أن يكون معناها: أَتَذَرُ موسى وقومَهُ ليفسدوا في الأرض، وهو يَذَرُكَ وآلهتك ـ فيكون «يذرك» مرفوعاً بابتداءِ الكلامِ والسلامةِ من الحوادث.

وأما قوله: «وآلهتك»، فإنَّ قَرَأَةَ الأمصارِ على فتح «الألف» منها ومدِّها، بمعنى: وقد ترك موسى عبادتَكَ وعبادةَ آلهتك التي تعبدها.

وقوله: «قال سَنُقَتِّلُ أبناءهم»، يقول: قال فرعونُ: سنقتل أبناءهم الذكور من أولاد بني إسرائيل. «ونَسْتَحْيِي نساءهم»، يقول: ونستبقي إناثهم. «وإنا فوقَهم قاهرون»، يقول: وإنا عَالُونَ عليهم بالقهرِ، يعني بقهر الملك والسلطان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ١٢٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «قال موسى لقومه»، من بني إسرائيل، لما قال فرعون للملأ من قومه: «سنقتل أبناء بني إسرائيل ونستحيي نساءهم». «استعينُوا بالله»،

على فرعونَ وقومِهِ فيما يَنُوبُكم من أمرِكم. «واصبروا»، على ما نَالَكُمْ من المكارِهِ في أنفسِكم وأبنائِكم من فرعونَ.

وقوله: «إنَّ الأرضَ لله يورثها مَنْ يشاءُ من عباده»، يقول: إنَّ الأرضَ لله، لَعَلَّ الله أنْ يورثكم - إنْ صبرتم على ما نالَكُمْ من مكروهٍ في أنفسكم وأولادكم من فرعون، واحْتَسَبْتُمْ ذلك، واستقمتم على السداد - أرضَ فرعونَ وقومه، بأنْ يُهْلِكَهُمْ ويستخلفكم فيها، فإنَّ الله يورثُ أرضَهُ مَنْ يشاءُ من عباده. «والعاقبةُ للمتقين»، يقول: والعاقبةُ المحمودةُ لمن اتقى اللهَ وراقبه، فخافَهُ باجتنابِ معاصِيه، وأدَّى فرائِضَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ١٢٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال قومُ موسى لموسى، حينَ قالَ لهم: «استعينوا بالله واصبروا». «أُوذِينَا»، بقتلِ أبنائنا. «مِنْ قَبْلِ أنْ تَأْتِيَنَا»، يقول: مِنْ قبل أنْ تأتينا برسالةِ الله إلينا، لأنَّ فرعونَ كان يقتلُ أولادهم الذكور حين أظلَّهُ زمانُ موسى على ما قد بينتُ فيما مضى من كتابنا هذا.

وقوله: «ومِنْ بعدِ ما جِئتنا»، يقول: ومن بعدِ ما جئتنا برسالةِ الله، لأنَّ فرعونَ لما غُلِبَتْ سَحَرَتُهُ، وقال للملأ من قومه ما قالَ، أرادَ تجديدَ العذاب عليهم بقتلِ أبنائِهم واستحياءِ نسائهم.

وقيل: إنَّ قومَ موسى قالوا لموسى ذلك، حينَ خافوا أنْ يُدْرِكَهُمْ فرعونُ وهُمْ منه هاربونَ، وقد تراءى الجمعانِ، فقالوا له: «يا موسى أُوذينا مِنْ قَبْلِ أن

تأتينـا»، كانوا يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا. «ومن بعد ما جئتنا»، اليومَ يُدْرِكُنا فرعونُ فيقتلنا.

وقوله: «قال عسى رَبُّكم أنْ يُهلكَ عَدُوَّكُم»، يقول جَلَّ ثناؤه: قال موسى لقومه: لعـلَّ رَبَّكُم أنْ يُهلكَ عدوكم فرعـون وقومه. «ويستخلفكم»، يقول: يجعلكم تَخْلُفُونهم في أرضِهم بعد هلاكِهم، لا تخافونهم ولا أحداً من الناسِ غيرهم. «فينظُرَ كيف تعملون»، يقول: فيرى رَبُّكم ما تعملونَ بعدهم، من مسارعَتِكُمْ في طاعته، وتثاقلكم عنها.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ١٣٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد اختبرنا قومَ فرعونَ وأتباعه على ما هُمْ عليه من الضلالةِ. «بالسنين»، يقول: بالجُدوبِ سنةً بعد سنة، والقحوط. «ونَقْصٍ من الثمرات»، يقول: واختبرناهم مع الجدوبِ بذهابِ ثمارِهم وغَلَّاتِهم إلا القليل. «لعلهم يَذَّكَّرُونَ»، يقول: عِظَةً لهم، وتذكيراً لهم، لينزجِرُوا عن ضلالتهم، ويفزعوا إلى رَبِّهم بالتوبةِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فإذا جاءت آلَ فرعونَ العافيةُ والخِصْبُ والرخاءُ وكثرةُ الثمـار، ورأوا ما يحبونَ في دُنياهم. «قالوا لنا هذه»، نحنُ أَوْلى بها. «وإنْ تُصِبْهُمْ سيئةٌ»، يعني جُدوبٌ وقُحوطٌ وبلاء. «يَطَّيَّرُوا بموسى ومَنْ معه»، يقول:

يتشاءَموا بهم، ويقولوا: ذهبتْ حُظوظُنا وأنصباؤنا من الرخاءِ والخِصْبِ والعافية، مُذْ جاءنا موسى عليه السلام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٣١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ألا ما طائر آل فرعون وغيرهم - وذلك أنصباؤهم من الرخاءِ والخِصْبِ وغير ذلك من أنصباءِ الخير والشرِّ - «إلا عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون»، أنَ ذلك كذلك، فَلِجَهْلِهم بذلكَ كانوا يَطَّيَّرُونَ بموسى ومَنْ معه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ١٣٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقال آلُ فرعونَ لموسى: يا موسى، مهما تَأْتِنَا به من علامةٍ ودلالةٍ. «لتسحرنا»، يقول: لِتَلْفِتَنَا بها عَمَّا نحنُ عليه من دينِ فرعون. «فما نحنُ لك بمؤمنين»، يقول: فما نحنُ لك في ذلك بمصدِّقينَ على أنكَ مُحِقٌّ فيما تَدْعُونَا إليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾

اختلف أهلُ التأويل في معنى «الطوفان».

فقال بعضهم: هو الماء.

وقال آخرون: بل هو الموتُ.

الأعراف: ١٣٣

وقال آخرون: بل ذلك كان أمراً من الله طافَ بهم.

وقال بعضهم: هو كثرةُ المطرِ والريح.

والصوابُ من القول في ذلك عندي: أنه أمرٌ من الله طافَ بهم، وأنه مصدرٌ من قولِ القائل: «طافَ بهم أمرُ الله يطوفُ طُوفَاناً»، كما يقال: «نقص هذا الشيء ينقصُ نُقْصَاناً».

وإذا كان ذلك كذلك، جازَ أنْ يكونَ الذي طافَ بهم المطرَ الشديدَ وجاز أن يكون الموتَ الذريعَ.

وأما «القُمَّل»، فإنَّ أهلَ التأويلِ اختلفوا في معناه.

فقال بعضهم: هو السوسُ الذي يخرجُ من الحنطة.

وقال آخرون: بل: هو الدَّبَى، وهو صِغارُ الجرادِ الذي لا أجنحةَ له.

وقال آخرون: بل «القُمَّل»، البراغيثُ.

وقال بعضهم: هي دوابُّ سُودٌ صغار.

وكان بعضُ أهلِ العلمِ بكلامِ العربِ من أهلِ البصرةِ يزعمُ[١]: أنَّ «القُمَّلُ» عند العرب الحَمْنان. و«الحمنان» ضَرْبٌ من القِرْدان[٢]، واحدتها «حَمْنانة»، فوق القمْقامة[٣].

وأما قوله: «آياتٍ مُفَصَّلات»، فإنَّ معناه: علامات ودلالات على صِحَّةِ

(١) هو أبو عبيدة في مجاز القرآن: ١/٢٢٦.

(٢) القردان: جمع قراد.

(٣) القمقامة: صغار القردان، لا يكاد يُرى من صغره، شديد التشبث بأصول الشعر، وهو ضربٌ من القمل أيضاً.

نُبُـوَّةِ موسى، وحقيقـةِ ما دعـاهم إليه. «مفصلات»، قد فصل بينها، فجعلَ بعضَها يتلو بعضاً، وبعضها في إثرِ بعض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فاستكبرَ هؤلاءِ الذين أرسلَ الله عليهم ما ذكر في هذه الآيات من الآياتِ والحجـج، عن الإيمانِ بالله وتصديقِ رسولِه موسى ﷺ، واتبـاعـه على ما دَعَـاهُمْ إليه، وتَعَـظَّمُـوا على الله وَعَتَوا عليه. «وكانوا قوماً مجرمين»، يقول: كانوا قوماً يعملون بما يكرهه اللهُ من المعاصي والفِسْقِ، عُتُوًّا وتَمَرُّداً.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «ولما وقع عليهمُ الرجزُ»، ولما نزل بهم عذابُ الله، وحَلَّ بهم سَخَطُه.

«قالوا يا موسى ادْعُ لنا رَبَّكَ بما عَهِدَ عندكَ»، يقول: بما أوصاكَ وأمركَ به.

«لئن كشفتَ عنا الرجز»، يقول: لئن رفعتَ عنا العذابَ الذي نحنُ فيه. «لَنُـؤْمِنَنَّ لك»، يقـول: لَنُصَـدِّقَنَّ بمـا جئتَ به ودعوتَ إليه، ولَنُقِرَّنَّ بِهِ لكَ

«ولَنُرْسِلَنَّ معكَ بني إسرائل»، يقول: ولَنُخَلِّيَنَّ معك بني إسرائيل، فلا نمنعهم أنْ يذهبوا حيث شاؤوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ١٣٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فدعا موسى رَبَّهُ فأجابه، فلما رفع اللهُ عنهم العذابَ الذي أنزله بهم. «إلى أجلٍ هُمْ بالغوه»، ليستوفوا عذابَ أيامِهم التي جعلَها اللهُ لهم من الحياةِ أجلاً، إلى وقتِ هلاكِهم. «إذا هُمْ ينكثون»، يقول: إذا هم يَنْقُضُونَ عهودَهم التي عاهدوا ربَّهم وموسى، ويقيمون على كُفْرِهم وضلالهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ١٣٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما نَكَثُوا عهودَهم. «انتقمنا منهم» يقول: انتصرنا منهم بإحلالِ نِقْمَتِنَا بهم، وذلك عذابه. «فأغرقناهم في اليَمِّ»، وهو البحر.

«بأنهم كذبوا بآياتنا»، يقول: فعلنا ذلك بهم بتكذيبهم بحُجَجِنَا وأعلامنا التي أَرَيْنَاهُمُوهَا. «وكانوا عنها غافلينَ»، يقول: وكانوا عن النقمة التي أحللناها. بهم، غافلينَ قبلَ حلولها بهم أنَّها بهم حالَّةٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ

كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: وأورثنا القومَ الذين كان فرعونُ وقومه يَسْتضعفونَهم فيذبحون أبناءهم، ويستحيون نساءَهُمْ، ويستخدمونهم تسخيراً واستعباداً من بني إسرائيل. «مشارقَ الأرض»، الشأم، وذلك ما يلي الشرق منها. «ومغارِبَها التي باركنا فيها»، يقول: التي جعلنا فيها الخيَر ثابتاً دائماً لأهلها.

وإنما قال جَلَّ ثناؤُهُ: «وأورثنا»، لأنه أورثَ ذلك بني إسرائيلَ بِمَهْلِكِ مَنْ كان فيها من العمالقة.

وأما قوله: «وتمت كلمةُ رَبِّكَ الحسنى»، فإنه يقول: وَفَى وعدُ الله الذي وَعَدَ بني إسرائيلَ بتمامه على ما وَعَدَهُمْ، من تمكينهم في الأرض، ونصره إياهم على عَدُوِّهم فرعون. «وكلمته الحسنى» قولُه جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ* وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥، ٦].

وأما قوله: «ودَمَّرْنَا ما كان يصنعُ فرعونُ وقومه»، فإنه يقول: وأهلكنا ما كان فرعونُ وقومُه يصنعونه من العِمارات والمزارعِ. «وما كانوا يعرشون». يقول: وما كانوا يَبْنُونَ من الأبنيةِ والقصورِ، وأخرجناهم من ذلك كُلِّه، وخَرَّبنا جميع ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقطعنا ببني إسرائيل البحرَ بعد الآياتِ التي أَرْيْنَاهُمُوها، والعبر التي عاينوها على يدي نبيِّ الله موسى، فلم تَزْجُرْهُم تلكَ الآياتُ، ولم تَعِظْهُمْ تلك العِبَرُ والبيناتُ! حتى قالوا مع مُعَايَنَتِهم من الحججِ ما يحقُّ أنْ يُذْكَرَ معها البهائم، إذْ مَرُّوا على قومٍ يعكفونَ على أصنامٍ لهم، يقول: يقومون على مُثُل لهم يعبدونها من دون الله. «اجعل لنا» يا موسى «إلهاً»، يقول: مثالاً نعبدُه وصنماً نَتَّخِذُه إلهاً، كما لهؤلاءِ القومِ أصنامٌ يعبدونها. ولا تنبغي العبادةُ لشيءٍ سوى الله الواحد القهار. وقال موسى صلواتُ الله عليه: إنكم، أيها القومُ، قومٌ تَجْهلونَ عظمةَ الله وواجبَ حَقِّه عليكم، ولا تعلمونَ أنه لا تجوزُ العبادةُ لشيءٍ سوى الله الذي له ملكُ السمواتِ والأرض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ١٣٩﴾

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن قِيْلِ موسى لقومهِ من بني إسرائيل. يقول تعالى ذِكْرُه: قال لهم موسى: إنَّ هؤلاء العُكوف على هذه الأصنامِ، الله مُهْلِكٌ ما هُمْ فيه من العمل، ومُفْسِدُه ومُخسرهم فيه، بإثابَتِه إياهم عليه العذابَ المهين. «وباطلٌ ما كانوا يعملون»، من عبادَتِهم إياها، فَمُضْمَحِلٌّ، لأنه غيرُ نافِعهم عند مجيءِ أمرِ الله وحلولهِ بساحتهم، ولا مدافع عنهم بأسَ الله إذا نزلَ بهم، ولا مُنْقذهم من عذابهِ إذا عَذَّبهم في القيامة، فهو في معنى ما لم يكن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ١٤٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال موسى لقومه: أسِوَى الله أَلْتَمِسُكم إلهاً، وأجعل

لكم معبوداً تعبُدُونَهُ، والله الذي هو خالقكم فَضَّلكُمْ على عالمي دَهْرِكم وزمانِكم؟ يقول: أفأبْغِيكُمْ معبوداً لا ينفعُكُمْ ولا يَضُرُّكُمْ تعبدونه، وتتركون عبادةَ مَنْ فَضَّلكم على الخَلْقِ؟ إنَّ هذا منكم لجهلٍ!

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لليهودِ من بني إسرائيلَ الذين كانوا بين ظهراني مُهَاجَرِ رسولِ الله ﷺ: واذكروا - مع قِيْلِكُم هذا الذي قُلتموهُ لموسى بعد رؤيتكم من الآياتِ والعبر، وبعد النعمِ التي سلفت مني إليكم، والأيادي التي تَقَدَّمَتْ - فِعْلَكم ما فعلتم. «إذ أنجيناكم من آلِ فرعون»، وهم الذين كانوا على منهاجه وطريقتِه في الكفرِ باللهِ من قومه. «يسومونكم سوء العذابِ»، يقول: إذْ يحملونكم أقبحَ العذابِ وسيئه.

«يقتلون أبناءكم»، الذكورَ من أولادِهم. «ويستحيون نساءكم»، يقول: يستبقون إناثهم. «وفي ذلكم بلاءٌ من رَبِّكم عظيم»، يقول: وفي سَوْمِهم إياكم سوء العذاب، اختبارٌ من الله لكم ونعمةٌ عظيمة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وواعدنا موسى لِمُنَاجَاتِنَا ثلاثينَ ليلة. وقيل إنها ثلاثون ليلة من ذي القعدة.

«وأتممناها بِعَشْرٍ»، يقول: وأتممنا الثلاثينَ الليلة بعشرِ ليالٍ تتمةَ أربعينَ ليلة.

وقيل: إنَّ العشر التي أتمها به أربعينَ، عشر ذي الحجة.

وأما قوله: «فتَمَّ ميقاتُ رَبِّه أربعينَ ليلة»، فإنه يعني: فكمل الوقتُ الذي واعدَ اللهُ موسى أربعينَ ليلة، وبلغها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ١٤٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لما مضى لموعدِ رَبِّه قال لأخيهِ هارون: «اخْلُفني في قومي»، يقول: كُنْ خليفتي فيهم إلى أن أرجع.

«وأصلحْ»، يقول: وأصلحهم بحملكَ إياهم على طاعةِ الله وعبادته.

وقوله: «ولا تتبع سبيلَ المفسدين»، يقول: ولا تَسْلُكْ طريقَ الذين يفسدون في الأرضِ، بمعصيتهم رَبَّهم، ومعونتهم أهل المعاصي على عِصيانهم رَبَّهم، ولكن اسلكْ سبيلَ المطيعينَ رَبَّهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولما جاء موسى للوقتِ الذي وعدنا أنْ يلقانا فيه. «وكَلَّمَهُ رَبُّه»، وناجاه - «قال» موسى لربه - «أَرِني أنظُرْ إليكَ»، قال الله له مجيباً: «لن تراني ولكن انظر إلى الجبل».

الأعراف: ١٤٣

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما اطَّلَعَ الرَّبُّ للجبلِ، جعلَ اللهُ الجبلَ دكًّا، أي: مستوياً بالأرض. «وخَرَّ موسى صَعِقاً»، أي: مَغْشِيّاً عليه.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: ﴿دكًّا﴾.

فقرأته عامةُ قَرَأَةِ أهلِ المدينة والبصرة: «دكًّا»، مقصوراً بالتنوين بمعنى: «دكَّ اللهُ الجبلَ دكًّا»، أي: فَتَّتَهُ، واعتباراً بقولِ الله: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾، [الفجر: ٢١] وقوله: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤]، واستشهد بعضُهم على ذلك بقول حميد:

يَدُكُّ أركانَ الجِبالِ هَزَمُهْ تَخْطُر بالبِيضِ الرِّقاقِ بُهَمُهْ

وقرأته عامةُ قَرَأَةِ الكوفيين: ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾، بالمد وترك الجر والتنوين. مثل «حمراء»، و«سوداء».

وأَوْلى القراءتين في ذلك بالصوابِ عندي، قراءةُ مَنْ قرأ: ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾، بالمد وترك الجر، لدلالةِ الخبرِ الذي رويناه عن رسولِ الله ﷺ على صحته. وذلك أنه رُوِيَ عنه ﷺ أنه قال: «فَسَاخَ الجبلُ»[1]، ولم يقل: «فَتَفَتَّتَ»، ولا «تَحَوَّلَ تراباً». ولاشكَّ أنه إذا ساخَ فذهب، ظهرَ وجهُ الأرضِ، فصار بمنزلةِ الناقةِ التي قد ذهب سنامُهَا، وصارت دكاء بلا سنام. وأما إذا دكَّ بعضه، فإنما يكسرُ بعضه بعضاً ويتفتتُ ولا يَسُوخ.

---

(١) يعني حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس، حينما سُئِلَ رسول الله ﷺ عن هذه الآية، أخرجه الطبري (١٥٠٨٧) و(١٥٠٨٨)، والترمذي (٣٠٧٤) وصححه، والحاكم: ٢/٣٢٠، وصححه ووافقه الذهبي.

فمعنى الكلام إذاً: فلما تَجَلَّى رَبُّه للجبلِ ساخَ، فجعلَ مكانَهُ أرضاً دَكَّاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٤٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما ثابَ إلى موسى عليه السلام فَهْمه من غَشيتهِ، وذلك هو الإفاقةُ من الصعقةِ التي خَرَّ لها موسى ﷺ. «قال سبحانكَ»، تنزيهاً لكَ، يا رب، وتبرئةً أنْ يراكَ أحدٌ في الدنيا، ثم يعيش. «تُبْتُ إليكَ»، من مسألتي إياكَ ما سألْتُكَ من الرؤيةِ. «وأنا أوَّلُ المؤمنين»، بكَ من قومي، أنْ لا يراكَ في الدنيا أحدٌ إلا هَلَكَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝١٤٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه، قال الله لموسى: يا موسى: «إنِّي اصطفيتُكَ على الناس»، يقول: اخْتَرْتُكَ على الناسِ. «برسالاتي»، إلى خلقي، أرسلتكَ بها إليهم. «وبكلامي»، كَلَّمْتُكَ وناجيتكَ دونَ غيركَ من خَلْقي. «فَخُذْ ما آتيتُكَ» يقول: فخذ ما أعطيتُكَ من أمري ونَهْيِي وتَمَسَّكْ به، واعملْ به (بجدٍ)[1] «وكُنْ من الشاكرين، لله على ما آتاكَ من رسالتِهِ، وخَصَّكَ به من النجوى، بطاعتِهِ في أمرِه ونهيه، والمسارعةِ إلى رِضاه.

---

(١) في الأصل نقص يُرَجَّحُ أنه «واعمل به بجدٍّ»، كما جاء بعدُ في تفسير الآية ١٤٥: «خُذْها بجدٍّ في العمل بما فيها واجتهاد».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وكتبنا لموسى في ألواحه.

وقوله: «من كُلِّ شيءٍ»، يقول: من التذكيرِ والتنبيهِ على عَظَمَةِ الله وعِزِّ سلطانه. «موعظةً»، لقومِه ومَنْ أُمِرَ بالعملِ بما كُتِبَ في الألواح. «وتفصيلاً لكل شيء»، يقول: وتبييناً لكلِّ شيءٍ من أمر اللهِ ونهيِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقلنا لموسى، إذْ كتبنا له في الألواحِ من كُلِّ شيءٍ موعظةً وتفصيلاً لكلِّ شيءٍ: خُذِ الألواحَ بقوة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: قلنا لموسى: «وأْمُرْ قومكَ»، بني إسرائيل «يأخذوا بأحسنها»، يقول: يعملوا بأحسن ما يجدون فيها.

فإن قال قائلٌ: وما معنى قوله: «وَأْمُرْ قومكَ يأخذوا بأحسنها»، أَكانَ من خِصَالِهم ترك بعضِ ما فيها من الحسن؟

قيل: لا، ولكن كان فيها أمرٌ ونهيٌ، فأمرهم اللهُ أنْ يعملوا بما أمرهم بعمله، ويتركوا ما نَهاهم عنه، فالعملُ بالمأمورِ به، أحسنُ من العملِ بالمنهيِّ عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ١٤٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لموسى، إذْ كتب في الألواح من كُلِّ شيءٍ: خُذْهَا بجدٍّ في العمل بما فيها واجتهادٍ، وأْمُرْ قومكَ يأخذوا بأحسن ما فيها، وانْهَهُمْ عن تَضييعِها وتضييعِ العملِ بما فيها والشرك بي، فإنَّ مَنْ أشركَ بي منهم ومن غيرهم، فإني سَأُرِيه في الآخرةِ عند مصيرهِ إليَّ، «دارَ الفاسقين»، وهي نارُ الله التي أعَدَّهَا لأعدائه.

وإنما قال: «سأريكم دارَ الفاسقين»، كما يقول القائل لمن يخاطبه: «سَأُرِيكَ غداً إلامَ يصيرُ إليه حالُ مَنْ خالفَ أمري!»، على وجه التهدُّدِ والوعيدِ لِمَنْ عَصَاهُ وخالفَ أمره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ

اختلف أهلُ التأويلِ في معنى ذلك.

فقال بعضهم: معناهُ: سأنزعُ عنهم فَهْمَ الكتاب.

وقال آخرون في ذلك: معناه: سأصرفهم عن الاعتبارِ بالحجج.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ أن يُقالَ: إنَّ الله أخبرَ أنه سيصرفُ عن آياتهِ، وهي أدِلَّته وأعلامُه على حقيقةِ ما أمرَ به عبادَهُ وفرض عليهم من طاعتهِ في توحيده وعَدْلِه، وغير ذلك من فرائضِه. والسموات والأرض وكل موجود من خَلْقِه، فمن آياتِه، والقرآن أيضاً من آياته، وقد عَمَّ بالخبرِ أنه يصرفُ عن آياتِه المتكبرينَ في الأرض بغيرِ الحَقِّ، وهُم الذينَ حقَّت عليهم كلمةُ الله أنهم لا يؤمنون، فهم عن فَهْمِ جميعِ آياته والاعتبارِ والادِّكَارِ بها مصروفونَ، **لأنهم** لو وُفِّقُوا لِفَهْمِ بعضِ ذلك فَهُدُوا للاعتبارِ به، اتَّعَظُوا وأنابوا إلى الحَقِّ، وذلك غير

كائنٍ منهم، لأنه جَلَّ ثناؤُهُ قال: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾، فلا تبديلَ لكلمات الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ۝١٤٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإنْ يَرَ هؤلاء الذين يتكبرونَ في الأرضِ بغير الحق - و«تكبرهم فيها بغيرِ الحق»، تَجَبّرهم فيها، واستكبارهم عن الإيمانِ باللهِ ورسوله، والإذعانِ لأمرِهِ ونهيه، وهُمْ لله عبيدٌ يَغْذُوهم بنعمتِه، ويريحُ عليهم رزقه بُكْرةً وعشيًّا، «كُلَّ آيةٍ»، يقول: كُلَّ حُجَّةٍ لله على وحدانيتِه وربوبتِهِ، وكُلَّ دلالةٍ على أنه لا تنبغي العبادةُ إلا له خالصةً دونَ غيره. «لا يؤمنون بها»، يقول: لا يُصَدِّقُوا بتلك الآيةِ أنها دالةٌ على ما هيَ فيه حجةٌ، ولكنهم يقولون: «هي سِحْرٌ وكَذِبٌ». «وإنْ يَرَوْا سبيلَ الرشد لا يتخذوه سبيلًا»، يقول: وإنْ يَرَ هؤلاء الذين وَصَفَ صِفَتَهُم طريقَ الهدى والسداد الذي إنْ سلكوهُ نَجَوْا من الهَلَكَةِ والعطبِ، وصاروا إلى نعيمِ الأبد، لا يسلكُوه ولا يَتَّخِذُوه لأنفسِهم طريقاً، جهلاً منهم وحيرة. «وإنْ يَرَوْا سبيلَ الغَيِّ»، يقول: وإنْ يَرَوْا طريقَ الهلاكِ الذي إنْ سلكوه ضَلُّوا وهَلَكُوا.

«يتخذوه سبيلًا»، يقول: يسلكوهُ ويجعلوهُ لأنفسهم طريقاً، لِصَرْفِ اللهِ إيَّاهُمْ عن آياتِه، وطَبْعِه على قلوبهم، فهم لا يُفْلِحُونَ ولا ينجحونَ. «ذلك بأنهم كَذَّبُوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين»، يقول تعالى ذِكْرُه: صرفناهم عن آياتنا أنْ يَعْقِلُوها ويفهموها فيعتبروا بها ويذكروا فينيبوا، عقوبةً مِنَّا لهم على تكذيبِهم بآياتنا. «وكانوا عنها غافلينَ»، يقول: وكانوا عن آياتِنَا وأدِلَّتِنَا الشاهدةِ على

حقيقةِ ما أمرناهُمْ به ونهيناهم عنه. «غافلينَ»، لا يتفكَّرونَ فيها، لاهِينَ عنها، لا يعتبرونَ بها، فَحَقَّ عليهم حينئذٍ قولُ رَبِّنا فعَطِبوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وهؤلاء المستكبرونَ في الأرض بغيرِ الحَقِّ، وكلّ مكذِّبٍ حججَ الله ورسله وآياته، وجاحدٍ أنه يومَ القيامة مبعوثٌ بعد مماتِه، ومُنكرٍ لقاءَ الله في آخرته - ذهبتْ أعمالُهم فَبَطُلَتْ، وحصلتْ لهم أوزارُهَا فَثَبَتَتْ، لأنهم عَمِلُوا لغيرِ الله، وأتعبوا أنفسهم في غيرِ ما يُرْضِي الله، فصارتْ أعمالُهم عليهم وبَالاً. يقول الله جَلَّ ثناؤُهُ: «هل يُجْزَوْنَ إلَّا ما كانوا يعملون»، يقول: هل يُثَابونَ إلَّا ثوابَ ما كانوا يعملون؟ فصار ثوابُ أعمالهم الخلودَ في نارٍ أحاطَ بهم سُرَادِقُهَا، إذْ كانت أعمالُهم في طاعةِ الشيطانِ، دونَ طاعةِ الرحمن، نعوذُ بالله من غضبه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ١٤٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: واتَّخَذَ بنو إسرائيلَ قومُ موسى، مِنْ بعدِ ما فَارَقَهُمْ موسى ماضياً إلى رَبِّه لمناجاتِه، ووفاءً للوعدِ الذي كان رَبُّه وَعَدَهُ. «مِنْ حُلِيِّهم عِجْلاً»، وهو وَلَدُ البقرةِ، فعبدُوهُ. ثم بَيَّنَ تعالى ذِكْرُه ما ذلكَ العجل فقال: «جسداً له خوار» - و«الخوار» صوتُ البقر - يُخْبِرُ جَلَّ ذِكْرُه عنهم أنهم ضَلُّوا بما لا يَضِلُّ بمثْلِه أهلُ العقل. وذلك أنَّ الربَّ جَلَّ جلالُه الذي له ملكُ السمواتِ

والأرض، ومُدَبِّرُ ذلك، لا يجوزُ أنْ يكونَ جسداً له خُوار، لا يكلمُ أحداً، ولا يرشدُ إلى خيرٍ. وقال هؤلاء الذين قَصَّ الله قَصَصهم لذلك: «هذا إلهنا وإلهُ موسى»، فعكفوا عليه يعبدونه، جهلاً منهم، وذهاباً عن الله وضلالاً.

وقوله: «ألم يَرَوْا أنه لا يُكَلِّمُهم ولا يَهْدِيهم سبيلاً»، يقول: ألم يَرَ الذين عكفوا على العجلِ الذي اتخذوه من حُلِّيهم يعبدونه، أنَّ العجل لا يُكَلِّمُهم ولا يهديهم سبيلاً؟ يقول: ولا يُرْشِدُهم إلى طريق؟ وليس ذلك من صفةِ رَبِّهم الذي له العبادةُ حقاً، بل صِفَتُه أنه يكلمُ أنبياءَهُ ورُسُلَهُ، ويرشدُ خَلْقَهُ إلى سبيلِ الخير، وينهاهم عن سبيلِ المهالكِ والردى.

يقول الله جَلَّ ثناؤُهُ: «اتَّخَذُوهُ»، أي: اتَّخَذُوا العِجْلَ إلهاً، وكانوا باتخاذِهم إياهُ ربًّا معبوداً ظالمينَ لأنفسهم، لعبادَتِهم غيرَ مَنْ له العبادةُ، وإضافتهم الأُلوهةَ إلى غيرِ الذي له الأُلوهةُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه بقوله: «ولما سُقِطَ في أيديهم»، ولما نَدِمَ الذين عبدوا العجلَ الذي وَصَفَ جَلَّ ثناؤُهُ صِفَتَهُ، عند رجوعِ موسى إليهم، واستسلموا لموسى وحُكْمِه فيهم.

وكذلك تقولُ العربُ لكلِّ نادمٍ على أمرٍ فاتَ منه أو سَلَفَ، وعاجزٍ عن شيء: «قد سُقِطَ في يديه» و«أسقط»، لغتان فصيحتان، وأصله من الاستئسار، وذلك أنْ يضربَ الرجلُ الرجلَ أو يصرعه، فيرمي به من يديه إلى الأرضِ ليأسره، فيكتفه. فالمرميُّ به مسقوطٌ في يدي الساقطِ به. فقيل لكلِّ عاجزٍ عن

شيء، وضارع لِعَجْزِهِ، متندّمٍ على ما قاله: «سُقِطَ في يديه» و«أسقط»[1].

وعَنَى بقـولـه: «ورأوا أنهم قد ضَلُّوا»، ورأوا أنهم قد جَارُوا عن قَصْدِ السبيل، وذهبوا عن دِينِ الله، وكفروا بربهم، قالوا تائبينَ إلى الله مُنِيبينَ إليه من كُفْرِهم به: «لَئِنْ لم يرحمنا رَبُّنا ويَغْفِرْ لنا لنكونَنَّ من الخاسرين».

ومعنى قوله: «لئن لم يَرْحَمْنَا رَبُّنَا ويغفرْ لنا»، لئن لم يَتعطَّفْ علينا رَبُّنا بالتوبةِ برحمتهِ، ويَتَغَمَّدْ بها ذُنوبَنَا، لنكونَنَّ من الهالكينَ الذين حَبِطَتْ أعمالُهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولما رجع موسى إلى قومهِ من بني إسرائيل، رجع غضبـانَ أسِفـاً، لأنَّ الله كان قد أخبَـرَهُ أنه قد فَتَنَ قومَهُ، وأنَّ السامريَّ قد أضَلَّهم، فكان رجوعُه غضبانَ أسفاً لذلك.

و«الأسف» شِدَّةُ الغضبِ، والتَّغَيُّظُ به على مَنْ أغضبه.

وقال آخرون: الحزن.

وقوله: «قال بِئْسَما خَلَفْتُموني من بعدي»، يقول: بئس الفعل فَعَلْتُمْ بعدَ فراقي إياكم وأوليتموني فيمن خلفتُ ورائي من قومي فيكم، وديني الذي أمَرَكُمْ به رَبُّكم.

وقوله: «أَعَجِلْتُمْ أمرَ رَبِّكم»، يقول: أسبقتم أمرَ رَبكم في نفوسكم وذهبتم عنه؟

---

(١) انظر معاني القرآن للفراء: ١/٣٩٣، ومجاز القرآن لأبي عبيدة: ١/٢٢٨.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٥٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وألقى موسى الألواحَ.

وسببُ إلقاءِ موسى الألواحَ كان من أجلِ غَضَبِه على قومِه لعبادَتِهم العجلَ، لأنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ بذلك أخبرَ في كتابِه فقال: «ولما رَجعَ موسى إلى قومِه غضبانَ أسفاً قال بئسما خلفتموني من بعدي أَعَجِلْتُمْ أمرَ رَبِّكم وألقى الألواحَ وأخذَ برأسِ أخيهِ يَجُرُّهُ إليه».

وقولُه: «إنَّ القومَ استضعفوني وكادوا يقتلونني»، يعني بالقوم، الذين عكفوا على عبادةِ العجلِ وقالوا: «هذا إلَهُنَا وإلهُ موسى»، وخالفوا هارون. وكان استضعافُهم إياهُ: تركهم طاعته واتباع أمرِه. «وكادوا يقتلونني»، يقول: قاربوا ولم يفعلوا.

وأما قوله: «ولا تجعلني مع القومِ الظالمين»، فإنه قولُ هارونَ لأخيه موسى. يقول: لا تجعلني في موجدتكَ عليَّ وعقوبتكَ لي ولم أخالفْ أمركَ، محلَّ مَنْ عَصَاكَ فخالفَ أمركَ، وعَبَدَ العجلَ بعدكَ، فظلم نفسه، وعَبَدَ غير مَنْ له العبادة، ولم أُشايعهم على شيءٍ من ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝١٥١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال موسى، لما تَبَيَّنَ له عُذْرُ أخيه، وعلم أنه لم يُفَرِّطْ في الواجبِ الذي كان عليه من أمرِ الله، في ارتكاب ما فعله الجَهَلَةُ مِن عَبَدَةِ

العجل: «رَبِّ اغفر لي»، مستغفراً من فعله بأخيه، ولأخيه من سالفٍ سَلَفَ له بينه وبين الله: تَغَمَّد ذنوبَنا بسترٍ منك تَسْتُرها به. «وأَدْخِلْنَا في رحمتك»، يقول: وارحمنا برحمتكَ الواسعة عبادَك المؤمنينَ، فإنكَ أنتَ أرحمُ بعبادكَ من كُلِّ مَنْ رحم شيئاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «إنَّ الذين اتَّخَذُوا العِجلَ» إلهاً. «سينالهم غَضَبٌ من رَبِّهم»، بتعجيلِ اللهِ لهم ذلكَ. «وذِلَّةٌ»، وهي الهوانُ، لعقوبةِ الله إياهم على كُفْرِهم بربِّهم. «في الحياة الدنيا»، في عاجل الدنيا قبل آجلِ الآخرة.

ويعني بقولـه: «وكـذلك نجزي المفترين»، وكما جزَيتُ هؤلاء الذين اتخذوا العجلَ إلهاً، من إحلال الغضبِ بهم، والإذلالِ في الحياة الدنيا على كُفْرِهم رَبَّهم، ورِدَّتهم عن دينهم بعد إيمانِهم بالله، كذلك نجزي كُلَّ مَن افترى على الله، فكذبَ عليه، وأقَرَّ بألوهيةِ غيرِه، وعَبَدَ شيئاً سِواهُ من الأوثانِ، بعد إقرارِه بوحدانيةِ الله، وبعد إيمانِه به وبأنبيائهِ ورُسُلِه وقِبْلِ ذلك، إذا لم يَتُبْ من كُفْرِهِ قبل قتله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه أنه قابلٌ من كُلِّ تائبٍ إليه من ذَنْبٍ أتاهُ، صغيرةً كانت معصيتُـه أو كبيرةً، كُفْراً كانت أو غيرَ كفرٍ، كما قبل من عَبَدَةِ العجل توبتَهم بعدَ كفرهم به بعبادتِهم العجلَ وارتدادِهم عن دينهم.

يقول جَلَّ ثناؤه: والذين عملوا الأعمالَ السيئة، ثم رجعوا إلى طَلَبِ رِضَى الله بإنابتهم إلى ما يحبُّ مِمَّا يكرهُ، وإلى ما يرضى مما يسخطُ، من بعد سيءِ أعمالهم، وصَدَّقُوا بأنَّ الله قابلٌ توبةَ المذنبينَ، وتائبٌ على المُنيبينَ، بإخلاصِ قلوبِهم ويقينٍ منهم بذلك. «لَغفورٌ»، لهم، يقول: لساترٌ عليهم أعمالَهم السيئة، وغير فاضِحهم بها. «رحيمٌ»، بهم، وبكلِّ مَنْ كان مِثْلَهُمْ من التائبينَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «ولما سكتَ عن موسى الغضبُ»، ولما كفَّ عنه وسكنَ.

«أخذ الألواح»، يقول: أخذها بعد ما ألقاها، وقد ذهبَ منها ما ذهب. «وفي نسختها هُدى ورحمة»، يقول: وفيما نسخ فيها، أي كتب فيها. «هدى» بيان للحق. «ورحمة للذين هم لربِّهم يَرْهَبُونَ»، يقول: للذين يخافونَ الله ويخشونَ عقابَهُ على معاصيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: واختار موسى من قومهِ سبعينَ رجلاً، للوقتِ والأجلِ الذي وَعَدَهُ الله أنْ يَلْقَاهُ فيه بهم، للتوبةِ مما كان من فِعْلِ سُفَهائِهم في أمرِ العجل.

وقد بينا معنى «الرجفة» فيما مضى وأنَّها: ما رجَفَ بالقومِ وزَعْزَعَهُمْ وحَرَّكهم، أهلكهم بَعْدُ فأماتهم، أو أصعقهم فَسَلَبَ أفهامَهُمْ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ۝١٥٥﴾

(يعني): إنَّ موسى إنما حزنَ على هلاكِ السبعينَ بقوله: «أَتُهْلِكُنَا بما فعلَ السفهاءُ منا»، وأنَّه إنما عَنَى بـ«السفهاء» عَبَدَةَ العجلِ. وذلك أنه محالٌ أنْ يكونَ موسى ﷺ كان تخيَّرَ من قومه لمسألةِ ربِّه ما أراهُ أنْ يسألَ لهم إلا الأفضلَ فالأفضلَ منهم، ومحالٌ أن يكون الأفضل كان عنده مَنْ أشركَ في عبادةِ العجلِ واتخذَه دونَ اللهِ إلهاً.

قال: فإنْ قال قائلٌ: فجائزٌ أن يكونَ موسى عليه السلام كان معتقداً أن الله سبحانه يعاقبُ قوماً بذنوب غيرهم، فيقول: أتهلكنا بذنوبِ مَنْ عبدَ العجلَ، ونحنُ من ذلك برآء؟

قيل: جائزٌ أن يكون معنى «الإهلاك» قبض الأرواحِ على غيرِ وجهِ العقوبة، كما قال جَلَّ ثناؤهُ: ﴿إِنِ امرؤٌ هَلَكَ﴾، [النساء: ١٧٦] - يعني: مات - فيقول: أَتُميتُنَا بما فعلَ السُّفهاء منَّا؟

وأما قوله: «إنْ هيَ إلاَّ فِتْنَتُكَ»، فإنه يقولُ جلَّ ثناؤُهُ: ما هذه الفِعْلَةُ التي فعلَها قومي، من عبادتهم ما عبَدُوا دونكَ، إلا فتنةٌ منك أصَابتهم - ويعني بـ«الفتنة»، الابتلاء والاختبار - يقول: ابتليتهم بها، ليتبينَ الذي يضلُّ عن الحق بعبادته إياه، والذي يهتدي بتركِ عبادته. وأضاف إضلالَهم وهدايتهم إلى الله، إذْ كان ما كانَ منهم من ذلك عن سببٍ منه جَلَّ ثناؤُهُ.

وقـوله: «أنت وَلِيُّنا»، يقول: أنتَ نَاصِرُنَا. «فاغفرْ لنا»، يقول: فاستُرْ علينا ذُنوبَنا بتركك عقابَنا عليها. «وارحمنا»، تَعطَّفْ علينا برحمتك «وأنتَ خيرُ الغافرين»، يقول: خيرُ مَنْ صَفَح عن جُرْمٍ، وسَتَر على ذَنْبٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مُخْبِراً عن دعاءِ نبيه موسى عليه السلام أنه قال فيه: «واكتُبْ لنا»، أي: اجعلنا مِمَّنْ كتَبتَ له. «في هذه الدنيا حسنَةً»، وهي الصالحاتُ من الأعمال. «وفي الآخرة»، ممن كتبتَ له المغفرةَ لذنوبهِ.

وقوله: «إنا هُدْنَا إليكَ»، يقول: إنَّا تُبْنَا إليك.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: قال الله لموسى: هذا الذي أصبتُ به قومكَ من الرجفةِ، عذابي أُصيبُ به مَنْ أشاءُ من خَلْقي، كما أُصيبُ به هؤلاء الذين أصبتُهم به من قومكَ. «ورحمتي وَسِعَتْ كُلَّ شيءٍ»، يقـول: ورحمتي عمَّتْ خَلْقي كلهم.

وأما قوله: «فسأكتبها للذين يتقون»، فإنه يقول: فسأكتبُ رحمتي التي وَسِعَتْ كُلَّ شيءٍ ـ ومعنى «أكتبُ» في هذا الموضع: أكتبُ في اللوح الذي كُتِبَ في التوراة. «للذين يتقون»، يقول: للقومِ الذينَ يخافونَ الله ويخشونَ

عقابَهُ على الكفرِ به والمعصيةِ له في أمرِه ونهيه، فيؤدُّونَ فرائضَهُ، ويجتنبونَ معاصيه.

وأما قوله: «والذين هم بآياتنا يؤمنون»، فإنه يقولُ: وللقومِ الذين هُمْ بأعلامنا وأدِلَّتِنا يُصَدِّقونَ ويُقِرُّون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾

وهذا القولُ إبانةٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ عن أنَّ الذين وعَدَ موسى نبيُّهُ عليه السلام أنْ يكتبَ لهم الرحمةَ التي وصفَها جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «ورحمتي وسعتْ كل شيء»، هُمْ أمةُ محمدٍ ﷺ، لأنه لا يُعلمُ للهِ رسولٌ وُصفَ بهذه الصفةِ ـ أعني «الأمي» ـ غير نبينا محمدٍ ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يأمرُ هذا النبيُّ الأميُّ أتباعَه بالمعروف ـ وهو الإيمانُ بالله ولزوم طاعتهِ فيما أمرَ ونَهى، فذلك «المعروف» الذي يأمرهم به. «وينهاهم عن المنكر»، وهو الشِرْكُ بالله، والانتهاءُ عَمَّا نهاهم الله عنه.

وقولـه: «ويُحِلُّ لهمُ الطيباتِ»، وذلك مما كانتِ الجاهليةُ تُحَرِّمُهُ من البحائِرِ والسَّوائبِ والوصائِلِ والحوامي. «ويحرمُ عليهم الخَبائث»، وذلك لحم الخنزيرِ والرِّبا وما كانوا يَسْتحلُّونه من المطاعمِ والمشاربِ التي حَرَّمَها الله.

وأما قوله: «ويَضعُ عنهم إصْرَهُمْ والأغلالَ التي كانت عليهم»، فإنَّهُ العهدُ والميثاق الذي كان أخذه على بني إسرائيل بالعمل بما في التوراة.

فمعنى الكلام: ويضع النبيُّ الأميُّ العهدَ الذي كان اللهُ أخذَه على بني إسرائيلَ، من إقامةِ التوراةِ والعملِ بما فيها من الأعمالِ الشديدة، كقطعِ الجلد من البولِ، وتحريمِ الغنائمِ، ونحو ذلك من الأعمالِ التي كانت عليهم مفروضةً، فنسخها حُكْمُ القرآن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فالذين صَدَّقُوا بالنبيِّ الأميِّ وأقَرُّوا بنبوَّتِه. «وعزَّروه»، يقول: وَقَّرُوه وعَظَّمُوه وحَمَوْهُ من الناسِ.

وقوله: «ونصروه»، يقول: وأعانُوه على أعداءِ الله وأعدائِه، بجهادِهم ونصب الحربِ لهم. «واتَّبعُوا النورَ الذي أُنزلَ معه»، يعني القرآن والإسلام. «أولئك هُمُ المفلحون»، يقول: الذين يفعلونَ هذه الأفعالَ التي وَصَفَ بها جَلَّ ثناؤُهُ أتباعَ محمدٍ ﷺ، هم المُنْجِحُونَ المدرِكُونَ ما طَلَبُوا ورَجَوْا بفعلهم ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قل»، يا محمدُ للناسِ كلهم. «إنّي رسولُ الله إليكم جميعاً»، لا إلى بعضِكم دونَ بعضٍ، كما كان مَنْ قَبْلي من

الرُّسلِ مُرْسَلاً إلى بعضِ الناسِ دونَ بعضٍ فمن كان منهم أُرسِلَ كذلك، فإنَّ رسالتي ليست إلى بعضِكم دونَ بعضٍ، ولكنها إلى جميعِكُمْ.

وقوله: «الذي» من نعت اسم «الله» وإنما معنى الكلام: قل: يا أيها الناسُ إني رسولُ الله، الذي له مُلْكُ السمواتِ والأرض، إليكم.

ويعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «الذي له ملكُ السمواتِ والأرض»، الذي له سلطانُ السَّمواتِ والأرض وما فيهما، وتدبيرُ ذلك وتصريفه. «لا إله إلا هو»، يقول: لا ينبغي أنْ تكونَ الألوهةُ والعِبادةُ إلاَّ له جَلَّ ثناؤُهُ، دونَ سائرِ الأشياء غيره من الآندادِ والأوثانِ، إلاَّ لمن له سلطانُ كُلِّ شيءٍ، والقادرُ على إنشاءِ خَلْقِ كُلِّ ما شاءَ وإحيائه، وإفنائِه إذا شاء إماتته. «فآمنوا بالله ورسوله»، يقول جَلَّ ثناؤه: قُلْ لهم: فَصَدِّقُوا بآياتِ الله الذي هذه صِفَتُه، وأقِرُّوا بوحدانيتِهِ، وأنه الذي له الأُلوهةُ والعبادةُ، وصَدِّقُوا برسوله محمدٍ ﷺ أنّه مبعوثٌ إلى خَلْقِه، داعٍ إلى توحيدِه وطاعته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٥٨﴾

أما قوله: «النبي الأميّ»، فإنه من نعتِ رسولِ الله ﷺ. «الذي يؤمنُ بالله»، يقول: الذي يُصَدِّقُ بالله وكلماته.

ثم اختلف أهلُ التأويل في تأويلِ قوله: «وكلماته».

فقال بعضهم: معناه: وآياته.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك عيسى بنَ مريمَ عليه السلام.

والصوابُ من القول في ذلك عندنا، أنَّ الله تعالى ذِكْرُه أمرَ عبادَهُ أنْ

يُصَدِّقُوا بنبوَّةِ النبيِّ الأمي الذي يؤمنُ بالله وكلماته، ولم يخصص الخبرَ جَلَّ ثناؤُهُ عن إيمانه من «كلمات الله» ببعضٍ دون بعضٍ، بل أخبرهم عن جميعِ «الكلمات»، فالحقُّ في ذلك أنْ يعمَّ القول، فإنَّ رسولَ الله ﷺ كان يؤمنُ بكلماتِ الله كُلِّها، على ما جاءَ به ظاهرُ كتابِ الله.

وأما قوله تعالى: «واتبعوه لعلكم تهتدون»، فاهتدوا به، أيها الناسُ، واعملوا بما أمركم أنْ تعملوا به من طاعةِ الله. «لعلكم تهتدون»، يقول: لكي تهتدوا فترشدوا وتصيبوا الحقَّ في اتِّباعِكم إيَّاهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْله تَعَالَى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ۝١٥٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «ومن قومِ موسى»، يعني بني إسرائيل. «أمةٌ»، يقول: جماعة. «يَهْدُونَ بالحقِّ»، يقول: يهتدون بالحق، أي يستقيمون عليه ويعملون. «وبه يعدلون»، أي: وبالحق يُعْطُونَ ويأخذونَ، ويُنصفون من أنفسِهم فلا يجورون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فَرَّقْناهُم - يعني قوم موسى من بني إسرائيل، فَرَّقهم الله فجعلهم قبائلَ شتى، اثنتى عشرة قبيلة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ

﴿وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وأوحينا إلى موسى»، إذْ فرّقنا بني إسرائيلَ قومه اثنتي عشرة فرقة، وتيَّهْنَاهُمْ في التيه، فاستسقوا موسى من العَطشِ وغَوْرِ الماء. «أن آضْرِبْ بعصَاك الحجر».

«فانبجست» فانصبَّتْ وانفجرتْ من الحجرِ اثنتَا عَشْرَةَ عيناً من الماء، «قد عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ»، يعني كل أناس من الأسباطِ الاثنتي عشرة. «مَشْرَبَهم»، لا يدخـلُ سبطٌ على غيره في شِرْبِـه. «وظَلَّلْنَـا عليهم الغمامَ»، يُكِنُّهم من حَرِّ الشمسِ وأذاها.

«وأنــزلنـا عليهم المَنَّ والسلوى»، طعـامـاً لهم. «كُلُوا من طيبـاتِ ما رزقناكم»، يقول: وقُلْنَا لهم: كُلُوا من حَلالِ ما رَزَقْناكم، أيها النَاسُ، وطَيَّبْنَاهُ لكم. «وما ظَلَمُونا ولكنْ كانوا أنفسَهُمْ يَظلمون»، وفي الكلام محذوفٌ، ترك ذكره استغناءً بما ظهرَ عما ترك، وهو: «فأجِمُوا[1] ذلك، وقالوا: لَنْ نصبرَ على طعامٍ واحد، فاستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ». «وما ظلمونا»، يقول: وما أَدْخَلُوا علينا نَقْصاً في ملكنا وسلطاننا بمسألتهم ما سألوا، وفِعْلِهم ما فعلوا. «ولكن كانـوا أنفسهم يظلمـون»، أي: ينقصونها حُظُوظَها باستبدالهم الأدنى بالخيرِ، والأرذَلَ بالأفضل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ

---

(١) يقال: «أجِمَ الطعامَ يأجمه أجماً»، إذا كرهَهُ ومَلَّهُ من طولِ المداومة عليه.

لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: واذكُرْ أيضاً، يا محمدُ، من خطأ فِعْلِ هؤلاء القوم، وخِلافِهم على رَبِّهم، وعصيانهم نبيَّهم موسى عليه السلام، وتبديلهم القولَ الذي أمروا أنْ يقولوه حين قالَ الله لهم: «اسكنوا هذه القرية»، وهي قرية بيتِ المقدس. «فكلوا منها»، يقول: من ثمارِها وحبوبها ونباتها. «حيث شئتم»، منها، يقول: أنى شِئْتُمْ منها. «وقولوا حِطَّةٌ»، يقول: وقولوا: هذه الفعلة «حِطَّةٌ»، تحطُّ ذنوبَنا. «نغفر لكم»، يتَغَمَّدْ لكم رَبُّكم. «ذنوبكم»، التي سَلَفَتْ منكم، فيعفو لكم عنها، فلا يؤاخذكم بها. «سنزيدُ المحسنين»، منكم، وهم المطيعونَ لله، على ما وَعَدْتُكم من غفران الخطايَا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فَغَيَّرَ الذين كفروا بالله منهم ما أَمَرَهُم الله به من القولِ، فقالوا ـ وقد قيل لهم: قولوا: هذه حطة ـ: «حنطة في شعيرة». وقولهم ذلكَ كذلك، هو غيرُ القولِ الذي قيلَ لهم قولوه. يقول الله تعالى: «فأرسلنا عليهم رِجْزاً من السماءِ»، بَعثنا عليهم عذاباً، أهلكناهم بما كانوا يُغَيِّرُونَ ما يُؤْمَرُونَ به، فيفعلون خِلافَ ما أمرهم اللهُ بفعله، ويقولون غير الذي أمرهم الله بفعله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم

﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: واسأل، يا محمدُ، هؤلاءِ اليهود، وهم مُجَاوِرُوكَ، عن أمرِ «القريةِ التي كانت حاضرةَ البحرِ»، يقول: كانت بحضرةِ البحرِ، أي بقربِ البحرِ وعلى شاطِئه.

وقوله: «إذ يَعْدُونَ في السبتِ»، يعني به أهله، إذ يعتدون في السبت أمرَ الله، ويتجاوزونه إلى ما حَرَّمَهُ الله عليهم.

وكـان اعتداؤهم في السبت: أنَّ الله كانَ حَرَّمَ عليهم السبت، فكانوا يصطادونَ فيه السمكَ.

«إذْ تأتيهم حِيتـانُهم يومَ سَبْتِهم شُرَّعاً»، يقول: إذْ تأتيهم حيتانهم يومَ سبتهم الذي نُهُوا فيه العملَ. «شُرَّعاً»، يقول: شارعة ظاهرةً على الماء من كُلِّ طريقٍ وناحيةٍ، كشوارع الطرق.

وقوله: «ويومَ لا يَسْبِتُونَ»، يقول: ويوم لا يعظمونه تعظيمهم السَّبتَ، وذلك سائر الأيامِ غير يومِ السبت. «لا تأتيهم»، الحيتانُ. «كذلك نَبْلُوهم بما كانـوا يَفْسُقُونَ»، يقول: كما وصفنا لكم من الاختبارِ والابتلاءِ الذي ذكرنا، بإظهارِ السمكِ لهم على ظهرِ الماء في اليومِ المُحَرَّمِ عليهم صَيْدُه، وإخفائه عنهم في اليوم المُحَلَّلِ صيدُه. «كذلك نبلوهم»، ونختبرهم. «بما كانوا يفسقون».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: واذْكُرْ أيضاً، يا محمدُ. «إذْ قالت أمةٌ

منهم»، جماعةٌ منهم لجماعةٍ كانت تَعِظُ المعتدينَ في السبتِ، وتَنْهاهم عن معصيةِ الله فيه. «لِمَ تَعِظُونَ قوماً اللهُ مُهْلِكُهم»، في الدنيا بمعصيتِهم إياهُ، وخلافِهم أمْرَهُ، واستحلالهم ما حرم عليهم. «أو مُعَذِّبُهم عذاباً شديداً»، في الآخرة، قال الذين كانوا يَنْهونهم عن معصيةِ الله مُجيبيهم عن قولهم: عظتنا إياهُم معـذرةٌ إلى رَبِّكم، نؤدِّي فَرْضَهُ علينا في الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكـر. «ولعلهم يتقـون»، يقول: ولعلهم أنْ يَتَّقُوا اللهَ فيخافوه، فَيُنِيبُوا إلى طاعته، ويتوبوا من معصيتِهم إيَّاهُ، وتَعَدِّيهم على ما حرَّم عليهم من اعتدائِهم في السبت.

«ولعلهم يتقون»، أي: ينزعونَ عَمَّا هُمْ عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ١٦٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما تركت الطائفةُ التي اعتدت في السبتِ ما أمرَهَا اللهُ به من تركِ الاعتداءِ فيه، وضيَّعت ما وَعَظَتْها الطائفةُ الواعظةُ وذكَّرتها به، من تحذيرِها عقوبةَ اللهِ على معصيتها، فتقدَّمَتْ على استحلالِ ما حرم الله عليهـا، أنجى اللهُ الـذين يَنْهَـوْنَ منهم عن «السوء» - يعني عن معصيةِ الله واسْتحلال حِرْمه[1]. «وأخذنا الذين ظلموا»، يقول: وأخذَ اللهُ الذين اعتدوا في السبت، فاستحلُّوا فيه ما حَرَّمَ اللهُ من صيدِ السمكِ وأكلِه، فأحلَّ بهم بأسَهُ، وأهلكهم بعذابٍ شديدٍ بئيسٍ بما كانوا يخالفونَ أمرَ الله، فيخرجون من طاعتِهِ إلى معصيتِهِ، وذلك هو «الفِسْق».

---

(١) الحِرْم: هو الحرام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما تَمَرَّدُوا، فيما نهوا عنه من اعتدائهم في السبت، واستحلالهم ما حَرَّمَ اللهُ عليهم من صيدِ السمكِ وأكلِه، وتمادوا فيه. «قلنا لهم كُونوا قِردةً خاسئين»، أي: بُعَداء من الخير.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وإذْ تَأَذَّنَ»، واذكُرْ، يا محمدُ، إذْ آذَنَ ربُّك، وأعلمَ.

وقوله: «لَيَبْعَثَنَّ عليهم»، يعني: أعلم ربك ليبعثنَّ على اليهودِ مَنْ يَسُومُهم سُوءَ العذابِ. قيل: إنَّ ذلك، العربُ، بَعَثَهُمُ اللهُ على اليهودِ، يقاتلون مَنْ لم يُسْلِمْ منهم ولم يُعْطِ الجزيةَ، ومَنْ أعطى منهم الجزيةَ كان ذلك له صَغاراً وذِلَّةً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ ربكَ، يا محمدُ، لسريعُ عقابُه إلى مَن استوجبَ منه العقوبة على كُفْرِه به ومعصيته. «وإنه لغفورٌ رحيم»، يقول: وإنه لَذُو صَفْحٍ عن ذنوبِ مَنْ تابَ من ذنوبِهِ، فأنابَ وراجعَ طاعته، يستر عليها بعفوه عنها.

«رحيمٌ»، له، أنْ يعاقبه على جُرْمِه بعد توبتِهِ منها، لأنه يقبلُ التوبةَ ويُقِيلُ العَثْرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ١٦٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وفَرَّقْنَا بني إسرائيلَ في الأرضِ. «أمماً» يعني: جماعاتٍ شتى مُتَفَرِّقِينَ.

وقوله: «منهم الصالحون»، يقول: مِنْ هؤلاء القومِ الذينَ وَصَفَهم الله من بني إسرائيل. «الصالحون»، يعني: مَنْ يؤمِنُ بالله ورسُلِه. «ومنهم دون ذلك»، يعني: دون الصالح.

وإنما وصفهم الله جَلَّ ثناؤُهُ بأنهم كانوا كذلك قبلَ ارتدادِهم عن دِينهم، وقبل كُفْرِهم بربهم، وذلك قبل أنْ يُبْعَثَ فيهم عيسى بن مريم صلوات الله عليه.

وقوله: «وبلونَاهُمْ بالحسناتِ والسيئاتِ لعلَّهم يرجعون»، يقول: واختبرناهم بالرخاءِ في العيش، والخَفْضِ في الدنيا والدَّعةِ، والسَّعَةِ في الرزق، وهي «الحسنات» التي ذكرها جَلَّ ثناؤُهُ ـ ويعني بـ«السيئات»، الشدة في العيش، والشظف فيه، والمصائب والرزايا في الأموال. «لعلَّهم يرجعون»، يقول: ليرجِعُوا إلى طاعةِ رَبِّهم ويُنِيبُوا إليها، ويتوبوا من معاصيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ

يقول تعالى ذِكْرُه: فَخَلَفَ من بعدِ هؤلاءِ القومِ الذين وَصَفَ صِفتَهُم. «خَلْفٌ»، يعني: خَلفُ سوءٍ. يقول: حَدَثَ بعدهم وخلافَهم، وتبدل منهم، بَدَلُ سَوْءٍ.

فتأويلُ الكلام إذاً: فتبدَّلَ من بعدهم بَدَل سوء، ورثوا كتابَ الله فَعُلِّمُوه، وضَيَّعُوا العملَ به، فخالفوا حُكْمَهُ، يُرْشَون في حكم الله، فيأخذون الرشوةَ فيه من عَرَض هذا العاجلِ «الأدنى»، - يعني بـ«الأدنى» الأقرب من الآجل الأبعد. ويقولون إذا فعلوا ذلك: إنَّ الله سيغفرُ لنا ذنوبَنا، تمنِّياً على الله الأباطيلَ، كما قال جَلَّ ثناؤُهُ فيهم: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩]. «وإنْ يَأْتِهم عَرَضٌ مِثْلُه يأخذُوه»، يقول: وإنْ شرع لهم ذَنْبٌ حرامٌ مثله من الرشوةِ بعد ذلكَ، أخذُوه واستحلُّوه ولم يَرْتَدِعُوا عنه. يخبرُ جَلَّ ثناؤُهُ عنهم أنهم أهلُ إصرارٍ على ذُنوبِهم، وليسوا بأهلِ إنابةٍ ولا تَوْبة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «ألم يُؤْخَذْ»، على هؤلاء المرتشينَ في أحكامهم، القائلينَ: «سيغفر الله لنا فِعْلَنا هذا»، إذا عُوتِبُوا على ذلك. «ميثاقُ الكتاب»، وهو أخذُ اللهِ العهودَ على بني إسرائيلَ، بإقامةِ التوراةِ، والعملِ بما فيها. فقال جَلَّ ثناؤُهُ لهؤلاءِ الذين قَصَّ قصتهم في هذه الآية، مُوَبِّخاً على خِلافِهم أمرَهُ، ونقضِهم عهدَهُ وميثاقه: ألم يأخُذ اللهُ عليهم ميثاقَ كتابِه، ألَّا يقُولُوا على الله

إلَّا الحق، ولا يُضيفوا إليه إلَّا ما أنزلَهُ على رسولهِ موسى ﷺ في التوراةِ، وأنْ لا يكذبُوا عليه؟

وأما قوله: «ودَرَسُوا ما فيه»، فإنه معطوفٌ على قولهِ: «وَرِثُوا الكتابَ»، ومعناه: «فَخَلَفَ من بعدهم خَلْفٌ ورثوا الكتابَ»، «ودرسوا ما فيه»، - ويعني بقولـه: «ودرسـوا ما فيه»، قَرَأُوا ما فيه، يقول: ورثوا الكتابَ فعلمُوا ما فيه ودَرَسُوه، فضيَّعُوه وتركوا العملَ به، وخالفوا عهدَ الله إليهم في ذلك.

«والـدارُ الآخـرةُ خيرٌ للذين يتقـون»، يقـول جَلَّ ثناؤُهُ: وما في الدارِ الآخرةِ، وهو ما في المَعَادِ عند الله، مما أعَدَّ لأوليائهِ، والعاملينَ بما أنزل في كتـابه، المحافظينَ على حدودِه. «خيرٌ للذين يتقون الله»، ويخافونَ عِقابَهُ، فيراقبونه في أمرِه ونهيهِ، ويطيعونه في ذلك كله في دنياهم. «أفلا يعقلون»[1]، يقـول: أفلا يعقلُ هؤلاء الذين يأخذونَ عَرَضَ هذا الأدنى على أحكامِهم، ويقولون: «سَيُغْفَرُ لنا»، أنَّ ما عندَ الله في الدارِ الآخرة للمتقينَ العادلِينَ بين الناسِ في أحكامِهم، خيرٌ من هذا العَرَضِ القليلِ الذي يستعجلونَهُ في الدنيا على خِلافِ أمرِ الله، والقضاءِ بين الناسِ بالجور؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾

واختلفت القَرَأَةُ في قراءةِ ذلك.

فقرأ بعضهم: ﴿يُمْسِكُونَ﴾ بتخفيفِ الميم وتسكينها، من «أَمْسَكَ يُمْسِكُ».

(١) «أفلا يعقلون» - بالياء - فهذه قراءته لها خلافاً لما جاء في المصحف، لذلك تركناها كما هي.

وقرأه آخرون: ﴿يُمَسِّكُونَ﴾، بفتح الميم وتشديد السين، من «مَسَّكَ يُمَسِّكُ»[1].

ويعني بذلك: والذين يعملون بما في كتابِ الله. «وأقاموا الصلاةَ»، بحدودها، ولم يُضَيِّعُوا أوقاتها. «إنَّا لا نُضيعُ أجرَ المصلحين». يقول تعالى ذِكْرُه: فمن فعلَ ذلك من خَلْقِي، فإني لا أضيعُ أجرَ عمله الصالح.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: واذكُرْ، يا محمدُ، إذ اقتلعنا الجبلَ فرفعناهُ فوقَ بني إسرائيلَ، كأنه ظُلَّةُ غمامٍ من الظِّلال ـ وقلنا لهم: «خذُوا ما آتيناكم بقوة»، من فرائِضِنَا، وألزمناكم من أحكامِ كتابِنَا، فاقبلوه، اعملوا باجتهادٍ منكم في أدائِه، من غيرِ تقصيرٍ ولا توانٍ. «واذكروا ما فيه»، يقول: ما في كتابنا من العهودِ والمواثيقِ التي أخذنا عليكم بالعملِ بما فيه. «لعلكم تتقون»، يقول: كي تَتَّقُوا رَبَّكم، فتخافُوا عقابه بتركِكم العملَ به إذا ذكرتم ما أخذَ عليكم فيه من المَواثيق.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾

---

(٢) لم يُرجِّحْ أبو جعفر الطبري إحدى القراءتين، ومعنى ذلك جوازهما عنده، فبأيِّهما قرأ القارىء فهو مصيبٌ.

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: واذْكُرْ، يا محمدُ، رَبَّكَ إذ استخرج ولد آدم من أصلابِ آبائهم، فقرَّرهم بتوحيدِه، وأشْهَدَ بعضَهم على بعضٍ شهادَتَهم بذلك وإقرارَهم به.

(وأما قوله جَلَّ ثناؤُهُ): «شهدنا أنْ تقولوا يومَ القيامةِ إنَّا كُنَّا عن هذا غافلين»، فالظاهرُ يدلُّ على أنه خبرٌ من الله عن قِيلِ بني آدمَ بعضِهم لبعضٍ، لأنه جَلَّ ثناؤُهُ قال: «وأشهدهم على أنفسهم ألستُ بربكم قالوا بلى شهدنا»، فكأنه قِيلَ: فقال الذين شَهِدُوا على المُقرِّينَ حين أَقَرُّوا فقالوا: «بلى» -: شهدنا عليكم بما أقررتُمْ به على أنفسِكم، كيلا تقولوا يومَ القيامةِ إنَّا كنا عن هذا غافلين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ ﴿١٧٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: شهدنا عليكم، أيها المُقِرُّونَ بأنَّ الله ربكم، كيلا تقولوا يومَ القيامة: «إنَّا كُنَّا عن هذا غافلينَ»، إنا كُنَّا لا نعلم ذلك، وكنا في غفلةٍ منه. «أو تقولوا إنما أشركَ آباؤُنا من قَبْلُ وكنا ذُريةً من بعدهم»، اتَّبَعْنا منهاجَهم. «أَفَتُهْلِكُنَا»، بإشراكِ مَنْ أشركَ من آبائنا، واتباعنا منهاجَهم على جهلٍ مِنَّا بالحق؟

ويعني بقوله: «بما فعلَ المُبْطِلُونَ»، بما فَعَلَ الذين أبطلوا، في دَعواهم إلهاً غيرَ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ﴿١٧٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وكما فَصَّلْنَا، يا محمدُ، لقومِكَ آيات هذه السورة، وبَيَّنا فيها ما فعلنا بالأمم السالفةِ قبلَ قومك، وأحْلَلْنا بهم من المَثُلات بكفرهم وإشراكهم في عبادتي غيري، كذلك نُفَصِّلُ الآياتِ غيرها ونُبَيِّنُها لقومك، لينزجروا ويرتدعوا، فَيُنِيبُوا إلى طاعتي، ويتوبوا من شِرْكِهم وكفرهم، فيرجعوا إلى الإيمانِ والإقرارِ بتوحيدي، وإفرادِ الطاعة لي، وتركِ عبادةِ ما سواي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ١٧٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «واتْلُ»، يا محمدُ، على قومكَ. «نبأَ الذي آتيناهُ آياتِنَا»، يعني خبره وقصته.

وكانت آياتُ الله للذي آتاهُ الله إياها فيما يقال: اسم الله الأعظم - وقيل: النبوّة.

وأما قوله: «فانسلخ منها»، فإنه يعني: خرجَ من الآياتِ التي كان اللهُ آتاهَا إياهُ، فتبرَّأ منها.

وقوله: «فأتبعه الشيطانُ»، يقول: فصيَّرهُ لنفسِه تابعاً ينتهي إلى أمرِهِ في معصية الله، ويخالفُ أمرَ رَبِّه في معصيةِ الشيطانِ وطاعةِ الرحمن.

وقوله: «فكان من الغاوين»، يقول: فكانَ من الهالكينَ، لضلالِهِ وخلافِهِ أمرَ رَبِّه، وطاعة الشيطان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولو شِئنا لرفعنا هذا الذي آتيناهُ آياتنا بآياتنا التي آتيناهُ. «ولكنه أخلدَ إلى الأرض»، يقول: سَكَنَ إلى الحياةِ الدنيا في الأرض، وما إليها، وآثَرَ لَذَّتَها وشهواتِها على الآخرةِ. «واتَّبَعَ هَواهُ»، ورفضَ طاعةَ اللهِ وخالَفَ أمرَهُ.

واختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «ولو شئنا لرفعناه بها».

فقال بعضهم: معناه: لرفعناه بعِلْمِه بها.

وقال آخرون: معناه: لرفعنَا عنه الحالَ التي صارَ إليها من الكفرِ بالله، بآياتنا.

وأَوْلى الأقوالِ في تأويل ذلك بالصوابِ أنْ يقالَ: إنَّ اللهَ عَمَّ الخبرَ بقوله: «ولو شئنا لرفعناه بها»، أنه لو شاء رفعه بآياتِه التي آتاهُ إياها، و«الرفع»، يَعمُّ معانيَ كثيرة: منها الرفعُ في المنزلةِ عِنْدَهُ، ومنها الرفعُ في شرفِ الدنيا ومكارمِها، ومنها الرفعُ في الذِّكْرِ الجميل والثَّناءِ الرفيع. وجائزٌ أنْ يكونَ اللهُ عَنَى كلَّ ذلك: أنه لو شاء لرفعه، فأعطاهُ كُلَّ ذلك، بتوفيقهِ للعملِ بآياتهِ التي كان آتاهَا إياهُ. وإذْ كان ذلك جائزاً، فالصوابُ من القولِ فيه أنْ لا يُخَصَّ منه شيء، إذْ كان لا دلالةَ على خصوصِه من خبرٍ ولا عقلٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فمثل هذا الذي آتيناهُ آياتِنَا فانسلخَ منها، مثلُ الكلبِ الذي يَلْهَثُ، طَرَدْتَهُ أو تَرَكْتَهُ.

ثم اختلف أهلُ التأويلِ في السبب الذي من أجله جَعَل اللهُ مَثَله كمثلِ الكلب.

فقال بعضهم: مَثَّلَهُ به في اللهثِ، لتركهِ العملَ بكتابِ اللهِ وآياتِه التي آتاها إياهُ، وإعراضِه عن مواعظِ الله التي فيها إعراضُ مَنْ لم يُؤْتِه اللهُ شيئاً من ذلك. فقال جَلَّ ثناؤُهُ فيه، إذْ كان سواء أمرُه، وُعِظَ بآياتِ الله التي آتاها إياهُ أو لَمْ يُوعَظْ، في أنه لا يتَّعظُ بها، ولا يتركُ الكفرَ به: فمثله مثل الكلبِ الذي سواءٌ أمره في لهثه، طُرِدَ أو لم يُطْرَدْ، إذْ كان لا يتركُ اللهثَ بحالٍ.

وقال آخرون: إنما مَثَّلَهُ جَلَّ ثناؤُهُ بالكلبِ، لأنه كان يلهثُ كما يلهثُ الكلبُ.

وأَوْلى التأويلين في ذلك بالصوابِ، تأويلُ مَنْ قال: إنما هو مَثَلٌ لتركه العمل بآياتِ الله التي آتاها إياهُ، وأنَّ معناه: سواء وُعِظَ أو لَمْ يُوعَظْ، في أنه لا يتركُ ما هُوَ عليه من خلافِه أمرَ ربِّهِ، كما سواءٌ حُملَ على الكلبِ وطُرِدَ أو تُرِكَ فلم يُطْرَدْ، في أنه لا يَدَعُ اللهثَ في كِلْتَا حالتيه.

وإنما قلنا: ذلك أَوْلى القولين بالصوابِ، لدلالةِ قولِه تعالى: «ذلك مَثَلُ القومِ الذين كَذَّبُوا بآياتنا»، فجعلَ ذلك مثلَ المكذِّبينَ بآياتِه. وقد علمنا أن اللُّهَاثَ ليس في خِلْقَةِ كُلِّ مُكَذِّبٍ كُتب عليه تركُ الإنابةِ من تكذيبهِ بآياتِ الله، وأنَّ ذلك إنما هو مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ لهم. فكان معلوماً بذلك أنّه للذي وصفه الله صِفَتَهُ في هذه الآية، كما هو لسائرِ المكذبينَ بآياتِ الله، مَثَلٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هذا المثلُ الذي ضربتُه لهذا الذي آتيناهُ آياتِنا فانسلخَ منها، مثلُ القومِ الذين كَذَّبُوا بحُجَجِنَا وأعلامِنا وأدِلَّتِنَا، فَسَلَكُوا في ذلك سبيلَ هذا المُنْسَلخِ من آياتنا الذي آتيناها إياهُ، في تركه العملَ بما آتيناهُ من ذلك.

وأما قوله: «فاقْصُصِ القَصَصَ»، فإنه يقولُ لنبيه محمدٍ ﷺ: فاقصص، يامحمدُ، هذا القصصَ الذي اقتصصْتُه عليكَ - من نبأ الذي آتيناهُ آياتنا وأخبارَ الأمم التي أخبرتكَ أخبارَهم في هذه السورة، واقتصَصْتُ عليك نبأَهم ونبأَ أشباهِهم، وما حَلَّ بهم من عقوبتنا، ونزلَ بهم حين كَذَّبُوا رُسُلَنا من نقمتنا - على قومكَ من قريش، ومَنْ قِبَلَكَ من يهودِ بني إسرائيل، ليتفكَّروا في ذلك، فيعتبروا ويُنِيبُوا إلى طاعتنا، لئلا يحلَّ بهم مثل الذي حلَّ بِمَنْ قَبْلَهُم من النِّقمِ والمَثُلاتِ، ويتدبَّرهُ اليهودُ من بني إسرائيل، فيعلموا حقيقةَ أمركَ وصحَّةَ نبوَّتِكَ، إذْ كان نبأ «الذي آتيناهُ آياتنا»، مِنْ خَفِيِّ عُلومهم، ومكنون أخبارهم، لا يعلمه إلَّا أحبارُهم، ومَنْ قرأ الكُتبَ ودَرَسَها منهم. وفي عِلْمِكَ بذلك - وأنتَ أميٌّ لا تكتبُ، ولا تقرأ، ولا تدرسُ الكتبَ، ولم تجالِسْ أهلَ العلم - الحجّةُ البَيِّنَةُ لكَ عليهم بأنكَ للهِ رسولٌ، وأنك لم تعلم ما علِمتَ من ذلك وحالُك الحال التي أنت بها، إلَّا بوحيٍ من السماء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ۝١٧٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ساءَ مثلاً القومُ الذين كَذَّبُوا بحججِ الله وأدلته فجحدوها، وأنفسَهم كانوا ينقصُونَ حظوظَها ويبخسونها منافعَها، بتكذيبهم بها، لا غيرها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ۝١٧٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الهدايةُ والإضلالُ بيدِ الله، و«المهتدي» - وهو السالكُ

سبيلَ الحق، الراكبُ قصدَ المحجّةِ - في دينه، مَنْ هَداهُ الله لذلك فوفّقَهُ لإصابتِهِ، والضالُّ مَنْ خَذَلَهُ الله فلم يُوَفِّقْهُ لطاعتِه. ومَنْ فعلَ الله ذلك به فهو «الخاسرُ»، يعني الهالكُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد خلقنا لجهنَّمَ كثيراً من الجِنِّ والإنس.

وقال جَلَّ ثناؤُهُ: «ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس»، لنفاذِ عِلْمِه فيهم بأنهم يَصيرونَ إليها بكُفْرِهم بربِّهم.

وأما قوله: «لهم قلوبٌ لا يفقهون بها»، فإنَّ معناه: لهؤلاءِ الذينَ ذَرَأَهمُ الله لجهنمَ مِنْ خَلْقِه، قلوبٌ لا يتفكَّرونَ بها في آياتِ الله، ولا يتدبَّرُونَ بها أدِلَّتَهُ على وَحْدَانيتهِ، ولا يعتبرونَ بها حُجَجَهُ لرسُلِه، فيعلموا توحيدَ ربِّهم، ويعرفوا حقيقةَ نبوّةِ أنبيائهم. فوصفهم ربُّنا جَلَّ ثناؤُهُ بأنهم: «لا يفقهونَ بها»، لإعراضِهم عن الحَقِّ، وتَرْكِهم تدبُّرَ صِحَّةِ نبوّةِ الرسل، وبُطُولِ الكفر.

وكذلك قوله: «ولهم أعينٌ لا يُبصرونَ بها»، معناه: ولهم أعينٌ لا ينظرونَ بها إلى آياتِ الله وأدلتـه، فيتـأمَّلُوها، ويتفكَّرُوا فيها، فيعلموا بها صِحَّةَ ما تَدْعُوهم إليه رُسُلهم، وفسادِ ما هُمْ عليه مقيمون، من الشركِ بالله، وتكذيبِ رسله. فوصفهم الله بتركهم إعمالَها في الحقِّ، أنهم لا يُبْصِرُونَ بها.

وكذلك قوله: «ولهم آذانٌ لا يسمعونَ بها»، آياتِ كتابِ الله، فيعتبروها ويَتفكَّرُوا فيها، ولكنهم يُعْرِضُونَ عنها ويقولون: ﴿لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فيه لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وذلك نظير وَصْفِ اللهِ إيَّاهم في موضعٍ آخرَ بقوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]. والعربُ تقول ذلك للتاركِ استعمالَ بعضِ جوارِحه فيما يصلحُ له.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «أولئك كالأنعام»، هؤلاء الذين ذَرَأْهم لجهنَمَ، هُمْ كالأنعامِ، وهي البهائمُ التي لا تفقه ما يُقالُ لها، ولا تفهمُ ما أبصرته، لما يَصْلُح ولما لا يَصْلُح، ولا تعقلُ بقلوبها الخيرَ من الشرِّ، فتميز بينهما. فَشَبَّههم اللهُ بها، إذْ كانوا لا يتذكَّرونَ ما يرون بأبصارهم من حُجَجِه، ولا يتفكَّرونَ فيما يسمعون من آي كتابهِ. ثم قال: «بَلْ هُمْ أَضَلُّ»، يقول: هؤلاء الكَفَرَةُ الذين ذَرَأهم لجهنَمَ، أشدُّ ذهاباً عن الحقِّ، وألزم لطريقِ الباطلِ، من البهائمِ، لأنَّ البهائمَ لا اختيارَ لها ولا تمييزَ فتختار وتميز، وإنما هي مُسَخَّرةٌ، ومع ذلك تهربُ من المضارِّ، وتطلبُ لأنفسها من الغذاءِ الأصلحَ. والذين وصفَ الله صِفَتهم في هذه الآية، مع ما أُعْطُوا من الأفهام والعقولِ المميِّزةِ بين المصالح والمضارِّ، تترك ما فيه صلاحُ دنياها وآخرتها، وتطلب ما فيه مضارّها، فالبهائمُ منها أشدُّ، وهي منها أضَلّ، كما وصفها به ربُّنا جَلَّ ثناؤُهُ.

وقوله: «أولئك هم الغافلون» يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاء الذين وصفتُ صِفَتَهم، القومُ الذين غفلوا ـ يعني: سهوا ـ عن آياتي وحججي، وتركوا تَدَبُّرَها والاعتبارَ بها والاستدلالَ على ما دلَّتْ عليه من توحيدِ رَبِّها، لا البهائم التي قد عَرَّفَها رَبُّها ما سَخَّرها له.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾.

يقول تعالى ذِكْرُه: «ولله الأسماءُ الحسنى»، وهي كما قال ابنُ عباس: ومن أسمائه: «العزيز الجبار» وكُلُّ أسمائه حَسَنٌ. (وما رواه) أبو هريرة، عن رسولِ الله ﷺ قال: إنَّ للهِ تسعةً وتسعينَ اسماً، مئة إلا واحداً، مَنْ أحصاها كُلَّها دخلَ الجنة[1]

وأما قوله: «وذَرُوا الذين يُلْحِدُونَ في أسمائِه»، فإنه يعني به المشركينَ.

وكان إلحادُهم في أسماء الله، أنهم عدَلوا بها عَمَّا هيَ عليه، فَسَمَّوْا بها آلهتهم وأوثانَهم، وزادُوا فيها، ونَقَصُوا منها، فَسَمَّوْا بعضَها «اللات»، اشتقاقاً منهم لها من اسمِ اللهِ الذي هو «الله»، وسَمَّوْا بعضَها «العُزَّى»، اشتقاقاً لها من اسم الله الذي هو «العزيز».

واختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «يلحدون».

فقال بعضهم: يُكَذِّبُونَ.

وقال آخرون: معنى ذلك: يُشْرِكُون.

وأصلُ «الإلحاد» في كلامِ العربِ، العدولُ عن القَصْدِ، والجورُ عنه، والإعراضُ. ثم يستعملُ في كل مُعْوَجٍّ غيرِ مستقيم. ولذلك قِيل لِلَحْدِ القبرِ: «لَحْدٌ»، لأنه في ناحيةٍ منه، وليس في وسطه. يقال منه: «ألحدَ فلانٌ يُلْحِد إلحاداً»، «ولَحد يَلْحَدُ لَحْداً ولُحُوداً».

---

(١) أخرجه المؤلف من طريق ابن سيرين عن أبي هريرة (١٥٤٥٢)، وكذلك مسلم ( ) وأخرجه البخاري (٦٤١٠) ومسلم ( ) من طريق الأعرج عن أبي هريرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ۝١٨١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومن الخَلْقِ الذين خَلَقْنَا «أمةٌ»، يعني جماعةٌ. «يَهْدُونَ»، يقول: يهتدونَ بالحقِّ. «وبه يَعْدِلُونَ»، يقول: وبالحَقِّ يَقْضُونَ ويُنصفونَ الناس.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والذين كَذَّبُوا بأدلتنا وأعلامِنا فَجَحَدُوها، ولم يتذكَّروا بها، سَنُمْهِلُه بغِرَّتِهِ، ونُزَيِّنُ له سوءَ عملِه، حتى يحسبَ أنه فيما هوَ عليه من تكذيبِه بآياتِ الله إلى نفسه مُحْسِنٌ، وحتى يبلغَ الغايةَ التي كُتِبتْ له من المَهَلِ، ثم يأخذُه بأعمالِه السيئة، فيجازِيه بها من العقوبةِ ما قَدْ أعدَّ له. وذلك استدراجُ الله إياهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ۝١٨٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأُؤخرُ هؤلاء الذين كَذَّبُوا بآياتنا.

وأصل «الإملاء» من قولهم: «مضى عليهم مَلِيٌّ، ومِلاوةٌ ومُلاوَة ومَلاوة» بالكسر والضم والفتح ـ «من الدهر»، وهي الحِينُ، ومنه قيل: انتظرتُكَ مَلِياً. ليبلغوا بمعصيتهم رَبَّهم، المقدارَ الذي كتبَهُ لهم من العقابِ والعذابِ. «إن كيدي»، والكيدُ هو المكرُ. وقوله: «متين»، يعني: قوي شديد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أَوَ لَمْ يتفكَّرْ هؤلاء الذين كَذَّبُوا بآياتنا، فيتدبَّروا بعقولهم ويعلموا أنَّ رسولَنا الذي أرسلناه إليهم لا جِنَّةَ به ولا خَبَلَ، وأنَّ الذي دعاهم إليه هو الرأي الصحيح، والدينُ القويم، والحقُّ المبين؟

ويعني بقوله: «إنْ هُوَ إلَّا نذيرٌ مبين»، ما هو إلا نذيرٌ يُنْذِرُكم عقابَ الله على كُفْرِكم به، إنْ لم تُنيبُوا إلى الإيمانِ به.

ويعني بقوله: «مبين»، قد أبانَ لكم، أيها الناسُ، إنذارُه ما أَنْذَرَكُمْ به من بأسِ الله على كُفْرِكم به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أَوَ لَمْ يَنْظُرْ هؤلاءِ المُكَذِّبُونَ بآياتِ الله، في ملكِ الله وسلطانهِ في السمواتِ وفي الأرضِ، وفيما خَلَقَ جَلَّ ثناؤُهُ من شيءٍ فيهما، فيتدبَّرُوا ذلكَ، ويعتبروا به، ويعلموا أنَّ ذلك لِمَنْ لا نظيرَ له ولا شبيه، ومِنْ فِعْلِ مَنْ لا ينبغي أنْ تكونَ العبادةُ والدينُ الخالصُ إلَّا له، فيؤمنُوا به، ويُصَدِّقُوا رسولَهُ ويُنِيبُوا إلى طاعته، ويخلعوا الأندادَ والأوثانَ، ويحذرُوا أنْ تكونَ آجالهم قد اقتربَتْ، فيهلكُوا على كُفْرِهم، ويصيرُوا إلى عذابِ الله وأليمِ عقابه.

وقوله: «فبأيِّ حديثٍ بعده يؤمنون»، يقول: فبأيِّ تخويفٍ وتحذيرِ ترهيبٍ بعدَ تحذيرِ محمدٍ ﷺ وترهيبه الذي أَتاهُمْ به من عندِ الله في آيِ كتابه،

يُصَدِّقُونَ، إنْ لم يُصَدِّقُوا بهذا الكتابِ الذي جاءهم به محمدٌ ﷺ من عند الله تعالى؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ إعراضَ هؤلاء الذين كَذَّبُوا بآياتنا، التاركي النظر في حججِ الله والفكر فيها، لإضلالِ اللهِ إياهم، ولو هَدَاهُم اللهُ لاعْتَبَرُوا وتَدَبَّرُوا فأبصرُوا رُشْدهم، ولكنَّ الله أضلَّهم، فلا يُبصرونَ رشداً ولا يهتدون سبيلًا، ومَنْ أضَلَّه عن الرشادِ فلا هاديَ له إليه، ولكنَّ الله يَدَعُهم في تَمَادِيهم في كُفْرِهم، وتمرُّدِهم في شِرْكِهم، يَتردَّدُونَ، ليستوجِبُوا الغايةَ التي كتبها اللهُ لهم من عقُوبته وأليمِ نَكاله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾

(يعني جَلَّ ثناؤُه): يسألك القومُ الذين يسألونكَ عن الساعةِ: «أيَّانَ مُرْسَاها»؟ يقول: متى قيامُها؟

وأما قوله: «قُلْ إنَّما عِلْمُها عند ربي لا يُجَلِّيها لوقتها إلَّا هُوَ»، فإنه أمرٌ من الله نبيَّه محمداً ﷺ بأنْ يُجيبَ سائليه عن الساعةِ بأنه لا يعلمُ وقتَ قيامها إلا اللهُ الذي يعلمُ الغيبَ، وأنه لا يُظْهِرُهَا لوقتها ولا يَعْلَمُهَا غيرُه جَلَّ ذِكْرُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ﴾

معنى ذلك: ثَقُلَتِ الساعةُ في السمواتِ والأرضِ على أهلها، أنْ يَعرفُوا وقتَها وقيامَها، لأنَّ الله أخفى ذلك عن خَلْقِه، فلم يُطْلِعْ عليه منهم أحداً. وذلك أنَّ الله أخبرَ بذلك بعدَ قوله: «قُلْ إنما عِلْمُهَا عند ربي لا يُجَلِّيها لوقتها إلا هو»، وأخبر بعده أنها لا تأتي إلا بَغْتةً، فالذي هو أوْلى: أن يكونَ ما بينَ ذلك أيضاً خبراً عن خفاءِ عِلْمِهَا عن الخَلْقِ، إذْ كان ما قبله وما بعده كذلك.

وأما قوله: «لا تأتيكم إلَّا بغتةً»، فإنه يقول: لا تجيءُ الساعةُ إلا فجأةً، لا تشعرونَ بمجيئها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ١٨٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يسألُكَ هؤلاءِ القومُ عن الساعةِ، كأنك حَفِيٌّ عنها، يعني: كأنك حَفِيٌّ[1] بالمسألةِ عنها فتعلمها.

وأما قوله: «قُلْ إنما عِلْمُهَا عند الله»، فإنَّ معناه: قُلْ، يا محمدُ، لسائليكَ عن وقتِ الساعة وحينِ مجيئها: لا علمَ لي بذلك، ولا عِلْمَ به إلَّا عند الله الذي يعلمُ غيبَ السموات والأرض. «ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون»، يقول: ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون أنَّ ذلك لا يعلمُه إلا الله، بَلْ يحسبونَ أنَّ عِلْمَ ذلكَ يوجدُ عند بعضِ خَلْقِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ١٨٨﴾

(١) الحَفِيُّ: العالم المُستقصي، ومنه قوله تعالى: ﴿إنه كان بي حَفِياً﴾.

يقول تعالى ذِكْرُه: لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ، يا محمدُ، لسائليك عن الساعةِ: «أيَّانَ مُرْسَاها؟» «لا أملكُ لنفسي نَفْعاً ولا ضَرًّا»، يقول: لا أقدرُ على اجتلابِ نفعٍ إلى نفسي، ولا دفع ضُرٍّ يحلُّ بها عنها، إلا ما شاء الله أنْ أملكه من ذلك، بأنْ يُقَوِّيني عليه ويُعِينني. «ولو كنتُ أعلمُ الغيبَ»، يقول: لو كنتُ أعلمُ ما هو كائنٌ مما لم يَكُنْ بعد. «لاستكثرتُ من الخير»، يقول: لأعددتُ الكثيرَ من الخير.

ثم اختلف أهلُ التأويل في معنى «الخير» الذي عَنَاهُ الله بقوله: «لاستكثرتُ من الخير».

فقال بعضهم: معنى ذلك: لاستكثرتُ من العملِ الصالحِ.

وقال آخرون: معنى ذلك: «ولو كنتُ أعلم الغيب»، لأعددتُ للسنةِ المجدبةِ من المُخْصِبَةِ، ولعرفتُ الغلاءَ من الرُّخْصِ، واستعددتُ له في الرُّخْصِ.

وقوله: «وما مَسَّنيَ السُّوءُ»، يقول: وما مَسَّنيَ الضُّرُّ. «إنْ أنَا إلَّا نذيرٌ وبشير»، يقول: ما أنا إلَّا رسولُ لله أرسلني إليكم، أنذر عِقَابَهُ مَنْ عَصَاهُ منكم وخالف أمره، وأبشِّر بثوابهِ وكرامته مَنْ آمنَ به وأطاعه منكم.

وقوله: «لقومٍ يُؤمنون»، يقول: يُصَدِّقُونَ بأني للهِ رسولُ، ويُقِرُّونَ بحقيقةِ ما جئتهم به من عنده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾**

يقول تعالى ذِكْرُه: «هو الذي خَلَقكُم من نفسٍ واحدة»، يعني بـ«النفس الواحدة»، آدم.

ويعني بقـوله: «وجعلَ منها زوجَها»، وجعلَ من النفسِ الواحدةِ، وهو آدم. «زوجها»، حواء.

ويعني بقوله: «ليسكُنَ إليها»، ليأوي إليها، لقضاءِ حاجَتِه ولَذَّتِه.

ويعني بقوله: «فلما تَغَشَّاها»، فلما تَدَثَّرها لقضاءِ حاجتِه منها، فقضى حاجَتَهُ منها. «حَمَلَتْ حملاً خفيفاً»، وفي الكلام محذوفٌ، ترك ذكرُه استغناءً بما ظهرَ عما حذف، وذلك قولُه: «فلما تَغَشَّاهَا حملت»، وإنما الكلام: فلما تغشاها ـ فقضى حاجتَهُ منها ـ حَمَلَتْ.

وقـولـه: «حملت حملاً خفيفاً»، يعني بـ «خفة الحمل»، الماء الذي حملته حواء في رَحِمها من آدم، أنه كان حَمْلاً خفيفاً، وكذلك هو حملُ المرأة ماءَ الرجلِ، خفيفٌ عليها.

وأما قوله: «فَمَرَّتْ به»، فإنه يعني: استمرَّت بالماء، قامتْ به وقَعَدتْ، وأتَمَّت الحملَ.

ويعني بقوله: «فلما أثقلت»، فلما صارَ ما في بطنها من الحملِ الذي كان خفيفاً، ثقيلاً، ودَنَتْ وِلاَدَتُهَا.

«دَعَوَا الله رَبَّهُمَا»، يقول: نادى آدمُ وحواءُ رَبَّهُمَا وقالا: يا رَبَّنَا، «لَئِنْ آتَيْتَنَا صالحاً لنكونَنَّ من الشاكرين».

واختلف أهل التأويل في معنى «الصلاح»، الذي أقسم آدمُ وحواءُ عليهما السلام أنه إنْ آتاهما صالحاً في حَمْلِ حواء: لَنكونَنَّ من الشاكرين.

فقال بعضهم: ذلك هو أن يكونَ الحملُ غلاماً.

وقال آخرون: بل هو أنْ يكونَ المولودُ بشراً سَوِيًّا مثلهما، ولا يكون بهيمة.

والصوابُ من القولِ في ذلك أنْ يُقالَ: إنَّ الله أخبر عن آدمَ وحواء أنهما دَعَوَا الله رَبَّهما بحملِ حواء، وأقسما لئن أعطاهُمَا ما في بطنِ حواء، صالحاً، ليكونانِ لله من الشاكرينَ.

و«الصلاح»، قد يشمل معاني كثيرة: منها «الصلاح» في استواءِ الخَلْقِ، ومنها «الصلاح» في الدِّين، و«الصلاح»، في العقلِ والتدبير.

وإذْ كان ذلك كذلك، ولا خبرَ عن الرسولِ يُوجِبُ الحجةَ بأنَّ ذلك على بعضِ معاني «الصلاح» دونَ بعضٍ، ولا فيه من العقلِ دليلٌ، وَجَبَ أن يُعَمَّ كما عَمَّهُ اللهُ فيقال: إنهما قالا: «لَئِنْ آتيتَنا صَالحاً»، بجميعِ معاني «الصلاح».

وأما معنى قوله: «لنكونَنَّ من الشاكرين»، فإنه: لنكونَنَّ مِمَّنْ يَشْكُركَ على ما وهبتَ له من الولدِ صالحاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ١٩٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما رَزَقَهُمَا اللهُ ولداً صالحاً كما سألا «جعلا له شُركاءَ فيما آتاهما»، ورزَقَهُمَا.

ثم اختلف أهلُ التأويل في «الشركاء» التي جَعَلاها فيما أُوتِيَا من المولود.

فقال بعضهم: جعلا له شُركاءَ في الاسم.

وقال آخرون: بل المعنيُّ بذلك: رجلٌ وامرأة من أهلِ الكفرِ من بني آدم، جعلا للهِ شُركاءَ من الآلهةِ والأوثانِ حين رَزَقَهما ما رَزَقَهُمَا من الولدِ. وقالوا: معنى الكلام: «هو الذي خلقكم من نفسٍ واحدة وجعَلَ منها زَوْجَها ليسكُنَ إليها فلما تَغَشَّاها»، أي هذا الرجلُ - «حملت حملاً خفيفاً فلما أثقلت»، دَعَوْتُمَا اللهَ رَبَّكُما. قالوا: وهذا مما ابْتُدِىءَ به الكلامُ على وجه الخطابِ، ثم رُدَّ إلى الخبرِ عن الغائبِ، كما قِيلَ: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢] وقد بَيَّنَّا نظائرَ ذلكَ بشواهدِه فيما مضى قَبْلُ.

وأَوْلى القولين بالصوابِ، قولُ مَنْ قالَ: عَنَى بقوله: «فلما آتاهُمَا صالحاً جعلا له شركاء» في الاسم، لا في العبادة - وأن المعنيَّ بذلك آدم وحواء، لإجماعِ الحُجَّةِ من أهلِ التأويلِ على ذلك.

فإنْ قال قائلٌ: فما أنتَ قائلٌ - إذْ كان الأمرُ على ما وصفت في تأويلِ هذه الآية، وأنَّ المعنيَّ بها آدم وحواء - في قوله: «فتعالى اللهُ عَمَّا يُشركون»؟ أهو استنكافٌ من الله أنْ يكونَ له في الأسماء شريك، أو في العبادة؟ فإنْ قلت: «في الأسماء»، دلَّ على فسادِه قوله: «أَيُشْرِكُونَ ما لا يخلقُ شيئاً وهم يُخْلَقُون»؟ فإنْ قلت: «في العبادة»، قيلَ لك: أَفكَانَ آدمُ أشركَ في عبادةِ اللهِ غيرَهُ؟

قيل له: إنَّ القـولَ في تأويل قوله, «فتعالى الله عما يشركون»، ليس بالذي ظننتَ. وإنما القولُ فيه: فتعالى الله عما يُشْرِكُ به مشركُو العربِ من عَبَدَةِ الأوثانَ. فأمَّا الخبرُ عن آدم وحواء، فقد انقضى عند قولِه: «جَعَلا له شُركاء فيما آتاهما»، ثم استؤنف قوله: «فتعالى الله عما يشركون».

وأما قوله: «فتعالى الله عما يشركون»، فتنزيهٌ من اللهِ تباركَ وتعالى نفسَهُ، وتعظيمٌ لها عَمَّا يقول فيه المُبْطِلُونَ، ويَدَّعُونَ معه من الآلهةِ والأوثان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ١٩١﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: أَيُشْرِكُونَ في عبادةِ الله، فيعبدونَ معه «ما لا يَخلقُ شيئاً»، والله يَخْلقُهَا ويُنْشِئُهَا؟ وإنما العبادةُ الخالصةُ للخالقِ لا للمخلوق.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ١٩٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أيشركُ هؤلاء المشركونَ في عبادةِ الله ما لا يَخْلُقُ شيئاً من خَلْقِ الله، ولا يستـطيعُ أنْ ينصـرهم إنْ أرادَ الله بهم سوءاً أو أَحَلَّ بهم عقوبةً، ولا هو قادرٌ إنْ أرادَ به سوءاً نَصْرَ نفسِه ولا دَفْعَ ضُرٍّ عنها؟ وإنما العابدُ يعبـدُ ما يعبدُه لاجتلابِ نفعٍ منه أو لدفع ضُرٍّ منه عن نفسِه، وآلهتهم التي يعبدونها ويشركونها في عبادة الله، لا تنفعهم ولا تضرهم، بل لا تجتلبُ إلى نفسها نفعاً ولا تدفعُ عنها ضرًّا، فهي من نفع غير أَنْفُسِهَا أو دفعِ الضُّرِّ عنها أبعدُ؟ يُعَجِّبُ تباركَ وتعالى خَلْقَهُ من عظيمِ خطأ هؤلاءِ الذينَ يشركونَ في عبادَتِهم الله غيرَه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ١٩٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه في وَصفِه وعَيْبِه ما يشركُ هؤلاءِ المشركونَ في عبادَتِهم ربَّهم إياهُ. ومِنْ صِفَتِه أنكم، أيها الناسُ، إنْ تَدْعُوهم إلى الطريقِ المستقيمِ والأمرِ الصحيحِ السديد لا يَتَّبِعُوكُمْ، لأنها ليست تعقلُ شيئاً، فتترك من الطُّرُقِ ما كانَ عن القصدِ مُنْعَدِلاً جائراً، وتركب ما كان مستقيماً سديداً.

وإنما أرادَ الله جَلَّ ثناؤُهُ بوصفِ آلهتهم بذلك من صِفَتِهَا، تَنْبِيهَهُمْ على عظيمِ خَطَئِهم وقُبْحِ اختيارِهم. يقول جَلَّ ثناؤه: فكيف يهديكم إلى الرشاد مَنْ إنْ دُعيَ إلى الرشادِ وعُرِّفَهُ لم يَعْرِفْهُ، ولم يَفْهَمْ رشاداً من ضلالٍ، وكان سواءً دعاءُ داعِيه إلى الرشادِ وسكوته، لأنه لا يفهمُ دعاءه، ولا يسمعُ صوته، ولا يعقلُ ما يقالُ له. يقول: فكيف يُعْبَدُ مَنْ كانت هذه صِفَتُه، أم كيف يُشْكِل عظيمُ جَهْلِ مَن اتَّخَذَ ما هذهِ صِفَتُه إلهاً؟ وإنما الربُّ المعبودُ هو النافعُ مَنْ يَعْبُده، الضارُّ مَنْ يَعْصِيه، الناصرُ وَلِيَّهُ، الخاذلُ عَدُوَّهُ، الهادي إلى الرشادِ مَنْ أطاعَهُ، السامعُ دُعاءَ مَنْ دَعَاهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾

يقول جَلَّ ثناؤُه لهؤلاءِ المشركينَ من عَبَدَةِ الأوثانِ، مُوَبِّخَهُمْ على عبادَتِهم ما لا يَضُرُّهُمْ ولا ينفعهم من الأصنام: «إنَّ الذين تدعون»، أيها المشركونَ، آلهةً - «من دونِ الله»، وتَعْبُدُونَها، شِرْكاً منكم وكُفْراً باللهِ. «عِبادٌ أمثالكم»، يقول: هم أملاكٌ لربِّكم، كما أنتم له مماليك. فإنْ كنتم صادقينَ أنها تَضُرُّ وتنفعُ، وأنها تستوجبُ منكم العبادةَ لنفعها إياكم، فليستجيبوا لِدُعَائِكم إذا دَعَوْتُموهم، فإنْ لم يستجيبوا لكم، لأنها لا تسمعُ دُعَاءَكم، فأيقِنُوا بأنها لا تنفعُ ولا تَضُرُّ، لأنَّ الضُّرَّ والنفعَ إنما يكونانِ مِمَّنْ إذا سُئِلَ سمعَ مسألةَ سائِله وأعطى

وأفْضَلَ، ومَنْ إذا شكي إليه من شيءٍ سمع، فَضَرَّ مَنِ استحقَّ العقوبةَ، ونَفَعَ من لا يستوجبُ الضُّرَّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لهؤلاء الذين عَبَدُوا الأصنامَ من دونه، مُعَرِّفَهم جَهْلَ ما هُمْ عليه مُقيمونَ: أَلِأَصْنَامِكم هذه، أيها القومُ. «أرجلٌ يمشون بها»، فيسعونَ معكم ولكم في حوائِجكم، ويتصرفون بها في منافِعِكم. «أم لهم أيدٍ يبطشونَ بها»، فيدفعونَ عنكم ويَنْصُرونَكُم بها عند قصد مَنْ يقصِدُكم بشرٍّ ومكروهٍ. «أَمْ لَهُمْ أعينٌ يُبصـرونَ بهـا»، فَيُعَرِّفُونكم ما عاينوا وأبصروا مما تغيبونَ عنه فلا ترونـه. «أم لهم آذانٌ يسمعـونَ بها»، فيخبرونَكُمْ بما سمعوا دونكم مما لم تسمعوه. يقول جَلَّ ثناؤُه: فإنْ كانت آلهتكم التي تعبدونَها ليس فيها شيءٌ من هذه الآلاتِ التي ذكرتُها، والمُعَظَّمُ من الأشياء إنما يُعَظَّمُ لما يُرْجَى منه من المنـافـعِ التي توصـل إليه بعض هذه المعـاني عنـدكم، فما وجهُ عبادَتِكم أصنامَكم التي تعبدونها، وهي خالية من كُلِّ هذه الأشياء التي بها يُوصَلُ إلى اجتلابِ النفعِ ودَفْعِ الضر؟

وقـولـه: «قُـلِ ادْعُـوا شركـاءَكم ثم كِيدُونِ»، قُلْ، يا محمـدُ، لهؤلاء المشركينَ من عَبَدَةِ الأوثان: ادْعُوا شركاءَكم الذين جعلتموهم للهِ شُركاء في العبادة. «ثم كِيدون»، أنتم وهي. «فلا تُنْظِرُونِ»، يقول: فلا تؤخرونِ بالكيدِ والمكر، ولكن عَجِّلُوا بذلك. يُعْلِمُه جَلَّ ثناؤُهُ بذلك أنهم لن يضروه، وأنه قد عَصَمَهُ منهم، ويُعَرِّفُ الكَفَرَةَ به عَجزَ أوثانِهم عن نُصْرَةِ مَنْ بغى أولياءهم بسوءٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ: قُلْ، يا محمد، للمشركينَ من عَبَدَةِ الأوثان. «إنَّ وَلِيِّيَ»، نَصِيري ومُعِيني وظَهيري عليكم. «الله الذي نَزَّلَ الكتابَ» عليَّ بالحق، وهو الذي يتولَّى مَنْ صلح عملُه بطاعتِه من خَلْقِه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾

وهذا أيضاً أمرٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ لنبيه أنْ يقولَهُ للمشركينَ. يقول تعالى ذِكْرُه: قُلْ لهم: إنَّ الله نصيري وظهيري، والذين تدعون أنتم، أيها المشركونَ، من دونِ الله من الآلهـةِ، لا يستـطيعـونَ نَصْرَكُمْ، ولا هُمْ مع عَجْزِهم عن نُصْرَتِكُم يقدرونَ على نصرة أنفسِهم. فأي هذين أوْلى بالعبادةِ وأحق بالألوهة؟ أَمَنْ ينصرُ وَلِيَّهُ ويمنعُ نفسه مِمَّنْ أرادَهُ، أم مَنْ لا يستطيعُ نَصْرَ وليه ويعجزُ عن منعِ نفسِه مِمَّنْ أرادَهُ وبَغاه بمكروهٍ؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾

يقـول جَلَّ ثنـاؤه لنبيه محمـدٍ ﷺ: قُلْ للمشـركين: وإنْ تدعوا، أيها المشركون، آلهتِكُمْ إلى الهدى ـ وهو الاستقامة إلى السداد ـ «لا يَسمعوا»، يقول: لا يسمعوا دُعَاءَكم. «وتراهم ينظرونَ إليك وهم لا يبصرون».

وهذا خطابٌ من الله نبيَّهُ ﷺ. يقول: وتَرَى، يا محمدُ، آلهتهم ينظرونَ

إليكَ وهم لا يُبصرون - ولذلك وَحَّدَ. ولو كان أمر النبي ﷺ بخطابِ المشركين، لقال: «وترونهم ينظرون إليكم».

فإنْ قال قائلٌ: فما معنى قوله: «وتَراهُمْ ينظرونَ إليكَ وهم لا يبصرون»؟ وهل يجوزُ أنْ يكونَ شيءٌ ينظر إلى شيءٍ ولا يراه؟

قيل: إنَّ العربَ تقولُ للشيءِ إذا قابل شيئاً أو حاذاه: «هو ينظر إلى كذا»، ويقال: «منزلُ فلانٍ ينظرُ إلى منزلي»، إذا قَابَلَهُ, وحكى عنها: «إذا أتيتَ موضعَ كذا وكذا فنظرَ إليكَ الجبل، فَخُذْ يميناً أو شمالاً»، وحدثت عن أبي عبيد قال: قال الكسائي: «الحائطُ ينظرُ إليك»، إذا كان قريباً منكَ حيثُ تراه.

فمعنى الكلام: وترى، يا محمدُ، آلهةَ هؤلاءِ المشركينَ من عَبَدَةِ الأوثانِ، يقابلونكَ ويحاذونكَ، وهم لا يُبْصِرُونَك، لأنه لا أبصارَ لهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك:

فقال بعضهم: تأويلُه: «خُذِ العفوَ» من أخلاقِ الناسِ، وهو الفضل وما لا يجهدهم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: خُذِ العفوَ من أموالِ الناسِ، وهو الفضل. قالوا: وأمر بذلك قبل نزولِ الزكاةِ، فلما نزلتِ الزكاةُ نُسِخ.

وقال آخرون: بل ذلك أمرٌ من اللهِ نبيَّهُ ﷺ بالعفوِ عن المشركينَ، وترك الغِلْظَة عليهم، قبل أن يفرض قتالهم عليه.

وأوْلى هذه الأقوالِ بالصوابِ، قولُ مَنْ قالَ: معناه: خذ العفوَ من أخلاقِ الناس، واترك الغِلظَةَ عليهم ـ وقال: أُمِرَ بذلك نبيُّ الله ﷺ في المشركين.

وإنما قلنا ذلك أوْلى بالصوابِ، لأنَّ الله جَلَّ ثناؤهُ أتبعَ ذلك تعليمَهُ نبيَّهُ ﷺ محاجَّتهُ المشركينَ في الكلام، وذلك قوله: «قُلِ ادْعُوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون»، وعقَّبه بقوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ۞ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾، فما بين ذلك، بأنْ يكون من تأديبه نبيَّه ﷺ في عشرتهم به، أشبهُ وأوْلى من الاعتراضِ بأمرِه بأخذِ الصدقة من المسلمين.

فإنْ قال قائلٌ: أفمنسوخٌ ذلك؟

قيل: لا دلالةَ عندنا على أنه منسوخٌ، إذْ كان جائزاً أنْ يكون ـ وإنْ كان اللهُ أنزله على نبيه عليه السلام في تعريفه عِشْرَةَ مَنْ لم يُؤْمَر بقتالِه من المشركينَ ـ مُراداً به تأديبُ نبيِّ الله والمسلمين جميعاً في عِشْرَةِ الناس، وأمرهم بأخذِ عفو أخلاقهم، فيكون وإن كان من أجلهم نزل، تعليماً من الله خَلْقَهُ صفةَ عِشرة بعضهم بعضاً، إذا لم يجب استعمال الغلظة والشدة في بعضهم. فإذا وجب استعمال ذلك فيهم، استعمل الواجبَ، فيكون قوله: «خذ العفو»، أمراً بأخذه ما لم يجب غيرُ العفو، فإذا وجب غيره أخذ الواجب وغير الواجب إذا أمكن ذلك. فلا يحكم على الآية بأنها منسوخة، لما قد بيَّنّا ذلك في نظائره في غير موضع من كتبنا.

وأما قوله: «وأمر بالعرف» فإنه يعني: أنَّ الله أمرَ نبيه ﷺ أنْ يأمرَ الناسَ بالعُرْفِ ـ وهو المعروفُ في كلامِ العرب، مصدر في معنى: «المعروف».

فإذْ كان معنى «العرف» ذلك فمن «المعروف»: صِلَةُ رَحِمِ مَنْ قَطعَ، وإعطاءُ مَنْ حَرمَ، والعفو عمن ظلم. وكُلُّ ما أمرَ اللهُ به من الأعمالِ أو نَدَبَ

إليه، فهو من «العُرْفِ». ولم يخصص اللهُ من ذلك معنىً دون معنى، فالحقُّ فيه أن يقالَ: قد أمرَ الله نبيَّهُ ﷺ أنْ يأمرَ عبادَهُ بالمعروف كله، لا ببعضِ معانيهِ دونَ بعضٍ.

وأما قوله: «وأعْرِضْ عن الجاهلينَ»، فإنه أمرٌ من الله تعالى نبيَّهُ ﷺ أنْ يُعْرِضَ عَمَّنْ جَهِلَ. وذلك وإنْ كان أمراً من الله نبيَّهُ، فإنه تأديبٌ منه عَزَّ ذِكْرُه لخلقِه باحتمالِ مَنْ ظَلَمَهُمْ أو اعتدى عليهم، لا بالإعراضِ عَمَّنْ جهلَ الواجبَ عليه من حَقِّ الله، ولا بالصفحِ عَمَّنْ كفرَ باللهِ وجهل وحدانيتَهُ، وهو للمسلمين حَرْبٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وإما ينزغنكَ من الشيطانِ نَزْغٌ»، وإما يُغْضِبَنَّكَ من الشيطانِ غضبٌ يَصُدُّكَ عن الإعراضِ عن الجاهلينَ، ويحملكَ على مجازاتِهم. «فاستعذْ بالله»، يقول: فاستَجِرْ بالله من نَزْغِه. «إنه سميع عليم»، يقول: إنَّ الله الذي تستعيذُ به من نَزْغِ الشيطانِ. «سميعٌ»، لجهلِ الجاهلِ عليكَ، ولاستعاذتكَ به من نزغه، ولغيرِ ذلك من كلامِ خَلْقِه، لا يخفى عليه منه شيءٌ. «عليمٌ»، بما يُذْهِبُ عنكَ نزغَ الشيطان، وغيرِ ذلك من أمورِ خَلْقِه.

وأصـل «النزغ»، الفساد، يقال: «نزغ الشيطانُ بين القَوم»، إذا أفسدَ بينهم، وحَمَّلَ بعضَهم على بعض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «إنَّ الذين اتقوا» اللهَ من خَلْقِه، فخافوا عقابَهُ، بأداءِ فرائضِه واجتنابِ معاصيه. «إذا مَسَّهم طائفٌ من الشيطان تَذَكَّرُوا»، ويقول: إذا أَلَمَّ بهم لَمَمٌ من الشيطانِ، من غضبٍ أو غيرِهِ مما يصدُّ عن واجبِ حَقِّ اللهِ عليهم، تَذَكَّرُوا عقابَ الله وثوابه، ووَعْدَهُ ووعيدَهُ، وأبصروا الحَقَّ فعملُوا به، وانتهوا إلى طاعةِ الله فيما فَرَضَ عليهم، وتركوا فيه طاعةَ الشيطان.

وأما قوله: «فإذا هُمْ مُبصرون»، فإنه يعني: فإذا هم مبصرون هُدَى الله وبيانَهُ وطاعته فيه، فَمُنْتَهُونَ عَمَّا دَعَاهم إليه طائفُ الشيطان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإخوانُ الشياطينِ تَمُدُّهم الشياطينُ في الغي. يعني بقوله: «يمدونهم»، يَزِيدُونَهُمْ، ثم لا ينقصون عما نقص عنه الذين اتقوا إذا مَسَّهم طائفٌ من الشيطان.

وإنما هذا خبرٌ من الله عن فريقي الإيمانِ والكفر، بأنَّ فريقَ الإيمان وأهل تقوى الله إذا استزلَّهم الشيطانُ تذكروا عظمةَ الله وعقابه، فكفَّتهم رَهْبَتُه عن معـاصيه، وردَّتْهُمْ إلى التوبةِ والإنابةِ إلى الله مما كانَ منهم زلَّةً - وأنَّ فريق الكافرين يزيدهم الشيطانُ غيًّا إلى غيِّهم إذا ركبوا معصيةً من معاصي الله، ولا يحجزهم تقوى الله، ولا خوف المعاد إليه عن التمادي فيها والزيادةِ منها، فهو أبداً في زيادة من ركوبِ الإثم، والشيطانُ يزيده أبداً، لا يُقصر الإنسي عن شيء من ركوب الفواحش، ولا الشيطان من مَدِّه منه،

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾

يقول عَزَّ ذِكْرُه: وإذا لم تأتِ، يا محمدُ، هؤلاءِ المشركينَ بآية من الله قـالـوا لولا اجْتَبَيْتَهَا». يقول: قالوا: هَلاَّ اخْتَرْتَها واصْطَفَيْتَهَا. من قول الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾، [آل عمران: ١٧٩]، يعني: يختارُ ويَصْطَفي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٢٠٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ، يا محمدُ، للقائلينَ لَكَ إذا لم تأتِهم بآيةٍ: «هَلاَّ أحْدَثْتَها من قِبَلِ نَفْسِكَ!»: إنَّ ذلك ليسَ لي، ولا يجوزُ لي فِعْلُه، لأنَّ الله إنما أمرني باتباعِ ما يُوحَى إليَّ من عندِه فإنما أتبعُ ما يُوحَى إليَّ من ربي، لأني عَبْدُه، وإلى أمرِه أنتهي، وإياهُ أُطيعُ. «هذا بصائِرُ من رَبِّكم»، يقول: هذا القرآنُ والوحيُ الذي أتلوه عليكم. «بصائر من ربكم»، يقول: حُجَجٌ عليكم، وبيانٌ لكم من رَبِّكم.

وقوله: «وهدى»، يقول: وبيانٌ يَهدي المؤمنينَ إلى الطريقِ المستقيمِ. «ورحمـةٌ»، رَحِمَ اللهُ به عبـادَهُ المؤمنينَ، فأنقذهم به من الضلالةِ والهلكةِ. «لقومٍ يؤمنون»، يقول: هو بصائرُ من الله وهدى ورحمة لمن آمنَ، يقول: لمن صَدَّقَ بالقرآنِ أنه تنزيلُ الله ووحيُه، وعَمِلَ بما فيه، دونَ مَنْ كَذَّبَ به وجَحَدَهُ وكفرَ به، بَلْ هو على الذين لا يؤمنون به عَمًى وخِزْيٌ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعالَى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ٢٠٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ به، المُصَدِّقينَ بكتابِهِ، الذين القرآنُ لهم هُدَى

ورحمةٌ: «إذا قُرِئَ» عليكم، أيها المؤمنونَ، «القرآنُ». «فاستمعوا له»، يقول: اصغُوا له سمعكم، لتتفهَّمُوا آياتِهِ، وتعتبرُوا بمواعظِه. «وأنصتوا»، إليه لتعقِلُوهُ وتتدبَّرُوه، ولا تلغوا فيه فلا تعقلوه. «لعلَّكُمْ تُرْحَمُون»، يقول: ليرحَمَكُمْ رَبُّكم باتِّعاظِكم بمواعظِه، واعتبارِكم بعبَرِه، واستعمالكم ما بَيَّنَهُ لكم رَبُّكم من فرائِضِه في آيِهِ.

ثم اختلف أهلُ التأويل في الحال التي أمر الله بالاستماعِ لقارِئِ القرآنِ إذا قرأ والإنصاتِ له.

فقال بعضُهم: ذلك حال كون المصلي في الصلاة خلفَ إمامٍ يأتمُّ به، وهو يسمعُ قراءةَ الإمامِ، عليه أنْ يستمعَ لقراءته. وقالوا: في ذلك أُنزلتْ هذه الآيةُ.

وقال آخرون: بل عُنيَ بهذه الآية، الأمرُ بالإنصاتِ للإمامِ في الخطبة، إذا قرأ القرآن في خطبته.

وقال آخرون: عنى بذلك الإنصات في الصلاة، وفي الخطبة.

وأَوْلى الأقوال في ذلك بالصوابِ، قولُ مَنْ قال: امرُؤٌ باستماعِ القرآنِ في الصلاة إذا قرأ الإمامُ، وكان مِنْ خَلْفِه ممن يأتمُّ به يسمعه، وفي الخطبة.

وإنمـا قلنا ذلك أَوْلى بالصواب، لصحَّةِ الخبرِ عن رسولِ الله ﷺ أنه قال: «إذا قرأ الإمـامُ فأنْصِتُوا»[1]، وإجماعِ الجميعِ على أنَّ علىَ مَنْ سمعَ خطبةَ الإمامِ ممن عليه الجمعةُ، الاستماعَ والإنصاتَ لها، مع تَتَابُعِ الأخبارِ بالأمرِ بذلك عن رسولِ الله ﷺ، وأنه لا وقتَ يجبُ على أحدٍ استماع القرآن، والإنصـات لسـامعهِ، من قارئه، إلاَّ في هاتين الحالتين، على اختلافٍ في

(١) انظر طرق الحديث في البيهقي: ٢/١٥٥-١٥٦.

إحداهما، وهي حالة أنْ يكونَ خلفَ إمامٍ مُؤتَمٍّ به. وقد صَحَّ الخبرُ عن رسولِ الله ﷺ بما ذكرنا من قولِه: «إذا قرأ الإمامُ فأنصتوا»، فالإنصاتُ خَلفَهُ لقراءتِه واجبٌ على مَنْ كان به مؤتماً سامعاً قراءته، بعمومِ ظاهرِ القرآنِ والخبرِ عن رسولِ الله ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «واذْكُرْ»، أيُّها المستمعُ المُنْصِتُ للقرآنِ، إذا قُرِىءَ في صلاةٍ أو خطبة[1]، «رَبَّك في نفسِكَ»، يقول: اتَّعِظْ بما في آيِ القرآنِ واعتبِرْ به، وتَذَكَّرْ مَعَادكَ إليه عند سَمَاعكَهُ. «تَضَرُّعاً»، يقول: افعل ذلك تَخَشُّعاً لله وتواضُعاً له. «وخِيفةً»، يقول: وخوفاً للهِ من أنْ يعاقِبَكَ على تقصيرٍ يكونُ منك في الاتعاظِ به والاعتبار، وغفلةٍ عما بَيَّنَ الله فيه من حدودِه. «ودونَ الجهرِ من القول»، يقول: ودعاء باللسان لله في خفاءٍ لا جهار. يقول: لِيَكُنْ ذِكْرُ الله عند استماعكَ القرآنَ في دعاءٍ إنْ دَعَوْتَ غير جهار، ولكنْ في خفاءٍ من القول.

وأما قوله: «بالغُدُوِّ والآصالِ»، فإنه يعني: بالبُكَرِ والعَشِيَّاتِ.

وأما قوله «ولا تَكُنْ من الغافلينَ»، فإنه يقول: ولا تَكُنْ من اللَّاهينَ إذا قُرِىءَ القرآنُ عن عِظَاتِه وعِبَرِهِ وما فيه من عجائبه، ولكن تَدَبَّرْ ذلك وتَفَهَّمْهُ، وأَشْعِرْهُ قلبكَ بذكرِ اللهِ، وخضوعٍ له، وخوفٍ من قُدْرَةِ اللهِ عليكَ إنْ أنتَ غفلت عن ذلك.

---

(١) اعترض العلامة ابن كثير على تفسير الطبري لهذه الآية بهذا المعنى، فذكر أنَّ ذلك مُنافٍ للإنصات المأمور به، بل المراد الحضُّ على كثرة الذِّكْر من العباد بالغُدُوِّ والآصال، لئلا يكونوا من الغافلين. وهو أصوب من رأي الطبري.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لا تَسْتَكْبِرْ، أيها المستمعُ المُنْصِتُ للقرآنِ، عن عبادةِ رَبِّكَ، واذْكُرْهُ إذا قُرِئَ القرآنُ تضرعاً وخيفة ودونَ الجهرِ من القولِ، فإنَّ الذين عندَ رَبِّكَ من ملائكتِه، لا يستكبرونَ عن التواضعِ له والتَّخَشُّعِ، وذلك هو «العبادة». «ويُسَبِّحُونَهُ»، يقول: ويُعَظِّمُونَ رَبَّهم بتواضُعِهم له وعبادَتِهم. «وله يَسْجُدونَ»، يقول: ولله يُصَلُّونَ ـ وهو سُجُودُهم ـ فَصَلُّوا أنتم أيضاً له وعَظِّمُوه بالعبادةِ، كما يفعله مَنْ عِنْدَهُ من ملائكتِه.

المجلد الثالث

فهرس المحتويات

تفسير الطبري

من كتابه

جامع البيان عن تأويل آي القرآن

هذبه وحققه وضبط نصه وعلق عليه

الدكتور بشار عواد معروف — عصام فارس الحرستاني

المجلد الرابع

الأنفال إلى النحل

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير الطبري

٤

الطّبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع

مؤسّسة الرّسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٦٠٣٢٤٣ - ٨١٥١١٢ - ص.ب: ٧٤٦٠ - برقياً: بيوشران

سُورَةُ الأَنفَال

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾

اختلف أهلُ التأويل في معنى «الأنفال» التي ذكرها الله في هذا الموضع.

فقال بعضهم: هي الغنائمُ، وقالوا: معنى الكلام: يسألُكَ أصحابُكَ، يا محمدُ، عن الغنائمِ التي غنمتها أنتَ وأصحابُكَ يومَ بَدْرٍ، لمن هيَ؟ فقل: هي للهِ ولرسولِه.

وقال آخرون: هي أنفالُ السرايا.

وقال آخرون: «الأنفال»، ما شَذَّ من المشركينَ إلى المسلمينَ، من عَبْدٍ أو دابةٍ، وما أشبهَ ذلك.

وقال آخرون: «النفل»، الخُمس الذي جعلَهُ الله لأهلِ الخُمُس.

وأولى هذه الأقوالِ بالصوابِ في معنى: «الأنفال»، قولُ مَنْ قال: هي زياداتٌ يَزيدها الإمامُ بعضَ الجيشِ أو جَمِيعَهُمْ، إمَّا من سَهْمِه على حقوقِهم من القسمةِ، وإمَّا مما وصلَ إليه بالنفلِ أو ببعضِ أسبابه، ترغيباً له، وتحريضاً لِمَنْ معهُ من جيشِهِ على ما فيه صلاحُهم وصلاحُ المسلمينَ، أو صلاحُ أحدِ الفريقين. وقد يدخلُ في ذلك الفَرَسُ والدِّرْعُ ونحو ذلك، ويدخلُ فيه ما عادَ من المشركين إلى المسلمين من عبدٍ أو فَرَسٍ، لأنَّ ذلك أمرُه إلى الإمامِ، إذا لم يكن ما وصلوا إليه بغَلَبَةٍ وقَهْرٍ، يفعلُ ما فيه صلاحُ أهلِ الإسلام، وقد يدخلُ فيه ما غلب عليه الجيش بقَهر.

وإنما قلنا ذلك أَوْلى الأقوالِ بالصواب، لأنَّ «النفل» في كلام العرب، إنما هو الزيادةُ على الشيء، يقال منه: «نفَّلتُكَ كذا» و«أنفلتك»، إذا زِدْتُكَ.

فإِذْ كان معناه ما ذَكَرْنَا، فَكُلُّ مَنْ زِيدَ من مقاتلةِ الجيشِ على سهمه من الغنيمةِ - إنْ كان ذلك لبلاءٍ أبلاهُ، أو لغَنَاءٍ كان منه عن المسلمين - بتنفيلِ الوالي ذلك إيَّاهُ، فيصير حُكْمُ ذلكَ له كالسَّلبِ الذي يسلبه القاتل، فهو منفل ما زِيدَ من ذلك، لأنَّ الزيادةَ نَفَلٌ، والنَّفَلُ، وإنْ كان مُسْتَوْجِبهُ في بعضِ الأحوالِ لحق، ليس هو من الغنيمةِ التي تقعُ فيها القسمة. وكذلك كُلُّ ما رُضِخَ لمن لا سهمَ له في الغنيمة، فهو «نفل»، لأنه وإنْ كان مغلوباً عليه، فليس مما وقعتْ عليه القسمةُ.

فالفصل - إذا كانَ الأمرُ على ما وَصَفْنَا - بين «الغنيمة» و«النفل»، أنَّ «الغنيمة»، هي ما أفاءَ اللهُ على المسلمينَ من أموالِ المشركينَ بغلبةٍ وقهرٍ، نَفَّلَ منه مُنَفِّلٌ أو لم ينفل، و«النفل» هو ما أُعطيه المرءُ على البلاءِ والغَنَاء عن الجيشِ على غيرِ قسمةٍ.

وإِذْ كان ذلك معنى «النفل»، فتأويلُ الكلام: يسألُكَ أصحابُكَ، يا محمدُ، عن الفضلِ من المالِ الذي تقعُ فيه القسمةُ من غنيمةِ كفارِ قريش الذين قُتِلُوا بِبدر، لِمَنْ هُوَ؟ قُلْ لهم يا محمدُ: هو للهِ ولرسولِه دونَكم، يجعلُه حيثُ شاء.

واختلف في السبب الذي من أجله نزلتْ هذه الآيةُ.

فقال بعضهم: نزلت في غنائمِ بدر، لأنَّ النبيَّ ﷺ كانَ نفَّلَ أقواماً على بلاءٍ، فأبلى أقوامٌ، وتَخَلَّفَ آخرونَ مع رسولِ الله ﷺ، فاختلفوا فيها بعد انقضاءِ الحربِ، فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ على رسوله، يعلمهم أنَّ ما فعلَ فيها رسولُ الله ﷺ فماضٍ جائزٌ.

وقال آخرون: بَلْ إنما أُنْزِلتْ هذه الآيةُ، لأنَّ بعضَ أصحابِ رسولِ الله

ﷺ سألـه من المَغْنَمِ شيئـاً قبلَ قسمتها، فلم يُعْطِه إياهُ، إذْ كان شِرْكاً بين الجيش، فجعلَ اللهُ جميعَ ذلك لرسولِه ﷺ.

وقال آخرون: بل نزلت: لأنَّ أصحابَ رسولِ الله ﷺ سألوا قِسْمَةَ الغنيمةِ بينهم يومَ بدر، فأعلمهم اللهُ أنَّ ذلك للهِ ولرسولِهِ دونَهم، ليس لهم فيه شيء. وقالوا: معنى «عن» في هذا الموضع «من»، وإنما معنى الكلام: يسألونك من الأنفال. وقالوا: قد كان ابنُ مسعود يقرأه: ﴿يَسْأَلُونَكَ الْأَنْفَالَ﴾، على هذا التأويل.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ أنْ يقالَ: إنَّ الله تعالى أخبرَ في هذه الآية عن قومٍ سألوا رَسولَ الله ﷺ الأنفالَ أنْ يُعْطِيهُمُوهَا، فأخبرَهم اللهُ أنها لله، وأنه جعلها لرسولِه.

وإذا كان ذلـك معنـاه، جاز أنْ يكـونَ نزولُها كانَ من أجلِ اختلافِ أصحابِ رسولِ الله ﷺ فيها ـ وجائزٌ أنْ يكونَ كان من أجلِ مسألةِ مَنْ سأله السيفَ الذي ذُكِرَ عن سعدٍ[1] أنه سألَهُ إياهُ ـ وجائز أنْ يكونَ من أجل مسألة مَنْ سأله قَسْمَ ذلك بين الجيش.

واختلفوا فيها أمنسوخةٌ هي أم غير منسوخة؟

فقال بعضهم: هي منسوخة. وقالوا نَسَخَها قولُه: ﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٤١]، الآية.

وقال آخرون: هي مُحْكَمَةٌ، وليست منسوخةً. وإنما معنى ذلك: «قُلِ

---

(١) يعني: سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، فقد سأل رسول الله ﷺ أن ينفله سيف سعيد بن العاص بن أمية يوم بدر. رواه الطبري من عدة طرق (١٥٦٥٦-١٥٦٥٩) و(١٥٦٦٢-١٥٦٦٤)، وهو صحيح الإسناد في أكثر طرقه.

الأنفالُ لله»، وهي لاشَكَّ للهِ مع الدنيا بما فيها والآخرة ـ وللرسول ِ، يَضَعُهَا في مواضِعِها التي أَمَرَهُ اللهُ بوضعها فيه.

والصوابُ من القول ِ في ذلك أنْ يُقالَ: إنَّ اللهَ جَلَّ ثناؤُهُ أخبر أنه جعلَ الأنفالَ لنبيهِ ﷺ، يُنفِّلُ مَنْ شاء، فَنَفَّلَ القاتلَ السَّلَبَ وجعلَ للجيش ِ في البَدْأة[1] الربع، وفي الرجعة الثلث بعد الخمس. ونفَّلَ قوماً بعد سُهْمَانهم بعيراً بعيراً في بعض ِ المغازي. فجعل اللهُ تعالى ذِكْرُه حُكْمَ الأنفال ِ إلى نبيهِ ﷺ، يُنَفِّلُ على ما يرى مما فيه صلاحُ المسلمين. وعلى مَنْ بَعْدَهُ من الأئمةِ أنْ يَسْتَنُّوا بسُنَّتِه في ذلك.

وليس في الآية دليلٌ على أنَّ حُكْمَها منسوخٌ، لاحتمالها ما ذكرتُ من المعنى الذي وصفتُ. وغير جائزٍ أنْ يحكم بحكم قد نزل به القرآنُ أنه منسوخٌ، إلا بحجةٍ يجبُ التسليمُ لها، فقد دَلَّلْنَا في غيرِ موضع من كتبنا على أنْ لا منسوخَ إلَّا ما أَبْطَلَ حُكْمَه حادثُ حُكْم بخلافِه، يَنْفِيه من كُلِّ معانيهِ، أو يأتي خبرٌ يُوجِبُ الحجةَ أنَّ أحَدَهُما ناسخُ الآخرَ.

وقد ذُكِرَ عن سعيد بن المسيب: أنه كان يُنْكِرُ أنْ يكونَ التنفيلُ لأحدٍ بعدَ رسول ِ الله ﷺ، تأويلاً منه لقول ِ الله تعالى: «قُل ِ الأنفال لله والرسول».

وقد بيَّنَّا أنَّ للأئمةِ أنْ يتأسَّوْا برسول ِ الله ﷺ في مغازيهم بفِعلِه، فينفِّلُوا على نحوِ ما كانَ ينفلُ، إذا كان التنفيل صلاحاً للمسلمين.

القَولُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١﴾

---

(١) البدأة: ابتداء سفر الغزو، والرجعة: القُفولُ منه.

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: فخـافُوا الله، أيها القومُ، واتقوهُ بطاعتِه واجتنابِ معاصيه، وأصلحوا الحالَ بينكم.

واختلف أهلُ التأويلِ في الذي عَنَى بقوله: «وأصلحوا ذاتَ بينِكُم».

فقـال بعضهم: هو أمرٌ من الله الذين غَنِمُوا الغنيمةَ يومَ بدر، وشهدوا الوقعةَ مع رسولِ الله ﷺ إذ اختلفوا في الغنيمة: أنْ يردَّ ما أصابوا منها بعضُهم على بعض.

وقال آخرون: هذا تحريجٌ من اللهِ على القومِ، ونهيٌ لهم عن الاختلافِ فيما اختلفوا فيه من أمرِ الغنيمةِ وغيره.

وأما قوله: «وأطيعوا الله ورسولَهُ»، فإنَّ معناه: وانتهوا، أيها القومُ الطالبونَ الأنفالَ، إلى أمرِ الله وأمرِ رسولِه فيما أفاءَ اللهُ عليكم، فقد بَيَّنَ لكم وُجُوهَهُ وسُبُلَهُ. «إنْ كنتم مؤمنين»، يقول: إنْ كنتم مصدقينَ رسولَ الله فيما آتاكم من عندِ رَبِّكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ليس المؤمنُ بالذي يخالفُ اللهَ ورسولَهُ، ويتركُ اتباعَ ما أنزلَهُ إليه في كتابِهِ من حدودِه وفرائضِه، والانقياد لحكمه، ولكنَّ المؤمنَ هو الذي إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِل قلبُه، وانقادَ لأمره، وخضعَ لذِكْرِه، خوفاً منه، وفَرَقاً من عقابِهِ، وإذا قُرِئَتْ عليه آياتُ كتابه صَدَّقَ بها، وأيقنَ أنها من عندِ الله، فازدادَ بتصديقه بذلك، إلى تصديقِه بما كان قد بلغه منه قَبْلَ ذلك، تصديقاً. وذلك

هو زيادة ما تُليَ عليهم من آياتِ الله إيَّاهم إيمـاناً. «وعلى رَبِّهم يتوكلون»، يقولُ: وبالله يُوقِنُونَ، في أنَّ قَضاءَهُ فيهم ماضٍ، فلا يَرْجُونَ غيره، ولا يَرْهَبُونَ سواه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الذين يؤدُّونَ الصلاةَ المفروضةَ بحدودها، ويُنفقونَ مما رَزَقهمُ اللهُ من الأموالِ فيما أمرهم اللهُ أنْ يُنفِقُوها فيه، من زكاةٍ وجهادٍ وحَجٍّ وعمرة، على مَنْ تَحبُ عليهم نفقته، فيؤدُّونَ حقوقهم. «أولئك»، يقول: هؤلاءِ الذينَ يفعلونَ هذه الأفعالَ. «هُمُ المؤمنونَ»، لا الذينَ يقولونَ بألسنتهم: «قَدْ آمَنَّا»، وقلوبهم منطويةٌ على خِلافِه نفاقاً، لا يُقيمونَ صلاةً، ولا يؤدُّون زكاةً.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «لهم درجاتٌ»، لهؤلاءِ المؤمنينَ الذين وَصَفَ جَلَّ ثناؤُهُ صِفَتَهُمْ. «درجاتٌ»، وهي مراتبُ رفيعة.

وقـولـه: «ومغفـرة»، يقول: وعَفْوٌ عن ذُنوبهم، وتغطيةٌ عليها. «ورزقٌ كريم»، قِيلَ: الجنة. وهو عندي: ما أَعَدَّ اللهُ في الجنة لهم من مزيدِ المآكلِ والمشاربِ وهنيءِ العيش.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ

﴿فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَـٰرِهُونَ ۝٥ يُجَـٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦﴾

اختلف أهلُ التأويل في الجالب لهذه «الكاف» التي في قوله: «كما أخرجكَ»، وما الذي شُبِّه بإخراج اللهِ نَبِيَّهُ ﷺ من بيتهِ بالحق.

فقال بعضهم: شُبِّه به في الصلاح للمؤمنين، اتقاؤهم رَبَّهم، وإصلاحهم ذاتَ بَيْنِهم، وطاعتهم اللهَ ورسولَهُ. وقالوا: معنى ذلك: يقولُ الله: وأصلِحُوا ذاتَ بينِكم، فإنَّ ذلك خيرٌ لكم، كما أخرجَ اللهُ محمداً ﷺ من بيتهِ بالحقِّ، فكان خيراً له.

وقال آخرون: معنى: ذلك: كما أخرجكَ رَبُّكَ، يا محمدُ، من بيتك بالحقِّ على كُرْهٍ من فريقٍ من المؤمنينَ، كذلك هم يَكرهونَ القتالَ، فهم يُجادِلونكَ فيه بعد ما تَبَيَّنَ لهم.

وقال آخرون منهم: معنى ذلك: يسألونكَ عن الأنفالِ مُجَادلةً، كما جَادلوكَ يومَ بدر فقالوا: «أَخْرَجْتَنَا للعِيرِ، ولم تُعلمنا قِتالاً فنستعدَّ له».

وأَوْلى هذه الأقوالِ عندي بالصوابِ، قولُ مَنْ قال في ذلك أنَّ معناه: كما أخرجكَ رَبُّكَ بالحقِّ على كره من فريقٍ من المؤمنين، كذلك يجادلونكَ في الحق بعد ما تَبَيَّنَ لأنَّ كِلَا الأمرينِ قد كان، أعني: خروجَ بعضِ مَنْ خرجَ من المدينةِ كارهاً، وجدالهم في لقاء العدو وعند دُنُوِّ القومِ بعضِهم من بعضٍ، فتشبيه بعضِ ذلكَ ببعضٍ، مع قُرْبِ أَحَدِهما من الآخر، أَوْلى من تشبيههِ بما بَعُدَ عنه.

وقال مجاهد في «الحق» الذي ذُكِرَ أنهم يجادلونَ فيه النبيَّ ﷺ بعد ما تَبَيَّنُوه: هو القتالُ.

وأما قوله: «مِنْ بيتكَ»، فإنَّ بعضهم قال: معناه: من المدينةِ.

وأما قوله: «وإنَّ فريقاً من المؤمنينَ لكارِهُونَ»، فإنَّ كراهَتَهم كانتْ لما سمع رَسول اللهِ ﷺ بأبي سفيانَ مُقْبِلاً من الشأم، نَدَبَ إليهم المسلمينَ[1]، وقال: هذه عِيرُ[2] قريشٍ فيها أموالُهم، فاخْرُجُوا إليها، لَعَلَّ اللهَ أنْ ينفِّلَكُمُوهَا! فانتدب الناس، فَخَفَّ بعضُهم وثَقُلَ بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أنَّ رسولَ الله ﷺ يَلْقى حرباً[3].

ثم اختلف أهلُ التأويلِ في الذين عُنُوا بقوله: «يُجادِلونكَ في الحق بعد ما تبين».

فقال بعضهم: عُني بذلك أهلُ الإيمان من أصحابِ رسولِ الله ﷺ، الذين كانوا معه حين توجَّه إلى بدرٍ للقاءِ المشركين.

وقال آخرون: عُني بذلك المشركونَ.

والصوابُ من القول في ذلك أنَّ ذلك خبرٌ من اللهِ عن فريقٍ من المؤمنينَ أنهم كَرِهُوا لِقاءَ العدو، وكان جِدالُهم نبيَّ الله ﷺ أنْ قالوا: «لم يُعلمنا أنا نَلْقَى العَدُوَّ فنستعد لقتالهم، وإنما خرجنا للعير». وما يدلُّ على صحته قولُه: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾، ففي ذلك الدليلُ الواضح لمن فَهِمَ عن الله، أنَّ القومَ قد كانوا للشوكةِ كارهينَ، وأنَّ جدالهم كان في القتال، كما قال مجاهد، كراهيةً منهم له، لأنَّ الذي قَبْلَ قولِه: «يجادلونكَ في الحق»، خبرٌ عن أهلِ الإيمان، والذي يَتْلُوه خبرٌ عنهم، فأنْ يكونَ خبراً عنهم، أَوْلى منه بأنْ يكونَ خبراً عَمَّنْ لم يَجْرِ له ذِكْرٌ.

---

(١) ندب الناس إلى حربٍ أو مَعُونةٍ، فانتدبوا، أي: دعاهم فاستجابوا وأسرعوا إليه.

(٢) العِير: القافلة.

(٣) أنظر سيرة ابن هشام: ٢/٢٥٧ـ٢٥٨.

وأما قوله: «بعد ما تَبيَّنَ»، فإنَّ أهلَ التأويل اختلفوا في تأويله.

فقال بعضهم: معناه: بعدما تبين لهم أنَّكَ لا تفعلُ إلا ما أمرَكَ الله.

وقال آخرون: معناه: يجادلونكَ في القتال بعدما أُمِرْتَ به.

وأما قوله: «كأنَّما يُسَاقُونَ إلى الموتِ وهم يَنظرون»، فإنَّ معناه: كأنَّ هؤلاء الذين يُجادلونكَ في لقاء العدوِّ، من كراهتهم للقائهم إذا دُعُوا إلى لقائهم للقتالِ، «يُسَاقونَ إلى الموت».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: واذكروا، أيها القومُ. «إذ يَعِدُكُمُ الله إحدى الطائفتين»، يعني إحدى الفرقتين، فرقة أبي سفيان بن حرب والعِير، وفرقة المشركين الذين نَفَروا من مكة لمنعِ عِيْرِهم.

وقوله: «أنها لكم»، يقول: أنَّ ما معهم غنيمةٌ لكم. «وتَوَدُّونَ أنَّ غيرَ ذاتِ الشوكةِ تكونُ لكم»، يقول: وتُحِبُّونَ أنْ تكونَ تلك الطائفةُ التي ليست لها شوكةٌ - يقول: ليس لها حدٌّ، ولا فيها قتال - أن تكون لكم. يقول: تَوَدُّونَ أنْ تكونَ لكم العيرُ التي ليس فيها قتالٌ لكم، دونَ جماعةِ قريش الذين جاءوا لمنعِ عِيرِهم، الذين في لقائهم القتالُ والحربُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويُرِيدُ الله أنْ يُحِقَّ الإسلامَ ويُعليَه. «بكلماته»،

يقول: بأمرِه إياكم، أيها المؤمنونَ، بقتالِ الكفار، وأنتم تُريدونَ الغنيمةَ، والمالَ. وقوله: «ويقطعَ دابرَ الكافرينَ»، يقول: يُريدُ أنْ يَجُبَّ أصلَ الجاحدينَ توحيدَ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويريد الله أنْ يقطعَ دابرَ الكافرين، كَيْمَا يُحِقَّ الحَقَّ، كيما يُعْبَدَ اللهُ وحدَهُ دونَ الآلهةِ والأصنام، ويُعَزَّ الإسلامُ، وذلك هو «تحقيق الحق». «ويُبْطِلَ الباطلَ»، يقول: ويُبْطِلَ عبادةَ الآلهةِ والأوثان والكفر، ولو كَرِهَ ذلك الذين أجرموا فاكتسبوا المآثمَ والأوزارَ من الكفار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «ويبطل الباطل»، حينَ تَستغيثونَ رَبَّكم فـ«إذْ» من صلة «يبطل».

ومعنى قوله: «تَستغيثونَ رَبَّكم»، تَستجيرونَ به من عَدُوِّكم، وتَدْعُونَهُ للنصرِ عليهم. «فاستجابَ لكم»، يقول: فأجابَ دُعاءَكم، بأنِّي مُمِدُّكُمْ بألفٍ من الملائكةِ يُرْدِفُ بعضُهم بعضاً، ويَتْلُو بعضُهم بعضاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لم يجعلِ اللهُ إردافَ الملائكةِ بعضَها بعضاً وتَتابُعَها بالمصير إليكم، أيها المؤمنونَ، مَدَداً لكم. «إلا بشرى» لكم، أي: بشارة لكم، تُبَشِّرُكُمْ بنصرِ الله إياكم على أعدائِكم. «ولتطمئنَّ به قلوبكم»، يقول: ولتسكنَ قلوبكم بمجيئها إليكم، وتُوقِنَ بنصرِ اللهِ لكم. «وما النصرُ إلا من عند الله»، يقول: وما تُنْصَرُونَ على عدوِّكم، أيها المؤمنونَ، إلا أنْ يَنصرکُم الله عليهم، لا بِشِدَّةِ بأسِكم وقواكم، بَلْ بنصرِ اللهِ لكم، لأنَّ ذلك بيدهِ وإليهِ، يَنْصُرُ مَنْ يشاء من خَلْقِه. «إنَّ الله عزيز حكيم»، يقول: إنَّ الله الذي ينصركم، وبيدهِ نَصْرُ مَنْ يشاء من خَلْقِه. «عزيز»، لا يقهره شيءٌ، ولا يغلبه غالِبٌ، بل يَقْهَرُ كُلَّ شيءٍ ويغلبه، لأنه خلقه. «حكيم»، يقول: حكيمٌ في تدبيره ونَصْرِه مَنْ نَصَرَ، وخذلانِه مَنْ خذلَ من خَلْقِه، لا يدخلُ تدبيره وهنٌ ولا خَلل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «ولتطمئنَّ به قلوبُكم»، «إذْ يُغَشِّيكم النعاسَ»، ويعني بقوله: «يغشيكم النعاسَ»، يلقي عليكمُ النعاسَ. «أَمَنَةً» يقول: أماناً من الله لكم من عَدُوِّكُم أنْ يَغلِبَكُمْ، وكذلك النعاسُ في الحرب أمنة من الله عَزَّ وجَلَّ.

وأما قوله عَزَّ وجَلَّ: «ويُنَزِّلُ عليكم من السماءِ ماءً ليطهركم به»، فإنَّ ذلك مطرٌ أنـزلَهُ اللهُ من السماءِ يومَ بدرٍ لِيُطَهِّرَ به المؤمنينَ لصلاتهم، لأنهم كانوا أصبحـوا يومئـذٍ مُجْنِبينَ على غيرِ ماءٍ. فلمـا أنـزلَ اللهُ عليهم الماءَ اغتسلوا وتَطَهَّرُوا، وكانَ الشيطانُ قد وسوسَ إليهم بما حَزَنَهُمْ به من إصباحهم مُجْنِبينَ

على غيرِ ماءٍ، فأذْهَبَ اللهُ ذلك من قلوبهم بالمطرِ. فذلك رَبْطُه على قلوبهم، وتقويته أسبابهم، وتَثْبيته بذلك المطرِ أقدامَهُمْ، لأنهم كانوا التقوا مع عَدُوِّهم على رملة ميثاء[1]، فَلَبَّدَها المطرُ، حتى صارت الأقدامُ عليها ثابتةً لا تسوخُ فيها، توطئةً من الله عَزَّ وجَلَّ لنبيهِ عليه السلام وأوليائه، أسبابَ التَّمَكُّنِ من عَدُوِّهم والظفر بهم.

وأما قوله: «إذْ يُوحي رَبُّكَ إلى الملائكةِ أنِّي معكم»، أنْصُرُكُمْ. «فَثَبِّتُوا الذين آمنوا»، يقول: قَوُّوا عَزْمَهم، وصَحِّحُوا نِيَّاتهم في قتالِ عدوهم من المشركين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: سأُرْعِبُ قلوبَ الذين كفروا بي، أيها المؤمنونَ، منكم، وأملأها فَرَقاً حتى ينهزموا عنكم. «فاضْرِبُوا فوقَ الأعناق».

واختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «فوق الأعناق».

فقال بعضهم: معناه: فاضربوا الأعناقَ.

واحتج قائلو هذه المقالةِ بأنَّ العربَ تقول: «رأيتُ نفس فلان»، بمعنى: رأيته. قالوا: فكذلك قوله: «فاضربوا فوقَ الأعناق»، إنما معناه: فاضربوا الأعناقَ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك، فاضربوا الرؤوسَ.

واعتل قائلو هذه المقالة بأنَّ الذي «فوق الأعناق»، الرؤوس. قالوا: وغير

---

(١) الرملة الميثاء: الليِّنَةُ السهلة.

جائزٍ أنْ تقول «فوق الأعناق»، فيكون معناه: «الأعناق». قالوا: ولو جازَ ذلك، جازَ أنْ يُقالَ: «تحتَ الأعناق»، فيكون معناه: «الأعناق». قالوا: وذلك خِلافُ المعقولِ من الخطابِ، وقلبٌ لمعاني الكلام.

وقال آخرون: معنى ذلك: فاضربوا على الأعناقِ، وقالوا: «على» و«فوقَ» معناهما متقاربان، فجاز أن يُوضَعَ أحَدُهما مكانَ الآخر[1].

والصوابُ من القول في ذلك أنْ يقالَ: إنَّ الله أمرَ المؤمنين، مُعَلِّمَهُمْ كيفيةَ قَتْلِ المشركينَ وضَرْبِهم بالسيفِ: أنْ يَضربُوا فوقَ الأعناق منهم والأيديَ والأرجل. وقوله «فوق الأعناق»، محتملٌ أنْ يكونَ مُراداً به الرؤوس، ومحتمل أن يكون مراداً له: من فوق جِلْدَةِ الأعناقِ، فيكون معناه: على الأعناق. وإذا احتمل ذلك، صَحَّ قولُ مَنْ قال، معناه: الأعناق. وإذا كان الأمرُ محتملاً ما ذكرنا من التأويلِ، لم يَكُنْ لنا أنْ نوجِّهه إلى بعضِ معانيهِ دونَ بعضٍ، إلا بحجةٍ يجبُ التسليمُ لها. ولا حُجَّةَ تدلُّ على خصوصِه، فالواجبُ أن يقالَ: إنَّ الله أمرَ بضربِ رؤوس المشركينَ وأعناقهم وأيديهم وأرجلهم، أصحابَ نَبيِّهِ ﷺ الذين شَهِدُوا معه بدراً.

وأما قوله: «واضربوا منهم كُلَّ بَنان»، فإنَّ معناه: واضربوا، أيها المؤمنونَ، من عَدُوِّكم كُلَّ طَرَفٍ ومَفْصِلٍ من أطرافِ أيديهم وأرجلهم.

و«البنانُ» جمع «بنانة»، وهي أطرافُ أصابعِ اليدين والرجلين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ١٣﴾

---

(١) انظر مجاز القرآن لأبي عبيدة: ٢٤٢/١.

يعني تعالى ذِكْرُه لقوله: «ذلكَ بأنَّهم»، هذا الفعلُ من ضَرْبِ هؤلاء الكَفَرةِ فوقَ الأعناقِ وضَرْبِ كُلِّ بَنانٍ منهم، جزاءٌ لهم بِشِقَاقِهم اللهَ ورسولَهُ، وعقابٌ لهم عليه.

ومعنى قولـه: «شَـاقُّوا اللهَ وَرسولَهُ»، فارقوا أمرَ اللهِ ورسولَهُ وعصوهما، وأطاعوا أمرَ الشيطان.

ومعنى قوله: «ومَنْ يُشَاقِقْ اللهَ ورسولَهُ»، ومَنْ يخالِفْ أمرَ اللهِ وأمرَ رسولِهِ ففارق طاعتهما. «فإنَّ اللهَ شديدُ العقاب» له. وشدة عقابه له: في الدنيا، إحلالُه به ما كانَ يحلُّ بأعدائِه من النِّقَمِ، وفي الآخرة، الخلودُ في نارِ جهنم. وحذف «له» من الكلام، لدلالة الكلام عليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: هذا العقـابُ الـذي عَجَّلْتُه لكم، أيها الكافرونَ المشاقُّونَ للهِ ورسولِهِ، في الدنيا، مِنَ الضَّرْبِ فوقَ الأعناقِ منكم، وضرب كُلِّ بنـانٍ، بأيدي أوليائي المؤمنين، فَذُوقُوه عاجلًا، واعلموا أنَّ لكم في الآجلِ والمَعَادِ عذابَ النار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يا أيها الذين صَدَّقُوا اللهَ ورسولَهُ. «إذا لَقِيتُمُ الذين

كفــروا» في القتــالِ. «زحفــاً»، يقــول: مُتَـزَاحِفـاً بعضُكم إلى بعضٍ - و«التـزاحف»، التـداني والتقـاربُ. «فلا تُوَلُّوهم الأدبارَ»، يقول: فلا تولوهم ظُهوركم فتنهزمُوا عنهم، ولكن اثبتوا لهم، فإنَّ الله معكم عليهم. «ومَنْ يُوَلِّهم يومئذٍ دُبُرَهُ»، يقول: ومَنْ يولِّهم منكم ظَهْرَهُ. «إلَّا مُتَحَرِّفاً لقتالٍ»، يقول: إلا مستطرداً لقتالِ عَدُوِّهِ، يطلبُ عورةً له يمكنه إصابتها فيكرّ عليه. «أو متحيزاً إلى فئـة» أوْ: إلَّا أنْ يُولِّيهم ظَهْـرَهُ متحيِّزاً إلى فئة، يقول: صائراً إلى حَيِّزِ المؤمنينَ الذين يَفِيئونَ به معهم إليهم لقتالهم، ويرجعونَ به إليهم معهم.

واختلف أهلُ العلمِ في حُكْمِ قولِ الله عَزَّ وجَلَّ: «ومَنْ يُوَلِّهم يومئذٍ دُبُرَهُ إلَّا متحرفاً لقتالٍ أو متحيزاً إلى فئةٍ فقد باء بغضبٍ من الله ومأواهُ جهنم»، هل هو خاصٌّ في أهلِ بدر، أم هو في المؤمنينَ جميعاً؟

فقال قوم: هو لأهلِ بدرٍ خاصة، لأنه لم يكن لهم أنْ يتركُوا رسولَ الله ﷺ مع عَدُوِّهِ وينهزموا عنه، فأما اليومَ فلهم الانهزامُ.

وقال آخرون: بل هذه الآية حُكْمُهَا عام في كُلِّ مَنْ وَلَّى الدبرَ عن العدوِ منهزماً.

وأوْلى التأويلين في هذه الآيةِ بالصوابِ عندي، قولُ مَنْ قال: حُكْمُهَا مُحْكَمٌ، وأنها نزلت في أهل بدر، وحكمها ثابتٌ في جميع المؤمنين، وأنَّ الله حَرَّمَ على المؤمنينَ إذا لَقُوا العَدُوّ، أنْ يولُّوهم الدُّبُرَ منهزمينَ إلا لتحرفٍ لقتال، أو لتحيُّزٍ إلى فئةٍ من المؤمنينَ حيثُ كانت من أرضِ الإسلام، وأنَّ مَنْ ولَّاهُمْ الدبرَ بعد الزحفِ لقتالٍ منهزماً بغير نِيَّةٍ إحدى الخلَّتين اللَّتين أباحَ اللهُ التوليةَ بهما، فقد استوجبَ من اللهِ وعِيدَهُ، إلَّا أنْ يتفضَّلَ عليه بعفوِهِ.

وإنما قلنا هي محكمةٌ غير منسوخة، لما قد بَيَّنَّا في غير موضع من كتابنا هذا وغيره: أنه لا يجوزُ أنْ يُحْكَمَ لحكمِ آيةٍ بنسخٍ، وله في غيرِ النسخ وجهٌ،

إلا بحجةٍ يجبُ التسليمُ لها، من خبرٍ يقطعُ العُذْرَ، أو حجةِ عقلٍ. ولا حُجَّة من هذين المعنيين تدلُّ على نسخِ حكمِ قولِ الله عَزَّ وجَلَّ: «ومَنْ يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة».

وأما قوله: «فقد باء بغضب من الله»، يقول: فقد رجعَ بغضبٍ من الله. «ومأواهُ جهنمُ»، يقول: ومصيرهُ الذي يَصيرُ إليه في مَعَادِه يومَ القيامة جهنم. «وبئس المصير»، يقول: وبئس الموضعُ الذي يصيرُ إليه ذلك المصير.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ به وبرسولِه، مِمَّنْ شَهِدَ بدراً مع رسول الله ﷺ، فقاتلَ أعداءَ دِينِهِ معه من كفارِ قريش: فَلَمْ تَقْتُلوا المشركينَ، أيها المؤمنون، أنتم، ولكنَّ الله قَتلَهُمْ.

وأضافَ جَلَّ ثناؤهُ قَتلَهُمْ إلى نفسِه، ونَفاهُ عن المؤمنينَ به الذين قاتلوا المشركينَ، إذْ كان جَلَّ ثناؤهُ هو مُسَبِّبَ قَتْلِهم، وعن أمرِه كانَ قتالُ المؤمنينَ إياهم. ففي ذلك أدلُّ الدليلِ على فسادِ قولِ المنكرين أنْ يكونَ لله في أفعال خَلْقِه صُنْعٌ به وَصَلوا إليها.

وكذلك قولُه لنبيهِ عليه السلام: «وما رَمَيْتَ إذْ رميتَ ولكنَّ الله رمى»، فأضاف الرمي إلى نبيِّ الله، ثم نفاهُ عنه، وأخبرَ عن نفسِه أنه هو الرامي، إذ كان جَلَّ ثناؤهُ هو المُوصِلَ المَرْميَّ به إلى الذين رُمُوا به من المشركينَ، والمسبِّبُ الرميةَ لرسولِه.

فيقال للمنكرين ما ذكرنا: قد علمتم إضافةَ الله رَمْي نبيه ﷺ المشركينَ إلى نفسه، بعد وصفه نبيَّه به، وإضافته إليه، وذلك فِعْلٌ واحد، كان من الله تسبيبُه وتسديدُه، ومن رسولِ الله ﷺ الحذفُ والإرسالُ، فما تنْكِرُونَ أنْ يكونَ كذلك سائر أفعالِ الخَلْقِ المُكْتَسبة: مِنَ اللهِ الإنشاءُ والإنجازُ بالتسبيب، ومن الخَلْقِ الاكتسابُ بالقُوى؟ فلن يقولوا في أحدهما قولاً إلا أُلْزِمُوا في الآخر مثله.

وأما قوله: «وليُبْلِيَ المؤمنينَ منه بلاءً حسناً»، فإنَّ معناه: وكي يُنْعِمَ على المؤمنينَ باللهِ ورسوله بالظفرِ بأعدائهم، ويُغَنِّمَهُم ما معهم، ويكتبَ لهم أجورَ أعمالِهم وجهادَهُمْ مع رسولِ الله ﷺ.

وذلـك «البـلاء الحسن»، رميُ الله هؤلاءِ المشـركينَ، ويعني بـ«البلاء الحسن»، النعمةَ الحسنةَ الجميلةَ، وهي ما وصفت وما في معناه.

وقـوله: «إن الله سميع عليم»، يعني: إنَّ الله سميع، أيها المؤمنون، لدعاءِ النبيِّ ﷺ، ومناشَدَتِه رَبَّهُ، ومسألته إياهُ إهلاكَ عَدُوِّهِ وعَدُوِّكُمْ ولقِيْلِكُمْ وقِيلِ جميعِ خَلْقِه. «عليمٌ»، بذلك كُلِّه، وبما فيه صلاحُكُمْ وصلاحُ عبادِه، وغير ذلك من الأشياء، محيطٌ به، فاتقوه وأطيعوا أمرَهُ وأمرَ رسولِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٨﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «ذلكم»، هذا الفعلُ من قَتْلِ المشركينَ، ورَمْيِهم حتى انهزموا، وابتلاءِ المؤمنينَ البلاء الحسن بالظَّفَرِ بهم، وإمكانِهم من قَتلِهم وأَسْرِهم فِعْلُنَا الذي فَعَلْنَا. «وإنَّ الله مُوهِنُ كيدِ الكافرين»، يقول: واعلموا أنَّ الله مع ذلـك مُضْعِفُ «كيدِ الكافرين»، يعني: مَكْرَهُمْ، حتى يَذِلُّوا وينقادوا للحقِّ، أو يُهْلَكوا.

وقد اختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: «موهن».

فقرأته عامة قَرأةِ أهلِ المدينة وبعض المكيين والبصريين: ﴿مُوَهِّنُ﴾ بالتشديد، من «وَهَّنْتُ الشيءَ»، ضَعَّفته.

وقرأ ذلك عامة قرأة الكوفيين: ﴿مُوهِنُ﴾، من «أَوْهَنْتُهُ، فأنا مُوهِنُهُ»، بمعنى: أضعفته.

والتشديدُ في ذلك أعجبُ إليَّ، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه كان ينقضُ ما يُبرمهُ المشركونَ لرسولِ الله ﷺ وأصحابه، عَقْداً بعد عَقْدٍ، وشيئاً بعد شيءٍ. وإنْ كان الآخرُ وجهاً صحيحاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه للمشركينَ الذين حاربوا رسولَ الله ﷺ ببدر: «إنْ تَسْتَفْتِحُوا فقد جاءَكُمُ الفتحُ»، يعني: إن تستحكموا الله على أقطعِ الحِزْبَيْن للرحمِ، وأظلمِ الفئتين، وتَستنصِرُوه عليه، فقـد جاءكم حُكْمُ الله، ونَصْرُه المظلوم على الظالمِ، والمُحِقَّ على المُبْطِلِ.

وأما قوله: «وإنْ تَنْتَهُوا فهو خيرٌ لكم»، فإنه يقول: «وإنْ تنتهوا»، يا معشرَ قريش، وجماعة الكفار، عن الكفرِ باللهِ ورسولِهِ، وقتال نَبيِّه ﷺ والمؤمنينَ به. «فهو خيرٌ لكم»، في دنياكم وآخرتكم. «وإنْ تعودوا نَعُدْ»، يقول: وإنْ تعودوا لحربهِ وقتالِه وقتالِ أتباعِهِ المؤمنين. «نَعُدْ»، أي: بمثلِ الوقعةِ التي أوقعتُ بكم يومَ بدر.

وقوله: «ولن تُغنيَ عنكم فِئَتُكم شيئاً ولو كَثُرَتْ»، يقول: وإنْ تَعودوا نَعُدْ لهلاكِكُمْ بأيدي أوليائي وهزيمتِكُمْ، ولَنْ تُغنيَ عنكم عند عَوْدِي لقتلِكم بأيديهم وسَبْيِكم وهـزمكم. «فئتكم شيئـاً ولو كثرت»، يعني: جندهم وجماعتهم من المشركينَ، كما لم يُغْنُوا عنهم يومَ بدرٍ، مع كثرةِ عددهم وقلةِ عَدَدِ المؤمنينَ، شيئاً. «وأنَّ الله مع المؤمنين»، يقول جَلَّ ذِكْرُه: وأنَّ الله مع مَنْ آمَن به من عبادِه على مَنْ كَفَرَ به منهم، ينصرهم عليهم، أو يُظْهِرُهم كما أظهرَهُمْ يومَ بدرٍ على المشركين.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءةِ قوله: «وأن الله مع المؤمنين».

ففتحها عامةُ قَرَأَةِ أهل المدينة بمعنى: ولن تغنيَ عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت وأن الله لمع المؤمنين ـ فعطف بـ«أن» على موضع «ولو كثرت»، كأنه قال: لكثرتها، ولأنَّ الله مع المؤمنين. ويكون موضع «أن» حينئذٍ نصباً على هذا القول[1].

وكان بعضُ أهلِ العربية يزعمُ أنَّ فتحها إذا فتحت، على: «وأنَّ الله موهنُ كيدِ الكافرين»، «وأنَّ الله مع المؤمنين»، عطفاً بالأخرى على الأولى.

وقرأ ذلك عامةُ قَرَأَةِ الكوفيين والبصريين: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ﴾، بكسر الألف، على الابتداء، واعْتَلُّوا بأنها في قراءة عبدالله: ﴿وإنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وأوْلى القراءتين بالصوابِ، قراءةُ مَنْ كسر «إن» للابتداء، لتقضِّي الخبرِ قبلَ ذلك عما يقتضي قوله: «وأن الله مع المؤمنين».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ۝٢٠﴾

(١) انظر معاني القرآن للفراء: ٤٠٧/١.

يقول تعالى ذِكْرُه: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله «أطيعوا الله ورسوله»، فيما أمَرَكُم به وفيما نَهاكُمْ عنه. «ولا تولوا عنه»، يقول: ولا تُدْبِرُوا عن رسولِ الله ﷺ مخالفينَ أمْرَهُ ونَهْيَهُ. «وأنتم تسمعون»، أمرَهُ إياكُمْ ونَهْيَهُ، وأنتم به مؤمنون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٢١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ باللهِ ورسولِه من أصحابِ نبيِّ الله ﷺ: لا تكونوا، أيها المؤمنون، في مخالفةِ رسولِ الله ﷺ، كالمشركينَ الذين إذا سمعوا كتابَ الله يُتْلَى عليهم قالوا: «قد سمعنا»، بآذاننا. «وهم لا يسمعون»، يقول: وهم لا يعتبرونَ ما يسمعونَ بآذانِهم ولا ينتفعونَ به، لإعراضِهم عنه، وتَرْكِهم أنْ يُوعُوه قلوبَهُمْ ويَتَدَبَّرُوهُ. فجعلهم الله، إذْ لم يَنتفعُوا بمواعظِ القرآنِ وإنْ كانوا قد سَمِعُوها بآذانِهم، بمنزلةِ مَنْ لم يَسْمَعْهَا. يقولُ جَلَّ ثناؤُهُ لأصحابِ رسولِ الله ﷺ: لا تكونوا أنتم في الإعراضِ عن أمرِ رسولِ الله، وتركِ الانتهاءِ إليه وأنتم تسمعونَهُ بآذانِكم، كهؤلاءِ المشركينَ الذين يسمعونَ مواعظَ كتابِ الله بآذانهم، ويقولون: «قد سمعنا»، وهُمْ عن الاستماعِ لها والاتِّعاظِ بها مُعْرِضُونَ كمن لا يسمَعُها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ شَرَّ ما دَبَّ على الأرضِ من خَلْقِ اللهِ عند الله،

الذين يُصْغُونَ[1] عن الحَقِّ لئلا يستمعوه، فيعتبروا به ويَتَّعِظُوا به، وينكُصون عنه إنْ نطقوا به، الذين لا يعقلونَ عن الله أَمْرَهُ ونهيه، فيستعملوا بهما أبدانهم.

واخْتُلِفَ فيمن عُنِيَ بهذه الآية.

فقال بعضهم: عُني بها نفرٌ من المشركينَ.

وقال آخرون: عُنيَ بها المنافقون.

وأولى القـولين في ذلك بالصواب، قولُ مَنْ قال: إنه عُنيَ بهذه الآيةِ مشركُو قريش، لأنها في سياقِ الخبرِ عنهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾

تأويلُ الآية: ولـو عَلِمَ اللهُ في هؤلاءِ القائلينَ خيراً، لأَسْمَعَهُمْ مواعظَ القرآنِ وعِبَرَهُ، حتى يَعْقِلُوا عن الله عَزَّ وجَلَّ حُجَجَهُ منه، ولكنه قد عَلِمَ أنه لا خيرَ فيهم، وأنهم مِمَّنْ كُتب لهم الشقاء فهم لا يؤمنون. ولو أَفْهَمَهُمْ ذلك حتى يعلموا ويفهموا، لَتولَّوْا عن اللهِ وعن رسولِهِ، وهم مُعْرِضُونَ عن الإيمانِ بما دَلَّهُمْ على صحته مواعظُ الله وعِبَرُه وحججه، معاندونَ للحقِّ بعد العلمِ به.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ﴾

اختلف أهـلُ التأويل في تأويل قوله: «إذا دعاكم لما يحييكم». فقال

(١) أي يميلون عن الحق، وصغت الشمس والنجوم: مالت للغُروب، وصغا إلى القوم: كان هواه معهم. وصغا على القوم: كان هواه مع غيرهم.

بعضُهم: معناه: اسْتَجِيبُوا لله وللرسولِ إذا دعاكم للإيمانِ.

وقال آخرون: للحَقِّ.

وقال آخرون: معناه: إذا دَعَاكُمْ إلى ما في القرآن.

وقال آخرون: معناه: إذا دعاكم إلى الحربِ وجهادِ العدو.

وأَوْلى الأقـوال في ذلك بالصوابِ، قولُ مَنْ قالَ: معناه: استجيبوا للهِ وللرسولِ بالطاعةِ، إذا دعاكم الرسولُ لما يُحْيِيكُمْ من الحَقِّ. وذلك أن ذلك إذا كان معناه، كان داخلاً فيه الأمرُ بإجابتِهم لقتالِ العدوِّ والجهادِ، والإجابة إذا دعاكم إلى حُكْمِ القرآنِ، وفي الإجابةِ إلى كل ذلك حياةُ المُجيبِ. أما في الدنيا، فبقاءُ الذِّكْرِ الجميل، وذلك له فيه حياةٌ. وأما في الآخرة، فحياةُ الأبدِ في الجِنانِ والخلود فيها.

وأمـا قولُ مَنْ قال: معنـاه: الإسلامُ، فقولٌ لا معنى له. لأنَّ الله قد وصفهم بالإيمانِ بقوله: «يا أيها الذين آمنوا استجيبوا للهِ وللرسولِ إذا دعاكم لما يحييكم»، فلا وَجْهَ لأَنْ يُقالَ للمؤمن: اسْتَجِبْ لله وللرسولِ إذا دعا الى الإسلامِ والإيمان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك.

فقال بعضُهم: معناه: يَحُولُ بين الكافرِ والإيمان، وبين المؤمننِ والكفر.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: يَحُولُ بين المرءِ وعقله، فلا يدري ما يَعمل.

وقال آخرون: معناه: يَحولُ بن المرء وقلبه، أنْ يقدرَ على إيمانٍ أو كُفْرٍ إلا بإذنِه.

وقال آخرون: معنى ذلكَ: أنه قريبٌ من قلبهِ، لا يَخْفَى عليه شيءٌ أَظْهَرَهُ أو أسَرَّهُ.

وأَوْلى الأقوالِ بالصوابِ عندي في ذلك أنْ يقالَ: إنَّ ذلك خبر من الله عَزَّ وجَلَّ أنه أَمْلَكُ لقلوبِ عبادِه منهم، وأنه يَحُولُ بينهم وبينها إذا شاءَ، حتى لا يقدرَ ذُو قلبٍ أن يُدركَ به شيئاً من إيمانٍ أو كفر، أو أن يَعِيَ به شيئاً، أو أنْ يفهمَ، إلا بإذنِهِ ومشيئته. وذلك أنَّ «الحول بين الشيء والشيء»، إنما هو الحجزُ بينهما، وإذا حَجَزَ جَلَّ ثناؤُهُ بين عبدٍ وقلبهِ في شيءٍ أنْ يُدْرِكَهُ أو يفهمَهُ، لم يَكُنْ للعبدِ إلى إدراكِ ما قد مَنَعَ اللهُ قلبَهُ إدراكَهُ سبيلٌ.

وإذا كان ذلك معناه، دخل في ذلك قولُ مَنْ قال: «يحولُ بين المؤمن والكفر، وبين الكافر والإيمان»، وقولُ مَنْ قال: «يحولُ بينه وبين عقله»، وقولُ مَنْ قال: «يحولُ بينه وبين قلبه حتى لا يستطيعَ أنْ يؤمنَ ولا يكفرَ إلا بإذنه»، لأنَّ الله عَزَّ وجَلَّ إذا حال بين عبدٍ وقلبه، لم يفهم العبد بقلبه الذي قد حِيلَ بينه وبينه ما مُنِعَ إدراكه به، على ما بَيَّنْتُ.

غير أنه ينبغي أنْ يقالَ: إنَّ الله عَمَّ بقولِهِ: «واعلموا أنَّ اللهَ يحولُ بين المرءِ وقلبه»، الخبرَ عن أنَّهُ يحولُ بين العبدِ وقلبه، ولم يخصصْ من المعاني التي ذكرنا شيئاً دونَ شيءٍ، والكلامُ محتملٌ كُلَّ هذه المعاني، فالخبر على العموم حتى يخصه ما يجبُ التسليمُ له.

وأما قوله: «وأنه إليه تُحْشَرُونَ»، فإنَّ معناه: واعلموا، أيها المؤمنونَ، أيضاً، مع العلم بأنَّ الله يحولُ بين المرءِ وقلبه: أنَّ الله الذي يقدرُ على قلوبكم، وهو أملكُ بها منكم، إليه مَصِيرُكم ومَرْجِعُكم في القيامة، فَيُوفِّيكُمْ

جزاءَ أعمالِكم، المحسنَ منكم بإحسانِه، والمسيءَ بإساءته، فاتَّقُوه وراقبوهُ فيما أَمَرَكُمْ ونَهاكم هو ورسولهُ أنْ تُضيعوه، وأنْ لا تَستجيبُوا لرسولِه إذا دعاكم لما يُحْيِيكُمْ، فيوجب ذلك سَخَطَه، وتستحقوا به أليمَ عذابِه حين تُحْشَرُونَ إليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: للمؤمنينَ به وبرسوله: «اتقوا»، أيها المؤمنون. «فتنةً»، يقول: اختباراً من اللهِ يَخْتبركُمْ، وبلاءً يَبْتَلِيكم. «لا تُصِيبَنَّ»، هذه الفتنةُ التي حَذَّرْتُكُمُوها. «الذين ظلموا»، وهم الذين فَعَلُوا ما ليسَ لهم فِعْلُه إما أجْرامٍ أصابوها، وذنوبٍ بينهم وبين الله رَكِبُوها. يحذرهم جَلَّ ثناؤُهُ أنْ يركَبُوا له معصيةً، أو يأتوا مأثماً يستحقُّونَ بذلك منه عقوبةً.

وقيل: إنَّ هذه الآية نزلتْ في قومٍ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ، وهم الذين عُنوا بها.

وأما قوله: «اعلموا أنَّ الله شديدُ العقابِ»، فإنه تحذيرٌ من اللهِ، ووعيدٌ لمن واقَعَ الفتنةَ التي حَذَّرَهُ إياها بقوله: «واتقوا فتنة». يقول: اعلموا، أيها المؤمنون، أنَّ رَبَّكم شديدُ عقابُه لمن افْتُتِنَ بظلمِ نفسِه، وخالفَ أمرَهُ فأثِمَ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

وهذا تذكيرٌ من الله عَزَّ وجَلَّ أصحابَ رسولِ الله ﷺ، ومناصحةٌ. يقول:

أطيعوا اللهَ ورسولَهُ، أيها المؤمنونَ، واستجيبُوا له إذا دعاكم لما يُحْييكم، ولا تخالِفُوا أمرَه وإنْ أمركم بما فيه عليكم المَشَقَّةُ والشِدَّةُ، فإنَّ الله يُهَوِّنُه عليكم بطاعتِكُمْ إياهُ، ويعجِّلُ لكم منه ما تُحبُّونَ، كما فعل بكم إذْ آمنتم به واتَّبعتمُوه وأنتم قليلٌ يَسْتضعفُكم الكفارُ فَيَفْتِنُونَكُمْ عن دِينكم، ويَنَالونكم بالمكروهِ في أنفسِكم وأعـراضِكم، تخـافـونَ منهم أنْ يَتَخَـطَّفُـوكم فيقتلوكم ويَصْـطَلِمُـوا جميعَكم. «فـآواكم»، يقـول: فجعلَ لكم مأوى تأْوُونَ إليه منهم. «وأيَّدَكُمْ بنصره»، يقولُ: وقَوَّاكُمْ بنصرِه عليهم حتى قتلتم منهم مَنْ قتلتم ببدر. «ورزقكم من الـطيبـات»، يقول: وأطعمَكُمْ غَنِيمتَهم حلالاً طيباً. «لعلكم تشكرون»، يقول: لكي تَشْكُروه على ما رَزَقكم وأنعمَ به عليكم من ذلك وغيرِه من نِعَمِه عندكم.

واختلف أهلُ التأويل في «الناس» الذين عُنُوا بقوله: «أنْ يَتخطَّفكُمْ الناسُ».

فقال بعضهم: كفارُ قريش.

وقال آخرون: بل عُني به غيرُ قريش.

وأولى القـولين في ذلك عندي بالصوابِ، قولُ مَنْ قال: «عُني بذلك مشركو قريش»، لأنَّ المسلمينَ لم يكونوا يخافون على أنفسهم قبلَ الهجرةِ من غيرهم، لأنهم كانوا أدنى الكفارِ منهم إليهم، وأشدَّهُمْ عليهم يومئذٍ، مع كَثْرةِ عَدَدِهم وقلةِ عَدَدِ المسلمين.

وأما قوله: «فآواكم»، فإنه يعني: آواكم المدينةَ، وكذلك قوله: «وأيدكم بنصره»، بالأنصارِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ

﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ باللهِ ورسولِه من أصحابِ نبيه ﷺ: يا أيها الذين صَدَّقُوا اللهَ ورسولَهُ. «لا تخونوا الله»، وخيانَتُهم اللهَ ورسولَهُ، كانتْ بإظهارِ مَنْ أظهرَ منهم لرسولِ الله ﷺ والمؤمنينَ الإيمانَ في الظاهرِ والنصيحةَ، وهو يَسْتَسِرُّ الكُفْرَ والغِشَّ لهم في الباطنِ، يَدُلُّونَ المشركينَ على عورَتِهم، ويخبرونهم بما خفيَ عنهم من خبرهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ: واعلموا، أيها المؤمنونَ، أنَّما أموالُكُم التي خَوَّلَكُمُوهَا الله، وأولادكم التي وَهَبَهَا اللهُ لكم، اختبارٌ وبلاءٌ، أعطاكُمُوها ليختبرَكُمْ بها ويَبْتليكم، لينظرَ كيفَ أنتم عاملونَ من أداءِ حَقِّ الله عليكم فيها، والانتهاءِ إلى أمْرِه ونهيِهِ فيها. «وأنَّ الله عنده أجرٌ عظيم»، يقول: واعلموا أنَّ الله عنده خيرٌ وثوابٌ عظيم، على طاعَتِكُمْ إياهُ فيما أمركم ونهاكم، في أموالِكم وأولادِكم التي اختبركُمْ بها في الدنيا. وأطيعُوا الله فيما كَلَّفَكُم فيها، تَنالُوا به الجزيلَ من ثوابِهِ في مَعادِكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يا أيها الذين صَدَّقُوا اللهَ ورسولَهُ، إنْ تَتَّقُوا اللهَ بطاعتِهِ

وأداءِ فرائضِه، واجتناب معاصيه، وتركِ خيانَتِه وخيانة رسولِه وخيانة أماناتكم. «يَجْعَـلْ لكم فُرقاناً»، يقول: يَجْعَلْ لكم فَصْلاً وفرْقاً بين حَقِّكم وباطلِ مَنْ يَبْغِيكُم السُّوءَ من أعدائِكم المشركينَ، بنصره إيَّاكُم عليهم، وإعطائِكم الظفرَ بهم. «ويُكَفِّـرْ عنكم سَيِّئَـاتِكم»، يقول: ويَمْحُو عنكم ما سَلَفَ من ذنوبكم بينكم وبينه. «ويغفرْ لكم»، يقول: ويُغَطِّيها فَيَسْتُرها عليكم، فلا يُؤاخِذُكم بها. «والله ذُو الفضـل العـظيم»، يقول: والله الذي يفعلُ ذلكَ بكم، له الفضل العظيم عليكم وعلى غيركم من خَلْقِه بفعله ذلك وفعلِ أمثاله. وإنَّ فعله جزاءٌ منه لعبده على طاعته إياه، لأنه الموفِّقُ عَبْدَهُ لطاعته التي اكتسبها، حتى استحق من ربه الجزاء الذي وعَدَهُ عليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ۝٣٠﴾

(يعني): واذْكُرْ، يا محمدُ، نعمتي عندكَ، بمكري بِمَنْ حاولَ المكرَ بكَ من مشركي قومكَ، بإثباتكَ أو قَتْلِكَ أو إخراجِكَ من وطنكَ، حتى استنقذتُكَ منهم وأهلكتهم، فامْضِ لأمري في حربِ مَنْ حاربكَ من المشركينَ، وتَوَلَّى عَنْ إجابةِ ما أرسلتُكَ به من الدِّينِ القيم، ولا يَرْعَبَنَّكَ كثرةُ عَدَدِهم، فإنَّ ربَّكَ خيرُ الماكرينَ بمن كَفَرَ به، وعَبَدَ غيرَهُ، وخالفَ أمره ونهيه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۙ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا تُتْلَى على هؤلاءِ الذينَ كَفَرُوا آيات كتابِ الله الواضحة لِمَنْ شَرَحَ الله صَدْرَهُ لِفَهْمِه. «قالوا»، جَهْلاً منهم، وعِناداً للحقِّ،

وهم يعلمون أنهم كاذبون في قِيْلِهم. «لو نَشاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هذا»، الذي تُلِيَ علينا. «إنْ هذا إلا أساطيرُ الأولين»، يعني: أنهم يقولون: ما هذا القرآنُ الذي يُتْلَى عليهم إلاّ أساطيرُ الأولين.

وإنما عَنَى المشركونَ بقولهم: «إنْ هذا إلاّ أساطيرُ الأولين»، إنْ هذا القرآنُ الذي تتلوه علينا يا محمدُ، إلاّ ما سَطَّرهُ الأولون وكَتَبُوهُ من أخبارِ الأمم! كأنهم أضافُوه إلى أنه أُخِذَ عن بني آدمَ، وأنه لم يُوحِهِ اللهُ إليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: واذكُرْ، يا محمدُ، أيضاً ما حَلَّ بمن قال: «اللهُمَّ إنْ كان هذا هو الحَقَّ من عندكَ فأمطِرْ علينا حجارةً من السماء أو ائتنا بعذابٍ أليم»، إذ مكرت بهم، فأتيتهم بعذاب أليم، وكان ذلك العذاب، قَتْلَهم بالسيفِ يومَ بدر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك.

فقال بعضهم: تأويلُه: «وما كانَ اللهُ ليعذبهم وأنتَ فيهم»، أي: وأنتَ مقيمٌ بين أَظْهُرِهم. قال: وأُنزلتْ هذه على النبيِّ ﷺ وهو مقيمٌ بمكة. قال: ثم خرجَ النبيُّ ﷺ من بين أظهرهم، فاستغفرَ مَنْ بها من المسلمينَ، فأنزل بعد

خروجِهِ عليه، حين استغفرَ أولئكَ بها: «وما كانَ الله مُعَذِّبَهُمْ وهم يستغفرونَ».
قال: ثم خرجَ أولئكَ البقيةُ من المسلمينَ من بينِهِم، فعذَّب الكفار.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وما كانَ اللهُ ليعذِّبَ هؤلاءِ المشركينَ من قريش بمكةَ وأنتَ فيهم، يا محمدُ، حتى أخرجكَ من بينِهم. «وما كان الله معذبهم»، وهؤلاء المشركون، يقولون: «يا رَبِّ غُفرانكَ!»، وما أشبهَ ذلك من معاني الاستغفار بالقولِ. قالوا: وقوله: «وما لَهُمْ ألَّا يُعَذِّبَهُمْ اللهُ»، في الآخرةِ.

وقال آخرون: معنى ذلك: «وما كان الله ليعذبهم وأنتَ فيهم»، يا محمدُ، وما كانَ اللهُ مُعَذِّبَ المشركينَ وهم يستغفرونَ أي: لو اسْتَغْفَرُوا. قالوا: ولم يكونوا يستغفرون، فقال جَلَّ ثناؤُهُ إذْ لم يكونوا يستغفرون: «وما لَهُمْ ألَّا يعذِّبَهُم الله وهم يَصُدُّونَ عن المسجدِ الحرام».

وقال آخرون: معنى ذلك: وما كانَ الله ليعذبهم وهم يُسْلِمُونَ. قالوا: و«استغفارهم»، كان في هذا الموضع، إسلامَهم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وفيهم مَنْ قد سَبَقَ له من اللهِ الدخولُ في الإسلامِ.

وقال آخرون: بل معناهُ: وما كان الله معذبهم وهم يُصَلُّون.

وأَوْلى هذه الأقوال عندي في ذلك بالصواب، قولُ مَنْ قال: تأويله: «وما كان الله ليعذبهم وأنتَ فيهم»، يا محمدُ، وبين أظهرهم مقيمٌ، حتى أخرجكَ من بينِ أظْهُرِهم، لأنّي لا أُهلكُ قريةً وفيها نَبِيُّها. «وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون»، من ذنوبهم وكُفْرِهم، ولكنهم لا يستغفرونَ من ذلك، بَلْ هُمْ مُصِرُّونَ عليه، فهم للعذابِ مستحقُّونَ. كما يقال: «ما كنتُ لأُحْسِنَ إليكَ وأنت تُسيءُ إليَّ»، يُرَادُ بذلك: لا أُحْسِنُ إليكَ، إذا أسأتَ إليَّ، ولو أسأتَ إليَّ لم أُحْسِنْ إليكَ، ولكنْ أحسن إليكَ لأنك لا تسيءُ إليَّ. وكذلك ذلك،

ثم قيل: «وما لهم ألَّا يُعَذِّبَهُم اللهُ وهم يَصُدُّونَ عن المسجدِ الحرام»، بمعنى: وما شأنهم، وما يمنعهم أنْ يعذبهم الله وهم لا يستغفرونَ اللهَ مِنْ كُفْرِهم فيؤمنوا به، وهم يصدون المؤمنينَ باللهِ ورسوله عن المسجدِ الحرام؟

وإنما قلنا: «هذا القول أوْلى الأقوال في ذلك بالصواب»، لأنَّ القومَ ـ أعني مشركي مكة ـ كانوا استعجَلُوا العذابَ، فقالوا: «اللهم إنْ كانَ ما جاءَ به محمدٌ هو الحَقّ، فأمطِرْ علينا حجارةً من السماء أو ائتنا بعذابٍ أليم»، فقال الله لنبيه: «ما كنتُ لِأُعَذِّبَهُمْ وأنتَ فيهم، وما كنتُ لأعذبهم لو استغفروا، وكيف لا أعذبهم بعد إخراجكَ منهم، وهم يَصُدُّونَ عن المسجدِ الحرام»؟. فأعْلَمَهُ جَلَّ ثناؤُهُ أنَّ الذي استعجَلُوا من العذابِ حائِقٌ بهم ونازلٌ، وأعلمهم حال نزوله بهم، وذلك بعد إخراجه إياهُ من بين أظهُرِهم. ولا وجهَ لإيعادِهم العذابَ في الآخرة، وهم مُسْتَعْجِلُوهُ في العاجل، ولاشَكَّ أنهم في الآخرة إلى العذابِ صائرون. بل في تعجيل الله لهم ذلك يومَ بَدْرٍ، الدليلُ الواضحُ على أنَّ القولَ في ذلك ما قلنا.

وكذلك لا وجهَ لقولِ مَنْ وجَّه قوله: «وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون»، إلى أنه عَنَى به المؤمنين، وهو في سياق الخبرِ عنهم، وعَمَّا اللهُ فاعلٌ بهم. ولا دليلَ على أنَّ الخبرَ عنهم قد تَقَضَّى، وعلى ذلك [كُنِيَ] به عنهم، وأن لا خلافَ في تأويلِهِ من أهله موجودٌ.

وكذلك أيضاً لا وجهَ لقولِ مَنْ قال: ذلك منسوخٌ بقوله: «وما لهم ألَّا يُعَذِّبَهُمْ اللهُ وهم يَصُدُّونَ عن المسجدِ الحرام»، الآية، لأنَّ قوله جَلَّ ثناؤُهُ: «وما كان الله مُعَذِّبَهُمْ وهم يَستغفرون»، خبرٌ، والخبرُ لا يجوزُ أنْ يكونَ فيه نسخٌ، وإنما يكون النسخُ للأمرِ أو النهي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا

﴿ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٣٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وما لهؤلاءِ المشركينَ ألاَّ يُعَذِّبَهُمْ اللهُ وهم يصدون عن المسجد الحرام، ولم يكونوا أولياءَ اللهِ. «إنْ أولياؤه»، يقول: ما أولياءُ اللهِ. «إلاَّ المتقـون»، يعني: الـذين يَتَّقُونَ اللهَ بأداءِ فرائضِه واجتنابِ معاصيه. «ولكن أكثـرهم لا يعلمـون»، يقول: ولكن أكثرَ المشركينَ لا يعلمونَ أنَّ أولياءَ الله المتقون، بل يَحسبونَ أنهم أولياءُ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ٣٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وما لهؤلاءِ المشركينَ ألاَّ يُعَذِّبهم الله، وهم يَصُدُّونَ عن المسجدِ الحرام الذين يصلون لله فيه ويعبدونه، ولم يكونوا للهِ أولياءَ، بَلْ أولياؤه الـذين يصـدونهم عن المسجدِ الحرام، وهم لا يُصَلُّونَ في المسجدِ الحرام. «وما كان صلاتُهم عندَ البيتِ»، يعني بيتَ اللهِ العتيق. «إلاَّ مُكاءً»، وهو الصفير.

وأمـا «التصديةُ»، فإنها التصفيقُ، يقال منه: «صَدَّى يُصَدِّي تصديةً»، و«صفَّق»، و«صفَّح»، بمعنى واحد.

وأما قوله: «فذوقوا العذابَ بما كنتم تكفرون»، فإنه يعني العذابَ الذي وَعَدَهُمْ به بالسيفِ يومَ بَدْرٍ. يقولُ للمشركينَ الذين قالوا: «اللهُمَّ إنْ كانَ هذا هو الحق من عنـدكَ فأمطِرْ علينا حجارةً من السماء» الآية، حين أتاهم بما استعجَلُوه من العذابِ. «ذوقوا»، أي: اطْعَمُوا، وليس بذوق بفَمٍ، ولكنه ذوقٌ بالحسِّ ووجـودُ طَعْمِ ألمِـه بالقلوبِ. يقـول لهم: فذوقوا العذابَ بما كنتم تَجْحدونَ أنَّ الله مُعَذِّبكم به على جحودِكم توحيدَ رَبِّكم، ورسالةَ نَبِيِّكُمْ ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ٣٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين كفروا باللهِ ورسولِه يُنفقونَ أموالَهم، فيعطونها أمثالَهم من المشركينَ ليتقوَّوْا بها على قتالِ رسولِ الله ﷺ والمؤمنينَ به، ليصدُّوا المؤمنينَ باللهِ ورسولِه عن الإيمانِ بالله ورسوله، فَسَيُنْفِقُونَ أموالَهم في ذلك، ثم تكونُ نفقتُهم تلك عليهم. «حَسْرةً»، يقول: تصيرُ ندامةً عليهم، لأنَّ أموالهم تذهبُ، ولا يَظفرونَ بما يَأْملونَ ويطمعونَ فيه من إطفاءِ نورِ الله، وإعلاءِ كلمةِ الكُفْرِ على كلمةِ الله، لأنَّ الله مُعْلي كلمته، وجاعل كلمة الكفرِ السفلى، ثم يغلبهم المؤمنون، ويحشرُ اللهُ الذين كفروا به وبرسولِه إلى جهنم، فَيُعَذَّبُونَ فيها، فأَعْظِمْ بها حسرةً وندامةً لمن عاشَ منهم ومَنْ هلك! أما الحيُّ، فَحُرِبَ مالُه وذهبَ باطلاً في غير دَرَكِ نَفْعٍ، ورجعَ مغلوباً مقهوراً مَحْرُوباً مَسْلُوباً. وأما الهالكُ، فَقُتِلَ وسُلِبَ، وعُجِّلَ به إلى نارِ الله يَخْلُدُ فيها، نعوذُ بالله من غضبه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ٣٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يحشرُ الله هؤلاء الذين كفروا بربهم ويُنفقونَ أموالَهم للصدِّ عن سبيلِ الله، إلى جهنم، ليفرق بينهم ـ وهم أهلُ الخبث، كما قال وسماهم «الخبيث» ـ وبين المؤمنينَ بالله وبرسوله، وهم «الطيبون»، كما سماهم

جَلَّ ثناؤُهُ. فميَّزَ جَلَّ ثناؤُهُ بينهم بأنْ أسْكَنَ أهلَ الإيمانِ به وبرسوله جناته، وأنزل أهلَ الكفرِ نارَه.

ويعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «ويجعلَ الخبيثَ بعضَهُ على بعض»، فيجعل الكفار بعضَهم فوقَ بعضٍ. «فيركمه جميعاً»، يقول: فيجعلُهم رُكاماً، وهو أنْ يجمعَ بعضَهم إلى بعضٍ حتى يَكثُروا، كما قال جَلَّ ثناؤُهُ في صفة السحاب: ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً﴾ [النور: ٤٣]، أي: مجتمعاً كثيفاً.

وقوله: «فيجعله في جهنم» يقول: فيجعل الخبيثَ جميعاً في جهنم - فوحَّدَ الخبرَ عنهم لتوحيدِ قوله: «لِيَميزَ اللهُ الخبيثَ»، ثم قال: «أولئك هم الخاسرون»، فجمع، ولم يقل: «ذلك هو الخاسرُ»، فردَّهُ إلى أوَّلِ الخبر.

ويعني بـ«أولئك»، الذين كفروا، وتأويله: هؤلاءِ الذين يُنفقونَ أموالَهم لِيَصُدُّوا عن سبيلِ الله «هم الخاسرون»، ويعني بقوله: «الخاسرون»، الذين غُبِنَتْ صفقتُهم، وخَسِرَتْ تجارتُهم. وذلك أنهم شَرَوْا بأموالهم عذابَ الله في الآخرة، وتَعَجَّلُوا بإنفاقِهم إياها فيما أنفقوا من قتالِ نبيِّ الله والمؤمنينَ به، الخزيَ والذلَّ.

القَوْلُ في تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ»، يا محمدُ، «للذين كفروا»، من مشركي قومكَ. «إنْ يَنْتَهُوا»، عَمَّا هُمْ عليه مُقيمونَ من كُفْرِهم بالله ورسوله، وقتالِكَ وقتالِ المؤمنينَ، فَيُنِيبُوا إلى الإيمانِ - يغفر اللهُ لهم ما قَدْ خَلاَ ومَضَى من ذنوبِهم قبلَ إيمانِهم وإنابتِهم إلى طاعةِ الله وطاعة رسوله بإيمانهم وتوبتهم. «وإنْ يَعُودوا»، يقول: وإنْ يَعُدْ هؤلاءِ المشركونَ لقتالِكَ بعد الوقعةِ التي أوقَعْتَها

بهم يومَ بدرٍ ـ فقد مَضَتْ سُنَّتي في الأوَّلينَ منهم ببدر، ومن غيرِهم من القرونِ الخالية، إذْ طَغَوْا وكَذَّبُوا رسلي ولم يَقْبَلُوا نُصْحَهُمْ، من إحلالِ عاجلِ النِّقَمِ بهم، فأحلُّ بهؤلاء إنْ عادوا لحربكَ وقتالكَ، مثال الذي أحللتُ بهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٣٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: للمؤمنينَ به وبرسوله: وإنْ يَعُدْ هؤلاءِ لحربكَ، فقد رأيتم سنتي فيمَنْ قاتلكم منهم يومَ بدر، وأنا عائدٌ بمِثْلها فيمَنْ حارَبَكُمْ منهم، فقاتلوهم حتى لا يكونَ شِرْكٌ، ولا يُعْبَد إلَّا الله وحده لا شريكَ له، فيرتفع البلاءُ عن عبادِ الله من الأرض ـ وهو «الفتنة» ـ «ويكونَ الدين كله لله»، يقول: وحتى تكونَ الطاعةُ والعبادةُ كُلُّها للهِ خالصةً دونَ غيره.

وأما قوله: «فإن انتهوا»، فإنَّ معناه: فإنِ انتهوا عن الفتنةِ، وهي الشِّرْكُ بالله، وصارُوا إلى الدِّينِ الحق معكم. «فإنَّ الله بما يعملونَ بصيرٌ»، يقول: فإنَّ الله لا يَخْفَى عليه ما يعملونَ من تَرْكِ الكُفْرِ والدخولِ في دينِ الإسلام، لأنه يُبْصِرُهم ويبصرُ أعمالكم، والأشياءُ كلها متجليةٌ له، لا تَغِيبُ عنه، ولا يعزبُ عنه مثقالُ ذرةٍ في السمواتِ ولا في الأرضِ، ولا أصغرَ من ذلكَ ولا أكبر إلا في كتابٍ مبين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ٤٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإنْ أدبَرَ هؤلاءُ المشركونَ عما دَعَوْتُموهم إليه، أيها المؤمنونَ، من الإيمانِ باللهِ ورسولِهِ، وتركِ قتالِكم على كُفْرِهم، فأبوا إلَّا

الإصـرارَ على الكفـرِ وقتـالِكُمْ، فقـاتِلُوهم، وأيقِنُـوا أنَّ اللهَ مُعِينُكم عليهم وناصِرُكم. «نعم المولى»، هُوَ لكم، يقول: نِعْمَ المعينُ لكم ولأوليائِه. «ونعم النصيرُ»، وهو الناصرُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾

وهذا تعليمٌ من الله عَزَّ وجَلَّ المؤمنينَ قَسْمَ غنائِمِهم إذا غَنِمُوها. يقول تعالى ذِكْرُه: واعلموا، أيها المؤمنونَ، أنَّ ما غَنِمْتُمْ من غنيمةٍ.

واختلف أهلُ العلم في معنى «الغنيمة» و«الفيء».

فقال بعضهم: فيهما معنيان، كُلُّ واحدٍ منهما غير صاحبه. قالوا: إذا ظهرَ المسلمونَ على المشركينَ وعلى أرضِهم وأخذوهم عنوةً، فما أخَذُوا من مالٍ ظَهَرُوا عليه فهو «غنيمةٌ»، وأما الأرضُ فهي في سوادنا هذا «فيءٌ».

وقال آخرون: «الغنيمة»، ما أُخِذَ عنوةً، و«الفيء»، ما كانَ عن صُلْحٍ.

وقال آخرون: «الغنيمةُ» و«الفيءُ»، بمعنى واحد. وقالوا: هذه الآيةُ التي في «الأنفال»، ناسخةٌ قولَهُ: ﴿مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلْرَّسُولِ﴾ الآية، [الحشر: ٧].

وقد بَيَّنَّا فيما مضى «الغنيمة»، وأنها المالُ يُوصَلُ إليه من مالِ مَنْ خَوَّلَ اللهُ مالَهُ أهلَ دِينِهِ، بِغَلَبةٍ عليه وقهرٍ بقتال.

فأما «الفيء»، فإنه ما أفاءَ اللهُ على المسلمينَ من أموالِ أهل الشِّرْكِ، وهو ما رَدَّهُ عليهم منها بصلحٍ من غير إيجافِ خيلٍ ولا رِكاب. وقد يجوزُ أنْ يُسَمَّى ما ردَّتـه عليهم منهـا سيوفُهم ورمـاحهم وغير ذلـك من سلاحِهم «فيئـاً» لأنَّ «الفيءَ»، إنما هو مصدرٌ من قولِ القائلِ: «فاءَ الشيء يفيء فيئاً»، إذا رجعَ، و«أفاءه الله»، إذا رَدَّهُ.

غيرَ أنَّ الذي ردّ حُكْمَ الله فيه من الفيءِ بحكمه في «سورة الحشر»، إنما هو ما وصفتُ صِفَتَهُ من الفيءِ، دونَ ما أوجفَ عليه منه بالخيلِ والركاب، لعلل قد بَيَّنْتُهَا في كتاب: «كتاب لطيف القول، في أحكام شرائع الدين»، وسَنُبَيِّنُه أيضاً في تفسير «سورة الحشر»، إذا انتهينا إليه إنْ شاء الله تعالى.

وأما قولُ مَنْ قال: الآيةُ التي في «سورة الأنفال»، ناسخةٌ الآيةَ التي في «سورة الحشر»، فلا معنى له، إذْ كان لا معنى في إحدى الآيتين ينفي حُكْمَ الأخرى. وقد بَيَّنا معنى «النسخ»، وهو نفيُ حُكْمٍ قد ثَبَتَ بحكمٍ خلافه، في غير موضعٍ، بما أغنى عن إعادتِه في هذا الموضع.

وأما قوله: «من شيء»، فإنه مُرَادٌ به: كُلُّ ما وقعَ عليه اسمُ «شيء»، مما خَوَّلَهُ اللهُ المؤمنينَ من أموالِ مَنْ غلبوا على مالِه من المشركين، مما وَقَعَ عليه القَسْمُ، حتى الخيط والمِخْيَط.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك.

فقال بعضُهم قوله: «فأنَّ لله خُمُسَهُ»، مفتاحُ كلامٍ، ولله الدنيا والآخرةُ وما فيهما، وإنما معنى الكلام: فإنَّ للرسولِ خُمُسَهُ.

وقال آخرون: معنى ذلك: فإنَّ لبيتِ الله خُمُسَهُ وللرسولِ.

وقال آخرون: ما سُمِّيَ لرسولِ الله ﷺ من ذلك، فإنما هو مُرَادٌ به قرابته، وليس لله ولا لرسولِه منه شيءٌ.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ، قولُ مَنْ قال: قوله: «فأن لله خمسه»،

«افتتاح كلام»، وذلك لإجماع الحُجَّةِ على أنَّ الخمس غيرُ جائزٍ قَسْمُه على ستةِ أسهم. ولو كان لله فيه سَهْمٌ، لَوَجَبَ أن يكونَ خمسُ الغنيمةِ مقسوماً على ستةِ أسهمٍ. وإنما اختلفَ أهلُ العلم في قَسْمِه على خمسة فما دونها.

فأما مَنْ قال: «سهمُ الرسول لذوي القربى»، فقد أوجبَ للرسولِ سهماً، وإنْ كان ﷺ صَرَفَهُ إلى ذوي قرابته، فلم يخرج من أن يكون القسم كان على خمسة أسهم.

وأما قوله: «ولذي القُرْبى»، فإنَّ أهلَ التأويل اختلفوا فيهم.

فقال بعضهم: هم قرابةُ رسولِ الله ﷺ من بني هاشم.

وقال آخرون: بل هم قريش كُلُّها.

وقال آخرون: سَهْمُ ذي القربى كان لرسولِ الله ﷺ، ثم صارَ من بعدِه لوليِّ الأمرِ من بعده.

وقال آخرون: بل سهم ذي القربى كان لبني هاشم وبني المُطَّلِبِ خاصةً.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ عندي، قولُ مَنْ قال: «سهم ذي القربى، كان لقرابةِ رسولِ الله ﷺ من بني هاشم وحلفائهم من بني المطلب»، لأنَّ حليفَ القومِ منهم، ولصِحَّةِ الخبرِ الذي رواه جبير بن مُطْعِم قال: لما قَسَمَ رسولُ الله ﷺ سهمَ ذي القربى من خيبر على بني هاشم وبني المطلب، مشيتُ أنا وعثمان بن عفان رحمةُ الله عليه، فقلنا: يا رسولَ الله، هؤلاء إخوتُك بنو هاشم، لا ننكر فَضْلَهُم، لمكانِكَ الذي جعلكَ اللهُ به منهم، أرأيتَ إخوانَنا بني المطلب، أعطيتَهُمْ وتَرَكْتَنَا، وإنما نحنُ وهُمْ منكَ بمنزلةٍ واحدة؟ فقال: إنهم لم يُفَارِقُونا في جاهليةٍ ولا إسلام، إنما بَنُو هاشم وبنو المطلب شيءٌ واحد!

الأنفال: ٤١

ثم شَبَّكَ رسولُ الله ﷺ يديه إحْدَاهُمَا بالأخرى[1].

واختلف أهلُ العلم في حكمِ هذين السهمين ـ أعني سهمَ رسولِ الله ﷺ، وسهمَ ذي القربى بعد رسولِ الله ﷺ.

فقال بعضهم: يُصْرَفَانِ في معونةِ الإسلامِ وأهله.

وقال آخرون: سهمُ ذوي القربى من بعدِ رسولِ الله ﷺ مع سهمِ رسولِ الله ﷺ إلى وليِّ أمرِ المسلمين.

وقال آخرون: سهمُ رسولِ الله ﷺ مردودٌ في الخمس، والخمسُ مقسومٌ على ثلاثةِ أسهمٍ: على اليتامى، والمساكين، وابن السبيل. وذلك قولُ جماعةٍ من أهل العراق.

وقال آخرون: الخمسُ كله لقرابةِ رسولِ الله ﷺ.

والصوابُ من القول في ذلك عندنا، أنَّ سهمَ رسولِ الله ﷺ مردودٌ في الخمس، والخمسُ مقسومٌ على أربعةِ أسهمٍ: للقرابةِ سهمٌ، ولليتامى سهم، وللمساكين سهم، ولابن السبيل سهم، لأنَّ الله أوجبَ الخُمسَ لأقوامٍ موصوفينَ بصفاتٍ، كما أوجبَ الأربعةَ الأخماس لآخرينَ. وقد أجمعوا أنّ حَقَّ الأربعةِ الأخماس لن يستحقه غيرهم، فكذلك حَقُّ أهلِ الخُمُسِ لن يستحقه غيرهم. فغيرُ جائزٍ أنْ يخرجَ عنهم إلى غيرهم، كما غيرُ جائزٍ أنْ تخرجَ بعضُ السهمانِ التي جعلها الله لِمَنْ سَمَّاهُ في كتابه بفقدِ بعضِ مَنْ يستحقُّهُ، إلى غير أهلِ السهمانِ الأُخَر.

وأما «اليتامى»، فهم أطفالُ المسلمين الذين قد هلك آباؤهم.

و«المساكين»، هم أهلُ الفاقةِ والحاجةِ من المسلمين.

---

(١) أخرجه الطبري (١٦١١٩)، والشافعي في الأم: ٤/ ٧١، وأبو داود (٢٩٨٠)، وأبو عبيد في الأموال (٨٤٢) وإسناده صحيح.

و«ابن السبيل»، المجتاز سَفَراً قد انقُطِعَ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: أيقِنُوا، أيها المؤمنونَ، أنَّ ما غنمتم من شيءٍ فمقسومٌ القَسْمَ الذي بَيَّنْتُهُ وصَدَّقُوا به، إنْ كنتم أَقْرَرْتُمْ بوحدانيةِ الله وبما أنزلَ الله على عبـدِه محمـدٍ ﷺ يومَ فَرّق بين الحَقِّ والبـاطـلِ ببـدر، فأبانَ فَلَجَ المؤمنينَ وظهورَهم على عَدُوِّهم، وذلك «يوم التقى الجمعانِ»، جمعُ المؤمنينَ وجمعُ المشركين، والله على إهلاكِ الكفرِ وإذلالِهم بأيدي المؤمنينَ، وعلى غيرِ ذلك مما يشاءُ. «قديرٌ»، لا يمتنع عليه شيءٌ أراده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أيقِنُوا، أيها المؤمنونَ: واعْلَمُوا أنَّ قَسْمَ الغنيمةِ ما بيَّنه لكم رَبُّكم، إنْ كنتم آمنتم باللهِ وما أنزل على عبدِه يومَ بدر، إذْ فرقَ بين الحقِّ والباطلِ من نصرِ رسولِه. «إذْ أنتم»، حينئذٍ، «بالعُدْوَةِ الدنيا»، يقول: بشفيرِ الـوادي الأدنى إلى المـدينة. «وهُمْ بالعُدْوَةِ القُصوى»، يقول: وعَدُوُّكُمْ من المشـركينَ نُزُولٌ بشَفيرِ الـوادي الأقصى إلى مكـة. «والركبُ أسفلَ منكم»، يقول: والعِيرُ فيه أبو سفيان وأصحابُه في موضعٍ أسفلَ منكم إلى ساحلِ البحرِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾

الأنفال: ٤٢

يقول تعالى ذِكْرُه: ولو كان اجتماعُكم في الموضعِ الذي اجتمعتُمْ فيه، أنتم أيها المؤمنون وعدوكم من المشركين، عن ميعَادٍ منكم ومنهم، «لاختلفتُمْ في الميعاد»، لكثرةِ عَدَدِ عَدُوِّكم، وقِلَّةِ عَدَدِكم، ولكنَّ الله جمعكم على غير ميعادٍ بينكم وبينهم. «ليقضيَ اللهُ أمراً كان مفعولاً»، وذلك القضاءُ من الله، كان نَصْرَه أولياءَهُ من المؤمنينَ باللهِ ورسـولـه، وهلاكَ أعدائه وأعدائِهم ببدرٍ بالقتلِ والأسر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولكنَّ الله جمعهم هنالك، ليقضيَ أمراً كان مفعولاً. «لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنة».

وهذه اللامُ في قوله: «ليهلك» مكررة على «اللام» في قوله: «ليقضي»، كأنه قال: ولكنْ ليهلكَ مَنْ هَلَكَ عن بينة، جَمَعكم.

ويعني بقوله: «ليهلك مَنْ هَلَكَ عن بينةٍ»، ليموتَ مَنْ ماتَ من خَلْقِه، عن حجةٍ لله قد أُثبتت له وقَطَعَتْ عُذْرَهُ، وعبرة قد عاينها ورآها. «ويحيا مَنْ حَيَّ عن بينةٍ»، يقولُ: وليعيشَ مَنْ عاشَ منهم عن حجةٍ لله قد أُثبتت له وظهرت لعينه فعلمها، جمعنا بينكم وبين عدوكم هنالك.

وأمـا قولـه: «وإنَّ الله لسميعٌ عليم»، فإنَّ معنـاه: «وإن الله»، أيهـا المؤمنـون، «لسميع»، لقـولكم وقـولِ غيرِكم، حين يُري الله نبيه في منامه ويريكم، عَدُوَّكم في أعينكم قليلاً وهُمْ كثيرٌ، ويراكم عَدُوُّكُمْ في أعينهم قليلاً. «عليم»، بما تُضْمِرُه نفوسُكم، وتنطوي عليه قلوبُكم، حينئذٍ وفي كُلِّ حالٍ.

يقولُ جَلَّ ثناؤُهُ لهم ولعباده: فاتقوا رَبَّكم، أيها الناسُ، في مَنْطِقِكم:

أنْ تنطقُوا بغيرِ حَقٍّ، وفي قلوبكم: أن تعتقدوا فيها غيرَ الرُّشدِ، فإنَّ الله لا يَخْفَى عليه خافيةٌ من ظاهرٍ أو باطن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإنَّ الله، يا محمدُ، سميعٌ لما يقول أصحابُك، عليمٌ بما يُضْمِرُونَهُ، إذ يُرِيكَ اللهُ عدوك وعدوهم «في منامك قليلًا»، يقول: يُرِيكَهُمْ في نومكَ قليلاً، فتخبرهم بذلك، حتى قَوِيَتْ قلوبهم، واجترأوا على حربِ عَدُوِّهم، ولو أراكَ رَبُّكَ عَدُوَّكَ وعَدُوَّهم كثيراً، لفشلَ أصحابُكَ فَجَبُنُوا وخافوا، ولم يقـدروا على حربِ القومِ، ولتنازَعُوا في ذلك، ولكنَّ الله سَلَّمَهُم من ذلك بما أراكَ في منامك من الرؤيا، إنه عليمٌ بما تُجِنُّه الصدورُ، لا يَخْفَى عليه شيءٌ مما تضمره القلوبُ.

واختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «ولكنَّ الله سَلَّمَ».

فقال بعضهم: معناه: ولكن الله سَلَّمَ للمؤمنينَ أمرهم، حتى أظهرهم على عدوهم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ولكن الله سَلَّمَ أمرَهُ فيهم.

وأَوْلى القولين في ذلك بالصوابِ عندي ما قاله ابنُ عباس، وهو أنَّ الله سَلَّمَ القومَ ـ بما أرى نَبِيَّه ﷺ في منامه ـ من الفشلِ والتنازعِ، حتى قويتْ قلوبُهم، واجترأوا على حربِ عَدُوِّهم. وذلك أنَّ قوله: «ولكن الله سلم»، عَقِيبَ قوله: «ولو أراكَهُمْ كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر»، فالذي هو أَوْلى بالخبر عنه

أنه سَلَّمَهُمْ منه جَلَّ ثناؤهُ ، ما كانَ مخوفاً منه لو لم يُرِ نبيَّهُ ﷺ من قِلَّةِ القومِ في منامه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وإنَّ الله لسميعٌ عليم» إذْ يُري الله نبيه في منامه المشركين قليلاً، وإذْ يُريهم اللهُ المؤمنينَ إذْ لقوهم في أعينهم قليلاً وهم كثيرٌ عَدَدُهم، ويُقَلِّلُ المؤمنينَ في أعينهم، ليتركوا الاستعدادَ لهم، فتهون على المؤمنين شوكتهم.

قوله: «ليقضيَ اللهُ أمراً كان مفعولاً»، يقول جَلَّ ثناؤه: قَلَّلْتُكم، أيها المؤمنون، في أعينِ المشركين، وأَرَيْتُكُمُوهُمْ في أعينكم قليلاً، حتى يقضيَ اللهُ بينكم ما قضى من قتال بعضِكم بعضاً، وإظهارِكم، أيها المؤمنون، على أعدائِكم من المشركينَ والظفرِ بهم، لتكونَ كلمةُ الله هي العليا، وكلمةُ الذين كفروا السُّفْلى. وذلك أمرٌ كان الله فاعلَه وبالغاً فيه أمرَه.

«وإلى الله تُرْجَعُ الأمور»، يقول جَلَّ ثناؤه: مصيرُ الأمورِ كُلّها إليه في الآخرة، فيجازي أهلها على قَدْرِ استحقاقِهم، المحسنَ بإحسانه، والمسيءَ بإساءته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾

وهذا تعريفٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ أهلَ الإيمانِ به، السيرةَ في حربِ أعدائه من أهلِ الكفرِ به، والأفعالَ التي يُرْجَى لهم باستعمالها عند لقائِهم النُّصْرَةَ عليهم والظفر بهم. ثم يقولُ لهم جَلَّ ثناؤُهُ: «يا أيها الذين آمنوا»، صَدَّقُوا الله ورسولَهُ - إذا لقيتم جماعةً من أهلِ الكفرِ للحربِ والقتال، فاثْبُتوا لقتالهم، ولا تنهزمُوا عنهم ولا تُوَلُّوهم الأدبارَ هاربينَ، إلاَّ مُتَحَرِّفاً لقتالٍ أو متحيزاً إلى فئةٍ منكم. «واذكُروا الله كثيراً»، يقولُ: وادْعُوا الله بالنصرِ عليهم والظفرِ بهم، وأشْعِرُوا قلوبَكُمْ وألسنتكم ذكره. «لعلكم تفلحون»، يقول: كيما تَنْجَحُوا فَتَظْفَرُوا بعدوِّكم، ويرزقكم اللهُ النصرَ والظفرَ عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ به: أطيعوا، أيها المؤمنون، رَبَّكم ورسولَهُ فيما أمرَكُمْ به ونَهاكم عنه، ولا تُخالِفُوهُمَا في شيءٍ. «ولا تنازعوا فتفشلوا»، يقول: ولا تَخْتَلِفُوا فتفرقوا وتختلف قلوبكم. «فتفشلوا»، يقول: فَتَضْعُفُوا وتَجْبُنُوا، «وتذهبَ رِيحُكم».

وهذا مثلٌ. يُقالُ للرجلِ إذا كان مُقْبِلاً ما يُحبُّه ويُسَرُّ به: «الريحُ مُقْبِلَةٌ عليه»، يعني بذلك: ما يحبه.

وإنما يُرادُ به في هذا الموضع: وتذهب قوتكم وبأسكم، فَتَضْعُفُوا ويدخلكم الوهنُ والخَللُ.

«واصبروا»، يقول: اصبروا مع نبيِّ الله ﷺ عند لقاءِ عَدُوِّكم، ولا تَنْهزمُوا عنه وتتركُوهُ. «إنَّ الله مع الصابرين»، يقول: اصبروا فإني معكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾

وهذا تقدُّمٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ إلى المؤمنينَ به وبرسولِه، أنْ لا يَعملُوا عملاً إلا لله خاصة، وطلبِ ما عِنْدَهُ، لا رِئاءَ الناسِ، كما فعلَ القومُ من المشركينَ في مسيرِهم إلى بدرٍ طلبَ رِئاء الناس. وذلك أنهم أُخْبِرُوا بفَوْتِ العِيرِ رسولَ الله ﷺ وأصحابه، وقيل لهم: «انصرفوا فقد سَلِمَت العِيرُ التي جِئْتُمْ لِنُصْرَتِها!»، فأبوا وقالوا: «نأتي بدراً فنشرب بها الخمرَ، وتعزفُ علينا القِيان، وتَتَحدَّثُ بنا العربُ فيها»، فَسُقُوا مكانَ الخمرِ كؤوسَ المنايا.

فتأويل الكلام إذاً: ولا تكونُوا، أيها المؤمنونَ باللهِ ورسوله، في العملِ بالرياءِ والسمعةِ، وتركِ إخلاصِ العملِ لله، واحتساب الأجرِ فيه، كالجيشِ من أهلِ الكُفْرِ بالله ورسوله الذين خَرجُوا من منازلِهم بَطَراً ومراءاة الناسِ بزيِّهم وأموالهم وكثرةِ عددهم وشِدَّةِ بطانتهم. «ويَصُدُّونَ عن سبيلِ الله»، يقول: ويَمنعونَ الناسَ من دِينِ اللهِ والدخول في الإسلام، بقتالِهم إيَّاهم، وتعذيبهم مَنْ قَدَرُوا عليه من أهلِ الإيمانِ بالله. «والله بما يعملون»، من الرياءِ والصَّدِّ عن سبيلِ الله، وغيرِ ذلك من أفعالهم. «محيطٌ»، يقول: عالمٌ بجميعِ ذلك، لا يَخْفَى عليه منه شيءٌ، وذلك أنَّ الأشياءَ كُلَّها له متجلِّيَةٌ، لا يعزبُ عنه منها شيءٌ، فهو لهم بها مُعاقِبٌ، وعليها مُعَذِّبٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ

﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وإذْ زَيَّنَ لهُمُ الشيطانُ أعمالهم»، وحين زَيَّنَ لَهُمُ الشيطانُ أعمالَهم.

فتأويلُ الكلام: «وإنَّ الله لسميعٌ عليم»، في هذه الأحوالِ - وحين زَيَّنَ لهم الشيطانُ خُروجَهم إليكم، أيها المؤمنونَ، لحربِكم وقِتالِكم وحَسَّنَ ذلكَ لهم وحَثَّهُمْ عليكم، وقال لهم: لا غالبَ لكمُ اليومَ من بني آدمَ، فاطْمَئِنُّوا وأبْشِرُوا. «وإني جَارٌ لكم»، من كِنَانَةَ أنْ تأتيَكُمْ من ورائِكم فَمُعِيذُكُم، أُجِيْرُكُمْ وأَمْنَعُكُمْ منهم، فلا تَخافُوهم، واجعلوا حَدَّكم وبأسَكُمْ على محمدٍ وأصحابه. «فلما تَراءتِ الفِئتانِ»، يقول: فلما تَزَاحفتْ جنودُ الله من المؤمنينَ وجنود الشيطان من المشركينَ، ونَظَرَ بعضُهم إلى بعضٍ. «نَكَصَ على عقبيه»، يقول: رَجَعَ القَهْقَرى على قَفَاهُ هارباً. وقال للمشركين: «إني بريءٌ منكم إنِّي أرى ما لا تَرَوْنَ»، يعني أنه يرى الملائكةَ الذين بعثهم اللهُ مَدَداً للمؤمنينَ، والمشركون لا يَرَوْنَهُمْ - إني أخافُ عقابَ الله، وكذب عدوُّ الله. «والله شديد العقاب».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وإنَّ الله لسميعٌ عليم»، في هذه الأحوالِ. «وإذ يقولُ المنافقون»، وكرَّ بقوله: «إذْ يقول المنافقون»، على قوله: «إذْ يُريكَهُمُ الله في مَنَامِكَ قليلاً»، «والذين في قلوبهم مرض»، يعني: شَكٌّ في الإسلام، لم

يَصحَّ يَقِينُهم، ولم تُشْرَحْ بالإيمانِ صُدورُهم. «غَرَّ هؤلاءِ دِينُهم»، يقول: غَرَّ هؤلاءِ الذين يُقاتِلُونَ المشركينَ من أصحابِ محمدٍ ﷺ من أنفسِهم، دِينُهم وذلك الإسلام.

وذُكِرَ أنَّ الذين قالوا هذا القولَ، كانوا نَفَراً مِمَّنْ كان قد تَكَلَّمَ بالإسلامِ من مشركي قريش، ولم يَسْتَحْكِمِ الإسلامُ في قلوبهم.

وأما قوله: «ومَنْ يَتَوَكَّلْ على اللهِ»، فإنَّ معناه: ومَنْ يُسْلِمْ أَمْرَهُ إلى الله، ويَثِقْ به، ويَرْضَ بقضائه، فإنَّ اللهَ حافظُه وناصِرُه لأنه «عزيزٌ»، لا يغلبُه شيءٌ، ولا يقهرهُ أحدٌ، فجارُه مَنيعٌ، ومَنْ يتوكَّلْ عليه مكفيٌّ.

وهذا أمرٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ المؤمنينَ به من أصحابِ رسولِ الله وغيرهم، أنْ يُفَوِّضُوا أَمْرَهُمْ إليه، ويُسَلِّمُوا لقضائِه، كيما يَكْفِيهم أعداءَهُمْ، ولا يَسْتَذِلُّهُمْ مَنْ نَاوَأَهُمْ، لأنه «عزيزٌ» غير مغلوبٍ، فجارُه غيرُ مقهورٍ. «حكيمٌ»، يقول: هو فيما يُدَبِّرُ من أمرِ خَلْقِهِ حكيمٌ، لا يدخلُ تدبيرَهُ خَلَلٌ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٥٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ولو تُعَايِنُ، يا محمدُ، حين يتوفَّى الملائكةُ أرواحَ الكُفَّارِ، فتنزعُهَا من أجسادِهم، تَضْرِبُ الوجوهَ منهم والأَسْتَاه، ويقولون لهم: ذُوقُوا عذابَ النار التي تحرقكم يومَ وُرُودِكم جهنم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٥١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه، مُخْبِراً عن قِيْلِ الملائكةِ لهؤلاءِ المشركينَ الذين قُتِلُوا ببـدرٍ، أنهم يقولونَ لهم وهم يَضربُونَ وجوهَهُمْ وأدبارهم: «ذُوقُوا عذابَ الله الذي يحرقكم»، هذا العذابُ لكم. «بما قَدَّمَتْ أيديكم»، أي: بما كسبت أيديكم من الآثامِ والأوزارِ، واجترحتُمْ من معاصي الله أيامَ حياتِكم، فذوقوا اليومَ العذابَ، وفي مَعَادِكم عذابَ الحريق، وذلك لكم بأنَّ الله «ليسَ بِظَلَّامٍ للعبيد»، لا يعاقبُ أحداً من خَلْقِه إلا بجرمٍ اجترَمَهُ، ولا يُعَذِّبه إلا بمعصيتِهِ إياهُ لأنَّ الظلمَ لا يجوزُ أنْ يكونَ منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٥٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فِعْلُ هؤلاءِ المشركينَ من قريش الذين قُتِلُوا ببدر، كعادةِ قومِ فرعون وصنيعهم وفِعْلِهم وفِعْلِ مَنْ كذَّبَ بحججِ الله ورُسُلِه من الأممِ الخاليةِ قَبْلَهُمْ، فَفَعَلْنَا بهم كَفِعْلِنَا بأولئكَ.

وقوله: «فأخَذَهُم الله بذنوبهم»، يقول: فعاقَبهمُ اللهُ بتكذيبهم حُجَجَهُ ورُسُلَهُ ومعصيتهم رَبَّهم، كما عاقبَ أشكالهم والأممَ الذين قَبْلَهُمْ. «إنَّ الله قويٌّ»، لا يغلبه غالِبٌ، ولا يَرُدُّ قضاءَهُ رادٌّ، يُنْفِذ أمْرَهُ، ويُمْضِي قضاءه في خَلْقِه ـ شديدٌ عِقابهُ لِمَنْ كَفَرَ باللهِ وجَحَدَ حُجَجه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٥٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأخذنا هؤلاءِ الذين كَفَرُوا بآياتنا من مشركي قريش ببدرٍ بذنوبِهم، وفعلنا ذلكَ بهم، بأنهم غَيَّرُوا ما أنعمَ اللهُ عليهم به من ابتعاثه

رسولَهُ منهم وبينَ أَظْهُرِهم، بإخراجِهم إياهُ من بينهم، وتكذيبهم له، وحَرْبِهم إياهُ، فغَيَّرنَا نِعْمَتَنا عليهم بإهلاكِنَا إياهم، كفعْلِنَا ذلك في الماضينَ قَبْلهم ممن طَغَى علينا وعَصَى أمْرَنَا.

وقوله: «وأن الله سميع عليم»، يقول: لا يَخْفَى عليه شيءٌ من كلامِ خَلْقِه، يسمعُ كلامَ كُلِّ ناطقٍ منهم بخيرٍ نَطَقَ أو بشرٍّ. «عليمٌ»، بما تُضْمِرُه صُدورُهم، وهو مُجَازِيهم ومُثِيبُهم على ما يَقُولونَ ويعملونَ، إنْ خيراً فخيراً، وإنْ شرًّا فشرًّا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: غَيَّرَ هؤلاءِ المشركونَ باللهِ، المقتولونَ ببدرٍ، نِعمةَ رَبِّهم التي أنعم بها عليهم، بابتعاثِه محمداً منهم وبين أظهرهم، داعياً لهم إلى الهدى، بتكذِيبهم إياهُ، وحَرْبِهم له، «كدأبِ آلِ فرعون» كَسُنَّةِ آلِ فرعون وعادَتِهم وفِعْلِهم بموسى نبيِّ الله، في تكذِيبهم إياهُ وقَصْدِهم لحرْبِه، وعادةِ مَنْ قَبْلَهُمْ من الأممِ المُكَذِّبةِ رُسُلَها وصَنِيعِهم، «فأهلكناهم بذنوبهم»، بَعْضاً بالرجفةِ، وبعضاً بالخَسْفِ، وبعضاً بالريِّح، «وأغرقنا آلَ فرعون»، في اليَمِّ، «وكُلٌّ كانوا ظالمينَ»، يقول: كُلُّ هؤلاءِ الأممِ التي أهلكناها كانوا فاعلينَ ما لم يَكُنْ لهم فِعْلُه، من تَكْذِيبهم رُسُلَ الله، والجحود لآياته. فكذلك أهلكنا هؤلاءِ الذينَ أهلكناهم ببدرٍ، إذْ غَيَّرُوا نعمةَ الله عندهم، بالقتلِ بالسيفِ، وأذللنا بعضَهم بالإسارِ والسِّبَاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ﴾

﴿لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ شَرَّ ما دَبَّ على الأرضِ عندَ الله، الذين كَفَرُوا بربِّهم، فَجَحَدُوا وحدانِيَّتَهُ، وعَبَدُوا غيرَهُ، «فهم لا يؤمنون»، يقول: فهم لا يُصَدِّقونَ رُسُلَ الله، ولا يُقِرُّون بوحيِهِ وتنزِيله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ۝٥٦﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: «إنَّ شَرَّ الدوابِّ عند الله الذين كفروا»، «الذينَ عاهدتَ منهم»، يا محمدُ، يقول: أخذتَ عُهودَهُمْ ومواثِيقَهُمْ أنْ لا يحاربوكَ، ولا يُظَاهِرُوا عليكَ مُحَارِباً لكَ، كَقريظةَ ونُظَرائِهم مِمَّنْ كانَ بينكَ وبينهم عَهْدٌ وعَقْـدٌ، «ثم ينقضـون»، عهودَهُم ومواثيقهم كلما عاهدوكَ وواثقوكَ، حاربوكَ وظاهَرُوا عليك، وهم لا يَتَّقُونَ الله، ولا يخافون في فِعْلهم ذلك أن يوقع بهم وقعةً تجتاحهم وتهلكهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝٥٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: فإمَّا تَلْقَيَنَّ في الحرب هؤلاء الذين عاهَدْتَهم فَنَقَضُوا عَهْدَكَ مرةً بعد مرةٍ من قريظة، فتأسرهم. «فَشَرِّدْ بهم مَنْ خَلْفَهم»، يقول: فافعلْ بهم فِعلاً يكون مشرِّداً مَنْ خَلْفَهُمْ من نُظَرائِهم، مِمَّنْ بينكَ وبينه عَهْدٌ وعقد.

«التشريدُ»، التَّطرِيدُ والتبديدُ والتَّفْرِيقُ.

وإنما أمِرَ بذلك نبيُّ اللهِ ﷺ أنْ يفعلَ بالناقضِ العهدَ بينه وبينهم إذا قدرَ عليهم، فِعْلاً يكونُ إخافةً لمن وراءَهُمْ، مِمَّنْ كانَ بين رسولِ الله ﷺ وبينه عَهْدٌ، حتى لا يَجْتَرِئُوا على مِثْلِ الذي اجترأ عليه هؤلاءِ الذين وَصَفَ اللهُ صِفَتَهم في هذه الآيةِ من نقضِ العهدَ.

وأما قوله: «لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرون»، فإنَّ معناه: كي يَتَّعِظُوا بما فعلتُ بهؤلاء الذين وصفتُ صِفَتَهُم، فَيَحْذَرُوا نقضَ العهدِ الذي بينكَ وبينهم خوفَ أنْ ينزلَ بهم منكَ بهؤلاءِ إذا هُمْ نَقَضُوه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ۝٥٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وإمَّا تَخافَنَّ»، يا محمدُ، من عَدُوٍّ لكَ بينك وبينَهُ عهدٌ وعَقْدٌ، أنْ ينكثَ عهده، ويَنْقُضَ عقده، ويَغْدُرَ بكَ ـ وذلك هو «الخيانة» والغدر ـ «فانْبِذْ إليهم على سواء»، يقول: فَنَاجِزْهُمْ بالحربِ، وأَعْلِمْهُمْ قبلَ حربكَ إياهم أنكَ قد فسختَ العهدَ بينك وبينهم، بما كانَ منهم من ظهورِ أمارِ[1] الغدرِ والخيانةِ منهم، حتى تصيرَ أنتَ وهُمْ على سواءٍ في العلم بأنكَ لهم محاربٌ، فيأخذوا للحربِ آلتَهَا، وتبرأ من الغدر. «إنَّ الله لا يحبُّ الخائنين»، الغادرينَ بِمَنْ كان منه في أمانٍ وعهدٍ بينه وبينه أنْ يغدرَ به فيحاربَهُ، قبلَ إعلامِهِ إيَّاهُ أنه له حَرْبٌ، وأنه قد فَاسَخَهُ العقدَ.

فإنْ قال قائلٌ: وكيفَ يجوزُ نَقْضُ العهدِ بخوفِ الخيانةِ، و«الخوفُ» ظَنٌّ لا يَقِينٌ؟

قيل: إنَّ الأمـرَ بخـلافِ ما إليه ذهبتَ، وإنما معناه: إذا ظهرت أمارُ

---

(١) الأمار، والأمارة: العَلَامةُ، ويقال: «أمار» جمع «أمارة».

الخيانـةِ من عَدُوِّكَ، وخِفْتَ وقـوعَهُمْ بكَ، فألْقِ إليهم مقاليدَ السَّلم وآذِنْهُمْ بالحربِ. وذلك كالذي كان من بني قريظة إذْ أجابوا أبا سفيانَ ومَنْ مَعَهُ من المشركينَ إلى مُظاهَرتِهم على رسولِ الله ﷺ ومحارَبَتِهم معهم، بعد العهدِ الذي كانوا عَاهَدُوا رسولَ الله ﷺ على المسالمةِ، ولن يقاتِلُوا رسولَ الله ﷺ. فكانت إجَابَتُهم إياهُ إلى ذلكَ، مُوجِباً لرسولِ الله ﷺ خوفَ الغدرِ به وبأصحابهِ منهم. فكذلك حُكْمُ كُلِّ قومٍ أهلِ موادعةٍ للمؤمنينَ، ظهرَ لإمامِ المسلمينَ منهم من دلائلِ الغدرِ مثل الذي ظهرَ لرسولِ الله ﷺ وأصحابه من قريظةَ منها، فَحَقٌّ على إمامِ المسلمينَ أنْ ينبذَ إليهم على سواء، ويُؤْذِنَهُمْ بالحربِ.

ومعنى قوله: «على سواء»، أي: حتى يستوي عِلْمُكَ وعِلْمُهم بأنَّ كُلَّ فريقٍ منكم حَرْبٌ لصاحبِه لا سِلْمٌ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝٥٩﴾

اختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك.

فقرأ ذلك عامةُ قَرَأَةِ الحجاز والعراق: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ﴾، بكسرِ الألفِ من «إنهم»، وبالتاء في «تحسبنَّ» بمعنى: ولا تحسبن، يا محمدُ، الذين كفروا سَبَقُونَا فَفَاتُونَا بأنفسِهم. ثم ابْتُدِيءَ الخبرُ عن قُدْرَةِ اللهِ عليهم فقيل: إنَّ هؤلاءِ الكَفَـرَةَ لا يُعْجِزُونَ رَبَّهم، إذا طلبهم وأرادَ تَعْذِيبَهُمْ وإهلاكَهم، بأنفسهم فيفوتوهُ بها.

وقـرأ ذلك بعضُ قَرَأَةِ المدينةِ والكوفةِ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، بالياء في «يحسبن» وكسر الألف من ﴿إِنَّهُمْ﴾.

وهي قراءةٌ غير حميدة[1]، لمعنيين، أحدهما: خُروجُهَا من قراءةِ القَرَأَةِ وشذوذها عنها، والآخر: بُعْدَها من فصيحِ كلامِ العربِ. وذلك أن «يحسب» يطلب في كلام العرب منصوباً وخبره، كقوله: «عَبْدُ الله يحسبُ أخاكَ قائماً» و«يقوم» و«قام». فقارىءُ هذه القراءةِ أصْحَبَ «يحسب» خبراً لغيرِ مُخْبَرٍ عنه مذكور. وإنما كان مُرادُه، ظَنِّي: ولا يحسبنَّ الذين كفروا سبقوا إنهم لا يُعْجِزُونَنَا فلم يُفَكِّرْ في صوابِ مخرجِ الكلامِ وسُقْمِه، واستعمل في قراءته ذلك كذلك، ما ظهرَ له من مفهومِ الكلام. وأحسبُ أن الذي دَعَاهُ إلى ذلك، الاعتبارُ بقراءةِ عبدالله. وذلك أنه فيما ذكر في مصحف عبدالله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾، وهذا فصيحٌ صحيحٌ، إذا أدخلت «أنهم» في الكلام، لأنَّ «يحسبن» عاملةٌ في «أنهم»، وإذا لم يكن في الكلام «أنهم» كانت خاليةً من اسم تعملُ فيه.

والذي قرأ ذلك من القَرَأَةِ وجهانِ في كلامِ العرب، وإنْ كانا بَعِيدَيْنِ من فصيحِ كلامِهم:

أحدهما أنْ يكونَ أُريدَ به: ولايَحْسَبَنَّ الذينَ كَفَرُوا أنْ سَبَقُوا، أو: أنهم سبقوا، ثم حذف «أن» و«أنهم»، كما قال جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَمِنْ آياتِه يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفَاً وَطَمَعاً﴾، [الروم: ٢٤]، بمعنى: أنْ يُريكم.

والوجه الثاني على أنه أراد إضمارَ منصوب بـ«يحسب»، كأنه قال: ولا يحسب الذين كفروا أنهم سبقوا ثم حذف «أنهم» وأضمر.

وقد وجَّه بعضُهم معنى قوله: ﴿إنّما ذَلِكُمُ ٱلشَّيْطَانُ يُخَوِّف أَوْلِياءَه﴾، [آل عمران: ١٧٥]: إنما ذلكم الشيطانُ يخوف المؤمنَ من أوليائِه، وأنَّ ذِكْرَ «المؤمن» مُضْمَرٌ في قوله: «يُخَوِّفُ»، إذْ كان الشيطانُ عنده لا يخوِّفُ أولياءه.

---

(١) هذه القراءة التي رَدَّها أبو جعفر، وقال بأنها غير حميدة هي قراءتنا اليوم.

وقرأ ذلك بعضُ أهلِ الشأم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالتاء من «تحسبن» ﴿سَبَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾، بفتحِ الألفِ من «أنهم»، بمعنى: ولا تحسبن الذين كفروا أنهم لا يعجزون.

ولا وجهَ لهذه القراءةِ يُعقلُ، إلَّا أنْ يكونَ أرادَ القارئُ بـ«لا» التي في «يعجزون»، «لا» التي تدخلُ في الكلامِ حَشْواً وصِلَةً، فيكون معنى الكلام حينئذٍ: ولا تَحْسَبَنَّ الذين كفروا سبقوا أنَّهم يُعْجِزُونَ. ولا وجهَ لتوجيهِ حرفٍ في كتابِ الله إلى التطويل، بغيرِ حُجَّةٍ يجبُ التسليمُ لها، وله في الصِحَّةِ مخرجٌ.

والصوابُ من القراءة في ذلك عندي، قراءةُ مَنْ قرأ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾، بالتاء ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ﴾، بكسر الألفِ من «إنهم»، ﴿لَا يُعْجِزُونَ﴾، بمعنى: ولا تحسبن أنتَ، يا محمدُ، الذين جَحَدُوا حُجَجَ الله وكَذَّبُوا بها، سَبَقُونَا بأنفسِهم ففاتونا، إنهم لا يعجزوننا - أي يفوتوننا بأنفسهم، ولا يقدرون على الهربِ منا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ

يقول تعالى ذِكْرُه: «وأَعِدُّوا»، لهؤلاءِ الذيمَ كَفَرُوا بربِّهم، الذينَ بينَكُمْ وبينهم عَهْدٌ. إذا خِفْتُمْ خيانَتَهُمْ وغَدْرَهُمْ، أيها المؤمنونَ باللهِ ورسوله. «ما استطعتم من قوة»، يقول: ما أَطَقْتُمْ أنْ تُعِدُّوهُ لهم من الآلاتِ التي تكونُ قوةً لكم عليهم، من السلاحِ والخيلِ. «تُرْهِبُونَ به عَدُوَّ اللهِ وعدوكم»، يقول: تُخِيفُونَ بإعدادِكم ذلك عَدُوَّ الله وعَدُوَّكم من المشركينَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾

اختلف أهلُ التأويل في هؤلاء «الآخرين»، مَنْ هم، وما هم؟

فقال بعضهم: هم بنو قريظة.

وقال آخرون: من فارس.

وقال آخرون: هُمْ كُلُّ عَدُوٍّ للمسلمينَ، غير الذين أمرَ النبيُّ ﷺ أنْ يُشَرِّدَ بهم مَنْ خَلْفَهُمْ. قالوا: وهم المنافقون.

وقال آخرون: هم قومٌ من الجنِّ.

والصوابُ من القولِ في ذلك أنْ يُقالَ: إنَّ الله أمرَ المؤمنينَ بإعدادِ الجهادِ وآلةِ الحربِ وما يَتَقَوَّوْنَ به على جهادِ عَدُوِّهِ وعَدُوِّهم من المشركينَ، من السلاحِ والرمي وغير ذلك، ورباطِ الخيلِ - ولا وجهَ لأَنْ يُقالَ: عَنَى بـ«القوة» معنًى دونَ معنى من معاني «القوة»، وقد عَمَّ اللهُ الأمرَ بها.

وأما قوله: «وآخرينَ من دُونِهم لا تَعْلَمُونَهم»، فإنَّ قولَ مَنْ قالَ: عَنَى به الجِنَّ، أقربُ وأشبهُ بالصواب، لأنه جَلَّ ثناؤُهُ قد أدخلَ بقوله: «ومِنْ رِباطِ الخيلِ تُرْهبون به عَدُوَّ الله وعَدُوَّكُمْ»، الأمرَ بارتباطِ الخيلِ لإرهابِ كُلِّ عدوٍّ للهِ وللمؤمنينَ يعلمونهم. ولاشَكَّ أنَّ المؤمنينَ كانوا عالمينَ بعداوةِ قريظةَ وفارِسَ لهم، لِعِلْمِهم بأنَّهم مُشركونَ، وأنهم لهم حَرْبٌ. ولا معنى لأَنْ يقالَ، وهم يعلمونهم لهم أعداءً: «وآخرينَ من دُونهم لا تعلمونهم»، ولكن معنى ذلك إنْ شاء الله: تُرهبونَ بارتباطِكم، أيها المؤمنونَ، الخيلَ عدوَّ الله وأعداءَكُم من بني آدمَ الذين قد علمتم عَداوتَهُمْ لكم، لِكُفْرِهم باللهِ ورسوله، وتُرهبونَ بذلك جنساً آخرَ من غيرِ بني آدم، لا تعلمونَ أماكنهم وأحوالهم، اللهُ يعلمهم دُونَكُمْ، لأنَّ

بني آدم لا يرونهم. وقيل: إنَّ صهيلَ الخيلِ يرهبُ الجِنَّ، وأنَّ الجِنَّ لا تقربُ داراً فيها فَرَسٌ[1].

فإنْ قالَ قائلٌ: فإنَّ المؤمنينَ كانوا لا يعلمونَ ما عليهِ المنافقونَ، فما تُنْكِرُ أنْ يكونَ عُنِيَ بذلك المنافقون؟

قيل: فإنَّ المنافقينَ لم يَكُنْ تَرُوعُهم خَيْلُ المسلمينَ ولا سلاحهم، وإنما كانَ يَرُوعهم أنْ يظهرَ المسلمونَ على سَرائِرِهم التي كانوا يَسْتَسِرُّونَ من الكُفْرِ، وإنما أُمِرَ المؤمنونَ بإعدادِ القوةِ لإرهابِ العدوِّ، فأما مَنْ لم يرهبه ذلك، فغيرُ داخـلٍ في معنى مَنْ أُمِرَ بإعدادِ ذلك له المؤمنون. وقيل: «لا تعلمونهم»، فاكتفى لـ«العلم»، بمنصوبٍ واحدٍ في هذا الموضع، لأنه أُريدَ: لا تَعْرِفُونَهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ۝٦٠﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: وما أنفقتم، أيها المؤمنونَ، من نفقةٍ في شراءِ آلةِ حَرْبٍ من سلاحٍ أو حِرَابٍ أو كُرَاعٍ أو غير ذلك من النفقاتِ، في جهادِ أعداءِ اللهِ المشركينَ يُخلفُه اللهُ عليكم في الدنيا، ويُدَّخَرُ لكم أجورَكُم على ذلك عِنْدَهُ حتى يُوَفِّيكُمُوهَا يومَ القيامةِ. «وأنتم لا تظلمون»، يقول: يفعلُ ذلكَ بكم رَبُّكم، فلا يضيعُ أُجورَكم عليه.

---

(١) قوله: «وقيل: إن صهيل الخيل... إلخ» مأخوذٌ من حديث نُسِبَ إلى رسول الله ﷺ لا يَصحُّ إسناداً ولا متناً، ولذلك رَدَّ ابن كثير وغيره تفسيرَ الطبري هذا، ورَجَّحُوا أنَّ المقصودَ بذلك هم المنافقونَ (تفسير القرطبي: ٣٨/٨، وتفسير أبي حيان: ٥١٣/٤).
والأَوْلى أنها عامةٌ لا تخصصُ بفئة معينة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦١﴾

يقول عَزَّ ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وإمَّا تخافنَّ من قومٍ خيانةً وغَدْراً، فانبذْ إليهم على سواء، وآذِنْهُمْ بالحربِ. «وإن جَنَحُوا للسلم فاجنحْ لها»، وإنْ مَالُوا إلى مُسَالَمتك ومُتَارَكَتِكَ الحربَ، إمَّا بالدخول في الإسلام، وإما بإعطاءِ الجزية، وإما بموادعةٍ، ونحوِ ذلك من أسبابِ السلمِ والصلحِ. «فاجنحْ لها»، يقول: فَمِلْ إليها، وابْذُلْ لهم ما مَالُوا إليه من ذلكَ وسَأَلُوكَهُ.

فأما ما قاله قتادة ومَنْ قالَ مِثْلَ قولِه، من أنَّ هذه الآيةَ منسوخةٌ، فقولٌ لا دلالةَ عليه من كتابٍ ولا سنةٍ ولا فطرةِ عقلٍ.

وقد دللنا في غير موضعٍ من كتابنا هذا وغيرِه على أنَّ الناسخَ لا يكونُ إلا ما نفى حُكْمَ المنسوخِ من كُلِّ وجه. فأما ما كانَ بخلافِ ذلك، فغيرُ كائنٍ ناسخاً.

وقول الله في براءة: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُم﴾، غير نافٍ حكمُه حُكْمَ قوله: «وإنْ جَنَحُو للسَّلْمِ فاجنحْ لها»، لأنَّ قوله: «وإنْ جنحوا للسلم»، إنما عُنِيَ به بنو قريظة، وكانوا يهوداً أهلَ كتابٍ، وقد أَذِنَ اللهُ جَلَّ ثناؤُهُ للمؤمنينَ بصلحِ أهلِ الكتابِ ومُتَارَكَتِهم الحربَ على أخذِ الجزيةِ منهم.

وأما قوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ فإنما عُنِيَ به مُشركُو العربِ من عَبَدَةِ الأوثانِ، الذين لا يجوزُ قبولُ الجزيةِ منهم. فليس في إحدى الآيتين نفي حكم الأخرى، بل كل واحدة منهما محكمةٌ فيما أُنزِلَتْ فيه.

وأما قوله: «وتوكل على الله»، يقول: فَوِّضْ إلى الله، يا محمدُ، أمرَكَ، واسْتَكْفِه، واثقاً أنه يَكْفيكَ.

وقوله: «إنه هُوَ السميعُ العليم»، يعني بذلك: إنَّ الله الذي تتوكَّلُ عليه، «سميعٌ»، لما تقولُ أنتَ ومَنْ تُسالِمُهُ وتُتارِكُهُ الحربَ من أعداءِ الله وأعدائِكَ عند عَقْدِ السلم بينكَ وبينه، وما يشترطُ كلُّ فريقٍ منكم على صاحبه من الشروطِ. «العليم»، بما يُضْمِرُه كُلُّ فريقٍ منكم للفريقِ الآخرِ من الوفاءِ بما عَاقَدَهُ عليه، ومَنِ المُضْمِرَ ذلك منكم في قلبِهِ، والمنطوي على خِلَافِه لصاحِبِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ٦٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإنْ يُرِد، يا محمدُ، هؤلاءِ الذينَ أَمَرْتُكَ بأنْ تَنْبذَ إليهم على سواء إنْ خِفْتَ منهم خيانةً، وبمسالمتهم إنْ جَنَحُوا للسلْم، خداعَك والمكرَ بكَ. «فإنَّ حَسْبَكَ اللهُ»، يقول: فإنَّ الله كافِيْكَهُمْ وكافيكَ خِداعَهُمْ إياكَ، لأنَّهُ مُتَكَفِّلٌ بإظهارِ دِينكَ على الأديانِ، ومُتَضَمِّنٌ أنْ يجعلَ كلمتَهُ العليا وكلمةَ أعدائِه السُّفْلى. «هو الذي أيَّدَكَ بنصرِه»، يقول: الله الذي قَوَّاكَ بنصره إياكَ على أعدائِه. «وبالمؤمنين»، يعني: بالأنصار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٦٣﴾

يُريدُ جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وأَلَّفَ بين قلوبهم»، وجمعَ بين قلوبِ المؤمنينَ من الأوسِ والخزرج، بعد التَّفَرُّقِ والتَّشَتُّتِ، على دِينهِ الحق، فَصَيَّرَهُمْ به جميعاً بعد أنْ كانوا أشتاتاً، وإخواناً بعد أنْ كانُوا أعداء.

وقوله: «لو أنفقتَ ما في الأرضِ جميعاً ما ألَّفْتَ بين قلوبِهم»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: لو أنفقتَ، يا محمدُ، ما في الأرضِ جميعاً من ذهبٍ ووَرِقٍ وعَرَضٍ، ما جمعتَ أنتَ بين قُلوبِهم بحَيْلِكَ[1]، ولكنَّ الله جَمَعَها على الهدى فَأْتَلَفَتْ واجْتَمَعَتْ، تَقْوِيةً من الله لكَ وتأييداً منه ومعونةً على عَدُوِّكَ. يقول جَلَّ ثناؤُه: والذي فعلَ ذلك وسَبَّبهُ لكَ حتى صَارُوا لكَ أعواناً وأنصاراً ويَداً واحدة على مَنْ بَغَاكَ سوءاً، هو الذي إنْ رامَ عدوٌّ منكَ مراماً يكفيكَ كَيْدَهُ وينصركَ عليه. فَثِقْ به، وامْضِ لأمرِه، وتَوَكَّلْ عليه.

وقوله: «إنه عزيزٌ حكيم»، يقول: إنَّ الله الذي أَلَّفَ بين قلوبِ الأوسِ والخَزْرَجِ بعد تَشَتُّتِ كَلِمَتِهِمَا وتَعَادِيهما، وجَعْلهم لكَ أنصاراً. «عزيزٌ»، لا يقهره شيءٌ، ولا يَرُدُّ قضاءَهُ رَادٌّ، ولكنه ينفذ في خلقه حُكْمه. يقول: فعليه فتوكَّلْ، وبه فَثِقْ. «حكيم»، في تدبير خَلْقِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٦٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «يا أيها النبيُّ حَسْبُكَ الله»، وحَسْبُ مَنِ اتَّبعكَ من المؤمنينَ، اللهُ. يقول لهم جَلَّ ثناؤُهُ: ناهِضُوا عَدُوَّكُمْ، فإنَّ الله كافِيكُمْ أمْرَهُمْ، ولا يَهُولَنَّكُمْ كثرةُ عَدَدِهم وقِلَّة عَدَدِكُم، فإنَّ الله مُؤَيِّدُكُم بنصرِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم

(١) الحَيْلُ: القوة، مثل الحَوْل. وفي الحديث: «اللهم ذا الحَيْلِ الشديد».

مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «يا أيها النبيُّ حَرِّضِ المؤمنينَ على القتال»، حُثَّ مُتَّبعيكَ ومُصَدِّقيكَ على ما جِئْتَهُمْ به من الحق، على قتالِ مَنْ أدبـرَ وتـولَّى عن الحقِّ من المشـركينَ. «إنْ يَكُنْ منكم عِشـرونَ» رجـلاً. «صـابـرونَ»، عند لقاءِ العَدُوِّ، ويحتسبونَ أنفُسَهم ويَثْبُتونَ لعدوهم. «يَغْلِبُوا مئتين»، من عَدُوِّهم ويقهروهم. «وإنْ يَكُنْ منكم مئةٌ»، عند ذلك «يغلبوا» منهم «ألفاً». «بأنهم قومٌ لا يفقهون»، يقول: من أَجْلِ أنَّ المشركينَ قومٌ يقاتلون على غيرِ رجاءِ ثوابٍ، ولا لطلبِ أجرٍ ولا احتساب، لأنهم لم يَفْقهوا أنَّ الله مُوجبٌ لِمَنْ قاتلَ احتساباً، وطَلَبَ موعودَ الله في الميعاد، ما وَعَدَ المجاهدينَ في سبيلِه، فهم لا يثبتـون إذا صَدَقُـوا في اللقـاء، خشيةَ أنْ يُقْتَلُوا فتذهبَ دُنْيَاهُمْ. ثم خَفَّفَ تعالى ذِكْرُه عن المؤمنينَ، إذْ عَلِمَ ضَعْفَهُمْ فقالَ لهم: «الآنَ خَفَّفَ اللهُ عنكم وعَلِمَ أنَّ فيكم ضَعْفاً»، يعني: أنَّ في الواحدِ منهم عن لقاءِ العشرة من عَدُوِّهم ضَعْفاً. «فإنْ يَكُنْ منكم مِئَةٌ صابرة»، عند لقائِهم للثباتِ لهم. «يَغْلِبُوا مئتين» منهم. «وإنْ يَكُنْ منكم ألفٌ يغلبوا ألفين» منهم. «بإذنِ الله»، يعني: بتخليةِ اللهِ إياهم لغلبتهم، ومعونتِه إياهم. «واللهُ مع الصابرين»، لِعَدُوِّهم وعَدُوِّ الله، احتساباً في صبره، وطلباً لجزيلِ الثوابِ من رَبِّه، بالعونِ منه له، والنصر عليه.

وهذه الآية أعني قوله: «إنْ يَكُنْ منكم عِشْرونَ صابرون يغلبوا مئتين» وإنْ كان مخرجها مخرجَ الخبر، فإنَّ معناها الأمر. يدلُّ على ذلك قولُه: «الآن خَفَّفَ اللهُ عنكم»، فلم يَكُنِ التخفيفُ إلا بعد التثقيلِ. ولو كان ثبوت العشرةِ منهم

للمئةِ من عَدُوِّهم كان غيرَ فَرْضٍ عليهم قبلَ التخفيفِ، وكانَ نَدْباً، لم يَكُنْ للتخفيفِ وَجْهٌ، لأنَّ التخفيفَ إنما هو ترخيصٌ في تَرْكِ الواحدِ من المسلمينَ الثبوتَ للعشرةِ من العدوِّ. وإذا لم يكن التشديدُ قد كانَ له مُتقدِّماً، لم يَكُنْ للترخيصِ وَجْهٌ، إذْ كان المفهومُ من الترخيصِ إنما هو بعدَ التشديدِ. وإذْ كان ذلك كذلك، فمعلومٌ أنَّ حُكْمَ قولِه: «الآنَ خَفَّفَ اللهُ عنكم وعَلِمَ أنَّ فيكم ضَعْفاً»، ناسخٌ لِحُكْمِ قولِه: «إنْ يَكُنْ منكم عِشْرونَ صابرونَ يغلبوا مئتين وإنْ يكن منكم مئةٌ يَغْلِبُوا ألفاً من الذينَ كفروا». وقد بَيَّنَّا في كتابنا «كتاب البيان عن أصول الأحكام»، أنَّ كُلَّ خبرٍ من الله وَعَدَ فيه عِبادَهُ على عملٍ ثواباً وجزاء، وعلى تَرْكِه عقاباً وعذاباً، وإنْ لم يَكُنْ خارجاً ظاهرُه مخرجَ الأمرِ، ففي معنى الأمرِ بما أغنى عن إعادَتِه في هذا الموضع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ما كانَ لنبيٍّ أنْ يَحْتَبِسَ كافراً قدرَ عليه وصارَ في يَدِه من عَبَدَةِ الأوثانِ للفداءِ أو للمَنِّ.

وإنما قال الله جَلَّ ثناؤُهُ [ذلك] لنبيه محمدٍ ﷺ، يُعَرِّفُه أنَّ قَتْلَ المشركينَ الذين أَسَرُهُم ﷺ يومَ بدرٍ ثم فَادَى بهم، كان أَوْلى بالصوابِ مِنْ أَخْذِ الفديةِ منهم وإطلاقهم.

وقوله: «حتى يُثْخِنَ في الأرضِ»، يقول: حتى يُبالغَ في قَتْلِ المشركينَ فيها، ويَقْهَرَهُمْ غَلَبَةً وقَسْراً.

يقال منه: «أثخنَ فلانٌ في هذا الأمرِ»، إذا بالغَ فيه. وحُكيَ: «أَثْخَنْتُه مَعْرِفةً»، بمعنى: قَتَلْتُه معرفةً.

«تريدون»، يقولُ للمؤمنين من أصحابِ رسولِ الله ﷺ: «تريدون»، أيها المؤمنونَ، «عَرَضَ الدنيا»، بأَسْرِكم المشركينَ وهو ما عَرَضَ للمرءِ منها من مالٍ ومتاعٍ. يقول: تُرِيدُونَ بأَخْذِكم الفِداءَ من المشركينَ متاعَ الدنيا وطُعْمَها. «واللهُ يريدُ الآخرةَ»، يقولُ: واللهُ يُريدُ لكم زينةَ الآخرةِ وما أَعَدَّ للمؤمنينَ وأهلَ ولايتِه في جَنَّاتِه، بقَتْلِكُمْ إيَّاهُمْ، وإثْخانِكُمْ في الأرضِ. يقول لهم: فاطْلُبُوا ما يريدُ اللهُ لكم ولَهُ اعْمَلُوا، لا ما تَدْعُوكم إليه أهواءُ أنفسكم من الرغبةِ في الدنيا وأسبابها. «واللهُ عزيزٌ»، يقول: إنْ أنتم أردتُم الآخرةَ، لم يَغْلبكم عَدُوٌّ، لكم، لأنَّ اللهَ عزيزٌ لا يُقْهَرُ ولا يُغْلَبُ، وأنه «حكيمٌ» في تَدْبيرِه أمرَ خَلْقِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٦٨﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه لأهلِ بدرٍ الذين غَنموا وأَخَذُوا من الأسرى الفِداءَ: «لولا كِتَابٌ من اللهِ سَبَقَ»، يقول: لولا قَضَاءٌ من الله سَبَقَ لكم أهلَ بَدْرٍ في اللوحِ المحفوظ، بأنَّ الله مُحِلٌّ لكم الغنيمةَ، وأنَّ الله قَضَى فيما قَضَى أنه لا يُضِلُّ قوماً بعد إذْ هداهم حتى يُبَيِّنَ لهم ما يَتَّقُونَ، وأنه لا يعذبُ أحداً شَهِدَ المشهدَ الذي شهدتموه ببدرٍ مع رسولِ الله ﷺ ناصراً دِينَ الله - لَنَالَكُمْ من اللهِ، بأَخْذِكُم الغنيمةَ والفِداءَ، عذابٌ عظيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٦٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ من أهلِ بدرٍ: «فَكُلُوا»، أيها المؤمنونَ. «مِمَّا غَنِمْتُمْ»، من أموالِ المشركينَ. «حلالاً»، بإحلالِه لكم. «طيباً واتقُوا الله»، يقول: وخَافُوا اللهَ أنْ تَعُودُوا، أنْ تفعلوا في دِينكم شيئاً بعد هذه من قَبْلِ أنْ يُعْهَد فيه إليكم، كما فعلتم في أَخْذِ الفِداءِ وأكلِ الغنيمةِ، وأَخَذْتُوهُمَا مِنْ قَبْلِ أنْ يحلَّا لكم. «إنَّ الله غفور رحيم».

وهذا من المُؤَخَّرِ الذي معناهُ التقديمُ، وتأويلُ الكلام: «فَكُلُوا مما غنمتم حلالاً طيباً»، «إنَّ الله غَفُورٌ رحيم»، «واتقوا الله».

ويعني بقوله: «إنَّ الله غَفُور»، لذنوبِ أهلِ الإيمانِ من عبادِه. «رحيمٌ»، بهم، أنْ يُعاقِبَهُمْ بعد تَوْبَتِهم منها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: يا أيها النبيُّ، قُلْ لِمَنْ في يديكَ وفي يدي أصحابكَ من أسرى المشركينَ الذين أُخِذَ منهم من الفداءِ ما أُخِذَ: «إنْ يَعْلَمِ اللهُ في قلوبِكم خيراً»، يقول: إنْ يَعْلَمِ اللهُ في قلوبكم إسلاماً. «يُؤْتِكُمْ خيراً مما أُخِذَ منكم»، من الفِداءِ. «ويَغْفِرْ لكم»، يقول: ويَصْفَحْ لكم عن عقوبةِ جُرْمكم الذي اجْترمْتُموه بقتالِكم نبيَّ اللهِ وأصحابَهُ وكُفْرِكم بالله. «والله غفور»، لذنوبِ عبادِه إذا تابوا. «رحيم»، بهم، أنْ يعاقبهم عليها بعد التوبةِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٧١﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه لنبيه: وإنْ يُرِدْ هؤلاءِ الأسارى الذين في أيديكم. «خيانتكَ»، أي الغَدْرَ بكَ والمكرَ والخِداعَ، بإظهارِهم لكَ بالقولِ خِلافَ ما في نُفوسِهم. «فقد خَانُوا اللهَ من قَبْلُ»، يقول: فقد خالفوا أمرَ الله من قَبْلِ وقعةِ بدرٍ، وأمكنَ منهم ببـدرٍ المؤمنينَ. «والله عليم»، بما يقولونَ بألسنتِهم ويُضْمِرُونه في نُفوسِهم. «حكيم»، في تدبيرهم وتدبيرِ أمورِ خَلْقِه سِواهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: إنَّ الذين صَدَّقُوا اللهَ ورسولَهُ. «وهاجروا»، يعني هَجَرُوا قومَهم وعشيرتَهم ودُورَهم، يعني تَرَكُوهُمْ وخَرَجُوا عنهم، وهَجَرَهُمْ قَوْمُهم وعشيرتُهم. «وجـاهـدوا في سبيلِ الله»، يقـول: بَالَغُـوا في إتعابِ نفوسِهم وإنصَابها في حربِ أعداءِ الله من الكفار. «في سبيل الله»، يقول: في دِينِ الله الذي جَعَلَهُ طريقاً إلى رحمتِه والنجاة من عَذَابه. «والذين آوَوْا ونَصَرُوا». يقول: والذينَ آووا رسولَ الله والمهاجرينَ معه، يعني: أنهم جَعَلُوا لهم مأوًى يأوونَ إليه، وهو المثوى والمسكن، يقول: أسْكَنُوهم، وجَعَلُوا لهم من منازلهم مسـاكنَ إذْ أخـرجهم قَوْمُهم من منازِلهم. «ونَصَرُوا»، يقول: ونَصَرُوهُمْ على أعـدائِهم وأعداءِ اللهِ من المشركينَ. «أولئكَ بعضُهم أولياءُ بعضٍ»، يقول: هاتانِ الفرقتانِ، يعني المهاجرينَ والأنصارُ، بَعْضُهم أنصارُ بعضٍ، وأعوانٌ على مَنْ سِواهم من المشركينَ، وأيديهم واحدةٌ على مَنْ كَفَرَ بالله، وبعضُهم إخوانٌ لبعضٍ دونَ أقربائِهم الكفار.

وقد قيل: إنما عَنَى بذلك أنَّ بعضَهم أوْلى بميراثِ بعضٍ، وأنَّ الله ورَّث

الأنفال: ٧٢

بعضَهم من بعض ٍ بالهجرةِ والنُّصْرَةِ، دونَ القرابةِ والأرحامِ ، وأنَّ الله نسخَ ذلك بَعْـدُ بقـولـه: ﴿وَأُولُـوا الأَرْحَـامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَـابِ اللهِ﴾، [الأنفال: ٧٥ والأحزاب: ٦].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٧٢﴾

يعني بقوله تعالى ذِكْرُه: «والذين آمنوا»، الذين صَدَّقُوا باللهِ ورسولِه. «ولم يُهَاجِرُوا»، قَوْمَهُمْ الكفار، ولم يُفارِقُوا دارَ الكُفْرِ إلى دارِ الإسلام. «ما لكم»، أيها المؤمنونَ باللهِ ورسولِه، المهاجرونَ قومَهُم المشركينَ وأرضَ الحرب. «مِنْ وَلَايَتِهم»، يعني: من نُصْرَتِهم وميراثِهم.

«مِنْ شيءٍ حتى يُهَـاجِرُوا»، قومَهم ودُورَهُم، من دارِ الحربِ إلى دارِ الإسلامِ. «وإنِ استنصروكم في الدِّينِ»، يقول: إنِ اسْتَنْصَرَكُمْ هؤلاءِ الذينَ آمنوا ولم يهاجروا. «في الدِّينِ»، يعني: بأنهم من أهلِ دِينِكم على أعدائِكم وأعدائِهم من المشركينَ. «فعليكُمُ»، أيها المؤمنونَ من المهاجرينَ والأنصار، «النصرُ» «إلَّا» أنْ يستنصروكم. «على قومٍ بَيْنَكُمْ وبينَهُم مِيثاقٌ»، يعني: عَهْدٌ قد وثَّقَ به بعضكم على بعض أنْ لا يُحارِبَهُ. «والله بما تعملونَ بصير»، يقول: واللهُ بما تعملونَ فيما أمَرَكُم ونَهَاكُم من ولايةِ بعضِكم بعضاً، أيها المهاجرونَ والأنصار، وترك ولايةِ مَنْ آمَنَ ولم يُهَاجِرْ ونُصْرَتِكم إياهم عند استنصارِكم في الدين، وغير ذلكَ من فرائضِ الله التي فَرَضَها عليكم. «بصيرٌ»، يَرَاهُ ويُبْصِرُه، فلا يَخْفَى عليه من ذلكَ ولا مِنْ غيرِه شيءٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «والذين كفروا»، بالله ورسوله. «بعضُهم أولياءُ بعضٍ»، يقول: بَعْضُهم أعوانُ بعضٍ وأنصاره، وأحَقُّ به من المؤمنينَ بالله ورسوله.

وأما قوله: «إلَّا تَفْعَلُوه تَكُنْ فِتنةٌ في الأرضِ وفسادٌ كبير»، فإنَّ أهلَ التأويل اختلفوا في تأويله.

فقال بعضهم: معناه: إلَّا تَفْعَلُوا، أيها المؤمنونَ، ما أُمِرْتُمْ به من مُوَارَثةِ المهاجرينَ منكم بعضهم من بعضٍ بالهجرة، والأنصار بالإيمان، دونَ أقربائِهم من أعرابِ المسلمينَ ودونَ الكفار. «تَكُنْ فتنةٌ»، يقول: يَحْدُثْ بلاءٌ في الأرضِ بسببِ ذلك. «وفسادٌ كبير»، يعني: ومَعَاصٍ لله.

وقال آخرون: معنى ذلك: إلَّا تَناصَرُوا، أيها المؤمنونَ، في الدين، تكن فِتْنةٌ في الأرضِ وفسادٌ كبير.

إنَّ أوْلى التأويلين بقوله: «إلَّا تفعلوه تكن فِتنةٌ في الأرضِ وفسادٌ كبير»، تأويلُ مَنْ قال: إلَّا تَفْعَلُوا ما أَمَرْتُكم به من التعاونِ والنُّصْرَةِ على الدِّينِ، تَكُنْ فِتنةٌ في الأرض إذْ كان مُبْتَدَأُ الآيةِ من قولِهِ: «إنَّ الذين آمنوا وهاجَرُوا وجاهَدُوا بأموالهم وأنفسِهم في سبيل الله»، بالحَثِّ على الموالاةِ على الدِّينِ والتناصُرِ جاء، فكذلك الواجبُ أنْ تكونَ خَاتمتُهَا به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ

كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «والذينَ آمَنُوا وهاجَرُوا وجاهَدُوا في سبيلِ الله والذين آوَوْا ونَصَرُوا»، آوَوْا رسولَ اللهِ ﷺ والمهاجرينَ معه ونَصَرُوهم، ونَصَرُوا دِينَ الله، أولئـكَ هُم أهلُ الإيمانِ باللهِ ورسولِه حقًّا، لا مَنْ آمَنَ ولم يُهَاجِرْ دارَ الشركِ، وأقامَ بينَ أَظْهُرِ أهلِ الشركِ، ولم يَغْزُ مع المسلمينَ عدوهم. «لهم مغفـرةٌ»، يقـول: لهم سترٌ من اللهِ على ذُنوبِهم، بعفوِه لهم عنها. «ورزْقٌ كريمٌ»، يقول: لهم في الجنة مطعمٌ ومشربٌ هنيٌّ كريم، لا يتغيرُ في أجوافِهم فيصير نَجْواً، ولكنه يصيرُ رَشْحاً كَرَشْحِ المسك.

وهذه الآية تُنْبِىءُ عن صِحَّةِ ما قُلْنَا: أنَّ معنى قولِ الله: «بعضُهم أولياء بعض» في هذه الآية، وقوله: «ما لكم مِنْ وَلَايتهم من شيء»، إنما هو النُّصْرَةُ والمعـونَةُ، دونَ الميراث. لأنه جَلَّ ثناؤُهُ عَقَّبَ ذلك بالثناءِ على المهاجرينَ والأنصارِ والخبر عَمَّا لهم عنده، دونَ مَنْ لم يهاجرْ بقوله: «والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيلِ الله والذينَ آوَوْا ونَصَرُوا»، الآية، ولو كان مُراداً بالآياتِ قبل ذلك، الدلالةُ على حُكْمِ ميراثهم، لم يكن عَقِيبَ ذلك إلَّا الحثَّ على إمضاءِ الميراثِ على ما أمر. وفي صِحَّةِ ذلك كذلك، الدليلُ الواضحُ على أنْ لا ناسخ في هذه الآياتِ لشيءٍ، ولا منسوخ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ

يقول تعالى ذِكْرُه: «والذين آمَنُوا»، باللهِ ورسولِه، بعدَ تبياني ما بَيَّنْتُ من ولايةِ المهاجرينَ والأنصارِ بعضهم بعضاً، وانقطاع وَلَايتهم مِمَّنْ آمَن ولم يهاجِرْ حتى يُهاجِرَ. «وهاجروا»، دارَ الكُفْرِ إلى دارِ الإسلام. «وجاهدوا معكم»، أيها

المؤمنون. «فأولئك منكم»، في الولايةِ، يجبُ عليكم لهم من الحَقِّ والنُصْرَةِ في الدِّينِ والموارثَةِ، مِثْلُ الذي يجبُ لكم عليهم، ولبعضِكم على بعض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والمُتَناسِبُونَ بالأرحام. «بعضُهم أوْلى ببعضٍ»، في الميراث، إذا كانوا مِمَّنْ قَسَمَ اللهُ له منه نَصِيباً وحظًّا، من الحليفِ والولي. «في كتابِ الله»، يقول: في حُكْمِ الله الذي كتبه في اللوح المحفوظِ والسابقِ من القضاء. «إنَّ اللهَ بكلِّ شيءٍ عليم»، يقول: إنَّ اللهَ عَالِمٌ بما يصلحُ عبادَهُ، في توريثِهِ بعضَهم من بعضٍ في القرابة والنسب، دونَ الحلفِ بالعقدِ، وبغيرِ ذلك من الأمورِ كلها، لا يَخْفَى عليه شيءٌ منها.

تفسير سورة التوبة

بسم الله الرحمن الرحيم

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «بَراءةٌ من اللهِ ورسوله»، هذه براءةٌ من الله ورسوله.

وقد اختلف أهلُ التأويل فيمن بَرِئَ اللهُ ورسولُه إليه من العهدِ الذي كان بينه وبينَ رسولِ الله من المشركينَ، فأَذِنَ له في السياحةِ في الأرضِ أربعةَ أشهر.

وأولى الأقوالِ في ذلك بالصواب، قولُ مَنْ قال: إنَّهُ لأهلِ العهدِ الذين ظَاهَرُوا على رسولِ الله ﷺ، ونَقَضُوا عَهْدَهم قبل انقضاءِ مُدَّته. فأما الذين لم يَنْقُضُوا عهدَهُم ولم يُظَاهِرُوا عليه، فإنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ أمرَ نبيَّهُ ﷺ بإتمامِ العهدِ بينه وبينهم إلى مدته بقوله: ﴿إلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إلى مُدَّتِهِمْ إنَّ الله يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِين﴾ [التوبة: ٤].

فإنْ ظَنَّ ظَانٌّ أنَّ قولَ الله تعالى ذِكْرُه: ﴿فَإذا ٱنْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا ٱلْمُشْـرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، يدلُّ على خِلافِ ما قُلْنَا في ذلك، إذْ كانَ ذلـكَ يُنْبِىءُ على أنَّ الفرضَ على المؤمنينَ كان بعد انقضاءِ الأشهرِ الحرم، قَتْلَ كُلِّ مشركٍ، فإنَّ الأمرَ في ذلك بخلافِ ما ظن، وذلك أنَّ الآيَةَ التي تَتلُو ذلكَ تبينُ عن صِحَّةِ ما قُلنا، وفسادِ ما ظَنَّهُ مَنْ ظَنَّ أنَّ انسلاخَ الأشهرِ الحرم كانَ يُبيحُ قَتْلَ كُلِّ مشرك، كانَ له عَهْدٌ من رسولِ الله ﷺ، أو لم يَكُنْ كانَ له منـه عهدٌ، وذلك قوله: ﴿كَيْفَ يكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وعِنْدَ

رَسولِه إلَّا ٱلَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فما ٱسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إنَّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، [التوبة: ٧]، فهؤلاء مشركون، وقد أمرَ اللهُ نبيه ﷺ والمؤمنينَ بالاستقامةِ لهم في عهدِهم، ما استقامُوا لهم بتركِ نَقْضِ صُلْحِهم، وترك مُظَاهَرةِ عَدُوِّهم عليهم.

وبَعْدُ، ففي الأخبارِ المتظاهرةِ عن رسولِ الله ﷺ: أنه حين بَعَثَ عليًّا رحمةُ الله عليه ببراءة إلى أهلِ العهودِ بينه وبينهم، أَمَرَهُ فيما أمرهُ أنْ ينادي به فيهم: «ومَنْ كان بَيْنَهُ وبينَ رسولِ الله ﷺ عَهْدٌ فَعَهْدُه إلى مُدَّتِه»[1]، أوضحُ الدليلِ على صِحَّةِ ما قُلْنا. وذلك أنَّ الله لم يأمُرْ نبيه ﷺ بنقضِ عهدِ قومٍ كان عاهَدَهُمْ إلى أجلٍ فاستقاموا على عَهْدِهم بتركِ نَقْضِه، وأنه إنما أَجَّلَ أربعةَ أشهرٍ مَنْ كان قد نَقَضَ عهده قبلَ التأجيل، أو مَنْ كان له عَهْدٌ إلى أجلٍ غير محدود. فأما مَنْ كان أجلُ عهدِه محدوداً، ولم يجعل بنقضِه على نفسِه سبيلاً، فإنَّ رسولَ الله ﷺ كان بإتمام عَهْدِه إلى غايةِ أجَلِه مأموراً. وبذلك بَعَثَ مُناديه ينادي به في أهلِ الموسم من العرب.

فقد أنبأَتْ هذه الأخبارُ ونظائرها عن صِحَّةِ ما قُلْنَا، وأنَّ أجلَ الأشهرِ الأربعةِ إنما كان لِمَنْ وَصَفْنَا. فأمَّا مَنْ كان عَهْدُه إلى مُدَّةٍ معلومة، فلم يجعلْ لرسولِ الله ﷺ وللمؤمنينَ لنَقْضِه ومظاهرةِ أعدائِهم عليهم سبيلاً، فإنَّ رسولَ الله ﷺ قد وَفَى له بعهدِه إلى مُدَّتِه، عن أمرِ الله إياهُ بذلك. وعلى ذلك دَلَّ ظاهرُ التنزيلِ، وتَظَاهرتْ به الأخبارُ عن الرسولِ ﷺ.

وأما الأشهرُ الأربعة، فإنها كانت أجَل مَنْ ذَكَرْنَا. وكان ابتداؤُها يومَ الحَجِّ الأكبرِ، وانقضاؤُها انقضاء عَشْرٍ من ربيع الآخر، فذلك أربعةُ أشهرٍ مُتَتَابعةٍ،

---

(١) ساق الطبري الآثار بذلك (١٦٣٦٨-١٦٣٧٩)، وفيها ما هو صحيح وضعيف، فالحديث صحيح، وانظر تفسير ابن كثير: ٤/١١١.

التوبة: ٢

جُعِلَ لأهلِ العهدِ الذين وصفنا أمْرَهُمْ، فيها، السياحةُ في الأرض، يذهبونَ حيث شاؤوا، لا يَعْرِضُ لهم فيها من المسلمينَ أحَدٌ بحربٍ ولا قتلٍ ولا سلب.

فإنْ قال قائلٌ: فإذا كان الأمرُ في ذلك كما وصفتَ، فما وَجْهُ قولِه: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾، [التوبة: ٥]. وقد علمتَ أنَّ انسلاخَها انسلاخ المُحَرَّمِ، وقد زعمتَ أنَّ تأجيلَ القومِ من الله ومن رسولِه كان أربعةَ أشهرٍ، وإنما بينَ يوم الحجِّ الأكبرِ وانسلاخِ الأشهرِ الحُرُمِ خَمْسُونَ يوماً أكثرُه، فأينَ الخمسونَ يوماً من الأشهرِ الأربعة؟

قيل: إنَّ انسلاخَ الأشهرِ الحرم، إنما كان أجَلَ مَنْ لا عهدَ له من المشركينَ من رسولِ الله ﷺ، والأشهرُ الأربعةُ لِمَنْ له عَهْدٌ، إما إلى أجلٍ غير محدودٍ، وإما إلى أجلٍ محدودٍ قد نَقَضَهُ، فصار بنقضِه إياهُ بمعنى مَنْ خِيْفَ خيانَتُه، فاستحقَّ النَّبْذَ إليه على سواء، غير أنه جُعِلَ له الاستعداد لنفسه والارتياد لها من الأجلِ الأربعةِ الأشْهُر. ألَا تَرَى اللهَ يقولُ لأصحابِ الأشهر الأربعةِ، ويَصِفُهم بأنهم أهلُ عهدٍ: «براءةٌ من اللهِ ورسولِه إلى الذينَ عَاهَدْتُمْ من المشركينَ فَسِيحُوا في الأرضِ أربعةَ أشهرٍ واعلموا أنكم غيرُ مُعْجِزي الله»، ووصفَ المجعولَ لهم انسلاخُ الأشهرِ الحُرُمِ أجلًا، بأنَّهُمْ أهلُ شِرْكٍ لا أهلُ عَهْدٍ فقال: «وأذَانٌ من اللهِ ورسولِه إلى الناسِ يومَ الحَجِّ الأكبرِ أنَّ الله بريءٌ من المشركينَ ورسولُه» الآية. «إلَّا الذينَ عاهدتم من المشركينَ» الآية؟ ثم قالَ: «فإذا انسلخَ الأشهرُ الحُرُمُ فاقْتُلُوا المشركينَ حيثُ وَجَدْتُموهم»، فأمَرَ بقتلِ المشركينَ الذينَ لا عَهْدَ لهم بعدَ انسلاخِ الأشْهُرِ الحُرُم، وبإتمامِ عَهْدِ الذين لهم عَهْدٌ، إذا لم يكونوا نَقَضُوا عَهْدَهُم بالمظاهرةِ على المؤمنينَ، وإدخالِ النقصِ فيه عليهم.

فإنْ قال قائلٌ: وما الدليلُ على أنَّ ابتداءَ التأجيلَ كانَ يومَ الحَجِّ الأكبر، دونَ أنْ يكونَ كانَ من شوال، على ما قالَهُ قائِلُوا ذلك؟

التوبة: ٢

قيل له: إنَّ قائلي ذلك زَعَمُوا أنَّ التأجيلَ كان من وقتِ نُزولِ «براءة»، وذلك غيرُ جائزٍ أنْ يكونَ صحيحاً، لأنَّ المجعولَ له أجلُ السياحةِ إلى وقتٍ محـدود، إذا لم يُعْلَمْ ما جُعِـلَ له، ولاسيما مع عَهْدٍ له قد تَقَدَّمَ قبلَ ذلك بخلافِه، فَكَمَنْ لم يجعل له ذلك، لأنه إذا لم يُعْلَمْ ما لَهُ في الأجلِ الذي جُعِلَ له وما عليهِ بعد انقضائِه، فهو كهيئته قبل الذي جُعلَ له من الأجلِ. ومعلومٌ أنَّ القـومَ لم يعلمـوا بمـا جُعلَ لهم من ذلك، إلاَّ حين نُودِيَ فيهم بالموسم. وإذا كانَ ذلكَ كذلك، صَحَّ أنَّ ابتداءَهُ ما قلنا، وانقضاءَهُ كان ما وَصَفْنَا.

وأما قوله: «فَسِيحُوا في الأرضِ أربعةَ أشهر»، فإنَّه يعني: فَسِيرُوا فيها مُقْبِلينَ ومُدْبِرينَ، آمنينَ غيرَ خائفينَ من رسولِ الله ﷺ وأتباعِه.

وأما قوله: «واعْلَمُوا أنكم غيرُ مُعْجزي الله»، فإنه يقولُ لأهلِ العهدِ من الذينَ كان بينهم وبينَ رسولِ الله ﷺ عَهْدٌ قبلَ نزولِ هذه الآية: اعْلَمُوا، أيها المشركون، أنكم إنْ سِحْتُمْ في الأرضِ، واختَرْتُمْ ذلكَ مع كُفْرِكُمْ باللهِ، على الإقـرارِ بتـوحيدِ الله وتصديقِ رسوله. «غيرُ مُعْجزِي الله»، يقول: غير مُفِيتيه بأنفسِكم، لأنكم حيثُ ذهبتم وأينَ كُنْتُمْ من الأرضِ، ففي قَبْضَتِه وسُلْطَانه، لا يَمْنَعُكُمْ منه وزيرٌ، ولا يحولُ بينكم وبينه إذا أرادَكُمْ بعذابٍ مَعْقِلٌ ولا مَوْئِلٌ، إلا الإيمان بهِ وبرسولِه، والتوبة من معصيتِه. يقول: فبادِرُوا عُقوبَتَهُ بتوبةٍ، ودَعُوا السياحةَ التي لا تنفعكم.

وأمـا قولـه: «وأنَّ الله مُخْزِي الكافرينَ»، يقولُ: واعلمُوا أنَّ الله مُذِلُّ الكافرينَ، ومُورثهم العارَ في الدنيا، والنارَ في الآخرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإعلامٌ من اللهِ ورسولِه إلى الناسِ يومَ الحَجِّ الأكبر.

وأما قوله: «يوم الحَجِّ الأكبر»، فإنَّ فيه اختلافاً بين أهلِ العلم.

فقال بعضهم: هو يومُ عَرَفة.

وقال آخرون: هو يومُ النَّحْرِ.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك عندنا بالصحةِ، قولُ مَنْ قال: «يومُ الحَجِّ الأكبر، يومُ النَّحْرِ»، لتظاهُرِ الأخبارِ عن جماعةٍ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ أنَّ عليًّا نادى بما أَرْسَلَهُ به رسولُ الله ﷺ من الرسالةِ إلى المشركينَ، وتلا عليهم «براءة»، يومَ النحر[1]. هذا، مع الأخبارِ التي ذكرناها عن رسولِ الله ﷺ أنه قالَ يومَ النحر: أتدرونَ أيّ يومٍ هذا؟ هذا يومُ الحَجِّ الأكبر[2].

وبَعْدُ، فإنَّ «اليوم»، إنما يُضافُ إلى المعنى الذي يكونُ فيه، كقولِ الناسِ: «يوم عرفة»، وذلك يومُ وقوفِ الناسِ بعرفة؛ و«يوم الأضحى»، وذلك يوم يضحون فيه؛ و«يوم الفطر»، وذلك يوم يفطرون فيه؛ وكذلك «يوم الحج»، يوم يَحجُّونَ فيه، وإنما يَحجُّ الناسُ ويَقْضُونَ مناسِكَهُم يومَ النحر، لأنَّ في ليلةِ نهار يومِ النحر، الوقوفَ بعرفة غير فائتٍ إلى طلوع الفجر، وفي صبيحتها يعمل

---

(١) تقدمت الإشارة إلى ذلك قبل قليل.

(٢) يشير المؤلف إلى حديث ابن عمر الذي أخرجه برقم (١٦٤٤٧) وحديثين آخرين «عن رجلٍ من أصحاب النبي ﷺ» (١٦٤٤٨) و(١٦٤٤٩)، وفيهما كلام، والصحابةُ مختلفون في ذلك بين يوم عرفة ويوم النحر، فالاستدلال بمثل هذه الأحاديث لا يقوي حجة المؤلف، لكن له استدلالاته الأخرى.

أعمال الحج. فأما يومُ عرفة، فإنه وإنْ كان فيه الوقوفُ بعرفة، فغير فائت الوقوف به إلى طلوعِ الفجر من ليلةِ النحر، والحَجُّ كُلُّه يوم النحر.

واختلف أهلُ التأويل في السبب الذي من أجلِه قيل لهذا اليوم: «يوم الحج الأكبر».

فقال بعضهم: «سُمِّيَ بذلك، لأنَّ ذلك كان في سنةٍ اجتمعَ فيها حَجُّ المسلمينَ والمشركينَ.

وقال آخرون: «الحَجُّ الأكبرُ»، الحج. و«الحج الأصغر»، العمرة.

وقال آخرون: «الحج الأكبر»، القِرانُ، و«الحج الأصغر»، الإفراد.

وأوْلى هذه الأقوالِ بالصوابِ في ذلك عندي، قولُ مَنْ قال: «الحج الأكبر، الحج»، لأنـهُ أكبرُ من العمرةِ بزيادةِ عَمَلِه على عَمَلِهَا، فقيل له: «الأكبر»، لذلك. وأما «الأصغر»، فالعمرة، لأنَّ عملها أقل من عَمَلِ الحج، فلذلك قيل لها: «الأصغر»، لِنُقْصَانِ عملها عن عَمله.

وأما قوله: «أنَّ الله بريءٌ من المشركينَ ورسولُهُ»، فإنَّ معناه: أنَّ الله بريءٌ من عَهْدِ المشركينَ ورسولُه، بعد هذه الحجة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «فإنْ تُبْتُمْ»، من كُفْرِكُمْ، أيها المشركونَ، ورجعتم إلى توحيدِ اللهِ وإخلاصِ العبادةِ له ـ دونَ الآلهةِ والأنداد ـ فالرجوعُ إلى ذلك «خَيْرٌ لكم»، من الإقامةِ على الشِّرْكِ في الدنيا والآخرة. «وإن توليتم»، يقولُ: وإنْ أدبرتُمْ عن الإيمانِ بالله، وأبيتم إلا الإقامةَ على شِرْكِكُمْ. «فاعلموا أنكم غيرُ مُعْجِزي الله»، يقولُ: فأيْقِنوا أنكم لا تُفِيتونَ اللهَ بأنفسِكُمْ من أنْ يحلَّ بكم

عَذَابُه الأليمُ وعِقابُه الشديدُ، على إقامتِكم على الكُفْرِ، كما فعلَ بِمَنْ قَبْلَكُمْ من أهلِ الشركِ من إنزالِ نِقَمِه به، وإحلاله العذاب عاجلاً بساحته. «وبَشِّر الذين كفروا»، يقولُ: وأَعْلِمْ، يا محمدُ، الذين جَحَدُوا نبوَّتك وخالفوا أمرَ رَبِّهم «بعذابٍ»، موجع يحلُّ بهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وأَذَانٌ من اللهِ ورسولِه إلى الناسِ يومَ الحَجِّ الأكبرِ أنَّ الله بريءٌ من المشـركينَ ورسـولُـه»، إلَّا مِنْ عَهْـدِ الـذين عاهـدتم من المشـركينَ، أيهـا المؤمنـونَ. «ثم لم يَنْقُصـوكم شيئاً»، من عَهْـدِكم الذي عاهـدتُمـوهم. «ولم يُظَاهِرُوا عليكم أحداً»، من عَدُوِّكم، فيعينوهم بأنفسِهم وأبدانهم، ولا بسلاح ولا خيل ولا رجال. «فأتِمُّوا إليهم عَهْدَهُمْ إلى مُدَّتِهم»، يقـول: فوفـوا لهم بعهدهم الذي عاهدتموهم عليه ولا تنصبوا لهم حرباً إلى انقضاء أجـل عَهْدِهم الذي بينكم وبينهم. «إنَّ الله يحبُّ المتقينَ»، يقولُ: إنَّ الله يحبُّ مَنِ اتَّقاهُ بطاعتِه، بأداءِ فرائضِه واجتنابِ معاصيه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

يعني جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقوله: «فإذا انسلخَ الأشهرُ الحُرُمُ»، فإذا انقضى ومضى وخرج.

التوبة: ٥

ويعني بـ «الأشهر الحرم»، ذَا القعدة، وذا الحجة، والمحرم.

وإنما أُريدَ في هذا الموضع انسلاخ المُحَرَّمِ وَحْدَهُ، لأنَّ الأذانَ كان ببراءة يومَ الحَجِّ الأكبر. فمعلومٌ أنهم لم يكونوا أُجِّلُوا الأشهرَ الحُرُمَ كُلَّها وقد دللنا على صِحَّةِ ذلك فيما مضى ولكنه لَمَّا كان مُتَّصلاً بالشهرين الآخرين قبله الحرامين، وكان هُوَ لَهُمَا ثالثاً، وهي كلها مُتَّصِلٌ بعضُها ببعضٍ، قيل: «فإذا انسلخ الأشهر الحرم»، ومعنى الكلام: فإذا انقضت الأشهرُ الحرُمُ الثلاثةُ عن الذين لا عهدَ لهم، أو عن الذينَ كان لهم عَهْدٌ فَنَقَضُوا عَهْدَهُمْ بمظاهرتِهم الأعداءَ على رسولِ الله ﷺ وعلى أصحابِه، أو كان عَهْدُهم إلى أجلٍ غير معلوم.

«فاقتُلوا المشركين»، يقولُ: فاقتلوهم. «حَيثُ وجدتموهم»، يقولُ: حيث لَقِيتُمُوهُمْ من الأرضِ، في الحرم، وغير الحرم، في الأشهرِ الحُرُم وغيرِ الأشهرِ الحرم. «وخُذُوهم» يقولُ: وَأْسُرُوهم «واحْصُروهم»، يقولُ: وامْنَعُوهُمْ التصرُّفَ في بلادِ الإسلامِ ودخولِ مكة. «واقعدوا لهم كُلَّ مَرْصَدٍ»، يقولُ: واقعدوا لهم بالطلبِ لقتلِهم أو أَسْرِهم. «كُلَّ مرصد»، يعني: كُلَّ طريقٍ ومرقَب.

«فإنْ تابوا»، يقولُ: فإنْ رجعوا عما هم عليه من الشرك بالله وجحود نبوة محمدٍ ﷺ، إلى توحيدِ الله وإخلاصِ العبادةِ له دونَ الآلهةِ والأندادِ، والإقرارِ بنبوةِ محمدٍ ﷺ. «وأقاموا الصلاة»، يقولُ: وأدّوا ما فَرَضَ اللهُ عليهم من الصلاةِ بحدودها ـ وأعطوا الزكاةَ التي أوجبها اللهُ عليهم في أموالهم أهلها. «فَخَلُّوا سبيلهم»، يقولُ: فَدَعُوهم يَتصرَّفُونَ في أمصارِكم، ويدخلونَ البيتَ الحرام. «إن الله غفور رحيم»، لِمَنْ تابَ من عبادِه ـ فأنابَ إلى طاعتِه، بعد الذي كان عليه من معصيتِه، ساترٌ على ذَنْبِه، رحيمٌ به، أنْ يُعَاقِبَهُ على ذنوبه السالفةِ قبلَ توبتِه، بعدَ التوبة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه: وإن استأمنك، يا محمدُ، من المشركينَ، الذينَ أمرْتُكَ بقتالِهم وقتْلِهم بعد انسلاخِ الأشهرِ الحُرُمِ، أحَدٌ ليسمعَ كلامَ الله منك - وهو القرآنُ الذي أنزله اللهُ عليه - «فأَجِرْهُ»، يقولُ: فأمِّنْهُ حتى يسمعَ كلامَ الله وتتلوه عليه. «ثم أَبْلِغْهُ مأمَنَهُ»، يقولُ: ثم رُدَّهُ بعد سماعِهِ كلامَ اللهِ إنْ هو أبَى أنْ يُسْلِمَ، ولم يَتَّعِظْ بما تَلَوْتَهُ عليه من كلامِ الله فيؤمن. «إلى مأمنه»، يقولُ: إلى حيثُ يأمَنُ منك ومِمَّنْ في طاعتكَ، حتى يَلْحَقَ بدارِه وقومِه من المشركينَ. «ذلك بأنهم قومٌ لا يعلمون»، يقولُ: تفعلُ ذلكَ بهم، من إعطائِكَ إياهم الأمانَ ليسمعوا القرآنَ، وردِّكَ إياهم إذا أَبَوْا الإسلامَ إلى مأمَنِهم، من أجلِ أنهم قومٌ جَهَلَةٌ لا يَفْقَهُونَ عن اللهِ حُجَّةً، ولا يعلمونَ ما لهم بالإيمان بالله لو آمنوا، وما عليهم من الوِزْرِ والإثمِ بتركِهم الإيمانَ بالله.

واختلف في حُكْمِ هذه الآية، هل هو منسوخٌ أو هو غيرُ منسوخ؟

والصوابُ من القولِ في ذلك عندي، قولُ مَنْ قال: «ليس ذلك بمنسوخٍ». وقد دللنا على أنَّ معنى «النسخ»، هو نفي حكمٍ قد كان ثَبَتَ بحكمٍ آخَرَ غيره. ولم تصحَّ حجةٌ بوجوبِ حكم الله في المشركينَ بالقتلِ بكلِّ حالٍ، ثم نسخه بتركِ قَتْلِهم على أخذِ الفِداء، ولا على وجهِ المَنِّ عليهم. فإذْ كان ذلك كذلك، وكان الفِداءُ والمَنُّ والقتلُ لم يزل من حُكْمِ رسولِ الله ﷺ فيهم من أول حربٍ حاربهم، وذلك من يوم بدر - كان معلوماً أنَّ معنى الآية: فاقتلوا المشركينَ حيثُ وجدتموهم، وخُذُوهم للقتلِ أو المَنِّ أو الفِداءِ، واحصروهم. وإذا كان ذلكَ معناهُ، صَحَّ ما قلنا في ذلك دونَ غيره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا الَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَٰمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۝٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أنَّى يكونُ، أيها المؤمنونَ باللهِ ورسوله، وبأيِّ معنى، يكونُ للمشركينَ بربِّهم عَهْدٌ وذِمَّةٌ عند اللهِ وعندَ رسولِهِ، يُوَفَّى لهم به، ويُتْرَكُوا من أجلِه آمنينَ يتصرفونَ في البلاد؟ وإنما معناه: لا عَهْدَ لهم، وأنَّ الواجبَ على المؤمنينَ قَتْلُهُم حيث وجدوهم، إلا الذينَ أعطوا العهدَ عند المسجدِ الحرامِ منهم، فإنَّ اللهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أمرَ المؤمنينَ بالوفاءِ لهم بعدِهم، والاستقامة لهم عليه، ما داموا عليه للمؤمنينَ مُستقيمين.

واختلف أهلُ التأويل في الذين عُنُوا بقوله: «إلَّا الذين عاهدتم عندَ المسجدِ الحرام».

فقال بعضهم: هُمْ قومٌ من جذيمة بن الدُّئِل.

وقال آخرون: هم قريش.

وقال آخرون: هم قوم من خزاعة.

وأَوْلى هذه الأقوالِ بالصوابِ عندي، قولُ مَنْ قال: هم بعضُ بني بكر من كنانة، مِمَّنْ كان أقامَ على عهدِهِ، ولم يكن دَخَلَ في نقضِ ما كان بين رسولِ الله ﷺ وبين قريش يومَ الحديبية من العهدِ مع قريش، حين نَقَضُوه بمعونَتِهم حُلَفَاءَهم من بني الدُّئِل، على حُلفاءِ رسولِ الله ﷺ من خزاعة.

وإنما قلتُ: هذا القولُ أولى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ، لأنَّ اللهَ أمرَ نبيه والمؤمنينَ بإتمامِ العهدِ لمن كانوا عاهدُوه عند المسجدِ الحرام، ما استقامُوا على عَهْدِهم. وقد بينَّا أنَّ هذه الآيات إنما نادى بها عليٌّ في سنة تِسْعٍ من

الهجرةِ، وذلك بعد فتحِ مكةَ بسنةٍ، فلم يَكُنْ بمكةَ من قريشٍ ولا خزاعة كافرٌ يومئذٍ بينه وبينَ رسولِ الله ﷺ عَهْدٌ، فيُؤْمَر بالوفاءِ له بعهدِه ما استقامَ على عهدِه، لأنَّ مَنْ كان منهم من ساكني مكة، كان قد نَقَضَ العهدَ وحُورِبَ قبلَ نزولِ هذه الآياتِ.

وأما قوله: «إنَّ الله يحبُّ المتقين»، فإنَّ معناه: إنَّ الله يحبُّ مَنِ اتقى اللهَ وراقَبَهُ في أداءِ فرائِضِه، والوفاءِ بعهدِه لمن عاهده، واجتنابِ معاصيه، وتَرْكِ الغدرِ بعهودِه لمن عاهده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ۝٨﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: كيف يكونُ لهؤلاء المشركينَ الذين نَقَضُوا عَهْدَهم أو لمن لا عهدَ له منهم منكم، أيها المؤمنونَ، عَهْدٌ وذِمَّةٌ، وهُمْ «إنْ يَظْهَرُوا عليكم»، يَغْلِبُوكُمْ. «لا يَرْقُبُوا فيكم إلًّا ولا ذِمة».

واختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «لا يرقبوا فيكم إلًّا ولا ذمة».

فقال بعضهم، معناه: لا يرقُبُوا اللهَ فيكم ولا عَهْداً.

وقال آخرون: «الإلُّ»، القرابةُ.

وقال آخرون: معناه الحلفُ.

وقال آخرون: «الإلُّ»، هو العَهْدُ، ولكنه كُرِّرَ لما اختلف اللفظان، وإنْ كان معناهما واحداً.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ أنْ يقالَ: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه أخبرَ عن هؤلاءِ المشركينَ الذين أَمَرَ نبيَّهُ والمؤمنينَ بقتلِهم بعد انسلاخِ الأشهرِ الحُرُمِ،

وحَصْرهم والقعود لهم على كُلِّ مرصد: أنهم لو ظهروا على المؤمنينَ لم يرقبوا فيهم «إلاً».

و«الإلُّ»، اسمٌ يشتملُ على معانٍ ثلاثة: وهي العهدُ، والعقدُ، والحلفُ، والقرابةُ، وهو أيضاً بمعنى «الله». فإذْ كانت الكلمةُ تشملُ هذه المعاني الثلاثة، ولم يكن الله خَصَّ من ذلك معنًى دونَ معنى، فالصوابُ أن يُعَمَّ ذلك كما عمَّ بها جَلَّ ثَنَاؤُهُ معانيها الثلاثة، فيقال: لا يَرْقُبونَ في مؤمنٍ اللهَ ولا قرابةً ولا عهداً ولا ميثاقاً.

فأما قوله: «يُرْضُونَكُمْ بأفواهِهم»، فإنه يقولُ: يُعْطُونَكُمْ بألسنتهم من القولِ خِلافَ ما يُضْمِرُونَهُ لكم في نفوسهم من العداوةِ والبغضاء. «وتأبى قلوبُهم»، أي: تأبَى عليهم قلوبُهم أنْ يُذْعِنُوا لكم، بتصديقِ ما يُبْدُونَهُ لكم بألسنتهم. يحذِّرُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أمْرَهم المؤمنينَ، ويَشْحَذُهم على قَتْلِهم واجتياحهم حيثُ وُجِدُوا من أرضِ الله، وأنْ لا يُقَصِّرُوا في مَكْرُوهِهم بكلِّ ما قَدَرُوا عليه. «وأكثرهم فاسقون»، يقولُ: وأكثرهم مخالفونَ عَهْدَكُم، ناقضونَ له، كافرونَ بربِّهم، خارجونَ عن طاعته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩﴾

يقول جَلَّ ثناؤه: ابتاعَ هؤلاءِ المشركونَ الذين أمَرَكُمُ اللهُ، أيها المؤمنونَ، بِقَتْلِهم حيثُ وجدتموهم، بتركِهم اتِّباعَ ما احْتَجَّ اللهُ به عليهم من حُجَجِه، يسيراً من العِوَضِ قليلاً من عَرَضِ الدنيا.

وذلك أنهم، فيما ذُكِرَ عنهم، كانوا نَقَضُوا العهدَ الذي كان بينهم وبينَ رسولِ الله ﷺ بأكلةٍ أَطْعَمَهُمُوها أبو سفيان بن حرب.

وأما قوله: «فصدوا عن سبيلِه»، فإن معناه: فَمَنَعُوا الناسَ من الدخولِ في الإسلامِ، وحاولُوا رَدَّ المسلمينَ عن دِينهم. «إنهم سَاءَ ما كانوا يعملون»، يقول جَلَّ ثناؤُه: إنَّ هؤلاء المشركينَ الذين وصفتُ صِفاتِهم، ساء عَمَلُهم الذي كانوا يعملون، من اشترائِهم الكُفْرَ بالإيمانِ، والضلالةَ بالهدى، وصَدِّهم عن سبيلِ الله مَنْ آمَنَ باللهِ ورسولِه، أو مَنْ أرادَ أنْ يُؤْمِنَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ۝١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لا يتقي هؤلاءِ المشركونَ الذين أُمِرْتُكم، أيها المؤمنونَ، بقَتْلِهم حيثُ وجدتُموهم، في قتل مؤمنٍ لو قَدرُوا عليه. «إلاًّ ولا ذِمَّةً»، يقولُ: فلا تُبْقُوا عليهم، أيها المؤمنونَ، كما لا يُبْقُونَ عليكم لو ظَهَرُوا عليكم. «وأولئك هم المعتدون»، يقولُ: المُتَجَاوِزُونَ فيكم إلى ما ليسَ لهم بالظُّلمِ والاعتداء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝١١﴾

يقول جَلَّ ثناؤُه: فإنْ رجعَ هؤلاءِ المشركونَ الذين أُمِرْتُكُمْ، أيها المؤمنونَ، بِقَتْلِهم عن كُفْرِهم وشِرْكِهم بالله، إلى الإيمانِ به وبرسولِه، وأنابُوا إلى طاعتِه. «وأقاموا الصلاة»، المكتوبةَ، فأدَّوْهَا بحدودِها. «وآتوا الزكاة»، المفروضةَ أهلَها. «فإخوانكُم في الدِّينِ»، يقولُ: فهم إخوانكُم في الدِّينِ الذي أمركم اللهُ به، وهو الإسلامُ. «ونُفَصِّلُ الآياتِ»، يقولُ: ونُبَيِّنُ حُجَجَ اللهِ وأدِلَّتَه

على خَلْقِه. «لقومٍ يعلمون»، ما بُيِّنَ لهم، فَنشْرَحُها لهم مُفَصَّلَةً، دونَ الجُهَّالِ الذين لا يعقلونَ عن اللهِ بيانَهُ ومُحْكَم آياتِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فإنْ نَقَضَ هؤلاء المشركونَ الذين عاهدتُموهم من قريش، عُهودَهم من بعدِ ما عاقَدُوكُمْ أنْ لا يُقاتِلُوكم ولا يُظاهِرُوا عليكم أحداً من أعدائِكم. «وطعنوا في دِينكم»، يقولُ: وقَدَحُوا في دِينكم الإسلام، فَثَلَبُوهُ وعَابُوه. «فقاتلوا أئمةَ الكُفْرِ»، يقولُ: فقاتلوا رؤساءَ الكُفْرِ باللهِ. «إنهم لا أيمانَ لهم»، يقولُ: إنَّ رؤساءَ الكفرِ لا عَهْدَ لهم. «لعلهم ينتهون»، لكي يَنْتَهُوا عن الطعنِ في دِينكم والمُظاهَرَةِ عليكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ باللهِ ورسولِه، حاضًّا لهم على جهادِ أعدائِهم من المشركين: «ألا تُقاتِلُونَ»، أيها المؤمنون، هؤلاءِ المشركينَ الذين نَقَضُوا العهدَ الذي بينكم وبينهم، وطَعَنُوا في دِينكم، وظاهروا عليكم أعداءكم، «وهَمُّوا بإخراجِ الرسولِ»، من بينِ أَظْهُرِهم فأخرجُوه. «وهُمْ بَدَأُوكُم أولَ مرة»، بالقتالِ، يعني فِعْلَهم ذلكَ يومَ بدرٍ، وقيل: قتالهم حُلَفاء رسولِ الله ﷺ من خزاعة. «أتَخْشَوْنَهُمْ»، يقولُ: أتخافُونَهم على أنفسِكم فتتركوا قتالَهُم خَوْفاً على

أنفسِكم منهم. «فاللهُ أحَقُّ أنْ تَخْشَوْهُ»، يقولُ: فاللهُ أوْلى بكم أنْ تَخافُوا عُقوبَتَهُ بتـركِكُم جِهـادَهُم، وتَحْـذَرُوا سخطَهُ عليكم، من هؤلاءِ المشركينَ الذين لا يملكونَ لكم ضرًّا ولا نفعاً إلَّا بإذنِ الله. «إنْ كنتم مؤمنين»، يقولُ: إنْ كُنْتُمْ مُقِرِّينَ أنَّ خشيةَ اللهِ لكم أوْلى من خشيةِ هؤلاء المشركينَ على أنفسِكم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعـالَى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قَاتِلُوا، أيها المؤمنونَ باللهِ ورسوله، هؤلاءِ المشركينَ الذين نَكَثُوا أيمانَهُمْ، ونَقَضُوا عُهودَهم بينكم وبينهم، وأخرجُوا رسولَ الله ﷺ من بينِ أَظْهُـرِهم: «يُعَـذِّبْهُمُ اللهُ بأيديكم»، يقـولُ: يقتلهم الله بأيديكم. «ويُخْزِهِمْ»، يقولُ: ويُذِلّهمْ بالأسرِ والقهرِ. «ويَنْصُرْكُمْ عليهم»، فيعطيكم الظَّفَرَ عليهم والغَلَبَة. «وَيَشْفِ صُدورَ قومٍ مؤمنينَ»، يقولُ: ويُبْرِئُ دَاءَ صُدورِ قومٍ مؤمنين بالله ورسوله، بقتلِ هؤلاءِ المشركينَ بأيديكم، وإذلالكم وقهركم إياهم. وذلك الداءُ، هو ما كانَ في قلوبهم عليهم من المَوْجِدةِ بما كانوا يَنالُونَهُمْ به من الأذى والمكروه.

وقيل: إنَّ الله عَنَى بقوله: «ويَشْفِ صُدورَ قومٍ مؤمنين»، صدورَ خزاعة حلفاءِ رسولِ الله ﷺ. وذلك أنَّ قريشاً نَقَضُوا العهدَ بينهم وبين رسولِ الله ﷺ بمعونتهم بَكْراً عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥﴾

يقول الله تعالى ذِكْرُه: ويُذْهِبْ وَجْد قلوبِ هؤلاءِ القومِ المؤمنينَ من

خزاعة، على هؤلاءِ القومِ الذين نَكَثُوا أيمانَهُمْ من المشركينَ، وغَمَّها وكربَها بما فيها من الوَجْدِ عليهم، بمعونتهم بَكْراً عليهم.

وأما قوله: «ويتوبُ اللهُ على مَنْ يشاء»، فإنه خبر مبتدأ، ولذلك رفع وجُزم الأحرفُ الثلاثة قبل ذلك على وجهِ المجازاة، كأنه قال: قَاتِلُوهُمْ، فإنكم إنْ تُقَاتِلُوهم يُعَذبهُمُ الله بأيدِيكم، ويُخْزِهم، ويَنْصُركم عليهم ثم ابتدأ فقال: «ويتوبُ الله على من يشاء»، لأنَّ القتالَ غير مُوجِبٍ لهم التوبةَ من الله، وهو موجبٌ لهم العذابَ من الله، والخزيَ، وشفاءَ صُدورِ المؤمنينَ، وذهابَ غيظِ قُلُوبِهم، فجزم ذلك شرطاً وجزاءً على القتالِ، ولم يكن موجباً القتالُ التوبةَ، فابتُدِىء الخبرُ به ورُفع.

ومعنى الكلام: ويَمُنُّ اللهُ على مَنْ يشاء من عبادِه الكافرينَ، فيقبل به إلى التوبةِ بتوفيقِه إياهُ. «والله عليم»، بسرائِرِ عبادِهِ، ومَنْ هُوَ للتوبةِ أهْلٌ، فيتوب عليه، ومَنْ منهم غيرُ أهلٍ لها فيخذله. «حكيمٌ»، في تصريفِ عبادِه من حالِ كُفْرٍ إلى حالِ إيمانٍ بتوفيقِه مَنْ وفَّقَهُ لذلك ـ ومن حالِ إيمانٍ إلى كُفْرٍ، بخذلانِه مَنْ خَذَلَ منهم عن طاعتِه وتوحيدِه، وغير ذلك من أمرهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ الذين أمرهم بقتالِ هؤلاءِ المشركينَ، الذينَ نَقَضُوا عَهْدَهُم الذي بينهم وبينه بقوله: «قَاتِلُوهم يُعَذِّبهمُ اللهُ بأيديكم»، الآية، حاضًا على جِهادِهم: «أمْ حسبتم»، أيها المؤمنونَ أن يترككم اللهُ بغيرِ محنةٍ يَمْتَحِنُكُمْ بها، وبغيرِ اختبارٍ يَخْتَبِرُكُمْ به، فيعرفُ الصادقَ منكم في دِينِهِ من

الكاذبِ فيه. «ولَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الذينَ جاهدوا»، يقولُ: أحسبتم أنْ تُتْرَكُوا بغيرِ اختبارٍ يعرف به أهلَ ولايته المجاهدينَ منكم في سبيله، من المُضَيِّعينَ أمرَ الله في ذلك المُفَرِّطينَ. «ولم يَتَّخِذُوا من دونِ الله ولا رسولِه»، يقولُ: «ولَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الذينَ جاهَدُوا منكم»، والذين لم يَتَّخِذُوا من دونِ اللهِ ولا من دونِ رسولِه ولا مِنْ دونِ المؤمنينَ «وليجةً». هو الشيءُ يدخلُ في آخر غيره، يقالُ منه: «وَلَجَ فلانٌ في كذا يَلجه، فهو وليجة».

وإنما عَنَى بها في هذا الموضع: البطانةَ من المشركينَ. نَهَى اللهُ المؤمنينَ أنْ يَتَّخِذُوا من عَدُوِّهم من المشركينَ أولياءَ، يفشُونَ إليهم أسرارَهُم. «واللهُ خبيرٌ بما تعملون»، يقولُ: واللهُ ذُو خبرةٍ بما تعملون، من اتِّخَاذِكُمْ من دونِ الله ودون رسولِه والمؤمنينَ به أولياءَ وبطانةً، بعد ما قد نَهَاكُمْ عنه، لا يَخْفَى ذلك عليه، ولا غيره من أعمالكم، والله مُجَازِيكم على ذلك، إنْ خيراً فخيراً، وإنْ شرًّا فشراً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ما ينبغي للمشركينَ أنْ يَعْمُرُوا مساجدَ الله وهم شاهدونَ على أنفسِهم بالكفر. يقولُ: إنَّ المساجدَ إنما تُعْمَرُ لعبادةِ الله فيها، لا للكُفْرِ به. فَمَنْ كان بالله كافراً، فليسَ من شأنهِ أنْ يَعْمُرَ مساجدَ الله.

وقوله: «أولئك حَبِطَتْ أعمالُهم»، يقولُ: بَطلتْ وذَهَبَتْ أجورها، لأنها لم تكن لله بَلْ كانت للشيطان. «وفي النارِ هُمْ خالدون»، يقولُ: ماكِثُونَ فيها أبداً، لا أحياءً ولا أمواتاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «إنما يَعْمُرُ مساجدَ الله»، المُصَدِّقُ بوحدانيةِ الله، المخلص له العبادةَ. «واليومِ الآخِرِ»، يقولُ: الذي يُصَدِّقُ ببعثِ الله الموتى أحياءً من قُبورِهم يومَ القيامة. «وأقامَ الصلاةَ»، المكتوبةَ، بحدودِهَا، وأدَّى الزكاةَ الواجبةَ عليه في مالِه إلى مَنْ أوجبها اللهُ له. «ولم يَخْشَ إلا الله»، يقولُ: ولم يَرْهَبْ عقوبةَ شيءٍ على معصيتِه إياهُ سِوَى الله. «فعسى أولئكَ أنْ يكونُوا من المهتدينَ»، يقولُ: فَخَلِيقٌ بأولئكَ الذين هذِه صِفَتُهم، أنْ يكونوا عند الله مِمَّنْ قد هَدَاهُ الله للحقِّ وإصابةِ الصواب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾

وهذا توبيخٌ من الله تعالى ذِكْرُه لقومٍ افْتَخَرُوا بالسقايةِ وسِدَانةِ البيتِ، فأعْلَمَهُمْ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أنَّ الفخرَ في الإيمانِ بالله واليومِ الآخرِ والجهادِ في سبيله، لا في الذي افتخروا به من السِّدانةِ والسقاية.

فتأويلُ الكلام إذاً: أَجَعَلْتُمْ، أيها القومُ، سقايةَ الحاج وعمارةَ المسجدِ الحرامِ، كإيمانِ مَنْ آمنَ باللهِ واليومِ الآخرِ وجاهدَ في سبيلِ الله. «لا يَسْتَوُونَ» هؤلاءِ، وأولئكَ، ولا تَعْتَدِل أحوالُهما عندَ اللهِ ومنازلهما، لأنَّ الله تعالى لا يقبلُ بغير الإيمانِ به وباليومِ الآخرِ عملاً. «واللهُ لا يهدي القومَ الظالمين»، يقولُ:

والله لا يُوفِّقُ لصالحِ الأعمالِ مَنْ كان به كافراً، ولتوحيدِه جاحداً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٢٠﴾

وهذا قضاءٌ من الله بَيْن فِرَقِ المفتخرينَ الذين افتخرَ أحدهم بالسقايةِ، والآخرُ بالسِّدانةِ. والآخرُ بالإيمانِ بالله والجهادِ في سبيله. يقول تعالى ذِكْرُه: «الذين آمنوا» بالله، وصَدَّقُوا بتوحيدِه من المشركينَ. «وهَاجَرُوا» دُوْرَ قومِهم. «وجاهدوا» المشركينَ في دينِ الله. «بأموالهم وأنفسهم أعظمُ درجةً عند الله»، وأرفعُ منزلةً عندَهُ، من سُقَاةِ الحاج وعُمَّارِ المسجدِ الحرام، وهُمْ بالله مُشركونَ. «وأولئك»، يقولُ: وهؤلاءِ الذين وصفنا صِفَتهم، أنهم آمنوا وهاجَرُوا وجاهَدُوا. «هُمُ الفائزون»، بالجنةِ، الناجونَ من النار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ۝٢١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يُبَشِّرُ هؤلاءِ الذينَ آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله. «رَبُّهُمْ برحمةٍ منه»، لهم، أَنَّهُ قَدْ رَحِمَهُمْ من أَنْ يُعَذِّبَهُمْ وبرضوانٍ منه لهم، بأنه قد رضيَ عنهم بطاعَتِهم إياهُ، وأدائِهم ما كَلَّفَهُمْ. «وجناتٍ»، يقولُ: وبساتين. «لهم فيها نعيمٌ مقيم»، لا يزولُ ولا يَبيدُ، ثابتٌ دائمٌ أبداً لهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «خالدينَ فيها»، ماكثينَ فيها، يعني في الجنات. «أبداً»، لا نهايةَ لذلكَ ولا حَدَّ. «إنَّ الله عِنْدَهُ أجرٌ عظيم»، يقولُ: إنَّ الله عنده لهؤلاءِ المؤمنينَ الذين نعتَهُم جَلَّ ثَنَاؤُهُ النَّعْتَ الذي ذَكَرَهُ في هذه الآيةِ «أجرٌ»، ثوابٌ على طاعَتِهم لربِّهم، وأدائِهم ما كَلَّفَهُمْ من الأعمالِ. «عظيم»، وذلك النعيمُ الذي وَعَدَهُمْ أنْ يُعطيهم في الآخرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ به وبرسوله: لاتَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وإخْوانَكُم بطانةً وأصدقاء تُفْشُونَ إليهم أسراركُمْ، وتُطْلِعُونَهُمْ على عورةِ الإسلامِ وأهلِه، وتُؤْثِرُونَ المُكْثَ بين أَظْهُرِهم على الهجرةِ إلى دارِ الإسلام. «إنِ اسْتَحَبُّوا الكُفْرَ على الإيمان»، يقولُ: إنِ اخْتارُوا الكفرَ بالله، على التصديقِ به والإقرارِ بتوحيدِه. «ومَنْ يَتَولَّهُمْ منكم»، يقولُ: ومَنْ يَتَّخِذْهُمْ منكم بطانةً من دونِ المؤمنينَ، ويُؤْثِر المقامَ معهم على الهجرةِ إلى رسولِ الله ودارِ الإسلام. «فأولئك هم الظالمون»، يقولُ: فالذين يَفعلونَ ذلك منكم، هُمُ الذين خالَفُوا أمرَ الله، فوضعوا الولايةَ في غيرِ موضعها، وعَصوا الله في أمره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾

يقول تبارك وتعالى لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ» يا محمدُ، للمُتَخَلِّفينَ عن الهجرةِ إلى دارِ الإسلام، المقيمينَ بدارِ الشِّرْكِ: إنْ كان المقامُ مع آبائِكم وأبنائِكم وإخوانِكم وأزواجِكم وعشيرتِكم. وكانتْ «أموالٌ اقترفْتُمُوها»، يقولُ: اكْتَسَبْتُموها. «وتجارةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَها»، بفراقِكم بلدَكُمْ. «ومساكنُ تَرْضَوْنَها»، فَسَكَنْتُموها. «أَحَبَّ إليكم»، من الهجرةِ إلى اللهِ ورسولِه، من دارِ الشركِ ومِنْ جهادٍ في سبيلِه، يعني: في نُصْرَةِ دِينِ الله الذي ارتضاهُ. «فَتَرَبَّصُوا»، يقولُ: فتنظَّروا. «حتى يأتيَ اللهُ بأمره»، حتى يأتيَ الله بفتحِ مكةَ. «واللهُ لا يهدي القومَ الفاسقينَ»، يقولُ: واللهُ لا يُوفِّقُ للخيرِ الخارِجينَ عن طاعتهِ وفي معصيته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: «لقد نَصَرَكُمُ الله»، أيها المؤمنونَ ـ في أماكنِ حَرْبٍ تُوَطِّنُونَ فيها أنفسكم على لقاءِ عَدُوِّكم، ومَشَاهِدَ تَلْتَقُونَ فيها أنتم وهُمْ كثيرة. «ويومَ حُنينٍ»، يقولُ: وفي يومِ حنين أيضاً قد نَصَرَكم.

«إذْ أعجبتكم كَثْرَتُكُم»، وكانوا ذلك اليوم، فيما ذُكِرَ لنا، اثنى عشرَ ألفاً. وهو قولُ الله: «إذْ أعجبتكُمْ كَثْرَتُكُمْ فلم تُغْنِ عنكم شيئاً»، يقولُ: فلم تُغْنِ عنكم كثـرتكم شيئاً. «وضَاقَتْ عليكم الأرضُ بما رَحُبَتْ»، يقولُ: وضاقتِ الأرضُ بسعتها عليكم.

«ثم وَلَّيْتُمْ مُدْبِـرينَ»، عن عَدُوِّكم منهـزمينَ. «مـدبـرين»، يقـولُ: وَلَّيْتُموهم، الأدبارَ، وذلك الهزيمة. يُخْبِرُهُم تبارك وتعالى أنَّ النصرَ بيدِه ومن عنده، وأنه ليسَ بكثرةِ العدِ وشِدَّةِ البطشِ، وأنه يَنْصُرُ القليلَ على الكثيرِ إذا

شاء، ويخلّي الكثيرَ والقليلَ، فيهْزِمُ الكثيرُ»[1].

القَوْلُ في تأْويلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: ثم من بَعْدِ ما ضاقَتْ عليكمُ الأرضُ بما رَحُبَتْ، وتَوْليتكُمُ الأعداء أدبارَكُمْ، كَشَفَ اللهُ نَازِلَ البلاءِ عنكم، بإنزالِهِ السكينةَ ـ وهي الأَمَنَةُ والطُّمَأنينةُ ـ عليكم.

«وأنزلَ جنوداً لم تروها»، وهي الملائكةُ التي ذكرتُ في الأخبارِ التي قد مضى ذِكْرُها. «وعَذَّبَ الذين كفروا»، يقولُ: وعَذَّبَ اللهُ الذينَ جَحَدُوا وحدانيَّتَهُ ورسالةَ رسولِهِ محمدٍ ﷺ، بالقَتْلِ وسَبْيِ الأهلينَ والذراريّ، وسلب الأموالِ، والـذِّلَّـة. «وذلـك جزاءُ الكـافرين»، يقول: هذا الذي فعلنا بهم من القتلِ والسبي. «جزاءُ الكافرينَ»، يقولُ: هو ثوابُ أهلِ جحودِ وحدانيتِه ورسالةِ رسولِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ثم يَتَفَضَّلُ اللهُ بتوفيقِه للتوبةِ والإنابةِ إليه، من بعدِ عذابِهِ الذي به عَذَّبَ مَنْ هَلَكَ منهم قَتْلاً بالسيف. «على مَنْ يشاء»، أي: يتوبُ الله على مَنْ يشاءُ من الأحياءِ، يُقْبِلُ به إلى طاعته. «والله غفور»، لذنوبِ

(١) أي: فيهزمُ الكثيرُ القليلَ، على ما جَرَتْ به العادةُ من غَلَبَةِ الكثيرِ على القليل.

مَنْ أنابَ وتابَ إليه منهم ومِنْ غيرِهم منها. «رحيمٌ»، بهم، فلا يُعَذِّبُهُمْ بعد توبتِهم، ولا يُؤَاخِذُهُمْ بها بعد إنابتهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ به وبرسولِه، وأقَرُّوا بوحدانيتِه: ما المشركونَ إلَّا نَجس.

واختلف أهلُ التأويل في معنى «النجس»، وما السببُ الذي من أجله سمّاهُمْ بذلك.

فقال بعضهم: سَمَّاهم بذلك، لأنهم يُجْنِبُونَ فلا يَغْتَسِلُونَ، فقال: هُمْ نَجَسٌ، ولا يَقْرَبُوا المسجدَ الحرام ـ لأنَّ الجُنُبَ لا ينبغي له أنْ يَدْخُلَ المسجدَ.

وقال آخرون: معنى ذلك: ما المشركونَ إلَّا رِجْسُ خنزيرٍ أو كلبٍ.

وقوله: «فلا يَقْرَبُوا المسجدَ الحرامَ بعد عامِهم هذا»، يقولُ للمؤمنينَ: فلا تَدَعُوهُمْ أنْ يقربوا المسجدَ الحرام بدخولهم الحرَمَ. وإنما عَنَى بذلك مَنْعَهُمْ من دخولِ الحَرَمِ، لأنهم إذا دَخَلُوا الحرم فقد قربوا المسجدَ الحرام.

وأما قوله: «بعد عامهم هذا»، فإنه يعني: بعد العامِ الذي نادَى فيه عليٌّ رحمةُ الله عليه ببراءة، وذلك عام حجَّ بالناسِ أبو بكر، وهي سنةُ تِسْعٍ من الهجرة.

وقوله: «وإنْ خفتم عَيْلَةً»، يقول للمؤمنين: وإن خفتم فاقَةً وفقراً، بمنعِ

المشركينَ من أنْ يَقْرَبُوا المسجدَ الحرام. «فسوفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ من فَضْلِه إنْ شاء».

وإنما قيل ذلك لهم، لأنَّ المؤمنينَ خافوا بانقطاعِ المشركينَ عن دخولِ الحرم، انقطاعَ تِجاراتِهم، ودخول ضررٍ عليهم بانقطاعِ ذلك. وأَمَّنَهُم اللهُ من العيلة، وعوَّضَهم مِمَّا كانوا يكرهونَ انقطاعَهُ عنهم، ما هو خيرٌ لهم منه، وهو الجِزْيةُ، فقال لهم: ﴿قَاتِلُوا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ ولَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللهُ وَرَسُولُهُ﴾ إلى: ﴿صَاغِرُون﴾.

وقال قوم: بإدرارِ المطرِ عليهم.

وأما قوله: «إنَّ اللهَ عليمٌ حكيم»، فإنَّ معناه: «إن الله عليم»، بما حَدَّثَتْكُمْ به أنفُسُكم، أيها المؤمنونَ، من خوفِ العَيْلَةِ عليها، بمنع المشركينَ من أنْ يَقْرَبُوا المسجدَ الحرام، وغير ذلك من مصالحِ عباده. «حكيمٌ»، في تدبيرِه إياهم، وتدبيرِ جميعِ خلقه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ به من أصحابِ رسولِه ﷺ: «قاتلوا»، أيها المؤمنونَ، القومَ. «الذينَ لا يؤمنونَ باللهِ ولا باليوم الآخر»، يقولُ: ولا يُصَدِّقُونَ بجنَّةٍ ولا نار. «ولا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللهُ ورسولُه ولا يَدِينُونَ دِينَ الحق»، يقولُ: ولا يُطيعونَ اللهَ طاعةَ الحقِّ، يعني أنَّهم لا يطيعونَ طاعةَ أهلِ الإسلام. «مِنَ الذين أُوتُوا الكتابَ»، وهُمُ اليهودُ والنصارَى.

وقوله: «من الذين أُوتُوا الكتاب»، يعني الذين أُعْطُوا كتابَ الله، وهم أهلُ التوراةِ والإنجيل. «حتى يُعْطُوا الجزية».

و«الجــزية»، الفِعْلة من: «جَـزَى فلانٌ فلانـاً ما عليه»، إذا قَضَـاهُ، «يجزيه»، و«الجِزْيَة» مثل «القِعْدة» و«الجِلْسة».

وقـولـه: «حتى يُعْـطُوا الجزية» حتى يُعْطُوا الخَرَاجَ عن رِقابهم، الذي يبذلونه للمسلمينَ دَفْعاً عنها.

وأما قوله: «عن يَدٍ»، فإنه يعني: من يَدِه إلى يَدِ مَنْ يدفعه إليه.

وأما قوله: «وهم صاغرون»، فإنَّ معناه: وهم أَذِلَّاءُ مقهورون.

واختلف أهلُ التأويل في معنى «الصَّغَار»، الذي عَنَاهُ الله في هذا الموضع.

فقال بعضهم: أنْ يُعْطِيها وهو قائمٌ، والآخذُ جالسٌ.

وقال آخرون: معنى قوله: «حتى يُعْطُوا الجزيةَ عن يَدٍ وهم صاغرون»، عن أنفسهم، بأيديهم يَمْشُونَ بها، وهم كارهونَ. وذلك قول رُوِي عن ابن عباس، من وجهٍ فيه نَظَرٌ[1].

وقال آخرون: إعطاؤهم إياها، هو الصَّغَارُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾

(١) أي: لا يصح.

واختلف أهلُ التأويل في القائل: «عُزَيْرٌ ابنُ الله».

فقال بعضهم: كان ذلك رجلاً واحداً، وهو فِنْحاص.

وقال آخرون: بل كان ذلك قول جماعةٍ منهم.

«وقالت النصارى المسيحُ ابنُ الله ذلك قولُهم بأفواهِهم يُضَاهِئُونَ قولَ الذين كفروا من قَبْلُ»، يعني قول اليهود: «عزير ابن الله». يقولُ: يُشْبه قولُ هؤلاءِ في الكَذِبِ على اللهِ والفِرْيَةِ عليه ونسبتهم المسيحَ إلى أنه للهِ ابنٌ، كَذِبَ اليهودِ وفِرْيَتهم على الله في نِسْبَتِهم عزيراً إلى أنه لله ابنٌ، ولا ينبغي أنْ يكونَ لله ولدٌ سبحانه، بل لَهُ ما في السمواتِ والأرض كُلٌّ له قانتون.

وقرأ عامةُ قَرَأَةِ الحجاز والعراق: ﴿يُضَاهُونَ﴾، بغير همز.

وقرأ عاصم: ﴿يُضَاهِئُونَ﴾، بالهمز، وهي لغةٌ لثقيف.

وهما لغتان، يقال: «ضَاهَيْتُه على كذا أُضَاهيه مُضَاهاةً»، و«ضَاهَأْتُه عليه مُضَاهأة»، إذا مالأْتُه عليه وأَعَنْتُه.

والصوابُ من القراءة في ذلك تركُ الهمزِ، لأنها القراءةُ المستفيضةُ في قرأة الأمصارِ، واللغة الفصحى.

وأما قوله: «قَاتَلَهُمْ الله»، فإنَّ معناه: لَعَنَهُم اللهُ. وكُلُّ شيءٍ في القرآن «قتل»، فهو لعن.

وقوله: «أنَّى يُؤْفَكُونَ»، يقولُ: أيَّ وجهٍ يُذْهَبُ بهم، ويحيدون؟ وكيف يَصدُّون عن الحق؟ وقد بيَّنَّا ذلك بشواهدِه فيما مضى قَبْلُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ

﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾

يقول جَلَّ ثناؤه: اتَّخذَ اليهودُ «أحبارَهُم»، وهُمُ العلماء. والنصارى «رُهْبَانَهُمْ»، وهم أصحابُ الصوامعِ وأهلُ الاجتهادِ في دِينهم منهم، «أرباباً من دون الله»، يعني: سادةً لهم من دونِ الله، يُطِيعُونَهم في معاصي الله، فَيُحِلُّون ما أَحَلُّوه لهم مما قَدْ حَرَّمَهُ اللهُ عليهم، ويُحَرِّمُون ما يُحَرِّمونَهُ عليهم مما قد أَحَلَّهُ اللهُ لهم.

وأما قوله: «والمسيحَ ابن مريم»، فإنَّ معناه: اتَّخَذُوا أحبارَهُمْ ورُهْبَانهم والمسيحَ ابن مريم أرباباً من دونِ الله.

وأما قوله: «وما أُمِرُوا إلَّا ليعبدُوا إلهاً واحداً»، فإنه يعني به: وما أُمِرَ هؤلاء اليهودُ والنصارى الذين اتَّخَذُوا الأحبارَ والرهبانَ والمسيحَ أرباباً، إلَّا أنْ يَعْبُدُوا معبوداً واحداً، وأنْ يُطيعوا إلَّا ربًّا واحداً، دونَ أربابٍ شتَّى، وهو اللهُ الذي له عبادةُ كُلِّ شيءٍ، وطاعةُ كُلِّ خَلْقٍ، المستحقُّ على جميعِ خَلْقِه الدينونةَ له بالوحدانيةِ والربوبية. «لا إله إلَّا هُوَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لا تنبغي الألوهيةُ إلَّا للواحدِ الذي أُمِرَ الخَلْقُ بعبادته، ولَزِمَتْ جميعَ العبادِ طاعتُه. «سبحانه عَمَّا يُشركون»، يقول: تنزيهاً وتطهيراً لله عما يُشرك في طاعته وربوبيته، القائلون: «عزيرٌ ابنُ الله»، والقائلونَ: «المسيحُ ابن الله»، المُتَّخِذُونَ أحبارَهُمْ أرباباً من دون الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يريدُ هؤلاءِ المُتَّخِذُونَ أحبارَهم ورهبانهم والمسيحَ ابن مريم أرباباً. «أنْ يُطْفِئُوا نُورَ الله بأفواهِهم»، يعني: أنهم يُحاولونَ بتكذيبِهم

بدينِ الله الذي ابتعثَ به رسولَهُ، وصَدّهم عنه بألسنَتِهم، أنْ يُبْطِلُوه، وهو النُّورُ الذي جعله اللهُ لِخَلْقه ضياء. «ويأبى اللهُ إلَّا أنْ يُتِمَّ نُورَهُ»، يَعْلُو دِينُه، وتظهر كَلِمَتُهُ، ويتم الحقُّ الذي بَعَثَ به رسولَهُ محمداً ﷺ. «ولو كَرِهَ» إتمامَ اللهِ إياهُ. «الكافرون»، يعني: جاحِدِيه المُكَذِّبينَ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٣٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: اللهُ الذي يأبى إلَّا إتمامَ دِينِهِ ولو كَرِهَ ذلك جاحِدُوه ومُنْكِرُوه. «الذي أرسلَ رسولَهُ»، محمداً ﷺ. «بالهدى»، يعني: ببيانِ فرائضِ اللهِ على خَلْقِه، وجميعِ اللازمِ لهم وبدينِ الحَقِّ، وهو الإسلامُ. «ليظهره على الدينِ كُلِّه»، يقولُ: لِيُعْلِيَ الإسلامَ على المِلَلِ كُلِّها. «ولو كَرِهَ المشركونَ»، باللهِ ظهورَهُ عليها.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: يا أيها الذين صَدَّقُوا اللهَ ورسولَهُ، وأقَرُّوا بوحدانيةِ رَبِّهم، إنَّ كثيراً من العلمـاءِ والقُرَّاءِ من بني إسرائيلَ من اليهودِ والنصارى. «ليأكُلُونَ أمـوالَ النـاسِ بالبـاطـلِ»، يقولُ: يأخذونَ الرِّشَى في أحكامهم، ويُحَرِّفُونَ كِتَابَ الله، ويكتبونَ بأيدِيهم كُتُباً ثم يقولون: «هذه من عِنْدِ الله»، ويأخـذونَ بهـا ثمنـاً قليلاً من سِفْلَتِهم. «ويَصُدُّونَ عن سبيلِ الله»، يقولُ: ويمنعونَ مَنْ أرادَ الدُّخولَ في الإسلام الدخولَ فيه، بِنَهْيِهم إيَّاهُمْ عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «إنَّ كثيراً من الأحبارِ والرُّهْبانِ ليأكلونَ أموالَ الناسِ بالباطلِ»، ويأكلها أيضاً معهم «الذينَ يَكْنِزُونَ الذهبَ والفضةَ ولا يُنفقونَها في سبيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بعذابٍ أليم»، يقولُ: بَشِّر الكثيرَ من الأحبارِ والرهبانِ الذينَ يأكلونَ أموالَ الناس بالباطلِ، والذين يكنزونَ الذهبَ والفِضَّةَ ولا يُنفقونَها في سبيلِ الله، بعذابٍ أليم لهم يومَ القيامةِ، مُوجعٍ من الله.

ومعنى الكَنْز: هو كُلُّ مالٍ وَجَبَتْ فيه الزكاةُ، فلم تُؤَدَّ زكاتُه. قالوا: وعَنَى بقوله: «ولا يُنفقونَها في سبيلِ الله»، ولا يؤدُّونَ زكاتها.

فالوعيدُ إنما هُوَ من اللهِ على الأموالِ التي لم تُؤَدَّ الوظائفُ المفروضةُ فيها لأهْلِهَا من الصَّدَقَةِ، لا على اقتنائِها واكتنازِها، وإنْ بلغت في الكثرة ألوف ألوف[1].

وقد كان بعضُ الصحابةِ يقولُ: هي عامةٌ في كل كَنْزٍ، غيرَ أنها خاصّة في أهل الكتاب، وإياهم عَنَى الله بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فَبَشِّرْ هؤلاءِ الذينَ يكنزونَ الذهبَ والفضةَ، ولا

(١) أطال المؤلف الطبري في تفسير هذه الآية، وأجملنا مقصود تفسيره بعباراتٍ له من مواضع متعددة واءَمْنا بينها.

يُخْرِجُونَ حُقوقَ الله منها، يا محمدُ، بعذابٍ أليم. «يومَ يُحْمَى عليها في نارِ جهنم»، فـ«اليوم» من صلة «العذاب الأليم»، كأنه قيل: يُبَشِّرُهُمْ بعذابٍ أليم، يُعَذِّبُهُم اللهُ به في يوم يُحْمَى عليها.

ويعني بقولـه: «يُحْمَى عليهـا»، تُدْخَلُ النارَ فَيُوقَدُ عليها، أي: على الذهبِ والفِضَّةِ التي كَنَزُوهَا «في نارِ جهنم فَتُكْوى بها جِباهُهُم وجُنُوبُهم وظهورُهم».

وكُلُّ شيءٍ أُدْخِلَ النارَ، فقد أُحْمِيَ إحماءً، يقال منه: «أحميتُ الحديدةَ في النارِ أحميها إحماءً».

وقوله: «فَتُكْوى بها جِباهُهُم»، يعني بالذهبِ والفضةِ المكنوزةِ، يُحْمَى عليها في نارِ جهنم، يَكْوِي الله بها. يقول: يُحْرِقُ اللهُ جباهَ كَانِزِيها وجُنوبَهم وظُهورَهُمْ. «هذا ما كَنَزْتُمْ»، ومعناه: ويُقالُ لهم: «هذا ما كنزتم في الدنيا، أيهـا الكـافرونَ الذين منعوا كنوزهم من فرائضِ اللهِ الواجبة فيها لأنفسِكم. «فذوقوا ما كنتم تَكْنِزُونَ»»، يقولُ: فيقال لهم: فاطعَمُوا عذابَ الله بما كنتم تَمنعونَ من أموالِكم حقوقَ الله وتَكْنِزُونَها مُكاثَرةً ومُباهاةً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٣٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ عِدَّةَ شهورِ السنةِ عندَ اللهِ اثنا عَشرَ شهراً في كتابِ الله، الـذي كتبَ فيه كُلَّ ما هو كائنٌ في قَضـائِـه الـذي قَضَى. «يومَ خَلَقَ السمواتِ والأرضَ منها أربعةٌ حُرُمٌ»، يقولُ: هذه الشهورُ الاثنا عشر منها أربعةٌ

أشهرٍ حرم كانت الجاهليةُ تُعَظِّمُهُنَّ، وتُحَرِّمُهُنَّ، وتُحَرِّمُ القتالَ فيهن، حتى لو لقيَ الرجلُ منهم فيهن قاتلَ أبيهِ لم يَهِجْهُ، وهُنَّ: رجب مُضر، وثلاثة متواليات، ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم.

وأما قوله: «ذلكَ الدينُ القيم»، فإنَّ معناه: هذا الذي أخبرتكُمْ به، مِنْ أنَّ عِدَّةَ الشُّهورِ عندَ اللهِ اثنا عشر شهراً في كتابِ الله، وأنَّ منها أربعةً حُرُماً: هو الدِّينُ المستقيم.

وأما قوله: «فلا تَظْلِمُوا فيهنَّ أنفُسَكُم»، فإنَّ معناه: فلا تَعْصُوا اللهَ فيها، ولا تُحِلُّوا فِيهنَّ ما حَرَّمَ اللهُ عليكم، فتكسبوا أنفسكم ما لا قِبَلَ لها به من سخطِ الله وعقابه.

ثم اختلف أهـلُ التأويلِ في الذي عادت عليه «الهاء»، و«النون» في قوله: «فيهن».

فقال بعضهم: عادَ ذلك على «الاثني العشر الشهر»، وقال: معناه: فلا تَظْلِمُوا في الأشهرِ كُلِّها أنفُسَكم.

وقـال آخـرون: بل معنى ذلك: فلا تَظْلِمُوا في الأربعةِ الأشهرِ الحرُم أنفُسَكم. و«الهاء والنون» عائدةً على «الأشهر الأربعة».

وقـال آخرون: بل معنى ذلك: فلا تَظْلِمُوا في تصييركم حرامَ الأشهرِ الأربعةِ حلالاً، وحَلالَها حراماً - أَنْفُسَكُمْ.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك عندي بالصواب، قولُ مَنْ قال: فلا تَظْلِمُوا في الأشهرِ الأربعةِ أنفسَكُمْ، باستحلالِ حَرَامِهَا، فإنَّ الله عَظَّمها وعَظَّم حُرْمَتَها.

وإنما قلنا: ذلك أوْلى بالصوابِ في تأويله، لقوله: «فلا تَظْلِمُوا فيهن»، فأخرجَ الكنايةَ عنه مُخْرَجَ الكنايةِ عن جمع ما بين الثلاثةِ إلى العشرة. وذلكَ

التوبة: ٣٦

أنَّ العربَ تقولُ فيما بين الثلاثةِ إلى العشرة، إذا كَنَتْ عنه: «فعلنا ذلكَ لثلاثِ ليالٍ خَلَوْنَ، ولأربعةِ أيامٍ بَقِينَ»، وإذا أَخْبَرَتْ عَمَّا فوقَ العشرة إلى العشرين قالت: «فعلنا ذلك لثلاثَ عشرةِ خَلَتْ، ولأربعَ عشرة مَضَتْ» ـ فكان في قوله جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «فلا تَظْلِمُوا فيهن أنفُسَكُمْ»، وإخراجِه كناية عَدَدِ الشهور التي نهى المؤمنينَ عن ظُلْمِ أنفسهم فيهن مُخْرَجَ عَدَدِ الجمعِ القليلِ من الثلاثةِ إلى العشرة، الدليلُ الواضحُ على أنَّ «الهاء والنون»، من ذِكْرِ الأشهرِ الأربعة، دونَ الاثني العشـر. لأنَّ ذلك لو كان كناية عن «الاثنى عشر شهراً»، لكان: فلا تَظْلِمُوا فيها أنفُسكم[1].

فإنْ قالَ قائلٌ: فما أنكرت أنْ يكونَ ذلك كنايةً عن «الاثني عشر»، وإنْ كان الذي ذكرتَ هو المعروفُ في كلامِ العربِ؟ فقد علمتَ أنَّ من المعروفِ من كلامها، إخراجَ كنايةِ ما بينَ الثلاث إلى العشر، بالهاء دون النون.

قيل: إنَّ ذلـكَ وإنْ كان جائـزاً، فليس الأفصحَ الأَعْرفَ في كلامِها. وتوجيهُ كلامِ اللهِ إلى الأفصحِ الأعرفِ، أَوْلى من توجيهِهِ إلى الأنكرِ.

فإنْ قال قائلٌ: فإنْ كانَ الأمرُ على ما وصفتَ، فقد يجبُ أنْ يكونَ مباحاً لنا ظُلْمُ أنفُسِنَا في غيرهن من سائرِ شهورِ السنة؟

قيل: ليس ذلك كذلك، بل ذلك حرامٌ علينا في كل وقتٍ وزمانٍ، ولكنَّ الله عَظَّمَ حُرْمَةَ هؤلاءِ الأشهرِ وشرَّفَهُنَّ على سائرِ شهورِ السنة، فَخَصَّ الذنبَ فِيهنَّ بالتعـظيم، كمـا خَصَّهُنَّ بالتشريفِ، وذلك نظير قوله: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّـلَاةِ الْـوُسْـطَى﴾، [البقـرة: ٢٣٨]. ولاشَـكَّ أنَّ الله قد أمرنا بالمحافظةِ على الصلواتِ المفروضاتِ كُلِّها بقوله: «حافظوا على الصلوات»، ولم يُبِحْ تَرْكَ المحافظةَ عليهن، بأمرِه بالمحافظةِ على الصلاةِ الوسطى، ولكنه

(١) انظر معاني القرآن للفراء: ١/ ٤٣٥.

تعالى ذِكْرُه زادَها تعظيماً، وعلى المحافظةِ عليها توكيداً، وفي تضييعها تشديداً. فكذلك ذلك في قوله: «منها أربعةٌ حُرُم ذلك الدِّينُ القيمُ فلا تَظْلِمُوا فيهنَّ أنفسكم».

وأما قوله: «وقَاتِلُوا المشركينَ كافةً كما يُقاتلونكم كافةً»، فإنه يقول جَلَّ ثناؤه: وقاتِلُوا المشركينَ بالله، أيها المؤمنونَ، جميعاً غير مختلفينَ، مُؤْتَلِفينَ غيرَ مُفْتَرِقينَ، كما يقاتِلُكُم المشركونَ جميعاً، مجتمعينَ غير مُتَفَرِّقينَ.

وأما قوله: «واعلموا أنَّ الله مع المتقين»، فإنَّ معناه: واعلموا، أيها المؤمنونَ بالله، أنكم إنْ قاتلتمُ المشركينَ كافةً، واتقيتمُ الله فأطعتُمُوه فيما أمرَكُم ونَهَاكم، ولم تُخالِفُوا أمْرَهُ فَتَعْصُوه، كانَ اللهُ معكم على عَدُوِّكم وعَدُوِّهِ من المشركينَ، ومَنْ كانَ اللهُ معه لم يَغْلِبْهُ شيءٌ، لأنَّ الله مع مَنِ اتَّقاهُ فخافه وأطاعَهُ فيما كَلَّفَهُ من أمرِهِ ونهيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ما النَّسيءُ إلاَّ زيادةٌ في الكفر.

و«النسيء» مصدرٌ من قولِ القائل: «نسأتُ في أيامِك، ونَسَأَ اللهُ في أجَلِكَ»، أي: زَادَ اللهُ في أيام عمرك ومُدَّةِ حياتِكَ، حتى تبقى فيها حيًّا. وكُلُّ زيادةٍ حدثت في شيءٍ، فالشيءُ الحادثُ فيه تلك الزيادة بسببِ ما حدثَ فيه: «نَسِيءٌ».

فيكون معناه: إنما التأخيرُ الذي يؤخِّرهُ أهلُ الشِّرْكِ بالله من شهورِ الحرم الأربعة، وتصييرهم الحرامَ منهنَّ حلالاً، والحلالَ منهن حراماً، زيادة في كُفْرِهم وجحودهم أحكامَ اللهِ وآياته.

وأما قوله: «يُحِلُّونه عاماً»، فإنَّ معناه: يُحِلُّ الذينَ كَفَرُوا النسيءَ ـ و«الهاء» في قوله: «يحلونه»، عائدةٌ عليه.

ومعنى الكلام: يُحِلُّونَ الذي أَخَّرُوا تحريمَهُ من الأشهرِ الأربعةِ الحُرُم، عاماً. «ويُحَرِّمُونَهُ عاماً لِيُواطِئُوا عِدَّةَ ما حَرَّمَ الله»، يقولُ: ليوافِقُوا بتحليلِهم ما حَلَّلُوا من الشهورِ، وتحريمهمْ ما حَرَّمُوا منها، عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللهُ. «فَيُحِلُّوا ما حَرَّمَ اللهُ زُيِّنَ لهم سُوءُ أعمالهم»، يقولُ: حُسِّنَ لهم وحُبِّبَ إليهم سيءُ أعمالِهم وقبيحها، وما خُولِفَ به أمرُ اللهِ وطاعته. «واللهُ لا يَهْدي القومَ الكافرين»، يقولُ: واللهُ لا يُوَفِّق لمحاسنِ الأفعالِ وجميلها، وما للهِ فيه رِضًى، القومُ الجاحدينَ توحيدَهُ، والمُنْكِرِينَ نبوةَ محمدٍ ﷺ، ولكنه يُخَذِّلهم عن الهدى، كما خَذَّلَ هؤلاءِ الناسَ عن الأشهرِ الحرم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾

وهذه الآية حَثٌّ من الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ المؤمنينَ به من أصحابِ رسولِه، على غزوِ الرومِ، وذلك غزوة رسول الله ﷺ تبوك.

ومعنى الكلام: ما لَكُمْ أيها المؤمنونَ، إذا قِيلَ لكم: اخْرُجُوا غُزَاةً. «في سبيل الله»، أي: في جهادِ أعداءِ الله. «اثَّاقَلْتُمْ إلى الأرضِ»، يقولُ: تثَاقلتم إلى لزومِ أرضِكم ومساكِنِكُمْ والجلوسِ فيها.

وقوله: «أَرَضِيتُمْ بالحياةِ الدنيا من الآخرة»، يقول جَلَّ ثناؤه: أرضيتم بحظِّ الدنيا والدَّعَةِ فيها، عِوَضاً من نعيمِ الآخرة، وما عندَ الله للمتقينَ في جَنَّاتِه. «فما متاعُ الحياةِ الدنيا في الآخرة»، يقولُ: فما الذي يستمتعُ به المُتَمَتِّعُونَ في الدنيا من عَيْشِهَا ولَذَّاتِها في نعيمِ الآخرةِ والكرامةِ التي أعَدَّها اللهُ لأوليائِه وأهلِ طاعته. «إلَّا قليلٌ»، يَسِيرٌ. يقول لهم: فاطْلُبُوا، أيها المؤمنونَ، نعيمَ الآخرةِ، وشرفَ الكرامةِ التي عندَ اللهِ لأوليائِه، بطاعتِه والمسارعةِ إلى الإجابةِ إلى أمرِه في النفيرِ لجهاد عَدُوِّه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ به من أصحابِ رسوله، مُتَوَعِّدَهُمْ على تركِ النَّفرِ إلى عَدُوِّهم من الرومِ: إنْ لم تَنْفِرُوا، أيها المؤمنونَ، إلى مَنْ استنفرَكُمْ رسولُ الله، يُعَذِّبْكُم اللهُ عاجلاً في الدنيا، بتركِكُم النَّفْرَ إليهم، عذاباً مُوجعاً. «ويَسْتَبْدِلْ قوماً غيرَكُمْ»، يقولُ: يستبدل اللهُ بكم نبيَّه قوماً غيرَكم، يَنفرونَ إذا اسْتُنْفِرُوا، ويُجيبُونَهُ إذا دُعُوا، ويُطيعونَ اللهَ ورسولَهُ. «ولا تَضُرُّوهُ شيئاً»، يقولُ: ولا تَضُرُّوا اللهَ، بتركِكُم النَّفِيرَ ومعصيتكم إياهُ، شيئاً، لأنه لا حاجةَ به إليكم، بَلْ أنتم أهلُ الحاجةِ إليه، وهو الغنيُّ عنكم وأنتمُ الفقراءُ. «واللهُ على كُلِّ شيءٍ قدير»، يقول جَلَّ ثناؤه: واللهُ على إهلاكِكُمْ واستبدالِ قومٍ غيركم بِكُمْ، وعلى كُلِّ ما يشاءُ من الأشياءِ، قديرٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾

التوبة: ٤٠

وهذا إعلامٌ من اللهِ أصحابَ رسولِهِ ﷺ أنَّهُ المتوكِّلُ بنصرِ رسولِهِ على أعداءِ دِينِهِ وإظهارِهِ عليهم دُونَهم، أعانُوه أو لم يُعِينُوه، - وتذكيرٌ منه لهم فِعْلَ ذلك به، وهو من العددِ في قِلَّةٍ، والعدوُّ في كَثْرَةٍ، فكيف به وهو من العَدَدِ في كثرةٍ، والعدوُّ في قلة؟

يقول لهم جَلَّ ثَنَاؤُهُ: إلَّا تَنْفِرُوا، أيها المؤمنونَ، مع رسولي إذا اسْتَنفركُم فَتَنصُروهُ، فالله ناصِرُه ومُعِينُه على عَدُوِّهِ، ومُغْنِيه عنكم وعن مَعُونَتكم ونُصْرَتِكُم، كما نَصَرَهُ «إذْ أخرجَهُ الذينَ كَفَرُوا»، باللهِ من قريشٍ من وطنِهِ ودارِهِ. «ثانيَ اثنين»، يقولُ: أخرجوه وهو أحدُ الاثنين، أي: واحد من الاثنين.

وإنما عَنَى جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقوله: «ثانيَ اثنين»، رسولَ الله ﷺ وأبا بكرٍ رضي الله عنه، لأنهما كانا اللَّذَيْنِ خَرَجَا هارِبَيْنِ من قريش إذْ هَمُّوا بقتلِ رسولِ الله ﷺ، واخْتفيا في الغار.

وقوله: «إذ هُما في الغار»، يقولُ: إذْ رسولُ الله ﷺ وأبو بكرٍ رحمةُ الله عليه، في الغار.

و«الغار»، النقبُ العظيمُ يكون في الجبل.

«إذْ يقولُ لصاحبه»، يقولُ: إذ يقولُ رسولُ الله ﷺ لصاحبه أبي بكر، «لا تحزنْ»، وذلكَ أنه خافَ من الطَّلَبِ أن يعلموا بمكانهما، فَجَزِعَ من ذلكَ، فقال له رسولُ الله ﷺ: «لا تحزنْ»، لأنَّ الله معنا واللهُ ناصرنا، فَلَنْ يعلمَ المشركونَ بنا ولن يَصِلُوا إلينا.

يقول جَلَّ ثناؤه: فقد نَصَرَهُ اللهُ على عَدُوِّهِ وهو بهذه الحالِ من الخوفِ وقِلَّةِ العَدَدِ، فكيفَ يخذلُه ويُحْوِجُه إليكم، وقد كَثَّرَ اللهُ أنصاره وعَدَدَ جُنُودِه؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فأنزلَ الله طمأنينَتَهُ وسُكُونَهُ على رسولِه ـ وقد قيل: على أبي بكر ـ «وأيَّدَهُ بجنودٍ لم تَرَوْهَا»، يقولُ: وقَوَّاهُ بجنودٍ من عندهِ من الملائكةِ، لم تروها أنتم. «وجَعَلَ كلمةَ الذين كَفَرُوا»، وهي كلمةُ الشِّرْكِ. «السُّفْلى»، لأنها قُهِرَتْ وأُذِلَّتْ، وأبطلها الله تعالى، ومَحَقَ أهْلَها، وكُلّ مقهورٍ ومغلوبٍ فهو أسفل من الغالب، والغالب هو الأعلى. «وكلمةُ الله هي العليا»، يقولُ: ودِينُ الله وتوحيدُه وقولُ لا إله إلاَّ الله، وهي كلمتُه. «العليا»، على الشركِ وأهلِه، الغالبةُ.

وأما قوله: «واللهُ عزيزٌ حكيم»، فإنه يعني: «واللهُ عزيزٌ»، في انتقامِه من أهلِ الكفرِ به، لا يقهرهُ قاهِرٌ، ولا يغلبُهُ غالبٌ، ولا ينصرُ مَنْ عاقبه ناصِرٌ. «حكيم»، في تدبيرِه خَلْقَهُ، وتصريفه إياهم في مشيئتِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾

اختلف أهلُ التأويل في معنى «الخفة» و«الثقل»، اللَّذَيْنِ أمَرَ اللهُ مَنْ كان به أحدهما بالنفرِ معه.

فقال بعضهم: معنى «الخِفَّة»، التي عَنَاها اللهُ في هذا الموضع، الشباب ومعنى «الثقل»، الشيخوخة.

وقال آخرون: معنى ذلك: مشاغيل وغير مشاغيل.

وقال آخرون: معناه: انفروا أغنياءَ وفُقَراءَ.

التوبة: ٤١

وقال آخرون: معناه: نِشَاطاً وغير نِشَاطٍ.

وقال آخرون: معنى ذلك: ذَا ضَيْعَةٍ وغيرَ ذي ضَيْعةٍ.

وقال آخرون: معناه: رُكباناً ومُشاةً.

وأولى الأقوالِ في ذلك عندنا بالصوابِ أنْ يُقالَ: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه أمَرَ المؤمنينَ بالنَّفر لجهادِ أعدائِه في سبيلِه، خِفافاً وثِقالاً. وقد يدخلُ في «الخفاف» كُلُّ مَنْ كان سهلاً عليه النفرُ لِقُوَّةِ بَدَنِه على ذلك، وصِحَّةِ جسمِه وشبابِه، ومَنْ كان ذا يُسْرٍ بمالٍ وفراغٍ من الاشتغال، وقادراً على الظهرِ والركاب. ويدخل في «الثقال» كُلُّ مَنْ كان بخلافِ ذلك، من ضعيفِ الجسمِ وعَليلِه وسَقِيمه، ومن مُعْسِرٍ من المال، ومُشْتَغِلٍ بضيعةٍ ومعاشٍ، ومَنْ كان لا ظهرَ له ولا رِكاب، والشيخُ ذُو السِّنِّ والعِيَال.

فإذ كان قد يدخلُ في «الخفاف» و«الثقال» مَنْ وَصَفْنَا من أهلِ الصفاتِ التي ذكرنا، ولم يَكُنْ الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ خصَّ من ذلك صنفاً دونَ صِنْفٍ في الكتاب، ولا على لسانِ الرسولِ ﷺ، ولا نَصْب على خُصُوصِه دليلاً، وَجَبَ أنْ يقال: إنَّ الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ أمر المؤمنينَ من أصحاب رسولِه بالنفرِ للجهادِ في سبيله خِفَافاً وثِقالاً مع رسولِه ﷺ، على كُلِّ حالٍ من أحوالِ الخِفَّةِ والثقل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ به وبرسولِه من أصحابِ رسولِ الله ﷺ: «جاهِدُوا»، أيها المؤمنونَ، الكفارَ «بأموالِكم»، فأنفِقُوها في مجاهدتهم على دِينِ الله الذي شَرَعَهُ لكم، حتى يَنْقَادُوا لكم، فيدخلوا فيه طَوْعاً أو كرهاً، أو يعطوكُم الجزيةَ عن يَدٍ صَغَاراً، إنْ كانوا أهلَ كتابٍ، أو تقتلوهم. «وأَنْفُسِكُمْ»،

يقولُ: وبأنفسكم، فقاتِلُوهم بأيديكم، يُخْزِهم الله وينْصُركم عليهم. «ذلكم خيرٌ لكم»، يقولُ: هذا الذي آمركم به من النفرِ في سبيلِ الله تعالى خِفَافاً وثِقَالاً، وجهادِ أعدائِه بأموالِكم وأنفسِكم، خيرٌ لكم من التثاقُلِ إلى الأرضِ إذا استنفرتم، والخلود إليها، والرِّضَى بالقليلِ من متاعِ الحياةِ الدنيا عِوَضاً من الآخرةِ إنْ كنتم من أهلِ العلمِ بحقيقةِ ما بُيِّنَ لكم من فضلِ الجهادِ في سبيلِ الله على القعودِ عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾

يقول جَلَّ ثناؤه للنبيِّ ﷺ، وكانت جماعةٌ من أصحابه قد استأذَنُوه في التَّخلُّفِ عنه حينَ خرجَ إلى تبوك، فأذن لهم: لو كان ما تَدْعُو إليه المتخلفينَ عنك، والمُسْتَأذِنيكَ في تركِ الخروجِ معكَ إلى مَغْزَاكَ الذي استنفرتَهُمْ إليه. «عَرَضاً قريباً»، يقولُ: غنيمةً حاضرةً. «وسَفَراً قاصِداً»، يقولُ: ومَوْضِعاً قريباً سهلاً. «لاتَّبَعُوكَ»، ونَفَرُوا معكَ إليهما، ولكنك استنفرتهم إلى موضعٍ بعيد، وكَلَّفْتَهُمْ سَفَراً شاقًا عليهم، لأنك اسْتَنْهَضْتَهُمْ في وقتِ الحرِّ، وزمانِ القَيْظِ، وحينَ الحاجةِ إلى الكِنِّ. «وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم»، يقول تعالى ذِكْرُه: وسيحلفُ لك، يا محمدُ، هؤلاءِ المُسْتَأذِنُوكَ في تَرْكِ الخروجِ معكَ، اعتذاراً منهم إليكَ بالباطلِ، لتقبلَ منهم عُذْرَهُمْ، وتأذَنَ لهم في التخلُّفِ عنكَ، باللهِ كاذبينَ «لَو استطَعْنَا لَخَرَجْنَا معكم»، يقولُ: لو أطَقْنَا الخروجَ معكم، بوجودِ السَّعةِ والمراكبِ والظهورِ وما لابُدَّ للمسافرِ والغازي منه، وصِحَّةِ البَدَنِ والقوى، لخرجنا معكم إلى عَدُوِّكُمْ. «يُهْلِكُونَ أنفُسَهم»، يقولُ: يُوجِبُونَ لأنفسهم، بِحَلْفِهِم بالله كاذبينَ، الهلاكَ والعطبَ، لأنهم يُورِثُونَها سَخَطَ

الله، ويكسبونها أليمَ عِقابه. «واللهُ يعلمُ إنهم لكاذبون»، في حلفهم بالله: «لو استطعنا لخرجنا معكم»، لأنهم كانوا للخروج مُطيقينَ، بوجودِ السبيلِ إلى ذلك بالذي كان عِنْدَهُمْ من الأموالِ، مما يحتاجُ إليه الغازي في غَزْوِه، والمسافر في سفره، وصحة الأبدان وقوى الأجسام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾

وهذا عِتابٌ من الله تعالى ذِكْرُه، عاتبَ به نبيَّه ﷺ في إذْنِه لِمَنْ أَذِنَ له في التَّخلُّفِ عنه، حين شَخَصَ إلى تبوك لغزوِ الروم، من المنافقينَ.

يقـول جَلَّ ثناؤه: «عَفَا الله عنكَ»، يا محمدُ، ما كانَ منكَ في إذنك لهؤلاءِ المنافقينَ الذين استأذنوكَ في تَرْكِ الخروجِ معكَ، وفي التخلُّفِ عنكَ، من قبل أنْ تعلمَ صِدْقَهُ من كَذِبه. «لِمَ أَذِنْتَ لَهُـمْ»، لأيِّ شيءٍ أذنتَ لهم؟. «حتى يتبينَ لكَ الذين صَدَقُوا وتَعْلَمَ الكاذبينَ»، يقولُ: ما كان ينبغي لكَ أنْ تأذن لهم في التخلُّفِ عنكَ إذْ قالوا لك: «لو استطعنا لخرجنا معكَ»، حتى تعرفَ مَنْ له العُذْرُ منهم في تخلفه، ومَنْ لا عُذْرَ له منهم، فيكون إذنك لِمَنْ أذِنْتَ له منهم على عِلْمٍ منكَ بعذره، وتعلمَ مَنِ الكاذبُ منهم المتخلفُ نِفَاقاً وشَكًّا في دِينِ الله.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾

وهـذا إعـلامٌ من الله نبيَّه ﷺ سِيمَا المنافقين: أنَّ من عَلَاماتِهم التي يُعرفونَ بها، تَخلُّفَهُم عن الجهادِ في سبيل الله، باستئذانهم رسولَ الله ﷺ في

تَرْكِهم الخروجَ معه إذا اسْتُنْفِرُوا بالمعاذيرِ الكاذبة.

يقول جَلَّ ثناؤه لنبيه محمدٍ ﷺ: يا محمدُ، لا تَأْذَنَنَّ في التخلُّفِ عنك إذا خرجتَ لغزوِ عدوِّك، لمن استأذَنَك في التخلفِ من غيرِ عُذْرٍ، فإنه لا يستأذِنُك في ذلكَ إلَّا منافقٌ لا يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ. فأمَّا الذي يُصَدِّقُ باللهِ، ويُقِرُّ بوحدانيته وبالبعثِ والدارِ الآخرةِ والثوابِ والعقابِ، فإنه لا يستأذِنُك في تركِ الغزوِ وجهادِ أعداءِ الله بمالِه ونَفْسِه. «واللهُ عليمٌ بالمتقينَ»، يقولُ: واللهُ ذُو عِلْمٍ بمن خَافَهُ، فاتقاهُ بأداءِ فرائِضه، واجتنابِ معاصيه، والمسارعةِ إلى طاعته في غزوِ عَدُوِّهِ وجهادِهم بماله ونفسه، وغيرِ ذلك من أمْرِه ونهيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: إنما يَستأذِنُك، يا محمدُ، في التخلُّفِ خِلافَك وتركِ الجهادِ معكَ، من غيرِ عُذْرٍ بَيِّنٍ، الذينَ لا يُصَدِّقُونَ باللهِ ولا يُقِرُّونَ بتوحيدِه. «وارتابتْ قُلُوبهم»، يقولُ: وشَكَّتْ قلوبهم في حقيقةِ وحدانيةِ الله، وفي ثوابِ أهلِ طاعتهِ، وعقابِه أهلَ معاصيه. «فَهُمْ في رَيْبِهم يَتَرَدَّدُونَ»، يقولُ: في شَكِّهم مُتَحَيِّرُونَ، وفي ظُلْمَةِ الحيرة مُتَرَدِّدُونَ، لا يعرفونَ حقًّا من باطلٍ، فيعملون على بصيرةٍ. وهذه صفةُ المنافقين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولو أرادَ هؤلاءِ المُسْتَأْذِنُوكَ، يا محمدُ، في تَرْكِ الخروجِ معكَ لجهادِ عَدُوِّكَ، الخروجَ معك. «لأعَدُّوا له عُدَّةً»، يقولُ: لأعَدُّوا

للخروجِ عُدَّةً، ولتأهَّبُوا للسفرِ والعَدُوِّ أُهْبَتَهُمَا. «ولَكِنْ كَرِهَ اللهُ انبعاثَهُمْ»، يعني خُروجَهم لذلك. «فَثَبَّطَهُمْ»، يقولُ: فَثَقَّلَ عليهم الخروجَ حتى اسْتَخَفُّوا القعودَ في منازِلِهم خِلافَكَ، واستثقلوا السفرَ والخروجَ معكَ، فتركوا لذلك الخروجَ. «وقِيلَ اقْعُدُوا مع القاعدينَ»، يعني: اقعدوا مع المرضى والضعفاءِ الذين لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ، ومع النساءِ والصبيانِ، واتركوا الخروجَ مع رسولِ اللهِ ﷺ والمجاهدينَ في سبيلِ اللهِ.

وكان تثبيطُ اللهِ إيَّاهُمْ عن الخروجِ مع رسولِه ﷺ والمؤمنينَ به، لِعِلْمِه بنفاقِهم وغِشِّهِمْ للإسلامِ وأهلِه، وأنهم لو خَرَجُوا معهم ضَرُّوهم ولم يَنْفَعُوا. وذكر أنَّ الذينَ استأذنوا رسولَ اللهِ ﷺ في القعودِ كانوا: «عبداللهِ بن أُبيّ بن سلول»، و«الجَدُّ بن قيس»، ومَنْ كان على مِثْلِ الذي كانا عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لو خَرَجَ، أيها المؤمنونَ، فيكم هؤلاءِ المنافقونَ. «ما زَادُوكم إلَّا خَبالًا»، يقولُ: لم يَزِيدُوكم بخروجِهم فيكم إلا فَساداً وضرًّا، ولذلك ثَبَّطتُهم عن الخروجِ معكم.

«ولأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ»، يقولُ: ولأَسْرَعُوا بركائِبِهم السَّيرَ بينكم.

وأما قوله: «يَبْغُونَكُمْ الفِتْنَةَ»، فإنَّ معنى: «يبغونكم الفتنة»، يطلبون لكم ما تفتنون به، عن مخرجكم في مغزاكم، بتثبيطهم إياكم عنه.

وأما قوله: «وفيكم سَمَّاعون لهم»، فإنَّ أهلَ التأويلِ اختلفُوا في تأويله.

فقال بعضُهم: معنى ذلك: وفيكم سَمَّاعون لحدِيثكُم لهم، يُؤَدُّونَهُ إليهم، عُيونٌ لهم عليكم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وفيكم مَنْ يسمعُ كلامَهُمْ ويُطيعُ لهم.

وأَوْلى التأويلين عندي في ذلك بالصواب، تأويلُ مَنْ قال: معناه: «وفيكم سَمَّاعونَ لحدِيثكم لهم، يُبَلِّغُونَهُ عنكم، عُيونٌ لهم»، لأنَّ الأغلبَ من كلامِ العربِ في قولهم: «سمَّاع»، وَصْفُ مَنْ وُصِفَ به أنه سماعٌ للكلام، كما قال الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ في غير موضعٍ من كتابه: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [المائدة: ٤١]، واصفاً بذلك قوماً بسماعِ الكذبِ من الحديثِ. وأمَّا إذا وَصَفُوا الرجلَ بسماعِ كلامِ الرجلِ وأمرِهِ ونهيِهِ وقبولِه منه وانتهائِه إليه، فإنما تَصِفُه بأنه «له سامعٌ مُطِيعٌ»، ولا تَكادُ تقولُ: «هو سَمَّاعٌ مطيع».

وأما قوله: «واللهُ عليمٌ بالظالمين»، فإنَّ معناه: والله ذُو عِلْمٍ بمن يُوجِّهُ أفعالَهُ إلى غيرِ وجوهها، ويَضَعُهَا في غيرِ مواضِعها، ومَنْ يستأذنُ رسولَ الله ﷺ لعذرٍ، ومَنْ يستأذِنُه شكًّا في الإسلامِ ونِفاقاً، ومَنْ يسمعُ حديثَ المؤمنينَ لِيُخْبِرَ به المنافقينَ، ومَنْ يسمعهُ لِيُسَرَّ به المؤمنونَ، ويساء بما ساءهم، لا يَخْفَى عليه شيءٌ من سرائرِ خَلْقِه وعلانيتهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لقد التمسَ هؤلاءِ المنافقونَ الفِتنةَ لأصحابكَ، يا محمدُ، التمسوا صَدَّهُمْ عن دِينهم، وحَرَصُوا على رَدِّهم إلى الكُفْرِ بالتخذيلِ عنه، كَفِعْلِ عبدِالله بن أبيّ بكَ وبأصحابكَ يوم أُحُدٍ، حين انصرفَ عنكَ بِمَنْ تَبِعَهُ من قومِه. وذلك كان ابتغاءهم ما كانوا ابتغوا لأصحابِ رسولِ الله ﷺ من

الفتنةِ من قَبْلُ. ويعني بقوله: «مِنْ قَبْلُ»، مِنْ قَبْلِ هذا. «وقَلَّبُوا لكَ الأُمورَ»، يقـولُ: وأجَـالُوا فيكَ وفي إبطالِ الدِّينِ الذي بعثكَ به اللهُ الرأيَ بالتخذيلِ عنك، وإنكارِ ما تأتيهم به، ورَدِّهِ عليكَ. «حتى جاء الحَقُّ»، يقولُ: حتى جاء نَصْرُ اللهِ. «وظَهَرَ أمرُ اللهِ»، يقولُ: وظَهَرَ دِينُ اللهِ الذي أمرَ به وافْتَرَضَهُ على خَلْقِه، وهو الإسلامُ. «وهم كارهون»، يقولُ: والمنافقونَ بظهورِ أمرِ اللهِ ونَصْرِهِ إياكَ كارهـون. وكذلك الآن، يُظْهِرُكَ اللهُ ويُظْهِرُ دِينَهُ على الذين كَفَرُوا من الرومِ وغيرِهم من أهلِ الكفرِ به، وهم كارهون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾

وذُكِرَ أنَّ هذه الآيَةَ نزلتْ في الجدِّ بن قيس.

ويعني جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقوله: «ومنهم»، ومِنَ المنافقينَ. «مَنْ يقولُ ائْذَنْ لي»، أُقِمْ فلا أشخَصُ معكَ. «ولا تَفْتِنِّي»، يقولُ: ولا تَبْتَلِني برؤيةِ نساءِ بني الأصفرِ وبناتِهم، فإنِّي بالنساءِ مُغْرَمٌ، فأخرج وآثَمُ بذلك.

وقوله: «وإنَّ جهنمَّ لمحيطةٌ بالكافرينَ»، يقولُ: وإنَّ النارَ لَمطيفةٌ بِمَنْ كَفَرَ باللهِ وجَحَدَ آياتِه وكَذَّبَ رُسُلَهُ، مُحْدِقَةٌ بهم، جامعةٌ لهم جميعاً يومَ القيامة. يقولُ: فكفى للجدِّ بن قيس وأشكاله من المنافقينَ بِصِلِيِّها خِزْياً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: يا محمدُ، إنْ يُصِبْكَ سُرورٌ بفتح اللهِ عليكَ أرضَ الرومِ في غَزاتِكَ هذه، يَسُوءِ الجَدَّ بنَ قيسٍ ونُظَراءَهُ وأشياعَهُمْ من المنافقينَ، وإنْ تُصِبْكَ مصيبةٌ بفلولِ جيشكَ فيها، يقولُ الجَدُّ ونُظَراؤُه: «قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا من قَبْلُ»، أي قد أخذنا حذرَنا بتخلُّفِنَا عن محمدٍ، وتركِ اتباعِه إلى عَدُوِّه. «مِنْ قَبْلُ»، يقولُ: مِنْ قَبْلِ أنْ تُصِيبَهُ هذه المصيبةُ. «ويَتَوَلَّوْا وهُمْ فَرِحُونَ»، يقولُ: ويَرْتَدُّوا عن محمدٍ وهُمْ فَرِحُونَ بما أصابَ محمداً وأصحابَهُ من المصيبةِ، بفلولِ أصحابِهِ وانهزامِهِم عنه، وقَتْلِ مَنْ قُتِلَ منهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مُؤَدِّباً نبيَّهُ محمداً ﷺ: «قُلْ»، يا محمدُ، لهؤلاءِ المنافقينَ الذين تَخَلَّفُوا عنكَ، لَنْ يُصِيبَنَا، أيها المرتابونَ في دِينهم. «إلَّا ما كتبَ اللهُ لنا»، في اللوحِ المحفوظِ، وقَضَاهُ علينا. «هُوَ مَوْلَانا»، يقولُ: هو نَاصِرُنَا على أعدائِه. «وعلى الله فليتوكَّلِ المؤمنونَ»، يقولُ: وعلى اللهِ فليتوكَّلِ المؤمنونَ، فإنهم إنْ يَتَوَكَّلُوا عليهِ، ولم يَرْجُوا النصرَ من عندِ غيرِه، ولم يَخَافُوا شيئاً غَيْرَهُ، يَكْفِهم أمورَهُمْ، وينصرهم على مَنْ بَغَاهُمْ وكَادَهُمْ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ۝٥٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ»، يا محمدُ، لهؤلاءِ المنافقينَ الذينَ وصفتُ لكَ صِفَتَهُمْ وبينتُ لكَ أمرهم: هل تنتظرونَ بنا إلَّا إحدى

الخَلَّتين اللتين هُمَا أحسنُ من غيرهما، إمَّا ظَفَراً بالعدوّ وفتحاً لنا بِغَلَبَتِناهُمْ، ففيها الأجرُ والغنيمةُ والسلامةُ ـ وإما قَتْلاً من عَدُوِّنا لنا، ففيه الشهادةُ، والفوزُ بالجنةِ والنجاةُ من النار. وكِلْتَاهُمَا مما نُحِبُّ ولا نَكْرَهُ. «ونحن نَتَرَبَّصُ بكم أنْ يُصِيبَكُمُ اللهُ بعذابٍ من عنده»، يقولُ: ونحنُ ننتظرُ بكم أنْ يُصِيبَكُمُ اللهُ بعقوبةٍ من عنده عاجلة، تُهْلِكُكُمْ. «أو بأيدينا»، فَنَقْتُلُكُمْ. «فَتَرَبَّصُوا إنَّا معكم مُتَرَبِّصُونَ»، يقولُ: فانتظروا إنَّا معكم مُنْتَظِرُونَ ما اللهُ فاعلٌ بنا، وما إليهُ صائرٌ أمرُ كُلِّ فريقٍ مِنَّا ومنكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ»، يا محمدُ، لهؤلاءِ المنافقينَ: أنْفِقُوا كيفَ شِئْتُمْ أموالَكُمْ في سفركم هذا وغيره، وعلى أيِّ حالٍ شئتم، من حالِ الطَّوْعِ والكره، فإنكم إنْ تُنْفِقُوها لَنْ يَتَقَبَّلَ اللهُ منكم نَفَقَاتِكم، وأنتم في شَكٍّ من دِينكم، وجهلٍ منكم بنبوةِ نَبِيِّكُم، وسُوءِ معرفةٍ منكم بثوابِ اللهِ وعقابه. «إنكم كنتم قوماً فاسقين»، يقولُ: خارجينَ عن الإيمانِ بربِّكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وما مَنَعَ هؤلاءِ المنافقينَ، يا محمدُ، أنْ تُقْبَلَ منهم نَفَقَاتُهم التي يُنْفِقُونَها في سفرهم معكَ، وفي غيرِ ذلك من السُّبُلِ، إلَّا أنهم كَفَرُوا باللهِ وبرسوله.

«ولا يأتون الصلاةَ إلَّا وهم كُسَالى»، يقولُ: لا يأتونها إلا مُتَثَاقِلينَ بها. إلا أنَّهم لا يَرْجُونَ بأدَائِهَا ثَواباً، ولا يَخافُونَ بتركها عِقَاباً، وإنما يُقيمونَها مخافةً على أنفسِهم بتركِهَا من المؤمنينَ، فإذا أَمِنُوهُمْ لم يُقِيمُوهَا. «ولا ينفقونَ»، يقولُ: ولا يُنفقونَ من أموالهم شيئاً. «إلا وهُمْ كارهون»، أنْ يُنفقوهُ في الوجهِ الذي ينفقونَهُ فيه، مما فيه تَقْوِيَةٌ للإسلامِ وأهلِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْله تَعَالَى: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٥٥﴾

معنى ذلك: إنما يُريدُ الله لِيُعَذِّبَهُمْ بها في الحياةِ الدنيا، بما ألزمَهُمْ فيها من فرائضِه، بأخذِ الزكاة والنفقةِ في سبيل الله.

وأمـا قوله: «وتَزْهَقَ أنفُسُهم وهم كافرون»، فإنه يعني ونُخْرِجُ أنفسَهُمْ فَيَمُوتُوا على كُفْرِهم باللهِ، وجُحُودِهم نُبُوَّةَ نبيِّ اللهِ محمدٍ ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ ۝٥٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويحلفُ باللهِ لكم، أيها المؤمنونَ، هؤلاءِ المنافقونَ، كَذِباً وبَاطِلاً، خَوْفاً منكم: «إنهم لمنكم» في الدِّينِ والمِلَّةِ. يقولُ الله تعالى، مُكَذِّباً لهم: «وما هُمْ مِنْكُمْ»، أي: ليسوا من أهلِ دِينكم ومِلَّتكم، بَلْ هُمْ أهلُ شَكٍّ ونفاقٍ. «ولكنهم قَوْمٌ يَفْرَقُون»، يقولُ: ولكنهم قَوْمٌ يَخافُونكم، فَهُمْ خوفاً منكم يقولونَ بألسنتهم: «إنَّا مِنْكُمْ»، ليأمَنُوا فيكم فلا يُقْتَلوا.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ

﴿أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ۝٥٧﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: لو يَجِـد هؤلاءِ المنافقون «مَلْجَأً»، يقولُ: عَصَراً يَعْتَصِرُونَ به من حِصْنٍ، ومَعْقِلاً يعتقِلون فيه منكم. «أو مغاراتٍ»، وهي الغِيرانُ في الجبال، واحِدَتُها: «مَغارة»، وهي «مفعلة»، من: «غارَ الرجلُ في الشيءِ، يَغُورُ فيه»، إذا دخلَ، ومنه قِيلَ، «غارتِ العينُ»، إذا دَخَلَتْ في الحَدَقة.

«أو مُدَّخلاً»، يقولُ: سَرَباً في الأرضِ يَدْخُلونَ فيه.

وقوله: «لَوَلَّوْا إليه»، يقولُ: لأَدْبَرُوا إليه، هَرَباً منكم. «وهم يَجْمَحُونَ». يقولُ: وهم يُسْرِعُونَ في مَشْيِهم.

وإنما وَصَفَهُمُ اللهُ بما وَصَفَهُمْ به من هذه الصِفَةِ، لأنهم إنما قَامُوا بين أَظْهُرِ أصحابِ رسولِ الله ﷺ على كُفْرِهم ونِفاقِهم وعَدَاوتِهم لهم ولما هُمْ عليه من الإيمـانِ بالله وبـرسـولـه، لأنهم كانوا في قومِهم وعشيرتِهم وفي دُورِهم وأموالِهم، فلم يقدرُوا على تَرْكِ ذلكَ وفِراقِه، فَصَانَعُوا القومَ بالنفاقِ، ودافعوا عن أنفسِهم وأموالِهم وأولادِهم بالكفرِ ودعوى الإيمانِ، وفي أَنْفُسِهم ما فيها من البُغْضِ لرسولِ الله ﷺ وأهلِ الإيمانِ به والعداوةِ لهم. فقالَ الله، واصِفَهُمْ بما في ضمائرِهم: «لو يَجِدُونَ ملجأً أو مغاراتٍ»، الآية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومن المنافقينَ الذينَ وصفتُ لك، يا محمدُ، صِفَتَهُمْ في هذه الآياتِ. «مَنْ يَلْمِزُكَ في الصدقاتِ»، يقولُ: يَعِيبُكَ في أَمْرِهَا، ويطعُنُ عليكَ فيها.

«فإنْ أُعْطُوا منها رَضُوا»، يقولُ: ليس بهم في عَيْبِهم إيَّاكَ فيها، وطَعْنِهم عليكَ بسببها، الدِّين، ولكن الغضب لأنفسهم، فإنْ أنتَ أَعْطَيْتَهُمْ منها ما يُرْضِيهم رَضُوا عنكَ، وإنْ أنتَ لم تُعْطِهم منها سَخِطُوا عليكَ وعابوك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولو أنَّ هؤلاءِ الذين يَلْمِزُونَكَ، يا محمدُ، في الصدقاتِ، رَضوا ما أَعطاهُم اللهُ ورسولُهُ من عطاءٍ، وقَسَمَ لهم من قَسْمٍ، «وقالوا حَسْبُنَا اللهُ»، يقولُ: وقالوا: كَافِينَا اللهُ، «سَيُؤْتِينا اللهُ من فَضْله ورسوله»، يقول: سيعطينا اللهُ من فضلِ خزائِنه، ورسولُه من الصدقةِ وغيرها. «إنَّا إلى الله راغبون»، يقولُ: وقالوا: إنَّا إلى الله نرغبُ في أن يُوَسِّعَ علينا من فَضْلِه، فيُغْنِينَا عن الصدقةِ وغيرِها من صِلاتِ الناسِ والحاجةِ إليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ما الصدقاتُ إلَّا للفقراءِ والمساكين، ومَنْ سَمَّاهم اللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ.

ثم اختلف أهلُ التأويلِ في صفة «الفقير» و«المسكين».

فقال بعضهم: «الفقير»، المحتاجُ المُتَعَفِّفُ عن المسألةِ، و«المسكينُ»، المحتاجُ السائل.

وقال آخرون: «الفقير»، هو ذُو الزَّمانةِ من أهلِ الحاجة، و«المسكينُ»، هو الصحيحُ الجسم منهم.

وقال آخرون: «الفقراء»، فقراءُ المهاجرينَ، و«المساكين»، مَنْ لم يُهَاجِرْ من المسلمينَ، وهو محتاجٌ.

وقال آخرون: «المسكينُ»، الضعيفُ الكَسْبِ.

وقال بعضهم: «الفقير»، من المسلمينَ، و«المسكينُ» من أهلِ الكتاب.

وأَوْلى هذه الأقوالِ عندي بالصواب، قولُ مَنْ قال: «الفقير»، هو ذُو الفَقْرِ والحاجةِ، ومع حاجته يتعفَّفُ عن مسألةِ الناسِ والتذلُّلِ لهم، في هذا الموضع، و«المسكين» هو المحتاجُ المُتَذَلِّلُ للناسِ بمسألتِهم.

وإنما قلنا إنَّ ذلك كذلك، وإنْ كان الفريقانِ لم يُعْطَيا إلاَّ بالفقر والحاجة، دونَ الذلةِ والمسألةِ، لإجماعِ الجميعِ من أهلِ العلم أنَّ «المسكينَ»، إنما يُعْطَى من الصدقةِ المفروضةِ بالفقرِ، وأنَّ معنى «المسكنة»، عند العربِ، الذِلَّة، كما قال الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾، [البقرة: ٦١]، يعني بذلك: الهونَ والذِلَّةَ، لا الفقرَ. فإذْ كان الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ قد صَنَّفَ مَنْ قسمَ له من الصدقةِ المفروضة قَسماً بالفقرِ، فجعلهم صنفين، كان معلوماً أنَّ كُلَّ صنفٍ منهم غير الآخر. وإذ كان ذلك كذلك، كانَ لاشَكَّ أنَّ المقسومَ له باسمِ «الفقير»، غير المقسومِ له باسمِ الفقر و«المسكنة»، والفقيرُ المُعْطَى ذلك باسمِ الفقيرِ المُطْلَقِ، هو الذي لا مسكنةَ فيه، والمُعْطَى باسمِ المسكنةِ والفقرِ، هو الجامعُ إلى فقرهِ المسكنةَ، وهي الذلُّ بالطَّلَبِ والمسألة.

فتأويل الكلام، إذْ كان ذلك معناه: إنما الصدقاتُ للفقراء: **المتعفِّف** منهم الذي لا يسألُ، والمتذلِّل منهم الذي يسألُ.

وقوله: «والعاملينَ عليها»، وهم السُّعَاةُ في قَبْضِها من أهلها، ووضعها في مُسْتَحِقِّيها، يُعْطَوْنَ ذلك بالسعايةِ، أغنياءَ كانوا أو فقراء.

ثُمَّ اخْتَلَفَ أهلُ التأويل في قَدْرِ ما يُعْطَى العامل من ذلك.

فقال بعضهم: يُعْطَى منه الثُّمُن.

وقال آخرون: بل يعطى على قَدْرِ عُمالته.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قولُ مَنْ قال: يُعْطَى العاملُ عليها على قدر عُمالته وأجْر مِثْلِه.

وإنما قلنا: ذلك أوْلى بالصواب، لأنَّ الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ لم يَقْسِمْ صدقةَ الأموالِ بين الأصنافِ الثمانيةِ على ثمانيةِ أسهم، وإنما عَرَّفَ خَلْقَهُ أنَّ الصدقاتِ لن تجاوزَ هؤلاءِ الأصناف الثمانية إلى غيرهم. وإذْ كان كذلك، بما سنوضح بَعْدُ، وبِمَا قَدْ أوضحناهُ في موضعٍ آخر، كان معلوماً أنَّ مَنْ أُعْطِيَ منها حقًّا، فإنما يُعْطَى على قَدْرِ اجتهاد المُعْطِي فيه. وإذا كان ذلك كذلك، وكان العاملُ عليها إنما يُعْطَى على عمله، لا على الحاجةِ التي تزولُ بالعَطِيَّةِ، كان معلوماً أنَّ الذي أعطاه من ذلك إنما هو عِوَضٌ من سَعْيِه وعملِه، وأنَّ ذلك إنما هو قدر ما يستحقُّه عِوَضاً من عملِه الذي لا يزولُ بالعطيةِ، وإنما يزولُ بالعَزْلِ.

وأما «المؤلفة قلوبهم»، فإنهم قومٌ كانوا يُتَأَلَّفُونَ على الإسلامِ، ممن لم تَصِحَّ نُصْرَتُه، استصلاحاً به نفسَه وعشيرتَهُ، كأبي سفيان بن حربٍ، وعيينةَ بن بدر، والأقرع بن حابس، ونظرائِهم من رؤساءِ القبائل.

ثم اختلف أهلُ العلم في وجود المؤلَّفَةِ اليومَ وعَدَمِهَا، وهل يُعْطَى اليومَ أحدٌ على التألُّفِ على الإسلامِ من الصدقةِ؟

فقال بعضُهم: قد بطلت المؤلفةُ قلوبهم اليومَ، ولا سَهْمَ لأحدٍ في الصدقة المفروضةِ إلاَّ لذي حاجةٍ إليها، وفي سبيل الله، أو لعاملٍ عليها.

وقال آخرون: «المؤلفة قلوبهم»، في كُلِّ زمانٍ، وحَقُّهم في الصدقاتِ.

والصوابُ من القولِ في ذلك عندي: أنَّ الله جعلَ الصدقةَ في معنيين أحدهما: سدُّ خَلَّة المسلمينَ، والآخرُ: معونةُ الإسلامِ وتقويتُه. فما كانَ في معونةِ الإسلامِ وتقويةِ أسبابه، فإنَّه يُعْطَاهُ الغنيُّ والفقير، لأنه لا يُعْطَاهُ مَنْ يُعْطَاهُ بالحاجةِ منه، إليه، وإنما يُعْطَاهُ معونةً للدِّين. وذلك كما يُعْطَى الذي يُعْطاهُ بالجهادِ في سبيلِ الله، فإنه يُعْطَى ذلك غنيًّا كانَ أو فقيراً، للغزوِ، لا لسدِّ خَلَّتـه. وكذلك المؤلفةُ قلوبهم، يُعْطَوْنَ ذلكَ، وإنْ كانوا أغنياءَ، استصلاحاً بإعْطَائِهِمُوهُ أمرَ الإسلامِ وطَلَبَ تقويتِه وتأييدِه. وقد أعطى النبيُّ ﷺ مَنْ أعطى من المؤلفةِ قلوبهم، بعد أنْ فتحَ اللهُ عليه الفتوحَ، وفشا الإسلامُ وعَزَّ أهلُه. فلا حُجَّةَ لمحتجٍّ بأنْ يقولَ: «لا يُتَألَّفُ اليومَ على الإسلامِ أحدٌ، لامتناعِ أهلهِ بكثرةِ العددِ ممن أرادَهُمْ»، وقد أعطى النبيُّ ﷺ مَنْ أعطى منهم في الحال التي وصفت.

أما قولـه: «وفي الرقـاب»، فإنـه عُنِيَ بالـرقاب، في هذا الموضع، المكاتبون، لإجماعِ الحجة على ذلك، فإن الله جعل الزكاةَ حقًّا واجباً على مَنْ أوجبهـا عليه في مالِه، يُخْرِجُهَا منه، لا يرجع إليه منها نفعٌ من عَرَضِ الدنيا، ولا عِوَض. والمعتقُ رقبةً منها، راجعٌ إليه ولاءُ مَنْ أعتقه، وذلك نَفْعٌ يعودُ إليه منها.

وأما «الغارمون»، الذين استدانوا في غيرِ معصيةِ الله، ثم لم يجدوا قضاءً في عينٍ ولا عَرَض.

وأما قوله: «وفي سبيل الله»، فإنه يعني: وفي النفقة في نُصْرَةِ دِينِ اللهِ

وطريقِهِ وشريعتهِ التي شَرَعَها لعبادِه، بقتالِ أعدائه، وذلك هو غَزوُ الكفار.

وأما قوله: : «وابن السبيل»، فالمسافرُ الذي يجتازُ من بلدٍ إلى بلد.

وقوله: «فريضةً من الله»، يقول جَلَّ ثناؤه: قَسْمٌ قَسَمَهُ اللهُ لهم، فأوجبه في أموالِ أهلِ الأموالِ لهم. «والله عليمٌ»، بمصالحِ خَلْقِه فيما فَرَضَ لهم، وفي غيرِ ذلـك، لا يَخْفَى عليه شيءٌ. فَعَلَى عِلْمٍ منـه فَرَضَ ما فَرَضَ من الصدقةِ، وبما فيها من المصلحة. «حكيمٌ»، في تدبيره خَلْقَهُ، لا يدخلُ في تدبيره خَلَلٌ.

واختلف أهلُ العلمِ في كيفيةِ قَسْمِ الصَّدَقاتِ التي ذَكَرَهَا اللهُ في هذه الآية، وهل يجبُ لكلِّ صِنفٍ من الأصنافِ الثمانية فيها حَقٌّ، أو ذلك إلى رَبِّ المال؟ ومَنْ يَتَولَّى قَسْمها، في أنَّ له أنْ يُعْطِيَ جميعَ ذلك مَنْ شاء من الأصنافِ الثمانية.

فقال عامةُ أهلِ العلم: للمتولِّي قَسْمُها ووضعُها في أيِّ الأصناف الثمانية شاء. وإنما سمَّى اللهُ الأصنافَ الثمانيةَ في الآية، إعلاماً منه خَلْقَهُ أنَّ الصدقةَ لا تخرجُ من هذه الأصنافِ الثمانيةِ إلى غيرها، لا إيجاباً لِقَسْمِهَا بين الأصنافِ الثمانية الذين ذكرهم.

وكـان بعضُ المتأخرين يقولُ: إذا تَوَلَّى رَبُّ المالِ قَسْمها، كان عليه وَضْعها في ستةِ أصنافٍ، وذلك أنَّ المؤلفةَ قلوبُهم عنده قد ذَهَبُوا، وأنَّ سَهْمَ العاملينَ يبطلُ بِقَسْمِه إيَّاها. ويزعمُ أنه لا يجزيه أنْ يُعطِي من كُلِّ صنفٍ أقلَّ من ثلاثة أنفس. وكان يقولُ: إنْ تولَّى قَسْمها الإمامُ، كان عليه أن يَقْسِمَهَا على سبعةِ أصنافٍ، لا يجزي عنده غير ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: ومن هؤلاءِ المنافقينَ جماعةٌ يُؤْذُونَ رسولَ اللهِ ﷺ ويَعِيبُونَهُ. «ويقولون هو أُذُنٌ» سامعةٌ، يسمعُ مِنْ كُلِّ أحدٍ ما يقالُ، فيقبلُه ويصدِّقُه.

وأما قوله: «يؤمنُ باللهِ»، فإنه يقولُ: يُصَدِّقُ باللهِ وحدَهُ لا شريكَ له. وقوله: «ويؤمنُ للمؤمنينَ»، يقولُ: ويُصَدِّقُ المؤمنينَ، لا الكافرينَ ولا المنافقينَ.

وهذا تكذيبٌ من اللهِ للمنافقينَ الذين قالوا: «محمدٌ أُذنٌ!»، يقول جَلَّ ثناؤه: إنما محمدٌ ﷺ مُسْتَمِعُ خَيْرٍ، يُصَدِّقُ باللهِ وبما جاء من عنده، ويصدقُ المؤمنينَ، لا أهلَ النفاقِ والكُفْرِ باللهِ.

وأما قوله: «ورحمةٌ للذين آمنُوا منكم» فمعناه: وهو رحمةٌ للذينَ آمنوا منكم. وجَعَلَهُ اللهُ رحمةً لمن اتَّبَعَهُ واهتدى بهُدَاهُ، وصَدَّقَ بما جاءَ به من عندِ رَبِّه، لأنَّ اللهَ استنقذَهُمْ به من الضلالةِ، وأورثهم باتِّباعِه جَنَّاته.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لهؤلاءِ المنافقينَ الذين يَعِيبُونَ رسولَ الله ﷺ ويقولون: «هو أُذُنٌ»، وأمثالِهم من مُكَذِّبِيه، والقائلينَ فيه الهُجْرَ والباطل، عذابٌ من اللهِ موجعٌ لهم في نارِ جهنم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٦٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنين به وبرسولِه ﷺ: يحلفُ لكم، أيها المؤمنونَ، هؤلاءِ المنافقونَ باللهِ، ليرضُوكُمْ فيما بَلَغَكُمْ عنهم من أذاهم رسولَ الله ﷺ، وذكرِهم إياهُ بالطعنِ عليه والعيبِ له، ومطابَقَتِهم سرًّا أهلَ الكفرِ عليكم - باللهِ والأيمانِ الفاجرةِ: أَنَّهُمْ ما فَعَلُوا ذلكَ، وإنهم لعلى دِينِكُمْ، ومَعَكُمْ على مَنْ خَالَفَكُمْ، يَبْتغُونَ بذلك رِضَاكُمْ. يقولُ الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «واللهُ ورسولُه أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوه»، بالتوبةِ والإنابةِ مما قالوا ونَطَقُوا. «إِنْ كانوا مؤمنينَ»، يقولُ: إِنْ كانوا مُصَدِّقينَ بتوحيدِ الله، مُقِرِّينَ بوعدِه ووعيدِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أَلَمْ يعلمْ هؤلاءِ المنافقونَ الذينَ يحلفونَ باللهِ كَذِباً للمؤمنينَ لِيُرْضُوهم، وهم مُقِيمونَ على النفاقِ، أنه مَنْ يحارب اللهَ ورسولَهُ، ويخالفهما فَيُنَاوِئْهُمَا بالخلافِ عليهما. «فإنَّ له نارَ جهنم»، في الآخرةِ. «خالداً فيها»، يقولُ: لابِثاً فيها مُقيماً إلى غيرِ نهايةٍ؟. «ذلك الخِزْيُ العظيم»، يقولُ: فَلُبْثُه في نارِ جهنم وخلودُه فيها، هو الهوانُ والذلُّ العظيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ۝٦٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يخشى المنافقونَ أنْ تُنَزَّلَ فيهم. «سورةٌ تُنَبِّئُهم بما في قلوبهم»، يقولُ: تُظْهِر المؤمنينَ على ما في قلوبهم.

وقيل: إنَّ الله أنزلَ هذه الآية على رسولِ الله ﷺ، لأنَّ المنافقينَ كانوا إذا عَابُوا رسولَ الله ﷺ، وذكروا شيئاً من أمرِه وأمرِ المسلمينَ، قالوا: «لعلَّ الله لا يُفْشِي سِرَّنا!»، فقال اللهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ لهم: «اسْتَهْزِئُوا»، مُتَهَدِّداً لهم مُتَوَعِّداً: «إنَّ الله مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ».

وأمـا قوله: «إنَّ الله مخرجٌ ما تحذرون»، فإنه يعني به: إنَّ الله مُظْهِرٌ عليكم، أيها المنافقونَ، ما كنتم تَحْذَرون أنْ تُظْهِرُوه، فأظهرَ اللهُ ذلك عليهم وفَضَحَهُمْ. فكانت هذه السورةُ تُدْعَى: «الفَاضِحَةَ».

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥﴾

يقول تعالى جَلَّ ثناؤُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ولئن سألتَ، يا محمدُ، هؤلاءِ المنافقينَ عَمَّا قالوا من الباطلِ والكذبِ، ليقولُنَّ لكَ: إنما قُلْنَا ذلكَ لعباً، وكُنَّا نخوضُ في حديثٍ لعباً وهزؤاً! يقولُ اللهُ لمحمدٍ ﷺ: قُلْ، يا محمدُ، أَبالله وآياتِ كتابهِ ورسولِه كنتم تَسْتَهزئُون؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ۝٦٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ لهؤلاءِ الذين وصفتُ لك صِفَتَهم: «لا تعتذروا»، بالباطلِ فتقولوا: «كنا نخوضُ ونلعب. «قد كفرتم»، يقولُ: قد

جَحَدْتُم الحَقَّ بقولكم ما قُلْتُمْ في رسولِ الله ﷺ والمؤمنينَ به. «بعد إيمانكم»، يقولُ: بعد تَصْدِيقكم به وإقرارِكُمْ به. «إنْ نَعْفُ عن طائفةٍ منكم نُعَذِّبْ طائفة».

وذكر أنه عُنِي: بـ«الطائفة»، في هذا الموضع، رجلٌ واحد.

واختلف أهلُ التأويل في تأويلِ ذلك.

فقال بعضهم: معناه: «إنْ نَعْفُ عن طائفةٍ منكم»، بإنكارِ ما أنكر عليكم من قبل الكفر. «نُعَذِّبْ طائفةً»، بِكُفْرِه واستهزائِه بآياتِ الله ورسولِه.

وقال آخرون: بل معنى ذلك. إنْ تَتُبْ طائفةٌ منكم فيعفو اللهُ عنها، يعذب الله طائفةً منكم بتركِ التوبة.

وأما قوله: «إنهم كانوا مجرمين»، فإنَّ معناهُ: نعذب طائفةً منهم باكتسابهم الجُرْمَ، وهو الكُفْرُ بالله، وطَعْنُهم في رسولِ الله ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ ٦٧

يقول تعالى ذِكْرُه: «المنافقونَ والمنافقاتُ»، وهم الذين يُظْهِرُونَ للمؤمنينَ الإيمانَ بألسنتهم، ويُسِرُّون الكفرَ باللهِ ورسوله «بعضهم من بعض»، يقولُ: هم صِنْفٌ واحدٌ، وأمرهُمْ واحدٌ، في إعلانِهم الإيمانَ، واستبطانِهم الكُفْرَ. «يأمرون» مَنْ قبل منهم «بالمنكر»، وهو الكفر بالله وبمحمدٍ ﷺ وبما جاء به وتكذيبه. «وينهون عن المعروفِ»، يقولُ: ويَنْهونَهُمْ عن الإيمانِ باللهِ ورسولِه، وبما جاءهم به من عند الله.

وقولـه: «ويَقْبِضُونَ أيديهم»، يقولُ: ويُمْسِكُونَ أيديهم عن النفقةِ في سبيل الله، ويَكُفُّونَها عن الصدقةِ، فيمنعونَ الذينَ فرضَ اللهُ لهم في أموالهم ما فَرَضَ من الزكاةِ حُقوقَهم.

وأما قوله: «نَسُوا الله فَنَسِيَهُمْ»، فإنَّ معناه: تَرَكُوا اللهَ أنْ يُطِيعُوهُ ويَتَّبِعُوا أمره، فتركهم اللهُ من توفيقِه وهدايتِه ورحمتِه.

قوله: «إنَّ المنافقينَ هم الفاسقون»، يقولُ: إنَّ الذين يُخَادِعُونَ المؤمنينَ بإظهارِهم لهم بألْسِنَتِهم الإيمانَ باللهِ، وهم لِلكُفْرِ مُسْتَبْطِنُونَ، هم المُفارِقُونَ طاعةَ الله، الخارجونَ عن الإيمانِ به وبرسوله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَعَدَ اللهُ المنافقينَ والمنافقاتِ والكُفَّارَ» باللهِ، «نارَ جهنم»، أنْ يُصْلِيهُمُوهَا جميعاً. «خالدينَ فيها»، يقولُ: ماكثينَ فيها أبداً، لا يَحْيَونَ فيها ولا يَمُوتونَ. «هي حَسْبُهم»، يقولُ: هي كَافِيَتُهُمْ من رحمتِه. «ولهم عذابٌ مقيم»، يقولُ: وللفريقين جميعاً: يعني من أهلِ النفاقِ والكفرِ، عندَ اللهِ «عذابٌ مقيم»، دائمٌ لا يزولُ ولا يَبِيد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ، يا محمدُ، لهؤلاءِ المنافقينَ الذين قالوا: «إنما كُنَّا نَخُوضُ ونلعب»: أباللهِ وآياتِ كتابه ورسولِه كنتم تَسْتهزئونَ؟. «كالَّذِينَ من قَبْلِكُمْ»، من الأُمَمِ الذينَ فعلوا فِعْلَكُمْ، فأهلكَهُم اللهُ، وعَجَّلَ لهم في الدنيا الخزيَ مع ما أعَدَّ لهم من العقوبةِ والنكالِ في الآخرة. يقول لهم جَلَّ ثَنَاؤُهُ: واحْذَرُوا أنْ يَحلَّ بكم من عقوبةِ الله مثل الذي حَلَّ بهم، فإنَّهم كانوا أشَدَّ منكم قُوَّةً وبَطْشاً، وأكثر منكم أموالاً وأولاداً. «فاستمتعوا بخَلاَقِهم»، يقولُ: فَتَمَتَّعُوا بنصِيبِهم وحَظِّهم من دُنياهم ودِينهم، ورَضُوا بذلك من نصيبهم في الدنيا عِوَضاً من نَصِيبِهم في الآخرة، وقد سَلَكْتُمْ، أيها المنافقونَ، سبيلَهُمْ في الاستمتاع بخَلاَقِكم. يقولُ: فعلتُمْ بدِينكُم ودُنياكُم، كما استمتعَ الأممُ الذينَ كانوا مِنْ قَبْلِكُمْ، الذينَ أَهْلَكْتُهم بخِلافِهم أمْرِي. «بخَلاَقِهم»، يقولُ: كما فَعَلَ الذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بنصيبِهم من دُنياهم ودينهم. «وخُضْتُمْ»، في الكذبِ والباطلِ على اللهِ «كالذي خاضوا»، يقولُ: وخضتم أنتم أيضاً، أيها المنافقونَ، كخوضِ تلك الأممِ قبلكم.

وأما قوله: «أولئكَ حَبِطَتْ أعمالُهم»، فإنَّ معناه: هؤلاءِ الذين قالوا: «إنما كُنَّا نخوضُ ونلعب»، وفعلوا في ذلك فِعْلَ الهالكينَ من الأممِ قَبْلَهُمْ. «حَبِطَتْ أعمالُهم»، يقولُ: ذَهَبَتْ أعمالُهم باطلاً، فلا ثوابَ لها إلا النار، لأنها كانت فيما يسخطُ الله ويكرهه. «وأولئك هم الخاسرون»، يقولُ: وأولئكَ هم المَغْبُونُونَ صَفْقَتَهُمْ، ببَيْعِهم نعيمَ الآخرةِ بخَلاَقِهم من الدنيا اليسيرِ الزهيدِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٧٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ألم يأتِ هؤلاءِ المنافقينَ الذين يُسِرُّونَ الكُفْرَ باللهِ، وينهون عن الإيمانِ به وبرسولِهِ «نَبَأُ الذينَ مِنْ قَبْلِهم»، يقولُ: خَبَرُ الأممِ الذين كانوا من قَبْلِهم، حين عَصَوْا رُسُلَنا وخالَفُوا أمرنا، ماذا حَلَّ بهم من عُقوبَتِنا؟

ثم بَيَّنَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ مَنْ أولئكَ الأمم التي قالَ لهؤلاءِ المنافقينَ أَلَمْ يأْتِهم نَبأُهُم، فقال: «قوم نوح»، ولذلك خفض «القوم»، لأنه تَرْجَمَ بهم عن «الذين»، و«الذين» في موضع خفض.

ومعنى الكلام: ألم يأتِ هؤلاءِ المنافقينَ خَبَرُ قومِ نوحٍ وصَنِيعي بهم، إذْ كَذَّبُوا رسولي نوحاً، وخالفوا أمري؟ أَلَمْ أُغرقهم بالطوفان؟

«وعاد»، يقولُ: وخبر عادٍ، إذْ عَصَوْا رسولي هوداً، أَلَمْ أُهْلِكْهُمْ بريحٍ صَرْصَرٍ عاتية؟ وخبر ثمود، إذْ عَصَوْا رسولي صالحاً، ألم أُهلِكْهُم بالرجفةِ، فأتركهم بأفنِيَتِهم خُموداً؟ وخبر قوم إبراهيمَ، إذ عَصَوْهُ وردُّوا عليه ما جاءَهُمْ بهِ من عندِ الله من الحَقِّ، ألم أَسْلُبْهُمْ النِّعمةَ، وأُهْلِكْ مَلِكَهُم نمرود؟ وخبر أصحابِ مَدْين بن إبراهيم، ألم أُهلكهم بعذابِ يومِ الظُلَّة إذْ كَذَّبُوا رسولي شعيباً؟ وخبر المُنْقَلِبةِ بهم أرضُهم، فصارَ أعلاها أَسْفَلَها، إذ عَصَوْا رسولي لوطاً، وكَذَّبُوا ما جاءهم به مِنْ عندي من الحَقِّ؟ يقول تعالى ذِكْرُه: أَفَأَمِنَ هؤلاءِ المنافقونَ الذين يستهزئونَ باللهِ وبآياتهِ ورسولِهِ، أنْ يُسْلَكَ بهم في الانتقام منهم، وتعجيلِ الخزي والنكالِ لهم في الدنيا، سبيلُ أسلافِهم من الأممِ، ويحلّ بهم بتكْذِيبهم رسولي محمداً ﷺ ما حَلَّ بهم في تكذيبهم رُسُلَنَا، إذْ أتتهم بالبينات.

وقوله: «فما كانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ»، يقول جَلَّ ثناؤه: فما أهلكَ اللهُ هذه الأممَ التي ذَكَرَ أنه أَهْلَكَهَا إلاّ بإجرامها وظُلْمِها أنفسَها، واستحقاقها من الله عظيمَ العقاب، لا ظلماً من اللهِ لهم، ولا وَضْعاً منه جَلَّ ثَنَاؤُهُ عقوبةً في غيرِ مَنْ هُوَ

لها أَهْلٌ، لأنَّ الله حكيمٌ لا خَلَلَ في تدبيره، ولا خَطأً في تقديرِه، ولكنَّ القومَ الـذين أهلكهم ظَلَمُـوا أنفسهم بمعصيةِ الله وتكذيبهم رُسُلَهُ، حتى أسخطوا عليهم رَبَّهم، فَحَقَّتْ عليهم كلمةُ العذاب فَعُذِّبُوا.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: وأما «المؤمنونَ والمؤمنات»، وهم المُصَدِّقُونَ باللهِ ورسولِهِ وآياتِ كتابه، فإنَّ صِفَتَهُم: أنَّ بعضَهم أنصارُ بعضٍ وأعوانهم. «يأمرونَ بالمعروفِ»، يقولُ: يأمرونَ الناسَ بالإيمانِ باللهِ ورسولِهِ، وبما جاءَ به من عِنْدِ الله، [«وينهون عن المنكر». . .]. «ويُقيمونَ الصلاةَ»، يقولُ: ويُؤَدُّونَ الصلاةَ المفـروضـةَ. «ويؤتـون الـزكـاة»، يقـولُ: ويُعْـطُونَ الزكاةَ المفروضةَ أَهْلَها. «ويطيعونَ اللهَ ورسولَهُ»، فيأتمرونَ لأمرِ اللهِ ورسولِه، ويَنْتَهونَ عَمَّا نَهَاهُمْ عنه. «أولئك سَيَرحَمهُمُ الله»، يقولُ: هؤلاءِ الذينَ هذه صِفَتُهم، الذين سيرحمهمُ اللهُ، فينقـذهم من عذابِـه، ويُدْخِلُهم جَنَّتَـهُ، لا أهلَ النفاقِ والتكذيبِ باللهِ ورسولِه، الناهونَ عن المعروفِ، الآمرونَ بالمُنْكَرِ، القابضونَ أيديهم عن أداءِ حَقِّ اللهِ من أموالهم. «إنَّ الله عزيزٌ حكيم»، يقولُ: إنَّ الله ذُو عِزَّةٍ في انتقامِه ممن انتقمَ مِنْ خَلْقِه على معصيتِه وكُفْرِه به، لا يَمْنَعُهُ من الانتقامِ منه مانعٌ، ولا ينصره منه ناصِرٌ. «حكيمٌ»، في انتقامِه منهم، وفي جميع أفعاله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وَعَدَ اللهُ الذينَ صَدَّقُوا اللهَ ورسوله، وأقَرُّوا به وبما جاءَ به من عندِ اللهِ، من الرجالِ والنساءِ «جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ»، يقولُ: بساتين تجري تحتَ أشجارِها الأنهارُ. «خالدينَ فيها»، يقولُ: لابثينَ فيها أبداً، مُقيمينَ لا يزولُ عنهم نَعيمُهَا ولا يَبِيدُ. «ومساكِنَ طيبةً»، يقولُ: ومنازلَ يسكنونها طيبةً.

وأما قوله: «في جناتِ عَدْنٍ»، فإنه يعني: وهذه المساكنُ الطيبةُ التي وَصَفَها جَلَّ ثَنَاؤُهُ، «في جناتِ عدن».

وقيل: «جنات عدن»، لأنها بساتينُ خُلْدٍ وإقامةٍ، لا يظعَنُ منها أحدٌ.

وقيل: إنما قيل لها: «جنات عدن»، لأنها دارُ اللهِ التي اسْتَخْلَصَها لنفسِه، ولِمَنْ شاءَ من خَلْقِه ـ من قول العرب: «عَدَنَ فلانٌ بأرضٍ كذا»، إذا أقامَ بها وخلد بها، ومنه «المَعْدِن»، ويقال: «هو في معدِن صِدْقٍ»، يعني به: أنه في أصلٍ ثابت.

وقال آخرون: معنى «جنات عدن»، جنات أعنابٍ وكُرُومٍ.

وقال آخرون: هي اسم لبُطْنانِ الجنةِ ووَسطها.

وقال آخرون: «عدن»، اسمٌ لقصر.

وقيل: هي مدينةُ الجنة.

وقيل: إنه اسم نهر.

وأما قوله: «ورِضْوَانٌ من الله أكبرُ»، فإنَّ معناه: ورِضَى الله عنهم أكبرُ من ذلكَ كُلِّه.

وابتُدِيء الخبر عن «رضوان الله» للمؤمنينَ والمؤمناتِ أنه أكبرُ مِنْ كُلِّ ما

ذكر جَلَّ ثَنَاؤُهُ، فرفع، وإنْ كان «الرضوان» فيما قد وَعَدَهُمْ. ولم يعطف به في الإعرابِ على «الجنات» و«المساكن الطيبة»، ليعلم بذلك تفضيلُ اللهِ رِضْوانَهُ عن المؤمنينَ، على سائرِ ما قَسَمَ لهم من فَضْلِه، وأَعْطَاهُمْ من كَرامتِه، نظير قولِ القائلِ في الكلامِ لآخرَ: «أَعْطَيْتُكَ ووصَلْتُكَ بكذا، وأَكْرَمْتُكَ، ورِضايَ بَعْدُ عنك أفضلُ لكَ».

«ذلك هو الفوز العظيم»، هذه الأشياءُ التي وَعَدْتُ المؤمنينَ والمؤمناتِ «هو الفوزُ العظيمُ»، يقولُ: هو الظَّفَرُ العظيمُ، والنجاءُ الجسيمُ، لأنهم ظَفِرُوا بكرامةِ الأبدِ، ونَجَوْا من الهوانِ في سَقَر، فهو الفوزُ العظيمُ الذي لا شيءَ أعظم منه.

القَوْلُ في تأويلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٧٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «يا أيها النبيُّ جاهدِ الكُفَّارَ»، بالسيفِ والسلاحِ، «والمنافقينَ».

واختلف أهلُ التأويل في صفة «الجهاد» الذي أمرَ اللهُ نَبِيَّهُ به في المنافقينَ.

فقال بعضهم: أمره بجهادِهم باليَدِ واللسانِ، وبِكُلِّ ما أطاقَ جِهَادَهُمْ به.

وقال آخرون: بل أمره بجهادِهم باللسان.

وقال آخرون: بل أمره بإقامةِ الحُدودِ عليهم.

وأَوْلى الأقوالِ في تأويلِ ذلك عندي بالصوابِ، ما قيل: من أنَّ اللهَ أمرَ نبيَّهُ ﷺ من جهادِ المنافقينَ بنحوِ الذي أمرَهُ به من جهادِ المشركين.

فإن قال قائل: فكيف تَرَكَهُم ﷺ مُقِيمينَ بين أَظْهُرِ أصحابِهِ، مع عِلْمِه بهم؟

قيل: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه إنما أَمَرَ بقتالِ مَنْ أظهرَ منهم كلمةَ الكفرِ، ثم أقامَ على إظهارِه ما أظهرَ من ذلك. وأمَّا مَنْ إذا اطُّلِعَ عليه منهم أنه تَكَلَّمَ بكلمةِ الكُفْرِ وأُخِذَ بها، أنْكَرَها ورَجَعَ عنها وقال: «إنِّي مسلمٌ»، فإنَّ حُكْمَ الله في كُلِّ مَنْ أظهرَ الإسلامَ بلسانِه، أنْ يَحقِنَ بذلك له دمه وماله، وإنْ كان معتقداً غيرَ ذلك، وتَوكَّلَ هو جَلَّ ثَناؤُهُ بسَرَائِرِهم، ولم يجعلْ للخَلْقِ البحثَ عن السرائرِ. فلذلك كانَ النبيُّ ﷺ، مع عِلْمِه بهم وإطْلاعِ اللهِ إياهُ على ضمائرهم واعتقادِ صدورهم، كان يُقِرُّهم بين أَظْهُرِ الصحابةِ، ولا يسلكُ بجهادِهم مسلكَ جهادِ مَنْ قد ناصبَه الحربَ على الشِّرْكِ بالله، لأنَّ أحدهم كانَ إذا اطُّلع عليه أنه قد قالَ قولاً كَفَرَ فيه بالله، ثم أُخِذَ به أنْكَرَهُ وأظهرَ الإسلامَ بلسانِه. فلم يَكُنْ ﷺ يأخذُه إلَّا بما أظهر له من قولِه، عند حضورِه إياهُ وعَزْمه على إمضاءِ الحُكْمِ فيه، دُونَ ما سَلَفَ من قولٍ كان نَطَقَ به قَبْلَ ذلك، ودونَ اعتقادِ ضميرِه الذي لم يُبح الله لأحدٍ الأخذَ به في الحُكْمِ، وتَوَلَّى الأخذَ به هو دُونَ خَلْقِه.

وقولُه: «واغلظ عليهم»، يقولُ تعالى ذِكْرُه: واشْدُدْ عليهم بالجهادِ والقتالِ والإرْهاب.

وقولُه: «ومأواهم جهنَّمُ»، يقولُ: ومَسَاكِنُهم جهنَّمُ، وهي مَثْواهم ومأواهم، «وبِئْسَ المصير». يقولُ: وبِئْسَ المكانُ الذي يُصَارُ إليه جهنَّمُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ**

﴿ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾

إن الله تعالى أخبرَ عن المنافقينَ أنَّهُمْ يَحْلِفُونَ بالله كَذِباً على كلمةِ كُفْر تَكَلَّمُوا بها، أنهم لم يقولوها.

وأما قوله: «وهَمُّوا بما لَمْ يَنالُوا»، فإنَّ أهلَ التأويلِ اختلفوا في الذي كان هَمَّ بذلك، وما الشيء الذي كانَ همَّ به.

فقال بعضهم: هو رَجُلٌ من المنافقينَ، وكان الذي هَمَّ به، قتلَ ابنِ امرأتِه الذي سمعَ منه ما قالَ، وخَشِيَ أنْ يفشيه عليه.

وقال آخرون: كان الذي هَمَّ، رجلاً من قريش ـ والذي هَمَّ به، قتلَ رسولِ الله ﷺ.

وقال آخرون: الذي هَمَّ، عبدالله بن أبيّ بن سلول، وكانَ هَمُّهُ الذي لم يَنَلْهُ، قوله: ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾، [المنافقون: ٨]، من قول قتادة، وقد ذكرناه.

وقوله: «وما نَقَمُوا إلاَّ أنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ ورسولُه من فَضْلِه»، ذكر لنا أنَّ المنافقَ الذي ذَكَرَ اللهُ عنه أنه قالَ كلمةَ الكُفْرِ، كان فقيراً فأغناهُ الله بأنْ قُتِلَ له مولًى، فأعطاهُ رسولُ الله ﷺ دِيَتَهُ. فلما قالَ ما قالَ، قالَ اللهُ تعالى: «وما نَقَمُوا»، يقولُ: ما أَنْكَرُوا على رسولِ الله ﷺ شيئاً. «إلاَّ أنْ أغناهُمُ اللهُ ورسولُه من فضله».

وأما قوله: «فإنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيراً لهم»، يقول تعالى ذِكْرُه: فإنْ يَتُبْ هؤلاءِ القائلونَ كلمةَ الكُفْرِ من قِبَلِهم الذي قالُوه فرجَعُوا عنه، يَكُ رُجُوعُهُمْ وتَوْبَتُهم من ذلك، خيراً لهم من النفاق. «وإنْ يَتَولَّوْا»، يقولُ: وإنْ يُدْبِرُوا عن التوبةِ،

فَيَأْتُوهَا ويُصِرُّوا على كُفْرِهم، «يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عذاباً أليماً»، يقولُ: يعذبهم عذاباً موجعاً في الدنيا، إمَّا بالقتلِ، وإما بعاجلِ خزيٍ لهم فيها، ويعذبهم في الآخرةِ بالنار.

وقوله: «وما لهم في الأرضِ من وَليٍّ ولا نصير»، يقولُ: وما لهؤلاءِ المنافقينَ إنْ عَذَّبَهُمُ اللهُ في عاجل الدنيا. «من وليٍّ»، يُواليه على مَنْعِه من عقابِ الله. «ولا نصير» يَنْصُرُهُ من الله فينقِذُهُ من عقابه. وقد كانوا أهلَ عِزٍّ ومَنعةٍ بعشائرِهم وقومِهم، يمتنعونَ بهم مِمَّنْ أرادَهُمْ بسوءٍ، فأخبرَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أنَّ الذين كانوا يمنعونهم مِمَّنْ أرادَهُمْ بسوءٍ من عشائرِهم وحلفائهم، لا يمنعونهم من الله ولا ينصرونهم منه، إن احتاجُوا إلى نَصْرِهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومن هؤلاءِ المنافقينَ الذينَ وَصَفْتُ لكَ، يا محمدُ، صِفَتَهُم. «مَنْ عاهَـدَ الله»، يقولُ: أَعْطَى اللهَ عهداً. «لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِه»، يقـولُ: لئن أعطانا اللهُ من فضله، ورَزَقَنا مالاً، ووسَّع علينا من عنده. «لَنَصَّدَّقَنَّ»، يقول لَنُخْرِجَنَّ الصدقةَ من ذلكَ المالِ الذي رزقنا ربُّنا. «ولَنَكُونَنَّ من الصالحينَ»، يقولُ: ولَنَعْمَلَنَّ فيها بعَمَلِ أهلِ الصلاحِ بأموالهم، من صِلَةِ الرَّحِمِ به، وإنفاقِه في سبيلِ الله. يقولُ الله تبارك وتعالى: فَرزَقَهُمْ اللهُ وآتاهُمْ من فَضْلِه. «فلما آتاهُمُ اللهُ من فضله بَخِلُوا به»، بفضلِ اللهِ الذي آتاهم، فلم يَصَّدَّقُوا منه، ولم يَصِلُوا منه قرابةً، ولم يُنْفِقُوا منه في حَقِّ الله. «وتَوَلَّوْا»، يقولُ:

وأدْبَرُوا عن عَهْدِهم الذي عاهَدُوه اللهَ. «وهُمْ مُعْرِضُونَ»، عنه. «فأعْقَبَهُمْ» الله. «نِفَاقاً في قلوبهم»، ببُخْلِهم بحقِّ الله الـذي فَرَضَهُ عليهم فيما آتاهم من فضله، وإخلافِهم الوعدَ الذي وَعَدُوا اللهَ، ونَقْضِهم عَهْدَهُ في قلوبهم. «إلى يوم يَلْقَوْنَهُ بما أخْلَفُوا اللهَ ما وَعَدُوه»، من الصَّدَقَةِ والنفقةِ في سبيله. «وبما كانوا يَكْـذِبُونَ»، في قِيْلِهم، وحَرَمهم التوبةَ منه، لأنه جَلَّ ثَنَاؤُهُ اشترطَ في نِفاقِهم أنَّه أعْقَبَهُمُوه إلى يوم يَلْقَوْنَهُ، وذلك يوم مَمَاتِهم وخُروجِهم من الدنيا.

في هذه الآية، الإبانةُ من الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ عن علامةِ أهلِ النفاقِ، أعني في قوله: «فأعقبهم نِفاقاً في قُلوبهم إلى يوم يَلْقَونَهُ بما أخْلَفُوا اللهَ ما وعدوه وبما كانوا يكذبون».

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝٧٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أَلَمْ يعلمْ هؤلاءِ المنافقونَ الذينَ يكفرونَ بالله ورسوله سِرًّا، ويُظْهِرُونَ الإيمانَ بهما لأهلِ الإيمانِ بهما جهراً. «أنَّ الله يَعْلَمُ سِرَّهم»، الـذي يُسِـرُّونـه في أنفسهم، من الكفـرِ به وبـرسـوله. «ونجواهم»، يقولُ: «ونجواهم»، إذا تَناجَوا بينهم بالطَّعْنِ في الإسلام وأهلِهِ، وذكرِهم بغيرِ ما ينبغي أن يُذْكَرُوا به، فَيَحْذَرُوا من اللهِ عقوبَتَهُ أنْ يُحِلَّها بهم، وسطوته أنْ يُوقِعَهَا بهم، على كُفْرِهم باللهِ وبرسولِه، وعَيْبِهم للإسلامِ وأهلِهِ، فينزعوا عن ذلك ويَتُوبوا منه. «وأَنَّ الله عَلَّامُ الغيوب»، يقولُ: أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الله عَلَّامُ ما غابَ عن أسمـاعِ خَلْقِـه وأبصـارهم وحـواسِّهم، ممـا أَكَنَّتْـهُ نُفوسهم، فلم يَظْهَرْ على جوارِحهم الظاهرة، فينهاهم ذلك عن خداعِ أوليائه بالنفاقِ والكذبِ، ويزجرهم عن إضمارِ غيرِ ما يُبْدُونَهُ، وإظهارِ خلافِ ما يعتقدونه؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الذين يلمزون المُطَّوِّعينَ في الصدقةِ على أهلِ المَسْكَنةِ والحاجةِ بما لم يُوجِبهُ اللهُ عليهم في أموالهم، ويطعنونَ فيها عليهم بقولهم: «إنما تَصَدَّقُوا به رياءً وسُمْعة، ولم يريدوا وجهَ الله»، ويلمزون الذينَ لا يجدونَ ما يَتصدَّقونَ به إلا جهدهم، وذلك طاقتهم، فينتقِصُونَهُمْ ويقولون: «لقد كانَ اللهُ عن صَدَقَةِ هؤلاءِ غنيًّا!»، سخريةً منهم بهم. «فيسخرونَ منهم سَخِرَ اللهُ منهم».

«ولهم عذاب أليم»، يقولُ: ولهم مِنْ عندِ الله يومَ القيامةِ عذابٌ موجعٌ مؤلم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ادْعُ اللهَ لهؤلاءِ المنافقينَ، الذين وصفتُ صِفَاتِهم في هذه الآياتِ، بالمغفرةِ، أو لا تَدْعُ لَهُمْ بها.

وهذا كلامٌ خَرَجَ مخرجَ الأمر، وتأويله الخبر، ومعناهُ: إنِ استغفرت لهم، يا محمدُ، أو لَمْ تَسْتَغْفِرْ لهم، فَلَنْ يغفرَ اللهُ لهم.

وقوله: «إنْ تستغفرْ لهم سبعينَ مرة فَلَنْ يغفرَ اللهُ لهم»، يقولُ: إنْ تسأل لهم أن تُسْتَر عليهم ذُنُوبهم بالعفوِ منه لهم عنها، وترك فَضِيحَتِهم بها، فلن يَسْتُرَ

اللهُ عليهم، ولَنْ يعفوَ لهم عنها، ولكنه يَفْضَحُهم بها على رؤوسِ الأشهادِ يومَ القيامة. «ذلك بأَنَّهم كَفَرُوا باللهِ ورسوله»، يقول جَلَّ ثناؤه: هذا الفِعْلُ من اللهِ بهم، وهو تَرْكُ عَفْوِه لهم عن ذنوبِهم، من أجلِ أنهم جَحَدُوا توحيدَ الله ورسالَةَ رسولِه. «واللهُ لا يهدي القومَ الفاسقينَ»، يقولُ: واللهُ لا يُوفِّقُ للإيمانِ به وبرسوله، مَنْ آثَرَ الكُفْرَ به والخروجَ عن طاعتِه، على الإيمانِ به وبرسوله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فَرِحَ الذينَ خَلَّفَهُمْ اللهُ عن الغَزْوِ مع رسولِه والمؤمنينَ به وجهاد أعدائِه «بمقعدِهم خِلافَ رسولِ الله»، يقولُ: بجلوسِهم في منازلِهم. «خِلافَ رسولِ الله»، يقول: على الخِلافِ لرسولِ الله في جُلوسِه ومقعده. وذلك أنَّ رسولَ الله ﷺ أمَرَهُم بالنَّفْرِ إلى جهادِ أعداءِ الله، فخالفوا أمْرَهُ وجلسوا في منازلهم.

وقوله: «وكَرِهُوا أنْ يُجاهِدُوا بأموالِهم وأنفسِهم في سبيلِ الله»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وكَرِهَ هؤلاءِ المُخَلَّفُونَ أنْ يَغْزُوا الكفارَ بأموالِهم وأنفسِهم. «في سبيل الله»، يعني: في دِينِ اللهِ الذي شَرَعَهُ لعبادِه لينصروه، وميلاً إلى الدعة والخَفْضِ، وإيثاراً للراحةِ على التعبِ والمشقةِ، وشحًّا بالمالِ أنْ ينفقوه في طاعةِ الله.

«وقالوا لا تنفروا في الحَرِّ»، وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ استنفرهم إلى هذه الغزوةِ، وهي غزوةُ تبوك، في حَرٍّ شديد، فقال المنافقون بعضهم لبعضٍ: «لاتَنْفِرُوا في الحَرِّ»، فقال الله لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ» لهم، يا محمدُ. «نارُ

جهنم»، التي أعدَّهَا الله لمن خالفَ أمْرَهُ وعَصَى رسولَهُ. «أشد حرًّا»، من هذا الحرِّ الذي تتواصون بينكم أنْ لا تنفروا فيه. يقولُ: الذي هو أشدُّ حراً، أحرى أنْ يُحْذَرَ ويُتَّقى، مِنَ الذي هو أقلهما أذًى. «لو كانوا يفقهون»، يقول: لو كانَ هؤلاءِ المنافقونَ يفْقَهُونَ عن اللهِ وَعْظَهُ، ويَتدبَّرونَ آيَ كِتابهِ، ولكنَّهم لا يفقهونَ عن اللهِ، فهم يَحْذَرُونَ من الحرِّ أقلَّهُ مكروهاً وأخفَّه أذًى، ويواقِعُونَ أشدَّه مكروهاً، وأعْظَمَهُ على مَنْ يَصْلاَهُ بلاءً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فَرِحَ هؤلاءِ المُخَلَّفُونَ بمقعدِهم خِلافَ رسولِ الله، فَلْيَضْحَكُوا فَرِحينَ قليلاً في هذه الدنيا الفانيةِ بمقعدِهم خِلافَ رسولِ الله، ولَهْوِهم عن طاعةِ رَبِّهم، فإنهم سيبكونَ طويلاً في جهنم مكانَ ضحكهم القليل في الدنيا. «جزاء»، يقولُ: ثواباً مِنَّا لهم على معصيتهم، بتركِهم النَّفْرَ إذ اسْتُنْفِرُوا إلى عَدُوِّهم، وقعودِهم في منازلهم خِلافَ رسولِ الله. «بما كانوا يكسبون»، يقولُ: بما كانوا يَجْتَرِحُونَ من الذنوب.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ۝٨٣﴾

يقول جَلَّ ثناؤُه لنبيه محمدٍ ﷺ: فإنْ رَدَّكَ الله، يا محمدُ، إلى طائفةٍ من هؤلاءِ المنافقينَ من غزوتك هذه. «فاستأذنوكَ للخروج» معكَ في أخرى غيرِها، «فَقُلْ» لهم. «لَنْ تَخْرُجُوا معيَ أبداً ولَنْ تُقَاتِلُوا معي عدوًّا إنكم رَضِيتُمْ

بالقُعـودِ أوَّلَ مرة»، وذلـك عنـد خروجِ النبيِّ ﷺ إلى تبـوك. «فاقعدوا مع الخَالفِينَ»، يقولُ: فاقعدوا مع الذين قَعَدُوا من المنافقينَ خِلافَ رسولِ الله ﷺ، لأنكم منهم، فاقْتَدُوا بِهَدْيِهِم، واعْمَلُوا مِثْلَ الذي عَمِلُوا من معصيةِ الله، فإنَّ الله قد سَخِطَ عليكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾

يقول جَلَّ ثناؤه لنبيه محمدٍ ﷺ: ولا تُصَلِّ، يا محمدُ، على أحدٍ ماتَ من هؤلاءِ المنـافقينَ الـذين تَخَلَّفُوا عن الخروجِ معكَ أبداً. «ولا تَقُمْ على قَبْرِه»، يقولُ: ولا تَتولَّ دَفْنَهُ وتقبيره.

«إنهم كفروا بالله»، يقولُ: إنهم جَحَدُوا توحيدَ الله ورسالةَ رسوله ـ وماتوا وهم خارجـونَ من الإسلامِ، مُفَارِقُونَ أمرَ الله ونهيه.

وقد ذُكِرَ أنَّ هذه الآيةَ نزلتْ حين صَلَّى النبي ﷺ على عبدالله بن أبيّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ولا تُعْجِبْكَ، يا محمدُ، أموالُ هؤلاءِ المنافقينَ وأولادُهم، فَتُصَلِّيَ على أحَدِهم إذا ماتَ وتقومَ على قبره، من أجلِ كَثْرَةِ مالِه وولدِه، فإنِّي إنما أعطيتُه ما أعطيتُه من ذلك لأُعَذِّبَهُ بها في الدنيا بالغُمومِ والهُمومِ، بما أُلْزِمُهُ فيها من المؤنِ والنفقاتِ والزكواتِ، وبما يَنُوبُهُ فيها من الـرَّزايا والمصيباتِ، «وتَزْهَقَ أنفسُهم»، يقولُ: وليموتَ فتخرجَ نَفْسُه من جَسَدِه، فيفارقَ ما أعطيتُه من المالِ والولدِ، فيكون ذلك حسرةً عليه عند موتِه،

ووبالاً عليه حينئذٍ، ووبالاً عليه في الآخرةِ، بموتهِ جاحداً توحيدَ الله، ونُبُوَّةَ نبيهِ محمدٍ ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ۝٨٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا أُنزِلَ عليكَ، يا محمدُ، سورةٌ من القرآنِ، بأنْ يُقالَ لهؤلاءِ المنافقينَ: «آمِنُوا باللهِ»، يقولُ: صَدِّقُوا باللهِ. «وجاهدوا مع رسوله»، يقولُ: اغْزُوا المشركينَ مع رسولِ الله ﷺ. «استأذنَكَ أُولُو الطَّوْلِ منهم»، يقولُ: استأذنك ذَوُو الغِنَى والمالِ منهم في التَّخَلُّفِ عنكَ، والقعودِ في أهلِه. «وقالوا ذَرْنَا»، يقولُ: وقالوا لكَ: دَعْنَا، نَكُنْ مِمَّنْ يقعدُ في منزلِه مع ضُعفاءِ الناسِ ومَرْضَاهُمْ، ومَنْ لا يَقْدِرُ على الخروجِ معكَ في السفرِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٨٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: رَضِيَ هؤلاءِ المنافقونَ - الذينَ إذا قِيلَ لهم: آمِنُوا باللهِ وجاهدوا مع رسولِه، استأذنكَ أهلُ الغِنى منهم في التخلُّفِ عن الغزوِ والخروجِ معكَ لقتالِ أعداءِ الله من المشركينَ - أنْ يكونوا في منازلِهم، كالنساءِ اللواتي ليسَ عليهنَّ فَرْضُ الجهاد، فَهُنَّ قعودٌ في منازلِهنَّ وبيوتِهنَّ.

«وطُبِعَ على قُلوبهم»، يقولُ: وخَتَمَ اللهُ على قلوبِ هؤلاءِ المنافقينَ. «فهم لا يفقهون»، عن اللهِ مواعِظَهُ، فَيَتَّعِظُونَ بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لم يُجاهِد المنافقونَ الذين اقْتَصَصْتُ قَصَصَهم المشركينَ، لكن الرسول محمد ﷺ، والذين صدقُوا الله ورسولَهُ معه، هُمُ الذين جَاهَدُوا المشركينَ بأموالِهم وأنفسِهم، فأنفقوا في جهادِهم أموالهم، وأَتْعَبُوا في قتالهم أنْفُسَهم وبَذَلُوها. «وأولئك»، يقولُ: وللرسولِ وللذينَ آمنوا معه، الذين جَاهَدُوا بأموالهم وأنفسهم. «الخيراتُ»، وهي خيراتُ الآخرةِ، وذلك: نِسَاؤُها، وجَنَّاتُها، ونَعِيمُهَا.

«وأولئكَ هم المفلحون»، يقولُ: وأولئك هُمُ المُخَلَّدُونَ في الجَنَّاتِ، البَاقُونَ فيها، الفائزونَ بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أعَدَّ اللهُ لرسولِهِ محمدٍ ﷺ وللذينَ آمنوا معه «جناتٍ»، وهي البساتينُ، تجري من تحتِ أشجارِها الأنهارُ. «خالدينَ فيها»، يقول: لابثينَ فيها، لا يَمُوتُونَ فيها، ولا يَظْعَنُونَ عنها. «ذلك الفوزُ العظيم»، يقولُ: ذلكَ النجاءُ العظيم، والحَظُّ الجزيل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وجاء»، رسولَ الله ﷺ «المُعَذِّرُونَ من الأعرابِ لِيُؤْذَنَ لهم»، في التَّخلُّفِ. «وقَعَدَ»، عن المجيءِ إلى رسولِ الله ﷺ والجهادِ معه «الذين كَذَبُوا اللهَ ورسولَهُ»، وقالوا الكَذِبَ، واعْتَذَرُوا بالباطلِ منهم. يقول تعالى ذِكْرُه: سيُصِيبُ الذين جَحَدُوا توحيدَ الله ونبوةَ نبيهِ محمدٍ ﷺ، منهم عَذَابٌ أليم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: ليس على أَهْلِ الزَّمَانةِ وأهلِ العَجْزِ عن السفرِ والغـزوِ، ولا على المَرْضَى، ولا على مَنْ لا يجدُ نفقةً يَتَبَلَّغُ بها إلى مَغْزاهُ «حَـرَجٌ» - وهو الإثمُ - يقولُ: ليسَ عليهم إثمٌ، إذا نَصَحُوا للهِ ولرسولِه في مَغِيبهم عن الجهادِ مع رسولِ الله ﷺ. «ما على المُحْسِنينَ من سبيل»، يقولُ: ليسَ على مَنْ أَحْسَنَ فنصحَ للهِ ولرسولِه في تَخَلُّفِه عن رسولِ الله ﷺ عن الجهادِ معه، لِعُذْرٍ يُعْذَرُ به، طريقٌ يتطرَّقُ عليه فيعاقب من قِبَلِهِ. «والله غفورٌ رحيم»، يقولُ: والله سَاتِرٌ على ذُنوبِ المحسنينَ، يَتَغَمَّدُها بعفوِه لهم عنها. «رحيمٌ»، بهم، أنْ يُعاقِبَهُمْ عليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: ولا سبيلَ أيضاً على النفر الذينَ إذا ما جاءوك،

لِتَحْمِلَهُمْ. يسألونكَ الحُمْلانَ، لِيَبْلُغوا إلى مَغْزاهم لجهادِ أعداءِ اللهِ معكَ، يا محمدُ، قُلْتَ لهم: لا أجِدُ حَمُولةً أَحْمِلُكُمْ عليها. «تَوَلَّوْا»، يقولُ: أَدْبَرُوا عنكَ، «وأعينُهم تَفِيضُ من الدَّمْعِ حَزَناً»، وهم يَبْكُونَ من حزنٍ على أنهم لا يَجِدُونَ ما يُنفِقونَ، ويَتَحَمَّلُونَ به للجهادِ في سبيلِ اللهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٩٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ما السبيلُ بالعقوبةِ على أهلِ العُذْرِ، يا محمدُ، ولكنها على الذين يستأذنونكَ في التَّخَلُّفِ خِلافَك، وتركِ الجهادِ معكَ، وهُمْ أهلُ غِنَى وقوّةٍ وطاقةٍ للجهادِ والغزوِ، نِفاقاً وشَكًّا في وَعْدِ اللهِ ووعيده. «رَضُوا بأنْ يكونوا مع الخوالفِ»، يقولُ: رَضُوا بأنْ يجلسوا بعدكَ مع النساء ـ وهُنَّ «الخوالف»، خَلْفَ الرجالِ في البيوت، ويَتْرُكُوا الغزوَ معكَ، «وطَبَعَ اللهُ على قلوبهم»، يقولُ: وخَتَمَ اللهُ على قلوبهم بما كَسَبُوا من الذنوبِ، «فهم لا يعلمون»، سُوءَ عاقبتهم، بِتَخَلُّفِهم عنكَ، وتركهم الجهادَ معكَ، وما عليهم من قبيحِ الثناءِ في الدنيا، وعظيمِ البلاءِ في الآخرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٩٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يعتذرُ إليكم، أيها المؤمنونَ باللهِ، هؤلاءِ المُتَخَلِّفُونَ

خِلَافَ رسولِ الله ﷺ، التاركونَ جِهادَ المشركينَ معكم من المنافقينَ، بالأباطيلِ والكذبِ، إذا رجعتم إليهم من سفركم وجهادكم. «قُلْ»، لهم، يا محمدُ، «لا تَعْتَذِرُوا لن نُؤْمِنَ لكم»، يقولُ: لن نُصَدِّقَكُمْ على ما تقولون. «قد نَبَّأَنا اللهُ من أخبارِكم»، يقولُ: قد أخبرنا الله من أخبارِكم، وأعْلَمَنا من أمرِكم ما قَدْ عَلِمْنا به كَذِبَكُمْ. «وسيرى اللهُ عَمَلَكُمْ ورسولُه»، يقولُ: وسيرى الله ورسولُه فيما بَعْدُ عَمَلَكُمْ، أتتُوبُونَ من نِفاقِكم، أَمْ تُقِيمُونَ عليه؟ «ثم تُرَدُّونَ إلى عَالمِ الغيبِ والشهادة»، يقولُ: ثم تُرْجَعُونَ بعد مماتِكم «إلى عالمِ الغيب والشهادة، يعني الذي يَعْلَمُ السِرَّ والعلانيةَ الذي لا يَخْفَى عليه بواطنُ أمورِكم وظواهِرهَا. «فَيُنَبِّئُكُمْ بما كُنْتُمْ تَعملون»، فَيُخْبِرُكُمْ بأعمالِكم كلها سَيِّئِها وحَسَنِها، فيجازيكم بها: الحَسَنَ منها بالحسنِ، والسيِّءَ منها بالسيِّء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝٩٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: سَيَحْلِفُ، أيها المؤمنونَ بالله، لَكُمْ هؤلاءِ المنافقونَ الذينَ فَرِحُوا بمقعدِهم خِلافَ رسولِ الله. «إذا انْقَلَبْتُمْ إليهم»، يعني: إذا انصرفتُمْ إليهم من غزوكم. «لِتُعْرِضُوا عنهم»، فلا تُؤَنِّبُوهُمْ. «فأعرِضُوا عنهم»، يقول جَلَّ ثناؤُه للمؤمنينَ: فَدَعُوا تأنِيبَهُمْ، وخَلُّوهُمْ وما اخْتارُوا لأنفسِهم من الكُفْرِ والنفاقِ. «إنهم رِجْسٌ ومأواهم جهنَّمُ»، يقولُ: إنهم نَجَسٌ.

«ومأواهُمْ جَهَنَّمُ»، يقولُ: ومَصِيرُهُم إلى جَهَنَّمَ، وهي مسكنهم الذي يأْوُونَهُ في الآخرةِ. «جَزَاءً بما كانوا يَكْسِبُونَ»، يقولُ: ثَواباً بأعمالِهم التي كانوا يعملونها في الدنيا من معاصي الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يحلفُ لكم، أيها المؤمنونَ باللهِ، هؤلاءِ المنافقونَ، اعتذاراً بالباطلِ والكَذِبِ «لِتَرْضَوْا عنهم فإنْ تَرْضَوْا عنهم فإنَّ اللهَ لا يَرْضَى عن القومِ الفاسقين»، يقولُ: فإنْ أنتم، أيها المؤمنونَ، رَضِيتُمْ عنهم وقَبِلْتُمْ مَعْذِرَتَهُمْ، إذْ كنتم لا تعلمونَ صِدْقهم من كَذِبهم، فإنَّ رِضَاكم عنهم غيرُ نافِعهم عندَ الله، لأنَّ الله يعلمُ من سرائرِ أمْرِهم ما لا تَعلمونَ، ومن خَفِيِّ اعتقادِهم ما تَجهلُونَ، وأنهم على الكفرِ بالله (مقيمون، وأنهم هم الفاسقون)[1]، يعني أنهم الخارجونَ من الإيمانِ إلى الكُفْرِ باللهِ، ومن الطاعةِ إلى المعصية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الأعرابُ أشدُّ جُحُوداً لتوحيدِ الله، وأشدُّ نِفاقاً، من أهلِ الحَضَرِ في القرى والأمصار. وإنما وَصَفَهُمْ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بذلك، لجفائِهم، وقَسْوةِ قلوبهم، وقِلَّةِ مُشَاهَدَتِهم لأهلِ الخير، فهم لذلك أقسى قُلوباً، وأقلُّ عِلْماً بحقوق الله.

وقوله: «وأجْدَرُ أنْ لا يَعْلَمُوا حُدودَ ما أنزلَ اللهُ على رسولِهِ»، يقولُ: وأخْلَقُ أنْ لا يعلموا حُدودَ ما أنزلَ اللهُ على رسوله، وذلك فيما قال قتادة: السُّنن.

---

(١) ما بين العضادتين إضافة منا بدل كلام سقط من المخطوط.

وقوله: «واللهُ عليم حكيم»، يقولُ: «والله عليم»، بِمَنْ يَعْلَمُ حُدودَ ما أنـزلَ على رسولِه، والمنافقِ من خَلْقِه، والكافرِ منهم، لا يَخْفَى عليه منهم أَحَدٌ. «حكيمٌ»، في تدبيرِه إياهم، وفي حِلْمِه عن عِقابِهم، مع عِلْمِه بسرائرِهم وخِداعهم أولياءَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٩٨﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: ومِنَ الأعرابِ مَنْ يَعُدُّ نَفَقَتَهُ التي يُنفِقُهَا في جهاد مشرك، أو في معونة مسلم، أو في بعض ما ندب الله إليه عباده. «مَغْرَماً»، يعني: غُرْماً لَزِمَهُ، لا يَرْجُو له ثواباً، ولا يدفعُ به عن نفسِه عقاباً. «ويَتَرَبَّصُ بكم الدوائرَ»، يقولُ: وينتظرونَ بكم الدوائرَ، أنْ تدورَ بها الأيامُ والليالي إلى مَكْروهٍ ومجيء مَحْبُوبٍ، وغَلَبَةِ عَدُوٍّ لكم. يقول الله تعالى ذِكْرُه: «عليهم دائرةُ السَّوْءِ»، يقولُ: جَعَلَ اللهُ دائرَةَ السَّوءِ عليهم، ونزولَ المكروهِ بهم، لا عليكم أيها المؤمنونَ، ولا بكم. «والله سميع»، لِدُعَاءِ الدَّاعِينَ. «عليمٌ» بتدبيرِهم، وما هُوَ بهم نازلٌ من عقابِ الله، وما لَهُمْ إليه صَائِرُونَ من أليمِ عقابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٩٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومِنَ الأعرابِ مَنْ يُصدِّقُ الله ويُقِرُّ بوحْدَانِيَّتِه، وبالبعثِ بعد الموتِ، والثوابِ والعقابِ، وينوي ما ينفقُ من نفقةٍ في جهادِ المشركينَ،

وفي سَفَرِه مع رسولِ الله ﷺ «قُرُباتٍ عندَ اللهِ»، و«القُرُبات» جمع «قربة»، وهو ما قَرَّبَهُ من رِضَى اللهِ ومَحَبَّته. «وصلواتِ الرسول»، يعني بذلك: ويَبْتغي بنفقةِ ما يُنْفِقُ، مع طَلَبِ قربته من اللهِ، دُعَاءَ الرسولِ واستغفارَهُ له.

قال الله: «أَلَا إنها قُرْبَةٌ لهم»، يقول تعالى ذِكْرُه: ألا إنَّ صلواتِ الرسولِ قربةٌ لهم من الله.

وقد يحتمل أنْ يكونَ معناه: أَلَا إنَّ نفقتَهُ التي يُنْفِقُهَا كذلكَ، قربةٌ لهم عند الله. «سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ في رحمته»، يقولُ: سيدخلهم اللهُ فِيمَنْ رَحِمَهُ فأدْخَلَهُ برحمتِه الجنةَ. «إنَّ الله غفورٌ»، لما اجْتَرَمُوا. «رحيمٌ»، بهم مع تَوْبَتِهِم وإصلاحِهِم أنْ يُعَذِّبَهُمْ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٠٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والذينَ سَبَقُوا الناسَ أولاً إلى الإيمانِ باللهِ ورسوله. «من المهاجرين»، الذين هَاجَرُوا قومَهُمْ وعشيرتَهُمْ، وفارقوا مَنَازِلهم وأوطانَهم. «والأنصارِ»، الذين نَصَرُوا رسولَ اللهِ ﷺ على أعدائِه من أهلِ الكُفْرِ باللهِ ورسولِه، «والذين اتَّبَعُوهُمْ بإحسانٍ»، يقولُ: والذين سَلَكُوا سبيلَهُمْ في الإيمانِ باللهِ ورسولِه، والهجرةِ من دارِ الحربِ إلى دارِ الإسلامِ، طَلَبَ رِضَى الله. «رَضِيَ اللهُ عنهم ورَضُوا عنه».

واختلف أهلُ التأويلِ في المعنيِّ بقوله: «والسابقونَ الأوَّلونَ».

فقال بعضهم: هُمُ الذين بَايَعُوا رسولَ الله ﷺ بيعةَ الرضوان، أو أدْرَكُوا.

وقال آخرون: بَلْ هُمُ الذين صَلُّوا القِبْلَتَيْنِ مع رسولِ الله ﷺ.

وأما الذين اتَّبَعُوا المهاجرينَ الأولينَ والأنصارِ بإحسانٍ، فَهُمْ الذينَ أسلموا لله إسلامَهم، وسَلَكُوا مِنْهَاجَهُمْ في الهِجْرةِ والنُّصْرَةِ وأعمالِ الخير.

ومعنى الكلام: رَضِيَ الله عن جميعِهم لِمَا أطاعوه، وأجَابُوا نبيَّهُ إلى ما دَعَاهُمْ إليه من أمْرِه ونهيه - ورضيَ عنه السابقونَ الأوَّلُونَ من المهاجرينَ والأنصارِ، والذينَ اتَّبَعُوهم بإحسانٍ، لِمَا أجزلَ لهم من الثوابِ على طاعتِهم إياهُ، وإيمانِهم به وبنبيِّهِ عليه السلام. «وأَعَدَّ لهم جناتٍ تجري تحتها الأنهارُ»، يَدْخُلُونَها. «خالدينَ فيها»، لابثينَ فيها. «أبداً»، لا يموتونَ فيها ولا يخرجونَ منها. «ذلك الفوز العظيم».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومِنَ القومِ الذين حَوْلَ مدينَتِكُمْ من الأعرابِ مُنافقونَ، ومن أهلِ مدينتكم أيضاً أمثالُهُمْ أقوامٌ منافقون.

وقوله: «مَرَدُوا على النفاقِ»، يقولُ: مَرَنُوا عليه ودَرِبُوا به.

«لا تعلمهم»، يقولُ لنبيه محمدٍ ﷺ: لا تعلم، يا محمدُ، أنتَ هؤلاءِ المنافقينَ الذين وصفتُ لكَ صِفَتَهُمْ مِمَّنْ حَوْلَكُمْ من الأعرابِ ومن أهلِ المدينةِ، ولكنا نحنُ نعلمهم.

وقوله: «سَنُعَذِّبُهُم مَرَّتين»، يقولُ: سنعذبُ هؤلاءِ المنافقينَ مرتين، إحداهما في الدنيا، والأخرى في القبر.

ثم اختلف أهلُ التأويل في التي في الدنيا، ما هيَ؟

فقال بعضهم: هي فَضِيحَتُهم، فَضَحَهُم اللهُ بكشفِ أمورِهم، وتبيينِ سرائرِهم للناسِ على لسانِ رسولِه ﷺ.

وقال آخرون: ما يُصِيبُهُمْ من السَّبيِ والجوعِ والخوفِ في الدنيا

وقال آخرون: معنى ذلك: سنعذبهم عذاباً في الدنيا، وعذاباً في الآخرة.

وقال آخرون: كان عذابهم إحدى المرتين، مصائِبَهُمْ في أموالهم وأولادِهم، والمرة الأخرى في جهنم.

وقال آخرون: بل إحدى المرتين، الحُدُودُ، والأخرى عذابُ القبر.

وقال آخرون: بل إحدى المرتين، أَخْذُ الزكاةِ من أموالهم، والأخرى عذابُ القبر.

وقال آخرون: بل إحدى المرتين، عذابُهُم بما يدخلُ عليهم من الغَيْظِ في أمرِ الإسلام.

وأوْلى الأقوال في ذلك بالصوابِ عندي أنْ يُقالَ: إنَّ الله أخبر أنه يُعَذِّبُ هؤلاءِ الذينَ مَرَدُوا على النفاقِ مرتين، ولم يَضَعْ لنا دليلاً يوصِّلُ به إلى عِلْمِ صفةِ ذَيْنِكَ العذابينِ - وجائزٌ أنْ يكونَ بعضَ ما ذكرنَا عن القائلينَ ما أَنْبَئْنَا عنهم. وليس عندنا علمٌ بأيِّ ذلكَ من أيٍّ. غيرَ أنَّ في قولِه جَلَّ ثَنَاؤُهُ «ثم يُرَدُّونَ إلى عذابٍ عظيم»، دلالـة على أنَّ العذابَ في المرَّتين كلتيهما قبلَ دُخولِهم النارَ. والأغلبُ من إحدى المرتين أنها في القبرِ.

وقوله: «ثم يُرَدُّونَ إلى عذابٍ عظيم»، يقولُ: ثم يُرَدُّ هؤلاءِ المنافقونَ، بعدَ تعذيبِ اللهِ إياهم مرتين، إلى عذابٍ عظيم، وذلك عذابُ جهنمَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٠٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومن أهلِ المدينةِ مُنافقون مَرَدُوا على النفاقِ، ومنهم «آخرونَ اعترفُوا بذنوبِهم»، يقولُ: أقرُّوا بذنوبِهم. «خَلَطُوا عملًا صالحاً»، يعني جَلَّ ثَناؤُهُ بالعملِ الصالحِ الذي خَلَطُوه بالعملِ السيءِ: اعترافهم بذنوبِهم، وتوبتهم منها، والآخرُ السيءُ: هو تَخَلُّفُهم عن رسولِ الله ﷺ، حينَ خرجَ غازياً، وتَرْكُهم الجهادَ مع المسلمينَ.

«عسى اللهُ أنْ يتوبَ عليهم»، يقولُ: لَعَلَّ اللهَ أنْ يتوبَ عليهم - «وعسى» من اللهِ واجبٌ، وإنما معناه: سيتوبُ اللهُ عليهم، ولكنه في كلامِ العربِ على ما وَصَفت. «إنَّ اللهَ غَفُورٌ رحيم»، يقولُ: إنَّ الله ذُو صَفْحٍ وعفوٍ لمن تابَ عن ذنوبه، وساترٌ له عليها. «رحيمٌ»، به أنْ يُعَذِّبه بها.

وقد نزلت هذه الآيةُ في المعترفينَ بخطأ فِعْلِهم في تَخَلُّفِهم عن رسولِ اللهِ ﷺ، وتركهم الجهادَ معه، والخروجَ لغزو الروم، حين شَخَصَ إلى تبوك - وأنَّ الذين نزلَ ذلك فيهم جماعةٌ، أحدهم أبو لبابة[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: يا محمدُ، خُذْ من أموالِ هؤلاءِ الذينَ اعترفُوا بذُنوبِهم فتابوا منها. «صَدَقةً تُطَهِّرُهُم»، من دَنَسِ ذُنوبهم. «وتُزَكِّيهم بها»، يقولُ: وتُنَمِّيهم وتَرْفَعُهم عن خَسيسِ منازلِ أهلِ النفاق بها، إلى منازلِ

(١) أبو لبابة بن عبدالمنذر الأنصاري، أحد النقباء الذين شهدوا العقبة.

أهلِ الإخلاص. «وصَلِّ عليهم»، يقولُ: وادْعُ لهم بالمغفرةِ لذنوبهم، واستغفرْ لهم منا. «إنَّ صلاتَكَ سَكَنٌ لهم»، يقولُ: إنَّ دُعاءَكَ واستغفارَكَ طمأنينةٌ لهم، بأنَّ اللهَ قد عَفَا عنهم وقَبِلَ توبَتَهم. «والله سميع عليم»، يقولُ: والله سميعٌ لدعائِكَ إذا دعوتَ لهم، ولغيرِ ذلكَ من كلامِ خَلْقِه. «عليمٌ»، بما تَطْلُبُ لهم بدعائِكَ رَبَّكَ لهم. وبغيرِ ذلك من أمورِ عبادِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٤﴾

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه، أخبرَ به المؤمنينَ به: أنَّ قَبُولَ توبةِ مَنْ تابَ من المنافقينَ، وأخذَ الصدقةِ من أموالهم إذا أعطوها ليس الى نبيِّ الله ﷺ، وأنَّ نبيَّ الله حين أبى أنْ يُطْلِقَ مَنْ ربطَ نفسَهُ بالسواري من المُتَخلِّفِينَ عن الغزوِ معه، وحين تَرَكَ قَبُولَ صَدَقَتِهم بعد أنْ أطلق الله عنهم حين أذِنَ له في ذلك. إنما فَعَلَ ذلك من أجلِ أنَّ ذلكَ لم يَكُنْ إليه ﷺ، وأنَّ ذلك إلى اللهِ تعالى ذِكْرُه دونَ محمدٍ، وأنَّ محمداً إنما يفعلُ ما يفعلُ من تَرْكٍ وإطلاقٍ وأخذِ صدقةٍ وغيرِ ذلك من أفعالِه، بأمرِ الله. فقال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ألم يَعْلَمْ هؤلاءِ المتخلِّفُونَ عن الجهادِ مع المؤمنينَ، المُوثِقُو أنفسهم بالسواري، القائلونَ: «لا نُطْلِقُ أَنْفُسَنا حتى يكونَ رسولُ الله ﷺ هو الذي يُطْلِقُنَا»، السَّائِلُو رسول الله ﷺ أخذَ صَدَقَةِ أموالهم، أنَّ ذلك ليسَ إلى محمدٍ، وأنَّ ذلكَ إلى اللهِ، وأنَّ اللهَ هُوَ الذي يقبلُ توبةَ مَنْ تابَ من عبادِه أو يردُّهَا، ويأخذ صدقةَ مَنْ تَصدَّقَ منهم أو يَرُدُّهَا عليه دونَ محمدٍ، فَيُوَجِّهُوا تَوْبَتَهم وصدقتهم إلى الله، ويَقْصِدُوا بذلك قَصْدَ وجه دونَ محمدٍ وغيره، ويُخْلِصُوا التوبةَ له، ويُرِيدُوه بِصَدَقَتِهم، ويَعْلَمُوا أنَّ الله هُوَ التوابُ الرحيم؟ - يقولُ: المراجِعُ لعبيدِه إلى

العفوِ عنهم إذا رَجعُوا إلى طاعَتِه، الرحيمُ بهم إذا هُمْ أنابُوا إلى رِضَاهُ من عقابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «وقُلْ»، يا محمدُ، لهؤلاءِ الذينَ اعترفُوا لك بذنوبِهم من المتخلفينَ عن الجهادِ معكَ. «اعْمَلُوا» للهِ بما يُرْضِيه، من طاعتِه، وأداءِ فَرَائِضِهِ «فسيرى اللهُ عَمَلَكُمْ ورسولُه»، يقولُ: فسيرى اللهُ أحسن ما عَمِلْتُمْ عَمَلَكُم، ويَراهُ رسولُه والمؤمنونَ، في الدنيا. «وسَتُرَدُّونَ»، يومَ القيامةِ، إلى مَنْ يعلمُ سَرائِـركُم وعَلانِيتكُمْ، فلا يَخْفَى عليه شيءٌ من باطنِ أُمورِكم وظَواهِرِهَا. «فيُنَبِّئُكُمْ بما كنتم تَعْمَلُونَ»، يقولُ: فيخبركم بما كنتم تعملونَ، وما مِنْهُ خَالصاً، وما منه رِياءً، وما منه طاعةً، وما منه لله معصية، فيجازِيكُمْ على ذلك كُلِّه جزاءكم، المُحْسِنَ بإحسانِه، والمُسِيءَ بإساءتِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومن هؤلاءِ المُتَخَلِّفِينَ عنكم حين شَخَصْتُمْ لعدوِّكُم، أيها المؤمنونَ، آخَرُونَ.

«وآخَرون مُرْجَوْنَ»، يعني: مُرْجَئُونَ لأمرِ اللهِ وقَضائه.

يقال منه: «أَرْجَأْتُه أُرْجِئُه إرْجَاءً، وهو مُرْجَأٌ»، بالهمزِ وتَرْكِ الهمز، وهما لغتان معناهما واحد. وقد قرأتِ القَرَأَةُ بهما جميعاً.

وقيل: عُني بهؤلاءِ الآخرينَ، نَفرٌ مِمَّنْ كَانَ تَخلَّفَ عن رسولِ الله ﷺ في غزوةِ تبوك، فَندِمُوا على ما فَعَلُوا، ولم يعتذروا إلى رسولِ الله ﷺ عند مَقْدمِه، ولم يُوثِقُوا أَنْفسَهُمْ بالسواري، فأرجأ اللهُ أَمْرَهُمْ إلى أَنْ صَحَّتْ توبتُهم، فتابَ عليهم وعَفَا عنهم.

وأما قوله: «إمَّا يُعَذِّبُهم»، فإنه يعني: إمَّا أن يَحْجزَهُمُ الله عن التوبةِ بخذلانِه، فيعذبهم بذنُوبِهم التي مَاتُوا عليها في الآخرة. «وإما يتوبُ عليهم»، يقولُ: وإما يُوَفِّقُهم للتوبةِ فيتوبُوا من ذنوبِهم، فيغفر لهم. «واللهُ عليمٌ حكيم»، يقـولُ: والله ذُو عِلْمٍ بأمـرِهم وما هم صائرونَ إليه من التوبةِ والمقامِ على الذنب. «حكيمٌ»، في تدبيرِهم وتدبيرِ مَنْ سِواهم من خَلْقِه، لا يدخلُ حُكْمَهُ خَلَلٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والذين ابْتَنَوْا مَسْجِداً ضِراراً، وهُمْ، فيما ذُكِرَ، اثنا عشر نفساً من الأنصار.

فتـأويلُ الكلام: والذين ابتنوا مسجداً ضراراً لمسجدِ رسولِ الله ﷺ، وكُفْراً باللهِ لِمُحَادَّتِهم بذلك رسولَ الله ﷺ، ويُفَرِّقُوا به المؤمنينَ، لِيُصَلِّي فيه بعضُهم دونَ مسجدِ رسولِ الله ﷺ، وبعضهم في مسجدِ رسولِ الله ﷺ، فَيَخْتَلِفُـوا بسبب ذلك ويَفْتَرِقُوا. «وإرصاداً لِمَنْ حاربَ الله ورسولَهُ من قَبْلُ»، يقولُ: وإعداداً له لأبي عامر الكافر، الذي خَالفَ اللهَ ورسولَهُ، وكَفَرَ بهما، وقاتلَ رسولَ الله «مِنْ قَبْلُ»، يعني من قَبْلِ بنائِهم ذلكَ المسجد. وذلك أَنَّ أبا

عامر هو الذي كان حَزَّبَ الأحزابَ ـ يعني: حَزَّبَ الأحزابَ لقتالِ رسولِ الله ﷺ ـ فلما خذَلَهُ اللهُ، لَحِقَ بالرومِ يطلبُ النَّصْر من ملكهم على نبيِّ الله، وكَتَبَ إلى أهلِ مسجد الضِّرارِ يَأْمُرُهُمْ ببناءِ المسجدِ الذي كانوا بَنَوْهُ، فيما ذُكِرَ عنه، ليصلِّي فيه، فيما يزعمُ، إذا رَجَعَ إليهم. فَفَعَلُوا ذلك. وهذا معنى قولِ اللهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «وإرصاداً لمن حاربَ الله ورسولَهُ من قبل».

«ولَيَحْلِفُنَّ إنْ أردنا إلَّا الحُسْنَى»، يقول جَلَّ ثناؤه: وليحلفنَّ بَانُوهُ: «إنْ أرَدْنَا إلَّا الحسنى»، ببِنَائِنَاهُ، إلَّا الرِّفْقَ بالمسلمينَ، والمنفعةَ والتَّوْسِعَةَ على أهلِ الضَّعْفِ والعِلَّةِ ومَنْ عجزَ عن المصيرِ إلى مسجدِ رسولِ الله ﷺ للصلاةِ فيه، وتلك هي الفعلةُ الحسنةُ. «والله يَشْهَدُ إنهم لكاذبونَ»، في حَلْفِهم ذلكَ، وقِيلِهم: «ما بنيناه إلَّا ونحنُ نُريدُ الحسنى!»، ولكنهم بَنَوْهُ يُريدُونَ ببنائه السُّوآى، ضِراراً لمسجدِ رسولِ الله ﷺ، وكُفْراً بالله، وتَفْريقاً بينَ المؤمنينَ، وإرْصاداً لأبي عامر الفاسق.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: لا تَقُمْ، يا محمدُ، في المسجدِ الذي بَنَاهُ هؤلاءِ المنافقونَ، ضِراراً وتَفْريقاً بين المؤمنينَ، وإرصاداً لِمَنْ حاربَ اللهَ ورسولَهُ. ثم أقسمَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ، فقال: «لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ على التقوى من أولِ يومٍ أَحَقُّ أَنْ تقوم»، أنتَ «فيه».

يعني بقوله: «أُسِّسَ على التقوى»، ابتُدِىءَ أساسُه وأصلُه على تَقْوى اللهِ وطاعَتِه. «مِنْ أولِ يومٍ»، ابْتُدِىءَ في بنائِه. «أَحَقُّ أَنْ تقومَ فيه»، يقولُ: أَوْلى أَنْ تقومَ فيه مُصَلِّياً.

وقيل معنى قوله: «مِنْ أولِ يومٍ»، مبدأ أولِ يومٍ كما تقولُ العربُ: «لم أَرَهُ مِنْ يومِ كذا»، بمعنى: مَبْدَؤُه، و«مِنْ أولِ يومٍ»، يُرادُ به: من أولِ الأيامِ، كقولِ القائلِ: «لَقِيْتُ كُلَّ رجلٍ»، بمعنى كُلِّ الرجال.

واختلف أهلُ التأويل في المسجد الذي عَنَاهُ بقوله: «لمسجدٌ أُسِّسَ على التقوى من أولِ يوم».

فقال بعضهم: هو مسجدُ رسولِ الله ﷺ الذي فيه مِنْبَرُهُ وقَبْرَهُ اليومَ.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك مَسْجِدَ قُباء.

وأَوْلى القولين في ذلك عندي بالصواب، قولُ مَنْ قال: هو مسجدُ الرسولِ ﷺ، لصحةِ الخبَرِ بذلك عن رسولِ الله[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ۝١٠٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: في حاضري المسجد الذي أُسِّسَ على التقوى من أولِ يومٍ، رجالٌ يحبُّون أن ينظفوا مقاعدَهُمْ بالماءِ إذا أَتَوْا الغائِط، والله يحبُّ المتطهِّرينَ بالماء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝١٠٩﴾

(١) حديث أبي سعيد الخدري عند مسلم (١٣٩٨) والترمذي (٣٠٩٩) وأحمد: ٢٤/٣، وحديث سهل بن سعد الساعدي عند أحمد: ٣٣١/٥.

(يعني): أيُّ هؤلاءِ الذينَ بنوا المساجدَ خَيْرٌ، أيها الناسُ، عِنْدَكم: الذين ابتدأُوا بناءَ مَسْجِدِهم على اتِّقاءِ الله، بطاعَتِهم في بنائِه، وأداءِ فَرَائِضِه ورضىً من اللهِ لبنائِهم ما بَنَوْهُ من ذلكَ، وفِعْلهم ما فَعَلُوه - خيرٌ، أَمِ الذين ابْتَدَأُوا بناءَ مَسْجِدِهم على شَفَا جُرفٍ هارٍ؟

وإنما هذا مَثَلٌ. يقول تعالى ذِكْرُه: أيُّ هذينِ الفريقينِ خَيْرٌ؟ وأيُّ هذين البناءين أَثْبَتُ؟ أَمَن ابتدأَ أساسَ بنائِه على طاعةِ الله، وعِلْمٍ منه بأنَّ بناءَهُ للهِ طاعةٌ، واللهُ به رَاضٍ، أَمْ مَن ابتدأه بنفاقٍ وضَلالٍ، وعلى غيرِ بَصيرةٍ منه بصوابِ فِعْلِه من خَطَئِه، فهو لا يدري متى يتبينُ له خطأُ فِعْلِه وعظيمُ ذَنْبِه، فيهدمه، كما يأتي البناءُ على جرف ركيَّةٍ لا حابسَ لماءِ السُّيُولِ عنها ولغيره من المياه، ثَرِيَّةِ الترابِ متناثرة، لا تُلْبِثُه السيولُ أنْ تَهْدِمَهُ وتنثره؟

يقـول الله جَلَّ ثَنَـاؤُهُ: «فانهارَ به في نارِ جهنم»، يعني فانتثر الجُرفُ الهاري ببنائِه في نارِ جهنم.

قوله: «واللهُ لا يهدي القوم الظالمينَ»، يقولُ: والله لا يُوفِّقُ للرشادِ في أفعاله، مَنْ كان بانياً بناءَهُ في غيرِ حَقِّه وموضعِه، ومَنْ كان مُنَافِقاً مُخَالِفاً بِفِعْلِه أمرَ الله وأمرَ رسوله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: لا يزالُ بنيانُ هؤلاءِ الذين اتَّخذُوا مَسْجداً ضِرَاراً وكُفْراً. «ريبةً»، يقولُ: لا يزالُ مسجدُهم الذي بَنَوهُ «ريبةً في قلوبهم»، يعني: شَكًّا ونِفَاقاً في قُلوبهم، يحسبونَ أنهم كانوا في بنائِه مُحْسنينَ، «إلَّا أنْ تَقَطَّعَ قُلوبُهم»، يعني: إلَّا أنْ تَتَصَدَّعَ قلوبهم فيموتُوا. «والله عليم»، بما عليه هؤلاءِ

المنافقونَ الذينَ بنوا مسجدَ الضرارِ، مِنْ شَكِّهم في دِينهم، وما قَصَدُوا في بنائِهِمُوهُ وأرادوه، وما إليه صائرٌ أمْرُهُمْ في الآخرةِ، وفي الحياةِ ما عاشوا، وبغيرِ ذلك من أمْرِهم وأمرِ غيرِهم. «حكيمٌ»، في تدبيرِه إياهم، وتدبيرِ جميعِ خَلْقِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الله ابتاعَ من المؤمنينَ أنْفُسَهُمْ وأموالَهم بالجنةِ. «وَعْداً عليه حَقّاً» - يقولُ: وَعَدَهُمْ الجنةَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ، وَعْداً عليه حقًّا أنْ يوفِّي لهم به، في كُتُبِه المنزلة: التوراة والإنجيل والقرآن، إذا هُمْ وَفَوا بما عَاهَدُوا الله، فقاتلوا في سبيله ونُصْرةِ دِينه أعداءَه، فقَتَلوا وقُتِلوا. «وَمَنْ أوفى بعهدِه من الله»، يقول جَلَّ ثناؤُه: ومَنْ أحسنُ وفاءً بما ضَمِنَ وشَرَطَ من الله. «فاستبشروا»، يقولُ ذلك للمؤمنينَ: فاستبشروا أيها المؤمنونَ، الذينَ صَدَقُوا الله فيما عَاهَدُوا، بِبَيْعِكُمْ أنْفُسَكُمْ وأموالَكُمْ بالذي بِعْتُمُوهَا من رَبِّكم به، فإنَّ ذلك هو الفوزُ العظيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الله اشترى من المؤمنينَ التائبينَ العابدينَ أنْفُسَهُمْ وأموالهم - ولكنه رفع، إذْ كان مبتدأ به بعد تمامِ أخرى مثلها. والعربُ تفعلُ

ذلك، وقد تقدَّمَ بياننا ذلك في قوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة: ١٨]، بما أغنى عن إعادتِه في هذا الموضع.

ومعنى: «التائبون»، الراجِعُونَ مِمَّا كَرِهَهُ اللهُ وسَخِطَهُ إلى ما يُحبه ويرضاه.

وأما قوله: «العابدون» فهم الذين ذَلُّوا خشيةً للهِ وتَواضُعاً له، فَجَدُّوا في خِدْمَتِه.

وأما قوله: «الحامدونَ»، فإنهم الذين يَحْمدونَ الله على كُلِّ ما امْتَحَنَهُمْ به من خيرٍ وشر.

وأما قوله: «السائحونَ»، فإنهم الصائمون.

وقوله: «الراكعونَ الساجدونَ»، يعني المُصَلِّينَ، الراكعينَ في صلاتهم، الساجدينَ فيها.

وأما قوله: «الآمِرُونَ بالمعروفِ والنَّاهُونَ عن المُنْكرِ»، فإنه يعني أنهم يأمرون الناسَ بالحَقِّ في أديانهم، واتباع الرُّشْدِ والهُدَى، والعمل وينْهَوْنَهُمْ عن المنكرِ، وذلك نَهيهم الناسَ عن كُلِّ فِعْلٍ وقولٍ نَهَى اللهُ عبادَه عنه.

وأما قوله: «والحافظونَ لحدودِ الله»، فإنه يعني: المُؤَدُّونَ فرائضَ الله، المُنْتَهُونَ إلى أمرِه ونهيِه، الذينَ لا يضيعون شيئاً ألزمهم العملَ به، ولا يَرْكَبُونَ شيئاً نَهَاهم عن ارتكابِه.

وأما قوله: «وبَشِّرِ المؤمنينَ»، فإنه يعني: وبَشِّر المُصَدِّقينَ بما وَعَدَهُمُ اللهُ إذا هُمْ وفَّوا اللهَ بعهدِه، أنه مُوفٍّ لهم بما وَعَدَهُمْ من إدْخَالِهم الجنةَ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن

﴿يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ما كان ينبغي للنبيِّ محمدٍ ﷺ، والذين آمَنُوا به، «أَنْ يَسْتَغْفِرُوا»، يقولُ: أَنْ يَدْعُوا بالمغفرةِ للمشركينَ، ولو كانَ المشركونَ الذينَ يستغفرونَ لهم، «أُولِي قُرْبَى»، ذوي قرابة لهم، «مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لهم أنهم أصحابُ الجحيم»، يقولُ: مِنْ بعدِ ما ماتُوا على شِرْكِهم باللهِ وعبادةِ الأوثانِ، وتبين لهم أنهم من أهلِ النار، لأنَّ الله قد قَضى أَنْ لا يغفرَ لمشركٍ، فلا ينبغي لهم أن يسألوا رَبَّهم أَنْ يفعلَ ما قد عَلِمُوا أنه لا يفعله. فإنْ قالوا: فإنَّ إبراهيمَ قد استغفرَ لأبيهِ وهو مُشْرِكٌ؟ فلم يَكُنْ استغفارُ إبراهيمَ لأبيهِ إلَّا لموعدةٍ وعَدَهَا إياهُ. فلما تَبَيَّنَ له وعَلِمَ أنه للهِ عَدُوٌّ، خلَّاهُ وتَرَكَهُ، وتَرَكَ الاستغفارَ له، وآثَرَ اللهَ وأَمْرَهُ عليه، فَتَبَرَّأَ منه حينَ تَبَيَّنَ له أمره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾

(يعني جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقوله): «الأوَّاه»، الدَّعَّاء[1]، لأنَّ اللهَ ذَكَرَ ذلك، ووصَفَ به إبراهيم خليلَهُ صلواتُ الله عليه، بعد وَصْفِه إيَّاهُ بالدعاءِ والاستغفارِ لأبيهِ فقال: «وما كانَ استغفارُ إبراهيمَ لأبيهِ إلَّا عن مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إياهُ فلما تبينَ له أنه عَدُوٌّ لله تبرأ منه»، وتركَ الدعاءَ والاستغفارَ له. ثم قال: إنَّ إبراهيمَ لَدَعَّاءٌ لربه، شَاكٍ لَهُ، حَليمٌ عَمَّنْ سَبَّهُ ونالَهُ بالمكروهِ. وذلكَ أنه صلواتُ الله عليه وَعَدَ أباهُ بالاستغفار له، ودعاءَ اللهِ لَهُ بالمغفرةِ، عند وعيدِ أبيهِ إياهُ، وتهدُّدِهِ له بالشَّتْمِ، بَعْدَ ما رَدَّ عليه نَصيحتَهُ في الله قوله: ﴿أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا

(١) الدَّعَّاءُ ـ بتشديد العين ـ: كثيرُ الدعاء.

إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾، فقالَ له صلواتُ الله عليه، ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا* وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَنْ لَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾، [مريم: ٤٦-٤٨]. فَوَفَّى لأبيهِ بالاستغفارِ له، حتى تَبَيَّنَ له أنه عَدُوٌّ لله، فوصفه اللهُ بأنه دَعَّاءٌ لربِّه، حليمٌ عَمَّنْ سَفِهَ عليه.

وأصْلُه من «التَّأَوُّهِ»، وهو التَّضَرُّعُ والمسألَةُ بالحزنِ والإشفاقِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وما كانَ اللهُ ليقضي عليكم، في استغفارِكُم لموتَاكُم المشركينَ، بالضلالِ، بعد إِذْ رَزَقَكُمْ الهدايةَ، وَوَفَّقَكُمْ للإيمانِ بهِ وبرسولِه، حتى يَتَقَدَّمَ إليكم بالنهي عنه، فتتركوا الانتهاءَ عنه. فأمَّا قَبْلَ أنْ يُبَيِّنَ لكم كراهيةَ ذلك بالنهيِ عنه، ثم تَتَعَدَّوْا نَهْيَهُ إلى ما نَهاكُمْ عنه، فإنه لا يحكمُ عليكم بالضلالِ، لأنَّ الطاعةَ والمعصيةَ إنما يكونانِ من المأمورِ والمنهيِّ، فأما مَنْ لم يُؤْمَرْ ولم يُنْهَ، فغيرُ كائنٍ مُطيعاً أو عاصياً فيما لم يُؤْمَرْ به ولم يُنْهَ عنه. «إنَّ الله بكلِّ شيءٍ عليمٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الله ذُو عِلْمٍ بما خالطَ أنفُسَكُمْ عندَ نَهْيِ اللهِ إياكم من الاستغفارِ لموتاكم المشركينَ، من الجزعِ على ما سَلَفَ منكم من الاستغفارِ لهم قَبْلَ تَقَدُّمِه إليكم بالنهيِ عنه، وبغيرِ ذلكَ من سرائرِ أمورِكم وأمورِ عبادِه وظواهِرِهَا، فبيَّنَ لكم حِلْمَهُ في ذلك عليكم، ليضعَ عنكم ثِقْلَ الوَجْدِ بذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الله، أيها الناسُ، له سلطانُ السمواتِ والأرضِ ومُلْكُهُمَا، وكُلُّ مَنْ دُونَهُ من الملوكِ، فَعَبِيدُهُ ومماليكُهُ، بيدِهِ حَيَاتُهم وموتُهم، يُحْيِي مَنْ يشاءُ منهم، ويُمِيتُ مَنْ يشاء منهم. فلا تَجْزَعُوا، أيها المؤمنونَ، مِنْ قتالِ مَنْ كَفَرَ بي من الملوكِ، ملوكِ الروم كانوا أو ملوكِ فارس والحبشة، أو غيرهم، واغْزُوهُمْ وجَاهِدُوهم في طاعتي، فإني المُعِزُّ مَنْ أشاءُ منهم ومنكم، والمُذِلُّ مَنْ أشاء.

وهذا حَضٌّ من الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ المؤمنينَ على قتالِ كُلِّ مَنْ كَفَرَ به من المماليكِ، وإغراءٌ منه لهم بحَرْبِهم.

وقوله: «وما لكم من دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ ولا نصير»، يقولُ: وما لكم من أحدٍ هو لكم حَلِيفٌ من دونِ الله يُظَاهِرُكُمْ عليه، إنْ أنتم خَالَفتُمْ أمْرَ الله فعاقَبَكُمْ على خِلافِكُمْ أمْرَهُ، يَسْتنقذكُمْ من عقابه. «ولا نصير»، يَنْصُرُكُمْ منه إنْ أرادَ بكم سُوءاً. يقولُ: فَبالله فَثِقُوا، وإياهُ فارْهَبُوا، وجَاهِدُوا في سبيله مَنْ كَفَرَ به، فإنه قد اشترى منكم أَنْفُسَكُمْ وأموالَكُمْ بأنَّ لكم الجنة، تُقاتِلُونَ في سبيله فتَقْتُلون وتُقْتَلون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لقد رَزَقَ اللهُ الإنابَةَ إلى أمرِه وطاعتِه، نبيَّه محمداً ﷺ، والمهاجرينَ دِيارَهُمْ وعشيرتَهم إلى دارِ الإسلام، وأنصار رسوله في الله - الذين اتَّبَعُوا رَسُولَ الله في ساعة العُسْرَةِ منهم من النفقة والظَّهْرِ والزَّادِ والماء. «مِنْ بعدِ ما كَادَ يَزِيغُ قلوبُ فريقٍ منهم». يقولُ: مِنْ بعدِ ما كادَ يميلُ قلوبُ

بعضِهم عن الحَقِّ، ويشكُّ في دِينه ويَرْتَاب، بالذي نَالَهُ من المَشَقَّةِ والشِدَّةِ في سَفَرِه وغَزْوِه. «ثم تابَ عليهم»، يقولُ: ثم رَزَقَهم جَلَّ ثَنَاؤُهُ الإنابةَ والرُّجُوعَ إلى الثباتِ على دِينه، وإبصار الحَقِّ الذي كانَ قد كاد يلتبسُ عليهم. «إنَّهُ بهم رَؤُوفٌ رحيم»، يقولُ: إنَّ رَبَّكم بالذينَ خالطَ قُلوبَهُمْ ذلكَ لِمَا نَالَهُمْ في سَفرِهم من الشِدَّةِ والمشقةِ رؤوفٌ بهم. «رحيمٌ» أنْ يُهْلِكَهُم، فينزع منهم الإيمانَ، بعدما قد أَبْلَوْا في اللهِ ما أَبْلَوْا مع رسولِه، وصَبَرُوا عليه من البأساءِ والضراء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: «لقد تابَ اللهُ على النبيِّ والمهاجِرينَ والأنصار» ـ «وعلى الثلاثةِ الذين خُلِّفُوا»، وهؤلاءِ الثلاثةُ الذينَ وَصَفَهُمُ اللهُ في هذه الآيةِ بما وصفهم به فيما قِيلَ، هم الآخَرُونَ الذين قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ آللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَآللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٦]، فتابَ عليهم عَزَّ ذِكْرُهُ، وتَفَضَّلَ عليهم. (وهم: كعبُ بن مالك الشاعر، وهلال بن أمية، ومرارة بن ربيعة، وكلهم من الأنصار)(١).

فتأويلُ الكلامِ إذاً: ولقد تابَ اللهُ على الثلاثةِ الذين خَلَّفَهُمُ اللهُ عن التوبةِ، فأرجأهم عَمَّنْ تابَ عليه مِمَّنْ تَخَلَّفَ عن رسولِ اللهِ ﷺ.

«حتى إذا ضاقت عليهمُ الأرضُ بما رَحُبَتْ»، يقولُ: بِسَعَتِهَا، غَمًّا ونَدَماً على تَخَلُّفِهم عن الجهادِ مع رسولِ اللهِ ﷺ، «وضَاقَتْ عليهِمْ أنفُسُهم»، بما

(١) ما بين القوسين إضافة من الآثار الكثيرة التي ذكرها الطبري فيما بَعْدُ، وضعناها ها هنا ليتصل الكلام.

نالهم من الوَجْدِ والكَرْبِ بذلك، «وظَنُّوا أَنْ لا ملجأَ»، يقولُ: وأَيْقَنُوا بقلوبِهم أَنْ لا شيءَ لهم يلجأُونَ إليه مما نَزَلَ بهم من أَمْرِ الله من البلاءِ، بِتَخَلُّفِهم خِلافَ رسولِ الله ﷺ، يُنَجِّيهم من كَرْبِهِ، ولا مِمَّا يَحْذَرُونَ من عذابِ الله، إلَّا اللهُ، ثم رَزَقَهُمْ الإنابةَ إلى طاعتِه، والرجوعَ إلى ما يُرضِيه عنهم، لِيُنِيبُوا إليه، ويرجعوا إلى طاعتِه والانتهاءِ إلى أمرِه ونهيه. «إِنَّ الله هُوَ التوابُ الرحيم»، يقولُ: إنَّ الله هو الوَهَّابُ لعبادِه الإنابةَ إلى طاعتِه، الموفِّقُ مَنْ أَحَبَّ توفيقه منهم لما يُرْضِيه عنه. «الرحيمُ»، بهم، أَنْ يُعَاقِبَهُمْ بعد التوبةِ، أو يخذلَ مَنْ أرادَ منهم التوبةَ والإنابةَ ولا يتوب عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: للمؤمنينَ، مُعَرِّفَهُمْ سبيلَ النجاةِ من عقابِهِ، والخلاصِ من أليمِ عذابه: «يا أيها الذين آمنوا»، باللهِ ورسوله. «اتَّقُوا الله»، وراقِبُوهُ، بأداءِ فرائِضِه، وتَجَنُّبِ حُدُودِه، «وكُونُوا»، في الدنيا، من أهلِ ولايةِ اللهِ وطاعتِه، تكونوا في الآخرة «مع الصادقينَ»، في الجنةِ. يعني: مَعَ مَنْ صَدَقَ اللهَ الإيمانَ به، فحقَّقَ قولَهُ بِفِعْلِهِ، ولم يكن من أهلِ النفاقِ فيه، الذينَ يُكَذِّبُ قِيلَهُمْ فِعْلُهُم.

وإنما معنى الكلام: وكُونُوا مع الصادقينَ في الآخرةِ باتقاءِ اللهِ في الدنيا، كما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٧٠].

وإنما قلنا: ذلك معنى الكلام، لأَنَّ كَوْنَ المنافِقِ مع المؤمنينَ غيرُ نافِعِه بأيِّ وجوهِ الكَوْنِ كانَ مَعَهُمْ، إنْ لم يكنْ عاملاً عَمَلَهُمْ. وإذا عَمِلَ عَمَلَهُم فهو

مِنْهُمْ، وإذا كان منهم، كان وجْهُ الكلامِ أنْ يقالَ: «اتَّقُوا الله وكُونُوا مع الصادقين»، ولتوجيهِ الكلام إلى ما وَجَّهْنَا من تأويلِه، فَسَّرَ ذلكَ مَنْ فَسَّرَهُ من أهلِ التأويلِ بأنْ قال: معناه: وكُونُوا مع أبي بكرٍ وعمر، أو: معَ النبيِّ ﷺ والمهاجرينَ، رحمةُ الله عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لم يكن لأهلِ المدينةِ، مدينةِ رسولِ الله ﷺ. «ومَنْ حَوْلَهُمْ من الأعرابِ»، سُكَّان البوادي، الذين تَخلَّفُوا عن رسولِ الله ﷺ في غزوةِ تبوك، وهُمْ من أهلِ الإيمانِ به، أنْ يَتخلَّفُوا في أهاليهم ولا دار لهم، ولا أنْ يَرْغَبُوا بأنفسِهم عن نفسِه في صُحْبَتِه في سَفَرِه والجهاد معه، ومعاونته على ما يُعَانِيه في غَزْوِهِ ذلك. يقولُ: إنه لم يكن لهم هذا. «بأنَّهُمْ»، من أجلِ أنهم، وبسببِ أنهم «لا يُصِيبُهُمْ»، في سفرهم إذا كانوا معه «ظَمأٌ»، وهو العَطَشُ، «ولا نَصَبٌ»، يقولُ: ولا تَعَبٌ، «ولا مَخْمَصَةٌ في سبيلِ الله»، يعني: ولا مجاعة في إقامةِ دِينِ اللهِ ونُصْرَتِه، وهَدْمِ مَنَار الكُفْرِ، «ولا يَطَأُونَ مَوْطِئاً»، يعني: أرضاً، يقولُ: ولا يطأون أرضاً. «يَغِيظُ الكُفَّارَ»، وَطْؤُهُمْ إياها، «ولا ينالون من عَدُوٍّ نيلاً»، يقولُ: ولا يُصِيبونَ من عَدُوِّ الله وعَدُوِّهم شيئاً في أموالهم وأنفسِهم وأولادهم - إلَّا كَتَبَ الله لهم بذلك كُلِّه، ثوابَ عَمَلٍ صالحٍ قد ارْتَضاهُ. «إنَّ الله لا يُضِيعُ أجرَ المحسنينَ»، يقولُ: إنَّ الله لا يَدَعُ محسناً من

خَلْقِه أَحْسَنَ في عملِه فأطاعَهُ فيما أَمَرَهُ، وانتهى عما نهاه عنه، أنْ يُجازيه على إحسانِه، ويُثيبه على صالحِ عَمَلِه. فلذلك كتبَ لمن فعلَ ذلك من أهلِ المدينةِ ومَنْ حَوْلَهُمْ من الأعرابِ ما ذكر في هذه الآية، الثوابَ على كُلِّ ما فعلَ، فلم يُضَيِّعْ له أجرَ فِعْلِه ذلك.

وقد اختلفَ أهلُ التأويل في حُكْمِ هذه الآية.

فقال بعضهم: هي مُحْكَمَةٌ، وإنما كان ذلك لرسولِ الله ﷺ خاصةً، لم يكن لأحدٍ أنْ يتخلَّفَ إذا غزا خِلافَهُ فيقعد عنه، إلا مَنْ كان ذا عُذْرٍ. فأما غيره من الأئمةِ والولاةِ، فإنَّ لِمَنْ شاءَ من المؤمنينَ أنْ يتخلَّفَ خِلافَهُ، إذا لم يكن بالمسلمينَ إليه ضرورةٌ.

وقال آخرون هذه الآية: نَزَلَتْ وفي أهلِ الإسلامِ قِلَّةٌ، فلما كَثُرُوا نَسَخَهَا اللهُ، وأباحَ التخلُّفَ لمن شاء فقال: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢].

والصوابُ من القول في ذلك عندي: أنَّ اللهَ عَنَى بها الذينَ وَصَفَهم بقولِه: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ الآية [التوبة: ٩٠]. ثم قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «ما كانَ لأهلِ المدينةِ»، الذين تَخَلَّفُوا عن رسولِ الله، ولا لِمَنْ حَوْلَهم من الأعراب الذين قَعَدُوا عن الجهادِ معه، أنْ يَتَخَلَّفُوا خِلافَهُ، ولا يَرْغَبُوا بأنفسِهم عن نفسِه. وذلك أنَّ رسولَ الله ﷺ كان نَدَبَ في غزوته تلك كُلَّ مَنْ أطاقَ النهوضَ معه إلى الشخوص، إلَّا مَنْ أَذِنَ له، أو أَمَرَهُ بالمقام بعده. فلم يَكُنْ لمن قَدرَ على الشخوصِ التخلُّفُ. فَعَدَّدَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ مَنْ تَخَلَّفَ منهم، فأظهرَ نِفاقَ مَنْ كان تَخَلُّفُه منهم نِفاقاً، وعُذْرَ مَنْ كان تَخَلُّفُه لعُذْرٍ، وتابَ على مَنْ كان تَخَلُّفُه تفريطاً من غيرِ شَكٍّ ولا ارتيابٍ في أمرِ الله، إذْ تابَ مِنْ خطأ ما كانَ منه من الفِعْلِ. فأما التَّخَلُّفُ عنه في حالِ استغنائه، فلم يكن

محظوراً، إذا لم يكن عن كراهةٍ منه ﷺ ذلك. وكذلك حُكْمُ المسلمينَ اليومَ إزاءَ إمامِهم. فليس بفرضٍ على جميعهم النهوضُ معه، إلا في حالِ حاجتِه إليهم، لِمَا لابُدَّ للإسلامِ وأهلِه من حُضورِهم واجتماعهم واستنهاضه إياهم، فيلزمهم حينئذٍ طاعته.

وإذا كانَ ذلك معنى الآية، لم تَكُنْ إحدى الآيتين اللتين ذكرنا ناسخةً للأخرى، إذْ لم تكن إحداهما نافيةً حُكْمَ الأخرى من كُلِّ وُجُوهِه، ولا جاءَ خَبَرٌ يُوجِّهُ الحُجَّةَ بأنَّ إحداهما ناسخةٌ للأخرى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٢١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «ذلكَ بأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهم ظَمَأٌ»، وسائرُ ما ذكر، «ولا يَنَالُونَ من عَدُوٍّ نيلاً»، «ولا ينفقونَ نَفَقَةً صغيرةً ولا كبيرةً»، في سبيلِ الله، «ولا يقطعون»، مع رسولِ الله في غَزْوِهِ «وادياً» إلا كُتِبَ لهم أجرُ عَمَلِهم ذلكَ، جزاءً لهم عليه، كأحسن ما يَجْزِيهم على أحسنِ أعمالِهم التي كانوا يعملونها وهم مُقِيمونَ في منازلهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ۝١٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولم يَكُنْ المؤمنونَ لِيَنْفُروا جَميعاً.

ثم اختلفَ أهـلُ التـأويلِ في المعنى الذي عَنَاهُ اللهُ بهذه الآية، وما «النفر»، الذي كَرِهَهُ لجميعِ المؤمنين؟

وأَوْلى الأقـوالِ في تأويلِ ذلـك بالصـوابِ أنْ يُقالَ: تأويلُه: وما كانَ المؤمنـونَ لينفـروا جميعـاً ويتركوا رسولَ الله وحده، وأنَّ الله نَهَى بهذهِ الآيةِ المؤمنينَ به أنْ يخرجوا في غزوٍ وجهادٍ وغير ذلك من أمورهم، ويَدَعُوا رسولَ الله ﷺ وحيداً. ولكن عليهم إذا سَرَّى رسولُ الله ﷺ سريةً، أنْ ينفرَ معها مِنْ كُلِّ قبيلةٍ من قبائلِ العرب - وهي الفرقة «طائفةٌ»، وذلك من الواحدِ إلى ما بَلَغَ من العددِ، كما قال الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة»، يقولُ: فَهلاَّ نَفَرَ من كُلِّ فرقةٍ منهم طائفة؟

وإنما قلنا: هذا القولُ أَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه حظر التخلفَ خِلافَ رسولِ الله ﷺ على المؤمنينَ به من أهلِ المدينةِ مدينةِ الرسولِ ﷺ ومن الأعرابِ، لغيرِ عذرٍ يُعْذَرُونَ به، إذا خَرَجَ رسولُ الله لغزوٍ وجهادِ عدوٍّ قبل هذه الآية بقوله: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْإِعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ ٱللهِ﴾، ثم عَقَّبَ ذلك جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقوله: «وما كان المؤمنونَ لينفرُوا كافةً»، فكان معلوماً بذلك - إذْ كانَ قد عَرَّفَهُمْ في الآيةِ التي قَبْلَها اللازمَ لهم من فَرْضِ النَّفْرِ، والمباحَ لهم من تَرْكِه في حالِ غزوِ رسـولِ الله ﷺ، وشُخُوصِه عن مدينتِهِ لجهادِ عدوٍّ، وأَعْلَمَهُمْ أنه لا يَسَعُهم التخلُّفُ خِلافه إلا لِعُذْرٍ، بعد استنهاضِه بعضَهم وتَخْلِيفهُ بعضَهم - أنْ يكونَ عَقِيبَ تعـريفِهم ذلـك، تعـريفُهم الواجبَ عليهم عند مقامِ رسولِ الله ﷺ بمـدينتِـه، وإشخـاص غيرِه عنهـا، كمـا كانَ الابتداءُ بتعريفِهم الواجبَ عند شخوصِه وتخليفه بعضَهم.

وأما قوله: «ليتفَقَّهُوا في الدينِ وليُنْذِرُوا قومَهم إذا رَجَعُوا إليهم»، فإنَّ أَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ، قولُ مَنْ قال: ليتفقه الطائفةُ النافرةُ بما تُعَايِنُ من نَصْرِ الله أهلَ دِينِه وأصحابَ رسولِه، على أهلِ عداوتِه والكُفْرِ به، فيفقه بذلك من مُعاينته حقيقةَ علم أمرِ الإسلامِ وظهورِه على الأديان، مَنْ لم يكن فَقِهَهُ،

ولينـذروا قومَهم فَيُحَـذِّرُوهم أنْ ينزلَ بهم من بأسِ اللهِ مِثْل الذي نَزَلَ بمن شاهدوا وعاينوا مِمَّنْ ظفرَ بهم المسلمونَ من أهلِ الشرك - إذا هُمْ رَجَعُوا إليهم من غَزْوِهم - «لعلهم يحذرون»، يقولُ: لَعَلَّ قومهم، إذا هُمْ حَذَّرُوهم ما عَايَنُوا من ذلك، يَحْذَرُونَ فيؤمنونَ باللهِ ورسوله، حَذَراً أنْ ينزلَ بهم ما نَزَلَ بالذين أُخْبِرُوا خَبَرَهم.

وإنما قلنا ذلك أوْلى الأقوالِ بالصوابِ، لأن «النفر» قد بَيَّنا فيما مضى، أنه إذا كان مطلقاً بغير صلةٍ بشيءٍ، أنَّ الأغلبَ من استعمالِ العربِ إياه في الجهادِ والغزوِ. فإذا كان ذلكَ هو الأغلب من المعاني فيه، وكانَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ قال: «فلولا نَفَـرَ من كُلِّ فرقةٍ منهم طائفـة ليتفقهـوا في الـدين»، علم أنَّ قوله: «ليتفقهوا»، إنما هو شَرْطٌ للنفر لا لغيرِه، إذْ كان يَلِيه دونَ غيرِه من الكلام.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ١٢٣﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: للمؤمنينَ به وبـرسوله: يا أيها الذينَ صَدَّقُوا اللهَ ورسولَهُ، قَاتِلُوا مَنْ وَلِيَكُمْ من الكفارِ دونَ مَنْ بَعُدَ منهم. يقول لهم: ابدأوا بقتـالِ الأقـربِ فالأقربِ إليكم داراً، دونَ الأبعدِ فالأبعدِ. وكان الذينَ يَلُونَ المخـاطبينَ بهذهِ الآيةِ يومئذٍ، الروم، لأنهم كانوا سكانَ الشأم يومئذٍ والشأمُ كانت أقربَ إلى المدينةِ من العراقِ. فأما بَعْدَ أنْ فتحَ اللهُ على المؤمنينَ البلادَ، فإنَّ الفَـرْضَ على أهلِ كُلِّ ناحية، قتالُ مَنْ وَلِيَهُمْ من الأعداءِ دونَ الأبعدِ منهم، ما لم يضطرّ إليهم أهل ناحيةٍ أُخرى من نواحي بلادِ الإسلامِ. فإنِ اضْطُرُّوا إليهم، لَزِمَهُمْ عَوْنُهم ونصرهم، لأنَّ المسلمينَ يَدٌ على مَنْ سِواهم.

ولِصِحَّـةِ كونِ ذلكَ كذلكَ، تأوَّلَ كُلُّ مَنْ تأوَّلَ هذه الآيةَ، أنَّ معناها إيجاب الفرضِ على أهلِ كُلِّ ناحيةٍ قتالَ مَنْ وَلِيَهُمْ من الأعداء.

وأما قوله: «ولْيَجِدُوا فيكم غِلْظَةً»، فإنَّ معناه: ولْيَجِدْ هؤلاءِ الكفارُ الذينَ تُقَاتِلونهم «فيكم»، أي: منكم شِدَّةً عليهم، «واعلموا أنَّ الله مع المتقين»، يقول: وأيْقِنُوا، عندَ قِتالكم إياهم، أنَّ الله معكم، وهو نَاصِرُكُمْ عليهم، فإنِ اتَّقَيْتُم اللهَ وخِفْتُمُوه بأداءِ فرائضِه واجتنابِ معاصِيهِ، فإنَّ الله ناصِرُ مَنْ اتَّقَاهُ ومُعِينُهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ١٢٤

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا أنزلَ اللهُ سورةً من سورِ القرآن على نبيه محمدٍ ﷺ، فمن هؤلاءِ المنافقينَ الذين ذَكَرَهُمُ اللهُ في هذه السورةِ مَنْ يقول: أيها الناسُ، أيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه السورةُ إيماناً؟ يقولُ: تَصْدِيقاً باللهِ وبآياته. يقول الله: «فأمَّا الذين آمنوا»، من الذينَ قِيلَ لهم ذلك، «فزادتهم»، السورةُ التي أُنْزِلَتْ «إيماناً»، وهم يَفْرَحُونَ بما أعطاهم اللهُ من الإيمانِ واليقين.

فإنْ قال قائل: أَوَ لَيْسَ «الإيمانُ»، في كلامِ العربِ، التصديق والإقرار؟

قيل: بلى!

فإنْ قيل: فكيف زَادَتْهُم السورةُ تَصْدِيقاً وإقراراً؟

قيل: زادتهم إيماناً حين نَزَلَتْ، لأنهم قبلَ أنْ تنزلَ السورةُ لم يكن لَزِمَهُمْ فَرْضُ الإقرارِ بها والعملِ بها بعَيْنِهَا، إلاَّ في جملةِ إيمانِهم بأنَّ كُلَّ ما جاءهم به نَبِيُّهم ﷺ من عِنْدِ الله فَحَقٌّ. فلما أنزلَ اللهُ السورةَ لَزِمَهُم فَرْضُ الإقرارِ بأنها بعينها من عندِ الله، وَوَجَبَ عليهم فرضُ الإيمانِ بما فيها من أحكامِ الله

وحدودِه وفرائضِه، فكانَ ذلكَ هو الزيادةُ التي زَادَتْهُمْ نزول السورةِ حين نزلت من الإيمانِ والتصديقِ بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وأمَّا الذينَ في قُلوبهم مَرَضٌ»، نِفَاقٌ وشَكٌّ في دِينِ الله، فإنَّ السورةَ التي أُنْزِلَتْ «زَادَتْهُمْ رِجْساً إلى رِجْسِهم»، وذلك أنهم شَكُّوا في أنها من عندِ الله، فلم يؤمنوا بها ولم يُصَدِّقُوا، فكانَ ذلك زيادة شكٍّ حادثةٍ في تنزيلِ الله، لَزِمَهُمْ الإيمانُ به عليهم، بل ارتابوا بذلك، فكان ذلك زيادة نَتْنٍ من أفعالِهم، إلى ما سَلَفَ منهم نظيره من النَّتْنِ والنفاق. وذلك معنى قوله: «فزادتهم رِجْساً إلى رجسهم»، «وماتوا»، يعني: هؤلاءِ المنافقينَ أنهم هَلَكُوا، «وهم كافرون»، يعني: وهم كافرونَ باللهِ وآياته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾

تأويل الكلام: أَوَ لا يَرَى هؤلاءِ المنافقونَ أنَّ الله يَخْتَبِرُهُمْ في كُلِّ عامٍ مرةً أو مرتين، بمعنى أنه يختبرهم في بعضِ الأعوامِ مرةً، وفي بعضِها مرتين، «ثم لا يتوبون»، يقولُ: ثم هُمْ مع البلاءِ الذي يحلُّ بهم من الله، والاختبارِ الذي يَعْرِضُ لهم، لا يُنِيبُونَ من نِفاقِهم، ولا يَتُوبُونَ من كُفْرِهم، ولا هُمْ يَتَذَكَّرُونَ بما يَرَوْنَ من حُجَجِ الله ويُعَايِنُونَ من آياتِه، فَيَتَّعِظُوا بها، ولكنهم مُصِرُّونَ على نفاقِهم؟

واختلف أهلُ التأويلِ في معنى «الفتنة» التي ذكر الله في هذا الموضع أنَّ هؤلاءِ المنافقينَ يُفْتَنُونَ بها.

فقال بعضهم: ذلك اختبارُ الله إيَّاهُمْ بالقَحْطِ والشِدَّة.

وقال آخرون: بل معناه: أنهم يُختبرونَ بالغزوِ والجهادِ.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصحةِ أنْ يُقالَ: إنَّ الله عَجَّبَ عِبادَهُ المؤمنينَ من هؤلاءِ المنافقينَ، ووبَّخَ المنافقينَ في أنفسهم بقلَّةِ تَذَكُّرِهم، وسَوءِ تَنَبُّهِهِمْ لمواعظِ الله التي يَعظُهُمْ بها. وجائزٌ أنْ تكونَ تلك المواعظُ الشدائدَ التي يُنْزِلُهَا بهم من الجوعِ والقحطِ ـ وجائزٌ أنْ تكونَ ما يريهم من نصرة رسوله على أهل الكفر به ويرزُقُهُ من اظهار كلمته على كلمتهم ـ وجائز أن تكون ما يظهر للمسلمين من نِفاقِهم وخُبْثِ سرائـرهم، برُكُونِهم إلى ما يَسمعونَ من أراجيفِ المشركينَ برسولِ الله ﷺ وأصحـابـهِ ـ ولا خبـرَ يُوجِبُ صِحَّـةَ بعضٍ ذلـك دونَ بعضٍ، من الـوجـه الـذي يَجبُ التسليمُ له. ولا قولَ في ذلك أوْلى بالصوابِ من التسليمِ لظاهرِ قولِ الله وهو: أَوَ لَا يَرَوْنَ أنهم يُخْتَبَرُونَ في كُلِّ عامٍ مرةً أو مرتين، بما يكونُ زاجراً لهم، ثم لا يَنْزَجِرُونَ ولا يَتَّعِظُونَ؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وإذا ما أُنزِلَتْ سورةٌ»، من القرآنِ فيها عيبُ هؤلاءِ المنافقينَ الذين وَصَفَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ صِفَتَهُم في هذه السورةِ، وهُمْ عندَ رسولِ الله ﷺ. «نَـظَرَ بعضُهم إلى بعضٍ»، فتناظروا. «هل يَرَاكُمْ من أحدٍ»، إنْ تَكَلَّمْتُمْ أو تناجيتم بمعايبِ القومِ يخبرهم به، ثم قاموا فانصرفوا من عندِ رسولِ

الله ﷺ، ولم يَسْتَمِعُوا قراءةَ السورةِ التي فيها مَعَايبهم. ثم ابتدأ جَلَّ ثَنَاؤُهُ قولَهُ: «صَرَفَ اللهُ قُلوبَهُم»، فقال: صَرَفَ اللهُ عن الخيرِ والتوفيقِ والإيمانِ باللهِ ورسولهِ قُلوبَ هؤلاءِ المنافقينَ. «ذلكَ بأَنَّهُمْ قومٌ لا يفقهون»، يقول: فَعَلَ اللهُ بهم هذا الخذلانَ، وصَرَفَ قلوبهم عن الخيراتِ، مِنْ أجلِ أنهم قومٌ لا يفقهونَ عن الله مواعِظَهُ، استكباراً، ونفاقاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للعرب: لقد جاءكم، أيها القومُ، رسولُ الله إليكم. «من أنفُسِكُمْ»، تَعْرِفُونَهُ، لا مِنْ غيركم فَتَتَّهِمُوه على أنفسِكم في النصيحة لكم. «عَـزيزٌ عليهِ ما عَنِتُّم» أي: عزيز عليه عنتكم وهـو دخـول المشقـةِ عليهم والمكـروهِ والأذى. «حـريصٌ عليكم»، يقـولُ: حريصٌ على هُدَى ضُلاَّلِكُمْ وتوبتهم ورجوعهم إلى الحق. «بالمؤمنينَ رؤوفٌ»، أي: رفيقٌ «رحيم».

وأما قوله: «عزيزٌ عليه ما عَنِتُّمْ»، فإنَّ أهلَ التأويلِ اختلفوا في تأويله.

فقال بعضهم: معناه: ما ضَلَلْتُمْ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: عزيزٌ عليه عَنَتُ مُؤْمِنِكُمْ.

وأَوْلى القولين في ذلك بالصواب، القولُ الأول، وذلك أَنَّ الله عَمَّ بالخبرِ عن نبيِّ الله أنه عزيزٌ عليه ما عَنَتَ قَوْمَهُ، ولم يخصص أهلَ الإيمانِ به. فكانَ ﷺ كما جاءَ الخبرُ من اللهِ به، عزيزٌ عليه عَنَتُ جَمْعِهِم.

فإنْ قال قائلٌ: وكيف يجوزُ أنْ يُوصَفَ ﷺ بأنه كان عزيزاً عليه عَنَتُ جميعِهم، وهو يقتلُ كُفَّارَهم، ويَسْبي ذَرارِيهُمْ، ويَسْلبهم أموالَهم؟

قيل: إنَّ إسلامَهم، لو كانوا أسلموا، كان أَحَبَّ إليه من إقامَتِهم على كُفْرِهم وتكذيبهم إياهُ، حتى يَسْتَحِقُّوا ذلكَ من الله وإنما وَصَفَهُ اللهُ جَلَّ ثَنَاؤُه بأنه عزيزٌ عليه عَنَتُهم، لأنه كانَ عزيزاً عليه أنْ يأتُوا ما يُعْنِتُهم، وذلك أن يَضِلُّوا فيستوجبوا العَنَتَ من الله بالقتلِ والسبي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ١٢٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فإنْ تَوَلَّى، يا محمدُ، هؤلاءِ الذينَ جِئْتَهم بالحقِّ من عند رَبِّكَ من قومكَ، فأدْبرُوا عنكَ ولم يَقْبَلُوا ما أَتَيْتَهُمْ به من النصيحةِ في الله، وما دَعَوْتَهُمْ إليه من النُّورِ والهدى. «فَقُلْ حَسْبِيَ الله»، يَكْفِيني ربي. «لا إلهَ إلا هُوَ»، لا معبودَ سِوَاهُ. «عليه توكلتُ»، وبه وَثِقتُ، وعلى عَوْنِهِ اتَّكَلْتُ، وإليه وإلى نَصْرِه استندتُ، فإنه نَاصري ومُعِيني على مَنْ خالفني وتولَّى عني منكم ومن غيركم من الناس. «وهو رَبُّ العرشِ العظيم»، الذي يملكُ كُلَّ ما دونَهُ، والملوكُ كُلّهم مماليكُه وعبيده.

وإنما عنى بوصْفِه جَلَّ ثَنَاؤُهُ نفسَهُ بأنه «رَبُّ العرشِ العظيم»، الخبرَ عن جميعِ ما دُونَهُ أنهم عبيدُه، وفي مُلْكِه وسُلْطَانِه، لأنَّ «العرش العظيم»، إنما كان يكـون للملوكِ، فَوَصَفَ نفسَـهُ بأنه «ذُو العرش» دونَ سائرِ خَلْقِه، وأنه الملكُ العظيمُ دونَ غيرِه، وأنَّ مَنْ دُونَهُ في سلطانه ومُلْكِهِ، جارٍ عليه حُكْمُه وقضاؤه.

تفسير سورة يونس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: الٓرۚ

اختلفَ أهلُ التأويل في ذلك:

فقال بعضهم تأويله: أنا الله أَرَى.

وقال آخرون: هي حروفٌ من اسمِ الله الذي هو «الرحمن».

وقال آخرون: هي اسمٌ من أسماء القرآن.

وقد ذكرنا اختلافَ الناس، وما إليه ذَهَبَ كُلُّ قائلٍ في الذي قال فيه، وما الصوابُ لدينا من القولِ في ذلك في نظيره، وذلك في أول «سورة البقرة»، فأغنى ذلك عن إعادتهِ في هذا الموضع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾

(يعني): «هـذه آياتُ القرآن»، ووجَّهَ معنى «تلك» إلى معنى «هذه»، و«الآياتُ»، الأعلامُ ـ و«الكتابُ»، اسمٌ من أسماءِ القرآن.

ومعنى «الحكيم»، في هذا الموضع، «المُحْكمُ»، صرف «مُفْعَل» إلى «فعيل»، كما قيل: «عذاب أليم»، بمعنى مؤلم.

فمعناه إذاً: تلك آياتُ الكتاب المُحْكَم، الذي أحكمه الله وبَيَّنَهُ لعبادهِ، كما قال جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أكان عَجَباً للناسِ إيحاؤُنا القرآنَ على رجلٍ منهم، بإنذارِهم عِقابَ الله على معاصيه، كأنهم لم يعلموا أنَّ الله قَدْ أوحى مِنْ قَبْلِه إلى مِثْلِه من البشرِ، فتعجَّبوا من وَحْيِنَا إليه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ: أما كان عَجَباً للناسِ أنْ أوحينا إلى رجلٍ منهم: أنْ أَنْذِرِ الناسَ، وأنْ بَشِّرِ الذين آمنوا بالله ورسوله: «أنَّ لهم قَدَمَ صِدْقٍ»، عَطْفٌ على «أنذر».

واختلف أهلُ التأويل في معنى قوله: «قدم صدق».

فقال بعضهم: معناه: أنَّ لهم أجراً حسناً بما قَدَّمُوا من صالحِ الأعمال.

وقال آخرون: معناه: أنَّ لهم سابقَ صِدْقٍ في اللوحِ المحفوظ، من السعادة.

وقال آخرون: معنى ذلك: أنَّ محمداً ﷺ شفيعُ لهم، قَدَمَ صدق.

وأوْلى هذه الأقوالِ عندي بالصوابِ، قولُ مَنْ قال: معناه: أنَّ لهم أعمالاً صالحةً عند الله، يستوجبون بها منه الثوابَ.

وذلك أنه مَحْكِيٌّ عن العرب: «هؤلاءِ أهْلُ القَدَم في الإسلام»، أي: هؤلاء الـذين قَدَّمُوا فيه خيْراً، فكان لهم فيه تقديم. ويقال: «له عندي قَدَمُ

صِدْقٍ، وقَدَمُ سوء»، وذلك ما قدَّم إليه من خير أو شر.

فتأويلُ الكلام إذاً: وبَشِّرِ الذين آمنوا أنَّ لهم تَقْدِمةَ خيرٍ من الأعمالِ الصالحةِ عند ربِّهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾

تأويلُ الكلام: أكان للناس عَجَباً أنْ أوحينا إلى رجلٍ منهم: أنْ أنذرِ الناسَ، وبَشِّرِ الذين آمنوا أنَّ لهم قَدَمَ صِدْقٍ عند ربهم؟ فلما أتاهم بوحي الله وَتَلاهُ عليهم، قال المُنْكِرُونَ توحيدَ الله ورسالةَ رسولِهِ: إنَّ هذا الذي جاءنا به محمدٌ لَسِحْرٌ[1] مُبين: أي: يبينُ لكم عنه أنه مُبْطِلٌ فيما يَدَّعيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ ربكم الذي له عبادةُ كُلِّ شيءٍ، ولا تنبغي العبادةُ إلا له، هو الذي خلقَ السمواتِ السبع والأرضينَ السبع في ستةِ أيامٍ، وانفرد بِخَلْقِهما بغيرِ شريكٍ ولا ظَهيرٍ، ثم استوى على عرشه مُدَبِّراً للأمور، وقاضياً في خَلْقِه ما أحبَّ، لا يضادُّه في قضائه أحدٌ، ولا يتعقبُ تدبيره مُتَعَقِّبٌ، ولا يدخل أمورَهُ خَلَلٌ. «ما مِنْ شفيعٍ إلا من بعدِ إذنه»، يقول: لا يشفعُ عنده شافعٌ يومَ القيامة في أحدٍ، إلَّا من بعد أنْ يأذَنَ في الشفاعة. «ذَلِكُمُ الله

---

(١) لأن الساحر يأتي بالسحر، ولذلك قرأها بعضهم «لَسِحْرٌ مُبين».

رَبُّكم»، يقول جَلَّ جلاله: هذا الذي هذه صِفَتُه، سيِّدُكم ومَوْلَاكُم، لا مَنْ لايسمعُ ولا يُبْصِرُ ولا يدبِّرُ ولا يقضي من الآلهة والأوثان. «فاعبدوه»، يقول: فاعبدوا رَبَّكم الذي هذه صفته، وأخلصوا له العبادةَ، وأفردوا له الألُوهةَ والربوبيةَ، بالذِلَّةِ منكم له، دونَ أوثانِكم وسائرِ ما تُشركون معه في العبادة. «أفلا تَذَكَّرُون»، يقول: أفلا تَتَّعِظُونَ وتَعتبرونَ بهذه الآياتِ والحجج، فَتُنِيبُونَ إلى الإذعانِ بتوحيدِ ربكم وإفرادِهِ بالعبادة، وتخلعونَ الأندادَ وتبرأون منها؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إلى رَبِّكُم الذي صفته ما وصَفَ جَلَّ ثناؤُهُ في الآية قبل هذه، معادُكم، أيها الناسُ، يومَ القيامة جميعاً. «وعد الله حقًّا» فأخرجَ «وعد الله» مصدراً من قوله: «إليه مرجعكم»، لأنه فيه معنى «الوعد»، ومعناه: يَعِدُكُمُ الله أنْ يُحْيِيكم بعد مَمَاتِكم وَعْداً حقًّا، فلذلك نَصَبَ «وعدَ الله حقًّا». «إنَّهُ يبدأُ الخَلْقَ ثم يُعيده»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إن رَبَّكم يبدأُ إنشاءَ الخلق وإحداثَهُ وإيجاده. «ثم يعيده»، يقول: ثم يُعِيدُه فيوجده حيًّا كهيئته يومَ ابتدأَهُ، بعد فنائهِ وبَلَائه.

وقوله: «ليجزيَ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ بالقسط»، يقول: ثم يعيده من بعد مماتهِ كهيئتهِ قبلَ مماتهِ عند بَعْثِه من قبره. «ليجزيَ الذين آمنوا»، يقول: لِيُثِيبَ مَنْ صَدَّقَ الله ورسولَهُ، وعملوا ما أمرهم الله به من الأعمالِ، واجتنبوا ما نهاهم عنه، على أعمالهم الحَسَنةِ. «بالقسطِ»، يقول: ليجزيهم على الحَسَنِ من أعمالهم التي عَمِلُوها في الدنيا الحَسَنَ من الثواب، والصالحَ

من الجزاءِ في الآخرة ـ وذلك هو «القِسط»، و«القسط»، العدلُ والإنصاف.

وقوله: «والذين كفروا لهم شَرَابٌ من حميم»، فإنه جَلَّ ثناؤُهُ ابتدأ الخبرَ عما أَعَدَّ الله للذين كفروا من العذابِ، وفيه معنى العطفِ على الأول. لأنه تعالى ذِكْرُهُ عَمَّ بالخبر عن معادِ جميعِهم، كُفَّارِهم ومؤمنيهم، إليه. ثم أخبر أنَّ إعادَتهم ليجزيَ كُلَّ فريقٍ بما عملَ، المحسنَ منهم بالإحسانِ، والمسيءَ بالإساءةِ. ولكن لما كان قد تَقَدَّمَ الخبرُ المستأنَفُ عما أعدَّ للذين كفروا من العذاب، ما يدلُّ سامعَ ذلك على المرادِ، ابتدأَ الخبرَ، والمعنيُّ العطفُ، فقال: والذين جَحَدُوا الله ورسولَهُ وكَذَّبوا بآيات الله «لهم شراب» في جهنم «من حميم»، وذلك شرابٌ قد أُغْلِيَ واشتدَّ حَرُّهُ، حتى إنه فيما ذُكِرَ عن النبي ﷺ ليتساقطُ من أحدِهم حين يدنيه منه فروةُ رأسِه[1]، وكما وصفه جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩].

وقوله: «عذاب أليم»، يقول: ولهم مع ذلك عذابٌ مُوجع، سوى الشرابِ من الحميم، بما كانوا يكفرونَ بالله ورسولِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ ربكم الله الذي خلق السمواتِ والأرض. «هو الذي جعل الشمسَ ضياء»، بالنهار، «والقمرَ نُوراً»، بالليل. ومعنى ذلك: هو

(١) يشير إلى حديث أبي سعيد الخدري بهذا المعنى، وهو من رواية درّاج أبي السمح عن أبي الهيثم عنه، وهو إسناد ضعيف أخرجه المؤلف وابن ماجة (٧٤٧٣)، والحاكم ٥٠١/٢، والبيهقي (٥٥٠)، والترمذي (٢٥٨١) و(٣٣٢٢) وغيرهم. وفي الباب عن أبي أُمامة عند الترمذي (٢٥٨٣)، وأحمد: ٢٦٥/٥، ونعيم بن حماد في زوائد الزهد (٣١٤) ولا يثبت أيضاً.

الذي أضاءَ الشمسَ وأنارَ القمرَ، «وقَدَّرَهُ منازلَ»، يقول: قَضَاهُ فَسوَّاهُ منازلَ، لا يجاوزها ولا يَقْصُرُ دُونَها، على حالٍ واحدةٍ أبداً.

وقولـه: «لتعلمـوا عَدَدَ السنينَ والحِسـاب»، يقـول: وقَدَّرَ ذلك منازلَ «لتعلموا»، أنتم أيها الناسُ «عَدَدَ السنين»، دخولَ ما يدخلُ منها، أو انقضاءَ ما يُسْتَقْبَلُ منها، وحسابها، يقول: وحسابَ أوقاتِ السنين، وعددَ أيامها، وحسابَ ساعاتِ أيامها. «ما خَلَقَ الله ذلك إلا بالحق»، يقولُ جَلَّ ثناؤُهُ: لم يخلق الله الشمسَ والقمر ومنازلهما إلا بالحق. يقول الحق تعالى ذِكْرُهُ: خَلَقْتُ ذلك كُلَّهُ بحقٍّ وحدي، بغيرِ عونٍ ولا شريك. «يُفَصِّلُ الآياتِ»، يقول: يُبَيِّنُ الحجج والأدلة. «لقومٍ يعلمون»، إذا تدبروها، حقيقةَ وحدانية الله، وصحةَ ما يَدْعُوهم إليه محمدٌ ﷺ، من خَلْعِ الأندادِ، والبراءةِ من الأوثان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: مُنَبِّهاً عبادَهُ على موضع الدَّلالةِ على ربوبيته، وأنه خالقُ كُلِّ ما دونه: إنَّ في اعتقابِ الليلِ النهارَ، واعتقابِ النهار الليلَ، إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا، وفيما خَلَقَ الله في السموات من الشمسِ والقمرِ والنجومِ، وفي الأرضِ من عجائبِ الخَلْقِ الدالةِ على أنَّ لها صانعاً ليس كمثله شيءٌ. «لآياتٍ»، يقول: لأَدِلَّةً وحُجَجاً وأعلاماً واضحةً. «لقومٍ يتقون» الله، فيخافونَ وعيدَهُ، ويخشونَ عِقابَهُ على إخلاصِ العبادةِ لربهم.

فإن قالَ قائلٌ: أوَ لا دلالة فيما خَلَقَ الله في السموات والأرض على صانعه إلا لمن اتقى الله؟

قيل: في ذلك الدلالةُ الواضحةُ على صانعه لِكُلِّ مَنْ صحَّت فِطْرته، وبَرِئَ من العاهاتِ قَلْبُه، ولم يقصد بذلك الخبرَ عن أنَّ فيه الدلالةَ لمن كان قد أشعرَ نَفْسَهُ تقوى الله، وإنما معناه: إن في ذلك لآياتٍ لمن اتَّقى عقابَ الله، فلم يحمله هواه على خلاف ما وضحَ له من الحَقِّ، لأنَّ ذلك يدلُّ كُلَّ ذي فطرةٍ صحيحةٍ على أنَّ له مدبِّراً يستحقُّ عليه الإذعان له بالعبودةِ، دونَ ما سواه من الآلهةِ والأنداد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ۝٧ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الذين لا يخافون لقاءَنا يومَ القيامة، فهم لذلك مُكَـذِّبُـون بالثوابِ والعقابِ، متنافسونَ في زَيْنِ الدنيا وزخارفها، راضُون بها عِوَضاً من الآخرة، مطمئنينَ إليها ساكنينَ ـ والذين هُمْ عن آياتِ الله ـ وهي أَدِلَّته على وحـدانيتـهِ، وحُجَجه على عبادِه، في إخلاصِ العبادةِ له. «غافلون»، مُعْرِضُونَ عنها لاَهُونَ، لا يتأمَّلونها تأمُّلَ ناصحٍ لنفسه، فيعلموا بها حقيقةَ ما دلَّتهم عليه، ويعرفوا بها بُطُولَ ما هُمْ عليه مقيمون. «أولئك مأواهُم النار»، يقول: جَلَّ ثناؤُهُ: هؤلاء الذين هذه صِفَتُهم. «مأواهم»، مصيرهم إلى النار نارِ جهنم في الآخـرة. «بمـا كانـوا يكسبون»، في الدنيا من الآثامِ والأجْرام، ويجْترحون من السيئات.

والعربُ تقول: «فلانٌ لا يرجو فلاناً»، إذا كان لا يخافه، ومنه قولُ الله جَلَّ ثناؤهُ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لله وَقَاراً﴾ [نوح: ١٣].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات»، إنَّ الذين صَدَّقُوا الله ورسوله، «وعملوا الصالحات»، وذلك العمل بطاعةِ الله والانتهاء إلى أمره. «يَهْدِيهم رَبُّهم بإيمانِهم»، يقول: يُرْشِدُهُم رَبُّهم بإيمانِهم به، إلى الجنة.

وقوله: «تجري من تهتهم الأنهار»، يقول: تجري من تحتِ هؤلاء المؤمنين الذين وصفَ جَلَّ ثناؤُهُ صفتهم، أنهارُ الجنة. «في جنات النعيم»، يقول: في بساتين النعيم، الذي نعَّم الله به أهلَ طاعتِهِ والإيمانِ به.

فإنْ قالَ قائلٌ: وكيف قيل: «تجري من تحتهم الأنهار»، وإنما وصف جَلَّ ثناؤُهُ أنهارَ الجنةِ في سائرِ القرآن أنها تجري تحتَ الجنات؟ وكيف يمكن الأنهار أنْ تجري من تحتهم. إلا أنْ يكونوا فوقَ أرضها والأنهارُ تجري من تحت أرضها؟ وليس ذلك من صفةِ أنهارِ الجنة، لأنَّ صفتها أنها تجري على وجه الأرض في غير أخاديد؟

قيل: إنَّ معنى ذلك بخلافِ ما إليه ذهبتَ، وإنما معنى ذلك: تجري من دونهم الأنهارُ إلى ما بين أيديهم في بساتين النَّعيم، وذلك نظير قولِ الله: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤]. ومعلوم أنه لم يجعل «السَّري» تحتها وهي عليه قاعدة إذ كان «السري»، هو الجدولُ، وإنما عَنَى به: جعلَ دونَها بين يديها، وكما قال جَلَّ ثناؤُهُ مخبراً عن قيل فرعون، ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١]، بمعنى: من دوني، بين يديّ.

وأما قوله: «دَعْوَاهُمْ فيها سُبْحَانَكَ اللهم»، فإنَّ معناه: دعاؤهم فيها: سبحانك اللهم.

وأما قوله: «سبحانك اللهم»، فإنَّ معناه: تنزيهاً لك، يا رب، مما أضافَ إليكَ أهلُ الشركِ بكَ، من الكذبِ عليكَ والفِرْيَة.

«وتَحِيَّتُهم»، يقول: وتحيةُ بعضِهم بعضاً «فيها سلام»، أي: سَلِمْتَ وأمِنْتَ مما ابتُلِيَ به أهلُ النارِ.

وقوله: «وآخر دعواهم»، يقول: وآخرُ دُعَائِهم «أنِ الحمدُ لله رَبِّ العالمين»، يقول: وآخرُ دعائهم أن يقولوا: «الحمدُ لله رَبِّ العالمين»، ولذلك خففت «أن»، ولم تشددّ، لأنه أُريدَ بها الحكاية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولو يُعَجِّلُ الله للناسِ إجابةَ دُعائِهم في الشرِّ، وذلك فيما عليهم مضرّة في نفسٍ أو مال. «استعجالَهُمْ بالخير»، يقول: كاستعجالِه لهم في الخير بالإجابةِ إذا دَعَوْهُ به. «لَقُضِيَ إليهم أجَلُهم»، يقول: لَهَلَكُوا، وعُجِّلَ لهم الموتُ، وهو «الأجل».

«فنذر الذين لا يرجون لقاءنا»، يقول: فَنَدَعُ الذين لا يخافونَ عقابنا، ولا يُوقِنونَ بالبعثِ ولا بالنشور «في طغيانهم»، يقول: في تَمَرُّدِهم وعُتُوِّهم «يعمهون»، يعني: يترددون.

وإنما أخبر جَلَّ ثناؤُهُ عن هؤلاءِ الكَفَرةِ بالبعثِ بما أخبر به عنهم، من

طغيانهم وترددهم فيه عند تعجيلِه إجابةَ دعائهم في الشرِّ لو استجاب لهم، أن ذلك كان يدعوهم إلى التقرُّبِ إلى الوثنِ الذي يُشْرِكُ به أحَدُهم، أو يضيفُ ذلك إلى أنه من فِعْلِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِه تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإذا أصابَ الإنسانَ الشِدَّة والجهد «دَعَانا لجنبه»، يقول: استغاثَ بنا في كَشْفِ ذلك عنه. «لجنبه»، يعني: مُضْطجِعاً لجنبه، «أو قاعداً أو قائماً»، بالحالِ التي يكونُ بها عند نزولِ ذلك الضُرِّ به. «فلما كشفنا عنه ضُرَّهُ»، يقول: فلما فَرَّجْنَا عنه الجهدَ الذي أصابه، «مَرَّ كأنْ لم يَدْعُنَا إلى ضُرٍّ مَسَّهُ»، يقول: استمرَّ على طريقتِه الأولى قبل أنْ يصيبه الضر، ونسيَ ما كانَ فيه من الجهدِ والبلاءِ أو تناساه، وتركَ الشُّكْرَ لربهِ الذي فَرَّجَ عنه ما كانَ قد نزلَ به، من البلاءِ حين استعاذَ به، وعاد للشرك ودَعوى الآلهةِ والأوثانِ أرباباً معه. يقول تعالى ذِكْرُهُ: «كذلك زُيِّنَ للمسرفينَ ما كانوا يعملون»، يقول: كما زُيِّنَ لهذا الإنسان الذي وصفنا صِفَتَهُ، استمرارَهُ على كُفْرِه بعد كشفِ الله عنه ما كانَ فيه من الضُرِّ، كذلك زُيِّنَ للذين أسرفوا في الكَذِبِ على الله وعلى أنبيائه، فتجاوزوا في القول فيهم إلى غيرِ ما أذن الله لهم به، ما كانوا يعملون من معاصي الله والشرك به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولقد أهلكنا الأممَ التي كذبت رُسُلَ الله من قبلكم، أيها المشركونَ بربهم. «لَمَّا ظَلَمُوا»، يقول: لما أَشْرَكُوا وخالفوا أمرَ الله ونهيه. «وجاءتهم رُسُلهم»، من عندِ الله. «بالبينات»، وهي الآياتُ والحججُ التي تُبِينُ عن صِدْق مَنْ جاء بها. ومعنى الكلام: وجاءتهم رُسُلهم بالآياتِ البينات أنها حَقٌّ. «وما كانوا ليؤمنوا»، يقول: فلم تَكُنْ هذه الأممُ التي أهلكناها ليؤمنوا برسلهم ويُصَدِّقُوهم إلى ما دَعَوْهُمْ إليه من توحيدِ الله وإخلاصِ العبادةِ له. «وكذلك نجزي القومَ المجرمين»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: كما أهلكنا هذه القرونَ من قبلكم، أيها المشركونَ، بظُلْمِهم أنفسَهم، وتكذيبهم رُسُلَهم، وردِّهم نصيحتَهم، كذلكَ أفعلُ بكم فأُهْلِكُكُمْ كما أهلكتُهم بتكذيبكم رسولكم محمداً ﷺ، وظُلْمِكُم أنفسَكُمْ بِشِرْكِكُمْ بربكم، إنْ أنتم لم تُنِيبُوا وتتوبوا إلى الله من شرككم، فإنَّ من ثوابِ الكافرِ بي على كفره عندي، أنْ أُهْلِكَهُ بسَخَطي في الدنيا، وأوردهُ النار في الآخرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ۝١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ثم جعلناكم، أيها الناسُ، خلائفَ من بعد هؤلاءِ القرونِ الذين أهلكناهم لما ظَلَمُوا، تَخْلُفُونَهم في الأرضِ، وتكونونَ فيها بَعْدَهُم. «لِنَنْظُرَ كيفَ تعملون»، يقول: لينظرَ ربُّكم أين عَمَلُكُم من عملِ مَنْ هلك من قبلكم من الأممِ بذنوبهم وكفرهم بربهم، تَحْتَذُونَ مِثالَهم فيه، فتستحقونَ من العقابِ ما استحقوا، أمْ تخالفون سبيلَهم فتؤمنونَ بالله ورسولِه وتقِرُّونَ بالبعثِ بعد المماتِ، فتستحقون من رَبِّكُم الثوابَ الجزيل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ

﴿ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإذا قُرِئَ على هؤلاءِ المشركينَ آياتُ كتابِ الله الذي أنزلناهُ إليكَ، يا محمد. «بيِّناتٍ»، واضحاتٍ، على الحق دالَّاتٍ. «قال الذين لا يرجـون لقاءنا»، يقول: قال الذين لا يخافونَ عِقَابَنا، ولا يُوْقِنُونَ بالمَعَادِ إلينا، ولا يُصَدِّقُونَ بالبعث، لكَ. «ائْتِ بقرآنٍ غيرِ هذا أو بَدِّلْهُ»، يقول: أو غَيِّره. «قُلْ» لهم، يا محمد. «ما يكونُ لي أنْ أبدله من تلقاء نفسي»، أي: من عندي.

والتبـديلُ الذي سألوه، فيما ذكر، أن يُحَوِّلَ آيةَ الوعيدِ آيةَ وَعْدٍ، وآيةَ الوعد وعيداً، والحرامَ حلالاً، والحلالَ حراماً. فأمر الله نبيَّه ﷺ أن يخبرهم أنَّ ذلكَ ليس إليه، وأنَّ ذلك إلى مَنْ لا يُرَدُّ حُكْمُه، ولا يُتعقَّبُ قضاؤه، وإنما هو رسولٌ مُبَلِّغٌ ومأمور مُتَّبع.

وقوله: «إنْ أَتَّبِعُ إلا ما يُوحى إليّ»، يقول: قُلْ لهم: ما أتبع في كل ما آمركم به، أيها القومُ، وأنهاكم عنه، إلا ما يُنْزِلُه إليَّ ربي، ويأمرني به. «إني أخـافُ إنْ عصيتُ ربي عذابَ يومٍ عظيم»، يقول: إني أخشى من الله إنْ خالفتُ أمره، وغيَّرتُ أحكامَ كتابه، وبَدَّلْتُ وَحيه، فعصيته بذلك، عذابَ يومٍ عظيمٍ هَوْلُه، وذلك: يومَ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعةٍ عما أرضعت وتَضعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وترى الناسَ سُكارَى وما هُمْ بسكارى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝١٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه، مُعَرِّفَهُ الحجةَ على هؤلاءِ المشركين الذين قالوا له: «ائتِ بقرآنٍ غيرِ هذا أو بَدِّلْهُ». «قُلْ» لهم، يا محمدُ. «لو شاءَ الله ما تَلَوْتُه عليكم»، أي: ما تلوتُ هذا القرآنَ عليكم، أيها الناسُ، بأن كان لا ينزله عليَّ فيأمرني بتلاوتِهِ عليكم، «ولا أَدْرَاكُمْ به»، يقول: ولا أَعْلَمَكُمْ به «فقد لبثتُ فيكم عُمُراً من قبله»، يقول: فقد مكثتُ فيكم أربعينَ سنة من قبلِ أَنْ أتلوَهُ عليكم، ومن قبل أنْ يُوحِيه إليَّ ربي. «أفلا تعقلون»، أني لو كنتُ مُنْتَحِلاً ما ليسَ لي من القولِ، كنتُ قد انتحلته في أيّامِ شبابي وحَداثتي، وقبلَ الوقتِ الذي تَلَوْتُه عليكم؟ فقد كان لي اليوم، لو لم يُوحَ إليَّ وأُوْمَر بتلاوتِهِ عليكم، مندوحةٌ عن مُعَادَاتِكم، ومُتَّسَعٌ، في الحال التي كنتُ بها منكم قبل أنْ يُوحَى إليَّ وأُومَر بتلاوتِهِ عليكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: قل لهؤلاء المشركينَ الذين نسبوكَ فيما جئتهم به من عند ربِّكَ إلى الكذبِ: أيُّ خَلْقٍ أَشَدُّ تعدِّياً، وأوضع لقِيلِه في غير موضِعِه، مِمَّن اختلقَ على الله كذباً، وافترى عليه باطلاً. «أو كَذَّبَ بآياته»، يعني: بِحُجَجِه ورُسُلِه وآياتِ كتابه؟ يقول له جَلَّ ثناؤُهُ: قل لهم: ليس الـذي أضفتمـوني إليه بأعجبَ من كَذِبكُم على رَبِّكم، وافتـرائِكم عليه، وتكذيبكم بآياته. «إنه لايفلح المجرمون»، يقول: إنه لا ينجحُ الذين اجترموا الكُفْرَ في الدنيا يومَ القيامة، إذا لَقُوا رَبَّهُم، ولا ينالونَ الفلاحَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا

﴿يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ويعبُد هؤلاءِ المشركونَ الذينَ وصفتُ لكَ، يا محمدُ صِفَتَهم، من دونِ الله الذي لا يضرهم شيئاً ولا ينفعهم، في الدنيا ولا في الآخرة، وذلك هو الآلهةُ والأصنامُ التي كانوا يعبدونها. «ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله»، يعني: أنهم كانوا يعبدونها رجاءَ شَفَاعتها عندَ الله. قال الله لنبيه محمدٍ ﷺ. «قل» لهم. «أتنبِّئونَ الله بما لا يعلمُ في السمواتِ ولا في الأرض»، يقول: أتخبرون الله بما لا يكونُ في السمواتِ ولا في الأرض؟ وذلكَ أنَّ الآلهةَ لا تشفعُ لهم عند الله في السمواتِ ولا في الأرض. وكان المشركون يزعمونَ أنها تشفعُ لهم عند الله، فقال الله لنبيه ﷺ: قُلْ لهم: أتخبرون الله أنَّ ما لايشفعُ في السموات ولا في الأرض يشفعُ لكم فيها؟ وذلكَ باطلٌ لا تعلم حقيقته وصحته، بل يعلمُ الله أنَّ ذلك خلاف ما تقولونَ، وأنها لا تشفعُ لأحدٍ، ولا تنفعُ ولا تضر. «سُبْحَانَهُ وتعالى عما يُشْرِكُون»، يقول: تنزيهاً لله وعلوًّا عما يفعلُه هؤلاءِ المشركون، من إشراكِهم في عبادته ما لايَضُرُّ ولا ينفع، وافترائِهم عليه الكذب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما كان الناسُ إلا أهلَ دينٍ واحدٍ وملةٍ واحدة، فاختلفوا في دينهم، فافترقت بهم السُّبُلُ في ذلك. «ولولا كلمةٌ سَبَقَتْ من ربك»، يقول: ولولا أنه سَبَقَ من الله أنه لايهلكُ قوماً إلا بعد انقضاءِ آجالِهم. «لَقُضِيَ بينهم فيما فيه يختلفون»، يقول: لقضيَ بينهم بأنْ يُهْلِكَ أهلَ الباطلِ منهم، ويُنَجِّي أهلَ الحق.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ويقول هؤلاء المشركون: هَلاَّ أُنْزِلَ على محمدٍ آيةٌ من ربه، يقول: عَلَمٌ ودليلٌ نعلمُ به أنَّ محمداً مُحِقٌّ فيما يقول؟ قال الله له: «فقل»، يا محمدُ، «إنما الغيبُ لله»، أي: لا يُعْلَمُ أحدٌ يفعلُ ذلك إلا هُوَ جَلَّ ثناؤُهُ، لأنه لا يَعْلَمُ الغيبَ ـ وهو السرُّ والخفيُّ من الأمور إلا الله. فانتظروا، أيها القومُ، قضاءَ الله بيننا، بتعجيلِ عقوبتِهِ للمُبْطِلِ منا، وإظهارِهِ المُحِقَّ عليه، إني معكم مِمَّنْ ينتظرُ ذلك. ففعل جَلَّ ثناؤُهُ، فقضى بينهم وبينه بأنْ قتلهم يومَ بَدْرٍ بالسيف.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإذا رزقنا المشركينَ بالله فَرَجاً بعد كَرْبٍ، ورخاءً بعد شدَّةٍ أصابتهم.

وقيل: عَنَى به المطرَ بعد القحطِ، و«الضراء»، هي الشدة، و«الرحمة»، هي الفَرَج. يقول: «إذا لَهُمْ مَكْرٌ في آياتنا»، استهزاءٌ وتكذيبٌ.

وقوله: «قُل الله أسرعُ مكراً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: «قل»، لهؤلاءِ المشركينَ المستهزئين من حُجَجِنا وأدِلَّتِنا، يا محمدُ «الله أسرعُ مكراً»، أي: أسرعُ مِحَالاً بكم، واستدراجاً لكم وعقوبةً، منكم، من المكرِ في آياتِ الله.

«إنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبونَ ما تَمْكُرون»، يقول: إنَّ حَفَظَتَنَا الذين نُرْسِلُهم

إليكم، أيها الناسُ، يكتبونَ عليكم ما تمكرونَ في آياتنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: الله الذي يسيركم، أيها الناسُ، في البَرِّ على الظهر، وفي البحر في الفُلْكِ. «حتى إذا كنتم في الفلك»، أي: السفن. «وجَرَيْنَ بهم»، يعني: وجرتِ الفُلْكُ بالناسِ. «بريحٍ طيبة»، في البحر. «وفرِحُوا بها»، يعني: وفَرِحَ ركبانُ الفلك بالريحِ الطيبةِ التي يسيرون بها.

و«الهاء» في قوله: «بها»، عائدةٌ على «الريح الطيبة».

«جاءتها ريحٌ عاصف»، يقول: جاءت الفُلْكَ ريحٌ عاصف، وهي الشديدة.

«وجاءهم الموجُ من كُلِّ مكان»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وجاء ركبانَ السفينةِ الموجُ من كُلِّ مكان. «وظَنُّوا أنهم أُحِيطَ بهم»، يقول: وظَنُّوا أنَّ الهلاكَ قد أحاطَ بهم وأحدق. «دَعَوُا الله مُخْلِصينَ له الدِّينَ»، يقول: أخلصوا الدعاءَ لله هنالك، دونَ أوثانِهم وآلهتِهم، وكان مَفْزَعُهم حينئذٍ إلى الله دونها.

«لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا»، من هذه الشدةِ التي نحنُ فيها. «لَنَكُونَنَّ من الشاكرين»، لكَ على نِعَمِكَ، وتخليصكَ إيّانا مما نحنُ فيه، بإخلاصنا العبادةَ لك، وإفرادِ الطاعةِ دونَ الآلهةِ والأنداد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فلما أنجى الله هؤلاء الذين ظَنُّوا في البحرِ أنهم أُحِيطَ بهم، من الجهدِ الذي كانوا فيه، أَخْلَفُوا الله ما وَعَدُوه، وبغوا في الأرض، فتجاوزُوا فيها إلى غيرِ ما أذن الله لهم فيه، من الكفرِ به، والعمل بمعاصيه على ظهرها. يقولُ الله: يا أيها الناسُ، إنما عتداؤكم الذي تعتدونه على أنفسِكم، وإياهَا تَظلمون. وهذا الذي أنتم فيه. «متاع الحياة الدنيا»، يقول: ذلك بلاغٌ تبلغونَ به عاجلِ دُنياكم.

وقوله: «ثم إلينا مرجعكم»، يقول: ثم إلينا بعد ذلك مَعَادُكم ومصيركم، وذلك بعد الممات. «فَنُنَبِّئُكُمْ بما كنتم تعملون»، يقول: فَنُخْبِرُكُم يومَ القيامة بما كنتم تعملونَ في الدنيا من معاصي الله، ونُجَازِيكم على أعمالِكم التي سلفت منكم في الدنيا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنما مَثَلُ ما تُباهُونَ في الدنيا وتفاخرونَ به من زِينتها وأموالها، مع ما قَدْ وُكِّلَ بذلك من التكديرِ والتنغيصِ، وزوالهِ بالفناءِ والموتِ،

كَمَثَلِ ماءٍ أنزلناه من السماء، يقول: كمطرٍ أرسلناهُ من السماءِ إلى الأرضِ «فاختلطَ به نباتُ الأرض»، يقول: فنبتَ بذلك المطرِ أنواعٌ من النباتِ، مختلطٌ بعضها ببعض.

وقوله: «حتى إذا أخذتِ الأرضُ زُخْرُفَها»، يعني: ظهر حُسْنُهَا وبهاؤُها «وازَّيَّنَتْ»، يقول: وتَزَيَّنَتْ. «وظَنَّ أهلُها»، يعني: أهلُ الأرض «أنهم قادرون عليها»، يعني: على ما أنبتت.

وخرج الخبرُ عن «الأرض» والمعنى للنبات، إذ كان مفهوماً بالخطاب ما عُنِيَ به.

وقوله: «أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً»، يقول: جاء الأرضَ «أَمْرُنَا»، يعني: قضاؤنا بهلاكِ ما عليها من النباتِ ـ إما ليلاً وإما نهاراً ـ «فجعلناها»، يقول: فجعلنا ما عليها. «حصيداً»، يعني: مقطوعةً مقلوعةً من أصولها.

«كَأَنْ لم تَغْنَ بالأمس»، يقول: كأنْ لم تَكُنْ تلك الزروعُ والنباتُ على ظهرِ الأرض نابتة قائمةً على الأرضِ قبلَ ذلك بالأمس.

يقول الله جَلَّ ثناؤُهُ: «كذلك نُفَصِّلُ الآيات لقومٍ يتفكرون»، يقول: كما بَيَّنَّا لكم، أيها الناسُ، مَثَلَ الدنيا وعَرَّفْنَاكُم حُكْمَها وأمرها، كذلك نُبين حُجَجَنَا وأدِلَّتنا لِمَنْ تَفَكَّر واعتبر ونظر. وخَصَّ به أهلَ الفكر، لأنهم أهلُ التمييزِ بين الأمورِ، والفحصِ عن حقائقِ ما يعرضُ من الشُّبَه في الصدور.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٢٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لعباده: أيها الناسُ، لا تطلبوا الدنيا وزينَتها، فإنَّ مصيرَها إلى فناءٍ وزوالٍ، كما مصيرُ النباتِ الذي ضربه الله لها مثلاً، إلى هلاكٍ

وبَوَارٍ، ولكن اطلبوا الآخرةَ الباقيةَ، ولها فاعملوا، وما عندَ الله فالتمسوا بطاعته، فإنَّ الله يدعوكم إلى داره، وهي جَنَّاتُه التي أعَدَّها لأوليائِه، تَسْلَمُوا من الهمومِ والأحزانِ فيها، وتَأْمَنُوا من فناءِ ما فيها من النَّعيمِ والكرامةِ التي أعدَّها لمن دخلها، وهو يهدي مَنْ يشاء من خَلْقِه فيوفِّقُهُ لإصابةِ الطريق المستقيم، وهو الإسلام الذي جعله جَلَّ ثناؤُهُ سبباً للوصول إلى رضاه، وطريقاً لمن ركبه وسلك فيه إلى جِنانه وكرامته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: للذين أحسنوا عبادَةَ الله في الدنيا من خَلْقِه، فأطاعوه فيما أمر ونَهَى، «الحسنى».

ثم اختلف أهــلُ التــأويل في معنى «الحسنى»، و«الـزيادة». اللتين وَعَدَهُمَا المحسنينَ من خَلْقِه.

فقال بعضهم: «الحسنى»، هي الجنةُ، جعلها الله للمحسنينَ من خلقه جزاء، و«الزيادة عليها»، النظرُ إلى الله.

وقال آخرون في «الزيادة»: غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب.

وقـال آخرون: «الحسنى»، واحدةٌ من الحسنات بواحدة، و«الزيادة»، التضعيفُ إلى تمام العشر.

وقال آخرون: «الحسنى» حسنة مثل الحسنة، و«الزيادة»، زيادةُ مغفرة من الله ورضوان.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ أنْ يقالَ: إنَّ الله تبارك وتعالى وَعَد المحسنينَ من عبادِه على إحسانِهم الحسنى، أنْ يجزيهم على طاعتهم إيَّاهُ الجنةَ، وأنْ تبيض وجوههم، ووعَدَهُمْ مع الحسنى الزيادة عليها، ومن الزيادةِ

على إدخالهم الجنةَ أنْ يُكرمهم بالنظرِ إليه. وأنْ يُعطيهم غُرفاً من لآلئ، وأنْ يزيدَهُمْ غفراناً ورضواناً، كُلُّ ذلك من زياداتِ عطاءِ الله إياهم على الحسنى التي جعلها الله لأهلِ جناته. وعَمَّ ربُّنا جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وزيادة»، الزيادات على «الحسنى»، فلم يخصصْ منها شيئاً دون شيء، وغير مُسْتَنْكَرٍ من فضل الله أنْ يجمعَ ذلك لهم، بل ذلك كله مجموعٌ لهم إنْ شاء الله. فأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ. أن يُعَمَّ، كما عَمَّهُ عَزَّ ذِكْرُه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «ولا يَرهقُ وجوههم قتر ولا ذِلة»، لا يغشى وجوههم كآبةٌ، ولا كسوفٌ، حتى تصيرَ من الحُزن كأنما علاها قترٌ. «ولا ذلة»، ولا هوان. «أولئك أصحابُ الجنة»، يقول: هؤلاء الذين وصفتُ صِفَتهم، هم أهلُ الجنة وسكانها، ومَنْ هو فيها. «هم فيها خالدون»، يقول: هم فيها ماكثون أبداً لا تَبِيد، فيخافُوا زوالَ نَعيمهم، ولا هُمْ بِمُخْرَجِينَ، فتتنغَّصَ عليهم لَذَّتهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: والذين عملوا السيئاتِ في الدنيا، فعصوا الله فيها، وكفروا به وبرسوله. «جزاءُ سيئةٍ»، من عملِهِ السيّء الذي عمله في الدنيا. «بِمِثْلِهَا»، من عقابِ الله في الآخرة. «وتَرْهَقُهم ذِلَّةٌ»، يقول: وتَغْشَاهُمْ ذلةٌ وهوانٌ، بعقابِ الله إياهم. «ما لهم من الله من عاصم»، يقول: ما لهم من

الله من مانعٍ يمنعهم، إذا عاقبهم، يحولُ بينه وبينهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: كأنما أُلبِسَتْ وجوهُ هؤلاء الذين كسبوا السيئات. «قِطَعاً من الليل»، وهي جمع «قطعة».

(يعني): كأنما أُغشِيَت وَجْهَ كُلِّ إنسانٍ منهم قطعةٌ من سوادِ الليل، ثم جمع ذلك فقيل: «كأنما أغشِيتْ وجوهُهم قِطعاً»، من سواد، إذ جُمع «الوجه».

وقوله: «أولئك أصحابُ النار»، يقول: هؤلاء الذين وصفتُ لك صفتهم، أهلُ النار الذين هم أهلُها. «هم فيها خالدون»، يقول: هم فيها ماكثون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ويوم نجمعُ الخَلْقَ لموقفِ الحساب جميعاً، ثم نقولُ حينئذٍ للذين أشركوا بالله الآلهةَ والأندادَ «مكانَكم»، أي: امْكُثُوا مكانَكم، وقِفُوا في موضعكم، أنتم، أيها المشركون، وشُركاؤكم الذين كنتم تعبدونهم من دونِ الله من الآلهةِ والأوثانِ. «فزَيَّلْنا بينهم»، يقول: فَفَرَّقْنا بين المشركين بالله وما أشركوهُ به.

«وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون»، وذلك حين تَبَرَّأَ الذين اتَّبعوا من الذين اتُّبِعوا ورأوا العذابَ وتقطَّعت بهم الأسبابُ، لما قيل للمشركين: «اتَّبِعُوا

ما كُنتم تَعبدونَ من دونِ الله»، ونُصِبَتْ لهم آلِهَتهُم، قالوا: «كنا نعبد هؤلاء»!، فقالتِ الآلهةُ لهم: «ما كنتم إيَّانَا تعبدون».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ٢٩﴾

ويقول تعالى ذِكْرُهُ: مُخْبِراً عن قِيلِ شركاءِ المشركينَ من الآلهةِ والأوثانِ لهم يومَ القيامة، إذْ قال المشركون بالله لها: إيَّاكم كُنَّا نعبد «كفى بالله شهيداً بيننا وبينكم»، أي إنها تقولُ: حَسْبُنَا الله شاهداً بيننا وبينكم، أيها المشركون، فإنه قد علم أنَّا ما علمنا ما تقولون: «إنَّا كنا عن عبادتكم لغافلين»، يقول: ما كنا عن عبادتكم إيانا دون الله إلا غافلين، لا نشعر به ولا نعلم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ٣٠﴾

اختلفت القَـرَأَةُ في قراءةِ قولـه: ﴿هُنَـالِـكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ﴾، بالباء، بمعنى: عند ذلك تختبرُ كُلُّ نفسٍ ما قدمت من خيرٍ أو شرٍّ.

وقـرأ ذلـك جماعةٌ من أهلِ الكوفةِ وبعض أهلِ الحجاز: ﴿تَتْلُو كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ﴾، بالتاء.

واختلفَ قارئو ذلك كذلك في تأويله.

فقال بعضُهم: معناه وتأويله: هنالك تتبع كُلُّ نفسٍ ما قَدَّمتْ في الدنيا لذلك اليوم.

وقال بعضهم: بل معناه: يتلو كِتابَ حسناتهِ وسيئاتِه، يعني يقرأ، كما قال

جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً﴾ [الإسراء:١٣].

وقال آخرون: «تَتْلو» تُعاين.

والصوابُ من القولِ في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان مشهورتان، قد قرأ بكلٍّ واحدةٍ منهما أئمةٌ من القَرَأة، وهما متقاربتا المعنى. وذلك أنَّ من تبع في الآخرة ما أسلفَ من العمل في الدنيا، هجم به على مَوْرده، فيخبر هنالك ما أسلفَ من صالحٍ أو سيءٍ في الدنيا، وإنَّ مَنْ خَبَر ما أسلفَ في الدنيا من أعمالِه في الآخرة، فإنما يخبرُ بعد مصيره إلى حيثُ أحَلَّهُ ما قدم في الدنيا من عمله، فهو في كلتا الحالتين مُتَّبع ما أسلفَ من عَمَلِه، مختبرٌ له. فبأيَّتِهمَا قرأ القارئُ، كما وصفنا، فمصيبٌ الصوابَ في ذلك.

وأما قوله: «ورُدُّوا إلى الله مولاهم الحق»، فإنه يقولُ: ورجعَ هؤلاءِ المشركون يومئذٍ إلى الله الذي هو ربُّهم ومالِكُهم، الحقّ لا شَكَّ فيه، دونَ ما كانوا يزعمون أنهم لهم أربابٌ من الآلهةِ والأنداد. «وضَلَّ عنهم ما كانوا يفترون»، يقول: وبَطلَ عنهم ما كانوا يَتَخَرَّصُونَ من الفِرْيةِ والكَذِبِ على الله، بدعواهم أوثانهم أنها لله شركاء، وأنها تُقَرِّبُهم منه زُلْفَى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيِّه محمدٍ ﷺ: «قل»، يا محمدُ، لهؤلاءِ المشركين بالله الأوثانَ والأصنامَ. «مَنْ يرزقكم من السماء»، الغيثَ والقَطْرَ، ويُطْلِعُ لكم شمسَها، ويُغْطِشُ ليلَها، ويُخْرِجُ ضُحَاها ـ ومن الأرضِ، أقواتَكم وغذاءَكُم الذي يُنْبِتُه لكم، وثمار أشجارها. «أمْ مَنْ يملكُ السمعَ والأبصار»، يقول: أم

من ذا الذي يملكُ أسماعَكم وأبصارَكم التي تسمعونَ بها: أنْ يزيدَ في قواها، أو يَسْلِبكُمُوها، فَيَجْعَلكُمْ صُمًّا، وأبصاركم التي تبصرون بها: أنْ يُضيئَها لكم وينيرها، أو يذهبَ بنورها، فيجعلكم عُمْياً لا تُبصرون. «ومَنْ يخرجُ الحَيَّ من الميت»، يقول: ومن يخرج الشيءَ الحَيَّ من الميت. «ويخرج الميتَ من الحَيِّ»، يقول: ويخرج الشيءَ الميتَ من الحيّ.

«ومَنْ يُدَبِّرُ الأمرَ»، وقل لهم: مَنْ يُدَبِّرُ أمرَ السماءِ والأرضِ وما فيهن، وأمركم وأمرَ الخلق؟ «فسيقولون الله»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: فسوف يُجيبُونكَ بأنْ يقولوا: الذي يفعلُ ذلك كله الله. «فَقُلْ أفلا تتقون»، يقول: أَفَلَا تخافونَ عقابَ الله على شِرْكِكُمْ وادِّعائكم ربًّا غيرَ مَنْ هذه الصفةُ صفتُه، وعبادَتِكُمْ معه مَنْ لا يرزقكم شيئاً، ولا يملكُ لكم ضرًّا ولا نفعاً، ولا يفعل فعلاً؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ٣٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لخلقه: أيها الناسُ، فهذا الذي يفعلُ هذه الأفعال، فيرزقكم من السماء والأرض، ويملكُ السمعَ والأبصار، ويُخرجُ الحيَّ من الميتِ والميتَ من الحيِّ، ويدبرُ الأمر. «الله ربُّكمُ الحقُّ»، ولا شَكَّ فيه. «فماذا بعدَ الحقِّ إلا الضلال»، يقول: فأي شيء سوى الحق إلا الضلال، وهو الجور عن قَصْدِ السبيل؟ يقول: فإذا كان الحقُّ هو ذا، فادِّعاؤُكم غيرَه إلهاً وربًّا، هو الضلالُ والذهابُ عن الحَقِّ لاشك فيه. «فأنَّى تصرفون»، يقول: فأيّ وجهٍ عن الهدى والحق تُصرفون، وسواهما تسلكون، وأنتم مُقِرُّونَ بأن الذي تُصْرَفونَ عنه هو الحق؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٣٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: كما قد صُرِف هؤلاء المشركون عن الحقِّ إلى الضلالِ «كذلك حَقَّتْ كلمةُ ربك»، يقول: وَجَبَ عليهم قضاؤُه وحكمه في السابق من علمه. «على الذين فسقوا»، فَخَرجُوا من طاعةِ ربهم إلى معصيته وكفروا به «أنهم لا يؤمنون»، يقول: لا يُصَدِّقُونَ بوحدانيةِ الله ولا بنبوةِ نبيهِ ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ٣٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: «قل»، يا محمدُ. «هل من شركائكم»، يعني: من الآلهةِ والأوثان. «مَنْ يبدأُ الخَلْقَ ثم يعيده»، يقول: مَنْ يُنْشِئُ خَلْقَ شيءٍ من غيرِ أصلٍ، فيحدث خلقَه ابتداءً.

«ثم يعيده»، يقول: ثم يُفْنِيه بعد إنشائِه، ثم يعيده كهيئتِه قبلَ أنْ يفنيَهُ، فإنهم لا يقدرون على دعوى ذلك لها. وفي ذلك الحجةُ القاطعةُ والدِّلالة الواضحةُ على أنهم في دَعْواهم أنها أربابٌ، وهي لله في العبادة شركاء، كاذبون مفترون. فَقُلْ لهم حينئذٍ، يا محمد: الله يبدأُ الخَلْقَ فَيُنْشِئُه من غير شيءٍ، ويُحْدِثُه من غيرِ أصلٍ، ثم يُفنيه إذا شاء، ثم يُعِيدُه، إذا أراد كهيئته قبلَ الفناء. «فأنَّى تُؤْفَكُون»، يقول: فأيّ وجهٍ عن قصد السبيلِ وطريقِ الرُّشد تُصْرَفون وتُقْلَبُون؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ

﴿يَهِدِّيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ٣٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: «قل»، يا محمدُ، لهؤلاءِ المشركين. «هل من شركائكم»، الذين تَدَّعُونَ من دونِ الله، وذلك آلهتُهم وأوثانُهم. «مَنْ يهدي إلى الحق»، يقول: مَنْ يُرشِدُ ضالاً من ضلالته إلى قصدِ السبيل، ويسدِّد جائراً عن الهدى إلى واضحِ الطريقِ المستقيم؟ فإنهم لا يقدرون أنْ يَدَّعُوا أنَّ آلهتَهُمْ وأوثانَهم تُرشد ضالاًّ أو تهدي جائراً. وذلك أنهم إن ادَّعوا ذلك لها، أكْذَبَتْهُم المشاهَدَةُ، وأبانَ عجزَها عن ذلك الاختبارُ بالمعاينة. فإذا قالوا: «لا»، وأقرُّوا بذلك فقل لهم: فالله يهدي الضالَّ عن الهدى إلى الحق. «أفمن يهدي»، أيها القومُ، ضالاً إلى الحقِّ، وجائراً عن الرُّشْدِ إلى الرشد. أَحَقُّ أنْ يُتَّبَعَ»، إلى ما يدعو إليه. «أمْ مَنْ لا يَهِدِّي إلا أنْ يُهدى»؟

وقوله: «فما لكم كيف تحكمون»، ألا تعلمونَ أنَّ مَنْ يهدي إلى الحق أحقُّ أنْ يُتَّبَعَ من الذي لايهتدي إلى شيء، إلا أنْ يَهديه إليه هَادٍ غيره، فتتركوا اتِّباعَ مَنْ لا يهتدي إلى شيء وعبادته، وتتبعوا مَنْ يهديكم في ظلماتِ البر والبحر، وتُخْلِصُوا له العبادةَ فَتُفْرِدُوه بها وحدَهُ، دونَ ما تشركونه فيها من آلهتكم وأوثانكم؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ٣٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما يتبعُ أكثرُ هؤلاء المشركبن إلا ظناً، يقول: إلا ما لا عِلْمَ لهم بحقيقتِه وصِحَّتِه، بل هُمْ منه في شكٍّ وريبة «إنَّ الظنَّ لا يُغني من الحَقِّ شيئاً»، يقول: إنَّ الشك لا يغني من اليقين شيئاً، ولا يقومُ في شيء

مقامَه، ولا ينتفع به حيث يُحتاج إلى اليقين. «إنَّ الله عليمٌ بما يفعلون»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الله ذُو علمٍ بما يفعلُ هؤلاء المشركون، من اتباعهم الظن، وتَكْذِيبهم الحَقَّ اليقين، وهو لهم بالمرصاد، حيث لا يُغني عنهم ظَنّهم من الله شيئاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ما ينبغي لهذا القرآنِ أنْ يُفْتَرى من دونِ الله، يقول: ما ينبغي له أنْ يتخرَّصَهُ أحدٌ من عندِ غيرِ الله. وذلك نظير قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يُغَلَّ﴾ [آل عمران: ١٦١]، بمعنى: ما ينبغي لنبيٍّ أنْ يغلَّه أصحابُه.

وإنما هذا خبرٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ، أنَّ هذا القرآنَ من عنده، أنزله إلى محمدٍ عبده، وتكذيبٌ منه للمشركينَ الذين قالوا: «هو شِعرٌ وكَهانة»، والذين قالوا: «إنما يَتَعَلَّمُهُ محمدٌ من يحنّس الروميّ».

يقول لهم جَلَّ ثناؤُهُ: ما كان هذا القرآن لِيَخْتَلِقَهُ أحدٌ من عندِ غيرِ الله، لأنَّ ذلك لايقدرُ عليه أحدٌ من الخَلْقِ «ولكنْ تصديقَ الذي بين يديه»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولكنه من عندِ الله، أنزله مُصَدِّقاً لما بين يديه، أي: لما قبله من الكتبِ التي أنزلت على أنبياءِ الله، كالتوراةِ والإنجيلِ وغيرهما من كُتُبِ الله التي أنزلها على أنبيائه. «وتفصيل الكتاب»، يقول: وتبيان الكتابِ الذي كتبه الله على أمةِ محمدٍ ﷺ، وفرائضه التي فَرَضَها عليهم في السابقِ من عِلْمِه. «لا ريبَ فيه»، يقول: لا شَكَّ فيه أنه تصديقُ الذي بين يديه من الكتابِ وتفصيل الكتاب، من عندِ رَبِّ العالمين، لا افتراءً من عند غيرِه ولا اختلاقٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أم يقول هؤلاء المشركون: افترى محمدٌ هذ القرآنَ من نفسه فاختلقَهُ وافتعله؟ قُلْ يا محمد لهم: إنْ كانَ كما تقولون إني اخْتَلَقْتُه وافتريته، فإنكم مثلي من العَرب، ولساني مثل لسانكم، وكلامي مثل كلامكم، فَجِيئُوا بسورةٍ مثل هذا القرآن.

«وادْعُـوا مَنِ استطعتم من دونِ الله»، يقول: وادْعُوا، أيها المشركونَ، على أنْ يأتوا بسورةٍ مثلها مَنْ قدرتم أنْ تدعوا على ذلك من أوليائكم وشركائكم «من دون الله»، يقول: من عندِ غيرِ الله، فأجمِعُوا على ذلك واجتهدوا، فإنكم لا تستطيعون أنْ تأتوا بسورةٍ مثله أبداً.

وقـولـه: «إنْ كنتم صادقين»، يقول: إن كنتم صادقين في أنَّ محمداً افتراه، فَأْتُوا بسورةٍ مثله من جميع مَنْ يُعِينُكُمْ على الإتيانِ بها. فإنْ لم تفعلوا ذلك، فلا شَكَّ أنكم كَذَبَةٌ في زعمكم أنَّ محمداً افتراه، لأنَّ محمداً لن يَعْدُوَ أنْ يكـونَ بشـراً مثلكم، فإذا عجزَ الجميعُ من الخَلْقِ أنْ يأتوا بسورةٍ مِثْلِه، فالواحدُ منهم عن أنْ يأتي بجميعهِ أعجز.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ما بهؤلاءِ المشركينَ، يا محمدُ، تكذيبَكَ ولكن بهم التكذيبُ بما لم يُحِيطُوا بعلمه مِمَّا أنزلَ الله عليكَ في هذا القرآن، مِنْ وَعِيدِهم على كُفْرِهم بربهم. «ولَمَّا يَأْتِهم تأويلُه»، يقول: ولم يَأْتِهم بَعْدُ بَيانُ ما يؤولُ

إليه ذلك الوعيدُ الذي تَوَعَّدَهُمُ الله في هذا القرآن. «كذلكَ كَذَّبَ الذين من قَبْلِهم»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: كما كَذَّبَ هؤلاء المشركون، يا محمدُ، بوعيدِ الله، كذلك كَذَّبَ الأممُ التي خلَتْ قَبْلَهُمْ بوعيدِ الله إياهم على تكذيبهم رُسُلَهُمْ وكفرهم بربهم. «فانظُرْ كيفَ كان عاقبةُ الظالمين»، يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: فانظر، يا محمدُ، كيف كان عُقْبى كُفْرِ مَنْ كفرَ بالله، أَلَمْ نُهلك بعضَهم بالرَّجفةِ، وبعضَهم بالخَسْفِ، وبعضهم بالغَرَقِ؟ يقول: فإنَّ عاقبةَ هؤلاء الذين يُكَذِّبُونكَ ويجحدون بآياتي من كفارِ قومك، كالتي كانت عاقبة مَنْ قَبْلَهُمْ من كَفَرَةِ الأممِ، إنْ لم يُنيبُوا من كفرهم، ويسارعوا إلى التوبة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومِنْ قومكَ، . يا محمدُ، من قريشٍ، مَنْ سوفَ يؤمنُ به يقول: مَنْ سوف يُصَدِّقُ بالقرآنِ ويقرُّ أبداً. «وربك أَعْلَمُ بالمفسدينَ»، يقول: والله أعلمُ بالمكذِّبينَ به منهم، الذين لا يصدقون به أبداً، من كل أحدٍ، لا يَخْفَى عليه، وهو مِنْ وراءِ عقابه. فأما مَنْ كتبتُ له أنه يؤمنُ به منهم، فإني سأتوبُ عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: وإنْ كَذَّبَكَ، يا محمدُ، هؤلاء المشركون، ورَدُّوا عليكَ ما جئتهم به من عند ربك، فقل لهم: أيها القومُ، لي ديني وعملي، ولكم دينكم وعملكم، لا يضرُّني عملكم، ولا يضركم

عملي، وإنما يُجازَى كُلُّ عاملٍ بعمله. «أنتم بريئون مما أعمل»، لا تُؤْخَذُون بجريرته. «وأنا بريءٌ مما تعملون»، لا أُوخَذُ بجريرةِ عملِكم. وهذا كما قال جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿قُلْ يا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ١-٣].

وقيل: إنَّ هذه الآية منسوخة، نَسَخَها الجهادُ والأمرُ بالقتال.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: ومِنْ هؤلاءِ المشركينَ مَنْ يستمعونَ إلى قولك. «أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ ولو كانوا لا يعقلون»، يقول: أفأنتَ تخلقُ لهم السمعَ، ولو كانوا لا سمع لهم يعقلون به، أم أنا؟

وإنما هذا إعلامٌ من الله عبادَهُ أنْ التوفيقَ للإيمانِ به بيده لا إلى أحدٍ سواه. يقول لنبيهِ محمدٍ ﷺ: كما أنك لا تقدرُ أنْ تُسْمِعَ، يا محمدُ، مَنْ سَلَبْتُهُ السمعَ، فكذلك لا تَقْدِرُ أنْ تُفْهِمَ أمري ونهيي قلباً سَلَبْتُه فَهْمَ ذلك، لأني ختمتُ عليه أنه لا يؤمن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومن هؤلاء المشركين، مشركي قومِك، مَنْ ينظرُ إليك، يا محمدُ، ويرى أعلامَكَ وحُجَجكَ على نُبُوَّتِكَ، ولكن الله قد سَلَبَهُ التوفيقَ فلا يهتدي، ولا تقدر أنْ تهديه، كما لا تقدرُ أنْ تُحْدِثَ للأعمى بصراً يهتدي به. «أفأنت تَهدي العُمْيَ ولو كانوا لايبصرون»، يقول: أفأنتَ يا محمدُ،

تحدث لهؤلاء الذين ينظرونَ إليكَ وإلى أَدِلَّتِكَ وحججك، فلا يُوَفَّقُونَ للتصديقِ بكَ أبصاراً، لو كانوا عُمْياً يهتدون بها ويبصرون؟ فكما أنكَ لا تُطيقُ ذلك ولا تقـدرُ عليه ولا غيرك، ولا يقدرُ عليه أحدٌ سواي، فكذلك لا تقدرُ على أَنْ تُبَصِّرهم سبيلَ الرشاد أنت ولا أحدٌ غيري، لأنَّ ذلك بيدي وإليَّ.

وهذا من الله تعالى ذِكْرُهُ تسليةٌ لنبيهِ ﷺ عن جماعةٍ مِمَّنْ كَفَرَ به من قومِهِ وأدبرَ عنه فكذب، وتعزيةٌ له عنهم، وأمرٌ برفعِ طَمَعهِ من إنابتهم إلى الإيمانِ بالله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٤٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الله لا يفعلُ بخلْقِه ما لايستحقون منه، لا يُعَاقِبُهم إلَّا بمعصيتهم إيَّاهُ، ولا يعذبهم إلا بكفرهم به. «ولكن الناس»، يقول: ولكن الناسَ هم الذين يظلمونَ أَنْفُسَهم، باجترامِهم ما يورثها غضبَ الله وسخطه.

وإنما هذا إعلامٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ لنبيهِ محمدٍ ﷺ والمؤمنين به، أنه لم يسلُبْ هؤلاءِ الذين أخبر جَلَّ ثناؤُهُ عنهم أنهم لا يؤمنونَ الإيمانَ ابتداءً منه بغير جرمٍ سَلَفَ منهم ـ وإخبارٌ أنه إنما سلبهم ذلك باستحقاقٍ منهم سَلْبَهُ، لذنوبٍ اكتسبوها، فَحَقَّ عليهم قولُ رَبِّهم، وطَبَعَ على قلوبهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ۝٤٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ويوم نَحْشُرُ هؤلاءِ المشركينَ فنجمعهم في موقفِ الحساب، كأنهم كانوا قبلَ ذلك لم يَلْبَثُوا إلا ساعةً من نهارٍ يتعارفونَ فيما بينهم، ثم انقطعت المعرفةُ، وانقضت تلك الساعةُ ـ يقولُ الله: «قد خسر الذين كَذَّبُوا بلقاءِ الله وما كانوا مهتدين»، قد غُبِنَ الذين جَحَدُوا ثوابَ الله وعِقَابَهُ حظوظَهم من الخيرِ وهلكوا. «وما كانوا مهتدين»، يقول: وما كانوا موفَّقينَ لإصابةِ الرشد مما فعلوا من تكذيبهم بلقاءِ الله، لأنه أَكْسَبَهُمْ ذلكَ ما لا قِبَلَ لهم به من عذابِ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ وإمَّا نُرينَّكَ، يا محمدُ، في حياتكَ بعضَ الذي نَعِدُ هؤلاء المشركينَ من قومكَ من العذابِ. «أو نتوفينك»، قبل أنْ نُريكَ ذلك فيهم. «فإلينا مَرْجِعُهم»، يقول: فمصيرُهم بكلِّ حالٍ إلينا، ومُنْقَلَبُهم. «ثم الله شهيدٌ على ما يفعلون»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: ثم أنا شاهدٌ على أفعالهم التي كانوا يفعلونها في الدنيا، وأنا عالِمٌ بها لا يَخْفَى عليَّ شيءٌ منها، وأنا مُجازِيهم بها عند مصيرِهم إليَّ ومرجعهم، جزاءَهم الذي يستحقُّونه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولكلِّ أمةٍ خَلَتْ قبلكم، أيها الناسُ، رسولُ أرسلتُه إليهم، كما أرسلتُ محمداً إليكم يدعون مَنْ أرسلتُهم إليهم إلى دِينِ الله وطاعته. «فإذا جاء رسولهم»، يعني: في الآخرة.

وقوله: «قُضِيَ بينهم بالقسط»، يقول: قضي حينئذٍ بينهم بالعدلِ. «وهم لايظلمون»، من جزاءِ أعمالهم شيئاً، ولنْ يُجازي المحسن بإحسانِه. والمسيءُ من أهل الإيمان، إما أنْ يعاقبه الله، وإما أن يعفوَ عنه. والكافرُ، يُخَلَّدُ في النار. فذلك قضاءُ الله بينهم بالعدلِ، وذلك لا شكَّ عَدْلٌ لا ظلمٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه ﷺ: ويقولُ هؤلاء المشركون من قومك، يا محمدُ. «متى هذا الوعدُ»، الذي تَعِدُنا أنه يأتينا من عندِ الله، وذلك قيام الساعة. «إن كنتم صادقين»، أنتَ ومَن تَبِعَك، فيما تَعِدُونَنَا به من ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٤٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «قل»، يا محمدُ، لِمُسْتَعْجِلِيكَ وعيدَ الله، القائلينَ لك: متى يأتينا الوعدُ الذي تَعِدُنا «إنْ كنتم صادقين»؟. «لا أملكُ لنفسي»، أيها القوم، أي: لا أقدرُ لها على ضُرٍّ ولا نفعٍ في دنيا ولا دِين. «إلا ما شاء الله»، أنْ أَمْلكهُ، فأجلبه إليها بإذنه. يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيهِ ﷺ: قل لهم: فإذْ كنتُ لا أقدرُ على ذلك إلا بإذنهِ، فأنا عن القُدْرةِ على الوصولِ إلى عِلْمِ الغيبِ ومعرفةِ قيامِ الساعةِ، أعجَزُ وأعجز، إلا بمشيئتِه وإذنِه لي في ذلك. «لكلِّ أمةٍ أجلٌ»، يقول: لكل قومٍ ميقاتٌ لانقضاءِ مُدَّتِهم وأجلهم، فإذا جاء وقتُ أجلهم وفناءِ أعمارهم. «لا يستأخرون»، عنه، «ساعة»، فَيُمْهَلُونَ ويُؤَخَّرُونَ، «ولا

يستقدمون»، قبلَ ذلك، لأنَّ الله قضى أنْ لا يتقدمَ ذلك قبلَ الحينِ الذي قدَّره وقضاه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قُلْ، يا محمدُ، لهؤلاءِ المشركينَ من قومكَ: أرأيتم إنْ أتاكم عذابُ الله بَيَاتاً، يقول: ليلاً أو نهاراً، وجاءت الساعةُ وقامتِ القيامةُ، أتقدرون على دفعِ ذلك عن أنفسكم؟ يقول الله تعالى ذِكْرُهُ: ماذا يستعجلُ من نزولِ العذاب، المجرمونَ الذين كفروا بالله، وهم الصَّالون بحرِّهِ دونَ غيرهم، ثم لا يقدرون على دَفْعِه عن أنفسهم؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝٥١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أهنالك إذا وقعَ عذابُ الله بكم أيها المشركون. «آمنتم به»، يقول: صَدَّقتم به في حالٍ لا ينفعكم فيها التصديقُ، وقيل لكم حينئذٍ: آلآنَ تُصَدِّقُون به، وقد كنتم قبلَ الآن به تستعجلون، وأنتم بنزولِه مُكَذِّبُون؟ فذوقوا الآنَ ما كنتم به تكذّبون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ۝٥٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «ثم قيل للذين ظلموا»، أنفسهم، بكفرهم بالله.

«ذُوقوا عذابَ الخُلْدِ»، تَجرَّعُوا عذابَ الله الدائم لكم أبداً، الذي لا فناءَ له ولا زوالَ. «هل تُجْزَوْنَ إلا بما كنتم تكسبون»، يقول: يقال لهم: فانظروا هل تُجْـزَوْنَ، أي: هل تُثَـابُـونَ. «إلا بما كنتم تكسبون»، يقول: إلا بما كنتم تعملون في حياتكم قبل مماتكم من معاصي الله؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٥٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ويستخبركَ هؤلاءِ المشركونَ من قومكَ، يا محمدُ، فيقولون لك: أَحَقٌّ ما تقولُ، وما تَعِدُنَا به من عذابِ الله في الدار الآخرة جزاءً على ما كنا نكسِبُ من معاصي الله في الدنيا؟ قُلْ لهم يا محمد: «إي وربِّي إنه لَحَقٌّ»، لا شَكَّ فيه، وما أنتم بمعجزي الله إذا أراد ذلك بكم، بهربٍ، أو امتناعٍ، بل أنتم في قَبْضَتِهِ وسُلْطانِهِ ومُلْكِهِ، إذا أراد فِعْلَ ذلك بكم، فاتَّقُوا الله في أنفسكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٥٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولو أنَّ لكلِّ نَفْسٍ كفرتْ بالله ـ و«ظُلْمُهَا»، في هذا الموضع، عبادَتُها غيرَ مَنْ تستحقُّ عبادَتُهُ، وتَرْكُهَا طاعةَ مَنْ يجبُ عليها طاعتُه ـ «ما في الأرض»، من قليلٍ أو كثير. «لافتدَت به»، يقول: لافتدتْ بذلك كُلِّه من عذابِ الله إذا عايَنَتْـهُ وقوله: «وأَسَرُّوا الندامةَ لما رأوا العذاب»، يقول: وأَخْفَتْ رؤساءُ هؤلاءِ المشركينَ من وُضَعَائِهم وسِفْلَتِهم الندامةَ، حين أَبْصَرُوا

عذابَ الله قد أحاطَ بهم، وأيقنوا أنه واقعٌ بهم. «وقُضِيَ بينهم بالقسط»، يقول: وقَضى الله يومئذٍ بين الأتباعِ والرؤساءِ منهم بالعدلِ. «وهم لا يظلمون»، وذلك أنه لا يعاقِبُ أحداً منهم إلا بجريرته، ولا يأخذهُ بذنبِ أحدٍ، ولا يعذِّبُ إلا مَنْ قد أعذر إليه في الدنيا وأنذر وتابع عليه الحجج.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾

يقول جل ذِكْرُهُ: ألا إنَّ كُلَّ ما في السمواتِ وكُلَّ ما في الأرضِ من شيءٍ، لله مِلْكٌ، لا شيءَ فيه لأحدٍ سواه. يقول: فليسَ لهذا الكافر بالله يومئذٍ شيءٌ يملكه فيفتدي به من عذابِ ربِّه، وإنما الأشياء كلها للذي إليه عقابه. ولو كانت له الأشياءُ التي هي في الأرض، ثم افتدى بها، لم يقبل منه بدلاً من عذابه، فيصرف بها عنه العذاب، فكيف وهو لا شيءَ له يفتدي به منه، وقد حَقَّ عليه عذابُ الله؟ يقول الله جَلَّ ثناؤُهُ: «ألا إنَّ وعدَ الله حق»، يعني: أنَّ عذابَهُ الذي أوعدَ هؤلاء المشركين على كُفْرِهم، حَقٌّ، فلا عليهم أن لا يستعجلوا به، فإنه بهم واقعٌ لا شك. «ولكن أكثرهم لايعلمون»، يقول: ولكنَّ أكثرَ هؤلاء المشركين لا يعلمون حقيقةَ وقوعِ ذلك بهم، فهم من أجلِ جهلهم به مُكَذِّبُون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الله هو المحيي المميتُ، لا يتعذَّرُ عليه فِعْلُ ما أرادَ فِعْلَه من إحياءِ هؤلاء المشركين إذا أراد إحياءَهم بعد مماتهم، ولا إماتتهم

إذا أراد ذلك، وهم إليه يصيرونَ بعد مماتهم، فيعاينون ما كانوا به مكذبين من وعيدِ الله وعقابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لخلقه: «يا أيها الناسُ قد جاءتكم موعظةٌ من ربكم»، يعني: ذكرى تُذَكِّرُكُمْ عِقابَ الله وتُخَوِّفُكم وعيدَهُ. «مِنْ رَبِّكم»، يقول: من عند ربكم، لم يختلقها محمدٌ ﷺ، ولم يَفْتَعِلْها أحدٌ، فتقولوا: لا نأمن أنْ تكونَ لا صحة لها. وإنما يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ القرآن، وهو الموعظةُ من الله.

وقوله: «وشِفاءٌ لما في الصدور»، يقول: ودواءٌ لما في الصدور من الجهل، يشفي به الله جهلَ الجهال، فيبرىءُ به داءَهُم، ويهدي به من خَلْقِهِ مَنْ أراد هدايته به. «وهُدى»، يقول: وهو بيانٌ لحلالِ الله وحرامه، ودليلٌ على طاعتهِ ومعصيتهِ. «ورحمة»، يرحمُ بها مَنْ شاء من خَلْقِه، فينقذُه به من الضلالةِ إلى الهدى، وينجيه من الهلاكِ والردى. وجعله تبارك وتعالى رحمةً للمؤمنين به دونَ الكافرين به، لأنَّ مَنْ كفرَ به فهو عليه عمًى، وفي الآخرة جزاؤه على الكفرِ به الخلودُ في لظًى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيهِ محمدٍ ﷺ: «قل»، يا محمدُ، لهؤلاء المكذِّبينَ بك وبما أُنزلَ إليكَ من عندِ رَبِّكَ. «بفضل الله»، أيها الناسُ، الذي تَفَضَّلَ به عليكم، وهو الإسلامُ، فَبَيَّنَهُ لكم، ودعاكم إليه. «وبرحمته»، التي رَحِمَكُمْ

بها، فأنزلها إليكم، فعلَّمَكُمْ ما لم تكونوا تعلمون من كتابه، وبَصَّرَكُمْ بها معالمَ دِينكم، وذلك القرآنُ. «فبذلك فليفرحوا هو خيرٌ مما يجمعون»، يقول: فإنَّ الإسلامَ الذي دعاهم إليه، والقرآن الذي أنزله عليهم، خيرٌ مما يجمعون من حُطَامِ الدنيا وأموالها وكنوزها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه ﷺ: «قل»، يا محمدُ، لهؤلاء المشركينَ. «أرأيتم» أيها الناسُ. «ما أنزلَ الله لكم من رِزْقٍ»، يقول: ما خَلَقَ الله لكم من الرزق فخَوَّلَكُمُوهُ، وذلك ما تتغذون به من الأطعمةِ. «فجعلتم منه حراماً وحلالاً»، يقول: فَحَلَّلْتُمْ بعضَ ذلك لأنفسكم، وحَرَّمْتُم بعضَه عليها، وذلك كتحريمهم ما كانوا يحرِّمونه من حُروثهم التي كانوا يجعلونها لأوثانهم، كما وصفهم الله به فقال: ﴿وَجَعَلُوا لله مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هذا لله بِزَعْمِهِمْ وهَذا لِشُرَكَائِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦].

ومن الأنعام ما كانوا يُحَرِّمُونَهُ بالتَّبْحِيرِ والتَّسييبِ ونحو ذلك، مما قَدَّمْنَاهُ فيما مَضَى من كتابنا هذا.

يقول الله لنبيه محمد ﷺ: «قل»، ، يا محمدُ، «آلله أَذِنَ لكم»، بأن تُحَرِّمُوا ما حَرَّمتم منه، «أم على الله تفترون»، أي: تقولون الباطل وتكذبونِ؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما ظَنُّ هؤلاء الذين يتخرَّصُونَ على الله الكذبَ، فَيُضِيفُونَ إليه تحريم ما لم يحرِّمْهُ عليهم من الأرزاقِ والأقواتِ التي جعلها الله لهم غذاءً، أنَّ الله فاعلٌ بهم يومَ القيامة بكذبهم وفِرْيَتِهم عليه؟ أيحسَبُونَ أنه يصفحُ عنهم ويغفر؟ كلاَّ، بل يصليهم سعيراً خالدين فيها أبداً. «إن الله لَذُو فضلٍ على الناس»، يقول: إنَّ الله لذو تَفَضُّلٍ على خَلْقِه، بتركِهِ معاجلَةَ مَنِ افترى عليه الكذبَ بالعقوبةِ في الدنيا، وإمهاله إياهُ إلى ورودِه عليه في القيامة. «ولكن أكثرهم لا يشكرون»، يقول: ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يشكرونه على تفضُّله عليهم بذلك، وبغيرِه من سائرِ نعمه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيهِ محمدٍ ﷺ: «وما تكون»، يا محمدُ. «في شأنٍ»، يعني: في عملٍ من الأعمال. «وما تتلو منه من قرآنٍ»، يقول: وما تقرأُ من كتابِ الله من قرآنٍ. «ولا تعملونَ من عملٍ»، يقول: ولا تَعملون من عمل، أيها الناسُ، من خيرٍ أو شر. «إلا كُنَّا عليكم شهوداً»، يقول: إلا ونحنُ شهودٌ لأعمالِكم وشؤونكم. إذ تعملونها وتأخذون فيها.

وإنما اخترنا القولَ الذي اخترناه فيه، لأنه تعالى ذِكْرُهُ أخبر أنه لا يعملُ عبادُه عملاً إلا كان شاهدَه، ثم وصلَ ذلك بقوله: «إذ تُفِيضُونَ فيه»، فكان معلوماً أنَّ قوله: «إذ تفيضون فيه»، إنما هو خبرٌ منه عن وقتِ عملِ العاملينَ أنه له شاهدٌ ـ لا عن وَقْتِ تلاوةِ النبيِّ ﷺ القرآن، لأنَّ ذلك لو كان خبراً عن

شهودِه تعالى ذِكْرُهُ وقتَ إفاضةِ القومِ في القرآن، لكانت القراءة بالياء: «إذ يفيضون فيه»، خبراً منه عن المكذبين فيه.

فإنْ قال قائل: ليس ذلك خبراً عن المكذبين، ولكنه خطابٌ للنبيِّ ﷺ، أنه شاهده إذْ تلا القرآن.

فإن ذلك لو كان كذلك، لكان التنزيلُ: «إذ تفِيضُ فيه»، لأنَّ النبيَّ ﷺ واحدٌ لا جَمْع، كما قال: «وما تتلو منه من قرآن»، فأفردَهُ بالخطابِ ـ ولكن ذلك في ابتدائه خطابَه ﷺ بالإفرادِ، ثم عَوْده إلى إخراجِ الخطابِ على الجمع، نظير قوله: ﴿يَا أَيُّها النَّبِيُّ إذا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [الطلاق: ١]، وذلك أن قوله: «إذا طلقتم النساء»، دليلاً واضحاً على صَرْفِه الخطابَ إلى جماعةِ المسلمينَ مع النبيِّ ﷺ مع جماعةِ الناس غيره، لأنه ابتدأ خطابه، ثم صَرفَ الخطابَ إلى جماعةِ الناس والنبي ﷺ فيهم.

وخبرٌ عن أنه لا يعملُ أحدٌ من عبادِه عملاً إلا وهو له شاهِدٌ، يحصي عليه ويَعْلَمُه كما قال: «وما يَعْزُبُ عن رَبِّكَ»، ، يا محمدُ، عَمَلُ خَلْقِه، ولا يذهب عليه عِلْمُ شيءٍ حيثُ كانَ من أرضٍ أو سماء.

وأصله من «عزوب الرجل عن أهله في ماشيته»، وذلك غَيْبَتُه عنهم فيها. يقال منه: «عَزَبَ الرَّجلُ عن أهله يَعْزُبُ ويَعْزِبُ».

وقوله: «من مثقال ذرة»، يعني: من زِنَةِ نملةٍ صغيرة.

يحكى عن العرب: «خُذْ هذا، فإنه أخَفُّ مثقالاً من ذاك»، أي: أخَفُّ وزناً.

و«الذّرة» واحدة: «الذّر»، و«الذر»، صغار النمل.

وذلك خبرٌ عن أنه لا يَخْفَى عليه جَلَّ جلالُه أصغر الأشياءِ وإنْ خَفَّ في الوزن كُلَّ الخِفَّةِ، ومقاديرُ ذلك ومبلغه، ولا أكْبَرُهَا وإنْ عَظُمَ وثَقُلَ وَزْنُه، وكم

مبلغ ذلك. يقول تعالى ذِكْرُهُ لخلْقِه: فليكن عَمَلُكم، أيها الناسُ، فيما يُرْضِي ربَّكم عنكم، فإنَّا شهودٌ لأعمالكم، لايَخْفَى علينا شيءٌ منها، ونحن مُحْصُوها ومجازُوكم بها.

وقوله: «إلا في كتاب»، يقول: وما ذاكَ كله إلَّا في كتابٍ عند الله. «مبين»، عن حقيقةِ خَبَرِ الله لمن نَظَرَ فيه، أنه لا شيءَ كان أو يكون إلا قد أحصاهُ الله جَلَّ ثناؤُهُ فيه، وأنه لا يعزُبُ عن الله عِلْمُ شيءٍ من خلقه حيثُ كان من سمائِه وأرضه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ألا إنَّ أنصارَ الله لا خوفٌ عليهم في الآخرةِ من عقابِ الله، لأنَّ الله رضي عنهم فآمنَهُمْ من عقابه - ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا.

و«الأولياء»، جمعُ «ولي»، وهو النصيرُ، و«وليُّ الله»، هو مَنْ كان بالصفةِ التي وصفه الله بها، وهو الذي آمنَ واتَّقى، كما قال الله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: الذين صدقوا الله ورسوله وما جاء به من عند الله، وكانوا يتَّقون الله بأداءِ فرائضِه واجتنابِ معاصيه.

وقوله: «الذين آمنوا»، من نعت «الأولياء»، ومعنى الكلام: ألَا إنَّ أولياءَ الله الذين آمنوا وكانوا يتقون، لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون.

يونس: ٦٤

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: البشرى من الله في الحياةِ الدنيا وفي الآخرة، لأولياءِ الله الذين آمنوا وكانوا يتقون.

ثم اختلف أهلُ التأويل في «البشرى»، التي بَشَّرَ الله بها هؤلاءِ القوم، ما هي؟ وما صفتها؟

فقال بعضهم: هي الرؤيا الصالحة يراها الرجلُ المسلمُ أو تُرَى له، وفي الآخرة الجنة.

وقال آخرون: هي بشارةٌ يُبَشَّرُ بها المؤمنُ في الدنيا عند الموت.

وأولى الأقوال في تأويلِ ذلك بالصوابِ أنْ يقالَ: إنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ أخبرَ أنَّ لأوليائِه المتقينَ، البشرى في الحياةِ الدنيا، ومن البشارة في الحياة الدنيا، الرؤيا الصالحةُ يَراها المسلمُ أو تُرَى له، ومنها بُشْرَى الملائكة إياهُ عندَ خروجِ نفسه برحمة الله ومنها بشرى الله إياهُ ما وَعَدَهُ في كتابه وعلى لسانِ رسوله ﷺ من الثوابِ الجزيل، كما قال جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ الآية، [البقرة: ٢٥].

وكل هذه المعاني من بُشرى الله إياه في الحياة الدنيا، بَشَّرَهُ بها، ولم يخصص الله من ذلك معنًى دونَ معنى، فذلك مما عَمَّهُ جَلَّ ثناؤُهُ: أنَّ «لهم البشرى في الحياة الدنيا»، وأما في الآخرة فالجنة.

وأما قوله: ؛ «لا تبديلَ لكلماتِ الله»، فإنَّ معناه: أنَّ الله لا خُلْفَ لوعده، ولا تغييرَ لقولِه عما قال، ولكنه يُمْضي لخلقِه مواعيدَه ويُنْجِزُهَا لهم.

وقوله: «ذلك هو الفوز العظيم»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: هذه البشرى في

الحياةِ الدنيا وفي الآخرة. «وهي الفوزُ العظيم»، يعني الظفر بالحاجةِ والطَّلبة والنجاة من النار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: لا يَحْزُنْكَ، يا محمدُ، قولُ هؤلاء المشركين في ربهم ما يقولون، وإشراكهم معه الأوثانَ والأصنامَ، فإنَّ العزةَ لله جميعاً، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فإنَّ الله هو المنفردُ بعزة الدنيا والآخرة، لا شريكَ له فيها، وهو المنتقمُ من هؤلاء المشركينَ القائلينَ فيه من القولِ الباطلِ ما يقولون، فلا ينصرهم عند انتقامِه منهم أحدٌ، لأنه لا يُعازُّه شيء. «هو السميعُ العليم»، يقول: وهو ذُو السمعِ لما يقولون من الفِرْيةِ والكَذِبِ عليه، وذو عِلْمٍ بما يُضْمِرُونَهُ في أنفسهم ويعلنونه مُحْصًى ذلك عليهم كله، وهو لهم بالمرصاد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ألا إنَّ لله، يا محمدُ، كُلَّ مَنْ في السمواتِ ومَنْ في الأرض، ملكاً وعبيداً، لا مالكَ لشيءٍ من ذلك سواه. يقول: فكيف يكون إلهاً معبوداً مَنْ يعبُده هؤلاء المشركون من الأوثانِ والأصنام، وهي لله ملكٌ، وإنما العبادةُ للمالك دونَ المملوكِ، وللربِّ دونَ المربوب؟. «وما يَتَّبِعُ الذين يَدْعُونَ من دونِ الله شركاء»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: وأيُّ شيءٍ يتبع مَنْ يدعو من دون الله ـ

يعني: غيرَ الله وسواه ـ شركاء. ومعنى الكلام: أيُّ شيءٍ يتبع مَنْ يقول لله شركاء في سلطانِهِ ومُلْكِه كاذباً، والله المنفردُ بملكِ كُلِّ شيءٍ في سماءٍ كانَ أو أرض؟ «إنْ يتبعون إلا الظنَّ»، يقول: ما يتبعون في قِيلهم ذلك ودعواهم إلا الظنَّ، يقول: إلا الشكَّ لا اليقين. «وإنْ هُمْ إلاَّ يخرصون»، يقول: وإنْ هُمْ إلا يتقوَّلُونَ الباطلَ تظنِّياً وتَخرُّصاً للإفكِ، عن غير علمٍ منهم بما يقولون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۝٦٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ رَبَّكم، أيها الناسُ، الذي استوجب عليكم العبادَة، هو الربُّ الذي جعلَ لكم الليلَ وفصله من النهار، لتسكنُوا فيه مما كنتم فيه في نهاركم من التَّعبِ والنَّصَب، وتهدأوا فيه من التصرفِ والحركةِ للمعاشِ، والعَناءِ الذي كنتم فيه بالنهار. «والنهارَ مُبْصِراً»، يقول: وجعَلَ النهارَ مبصراً، فأضافَ «الإبصار» إلى «النهار»، وإنما يُبْصَرُ فيه، وليس «النهار» مما يُبْصِرُ. ولكنْ لَمَّا كان مفهوماً في كلامِ العرب معناه، خاطَبهم بما في لغتهم وكلامهم.

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فهذا الذي يفعلُ ذلك، هو رَبُّكم الذي خَلَقكم وما تعبدونَ، لا ما لاينفعُ ولا يضرُّ ولا يفعلُ شيئاً.

وقوله: «إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يسمعون»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ في اختلاف حالِ الليلِ والنهار وحالِ أهلهما فيهما، دلالةً وحججًا على أنَّ الذي له العبادةُ خالصاً بغيرِ شريكٍ، هو الذي خَلَقَ الليلَ والنهارَ، وخالفَ بينهما بأنْ جعلَ هذا للخلق سكناً، وهذا لهم معاشاً، دون مَنْ لا يخلقُ ولا يفعلُ شيئاً، ولا يضرُّ ولا ينفع.

وقال: «لقوم يسمعون»، لأنَّ المرادَ منه: الذين يسمعونَ هذه الحججَ ويتفكَّرُونَ فيها، فيعتبرون بها وَيَتَّعِظُونَ. ولم يُرِدْ به: الذين يسمعونَ بآذانهم، ثم يُعْرِضُونَ عن عِبَرِه وعِظاتِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُهُ: قال هؤلاء المشركون بالله من قومك، يا محمد: «اتخذ الله ولداً»، وذلك قولهم: «الملائكةُ بناتُ الله»، يقول الله مُنَزِّهاً نفسَهُ عَمَّا قالوا وافتروا عليه من ذلك: «سبحانَ الله»، تنزيهاً لله عما قالوا وادَّعوا على رَبِّهم. «هو الغني»، يقول: الله غنيٌّ عن خَلْقِه جميعاً، فلا حاجةَ به إلى ولدٍ، لأنَّ الولدَ إنما يَطْلُبه مَنْ يطلبه، ليكون عَوْناً له في حياته، وذِكْراً له بعد وفاته، والله عن كُلِّ ذلك غنيٌّ، فلا حاجةَ به إلى مُعينٍ يُعينه على تدبيره، ولا يبيدُ فيكون به حاجة إلى خَلَفٍ بَعْدَهُ. «له ما في السمواتِ وما في الأرض، يقول تعالى ذِكْرُهُ: لله ما في السمواتِ وما في الأرض مِلْكاً، والملائكةُ عباده وملكه، فيكف يكون عبدُ الرجلِ وملكه له ولداً؟ يقول: أفلا تعقلونَ، أيها القومُ خطأً ما تقولون؟ . «إنْ عندكم من سلطانٍ بهذا»، يقول: ما عِنْدَكُمْ، أيها القومُ، بما تقـولـونَ وتَـدَّعُونَ من أنَّ الملائكةَ بنات الله، من حجةٍ تحتجُّونَ بها ـ وهي السلطانُ ـ أتقولون على الله قولاً لا تعلمونَ حقيقتَهُ وصحته، وتُضِيفُونَ إليه ما لا يجوزُ إضافتُه إليه، جهلاً منكم بما تقولون، بغيرِ حجةٍ ولا برهان؟

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ

﴿ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۝٦٩ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ۝٧٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: «قل»، يا محمدُ، لهم. «إن الذين يفترون على الله الكذب»، فيقولون عليه الباطلَ، ويَدَّعُونَ له وَلَداً. «لا يفلحون»، يقول: لا يَبْقَوْنَ في الدنيا، ولكنْ لهم مَتاعٌ في الدنيا يُمَتَّعُونَ به، وبلاغٌ يتبلَّغُونَ به إلى الأجلِ الذي كُتِب فناؤهم فيه. «ثم إلينا مرجعهم»، يقول: ثم إذا انقضى أجَلُهم الذي كتب لهم، إلينا مصيرهم ومنقلبهم. «ثم نُذِيقهم العَذابَ الشديد»، وذلك إصلاؤُهم جهنمَ. «بما كانوا يكفرون» بالله في الدنيا، فَيُكَذِّبُونَ رُسُلَهُ، ويجحدونَ آياته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ۝٧١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: «واتْلُ»، على هؤلاءِ المشركينَ الذين قالوا: «اتَّخذَ الله ولداً» من قومكَ. «نبأ نوحٍ»، يقول: خبرَ نوحٍ. «إذْ قال لقومه يا قوكِ إنْ كان كَبُرَ عليكم مقامي»، يقول: إنْ كانَ عَظُمَ عليكم مقامي بين أظهركم وشَقَّ عليكم، «تذكيري بآياتِ الله»، يقول: ووعظي إياكم بحججِ الله، وتنبيهي إياكم على ذلك. «فعلى الله توكلتُ»، يقول: إنْ كان شَقَّ عليكم مقامي بين أظهركم، وتذكيري بآياتِ الله، فعزمتم على قتلي أو طردي من بين أظهركم، فَعَلَى الله اتِّكالي وبه ثقتي، وهو سَنَدي وظهري. «فأجْمِعُوا أمركم»، يقول: فأعِدُّوا أمْرَكُم، واعزموا على ما تَنْوُونَ عليه في أمري.

وقوله: «ثم لا يَكُنْ أمرُكُم عليكم غُمَّةً»، يقول: ثم لا يكنْ أمركم عليكم مُلْتبساً مُشْكِلاً مُبْهماً.

واختلفَ أهلُ المعرفة بكلامِ العرب في معنى قوله: «ثم اقضوا إليَّ».

فقال بعضهم: معناه: امضُوا إليَّ، كما يقال: «قد قضى فلان»، يراد: قد مات ومَضَى.

وقال آخرون منهم: بل معناه: ثم افْرغُوا إليّ. وقالوا: «القضاء»، الفَراغُ، و«القضاء» من ذلك. قالوا: وكأنَّ «قضى دينه» من ذلك، إنما هو فَرَغ منه.

وقوله: «ولا تُنْظِرُونِ»، يقول: ولا تُؤَخِّرون.

وإنما هذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ، عن قولِ نبيهِ نوحٍ عليه السلام لقومه: إنه بنُصرةِ الله له عليهم واثِقٌ، ومن كَيْدِهم وبوائقهم غير خائفٍ - وإعلامٌ منه لهم أنَّ آلهتهم لا تضرُّ ولا تنفع. يقول لهم: أمْضُوا ما تُحَدِّثُون أنفسَكُمْ به فيَّ، على عَزْمٍ منكم صحيح، واستعينوا مع مَنْ شَايَعَكُمْ عليَّ بآلهتكم التي تَدْعُونَ من دون الله، ولا تُؤَخِّرُوا ذلكَ، فإني قد توكلتُ على الله، وأنا به واثقٌ أنكم لا تَضُرونني إلا أنْ يشاءَ ربي.

وهذا، وإنْ كان خبراً من الله تعالى عن نوح، فإنه حَثٌّ من الله لنبيهِ محمدٍ ﷺ على التأسي به، وتعريفٌ منه سبيلَ الرشاد فيما قلَّده من الرسالةِ والبلاغ عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٧٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ، مخبراً عن قيلِ نبيه نوحٍ عليه السلام لقومه: «فإنْ توليتم»، أيها القومُ، عني بعد دعائي إياكم، وتبليغِ رسالةِ ربي إليكم، مُدْبِرِينَ، فأعرضتم عَمَّا دَعَوْتُكم إليه من الحقِّ، والإقرارِ بتوحيدِ الله، وإخلاصِ العبادةِ له، وتركِ إشراكِ الآلهةِ في عبادته، فتضييعٌ منكم وتفريطٌ في واجبِ حَقِّ الله عليكم، لا بسببٍ من قِبَلي، فإني لم أسألكم على ما دَعَوْتُكم إليه أجراً، ولا عِوَضاً أعتاضُه منكم بإجابتكم إيايَ إلى ما دَعَوْتُكم إليه من الحقِّ والهدى، ولا طلبتُ منكم عليه ثواباً ولا جزاءاً. «إنْ أجريَ إلا على الله»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: إن جزائي وأجر عملي وثوابه إلا على ربي، لا عليكم، أيها القومُ، ولا على غيركم. «وأُمِرْتُ أنْ أكونَ من المسلمين»، وأمرني ربي أنْ أكونَ من المُذْعِنينَ له بالطاعةِ، المنقادينَ لأمرِهِ ونهيه، المتذللينَ له. ومن أجلِ ذلك أدعوكم إليه، وبأمرِهِ آمركم بتركِ عبادةِ الأوثان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ٧٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فَكَذَّبَ نوحاً قَوْمُهُ فيما أخبرهم به عن الله من الرسالةِ والوحي. «فنجيناهُ ومَنْ معه»، مِمَّنْ حملَ معه «في الفلك»، يعني: في السفينة. «وجعلناهم خلائِفَ»، يقول: وجعلنا الذين نجينا مع نوحٍ في السفينة، خلائفَ في الأرضِ من قومِهِ الذين كَذَّبُوه ـ بعد أنْ أغرقنا الذين كَذَّبُوا بآياتنا، ـ يعني: حُجَجِنَا وأدِلَّتنا على توحيدِنا ورسالةِ رسولنا نوح. يقولُ الله لنبيه محمد ﷺ «فانظر»، يا محمد. «كيف كان عاقبةُ المنذَرينَ»، وهم الذين أنذرهم نوحٌ عقابَ الله على تكذيبهم إياه وعبادتهم الأصنام. يقول له جَلَّ

ثناؤُهُ: انظر ماذا أعقبهم تَكْذِيبُهم رسولَهم، فإنَّ عاقبةَ مَنْ كذَّبك من قومكَ إنْ تمادوا في كُفْرهم وطغيانهم على ربهم، نحو الذي كان من عاقبةِ قومِ نوحٍ حين كذبوه. يقول جَلَّ ثناؤُهُ: فيلحذروا أنْ يحلَّ بهم مثل الذي حَلَّ بهم، إنْ لم يتوبوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُهُ: ثم بعثنا من بعدِ نوحٍ رُسُلاً إلى قومهم، فأتوهم ببيِّناتٍ من الحجج والأدلَّةِ على صِدْقِهم، وأنهم لله رُسُلٌ، وأنَّ ما يدعونهم إليه حقٌّ. «فما كانوا ليؤمنوا بما كَذَّبُوا به من قَبْلُ»، يقول: فما كانوا ليصدِّقُوا بما جاءتهم به رُسُلهم، بما كذب به قومُ نوحٍ ومَنْ قبلَهم من الأممِ الخالية من قبلهم. «كذلك نطبعُ على قلوبِ المعتدين»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: كما طبعنا على قلوبِ أولئك فختمنا عليها، فلم يكونوا يقبَلُونَ من أنبياءِ الله نصيحَتهم، ولا يستجيبون لدعائهم إيَّاهُمْ إلى ربهم، بما اجترموا من الذنوبِ واكتسبوا من الآثامِ، كذلك نطبعُ على قلوبِ مَن اعتدى على رَبِّه فتجاوزَ ما أمره به من توحيدِه، وخالفَ ما دعاهم إليه رُسُلُهم من طاعتِه، عقوبةً لهم على معصيتهم ربَّهم من هؤلاء الآخرين من بعدهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ثم بعثنا من بعد هؤلاء الرسل الذين أرسلناهم من بعد

نوحٍ إلى قومهم، موسى وهرون ابني عمران، إلى فرعونِ مِصْرَ ومَلَئِه، يعني: وأشراف قومِه وسادتهم. «بآياتنا»، يقول: بأدِلَّتنا على حقيقةِ ما دَعَوْهُمْ إليه من الإذعانِ لله بالعُبُودةِ، والإقرارِ لهما بالرسالة. «فاستكبروا»، يقول: فاستكبروا عن الإقرارِ بما دَعَاهم إليه موسى وهرون. «وكانوا قوماً مجرمين»، يعني: آثمينَ بربِّهم، بِكُفْرِهم بالله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «فلما جاءهم الحَقُّ من عندنا»، يعني: فلما جاءهم بيانُ ما دَعَاهُمْ إليه موسى وهرون، وذلك الحجج التي جاءهم بها، وهي الحق الذي جاءهم من عند الله. «قالوا إنَّ هذا لسحرٌ مبين» ـ يعنون أنه يبينُ لمن رآه وعـايَنَـهُ أنه سِحْرٌ لا حقيقةَ له. «قال موسى»، لهم: «أتقولون للحَقِّ لما جاءكم»، من عندِ الله، «أَسِحْرٌ هذا»؟

وقوله: «ولا يفلحُ الساحرون»، يقول: ولا ينجحُ الساحرونَ ولا يَبقَوْن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال فرعونُ ومَلَؤُهُ لموسى: «أَجِئْتَنَا لتلفتنا»، يقول: لِتَصْرِفَنَا وتَلْوِينَا. «عمَّا وجدنا عليه آباءنا»، من قَبْلِ مجيئِك، من الدين.

وقوله: «وتكونَ لكما الكبرياءُ في الأرض»، يعني: العَظَمة.

وقوله: «وما نحنُ لكما بمؤمنين»، يقول: «وما نحنُ لكما»، يا موسى وهرون. «بمؤمنين»، يعني: بمقرِّينَ بأنكما رسولان أُرْسِلْتُما إلينا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ٧٩ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ٨٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وقال فرعونُ لقومه: ائتوني بكلِّ مَنْ يَسْحَرُ من السحرةِ، عليم بالسحر. «فلما جاء السَّحَرَةُ»، فرعونَ. «قال موسى ألقوا ما أنتم ملقون»، من حِبَالِكم وعِصِيِّكُمْ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ٨١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فلما ألقوا ما هم مُلْقُوه، قال لهم موسى: ما جئتم به السحر.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك.

فقرأته عامةُ قَرَأَةِ الحجازِ والعراق: ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ﴾، على وجهِ الخبرِ من موسى عن الذي جاءت به سَحَرَةُ فرعون، أنه سحرٌ. كأنَّ معنى الكلام على تأويلهم: قال موسى: الذي جِئْتُم به، أيها السحرةُ، هو السحرُ. ثم أخبرهُمْ أن الله سَيُبْطِلُه فقال: «إنَّ الله سيبطله»، يقول: سيذهبُ به. فذهب به تعالى ذِكْرُهُ، بأنْ سَلَّطَ عليه عصا موسى قد حَوَّلها ثعباناً يتلقَّفُه، حتى لم يبقَ منه شيءٌ. «إنَّ الله لا يصلحُ عملَ المفسدين»، يعني: إنه لا يصلحُ عملَ من سَعَى في أرضِ الله بما يكرهه، وعملَ فيها بمعاصيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: مُخْبِراً عن موسى أنه قالَ للسحَرةِ: «ويُحِقُّ الله الحق»، يقول: ويُثَبِّتُ الله الحق الذي جِئْتكم به من عنده، فيُعْلِيه على باطِلكم ويُصَحِّحُه. «بكلماته»، يعني: بأمره. «ولو كره المجرمون»، يعني: الذين اكتسبوا الإِثمَ بربِّهم، بمعصيتهم إياه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فلم يؤمن لموسى، مع ما أتاهم به من الحججِ والأدلّة. «إلَّا ذريةٌ من قومه»، خائفينَ من فرعون، ومَلَئِهم.

و«الذرية»، في هذا الموضع، أُرِيدَ بها ذُرِّيّة مَن أُرسلَ إليه موسى من بني إسرائيل، فهلكوا قبل أنْ يُقِرُّوا بنبوَّتِهِ لطولِ الزمان، فأدركت ذريتهم، فآمَنَ منهم من ذَكَرَ الله، بموسى.

وأما قوله: «على خوفٍ من فرعون»، فإنه يعني على حالِ خوفٍ ممن آمنَ من ذريةِ قومِ موسى بموسى؛ فتأويلُ الكلام: فما آمن لموسى إلا ذريةٌ من قومه، من بني إسرائيل، وهم خائفونَ من فرعونَ ومَلَئِهم أنْ يفتنوهم.

وأما قوله: «وملئهم»، فإنَّ «الملأ» الأشراف. وتأويلُ الكلام: على خوفٍ من فرعونَ ومن أشرافِهم.

وقوله: «أَنْ يَفْتِنَهُمْ»، يقول: كان إيمانُ مَنْ آمنَ من ذريةِ قومِ موسى على خوفٍ من فرعون. «أَنْ يفتنهم» بالعذابِ، فيصدهم عن دِينهم، ويحملهم على الرجوعِ عن إيمانِهم والكفرِ بالله.

وقوله: «وإنَّ فرعونَ لعالٍ في الأرض»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإنَّ فرعونَ لجبّارٌ مستكبرٌ على الله في أرضه. «وإنه لمن المسرفين»، وإنه لمن المتجاوزين الحقَّ إلى الباطلِ، وذلك كُفْرُه بالله، وتَرْكُه الإيمانَ به، وجحودهُ وحدانيةَ الله، وادِّعاؤه لنفسهِ الأُلوهةَ، وسفكُه الدماء بغير حِلِّها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: مخبراً عن قِيلِ موسى نبيِّه لقومِه: يا قوم إنْ كنتم أقررتم بوحدانيةِ الله، وصدَّقْتُمْ بربوبيتهِ. «فعليه تَوَكَّلُوا»، يقول: فَبِهِ فَثِقُوا، ولأمره فَسَلِّمُوا، فإنه لن يخذلَ وليَّهُ، ولن يُسْلِمَ مَنْ تَوكَّلَ عليه. «إنْ كنتم مسلمين»، يقول: إنْ كنتم مذعنينَ لله بالطاعة، فعليه توكلوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فقال قوم موسى لموسى: «على الله توكلنا»، أي: به وَثِقْنَا، وإليه فَوَّضنا أمرنا.

وقوله: «رَبَّنَا لا تجعلنا فتنةً للقومِ الظالمين»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ، مخبراً عن قومِ موسى: أنهم دَعَوْا رَبَّهم فقالوا: يا ربنا، لا تختبرْ هؤلاءِ القوم الكافرينَ ولا تَمْتَحِنْهُم بنا! يعنون قومَ فرعون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٨٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ونَجِّنا، يا رَبَّنَا، برحمتكَ، فخلِّصْنَا من أيدي القوم الكافرين، قوم فرعون، لأنهم كانوا يستعبدونَهُمْ ويستعملونهم في الأشياء القَذِرة من خدمتهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأوحينا إلى موسى وأخيه أن اتَّخِذا لقومكما بمصرَ بيوتاً، «واجعلوا بيوتكم قبلةً»، يقول: واجعلوا بيوتكم مَساجدَ تُصَلُّونَ فيها.

«وأقيموا الصلاة»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأدُّوا الصلاةَ المفروضةَ بحدودها في أوقاتها.

وقوله: «وبَشِّرِ المؤمنين»، يقولُ جَلَّ ثناؤُهُ لنبيه عليه السلام: وبَشر مُقيمي الصلاة، المُطيعي الله، يا محمد، المؤمنينَ، بالثوابِ الجزيل منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٨٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وقال موسى: يا ربَّنا، إنك أعطيتَ فرعونَ وكُبَراءَ قومِه وأشرافَهم، وهم «الملأ» «زينة»، من متاع الدنيا وأثاثها. و«أموالاً» من أعيانِ

الذهبِ والفضة. «في الحياة الدنيا رَبَّنا لِيُضِلُّوا عن سبيلك»، يقول موسى لربه: رَبَّنا، أعطيتَهُمْ ما أعطيتهم من ذلك، لِيُضِلُّوا عن سبيلك عبادَك عقوبة منك.

وقوله: «ربنا اطمسْ على أموالهم واشْدُدْ على قلوبهم»، هذا دعاءٌ من موسى، دعا الله على فرعونَ ومَلَئِهِ أنْ يغيِّر أموالهم عن هيئتها، ويُبدلها إلى غير الحالِ التي هي بها، وذلك نحو قوله: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا﴾ [النساء: ٤٧]، يعني به: من قبل أن نغيرها عن هيئتها التي هي بها.

وأما قوله: «واشدد على قلوبهم»، فإنه يعني: واطبعْ عليها حتى لا تَلِينَ ولا تنشرح بالإيمان.

وأما قوله: «فلا يؤمنوا حتى يَرَوُا العذابَ الأليم»، فإنَّ معناه: فلا يُصَدِّقُوا بتوحيدِ الله ويُقِرُّوا بوحدانيته، حتى يروا العذابَ الموجع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨٩﴾**

وهذا خبرٌ من الله عن إجابتهِ لموسى ﷺ وهرون دُعَاءَهُمَا على فرعونَ وأشرافِ قومهِ وأموالهم. يقول جَلَّ ثناؤُهُ: قال الله لهما: «قد أُجيبت دعوتكما» في فرعون ومَلَئه وأموالهم.

وأما قوله: «فاستقيما»، فإنه أمرٌ من الله تعالى لموسى وهرون بالاستقامةِ والثباتِ على أمرهما، من دعاءِ فرعونَ وقومهِ إلى الإجابةِ إلى توحيدِ الله وطاعته، إلى أنْ يأتيهم عقابُ الله الذي أخبرهما أنه أجابَهما فيه.

وقوله: «ولا تَتَّبِعَانِّ سبيلَ الذين لا يعلمون»، يقول: ولا تسلكانِّ طريقَ

الذين يجهلونَ حقيقةَ وعْدي، فتستعجلانِ قضائي، فإن وَعْدي لا خُلْف له، وإنَّ وعيدي نازلٌ بفرعون، وعذابي واقعٌ به وبقومه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وقطعنا ببني إسرائيلَ البحرَ حتى جاوزُوه. «فأتبعهم فرعون»، يقول: فتَبعهم فرعونُ وجنودُه.

«بغياً» على موسى وهـرون ومَنْ معهمـا من قومهما من بني إسرائيل. «وعدْواً»، يقول: واعتداءً عليهم.

وقد روي عن بعضهم أنه كان يقرأ: ﴿بَغْياً وَعُدُوًّا﴾، وهو أيضاً مصدر من قولهم: «عَدَا يَعدُو عُدُوًّا»، مثل: «علا يعلو عُلُوًّا».

«حتى إذا أدركه الغرق»، يقول: حتى إذا أحاطَ به الغَرقُ. وفي الكلامِ متروك، قد تُركَ ذِكْرُه لدلالَةِ ما ظهرَ من الكلامِ عليه، وذلك: «فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً» فيه «فغرَّقْنَاهُ» «حتى إذا أدركه الغرق».

وقـولـه: «قال آمنتُ أنه لا إله إلاَّ الذي آمنتْ به بنو إسرائيلَ وأنا من المسلمين»، يقول تعالى ذِكْرُهُ، مخبراً عن قِيل فرعون حين أشفى على الغرق، وأيقن بالهلكَةِ: «آمنتُ»، يقول: أقررتُ أنه لا إله إلا الذي آمنتْ به بَنُو إسرائيل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُهُ: مُعَرِّفاً فرعونَ قُبْحَ صَنيعِه أيَّامَ حياته، وإساءته إلى نفسهِ أيامَ صحته، بتماديهِ في طغيانه، ومعصيته رَبَّهُ، حين فَزِعَ إليه في حالِ حلولِ سَخَطِه به، ونزولِ عقابه، مستجيراً به من عذابهِ الواقع به، لما ناداهُ وقد عَلَتْهُ أمواجُ البحرِ، وغشيته كُرَبُ الموتِ، «آمنتُ أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين» له، المُنْقَادينَ بالذلةِ له، المعترفينَ بالعبوديةِ ـ الآن، تُقِرُّ لله بالعبوديةِ، وتستسلمُ له بالذِلَّةِ، وتخلصُ له الأُلوهةَ، وقد عَصَيْتَهُ قبـل نزولِ نقمتـه بك، فأسْخَـطْتَـهُ على نفسـكَ، وكنتَ من المفسدينَ في الأرض، الصادِّين عن سبيله؟ فهلاً وأنتَ في مَهَلٍ، وبابُ التوبةِ لك منفتحٌ، أقررتَ بما أنتَ به الآنَ مُقِرٌّ؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُهُ لفرعونَ: اليوم نَجْعَلُكَ على نَجْوةٍ[1] من الأرضِ ببدنكَ، ينظر إليك هالكاً مَنْ كَذَّبَ بهلاككَ. «لتكونَ لمن خلفك آية»، يقول: لمن بَعْدَكَ من الناسِ عبرةً يعتبرونَ بك، فينزجرون عن معصيةِ الله، والكفر به والسعي في أرضه بالفساد.

وقـوله: «وإنَّ كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وإنَّ كثيراً من الناسِ عن آياتنا»، يعني: عن حُجَجِنَا وأدِلَّتنا على أنَّ العبادةَ والأُلـوهـةَ لنـا خالصـةً. «لغافلون»، يقول: لَسَاهُون، لا يتفكَّرُونَ فيها، ولا يعتبرونَ بها.

---

(١) النجوة: الموضع المرتفع على ما حوله من الأرض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولقد أنزلنا بني إسرائيلَ منازلَ صِدْق.

وقوله: «ورزقناهم من الطيبات»، يقول: ورزقنا بني إسرائيلَ من حلالِ الرزقِ ـ وهو «الطيب».

وقوله: «فما اختلفوا حتى جاءهم العلم»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: فما اختلفَ هؤلاءِ الذين فعلنا بهم هذا الفعلَ من بني إسرائيلَ، حتى جاءهم ما كانوا به عالمين. وذلك أنهم كانوا قَبْلَ أنْ يُبْعَثَ محمدٌ النبيّ ﷺ مجمعينَ على نُبُوَّةِ محمدٍ والإقرارِ به وبمبعثه، غير مختلفينَ فيه بالنعتِ الذي كانوا يَجِدُونَهُ مكتوباً عندهم، فلما جاءهم ما عَرَفُوا كفر به بعضُهم وآمنَ به بعضُهم، والمؤمنونَ به منهم كانوا عدداً قليلاً. فذلك قوله: فما اختلفوا حتى جاءهم المعلومُ الذي كانوا يعلمونه نبيًّا لله ـ فوضع «العلم» مكان «المعلوم».

وقوله: «إنَّ ربك يقضي بينهم يومَ القيامةِ فيما كانوا فيه يختلفون»، يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: إنَّ ربَّكُ، يا محمدُ، يقضي بين المختلفينَ من بني إسرائيلَ فيكَ يومَ القيامة، فيما كانوا فيه من أمري في الدنيا يختلفون، بأن يُدْخِلَ المكذبينَ بكَ منهم النارَ، والمؤمنينَ بك منهم الجنةَ، فذلك قضاؤُه يومئذٍ فيما كانوا فيه يختلفون من أمرِ محمدٍ ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: فإنْ كنت، يا محمدُ، في شَكٍّ من حقيقةِ ما اخترناكَ فأنزلنا إليك، من أنَّ بني إسرائيلَ لم يختلفوا في نُبُوَّتِكَ قبل أنْ تُبْعَثَ رسولاً إلى خَلْقِه، لأنهم يجدونكَ عندهم مكتوباً، ويعرفونكَ بالصفةِ التي أنتَ بها موصوفٌ في كتابهم في التوراة والإنجيل «فاسألِ الذين يقرأونَ الكتابَ من قبلك»، من أهلِ التوراة والإنجيل، كعبدِ الله بنِ سلام ونحوه، من أهلِ الصِّدْقِ والإيمانِ بكَ منهم، دونَ أهلِ الكذبِ والكفرِ بك منهم.

فإنْ قال قائل: أَوَ كان رسول الله ﷺ في شَكٍّ من خبر الله أنه حقٌّ يقين، حتى قيل له: «فإنْ كنتَ في شكٍّ مما أنزلنا إليك فاسألِ الذين يقرأونَ الكتابَ من قبلك»؟

قيل: لا.

فإن قال: فما وجهُ مخرجِ هذا الكلامِ، إذنْ، إنْ كان الأمرُ على ما وصفتَ؟

قيل: قد بَيَّنا في غير موضعٍ من كتابنا هذا، استجازةَ العربِ قولَ القائلِ منهم لمملوكه: «إنْ كنتَ مملوكي فانته إلى أمري»، والعبدُ المأمورُ بذلك لا يشكّ سيدُه القائلُ له ذلكَ أنه عَبْدُه. كذلك قولُ الرجلِ منهم لابنه: «إنْ كنت ابني فبرَّني»، وهو لا يشكُّ في ابنِه أنه ابنه ـ وأنَّ ذلك من كلامِهم صحيحٌ مستفيضٌ فيهم، وذكرنا ذلك بشواهدِه، وأنَّ منه قول الله: ﴿وَإِذْ قَالَ الله يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قَلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ الله﴾ [المائدة: ١١٦]، وقد علم جَلَّ ثناؤُهُ أنَّ عيسى لم يقل ذلك. وهذا من ذلك، لم يكن ﷺ شاكاً في حقيقةِ خبرِ الله وصحته، والله تعالى ذِكْرُهُ بذلك من أمره كان عالماً، ولكنه جَلَّ ثناؤُهُ خاطبه خطاب قومه بعضهم بعضاً، إذْ كان القرآن بلسانهم نزل.

وأما قوله: «لقد جاءك الحَقُّ من ربك» الآية، فهو خبرٌ من الله مبتدأ.

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أقسم لقد جاءك الحَقُّ اليقينُ من الخبرِ بأنكَ لله رسولٌ، وأنَّ هؤلاء اليهود والنصارى يعلمون صِحَّةَ ذلك، ويجدون نَعْتَكَ عندهم في كتبهم. «فلا تَكُونَنَّ»، يقول: فلا تكونَنَّ من الشاكين في صحة ذلك وحقيقته.

ولو قال قائل: إنَّ هذه الآيةَ خُوطِبَ بها النبيُّ ﷺ، والمرادُ بها بعضُ مَنْ لم يكن صحَّتْ بَصِيرتُه بنبوته ﷺ، ممن كان قد أظهر الإيمانَ بلسانِه، تنبيهاً له على موضعِ تعرُّفِ حقيقةِ أمره الذي يزيلُ اللَّبْس عن قَلْبه، كما قال جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ [الأحزاب: ١]، كان قولاً غيرَ مدفوعةٍ صِحَّتُه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝٩٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه ﷺ: ولا تكونن، يا محمدُ، من الذين كَذَّبُوا بحججِ الله وأدلته، فتكون مِمَّنْ غُبِنَ حَظَّه، وباعَ رحمةَ الله ورضاه، بسَخَطِه وعقابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۝٩٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الذين وجبتْ عليهم، يا محمدُ، «كلمةُ ربك»، هي لَعْنَتُه إياهم بقوله: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨]، فَثَبتتْ عليهم.

وقوله: «لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية»، يقول: لا يُصَدِّقُونَ بحججِ الله، ولا يقرُّون بوحدانيةِ رَبِّهم، ولا بأنكَ لله رسولٌ. «ولو جاءتهم كُلُّ آية»، وموعظة وعبرة، فَعَاينُوها، حتى يعاينوا العذابَ الأليم، كما لم يؤمن فرعونُ ومَلَؤه إذْ حقَّت عليهم كلمةُ ربِّكَ حتى عاينوا العذابَ الأليم، فحينئذٍ قال: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ [يونس: ٩٠]، حين لم ينفعه قِيْلُه، فكـذلـك هؤلاء الـذين حَقَّتْ عليهم كلمـةُ رَبِّكَ من قومكَ من عَبَدَةِ الأوثانِ وغيرهم، لا يؤمنونَ بك فيتبعونكَ، إلا في الحين الذي لا ينفعهم إيمانهم.

القَـوْلُ في تَأْويل قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فَهَلَّا كانت قَرْيَة آمنت؟

ومعنى الكلام: فما كانت قريةٌ آمنتْ عند معاينتها العذابَ، ونزول سَخَطِ الله بها، بعصيانِها ربَّها واستحقاقِها عقابَهُ، فَنَفَعَها إيمانُها ذلك في ذلك الوقت، كما لم ينفع فرعونَ إيمانُه حين أدركَهُ الغَرَقُ بعد تمادِيه في غيِّه، واستحقاقه سَخَطَ الله بمعصيتِه ـ إلَّا قومَ يُونُسَ، فإنهم بعد نزولِ العقوبةِ وحلولِ السخطِ بهم. فاستثنى الله قومَ يونس من أهلِ القرى الذين لم ينفعهم إيمانُهم بعد نزولِ العـذابِ بسـاحتهم، وأخرجهم منهم، وأخبرَ خَلْقَهُ أنه نفعهم إيمانُهم خاصَّةً من بين سائرِ الأممِ غيرهم.

وقوله: «لما آمنوا كشفنا عنهم عذابَ الخِزْيَ في الحياة الدنيا»، يقول: لما صَدَّقُوا رسولَهم، وأقروا بما جاءهم به، بعد ما أظلَّهم العذابُ وغشيهم أمْرُ الله ونـزلَ بهم البلاءُ، كشفنا عنهم عَذَابَ الهوانِ والذلِّ في حياتِهم الدنيا.

«ومَتَّعْناهُمْ إلى حين»، يقول: وأخَّرْنا في آجالهم ولم نُعاجِلهم بالعقوبةِ، وتركناهم في الدنيا يستمتعون فيها بآجالِهم إلى حِينِ مماتِهم، ووقت فناء أعمارِهم التي قَضَيْتُ فَناءَها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تعالَى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٩٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه: «ولو شاء»، يا محمدُ، «رَبُّكَ لآمَنَ من في الأرضِ كُلُّهم جميعاً»، بكَ، فصدَّقوكَ أنك لي رسولٌ، وأنَّ ما جِئتَهم به وما تَدْعُوهم إليه من توحيدِ الله وإخلاصِ العُبودةِ له، حقٌّ، ولكن لا يشاء ذلك، لأنه قد سَبَقَ من قضاءِ الله قبل أنْ يبعثكَ رسولاً أنه لا يؤمنُ بك، ولا يَتَّبِعكَ فَيُصَدِّقكَ بما بَعَثَكَ الله به من الهدى والنور، إلا مَنْ سبقتْ له السعادةُ في الكتاب الأوَّلِ قبل أنْ تُخْلَقَ السمواتُ والأرض وما فيهن. وهؤلاء الذين عَجِبُوا من صِدْق إيحائنا إليكَ هذا القرآنَ لِتُنْذِرَ به مَنْ أمرتُكَ بإنذارِه، ممَّنْ قد سَبَقَ له عندي أنهم لا يؤمنونَ بكَ في الكتاب السابق.

وقوله: «أفأنتَ تُكْرِهُ الناسَ حتى يكونوا مؤمنين»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ لنبيِّه محمد ﷺ: إنه لَنْ يُصَدِّقَكَ، يا محمدُ، ولن يَتَّبِعَكَ ويُقِرَّ بما جئتَ به إلا مَنْ شاء رَبُّكَ أنْ يصدّقك، لا بإكراهكَ إياهُ، ولا بحرصكَ على ذلك. «أفأنتَ تُكْرِهُ الناسَ حتى يكونوا مؤمنين» لك، مُصَدِّقينَ على ما جِئْتَهُمْ به من عند رَبِّكَ؟ يقول له جَلَّ ثناؤُهُ: فاصدَعْ بما تُؤْمَر، وأعْرِضْ عن المشركينَ الذين حَقَّتْ عليهم كلمةُ ربِّكَ أنَّهم لا يؤمنون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تعالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝١٠٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه: وما كانَ لنفسٍ خَلَقْتُها، من سبيلٍ إلى تصديقكَ، يا محمدُ، إلاَّ بأنْ آذَنَ لها في ذلك، فلا تجهدنَّ نفسك في طَلَبِ هداها، وبَلِّغْها وعيدَ الله، وعَرِّفْهَا ما أمرَكَ رَبُّكَ بتعريفها، ثم خَلِّها، فإنَّ هُدَاها بيدِ خالقها.

وأما قوله: «ويجعلُ الرِّجْسَ على الذين لا يعقلون»، فإنه يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الله يهدي مَنْ يشاء من خَلْقِه للإيمانِ بكَ، يا محمدُ، ويأذَنُ له في تصديقكَ فيُصَدِّقُكَ، ويَتَّبِعُكَ، ويُقِرُّ بما جئتَ به من عند ربك. «ويجعل الرجس»، وهو العذابُ وغضبُ الله. «على الذين لا يعقلون»، يعني: الذين لا يعقلون عن الله حُجَجَهُ ومواعِظَهُ وآياته التي دلَّ بها جَلَّ ثناؤُهُ على نبوَّةِ محمدٍ ﷺ، وحقيقة ما دَعَاهم إليه من توحيد الله، وخَلْعِ الأنداد والأوثان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قُلْ، يا محمدُ، لهؤلاءِ المشركينَ من قومك، السَّائليكَ الآياتِ على صِحَّةِ ما تَدْعُوهم إليه من توحيدِ الله، وخلعِ الأندادِ والأوثانِ: انظروا، أيها القومُ، ماذا في السمواتِ من الآياتِ الدَّالةِ على حقيقةِ ما أدعوكم إليه من توحيدِ الله، من شمسها وقمرها، واختلافِ ليلها ونهارها، ونزولِ الغيثِ بأرزاقِ العبادِ من سحابها - وفي الأرضِ من جبالها، وتصدُّعها بنباتها وأقواتِ أهلها، وسائرِ صنوفِ عجائبها، فإنَّ في ذلك لكم إنْ عقلتم وتَدَبَّرْتُمْ عظةً ومعتبراً ودلالةً على أنَّ ذلك من فعل مَنْ لا يجوزُ أنْ يكونَ له في مُلْكه شريكٌ، ولا له على تدبيرِه وحِفْظِه ظهيرٌ - يُغْنيكم عَمَّا سِواهُ من الآيات.

يقول الله جَلَّ ثناؤُهُ: «وما تُغني الآياتُ والنذر عن قومٍ لا يؤمنون»، يقول: وما تُغني الحججُ والعِبَرُ والرسلُ المنذرةُ عبادَ الله عقابَهُ، عن قومٍ قد سَبَقَ لهم من الله الشقاءُ، وقَضَى لهم في أُمِّ الكتاب أنهم من أهلِ النار، لا يؤمنونَ بشيءٍ من ذلك ولا يُصَدِّقُونَ به، ولو جاءتهم كُلُّ آيةٍ حتى يَرَوْا العذابَ الأليم؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيهِ محمدٍ ﷺ، مُحَذِّراً مشركي قومِه من حلولِ عاجلِ نِقَمِه بساحتهم نحوَ الذي حَلَّ بنظرائهم من قبلهم من سائرِ الأممِ الخالية من قبلهم، السالكة في تكذيبِ رُسُلِ الله وجحودِ توحيدِ ربِّهم سبيلَهم: فهل ينتظر، يا محمدُ، هؤلاء المشركونَ من قومكَ، المكذِّبونَ بما جئتهم به من عند الله، إلا يوماً يُعَايِنُون فيه من عذابِ الله مِثْلَ أيامِ أسلافِهم الذين كانوا على مِثْلِ الذي هُمْ عليه من الشِّرْكِ والتكذيب، الذين مضوا قبلهم فخَلَوْا من قومِ نوحٍ وعاد وثمود؟ قُلْ لهم، يا محمدُ، إنْ كانوا ذلك ينتظرون: فانتظروا عِقابَ الله إياكم، ونزولَ سَخَطِه بكم، إنِّي من المنتظرينَ هلاكَكُم وبَوارَكُم بالعقوبةِ التي تَحلُّ بكم من الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ، قُلْ، يا محمدُ، لهؤلاءِ المشركينَ من قومك: انتظروا مِثْلَ أيامِ الذين خَلَوْا من قَبْلِكم من الأممِ السالفةِ الذين هَلَكُوا بعذابِ الله،

فإنَّ ذلك إذا جاء لم يُهْلَكْ به سِواهم ومَنْ على مِثْلِ الذي هُمْ عليه من تكذيبك، ثم نُنَجِّي هناك رسولَنا محمداً ﷺ ومَنْ آمَنَ به وصَدَّقَهُ واتبعه على دينه، كما فعلنا قبلَ ذلك برُسلنا الذين أهلكنا أممهم، فأنجيناهم ومَنْ آمَن به معهم من عذابنا حين حَقَّ على أممهم. «كذلك حقًّا علينا نُنْجي المؤمنين»، يقول: كما فعلنا بالماضين من رُسُلِنَا فأنْجَيْنَاهَا والمؤمنينَ معها وأهلكنا أُمَمَهَا، كذلك نفعلُ بكَ، يا محمدُ، وبالمؤمنينَ، فننجيكَ ونُنَجِّي المؤمنينَ بك، حقًّا علينا غير شك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ، قُلْ، يا محمدُ، لهؤلاءِ المشركينَ من قومكَ الذين عَجِبُوا أنْ أوحيتُ إليك: إنْ كنتم في شكٍ، أيها الناسُ، من دِيني الذي أدعوكُمْ إليه، فلم تعلموا أنه حقٌّ من عند الله، فإني لا أعبدُ الذين تعبدونَ من دونِ الله، من الآلهةِ والأوثانِ التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عَنِّي شيئاً، فتشكُّوا في صحته.

وهذا تعريضٌ ولحنٌ من الكلامِ لطيفٌ[1]، وإنما معنى الكلام: إنْ كنتم في شكٍ من دِيني، فلا ينبغي لكم أنَ تَشُكُّوا فيه، وإنما ينبغي لكم أنْ تَشُكُّوا في الذي أنتم عليه من عبادةِ الأصنامِ التي لا تعقلُ شيئاً، ولا تَضُرُّ ولا تنفع. فأما دِيني فلا ينبغي لكم أنْ تشكُّوا فيه، لأني أعبدُ الله الذي يقبضُ الخَلْقَ فَيُمِيتُهم إذا شاء، وينفعهم ويضرُّهم إنْ شاء. وذلك أنَّ عبادَة مَنْ كان كذلك،

(١) اللحن: التعريض والإيماء دون التصريح.

لا يستنكِرُهَا ذُو فطرةٍ صحيحة. وأما عبادةُ الأوثان، فينكرها كُلُّ ذي لبٍّ وعقلٍ صحيح.

وقـوله: «ولكنْ أعبدُ الله الذي يتوفاكم»، يقول: ولكنْ أعبدُ الله الذي يقبضُ أرواحَكُم فيميتكم عند آجالكم. «وأُمِرْتُ أنْ أكونَ من المؤمنين»، يقول: وهو الذي أمرني أنْ أكونَ من المُصَدِّقينَ بما جاءني من عنده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١٠٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وأُمِرْتُ أنْ أكونَ من المؤمنين». «وأنْ أَقِمْ»، و«أنْ» الثانية عطفٌ على «أن» الأولى.

ويعني بقـوله: «أقم وجهكَ للدين»، أَقِمْ نفسكَ على دِينِ الإسلامِ، «حنيفاً» مستقيماً عليه، غير مُعْوَجٍّ عنه إلى يهوديةٍ ولا نصرانيةٍ، ولا عبادةِ وَثَن. «ولا تَكُونَنَّ من المشركين»، يقول: ولا تكونن مِمَّنْ يشركُ في عبادة رَبِّه الآلهةَ والأندادَ، فتكونَ من الهالكين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ۝١٠٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولا تَدْعُ، يا محمدُ، من دونِ معبودك وخالِقك شيئاً لا يَنْفَعُكَ في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يضرك في دينٍ ولا دنيا، يعني بذلك الآلهةَ والأصنام. يقول: لا تَعْبُدْهَا راجياً نَفْعَها أو خائفاً ضرَّها، فإنها لا تنفعُ ولا تضر. «فـإنْ فعلتَ»، ذلـك، فَدَعَـوْتَهَـا من دونِ الله. «فـإنـك إذاً من الظالمين»، يقول: من المشركينَ بالله الظالمي أنفُسِهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه: وإنْ يُصِبْكَ الله، يا محمدُ، بشِدَّةٍ أو بلاءٍ، فلا كاشفَ لذلكَ إلاَّ ربُّكَ الذي أصابكَ به، دونَ ما يعبدُه هؤلاء المشركونَ من الآلهةِ والأندادِ. «وإنْ يُرِدْكَ بخيرٍ»، يقول: وإنْ يردك رَبُّكَ برخاءٍ أو نعمةٍ وعافية وسرور. «فلا رَادَّ لفضلِهِ»، يقول: فلا يَقْدِرُ أحدٌ أنْ يحولَ بينكَ وبين ذلك، ولا يَرُدَّكَ عنه، ولا يَحْرِمكَهُ، لأنه الذي بيده السَّرَّاءُ والضرَّاءُ، دونَ الآلهةِ والأوثان، ودونَ ما سواه. «يُصيبُ به مَنْ يشاء»، يقول: يُصيبُ رَبُّكَ، يا محمدُ، بالرخاءِ والبلاءِ والسراءِ والضراءِ، مَنْ يشاء ويريد. «من عباده وهو الغفورُ»، لذنوبِ مَنْ تابَ وأنابَ من عبادِه من كُفْرِه وشِرْكِه إلى الإيمانِ به وطاعته. «الرحيم»، بِمَنْ آمنَ به منهم وأطاعه، أنْ يعذبه بعد التوبة والإنابة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ١٠٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ «قل»، يا محمدُ، للناس. «يا أيها الناسُ قد جاءكم الحَقُّ من ربِّكم»، يعني: كتاب الله، فيه بيانُ كُلِّ ما بالناس إليه حاجةٌ من أمرِ دينهم. «فمن اهتدى»، يقول: فَمَنِ استقامَ فَسَلَكَ سبيلَ الحق، وصَدَّقَ بما جاء من عندِ الله من البيانِ، «فإنما يهتدي لنفسه»، يقول: فإنما يستقيمُ على الهدى ويسلك قصدَ السبيلِ لنفسه، فإيَّاها يبغي الخيرَ بفعله ذلك لا غيرها. «ومَنْ ضَلَّ»، يقول: ومن اعْوَجَّ عن الحَقِّ الذي أتاه من عند

الله، وخالفَ دينَهُ وما بَعثَ به محمداً والكتابَ الذي أنزله عليه. «فإنما يَضِلُّ عليها»، يقول: فإنَّ ضلالَهُ ذلك إنما يجني به على نفسه، لا على غيرها، لأنه لا يُؤْخَذُ بذلك غيرها، ولا يُورِدُ بضلالِه ذلك المهالكَ سوى نفسِه، ولا تَزرُ وازرةٌ وِزْرَ أخرى. «وما أنا عليكم بوكيل»، يقول: وما أنا عليكم بِمُسَلَّطٍ على تقويمِكُمْ، وإنما أمرُكم إلى الله، وهو الذي يقوِّم مَنْ يشاء منكم، وإنما أنا رسولٌ مُبَلِّغٌ أُبَلِّغُكُم ما أُرسِلْتُ به إليكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ١٠٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: واتَّبِعْ، يا محمدُ، وحيَ الله الذي يُوحيه إليكَ، وتنزيلَهُ الذي ينزله عليكَ، فاعملْ به، واصبرْ على ما أصابكَ في الله من مشركي قومك من الأذى والمكاره، وعلى ما نَالكَ منهم، حتى يقضي الله فيهم وفيكَ أَمْرَهُ بفعلٍ فاصلٍ. «وهو خيرُ الحاكمين»، يقول: وهو خَيرُ القاضينَ وأعدلُ الفاصلين. فَحَكَمَ جَلَّ ثناؤُهُ بينه وبينهم يوم بَدْرٍ، وقتلهم بالسيفِ، وأمرَ نَبيَّهُ ﷺ فِيمَنْ بقيَ منهم أنْ يسلك بهم سبيلَ مَنْ أهلك منهم، أو يتوبوا ويُنيبوا إلى طاعته.

تَفْسِيرُ سُورَةِ هُودٍ

سورة هود

بسم الله الرحمن الرحيم

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾:

قد ذكرنا اختلافَ أهلِ التأويلِ في تأويل قوله: «الر»، والصواب من القولِ في ذلك عندنا بما أَغْنَى عن إعادتِه في هذا الموضع(١).

وقوله: «كتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُه»، يعني: هذا الكتابُ الذي أنزلَهُ الله على نبيهِ محمدٍ ﷺ، وهو القرآن.

وأما قوله: «أُحكمتْ آياته ثم فُصِّلَتْ»، فإنَّ أهلَ التأويل اختلفوا في تأويله.

فقال بعضهم: تأويله: أُحكمتْ آياتُه بالأمرِ والنهي، ثم فُصِّلَتْ بالثَّوابِ والعقاب.

وقال آخرون: معنى ذلك: «أُحكمت آياته»، من الباطلِ. «ثم فُصِّلَتْ»، فَبَيَّنَ منها الحلالَ والحرام.

وأَوْلى القولين في ذلك بالصوابِ، قولُ مَنْ قال: معناه: أَحْكَمَ اللهُ آياتِه من الدَّخَلِ والخَلَل والباطلِ، ثم فَصَّلها بالأمرِ والنهي.

وذلك أنَّ «إحكامَ الشيءِ»، إصلاحه وإتقانه، و«إحكامُ آياتِ القرآن»، إحكامُها من خَلَلٍ يكونُ فيها، أو باطلٍ يقدرُ ذُو زَيغٍ أنْ يطعنَ فيها من قِبَله.

---

(١) انظر أول تفسير سورة البقرة.

وأما «تفصيل آياته»، فإنه تمييزُ بعضِها من بعضٍ، بالبيانِ عَمَّا فيها من حلالٍ وحرام، وأمرٍ ونهي.

وكان بعضُ المفسرين يُفَسِّرُ قوله: «فُصِّلَتْ»، بمعنى: فُسِّرَتْ، وذلك نحو الذي قلنا فيه من القولِ.

وأما قوله: «من لَدُنْ حكيمٍ خبير»، فإنَّ معناه: «حكيم»، بتدبيرِ الأشياء وتقديرها. «خبير» بما تؤولُ إليه عواقبُها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ثم فُصِّلَتْ بأنْ لا تَعْبُدُوا إلاَّ الله وحده لا شريكَ له، وتخلعوا الآلهةَ والأندادَ. ثم قال تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ، يا محمدُ، للناسِ. «إنَّني لكم»، من عندِ الله «نذيرٌ» يُنْذِرُكُمْ عِقَابَهُ على معاصيهِ وعبادةِ الأصنام. «وبشير»، يُبَشِّرُكُمْ بالجزيلِ من الثوابِ على طاعته وإخلاصِ العبادةِ والألُوهَةِ له.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ثم فُصِّلَتْ آياتُه، بأنْ لا تعبدوا إلاَّ الله، وبأن استغفروا رَبَّكم. ويعني بقوله: «وأنِ استغفرُوا ربكم»، وأنِ اعملوا، أيها الناسُ، من الأعمالِ ما يُرْضي رَبَّكم عنكم، فيستر عليكم عظيمَ ذنوبكم التي ركبتموها بعبادَتِكُم الأوثانَ والأصنامَ، وإشراككم الآلهةَ والأندادَ في عبادتِه.

وقوله: «ثم تُوبوا إليه»، يقول: ثم ارجعوا إلى رَبِّكم بإخلاصِ العبادةِ له، دونَ ما سواه من سائرِ ما تعبدونَ من دونه، بعد خَلْعِكم الأندادَ، وبراءتكم من عبادتها، ولذلك قيل: «وأنِ استغفروا رَبَّكُم ثم توبوا إليه»، ولم يقل: «وتوبوا إليه»، لأنَّ «التوبةَ» معناها الرجوع إلى العملِ بطاعةِ الله، و«الاستغفار»، استغفارٌ من الشِّرْكِ الذي كانوا عليه مقيمينَ. والعملُ لله لا يكونُ عملاً له، إلا بعد تَرْكِ الشركِ به، فأما الشرك فإنَّ عمله لا يكون إلا للشيطان، فلذلك أمرهم الله تعالى ذِكْرُهُ بالتوبةِ إليه بعد الاستغفارِ من الشركِ، لأنَّ أهلَ الشركِ كانوا يَرَون أنهم يُطِيعون الله بكثيرٍ من أفعالهم، وهم على شِرْكِهم مقيمون.

وقوله: «يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجلٍ مسمى»، يقول تعالى ذِكْرُهُ للمشركينَ الذين خاطبهم بهذه الآيات: استغفروا ربكم ثم توبوا إليه، فإنكم إذا فعلتم ذلك بَسَطَ عليكم من الدنيا، ورَزَقكم من زِينتِهَا، وأنسأ لكم في آجالِكُمْ إلى الوقتِ الذي قضى فيه عليكم الموت.

وأما قوله: «ويُؤْتِ كُلَّ ذي فَضْلٍ فضله»، فإنه يعني: يُثِيبُ كُلَّ مَنْ تفضَّل بفضل مالهِ أو قوتِهِ أو معروفِهِ على غيرِه، مُحْتَسِباً بذلك، مُرِيداً به وجهَ الله أجزلَ ثوابه وفضله في الآخرة.

وقوله: «وإنْ تَوَلَّوْا فإني أخافُ عليكم عذابَ يومٍ كبير»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإنْ أعرضوا عما دَعَوْتهم إليه، من إخلاصِ العبادةِ لله، وتركِ عبادةِ الآلهةِ، وامتنعوا عن الاستغفارِ لله والتوبةِ إليه، فأدبروا مُوَلِّينَ عن ذلك. «فإني»، أيها القومُ، «أخافُ عليكم عذابَ يومٍ كبير»، شأنُه، عظيمٍ هَوْلُه، وذلك يوم تُجْزَى كُلُّ نفسٍ بما كسبت وهم لا يُظْلَمُون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «إلى الله»، أيها القومُ، مآبُكم ومصيركم، فاحذروا عقابَهُ إنْ توليتم عَمَّا أدعوكُمْ إليه من التوبةِ إليه من عبادتكم الآلهةَ والأصنامَ، فإنه مُخَلِّدُكُم نارَ جهنم إنْ هلكتم على شِرْكِكُمْ قبلَ التوبةِ إليه. «وهو على كُلِّ شيءٍ قدير»، يقول: وهو على إحيائكم بعد مماتكم، وعقابكم على إشراككم به الأوثانَ، وغير ذلك مما أرادَ بكم وبغيركم قادرٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾ ۞

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «ألا إنهم يثنون صدورهم»، يَحْنون صدورَهُم ويُكِنُّونها.

وكانوا يفعلون ذلك جهلاً منهم بالله أنه يَخْفَى عليه ما تُضْمِرُهُ نُفوسُهم، أو تَنَاجَوْهُ بينهم. فأخبرهم جَلَّ ثناؤُهُ أنه لا يَخْفَى عليه سِرُّ أمورهم وعلانيتها على أيِّ حالٍ كانـوا: تَغَشَّـوْا بالثياب، أو ظَهَرُوا بالبَرَاز[1]، فقال: «ألا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثيابهم»، يعني: يَتَغَشَّوْنَ ثيابهم، يتغطونها ويلبسون.

«يعلم ما يُسِرُّونَ»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: يعلمُ ما يُسِرُّ هؤلاء الجَهَلَةُ بربهم، الـظانُّـون أنَّ الله يَخْفَى عليه ما أضمرته صُدُورهم إذا حَنَوْهَا على ما فيها، وثنـوهـا، ومـا تَنَـاجَوْهُ بينهم فأخفوه. «وما يعلنون»، سواءٌ عنده سرائرُ عبادِه

(١) البراز: الفضاء البعيد الواسع، ليس فيه شجر ولا ستر.

وعلانيتهم. «إنه عليمٌ بذاتِ الصدور»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الله ذُو عِلْمٍ بكلِّ ما أخفَتْهُ صدورُ خَلْقِه، من إيمانٍ وكُفْرٍ، وحَقٍّ وباطل، وخيرٍ وشر، وما تَسْتَجِنُّهُ مما لم تُجِنَّه بعدُ. فاحذروا أنْ يَطَّلِعَ عليكم رَبُّكم وأنتم مُضْمِرُونَ في صُدُوركم الشَّكَّ في شيءٍ من توحيدِه، أو أمرِه أو نهيِه، أو فيما ألزمكم الإيمانَ به والتصديقَ، فتَهْلِكُوا باعتقادِكم ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «وما مِنْ دابَّةٍ في الأرض إلا على الله رِزْقُها»، وما تدبُّ دابَّةٌ في الأرض إلا ومن الله رِزْقُها الذي يَصِلُ إليها، هو بِهِ مُتَكَفِّلٌ، وذلك قُوتها وغِذاؤُها وما بِهِ عَيْشُها.

وقوله: «ويَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا»، حيثُ تستقرُّ فيه، وذلك مأواها الذي تأوي إليه ليلاً أو نهاراً. «ومستودعها» الموضع الذي يودعها، إما بموتِها، فيه، أو دَفْنِهَا.

ويعني بقوله: «كُلٌّ في كتابٍ مبين»، مُبَيِّنٍ عَدَدَ كُلِّ دابةٍ، ومَبْلَغَ أرزاقها، وقَدْرَ قرارها في مستقرّها، ومُدَّةَ لبثها في مستودعها. كُلُّ ذلك في كتابٍ عند الله مُثْبَتٍ مكتـوب. «مبين»، يُبَيِّنُ لمن قَرَأَهُ أنَّ ذلـك مثبتٌ مكتوبٌ قبل أنْ يخلقها ويوجدها.

وهذا إخبارٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ الذين كانوا يَثْنُونَ صُدورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا منه، أنه قد عَلِمَ الأشياءَ كُلَّها وأثبتها في كتابٍ عنده قبلَ أنْ يخلقَها ويُوجِدَهَا.

يقول لهم تعالى ذِكْرُهُ: فمن كان قد عَلِمَ ذلك منهم قبل أن يُوجِدَهُمْ، فكيفَ يَخْفَى عليه ما تنطوي عليه نفوسُهم إذا ثَنَوْا به صُدورَهُم، واستَغْشَوْا عليه ثيابهم؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: الله الذي إليه مَرْجِعُكم، أيها الناسُ، جميعاً «هو الذي خَلَقَ السمواتِ والأرضَ في ستةِ أيام»، يقول: أفيعجزُ مَنْ خَلَقَ ذلك من غير شيءٍ، أنْ يُعِيدكُمْ أحياءً بعد أنْ يُمِيتَكم؟

وقوله: «وكان عرشُه على الماء»، يقول: وكان عرشه على الماء قبل أنْ يَخْلقَ السمواتِ والأرض وما فيهن.

وقوله: «ليبلُوَكُمْ أيُّكُمْ أحسنُ عملاً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وهو الذي خلقَ السمواتِ والأرض، أيها الناسُ، وخلقكم في ستةِ أيام «ليبلوكم»، يقول: لِيَخْتَبِرَكُمْ. «أيكم أحسن عملاً»، يقول: أيكم أحسنُ له طاعةً.

وقوله: «ولئن قلتَ إنكم مبعوثونَ من بعدِ الموتِ ليقُولَنَّ الذين كفروا إنْ هذا إلا سحرٌ مبين»، يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: ولَئِنْ قُلتَ لهؤلاء المشركينَ من قومكَ: إنكم مبعوثونَ أحياءً من بعد مماتِكم! فتلوتَ عليهم بذلك تنزيلي ووحيي «ليقولن إنْ هذا إلا سِحْرٌ مبين»، أي: ما هذا الذي تَتْلُوهُ علينا مما تقولُ، إلا سحرٌ مبينٌ لسامعِه عن حقيقتِه أنه سحرٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٨﴾

يقـول تعـالى ذِكـرُهُ: ولئن أَخَّـرْنَا عن هؤلاءِ المشركينَ من قومكَ، يا

محمدُ، العذابَ فلم نُعَجِّلْهُ لهم، وأنْسَأْنا في آجالهم «إلى أمةٍ معدودة»، ووقتٍ محدود، وسنينَ معلومة.

وأصل «الأمة» ما قد بَيَّنَّا فيما مضى من كتابنا هذا، أنها الجماعةُ من الناسِ تجتمعُ على مذهبٍ ودين، ثم تُستعملُ في معانٍ كثيرة ترجع إلى معنى الأصل الذي ذكرتُ. وإنما قيل للسنين «المعدودة» والحِين، في هذا الموضع ونحوه: «أمة»، لأنَّ فيها تكونُ الأمة.

وإنما معنى الكلام: ولئن أَخَّرْنَا عنهم العذابَ إلى مجيء أمةٍ وانقراضِ أُخرى قَبْلَها.

وقولـه: «ليقـولُنَّ ما يَحْبِسُه»، يقول: «ليقولن»، هؤلاء المشركون «ما يحبسه»، أيُّ شيءٍ يمنعهُ من تعجيلِ العذابِ الذي يَتَوَعَّدُنَا به؟ تكذيباً منهم به، وظَنًّا منهم أنَّ ذلك إنَّما أُخِّرَ عنهم لكذبِ المتوعِّد.

وقوله: «أَلَا يومَ يأتيهم ليس مصروفاً عنهم»، يقول تعالى ذِكْرُهُ، تحقيقاً لوعيدِه، وتصحيحاً لخبرِه: «ألا يومَ يأتيهم»، العذابُ الذي يُكَذِّبُونَ به. «ليس مصروفاً عنهم»، يقول: ليس يَصْرِفُه عنهم صارِفٌ، ولا يدفعه عنهم دافعٌ، ولكنه يحلُّ بهم فيهلكهم. «وحاقَ بهم ما كانوا به يستهزئون»، يقول: ونَزَلَ بهم وأصابَهم الذي كانوا يسخرون من عذابِ الله. وكان استهزاؤهُم به الذي ذَكَرَهُ الله، قِيلُهُمْ قبلَ نزوله. «ما يحبسه»، و«هَلَّا تأتينا به»؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولئنْ أذَقنا الإنسان منّا رخاءً وسَعَةً في الرزقِ والعيش، فبسطنا عليه من الدنيا وهي «الرحمة» التي ذكرها الله تعالى ذِكْرُهُ في هذا

الموضع. «ثم نزعناها منه»، يقول: ثم سَلَبْنَاهُ ذلك، فأصابته مصائبُ أجاحَتْهُ فذهبتْ به. «إنه لَيَؤُسٌ كَفُور»، يقول: يظل قَنِطاً من رحمةِ الله، آيساً من الخير.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولئنْ نحن بسطنا للإنسانِ في دنياه، ورزقناه رخاءً في عيشه، ووسَّعْنا عليه في رزقه، وذلك هي النِّعم التي قال الله جَلَّ ثناؤُهُ: «ولئن أذقناه نعماء». وقوله: «بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ»، يقول: بعد ضيقٍ من العيشِ كان فيه، وعسرةٍ كان يعالجها. «ليقولنَّ ذَهبَ السيئاتُ عني»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ليقولنَّ عند ذلك: ذهبَ الضيقُ والعسرةُ عني، وزالتِ الشدائدُ والمكاره. «إنه لَفرِحٌ فَخُور»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الإنسانَ لَفرِحٌ بالنعم.

ثم استثنى جَلَّ ثناؤُهُ من الإنسان الذي وَصَفهُ بهاتين الصفتين: «الذين صَبَرُوا وعملوا الصالحاتِ»، وإنما جازَ استثناؤُهم منه، لأنَّ «الإنسانَ»، بمعنى الجنس، ومعنى الجمع، وهو كقوله: ﴿وَالْعَصْرِ * إنَّ الإنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر: ١-٣]، فقال تعالى ذِكْرُهُ: «إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات»، فإنهم إنْ تَأْتِهم شِدَّةٌ من الدنيا وعسرةٌ فيها، لم يَثْنِهِمْ ذلك عن طاعةِ الله، ولكنهم صبروا لأمره وقضائه. فإنْ نالوا فيها رخاءً وسَعَةً، شكروهُ وأدَّوْا حُقوقَهُ بما آتاهم منها. يقول الله: «أولئك لهم مغفرةٌ»، يغفرها لهم، ولا يَفْضَحُهم بها في مَعَادِهم. «وأجرٌ كبير»، يقول: ولهم من الله مع مغفرةِ ذنوبِهم، ثوابٌ على أعمالهم الصالحةِ التي عملوها في دار الدنيا، جزيلٌ، وجزاءٌ عظيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: فَلَعَلَّكَ، يا محمدُ، تَارِكُ بعضَ ما يُوحِي إليكَ رَبُّكَ أنْ تُبَلِّغَهُ مَنْ أمرَكَ بتبليغِه ذلك، وضائقٌ بما يُوحي إليك صدرُكَ، فلا تبلغه إياهم، مخافةَ أنْ يقولوا: «لولا أُنزلَ عليه كَنْزٌ أو جاءَ معه مَلَكٌ»، له مُصَدِّقٌ بأنه لله رسولٌ! يقول تعالى ذِكْرُهُ: فَبَلِّغْهُمْ ما أوحيتُه إليكَ، فإنك إنما أنتَ نذيرٌ تُنْذرهُمْ عِقابي، وتُحَذِّرهُمْ بأسي على كفرهم بي، وإنما الآياتُ التي يسألونَكَهَا عندي وفي سلطاني، أُنزِلُهَا إذا شِئْتُ، وليسَ عليك، إلا البلاغُ والإنذارُ. «والله على كُلِّ شيءٍ وكيل»، يقول: والله القَيِّمُ بكلِّ شيءٍ، وبيدِه تدبيرُه، فانْفُذْ لما أَمَرْتُكَ به، ولا تمنعكَ مسألتهم إياكَ الآياتِ من تبليغِهم وَحْيِي، والنفوذ لأمري.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: كفاكَ حجةً على حقيقةِ ما أَتَيْتَهُمْ به، ودلالةً على صحةِ نبوَّتِكَ، هذا القرآنُ، من سائرِ الآياتِ غيره، إذْ كانت الآياتُ إنما تكون لمن أُعطيها دلالةً على صِدْقِه، لعجزِ جميعِ الخَلْقِ عن أنْ يأتوا بمثلها. وهذا القرآنُ، جميعُ الخَلْقِ عَجَزَةٌ عن أنْ يأتوا بمثله، وإنْ هم قالوا «افتريته»، أي: اخْتَلَقْتَهُ وتكذَّبْتَهُ.

ودلَّ على أنَّ معنى الكلامِ ما ذكرنا، قوله: «أم يقولون افتراهُ» إلى آخرِ الآية. ويعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «أم يقولون افتراه»، أي: أيقولون افتراه؟

فقل لهم يَأْتُوا بعشر سُورٍ مثل هذا القرآن. «مُفْتَرَياتٍ»، يعني: مُفْتَعَلاتٍ مُخْتَلَقاتٍ، إنْ كان ما أَتيتُكُم به من هذا القرآن مفترىً، وليس بآيةٍ معجزةٍ كسائر ما سُئِلْتُه من الآياتِ، كالكنز الذي قُلْتُمْ هَلَّا أُنزلَ عليه؟ أو المَلَكِ الذي قلتم: هَلَّا جاء معه نذيراً له مُصَدِّقاً؟ فإنكم قومي، وأنتم من أهلِ لساني، وأنا رجلٌ منكم، ومحالٌ أنْ أقدرَ أخلق وحدي مئةَ سورةٍ وأربعَ عشرة سورة، ولا تقدروا بأجْمَعِكُمْ أن تَفْتَروا وتختلقُوا عشرَ سورٍ مِثْلِهَا، ولا سيما إذا استعنتم في ذلك بمن شئتم من الخَلْقِ.

يقول جَلَّ ثناؤُهُ، قل لهم: وادْعُوا مَنِ استطعتم أنْ تدعوهم من دون الله ـ يعني سوى الله ـ لافتراءِ ذلك واختلاقِه من الآلهة. فإنْ أنتم لم تقدروا على أنْ تفتروا عشرَ سورٍ مثله، فقد تَبيَّنَ لكم أنكم كَذَبةٌ في قولكم: «افتراهُ»، وصَحَّتْ عندكم حقيقةُ ما أتيتُكُمْ به أنه من عندِ الله. ولم يكن لكم أنْ تَتَخَيَّرُوا الآياتِ على رَبِّكم، وقد جاءكم من الحُجَّةِ على حقيقةِ ما تكذبونَ به أنه من عندِ الله، مثل الذي تسألونَ من الحجة، وترغبونَ أنكم تصدِّقون بمجيئها.

وقوله: «إن كنتم صادقين»، لقوله: «فَأْتُوا بعشر سورٍ مثله»، وإنما هو: قُلْ فأتوا بعشر سورٍ مِثْلِه مُفْتَرياتٍ، إنْ كنتم صادقين أنَّ هذا القرآنَ افتراهُ محمدٌ وادْعُوا مَنِ استطعتم من دون الله على ذلك، من الآلهةِ والأنداد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه: قُلْ، يا محمدُ، لهؤلاءِ المشركينَ: فإن لم يستجبْ لَكُمْ مَنْ تَدْعُونَ من دونِ الله إلى أنْ يأتوا بعشرِ سورٍ مثلِ هذا القرآنِ مُفترياتٍ، ولم تُطيقُوا أنتم وهُمْ أنْ تأتوا بذلك، فاعْلَمُوا وأيقِنُوا أنه إنما أُنزلَ

من السماء على محمد ﷺ بعلمِ الله وإذنِه، وأنَّ محمداً لم يَفْتَرِه، ولا يقدرُ أنْ يفتريه. «وأنْ لا إلهَ إلاَّ هُوَ»، يقول: وأيقِنُوا أيضاً أنْ لا معبودَ يستحقُّ الأُلوهةَ على الخلقِ إلا الله الذي له الخَلْقُ والأمر، فاخلعوا الأندادَ والآلهةَ، وأفردوا له العبادةَ.

وقد قيل إن قوله: «فإنْ لم يَستجيبُوا لكم»، خِطابٌ من الله لنبيه، كأنه قال: فإنْ لم يستجبْ لكَ هؤلاء الكفار، يا محمدُ، فاعلموا، أيها المشركونَ، أنَّما أُنزلَ بعلمِ الله ـ وذلك تأويلٌ بعيدٌ من المفهوم.

وقولـه: «فهل أنتم مسلمون»، يقول: فهل أنتم مُذْعِنونَ لله بالطاعةِ، ومُخْلِصُونَ له العبادةَ، بعد ثبوتِ الحجةِ عليكم؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُهُ: مَنْ كان يُريدُ بعملِه الحياةَ الدنيا، وإيَّاها وَزِينتها يطلبُ به، نُوَفِّ إليهم أُجورَ أعمالِهم فيها وثوابها. «وهم فيها»، يقول: وهُمْ في الدنيا «لا يُبْخَسون»، يقول: لا يُنْقَصُونَ أجرَهَا، ولكنهم يُوَفَّوْنَهُ فيها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٦﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُهُ: هؤلاء الذين ذكرتُ أنَّا نُوفِّيهم أجورَ أعمالِهم في الـدنيا. «ليس لهم في الآخرةِ إلا النارُ»، يَصْلَوْنَها «وحَبِطَ ما صنعوا فيها»، يقـول: وذهبَ ما عَمِلُوا في الـدنيا. «وباطلٌ ما كانوا يعملون»، لأنهم كانوا يعملونَ لغيرِ الله، فأبطله الله وأحبطَ عامِلَهُ أَجْرَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «أَفَمَنْ كان على بَيِّنَةٍ من رَبِّه»، قد بَيَّنَ له دينه، فَتَبَيَّنَهُ. «ويَتْلُوهُ شاهدٌ منه»، هو جِبْريل.

وأما قوله: «إماماً»، فإنه نَصبٌ على القطع[1] من «كتاب موسى»، وقوله: «ورحمة»، عطفٌ على «الإمام»، كأنه قيل: ومِنْ قَبْلِه كتابُ موسى إماماً لبني إسرائيل يَأْتَمُّونَ به، ورحمةً من الله تلاه على موسى.

وفي الكلام محذوفٌ، قد تركَ ذِكْرُه اكتفاءً بدلالةِ ما ذكر عليه منه، وهو: «أفمنْ كان على بينـةٍ من رَبِّه ويتلوهُ شاهدٌ منه ومِنْ قَبْلِه كتابُ موسى إماماً ورحمـةً»، «كَمَنْ هو في الضلالةِ مترددٌ لا يهتدي لرشدٍ، ولا يعرفُ حقًّا من باطلٍ، ولا يطلبُ بعملِه إلا الحياةَ الدنيا وزينتها». وذلك نظير قوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]. والدليلُ على حقيقة ما قلنا في ذلك أنَّ ذلكَ عقيبَ قوله: «مَنْ كان يريدُ الحياة الدنيا»، الآية، ثم قيل: أَهَذا خيرٌ، أَمَّنْ كان على بَيِّنَةٍ من ربه؟

وقوله: «أولئك يؤمنون به»، يقول: هؤلاء الذين ذكرتُ، يُصَدِّقُون ويُقِرُّونَ به، إنْ كفرَ به هؤلاء المشركونَ الذين يقولون: إنَّ محمداً افتراه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾

(١) القطع: الحال.

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومَنْ يَكْفُرْ بهذا القرآنِ، فيجحد أنه من عندِ الله. «من الأحزاب»، وهم المُتَحَزِّبة على مِلَلِهِم. «فالنارُ مَوْعِدُه»، أنه يصيرُ إليها في الآخرةِ بتكذيبه. يقولُ الله لنبيه محمدٍ ﷺ: «فلا تَكُ في مِرْيةٍ منه»، يقول: فلا تَكُ في شكٍ منه، من أنَّ مَوْعِدَ مَنْ كفرَ بالقرآنِ من الأحزابِ النارُ، وأنَّ هذا القرآنَ الذي أنزلناه إليك من عند الله.

ثم ابتدأ جَلَّ ثناؤُهُ الخبرَ عن القرآنِ فقال: إنَّ هذا القرآنَ الذي أنزلناهُ إليك، يا محمدُ، الحقُّ من رَبِّكَ لا شكَّ فيه، ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يُصَدِّقُونَ بأن ذلك كذلك.

فإن قال قائل: أوَ كان النبيُّ ﷺ في شَكٍّ من أنَّ القرآنَ من عندِ الله، وأنه حَقٌّ، حتى قيل له: «فلا تَكُ في مِرْيةٍ منه»؟

قيل: هذا نظيرُ قولـه: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٩٤]، وقد بَيَّنَّا ذلك هناك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأيُّ الناسِ أشَدُّ تعذيباً مِمَّنْ اختلقَ على الله كَذِباً فكذبَ عليه؟. «أولئك يُعْرَضُونَ على رَبِّهم ويقول الأشهادُ هؤلاء الذين كَذَبُوا على ربهم» يُعْرَضُونَ يومَ القيامةِ على رَبِّهم، فيسألهم عما كانوا في دار الدنيا يعملون.

وقولـه: «ويقـولُ الأشهـادُ»، يعني: الملائكةُ والأنبياءُ الذين شَهِدُوهم وحَفِظُوا عليهم ما كانوا يَعملونَ، وهم جمع «شاهد»، مثل «الأصحاب»، الذي

هو جمع «صاحب». «هؤلاء الذين كَذَبُوا على رَبِّهم»، يقول: شَهِدَ هؤلاء الأشهادُ في الآخرةِ، على هؤلاء المفترينَ على الله في الدنيا، فيقولون: هؤلاء الذين كَذَبُوا في الدنيا على رَبِّهم. يقول الله: «ألا لعنةُ الله على الظالمين»، يقول: ألَا غَضَبُ الله على المعتدينَ الذين كفرُوا بربِّهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ألا لعنةُ الله على الظَّالمينَ الذين يَصُدُّونَ الناسَ عن الإيمانِ به، والإقرارِ له بالعبودةِ، وإخلاصِ العبادةِ له دونَ الآلهةِ والأندادِ، من مشركي قريش، وهم الذين كانوا يفتنون عن الإسلامِ مَنْ دخلَ فيه. «ويَبْغُونَها عِوَجاً»، يقول: ويَلتمسونَ سبيلَ الله، وهو الإسلامُ الذي دَعَا الناسَ إليه محمدٌ، يقول: زَيْغاً ومَيْلاً عن الاستقامةِ. «وهم بالآخرة هم كافرون»، يقول: وهم بالبعثِ بعدَ المماتِ، مع صَدِّهم عن سبيلِ الله، وبغيهم إياها عوجاً «كافرون»، يقول: هم جاحدونَ ذلك منكرون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُولَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ٢٠﴾

يعني جَلَّ ثناؤهُ بقوله: «أولئك لم يكونوا مُعْجزينَ في الأرضِ»، هؤلاء الذينَ وصفَ جَلَّ ثناؤهُ أنهم يَصُدُّونَ عن سبيلِ الله، يقول جَلَّ ثناؤهُ: إنهم لم يكونوا بالذين يُعْجِزونَ رَبَّهم بهربهم منه في الأرضِ إذا أرادَ عِقابهم والانتقامَ منهم، ولكنهم في قَبْضَتِه وملكِه، لا يمتنعونَ منه إذا أرادَهُمْ، ولايفوتونه

هَرَباً إذا طلبهم. «وما كان لهم من دونِ الله من أولياء»، يقول: ولم يكن لهؤلاء المشركينَ إذا أرادَ عِقَابَهُمْ من دونِ الله، أنصارٌ ينصرونَهُم من الله، ويَحُولُونَ بينهم وبينه إذا هو عَذَّبَهُمْ، وقد كانتِ لهم في الدنيا مَنْعَةٌ يمتنعونَ بها مِمَّنْ أرادَهم من الناسِ بسوءٍ، وقوله: «يُضَاعَف لَهُمُ العذابُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: يُزادُ في عذابهم، فَيُجْعَلُ لهم مكان الواحد اثنان.

وقوله: «ما كانوا يَستطيعونَ السمعَ وما كانوا يُبْصِرُون»، ذلكَ وصَفَ الله به هؤلاء المشركينَ، أنه قد خَتَمَ على سَمْعِهم وأبصارهم، وأنهم لا يسمعونَ الحقَّ، ولا يُبصرونَ حُججَ الله، سَمَاعَ مُنْتَفعٍ، ولا إبصارَ مهتدٍ، لاشتغالهم بالكفر الذي كانوا عليه مقيمين، عن استعمالِ جوارِحهم في طاعةِ الله، وقد كانت لهم أسماعٌ وأبصار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: هؤلاء الذينَ هذه صِفَتُهم، هُمُ الذين غَبَنُوا أنفسَهُم حُظوظَها من رحمةِ الله. «وضَلَّ عنهم ما كانوا يفترون»، وَبَطَلَ كَذِبُهم وإفْكُهم وفِرْيَتُهم على الله، بادِّعائِهم له شركاءَ، فسلكَ ما كانوا يدعونه إلهاً من دونِ الله غيرَ مَسْلَكِهم، وأخذَ طريقاً غيرَ طريقِهم، فضَلَّ عنهم، لأنه سلكَ بهم إلى جهنَمَ، وصارتْ آلهتُهم عَدَماً لا شيء، لأنها كانتْ في الدنيا حجارةً أو خشباً أو نحاساً ـ أو كان لله وليًّا فسلكَ به إلى الجنة. وذلك أيضاً غير مَسْلَكِهم، وذلك أيضاً ضلالٌ عنهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: حقًّا إنَّ هؤلاءِ القوم الذين هذه صِفَتُهم في الدنيا وفي الآخرة هم الأخسرونَ الذين قد باعوا منازلهم من الجِنانِ، بمنازلِ أهلِ الجنة من النارِ، وذلك هو الخسرانُ المبين.

وقد بيَّنَّا فيما مضى أنَّ معنى قولهم: «جرَمتُ»، كسبتُ الذنبَ، و«جرمته»، وأنَّ العربَ كثُرَ استعمالُها إياهُ في مواضع الأيمان، وفي مواضع «لابُدَّ»، كقولهم: «لا جَرَمَ أنك ذاهبٌ»، بمعنى: «لابُدَّ»، حتى استعملوا ذلك في مواضعِ التحقيق، فقالوا: «لَا جَرَمَ لَتَقُومَنَّ»، بمعنى: حَقًّا لتقومن[1]. فمعنى الكلام: لا مَنْعَ عن أنَّهم، ولا صَدَّ عن أنهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الذين صَدَّقُوا الله ورسولَهُ، وعملوا في الدنيا بطاعة الله. «وأَخْبَتُوا إلى ربهم».

واختلف أهلُ التأويل في معنى «الإخبات»:

فقال بعضهم: معنى ذلك: وأنَابُوا إلى رَبِّهم.

وقال آخرون: معنى ذلك: وخَافُوا.

وقال آخرون: معناه: اطْمَأَنُّوا.

وقال آخرون: معنى ذلك: خَشَعُوا.

وهذه الأقوالُ متقاربةُ المعاني، وإنْ اختلفتْ ألفاظها، لأنَّ الإنابةَ إلى الله من خوفِ الله، ومن الخشوعِ والتواضعِ لله بالطاعةِ، والطمأنينة إليه من

(١) انظر معاني القرآن للفرَّاء: ٢/٨-٩ فهذه المعاني فيه.

الخشوع له، غير أنَّ نَفْسَ «الإخباتِ»، عند العربِ: الخشوع والتواضع.

وقوله: «أولئك أصحابُ الجنةِ هم فيها خالدون»، يقول: هؤلاء الذين هذه صِفَتُهم، هم سكانُ الجنةِ الذين لا يخرجُونَ عنها، ولا يموتونَ فيها، ولكنهم فيها لابثُون إلى غيرِ نهاية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٢٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: مَثَلُ فريقي الكفرِ والإيمانِ، كَمثلِ الأعمى الذي لا يرى بعينه شيئاً، والأصمّ الذي لا يسمعُ شيئاً، فذلك فريقُ الكفرِ لا يبصرُ الحَقَّ فيتبعه ويعمل به، لشغله بكفرِهِ باللهِ، وغَلَبَةِ خذلانِ اللهِ عليه، لا يسمعُ داعيَ اللهِ إلى الرشاد، فيجيبه إلى الهدى فيهتدي به، فهو مقيمٌ في ضلالته، يتردَّدُ في حيرته. والسميع والبصير فذلك فريق الإيمان، أبصرَ حججَ اللهِ، وأقرَّ بما دلَّتْ عليه من توحيدِ اللهِ، والبراءة من الآلهةِ والأندادِ، ونبوةِ الأنبياءِ عليهمُ السلام، وسمعَ داعيَ اللهِ فأجابَهُ، وعمِلَ بطاعةِ اللهِ.

يقـول تعالى: «هل يستويان مَثَلًا»، يقول: هل يستوي هذانِ الفريقانِ على اختلافِ حَالَتَيْهِمَا في أنفسهما عندكم، أيها الناسُ؟ فإنهما لا يستويانِ عندكم، فكذلك حالُ الكافرِ والمؤمنِ لا يستويان عندَ اللهِ. «أفلا تَذَكَّرُونَ»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: أفلا تعتبرونَ، أيها النَاسُ، وتتفكَّرُونَ، فتعلموا حقيقةَ اختلافِ أمريهما، فتنزجِرُوا عما أنتم عليه من الضلالِ إلى الهدى، ومن الكفرِ إلى الإيمانِ؟

فالأعمى والأصم، والبصير والسميع، في اللفظ أربعـة، وفي المعنى اثنان. ولذلك قيل: «هل يستويانِ مثلاً».

وقيل: «كالأعمى والأصم»، والمعنى: كالأعمى الأصمِّ. وكذلك قيل:

«والبصير والسميع»، والمعنى: البصير السميع، كقولِ القائلِ: «قام الظريفُ والعاقلُ»، وهو ينعت بذلك شخصاً واحداً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومِه: إني لكم، أيها القومُ، نَذيرٌ من الله، أُنذرُكُمْ بأسَه على كُفْرِكُمْ به، فآمنوا به وأطيعوا أمره.

ويعني بقوله: «مبين»، يُبَيِّنُ لكم عمَّا أُرسِلَ به إليكم من أمرِ الله ونَهيِهِ.

ويعني بقوله: «أنْ لا تعبدُوا إلا الله»، أي اتركُوا عبادةَ الآلهةِ والأوثانِ، وإشراكَهَا في عبادَتِه، وأفْرِدُوا الله بالتوحيدِ، وأخْلِصُوا له العبادةَ، فإنه لا شريكَ له في خَلْقِه.

وقوله: «إني أخافُ عليكم عذابَ يومٍ أليم»، يقول: إني، أيها القومُ، إنْ لم تخصُّوا الله بالعبادةِ، وتُفْرِدُوه بالتوحيدِ، وتَخْلَعُوا ما دونَهُ من الأندادِ والأوثان ـ أخافُ عليكم من الله عذابَ يومٍ مؤلمٍ عِقَابُه وعذابُه لمن عُذِّب فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فقال الكُبَرَاءُ من قومِ نوحٍ وأشرافِهم ـ وهم «الملأ» ـ الذين كَفَرُوا بالله وجَحَدُوا نبوَّةَ نبيهم نوحٍ عليه السلام. «ما نراك»، يا نوحُ، «إلا بشراً مثلنا»، يَعْنُونَ بذلك: أنه آدميٌّ مِثْلُهم في الخَلْق والصُّورةِ والجِنْس،

كأنهم كانوا مُنكرينَ أنْ يكونَ الله يرسلُ من البشرِ رسولاً إلى خَلْقِه.

وقوله: «وما نَراكَ اتَّبعك إلَّا الذين هم أراذِلُنا بادِيَ الرأي»، يقول: وما نراك اتبعكَ إلا الذين هم سِفْلَتُنا من الناسِ، دونَ الكُبراءِ والأشرافِ، فيما نَرى ويظهر لنا.

وقوله: «وما نَرى لكم علينا من فَضْلٍ»، يقول: وما نَتَبَيَّنُ لكم علينا من فضلٍ نِلْتُموهُ بمخالفتكم إيانا في عبادةِ الأوثانِ، إلى عبادةِ الله وإخلاصِ العُبودةِ له، فنتبعكم طَلَبَ ذلك الفضلِ، وابتغاءَ ما أَصَبْتُموه بخلافِكم إيانا. «بل نَظُنُّكُمْ كاذبين».

وهذا خطاب منهم لنوحٍ عليه السلام، وذلك أنهم إنما كَذَّبوا نوحاً دونَ أتباعِه، لأنَّ أتباعَهُ لم يكونوا رُسلاً. وأخرجَ الخطابَ وهو واحدٌ مخرجَ خطابِ الجميع، كما قيل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [الطلاق: ١].

وتأويلُ الكلام: بل نَظُنُّكَ، يا نوحُ، في دَعْواكَ أنَّ الله ابتعثك إلينا رسولاً، كاذباً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ، مُخْبِراً عن قِيلِ نوحٍ لقومهِ إذْ كَذَّبُوه، ورَدُّوا عليه ما جاءهم به من عندِ الله من النصيحة: «يا قومِ أرأيتم إنْ كنتُ على بينةٍ من ربي»، على عِلْمٍ ومعرفةٍ وبيانٍ من الله لي ما يلزمني له، ويجبُ عليَّ من إخلاصِ العبادةِ له، وتركِ إشراكِ الأوثانِ معه فيها. «وآتاني رحمةً من عنده»، يقول: ورزقني منه التوفيقَ والنبوَّةَ والحِكْمَةَ، فآمنتُ به وأطَعْتُه فيما أمرني ونهاني. «فعُمِّيَتْ عليكم».

وهذه الكلمة مما حَوَّلَتِ العربُ الفعلَ عن مَوْضِعه. وذلك أنَّ الإنسانَ هو الذي يَعْمَى عن إبصارِ الحقِّ، إذْ يَعْمَى عن إبصاره. و«الحق»، لا يُوصَفُ بالعَمَى، إلا على الاستعمالِ الذي قد جرى به الكلامُ. وهو في جوازه لاستعمالِ العربِ إياه، نظيرُ قولهم: «دخل الخاتم في يدي، والخفُّ في رِجلي»، ومعلومٌ أنَّ الرِّجْلَ هي التي تدخلُ في الخفِّ، والإصبع في الخاتمِ، ولكنهم استعملوا ذلك كذلك، لما كان معلوماً المرادُ فيه.

وقوله: «أَنُلْزِمُكُمُوهَا وأنتم لها كارهون»، يقول: أَنَأْخُذُكُمْ بالدخولِ في الإسلامِ، وقد عَمَّاهُ الله عليكم. «وأنتم لها كارهون»، يقول: وأنتم لإلْزَامِنَاكُمُوهَا. «كارهون»، يقول: لا نفعلُ ذلك، ولكن نَكِلُ أمْرَكُمْ إلى الله، حتى يكونَ هو الذي يقضي في أمركم ما يرى ويشاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾

وهذا أيضاً خَبَرٌ من الله عن قِيلِ نوحٍ لقومه، أنه قال لهم: يا قومِ لا أسألكم على نصيحتي لكم، ودعايتكم إلى توحيدِ الله وإخلاصِ العبادةِ له، مالاً، أجراً على ذلك، فَتَتَّهِمُوني في نصيحتي، وتظنون أنَّ فِعلي ذلك طلبُ عَرَضٍ من أعراضِ الدنيا. «إنْ أجريَ إلاَّ على الله»، يقول: ما ثوابُ نصيحتي لكم، ودعايتكم إلى ما أدْعُوكُمْ إليه، إلاَّ على الله، فإنه هو الذي يجازيني ويثيبني عليه. «وما أنا بطاردِ الذينَ آمنوا»، وما أنا بمقصٍ مَنْ آمنَ بالله، وأقَرَّ بوحدانيتِه، وخَلَعَ الأوثانَ وتبرأ منها، بأن لم يكونوا من عِلْيَتِكُمْ وأشرافِكُمْ. «إنهم ملاقو ربهم»، يقول: إنَّ هؤلاء الذين تسألوني طَرْدَهُمْ، صائرونَ إلى الله، والله سائِلُهم عَمَّا كانوا في الدنيا يعملون، لا عن شَرَفِهم وحَسَبِهم.

وقوله: «ولكني أراكم قوماً تجهلون»، يقول: ولكني، أيها القومُ، أراكم قوماً تجهلونَ الواجبَ عليكم من حَقِّ الله، واللازم لكم من فرائضِه. ولذلك من جَهْلِكُمْ سألتموني أنْ أطردَ الذين آمنوا بالله.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣٠﴾

يقول: ويا قوم مَنْ يَنْصُرني فيمنعني من الله، إنْ هو عاقبني على طردي المؤمنينَ الموحِّدِينَ الله، إنْ طَردتُهم؟ «أفلا تَذَكَّرُونَ»، يقول: أفلا تتفكرونَ فيما تقولونَ، فتعلمونَ خَطأَهُ، فَتَنْتَهُوا عنه؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٣١﴾

وقوله: «ولا أقولُ لكم عندي خزائنُ الله»، عطفٌ علي قوله: «ويا قومِ لا أسألكم عليه أجراً».

ومعنى الكلام: «ويا قومِ لا أسألكم عليه أجراً»، «ولا أقولُ لكم عندي خزائنُ الله»، التي لا يُفْنِيها شيءٌ، فأدعوكم إلى اتباعي عليها، ولا أعلمُ أيضاً الغيبَ - يعني: ما خَفِيَ من سرائرِ العباد، فإنَّ ذلك لا يعلمهُ إلا الله - فأدَّعي الربوبيةَ، وأدعوكم إلى عبادتي. ولا أقولُ أيضاً: إني مَلَكٌ من الملائكةِ أُرسلتُ إليكم، فأكون كاذباً في دعوايَ ذلك، بل أنا بَشَرٌ مثلكم كما تقولونَ، أُمرتُ بدعائِكم إلى الله، وقد أَبْلغتُكُمْ ما أُرسلتُ به إليكم. «ولا أقولُ للذين تَزْدَري أعينُكم لَنْ يُؤْتِيهُم الله خيراً»، يقـول: ولا أقـولُ للذين اتبعـوني وآمنـوا بالله

ووحَّـدُوه، الذي تَسْتَحْقِرُهُمْ أعينُكم، وقلتم: إنهم أراذلُكم. «لن يؤتيهُم الله خيراً»، وذلـك الإيمانُ بالله. «الله أعلمُ بما في أنفسهم»، يقول: الله أعلمُ بضمائرِ صُدُورهم، واعتقادِ قلوبهم، وهو وليُّ أمْرِهم في ذلك، وإنما لي منهم ما ظهرَ وبَدَا، وقد أظهرُوا الإيمانَ بالله واتبعوني، فلا أطردهم ولا أستحلُّ ذلك. «إني إذاً لمن الظالمين»، يقول: إنِّي إنْ قلتُ لهؤلاء الذين أظهروا الإيمانَ بالله وتصـديقي: «لن يؤتيهم الله خيراً»، وقضيتُ على سرائرهم بخلافِ ما أبْدَتْهُ ألسنتهم لِي، على غيرِ علمٍ منِّي بما في نفوسهم، وطردتهم بفعلي ذلك، لَمِنَ الفاعلينَ ما ليسَ لهم فِعْلُه، المعتدينَ ما أمرهم الله به، وذلك هو «الظلم».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُهُ: قال قومُ نوحٍ لنوحٍ عليه السلام: قد خَاصَمْتَنا فأكثـرتَ خُصـومتنـا، فَأْتِنَـا بمـا تعدنا من العذاب، إنْ كنتَ من الصادقين في عِدَاتِكَ ودَعْواكَ أنكَ لله رسولٌ. يعني بذلك: أنه لَنْ يقدرَ على شيءٍ من ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال نوحُ لقومِه، حين استعجلوهُ العذابَ: يا قومِ، ليسَ الذي تستعجلونَ من العذابِ إليَّ، إنما ذلك إلى الله لا إلى غيره، هو الذي يأتيكم به إنْ شاء. «وما أنتم بمعجزين»، يقول: ولستم إذا أرادَ تعذيبكم. بِمُعْجِزيه. أي: بفائتيه هرباً منه. لأنكم حيثُ كنتم في مُلْكِه وسُلطانِه وقُدْرتِه.

حُكْمُـهُ عليكم جَارٍ. «ولا ينفعكم نُصحي»، يقـول: ولا ينفعكم تحـذيري عقوبتَهُ، ونزول سطوتِه بكم على كُفْرِكم به. «إنْ أردتُ أنْ أنصحَ لكم»، في تحـذيري إياكـم ذلـك، لأنَّ نُصحـي لا ينفعكم، لأنكم لا تقْبلُونَـه. «إنْ كان الله يُريدُ أنْ يُغْوِيَكُمْ»، يقول: إنْ كان الله يريدُ أنْ يهلككم بعذابه. «هو رَبُّكم وإليه تُرجعون»، يقول: وإليه تُرَدُّونَ بعدَ الهلاك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أيقولُ، يا محمدُ، هؤلاء المشركونَ من قومكَ: افترى محمـدٌ هذا القـرآن؟ وهـذا الخبرُ عن نوحٍ؟ قُلْ لهم: إنِ افتريتُه فَتَخَرَّصْتُه واخْتَلَقْتُـه. «فعليَّ إجرامي»، يقول: فعليَّ إثمي في افترائي ما افتريتُ على رَبِّي، ودونَكم، لا تُؤاخذُونَ بذنبي ولا إثمي. ولا أُؤاخَذُ بذنبكم. «وأنا بريءٌ مما تُجْرِمُون»، يقول: وأنا بريءٌ مما تذنبون وتأثَمون بربكم. من افترائِكم عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأوحَى الله إلى نوحٍ، لَمَّا حَقَّ على قومِه القولُ، وأظلَّهم أمرُ الله: أنه لَنْ يُؤمِنَ، يا نوحُ، بالله فيوحِّده، ويتبعكَ على ما تَدْعُوه إليه. «من قومكَ إلاَّ مَنْ قَدْ آمنَ»، فَصَدَّقَ بذلك واتَّبَعَكَ. «فلا تبتئس»، يقول: فلا تَسْتَكِنْ ولا تَحْزَنْ. «بما كانوا يفعلون»، فإني مُهْلِكُهم، ومُنْقِذُكَ منهم ومَنِ

اتَّبعكَ. وأوحى الله ذلك إليه، بعدما دَعَا عليهم نوحٌ بالهلاكِ فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ [نوح: ٢٦].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ۝٣٧﴾

قال أبو جعفر.

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأوحي إليه أنه لنْ يؤمنَ من قومكَ إلا مَنْ قد آمن، وأنِ «اصنع الفلك»، وهو السفينةُ.

وقوله: «بأعيننا»، يقول: بعينِ الله ووحيِهِ كما يأمركَ.

وقوله: «ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مُغْرَقُون»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولا تسألني في العفوِ عن هؤلاءِ الذين ظَلَمُوا أنفسهم من قومك، فأكسبوها تَعَدِّياً منهم عليها بكفرهم بالله ـ الهلاك بالغرق، إنهم مُغْرَقُونَ بالطوفان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ۝٣٨ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ويصنعُ نوحُ السفينةَ، وكلما مَرَّ عليه جماعةٌ من كُبَراءِ قومهِ. «سَخِرُوا منه»، يقول: هَزِئُوا من نوحٍ، ويقولون له: أتَحَوَّلْتَ نَجَّاراً بعد النبوَّةِ، وتعمل السفينة في البر؟ فيقول لهم نوحٌ: إنْ تَسْخَرُوا منا»، إنْ تَهْزَأُوا منـا اليومَ، فإنَّـا نهـزأُ منكم في الآخرة، كما تهزأونَ منا في الدنيا. «فسوف تعلمونَ»، إذا عاينتم عذابَ الله، مَنِ الذي كان إلى نفسه مُسِيئاً مِنَّا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: مخبراً عن قِيلِ نوحٍ لقومه: «فسوف تعلمون»، أيها القومُ، إذا جاءَ أمرُ الله، مَن الهالكُ، «مَنْ يأتيه عذابٌ يُخْزيه»، يقول: الذي يأتيه عذابُ الله مِنَّا ومنكم يُهينُه ويُذِلُّه. «ويَحِلُّ عليه عذابٌ مقيم»، يقول: ويَنزلُ به في الآخرة، مع ذلك، عذابٌ دائمٌ لا انقطاعَ له، مقيمٌ عليه أبداً.

وقوله: «حتى إذا جاء أمْرُنَا»، يقول: «ويصنعُ نوحٌ الفُلْكَ»، «حتى إذا جاء أمرنا»، الذي وعدناه أنْ يجيءَ قومَهُ، من الطوفانِ الذي يُغْرِقُهم.

وقوله: «وفار التنور»، اختلفَ أهلُ التأويلِ في معنى ذلك.

فقال بعضهم: معناه: انبجسَ الماءُ من وجهِ الأرضِ. «وفار التنور»، وهو وجهُ الأرضِ.

وقال آخرون: هو تنويرُ الصبح، من قولهم: «نوَّرَ الصبح تنويراً».

وقال آخرون: معنى ذلك: وفارَ أعلى الأرضِ وأشرفُ مكانٍ فيها بالماء. وقال: «التنور»، أشرفُ الأرض.

وقال آخرون: هو التنور الذي يُخْتَبزُ فيه.

وأولى هذه الأقوال عندنا بتأويل قوله: «التنور»، قولُ مَنْ قال: «هو التنور الـذي يُخْبَـزُ فيه»، لأنَّ ذلـك هو المعروفُ من كلامِ العرب. وكلامُ الله لا يُوجَّه إلا إلى الأغلبِ الأشهرِ من معانيه عند العرب، إلا أنْ تقومَ حجَّةٌ على شيءٍ

منه بخلافِ ذلك، فيسلم لها. وذلك أنه جَلَّ ثناؤُهُ إنما خاطبهم بما خاطبهم به، لإفهامِهم معنى مَا خاطبهم به.

«قلنا»، لنوحٍ حينَ جاء عذابنا قومه الذي وَعَدْنَا نُوحاً أنْ نُعَذِّبهم به، وفار التنورُ الذي جعلنا فورَانه بالماءِ آيةَ مجيء عَذَابنَا بيننا وبينَهُ لهلاكِ قومِه. «احملْ فيها»، يعني: في الفُلْكِ. «من كُلٍّ زوجينِ اثنين»، يقول: من كُلِّ ذَكَرٍ وأنثى.

وقوله: «وأهْلَكَ إلاَّ مَنْ سَبَقَ عليه القولُ»، يقول: واحملْ أهلكَ أيضاً في الفُلْكِ، يعني بـ«الأهل»، ولده ونساءه وأزواجه. «إلا مَنْ سَبَقَ عليه القول»، يقول: إلا مَنْ قُلْتُ فيهم: إني مُهْلِكُه مع مَنْ أُهْلِكُ مِنْ قومكَ.

ثم اختلفوا في الذي استثناهُ الله من أهله.

فقال بعضهم: هو بعضُ نساءِ نوحٍ.

وقال آخرون: بل هو ابنه الذي غرق.

وقوله: «ومَنْ آمن»، يقول: واحملْ معَهم مَنْ صَدَّقَكَ واتَّبعكَ من قومكَ.

يقول الله: «وما آمنَ معه إلا قليلٌ»، يقول: وما أقرَّ بوحدانيةِ الله مع نوحٍ من قومه إلاَّ قليل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وقال نوحٌ: اركبوا في الفُلْكِ، «بسم الله مجراها ومرساها».

ومعنى قوله: «مجراها»، مَسِيرُها، «ومرساها»، وَقْفُهَا، من: وقَفَها الله وأرساها.

وقوله: «إنَّ ربي لغفورٌ رَحيم»، يقول: إنَّ ربي لساترٌ ذنوبَ مَنْ تابَ وأنابَ إليه، رحيمٌ بهم أنْ يُعذِّبهم بعدَ التوبة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «وهي تجري بهم»، والفُلْكُ تجري بنوحٍ ومَنْ معه فيها. «في موجٍ كالجبالِ ونادى نوحُ ابنه»، يام. «وكان في مَعْزِلٍ»، عنه، لم يركب معه الفُلْكَ. «يا بني اركبْ معنا»، الفُلْكَ. «ولا تكن مع الكافرين».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال ابنُ نوحٍ، لَمَّا دَعَاهُ نوحٌ إلى أن يركبَ معه السفينةَ، خوفاً عليه من الغرق: «سآوي إلى جبلٍ يعصمني من الماء»، يقول: سأصيرُ إلى جبلٍ أتحصَّنُ به من الماء، فيمنعني منه أن يغرقني.

ويعني بقوله: «يعصمني»، يمنعني، مثل «عصام القربة»، الذي يُشَدُّ به رأسُهَا، فيمنعُ الماءَ أنْ يسيلَ منها.

وقوله: «لا عاصمَ اليومَ من أمرِ الله إلاَّ من رحم»، يقول: لا مانعَ اليومَ من أمرِ الله الذي قد نزلَ بالخَلْقِ من الغرقِ والهلاكِ، إلا مَنْ رَحِمْنا فأنقذنا منه، فإنه الذي يمنعُ مَنْ يشاء من خَلْقِه ويعصم.

وقوله: «و حالَ بينهما الموجُ فكان من المُغْرَقينَ»، يقول: وحالَ بين نوحٍ وابنه موجُ الماء فغرق، فكان مِمَّنْ أهلكه بالغرقِ من قومِ نوح ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

يقول الله تعالى ذِكْرُهُ: وقال الله للأرضِ، بعد ما تناهَى أمرُه في هلاكِ قومِ نوحٍ بما أهلكهم به من الغرق: «يا أرضُ ابلعي ماءك»، أي: تَشَرَّبي.

«ويا سماءُ أقلعي»، يقول: أقلعي عن المطر، أمسكي. «وغِيضَ الماءُ»، ذَهبتْ به الأرضُ ونَشِفتهُ، «وقُضِيَ الأمرُ»، يقول: قُضِي أمرُ الله، فمضى بهلاكِ قومِ نوحٍ. «واستوت على الجُوديّ»، يعني: الفُلْك «استوت»، أرستْ. «على الجوديِّ»، وهو جَبَلٌ، فيما ذُكِرَ، بناحيةِ الموصل أو الجزيرة[1].

«وقيل بُعْداً للقومِ الظالمين»، يقول: قالَ الله: أَبْعَدَ الله القومَ الظالمينَ الذين كَفَرُوا بالله من قومِ نوح.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالَى ذِكْرُهُ: ونادى نوحٌ رَبَّهُ فقال: ربِّ إنكَ وَعدْتَني أنْ تُنَجِّيَني من الغـرقِ والهلاكِ وأهلي، وقد هلكَ ابني، وابني مِنْ اهلي. «وإنَّ وَعْدَكَ الحقُّ»، الذي لا خُلْفَ له. «وأنتَ أحكمُ الحاكمين»، بالحقِّ، فاحكُمْ لي بأنْ

(١) يعني: جزيرة ابن عمر، بين دجلة والفرات، والموصل منها.

تَفي لي بما وعدتني، من أنْ تُنَجِّي لي أهلي، وترجع إليَّ ابني.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾

يقول الله تعالى ذِكْرُهُ: قال الله: يا نوحُ إنَّ الذي غرقته فأهلكته الذي تذكر أنه من أهلكَ، ليسَ من أهلكَ الذي وَعَدْتُكَ أنْ أُنجيهم، لأنه كانَ لدينك مُخالفاً، وبي كافِراً.

وأما قوله: «إنه عمل غير صالح»، فإنه يعني: إنَّ سؤالكَ إيايَ ما تسألنيهِ في ابنكَ ـ المخالفِ دِينَكَ، الموالي أهلَ الشركِ بي، من النجاةِ من الهلاكِ، وقد مَضَتْ إجابتي إياكَ في دعائك: «لَا تَذَرْ على الأرضِ من الكافرينَ ديَّاراً»، ما قد مَضَى، من غيرِ استثناءِ أحدٍ منهم. عملٌ غير صالح، لأنَّه مسألةٌ منك إليَّ أنْ لا أفعلَ ما قد تقدَّمَ مني القولُ بأني أفعلُه، في إجابتي مسألتكَ إيايَ فِعْله. فلذلك هو «العملُ غيرُ الصالحِ».

وقوله: «فلا تسألنِ ما ليسَ لك به عِلْمٌ»، نهيٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ نبيَّهُ نوحاً أنْ يسألَهُ أسبابَ أفعالِه التي قد طَوى عِلْمَها عنه وعن غيرِه من البشر. يقول له تعالى ذِكْرُهُ: إني. يا نوحُ، قد أخبرتكَ عن سؤالكَ سببَ إهلاكي ابنكَ الذي أهلكتُه فلا تسألنِ بعدها عما قد طَويتُ عِلْمه عنكَ من أسبابِ أفعالي، ليسَ لكَ به عِلْمٌ. «إني أَعِظُكَ أنْ تكونَ من الجاهلين»، في مسألتكَ أيايَ عن ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ

لِي بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ، مخبراً نبيَّه محمداً ﷺ، عن إنابةِ نوحٍ عليه السلام بالتوبةِ إليه من زَلَّتِه، في مسألتِه التي سألَها ربَّه في ابنه: «قال رَبِّ إني أعوذُ بك»، أي: أستجيرُ بكَ أنْ أتكلَّفَ مسألتَك ما ليسَ لي به عِلْمٌ، مما قد استأثرتَ بعلمِه، وطويتَ عِلْمَهُ عن خَلْقِكَ، فاغفرْ لي زلتي في مسألتي إياك ما سألتك في ابني، وإنْ أنتَ لم تغفرها لي وترحمني فتنقذني من غضبك. «أكُنْ من الخاسرين»، يقول: من الذين غبنوا أنفسهم حُظُوظَها وهلكوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: يا نوحُ، اهْبِطْ من الفُلْكِ إلى الأرضِ. «بسلامٍ منا»، يقول: بأمْنٍ منا أنتَ ومَنْ معك، من إهلاكِنَا. «وبركاتٍ عليك»، يقول: وببركاتٍ عليك. «وعلى أُممٍ مِمَّنْ معكَ»، يقول: وعلى قرونٍ تجيءُ من ذريةِ مَنْ معكَ من ولدك. فهؤلاء المؤمنونَ من ذريةِ نوحٍ الذين سَبَقَتْ لهم من الله السعادةُ، وباركَ عليهم قبلَ أنْ يخلقهم في بطونِ أمهاتهم وأصلابِ آبائهم. ثم أخبر تعالى ذِكْرُهُ نوحاً عَمَّا هو فاعلٌ بأهلِ الشقاءِ من ذرِّيته، فقال له: «وأُممٌ»، يقول: وقرونٌ وجماعةٌ. «سنمتعهم» في الحياةِ الدنيا، يقول: نَرْزُقُهم فيها ما يَتَمَتَّعُونَ به، إلى أن يبلغوا آجالهم. «ثم يَمَسُّهم منا عذابٌ أليم»، يقول: ثم نُذِيقُهم إذا وَرَدُوا علينا عذاباً مؤلماً موجعاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: هذه القصة التي أنبأْتُكَ بها من قصةِ نوحٍ وخَبَرِه وخبرِ قومه. «من أنباءِ الغيب»، يقول: هي من أخبارِ الغيب التي لم تشهدها فتعلمها. «نُوحِيهَا إليكَ»، يقول: نُوحيها إليكَ نحنُ، فَنُعَرِّفكَها. «مـا كنتَ تَعْلَمُهَـا أنتَ ولا قومُكَ من قَبْلِ هذا» الوحي الذي نُوحيهِ إليكَ. «فاصبر»، على القيامِ بأمرِ الله وتبليغِ رسالته، وما تَلْقَى من مشركي قومكَ، كما صبرَ نوحٌ. «إنَّ العاقبةَ للمتقين»، يقول: إنَّ الخيرَ من عواقب الأمورِ لمن اتَّقى الله، فأدَّى فرائِضَـهُ، واجتنبَ معـاصيه، فَهُمُ الفائزونَ بما يُؤَمِّلُونَ من النعيمِ في الآخرة، والظفرِ في الدنيا بالطلبة، كما كانت عاقبةُ نوحٍ إذْ صبرَ لأمرِ الله، أنْ نَجَّاهُ من الهلكةِ مع مَنْ آمنَ به، وأعطاهُ في الآخرة ما أعطاهُ من الكرامةِ، وغرَّقَ المكذبينَ به فأهلكهم جميعهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأرسلنا إلى قومِ عادٍ أخاهم هوداً، فقال لهم: «يا قومِ اعبـدُوا الله»، وحدَهُ لا شريكَ له، دونَ ما تعبدونَ من دونِهِ من الآلهةِ والأوثانِ. «ما لكم من إلهٍ غيره»، يقول: ليسَ لكم معبودٌ يستحقُّ العبادةَ عليكم غيره، فأخْلِصُوا له العبادةَ، وأفردوه بالألوهةِ. «إنْ أنتم إلا مفترون»، يقول: ما أنتم، في إشـراككم معه الآلهة والأوثانَ، إلا أهل فِرْيةٍ مكذبون، تختلقونَ الباطلَ، لأنه لا إلهَ سِواهُ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ، مُخْبِراً عن قِيلِ هودٍ لقومِه: يا قوم لا أسألكم على ما أدعُوكُمْ إليه من إخلاصِ العبادةِ لله وخلعِ الأوثان والبراءةِ منها، جزاءً وثواباً. «إنْ أجريَ إلا على الذي فطرني»، يقول: إنْ ثوابي وجزائي على نصيحتي لكم ودعائكم إلى الله، إلاَّ على الذي خلقني. «أفلا تعقلون»، يقول: أفلا تعقلون أنّي لو كنتُ أبتغي بدعايتكم إلى الله غيرَ النصيحةِ لكم، وطَلَبِ الحظ لكم في الدنيا والآخرة، لالتمستُ منكم على ذلك بعضَ أعراضِ الدنيا، وطلبتُ منكم الأجرَ والثواب؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ۝٥٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ، مخبراً عن قِيلِ هودٍ لقومِه: «ويا قوم استغفروا ربكم»، يقول: آمِنُوا به حتى يغفرَ لكم ذنوبَكم.

و«الاستغفار»، هو الإيمانُ بالله في هذا الموضع، لأنَّ هوداً ﷺ إنما دعا قومَهُ إلى توحيدِ الله ليغفر لهم ذنوبهم، كما قال نوحٌ لقومِه: ﴿ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۞ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [نوح: ٣ـ٤].

وقوله: «ثم تُوبُوا إليه»، يقول: ثم توبوا إلى الله من سالفِ ذُنوبِكم وعبادَتِكُمْ غيرَهُ، بعد الإيمانِ به. «يُرْسِلِ السماءَ عليكم مدراراً»، يقول: فإنكم إنْ آمنتم بالله وتُبْتُمْ من كُفْرِكم به، أرسلَ قَطْرَ السماءِ عليكم، يدرُّ لكم الغيثَ في وقتِ حاجتكم إليه، وتَحْيَا بلادكُمْ من الجَدْبِ والقَحط.

وأما قوله: «ويَزِدْكُمْ قُوةً إلى قوتكم»، فهو: ويزدكم شِدَّةً إلى شدتكم.

وقوله: «ولا تتولوا مجرمين»، يقول: ولا تُدْبِرُوا عما أَدْعُوكُمْ إليه من توحيدِ الله، والبراءةِ من الأوثانِ والأصنام. «مجرمين»، يعني: كافرين بالله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال قومُ هودٍ لهود: يا هودُ، ما أتيتنا ببيانٍ ولا برهانٍ على ما تقولُ، فَنُسَلِّمَ لكَ ونُقِرَّ بأنكَ صادقٌ فيما تدعونا إليه من توحيدِ الله، والإقرارِ بنبوتك. «وما نحنُ بتاركي آلهتنا»، يقول: وما نحنُ بتاركي آلهتنا، يعني: لقولكَ أو مِنْ أجلِ قولكَ. «وما نحنُ لك بمؤمنين»، يقول: قالوا: وما نحنُ لك بما تَدَّعي من النبوةِ والرسالةِ من الله إلينا، بمصدِّقين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾

وهذا خَبَرٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ عن قولِ قومِ هود: أنهم قالوا له، إذْ نَصَحَ لهم، ودَعَاهم إلى توحيدِ الله وتصديقه، وخَلْعِ الأوثانِ والبراءةِ منها: لا نتركُ عبادةَ آلهتنا، وما نقولُ إلا أنَّ الذي حَملكَ على ذَمِّها والنهي عن عبادتها، أنه أصابكَ منها خَبَلٌ من جنون. فقال هود لهم: إني أُشْهِدُ الله على نفسي، وأُشْهِدُكُمْ أيضاً، أيها القومُ، أني بريءٌ مما تشركونَ في عبادةِ الله من آلهتكم وأوثانكم من دونه. «فَكِيدُوني جميعاً»، يقول: فاحتالوا أنتم جميعاً وآلهتكم في ضُرِّي ومكروهي. «ثم لا تُنْظِرون»، يقول: ثم لا تُؤَخِّروا ذلك، فانظُروا هل تَنالُونني أنتم وهم بما زعمتم أنَّ آلهتكم نالتني به من السوء؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾

يقـول: إني على الله الـذي هو مالكي ومالككم، والقيِّمُ على جميعِ خَلْقِه، توكلتُ من أنْ تُصيبوني، أنتم وغيركم من الخَلْقِ بسوء، فإنه ليس من شيءٍ يَدُبُّ على الأرضِ، إلا والله مالِكُه، وهو في قَبْضَتِه وسلطانه. ذليلٌ له خاضعٌ.

فإنْ قال قائـل: وكيف قيل: «هـو آخِـذٌ بنـاصيتهـا»، فَخَصَّ بالأخـذِ «الناصية»، دونَ سائرِ أماكنِ الجسد.

قيل: لأنَّ العـربَ كانت تستعمـل ذلـك في وصفها مَنْ وَصَفَتْهُ بالذلةِ والخضوع، فتقول: «ما ناصيةُ فلانٍ إلاّ بيدِ فلان»، أي: إنه له مطيع، يصرفهُ كيف شاء. وكانوا إذا أَسَرُوا الأسيرَ فأرادوا إطلاقَهُ والمنَّ عليه، جَزُّوا ناصيتَهُ، ليعتدُّوا بذلك عليه فخراً عند المفاخرة. فخاطبهم الله بما يعرفون في كلامهم، والمعنى ما ذكرت.

وقـولـه: «إنَّ ربي على صراطٍ مستقيم»، يقـول: إنَّ ربي على طريقِ الحقِّ، يجازي المحسنَ من خَلْقِه بإحسانه، والمسيءَ بإساءته، لا يظلمُ أحداً منهم شيئاً، ولا يقبلُ منهم إلا الإسلامَ والإيمان به.

القَوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِهِ تعَالَى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ٥٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ، مخبراً عن قِيلِ هود لقومه: «فإنْ تَوَلَّوا»، يقول: فإنْ أدبـروا مُعْرضينَ عَمَّـا أدعوهُمْ إليه من توحيدِ الله وتركِ عبادةِ الأوثان. «فقد أبلغتُكُم»، أيها القومُ. «ما أُرسِلْتُ به إليكم»، وما على الرَّسولِ إلا البلاغ. «ويستخلفُ ربي قومـاً غيركم»، يُهْلِكُكُمْ ربي، ثم يستبـدل ربي منكم قوماً

غيركم، يُوَحِّدونَهُ ويُخلصُونَ له العبادةَ. «ولا تضرونه شيئاً»، يقول: ولا تَقْدِرُونَ له على ضُرٍّ إذا أراد هلاكَكُمْ، أو أهلككم.

«إن ربي على كل شيءٍ حفيظ»، يقول: إن ربي على جميع خَلْقِه ذو حِفْظٍ وعِلْم. يقول: هو الذي يحفظني من أنْ تنالوني بسوء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولما جاءَ قومَ هودٍ عذابُنا، نَجَّيْنَا منه هوداً والذينَ آمنوا بالله معه. «برحمةٍ منا»، يعني: بفضلٍ منه عليهم ونعمة. «ونَجَّيناهُمْ من عذابٍ غليظ»، يقول: نجيناهم أيضاً من عذابٍ غليظٍ يومَ القيامة، كما نجيناهم في الدنيا من السخطةِ التي أنزلتُهَا بعاد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وهؤلاء الذين أحللنا بهم نِقْمَتَنا وعَذابنا، عادٌ، جَحَدُوا بأدلةِ الله وحججه، وعَصَوا رُسُلَهُ الذين أرسلهم إليهم للدعاءِ إلى توحيدِهِ واتباعِ أمره. «واتبعوا أمرَ كُلِّ جبارٍ عنيد»، يعني: كُلَّ مستكبرٍ على الله، حَائدٍ عن الحق، لا يُذعن له ولا يقبله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ ۞

يقـول تعالى ذِكْرُهُ: وأتبع عادٌ قومُ هود في هذه الدنيا غضباً من الله، وسخطةً يومَ القيامة مثلها، لعنةً إلى اللعنةِ التي سَلَفَتْ لهم من الله في الدنيا. «ألا إنَّ عاداً كفروا ربهم ألا بُعْداً لعادٍ قومِ هود»، يقولُ: أبْعَدَهُمُ الله من الخير.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأرسلنا إلى ثمودَ أخاهُمْ صالحاً فقال لهم: يا قومِ، اعبدُوا الله وحدَهُ لا شريكَ له، وأخلِصُوا له العبادةَ دونَ ما سواه من الآلهةِ، فما لكم من إلهٍ غيره يستوجبُ عليكم العبادةَ، ولا تجوزُ الألوهةُ إلَّا له. «هو أنشأكم من الأرض»، يقول: هو ابتدأ خَلْقَكُمْ من الأرض.

وإنما قال ذلك، لأنه خَلَقَ آدمَ من الأرضِ، فخرج الخطابُ لهم، إذ كان ذلك فعله بمن هم منه.

«واستعمـركم فيهـا»، يقول: وجَعَلَكم عُمَّاراً فيها، فكان المعنى فيه: أسْكَنَكُمْ فيها أيامَ حياتكم.

وقوله: «فاستغفروه»، يقول: اعملوا عملاً يكون سبباً لسترِ الله عليكم ذنوبَكُم، وذلك الإيمانُ به، وإخلاصُ العبادةِ له دونَ ما سواه، واتباعُ رسولِه صالح. «ثم توبوا إليه»، يقول: ثم اتركوا من الأعمالِ ما يكرهه رَبُّكم، إلى ما يَرْضَاهُ ويحبه. «إنَّ ربي قريبٌ مجيب»، يقول: إنَّ ربي قريبٌ ممن أخلصَ له العبادةَ ورغبَ إليه في التوبة، مجيبٌ له إذا دعاه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قالت ثمودُ لصالح نبيِّهم: «يا صالحُ قد كُنْتَ فينا مَرْجُوًّا»، أي: كنا نرجُو أنْ تكونَ فينا سيداً قبلَ هذا القولِ الذي قلته لنا، من أنه ما لنا من إلهٍ غيرُ الله. «أتنهانا أنْ نَعْبُدَ ما يعبدُ آباؤنا»، يقول: أتنهانا أنْ نعبدَ الألهةَ التي كانت آباؤنا تعبدها. «وإننا لفي شكٍ مما تدعونَا إليه مريب»، يعنون أنهم لا يعلمونَ صِحَّةَ ما يَدْعُوهم إليه من توحيدِ الله، وأنَّ الألوهةَ لا تكونُ إلَّا لهُ خالصاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال صالح لقومِهِ من ثمود: «يا قومِ أرأيتم إنْ كنتُ على بينةٍ من ربي»، يقول: إنْ كنتُ على برهانٍ وبيانٍ من الله قد علمته وأيقنته. «وآتاني منه رحمةً»، يقول: وآتاني منه النبوةَ والحكمةَ والإسلامَ. «فمن ينصرني من الله إنْ عصيتُه»، يقول: فمن الذي يدفعُ عنِّي عقابه إذا عاقبني إنْ أنا عَصَيْتُه، فيخلِّصَني منه. «فما تَزِيدُونَني»، بِعُذْرِكُم الذي تعتذرُون به، مِنْ أنكم تعبدونَ ما كان يعبدُ آباؤكم. «غيرَ تخسيرٍ»، لكم يُخسركم حُظوظَكم من رحمةِ الله.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَيَـٰقَوْمِ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ

ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ مخبراً عن قِيلِ صالحٍ لقومِه من ثمود، إذْ قالوا له: «وإننا لفي شكٍ مما تَدْعُونَا إليه مريب»، وسألوه الآيةَ على ما دعاهم إليه: «يا قومِ هذه ناقةُ الله لكم آيةً»، يقول: حُجَّةً وعلامةً ودلالةً على حقيقةِ ما أدعوكم إليه. «فذروها تأكُلْ في أرضِ الله»، فليس عليكم رِزْقُها ولا مُؤْونَتها. «ولا تمسوها بسوء»، يقول: لا تَقْتُلُوها ولا تَنَالُوها بعَقْرٍ. «فيأخذكم عذابٌ قريب»، يقول: فإنكم إنْ تَمَسُّوهَا بسوءٍ، يأخذكم عذابٌ من الله غير بعيدٍ فيهلككم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فعقرتْ ثمودُ ناقةَ الله، وفي الكلام محذوفٌ قد تُرِكَ ذكرُه، استغناءً بدلالةِ الظاهرِ عليه، وهو: «فَكَذَّبُوه»، «فعقروها»، فقال لهم صالح: «تمتَّعوا في داركم ثلاثةَ أيام»، يقول: استمتعوا في دارِ الدنيا بحياتكم ثلاثةَ أيام. «ذلك وَعْدٌ غيرُ مكذوب»، يقول: هذا الأجلُ الذي أجَّلتُكم، وَعْدٌ من الله، وَعَدَكُمْ بانقضائه الهلاكَ ونزولَ العذاب بكم. «غير مكذوب»، يقول: لم يكذبكم فيه مَنْ أعْلَمَكُمْ ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فلما جاء ثمودَ عذابُنا. «نَجَّيْنَا صالحاً والذينَ آمنوا

معه برحمةٍ منا»، يقول: بنعمةٍ وفضلٍ من الله. «ومن خِزْيِ يومئذٍ»، يقول: ونجيناهم من هوانِ ذلكَ اليوم، وذلّه بذلكَ العذاب. «إن ربك هو القويُّ»، في بَطْشِه، إذا بطشَ بشيءٍ أهلكَهُ، كما أهلكَ ثمود حين بطَش بها. «العزيز»، فلا يَغْلِبهُ غالبٌ، ولا يقهره قاهِرٌ، بل يغلبُ كُلَّ شيءٍ ويقهره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٦٧ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ۝٦٨﴾.

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأصابَ الذين فعلوا ما لم يَكُنْ لهم فِعْلُه، من عَقْرِ ناقةِ الله وكفرهم به. «الصيحةُ فأصبحوا في ديارهم جاثمين»، قد جَثَّمَتْهُمُ المنايا، وتركتهم خُموداً بأفنيتهم.

«كأن لم يَغْنَوْا فيها»، يقول: كأنْ لم يعيشوا فيها، ولم يعمروا بها.

وقوله: «ألا إنَّ ثمود كفروا ربهم»، يقول: ألا إنَّ ثمود كفروا بآياتِ ربهم فَجَحَدُوها. «ألا بُعْداً لثمود»، يقول: ألا أَبْعَدَ الله ثمود! لنزولِ العذابِ بهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۝٦٩﴾.

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «ولقد جاءت رسلنا»، من الملائكة، وهم فيما ذكر، كانوا جبْريلَ ومَلَكينِ آخَرين، وقيل: إنَّ الملكين الآخرين كانا ميكائيلَ وإسرافيلَ معه. «إبراهيمَ»، يعني: إبراهيمَ خليلَ الله. «بالبشرى»، يعني: بالبشارة.

واختلفوا في تلك البشارة التي أتوه بها.

فقال بعضهم: هي البشارة بإسحاق.

وقال بعضهم: هي البشارة بهلاكِ قومِ لوط.

«قالوا سلاماً»، يقول: فَسَلَّمُوا عليه سلاماً.

ونصب «سلاماً» بإعمال «قالوا»: فيه، كأنه قيل: قالوا قولاً وسلَّمُوا تسليماً.

«قال سلامٌ»، يقول: قال إبراهيمُ لهم: سلامٌ فرفع «سلامٌ»، بمعنى: عليكمُ السلامُ أو بمعنى: سلامٌ منكم.

وقـولـه: «فما لبِثَ أنْ جاء بعجلٍ حنيذ» وأصله «محنوذٌ»، صرف من «مفعول» إلى «فعيل».

وقد اختلف أهلُ العربية في معناه، فقال بعضهم: المحنوذ، المَشْوِيُّ. وقال آخرون: كل ما انشوَى في الأرض، إذا خَدَدتَ له فيه، فدفَنْتَهُ وغَممته، فهو «الحنيذُ» و«المَحْنوذ».

وأما أهلُ التأويلِ، فإنهم قالوا في معناه: بعجلٍ نضيج، والمشوي الذي يقطرُ ماؤه.

وهذه الأقوال التي ذكرناها عن أهلِ العربية وأهلِ التفسير، متقارباتُ المعاني بعضها من بعض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فلما رأى إبراهيمُ أيديَهم لا تصلُ إلى العجلِ الذي أتاهم به، والطعام الذي قَدَّمَ إليهم، نَكِرَهُمْ. وذلك أنه لما قدم طعامه ﷺ

إليهم، فيما ذكر، كَفُّوا عن أكْلِه، لأنهم لم يكونوا مِمَّنْ يأكُله. وكانَ إمساكُهم عن أكله، عند إبراهيم، وهُمْ ضِيفَانُه، مستنكراً. ولم تكن بينهم معرفةٌ، وراعَهُ أمرهم، وأوجسَ في نفسه منهم خِيفةً.

وقوله: «وأوجس منهم خيفة»، يقول: أحَسَّ في نَفسه منهم خِيفةً وأضمرها.

«قالوا لا تخف»، يقول: قالت الملائكةُ، لما رأتْ ما بإبراهيمَ من الخوفِ منهم: لا تَخَفْ منا وكُنْ آمناً، فإنَّا ملائكةُ ربِّكَ. «أُرْسِلْنَا إلى قومِ لوط».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ

قال أبو جعفر.

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وامرأته»، سارَة بنت هاران بن ناحور بن ساروج بن راعو بن فالغ، وهي ابنةُ عَمِّ إبراهيمَ. «قائمةٌ»، قيل: كانت قائمةً من وراءِ السترِ تسمعُ كلامَ الرسلِ وكلامَ إبراهيمَ عليه السلام. وقيل: كانت قائمةً تخدُم الرسلَ، وإبراهيم جالسٌ مع الرسل.

وقوله: «فضحكت»، اختلفَ أهلُ التأويل في معنى قوله: «فضحكت»، وفي السبب الذي من أجله ضحكت.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ، قولُ مَنْ قال معنى قوله: «فضحكت»، فعجبتْ من غفلةِ قومِ لوطٍ عمَّا قد أحاطَ بهم من عذابِ الله وغفلتهم عنه.

وإنما قلنا هذا القول أوْلى بالصواب، لأنه ذكر عَقيب قولهم لإبراهيم: «لاتَخَفْ إنا أُرسلنا إلى قومِ لوط». فإذا كان ذلك كذلك، وكان لا وجهَ

للضحكِ والتَّعَجُّبِ من قولهم لإبراهيم: «لا تخف»، كان الضحكُ والتعجبُ إنما هو من أمرِ قومِ لوط.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ۝٧١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فَبَشَّرْنَا سارَة، أمرأةَ إبراهيمَ، ثواباً مِنَّا لها على نَكيرها وعَجَبها من فِعْلِ قومِ لوط، «بإسحق»، ولداً لها. «ومِنْ وراءِ إسحقَ يعقوب»، يقول: ومِنْ خَلْفِ إسحقَ يعقوب، من ابنها إسحق.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك.

فقرأته عامةُ قـرأة العراق والحجاز: ﴿وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبُ﴾، برفع «يعقوب»، ويعيد ابتداء الكلام بقوله: «ومن وراء إسحق يعقوب». وذلك، وإنْ كان خبراً مبتدأ، ففيه دلالةٌ على معنى التبشير.

وقرأه بعض قَرَأَةِ أهلِ الكوفة والشام، ﴿وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ﴾، نَصباً.

وأولى القراءتين في ذلك بالصواب عندي، قراءةُ من قرأه رفعاً، لأن ذلك هو الكلام المعروف من كلامِ العرب، والذي لا يتناكره أهلُ العلم بالعربية، وما عليه قَرَأَةُ الأمصار. فأما النَّصب فيه، فإنَّ له وجهاً، غير أنِّي لا أحبُّ القراءةَ به، لأنَّ كتابَ الله نزل بأفصحِ ألسُنِ العرب، والذي هو أَوْلى بالعلمِ بالذي نزلَ به من الفصاحة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ

﴿وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ٧٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قالت سارَة لما بُشِّرتْ بإسحق أنَّها تلد، تَعَجُّباً مما قيلَ لها من ذلك، إذْ كانت قد بلغت السِنَّ التي لا يَلِدُ مَنْ كان قد بلغَها من الرجال والنساء.

«يا ويلتا»، وهي كلمةٌ تقولها العربُ عند التعجبِ من الشيءِ، والاستنكارِ للشيءِ. فيقولون عند التعجبِ: «وَيلُ أمهِّ رجلاً ما أرْجَله»!

وقوله: «ءَأَلِدُ وأنا عجوز»، يقول: أنَّى يكونُ لي ولد. «وأنا عجوز وهذا بعلي شيْخاً».

و«البعل»، في هذا الموضع، الزوج. وسُمِّيَ بذلك، لأنه قَيِّمُ أمْرِهَا، كما سَمَّوا مالكَ الشيءِ «بعله»، وكما قالوا للنخلِ التي تَستغني بماءِ السماءِ عن سقي ماء الأنهـار والعيون «البَعْل»، لأنَّ مالكَ الشيء القيِّمُ به؛ والنخل البعلُ، بماءِ السَماءِ حياتُهُ.

وقوله: «إنَّ هذا لشيءٌ عجيب»، يقول: إنَّ كونَ الولدِ من مثلي ومثلِ بعلي، على السنِّ التي بها نحنُ، لشيءٌ عجيبٌ. «قالوا أتعجبينَ من أمرِ الله»، يقول الله تعالى ذِكْرُهُ: قالت الرُّسُلُ لها: أتعجبينَ من أمرٍ أمرَ الله به أنْ يكونَ، وقضاءٍ قَضَاهُ الله فيكِ وفي بَعْلكِ.

وقوله: «رحمةُ الله وبركاتُه عليكم أهل البيت»، يقول: رحمةُ الله وسعادته لكم أهلَ بيتِ إبراهيمَ، وجعلت «الألف واللام»، خلفاً من الإضافةِ.

وقوله: «إنه حَميدٌ مجيد»، يقول: إنَّ الله محمودٌ في تَفَضُّلِه عليكم بما تفضل به من النعمِ عليكم وعلى سائرِ خَلْقِه. «مجيد»، يقول: ذُو مَجْدٍ ومَدْحٍ وَثَناء كريم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فلما ذهبَ عن إبراهيمَ الخوفُ الذي أوجسه في نفسه من رُسُلِنَا، حين رأى أيديَهُم لا تصلُ إلى طعامه، وأمِنَ أنْ يكونَ قُصِدَ في نفسه وأهلِه بسوء. «وجاءته البشرى»، بإسحقَ، ظَلَّ «يجادلنا في قومِ لوط»، يقول: يخاصمنا، أي: يجادلُ رسلنا على وجهِ المحاجَّةِ لهم.

وقوله: «﴿إنَّ إبراهيم لحليمٌ أوَّاهٌ مُنيب»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ إبراهيمَ لبطيءُ الغَضبِ، مُتَذَلِّلٌ لربهِ، خاشعٌ له، منقادٌ لأمرِه. «مُنيب»، رَجَّاعٌ إلى طاعته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ مخبراً عن قولِ رُسُلِهِ لإبراهيمَ: «يا إبراهيمُ أَعْرِضْ عن هذا»، وذلك قِيلُهم له حين جَادلهم في قومِ لوط، فقالوا: دَعْ عنك الجدالَ في أمرهم والخصومةَ فيه، فإنه «قد جاء أمرُ رَبِّكَ»، يقول: قد جاء أمرُ رَبِّك بعذابهم. وحقَّ عليهم كلمةُ العذاب، ومضى فيهم بهلاكِهم القضاءُ. «وإنهم آتيهم عذابٌ غيرُ مردود»، يقول: وإنَّ قومَ لوطٍ، نازلٌ بهم عذابٌ من الله غير مدفُوع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولما جاءت ملائكتنا لوطاً، ساءَهُ مَجِيئُهم، وهو «فعل» من «السوء». «وضاقَ بهم»، بمجيئهم. «ذَرْعاً»، يقول: وضاقتْ نَفْسُه غمًّا بمجيئهم. وذلك أنه لم يكن يعلمُ أنهم رُسُلُ الله في حال ما ساءه مجيئهم، وعلم من قومِه ما هُمْ عليه من إتيانِهم الفاحشةَ، وخَافَ عليهم، فضاقَ من أجل ذلك بمجيئهم ذَرْعاً، وعلم أنه سيحتاجُ إلى المدافعةِ عن أضيافِه، ولذلك قال: «هذا يومٌ عَصيب»، أي: هذا يوم شديد شَرُّهُ، عظيمٌ بلاؤُه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ۝٧٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وجاءَ لوطاً قومُهُ يستحثُّونَ إليه، يُرْعَدُونَ مع سرعةِ المشي، مما بهم من طَلَبِ الفاحشة.

وقوله: «ومِنْ قَبْلُ كانوا يعملون السيئاتِ»، يقول: من قبل مجيئهم إلى لوط، كانوا يأتون الرجالَ في أدبارهم.

وقوله: «قال يا قوم هؤلاء بناتي»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال لوطٌ لقومِه لما جاؤوه يُرَاوِدُونَهُ عن ضَيْفِه: هؤلاء يا قوم بناتي ـ يعني نساء أمته ـ فانْكِحُوهُنَّ، فَهُنَّ أطهرُ لكم.

وقوله: «فاتقوا الله ولا تُخْزُونِ في ضيفي»، يقول: فاخشوا الله، أيها الناسُ، واحذروا عِقَابَهُ، في إتيانكم الفاحشةَ التي تأتونها وتطلبونها. «ولا تخزونِ في ضيفي»، يقول: ولا تُذِلُّوني، بأنْ تركبوا مني في ضيفي ما يَكرهونَ أنْ تَرْكَبُوه منهم.

و«الضيف» في لفظِ واحدٍ في هذا الموضع، بمعنى الجمع. والعربُ تسمي الواحدَ والجمعَ «ضيفاً»، بلفظِ واحدٍ. كما قالوا: «رَجُلٌ عَدْل، وقوم عَدْل».

وقوله: «أليس منكم رجلٌ رشيد»، يقول: أليس منكم رجل ذُو رُشْدٍ، ينهى مَنْ أراد ركوبَ الفاحشةِ من ضيفي، فيحول بينهم وبين ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ۝٧٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال قومُ لوطٍ للوط: «لقد علمتَ»، يا لوطُ. «ما لنا في بناتك من حَقٍّ»، لأنهن لَسْنَ لنا أزواجاً.

وقـوله: «وإنكَ لَتعلمُ ما نُريد»، يقول: قالوا: وإنك يا لوط لتعلمُ أنَّ حاجتنا في غيرِ بناتكَ، وأنَّ الذي نُريد هو ما تَنْهَانَا عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ۝٨٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال لوطٌ لقومِه، حين أبوا إلا المُضِيَّ لما قد جَاؤُوا له من طلبِ الفاحشة، وأيِسَ من أنْ يَستجيبُوا له إلى شيءٍ مما عرض عليهم: «لو أنَّ لي بكم قُوةً»، بأنصارٍ تَنْصُرني عليكم، وأعوانٍ تُعينني. «أو آوي إلى رُكنٍ شديد»، يقول: أو أنضمَّ إلى عشيرةٍ مانعةٍ تمنعني منكم، لحلتُ بينكم وبين ما جِئتُمْ تُريدونـه منِّي في أضيافي ـ وحـذف جواب «لو» لدلالة الكلام عليه، وأن معناه مفهوم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قالت الملائكةُ للوط، لما قالَ لوطٌ لقومه: «لو أنَّ لي بكم قوةً أو آوي إلى ركنٍ شديد»، ورأوا ما لقي من الكَرْبِ بسببهم منهم: «يا لوطُ إنَّا رُسُلُ رَبِّكَ»، أُرسِلْنَا لإهلاكِهم، وإنهم لن يَصِلُوا إليكَ وإلى ضيفكَ بمكروهٍ، فَهَوِّنْ عليكَ الأمرَ. «فَأَسْرِ بأهلك بِقِطْعٍ من الليل»، يقول: فاخرجْ من بين أظهرهم أنتَ وأهلكَ ببقيةٍ من الليل.

وقوله: «إنه مصيبُهَا ما أصابهم»، يقول: إنه مصيب امرأتكَ ما أصابَ قومكَ من العذابِ. «إنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبحُ»، يقول: إنَّ موعدَ قومكَ الهلاك الصبح. فاستبطأ ذلكَ منهم لوطٌ وقال لهم: بل عَجِّلُوا لهم الهلاكَ! فقالوا: «أليسَ الصبحُ بقريب»؟ أي: عند الصبح نزولُ العذابِ بهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولما جاء أَمْرُنَا بالعذابِ، وقضاؤُنَا فيهم بالهلاك. «جعلنا عاليها»، يعني: عاليَ قريتهم. «سافلها وأمطرنا عليها»، يقول: وأرسلنا عليها. «حجارةً من سجيل»، وهي حجارةٌ من طين، وبذلك وَصَفَها الله في كتابه في موضع، وذلك قوله: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات: ٣٣-٣٤].

وقوله: «منضود»، من نعت «سجيل»، لا من نعتِ «الحجارة»، وإنما أمطر القوم حجارة من طين، صفة ذلك الطين أنه نُضِدَ بعضُه إلى بعض، فصُيِّر حجارةً، ولم يُمْطَرُوا الطينَ، موصوفاً بأنه تتابع على القوم بمجيئه.

وأما قوله: «مسوّمة عند ربك»، فإنه يقول: معلمة عند الله، أعلمها الله، و«المسوّمة» من نعت «الحجارة»، ولذلك نصبت على النعت.

وأما قوله: «وما هي من الظالمينَ ببعيدٍ»، فإنه يقول تعالى ذِكْرُهُ، متهدداً مشركي قريش: وما هذه الحجارةُ التي أمطرتها على قوم ِلوطٍ، من مشركي قومك، يا محمد، ببعيدٍ أن يمطروها، إنْ لم يتوبوا من شركهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأرسلنا إلى وَلَدِ مَدْيَنَ أخاهم شعيباً، فلما أتاهم قال: «يا قومِ اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره»، يقول: أطيعوه، وتَذَلَّلوا له بالطاعةِ لما أمركم به ونهاكم عنه. «ما لكم من إلهٍ غيره»، يقول: ما لكم من معبودٍ سواه يستحقُّ عليكم العبادةَ غيرُه. «ولا تَنْقُصُوا المكيالَ والميزان»، يقول: ولا تنقصوا الناسَ حقوقهم في مكيالكم وميزانكم. «إني أراكم بخير».

واختلف أهلُ التأويل في «الخير»، الذي أخبرَ الله عن شعيب أنه قال لمدينَ إنه يراهم به.

فقال بعضهم: كان ذلك رُخْص السعرِ، وحَذرهم غلاءه.

وقال آخرون: عَنَى بذلك: إنّي أرى لكم مالاً وزينةً من زينِ الدنيا.

وأولى الأقوالِ في ذلك بالصواب، ما أخبرَ الله عن شعيبٍ أنه قال لقومِه، وذلك قوله: «إني أراكم بخير»، يعني: بخيرِ الدنيا. وقد يدخلُ في خيرِ الدنيا، المالُ، وزينةُ الحياةِ الدنيا، ورخص السعر ـ ولا دلالةَ على أنه عَنَى بقِيله ذلك بعض خيراتِ الدنيا دونَ بعضٍ، فذلك على كل معاني خيراتِ الدنيا التي ذكر أهلُ العلمِ أنهم كانوا أُوتُوها.

وإنما قال ذلك شعيب، لأنَّ قومَهُ كانوا في سَعَةٍ من عيشهم، ورُخْصٍ من أسعارهم، كثيرة أموالهم، فقال لهم: لا تنقصُوا الناسَ حقوقَهم في مكاييلكم وموازينكم، فقد وَسَّعَ الله عليكم رزقكم. «وإني أخافُ عليكم»، بمخالفتكم أمرَ الله، وبَخْسكم الناسَ أموالهم في مكاييلكم وموازينكم. «عذابَ يومٍ مُحيط»، يقول: أنْ ينزلَ بكم عذابُ يومٍ محيط بكم عذابه. فجعل «المحيط» نعتاً لليوم، وهو من نعت «العذاب»، إذْ كان مفهوماً معناه، وكان العذابُ في اليوم، فصار كقولهم: «بعض جُبَّتك محترقة».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٨٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ مخبراً عن قِيلِ شعيبٍ لقومه: أوفوا الناسَ الكيلَ والميزان. «بالقسطِ»، يقول: بالعدلِ، وذلك بأن تُوفوا أهلَ الحقوق التي هي مما يُكالُ أو يُوزَنُ حقوقَهُم، على ما وَجَبَ لهم من التمامِ، بغيرِ بَخْسٍ ولا نقص.

وقوله: «ولا تَبْخَسُوا الناسَ أشياءهم»، يقول: ولا تنقصوا الناسَ حُقوقَهم التي يجبُ عليكم أنْ تُوفوهُمْ كيلاً أو وزناً أو غيرَ ذلك.

وقوله: «ولا تَعْثَوْا في الأرض مفسدين»، يقول: ولا تسيروا في الأرضِ تعملون فيها بمعاصي الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «بقيةُ الله خيرٌ لكم»، ما أبقاهُ الله لكم، بعد أنْ تُوفوا الناسَ حُقوقَهم بالمكيالِ والميزانِ بالقسطِ، فأحلّه لكم، خيرٌ لكم من الذي يبقى لكم ببخسكم الناسَ من حقوقهم بالمكيالِ والميزان. «إنْ كنتم مؤمنين»، يقول: إنْ كنتم مُصَدِّقينَ بوعدِ الله ووعيدِه، وحلالِه وحرامه.

وإنما اخترتُ في تأويلِ ذلك القولَ الذي اخترته، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ إنما تقدم إليهم بالنهي عن بَخْسِ الناسِ أشياءَهُمْ في المكيال والميزان، وإلى تركِ التطفيفِ في الكيلِ والبخسِ في الميزان دعاهم شعيب، فتعقيبُ ذلك بالخبرِ عَمَّا لهم من الحظِّ في الوفاء في الدنيا والآخرة، أولى مع أن قوله: «بقية»، إنما هي مصدر من قولِ القائل: «بَقِيَتْ بقيةٌ من كذا»، فلا وجهَ لتوجيهِ معنى ذلك إلا إلى: بقيةُ الله التي أبقاها لكم، مما لكم بعد وفائِكم الناسَ حُقوقَهم، خيرٌ لكم من بقيتكم من الحرامِ، الذي يبقى لكم من ظُلْمِكم الناسَ، ببخسكم إياهم في الكيلِ والوزن.

وقوله: «وما أنا عليكم بحفيظ»، يقول: وما أنا عليكم، أيها الناسُ، برقيبٍ أرقبكم عند كَيْلِكم ووَزْنِكم، هل تُوفون الناسَ حُقوقهم، أم تظلمونهم؟ وإنما عليَّ أنْ أبلغكم رسالةَ ربِّي، فقد أبلغتكُمُوها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال قومُ شعيبٍ: يا شعيبُ، أصَلاتُكَ تأمُرُكَ أنْ نتركَ

عبادةَ ما يعبدُ آباؤنا من الأوثانِ والأصنامِ. «أو أنْ نفعلَ في أموالنا ما نشاء»، من كسرِ الدراهم وقَطْعِهَا، وبخسِ الناسِ في الكيلِ والوزنِ. «إنك لأنتَ الحليمُ»، وهو الذي لا يَحْمِلُه الغضبُ أنْ يفعلَ ما لم يكن ليفعله في حالِ الرِّضى. «الرشيد»، يعني: رشيدَ الأمرِ في أمرِه إياهم أنْ يتركُوا عبادةَ الأوثان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال شعيبٌ لقومِه: يا قومِ، أرأيتم إنْ كنتُ على بيانٍ وبرهانٍ من ربِّي فيما أدعوكم إليه من عبادةِ الله، والبراءةِ من عبادةِ الأوثانِ والأصنامِ، وفيما أنهاكم عنه من إفسادِ المال. «ورزقني منه رزقاً حسناً»، يعني: حلالاً طيِّباً. «وما أُريدُ أنْ أُخالِفَكُمْ إلى ما أنهاكم عنه»، يقول: وما أريدُ أنْ أنهاكم عن أمرٍ، ثم أفعلُ خِلَافَهُ، بَلْ لا أفعلُ إلا ما آمركم به، ولا أنتهي إلاَّ عما أنهاكم عنه.

«إنْ أُريدُ إلَّا الإصلاحَ»، يقول: ما أُريدُ فيما آمركم به وأنهاكم عنه، إلاَّ إصلاحكم وإصلاحَ أمركم. «ما استطعتُ»، يقول: ما قدرتُ على إصلاحِه، لئلا ينالكم من الله عقوبةٌ مُنَكِّلَةٌ، بخلافكم أمْرَهُ، ومعصيَتِكُمْ رسولَهُ.

«وما توفيقي إلا بالله»، يقول: وما إصابتي الحَقَّ في محاولتي إصلاحَكُمْ وإصلاح أمركم، إلا بالله، فإنه هو المُعِينُ على ذلك، إلَّا يُعِنِّي عليه لم أُصِبِ الحَقَّ فيه.

وقوله: «عليه توكلتُ»، يقول: إلى الله أُفَوِّضُ أمري، فإنَّ به ثقتي، وعليه اعتمادي في أموري.

وقوله: «وإليه أُنيب»، وإليه أُقبِلُ بالطاعةِ، وأرجِعُ بالتوبة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ مخبراً عن قِيلِ شعيبٍ لقومه: «ويا قوم لا يجرمنكم شِقاقي»، يقول: لا يَحْمِلَنَّكُمْ عداوتي وبُغْضِي، وفراق الدينِ الذي أنا عليه، على الإصرارِ على ما أنتم عليه من الكفرِ بالله، وعبادةِ الأوثان، وبَخْسِ الناسِ في المكيالِ والميزان، وتركِ الإنابةِ والتوبةِ، فيصيبكم. «مِثْلُ ما أصابَ قومَ نوحٍ»، من الغرقِ. «أو قومَ هود»، من العذابِ. «أو قوم صالح»، من الرَّجفةِ. «وما قومُ لوطٍ»، الذين ائتفكت بهم الأرضُ. «منكم ببعيد»، هَلَاكُهم، أفلا تَتَّعِظُونَ به، وتعتبرون؟ يقول: فاعتبروا بهؤلاء، واحْذَرُوا أنْ يُصِيبكم بشقاقي مِثْلُ الذي أصابهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ، مخبراً عن قِيلِ شعيبٍ لقومه: «استغفروا ربكم»، أيها القومُ، من ذُنوبكم بينَكُمْ وبينَ رَبّكم التي أنتم عليها مُقيمون، من عبادةِ الآلهةِ والأصنامِ، وبَخْسِ الناسِ حقوقَهم في المكاييلِ والموازين. «ثم تُوبوا إليه»، يقول: ثم ارجعوا إلى طاعتِه، والانتهاءِ إلى أمره ونهيه. «إنَّ ربي رحيم»، يقول: هو رحيمٌ بمن تابَ وأنابَ إليه، أنْ يُعَذِّبَهُ بعد التوبةِ. «ودودٌ»، يقول: ذُو مَحبَّةٍ لمن أنابَ وتابَ إليه، يودُّه ويحبُّه.

القَوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ٩١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال قومُ شعيبٍ لشعيب: «يا شعيبُ ما نَفْقَهُ كثيراً مما تقول»، أي: ما نعلمُ حقيقةَ كثيرٍ مما تقولُ وتُخْبِرُنَا به. «وإنا لنراكَ فينا ضعيفا» ذُكِر أنه كان ضريراً، فلذلك قالوا له: «إنا لنراكَ فينا ضعيفاً».

وقوله: «ولولا رَهْطُكَ لرجمناكَ»، يقول: يقولون: ولولا أنك في عشيرتكَ وقومكَ. «لرجمناكَ»، يعنون: لسَبَبْنَاكَ. وقال بعضهم: معناه: لقَتَلْنَاكَ.

وقوله: «وما أنتَ علينا بعزيز»، يعنون: ما أنتَ مِمَّنْ يكرَّم علينا، فَيَعْظُمُ علينا إذلالُه وهَوانُه، بل ذلك علينا هَيِّنٌ.

القَوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ٩٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال شعيب لقومه: يا قومِ، أعَزَّزْتُمْ قومَكم، فكانوا أعزَّ عليكم من الله، واسْتَخْفَفْتُمْ بربِّكم، فجعلتموه خلفَ ظهوركم، لا تأتمرونَ لأمرِه، ولا تخافونَ عقابَهُ ولا تعظِّمُونَهُ حَقَّ عظَمته؟

يُقالُ للرجل إذا لم يَقْضِ حاجةَ الرجل: «نَبَذ حاجَتَهُ وراءَ ظهرِه»، أي: تركها لا يلتفتُ إليها. وإذا قَضَاها قيل: جعلَها أمامَهُ، ونُصْبَ عينيه»، ويقال: «ظَهَرتَ بحاجتي» و«جعلتها ظِهْرِيَّة»، أي خلف ظهرك.

وقـولـه: «إنَّ ربي بمـا تعملون محيط»، يقول: إنَّ ربي محيطٌ عِلْمُه بعملكم، فلا يَخْفَى عليه منه شيءٌ، وهو مُجازِيكم على جميعه عاجلاً وآجلاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ، مُخبراً عن قِيلِ شعيبٍ لقومه: «ويا قومِ اعملوا على مكانتكم»، يقول: على تمكنكم.

يقال منه: «الرجلُ يعملُ على مَكينَتِه، ومَكِنتِه»، أي: على اتِّئادِه، «ومَكُن الرجلُ يمكُنُ مكناً ومَكانةً ومَكاناً».

وكان بعضُ أهلِ التأويلِ يقول في معنى قوله: «على مكانتكم»، على منازِلكم.

فمعنى الكلام إذاً: ويا قومِ اعملُوا على تَمَكُّنِكُمْ من العملِ الذي تَعملونَهُ، إنِّي عاملٌ على تؤدةٍ من العملِ الذي أعمله. «سوف تعلمون»، أيُّنَا الجاني على نفسِه، والمخطىء عليها، والمصيبُ في فعله المحسنُ إلى نفسِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ، مخبراً عن قِيلِ نبيِّهِ شعيب لقومه: «الذي يأتيه مِنّا ومنكم، أيها القومُ. «عذابٌ يُخْزِيه»، يقول: يُذِلُّه ويُهينُه.

«ومَنْ هو كاذِبٌ»، يقول: ويُخزي أيضاً الذي هو كاذبٌ في قِيلِه وخَبَرِه مِنَّا ومنكم. «وارتقبوا»، أي: انتظروا وتفقدوا، من «الرِّقْبة».

وقولـه: «إنِي معكم رَقيبٌ»، يقول: إنِّي أيضاً ذو رِقْبة لذلكَ العذابِ معكم، وناظرٌ إليه، بمَنْ هو نازلٌ منا ومنكم؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ، ولما جاء قضاؤنا في قومِ شعيبٍ، بعذابنا. «نَجَّيْنَا شُعيباً»، رسولنا، والذينَ آمنوا به فَصَدَّقُوه على ما جاءهم به من عندِ رَبِّهم، مع شعيبٍ من عذابنا الذي بَعَثْنَا على قومِه. «برحمةٍ منا»، له ولِمَنْ آمنَ به واتَّبَعَهُ على ما جاءهم به من عنـدِ ربهم، وأخذتِ الذين ظَلَمُوا صيحةٌ من السماءِ أَخْمَدَتْهُمْ، فأهلكتهم بكُفْرِهم بربِّهم. وقِيلَ إنَّ جبريلَ عليه السلام صاحَ بهم صَيحةً أخرجتْ أرواحهم من أجسامِهم. «فأصبحوا في ديارهم جاثمين»، على رُكَبِهم، وصَرْعى بأفنيتهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: كأن لم يَعِشْ قومُ شعيبٍ الذين أهلكَهم الله بعذابِهِ، حينَ أصبحوا جاثمينَ في ديارهم قبلَ ذلك، ولم يَغْنَوْا.

من قولهم: «غنيتُ بمكانِ كذا»، إذا أقمتُ به.

وقوله: «ألا بُعْداً لمدين كما بعدت ثمود»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ألا أَبْعَدَ الله مَدْيَنَ من رحمتِه، بإحلالِ نقمتِه بهم. «كما بَعِدَتْ ثمود»، يقول: كما بعدت من قَبْلِهم ثمود من رحمتِه، بإنزالِ سَخَطِه بهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ

﴿مُّبِينٍ ۝٩٦ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ۝٩٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولقد أرسلنا موسى بأدِلَّتِنا على توحيدنا، وحجةٍ تُبينُ لمن عَايَنَهَا وتأمَّلَهَا بقلبٍ صحيحٍ، أنها تدلُّ على توحيدِ الله، وكذبَ كُلِّ مَنِ ادَّعى الربوبيةَ دونه، وبُطُولِ قولِ مَنْ أشركَ معه في الأُلوهيةِ غيرَهُ. «إلى فرعون وملئه»، يعني: إلى أشرافِ جُنْدِه وتُبَّاعه. «فاتبعوا أمرَ فرعون»، يقول: فَكَذَّبَ فرعون ومَلَؤُه موسى، وجَحَدُوا وحدانيةَ الله، وأبَوْا قَبُولَ ما أتاهم به موسى من عندِ الله، واتَّبَعَ ملأُ فرعونَ أمرَ فرعون دونَ أمرِ الله، وأطاعوه في تكذيب موسى، وردّ ما جاءهم به من عندِ الله عليه ـ يقول الله تعالى ذِكْرُهُ: «وما أمرُ فرعونَ برشيدٍ»، يعني: أنه لا يُرْشِدُ أمرُ فرعون مَنْ قَبِلَهُ منه، في تكذيب موسى، إلى خيرٍ، ولا يَهديه إلى صلاحٍ، بل يُورِدُه نارَ جهنم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ۝٩٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «يَقْدُمُ» فرعونُ، «قومَهُ يومَ القيامة»، يَقُودُهم، فيمضي بهم إلى النارِ، حتى يُورِدَهُمُوها، ويُصْلِيهم سَعِيرَهَا. «وبئس الوِرْدُ»، يقول: وبئس الورد الذي يَرِدُونَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ۝٩٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأتبعهم الله في هذه ـ يعني في هذه الدنيا ـ مع العذابِ الذي عَجَّلَهُ لهم فيها، من الغَرَقِ في البحر، لعنَةً. «ويومَ القيامة»، يقول: وفي يوم القيامة أيضاً يلعنون لعنةً أخرى.

وقوله: «بِئْسَ الرِّفْدُ المرفود»، يقول: بئس العَوْنُ المُعان، اللعنةُ المزيدةُ فيها أخرى مِثْلُها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: هذا القَصَصُ الذي ذَكَرْناهُ لكَ في هذه السورة، والنبأُ الذي أنبأناكَهُ فيها، من أخبارِ القرى التي أهلكنا أهلها بكفرِهم بالله، وتكذيبِهم رُسُلَهُ. «نَقُصُّهُ عليكَ»، فنخبركَ به. «منها قائم»، يقول: منها قائم بُنْيَانُه، بائدٌ أَهْلُهُ هالك، ومنها قائمٌ بنيانه عامرٌ، ومنها حصيدٌ بنيانه، خرابٌ مُتَدَاعٍ، قد تَعَفَّى أثرُه دارسٌ.

من قولهم: «زرع حصيد»، إذا كان قد اسْتُؤْصِلَ قطعه، وإنما هو «محصود»، ولكنه صُرِفَ إلى «فعيل»، كما قد بَيَّنَّا في نظائره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما عاقبنَا أهلَ هذه القرى التي اقتصصنا نَبأَهَا عليكَ، يا محمدُ، بغيرِ استحقاقٍ منهم عقوبتنا، فنكون بذلك قد وضعنا عُقُوبَتِنَاهُمْ في غير موضعها. «ولكن ظلموا أنفسهم»، يقول: ولكنهم أوجبوا لأنفسِهم بمعصيتِهم الله وكُفْرِهم به، عقوبتَهُ وعَذَابَهُ، فأحَلُّوا بها ما لم يكن لهم أنْ يحلوه بها، وأوجبوا لها ما لم يَكُنْ لهم أن يوجبوه لها. «فما أَغْنَتْ عنهم آلهتهم التي يَدْعُونَ من دونِ الله من شيء»، يقول: فما دَفَعَتْ عنهم آلهتهم التي يدعونها

من دونِ الله، ويَدْعُونَا أرباباً، من عقابِ الله وعذابه إذا أَحَلَّهُ بهم ربُّهم من شيء، ولا ردتْ عنهم شيئاً منه. «لما جاءَ أمرُ رَبِّكَ»، يا محمدُ، يقول: لما جاء قضاءُ رَبِّكَ بعذابهم، فحقَّ عليهم عقابه، ونزل بهم سَخَطه. «وما زادوهم غير تتبيب»، يقول: وما زادتهم آلهتُهم، عند مجيءِ أمرِ رَبِّكَ هؤلاء المشركين بعقابِ الله، غير تخسيرٍ وتدمير وإهلاك.

وهذا الخبرُ من الله تعالى ذِكْرُهُ، وإنْ كان خبراً عَمَّنْ مَضَى من الأممِ قبلنا، فإنه وعيدٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ لنا، أيتها الأمة، أنَّا إنْ سلكنا سبيلَ الأممِ قبلَنا في الخلاف عليه وعلى رسوله، سلك بنا سبيلهم في العقُوبة ـ وإعلامٌ منه لنا أنه لايظلمُ أحداً من خلقه، وأنَّ العبادَ هُم الذين يظلمون أنفسهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُهُ: وكما أخذتُ، أيها الناسُ، أهلَ هذه القرى التي اقتصصتُ عليكَ نبأَ أَهْلِهَا بما أخذتهم به من العذابِ، على خِلافِهم أمري، وتكذيبهم رسلي، وجُحودِهم آياتي، فكذلك أَخْذِي القرَى وأهلها إذا أخذتُهم بعقـابي، وهم ظَلَمَـةٌ لأنفسهم بكفـرهم بالله، وإشراكهم به غيره، وتكذيبهم رسله. «إنَّ أَخْذَهُ أليم»، يقول: إنَّ أخذَ ربكم بالعقابِ مَنْ أخذه. «أليم»، يقول: مُوجعٌ. «شديد» الإيجاع.

وهذا من الله تحذيرٌ لهذه الأمة، أنْ يسلكوا في معصيتهِ طريقَ مَنْ قَبْلَهُمْ من الأممِ الفاجرة، فيحلَّ بهم ما حَلَّ بهم من المثُلات.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْأٓخِرَةِ﴾

﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ۝١٠٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ في أخْذِنَا مَنْ أخذنا من أهلِ القرى التي اقتصصنا خَبَرَهَا عليكم، أيها الناسُ. «لآية»، يقول: لعبرةً وعِظَةً - لمن خافَ عقابَ الله وعذابَهُ في الآخرة من عبادِهِ، وحجةً عليه لربه، وزاجراً يزجره عن أنْ يعصي الله ويخالفه فيما أمره ونهاه.

وقوله: «ذلك يومٌ مجموعٌ له الناسُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: هذا اليوم يعني يوم القيامة. «يومٌ مجموعٌ له الناس»، يقول: يحشرُ الله له الناسَ من قُبورِهم، فيجمعهم فيه للجزاءِ والثوابِ والعقاب. «وذلكَ يومٌ مشهود»، يقول: وهو يومٌ تَشهدُه الخلائقُ، لا يتخلَّفُ منهم أحدٌ، فينتقمُ حينئذٍ مِمَّنْ عَصَى الله وخالفَ أمره وكذَّبَ رُسُلَه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ۝١٠٤﴾

يقـول تعالى ذِكْرُهُ: وما نؤخِّرُ يومَ القيامةِ عنكم أنْ نَجيئَكُمْ به إلَّا لأن يُقْضَى، فقضى له أجـلًا فعدَّهُ وأحصَاه، فلا يأتي إلا لأجله ذلك، لا يتقدمُ مجيئُهُ قبلَ ذلك ولا يتأخر.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ۝١٠٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝١٠٦ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٠٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: يوم يأتي يوم القيامة، أيها الناسُ، وتقوم الساعة، لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إلاَّ بإذنِ رَبِّها.

وقيل: «لا تَكَلَّمُ»، وإنما هي: «لا تتكلم»، فحذفَ إحدى التاءين، اجتزاءً بدلالةِ الباقية منهما عليها.

وقوله: «فمنهم شقيٌّ وسعيد»، يقول: فمن هذه النفوس التي لا تكلمُ يومَ القيامة إلا بإذنِ ربها، شقيٌّ وسعيد ـ وعاد على «النفس»، وهي في اللفظ واحدة، بذكرِ الجميعِ في قوله: «فمنهم شقي وسعيد».

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «فأما الذين شَقُوا ففي النارِ لهم فيها زفيرٌ»، وهو أوَّلُ نُهاقِ الحمارِ وشبهه. «وشهيق»، وهو آخر نهيقه إذا رَدَّدَهُ في الجوفِ عند فراغه من نُهاقه.

وقوله: «خالدين فيها»، لابثينَ فيها. ويعني بقوله: «ما دامت السموات والأرض»، أبـداً. وذلك أنَّ العربَ إذا أرادت أنْ تَصِفَ الشيءَ بالدوامِ أبداً قالت: «هذا دائمٌ دوام السمواتِ والأرض»، بمعنى أنه دائم أبداً. والمعنى في ذلك: خالدين فيها أبداً.

ثم قال: «إلا ما شاءَرَبُّكَ»، واختلفَ أهلُ العلم والتأويل في معنى ذلك.

فقال بعضهم: هذا استثناءٌ استثناهُ الله في أهلِ التوحيدِ، أنه يُخْرِجُهم من النارِ إذا شاء بعد أنْ أدخلهم النار.

وقال آخرون: الاستثناءُ في هذه الآية في أهل التوحيد ـ إلا أنهم قالوا: معنى قوله: «إلا ما شاء ربك»، إلا أنْ يشاء رَبُّكَ أنْ يتجاوزَ عنهم فلا يدخلهم النار ـ ووجَّهُوا الاستثناءَ إلى أنه من قوله: «فأما الذين شَقُوا ففي النار»، «إلا ما شاءَ ربك»، لا من «الخلود».

وقال آخرون: عَنَى بذلك أهلَ النار وكُلَّ مَنْ دخلها.

وقال آخرون: أخبرنا الله بمشيئتِه لأهلِ الجنة، فَعَرَّفَنا معنى ثُنْياه بقوله: «عطاءً غير مجذوذ»، أنها في الزيادة على مقدارِ مدةِ السمواتِ والأرض. قال: ولم يخبرنا بمشيئتِه في أهلِ النار. وجائزٌ أن تكونَ مشيئتُه في الزيادة، وجائزٌ أنْ تكونَ في النقصان.

وأَوْلى هذه الأقوالِ بالصوابِ قولُ مَنْ قال: إنَّ ذلك استثناء في أهلِ التوحيد من أهلِ الكبائر، أنه يدخلهم النارَ خالدينَ فيها أبداً، إلا ما شاءَ من تركهم فيها أقلَّ من ذلك، ثم يُخرجُهم فيدخِلُهم الجنةَ، لأنَّ الله جَلَّ ثناؤهُ أوعدَ أهلَ الشركِ به الخلودَ في النار، فغير جائزٍ أنْ يكون استثناءً في أهلِ الشرك.

وقوله: «إنَّ رَبَّكَ فَعّال لما يريد»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ رَبَّكَ يا محمدُ، لا يمنعهُ مانعٌ من فِعْلِ ما أرادَ فِعْلَهُ بِمَنْ عَصَاهُ وخالفَ أمره، من الانتقامِ منه، ولكنه يفعل ما يشاء فِعْلَهُ، فَيَمضي فيهم وفي من شاء من خَلْقِه فعله وقضاؤه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾

وتأويل ذلك: وأما الذين سُعِدُوا برحمةِ الله فهم في الجنةِ خالدينَ فيها ما دامتِ السموات والأرض، يقول: أبداً. «إلَّا ما شاء ربك»، من قدر مُكْثِهم في النار من لَدُنْ دَخَلُوها إلى أنْ أُدْخِلُوا الجنة.

وأما قوله: «عطاء غير مجذوذ»، فإنه يعني: عطاءً من الله غيرَ مقطوعٍ عنهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: فلا تَكُ في شكٍ، يا محمدُ، مما يَعبدُ هؤلاء المشركونَ من قومِكَ من الآلهةِ والأصنام، أنه ضلالٌ وباطلٌ، وأنه بالله شركٌ. «ما يعبدُ هؤلاء إلا كما يعبدُ آباؤهم من قَبْلُ»، يقول: إلا كعبادةِ آبائِهم، من قبل عبادتِهم لها. يُخبر تعالى ذِكْرُهُ أنهم لم يعبدُوا ما عبدوا من الأوثانِ، إلا اتباعاً منهم منهاجَ آبائهم، واقتفاءً منهم آثارهم في عِبادَتِهِمُوها، لا عن أمرِ الله إياهم بذلك، ولا بحجةٍ تَبَيَّنُوهَا توجبُ عليهم عبادتها.

ثم أخبر جَلَّ ثناؤُهُ نبيَّه ما هو فاعلٌ بهم لعبادَتِهم ذلكَ، فقال جَلَّ ثناؤُهُ: «وإنا لَمُوَفُّوهم نصيبَهم غيرَ منقوصٍ»، يعني: حَظَّهم مما وعدتهم أن أُوَفِّيَهُمُوه من خيرٍ أو شرٍ. «غير منقوص»، يقول: لا أنقصهم مما وَعَدْتُهم، بَلْ أُتَمِّمُ ذلك لهم على التمام والكمال.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: مسلِّياً نبيَّه في تكذيبِ مشركي قومِه إياه فيما أتاهم به من عندِ الله، بفعل بني إسرائيلَ بموسى فيما أتاهم به من عندِ الله. يقول له تعالى ذِكْرُهُ: ولا يَحْزُنْكَ، يا محمدُ، تكذيبُ هؤلاء المشركينَ لك، وامْضِ لما أمركَ به ربُّكَ من تبليغِ رسالتِه، فإنَّ الذي يفعلُ بك هؤلاء، من ردِّ ما جِئْتَهُمْ به عليك من النَّصيحة، من فِعْلِ ضُربَائهم من الأممِ قَبْلَهُمْ، وسنَّةٌ من سُننهم.

ثم أخبره جَلَّ ثناؤُهُ بما فعل قومُ موسى به فقال: «ولقد آتينا موسى الكتابَ»، يعني التوراة، كما آتيناكَ الفرقانَ، فاختلفَ في ذلك الكتابِ قومُ موسى، فكذَّب به بعضُهم وصَدَّقَ به بعضهم، كما قد فعلَ قومُكَ بالفرقانِ، من تصديقِ بعضٍ به، وتكذيبِ بعض. «ولولا كلمةٌ سبقتْ من رَبِّكَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولولا كلمةٌ سبقت، يا محمدُ، من ربك بأنه لا يعجِّلُ على خَلْقِه بالعذاب، ولكن يتأنَّى حتى يبلغَ الكتابُ أجله. «لقضيَ بينهم»، يقول: لقضي بين المُكَذِّبِ منهم به والمصدِّقِ، بإهلاكِ الله المكذبَ به منهم، وإنجائِه المصدقَ به. «وإنهم لفي شكٍ منه مريب»، يقول: وإنَّ المكذبينَ به منهم، لفي شك من حقيقتِه أنه من عندِ الله. «مريب»، يقول: يُرِيبُهم، فلا يدرون أحقٌّ هو أم باطلٌ؟ ولكنهم فيه ممترون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ١١١﴾

اختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك.

فقرأته جماعة من أهلِ المدينة والكوفة: ﴿وَإِنَّ﴾ مشددة ﴿كُلًّا لَمَّا﴾ مشددة.

وقد قرأ ذلك بعضُ قرأةِ الكوفيين: ﴿وَإِنْ كُلًّا﴾، بتخفيفِ «إنْ» ونصبِ ﴿كلًّا لَمَّا﴾، مشددة.

وقرأ ذلك بعض المدنيين بتخفيف: ﴿إِنْ﴾ ونصب ﴿كُلًّا﴾، وتخفيف ﴿لَمَا﴾.

وقرأ ذلك بعضُ أهلِ الحجاز والبصرة: ﴿وَإِنَّ﴾ مشددة ﴿كُلًّا لَمَا﴾، مخففة ـ ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾.

وأصحُّ هذه القراءاتِ مخرجاً على كلامِ العرب المستفيض فيهم، قراءة من قرأ: ﴿وإنَّ﴾ بتشديدِ نُونِهَا ﴿كُلًّا لَمَا﴾ بتخفيف «ما» ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ﴾ بمعنى: وإنَّ كُلَّ هؤلاء الذين قَصَصنا عليكَ، يا محمدُ، قَصَصَهم في هذه السورة، لَمَنْ لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أعمالهم، بالصالحِ منها بالجزيلِ من الثواب، وبالطالحِ منها بالشديدِ من العقابِ، فتكون «ما» بمعنى «مَن»، واللام التي فيها جواباً لـ«إنَّ»، واللام في قوله: «ليوفينهم»، لام قسم.

وقوله: «إنه بما يعملون خبير»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ ربكَ بما يعملُ هؤلاء المشركونَ بالله من قومكَ، يا محمدُ، «خبير»، لا يَخْفَى عليه شيءٌ من عملهم، بل يخبرُ ذلك كله ويَعْلَمُه ويحيطُ به، حتى يجازيهم على جميعِ ذلك جزاءهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ١١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: فاستقمْ أنتَ، يا محمدُ، على أمرِ رَبِّكَ، والدِّينِ الذي ابتعثكَ به، والدعاء إليه كما أمركَ رَبُّكَ. «ومَنْ تابَ معك»، يقول: ومَنْ رجعَ معكَ إلى طاعةِ الله، والعملِ بما أمره به رَبُّه من بعدِ كُفْرِه. «ولا تطغوا»، يقول: ولا تعدُوا أَمْرَهُ إلى ما نَهاكُمْ عنه. «إنه بما تعملون بصير»، يقول: إنَّ رَبَّكم، أيها الناسُ، بما تعملونَ من الأعمالِ كلِّها، طاعتها ومعصيتها. «بصير»، ذُو علمٍ بها، لا يَخْفَى عليه منها شيءٌ، وهو لجميعها مُبْصِرٌ. يقول تعالى ذِكْرُهُ: فاتقوا الله، أيها الناسُ، أنْ يطَّلعَ عليكم رَبُّكم وأنتم عاملون بخلافِ أمرِه، فإنه ذُو علمٍ بما تعملون، وهو لكم بالمرصاد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ

﴿ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولا تميلوا، أيها الناسُ، إلى قولِ هؤلاء الذين كفروا بالله، فَتَقْبَلُوا منهم وتَرْضوا أعمالَهم. «فتَمَسَّكُمُ النار»، بفِعْلِكم ذلك، وما لكم من دونِ الله من ناصرٍ ينصركم ووليٍّ يليكم. «ثم لا تُنصرون»، يقول: فإنكم إنْ فعلتم ذلك، لم ينصركم الله، بل يُخَلِّيكم من نُصْرَتِه، ويسلِّط عليكم عدوَّكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: «وأقم الصلاة»، يا محمدُ، ، يعني: صَلِّ «طرفي النهار»، يعني: الغداةَ والعشيَّ.

واختلف أهلُ التأويل في التي عُنيت بهذه الآية من صَلواتِ العشيِّ، بعد إجماعِ جميعهم على أنَّ التي عُنيت من صَلاة الغداةِ، الفجرُ.

فقال بعضهم: عُنيت بذلك صلاةُ الظُّهْرِ والعصرِ. قالوا: وهما من صلاةِ العشيّ.

وقال آخرون: بل عنى بها صلاة المغرب.

وقال بعضهم: بل عنى بطرفي النهار، الظهر والعصر، وبقوله: «زلفاً من الليل»، المغرب والعشاء والصبح.

وأَوْلى هذه الأقوال في ذلك عندي بالصواب، قولُ مَنْ قال: «هي صلاة المغرب».

وإنما قلنا: «هو أولى بالصواب»، لإجماعِ الجميعِ على أنَّ صلاةَ أحدِ

الطرفين من ذلك صلاة الفجر، وهي تصلى قبل طُلوعِ الشمس. فالواجبُ، إذْ كان ذلك من جميعهم إجماعاً، أنْ تكونَ صلاةُ الطرفِ الآخر المغرب، لأنها تُصَلَّى بعد غُروب الشمسِ. ولو كان واجباً أنْ يكون مراداً بصلاةِ أحدِ الطرفينِ قبلَ غروبِ الشمس، وَجَبَ أنْ يكون مراداً بصلاةِ الطرفِ الآخر بعدَ طلوعها. وذلك ما لا نعلمُ قائلاً قالَهُ، إلاَّ مَنْ قال: «عنى بذلك صلاة الظهر والعصر». وذلـك قولٌ لا يُخِيلُ فسـاده[1]، لأنهمـا إلى أنْ يكـونا جميعاً من صلاةِ أحدِ الطرفين، أقربُ منهما إلى أنْ يكونا من صلاةِ طرفي النهار. وذلك أنَّ «الظهر» لا شَكَّ أنها تُصَلَّى بعد مُضِيٍّ نصفِ النهارِ في النصف الثاني منه، فمحالٌ أنْ تكونَ من طرفِ النهار الأول، وهي في طرفه الآخر.

فإذا كانَ لا قائلَ مِنْ أهلِ العلم يقول: «عنى بصلاة طرف النهار الأول صلاةً بعد طلوعِ الشمس»، وَجَبَ أنْ يكونَ غير جائزٍ أنْ يُقالَ: «عنى بصلاة طرف النهار الآخر صلاةً قبل غروبها».

وإذا كان ذلك كذلك، صَحَّ ما قلنا في ذلك من القولِ، وفسدَ ما خالفه.

وأما قوله: «وزُلَفاً من الليل»، فإنه يعني: ساعاتٍ من الليل.

وقوله: «إنَّ الحسناتِ يُذْهِبْنَ السيئات»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الإنابةَ إلى طاعةِ الله والعمل بما يُرضِيه، يُذْهِبُ آثامَ معصيةِ الله، ويكفِّرُ الذنوبَ.

ثم اختلف أهلُ التأويل في «الحسنات» التي عنى الله في هذا الموضع، اللاتي يُذْهِبْنَ السيئات.

فقال بعضهم: هُنَّ الصلواتُ الخمسُ المكتوبات.

وقال آخرون: هن قول: «سبحانَ الله، والحمدُ لله، ولا إلهَ إلا الله، والله أكبر».

---

(١) يعني: لايُشْكِلُ فساده، وشيء مخيل: مُشْكِلٌ.

وأَوْلى التأويلين بالصواب في ذلك، قولُ مَنْ قال في ذلك: «هُنَّ الصلواتُ الخمس»، لصحةِ الأخبارِ عن رسولِ الله ﷺ وتواتُرِهَا عنه أنه قال: «مَثَلُ الصلواتِ الخمس مَثَلُ نَهْرٍ جَارٍ عَلَى بابِ أَحَدِكم، ينغمسُ فيه كُلَّ يومٍ خمسَ مراتٍ، فماذا يُبقينَ من دَرَنه؟»[1]، وأنَّ ذلك في سياق أمرِ الله بإقامةِ الصلوات، والوعدُ على إقامتها الجزيلَ من الثوابِ عَقيبها، أَوْلى من الوعدِ على ما لم يَجْرِ له ذِكْرٌ من صالحاتِ سائرِ الأعمال، إذا خُصَّ بالقصدِ بذلك بعضٌ دون بعض.

وقوله: «ذلك ذِكْرى للذاكرين»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: هذا الذي أوعدتُ عليه من الركونِ إلى الظلم، وتهددتُ فيه، والذي وعدتُ فيه من إقامةِ الصلوات اللواتي يُذهبنَ السيئاتِ، تذكرةٌ ذَكَّرْتُ بها قوماً يذكُرونَ وَعْدَ الله، فيرجُون ثوابَهُ ووعيدَهُ، فيخافون عقابه، لا مَنْ قد طبع على قلبه، فلا يُجيبُ داعياً، ولا يسمع زاجراً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: واصبرْ، يا محمدُ، على ما تَلْقَى من مشركي قومكَ من الاذى في الله والمكروه، رجاءَ جزيلِ ثوابِ الله على ذلك، فإنَّ الله لا يُضِيعُ ثوابَ عمل مَنْ أحسنَ فأطاعَ الله واتبع أمره، فيذهب به، بل يوَفِّرهُ أحوجَ ما يكون إليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا

(١) أخرجه البخاري(٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧) وغيرهما من حديث أبي هريرة باختلاف لفظي. ومسلم (٦٦٨)من حديث جابر بن عبدالله الأنصاري.

بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فَهَلاّ كان من القرون الذين قَصَصْتُ عليكَ نبأَهُمْ في هذه السورة، الذين أهلكتُهم بمعصيتِهم إيّايَ، وكُفْرِهم برسلي. «مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بقيةٍ»، يقول: ذَوُو بقيةٍ من الفَهْمِ والعقل، يعتبرون مواعظَ الله ويتدبرون حُجَجَهُ، فيعرفونَ ما لهم في الإيمانِ بالله، وما عليهم في الكفرِ به. «يَنْهَوْنَ عن الفسادِ في الأرض»، يقول: ينهون أهلَ المعاصي عن معاصيهم، وأهلَ الكفرِ بالله عن كُفْرِهم به، في أرضه. «إلاّ قليلاً ممن أنجينا منهم»، يقول: لم يكن من القرونِ من قبلكم أُولُو بقيةٍ ينهونَ عن الفسادِ في الأرض، إلاّ يسيراً، فإنهم كانوا ينهون عن الفسادِ في الأرض، فَنَجَّاهُم الله من عذابه، حين أَخَذَ مَنْ كان مقيماً على الكفرِ بالله عذابُه - وهم أتباعُ الأنبياء والرسل.

وقـولـه: «واتَّبَعَ الذين ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فيه»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: «واتبع الذين ظلموا»، أنفسهم، فكفروا بالله «ما أترفوا فيه».

وكـأنَّ هؤلاء وجَّهـوا تأويلَ الكـلامِ: واتبـع الذين ظلموا الشيءَ الذي أَنْـظَرَهُمْ فيه ربُّهم من نعيمِ الدنيا ولذاتها، إيثاراً له على عملِ الآخرةِ وما يُنَجِّيهم من عذابِ الله.

وقال آخرون: معنى ذلك: واتَّبَعَ الذين ظَلَموا ما تَجَبَّرُوا فيه من المُلْكِ، وعتَوْا عن أمرِ الله.

وأَوْلى الأقوال في ذلك بالصواب، أن يقال: إنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ: أخبر أنَّ الذين ظلموا أنفسهم من كُلِّ أمةٍ سلفت، فكفروا بالله، اتبعوا ما أُنْظِرُوا فيه من لَذَّاتِ الدنيا، فاستكبروا وكفروا بالله، واتبعوا ما أُنْظِرُوا فيه من لذاتِ الدنيا، فاستكبروا عن أمرِ الله، وتجبَّرُوا وصَدُّوا عن سبيله.

وذلك أن «المُتْرَفَ»، في كلام العرب، هو المُنَعَّمُ الذي قد غُذِّي باللذات.

وقوله: «وكانوا مجرمين»، يقول: وكانوا مكتسبي الكفر بالله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ١١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما كان رَبُّكَ، يا محمدُ، ليهلك القرى التي أهلكها، التي قَصَّ عليكَ نبأَهَا، ظُلماً وأهلُها مُصلحونَ في أعمالهم، غير مسيئين، فيكون إهلاكُه إياهم مع إصلاحِهم في أعمالهم وطاعتهم ربَّهم، ظلماً. ولكنَّهُ أهلكَهَا بكفرِ أهلِها بالله، وتمادِيهم في غيِّهم، وتكذيبهم رُسُلهم، وركوبهم السيئات.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ١١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولو شاء رَبُّكَ، يا محمدُ، لجعلَ الناسَ كلهم جماعةً واحدةً، على مِلَّةٍ واحدة، ودينٍ واحد.

وقوله: «ولا يزالون مختلفين»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولا يزالُ النَّاسُ مختلفينَ «إلَّا مَنْ رحمَ رَبُّك».

ثم اختلف أهلُ التأويل في «الاختلاف» الذي وصفَ الله الناسَ أنهم لا يزالونَ به.

فقال بعضهم: هو الاختلافُ في الأديان ـ فتأويلُ ذلك على مذهبِ هؤلاء ولا يزالُ الناس مختلفينَ على أديانٍ شتى، من بين يهوديٍّ ونصرانيّ ومجوسي ونحو ذلك. وقال قائلو هذه المقالة: استثنى الله من ذلك مَنْ رَحِمَهُمْ، وهم أهلُ الإيمان.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ولا يزالونَ مختلفينَ في الرزقِ، فهذا فقيرٌ وهذا غنيٌ.

وقال بعضهم: مختلفينَ في المغفرةِ والرحمةِ، أو كما قال.

وأوْلى الأقوالِ في تأويلِ ذلك بالصوابِ، قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: «ولا يزالُ الناس مختلفينَ في أديانهم وأهوائهم على أديانٍ ومِلَلٍ وأهواءٍ شتى، إلا مَنْ رحمَ ربك، فآمنَ بالله وصَدَّقَ رُسُلَهُ، فإنهم لا يختلفونَ في توحيدِ الله، وتصديقِ رُسُلِه، وما جاءهم من عند الله».

وإنما قلت: ذلك أوْلى بالصوابِ في تأويلِ ذلك، لأنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ أتبع ذلك قوله: «وتَمَّتْ كلمةُ رَبِّكَ لأملأنَّ جهنمَ من الجِنَّةِ والناسِ أجمعين»، ففي ذلك دليلٌ واضح أن الذي قبله من ذِكْرِ خبرِه عن اختلافِ الناس، إنما هو خبرٌ عن اختلافٍ مذمومٍ يُوجِبُ لهمُ النارَ. ولو كان خبراً عن اختلافِهم في الرزق، لم يُعَقِّبْ ذلك بالخبرِ عن عِقابهم وعَذابهم.

وأما قوله: «ولذلك خلقهم»، فإنَّ أهلَ التأويل اختلفوا في تأويله.

فقال بعضهم: معناه: وللاختلافِ خَلَقَهم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وللرحمةِ خلقهم.

وأولى القولين في ذلك بالصواب، قولُ من قال: «وللاختلافِ بالشقاءِ والسعـادةِ خلقهم»، لأنَّ الله جَلَّ ذِكْرُهُ ذكرَ صِنفين من خَلْقِه: أحدهما أهل اختلافٍ وباطل، والآخر أهل حَقٍّ، ثم عَقَّبَ ذلك بقوله: «ولذلك خلقهم»،

فَعَمَّ بقوله: «ولذلك خلقهم»، صفة الصنفين، فأخبر عن كُلِّ فريقٍ منهما أنه ميَسَّرٌ لما خُلِقَ له.

فإنْ قال قائلٌ: فإنْ كان تأويلُ ذلك كما ذكرتَ، فقد ينبغي أنْ يكونَ المختلفون غير مَلُومينَ على اختلافِهم، إذْ كان لذلك خَلَقَهُمْ رَبُّهم، وأنْ يكون المتمتِّعون هم الملومين؟

قيل: إنَّ معنى ذلك بخلافِ ما إليه ذهبتَ، وإنما معنى الكلام: ولا يزالُ الناس مختلفينَ بالباطلِ من أديانِهم ومِلَلِهم، إلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ، فهداهُ للحق، ولعِلْمِه، وعلى عِلْمِه النافذِ فيهم قبلَ أنْ يخلقهم، أنه يكون فيهم المؤمنُ والكافرُ والشقيُّ والسعيد، خلقهم - فمعنى اللام في قوله: «ولذلك خلقهم»، بمعنى «على»، كقولك للرجل: «أكرمتُكَ على بِرِّكَ بي» و«أكرمتك لبرِّكَ بي».

وأما قوله: «وتمت كلمةُ رَبِّكَ لأملأنَّ جهنمَ من الجِنَّةِ والناسِ أجمعين»، لعلمهِ السابق فيهم أنهم يستوجبونَ صلِيَّها بكُفْرِهم بالله، وخلافهم أمرَهُ.

وقوله: «وتَمَّتْ كلمةُ رَبِّكَ»، قَسَمٌ كقولِ القائل: «حلفي لأزورنَّك»، «وبَدا لي لآتِيَنَّك»، ولذلك تُلُقِّيَتْ بلامِ اليمين.

وقوله: «من الجنة»، وهي ما اجتَنَّ عن أبصارِ بني آدم. «والناس»، يعني: وبني آدم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ١٢٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وكلاًّ نقصُّ عليك»، يا محمدُ. «من أنباءِ الرُّسُلِ»، الذين كانوا قَبْلَكَ. «ما نُثَبِّتُ به فؤادَكَ»، فلا تجزع من تكذيبِ مَنْ كَذَّبَكَ من قومكَ، وردَّ عليكَ ما جِئْتَهُمْ به، ولا يَضِقْ صَدْرُكَ، فتترك بعضَ ما أنزلتُ إليك

من أجلِ أنْ قالوا: «لولا أُنزلَ عليه كنزٌ أو جاءَ معه مَلَك»؟ إذا علمتَ ما لقيَ مَنْ قبلك من رسلي من أممها.

وأما قوله: «وجاءك في هذه الحقُّ»، فإنَّ أهلَ التأويلِ اختلفوا في تأويله.

فقال بعضهم: معناه: وجاءك في هذه السورةِ الحَقُّ.

وقال آخرون: معنى ذلك: وجاءك في هذه الدنيا الحقّ.

وأَوْلى التأويلين بالصوابِ في تأويلِ ذلك، قولُ مَنْ قال: «وجاءك في هذه السورةِ الحقُّ»، لإجماعِ الحُجَّةِ من أهلِ التأويلِ على أنَّ ذلك تأويله.

فإن قال قائل: أو لم يجئ النبيَّ ﷺ الحقُّ من سُورِ القرآنِ إلَّا في هذه السورة، فيقال: وجاءكَ في هذه السورةِ الحق؟

قيل له: بلى، قد جاءه فيها كلّها.

فإن قال: فما وجه خصُوصِه إذاً في هذه السورة بقوله: «وجاءك في هذه الحق»؟

قيل: إنَّ معنى الكلام: وجاءكَ في هذه السورة الحقُّ، مع ما جاءكَ في سائرِ سورِ القرآن ـ أو: إلى ما جاءكَ من الحقِّ في سائرِ سُوَرِ القرآن ـ لا أنَّ معناه: وجاءك في هذه السورة الحق، دونَ سائرِ سورِ القرآن.

وقوله: «وموعظة»، يقول: وجاءكَ موعظةٌ تَعِظُ الجاهلينَ بالله، وتبينُ لهم عِبَرَهُ مِمَّنْ كَفَرَ به وكَذَّبَ رسله. «وذكرى للمؤمنين»، يقول: وتذكرة تُذَكِّرُ المؤمنينَ بالله ورسله، كي لا يغفلُوا عن الواجبِ لله عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيِّه محمدٍ ﷺ: وقُلْ، يا محمدُ، للذين لا يصدِّقُونَكَ ولا يُقِرُّونَ بوحدانيةِ الله. «اعملوا على مكانتكم»، يقول: على هِيئَتِكُمْ ما أنتم عامِلُوه، فإنَّا عاملونَ ما نحنُ عامِلُوه من الأعمالِ التي أمرنا الله بها، وانتظروا ما وعدكم الشيطانُ، فإنَّا منتظرونَ ما وَعَدَنا الله من حربكم ونصرتنا عليكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ١٢٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: ولله، يا محمدُ، مُلْكُ كُلِّ ما غابَ عنك في السمواتِ والأرض فلم تَطَّلِعْ عليه ولم تَعْلَمْهُ، كُلُّ ذلك بيدِه وبعلمه، لا يَخْفَى عليه منه شيءٌ، وهو عالمٌ بما يعملهُ مشركُو قومكَ، وما إليه مصيرُ أمرِهم، من إقامةٍ على الشركِ، أو إقلاعٍ عنه وتوبة. «وإليه يُرْجَعُ الأمرُ كُلُّه»، يقول: وإلى الله مَعَادُ كُلِّ عاملٍ وعمله، وهو مُجازٍ جميعهم بأعمالهم.

«فاعبده»، يقول: فاعبدْ رَبَّكَ، يا محمدُ. «وتوكَّلْ عليه»، يقول: وفوِّضْ أمركَ إليه، وثِقْ به وبكفايته، فإنه كافي مَنْ تَوكَّل عليه.

وقوله: «وما رَبُّكَ بغافلٍ عما تعملون»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما رَبُّكَ، يا محمدُ، بساهٍ عَمَّا يعملُ هؤلاء المشركون من قومك، بل هو محيطٌ به، لا يعزبُ عنه شيءٌ منه، وهو لهم بالمرصادِ، فلا يَحْزُنْكَ إعراضُهم عنكَ، ولا تَكْذِيبُهم بما جئتهم به من الحقِّ، وامضِ لأمرِ رَبِّكَ، فإنك بأَعْيُنِنا.

تفسير سورة يوسف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾

قد ذكرنا اختلافَ أهلِ التأويلِ في تأويلِ قولِه: «آلر تلك آياتُ الكتاب»، والقولُ الذي نختارهُ في تأويلِ ذلك فيما مضى، بما أغْنَى عن إعادتِه ههنا[1].

وأما قوله: «تلكَ آياتُ الكتابِ المبين»، فإنَّ معناه: هذه آياتُ الكتابِ المبين لِمَنْ تَلاهُ وتَدَبَّرَ ما فيه، من حلالِه وحرامِه ونهيه وسائرِ ما حَواهُ من صنوفِ معانيه، لأنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ أخبر أنه «مبين»، ولم يخصَّ إبانَتَهُ عن بعضِ ما فيه دونَ جميعِه. فذلكَ على جَمِيعِه، إذْ كان جميعهُ مبيناً عمَّا فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّا أنزلنا هذا الكتابَ المبينَ، قرآناً عربيًّا على العربِ، لأنَّ لسانَهم وكلامَهم عربيٌّ، فأنزلنا هذا الكتابَ بلسانِهم ليعقلوه ويفقهوا منه، وذلك قوله: «لعلكم تعقلون».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾

(١) انظر أول تفسير سورة البقرة.

يقول جَلَّ ثناؤُهُ لنبيهِ محمدٍ ﷺ: «نحن نَقُصُّ عليك»، يا محمدُ، «أحسنَ القَصَص»، بوحينا إليكَ هذا القرآنَ، فنخبركَ فيه عن الأخبارِ الماضية، وأنباءِ الأممِ السالفة، والكتبِ التي أنزلناها في العصور الخالية. «وإنْ كنتَ من قَبْلِه لمن الغافلين»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإنْ كنتَ ، يا محمدُ، مِنْ قَبْلِ أنْ نُوحيه إليكَ، لَمِنَ الغافلينَ عن ذلك، لا تعلمه ولا شيئاً منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: وإنْ كنتَ يا محمدُ، لمن الغافلينَ عن نبأ يوسفَ بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم، إذْ قال لأبيهِ يعقوب بن إسحق: «يا أبتِ إني رأيتُ أحدَ عشر كوكباً»، يقول: إني رأيتُ في منامي أحدَ عشر كوكباً.

وقيل: إنَّ رؤيا الأنبياءِ كانت وحياً.

وقوله: «والشمسَ والقمرَ رأيتهم لي ساجدين»، يقول: والشمس والقمر رأيتهم في منامي سجوداً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥﴾

يقول جَلَّ ذِكْرُهُ: قال يعقوبُ لابنه يوسف: «يا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رؤياكَ»، هذه، «على إخوتك»، فيحسدُوكَ «فيكيدوا لكَ كيداً»، يقول: فيبغوك الغوائلَ، ويناصِبُوكَ العداوةَ، ويُطِيعُوا فيكَ الشيطانَ. «إنَّ الشيطانَ للإنسانِ عدوٌّ مبين»، يقول: إنَّ الشيطانَ لآدمَ وبَنِيه عدوٌّ، قد أبانَ لهم عداوتَهُ وأظهرها. يقول:

فاحْـذَرِ الشيطانَ أنْ يُغْرِيَ إخوتَكَ بكَ بالحَسَدِ منهم لكَ، إنْ أنت قَصَصْتَ عليهم رؤياك.

وإنما قال يعقوبُ ذلك، لأنه قد كان تبيَّن له من إخوته قبلَ ذلك حسدٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ، مخبراً عن قِيلِ يعقوبَ لابنهِ يوسفَ، لما قصَّ عليه رُؤْيَاهُ: «وكذلك يجتبيك رَبُّك»، وهكذا يَجْتَبيكَ رَبُّكَ. يقول: كما أراكَ رَبُّكَ الكواكبَ والشمسَ والقمرَ لك سُجوداً، فكذلك يَصْطَفِيكَ رَبُّكَ.

وقوله: «ويُعَلِّمُكَ من تأويلِ الأحاديث»، يقول: ويعلمكَ رَبُّك من علم ما يؤولُ إليه أحاديثُ الناس، عما يرونه في منامهم. وذلك تعبيرُ الرؤيا.

وقوله: «ويُتِمُّ نعمتَهُ عليكَ»، باجتبائِهِ إياكَ، واختيارِهِ، وتعليمِهِ إياكَ تأويلَ الأحاديثِ. «وعلى آلِ يعقوبَ»، يقول: وعلى أهلِ دينِ يعقوبَ، ومِلَّتِه من ذُرِّيَتِهِ وغيرهم. «كما أَتَمَّهَا على أبويكَ من قَبْلُ إبراهيمَ واسحق»، باتِّخاذِهِ هذا خليلاً وتَنْجِيَتِهِ من النارِ، وفدية هذا بذبحٍ عظيم.

وقـولـه: «إنَّ ربـك عليم حكيم»، يقول: «إنَّ ربك عليم»، بمواضعِ الفَضْلِ ومَنْ هو أهلٌ للاجتباءِ والنعمةِ. «حكيم»، في تدبيره خلقه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «لقد كانَ في يُوسُفَ وإخوته»، الأحدَ عشر. «آياتٌ»، يعني: عِبَرٌ وذِكْرٌ. «للسائلين»، يعني: السائلينَ عن أخبارِهم وقَصَصِهم. وإنما أراد جَلَّ ثناؤُهُ بذلك نَبِيَّهُ محمداً ﷺ.

وذلك أنه يقال: إنَّ الله تبارك وتعالى إنما أنزلَ هذه السورةَ على نبيهِ، يعلمه فيها ما لَقِيَ يوسفُ من أَدَانِيه وإخْوَتِه من الحَسَدِ، مع تَكْرِمَةِ الله إياه، تسليةً له بذلك مما يَلْقَى من أدانيه وأقاربه من مشركي قريش.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُهُ: لقد كان في يوسفَ وإخوتِه آياتٌ لمن سألَ عن شأنهم، حين قال إخوةُ يوسف: «لَيُوسُفُ وأخوهُ»، من أُمِّهِ. «أَحَبُّ إلى أبينا منا ونحنُ عُصبة»، يقولون: ونحنُ جماعةٌ ذَوُو عَددٍ، أحدَ عشرَ رجلاً.

و«العصبة»، من الناسِ، هم عشرة فصاعداً، قيل: إلى خمسة عشرَ، ليس لها واحدٌ من لفظها، كالنَّفَرِ والرهط.

«إنَّ أبانا لفي ضلالٍ مبين»، يعنون: إنَّ أبانا يعقوب لفي خطأٍ من فعله، في إيثارِه يوسفَ وأخاهُ من أمِّهِ علينا بالمحبةِ. ويعني بـ«المبين»: أنه خطأٌ يبينُ عن نفسه أنه خطأٌ لمن تأَمَّلَهُ ونظَرَ إليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَـٰلِحِينَ ۝٩﴾

يقـول جَلَّ ثنـاؤُهُ: قال إخوةُ يوسفَ بعضُهم لبعضٍ: اقْتُلُوا يوسفَ أو

اطْـرَحُوه في أرضٍ من الأرض، يعنون مكاناً من الأرضِ. «يَخْلُ لكم وجهُ أبيكم»، يعنون: يَخْلُ لكم وجهُ أبيكم من شُغلهِ بيوسفَ، فإنه قد شَغَله عنّا، وصرف وَجْهَهُ عنَّا إليه. «وتكونُوا من بعده قوماً صالحين»، يعنون أنهم يتوبون من قَتْلِهم يوسفَ، وذَنْبِهم الـذي يَرْكَبُونَهُ فيه، فيكونون بتوبتِهم من قَتْلِه من بعدِ هلاكِ يوسف قوماً صالحين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال قائلٌ من إخوةِ يوسف: «لا تقتلوا يوسف».

وقوله: «وألقوه في غَيابَةِ الجُبِّ»، يقول: وألقوه في قَعْرِ الجبّ، حيث يَغيبُ خَبَرُهُ. والجبُّ: بئر.

وقـوله: «يَلْتَقِطْهُ بعضُ السيَّارة»، يقول: يأخذه بعضُ مارَّةِ الطريقِ من المسافرين. «إنْ كنتم فاعلين»، يقول: إن كنتم فاعلينَ ما أقولُ لكم. فذكر أنه التقطه بعضُ الأعراب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾

يقـول تعالى ذِكْرُهُ: قال إخوةُ يوسفَ، إذ تآمَرُوا بينهم، وأجمعوا على الفرقةِ بينه وبين والدِه يعقوب، لوالدهم يعقوب: «يا أبانَا ما لَكَ لا تأْمَنَّا على يُوسُفَ»، فتتـركهُ معنا إذا نحنُ خرجنا خارجَ المدينةِ إلى الصحراء. «ونحنُ له ناصحون»، نَحُوطُه ونَكْلَؤُه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ١٢﴾

تأويل الكلام: أرسله معنَا غداً نَلْهُو ونلعب وننعم وننشط في الصحراء، ونحنُ حافِظُوه من أنْ ينالَهُ شيءٌ يكرهه أو يؤذيه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ١٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال يعقوب لهم: إني ليحزنني أن تذهبوا به معكم إلى الصحراء، مخافةً عليه من الذئب أن يأكله، وأنتم عنه غافلون لا تشعرون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال إخوةُ يُوسُفَ لوالدهم يعقوب: لئن أكلَ يوسفَ الذئبُ في الصحراء، ونحنُ أحدَ عشرَ رجلاً معه نَحْفَظُه ـ وهم العصبة ـ «إنَّا إذاً لخاسرون»، يقول: إنا إذاً لَعَجزَةٌ هالكون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١٥﴾

وفي الكلام متروكٌ حُذِفَ ذِكْرُه، اكتفاءً بما ظَهَرَ عما تُرِكَ، وهو: «فأرسله معهم». «فلما ذهبوا به وأجمعوا»، يقول: وأجمع رَأْيُهم، وعَزَمُوا على أن يجعلوه في «غيابة الجب».

وقوله: «وأوحينا إليه لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بأمرهم»، يقول: وأوحينا إلى يوسفَ، لتخبرنَّ إخوتكَ. «بأمرهم هذا»، يقول: بِفِعْلِهِم هذا الذي فعلوهُ بكَ. «وهم لا يشعرون»، يقول: وهم لا يعلمون ولا يَدْرُون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ۝١٦ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ۝١٧﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ: وجاء إخوةُ يوسف أباهم، بعدما ألقوا يوسفَ في غَيابةِ الجُبِّ، عِشَاءً يَبْكُونَ.

وقيل: : إنَّ معنى قوله: «نستبق»، نَنْتَضِلُ، من «السباق».

وقوله: «وما أنتَ بمؤمنٍ لنا»، يقولون: وما أنتَ بِمُصَدِّقنَا على قِيلِنَا: إنَّ يُوسُفَ أكَلَهُ الذئبُ، ولو كنا صادقين!

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وجَاؤُوا على قميصِه بِدَمٍ كَذِبٍ»، وسماه الله «كَذِباً»، لأنَّ الذين جاءوا بالقميصِ وهو فيه، كَذَبوا فقالوا ليعقوب: «هو دَمُ يوسفَ»، ولم يكن دَمه، وإنما كان دَمَ سَخْلةٍ[1]، فيما قيل.

فإنْ قال قائل: كيف قيل «بِدَمٍ كذب»، وقد علمتَ أنه كان دماً لا شَكَّ فيه، وإنْ لم يكن كانَ دَمَ يوسف؟

(١) السخلة: ولد الشاة من المعز والضأن، ذكراً كان أو أُنثى.

قيل: في ذلك من القول وجهان:

أحدهما: أنْ يكون قِيلَ «بِدَمٍ كَذِبٍ»، لأنه كُذِب فيه، كما يقال: «الليلة الهلالُ»، وكما قيل: ﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾ [البقرة:١٦]. وذلك قولٌ كانَ بعضُ نحويي البصرة يقوله.

والوجه الآخر: وهو أن يقال: هو مصدر بمعنى «مفعول». وتأويله: وجَاؤُوا على قميصِه بدمٍ مكذوب ـ كما يقال: «ما له عقل، ولا معقول» و«لا له جَلَد ولا له مَجْلود». والعرب تفعل ذلك كثيراً، تضع «مفعولاً»، في موضع المصدر، والمصدر في موضع «مفعول».

حَتَّى إذَا لَمْ يَتْرُكُوا لِعِظَامِهِ لَحْماً وَلاَ لِفُؤَادِهِ مَعْقولاَ

وذلك كان يقوله بعض نحويي الكوفة.

وقوله: «قال بَلْ سَوَّلَتْ لكم أنفسُكم أمراً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال يعقوبُ لبنيه الذين أخبروه أنَّ الذئبَ أكلَ يوسف، مُكَذِّباً لهم في خبرهم ذلك: ما الأمرُ كما تقولون: «بل سَوَّلَتْ لكم أنفسكم أمراً»، يقول: بل زَيَّنَتْ لكم أنفسكم أمراً في يوسف وحَسَّنَتْهُ، ففعلتموه.

وقوله: «فصبر جميل»، يقول: فصبري على ما فعلتم بي في أمر يوسف، صبرٌ جميل، أو: فهو صبر جميل.

وقوله: «والله المُسْتَعانُ على ما تَصِفُونَ»، يقول: والله أستعينُ على كفايتي شرَّ ما تَصِفُونَ من الكذب.

وقيل: إنَّ «الصبرَ الجميلَ»، هو الصبر الذي لا جَزَعَ فيه.

وقوله: «والله المستعان على ما تصفون»، أي على ما تكذبون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وجاءت مَارَّةُ الطريقِ من المسافرينَ. «فأرسلوا وارِدَهُمْ»، وهو الذي يَرِدُ المنهلَ والمنزلَ، و«وروده إياه»، مَصِيرُه إليه، ودخوله. «فأدلى دَلْوَهُ»، يقول: أرسلَ دلوه في البئر.

يقال: «أدليتُ الدلوَ في البئر»، إذا أرسلْتُهَا فيها، فإذا استقيت فيها قلت: «دلوْتُ أدْلُو دَلْواً».

وفي الكلامِ محذوف، استغني بدلالة ما ذُكِرَ عليه، فترك، وذلك: «فأدلى دلوه» فتعلق به يُوسف، فخرجَ، فقال المدلي: «يا بُشْرَى هذا غلامٌ».

واختلفوا في معنى قوله: «يا بشرى هذا غلام».

فقال بعضهم: ذلك تبشيرٌ من المُدَلِّي دَلْوَهُ أصحابَه، في إصابته يوسف، بأنه أصابَ عبداً.

وقال آخرون: بل ذلك اسمُ رجلٍ من السيَّارة بعينه، ناداهُ المدلي لما خرج يوسف من البئر متعلِّقاً بالحبل.

وأما قوله: «وأسَرُّوهُ بِضاعة»، فإنه يعني: وأسَرَّ واردُ القوم المُدَلِّي دلوَه ومَنْ معه من أصحابه، من رِفْقته السيارة، أمرَ يوسف أنهم اشتروه، خيفةً منهم أن يستشركوهم، وقالوا لهم: هو بضاعة أبضَعَها معنا أهلُ الماء، وذلك أنه عقيب الخبرِ عنه، فَلأَنْ يكونَ ما وَلِيَهُ من الخبرِ خبراً عنه، أشبهُ منْ أنْ يكونَ خبراً عَمَّنْ هو بالخبرِ عنه غيرُ متَّصِل.

وقوله: «والله عليم بما يعملون»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: والله ذُو عِلْمٍ بما يعمله باعةُ يوسفَ ومُشْتَرُوهُ في أمره، لا يَخْفَى عليه من ذلك شيءٌ، ولكنه

تركَ تغييرَ ذلك ليمضي فيه وفيهم حُكْمُه السابق في عِلْمِه، وليري إخوة يوسف ويوسف وأباه قُدْرَتَهُ فيه.

وهذا، وإنْ كان خبراً من الله تعالى ذِكْرُهُ عن يوسفَ نبيّه ﷺ، فإنه تذكيرٌ من الله نبيَّه محمداً ﷺ، وتسليةٌ منه له، عَمَّا كان يَلْقَى من أقربائِه وأنسبائِه المشركينَ من الأذى فيه. يقول: فاصبرْ، يا محمدُ، على ما نالكَ في الله، فإنِّي قادرٌ على تغييرِ ما ينالُكَ به هؤلاء المشركون، كما كنت قادراً على تغييرِ ما لقيَ يوسفُ من إخوته في حالِ ما كانوا يفعلون به ما فَعَلُوا، ولم يَكُنْ تَرْكي ذلك لهوانِ يوسف عليَّ، ولكن لماضي عِلْمي فيه وفي إخوته. فكذلك تركي تغييرَ ما ينالكَ به هؤلاء المشركون، لغيرِ هوانٍ بكَ عليَّ، ولكن لسابقِ علمي فيكَ وفيهم، ثم يصيرُ أمرُكَ وأمرهم إلى عُلوِّكَ عليهم، وإذعانِهم لكَ، كما صار أمرُ إخوة يوسف إلى الإذعانِ ليوسف بالسؤددِ عليهم، وعلوِّ يوسفَ عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ۝٢٠﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «وشَرَوْهُ»، به: وباعَ إخوةُ يُوسُفَ يوسفَ.

وقال آخرون: بل عنى بقوله: «وَشَرَوْهُ بثَمَنٍ بَخْسٍ»، السيرة أنهم باعوا يوسف بثمن بخس.

وأوْلى القولين في ذلك بالصواب. قولُ مَنْ قال: تأويل ذلك: «وشَرَى إخوةُ يوسف يوسف بثمنٍ بَخْسٍ». وذلك أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أخبر عن الذين اشتروه أنهم أَسَرُّوا شِراءَ يوسفَ من أصحابِهم، خِيفة أنْ يستشركوهم، بادِّعائِهم أنَّه بضاعة. ولم يقولوا ذلك، إلا رغبةً فيه أن يخلُصَ لهم دونهم، واسترخاصاً لثمنه الذي ابتاعوه به، لأنهم ابتاعوه كما قال جَلَّ ثناؤُهُ: «بثمن بخس». ولو

كان مُبْتَاعُوه من إخوتِه فيه من الزاهدين، لم يكن لِقِيلِهم لرفقائهم: «هو بضاعة»، معنى، ولا كان لشرائِهم إياهُ وهُمْ فيه من الزاهدين، وجهٌ إلا أن يكونوا كانوا مغلوباً على عقولهم، لأنه محالٌ أن يشتري صحيحُ العقلِ ما هو فيه زاهدٌ من غير إكراهِ مُكْرِهٍ له عليم، ثم يكذب في أمرِه الناسَ بأن يقول: «هو بضاعة لم أشتره»، مع زهده فيه. بل هذا القولُ من قول من هو بسلعته ضنين لنفاستها عنده، ولما يرجُو من نفيس الثمن لها وفضلِ الربح.

وأما قوله: «بخس»، فإنه يعني: نَقْص.

وهو مصدر من قولِ القائلِ: «بخستُ فلاناً حَقَّهُ»، إذا ظَلَمْتُه، يعني: ظلمه فنقصه عما يجبُ له من الوفاء: «أبخَسُه بَخْساً»، ومنه قوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [هود: ٨٥]، وإنما أُريدَ: بثمنٍ مبخوسٍ منقوصٍ، فوضع «البخس»، وهو مصدر، مكان «مفعول»، كما قيل «بدم كذب»، وإنما هو: «بدمٍ مكذوبٍ فيه».

وأما قوله: «دراهمَ معدودة»، فإنه يعني عزَّ وجلَّ: أنهم باعوهُ بدراهمَ غير موزونة، ناقصة غير وافية، لِزُهْدِهم كانَ فيه.

وقوله: «وكانوا فيه من الزاهدين»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وكان إخوةُ يوسف في يوسفَ من الزاهدينَ، لايعلمونَ كرامته على الله، ولا يعرفونَ منزلته عنده، فهم مع ذلك يُحِبُّونَ أن يحولوا بينه وبين والده، لِيَخْلُو لهم وَجْهُه منه، ويَقْطَعُوه عن القُرْبِ منه، لتكونَ المنافعُ التي كانت مصروفةً إلى يوسف دونهم، مصروفةً إليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ

﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢١﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ: وقال الذي اشترى يوسف من بائعِه بمصر. وذُكِرَ أنَّ اسمَهُ: «قطفير»، وهو العزيز، وكان على خزائنِ مصر.

«أكرمي مثواه»، يقول: أكرمي مَوْضِعَ مقامه، وذلك حيثُ يَثوي ويُقيم فيه.

وقوله: «عسى أنْ يَنْفَعَنا أو نَتَّخِذَهُ ولداً»، ذُكِرَ أنَّ مشتري يوسف قال هذا القولَ لامرأتِه، حين دفَعَهُ إليها، لأنه لم يكن له ولَدٌ، ولم يأتِ النساءَ فقال لها: أكرميه عسَى أنْ يكفينا بعضَ ما نعاني من أمورنا إذا فهم الأمورَ التي يُكَلَّفها وعرفها. «أو نتخذه ولداً»، يقول: أو نَتَبَنَّاهُ.

وقوله: «وَلِنُعَلِّمَهُ من تأويلِ الأحاديثِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وكي نُعَلِّمَ يوسف من عبارة الرؤيا، مَكَّنَّا له في الأرض.

وقوله: «وكذلك مكنّا ليوسف في الأرض»، يقول عزَّ وجلَّ: وكما أنقذنا يوسفَ من أيدي إخوتِه وقد هَمُّوا بقتله، وأخرجناهُ من الجُبِّ بعدَ أنْ أُلقيَ فيه، فَصَيَّرنَاهُ إلى الكرامةِ الرفيعةِ عند عزيزِ مصرَ، كذلك مَكنَّا له في الأرضِ، فجعلناه على خزائنها.

وقوله: «والله غالِبٌ على أمره»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: والله مُسْتَوْلٍ على أمرِ يوسفَ، يَسُوسُه ويُدَبِّرُه ويَحُوطُه.

وقوله: «ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون»، يقول: ولكنَّ أكثرَ الناسِ الذين زهدوا في يوسف، فباعوه بثمنٍ خسيس، والذين صارَ بين أظهرهم من أهلِ مصر حين بِيعَ فيهم، لا يعلمونَ ما الله بيوسفَ صَانعٌ، وإليه يوسف من أمرِه صائرٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولما بلغَ يوسف أَشُدَّهُ، يقول: ولما بلغ مُنْتَهى شِدَّتِه وقُوَّتِه في شبابه وحَدِّهِ ـ وذلك فيما بين ثماني عشرة سنة إلى ستين سنة، وقيل: إلى أربعين سنة ـ أعطيناهُ حينئذٍ الفَهْمَ والعلم.

وقوله: «وكذلكَ نَجزي المحسنين»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وكما جزيتُ يوسفَ فآتيتُه بطاعتِه إيَّايَ الحكمَ والعلمَ، ومَكَّنْتُه في الأرضِ، واستنقذْتُهُ من أيدي إخوته الذين أرادوا قَتْلَهُ، كذلك نجزي مَنْ أحسنَ في عمله، فأطاعني في أمري، وانتهى عما نهيته عنه من معاصيّ.

وهذا، وإنْ كان مخرجُ ظاهرِه على كُلِّ مُحْسنٍ، فإنَّ المُرادَ به محمدٌ نبيُّ الله ﷺ. يقول له عزَّ وجلَّ: كما فعلتُ هذا بيوسفَ من بعدِ ما لقِيَ من إخوته ما لقِيَ، وقاسى من البلاءِ ما قاسى، فمكَّنْتُه في الأرضِ، ووطَّأْتُ له في البلاد، فكذلك أفعلُ بكَ فأُنَجِّيكَ من مشركي قومكَ الذين يقصدونكَ بالعداوةِ، وأُمَكِّنُ لكَ في الأرض، وأُوتيكَ الحُكْمَ والعِلْمَ، لأنَّ ذلك جزائي أهلَ الإحسانِ في أمري ونهيي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وراودَتْ امرأةُ العزيز، وهي التي كان يوسف في بيتها [يوسفَ] عن نفسِه، أنْ يُواقِعَها.

وقوله: «وغَلَّقتِ الأبوابَ»، يقول: وغلقت المرأةُ أبوابَ البيوتِ عليها وعلى يوسفَ، لما أرادتْ منه وراودته عليه، باباً بعدَ باب.

وقوله: «وقالت هَيْتَ لك»، بمعنى: هَلُمَّ لك، وادْنُ وتَقَرَّب.

وقوله قال: «معاذ الله»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: قال يوسفُ، إذْ دَعَتْهُ المرأةُ إلى نفسها، وقالتْ له: «هلم إليَّ»: أعتصمُ بالله من الذي تَدْعُونِي إليه، وأستجيرُ به منه.

وقوله: «إنه رَبِّي أحسنَ مثواي»، يقول: إن صاحبكِ وزوجكِ سَيِّدي.

وقوله: «أحسنَ مَثْواي»، يقول: أحسنَ منزلتي، وأكرمني وائْتَمَنَنِي، فلا أَخُونُه.

وقوله: «إنه لا يُفلحُ الظالمون»، يقول: إنه لا يُدركُ البقاءَ ولا يَنْجَحُ من ظَلَم، فَفَعَلَ ما ليس له فِعْلُه. وهذا الذي تَدْعُونِي إليه من الفجورِ، ظُلْمٌ وخيانةٌ لسيدي الذي ائتمنني على منزله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾

ذُكِرَ أنَّ امرأةَ العزيزِ لما هَمَّتْ بيوسفَ وأرادتْ مُراودَتَهُ، جعلتْ تَذْكُرُ له محاسنَ نَفْسِه، وتُشَوِّقُه إلى نفسها.

ومعنى «الهَمَّ بالشيء»، في كلام العرب: حديث المرءِ نفسَهُ بمواقعتِه ما لم يُوَاقع.

فإنْ قال قائلٌ: وكيف يجوزُ أنْ يُوصَفَ يوسفُ بمثل هذا، وهو لله نبيٌّ؟

قيل: إنَّ أهلَ العلم اختلفوا في ذلك.

فقال بعضهم: كان مِمَّنْ ابتلي من الأنبياءِ بخطيئةٍ، فإنما ابتلاهُ الله بها، ليكونَ من الله عزَّ وجلَّ على وَجَلٍ إذا ذكرها، فيجد في طاعته إشفاقاً منها، ولا يَتَّكِلُ على سَعَةِ عَفوِ الله ورحمته.

وقال آخرون: بل ابتلاهُم الله بذلك، لِيُعَرِّفَهُم موضعَ نعمته عليهم، بصفحِه عنهم، وتَرْكِه عقوبتَهُ عليه في الآخرة.

وقال آخرون: بل ابتلاهم بذلك ليجعلهم أئمةً لأهلِ الذنوبِ في رَجاء رحمةِ الله، وتركِ الإِياسِ من عَفْوِه عنهم إذا تابوا.

وأما آخرون مِمَّنْ خالفَ أقوالَ السلف، وتأَوَّلُوا القرآنَ بآرائهم، فإنهم قالوا في ذلك أقوالاً مختلفة.

فقال بعضهم: معناه: ولقد هَمَّت المرأةُ بيوسفَ، وهَمَّ بها يوسفُ أنْ يَضْرِبَهَا أو ينالَها بمكروهٍ لهمِّها به مما أرادته من المكروهِ، لولا أنَّ يوسفَ رأى برهانَ رَبِّه، وكفَّهُ ذلك عما هَمَّ به من أذاها، لا أنها ارتدَعَتْ من قِبَلِ نَفْسِهَا. قالوا: والشاهدُ على صِحَّةِ ذلك قولُه: «كذلك لنصرفَ عنه السُّوءَ والفحشاء». قالوا: فالسوء هُو ما كان هَمَّ به من أذاها، وهو غير «الفحشاء».

وقال آخرون منهم: معنى الكلام: ولقد هَمَّتْ به، فتناهى الخبرُ عنها، ثم ابتدىء الخبر عن يوسف فقيل: وهَمَّ بها يوسفُ لولا أنْ رأى برهانَ ربه، كأنهم وجَّهوا معنى الكلام إلى أنَّ يوسفَ لم يَهمَّ بها، وأنَّ الله إنما أخبرَ أنَّ يوسفَ لولا رؤيته برهانَ رَبِّه لهمَّ بها، ولكنه رأى برهانَ ربه فلم يَهمَّ بها، كما قيل: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [النساء: ٨٣].

ويفسد هذه القولين: أنَّ العربَ لا تقدم جوابَ «لولا» قَبْلَها، لا تقول:

«لقد قمتُ لولا زيد»، وهي تريد: «لولا زيد لقد قمت»، هذا مع خِلافِهِمَا[1] جميعَ أهلِ العلم بتأويلِ القرآن، الذين عنهم يُؤْخَذُ تأويلهُ.

وقالِ آخرون منهم: بَلْ قد همَّت المرأةُ بيوسفَ، وهَمَّ يوسفُ بالمرأة، غيرَ أنَّ هَمَّهُمَا كان تمييلاً منهما بين الفِعْلِ والتَّرْكِ، لا عزماً ولا إرادةً. قالوا: ولا حرجَ في حديثِ النفسِ، ولا في ذِكْرِ القلب، إذ لم يكن معهما عَزْمٌ ولا فِعْلٌ.

وأما «البرهان» الذي رآهُ يوسفُ، فتركَ من أجلِه مواقعةَ الخطيئةِ، فإنَّ أهلَ العِلْمِ مختلفونَ فيه.

فقال بعضهم: نُوديَ بالنَّهي عن مواقعةِ الخطيئة.

وقال آخرون: «البرهان»، الذي رأى يوسف فَكَفَّ عن مواقعةِ الخطيئةِ من أجله، صورةُ يعقوبَ عليهما السلام يَتَوَعَّدُه.

وقال آخرون: بل البرهان الذي رأى يوسف، ما أوعدَ الله عزَّ وجلَّ على الزِّنَا أهلَهُ.

وقال آخرون: بل رأى تمثالَ الملك.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ أن يقال: إنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ أخبرَ عن هَمِّ يوسفَ وامرأةِ العزيز كُلِّ واحدٍ منهما بصاحبه، لولا أنْ رأى يوسفُ برهانَ رَبِّه، وذلك آيةٌ من الله زَجَرَتْهُ عن ركوبِ ما هَمَّ به يوسف من الفاحشةِ ـ وجائزٌ أن تكونَ تلك الآيةُ صورةَ يعقوب ـ وجائزٌ أنْ تكونَ صورة الملك ـ وجائزٌ أنْ يكون الوعيدُ في الآيات التي ذكرها الله في القرآن على الزنا ـ ولا حُجَّةَ للعذرِ قاطعة بأيِّ ذلك [كان] من أيٍّ. والصوابُ أن يقالَ في ذلك ما قاله الله تبارك وتعالى، والإيمان به، وترك ما عدا ذلك إلى عالمه.

---

(١) يعني: القولين السابقين.

وقوله: «كذلك لنصرفَ عنه السُّوءَ والفحشاء»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: كما أَرَيْنَا يوسفَ برهاننا على الزجرِ عَمَّا هَمَّ به من الفاحشةِ، كذلك نُسَبِّبُ له في كلِّ ما عَرَضَ له من هَمٍّ يهمُّ به فيما لا يرضاه، ما يزجُره ويدفَعُه عنه، كي نصرفَ عنه ركوبَ ما حرَّمنا عليه، وإتيانَ الزنا، لِنُطَهِّرَهُ من دَنَسِ ذلِك.

وقوله: «إنه من عبادنا المُخْلَصِينَ»، اختلفت القَرَأَةُ في قراءةِ ذلك.

فقرأته عامة قَرأَةِ المدينة والكوفة: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾، بفتح اللام من «المخلصين» بتأويل: إنَّ يوسفَ من عبادِنَا الذين أخلصْنَاهُمْ لأنفسنا، واخترناهم لنبوَّتِنَا ورسالتنا.

وقـرأ بعض قرأةِ البصرة: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلِصِينَ﴾، بكسر اللام ـ بمعنى: إن يوسف من عبادنا الذين أخلَصُوا توحيدَنا وعبادتَنا، فلم يُشْرِكُوا بنا شيئاً. ولم يعبدُوا شيئاً غيرنا.

والصوابُ من القولِ في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان معروفتان قد قرأ بهما جماعةٌ كثيرةٌ من القَرَأَة، وهما متفقتا المعنى. وذلك أنَّ مَنْ أخلصَهُ الله لنفسه فاختاره، فهو مُخْلِصٌ لله التوحيدَ والعبادةَ، ومَنْ أخلصَ توحيدَ الله وعبادته فلم يُشْرِكْ بالله شيئاً، فهو ممن أخلصَهُ الله، فبأيتهما قرأَ القارئُ فهو للصوابِ مُصِيبٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

يقـول جَلَّ ثناؤُهُ: واستبقَ يوسفُ وامرأةُ العزيزِ بابَ البيت، أما يوسفُ فَفِراراً من ركوبِ الفاحشةِ لما رأى برهانَ رَبِّه فزجره عنها، وأما المرأةُ فَطَلَبُهَا

ليوسفَ لتقضي حاجَتَها منه التي راودتْهُ عليها، فأدركته فتعلَّقتْ بقميصه فَجَذَبَتْهُ إليها، مانعةً له من الخروجِ من البابِ، فَقَدَّتْهُ من دُبُرٍ ـ يعني شَقَّتْهُ من خلفٍ لا من قُدَّام، لأنَّ يوسفَ كان هو الهارب، وكانت هي الطالبة.

وقوله: «وألفيا سَيِّدَهَا لدى البابِ»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: وصادفا سيدها ـ وهو زوجُ المرأة ـ «لدى الباب»، يعني: عند الباب.

وقوله: «قالتْ ما جزاءُ مَنْ أرادَ بأهلكَ سُوءاً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: قالت امرأةُ العزيزِ لزوجها لما أَلْفَيَاهُ عند البابِ، فخافتْ أنْ يَتَّهِمَهَا بالفجور: ما ثوابُ رَجُلٍ أرادَ بامرأتكَ الزِّنَا إلَّا أنْ يُسْجَنَ في السجنِ، أو إلَّا عذاب أليم يقول: موجع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال يوسف، لما قَذَفَتْهُ، امرأةُ العزيزِ بما قذفته من إرادتِه الفاحشةَ منها، مُكَذِّباً لها فيما قذفته به، ودفعاً لما نُسِبَ إليه: ما أنا راودتها عن نَفْسِها، بَلْ هي راودتني عن نفسي.

وقوله: «إنْ كان قميصُه قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وهو من الكاذبين»، لأنَّ المطلوبَ إذا كان هارباً فإنما يُؤْتَى من قِبَلِ دُبُره، فكان معلوماً أنَّ الشقَّ لو كان من قُبُلٍ لم يكن هارباً مطلوباً، ولكن كانَ يكونُ طالباً مدفوعاً، وكان يكونُ ذلك شهادةً على كَذِبه.

وقوله: «فلما رأى قميصَهُ قُدَّ من دُبُرٍ»، خَبَرٌ عن زوجِ المرأةِ، وهو القائلُ لها: إنَّ هذا الفِعْلَ من كَيْدِكُنَّ ـ أي: صنيعكن:، يعني من صنيعِ النساء. «إن كيدكن عظيم».

وقيل: إنه خَبَرٌ عن الشاهدِ أنه القائلُ ذلك[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾﴾

وهذا فيما ذُكِرَ عن ابنِ عباس، خَبَرٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ عن قِيلِ الشاهد أنه قال للمرأة وليوسف.

يعني بقوله: «يوسف»، يا يوسفُ. «أعْرِضْ عن هذا»، يقول: أعرض عن ذِكْرِ ما كانَ منها إليكَ فيما راودَتْكَ عليه، فلا تَذْكُرْهُ لأحدٍ.

«إنكِ كُنتِ من الخاطئين»، يقول: إنكِ كنتِ من المذنبين في مُرَاودةِ يوسفَ عن نفسه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ

(١) هذه خلاصة رأي أبي جعفر بعد أن ذكر أقوال العلماء في ذلك واختلافهم في صفة هذا الشاهد بين أن يكون في المهد، أو صاحب لحية، أو من الحكماء، وساق أحاديث تدعم رأيه ١٩٠٩٩ ـ ١١١١٠، منها حديث ابن عباس، لكنه موقوف، وحديث أبي هريرة، وهو عنده ضعيف الإسناد جداً. لكن في الصحيحين: البخاري (٣٤٣٦)، ومسلم (٢٥٥٠) من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة» فذكر عيسى ابن مريم، وصاحب جريج، ولم يذكر الثالث، وقد استدل به العلامة محمود شاكر وكأنه ذكر فيه شاهد يوسف، مع أنه لم يذكره.

وفي بعض الأحاديث خارج الصحيحين اختلاف في هذا الثالث، فذكر بعضهم أنه شاهدُ يوسف، وفي المسألةِ من الخلاف ما ينبغي عدم الجزم به.

﴿تُرَاوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وتَحدَّثَ النساءُ بأمر يوسفَ وأمر امرأةِ العزيز في مدينة مصر، وشاعَ من أمرهما فيها ما كان فلم يَنْكَتِمْ، وقُلْنَ: «امرأةُ العزيزِ تُراوِدُ فتاها»، عَبْدَهَا. «عن نفسه».

وأما «العزيز» فإنه: «الملكُ» في كلام العرب.

وقوله: «قد شَغَفَها حُبًّا»، يقول: قد وَصَلَ حبُّ يوسفَ إلى شَغَافِ قلبها فدخلَ تَحْتَهُ، حتى غَلَبَ على قلبها.

و«شَغَاف القلب»، حِجَابُه وغِلافُه الذي هو فيه.

وقوله: «إنَّا لنراها في ضلالٍ مبين»، قلن: إنا لنرى أمرأةَ العزيزِ في مراودتها فَتَاها عن نفسه، وغَلَبة حُبِّه عليها، لفي خطأٍ من الفعل، وجَوْرٍ عن قَصْد السبيل. «مبين»، لِمَنْ تأَمَّلَهُ وعلمه أنه ضلالٌ، وخطأٌ غير صوابٍ ولا سَداد. وإنما كان قيلُهُنَّ ما قُلْنَ من ذلك، وتحدثُّهنَّ به من شأنها وشأنِ يوسف، مَكْراً منهنَّ، فيما ذُكِرَ، لِتُرِيَهُنَّ يوسفَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فلما سمعت امرأةُ العزيزِ بمكرِ النسوةِ اللاتي قُلْنَ في المدينة ما ذكره الله عزَّ وجلَّ عنهن، أَعدَّت لهن «مُتَّكَأً»، يعني: مجلساً للطعام، وما يتكئن عليه من النمارق والوسائد

قال الله تعالى ذِكْرُهُ، مخبراً عن امرأةِ العزيزِ والنسوةِ اللاتي تَحَدَّثْنَ بشأنها في المدينة: «وآتَتْ كُلَّ واحدةٍ منهن سكيناً»، يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: وأعطتْ كُلَّ واحدةٍ من النسوةِ اللاتي حَضَرْنَها، سِكِّيناً لتقطعَ به من الطعام ما تقطع به.

وفي هذه الكلمة بيانُ صحة ما قلنا واخترنا في قوله: «واعتدت لهن مُتَّكَأً». وذلك أنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ أخبرَ عن إيتاءِ امرأةِ العزيزِ النسوةَ السكاكينَ، وترك مالَهُ آتَتْهُنَّ السكاكينَ، إذْ كان معلوماً أنَّ السكاكينَ لا تُدْفَعُ إلى مَنْ دُعِيَ إلى مجلسٍ إلا لقطعِ ما يُؤْكَلُ، إذا قطع بها. فاستغنى بفَهْمِ السامعِ بِذِكْرِ إيتائِها صَوَاحِبَاتِهَا السكاكينَ، عن ذِكْرِ ماله آتتهن ذلك. فكذلك استغنى بذكرِ اعتدادها لَهُنَّ المتكأَ، عن ذِكْرِ ما يُعْتَدُّ له المتكأُ مما يحضر المجالس من الأطعمةِ والأشربةِ والفواكهِ وصنوفِ الالتهاء، لفهم السامعينَ بالمرادِ من ذلك، ودلالةِ قوله: «وأعتدت لهن متكأ»، عليه. فأما نَفْسُ «المتكأ»، فهو ما وَصَفْنَا خاصةً دونَ غيره.

وقوله: «وقالت اخْرُجْ عليهنَّ فلما رَأَيْنَهُ أكْبَرْنَهُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وقالت امرأةُ العزيز ليوسفَ: «اخرج عليهن»، فخرجَ عليهن يوسفَ. «فلما رأينه أكبرنه»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: فلما رأينَ يوسفَ أعْظَمْنَهُ وأجْلَلْنَهُ.

وقوله: «وقَطَّعْنَ أيديَهُنَّ»، اختلفَ أهلُ التأويلِ في معنى ذلك.

فقال بعضهم: معناه: أنهن حَزَزْنَ بالسكينَ في أيديهم، وهُنَّ يحسبن أنهن يقطعن الأترُجَّ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أنهن قطعن أيديهم حتى أبَنَّهَا، وهُنَّ لا يَشْعُرْنَ.

والصواب من القول في ذلك أنْ يقالَ: إنَّ الله أخبرَ عنهن أنهن قَطَّعنَ أيديهن وهُنَّ لا يشعرنَ لإعظامِ يوسفَ، وجائزٌ أنْ يكونَ ذلك قطعاً بإبانةٍ ـ وجائزٌ

أنْ يكونَ كان قَطْعَ حَزٍّ وخَدْش ـ ولا قولَ في ذلك أصوب من التسليمِ لظاهرِ التنزيل.

وقوله: «وقُلْنَ حَاشَ لله»، اختلفت القَرَأَةُ في قراءةِ ذلك.

فقرأته عامة قرأة الكوفيين: ﴿حَاشَ لله﴾ بفتح الشين وحذف الياء.

وقرأه بعضُ البصريين، بإثبات الياء: ﴿حَاشَى لله﴾.

وكان بعضُ أهل العلم بكلامِ العربِ يزعمُ أنَّ لقولهنَّ: «حاشى لله»، موضعين في الكلام:

أحدهما: التنزيه.

والآخر: الاستثناء. وهو في هذا الموضع عندنا بمعنى التنزيه لله، كأنه قيل: مَعَاذَ الله.

وأما القول في قراءة ذلك. فإنه يقال: للقارئ الخيارُ في قراءته بأي القراءتين شاء، إنْ شاء بقراءةِ الكوفيين، وإنْ شاء بقراءة البصريين، وهو ﴿حَاشَ لله﴾ و﴿حَاشَى لله﴾، لأنهما قراءتان مشهورتان، ولغتانِ معروفتانِ بمعنى واحدٍ، وما عدا ذلك فلغاتٌ لا تجوزُ القراءةُ بها، لأنَّا لا نعلمُ قارئاً قرأ بها.

وقوله: «ما هذا بشراً»، يقول: قُلْنَ: «ما هذا بشراً»، لأنَّهُنَّ لم يَرَيْنَ في حُسْنِ صورته من البشرِ أحداً، فقلن: لو كانَ من البشرِ، لكان كبعضِ ما رأينا من صورةِ البشر، ولكنه من الملائكةِ لا من البشر.

وقوله: «إنْ هذا إلا مَلَكٌ كريمٌ»، يقول: قُلْنَ: ما هذا إلا مَلَكٌ من الملائكة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝٣٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قالت امرأةُ العزيزِ للنسوةِ اللاتي قَطَّعْنَ أيديهن: فهذا الذي أصابَكُنَّ في رؤيتكن إياهُ، وفي نظرةٍ مِنْكُنَّ نَظَرْتُنَّ إليه ما أصابَكُنَّ من ذهابِ العقل وعُزوبِ الفهم[1] وَلَهاً، أَلِهتُنَّ[2] حتى قَطَّعْتُنَّ أيدِيكُنَّ، هُوَ الذي لُمْتُنَّنِي في حُبِّيَ إياهُ، وشَغف فؤادي به، فَقُلْتُنَّ: قد شغفَ امرأةَ العزيزِ فتَاها حُباً، إنَّا لنراها في ضلالٍ مبين! ثم أقَرَّتْ لهن بأنها قد رَاوَدَتْهُ عن نفسِه، وأنَّ الذي تَحَدَّثْنَ به عنها في أمره حَقٌّ، فقالت: «ولقد راودته عن نفسه فاستعصم»، مما راودتُه عليه من ذلك.

وقوله: «ولئن لم يفعلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وليكوناً من الصاغرين»، تقول: ولئن لم يُطاوعني على ما أدْعُوهُ إليه من حاجتي إليه. «ليسجنن»، تقول: لَيُحْبَسَنَّ وليكونَنْ منِ أهلِ الصَّغَارِ والذِلَّةِ بالحبسِ والسجنِ، ولأُهِينَنَّهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٣٣﴾

وهذا الخبرُ من الله، يدلُّ على أنَّ امرأةَ العزيزِ قد عاودَتْ يوسفَ في المراودةِ عن نفسه، وتوعَّدتْهُ بالسِّجنِ والحبسِ إنْ لم يفعلْ ما دَعَتْهُ إليه، فاختارَ السجنَ على ما دعته إليه من ذلك، لأنها لو لم تكن عاودته وتوعَّدته بذلك،

---

(١) عزوب الفهم: ذهابُه.
(٢) أَلِهتُنَّ: تَحَيَّرْتُنَّ.

كان مُحالاً أنْ يقولَ: «ربِّ السجنُ أحبُّ إليَّ مما يَدْعُونَني إليه»، وهو لا يُدْعَى إلى شيءٍ، ولا يُخَوَّفُ بحبسٍ.

وقوله: «وإلَّا تَصْرِفْ عني كيدهن أَصْبُ إليهن»، يقول: وإنْ لم تَدْفَعْ عني، يا رب، فِعْلهُنَّ الذي يفعلنَ بي، في مُراوَدَتهن إيايَ على أنفسهنَّ. «أَصْبُ إليهن»، يقول: أمِلْ إليهن، وأُتابِعهُنَّ على ما يُرِدْنَ مني ويهوَيْنَ.

وقوله: «وأَكُنْ من الجاهلين»، يقول: وأكن بصبوتي إليهن، من الذين جَهِلُوا حَقَّكَ، وخالفوا أمركَ ونَهْيَكَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾

إنْ قالَ قائلٌ: وما وجهُ قوله: «فاستجابَ له رَبُّه»، ولا مسألةَ تقدَّمتْ من يوسفَ لربِّه، ولا دَعَا بصَرْفِ كيدهنَّ عنه، وإنما أُخبرَ ربَّه أنَّ السجنَ أحبُّ إليه من معصيته؟

قيل: إنَّ في إخباره بذلك شكايةً منه إلى ربه مما لقيَ منهنَّ، وفي قوله: «وإلَّا تَصْرِفْ عني كيدهن أصبُ إليهن»، معنى دعاءٍ ومسألة منه ربَّه صرفَ كيدهنَّ، ولذلك قال الله تعالى ذِكْرُهُ: «فاستجابَ له رَبُّه»، وذلك كقولِ القائلِ لآخر: «إنْ لا تَزُرْني أُهِنْكَ»، فيجيبه الآخر: «إذن أزورَكَ»، لأن في قوله: «إنْ لا تزرني أهنك»، معنى الأمرِ بالزيارة.

وتأويل الكلام: فاستجابَ الله ليوسفَ دعاءَهُ، فصرفَ عنه ما أرادتْ منه امرأةُ العزيزِ وصَوَاحِبَاتُها من معصيةِ الله.

وقوله: «إنه هو السميع»، دعاءَ يوسف حين دعاه بصرفِ كيدِ النسوةِ عنه،

ودعاءَ كُلِّ داعٍ من خَلْقِه. «العليم»، بمطْلَبِه وحاجتِه وما يُصْلِحُه، وبحاجةِ جميعِ خَلْقِه وما يُصْلحهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٣٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ثم بَدَا للعزيزِ، زوجِ المرأةِ التي راودَتْ يوسفَ عن نفسه.

وتلك «الآيات»، كانت قدَّ القميصِ من دُبُر، وخمشاً في الوجه، وقَطْعَ أيديهن.

وقوله: «لَيَسْجُنُنَّهُ حتى حِين»، يقول: ليسجننه إلى الوقتِ الذي يرون فيه رَأْيَهُمْ.

وجعل الله ذلك الحبسَ ليوسفَ، فيما ذُكِرَ، عقوبةً له من هَمِّهِ بالمرأةِ، وكفارةً لخطيئته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٣٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ودخل مع يوسفَ السجنَ فتيان ـ فَدَلَّ بذلك على متروكٍ قد ترك من الكلام، وهو: «ثم بَدَا لهم من بعد ما رأوا الآياتِ ليسجننه حتى حين»، فسجنوه وأدخلوه السجن ـ ودخل معه فتيان، فاستغنَى بدليلِ قوله: «ودخل معه السجن فتيان»، على إدخالهم يوسفَ السجنَ، من ذكره.

وكان الفتيان، فيما ذُكِرَ، غلامين من غلمانِ ملكِ مصرَ الأكبر، أحدهما صاحبُ شرابِه، والآخرُ صاحبُ طعامِه.

وقوله: «قال أحدهما إنى أَراني أَعصرُ خمراً»، ذكر أنَّ يوسفَ صلوات الله عليه لما أُدخِلَ السجنَ، قال لمن فيه من المُحَبَّسين، وسألوهُ عن عمله: إني أعبُرُ الرؤيا: فقال أحدُ الفتيين اللذَيْنِ أُدْخلاَ معه السجنَ لصاحبه: تعالَ فَلْنُجَرِّبْهُ.

وَعَنَى بقـولـه: «أعصـر خمراً»، أي: أرى في نومي أني أعصرُ عنباً، وكذلك ذلك في قراءةِ ابن مسعود، فيما ذُكِرَ عنه.

وذُكِرَ أنَّ ذلك من لغة أهلِ عُمَان، وأنهم يُسَمونَ العنبَ خمراً.

وقوله: «وقال الآخَرُ إني أراني أحملُ فوقَ رأسي خبزاً تأكلُ الطيرُ منه نَبِّئْنَا بتـأويله»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وقال الآخرُ من الفَتيين: إني أراني في منامي أحمـل فوق رأسي خبـزاً، يقول: أحمل على رأسي - فوضعت «فوق» مكان «على». «تأكلُ الطيرُ منه»، يعني: من الخبز.

وقوله: «نَبِّئْنَا بتأويلِه»، يقول: أَخْبِرْنَا بما يؤولُ إليه ما أخبرناكَ أَنَّا رأيناهُ في منامنا، ويرجع إليه.

وقـولـه: «إنَّـا نراكَ من المحسنين»، اختلفَ أهـلُ التـأويلِ في معنى «الإحسان»، الذي وَصَفَ به الفتيان يوسف.

فقال بعضهم: هو أنه كان يعودُ مريضَهم، ويُعَزِّي حَزِينَهم، وإذا احتاجَ منهم إنسانٌ جَمَعَ له.

وقال آخرون: معناه: «إنا نراك من المحسنين»، إذا نَبَّأْتَنَا بتأويلِ رُؤيانا هذه.

فإنْ قال قائل: وما وجهُ الكلامِ إنْ كان الأمرُ إذاً كما قلتَ، وقد علمتَ أنَّ مسألتهما يوسفَ أنْ يُنَبِّئَهُمَا بتأويلِ رؤياهما، ليستْ من الخبَرِ عن صفتِه بأنه يعـودُ المريضَ ويقومُ عليه، ويُحْسِنُ إلى مَن احتاجَ، في شيء. وإنما يقالُ للرجـلِ «نبئنا بتأويلِ هذا فإنـك عالم»، وهذا من المواضعِ التي تحسن بالوصفِ بالعلم، لا بغيره؟

قيل: إنَّ وجهَ ذلك أنهما قالا له: نبئنا بتأويلِ رؤيانا مُحْسِناً إلينا في إخبارِكَ إيَّانا بذلك، كما نراكَ تُحْسِنُ في سائرِ أفعالكَ: «إنا نراكَ من المحسنين».

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٖ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ٣٧﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُهُ: قال يوسفُ للفَتَيين اللذَيْنِ استعبراهُ الرؤيا: «لا يأتيكما»، أيها الفَتَيانِ، في منامكما. «طعام تُرْزَقَانِه إلَّا نبأْتُكُمَا بتأويلِه»، في يَقْظَتِكُمَا. «قبل أنْ يأتيكما».

وقوله: «إني تركتُ مِلَّةَ قومٍ لا يؤمنونَ بالله»، يقول: إني بَرِئْتُ من ملةِ مَنْ لا يصدقُ بالله ويُقِرُّ بوحدانيتهِ. «وهم بالآخرةِ هُمْ كافرون»، يقول: وهُمْ مع تَرْكِهم الإيمانَ بوحدانيةِ الله، لا يُقِرُّونَ بالمَعَادِ والبعثِ، ولا بثوابٍ ولا عقاب.

ويعني بقوله: «بتأويلِه»، ما يؤولُ ويصيرُ ما رَأَيا في مَنَامِهِمَا من الطعامِ الذي رأيا أنه أتاهُمَا فيه.

وقوله: «ذلكما مما عَلَّمني ربي»، يقول: هذا الذي أذكرُ أني أَعْلَمُه من تعبير الرؤيا، مما عَلَّمني ربي فعلمته.

فإنْ قال قائلٌ: ما وجهُ هذا الخبر ومعناه من يوسف؟ وأين جوابهُ الفَتَيين عما سألاهُ من تعبيرِ رؤياهما، مِنْ هذا الكلام؟

قيل له: إنَّ يوسفَ كَرِهَ أنْ يُجيبَهُمَا عن تأويلِ رؤياهما، لِمَا عَلِمَ من مكروهِ ذلك على أَحَدِهما، فأعرضَ عن ذِكْرِه، وأخذَ في غيره، لِيُعْرِضَا عن مسألتِه الجوابَ عَمَّا سألاه من ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

يعني بقـولـه: «واتبعتُ ملةَ آبـائي إبراهيمَ وإسحقَ ويعقوبَ»، واتبعتُ دِينَهُم، لا دِينَ أهلِ الشركِ. «ما كانَ لنا أنْ نُشْرِكَ بالله من شيء»، يقول: ما جازَ لنا أنْ نجعلَ لله شريكاً في عبادته وطاعته، بل الذي علينا إفرادُه بالألوهةِ والعبادةِ. «ذلك من فَضْلِ الله علينا»، يقول: اتباعي ملةَ آبائي إبراهيمَ وإسحق ويعقـوب على الإسـلامِ، وتَـرْكي ملةَ قومٍ لا يؤمنونَ بالله وهم بالآخرةِ هم كافـرون، من فَضْلِ الله الذي تَفَضَّلَ به علينا، فأنْعَمَ إذْ أكْرَمَنَا به. «وعلى الناس»، يقول: وذلك أيضاً من فَضْلِ الله على الناسِ، إذْ أرسلنا إليهم دُعَاةً إلى توحيدِه وطاعته. «ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يشكرون»، يقول: ولكنَّ مَنْ يكفرُ بالله لا يشكـر ذلـك من فضله عليه، لأنه لا يعلمُ مَنْ أنعمَ به عليه، ولا يعرفُ المتفضِّلَ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۝٣٩﴾

ذُكِرَ أنَّ يوسفَ صلواتُ الله عليه قال هذا القولَ للفَتَيين اللَّذَيْن دخلا معه السجنَ، لأنَّ أحدهما كان مشركاً، فدعاهُ بهذا القولِ إلى الإسلامِ وتَرْكِ عبادةِ الآلهةِ والأوثان، فقال: «يا صاحِبَيِ السجنِ»، يعني: يا مَنْ هو في السجن، وجَعلَهُمَا «صاحبيه»، لكونِهما فيه، كما قال الله تعالى لسكانِ الجنة: ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، وكذلك قال لأهلِ النار، وسماهم «أصحابها»، لكونِهم فيها.

وقوله: «أأَربابٌ مُتَفَرِّقُونَ خيرٌ أم الله الواحدُ القَهَّار»، يقول: أعبادةُ أربابٍ شَتَّى متفرقينَ، وآلهةٍ لا تنفعُ ولا تَضُرُّ، خيرٌ أم عبادةُ المعبودِ الواحدِ الذي لا ثانيَ له في قُدْرَتِه وسلطانه، الذي قَهَرَ كُلَّ شيءٍ فَذَلَّلَهُ وسَخَّرَهُ، فأطاعَهُ طَوْعاً وكرهاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٤٠﴾

يعني بقوله: «ما تَعبدونَ من دونِه»، ما تعبدونَ من دونِ الله.

وقال: «ما تعبدون» وقد ابتدأَ الخطاب بخطابِ اثنين فقال: «يا صاحبي السجن»، لأنه قصدَ المخاطبَ به، ومَنْ هو على الشركِ بالله مقيمٌ من أهلِ مصر، فقال للمخاطَبِ بذلك: ما تعبدُ أنتَ ومَنْ هو على مِثْلِ ما أنتَ عليه من عبادةِ الأوثان. «إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم»، وذلك تَسْمِيَتَهُم أوثانَهم

آلهةً أرباباً، شِرْكاً منهم، وتشبيهاً لها في أسمائها التي سَمَّوْهَا بها الله، تعالى عن أنْ يكونَ له مِثْلٌ أو شبيه. «ما أنزلَ الله بها من سلطانٍ»، يقول: سموها بأسماءٍ لم يَأْذَنْ لهم بتسميتها، ولا وَضَعَ لهم على أنَّ تلك الأسماءَ أسماؤُها، دلالةً ولا حجةً، ولكنها اختلاقٌ منهم لها وافتراء.

وقوله: «إنِ الحُكْمُ إلَّا لله أَمَرَ ألا تَعْبُدُوا إلَّا إياهُ»، يقول: وهو الذي أمر ألا تعبدوا أنتم وجميعُ خَلْقِه، إلا الله الذي له الأُلوهةُ والعبادةُ خالصةً دونَ كل ما سواه من الأشياء.

وقوله: «ذلك الدين القيم»، يقول: هذا الذي دَعَوْتُكُمَا إليه من البراءةِ من عبادةِ ما سوى الله من الأوثانِ، وأنْ تُخْلِصَا العبادةَ لله الواحدِ القهار، هو الـدِّينُ القويمُ الذي لا اعوجاجَ فيه، والحقُّ الذي لا شَكَّ فيه. «ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون»، يقول: ولكن أهلَ الشركِ بالله يجهلونَ ذلك، فلا يعلمونَ حقيقته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ، مخبراً عن قِيلِ يوسفَ لِلَّذَيْنِ دخلا معه السجن: «يا صاحبي السجن أمَّا أحَدُكُمَا فيسقي رَبَّهُ خمراً»، هو الذي رأى أنه يعصرُ خمراً فيسقي ربَّه ـ يعني سَيِّدَهُ، وهو ملكهم. «خمراً»، يقول: يكون صاحبَ شرابِه.

وأما الآخَرُ، وهو الذي رأى أنَّ على رأسِه خبزاً تأكلُ الطيرُ منه. «فيصلب فتأكلُ الطيرُ من رأسه»، فذكر أنه لما عَبَّرَ ما أخبراه به أنهما رأياه في منامهما، قالا له: ما رأينا شيئاً! فقال لهما: «قُضِيَ الأمرُ الذي فيه تستفتيان»، يقول:

فُرِغَ من الأمرِ الذي فيه اسْتَفْتَيْتُما، ووجب حُكْمُ الله عليكما بالذي أَخْبَرْتُكُما به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال يوسفُ لِلَّذِي عَلِمَ أنه نَاجٍ من صاحبيه اللَّذَيْنِ استعبرا لهُ الرؤيا: «اذكرني عند ربك»، يقول: اذكرني عند سَيِّدِكَ، وأخبره بمظلمتي، وأني محبوسٌ بغير جُرْمٍ.

وقوله: «فأنساه الشيطانُ ذِكْرَ ربه»، وهذا خبرٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ عن غفلةٍ عَرَضَتْ ليوسفَ من قِبَلِ الشيطانِ، نسيَ لها ذِكْرَ رَبِّه الذي لو به استغاثَ لأسرعَ بما هو فيه خلاصُه، ولكنه زَلَّ بها فأطالَ من أجلها في السجن حَبْسَهُ، وأوجعَ لها عقوبته.

واختلف أهلُ التأويل في قدر «البِضْعِ»، الذي لَبِثَ يوسف في السجن.

فقال بعضهم: هو سبع سنين.

وقال آخرون: «البضع»، ما بينَ الثلاثِ إلى التسع.

وقال آخرون: بل هو ما دونَ العشر.

والصواب في «البضع»، من الثلاثِ إلى التسعِ، إلى العشرِ، ولا يكونُ دونَ الثلاثِ. وكذلك ما زادَ على العقدِ إلى المئةِ، وما زادَ على المئةِ فلا يكونُ فيه «بضع».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ

﴿يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: وقال مَلِكُ مصرَ: إني أرى في المنامِ سبعَ بقراتٍ سِمانٍ يأكُلُهُنَّ سبعٌ من البقرِ عِجَافٌ. وقال: «إني أرى»، ولم يَذْكُرْ أنه رأى في منامه ولا في غيره، لِتَعَارُفِ العربِ بينها في كلامها إذا قال القائلُ منهم: «أرى أني أفعلُ كذا وكذا»، أنه خَبَرٌ عن رؤيتِه ذلك في منامِه، وإنْ لم يذكر النومَ. وأخرج الخبر جَلَّ ثناؤُهُ على ما قد جرى به استعمالُ العربِ ذلك بينهم.

«وسَبْعَ سُنبلاتٍ خُضْرٍ»، يقول: وأرى سبعَ سُنْبلات خضرٍ في منامي. «وأُخَرَ»، يقول: وسبعاً أُخَرَ من السُّنْبُلِ. «يابساتٍ يا أيها الملأُ»، يقول: يا أيها الأشرافُ من رجالي وأصحابي. «أفتوني في رؤياي»، فاعبُروها، «إنْ كنتم للرؤيا»، عَبَرَةً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال الملأُ الذين سألهم ملكُ مصرَ عن تعبيرِ رؤياه: رؤياكَ هذه «أضغاثُ أحلام»، يعنون: أنها أخلاطٌ، رؤيا كاذبةٌ لا حقيقةَ لها.

وقوله: «وما نحنُ بتأويلِ الأحلامِ بعالمين»، يقول: وما نحن بما تؤول إليه الأحلامُ الكاذبةُ بعالمين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ

﴿سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وقال الذي نَجا من القتل، من صاحبي السجن اللَّذَيْنِ استعبرا يوسفَ الرؤيا. «وادَّكَر»، يقول: وتَذَكَّرَ ما كان نَسيَ من أمرِ يوسفَ، وذِكْـرَ حاجَتِـه للملكِ التي كان سأله عند تعبيرِه رؤياهُ أنْ يَذْكُرَهَا له بقوله: «اذكرني عند ربك». «بعد أمة»، يعني: بعد حِينٍ.

وقـوله: «أنا أنبئكم بتأويله»، يقول: أنا أُخْبِرُكُمْ بتأويلِه. «فأرسلون»، يقول: فأطلقوني، أَمْضِي لآتيكم بتأويله من عندِ العالِمِ به.

وفي الكـلامِ محـذوفٌ، قد تُرِكَ ذكـره استغنـاءً بمـا ظهـرَ عمـا ترك، وذلـك: فأرسلوه، فأتى يوسفَ فقالَ له، يا يوسف، يا أيها الصِدِّيقُ.

وقوله: «أَفْتِنَا في سبعِ بقراتٍ سِمانٍ يأكلهن سَبْعٌ عِجافٌ وسبعِ سنبلاتٍ خُضْرٍ وأخر يابسات»، فإنَّ معناه: أفتنا في سبعِ بقرات سمان رُئِينَ في المنام، يأكُلُهُنَّ سبعٌ منها عِجافٌ، وفي سبعِ سنبلات خضر رُئِينَ أيضاً، وسبعٍ أُخَرَ منهن يابساتٍ. فأما «السِّمانُ من البقر»، فإنها السنونَ المُخْصِبةُ.

وقوله: «وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات»، أما «الخضر»، فَهُنَّ السنون المخاصيبُ، وأمَّا «اليابسات»، فهن الجُدُوبُ المُحُولُ.

وقوله: «لعلِّي أرجع إلى الناسِ لعلهم يعلمون»، يقول: كي أرجعَ إلى الناسِ فأخبرهم. «لعلهم يعلمون»، يقول: ليعلموا تأويلَ ما سألْتُكَ عنه من الرؤيا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال يوسفُ لسائلِه عن رؤيا الملك: «تزرعون سبع سنين دأباً»، يقول: تزرعونَ هذه السبعَ السنين، كما كنتم تزرعونَ سائرَ السنين قَبْلَها على عادَتِكُمْ فيما مضى.

و«الدأب»، العادةُ.

وقوله: «فما حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ في سُنْبُلِه إلا قليلاً مما تأكلون»، وهذه مَشُورةٌ أشارَ بها نبيُّ الله ﷺ على القومِ، ورأيٌ رآهُ لهم صلاحاً، يأمرهم باستبقاءِ طعامهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾

يقول: ثم يجيءُ من بعدِ السنين السبعِ التي تزرعونَ فيها دأباً سنون سبعٌ شِدادٌ، يقول: جُدُوبٌ قَحطةٌ. «يأكلن ما قَدَّمتم لهن»، يقول: يُؤْكَلُ فيهنَّ ما قدمتم في إعدادِ ما أَعْدَدتُمْ لهن في السنين السبعةِ الخصبةِ من الطعامِ والأقوات.

«إلا قليلاً مما تُحْصِنُونَ»، يقول: إلا يسيراً مما تُحْرِزُونَهُ.

و«الإحصانُ»، التصييرُ في الحصن، وإنما المرادُ منه الإحرازُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

وهذا خَبَرٌ من يوسفَ عليه السلام للقومِ عَمَّا لم يَكُنْ في رؤيا مَلِكِهم، ولكنه من عِلْمِ الغيبِ الذي آتاهُ الله دَلالةً على نُبُوَّتِه وحجةً على صِدْقِه.

ويعني بقوله: «فيه يُغَاثُ الناسُ»، بالمطرِ والغيثِ.

وأما قوله: «وفيه يَعْصِرُون»، فإنَّ أهلَ التأويل اختلفوا في تأويله.

فقال بعضهم: معناه: وفيه يعصرونَ العنبَ والسمسم وما أشبهَ ذلك.

وقال آخرون: معنى قوله: «وفيه يعصرون»، وفيه يَحْلِبون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فلما رجع الرسولُ الذي أرسلوه إلى يُوسُفَ، الذي قال: «أنا أنبئكم بتأويلِه فأرسلون»، فأخبرهم بتأويلِ رؤيا الملكِ عن يوسفَ عَلِمَ الملكُ حقيقةَ ما أفتاهُ به من تأويلِ رؤياهُ وصِحَّةِ ذلك، وقال الملكُ: ائتوني بالذي عبرَ رُؤْيَايَ هذه.

وقوله: «فلما جاءه الرسولُ»، يقول: فلما جاءه رسولُ الملكِ يَدْعُوه إلى المَلِكِ. «قال ارْجِعْ إلى رَبِّكَ»، يقول: قال يوسف للرسولِ: ارجع إلى سَيِّدِكَ. «فاسأله ما بالُ النسوةِ اللاتي قَطَّعْنَ أيديهن»؟ وأبى أنْ يَخْرُجَ مع الرسولِ وإجابةَ الملك، حتى يعرفَ صحّةَ أمرِه عندهم مما كانوا قَرَفُوه به من شأنِ النساء، فقال للرسول: سَلِ المَلِكَ ما شأنُ النسوةِ اللاتي قطعن أيديهن، والمرأةِ التي سُجِنْتُ بسببها؟

وقوله: «إنَّ ربي بكيدِهِنَّ عليم»، يقول: إنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ ذُو عِلْمٍ بصَنِيعِهِنَّ وأفعالهن التي فَعَلْنَ بي، ويفعلن بغيري من الناس، لا يَخْفَى عليه ذلك كله، وهو من وَراء جزائهن على ذلك.

وقيل: إنَّ معنى ذلك: إنَّ سيدي إطفير العزيز، زوج المرأةِ التي راودَتْنِي عن نفسي، ذُو عِلْمٍ ببراءتي مما قَرَفَتْنِي به من السوء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾

وفي هذا الكلامِ متروكٌ، قد استغنى بدلالةِ ما ذكر عليه عنه، وهو: «فرجعَ الرسولُ إلى الملكِ من عندِ يوسفَ برسالتِه، فدعا الملكُ النسوةَ اللاتي قَطَّعْنَ أيديهن وامرأة العزيز»، فقال لهن: «ما خَطْبُكُنَّ إذْ رَاوَدْتُنَّ يوسفَ عن نفسه».

ويعني بقوله: «ما خطبكن»، ما كانَ أَمْرُكُنَّ، وما كان شأْنُكُنَّ. «إذْ راودتن يوسفَ عن نفسِه»، فأَجَبْنَهُ فَقُلْنَ: «حاشَ للهِ ما عَلِمْنَا عليه من سوءٍ قالت امرأةُ العزيزِ الآنَ حَصْحَصَ الحَقُّ»، تقول: الآن تَبَيَّنَ الحق وانكشفَ فظهرَ. «أنا رَاوَدْتُهُ عن نفسِه» وإنَّ يوسفَ لَمِنَ الصادقينَ في قولِه: «هيَ راودَتْنِي عن نفسي».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾

يعني بقوله: «ذلك ليعلم أني لم أَخُنْهُ بالغيبِ»، هذا الفِعْلُ الذي فعلتُه، من رَدِّي رسولَ الملكِ إليه، وتَرْكِي إجابتَهُ والخروجَ إليه، ومسألتي إيَّاهُ أنْ يسألَ النسوة اللاتي قَطَّعْنَ أيديهنَّ عن شأنِهنَّ إذْ قطعنَ أيديهن، إنما فعلتهُ ليعلمَ أني لم أَخُنْهُ في زوجتِه. «بالغيب»، يقول: لم أركب منها فاحشةً في حالِ غَيبتِه

عني. وإذا لم يَرْكَبْ ذلكَ بمَغِيبه، فهو في حالِ مشهدِه إياهُ أَحْرَى أنْ يكونَ بعيداً من ركوبه.

وقوله: «وأنَّ الله لا يهدي كيدَ الخائنين»، يقول: فعلتُ ذلك، ليعلمَ سيدي أني لم أخنه بالغيب. «وأنَّ الله لا يهدي كيدَ الخائنين»، يقول: وأنَّ الله لا يُسَدِّدُ صَنيعَ مَنْ خانَ الأماناتِ، ولا يرشدُ فِعَالَهم في خِيَانَتِهِمُوها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾

يقـول يوسفُ صلواتُ الله عليه: ومـا أُبَـرِّئُ نفسي من الخـطأِ والزَّللِ فأُزكِّيها. «إنَّ النفسَ لأمارةٌ بالسوء»، يقول: إنَّ النفوسَ نفوسَ العباد، تأمرهم بما تَهواهُ، وإنْ كانَ هَواهَا في غير ما فيه رِضَى الله. «إلَّا ما رَحِمَ ربي»، يقول: إلا أنْ يرحمَ ربي مَنْ شاء من خَلْقِه، فينجيه من اتباعِ هواها وطاعتها فيما تأمرُه به من السوء.

ويعني بقوله: «إنَّ ربي غفورٌ رحيم»، إنَّ الله ذُو صَفْحٍ عن ذنوبِ مَنْ تابَ من ذنوبه، بتركِه عقوبتَهُ عليها وفضيحتَهُ بها. «رحيم»، به بعد توبتِه، أن يعذبه عليها.

وذُكِرَ أنَّ يوسفَ قالَ هذا القولَ، من أجلِ أنَّ يوسفَ لما قال: «ذلك ليعلمَ أني لم أخنه بالغيب»، قال مَلَكٌ من الملائكة: ولا يومَ هَمَمْتَ بها! فقال يوسفُ حينئذٍ: «وما أُبَرِّئُ نفسي إنَّ النفسَ لأمَّارةٌ بالسوء».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ٥٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وقال الملك»، يعني مَلِكُ مصرَ الأكبر، وهو فيما ذكر ابن إسحق: الوليد بن الرّيان.

حين تَبَيَّنَ عُذْر يوسفَ، وَعَرفَ أمانتَهُ وعِلْمَهُ، قال لأصحابه: «ائتوني به أستخلِصْهُ لنفسي»، يقول: أجعله من خُلصائي دونَ غيري.

وقوله: «فلما كَلَّمَهُ»، يقول: فلما كَلَّمَ الملكُ يوسفَ، وعرفَ براءَتَهُ وعِظَمَ أمانتِه قال له: إنكَ، يا يوسفُ، «لدينا مكينٌ أمينٌ»، أي: مُتَمَكِّنٌ مما أردتَ وَعَرَضَ لكَ من حاجةٍ قِبَلَنا، لِرِفْعَةِ مكانِكَ ومَنْزِلَتِكَ، لدينا. «أمينٌ» على ما ائتمنتَ عليه من شيء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ: قال يوسفُ للملك: اجعلني على خزائنِ أرضك.

وهذا من يوسف صلواتُ الله عليه، مسألةٌ منه للملكِ أنْ يولِّيه أمرَ طعامِ بلدِه وخَراجها، والقيام بأسباب بلدِه، ففعلَ ذلك الملكُ به.

وقوله: «إني حفيظٌ عليم»، اختلفَ أهلُ التأويلِ في تأويله.

فقال بعضهم: معنى ذلك: إني حفيظٌ لما اسْتَوْدَعْتَنِي، عليمٌ بما وَلَّيْتَنِي.

وقال آخرون: إني حافظٌ للحسابِ، عليمٌ بالألسُنِ.

وأَوْلى القولين عندنا بالصواب، قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: «إني حافظ لما استودعتني، عالم بما أوليتني»، لأنَّ ذلك عقيبَ قولِه: «اجعلني على خزائن الأرض»، ومسألته الملكَ استكفاءَهُ خزائنَ الأرض، فكان إعلامه بأنَّ عنده خبرةً

في ذلك وكفايته إياه، أشبه من إعلامِه حفظه الحساب، ومعرفته بالألسن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وهكذا وطَّأنا ليوسفَ في الأرضِ ـ يعني أرضَ مصر. «يتبوأ منها حيثُ يشاء»، يقول: يَتَّخذُ من أرضِ مصرَ منزلًا حيثُ يشاء، بعد الحَبْسِ والضِيقِ. «نُصيبُ برحمتنا مَنْ نشاء»، من خَلْقِنا، كما أَصَبْنَا يوسفَ بها، فَمَكَّنَّا له في الأرضِ بعد العبودةِ والإسارِ، وبعد الإلقاءِ في الجُبِّ. «ولا نضيعُ أجرَ المحسنين»، يقول: ولا نُبْطِلُ جزاءَ عملِ مَنْ أحسنَ فأطاعَ رَبَّهُ، وعملَ بما أمرَهُ، وانتهى عما نَهاهُ عنه، كما لم نُبْطِلْ جزاءَ عملِ يوسفَ إذْ أحسنَ فأطاعَ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٥٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولثوابُ الله في الآخرةِ. «خيرٌ للذين آمنوا»، يقول: للذين صَدَّقُوا الله ورسولَه، مما أعطى يوسفَ في الدنيا من تمكينِه له في أرضِ مصرَ. «وكانوا يتقون»، يقول: وكانوا يتقونَ الله، فيخافونَ عِقابَهُ في خِلافِ أمرِه واستحلالِ محارِمه، فيطيعونَهُ في أمرِه ونهيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وجاء إخوةُ يوسفَ فدخلوا عليه فَعرفَهُمْ»، يوسفُ، «وهُمْ» ليوسفَ، «مُنْكِرُونَ»، لا يعرفونه.

القَوْلُ فِي تأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾

يقول: ولما حَمَّلَ يوسفُ لإخوتِه أباعِرَهُمْ من الطعامِ ، فأوقَرَ لِكُلِّ رجلٍ منهم بعيرَهُ، قال لهم: «ائتوني بأخٍ لكم من أبيكم»، كَيْمَا أحمل لكم بعيراً آخر، فَتَزْدادُوا به حِمْلَ بعيرٍ آخر، «ألا ترون أني أُوفي الكيلَ»، فلا أبخسه أحداً. «وأنا خير المنزلين»، وأنا خيرُ مَنْ أنزلَ ضيفاً على نفسِه من الناسِ بهذه البلدةِ، فأنا أضيفكم.

القَوْلُ فِي تأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ، مخبراً عن قِيلِ يوسفَ لإخوتِه: «فإنْ لم تأتوني به»، بأخيكم من أبيكم. «فلا كَيْلَ لكم عندي»، يقول: فليسَ لكم عندي طعامٌ أكيلُه لكم. «ولا تَقْرَبُونِ»، يقول: ولا تقربوا بلادي.

القَوْلُ فِي تأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال إخوةُ يوسفَ ليوسفَ، إذْ قال لهم: «ائتوني بأخٍ

لكم من أبيكم»: «قالوا سنراودُ عنه أباهُ»، ونسأله أنْ يُخَلِّيه معنا حتى نَجيءَ به إليكَ. «وإنَّا لفاعلون»، يعنون بذلك: وإنَّا لفاعلونَ ما قلنا لك إنا نفعله من مراودةِ أبينا عن أخينا منه، ولَنَجْتَهِدَنَّ.

وقوله: «وقال لفتيانه اجعلُوا بضاعتَهُمْ في رِحَالِهم»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وقال يوسفُ. «لفتيانه»، وهم، غلمانه.

«اجعلوا بضاعتهم في رحالهم»، يقول: اجعلوا أثمانَ الطعامِ التي أخذتُموها منهم. «في رِحالهم».

فإن قالَ قائلٌ: ولأيَّةِ عِلَّةٍ أمرَ يوسفُ فتيانَهُ أنْ يجعلُوا بضاعةَ إخوتِه في رحالهم؟

قيل: يحتملُ ذلك أوجهاً:

أحدها: أنْ يكونَ خَشيَ أنْ لا يكونَ عند أبيهِ دراهم، إذْ كانت السَّنة سنةَ جَدْبٍ وقَحْطٍ، فيُضِرُّ أخذُ ذلك منهم به، وأَحَبَّ أن يرجع إليه.

أو: أرادَ أنْ يَتَّسِعَ بها أبوهُ وإخوتُه، مع [قلَّةِ] حاجَتِهم إليه، فردَّهُ عليهم من حيثُ لا يعلمونَ سببَ ردِّهِ، تَكَرُّماً وتَفَضُّلاً.

والثالث: وهو أنْ يكونَ أرادَ بذلك أنْ لا يُخْلِفُوهُ الوعدَ في الرجوع، إذا وَجَدُوا في رِحالهم ثمنَ طعامٍ قد قَبَضُوه وملكَهُ عليهم غيرهم، عِوَضاً من طعامه، ويتحرَّجُوا من إمساكِهم ثمنَ طعامٍ قد قبضوه حتى يؤدُّوه على صاحبِه، فيكون ذلك أدْعَى لهم إلى العَوْدِ إليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فلما رجعَ إخوةُ يوسفَ إلى أبيهم. «قالوا يا أبانا مُنِعَ منا الكيلُ فأرسلْ معنا أخانا نَكْتَلْ»، يقول: مُنِعَ منا الكيلُ، فوقَ الكيلِ الذي كِيلَ لنا، ولم يُكَلْ لكلِّ رَجُلٍ منَّا إلَّا كيلُ بعيرٍ. «فأرسل معنا أخانا»، بنيامين يكتَلْ لنفسه كيلَ بعيرٍ آخرَ زيادة على كيلِ أباعِرِنا. «وإنا له لحافظون»، من أنْ يَنالَهُ مكروهٌ في سفره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال أبوهم يعقوبُ: هل آمَنُكُمْ على أخِيكُمْ من أبيكم، الذي تسألوني أنْ أُرسلَهُ معكم، إلا كما أمِنْتُكُمْ على أخيهِ يوسف من قَبْلُ؟ يقول: من قَبْلِه.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءةِ قوله: «فالله خير حافظاً».

فقرأ ذلك عامةُ قَرَأَةِ أهلِ المدينة وبعض الكوفيين والبصريين: ﴿فَالله خَيْرٌ حِفْظاً﴾، بمعنى: والله خَيْرُكُمْ حِفظاً.

وقرأ ذلك عامة قرأةِ الكوفيين وبعض أهل مكة: ﴿فَالله خَيْرٌ حَافِظاً﴾، بالألف، على توجيه «الحافظ» إلى أنه تفسيرٌ للخيرِ، كما يقال: «هو خيرٌ رجلًا»، والمعنى: فالله خيركم حافظاً، ثم حذفت «الكاف والميم».

والصوابُ من القولِ في ذلك أنهما قراءتان مشهورتان متقاربتا المعنى، قد قرأَ بكلٍّ واحدةٍ منهما أهلُ عِلْمٍ بالقرآن، فبأيتهما قرأ القارئُ فمصيبٌ. وذلك أنَّ مَنْ وَصَفَ الله بأنه خيرهم حفظاً، فقد وصَفَهُ بأنه خيرهم حافظاً، ومن وصفه بأنه خيرهم حافظاً، فقد وصفه بأنه خيرهم حفظاً.

«وهو أرحم الراحمين»، يقول: والله أرحمُ راحمٍ بخلْقِه، يرحمُ ضَعْفي على كِبَرِ سنّي، ووَحْدَتي بفقدِ ولدي فلا يُضيعه، ولكنه يحفظه حتى يَرُدَّهُ عليَّ لرحمته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولما فتحَ إخوةُ يوسفَ متاعَهم الذي حملوهُ من مصرَ من عنـدِ يوسف. «وجدوا بضاعَتَهم»، وذلك ثمنُ الطعامِ الذي اكتالُوه منه. «رُدَّتْ إليهم قالوا يا أبانا ما نَبْغِي هذه بضاعَتُنَا رُدَّتْ إلينا»، يعني أنهم قالوا لأبيهم: ماذا نبغي؟ هذه بضاعتنا رُدَّتْ إلينا، تَطْيِيباً منهم لنفسِه بما صُنِعَ بهم في رَدِّ بضاعتِهم إليهم.

وقوله: «ونَمِيرُ أهلَنا»، يقول: ونطلبُ لأهلنا طعاماً فنشتريه لهم.

«ونحفظُ أخانا»، الذي تُرسلُه معنا. «ونَزْدَادُ كيلَ بعير»، يقول: ونزدادُ على أحمالنا من الطعامِ حملَ بعيرٍ، يُكال لنا ما حَمل بعيرٌ آخرُ من إبلنا «ذلك كَيْلٌ يسير»، يقول: هذا حملٌ يسير.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال يعقوبُ لبنيه: لَنْ أُرسِلَ أخاكم معكم إلى ملكِ

مصرَ. «حتى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً من الله»، يقول: حتى تُعْطونِ موثقاً من الله بمعنى «الميثاق»، وهو ما يُوثَقُ به من يمينٍ وعَهْدٍ. «لَتَأْتُنَّنِي به»، يقول: لتأتنني بأخيكم. «إلاَّ أنْ يُحاطَ بكم»، يقول: إلا أنْ يُحيط بجميعِكُم ما لا تَقْدِرُونَ معه على أن تأتوني به.

وقوله: «فلما آتوه موثقهم»، يقول: فلما أَعْطَوْهُ عُهُودَهُمْ، «قال»، يعقوبُ «الله على ما نقولُ»، أنا وأنتم. «وكيلٌ»، يقول: هو شهيدٌ علينا بالوفاء بما نقولُ جميعاً.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال يعقوبُ لبنيه، لما أرادُوا الخروجَ من عنده إلى مصرَ ليمتارُوا الطعامَ: يا بَنِيَّ لا تدخلُوا مصرَ من طريقٍ واحد، وادخلوا من أبوابٍ متفرقة.

وذُكِرَ أنه قالَ ذلك لهم، لأنهم كانوا رِجالاً لهم جمالٌ وهيأةٌ، فخافَ عليهم العَيْنَ إذا دَخَلُوا جماعةً من طريقٍ واحدٍ، وهم ولَدُ رجلٍ واحدٍ، فأمرهم أن يفترقوا في الدخول إليها.

وقوله: «وما أغني عنكم من الله من شيء»، يقول: وما أقدرُ أنْ أدفعَ عنكم من قضاءِ الله الذي قد قَضَاهُ عليكم من شيءٍ صغيرٍ ولا كبير، لأنَّ قضاءَهُ نافذٌ في خَلْقِه. «إنِ الحُكْمُ إلا لله»، يقول: ما القضاءُ والحكمُ إلا لله دونَ ما سِواهُ من الأشياءِ، فإنـه يحكمُ في خَلْقِـه بما يشاءُ، فينفذُ فيهم حُكْمه، ويقضي فيهم، ولا يُرَدُّ قضاؤُه. «عليه توكلتُ»، يقول: على الله توكلتُ فوثقتُ

به فيكم وفي حِفْظِكم عليَّ، حتى يردكم إليَّ وأنتم سالمون معافون، لا على دخولكم مصرَ إذا دخلتُمُوهَا من أبوابٍ متفرقة. «وعليه فليتوكَّلِ المتوكلون»، يقول: وإلى الله فليفوِّضْ أمورَهم المفوِّضُون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولما دخلَ ولَدُ يعقوبَ من حيثُ أمرهم أبوهم، وذلك دخـولهم مصرَ من أبوابٍ متفرقة. «ما كان يُغْنِي»، دخولهم إياها كذلك. «عنهم»، من قضاءِ الله الذي قَضَاهُ فيهم فَحَتَّمَهُ. «من شيءٍ إلا حاجةً في نفسِ يعقوبَ قَضَاها»، إلا أنهم قضوا وطراً ليعقوبَ بدخولهم، لا من طريقٍ واحد، خوفاً من العينِ عليهم، فاطمأنتْ نَفْسُه أنْ يكونوا أتوا من قِبَلِ ذلك، أو نَالَهُمْ من أجلِه مكروهٌ.

وقوله: «وإنه لذُو عِلْمٍ لما علمناه»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإنَّ يعقوبَ لَذُو عِلْمٍ، لتعليمنا إياه.

«ولكنَّ أكثرَ الناس لا يعلمون»، يقولُ جَلَّ ثناؤُهُ: ولكنَّ كثيراً من الناسِ غير يعقوب، لا يعلمونَ ما يعلَمُهُ، لأنَّا حَرَمناه ذلك فلم يعلمه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولما دخلَ ولَدُ يعقوبَ على يوسفَ «آوى إليه أخاهُ»، يقول: ضَمَّ إليه أخاه لأبيهِ وأمه.

وقوله: «فلا تبتئس»، يقول: فلا تَسْتَكِنْ ولا تَحْزَنْ.

فتأويلُ الكلام إذاً: فلا تحزنْ ولا تستكنْ لشيءٍ سَلَفَ من إخوتِكَ إليكَ في نفسك، وفي أخيكَ من أمك، وما كانوا يفعلون قبلَ اليومِ بك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ٧٠﴾

يقول: ولما حَمَّلَ يوسفُ إبلَ إخوتِه ما حَمَّلها من الميرةِ، وقضى حاجتهم.

وقوله: «جعلَ السقاية في رحلِ أخيه»، يقول: جعلَ الإناءَ الذي يكيلُ به الطعامَ في رَحْلِ أخيه، يعني: في متاعِ أخيه ابنِ أمِّهِ وأبيه، وهو بنيامين.

وقوله: «ثم أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ»، يقول: ثم نادى مُنَادٍ. «أيتها العيرُ»، وهي القافلةُ فيها الأحمالُ. «إنكم لسارقون».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ٧١ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ٧٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال بَنُو يعقوبَ، لما نُودُوا: «أيتها العير إنكم لسارقون»، وأقبلوا على المنادي ومَنْ بحضرتهم يقولون لهم: «ماذا تفقدون»، ما الذي تَفْقِدُون؟ «قالوا نفقدُ صُواعَ الملك»، يقول: فقال لهم القوم: نفقد مَشْرَبَةَ الملكِ.

و«الصواع»، هو الإناءُ الذي كان يوسفُ يَكِيلُ به الطعام.

وقوله: «ولمن جاء به حِمْلُ بعير»، يقول: ولمن جاء بالصواعِ حملُ بعيرٍ من الطعام.

وقوله: «وأنا به زعيم»، يقول: وأنا بأنْ أُوفِّيه حِمْلَ بعيرٍ من الطعام إذا جاءني بصواعِ الملك، كفيلٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ۝٧٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال إخوةُ يوسف: «تالله»، يعني: والله.

وهذه «التاء» في «تالله»، إنما هي «واو» قُلبتْ «تاء»، كما فعل ذلك في «التوراة» وهي من «ورّيت»، و«التُراث»، وهي من «ورثت»، و«التخمة»، وهي من «الوخامة»، قلبت الواو في ذلك كله تاء، و«الواو» في هذه الحروف كلها من الأسماء، وليست كذلك في «تالله»، لأنها إنما هي واو القسم. وإنما جعلت تاء، لكثرةِ ما جرى على ألسُنِ العربِ في الأيمانِ في قولهم: «والله»، فخُصَّت في هذه الكلمة بأنْ قُلِبَتْ تاء. ومَنْ قال ذلك في اسم الله فقال: «تالله». لم يقل «تالرحمن» و«تالرحيم»، ولا مع شيءٍ من أسماء الله، ولا معَ شيءٍ مما يقسم به، ولا يقال ذلك إلا في «تالله» وحده.

وقوله: «لقد علمتم ما جِئْنَا لِنُفْسِدَ في الأرضِ»، يقول: لقد علمتم ما جئنا لنعصي الله في أرضكم.

فإنْ قالَ قائل: وما كان عِلْمُ مَنْ قِيلَ له: «لقد علمتم ما جئنا لنفسدَ في الأرضِ»، بأنهم لم يجيئوا لذلك، حتى استجازَ قائلُو ذلك أنْ يقولوه؟

قيل: استجازوا أنْ يقولوا ذلك، لأنهم، فيما ذُكِرَ، ردُّوا البضاعةَ التي

وجدوها في رِحالهم، فقالوا: لو كُنَّا سُرَّاقاً، لم نَرُدَّ عليكم البضاعةَ التي وجدناها في رحالنا.

وقيل: إنهم كانوا قد عُرِفُوا في طريقهم ومسيرهم أنهم لايظلمونَ أحداً، ولا يتناولون ما ليسَ لهم، فقالوا ذلك حين قِيلَ لهم: «إنكم لسارقون».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ۝٧٤ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال أصحابُ يوسفَ لإخوتِه: فما ثوابُ السَّرَقِ إنْ كنتم كاذبينَ في قولكم: «ما جئنا لِنُفْسِدَ في الأرضِ وما كنا سارقين»؟ «قالوا جزاؤُه مَنْ وُجِدَ في رَحْلِه فهو جزاؤه»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: وقال إخوةُ يوسفَ: ثوابُ السَّرَقِ مَنْ وُجِدَ في متاعِه السرق «فهو جزاؤُه»، يقول: فالذي وُجِدَ ذلك في رحله ثوابه بأنْ يُسَلَّمَ بسَرِقته إلى مَنْ سرق منه حتى يَسْتَرِقَّهُ. «كذلك نجزي الظالمين»، يقول: كذلك نفعلُ بِمَنْ ظلمَ ففعلَ ما ليسَ له فِعْلُه، مِنْ أخذِهِ مالَ غيرِه سَرَقاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ۝٧٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ففتش يوسفُ أوعيَتَهُمْ ورِحَالهم، طالباً بذلك صُوَاعَ الملكِ، فبدأ في تفتيشِه بأوعيةِ إخوته من أبيهِ، فجعلَ يُفَتِّشُهَا وِعاءً وعاءً قبلَ

وعاءِ أخيهِ من أبيهِ وأمه، فإنه أخَّرَ تفتيشه، ثم فَتَّشَ آخِرَهَا وعاءَ أخيه، فاستخرجَ الصُّواعَ من وعاءِ أخيه.

وقوله: «كذلك كِدْنَا ليوسفَ»، يقول: هكذا صنعنا ليوسفَ، حتى يخلِّصَ أخاهُ لأبيهِ وأمه من إخوته لأبيه، بإقرارٍ منهم أنَّ له أنْ يَأْخُذَهُ منهم ويحتبسه في يديه، ويحولَ بينه وبينهم. وذلك أنهم قالوا، إذْ قِيلَ لهم: «ما جزاؤُهُ إنْ كنتم كاذبين»: جزاءُ من سرق الصُّواعَ، أنَّ مَنْ وُجِدَ ذلك في رَحْلِه فهو مُسْتَرَقٌّ به. وذلك كان حُكْمهم في دِينهم. فكادَ الله ليوسفَ، كما وَصَفَ لنا، حتى أخذَ أخاهُ منهم، فصارَ عنده بِحُكْمِهم وصُنْعِ الله له.

وقوله: «ما كان ليأخذ أخاهُ في دِينِ الملك إلا أنْ يشاءَ الله»، يقول: ما كان يوسفُ ليأْخُذَ أخاهُ في حكم ملكِ مصرَ وقضائِه وطاعتِه منهم، لأنه لم يكنْ من حُكْمِ ذلك الملك وقضائه أنْ يُسْتَرَقَّ أحدٌ بالسَّرَقِ، فلم يكن ليوسفَ أخذ أخيهِ في حكم ملكِ أرضه، إلا أنْ يشاء الله بكيدِه الذي كاده له، حتى أسلمَ مَنْ وُجِدَ في وعائه الصُّواعُ إخوتُه ورفقاؤُه بحكمِهم عليه، وطابتْ أنفسهم بالتسليم.

وقوله: «نرفعُ درجاتٍ مَنْ نشاء»، بمعنى: نرفع مَنْ نشاء مراتِب ودرجاتٍ في العلم على غيرِه، كما رفعنا يوسف.

وقوله: «وفوقَ كُلِّ ذي عِلْمٍ عليم»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وفوقَ كُلِّ عالمٍ من هو أعلَم منه، حتى ينتهي ذلك إلى الله. وإنما عَنَى بذلك أنَّ يوسفَ أعلم إخوته، وأنَّ فوقَ يوسفَ مَنْ هو أعلم من يوسف، حتى ينتهي ذلك إلى الله.

إنْ قالَ لنا قائلٌ: وكيف جازَ ليوسفَ أنْ يجعلَ السقايةَ في رحلِ أخيه، ثم يُسَرِّقَ قوماً أبرياءَ من السَّرَقِ، ويقول: «أيتها العيرُ إنكم لسارقون»؟

قِيلَ: إنَّ قوله: «أيتها العيرُ إنكم لسارقون»، إنما هو خَبَرٌ من الله عن

مؤذِّنٍ أذَّنَ به، لا خبر عن يوسف. وجائزٌ أنْ يكونَ المؤذِّنُ أذَّنَ بذلك عن أمرِ يوسف، واستجازَ الأمرَ بالنداء بذلك، لعلمه بهم أنهم قد كانوا سرقوا سَرِقةً في بعض الأحوال، فأمر المؤذنَ أنْ يناديهم بوصفهم بالسَّرق، ويوسف يعني ذلك السَّرق لا سَرَقهم الصُّواع. وقد قال بَعضُ أهلِ التأويل: إنَّ ذلك كان خطأً من فِعْلِ يوسفَ، فعاقبه الله بإجابةِ القومِ إيَّاهُ: «إنْ يَسْرِقْ فقد سرقَ أخٌ له من قَبْلُ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ۝٧٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «قالوا إنْ يسرقْ فقد سرقَ أخٌ له من قبل»، يعنون أخاهُ لأبيهِ وأمه، وهو يوسفُ.

ويعني بقوله: «فأسَرَّهَا»، فأضْمَرَهَا.

وقوله: «والله أعلم بما تصفون»، يقول: والله أعلمُ بما تكذبون فيما تَصِفُونَ به أخاهُ بنيامين.

فمعنى الكلام إذاً: فأسَرَّهَا يوسفُ في نفسِه ولم يُبْدِهَا لهم، قال: أنتم شَرٌّ عنـدَ الله منـزلاً مِمَّنْ وَصَفْتُموه بأنه سرقَ، وأخبثُ مكاناً، بما سَلَفَ من أفعالِكم، والله عالمٌ بكَذِبِكُمْ، وإنْ جَهِلَهُ كثيرٌ ممن حضرَ من الناس.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٧٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قالت إخوةُ يوسفَ ليوسفَ: «يا أيها العزيزُ»، يا أيها المَلِكُ. «إنَّ له أبـاً شيخـاً كبيراً»، كَلِفاً بحبِّه، يَعْنُونَ يعقوبَ. «فَخُذْ أحَدَنا مكـانه»، يعنون: فخذ أحداً منّا بدلاً من بنيامين، وخَلِّ عنه. «إنَّا نراكَ من المحسنين»، يقول: إنا نراكَ من المحسنين في أفعالك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال يوسفُ لإخوته: «مَعاذَ الله»، أعوذُ بالله.

«أنْ نأخُذَ إلا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعنا عنده»، يقول: أستجيرُ بالله من أنْ نأخذَ بريئاً بسقيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ: «فلما استيأسُوا منه»، فلما يَئِسُوا منه من أنْ يُخَلِّي يوسفُ عن بنيامين، ويأخذَ منهم واحداً مكانه، وأنْ يُجيبَهُمْ إلى ما سألوه من ذلك.

وقوله: «خَلَصُوا نَجِيًّا»، يقول بعضُهم لبعضٍ يتناجون، لا يختلطُ بهم غيرهم.

وقوله: «قال كبيرهم»، اختلفَ أهلُ العلم في المعنِّي بذلك.

فقال بعضهم: عَنَى به كبيرَهُمْ في العقلِ والعلمِ، لا في السنِّ، وهو شمعون. قالوا: وكان روبيل أكبر منه في الميلاد.

وقال آخرون: بل عَنَى به كبيرَهُمْ في السن، وهو روبيل.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصحة، قولُ مَنْ قال: عَنَى بقوله: «قال كبيرهم»، روبيل، لإجماعِ جميعِهم على أنه كان أكبرهم سنًّا. ولا تفهم العربُ في المخاطبة إذا قيل لهم: «فلانٌ كبيرُ القوم»، مطلقاً بغيرِ وصلٍ، إلا أحد معنيين: إما في الرياسةِ عليهم والسؤدد، وإما في السن. فأما في العقل، فإنهم إذا أرادوا ذلك وصَلُوه فقالوا: «هو كبيرهم في العقل». فأما إذا أطلق بغير صلته بذلك، فلا يفهم إلا ما ذكرت.

وقد قال أهلُ التأويل: لم يكن لشمعون وإنْ كان قد كان من العلمِ والعقلِ بالمكانِ الذي جعله الله به على إخوته رياسةٌ وسؤدداً، فيعلم بذلك أنه عَنَى بقوله: «قال كبيرهم». فإذا كان ذلك كذلك، فلم يَبْقَ إلا الوجهُ الآخر، وهو الكبر في السن. وقد قال الذين ذكرنا جميعاً: «روبيل كان أكبر القوم سنًّا»، فَصَحَّ بذلك القولُ الذي اخترناه.

وقوله: «ألم تعلموا أنَّ أباكم قد أخذَ عليكم مَوْثِقاً من الله»، يقول: ألم تعلموا، أيها القومُ، أنَّ أباكم يعقوب قد أخذَ عليكم عهودَ الله ومواثيقَهُ: لَتَأْتِيَنَّهُ به جميعاً إلا أنْ يُحاطَ بكم. «ومن قَبْلُ ما فَرَّطْتُمْ في يوسف»، ومن قبلِ فِعْلَتِكُمْ هذه، تفريطكم في يوسفَ. يقول: أو لم تعلموا من قبل هذا تفريطَكم في يوسف؟

وقوله: «فَلَنْ أبرحَ الأرضَ»، التي أنا بها، وهي مصر، فأفارقها. «حتى يأذن لي أبي»، بالخروجِ منها.

وقوله: «أو يحكمَ الله»، أو يقضي لي ربي بالخروجِ منها، وترك أخي

بنيامين، وإلا فإني غير خارج. «وهـو خيرُ الحاكمين»، يقول: والله خيرُ مَنْ حَكَمَ، وأعدلُ من فَصَلَ بين الناس.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ، مخبراً عن قِيلِ روبيل لإخوتِه، حين أخذ يوسفُ أخاه بالصواعِ الذي اسْتُخْرِجَ من وعائِه: ارجعوا، إخوتي، إلى أبيكم يعقوب فقولوا له: يا أبانا، إنَّ ابنكَ بنيامين سرق.

واختلف أهلُ التأويلِ في تأويل ذلك.

فقال بعضهم: معناه: وما قلنا إنه سَرَقَ إلا بظاهرِ عِلْمِنَا بأنَّ ذلك كذلك، لأنَّ صواعَ الملك أُصيبَ في وعائِه دونَ أوعيةِ غيرِه.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وما شهدنا عند يوسفَ، بأنَّ السارقَ يُؤْخَذُ بسرقته، إلَّا بما علمنا.

وقوله: «وما كنا للغيب حافظين»، يقول: وما كنا نرى أن ابنك يسرق ويصير أمرنا إلى هذا، وإنما قلنا: «ونحفظ أخَانَا»، مِمَّا لنا إلى حِفْظِه منه السبيل.

وأولى التأويلين بالصوابِ عندنا في قوله: «وما شَهِدْنَا إلا بما عَلِمْنَا»، قولُ مَنْ قال: وما شهدنا بأنَّ ابنكَ سرقَ إلا بما علمنا من رؤيتنا للصواعِ في وعائه، لأنه عَقِيب قوله: «إنَّ ابنكَ سرق»، فهو بأنْ يكونَ خبراً عن شهادتِهم بذلك، أوْلى من أنْ يكونَ خبراً عما هو منفصل.

وذكر أن: «الغيب»، في لغة حِمْيَر، هو الليلُ بعينه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

يقول: وإنْ كنتَ مُتَّهِماً لنا، لا تُصَدِّقنا على ما نقولُ من أنَّ ابنكَ سرق: «فاسألِ القريةَ التي كنا فيها»، وهي مصر، يقول: سَلْ مَنْ فيها من أهلها. «والعِير التي أقبلنا فيها»، وهي القافلةُ التي كنا فيها، التي أقبلنا منها معها، عن خبرِ ابنكَ وحقيقةِ ما أخبرناكَ عنه من سَرَقِهِ، فإنك تَخْبُر مِصْدَاقَ ذلك. «وإنَّا لصادقون»، فيما أخبرناكَ من خبره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾

في الكلام متروكٌ، وهو: فرجعَ إخوةَ بنيامين إلى أبيهم وتَخلَّفَ روبيل، فأخبروه خَبَرَهُ، فلما أخبروه أنه سَرَقَ. «قال بل سَوَّلَتْ لكم أنفسكم أمراً»، يقول: بل زَيَّنَتْ لكم أنفسكم أمراً هَمَمْتُمْ به وأردتُموه. «فصبرٌ جميل»، يقول: فصبري على ما نالني من فقد ولدي، صبرٌ جميل لا جزعَ فيه ولا شكايةَ عسى الله أنْ يأتيني بأولادي جميعـاً فيردَّهُمْ عليَّ. «إنـه هو العليم»، بوَحْـدتي، وبفقدِهم وحزني عليهم، وصِدْقِ ما يقولونَ من كذبه. «الحكيم»، في تدبيره خَلْقَهُ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ، بقوله: «وتولَّى عنهم»، وأعْرَضَ عنهم يعقوبُ. «وقال يا أسفا على يوسف»، يعني: يا حَزنا عليه.

يقال: إنَّ «الأسفَ»، هو أشدُّ الحزنِ والتَّنَدُّمِ. يقال منه: «أسِفْتُ على كذا آسَفُ عليه أسَفاً».

يقول الله جَلَّ ثناؤُهُ: وابيضَّتْ عينا يعقوب من الحزنِ. «فهو كظيم»، يقول: فهو مكظومٌ على الحزنِ، يعني أنه مملوءٌ منه، مُمْسِكٌ عليه لا يُبينه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ۝٨٥﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ: قال وَلَدُ يعقوب الذين انصرفُوا إليه من مصر له، حين قال: «يا أسفا على يوسف»: تالله لا تزالُ تذكرُ يوسفَ.

وقوله: «حتى تكون حَرَضاً»، يقول: حتى تكونَ دَنِفَ الجسمِ مخبولَ العقل.

وأصل «الحرض»، الفساد في الجسمِ والعقلِ من الحزنِ أو العشقِ.

وقوله: «أو تكونَ من الهالكين»، يقول: أو تكون مِمَّنْ هَلَكَ بالموت.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨٦﴾

يقـول تعالى ذِكْرُهُ: قال يعقوبُ للقائلينَ له من ولده: «تالله تَفْتَأُ تذكرُ يوسفَ حتى تكـون حَرَضـاً أو تكونَ من الهالكين»: لستُ إليكم أشكو بَثِّي وحُزْني، وإنما أشكو ذلك إلى الله.

ويعني بقوله: «إنما أشكو بثي»، ما أشكو هَمِّي وحزني إلاَّ إلى الله.

وأما قوله: «وأعلمُ من الله ما لا تعلمون»، فإنَّ ابنَ عباس كان يقول في ذلك، فيما ذُكِرَ عنه: أعلمُ أنَّ رؤيا يوسف صادقةٌ، وأني سأسجدُ له.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ، حين طمعَ يعقوبُ في يوسفَ قال لبنيه: «يا بَنِيَّ اذهبوا»، إلى الموضعِ الذي جئتم منه وخَلَّفْتُمْ أخوَيْكُمْ به. «فتحسَّسوا من يوسف»، يقول: التمسوا يوسفَ وتعرَّفوا من خبره.

«وأخيه»، يعني: بنيامين. «ولا تيأسوا من روح الله»، يقول: ولا تقنطوا من أنْ يُرَوِّحَ الله عنا ما نحنُ فيه من الحُزنِ على يوسفَ وأخيهِ بفرَجٍ من عندِه، فَيُرِيَنِيْهِمَا. «إنه لا ييأسُ من روح الله»، يقول: لا يقنطُ من فَرَجِه ورحمته، ويقطعُ رجاءَهُ منه. «إلا القومُ الكافرون»، يعني: القومُ الذين يجحدون قُدرته على ما يشاء تكوينه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ۝٨٨﴾

وفي الكلامِ متروكٌ قد استغني بذكرِ ما ظهرَ عما حذف، وذلك: فخرجُوا راجعينَ إلى مصر حتى صاروا إليها فَدَخَلُوا على يوسفَ. «فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيزُ مَسَّنَا وأهلَنا الضُّرُّ»، أي الشدةُ من الجَدْبِ والقحطِ «وجئنا ببضاعةٍ مزجاة».

وعَنَى بقوله: «وجئنا ببضاعةٍ مُزْجاة»، بدراهم، أو ثمن لا يجوزُ في ثمنِ الطعامِ إلا لمن يتجاوز فيها.

وقوله: «فأوفِ لنا الكيلَ»، يقول: فأتِمَّ لنا حقوقنا في الكيلِ بها، وأعْطِنَا بها ما كنتَ تُعطينا قَبْلُ بالثمنِ الجيِّدِ والدراهمِ الجائزةَ الوافيةَ التى لا تردّ.

وقوله: «وتصدق علينا»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: قالوا: وتَفضَّلْ علينا بما بَيْنَ سِعْـرِ الجِيادِ والرديَّةِ، فلا تَنْقصْنَا من سعرِ طَعامك، لرديٍّ بضاعتنا. «إن الله يجزي المتصدقين»، يقول: إنَّ الله يُثيبُ المتفضلينَ على أهلِ الحاجة بأموالهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾

ذُكِرَ أنَّ يوسفَ صلواتُ الله عليه لما قال له إخوتُه: «يا أيها العزيزُ مَسَّنا وأهلنا الضرُّ وجئنا ببضاعةٍ مُزْجاةٍ فأوفِ لنا الكيلَ وتَصَدَّقْ علينا إنَّ الله يجزي المتصدقين»، أدركته الرِقَّةُ، وباحَ لهم بما كان يَكْتُمُهُمْ من شأنِه.

فتأويل الكلام: هل تذكرون ما فعلتم بيوسفَ وأخيهِ، إذ فرَّقْتُمْ بينهما، وصنعتم ما صنعتم إذْ أنتم جاهلون؟ يعني: في حال جَهْلِكم بعاقبةِ ما تفعلونَ بيوسفَ، وما إليه صائرٌ أمرُه وأمرُكُمْ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾

يقـول تعالى ذِكْرُهُ: قال إخوةُ يوسفَ له، حين قالَ لهم ذلك يوسف: «إنك لأنتَ يوسف»؟ فقال: نعم أنا يوسف. «وهذا أخي قد من الله علينا»، بأنْ جمعَ بيننا بعد ما فَرَّقْتُمْ بيننا. «إنه مَنْ يَتَّقِ ويصبرْ»، يقول: إنه مَنْ يتق الله فيراقبه بأداءِ فرائضِه واجتنابِ معاصيه. «ويصبرْ»، يقول: ويكفَّ نفسَهُ فيحبسها عما حَرَّمَ الله عليه من قولٍ أو عملٍ عند مصيبةٍ نزلتْ به من الله. «فإنَّ الله لا يضيعُ أجرَ المحسنين»، يقول: فإن الله لا يُبْطِلُ ثوابَ إحسانه وجزاء طاعته إيَّاه فيما أمره ونهاه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ۝٩١﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ: قال إخوةُ يوسفَ له: تالله لقد فَضَّلَكَ الله علينا، وآثرك بالعلمِ والحلمِ والفَضلِ. «وإنْ كنا لخاطئين»، يقول: وما كُنَّا في فِعْلِنَا الذي فَعَلْنَا بكَ، في تَفْريقنا بينكَ وبينَ أبيكَ وأخيكَ وغير ذلك من صَنِيعنَا الذي صنعنا بك، إلا خاطئينَ. يعنون: مخطئين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٩٢﴾

يقـول تعالى ذِكْرُهُ: قال يوسفُ لإخوته: «لا تثريبَ»، يقول: لا تغييرَ عليكم، ولا إفسادَ لما بيني وبينكم من الحرمةِ وحقِّ الأُخُوَّةِ، ولكنْ لكم عندي الصفحُ والعفو.

وقـولـه: «يغفـرُ الله لكم وهو أرحمُ الراحمين»، وهذا دعاءٌ من يوسفَ لإخوتِه، بأنْ يغفرَ الله لهم ذنبهم فيما أتوا إليه ورَكِبُوا منه من الظلمِ. يقول:

عَفَا الله لكم عن ذَنْبكم وظُلْمِكُمْ، فَسَتَرهُ عليكم. «وهو أرحمُ الراحمين»، يقول: والله أرحمُ الراحمينَ لمن تابَ من ذنبه، وأنابَ إلى طاعته بالتوبة من معصيته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٣﴾

ذُكِرَ أنَّ يوسفَ ﷺ لما عَرَّفَ نفسه إخوته، سألهم عن أبيهم فقالوا: ذَهَبَ بَصَرُهُ من الحزنِ! فعند ذلك أعطاهُمْ قميصهُ وقال لهم: «اذهبوا بقميصي هذا».

وقوله: «يأتِ بصيراً»، يقول: يَعُدْ بصيراً. «وأْتُوني بأهلكم أجمعين»، يقول: وجِيئُوني بجميعِ أهلكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ۝٩٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولما فَصَلَتْ عِيرُ بني يعقوب من عندِ يوسفَ متوجهةً إلى يعقوب، قال أبوهم يعقوب: «إني لأجدُ ريحَ يوسف». ذُكر أنَّ الريحَ استأذنت رَبَّها في أنْ تأتي يعقوبَ بريحِ يوسفَ قبلَ أنْ يأتيه البشيرُ، فأذِنَ لها، فأتتهُ بها.

وأما قوله: «لولا أنْ تُفَنِّدون»، فإنه يعني: لولا أن تُعَنِّفُوني، وتُعَجِّزُوني، وتلوموني، وتُكَذِّبوني.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ۝٩٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال الذين قال لهم يعقوبُ من ولدِهِ: «إني لأجدُ ريحَ يوسف لولا أن تفندون»: تالله، أيها الرجلُ، إنكَ مِنْ حُبِّ يوسفَ وذِكْرِه لفي خطئكَ وزَلَلِكَ القديم، لا تنساهُ ولا تتسلَّى عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًاۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فلما أنْ جاء يعقوبَ البشيرُ من عندِ ابنه يوسف، وهو المبشِّرُ برسالةِ يوسفَ، وذلك بريدٌ، فيما ذُكر، كان يوسفُ أبردَهُ إليه.

وقوله: «ألقاهُ على وجهه»، يقول: ألقى البشيرُ قميصَ يوسفَ على وجهِ يعقوبَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال ولد يعقوبَ الذين كانوا فرَّقوا بينه وبين يوسفَ: يا أبانا سَلْ لنا رَبَّكَ يَعْفُ عنَّا، ويسترْ علينا ذنوبنا التي أذنبناها فيكَ وفي يوسف، فلا يعاقبنا بها في القيامة. «إنا كنا خاطئين»، فيما فعلنا به، فقد اعترفنا بذنوبنا. «قال سوف أستغفرُ لكم ربي»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: قال يعقوب: سوف أسألُ ربي أنْ يعفوَ عنكم ذنوبَكُمْ التي أذنبتموها فيَّ وفي يوسف.

وقوله: «إنه هو الغفور الرحيم»، يقول: إنَّ ربي هو الساترُ على ذنوبِ التائبينَ إليه من ذنوبهم. «الرحيم»، بهم أنْ يُعَذِّبَهُمْ بعد توبتهم منها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ

أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ، فلما دخلَ يعقوبُ وولَدُه وأهلُوهم على يوسفَ. «آوى إليه أبويه»، يقول: ضَمَّ إليه أبويه، فقال لهم: «ادخلوا مصرَ إنْ شاء الله آمنين».

فإنْ قال قائل: وكيف قال لهم يوسفُ: «ادخلوا مصرَ إنْ شاء الله آمنين»، بعدما دخلوها، وقد أخبرَ الله عزَّ وجلَّ عنهم أنهم لما دخلوها على يوسف وضَمَّ إليه أبويه، قال لهم هذا القولَ؟

قيل: قد اختلفَ أهلُ التأويلِ في ذلك.

فقال بعضهم: إنَّ يعقوبَ إنما دخلَ على يوسفَ هو وولَدُهُ، وآوى يوسفُ أبويه إليه قبل دخولِ مصر. قالوا: وذلك أن يوسفَ تلقَّى أباهُ تكرمةً له قبلَ أنْ يدخلَ مصر، فآواهُ إليه، ثم قال له ولمن معه: «ادخلوا مصرَ إنْ شاء الله آمنين»، بها قبل الدخول.

وقال آخرون: بل قوله: «إنْ شاء الله»، استثناءٌ من قولِ يعقوبَ لبنيه: «أستغفر لكم ربي». قال: وهو من المُؤَخَّرِ الذي معناه التقديمُ. قالوا: وإنما معنى الكلام: قال: أستغفرُ لكم ربي إنْ شاء الله إنه هو الغفورُ الرحيم، فلما دخلوا على يوسفَ آوى إليه أبويه، وقال ادخُلوا مصرَ، ورفع أبويه.

والصواب من القول في ذلك عندنا قولُ مَنْ قال: إنَّ يوسفَ قال ذلك

لأبويه ومَنْ معهما من أولادِهما وأهاليهم قبلَ دخولهم مصر حين تَلَقَّاهُمْ، لأنَّ ذلك في ظاهرِ التنزيل كذلك، فلا دلالةَ تدلُّ على صحةِ ما قالَ ابن جريج، ولا وجهَ لتقديمِ شيءٍ من كتابِ الله عن موضعه أو تأخيره عن مكانِه إلاَّ بحجةٍ واضحةٍ.

وقيل: عُنِي بقوله: «آوى إليه أبويه» أبوهُ وخالتُه. وقال الذين قالوا هذا القول: كانتْ أمُّ يوسفَ قد ماتت قَبْلُ، وإنما كانت عند يعقوبَ يومئذٍ خالتُه أخت أمه، كان نكحها بعد أمِّه.

وقال آخرون: بل كان أباه وأمه.

وأَوْلى القولين في ذلك بالصوابِ ما قاله ابنُ إسحق، لأن ذلك هو الأغلب في استعمالِ الناسِ والمتعارفِ بينهم في «أبوين»، إلا أنْ يصح ما يقالُ من أنَّ أمَّ يوسفَ كانت قد ماتت قبلَ ذلك بحجةٍ يجب التسليمُ لها، فيسلّم حينئذٍ لها.

وقوله: «وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين»، مما كنتم فيه في باديتكم من الجدب والقحط.

وقوله: «رفع أبويه على العرشِ»، يعني: على السرير.

وقوله: «وخَرُّوا له سُجَّداً»، يقول: وخَرَّ يعقوبُ وولده وأمّه ليوسف سجّداً. وكانت تحيةُ الناسِ يومئذٍ أن يسجد بعضُهم لبعض.

وإنما عَنَى مَنْ ذكر بقوله: «إنَّ السجودَ كان تحيةً بينهم»، أنَّ ذلك كان منهم على الخُلُق، لا على وَجْهِ العبادةِ من بعضِهم لبعض. ومما يدلُّ على أنَّ ذلك لم يزل من أخلاقِ الناس قديماً قبلَ الإسلامِ على غير وجهِ العبادةِ من بعضهم لبعض، قول أعشى بني ثعلبة[1]:

(١) ديوانه: ٣٩.

فَلَمَّـا أَتَـانَـا بُعَـيْدَ الـكَـرَى   سَجَـدْنـا لهُ ورَفَـعْـنـا عَمَـارَا

وقوله: «يا أبتِ هذا تأويلُ رُؤْيَايَ من قَبْلُ قد جعلها ربي حقًّا»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: قال يوسفُ لأبيه: يا أبتِ، هذا السجودُ الذي سجدتَ أنت وأمّي وإخوتي لي. «تأويلُ رؤيايَ من قبل»، يقول: ما آلتْ إليه رؤيايَ التي كنتُ رأيتها، وهي رؤياهُ التي كان رآها قَبْلَ صنيعِ إخوتِه به ما صنعوا: أنَّ أحدَ عشرَ كوكباً والشمس والقمر له ساجدون. «قد جعلها ربي حقًّا»، يقول: قد حققّها ربي، لمجيء تأويلها على الصحَّة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال يوسفَ، بعد ما جمعَ الله له أبويه وإخوته، وبسطَ عليه من الـدنيا ما بسطَ من الكـرامـةِ، ومَكَّنَـهُ في الأرض، متشـوِّقـاً إلى لقـاء آبـائـه الصالحين: «رَبِّ قد آتيتني من المُلْكِ»، يعني: من مُلْكِ مصر. «وعَلَّمتني من تأويلِ الأحاديث»، يعني من عبارةِ الرؤيا، تعديداً لنعمِ الله عليه، وشكراً له عليها. «فاطرَ السمواتِ والأرض»، يقول: يا فاطرَ السمواتِ والأرض، يا خالِقَهَا وبارِئَها. «أنتَ وليي في الدنيا والآخرة»، يقول: أنت وليي في دنيايَ على مَنْ عَادَاني وأرادني بسوء بنصرك، وتَغْذُوني فيها بنعمتكَ، وتَلِيني في الآخرة بفضلكَ ورحمتـكَ. «تَـوَفّني مسلمـاً»، يقـول: اقبضني إليكَ مسلمـاً. «وألحقني بالصالحين»، يقول: وألحقني بصالحِ آبائي إبراهيمَ وإسحقَ ومن قبلهم من أنبيائك ورسلك.

وقيل: إنه لم يَتَمَنَّ أحدُ من الأنبياءِ الموتَ قبل يوسف.

وذُكِرَ أنَّ بَني يعقوب الذين فعلوا بيوسفَ ما فعلوا، استغفرَ لهم أبوهُمْ، فتابَ الله عليهم وعفَا عنهم، وغفرَ لهم ذنبهم.

وذُكِرَ أنَّ يعقوبَ توفي قبل يوسف، وأوصى إلى يوسف، وأمره أنْ يدفنه عند قبرِ أبيه إسحق.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ١٠٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: هذا الخبرُ الذي أخبرتُكَ به، من خبرِ يوسفَ ووالدِه يعقوب وإخوته وسائر ما في هذه السورة. «من أنباء الغيب»، يقول: من أخبارِ الغيبِ الذي لم تُشاهِدْهُ ولم تُعاينه، ولكنَّا نُوحيهِ إليكَ ونُعَرِّفكهُ لنثبِّتَ به فؤادكَ، ونشجعَ به قلبكَ، وتصبرَ على ما نالكَ من الأذى من قومكَ في ذاتِ الله، وتعلمَ أنَّ مَنْ قبلكَ من رُسُلِ الله إذْ صبروا على ما نالهم فيه، وأخذوا بالعفو، وأَمِرُوا بالعُرف، وأعرضوا عن الجاهلين فازوا بالظَّفَرِ، وأُيِّدُوا بالنصرِ، ومُكِّنُوا في البلاد، وغلبوا من قَصَدوا من أعدائهم وأعداء دين الله. يقول الله تبارك وتعالى لنبيه محمدٍ ﷺ: فَبِهِمْ، يا محمدُ، فتأسَّ، وآثارَهُمْ فقُصَّ. «وما كنتَ لديهم إذْ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون»، يقول: وما كنتَ حاضراً عند إخوةِ يوسفَ، إذْ أجمعوا واتفقتْ آراؤهم، وصَحَّتْ عزائمهم، على أنْ يُلْقُوا يوسفَ في غيابةِ الجُبِّ. وذلك كان مَكْرَهم الذي قال الله عزَّ وجلَّ: «وهم يمكرون».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ١٠٣﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ: وما أكثرَ مشركي قومكَ، يا محمدُ، ولو حرصتَ على

أنْ يُؤْمِنوا بك فيصدِّقُوكَ ويتَّبِعُوا ما جِئْتَهُمْ به من عندِ ربك، بمصدِّقيك ولا مُتَّبِعيك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٤﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُهُ لمحمدٍ ﷺ: وما تسأل، يا محمدُ، هؤلاء الذين يُنكِرُونَ نُبُوَّتَكَ، ويمتنعونَ من تصديقكَ والإقرار بما جئتهم به من عندِ ربك، على ما تَدْعُوهم إليه من إخلاصِ العبادةِ لربكَ، وهجرِ عبادةِ الأوثانِ وطاعةِ الرحمن. «من أجر»، يعني: من ثواب وجزاء منهم، بل إنما ثوابكَ وأجرِ عملكَ على الله. يقول: ما تسألهم على ذلك ثواباً فيقولوا لك: إنما تريدُ بدعائك إيَّانا إلى اتباعك لننزلَ لكَ عن أموالنا إذا سألتنا ذلك. وإذْ كنت لا تسألهم ذلك، فقد كان حقًّا عليهم أنْ يعلموا أنك إنما تَدْعُوهم إلى ما تدعوهم إليه، اتباعاً منك لأمرِ ربكَ، ونصيحةً منك لهم، وأن لا يستغشُّوك.

وقـولـه: «إنْ هو إلا ذِكْرٌ للعالمين»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ما هذا الذي أرسلكَ به رَبُّكَ، يا محمدُ، من النبوةِ والرسالةِ. «إلا ذِكْرٌ»، يقول: إلا عِظَةٌ وتذكيرٌ للعالمينَ، لِيَتَّعِظُوا ويتذكَّرُوا به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ١٠٥﴾

يقول جَلَّ وعَزَّ: وكَمْ من آيةٍ في السمواتِ والأرضِ لله وعبرةٍ وحجةٍ، وذلـك كالشمس والقمـر والنجـوم ونحو ذلك من آياتِ السمواتِ، وكالجبالِ والبحارِ والنباتِ والأشجارِ وغير ذلك من آياتِ الأرض. «يَمُرُّونَ عليها»، يقول: يعاينونها فيمرُّونَ بها مُعْرِضِينَ عنها، لا يعتبرونَ بها، ولا يفكرون فيها وفيما

دَلَّتْ عليه من توحيدِ رَبِّها، وأنَّ الأُلوهةَ لا تنبغي إلا للواحدِ القهَّارِ الذي خَلَقَها وخلق كلَّ شيء، فدبَّرها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ١٠٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما يُقِرُّ أكثرُ هؤلاء الذين وصَفَ عزَّ وجلَّ صِفَتَهُمْ بقوله: «وكأيِّنْ من آيةٍ في السمواتِ والأرضِ يمرُّون عليها وهم عنها معرضون»، بالله أنه خَالِقُه ورازقُه وخالقُ كُلِّ شيء. «إلا وهم مشركون»، في عبادتهم الأوثانَ والأصنامَ، واتخاذهم من دونِه أرباباً، وزَعْمِهم أنَّ له ولداً، تعالى الله عما يقولون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١٠٧﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ: أَفَأَمِنَ هؤلاءِ الذين لا يُقِرُّونَ بأنَّ الله رَبَّهم إلا وهُمْ مشركونَ في عبادتهم إياه غيرَهُ. «أنْ تأتيهم غاشيةٌ من عذابِ الله»، تغشاهم من عقوبةِ الله وعذابه على شِرْكِهم بالله ـ أو تأتيهم القيامةُ فجأةً وهم مُقيمونَ على شركهم وكفرهم بربِّهم ـ فيخلِّدهُم الله عزَّ وجلَّ في ناره، وهم لا يدرون بمجيئها وقيامها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٠٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيهِ محمدٍ ﷺ: قل، يا محمدُ، هذه الدعوةُ التي أدعو إليها، والطريقةُ التي أنا عليها، من الدعاءِ إلى توحيدِ الله، وإخلاصِ العبادةِ له دونَ الآلهةِ والأوثانِ، والانتهاءِ إلى طاعته، وترك معصيته. «سبيلي»، طريقتي ودعوتي، أدعو إلى الله وحده لا شريكَ له. «على بصيرة»، بذلك ويقينِ علمٍ منّي به أنا، ويدعو إليه على بصيرة أيضاً من اتَّبعني وصَدَّقني وآمنَ بي. «وسبحان الله»، يقول له تعالى ذِكْرُهُ: وقل، تنزيهاً لله، وتعظيماً له من أنْ يكونَ له شريكٌ في ملكه، أو معبودٌ سواه في سلطانه: «وما أنا من المشركين»، يقول: وأنا بريءٌ من أهلِ الشركِ به، لستُ منهم ولا هُمْ منّي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما أرسلنا، يا محمدُ، مِنْ قَبْلِكَ إلا رجالاً، لا نساءً ولا ملائكة. «نُوحي إليهم» آياتنا، بالدعاءِ إلى طاعتنا وإفرادِ العبادةِ لنا. «من أهلِ القرى»، يعني: من أهلِ الأمصارِ دونَ أهل البوادي.

وقوله: «أفلم يسيروا في الأرض»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: أفلم يَسِرْ هؤلاء المشركونَ الذين يُكَذِّبُونَكَ، يا محمدُ، ويجحدونَ نبوَّتَكَ، وينكرون ما جِئْتَهُمْ به من توحيد الله، وإخلاصِ الطاعةِ والعبادةِ له. «في الأرض فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلهم»، إذْ كَذَّبُوا رُسُلَنا؟ ألم نُحِلَّ بهم عُقوبَتَنا فنهلكهم بها، ونُنَجِّ منها رُسُلَنا وأتباعَنا، فيتفكروا في ذلك ويعتبروا؟

وقوله: «ولدارُ الآخرةِ خيرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: هذا فِعْلُنا في الدنيا

بأهلِ ولايتنا وطاعتنا، أنَّ عقوبتنا إذا نزلتْ بأهلِ معاصينا والشركِ بنا، أنجيناهم منها، وما في الدار الآخرة لهم خيرٌ.

وقوله: «أفلا تعقلون»، يقول: أفلا يعقلُ هؤلاء المشركون بالله حقيقةَ ما نقولُ لهم ونخبرهم به، من سوءِ عاقبةِ الكفر، وغِبُّ ما يصيرُ إليه حالُ أهلِه، مع ما قد عاينوا ورأوا وسمعوا مما حَلَّ بمن قَبْلَهُمْ من الأممِ الكافرةِ المكذبةِ رسلَ ربِّها؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهلِ القُرَى»، فدعوْا مَنْ أرسلنا إليهم، فكذبوهم وردُّوا ما أَتَوْا به من عند الله. «حتى إذا استيأَسَ الرسلُ»، الذين أرسلناهم إليهم منهم أن يؤمنوا بالله، ويصدِّقُوهم فيما أتوهم به من عندِ الله ـ وظن الذين أرسلناهم إليهم من الأممِ المكذِّبةِ أنَّ الرسلَ الذين أرسلناهم قد كذبوهم فيما كانوا أخبروهُمْ عن الله، من وَعْدِه إياهم نصرَهم عليهم. «جاءهم نصرنا».

وأما قوله: «فَنُجِّيَ مَنْ نشاء»، فإنَّ القَرَأَةَ اختلفتْ في قراءته.

فقرأه عامة قرأة أهلِ المدينة ومكة والعراق: ﴿فَنُنْجِي مَنْ نَشَاءُ﴾، مُخَفَّفة بنونين، بمعنى فننجي نحنُ مَنْ نشاء من رسلنا والمؤمنين بنا، دونَ الكافرينَ الذين كَذَّبوا رُسلنا، إذا جاء الرسلَ نصرنا.

واعتلَّ الذين قرأوا ذلك كذلك، أنه إنما كتب في المصحفِ بنونٍ واحدة، وحُكْمُه أنْ يكونَ بنونين، لأنَّ إحدى النونين حرفٌ من أصلِ الكلمة من:

«أنجى ينجي»، والأخرى «النون» التي تأتي لمعنى الدلالة على الاستقبال من فعلِ جماعةٍ مُخْبِرةٍ عن أنفسها، لأنهما حرفان، أعني النونين، من جنسٍ واحدٍ يَخْفَى الثاني منهمـا عن الإظهارِ في الكلام، فحذفت من الخط، واجْتُزِئ بالمثبتة من المحذوفة، كما يفعلُ ذلك في الحرفين اللذين يُدْغم أحدهما في صاحبه.

وقرأ ذلك بعض الكوفيين على هذا المعنى، غير أنه أدغمَ النُّونَ الثانية وشدَّدَ الجيم.

وقرأه آخر منهم بتشديدِ الجيمِ ونصبِ الياء، على معنى فعل ذلك به، من: «نَجَّيْتُه أُنَجِّيه».

وقـرأ ذلك بعض المكيين: ﴿فَنَجَا مَنْ نَشَاءُ﴾ بفتح النون والتخفيف، من: «نَجَا يَنْجُو».

والصوابُ من القراءةِ في ذلك عندنا، قراءةُ مَنْ قرأه: ﴿فَنُنْجِي مَنْ نَشَاءُ﴾ بنونين، لأنَّ ذلك هو القراءة التي عليها القَرَأَةُ في الأمصار، وما خالفه مِمَّنْ قرأ ذلك ببعضِ الوجوه التي ذكرناها، فمنفردٌ بقراءته عما عليه الحُجَّةُ مجمعةٌ من القَرَأَةِ. وغيرُ جائزٍ خلافُ ما كان مستفيضاً بالقراءة في قرأة الأمصار.

وتأويل الكلام: فننجي الرسلَ ومَنْ نشاء من عبادنا المؤمنينَ إذا جاء نصرنا.

وقـوله: «ولا يُرَدُّ بأسُنَا عن القومِ المجرمين»، يقول: ولا تُرَدُّ عقوبَتُنَا وبطشُنَا بمن بطشنا به من أهلِ الكفر بنا، وعن القومِ الذين أجرموا فكفروا بالله، وخالفوا رسله وما أتوهم به من عنده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: لقد كان في قَصَصِ يوسفَ وإخوته عبرةٌ لأهلِ الحجَى والعقولِ يعتبرونَ بها، وموعظةٌ يَتَّعِظُونَ بها. وذلك أنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ بعد أن أُلْقي يوسفُ في الجُبِّ ليهلكَ، ثم بِيع بَيْع العبيدِ بالخسيسِ من الثمنِ، وبعد الإسارِ والحبسِ الطويلِ، مَلَّكَهُ مصرَ، ومكَّنَ له في الأرضِ، وأعلاه على مَنْ بَغَاهُ سوءاً من إخوتِه، وجمعَ بينه وبين والديه وإخوته بقدرته، بعد المدةِ الطويلة، وجاء بهم إليه من الشُّقَّةِ النائيةِ البعيدة، فقال جَلَّ ثناؤُهُ للمشركينَ من قريش من قوم نبيِّه محمدٍ ﷺ: لقد كانَ لكم، أيها القومُ، في قَصَصِهم عبرةٌ لو اعتبرتم به، أنَّ الذي فعلَ ذلك بيوسفَ وإخوته، لا يتعذَّرُ عليه فِعْلُ مِثْلِه بمحمدٍ ﷺ، فيُخْرِجُهُ من بين أظهُرِكُمْ، ثم يُظْهِرُه عليكم، ويمكِّنُ له في البلاد، ويُؤَيِّدُه بالجُنْدِ والرجالِ من الأتباعِ والأصحابِ، وإنْ مَرَّتْ به شدائد، وأتت دونه الأيامُ والليالي والدهور والأزمان.

وقوله: «ما كان حديثاً يفترى»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ما كان هذا القولُ حديثاً يُخْتَلَقُ ويُتَكَذَّبُ ويُتَخَرَّص.

«ولكن تصديقَ الذي بين يديه»، يقول: ولكنه تصديقُ الذي بين يديه من كُتُبِ الله التي أنزلها قَبْلَهُ على أنبيائِه، كالتوراةِ والإنجيلِ والزبورِ، يصدِّق ذلك كله ويشهد عليه أنَّ جميعَهُ حَقٌّ من عند الله.

وقوله: «وتفصيلَ كُلِّ شيءٍ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وهو أيضاً تفصيلُ كُلِّ ما بالعبادِ إليه حاجةٌ من بيانِ أمرِ الله ونَهْيِهِ، وحلالِه وحرامِه، وطاعتِه ومعصيته.

وقوله: «وهدى ورحمةً لقومٍ يؤمنون»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وهو بيانُ أمرِه ورشادِه لِمَنْ جَهِلَ سبيلَ الحق فعميَ عنه، إذا اتبعه فاهتدى به من ضلالته. «ورحمـة»، لمن آمنَ به وعَمِلَ بما فيه، يُنْقِذُهُ من سَخَطِ الله وأليمِ عذابه، ويورِّثُه في الآخرة جنانه، والخلودَ في النعيمِ المقيم. «لقومٍ يؤمنون»، يقول: لقومٍ يُصَدِّقُونَ بالقرآنِ وبما فيه من وَعْدِ الله ووعيدِه، وأمْرِه ونهيه، فيعملونَ بما فيه من أمرِه، وينتهون عما فيه من نهيه.

سورة الرعد

بسم الله الرحمن الرحيم

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١﴾

قد بَيَّنَّا القولَ في تأويلِ قوله: «الر» و«المر»، ونظائرهما من حروفِ المعجم التي افْتُتِحَ بها أوائلُ بعضِ سورِ القرآن، فيما مضى، بما فيه الكفاية من إعادتها[1].

وقوله: «تلك آياتُ الكتاب»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: تلك التي قَصَصْتُ عليكَ خبرَها، آيات الكتاب الذي أنزلته قبل هذا الكتاب الذي أنزلتُه إليكَ إلى مَنْ أنزلته إليه من رسلي قبلك.

وقيل: عَنَى بذلك التوراةَ والإنجيل.

وقوله: «والذي أُنزلَ إليكَ من رَبِّكَ الحق»، القرآن، فاعملْ بما فيه واعتصم به.

وقوله: «ولكن أكثر الناس لا يؤمنون»، ولكنَّ أكثرَ الناسِ من مشركي قومكَ لا يُصَدِّقُونَ بالحقِّ الذي أنزل إليك من ربك، ولا يُقِرُّونَ بهذا القرآنِ وما فيه من مُحْكَمِ آيِهِ.

---

(١) انظر أول تفسير سورة البقرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: الله، يا محمدُ، هو الذي رفعَ السمواتِ السبع بغيرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها، فجعلها للأرضِ سَقْفاً مسموكاً.

و«العَمَد» جمع «عمود»، وهي السَّواري، وما يعمد به البناء.

وأما قوله: «ثم استوى على العرش»، فإنه يعني: عَلَا عليه.

وقوله: «وسَخَّرَ الشمسَ والقمر»، يقول: وأجرى الشمسَ والقمرَ في السماء فَسَخَّرهُمَا فيها لمصالحِ خَلْقِه، وذلَّلهما لمنافعهم، ليعلموا بِجَرْيِهِمَا فيها عَدَدَ السنين والحساب، ويفصلوا به بين الليل والنهار.

وقوله: «كُلٌّ يجري لأجلٍ مُسَمًّى»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: كُلٌّ ذلك يجري في السماء. «لأجل مسمى»، أي: لوقتٍ معلوم، وذلك إلى فناءِ الدنيا وقيامِ القيامة التي عندها تُكَوَّرُ الشمسُ، ويُخْسَفُ القمر، وتنكدرُ النجوم.

وقوله: «يُدَبِّرُ الأمرَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: يقضي الله الذي رفعَ السموات بغيرِ عمدٍ ترونها أمورَ الدنيا والآخرة كلها، ويدبِّرُ ذلك كله وحدَهُ بغيرِ شريكٍ ولا ظهيرٍ ولا معين سُبْحانه.

وقوله: «يفصل الآيات»، يقول: يُفَصِّلُ لكم ربُّكم آياتِ كتابه، فَيُبَيِّنُهَا لكم، احتجاجاً بها عليكم، أيها الناسُ. «لعلكم بلقاءِ رَبِّكم توقنون»، يقول: لِتُوقِنُوا بلقاءِ الله والمَعَادِ إليه، فتصدقوا بوعدِه ووعيده، وتنزجروا عن عبادةِ الآلهةِ والأوثانِ، وتُخْلِصُوا له العبادةَ إذا أيقنتم ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: والله الذي مَدَّ الأرضَ، فبسطها طولاً وعرضاً.

وقوله: «وجعل فيها رواسيَ»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: وجعلَ في الأرض جبالاً ثابتة.

وقوله: «وأنهاراً»، يقول: وجعلَ في الأرضِ أنهاراً من ماء.

وقوله: «ومن كُلِّ الثمراتِ جعل فيها زوجين اثنين». فـ«مِنْ» في قوله: «ومن كُلِّ الثمرات جعل فيها زوجين اثنين»، من صلة «جعل» الثاني لا الأول.

ومعنى الكلام: وجعلَ فيها زوجين اثنين من كُلِّ الثمرات: وعَنَى بـ«زوجين اثنين»، من كُلِّ ذَكَرٍ اثنان، ومن كلِّ أنثى اثنان، فذلك أربعة، من الذكور اثنان، ومن الإناث اثنان، في قول بعضهم.

وقد بينا فيما مضى أنَّ العرب تسمي الاثنين: «زوجين»، والواحد من الذكور «زوجاً» لأنثاه، وكذلك الأنثى الواحدة «زوجاً»، و«زوجة» لِذَكَرِهَا، بما أَغْنَى عن إعادته في هذا الموضع.

ويزيدُ ذلك إيضاحاً قولُ الله عزَّ وجلَّ: ﴿وأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْن الذَّكَرَ والأُنْثَى﴾ [النجم: ٤٥]، فسمى الاثنين الذكر والأنثى «زوجين».

وإنما عَنَى بقوله: «زوجين اثنين»، نَوْعين وضَرْبين.

وقوله: «يغشي الليل النهار»، يقول: يجلِّلُ الليلُ النهارَ فيلبسه ظلمته، والنهارُ الليلَ بضيائه.

وقوله: «إنَّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ فيما وصفت وذكرت من عجائبِ خَلْقِ الله وعظيمِ قُدْرتِه التي خلق بها هذه الأشياء، لدَلالاتٍ وحُجَجاً وعِظَاتٍ لقومٍ يتفكَّرون فيها، فيستدلون ويعتبرون بها، فيعلمون أنَّ العبادةَ لا تصلحُ ولا تجوزُ إلا لمن خلقها ودبَّرها، دونَ غيرِه من الآلهة والأصنام التي لا تقدر على ضُرٍّ ولا نفعٍ، ولا لشيء غيرها، إلا لمن أنشأ ذلك فأَحْدَثَهُ من غير شيء، تبارك وتعالى ـ وأنَّ القدرةَ التي أبدعَ بها ذلك، هي القدرة التي لا يتعذَّرُ عليه إحياء مَنْ هلك مِنْ خلقه، وإعادة ما فنيَ منه، وابتداع ما شاء ابتداعه ـ بها.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وفي الأرض قِطَعٌ متجاورات»، وفي الأرض قطع منها متقارباتٌ متدانياتٌ، يقربُ بعضُها من بعضٍ بالجوار، وتختلفُ بالتفاضُلِ مع تجاورها وقُرْبِ بعضِها من بعضٍ، فمنها قِطْعة سَبَخَةٌ لا تنبتُ شيئاً، في جوارِ قطعةٍ طيبة تنبتُ وتنفع.

وقوله: «وجناتٌ من أعنابٍ وزرعٌ ونخيلٌ صِنْوانٌ وغير صِنْوانٍ يُسقى بماء واحدٍ ونُفَضِّلُ بعضَها على بعضٍ في الأُكُلِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وفي الأرض مع القطعِ المختلفاتِ المعاني منها بالملوحةِ والعُذُوبةِ والخبث والطيب، مع تجاورها وتَقَارُبِ بعضِها من بعض، بساتينُ من أعنابٍ وزرع ونخيلٍ أيضاً متقاربةٌ في الخِلْقَةِ، مختلفةٌ في الطُّعُومِ والألوان، مع اجتماعِ جميعِهَا على شِرْبٍ واحدٍ. فمن طَيِّبٍ طَعْمُهُ منها حَسَنٍ مَنْظَرُه طيبةٍ رائحتُه، ومن حامضٍ طَعْمُه ولا رائحةَ له.

وأما قوله: «ونخيل صنوان وغير صنوان».

فإنَّ «الصنوان» جمع «صِنْو»، وهي النخلاتُ يجمعهن أصلٌ واحد.

وقوله: «يُسقَى بماءٍ واحد»، اختلفت القَرَأَةُ في قوله: «يسقى».

فقرأ ذلك عامةُ قَرَأَةِ أهلِ المدينة والعراقِ من أهلِ الكوفة والبصرة: ﴿تُسْقَى﴾، بالتاء بمعنى: تُسْقَى الجناتُ والزرعُ والنخيل. وقد كان بعضُهم يقول: إنما قيل «تسقى»، بالتاء، لتأنيث «الأعناب».

وقرأ ذلك بعض المكيين والكوفيين: ﴿يُسْقَى﴾، بالياء.

وأعجبُ القراءتين إليَّ أنْ أقرأ بها، قراءة مَنْ قرأ ذلك بالتاء: ﴿تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ على أنَّ معناه: تُسْقَى الجناتُ والنخلُ والزرع بماء واحد، لمجيء «تسقى» بعد ما قد جرى ذِكْرُها، وهي جِمَاعٌ من غير بني آدم. وليس الوجه الآخر بممتنعٍ على معنى: يُسْقى ذلك بماءٍ واحد، أي: جميعُ ذلك يُسْقَى بماء واحدٍ عَذْبٍ دون المالح.

وقوله: «ونفضِّلُ بعضَها على بعض في الأُكُلِ» اختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك.

فقرأه عامة قرأة المكيين والمدنيين والبصريين وبعض الكوفيين: ﴿وَنُفَضِّلُ﴾، بالنون، بمعنى: ونفضِّلُ نحنُ بعضَها على بعضٍ في الأُكُلِ.

وقرأته عامةُ الكوفيين: ﴿وَيُفَضِّلُ﴾، بالياء، ردًّا على قوله: «يُغْشي الليل النهار» «ويفضل بعضها على بعض».

وهما قراءتان مستفيضتان بمعنى واحد، فبأيّتِهِمَا قرأ القارئُ فمصيبٌ. غيرَ أنَّ «الياء» أعجبهما إليَّ في القراءة، لأنه في سياقِ الكلام ابتداؤه: «الله الذي رفَعَ السمواتِ»، فقراءته بالياء، إذ كان كذلك، أولى.

ومعنى الكلام: إنَّ الجناتِ من الأعنابِ والزرعِ والنخيلِ الصنوانِ وغير الصنوان، تُسْقَى بماءٍ واحدٍ عَذْبٍ لا ملح، ويخالفُ الله بين طُعومِ ذلك فيفضِّلُ بعضَها على بعضٍ في الطعمِ، فهذا حلوٌ وهذا حامضٌ.

وقوله: «إن في ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ في مخالفة الله عزَّ وجلَّ بين هذه القِطَعِ من الأرضِ المتجاوراتِ وثمارِ جَنَّاتِها وزُرُوعِها على ما وصفنا وبيَّنا، لدليلًا واضحاً وعبرةً لقومٍ يعقلون اختلافَ ذلك، أنَّ الذي خالفَ بينه على هذا النحوِ الذي خالفَ بينه، هو المخالفُ بين خَلْقِه فيما قَسَمَ لهم من هدايةٍ وضلال، وتوفيقٍ وخذلان، فوفَّقَ هذا وخَذَلَ هذا، وهَدَى ذا وأضَلَّ ذا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وإنْ تعجب»، يا محمدُ، من هؤلاء المشركينَ المتَّخذينَ ما لا يضرُّ ولا ينفعُ آلهةً يعبدونها من دوني. «فَعَجَبٌ قولُهم أئِذا كنا تراباً»، وبَلِينا فَعُدِمْنَا. «أئِنَّا لَفي خَلْقٍ جديد»، إنَّا لَمُجَدَّدٌ إنشاؤُنَا وإعادتنا خَلْقاً جديداً كما كُنَّا قبلَ وفاتنا!! تكذيباً منهم بقدرةِ الله، وجحوداً للثوابِ والعقابِ والبعثِ بعد الممات.

وقوله: «أولئك الذين كفروا بربهم»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: هؤلاء الذين أنكروا البعثَ وجَحدُوا الثوابَ والعقاب، وقالوا: «أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد»، هم الذين جَحدُوا قُدْرَةَ ربِّهم وكذَّبوا رسوله، وهم الذين في أعناقهم الأغلالُ يومَ القيامةِ في نارِ جهنم، فأولئك «أصحاب النار»، يقول: هم سكانُ

النارِ يوم القيامة. «هم فيها خالدون»، يقول: هم فيها ماكِثُونَ أبداً، لا يموتون فيها ولا يُخْرَجون منها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «ويستعجلونكَ»، يا محمدُ، مُشْرِكُو قومكَ بالبلاءِ والعقوبةِ قبلَ الرخاءِ والعافيةِ، فيقولون: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال:٣٢]، وهم يعلمون ما حَلَّ بمن خَلاَ قبلهم من الأمم التي عَصَتْ رَبَّها وكَذَّبَتْ رُسُلَها من عقوباتِ الله وعظيمِ بلائه، فمن بين أمةٍ مسخت قِردةً، وأخرى خنازير، ومن بين أمَّةٍ أُهْلِكَتْ بالرَّجْفةِ، وأخرى بالخسف. وذلك هو «المَثُلاتُ» التي قال الله جَلَّ ثناؤُهُ: «وقد خلت من قبلهم المثلات».

وقوله: «وإنَّ ربكَ لَذُو مغفرةٍ للناس على ظُلْمِهم»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإن ربك، يا محمدُ، لذو سترٍ على ذنوبِ مَنْ تابَ من ذنوبه من الناس، فتاركٌ فضيحتَهُ بها في موقفِ القيامة، وصافحٌ له عن عقابه عليها عاجلاً وآجلاً. «على ظلمهم»، يقول: على فِعْلِهم ما فَعَلُوا من ذلك بغير إذني لهم بفعله. «وإن ربك لشديد العقاب»، لِمَنْ هَلَكَ مُصِراً على معاصِيه في القيامة، إنْ لم يعجِّلْ له ذلك في الدنيا، أو يجمعهما له في الدنيا والآخرة.

وهذا الكلام، وإنْ كان ظاهرَ خبرٍ، فإنه وعيدٌ من الله وتهديدٌ للمشركين من قومِ رسولِ الله ﷺ، إنْ هُمْ لم يُنِيبُوا ويتوبوا من كُفْرِهم قبل حُلولِ نقمة الله بهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «ويقول الذين كفروا»، يا محمدُ، من قومكَ. «لولا أُنزلَ عليه آيةٌ من ربه»، هَلاَّ أنزلَ على محمدٍ آيةٌ من ربه؟ يعنون عَلامةً وحُجَّةً له على نُبوَّته، وذلك قولهم: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢]. يقول الله له: يا محمد، «إنما أنتَ مُنْذِرٌ»، لهم تُنْذِرهُمْ بأسَ الله أنْ يحلَّ بهم على شِرْكِهم. «ولِكُلِّ قومٍ هاد»، يقول: ولكل قومٍ إمامٌ يأتمُّون به، وهاد يتقدمهم فيهديهم إما إلى خيرٍ وإما إلى شرٍّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قولهم أئذا كنا تراباً أئنا لفي خَلْقٍ جديد»، مُنْكِرِينَ قُدْرَةَ الله على إعادتهم خَلْقاً جديداً بعد فنائِهم وبلائهم، ولا ينكرون قدرته على ابتدائِهم وتصويرهم في الأرحام، وتدبيرهم وتصريفهم فيها حالاً بعد حالٍ ـ فابتدأ الخبرَ عن ذلك ابتداءً، والمعنى فيه ما وصفت، فقال جَلَّ ثناؤُهُ: «الله يعلم ما تحمل كُلُّ أنثى وما تغيضُ الأرحامُ وما تزداد»، يقول: وما تنقصُ الأرحامُ من حَمْلِها في الأشهر التسعة بإرسالها دَمَ الحيضِ. «وما تزداد»، في حملها على الأشهرِ التسعةِ لتمامِ ما نقصَ من الحمل في الأشهر التسعة بإرسالها دَمَ الحيض. «وكُلُّ شيءٍ عنده بمقدار»، لا يجاوزُ شيءٌ من قَدَره عن تقديرِه، ولا يقصرُ أمرٌ أرادَهُ فَدَبَّرَهُ عن تدبيرِه، كما لا يزدادُ حمل أنثى على ما قُدِّرَ له من الحملِ، ولا يُقصِّرُ عما حُدَّ له من القدر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: والله عالمٌ ما غابَ عنكم وعن أبصارِكم فلم تروه، وما شاهدتُموه فعاينتم بأبصاركم، لا يَخْفَى عليه شيءٌ، لأنهم خَلْقُه وتدبيره. «الكبيرُ الذي كُلُّ شيءٍ دونه»، «المتعال»، المستعلي على كُلِّ شيء بقدرته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: معتدلٌ عند الله منكم، أيها الناسُ، الذي أَسَرَّ القولَ، والذي جَهَرَ به، والذي هو مُسْتَخْفٍ بالليلِ في ظُلْمَته بمعصيةِ الله. «وسارب بالنهار»، يقول: وظاهرٌ بالنهارِ في ضوئه، لا يَخْفَى عليه شيءٌ من ذلك. سواءٌ عنده سِرُّ خَلْقِه وعلانيتهم، لأنه لايستسرُّ عنده شيءٌ ولا يَخْفَى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ۝١١﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك.

فقال بعضهم: معناه: لله تعالى ذِكْرُهُ مُعَقِّباتٌ. قالوا: «الهاء» في قوله: «له»، من ذِكْرِ اسمِ الله.

و«المعقبات»، التي تَعتقبُ على العبدِ. وذلك أنَّ ملائكةَ الليلِ إذ صعدت بالنهارِ أعقبتها ملائكةُ النهار، فإذا انقضى النهارُ صعدت ملائكةُ النهار

ثم أعقبتها ملائكةُ الليل. وقالوا: قيل «معقبات»، و«الملائكة» جمع «ملك» مذكر غير مؤنث، وواحد «الملائكة» «معقِّب»، وجماعتها «مُعَقِّبة»، ثم جمع جمعه أعني جمع «معقّب»، بعدما جمع «مُعَقّبة» وقيل «معقِّبات»، كما قيل: «ساداتُ سعد»، «ورجالاتُ بني فلان»، جمع «رجال».

وقال آخرون: بل عنى بـ«المعقبات» في هذا الموضع، الحرَس الذي يتعاقبُ على الأمير.

وقوله: «من بين يديه ومن خلفه»، يعني بقوله: «من بين يديه»، من قُدَّامِ هذا المُسْتَخْفِي بالليلِ والساربِ بالنهار. «ومن خَلْفِه»، من وراءِ ظهرِه.

وأَوْلى التأويلين في ذلك بالصواب، قولُ مَنْ قال: «الهاء»، في قوله: «له معقبات»، من ذكر «مَنْ» التي في قوله: «ومَنْ هو مستخفٍ بالليل» وأنَّ «المعقبات من بين يديه ومن خلفه»، هي حَرَسُه وجَلَاوِزَتُه[1].

وإنما قلنا: «ذلك أولى التأويلين بالصواب»، لأنَّ قوله: «له معقبات»، أقرب إلى قوله: «ومَنْ هو مستخفٍ بالليل»، منه إلى «عالم الغيب»، فهي لِقُرْبِهَا منه أَوْلى بأَنْ تكونَ من ذكره. وأن يكونَ المعنيَّ بذلك هذا، مع دلالة قول الله: «وإذا أراد الله بقومٍ سوءاً فلا مَرَدَّ له»، على أنهم المعنيُّون بذلك.

وذلك أنه جَلَّ ثناؤُهُ ذَكَرَ قوماً أهلَ معصيةٍ له وأهلَ ريبة، يَسْتخفونَ بالليلِ ويَظْهرونَ بالنهار، ويمتنعون عند أنفسهم بحرسٍ يحرسهم، ومَنْعَةٍ تَمْنَعُهم من أهلِ طاعته أنْ يحولوا بينهم وبين ما يأتون من معصيةِ الله. ثم أخبرَ أنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ إذا أرادَ بهم سوءاً لم ينفعهم حَرَسُهم، ولا يدفعُ عنهم حِفْظُهم.

وقوله: «يحفظونه من أمرِ الله»، اختلف أهلُ التأويلِ في تأويلِ هذا

---

(١) الجلاوزة: جمع جِلْواز، وهو الشرطي الذي يخفُّ بين يدي الأمير ويأتمر بأمره.

الحرف على نحوِ اختلافِهم في تأويل قوله: «له معقبات».

فمن قال: «المعقبات»، هي الملائكةُ، قال: الذين يحفظونه من أمر الله هم أيضاً الملائكة.

ومن قال: «المعقبات»، هي الحَرَسُ والجلاوزةُ من بني آدم، قال: الذين يحفظونه من أمرِ الله، هم أولئك الحرسُ.

فتأويلُ الكلام: سواء منكم، أيها الناسُ، من أسَرَّ القولَ ومَنْ جهرَ به عند ربكم، ومَنْ هو مستخفٍ بفِسْقِه وريبته في ظلمة الليل، وساربٌ يذهبُ ويجيءُ في ضوءِ النهار ممتنعاً بجندِه وحَرَسِه الذين يتعقبونه من أهلِ طاعةِ الله أنْ يحولُوا بينه وبين ما يأتي من ذلك، وأن يقيموا حَدَّ الله عليه، وذلك قوله: «يحفظونه من أمر الله».

وقوله: «إنَّ الله لايغيرُ ما بقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: «إن الله لا يغير ما بقوم»، من عافيةٍ ونعمةٍ، فيزيلُ ذلكَ عنهم ويهلكهم. «حتى يغيروا ما بأنفسهم»، من ذلك، بِظُلْمِ بعضِهم بعضاً، واعتداءِ بعضِهم على بعض، فَتَحلَّ بهم حينئذٍ عقوبتُه وتغييره.

وقوله: «وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مَرَدَّ له»، يقول: وإذا أراد الله بهؤلاء الذين يَسْتخفونَ بالليلِ ويسربونَ بالنهار، لهم جُنْدٌ ومَنْعةٌ من بين أيديهم ومن خَلْفِهم يحفظونهم من أمرِ الله ـ هلاكاً وخزياً في عاجل الدنيا ـ «فلا مَرَدَّ له»، يقول: فلا يقدرُ على رَدِّ ذلك عنهم أحدٌ غيرُ الله. يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وما لهم من دونه من وال»، يقول: وما لهؤلاء القومِ ـ و«الهاء والميم» في «لهم» من ذِكْرِ القومِ الذين في قوله: «وإذا أراد الله بقومٍ سوءاً»، من دونَ الله. «من والٍ»، يعني: من وال يليهم ويلي أمرهم وعقوبتهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ۝١٢ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ۝١٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «هو الذي يُرِيكمُ البرقَ»، يعني: أنَّ الرب هو الذي يُرِي عبادَهُ البرقَ، وقوله: «هو»، كناية اسمه جَلَّ ثناؤُهُ.

وقوله: «خوفاً»، يقول: خوفاً للمسافرِ من أذاه. وذلك أنَّ «البرق»، الماء، في هذا الموضع.

وقوله: «وطمعاً»، يقول: وطمعاً للمقيمِ أنْ يمطرَ فينتفع.

وقوله: «ويُنْشِئُ السحابَ الثِقال»، ويثيرُ السحابَ الثقالَ بالمطرِ ويُبْدِئُه.

ومعنى قوله: «ويسبحُ الرعدُ بحمده»، ويُعَظِّمُ الله الرعدُ ويمجِّدُه، فيثني عليه بصفاته، ويُنَزِّهُهُ مما أضافَ إليه أهلُ الشرك به، ومما وصفوه به من اتخاذِ الصاحبةِ والوَلَدِ، تعالى رَبُّنَا وتَقَدَّسَ.

وقوله: «والملائكة من خيفته»، يقول: وتُسَبِّحُ الملائكة من خِيفةِ الله ورَهْبته.

وأما قوله: «ويرسل الصواعق فيصيبُ بها من يشاء».

فقد بينا معنى «الصاعقة»، فيما مضى، بما أغنى عن إعادته.

وقوله: «وهم يجادلون في الله»، يقول: وهؤلاء الذين أصابهم الله بالصواعقِ، أصابهم بها في حال خُصومتهم في الله عزَّ وجلَّ لرسولِه ﷺ.

وقوله: «وهو شديد المحال»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: والله شديدةٌ مُماحَلَتُه[1] في عقوبةِ مَنْ طَغَى عليه وعَتَا وتمادى في كفره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: لله من خَلْقِه: الدعوة الحق، و«الدعوة» هي «الحق»، كما أضيفتِ «الدار» إلى «الآخرة» في قوله: ﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ﴾ [يوسف: ١٠٩].

وإنما عَنَى بالدعوةِ الحق، توحيدَ الله وشهادةَ أنْ لا إله إلّا الله.

وقوله: «والذين يَدْعُونَ من دونه»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: والآلهةُ التي يَدْعوها المشركونَ أرباباً وآلهة.

وقوله: «من دونه»، يقول: من دونِ الله.

وإنما عنى بقوله: «من دونه»، الآلهةَ، أنَّها مقصِّرةٌ عنه، وأنَّها لاتكون إلهاً، ولا يجوزُ أن يكون إلهاً إلَّا الله الواحد القهار.

وقوله: «لا يستجيبون لهم بشيء»، يقول: لا تُجيبُ هذه الآلهةُ، التي يَدْعُوها هؤلاءِ المشركونَ آلهةً، بشيءٍ يُريدُونَهُ من نَفْعٍ أو دفعِ ضُرٍّ. «إلا كباسطِ كَفَّيْهِ إلى الماء»، يقول: لا ينفعُ داعي الآلهة دعاؤه إياها، إلَّا كما ينفع باسط كفيه إلى الماء بسطُه إياهما إليه من غيرِ أنْ يرفعه إليه في إناء، ولكن ليرتفع إليه بدعائه إياه، وإشارته إليه، وقبضه عليه.

وقوله: «وما دعاءُ الكافرينَ إلَّا في ضلال»، يقول: وما دعاء من كفر بالله

---

(١) المماحلة: العقوبةُ المهلكة والنكال.

ما يدعو من الأوثانِ والالهة. «إلا في ضلال»، يقول: إلا في غير استقامة ولا هدىً، لأنه يشركُ بالله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فإن امتنع هؤلاء الذين يدعون من دون الله الأوثانَ والأصنامَ لله شركاء، من إفرادِ الطاعةِ والإخلاصِ بالعبادةِ له. فلله يسجدُ مَنْ في السمواتِ من الملائكة الكرام، ومن في الأرض من المؤمنين به طَوْعاً، فأما الكافرونَ به فإنهم يسجدونَ له كَرْهاً حين يُكْرَهُونَ على السُّجود.

وقوله: «وظلالهم بالغُدوِّ والآصال»، يقول: ويسجدُ أيضاً ظلالُ كُلِّ مَنْ سجد طوعاً وكرهاً بالغُدُوات والعَشايا. وذلك أنَّ ظلَّ كلِّ شخص فإنه يفيءُ بالعشيِّ، كما قال جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إلى ما خَلَقَ الله مِنْ شَيءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ اليَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لله وَهُمْ دَاخِرونَ﴾ [النحل: ٤٨].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: قل، يا محمدُ، لهؤلاء المشركينَ بالله: مَنْ رَبُّ السموات والأرض ومدبِّرها؟ فإنهم سيقولون: الله. وأمرَ الله نبيَّهُ ﷺ أن يقول: «الله»، فقال له: قُلْ، يا محمدُ، رَبُّها الذي خلقها وأنشأها، هو الذي لا تصلح العبادةُ إلاَّ له، وهو الله. ثم قال: فإذا أجابوكَ بذلك. فقل لهم: أَفَاتَّخَذْتُم من دونِ رَبِّ السموات والأرض أولياءَ لا تملكُ لأنفسها نفعاً تجلبه إلى نفسها، ولا ضرًّا تدفَعُهُ عنها؟ وهي إذْ لم تملك ذلك لأنفسها، فَمِنْ

مِلْكـه لغيرِهـا أبعـدُ، فعَبَدْتُموها وتركتم عبادةَ مَنْ بيدِه النفعُ والضر، والحياةُ والمـوت وتدبيرُ الأشياء كُلِّها. ثم ضربَ لهم جلَّ ثناؤُهُ مثلاً فقال: «قل هل يستوي الأعمى والبصير».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُهُ لنبيهِ محمدٍ ﷺ: قل، يا محمدُ، لهؤلاء المشركينَ الذين عَبَدُوا من دونِ الله الذي بيده نَفْعُهم وضرهم ما لا ينفعُ ولا يضرُّ: «هل يستـوي الأعمى»، الـذي لا يبصـرُ شيئاً ولا يهتدي لمحجَّةٍ يسلكها إلاَّ بأن يُهدى. «والبصير»، الذي يهدي الأعمى لمحجةِ الطريقِ الذي لايُبصر؟ إنهما لا شك لَغَيْرُ مُسْتَويينِ. يقول: فكذلك لا يستوي المؤمنُ الذي يُبْصِرُ الحقَّ فيتبعه ويعرف الهدى فيسلكه، وأنتم أيها المشركون الذين لا تعرفون حقاً ولا تُبْصِرُونَ رَشَداً.

وقوله: «أم هل تستوي الظلماتُ والنور»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وهل تستوي الظلماتُ التي لا تُرَى فيها المحجةُ فتُسْلَك، ولا يُرَى فيها السبيلُ فيُرْكَب ـ والنور الذي تُبْصَرُ به الأشياءُ، ويَجْلُو ضوؤه الظَّلامَ؟ يقول: إنَّ هذين لا شَكَّ لغيرُ مستويين، فكذلك الكفرُ بالله، إنما صاحبُه منه في حيرةٍ يضربُ أبداً في غَمْرَةٍ، لا يرجعُ منه إلى حقيقة. والإيمانُ بالله صاحِبُه منه في ضياءٍ يعملُ على عِلْمٍ بربِّه، ومعرفةٍ منه بأنَّ له مُثِيباً يُثِيبُهُ على إحسانِه، ومعاقباً يعاقبه على إساءته، ورازقاً يرزقه، ونافعاً ينفعه.

وقوله: «أم جعلوا لله شركاءَ خَلَقُوا كخلقِهِ فتشابهَ الخَلْقُ عليهم»، يقول

تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ، يا محمدُ، لهؤلاء المشركين: أَخَلَق أوثانُكم التي اتَّخَذْتُموها أولياء من دونِ الله خَلْقاً كخلقِ الله، فاشتبهَ عليكم أَمْرُها فيما خَلَقَتْ وخَلَقَ الله، فجعلتموها له شركاءَ من أجلِ ذلك، أمْ إنما بكم الجهلُ والذهابُ عن الصوابِ؟ فإنه لا يُشْكِلُ على ذي عقلٍ أنَّ عبادةَ ما لا يَضُرُّ ولا ينفعُ من الفعلِ جهلٌ، وأنَّ العبادةَ إنما تصلحُ للذي يُرْجَى نَفْعُه ويُخْشَى ضُرُّهُ، كما أنَّ ذلك غير مشكلٍ خَطَؤُه وجهلُ فاعِلِه، كذلك لا يشكل جهلُ مَنْ أشركَ في عبادةِ مَنْ يرزقه ويكفله ويَمُونه، مَنْ لا يقدِرُ له على ضرٍّ ولا نفع.

وقوله: «قُلِ الله خالقُ كُلِّ شيء»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ لهؤلاءِ المشركينَ إذا أَقَرُّوا لكَ أنَّ أوثانهم التي أشركوها في عبادةِ الله لا تخلق شيئاً: فالله خالقكُم وخالقُ أوثانِكم وخالقُ كُلِّ شيء، فما وَجْهُ إشراكِكم ما لا يَخْلُقُ ولايَضُرُّ؟

وقوله: «وهو الواحد القهار»، يقول: وهو الفردُ الذي لا ثانيَ له. «القهار»، الذي يستحقُّ الأُلوهةَ والعبادةَ، لا الأصنام والأوثان التي لا تضر ولا تنفع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ١٧﴾

وهذا مَثَلٌ ضربَهُ الله للحقِّ والباطل، والإيمانِ به والكفر.

يقول تعالى ذِكْرُهُ: مَثَلُ الحقِّ في ثباته، والباطل في اضمحلاله، مثل ماءٍ أنزلهُ الله من السماءِ إلى الأرض. «فسالت أوديةٌ بقدرها»، يقول: فاحْتَمَلَتْهُ

الأوديةُ بملئها، الكبيرُ بكبره، والصغيرُ بصغره. «فاحتملَ السيلُ زبداً رابياً»، يقول: فاحتملَ السيلُ الذي حدث عن ذلك الماء الذي أنزله الله من السماء، زَبَداً عالياً فوقَ السيل.

فهذا أحدُ مثلي الحقِّ والباطل. فالحقُّ هو الماءُ الباقي الذي أنزله الله من السماء، والزبد الذي لا ينتفع به هو الباطل.

والمثـل الآخـر: «ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: ومثلٌ آخر للحقِّ والباطل. مثل الفضة أو ذهب يُوقِدُ عليها الناسُ في النارِ طلبَ حِلْيَةٍ يَتَّخِذُونَها أو متاعٍ ، وذلك من النحاسِ والرصاصِ والحديدِ، يوقد عليه ليتخذ منه متاع ينتفعُ به. «زبد مثله»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومما يوقدون عليه من هذه الأشياء زَبَدٌ مثله، يعني: مثلَ زَبَدِ السَّيل، لا يُنْتَفَعُ به ويذهبُ باطلاً، كما لا ينتفعُ بزبدِ السَّيل ويذهبُ باطلاً.

يقول الله تعالى: «كذلك يضرب الله الحق والباطل»، يقول: كما مَثَّلَ الله مثـلَ الإيمـانِ والكفر، في بُطُولِ الكفر وخيبةِ صاحبهِ عند مجازاةِ الله، بالباقي النافعِ من ماءِ السيلِ وخالصِ الذهب والفضة، كذلك يمثلَ الله الحق والبـاطـل. «فـأمـا الزبدُ فيذهبُ جُفَاء»، يقول: فأما الزبد الذي عَلاَ السيلَ والذهب والفضة والنحاس والرصاص عند الوقود عليها، فيذهبُ بدفعِ الرياحِ وقذفِ الماء به، وتعلُّقه بالأشجارِ وجوانبِ الوادي، وأما ما ينفعُ الناسَ من الماءِ والـذهبِ والفضـةِ والـرصاصِ والنحاس، فالماءُ يمكثُ في الأرض فتشربه، والذهب والفضة تمكث للناس.

«كذلك يضربُ الله الأمثالَ»، يقول: كما مَثَّلَ هذا المثل للإيمانِ والكفرِ، كذلك يُمَثِّلُ الأمثال.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُهُ: أما الذين استجابوا لله فآمنوا به حين دَعَاهُمْ إلى الإيمانِ به، وأطاعوه فاتَّبَعُوا رسولَهُ وصدَّقُوه فيما جاءهم به من عند ٱلله. «فإنَّ لهم الحسنى»، وهي الجنة.

وقوله: «والذين لم يستجيبوا له لو أنَّ لهم ما في الأرضِ جميعاً ومِثْلَهُ معه لافتدوا به»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأما الذين لم يستجيبوا لله حين دعاهم إلى توحيدِه والإقرارِ بربوبيته، ولم يطيعوه فيما أمَرَهُمْ به، ولم يَتَّبِعُوا رسولَهُ فيصدقوه فيما جاءهم به من عند ربهم، فلو أنَّ لهم ما في الأرضِ جميعاً من شيء ومِثْلَهُ معه مُلْكاً لهم، ثم قُبِلَ مثل ذلك منهم، وقبل منهم بدلاً من العذابِ الذي أعَدَّهُ الله لهم في نار جهنم وعوضاً، لافتدوا به أنفسهم منه. يقول الله: «أولئك لهم سوء الحساب»، يقول: هؤلاء الذين لم يستجيبوا لله. «لهم سُوءُ الحساب»، يقول: لهم عندَ الله أنْ يأخذهم بذنوبهم كلها، فلا يغفر لهم منها شيئاً، ولكنْ يعذبهم على جَميعِها.

وقوله: «ومأواهم جهنم»، يقول: ومَسْكَنُهم الذي يسكنونه يومَ القيامة، جهنم. «وبئس المهاد»، يقول: وبِئسَ الفِراشُ والوِطاءُ جهنمُ التي هي مأواهم يوم القيامة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أهذا الذي يعلم أنَّ الذي أنزله الله عليك، يا محمدُ، حَقٌّ فيؤمنُ به ويُصَدِّقُ ويَعملُ بما فيه، كالذي هو أعمى، فلا يعرفُ موقعَ حُجَّةِ الله عليه به، ولا يعلمُ ما ألزمه الله من فرائضه؟

وقوله: «إنما يتذكر أُولُو الألباب»، يقول: إنما يَتَّعِظُ بآياتِ الله ويعتبرُ بها ذَوُو العقولِ، وهي «الألباب» واحدها «لُبٌّ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنما يَتَّعِظُ ويعتبرُ بآياتِ الله أولو الألباب، الذين يوفون بوصيةِ الله التي أوصاهم بها. «ولا ينقضونَ الميثاق»، ولا يخالفونَ العهدَ الذي عاهدوا الله عليه إلى خِلافِه، فيعملُوا بغيرِ ما أمرهم به، ويخالفوا إلى ما نَهى عنه.

وقوله: «والذين يَصِلُونَ ما أمرَ الله به أنْ يُوصَلَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: والذين يَصِلُون الرَّحِمَ التي أمرهم الله بوصلها فلا يقطعونَها. «ويخشون ربهم»، يقول: ويخافونَ الله في قَطْعِهَا، أنْ يقطعوها فيعاقبهم على قطعها وعلى خِلافِهم أمرَه فيها

وقوله: «ويخافونَ سُوءَ الحساب»، يقول: ويَحْذَرُونَ مناقشةَ الله إياهم في الحسابِ، ثم لايصفحُ لهم عن ذنبٍ، فهم لِرَهْبَتِهم ذلك جَادُّون في طاعته، محافظون على حدوده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ

وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: والذين صبروا على الوفاءِ بعهدِ الله، وتَرْكِ نقض الميثاق، وصِلَةِ الرحم. «ابتغاءَ وجهِ رَبِّهم»، ويعني بقوله: «ابتغاء وجه ربهم»، طَلَبَ تعظيمِ الله، وتنزيهاً له أن يُخَالَفَ في أمْرِه، أو يأتي أمراً كره إتيانه فيعصيه به. «وأقاموا الصلاة»، يقول: وأدُّوا الصلاةَ المفروضةَ بحدودها في أوقاتها. «وأنفقوا مما رزقناهم سرًّا وعلانية»، يقول: وأدُّوا من أموالهم زكاتَها المفروضةَ وأنفقوا منها في السُّبُلِ التي أمرهم الله بالنفقةِ فيها. «سرًّا»، في خَفَاءٍ «وعلانية». في الظاهر.

وقوله: «ويدرأون بالحسنةِ السيئةَ»، يقول: ويدفعونَ إساءةَ مَنْ أساء إليهم من الناسِ بالإحسانِ إليهم.

وقوله: «أولئك لهم عُقْبَى الدار»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: هؤلاء الذين وَصَفْنَا صِفَتَهم، هم الذين «لهم عُقْبَى الدار»، يقول: هم الذين أعقبهم الله دارَ الجنان، من دارِهم التي لو لم يكونوا مؤمنينَ كانتْ لهم في النار، فأعقبهم الله من تلك هذه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾

يقول: «جنات عدن»، ترجمة عن «عُقْبَى الدار»، كما يقال: نِعْمَ الرجلُ عبدالله»، فَعَبْدُالله هو الرجلُ المَقُول له: «نِعْمَ الرجلُ».

وتأويل الكلام: أولئكَ لهم عَقِيبَ طاعتهم ربَّهم، الدارُ التي هي جَنَّات عدْنٍ.

وقوله: «ومَنْ صَلَحَ من آبائهم وأزواجهم وذرّياتهم»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: جنات عدن يدخلها هؤلاءِ الذينَ وَصَفَ صِفَتَهم ـ وهم الذين يوفون بعهدِ الله، والذين يَصِلُونَ ما أمرَ الله به أن يُوصَلَ، ويخشون ربهم، والذينَ صبروا ابتغاءَ وجهِ ربهم، وأقاموا الصلاةَ، وفعلوا الأفعالَ التي ذكرها جَلَّ ثناؤهُ في هذه الآياتِ الثلاث.

«ومَنْ صلح من آبائهم وأزواجهم»، وهي نِساؤُهم وأهْلُوهم، «وذرِّيَّاتِهم».

و «صلاحهم»، إيمانُهم بالله، واتِّبَاعُهم أمرَهُ وأمرَ رسولِه عليه السلام.

وقوله: «والملائكةُ يدخلون عليهم من كل باب * سلامٌ عليكم بما صبرتم»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وتدخلُ الملائكةُ على هؤلاءِ الذين وَصَفَ جَلَّ ثناؤُهُ صِفَتَهم في هذه الآيات الثلاث. في جنات عدن، من كُلِّ بابٍ منها، يقولون لهم: «سلام عليكم بما صبرتم»، على طاعةِ رَبِّكم في الدنيا. «فنعم عقبى الدار».

وأما قوله: «فنعم عقبى االدار»، فإنَّ معناه، إنْ شاء الله: الجنة بدلاً من النار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأمّا الذين ينقضون عهدَ الله، و «نقضهم ذلك»،

خِلافُهم أمرَ الله، وعَمَلُهم بمعصيتِه. «من بعد ميثاقه»، يقول: من بعدما وَثَّقُوا على أنفسهم أنْ يَعْمَلُوا بما عَهِدَ إليهم. «ويقطعونَ ما أمرَ الله به أن يُوصَلَ»، يقول: ويقطعونَ الرَّحِمَ التي أمرهم الله بوصلها. «ويفسدون في الأرض»، فَسَادُهُمْ فيها، عَمَلُهم فيها بمعاصي الله. «أولئك لهم اللعنةُ»، يقول: فهؤلاء لهم اللعنة، وهي البُعْدُ من رحمتِه، والإقصاءُ من جِنانِه. «ولهم سوء الدار»، يقول: ولهم ما يَسُوؤُهُمْ في الدارِ الآخرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ٢٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: الله يُوَسِّعُ على مَنْ يشاءُ من خَلْقِه في رزقه فيبسط له منه: لأنَّ منهم مَنْ لا يُصْلِحُه إلا ذلك. «ويقدر»، يقول: ويُقَتِّرُ على مَنْ يشاءُ منهم في رزقه وعيشه فيضيِّقهُ عليه، لأنه لا يُصْلِحُه إلَّا الإقتارُ. «وفَرِحُوا بالحياةِ الدنيا»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وفرِحَ هؤلاء الذين بُسِط لهم في الدنيا من الرزق على كُفْرِهم بالله ومعصيتهم إياهُ بما بسط لهم فيها، وجهلوا ما عندَ الله لأهلِ طاعته والإيمانِ به في الآخرة من الكرامةِ والنعيم.

ثم أخبر جَلَّ ثناؤهُ عن قدر ذلك في الدنيا فيما لأهلِ الإيمانِ به عِنْدَهُ في الآخرة، وأعْلَمَ عبادَهُ قِلَّته فقال: «وما الحياةُ الدنيا في الآخرةِ إلا متاع»، يقول: وما جميعُ ما أُعطيَ هؤلاءِ في الدنيا من السَّعةِ، وبُسِط لهم فيها من الرزق ورَغَدِ العيشِ، فيما عند الله لأهلِ طاعتِه في الآخرة. «إلا متاع»، قليل، وشيءٌ حقيرٌ ذاهب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ٢٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ويقولُ لك، يا محمدُ، مشركو قومكَ: هَلَّا أُنزِلَ عليكَ آيةٌ من ربك، إمَّا مَلَكٌ يكونُ معكَ نذيراً، أو يُلْقَى إليك كنزٌ؟ فَقُلْ: إنَّ الله يُضِلُّ منكم مَنْ يشاء، أيها القومُ، فيخذله عن تصديقي والإيمانِ بما جئته به من عند ربي. «ويَهدي إليه مَنْ أناب»، فرجع إلى التوبة من كفره والإيمان به، فيوفقه لاتِّباعي وتصديقي على ما جِئْتُه به من عندِ رَبِّه، وليس ضلالُ مَنْ يَضِلُّ منكم بأنْ لم ينزلْ عليَّ آية من ربِّي، ولا هدايةُ مَنْ يهتدي منكم بأنَّها أُنزِلَتْ عليَّ، وإنما ذلك بيَدِ الله يوفِّق مَنْ يشاء منكم للإيمانِ، ويخذل من يشاء منكم فلا يؤمن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ويَهدي إليه مَنْ أنابَ بالتوبةِ الذين آمنوا.

و«الذين آمنوا»، في موضع نَصْبٍ، ردٌّ على «مَنْ»، لأن «الذين آمنوا»، هم «مَنْ أناب»، ترجمَ بها عنها.

وقوله: «وتطمئن قلوبهم بذكرِ الله»، يقول: وتسكنُ قلوبهم وتَستأنسُ بذكر الله.

وقوله: «ألَا بذكر الله تطمئنُّ القلوبُ»، يقول: ألا بذكْرِ الله تسكنُ وتستأنسُ قلوبُ المؤمنين.

وقيل: إنه عَنَى بذلك قلوبَ المؤمنين من أصحابِ رسولِ الله ﷺ.

وقوله: «الذين آمنوا وعملوا الصالحات»، الصالحات من الأعمال، وذلك العمل بما أَمَرَهُمْ رَبُّهم. «طوبى لهم».

وقد اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «طوبى لهم».

فقال بعضهم: معناه: نِعْمَ ما لَهُمْ.

وقال آخرون: معناه: غبطةٌ لهمَ.

وقال آخرون: معناه: فَرَحٌ وقُرَّةُ عينٍ.

وقال آخرون: معناه: حُسْنَى لهم.

وقال آخرون: معناه: خيرٌ لهم.

وقال آخرون: «طوبى لهم»، اسمٌ من أسماءِ الجنة، ومعنى الكلام: الجنَّةُ لَهُمْ.

وقال آخرون: «طوبى لهم»، شجرةٌ في الجنة.

وأما قوله: «وحُسْنُ مآب»، فإنه يقول: وحُسْنُ مُنْقَلَبٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: هكذا أرسلناكَ، يا محمدُ، في جماعةٍ من الناسِ ـ يعني إلى جماعةٍ ـ قد خَلَتْ من قبلها جماعاتٌ على مِثْلِ الذي هُمْ عليه، فَمَضَتْ. «لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك»، يقول: لِتُبَلِّغَهُمْ ما أرسَلْتُكَ به إليهم من وَحْيِي الذي أوحيتُه إليكَ. «وهم يكفرون بالرحمن»، يقول: وهم يجحدونَ وحدانيَّةَ الله ويكذِّبُونَ بها. «قُلْ هو ربي»، يقول: إنْ كَفَرَ هؤلاء الذين أرسلتُكَ إليهم، يا محمدُ، بالرحمنِ فَقُلْ أنتَ: الله ربِّي «لا إله إلا هو عليه توكلتُ وإليه متاب»، يقول: وإليه مرجعي وأوبتي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾

اختلف أهلُ التأويل في معنى ذلك.

فقال بعضهم: معناه: «وهم يكفرون بالرحمن»، «ولو أن قرآناً سُيِّرَتْ به الجبالُ»، أي: يكفرونَ بالله ولو سَيَّرَ لهم الجبالَ بهذا القرآنِ. وقالوا: هو من المُؤَخَرِ الذي مَعْناه التقديمُ، وجعلوا جواب «لو» مُقَدَّماً قَبْلَها. وذلك أنَّ الكلام على معنى قِيلهم: ولو أنَّ هذا القرآنَ سُيِّرَتْ به الجبالُ أو قُطِّعَتْ به الأرضُ لكفَرُوا بالرَّحمن.

وقال آخرون: بَلْ معناهُ: «ولو أنَّ قرآناً سيرت به الجبالُ»، كلامٌ مبتدأ مُنْقَطِعٌ عن قوله: «وهم يكفرونَ بالرحمنِ». قال: وجوابُ «لو» محذوف، استغْنِيَ بمعرفةِ السامعينَ المرادَ من الكلامِ عن ذِكْرِ جوابها. قالوا: والعربُ تفعل ذلك كثيراً.

وقوله: «ولو أنَّ قرآناً سُيِّرَتْ به الجبالُ»، الآية، قال: قالوا للنبيِّ ﷺ: إنْ كنتَ صادقاً فَسَيِّرْ عنا هذه الجبالَ واجعلها حُرُوثاً كهيئةِ أرضِ الشام ومصر والبُلْدان، أو ابْعَثْ مَوْتَانا فأخبرهم فإنهم قد ماتوا على الذي نحنُ عليه! فقال الله: «ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرضُ أو كُلِّمَ به الموتى»، لم يُصْنَعْ ذلك بقرآنٍ قط ولا كتابٍ، فيصنع ذلك بهذا القرآن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾

تأويل الكلام: ولو أنَّ قرآناً سِوى هذا القرآن كان سُيِّرَتْ به الجبالُ، لسُيِّرَ

بهـذا القرانِ، أو قُطِّعَتْ به الأرضُ، لقُطعت بهذا أو كُلِّمَ به الموتى، لكُلِّمَ بهذا، ولكن لم يُفْعل ذلك بقرآنٍ قبل هذا القرآنِ فيُفْعل بهذا. «بَلْ لله الأمرُ جميعاً»، يقول ذلك: كله إليه وبيده، يَهدي مَنْ يشاءُ إلى الإيمانِ فيوفِّقه له، ويُضِل من يشاء فيخذله، أَفَلَمْ يَتبيَّنِ الذين آمنوا بالله ورسوله ـ إذْ طمِعُوا في إجابتي مَنْ سأل نبيَّهم ما سأله من تَسييرِ الجبالِ عنهم، وتقريبِ أرضِ الشام عليهم، وإحياءِ موتاهم ـ أنْ لو يشاءُ الله لهدَى الناسَ جميعاً إلى الإيمانِ به من غيرِ إيجادِ آيةٍ، ولا إحداثِ شيءٍ مِمَّا سألوا إحداثَهُ؟ يقول تعالى ذِكْرُهُ: فما معنى مَحَبَّتِهِمْ ذلك، مع عِلْمِهِمْ بأنَّ الهدايةَ والإهلاكَ إليَّ وبيدي، أنزلتُ آيةً أو لم أُنْزِلْهَا، أَهدي مَنْ أشاءُ بغيرِ إنزالِ آيةٍ، وأُضِلُّ مَنْ أردتُ مع إنزالها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝٣١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «ولا يزالُ»، يا محمدُ. «الذين كفروا»، من قومكَ. «تُصِيبُهم بما صنعوا»، مِنْ كُفْرِهم بالله، وتَكْذِيبِهم إياكَ، وإخراجِهم لكَ من بين أَظْهُرِهم. «قارعةٌ»، وهي ما يقرعهم من البلاءِ والعذابِ والنِّقَمِ، بالقتلِ أحياناً، وبالحروبِ أحياناً، والقَحْطِ أحياناً. «أو تحلُّ»، أنتَ يا محمدُ، يقول: أو تنزلُ أنتَ. «قريباً من دارهم»، بجيشكَ وأصحابكَ. «حتّى يأتيَ وَعْدُ الله» الذي وَعَدَكَ فيهم، وذلك ظهورُكَ عليهم، وفتحُكَ أرضَهمْ، وقَهْرُكَ إياهم بالسيف. «إنَّ الله لا يُخْلِفُ الميعاد»، يقول: إنَّ الله مُنْجِزُكَ، يا محمدُ، ما وعدكَ من الظهورِ عليهم، لأنه لا يخلف وعده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيهِ محمدٍ ﷺ: يا محمدُ، إنْ يَستهزئْ هؤلاءِ المشركونَ من قومكَ ويطلبُوا منكَ الآياتِ تكذيباً منهم ما جِئْتَهُمْ به، فاصبرْ على أذاهم لكَ، وامْضِ لأمرِ ربك في إنذارهم والإعذارِ إليهم، فلقد استهزأتْ أممٌ من قبلك قد خلَتْ فَمَضَتْ، بُرسلِي، فأطلتُ لهم في المَهَلِ، ومَدَدْتُ لهم في الأجَلِ، ثم أحللتُ بهم عذابي ونقمتي حين تمادَوْا في غيِّهم وضَلالهم، فانْظُرْ كيف كان عقابي إياهم حين عاقبتهم، ألم أذقهم أليمَ العذابِ، وأجعلهم عبرةً لأولى الألباب؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أفَالرَّبُّ الذي هو دائمٌ لا يَبيدُ ولا يَهْلِكُ، قائمٌ بحفظِ أرزاقِ جميعِ الخَلْقِ، متضمنٌ لها، عالمٌ بهم وبما يكسبُونه من الأعمالِ، رقيبٌ عليهم لايَعْزُبُ عنه شيءٌ أينما كانوا، كمَنْ هو هالكٌ بائِدٌ لا يَسمَعُ ولا يُبصر ولا يفهم شيئاً، ولا يَدْفَعُ عن نفسِه ولا عَمَّن يَعْبُدُهُ ضُرًّا، ولا يَجْلبُ إليهما نفعاً، كلاهما سَواءٌ؟

وقوله: «وجَعَلُوا لله شركاءَ قُلْ سَمُّوهم أم تنَبِّئُونَهُ بما لايعلمُ في الأرض أمْ بظاهرٍ من القـول»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: أنا القائمُ بأرزاقِ هؤلاءِ المشركينَ،

والمـدبِّـرُ أمـورَهُـمْ، والحافظُ عليهم أعمالَهُمْ، وجعلوا لي شركاءَ مِنْ خَلْقي يعبدُونها دوني، قُلْ لهم يا محمدُ: سمّوا هؤلاءِ الذين أشركتموهم في عبادةِ الله، فإنهم إنْ قالوا: آلهة، فقد كذبوا، لأنه لا إله إلا الواحد القهّار لا شريكَ له. «أم تُنَبِّؤونَهُ بما لا يعلم في الأرض»، يقول: أتخبرونه بأن في الأرض إلهاً، ولا إله غيرُه في الأرضِ ولا في السماء؟

وقوله: «أم بظاهرٍ من القولِ»، مسموع، وهو في الحقيقة باطلٌ لا صِحَّة له.

وقوله: «بل زُيِّنَ للذين كفروا مَكْرُهم»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ما لله مِنْ شريكٍ في السموات ولا في الأرض، ولكن زُيِّنَ للمشركينَ الذين يدعون من دونه إلهاً، مَكْرُهم، وذلك افتراؤُهُم وكَذِبُهم على الله.

وأما قوله: «وصُدُّوا عن السبيلِ»، فإنَّ القَرَأَةَ اختلفت في قراءته.

فقـرأته عامة قَرَأَة الكوفيين: ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾، بضم «الصاد»، بمعنى: وصَدَّهُمْ الله عن سبيله لِكُفْرِهم به، ثم جُعلت «الصاد» مضمومةً إذْ لم يُسَمَّ فاعله.

وأمـا عامـة قرأة الحجاز والبصرة فقرأوه بفتح «الصاد»، على معنى أنَّ المشركينَ هم الذين صَدُّوا الناسَ عن سبيلِ الله.

والصوابَ من القول في ذلك عندي أنْ يقالَ: إنهما قراءتان مشهورتان، قد قَرَأَ بكلٍّ واحدةٍ منهما أئمةٌ من القرأةِ، متقاربتا المعنى. وذلك أن المشركينَ بالله كانوا مصدودين عن الإيمانِ به، وهم مع ذلك كانوا يصدون غيرَهُمْ كما وَصَفَهُم الله به بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ [الأنفال: ٣٦].

وقوله: «ومن يُضْلل الله فمَا لَهُ من هاد»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومَنْ أَضَلَّهُ

الله عن إصابةِ الحق والهدى بخذلانه إياهُ، فما لَهُ أحدٌيَهْدِيه لإصابتهما، لأنَّ ذلك لا يُنالُ إلا بتوفيقِ الله ومعونته، وذلك بيدِ الله وإليه، دُونَ كلِّ أحدٍ سواه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ، لهؤلاءِ الكفارِ الذين وَصَف صِفَتَهم في هذه السورة، عذابٌ في الحياة الدنيا بالقتلِ والإسارِ والآفاتِ التي يُصيبهم الله بها. «ولَعَذَابُ الآخـرةِ أشَقُّ»، يقول: ولتعذيبُ الله إياهم في الدارِ الآخرةِ أشدُّ من تعذيبه إيَّاهم في الدنيا.

وقوله: «وما لهم من الله من وَاقٍ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما لهؤلاءِ الكفارِ من أحدٍ يَقِيهم من عذابِ الله إذا عذَّبَهم، لا حَمِيمٌ ولا وليٌّ ولا نصيرٌ، لأنه جَلَّ جلاله لا يعادُّه[1] أحدٌ فيقهره، فيتخَلَّصَهُ من عذابه بالقهرِ، ولا يشفعُ عنده أحدٌ إلا بإذنه، وليس يأذَنُ لأحدٍ في الشفاعةِ لِمَنْ كَفَرَ به فماتَ على كفره قبلَ التَّوبة منه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾﴾

ذكرَ الله تعالى ذِكْرُهُ «المَثَلَ»، فقال: «مَثَلُ الجنة»، والمراد الجنة، ثم وُصِفَتِ الجنةُ بصفتها، وذلك أنَّ مَثَلَها إنما هو صِفَتُهَا، وليست صِفتها شيئاً

(١) عاده يعاده، عداداً ومعادة: ناهده وقارنه.

غيرها. وإذْ كانَ ذلكَ كذلكَ، ثم ذكر «المثل» فقيل، «مثل الجنة»، ومثلها صِفَتُها وصفة الجنّة، فكانَ وَصْفُهَا كوصفِ «المَثَل»، وكان كأنَّ الكلام جرى بذِكْرِ الجنة فقيل: الجنةُ تجري من تحتها الأنهار.

وقوله: «أُكُلُهَا دائمٌ وظلها»، يعني ما يُؤْكَلُ فيها، يقول: هو دائمٌ لأهلها، لاينقطعُ عنهم ولا يزولُ ولا يَبيدُ، ولكنه ثابتٌ إلى غيرِ نهاية. «وظلها»، يقول: وظلها أيضاً دائم، لأنه لا شمسَ فيها.

«تلك عقبى الذين اتَّقَوْا»، يقول: هذه الجنةُ التي وصف جَلَّ ثناؤُهُ، عاقبة الذين اتَّقَوا الله، فاجتنبوا مَعَاصيه وأَدَّوْا فرائضه.

وقوله: «وعقْبَى الكافرين النار»، يقول: وعاقبةُ الكافرين بالله النارُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ۝٣٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: والذين أنزلنا إليهم الكتابَ مِمَّنْ آمنَ بكَ واتبعكَ، يا محمدُ، يفرحونَ بما أنزل إليك منه. «ومن الأحْزابِ مَنْ يُنْكِرُ بعضه»، يقول: ومن أهلِ المِللِ المتحزِّبينَ عليكَ، وهم أهلُ أديانٍ شتَّى، مَنْ ينكرُ بعضَ ما أُنـزلَ إليك. فقل لهم: إنَّما أُمِرْتُ، أيها القومُ، أنْ أعبدَ الله وحدَهُ دونَ ما سواه. «ولا أشرك به»، فأجعل له شريكاً في عبادتي، فأعبدَ معه الآلهةَ والأصنامَ، بَلْ أخلِص له الدينَ حَنِيفاً مسلماً. «إليه أدعو»، يقول: إلى طاعتِهِ وإخلاصِ العبادةِ له أدعو الناسَ. «وإليه مآب»، يقول: وإليه مصيري.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ۝٣٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وكما أنزلنا عليكَ الكتابَ، يا محمدُ، فأنكرهُ بعضُ الأحزاب، كذلك أيضاً أنزلنا الحكم والدِينَ، حُكْماً عربياً.

وجعل ذلك «عربيًّا»، ووصَفَهُ به، لأنه أنزل على محمدٍ ﷺ وهو عربيٌّ، فَنَسَبَ الدِّينَ إليه. إذْ كان عليه أُنْزِلَ، فكذَّبَ به الأحزابُ. ثم نَهاهُ جَلَّ ثناؤُهُ عن تَرْكِ ما أنزلَ إليه واتباعِ الأحزابِ، وتَهَدَّدَهُ على ذلك إنْ فَعَلَهُ فقال: «ولئن اتبعتَ»، يا محمدُ، «أهواءهم»، أهواءَ هؤلاءِ الأحزاب ورِضَاهم ومَحَبَّتَهُمْ، وانتقلتَ من دينك إلى دِينهم، ما لَكَ مَنْ يَقِيكَ عَذابَ الله إنْ عَذَّبَكَ على اتباعكَ أهواءَهم، وما لَكَ من ناصرٍ ينصرك فَيَسْتَنْقِذُكَ من الله إنْ هو عاقبكَ، يقول: فاحذرْ أن تَتَّبِعَ أهواءَهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝٣٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولقد أرسلنا، يا محمدُ، رُسُلًا من قَبْلِكَ إلى أممٍ قَدْ خَلَتْ من قبلِ أمتك، فجعلناهم بَشراً مِثْلَكَ، لهم أزواجٌ ينكحون، وذريةٌ أَنْسَلوهم، ولم نجعلهم ملائكةً لا يأكلونَ ولا يشربون ولا ينكحون، فنجعلَ الرسولَ إلى قومكَ من الملائكةِ مثلهم، ولكن أرسلنا إليهم بشراً مثلهم، كما أرسلنا إلى مَنْ قَبْلَهُمْ من سائرِ الأمم بشراً مثلهم. «وما كان لرسولٍ أنْ يأتيَ بآيةٍ إلا بإذنِ الله»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما يقدِر رسولٌ أرسله الله إلى خَلْقِه أنْ

يأتي أُمّتَهُ بآيةٍ وعلامة، من تسييرِ الجبال، ونقلِ بَلْدةٍ من مكانٍ إلى مكان آخر، وإحياءِ الموتى، ونحوها من الآيات. «إلا بإذن الله»، يقول: إلا بأمرِ الله الجبالَ بالسير، والأرض بالانتقـالِ، والميتَ بأنْ يحيَا. «لكلِّ أجلٍ كتاب»، يقول: لكلِّ أجلِ أمرٍ قَضَاهُ الله، كِتابٌ قد كَتَبه فهو عنده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴿٣٩﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك:

فقـال بعضهم: يمحـو الله ما يشاءُ من أمورِ عبادِه فيغيّره، إلا الشقاء والسعادة، فإنهما لا يُغيَّران.

وقال آخرون: معنى ذلك: أنَّ الله يمحو ما يشاء ويثبتُ من كتابٍ سوى أمِّ الكتاب الذي لا يُغيَّرُ منه شيءٌ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك أنه يمحو كُلَّ ما يشاء، ويثبتُ كُلَّ ما أراد.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أنَّ الله ينسخُ ما يشاء من أحكامِ كِتابه، ويثبتُ ما يشاء منها فلا ينسَخُه.

وقال آخرون: معنى ذلك أنه يمحو مَنْ قَدْ حانَ أَجَلُه، ويثبتُ مَنْ لم يجئْ أجَلُه إلى أجَلِه.

وقال آخرون: معنى ذلك: ويغفرُ ما يشاء من ذنوبِ عباده، ويتركُ ما يشاء فلا يغفر.

وأَوْلى الأقوال التي ذكرتُ في ذلك بتأويلِ الآية وأشبهُها بالصّوابِ، قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: أنه يمحو مَنْ قد حانَ أجلُهُ، ويُثَبِّت مَنْ لم يجيء أجله

إلى أجله، وذلك أنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ تَوَعَّدَ المشركينَ الذين سألوا رسولَ الله ﷺ الآياتِ بالعقوبة، وتهدَّدهم بها، وقال لهم: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ الله لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾، يُعْلِمُهم بذلك أنَّ لقضائه فيهم أجلاً مُثْبَتاً في كتاب، هم مُؤَخَّرُونَ إلى وقتِ مجيءِ ذلك الأجلِ. ثم قال لهم: فإذا جاء ذلك الأجلُ، يجيءُ الله بما شاءَ ممن قد دَنا أجلُه وانقطعَ رِزْقُه، أو حانَ هلاكُه أو اتِّضَاعُه من رِفْعَةٍ أو هلاكِ مالٍ، فيقضي ذلك في خَلْقِه، فلذلك مَحْوُهُ، ويثبتُ ما شاء ممن بقي أجلُه ورزقُه وأُكْله، فيتركُه على ما هوَ عليه فلا يمحوه.

وأما قوله: «وعنده أمُّ الكتاب»، يقول: وعنده أصلُ الكِتاب وجملتُهُ، وذلك أنه تعالى ذِكْرُهُ أخبرَ أنه يمحُو ما يشاءُ ويثبتُ ما يشاء، ثم عقَّب ذلك بقولـه: «وعنـده أمُّ الكتاب»، فكان بَيِّناً أن معناه. وعنده أصل المثبَت منه والمَمْحُوِّ وجملتُه في كتابٍ لديه.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: ﴿ويثبت﴾.

فقرأ ذلك عامة قرأةِ المدينةِ والكوفة: ﴿وَيُثَبِّتُ﴾ بتشديد «الباء»، بمعنى: ويتركه ويُقِرُّهُ على حالِه فلا يَمْحُوهُ.

وقـرأه بعض المكيين وبعض البصريين وبعض الكوفيين: ﴿وَيُثْبِتُ﴾، بالتخفيف، بمعنى: يكتب.

وقد بيَّنَّا قَبْلُ أنَّ معنى ذلك عندنا: إقرارُه مكتوباً وتركُ مَحْوِه، على ما بد بيَّنَّـا. فإذا كان ذلـك كذلـك، فالتثبيتُ به أولى، والتشـديدُ أَصْـوَبُ من تخفيف. وإنْ كان التخفيفُ قد يحتمـل توجيهه في المعنى إلى التشديدِ، لتشديد إلى التخفيف، لتقاربِ مَعْنَيَيْهِمَا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيهِ محمدٍ ﷺ: وإما نُرِيَنَّكَ، يا محمدُ، في حياتك بعضَ الذي نَعِدُ هؤلاء المشركينَ بالله من العقاب على كفرهم ـ أو نتوفيَنَّكَ قبل أن نُرِيَكَ ذلك، فإنما عليكَ أن تنتهيَ إلى طاعةِ رَبِّكَ فيما أمركَ به من تبليغهم رسالتَه، لا طَلَبَ صلاحِهم ولا فسادِهم، وعلينا محاسبتهم، فمجازاتُهُم بأعمالهم، إنْ خيراً فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك.

فقال بعضهم: معناه: أَوَ لَمْ يَرَ هؤلاء المشركون مِنْ أهلِ مكةَ الذين يسألون محمداً الآيات، أنَّا نأتي الأرضَ فنفتحُها له أرضاً بعد أرضٍ حَوَالَيْ أرضهم؟ أفلا يخافون أنْ نفتحَ لَهُ أرضَهم كما فتحنا له غيرها؟

وقال آخرون: بل معناه: أو لم يروا أنا نأتي الأرضَ فنخرِّبها، أو لا يَخافون أنْ نفعلَ بهم وبأرضِهم مثل ذلك، فنهلكهم ونخرِّب أرضهم؟

وقال آخرون: بل معناه: ننقص من بَركتها وثمرتها وأهلِها بالموت.

وقال آخرون: معناه: أنا نأتي الأرض ننقصُها من أهلِها، فنتطرَّفهم بأخذِهم بالموت.

وقال آخرون: «ننقصُها من أطرافها»، بذهاب فُقَهائِها وخِيارها.

وأَوْلى الأقوال في تأويلِ ذلك بالصوابِ قولُ مَنْ قال: «أو لم يروا أنا نأتي الأرضَ ننقصها من أطرافها»، بظهورِ المسلمين من أصحاب محمدٍ ﷺ عليها وقَهْرِهم أهلَها، أفلا يعتبرونَ بذلك فيخافون ظُهورَهم على أرْضِهم وقَهْرَهم إياهم؟ وذلك أنَّ الله توعَّدَ الذين سألوا رسولَه الآياتِ من مشركي قومه بقوله: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾، ثم وبَّخهم تعالى ذِكْرُهُ بسوءِ اعتبارهم بما يعاينون من فعل الله بضُرَبائهم من الكفار، وهم مع ذلك يسألون الآيات، فقال: «أو لم يَرَوْا أنا نأتي الأرضَ ننقصها من أطرافها»، بقهرِ أهلها، والغلبة عليها من أطرافِها وجوانبِها، وهم لا يعتبرونَ بما يَرَوْن من ذلك.

وأما قوله: «والله يحكُم لا مُعقِّب لحكمه»، يقول: والله هو الذي يحكم فيَنْفُذُ حُكْمه، ويَقْضي فيَمْضِي قضاؤه، وإذا جاء هؤلاء المشركين بالله من أهل مكة حُكْمُ الله وقضاؤُه، لم يستطيعوا رِدَّهُ. يعني بقوله: «لا مُعَقِّبَ لحكمه»، لا رَادَّ لحكمه.

وقوله: «وهو سريع الحساب»، يقول: والله سريع الحساب، يُحْصي أعمالَ هؤلاءِ المشركينَ، لا يَخْفَى عليه شيءٌ، وهو من وراءِ جزائهم عليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٤٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قَد مكرَ الذين من قَبْل هؤلاء المشركين من قُرَيشٍ من الأمم التي سلفت، بأنبياءِ الله ورُسله. «فلله المكرُ جميعاً»، يقول: فلله أسبابُ المكرِ جميعاً، وبيدهِ وإليه، لا يَضُرُّ مكرُ مَنْ مَكَر منهم أحداً إلاَّ مَنْ أراد ضرَّه به. يقول: فلم يَضرَّ الماكرونَ بمكرِهم إلا مَنْ شاء الله أن يضرَّه

ذلك، وإنما ضَرُّوا به أنفسهم، لأنهم أسْخَطُوا ربَّهم بذلك على أنفسهم، حتى أهلكهم، ونَجّى رُسُلَهُ، يقول: فكذلك هؤلاء المشركون من قريش، يمكرونَ بكَ، يا محمدُ، والله مُنَجِّيك من مكرهم، ومُلْحِقٌ ضُرَّ مَكْرِهم بهم دونك.

وقوله: «يعلم ما تكسب كُلُّ نفسٍ»، يقول: يَعْلَمُ رَبُّكَ، يا محمدُ، ما يعمل هؤلاء المشركونَ من قومكَ، وما يَسْعَوْنَ فيه من المكرِ بكَ، ويعلم جميعَ أعمالِ الخَلْقِ كلهم، لا يَخْفَى عليه شيءٌ منها. «وسيعلَمُ الكفارُ لمن عقبى الدارِ»، يقول: وسيعلمون، إذا قَدِمُوا على رَبِّهم يومَ القيامة، لِمَنْ عاقبةُ الدارِ الآخرةِ حين يدخلونَ النارَ، ويدخلُ المؤمنون بالله ورسوله الجَنَّة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًاۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ۝٤٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ويقول الذين كفروا بالله من قومكَ يا محَمَّدُ: لستَ مُرْسَلًا! تكذيباً منهم لكَ، وجُحُوداً لنبوَّتِكَ، فَقُلْ لهم إذا قالوا ذلك: «كفى بالله»، يقول: قُلْ حَسْبي الله. «شهيداً»، يعني: شاهداً «بيني وبينكم»، عليَّ وعليكم، بِصِدْقي وكَذِبِكُمْ. «ومَنْ عِنْدَهُ علمُ الكتاب»، يعني: والذين عندهم عِلْمُ الكتابِ، أي الكتب التي نزلت قبل القرآن كالتوراةِ والإنجيل.

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

ترتيبها ١٤ — آياتها ٥٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قولِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝١﴾

قد تَقَدَّمَ منا البيانُ عن معنى قوله: «الر»، فيما مضى، بما أَغْنَى عن إعادتِه في هذا الموضع[1].

وأما قوله: «كتاب أنزلناه إليكَ»، فإنَّ معناه: هذا كتابٌ أنزلناهُ إليكَ، يا محمدُ، يعني القرآن. «لتخرجَ الناسَ من الظلماتِ إلى النور»، يقول: لتهديهم به من ظُلماتِ الضلالةِ والكفرِ، إلى نورِ الإيمانِ وضيائه، وتُبصِّر به أهلَ الجهلِ والعمَى سُبُلَ الرَّشادِ والهُدَى.

وقوله: «بإذن ربهم»، يعني: بتوفيقِ رَبِّهم لهم بذلك ولطفه بهم. «إلى صراطِ العزيزِ الحميد»، يعني: إلى طريقِ الله المستقيم، وهو دِينُه الذي ارتضَاهُ، وشَرَّعَهُ لخلْقِه.

وأضاف تعالى ذِكْرُهُ إخراجَ الناسِ من الظلمات إلى النورِ بإذنِ ربِّهم لهم بذلك، إلى نبيهِ ﷺ، وهو الهادي خَلْقَه، والموفِّقُ مَنْ أحبَّ منهم للإيمان، إذ كان منه دعاؤهم إليه، وتعريفهُمْ ما لهم فيه وعليهم. فَبَيَّنٌ بذلك صِحة قول

(١) انظر أول تفسير سورة البقرة.

أهلِ الإثبات الذين أضافوا أفعالَ العبادِ إليهم كَسْباً، وإلى الله جَلَّ ثناؤُهُ إنشاءً وتدبيراً، وفسادُ قولِ أهلِ القَدر الذين أنكَرُوا أنْ يكونَ لله في ذلك صُنْعٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾﴾

معنى قوله: «الله الذي له ما في السمواتِ وما في الأرضِ»، الله الذي يملكُ جميعَ ما في السموات ومَا في الأرض.

يقول لنبيهِ محمدٍ ﷺ: أنزلنا إليكَ هذا الكتابَ لتدعُوَ عِبادي إلى عِبَادةِ مَنْ هذه صِفَتُه، ويَدَعُوا عبادةَ مَنْ لا يملكُ لهم ولا لنفسه ضَرًّا ولا نفْعاً من الآلهةِ والأوثان. ثم تَوَعَّدَ جَلَّ ثناؤُهُ مَنْ كفرَ به، ولم يستجبْ لدعاء رسوله إلى ما دَعَاهُ إليه من إخلاصِ التوحيد له فقال: «وَوَيْلٌ للكافرينَ من عذابٍ شديد»، يقول: الوادِي الذي يسيلُ من صديدِ أهلِ جهنم، لمن جَحَدَ وحدانيتَهُ، وعبدَ معه غيرَهُ، مِن عَذَابِ الله الشَّدِيد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقـوله: «الذين يستحبون الحياةَ الدنيا على الآخرة»، الـذينَ يختارونَ الحياةَ الدنيا ومتاعَها ومعاصي الله فيها، على طاعةِ الله وما يقرِّبُهم إلي رِضَاهُ من الأعمالِ النافعةِ في الآخرة. «ويصدُّون عن سَبيلِ الله»، يقول: ويمنعونَ مَنْ أرادَ الإيمانَ بالله واتِّباعَ رسولِه على ما جاءَ به من عندِ الله، من الإيمانِ به واتباعه. «ويَبْغُونَها عِوَجاً»، يقول: ويلتمسون سَبِيلَ الله ـ وهي دِينُه الذي ابتعثَ به رسولَهُ ـ «عوجاً»، تحريفاً وتبديلاً بالكذب والزُّور.

يقول الله عَزَّ ذِكْرُه: «أولئك في ضلال بعيد»، يعني: هؤلاء الكافرين الذين يستحبُّون الحياةَ الدنيا على الآخرة. يقول: هُمْ في ذهابٍ عن الحَقِّ بعيد، وأَخْذٍ على غيرِ هُدًى، وجَوْرٍ عن قَصْدِ السبيل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما أرسلنا إلى أمةٍ من الأمم، يا محمدُ، من قبلك ومن قبـلِ قومـكَ، رسولاً إلَّا بلسانِ الأمةِ التي أرسلناهُ إليها ولغتهم. «ليبينَ لهم»، يقول: ليفهمهم ما أرسلَهُ الله به إليهم من أمرِه ونَهيه، لِيُثْبتَ حُجَّةَ الله عليهم، ثم التوفيقُ والخذلانُ بيدِ الله، فيخذلُ عن قبولِ ما أتاه به رسُوله من عنده مَنْ شاء منهم، ويوفِّق لقبوله مَنْ شاء ـ ولذلك رَفَعَ «فيُضلُّ»، لأنه أُريدَ به الابتداء لا العطف على ما قبله، كما قيل: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ [الحج: ٥]. «وهو العزيز»، الذي لايمتنع مما أراده من ضلال أو هدايةِ مَنْ أرادَ ذلك به. «الحكيم»، في توفيقه للإيمانِ مَنْ وفَّقه له، وهدايته له مَنْ هداه إليه، وفي إضلاله مَنْ أضلَّ عنه، وفي غير ذلك من تدبيره.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُهُ: ولقد أرسلنا موسى بأدلتنا وحُجَجنا من قبلك، يا محمدُ، كما أرسلناكَ إلى قومكَ بمثلها من الأدلةِ والحجج.

وقوله: «أنْ أخْرِجْ قومكَ من الظلماتِ إلى النور»، كما أنزلنا إليك، ، يا

محمدُ، هذا الكتابَ لتخرجَ الناسَ من الظلماتِ إلى النور بإذنِ ربهم. ويعني بقوله: «أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور»، أنِ ادْعُهُمْ[١] من الضلالة إلى الهدى، ومن الكفر إلى الإيمان.

وقوله: «وَذكِّرْهُم بأيام الله»، يقول جَلَّ وعَزَّ: وعِظْهُمْ بما سَلَفَ من نُعْمَى عليهم في الأيامِ التي خلت ـ فاجتُزِئَ بذكر «الأيام» من ذكر النعم التي عَنَاها، لأنها أيامٌ كانت معلومة عندهم، أنعم الله عليهم فيها نعماً جليلةً، أنقذهم فيها من آلِ فرعون، بعدَ ما كانوا فيما كانوا [فيه] من العذابِ المُهين، وغَرَّقَ عَدُوَّهم فرعونَ وقومَه، وأوْرَثَهم أرضَهم وديارَهم وأموالَهم.

«إن في ذلـك لآياتٍ لكـل صَبّارٍ شَكُور»، يقول: إنَّ في الأيامِ التي سلفت بنِعَمِي عليهم ـ يعني على قومِ موسى ـ «لآياتٍ»، يعني لِعبراً ومواعظ. «لكل صَبَّار شكور»، يقول: لِكُلِّ ذي صبرٍ على طاعةِ الله، وشكرٍ له على ما أنعم عليه من نِعَمه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: واذْكُرْ، يا محمدُ، إذ قال موسى بن عِمْـران لقـومِـه من بني إسرائيل: «اذكروا نعمة الله عليكم»، التي أنعمَ بها عليكم. «إذْ أنجاكم من آلِ فرعون»، يقول: حين أنجاكم من أهلِ دِينِ فرعونَ وطاعته. «يسومونكم سُوءَ العذاب»، أي يُذِيقُونكُم شديدَ العذاب. «ويذبِّحُونَ أبناءكم»، مع إذاقَتِهم إياكم شديدَ العذاب يُذَبِّحُونَ أبناءكم.

(١) وأراد: أن ادعهم ليخرجُوا من الضلالة إلى الهدى.

وقوله: «﴿ويستحيون نساءكم﴾»، يقول: ويُبْقُونَ نساءكم فيتركون قَتْلَهُنَّ، وذلك استحياؤهم كَان إياهُنَّ، ومعناه: يتركونهم والحياة.

«وفي ذلكم بلاءٌ من رَبِّكم عظيم»، يقول تعالى: فيما يصنعُ بكم آلُ فرعون من أنواعِ العذاب، بلاءٌ لكم من ربكم عظيمٌ، أي ابتلاء واختبارٌ لكم، من ربكم عظيم. وقد يكون «البلاء»، في هذا الموضع نَعْماء، ويكون من البلاء الذي يصيبُ النَّاسَ من الشدائد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ: واذكروا أيضاً حين آذنَكُمْ رَبُّكم. و«تأذَّنَ»، «تَفَعَّلَ» من «آذن». والعربُ ربما وضعت «تفعَّل» موضع «أفعل»، كما قالوا: «أوعدتُه» «وتوعَّدْتُه»، بمعنى واحد. و«آذنَ»، أعْلَمَ، كما قال الحارث بن حِلِّزة[1]:

آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أَسْمَاءُ ... رُبَّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ

يعني بقوله: «آذنتنا»، أعلمتنا.

وقوله: «لئن شكرتُم لأزيدنكم»، يقول: لئن شكرتم ربَّكم، بطاعتكم إياه فيما أمَرَكُمْ ونهاكم، لأزيدنكم في أيادِيه عندكم ونعمِه عليكم، على ما قَدْ أعطاكم من النجاةِ من آلِ فرعون والخلاصِ مِنْ عذابهم.

وقوله: «ولئن كفرتم إنَّ عذابي لشديد»، يقول: ولئن كفرتم، أيها القومُ، نعمةَ الله، فجحدتُموها بتركِ شُكْره عليها وخلافِه في أمره ونهيه، وركوبكم معاصيه. «إن عَذَابي لشديد»، أُعَذِّبُكُمْ كما أعذبُ مَنْ كفرَ بي من خلقي.

---

(١) مطلع قصيدته المشهورة، وهي من السبع الطوال.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وقال موسى لقومه: إنْ تَكْفُروا، أيها القومُ، فتجحدوا نعمةَ الله التي أنعمها عليكم، أنتم ـ ويفعلُ في ذلك مثل فِعْلِكُمْ مَنْ في الأرض جميعاً. «فإنَّ الله لغني» عنكم وعنهم من جميعِ خَلْقِه، لا حاجةَ به إلى شكركم إياه على نعمه عند جميعكم. «حميد»، ذو حَمْدٍ إلى خَلْقِه بما أنعم به عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ، مخبراً عن قِيلِ موسى لقومِه: يا قوم: «ألم يأتكم نبأُ الذين من قبلكم»، يقول: خَبَرُ الذين من قبلكم من الأممِ التي مَضَتْ قبلكم. «قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ»، وقوم نُوح، مُبيَّنٌ بهم عن «الذين»، و «عاد» معطوف بها على «قوم نوح»، «والذينَ مِنْ بعدِهم»، يعني من بعدِ قومِ نوحٍ وعاد وثمود. «لا يعلمهم إلا الله»، يقول: لا يُحْصِي عَدَدهم ولا يعلمُ مبلغهم إلا الله.

وقوله: «جاءتهم رسلهم بالبينات»، يقول: جاءتْ هؤلاءِ الأمم رسلُهم الذين أرسلهم الله لهم بدعائِهم إلى إخلاصِ العبادةِ له. «بالبيناتِ»، يعني بحججٍ ودلالاتٍ، على حقيقةِ ما دَعَوْهُمْ إليه، مُعْجِزاتٍ.

وقوله: «فَرَدُّوا أيديَهُمْ في أفواهِهِم»، يعني: فَعَضُّوا عليها، غيظاً على الرسل، كما وصَفَ الله جَلَّ وعَزَّ به إخوانهم من المنافقين فقال: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُم الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [آل عمرن: ١١٩]. فهذا هو الكلامُ المعروف والمعنى المفهوم من «رَدِّ اليدِ إلى الفم».

وقوله: «وقالوا إنَّا كفرنا بمَا أُرسلتم به»، يقول عزَّ وجلَّ: وقالوا لرسلهم: إنـا كفـرنـا بمـا أُرسلتُمْ به مَنْ أرسلكم، من الدعاءِ إلى تركِ عبادةِ الأوثانِ والأصنـامِ. «وإنـا لفي شك»، من حقيقـةِ ما تَدْعـونَنـا إليه من توحيدِ الله. «مُريب»، يقول: يريبنا ذلك الشك، أي يُوجِبُ لنا الريبَةَ والتُّهَمَةَ فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قالت رُسُل الأممِ التي أتتها رسُلها: «أفي الله»، أنَّهُ المستحقُّ عليكم، أيها الناسُ، الألوهةَ والعبادةَ دونَ جميعِ خَلْقِه. «شَكٌّ». وقوله: «فاطر السموات والأرض»، يقول: خالق السموات والأرض. «يدعوكم ليغفرَ لكم من ذنوبكم»، يقول: يدعوكم إلى توحيدِه وطاعته. «ليغفرَ لكم من ذنوبكم»، يقول: فيستر عليكم بعضَ ذُنوبِكم بالعفوِ عنها، فلا يعاقبكم عليها، «ويؤخركم»، يقول: ويُنْسِيء في آجالِكم، فلا يعاقبكم في العاجل فيهلككم، ولكن يُؤَخِّـركُم إلى الوقتِ الذي كتبَ في أمِّ الكتابِ أنه يقبضكم فيهِ، وهو الأجلُ الذي سَمَّى لكم. فقالت الأممُ لهم: «إنْ أنتم»، أيها القوم «إلا بَشَرٌ مثلنا»، في الصورة والهيئة، ولستم ملائكة، وإنما تُريدونَ بقولكم هذا الذي

تقولون لنا. «أن تَصدُّونا عما كان يعبدُ آباؤنا»، يقول: إنما تُريدونَ أنْ تصرِفونا بقولكم عن عبادةِ ما كان يعبدُه من الأوثانِ آباؤنا. «فأتونا بسلطانٍ مبين»، يقول: فَأْتُونَا بحجةٍ على ما تَقولونَ، تُبين لنا حقيقتَهُ وصحتَهُ، فنعلم أنكم فيما تقولون محقُّون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قالتْ للأممِ التي أتتهم الرّسلُ رُسُلُهم: «إنْ نحنُ إلّا بشر مثلكم»، صدقتم في قولكم، إنْ أنتم إلا بشر مثلنا، فما نحنُ إلا بَشَرٌ من بني آدم، إنسٌ مثلكم. «ولكنَّ الله يَمُنُّ على مَنْ يشاء من عباده»، يقول: ولكن الله يتفضلُ على مَنْ يشاء من خَلْقِه، فيهديه ويوفقه للحقِّ، ويفضِّلُه على كثيرٍ من خلقه. «وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان»، يقول: وما كان لنا أن نأتيكم بحجةٍ وبرهانٍ على ما نَدْعُوكم إليه. «إلا بإذن الله»، يقول: إلا بأمرِ الله لنا بذلـك. «وعلى الله فليتـوكـل المؤمنون»، يقول: وبالله فليثق به مَنْ آمنَ به وأطاعَهُ، فإنّا به نَثِقُ، وعليه نتوكلُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ، مخبراً عن قِيل الرُّسل لأممها: «وما لنا أن لا نتوكلَ على الله»، فَنثِقَ به وبكفايته ودفاعِه إياكم عنَّا. «وقد هدانا سُبُلنا»، يقول: وقد بَصَّرنا طريقَ النجاةِ من عذابه، فَبَيَّنَ لنا. «ولنصبرنَّ على ما آذيتمونا»، في الله،

وعلى ما نَلْقَى منكم من المكروهِ فيه بسببِ دُعائنا لكم إلى ما نَدْعُوكم إليه، من البـراءةِ من الأوثان والأصنام، وإخلاص العبادة له. «وعلى الله فليتوكلِ المتوكلون»، يقول: وعلى الله فليتوكلْ مَنْ كان به واثقاً من خَلْقِه، فأما مَنْ كان به كافراً فإنَّ وليَّهُ الشيطان.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ عَزَّ ذِكْـرُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾

يقول عَزَّ ذِكْرُه: وقال الذين كفروا بالله لرسلهم الذين أُرسِلُوا إليهم، حين دَعَـوْهُمْ إلى توحيدِ الله وإخـلاصِ العبادةِ له، وفراقِ عبادةِ الآلهة والأوثانِ. «لنخـرجنَّكُمْ من أرضنـا»، يعنون: من بلادِنَا فنطردكم عنها. «أو لتعودُنَّ في مِلَّتنا»، يعنون: إلا أنْ تَعُودوا في ديننا الذي نحنُ عليه من عبادةِ الأصنام.

وقوله: «فأوحَى إليهم ربُّهم لنُهلكنَّ الظالمين»، الذين ظلموا أنفسهم، فأوجَبُـوا لها عقابَ الله بكفرهم. وقد يجوز أن يكونَ قِيلَ لهم «الظالمون»، لعبادتهم مَنْ لا تجوزُ عبادتُه من الأوثانِ والآلهة، فيكون بوضعهم العبادةَ في غيرِ موضعها، إذْ كان ظلماً، سُمُّوا بذلك.

وقوله: «ولَنُسْكِنَنَّكُمُ الأرضَ من بعدهم»، هذا وَعْدٌ من الله مَنْ وَعَدَ من أنبيائِـه النصـرَ على الكَفَرةِ به من قومه. يقول: لما تمادتْ أمَمُ الرسلِ في الكفر، وتوعدوا رسُلَهُمْ بالوقوعِ بهم، أوحى الله إليهم إهلاكَ مَنْ كَفَر بهم من أممهم، ووعدهم النصر. وكلُّ ذلك كان من الله وعيداً وتهدُّداً لمشركي قوم نبيِّنا محمدٍ ﷺ على كفرهم به، وجُرْأتهم على نبيهِ، وتثبيتاً لمحمدٍ ﷺ، وأمراً

له بالصبر على ما لقيَ من المكروهِ فيه من مشركي قومه، كما صبرَ مَنْ كانَ قَبْلَهُ من أولي العزمِ من رسله ـ ومُعرِّفَهُ أنَّ عاقبةَ أمرِ مَنْ كفرَ به الهلاكُ، وعاقبتَه النصرُ عليهم، سُنَّةُ الله في الذين خَلَوْا من قَبْلُ.

وقوله: «ذلك لمن خَافَ مَقامي وخافَ وَعِيدِ»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: هكذا فِعْلي لمن خافَ مَقامَه بين يديَّ، وخافَ وعيدي فاتَّقاني بطاعته، وتجنَّبَ سُخطي، أنصُرهُ على من أرادَ به سُوءاً وبَغَاه مكروهاً من أعدائي، أُهْلِكُ عدوَّهُ وأُخْزيه، وأورثه أرضَه وديارَه.

وقال: «لمن خافَ مَقَامي»، ومعناه ما قلت: من أنه لمن خافَ مَقامه بين يديَّ، بحيثُ أُقيمُه هنالك للحساب، كما قال: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]، معناه: وتجعلون رِزقي إياكم أنَّكم تكذبون. وذلك أنَّ العربَ تُضيف أفعالَها إلى أنفسها، وإلى ما أوقعت عليه، فتقول: «قد سُرِرتُ برؤيتكَ، وبرؤيتي إياكَ»، فكذلك ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: واستفتحتِ الرُّسلُ على قومها، أي استنصرتِ الله عليها. «وخاب كُلُّ جبارٍ عنيد»، يقول: هَلَكَ كُلُّ متكبرٍ جائرٍ حائدٍ عن الإقرارِ بتوحيدِ الله وإخلاصِ العبادة له.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ﴿١٧﴾﴾

يقول عَزَّ ذِكْرُه: «من ورائه»، من أمامِ كُلِّ جَبار «جهنم» يَرِدُونها.

و«وراء» في هذا الموضع، يعني: أمام، كما يقال: «إِنَّ الموت مِنْ ورائِكَ»، أي قُدَّامَكَ.

وقوله: «ويُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ»، يقول: ويُسْقَى من ماءٍ، ثم بَيَّنَ ذلك الماءَ جَلَّ ثناؤُهُ وما هو، فقال: هو «صديد»، وذلك رد «الصَّديد» في إعرابه على «الماء»، لأنه بيَانٌ عنه.

و«الصديد»، هو القَيْحُ والدم.

وقوله: «ومِنْ وَرائه عَذَابٌ غليظ»، يقول: ومن وراءِ ما هو فيه من العذاب ـ يعني أمامه وقدامه. «عذابٌ غليظٌ».

القَوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِهِ عزَّ ذِكْرُه: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ١٨﴾

هذا مَثَلٌ ضَرَبَهُ الله لأعمالِ الكفَّارِ فقال: مَثَلُ أعمالِ الذين كفروا يومَ القيامة، التي كانوا يعملونها في الدنيا يزعمُون أنهم يريدونَ الله بها، مَثَلُ رمادٍ عَصَفَتِ الريحُ به في يوم ريحٍ عاصفٍ، فنسفته وذهبتْ به، فكذلك أعمالُ أهلِ الكفر به يومَ القيامة، لا يجدون منها شيئاً ينفعهم عندَ الله فينجيهم من عذابِهِ، لأنهم لم يكونوا يَعْملونها لله خالصاً، بَلْ كانوا يشركون فيها الأوثانَ والأصنام.

يقول الله عزَّ وجلَّ: «ذلك هو الضلالُ البعيد»، يعني أعمالهم التي كانوا يعملونها في الدنيا، التي يشركون فيها مع الله شركاء، هي أعمالٌ عملت على

غيرِ هُدًى واستقامة، بل على جَوْرٍ عن الهُدَى بعيد، وأخذٍ على غيرِ استقامةٍ شديد.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾

يقول عَزَّ ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ألم تَرَ، يا محمدُ، بعينِ قلبكَ، فتعلم أنَّ الله أنشأ السمواتِ والأرض بالحقِّ منفرداً بإنشائها بغيرِ ظهيرٍ ولا مُعين. «إنْ يشأ يُذْهِبْكُمْ ويأْتِ بخلقٍ جديد»، يقول: إنَّ الذي تَفَرَّدَ بخلقِ ذلك وإنشائِه من غيرِ معينٍ ولا شريكٍ، إنْ هُوَ شاءَ أنْ يُذْهِبَكُمْ فيفنيكم، أَذْهَبَكُمْ وأفناكم، ويأت بخلقٍ آخرَ سِواكم مكانكم فيجدِّد خَلْقَهُمْ. «وما ذلك على الله بعزيز»، يقـول: ومـا إذهـابُكُمْ وإفناؤكم وإنشاء خَلْقٍ آخر سواكم مكانَكُم، على الله بِمُمْتَنعٍ ولا متعذِّرٍ، لأنه القادرُ على ما يشاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَٰٓؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ قَالُوا لَوْ هَدَىٰنَا اللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «وبرزوا لله جميعاً»، وظهرَ هؤلاء الذين كفروا به يومَ القيامةِ من قبورهم، فصاروا بالبَراز من الأرض. «جميعاً»، يعني كلَّهم «فقـال الضعفاء للذين استكبروا»، يقول: فقال التُّبَّاعُ منهم للمتبوعينَ، وهم

الذين كانوا يستكبرونَ في الدنيا عن إخلاصِ العبادةِ لله واتباعِ الرُّسُلِ الذين أُرسِلُوا إليهم. «إنَّا كنا لكم تَبعاً»، في الدنيا.

وإنما عنوا بقولهم: «إنَّا كنا لكم تبعاً»، أنهم كانوا أتباعَهُمْ في الدنيا يأتمرونَ لما يأمرونَهُمْ به من عبادةِ الأوثانِ والكفرِ بالله، وينتهونَ عما نَهَوْهُمْ عنه من اتِّباعِ رُسُلِ الله. «فهل أنتم مُغْنُونَ عَنَّا من عذابِ الله من شيء»، يعنون: فهل أنتم دافعونَ عَنَّا اليومَ من عذابِ الله من شيء.

وقوله: «لو هدانا الله لهديناكم»، يقول عَزَّ ذِكْرُه: قالت القادةُ على الكفرِ بالله لتُبَّاعِها: «لو هدانا الله»، يعنون: لو بَيَّنَ الله لنا شيئاً ندفع به عَذَابَه عنا اليوم. «لهديناكم»، لبيَّنا ذلك لكم حتى تَدْفَعُوا العذابَ عن أنفسِكم، ولكنَّا قد جزعنا مِن العذاب، فلم ينفعنا جَزَعُنَا منه وصَبْرُنا عليه. «سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص»، يعنون: ما لهم من مَراغٍ يَرُوغُونَ عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وقال إبليس، «لما قُضِيَ الأمرُ»، يعني لما أُدْخِلَ أهلُ الجنة الجنةَ وأهل النارِ النارَ، واستقرَّ بكل فريقٍ منهم قرارهم، أنَّ الله وَعَدَكُمْ، أيها الأتباعُ، النارَ، ووعدتُكم النُّصْرةَ، فأخلفتُكُمْ وعدي، ووفى الله لكم بوعده. «وما كان لي عليكم من سلطان»، يقول: وما كان لي عليكم، فيما وعدتُكُمْ من النُّصْرَةِ، من حجةٍ تثبتُ لي عليكم بصدقِ قولي: «إلا أنْ دعوتكم». وهذا

من الاستثناء المنقطع عن الأول، كما تقول: «ما ضربْتُه إلا أنه أحمق»، معناه: ولكن دَعَوْتُكم فاستجبْتُمْ لي. يقول: إلَّا أنْ دعوتكم إلى طاعتي ومعصيةِ الله، فاستجبتم لدعـائي. «فلا تلوموني»، على إجابتكم إيايَ. «ولُومُوا أنفسكم»، عليها،. « ما أنا بمُصْرِخِكم»، يقول: ما أنا بمُغِيثِكم. «وما أنتم بمصرخِيَّ»، ولا أنتم بمُغيثِيَّ مِنْ عذابِ الله فمُنْجِيَّ منه. «إني كفرتُ بما أشركتموني من قَبْـلُ»، يقـول: إني جَحـدْتُ أنْ أكـون شريكـاً لله فيما أشركتموني فيه من عبادتكم. «مِنْ قَبْلُ»، في الدنيا. «إن الظالمين لهم عذاب أليم»، يقول: إنَّ الكافرينَ بالله لهم عذاب. «أليم»، من الله موجِع.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ عَزَّ ذِكْـرُه: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

يقول عَزَّ ذِكْرُه: وأُدخِلَ الذين صَدَّقُوا الله ورسولَهُ، فأقَرُّوا بوحدانيةِ الله وبـرسـالة رُسلِه، وأنَّ ما جاءتْ به من عندِ الله حق. «وعملوا الصالحات»، يقول: وعملوا بطاعةِ الله، فانتهوا إلى أمرِ الله ونهيِهِ. «جنَّات تجري من تحتها الأنهار»، بساتين تجري من تحتها الأنهار. «خالدين فيها»، يقول: ماكِثينَ فيها أبـداً. «بإذن ربهم»، يقول: أُدْخِلُوها بأمر الله لهم بالدخولِ. «تحيتهم فيها سلامٌ»، وذلك إنْ شاء الله: الملائكةُ يُسَلِّمون عليهم في الجنة.

وقوله: «ألم تر كيف ضربَ الله مَثلاً كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبة»، يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيِّه محمدٍ ﷺ: ألم تَرَ، يا محمدُ، بعينِ قلبكَ، فتعلم كيف مَثَّلَ الله مَثَلاً وشبَّه شبَهاً. «كلمة طيبة»، ويعني بالطيبةِ الإيمانَ به جَلَّ ثناؤُهُ، كشجرةٍ

طَيّبةِ الثمرةِ، وتركَ ذِكْرَ «الثمرة» استغناءً بمعرفةِ السَّامعين عن ذِكْرِها بذكرِ «الشَّجرة». وقوله: «أصْلُهَا ثابتٌ وفرعها في السماء»، يقول عزَّ ذِكْرُه: أصلُ هذه الشجرةِ ثابتٌ في الأرض. «وفرعها»، وهو أعلاها في «السماء»، يقول: مرتفعٌ عُلوًّا نحوَ السماء. وقوله: «تؤتي أكُلَها كل حينٍ بإذنِ رَبِّها»، يقول: تُطْعِمُ ما يُؤكَلُ منها مِنْ ثمرها كُلَّ حينٍ بأمرِ ربها. «ويضربُ الله الأمثالَ للناس»، يقول: ويُمَثِّلُ الله الأمثالَ للناس، ويشبِّهُ لهم الأشباه. «لعلهم يتذكرون»، يقول: ليتذكروا حُجَّةَ الله عليهم، فيعتبروا بها ويتعِظوا، فينزجروا عما هُمْ عليه من الكفر به إلى الإيمان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ۝٢٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومثل الشِّرْكِ بالله، وهي «الكلمةُ الخبيثة»، «كشجرةٍ خبيثة»، قال أكثرهم: هي الحَنْظل.

وقوله: «اجْتُثَّتْ من فوقِ الأرض»، يقول: استُؤْصِلتْ. يقال منه: «اجتثثتُ الشيءَ، أجْتَثُّه اجتثاثاً». إذا استأصلته.

«ما لها من قرار»، يقول: ما لهذه الشجرةِ من قَرارٍ ولا أصلٍ في الأرضِ تثْبُت عليه وتقوم. وإنما ضُربت هذه الشجرةُ التي وصَفها الله بهذه الصِفَةِ لكُفرِ الكافرِ وشِرْكِه به مثلاً. يقول: ليس لكُفْرِ الكافرِ وعَمله الذي هو معصيةُ الله في الأرض ثَباتٌ، ولا لَهُ في السماء مَصْعَدٌ، لأنه لا يَصْعَد إلى الله منه شيء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۝٢٧﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «يثبتُ الله الذين آمنوا»، يحقق الله أعمالَهم وإيمانهم. «بالقولِ الثابت»، يقول: بالقولِ الحقِّ، وهو فيما قيل: شهادة أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله.

وأما قوله: «في الحياة الدنيا»، فإنَّ أهلَ التأويل اختلفُوا فيه.

فقال بعضهم: عَنَى بذلك أنَّ الله يُثَبِّتُهُمْ في قبورهم قبلَ قيامِ الساعة.

وقال آخرون: معنى ذلك: يثبتُ الله الذين آمنوا بالإيمانِ في الحياة الدنيا، وهو «القول الثابت». «وفي الآخرة»، المسألةُ في القبر.

والصوابُ من القولِ في ذلك ما ثَبَتَ به الخبرُ عن رسولِ الله ﷺ في ذلك[1]، وهو أنَّ معناه: «يثبتُ الله الذين آمنوا بالقولِ الثابتِ في الحياةِ الدنيا»، وذلك تثبيته إياهم في الحياةِ الدنيا بالإيمانِ بالله وبرسوله محمد ﷺ. «وفي الآخرة»، بمثلِ الذي ثبَّتهم به في الحياة الدنيا، وذلك في قبورهم حين يُسْألون عن الذي هُمْ عليه من التوحيدِ والإيمانِ برسولِه ﷺ.

وأما قوله: «ويُضِلُّ الله الظالمين»، فإنه يعني: أنَّ الله لا يوفِّق المنافقَ والكافرَ في الحياةِ الدنيا وفي الآخرة عند المُسَاءَلة في القبر، لِمَا هَدَى له المؤمنَ من الإيمان بالله ورسولِه ﷺ.

وقوله: «ويفعلُ الله ما يشاء»، يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: وبيدِ الله الهدايةُ والإضلالُ، فلا تُنْكِرُوا، أيها الناسُ، قُدْرَتَهُ، ولا اهتداءَ مَنْ كان منكم ضالاً، ولا ضلالَ مَنْ كان منكم مهتدياً، فإنَّ بيدهِ تصريفَ خَلْقِه وتقليبَ قُلوبِهم، يفعلُ فيهم ما يشاء.

---

(١) لحديث البراء بن عازب في عذاب القبر الذي ساقه المؤلف بأربعة عشر إسناداً في هذا الموضع، وهو في الصحيحين: البخاري (١٣٦٩) و(٤٦٩٩)، ومسلم (٢٨٧١).

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ۝٢٨ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ۝٢٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ألم تنظُرْ يا محمدُ «إلى الذين بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً»، يقول: غَيَّرُوا ما أنعمَ اللهُ به عليهم من نِعَمِه، فجعلوها كُفْراً به، وكان تبديلُهم نعمةَ الله كُفْراً في نبيِّ الله محمدٍ ﷺ، أنعمَ اللهُ به على قريش، فأخرجَهُ منهم، وابتعثَهُ فيهم رسولاً رحمةً لهم، ونعمةً منه عليهم، فكفروا به، وكذَّبُوه، فبدَّلُوا نعمةَ الله عليهم به كفراً.

وقوله: «وأحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ البَوَارِ» يقول: وأنزلوا قومهم من مُشْركي قريش دارَ البوار، وهي دار الهلاك.

ثم ترجمَ عن دارِ البوار، وما هي؟ فقيل: «جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وبِئْسَ القَرَارِ» يقول: وبئس المستقرّ هي جهنمُ لمن صلاها.

القَــوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٣٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وجعلَ هؤلاء الذين بدَّلُوا نعمةَ الله كفراً لربهم أنداداً، وهي جماع نِدٍّ، وقد بيَّنتُ معنى النِّدِّ، فيما مضى بما أغْنَى عن إعادته، وإنما أراد أنهم جعلوا لله شركاء.

وقوله: «لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ» اختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك.

فقرأته عامَّة قَرَأَةِ الكوفيين «لِيُضِلُّوا» بمعنى: كي يضلوا الناسَ عن سبيلِ الله بما فعلوا من ذلك.

وقرأته عامة قَرَأة أهل البصرة «لِيَضِلُّوا» بمعنى: كي يَضِلَّ جاعلُو الأندادِ لله عن سبيلِ الله.

وقوله: «قُل تَمَتَّعُوا» يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يامحمدُ لهم: تمتعوا في الحياة الدنيا وَعِيداً من الله لهم، لا إباحَةً لهم التمتع بها، ولا أمراً على وجهِ العبادةِ، ولكنْ توبيخاً وتهدداً ووعيداً، وقد بَيَّنَ ذلك بقوله: «فإنَّ مَصِيرَكُمْ إلى النَّارِ» يقول: استمتِعُوا في الحياةِ الدنيا، فإنها سريعةُ الزوالِ عنكم، وإلى النار تَصِيرُونَ عن قريب، فتعلمونَ هنالك غبَّ تَمَتُّعِكُمْ في الدنيا بمعاصي الله وكفركم فيها به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ «قُلْ» يا محمد «لِعبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا» بكَ، وصدَّقُوا أنَّ ما جئتهم به من عندي «يُقيمُوا الصَّلاةَ»، يقول: قل لهم: فَلْيُقِيمُوا الصلواتِ الخمس المفروضةَ عليهم بحدودها، ولينفقوا مما رزقناهم، فَخَوَّلْناهم من فَضْلِنا سِرّاً وعلانيةً، فليؤدُّوا ما أوجبتُ عليهم من الحقوقِ فيها سرّاً وإعلاناً «مِنْ قَبْلِ أنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ»، يقول: لا يُقْبَلُ فيه فِدية وعِوَضٌ من نَفْسٍ وَجَبَ عليها عقابُ الله بما كان منها من معصيةِ رَبِّها في الدنيا، فيقبل منها الفدية، وتترك فلا تعاقب، فَسَمَّى الله جلَّ ثناؤه الفِديةَ عِوَضاً، إذْ كان أخذ عوض من معتاضٍ منه.

وقوله: «وَلا خِلالٌ»، يقول: وليس هناك مخالةُ خليلٍ، فيصفحُ عَمَّن استوجبَ العقوبةَ عن العقابِ لمخالَّتهِ، بل هنالك العدلُ والقسط.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الله الذي أنشأ السمواتِ والأرضِ من غير شيء أيها الناسُ، وأنزل من السماء غيثاً أحيا به الشجرَ والزرعَ، فأثمرتْ رزقاً لكم تأكلونَه «وسَخَّرَ لَكُمُ الفُلْكَ» وهي السفن «لِتَجْرِيَ في البَحْرِ بأمْرِهِ» لكم تركبونها، وتحملونَ فيها أمتعتكم من بلدٍ إلى بلد. «وسَخَّرَ لَكُمُ الأنهارَ» ماؤُها شرابٌ لكم، يقول تعالى ذِكْرُه: الذي يستحقُّ عليكم العبادةَ وإخلاصَ الطاعة له، مَنْ هذه صِفَتُهُ، لا مَنْ لا يقدرُ على ضرٍّ ولا نفعٍ لنفسه ولا لغيرِه من أوثانِكم أيها المشركونَ وآلهتِكُمْ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «اللهُ الذي خلقَ السمواتِ وَالأرْضَ»، وفعلَ الأفعالَ التي وصف، «وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ والقَمَرَ» يتعاقبان عليكم أيها الناسُ بالليلِ والنهار، لصلاحِ أنفسِكم ومعاشِكم «دَائِبَيْنِ» في اختلافهما عليكم. وقيل: معناه: أنهما دائبانِ في طاعة الله.

وقوله: «وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ والنَّهارَ» يختلفانِ عليكم باعتقابٍ، إذا ذهبَ هذا جاءَ هذا بمنافِعكم وصلاحِ أسبابكم، فهذا لكم لِتَصَرُّفِكُمْ فيه لمعاشِكم، وهذا لكم للسَّكنِ، تسكنونَ فيه، ورحمةٌ منه بكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأعطاكم مع إنعامهِ عليكم بما أنعمَ به عليكم من تسخيرِ هذه الأشياء التي سخرها لكم والرزق الذي رزقكم من نباتِ الأرض وغروسها من كلِّ شيءٍ سألتموه، ورغبتم إليه شيئاً.

وقوله تعالى: «وَإِنْ تَعُدّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها، إنَّ الإنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ»: يقول تعالى ذكره: وإنْ تعدّوا أيها الناس نعمةَ الله التي أنعمها عليكم لا تُطِيقُوا إحصاءَ عَدَدِهَا والقيام بشكرها إلا بعونِ الله لكم عليها «إنَّ الإنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ»، يقول: إنَّ الإنسانَ الذي بَدَّلَ نعمةَ الله كُفْراً لظلومٌ: يقول: لشاكر غيرَ مَن أنعمَ عليه، فهو بذلك من فِعْلِه واضعُ الشُّكْرَ في غيرِ مَوْضِعه، وذلك أنَّ الله هو الذي أنعمَ عليه بما أنعمَ، واستحقَّ عليه إخلاصَ العبادةِ له فَعَبَدَ غيرَهُ، وجعلَ له أنداداً لِيُضِلَّ عن سبيله، وذلك هو ظلمه.

وقوله: «كَفَّارٌ»، يقول: هو جُحُودُ نعمةِ الله التي أنعمَ بها عليه لِصَرْفِهِ العبادةَ إلى غيرِ مَنْ أنعمَ عليه، وتَرْكِه طاعةَ مَنْ أنعم عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: واذكُرْ يا محمد «إذْ قالَ إبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا البَلَدَ آمِنا» يعني الحَرَمَ، بلداً آمناً أهلُه وسكانه «وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أنْ نَعْبُدَ الأصنامَ»،

يقول: أبعِدْني وبَنِيَّ من عبادةِ الأصنام، والأصنام: جمع صَنَم، والصَّنَم: هو التمثالُ المصوّر.

وقوله: «رَبِّ إنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ»، يقول: ياربِّ إنَّ الأصنامَ أضللن: يقول: أَزْلَلْنَ كثيراً من الناسِ عن طريقِ الهُدَى وسبيلِ الحقِّ حتى عَبَدُوهُنَّ، وكفروا بك.

وقوله: «فَمَنْ تَبِعَنِي فإنَّهُ مِنِّي» يقول: فمن تبعني على ما أنا عليه من الإيمانِ بكَ وإخلاصِ العبادة لك، وفراقِ عبادةِ الأوثان، فإنه مني: يقول: فإنه مُسْتَنٌّ بِسُنَّتِي، وعاملٌ بمثلِ عملي، «وَمَنْ عَصَانِي فإنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»، يقول: ومَنْ خالفَ أمري فلم يقبلْ مني مادعوتهُ إليه، وأشركَ بكَ، فإنك غفورٌ لذنوبِ المذنبينَ الخَطَّائينَ بفضلكَ، رحيمٌ بعبادكَ تَعْفُو عَمَّنْ تشاء منهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾

وقال إبراهيمُ خليلُ الرحمن هذا القولَ حين أسكنَ إسماعيلَ وأُمَّهُ هاجَرَ - فيما ذُكِر - مكةَ.

فتـأويلُ الكـلام إذن: ربنـا إني أسكنتُ بعضَ وَلَدي بوادٍ غير ذي زَرْعٍ، وفي قوله ﷺ دليلٌ على أنه لم يكن هنالك يومئذٍ ماءٌ، لأنه لو كان هنالك ماءٌ لم يصفه بأنه غير ذي زرع، عند بيتكَ الذي حَرَّمْتَهُ على جميعِ خَلْقِكَ أنْ يستحلوه.

وقـولـه: «المُحَـرَّمِ» معنـاه: المحـرّم من استحلالِ حُرُماتِ الله فيه، والاستخفاف بحقه.

وقوله: «رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصلاةَ»، يقول: فعلت ذلك يا ربنا كي تُؤدَّى فرائضُكَ من الصلاةِ التي أَوْجَبْتَهَا عليهم في بيتك المحرّم.

وقوله: «فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيهِمْ»، يخبر بذلك تعالى ذِكْرُه عن خليله إبراهيم أنه سألَهُ في دُعائِه أن يجعلَ قلوبَ بعضِ خَلْقه تنزعُ إلى مساكن ذُريته الذين أسكنَهُم بوادٍ غير ذي زرع عند بيته المُحَرَّم، وذلك منه دعاءٌ لهم بأن يرزقهم حَجَّ بيته الحرام.

وقوله: «وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وارزقهم من ثمراتِ النباتِ والأشجار مارزقتَ سكانَ الأريافِ والقُرى التي هي ذوات المياه والأنهار، وإنْ كنتَ أسكنتَهُم وادياً غيرَ ذي زرعٍ ولا ماء، فَرَزَقهم جلَّ ثناؤه ذلك.

وقوله: «لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ»، يقول: ليشكروكَ على مارزقتهم وتنعم به عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن استشهادِ خليله إبراهيم إياهُ على مانوى وقَصَدَ بدعائِهِ وقيلِهِ «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا البَلَدَ آمِنا وَاجْنُبْني وَبنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنامُ»... الآية، وأنه إنما قصدَ بذلك رضا الله عنه في محبته أنْ يكونَ وَلَدُه من أهلِ الطاعةِ لله، وإخلاصِ العبادة له على مِثْلِ الذي هو له، فقال: ربنا إنك تعلمُ ماتخفي قلوبُنا عند مسألتنا ما نسألكَ، وفي غير ذلك من أحوالِنا، وما نعلنُ من دعائنا، فنجهرُ به وغير ذلك من أعمالنا، وما يَخْفَى عليكَ يا ربنا من شيءٍ يكونُ في الأرض ولا في السماء، لأن ذلك كله ظاهرٌ لكَ متجلٍّ بادٍ، لأنك مُدَبِّرُهُ وخالقه، فكيف يَخْفَى عليك؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾

يقول: الحمد لله الذي رزقني على كِبَرٍ من السِنِّ ولداً إسماعيل وإسحاق. «إنَّ رَبِّي لسميعُ الدُّعاءِ»، يقول: إن ربي لسميعٌ دعائي الذي أدعوه به، وقولي: «اجْعَلْ هَذَا البَلَدَ آمِنا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أنْ نَعْبُدَ الأصْنامَ»، وغير ذلك من دعائي ودعاء غيري، وجميع مانطقَ به ناطقٌ لا يخفى عليه منه شيء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾

يقول: ربِّ اجعلْني مؤدِّياً ما ألْزَمْتَني من فريضتك التي فرضتها عليَّ من الصلاة «وَمِنْ ذُرِّيَّتِي»، يقول: واجعل أيضاً من ذرِّيتي مُقِيمي الصلاة لك «رَبَّنا وتَقَبَّلْ دُعاءِ»، يقول: ربنا وتقبل عملي الذي أعمله لك، وعبادتي إياك، وهذا نظير الخبر الذي رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّ الدُّعاءَ هُوَ العبادَةُ، ثم قرأ: «وقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أسْتَجِبْ لَكُمْ، إنَّ الذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ»[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ

(١) حديث صحيح من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه أخرجه ابن أبي شيبة ١٠/٢٠٠، وأحمد: ٤/٢٦٧ و٢٧١، ٢٧٦، والترمذي (٣٢٤٧) و(٣٣٧٢)، والطيالسي (٨٠١)، وأبو داود (١٤٧٩)، وابن ماجة (٣٨٢٨)، والنسائي في الكبرى ٩/٣٠، وابن حبان (٨٩٠)، والبغوي في شرح السنة (١٣٨٤) والحاكم: ١/٤٩٠ ـ ٤٩١ وغيرهم.

﴿ٱلْحِسَابُ ۝٤١﴾

وهذا دعاء من إبراهيم صلواتُ الله عليه لوالديه بالمغفرة، واستغفار منه لهما، وقد أخبر الله عَزَّ ذكره أنه لم يكن «اسْتِغْفارُ إبْراهِيمَ لأبِيهِ إلاّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إيّاهُ، فَلَمّا تَبَيَّنَ لَهُ أنَّهُ عَدُوٌّ لله تَبَرَّأَ مِنْهُ، إنَّ إبْراهِيمَ لأوّاهٌ حَلِيمٌ».

وقد بيَّنا وقت تبرئهِ منه فيما مضى، بما أغنى عن إعادته.

وقوله: «ولِلْمُؤْمِنِينَ»، يقول: وللمؤمنين بكَ ممن تبعني على الدين الذي أنا عليه، فأطاعكَ في أمرك ونَهْيك.

وقوله: «يَوْمَ يَقُومُ الحِسابُ»، يعني: يقومُ الناسُ للحساب، فاكتفى بذكر الحسابِ من ذكر الناس، إذْ كان مفهوماً معناه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ۝٤٢ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ۝٤٣﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: «وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ» يا محمدُ «غافِلاً» ساهياً «عَمّا يَعْمَلُ» هؤلاء المشركون من قومكَ، بل هو عالمٌ بهم وبأعمالهم مُحْصِيهَا عليهم، ليجزيهم جزاءَهم في الحين الذي قد سَبَقَ في عِلْمِه أنه يجزيهم فيه.

وقوله تعالى: « إنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأبصار»، يقول: إنما يُؤَخِّرُ ربك يا محمد هؤلاء الظالمين الذين يُكَذِّبُونك، ويَجْحَدُونَ نُبوَّتَك، ليوم تَشْخَصُ فيه الأبصار. يقول: إنما يؤخِّرُ عِقَابهم، وإنزالَ العذابِ بهم، إلى يومٍ تشخصُ فيه أبصارُ الخَلْقِ، وذلك يوم القيامة.

وأما قوله: «مُهْطِعِينَ» فإنَّ أهل التأويل اختلفوا في معناه:

فقال بعضهم: معناه: مُسرعين.

وقال آخرون: معنى ذلك: مُدِيمي النظر.

وقال آخرون: معنى ذلك: لا يرفعُ رأسَهُ.

وقوله: «لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ»، يقول: لا ترجع إليهم لشدَّةِ النظر أبصارُهم.

وقوله: «وأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ»، اختلف أهل التأويل في تأويله.

فقال بعضهم: معناه: متخرِّقَةٌ لا تعي من الخير شيئاً.

وقال آخرون: إنها لا تستقرُّ في مكانٍ تردّد في أجوافهم.

وقال آخرون: معنى ذلك: أنها خرجت من أماكنها فنشبت بالحُلوق.

وأوْلى هذه الأقوال عندي بالصواب في تأويل ذلك قول من قال: معناه: أنها خالية ليسَ فيها شيءٌ من الخير، ولا تعقل شيئاً، وذلك أنَّ العربَ تسمي كُلَّ أجوف خاوٍ: هواء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى ذكره: وأنذر يا محمدُ الناسَ الذين أرسلتكَ إليهم داعياً إلى الإسلام ماهو نازلٌ بهم، يومَ يأتيهم عذابُ الله في القيامة، «فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا»، يقول: فيقول الذين كفروا بربهم، فظلموا بذلك أنفسهم: «رَبَّنا

أَخِّرْنا»: أي أخِّرْ عنا عذابكَ، وأمْهِلْنَا «إلى أجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ» الحقَّ، فنؤمن بك، ولا نشـرك بكَ شيئـاً «وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ»، يقولون: ونصدِّق رُسُلَكَ فنتبعهم على ما دَعَوْتَنَا إليه من طاعتكَ واتباعِ أمرك.

وقوله تعالى: «أوَ لمْ تَكُونُوا أقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مالَكُمْ مِنْ زَوَالٍ»: تَقرِيعٌ من الله تعالى ذِكْرُه للمشركينَ من قريش، بعد أنْ دخلوا النارَ بإنكارهم في الدنيا البعثَ بعد الموتِ، يقول لهم: إذْ سألوهُ رَفْعَ العذابِ عنهم، وتأخيرهم لِيُنِيبوا ويتوبوا: «أوَ لمْ تَكُونُوا» في الدنيا، «أقْسَمْتُمْ منْ قَبْلُ مالَكُمْ منْ زَوَالٍ»، يقول: مالكم من انتقالٍ من الدنيا إلى الآخرة، وإنكم إنما تَموتون، ثم لا تُبْعَثُون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ۝٤٥﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: وسكنتم في الدنيا في مساكن الذين كفروا بالله، فظلموا بذلك أنفسهم من الأمم التي كانت قبلكم، وتَبَيَّنَ لكم كيف فعلنا بهم، يقـول: وعَلمتم كيف أهلكنـاهم حين عَتَوْا على رَبِّهم، وتمادوا في طغيانهم وكفرهم. «وَضَرَبْنا لَكُمُ الأمْثالَ»، يقول: ومَثَّلْنَا لكم فيما كنتم عليه من الشركِ بالله مقيمينَ الأشباه، فلم تُنِيبوا ولم تتوبوا من كفركم، فالآن تَسألونَ التأخيرَ للتوبةِ حين نزلَ بكم ما قد نزلَ بكم من العذابِ، إنَّ ذلك لغيرُ كائنٍ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ۝٤٦﴾

يقـول تعالى ذكره: قد مَكَرَ هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم، فسكنتم من بعدهم في مساكنهم، مكرهم.

ومعنى الكلام: وقد أشركَ الذين ظلموا أنفسهم بربِّهم، وافتروا عليه فِرْيَتَهُمْ عليه، وعند الله عِلْمُ شِرْكِهم به وافترائهم عليه، وهو مُعَاقِبُهم على ذلك عقوبتهم التي هم أَهْلُهَا، وما كان شِرْكُهم وفريتهم على الله، لتزول منه الجبال، بل ماضَرُّوا بذلك إلا أنفسهم، ولا عادتْ بغية مكرُوهِهِ إلا عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «فَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ» الذي وعدهم مَنْ كذَّبهم، وجَحَدَ ما أتوْهم به من عنده. وإنما قاله تعالى ذِكْرُه لنبيه تثبيتاً وتشديداً لعزيمته، ومُعَرِّفَهُ أنه مُنْزِلٌ من سَخَطِهِ بمن كذَّبَهُ وجَحَدَ نبوَّتَهُ، وردَّ عليه ما أتاهُ به من عند الله، مثال ماأنـزلَ بمَنْ سلكوا سبيلَهم من الأمم الذين كانوا قبلهم على مثل منهاجِهم من تكذيبِ رُسُلِهم، وجحودِ نبوّتهم، وردِّ ما جاءوهم به من عند الله عليهم.

وقوله: «إنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ»، يعني بقوله: «إنَّ اللهَ عَزِيزٌ»: لا يمتنعُ منه شيءٌ أراد عقوبته، قادر على كل من طلبه، لا يفوتُه بالهَرَبِ منه. «ذُو انْتِقامٍ» مِمَّنْ كفَرَ برسله وكذَّبهم، وجحد نبوتهم، وأشركَ به واتخذ معه إلهاً غيره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الله ذو انتقامٍ، «يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرْضُ غيرَ الأرْضِ والسَّمَوَاتُ»، من مشركي قومكَ يا محمدُ من قريش، وسائر مَنْ كفرَ بالله وجحدَ

نبوّتك ونبوَّةَ رسله من قبلك، فيوم من صِلَةِ الانتقام.

واخْتُلِفَ في معنى قوله: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غيرَ الأَرْضِ».

فقال بعضهم: معنى ذلك: يومَ تُبَدَّلُ الأرضُ التي عليها الناسُ اليومَ في دار الدنيا غير هذه الأرض، فتصير أرضاً بيضاء كالفضة.

وقال آخرون: تبدّل ناراً.

وقال آخرون: بل تُبَدَّلُ الأرضُ أرضاً من فضة.

وقال آخرون: يُبَدِّلُهَا خبزة.

وقال آخرون: تبدَّلُ الأرضُ غير الأرض.

وأوْلى الأقوال في ذلك بالصواب، قول مَنْ قال: معناه: يوم تُبَدَّلُ الأرضُ التي نحنُ عليها اليوم يومَ القيامة غيرَها، وكذلك السمواتُ اليوم تُبدَّلُ غيرَها، كما قال جلَّ ثناؤه؛ وجائزٌ أنْ تكون المُبَدَّلة أرضاً أخرى من فضة، وجائزٌ أنْ تكون ناراً، وجائز أن تكون خبزاً، وجائز أن تكون غير ذلك، ولا خبرَ في ذلك عندنا من الوجهِ الذي يجبُ التسليم له أيّ ذلك يكون، فلا قولَ في ذلك يصحُّ إلا ما دلَّ عليه ظاهرُ التنزيل.

وقوله: «وَبَرَزُوا للهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ»، يقول: وظهروا لله المُنْفَرِدِ بالربوبيةِ، الذي يقهرُ كلَّ شيء فيغلبه ويصرفه لما يشاءُ كيفَ يشاءُ، فيحيي خَلْقَهُ إذا شاء، ويُميتهم إذا شاء، لا يغلبهُ شيء، ولا يَقْهَرُه بَعْثُهم من قبورهم أحياء لموقفِ القيامة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ

﴿ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾

يقول تعالى ذكره: وتُعَاينُ الذين كفروا بالله، فاجترموا في الدنيا الشركَ يومئذٍ، يعني: يوم تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرض والسموات. «مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفادِ»، يقـول: مُقَـرَّنـة أيديهم وأرجلهم إلى رِقابِهم بالأصفادِ، وهي الوثاقُ من غلٍّ وسلسلة، واحـدهـا: صَفَـد، يقال منه: صفدتُه في الصَّفَد صَفْداً وصِفاداً، والصفاد: القيد.

وقوله: «سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطرانٍ»، يقول: قُمُصُهم التي يلبسونها، واحدها: سربال.

وقـوله: «وتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ»، يقول: وتلفَحُ وجوههم النار فتحرقها «لِيَجْزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ ماكَسَبَتْ» يقول: فعلَ اللهُ ذلك بهم جزاء لهم بما كسبوا من الآثام في الدنيا، كيما يُثيب كلَّ نَفْسٍ بما كسبت من خيرٍ وشرٍّ، فيَجْزِي المحسنَ بإحسانهِ، والمسيءَ بإساءته «إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسابِ»، يقول: إنَّ الله عالمٌ بعمـلِ كلِّ عاملٍ، فلا يحتاجُ في إحصاء أعمالهم إلى عقدِ كَفٍّ ولا معاناةٍ، وهو سريعٌ حسابُه لأعمالهم، قد أحاط بها عِلْماً، لا يعزبُ عنه منها شيءٌ، وهو مُجازِيهم على جميع ذلك صغيرهِ وكبيرهِ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعالَى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾

يقول تعالى ذكره: هذا القرآنُ بلاغٌ للناس، أبلغَ اللهُ به إليهم في الحجةِ عليهم، وأعْذَرَ إليهم بما أنزلَ فيه من مواعظهِ وعِبره، «وَلِيُنْذَرُوا بِهِ»، يقول: ولينذَرُوا عقابَ الله، ويَحْذَرُوا به نقماته، أنزله إلى نبيه ﷺ، «وَلِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إلهٌ وَاحِدٌ»، يقول: وليعلموا بما احتجَّ به عليهم من الحججِ فيه أنَّما هو إلهٌ

واحد، لا آلهةٌ شَتَّى، كما يقوله المشركون بالله، وأن لا إله إلا هو الذي له ما في السمـواتِ ومـا في الأرض، الذي سخر لهم الشمسَ والقمرَ، والليلَ والنهار، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لهم. وسخر لهم الفُلكَ لتجريَ في البحرِ بأمره، وسخر لهم الأنهار، «وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ»، يقول: وليتذكَّرَ فيتَّعِظَ بما احتجَّ اللهُ به عليه من حججه التي في هذا القرآن، فينزجر عن أن يجعل معه إلهاً غيره، ويُشْرِكَ في عبادته شيئاً سواه أهلُ الحِجى والعقول، فإنهم أهلُ الاعتبار والادِّكارِ، دونَ الذين لا عقولَ لهم ولا أفهامَ، فإنهم كالأنعامِ بَلْ هم أضلُّ سبيلا.

سُورَةُ الحِجرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١﴾

أما قوله جَلَّ ثناؤه، وتقدّست أسماؤه «الٓر»، فقد تقدم بيانها فيما مضى قبل[1].

وأما قوله: «تِلْكَ آياتُ الكِتابِ» فإنه يعني: هذه الآيات، آيات الكُتُبِ التي كانت قَبْلَ القرآنِ كالتوراةِ والإنجيل «وقُرآنٍ»، يقول: وآيات قرآن «مُبينٍ»، يقول: يُبين مَنْ تأمله وتدبَّره رشدَه وهداه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾

تأويل الكلام: ربما يودُّ الذين كفروا بالله فجحدوا وحدانيتَهُ لو كانوا في دار الدنيا مسلمين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾

---

(١) أنظر أول تفسير سورة البقرة.

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ذَرْ يا محمدُ هؤلاء المشركين يأكلوا في هذه الدنيا ماهم آكِلُوه، ويتمتعوا من لَذَّاتِها وشهواتِهم فيها إلى أجلهم الذي أجلت لهم، ويُلْهِهم الأملُ عن الأخذِ بحظهم من طاعةِ الله فيها، وتَزَوُّدِهم لمعَادِهم منها بما يُقَرِّبُهم من رَبِّهم، فسوف يعلمون غداً إذا وردوا عليه، وقد هَلَكُوا على كُفْرِهم بالله وشركهم حين يُعاينونَ عذابَ الله أنهم كانوا من تَمَتُّعِهم بما كانوا يتمتعون فيها من اللذَّاتِ والشهواتِ كانوا في خسارٍ وتَباب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ۝٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَما أَهْلَكْنا» يا محمدُ «مِنْ» أهلِ «قَرْيَةٍ» من أهلِ القرى التي أهلكنا أَهْلَهَا فيما مضى «إِلَّا وَلَهَا كِتابٌ مَعْلُومٌ»، يقول: إلا ولها أجلٌ مؤقَّتٌ ومدةٌ معروفة، لا نُهْلِكُهم حتى يبلغوها، فإذا بلغوها أهلكناهم عند ذلك، فيقول لنبيه محمد ﷺ، فكذلك أهلُ قريتكَ التي أنتَ منها وهي مكة، لا نهلك مشركي أهلها إلا بعد بلوغِ كتابِهم أجلَهُ، لأنَّ مِنْ قضائي أن لا أُهْلِكَ أهلَ قريةٍ إلا بعد بلوغِ كتابِهم أجله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ۝٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ما يتقدَّمُ هلاكُ أمةٍ قبلَ أجَلِهَا الذي جعله اللهُ أجلاً لهلاكها، ولا يستأخرُ هلاكها عن الأجلِ الذي جعل لها أجلاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ

﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقال هؤلاء المشركونَ لك من قومكَ يا محمدُ «يا أيُّها الَّـذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الـذِّكْـرُ»، وهو القرآنُ الذي ذكر الله فيه مواعظَ خَلْقِه «إنَّكَ لَمَجْنُونٌ» في دعائِكَ إيَّانَا إلى أنْ نَتَّبعكَ، ونَذَرَ آلهتنا. «لَوْما تَأْتِينا بالمَلائِكَةِ» قالـوا: هَلَّا تأتينـا بالمـلائكةِ شاهدةً لكَ على صِدْقِ ما تقول؟ «إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ»، يعني: إنْ كنت صادقاً في أن الله تعالى بعثك إلينا رسولاً، وأنزلَ عليك كتاباً، فإن الربَّ الذي فعل ماتقولُ بك، لا يتعذَّرُ عليه إرسالُ مَلَكٍ من ملائكته معكَ حُجَّةً لكَ علينا، وآيةً لك على نبوّتك، وصِدْقِ مقالتك؛ والعربُ تضع موضع لَوْمَا: لولا، وموضع لولا: لوما.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ٨﴾

تأويل الكلام: ما نُنَزِّلُ ملائكتنا إلا بالحقِّ، يعني بالرسالةِ إلى رُسُلِنَا، أو بالعذابِ لمن أردنا تعذيبَهُ، ولو أرسلنا إلى هؤلاء المشركين على مايسألون إرسالهم معكَ آيةً فكفروا لم يُنْظَروا فيؤخروا بالعذاب، بل عُوجِلُوا به كما فعلنا ذلـك بِمَنْ قبلَهُم من الأممِ حين سألـوا الآياتِ فكفروا حين أتتهمُ الآيات، فعاجلناهم بالعقوبةِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: «إنَّـا نَحْنُ نَزَّلْنـا الـذِّكْرَ»، وهو القرآن، «وَإنَّا لَهُ لحَافِظُونَ»، قال: وإنَّا للقرآنِ لحافظون من أن يُزَادَ فيه باطلٌ مَا ليسَ منه، أو

يُنْقَصَ منه ماهو منه من أحكامِهِ وحدودِهِ وفرائضه، والهاء في قوله: «لَهُ» من ذِكْرِ الذكر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ولقد أرسلنا يا محمدُ من قبلك في الأممِ الأوَّلينَ رُسُلاً، وتَرَكَ ذِكْرِ الرُّسُلِ اكتفاءً بدلالةِ قوله: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ» عليه، وعَنَى بشيعِ الأوَّلينَ: أمم الأوَّلين: واحدتها شيعة، ويقال أيضا لأولياءِ الرجلِ: شيعته.

وقوله: «وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهزِءُونَ»، يقول: وما يأتي شِيَعَ الأوَّلينَ من رسولٍ من الله يرسلُه إليهم بالدعاء إلى توحيده، والإذعان بطاعته، إلا كانوا به يستهزءون: يقول: إلا كانوا يَسْخَرون بالرسولِ الذي يرسله الله إليهم عُتُوّاً منهم، وتَمَرُّداً على ربهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾

يقول تعالى ذكره: كما سلكنا الكُفْرَ في قلوب شِيعِ الأوَّلينَ بالاستهزاءِ بالرسل، كذلك نفعلُ ذلك في قلوب مشركي قومكَ الذين أجرموا بالكفرِ بالله «لا يُؤْمِنُونَ بِهِ»، يقول: لا يُصَدِّقُونَ بالذِّكْرِ الذي أُنزلَ إليك، والهاء في قوله: «نَسْلُكُهُ» من ذكر الاستهزاء بالرسل والتكذيب بهم.

وقوله: «وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأوَّلِينَ» يقول تعالى ذِكْرُه: لا يؤمنُ بهذا القرآنِ قومُكَ الذين سلكت في قلوبهم التكذيب «حتى يَرَوُا العَذَابَ الأَلِيمَ»، أخذاً

منهم سُنَّةَ أسلافهم من المشركين قَبْلَهُمْ من قوم ِ عادٍ وثمود وضُرَبائِهم من الأمم ِ التي كَذَّبَتْ رُسُلَها، فلم تُؤمِنْ بما جاءها من عندِ الله حتى حَلَّ بها سَخَطُ الله فهلكت.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾

اختلف أهلُ التأويل في المَعْنِيينَ بقوله: «فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ».

فقال بعضهم: معنى الكلام: ولو فتحنا على هؤلاء القائلينَ لك يا محمدُ، «لَوْما تَأْتِينا بالمَلائِكَةِ إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ»، باباً من السماء فَظَلَّت الملائكةُ تعرجُ فيه، وهم يرونهم عياناً «لقالُوا إنَما سُكِّرَتْ أبصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ».

ومعنى قوله تعالى: «سُكِّرَتْ أبصارنا» أُخِذَتْ أبصارُنا وسُحِرَتْ، فلا تبصرُ الشيءَ على ماهُوَ به، وذهبَ حَدُّ إبصارها، وانطفأ نورُه، كما يُقال للشيء الحار إذا ذهبت فورته، وسَكَنَ حَدُّ حَرِّه، قد سكر يسكر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد جعلنا في السماء الدنيا منازلَ للشمسِ والقمرِ، وهي كواكب ينزلها الشمس والقمر «وَزَيَّنّاها للنّاظِرِينَ»، يقول: وزَيَّنّا السماءَ بالكواكبِ لمن نظرَ إليها وأبصرها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وحَفِظْنَا السماءَ الدنيا من كلِّ شيطانٍ لعينٍ قد رَجَمَهُ اللهُ ولعنه، «إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ»، يقول: لكن قد يسترق من الشياطين السمع مما يحدث في السماء بعضها، فيتبعه شهابٌ من النار مبينٌ، يبينُ أثره فيه، إما بإخبالِه وإفسادِه، أو بإحراقِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «والأَرْضَ مَدَدْناها»: والأرض دَحَوْنَاها فبسطناها «وأَلْقَيْنا فِيها رَوَاسِي»، يقول: وألقينا في ظهورها رواسيَ، يعني جبالاً ثابتة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَجَعَلْنَا لَكُمْ» أيها الناسُ في الأرض «مَعَايِشَ»، وهي جَمْعُ مَعيشةٍ.

«وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ». اختلف أهلُ التأويل في المعنيِّ في قوله: «وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ».

فقال بعضهم: عَنَى به الدوابَّ والأنعام.

وقال آخرون: عَنَى بذلك الوحشَ خاصة.

وأَوْلى ذلك بالصواب، وأحسن أن يقال: عَنَى بقوله: «وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ برَازِقِينَ»، من العبيد والإماء والدوابِّ والأنعام. فمعنى ذلك: وجعلنا لكم فيها معايشَ، والعبيدَ والإماء والدوابَّ والأنعام، وإذا كانَ ذلكَ كذلك، حَسُنَ أنْ تُوضعَ حينئذٍ مكانَ العبيدِ والإماء والدوابِّ «مَنْ»، وذلك أنَّ العربَ تفعلُ ذلك إذا أرادت الخبرَ عن البهائمِ معها بَنُو آدم. وهذا التأويلُ على ماقلناه وصرفنا إليه معنى الكلام إذا كانت «من» في موضع نَصْبٍ عطفاً به على معايشَ بمعنى: جعلنا لكم فيها معايش، وجعلنا لكم فيها مَنْ لستم له برازقين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وما من شيءٍ من الأمطارِ إلا عندنا خزائِنُه، وما نُنَزِّلُهُ إلا بقدرٍ لكلِّ أرضٍ معلوم عندنا حَدُّهُ ومبلغه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

اختلف أهلُ العربية في وجه وَصْفِ الرياح باللقح، وإنما هي مُلْقِحةٌ لا لاقحة، وذلك أنها تُلْقِح السحابَ والشجرَ، وإنما تُوصفُ باللقح الملقوحةُ لا المُلْقِحُ، كما يقال: ناقة لاقح.

وكان بعضُ نحويي البصرة يقول: قيل: الرياح لواقح، فجعلها على لاقح، كأنَّ الرياحَ لقحت، لأن فيها خيراً، فقد لَقَحَتْ بخيرٍ. قال: وقال بعضهم: الرياحُ تَلْقِحُ السحابَ، فهذا يدلُّ على ذلك المعنى، لأنها إذا أنشأته وفيها خيرٌ وصل ذلك إليه. وكان بعض نحويي الكوفة يقول: في ذلك معنيان:

أحدهما أنْ يجعلَ الريحَ هي التي تلقح بمرورها على الترابِ والماء.فيكون فيها اللقاح، فيقال: ريحُ لاقح، كما يقال: ناقةٌ لاقح، قال: ويشهد على ذلك أنه وصفَ ريحَ العذاب، فقال: «عَلَيهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ»[١]، فجعلها عقيماً إذا لم تلقح. قال: والوجه الآخر أن يكون وصفها باللَّقْحِ ، وإنْ كانت تُلْقِح، كما قيل: ليل نائم والنوم فيه، وسِرٌّ كاتم. وكما قيل: المبروز والمختوم[٢]، فجعل مبـروزاً، ولم يقل مبرزاً بناه على غير فعله: أي أن ذلك من صفاته. فجاز مفعول لمفعل، كما جاز فاعل لمفعول، إذا لم يرد البناء على الفعل، كما قيل: ماء دافق[٣].

والصوابُ من القولِ في ذلك عندي: أنَّ الرياحَ لواقح كما وصفها به جَلَّ ثناؤه من صفتها، وإن كانت قد تُلْقِح السحابَ والأشجار، فهي لاقحة مُلْقِحة، ولقحها: حملها الماء. وإلقاحها السحابَ والشجرَ: عملها فيه.

وقوله: «فَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فأسْقَيْناكُموهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فأنزلنا من السمـاء مطراً فأسقيناكم ذلك المطرَ لشربِ أرضِكم ومواشِيكم؛ ولو كان معنـاه: أنـزلناه لتشربوهُ لقيل: فَسَقَيْنَاكُمُوهُ. وذلك أن العربَ تقولُ إذا سقتِ الرجلَ ماءً شَرِبَهُ أو لبناً أو غيره، سَقَيْتُه بغير ألفٍ إذا كان لسقيه، وإذا جعلوا له ماء لشربِ أرضه أو ماشيته، قالوا: أسقيتُه وأسقيتُ أرضَهُ وماشيته، وكذلك إذا استسقت له، قالوا: أسقيته واستسقيته.

وقوله: «ومَا أَنْتُمْ لَهُ بِخازِنِينَ»، يقول: ولستم بخازني الماء الذي أنزلنا من السماء فأسقيناكموه، فَتَمْنَعُوهُ مَنْ أسقيه، لأنَّ ذلك بيدي وإليَّ، أسقيه مَنْ

---

(١) الذاريات: ٤١.

(٢) استعمل هذا لبيد في بيت هو:

أو مذهـب جدد على ألـواحـه ... الـنـاطـق الـمـبـروز والـمـخـتـوم

(٣) هذا كله في معاني القرآن للفراء: ٢/٨٧ ـ ٨٨.

أشاء، وأمنعه من أشاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وإنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي» مَنْ كان ميتاً إذا أردنا «ونُميتُ» مَنْ كان حَيّاً إذا شئنا، «ونَحْنُ الوَارِثُونَ»، يقول: ونحنُ نرثُ الأرضَ ومَنْ عليها بأنْ نُميتَ جميعَهُم، فلا يبقى حيٌّ سوانا إذا جاء ذلك الأجل.

وقوله: «وَلَقَدْ عَلِمْنَا المُسْتَقْدِمينَ منْكُمْ وَلَقَدْ عَلمْنَا المُسْتأخِرِينَ». اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك.

فقال بعضهم: معنى ذلك: ولقد علمنا مَنْ مضى من الأمم، فتقدَّمَ هَلاَكُهم، ومَنْ قد خُلِقَ وهو حيٌّ، ومَنْ لم يُخْلَقْ بَعْدُ مِمَّنْ سَيُخْلق.

وقال آخرون: عَنَى بالمستقدمين: الذين قد هلكوا، والمستأخرين: الأحياء الذين لم يهلكوا.

وقال آخرون: بل معناه: ولقد علمنا المستقدمين في أوَّل الخَلْقِ، والمستأخرين في آخرهم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ولقد علمنا المستقدمين من الأمم، والمستأخرين من أمة محمدٍ ﷺ.

وقال آخرون: بل معناه: ولقد علمنا المستقدمين منكم في الخير، والمستأخرين عنه.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ولقد علمنا المستقدمين منكم في الصفوف

في الصلاة، والمستأخرين فيها، بسبب النساء.

وأَوْلى الأقوالِ عندي في ذلك بالصحة قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: ولقد علمنا الأمواتَ منكم يابني آدم فتقدَّمَ موتُه، ولقد علمنا المستأخرين الذين استأخر موتُهم ممن هو حيٌّ ومَنْ هو حادث منكم ممن لم يحدث بَعْدُ لدلالةِ ما قبله من الكلام، وهو قوله: «وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ» وما بَعْدَهُ، وهو قوله: «وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ»، على أنَّ ذلكَ كذلك، إذْ كان بين هذين الخبرين، ولم يَجْرِ قبل ذلك من الكلام مايدلُّ على خلافه، ولا جاء بَعْدُ، وجائزٌ أنْ تكونَ نزلت في شأن المستقدمين في الصفِّ، لشأنِ النساء والمستأخرين فيه لذلك، ثم يكون الله عزَّ وجلَّ عَمَّ بالمعنى المراد منه جميعَ الخَلْقِ، فقال جَلَّ ثناؤه لهم: قد علمنا ما مضى من الخلقِ وأحصيناهم، وما كانوا يعملون، ومَنْ هو حيٌّ منكم، ومَنْ هو حادث بعدكم أيها الناس، وأعمال جميعكم خيرها وشرِّها، وأحصينا جميعَ ذلك، ونحنُ نحشرُ جميعَهُمْ، فنجازي كلاً بأعماله، إنْ خيراً فخيراً، وإنْ شرّاً فشرّاً، فيكون ذلك تهديداً ووعيداً للمستأخرين في الصفوف لشأنِ النساء، ولكلِّ مَنْ تَعَدَّى حَدَّ الله، وعملَ بغيرِ ما أذِنَ له به، ووعداً لمن تقدّم في الصفوف لسبب النساء، وسارع إلى محبةِ الله ورضوانه في أفعاله كلها.

وقوله: «وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ»، يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: وإنَّ ربك يا محمدُ هو يجمع جميع الأوَّلينَ والآخرين عنده يومَ القيامةِ، أهل الطاعةِ منهم والمعصية، وكلَّ أحدٍ من خَلْقِه، المستقدمينَ منهم والمستأخرين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد خلقنا آدمَ وهو الإنسانُ من صلصال.

واختلف أهل التأويل في معنى الصلصال.

فقال بعضهم: هو الطينُ اليابس لم تُصِبْهُ نارٌ، فإذا نقرتَهُ صَلَّ، فسمعت له صلصلة.

وقال آخرون: الصلصال: المُنْتِنُ. وكأنهم وجَّهوا ذلك إلى أنه من قولهم: صَلَّ اللحمُ وأصلَّ: إذا أنتن، يقال ذلك باللغتين كلتيهما: يَفْعَل وأفْعَلَ.

والذي هو أوْلى بتأويل الآية أن يكون الصلصال في هذا الموضع الذي له صوتٌ من الصلصلة، وذلك أن الله تعالى وصفه في موضع آخر فقال: «خَلَقَ الإِنْسانَ مِنْ صَلْصَالٍ كالفَخَّارِ»، فشبهه تعالى ذِكْرُه بأنه كان كالفخَّار في يُبْسِه، ولو كان معناه في ذلك المُنتن لم يشبهه بالفخار. لأنَّ الفخار ليس بمنتنٍ فيشبَّه به في النتن غيره.

وأما قوله: «مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ»، فإنَّ الحمأ: جمع حَمْأة، وهو الطينُ المتغَيِّرُ إلى السواد. وقوله: «مَسْنُونٍ»، يعني: المتغير.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «والجانَّ» وقد بَيَّنا فيما مضى معنى الجانّ، ولِم قيلَ له جان. وعَنَى بالجانِّ ههنا: إبليس أبا الجنِّ، يقول تعالى ذِكْرُه: وإبليس خلقناه من قَبْلِ الإنسانِ من نار السموم.

واختلف أهلُ التأويل في معنى «نارِ السَّمومِ».

فقال بعضهم: هي السموم الحارَّة التي تقتل.

وقال آخرون: يعني بذلك من لَهَبِ النار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «و» اذكُرْ يا محمدُ «إذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ، فإذَا سَوَّيْتُهُ»، يقول: فإذا صَوَّرْتُه فعدَّلْتُ صورته «وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي» فصار بشراً حياً «فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ» سُجُودَ تحيةٍ وتكرمةٍ لا سجودَ عبادة[1].

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما خلق الله ذلك البشر، ونفخ فيه الروحَ بعد أنْ سَوَّاهُ سجدَ الملائكةُ كلهم جميعاً، إلا إبليس، فإنه أبى أنْ يكونَ مع الساجدين في سجودهم لآدم حين سجدوا، فلم يسجدْ له معهم تَكَبُّراً وحَسَداً وبغياً، فقال الله تعالى ذكره: «يا إبلِيسُ مالكَ ألَّا تكونَ مَعَ السَّاجِدِينَ»، يقول: ما مَنَعَكَ من أنْ تكونَ مع الساجدين.

---

(١) انظر معاني القرآن للفراء: ٢/٨٨.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: «قالَ» إبليسُ: «لَمْ أكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ» وهو من طينٍ وأنا من نارٍ، والنارُ تأكلُ الطين.

وقوله: «فاخْرُجْ مِنْها» يقول الله تعالى ذِكْرُه لإبليس: «فاخْرُجْ مِنها، فإنَّكَ رَجِيمٌ».

والرجيم: المرجوم: صرف من مفعول إلى فعيل وهو المشتوم.

وقوله: «وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إلى يَوْمِ الدِّينِ»، يقول: وإنَّ غَضَبَ اللهِ عليكَ بإخراجِهِ إياكَ من السمواتِ وطردك عنها إلى يومِ المجازاة، وذلك يوم القيامة. وقد بَيَّنا معنى اللعنة في غيرِ موضعٍ بما أغنى عن إعادته ههنا.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال إبليس: ربِّ فإذْ أخرجتني من السموات ولعنتني، فأخِّرْني إلى يومِ تبعثُ خَلْقَكَ من قبورهم، فتحشرهم لموقفِ القيامة، قال الله له: فإنك ممن أُخِّرَ هلاكُه إلى يومِ الوقتِ المعلوم لهلاكِ جميعِ خلقي، وذلك حين لا يبقى على الأرضِ من بني آدم دَيَّار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال إبليسُ: «رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي» بإغوائك «لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ»، وكأن قوله: «بِمَا أَغْوَيْتَنِي» خرجَ مخرجَ القسم، كما يقال: بالله، أو بعزَّةِ الله لأُغوينهم. وعَنَى بقوله: «لأزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ»: لَأُحَسِّنَنَّ لهم معاصِيكَ، ولأُحَبِّبَنَّها إليهم في الأرض «وَلأغْوِيَنَّهُمْ أجمَعِينَ» يقول: ولأُضِلَّنَّهُمْ عن سبيلِ الرشاد «إلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ المُخْلَصِينَ»، يقول: إلَّا مَنْ أخلصته بتوفيقكَ فهديته، فانَّ ذلك ممن لا سلطانَ لي عليه ولا طاقة لي به. وقد قُرِئَ «إلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ المُخْلِصِينَ»، فمن قرأ ذلك كذلك، فإنه يعني به: إلا مَنْ أخلص طاعتكَ، فإنه لا سبيلَ لي عليه[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۝٤١ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝٤٢﴾

قوله تعالى: «هَذا صِراطٌ عليَّ مُسْتَقِيمٌ» بمعنى: هذا طريقٌ إليَّ مستقيم.

فكان معنى الكلام: هذا طريقٌ مرجعه إليَّ، فأُجازي كلًّا بأعمالهم، كما قال الله تعالى ذكره: «إنَّ رَبَّكَ لبالمِرْصَاد»، وذلك نظير قولِ القائل لمن يتوعده ويتهدده: طريقُكَ عليَّ، وأنا على طريقك، فكذلك قوله: «هَذا صِرَاطٌ» معناه: هذا طريقٌ عليَّ وهذا طريق إليَّ.

وقوله: «إنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إلَّا مَن اتَّبَعَكَ مِنَ الغاوِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إن عبادي ليس لك عليهم حجةٌ، إلا من اتَّبعكَ على مادعوته إليه من الضلالةِ ممن غَوَى وهَلَكَ.

---

(١) انظر معاني القرآن للفراء ١/ ٨٩.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٣ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ۝٤٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لإبليس: وإنَّ جهنمَ لموعد مَنْ تبعكَ أجمعين «لها سَبعةُ أبوابٍ»، يقول: لجهنمَ سبعةُ أطباقٍ، لكلِّ طَبَقٍ منهم: يعني من أتباعِ إبليسَ جزءٌ، يعني: قسماً ونصيباً مقسوماً.

وذُكر أنَّ أبوابَ جهنم طبقاتٌ بعضُها فوقَ بعض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٤٥ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ۝٤٦ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٤٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين اتقوا الله بطاعته وخافوه، فتجنبوا معاصيه في جناتٍ وعيون، يقال لهم: «ادْخُلُوها بِسَلامٍ آمِنِينَ» من عقابِ الله، أو أنْ تُسْلَبُوا نعمةً أنعمها اللهُ عليكم، وكرامةً أكرمكم بها.

قوله: «وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلّ»، يقول: وأخرجنا ما في صدورِ هؤلاء المتقين الذين وصف صِفتهم من حقدٍ وضغينةِ بعضِهم لبعض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ۝٤٨ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لايَمسُّ هؤلاء المتقينَ الذين وَصَفَ صِفتهم في

الجنات نَصَبٌ، يعني تَعَبٌ «ومَا هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ»، يقول: وما هُمْ من الجنةِ ونعيمِها وما أعطاهمُ اللهُ فيها بمخرجين، بل ذلك دائمٌ أبداً.

وقوله: «نَبِّئْ عِبادِي أنّي أنا الغَفُورُ الرَّحِيمُ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: أخبر عبادي يا محمدُ، أني أنا الذي أسترُ على ذنوبهم إذا تابوا منها وأنابوا، بتركِ فضيحتهم بها وعقوبتِهم عليها، الرحيم بهم، أنْ أُعَذِّبَهُمْ بعد توبتهم منها عليها «وأنَّ عَذابِي هُو العَذَابُ الأليمُ»، يقول: وأخبرهم أيضاً أنَّ عَذابي لمن أصرَّ على معاصيَّ، وأقامَ عليها ولم يَتُبْ منها، هو العذابُ الموجِعُ الذي لا يشبهُه عذاب، هذا من الله تحذيرٌ لخلْقِه التقدم على معاصيه، وأمرٌ منه لهم بالإنابةِ والتوبة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۝٥١ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝٥٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ: وأخبر عبادي يا محمدُ عن ضيفِ إبراهيم: يعني الملائكة الذين دخلوا على إبراهيمَ خليلِ الرحمنِ حين أرسلهم رَبُّهم إلى قوم لوطٍ ليهلكوهم «فقالُوا سَلاماً»، يقول: فقال الضيفُ لإبراهيم: سلاماً «قال: إنَّا مِنْكُمْ وجِلُون»، يقول: قال إبراهيم: إنا منكم خائفون. وقد بيَّنا وَجْهَ النصب في قوله: «سَلاماً»، وسببَ وَجَلِ إبراهيمَ من ضيفه، واختلاف المختلفين ودَلَّلْنا على الصحيحِ من القولِ فيه فيما مضى قَبْلُ بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

وأما قوله: «قالُوا سَلاماً»، وهو يعني به الضيف، فجمع الخبر عنهم، وهم في لفظٍ واحد، فإنَّ الضيف اسمٌ للواحد والاثنين والجمع مثل الوزن

والقطر والعدل، فلذلك جمع خبره، وهو لفظ واحد.

وقوله: «قَالُوا لا تَوْجَلْ»، يقول: قال الضيفُ لإبراهيم: لا توجل لاتَخَفْ[١] «إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾**

يقول تعالى ذِكْرُه: قال إبراهيمُ للملائكة الذين بَشَّرُوه بغلامٍ عليم «أَبَشَّرْتُمُونِي على أنْ مَسَّنِيَ الكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ»، يقول: فبأيِّ شيءٍ تبشرون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾**

يقول تعالى ذِكْرُه: قال ضيفُ إبراهيم له: بشرناكَ بحقٍّ يقين، وعِلْمٍ منَّا بأنَّ الله قد وَهَبَ لك غلاماً عليماً، فلا تَكُنْ من الذين يَقْنَطُونَ من فضلِ الله، فييأسُونَ منه، ولكن أبشِرْ بما بَشَّرْنَاكَ به واقبل البُشرى.

وقوله: «قال وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إلَّا الضَّالُّونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قال إبراهيمُ للضيفِ: ومَنْ ييأس من رحمةِ الله إلا القومُ الذين قد أخطئوا سبيلَ الصواب، وتركوا قصدَ السبيل في تركهم رجاءَ الله، ولا يخيب مَنْ رَجَاهُ، فَضَلُّوا بذلك عن دينِ الله.

واختلفت القَرَأة في قراءة قوله: «وَمَنْ يَقْنَطُ».

فقرأ ذلك عامَّة قَرَأة المدينة والكوفة «وَمَنْ يَقْنَطُ» بفتح النون إلا الأعمش

---

(١) انظر معاني القرآن للزجاج: ٣/١٨١.

والكسائي، فإنهما كسرا النون مِن «يَقْنَط». فأما الذين فتحوا النون منه ممن ذكرنا فانهم قرءوا «مِنْ بَعْدِ مَاقَنَطوا» بفتح القاف والنون. وأما الأعمش فكان يقرأ ذلك: من بعد ماقَنِطُوا، بكسر النون. وكان الكسائيّ يقرؤه بفتح النون. وكان أبوعمرو بن العلاء يقرأ الحرفين جميعاً على النحو الذي ذكرنا من قراءة الكسائي.

وأوْلى القراءاتِ في ذلك بالصواب قراءةُ مَنْ قرأه «مِنْ بَعْدِ مَاقَنَطوا» بفتح النون «وَمَنْ يَقْنِطُ» بكسر النون، لإجماع الحجة من القُرَّاءِ على فتحها في قوله: «مِنْ بعْدِ ماقَنَطُوا» فكسرها في «وَمَنْ يَقْنِطُ» أولى إذ كان مجمعاً على فتحها في قَنَط، لأنَّ فَعَل إذا كانت عين الفعل منها مفتوحة، ولم تكن من الحروفِ الستة التي هي حروف الحلق، فإنها تكون في يفْعِل مكسورة أو مضمومة. فأما الفتح فلا يُعرف ذلك في كلام العرب.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٧ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٩ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ۝٦٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال إبراهيمُ للملائكة: فما شأنكم: ما أمرُكم أيُّها المرسلون؟ قالت الملائكةُ له: إنا أُرْسِلنا إلى قومٍ مجرمين: يقول: إلى قومٍ قد اكتسبوا الكفرَ بالله، إلا آلَ لوط: يقول: إلا أتباع لوط على ماهو عليه من الدينِ، فإنا لن نُهْلِكَهُمْ، بل نُنَجِّيهم من العذابِ الذي أمرنا أن نُعَذِّبَ به قومَ لوط، سوى امرأةِ لوطٍ قَدَّرْنَا إنها من الغابرين: يقول: قَضَى الله فيها إنها لمن الباقين، ثم هي مُهْلَكَةٌ بَعْدُ. وقد بيَّنا الغابر فيما مضى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما أتى رسلُ الله آلَ لوط، أنكرهم لوطٌ فلم يعرفهم، وقال لهم: «إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ»: أي نُنْكركم لا نعرفكم، فقالت له الرسلُ: بل نحنُ رُسُلُ الله جئناكَ بما كان فيه قومُكَ يَشُكُّونَ أنه نازلٌ بهم من عذابِ الله على كفرهم به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قالت الرُّسُلُ للوط: وجئناكَ بالحقِّ اليقينِ من عندِ الله، وذلك الحقّ هو العذابُ الذي عَذَّبَ اللهُ به قومَ لوط. وقد ذكرت خبرهم في سورة هود وغيرها حين بعثَ الله رسله ليعذِّبَهُمْ به.

وقولهم: «وَإِنَّا لَصَادِقُونَ»، يقولون: إنا لصادقون فيما أخبرناكَ به يالوطُ من أنَّ الله مُهْلِك قومك «فَأَسْرِ بأهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ الليْلِ»، يقول تعالى ذكره مخبراً عن رسله أنهم قالوا للوط، فأسر بأهلكَ ببقيةٍ من الليلِ، واتَّبِعْ يالوطُ أدبارَ أهلك الـذين تسري بهم، وكُنْ من ورائهم، وسِرْ خلفهم وهم أمامكَ، ولا يلتفتْ منكم وراءه أحد، وامضوا حيث يأمركم الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وفرغنا إلى لوطٍ من ذلك الأمرِ، وأوحينا أنَّ دابرَ هؤلاء مقطوعٌ مُصْبحينَ: يقول: إنَّ آخرَ قومكَ وأوَّلهم مَجْذُوذٍ مستأصَلُ صباحَ ليلتهم، وأنَّ مِنْ قَوْله «أنَّ دَابِرَ» في موضع نصبٍ رداً على الأمرِ بوقوعِ القضاء عليها. وقد يجوزُ أنْ تكونَ في موضع نصب بفقدِ الخافض، ويكون معناه: وقضينا إليه ذلك الأمرَ بأنَّ دابرَ هؤلاء مقطوعٌ مُصبحين. وذُكر أنَّ ذلك في قراءة عبدالله: وقلنا إن دابرَ هؤلاء مقطوعٌ مُصبحين. وعُنِي بقوله: «مُصْبِحِينَ»: إذا أصبحوا، أو حين يصبحون.

وقوله: «وجاءَ أَهْلُ المَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ»، يقول: وجاء أهل مدينة سَدُوم وهم قومُ لوط لما سمعوا أنَّ ضيفاً قد ضافَ لوطاً مستبشرينَ بنزولهم مدينتهم طمعاً منهم في ركوبِ الفاحشة.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ۝٦٨ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ۝٦٩ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٠﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: قال لوطٌ لقومه: إنَّ هؤلاء الذين جئتموهم تُريدونَ منهم الفاحشةَ ضيفي، وحَقٌّ على الرجلِ إكرامُ ضيفه، فلا تفضحونِ أيها القومُ في ضيفي، وأكرموني في ترككم التعرُّضَ لهم بالمكروه.

وقوله: «وَاتَّقُوا اللهَ»، يقول: وخافوا الله فيَّ وفي أنفسكم أنْ يحلَّ بكم عقـابُـه «وَلا تُخْزُونِ»، يقول: ولا تُذِلُّوني ولا تُهينوني فيهم، بالتعرُّضِ لهم بالمكروه «قالُوا أو لَمْ نَنْهَكَ عَنِ العالَمينَ»، يقول تعالى ذكره: قال للوطٍ قومُهُ: أو لم نَنْهَكَ أنْ تضيفَ أحداً من العالمين.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعـالَى: ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٧١ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ٧٢ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ٧٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال لوطٌ لقومه: تزوَّجُوا النساء فَأْتُوهُنَّ، ولا تفعلوا ماقد حَرَّمَ اللهُ عليكم من إتيانِ الرجالِ، إنْ كنتم فاعلين ما آمرُكُمْ به، ومنتهين إلى أمري.

وقـوله: «لَعَمْرُكَ» يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: وحياتكَ يا محمدُ، إنَّ قومكَ من قريش «لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ»، يقول: لفي ضلالتهم وجهلهم يَترَدَّدُونَ.

وقوله: «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ»، يقول تعالى ذكره: فأخذتهم صاعقةُ العـذاب، وهي الصيحـةُ مشـرقين: يقـول: إذْ أشـرقوا، ومعناه: إذا أشرقتِ الشمسُ، ونَصَبَ مشـرقينَ ومصبحينَ على الحالِ بمعنى: إذْ أصبحوا، وإذ أشرقوا، يقال منه: صِيْحَ بهم: إذا أُهْلِكُوا.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعـالَى: ﴿فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ٧٤ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ٧٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فجعلنا عاليَ أرضِهم سافِلَها، «وأمطرنا عليهم حِجارة مِن سجيِّل»، أي: من طين.

وقوله: «إنَّ في ذلكَ لَآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ»، يقول: إن في الذي فعلنا بقومِ لوطٍ من إهـلاكهم، وأحللنـا بهم من العـذابِ لَعَلاماتٍ ودلالاتٍ للمتفرِّسينَ المعتبرينَ بعلامات الله، وعِبَرِهِ على عواقبِ أمورِ أهلِ معاصيه والكفرِ به.

وإنما يعني تعالى ذِكْرُه بذلك قومَ نبيِّ الله ﷺ من قريش؛ يقول: فلِقومك يا محمدُ في قومِ لوطٍ، وما حَلَّ بهم من عذابِ الله حين كَذَّبُوا رسولهم، وتمادوا في غيهم، وضلالهم، مُعْتَبَر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ۝٧٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٧٧﴾

يقول تعالى ذكره: وإنَّ هذه المدينةَ، مدينةَ سَدُوم، لَبِطَرِيقٍ واضحٍ مقيم يراها المجتازُ بها لا خَفَاءَ بها، ولا يبرح مكانها، فيجهل ذو لُبٍّ أمرها، وغبَّ معصيةِ الله، والكفر به.

وقوله: «إنَّ فِي ذلك لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ في صنيعنا بقومِ لوطٍ ما صنعنا بهم، لعلامةً ودلالةً بَيِّنَةً لمن آمنَ بالله على انتقامِهِ من أهلِ الكفرِ به، وإنقاذه من عذابه، إذا نزلَ بقوم أهل الإيمان به منهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ۝٧٨ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ۝٧٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقد كان أصحابُ الغَيْضةِ ظالمينَ، يقول: كانوا بالله كافرين، والأيكة: الشجرُ الملتفُّ المجتمع.

وقوله: «فانْتَقَمْنا منْهُمْ وإنَّهُما لَبِإمامٍ مُبِينٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فانتقمنا من ظَلَمَةِ أصحابِ الأيكة.

وقوله: «وإنَّهُما لَبِإمامٍ مُبِينٍ»، يقول: وإنَّ مدينةَ أصحابِ الأيكة، ومدينةَ قومِ لوط، والهاء والميم في قوله: «وإنَّهُما» من ذِكْرِ المدينتين «لَبِإمامٍ»، يقول:

لبطريقٍ يأتمونَ به في سفرهم، ويهتدونَ به «مُبينٍ» يقول: يبين لمن ائتمَّ به استقامتَه، وإنما جُعِلَ الطريقُ إماماً لأنه يُؤَمُّ ويُتَّبَعُ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٨٠ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٨١﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: ولقد كَذَّبَ سُكَّان الحِجْرِ، وجُعِلُوا لِسُكْنَاهُمْ فيها ومُقَامِهِم بها أصحابَها، كما قال تعالى ذِكْرُهُ «ونَادَى أصحَابُ الجَنَّةِ أصحَابَ النَّارِ أنْ قَدْ وجَدْنَا ما وعَدَنَا رَبُّنا حَقًّا»، فجعلهم أصحابها لسُكناهم فيها ومقامهم بها.

والحِجْر: مدينةُ ثمود.

وقـولـه: «وآتَيْنَاهُمْ آياتِنا فَكانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ»، يقول: وأَرَيْنَاهُمْ أدِلَّتنا وحُجَجنا على حقيقةِ ما بعثنا به إليهم رسولنا صالحاً، فكانوا عن آياتنا التي آتيناهُمُوها مُعْرِضينَ لا يعتبرونَ بها ولا يتعظون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ۝٨٢ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ۝٨٣ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨٤﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: وكـان أصحـابُ الحجر، وهم ثمود قوم صالح، «ينحِتون مِنَ الجبال بُيُوتاً آمِنِينَ» من عذابِ الله، وقيل: آمنينَ من الخرابِ أنْ تخرب بيوتهم التي نحتوها من الجبال. وقيل: آمنين من الموت.

وقـوله: «فَأخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِيْنَ»، يقول: فأخذتهم صيحةُ الهلاكِ حين

أصبحوا من اليوم الرابع من اليوم الذي وُعِدُوا العذابَ، وقيل لهم: تَمتَّعوا في داركم ثلاثةَ أيام.

وقوله: «فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ»، يقول: فما دَفَعَ عنهم عذابَ الله ما كانوا يَجْترحونَ من الأعمالِ الخبيثةِ قبل ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ۝٨٥ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وما خلقنا الخلائقَ كُلَّها، سماءَها وأرضَها، ما فيهما وما بينهما، يعني بقوله: «ومَا بَيْنَهُما» مما في أطباقِ ذلك «إِلَّا بالحَقِّ»، يقول: إلا بالعدلِ والإنصافِ، لا بالظلمِ والجَوْرِ. وإنما يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: أنه لم يظلم أحداً من الأمم التي اقتصَّ قَصَصَها في هذه السورة، وقصص إهلاكه إياها بما فعلَ به من تعجيلِ النقمةِ له على كفره به، فيعذِّبَهُ ويهلكه بغيرِ استحقاق، لأنه لم يخلق السمواتِ والأرض وما بينهما بالظلم والجور، ولكنه خلق ذلك بالحقِّ والعدل.

وقوله: «وإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فاصْفَحِ الصَّفْحَ الجَمِيلَ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وإنَّ الساعةَ، وهي الساعة التي تقومُ فيها القيامةُ لجائيةٌ، فارضَ بها لمشركي قومك الذين كذَّبُوكَ، ورَدُّوا عليكَ ماجِئْتَهُمْ به من الحقِّ «فاصْفَحِ الصَّفْحَ الجَمِيلَ»، يقول: فأعْرِضْ عنهم إعراضاً جميلاً، واعْفُ عنهم عفواً حسناً.

وقوله: «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الخَلَّاقُ العَلِيمُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ رَبَّكَ هو الذي خلقهم وخلق كلَّ شيءٍ، وهو عالمٌ بهم وبتدبيرهم، وما يأتون من الأفعال.

الحجر: ٨٧

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾

اختلف أهلُ التأويل في معنى السبع الذي آتى اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ من المثاني.

فقال بعضهم: عَنَى بالسبع: السبع السور من أوَّلِ القرآن اللواتي يُعْرَفْنَ بالطول. وقائلو هذه المقالة مختلفون في المثاني، فكان بعضهم يقول: المثاني هذه السبع، وإنما سمين بذلك لأنهنّ ثُنيَ فيهنّ الأمثالُ والخبرُ والعِبَر.

وقال آخرون: عَنَى بذلك: سبع آيات وقالوا: هن آياتُ فاتحة الكتاب، لأنهنَّ سبعُ آياتٍ، وهم أيضا مختلفون في معنى المثاني، فقال بعضهم: إنما سمين مثانيَ لأنهن يثنين في كلِّ ركعةٍ من الصلاة.

وقال آخرون: عنى بالسبع المثاني: معاني القرآن.

وقـال آخـرون: من الذين قالوا عُنِي بالسبعِ المثاني: فاتحةُ الكتاب. المثاني هو القرآن العظيم.

وأَوْلى الأقوال في ذلك بالصواب، قولُ مَنْ قال: عَنَى بالسبعِ المثاني: السبع اللواتي هنّ آيات أُمِّ الكتاب، لصحةِ الخبرِ بذلك عن رسول الله ﷺ[1].

فإذ كان الصحيح من التأويل في ذلك ما قلنا، فالواجبُ أنْ تكونَ المثاني مُراداً بها القرآن كله، فيكون معنى الكلام: ولقد آتيناكَ سبعَ آياتٍ مما يَثْني بعض آيهِ بعضاً. وإذا كان ذلك كذلك كانت المثاني: جمع مَثْناة، وتكون آي القرآن موصوفةً بذلك، لأنَّ بعضَها يَثْنِي بعضاً، وبعضها يتلو بعضاً بفصولٍ تفصلُ بينها. فيعرفُ انقضاء الآيةِ وابتداء التي تليها، كما وصفها به تعالى ذكره

---

(١) من حديث أبي سعيد بن المعلى في البخاري (٤٤٧٤) و(٤٦٤٧) و(٤٧٠٣) و(٥٠٠٦)، وغيره.

فقال: «اللهُ نَزَّلَ أحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَاباً مُتشابِهاً مثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْن رَبَّهُمْ».

وأما قوله: «والقرآنُ العَظِيمَ»، فإنَّ القرآن معطوفٌ على السبع بمعنى: ولقد آتيناكَ سبعَ آياتٍ من القرآن، وغير ذلك من سائر القرآن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: لا تتمنينَّ يا محمدُ ما جعلنا من زينةِ هذه الدنيا متاعاً للأغنياء من قومك، الذين لا يؤمنونَ بالله واليوم الآخر، يتمتعونَ فيها، فإنَّ مِنْ ورائهم عذاباً غليظاً «وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ»، يقول: ولا تحزنْ على ما مُتِّعُوا به، فَعُجِّلَ لهم، فإنَّ لك في الآخرةِ ماهو خيرٌ منه، مع الذي قد عَجَّلنا لكَ في الدنيا من الكرامةِ بإعطائنا السبع المثاني والقرآن العظيم، يقال منه: مَدَّ فلانٌ عينه إلى مالِ فلان: إذا اشتهاهُ وتمنَّاهُ وأراده.

وقوله: «وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وأَلِنْ لمن آمنَ بك، واتَّبَعَكَ واتبعَ كلامكَ، وقرِّبْهُمْ منكَ، ولا تَجْفُ بهم، ولا تَغْلُظْ عليهم. يأمُرُهُ تعالى ذِكْرُه بالرِّفْقِ بالمؤمنين.

والجناحانِ من بني آدم: جَنْبَاهُ، والجناحان: الناحيتان، ومنه قول الله تعالى ذِكْرُه «وَاضْمُمْ يَدَكَ إلى جَنَاحِكَ»، قيل: معناه: إلى ناحيتكَ وجنبك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وقُلْ يا محمدُ للمشركين: إني أنا النذيرُ الذي قد أبانَ إنذارهُ لكم من البلاءِ والعقابِ أن ينزل بكم من الله على تماديكم في غيكم، كما أنزلنا على المقتسمين: يقول: مِثْلَ الذي أنزلَ اللهُ تعالى من البلاءِ والعقابِ على الذين اقتسموا القرآن، فجعلوه عِضِين.

ثم اختلف أهلُ التأويل في الذين عُنُوا بقوله: «المُقْتَسِمِينَ».

فقال بعضهم: عَنَى به: اليهود والنصارى، وقال: كان اقتسامهم أنهم اقتسموا القرآن وعَضُّوْهُ، فآمنوا ببعضِه وكفروا ببعضِه.

وقال آخرون: «المُقْتَسِمِينَ»: أهلُ الكتاب، ولكنهم سُمُّوا المقتسمينَ، لأنَّ بعضهم قال استهزاء بالقرآن: هذه السورة لي، وقال بعضهم: هذه لي.

وقـال آخـرون: هم أهـل الكتـاب، ولكنهم قيل لهم: المقتسمـون: لاقتسامهم كتبهم، وتفريقهم ذلك بإيمانِ بعضِهم ببعضِها، وكُفْرِه ببعضٍ، وكفرِ آخرينَ بما آمنَ به غيرهم، وإيمانُهم بما كفرَ به الآخرون.

وقال آخرون: عُنِي بذلك رهطٌ من كفارِ قريش بأعيانهم.

وقـال آخـرون: عُنِيَ بذلك رهطٌ من قومِ صالحٍ الذين تقاسموا على تبييتِ صالح وأهله.

والصوابُ من القول في ذلك عندي أن يقال: إنَّ الله تعالى أمر نبيه ﷺ أن يُعْلِمَ قومه الذين عضوا القرآنَ ففرقوه، أنه نذيرٌ لهم من سَخَطِ الله تعالى وعقوبته، أن يَحُلَّ بهم على كفرهم ربهم، وتكذيبهم نبيهم، ماحلَّ بالمقتسمين من قبلهم ومنهم، وجائزٌ أن يكون عَنَى بالمقتسمين: أهلَ الكتابين: التوراة والإنجيل، لأنهم اقتسمـوا كتـابَ الله، فأقـرَّت اليهودُ ببعضِ التوراة وكَذَّبَتْ ببعضِهَا، وكذبت بالإنجيلِ والفرقانِ، وأقرَّت النصارى ببعضِ الإنجيلِ وكذَّبتْ ببعضه وبالفرقان. وجائزٌ أنْ يكون عُنِي بذلك: المشركونَ من قريش، لأنهم

اقتسموا القرآن، فسماه بعضهم شعراً، وبعضٌ كهانةً، وبعضٌ أساطير الأوّلين. وجائز أن يكون عُنِي به الفريقان، وممكنٌ أنْ يكونَ عُنِيَ به المقتسمون على صالح من قومه، فإذْ لم يكن في التنزيل دلالةٌ على أنه عُنِي به أحدُ الفرقِ الثلاثةِ دونَ الآخرين، ولا في خبرٍ عن الرسولِ ﷺ، ولا في فطرةِ عَقْلٍ، وكان ظاهر الآية محتَمِلاً ما وصفت، وجب أن يكون مقضياً بأنَّ كُلَّ من اقتسم كتاباً لله بتكذيبِ بعضٍ وتصديقِ بعضٍ، واقتسم على معصية الله ممن حَلَّ به عاجلُ نقمـةِ الله في الـدار الدنيا قبل نزولِ هذه الآية، فداخلٌ في ذلك، لأنهم، لأشْكالهم من أهلِ الكُفر بالله، كانوا عِبرةً، وللمتَّعظينَ بهم منهم عِظَة.

واختلف أهل التأويل في معنى قوله: «الَّذِينَ جَعَلُوا القُرآنَ عِضِينَ»، فقال بعضهم: معناه: الذين جعلوا القرآن فِرَقاً مفترقة.

وقـال آخرون: بل هي جمع عِضَة، جُمِعَتْ عِضِين كما جمعت البُرَة بُرِين، والعِزة عِزين، فإذا وُجِّه ذلك إلى هذا التأويلِ كان أصلُ الكلام عِضَهَة، ذهبت هاؤها الأصلية، كما نقصوا الهاء من الشَّفَة وأصلها شَفَهَة، ومن الشاة، وأصلها شاهة، يدلُّ على أن ذلك الأصلَ تصغيرهم الشفة: شُفَيْهة، والشاة: شُوَيْهة، فيردُّونَ الهاءَ التي تسقط في غير حالِ التصغير إليها في حال التصغير، يقال منه: عَضَهْتُ الرجل أعَضَهُهُ عَضْهاً: إذا بَهَتَهُ، وقذفته بُبهتان، وكأن تأويل مَنْ تأوَّلَ ذلك كذلك: الذين عَضَهوا القرآنَ، فقالوا: هو سِحْرٌ، أو هو شِعرٌ.

وقد قال جماعة من أهل التأويل: إنه إنما عَنَى بالعَضْهِ في هذا الموضع، نِسْبَتَهم إياهُ إلى أنه سِحْرٌ خاصة دون غيرِهِ من معاني الذمِّ.

والصوابُ من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذِكْرُه أمر نبيه ﷺ أن يُعْلِمَ قوماً عَضَهُوا القرآنَ أنه لهم نذيرٌ من عقوبةٍ تنزلُ بهم بِعَضْهِهِمْ إياهُ مثل ماأُنْزِل بالمقتسمين، وكان عَضْهُهُم إياه: قَذْفَهُمُوه بالباطلِ، وقِيْلَهم إنه شعرٌ وسحر، وما أشبهَ ذلك.

وإنما قلنا: إنَّ ذلك أوْلى التأويلات به لدلالةِ ما قَبْلَهُ من ابتداءِ السورة وما بعده، وذلك قوله: «إنَّا كَفَيْناكَ المُسْتَهْزِئينَ» على صِحَّةِ ما قُلْنَا، وإنه إنما عُنِيَ بقوله: «الَّذِينَ جَعَلُوا القُرآنَ عِضِينَ» مشركي قومِهِ. وإذْ كان ذلك كذلك، فمعلومٌ أنه لم يكن في مشركي قومه مَنْ يؤمنُ ببعضِ القرآنِ ويكفر ببعضٍ، بل إنما كان قومهُ في أمرِهِ على أحدِ معنيين: إما مؤمن بجميعه، وإما كافر بجميعه. وإذْ كان ذلك كذلك، فالصحيحُ من القول في معنى قوله: «الَّذِينَ جَعَلُوا القُرآنَ عِضِينَ» قول الذين زعموا أنهم عَضَهوه، فقال بعضهم: هو سحرٌ. وقال بعضهم: هو شعر. وقال بعضهم: هو كهانة، وما أشبه ذلك من القول، أو عَضَّوْه ففرقوه[1]، بنحوِ ذلك من القول. وإذا كان ذلك معناه احتمل قوله: عِضِين، أنْ يكون جمع: عِضة، واحتمل أن يكون جمع عُضْو، لأنَّ معنى التعضية: التفريق، كما تُعضى الجَزُور والشاة، فتفرق أعضاء. والعَضْهُ: البَهْتُ، ورميه بالباطل من القول، فهما متقاربان في المعنى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: فَوَرَبِّكَ يا محمدُ لنسألنَّ هؤلاء الذين جعلوا القرآن في الدنيا عِضين في الآخرةِ عما كانوا يعملونَ في الدنيا، فيما أمرنـاهم به، وفيما بعثناكَ به إليهم من آي كتابي الذي أنزلتُه إليهم، وفيما دَعَوْنَاهُمْ إليه من الإقرار به، ومن توحيدي والبراءةِ من الأندادِ والأوثان.

ويعني بقوله: «فاصدع بما تُؤمَرْ»، فامضِ وافرُق.

وأما قوله: «وأعْرِضْ عَنِ المُشْرِكِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه ﷺ: بَلِّغْ

---

(١) انظر معاني القرآن للفراء: ٩٢/٢.

قومكَ ما أُرسلتَ به، واكفُفْ عن حرب المشركين بالله وقتالهم، وذلك قبلَ أنْ يفرضَ عليه جهادَهُمْ، ثم نَسَخَ ذلك بقوله: «فَاقْتُلُوا المُشْرِكينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ: إنا كفيناكَ المستهزئينَ يا محمد، الذين يستهزئون بكَ، ويسخرونَ منك، فاصدعْ بأمرِ الله، ولا تَخَفْ شيئاً سوى الله، فإنَّ الله كافيكَ مَنْ نَاصَبَكَ وآذاك، كما كفاكَ المستهزئين، وكان رؤساءُ المستهزئين قوماً من قريش معروفين.

وقوله: «الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إلَهاً آخرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» وعيدٌ من الله تعالى ذِكْرُه، وتهديدٌ للمستهزئينَ الذين أُخبرَ نبيهُ ﷺ أنه قد كَفَاهُ أَمْرَهُمْ بقوله تعالى ذِكْرُه: إنا كفيناك يا محمدُ الساخرينَ منك، الجاعلينَ مع الله شريكاً في عبادته، فسوف يعلمونَ ما يَلْقَوْنَ من عذابِ الله عند مصيرهم إليه في القيامة، وما يَحُلُّ بهم من البلاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ: ولقد نَعْلَمُ يا محمدُ أنك يَضِيقُ صَدْرُكَ بما يقولُ هؤلاء المشركون من قومك من تكذيبهم إياكَ واستهزائهم بك، وبما جئتهم به، وأنَّ ذلك يُحْرِجك «فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ»، يقول: فافْزَعْ فيما نابكَ من أمرٍ تَكْرَهُهُ منهم إلى الشكرِ لله والثناءِ عليه والصلاة، يَكْفِكَ الله من ذلك

ما أهمَّكَ، وهذا نحو الخبر الذي رُوي عن رسول الله ﷺ، أنه كان إذا حَزَبَه أمر فَزِع إلى الصلاة .

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه ﷺ: واعبد رَبَّكَ حتى يأتيكَ الموتُ، الذي هو مُوْقَنٌ به[1] وقيل: يَقِينٌ، وهو موقَنٌ به، كما قيل: خَمْرٌ عَتِيقٌ، وهي مُعَتَّقَة.

(١) ساق المؤلف حديث أم العلاء في قصة عثمان بن مَظعون عندما حضره الموت وقول رسول الله ﷺ: «أما هو فقد جاءه اليقين، والله إني لأرجو له الخير» وهو في البخاري (١٢٤٣) وغيره، وهذا لفظه.

سُورَةُ النَّحْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أتى أمرُ الله فقَرُبَ منكم أيها الناسُ ودَنَا، فلا تستعجلوا وقوعَهُ.

ثم اختلف أهلُ التأويل في الأمرِ الذي أعْلَمَ اللهُ عباده مجيئه وقُرْبَهُ منهم ما هُوَ، وأيّ شيءٍ هو؟

فقال بعضهم: هو فرائضه وأحكامه.

وقال آخرون: بل ذلك وعيدٌ من الله لأهلِ الشرك به، أخبرهم أنَّ الساعةَ قد قَرُبت، وأنَّ عذابهم قد حضر أجله، فدنا.

وأوْلى القولين في ذلك عندي بالصواب، قولُ مَنْ قال: هو تهديدٌ من الله أهلَ الكفرِ به وبرسوله، وإعلامٌ منه لهم قُرْبَ العذاب منهم والهلاك، وذلك أنه عَقَّبَ ذلك بقوله سبحانه وتعالى: «عَمَّا يُشْرِكونَ»، فَدَلَّ بذلك على تقريعهِ المشركينَ، ووعيده لهم. وبعد، فإنه لم يَبْلُغْنَا أنَّ أحداً من أصحابِ رسولِ الله ﷺ استعجلَ فرائضَ قبل أنْ تُفرضَ عليهم، فيقال لهم من أجل ذلك: قد

جاءتكم فرائضُ الله فلا تستعجلوها. وأما مستعجلو العذاب من المشركين، فقد كانوا كثيراً.

وقوله سبحانه وتعالى: «عَمَّا يُشْرِكُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه تنزيهاً لله، وعُلُوّاً له عن الشركِ الذي كانت قريش، ومَنْ كان من العربِ على مِثلِ ماهُمْ عليه يَدِين به.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله تعالى: «عَمَّا يُشْرِكُونَ» فقرأ ذلك أهلُ المدينة وبعض البصريين والكوفيين «عَمَّا يُشْرِكُونَ» بالياء على الخبرِ عن أهلِ الكفر بالله، وتوجيه للخطاب بالاستعجالِ إلى أصحابِ رسول الله ﷺ، وكذلك قرءوا الثانية بالياء. وقرأ ذلك عامَّة قَرَأَةِ الكوفة بالتاء على توجيه الخطاب بقوله: «فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ» إلى أصحابِ رسول الله ﷺ، وبقوله تعالى «عَمَّا تُشْرِكُونَ» إلى المشركين. والقراءة بالتاء في الحرفين جميعاً على وجه الخطابِ للمشركين أوْلى بالصوابِ لما بيَّنتُ من التأويل، أنَّ ذلك إنما هو وعيدٌ من الله للمشركين، ابتدأ أوَّل الآية بتهديدهم، وختم آخرها بنكيرِ فعلهم، واستعظامِ كُفْرِهم على وجهِ الخطاب لهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾

فتأويل الكلام: يُنَزِّلُ الله ملائكته بما يَحْيَا به الحقُّ، ويضمحلُّ به الباطلُ من أمره على مَنْ يشاءُ من عباده، يعني على مَنْ يشاء من رسله أنْ أنذروا، فأنْ الأولى في موضعِ خفضٍ، ردّاً على الروح، والثانية في موضع نصب بأنذروا. ومعنى الكلام: ينزلُ الملائكةَ بالروحِ من أمره على مَنْ يشاء من عباده، بأنْ أنذروا عبادي سطوتي على كُفرهم بي وإشراكهم في اتخاذهم معي

الآلهةَ والأوثانَ، فإنه لا إله إلاَّ أنا، يقول: لا تنبغي الألوهةُ إلا لي، ولا يصلح أن يُعْبَدَ شيءٌ سواي، فاتقونِ: يقول: فاحذروني بأداء فرائضي، وإفرادِ العبادة، وإخلاصِ الربوبية لي، فإنَّ ذلك نجاتكم من الهلكة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مُعَرِّفاً خَلْقَهُ حُجَّتَهُ عليهم في توحيده، وأنه لا تصلحُ الألوهةُ إلا له: خلقَ رَبُّكم أيها الناسُ السمواتِ والأرضَ بالعدلِ، وهو الحقُّ منفرداً بخلقها، لم يشركه في إنشائها وإحداثها شريكٌ، ولم يُعِنْهُ عليه مُعينٌ، فأنَّى يكونُ له شريك «تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ»، يقول: جَلَّ ثناؤه: عَلاَ رَبُّكم أيها القومُ عن شِرْكِكُمْ ودعواكم إلهاً دونه، فارتفع عن أنْ يكونَ له مِثْلٌ أو شريكٌ أو ظهير، لأنه لا يكونُ إلهاً إلا مَنْ يخلقُ ويُنشىءُ بقدرته مثل السمواتِ والأرض، ويبتدعُ الأجسامَ فَيُحْدِثُها من غيرِ شيء، وليس ذلك في قُدْرةِ أحدٍ سوى الله الواحد القهَّار الذي لا تنبغي العبادةُ إلا له، ولا تصلحُ الألوهةُ لشيءٍ سواه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومن حججه عليكم أيضاً أيها الناسُ، أنه خلقَ الإنسانَ من نطفةٍ، فأحدثَ من ماء مَهينٍ خلقاً عجيباً، قلبه تاراتٍ خلقاً بعد خلقٍ في ظلماتٍ ثلاث، ثم أخرجه إلى ضياء الدنيا بعد ما تَمَّ خَلْقُه ونفخ فيه الروح، فغذَّاه ورزقه القوتَ ونَمَّاهُ، حتى إذا استوى على سُوقِه، كفر بنعمةِ ربه،

وجحد مُدَبِّرَهُ، وعَبَدَ مَنْ لا يضرُّ ولا ينفع، وخاصمَ إلهه، فقال: «مَنْ يُحْيِي العِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ»، ونسِي الذي خلقه، فسوَّاهُ خَلْقاً سوِّياً من ماء مهين، ويعني بالمبين: أنه يبين عن خصومته بمنطقه، ويجادل بلسانه، فذلك إبانته، وعَنَى بالإنسان: جميعَ الناس، أخرج بلفظ الواحد، وهو في معنى الجميع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومن حججه عليكم أيها الناسُ ما خَلَقَ لكم من الأنعامِ، فسخَّرها لكم، وجعلَ لكم من أصوافها وأوبارهَا وأشعارِهَا ملابسَ تدفئون بها، ومنافع من ألبانها، وظهورها تركبونها، «وَمِنْها تَأْكُلُونَ»، يقول: ومن الأنعام ما تأكلونَ لحمَهُ كالإبلِ والبقرِ والغنمِ، وسائرِ ما يُؤكَلُ لحمه، وحذفت «ما» من الكلامِ لدلالةِ مِنْ عليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولكم في هذه الأنعام والمواشي التي خلقها لكم «جمالٌ حِينَ تُرِيحُونَ»، يعني: تردُّونَها بالعشيِّ من مسارحها إلى مَرَاحها ومنازلها التي تأوي إليها، ولذلك سمي المكان: المراح، لأنها تراح إليه عشياً، فتأوي إليه، يقال منه: أراح فلان ماشيته، فهو يريحها إراحة.

وقوله: «وَحِينَ تَسْرَحُونَ»، يقول: وفي وقت إخراجِكُمُوهَا غدوةٍ من مُراحهـا إلى مسارحها، يقال منه: سرح فلان ماشيته، يسرحها تسريحاً، إذا

أخرجها للرعي غدوة، وسرَحت الماشية: إذا خرجت للمرعى تسرح سرحاً وسروحاً، فالسرح بالغداة، والإراحة بالعشيِّ.

وقوله: «وتَحْمِلُ أثْقالَكُمْ إلى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بالِغِيهِ إلَّا بِشِقِّ الأنْفُسِ»، يقول: وتحملُ هذه الأنعامُ أثقالَكُمْ إلى بلدٍ آخر لم تكونوا بالغيه إلا بجهدٍ من أنفسكم شديد، ومشقة عظيمة.

وقوله: «إنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ ربكم أيها الناسُ ذو رأفةٍ بكم، ورحمة؛ مِنْ رحمتهِ بكم، خَلَقَ لكم الأنعامَ لمنافعكم ومصالحكم، وخلق السمواتِ والأرضَ أدلةً لكم على وحدانيةِ ربكم، ومعرفةِ إلهكم، لتشكروهُ على نعمهِ عليكم، فيزيدكم من فضله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وخلقَ الخيلَ والبغالَ والحمير لكم أيضاً لتركبوها «وزينةً»، يقول: وجعلها لكم زينةً تتزينون بها مع المنافعِ التي فيها لكم، للركوبِ وغيرِ ذلك.

وكان بعضُ أهلِ العلم يرى أنَّ في هذه الآية دلالة على تحريمِ أكلِ لحومِ الخيل.

وكان جماعةٌ غيرهم من أهلِ العلم يخالفونهم في هذا التأويل، ويرون أنَّ ذلك غير دالٍّ على تحريمِ شيءٍ، وأنَّ الله جَلَّ ثناؤه إنما عَرَّفَ عبادَهُ بهذه الآية، وسائر ما في أوائلِ هذه السورة نِعَمَهُ عليهم ونَبَّههم به على حججه عليهم، وأدلته على وحدانيته، وخَطَأَ فِعْلِ مَنْ يشركُ به من أهلِ الشرك.

والصوابُ من القول في ذلك عندنا، ما قاله أهلُ القول الثاني، وذلك أنه لو كان في قوله تعالى ذِكْرُه: «لِتَرْكَبُوها» دلالةً على أنها لا تصلحُ، إذْ كانت للركوب للأكلِ ـ لكانَ في قوله: «فِيها دِفْءٌ ومنَافعُ وَمِنْها تَأْكُلُونَ» دلالة على أنها لا تصلحُ إذْ كانت للأكلِ والدِّفْءِ للركوب، وفي إجماع الجميع على أن رُكُوبَ ما قال تعالى ذِكْرُه: «وَمِنْها تَأْكُلُونَ» جائزٌ حلالٌ غيرُ حرامٍ، دليلٌ واضح على أنَّ أكلَ ما قال «لِتَرْكَبُوها» جائزٌ حلال غير حرام، إلا بما نصَّ على تحريمِهِ أو وضع على تحريمه دلالة من كتابٍ أو وحي إلى رسولِهِ ﷺ. فأما بهذه الآية فلا يحرمُ أكلُ شيءٍ. وقد وضع الدلالةَ على تحريمِ لحوم الحُمُرِ الأهلية بوحيِهِ إلى رسولِ الله ﷺ، وعلى البغالِ بما قد بَيَّنا في كتابنا: «كتاب الأطعمة» بما أَغْنَى عن إعادتهِ في هذا الموضع، إذ لم يكن هذا الموضعُ من مواضعِ البيان عن تحريم ذلك، وإنما ذكرنا ماذكرنا ليدلَّ على أنْ لا وجهَ لقولِ مَنِ استدلَّ بهذه الآية على تحريمِ لحم الفرس.

وقوله: «ويَخْلُقُ مالا تَعْلَمُونَ»، يقول تعالى ذكره: ويخلقُ رَبُّكم مع خَلْقِه هذه الأشياء التي ذكرها لكم مالا تعلمون، مما أَعَدَّ في الجنة لأهلها، وفي النار لأهلها، مما لم تَرَهُ عينٌ، ولا سمعته أذنٌ، ولا خَطَرَ على قلب بشر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩﴾

يقول تعالى ذكره: وعلى الله أيها الناسُ بيانُ طريقِ الحقِّ لكم، فمن اهتدى فلنفسه، ومَنْ ضلَّ فإنما يضلُّ عليها. والسبيل: هي الطريق، والقصد من الطريقِ: المستقيمُ الذي لا اعوجاجَ فيه.

وقوله: «وَمِنْها جائِرٌ»، يعني تعالى ذكره: ومن السبيلِ جائرٌ عن الاستقامةِ

معوجٌ، فالقاصدُ من السُّبُلِ: الإسلامُ، والجائر منها: اليهوديةُ والنصرانية، وغير ذلك من مِلَلِ الكُفْرِ كلها جائر عن سواء السبيل وقصدها، سوى الحنيفية المسلمة. وقيل: ومنها جائر، لأنَّ السبيلَ يُؤَنَّثُ ويُذَكَّرُ، فأنث في هذا الموضع. وقد كان بعضهم يقول: وإنما قيل: ومنها، لأنَّ السبيل وإن كان لفظها لفظ واحد فمعناها الجمع.

وقوله: «ولَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أجْمَعِينَ»، يقول: ولو شاء الله للطف بجمِيعِكم أيها الناسُ بتوفيقه، فكنتم تهتدون، وتَلْزَمُونَ قصدَ السبيل، ولا تجورون عنه، فتتفرَّقُونَ في سُبُلٍ عن الحقِّ جائرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠﴾

يقول تعالى ذكره: والذي أنعم عليكم هذه النعم، وخلقَ لكم الأنعامَ والخيلَ وسائر البهائم لمنافعكم ومصالحكم، هو الربُّ الذي أنزل من السماء ماء، يعني: مطراً لكم من ذلك الماء، شرابٌ تشربونه، ومنه شرابُ أشجاركم، وحياةُ غروسكم ونباتها «فِيهِ تُسِيمُونَ»، يقول: في الشجر الذي ينبت من الماء الذي أنزل من السماء تُسيمون، يعني ترعون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يُنبتُ لكم رَبُّكم بالماءِ الذي أنزلَ لكم من السماءِ زَرْعَكم وزيتونَكم ونخيلكم وأعنابكم، ومن كلِّ الثمرات: يعني من كلِّ الفواكه

غير ذلك أرزاقاً لكم وأقواتاً وإداماً وفاكهة، نعمةً منه عليكم بذلك وتفضُّلاً، وحُجةً على مَنْ كفر به منكم. «إنَّ فِي ذلكَ لآيَةً»، يقول جَلَّ ثناؤه: إن في إخراجِ الله بما ينزل من السماء من ماء ما وَصَفَ لكم لآيةً: يقول: لدلالةً واضحـةً، وعلامةً بَيِّنةً «لقوم يَتَفَكَّرُونَ»، يقول: لقومٍ يعتبرونَ مواعظَ الله، ويتفكَّرونَ في حججه، فيتذكرون وينيبون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تعالَى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومن نِعَمه عليكم أيها الناسُ مع التي ذكرها قَبْلُ أنْ سَخَّـرَ لكم الليلَ والنهـار يتعاقبان عليكم هذا لتصرّفكم في معاشكم، وهذا لسكنكم فيه، والشمس والقمـر لمعـرفـةِ أوقاتِ أزمنتكم وشهوركم وسنيكم، وصلاح معايشكم «والنُّجُومُ مُسَخَّراتٌ» لكم بأمرِ الله تجري في فلكها لتهتدوا بها في ظُلماتِ البَرِّ والبحر «إنَّ فِي ذلكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أنَّ في تسخيرِ الله ذلك على ماسخره لدلالاتٍ واضحاتٍ لقومٍ يعقلون حُجَجَ الله، ويفهمونَ عنه تنبيهه إياهم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾

يعني جلّ ثناؤه بقوله: «ومَا ذَرأَ لَكُمْ» وسخر لكم ما ذَرَأَ: أي ما خَلَقَ لكم في الأرض مختلفاً ألوانهُ، من الدوابِّ والثمار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟

﴿مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والذي فعلَ هذه الأفعالَ بكم. وأنعمَ عليكم، أيها الناسُ هذه النِّعَمَ: الذي سَخَّرَ لكمُ البحرَ، وهو كُلُّ نهرٍ، ملحاً كان ماؤه أو عذباً «لتَأْكُلُوا منْهُ لحَمْا طرِيًّا»، وهو السمك الذي يصطاد منه «وتَسْتَخْرِجُوا منْهُ حلْيَةً تَلْبَسُونَها»، وهي اللؤلؤ والمرجان.

وقوله: «وتَرَى الفُلْكَ مَواخرَ فِيه» المَخْرُ في كلام العرب: صوتُ هبوبِ الريح، إذا اشتدَّ هبوبها، وهو في هذا لموضع: صوتُ جَرْيِ السفينةِ بالريح إذا عصفت وشقها الماء حينئذٍ بصدرها، يقال منه: مخرت السفينة تمخر مخراً ومخوراً. وهي ماخرة، ويقال: امتخرتَ الريحَ وتَمَخَّرْتَها: إذا نظرتَ من أينَ هبوبها، وتسمَّعتَ صوتَ هبوبها.

وقـولـه: «وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ»، يقول تعالى ذكره: ولتتصرَّفُوا في طَلَبِ معايشكم بالتجارةِ سَخَّرَ لكم.

وقـولـه: «وَلَعَلَّكُمْ تشْكُرُونَ»، يقول: ولتشكروا ربكم على ما أنعمَ به عليكم من ذلك. سخر لكم ماسَخَّرَ من هذه الأشياء التي عَدَّدَهَا في هذه الآيات.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: ومن نِعَمِهِ عليكم أيها الناسُ أيضاً، أنْ ألقى في الأرض رواسي، وهي جمع راسية، وهي الثوابتُ في الأرض من الجبال.

وقوله: «أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ»، يعني: أنْ لا تميدَ بكم، وذلك كقوله: «يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا»، والمعنى: أنْ لا تَضِلُّوا، وذلك أنه جَلَّ ثناؤه أرسى الأرضَ بالجبالِ لئلا يميدَ خَلْقُه الذي على ظهرها، بل وقد كانت مائدة قبل أن تُرْسَى بها.

وقوله: «وأنهَاراً»، يقول: وجعل فيها أنهاراً، فعطف بالأنهار على الرواسي، وأعملَ فيها ما أعملَ في الرواسي، إذ كان مفهوماً معنى الكلام والمراد منه.

وقوله: «وَسُبُلاً»، وهي جمع سبيل، كما الطرق: جمع طريق.

ومعنى الكلام: وجعل لكم أيها الناس في الأرض سبُلاً وفِجاجاً تسلكونها، وتسيرون فيها في حوائِجكم، وطَلَبِ معايِشِكم رحمةً بكم، ونعمةً منه بذلك عليكم ولو عَمَّاهَا عليكم لهلكتم ضلالاً وحيرة.

وقوله: «لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ»، يقول: لكي تهتدوا بهذه السبلِ التي جعلها لكم في الأرض إلى الأماكن التي تقصدون، والمواضع التي تريدون، فلا تضلوا وتتحيروا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَعَلَـٰمَـٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾

اختلف أهلُ التأويل في المعنيِّ بالعلامات.

فقال بعضهم: عَنَى بها معالم الطرق بالنهار.

وقال آخرون: عَنَى بها النجومَ.

وقال آخرون: عَنَى بها الجبالَ.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصواب أنْ يُقالَ: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه عَدَّدَ على عباده من نعمه، إنعامَهُ عليهم بما جعلَ لهم من العلاماتِ التي يهتدونَ بها في مسالكهم وطُرُقِهم التي يسيرونها، ولم يخصص بذلك بعضَ العلاماتِ دونَ بعضٍ، فكلُّ علامةٍ استدلَّ بها الناسُ على طرقهم، وفجاجِ سُبُلِهم، فداخلٌ في قوله «وَعَلاماتٍ». والطرقُ المسبولة: المَوْطُوءةُ، علامةٌ للناحية المقصودة، والجبالُ علاماتٌ يُهْتَدَى بهنَّ إلى قَصْدِ السبيل، وكذلك النجومُ بالليل، غير أنَّ الذي هو أوْلى بتأويل الآية أنْ تكونَ العلاماتُ من أدلة النهار إذ كان الله قد فصل منها أدلة الليل بقوله: «وبالنَّجْم هم يَهْتَدُونَ»، وإذْ كان ذلك أشبه وأوْلى بتأويل الآية، فالواجبُ أنْ يكونَ القولُ في ذلك. أنَّ العلامات: معالم الطرق وأماراتها التي يُهْتَدَى بها إلى المستقيم منها نهاراً، وأنْ يكونَ النجم الذي يهتدى به ليلاً هو الجدي والفرقدان، لأنَّ بها اهتداء السفر دون غيرها من النجوم.

فتأويل الكلام إذن: وجعلَ لكم أيها الناسُ علاماتٍ تستدلون بها نهاراً على طرقكم في أسفاركم، ونجوماً تهتدون بها ليلاً في سُبلكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لِعَبَدةِ الأوثان والأصنام: أَفمنْ يَخْلُقُ هذه الخلائقَ العجيبةَ التي عددناها عليكم وينعم عليكم هذه النعمَ العظيمةَ، كَمَنْ لا يخلقُ شيئاً، ولا ينعمُ عليكم نعمةً صغيرة ولا كبيرة: يقول: أتشركون هذا في عبادةِ هذا؟ يُعَرِّفُهم بذلك عِظَمَ جَهْلِهم، وسوءَ نَظَرهم لأنفسهم، وقلَّةَ شُكْرِهم لمن

أنعم عليهم بالنعم التي عَدَّدَهَا عليهم، التي لا يحصيها أحدٌ غيره، قال لهم جلَّ ثناؤه مُوَبِّخهم: «أفلا تَذَكَّرُونَ» أيها الناس. يقول: أفلا تذكرون نعمَ الله عليكم، وعظيمَ سُلطانهِ وقُدرته على ما شاء، وعَجْزَ أوثانِكم وضَعْفَها ومهانتها، وأنها لا تجلبُ إلى نفسها نفعاً، ولا تدفع عنها ضرّاً، فتعرفوا بذلك خطأ ما أنتم عليه مقيمون من عبادَتِكُموها وإقراركم لها بالألوهة.

وقوله: «وَإنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها» لاتُطِيقُوا أداءَ شُكْرِها، «إنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ»، يقول جَلَّ ثناؤه: إنَّ الله لغفورٌ لما كان منكم من تقصيرٍ في شكرِ بعضِ ذلك إذا تبتم وأنبتم إلى طاعته واتباعِ مرضاته، رحيمٌ بكم أنْ يُعَذِّبَكُمْ عليه بعد الإنابةِ إليه والتوبة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝١٩ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والله الذي هو إلهكُم أيها الناسُ، يعلم ما تُسِرُّونَ في أنفسكم من ضمائركم فتخفُونَهُ عن غيركم، فما تُبْدُونَهُ بألسنتكم وجوارحكم، وما تعلنونه بألسنتكم وجوارحكم وأفعالكم، وهو مُحْصٍ ذلك كله عليكم، حتى يجازيكم به يومَ القيامة، المحسن منكم بإحسانِهِ، والمسيء منكم بإساءته، ومُسَائِلَكُمْ عما كان منكم من الشكرِ في الدنيا على نعمه التي أنعمها عليكم فيها التي أحصيتم، والتي لم تُحْصُوا.

وقوله: «والَّذين تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأوثانكم الذين تَدْعُونَ من دونِ الله أيها الناسُ آلهة لا تَخْلُقُ شيئاً وهي تُخْلَقُ، فكيف يكونُ إلهاً ما كان مصنوعاً مُدَبَّراً، لا تملكُ لأنفسها نفعاً ولا ضرّاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ٢١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لهؤلاء المشركين من قريش: والذين تَدْعُونَ من دونِ الله أيها الناسُ «أمْوَاتٌ غيرُ أحيْاءٍ»، وجعلها جَلَّ ثناؤه أمواتاً غير أحياء، إذ كانت لا أرواحَ فيها.

وقوله: «ومَا يَشْعُرُون»، يقول: وما تدري أصنامُكم التي تَدْعُونَ من دونِ الله متى تُبْعَثُ. وقيل: إنما عَنَى بذلك الكفار، أنهم لا يدرون متى يُبعثون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: معبودُكم الذي يستحقُّ عليكم العبادَةَ، وإفراد الطاعة له دون سائر الأشياء: معبودٌ واحدٌ، لأنه لا تصلحُ العبادةُ إلا له، فأفْرِدُوا له الطاعةَ، وأخْلِصُوا له العبادةَ، ولا تجعلوا معه شريكاً سواه «فالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرةٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فالذين لا يُصَدِّقُونَ بوعدِ الله ووعيدِه، ولا يُقِرُّونَ بالمعَادِ إليه بعد المماتِ قلوبُهم مُنْكِرةٌ، يقول تعالى ذِكْرُه: مستنكرة لما نقص عليهم من قدرةِ الله وعظمته، وجميلِ نِعَمِه عليهم، وأنَّ العبادة لا تصلحُ إلا له، والألُوهة ليست لشيءٍ غيره يقول: وهم مستكبرونَ عن إفرادِ الله بالألوهةِ، والإقرارِ له بالوحدانيةِ، اتباعاً منهم لما مَضَى عليه من الشرك بالله أسلافُهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ٢٣﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: لا جَرَم حقاً أنَّ الله يعلمُ ما يُسِرُّ هؤلاء المشركون من إنكارهم ماذكرنا من الأنباءِ في هذه السورة، واعتقادهم نكيرَ قولنا لهم: إلهكم إلهٌ واحد، واستكبارهم على الله، وما يعلنون من كفرهم بالله وفريتهم عليه. «إنَّهُ لا يُحِبُّ المُسْتَكْبِرينَ»، يقول: إنَّ الله لا يحبُّ المستكبرينَ عليه أن يوحدوه ويخلعوا مادونه من الآلهة والأنداد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٢٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا قيل لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة من المشركين، ماذا أنزلَ رَبُّكم، أيّ شيءٍ أنزلَ ربكم، قالوا: الذي أنزل ما سَطَّرهُ الأوَّلونَ من قَبْلِنَا من الأباطيل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٢٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يقولُ هؤلاء المشركون لمن سألهم، ماذا أنزل ربكم الذي أنزل ربنا فيما يزعم محمد عليه: أساطيرُ الأوَّلين، لتكون لهم ذنوبهم التي هُمْ عليها مقيمون من تكذيبهم الله، وكُفْرهم بما أنزلَ على رسوله ﷺ، ومن ذنوبِ الذين يَصُدُّونَهُمْ عن الإيمانِ بالله يُضِلُّونَ: يَفْتِنونَ منهم بغير علم[1].

وقوله: «ألا ساءَ ما يَزِرُونَ»، يقول: ألا ساء الإثمُ الذي يأثمون، والثقلُ الذي يتحملون.

---

(١) أي: يحملون ذنوب ضلالهم كاملة وبعض ذنوب من ضل بضلالهم، وهو وزر الإضلال لأن المضل والضال شريكان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۝٢٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قد مَكَرَ الذين من قبل هؤلاء المشركين الذين يَصُدُّونَ عن سبيلِ الله، مَنْ أراد اتباع دينِ الله، فراموا مُغَالبةَ الله ببناءٍ بَنَوْهُ، يريدون بزعمهم الارتفاعَ إلى السماء لحربِ مَنْ فيها.

وكان الذي رَامَ ذلك فيما ذُكِرَ لنا جبارٌ من جبابرةِ النَّبط، فقال بعضهم: هو نمرودُ بن كنعان. وقال بعضهم: هو بختنصر. وقيل إن الذي ذُكر في هذا الموضع هو الذي ذكره الله في سورة إبراهيم.

وقوله: «فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ»، اختلف أهل التأويل في معنى ذلك.

فقال بعضهم: معناه: فخرَّ عليهم السقفُ من فوقهم: أعالي بيوتهم من فوقهم.

وقال آخرون: عَنَى بقوله: «فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ» أنَّ العذابَ أتاهم من السماء.

وأَوْلى القولين بتأويل الآية، قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: تَساقطتْ عليهم سقوفُ بيوتهم، إذْ أتى أُصولَها وقواعدَها أمرُ الله، فائتفكت بهم منازلُهم، لأنَّ ذلك هو الكلامُ المعروفُ من قواعدِ البنيان، وخَرَّ السقف، وتوجيه معاني كلام الله إلى الأشهرِ الأعرفِ منها، أَوْلَى من توجيهها إلى غير ذلك ما وُجِد إليه سبيلٌ «وأتاهُمُ العَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأتى هؤلاء الذين مكروا من قَبْل مشركي قريش، عذابُ الله من حيث لا يَدْرُونَ أنه أتاهم منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فعل الله بهؤلاء الذين مكروا، الذين وصف الله جلَّ ثناؤه أمْرَهُمْ ما فعلَ بهم في الدنيا، من تعجيلِ العذابِ لهم، والانتقامِ بكفرهم، وجحودِهم وحدانيته، ثم هو مع ذلك يومَ القيامة مُخْزِيهم، فَمُذِلُّهُمْ بعذابٍ أليم، وقائل لهم عند ورودهم عليه: «أَيْنَ شُرَكائيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشاقُّونَ فِيهم» أصله: مِنْ شاققتُ فلاناً فهو يشاقُّني، وذلك إذا فعل كلُّ واحد منهما بصاحبه ما يشقُّ عليه.

يقول تعالى ذِكْرُه يومَ القيامة تقريعاً للمشركين بعبادتهم الأصنام: أين شركائي؟ يقول: أين الذين كنتم تزعمون في الدنيا أنهم شركائي اليوم، ما لهم لا يحضرونكم، فيدفعُوا عنكم ما أنا مُحِلٌّ بكم من العذاب، فقد كنتم تعبدونهم في الدنيا، وتتولونهم، والوليُّ يَنْصُر وَلِيَّهُ، وكانت مشاقتهم الله في أوثانهم مخالفتهم إياه في عبادتهم.

وقوله: «قالَ الَّذِينَ أُوتُوا العلْمَ إنَّ الخِزْيَ اليَوْمَ والسُّوءَ على الكافرِينَ»، يعني: الذِلَّةَ والهوانَ والسوء. يعني: عذاب الله على الكافرين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال الذين أُوتوا العلم: إنَّ الخزيَ اليومَ والسُّوءَ على

مَنْ كفر بالله فجحد وحدانيته «الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ المَلائكَةُ»، يقول: الذين تقبضُ أرواحَهُم الملائكةُ «ظالِمِي أنفُسهِمْ»، يعني: وهُمْ على كُفْرهم وشِرْكِهم بالله. وقيل: إنه عَنَى بذلك مَنْ قُتِلَ من قريشٍ ببدرٍ، وقد أُخرِجَ إليها كرهاً.

وقوله: «فَأَلْقَوُا السَّلَمَ»، يقول: فاستسلموا لأمرِه، وانقادوا له حين عاينوا الموتَ قد نزل بهم، «ما كُنَّا نَعْمَلُ منْ سُوءٍ»، وفي الكلامِ محذوفٌ استُغْنِي، بفهم سامعيه مادلَّ عليه الكلام، عن ذكره وهو: قالوا ما كنا نعملُ من سوء، يخبرُ عنهم بذلك أنهم كذّبوا وقالوا: ما كُنَّا نعصِي الله اعتصاماً منهم بالباطلِ رجاء أنْ ينجوا بذلك، فكذَّبَهُمُ اللهُ، فقال: بل كنتم تعملونَ السوءَ وتصدُّونَ عن سبيلِ الله. «إنَّ اللهَ عَليمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»، يقول: إنَّ الله ذو علم بما كنتم تعملون في الدنيا من معاصيه، وتأتون فيها ما يسخطه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يقول لهؤلاء الظَّلَمَةِ أنفسهم حين يقولون لربهم: ما كنا نعملُ من سوء، ادخلوا أبوابَ جهنم، يعني: طبقات جهنم «خالدِينَ فيها»، يعني: ماكثينَ فيها «فَلَبِئْسَ مَثْوَى المُتَكَبِّرين»، يقول: فلبئس منزل مَنْ تكبَّرَ على الله ولم يُقِرَّ بربوبيته، ويُصَدِّقَ بوحدانيته جهنم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُواْ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقيل للفريق الآخر، الذين هم أهلُ إيمانٍ وتقوى لله:

«مـاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ؟ قالُوا خَيْراً»، يقول: قالوا: أنزلَ خيراً. وكان بعضُ أهل العـربية من الكـوفيين يقـول: إنما اختلف الأعرابُ في قوله: «قالُوا أساطِيرُ الأوَّلِينَ»، وقـوله «خَيْراً»، والمسألة قبل الجوابين كليهما واحدة، وهي قوله: «ماذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ»، لأنَّ الكفار جَحَدُوا التنزيلَ، فقالوا حين سمعوه: أساطيرُ الأوّلين: أي هذا الذي جئتَ به أساطير الأوّلين، ولم ينزل الله منه شيئاً. وأما المؤمنون فَصَدَّقُوا التنزيلَ، فقالوا خيراً، بمعنى أنه أنزل خيراً، فانتصب بوقوع الفعل من الله على الخير، فلهذا افترقا، ثم ابتدأ الخبر فقال: «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ». وقد بيَّنا القولَ في ذلك فيما مضى قَبْلُ بما أغنى عن إعادته.

وقوله: «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: للذين آمنوا بالله في هذه الدنيا ورسوله، وأطاعوه فيها، ودعوا عبادَ الله إلى الإيمانِ والعمـلِ بما أمر الله به حَسَنةٌ، يقول: كرامةٌ من الله «وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ»، يقول: ولَدارُ الآخرةِ خيرٌ لَهُمْ مِنْ دَارِ الدُّنْيا، وكرامةُ الله التي أعدّها لهم فيها أعظم من كرامته التي عَجَّلها لهم في الدنيا «وَلَنِعْمَ دَارُ المُتَّقِينَ»، يقول: ولنعم دارُ الذين خافوا الله في الدنيا فاتقوا عقابه بأداء فرائضِه وتجنب معاصيه دار الآخرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «جَنَّاتُ عَدْنٍ» بساتينُ للمقام. وقد بيَّنا اختلافَ أهلِ التأويلِ في معنى عدن فيما مضى بما أغنى عن إعادته. «يَدْخُلُونَها»، يقول: يدخلون جناتِ عدن، وفي رفع جنات: أوجه ثلاثة: أحدها: أن يكون مرفوعاً على الابتداء، والآخر بالعائد من الذكر في قوله: «يَدْخُلُونَها». والثالث:

على أن يكون خبر النعم، فيكون المعنى: إذا جعلت خبر النعم ولنعم دار المتقين جنات عدن، ويكون «يَدْخُلُونَها» في موضع حال، كما يقال: نِعْمَ الدارُ دارٌ تسكنها أنتَ، وقد يجوز أن يكون إذا كان الكلامُ بهذا التأويل: يدخلونها، من صلة جنات عدن

وقوله: «تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأنهَارُ»، يقول: تجري من تحتِ أشجارها الأنهار «لَهُمْ فِيها ما يشاءُونَ»، يقول: للذين أحسنوا في هذه الدنيا في جنات عدن ما يشاءون مما تشتهي أنفسهم، وتلذُّ أعينهم. «كذلكَ يَجْزِي اللهُ المُتَّقِينَ»، يقول: كما يَجْزِي اللهُ هؤلاء الذين أحسنوا في هذه الدنيا بما وَصَفَ لكم أيها الناسُ أنه جزاهم به في الدنيا والآخرة، كذلك يَجْزي الذين اتقوه بأداءِ فرائضِه واجتنابِ معاصيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: كذلك يَجزي الله المتقين الذين تَقْبِضُ أرواحَهم ملائكةُ الله، وهم طَيِّبُونَ بتطييبِ الله إياهم بنظافة الإيمان، وطُهْرِ الإسلام في حالِ حياتهم وحال مماتهم.

وقوله: «يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ»، يعني جَلَّ ثناؤه أنَّ الملائكةَ تقبضُ أرواحَ هؤلاء المتقين، وهي تقول لهم: سلامٌ عليكم صِيرُوا إلى الجنةِ بشارة من الله تُبَشِّرُهُمْ بها الملائكة.

وقوله: «بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»، يقول: بما كنتم تصيبون في الدنيا أيامَ حياتِكم فيها طاعةَ الله، وطلب مرضاته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هل ينتظرُ هؤلاء المشركون إلا أنْ تأتيهمُ الملائكةُ لقبضِ أرواحهم، أو يأتيَ أمرُ رَبِّكَ بحشرِهم لموقفِ القيامة. «كذلكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ»، يقول جَلَّ ثناؤه: كما يفعل هؤلاء من انتظارِهم ملائكةَ الله لقبضِ أرواحهم، أو إتيانِ أمرِ الله فِعْلَ أسلافِهم من الكَفَرَةِ بالله، لأنَّ ذلك في كلِّ مشركٍ بالله «ومَا ظَلَمَهُمُ اللهُ» يقول جَلَّ ثناؤه: وما ظلمهم الله بإحلالِ سُخْطِه «ولكِنْ كانُوا أنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» بمعصيتهم رَبَّهم وكُفْرِهم به، حتى استحقُّوا عقابه، فعجَّل لهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فأصابَ هؤلاء الذين فعلوا من الأممِ الماضية فِعْلَ هؤلاء المشركينَ من قريش سيئاتُ ما عملوا، يعني عقوبات ذنوبهم، ونقم معاصيه التي اكتسبوها. «وحَاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ»، يقول: وحَلَّ بهم من عذابِ الله ما كانوا يستهزئون منه، ويسخرون عند إنذارهم ذلك رسلُ الله، ونزل ذلك بهم دونَ غيرهم من أهلِ الإيمان بالله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ

﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٣٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقال الذين أشركوا بالله فعبدوا الأوثانَ والأصنامَ من دونِ الله: ما نعبدُ هذه الأصنامَ إلا لأنَّ الله قد رضيَ عبادتنا هؤلاء، ولا نحرمُ ما حرمنا من البحائرِ والسوائبِ، إلا أنَّ الله شاء منا ومن آبائنا تَحْرِيَمناها ورَضِيَهُ، لولا ذلك لقد غَيَّرَ ذلك ببعضِ عقوباته أو بهدايته إيَّانَا إلى غيرِه من الأفعال. يقول تعالى ذِكْرُه: كذلك فَعَلَ الذين من قبلهم من الأممِ المشركةِ الذين اسْتَنَّ هؤلاءِ سُنَّتَهُمْ، فقالوا مِثْلَ قولهم: وسلكوا سبيلَهم في تكذيبِ رُسُلِ الله، واتباعِ أفعالِ آبائهم الضُّلَّال.

وقوله: «فَهَلْ على الرُّسُلِ إلَّا البَلاغُ المُبِينُ»، يقول جلَّ ثناؤه: فهل أيها القائلون: لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا، على رُسُلِنَا الذين نُرْسِلُهم بانذارِكُمْ عقوبَتَنا على كُفْرِكُمْ، إلا البلاغُ المبين: يقول: إلا أنْ تُبَلِّغَكُمْ ما أرسلنا إليكم من الرسالة، ويعني بقوله: «المُبِينُ»: الـذي يبين عن معناه لمن أبلغه، ويفهمه مَنْ أرسل إليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٣٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد بعثنا أيها الناسُ في كلِّ أمةٍ سلفت قبلكم رسولاً، كما بعثنا فيكم بأن اعبدُوا الله وحدَهُ لا شريكَ له، وأفردوا له الطاعة، وأخلصوا له العبادةَ «وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ»، يقول: وابعدوا من الشيطان، واحْذَرُوا أنْ يُغويكم، ويصدَّكُمْ عن سبيلِ الله، فتضلوا، «فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى الله»، يقول: فَمِمَّنْ بعثنا فيهم رُسُلَنا مَنْ هَدَى الله، فوفَّقه لتصديق رسله، والقبول منها،

والإيمان بالله، والعمل بطاعته، ففازَ وأفلح، ونجا من عذاب الله «وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ»، يقول: وممن بعثنا رسلنا إليه من الأمم آخرونَ حقَّت عليهمُ الضلالةُ، فجاروا عن قَصْدِ السبيل، فكفروا بالله، وكَذَّبُوا رسله، واتبعوا الطاغوتَ، فأهلكهم الله بعقابه، وأنزل عليهم بأسه الذي لا يردُّ عن القومِ المجرمين، «فِسيرُوا فِي الأَرْضِ فانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ المُكَذِّبينَ»، يقول تعالى ذكره لمشركي قريش: إنْ كنتم أيها الناسُ غير مصدّقي رسولِنَا فيما يخبركم به عن هؤلاء الأمم الذين حَلَّ بهم ماحلَّ من بأسنا بكفرهم بالله، وتكذيبهم رسوله، فسيروا في الأرض التي كانوا يسكنونها، والبلاد التي كانوا يعمرونها، فانظروا إلى آثارِ الله فيهم، وآثارِ سخطه النازلِ بهم، كيف أعقبهم تكذِيبُهم رُسُلَ الله ما أعقبهم، فإنكم ترون حقيقةَ ذلك، وتعلمون به صحةَ الخبرِ الذي يخبركم به محمدٌ ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ۝٣٧﴾

تأويل الكلام: لو كان الأمرُ على ما وصَفْنَا: إنْ تَحْرِصْ يا محمدُ على هُداهم، فإنَّ مَنْ أضَلَّهُ الله فلا هادي له، فلا تجهد نفسك في أمره، وبَلِّغْهُ ما أُرسلتَ به لتتمَّ عليه الحجةُ. «ومَا لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ»، يقول: وما لهم من ناصرٍ ينصرهم من الله إذا أراد عقوبتهم، فيحول بين الله وبين ما أرادَ من عقوبتهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وحَلَفَ هؤلاء المشركونَ من قريشٍ باللهِ جَهْدَ أيْمانِهِمْ حلفهم، لا يبعثُ اللهُ من يموتُ بعد مماته، وكذبوا وأبطلوا في أيمانهم التي حَلَفُوا بها كذلك، بل سيبعثه الله بعد مماته، وعداً عليه أنْ يبعثهم وعد عباده، واللهُ لا يُخْلِفُ الميعادَ. «وَلكِنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ»، يقول: ولكن أكثرَ قريش لا يعلمونَ وعدَ اللهِ عبادَهُ، أنه باعِثُهم يومَ القيامة بعد مماتهم أحياء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾

يقول تعالى ذكره: بل ليَبعثنَّ اللهُ مَنْ يموتُ وعداً عليه حقاً، ليبين لهؤلاء الذين يزعمون أنَّ الله لا يبعثُ مَنْ يموت، ولغيرهم الذي يختلفون فيه من أحياءِ الله خَلْقَهُ بعد فنائهم، وليعلم الذين جَحَدُوا صحةَ ذلك. وأنكروا حقيقتَهُ أنهم كانوا كاذبينَ في قِيلهم: لا يبعثُ الله مَنْ يموت.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾

يقول تعالى ذكره: إنا إذا أردنا أنْ نبعثَ مَنْ يموت فلا تَعَبَ علينا ولا نَصَبَ في إحيائِنَاهُمْ، ولا في غير ذلك مما نخلقُ ونُكوِّنُ ونُحْدِثُ، لأنَّا إذا أردنا خَلْقَهُ وإنشاءه، فإنما نقولُ له: كُنْ فيكون، لا معاناةَ فيه، ولا كُلفةَ علينا.

وقوله: «وَالَّذِينَ هاجَرُوا في اللهِ مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً»، يقول تعالى ذكره: والذين فارقوا قومَهم ودُورَهُم وأوطانَهم عداوة لهم في الله على كُفْرِهم إلى آخرينَ غيرهم، «مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا»، يقول: من بعد

ما نِيلَ منهم في أنفسهم بالمكارهِ في ذاتِ الله، «لَنُبَوِّئَنَّهُمْ في الدُّنْيا حَسَنَةً»، يقول: لَنُسْكِنَنَّهُمْ في الدنيا مسكناً يرضونه صالحاً.

وقوله: «وَلَأَجْرُ الآخرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ»، يقول: ولثوابُ الله إياهم على هجـرتهم فيه في الآخرة أكبر، لأن ثوابه إياهم هنالك الجنة التي يدوم نعيمها ولا يبيد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٤٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاء الذين وصفنا صِفَتهم، وآتيناهمُ الثوابَ الذي ذكرناه، الذين صبروا في الله على ما نابهم في الدنيا، «وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»، يقول: وبالله يثقون في أمورهم، وإليه يستندون في نوائبِ الأمورِ التي تَنُوبُهم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلـِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٤٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وما أرسلنا من قبلكَ يا محمدُ إلى أمةٍ من الأمم، للدعاء إلى توحيدنا، والانتهاء إلى أمرنا ونهينا، إلا رجالاً من بني آدم نُوحي إليهم وَحْيَنَا لا ملائكة، يقول: فلم نُرسِلْ إلى قومكَ إلا مِثْلَ الذي كنا نُرسلُ إلى مَنْ قَبلهم من الأممِ من جنسهم، وعلى منهاجهم. «فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ»، يقول لمشركي قريش: وإنْ كنتم لا تعلمون أنَّ الذين كنا نرسلُ إلى مَنْ قبلكم من الأمم رجالُ من بني آدم مثل محمدٍ ﷺ، وقلتم: هم ملائكة: أي ظَنَنتم أنَّ الله كلمهم قبلاً، فاسألوا أهلَ الذكرِ، وهم الذين قد قرءوا الكتب من قبلهم: التوراة والإنجيل، وغير ذلك من كتبِ الله التي أنزلها على عباده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾

تأويل الكلام: وما أرسلنا مِنْ قَبْلِكَ إلا رجالاً نُوحي إليهم أرسلناهم بالبينات والزبر، وأنزلنا إليك الذكر. والبيناتُ: هي الادلةُ والحجج التي أعطاها الله رُسُلَهُ أدلةً على نُبُوَّتِهم شاهدة لهم على حقيقة ما أتوا به إليهم من عند الله. والزُّبُر: هي الكتب، وهي جمع زَبُور، من زَبَرْت الكتاب وذَبَرته[1]: إذا كتبته.

وقوله: «وأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ»، يقول: وأنزلنا إليك يامحمدُ هذا القرآنَ تذكيراً للناس وعِظَةً لهم، «لِتُبَيِّنَ للنَّاسِ»، يقول: لتعرفهم ما أنزل إليهم من ذلك «وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ»، يقول: وليتذكروا فيه ويعتبروا به: أي بما أنزلنا إليك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أفأَمِنَ الذين ظلموا المؤمنينَ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ، فراموا أنْ يفتنوهم عن دينهم من مشركي قريش الذين قالوا: إذ قيل لهم: ماذا أنزل ربكم: أساطيرُ الأوَّلين، صَدّاً منهم لمن أرادَ الإيمانَ بالله عن قَصْدِ السبيلِ، أنْ يخسفَ اللهُ بهم الأرضَ على كفرهم وشركهم، أو يأتيهم عذابُ الله من مكانٍ لا يشعرُ به، ولا يدري من أين يأتيه.

---

(١) بالذال المعجمة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ۝٤٦ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٤٧﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ»، أو يهلكهم في تَصَرُّفِهم في البلاد، وتَرَدُّدِهم في أسفارهم «فَما هُمْ بِمعجِزِين»، يقول جلّ ثناؤه: فإنهم لا يعجزون الله من ذلك إنْ أرادَ أخذهم كذلك.

وأما قوله: «أَوْ يَأْخُذَهُمْ على تَخَوُّفٍ»، فإنه يعني: أو يهلكهم بِتَخَوُّفٍ، وذلك بنقصٍ من أطرافِهم ونواحيهم الشيءَ بعد الشيء حتى يهلك جميعهم، يقال منه: تَخَوَّفَ مال فلان الإنفاق: إذا انتقصه.

وقوله: «فإنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ»، يقول: فإنَّ رَبَّكُم إنْ لم يأخذ هؤلاء الذين مكروا السيئاتِ بعذابٍ معجَّل لهم، وأخذهم بموتٍ وتنقص بعضهم في إثر بعض، لرؤوف بخلقه، رحيم بهم، ومن رأفته ورحمته بهم لم يخسف بهم الأرض، ولم يعجِّلْ لهم العذابَ، ولكنْ يُخَوِّفُهم ويُنَقِّصُهم بموت.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ۝٤٨﴾

تأويل الكلام: أَوَ لَمْ يَرَ هؤلاء الذين مكروا السيئاتِ، إلى ما خَلَقَ الله من جسم قائم، شَجَرٍ أو جبَلٍ أو غير ذلك، يتفيأ ظلالُهُ عن اليمينِ والشمائل، يقول: يرجع من موضع إلى موضع، فهو في أوّل النهار على حال، ثم يتقلَّصُ، ثم يعودُ إلى حالٍ أخرى في آخر النهار.

وأما قوله: «سُجَّداً لله»، فإنَّ الله أخبر في هذه الآية أنَّ ظلالَ الأشياء هي التي تسجد، وسجودها: مَيلانُها ودورانُها من جانبٍ إلى جانب، وناحية إلى

ناحية، كما قال ابن عباس: يقال من ذلك: سجدت النخلةُ إذا مالت: وسجدَ البعير وأُسجد: إذا أُميلَ للركوب. وقد بيَّنا معنى السجود في غير هذا الموضع بما أغنى عن إعادته.

وقوله: «وَهُمْ دَاخِرُونَ»، يعني: وهم صاغرون، يقال منه: دَخَرَ فلانٌ لله يدخر دخراً ودخوراً: إذا ذَلَّ له وخضع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٤٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولله يخضعُ ويستسلمُ لأمرهِ ما في السمواتِ وما في الأرض من دابَّةٍ يدبُّ عليها، والملائكة التي في السموات، وهم لا يستكبرون عن التذللِ له بالطاعة «وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ، قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ»، وظلالهم تتفيأ «عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ۝٥٠﴾

يقول تعالى ذكره: يخافُ هؤلاء الملائكةُ التي في السموات، وما في الأرض من دابة، رَبَّهم من فوقِهم، أنْ يُعَذِّبَهُمْ إنْ عَصَوا أمره، ويفعلون ما يؤمرون. يقول: ويفعلونَ ما أمرهم اللهُ به، فيؤدُّونَ حقوقَهُ، ويجتنبون سُخْطه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ۝٥١﴾

يقول تعالى ذكره: وقال الله لعباده: لا تتخذوا لي شريكاً أيها الناسُ، ولا تعبدوا معبودَيْن، فإنكم إذا عبدتم معي غيري جعلتم لي شريكاً، ولا شريكَ لي، إنما هو إلهٌ واحد، ومعبودٌ واحد، وأنا ذلك، فإيايَ فارهبون: يقول: فإياي فاتقوا وخافوا عقابي بمعصيتكم إياي إنْ عَصَيْتُموني وعَبَدْتُمْ غيري، أو أشركتم في عبادتكم لي شريكاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ۝٥٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولله مُلْكَ ما في السمواتِ والأرض من شيء، لا شريكَ له في شيءٍ من ذلك هو الذي خلقهم، وهو الذي يرزقهم، وبيده حياتُهم وموتُهم.

وقوله: «وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبا»، يقول جلّ ثناؤه: وله الطاعةُ والإخلاصُ دائماً ثابتاً واجباً، يقال منه[1]: وَصَبَ الدِّينُ يَصِبُ وُصُوباً ووَصْبا[2].

وقوله: «أفَغَيْرَ الله تَتَّقُونَ»، يقول تعالى ذكره: أفغيرَ اللهِ أيها الناسُ تَتَّقُونَ: أي تَرْهَبُون وتَحْذَرُونَ أنْ يَسْلِبَكُمْ نعمةَ الله عليكم بإخلاصِكم العبادةَ لربكم، وإفرادكم الطاعة له، وما لكم نافعٌ سواه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ۝٥٣﴾

---

(١) انظر مفردات الراغب: ٨٧٢.

(٢) أي: وَجَبَ.

تأويل الكلام: ما يكن بكم في أبدانكم أيها الناسُ من عافيةٍ وصحةٍ وسلامة، وفي أموالكم من نماء، فاللهُ المنعمُ عليكم بذلك لا غيره، لأنَّ ذلك إليه وبيده، «ثُمَّ إذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ»، يقول: إذا أصابكم في أبدانكم سَقَمٌ ومرض، وعلةٌ عارضةٌ، وشدَّةٌ من عيش، «فإلَيْهِ تَجْأَرُونَ»، يقول: فإلى الله تصرخون بالدعاء وتستغيثون به، ليكشف ذلك عنكم. وأصله: من جؤار الثور، يقال منه: جأَرَ الثورُ يجأر جؤاراً، وذلك إذا رفع صوتاً شديداً من جوعٍ أو غيره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ثم إذا وَهَبَ لكم رَبُّكم العافيةَ، ورفع عنكم ما أصابكم من المرضِ في أبدانكم، ومن الشدّةِ في معاشكم، وفَرَّجَ البلاءَ عنكم. «إذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ»، يقول: إذا جماعةٌ منكم يجعلون لله شريكاً في عبادتهم، فيعبدون الأوثانَ، ويذبحونَ لها الذبائحَ شكراً لغير مَنْ أنعمَ عليهم بالفرجِ مما كانوا فيه من الضرِّ. «لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْناهُمْ»، يقول: ليجحدوا الله نعمته فيما آتاهم من كشفِ الضُّرِّ عنهم. «فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ»، وهذا من الله وعيدٌ لهؤلاء الذين وَصَفَ صِفَتهم في هذه الآيات، وتهديدٌ لهم، يقول لهم جلَّ ثناؤه: تَمَتَّعُوا في هذه الحياة الدنيا إلى أنْ توافيكم آجالُكم، وتبلغوا الميقاتَ الذي وَقَّتَهُ لحياتكم، وتمتعكم فيها، فإنكم من ذلك ستصيرون إلى ربكم، فتعلمون بلقائهِ وبالَ ما كسبتْ أيديكم، وتعرفونَ سوء مغبةِ أمركم، وتندمونَ حينَ لا ينفعكم الندم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾

﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ۝٥٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويجعلُ هؤلاء المشركون من عَبَدةِ الأوثان، لما لا يعلمون منه ضراً ولا نفعاً، نصيباً، يقول: حظاً وجزاءً مما رزقناهم من الأموالِ، إشراكاً منهم لله الذي يعلمون أنه خلقهم، وهو الذي ينفعهم ويضرّهم دون غيره.

وقوله: «تالله لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والله أيها المشركونَ الجاعلونَ الآلهةَ والأندادَ نصَيباً فيما رزقناكم شركاً بالله وكفراً، ليسألنكم اللهُ يومَ القيامة عما كنتم في الدنيا تفترون، يعني: تختلقون من الباطلِ والإفكِ على الله بدعواكم له شريكاً، وتصييركم لأوثانِكم فيما رزقكم نصيباً، ثم ليعاقِبَنَّكُمْ عقوبةً تكونُ جزاءً لكفرانكم نِعَمَهُ وافترائكم عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ۝٥٧ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومِنْ جهلِ هؤلاء المشركينَ وخُبْثِ فعلهم، وقُبْحِ فِرْيتهم على رَبِّهم، أنهم يجعلونَ لمن خلقهم ودبَّرهم وأنعم عليهم، فاستوجب بنعمه عليهم الشكر، واستحقَّ عليهم الحمد: البنات. ولا ينبغي أنْ يكونَ لله ولدٌ ذكر ولا أنثى سبحانه. نَزَّه جَلَّ جلاله بذلك نفسه عما أضافوا إليه ونَسبوهُ من البناتِ، فلم يرضوا بجهلهم إذْ أضافوا إليه ما لا ينبغي إضافتُه إليه. ولا ينبغي أن يكون له من الولدِ أن يُضيفوا إليه ما يشتهونه لأنفسهم، ويحبونه لها، ولكنهم أضافوا إليه ما يكرهونه لأنفسهم، ولا يرضونه لها من البناتِ ما يقتلونها إذا كانت لهم، وفي «ما» التي في قوله: «ولَهُمْ ما يَشْتَهُونَ» وجهان من العربية النصب عطفاً لها على البنات، فيكون معنى الكلام: إذا أُريدَ ذلك: ويجعلون

لله البنات ولهم البنين الذين يشتهون، فتكون «ما» للبنين، والرفع على أن الكلام مبتدأ من قوله: «ولَهُمْ ما يَشْتَهُونَ»، فيكون معنى الكلام: ويجعلون لله البنات ولهم البنون.

وقوله: «وَإذَا بُشِّرَ أحَدُهُمْ بالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًا»، يقول: وإذا بُشِّرَ أحدُ هؤلاء الذين جعلوا لله البنات بولادة مايضيفه إليه من ذلك له، ظَلَّ وجهه مُسْوَدّاً من كراهته له، «وَهُوَ كَظِيمٌ»، يقول قد كَظَم الحزنَ، وامتلأ غماً بولادته له، فهو لا يظهر ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يتوارى هذا المبشَّرُ بولادةِ الأنثى من الولد له من القوم، فيغيبُ عن أبصارِهم، «مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ»، يعني: من مَسَاءتهِ إياه مَمِيلاً[١] بين أن يمسكه على هُون: أي على هوان[٢].

وقوله: «ألا ساءَ ما يَحْكُمُونَ»، يقول: أَلَا ساء الحكمُ الذي يحكم هؤلاء المشركون، وذلك أنْ جعلوا لله ما لا يرضون لأنفسهم، وجعلوا لِمَا لا ينفعهم ولا يضرُّهم شركاً فيما رزقهم الله، وعبدوا غيرَ مَنْ خلقهم، وأنعم عليهم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

---

(١) يقال مال إليه ميلاً وممالاً ومَمِيلاً وتمیالاً وميلاناً وميلولة: عَدَلَ.

(٢) انظر معاني القرآن للفراء: ٢/١٠٦ وهي لغة قريش.

وهذا خبر من الله جلّ ثناؤه أن قوله: «وَإِذَا بُشِّرَ أَحدهُمْ بالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًا وَهُوَ كَظِيمٌ». والآية التي بعدها مَثَلٌ ضربه الله لهؤلاء المشركين الذين جعلوا لله البنات، فبين بقوله: «لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ»، أنه مثل، وعنى بقوله جل ثناؤه: «لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ»، للذين لا يصدّقون بالمعادِ والثوابِ والعقاب من المشركين «مَثَلُ السَّوْءِ»، وهو القبيح من المثل، وما يسوء من ضرب له ذلك المثل. «وللهِ المَثَلُ الأعْلَى»، يقول: ولله المثل الأعلى، وهو الأفضلُ والأطيب، والأحسنُ، والأجمل، وذلك التوحيد والإذعان له بأنه لا إله غيره.

وقوله: «وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ»، يقول تعالى ذكره: واللهُ ذو العزّةِ التي لا يمتنعُ عليه معها عقوبة هؤلاء المشركينَ الذين وصف صِفَتهم في هذه الآيات، ولا عقوبة مَنْ أراد عقوبته على معصيته إياه، ولا يتعذّرُ عليه شيءٌ أراده وشاءه، لأنَّ الخَلْقَ خَلْقُه، والأمرَ أمره، الحكيمُ في تدبيره، فلا يدخلُ تدبيرَهُ خَلَلٌ، ولا خطأ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ» عُصَاةَ بني آدم بمعاصيهم «ما تَرَكَ عَلَيْها»، يعني على الأرض «مِنْ دَابَّةٍ» تدبُّ عليها، «وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ»، يقول: ولكن بحلمه يؤخرُ هؤلاء الظلمة فلا يُعاجلهم بالعقوبة، «إلى أجَلٍ مُسَمًّى»، يقول: إلى وقتهم الذي وُقِّت لهم، «فإذَا جاءَ أجَلُهُمْ»، يقول: فإذا جاء الوقتُ الذي وُقِّتَ لهلاكِهم «لا يَسْتَأْخِرُونَ» عن الهلاك ساعة فيمهلون، «وَلا

«يَسْتَقْدِمُونَ» له حتى يستوفُوا آجالهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ۝٦٢﴾

يقول تعالى ذكره: ويجعل هؤلاء المشركون لله ما يكرهونه لأنفسهم. «وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الكَذِبَ»، يقول: وتقول ألسنتهم الكذبَ وتَفْتريه، أنَّ لهم الحسنى، فأن في موضع نصب، لأنها ترجمةٌ عن الكذب.

وتأويلُ الكلام: ويجعلون لله ما يكرهونه لأنفسهم، ويزعمون أنَّ لهم الحسنى، الذي يكرهونه لأنفسهم، البنات يجعلونهن لله تعالى، وزعموا أنَّ الملائكةَ بنات الله، وأما الحُسنى التي جعلوها لأنفسهم: فالذكور من الأولاد، وذلك أنهم كانوا يَئِدُونَ الإناثَ من أولادهم، ويَسْتَبْقُونَ الذكورَ منهم، ويقولون: لنا الذكورُ ولله البنات، وهو نحو قوله: «ويَجْعَلُونَ للهِ البَناتِ سُبْحانَهُ، ولَهُمْ ما يَشْتهونَ».

وقوله: «لا جَرَمَ أن لَهُمُ النَّارَ وأنَّهُمْ مُفْرَطُونَ»، يقول تعالى ذكره: حقاً واجباً أنَّ لهؤلاء القائلينَ لله البنات، الجاعلينَ له ما يكرهونه لأنفسهم، ولأنفسهم الحسنى عند الله يوم القيامة النار.

وقوله: «وأنَّهُمْ مُفْرَطُونَ»، يقول تعالى ذكره: وأنهم مُخَلَّفُونَ متروكون في النار، مَنْسِيُّونَ فيها[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦٣﴾

(١) انظر معاني القرآن للفراء: ٢/١٠٧.

يقول تعالى ذِكْرُه مُقْسِماً بنفسه عزّ وجلّ لنبيه محمد ﷺ: والله يا محمدُ لقد أرسلنا رُسُلاً من قبلك إلى أممها بمثلِ ما أرسلناكَ إلى أمتكَ من الدعاءِ إلى التوحيدِ لله، وإخلاصِ العبادةِ له، والإذعانِ له بالطاعة، وخَلْعِ الأندادِ والآلهة، «فزَيَّنَ لَهُم الشَّيْطانُ أعْمالَهُمْ»، يقول: فَحَسَّنَ لهم الشيطانُ ما كانوا عليه من الكفرِ بالله وعبادةِ الأوثانِ مقيمينَ، حتى كَذَّبُوا رسلهم، وردُّوا عليهم ما جاءوهم به من عند ربهم. «فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اليَوْمَ»، يقول: فالشيطانُ ناصِرُهم اليومَ في الدنيا، وبئس الناصر. «ولَهُمْ عَذابٌ أليمٌ» في الآخرة عند ورودهم على رَبِّهم، فلا ينفعهم حينئذٍ ولايةُ الشيطان، ولا هي نفعتهم في الدنيا، بل ضَرَّتْهُمْ فيها، وهي لهم في الآخرة أضرّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ: وما أنزلنا يا محمدُ عليك كتابنا وبعثناكَ رسولاً إلى خَلْقِنا إلا لِتُبَيِّنَ لهم ما اختلفوا فيه من دينِ الله، فتعرِّفَهُم الصوابَ منه، والحقَّ من الباطلِ، وتُقيم عليهم بالصوابِ منه حجةَ الله الذي بعثكَ بها.

وقوله: «وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»، يقول: وهدى: بياناً من الضلالة، يعني بذلك الكتاب، ورحمةً لقوم يؤمنون به، فيصدِّقُونَ بما فيه، ويُقِرُّونَ بما تضمن من أمرِ الله ونهيه، ويعملون به، وعطف بالهدى على موضع ليبين، لأنَّ موضعها نصب. وإنما معنى الكلام: وما أنزلنا عليك الكتاب إلا بياناً للناس فيما اختلفوا فيه هدى ورحمة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ

مَوْتِهَآ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾

يقـول تعالى ذكره مُنَبِّهَ خَلْقِه على حُجَجِه عليهم في توحيده، وأنه لا تنبغي الألوهةُ إلا له، ولا تصلحُ العبادةُ لِشيءٍ سواه: أيها الناسُ معبودكم الذي له العبادةُ دونَ كلِّ شيء «أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً»، يعني: مطراً، يقول: فأنبتَ بما أنزلَ من ذلك الماء من السماء الأرضَ الميتةَ التي لا زرعَ بها ولا عُشْبَ ولا نبت «بَعْدَ مَوْتِها» بعد ماهي ميتةٌ لا شيءَ فيها. «إنَّ فِي ذلكَ لَآيَةً»، يقول تعالى ذكره: إن في إحيائنا الأرضَ بعد موتها بما أنزلنا من السماء من ماءٍ لدليلاً واضحاً، وحجـةً قاطعةً، عُذْرَ مَنْ فَكَّرَ فيه. «لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ»، يقول: لقوم يسمعون هذا القولَ فيتدبرونه ويعقلونه، ويُطيعونَ الله بما دلهم عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإنَّ لكم أيها الناسُ لَعِظَةً في الأنعام التي نُسْقيكم مما في بطونه.

وقوله: «مِنْ بينِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خالِصاً»، يقول: نُسقيكم لبناً، نُخْرِجُه لكم من بين فَرْثٍ ودَمٍ خالصاً: يقول: خلص من مخالطةِ الدم والفرث، فلم يختلطا به. «سائِغاً للشَّارِبينَ»، يقول: يسوغ لمن شربه فلا يَغَصُّ به كما يَغَصُّ الغاصُّ ببعضِ ما يأكله من الأطعمة. وقيل: إنه لم يَغَصَّ أحدٌ باللبن قَطُّ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

النحل: ٦٧

يقول تعالى ذِكْرُه: ولكم أيضاً أيها الناسُ عِبرةٌ فيما نسقيكم من ثمراتِ النخيلِ والأعناب ما تتخذون منه سَكَراً ورزقاً حسناً، مع ما نسقيكم من بطونِ الأنعام من اللبن الخارجِ من بين الفرث والدم.

واختلف أهلُ التأويل في معنى قوله: «تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً»، فقال بعضهم: عنى بالسَّكَر: الخمر، وبالرزق الحسن: التمر والزبيب، وقال: إنما نزلت هذه الآيةُ قبل تحريمِ الخمر[1]، ثم حُرِّمَتْ بَعْدُ.

وقال آخرون: السَّكَر بمنزلةِ الخمرِ في التحريم، وليس بخمرٍ، وقالوا: هو نَقيعُ التمرِ والزبيبِ إذا اشتدَّ وصار يسكر شاربه.

وقال آخرون: السَّكَر: هو كُلُّ ما كان حلالاً شربُه، كالنبيذِ الحلالِ والخلِّ والرطَب، والرزق الحسن: التمر والزبيب.

وهذا التأويلُ عندي هو أوْلى الأقوالِ بتأويل هذه الآية، وذلك أنَّ السكر في كلام العرب على أحدِ أوجهٍ أربعة: أحدها: ما أسكر من الشراب. والثاني: ماطُعِم من الطعام. والثالث: السُّكون. والرابع: المصدر من قولهم: سكر فلان يسكر سُكْراً وسَكْراً وسَكَراً، فإذا كان ذلك كذلك، وكان مايُسْكِرُ من الشراب حراماً بما قد دللنا عليه في كتابنا المسمى: «لطيفُ القول في أحكام شرائع الإسلام» وكان غير جائز لنا أن نقول: هو منسوخ، إذْ كان المنسوخُ هو مانَفَى حكمهُ الناسخُ، وما لا يجوزُ اجتماعُ الحكم به وناسخه، ولم يكن في حكم الله تعالى ذِكْرُه بتحريمِ الخمر دليلٌ على أن السَّكَر الذي هو غير الخمر، وغير مايسكر من الشراب، حرام، إذْ كان السكر أحد معانيه عند العرب، ومن نزل بلسانه القرآن هو كلّ ماطعم، ولم يكن مع ذلك، إذ لم يكن في نفس التنزيل دليلٌ على أنه منسوخ، أو وَرَدَ بأنه منسوخٌ خبرٌ من الرسول، ولا أجمعت

---

(١) وهذا قول الفراء في معاني القرآن: ٢/١٠٩.

عليه الأمة، فوجب القولُ بما قلنا من أنَّ معنى السَّكَر في هذا الموضع: هو كلُّ ما حَلَّ شربه، مما يُتَّخذُ من ثمر النخل والكرم، وفسد أن يكون معناه الخمر أو ما يسكر من الشراب، وخرجَ من أنْ يكونَ معناه السَّكَر نَفْسُه، إذْ كان السَّكَرُ ليس مما يتخذ من النَّخْلِ والكَرْم، ومن أن يكون بمعنى السكون.

وقوله: «إنَّ فِي ذلكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ»، يقول: إن فيما وصفنا لكم من نعمنا التي آتيناكم أيها الناسُ من الأنعامِ والنخلِ والكرم، لدلالة واضحة وآية بينة لقومٍ يعقلون عن الله حججه، ويفهمون عنه مواعظه، فيتعظون بها.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وألهم رَبُّكَ يا محمدُ النحلَ إيحاءً إليها «أنِ اتَّخِذِي مِنَ الجبالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ ومِمَّا يَعْرِشُونَ»، يعني: مما يبنون من السقوفِ، فرفعوها بالبناء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: ثم كلي أيتها النحلُ من الثمراتِ «فاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ»، يقول: فاسلكي طُرُقَ رَبِّكَ «ذُلُلاً»، يقول: مُذَلَّلة لك، والذُّلُل: جمع ذَلُول.

وقـوله: «يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُه»، يقول تعالى ذِكْرُه:

يخرج من بطون النحلِ شرابٌ، وهو العسلُ، مختلف ألوانه، لأنَّ فيها أبيض وأحمر وأسحر، وغير ذلك من الألوان.

قال أبو جعفر أسحر: ألوان مختلفة مثل أبيض يضرب إلى الحمرة.

وقوله: «فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ»، اختلف أهل التأويل فيما عادت عليه الهاء التي في قوله: «فِيهِ».

فقال بعضهم: عادت على القرآن، وهو المراد بها.

وقال آخرون: بل أُريدَ بها العسل، (وهو قول قَتَادة).

وهذا القول، أعني قول قتادة، أَوْلى بتأويل الآية، لأن قوله: «فِيهِ» في سياقِ الخبرِ عن العسلِ فأن تكون الهاء من ذكر العسل، إذْ كانت في سياق الخبرِ عنه أَوْلى من غيره.

وقوله: «إِنَّ فِي ذلكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ في إخراجِ الله من بطونِ هذه النحل: الشراب المختلف، الذي هو شفاءٌ للناس، لدلالة وحجة واضحة على مَنْ سَخَّرَ النحلَ وهداها لأكلِ الثمراتِ التي تأكل، واتخاذها البيوت التي تنحتُ من الجبالِ والشجرِ والعروش، وأخرجَ من بطونها ما أخرجَ من الشفاءِ للناسِ ، أنه الواحدُ الذي ليس كمثله شيءٌ، وأنه لا ينبغي أنْ يكونَ له شريكٌ، ولا تصحُّ الأُلوهةُ إلا له.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والله خلقكم أيها الناس وأوجدكم، ولم تكونوا شيئاً،

لا الآلهة التي تعبدون من دونه، فاعبدوا الذي خلقكم دونَ غيره «ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ»، يقول: ثم يقبضكم، «وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العُمُرِ»، يقول: ومنكم من يَهْرَم، فيصيرُ إلى أرذلِ العمر، وهو أردؤه، يقال منه: رذل الرجل وفسل، يرذلُ رذالةً ورذولةً ورذلته أنا. وقيل: إنه يصير كذلك في خمس وسبعين سنة.

وقوله: «لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً» يقول: إنما نردُّه إلى أرذلِ العمر ليعودَ جاهلاً كما كان في حال طفولته وصباه، «بعد علم شيئاً»، يقول: لئلا يعلم شيئاً بعد علم كان يعلمه في شبابه، فذهب ذلك بالكبر ونسي، فلا يعلمُ منه شيئاً، وانسلخَ من عقله، فصار من بعد عقلٍ كانَ له لا يعقلُ شيئاً. «إنَّ اللهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ»، يقول: إن الله لا ينسى، ولا يتغير عِلْمُه، عليمٌ بكلِّ ما كانَ ويكون، قديرٌ على ما شاء لا يجهل شيئاً، ولا يُعجزه شيء أراده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والله أيها الناسُ فَضَّلَ بعضَكم على بعضٍ في الرزقِ الذي رزقكم في الدنيا، فما الذين فضَّلهم الله على غيرهم بما رزقهم «بِرَادِّي رِزْقِهِمْ على ما مَلَكَتْ أيمَـانُهُمْ»، يقول: بمشركي مماليكهم فيما رَزَقهم من الأموالِ والأزواج «فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ»، يقول: حتى يستووا هم في ذلك وعبيدهم، يقول تعالى ذكره: فهم لا يرضَون بأنْ يكونوا هم ومماليكُهم فيما رزقتهم سواء، وقد جعلوا عبيدي شركائي في مُلْكي وسلطاني، وهذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى ذِكْرُه للمشركين بالله. وقيل: إنما عنى بذلك، الذين قالوا: إنَّ المسيحَ ابن الله من النصارى.

وقوله: «أفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أَفبنعمةِ الله التي أنعمها على هؤلاء المشركين من الرزقِ الذي رزقهم في الدنيا يجحدون بإشراكهم غير الله من خَلْقِه، في سلطانه ومُلكه؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَاللهُ» الذي «جَعَلَ لَكُمْ» أيها الناس «مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً»، يعني أنه خلق من آدم زوجته حوّاء «وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أزواجكم بنين وحَفَدةً».

واختلف أهلُ التأويل في المعنيين بالحَفَدةِ.

فقال بعضهم: هم الأختان، أختانُ الرجل على بناته.

وقال آخرون: هم أعوانُ الرجل وخَدَمُهُ.

وقال آخرون: هم وَلَدُ الرجلِ وولدُ ولدِه.

وقال آخرون: هم بنو امرأةِ الرجلِ من غيرِه.

والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله تعالى أخبر عباده مُعَرِّفَهُمْ نِعَمَهُ عليهم، فيما جعلَ لهم من الأزواجِ والبنين، فقال تعالى: «وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً»، فأعلمهم أنه جعلَ لهم من أزواجهم بنينَ وحَفدة، والحفَدة في كلام العرب: جمع حافد، كما الكذبة: جمع كاذب، والفَسَقة: جمع فاسق، والحافد في كلامهم: هو المتخفِّفُ في الخدمة والعمل. والحَفْد: خِفَّةُ العمل. يقال: مَرَّ

البعير يَحْفِد حفَدَاناً: إذا مَرَّ يُسرِعُ في سيره. ومنه قولهم: «إليك نسعى ونحفِد»: أي نسرعُ إلى العمل بطاعتك.

وإذْ كان معنى الحفدة ماذكرنا من أنهم المسرعون في خدمةِ الرجل، المتخففونَ فيها، وكان الله تعالى ذِكْرُه أخبرنا أنَّ مما أنعمَ به علينا أنْ جعلَ لنا حَفَدةً تحفدُ لنا، وكان أولادنا وأزواجنا الذين يصلحون للخدمة منا ومن غيرنا وأختاننا الذين هم أزواجُ بناتنا من أزواجنا وخدمنا من مماليكنا إذا كانوا يحفدوننا، فيستحقُّونَ اسم حَفَدة، ولم يكن الله تعالى دَلَّ بظاهرِ تنزيلِه، ولا على لسانِ رسولِه ﷺ، ولا بحجة عقل، على أنه عَنَى بذلك نوعاً من الحفدة، دونَ نوعٍ منهم، وكان قد أنعم بكلٍّ ذلك علينا، لم يكن لنا أنْ نُوجِّهَ ذلك إلى خاصٍّ من الحفدةِ دونَ عام، إلا ما اجتمعت الأمةُ عليه أنه غير داخلٍ فيهم. وإذا كان ذلك كذلك فلكلِّ الأقوالِ التي ذكرنا عَمَّنْ ذكرنا وجهٌ في الصحة، ومَخْرجٌ في التأويل. وإنْ كان أَوْلى بالصواب من القول ما اخترنا، لما بَيَّنا من الدليل.

وقوله: «وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ»، يقول: ورزقكم من حلالِ المعاشِ والأرزاقِ والأقواتِ، «أفَبالباطِلِ يُؤْمِنُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يُحَرِّمُ عليهم أولياء الشيطان من البحائرِ والسوائبِ والوصائل، فيصدِّقُ هؤلاء المشركون بالله. «وَبِنِعْمَةِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ»، يقول: وبما أحلَّ اللهُ لهم من ذلك، وأنعم عليهم بإحلاله: يكفرون. يقول: ينكرون تحليلَهُ، ويجحدون أنْ يكونَ اللهُ أحَلَّهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويعبدُ هؤلاء المشركون بالله من دونه أوثاناً لا تملكُ لهم رزقاً من السموات، لأنها لا تقدر على إنزالِ قَطْرٍ منها لإحياء مَوَتَانِ الأرضين، والأرض. يقول: ولا تملك لهم أيضاً رزقاً من الأرض لأنها لا تقدر على إخراجِ شيءٍ من نباتها وثمارها لهم، ولا شيئاً مما عَدَّدَ تعالى في هذه الآية أنه أنعم بها عليهم، «وَلا يَسْتَطِيعُونَ»، يقول: ولا تملكُ أوثانُهم شيئاً من السمواتِ والأرضِ، بل هي وجميعُ ما في السموات والأرض لله ملك، ولا يستطيعون: يقول: ولا تقدر على شيء.

وقوله: «فَلا تَضْرِبُوا للهِ الأَمْثَالَ» يقول: فلا تمثلوا لله الأمثالَ، ولا تُشَبِّهُوا له الأشباهَ، فإنه لا مِثْلَ له، ولا شِبْه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٧٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وشَبَّه لكم شَبهاً أيها الناسُ للكافرِ من عبيدِه، والمؤمن به منهم. فأما مَثَلُ الكافر: فإنه لا يعملُ بطاعةِ الله، ولا يأتي خيراً، ولا ينفق في شيءٍ من سبيل الله ماله لِغَلبَةِ خذلانِ الله عليه، كالعبدِ المملوك، الذي لا يقدرُ على شيءٍ فينفقه. وأما المؤمنُ بالله فإنه يعملُ بطاعةِ الله، وينفقُ في سبيله ماله كالحرِّ الذي آتاه الله مالاً، فهو ينفقُ منه سرّاً وجهراً، يقول: بعلمٍ من الناسِ وغيرِ عِلْمٍ. «هَلْ يَسْتَوُونَ»، يقول هل يستوي العبدُ الذي لا يملكُ شيئاً ولا يقدرُ عليه، وهذا الحرّ الذي قد رَزَقَهُ الله رزقاً حسناً، فهو ينفقُ كما وَصَف، فكذلك لا يستوي الكافرُ العاملُ بمعاصي الله المخالف أمره، والمؤمن العامل بطاعته.

وقوله: «الحَمْدُ للهِ»، يقول: الحمدُ الكاملُ لله خالصاً دون ما تَدْعُون أيها القومُ من دونه من الأوثان فإياه فاحمدوا دونها.

وقوله: «بَلْ أكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ»، يقول: ما الأمرُ كما تفعلون، ولا القولُ كما تقولون، ما للأوثانِ عندهم، من يَدٍ ولا معروف، فتُحْمد عليه، إنما الحمدُ لله، ولكنَّ أكثر هؤلاء الكفرة الذين يعبدونها لا يعلمونَ أنَّ ذلك كذلك، فهم بجهلهم بما يأتون ويَذَرُونَ يجعلونها لله شُركاءَ في العبادةِ والحمد.

وكان مجاهد يقول: ضربَ اللهُ هذا المثلَ، والمثلَ الآخر بَعْدَهُ لنفسه، وللآلهةِ التي تُعْبَدُ من دونه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾

وهذا مثل ضربه الله تعالى لنفسهِ والآلهةِ التي تُعبد من دونهِ، فقال تعالى ذِكْرُه: «وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ، أحَدُهُما أبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ»، يعني بذلـك الصنم أنـه لا يسمعُ شيئاً، ولا ينطق، لأنه إما خَشَبٌ منحوتٌ، وإما نحاسٌ مصنوع لا يقدرُ على نفعٍ لمن خدمه، ولا دفعِ ضرٍ عنه، وهو كَلٌّ على مولاه. يقول: وهو عيالٌ على ابن عمه وحلفائهِ وأهلِ ولايته، فكذلك الصنمُ كَلٌّ على من يَعْبُده، يحتاجُ أنْ يحمله، ويضعه ويخدمه، كالأبكمِ من الناسِ الذي لا يقدرُ على شيءٍ، فهو كَلٌّ على أوليائه من بني أعمامه وغيرهم. «أيْنَما يُوَجِّهْهُ لَا يأْتِ بخَيْرٍ»، يقول: حيثما يوجهه لا يأتِ بخير، لأنه لا يفهمُ ما يُقالُ له، ولا يقدرُ أنْ يُعَبِّرَ عن نفسهِ مايريد، فهو لا يفهمُ، ولا يُفْهَمُ عنه، فكذلك الصنمُ، لا يعقلُ ما يُقالُ له، فيأتمرُ لأمرِ مَنْ أمَرَهُ، ولا ينطقُ فيأمر وينهى، يقول

الله تعالى: «هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بالعَدْلِ»، يعني: هل يستوي هذا الأبكمُ الكَلُّ على مولاه الذي لا يأتي بخيرٍ حيثُ توجَّهَ ومَنْ هو ناطقٌ متكلمٌ يأمرُ بالحقِّ، ويدعو إليه، وهو اللهُ الواحدُ القهار، الذي يدعو عباده إلى توحيده وطاعته، يقول: لا يستوي هو تعالى ذِكْرُه، والصنم الذي صِفَتُه ما وصف.

وقوله: «وَهُوَ على صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» يقول: وهو مع أمرِه بالعدلِ، على طريقٍ من الحقِّ في دعائه إلى العدل، وأمره به مستقيم، لا يَعْوَجُّ عن الحقِّ، ولا يزولُ عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٧٧﴾

يقول تعالى ذكره: ولله أيها الناسُ مِلكُ ما غابَ عن أبصاركم في السمواتِ والأرضِ دونَ آلهتكم التي تَدْعُونَ من دونه، ودون كلِّ ماسواه، لا يملكُ ذلك أحدٌ سواه. «ومَا أَمْرُ السَّاعَةِ إلَّا كَلَمْحِ البَصَرِ»، يقول: وما أمرُ قيامِ القيامةِ والساعةِ التي تُنشر فيها الخَلْقُ للوقوف في موقفِ القيامة، إلا كنظرةٍ من البصر، لأنَّ ذلك إنما هو أن يقال له: كُنْ فيكون.

وقوله: «إنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»، يقول: إنَّ الله على إقامةِ الساعةِ في أقرب من لمحِ البصرِ قادرٌ، وعلى ما يشاء من الأشياء كلها، لا يمتنعُ عليه شيء أراده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والله تعالى أعلمكم ما لم تكونوا تعلمون من بعدِ ما أخرجكم من بطونِ أمهاتكم، لا تعقلونَ شيئاً ولا تعلمون، فرزقكم عقولاً تفقهون بها، وتميزون بها الخيرَ من الشرِّ وبَصَّرَكُمْ بها ما لم تكونوا تبصرون، وجعلَ لكم السمعَ الذي تسمعون به الأصواتَ، فيفقه بعضُكم عن بعضٍ ما تتحاورون به بينكم، والأبصارَ التي تُبْصِرونَ بها الأشخاصَ، فتتعارفون بها، وتميزون بها بعضاً من بعض. والأفئدة: يقول: والقلوب التي تعرفون بها الأشياءَ فتحفظونها، وتفكرون فتفقهون بها. «لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»، يقول: فَعَلْنا ذلك بكم، فاشكروا الله على ما أنعمَ به عليكم من ذلك، دونَ الآلهةِ والأندادِ، فجعلتم له شركاء في الشكر، ولم يكن له فيما أنعم به عليكم من نِعَمِه شريكٌ.

وقوله: «وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً» كلامٌ مُتَناهٍ، ثم ابتدىء الخبر، فقيل: وجعلَ الله لكم السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ. وإنما قلنا ذلك كذلك، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ جعلَ العبادةَ والسمع والأبصار والأفئدة، قبل أنْ يخرجهم من بطونِ أمهاتهم، وإنما أعطاهم العلمَ والعقلَ بعد ما أخرجهم من بطونِ أمهاتهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لهؤلاء المشركين: ألم تَروا أيُّها المشركون بالله إلى الطيرِ مسخراتٍ في جوِّ السماء. يعني: في هواء السماء بينها وبين الأرض.

«ما يُمْسِكُهُنَّ إلاَّ اللهُ» يقول: ما طيرانها في الجوِّ إلا بالله، وبتسخيره إياها بذلك، ولو سلبها ما أعطاها من الطيرانِ لم تَقْدِرْ على النهوضِ ارتفاعاً.

وقوله: «إنَّ فِي ذلكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»، يقول: إنَّ في تسخيرِ الله

الطيرَ، وتمكينه لها الطيران في جوِّ السماء، لعلاماتٍ ودلالات على أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له، وأنه لاحَظَّ للأصنام والأوثانِ في الألوهة. «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»، يعني: لقوم يُقِرُّونَ بوجدانِ ما تُعاينُه أبصارُهم، وتُحِسُّه حواسهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾

يقول تعالى ذكره: «وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ» أيها الناس «مِنْ بُيُوتِكُمْ» التي هي من الحَجَرِ والمَدَرِ «سَكَناً» تسكنونَ أيامَ مقامكم في دوركم وبلادكم «وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ جُلُودِ الأنَعْامِ بُيُوتاً» وهي البيوت من الأنطاعِ والفساطيطِ من الشعر والصوف والوبر «تَسْتَخِفُّونَها»، يقول: تستخفون حَمْلَها ونقلها «يَوْمَ ظَعْنِكُمْ» من بلادكم وأمصاركم لأسفاركم «وَيَوْمَ إقامَتِكُمْ» في بلادكم وأمصاركم «وَمِنْ أصْوَافِها وأوْبارِها وأشْعارِها أثاثاً».

وأما الأثاثُ فإنه متاع البيت لم يسمع له بواحد، وهو في أنه لا واحدَ له مثل المتاع.

وقولـه: «وَمَتـاعـاً إلى حِينٍ»، فإنه يعني: أنه جعل ذلك لهم بلاغاً، يتبلَّغُونَ ويكتفون به إلى حين آجالهم للموت.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومن نعمة الله عليكم أيها الناسُ أنْ جعلَ لكم مما خَلَقَ من الأشجارِ وغيرها ظلالاً تستظُّلونَ بها من شدَّةِ الحَرِّ وهي جَمع ظلّ.

وقوله: «وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الجِبالِ أكْناناً» يقول: وجعل لكم من الجبال مواضعَ تسكنونَ فيها، وهي جمع كنّ.

وقوله: «سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ»، يقول: ودروعاً تقيكم بأسكم، والبأس: هو الحرب، والمعنى: تقيكم في بأسكم السلاح أن يصل إليكم.

وقوله: «كـذلـكَ يُتِمُّ نِعْمَتَـهُ عَلَيْكُمْ لعلّكم تُسْلِمُـونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: كما أعطاكم رَبُّكم هذه الأشياء التي وصفها في هذه الآيات نعمةً منه بذلك عليكم، فكذا يُتمُّ نعمتَهُ عليكم لعلكم تسلمون. يقول: لتخضعوا لله بالطاعة، وتذِلّ منكم بتوحيدهِ النفوسُ، وتُخْلِصُوا له العبادة.

فإنْ قال لنا قائل: وكيف جعلَ لكم سرابيلَ تقيكم الحرَّ، فَخَصَّ بالذكرِ الحرَّ دون البرد، وهي تقي الحرَّ والبردَ، أم كيف قيل: «وجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الجِبالِ أكْناناً» وترك ذِكْرَ ما جعلَ لهم من السهل؟

قيل له: قد اختُلف في السبب الـذي من أجله جاء التنزيلُ كذلك، وسنذكرُ ما قيل في ذلك، ثم ندلُّ على أوْلى الأقوالِ في ذلك بالصواب.

فرُوي عن عطاء الخراساني في ذلك أنه قال: إنما نزلَ القرآنُ على قَدْرِ معرفتهم، ألا ترى إلى قولِ الله تعالى ذِكْرُه: «وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الجِبالِ أكْناناً» وما جعل لهم من السهولِ أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا أصحابَ جبال، ألا ترى إلى قوله: «وَمِنْ أصْوَافِها وأوْبارِها وأشْعارِها أثاثاً وَمَتاعاً إلى حِينٍ» وما جعلَ لهم من غيرِ ذلك أعظم منه وأكثر، ولكنهم كانوا أصحابَ وَبَرٍ وشَعَر، ألا ترى إلى قوله: «ويُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبالٍ مِنْ بَرَدٍ» يُعَجِّبهم من ذلك، وما أنزل من الثلج أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا لا يعرفون به،

ألا ترى إلى قوله: «سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ» وما تقي من البردِ أكثر وأعظم، ولكنهم كانوا أصحابَ حَرٍّ، فالسبب الذي من أجله خصَّ اللهُ تعالى ذكرُه السرابيلَ بأنها تقي الحرَّ دونَ البردِ على هذا القول، هو أنَّ المخاطبينَ بذلك كانوا أصحابَ حَرٍّ، فذكر الله تعالى ذِكْرُه نعمته عليهم بما يَقِيهم مَكروهَ ما به عرفوا مكروهه، دونَ ما لم يعرفوا مبلغ مكروهه، وكذلك ذلك في سائر الأحرفِ الأُخرَ.

وقال آخرون: ذكر ذلك خاصة اكتفاء بذِكْرِ أحدهما من ذكرِ الآخر، إذ كان معلوماً عند المخاطبين به معناه. وأنَّ السرابيل التي تقي الحرَّ تقي أيضاً البردَ، وقالوا: ذلك موجود في كلامِ العربِ مستعمل.

وأوْلى القولين في ذلك بالصواب: قولُ مَنْ قال: إنَّ القوم خُوطِبُوا على قَدْرِ معرفتهم، وإنْ كان في ذِكْرِ بعض ذلك، دلالة على ماترك ذكره، لمن عرف المذكور والمتروك، وذلك أنَّ الله تعالى ذِكْرُه، إنما عَدَّدَ نعمه التي أنعمها على الذين قُصِدوا بالذكرِ في هذه السورة دونَ غيرهم، فذكر أياديه عندهم.

القَولُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: فإنْ أدبرَ هؤلاء المشركونَ يا محمدُ عَمَّا أرسلتك به إليهم من الحقِّ، فلم يستجيبوا لكَ وأعرضُوا عنه، فما عليكَ من لومٍ ولا عذلٍ، لأنك قد أدَّيْتَ ما عليكَ في ذلك. إنه ليس عليك إلا بلاغهم ما أُرسِلْتَ به. ويعني بقوله: «المُبِينُ» الذي يبينُ لمن سمعه حتى يفهمه.

وأما قوله: «يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَها» فإن أهلَ التأويلِ اختلفوا في

المعنيِّ بالنعمةِ التي أخبر الله تعالى ذِكْرُه عن هؤلاء المشركين أنهم ينكرونها، مع معرفتهم بها.

فقال بعضهم: هو النبيُّ ﷺ عرفوا نُبُوَّتَهُ ثم جَحَدُوها وكذبوه.

وقال آخرون: بل معنى ذلك أنهم يعرفون أنَّ ماعَدَّدَ اللهُ تعالى ذِكْرُهُ في هذه السورة من النعم من عند الله، وأنَّ الله هو المنعم بذلك عليهم، ولكنهم يُنكرون ذلك، فيزعمون أنهم ورثوه عن آبائهم.

وقال آخرون: إنكارهم إياها أن يقولَ الرجلُ: لولا فلانٌ ما كانَ كذا وكذا، ولولاَ فلان ما أُصبت كذا وكذا.

وقال آخرون: معنى ذلك أن الكفار إذا قيل لهم: مَنْ رزقكم؟ أقرُّوا بأنَّ الله هو الذي رزقهم، ثم يُنكرون ذلك بقولهم: رزقنا ذلك بشفاعةِ آلهتنا.

وأوْلى الأقوال في ذلك بالصواب، وأشبهها بتأويل الآية، قولُ من قال: عَنَى بالنعمة التي ذكرها الله في قوله: «يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ» النعمةَ عليهم بإرسالِ محمدٍ ﷺ إليهم داعياً إلى مابعثه بدعائهم إليه، وذلك أن هذه الآية بين آيتين كلتاهما خَبَرٌ عن رسولِ الله ﷺ، وعَمَّا بُعِثَ به، فأوْلى ما بينهما أنْ يكونَ في معنى ما قبله وما بعده، إذ لم يكن معنى يدلُّ على انصرافهِ عما قَبْلَهُ وعما بعده، فالذي قَبْلَ هذه الآية قوله: «فإنْ تَوَلَّوْا فإنَّما عَلَيْكَ البَلاغُ المُبينُ. يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ الله ثُمَّ يُنْكِرُونَها» وما بعده «وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً» وهو رسولها. فإذا كان ذلك كذلك، فمعنى الآية: يعرفُ هؤلاء المشركون باللهِ نعمةَ الله عليهم يا محمدُ بكَ، ثم ينكرونكَ ويجحدونَ نُبُوَّتَكَ «وأكْثَرُهُمُ الكافِرُونَ»، يقول: وأكثرُ قومكَ الجاحدونَ نبوّتَكَ، لا المقرّون بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا

﴿يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يعرفون نعمةَ الله ثم يُنكرونها اليوم ويستنكرون «يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً» وهو الشاهدُ عليها بما أجابتْ داعيَ الله، وهو رسولُهم الذي أُرسِلَ إليهم، «ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا»، يقول: ثم لا يُؤْذَنُ للذين كفروا في الاعتذار، فيعتذروا مما كانوا بالله وبرسوله يكفرون «وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ» فيتركوا الرجوع إلى الدنيا، فينيبوا ويتوبوا، وذلك كما قال تعالى: «هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا عاينَ الذين كَذَّبُوكَ يا محمدُ، وجَحَدوا نُبوّتك، والأمم الذين كانوا على منهاجِ مشركي قومك عذابَ الله، فلا ينجيهم من عذابِ الله شيءٌ، لأنهم لا يُؤْذَنُ لهم، فيعتذرون، فيخفف عنهم العذابُ بالعذرِ الذي يَدَّعُونَهُ. «وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ»، يقول: ولا يُرْجَئُونَ بالعقاب، لأنَّ وقتَ التوبةِ والإنابةِ قد فات، فليس ذلك وقتاً لهما، وإنما هو وقتٌ للجزاءِ على الأعمالِ، فلا ينظر بالعتاب ليعتب بالتوبة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا رأى المشركون باللهِ يومَ القيامةِ ما كانوا يعبدونَ

من دونِ الله من الآلهة والأوثان وغير ذلك، قالوا: ربنا هؤلاء شركاؤنا في الكُفْرِ بكَ، والشركاء الذين كنا ندعوهم آلهةً من دونك، قال الله تعالى ذكره: «فألْقَوْا» يعني: شركاءهم الذين كانوا يعبدونهم من دونِ الله القولَ: يقول: قالوا لهم: إنكم لكاذبونَ أيها المشركون، ما كُنّا ندعوكم إلى عبادتنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝٨٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وألقى المشركون إلى الله يومئذٍ السَّلَمَ. يقول: استسلموا يومئذٍ وذَلُّوا لِحُكْمِه فيهم، ولم تُغْنِ عنهم آلهتُهم ـ التي كانوا يَدْعُونَ في الدنيا من دونِ الله، وتبرأت منهم ـ ولا قومُهم، ولا عشائرُهم الذين كانوا في الدنيا يدافعون عنهم، والعربُ تقول: ألقيتُ إليه كذا تعني بذلك قلت له.

وقوله: «وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ»، يقول: وأخطأهم من آلهتِهِمْ ما كانوا يأْملون من الشفاعةِ عند الله بالنجاة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ۝٨٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الذين جَحَدُوا يا محمدُ نبوّتَكَ وكذَّبوكَ فيما جِئْتَهُمْ به من عند ربك، وصَدُّوا عن الإيمانِ بالله وبرسوله، ومَنْ أراده زِدْنَاهُمْ عذاباً يومَ القيامة في جهنم فوقَ العذابِ الذي هم فيه قبل أن يُزَادُوه.

وقوله: «بِمَا كانُوا يُفْسِدُونَ»، يقول: زِدْنَاهُمْ ذلك العذابَ على مابهم من العذابِ بما كانوا يفسدون، بما كانوا في الدنيا يَعْصُونَ الله، ويأمرون عبادَهُ

بمعصيتِه، فذلك كان إفسادُهم، اللهمَّ إنا نسألك العافيةَ يا مالكَ الدنيا والآخرة الباقية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾

يقول تعالى ذكره: «وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ»، يقول: نسألُ نبيهم الذي بعثناهُ إليهم للدعاءِ إلى طاعتنا، وقال: «مِنْ أَنْفُسِهِمْ» لأنـه تعالى ذِكْرُه كان يبعثُ إلى أممٍ أنبياءَها منها، ماذا أجابوكم، وما ردُّوا عليكم. «وَجِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هٰؤُلاءِ»، يقول لنبيه محمد ﷺ: وجئنا بك يا محمـد شاهـداً على قومك وأمتك الذين أرسلتك إليهم بما أجابوك؟ وماذا عملوا فيما أرسلتك به إليهم؟

وقـولـه: «وَنَـزَّلْنا عَلَيْكَ الكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ»، يقول: نزلَ عليك يا محمـدُ هذا القـرآنَ بيانـاً لكـلِّ ما بالناسِ إليه الحاجةُ من معرفةِ الحلالِ والحرامِ والثواب والعقاب، «وَهُدًى» من الضلالةِ، «وَرَحْمَةً» لمن صدَّقَ به، وعمـلَ بمـا فيه من حدودِ الله، وأمـره ونهيه، فأحَـلَّ حلالَهُ، وحَرَّمَ حرامه، «وبُشْرَى للمسْلِمينَ»، يقول: وبشارة لمن أطاعَ الله وخضعَ له بالتوحيدِ، وأذعنَ له بالطاعةِ، يبشره بجزيلِ ثوابهِ في الآخرة، وعظيمِ كرامته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾

يقول تعالى ذكره: إنَّ الله يأمرُ في هذا الكتابِ الذي أنزله إليكَ يا محمدُ بالعدلِ، وهو الإنصافُ، ومن الإنصافِ: الإقرارُ بمن أنعمَ علينا بنعمتِهِ، والشكرُ له على إفضالِهِ، وتولي الحمدِ أهله. وإذا كان ذلك هو العدل، ولم يَكُنْ للأوثانِ والأصنامِ عندنا يَدٌ تستحقُّ الحمدَ عليها كان جهلاً بنا حَمْدُها وعبادَتُها، وهي لا تنعِمُ فَتُشْكَرَ، ولا تنفعُ فتُعْبَدَ، فلزمنا أنْ نشهدَ أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له، ولذلك قال مَنْ قال: العدلُ في هذا الموضع: شهادةُ أنْ لا إله إلا الله.

وقوله: «وَإِيتاءِ ذِي القُرْبى»، يقول: وإعطاءُ ذي القربى الحقَّ الذي أوْجَبَهُ اللهُ عليكَ بسببِ القرابةِ والرحم.

وقوله: «وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشاءِ» قال: الفحشاء في هذا الموضع: الزنا.

وقوله: «والبَغْيِ» قيل: عنى بالبغي في هذا الموضع: الكِبْرَ والظلم.

وقوله: «يَعظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ»، يقول: يُذَكِّرُكُمْ أيها الناسُ ربكم لتتذكروا فَتُنِيبُوا إلى أمرِهِ ونهيِهِ، وتعرفوا الحقَّ لأهلِهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾

يقول تعالى ذكره: وأوفوا بميثاقِ الله إذا واثقتموهُ، وعَقْدِه إذا عاقدتُموه، فأوجبتم به على أنفسِكم حقاً لمن عاقدتموهُ به وواثقتموهُ عليه «وَلا تَنْقُضُوا الأيمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها»، يقول: ولا تخالفوا الأمرَ الذي تعاقدتم فيه الأيمانَ، يعني بعد ما شَدَّدتم الأيمانَ على أنفسِكم، فتحنثُوا في أيمانِكم وتكذبوا فيها، وتَنْقُضُوها بعد إبرامها، يقال منه: وكَّدَ فلانٌ يمينه يوكِّدها توكيداً: إذا شَدَّدها،

وهي لغة أهل الحجاز، وأما أهل نجد، فإنهم يقولون: أكَّدْتُها أؤكِّدُها تأكيداً.

وقوله: «وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً»، يقول: وقد جعلتمُ الله بالوفاءِ بما تعاقدتم عليه على أنفسِكم راعياً يرعى الموفي منكم بعهدِ الله الذي عاهدَ على الوفاءِ به، والناقض.

وقوله: «إنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ» يقول تعالى ذكْرُه: إنَّ الله أيها الناسُ يعلمُ ما تفعلون في العهودِ التي تُعاهدونَ اللهَ من الوفاءِ بها، والأحلافِ والأيمانِ التي تؤكدونها على أنفسكم، أتبرُّونَ فيها أم تَنْقُضُونَها وغير ذلك من أفعالكم. مُحْصٍ ذلك كُلَّه عليكم، وهو مُسَائِلُكم عنها، وعما عَمِلْتُمْ فيها، يقول: فاحذروا الله أنْ تلقوه وقد خالفتم فيها أمرَهُ ونهيه، فتستوجبوا بذلك منه ما لا قِبَلَ لكم به من أليمِ عقابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه ناهياً عباده عن نقضِ الأيمانِ بعد توكيدها، وآمراً بوفاءِ العهودِ، وممثلاً ناقضَ ذلك بناقضةِ غَزْلِهَا من بعدِ إبرامه، وناكِثَتُهُ من بعد إحكامِهِ؛ ولا تكونوا أيها الناسُ في نقضكم أيمانكم بعد توكيدها وإعطائِكم الله بالوفاءِ بذلك العهودَ والمواثيقَ «كالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ»، يعني: من بعد إبرامٍ. وكان بعضُ أهل العربية يقول: القوّة: ما غُزِل على طاقةٍ واحدة ولم يثن. وقيل: إن التي كانت تفعل ذلك امرأةٌ حمقاء معروفة بمكة.

وقال آخرون: إنما هذا مَثَلٌ ضربه الله لِمَنْ نقضَ العهدَ، فشبهه بامرأةٍ تفعلُ هذا الفعل، وقالوا: في معنى نقضت غزلها من بعد قُوَّةٍ، نحواً مما قلنا.

وقوله: «تَتَّخِذُونَ أيمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ، أنْ تَكُونَ أُمَّة هِيَ أرْبَى مِنْ أُمَّةٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: تجعلون أيمانَكُم التي تحلفونَ بها على أنكم مُوفونَ بالعهدِ لمن عاقـدتموه «دَخَلاً بَيْنَكُمْ»، يقول: خديعةً وغروراً ليطمئنوا إليكم، وأنتم مُضْمِرُونَ لهم الغدر، وتركَ الوفاءِ بالعهدِ، والنُّقلة عنهم إلى غيرهم من أجل أنَّ غيرهم أكثر عدداً منهم.

والدَّخَلُ في كلام العرب: كلُّ أمرٍ لم يكن صحيحاً، يقال منه: أنا أعلم دَخَلَ فلانٍ ودُخْلُلَهُ، وداخلة أمره ودخلته ودخيلته.

وأما قوله: «أنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أرْبَى مِنْ أُمَّةٍ»، فإن قوله أرْبى: أفعل من الربا، يقال: هذا أَرْبى من هذا وأربأ منه، إذا كان أكثر منه.

وقوله: «إنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنما يختبركم اللهُ بأمرهِ إياكم بالـوفـاءِ بعهدِ الله إذا عاهدتم، ليتبين المطيع منكم المنتهي إلى أمرهِ ونهيه، مِنَ العاصي المخالف أمره ونهيه. «وَلَيُبيننَّ لَكُمْ يَوْمَ القِيامَةِ ما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُـونَ»، يقول تعالى ذكره: وليبينن لكم أيها الناسُ ربكم يومَ القيامةِ إذا وَرَدْتُمْ عليه بمجـازاةِ كلِّ فريقٍ منكم على عمله في الدنيا، المحسن منكم بإحسانهِ، والمسيء بإساءتهِ، ماكنتم فيه تختلفون. والذي كانوا فيه يختلفون في الدنيا أنَّ المؤمنَ باللهِ كانَ يُقِرُّ بوحدانيةِ الله ونبوَّةِ نبيه. ويصدقُ بما ابتعثَ به أنبياءه، وكان يكذِّبُ بذلك كُلِّه الكافرُ، فذلك كان اختلافُهم في الدنيا الذي وَعَدَ الله تعالى ذِكْرُه عبادَهُ أنْ يبينه لهم عند ورودِهم عليه بما وصفنا من البيان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً

﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: ولو شاء رَبُّكم أيها الناسُ لَلَطفَ بكم بتوقيةٍ[1] مِنْ عنده، فصرتم جميعاً جماعةً واحدة، وأهلَ ملةٍ واحدةٍ لا تختلفونَ ولا تفترقون، ولكنـه تعالى ذِكْرُهُ خالفَ بينكم، فجعلكم أهلَ مِلَلٍ شَتَّى، بأنْ وَفَّقَ هؤلاء للإيمانِ به، والعمل بطاعته، فكانوا مؤمنينَ، وخذلَ هؤلاء فحَرَمَهم توفيقَهُ فكانوا كافـرين، وليسألنكم الله جميعاً يومَ القيامةِ عما كنتم تعملون في الدنيا فيما أمركم ونهاكم، ثم لَيُجَازِيَنَّكُمْ جزاءَ المطيع منكم بطاعتهِ، والعاصي له بمعصيته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٩٤﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: ولا تَتَّخِذُوا أيمانَكُم بينكم دَخَلًا وخديعةً بينكم، تَغُـرُّونَ بها الناسَ «فتزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها»، يقول: فتهلكوا بعد أنْ كنتم من الهلاكِ آمنينَ، وإنما هذا مَثَلٌ لكلِّ مُبْتَلى بعد عافيةٍ، أو ساقطٍ في ورطةٍ بعد سلامة، وما أشبه ذلك: «زلَّت قدمه».

وقوله: «وَتَذُوقُوا السُّوءَ»، يقول: وتذوقوا أنتم السُّوءَ، وذلك السوء، هو عذابُ الله الذي يعذِّبُ به أهلَ معاصيه في الدنيا، وذلك بعضُ ما عَذَّبَ به أهلَ الكفر، «بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ الله»، يقول: بما فَتَنتم مَنْ أراد الإيمانَ بالله ورسوله عن الإيمان. «وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» في الآخرة، وذلك نارُ جهنم.

---

(١) في الأصل: بتوفية، ولعل الصواب ما اثبتناه، فالتوقية: الكَلاءة والحفظ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولا تنقضوا عُهودَكُم أيها الناسُ، وعقودَكُم التي عاقدتموها مَنْ عاقدتم مُؤَكِّديها بأيمانِكم، تطلبونَ بنقضِكم ذلك عَرَضاً من الدنيا قليلاً، ولكن أوفوا بعهدِ الله الذي أمركم بالوفاءِ به يُثِبْكُمُ اللهُ على الوفاءِ به، فإنَّ ما عندَ اللهِ من الثوابِ لكم على الوفاءِ بذلك، هو خيرٌ لكم إنْ كنتم تعلمون، فَضْلَ ما بين العِوَضينِ اللَّذَيْنِ أحَدُهما الثمنُ القليل، الذي تشترونَ بنقضِ عهدِ الله في الدنيا، والآخرُ الثوابُ الجزيلُ في الآخرةِ على الوفاءِ به، ثم بَيَّنَ تعالى ذِكْرُه، فَرْقَ ما بين العِوَضين وفضلَ ما بين الثوابين، فقال: ما عندكم أيها الناسُ مما تتملكونه في الدنيا، وإنْ كَثُر فنافدٌ فانٍ، وما عندَ اللهِ لمن أوفى بعهدِه وأطاعه من الخيراتِ باقٍ غيرُ فانٍ، فَلِمَا عِنْدَهُ فاعملوا وعلى الباقي الذي لا يفنى فاحْرِصُوا.

وقوله: «وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أجْرَهُمْ بأحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ»، يقول تعالى ذكره: ولَيُثِيبَنَّ اللهُ الذين صبروا على طاعتهم إياه في السَّرَّاءِ والضرَّاءِ، ثوابهم يوم القيامة على صبرهم عليها، ومسارعتهم في رضاه، بأحسن ما كانوا يَعملُون من الأعمالِ دون أسوئها، وليغفرنَّ اللهُ لهم سَيِّئها بفضله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مَنْ عمل بطاعة الله، وأوفى بعهودِ الله إذا عاهدَ من ذكرٍ أو أنثى من بني آدمَ وهو مؤمنٌ: يقول: وهو مُصَدِّقٌ بثوابِ الله الذي وعدَ

أهلَ طاعتهِ على الطاعة، وبوعيدِ أهلِ معصيته على المعصية. «فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً».

واختلف أهلُ التأويل في الذي عَنَى اللهُ بالحياةِ الطيبة التي وَعَدَ هؤلاء القومِ أنْ يُحْيِيهُمُوها، فقال بعضهم: عَنَى أنه يحييهم في الدنيا ما عاشوا فيها بالرِّزْقِ الحلال.

وقال آخرون: «فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً» بأنْ نرزقه القناعةَ.

وقال آخرون: بل يعني بالحياة الطيبة: الحياةَ مؤمناً بالله، عاملاً بطاعته.

وقال آخرون: الحياةُ الطيبة: السعادة.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: الحياة في الجنة.

وأوْلى الأقوالِ بالصوابِ قولُ مَنْ قال: تأويلُ ذلك: فلنحيينه حياةً طيبةً بالقناعةِ، وذلك أنَّ مَنْ قنعه الله بما قَسَمَ له من رزق لم يَكْثُرْ للدنيا تَعَبُه، وَلم يَعْظُمْ فيها نَصَبُهُ، ولم يَتَكَدَّرْ فيها عَيْشُه باتباعه بغية ما فاته منها وحرصه على ما لَعلَّهُ لا يُدْرِكُه فيها.

وإنما قلت: ذلك أوْلى التأويلات في ذلك بالآية، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه أوعدَ قوماً قبلها على معصيتهم إياه إنْ عَصَوْهُ أذاقَهُم السّوءَ في الدنيا، والعذابَ في الآخرة، فقال تعالى: «وَلا تَتَّخِذُوا أيمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ، فَتزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها، وتَذُوُقوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُم عَنْ سَبيلِ اللهِ»، فهذا لهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذابٌ عظيم، فهذا لهم في الآخرة. ثم أتْبَعَ ذلك ما لمَن أوفى بعهدِ الله وأطاعَهُ فقال تعالى: ما عندكم في الدنيا ينفد، وما عند الله باقٍ، (أي: إن الله سبحانه)[1] يعقب ذلك الوعدَ لأهلِ طاعتهِ بالإحسانِ في الدنيا، والغفران

---

(١) سقط في هذا الموضع كلام في المخطوط والمطبوعات، ووضعنا ما بين الحاصرتين ليتصل الكلام ويبين المعنى.

في الآخرةِ، وكذلك فَعَلَ تعالى ذِكْرُه.

وأما القولُ الذي رُوِي أنه الرزقُ الحلالُ، فهو محتَمَل أنْ يكونَ معناه الذي قلنا في ذلك، من أنه تعالى يقنعه في الدنيا بالذي يرزقه من الحلالِ، وإنْ قلَّ فلا تَدْعُوهُ نَفْسُه إلى الكثيرِ منه من غير حِلِّه، لا أنه يرزقه الكثيرَ من الحلالِ، وذلك أنَّ أكثرَ العاملين لله تعالى بما يرضاهُ من الأعمالِ لم نرهم رُزِقوا الرزقَ الكثيرَ من الحلال في الدنيا، ووجدنا ضِيقَ العيش عليهم أغلبَ من السعة.

وقوله: «وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أجْرَهُمْ بأحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ»، فذلك لا شَكَّ أنه في الآخرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ۝١٠٠﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وإذا كنتَ يا محمدُ قارئاً القرآن، فاستعذْ بالله من الشيطانِ الرجيم. وكان بعضُ أهلِ العربية يزعمُ أنه من المُؤَخَّرِ الذي معناهُ التقديمُ. وكأن معنى الكلام عنده: وإذا استعذتَ بالله من الشيطان الرجيم، فاقرأ القرآنَ، ولا وجهَ لما قالَ من ذلك، لأنَّ ذلك لو كان كذلك لكان متى استعاذَ مستعيذٌ من الشيطانِ الرجيم، لَزِمَهُ أنْ يقرأَ القرآن، ولكن معناه ما وصفناه، وليس قوله: «فاسْتَعِذْ باللهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجيمِ» بالأمر اللازم. وإنما هو إعلامٌ وندب. وذلك أنه لا خلافَ بين الجميع، أنَّ مَنْ قرأ القرآن ولم يستعذْ باللهِ من الشيطانِ الرَّجيم قبلَ قراءتِهِ أو بعدها أنه لم يضيع فرضاً واجباً.

وأما قوله: «إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتوكَّلُونَ»، فإنه يعني بذلك: أنَّ الشيطانَ ليست له حجةٌ على الذين آمنوا بالله ورسوله، وعملوا بما أمرَ اللهُ به، وانتهوا عما نهاهم الله عنه. «وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»، يقول: وعلى رَبِّهم يتوكلون فيما نابَهُمْ من مهماتِ أمورهم. «إِنَّمَا سُلْطَانُه عَلَى الَّـذِينَ يتَـولَّـونَـهُ»، يقـول: إنمـا حجتـه على الذين يعبدونه «وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ»، يقول: والذين هم بالله مشركون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٠١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا نسخنا حُكْمَ آيةٍ، فأبدلنا مكانَهُ حُكْمَ أُخرى، «والله أعلمُ بما ينزِّلُ»، يقول: واللهُ أعلمُ بالذي هو أصلحُ لخلْقِه فيما يبدِّلُ ويغير من أحكـامِـه، «قـالوا: إنما أنتَ مُفْتَرٍ»، يقول: قال المشركون بالله، المُكَذِّبُو رسوله لرسوله: إنما أنتَ يا محمدُ مفترٍ: أي مكذب تخرص بتقوُّلِ الباطلِ على الله، يقول الله تعالى: بل أكثرُ هؤلاء القائلين لكَ يا محمدُ: إنما أنتَ مفترٍ، جُهّال، بأنَّ الذي تأتيهم به من عند الله ناسخه ومنسوخه، لا يعلمون حقيقةَ صحته.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ١٠٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ للقائلينَ لك: إنما أنتَ مفترٍ فيما تَتْلُو عليهم من آيِ كتابنا، أنزله روح القُدُس، يقول: قل جاء به جبرئيلُ من عنـد ربي بالحقِّ، وقد بيَّنتُ في غير هذا الموضع معنى: روح

القُدس، بما أغنى عن إعادته.

وقوله: «لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا»، يقول تعالى ذِكْرُه: قُلْ نَزَّلَ هذا القرآنَ ناسخه ومنسوخه روحُ القُدُس عليَّ من ربي، تثبيتاً للمؤمنين، وتقويةً لإيمانهم، ليزدادوا بتصديقِهم لناسخهِ ومنسوخهِ إيماناً لإيمانهم، وهدىً لهم من الضلالةِ، وبُشرى للمسلمينَ الذين استسلموا لأمرِ الله، وانقادوا لأمرهِ ونهيه، وما أنزله في آيِ كتابه، فأقَرُّوا بكلِّ ذلك، وصَدَّقُوا به قولاً وعملاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد نعلمُ أنَّ هؤلاء المشركينَ يقولون جهلاً منهم: إنما يُعَلِّمُ محمداً هذا الذي يتلوه بَشَرٌ من بني آدم، وما هُوَ من عندِ الله، يقول الله تعالى ذِكْرُه مُكَذِّبهم في قِيلهم، وذلك: ألا تعلمون كَذِبَ ما تقولون، إنَّ لسانَ الذي تُلْحِدُونَ إليه: يقول: تَمِيلُونَ إليه بأنه يُعَلِّمُ محمداً أعجميٌّ، وذلك أنهم فيما ذُكر كانوا يزعمون أنَّ الذي يعلِّمُ محمداً هذا القرآنَ عبدٌ روميٌّ، فلذلك، قال تعالى: «لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إلَيْهِ أعْجَمِيٌّ، وهَذَا لِسانٌ عَرَبيّ مُبِينٌ»، يقول: وهذا القرآن لسان عربيٌّ مبين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

يقول تعالى: إنَّ الذين لا يؤمنون بحججِ الله وأدلَّتِه، فيصدِّقُون بما دلَّت

عليه «لا يَهْدِيهِمُ اللهُ»، يقول: لا يوفقهم الله لإصابةِ الحقِّ، ولا يهديهم لسبيلِ الرشد في الدنيا، ولَهُمْ فِي الآخِرَةِ، وعند الله إذا وَرَدُوا عليه يومَ القيامةِ عذابٌ مؤلمٌ موجعٌ. ثم أخبر تعالى ذِكْرُه المشركينَ الذين قالوا للنبيِّ ﷺ: إنما أنتَ مُفْتَرٍ، أنهم هم أهلُ الفِرْيَةِ والكذبِ، لا نبيّ الله ﷺ، والمؤمنون به، وبَرَّأَ من ذلك نبيَّهُ ﷺ وأصحابه، فقال: إنما يتخرَّصُ الكذبَ، ويتقوَّلُ الباطلَ، الذين لا يُصَدِّقُونَ بحججِ الله وإعْلامِهِ، لأنهم لا يرجون على الصِّدْق ثواباً، ولا يخافون على الكَذِب عِقاباً، فهم أهلُ الإفك وافتراءِ الكذبِ، لا مَنْ كان راجياً من الله على الصدقِ الثوابَ الجزيلَ، وخائفاً على الكذب العقابَ الأليم.

وقوله: «وأُولَئِكَ هُمُ الكاذِبُونَ»، يقول: والذين لا يؤمنون بآياتِ الله هم أهلُ الكَذِب لا المؤمنون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِالْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾

ذُكِرَ أنَّ هذه الآيةَ نزلتْ في عمار بن ياسر وقوم كانوا أسلموا، فَفَتَنَهُم المشركونَ عن دِينهم، فثبت على الإسلام بعضُهم، وافتتن بعض.

وتأويلُ الكلام: مَنْ كفرَ باللهِ من بعد إيمانهِ، إلَّا مَنْ أُكْرِهَ على الكفر، فنطقَ بكلمةِ الكفر بلسانهِ وقلبهُ مطمئنٌّ بالإيمان، مُوقِنٌ بحقيقته، صحيحٌ عليه عزمه، غير مفسوحِ الصدرِ بالكفر، لكنْ مَنْ شرح بالكفر صدراً فاختاره وآثره على الإيمان، وباح به طائعاً، فعليهم غَضَبٌ من الله، ولهم عذابٌ عظيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا

﴿عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾

يقول تعالى ذكره: حَلَّ بهؤلاء المشركين غضبُ الله، ووجَبَ لهم العذابُ العظيم، من أجل أنهم اختاروا زينةَ الحياةِ الدنيا على نعيمِ الآخرة، ولأن الله لا يوفق القوم الذين يجحدون آياته مع إصرارهم على جحودها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاء المشركون الذين وصفتُ لكم صِفَتهم في هذه الآياتِ أيها الناسُ، هُمُ القومُ الذين طَبَعَ اللهُ على قلوبهم، فختَمَ عليها بطابعه، فلا يؤمنونَ، ولا يهتدونَ، وأصَمَّ أسماعَهُمْ فلا يسمعونَ، داعيَ الله إلى الهدى، وأعمى أبصارَهُمْ فلا يُبصرونَ بها حُجَجَ الله إبصارَ مُعْتَبِرٍ ومُتَّعِظٍ. «وأُولَئِكَ هُمُ الغافِلُونَ»، يقول: وهؤلاء الذين جعلَ اللهُ فيهم هذه الأفعالَ هم الساهون، عما أعَدَّ اللهُ لأمثالهم من أهل الكفر، وعما يُرادُ بهم.

وقوله: «لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الخاسرُونَ» الهالكون، الذين غَبَنوا أنْفُسَهم حُظوظَها من كرامةِ الله تعالى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ثم إنَّ رَبَّكَ يا محمدُ للذين هاجَرُوا من ديارهم ومساكنهم وعشائرهم من المشركين، وانتقلوا عنهم إلى ديارِ أهلِ الإسلام

ومساكنهم وأهلِ ولايتهم، مِنْ بعدِ ما فَتَنَهُمُ المشركونَ الذين كانوا بين أَظْهُرِهم قبل هجرتهم عن دِينهم، ثم جاهدوا المشركينَ بعد ذلك بأيديهم بالسيفِ وبألسنتهم بالبراءةِ منهم، ومما يعبدون من دون الله، وصبروا على جهادهم. «إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لغَفُورٌ رَحِيمٌ»، يقول: إن ربك من بعد فِعْلَتِهم هذه لهم لغفورٌ، يقول: لَذُو سترٍ على ما كانَ منهم من إعطاءِ المشركينَ ما أرادوا منهم من كلمةِ الكفر بألسنتِهم، وهُمْ لغيرها مُضْمِرُونَ، وللإيمانِ مُعْتَقِدُونَ، رحيمٌ بهم أنْ يُعاقِبَهُمْ عليها مع إنابتهم إلى الله وتوبتهم.

وذُكِرَ عن بعض أهلِ التأويل أنَّ هذه الآيةَ نزلت في قومٍ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ، كانوا تَخَلَّفُوا بمكة بعد هجرةِ النبيِّ ﷺ، فاشتدَّ المشركون عليهم حتى فَتَنُوهُمْ عن دِينهم، فأيسوا من التوبةِ، فأنزلَ الله فيهم هذه الآية، فهاجروا ولَحِقُوا برسولِ الله ﷺ.

وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية في شأن عبدالله بن أبي سرح الذي كان يكتبُ لرسولِ الله ﷺ، فأزلَّهُ الشيطانُ، فلحق بالكفارِ، فأمرَ به النبيُّ ﷺ أن يُقتلَ يومَ فتحِ مكة، فاستجار له أبو عمرو[1]، فأجاره النبيُّ ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ ربكَ مِنْ بَعْدِهَا لغفورٌ رحيم، «يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ» تخاصم عن نفسها، وتحتجُّ عنها بما أسلفت في الدنيا من خيرٍ أو شرٍّ أو إيمانٍ أو كفر، «وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ» في الدنيا من طاعة ومعصية. «وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ»، يقول: وهم لا يُفْعَلُ بهم إلا ما يستحقُّونَهُ ويستوجبونه بما قَدَّمُوه من

(١) يعني: عثمان بن عفان رضي الله عنه.

خيرٍ أو شرّ فلا يُجْزَى المحسنُ إلا بالإحسانِ، ولا المسيءُ إلا بالذي أسلفَ من الإساءة، لا يُعاقَبُ محسنٌ ولا يُبْخَسُ جزاء إحسانه، ولا يُثابُ مسيءٌ إلا ثواب عمله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ١١٢﴾

يقول الله تعالى ذِكْرُه: ومَثَّلَ اللهُ مثلاً لمكة التي سكانُها أهلُ الشركِ بالله هي القرية التي كانت آمنةً مطمئنة، وكان أمنها أنَّ العربَ كانت تتعادى، ويقتلُ بعضُها بعضاً، ويَسْبِي بعضُها بعضاً، وأهلُ مكة لا يُغارُ عليهم، ولا يُحارَبونَ في بلدهم، فذلك كان أمنها.

وقوله: «مُطْمَئِنَّةً» يعني: قارَّة بأهلها، لا يحتاجُ أهلها إلى النُّجْعِ، كما كان سكانُ البوادي يحتاجون إليها. «يَأْتِيها رِزْقُها رَغداً»، يقول: يأتي أهلها معايشهم واسعة كثيرة.

وقوله: «مِنْ كُلِّ مَكانٍ»، يعني: من كلِّ فَجٍّ من فِجاجِ هذه القرية، ومن كل ناحية فيها.

وقوله: «فأذَاقَها اللهُ لِباسَ الجُوعِ والخَوْفِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فأذاقَ اللهُ أهلَ هذه القرية لباسَ الجوع، وذلك جوعٌ خالط أذاهُ أجسامَهم، فجعلَ الله تعالى ذِكْرُه ذلك لمخالطتهِ أجسامَهم بمنزلةِ اللباسِ لها، وذلك أنهم سلط عليهم الجوع سنينَ متوالية بدعاءِ رسولِ الله ﷺ، حتى أكَلُوا العلهز والجِيَف، والعلهز: الوَبَرُ يُعجنُ بالدمِ والقُراد يأكلونه؛ وأما الخوفُ فإنَّ ذلك كان خوفهم من سرايا رسولِ الله ﷺ التي كانت تطيفُ بهم.

وقوله: «بِمَا كانُوا يَصْنَعُونَ»، يقول: بما كانوا يصنعونَ من الكفرِ بأنْعُمِ الله، ويجحدونَ آياته، ويُكَذِّبونَ رسولَهُ، وقال: بما كانوا يصنعون.

وقد جرى الكلامُ من ابتداءِ الآيةِ إلى هذا الموضع على وجهِ الخبرِ عن القريةِ، لأنَّ الخبرَ وإنْ كان جرى في الكلام عن القرية، استغناءً بذكرها عن ذِكْرِ أهلها لمعرفةِ السامعينَ بالمرادِ منها، فإنَّ المرادَ أهلُها، فلذلك قيل: «بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ» فَرَدَّ الخبرَ إلى أهل القرية، وذلك نظير قوله: «فجاءَها بأسنا بَياتا أَوْ هُمْ قائِلُونَ» ولم يقل قائلة، وقد قال قبله: «فَجاءَها بأسنا»، لأنه رجع بالخبرِ إلى الإخبارِ عن أهلِ القرية؛ ونظائر ذلك في القرآنِ كثيرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ١١٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد جاء أهلَ هذه القريةِ التي وصفَ اللهُ صِفَتَها في هذه الآية التي قبل هذه الآية «رَسُولٌ مِنْهُمْ»، يقول: رسول الله ﷺ منهم. يقول: من أنفسهم يعرفونه، ويعرفونَ نَسَبَهُ وصِدْقَ لهجته، يدعوهم إلى الحقِّ، وإلى طريقٍ مستقيم «فَكَذَّبُوهُ» ولم يقبلوا منه ما جاءهم به من عند الله «فَأَخَذَهُمُ العَـذَابُ» وذلك لباس الجوع والخوف مكان الأمنِ والطمأنينةِ والرزقِ الواسع الـذي كان قبـل ذلك يُرْزَقُونَهُ، وقَتْل بالسيف «وَهُمْ ظالِمُونَ»، يقول: وهم مشركون، وذلك أنه قُتِلَ عُظماؤهم يومَ بدرٍ بالسيفِ على الشرك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ١١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فَكُلوا أيها الناسُ مما رزقكمُ الله من بهائمِ الأنعامِ

التي أحلَّها لكم حلالاً طيباً مُذَكَّاةً غير مُحَرَّمةٍ عليكم. «وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ»، يقول: واشكروا الله على نعمه التي أنعمَ بها عليكم في تحليلِه ما أحلَّ لكم من ذلك، وعلى غير ذلك من نعمه. «إنْ كُنْتُمْ إيَّاهُ تَعْبُدُونَ»، يقول: إنْ كنتم تعبدون الله، فتطيعونه فيما يأمركم وينهاكم. وكان بعضهم يقول: إنما عَنَى بقوله: «فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلالاً طَيِّباً» طعاماً كان بعث به رسولُ الله ﷺ إلى المشركين من قومِه في سِنِي الجَدْبِ والقحطِ رِقَّةً عليهم، فقال الله تعالى للمشركين: فكلوا مما رَزَقَكُم اللهُ من هذا الذي بعث به إليكم حلالاً طيباً، وذلك تأويل بعيد مما يدلُّ عليه ظاهرُ التنزيل، وذلك أنَّ الله تعالى قد أتْبَعَ ذلك بقوله: «إنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ المَيْتَةَ والدَّمَ»... الآية والتي بعدها، فَبَيَّنَ بذلك أنَّ قولـه: «فَكُلُوا مِمَّـا رَزَقَكُم اللهُ حَلالاً طَيِّبـاً» إعلامٌ من الله عبادَهُ أنَّ ما كان المشركون يُحَرِّمُونَهُ من البحائرِ والسوائبِ والوصائلِ، وغيرِ ذلك مما قد بيَّنا قَبْلُ فيما مضى لا معنى له، إذْ كان ذلك من خطواتِ الشيطانِ، فإنَّ كلَّ ذلك حلالٌ لم يُحَرِّم اللهُ منه شيئاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مُكَذِّباً المشركينَ الذين كانوا يُحَرِّمُونَ ماذكرنا من البحائرِ وغير ذلك: ماحرّم الله عليكم أيها الناسُ إلاَّ الميتةَ والدمَ ولحم الخنزير، وما ذُبحَ للأنصابِ، فَسُمِّيَ عليه غيرُ الله، لأنَّ ذلك من ذبائح مَنْ لا يحلُّ أكلُ ذبيحتهِ، فمن اضطرَّ إلى ذلك أو إلى شيءٍ منه لمجاعةٍ حلَّتْ فأكله «غيرَ باغٍ وَلا عاد، فإنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»، يقول: ذو سترٍ عليه أن يؤاخذه بأكلِه ذلك في حالِ الضرورةِ، رحيمٌ به أنْ يعاقبه عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾

(يعني): ولا تقولوا لوصفِ ألسنَتِكُم الكذبَ فيما رزقَ اللهُ عباده من المطاعم: هذا حلالٌ، وهذا حرامٌ، كي تَفْتَرُوا على اللهِ بقِيلكم ذلك الكذبَ، فإنَّ الله لم يحرم من ذلك ما تحرِّمون، ولا أحلَّ كثيراً مما تُحِلُّون، ثم تقدَّمَ إليهم بالوعيدِ على كذبهم عليه، فقال: «إنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ على اللهِ الكَذِبَ»، يقول: إن الذين يتخرَّصُونَ على الله الكذبَ ويختلقونه، لا يخلَّدُونَ في الدنيا، ولا يبقون فيها، إنما يتمتعون فيها قليلاً، وقال: «مَتاعٌ قَلِيلٌ» فرفع، لأن المعنى، الذي هُمْ فيه من هذه الدنيا متاع قليل، أو لهم متاعٌ قليلٌ في الدنيا.

وقوله: «ولَهُمْ عَذَابٌ أليمٌ»، يقول: ثم إلينا مَرْجِعُهم ومَعَادُهم، ولهم على كذبهم وافترائِهم على الله بما كانوا يفترون عذابٌ عندَ مصيرِهم إليه أليم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وحَرَّمنا من قبلكَ يا محمدُ على اليهودِ ما أنبأناكَ به من قَبْلُ في سورةِ الأنعام، وذاكَ كلّ ذي ظُفُرٍ، ومن البقرِ والغنمِ، حرَّمنا عليهم شحومهما، إلا ما حملتْ ظُهورهما أو الحوايا، أو ما اختلطَ بعظم. «ومَا ظَلَمْناهُمْ» بتحريمنا ذلك عليهم «ولكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» فجزيناهم ذلك بِبَغْيِهم على رَبِّهم، وظُلمِهم أنفسَهُمْ بمعصيةِ الله، فأَوْرَثَهُمْ ذلك عقوبةَ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ رَبَّكَ للذين عَصَوا الله فَجَهِلُوا بركوبهم ماركِبُوا من معصيةِ الله، وسَفهوا بذلك ثم راجعوا طاعةَ الله والندم عليها، والاستغفار والتوبة منها، من بعد ما سلفَ منهم ما سلف من ركوبِ المعصية، وأصلحَ، فعمل بما يُحِبُّ الله ويرضاه. «إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها»، يقول: إنَّ ربكَ يا محمدُ من بعد توبتهم له «لَغَفُورٌ رَحِيمٌ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ إبراهيمَ خليل الله كان مُعَلِّم خَيْرٍ، يأتمُّ به أهلُ الهدى قانتاً، يقولُ: مطيعاً لله حنيفاً، يقول: مستقيماً على دينِ الإسلام «وَلَمْ يَكُ مِنَ المُشْرِكِينَ»، يقول: ولم يَكُ يُشرِكُ بالله شيئاً، فيكون من أولياءِ أهلِ الشرك به، وهذا إعلامٌ من الله تعالى أهلَ الشركِ به من قريش أنَّ إبراهيمَ منهم بريءٌ وأنهم منه برآءُ. /«شاكِراً لأَنْعُمِهِ»، يقول: كان يخلصُ الشكرَ لله فيما أنعمَ عليه، ولا يجعل معه في شكرِه في نعمه عليه شريكاً من الآلهةِ والأندادِ وغير ذلك، كما يفعلُ مشركو قريش. «اجْتَبَاهُ»، يقول: اصطفاه واختاره لخُلَّتِهِ، وهَدَاهُ «إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»، يقول: وأرشده إلى الطريقِ المستقيم، وذلك دينُ الإسلام لا اليهودية ولا النصرانية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وآتينا إبراهيمَ على قُنُوتِه لله، وشُكْرِه له على نِعَمِه، وإخلاصه العبادةَ له في هذه الدنيا ذكراً حسناً، وثناءً جميلاً باقياً على الأيام. «وَإِنَّهُ في الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ»، يقول: وإنه في الدار الآخرة يومَ القيامةِ لِمَمَّنْ صلحَ أمرُه وشأنه عند الله، وحَسُنَتْ فيها منزلتُه وكرامته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٢٣ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ١٢٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ثم أوحينا إليكَ يا محمدُ، وقلنا لكَ: اتَّبِعْ مِلَّةَ إبراهيم الحنيفيةَ المسلمةَ. حنيفاً: يقول: مُسْلماً على الدينِ الذي كانَ عليه إبراهيمُ، بريئاً من الأوثانِ والأندادِ التي يعبدها قومكَ، كما كان إبراهيمُ تبرأ منها.

وقوله: «إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ على الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما فرض الله أيها الناسُ تعظيمَ يومِ السبتِ إلَّا على الذين اختلفوا فيه، فقال بعضهم: هو أعظمُ الأيام، لأنَّ الله تعالى فرغ من خَلْقِ الأشياء يومَ الجمعة، ثم سَبَتَ يومَ السبت.

وقال آخرون: بل أعظمُ الأيام يومُ الأحد، لأنه اليومُ الذي ابتدأ فيه خَلْقَ الأشياء، فاختاروه وتركوا تعظيمَ يومِ الجمعةِ الذي فَرَضَ اللهُ عليهم تعظيمَهُ واستحلُّوه.

وقوله: «وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ ربكَ يا محمدُ ليحكُمُ بين هؤلاء المختلفينَ بينهم في استحلالِ السبتِ وتحريمهِ عند مصيرِهم إليه يومَ القِيامة، فيقضي بينهم في ذلـك وفي غيرِه ممـا كانـوا فيه يخْتلفون في الدنيا بالحقِّ، ويفصل بالعدلِ بمجازاةِ المصيبِ فيه جزاءه، والمخطىء فيه منهم ماهو أهلُه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعـالَى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «ادْعُ» يا محمدُ مَنْ أرسلكَ إليه رَبُّكَ بالدعاءِ إلى طاعته «إلى سَبيلِ رَبِّكَ»، يقول: إلى شريعة ربك التي شرعها لخلْقِه، وهو الإسلام. «بالحِكْمَةِ»، يقول بوحيِ اللهِ الذي يُوحيهِ إليكَ، وكتابه الذي يُنزلهُ عليكَ. «والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ»، يقول: وبالعبرِ الجميلةِ التي جعلها الله حجةً عليهم في كتابه، وذَكَّرهم بها في تنزيله، كالتي عَدَّدَ عليهم في هذه السورة من حججه، وذَكَّرَهُمْ فيها ما ذَكَّرهم من آلائه. «وجَادِلْهُمْ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ»، يقول: وخاصمهم بالخصومةِ التي هي أحسنُ من غيرها أنْ تصفحَ عما نالوا به عرضكَ من الأذى، ولا تَعْصِه في القيامِ بالواجبِ عليك من تبليغهم رسالةَ ربك.

وقوله: «إنَّ ربكَ هو أعلمُ بمن ضَلَّ عن سبيله»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه ﷺ: إنَّ ربكَ يا محمدُ هو أعلمُ بمن جارَ عن قَصْدِ السبيلِ من المختلفين في السبتِ وغيره من خَلْقِـه، وحَـادَّ الله، وهو أعلمُ بمن كانَ منهم سالكاً قَصْدَ السبيلِ، ومَحَجَّةَ الحقِّ، وهو مُجازٍ جميعَهُم جزاءهم عند وُرُودِهم عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنين: وإنْ عاقبتم أيها المؤمنون مَنْ ظَلَمَكُمْ واعتدى عليكم، فعاقبوهُ بمثلِ الذي نالكم به ظَالِمُكُمْ من العقوبةِ، ولَئِنْ صَبَرْتُمْ عن عقوبتهِ، واحتسبتم عند الله ما نالكم به من الظلمِ، ووَكَلْتُمْ أمره إليه، حتى يكـونَ هو المتولي عقوبته. «لَهُوَ خَيْرٌ للصَّابِرِينَ»، يقول: للصبر عن عقوبته بذلك خيرٌ لأهلِ الصبر احتساباً، وابتغاء ثوابِ الله، لأنَّ الله يُعَوِّضُه مِنَ الذي أرادَ أنْ يناله بانتقامهِ من ظالمه على ظُلْمِه إياهُ من لذَّةِ الانتصار، وهو من قوله: «لَهُوَ» كناية عن الصبرِ، وحسن ذلك، وإنْ لم يكن ذكر قبل ذلك الصبر لدلالة قوله: «وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ» عليه.

وقد اختلف أهلُ التأويل في السببِ الذي من أجله نزلت هذه الآية. وقيل: هي منسوخة أو محكمة.

فقال بعضهم: نزلت من أجلِ أنَّ رسولَ الله ﷺ وأصحابه أقسموا حين فعلَ المُشركونَ يومَ أُحدٍ مافعلوا بقتلى المسلمينَ من التمثيلِ بهم أنْ يجاوزوا فِعْلَهُمْ في المُثْلَةِ بهم إنْ رُزِقُوا الظُّفَرَ عليهم يوماً، فنهاهم اللهُ عن ذلك بهذه الآية، وأمرهم أنْ يقتصروا في التمثيلِ بهم، إنْ هم ظفروا على مِثْلِ الذي كان منهم، ثم أمرهم بعد ذلك بتركِ التمثيلِ، وإيثارِ الصبرِ عنه بقوله: «وَاصْبِرْ ومَا صَبْرُكَ إلَّا باللهِ» فنسخ بذلك عندهم ما كان أذِنَ لهم فيه من المُثْلة.

وقـال آخـرون: نسـخ ذلـك بقـولـه في براءة «اقْتُلُوا المُشْـرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ»، قالوا: وإنما قال: «وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ» خبراً من الله للمؤمنين أنْ لا يبدءوهم بقتالٍ حتى يَبْدَءُوهُمْ به، فقال: «وقاتِلُوا في سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ، وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ».

وقال آخرون: بل عَنَى الله تعالى بقوله: «وَاصْبِرْ وما صَبْرُكَ إلَّا باللهِ» نبيَّ الله خاصةً دونَ سائرِ أصحابه، فكان الأمرُ بالصبرِ له عزيمة من الله دونهم.

وقال آخرون: لم يُعْنَ بهاتين الآيتين شيءٌ مما ذكر هؤلاء، وإنما عُنِي بهما أنَّ مَنْ ظُلِمَ بظُلامةٍ، فلا يحلُّ له أنْ ينالَ مِمَّنْ ظلمه أكثر مما نالَ الظالم منه، وقالوا: الآيةُ محكمةٌ غيرُ منسوخة.

والصوابُ من القولِ في ذلك أن يقال: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه، أمر مَنْ عُوقِبَ من المؤمنين بعقوبةٍ أنْ يعاقبَ مَنْ عاقبه بمثل الذي عُوقبَ به، إن اختارَ عقوبته، وأعلمَهُ أنَّ الصبرَ على تركِ عقوبته، على ما كان منه إليه خيرٌ، وعَزَمَ على نبيه ﷺ أن يصبر، وذلك أنَّ ذلك ظاهرُ التنزيل، والتأويلاتُ التي ذكرناها عَمَّنْ ذكروها عنه، مُحْتَمِلَتَها الآيةُ كلها. فإذا كان ذلك كذلك، ولم يَكُنْ في الآيةِ دلالةٌ على أيِّ ذلك عنى بها من خبرٍ ولا عقلٍ كان الواجبُ علينا الحكم بها إلى ناطق لا دلالة عليه؛ وأنْ يقال: هي آيةٌ مُحْكَمَةٌ أمرَ اللهُ تعالى ذِكْرُه عِبادَهُ أنْ لا يتجاوزُوا فيما وجَبَ لهم قِبَلَ غيرهم من حقٍّ من مالٍ أو نفسٍ، الحَقَّ الذي جعله اللهُ لهم إلى غيره، وأنها غيرُ منسوخةٍ، إذْ كان لا دلالة على نسخها، وأنَّ للقولِ بأنها محكمةٌ وجهاً صحيحاً مفهوماً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: واصبر يا محمدُ على ما أصابكَ من أذى في الله، «وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا باللهِ»، يقول: وما صبرك إنْ صبرتَ إلا بمعونةِ الله، وتوفيقهِ إياك لذلك، «وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ»، يقول: ولا تحزنْ على هؤلاءِ

المشركينَ الذين يُكَذِّبُونك، ويُنكرونَ ماجئتهم به في أن وَلّوا عنكَ وأعْرَضُوا عما أتيتَهُمْ به من النصيحةِ، «وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ ممَّا يَمْكُرُونَ»، يقول: ولا يَضِقْ صَدْرُكَ بما يقولون من الجهلِ، ونسبتهم ماجئتهم به إلى أنه سحرٌ أو شِعرٌ أو كهانةٌ، مما يمكرون: مما يحتالونَ بالخدعِ في الصَدِّ عن سبيلِ الله، مَنْ أراد الإيمانَ بك، والتصديقَ بما أنزل الله إليك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه «إنَّ اللَّه» يا محمدُ «مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا» الله في محارمه فاجتنبوها، وخافوا عقابه عليها، فأحجموا عن التقدُّمِ عليها، «وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ»، يقول: وهو مع الذين يحسنون رعايةَ فرائضِه، والقيام بحقوقِهِ، ولزوم طاعتهِ فيما أمرهم به ونهاهم عنه.

المجلد الرابع

فهرس المحتويات

تفسير الطبري

من كتابه

جامع البيان عن تأويل آي القرآن

هذبه وحققه وضبط نصه وعلق عليه

الدكتور بشار عواد معروف — عصام فارس الحرستاني

المجلد الخامس

الإسراء إلى النمل

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير الطبري

٥

الطّبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

مؤسّسة الرّسالة
للطباعة والنشر والتوزيع

مؤسّسة الرّسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٦٠٣٢٤٣ - ٨١٥١١٢ - ص.ب: ٧٤٦٠ - برقيا: بيوشران

سُورَةُ الإِسْرَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «سُبْحانَ الَّذِي أَسْرَى بعَبْدِه لَيْلًا» تنزيهاً للذي أسرى بعبده وتبرئةً له مما يقولُ فيه المشركونَ من أنَّ له من خَلْقِه شريكاً، وأنَّ له صاحبةً وولداً، وعلوّاً له وتعظيماً عما أضافُوه إليه، ونسبوه من جهالاتهم وخطأ أقوالهم.

ويعني بقوله: «لَيْلًا» من الليل.

وأما قوله: «مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ» فإنه اختلُف فيه وفي معناه.

فقال بعضهم: يعني من الحَرَم، وقال: الحرمُ كلّه مسجدٌ.

وقال آخرون: بل أُسري به من المسجد، وفيه كان حين أُسريَ به.

وأَوْلى الأقوال في ذلك بالصواب، أنْ يقال: إن الله عزَّ وجلَّ أخبر أنه أسرى بعبده من المسجد الحرام، والمسجدُ الحرامُ هو الذي يتعارفه الناسُ بينهم إذا ذكروه.

وقوله: «إلى المَسْجِدِ الأقْصَى» يعني: مسجدَ بيتِ المقدس، وقيل له: الأقصى، لأنه أبعدُ المساجدِ التي تُزَارُ، ويُبْتَغى في زيارته الفضلُ بعد المسجدِ الحرام.

فتأويلُ الكلام: تنزيهاً لله، وتبرئةً له مما نَحَلَهُ المشركون من الإشراكِ والأندادِ والصاحبةِ، وما يُجَلُّ عنه جَلَّ جلاله، الذي سار بعبده ليلاً من بيتهِ الحرامِ إلى بيته الأقصى.

ثم اختلف أهـلُ العلم في صفةِ إسراءِ الله تبارك وتعالى بنبيه ﷺ من المسجدِ الحرام إلى المسجد الأقصى.

فقـال بعضهم: أسرى اللهُ بجسدِه، فسار به ليلاً على البُراقِ من بيتهِ الحرامِ إلى بيته الأقصى حتى أتاه، فأراهُ ما شاء أنْ يُرِيَهُ من عجائبِ أمرِه وعِبَرِه وعـظيم سُلطانـه، فَجُمِعَتْ له به الأنبياء، فصلَّى بهم هُنالك، وعَرجَ به إلى السمـاء حتى صعدَ به فوق السمواتِ السبع، وأوحى إليه هنالك ما شاء أن يوحى، ثم رَجعَ إلى المسجدِ الحرام من ليلته، فصلَّى به صلاةَ الصبح.

وقـال آخرون ممن قال أُسري بالنبيِّ ﷺ إلى المسجدِ الأقصى بنفسه وجسمه: أُسْرِيَ به عليه السلام، غير أنه لم يدخل بيت المقدس، ولم يُصَلِّ فيه، ولم ينزلْ عن البراقِ حتى رجع إلى مكة.

وقال آخرون: بل أُسريَ بروحه، ولم يُسْرَ بجسده.

والصوابُ من القول في ذلك عندنا أن يقال: إنَّ الله أسرى بعبده محمدٍ ﷺ من المسجـدِ الحرام إلى المسجد الأقصى، كما أخبرَ اللهُ عباده، وكما تظاهرتْ به الأخبارُ عن رسولِ الله ﷺ، أنَّ الله حمله على البراقِ حين أتاهُ به، وصَلَّى هنالك بمن صَلَّى من الأنبياءِ والرسل، فأراهُ ما أراه من الآياتِ؛ ولا معنى لقولِ مَنْ قال: أسرى بروحه دون جسده، لأنَّ ذلك لو كان كذلك لم يكن

في ذلك ما يُوجِبُ أنْ يكون ذلك دليلاً على نبوّته، ولا حجةً له على رسالتهِ، ولا كانَ الذين أنكروا حقيقةَ ذلك من أهلِ الشرك، وكانوا يدفعون به عن صدقه فيه، إذ لم يكن منكراً عندهم، ولا عندَ أحدٍ من ذوي الفطرة الصحيحة من بني آدمَ أنْ يرى الرائي منهم في المنام ما على مسيرةِ سنةٍ، فكيف ماهو على مسيرةِ شهرٍ أو أقل؟ وبعد، فإن الله إنما أخبر في كتابه أنه أسرى بعبده، ولم يخبرنا أنه أسرى بروحِ عبده، وليس جائزاً لأحدٍ أن يتعدَّى ما قالَ اللهُ إلى غيرِه. فإن ظَنَّ ظانٌّ أنَّ ذلك جائزٌ، إذْ كانت العربُ تفعلُ ذلك في كلامها، كما قال قائلهم:

حَسِـبْـتُ بُغـامَ رَاحِـلَتِـي عَنـاقـاً وَمَـا هِيَ وَيْبَ غيرِكِ بالـعـنَـاقِ!

يعني: حسبتُ بُغَامَ راحلتي صوت عناق، فحذف الصوتَ واكتفى منه بالعنـاق، فإنَّ العرب تفعل ذلك فيما كان مفهوماً مراد المتكلم منهم به من الكلام. فأما فيما لا دلالةَ عليه إلا بظهورِه، ولا يُوصَلُ إلى معرفةِ مُرادِ المتكلِّمِ إلا ببيانه، فإنها لا تحذفُ ذلك، ولا دلالةَ تدلُّ على أنَّ مرادَ الله من قوله: «أَسْرَى بِعَبْدِهِ» أسرى بروحِ عبدِه، بل الأدلةُ الواضحةُ، والأخبارُ المتتابعةُ عن رسولِ الله ﷺ أنَّ الله أسرى به على دابةٍ: يُقال لها البراق؛ ولو كان الإسراءُ بروحِـهِ لم تكن الـروحُ محمولةً على البراق، إذ كانت الدوابُّ لا تحملُ إلا الأجسامَ. إلا أن يقولَ قائلٌ: إنَّ معنى قولنا: أُسْرِيَ بروحه: رأى في المنام أنه أُسْرِيَ بجسده على البُراق، فيكذب حينئذٍ بمعنى الأخبارِ التي رُويت عن رسولِ الله ﷺ، أنَّ جبرئيلَ حمله على البُراق، لأنَّ ذلك إذا كان مناماً على قولِ قائلِ هذا القولِ، ولم، تكن الروحُ عنده مما تركبُ الدوابَّ، ولم يحمل على البراق جسم النبيِّ ﷺ، لم يكن النبيُّ ﷺ على قولِهِ حُمِلَ على البراقِ لا جسمهُ، ولا شيءٌ منه، وصار الأمرُ عنده كبعضِ أحلامِ النائمين، وذلك دَفْعٌ لظاهرِ التنزيلِ، وما تَتَابعتْ به الأخبارُ عن رسولِ الله ﷺ، وجاءتْ به الآثارُ

عن الأئمة من الصحابة والتابعين[(١)].

وقوله: «الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ» يقول تعالى ذِكْرُه: الذي جعلنا حوله البركةَ لسكانهِ في معايشهم وأقواتهم وحُرُوثِهم وغروسهم.

وقوله: «لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا»، يقول تعالى ذِكْرُه: كي نُرِي عبدنا محمداً من آياتنا، يقول: من عِبَرِنَا وأدلَّتنا وحُجَجِنَا.

وقوله: «إنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إن الذي أسرى بعبده هو السميعُ لما يقول هؤلاء المشركون من أهلِ مكةَ في مسرى محمدٍ ﷺ من مكةَ إلى بيتِ المقدس، ولغيرِ ذلك من قولهم وقولِ غيرهم، البصير بما يعملون من الأعمالِ، لا يَخْفى عليه شيءٌ من ذلك، ولا يعزبُ عنه عِلْمُ شيءٍ منه، بل هو محيطٌ بجميعه علماً، ومُحْصِيه عدداً، وهو لهم بالمرصاد، ليجزيَ جميعَهُم بما هُمْ أهلُه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: سبحانَ الذي أسرى بعبدهِ ليلاً وآتى موسى الكتابَ، وردَّ الكلامَ إلى: «وآتَيْنا»، وقد ابتدأ بقولهِ أسرى لِمَا قَدْ ذكرنا قَبْلُ فيما مضى من فعلِ العرب في نظائرِ ذلك من ابتداءِ الخبرِ بالخبرِ عن الغائبِ، ثم الرجوع إلى الخطابِ وأشباهِه. وعَنَى بالكتابِ الذي أُوتيَ موسى: التوراة «وَجَعَلْناهُ هُدًى لِبَنِي إسْرَائِيلَ»، يقول: وجعلنا الكتابَ الذي هو التوراة بياناً للحقِّ، ودليلاً لهم على محجةِ الصوابِ فيما افترضَ عليهم، وأمرهم به، ونهاهم عنه.

---

(١) وهو مستفيض في الأحاديث الصحيحة مما لا يحتاج إلى إغراق.

وقوله: «أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً» معناه: ألّا تتخذوا حفيظاً لكم سواي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: سبحانه الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وآتينا موسى الكتابَ وجعلناه هُدًى لبني إسرائيل ذريَّةَ مَنْ حملنا مع نوحٍ. وعَنَى بالذريةِ: جميعَ من احتجَّ عليه جلّ ثناؤه بهذا القرآنِ من أجناسِ الأممِ، عَرَبِهم وعَجَمِهم من بني إسرائيل وغيرهم، وذلك أنَّ كُلَّ مَنْ على الأرضِ من بني آدم، فهم من ذريةِ مَنْ حَمَلَهُ الله مع نوحٍ في السفينة.

وقوله: «إِنَّهُ كانَ عَبْدًا شَكُورًا»، يعني بقوله تعالى ذِكْرُه: «إنه» إنَّ نوحاً، والهاء من ذِكْرِ نوحٍ كان عبداً شكوراً لله على نعمه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥﴾

وقد بيَّنا فيما مضى قَبْلُ أنَّ معنى القضاء: الفراغ من الشيء، ثم يستعمل في كلِّ مَفْرُوغٍ منه.

فتأويل الكلام في هذا الموضع: وفَرَغَ رَبُّكَ إلى بني إسرائيل فيما أنزلَ

من كتابهِ على موسى صلواتُ الله وسلامه عليه بإعلامهِ إياهم، وإخباره لهم «لَتُفْسِدُنَّ فِي الأرْضِ مَرَّتَيْنِ»، يقول: لَتَعْصُنَّ الله يا معشرَ بني إسرائيل ولتخالفُنَّ أمرَهُ في بلادِهِ مرّتين «وَلَتَعْلُنَّ عَلُوًّا كَبِيرًا»، يقول: ولَتَسْتَكْبِرُنَّ على الله باجترائِكم عليه استكباراً شديداً.

وأما قوله: «وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّا كَبِيراً» فقد ذكرنا قولَ مَنْ قال: يعني به: استكبارهم على الله بالجراءةِ عليه، وخلافهم أمره.

وأما قوله: «فاذَا جاءَ وَعْدُ أُولاهُما»، يعني: فإذا جاء وَعْدُ أولى المرَّتينِ اللتين يفسدون بهما في الأرض.

وقوله: «بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجاسُوا خِلَالَ الدِّيارِ، وكانَ وعَداً مَفْعُولاً»، يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «بَعَثْنا عَلَيْكُمْ» وجّهنا إليكم، وأرسلنا عليكم «عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَديدٍ»، يقول: ذوي بطشٍ في الحروب شديد.

وقوله: «فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ، وكانَ وعَدْاً مَفْعُولاً»، يقول: فتردَّدُوا بين الدورِ والمساكنِ، وذهبوا وجاءوا، يقال فيه: جاسَ القومُ بين الديار وحاسوا بمعنى واحد، وجست أنا أجوس جوساً وجوساناً.

ويعني بقوله: «وكانَ وعَدْاً مَفْعُولاً» وكان جوسُ القومِ الذين نبعث عليهم خلال ديارهم وعداً من الله لهم مفعولاً ذلك لا مَحالة، لأنه لا يُخْلفُ الميعاد.

ثم اختلف أهلُ التأويل في الذين عنى الله بقوله: «أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ» فيما كان من فعلهم في المرّة الأولى في بني إسرائيل حين بعثوا عليهم، ومن الذين بعث عليهم في المرَّةِ الآخرة، وما كان من صنعهم بهم.

فقال بعضهم: كان الذي بعث الله عليهم في المرّة الأولى جالوت، وهو

من أهل الجزيرة[١].

وقال آخرون: بل بعث عليهم في المرّة الأولى سنحاريب[٢].

وقال آخرون: يعني بذلك قوماً من أَهْلِ فارس، قالوا: ولم يكن في المرّة الأولى قتال.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ثم أَدَلْنَاكُمْ يابني إسرائيل على هؤلاء القومِ الذين وصفهم جَلَّ ثناؤه أنه يبعثهم عليهم، وكانت تلك الإدالةُ والكرَّةُ لهم عليهم، فيما ذكر السُّدِّيُّ في خبره أن بني إسرائيل غزوهم، وأصابوا منهم، واستنقذوا ما في أيديهم منهم. وفي قول آخرين: إطلاقُ الملكِ الذي غزاهم ما في يديه من أَسْرَاهُمْ، وردَّ ما كان أصابَ من أموالهم عليهم من غيرِ قتال. وفي قولِ ابن عباس الذي رواه عطية عنه: هي إدالةُ الله إياهم من عدوِّهم جالوت حتى قتلوه. «وأَمْدَدْناكُمْ بأَمْوالٍ وبَنِينَ»، يقول: وزِدْنَا فيما أعطيناكم من الأموالِ والبنين.

وقوله: «وَجَعَلْناكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً»، يقول: وصَيَّرْنَاكُمْ أكثرَ عدَدَ نافرٍ منهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ۝٧﴾

(١) يعني: الجزيرة بين دجلة والفرات، وهي المعروفة بجزيرة ابن عمر.

(٢) أحد ملوك العراق الأشداء المعروفين.

يقول تعالى ذِكْرُه لبني إسرائيل فيما قضى إليهم في التوراة: «إنْ أحْسَنْتُمْ» يا بني إسـرائيل، فأطعتم الله وأصلحتم أمرَكُمْ، ولزمتم أمره ونهيه «أحْسنْتُمْ» وفعلتم مافعلتم من ذلك «لأنْفُسِكُمْ» لأنَّكم إنما تنفعونَ بفِعْلَتِكُمْ ما تفعلونَ من ذلك أنفُسَكم في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا فإنَّ الله يدفعُ عنكم من بَغاكُمْ سوءاً، وينمي لكم أموالكم، ويزيدكم إلى قُوَّتِكم قُوَّةً. وأما في الآخرة فإن الله تعالى يُثِيبُكم به جنانه. «وإنْ أسأْتُمْ»، يقول: وإنْ عَصَيْتُمُ الله وركبتم ما نهاكم عنه حينئذٍ، فإلى أنفسكم تسيئون، لأنكم تُسْخِطُونَ بذلك على أنفسكم رَبَّكم، فيسلط عليكم في الدنيا عدوَّكُمْ، ويمكِّن منكم مَنْ بَغَاكُمْ سوءاً، ويخلدكم في الآخرة في العذاب المهين. وقال جلّ ثناؤه: «وَإنْ أسأْتُمْ فلها»والمعنى: فإليها كما قال: «بأنَّ رَبَّكَ أوْحى لَها» والمعنى: أوحى إليها.

وقوله: «فاذَا جاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ»، يقول: فإذا جاء وعدُ المرَّةِ الآخرة من مَرَّتَيْ إفسادِكم يا بني إسرائيل في الأرض «لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ»، يقول: لِيَسُوءَ مجيءُ الوعدِ للمرَّةِ الآخرةِ وجوهَكم فيقبِّحها.

وقـولـه: ««وَلِيَدْخُلُوا المَسْجِـدَ كمَـا دَخَلُوهُ أوَّلَ مَرَّةٍ»، يقول: وليدخل عدوُّكُم الذي أبعثُه عليكم مسجدَ بيتِ المقدس قهراً منهم لكم وغَلَبةً، كما دخلوه أوَّلَ مرّة حين أفسدتم الفسادَ الأوّل في الأرض.

وأما قوله: «وَلِيُتَبِّرُوا ماعَلَوْا تَتْبيراً»، فإنه يقول: وليدمِّرُوا ما غَلَبُوا عليه من بلادِكم تدميراً، يقـال منه: دمَّرتُ البلد: إذا خَرَّبتُه وأهلكتُ أهله، وتَبرَ تَبْراً وتباراً، وتَبَّرته أتبرهُ تتبيراً. ومنه قول الله تعالى ذكره: «وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إلَّا تَباراً» يعني: هلاكاً.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾

يقـول تعالى ذكره: لعلَّ ربكم يا بني إسرائيل أنْ يرحمكم بعد انتقامِهِ منكم بالقومِ الذين يبعثهم اللهُ عليكم ليسوء مبعثُه عليكم وجوهَكُم، وليدخلوا المسجدَ كما دخلوهُ أوَّلَ مرّةٍ، فيستنقِذَكُمْ من أيديهم، ويَنْتَشِلَكُمْ من الذلِّ الذي يُحِلُّه بكم، ويرفعكم من الخمـولـةِ التي تَصِيرونَ إليها؛ فيعزّكم بعد ذلك، وعَسَى مِنَ اللهِ: واجبٌ، وفعلَ اللهُ ذلك بهم، فَكَثَّرَ عَدَدهم بعد ذلك، ورفعَ خَسـاستهم، وجعـل منهم الملوكَ والأنبياء، فقال جَلَّ ثناؤه لهم: وإنْ عُدْتُمْ يا معشـرَ بني إسـرائيل لمعصيتي وخلافِ أمري، وقَتْلِ رسلي، عُدْنَا عليكم بالقتلِ والسِّباء، وإحلالِ الذلِّ والصَّغار بكم، فعادوا فعاد اللهُ عليهم بعقابِهِ وإحلالِ سخطه بهم.

وقوله: «وَجَعَلْنا جَهَنَّمَ للكافِرِينَ حَصِيراً»، يعني: فراشاً ومهاداً.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾

يقول تعالى ذكره: إنَّ هذا القرآنَ الذي أنزلناهُ على نبينا محمدٍ ﷺ يرشدُ ويسدِّدُ من اهتدى به «لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ»، يقول: للسبيلِ التي هي أقومُ من غيرِهَا من السُّبُلِ، وذلك دِينُ الله الذي بعث به أنبياءه وهو الإسلامُ، يقول جَلَّ ثناؤه: فهذا القرآنُ يهدي عبادَ الله المهتدين به إلى قصدِ السبيل التي ضَلَّ عنها سائرُ أهلِ المللِ المكذِّبينَ به.

وقوله: «وَيُبَشِّرُ المُؤْمِنِينَ»، يقول: ويبشر أيضاً مع هدايته مَن اهتدى به للسبيلِ الأقصدِ الذين يؤمنون بالله ورسوله، ويعملونَ في دنياهم بما أمرهم الله به، وينتهـون عَمَّا نهاهم عنه بأن «لَهُمْ أَجْراً» من الله على إيمانهم وعَمَلِهم

الصالحات «كَبيراً»، يعني: ثواباً عظيماً، وجزاء جزيلاً، وذلك هو الجنةُ التي أعَدَّها الله تعالى لمن رَضِيَ عمله.

وقوله: «وأنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأن الذين لا يُصَدِّقُونَ بالمعادِ إلى الله، ولا يُقِرُّونَ بالثوابِ والعقابِ في الدنيا، فهم لذلك لا يتحاشون من ركوبِ معاصي الله «أعْتَدنا لَهُمْ»، يقول: أعددنا لهم، لقدومهم على رَبِّهم يومَ القيامة «عَذاباً ألِيماً»، يعني: موجعاً، وذلك عذابُ جهنم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مُذَكِّراً عبادَهُ أياديه عندهم، ويدعو الإنسانُ على نفسه وولـده وماله بالشرِّ، فيقول: اللهمَّ أَهْلِكْهُ والْعَنْهُ عند ضَجَرِه وغضبه، كدعائهِ بالخير: يقول: كدعائهِ رَبَّهُ بأنْ يَهَبَ له العافيةَ، ويرزقه السلامةَ في نفسِه ومالهِ وولـده، يقول: فلو استُجيبَ له في دعائه على نفسه وماله وولده بالشرِّ كما يُسْتَجَابُ له في الخير هَلَكَ، ولكنَّ الله بفضله لا يستجيبُ له في ذلك.

واختلف في تأويل قوله: «وكانَ الإنْسانُ عَجُولاً».

فقال بعضهم: معناه: وكان الإنسانُ عَجُولاً، بالدعاءِ على مايكره، أنْ يُستجابَ له فيه.

وقـال آخرون: عَنَى بذلك آدم أنه عجل حين نفخَ فيه الروح قبل أن تجري في جميعِ جَسَدِه، فرامَ النهوضَ، فوصفَ وَلَدَهُ بالاستعجال، لِمَا كان من استعجالِ أبيهم آدم القيام، قبل أن يتمَّ خَلْقه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ

﴿...ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومن نعمته عليكم أيها الناسُ، مخالفته بين علامةِ الليلِ وعلامةِ النهارِ، باظلامهِ علامةَ الليل، وإضاءته علامةَ النهارِ، لتسكنُوا في هذا، وتتصرَّفُوا في ابتغاء رزقِ الله الذي قَدَّرَهُ لكم بفضله في هذا، ولتعلموا باختلافهما عددَ السنين وانقضاءها، وابتداءَ دُخُولها، وحسابَ ساعات النهار والليل وأوقاتها. «وكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْناه تفصيلاً»، يقول: وكلّ شيءٍ بَيَّناهُ بياناً شافياً لكم أيها الناسُ لتشكروا الله على ما أنعم به عليكم من نعمه، وتخلصوا له العبادةَ، دونَ الآلهةِ والأوثان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وكلَّ إنسانٍ ألزمناهُ ما قضى له أنه عامله، وهو صائرٌ إليه من شقاءٍ أو سعادةٍ بعمله في عُنُقِه لا يفارقهُ، وإنما قوله: «أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ» مَثَلٌ لِمَا كانتِ العربُ تتفاءلُ به أو تتشاءم من سوانحِ الطيرِ وبوارِحها[1]، فأعلمهم جَلَّ ثناؤه أنَّ كُلَّ إنسانٍ منهم قد ألزمه رَبُّه طائِرَهُ في عنقه نحساً كان ذلك الذي ألزمه من الطائرِ، وشقاءً يُورِدُه سعيراً، أو كانَ سعداً يورده جناتِ عدن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾

---

(١) سوانح الطير: مباركها، وبوارح الطير: أشائمها، يقال طائر أشأم جاء بالشؤم.

يقول تعالى ذِكْرُه: «ونُخرِجُ لَهُ يَوْمَ القِيامَةِ كِتابا يَلقاهُ مَنْشُوراً»، فيقال له: «اقرأْ كِتابَكَ كَفَى بِنفسكَ اليَوْمَ عَلَيكَ حَسِيباً»، فتَرَكَ ذِكْرَ قوله (فنقولُ له) اكتفاء بدلالة الكلام عليه.

وعَنَى بقوله: «اقرأْ كِتابَكَ»: اقرأ كتابَ عملك الذي عملته في الدنيا، الذي كان كاتِبَانَا يكتبانِه، ونُحْصِيه عليك. «كَفَى بنَفسِكَ اليَوْمَ عَلَيكَ حَسِيباً»، يقـول: حَسْبكَ اليوم نفسك عليك حاسباً يحسبُ عليكَ أعمالكَ، فيحصيها عليكَ، لا نبتغي عليكَ شاهداً غيرَها، ولا نطلبُ عليك مُحْصِياً سواها.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مَن استقامَ على طريقِ الحقِّ فاتبعه، وذلك دِينُ الله الذي ابتعثَ به نبيهُ محمداً ﷺ «فإنَّما يَهتَدِي لِنَفسِهِ»، يقول: فليس ينفعُ بلزومهِ الاستقامةَ، وإيمانهِ باللهِ ورسولِهِ غيرَ نفسِه. «وَمَنْ ضَلَّ»، يقول: ومَنْ جار عن قَصْدِ السبيل، فأخذ على غير هُدى، وكفر باللهِ وبمحمدٍ ﷺ وبما جاء به من عندِ الله من الحقِّ، فليس يضرُّ بضلالهِ وجَوْرِه عن الهدى غيرَ نفسه، لأنه يُوجِبُ لها بذلك غضبَ الله وأليمَ عذابه.. وإنما عَنَى بقوله: «فإنَّما يَضِلُّ عَلَيها» فإنما يكسبُ إثمَ ضلالهِ عليها لا على غيرها.

وقوله: «وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى»، يعني تعالى ذِكْرُه: ولا تحملُ حاملةٌ حملَ أخرى غيرها من الآثام. وقال: «وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» لأنَّ معناها: ولا تزرُ نفسٌ وازرةَ وزرِ نفسٍ أخـرى يقال منه: وزرتُ كذا أزره وزراً، والوزر: هو الإثم، يُجْمَعُ أوزاراً، كما قال تعالى: «وَلَكِنَّا حُمِّلْنا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ القَوْمِ» وكأنَّ

معنى الكلام: ولا تأثم آثمةٌ إثم أخرى، ولكن على كُلّ نفسٍ إثمها دونَ إثمِ غيرِها من الأنفس.

وقوله: «وَما كُنّا مُعَذِّبينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وما كنا مُهْلِكي قومٍ إلا بعد الإعذارِ إليهم بالرسلِ، وإقامةِ الحجة عليهم بالآياتِ التي تقطع عُذْرَهُمْ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾

يعني جل ثناؤه: أَمَرْنَا أهلَها بالطاعةِ فَعَصَوْا وفَسَقُوا فيها، فَحَقَّ عليهم القولُ، لأن الأغلبَ من معنى: أمرنا: الأمرَ، الذي هو خلاف النهي دونَ غيره، وتوجيه معاني كلام الله جلّ ثناؤه إلى الأشهرِ الأعرفِ من معانيه، أَوْلى، ما وُجِدَ إليه سبيلٌ، من غيره.

ومعنى قوله: «فَفَسَقُوا فِيهَا»: فخالفوا أمرَ اللهِ فيها، وخرجوا عن طاعته. «فَحَقَّ عَلَيْها القَوْلُ»، يقول: فَوَجَبَ عليهم بمعصيتهم الله وفُسُوقِهم فيها، وعيد الله الذي أوعد مَنْ كفر به، وخالفَ رُسُلَهُ، من الهلاكِ بعد الاعذارِ والإنذارِ بالرسلِ والحججِ «فَدَمَّرْناها تَدْميراً»، يقول: فَخَرَّبْنَاهَا عند ذلك تخريباً، وأهلكنا مَنْ كان فيها من أهلها إهلاكاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾

وهـذا وعيدٌ من الله تعـالى ذِكْرُه مُكَذِّبي رسولهِ محمدٍ ﷺ من مشركي

قريش، وتهديدٌ لهم بالعقابِ، وإعلامٌ منه لهم، أنهم إنْ لم ينتهوا عَمَّا هُمْ عليه مُقِيمونَ من تكذيبهم رسولَهُ عليه الصلاة والسلام أنه مُحِلٌّ بهم سَخَطه، ومنزلٌ بهم من عقـابه ما أنزلَ بِمَنْ قَبْلَهُم من الأممِ الذين سلكوا في الكفرِ بالله، وتكذيبِ رُسُلِه سبيلَهُمْ، يقول الله تعالى ذِكْرُه: وقد أهلكنا أيها القومُ من قبلكم من بعـد نوحٍ إلى زمانكم قروناً كثيرة كانوا من جحودِ آياتِ الله والكفرِ به، وتكذيبِ رسله، على مِثْلِ الذي أنتم عليه، ولستم بأكرمَ على الله تعالى منهم، لأنـه لا منـاسبةَ بين أحدٍ وبين الله جَلَّ ثناؤه، فيعذِّبَ قوماً بما لا يعذِّبُ به آخرين، أو يعفو عن ذنوبِ ناسٍ فيعاقبَ عليها آخرينَ، يقول جلّ ثناؤه: فأنيبوا إلى طاعـةِ الله رَبِّكم، فقد بعثنا إليكم رسولاً يُنبِّهُكُمْ على حججنا عليكم، ويوقظكم من غَفْلتكم، ولم نكن لنعذِّبَ قوماً حتى نبعثَ إليهم رسولاً منبهاً لهم على حججِ الله، وأنتم على فُسوقِكم مقيمونَ، وكفى بربك يا محمدُ بذنوبِ عبادِه خبيراً: يقول: وحسبك يا محمدُ بالله خابراً بذنوبِ خَلْقِه عالماً، فإنه لا يخفى عليه شيءٌ من أفعالِ مشركي قومك هؤلاء، ولا أفعال غيرهم من خَلْقِه، هو بجميعِ ذلك عالمٌ خابرٌ بصير، يقول: يبصرُ ذلك كُلَّهُ فلا يغيبُ عنه منه شيءٌ، ولا يعزبُ عنه مثقالُ ذرّةٍ في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مَنْ كان طلبه الدنيا العاجلة ولها يعمل ويسعى، وإياها يبتغي، لا يوقنُ بمعادٍ، ولا يرجو ثواباً ولا عقاباً من ربه على عمله «عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ»، يقول: يعجل الله له في الدنيا ما يشاءُ من بَسْطِ الدنيا عليه، أو تَقْتيرِهَـا لمن أرادَ اللهُ أنْ يفعـلَ ذلـك به، أو إهلاكه بما يشاءُ من

عقوباته. «ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها»، يقول: ثم أصليناهُ عند مَقْدَمِه علينا في الآخرة جهنم، «مَذْموماً» على قِلَّةِ شُكْرِه إيانا، وسوءِ صنيعهِ فيما سلفَ من أيادينا عنده في الدنيا، «مَدْحُوراً»، يقول: مُبْعَداً: مُقْصىً في النار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مَنْ أراد الآخرةَ وإياها طَلَبَ، ولها عَمِلَ عملها، الذي هو طاعة الله وما يرضيه عنه، وأضاف السعيَ إلى الهاء والألف، وهي كناية عن الآخرة، فقال: وسعى للآخرةِ سعيَ الآخرةِ، ومعناه: وعمل لها عملها لمعرفةِ السامعين بمعنى ذلك، وأنَّ معناه: وسعى لها سَعْيَهُ لها وهو مؤمنٌ، يقول: هو مؤمنٌ مصدِّقٌ بثوابِ الله، وعظيمِ جزائهِ على سعيهِ لها، غير مكذِّبٍ به تكذيبَ مَنْ أراد العاجلةَ، يقولُ الله جلَّ ثناؤه: «فَأُولئكَ»، يعني: فَمَنْ فعلَ ذلك «كانَ سَعْيُهُمْ»، يعني عَمَلُهم بطاعةِ الله «مَشْكُوراً»، وشكر الله إياهم على سعيهم ذلك حُسْنُ جزائهِ لهم على أعمالهم الصالحة، وتجاوزه لهم عن سَيِّئها برحمته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يُمِدُّ رَبُّكَ يا محمدُ كلا الفريقين من مُريدي العاجلة، ومريدي الآخرة، الساعي لها سَعْيَها وهو مؤمنٌ في هذه الدنيا من عطائه، فيرزقهما جميعاً من رزقه إلى بلوغهما الأمدَ، واستيفائِهما الأجلَ ما كتب لهما، ثم تختلفُ بهما الأحوالُ بعد المماتِ، وتفترقُ بهما بعد الوُرودِ المصادرُ، ففريق مريدي العاجلةِ إلى جهنمَ مَصْدَرُهُمْ، وفريقُ مريدي الآخرةِ إلى الجنة

مآبهم، «وَمَا كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً»، يقول: وما كان عطاءُ ربك الذي يؤتيه مَنْ يشاءُ من خَلْقِهِ في الدنيا ممنوعاً عَمَّنْ بَسَطَهُ عليه لا يقدر أحدٌ من خلقه منعه من ذلك، وقد آتاه الله إياه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ: انظر يا محمدُ بعينِ قلبكَ إلى هذين الفريقين اللذين هم أحدهما: الدار العاجلة، وإياها يطلبُ، ولها يعملُ؛ والآخر: الذي يريدُ الدارَ الآخرةَ، ولها يسعى مُوقناً بثوابِ الله على سعيه، كيف فضَّلنا أحدَ الفريقين على الآخر، بأنْ بَصَّرْنَا هذا رُشْدَهُ، وهديناهُ للسبيلِ التي هي أقومُ، ويَسَّرْنَاهُ للذي هو أَهْدى وأرشَد، وخَذَلْنَا هذا الآخر، فأضللناهُ عن طريقِ الحقِّ، وأغشينا بَصَرَهُ عن سبيلِ الرُّشد. «وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ»، يقول: وفريقُ مُريدِ الآخرةِ أكبرُ في الدارِ الآخرةِ درجاتٍ بعضُهم على بعض، لتفاوتِ منازلهم بأعمالِهم في الجنةِ، وأكبرُ تفضيلاً بتفضيلِ الله بعضَهم على بعضٍ من هؤلاء الفريقِ الآخرينَ في الدنيا فيما بسطنا لهم فيها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: لا تجعلْ يا محمدُ مع الله شريكاً في ألوهته وعبادته، ولكنْ أخلِصْ له العبادةَ، وأفْرِدْ له الألوهةَ، فإنه لا إله غيره، فإنك إنْ تجعلْ معه إلهاً غيره، وتعبد معه سِواه، تقعد مذموماً: يقول: تصير مَلُوماً على ما ضَيَّعْتَ من شكرِ الله على ما أنعم به عليك من نعمه، وتصييرِكَ

الشكرَ لغيرِ مَنْ أَوْلاكَ المعروفَ، وفي إشراكك في الحمدِ مَنْ لم يشركه في النعمة عليك غيره، مخذولاً قد أسلمكَ رَبُّكَ لمن بَغاكَ سوءاً، وإذا أسلمكَ رَبُّك الذي هو ناصرُ أوليائهِ لم يكنْ لكَ من دونهِ وليٌّ يَنْصُرُكَ ويدفعُ عنك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾

يعني بذلك تعالى ذِكْرُه حُكْمَ رَبِّكَ يا محمدُ بأمرِهِ إياكم ألا تعبدوا إلا الله، فإنه لا ينبغي أنْ يُعْبَدَ غيره.

وقوله: «وبَالوَالِدَيْنِ إحْساناً»، يقول: وأمركم بالوالدينِ إحساناً أنْ تُحْسِنُوا إليهما وتَبَرُّوهُمَا. ومعنى الكلام: وأمركم أنْ تُحسنوا إلى الوالدين.

وقوله: «فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ»، يقول: فلا تُؤَفِّفْ من شيءٍ تَرَاهُ من أحدهما أو منهما مما يتأذَّى به الناسُ، ولكن اصبرْ على ذلك منهما، واحتسبْ في الأجرِ صبركَ عَليه منهما، كما صبرا عليكَ في صِغَرِكَ.

وقوله: «وَلا تَنْهَرْهُما»، يقول جلَّ ثناؤه: ولا تَزْجُرْهُمَا.

وأما قوله: «وَقُلْ لَهُما قَوْلاً كَرِيماً»، فإنه يقول جلّ ثناؤه: وقُلْ لهما قولاً جميلاً حسناً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى ذكره: وكُنْ لهما ذليلاً رحمةً منك بهما تُطِيعُهُمَا فيما أمراكَ

به مما لم يكنْ للهِ معصية، ولا تخالفهما فيما أحبًا.

وأما قوله: «وَقُلْ رَبِّ ارحَمْهُما كمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً»، فإنه يقول: ادْعُ اللهَ لوالديكَ بالرحمةِ، وقُلْ ربِّ ارحمهما، وتَعَطَّفْ عليهما بمغفرتكَ ورحمتكَ، كما تعطَّفا عليَّ في صغري، فرحماني وربياني صغيراً، حتى استقللتُ بنفسي، واستغنيتُ عنهما.

وقال جماعةٌ من أهل العلم: إنَّ قولَ الله جلّ ثناؤه: «وَقُل رَبِّ ارحَمْهُما كمَا رَبَّيانِي صَغِيراً» منسوخ بقوله: «ما كانَ للنَّبِيّ والَّذِينَ آمَنُوا أن يَسْتَغْفِرُوا للْمُشْرِكِينَ وَلَو كانُوا أُولِي قُربَى مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُم أنَّهُم أَصْحابُ الجَحِيمِ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «رَبُّكُمْ» أيها الناسُ «أعْلَمُ» منكم «بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ» من تعظيمكم أمرَ آبائِكم وأمهاتكم وتكرمتهم، والبرّ بهم، وما فيها من اعتقادِ الاستخفافِ بحقوقهم، والعقوق لهم، وغير ذلك من ضمائرِ صدوركم، لا يَخْفَى عليه شيءٌ من ذلك، وهو مُجَازيكم على حَسَنِ ذلك وسيِّئِه، فاحْذَرُوا أن تُضْمِرُوا لهم سوءاً، وتَعْقِدُوا لهم عقوقاً.

وقوله: «إنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ»، يقول: إن أنتم أصلحتم نِيَّاتِكم فيهم، وأطعتم اللهَ فيما أمرَكُمْ به من البِرِّ بهم، والقيامِ بحقوقِهم عليكم، بعد هفوةٍ كانتْ منكم، أو زَلَّةٍ في واجبٍ لهم عليكم مع القيامِ بما ألزمكم في غيرِ ذلك من فرائضِه، فإنه كان للأوَّابينَ بعد الزَّلةِ، والتائبينَ بعد الهَفْوةِ غفوراً لهم.

والأوَّابُ: هو التائبُ من الذنب، الراجعُ من معصية الله إلى طاعته، ومما يكرهه إلى ما يرضاه، لأنَّ الأوَّابَ إنما هو فعَّالٌ، من قولِ القائل: آبَ فلانٌ من كذا إما مِنْ سَفَرِه إلى منزله، أو من حالٍ إلى حال.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾

اختلف أهلُ التأويل في المعنيِّ بقوله: «وآتِ ذَا القُرْبى».

فقال بعضهم: عَنى به: قرابةَ الميتِ من قِبَلِ أبيه وأمه، أمر الله جلّ ثناؤه عباده بِصِلَتِهَا.

وقال آخرون: بل عَنَى به قرابةَ رسولِ الله ﷺ.

وأَوْلى التأويلين عندي بالصواب، تأويلُ مَنْ تأوّل ذلك أنها بمعنى وصية الله عبادَهُ بصلةِ قَرَاباتِ أنْفُسِهم وأرحامهم من قِبَلِ آبائِهم وأمهاتهم، وذلك أنَّ الله عزَّ وجلَّ عَقَّبَ ذلك عقيبَ حَضِّهِ عبادَهُ على بِرِّ الآباءِ والأمَّهات، فالواجبُ أنْ يكونَ ذلك حَضًّا على صِلَةِ أنسابِهم دونَ أنسابِ غيرهم التي لم يَجْرِ لها ذِكْرٌ.

وإذا كان ذلك كذلك، فتأويلُ الكلام: وأعطِ يا محمدُ ذا قرابتك حَقَّهُ مِنْ صلتكَ إياه، وبِرِّكَ به، والعطف عليه، وخرج ذلك مَخْرجَ الخطابِ لنبيِّ الله ﷺ، والمرادُ بحكمهِ جميعَ مَنْ لزمته فرائضُ الله، يدلُّ على ذلك ابتداؤه الوصيةَ بقولهِ جلَّ ثناؤه: «وقضَى رَبُّكَ ألَّا تَعْبُدُوا إلَّا إيَّاهُ وبالوَالِدَيْنِ إحْساناً، إمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الكِبَرَ أحَدُهُما» فوجَّهَ الخطابَ بقوله: «وقَضَى رَبُّكَ» إلى نبيِّ الله ﷺ، ثم قال: «ألَّا تَعبُدُوا إلَّا إيَّاهُ» فَرَجَعَ بالخطابِ به إلى الجميعِ، ثم صَرَفَ الخطابَ بقوله: «إمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ» إلى إفرادِه به. والمعنيُّ بكل ذلك جميع مَنْ لزمته فرائضُ الله عزّ وجلّ، أفرد بالخطابِ رسولَ الله ﷺ وحده، أو عَمّ به هُوَ وجميعَ أمتهِ.

وقوله: «والمِسْكِينَ» وهو الذلَّة من أهلِ الحاجة. وقد دَلَّلْنا فيما مضى على معنى المسكين بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

وقوله: «وابْنَ السَّبِيلِ»، يعني: المسافر المنقطع به، يقول تعالى: وصِلْ قرابتك، فأعْطِه حَقَّهُ من صِلتكَ إياهُ، والمسكين ذا الحاجة، والمجتاز بك المنقطع به، فأعِنْهُ، وقَوِّهِ على قطعِ سفره.

وقوله: «وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً»، يقول: ولا تُفَرِّقْ يا محمدُ ما أعطاكَ الله من مالٍ في معصيته تفريقاً. وأصلُ التبذير: التفريقُ في السَّرَفِ.

وأما قوله: «إنَّ المُبَذِّرِينَ كانُوا إخْوَانَ الشَّياطِينِ»، فإنه يعني: إنَّ المفرِّقينَ أموالَهم في معاصي الله المُنْفِقِيَها في غير طاعتهِ أولياءُ الشياطين، وكذلك تقولُ العرب لكلِّ ملازمٍ سُنَّةَ قومٍ وتابع أثرهم: هو أخوهم. «وكانَ الشَّيْطانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً»، يقول: وكان الشيطانُ لنعمةِ ربه التي أنعمها عليه جُحُوداً لا يشكره عليها، ولكنه يكفرها بتركِ طاعةِ الله، وركوبهِ معصيتَهُ، فكذلك إخوانُه من بني آدم المُبَذِّرُونَ أموالهم في معاصي الله، لا يشكرونَ اللهَ على نعمهِ عليهم، ولكنهم يخالفونَ أمْرَهُ ويعصُونَهُ، ويَسْتَنُّونَ ـ فيما أنعم الله عليهم به من الأموالِ التي خَوَّلَهُمُوهَا عز وجل ـ سنتَهُ مِنْ تَرْكِ الشكرِ عليها، وتَلَقِّيها بالكفرانِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإنْ تُعْرِضْ يا محمدُ عن هؤلاءِ الذين أمرتكَ أن تؤتيهم حقوقَهُمْ إذا وجدتَ إليها السبيلَ بوجهك عند مسألتهم إياكَ ما لا تجدُ إليه سبيلاً، حياءً منهم ورحمةً لهم «ابْتِغاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ»، يقول: انتظارَ رزقٍ تنتظرهُ من عندِ ربك، وترجو تيسيرَ اللهِ إياهُ لكَ، فلا تُؤْيِسْهُمْ، ولكنْ قُلْ لهم

قولاً ميسوراً: يقول: ولكنْ عِدْهُمْ وعداً جميلاً، بأنْ تقول: سيرزقُ الله فأعطيكم، وما أشبهَ ذلك من القولِ اللينِ غيرِ الغليظ، كما قال جلّ ثناؤه: «وأمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۝٢٩﴾

وهذا مَثَلٌ ضربه الله تبارك وتعالى للممتنعِ من الإنفاقِ في الحقوق التي أوجبها في أموالِ ذوي الأموال، فجعله كالمشدودةِ يَدهُ إلى عُنُقِه، الذي لا يقدرُ على الأخذِ بها والإعطاء.

وإنما معنى الكلام: ولا تمسكْ يا محمدُ يدكَ بُخْلاً عن النفقةِ في حقوقِ الله، فلا تنفق فيها شيئاً إمساكَ المغلولةِ يَدُهُ إلى عنقهِ، الذي لا يستطيعُ بَسْطَها، «وَلا تَبْسُطْها كُلَّ البَسْطِ»، يقول: ولا تبسطها بالعَطِيَّةِ كُلَّ البسط، فتَبقى لا شيءَ عندك، ولا تجد إذا سُئِلتَ شيئاً تُعطيه سائِلَكَ «فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً»، يقول: فتقعد يَلُومُكَ سائِلُوكَ إذا لم تُعْطِهم حين سألوكَ، وتلومُكَ نَفْسُكَ على الإسراعِ في مالك وذهابه، محسوراً: يقول: مَعِيباً، قد انقَطِعَ بك، لا شيءَ عندك تنفقه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ۝٣٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: إنَّ رَبَّكَ يا محمدُ يبسطُ رزقَهُ لمن يشاءُ من عباده، فيوسِّعُ عليه، ويَقْدِرُ على مَنْ يشاء، يقول: ويُقَتِّرُ على مَنْ يشاء منهم، فيضيِّقُ عليه. «إنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً»، يقول: إنَّ ربك ذو خبرةٍ بعباده،

ومَنِ الذي تُصْلِحُه السَّعَةُ في الرزق وتُفْسده؛ ومَنِ الذي يُصلحه الإقتارُ والضيق ويهلكُـه. «بصيراً»، يقـول: هو ذوبَصَـرٍ بتـدبيرهم وسياستهم، يقـول: فانْتَهِ يا محمدُ إلى أمرنا فيما أمرناكَ ونَهيناكَ من بَسْطِ يدكَ فيما تبسطها فيه، وفيمن تبسـطها له، ومِنْ كَفِّها عَمَّنْ تَكُفُّها عنه، وتكفها فيه، فنحنُ أعلمُ بمصالحِ العبادِ منك، ومن جميعِ الخلق وأبصرُ بتدبيرهم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وقَضَىٰ رَبُّكَ» يا محمدُ «ألَّا تَعْبُدُوا إلَّا إيَّاهُ وبالوالدينِ إحْساناً»، «وَلا تَقْتُلُواأولادَكُم خَشْيَةَ إمْلاقٍ» فموضع تقتلوا نُصب عطفاً على ألا تعبدوا.

ويعني بقوله: «خَشْيَةَ إمْلاقٍ» خوفَ إقتارٍ وفَقْرٍ. وإنما قال جلّ ثناؤه ذلك للعـرب، لأنهم كانـوا يقتلونَ الإناثَ من أولادِهم خوفَ العَيْلَةِ على أنفسهم بالإنفاقِ عليهن.

وأمـا قولـه: «إنَّ قَتْلَهُمْ كان خِطْأً كَبيراً»، فإن معنى ذلـك: كان إثمـاً وخطيئة، لا خطأً من الفِعْلِ، لأنهم إنما كانوا يقتلونهم عَمْداً لا خطأً، وعلى عَمْدهم ذلك عاتَبهم رَبُّهم، وتَقَدَّمَ إليهم بالنهي عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقضى أيضاً أن «لا تَقْرَبُوا» أيها الناسُ «الزِّنا إنَّهُ كانَ فاحِشَةً»، يقول: إن الزّنا كان فاحشةً «وسَاءَ سَبيلًا»، يقول: وساءَ طريقُ الزنا

طريقاً، لأنه طريقُ أهلِ معصيةِ الله، والمخالفينَ أمْرَهُ، فأسْوِئْ به طريقاً يوردُ صاحِبَهُ نارَ جهنم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾

يقول جلّ ثناؤه: وقضى أيضاً أنْ «لا تَقْتُلُوا» أيها الناسُ «النَّفْسَ التي حَرَّمَ اللهُ» قَتْلَها «إلاَّ بالحَقِّ» وحَقُّها أنْ لا تُقْتَلَ إلا بكفرٍ بعدَ إسلامٍ، أو زنا بعدَ إحصانٍ، أو قَودٍ بنفسٍ، وإنْ كانت كافرةً لم يتقدَّمْ كُفْرَها إسلامٌ، فأنْ لا يكونَ تقدم قتلها لها عهدٌ وأمان.

وقوله: «ومَنْ قُتِل مَظْلُوماً»، يقول: ومَنْ قُتِلَ بغير المعاني التي ذكرنا أنه إذا قُتِلَ بها كان قتلاً بحقٍّ «فَقَدْ جَعَلْنا لِولِيِّهِ سُلطاناً»، يقول: فقد جعلنا لوليِّ المقتولِ ظلماً سلطاناً على قاتل وَلِيِّهِ، فإن شاء استقادَ منه فقتله بوليه، وإنْ شاء عفا عنه، وإنْ شاء أخذ الدية.

وقوله: «فلا يسرف في القتل»، يقول: فلا تقتل بالمقتول ظُلْماً غير قاتله، وذلك أن أهل الجاهلية كانوا يفعلون ذلك إذا قتل رجل رجلا عمدَ وليُّ القتيل إلى الشريف من قبيلة القاتل، فقتله بوليه، وتركَ القاتلَ، فنهىَ اللهُ عزّ وجلّ عن ذلك عبادَهُ، وقال لرسوله عليه الصلاة والسلام: قَتْل غيرِ القاتل بالمَقْتول معصيةٌ وسرفٌ، فلا تقتل به غير قاتله، وإن قتلت القاتل بالمقتول فلا تمثّل به.

وأما قوله: «إنَّهُ كانَ مَنْصُوراً» فإنَّ أهلَ التأويلِ اختلفوا فيمن عُنِي بالهاء التي في قوله: «إنَّه» وعلى ماهي عائدةٌ.

فقال بعضهم: هي عائدة على وليِّ المقتولِ، وهو المعنيُّ بها، وهو المنصورُ على القاتل.

وقال آخرون: بل عُنِي بها المقتول، فعلى هذا القول هي عائدةٌ على «مَن» في قوله: «وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً».

وقال آخرون: عُنِي بها دمُ المقتولِ، وقالوا: معنى الكلام: إنَّ دَمَ القتيلِ كان منصوراً على القاتل.

وأشبهُ ذلك بالصوابِ عندي، قولُ مَنْ قال: عُنِي بها الوليُّ، وعليه عادت، لأنه هو المظلومُ، ووليه المقتول، وهي إلى ذِكْرِه أقربُ من ذكرِ المقتولِ، وهو المنصورُ أيضاً، لأنَّ الله جلّ ثناؤه قضى في كتابه المنزل، أنْ سلَّطه على قاتلِ وليه، وحكَّمَهُ فيه، بأنْ جعل إليه قتله إنْ شاء، واستبقاءه على الدية إنْ أحبَّ، والعفو عنه إنْ رأى، وكفى بذلك نُصرةً له من الله جلَّ ثناؤه، فلذلك قلنا: هو المعنيُّ بالهاء التي في قوله: «إنَّهُ كانَ مَنْصُوراً».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقضى أيضاً أنْ لا تقربوا مالَ اليتيم بأكلٍ، إسرافاً وبداراً أن يَكْبَروا، ولكن اقْرَبُوه بالفَعْلة التي هي أحسنُ، والخَلَّةِ التي هي أجملُ، وذلك أنْ تتصرَّفُوا فيه له بالتثميرِ والإصلاحِ والحيطةِ.

وقوله: «حتى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ»، يقول: حتى يبلغ وقت اشتدادِه في العقلِ، وتدبيرِ ماله، وصلاح حاله في دينه. «وأَوْفُوا بالعَهْدِ»، يقول: وأوفوا بالعقدِ الذي تعاقدون الناسَ في الصلحِ بين أهلِ الحربِ والإسلام، وفيما بينكم أيضاً، والبيوعِ والأشربةِ والإجاراتِ، وغير ذلك من العقود. «إنَّ العَهْدَ كانَ مَسْئُولاً»،

يقول: إن الله جلَّ ثناؤه سائلٌ ناقضَ العهدِ عن نقضِه إياهُ، يقول: فلا تنقضُوا العهودَ الجائزةَ بينكم، وبين من عاهدتموه أيها الناسُ فتخفروه، وتغدروا بمن أعطيتُموه ذلك، وإنما عنى بذلك أن العهدَ كان مطلوباً؛ يقال في الكلام: ليسألنَّ فلان عهد فلان.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٣٥﴾

يقول تعالى ذكره: «وَ» قضى أنْ «أوْفُوا الكَيْلَ» للناسِ «إذَا كِلْتُمْ» لهم حقوقَهُمْ قِبلَكم، ولا تبخَسُوهم، «وَزِنُوا بالقِسْطاسِ المُسْتَقِيمِ»، يقول: وقَضَى أنْ زِنُوا أيضاً إذا وزنتم لهم بالميزانِ المستقيم، وهو العدل الذي لا اعوجاجَ فيه، ولا دَغَلَ، ولا خديعة.

وقوله: «ذلكَ خَيْرٌ»، يقول: إيفاؤكم أيها الناسُ مَنْ تَكِيلُونَ له الكيلَ، ووزنـكُم بالعـدلِ لمن تُوفـونَ له، «خَيْرٌ لَكُمْ» من بَخْسِكم إياهم ذلـك، وظُلْمِكُمُوهُمْ فيه، وقوله: «وأحْسَنُ تَأْوِيلًا»، يقول: وأحسنُ مردوداً عليكم وأوْلى إليه فيه فعلكم ذلك، لأنَّ الله تبارك وتعالى يرضى بذلك عليكم، فيُحسن لكم عليه الجزاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ۝٣٦﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ».

فقال بعضهم: معناه: ولا تَقُلْ ما ليسَ لك به عِلْمٌ.

وقال آخرون: بل معناه: ولا ترم.

وأَوْلى الأقـوال في ذلـك بالصوابِ قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: لا تَقُلْ للناسِ، وفيهم مالا عِلْمَ لكَ به، فترميهم بالباطلِ، وتشهد عليهم بغير الحقِّ، فذلك هو القَفْو.

وإنمـا قلنا ذلك أَوْلى الأقوالِ فيه بالصواب، لأنَّ ذلك هو الغالب من استعمالِ العرب القَفْو فيه.

وأما قوله: «إنَّ السَّمْعَ والبَصَرَ والفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْئُولاً»، فإن معناه: إن الله سائلٌ هذه الأعضاءَ عما قالَ صاحِبُهَا، من أنه سمعَ أو أبصرَ أو علمَ، تشهدُ عليه جوارحُه عند ذلك بالحقِّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾

يقول تعالى ذكره: ولا تمشِ في الأرضِ مختالاً مستكبراً. «إنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ»، يقول: إنك لن تقطعَ الأرضَ باختيالك.

وقوله: «كُلُّ ذلكَ كانَ سَيِّئُهُ عنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوها»، فإن القَرَأة اختلفت فيه، فقـرأه بعض قرأة المـدينـة وعامة قَرَأة الكوفة «كُلُّ ذلكَ كانَ سَيِّئُهُ عِند ربك مكروهاً» على الإضافةِ بمعنى: كل هذا الذي ذكرنا من هذه الأمورِ التي عددنا من مبتدأ قولنا: «وقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إلاَّ إياهُ»... إلى قولنا: «وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً» «كـانَ سَيِّئُـهُ»، يقول: سيىءُ ما عَدَدْنا عليكَ عند رَبِّكَ مكروهاً. وقال قارئُو هذه القراءة: إنما قيل: «كُلُّ ذلكَ كانَ سَيِّئُهُ» بالإضافةِ، لأنَّ فيمـا عددنا من قوله: «وقَضَى رَبُّكَ الأَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ» أموراً، هي أمر

بالجميل، كقوله: «وبَالوَالدَيْنِ إحْساناً»، وقوله: «وآتِ ذَا القُرْبَى حَقَّهُ» وما أشبه ذلك، قالوا: فليس كلُّ ما فيه نهياً عن سيئةٍ، بل فيه نهيٌ عن سيئة، و أمرٌ بحسنات، فلذلك قرأنا «سَيِّئُهُ»، وقرأ عامة قَرَأة أهلِ المدينة والبصرة وبعض قَرَأة الكوفة «كُلُّ ذلكَ كانَ سَيِّئَةً»، وقالوا: إنما عَنَى بذلك: كلّ ماعددنا من قولنا: «وَلا تَقْتُلُوا أوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إمْلاقٍ» ولم يدخل فيه ما قبل ذلك. قالوا: وكُلُّ ما عددنا من ذلك الموضع إلى هذا الموضع سيئةٌ لا حسنةَ فيه، فالصوابُ قراءته بالتنوين. ومن قرأ هذه القراءة، فإنه ينبغي أن يكون من نيته أنْ يكون المكروه مقدماً على السيئة، وأنْ يكون معنى الكلام عنده: كُلُّ ذلك كان مكروهاً سيئة؛ لأنه إنْ جعل قوله: «مكروهاً» من نعت السيئة، لزمه أنْ تكون القراءة: كلُّ ذلك كان سيئة عند ربكَ مكروهة، وذلك خلاف ما في مصاحف المسلمين.

وأوْلى القراءتين عندي في ذلك بالصواب قراءة مَنْ قرأ «كُلُّ ذلكَ كانَ سَيِّئُهُ» على إضافةِ السيىء إلى الهاء، بمعنى: كلُّ ذلك الذي عددنا من «وقَضَىَ رَبُّكَ ألَّا تَعْبُدُوا إلَّا إيَّاهُ. . . كانَ سَيِّئُهُ» لأنَّ في ذلك أموراً منهياً عنها، وأموراً مأموراً بها، وابتداءُ الوصيةِ والعهدِ من ذلك الموضع دونَ قوله: «وَلا تَقْتُلُوا أوْلادَكُمْ» إنما هو عطفٌ على ما تقدَّمَ من قوله: «وقَضَىَ رَبُّكَ ألَّا تَعْبُدُوا إلَّا إيَّاهُ» فإذا كان ذلك كذلك، فقراءته بإضافة السيىء إلى الهاء أولى وأحقّ من قراءته سيئةً بالتنوين، بمعنى السيئةِ الواحدة. معناه: كُلُّ هذا الذي ذكرنا لكَ من الأمورِ التي عددناها عليكَ كان سَيِّئُهُ مكروهاً عند ربك يا محمدُ، يكرهه وينهى عنه ولا يرضاهُ، فاتقِ مواقعتَهُ والعملَ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الذي بيَّنا لك يا محمدُ من الأخلاقِ الجميلةِ التي أمرناكَ بجميلها، ونهيناكَ عن قبيحها «مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الحِكْمَةِ»، يقول: من الحكمةِ التي أوحيناها إليكَ في كتابنا هذا.

«وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إلها آخرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً»، يقول: ولا تجعلْ مع الله شريكاً في عبادتك، فتُلْقَى في جهنم ملوماً تلومك نفسك وعارفوك من الناس «مَدْحُوراً»، يقول: مُبْعَداً مقصياً في النار، ولكنْ أخلص العبادةَ لله الواحد القهَّار، فتنجوَ من عذابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للذين قالوا من مشركي العرب: الملائكة بنات الله «أفأصْفاكُمْ» أيها الناسُ «رَبُّكُمْ بالبَنينَ»، يقول: أفخَصَّكُمْ رَبُّكم بالذكورِ من الأولادِ «واتَّخذَ مِنَ المَلائِكَةِ إناثاً» وأنتم لا ترضونهن لأنفسكم، بل تَئِدُونَهُنَّ، وتقتلونهن، فجعلتم لله ما لا ترضونه لأنفسكم. «إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً»، يقول تعالى ذِكْرُه لهؤلاء المشركينَ الذين قالوا من الفريةِ على الله ما ذكرنا: إنكم أيها الناسُ لتقولون بقِيلِكُمْ: الملائكة بنات الله، قولاً عظيماً، وتفترون على الله فريةً منكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝٤١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَلَقَدْ صَرَّفْنا» لهؤلاءِ المشركينَ المفترين على الله «فِي هَذَا القُرآنِ» العِبَرَ والآيات والحجج، وضربنا لهم فيه الأمثالَ، وحَذَّرْناهُمْ

فيه وأنذرناهم «لِيَذَّكَّرُوا»، يقول: ليتذكروا تلك الحججَ عليهم، فيعقلوا خطأَ ما هُمْ عليه مُقيمـونَ، ويعتبـروا بالعبر، فيَتَّعِـظُوا بها، ويُنيبُوا من جهالتهم فما يعتبرون بها، ولا يتذكرون بما يَرِدُ عليهم من الآياتِ والنُّذر، وما يَزِيدُهُمْ تذكيرنا إياهم «إلَّا نُفُورًا»، يقول: إلا ذهاباً عن الحقِّ، وبُعداً منه وهرباً. والنفورُ في هذا الموضع مصدرٌ من قولهم: نَفَرَ فلانٌ من هذا الأمر ينفِرُ منه نَفْراً ونفوراً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ لهؤلاء المشركين الذين جعلوا مع الله إلهاً آخر لو كان الأمرُ كما تقولون، من أنَّ معه آلهةً، وليس ذلك كمـا تقـولون، إذنْ لابتغتْ تلك الآلهةُ القُربةَ من اللهِ ذي العرشِ العظيم، والتمست الزُّلْفةَ إليه، والمرتبةَ منه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾

وهذا تنزيهٌ من الله تعالى ذِكْرُه نَفْسَهُ عَمَّا وصفه به المشركون، الجاعلونَ معه آلهةً غيره، المُضِيفُونَ إليه البنات، فقال: تنزيهاً لله وعلوّاً له عما تقولون أيها القومُ، من الفريةِ والكذب، فإنَّ ماتُضيفونَ إليه من هذه الأمور ليس من صفته، ولا ينبغي أنْ يكونَ له صفةً.

وقوله: «تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ والأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ»، يقول: تُنَزِّهُ اللهَ أيها المشركونَ عما وصفتموه به إعظاماً له وإجلالاً، السمواتُ السبعُ والأرضُ،

ومَنْ فيهنَّ من المؤمنينَ به من المـلائكـةِ والإنسِ والجنِّ، وأنتم مع إنعـامهِ عليكم، وجميلِ أياديه عندكم، تَفْتَرُونَ عليه بما تَفْتَرون.

وقوله: «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ»، يقول جلّ ثناؤه: وما من شيءٍ من خَلْقِه إلا يسبح بحمده.

وقوله: «وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولكن لا تفقهونَ تسبيحَ ماعدا تسبيح مَنْ كان يُسَبِّحُ بمثلِ ألسنتكم. «إِنَّهُ كانَ حَلِيماً»، يقول: إن الله كان حليماً لا يعجلُ على خَلْقِه، الذين يخالفون أمره، ويكفرون به، ولولا ذلك لعاجلَ هؤلاء المشركين الذين يَدعون معه الآلهة والأنداد بالعقوبةِ. «غَفُوراً»، يقول: ساتراً عليهم ذنوبهم، إذا هم تابوا منها بالعفوِ منه لهم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا قرأتَ يا محمدُ القرآنَ على هؤلاء المشركين الذين لا يُصَدِّقُونَ بالبعثِ، ولا يُقِرُّونَ بالثوابِ والعقابِ، جعلنا بينكَ وبينهم حجاباً، يحجبُ قلوبهم عن أنْ يفهموا ما تقرؤه عليهم، فينتفعوا به، عقوبةً منا لهم على كفرهم. والحجابُ ههنا: هو الساتر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وجعلنا على قلوبِ هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرةِ عند

قراءتكَ عليهم القرآنَ أكِنَّةً، وهي جمع كِنان، وذلك ما يَتَغَشَّاها من خِذلانِ الله إياهم عن فَهْمِ ما يُتلى عليهم. «وفِي آذانِهِمْ وَقْراً»، يقول: وجعلنا في آذانهم وقراً عن سماعِهِ، وصَمَماً. والوَقر بالفتح في الأذن: الثِقَلُ. والوِقر بالكسر: الحِمْل.

وقوله: «وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي القُرآنِ وَحْدَهُ»، يقول: وإذا قلت: لا إله إلا الله في القرآن وأنت تتلوه «وَلَّوْا على أدْبارِهم نُفُوراً»، يقول: انفضوا، فذهبوا عنك نفوراً من قولك استكباراً له واستعظاماً من أنْ يوحِّدَ الله تعالى.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعالَى: ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ۝٤٧﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: نحنُ أعلمُ يا محمدُ بما يستمعُ به هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة من مشركي قومكَ، إذ يستمعون إليكَ وأنتَ تقرأ كتابَ الله «وَإِذْ هُمْ نَجْـوَى». وكـان بعضُ أهـلِ العربية من أهلِ البصرة يقول: النجوى: فعلهم، فجعلهم هم النجوى، كما يقول: هم قومٌ رِضا، وإنما رضا: فعلهم.

وقوله: «إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إنْ تَتَّبِعُونَ إلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً»، يقول: حين يقولُ المشركون بالله: ما تتبعون إلا رجلًا مسحوراً، وعنى فيما ذُكِر بالنجوى: الذين تشاوروا في أمرِ رسولِ الله ﷺ في دار النَّدوة.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعـالَى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ۝٤٨﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: انظُرْ يا محمدُ بعينِ قلبكَ فاعتبرْ كيف مَثَّلُوا لكَ الأمثال، وشَبَّهُوا لكَ الأشباه، بقولهم: هو مسحورٌ، وهو شاعر، وهو مجنون. «فَضَلُّوا»، يقـول: فجـاروا عن قصـدِ السبيل بقِيلهم ما قالوا «فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً»، يقول: فلا يهتدون لطريقِ الحقِّ لضلالهم عنه وبُعْدِهم منه، وأنَّ الله قد خذلهم عنْ إصابته، فهم لا يقدرونَ على المَخْرَجِ مما هُمْ فيه من كُفْرِهم بتوفُّقهم إلى الإيمانِ به.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ هؤلاء الذين لا يؤمنونَ بالآخرةِ من مشـركي قريش، وقالوا بِعَنَتِهم: «أئِذَا كُنَّا عِظاماً» لم نَتَحَطَّمْ ولم نتكسَّرْ بعد مماتِنا وبِلاَنَا «وَرُفاتاً»، يعني تراباً في قبورنا.

وقـولـه: «أئِنَّا لَمَبْعُـوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً» قالوا: إنكاراً منهم للبعثِ بعد المـوتِ، إنـا لمبعـوثـون بعد مصيرنا في القبورِ عظاماً غيرَ منحطمةٍ، ورفاتاً منحطمةً، وقد بَلِينا فصرنا فيها تراباً، خلقاً مُنْشَأً كما كنا قبل المماتِ جديداً، نُعَادُ كما بُدِئْنَا، فأجابهم جَلَّ جلالُه يُعَرِّفُهم قُدْرَتَهُ على بعثِهِ إياهم بعد مماتهم، وإنشـائـه لهم كما كانوا قبل بلاهُم خلقاً جديداً، على أيِّ حالٍ كانوا من الأحوالِ، عظاماً أو رُفاتاً، أو حجارة أو حديداً، أو غير ذلك مما يعظُمُ عندهم أنْ يحدثَ مِثْله خَلْقاً أمثالهم أحياء، قُلْ يا محمدُ كونُوا حجارةً أو حديداً، أو خَلْقاً مما يَكْبُر في صدوركم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا

﴿يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ٥١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ للمكذِّبينَ بالبعثِ بعد المماتِ من قومكَ القائلينَ «أئِذَا كُنَّا عِظاماً وَرُفاتاً أئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقا جَدِيداً» كونـوا إنْ عجبتم من إنشاءِ الله إياكم، وإعادتهِ أجسامَكُمْ، خلقاً جديداً بعد بِلاكم في التراب، ومصيركم رُفاتاً، وأنكرتم ذلك من قُدرته حجارة أو حديداً، أو خلقاً مما يكبرُ في صدوركم إنْ قدرتم على ذلك، فإني أُحْيِيكُمْ وأبعثُكم خَلْقاً جديداً بعد مصيركم كذلك كما بدأتُكُمْ أوّلَ مرّة.

واختلف أهلُ التأويل في المعنيِّ بقوله: «أوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ» فقال بعضهم: عُنِي به الموت، وأُريدَ به: أو كونوا الموت، فإنكم إنْ كُنْتُمُوه أَمَتُّكُمْ ثم بعثتُكم بعد ذلك يوم البعث.

وقال آخرون: عنى بذلك السماء والأرض والجبال.

وقال آخرون: بل أُريدَ بذلك: كونوا ما شئتم.

وأوْلى الأقوال في ذلك بالصوابِ أن يقالَ: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه قال: «أوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ في صُدُورِكُمْ»، وجائزٌ أَنْ يكونَ عنى به الموت، لأنه عظيمٌ في صدور بني آدم؛ وجائزٌ أنْ يكونَ أرادَ به السماءَ والأرضَ؛ وجائزٌ أنْ يكون أرادَ به غير ذلك، ولا بيانَ في ذلك أبين مما بَيَّنَ جَلَّ ثناؤه، وهو كُلُّ ما كَبُرَ في صدورِ بني آدم من خَلْقِه، لأنه لم يخصص منه شيئاً دون شيء.

وأما قوله: «فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنا» فإنه يقول: فسيقولُ لك يا محمدُ هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة «مَنْ يُعِيدُنا» خلقاً جديداً، إنْ كنا حجارةً أو حديداً أو خلقـاً ممـا يكبرُ في صدورنا، فقل لهم: يعيدكم «الَّذِي فَطَرَكُمْ أوَّلَ مَرَّةٍ»،

يقول: يُعِيدُكُم كما كنتم قبلَ أنْ تصيروا حجارةً أو حديداً إنساً أحياء، الذي خلقكم إنساً من غير شيءٍ أوَّلَ مرّة.

وقوله: «وَيَقُولُونَ مَتى هُوَ»، يقول جلَّ ثناؤه: ويقولون متى البعثُ، وفي أيِّ حالٍ ووقتٍ يُعيدُنَا خلقاً جَديداً، كما كنا أوَّلَ مرّة، قال الله عزّ وجلّ لنبيه: قُلْ لهم يا محمدُ إذْ قالوا لكَ: متى هو؟ متى هذا البعثُ الذي تِعِدُنَا، عسى أنْ يكونَ قريباً؟ وإنما معناه: هو قريبٌ، لأنَّ عسى من الله واجبٌ، ولذلك قال النبيُّ ﷺ: «بُعِثْتُ أنـا والسَّاعَةُ كهَاتَيْن، وأشار بالسَّبابة والوسْطَى»[1]، لأنَّ الله تعالى كان قد أعلمه أنه قريبٌ مجيب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٥٢ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ۝٥٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قُلْ عسى أنْ يكونَ بَعْثُكم أيها المشركون قريباً، ذلك يومَ يَدْعُوكم رَبُّكم بالخروجِ من قبوركم إلى موقفِ القيامة، فتستجيبون بحمده،

اختلف أهلُ التأويل في معنى قوله: «فتَسْتَجِيبُونَ بحَمْده» فقال بعضهم: فتستجيبون بأمره.

(١) حديث صحيح في الغاية من الصحة، أخرجه من حديث جابر بن عبدالله الأنصاري: مسلم (٨٦٧)، وأحمد: ٣/٣١٠ و٣٣٨ و٣٧١، وابن ماجة (٤٥)، والنسائي: ٣/١٨٨، والبغوي (٤٢٩٥)، وابن حبان (١٠). وأخرجه من حديث أنس: البخاري (٦٥٠٤) ومسلم (٢٩٥١) وغيرهما. وأخرجه من حديث أبي هريرة البخاري: (٦٥٠٥) وابن ماجة (٤٠٤٠)، وابن حبان (٦٦٤١)، ومن حديث سهل بن سعد الساعدي: البخاري (٤٩٣٦) و(٥٣٠١) و(٦٥٠٣)، ومسلم (٢٩٥٠) وغيرهما.

وقال آخرون: معنى ذلك: فتستجيبون بمعرفته وطاعته.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصواب أن يقال: معناه: فتستجيبونَ للهِ من قبورِكم بقدرتهِ، ودعائه إياكم، ولله الحمد في كلِّ حال، كما يقولُ القائلُ: فعلتُ ذلك الفعل بحمدِ الله، يعني: لله الحمدُ على كلِّ ما فعلته.

وقوله: «وَتَظُنُّونَ إنْ لَبِثْتُمْ إلاَّ قَلِيلًا»، يقول: وتحسِبُونَ عند موافاتِكم القيامةَ من هولِ ما تُعايِنُونَ فيها ما لبثتم في الأرض إلا قليلًا، كما قال جَلَّ ثناؤه: «قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ، قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فاسأَلِ العادِّينَ».

وقوله: «وَقُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا التي هِيَ أَحْسَنُ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ: وقل يا محمد لعبادي يَقُلْ بعضُهم لبعضٍ التي هي أحسنُ من المحاورةِ والمخاطبة.

وقوله: «إنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ»، يقول: إنَّ الشيطانَ يسوء محاورة بعضهم بعضاً «يَنْزَغُ بينهم»، يقول: يُفْسِدُ بينهم، يُهيج بينهم الشرَّ. «إنَّ الشَّيْطانَ كانَ للإنْسانِ عَدُوّاً مُبِيناً»، يقول: إنَّ الشيطان كان لآدمَ وذرِّيتهِ عدوّاً، قد أبانَ لهم عداوتَهُ بما أظهرَ لآدمَ من الحسدِ، وغروره إياه حتى أخرجه من الجنة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لهؤلاء المشركين من قريش الذين قالوا: «أئِذا كُنَّا عِظاماً وَرُفاتاً أئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيدًا ـ رَبُّكُمْ» أيها القومُ «أعْلَمُ بِكُمْ إنْ يَشأْ يَرْحَمْكُمْ» فيتوب عليكم برحمته، حتى تُنيبُوا عما أنتم عليه من الكفرِ به وباليومِ

الآخر «وَإِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ» بأنْ يخذلكم عن الإيمانِ، فتموتُوا على شِرْكِكُمْ، فيعذِّبكم يومَ القيامة بكفركم به.

وقوله: «وَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً»، يقول لنبيه محمد ﷺ: وما أرسلناكَ يا محمدُ على مَنْ أرسلناكَ إليه لتدعوهُ إلى طاعتنا رباً ولا رقيباً، إنما أرسلناكَ إليهم لِتُبَلِّغَهُمْ رسالاتنا، وبأيدينا صرفهم وتدبيرهم، فإن شِئْنَا رَحِمْنَاهُمْ، وإنْ شِئْنَا عَذَّبناهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه لنبيه ﷺ: ورَبُّكَ يا محمدُ أعلمُ بمن في السمواتِ والأرض وما يُصْلِحُهم فإنه هو خالقهم ورازقهم ومدبرهم، وهو أعلمُ بمن هو أهلُ للتوبةِ والرحمة، ومَنْ هو أهلُ للعذاب، أَهْدي للحقِّ مَنْ سبق له مني الرحمة والسعادة، وأُضِلُّ مَنْ سبق له مني الشقاءُ والخذلان، يقول: فلا يكبرنَّ ذلـك عليكَ، فإن ذلك من فِعْلي بهم لتفضيلي بعضَ النبيين على بعضٍ، بإرسالِ بعضِهم إلى بعضِ الخَلْقِ، وبعضهم إلى الجميع، ورفعي بعضَهم على بعضٍ درجات.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ لمشركي قومكَ الذين يعبدونَ من دونِ الله مِنْ خَلْقِه، ادعوا أيها القومُ الذين زعمتم أنهم أربابٌ وآلهةٌ من دونهِ عند ضُرٍّ ينزلُ بكم، فانظروا هل يقدرونَ على دفعِ ذلك عنكم، أو

تحويله عنكم إلى غيركم، فتدعوهم آلهةً، فإنهم لا يقدرونَ على ذلك، ولا يملكونَهُ، وإنما يملكُه ويقدرُ عليه خالِقُكم وخالِقُهم. وقيل: إنَّ الذين أمرَ النبيّ ﷺ أن يقول لهم هذا القول، كانوا يعبدونَ الملائكةَ وعزيراً والمسيحَ، وبعضهم كانوا يعبدون نفراً من الجنّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝٥٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاء الذين يَدْعُوهم هؤلاء المشركونَ أرباباً «يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِمُ الوَسِيلَةَ»، يقول: يبتغي المَدْعُوُّونَ أرباباً إلى رَبِّهم القُربةَ والزُّلفة، لأنهم أهلُ إيمانٍ به، والمشركون بالله يعبدونهم من دونِ الله «أَيُّهُمْ أَقْرَبُ» أيهم بصالحِ عمله واجتهادِه في عبادته أقربُ عنده زُلْفةً «وَيَرْجُونَ» بأفعالهم تلك «رَحْمَتَهُ. ويَخافُونَ» بخلافِهم أمْرَهُ «عَذَابَهُ، إنَّ عَذَابَ رَبِّكَ» يا محمدُ «كانَ مَحْذوراً» مُتَّقىً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ۝٥٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وما من قرية من القرى، إلا نحنُ مُهْلِكُو أهلها بالفناء، فَمُبِيدُوهم استئصالاً قبل يومِ القيامة، أو مُعَذِّبُوهَا، إما ببلاءٍ من قتلٍ بالسيف، أو غير ذلك من صنوفِ العذابِ عذاباً شديداً.

وقوله: «كانَ ذلكَ فِي الكِتابِ مَسْطُوراً»، يعني في الكتابِ الذي كتب فيه كلّ ماهو كائنٌ، وذلك اللوح المحفوظ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ

يقـول تعـالى ذكـره: وما منعنا يا محمدُ أنْ نرسلَ بالآياتِ التي سألها قومُكَ، إلا أنْ كان من قبلهم من الأمم المكذِّبة، سألوا ذلك مِثْلَ سؤالهم؛ فلما أتاهم ما سألوا منه كَذَّبوا رُسُلَهم، فلم يُصَدِّقُوا مع مجيءِ الآياتِ، فَعُوجِلُوا فلم نرسل إلى قومك بالآيات، لأنَّا لو أرسلنا بها إليهم، فكذّبوا بها، سلكنا في تعجيل العذابِ لهم مَسْلَكَ الأممِ قبلهم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: وقد سأل الآياتِ يا محمدُ من قبلِ قومِكَ ثمودُ، فآتيناها ما سألَتْ، وجعلنا تلك الآيةَ ناقةً مبصرةً، جعلَ الإبصارَ للناقةِ، كما تقولُ للشجة: موضحة، وهذه حُجَّةٌ مبينة. وإنما عَنَى بالمبصرة: المضيئة البَيِّنة التي مَنْ يراها كانوا أهلَ بَصَرٍ بها، أنها لله حُجَّةٌ، كما قيل: «والنهارَ مُبْصِرًا».

وقوله: «فَظَلَمُوا بِها»، يقول عزَّ وجلَّ: فكان بها ظُلْمُهم، وذلك أنهم قتلوها وعقروها، فكان ظلمهم بعقرها وقتلها، وقد قيل: معنى ذلك: فكفروا بها، ولا وجهَ لذلك إلا أنْ يقول قائله أراد: فكفروا بالله بقتلها، فيكون ذلك وجهاً.

وأما قوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بالآياتِ إلاَّ تَخْوِيفاً﴾، فإنه يقول: وما نرسلُ بالعِبَرِ والذِّكرِ إلا تخويفاً للعباد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِي ٱلْقُرْءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ۝٦٠﴾

وهذا حَضٌّ من الله تعالى ذِكْرُه نبيه محمداً ﷺ، على تبليغِ رسالته، وإعلامٌ منه أنه قد تقدَّمَ منه إليه القولُ بأنه سيمنعهُ من كلِّ مَنْ بَغَاهُ سوءاً وهلاكاً، يقول جلّ ثناؤه: واذكُرْ يا محمدُ إذْ قلنا لك إنَّ ربكَ أحاط بالناسِ قُدرة، فهم في قبضتِه لا يقدرونَ على الخروجِ من مشيئتِهِ، ونحنُ مانعوكَ منهم، فلا تتهيَّبْ منهم أحداً، وامضِ لما أمرناكَ به من تبليغِ رسالتنا.

وقوله: «وَمَا جَعَلْنا الرُّؤْيا التي أرَيْناكَ إلاَّ فِتْنَةً للنَّاسِ»، اختلف أهلُ التأويل في ذلك، فقال بعضهم: هي رؤيا عينٍ، وهي ما رأى النبيُّ ﷺ لما أُسري به من مكةَ إلى بيتِ المقدس.

وقال آخرون: هي رؤياه التي رأى أنه يدخلُ مكة.

وقال آخرون ممن قال: هي رؤيا منامٍ: إنما كان رسولُ الله ﷺ رأى في منامه قوماً يَعْلُونَ منبره.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصواب، قولُ مَنْ قال: عَنَى بها رؤيا رسولِ الله ﷺ ما رأى من الآياتِ والعبرِ في طريقهِ إلى بيتِ المقدس، وببيتِ المقدس ليلةَ أُسريَ به، وقد ذكرنا بعضَ ذلك في أوّل هذه السورة.

وإنما قُلنا ذلك أولى بالصوابِ، لإجماعِ الحجةِ من أهلِ التأويل على

أنَّ هذه الآية إنما نزلت في ذلك، وإياه عَنَى اللهُ عزَّ وجلَّ بها، فإذا كان ذلك كذلك، فتأويلُ الكلام: وما جعلنا رؤياكَ التي أريناكَ ليلةَ أسرينا بكَ من مكةَ إلى بيتِ المقدس، إلا فتنةً للناس: يقول: إلا بَلاءً للناسِ الذين ارتدُّوا عن الإسلامِ، لمَّا أُخْبِرُوا بالرؤيا التي رآها عليه الصلاةُ والسلام، وللمشركينَ من أهلِ مكة الذْين ازدادوا بسماعِهم ذلك من رسولِ الله ﷺ تمادياً في غيِّهم، وكفراً إلى كفرهم.

وقال آخرون: هي الكَشُوث[1].

وأوْلى القولين في ذلك بالصواب عندنا قولُ مَنْ قال: عَنَى بها شجرةَ الزقُّوم، لإجماعِ الحجةِ من أهلِ التأويل على ذلك، ونُصِبَت الشجرةُ الملعونةُ عطفاً بها على الرؤيا. فتأويل الكلام إذن: وما جعلنا الرؤيا التي أريناكَ، والشجرةَ الملعونةَ في القرآن إلا فتنةً للناس، فكانت فتنتهم في الرؤيا ماذكرت من ارتدادِ مَنِ ارتدَّ، وتمادِي أهلِ الشركِ في شِرْكِهم، حين أخبرهم رسولُ الله ﷺ بما أراهُ الله في مسيره إلى بيتِ المقدس ليلة أُسريَ به، وكانت فتنتهم في الشجرةِ الملعونة ما ذكرنا من قولِ أبي جهل والمشركينَ معه: يخبرنا محمدٌ أنَّ في النارِ شجرةً نابتةً، والنارُ تأكلُ الشجرَ فكيف تنبتُ فيها؟

وقوله: «ونُخَوِّفُهُم فَمَا يَزيدُهُمْ إلاَّ طُغْيانا كَبيراً»، يقول: ونُخَوِّفُ هؤلاء المشركين بما نَتَوَعَّدُهُمْ من العقوباتِ والنكالِ، فما يزيدهم تخويفنا إلا طغياناً كبيراً، يقول: إلا تمادياً وغياً كبيراً في كفرهم وذلك أنهم لما خُوِّفُوا بالنارِ التي طعامهم فيها الزقومُ دعوا بالتمر والزبد، وقالوا: تَزَقَّمُوا من هذا.

---

(١) الكشوث، والكشوثا، والكشوثاء: نبتٌ يتعلق بالأغصان، ولا عِرْقَ له في الأرض. وهي لفظة سوادية (انظر اللسان والتاج).

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: واذكُرْ يا محمدُ تمادي هؤلاء المشركينَ في غيِّهم وارتدادِهم عُتُوّاً على رَبِّهم بتخويفهِ إياهم تحقيقهم قول عدوِّهم وعدوِّ والدِهم، حين أمره رَبُّهُ بالسجودِ له فعصاهُ وأبى السجودَ له، حَسَداً واستكباراً «لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إلى يَوْمِ القِيامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَه إلَّا قَلِيلاً» وكيف صَدَّقُوا ظَنَّهُ فيهم، وخالفوا أمرَ رَبِّهم وطاعته، واتبعوا أمرَ عدوِّهم وعدوِّ والدهم.

ويعني بقوله: «وَإِذْ قُلْنا للْمَلائِكَةِ»: واذكُرْ إذْ قلنا للملائكةِ «اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا، إلَّا إبْلِيسَ» فإنه استكبرَ وقال: «أأسْجُد لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً»، يقول: لِمَنْ خلقتَهُ من طينٍ؛ فلما حذفت «مِنْ» تعلَّقَ به قوله «خَلَقْتَ» فنصب، يفتخرُ عليه الجاهلُ بأنه خُلِقَ من نارٍ، وخلق آدم من طين.

وقوله: «أرَأيْتَكَ هَذا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ» يقول تعالى ذِكْرُه: أرأيتَ هذا الذي كَرَّمْتَهُ عليَّ. فأمرتني بالسجودِ له، ويعني بذلك آدمَ «لئِنْ أخرتن» أقسمَ عَدُوُّ الله، فقال لربه: لئِنْ أخرتَ إهلاكي إلى يومِ القيامة «لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إلَّا قَلِيلاً»، يقول: لأستولِيَنَّ عليهم، ولأستأصِلَنَّهُمْ، ولأسْتَمِيلَنَّهُمْ. يقال منه: احتنكَ فلانٌ ما عند فلانٍ من مالٍ أو علمٍ أو غير ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال اللهُ لإبليسَ إذْ قالَ له: «لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إلى يَوْمِ

القِيامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إلَّا قَلِيلاً» اذهبْ فقد أَخَّرْتُكَ، فمن تبعكَ منهم، يعني من ذرّيةِ آدم عليه السلام فأطاعكَ، فإنَّ جهنم جزاؤُكَ وجزاؤهم، يقول: ثوابُكَ على دعائِكَ إياهم على معصيتي، وثوابُهم على اتباعِهم إياكَ وخلافهم أمري «جزاءً موْفوْراً»، يقول: ثواباً مكثوراً مُكَمَّلاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وَاسْتَفزِزْ» واستَخْفِفْ واستجهلْ، من قولهم: استفزَّ فلاناً كذا وكذا فهو يستفزُّه. «مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوتِكَ»، اختلف أهلُ التأويل في الصوت الذي عناه جلَّ ثناؤه بقوله: «وَاسْتَفْزِز مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوتِك» فقال بعضهم: عَنَى به: صوتَ الغناءِ واللعب.

وقال آخرون: عَنَى به «واسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ» بدعائِكَ إياهُ إلى طاعتك ومعصية الله.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصحة أنْ يُقالَ: إنَّ الله تبارك وتعالى قال لإبليسَ: واستفزز من ذُرِّيةِ آدمَ مَنِ استطعتَ أنْ تستفزَّهُ بصوتك، ولم يخصص من ذلك صوتاً دونَ صوتٍ، فكل صوت كان دعاء إليه وإلى عمله وطاعته، وخلافاً للدعاء إلى طاعةِ الله، فهو داخلٌ في معنى صوتهِ الذي قال الله تبارك وتعالى اسمه له: «وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ».

وقوله: «وأجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ ورَجِلكَ» يقول: وأَجْمِعْ عليهم من رُكبانِ جُنْدِكَ ومُشاتِهم من يجلب عليها بالدعاء إلى طاعتك، والصرف عن طاعتي، يقال منه: أَجْلَبَ فلانٌ على فلانٍ إجلاباً: إذا صاحَ عليه. والجَلَبة: الصوتُ،

وربما قيل: ما هذا الجَلَب، كما يقال: الغَلَبة والغَلَب، والشَّفَقَة والشَّفَق.

وأما قوله: «وشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ والأَوْلادِ»، فإنَّ أهلَ التأويلِ اختلفوا في المشاركة التي عُنيتْ بقوله: «وشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ والأَوْلادِ» فقال بعضُهم: هو أمره إياهم بإنفاقِ أموالهم في غيرِ طاعةِ الله واكْتِسَابِهِمُوهَا من غير حِلِّهَا.

وقال آخرون: بل عُنِي بذلك كلُّ ما كانَ من تحريمِ المشركينَ ما كانوا يُحَرِّمُونَ من الأنعامِ كالبحائرِ والسوائبِ ونحو ذلك.

وقال آخرون: بل عُنِي به ما كان المشركون يَذْبحونَهُ لآلهتم.

وأَوْلى الأقوال في ذلك بالصوابِ قولُ مَنْ قال: عُنِي بذلك كلُّ مالٍ عُصِيَ اللهُ فيه بإنفاقٍ في حرامٍ أو اكتسابٍ من حرام، أو ذَبْحٍ للآلهةِ، أو تسييبٍ، أو بحرٍ للشيطان، وغير ذلك مما كان معصياً به أو فيه، وذلك أن الله قال: «وشَارِكْهُمْ في الأَمْوَالِ» فكلّ ما أُطيعَ الشيطانُ فيه من مال وعُصِيَ الله فيه، فقد شاركَ فاعلُ ذلك فيه إبليسَ، فلا وجهَ لخصوصِ بعضِ ذلك دونَ بعض.

وقوله: «والأَوْلادِ»، اختلف أهلُ التأويل في صفة شَرِكَتِه بني آدمَ في أولادِهم، فقال بعضهم: شركته إياهم فيهم بزناهم بأمهاتهم.

وقال آخرون: عنى بذلك: وأْدَهُمْ أولادَهُم وقَتْلَهُمُوهم.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك: صبغَهم إياهم في الكُفْر.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك تَسْمِيتَهُمْ أولادهم عبدَ الحَرْثِ وعبدَ شَمْسٍ.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصواب أن يقال: كُلُّ ولدٍ ولدته أنثى عَصَى الله بتسميته ما يكرهُه اللهُ، أو بإدخالهِ في غيرِ الدينِ الذي ارتضاهُ الله، أو بالزنا

بأمه، أو قَتْلِه ووأدِه، أو غيرِ ذلك من الأمورِ التي يَعْصِي الله بها بفعله به أو فيه، فقد دخلَ في مشاركةِ إبليسَ فيه من وُلِدَ ذلك المولودُ له أو منه، لأنَّ الله لم يخصص بقوله: «وشَارِكْهُم في الأمْوَالِ والأولادِ» معنى الشركةِ فيه بمعنى دونَ معنى، فكلُّ ما عُصِيَ الله فيه أو به، وأُطِيعَ به الشيطانُ أو فيه، فهو مشاركةُ مَنْ عَصَى الله فيه أو به إبليسَ فيه.

وقوله: «وَعِدْهُم ومَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إلاَّ غُرُوراً»، يقول تعالى ذِكْرُه لإبليسَ: وعِدْ أتباعكَ من ذرِّيةِ آدمَ، النُّصْرَةَ على مَنْ أرادهم بسوء، يقول الله: «ومَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إلاَّ غُرُوراً» لأنه لا يغني عنهم من عقابِ الله إذا نزل بهم شيئاً، فهم من عِدَاتِهِ في باطلٍ وخديعة، كما قال لهم عدوُّ الله حين حَصْحَصَ الحقُّ: «إنَّ الله وَعَدَكُمْ وعْدَ الحَقِّ، وَوَعدتُكُم فَأخْلَفْتُكُم، ومَا كانَ لي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إلاَّ أنْ دَعَوْتُكُمْ فاسْتَجَبْتُمْ لي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أنْفُسَكُمْ ما أنا بِمُصْرِخِكُمْ ومَا أنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إنِّي كَفَرْتُ بِمَا أشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لإبليسَ: إنَّ عبادي الذين أطاعوني، فاتبعوا أمري وعَصوكَ يا إبليسُ، ليسَ لك عليهم حجة.

وقوله: «وكَفَى برَبِّكَ وَكيلاً»، يقول جَلَّ ثناؤه لنبيه محمدٍ ﷺ: وكفاكَ يا محمدُ ربك حفيظاً، وقَيِّماً بأمرك، فانْقَدْ لأمرِه، وبَلِّغْ رسالاته هؤلاء المشركين، ولا تَخَفْ أحداً، فإنه قد توكَّلَ بحفظكَ ونُصْرَتِكَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه للمشركين به: ربكم أيها القومُ هو الذي يُسَيِّرُ لكمُ السفنَ في البحر، فيحملكم فيها «لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِه» لتوصلوا بالركوب فيها إلى أمـاكن تجـاراتِكم ومـطالبكم ومعـايشكم، وتلتمسونَ من رزقهِ «إنَّه كانَ بِكُمْ رَحِيماً»، يقول: إنَّ الله كان بكم رحيماً حين أجرى لكم الفلكَ في البحر، تسهيلاً منه بذلك عليكم التصرُّفَ في طلبِ فَضْلِه في البلاد النائية التي لولا تسهيلهُ ذلك لكم لصعبَ عليكم الوصولُ إليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا نالتكم الشدَّةُ والجَهْدُ في البحر ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ: يقول: فَقَدْ تُمْ مَنْ تدعون من دونِ الله من الأندادِ والآلهةِ، وجارَ عن طريقِكم فلم يُغِثْكُمْ، ولم تجدوا غيرَ الله مغيثاً يغيثكم دَعَوْتُموه، فلما دَعَوْتُموهُ وأغاثكم، وأجابَ دُعاءَكُم ونَجَّاكم من هولِ ما كنتم فيه في البحر، أعرضتم عما دعاكم إليه رَبُّكم من خلعِ الأنداد، والبراءةِ من الآلهةِ، وإفرادِه بالألوهةِ كفراً منكم بنعمته «و كانَ الإنْسانُ كَفُوراً»، يقول: و كان الإنسانُ ذا جَحْدٍ لنعم رَبِّه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾

يقـول تعالى ذكره: «أفأمنْتِم» أيها الناسُ من ربِّكم، وقد كفرتُمْ نِعمتَهُ بتنجِيَتِهِ إياكم من هولِ ما كنتم فيه في البحر، وعظيمِ ما كنتم قد أشرفتم عليه من الهلاكِ، فلما نَجَّاكُمْ وصرتم إلى البرِّ كفرتم، وأشركتم في عبادته غيره «أنْ يَخْسِفَ بكُمْ جانِبَ البَرِّ»، يعني ناحية البرِّ، «أوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصباً»، يقول: أو يُمْطِرَكُمْ حجارةً من السماء تقتلكم، كما فعلَ بقومِ لوطٍ «ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكيلاً»، يقول: ثم لا تجدوا لكم ما يقومُ بالمدافعةِ عنكم من عذابهِ وما يمنعكم منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أم أمنتم أيها القومُ من ربكم، وقد كفرتم به بعد إنعامهِ عليكم، النعمة التي قد علمتم أنْ يعيدكم في البحرِ تارةً أخرى: يقول: مرّةً أخرى، والهاء التي في قوله: «فيه» من ذِكْرِ البحر.

أما قوله: «فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قاصِفاً مِنَ الرِّيحِ» وهي التي تقصفُ ما مرتْ به فتحطمه، وتَدقُّهُ، من قولهم: قصفَ فلانٌ ظهرَ فلان: إذا كسره. «فَيُغْرِقَكُمْ بمـا كفَرْتُم»، يقول: فيغرقكم الله بهذه الريحِ القاصفِ بما كفرتم، يقول: بكفركم به، «ثُمَّ لاتَجِدوا لكم علَيْنا به تَبيعاً»، يقول: ثم لاتجدوا لكم علينا تابعاً يتبعنا بما فَعَلْنا بكم، ولا ثائراً يثأرنا بإهلاكنا اياكم. وقيل: تبيعاً في موضعِ التابع، كما قيل: عليمٌ في موضعِ عالم، والعربُ تقولُ لكلِّ طالبٍ بدمٍ أو دَيْنٍ أو غيره: تبيعٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾

يقول تعالى ذكره: «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ» بتسليطنا إياهم على غيرهم من الخَلْقِ، وتسخيرنا سائرَ الخلقِ لهم «وحَمَلْناهُمْ فِي البَرِّ» على ظهور الدوابّ والمراكب وفي «البَحْرِ» في الفلك التي سخرناها لهم «وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ»، يقول: من طيباتِ المطاعمِ والمشارب، وهي حلالها ولذيذاتها «وَفَضَّلْناهم عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلاً» ذكر لنا أَنَّ ذلك تمكنهم من العملِ بأيديهم، وأخذ الأطعمةِ والأشربةِ بها ورفعها بها إلى أفواههم، وذلك غير مُتَيَسِّرٍ لغيرِهم من الخَلْقِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٧١﴾

اختلف أهلُ التأويل في معنى الإمام الذي ذكر الله جلّ ثناؤه أنه يدعو كُلَّ أناسٍ به، فقال بعضهم: هو نبيُّهُ، ومَنْ يَقْتَدِي به في الدُّنيا ويأتمُّ به.

وقال آخرون: بل معنى ذلك أنه يدعوهُمْ بكُتُبِ أعمالهم التي عَمِلُوها في الدنيا.

وقال آخرون: بل معناه: يوم ندعو كُلَّ أُناسٍ بكتابهم الذي أنزلتُ عليهم فيه أمري ونهيي.

وأَوْلى هذه الأقوالِ عندنا بالصواب، قولُ من قال: معنى ذلك: يوم ندعو كلَّ أناسٍ بإمامهم الذي كانوا يقتدونَ به، ويأتمونَ به في الدنيا، لأنَّ الأغلبَ

من استعمالِ العربِ الإمام فيما ائتُمَّ واقْتُدِيَ به، وتوجيه معاني كلام الله إلى الأشهرِ أوْلى ما لم تَثْبُتْ حجةٌ بخلافهِ يجبُ التسليمُ لها.

وقوله: «فَمَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ»، يقول: فمن أعطي كتاب عمله بيمينه «فَأُولَئِكَ يَقرَءُونَ كِتابَهُمْ» ذلك حتى يعرفوا جميع ما فيه «وَلا يُظلَمُونَ فَتِيلاً»، يقول تعالى ذكره: ولا يظلمهم الله من جزاء أعمالهم فتيلاً، وهو المنفتل الذي في شقّ بطن النواة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٧٢﴾

اختلف أهلُ التأويل في المعنى الذي أشير إليه بقوله: «هذه»، فقال بعضهم: أُشيرَ بذلك إلى النعمِ التي عَدَّدَهَا تعالى ذِكْرُه بقوله: «وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ وحَمَلناهُمْ فِي البَرِّ والبَحرِ، وَرَزَقناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ، وفَضَّلْناهُمْ على كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفضِيلاً» فقال: «وَمَنْ كانَ فِي هذِهِ أعمىَ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أعمَى وأضَلُّ سَبِيلاً».

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ومَنْ كان في هذه الدنيا أعمى عن قدرةِ الله فيها وحججه، فهو في الآخرةِ أعمى.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك عندي بالصوابِ، قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: ومَنْ كان في هذه الدنيا أعمى عن حججِ الله على أنه المنفردُ بخلقِها وتدبيرِها، وتصريفِ ما فيها، فهو في أمرِ الآخرةِ التي لم يَرَهَا ولم يُعَاينها، وفيما هو كائنٌ فيها أعمى وأضلُّ سبيلاً: يقول: وأضلُّ طريقاً منه في أمر الدنيا التي قد عاينها ورآها.

وإنما قلنا: ذلك أوْلى تأويلاتهِ بالصوابِ، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه لم

يخصص في قولـه: «وَمَنْ كانَ فِي هَذِهِ» الدنيا «أعْمَى» عَمَى الكافرِ به عن بعضِ حججه عليه فيها دونَ بعضٍ، فيوجِّه ذلك إلى عَمَاهُ عن نعمه بما أنعمَ به عليه من تكريمهِ بني آدم، وحَمْلهِ إياهم في البرِّ والبحرِ، وما عَدَّدَ في الآية التي ذكر فيها نِعَمَهُ عليهم، بل عَمَّ بالخبرِ عن عماه في الدنيا، فهم كما عَمَّ تعالى ذِكْرُه.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: «فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أعْمَى» فكسرت القَرَأَةُ جميعاً أعني الحرفَ الأوّلَ قولَهُ: «وَمَنْ كانَ فِي هَذِهِ أعْمى». وأما قوله: «فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أعْمَى» فإنَّ عامة قرّاء الكوفيين أمالت أيضاً قوله: «فهوَ فِي الآخِرَةِ أعْمَى». وأما بعض قرّاء البصرة فإنه فتحه، وتأوَّلَهُ بمعنى: فهو في الآخرة أشدُّ عَمًى. واستشهد لصحةِ قراءته بقوله: «وأضَلُّ سَبِيلاً».

وهذه القراءةُ هي أَوْلى القراءتين في ذلك بالصوابِ للشاهدِ الذي ذكرنا عن قارئه كذلك، وإنما كره مَنْ كره قراءته كذلك ظناً منه أنَّ ذلك مقصودٌ به قصد عمى العينين الذي لا يُوصَفُ أحدٌ بأنه أعمى من آخر أعمى، إذْ كان عمى البصر لا يتفاوتُ، فيكون أحدهما أزيدَ عَمًى من الآخرِ، إلا بإدخالِ أشدَّ أو أبين، فليس الأمرُ في ذلك كذلك.

وإنما قلنا: ذلك من عمى القلب الذي يقعُ فيه التفاوتُ، فإنما عُنِي به عمى قلوبِ الكفارِ، عن حججِ الله التي قد عاينتها أبصارُهم، فلذلك جازَ ذلك وحَسُنَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾

اختلف أهلُ التأويل في الفتنة التي كاد المشركون أنْ يفتنوا رسولَ الله

ﷺ بها عن الذي أوحى اللهُ إليه إلى غيره؛ فقال بعضهم: ذلك الإلمامُ بالآلهة، لأنَّ المشركين دَعوه إلى ذلك، فَهَمَّ به رسولُ الله ﷺ.

وقال آخرون: إنما كان ذلك أنَّ رسولَ الله ﷺ هَمَّ أن يُنْظِرَ قوماً بإسلامِهم إلى مدةٍ سألوه الانظارَ إليها.

والصوابُ من القولِ في ذلك أن يقال: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه أخبر عن نبيهِ ﷺ. أنَّ المشركينَ كادوا أنْ يفتنوه عما أوحاهُ الله إليه ليعملَ بغيرِه، وذلك هو الافتراءُ على الله؛ وجائزٌ أن يكونَ ذلك كان ماذكر عنهم من ذكر أنهم دَعَوْهُ أنْ يَمَسَّ آلهتهم، ويُلِمَّ بها، وجائزٌ أن يكون غير ذلك، ولا بيانَ في الكتابِ ولا في خبرٍ يقطعُ العُذْرَ أيَّ ذلك كان، والاختلافُ فيه موجود على ما ذكرنا، فلا شيءَ فيه أصوب من الإيمانِ بظاهرِهِ، حتى يأتي خبرٌ يجبُ التسليمُ له ببيان ماعُنِي بذلك منه.

وقوله: «﴿وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولو فعلتَ ما دَعَوْكَ إليه من الفتنةِ عن الذي أوحينا إليكَ لاتَّخذوك إذاً لأنفسهم خليلاً، وكنتَ لهم و كانوا لكَ أولياء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝٧٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولولا أنْ ثَبَّتناكَ يا محمدُ بعِصْمَتِنَا إياكَ عما دعاكَ إليه هؤلاء المشركون من الفتنةِ. «﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾»، يقول: لقد كدت تميلُ إليهم وتطمئنُّ شيئاً قليلاً، وذلك ما كان ﷺ هَمَّ به من أن يفعلَ بعضَ الذي كانوا سألوه فِعْلَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لو ركنتَ إلى هؤلاء المشركينَ يا محمدُ شيئاً قليلاً فيما سألوكَ إذنْ لأذقناكَ ضِعْفَ عذابِ الحياة، وضِعْفَ عذابِ الممات.

وقوله: «ثُمَّ لاتَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيراً»، يقول: ثم لا تجدُ لكَ يا محمدُ ـ إنْ نحن أذقناكَ لِرُكُونِكَ إلى هؤلاء المشركين لو ركنتَ إليهم ـ عذابَ الحياةِ وعذابَ الممات «علينا نصيراً»: ينصركَ علينا، ويمنعكَ من عذابك، وينقذكَ مما نالكَ منا من عقوبة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾

يقول عزَّ وجلَّ: وإنْ كاد هؤلاء القوم ليستفزونكَ من الأرض: يقول: ليستخفونك من الأرض التي أنتَ بها لِيُخرجوكَ منها. «وَإِذًا لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إلَّا قَلِيلاً»، يقول: ولو أخرجوكَ منها لم يلبثوا بعدكَ فيها إلا قليلاً، حتى أُهْلِكَهُمْ بعذابٍ عاجل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لو أخرجوكَ لم يلبثوا خِلافكَ إلا قليلاً، ولأهلكناهم بعذابٍ من عندنا، سُنَّتَنَا فيمن قد أرسلنا قبلكَ مِنْ رُسُلِنَا، فإنَّا كذلك كنا نفعلُ بالأممِ إذا أخرجتْ رُسُلَها من بين أظهرهم، ونصبت السنة على الخروجِ من

معنى قوله: «لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إلاَّ قَليلاً» لأنَّ معنى ذلك: لعذَّبناهم بعد قليلٍ كَسُنَّتنا في أممِ مَنْ أرسلنا قبلكَ من رسلنا، ولا تجدُ لسنتنا تحويلاً عما جرت به.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «أقِمِ الصَّلاةَ» يا محمدُ «لِدُلُوكِ الشَّمْسِ».

واختلف أهلُ التأويل في الوقتِ الذي عَنَاهُ الله بدلوكِ الشمس، فقال بعضهم: هو وقتُ غروبها، والصلاة التي أمر بإقامتها حينئذٍ: صلاة المغرب.

وقال آخرون: دلوكُ الشمس: مَيْلُها للزوالِ، والصلاةُ التي أُمِرَ رسولُ الله ﷺ بإقامتها عند دلوكها: الظهر.

وأَوْلى القولين في ذلك بالصواب قولُ مَنْ قال: عنى بقوله: «أقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ»: صلاةَ الظهر، وذلك أنَّ الدلوكَ في كلامِ العربِ: الميلُ، يقال منه: دلك فلان إلى كذا: إذا مالَ إليه.

فإذا كان صحيحاً ما قلنا بالذي به استشهدنا، فَبَيِّنٌ إذن أنَّ معنى قوله جلَّ ثناؤه: «أقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إلى غَسَقِ اللَّيْلِ» أنَّ صلاةَ الظهرِ والعصرِ بحدودهما مما أوجبَ اللهُ عليكَ فيهما لأنهما الصلاتانِ اللتانِ فرضهما اللهُ على نبيه من وقتِ دلوكِ الشمسِ إلى غَسَقِ الليل؛ وغَسَقُ الليل: هو إقبالُه ودُنُوُّه بظلامهِ.

وبنحو الذي قلنا في ذلك، قال أهلُ التأويلِ على اختلافٍ منهم في الصلاة التي أُمِرَ رسولُ الله ﷺ بإقامتها عنده.

فقال بعضهم: الصلاةُ التي أُمِرَ بإقامتها عنده صلاة المغرب.

وقال آخرون: هي صلاة العصر.

وأوْلى القولين في ذلك بالصواب، قولُ مَنْ قال: الصلاةُ التي أُمِرَ النبيُّ ﷺ بإقامتها عند غَسَقِ الليل، هي صلاةُ المغرب دونَ غيرها، لأنَّ غسقَ الليل هو ما وصفنا من إقبالِ الليلِ وظلامه، وذلك لا يكونُ إلا بعد مغيبِ الشمس. فأما صلاةُ الغصر، فإنها مما تُقامُ بين ابتداء دلوكِ الشمس إلى غسقِ الليل، لا عند غسقِ الليل.

وأما قوله: «وقُرآنَ الفَجْرِ» فإنَّ معناه: وأقِمْ قرآنَ الفجر: أي ما تقرأ به صلاةَ الفجر من القرآنِ، والقرآن معطوف على الصلاة في قوله: «أقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ».

و كان بعضُ نحويي البصرة يقول: نصب قوله: «وَقُرآنَ الفَجْرِ» على الإغراء، كأنه قال: وعليك قرآن الفجر. «إنَّ قُرآنَ الفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً»، يقول: إنَّ ما تقرأ به في صلاةِ الفجرِ من القرآنِ كان مشهوداً، يشهدُه فيما ذُكِرَ ملائكةُ الليل وملائكةُ النهار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ٧٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ومن الليلِ فاسهرْ بعد نومةٍ يا محمدُ بالقرآن، نافلةً لكَ خالصةً دونَ أمتك. والتهجدُ: التيقظُ والسهرُ بعد نومة من الليل. وأما الهجودُ نفسه: فالنومُ.

وأما قوله: «نافِلَةً لَكَ» فإنه يقولُ: نفلاً لكَ عن فرائضك التي فرضتها عليك.

واختلف في المعنَى الذي من أجله خُصَّ بذلك رسولُ الله ﷺ، مع كونِ صلاةِ كلِّ مصلٍّ بعد هجوده، إذا كان قبل هجودِه قد كانَ أدَّى فرائضَهُ نافلة نفلاً، إذ كانت غير واجبةٍ عليه.

فقال بعضهم: معنى خُصوصِه بذلك: هو أنها كانت فريضةً عليه، وهي لغيره تطوُّعٌ، وقيل له: أقمهـا نافلةً لك: أي فضـلاً لك من الفرائضِ التي فرضتُها عليكَ عما فرضت على غيرك. وهو قول ابن عباس.

وقال آخرون: بل قِيلَ ذلك له عليه الصلاة والسلام لأنه لم يكن فعله ذلك يكفِّر عنه شيئاً من الذنوبِ، لأنَّ الله تعالى كان قد غفر له ما تقدَّمَ من ذنبه وما تأخَّر، فكان له نافلةَ فَضْلٍ، فأما غيره فهو له كفارة، وليس هو له نافلة، وهو قول مجاهد.

وأَوْلى القولين بالصوابِ في ذلك، القولُ الذي ذكرنا عن ابنِ عباس، وذلك أنَّ رسولَ الله ﷺ كان الله تعالى قد خَصَّهُ بما فرضَ عليه من قيامِ الليل، دونَ سائرِ أمته: فأما ما ذكر عن مجاهد في ذلك، فقولٌ لا معنى له، لأنَّ رسولَ الله ﷺ فيما ذُكِر عنه أكثر ما كان استغفاراً لذنوبه بعد نزولِ قولِ الله عزّ وجلّ عليه: «لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ» وذلك أن هذه السورة أنزلت عليه بعـد مُنْصَرَفِهِ من الحديبية، وأنزل عليه «إِذَا جاءَ نَصْرُ اللهِ وَالفَتْحُ» عام قُبِضَ. وقيل له فيها: «فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً» فكان يُعدُّ له ﷺ في المجلس الواحد استغفار مئة مرّة، ومعلومٌ أنَّ الله لم يأمره أنْ يستغفرَ إلا لما يغفر له باستغفاره ذلك، فَبَيِّنٌ إذن وجهُ فسادِ ما قاله مجاهد.

وقوله: «عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُودًا» وعسى من الله واجبةٌ، وإنما وجهُ قولِ أهلِ العلم: عسى من الله واجبةٌ، لعلمِ المؤمنين أنَّ الله لا يدعُ أنْ يفعلَ بعبادِه ما أطمعهم فيه من الجزاءِ على أعمالهم والعوض على طاعتهم إياهُ ليس من صفته الغرور، ولا شكَّ أنه قد أطمع مَنْ قال ذلك له في نفعه،

إذا هو تعـاهده ولزمه، فإنْ لزم المقول له ذلك وتعاهده ثم لم ينفعه، ولا سببَ يحولُ بينـه وبين نفعـهِ إياه مع الأطمـاعِ الذي تقدم منه لصاحبه على تعاهده إياه ولزومه، فإنه لصاحبهِ غارٌّ بما كان من إخلافِه إياه فيما كان أطمعه فيه بقوله الذي قالَ له. وإذْ كان ذلك كذلك، و كان غير جائزٍ أنْ يكونَ جلّ ثناؤه من صِفَتِهِ الغرور لعبادِه صحَّ ووجبَ أنَّ كُلَّ ما أطمعهم فيه من طمع على طاعته، أو على فعل من الأفعال، أو أمرٍ أو نهي أمرهم به، أوْ نهاهم عنه، فإنه مُوفٍ لهم به، وإنه منه كالعِدَةِ التي لا يُخْلَفُ الوفاءُ بها، قالوا: عسى ولعلَّ من الله واجبة.

وتأويلُ الكلام: أقمِ الصلاةَ المفروضةَ يا محمدُ في هذه الأوقاتِ التي أمرتُكَ بإقامتها فيها، ومن الليل فتهجَّدْ فرضاً فرضتُه عليك، لعلَّ رَبَّكَ أنْ يبعثكَ يومَ القيامةِ مقاماً تقومُ فيه محموداً تحمده، وتغبط فيه.

ومعنى ذلك المقام المحمود: هو المقام الذي هو يقومه ﷺ يومَ القيامةِ للشفاعةِ للناسِ ليريحهم رَبُّهم من عظيمِ ماهُمْ فيه من شدَّةِ ذلك اليوم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ۝٨٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه: وقُلْ يا محمدُ يا ربِّ أدخلني مُدْخَلَ صِدْق.

واختلف أهلُ التأويل في معنى مُدْخل الصدق الذي أمر الله نبيه ﷺ أنْ يرغب إليه في أنْ يُدْخِلَهُ إياه، وفي مخرج الصدق الذي أمره أنْ يرغبَ إليه في أن يخـرجـه إياه، وأشبهُ الأقوالِ بالصوابِ أنه عنى بمُدْخل الصدق: مُدْخلَ رسولِ الله ﷺ المدينةَ، حين هاجرَ إليها، ومُخْرَجَ الصدق: مُخْرَجَهُ من مكةَ، حين خرجَ منها مهاجراً إلى المدينة.

وإنما قلنا ذلك أوْلى بتأويلِ الآية، لأنَّ ذلك عقيبَ قوله: «وَإِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِن الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْها، وإذًا لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إلَّا قَلِيلًا». وقد دَلَّلْنا فيما مضى، على أنه عَنَى بذلك أهلَ مكة؛ فإذْ كان ذلك عقيبَ خبر الله عَمَّا كان المشركون أرادوا من استفزازهم رسولَ الله ﷺ، ليخرجوه عن مكةَ، كان بَيِّنـاً، إذْ كان الله قد أخرجَهُ منها، أنَّ قوله: «وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ، وأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ» أمرٌ منه له بالرغبةِ إليه في أنْ يُخرجه من البلدةِ التي هَمَّ المشركونَ بإخراجه منها مخرجَ صدق، وأنْ يُدخله البلدةَ التي نقله الله إليها مُدْخَلَ صدق.

وقوله: «وَاجْعَلْ لي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطانا نَصِيراً» اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: واجعلْ لي ملكاً ناصراً ينصرني على من نَاوَأني، وعِزّاً أُقيمُ به دِينكَ، وأدفعُ به عنه مَنْ أراده بسوءٍ.

وقال آخرون: بل عُنِي بذلك حجةً بَيِّنَةً.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ قولُ مَنْ قال: ذلك أمرٌ من الله تعالى نبيهُ بالرغبةِ إليه في أن يؤتيه سلطاناً نصيراً له على مَنْ بَغَاهُ وكادَهُ، وحاولَ مَنْعَهُ من إقامتهِ فرائضَ اللهِ في نفسِه وعبادِه.

وإنمـا قلتُ ذلـك أوْلى بالصواب، لأنَّ ذلك عقيبَ خبرِ الله عما كان المشركون هَمُّوا به من إخراجهِ من مكة، فأعلمه الله عزَّ وجلَّ أنهم لو فعلوا ذلك عُوجِلُوا بالعذابِ عن قريبٍ، ثم أمَرَهُ بالرغبةِ إليه في إخراجه من بين أظهُرِهم إخراجَ صدقٍ يحاوله عليهم، ويدخله بلدةً غيرها، بمدخل صدق يحاوله عليهم ولأهلها في دخوله إليها، وأنْ يجعل له سلطاناً نصيراً على أهلِ البلدة التي أخرجه أهلها منها، وعلى كلِّ مَنْ كان لهم شبيهاً، وإذا أُوتيَ ذلك، فقد أوتيَ لا شكَّ حجةً بينة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۝٨١ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ۝٨٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقُلْ يا محمدُ لهؤلاء المشركين الذين كادوا أنْ يستفزُّوكَ من الأرضِ ليخرجوكَ منها «جاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ الباطِلُ».

واختلف أهلُ التأويل في معنى الحقِّ الذي أمر اللهُ نبيه ﷺ أن يُعْلِمَ المشركينَ أنه قد جاء، والباطل الذي أمره أنْ يعلمهم أنه قد زَهَق.

فقال بعضهم: الحقُّ: هو القرآن في هذا الموضع، والباطل: هو الشيطان.

وقال آخرون: بل عُنِي بالحقِّ جهاد المشركين وبالباطل الشرك.

وأوْلى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: أمرَ اللهُ تبارك وتعالى نبيَّهُ عليه الصلاةُ والسلام أنْ يخبرَ المشركين أنَّ الحقَّ قد جاء، وهو كلُّ ما كان للهِ فيه رضا وطاعة، وأنَّ الباطلَ قد زهق: يقول: وذهب كلُّ ما كانَ لا رِضَا للهِ فيه ولا طاعةَ مما هو له معصية وللشيطان طاعة، وذلك أنَّ الحقَّ هو كلُّ ما خالف طاعةَ إبليس، وأن الباطل: هو كلُّ ما وافقَ طاعته، ولم يخصص الله عزَّ ذِكْرُه بالخبرِ عن بعضِ طاعاته، ولا ذهاب بعض معاصيه، بل عَمَّ الخبر عن مجيءِ جميع الحقِّ، وذهابِ جميعِ الباطل، وبذلك جاء القرآنُ والتنزيلُ، وعلى ذلك قاتلَ رسولُ الله ﷺ أهلَ الشرك بالله، أعني على إقامةِ جميع الحقِّ، وإبطال جميع الباطل.

وأما قوله عزّ وجلّ: «وَزَهَقَ الباطِلُ» فإنَّ معناه: ذهبَ الباطلُ، من قولهم: زَهَقتْ نَفْسُه: إذا خرجت وأزهقتها أنا؛ ومن قولهم: أزهق السهمُ: إذا

جاوزَ الغرضَ فاستمرَّ على جهته، يقال منه: زهق الباطل، يزهَق زُهوقاً، وأزهقه الله: أي أذهبه.

وقوله عزّ وجلّ: «وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وننزّلُ عليكَ يا محمدُ من القرآنِ ماهو شفاءٌ يُسْتشفَى به من الجهلِ من الضلالة، ويُبَصَّرُ به من العمَى للمؤمنين ورحمة لهم دونَ الكافرين به، لأنَّ المؤمنينَ يعملون بما فيه من فرائضِ الله، ويُحِلُّونَ حلالَهُ، ويحرِّمُونَ حرامه فيدخلهم بذلك الجنةَ، ويُنجيهم من عذابهِ، فهو لهم رحمةٌ ونعمةٌ من الله، أنعم بها عليهم. «وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إلَّا خَساراً»، يقول: ولا يَزيدُ هذا الذي ننزلُ عليكَ من القرآنِ الكافرينَ به إلا خساراً، يقول: إهلاكاً، لأنهم كلما نزلَ فيه أمرٌ من الله بشيءٍ أو نهيٌ عن شيءٍ كفروا به، فلم يأتمروا لأمرِه، ولم ينتهوا عَمَّا نهاهم عنه، فزادهم ذلك خساراً إلى ما كانوا فيه قبل ذلك من الخسارِ، ورجساً إلى رِجْسهم قبلُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾﴾

يقول تبارك وتعالى: وإذا أنعمنا على الإنسانِ، فنجيَّناهُ من كَرْبِ ماهو فيه في البحـرِ، وهو ما قد أشرفَ فيه عليه من الهلاكِ بعصوفِ الريحِ عليه إلى البرِّ، وغير ذلك من نِعَمِنَا، أعرضَ عن ذِكْرِنَا، وقد كان بنا مُستغيثاً دونَ كلِّ أحدٍ سوانا في حال الشدّةِ التي كان فيها. «وَنَأَى بِجانِبِهِ»، يقول: وبَعُدَ منا بجانبه، يعني بنفسه، «كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ» قبل ذلك.

وقـوله عزّ وجلّ: «وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كانَ يَئُوساً»، يقول: وإذا مَسَّهُ الشرُّ والشدَّةُ كان قَنُوطاً من الفَرَجِ والروْح.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾

يقول عزَّ وجلَّ لنبيهِ محمدٍ ﷺ: قل يامحمدُ للناس: كلكم يعملُ على شاكلته: على ناحيتهِ وطريقتهِ «فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ» هو منكم «أَهْدَى سَبِيلاً»، يقول: رَبُّكم أعلمُ بمن هو منكم أهدى طريقاً إلى الحقِّ من غيرِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ويسألك الكفارُ بالله من أهلِ الكتابِ عن الروحِ ماهيَ؟ قُلْ لهم: الروحُ من أمرِ ربي، وما أُوتيتم أنتم وجميع الناس من العلمِ إلا قليلاً، وذُكِرَ أنَّ الذين سألوا رسولَ الله ﷺ عن الروحِ، فنزلت هذه الآيةُ بمسألتهم إياهُ عنها، كانوا قوماً من اليهود.

وأما قوله: «مِنْ أَمْرِ رَبِّي» فإنه يعني: أنه من الأمرِ الذي يعلمه الله عزَّ وجلَّ دونَكم، فلا تعلمونَهُ ويعلمُ ما هوَ.

وأما قوله: «وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إلاَّ قَلِيلاً»، فإن أهلَ التأويلِ اختلفوا في المعنيِّ بقوله: «وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إلاَّ قَلِيلاً»، فقال بعضهم: عَنَى بذلك: الذين سألوا رسولَ الله ﷺ عن الروحِ وجميع الناس غيرهم، ولكن لما ضَمَّ غيرَ المخاطبِ إلى المخاطب، خرج الكلامُ على المخاطبة، لأنَّ العربَ كذلك تفعلُ إذا اجتمع في الكلام مُخْبَرٌ عنه غائبٌ ومخاطب، أخرجوا الكلام خطاباً للجمع.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك: الذين سألوا رسولَ الله ﷺ عن الروحِ خاصةً دونَ غيرهم.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصواب: أن يقال: خرجَ الكلامُ خطاباً لمن خُوطِبَ به، والمرادُ به جميعُ الخَلْقِ، لأنَّ عِلْمَ كلِّ أحدٍ سوى الله، وإنْ كَثُرَ في عِلْمِ الله قليلٌ. وإنما معنى الكلام: وما أُوتيتم أيها الناسُ من العلمِ إلا قليلاً من كثيرٍ مما يعلمُ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ۝٨٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولئن شئنا لنذهبنَّ بالذي آتيناكَ من العلمِ الذي أوحينا إليكَ من هذا القرآنِ لنذهبنَّ به، فلا تعلمه، ثم لا تجدُ لنفسكَ بما نفعلُ بك من ذلك وكيلاً، يعني: قيِّماً يقومُ لكَ، فيمنعنا من فعلِ ذلكَ بكَ، ولا ناصراً ينصركَ، فيحول بيننا وبين ما نريدُ بك، قال: و كان عبدالله بن مسعود يتأوّل معنى ذهابِ الله عزّ وجلّ به رَفْعَهُ من صدورِ قارئيهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ۝٨٧﴾

يقول عزّ وجلّ: «ولئنْ شِئْنا لنذهبنَّ» يا محمدُ «بالَّذي أوْحَيْنا إليْكَ» ولكنه لا يشاءُ ذلك، رحمةً من ربك وتَفَضُّلاً منه عليكَ، «إنَّ فضْلهُ كانَ عليكَ كبيراً» باصطفائهِ إياكَ لرسالتهِ، وإنزالهِ عليكَ كتابَهُ، وسائر نعمهِ عليكَ التي لا تُحصى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾

يقول جل ثناؤه: قُلْ يا محمدُ للذين قالوا لك: إنا نأتي بمثلِ هذا القرآنِ: لئن اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ على أنْ يأتوا بمثله، لا يأتونَ أبداً بمثله، ولو كان بعضُهم لبعضٍ عوناً وظهيراً. وذُكِر أنَّ هذه الآيةَ نزلت على رسولِ الله ﷺ بسببِ قومٍ من اليهودِ جادلوه في القرآن، وسألوه أنْ يأتيهم بآيةٍ غيرِه شاهدة له على نبوّته، لأنَّ مِثلَ هذا القرآن بهم قدرةٌ على أنْ يأتُوا به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد بيَّنا للناس في هذا القرآن من كلِّ مَثَلٍ، احتجاجاً بذلك كله عليهم، وتذكيراً لهم، وتنبيهاً على الحقِّ ليتبعوهُ ويعملوا به «فَأبى أكْثَرُ النَّاسِ إلَّا كُفُوراً»، يقول: فأبى أكثرُ الناسِ إلا جُحوداً للحقِّ، وإنكاراً لحجج الله وأدلته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقالَ يا محمدُ، المشركونَ باللهِ من قومِكَ لكَ: لن نُصدِّقَكَ، حتى تُفَجِّرَ لنا من أرضنا هذه عيناً تنبعُ لنا بالماء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ: وقال لك يا محمدُ مشركو قومكَ: لنِ نصدِّقَكَ حتى تستنبطَ لنا عيناً من أرضنا، تَدفَّقُ بالماء أو تفور، أو يكونَ لكَ بستانٌ، وهو الجنةُ، من نخيلٍ وعنب، فتفجِّرَ الأنهارَ خلالها تفجيراً بأرضنا هذهِ التي نحنُ بها خلالها، يعني: خلالَ النخيلِ والكروم، ويعني بقوله: «خِلالها تَفجِيراً» بينها في أصولها تفجيراً بسببِ أبنيتها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢﴾

اختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: «كِسَفاً» فقرأته عامَّة قَرأةِ الكوفة والبصرة بسكون السين، بمعنى: أو تسقط السماء كما زعمتَ علينا كِسْفاً، وذلك أن الكِسْفَ في كلام العرب: جمع كِسْفة، وهو جمع الكثير من العدد للجنس، كما تجمع السِّدْرة بسِدْر، والتمرة بتمر، فحُكيَ عن العرب سماعاً: أعطني كِسْفةً من هذا الثوبِ: أي قطعةً منه، يقال منه: جاءنا بثريد كِسْف: أي قطع خبز، وقد يحتمل إذا قرىء كذلك «كِسْفاً» بسكون السين أن يكون مراداً به المصدر من كسف. فأما الكِسفَ بفتح السين، فإنه جمع ما بين الثلاثِ إلى العشر، يقال: كِسَفَةٌ واحدة، وثلاث كِسَف، وكذلك إلى العشر، وقرأ ذلك عامة قَرأة أهل المدينة وبعضِ الكوفيين «كِسَفاً» بفتح السين بمعنى: جمع الكِسْفة الواحدة من الثلاث إلى العشر، يعني بذلك قِطَعاً: ما بين الثلاث إلى العشر.

وأوْلى القراءتين في ذلك بالصوابِ عندي قراءةُ من قرأهُ بسكونِ السين، لأنَّ الذين سألوا رسولَ الله ﷺ ذلك، لم يقصدوا في مسألتهم إياه ذلك أنْ

يكون بحدٍّ معلوم من القطع، إنما سألوا أنْ يُسْقطَ عليهم السماء قِطَعاً، وبذلك جاء التأويلُ أيضاً عن أهلِ التأويل.

وقوله, تعالى: «أوْ تَأْتِيَ باللهِ وَالمَلائِكَةِ قَبيلاً»: يقول تعالى ذِكْرُه عن قِيلِ المشركينَ لنبيِّ الله ﷺ: أو تأتي بالله يا محمدُ والملائكة قبيلاً.

واختلف أهل التأويل في معنى القبيلِ في هذا الموضع.

فقال بعضهم: معناه: حتى يأتيَ اللهُ والملائكةُ كُلَّ قبيلةٍ منا قبيلةً قبيلةً، فَيُعَايِنُونَهُمْ.

وقال آخرون: معنى ذلك: أوْ تأتي بالله والملائكة عياناً نقابلهم مقابلةً، فنعاينهم معاينةً.

وأشبهُ الأقوالِ في ذلك بالصواب، القولُ الذي قِيلَ: إنه بمعنى المعاينة، من قولهم: قابلتُ فلاناً مقابلةً، وفلانٌ قبيل فلانٍ، بمعنى قبالته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ٩٣﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه مخبـراً عن المشركين الذين ذكرنا أمْرَهُمْ في هذه الآياتِ: أو يكونَ لكَ يا محمدُ بيتٌ من ذهبٍ؟ وهو الزخرف.

وقوله: «أوْ تَرْقى فِي السَّماءِ»، يعني: أو تصعد في درجٍ إلى السماء، وإنما قيل في السماء، وإنما يرقى إليها لا فيها، لأنَّ القومَ قالوا: أو ترقى في سلم إلى السماء، فأدخلت «في» في الكلامِ ليدلَّ على معنى الكلام.

وقوله: «وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرقِيِّكَ»، يقول: ولن نُصدِّقَك من أجلِ رُقِيِّكَ إلى

السماء «حتى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً» منشوراً نَقْرَؤُهُ فيه أَمْرُنا باتِّباعِكَ والإيمانِ بكَ.

وقوله: «قُلْ سُبْحانَ رَبّي» يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ لهؤلاء المشركين من قومكَ، القائلينَ لك هذه الأقوال، تنزيهاً لله عما يَصِفُونَهُ به، وتعظيماً له من أن يؤتى به وملائكته، أو يكون لي سبيل إلى شيءٍ مما تَسْأَلُونيه. «هَلْ كُنْتُ إلاّ بَشَراً رَسُولاً»، يقول: هل أنا إلا عبدٌ من عبيده من بني آدم، فكيف أقدرُ أنْ أفعلَ ما سألتموني من هذه الأمور، وإنما يقدرُ عليها خالقي وخالقكم، وإنما أنا رسولٌ أُبَلِّغُكُم ما أُرسلتُ به إليكم، والذي سألتموني أن أفعله بيد الله الذي أنا وأنتم عبيدٌ له، لا يقدرُ على ذلك غيرُه.

وهذا الكلامُ الذي أخبرَ اللهُ أنه كلَّم به رسولَ الله ﷺ فيما ذكر كان من ملأٍ من قريش اجتمعوا لمناظرةِ رسولِ الله ﷺ ومحاجَّتهِ، فكلَّمُوه بما أخبرَ اللهُ عنهم في هذه الآيات.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾

يقول تعالى ذكره: وما مَنَعَ يا محمدُ مشركي قومكَ الإيمانَ بالله، وبما جِئْتَهُمْ به من الحقِّ «إذْ جاءَهُمُ الهُدَى»، يقول: إذ جاءهم البيانُ من عند الله بحقيقةِ ما تدعوهم وصحة ما جئتهم به، إلا قولُهم جهلاً منهم «أبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولاً» فأنْ الأولى في موضع نصب بوقوع منع عليها، والثانية في موضع رفع، لأنَّ الفعلَ لها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه: قُلْ يا محمدُ لهؤلاء الذين أبوا الإيمانَ بكَ وتصديقكَ فيما جئتهم به من عندي، استنكاراً لأن يبعثَ اللهُ رسولاً من البشر: لو كان أيها الناسُ في الأرض ملائكةٌ يمشونَ مطمئنين، لَنَزَّلْنَا عليهم من السماء مَلَكاً رسولاً، لأنَّ الملائكةَ إنما تراهم أمثالُهم من الملائكة، ومَنْ خَصَّهُ اللهُ من بني آدم برؤيتها؛ فأما غيرهم فلا يقدرونَ على رؤيتها فكيف يبعثُ إليهم من الملائكةِ الرُّسُلَ، وهم لا يقدرونَ على رؤيتهم وهم بهيآتهم التي خلقهم اللهُ بها، وإنما يرسلُ إلى البشر الرسولَ منهم، كما لو كانَ في الأرضِ ملائكةٌ يمشون مطمئنينَ، ثم أرسلنا إليهم رسولاً أرسلناهُ منهم مَلَكاً مثلهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ۝٩٦﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه: قل يا محمدُ للقائلينَ لك: «أبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولاً» «كَفَى باللهِ شَهيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ» فإنه نِعْمَ الكافي والحاكم «إنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً»، يقول: إنَّ الله بعباده ذو خبرةٍ وعلمٍ بأمورهم وأفعالهم، والمحقّ منهم والمُبطل، والمهديّ والضالّ «بَصِيراً» بتدبيرهم وسياستهم وتصريفهم فيما شاء، وكيف شاء وأحبَّ، لا يَخْفَى عليه شيءٌ من أمورِهم، وهو مُجازٍ جميعَهم بما قدَّمَ عند ورودهم عليه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّاۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ۝٩٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومَنْ يَهْدِ الله يا محمدُ للإيمانِ به، ولتصديقِكَ وتصديقِ ما جئتَ به من عند رَبِّكَ، فوفَّقه لذلك، فهوالمهتدي الرشيد المصيب الحقّ، لا مَنْ هداهُ غيره، فإنَّ الهدايةَ بيده. ومَنْ يُضْلِلْ: يقول ومَنْ يُضلله الله عن الحقِّ، فيخذله عن إصابته، ولم يوفِّقه للإيمانِ بالله وتصديقِ رسوله، فلن تجد لهم يا محمدُ أولياءَ ينصرونهم من دونِ الله، إذا أراد الله عقوبتهم والاستنقاذ منهم، «ونَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ»، يقول: ونجمعهم بموقفِ القيامة من بعد تَفرُّقِهم في القبور عند قيامِ الساعة «على وجوههم عُمْياً وَبُكْماً» وهو جمعُ أبكم، ويعني بالبُكْم: الخُرْس.

فإنْ قال قائل: وكيف وصفَ اللهُ هؤلاء بأنهم يحشرون عمياً وبكماً وصماً، وقد قال: «ورأى المُجْرمون النَّارَ فَظَنُّوا أنَّهُمْ مُوَاقِعُوها» فأخبر أنهم يرون، وقال: «إذَا رأتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وزَفِيراً. وإذَا أُلْقُوا مِنْها مَكاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنالكَ ثُبُورًا» فأخبر أنهم يسمعونَ وينطقون. قيل: جائزٌ أنْ يكونَ ما وصفهم اللهُ به من العَمى والبكم والصمم يكون صفتهم في حال حَشْرِهم إلى موقفِ القيامة، ثم يُجْعَلُ لهم أسماعٌ وأبصارٌ ومنطقٌ في أحوالٍ أُخر غيرِ حالِ الحشر، ويجوز أن يكون ذلك.

وقوله: «مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ»، يقول جَلَّ ثناؤه: ومصيرهم إلى جهنم، وفيها مساكِنُهم، وهم وَقُودُهَا.

وقوله: «كُلَّما خَبَتْ زِدْناهُمْ سَعِيراً»، يعني بقوله: خبت: لانَتْ وسكنت.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الذي وصفنا من فعلنا يومَ القيامةِ بهؤلاءِ

المشـركينَ، ما ذكرتُ أنَّا نفعلُ بهم من حَشْرِهم على وجوهِهم عُمْياً وبكماً وصماً، وإصلائِنَا إياهم النارَ على ما بَيَّنا من حالتهم فيها ثوابَهم بكفرهم في الـدنيا بآياتنـا، يعني بأدلتـهِ وحججهِ، وهم رُسُله الذين دعوهم إلى عبادتهِ، وإفـرادِهم إياهُ بالأُلـوهـةِ دونَ الأوثـانِ والأصنـام، وبقولهم إذا أُمِرُوا بالإيمانِ بالميعادِ، وبثوابِ الله وعقابهِ في الآخرة «أئِذَا كُنَّا عِظاماً» باليةً «وَرُفاتاً» قد صرنا تراباً «أئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً»، يقول: نُبعثُ بعد ذلك خلقاً جديداً. كما ابتدأناه أوّلَ مرّةٍ في الدنيا استنكاراً منهم لذلك، واستعظاماً وتعجباً من أنْ يكون ذلك.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلـهِ تَعَـالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه لنبيه محمـدٍ ﷺ: أَوَ لَمْ ينظر هؤلاء القائلونَ من المشركين «أئِذَا كُنَّا عِظاماً وَرُفاتاً أئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً» بعيونِ قلوبهم، فيعلمونَ أنَّ الله الذي خلق السمواتِ والأرضَ، فابتدعها من غير شيءٍ، وأقامها بقُدرته، قادر بتلك القُدرةِ على أنْ يخلقَ مثلهم أشكالَهم، وأمثالَهم من الخَلْق بعد فنائهم، وقبل ذلك، وأنَّ مَنْ قدرَ على ذلك فلا يمتنعُ عليه إعادتهم خلقاً جديداً، بعد أن يصيروا عظاماً ورُفاتاً.

وقوله: «وَجَعَلَ لَهُمْ أجَلاً لا رَيْبَ فِيه»، يقول تعالى ذِكْرُه: وجعلَ الله لهؤلاء المشركين أجلاً لهلاكِهم، ووقتاً لعذابهم لا ريبَ فيه: يقول: لا شكَّ فيه أنه آتيهم ذلكَ الأجلُ «فَأَبَى الظَّالِمُونَ إلاَّ كُفُوراً»، يقول: فأبى الكافرون إلا جحوداً بحقيقةِ وعيدهِ الذي أوعدهم، وتكذيباً به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه: قُلْ يا محمدُ لهؤلاء المشركين: لو أنتم أيها الناسُ تملكونَ خزائنَ أملاكِ ربي من الأموال، وعَنَى بالرحمةِ في هذا الموضع: المالَ «إذًا لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفاقِ»، يقول: إذن لَبَخِلْتُمْ بِهِ، فَلم تجودُوا بها على غيرِكم، خشيةً من الإنفاقِ والإقتار.

وقوله: «وكانَ الإِنْسانُ قَتُوراً»، يقول: وكان الإنسانُ بخيلاً مُمْسِكاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد آتينا موسى بن عمران تسعَ آياتٍ بيناتٍ تُبَيِّنُ لمن رآها أنها حججٌ لموسى شاهدةٌ على صِدْقِه وحقيقةِ نبوّته.

وأما قوله: «فاسأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جاءَهُمْ»، فإن عامَّة قرَأةِ الإسلامِ على قراءته على وجهِ الأمر بمعنى: فاسألْ يا محمدُ بني إسرائيلَ إذ جاءهم موسى.

وقـوله: «فَقالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إنّي لأَظُنُّكَ يا مُوسَى مَسْحُوراً»، يقول: فقال لموسى فرعونُ: إني لأظنك يا موسى تتعاطى عِلْمَ السحر، فهذه العجائبُ التي تفعلها من سحرِكَ، وقد يجوزُ أنْ يكونَ مُراداً به إني لأظنك يا موسى ساحراً، فوضعِ مفعول موضعَ فاعل، كما قيل: إنك مشئومٌ علينا وميمون، وإنما هو شائم ويامن. وقد تأوّلَ بعضُهم حجاباً مستوراً، بمعنى: حجاباً ساتراً، والعربُ قد تخرج فاعلاً بلفظ مفعول كثيراً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾

إنَّ الله تعالى ذكره قد أخبر عن فرعونَ وقومِهِ أنهم جحدوا ما جاءهم به موسى من الآياتِ التسع، مع علمهم بأنها من عندِ الله بقوله: «وأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غيرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آياتٍ إلى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ. فَلَمَّا جاءَتَهُمْ آياتُنا مُبْصِرَةً قالُوا: هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ، وَجَحَدُوا بِها، وَاسْتَيْقَنَتْهـا أَنْفُسُهُمْ ظُلْما وَعُلُوّاً» فأخبر جلَّ ثناؤه أنهم قالوا: هي سحر، مع علمهم واستيقانِ أنفسهم بأنها من عند الله، فكذلك قولُه: «لَقَدْ عَلِمْتَ» إنما هو خبرٌ من موسى لفرعونَ بأنه عالمٌ بأنها آيات من عند الله.

وقـوله: «وإنّي لَأَظُنُّكَ يا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً»، يقول: إني لأظنك يا فرعونُ ملعوناً ممنوعاً من الخير. والعربُ تقول: ما ثَبَرَكَ عن هذا الأمرِ: أي ما منعكَ منه، وما صَدَّكَ عنه؟ وثبره الله فهو يُثْبِره ويَثْبُرُهُ لغتان، ورجلٌ مثبور: محبوسٌ عن الخيراتِ هالك.

القَـوْلُ فِي تَأْويل قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾

يقـول تعـالى ذكـره: فأراد فرعـون أنْ يستفزَّ موسى وبني إسرائيل من الأرض، «فَأَغْرَقْنَاهُ» في البحر، «وَمَن مَعَهُ» من جُنْده «جَمِيعاً»، ونجيَّنا موسى وبني إسرائيل، وقلنا لهم «مِنْ بَعْدِ» هلاكِ فرعون «اسْكُنُوا الأَرْضَ» أرضَ الشام «فإذَا جاءَ وَعْدُ الآخرَةِ جِئْنا بكُمْ لَفيفاً»، يقول: فإذا جاءت الساعة، وهي وعدُ

الآخرة، جئنا بكم لفيفاً: يقول: حشرناكم من قبوركم إلى موقفِ القيامة لفيفاً: أي مختلطين قد التفَّ بعضكم على بعض، لا تتعارفونَ، ولا ينحازُ أحدٌ منكم إلى قبيلته وحَيِّه، من قولك: لففتُ الجيوشَ: إذا ضربتُ بعضَها ببعضٍ، فاختلط الجميعُ، وكذلك كلُّ شيءٍ خُلط بشيءٍ فقد لُفَّ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وبالحقِّ أنزلنا هذا القرآن: يقول: أنزلناهُ نأمرُ فيه بالعدلِ والإنصافِ والأخلاقِ الجميلةِ، والأمورِ المُسْتحسنةِ الحميدةِ، ونَنْهَى فيه عن الظلمِ والأمورِ القبيحة، والأخلاقِ الردية، والأفعالِ الذّميمة «وبالحَقّ نَزَلَ»، يقول: وبذلك نزل من عند الله على نبيه محمد ﷺ.

وقوله: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ: وما أرسلناك يا محمدُ إلى مَنْ أرسلناكَ إليه من عبادنا، إلا مبشراً بالجنَّة مَنْ أطاعنا، فانتهى إلى أمرنا ونَهْيِنا، ومنذراً لمن عَصَانا وخالفَ أمرنا ونَهْيَنا. «وَقُرآناً فَرَقْناهُ لتَقْرأَهُ»، يعني: أحكمناهُ وفَصَّلناه وبَيَّناه.

فتأويل الكلام: وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً، وفصلناه قرآناً، وبيَّناهُ وأحكمناه، لتقرأه على الناسِ على مُكْثٍ.

وقوله: «وَنَزَّلْناهُ تَنْزيلاً» يقول تعالى ذِكْرُه: فَرَّقْنَا تنزيله، وأنزلناه شيئاً بعد شيء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا۟

﴿ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: قل يا محمدُ لهؤلاء القائلينَ لك: «لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حتى تُفَجِّرَ لَنا مِنَ الأرْضِ يَنْبُوعاً»: آمنوا بهذا القرآنِ الذي لو اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ على أنْ يأتوا بمثله، لم يأتوا به ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظهيراً، أو لا تؤمنوا به، فإنَّ إيمانَكُمْ به لن يزيدَ في خزائنِ رحمةِ الله ولا ترككم الإيمانَ به ينقصُ ذلك، وإنْ تكفروا به، فإن الذين أُوتوا العلمَ بالله وآياته من قبلِ نزولِهِ من مؤمني أهلِ الكتابين، إذا يُتْلَى عليهم هذا القرآنُ يَخِرُّونَ تعظيماً له وتكريماً، وعلماً منهم بأنه من عندِ الله لأذقانِهم سُجَّداً بالأرض.

وقوله: «سُبْحانَ رَبِّنا إنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعُولاً»، يقول جلّ ثناؤه: ويقول هؤلاء الذين أُوتوا العلم من قبلِ نزولِ هذا القرآن، إذْ خَرُّوا للأذقانِ سجوداً عند سماعهم القرآنَ يُتْلى عليهم، تنزيهاً لربنا وتبرئةً له مما يضيفُ إليه المشركون به، ما كان وَعْدُ رَبِّنَا من ثوابٍ وعقاب، إلا مفعولاً حقاً يقيناً. إيمان بالقرآنِ وتصديق به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويخرُّ هؤلاء الذين أُوتُوا العلمَ من مؤمني أهلِ الكتابين من قبلِ نزولِ الفرقان، إذا يُتْلَى عليهم القرآنُ لأذقانهم يبكون، ويزيدهم ما في القرآنِ من المواعظِ والعبرِ خشوعاً، يعني خضوعاً لأمرِ الله وطاعته، واستكانةً له.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ

ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾

يقـول تعـالى ذكره لنبيه: قل يا محمدُ لمشركي قومكَ المُنْكِرينَ دُعاءَ الرحمن: «ادْعُوا اللهَ» أيها القوم «أوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ، أيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأسْماءُ الحُسْنَى» بأيِّ أسمـائـهِ جَلَّ جلالُـه تدعونَ ربكم، فإنما تدعون واحداً، وله الأسماءُ الحُسنى. وإنما قيلَ ذلك له ﷺ، لأنَّ المشركينَ فيما ذُكِرَ سمعوا النبيَّ ﷺ يدعو ربه: يا ربنا الله، ويا ربنا الرحمن، فظنوا أنه يدعو إلهين، فأنزلَ الله على نبيه عليه الصلاة. والسلام هذه الآيةَ احتجاجاً لنبيه عليهم.

(ثم قال): ولا تجهرْ يا محمدُ بقراءتك في صلاتكَ ودُعائكَ فيها رَبَّكَ ومسألتَكَ إياهُ، وذِكْرِكَ فيها، فيؤذيك بجهرِكَ بذلك المشركونَ، ولا تخافِتْ بها فلا يسمعهـا أصحـابُـكَ «وابْتَـغِ بينَ ذلـكَ سَبِيلاً» ولكن التمسْ بين الجهرِ والمخافتةِ طريقاً إلى أنْ تسمع أصحابك، ولا يسمعه المشركون فيؤذوك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «وَقُلْ» يا محمدُ «الحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً» فيكون مربوباً لا رباً، لأنَّ ربَّ الأربابِ لا ينبغي أنْ يكون له ولد. «ولَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيك فِي المُلْكِ» فيكون عاجزاً ذا حاجةٍ إلى معونةِ غيره ضعيفاً، ولا يكونُ إلهاً مَنْ يكونُ محتاجاً إلى معينٍ على ما حاول، ولم يكن منفرداً بالمُلكِ والسلطان. «ولَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلّ»، يقول: ولم يكن له حليفٌ حالفه من الذلِّ الذي به، لأنَّ مَنْ كان ذا حاجةٍ إلى نُصْرَةِ غيره، فذليلٌ مَهينٌ، ولا يكونُ مَنْ كان ذليلاً مهيناً يحتاجُ إلى ناصرٍ إلهاً يُطَاع «وكَبِّرْهُ تَكْبيراً»، يقول: وعَظِّمْ رَبَّكَ يا محمدُ بما أمرناكَ أنْ تعظمه به من قولٍ وفعل، وأطِعْهُ فيما أمركَ ونهاك.

سُورَةُ الكَهْف

آياتها ١١٠ — ترتيبها ١٨

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا﴾

يقول تعالى ذكره: الحمدُ لله الذي خَصَّ برسالته محمداً وانتخبه لبلاغها عنه، فابتعثه إلى خَلْقه نبياً مرسلاً، وأنزل عليه كتابه قيماً، ولم يجعلْ له عِوَجاً.

وعُنِي بقوله عزّ ذِكْرُه «قَيِّماً»: معتدلاً مستقيماً.

وقيل: إنمـا افتتـح جَلَّ ثناؤُه هذه السورةَ بذكرِ نفسِه بما هو له أهلٌ، وبالخبرِ عن إنزالِ كتابه على رسولِه إخباراً منه للمشركينَ من أهلِ مكةَ، بأنَّ محمداً رسولُه ﷺ، وذلك أنَّ المشركينَ كانوا سألوا رسولَ الله ﷺ عن أشياء عَلَّمَهُمُـوهَا اليهودُ من قريظةَ والنضير، وأمروهم بمسألَتِهُمُوهُ عنها، وقالوا: إنْ أخبركم بها فهو نبيٌّ، وإنْ لم يخبركم بها فهو متقوِّلٌ، فوعدهم رسولُ الله ﷺ للجوابِ عنها موعداً، فأبطأ الوحيُ عنه بعضَ الإبطاء، وتأخَّر مجيءُ جبرائيلَ عليه السلام عنه عن ميعادِه القوم، فتحدَّثَ المشركون بأنه أخلفهم موعدَهُ، وأنه متقـوِّلٌ، فأنـزلَ اللهُ هذه السـورةَ جوابـاً عن مسائِلهم، وافتتحَ أوَّلَها بذكره، وتكذيبِ المشركين في أُحدوثَتِهم التي تَحَدَّثُوها بينهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أنزلَ على عبده القرآنَ معتدلاً مستقيماً لا عِوَجَ فيه لينذركم أيها الناسُ بأساً من الله شديداً، وعنى بالبأسِ العذابَ العاجلَ، والنكالَ الحاضرَ والسطوةَ.

وقوله: «مِنْ لَدُنْهُ»، يعني: من عند الله.

وقوله: «وَيُبَشِّرَ المُؤْمِنِينَ»، يقول: ويبشر المصدقين الله ورسوله «الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ» وهو العمل بما أمرَ اللهُ بالعملِ به، والانتهاء عما نهى الله عنه «أنَّ لَهُمْ أجْراً حَسَناً»، يقول: ثواباً جزيلاً لهم من الله على إيمانهم بالله ورسوله، وعملهم في الدنيا الصالحات من الأعمال، وذلك الثواب: هو الجنة التي وعدها المتقون.

وقوله: «ماكِثِينَ فِيهِ أبَداً» خالدين، لا ينتقلونَ عنه، ولا يُنْقَلون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويحذرُ أيضاً محمدٌ القومَ «الَّذِين قالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً» من مشركي قومه وغيرهم، بأسَ الله وعاجلَ نقمته. وآجلَ عذابه، على قِيلهم ذلك.

وقوله: «ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ»، يقول: ما لقائلي هذا القول، يعني قولهم: «اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً» «بِهِ»: يعني بالله من علمٍ، والهاء في قوله: «بِهِ» من ذكرِ الله،

وإنما معنى الكلام: ما لهؤلاء القائلينَ هذا القولَ بالله، إنه لا يجوز أنْ يكون له ولد من علم، فلجهلهم بالله وعظمته قالوا ذلك.

وقوله: «وَلا لآبائِهِمْ»، يقول: ولا لأسلافهم الذين مضوا قبلهم على مِثْلِ الذي هُمْ عليه اليوم، كان لهم بالله وبعظمته علم.

وقوله: «كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أفْوَاهِهِمْ»، يقول: عَظُمتِ الكلمةُ كلمةً تخرجُ من أفواهِ هؤلاء القومِ الذين قالوا: اتخذ الله ولداً، والملائكة بنات الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦ إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ۝٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه بذلك: فلعلك يا محمدُ قاتلُ نفسك ومُهْلِكُهَا على آثارِ قومكَ الذين قالوا لك: «لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حتى تُفَجِّرَ لَنا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً» تمرّداً منهم على رَبِّهم، إنْ هم لم يؤمنوا بهذا الكتاب الذي أنزلته عليكَ فيُصَدِّقُوا بأنه من عندِ الله حزناً وتلهفاً ووجداً، بإدبارهم عنك، وإعراضِهم عماأتيتهم به وتركهم الإيمان بك، يقال منه: بخعَ فلانٌ نفسه يبخعها بَخْعاً وبخوعاً.

وهذه معاتبةٌ من الله عَزَّ ذِكْرُه على وَجْدِه بمباعدةِ قومهِ إياهُ فيما دَعَاهم إليه من الإيمانِ بالله، والبراءةِ من الآلهةِ والأندادِ، وكان بهم رحيماً.

وقوله: «إنَّا جَعَلْنا ما عَلى الأَرْضِ زينَةً لَهَا»، يقول عزّ ذِكْرُه: إنَّا جعلنا ما على الأرضِ زينةً للأرضِ. «لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا»، يقول: لنختبر عبادنا أَيُّهُمْ أتركُ لها وأتبعُ لأمرنا ونهينا وأعملُ فيها بطاعتنا.

وقوله: «وَإنَّا لجَاعِلُونَ ما عَلَيْها صَعِيداً جُرُزاً»، يقول عزّ ذِكْرُه: وإنا

لمخرِّبُوها بعد عَمارتِنَاهَا بما جعلنا عليها من الزينةِ، فَمُصَيِّرُوهَا صعيداً جُرُزاً لا نباتَ عليها ولا زرعَ ولا غرسَ. وقد قيل: إنه أُريدَ بالصعيدِ في هذا الموضع: المستوي بوجهِ الأرضِ، وذلك هو شبيهٌ بمعنى قولنا في ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: أمْ حسبتَ يا محمدُ أنَّ أصحابَ الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عَجَباً، فإنَّ ما خلقتُ من السموات والأرض، وما فيهنَّ من العجائبِ أعجب من أمرِ أصحابِ الكهف، وحجتي بكلِّ ذلك ثابتةٌ على هؤلاء المشركين من قومك، وغيرهم من سائر عبادي.

وأما الكهف، فإنه كهفُ الجبلِ الذي أوى إليه القومُ الذين قَصَّ اللهُ شأنَهم في هذه السورة.

وأما الرقيم، فإنَّ أهلَ التأويل اختلفوا في المعنيِّ به، فقال بعضهم: هو اسم قرية، أو وادٍ على اختلافٍ بينهم في ذلك.

وقال آخرون: الرقيم: الكتاب.

وقال آخرون: بل هو اسم جبل أصحاب الكهف.

وأوْلى هذه الأقوال بالصواب في الرقيم أن يكون معنياً به: لوح، أو حجر، أو شيء كُتب فيه كتابٌ وقد قال أهلُ الأخبار: إنَّ ذلك لوح كُتب فيه أسماءُ أصحابِ الكهف وخبرهم حين أوَوْا إلى الكهف، ثم قال بعضهم: رُفع ذلك اللوح في خزانةِ الملك. وقال بعضهم: بل جُعلَ على بابِ كهفهم. وقال بعضهم: بل كان ذلك محفوظاً عند بعض أهل بلدهم، وإنما الرقيم: فعيل،

أصله: مرقوم، ثم صُرف إلى فعيل، كما قيل للمجروح: جريح، وللمقتول: قتيل: ، يقال منه: رقمت كذا وكذا: إذا كتبته، ومنه قيل للرَّقْمِ في الثوب رقم، لأنه الخطُّ الذي يعرف به ثمنه. ومن ذلك قيل للحيَّة: أرقم، لما فيه من الآثار؛ والعربُ تقولُ: عليك بالرقمة، ودَعِ الضِفَّةَ: بمعنى عليك برقمة الوادي حيثُ الماء، ودع الضفة الجانبة. والضفتان: جانبا الوادي. وأحسبُ أنَّ الذي قال الرقيم: الوادي، ذهبَ به إلى هذا، أعني به إلى رقمة الوادي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصحَابَ الكَهْفِ والـرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً» حين أوى الفتيةُ أصحابُ الكهف إلى كهفِ الجبل، هَرَباً بدينهم إلى الله، فقالوا إذ أَوَوْهُ: «رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً» رغبةً منهم إلى رَبِّهم، في أنْ يرزقهم من عنده رحمةً.

وقوله: «وَهَيِّئْ لَنا مِنْ أَمْرِنا رَشَداً»، يقول: وقالوا: يَسِّرْ لنا بما نبتغي وما نلتمس من رِضاكَ والهرب من الكُفْرِ بك، ومن عبادةِ الأوثان التي يَدْعُونَا إليها قومُنَا، رَشَداً: يقول: سَداداً إلى العمل بالذي تُحِبُّ.

وقد اختلف أهلُ العلم في سبب مصيرِ هؤلاء الفِتيةِ إلى الكهفِ الذي ذكره اللهُ في كتابه، فقال بعضهم: كان سبب ذلك، أنهم كانوا مسلمينَ على دِينِ عيسى، وكـان لهم ملكٌ عابـدُ وَثَن، دعاهم إلى عبادةِ الأصنامِ فهربوا بدينهم منه خشيةَ أنْ يفتنهم عن دينهم، أو يقتلهم، فاسْتَخْفَوْا منه في الكهف.

وقال آخرون: بل كان مصيرهم إلى الكهف هرباً من طلب سلطانٍ كان طلبهم بسببِ دَعوى جناية ادّعى على صاحبٍ لهم أنه جَنَاها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾

يعني جلّ ثناؤه بقوله: «فَضَرَبْنا على آذانِهِمْ فِي الكَهْفِ»، فضربنا على آذانهم بالنوم في الكهف: أي ألقينا عليهمُ النومَ، كما يقول القائلُ لآخرَ: ضربكَ اللهُ بالفالج، بمعنى ابتلاه الله به، وأرسله عليه.

وقوله: «سِنِينَ عَدَداً»، يعني: سِنينَ معدودة، ونصب العدد بقوله: «فضَرَبْنا».

وقوله: «ثُمَّ بَعَثْناهُمْ لنَعْلَمَ أيُّ الحِزْبَيْنِ أحْصَى»، يقول: ثم بعثنا هؤلاء الفتيةَ الذين أوَوْا إلى الكهف بعد ما ضربنا على آذانِهم فيه سنين عدداً من رَقْدتهم، لينظر عبادي فيعلموا بالبحث، أيُّ الطائفتين اللتبن اختلفتا في قَدْرِ مبلغِ مُكْثِ الفتيةِ في كهفهم رقوداً. «أحْصَى لِمَا لَبِثُوا أمَداً»، يقول: أصوبُ لِقَدْرِ لُبْثِهم فيه أمداً؛ ويعني بالأمد: الغاية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: نحنُ يا محمدُ نقصُّ عليكَ خبرَ هؤلاء الفتية الذين أوَوْا إلى الكهف بالحقِّ، يعني: بالصدق واليقين الذي لا شكَّ فيه. «إنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ»، يقول: إنَّ الفتية الذين أوَوْا إلى الكهف الذين

سألك عن نبئهم الملأ من مشركي قومك، فتيةٌ آمنوا بربهم، «وَزِدْناهُمْ هُدًى»، يقول: وزدناهم إلى إيمانهم بربهم إيماناً، وبصيرةً بدينهم، حتى صبروا على هجران دارِ قومِهم، والهربِ من بين أظهرهم بدينهم إلى الله، وفراقِ ما كانوا فيه من خفضِ العيشِ ولِيْنِه، إلى خشونةِ المُكْثِ في كهف الجبل.

وقوله: «وَرَبَطْنا على قُلُوبِهِمْ»، يقول عزّ ذِكْرُه: وألهمناهم الصبرَ، وشَدَدْنا قلوبَهم بنورِ الإيمانِ حتى عَزَفَتْ أنفسُهم عما كانوا عليه من خفضِ العيش.

وقوله: «إذْ قامُوا فقالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّمَوَاتِ والأرْضِ»، يقول: حين قاموا بين يدي الجبار دقينوس، فقالوا له إذ عاتبهم على تركهم عبادةَ آلهته: «رَبُّنا رَبُّ السَّمَوَاتِ والأرْضِ»، يقول: قالوا رَبُّنَا ملكُ السموات والأرض وما فيهما من شيء، وآلهتك مربوبةٌ، وغيرُ جائزٍ لنا أن نتركَ عبادةَ الربِّ ونعبدَ المربوبَ. «لَنْ نَدْعُوَ منْ دُونِهِ إلَهاً»، يقول: لن نَدْعُوَ من دونِ ربِّ السمواتِ والأرض إلهاً، لأنه لا إلهَ غيرُه، وإنَّ كُلَّ ما دونَهُ فهو خَلْقُه. «لَقَدْ قُلْنا إذًا شَطَطاً»، يقول جلّ ثناؤه: لئن دعونا إلهاً غير إلهِ السمواتِ والأرض، لقد قلنا إذن بدعائِنا غيرَهُ إلهاً، شططاً من القولِ: يعني غالياً من الكذبِ، مجاوزاً مقداره في البُطولِ والغُلُوِّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ١٥﴾

يقول عزَّ ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ الفتيةِ من أصحابِ الكهف: هؤلاء قومُنَا اتَّخذُوا من دونِ الله آلهةً يعبدونها من دونه. «لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهم بسُلْطانٍ بَيِّنٍ»، يقول: هَلاَّ يأتون على عبادتهم إياها بحجةٍ بينةٍ.

وفي الكلام محذوفٌ اجْتُزِئَ بما ظهر عما حذف، وذلك في قوله: «لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بسُلْطانٍ بَيِّنٍ» فالهاء والميم في عليهم من ذِكْرِ الآلهة، والآلهةُ لا

يُؤْتَى عليها بسلطان، ولا يُسأَلُ السلطان عليها، وإنما يُسأَلُ عَابِدُوهَا السلطانَ على عِبَادَتِهِمُوهَا، فمعلومٌ إذْ كان الأمرُ كذلك، أنَّ معنى الكلام: لولا يأتون على عبادتهُمُوها، واتِّخَاذِهُمُوها آلهةً من دونِ الله بسلطانٍ بَيِّنٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ بعضِ الفتية لبعض: وإذ اعتزلتم أيها الفتيةُ قومَكم الذين اتخذوا من دون الله آلهة «ومَا يَعْبُدُونَ إلَّا اللهَ»، يقول: وإذ اعتزلتم قومَكم الذين يعبدون من الآلهةِ سوى الله، إذْ كان ذلك معناه في موضع نصب عطفاً لها على الهاء، والميم التي في قوله: «وإذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ».

وأما قوله: «فَأْوُوا إلى الكَهْفِ» فإنه يعني به: فَصِيرُوا إلى غارِ الجبلِ الذي يُسَمَّى بنجلوس، «يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ»، يقول: يبسط لكم رَبُّكم من رحمتِه بتيسيرِه لكم المخرجَ من الأمر الذي قد رُمِيتم به من الكافر دقينوس وطلبه إياكم لعرضِكُمْ على الفتنة.

وقوله: «فَأْوُوا إلى الكَهْفِ» جوابٌ لإذْ، كأنَّ معنى الكلام: وإذ اعتزلتم أيها القومُ قومَكم، فأْوُوا إلى الكهفِ؛ كما يقال: إذ أذنبتَ فاستغفرِ اللهَ وتُبْ إليه.

وقوله: «ويُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ امْرِكُمْ مِرْفَقاً»، يقول: وييَسِّرْ لكم من أمركم الذي أنتم فيه من الغَمِّ والكربِ خوفاً منكم على أنفسِكم ودينكم مرفقاً، ويعني بالمرفق: ما ترفقونَ به من شيْء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَتَرَى الشَّمْسَ» يا محمدُ «إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ اليَمِينِ»، يعني بقوله: «تَزَاوَرُ»: تَعْدِلُ وتميلُ، من الزَّوَرِ: وهو العِوَجُ والميلُ؛ يقال منه: في هذه الأرض زَوَرٌ: إذا كان فيها اعوجاج، وفي فلان عن فلان ازْوِرَارٌ، إذا كان فيه عنه إعراضٌ.

وقوله: «وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمالِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا غربت الشمسُ تتركهم من ذاتِ شمالهم. وإنما معنى الكلام: وترى الشمسَ إذا طلعت تعدلُ عن كهفهم، فتطلعُ عليه من ذاتِ اليمينِ، لئلا تُصيبَ الفتيةَ، لأنها لو طلعت عليهم قبالهم لأحرقتهم وثيابهم، أو أشحبتهم، وإذا غربت تتركهم بذاتِ الشمال، فلا تصيبهم؛ يقال منه: قرضتُ موضعَ كذا: إذا قطعته فجاوزته.

وقوله: «وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ»، يقول: والفتيةُ الذين أَوَوْا إليه في مُتَّسَعٍ منه.

وقوله: «ذلكَ مِنْ آياتِ اللهِ»، يقول عَزَّ ذِكْرُهُ: فِعْلُنا هذا الذي فعلنا بهؤلاء الفتيةِ - الذين قَصَصْنَا عليكم أمرهم من تَصْبِيرِنَاهُمْ، إِذْ أردنا أَنْ نضربَ على آذانهم بحيث تَزاورُ الشمسُ عن مضاجِعهم ذاتَ اليمين إذا هيَ طلعت، وتقرضهم ذاتَ الشمالِ إذا هي غَرَبت، مع كونِهم في المتسع من المكان، بحيث لا تُحْرِقُهم الشمسُ فَتُشْحِبُهم، ولا تُبْلي على طول رقدتهم ثيابَهم، فتعفنَ على إجسادِهم، - من حجج الله وأدلته على خَلْقِه، والأدلة التي يستدلُّ

بها أولو الألبابِ على عظيمِ قُدْرتِهِ وسلطانه، وأنه لا يُعجزه شيءٌ أراده.

وقوله: «مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ المُهْتَدِ»، يقول عزّ وجلّ: مَنْ يوفِّقه اللهُ للاهتداء بآياتهِ وحججه إلى الحق التي جعلها أدلةً عليه، فهو المهتدي: يقول: فهو الذي قد أصابَ سبيلَ الحقِّ. «وَمَنْ يُضْلِلْ»، يقول: ومَنْ أضَلَّهُ اللهُ عن آياتهِ وأدلتـه، فلم يوفقـه للاستـدلالِ بهـا على سبيلِ الرشاد، «فَلَنْ تَجِد لَهُ وَلِيًّا مُرْشِـداً»، يقـول: فلن تجد له يا محمدُ خليلاً وحليفاً يرشده لإصابتها، لأنَّ التوفيقَ والخِذْلانَ بيد الله، يوفق مَنْ يشاء من عبادِه، ويخذل مَنْ أراد؛ يقول: فلا يَحْزُنكَ إدبارُ مَنْ أدبرَ عنك من قومك وتكذيبهم إياك، فإني لو شئتُ هَدَيْتُهم فآمنوا، وبيدي الهدايةُ والضلال.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ۝١٨﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: وتحسبُ يا محمدُ هؤلاء الفتيةَ الذين قَصَصْنَا عليكَ قصتهم، لو رأيتهم في حال ضَرْبِنَا على آذانهم في كهفهم الذي أَوَوْا إليه أيقاظاً. والأيقاظُ: جمع يَقِظ.

وقوله: «وَهُمْ رُقُودٌ»، يقول: وهم نيامٌ. والرقودُ: جمع راقدٍ، كالجلوس: جمع جالس، والقعود: جمع قاعد.

وقوله: «وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ اليَمِينِ وَذَاتَ الشِّمالِ»، يقول جلّ ثناؤه: ونقلِّبُ هؤلاء الفتية في رقدتهم مرّةً للجنبِ الأيمن، ومرّة للجنبِ الأيسر.

وقوله: «وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد»، الوصيد: الباب، أو فناء الباب حيث يغلق الباب، وذلك أن الباب يوصَدُ، وإيصادهُ: إطباقهُ وإغلاقهُ من قول

الله عزّ وجلّ: «إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ»، وفيه لغتان: الأصيد، وهي لغةُ أهل نجد، والوصيد: وهي لغة أهل تهامة، وذُكِر عن أبي عمرو بن العلاء، قال: إنها لغةُ أهل اليمن، وذلك نظير قولهم ورَّختُ الكتابَ وأرَّخْتُه، ووكَّدْتُ الأمرَ وأكَّدتُه، فمن قال الوصيد، قال: أوصدت الباب فأنا أُوصِده، وهو مُوصَدٌ؛ ومن قال الأصيد، قال: آصدتُ البابَ فهو مُؤْصَدٌ، فكان معنى الكلام: وكلبهم باسط ذراعيه بفناء كهفهم عند الباب، يحفظُ عليهم بابه.

وقوله: «لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً»، يقول: لو اطلعتَ عليهم في رقدتهم التي رَقَدُوهَا في كهفهم، لأدبرتَ عنهم هارباً منهم فارّاً، «ولَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً»، يقول: ولملئتْ نفسُكَ من اطلاعكَ عليهم فَزَعاً، لما كان الله ألبسهم من الهيبةِ، كي لا يصلَ إليهم واصلٌ، ولا تلمِسهم يَدُ لامسٍ حتى يبلغ الكتابُ فيهم أجلَهُ، وتُوقِظَهُمْ من رقدتهم قُدْرَتُه وسلطانُه في الوقتِ الذي أراد أن يجعلهم عبرة لمن شاء من خلقه، وآيةً لمن أراد الاحتجاجَ بهم عليه من عباده، ليعلموا أنَّ وعدَ الله حقٌّ، وأنَّ الساعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: كما أرقدنا هؤلاء الفتيةَ في الكهف، فحفظناهم من وصولِ واصلٍ إليهم، وعينِ ناظرٍ أنْ ينظرَ إليهم، وحَفِظْنَا أجسامَهم من البلاءِ

على طولِ الزمان، وثيابَهم من العفنِ على مَرِّ الأيام بقدرتنا؛ فكذلك بعثناهم من رقدتهم، وأيقظناهم من نومهم، لنعرِّفَهُمْ عظيمَ سلطاننا، وعجيبَ فِعْلِنَا في خَلْقِنا، وليزدادوا بصيرةً في أمرهم الذي هُمْ عليه من براءتهم من عبادةِ الآلهة، وإخلاصهم لعبادةِ الله وحده لا شريكَ له، إذا تبيَّنوا طولَ الزمانِ عليهم، وهم بهيئتهم حين رقدوا.

وقوله: «لِيَتَساءَلُوا بَيْنَهُمْ»، يقول: ليسأل بعضُهم بعضاً. «قالَ قائلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ»، يقول عزَّ ذكره: فتساءلوا فقالَ قائلٌ منهم لأصحابه: «كَمْ لبِثْتمْ» وذلك أنهم استنكروا من أنفسهم طولَ رقدتهم. «قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ»، يقـول: فأجابه الآخرون فقالوا: لَبِثْنا يوماً أو بعضَ يومٍ، ظناً منهم أنَّ ذلك كذلك كان، فقال الآخرون: «رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ» فسلَّموا العلمَ إلى الله.

وقـوله: «فابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إلى المَدِينَةِ» يعني مدينتهم التي خرجوا منها هِرَاباً، التي تسمى أفسوس. «فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أَزْكَى طَعاماً فَلْيأْتِكُمْ برزقٍ مِنْهُ» ذكر أنهم هَبُّوا من رقدتهم جِياعاً، فلذلك طلبوا الطعام.

وأمـا قولـه: «فَلْيَنْـظُرْ أَيُّها أَزْكَى طَعاماً»، فإنَّ أهلَ التأويل اختلفوا في تأويله؛ فقال بعضهم: معناه فلينظر أيّ أهل المدينة أكثر طعاماً.

وقال آخرون: بل معناه أيها أحلّ طعاماً.

وقال آخرون: بل معناه: أيها خير طعاماً.

وأَوْلى الأقوال عندي في ذلك بالصواب: قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: أحلُّ وأطهرُ، وذلك أنه لا معنى في اختيار الأكثر طعاماً للشراء منه إلا بمعنى إذا كان أكثرهم طعاماً، كان خليقاً أن يكون الأفضل منه عنده أوجد، وإذا شرط على المـأمـور الشـراء من صاحبِ الأفضلِ، فقد أمر بشراءِ الجَيِّدِ، كانَ ما عند المشتري ذلك منه قليلاً الجيد أو كثيراً.

وقوله: «فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ»، يقول: فليأتكم بقوتٍ منه تَقْتَاتُونَهُ، وطعام تأكلونه.

وقوله: «وَلْيَتَلَطَّفْ»، يقول: وليترفَّقْ في شرائهِ ما يشتري، وفي طريقهِ ودخولهِ المدينةَ. «وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً»، يقول: ولا يُعْلِمَنَّ بكم أحداً من الناس.

وقوله: «إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ»، يعنون بذلك: دقينوس وأصحابه؛ قالوا: إن دقينوس وأصحابه إنْ يَظْهَرُوا عليكم، فيعلموا مكانَكم، يرجموكم شتماً بالقول.

وقوله: «أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ»، يقول: أو يردُّوكُمْ في دينهم، فتصيروا كفاراً بعبادةِ الأوثانِ. «وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَداً»، يقول: ولن تُدْرِكُوا الفلاحَ، وهو البقاءُ الدائمُ والخلودُ في الجِنان، إذن: أي إن أنتم عُدْتم في ملتهم أبداً: أيامَ حياتكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وكما بعثناهم بعد طول رَقْدَتِهم كهيئتهم ساعةَ رَقَدُوا، ليتساءلوا بينهم، فيزدادوا بعظيمِ سلطانِ الله بصيرةً، وبحسنِ دفاعِ اللهِ عن أوليائه معرفةً. «كَذلكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ»، يقول: كذلك أطلعنا عليهم الفريقَ الآخر الذين كانوا في شكٍّ من قُدرةِ الله على إحياءِ الموتى، وفي مِرْيةٍ من إنشاءِ أجسامِ خَلْقِه، كهيئتهم يومَ قبضهم بعد البِلَى، فيعلموا أنَّ وعْدَ الله حقٌّ،

ويُوقنوا أنَّ الساعةَ آتيةٌ لا ريب فيها.

وقوله: «إِذْ يَتَنازَعُون بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ»، يعني: الذين أعثروا على الفتية يقول تعالى: وكذلك أعثرنا هؤلاء المختلفينَ في قيامِ الساعة، وإحياءِ اللهِ الموتى بعد مماتهم منْ قوم تيذوسيس، حين يتنازعونَ بينهم أمرهم فيما الله فاعلٌ بمن أفناهُ من عبادِه، فأبلاهُ في قبره بعد مماتِه، أَمُنْشِئُهم هو أم غير منشئهم.

وقـولـه: «فقالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْياناً»، يقول: فقال الذين أعثرناهم على أصحـابِ الكهف: ابنوا عليهم بنياناً. «رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ»، يقول: ربُّ الفتيةِ أعلمُ بالفتيةِ وشأنهم.

وقوله: «قالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلى أَمْرِهِمْ»، يقول جلّ ثناؤه: قال القوم الذين غلبوا على أمرِ أصحابِ الكهف: «لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً».

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: سيقولُ بعض الخائضين في أمرِ الفِتْية من أصحابِ الكهف، هُمْ ثلاثـة رابعهم كلبهم، ويقـول بعضهم: هم خمسـة سادسهم كلبهم. «رجْماً بَالغَيْبِ»، يقول: قذفاً بالظنِّ غيرَ يقينِ علمٍ.

وقـولـه: «وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ»، يقول: ويقول بعضهم: هم سبعـة وثامنهم كلبهم. «قُلْ رَبّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ»، يقول عزَّ ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: قل يا محمدُ لقائلي هذه الأقوالِ في عدد الفتية من أصحاب الكهف رجماً

منهم بالغيب: «رَبيِّ أعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ما يَعْلَمُهُمْ»، يقول: ما يعلم عَدَدَهُمْ «إلَّا قَلِيلٌ» من خَلْقِه.

وقوله: «فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إلَّا مِرَاءً ظاهِراً»، يقول عَزَّ ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: فلا تُمَارِ يا محمدُ: يقول: لا تجادلْ أهلَ الكتابِ فيهم، يعني في عِدَّةِ أهلِ الكهفِ، وحُذِفت العِدّةُ اكتفاءً بذكرهم فيها لمعرفةِ السامعين بالمراد.

وقوله: «إلَّا مِرَاءً ظاهِراً»، اختلف أهلُ التأويل في معنى المِراء الظاهرِ الذي استثناهُ الله، ورَخَّصَ فيه لنبيه ﷺ، فقال بعضهم: هو ما قَصَّ اللهُ في كتابه أُبيحَ له أن يتلوه عليهم، ولا يماريهم بغير ذلك.

وقال آخرون: المِراء الظاهر: هو أنْ يقولَ: ليس كما تقولون، ونحو هذا من القول.

وقوله: «وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحداً»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولا تستفتِ في عدّةِ الفتية من أصحابِ الكهف منهم، يعني من أهلِ الكتاب أحداً، لأنهم لا يعلمون عدتهم، وإنما يقولون فيهم رجماً بالغيب، لا يقيناً من القول.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾

وهـذا تأديبٌ من الله عَزَّ ذِكْرُهُ لنبيه ﷺ عَهِدَ إليه أنْ لا يجزمَ على ما يحدثُ من الأمورِ أنه كائنٌ لا محالةَ، إلا أنْ يَصِلَهُ بمشيئةِ الله، لأنه لا يكونُ شيءٌ إلا بمشيئة الله.

وإنمـا قيل له ذلك فيما بلغنا من أجلِ أنه وعدَ سائليهِ عن المسائلِ

الثلاثِ اللواتي قد ذكرناها فيما مضى اللواتي، إحداهُنَّ المسألة عن أمرِ الفتيةِ من أصحابِ الكهف أنْ يجيبهم عنهنَّ غَدَ يومِهم، ولم يستثنِ، فاحتبسَ الوحيُ عنه فيما قيل من أجلِ ذلك خمسَ عشرة، حتى حَزَنَهُ إبطاؤه، ثم أنزلَ الله عليه الجوابَ عنهنّ، وعَرَّفَ نبيَّهُ سببَ احتباسِ الوحي عنه، وعلَّمَهُ ما الذي ينبغي أنْ يستعملَ في عِدَاتِهِ وخبرِه عما يحدثُ من الأمور التي لم يأتِهِ من الله بها تنزيلٌ، فقال: «وَلا تَقُولَنَّ» يا محمدُ «لِشَيْءٍ إنّي فاعلٌ ذلك غَداً» كما قلتَ لهؤلاء الذين سألوكَ عن أمرِ أصحاب الكهف، والمسائل التي سألوك عنها، سأخبركم عنها غداً. «إلَّا أنْ يَشاءَ اللهُ». ومعنى الكلام: إلا أنْ تقولَ معه: إنْ شاء الله، فترك ذكر تقول اكتفاءً بما ذكر منه.

وقوله: «وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ»، اختلف أهلُ التأويل في معناه، فقال بعضهم: واستثنِ في يمينكَ إذا ذكرتَ أنك نسيتَ ذلك في حالِ اليمين.

وقال آخرون: معناه: واذْكُرْ رَبَّكَ إذا عصيتَ.

وأولى القولين في ذلك بالصواب، قولُ مَنْ قال: معناه: واذكُرْ ربك إذا تركتَ ذِكْرَهُ، لأنَّ أحدَ معاني النسيانِ في كلام العرب الترك، وقد بيَّنا ذلك فيما مضى قبل.

فإنْ قال قائلٌ: أفجائزٌ للرجلِ أن يستثنيَ في يمينه إذ كان معنى الكلام ماذكرت بعد مدةٍ من حالِ حَلْفِه؟ قيل: بل الصوابُ أن يستثنيَ ولو بعد حنْثِه في يمينه، فيقول: إنْ شاء الله ليخرجَ بقِيلِه ذلك مما ألزمه الله في ذلك بهذه الآية، فيسقط عنه الحرج بتركه ما أَمَرَهُ بقِيله من ذلك، فأما الكفارةُ فلا تسقطُ عنه بحال، إلا أنْ يكونَ استثناؤه موصولاً بيمينه.

فإنْ قال: فما وجهُ قولِ مَنْ قال له: ثُنْياه ولو بعد سنة، ومن قال له ذلك ولو بعد شهر، وقول من قال: مادام في مجلسه؟ قيل: إن معناهم في ذلك

نحو معنانا في أنَّ ذلك له، ولو بعدَ عشرِ سنين، وأنه باستثنائه وقِيلِه إنْ شاء الله بعد حينٍ من حالِ حلفه، يسقطُ عنه الحرج الذي لو لم يَقُلْهُ كان له لازماً؛ فأما الكفارةُ فله لازمة بالحِنْثِ بكلِّ حالٍ، إلا أنْ يكونَ استثناؤه كان موصولاً بالحلف، وذلك أنَّا لا نعلمُ قائلاً قال ممن قال له الثُّنيا بعد حينٍ يزعمُ أنَّ ذلك يضعُ عنه الكفارةَ إذا حَنِثَ، ففي ذلك أوضحُ الدليلِ على صحةِ ما قلنا في ذلك، وأنَّ معنى القولِ فيه، كان نحو معنانا فيه.

وقوله: «وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِينِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً»، يقول عَزَّ ذِكْرُه لنبيه ﷺ: قُلْ ولعلَّ الله أنْ يهديني فيسدّدني لأسدَّ مما وعدتُكم وأخبرتُكم أنه سيكونُ، إنْ هو شاء.

وقد قيل: إن ذلك مما أُمِرَ النبيُّ ﷺ أنْ يقولَهُ إذا نسيَ الاستثناء في كلامه، الذي هو عنده في أمرٍ مستقبل مع قوله: إنْ شاء الله، إذا ذكر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾

اختلف أهلُ التأويل في معنى قوله: «وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً»، فقال بعضهم: ذلك خَبَرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن أهلِ الكتاب أنهم يقولون ذلك كذلك، واستشهدوا على صحةِ قولهم ذلك بقوله: «قُلِ الله أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا»، وقالوا: لو كان ذلك خبراً من الله عن قَدرِ لَبْثِهم في الكهفِ، لم يكن لقوله: «قُلِ الله أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا» وجهٌ مفهوم، وقد أعلم الله خَلْقَهُ مبلغ لبثهم فيه وقدره.

وقال آخرون: بل ذلك خبرٌ من الله عن مبلغِ ما لبثوا في كهفهم.

وأَوْلى الأقوال في ذلك بالصواب أنْ يقالَ كما قال الله عَزَّ ذكره: ولبثَ أصحابُ الكهف في كهفهم رقوداً إلى أنْ بعثهمُ الله، ليتساءلوا بينهم، وإلى أنْ أعثرَ عليهم مَنْ أعثر، ثلاثَ مئةٍ سنينَ وتسعَ سنين، وذلك أنَّ الله بذلك أخبرَ في كتابه. وأما الذي ذُكِرَ عن ابن مسعود أنه قرأ: «وقَالُوا: وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ» وقول مَنْ قال ذلك من قولِ أهلِ الكتاب، وقد رَدَّ الله ذلك عليهم، فإنَّ معناه في ذلك: إنْ شاء الله كان أنَّ أهلَ الكتاب قالوا فيما ذُكِرَ على عهدِ رسولِ الله ﷺ أنَّ للفتيةِ من لَدُنْ دَخلُوا الكهفَ إلى يومنا ثلاث مئة سنين وتسع سنين، فَرَدَّ الله ذلك عليهم، وأخبر نَبِيَّهُ أنَّ ذلك قدر لبثهم في الكهف من لدن أَوَوْا إليه إلى أنْ بعثهم ليتساءلوا بينهم؛ ثم قال جلّ ثناؤه لنبيه ﷺ: قل يا محمدُ: الله أعلمُ بما لبثوا بعد أنْ قبضَ أرواحهم، من بعد أن بعثهم من رقدتهم إلى يومهم هذا، لا يعلمُ بذلك غيرُ الله، وغير مَنْ أعلمه الله ذلك.

فإنْ قال قائل: وما يدلُّ على أنَّ ذلك كذلك؟ قيل: الدالُّ على ذلك أنه جلَّ ثناؤه ابتدأ الخبرَ عن قدر لُبْثِهم في كهفهم ابتداء، فقال: «وَلَبِثُوا في كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مئَةٍ سنينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً»، ولم يضع دليلاً على أن ذلك خبر منه عن قولِ قومٍ قالوه، وغير جائزٍ أنْ يُضافَ خبرُه عن شيءٍ إلى أنه خبرٌ عن غيرهِ بغيرِ برهانٍ، لأنَّ ذلك لو جازَ جازَ في كلِّ أخبارِه، وإذا جاز ذلك في أخباره جاز في أخبارِ غيره أنْ يُضافَ إليه أنها أخباره، وذلك قلبُ أعيانِ الحقائقِ وما لا يخيلُ فساده[1].

فإنْ ظَنَّ ظانٌّ أن قوله: «قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا» دليل على أنَّ قوله: «ولَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ» خبرٌ منه عن قومٍ قالوه، فإنَّ ذلك كان يجب أنْ يكونَ كذلك لو كان لا يحتمـلُ من التأويلِ غيره؛ فأما وهو محتملٌ ما قلنا من أن يكون معناه: قُلِ الله أعلمُ بما لبثوا إلى يومِ أنزلنا هذه السورةَ، وما أشبه ذلك من

---

(١) أي: مالا يخفى فساده.

المعاني فغيرُ واجبٍ أن يكون ذلك دليلاً على أن قوله: «وَلبِثُوا في كَهْفِهِمْ» خبر من الله عن قومٍ قالوه، وإذا لم يكن دليلاً على ذلك، ولم يأتِ خبرٌ بأنَّ قوله: «وَلبِثُوا في كَهْفِهِمْ» خبر من الله عن قومٍ قالوه، ولا قامتْ بصحةِ ذلك حُجَّةٌ يجبُ التسليمُ لها، صَحَّ ما قلنا، وفَسَدَ ما خالفه.

وقوله: «لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: للهِ عِلْمُ غيبِ السموات والأرض، لا يعزبُ عنه علمُ شيءٍ منه، ولا يَخْفَى عليه شيء، يقول: فَسَلِّمُوا له عِلْمَ مبلغ ما لبثتِ الفتيةُ في الكهف إلى يومِكم هذا، فإنَّ ذلك لا يَعْلَمهُ سوى الذي يعلمُ غيبَ السمواتِ والأرض، وليس ذلك إلا اللهُ الواحدُ القهار.

وقوله: «أَبْصِرْ بِهِ وأَسمِعْ»، يقول: أبصرْ بالله وأسمع، وذلك بمعنى المبالغة في المدح، كأنه قيل: ما أبصره وأسمعه.

وتأويل الكلام: ما أبصَرَ اللهَ لكلِّ موجودٍ، وأسمعَهُ لكلِّ مسموعٍ، لا يَخْفَى عليه من ذلك شيء.

وقوله: «ما لَهُمْ منْ دُونِهِ منْ وَلِيّ»، يقول جلّ ثناؤه: ما لخلْقِه دونَ ربِّهم الذي خلقهم وليٌّ، يلي أمرَهُمْ وتدبيرهم، وصَرْفَهُمْ فيما هم فيه مصرفون، «وَلا يُشْرِكُ فِي حُكمِهِ أَحَداً»، يقول: ولا يجعل الله في قضائه، وحكمه في خلقه أحداً سواه شريكاً، بل هو المنفردُ بالحكمِ والقضاءِ فيهم، وتدبيرهم وتصريفهم فيما شاء وأحبَّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝٢٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: واتَّبِعْ يا محمدُ ما أُنزلَ إليكَ من كتابِ

ربك هذا، ولا تتركنَّ تلاوته، واتباع ما فيه من أمرِ الله ونهيه، والعمل بحلالهِ وحرامِهِ، فتكون من الهالكين، وذلك أنَّ مصير مَنْ خالفه، وترك اتباعه، يوم القيامة إلى جهنم. «لا مُبَدّلَ لكَلماتهِ»، يقول: لا مُغَيِّرَ لما أوعدَ بكلماتهِ التي أنزلها عليكَ أهلَ معاصيه، والعاملينَ بخلافِ هذا الكتابِ الذي أوحيناهُ إليك.

وقوله: «وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا»، يقول: وإنْ أنتَ يا محمدُ لم تَتْلُ ما أوحيَ إليك من كتابِ ربك فتتبعه وتأتمَّ به، فنالك وعيدُ الله الذي أوعدَ فيه المخالفينَ حدوده، لن تجدَ من دونِ الله موئلاً تَئِلُ إليه ومعدلاً تعدلُ عنه إليه، لأنَّ قدرةَ الله محيطةٌ بكَ وبجميع خلقه، لا يقدر أحد منهم على الهرب من أمرٍ أراد به.

القَولُ فِي تأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴿٢٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «وَاصْبِرْ» يا محمدُ «نَفْسَكَ مَعَ» أصحابكَ «الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغَدَاةِ والعَشِيّ» بذكرهم إياه بالتسبيحِ والتحميدِ والتهليلِ والدعاءِ والأعمالِ الصالحة من الصلوات المفروضة وغيرها «يُرِيدُونَ» بفعلهم ذلك «وَجْهَهُ» لا يريدون عَرَضاً من عرض الدنيا.

وقوله: «وَلا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ»، يقول جلّ ثناؤه لنبيه ﷺ: ولا تصرفْ عينـاكَ عن هؤلاء الـذين أمـرتُكَ يا محمد أنْ تصبرَ نفسكَ معهم إلى غيرهم من الكفار، ولا تُجاوِزْهُمْ إليه، وأصله من قولهم: عدوتُ ذلك، فأنا أعدُوه: إذا جاوزته.

وقوله: «تريدُ زِينَةَ الحَياة الدُّنْيا»، يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: لا تَعْدُ

عيناكَ عن هؤلاء المؤمنين الذين يدعونَ ربهم إلى أشرافِ المشركين، تبغي بمجالستهم الشرفَ والفخرَ، وذلك أنَّ رسولَ الله ﷺ أتاه فيما ذُكِرَ قومٌ من عظماء أهلِ الشرك، وقال بعضهم: بَلْ من عظماء قبائلِ العرب ممن لا بصيرةَ لهم بالإسلام، فرأوه جالساً مع خباب وصهيب وبلال، فسألوه أنْ يُقيمَهُمْ عنه إذا حضروا، قالوا: فَهَمَّ رسولُ الله ﷺ، فأنزلَ اللهُ عليه: «وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ»، ثم كان يقوم إذا أراد القيام، ويتركهم قعوداً، فأنزلَ اللهُ عليه: «وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغَدَاةِ والعَشِيّ. . . الآية» «وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الحَياةِ الدُّنْيا»، يريد زينةَ الحياة الدنيا: مجالسةَ أولئك العظماءِ الأشرافِ.

وقوله: «وَلا تُطعْ مَنْ أغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه ﷺ: ولا تُطِعْ يا محمدُ مَنْ شَغَلْنَا قلبه من الكفارِ الذين سألوكَ طردَ الرهطِ الذين يَدْعُونَ ربهم بالغَداةِ والعشيِّ عنك، عن ذِكْرِنَا، بالكفرِ وغَلَبةِ الشقاءِ عليه، واتبع هواه، وتركَ اتباعَ أمرِ الله ونهيه، وآثرَ هوى نفسه على طاعةِ ربه، وهم فيما ذُكِرَ: عيينةُ بن حصن، والأقرعُ بن حابس وذووهم.

وقوله: «وكانَ أمْرُهُ فُرُطاً»، معناه: وكان أمرُ هذا الذي أغفلنا قلبه عن ذِكْرِنَا في الرياء والكبر، واحتقار أهلِ الإيمان، سرفاً قد تجاوز حَدَّهُ، فَضَيَّعَ بذلك الحقَّ وهلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وقل يا محمدُ لهؤلاء الذين أغفلنا

قلوبهم عن ذكرنا، واتبعوا أهواءهم، الحقُّ أيها الناسُ من عندِ رَبِّكم، وإليه التوفيقُ والخذلان، وبيده الهدى والضلالُ يهدي مَنْ يشاء منكم للرشادِ، فيؤمن، ويضلُّ مَنْ يشاء عن الهدى فيكفر، ليس إليَّ من ذلك شيءٌ، ولستُ بطاردٍ لهواكم مَنْ كان للحقِّ متبعاً، وبالله وبما أنزلَ عليَّ مؤمناً، فإنْ شئتم فآمنوا، وإنْ شئتم فاكفروا، فانكم إنْ كفرتم فقد أعدَّ لكم رَبُّكم على كُفْرِكُمْ به ناراً أحاطَ بكم سرادقها، وإنْ آمنتم به وعملتم بطاعته، فإن لكم ما وصفَ اللهُ لأهلِ طاعته.

وقوله: «أحاطَ بِهِمْ سُرَادِقُها»، يقول: أحاطَ سرادقُ النارِ التي أعَدَّها الله للكافرين بربهم، وذلك فيما قيل: حائطٌ من نارٍ يطيفُ بهم كسرادقِ الفسطاط، وهي الحجرةُ التي تطيف بالفسطاط.

وقوله: «وَإن يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِمَاءٍ كالمُهْلِ»، يقول تعالى ذكره: وإنْ يَسْتَغِثْ هؤلاء الظالمونَ يومَ القيامةِ في النار من شدّةِ ما بهم من العطشِ، فيطلبونَ الماء يُغاثوا بماءِ المُهْلِ.

واختلف أهلُ التأويل في المهل، فقال بعضهم: هو كلُّ شيءٍ أُذِيبَ وانماع.

وقال آخرون: هو القيحُ والدمُ الأسود.

وقال آخرون: هو الشيء الذي قد انتهى حَرُّه.

وهذه الأقوالُ وإن اختلفتْ بها ألفاظُ قائليها، فمتقارباتُ المعنى، وذلك أنَّ كُلَّ ما أُذيبَ من رصاص أو ذهب أو فضة فقد انتهى حَرُّهُ، وأنَّ ما أُوقِدَتْ عليه من ذلك النارُ حتى صار كدرديِّ الزيتِ، فقد انتهى أيضاً حرّه.

وقوله: «يَشْوِي الوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ»، يقول: جلّ ثناؤه: يشوي ذلك الماءُ الذي يُغَاثُونَ به وجوههم.

وقوله: «بِئْسَ الشَّرابُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: بئسَ الشرابُ، هذا الماءُ الذي يغاثُ به هؤلاء الظالمون في جهنم الذي صفته ما وصفَ في هذه الآية.

وقوله: «وسَاءَتْ مُرْتَفَقاً»، يقول تعالى ذكره: وساءت هذه النارُ التي أعتدناها لهؤلاء الظالمين مرتفقاً، والمرتفَقُ في كلام العرب: المُتَّكأُ، يقال منه: ارتفقتُ إذا اتَّكَأْتُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين صَدَّقُوا الله ورسوله، وعملوا بطاعة الله، وانتهوا إلى أمره ونهيه، إنا لا نُضِيعُ ثوابَ مَنْ أحسنَ عملاً، فأطاعَ الله، واتبع أمره ونهيه، بل نُجازيه بطاعتهِ وعمله الحسن جناتِ عَدْنٍ تجري من تحتها الأنهار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ۝٣١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناتُ عدنٍ، يعني بساتينُ إقامةٍ في الآخرة، «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأنهارُ»، يقول: تجري من دونهم ومن بين أيديهم الأنهار، وقال جلّ ثناؤه: «من تحتهم»، ومعناه: من دونهم وبين أيديهم، «يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أساوِرَ»، يقول: يلبسون فيها من الحليِّ أساورَ من ذهب، والأساورُ: جمع إسوار.

وقوله: «يَلْبَسُونَ ثِياباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ» والسندسُ: جمع واحدها سندسة، وهي مارَقَّ من الديباج. والإِستبرق: ما غَلُظَ منه وثَخُنَ؛ وقيل: إنَّ الإِستبرق: هو الحرير.

وقوله: «مُتّكِئينَ فِيها على الأرَائِكِ»، يقول: متكئين في جناتِ عدنٍ على الأرائك، وهي السُّرُرُ في الحِجال، واحدتها: أريكة.

وقوله: «نِعْمَ الثَّوَابُ»، يقول: نعم الثوابُ جناتُ عَدْنٍ، وما وصفَ جلَّ ثناؤه أنه جعلَ لهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات. «وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً»، يقول: وحَسُنَتْ هذه الأرائكُ في هذه الجِنانِ التي وصفَ تعالى ذِكْرُه في هذه الآية متكأً.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: واضربْ يا محمدُ لهؤلاء المشركينَ بالله، الذين سألوكَ أنْ تطرُدَ الذين يَدْعُونَ رَبَّهم بالغداةِ والعشيِّ يريدون وجهه، «مَثَلاً» مثل «رَجُلَين جَعَلْنا لأحَدِهما جَنَّتَيْن» أي جعلنا له بساتين من كروم. «وحَفَفْناهُما بنَخْلٍ»، يقول: وأطَفْنَا هَذيْنِ البُستانين بنخلٍ.

وقوله: «وَجَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعاً»، يقول: وجعلنا وسط هذين البستانين زرعاً.

وقوله: «كِلْتا الجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها»، يقول: كِلاَ البُستانين أطعمَ ثَمرهُ وما فيه من الغروسِ من النخلِ والكرم وصنوف الزرع.

وقوله: «وَلَمْ تظلم مِنْهُ شَيْئاً»، يقول: ولم تنقص من الأكل شيئاً، بل آتت ذلك تاماً كاملاً ومنه قولهم: ظلم فلانٌ فلاناً حقَّهُ: إذا بَخَسَهُ ونقصه.

وقوله: «وَفَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وَسيَّلنا خلالَ هذين البستانين نهراً، يعني بينهما وبين أشجارهما نهراً. وقيل: «وَفجَّرْنا» فَثَقَّلَ الجيمَ منه، لأنَّ التفجيرَ في النهر كله، وذلك أنه يميد ماء فيُسيل بعضه بعضاً.

ومعنى الكلام «وَفَجَّرْنا خِلالَهما نَهَراً وكانَ لَهُ» منهما «ثمرٌ» بمعنى من جَنَّتَيْهِ أنواعٌ من الثمار وقد بين ذلك لمن وُفِّقَ لفهمه، قوله: «جَعَلْنا لأحَدِهِما جَنَّتَيْنِ مِنْ أعْنابٍ وحَفَفْناهُما بنَخْلٍ، وَجَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعاً»، ثم قال: وكان له من هذه الكرومِ والنخلِ والزرع ثمر.

وقوله: «فَقالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحاوِرُهُ»، يقول عزّ وجلّ: فقال هذا الذي جعلنا له جنتين من أعنابٍ، لصاحبه الذي لا مالَ له وهو يخاطبه: «أنا أكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وأعَزُّ نَفَراً»، يقول: واعزُّ عشيرةً ورَهْطاً، كما قال عُيينة والأقرعُ لرسولِ الله ﷺ: نحنُ ساداتُ العرب، وأربابُ الأموال، فَنَحِّ عنا سلمانَ وَخَبّاباً وصُهيباً احتقاراً لهم، وتكبراً عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الذي جعلنا له جنتين من أعنابٍ «دَخَلَ جَنَّتَهُ» وهي بستانه «وَهُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ» وظلمه نفسه: كُفْرُه بالبعثِ، وشَكُّه في قيامِ الساعة، ونسيانُهُ المعادَ إلى الله تعالى، فأوجبَ لها بذلك سخطَ الله وأليمَ عقابِهِ.

وقوله: «قالَ ما أظُنُّ أنْ تَبِيدَ هَذِهِ أبَداً»، يقول جلّ ثناؤه: قال لما عاينَ جنته، ورآها وما فيها من الأشجارِ والثمار والزروع والأنهارِ المطردة شكاً في المعادِ إلى الله: ما أظنُّ أنْ تبيدَ هذه الجنةُ أبداً، ولا تفنى ولا تَخْرب، وما أظنُّ الساعةَ التي وعدَ الله خَلْقَهُ الحشرَ فيها تقومُ فتحدث، ثم تمنى أمنيةً أخرى على شكٍّ منه، فقال: «وَلَئِنْ رُدِدْتُ إلى رَبّي» فرجعتُ إليه، وهو غير موقنٍ أنه راجعٌ إليه: «لأجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقلباً»، يقول: لأجدنَّ خيراً من جنتي هذه عند الله إنْ رُدِدتُ إليه مرجعاً ومردّاً، يقول: لم يُعْطِني هذه الجنةَ في الدنيا إلا ولي عندَهُ أفضل منها في المعادِ إنْ رُددتُ إليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال لصاحبِ الجنتين صاحبهُ الذي هو أقلّ منه مالاً وولداً، «وهُوَ يُحاوِرُهُ»: يقول: وهو يخاطبهُ ويكلمه: «أكَفَرْتَ بالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ»، يعني خلقَ أباكَ آدم من تراب «ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ»، يقول: ثم أنشأكَ من نطفةِ الرجلِ والمرأة، «ثم سوّاك رَجُلاً»، يقول: ثم عَدَّلَكَ بشراً سوياً رجلاً، ذكراً لا أنثى. يقول: أكفرتَ بمن فعلَ بك هذا أنْ يُعيدكَ خَلْقاً جديداً بعد ماتصير رفاتاً. «لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبّي»، يقول: أما أنا فلا أكفرُ بربي، ولكن أنا[1]، هو الله ربي، معناه أنه يقول: ولكن أنا أقولُ: هو الله ربي «وَلا أُشْرِكُ بِرَبّي أحَداً».

---

(١) هذا أصل: «لكنّا».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾

يقول عزَّ ذِكْرُه: وهَلاَّ إذْ دخلتَ بستانَك، فأعجبَك ما رأيتَ منه، قلتَ ما شاء الله كان، وفي الكلامِ محذوفٌ استغني بدلالةِ ما ظهرَ عليهِ منه، وهو جوابُ الجزاء، وذلك كان.

وقوله: «إنْ تَرَنِ أنا أقَلَّ مِنْكَ مالاً وَوَلَداً» وهو قولُ المؤمنِ الذي لا مالَ له، ولا عشيرةَ، مثل صاحبِ الجنتين وعشيرته، وهو مثل سَلْمان وصُهَيب وخَباب، يقول: قال المؤمنُ للكافر: إنْ تَرَنِ أيها الرجلُ أنا أقلَّ منكَ مالاً وولداً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ المؤمنِ الموقنِ للمعادِ إلى الله للكافرِ المرتابِ في قيام الساعة: إنْ تَرَنِ أيها الرجلُ أنا أقلَّ منكَ مالاً وولداً في الدنيا، فعسى ربي أنْ يرزقني خيراً من بستانك هذا «وَيُرْسِلَ عَلَيْها»، يعني على جنةِ الكافرِ التي قالَ لها: ما أظنُّ أنْ تبيدَ هذهِ أبداً، «حُسْباناً مِنَ السَّماءِ»، يقول: عذاباً من السماء تُرمَى به رمياً، وتقذف. والحُسْبان: جمع حُسْبانة، وهي المرامي.

وقوله: «فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً»، يقول عزَّ ذِكْرُه: فتصبح جنتك هذه أيها الرجلُ أرضاً ملساء لا شيءَ فيها قد ذهب كلُّ ما فيها من غَرْسٍ ونَبْتٍ، وعادت

خراباً بلاقعَ، زَلَقاً، لا يثبتُ في أرضها قَدَمٌ لامْلِسَاسِهَا، ودروسِ ما كانَ نابتاً فيها.

وقوله: «أَوْ يُصْبِحَ ماؤُها غَوْراً»، يقول: أو يُصبحَ ماؤها غائراً.

وقوله: «فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً»، يقول: فلن تُطِيقَ أنْ تدركَ الماءَ الذي كان في جنتك بعد غَوْرِه، بطلبك إياه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأحاطَ الهلاكُ والجوائحُ بثمرِه، وهي صنوف ثمار جنته التي كان يقول لها: «ماأَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً» فأصبح هذا الكافرُ صاحبُ هاتين الجنتين، يُقَلِّبُ كفَّيه ظهراً لبطن، تلهفاً وأسفاً على ذهابِ نفقته التي أنفق في جنته «وَهِيَ خاوِيَةٌ على عُرُوشِها»، يقول: وهي خالية على نباتها وبيوتها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولم يكن لصاحبِ هاتين الجنتين فِئَةٌ، وهم الجماعة.

وقوله: «يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ»، يقول: يمنعونَهُ من عقابِ الله وعذاب الله إذا عاقبه وعذَّبَهُ.

وقوله: «ومَا كانَ مُنْتَصِراً»، يقول: ولم يكن ممتنعاً من عذابِ الله إذا عذّبه.

وقوله: «هُنالكَ الوَلايَةُ للهِ الحَقِّ»، يقول عزّ ذِكْرُه: ثم وذلك حين حلّ عذابُ الله بصاحب الجنتين في القيامة.

واختلفت القرأةُ في قراءة قوله: الولاية، فقرأ بعض أهل المدينة والبصرة والكوفة: «هُنالكَ الوَلايَةُ» بفتح الواو من الولاية، يعنون بذلك هنالك المُوالاة لله، كقولِ الله: «اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا»، وكقوله: «ذلكَ بأنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا» يذهبون بها إلى الوَلاية في الدين.

وقرأ ذلك عامّة قرّاء الكوفة «هُنالِكَ الوِلايَةُ» بكسر الواو: من المُلْك والسلطان، من قول القائل: وَلِيتُ عملَ كذا، أو بلدة كذا ألِيه وِلايةً.

وأولى القراءتين في ذلك بالصواب، قراءة من قرأ بكسرِ الواو، وذلك أنَّ الله عَقَّبَ ذلك خبرَهُ عن مُلكِه وسلطانه، وأنَّ مَنْ أحلَّ به نقمته يومَ القيامة فلا ناصرَ له يومئذٍ، فإتباعُ ذلك الخبر عن انفراده بالمملكة والسلطان أوْلى من الخبر عن الموالاةِ التي لم يجرِ لها ذِكْرٌ ولا معنى، لقول من قال: لا يُسَمَّى سلطانُ الله ولاية، وإنما يُسَمَّى ذلك سلطانُ البشر، لأنَّ الوِلاية معناها أنه يلي أمرَ خَلْقِه منفرداً به دونَ جميع خلقه، لا أنه يكون أميراً عليهم.

وقوله: «هُوَ خَيْرٌ ثَواباً»، يقول عز ذكره: خير للمنيبيّن في العاجل والآجل ثواباً. «وخَيْرٌ عُقْباً»، يقول: وخيرُهم عاقبةً في الآجلِ إذا صار إليه المطيعُ له، العاملُ بما أمره الله، والمنتهي عما نهاه الله عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾

يقـول عزّ ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: واضْرِبْ لحياةِ هؤلاء المستكبرينَ[1] ـ الذين قالوا لك: اطرد عنكَ هؤلاء الذين يَدْعُونَ ربهم بالغداةِ والعشيِّ، إذا نحن جئناكَ ـ الدُّنيا منهم «مثلًا»، يقول: شبهاً. «كمَاءٍ أنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ»، يقول: كمطر أنزلناه من السماء. «فاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الأرْضِ»، يقول: فاختلط بالماء نباتُ الأرضِ. «فأصْبَحَ هَشِيماً»، يقول: فأصبح نباتُ الأرضِ يابساً متفتتاً. «تَذْرُوهُ الرِّياحُ»، يقول: تطيره الرياح وتُفَرِّقُه.

وقوله: «وكانَ اللهُ على كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً»، يقول: وكان الله على تخريب جنةِ هذا القائلِ حين دخل جنته: «ما أظُنُّ أنْ تَبيدَ هَذِهِ أبَداً، ومَا أظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَـةً»، وإهـلاك أمـوالِ ذي الأمْوالِ الباخلينَ بها عن حقوقها، وإزالة دنيا الكافرين به عنهم، وغير ذلك مما يشاءُ قادرٌ، لا يعجزهُ شيءٌ أراده. ولا يُعْيِيهِ أمرٌ أراده. يقول: فلا يَفْخَرْ ذُو الأموالِ بكثرةِ أمواله، ولا يستكبرْ على غيرِه بها، ولا يغترنَّ أهلُ الدنيا بدنياهم، فإنما مَثَلُها مثل هذا النباتِ الذي حَسُنَ استواؤه بالمطر، فلم يكنْ إلا رَيْثَ أن انقطعَ عنه الماءُ، فتناهى نهايته، عاد يابساً تَذْرُوه الرياحُ، فاسداً، تَنْبُو عنه أعينُ الناظرين، ولكن ليعملْ للباقي الذي لا يفنى، والدائمِ الذي لا يَبيد ولا يتغير.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ۝٤٦﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: المـالُ والبنون أيها الناسُ، التي يَفْخَرُ بها عيينة والأقرع، ويتكبرانِ بها على سلمان وخباب وصهيب، مما يُتَزَيَّنُ به في الحياة

(١) سياق العبارة: اضرب لحياة هؤلاء المستكبرين مثلًا: الدنيا، يعني حال الدنيا.

الدنيا، وليسا من عِدَادِ الآخرة. «والباقياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً»، يقول: وما يعملُ سلمان وخباب وصهيب من طاعة الله، ودعائهم رَبَّهم بالغَداةِ والعشيِّ يريدون وجهه، الباقي لهم من الأعمالِ الصالحة بعد فناء الحياة الدنيا، خيرٌ يا محمدُ عند ربك ثواباً من المالِ والبنين التي يفتخر هؤلاء المشركون بها، التي تفنى، فلا تبقى لأهلها. «وخَيْرٌ أمَلاً»، يقول: وما يُؤَمِّلُ من ذلك سلمان وصهيب وخباب، خيرٌ مما يؤملُ عيينة والأقرع من أموالهما وأولادهما. وهذه الآياتُ من لَدُنْ قوله: «وَاتْلُ ما أُوحيَ إلَيْكَ مِنْ كتابِ رَبِّكَ» إلى هذا الموضع، ذُكِرَ أنها نزلتْ في عيينة والأقرع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾

يقول تعالى ذكره: «وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجِبالَ» عن الأرضِ، فَنبسُّها بَسًّا، ونجعلها هباءً مُنْبَثّاً. «وَتَرَى الأرْضَ بارِزَةً» ظاهرةً، وظهورها لرأي أعينِ الناظرينَ من غير شيءٍ يسترها من جبلٍ ولا شجرٍ هو بُروزُهَا.

وقوله: «وَحَشَرْناهُمْ»، يقول: جمعناهم إلى موقف الحساب. «فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أحَداً»، يقول: فلم نترك، ولم نُبْقِ منهم تحتَ الأرض أحداً.

وقوله: «وَعُرِضُوا عَلى رَبِّكَ صَفًّا»، يقول عَزَّ ذِكْرُه: وعُرِضَ الخَلْقُ على ربك يا محمدُ صفاً. «لَقَدْ جِئْتُمُونا كَمَا خَلَقْناكُمْ أوَّلَ مَرَّةٍ»، يقول عزّ ذِكْرُه: يقال لهم إذ عُرِضُوا على الله: لقد جئتمونا أيها الناسُ أحياء كهيئتكم حين خلقناكم أوَّلَ مرَّةٍ، وحذف (يقالُ) من الكلام لمعرفةِ السامعينَ بأنه مُرَادٌ في الكلام.

وقوله: «بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً»، وهذا الكلامُ خرجَ مخرجَ الخبرِ عن خطابِ الله به الجميعَ، والمرادُ منه الخصوص، وذلك أنه قد يَرِدُ القيامةَ خَلْقٌ من الأنبياء والرسل، والمؤمنينَ بالله ورسله وبالبعث. ومعلوم أنه لا يُقال يومئذٍ لمن وردها من أهلِ التصديقِ بوعدِ الله في الدنيا، وأهلِ اليقين فيها بقيامِ الساعة، بَلْ زعمتم أن لن نجعلَ لكم البعثَ بعد المماتِ، والحشر إلى القيامة موعداً، وأنَّ ذلك إنما يُقالُ لمن كان في الدنيا مُكَذِّباً بالبعثِ وقيامِ الساعة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

يقول عزّ ذِكْرُه: ووضع الله يومئذٍ كتابَ أعمالِ عبادِه في أيديهم، فأخذ واحد بيمينه وأخذ واحد بشماله. «فَتَرَى المُجْرِمينَ مُشْفقينَ مِمَّا فيهِ»، يقول عزّ ذكره: فترى المجرمينَ المشركينَ بالله مشفقين: يقول: خائفينَ وَجِلينَ مما فيه مكتوبٌ من أعمالهم السيئة التي عملوها في الدنيا أن يُؤاخَذُوا بها. «وَيَقُولُونَ ياوَيْلَتَنا ما لِهَذَا الكتابِ لا يُغادِرُ صَغيرَةً وَلا كَبيرَةً إلاَّ أحْصَاها»، يعني أنهم يقولون إذا قرءوا كتابهم، ورأوا ما قد كُتِبَ عليهم فيه من صغائرِ ذنوبهم وكبائرها، نادوا بالويلِ حين أيقنوا بعذابِ الله، وضَجُّوا مما قد عرفوا من أفعالهم الخبيثة التي قد أحصاها كتابهم، ولم يقدروا أن ينكروا صحتها.

ويعني بقوله: «ما لِهَذَا الكتابِ»، ما شأنُ هذا الكتاب «لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً»، يقول: لا يبقي صغيرةً من ذنوبنا وأعمالنا ولا كبيرةً منها. «إلاَّ أحْصَاهَا»، يقول: إلا حفظها، «وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا» في الدنيا من عملٍ

«حاضِرًا» في كتابهم ذلك مكتوباً مثبتاً، فَجُوزُوا بالسيئة مثلها، والحسنة ما الله جازيهم بها. «وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحداً»، يقول: ولا يجازي ربك أحداً يا محمدُ بغيرِ ماهو أهلُه، لا يجازي بالإحسانِ إلا أهلَ الإِحسانِ، ولا بالسيئةِ إلا أهلَ السيئةِ، وذلك هو العدلُ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ۝٥٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مُذَكِّراً هؤلاء المشركينَ حَسَدَ إبليسَ أباهم ومُعَلِّمَهُمْ ما كانَ منه من كِبْرِهِ واستكبارِهِ عليه حين أمره بالسجودِ له، وأنه من العداوةِ والحسد لهم على مِثْلِ الذي كان عليه لأبيهم: «وَ» اذكُرْ يا محمدُ «إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ» الذي يطيعه هؤلاء المشركون، ويتبعون أمره، ويخالفونَ أمرَ الله، فإنه لم يسجد له استكباراً على الله، وحَسَداً لآدم «كانَ مِنَ الجِنِّ».

واختلف أهلُ التأويل في معنى قوله: «كانَ مِنَ الجِنِّ»، فقال بعضهم: إنه كان من قبيلة يقال لهم الجنّ.

وقال آخرون: بل كان من خُزَّانِ الجنة، فنُسب إلى الجنة.

وقال آخرون: بل قيل من الجنّ، لأنه من الجنّ الذين استجنوا عن أعينِ بني آدم.

وقال آخرون: هم سبطٌ من الملائكة قبيلة، وكان اسم قبيلته الجن.

وقال آخرون: كان اسم قبيلة إبليس الجن.

وقوله: «ففسق عن أمرِ رَبِّه»، يقول: فخرج عن أمرِ ربه، وعَدَل عنه ومال.

وقوله: «أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُوني وَهُمْ لَكُمْ عَدُوّ»، يقول تعالى ذكره: أَفَتُوالُونَ يا بني آدمَ مَنِ اسْتكبرَ على أبيكم وحسده، وكَفَرَ نعمتي عليه، وغَرَّهُ حتى أخرجه من الجنةِ ونعيمِ عَيْشِه فيها إلى الأرض وضيقِ العيش فيها، وتطيعونه وذرِّيَتَهُ من دونِ الله مع عداوتِه لكم قديماً وحديثاً، وتتركون طاعةَ ربكم الذي أنعم عليكم وأكرمكم، بأنْ أَسْجدَ لوالدكم ملائكتَهُ، وأسكنَهُ جناته، وآتاكم من فواضلِ نعمِه ما لا يُحصى عَدَدُه، وذرّيةُ إبليس: الشياطينُ الذين يغرّون بني آدم.

وقوله: «بِئْسَ للظَّالِمِينَ بَدَلاً»، يقول عزَّ ذِكْرُه: بئسَ البدلُ للكافرين باللهِ اتخاذ إبليس وذرِّيته أولياءَ من دونِ الله، وهُمْ لكم عدوٌّ من تركهم اتخاذَ اللهِ ولياً باتباعهم أمره ونهيه، وهو المنعمُ عليهم وعلى أبيهم آدم من قبلهم، المتفضِّلُ عليهم من الفواضلِ مالا يُحْصَى بدلاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ۝٥١﴾

يقول عزّ ذكره: ما أشهدتُ إبليسَ وذرّيته «خَلْقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ»، يقول: ما أحضرتهم ذلك فأستعين بهم على خلقها. «وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ»، يقول: ولا أشهدتُ بعضَهم أيضاً خَلْقَ بعضٍ منهم، فأستعين به على خلقه، بل تفرّدتُ بخلقِ جميع ذلك بغيرِ مُعينٍ ولا ظهير، يقول: فكيف اتخذوا عدوَّهم أولياءَ من دوني، وهم خَلْقٌ من خَلْقٍ أمثالهم، وتركوا عبادتي وأنا المنعمُ عليهم وعلى أسلافِهم، وخالقهم وخالقُ مَنْ يُوالُونَهُ من دوني منفرداً بذلك من غير معين ولا ظهير.

وقوله: «وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ المُضِلِّينَ عَضُداً»، يقول: وما كنتُ مُتَّخِذَ مَنْ لا يهدي إلى الحقّ، ولكنه يُضِلُّ، فمن تَبِعَهُ يجورُ به عن قصدِ السبيلِ أعواناً وأنصاراً، وهو من قولهم: فلانٌ يعضدُ فلاناً إذا كان يقوِّيه ويعينه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

يقول عزّ ذكره: «وَيَوْمَ يَقُولُ» الله عزَّ ذِكْرُه للمشركينَ به الآلهة والآندادَ «نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ»، يقول لهم: ادعوا الذين كنتم تزعمونَ أنهم شركائي في العبادة لينصروكم ويمنعوكم مني. «فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ»، يقول: فاستغاثوا بهم فلم يغيثوهم.

«وجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً»؛ فاختلف أهلُ التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: معناه: وجعلنا بين هؤلاء المشركين وما كانوا يدعون من دون الله شركاء في الدنيا يومئذ عداوةً.

وقال آخرون: معناه: وجعلنا فعلهم ذلك لهم مَهْلِكاً.

وقال آخرون: هو اسم وادٍ في جهنم.

وأَوْلى الأقوال في ذلك بالصواب، القولُ الذي قيل في تأويل الموبق: أنه المهلك، وذلك أن العرب تقولُ في كلامها: قد أوبقتُ فلاناً: إذا أهلكته. ومنه قول الله عزّ وجلّ: «أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا»، بمعنى: يُهْلِكْهُنَّ. ويقالُ للمهلك نفسه: قد وبق فلان فهو يوبق وبقاً.

وقوله: «ورَأَى المُجْرِمُونَ النَّارَ»، يقول: وعاينَ المشركون النارَ يومئذٍ

«فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوها»، يقول: فعلموا أنهم داخلوها.

وقوله: «ولَمْ يَجِدُوا عَنْها مَصْرِفاً»، يقول: ولم يجدوا عن النارِ التي رأوا معدلاً يعدلونَ عنها إليه، يقول: لم يجدوا من مُواقَعتها بُدّاً، لأنَّ الله قد حتم عليهم ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ۝٥٤﴾

يقول عزَّ ذكره: ولقد مَثَّلْنا في هذا القرآنِ للناسِ من كلِّ مَثَلٍ، ووعظناهم فيه من كلِّ عِظةٍ، واحتججنا عليهم فيه بكلِّ حجةٍ ليتذكَّروا فينيبوا، ويعتبروا فَيَتَّعِظُوا، وينزجروا عما هم عليه مُقيمونَ من الشركِ باللهِ وعبادةِ الأوثانِ. «وكانَ الإنْسانُ أكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً»، يقول: وكان الإنسانُ أكثرَ شيءٍ مِراء وخُصومةً، لا ينيب لحقٍّ، ولا ينزجر لموعظة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ۝٥٥﴾

يقول عزَّ ذِكْرُه: وما مَنَعَ هؤلاء المشركينَ يا محمدُ الإيمانَ بالله إذ جاءهم الهدى بيان الله، وعلموا صحةَ ما تَدْعُوهم إليه وحقيقته، والاستغفارَ مما هُمْ عليه مقيمونَ من شِرْكهم، إلا مجيئهم سُنَّتنا في أمثالهم من الأممِ المكذبة رُسُلَها قبلهم، أو إتيانهم العذابَ قُبُلاً.

واختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معناه: أو يأتيهم العذابُ فجأة.

وقال آخرون: معناه: أو يأتيهم العذاب عياناً.

وقد اختلف القرأةُ في قراءة ذلك، فقرأته جماعة ذات عدد: أو يأتيهم العذاب قُبُلًا، بضمِّ القاف والباء، بمعنى أنه يأتيهم من العذاب ألوانٌ وضروبٌ، ووجهوا القبل إلى جمع قبيل، كما يجمع القتيل القُتُل، والجديد الجُدُد. وقرأته جماعة أخرى: أو يأتيهم العذاب قِبَلًا بكسر القاف وفتح الباء، بمعنى: أو يأتيهم العذاب عياناً من قولهم: كلمته قبلًا، وقد بينتُ القول في ذلك في سورة الأنعام بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾

يقول عزَّ ذِكْرُه: وما نرسلُ رُسُلَنَا إلا ليبشروا أهلَ الإيمانِ والتصديقِ بالله بجزيلِ ثوابـهِ في الآخرة، ولينذروا أهلَ الكفرِ به والتكذيب، عظيمَ عقابهِ، وأليم عذابـهِ، فينتهـوا عن الشـركِ بالله، وينـزجروا عن الكفرِ به ومعاصيه. «ويُجـادلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بالباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الحَقّ»، يقول: ويخاصم الذين كَذَّبُوا باللهِ ورسوله بالباطلِ، ذلك كقولهم للنبيِّ ﷺ: أخبرنا عن حديثِ فتيةٍ ذهبوا في أوّل الدهر لم يدر ما شأنهم، وعن الرجل الذي بلغَ مشارقَ الأرضِ ومغاربها، وعن الروحِ وما أشبه ذلك مما كانوا يخاصمُونَهُ به، يبتغون إسقاطه، تعنيتاً له ﷺ، فقال الله لهم: إنا لسنا نبعث إليكم رسلنا للجدال والخصومات، وإنما نبعثهم مُبَشِّرينَ أهلَ الإيمانِ بالجنة، ومنذرينَ أهلَ الكفرِ بالنار، وأنتم تجادلونهم بالباطلِ طلباً منكم بذلك أنْ تُبطِلُوا الحقَّ الذي جاءكم به رسولي، وعَنَى بقوله: «لِيُدْحِضُوا بِهِ الحَقَّ» ليبطلوا به الحقَّ ويُزيلوه ويذهبوا به، يقال

منه: دحض الشيء: إذا زال وذهب، ويقال: هذا مكان دَحْضٌ: أي مُزِل مُزْلِق لا يثبتُ فيه خفٌّ ولا حافرٌ ولا قدم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ۝٥٧﴾

وقوله: (واتَّخَذُوا آياتِي وَما أُنْذِرُوا هُزُواً) يقول: واتخذ الكافرون بالله حججه التي احتجّ بها عليهم، وكتابه الذي أنزله إليهم. والنذر التي أنذرهم بها سخرياً يسخرون بها، يقولون: «إنْ هَذَا إلَّا أساطيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبها، فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأصِيلاً» و«لَوْ شِئْنَا لَقُلْنا مِثْلَ هَذَا».

القول فِي تأويلِ قولِهِ تعالى: ونسى ما قدمت يداه إنا جعلنا على قلوبهم أكنة ان يفقهوه وفي آذانهم وقراً وان تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً(٥٧)

يقول عَزَّ ذِكْرُهُ: وأيّ الناس أوضع للإعراض والصدّ في غير موضعهما ممن ذكره بآياته وحججه، فدله بها على سبيل الرشاد، وهداه بها إلى طريق النجاة، فأعرض عن آياته وأدلته التي في استدلاله بها الوصول إلى الخلاص من الهلاك «وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ». يقول: ونسي ما أسلف من الذنوب المهلكة فلم يتب، ولم ينب.

وقوله : «إنَّا جَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أكِنَّةً أنْ يَفْقَهُوهُ، وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً» يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنا جعلنا على قلوب هؤلاء الذين يعرضون عن آيات الله إذا ذكروا بها أغطية لئلا يفقهوه: لأن المعنى أن يفقهوا ما ذكروا به. وقوله: «وفي آذانِهِمْ وَقْراً) يقول: في آذانهم ثقلاً لئلا يسمعوه (وَإنْ تَدْعُهُمْ إلى الهُدَى) يقول عزَّ

ذِكْرُهُ لنبيه محمد ﷺ: وَإِنْ تَدْعُ يا مُحَمَّدُ هؤلاء المعرضين عن آيات الله عند التذكير بها إلى الاستقامة على محجة الحقّ والإيمان بالله، وما جئتهم به من عند ربك «فَلَنْ يَهْتَدُوا إذاً أبَداً» يقول: فلن يستقيموا إذاً أبداً على الحقّ، ولن يؤمنوا بما دعوتهم إليه، لأن الله قد طبع على قلوبهم، وسمعهم وأبصارهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ۝٥٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ: ﷺ ورَبُّكَ الساترُ يا محمدُ على ذنوبِ عباده بعفوه عنهم إذا تابوا منهم. «ذُو الرَّحمَةِ» بِهِمْ، «لَوْ يُؤاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا» هؤلاء المعرضينَ عن آياتهِ إذا ذكروا بها بما كسبوا من الذنوبِ والآثامِ، «لَعَجَّلَ لَهُمُ العَذَابَ»، ولكنه لرحمته بخلقه غير فاعلٍ ذلك بهم إلى ميقاتهم وآجالهم، «بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ»، يقول: لكنْ لهم موعدٌ، وذلك ميقات محلِّ عذابهم، وهو يوم بدر. «لَنْ يَجِـدُوا مِنْ دُونِـهِ مَوْئِـلاً»، يقول تعالى ذكره: لن يجدَ هؤلاء المشركون، وإنْ لم يُعجلْ لهم العذاب في الدنيا من دونِ الموعدِ الذي جعلته ميقاتاً لعذابهم، ملجـأً يلجئونَ إليه، ومنجى ينجون معه، يعني أنهم لا يجدون معقلاً يعتقلونَ به من عذابِ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ۝٥٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وتلك القُرى من عاد وثمود وأصحاب الأيكةِ أهلكنا

أهلها لما ظَلَمُوا، فكفروا بالله وآياته، «وَجَعَلْنا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً»، يعني ميقاتاً وأجلاً، حين بلغوه جاءهم عذاب فأهلكناهم به، يقول: فكذلك جعلنا لهؤلاء المشركينَ من قومكَ يا محمدُ الذين لا يؤمنون بك أبداً موعداً، إذا جاءهم ذلك الموعدُ أهلكناهم سُنَّتَنا في الذين خَلَوْا من قَبْلِهم من ضربائهم.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: «لِمَهْلِكِهِمْ» فقرأ ذلك عامَّة قَرَأَةِ الحجاز والعراق: «لِمُهْلَكِهِمْ» بضمِّ الميمِ وفتحِ اللام على توجيهِ ذلك إلى أنه مصدرٌ مِنْ أهلكوا إهلاكاً. وقرأه عاصم: «لِمَهْلَكِهِمْ» بفتح الميم واللام على توجيهه إلى المصدر من هلكوا هلاكاً ومهلكاً.

وأَوْلى القراءتين بالصواب عندي في ذلك قراءةِ من قرأه «لمُهْلَكِهِمْ» بضمّ الميم وفتح اللام لإجماعِ الحجةِ من القرّاء عليه، واستدلالاً بقوله: «وَتِلْكَ القُرَى أَهْلَكْناهُمْ» فأنْ يكونَ المصدر من أهلكنا، إذ كان قد تقدَّمَ قبله أولى. وقيل: أهلكناهم، وقد قال قبل: «وتَلْكَ القُرَى»، لأنَّ الهلاك إنما حَلَّ بأهلِ القرى، فعاد إلى المعنى، وأجرى الكلام عليه دون اللفظ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾

يقول عزّ ذكره لنبيه ﷺ: واذكر يا محمدُ إذْ قال موسى بن عمران لفتاهُ يوشع: «لا أَبْرَحُ» يقول: لا أزالُ أسير «حتى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ».

وقيل: عَنَى بقوله: «مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ» اجتماعَ بحرِ فارس والروم، والمجمع: مصدر من قولهم: جمع يجمع.

وقوله: «أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً»، يقول: أو أسير زماناً ودهراً وهو واحد، ويجمع كثيره وقليله: أحقاب، وقد تقول العرب: كنت عنده حقبةً من الدهر،

ويجمعونها حُقباً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾

يعني تعالى ذكره: فلما بلغ موسى وفتاه مجمعَ البحرين.

وقوله: «نَسيا حُوتَهُما» يعني بقوله: نسيا: تركا.

وأما قوله: «يَخْرُجُ مِنْهُما اللُّؤْلُؤ والمَرْجانُ»، فإنَّ القولَ في ذلك عندنا بخلافِ ما قال فيه، وسنبينه إنْ شاء الله تعالى إذا انتهينا إليه.

وأما قوله: «فاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي البَحْرِ سَرَباً»، فإنه يعني أن الحوت اتخذ طريقه الذي سلكه في البحر سرباً. ويعني بالسرب: المسلك والمذهب، يسرب فيه: يذهب فيه ويسلكه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾

يقول تعالى ذكره: «فلما جاوز» موسى وفتاه مجمعَ البحرين، «قال» موسى «لفتاه» يوشع «آتِنا غَدَاءَنا»، يقول: جئنا بغدائنا وأعْطِنَاهُ، وقال: آتنا غداءنا، كما يقال: أتى الغداء وأتيته، مثل ذهب وأذهبته، «لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هَذَا نَصَبا»، يقول: لقد لقينا من سفرنا هذا عناء وتعباً، وقال ذلك موسى، فيما ذُكر، بعد ما جاوز الصخرةَ، حين ألقى عليه الجوع ليتذكر الحوتَ، ويرجع إلى موضع مطلبه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي

﴿نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال فتى موسى لموسى حين قالَ له: آتنا غداءنا لنطعمَ: أرأيتَ إذْ أوينا إلى الصخرةِ فإني نسيتُ الحوتَ هنالك. «ومَا أنْسانيهُ إلاَّ الشَّيْطانُ»، يقول: وما أنساني الحوتَ إلا الشيطانُ «أنْ أذْكُرَهُ» فأنْ في موضعِ نصب ردّاً على الحوتِ، لأن معنى الكلام: وما أنساني أنْ أذكرَ الحوتَ إلا الشيطان سبق الحوت إلى الفعل، وردَّ عليه قوله: «أنْ أذْكُرَهُ»، وقد ذكر أن ذلك في مصحف عبدالله: وما أنسانيه أنْ أذكرَهُ إلا الشيطانُ.

وقوله: «واتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي البَحْرِ عَجَباً»، يعني: كان سَرَبُ الحوتِ في البحر لموسى عَجَباً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾

يقول تعالى ذكره: فـ «قال» موسى لفتاه «ذلكَ» يعني بذلك: نسيانك الحوت «ما كُنَّا نَبْغِ»، يقول: الذي كنا نلتمسُ ونطلبُ، لأنَّ موسى كان قيل له: صاحبك الذي تريده حيث تنسى الحوت.

وقوله: «فارْتَدَّا على آثارِهما قَصَصاً»، يقول: فرجعا في الطريق الذي كانا قطعاه ناكصين على أدبارهما يقصَّان آثارهما التي كانا سلكاها.

وقوله: «فَوَجَدَا عَبْداً منْ عبادِنا آتَيْناه رحْمَةً مِنْ عِنْدِنا»، يقول: وهبنا له رحمةً من عندنا. «وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً»، يقول: وعَلَّمناه من عندنا أيضاً

علماً.

وكان سببُ سفرِ موسى ﷺ وفتاه، ولقائه هذا العالِمَ الذي ذَكَرَهُ اللهُ في هذا الموضع فيما ذُكِرَ، أنَّ موسى سُئِلَ، هل في الأرض أحدٌ أعلمُ منك؟ فقال: لا، أو حدَّثَتْهُ نفسُه بذلك، فكره ذلكَ له، فأرادَ اللهُ تعريفَهُ أنَّ مِنْ عبادِهِ في الأرضِ مَنْ هو أعلم منه، وأنه لم يكن له أن يحتم على مالا عِلْمَ له به، ولكن كان ينبغي له أن يَكِلَ ذلك إلى عالِمِهِ.

وقال آخرون: بل كان سبب ذلك أنه سألَ اللهَ جلّ ثناؤه أنْ يدله على عالمٍ يزدادُ مِنْ عِلْمِه إلى علمِ نفسه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾﴾

يقول تعالى ذكره: قال موسى للعالم: «هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلى أنْ تَعَلِّمَن» من العلم الذي علمك الله ماهو رشادٌ إلى الحقِّ، ودليلٌ على هدى؟ «قالَ إنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعَي صَبْراً»، يقول تعالى ذكره: قال العالم: إنك لن تطيق الصبر معي، وذلك أني أعملُ بباطنِ علمٍ عَلَّمَنِيه اللهُ، ولا عِلْمَ لك إلا بالظاهرِ من الأمورِ، فلا تصبر على ماترى من الأفعال.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾

يقول عزّ ذِكْرُه مخبراً عن قولِ العالمِ لموسى: وكيف تصبر يا موسى على ما تَرَى مني من الأفعالِ التي لا علمَ لكَ بوجوهِ صوابها، وتقيم معي عليها، وأنتَ إنما تحكمُ على صوابِ المصيب وخطأ المخطىءِ بالظاهرِ الذي عندكَ،

وبمبلغ عِلْمكَ وأفعالي تقعُ بغير دليلٍ ظاهرٍ لرأي عينك على صوابها، لأنها تُبتدأ لأسباب تحدث آجلة غير عاجلة، لا علمَ لك بالحادث عنها، لأنها غيبٌ، ولا تحيط بعلم الغيب خبراً يقول علماً، قال: «سَتَجِدُنِي إنْ شاءَ اللهُ صَابِراً» على ما أرى منكَ وإنْ كان خلافاً لما هو عندي صوابٌ. «وَلا أعْصِي لَكَ أمْراً»، يقول: وأنتهي إلى ما تأمرني، وإنْ لم يكن موافقاً هوايَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۝٧٠﴾

يقول تبارك وتعالى: قال العالم لموسى: فإن اتبعتني الآن فلا تسألني عن شيءٍ أعمله مما تستنكرهُ، فإني قد أعلمتكَ أني أعملُ العملَ على الغيبِ الذي لا تحيطُ به علماً. «حتى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً»، يقول: حتى أحدث أنا لكَ مما ترى من الأفعالِ التي أفعلها التي تستنكرها أذكرها لكَ وأُبيِّن لك شأنها، وأبتدئكَ الخبرَ عنها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ۝٧١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فانطلق موسى والعالمُ يسيران يطلبان سفينةً يركبانها، حتى إذا أصاباها ركبا في السفينة، فلما ركباها، خرقَ العالمُ السفينةَ، قال له موسى: أخرقتها بعد مالَججنا في البحر. «لِتُغْرِقَ أهْلَها لَقَدْ جِئْتَ شَيْئا إمْراً»، يقول: لقد جئتَ شيئاً عظيماً، وفعلتَ فعلاً مُنكراً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٧٢﴾

قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾

يقول عزّ ذِكْرُه: «قَالَ» العالمُ لموسى إذ قالَ له ما قالَ: «أَلَمْ أَقُل إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً» على ماترى من أفعالي، لأنك ترى ما لم تُحِطْ به خبراً، قال له موسى: «لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ»، فاختلفَ أهلُ التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: كان هذا الكلام من موسى عليه السلام للعالِم معارضةً، لا أنه كان نسيَ عهده، وما كان تقدَّمَ فيه حين استصحبه بقوله: «فإنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسألْنِي عَنْ شَيْءٍ حتى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً».

وقال آخرون: بل معنى ذلك: لا تؤاخذني بتركي عهدكَ، ووجه أنَّ معنى النسيان: الترك.

والصوابُ من القول في ذلك أن يقال: إنَّ موسى سأل صاحبه أنْ لا يؤاخذَهُ بما نسِيَ فيه عَهْدَهُ من سؤالِهِ إياهُ على وجهِ ما فعلَ وسببِهِ لا بما سألَهُ عنـه، وهو لعهده ذاكرٌ، للصحيحِ عن رسولِ الله ﷺ، بأنَّ ذلك معناه من الخبرِ، عن أبيٍّ بن كعب، عن رسولِ الله ﷺ: «لا تُؤاخِذْني بِمَا نَسِيتُ» قال: كانَتِ الأُولى مِنْ مُوسَى نِسْياناً.

وقوله: «ولا تُرْهِقْنِي مِنْ أمْرِي عُسْراً» يقول: لا تُغْشِني من أمري عسراً، يقول: لا تُضَيِّقْ عليَّ أمري معكَ، وصحبتي إياك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله» العالِمُ، فـ«قال» له موسى: «أقتلتَ نفساً زكية».

واختلفت القَرَأة في قراءة ذلك، فقرأته عامة قَرَأةِ الحجاز والبصرة: «أقَتَلْتَ نَفْسا زَاكِيَةً» وقالوا معنى ذلك: المطهرة التي لا ذنبَ لها، ولم تذنبْ قَطُّ لصغرها. وقرأ ذلك عامة قَرَأةِ أهلِ الكوفة «نَفْساًزَكِيَّةً» بمعنى: التائبة المغفور لها ذنوبها.

وكان بعضُ أهل العلم بكلامِ العربِ من أهلِ الكوفة يقول: معنى الزكية والزاكية واحدٌ، كالقاسية والقسية: ويقول: هي التي لم تجن شيئاً وذلك هو الصواب عندي لأني لم أجدْ فرقاً بينهما في شيء من كلام العرب.

فإذا كان ذلك كذلك، فبأيِّ القراءتين قرأ ذلك القارئُ فمصيبٌ، لأنهما قراءتان مستفيضتان في قرأة الأمصار بمعنى واحد.

وقوله: «بِغَيْرِ نَفْسٍ»، يقول: بغير قصاص بنفس قتلت، فلزمها القتل قوداً بها.

وقوله: «لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً»، يقول: لقد جئت بشيء منكرٍ، وفعلتَ فعلاً غير معروف.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٧٥ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ۝٧٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال العالم لموسى: «أَلَمْ أَقُلْ لكَ إنَّكَ لَنْ تَسْتَطيعَ مَعِيَ صَبْراً» على ماترى من أفعالي التي لم تُحط بها خبراً، قال موسى له: «إنْ سألْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَها»، يقول: بعد هذه المرّةِ «فَلا تُصاحِبْني»، يقول: ففارقني، فلا تكنْ لي مُصاحباً. «قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنّي عُذْراً»، يقول: قد بلغتَ العذرَ في شأني.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ۝٧٧﴾

يقول تعالى ذكره: فانطلق موسى والعالمُ «حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا» من الطعام فلم يطعموهما واستضافاهم، «فَأَبَوْا أن يُضَيِّفُوهُما، فَوَجَدَا فِيهـا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ»، يقول: وجدا في القرية حائطاً يريد أنْ يسقطَ ويقعَ؛ يقال منه: انقضّتِ الدار: إذا انهدمت وسقطت.

وقوله: «فَأَقَامَهُ» ذكر عن ابن عباس أنه قال: هدمه ثم قعدَ يَبْنِيه.

وقال آخرون: رفع الجدار بيده فاستقام.

والصوابُ من القول في ذلك أن يُقال: إنَّ الله عزّ ذكره أخبرَ أنَّ صاحبَ موسى وموسى وَجَدا جداراً يريدُ أنْ ينقضَّ فأقامه صاحبُ موسى، بمعنى: عَدَل مَيلَهُ حتى عاد مستوياً. وجائزٌ أنْ يكون كان ذلك بإصلاحٍ بعدَ هدمٍ. وجائزٌ أن يكون كان برفعٍ منه له بيده، فاستوى بقدرةِ الله، وزالَ عنه مَيْلُه بلطفه، ولا دلالةَ من كتابِ الله ولا خبر للعذر قاطع بأيٍّ ذلك كانَ من أيٍّ.

وقوله: «قالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أجْراً»، يقول: قال موسى لصاحبه: لو شئتَ لم تقم لهؤلاء القوم جدارَهُمْ حتى يُعْطُوكَ على إقامتكَ أجراً، فقال بعضهم: إنما عَنَى موسى بالأجرِ الذي قال له: «لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أجْراً» القِرَى: أي حتى يَقْرُونا، فإنهم قد أبوا أن يُضَيِّفونا.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك العِوَض والجزاء على إقامتهِ الحائطَ المائلَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ

مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال صاحبُ موسى لموسى: هذا الذي قلته وهو قوله: «لَـوْ شِئْتَ لاتَّخَـذْتَ عَلَيْهِ أجراً». «فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ»، يقول: فرقةُ ما بيني وبينك: أي مفرق بيني وبينك. «سأُنَبِّئُكَ»، يقول: سأخبرك. «بِتَأْوِيلِ مالَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً»، يقول: بما يئول إليه عاقبة أفعالي التي فعلتها، فلم تستطع على ترك المسألة عنها، وعن النكيرِ عليَّ فيها صبراً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾

يقول: أما فِعْلي ما فعلتُ بالسفينةِ، فلأنها كانت لقومٍ مساكين «يَعْمَلُونَ فِي البَحْرِ فَأَرَدْتُ أنْ أعِيبَها» بالخَرق الذي خرقتها.

وقوله: «وكانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً» وكان أمامهم وقُدَّامهم ملك.

وقـوله: «يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً»، فيقول القائل: فما أغنى خَرْقُ هذا العالمِ السفينةَ التي ركبها عن أهلها، إذ كان من أجلِ خرقها يأخذُ السفن كلها، مَعِيبها وغير معيبها، وما كان وجه اعتلاله في خرقها بأنه خرقها، لأنَّ وراءهم ملك يأخذ كلَّ سفينةٍ غَصْباً؟ قيل: إنَّ معنى ذلك، أنه يأخذُ كل سفينةٍ صحيحـةٍ غصباً، ويَدَعُ منهـا كلَّ معيبـة، لا أنـه كان يأخذ صِحَاحَها وغيرَ صحاحها. فإن قال: وما الدليلُ على أن ذلك كذلك؟ قيل: قوله: «فَأَرَدْتُ أنْ أعِيبَهَا» فأبانَ بذلك أنه إنما عابها، لأنَّ المعيبة منها لا يعرض لها، فاكتفى بذلك من أن يقال: وكان وراءهم ملكٌ يأخذ كلَّ سفينةٍ صحيحة غصباً، على

أن ذلك في بعض القراءات كذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۝٨٠ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ۝٨١﴾**

يقول تعالى ذِكْرُه: وأما الغلامُ، فإنه كان كافراً، وكان أبواه مؤمنين، فعلمنا أنه يرهقهما: يقول يغشيهما طغياناً، وهو الاستكبارُ على الله، وكفراً به.

وقوله: «فَأَرَدنا أنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما» اختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك، فقرأه جماعة من قَرَأَةِ المكيين والمدنيين والبصريين: «فأرَدنا أنْ يُبَدِّلَهُما رَبُّهُما». وكان بعضهم يعتلُّ لصحةِ ذلك بأنه وجد ذلك مشدَّداً في عامَّة القرآن، كقول الله عزّ وجلَّ: «فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا»، وقوله: «وَإِذَا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ»، فألحق قوله: «فأرَدنا أنْ يُبَدِّلَهُما بِهِ». وقرأ ذلك عامَّة قَرَأَةِ الكوفة: «فأرَدنا أنْ يُبْدِلَهُما» بتخفيف الدال. وكان بعض مَنْ قرأ ذلك كذلك من أهل العربية يقول: أبدلَ يُبْدِل بالتخفيف وبدَّلَ يُبَدِّل بالتشديد بمعنى واحد.

والصوابُ من القول في ذلك عندي أنهما قراءتان متقاربتا المعنى، قد قرأ بكلٍّ واحدةٍ منهما جماعةٌ من القَرَأة، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب.

وقوله: «خَيْراً مِنْهُ زَكاةً» يقول: خيراً من الغلامِ الذي قتله صلاحاً وديناً.

وقوله: «وأقْرَبَ رُحْماً»، يعني بذلك: وأقرب رحمة بوالديه وأبرّ بهما من المقتول.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي**

﴿ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قولِ صاحبِ موسى: وأما الحائطُ الذي أقمته، فإنه كان لغلامين يتيمين في المدينة، وكان تحته كنزٌ لهما.

وقوله: «أبوهُما صَالِحاً، فأرَادَ رَبُّكَ أنْ يَبْلُغا أشُدَّهُما»، يقول: فأراد ربك أنْ يُدْرِكَا ويبلغا قُوَّتَهما وشِدَّتهما، ويستخرجا حينئذٍ كنزهما المكنوز تحتَ الجدارِ الذي أقمته رحمةً من ربك بهما، يقول: فعلت فعل هذا بالجدار رحمةً من ربكَ لليتيمين.

وقوله: «وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أمْرِي»، يقول: وما فعلت يا موسى جميع الذي رأيتني فعلتُه عن رأيي ومن تلقاء نفسي، وإنما فعلتُه عن أمرِ الله إياي به.

وقوله: «ذلِكَ تَأْوِيلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً»، يقول: هذا الذي ذكرتُ لك من الأسباب التي من أجلها فعلتُ الأفعالَ التي استنكرتَها مني، تأويل: يقول: ما تئول إليه وترجع، الأفعال التي لم تسطع على ترك مسألتك إيايَ عنها، وإنكارِكَ لها صبراً.

وهذه القصص التي أخبر الله عزَّ وجلّ نبيه محمداً ﷺ بها عن موسى وصاحبه، تأديبٌ منه له، وتقدُّمٌ إليه بتركِ الاستعجالِ بعقوبةِ المشركينَ الذين كَذَّبُوه واستهزءوا به وبكتابِه، وإعلامٌ منه له أنَّ أفعاله بهم وإنْ جَرَتْ فيما ترى الأعينُ بمـا قد يجري مثله أحياناً لأوليائه، فإنَّ تأويله صائرٌ بهم إلى أحوال أعدائهِ فيها، كما كانت أفعالُ صاحبِ موسى واقعة بخلافِ الصحةِ في الظاهر عند موسى إذْ لم يكن عالماً بعواقبها، وهي ماضيةٌ على الصحة في الحقيقة

وآئلةٌ إلى الصوابِ في العاقبة، ينبئُ عن صحة ذلك قولُه: «وَرَبُّكَ الغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُم العَذَابَ، بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً». ثم عَقَّبَ ذلك بقصة موسى وصاحبه، يُعْلِمُ نبيَّهُ أنَّ تَرْكَهُ جلّ جلاله تعجيلَ العذابِ لهؤلاء المشركين بغير نظرٍ منه لهم، وإنْ كان ذلك فيما يَحْسِب مَنْ لا عِلْمَ له بما اللهُ مُدَبِّرٌ فيهم نظراً منه لهم، لأنَّ تأويلَ ذلك صائرٌ إلى هلاكهم وبوارهم بالسيفِ في الدنيا واستحقاقهم من الله في الآخرة الخِزْيَ الدائم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعالَى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ: ويسألك يا محمدُ هؤلاء المشركون عن ذِي القرنين ما كان شأنُه، وما كانت قصتُه، فقل لهم: سأتلو عليكم من خبره ذكراً: يقول: سأقصُّ عليكم منه خبراً.

وقوله: «إنَّا مَكَّنا لَهُ فِي الأَرْضِ وآتَيْناهُ مِنْ كُلّ شَيْءٍ سَبَباً»، يقول: إنا وَطَّأْنَا له في الأرض. «وآتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً»، يقول: وآتيناه من كلّ شيء، يعني ما يتسبب إليه وهو العلم به.

وقـولـه: «فَأَتْبَعَ سَبَباً» اختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك، فقرأته عامة قَرَأَة المدينة والبصرة، فاتَّبَعَ بوصل الألف و تشديد التاء بمعنى: سَلَكَ وسارَ من قولِ القائل: اتَّبعت أثرَ فلان: إذا قَفَوْته؛ وسرت وراءه. وقرأ ذلك عامة قَرَأَةِ الكوفة «فَأَتْبَعَ» بهمز الألف وتخفيف التاء، بمعنى لحق.

وأولى القراءتين في ذلك بالصواب، قراءة من قرأه «فاتَّبَعَ» بوصل الألف

وتشديد التاء، لأنَّ ذلك خبر من الله تعالى ذِكْرُه عن مسيرِ ذي القرنين في الأرض التي مكن له فيها، لا عن لحاقه السبب، وبذلك جاء تأويلُ أهل التأويل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ۝٨٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «حتى إذَا بَلَغَ» ذو القرنين «مَغْرِبَ الشَّمْسِ وجَدَهَا تَغْرُبُ في عَيْنٍ حَمِئَةٍ»، فاختلفت القَرَأةُ في قراءة ذلك، فقرأه بعض قَرَأة المدينة والبصرة: «فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ» بمعنى: أنها تغربُ في عينِ ماءٍ ذاتِ حمأة، وقرأته جماعة من قرأةِ المدينة، وعامَّة قَرَأةِ الكوفة: «فِي عَيْنٍ حامِيَةٍ» يعني أنها تغرب في عين ماء حارّة.

والصوابُ من القول في ذلك عندي أنْ يقال: إنهما قراءتان مستفيضتان في قرأة الأمصار، ولكلٍّ واحدةٍ منهما وجهٌ صحيح ومعنى مفهوم، وكلا وجهيه غير مفسدٍ أحدهما صاحبَهُ، وذلك أنه جائزٌ أن تكونَ الشمسُ تغربُ في عين حارّة ذاتِ حمأة وطين، فيكون القارىء في عين حامية بصفتها التي هي لها، وهي الحرارة، ويكون القارىء في عين حمئة واصفها بصفتها التي هي بها وهي أنها ذات حمأة وطين.

وقوله: «وَوَجَدَ عِنْدَها قَوْماً» ذكر أنَّ أولئك القوم يقال لهم: ناسك. وقوله: «قُلْنا ياذَا القَرْنَيْنِ إمَّا أنْ تُعَذِّبَ»، يقول: إما أنْ تقتلهم إنْ هم لم يدخلوا في الإقرار بتوحيدِ الله، ويُذْعِنُوا لك بما تدعوهم إليه من طاعة ربهم. «وإمَّا أنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً»، يقول: وإما أنْ تأسرهم فتعلمهم الهدى وتبصرهم

الرشاد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨٧﴾

يقول جلّ ثناؤه: «قالَ أمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ»، يقول: أما مَنْ كفر فسوف نقتله.

وقوله: «ثُمَّ يُرَدُّ إلى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نكْراً»، يقول: ثم يرجع إلى الله تعالى بعد قتله، فيعذِّبهُ عذاباً عظيماً، وهو النكرُ، وذلك عذابُ جهنم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ۝٨٨﴾

يقول: وأما مَنْ صَدَّقَ الله منهم ووحَّده، وعملَ بطاعتهِ، فله عند الله الحسنى، وهي الجنة، جزاء يعني ثواباً على إيمانه، وطاعته ربه.

وقوله: «وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أمْرِنا يُسْراً»، يقول: وسنعلمه نحنُ في الدنيا ماتيسر لنا تعليمه مما يُقرِّبُهُ إلى الله ويلينُ له من القول.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۝٨٩ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ۝٩٠ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ۝٩١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ثم سارَ وسلكَ ذُو القرنين طرقاً ومنازلَ. «حتى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَطْلُعُ على قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِها سِتْراً» يقول

تعالى ذِكْرُه: ووجد ذُو القرنين الشمسَ تطلعُ على قومٍ لم تجعلْ لهم من دونها ستراً، وذلك أنَّ أرضهم لا جبلَ فيها ولا شجرَ، ولا تحتملُ بناء فيسكنوا البيوتَ، وإنما يغورون في المياه، أو يسربون في الأسراب.

وأما قوله: «كَذَلِكَ» فإن معناه: ثم أتبعَ سبباً كذلك حتى إذا بلغ مطلعَ الشمسِ؛ وكذلك من صلة أتبع. وإنما معنى الكلام: ثم أتبع سبباً حتى بلغ مطلعَ الشمس، كما أتبع سبباً حتى بلغ مغربها.

وقوله: «وَقَدْ أَحَطْنا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً»، يقول: وقد أحطنا بما عند مطلع الشمس علماً لا يخفى علينا مما هنالك من الخلقِ وأحوالهم وأسبابهم، ولا من غيرهم شيء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ثم سار طرقاً ومنازلَ، وسلكَ سبلاً «حَتَى إذَا بَلَغَ بينَ السَّدَّيْنِ».

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك، فقرأته عامة قرأةِ المدينة وبعض الكوفيين: «حتَّى إذَا بلَغ بينَ السُّدَّيْنِ»، بضمّ السين وكذلك جميع ما في القرآن من ذلك بضم السين. وكان بعض قرأةِ المكيين يقرؤه بفتح ذلك كله. وكان أبو عمرو ابن العلاء يفتح السين في هذه السورة، ويضمُّ السين في يسّ، ويقول: السَّد بالفتح: هو الحاجز بينك وبين الشيء؛ والسُّد بالضم: ما كان من غشاوة في العين. وأما الكوفيون فإن قراءَة عامتهم في جميع القرآن بفتح السين غير قوله: «حتى إذَا بَلَغَ بينَ السَّدَّيْنِ» فإنهم ضموا السين في ذلك خاصة.

ورُوي عن عكرمة في ذلك، أنه قال: ما كان من صنعة بني آدم فهو السَّدّ، يعني بالفتح، وما كان من صنع الله فهو السدّ. وكان الكسائي يقول: هما لغتان بمعنى واحد.

والصواب من القولِ في ذلك عندي أنْ يقالَ: إنهما قراءتان مستفيضتان في قرأةِ الأمصار، ولغتان متفقتا المعنى غير مختلفة، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيبٌ، ولا معنى للفرق الذي ذكر عن أبي عمرو بن العلاء، وعكرمة بين السُّد والسَّد، لأنا لم نجد لذلك شاهداً يبين عن فرقانِ ما بين ذلك على ماحكي عنهما. ومما يبين ذلك أنَّ جميعَ أهلِ التأويلِ الذي رُوي لنا عنهم في ذلك قولٌ، لم يُحْكَ لنا عن أحدٍ منهم تفصيل بين فتحِ ذلك وضَمِّه، ولو كانا مختلفي المعنى لنقل الفصل مع التأويل إنْ شاء الله، ولكن معنى ذلك كان عندهم غير مفترق، فيفسر الحرف بغير تفصيل منهم بين ذلك. وأما ما ذُكر عن عكرمةَ في ذلك. (فلا يثبت عنه). والسَّد والسُّد جميعاً: الحاجز بين الشيئين، وهما ههنا فيما ذُكر جبلان سُدَّ ما بينهما، فردم ذو القرنين حاجزاً بين يأجوج ومأجوج ومن وراءهم، ليقطع مادَّ غوائِلهم وعيثهم عنهم.

وقوله: «وَجَدَ مِنْ دُونِهِما قَوْماً لا يَكادُونَ يَفْقَهونَ قَوْلاً»، يقول عزّ ذكره: وجد من دون السدّينِ قوماً لا يكادون يفقهون قولَ قائلٍ سوى كلامهم.

وقوله: «إنَّ يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأرْضِ» اختلفت القَرَأة في قراءة قوله: «إنَّ يَأْجُوجَ ومأْجُوجَ»، فقرأت القَرَأة من أهلِ الحجازِ والعراق وغيرهم: «إنَّ ياجُوجَ وماجُوجَ» بغير همز على فاعول من يججت ومججت، وجعلوا الألفين فيهما زائدتين، غير عاصم بن أبي النجود والأعرج، فإنه ذكر أنهما قرآ ذلك بالهمز فيهما جميعاً، وجعلا الهمزَ فيهما من أصلِ الكلام، وكأنهما جعلا يأجوج: يفعول من أججت، ومأجوج: مفعول.

والقراءة التي هي القراءةُ الصحيحة عندنا، أن «ياجُوجَ وماجُوجَ» بألف بغير همز لإجماع الحجة من القرّاء عليه، وأنه الكلام المعروف على ألسن العرب.

وقوله: «مُفْسِدونَ في الأرض»، يعني بذلك: إنَّ يأجوجَ ومأجوج سيفسدونَ في الأرضِ، لا أنهم كانوا يومئذٍ يفسدون.

وقوله: «فَهَل نَجْعَل لَكَ خَرْجاً»، اختلفت القَرَأة في قراءة ذلك، فقرأته عامَّة قَرَأة المدينةِ والبصرة وبعض أهل الكوفة: «فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً» كأنهم نَحْوَاً به نَحو المصدرِ مِنْ خَرْجِ الرأس، وذلك جعله. وقرأته عامَّة قَرَأة الكوفيين: «فَهَلْ نَجْعَلُ لَك خَرَاجاً» بالألف، وكأنهم نحوا به نحو الاسم، وعنوا به أجرة على بنائكَ لنا سدّاً بيننا وبين هؤلاء القوم.

وأوْلى القراءتين في ذلك عندنا بالصوابِ قراءةُ من قرأه: «فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرَاجاً» بالألف، لأن القومَ فيما ذُكر عنهم، إنما عَرَضُوا على ذي القرنين أنْ يُعطوه من أموالهم ما يستعينُ به على بناء السدِّ، وقد بين ذلك بقوله: «فَأعِينُونِي بقُوَّةٍ أجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً»، ولم يعرضوا عليه جزيةَ رؤوسهم. والخراجُ عند العرب: هو الغلة.

وقوله: «عَلى أنْ تَجْعَلَ بَيْنَنا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً» يقول: قالوا له: هل نجعل لك خراجاً على أن تجعلَ بيننا وبين يأجوج ومأجوج حاجزاً يحجزُ بيننا وبينهم، ويمنعهم من الخروج إلينا، وهو السدّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾

يقول تعالى ذكره: قال ذو القرنين: الذي مكنني في عمل ما سألتموني

من السدّ بينكم وبين هؤلاء القوم ربي، ووطَّأَهُ لي، وقوّاني عليه، خيرٌ من جُعْلِكم، والأجرة التي تعرضونها عليَّ لبناء ذلك، وأكثر وأطيب، ولكن أعينوني منكم بقوّةٍ، أعينوني بفَعَلة وصناع يُحسنون البناءَ والعمل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾

يقول عَزَّ ذِكْرُه: قال ذُو القرنين للذين سألوه أنْ يجعلَ بينهم وبين يأجوج ومأجوج سدّاً «آتُونِي»: أي جِيئُوني بِزُبَر الحديد، وهي جمع زُبْرة، والزُّبْرة: القطعة من الحديد.

وقولـه: «حتى إذَا ساوَى بينَ الصَّـدفَيْنِ»، يقـول عزّ ذكره: فآتَوه زُبَر الحديد، فجعلها بين الصدفين حتى إذا ساوى بين الجبلين بما جعلَ بينهما من زُبرِ الحديدِ، ويقال: سوّى. والصدفان: ما بين ناحيتي الجبلين ورؤوسهما.

وقوله: «قالَ انْفُخُوا»، يقول عَزَّ ذِكْرُه. قال للفَعَلةِ: انفخوا النارَ على هذه الزُّبر من الحديد.

وقوله: «حتى إذَا جَعَلَهُ ناراً» وفي الكلامِ متروكٌ، وهو: فنفخوا حتى إذا جعل ما بين الصدفين من الحديد ناراً.

وقوله: «أفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً» يقول: أصبُّ عليه قِطراً، والقِطْر: النُّحاس.

وقوله: «فَمَا اسْطاعُوا أنْ يَظْهَرُوهُ»، يقول عزّ ذكره: فما اسطاع يأجوجُ ومأجوج أنْ يَعْلوا الردمَ الذي جعله ذو القرنين حاجزاً بينهم، وبين من دونهم

من الناس، فيصيروا فوقَهُ وينزلوا منه إلى الناس، يقال منه: ظهر فلانٌ فوقَ البيت: إذا عَلاَهُ؛ ومنه قول الناس: ظهر فلان على فلان: إذا قهره وعلاه. «وَمَا اسْتَطاعُوا لَهُ نَقْباً» يقول: ولم يستطيعوا أن ينقبوه من أسفله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾

يقول عَزَّ ذِكْرُه: فلما رأى ذُو القرنين أنَّ يأجوجَ ومأجوجَ لا يستطيعونَ أنْ يظهروا ما بنى من الردم، ولا يقدرون على نقبه، قال: هذا الذي بنيته وسوَّيته حاجزاً بين هذه الأمة، ومن دون الردم رحمة من ربي رحمَ بها من دون الردم من الناس، فأعانني برحمته لهم حتى بنيتُه وسوَّيتهُ ليكفَّ بذلك غائلةَ هذه الأمةِ عنهم.

وقوله: «فإِذَا جاءَ وَعْدُ رَبّي جَعَلَهُ دَكاءَ» يقول: فإذا جاء وعدُ ربي الذي جعله ميقاتاً لظهور هذه الأمةِ وخروجها من وراءِ هذا الردم لهم، جعله دكاء، يقول: سَوَّاهُ بالأرضِ، فألزقه بها من قولهم: ناقة دكاء: مستويةُ الظهر لا سنامَ لها. وإنما معنى الكلام: جعله مدكوكاً، فقيل: دكاء.

«وكانَ وَعْدُ رَبّي حَقًّا»، يقول: وكان وعد ربي الذي وعد خلقه في دكِّ هذا الردم، وخروج هؤلاء القوم على الناس، وعيثهم فيه، وغير ذلك من وعده حقاً، لأنه لا يخلفُ الميعادَ فلا يقعُ غير ماوعد أنه كائن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وتركنا عبادنا يوم يأتيهم وَعْدُنَا الذي وعدناهم، بأنا

نَدُكُّ الجبالَ ونَنْسِفُهَا عن الأرضِ نسفاً، فنذرها قاعاً صَفْصَفاً، بعضهم يموجُ في بعض، يقول: يختلط جِنُّهم بإنسِهم.

وقوله: «فجَمَعْناهُمْ جَمْعاً»، يقول: فجمعنا جميعَ الخَلْقِ حينئذٍ لموقفِ الحساب جميعاً.

وقوله: «وَعَرَضنا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ للكافِرينَ عَرْضاً»، يقول: وأبرزنا جهنمَ يومَ يُنْفَخُ في الصور، فأظهرناها للكافرينَ بالله، حتى يروها ويعاينوها كهيئةِ السراب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ١٠١﴾

يقول تعالى: وعرضنا جهنمَ يومئذٍ للكافرينَ الذين كانوا لا ينظرون في آياتِ الله، فيتفكَّرونَ فيها ولا يتأمَّلون حججه، فيعتبرون بها، فيتذكرون ويُنِيبُونَ إلى توحيدِ الله، وينقادون لأمرِه ونهيِه، وكانوا لا يستطيعون سمعاً، يقول: وكانوا لا يُطيقونَ أنْ يسمعوا ذِكْرَ الله الذي ذكَّرهم به، وبيانه الذي بيَّنه لهم في آيِ كتابه، بخذلانِ الله إياهم، وغَلَبةِ الشقاءِ عليهم، وشُغْلِهم بالكفرِ باللهِ وطاعةِ الشيطانِ، فيتعظون به، ويتدبَّرونه، فيعرفونَ الهدى من الضلالة، والكفرَ من الإيمان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ١٠٢﴾

يقول عَزَّ ذكره: أَفظنَّ الذين كفروا بالله من عَبَدَةِ الملائكةِ والمسيحِ، أنْ يتخذوا عبادي الذين عبدوهم من دونِ الله أولياء، يقول: كلا بَلْ هُمْ لهم

أعداء.

وقوله: «إِنَّا أَعْتَدْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ نُزُلًا»، يقول: أعددنا لمن كفرَ بالله جهنم منزلاً.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ: «قُلْ» يا محمدُ لهؤلاء الذين يبغون عَنَتَك ويجادلونك بالباطلِ، ويحاورونك بالمسائلِ من أهل الكتابين: اليهود، والنصارى. «هَلْ نُنَبِّئُكُمْ» أيها القومُ «بالأَخْسَرِينَ أعمالاً» يعني بالذين أتعبوا أنفسهم في عملٍ يبغون به ربحاً وفضلاً، فنالوا به عَطَباً وهلاكاً ولم يدركوا طلباً، كالمشتري سلعةً يرجو بها فضلاً وربحاً، فخابَ رجاؤُه، وخسر بَيْعُه، ووكس في الذي رجا فضله.

وقوله: «الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ في الحَياةِ الدُّنْيا»، يقول: هم الذين لم يكن عملهم الذي عملوه في حياتهم الدنيا على هدى واستقامة، بل كان على جَوْرٍ وضلالة، وذلك أنهم عملوا بغير ما أمرهم الله به بل على كفرٍ منهم به، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً: يقول: وهم يظنون أنهم بفعلهم ذلك لله مطيعون، وفيما نَدَبَ عبادَهُ إليه مجتهدون، وهذا من أدلِّ الدلائلِ على خطأ قولِ مَنْ زعم أنه لا يكفرُ بالله أحدٌ إلا من حيثُ يقصد إلى الكفر بعد العلم بوحدانيته، وذلك أنَّ الله تعالى ذِكْرُه أخبر عن هؤلاء الذين وصف صفتهم في هذه الآية، أنَّ سعيهم الذي سعوا في الدنيا ذهبَ ضلالاً، وقد كانوا يحسبون أنهم محسنـون في صنعهم ذلك، وأخبر عنهم أنهم هم الذين كفروا بآياتِ ربهم، ولو كان القولُ كما قال الذين زعموا أنه لا يكفرُ بالله أحدٌ إلا من حيثُ

يعلم، لوجَبَ أنْ يكون هؤلاء القوم في عملهم الذي أخبر الله عنهم أنهم كانوا يحسبون فيه أنهم يحسنون صنعه، كانوا مثابينَ مأجورينَ عليها، ولكن القولَ بخلافِ ما قالوا، فأخبر جلَّ ثناؤه عنهم أنهم بالله كَفَرَةٌ، وأنَّ أعمالهم حابطةٌ. وعنى بقوله: «أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً» عملاً، والصُّنع: والصَّنعة والصنيع واحد، يقال: فرس صنيع بمعنى مصنوع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ١٠٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاء الذين وصفنا صفتهم، الأخسرونَ أعمالاً، الذين كفروا بحُججِ ربهم وأدلته، وأنكروا لقاءه. «فَحَبِطَتْ أعمالهُمْ»، يقول: فبطلت أعمالهم، فلم يكن لها ثوابٌ ينفعُ أصحابَها في الآخرة، بل لهم منها عذابٌ وخزيٌ طويل. «فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ وَزْناً»، يقول تعالى ذكره: فلا نجعل لهم ثقلاً. وإنما عنى بذلك: أنهم لا تَثْقُلُ بهم موازينهُم، لأنَّ الموازينَ إنما تثقلُ بالأعمال الصالحة، وليس لهؤلاء شيءٌ من الأعمالِ الصالحة، فتثقل به موازينهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ١٠٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أولئكَ ثوابُهم جهنمُ بكفرِهم بالله، واتخاذِهم آياتِ كتابه، وحججِ رسله سُخْرياً، واستهزائهم برسله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ

﴿جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين صدقوا بالله ورسوله، وأقرُّوا بتوحيدِ الله وما أنزلَ من كتبه وعملوا بطاعته، كانتْ لهم بساتينُ الفردوس، والفردوسُ: معظم الجنة.

وقوله: «نُزُلًا»، يقول: منازل ومساكن، والمنزل: من النزول، وهو من نزولِ بعضِ الناس على بعضٍ، وأما النزل: فهو الريع، يقال: ما لطعامِكم هذا نزلٌ يُرادُ به الريع وما وجدنا عندكم نزلاً: أي نزولاً.

وقولـه: «خالِدِينَ»، يقول: لابثينَ. «فِيها أبَداً لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلاً»، يقول: لا يريدون عنها تحوّلاً، وهو مصدر تحوّلت أخرج إلى أصله، كما يقال: صغر يصغر صغراً، وعاج يعوج عوجاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾

يقول عزَّ ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ» يا محمد: «لَوْ كانَ البَحْرُ مِدَاداً» لـلـقلم الذي يُكتب به «كَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ» ماءُ «البَحْرُ قَبْلَ أنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مدداً»، يقول: ولو مددنا البحرَ بمثلِ مافيه من الماء مدداً، من قولِ القـائـل: جئتك مدداً لك، وذلك من معنى الزيادة. وقد ذُكر عن بعضِهم: ولو جئنا بمثله مدداً، كأن قارىء ذلك كذلك أراد: لنفدَ البحرُ قبل أنْ تنفدَ كلماتُ ربي، ولو زدنا بمثلِ مافيه من المدادِ الذي يكتب به مداداً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قل لهؤلاء المشركينَ يا محمدُ: إنما أنا بشرٌ مثلكم من بني آدم لا علم لي إلا ما علمني الله وإنَّ الله يوحي إليَّ أنَّ معبودكم الذي يجبُ عليكم أنْ تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، معبودٌ واحدٌ لا ثانيَ له، ولا شريك. «فَمَنْ كانَ يَرْجُو لِقاءَ رَبِّهِ»، يقول: فمن يخاف ربه يوم لقائه، ويراقبه على معاصيه، ويرجو ثوابه على طاعته «فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً»، يقول: فَلْيُخْلِصْ له العبادةَ، وليفردْ له الربوبية.

وقوله: «وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً»، يقول: ولا يجعل له شريكاً في عبادته إياه، وإنما يكون جاعلاً له شريكاً بعبادته إذا راءى بعمله الذي ظاهِرُه أنه لله وهو مريدٌ به غيرَهُ.

سُورَةُ مَرْيَمَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويلِ قوله تعالى ذِكْرُه: كاف من «كهيعصٓ» فقال بعضهم: تأويل ذلك أنها حرفٌ من اسمِهِ الذي هو كبير، دلَّ به عليه، واستغنى بذكره عن ذكرِ باقي الاسم.

وقال آخرون: بل الكافُ من ذلك حرف من حروف اسمه الذي هو كاف.

وقال آخرون: بل هو حرفٌ من حروف اسمه الذي هو كريم.

وقال الذين فَسَّرُوا ذلك هذا التفسير الهاء من كهيعص: حرفٌ من حروفِ اسمه الذي هو هاد.

واختلفوا في تأويل الياء من ذلك، فقال بعضهم: هو حرفٌ من حروفِ اسمه الذي هو يمين.

وقال آخرون: بل هو حرفٌ من حروف اسمه الذي هو حكيم.

وقال آخرون: بل هي حرف من قول القائل: يامن يجير.

واختلف متأوِّلو ذلك كذلك في معنى العين، فقال بعضهم: هي حرفٌ من حروفِ اسمه الذي هو عالم.

وقال آخرون: بل هي حرف من حروف اسمه الذي هو عزيز.

وقال آخرون: بل هي حرف من حروف اسمه الذي هو عدل.

وقال الذين تأوَّلُوا ذلك هذا التأويل: الصاد من قوله: «كهيعصٓ»: حرفٌ من حروفِ اسمه الذي هو صادق.

وقال آخرون: بل هذه الكلمة كلها اسم من أسماء الله تعالى.

وقال آخرون: كلُّ حرفٍ من ذلك اسمٌ من أسماء الله عزّ وجلّ.

وقال آخرون: هذه الكلمةُ اسمٌ من أسماء القرآن.

قال أبو جعفر:

والقول في ذلك عندنا نظير القولِ في «الٓمٓ» وسائر فواتحِ سورِ القرآن التي افتتحت أوائلها بحروفِ المعجم، وقد ذكرنا ذلك فيما مضى قبل، فأغنى عن إعادته في هذا الموضع[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ٤﴾

فتأويل الكلام: هذا ذِكْرُ رحمةِ ربك عبدَهُ زكريا.

وقوله: «إِذْ نادَى رَبَّهُ نِداءً خَفِياً»، يقول حين دعا رَبَّهُ، وسأله بنداء خفيٍّ، يعني: وهو مستسرٌّ بدعائهِ ومسألته إياه ما سألَ كراهته منه للرياء.

وقوله: «قالَ رَبِّ إنّي وَهَنَ العَظْمُ مِنِّي»، يقول تعالى ذكره، فكان نداؤه

(١) انظر أولَ تفسير سورة البقرة.

الخفيُّ الذي نادى به ربه أنْ قال: «رَبِّ إني وَهَنَ العَظْمُ مِنِّي»، يعني بقوله: «وَهَنَ» ضَعف ورَقَّ من الكبر.

وقوله: «ولَمْ أكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِياً» يقول: ولم أَشْقَ يا ربِّ بدعائكَ، لأنك لم تُخَيِّبْ دعائي قبل إذْ كنت أدعوك في حاجتي إليك، بل كنتَ تجيبُ وتقضي حاجتي قِبَلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعالَى: وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦

يقول: وإني خفت بني عمي وعصبتي من ورائي: يقول: من بعدي أنْ يرثوني، وقيل: عنى بقوله «مِنْ وَرائي» من قُدّامي ومن بين يديّ؛ وقد بيَّنتُ جوازَ ذلك فيما مضى قَبْلُ.

وقوله: «وكانَتِ امْرأتي عاقِراً»، يقول: وكانت زوجتي لا تَلِدُ، يقال منه: رجلٌ عاقر، وامرأة عاقر بلفظٍ واحد.

وقوله: «فَهَبْ لي مِنْ لَدُنْكَ وَلِياً»، يقول: فارزقني من عندك ولداً وإرثاً ومعيناً.

وقوله: «يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ»، يقول: يرثني من بعد وفاتي مالي، ويرثُ من آلِ يعقوب النبوّة، وذلك أن زكريا كان من ولد يعقوب.

وقوله: «وَاَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِياً» يقول: واجعل ياربِّ الوليَّ الذي تَهبهُ لي مَرْضِياً ترضاهُ أنتَ ويرضاه عبادك ديناً وخُلُقاً وخَلْقاً. والرضي: فعيل صرف من مفعول إليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فاستجابَ له ربه، فقال له: يا زكريا إنا نبشرك بهبتنا لك غلاماً اسمه يحيى، لم يُسَم باسمِهِ أحدٌ قَبْلَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال زكريا لما بشره الله بيحيى: «ربِّ أَنَّى يكونُ لي غُلام»، ومن أيِّ وجهٍ يكون لي ذلك، وامرأتي عاقر لا تحبلُ، وقد ضَعُفْتُ من الكبرِ عن مباضعةِ النساء أبأن تقوِّيني على ماضعفت عنه من ذلك، وتجعل زوجتي ولوداً، فإنك القادرُ على ذلك وعلى ما تشاء، أمْ بأنْ أنكحَ زوجةً غيرَ زوجتي العاقر، يستثبتُ رَبَّهُ الخبرَ، عن الوجهِ الذي يكونُ من قِبَلِه له الولدُ، الذي بَشَّرَهُ اللهُ به، لا إنكاراً منه ﷺ حقيقةَ كونِ ما وعدَهُ اللهُ من الولدِ، وكيف يكونُ ذلك منه إنكاراً لأنْ يرزقه الولد الذي بشَّره به، وهو المبتدىء مسألة ربه ذلك بقوله: «فَهَبْ لي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا. يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ» بعد قوله: «إنِّي وَهَنَ العَظْمُ مِني وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً».

وقوله: «وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكِبَرِ عِتيًّا»، يقول: وقد عتوتُ من الكبرِ فصرتُ نحلَ العظامِ يابِسَها، يقال منه للعود اليابس: عُودٌ عاتٍ وعاسٍ، وقد عتا يعتو عِتيًّا وعُتوّاً، وعسى يعسو عِسِياً وعسوّاً، وكلُّ مُتَنَاهٍ إلى غايته في كبرٍ أو فساد، أو كفرٍ، فهو عاتٍ وعاس.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ

خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾

يقول تعالى ذكره: قال الله لزكريا مجيباً له: «قالَ كَذلكَ»، يقول: هكذا الأمرُ كما تقولُ من أنَّ امرأتك عاقر، وأنك قد بلغتَ من الكبر العتيَّ، ولكنَّ ربَّكَ يقولُ: خَلْقُ ما بَشَّرْتُكَ به من الغلامِ الذي ذكرتُ لكَ أنَّ اسمه يحيى عليَّ هَيِّنٌ، فهو إذن من قوله: «قالَ رَبُّكَ هُوَ عَليَّ هَيِّنٌ» كناية عن الخلق.

وقوله: «وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ ولَمْ تَك شَيْئاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وليس خَلْقُ ما وعدتُكَ أنْ أَهَبَهُ لكَ من الغلامِ الذي ذكرتُ لكَ أمرَهُ منكَ مع كبرِ سِنِّكَ، وعُقْمِ زوجتك بأعجبَ من خَلْقِيكَ، فإني قد خلقتكَ، فأنشأتكَ بشراً سوياً من قبل خلقي ما بشرتك بأني واهبٌ لكَ من الولدِ، ولم تَكُ شيئاً، فكذلك أخلقُ لكَ الولدَ الذي بشرتك به من زوجتكَ العاقرِ، مع عِتِيِّكَ ووَهَنِ عظامكَ، واشتعالِ شيبِ رأسك.

وقوله: «قالَ رَبِّ اجْعَلْ لي آية»، يقول تعالى ذِكْرُه: قال زكريا: ياربِّ اجعلْ لي علماً ودليلاً على ما بشَّرتني به ملائكتُكَ من هذا الغلامِ عن أمركَ ورسالتكَ، ليطمئنَّ إلى ذلك قلبي.

«قال» الله: «آيَتُكَ» لذلك «ألاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيالٍ سَوِيًّا»، يقول جلَّ ثناؤه: علامتُكَ لذلك، ودليلُكَ عليه أنْ لا تكلم الناسَ ثلاثَ ليالٍ وأنتَ سويٌّ صحيح، لا عِلَّةَ بكَ من خرسٍ ولا مرضٍ يمنعكَ من الكلام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فخرج زكريا على قومه من مُصَلَّاهُ حين حُبِسَ لسانهُ عن كلامِ الناس، آيةً من الله له على حقيقةِ وَعْدِه إياهُ ما وَعَدَ.

وقوله: «فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ»، يقول: أشار إليهم، وقد تكون تلك الإشارةُ باليدِ وبالكتابِ ويغير ذلك مما يُفْهَمُ به عنه ما يريد.

وقوله: «أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا»، قد بيَّنتُ فيما مضى الوجوهَ التي ينصرفُ فيها التسبيح، وقد يجوزُ في هذا الموضع أنْ يكون عَنَى به التسبيحَ الذي هو ذِكْرُ الله، فيكون أمرهم بالفراغِ لذكرِ الله في طرفي النهارِ بالتسبيحِ، ويجوز أن يكون عَنَى به الصلاةَ، فيكون أمرهم بالصلاةِ في هذين الوقتين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فولد لزكريا يحيى، فلما ولد، قالَ اللهُ له يا يحيى: خُذْ هذا الكتابَ بقوّةٍ، يعني كتابَ الله الذي أنزله على موسى، وهو التوراةُ بقوّةٍ، يقول: بجدٍّ.

وقوله: «وآتَيْناهُ الحُكْمَ صبيًّا»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأعطيناهُ الفَهْمَ لكتابِ الله في حال صباه قبل بلوغه أسنانَ الرجال.

وقوله: «وَحَناناً مِنْ لَدُنَّا»، يقول تعالى ذِكْرُه: ورحمة منا ومحبة له آتيناه الحكم صبياً.

وقوله: «وزَكاةً»، يقول تعالى ذكره: وآتينا يحيى الحكم صبياً، وزكاة: وهو الطهارةُ من الذنوب، واستعمال بدنهِ في طاعةِ ربه، فالزكاةُ عطف على الحكم من قوله: «وآتَيْناهُ الحُكْمَ».

وقوله: «وكانَ تَقِيًّا»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكان لله خائفاً مؤدِّياً فرائضَهُ، مجتنباً محارمه مسارعاً في طاعته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وكان بَرًّاً بوالديه، مسارعاً في طاعتهما ومحبتهما، غير عاقٍ بهما. «ولَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيًّا»، يقول جلَّ ثناؤه: ولم يكن مستكبراً عن طاعةِ ربهِ وطاعةِ والديه، ولكنه كان لله ولوالديه متواضعاً متذللاً يأتمرُ لما أُمِرَ به، وينتهي عما نُهي عنه، لا يَعْصِي رَبَّهُ ولا والديه.

وقوله: «سَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ ويَوْمَ يَمُوتُ ويَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا»، يقول: وأمانٌ من الله يومَ وُلِدَ من أنْ يناله الشيطانُ من السوء، بما ينالُ به بني آدمَ، وذلك أنه رُوي عن رسولِ الله ﷺ أنه قال: «كُلُّ بَنِي آدَمَ يَأْتِي يَوْمَ القِيامَةِ وَلَهُ ذَنْبٌ إلَّا ما كانَ مِنْ يَحْيَى بْنِ زَكَرِيًّا»[1].

وقوله: «ويَوْمَ يَمُوتُ»، يقول: وأمانٌ من الله تعالى ذكره له من فَتَّانَي القبرِ، ومن هَوْلِ المطلع. «ويَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا»، يقول: وأمانٌ له من عذابِ الله يومَ القيامةِ، يومَ الفزعِ الأكبرِ من أنْ يروعه شيءٌ، أو أن يفزعه ما يفزعُ الخلق.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۝١٦ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: واذكر يا محمدُ في كتابِ الله الذي

أنزلهُ عليكَ بالحقِّ مريمَ ابنة عمران حين اعتزلت من أهلها، وانفردتْ عنهم، وهو افتعل من النَّبذ، والنَّبذ: الطَّرْح.

وقوله: «مَكاناً شَرْقِيًّا»، يقول: فَتَنَحَّتْ واعتزلتْ من أهلها في موضعٍ قِبَلَ مَشرقِ الشمس دونَ مَغربها.

وقوله: «فاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجاباً»، يقول: فاتخذت من دونِ أهلها ستراً يسترها عنهم وعن الناس.

وقـولـه: «فأرْسَلْنا إلَيْها رُوحَنا»، يقول تعالى ذِكْرُه: فأرسلنا إليها حين انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً واتخذت من دونهم حجاباً: جبريلَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ۝١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فخافت مريمُ رسولَنا، إذ تمثَّلَ لها بشراً سوياً، وظنته رجلاً يريدها على نفسها، فلما رأته فَزِعَتْ منه وقالت: «إنِّي أعُوذُ بالرَّحْمَنِ مِنْكَ إنْ كُنْتَ تَقِيًّا»، فقالت: إني أعوذ أيها الرجلُ بالرحمنِ منكَ، تقول: أستجيرُ بالرحمن منكَ أنْ تنالَ مني ما حرَّمَهُ عليكَ إنْ كنتَ ذا تقوى له تتقي محارمه، وتجتنب معاصِيه؛ لأنَّ مَنْ كان لله تقياً، فإنه يجتنبُ ذلك. ولو وجه ذلك إلى أنها عَنَت: إني أعوذُ بالرحمن منك إنْ كنت تتقي الله في استجارتي واستعاذتي به منكَ كان وجهاً.

وقوله: «قالَ إنَّمَا أنا رَسُولُ رَبِّكِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فقال لها روحنا: إنما أنا رسولُ رَبِّكِ يا مريمُ أرسلني إليكِ: «لأهَبَ لكِ غُلاماً زكياً»، يعني: غلاماً طاهراً من الذنوب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝٢٠ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ۝٢١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قالت مريمُ لجبريلَ «أنى يَكُونُ لي غُلامٌ» من أيِّ وجهٍ يكونُ لي غلام؟ أمن قِبلَ زوج أتزوَّجُ، فأرزقه منه، أم يبتدىء الله فيَّ خَلْقَهُ ابتداء «ولَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ» من ولدِ آدمَ بنكاحٍ حلالٍ «ولَمْ أَكُ» إذْ لم يَمسسني منهم أحدٌ على وجهِ الحلالِ «بَغِيًّا» بغيتُ ففعلتُ ذلك من الوجهِ الحرام، فحملته من زنا.

«قال كَذلكِ قالَ رَبُّكِ هُوَ عَليَّ هَيِّنٌ» يقول تعالى ذِكْرُه: قال لها جبريلُ: هكذا الأمرُ كما تصفين، من أنك لم يَمْسَسْكِ بشرٌ ولم تكوني بغياً، ولكن ربك قال: هو عليَّ هينٌ: أي خَلْقُ الغلامِ الذي قلت أن أهبه لكِ عليَّ هينٌ لا يتعذَّرُ عليَّ خَلْقُه وهبته لكِ من غيرِ فحلٍ يفتحلك.

«وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً للنَّاسِ»، يقول: وكي نجعلَ الغلامَ الذي نهبهُ لكِ علامةً وحجةً على خلقي أهبه لك.

«وَرَحْمَةً مِنَّا»، يقول: ورحمةً منا لكِ، ولمن آمن به وصدَّقَهُ أخلقه منكِ.

«وكانَ أمْراً مَقْضِيًّا»، يقول: وكان خَلْقُه منكِ أمراً قد قضاهُ الله، ومضى في حكمه وسابقِ عِلْمِه أنه كائنٌ منكِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ۝٢٢ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ۝٢٣﴾

وفي هذا الكلام متروكٌ تُرِك ذِكْرُه استغناءً بدلالة ماذكر منه عنه. «فَنَفَخْنا فِيهِ مِنْ رُوحِنا» بغلام «فحَمَلَتْهُ فانْتبَذَتْ بِهِ مَكانا قَصيًّا».

وقوله: «فانْتَبَذَتْ بِهِ مَكاناً قَصِيًّا»، يقول: فاعتزلت بالذي حملته، وهو عيسى، وتَنَحَّت به عن الناس مكاناً قصياً: يقول: مكاناً نائياً قاصياً عن الناس، يقال: هو بمكانٍ قاص، وقصيٍّ بمعنى واحد.

وقوله: «فأجاءهَا المَخاضُ إلى جِذْعِ النَّخْلَةِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فجاء بها المخاض إلى جذع النخلة، ثم قيل: لما أسقطت الباء منه أجاءها، كما يقال: أتيتكَ بزيدٍ، فإذا حذفت الباء قيل آتيتك زيداً كما قال جلّ ثناؤه: «آتُونِي زُبُـرَ الحَدِيدِ» والمعنى: ائتوني بزُبر الحديد، ولكن الألف مُدَّتْ لما حذفت الباء، وكما قالوا: خرجت به وأخرجته، وذهبت به وأذهبته، وإنما هو أفعل من المجيء، كمـا يقـال: جاء هو، وأجـأته أنا: أي جئتُ به، ومثل من أمثال العـرب: «شـرّ ما أجـاءني إلى مُخَّة عرقوب»، وأشاء ويقال: شرّ ما يُجيئك ويُشيئك إلى ذلك.

وقوله: «ياليْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا» ذكَر أنها قالت ذلك في حال الطلق استحياءً من الناس.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾

اختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك، فقرأته عامة قَرَأَةِ الحجازِ والعراق: «فَنَاداها مِنْ تَحْتِهـا» بمعنى: فنـاداها جبرائيلُ من بين يديها على اختلافٍ منهم في تأويله؛ فمن متأوِّلٍ منهم إذا قرأه «مِنْ تحْتِها» كذلك؛ ومن متأوِّلٍ منهم أنه

عيسى، وأنه ناداها من تحتها بعد ما ولَدَتْهُ. وقرأ ذلك بعض قَرَأة أهلِ الكوفةِ والبصـرة «فَنادَاها مَنْ تَحْتَها» بفتح التاءين من تحت، بمعنى: فناداها الذي تحتها، على أنَّ الذي تحتها عيسى، وأنه الذي نادى أمه.

وأَوْلى القولين في ذلك عندنا قولُ مَنْ قال: الذي ناداها ابنها عيسى، وذلك أنه من كناية ذكرهِ أقربُ منه من ذكرِ جبرائيل، فردُّهُ على الذي هو أقربُ إليه أَوْلى من ردِّهِ على الذي هو أبعد منه. ألا ترى في سياق قوله: «فحَمَلَتْهُ فانْتَبَـذَتْ بِهِ مَكـاناً قَصِيًّا»، يعني به: فحملت عيسى فانتبذتْ به، ثم قيل: فناداها نَسَقاً على ذلك من ذِكْرِ عيسى والخبرِ عنه. ولعلةٍ أخرى، وهي قوله: «فأشارَتْ إلَيْهِ»، ولم تشر إليه إنْ شاء الله إلا وقد علمتْ أنه ناطقٌ فى حاله تلك، وللذي كانتْ قد عرفتْ ووثقتْ به منـه بمخـاطبته إياها بقوله لها: «أنْ لا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا»، وما أخبرَ اللهُ عنه أنه قال لها أشيري للقومِ إليه، ولو كان ذلك قولاً من جبرائيل، لكان خليقاً أنْ يكون في ظاهر الخبر، مبيناً أن عيسى سينطقُ، ويحتجُّ عنها للقوم، وأمر منه لها بأن تشيرَ إليه للقومِ إذا سألوها عن حالها وحالهِ.

فإذا كان ذلـك هو الصـوابُ من التـأويلِ الـذي بيَّنـا، فَبَيِّنٌ أنَّ كلتـا القراءتين، أعني «مِنْ تَحْتِها» بالكسر، و«مَنْ تَحْتها» بالفتح صوابٌ. وذلك أنه إذا قرىء بالكسـرِ كان في قوله: «فَنادَاها» ذكر من عيسى. وإذا قرىء «مَنْ تَحْتَها» بالفتح كان الفعل لمن وهو عيسى. فتأويلُ الكلام إذن: فناداها المولودُ من تحتها أن لا تحزني ياأمه: «قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا».

واختلف أهـلُ التـأويل في المعنيِّ بالسـريِّ في هذا المـوضع، فقال بعضهم: عنى به: النهرَ الصغير.

وقال آخرون: عنى به عيسى.

وأَوْلى القولين في ذلك عندي بالصواب قيل من قال: عَنَى به الجدول، وذلك أنه أعلمها ما قد أعطاها الله من الماء الذي جعله عندها، وقال لها: «وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَبا جَنِيًّا فَكُلِي» من هذا الرطب «وَاشْرَبِي» من هذا الماء «وَقَرِّي عَيْناً» بولدكِ، والسريُّ معروفٌ من كلام العرب أنه النهر الصغير.

وقوله: «وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ» ذكر أنَّ الجذعَ كان جذعاً يابساً، وأمرها أنْ تهزَّهُ، وذلك في أيام الشتاء، وهزّه إياه كان تحريكه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ۝٢٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فكلي من الرطب الذي يتساقط عليك، واشربي من ماء السريّ الذي جعله ربك تحتك ولا تخشي جوعاً ولا عطشاً. «وقَرِّي عيناً»، يقول: وطيبي نفساً وافرحي بولادتك إياي ولا تحزني.

وقوله: «فإمَّا تَرَيِنَّ مِنَ البَشَرِ أحداً»، يقول: فإنْ رأيتِ من بني آدم أحداً يكلمكِ أو يسائلكِ عن شيء من أمركِ وأمرِ ولدكِ وسببِ ولادتكه «فقُولي إنّي نَذَرْتُ للرَّحْمَنِ صَوْماً»، يقول: فقولي: إني أوجبتُ على نفسي لله صمتاً ألاّ أُكلِّمَ أحداً من بني آدمَ اليوم. «فَلَنْ أُكَلِّمَ اليَوْمَ إنْسِيًّا».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ۝٢٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما قالَ ذلك عيسى لأمهِ أطمأنتْ نَفْسُهَا، وسلَّمتْ لأمرِ الله، وحملته حتى أتت به قومها.

وقوله: «﴿قالُوا يا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا﴾»، يقول تعالى ذِكْرُه: فلما رأوا مريم، ورأوا معها الولد الذي ولدته، قالوا لها: يا مريم لقد جئت بأمرٍ عجيب، وأحدثتِ حدثاً عظيماً، وكلّ عامل عملاً أجاده وأحسنه فقد فَرَاهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾

اختلف أهلُ التأويلِ في السببِ الذي من أجله قِيلَ لها: يا أختَ هارون، ومَنْ كان هارون هذا الذي ذكرهُ الله، وأخبرَ أنهم نسبوا مريمَ إلى أنها أختُه، فقال بعضهم: قيل لها: «يا أُخْتَ هارُونَ» نسبة منهم لها إلى الصلاحِ، لأنَّ أهلَ الصلاحِ فيهم كانوا يسمون هارون، وليس بهارون أخي موسى.

وقال بعضهم: عُني به هارون أخو موسى، ونُسبت مريمُ إلى أنها أخته لأنها من ولدِه، يقال للتميميِّ: يا أخا تميمٍ، وللمُضَريِّ: يا أخا مُضَر.

والصوابُ من القول في ذلك ما جاء به الخبرُ عن رسولِ الله ﷺ الذي ذكرناه، وأنها نُسِبَتْ إلى رجلٍ من قومها .

وقوله: «ما كانَ أَبُوكِ امْرأً سَوْءٍ»، يقول: ما كان أبوكِ رجلَ سوءٍ يأتي الفواحشَ. «وما كانَتْ أُمُّكِ بغِيًّا»، يقول: وما كانت أمكِ زانية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾

يقول تعالى ذكره: فلما قال قومها ذلك لها قالت لهم ما أمرها عيسى بقِيلِهِ لهم، ثم أشارتْ لهم إلى عيسى أنْ كَلِّمُوه.

وقوله: « قالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ فِي المَهْدِ صَبِيًّا»، يقولُ تعالى ذكره، قال قومها لها: كيف نُكَلِّمُ مَنْ وُجدَ في المهد؟ وكان في قوله: «مَنْ كانَ فِي المَهْدِ صَبِيًّا» معناها التمام، لا التي تقتضي الخبر، وذلك شبيه المعنى بكان التي في قوله: «هَلْ كُنْتُ إلاَّ بَشَرًا رَسُولاً»، وإنما معنى ذلك: هل أنا إلا بَشَرٌ رسولٌ؟ وهل وجدت أو بعثت وقيل: إنه عنى بالمهد في هذا الموضع: حجر أمه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما قال قوم مريم لها: «كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ فِي المَهْدِ صَبِيًّا»، وظنوا أنَّ ذلك منها استهزاءٌ بهم، قال عيسى لهم متكلماً عن أمه: «إنّي عَبْدُ اللهِ آتانيَ الكِتاب» وكانوا حين أشارت لهم إلى عيسى فيما ذُكر عنهم غَضِبُوا.

وقوله: «وَجَعَلَنِي نَبِيًّا»، وقد بيَّنتُ معنى النبيِّ واختلاف المختلفين فيه، والصحيح من القولِ فيه عندنا فيما مضى بما أغنى عن إعادته.

وقـوله: «وَجَعَلَني مُباركاً»، اختلف أهلُ التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: معناه: وجعلني نفاعاً.

وقال آخرون: كانت بركته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقال آخرون: معنى ذلك: جعلني مُعَلِّمَ الخيرِ.

وقوله: «وأَوْصَانِي بالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ»، يقول: وقضى أنْ يوصيني بالصلاةِ والزكاة، يعني المحافظة على حدودِ الصلاةِ وإقامتها على ما فرضها عليَّ. وفي الزكاة معنيان: أحدهما: زكاة الأموال أنْ يؤدِّيها. والآخر: تطهير الجسدِ من دَنَسِ الذنوب؛ فيكون معناه: وأوصاني بتركِ الذنوبِ واجتنابِ المعاصي.

وقوله: «مادُمْتُ حَيًّا»، يقول: ما كنتُ حياً في الدنيا موجوداً، وهذا يبينُ عن أن معنى الزكاة في هذا الموضع: تطهير البدن من الذنوب، لأنَّ الذي يوصف به عيسى صلوات الله وسلامه عليه أنه كان لا يَدَّخِرُ شيئاً لغدٍ، فتجبُ عليه زكاةُ المال، إلا أنْ تكونَ الزكاةُ التي كانت فرضت عليه الصدقة بكلِّ ما فضلَ عن قوتهِ، فيكون ذلك وجهاً صحيحاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى ذكره: مخبراً عن قِيلِ عيسى للقوم: وجعلني مباركاً وبرّاً: أي جعلني برّاً بوالدتي. والبَرُّ هو البارُّ، يقال: هو بَرٌّ بوالده، وبارٌّ به.

وقوله: «ولَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا»، يقول: ولم يجعلني مستكبراً على الله فيما أمرني به، ونهاني عنه شقياً، ولكن ذَلَّلني لطاعتهِ، وجعلني متواضعاً.

وقوله: «والسَّلامُ عَليَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أمُوتُ ويَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا»، يقول: والأَمَنَةُ من الله عليَّ من الشيطانِ وجُنْدِه يومَ وُلِدْتُ أنْ ينالوا مني ما ينالون ممن يولدُ عند الولادةِ من الطعنِ فيه، ويومَ أموتُ من هولِ المطلع، ويوم أُبعثُ حياً يومَ القيامة أن ينالني الفزعُ الذي ينال الناس بمعاينتهم أهوالَ ذلك اليوم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الذي بيَّنتُ لكم صفته، وأخبرتكم خبره من أمرِ الغلام الذي حملته مريم، هو عيسى ابن مريم، وهذه الصفةُ صِفَتُه، وهذا الخبرُ خبره، وهو «قَوْلَ الحَق» يعني أنَّ هذا الخبرَ الذي قَصَصْتُه عليكم قول الحقّ[1]، والكلام الذي تلوتُه عليكم قول الله وخبره، لا خبر غيره الذي يقعُ فيه الوهمُ والشكُّ والزيادة والنقصان على ما كان يقول الله تعالى ذكره: فقولوا في عيسى أيها الناسُ، هذا القول الذي أخبركم اللهُ به عنه لا ما قالته اليهودُ الذين زعموا أنه لغير رِشْدَة، وأنه كان ساحراً كذّاباً، ولا ما قالته النصارى، من أنه كان لله ولداً، وأنَّ الله لم يتخذ ولداً، ولا ينبغي ذلك له.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍۖ سُبْحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لقد كفر الذين قالوا: إنَّ عيسى ابن الله ، وأعظموا الفِرْيَةَ عليه، فما ينبغي لله أنْ يتخذ ولداً، ولا يصلح ذلك له ولا يكون، بل كلُّ شيء دونه فَخَلْقُه.

وقوله: «سُبْحانَهُ» يقول: تنزيهاً لله وتبرئةً له أنْ يكون له ما أضاف إليه الكافرون القائلونَ: عيسى ابن الله.

---

(١) إنما قال المؤلف ذلك لأن القراءة التي اختارها: «قولُ الحق» بالرفع، وهو مرفوع عنده بمضمر، وهو: هذا قولُ الحق، على الابتداء.

وقوله: «إِذَا قَضَى أَمْراً فإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»، يقول جل ثناؤه: إنما ابتدأ الله خَلْقَ عيسى ابتداء، وأنشأه إنشاءً، من غير فحلٍ افتحلَ أُمَّهُ، ولكنه قال له: «كُنْ فَيَكُونُ»، لأنه كذلك يبتدعُ الأشياءَ ويخترعها، إنما يقول: إذا قضى خَلْقَ شيءٍ أو إنشاءه: كُنْ فيكونُ موجوداً حادثاً، لا يَعْظُمُ عليه خَلْقُه، لأنه لا يخلقه بمعاناةٍ وكلفةٍ، ولا ينشئه بمعالجة وشدّة.

وقـوله: «وإِنَّ اللهَ ربي وربُّكم فاعبدوه»، يقول: وإني وأنتم أيها القومُ جميعاً لله عبيدٌ، فإياه فاعبدوا دونَ غيره.

وقوله: «هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ»، يقول: هذا الذي أوصيتُكُمْ به، وأخبرتكم أنَّ الله أمرني به هو الطريقُ المستقيم، الذي مَنْ سلكه نجا، ومَنْ ركبه اهتدى، لأنه دينُ الله الذي أمرَ به أنبياءه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ٣٧﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: فاختلف المختلفـونَ في عيسى، فصاروا أحزاباً متفرِّقينَ من بين قومه.

وقوله: «فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ»، يقول: فوادي جهنم الذي يُدْعَى ويلاً للذين كفروا بالله، من الزاعمينَ أنَّ عيسى للهِ ولدٌ، وغيرهم من أهلِ الكفرِ به من شهودهم يوماً عظيماً شأنه، وذلك يوم القيامة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَاۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ٣٨﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن حالِ الكافرين به، الجاعلينَ له أنداداً، والزاعمينَ أنَّ له ولداً يومَ ورُودِهم عليه في الآخرة، لئن كانوا في الدنيا عمياً عن إبصارِ الحقِّ، والنظرِ إلى حججِ الله التي تدلُّ على وحدانيته صُمًّاً عن سماعِ آي كتابه، وما دعتهم إليه رسلُ الله فيها من الإقرارِ بتوحيده، وما بعث به أنبياءه، فما أَسْمَعَهُمْ يومَ قدومهم على رَبِّهم في الآخرة، وأَبْصَرَهُمْ يومئذٍ حين لا ينفعهمُ الإبصارُ والسماع.

وقوله: «لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» يقول تعالى ذِكْرُه: لكن الكافرون الذين أضافوا إليه ما ليسَ من صفته، وافتروا عليه الكذبَ اليومَ في الدنيا في ضلالٍ مبين: يقول: في ذهابٍ عن سبيل الحقِّ، وأخذٍ على غيرِ استقامة، مبين أنه جائر عن طريقِ الرشدِ والهدى لمن تأمله وفكَّرَ فيه فهدي لرشده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ: وأنذِرْ يا محمدُ هؤلاء المشركينَ بالله يوم حسرتهم وندمهم، على ما فَرَّطُوا في جنبِ الله، وأورثت مساكنهم من الجنة أهلَ الإيمانِ بالله والطاعةِ له، وأدخلوا هم مساكن أهل الإيمان بالله من النار[1]،

(١) هذا التأويل مستند الى رواية عن عبدالله بن مسعود في قصة ذكرها يقول: ما من نفس إلا وهي تنظر إلى بيت في الجنة وبيت في النار، وهو يوم الحسرة، فيرى أهل النار البيت الذي كان قد أعده الله لهم لو آمنوا، فيقال لهم: لو آمنتم وعملتم صالحاً كان لكم هذا الذي ترونه في الجنة، فتأخذهم الحسرة، ويرى أهل الجنة البيت الذي في النار، فيقال: لولا أن مَنّ الله عليكم.

وأيقن الفريقانِ بالخلودِ الدائم، والحياةِ التي لا موتَ بعدها، فيالها حسرةً وندامة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه لنبيه ﷺ: لا يَحْزُنْكَ تكذيبُ هؤلاء المشركين لك يا محمدُ فيما أتيتهم به من الحقِّ، فإنَّ إلينا مرجِعهم ومصيرهم ومصير جميعِ الخَلْقِ غيرهم، ونحن وارِثُو الأرض ومَنْ عليها من الناسِ بفنائِهم منها، وبقائِها لا مالكَ لها غيرنا، ثم علينا جزاءُ كُلِّ عاملٍ منهم بعمله، عند مرجعهِ إلينا، المحسن منهم بإحسانه، والمسيء بإساءته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه: «وَاذْكُرْ» يا محمدُ في كتاب الله «إِبْرَاهِيمَ» خليل الـرحمن، فاقْصُصْ على هؤلاء المشـركين قَصَصَـهُ وقَصَصَ أبيه. «إِنَّـه كَانَ صِدِّيقاً»، يقول: كان من أهلِ الصدقِ في حديثه وأخباره ومواعيده لا يكذب. «نَبِيًّا»، يقول: كان الله قد نَبَّأَهُ وأَوْحَى إليه.

وقوله: «إِذْ قالَ لأَبِيهِ»، يقول: اذكره حين قال لأبيه: «ياأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ»، يقول: ماتصنعُ بعبادةِ الوَثَنِ الذي لا يسمعُ «وَلا يُبْصِرُ» شيئاً «وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً»، يقول: ولا يدفعُ عنكَ ضُرَّ شيءٍ، إنما هو صورةٌ مصوَّرةٌ لا

تَضُرُّ ولا تنفعُ. يقول: ما تصنعُ بعبادةِ ماهذه صِفَتُه، اعبد الذي إذا دَعَوْتَهُ سمعَ دعاءكَ، وإذا أُحِيطَ بك أبصركَ فنصركَ، وإذا نزلَ بك ضُرٌّ دفعَ عنك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ٤٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال إبراهيمُ لأبيه: ياأبتِ إني قد آتانيَ اللهُ من العلمِ ما لم يُؤْتِـكَ فاتبعني: يقـول: فاقبلْ مني نصيحتي. «أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيًّا»، يقول: أبصرك هدى الطريقِ المستوي الذي لا تضلُّ فيه إنْ لزمته، وهو دينُ الله الذي لا اعوجاجَ فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ٤٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يا أبتِ لا تعبدِ الشيطانَ إنَّ الشيطانَ كان لله عاصياً، والعصيُّ هو ذو العصيان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ٤٥﴾

يقـول: ياأبتِ إني أعلمُ أنك إنْ متَّ على عبادةِ الشيطانِ أنه يمسك عذابٌ من عذابِ الله «فَتَكُونَ للشَّيْطانِ وَلِيًّا»، يقول: تكون له ولياً دونَ الله، ويتبرأ اللهُ منكَ، فتهلكَ، والخوفُ في هذا الموضع بمعنى العلم، كما الخشيةُ بمعنى العلم، في قوله: «فَخَشِينا أنْ يُرْهِقَهُما طُغْياناً وَكُفْرًا».

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى ذكره: «قال» أبو إبراهيمُ لإبراهيمَ حين دعاهُ إبراهيمُ إلى عبادةِ الله وتركِ عبادةِ االشيطان، والبراءة من الأوثان والأصنام «أراغِبٌ أنْتَ» يا إبراهيم «عن» عبادة «آلهتِي - لَئِن» أنتَ «لَمْ تَنتَهِ» عن ذِكْرِهَا بسوءٍ «لأَرْجُمَنَّكَ»، يقول: لأرجمنكَ بالكلامِ وذلك السبِّ، والقول القبيح.

وأما قوله: «وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا»، فإنَّ أهلَ التأويلِ اختلفوا في تأويله، فقال بعضهم: معنى ذلك: واهجرني حيناً طويلاً ودهراً. ووجَّهوا معنى المليِّ إلى المُلاوةِ من الزمان، وهو الطويلُ منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال إبراهيمُ لأبيه حين تَوَعَّدَهُ على نصيحتهِ إياهُ ودعائهِ إلى اللهِ بالقولِ السيىء والعقوبةِ: سلامٌ عليكَ ياأبتِ، يقول: أمنةً مني لكَ أنْ أُعـاودكَ فيمـا كرهتَ، ولـدعـائـك إليَّ ماتوعدتني عليه بالعقوبةِ، ولكني «سأسْتَغْفِرُ لَكَ رَبي»، يقول: ولكني سأسألُ ربي أنْ يسترَ عليكَ ذنوبكَ بعفوهِ إياكَ عن عقوبتكَ عليها. «إنَّهُ كانَ بي حَفِيًّا»، يقول: إنَّ ربي عَهِدْتُه بي لطيفاً يجيبُ دعائي إذا دعوته.

وقوله: «وأعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ»، يقول: وأُجْتَنِبُكُمْ وما تَدْعُونَ من دون الله من الأوثانِ والأصنام «وأدْعُو رَبِّي»، يقول: وأدعو ربي بإخلاصِ

العبادةِ له، وإفرادِه بالربوبية «عَسَى أنْ لا أكُونَ بِدُعاءِ رَبّي شَقِيًّا»، يقول: عسى أنْ لا أشقى بدعاءِ ربي، ولكنْ يجيبُ دعائي ويعطيني ما أسأله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۝٤٩ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۝٥٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما اعتزلَ إبراهيمُ قومه وعبادةَ ما كانوا يعبدونَ من دونِ الله من الأوثانِ آنسنا وَحْشَتَهُ من فراقهم، وأبدلناهُ منهم بمن هو خيرٌ منهم وأكرمُ على الله منهم، فوهبنا له ابنه إسحاقَ، وابنَ ابنهِ يعقوب بن إسحاق. «وكُلًّا جَعَلْنا نَبِيًّا» يقول: وجعلناهم كلهم، يعني بالكلّ إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ أنبياء، وقال تعالى ذكره: «وكُلًّا جَعَلْنا نَبِيًّا» فَوَحَّدَ ولم يقل أنبياءَ لتوحيدِ لفظِ كلٍّ. «وَوَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رحمَتِنا»، يقول جلّ ثناؤه: ورزقنا جميعَهم، يعني إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ من رحمتنا، وكان الذي وَهَبَ لهم من رحمته، ما بَسَطَ لهم في عاجل الدنيا من سَعَةِ رزقه، وأغناهم بفضله.

وقوله: «وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا»، يقول تعالى ذِكْرُه: ورزقناهم الثناءَ الحَسَنَ، والذِكْرَ الجميلَ من الناس.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه ﷺ: واذكُرْ يا محمدُ في كتابنا الذي أنزلناهُ إليكَ موسى بن عمران واقصصْ على قومكَ أنه كان مخلصاً.

«وكانَ رَسُولًا»، يقول: وكان لله رسولاً إلى قومهِ بني إسرائيل، ومن أرسله إليه نبياً.

القَـوْلُ في تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝٥٢ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ۝٥٣﴾

يقول تعالى ذكره: ونادينا موسى من ناحيةِ الجبلِ، ويعني بالأيمنِ: يمينَ موسى، لأنَّ الجبلَ لا يمينَ له ولا شمال، وإنما ذلك كما يقال: قامَ عن يمينِ القبلةِ وعن شمالها.

وقوله: «وَقَرَّبْناهُ نَجِيًّا»، يقول تعالى ذكره: وأدنيناه مناجياً، كما يقال: فلانٌ نديمُ فلان ومنادِمُه وجليسُ فلان ومجالسه، وذُكر أنَّ الله جلّ ثناؤه أدناهُ حتى سمعَ صريفَ القلم.

وقوله: «وَوَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أخاهُ هارُونَ»، يقول: ووهبنا لموسى رحمةً منا أخاهُ هارون «نَبِيًّا»، يقول: أيَّدناه بنبوَّتِهِ، وأعَنَّاهُ بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥٤﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: واذكُرْ يا محمدُ في هذا الكتاب إسماعيلَ بنَ إبراهيم، فاقصُص خبرَهُ إنه كان لا يكذبُ وعده ولا يخلف، ولكنه كان إذا وَعَدَ ربه، أو عبداً من عباده وعداً وفَّى به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ

عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ﴿٥٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وكانَ يأْمُرُ أهْلَهُ بـ» إقامة «الصَّلاةِ و» إيتاء «الزَّكاةِ» وكانَ عِنْدَ رَبهِ مَرْضِيًّا» عَمَلُه، محموداً فيما كَلَّفَهُ رَبُّه غيرَ مقصرٍ في طاعته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: واذكر يا محمدُ في كتابنا هذا إدريس «إنَّهُ كانَ صِدّيقاً» لا يقولُ الكذبَ، «نبيًّا» نُوحي إليه من أمرنا ما نشاءُ «وَرفَعْناهُ مكانا عَلِيًّا» ذكر أنَّ الله رفعه وهو حيٌّ إلى السماء الرابعةِ، فذلك معنى قوله: «وَرَفَعْناهُ مَكانا عَلِيًّا» يعني به إلى مكانٍ ذي علوٍّ وارتفاع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا۩ ﴿٥٨﴾ ۞

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه ﷺ: هؤلاء الذين اقتصصتُ عليكَ أنباءهم في هذه السورة يا محمدُ، الذينَ أنعمَ الله عليهم بتوفيقهِ، فهداهم لطريقِ الرشدِ من الأنبياءِ من ذريَّةِ آدمَ، ومن ذرِّيةِ مَنْ حملنـا مع نوحٍ في الفُلك، ومن ذرْيةِ إبراهيمَ خليلِ الرحمن، ومن ذرّيةِ إسرائيلَ، ومِمَّنْ هدينا للإيمانِ بالله والعملِ بطاعته واجتبينا: يقول: ومِمَّن اصطفينا واخترنا لرسالَتِنا ووَحْيِنا، فالذي عَنَى به من ذريةِ آدمَ إدريسَ، والذي عَنَى به من ذريةِ مَنْ حملنا مع نوحٍ إبراهيم،

والذي عنى به من ذرية إبراهيم إسحاق ويعقوب وإسماعيل، والذي عنى به من ذرّية إسرائيل: موسى وهارون وزكريا وعيسى وأمه مريم، ولذلك فرق تعالى ذِكْرُه أنسابَهم وإنْ كان يجمعُ جميعَهُمْ آدمُ لأنَّ فيهم مَنْ ليس من ولدِ مَنْ كان مع نوحٍ في السفينة، وهو إدريسُ، وإدريس جَدُّ نوح.

وقوله تعالى ذِكْرُه: «إذَا تُتلى عَلَيهِمْ آياتُ الرَّحمنِ»، يقول: إذا تُتْلَى على هؤلاء الذين أنعمَ اللهُ عليهم من النبيين أدلةُ الله وحججُهُ التي أنزلها عليهم في كتبه، خَرُّوا لله سُجَّداً، استكانةً له وتذللاً وخضوعاً لأمرِه وانقياداً، «وَبُكِيًّا»، يقول: خَرُّوا سُجَّداً وهم باكون، والبُكِيُّ: جمع بَاكٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ٥٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فحدث من بعد هؤلاء الذين ذكرتُ من الأنبياءِ الذين أنعمتُ عليهم، ووصفتُ صِفَتَهُم في هذه السورة، خَلْفُ سُوءٍ خلفوهم في الأرض أضاعُوا الصلاةَ.

ثم اختلف أهلُ التأويل في صفة إضاعتِهم الصلاةَ، فقال بعضهم: كانت إضاعَتَهُمُوها تأخيرهم إيَّاها عن مواقيتها، وتضييعهم أوقاتها.

وقال آخرون: بل كانت إضاعتهُمُوهَا: تركها.

وأولى التأويلين في ذلك عندي بتأويلِ الآية، قولُ مَنْ قال: إضاعتهموها تركهم إياها لدلالةِ قولِ الله تعالى ذِكْرُه بعده على أنَّ ذلك كذلك، وذلك قولُه جلَّ ثناؤه: «إلَّا مَنْ تابَ وآمَنَ وعَمِلَ صَالِحاً» فلو كان الذين وصفهم بأنهم ضَيَّعُوها مؤمنينَ لم يستثنِ منهم مَنْ آمنَ، وهم مؤمنون ولكنهم كانوا كفاراً لا يصلون لله، ولا يؤدُّونَ له فريضةً، فَسَقَةٌ قد آثروا شهواتِ أنفسِهم على طاعةِ

الله، وقد قيل: إنَّ الذين وصفهم الله بهذه الصفةِ قومٌ من هذه الأمةِ يكونونَ في آخرِ الزمان.

وأما قوله: «فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا»، فإنه يعني أنَّ هؤلاء الخلْفَ الذين خلفوا بعد أولئك الذين أنعمَ اللهُ عليهم من النبيين سيدخلون غياً، وهم اسمُ وادٍ من أوديةِ جهنم، أو اسمُ بئرٍ من آبارها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ۝٦٠﴾

يقول تعالى ذكره: فسوف يَلْقى هؤلاءِ الخلفُ السوءُ الذين وَصَفَ صفتهم غياً، إلَّا الذين تابوا فراجعوا أمرَ الله، والإيمانَ به وبرسوله. «وعَمِلَ صَالحاً»، يقول: وأطاعَ اللهَ فيما أمرَهُ ونهاهُ عنه، وأدّى فرائِضَهُ، واجتنبَ محارمه «فأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ»، يقول: فإنَّ أولئكَ منهم خاصةً يدخلونَ الجنةَ دونَ مَنْ هلكَ منهم على كُفْرِه، وإضاعته الصلاةَ واتباعهِ الشهوات.

وقوله: «وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئاً»، يقول: ولا يُبْخَسُونَ من جزاءِ أعمالهم شيئاً، ولا يجمع بينهم وبين الذين هلكوا من الخلف السوء منهم قبلَ توبتِهم من ضلالهم، وقبلَ إنابتهم إلى طاعةِ رَبِّهم في جهنمَ، ولكنهم يدخلون مدخلَ أهلِ الإيمان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ۝٦١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فأولئك يدخلون الجنةَ «جَنَّاتِ عَدْنٍ».

وقوله: «جَنَّاتِ عَدْنٍ» نصب ترجمة عن الجنة. ويعني بقوله: «جَنَّاتِ

عَدْنٍ»: بساتين إقامة.

وقوله: «التي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبادَهُ بالغَيْبِ»، يقول: هذه الجناتُ هي الجناتُ التي وَعَدَ الرحمنُ عباده المؤمنينَ أنْ يدخلوها بالغيبِ، لأنهم لم يَرَوْهَا ولم يعاينوها، فهي غيبٌ لهم.

وقوله: «إنَّهُ كانَ وَعْدهُ مأتِيًّا»، يقول تعالى ذكره: إنَّ الله كان وَعْدُه، ووَعْدُهُ في هذا الموضع مَوْعُودُهُ، وهو الجنة مأتياً يأتيه أولياؤه وأهل طاعته الذين يُدْخِلُهُمُوها الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لا يسمع هؤلاء الذين يدخلون الجنةَ فيها لغواً، وهو الهَذْي والباطلُ من القولِ والكلام «إلَّا سَلَاماً» وهذا من الاستثناء المنقطع، ومعناه: ولكن يسمعون سلاماً، وهو تحيةُ الملائكةِ إياهم.

وقوله: «ولَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا»، يقول: ولهم طعامُهم وما يشتهونَ من المطاعمِ والمشاربِ في قدر وقتِ البُكرةِ ووقتِ العشيِّ من نهارِ أيامِ الدنيا، وإنما يعني أنَّ الذي بين غدائهم وعشائهم في الجنة قَدْر ما بينَ غداءِ أَحَدِنَا في الدنيا وعشائهِ، وكذلك ما بينَ العشاء والغداء وذلك لأنه لا ليلَ في الجنة ولا نهار، وذلك كقوله: «خَلَقَ الأَرْضَ في يومَيْنِ وخَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّام»، يعني به: من أيامِ الدنيا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هذه الجنةُ التي وصفتُ لكم أيها الناسُ صِفَتَها، هي الجنةُ التي نورثها، يقول: نورث مساكن أهل النار فيها «مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا»، يقول: مَنْ كان ذا اتقاء عذابِ الله بأداءِ فرائضِه، واجتنابِ معاصيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۝٦٤﴾

ذُكر أنَّ هذه الآية نزلتْ من أجلِ استبطاءِ رسولِ الله ﷺ جبرائيلَ بالوحي.

ثم اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «لَهُ ما بينَ أيْدِينا ومَا خَلْفَنا ومَا بينَ ذلكَ»، فقال بعضهم: يعني بقوله: «ما بينَ أيْدِينا» من الدنيا، وبقوله: «ومَا خَلْفَنا» الآخرة «ومَا بينَ ذلكَ» النفختين.

وقال آخرون: «ما بينَ أيْدِينا» الآخرة «ومَا خَلْفَنا» الدنيا «ومَا بينَ ذلكَ» ما بين الدنيا والآخرة.

وقال آخرون: «ما بينَ أيْدِينا» ما مضى أمامَنَا من الدنيا «ومَا خَلْفَنا» ما يكونُ بعدَنَا من الدنيا والآخرة «ومَا بينَ ذلكَ» قال: ما بينَ ما مَضَى أمامَهم، وبين ما يكونُ بعدَهم.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصواب، قولُ مَنْ قال: معناه: له ما بينَ أيدينا من أمرِ الآخرةِ، لأنَّ ذلك لم يجئْ وهو جاءٍ، فهو بينَ أيديهم، فإنَّ الأغلبَ في استعمالِ الناسِ إذا قالوا هذا الأمر بين يديك، أنهم يعنون به ما لم يجىء وأنه جاءٍ، فلذلك قلنا: ذلك أوْلى بالصواب: وما خَلْفَنا من أمر الدنيا، وذلك ما قد خلفوه فمضى، فصار خلفهم بتخليفهم إياه، وكذلك تقولُ العربُ لما قد

جاوزه المرء وخلفه هو خلفه، ووراءه وما بين ذلك: ما بين مالم يمضِ من أمرِ الدنيا إلى الآخرة، لأنَّ ذلك هو الذي بين ذينك الوقتين.

وإنما قلنا: ذلك أوْلى التأويلاتِ به، لأنَّ ذلك هو الظاهر الأغلب، وإنما يُحْمَلُ تأويلُ القرآن على الأغلب معانيه، مالم يمنعْ من ذلك ما يجبُ التسليمُ له. فتأويل الكلام إذن: فلا تَسْتَبْطِئْنَا يا محمدُ في تَخَلُّفِنَا عنكَ، فإنا لا نتنزَّلُ من السماء إلى الأرض إلا بأمرِ ربكَ لنا بالنزولِ إليها، لله ماهو حادثٌ من أمورِ الآخرة التي لم تأتِ وهي آتيةٌ، وما قد مضى فخلفناه من أمرِ الدنيا، وما بينَ وقتنا هذا إلى قيامِ الساعة، بيدهِ ذلكَ كُلُّه، وهو مالكُه ومصرِّفُه، لا يملك ذلك غيرُه، فليسَ لنا أنْ نحدث في سلطانه أمراً إلا بأمرِه إيانا به.

«ومَا كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا»، يقول: ولم يكن رَبُّكَ ذا نسيانٍ، فيتأخر نزولي إليكَ بنسيانهِ إياكَ بَلْ هو الذي لا يعزُبُ عنه شيءٌ في السماء ولا في الأرضِ تباركَ وتعالى، ولكنه أعلمُ بما يُدَبِّرُ ويقضي في خلقه. جلّ ثناؤه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: لم يَكُنْ رَبُّكَ يا محمدُ ربُّ السمواتِ والأرض وما بينهما نسياً، لأنه لو كان نسياً لم يستقمْ ذلك، ولهلكَ لولا حفظه إياه.

وقـولـه: «فـاعْبُـدْه»، يقول: فالزمْ طاعتَهُ، وذلَّ لأمرِه ونهيه: «وَاصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ»، يقول: واصبرْ نفسك على النفوذِ لأمره ونهيه، والعملِ بطاعته، تَفُزْ برضـاهُ عنكَ، فإنه الإلهُ الذي لا مِثْلَ له ولا عدلَ ولا شبيهَ في جُودِهِ وكرمه وفضله. «هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا»، يقول: هل تعلمُ يا محمدُ لربكَ هذا الذي أمرناكَ

بعبادته، والصبر على طاعته مثلاً في كرمه وجوده، فتعبده رجاءَ فَضْلِهِ وطَوْله دونه كَلَّا، ما ذلكَ بموجودٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾

يقول تعالى ذكره: «ويقولُ الإنسانُ» الكافرُ الذي لا يصدقُ بالبعثِ بعد الموتِ أُخْرَجُ حياً، فأُبعث بعد المماتِ وبعد البلاءِ والفناءِ إنكاراً منه ذلك، يقول الله تعالى ذكره: «أوْ لا يذكرُ الإنسانُ» المُتَعَجِّبُ من ذلك المنكر قدرةَ الله على إحيائهِ بعد فنائهِ، وإيجادِه بعد عَدَمِه في خَلْقِ نفسه، أنَّ الله خلقه من قبل مماته، فأنشأه بشراً سوياً من غير شيء «ولمْ يكُ» من قبلِ إنشائهِ إياه «شَيئاً» فيعتبر بذلك ويعلم أنَّ مَنْ أنشأه من غيرِ شيء لا يعجزُ عن إحيائهِ بعد مماتِه، وإيجادِه بعد فنائه.

وقد اختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: «أَوَلا يَذْكُرُ الإنْسانُ» فقرأه بعض قَرَأَةِ المدينة والكوفة: «أَوَلا يَذْكُرُ» بتخفيفِ الذال، وقد قرأ ذلك عامةُ قَرَأَةِ الكوفة والبصـرة والحجـاز «أَوَلا يَذَّكَّرُ» بتشديد الذال والكاف، بمعنى: أولا يتذكر، والتشديدُ أعجبُ إليَّ، وإنْ كانتِ الأخرى جائزة، لأن معنى ذلك: أَوَ لا يتفكَّر فيعتبر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: فورَبِّكَ يا محمدُ لنحشرنَّ هؤلاء

القائلين: أَئِذَا متنا لسوف نُخْرَجُ أحياء يومَ القيامة من قبورهم، مقرنينَ بأوليائِهم من الشياطين. «ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا» والجثي: جمع الجاثي[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ۝٦٩﴾

يقـول تعالى ذكره، ثم لنأخذنّ من كلّ جماعة منهم أشدّهم على الله عتوّاً، وتمرّداً فلنبدأنّ بهم.

والشيعة هم الجماعةُ المتعاونون على الأمرِ من الأمورِ، يقال من ذلك: تشايعَ القومُ: إذا تعاونوا؛ ومنه قولُهم للرجلِ الشجاع: إنه لمشيع: أي مُعَانٌ، فمعنى الكلام: ثم لننزعنَّ من كلِّ جماعةٍ تشايعتْ على الكفرِ بالله، أشدّهم على الله عتـوّاً، فلنبـدأنَّ بإصـلائـهِ جهنمَ، والتشايعُ في غير هذا الموضع: التفرُّقُ؛ ومنه قولُ الله عَزَّ ذِكْرُه: «وكانُوا شيَعاً»، يعني: فرقاً؛ ومنه قول ابن مسعود أو سعد؛ إني أكره أن آتي رسولَ الله ﷺ، فيقول: شيَّعتَ بين أمتي، بمعنى: فَرَّقْتَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ۝٧٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ثم لنحنُ أعلمُ من هؤلاء الذين ننزعهم من كلِّ شيعةٍ أَوْلاهم بشدَّةِ العذاب، وأَحَقُّهُمْ بعظيمِ العقوبة.

---

(١) يعني: القعود، وهو مثل قوله: «وترى كل أمة جاثية»، أي: قاعدة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإن منكم أيها الناسُ إلا واردُ جهنمَ، كان على رَبِّكَ يا محمدُ إيرادهُمُوها قضاءً مقضياً، قد قضى ذلك وأوجبه في أمِّ الكتاب.

واختلف أهلُ العلم في معنى الورود الذي ذكره الله في هذا الموضع، فقال بعضهم: الدخول.

وقال آخرون: بل هو المَرُّ عليها.

وقال آخرون: بل الورودُ: هو الدخولُ، ولكنه عَنَى الكفارَ دونَ المؤمنين.

وقال آخرون: بل الورودُ عامٌّ لكلِّ مؤمنٍ وكافر، غيرَ أنَّ ورودَ المؤمنِ المرورُ، وورودَ الكافرِ الدخولُ.

وقال آخرون: ورودُ المؤمنِ ما يصيبُه في الدنيا من حُمَّى ومرض.

وقال آخرون: يَرِدُها الجميعُ، ثم يصدرُ عنها المؤمنونَ بأعمالِهم.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ قولُ مَنْ قال: يردها الجميعُ ثم يصدرُ عنها المؤمنون، فينجيهم الله، ويهوي فيها الكفارُ. ووُرودهُمُوها هُوَ ما تظاهرتْ به الأخبارُ عن رسولِ الله ﷺ من مرورِهم على الصراطِ المنصوبِ على متنِ جهنمَ، فناجٍ مُسْلِمٌ ومُكَدَّسٌ فيها[1].

---

(١) حديث أبي سعيد الخدري عند أحمد: ٢٦/٣، وابن حبان (٧٣٧٩) وإسناده صحيح. وحديث عائشة عند مسلم (٢٧٩١)، والترمذي (٣١٢١)، وابن ماجة (٤٢٧٩)، وابن حبان (٧٣٨٠)، وغيرها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «ثمَّ نُنَجِّي» من النارِ بعد ورودِ جميعِهم إياها «الذينَ اتَّقَوْا» فخافوه بأداءِ فرائضِه واجتنابِ معاصيه «وَنَذَرُ الظَّالِمينَ فِيها جِثِيًّا»، يقول جلّ ثناؤه: ونَدَعُ الذين ظلموا أنفسهم فعبدوا غيرَ الله وعَصَوْا ربَّهم، وخالفوا أمره ونهيه في النار جثياً، يقول: بُرُوكاً على رُكَبِهم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وإذَا تتلى» على الناسِ «آياتُنا» التي أنزلناها على رسولنا محمدٍ «بيِّناتٍ» يعني واضحاتٍ لمن تأمَّلها وفكَّرَ فيها أنها أدلة على ما جعلها اللهُ أدلةً عليه لعباده «قال الذينَ كفروا» بالله وبكتابه وبآياته وهم قريش «للذينَ آمنُوا» فصدَّقُوا به وهم أصحابُ محمد «أيُّ الفريقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً» يَعْني بالمقام: موضع إقامتهم، وهي مساكنهم ومنازلهم «وأحْسَنُ نَدِيًّا» وهو المجلسُ، يقال منه: ندوتُ القومَ أَنْدُوهُمْ ندواً: إذا جمعتهم في مجلس، ويقال: هو في نديِّ قومه وفي ناديهم بمعنى واحد.

وتأويلُ الكلام: وإذا تُتلى عليهم آياتنا بيِّناتٍ، قال الذين كفروا للذين آمنوا: أيُّ الفريقين مِنَّا ومنكم أوسعُ عيشاً، وأنعم بالاً، وأفضلُ مسكناً وأحسن مجلساً وأجمع عدداً، وغاشيةً في المجلس، نحنُ أم أنتم؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا ۝٧٤﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: وكم أهلكنا يا محمدُ قبل هؤلاء القائلينَ من أهلِ الكفـرِ للمؤمنينَ، إذا تُتلى عليهم آياتُ الـرحمن، أيّ الفـريقين خيرٌ مقاماً، وأحسنُ نَدِيّاً، مجالس من قَرْنٍ هُمْ أكثر متاع منازل من هؤلاء، وأحسنُ منهم منظراً وأجملُ صوراً، فأهلكنا أموالَهم، وغَيَّرْنَا صُوَرَهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ۝٧٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ لهؤلاء المشركين بربهم، القائلينَ: إذا تُتْلَى عليهم آياتُنا، أيُّ الفريقين منا ومنكم خيرٌ مقاماً وأحسن ندياً، مَنْ كان منـا ومنكم في الضـلالة جائراً عن طريق الحقِّ، سالكاً غيرَ سبيلِ الهدى، فليمدُدْ له الرحمنُ مَدّاً: يقول: فليطوِّلْ له الله في ضلالته، وليمله فيها إملاء.

وقوله: «حتى إذَا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ إمَّا العَذَابَ وإمَّا السَّاعَةَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قُلْ لهم: من كان منا ومنكم في الضلالةِ، فليمدُدْ له الرحمنُ في ضلالته إلى أنْ يأتيهم أمرُ الله، إما عذاب عاجلٌ، أو يلقوا ربهم عند قيامِ الساعةِ التي وعد الله خَلْقَهُ أنْ يجمعهم لها، فإنهم إذا أتاهم وَعْدُ الله بأحدِ هذين الأمرين «فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكاناً» ومسكناً منكم ومنهم «وأَضْعَفُ جُنْداً» أَهُمْ أم أنتم؟ ويتبينون حينئذٍ أيُّ الفريقين خيرٌ مقاماً، وأحسنُ ندياً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويَزيدُ اللهُ مَنْ سلكَ قصدَ المحجةِ، واهتدى لسبيلِ الرشد، فآمنَ بربه، وصدَّقَ بآياتهِ، فعملَ بما أَمَرَهُ به، وانتهى عما نَهاهُ عنه هدى بما يتجدَّدُ له من الإيمانِ بالفرائضِ التي يفرضها عليه، ويقرّ بلزومِ فرضها إياه، ويعمل بها، فذلك زيادةٌ من الله في اهتدائهِ بآياتهِ هُدىً على هُداهُ، وذلك نظيرُ قوله: «وإذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إيماناً، فأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إيمَانا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ».

«وَالباقِياتُ الصَّالحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً» يقول تعالى ذِكْرُه: والأعمالُ التي أمرَ الله بها عباده ورَضِيَها منهم، الباقياتُ لهم غيرُ الفانياتِ الصالحات، خيرٌ عند ربكَ جزاءً لأهلها «وَخَيْرٌ مَرَدًّا» عليهم من مقاماتِ هؤلاء المشركينَ بالله، وأنديتهم التي يفتخرونَ بها على أهلِ الإيمان في الدنيا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ «أفرأيْتَ» يا محمدُ «الَّذي كَفَرَ بآياتِنا» حججنا فلم يصدِّقْ بها، وأنكرَ وعيدَنا من أهلِ الكفر «وقَالَ» وهو بالله كافرٌ وبرسولِهِ «لأُوتَينَّ» في الآخرة «مالاً وَوَلَداً»، وذُكر أنَّ هذه الآيات أنزلتْ في العاص بن وائل السهمي أبي عمرو بن العاص.

وقوله: «أطَّلَعَ الغَيْبَ»، يقول عزَّ ذِكْرُه: أَعَلِمَ هذا القائلُ هذا القولَ عِلْمَ الغيبِ، فعلم أنَّ له في الآخرةِ مالاً وولداً باطلاعه على علمِ ما غابَ عنه.

«أم اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً»، يقول: أم آمن بالله وعملَ بما أمرَ به، وانتهى عما نهاه عنه، فكان له بذلك عند الله عهداً أن يؤتيه ما يقولُ من المالِ والولد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ۝٧٩ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ۝٨٠﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: كلا ليسَ الأمرُ كذلك، ما اطلعَ الغيبَ، فَعَلِمَ صِدْقَ ما يقولُ، وحقيقة ما يذكر، ولا اتَّخَذَ عند الرحمنِ عهداً بالإيمانِ بالله ورسوله، والعمل بطاعته، بل كَذَّبَ وكفر، ثم قال تعالى ذكره: «سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ»: أي سنكتبُ ما يقولُ هذا الكافرُ بربه، القائلُ: «لأُوتَينَّ» في الآخرة «مالاً وَوَلَداً ونَمُدُّ لَهُ مِنَ العَذَابِ مِدّاً»، يقول: ونزيدُهُ من العذابِ في جهنم بقِيلِهِ الكذبَ والباطلَ في الدنيا، زيادةً على عذابِهِ بكفرِه بالله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۝٨٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: واتَّخَذَ، يا محمدُ، هؤلاء المشركونَ من قومِكَ آلهةً يعبدونها من دونِ الله لتكونَ هؤلاء الآلهةُ لهم عِزّاً، يمنعونهم من عذابِ الله، ويتخذون عبادَتَهُمُوها عند الله زُلْفى.

وقوله: «كَلّا»، يقول عز ذكره: ليس الأمرُ كما ظَنُّوا وأمَّلُوا من هذه الآلهةِ التي يعبدونها من دونِ الله في أنها تنقذهم من عذابِ الله، وتُنَجِّيهم منه، ومن سوءٍ إنْ أراده بهم رَبُّهم.

وقوله: «سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ»، يقول عَزَّ ذكره: ولكن سيكفرُ الآلهةُ في الآخـرةِ بعبادةِ هؤلاء المشركينَ يومَ القيامةِ إيَّاها، وكفرهم بها قِيلهم لربِّهم:

تَبَرَّأْنَا إليكَ ما كانُوا إيَّانا يعبدون، فَجَحَدُوا أنْ يكونوا عَبَدُوهم أو أمروهم بذلك، وتبرَّءُوا منهم، وذلك كفرهم بعبادتهم.

وأما قوله: «وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّا» فإنَّ أهلَ التأويل اختلفوا في تأويله، فقال بعضهم: معنى ذلك: وتكون آلهتُهم عليهم عوناً، وقالوا: الضدُّ: العونُ.

وقال آخرون: بل عنى بالضدِّ في هذا الموضع: القُرَناء.

وقال آخرون: معنى الضدّ ههنا: العدوُّ.

وقال آخرون: معنى الضدّ في هذا الموضع: البلاء.

والضدّ في كلام العرب: هو الخلافُ، يقال: فلان يضادُّ فلاناً في كذا، إذا كان يخالفُه في صنيعه، فيفسد ما أصلحه، ويصلح ما أفسده، وإذْ كان ذلك معناه، وكانت آلهةُ هؤلاءِ المشركينَ الذين ذكرهم اللهُ في هذا الموضع يتبرءونَ منهم، وينتفون يومئذٍ، صاروا لهم أضداداً، فوُصِفُوا بذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ألم تَرَ يا محمدُ أنَّا أرسلنا الشياطينَ على أهلِ الكفرِ بالله «تَؤُزُّهُمْ»، يقول: تُحَرِّكُهم بالإغواءِ والإضلالَ، فتزعجهم إلى معاصي الله، وتُغريهم بها حتى يواقعوها «أزّاً» إزعاجاً وإغواء.

وقوله: «فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً»، يقول عَزَّ ذِكْرُه: فلا تعجلْ على هؤلاء الكافرينَ بطلبِ العذابِ لهم والهلاك، يا محمدُ «إنما نَعُدُّ لهم عَدّاً»، يقول: فإنما نُؤَخِّرُ إهلاكَهم ليزدادوا إثماً، ونحن نعدُّ أعمالَهم كلها ونحصيها حتى أنفاسهم لنجازِيهم على جميعِهَا، ولم نتركْ تعجيلَ هلاكهم لخيرٍ أردناه بهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يومَ نجمعُ الذين اتقوا في الدنيا فخافوا عقابه، فاجتنبوا لذلك معاصيه، وأدَّوا فرائضه إلى ربهم «وفْدًا»، يعني بالوفد: الرُّكْبَان، يقال: وفدتُ على فلان: إذا قدمت عليه، وأوفد القومُ وفداً على أميرهم، إذا بعثوا من قبلهم بعثاً. والوفدُ في هذا الموضع بمعنى الجمع، ولكنه وحّد، لأنه مصدر واحدهم وافد، وقد يجمع الوفد: الوفود.

وقوله: «وَنَسُوقُ المُجْرِمينَ إلى جَهَنَّمَ وِرْداً»، يقول تعالى ذِكْرُه: ونسوقُ الكافرينَ باللهِ الذين أجرموا إلى جهنمَ عِطاشاً. والوِرْدُ: مصدرٌ من قولِ القائلِ: وردت كذا أرِده ورداً، ولذلك لم يجمع، وقد وصف به الجمع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لا يملكُ هؤلاء الكافرونَ بربهم يا محمدُ، يومَ يحشرُ اللهُ المتقينَ إليه وفداً، الشفاعةَ حين يشفعُ أهلُ الإيمان بعضهم لبعضٍ عندَ الله، فيشفعُ بعضُهم لبعضٍ «إلاَّ مَنِ اتَّخذَ» منهم «عِنْدَ الرَّحْمَنِ» في الدنيا «عَهْداً» بالإيمانِ به، وتصديقِ رسولِه، والإقرارِ بما جاء به، والعملِ بما أمرَ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقال هؤلاء الكافرون بالله: «اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إدًّا» يقول تعالى ذِكْرُه للقائلينَ ذلك من خَلْقِه: لقد جئتم أيها الناسُ شيئاً عظيماً من القولِ مُنْكَراً.

وقوله: «تَكادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: تكادُ السمواتُ يتشقَّقْنَ قطعاً من قِيلهم: «اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً»، ومنه قيل: فَطَرَ نَابُه: إذا انشقَّ.

وقوله: «وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ»، يقول: وتكادُ الأرضُ تنشقُّ، فتنصدعُ من ذلك: «وتَخِرُّ الجِبالُ هَدًّا»، يقول: وتكادُ الجبالُ يسقطُ بعضُها على بعضٍ سقوطاً، والهدُّ: السقوط، وهو مصدر هددت، فأنا أهدُّ هدًّا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وتكادُ الجبالُ أنْ تخرَّ انقضاضاً، لأنْ دَعَوْا للرحمنِ ولداً.

وقوله: «وَمَا يَنْبَغِي للرَّحْمَنِ أنْ يَتخِذَ وَلَداً»، يقول: وما يصلح لله أنْ يَتَّخِذَ ولداً، لأنه ليس كالخلقِ الذين تغلبهم الشهواتُ، وتضطرُّهُم اللذّاتُ إلى جماعِ الإناثِ، ولا وَلَدَ يحدثُ إلا من أنثى، والله يتعالى عن أنْ يكونَ كخلْقِه.

«إنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ والأرْضِ إلَّا آتي الرَّحْمَنِ عَبْدًا»، يقول: ما جميع من في السموات من الملائكة، وفي الأرض من البشرِ والإنسِ والجنِّ «إلَّا آتي الـرَّحْمَنِ عَبْـدًا»، يقـول: إلا يأتي رَبَّـهُ يومَ القيامة عبداً له، ذليلاً خاضعاً، مُقِرّاً له بالعبوديةِ، لا نسبَ بينه وبينه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لقد أحصى الرحمنُ خَلْقَهُ كلهم، وعَدَّهُمْ عَدّاً، فلا يَخْفَى عليه مبلغُ جميعِهم، وعرف عددهم، فلا يعزبُ عنه منهم أحد «وكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ القِيامَةِ فَرْدًا»، يقول: وجميع خلقه سوف يَرِدُ عليه يومَ تقومُ الساعةُ وحيداً لا ناصرَ له من الله، ولا دافعَ عنه، فيقضي الله فيه ماهو قاضٍ، ويصنعُ به ماهو صانع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين آمنوا بالله ورسله، وصَدَّقُوا بما جاءهم من عند رَبِّهم، فَعَمِلُوا به، فأحَلُّوا حلاله، وحَرَّمُوا حرامه «سيجعلُ لهمُ الرحمنُ ودًا» في الدنيا، في صدور عباده المؤمنين.

وقوله: «فإنَّمَا يَسَّرْناهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ المُتَّقِينَ»، يقول تعالى ذكره: فإنما يسَّرنا يا محمدُ هذا القرآنَ بلسانك، تَقْرَؤُهُ لتبشِّرَ به المتقينَ الذين اتقوا عقابَ الله بأداءِ فرائضِه، واجتنابِ معاصيه بالجنةِ. «وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْما لُدّاً»، يقول: ولتنذرَ بهذا القرآنِ عذابَ الله قومكَ من قريش، فإنهم أهلُ لَدَدٍ وجَدَلٍ بالباطلِ، لا يقبلونَ الحقَّ، واللدّ: شِدَّةُ الخصومة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ

مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وكثيراً أهلكنا يا محمدُ قبلَ قومكَ من مشركي قريش من قَرْنٍ، يعني من جماعةٍ من الناسِ، إذْ سلكوا في خلافي وركوب معاصي مَسْلَكِهُمْ، «هَلْ تُحِسُّ منهم من أحدٍ»، يقول: فهل تحسُّ أنتَ منهم أحداً يا محمد، فتراه وتعاينه «أوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا»، يقول: أو تسمع لهم صوتاً، بل بادوا وهلكوا، وخَلَتْ منهم دُورُهُم وأوحشتْ منهم منازلهم، وصاروا إلى دارٍ لا ينفعهم فيها إلا صالحٌ من عملٍ قَدَّمُوه، فكذلك قومُكَ هؤلاء، صائرونَ إلى ما صار إليه أولئك، إنْ لم يُعاجِلُوا التوبةَ قبل الهلاك.

سُورَةُ طه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «طَهَ» فقال بعضهم: معناه يارجل.

وقال آخرون: هو اسمٌ من أسماء الله، وقَسَمٌ أقسمَ اللهُ به.

وقال آخرون: هو حروف هجاء.

وقال آخرون: هو حروفٌ مقطعة يدلُّ كُلُّ حرفٍ منها على معنى، واختلفوا في ذلك اختلافهم في الٓمٓ، وقد ذكرنا ذلك في مواضعه.

والذي هو أَوْلى بالصوابِ عندي من الأقوالِ فيه قولُ مَنْ قال: معناه: يارجل، لأنها كلمةٌ معروفة في عكٍّ[1] فيما بلغني، وأنَّ معناها فيهم: يارجل.

فتأويلُ الكلام إذن: يا رجل ما أنزلنا عليكَ القرآنَ لتشقى، ما أنزلناهُ فنكلفك ما لا طاقة لك به من العمل، وذُكر أنه قيل له ذلك بسبب ما من النَّصَب والعناء والسهر في قيام الليل.

«إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما أنزلنا عليكَ هذا

القرآنَ إلا تذكرةً لمن يخشى عقابَ الله، فيتقيه بأداءِ فرائضِ رَبِّه واجتنابِ محارمه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: هذا القرآنُ تنزيلٌ من الربِّ الذي خلق الأرضَ والسموات العُلَى. والعُلَى: جمع عليا.

وقوله: «الرَّحْمَنُ عَلى العَرْشِ اسْتَوَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: الرحمنُ على عرشِهِ ارتفعَ وعَلاَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لله ما في السمواتِ وما في الأرضِ وما بينهما، وما تحتَ الثرى، ملكاً له، وهو مُدَبِّرُ ذلك كله، ومصرِّفُ جميعه. ويعني بالثرى: الندى، يقالُ للترابِ الرطبِ المبتلِّ: ثرى منقوص، يقال منه: ثريت الأرض تثرى، ثرى منقوص، والثرى: مصدر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإنْ تجهرْ يا محمدُ بالقولِ، أو تخفِ به، فسواءٌ عند ربك الذي له ما في السموات وما في الأرض. «فإنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ»، يقول: فإنه

لا يَخْفَى عليه ما استسررتَهُ في نفسك، فلم تُبْدِه بجوارحك ولم تتكلم بلسانك، ولم تنطق به «وأخفى».

ثم اختلف أهل التأويل في المعنيِّ بقوله: «وأَخْفَى» فقال بعضهم: معناه: وأَخْفَى من السرِّ، قال: والذي هو أخفى من السرِّ ما حدَّثَ به المرءُ نفسَهُ ولم يعمله.

وقال آخرون: بل معناه: وأخفى من السرِّ ما لم تُحِدِّثْ به نفسَكَ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: إنه يعلم سرَّ العبادِ، وأَخْفَى سِرَّ نفسِه، فلم يطلعْ عليه أحداً.

والصوابُ من القول في معنى أخفى من السرِّ أنْ يقال: هو ما عَلِمَ اللهُ مما أَخْفَى عن العباد، ولم يعلموه مما هو كائنٌ ولما يكن، لأنَّ ما ظهرَ وكان فغيرُ سرٍّ، وأنَّ ما لم يكن وهو غيرُ كائنٍ فلا شيء، وأنَّ ما لم يكن وهو كائنٌ فهو أخفى من السرِّ، لأن ذلك لا يعلمهُ إلا الله، ثم مَنْ أعلمَهُ ذلكَ من عبادِه.

وأما قوله تعالى ذِكْرُه: «اللهُ لا إلهَ إلاَّ هُوَ» فإنه يعني به: المعبود الذي لا تصلحُ العبادةُ إلا له، يقول: فإياهُ فاعبدوا أيها الناسُ دونَ ماسواه من الآلهةِ والأوثانِ. «لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى»، يقول جلّ ثناؤه: لمعبودكم أيها الناسُ الأسماء الحُسْنَى، فقال: الحسنى، فوحَّدَ، وهو نَعْتٌ للأسماء، ولم يقل الأحاسن، لأنَّ الأسماءَ تقعُ عليها هذه، فيقال: هذه أسماء، وهذه في لفظة واحدة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ مُسَلِّيه عما يَلْقى من الشدَّةِ من مشركي قومه، ومُعَرِّفُه ما إليه صائرٌ أمرُه وأمرهم، وأنه مُعَلِّيه عليهم، ومُوهِنُ كيدِ الكافرين، ويحثه على الجدِّ في أمره، والصبر على عبادته، وأنْ يتذكر فيما ينوبهُ فيه من أعدائهِ من مُشركي قومه وغيرهم، وفيما يزاولُ من الاجتهادِ في طاعته ما نابَ أخاهُ موسى صلواتُ الله عليه من عدوِّهِ، ثم من قومه، ومن بني إسرائيل وما لقي فيه من البلاءِ والشدَّةِ طفلاً صغيراً، ثم يافعاً مترعرعاً، ثم رجلاً كاملاً. «وَهَل أتاكَ» يا محمدُ «حَدِيثُ مُوسَى» ابن عمران «إذْ رأى ناراً» ذكر أنَّ ذلك كان في الشتاء ليلاً، وأنَّ موسى كان أضلَّ الطريقَ؛ فلما رأى ضوء النارِ «قالَ لأهْلِهِ» ما قالَ.

وقوله: «لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بقبسٍ» يقول: لعلي أجيئُكُمْ من النار التي آنستُ بشُعْلةٍ. والقَبَس: هو النار في طَرَف العود أو القصبة، يقول القائل لصاحبه: أقبسني ناراً، فيعطيه إياها في طرف عودٍ أو قصبة. وإنما أرادَ موسى بقوله لأهله «لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بقَبَسٍ» لعلِّي آتيكم بذلك لتصطَلُوا به.

وقوله: «أوْ أجِدُ عَلى النَّارِ هُدًى» دلالة تدلُّ على الطريقِ الذي أضللناه، إما من خبرٍ هادٍ يهدينا إليه، وإما من بيانٍ وعلمٍ نَتَبَيَّنُهُ به ونعرفه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَـٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما أتى النارَ موسى ناداه رَبُّه: «يا مُوسَى إنِّي أنا رَبُّك فاخْلَعْ نَعْلَيْكَ».

واختلف أهلُ العلم في السبب الذي من أجله أمرَ اللهُ موسى بخلعِ نعليه، فقال بعضهم: أمره بذلك، لأنهما كانتا من جلدِ حمارٍ ميت، فكره أنْ

يَطَأَ بهما الوادي المقدّس، وأرادَ أنْ يمسه من بركةِ الوادي.

وقال آخرون: كانتا من جلدِ بقرٍ، ولكن الله أراد أن يطأ موسى الأرضَ بقدميه، ليصلَ إليه بركتها.

وأوْلى القولين في ذلك بالصواب قولُ من قال: أمره الله تعالى ذكره بخلع نعليه ليباشر بقدميه بركة الوادي، إذ كان وادياً مقدساً.

وإنما قلنا ذلك أوْلى التأويلين بالصوابِ، لأنه لا دلالةَ في ظاهر التنزيلِ على أنه أُمِرَ بخلعهما من أجل أنهما من جلدِ حمار ولا لنجاستهما، ولا خبرَ بذلك عَمَّنْ يلزمُ بقولِه الحجة، وإن في قوله: «إِنَّكَ بالوَادِ المُقَدَّسِ» بعقبه دليلاً واضحاً، على أنه إنما أمره بخلعهما لما ذكرنا.

و«طُوىً»، هو عندي اسمُ الوادي.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: **وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾**

اختلفت القَـرَأة في قراءة ذلـك، فقـرأته عامة القَرَأة الذين قرءوا «وأنَّا» بتشـديد النون، و«أنا» بفتح الألف من «أنا» ردّاً على: نودي يا موسى، كأن معنى الكلام عندهم: نودي يا موسى إني أنا ربك، وأنا اخترتك، وبهذه القراءة قرأ ذلك عامَّةُ قرأة الكوفة. وأما عامة قرأة المدينة والبصرة وبعض أهل الكوفة فقرءوه: «وأنا اخْتَرْتُكَ» بتخفيفِ النون على وجه الخبرِ من اللهِ عن نفسهِ أنه اختاره.

والصوابُ من القول في ذلك عندي أن يقال: إنهما قراءتان قد قرأ بكلٍّ واحدةٍ منهما قرأةُ أهلِ العلم بالقرآن، مع اتفاق معنييهما، فبأيتهما قرأ القارئُ

فمصيبٌ الصوابَ فيه. وتأويلُ الكلام: نودي أنَّا اخترناكَ، فاجتبيناكَ لرسالتنا إلى مَنْ نرسلك إليه. «فاسْتَمِعْ إلى ما يُوحَى»، يقول: فاستمع لوحينا الذي نوحيه إليك وَعِهِ[1]، واعملْ به «إنَّني أنا اللهُ» يقول تعالى ذِكْرُه: إنني أنا المعبودُ الذي لا تصلح العبادةُ إلا له، لا إلَهَ إلاَّ أنا فلا تعبد غيري، فإنه لا معبودَ تجوزُ أو تصلحُ له العبادةُ سوايَ. «فاعْبُدْنِي» يقول: فأخلص العبادةَ لي دونَ كلِّ ما عُبِدَ من دوني.

«وأقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْري». واختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك فقال بعضهم: معنى ذلك: أقمِ الصلاةَ لي فإنك إذا أقمتها ذكرتني. وقال آخرون: بل معنى ذلك: وأقم الصلاة حين تذكرها.

وأولى التأويلين في ذلك بالصوابِ تأويل مَنْ قال: معناه: أقم الصلاة لتذكرني فيها، لأنَّ ذلك أظهر مَعْنَيَيْهِ؛ ولو كان معناه: حين تذكرها، لكان التنزيل: أقمِ الصلاةَ لِذِكْرِهَا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ۝١٦﴾**

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الساعةَ التي يبعثُ الله فيها الخلائقَ من قبورهم لموقفِ القيامة جائية. «أكادُ أُخْفِيها» فعلى ضمِّ الألف من أخفيها قراءة جميع قرّاء أمصارِ الإسلام، بمعنى: أكادُ أُخفيها من نفسي، لئلا يطلعَ عليها أحدٌ، وبذلك جاء تأويل أكثر أهل العلم.

---

(١) من الوعي.

فإن قال قائل: ولم وجهتَ تأويلَ قوله: «أكادُ أُخْفِيها» بضم الألف إلى معنى: أكـادُ أُخفيها من نفسي، دون توجيهه إلى معنى: أكادُ أُظهرها، وقد علمتَ أنَّ للإخفاء في كلام العرب وجهين: أحدهما الإظهار، والآخر الكتمان؛ وأنَّ الإظهارَ في هذا الموضع أشبه بمعنى الكلام، إذ كان الإخفاء من نفسه يكاد عند السامعين أن يستحيلَ معناه، إذْ كان محالاً أنْ يخفيَ أحدٌ عن نفسه شيئاً هو به عالم، والله تعالى ذكره لا يخفى عليه خافيةٌ؟ قيل: الأمرُ في ذلك بخلافِ ماظننتَ، وإنما وجَّهنا معنى «أُخْفِيها» بضمِّ الألف إلى معنى: أسترها من نفسي، لأن المعروف من معنى الإخفاء في كلام العرب: الستر، يقال: قد أخفيت الشيء: إذا سترته.

وأما وجه صحةِ القولِ في ذلك، فهو أن الله تعالى ذِكْرُه خاطبَ بالقرآنِ العربَ على ما يعرفونَهُ من كلامهم وجرى به خطابهم بينهم؛ فلما كان معروفاً في كلامهم أنْ يقولَ أحدهم إذا أراد المبالغةَ في الخبر عن إخفائه شيئاً هو له مُسِرٌّ: قد كدت أنْ أُخفي هذاالأمرَ عن نفسي من شدّة استسراري به، ولو قدرت أخفيه عن نفسي أخفيتُه، خاطبهم على حسب ما قد جرى به استعمالهم في ذلك من الكلامِ بينهم، وما قد عرفوه في منطقهم، وقد قيل في ذلك أقوال غير ما قلنا. وإنما اخترنا هذا القولَ على غيرِهِ من الأقوالِ لموافقةِ أقوالِ أهلِ العلم من الصحابةِ والتابعين، إذْ كنا لا نستجيزُ الخلافَ عليهم، فيما استفاضَ القولُ به منهم، وجاء عنهم مجيئاً يقطعُ العذر.

وقوله: «لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الساعةَ آتيةٌ لتُجزى كلُّ نفس: يقول: لتثابَ كلُّ نفسٍ امتحنها رَبُّها بالعبادةِ في الدنيا بما تسعى: يقول: بما تعملُ من خيرٍ وشرّ، وطاعة ومعصية.

وقوله: «فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا»، يقول تعالى ذِكْرُه: فلا يَرُدَّنكَ يا موسى عن التأهُّبِ للساعةِ، مَنْ لا يؤمنُ بها، يعني: مَنْ لا يقرُّ بقيامِ الساعة، ولا يصدِّقُ

بالبعثِ بعد الممات، ولا يرجو ثواباً، ولا يخاف عقاباً.

وقوله: «وَاتَّبَعَ هَوَاهُ»، يقول: اتبع هوى نفسه، وخالفَ أمرَ الله ونهيه. «فَتَرْدَى»، يقول: فتهلك إنْ أنتَ انصددتَ عن التأهُّبِ للساعةِ، وعن الإيمانِ بها، وبأنَّ الله باعثُ الخلقِ لقيامها من قبورهم بعد فنائهم بصدٍّ مَنْ كفر بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وما هذه التي في يمينك يا موسى؟

ولعلَّ قائلاً أنْ يقول: وما وجهُ استخبارِ الله موسى عما في يده؟ ألم يكن عالماً بأنَّ الذي في يده عصا؟ قيل له: إنَّ ذلك على غيرِ الذي ذهبتَ إليه، وإنما قال ذلك عزَّ ذِكْرُه له إذا أراد أنْ يُحَوِّلَها حيةً تسعى، وهي خشبة، فَنَبَّهَهُ عليها، وقَرَّرَهُ بأنها خشبة يتوكأُ عليها، ويهشُّ بها على غنمه، ليعرِّفَهُ قُدْرَتَهُ على ما يشاء، وعِظَمَ سُلطانِهِ، ونفاذَ أمرِهِ فيما أحبَّ بتحويله إياها حيَّةً تسعى، إذا أراد ذلك به ليجعل ذلك لموسى آيةً مع سائرِ آياتهِ إلى فرعون وقومه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن موسى: قال موسى مجيباً لربه: «هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْها وأَهُشُّ بِها عَلى غَنَمِي»، يقول أضربُ بها الشجرَ اليابسَ فيسقط ورقها وترعاهُ غنمي. يقال منه: هَشَّ فلانٌ الشجر يهشُّ هشاً: إذا اختبط ورقَ أغصانها فسقط ورقها.

وقوله: «ولي فيها مآرِبُ أُخْرَى»، يقول: ولي في عصايَ هذه حوائجُ

أخرى، وهي جمع مأربة، وفيها للعربِ لغاتٌ ثلاث: مأرُبة بضم الراء، ومأرَبة بفتحها، ومأرِبة بكسرها، وهي مفعلة من قولهم: لا أرب لي في هذا الأمر: أي لا حاجة لي فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ۝٢١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال الله لموسى: ألقِ عصاكَ التي بيمينك يا موسى، يقولُ الله جل جلاله: فألقاها موسى، فجعلها اللهُ حيةً تسعى، وكانت قبل ذلك خشبةً يابسة، وعصاً يتوكأُ عليها ويهشُّ بها على غنمه، فصارت حيةً بأمر الله.

وقوله: «قالَ خُذْها وَلا تَخَفْ»، يقول تعالى ذِكْرُه قال الله لموسى: خُذِ الحيةَ، والهاء والألف من ذكر الحية. «وَلَا تَخَفْ»، يقول: ولا تخف من هذه الحيةِ. «سَنُعِيدُهـا سِيرَتَهـا الأُولى»، يقول: فإنَّا سنعيدها لهيئتها الأولى التي كانت عليها قبل أنْ نُصَيِّرَهَا حية، ونردَّها عصاً كما كانت. يقال لكل مَنْ كان على أمرٍ فتركه، وتحوَّلَ عنه ثم راجعه: عاد فلانٌ سيرتَهُ الأولى، وعاد لسيرتهِ الأولى، وعاد إلى سيرته الأولى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ۝٢٢ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ۝٢٣﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: واضمُمْ يا موسى يدكَ، فضعهـا تحتَ عَضُـدِكَ، والجناحانِ هما اليدان.

وقوله: «تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غيرِ سُوءٍ» ذكر أنَّ موسى عليه السلام كان رجلاً آدم، فأدخل يده في جيبه، ثم أخرجها بيضاءَ من غيرِ سوءٍ، من غير بَرَصٍ، مثل الثلجِ، ثم ردَّها، فخرجتْ كما كانت على لونه.

وقوله: «آيَةً أُخْرَى» يقول: وهذه علامةٌ ودلالةٌ أخرى غير الآية التي أريناكَ قبلها من تحويلِ العصا حيةً تسعى على حقيقةِ ما بعثناكَ به من الرسالةِ لمن بعثناكَ إليه.

وقوله: «لِنُرِيَكَ مِنْ آياتِنا الكُبْرَى»، يقول تعالى ذكره: واضمم يدك يا موسى إلى جناحك، تخرج بيضاءَ من غير سوءٍ، كي نريكَ من أدلتنا الكبرى على عظيمِ سلطاننا وقُدرتنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٢٤ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۝٢٦ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝٢٧ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ۝٢٨ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِى ۝٣٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه موسى صلوات الله عليه: «اذْهَبْ» يا موسى «إلى فِرْعَوْنَ إنَّهُ طَغَى»، يقول: إنه تجاوزَ قَدْرَهُ، وتمرَّدَ على ربه: وقد بيَّنا معنى الطغيان فيما مضى بما أغنى عن إعادته، في هذا الموضع، وفي الكلام محذوف استغنى بفهمِ السامع بما ذكر منه، وهو قوله: «اذْهَبْ إلى فِرْعَوْنَ إنَّهُ طَغَى» فادْعُهُ إلى توحيدِ الله وطاعته، وإرسالِ بني إسرائيل معكَ. «قالَ رَبِّ اشْرَحْ لي صَدْرِي»، يقول: ربِّ اشرحْ لي صدري، لأَعِي عنكَ ماتُودِعُه من وحيكَ، وأجترىء به على خطابِ فرعون. «وَيَسِّرْ لي أَمْرِي»، يقول: وسَهِّلْ عليَّ القيامَ بما تكلفني من الرسالة، وتحملني من الطاعة.

وقوله: «وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي»، يقول: وأطلقْ لساني بالمنطق، وكانت فيه فيما ذكر عُجْمةٌ عن الكلامِ الذي كان من إلقائهِ الجمرةَ إلى فيهِ يومَ هَمَّ فرعونُ بقتله.

وقوله: «يَفْقَهُوا قَوْلِي»، يقول: يفقهوا عني ما أخاطبهم وأراجعهم به من الكلام. «وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي»، يقول: واجعلْ لي عوناً من أهل بيتي «هارُونَ أخِي».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ۝٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ۝٣٢ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ۝٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ۝٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ۝٣٥﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن موسى أنه سألَ رَبَّهُ أنْ يشدد أزره بأخيهِ هارون، وإنما يعني بقوله: «اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي» قَوِّ ظهري، وأَعِني به، يقال منه: قد أزر فلان فلاناً: إذا أعانه وشدَّ ظهره.

وقـوله: «وأشْرِكْهُ فِي أمْري»، يقول: واجعله نبياً مثل ما جعلتني نبياً، وأرسله معي إلى فرعون. «كَيْ نُسَبِّحكَ كَثِيراً»، يقول: كي نُعَظِّمَكَ بالتسبيحِ لكَ كثيراً. «ونَذْكُرَكَ كَثِيراً» فنحمدَكَ. «إنَّكَ كُنْتَ بِنا بَصِيراً» يقول: إنك كنت ذا بَصَرٍ بنا لا يخفَى عليكَ من أفعالنا شيءٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٣٦ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ۝٣٧ إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝٣٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال الله لموسى ﷺ: قد أُعطيتَ ماسألتَ يا موسى

رَبُّكَ من شرحهِ صدرَكَ وتيسيرِه لكَ أمركَ، وحلّ عقدةِ لسانك، وتصيير أخيكَ هارون وزيراً لك، وشدِّ أزركَ به، وإشراكه في الرسالة معك. «وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخرَى»، يقول تعالى ذكره: ولقد تَطَوَّلْنا عليك يا موسى قبلَ هذه المرّةِ مرّةً أخرى، وذلك حين أوحينا إلى أمكَ، إذْ ولدتكَ في العام الذي كان فرعون يقتلُ كلَّ مولودٍ ذكر من قومكَ ما أوحينا إليها؛ ثم فسَّر تعالى ذِكْرُه ما أوحى إلى أُمِّه، فقال: هو أن اقذفيهِ في التابوت.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾

يقول تعالى ذكره: ولقد مَنَنَّا عليكَ يا موسى مرّةً أخرى حين أوحينا إلى أمك، أن اقذفي ابنكِ موسى حين ولدتكَ في التابوت. «فاقْذِفيهِ فِي اليَمّ» يعني باليم: النيل. «فَلْيُلْقِـهِ اليَمُّ بالسـاحِلِ»، يقول: فاقذفيه في اليم، يُلْقِه اليَمُّ بالساحلِ، وهو جزاء أُخرجَ مخرجَ الأمر، كأنَّ اليم هو المأمور، كما قال جلَّ ثناؤه: «اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا، ولْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ»، يعني: اتبعوا سبيلنا نحملْ عنكم خطاياكم، ففعلت ذلك أمه به فألقاهُ اليم بمَشْرَعةِ آل فرعون.

وعنى جَلَّ ثناؤه بقوله: «يأْخُذْهُ عَدُوٌّ لي وَعَدُوٌّ لَهُ» فرعون هو العدوُّ، كان لله ولموسى.

واختلف أهلُ التأويل في معنى المحبة التي قال الله جلّ ثناؤه: «وأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي»، فقال بعضهم: عنى بذلك أنه حَبَّبَهُ إلى عباده.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أي حسنتُ خلقك.

والذي هو أولى بالصواب من القول في ذلك أن يقال: إنَّ الله ألقى محبته

على موسى، كما قال جلّ ثناؤه: «وأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي» فحببه إلى آسية امرأةِ فرعون، حتى تَبَنَّتْهُ وغَذَّتْهُ وربَّته، وإلى فرعون، حتى كَفَّ عنه عاديته وشرَّهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ۝٣٩ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ۝٤٠﴾

وقوله: «وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي»، معناه: ولتغذَى وتُربَّى على محبتي وإرادتي.

وقوله: «إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى مَنْ يَكْفُلُهُ»، يقول تعالى ذكره: حين تمشي أختكَ تتبعُكَ حتى وجدتك، ثم تأتي مَنْ يطلب المراضعَ لكَ، فتقول: هل أدلكم على مَنْ يكفُله؟

«فَرَجَعْناكَ إلى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلاَ تَحْزَنَ»، يقول تعالى ذكره: فردَدْناكَ إلى أمك بعد ما صرت في أيدي آلِ فرعون، كيما تقرَّ عينها بسلامتكَ ونجاتكَ من القتلِ والغرقِ في اليم، وكيلا تحزنَ عليك من الخوفِ من فرعون عليك أنْ يقتلك.

وقوله: «وَقَتَلْتَ نَفْسا»، يعني جلّ ثناؤه بذلك: قتله القبطي الذي قتله حين استغاثَهُ عليه الإسرائيلي، فوكزه موسى.

وقوله: «فَنَجَّيْناكَ مِنَ الغَمِّ»، يقول تعالى ذكره: فنجيناكَ من غَمِّكَ بقتلكَ النفسَ التي قتلتَ، إذْ أرادوا أنْ يقتلوكَ بها فخلَّصناك منهم، حتى هربتَ إلى أهلِ مدين، فلم يصلوا إلى قتلكَ وقودك. وكان قتله إياه فيما ذُكر خطأً.

وقوله: «وفتناك فتوناً»، يعني: ابتليناك ابْتلاءً واختبرناك اختباراً.

وقوله: «فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ»، وهذا الكلامُ قد حذف منه بعض ما به تمـامـهُ اكتفاءً بدلالةِ ماذكر عما حذف. ومعنى الكلام: وفتناك فتوناً، فخرجتَ خائفاً إلى أهلِ مدين، فلبثتَ سنينَ فيهم.

وقوله: «ثُمَّ جِئْتَ عَلى قَدَرٍ يا مُوسَى»، يقول جلَّ ثناؤه: ثم جئتَ للوقتِ الذي أردنا إرسالكَ إلى فرعونَ رسولاً ولمقداره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ۝٤١ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ۝٤٢ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣﴾

يقـول تعـالى ذكره: «وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي» أنعمتُ عليك يا موسى هذه النعم، ومَنَنْتُ عليكَ هذه المنن، اجتباء مني لك، واختياراً لرسالتي والبلاغ عني، والقيام بأمـري ونهيي. «اذْهَبْ أنْتَ وأخُوكَ» هارون «بآياتي»، يقول: بأدلتي وحججي، اذهبـا إلى فرعـونَ بهـا إنه تمرَّدَ في ضلالهِ وغيه، فأبلغاهُ رسالاتي «وَلا تَنِيا فِي ذِكْرِي» يقول: ولا تَضْعُفَا في أنْ تذكراني فيما أمرتُكُمَا ونهيتكُمـا، فإنَّ ذِكْـرِكُمَا إيَّايَ يقوِّي عزائمكما، ويثبتْ أقدامكما، لأنكما إذا ذكرتماني، ذكرتما مِنِّي عليكما نِعماً جَمَّة، ومِنَناً لا تُحصى كثرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۝٤٥﴾

يقول تعالى ذكره لموسى وهارون: فقولا لفرعونَ قولاً ليِّناً، ذُكر أنَّ القولَ الليِّنَ الذي أمرهما الله أنْ يقولاه له، هو أن يكنياه.

وقوله: «لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى»، اختلف في معنى قوله: «لَعلَّهُ» في هذا الموضع، فقال بعضهم: معناها ههنا الاستفهام، كأنهم وَجَّهُوا معنى الكلام إلى: فقولا له قولاً ليناً، فانظرا هل يتذكرُ ويراجعُ أو يخشى اللهَ فيرتدع عن طغيانهِ.

وقال آخرون: معنى لعلَّ ههنا كي. ووجَّهوا معنى الكلام إلى «اذهبَا إلى فِرْعَوْنَ إنَّهُ طَغَى» فادعواه وعِظَاهُ ليتذكرَ أو يخشى، كما يقولُ القائل: اعملْ عملكَ لعلك تأخذ أجركَ، بمعنى: لتأخذَ أجركَ، وافرغ من عملك لعلنا نتغدَّى، بمعنى: لنتغدى، أو حتى نتغدى، ولكلا هذين القولين وجهٌ حَسَنٌ، ومذهبٌ صحيح.

وقوله: «قالا رَبَّنا إنَّنا نَخافُ أنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا»، يقول تعالى ذكره: قال موسى وهارون: ربنا إننا نخافُ فرعونَ إنْ نحنُ دَعَوْنَاهُ إلى ما أمرتَنَا أنْ ندعوه إليه، أن يعجلَ علينا بالعقوبة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٤٧﴾

يقول الله تعالى ذكره: قال الله لموسى وهارون «لا تَخافا» فرعونَ «إنَّنِي مَعَكُما» أُعِينُكُما عليه، وأبصر كما «أسمَعُ» ما يجري بينكما وبينه، فأُفهِمُكُما ما تُحاورانهِ به «وأرَى» ما تفعلانِ ويفعل، لا يَخْفَى عليَّ من ذلك شيءٌ «فأْتِياهُ فَقُولا» له «إنَّا رَسُولا رَبِّكَ».

وقوله: «فَأْتْياهُ فَقُولا إنَّا رَسُولا رَبِّكَ» أرسلنا إليكَ يأمركَ أنْ ترسلَ معنا بني إسرائيل، فأرسلهم معنا ولا تعذِّبهم بما تكلفهم من الأعمالِ الرديئة. «قَدْ جِئْناكَ

بآيَةٍ» معجزة «مِنْ رَبِّكَ» على أنه أرسلنا إليكَ بذلك، إنْ أنتَ لم تصدِّقنا فيما نقولُ لكَ أَرَيْناكَهَا، «والسَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى»، يقول: والسلامةُ لمن اتبع هُدى الله، وهو بيانُه، يقال: السلامُ على مَنِ اتبع الهدى، ولمن اتبع بمعنى واحد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لرسولِه موسى وهارون: قولا لفرعونَ إنَّا قد أوحى إلينا رَبُّكَ أنَّ عذابه الذي لا نفادَ له، ولا انقطاعَ على مَنْ كَذَّبَ بما ندعوه إليه من توحيدِ الله وطاعته، وإجابةِ رسله. «وَتَوَلَّى»، يقول: وأدبرَ مُعْرِضاً عما جئناهُ به من الحقِّ.

وقوله: «قالَ فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسَى» في هذا الكلام متروك، تُرِكَ ذكره استغناءً بدلالةِ ماذكر عليه عنه، وهو قوله: «فَأْتِياهُ» فقالا له ما أمرهما به رَبُّهما وأبلغاهُ رسالته، فقال فرعون لهما: «فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسَى» فخاطبَ موسى وحده بقوله: «يا موسى»،وقد وَجَّهَ الكلامَ قبل ذلك إلى موسى وأخيه. وإنما فعلَ ذلك كذلك، لأنَّ المجاوبةَ إنما تكونُ من الواحدِ وإنْ كان الخطابُ بالجماعة لا من الجميع، وذلك نظير قوله: «نَسِيا حُوتَهُما»، وكان الذي يحملُ الحوتَ واحد، وهو فتى موسى، يدلُّ على ذلك قوله: «إنِّي نَسِيتُ الحُوتَ ومَا أنْسانِيهُ إلاَّ الشَّيْطانُ أنْ أذْكُرَهُ».

وقوله: «قالَ رَبُّنا الَّذِي أعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى»، يقول تعالى ذكره: قال موسى له مجيباً: ربنا الذي أعطى كلَّ شيءٍ خَلْقَهُ، يعني: نظيرَ

خَلْقه في الصورةِ والهيئةِ كالذكورِ من بني آدم، أعطاهم نظيرَ خَلْقِهم من الإناثِ أزواجاً، وكالذكورِ من البهائم، أعطاها نظير خلقها، وفي صورتها وهيئتها من الإناث أزواجاً، فلم يعط الإنسان خلافَ خَلْقِه، فيزوّجه بالإناثِ من البهائم، ولا البهائمَ بالإناثِ من الإنسِ، ثم هَدَاهُمْ للمأتى الذي منه النسلُ والنماءُ كيف يأتيه، ولسائرِ منافعهِ من المطاعمِ والمشارب، وغير ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾

يقول تعالى ذكره: قال فرعونُ لموسى، إذْ وصف موسىٰ رَبَّهُ جَلَّ جلاله بما وصفه به من عظيم السلطان، وكثرةِ الإنعامِ على خلقه والإفضالِ، فما شأنُ الأممِ الخاليةِ من قبلنا لم تقِرَّ بما تقول، ولم تصدِّقْ بما تدعو إليه، ولم تخلصْ له العبادةَ، ولكنها عبدت الآلهةَ والأوثانَ من دونه، إنْ كان الأمرُ على ماتصفُ من أنَّ الأشياء كلها خَلْقُه، وأنها في نِعمه تتقلَّب، وفي مِنَنه تتصرفُ، فأجابه موسى فقال: علمُ هذه الأممِ التي مضت من قبلنا فيما فعلت من ذلك، عند ربي في كتابٍ: يعني في أمِّ الكتاب، لا علمَ لي بأمرها، وما كان سبب ضلال مَنْ ضلَّ منهم فذهب عن دين الله «لا يَضِلُّ رَبّي»، يقول: لا يخطىء ربي في تدبيره وأفعاله، فإنْ كان عذَّبَ تلك القرونَ في عاجل، وعَجَّلَ هلاكها، فالصوابُ مافعل، وإنْ كان أخَّرَ عقابها إلى القيامة، فالحقّ مافعل، هو أعلم بما يفعل، لا يخطئُ ربي «وَلا يَنْسَى» فيترك فِعْلَ ما فعْلُه حكمةٌ وصواب.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣﴾

اختلف أهل التأويل في قراءة قوله: «مَهْداً» فقرأته عامَّة قَرَأة المدينة والبصرة: «الَّذِي جعَلَ لَكُمُ الأرْضَ مِهاداً» بكسر المِيم من المِهاد وإلحاق ألف فيه بعد الهاء، وكذلك عملهم ذلك في كلِّ القرآن. وزعم بعضُ مَن اختار قراءة ذلك كذلك، إنه إنما اختاره من أجل أنَّ المِهاد: اسم الموضع، وأن المهد الفعل؛ قال: وهو مثل الفرش والفراش. وقرأ ذلك عامة قَرَأة الكوفيين: «مَهْداً» بمعنى: الذي مهد لكم الأرض مهداً.

والصوابُ من القولِ في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان مستفيضتان في قَرأة الأمصار مشهورتان، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيبُ الصوابَ فيها.

وقوله: «وَسَلَك لَكُمْ فيها سُبُلاً»، يقول: وأنهجَ لكم في الأرض طرقاً.

وقوله: «وأنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً»، يقول: وأنزل من السماء مطراً. «فأخرجنا به أزْوَاجا منْ نَباتٍ شَتَّى».

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذكره عن إنعامه على خلقه بما يحدث لهم من الغيثِ الذي ينزله من سمائه إلى أرضه، بعد تناهي خبره عن جوابِ موسى فرعون عما سأله عنه وثنائهِ على ربه بما هو أهلُه، يقولُ جلَّ ثناؤه فأخرجنا نحن أيها الناسُ بما ننزل من السماء من ماء أزواجاً، يعني ألواناً من نباتٍ شتى، يعني مختلفة الطعومِ، والأراييحِ والمنظر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ۝٥٤﴾

يقول تعالى ذكره: كلوا أيها الناسُ من طيبِ ما أخرجنا لكم بالغيثِ الذي أنزلناهُ من السماء إلى الأرض من ثمارِ ذلك وطعامه، وما هو من أقواتكم وغذائكم، وارعوا فيما هو أرزاقُ بهائمكم منه، وأقواتها أنعامكم. «إنَّ فِي ذلك

لآياتٍ»، يقول: إنَّ فيما وصفتُ في هذه الآية من قدرةِ ربكم، وعظيمِ سلطانه لآياتٍ: يعني لدلالات وعـلامات تدلُّ على وحدانيةِ ربكم، وأن لا إله لكم غيره. «أُولِي النُّهَى»، يعني: أهل الحجى والعقول. والنُّهى: جمع نُهية وخصّ تعالى ذِكْرُه بأن ذلك آيات لأولي النُّهَى، لأنهم أهلُ التفكُّرِ والاعتبارِ، وأهلُ التدبرِ والاتعاظ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: من الأرضِ خلقناكم أيها الناسُ، فأنشأناكم أجساماً ناطقة. «وفِيها نُعِيدُكُمْ»، يقول: وفي الأرض نعيدكم بعد مماتكم، فنصيركم تراباً، كما كنتم قبلَ إنشائِنَاكُم بشراً سوياً. «ومِنْهَا نُخْرِجُكُمْ»، يقول: ومن الأرضِ نخرجكم كما كنتم قبل مَمَاتكم أحياء، فننشئكم منها، كما أنشأناكم أوَّلَ مرّة.

وقوله: «تارةً أُخْرَى» يقول: مرّة أخرى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ۝٥٦﴾

يقول تعالى ذكره: ولقد أَرَيْنَا فرعون آياتنا، يعني أدلتنا وحججنا على حقيقةِ ما أرسلنا به رسولينا، موسى وهارون إليه كلها. «فَكَذَّبَ وأبَى» أنْ يقبلَ من موسى وهارون ما جاءا به من عند رَبِّهما من الحقِّ استكباراً وعتوّاً.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا

﴿بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٥٧ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ۝٥٨﴾

يقول تعالى ذكره: قال فرعونُ لما أريناهُ آياتنا كُلَّها لرسولنا موسى، أجئتنا يا موسى لتخرجنا من منازلنا ودُورنا بسحرِكَ هذا الذي جئتنا به. «فَلَنْأتِيَنَّك بِسِحْرٍ مِثْلِهِ، فاجْعَلْ بَيْنَنا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً» لا نتعدَّاهُ، لنجيءَ بسحرٍ مثل الذي جئتَ به، فننظر أيُّنا يغلبُ صاحبه، لا نخلفُ ذلك الموعدَ. «نَحْنُ وَلا أنْتَ مَكانا سُوًى»، يقول: بمكانٍ عدلٍ بيننا وبينك ونَصَف.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ۝٥٩ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ۝٦٠﴾

يقـول تعالى ذكره: قال موسى لفرعون حين سأله أنْ يجعلَ بينه وبينه موعداً للاجتماع «مَوْعِدُكُمْ» للاجتماع «يَوْمُ الزِّينَةِ»، يعني يوم عيد كانَ لهم أو سوق كانوا يتزيَّنون فيه. «وأنْ يُحْشَرَ النَّاسُ»، يقول: وأن يُساقَ الناسُ من كلِّ فجٍّ وناحية «ضُحىً» فذلك موعد مابيني وبينك للاجتماع.

وقوله: «فَتَوَلَّى فِرْعَونُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فأدبر فرعون معرضاً عما أتاهُ به من الحقِّ. «فجَمَعَ كَيْدَهُ»، يقول: فجمع مَكْرَهُ، وذلك جمعه سحرته بعد أخذِه إياهم بتعلمه «ثمَّ أتَى» يقول، ثم جاء للموعد الذي وعده موسى، وجاء بسحرته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ۝٦١﴾

يقول تعالى ذكره: قال موسى للسحرةِ لما جاء بهم فرعون: «وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِباً» يقول: لا تختلقوا على الله كذباً، ولا تتقوَّلُوه. «فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ» فيستأصلكم بهلاكٍ فيبيدكم.

وقوله: «وَقَدْ خابَ مَنِ افْتَرَى»، يقول: ولم يظفر مَنْ يخلقُ كذباً، ويقوله بكَذِبِهِ ذلكَ بحاجتِهِ التي طَلَبَها به، ورَجَا إدراكَهَا به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَنَـٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ۝٦٢ قَالُوٓاْ إِنْ هَـٰذَٰنِ لَسَـٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ۝٦٣﴾

يقول تعالى ذكره: فتنازعَ السحرةُ أمرهم بينهم.

وكان تنازعُهم أمرهم بينهم فيما ذُكِرَ أنْ قال بعضهم لبعض: إنْ كانَ هذا ساحراً فإنا سنغلبه، وإنْ كان من السماء فله أمرٌ.

وقال آخرون: بل هو أنَّ بعضَهم قال لبعضٍ: ماهذا القولُ بقولِ ساحر.

وقوله: «وأسَرُّوا النَّجْوَى»، يقول تعالى ذكره: وأسرُّوا ـ السحرةُ ـ المناجاةَ بينهم.

وقد اختلفت القَرَأةُ في قراءة قوله: «إنْ هَذَانِ لسَاحِرَانِ»، فقرأته عامة قَرَأةِ الأمصار. «إنَّ هَذَانِ» بتشديد إن وبالألف في هذان، وقالوا: قرأنا ذلك كذلك. وكان بعضُ أهلِ العربية من أهلِ البصرة يقول: «إن» خفيفة في معنى ثقيلة، وهي لغة لقومٍ يرفعون بها، ويدخلون اللام ليفرقوا بينها وبين التي تكون في معنى ما.

والصواب من القراءة في ذلك عندنا «إنّ» بتشديد نونها، وهذان بالألفِ

لإجماعِ الحجة من القرأةِ عليه، وأنه كذلك هو في خطِّ المصحف.

وقوله: «وَيَذْهَبا بطَرِيقَتِكُمُ المُثْلَى»، يقول: ويغلبا على ساداتكم وأشرافكم، يقال: هو طريقةُ قومِهِ ونظورة قومِهِ، ونظيرتهم، إذا كانَ سَيِّدَهُم وشريفَهم والمنظورَ إليه، يقال ذلك للواحد والجمع، وربما جمعوا، فقالوا: هؤلاء طرائقُ قومِهم؛ ومنه قول الله تبارك وتعالى: «كُنَّا طَرَائقَ قِدَداً» وهؤلاء نظائر قومهم.

وأما قوله: «المُثْلَى» فإنها تأنيث الأمثل، يقال للمؤنث: خذ المثلى منهما. وفي المذكر: خُذِ الأمثلَ منهما، ووحدت المثلى، وهي صفة ونعت للجماعة، كما قيل: «لهُ الأسْماءُ الحُسْنَى»، وقد يحتمل أن يكون المُثلى أنثت لتأنيثِ الطريقة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّاۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ٦٤﴾

قوله: «فأجْمِعُوا كَيْدكُمْ»، يقول: فأحكموا كيدكم واعزموا عليه.

وقوله: «ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا»، يقول: احضروا وجيئوا صفاً؛ والصفُّ ههنا مصدر، ولذلك وحد، ومعناه: ثم ائتوا صفوفاً، وللصفِّ في كلامِ العربِ موضعٌ آخر، وهو قولُ العرب: أتيت الصفَّ اليوم يعني به المصلى الذي يصلى فيه.

وقوله: «وَقَدْ أَفْلَحَ اليَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى»، يقول: قد ظفر بحاجته اليوم مَنْ عَلاَ على صاحبِهِ فقهره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ٦٥ قَالَ بَلْ أَلْقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ

﴿٦٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فأجمعت السحرة كيدهم، ثم أتوا صفاً فقالوا لموسى: «يا مُوسَى إمَّـا أنْ تُلْقِيَ، وإمَّا أنْ نَكُونَ أوَّلَ مَنْ ألْقَى»، وترك ذكر ذلك من الكلام اكتفاء بدلالةِ الكلام عليه.

ومعنى الكلام: اختر يا موسى أحدَ هذين الأمرين: إما أنْ تُلْقِيَ قَبْلَنَا، وإما أنْ نكونَ أوَّلَ من ألقى.

وقوله: «قالَ بَلْ ألْقُوا» يقول تعالى ذكره: قال موسى للسحرة: بل ألقوا أنتم ما معكم قبلي.

وقوله: «فإذَا حِبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أنَّها تَسْعَى»، وفي هذا الكلام متروك، وهو: فألقوا ما معهم من الحبالِ والعصيِّ، فإذا حبالهم، ترك ذكره استغناء بدلالة الكلام الذي ذكر عليه عنه. وذُكر أنَّ السحرةَ سحروا عينَ موسى وأعينَ النـاسِ قبل أنْ يُلْقُوا حبالهم وعصيهم، فَخُيِّلَ حينئذٍ إلى موسى أنها تسعى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: فأوجسَ في نفسه خوفاً موسى فوجده.

وقوله: «قُلْنا لا تَخَفْ إنَّكَ أنْتَ الأعْلَى»، يقول تعالى ذكره: قلنا لموسى إذْ أوجسَ في نفسه خيفةً: «لا تَخَفْ إنَّكَ أنْتَ الأعْلَى» على هؤلاءالسَّحَرةِ، وعلى فرعـونَ وجُنْدِه، والقاهر لهم. «وألْقِ ما فِي يَمينِكَ تَلْقَفْ ما صَنَعُوا»،

يقول: وألقِ عصاك تبتلعْ حبالهم وعصيهم التي سحروها حتى خُيِّلَ إليك أنها تسعى.

وقوله: «إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ ساحرٍ»، اختلفت القرأةُ في قراءة قوله، فقرأته عامة قرأةِ المدينة والبصرة وبعض قرأةِ الكوفة: «إنَّ ما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ» برفع كيد وبالألف في ساحر بمعنى: إن الذي صنعه هؤلاء السحرةُ كيدٌ من ساحرٍ. وقرأ ذلك عامة قرأة الكوفة: «إنَّ ما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ» برفع الكيد وبغير الألف في السحر بمعنى: إنَّ الذي صنعوه كيدُ سحرٍ.

والقول في ذلك عندي أنهما قراءتان مشهورتان متقاربتا المعنى، وذلك أن الكيدَ هو المكرُ والخدعة، فالساحرُ مَكْرُهُ وخدعته من سحرٍ يسحر، ومكرُ السِّحرِ وخدعته: تَخَيُّلُه إلى المَسْحورِ، على خلافِ ماهو به في حقيقته، فالساحرُ كائدٌ بالسحر، والسحر كائدٌ بالتخييلِ، فإلى أيِّهما أضفتَ الكيدَ فهو صواب.

وقوله: «وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى»، يقول: ولا يظفرُ الساحرُ بسحرِهِ بما طلبَ أينَ كان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾

وفي هذا الكلام متروكٌ قد استغني بدلالةِ ما ترك عليه وهو: فألقى موسى عصاه، فتلقفت ما صنعوا «فأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا، قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هارُونَ وَمُوسَى»، وذكر أنَّ موسى لما ألقى ما في يدِه تحوَّل ثعباناً، فالتقمَ كُلَّ ما كانتِ

السحرةُ ألقته من الحبالِ والعصيِّ.

وقوله: «قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أنْ آذَنَ لَكُمْ»، يقول جلَّ ثناؤه: وقال فرعونُ للسحرة: أصدّقتم وأقررتم لموسى بما دعاكم إليه من قبلِ أنْ أُطلقَ ذلك لكم. «إنَّهُ لكَبيرِكُم»، يقول: إن موسى لعظيمكم «الَّذي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ».

وقوله: «فَلأُقَطِّعَنَّ أيْدِيَكُمْ وأرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ»، يقول: فلأقطعنَّ أيديكم وأرجلكم مخالفاً بين قطعِ ذلك وذلك أنْ يقطع يُمنى اليدين ويُسْرى الرجلين، أو يسرى اليدين، ويمنى الرجلين، فيكون ذلك قطعاً من خلاف، وكان فيما ذُكر أوَّلَ مَنْ فعلَ ذلك فرعون.

وقوله: «وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ»، يقول: ولأصلبنكم على جذوعِ النخل.

وقوله: «وَلَتَعْلَمُنَّ أيُّنا أشَدُّ عَذَابا وأبْقَى»، يقول: ولتعلمنَّ أيها السحرةُ أينا أشدُّ عذاباً لكم، وأدومُ، أنا أو موسى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾﴾

يقول تعالى ذكره: قالت السحرةُ لفرعون لما تَوَعَّدَهُمْ بما توعَّدهم به «لَنْ نُؤْثِرَكَ» فنتبعكَ ونكذِّبَ من أجلك موسى «عَلى ما جاءَنا مِنَ البَيِّناتِ» يعني من الحججِ والأدلةِ على حقيقة مادعاهم إليه موسى. «وَالَّذِي فَطَرَنا»، يقول: قالوا لن نؤثرك على الذي جاءنا من البينات، وعلى الذي فطرنا، ويعني بقوله: «فَطَرَنا» خَلَقنا، فالذي من قوله: «وَالَّذِي فَطَرَنا» خفض على قوله «ما جاءَنا»،

وقد يحتمل أنْ يكون قوله: «وَالَّذِي فَطَرَنا» خفضاً على القسم، فيكون معنى الكلام: لن نؤثِرَكَ على ما جاءنا من البيِّنات والله.

وقوله: «فاقْض ما أنْتَ قاض»، يقول: فاصنع ما أنتَ صانعٌ، واعملْ بنا مابدا لك. «إنما تَقْضِي هَذِه الحَياةَ الدُّنْيا»، يقول: إنما تقدر أنْ تُعَذِّبنا في هذه الحياةِ الدنيا التي تفنى، ونصبَ الحياة الدنيا على الوقتِ وجعلت إنما حرفاً واحداً.

وقوله: «إنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا»، يقول تعالى ذكره: إنا أقررنا بتـوحيدِ ربنا، وصَدَّقْنَا بوعدِه ووعيدِه، وأنَّ ما جاء به موسى حقٌّ. «لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانـا»، يقول: ليعفو لنا عن ذنوبنا فيسترها علينا. «ومَا أكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِن السِّحْرِ»، يقول: ليغفر لنا ذنوبنا، وتَعَلُّمَنا ما تعلمناهُ من السحر، وعملنا به الذي أكرهْتَنَا على تعلُّمِه والعملِ به، وذُكر أنَّ فرعونَ كان أخذهم بتعليمِ السحر.

وقـولـه: «وَاللهُ خَيْرٌ وأبْقَى»، يقول: والله خيرٌ منك يافرعونُ جزاءً لمن أطاعه، وأبقى عذاباً لمن عصاه وخالف أمره.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾

يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل السحرة لفرعون: «إنَّهُ مَنْ يأْتِ رَبَّهُ» من خَلْقِه «مُجْرِماً»، يقول: مكتسباً الكفر به. «فإنَّ لَهُ جَهَنَّمَ»، يقول: فإنَّ له جهنمَ مأوى ومسكناً، جزاءً له على كفره. «لا يَمُوتُ فيها» فتخرجَ نفسُه. «وَلا يَحْيا» فتستقرَّ نفسُه في مقرِّها فتطمئنَّ، ولكنها تتعلق بالحناجر منهم. «وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً» مَوحداً لا يُشرِكُ به «قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ»، يقول: قد عمل ما أمرهُ به رَبُّه،

وانتهى عما نهاه عنه. «فأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجاتُ العُلَى»، يقول: فأولئك الذين لهم درجاتُ الجنة العلى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ۝٧٦﴾

يقول تعالى ذكره: ومَنْ يأتِه مؤمناً قد عملَ الصالحاتِ، فأولئك لهم الدرجاتُ العلى. ثم بَيَّنَ تلك الدرجات العلى ماهي، فقال: هُنَّ «جَنَّاتُ عَدْنٍ» يعني: جناتُ إقامةٍ لا ظعنَ عنها ولا نفادَ لها ولا فناء. «تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأنهَارُ»، يقول: تجري من تحتِ أشجارها الأنهارُ «خالِدِينَ فيها»، يقول: ماكثين فيها إلى غيرِ غايةٍ محدودة.

وقوله: «وَذلكَ جَزاءُ مَنْ تَزَكَّى»، يقول: وهذه الدرجاتُ العُلى التي هي جناتُ عدنٍ على ماوصف جلَّ جلاله ثوابُ مَنْ تزكى، يعني: مَنْ تَطَهَّرَ من الذنوبِ، فأطاعَ الله فيما أمره، ولم يدنس نفسَهُ بمعصيته فيما نهاه عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ۝٧٧﴾

يقول تعالى ذكره: «وَلَقَدْ أَوْحَيْنا إلى» نبينا «مُوسَى» إذْ تابعنا له الحجج على فرعون، فأبى أن يستجيبَ لأمرِ ربه، وطغى وتمادى في طغيانه «أَنْ أَسْرِ» ليلاً «بعِبادِي» يعني بعبادي من بني إسرائيل. «فاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي البَحْرِ يَبَساً»، يقول: فاتخذ لهم في البحر طريقاً يابساً.

وأما قوله: «لا تَخافُ دَرَكاً وَلا تَخْشَى» فإنه يعني: لا تخافُ من فرعونَ وجنوده أنْ يدركوكَ من ورائك، ولا تخشى غرقاً من بين يديكَ ووَحَلاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۝٧٨ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ۝٧٩﴾

يقول تعالى ذكره: فَسَرى موسى ببني إسرائيل إذْ أوحينا إليه أن أَسْرِ بهم، فأتبعهم فرعـونُ بجنوده حين قطعوا البحر، فغشي فرعونَ وجُنْدَهُ من اليَمِّ ما غشيهم، فغـرقـوا جميعاً. «وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى»، يقول جلَّ ثناؤه: وجاوزَ فرعونُ بقومهِ عن سواء السبيل، وأخذ بهم على غيرِ استقامةٍ، وذلك أنه سلكَ بهم طريقَ أهلِ النار، بأمرهم بالكفرِ بالله، وتكذيب رسله. «وَمَا هَدَى»، يقول: وما سلكَ بهم الطريقَ المستقيم، وذلك أنه نهاهم عن اتباعِ رسولِ الله موسى، والتصديقِ به، فأطاعوه، فلم يهدهم بأمره إياهم بذلك، ولم يهتدوا باتباعهم إياه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۝٨٠ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾

يقول تعالى ذكره: فلما نجا موسى بقومهِ من البحرِ، وغَشي فرعونَ وقومَهُ من اليَمِّ ما غشيهم، قلنا لقومِ موسى: «يابَنِي إسْرائِيلَ قَدْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ» فرعون «وَوَاعَدْناكُمْ جانِبَ الطُّورِ الأيمَنَ، وَنَزَّلْنا عَلَيْكُمُ المَنَّ والسَّلْوَى»، وقد ذكرنا كيف كانت مواعدةُ اللهِ موسى وقومه جانبَ الطورِ الأيمن. وقد بيَّنا المَنَّ

والسلوى باختلافِ المختلفين فيهما، وذكرنا الصوابَ من القول في ذلك فيما مضى قَبْلُ، بما أغنى عن إعادتهِ في هذا الموضع.

وقوله: «كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه لهم: كلوا يابني إسرائيلَ من شهياتِ رزقنا الذي رزقناكم، وحلالهِ الذي طَيَّبْنَاهُ لكم. «وَلا تَطْغَوْا فِيهِ»، يقول: ولا تعتدوا فيه، ولا يظلم فيه بعضُكم بعضاً.

وقوله: «فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي» يقول: فينزل عليكم عقوبتي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾

يقول تعالى ذكره: ومَنْ يجب عليه غضبي فينزلْ به، فقد هوى، يقول فقد تَرَدَّى فَشقي.

وقوله: «وإنّي لَغفَّارٌ لِمَنْ تابَ»، يقول: وإني لذو غفر لمن تابَ من شِرْكِه فرجعَ منه إلى الإيمانِ لي. «وَآمَنَ»، يقول: وأخلَصَ لي الألوهةَ ولم يشرك في عبادته إياي غيري «وعَمِلَ صَالِحاً»، يقول: وأدّى فرائضي التي افترضتها عليه، واجتنبَ معاصيَّ. «ثُمَّ اهْتَدَى»، يقول: ثم لزم ذلك فاستقامَ ولم يضيع شيئاً منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾

يقول تعالى ذكره: «وَمَا أَعْجَلكَ» وأيّ شيء أعجلكَ «عَنْ قَوْمِكَ

يا مُوسَى» فَتَقَدَّمْتَهُمْ وخلفتهم وراءَك ولم تكنْ معهم «قَالَ: هُمْ أُولاءِ عَلى أثرِي»، يقول: قومي على أثري يلحقونَ بي «وَعَجِلْتُ إلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى»، يقول: وعجلتُ أنا فسبقتهم ربِّ كيما ترضى عني.

وإنما قال الله تعالى ذكره لموسى: ما أعجلكَ عن قومكَ، لأنه جلَّ ثناؤه فيما بلغنا حين نَجَّاهُ وبني إسرائيل من فرعونَ وقومِهِ وقطع بهم البحرَ وَعَدَهُمْ جانبَ الطورِ الأيمن، فتعجَّلَ موسى إلى ربه.

وأقام هارون في بني إسرائيل يسيرُ بهم على أثرِ موسى

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾**

يقول الله تعالى ذكره قال الله لموسى: فإنَّا يا موسى قد ابتلينا قومكَ من بعدك بعبادةِ العجل، وذلك كان فتنتهم من بعد موسى. ويعني بقوله: «مِنْ بَعْدِكَ»: من بعد فراقكَ إياهم. يقول الله تبارك وتعالى: «وأضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ»، وكان إضلال السامريِّ إياهم دعاءه إياهم إلى عبادةِ العجل.

وقوله: «فَرَجَعَ مُوسَى إلى قومه» يقول: فانصرف موسى إلى قومه من بني إسرائيل بعد انقضاء الأربعين ليلة. «غَضْبانَ أسِفا» متغيظاً على قومه، حزيناً لما أحدثوه بعده من الكفر بالله.

وقوله: «قالَ ياقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وعَدْاً حَسَناً»، يقول: ألم يعدكم ربكم أنه غفارٌ لمن تابَ وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى، ويعدكم جانبَ الطورِ

الأيمن، وينزل عليكم المنَّ والسلوى، فذلك وعدُ الله الحسن بني إسرائيل الذين قال لهم موسى: ألم يَعِدكُمُوه ربكم.

وقوله: «أفَطالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ، أمْ أرَدْتُم أنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ»، يقول: أفَطالَ عليكم العهدُ بي، وبجميلِ نعمِ الله عندكم، وأياديهِ لديكم، أم أردتم أنْ يحلَّ عليكم غضبٌ من ربكم: أم أردتم أنْ يجبَ عليكم غضبٌ من ربكم فتستحقوه بعبادتكم العجلَ، وكفركم بالله، فأخلفتم موعدي. وكان إخلافُهم موعدَهُ، عكوفهم على العجل، وتركهم السيرَ على أثرِ موسى للموعد الذي كان الله وعدهم، وقولهم لهارون إذْ نهاهم عن عبادةِ العجلِ، ودعاهم إلى السيرِ معه في أثر موسى: «لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ حتى يَرْجِعَ إلَيْنا مُوسَى».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾﴾

يقول تعالى ذكره: قال قومُ موسى لموسى: ما أخلفنا موعدكَ يعنون بموعده عهدَهُ الذي كان عَهِدَهُ إليهم.

وقوله: «بِمَلْكِنا» يخبر جلّ ذكره عنهم أنهم أقروا على أنفسهم بالخطأ، وقالوا: إنا لم نُطِقْ حملَ أنفسنا على الصواب، ولم نملك أمرنا حتى وقعنا في الذي وقعنا فيه من الفتنة.

وقوله: «وَلَكِنَّا حُمِّلْنا أوْزَاراً مِنْ زِينَةِ القَوْمِ»، يقول: ولكنا حُملنا أثقالاً وأحمالاً من زينة القوم يعنون من حليّ آلِ فرعون، وذلك أن بني إسرائيل لما

أراد موسى أن يسير بهم ليلاً من مصر بأمرِ الله إياه بذلك، أمرهم أن يستعيروا من أمتعةِ آلِ فرعون وحليهم، وقال: إن الله مُغنمكم ذلك، ففعلوا، واستعاروا من حليٍّ نسائهم وأمتعتهم، فذلك قولهم لموسى حين قال لهم: «أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ العَهْدُ، أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي. قَالُوا ما أَخْلَفْنا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنا، وَلَكِنَّا حُمِّلْنا أوزاراً مِنْ زِينَةِ القَوْمِ».

وقوله: «فَقَذَفْناها»، يقول: فألقينا تلك الأوزارَ من زينةِ القوم في الحفرة «فَكَذلكَ أَلْقَى السَّامِرِيّ»، يقول: فكما قذفنا نحن تلك الأثقالَ، فكذلك ألقى السامريّ ما كان معه من تربةِ حافرِ فرسِ جبريلَ.

وقوله: «فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوارٌ»، يقول: فأخرج لهم السامريُّ مما قذفوه ومما ألقاه عجلاً جسداً له خوار، ويعني بالخوار: الصوتُ، وهو صوتُ البقر.

وقوله: «فَقالوا هَذَا إِلهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى»، يقول: فقال قومُ موسى الذين عبدوا العجلَ: هذا معبودكم ومعبود موسى.

وقوله: «فَنَسِيَ» يقول: فضَلَّ وتركَ.

ثم اختلف أهلُ التأويلِ في قوله: «فَنَسِيَ» مَنْ قائلُه ومَن الذي وصف به وما معناه، فقال بعضهم: هذا من الله خبرٌ عن السامريِّ والسامريُّ هو الموصوفُ به، وقالوا: معناه: أنه ترك الدينَ الذي بعث اللهُ به موسى وهو الإسلامُ.

وقال آخرون: بل هذا خبرٌ من اللهِ عن السامريِّ، أنه قالَ لبني إسرائيل، وأنه وصف موسى بأنه ذهبَ يطلب ربه، فأضلَّ مَوْضِعَهُ، وهو هذا العجلُ.

والذي هو أَوْلى بتأويلِ ذلك قولُ من قال: إن ذلك خبرٌ من الله عزَّ ذكره عن السامريِّ أنه وصف موسى بأنه نسيَ ربه، وأنَّ رَبَّهُ الذي ذهبَ يريده هو العجلُ الذي أخرجه السامريُّ لإجماع الحجةِ من أهلِ التأويلِ عليه، وأنه

عقيب ذكر موسى، وهو أن يكون خبراً من السامريِّ عنه بذلك أشبه من غيره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۝٨٩ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ۝٩٠ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ۝٩١﴾

يقـول تعالى ذكره موبِّخاً عَبَدَةَ العجلِ والقائلينَ له: «هَذَا إلٰهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ» وعابهم بذلك، وسفَّه أحلامَهُمْ بما فعلوا ونالوا منه، أفلا يرون أنَّ العجل الذي زعموا أنه إلههم وإله موسى لا يكلمهم، وإنْ كلَّموه لم يردَّ عليهم جواباً، ولا يقدر على ضرٍّ ولا نفع، فكيف يكونُ ما كانت هذه صِفَته إلهاً؟

وقوله: «وَلَقَدْ قالَ لَهُمْ هارُونُ مِنْ قَبْل»، يقول: ولقد قال لعبدَةِ العجلِ من بني إسرائيل هارون من قبل رجوعِ موسى إليهم، وقِيلِه لهم ما قال مما أخبرَ اللهُ عنه. «إنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ»، يقول: إنما اختبر الله إيمانكم ومحافظتكم على دينكم بهذا العجلِ الذي أحدث فيه الخوار ليعلم به الصحيحَ الإيمانِ منكم من المريضِ القلبِ، الشاكِّ في دينه.

وقوله: ««وَإنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فاتَّبِعُونِي وأطِيعُوا أمْرِي»، يقول: وإن ربكم الرحمن الذي يعمُّ جميعَ الخلق نعمه فاتَّبعوني على ما آمركم به من عبادةِ الله وترك عبادة العجل وأطيعوا أمري فيما آمركم به من طاعة الله، وإخلاصِ العبادة له.

وقوله: «قالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ»، يقول: قال عَبَدَةُ العجلِ من قوم موسى: لن نزال على العجلِ مقيمينَ نعبده، حتى يرجع إلينا موسى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾﴾

يقول تعالى ذكره: قال موسى لأخيهِ هارون لما فرغَ من خطابِ قومه ومراجعته إياهم على ما كان من خطأ فِعْلِهم: يا هارون أيّ شيء منعك إذْ رأيتهم ضَلُّوا عن دينهم، فكفروا بالله وعبدوا العجلَ ألا تتبعني.

وقوله: «قالَ يا ابْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرأسِي»، وفي هذا الكلام متروك، ترك ذكره استغناء بدلالة الكلام عليه، وهو: ثم أخذ موسى بلحيةِ أخيهِ هارون ورأسه يجرُّهُ إليه، فقال هارون: «يا بْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرأسِي».

وقوله: «إنِّي خَشِيتُ أنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بينَ بَنِي إسْرائيلَ ولَمْ تَرْقُبْ قَوْلي»، فاختلف أهلُ العلم في صفة التفريق بينهم، الذي خشيه هارون، فقال بعضهم: كان هارون خافَ أنْ يسيرَ بمن أطاعه، وأقام على دينه في أثر موسى، ويخلف عبدة العجل، وقد «قالُوا» له: «لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفينَ حتى يَرْجِعَ إلَيْنا مُوسَى» فيقول له موسى: «فَرَّقْتَ بينَ بَنِي إسْرائِيلَ ولَمْ تَرْقُبْ قَوْلي» بسيرِكَ بطائفةٍ، وتَرْكِكَ منهم طائفةً وراءك.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: خشيتُ أن نقتتلَ فيقتل بعضُنا بعضاً.

وأولى القولين في ذلك بالصواب قولُ من قال: إنَّ موسى عذلَ أخاه هارون على تركهِ اتباعَ أمرهِ بمن اتبعه من أهلِ الإيمان، فقال له هارون: إني خشيتُ أن تقولَ، فرّقت بين جماعتهم، فتركت بعضهم وراءك، وجئت ببعضهم، وذلك بَيِّنٌ في قولِ هارون للقوم: «يا قَوْمِ إنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ، وَإنَّ رَبَّكُمُ

الرَّحْمَنُ فاتَّبِعُوني وأطِيعُوا أمْري»، وفي جواب القوم له، وقِيلِهم: «لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ حتى يَرْجِعَ إلَيْنا مُوسَى».

وقوله: «ولَمْ تَرْقُبْ قَوْلي»، يقول: ولم تنظر قولي وتحفظه. من مراقبةِ الرجلِ الشيءَ، وهي مناظرته بحفظه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «فما خَطْبُكَ يا سامِريّ» قال موسى للسامري: فما شأنك يا سامري، وما الذي دعاك إلى ما فعلته.

وقوله: «بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ»، يقول: قال السامريُّ: علمت ما لم يعلموه، وهو فعلت من البصيرة: أي صرت بما عملت بصيراً عالماً.

وقوله: «فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أثَرِ الرَّسُولِ»، يقول: قبضتُ قبضةً من أثرِ حافرِ فرسِ جبرئيلَ.

وقوله: «فَنَبَذْتُها»، يقول: فألقيتها «وكَذَلكَ سَوَّلَتْ لي نَفْسِي»، يقول: وكما فعلت من إلقائي القبضة التي قبضت من أثرِ الفرسِ على الحلية التي أوقد عليها حتى انسبكت فصارت عجلاً جسداً له خوار. «سَوَّلَتْ لي نَفْسِي»، يقول: زينت لي نفسي أنه يكون ذلك كذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ

عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

يقول تعالى ذكره: قال موسى للسامريِّ: فاذهبْ فإنَّ لك في إيام حياتك أنْ تقولَ: لا مساسَ: أي لا أمسُّ، ولا أُمَسُّ. . وذُكر أن موسى أمر بني إسرائيل أنْ لا يُؤاكِلُوه، ولا يخالطوه، ولا يبايعوه، فلذلك قال له: إنَّ لك في الحياة أنْ تقولَ لا مساس، فبقي ذلك فيما ذكر في قبيلته.

وقوله: «وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ»، اختلفت القرأة في قراءته، فقرأته عامة قرأةِ أهلِ المدينة والكوفة «لَنْ تُخْلَفَهُ» بضم التاء وفتح اللام بمعنى: وإنَّ لك موعداً لعذابكَ وعقوبتكَ على ما فعلتَ من إضلالكَ قومي حتى عبدوا العجلَ من دون الله، لن يُخْلِفَكَهُ الله، ولكنْ يُذِيقَكَهُ. وقرأ ذلك آخرون: «وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلِفَهُ» بضمّ التاء وكسر اللام، بمعنى: وإنَّ لك موعداً لن تخلفه أنت يا سامريّ، وتأوَّلُوه بمعنى: لن تغيبَ عنه.

والقولُ في ذلك عندي أنهما قراءتان مشهورتان متقاربتا المعنى، لأنه لا شكَّ أن الله مُوفٍ وَعْدَهُ لخلقِه بحشرهم لموقفِ الحساب، وأن الخلق موافون ذلك اليوم، فلا الله مُخْلِفهُمْ ذلك، ولا هُمْ مُخْلِفُوه بالتخلف عنه، فبأيتهما قرأ القارئُ فمصيبٌ الصوابَ في ذلك.

وقـوله: «وَانْظُرْ إلى إلهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً»، يقول: وانظر إلى معبودكَ الذي ظلت عليه مقيماً تعبده.

وقوله: «لَنُحْرِّقَنَّهُ»، يقول: لنحرقنه بالنارِ قطعةً قطعة.

وقوله: «ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي اليَمِّ نَسْفاً»، يقول: ثم لَنُذَرِّيَنَّهُ في البحر تذريةً، يقال منه: نسف فلان الطعام بالمنسف: إذا ذراه فَطَيَّرَ عنه قشوره وترابه باليدِ أو الريح.

وقوله: «إِنَّمَا إِلهُكُمُ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ»، يقول: ما لكم أيها القومُ معبودٌ، إلا الذي له عبادة جميع الخلقِ لا تصلحُ العبادةُ لغيره، ولا تَنبغي أن تكون إلا له. «وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً»، يقول: أحاط بكل شيء علماً فعلمه، فلا يخفى عليه منه شيء ولا يضيقُ عليه عِلْمُ جميعِ ذلك، يقال منه: فلانٌ يسع لهذا الأمر: إذا أطاقه وقويَ عليه، ولا يَسَعُ له: إذا عجزَ عنه فلم يُطِقْهُ ولم يَقْوَ عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: كما قَصَصْنَا عليكَ يا محمدُ نبأ موسى وفرعون وقومه وأخبار بني إسرائيل مع موسى «كَذَلكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أنْباءِ ما قَدْ سَبَقَ»، يقول: كذلك نخبرك بأنباء الأشياء التي قد سبقت من قبلك، فلم تشاهدها ولم تعاينها.

وقوله: «وَقَدْ آتَيْناكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا»، يقول تعالى ذكره لمحمدٍ ﷺ: وقد آتيناكَ يا محمدُ من عندنا ذكراً يتذَّكَرُ به، ويَتَّعِظُ به أهلُ العقلِ والفهم، وهو هذا القرآنِ الذي أنزله الله عليه، فجعله ذكرى للعالمين.

وقـوله: «مَنْ أعْرَضَ عَنْهُ»، يقول تعالى ذكره: من ولى عنه فأدبرَ فلم يصدِّقْ به ولم يُقِرَّ، «فإنه يَحْمِلُ يَوْمَ القِيامَة وِزْرًا»، يقول: فإنه يأتي ربه يومَ القيامة يحمل حملاً ثقيلاً، وذلك الإثم العظيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا ١٠١ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا ١٠٢ يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ١٠٣﴾

يقول تعالى ذكره: خالدينَ في وزرهم، فأخرجَ الخبر جلّ ثناؤه عن هؤلاء المعرضينَ عن ذِكْرِه في الدنيا أنهم خالدون في أوزارهم، والمعنى: أنهم خالدون في النار بأوزارهم، ولكن لما كان معلوماً المراد من الكلام اكتفى بما ذكر عما لم يذكر.

وقوله: «وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ القيامَةِ حِمْلًا»، يقول تعالى ذكره: وساء ذلك الحملُ والثقلُ من الإثمِ يومَ القيامة حملًا، وحقَّ لهم أن يسوءهم ذلك، وقد أوردهم مَهْلكةً لا مَنْجَى منها.

وقوله: «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ»، يقول تعالى ذكره: وساء لهم يوم القيامة، يومَ ينفخُ في الصور، فقوله: «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ» ردٌّ على يوم القيامة. وقد بيَّنا معنى النفخ في الصور، وذكرنا اختلاف المختلفين في معنى الصور، والصحيح في ذلك من القول عندي.

وقوله: «ونَحْشُرُ المُجْرِمينَ يَوْمِئِذٍ زُرْقاً»، يقول تعالى ذكره: ونسوقُ أهلَ الكفر بالله يومئذٍ إلى موقف القيامة زرقاً، فقيل: عنى بالزرق في هذا الموضع: ما يظهرُ في أعينهم من شدةِ العطشِ الذي يكون بهم عند الحشرِ لرأي العين من الزرق. وقيل: أُريدَ بذلك أنهم يحشرون عمياً، كالذي قال الله: «ونَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ عُمْياً».

وقوله: «يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ إنْ لَبِثْتُمْ إلاَّ عَشْرًا»، يقول تعالى ذكره: يتهامسون بينهم، ويُسِرُّ بعضُهم إلى بعض: إنْ لبثتم في الدنيا، يعني أنهم يقولُ بعضهم لبعض: ما لبثتم في الدنيا إلا عشراً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ١٠٤﴾

يقول تعالى ذكره: نحنُ أعلمُ منهم عند إسرارهم وتخافتهم بينهم بقِيلهم: «إنْ لَبِثْتُمْ إلَّا عَشْرًا» بما يقولون لا يخفى علينا مما يَتَساررونه بينهم شيءٌ. «إذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إنْ لَبِثْتُمْ إلَّا يَوْماً»، يقول تعالى ذكره حين يقولُ أوفاهم عقلاً، وأعلمهم فيهم: إنْ لبثتم في الدنيا إلا يوماً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ١٠٧﴾

يقول تعالى ذكره: ويسألك يا محمدُ قومُكَ عن الجبالِ، فقل لهم: يُذَرِّيها ربي تذريةً، ويطيرها بقلعها واستئصالها من أصولها، ودكِّ بعضها على بعض، وتصييره إياها هباءً منبثاً «فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً»، يقول تعالى ذكره: فيدع أماكنها من الأرضِ إذا نسفها نسفاً، قاعاً: يعني: أرضاً ملساء، صفصفاً: يعني مستوياً لا نباتَ فيه، ولا نشز، ولا ارتفاع.

وقوله: «لا تَرَى فِيها عِوَجاً وَلا أَمْتاً» يقول: لا ترى في الأرض عوجاً ولا أمتاً.

واختلف أهلُ التأويل في العوجِ والأمتِ، فقال بعضهم: عنى بالعوج في هذا الموضع: الأوديةَ، وبالأمت: الروابيَ والنشوز.

وقال آخرون: بل عنى بالعوج في هذا الموضع: الصُّدُوعَ، وبالأمتِ: الارتفاعَ من الآكامِ وأشباهها.

وقال آخرون: عنى بالعوج: الميلَ، وبالأمت: الأثرَ.

وقال آخرون: الأمت: المحاني والأحداب.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ قولُ مَنْ قال: عنى بالعوج: الميل، وذلك أن ذلك هو المعروف في كلام العرب.

فإن قال قائل: وهل في الأرضِ اليومَ من عوجٍ، فيقال: لا ترى فيها يومئذٍ عوجاً. قيل: إن معنى ذلك: ليس فيها أوديةٌ وموانعُ تمنعُ الناظرَ أو السائرَ فيها عن الأخذِ على الاستقامة، كما يحتاجُ اليوم من أخذ في بعض سُبُلها إلى الأخذِ أحياناً يميناً، وأحياناً شمالاً، لما فيها من الجبال والأودية والبحار. وأما الأمت فإنه عند العرب: الانثناءُ والضعف، مسموع منهم، مدّ حبله حتى ما ترك فيه أمتاً: أي انثناء؛ وملأ سقاءه حتى ما ترك فيه أمتاً؛ فالواجبُ إذا كان ذلك معنى الأمت عندهم أن يكون أصوب الأقوالِ في تأويله ولا ارتفاع ولا انخفاض، لأن الانخفاضَ لم يكن إلا عن ارتفاع. فإذ كان ذلك كذلك، فتأويل الكلام: لا ترى فيها ميلاً عن الاستواء، ولا ارتفاعاً، ولا انخفاضاً، ولكنها مستويةٌ ملساء، كما قال جَلَّ ثناؤه: «قاعاً صَفْصَفاً».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۝١٠٨﴾

يقول تعالى ذكره: يومئذٍ يتبعُ الناسُ صوتَ داعي الله الذي يدعوهم إلى موقفِ القيامة، فيحشرهم إليه. «لا عِوَجَ لَهُ»، يقول: لا عوجَ لهم عنه ولا انحراف، ولكنهم سراعاً إليه ينحشرون. وقيل: لا عوجَ له. والمعنى: لا عوجَ لهم عنه، لأنَّ معنى الكلام ماذكرنا من أنه لا يعوجون له ولا عنه، ولكنهم

يُؤُمُّونَهُ ويأتونه، كما يقال في الكلام: دعاني فلانٌ دعوةً لا عوجَ لي عنها: أي لا اعوجاج عنها.

وقـولـه: «وَخَشَعَتِ الأَصْـوَاتُ لِلرَّحْمَنِ»، يقـول تعالى ذكره: وسكنتْ أصواتُ الخلائقِ للرحمن فوصف الأصواتَ بالخشوعِ، والمعنى لأهلها إنهم خُضَّعٌ جميعهم لربِّهم، فلا تسمعُ لناطقٍ منهم منطقاً إلا مَن أذِنَ له الرحمنُ.

وقوله: «فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً»، يقول: إنه وطء الأقدام إلى المحشر، وأصله: الصوتُ الخفيُّ، يقال: همس فلانٌ إلى فلانٍ بحديثه إذا أَسَرَّهُ إليه وأخفاه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ۝١٠٩ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ۝١١٠﴾

يقـول تعـالى ذكـره: «يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ إلَّا» شفاعة «مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ» أن يشفع «وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً» وأدخل في الكلام له دليلاً على إضافة القول إلى كناية «مَنْ» وذلك كقولِ القائلِ الآخر: رضيتُ لك عملكَ، ورضيتُه منكَ، وموضع مَن من قوله: «إلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ» نصب لأنه خلاف الشفاعة.

وقوله: «يَعْلَمُ ما بينَ أيْدِيهِمْ ومَا خَلْفَهُمْ»، يقول تعالى ذكره: يعلمُ ربكَ يا محمدُ ما بين أيدي هؤلاء الذين يتبعون الداعي من أمرِ القيامة، وما الذي يصيرونَ إليه من الثوابِ والعقاب. «ومَا خلفَهُمْ»، يقول: ويعلم أمرَ ما خلفوه وراءهم من أمر الدنيا.

وقوله: «وَلا يُحيطُونَ بِهِ عِلْماً»، يقول تعالى ذكره: ولا يحيطُ خَلْقُه به علماً. ومعنى الكلام: أنه محيطٌ بعبادِه علماً، ولا يحيطُ عبادُه به علماً. وقد

زعم بعضهم أن قوله ذلك: أنَّ الله يعلمُ ما بين أيدي ملائكته وما خلفهم، وأنَّ ملائكته لا يحيطونَ علماً بما بين أيدي أنفسهم وما خلفهم، وقال: إنما أعلم بذلك الذين كانوا يعبدونَ الملائكة، أنَّ الملائكةَ كذلك لا تعلمُ ما بين أيديها وما خلفَها، مُوبِّخَهُمْ بذلك ومُقَرِّعَهُمْ بأنَّ مَنْ كان كذلك، فكيف يُعْبَدُ، وأنَّ العبادةَ إنما تصلحُ لمن لا تخفى عليه خافيةٌ في الأرضِ ولا في السماء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ١١١﴾

يقول تعالى ذكره: استسَرت وجوهُ الخلق، واستسلمت للحيِّ الذي لا يموتُ، القيوم على خَلْقِه بتدبيرِهِ إياهم، وتصريفهم لما شاءوا. وأصلُ العنو الذلّ يقال منه: عَنَا وَجْهُه لربه يَعْنُو عنواً، يعني خَضَعَ له وذلَّ، وكذلك قيل للأسير: عانٍ لذلةِ الأسْرِ.

وقوله: «وَقَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً»، يقول تعالى ذكره: ولم يظفر بحاجته وطلبته مَنْ حملَ إلى موقفِ القيامة شركاً بالله، وكفراً به، وعملاً بمعصيته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ١١٢﴾

يقول تعالى ذكره وتقدَّسَتْ أسماؤه: ومَنْ يعملْ من صالحاتِ الأعمال، وذلك فيما قيل أداء فرائض الله التي فرضها على عباده. «وَهُوَ مُؤْمِنٌ»، يقول: وهو مُصَدِّقٌ بالله، وأنه مجازٍ أهلَ طاعتِه وأهلَ معاصيه على معاصيهم. «فَلا يَخافُ ظُلْماً»، يقول: فلا يخافُ من الله أن يظلمه، فيحمل عليه سيئات غيره،

فيعاقبه عليها. «وَلا هَضْما»، يقول: لا يخاف أن يهضمه حسناته، فينقصه ثوابها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾

يقول تعالى ذكره: كما رَغَّبْنا أهلَ الإيمان في صالحاتِ الأعمال بِوَعْدِنَاهُمْ ما وعدناهم، كذلك حذرنا بالوعيدِ أهلَ الكفرِ بالمقام على معاصينا، وكفرهم بآياتنا فأنزلنا هذا القرآن عربياً، إذْ كانوا عَرَباً. «وَصَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الوَعِيدِ»، فبيناه: يقول: وخَوَّفْنَاهُمْ فيه بضروبٍ من الوعيد. «لعلَّهم يتَّقون»، يقول: كي يَتَّقُونَا بتصريفنا ما صَرَّفْنَا فيه من الوعيد «أوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً»، يقول: أو يحدث لهم هذا القرآن تذكرةً فيعتبرونَ ويتعظونَ بفعلنا بالأمم التي كذّبت الرسل قبلها، وينزجرون عما هُمْ عليه مقيمون من الكفر بالله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾

يقول تعالى ذكره: فارتفع الذي له العبادة من جميع خلقه، الملكُ - الذي قهر سلطانه كل ملكٍ وجبار، - الحقُّ عما يَصِفُه به المشركون من خَلْقِه. «وَلا تَعْجَلْ بالقُرآنِ مِنْ قَبْلِ أنْ يُقْضَى إلَيْكَ وَحْيُهُ»، يقول جلّ ثناؤه لنبيه محمدٍ ﷺ: ولا تعجلْ يا محمدُ بالقرآن فَتُقْرِئَهُ أصحابكَ، أو تقرأه عليهم من قبل أنْ يُوحَى إليه بيانُ معانيه، فعوتبَ على إكتابه وإملائه ما كان الله ينزله عليه من كتابه من كان يكتبه ذلك من قبل أن يبين له معانيه، وقيل: لا تَتْلُه على أحدٍ، ولا تُمْلِه عليه حتى نُبَيِّنَهُ لك.

وقوله: «وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً»، يقول تعالى ذكره: وقُلْ يا محمد: ربِّ زدني علماً إلى ما علمتني أمره بمسألته من فوائد العلم ما لا يعلم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾

يقول تعالى ذكره: وإنْ يضيع يا محمدُ هؤلاء الذين نُصَرِّفُ لهم في هذا القرآنِ من الوعيدِ عهدي، ويخالفوا أمري، ويتركوا طاعتي، ويتبعوا أمرَ عدوِّهم إبليس، ويطيعون في خلاف أمري، فقديماً مَّا فعل ذلك أبوهم آدم. «وَلَقَدْ عَهِدْنا»، إليه يقول: ولقد وَصَّيْنَا آدمَ وقلنا له: «إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الجَنَّةِ»، ووسوس إليه الشيطان فأطاعه، وخالف أمري، فحلّ به من عقوبتي ما حلّ.

وعنى جلّ ثناؤه بقوله: «مِنْ قَبْلُ» هؤلاء الذين أخبر أنه صرَّف لهم الوعيدَ في هذا القرآن.

وقوله: «فَنَسِيَ»، يقول: فترك عهدي.

وقوله: «ولَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً»، اختلف أهلُ التأويل في معنى العزم ههنا، فقال بعضهم: معناه الصبر.

وقال آخرون: بل معناه: الحِفْظُ، قالوا: ومعناه: ولم نجد له حفظاً لما عَهِدْنَا إليه.

وأصل العزم: اعتقادُ القلب على الشيء، يقال منه: عزم فلان على كذا: إذا اعتقد عليه ونواه؛ ومن اعتقاد القلب: حفظ الشيء، ومنه الصبر على الشيء، لأنه لا يجزعُ جازعٌ إلا من خَوَرِ قلبه وضعفه. فإذا كان ذلك كذلك، فلا معنى لذلك أبلغ مما بينه الله تبارك وتعالى، وهو قوله: «ولَمْ نَجِدْ لَهُ

فيكون تأويله: ولم نجد له عزم قلبٍ على الوفاء لله بعهده، ولا على حفظ ما عهد إليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ۝١١٦ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ۝١١٧﴾

يقول تعالى ذكره معلماً نبيه محمداً ﷺ، ما كان من تضييع آدمَ عهده، ومُعَرِّفَهُ بذلك أنَّ ولده لن يعدوا أنْ يكونوا في ذلك على منهاجه، إلا مَنْ عصمه الله منهم «و» اذكرْ يا محمد «إذْ قُلْنا للْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إلاَّ إبْلِيسَ أبى» أن يسجدَ له «فَقُلْنا يا آدَمُ إنَّ هَذَا عَدُوّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ» ولذلك من شنآنه لم يسجدْ لك، وخالفَ أمري في ذلك وعصاني، فلا تطيعاه فيما يأمركما به فيخرجكما بمعصيتكما ربَّكُما، وطاعتكما له: «مِنَ الجَنَّةِ فَتَشْقى»، يقول: فيكون عيشك من كدِّ يدكَ، فذلك شقاؤه الذي حذَّرهُ ربه.

القَــوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِــهِ تَعَــالَى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ۝١١٩ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ۝١٢٠﴾

يقول تعالى ذكره مخبراً عن قِيله لآدم حين أسكنه الجنة «إنَّ لَكَ» ياآدم «أنْ لا تَجُوعَ فِيها وَلا تَعْرَى». و«أن» في قوله «أنْ لا تَجُوعَ فِيها» في موضع نصب بإنَّ التي في قوله: «إنَّ لَكَ».

وقوله: «وأنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيها» اختلفت القرأةُ في قراءتها، فقرأ ذلك بعض قرأة المدينة والكوفة بالكسر، وإنك على العطف على قوله «إنَّ لَكَ». وقرأ ذلك بعض قرأة المدينة وعامة قرأة الكوفة والبصرة وأنك بفتح ألفها عطفاً بها على «أن» التي في قوله: «أنْ لا تَجُوعَ فِيها». ووجَّهوا تأويلَ ذلك إلى أن لك هذا وهذا، فهذه القراءة أعجب القراءتين إليَّ، لأنَّ الله تبارك وتعالى ذِكْرُهُ وَعَدَ ذلك آدمَ حين أسكنه الجنةَ، فكون ذلك بأن يكون عطفاً على أن لا تجوعَ أوْلى من أن يكون خبر مبتدأ، وإنْ كان الآخر غير بعيد من الصواب.

وعنى بقوله: «لا تَظْمَأُ فِيها»، لا تعطش في الجنة مادمتَ فيها. «وَلا تَضْحَى»، يقول: لا تظهر للشمس فيؤذيك حَرُّهَا.

وقوله: «فَوَسْوَسَ إلَيْهِ الشَّيْطانُ»، يقول: فألقى إلى آدمَ الشَّيطانُ وحَدَّثَهُ «فَقالَ يا آدَمُ هَلْ أدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الخُلْدِ»، يقول: قال له: هل أدلك على شجرةٍ إنْ أكلتَ منها خلدتَ فلم تمتْ، وملكتَ ملكاً لا ينقضي فيبلى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾

يقـول تعالى ذكره: فأكل آدمُ وحوّاء من الشجرةِ التي نُهيا عن الأكلِ منهـا، وأطاعا أمرَ إبليس، وخالفا أمرَ رَبِّهما «فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما»، يقول: فانكشفت لهما عوراتهما، وكانت مستورة عن أعينهما.

وقوله: «وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهما مِنْ وَرَقِ الجَنَّةِ»، يقول: أقبلا يشدان عليهما من ورق الجنة.

وقوله: «وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى»، يقول: وخالفَ أمرَ ربه فتعدَّى إلى ما لم يكنْ له أن يتعدّى إليه من الأكلِ من الشجرة التي نهاه عن الأكلِ منها.

وقوله: «ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَهَدَى»، يقول: اصطفاه ربه من بعد معصيته إياه فرزقه الرجوعَ إلى ما يرضى عنه، والعمل بطاعته، وذلك هو كانت توبته التي تابها عليه.

وقوله: «وَهَدَى»، يقول: وهداهُ للتوبةِ، فوفَّقه لها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾

يقول تعالى ذكره: قال الله تعالى لآدم وحوّاء: «اهْبطا مِنها جَمِيعاً» إلى الأرض. «بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوّ»، يقول: أنتما عدوُّ إبليسَ وذرِّيته، وإبليسُ عدوُّكما وعدوُّ ذرِّيتكما.

وقوله: «فإمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى»، يقول: فإن يأتكم يا آدم وحوّاء وإبليس مني هدى: يقول: بيان لسبيلي، وما أختاره لخلقي من دين «فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ»، يقول: فمن اتبع بياني ذلك وعمل به، ولم يزغ عنه. «فَلا يَضِلُّ»، يقول: فلا يزولُ عن مَحجةِ الحَقِّ، ولكنه يرشد في الدنيا ويهتدي. «وَلا يَشْقَى» في الآخرة بعقاب الله، لأنَّ الله يدخله الجنة، وينجيه من عذابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾

يقول تعالى ذكره: «وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي»، الذي أذكره به فتولَّى عنه ولم يقبله ولم يستجب له، ولم يتعظ به فينزجر عَمَّا عليه مقيمٌ من خلافهِ أمرَ رَبِّه. «فإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً»، يقول: فإن له معيشة ضيقة. والضنكُ من المنازل والأماكن والمعايش: الشديدُ. يقال: هذا منزلٌ ضنك: إذا كان ضيقاً، وعيشٌ ضنك: الذكر والأنثى والواحد والاثنان والجمع بلفظ واحد.

واختلف أهلُ التأويل في الموضع الذي جعل الله لهؤلاء المعرضين عن ذِكْرِه العيشة الضنك، والحال التي جعلهم فيها، فقال بعضهم: جعل ذلك لهم في الآخرة في جهنم، وذلك أنــه جعل طعامهم فيها الضريع والزقوم.

وقــال آخـرون: بل عَنَى بذلك: فإِنَّ له معيشةً في الدنيا حراماً قال: ووصف الله جلَّ وعزَّ معيشتهم بالضنك، لأنَّ الحرام وإن اتَّسَعَ فهو ضنك.

وقال آخرون ممن قال عنى أنَّ لهؤلاء القوم المعيشة الضنك في الدنيا، إنما قيل لها ضنك وإن كانت واسعة، لأنهم ينفقونَ ما ينفقونَ من أموالهم على تكذيبٍ منهم بالخلفِ من الله، وإياسٍ من فضلِ الله، وسوءِ ظَنٍّ منهم بربهم، فتشتدّ لذلك عليهم معيشتهم وتضيق.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك: أن ذلك لهم في البرزخ، وهو عذاب القبر.

وأَوْلى الأقوال في ذلك بالصواب قولُ مَنْ قال: هو عذابُ القبر، فإنَّ الله تبارك وتعالى أتبع ذلك بقوله: «وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وأَبْقَى» فكان معلوماً بذلك أن المعيشــة الضنك التي جعلها الله لهم قبل عذاب الآخرة، لأن ذلك لو كان في الآخرة لم يكن لقوله: «وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وأَبْقَى» معنى مفهوم، لأن ذلك إنْ لم يكن تَقَدَّمَهُ عذابٌ لهم قبل الآخرة، حتى يكون الذي في الآخرة أشدّ منه، بطل معنى قوله: «وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وأَبْقَى»، فإذ كان ذلك كذلك، فلا

تخلو تلك المعيشةُ الضنك التي جعلها الله لهم من أنْ تكون لهم في حياتهم الدنيا، أو في قبورهم قبل البعث، إذْ كان لا وجه لأنْ تكون في الآخرة لما قد بيَّنا، فإنْ كانت لهم في حياتهم الدنيا، فقد يجب أن يكون كلُّ مَنْ أعرضَ عن ذكر الله من الكفار، فإن معيشته فيها ضنك، وفي وجودنا كثيراً منهم أوسع معيشة من كثيرٍ من المقبلين على ذِكْرِ الله تبارك وتعالى، القابلين له المؤمنين في ذلك، ما يدلُّ على أنَّ ذلك ليس كذلك، وإذ خلا القولُ في ذلك من هذين الوجهين صحَّ الوجهُ الثالث، وهو أن ذلك في البرزخ.

وقوله: «ونَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيامَةِ أعْمَى»، اختلف أهلُ التأويل في صفة العمى الذي ذكر الله في هذه الآية، أنه يبعث هؤلاء الكفار يوم القيامة به، فقال بعضهم: ذلك عمى عن الحجة، لا عمى عن البصر. وقيل: يُحشر أعَمى البصر.

والصواب من القول في ذلك ما قال الله تعالى ذِكْرُه، وهو أنه يحشرُ أعمى عن الحجة ورؤية الشيءِ كما أخبر جَلَّ ثناؤه، فَعَمَّ ولم يخصص.

وقوله: «قالَ: رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بِصِيراً»، يقول: ربِّ لم حشرتني أعمى عن حجتي ورؤية الأشياء، وقد كنت في الدنيا ذا بَصَرٍ بذلك كله.

فإنْ قال قائل: وكيف قال هذا لربه: «لِمَ حَشَرْتَنِي أعْمَى» مع معاينته عظيم سلطانه، أجهل في ذلك الموقف أنْ يكون لله أنْ يفعل به ما شاء، أم ما وجه ذلك؟ قيل: إن ذلك منه مسألة لربه يُعَرِّفُه الجرمَ الذي استحقَّ به ذلك، إذ كان قد جهله، وظنَّ أنْ لا جرم له، استحق ذلك به منه، فقال: ربِّ لأيِّ ذنبٍ ولأيِّ جرمٍ حشرتني أعمى، وقد كنت من قبل في الدنيا بصيراً وأنت لا تعاقب أحداً إلا بدون ما يستحق منك من العقاب.

وقوله: «قالَ كَذَلكَ أتَتْكَ آياتنا فَنَسِيتَها»، يقول تعالى ذكره، قال الله حينئذٍ للقائلِ له: «لِمَ حَشَرْتَنِي أعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً» فعلت ذلك بك، فحشرتك أعمى كما أتتك آياتي وهي حججه وأدلته وبيانه الذي بيَّنه في كتابه، فنسيتَها: يقول: فتركتها وأعرضت عنها، ولم تؤمنْ بها، ولم تعمل. وعنى بقوله: «كَذَلكَ أتَتْكَ» هكذا أتتك.

وقوله: «وكَذلكَ اليَوْمَ تُنْسَى»، يقول: فكما نسيتَ آياتنا في الدنيا، فتركتها وأعرضتَ عنها، فكذلك اليوم نَنْسَاكَ، فنتركك في النار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾

يقول تعالى ذكره: وهكذا نجزي: أي نُثيبُ مَنْ أسرفَ فعصى ربه، ولم يؤمنْ برسله وكتبه، فنجعل له معيشةً ضنكاً في البرزخ كما قد بيَّنَّا قبل. «وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أشَدُّ وأبْقَى»، يقول جلّ ثناؤه: ولعذاب في الآخرة أشدُّ لهم مما وعدتهم في القبر من المعيشة الضنك وأبقى: يقول: وأدومُ منها، لأنه إلى غيرِ أمدٍ ولا نهاية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: أفلم يَهْدِ لقومكَ المشركينَ بالله، ومعنى يَهْدِ: يبين. يقول: أفلم يبين لهم كثرة ما أهلكنا قَبْلَهم من الأمم التي سلكت قبلها التي يمشون في مساكنهم ودورهم، ويرون آثارَ عقوباتنا التي أحللناها بهم سوء مغبةِ ما هُمْ عليه مقيمونَ من الكفر بآياتنا، ويتعظوا بهم،

ويعتبروا، ويُنِيبُوا إلى الإذعانِ، ويؤمنوا باللهِ ورسوله، خوفاً أنْ يصيبهم بكفرهم بالله مثل ما أصابهم.

وقوله: «إنَّ فِي ذلكَ لَآياتٍ لأُولي النُّهَى»، يقول تعالى ذكره: إنَّ فيما يعاين هؤلاء ويرون من آثارِ وقائعنا بالأمم المكذِّبةِ رسلها قبلهم، وحلول مثلاتنا بهم لكفرهم بالله «لَآياتٍ»، يقول: لدلالات وعبراً وعظات «لِأُولي النُّهَى»، يعني: لأهلِ الحِجى والعقول، ومَنْ ينهاه عقلُه وفَهْمُه ودينه عن مواقعةِ مايضره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾

يقول تعالى ذكره: «وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ» يا محمدُ أنَّ كلَّ مَنْ قضى له أجلاً فإنه لا يحترمه قبل بلوغه أجله «وأجلٌ مسمًّى»، يقول: ووقت مسمى عند ربك سماه لهم في أمِّ الكتاب وخطه فيه، هم بالغوه ومستوفوه «لكَانَ لِزاماً»، يقول: لَلاَزَمَهُم الهلاكُ عاجلاً.

ومعنى الكلام: ولولا كلمةٌ سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاماً، فاصبر على ما يقولون.

وقوله: «فاصْبِرْ على ما يَقُولُونَ»، يقول جلّ ثناؤه لنبيه: فاصبر يا محمد على ما يقول هؤلاء المكذّبون بآياتِ الله من قومكَ لك إنك ساحر، وإنك مجنونٌ وشاعر ونحو ذلك من القول. «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ»، يقول: وصل بثنائك على ربك.

وقوله: «قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ» وذلك صلاة الصبح «وَقَبْلَ غُرُوبِها» وهي العصر «وَمِنْ آناءِ اللَّيْلِ» وهي ساعات الليل، واحدها: إنى.

ويعني بقوله: «وَمِنْ آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ» صلاة العشاء الآخرة، لأنها تصلى بعد مضيٍّ آناء من الليل.

وقوله: «وأطْرَافَ النَّهارِ»: يعني صلاة الظهر والمغرب؛ وقيل: أطراف النهار؛ والمراد بذلك الصلاتان اللتان ذكرنا، لأنَّ صلاة الظهر في آخر طرف النهار الأوّل، وفي أوّل طرف النهار الآخر، فهي في طرفين منه، والطرف الثالث: غروب الشمس، وعند ذلك تصلى المغرب، فلذلك قيل أطراف.

وقوله: «لَعَلَّكَ تَرْضَى»، يقول: كي ترضى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝١٣١﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ولا تنظرْ إلى ما جعلنا لضرباءِ هؤلاء المعرضين عن آياتِ ربهم وأشكالهم، متعة في حياتهم الدنيا، يتمتعون بها من زهرة عاجل الدنيا ونضرتها «لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ»، يقول: لنختبرهم فيما مَتَّعناهم به من ذلك ونبتليهم، فإنَّ ذلك فانٍ زائل، وغُرورٌ وخدعٌ تضمحلُّ «وَرِزْقُ رَبِّكَ» الذي وعدَكَ أنْ يرزقَكَهُ في الآخرةِ حتى ترضى، وهو ثوابه إياه «خَيْرٌ» لك مما متعناهم به من زهرةِ الحياة الدنيا. «وأبْقَى»، يقول: وأدوم، لأنه لا انقطاعَ له ولا نفادَ، وذكر أنَّ هذه الآية نزلت على رسولِ الله ﷺ، من أجلِ أنَّ رسولَ الله ﷺ بعث إلى يهوديّ يستسلفُ منه طعاماً، فأبى أن يسلفه إلا برهن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ۝١٣٢﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: «وأْمُرْ» يا محمدُ «أهْلَكَ بالصَّلاةِ وَاصْطَبرْ عَلَيْها»، يقول: واصطبر على القيام بها، وأدائها بحدودها أنت: «لا نَسْئَلُكَ رِزْقاً»، يقول: لا نسألك مالاً، بل نكلفك عملاً ببدنك، نؤتيك عليه أجراً عظيماً وثواباً جزيلاً «نَحْنُ نَرْزُقُكَ»، يقول: نحن نعطيك المال ونُكْسِبكَهُ، ولا نسألكَهُ.

وقوله: «والعاقبَةُ للتَّقْوَى»، يقول: والعاقبةُ الصالحة من عمل كلّ عاملٍ لأهل التقوى والخشية من الله دون من لا يخاف له عقاباً، ولا يرجو له ثواباً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ۝١٣٣﴾

يقول تعالى ذكره: قال هؤلاء المشركون الذين وصف صِفَتهم في الآياتِ قَبْلُ هَلاَّ يأتينا محمدٌ بآيةٍ من ربه، كما أتى قومَهُ صالحٌ بالناقةِ وعيسى باحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، يقول الله جلّ ثناؤه: أو لم يأتهم بيانُ ما في الكتب التي قبل هذا الكتاب من أنباء الأمم من قبلهم التي أهلكناهم لما سألوا الآيات فكفروا بها لما أتتهم كيف عجَّلنا لهم العذاب، وأنزلنا بأسنا بكفرهم بها، يقول: فماذا يؤمنهم إنْ أتتهم الآيةُ أنْ يكونَ حالُهم حالَ أولئك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ۝١٣٤﴾

يقول تعالى ذكره: ولو أنَّا أهلكنا هؤلاء المشركين الذين يكذِّبُونَ بهذا القرآنِ من قبل أن ننزله عليهم، ومن قبل أن نبعث داعياً يَدْعُوهم إلى ما فرضنا عليهم فيه بعذابٍ ننزله بهم بكفرهم بالله، لقالوا يومَ القيامة إذ وردوا علينا، فأردنا عقابهم: رَبَّنَا هَلاَّ أرسلتَ إلينا رسولاً يدعونا إلى طاعتك، فنتبع آياتك: يقول: فنتبع حُجَّتَكَ وأدلتك وما تنزله عليه من أمرِكَ ونهيكَ من قبل أنْ نذلَّ بتعذيبك إيانا ونَخْزى به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمدُ كُلُّكُمْ أيها المشركون بالله متربصٌ: يقول: منتظرٌ لمن يكونُ الفلاح، وإلى ما يئولُ أمري وأمركم متوقفٌ ينتظرُ دوائرَ الزمان، فَتَرَبَّصُوا: يقول: فترقَّبُوا وانتظروا، فستعلمونَ مَنْ أهلُ الطريقِ المستقيم المعتدل الذي لا اعوجاجَ فيه إذا جاء أمرُ الله وقامت القيامة، أنحنُ أم أنتم؟ ومن اهتدى: يقول: وستعلمون حينئذٍ من المهتدي الذي هو على سنن الطريق القاصد غير الجائر عن قصده منا ومنكم.

سُورَةُ الأَنبِيَاءِ

آياتها ١١٢ — ترتيبها ٢١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾

يقول تعالى ذكره: دَنَا حسابُ الناسِ على أعمالهم التي عملوها في دنياهم ونعمهم التي أنعمها عليهم فيها في أبدانهم، وأجسامهم، ومطاعمهم، ومشاربهم، وملابسهم وغير ذلك من نعمهِ عندهم، ومسألته إياهم ماذا عملوا فيها، وهل أطاعوهُ فيها، فانتهوا إلى أمرهِ ونهيه في جميعها، أم عصوه فخالفوا أمره فيها؟. «وَهُمْ في غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ»، يقول: وهم في الدنيا عما الله فاعلٌ بهم من ذلك يوم القيامة، وعن دُنُوِّ محاسبته إياهم منهم، واقترابه لهم في سهوٍ وغفلة، وقد أعرضوا عن ذلك، فتركوا الفكرَ فيه، والاستعدادَ له، والتأهبَ جهلاً منهم بما هم لاقُوه عند ذلك من عظيمِ البلاء، وشديدِ الأهوال.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢﴾

يقول تعالى ذكره: ما يحدث الله من تنزيلِ شيء من هذا القرآنِ للناس، ويذكرهم به ويعظهم إلا استمعُوه، وهم يلعبون لاهيةً قلوبُهُم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾﴾

يقول تعالى ذكره: «لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ» غافلة: يقول: ما يستمع هؤلاء القومُ الذين وصف صفتهم هذا القرآن إلا وهم يلعبون غافلة عنه قلوبُهم، لا يتدبرون حُكْمَهُ، ولا يتفكَّرونَ فيما أودعهُ اللهُ من الحججِ عليهم.

وقوله: «وأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا»، يقول: وأسرَّ هؤلاء الناس الذين اقتربت الساعةُ منهم وهم في غفلةٍ معرضون، لاهية قلوبهم، النجوى بينهم، يقول: وأظهروا المناجاةَ بينهم فقالوا: هل هذا الذي يزعمُ أنه رسولٌ من الله أرسله إليكم، إلا بَشَرٌ مثلُكم: يقولون: هل هو إلا إنسانٌ مثلكم في صوركم وخلقكم، يعنون بذلك محمداً ﷺ، وقال الذين ظلموا فوصفهم بالظلم بفِعْلِهم وقِيلِهم الذي أخبر به عنهم في هذه الآيات إنهم يفعلون ويقولون من الإعراضِ عن ذكرِ الله، والتكذيبِ برسوله.

وقوله: «أفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ»، يقول: وأظهروا هذا القول بينهم، وهي النجوى التي أسرُّوها بينهم، فقال بعضهم لبعضٍ: أتقبلونَ السحر، وتصدِّقُونَ به وأنتم تعلمون أنه سحر؟ يعنون بذلك القرآن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾﴾

اختلفت القَرَأَة في قراءةِ قوله: «قالَ رَبِّي»، فقرأ ذلك عامة قَرَأَة أهل المدينة والبصرة وبعض الكوفيين «قُلْ رَبِّي» على وجه الأمرِ، وقرأه بعض قَرَأَةِ

مكة، وعامة قَرَأة الكوفة: «قالَ رَبِّي» على وجه الخبر، وكأن الذين قرءوه على وجهِ الأمر أرادوا من تأويله: قُلْ يا محمد للقائلين «أتأْتُونَ السِّحْرَ وأنْتُمْ تُبْصِرُونَ»، ربي يعلمُ قولَ كلِّ قائلٍ في السماء والأرض، لا يخفَى عليه منه شيءٌ وهو السميعُ لذلك كله، ولما يقولونَ من الكذبِ العليمُ بصِدْقي، وحقيقةِ ما أدعوكُمْ إليه، وباطلِ ما تقولون، وغيرِ ذلك من الأشياء كلها. وكأنَّ الذين قرءوا ذلك «قال» على وجه الخبر أرادوا، قال محمد: «ربي يعلمُ القولَ» خبراً من الله عن جواب نبيه إياهم.

والقول في ذلك أنهما قراءتان مشهورتان في قَرَأةِ الأمصار، قد قرأ بكل واحدةٍ منهما علماء من القرأة، وجاءت بهما مصاحف المسلمين متفقة المعنى، وذلك أن الله إذا أمر محمداً بقِيل ذلك قاله، وإذا قاله فَعَنْ أمرِ الله قاله، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيبٌ الصوابَ في قراءته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥﴾

يقول تعالى ذكره: ما صدَّقُوا بحكمةِ هذا القرآن، ولا أنه من عند الله، ولا أقَرُّوا بأنه وحي أوْحَى اللهُ إلى محمدٍ ﷺ، بل قال بعضهم: هو أهاويلُ رؤيا رآها في النوم. وقال بعضهم: هو فِرْيةٌ واختلاق افتراه واختلقه من قِبَل نفسه. وقال بعضهم: بل محمدٌ شاعر، وهذا الذي جاءكم به شعر «فَلْيَأْتِنا» به يقول: «قالوا فليجئنا محمدٌ إنْ كان صادقاً في قوله، إنَّ الله بعثه رسولاً إلينا، وإن هذا الذي يتلوه علينا وحيٌ من الله أوحاه إلينا «بآيةٍ» يقول: بحجةٍ ودلالة على حقيقة ما يقول ويدّعي «كَمَا أُرْسِلَ الأوَّلُونَ»، يقول: كما جاءت به الرسلُ الأوَّلونَ من قبْله من إحياءِ الموتى، وإبراءِ الأكمه والأبرص وكناقةِ صالح، وما

أشبهَ ذلك من المعجزاتِ التي لا يقدر عليها إلا الله، ولا يأتي بها إلا الأنبياءُ والرسل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾

يقول تعالى ذكره: ما آمنَ من قبل هؤلاء المكذِّبين محمداً من مشركي قومِهِ الذين قالوا: فليأتنا محمدٌ بآيةٍ كما جاءت به الرسل قبله من أهلِ قريةٍ عذَّبناهُمْ بالهلاكِ في الدنيا، إذ جاءهم رسولُنا إليهم بآيةٍ معجزة. «أفَهُمْ يُؤْمِنُونَ»، يقول: أفهؤلاء المكذّبون محمداً السَّائِلُوه الآيةَ يؤمنونَ به إنْ جاءتهم آيةٌ، ولم تؤمن قبلهمْ أسلافهم من الأممِ الخالية التي أهلكناها برسلها مع مجيئها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه: وما أرسلنا يا محمدُ قبلكَ رسولاً إلى أمةٍ من الأممِ التي خلت قبلَ أمتكَ إلا رجالاً مثلهم نُوحي إليهم، ما نريدُ أنْ نُوحيه إليهم من أمرنا ونهينا، لا ملائكةً، فماذا أنكروا من إرسالنا لكَ إليهم، وأنتَ رجلٌ كسائرِ الرسل الذين قبلك إلى أممهم.

وقوله: «فاسأَلُوا أهْلَ الذّكرِ إنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ»، يقول للقائلينَ لمحمدٍ ﷺ في تناجيهم بينهم: هل هذا إلا بشرٌ مثلكم، فإنْ أنكرتم وجهلتم أمرَ الرسلِ الذين كانوا من قبل محمدٍ، فلم تعلموا أيها القومُ أمرهم إنساً كانوا أم ملائكة، فاسألوا أهلَ الكتبِ من التوراةِ والإنجيلِ ما كانوا يخبروكم عنهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ۝٨﴾

يقول تعالى ذكره: وما جعلنا الرسلَ الذين أرسلناهم من قبلكَ يا محمدُ إلى الأممِ الماضية قبل أمتك. «جَسَدًا لا يَأْكُلُون الطَّعامَ»، يقول: لم نجعلهم ملائكةً لا يأكلونَ الطعام، ولكن جعلناهم أجساداً مثلك يأكلون الطعام.

وقوله: «وَمَا كانُوا خالِدِينَ»، يقول: ولا كانوا أرباباً لا يموتون ولا يفنون، ولكنهم كانوا بشراً أجساداً فماتوا، وذلك أنهم قالوا لرسولِ الله ﷺ، كما قد أخبر الله عنهم: «لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً»... إلى قوله: «أوْ تَأْتِيَ باللهِ وَالمَلائِكَةِ قَبِيلاً» قال الله تبارك وتعالى لهم: ما فعلنا ذلك بأحدٍ قبلكم فنفعل بكم، وإنما كنا نرسلُ إليهم رجالاً نُوحي إليهم كما أرسلنا إليكم رسولاً نوحي إليه أمرَنا ونهينا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ۝٩﴾

يقول تعالى ذكره: ثم صدقنا رُسُلَنَا الذين كَذَّبتهم أُممهم، وسألتهم الآياتِ، فآتيناهم ما سألوهُ من ذلك، ثم أقاموا على تكذِيبهم إياها، وأصرُّوا على جُحودهم نبوَّتَها بعد الذي أتتهم به من آياتِ رَبِّها، وَعَدْنَا الذي وعدناهم من الهلاكِ على إقامتِهم على الكفرِ بربهم بعد مجيء الآية التي سألوا، وذلك كقوله جلَّ ثناؤه: «فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فإنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لا أُعَذِّبُهُ أحَداً مِنَ العالَمِينَ»، وكقوله: «وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ» ونحو ذلك من المواعيد التي وعد الأمم مع مجيء الآيات.

وقوله: «فَأَنْجَيْناهُمْ» يقول تعالى ذكره: فأنجينا الرسلَ عند إصرارِ أممها على تكذيبها بعد الآياتِ «وَمَنْ نَشاءُ» وهم أتباعها الذين صَدَّقُوها وآمنوا بها.

وقوله: «وأهْلَكنا المسْرِفينَ»، يقول تعالى ذكره: وأهلكنا الذين أسرفوا على أنفسهم بكفرهم بربهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾

اختلف أهلُ التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم، فيه حديثكم.

وقال آخرون: بل عَنَى بالذكر في هذا الموضع: الشرف، وقالوا: معنى الكلام: لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه شَرَفُكم.

وهذا القولُ الثاني أشبه بمعنى الكلمة، وذلك أنه شرفٌ لمن اتبعه وعملَ بما فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾

يقول تعالى ذكره: وكثيراً قصمنا من قريةٍ، والقصمُ: أصله الكسرُ، يقال منه: قصمت ظهر فلان إذا كسرته، وانقصمت سِنُّه: إذا انكسرت، وهو ههنا معنيٌّ به: أهلكنا.

وقوله: «مِنْ قَرْيَةٍ كانَتْ ظالِمَةً» أجرى الكلام على القرية، والمراد بها أهلها لمعرفةِ السامعينَ بمعناه، وكأن ظلمها: كفرها بالله، وتكذيبها رسله.

وقوله: «وأنْشأْنا بَعْدَها قَوْماً آخَرِينَ»، يقول تعالى ذكره: وأحدثنا بعد ما أهلكنا هؤلاء الظلمةَ من أهلِ هذه القرية التي قصمناها بظلمها قوماً آخرين سواهم.

وقوله: «فَلَمَّا أحَسُّوا بأْسَنا»، يقول: فلما عاينوا عذابنا قد حَلَّ بهم، ورأوه قد وجدوا مَسَّهُ، يقال منه: قد أحسستُ من فلان ضعفاً، وأحسسته منه. «إذَا هُمْ مِنْها يَرْكُضُونَ»، يقول: إذا هم مما أَحَسُّوا بأسنا النازلَ بهم يهربونَ سِراعَاً عَجْلَى، يَعْدُون منهزمين، يقال منه: ركض فلان فرسه: إذا كَدَّه بسياقته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوٓا إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ۝١٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لا تهربوا وارجعوا إلى ما أُترفتم فيه: يقول: إلى ما أُنعمتم فيه من عيشتكم ومساكنكم.

واختلف أهلُ التأويلِ في معنى قوله: «لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ» فقال بعضهم: معناه: لعلكم تفقهون، وتفهمون بالمسألة.

وقال آخرون: بل معناه لعلكم تسألونَ من دنياكم شيئاً على وجه السخريةِ والاستهزاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝١٤ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ۝١٥﴾

يقول تعالى ذكره: قال هؤلاء الذين أحلَّ الله بهم بأسه بظلمهم، لما نزلَ بهم بأسُ الله: ياويلنا إنَّا كنا ظالمين، بكفرنا بربنا، فما زالتْ تلك دَعْوَاهُمْ؛

يقول: فلم تزل دعواهم، حين أتاهم بأسُ الله، بظلمهم أنفسَهُمْ: «ياوَيْلَنا إنَّا كُنَّا ظالِمِينَ» حتى قتلهم الله، فحصدَهُمْ بالسيفِ كما يُحْصَدُ الزرعُ ويستأصل قطعاً بالمناجل.

وقوله: «خامِدِينَ» يقول: هالكين قد انطفأتْ شرارتهم، وسكنتْ حركتهم، فصاروا هموداً كما تخمد النار فتطفأ.

القَوْلُ في تأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى ذكره: «وَمَا خَلَقْنَا السَّماءَ والأرْض ومَا بَيْنَهُما» إلا حجةً عليكم أيها الناسُ، ولتعتبروا بذلك كله، فتعلموا أنَّ الذي دَبَّرَهُ وخَلَقَهُ لا يشبههُ شيءُ، وأنه لا تكونُ الألوهةُ إلا له، ولا تصلحُ العبادةُ لشيءٍ غيره، ولم يَخْلق ذلك عبثاً ولعباً.

القَوْلُ فِي تأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى ذكره: لو أردنا أنْ نَتَّخِذَ زوجةً وولداً لاتخذنا ذلك من عندنا، ولكنا لا نفعلُ ذلك، ولا يصلحُ لنا فِعْلُه، ولا ينبغي، لأنه لا ينبغي أنْ يكونَ لله ولدٌ ولا صاحبة.

القَوْلُ فِي تأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى ذكره: ولكن ننزل الحقَّ من عندنا، وهو كتابُ الله وتنزيله على الكفرِ به وأهله، فيدمغه: يقول: فيهلكه كما يدمغُ الرجلُ الرجلَ بأنْ يشجَّهُ على رأسهِ شجةً تبلغُ الدماغَ، وإذا بلغت الشجةُ ذلك من المشجوجِ لم يكنْ له بعدها حياة.

وقوله: «فإذَا هُوَ زَاهِقٌ» يقول: فإذا هو هالكٌ مُضْمَحِلٌّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩﴾

يقول تعالى ذكره: وكيف يجوزُ أنْ يتخذ الله لهواً، وله مُلكُ جميعِ مَنْ في السموات والأرض، والذين عنده من خَلْقِه، لا يستنكفونَ عن عبادتِهم إياه، ولا يَعْيَوْنَ من طولِ خدمتهم له، وقد علمتم أنه لا يستعبد والدٌ ولده ولا صاحبته، وكُلُّ مَنْ في السموات والأرض عبيدُه، فأنَّى يكونُ له صاحبةٌ وولد: يقول: أولا تتفكرونَ فيما تفترونَ من الكذبِ على رَبِّكم.

القَــوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِــهِ تَعَــالَى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۝٢١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يسبح هؤلاء الذين عنده من ملائكةِ رَبِّهم الليلَ والنهارَ لا يفترونَ من تسبيحِهم إياه.

وقوله: «أم اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أَتَّخَذَ هؤلاء المشركون آلهةً من الأرض هم ينشرون: يعني بقوله هم: الآلهة، يقول: هذه الآلهةُ التي اتخذوها تنشرُ الأمواتَ، يقول: يحيون الأمواتَ، وينشرونَ الخَلْقَ، فإنَّ الله هو الذي يحيي ويميت.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لو كان في السمواتِ والأرض آلهةٌ تَصْلُحُ لهم العبادةُ سوى الله الذي هو خالقُ الأشياء، وله العبادةُ والأُلوهةُ التي لا تصلح إلا له. «لَفَسَدَتا»، يقول: لفسدَ أهلُ السموات والأرض. «فَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ»، يقول جلّ ثناؤه: فتنزيهٌ لله وتبرئةٌ له مما يفتري به عليه هؤلاء المشركون به من الكذبِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾

يقول تعالى ذكره: لا سائل يسألُ ربَّ العرشِ عن الذي يفعلُ بخلْقِه من تصريفِهم فيما شاءَ من حياةٍ وموتٍ وإعزازٍ وإذلال، وغير ذلك من حُكْمِه فيهم، لأنهم خَلْقُه وعبيده، وجميعُهم في ملكِهِ وسلطانه، والحكمُ حُكْمُه، والقضاءُ قضاؤه، لا شيءَ فوقَهُ، يَسْأَله عما يَفْعل، فيقول له: لِمَ فعلتَ؟ ولِمَ لَمْ تفعلْ؟ «وَهُمْ يُسْأَلُونَ»، يقول جلّ ثناؤه: وجميعُ مَنْ في السموات والأرض من عبادهِ مسئولون عن أفعالهم، ومحاسبونَ على أعمالهم، وهو الذي يَسأَلُهم عن ذلك، ويحاسبُهم عليه، لأنه فوقَهم ومالكهم، وهم في سلطانه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ۝٢٤﴾

يقول تعالى ذكره: أتخذ هؤلاء المشركونَ من دونِ الله آلهةً تنفعُ وتضرُّ، وتَخلق وتُحيي وتُميت؟ قل يا محمـدُ لهم: هاتُـوا برهانكم، يعني حُجَّتَكم، يقول: هاتوا إنْ كنتم تزعمون أنكم مُحِقُّونَ في قِيلكم ذلك حجة ودليلاً على صِدْقِكم.

وقوله: «هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ» يقول: هذا الذي جئتكم به من عند الله من القرآنِ والتنزيل «ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ»، يقول: خبرُ مَنْ معي مما لهم من ثوابِ الله على إيمانهم به، وطاعتهم إياه، وما عليهم من عقابِ الله على معصيتهم إياه وكفرهم به. «وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي» يقول: وخبرُ مَنْ قبلي من الأممِ التي سلفت قبلي، وما فعل الله بهم في الدنيا وهو فاعلٌ بهم في الآخرة.

وقوله: «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الحَقَّ»، يقول: بل أكثرُ هؤلاء المشركينَ لا يعلمونَ الصوابَ فيما يقولون، ولا فيما يأتونَ ويَذَرونَ، فهم مُعْرِضُونَ عن الحقِّ جهلاً منهم به، وقلَّةَ فَهْمٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى ذكره: وما أرسلنا يا محمدُ من قبلك من رسولٍ إلى أمةٍ من الأممِ إلا نُوحي إليه أنه لا معبودَ في السمواتِ والأرض، تصلحُ العبادةُ له سواي فاعبدونِ: يقول: فأخلصوا لي العبادةَ، وأفردوا لي الألوهة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالى ذكره: وقال هؤلاء الكافرون بربهم: اتخذَ الرحمنُ ولداً من

ملائكته، فقال جلّ ثناؤه استعظاماً مما قالوا وتبرِّياً مما وصفُوه به سبحانه، يقول تنزيهاً له عن ذلك، ما ذلك من صفته. «بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ»، يقول: ما الملائكةُ كما وصفهم به هؤلاء الكافرونَ من بني آدم، ولكنهم عبادٌ مكرمون يقول: أكرمهم الله.

وقوله: «لا يَسْبِقُونَهُ بالقَوْلِ»، يقول جلّ ثناؤه: لا يتكلمون إلا بما يأمرهم به رَبُّهم، ولا يعملون عملاً إلا به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ۝٢٨﴾

يقول تعالى ذكره: يعلمُ ما بين أيدي ملائكتِه ما لم يبلغوه، ما هُوَ، وما هُمْ فيه قائلونَ وعاملونَ، «وما خلفهم»، يقول: وما مضى من قبل اليومِ مما خَلَّفُوه وراءهم من الأزمانِ والدهورِ ما عملوا فيه، قالوا ذلك كله محصى لهم وعليهم، لا يَخْفَى عليه من ذلك شيء.

وقوله: «ولا يَشْفَعُونَ إلاّ لِمَنِ ارْتَضَى»، يقول: ولا تشفع الملائكةُ إلا لمن رضيَ الله عنه.

وقوله: «وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ»، يقول: وهُمْ من خوفِ اللهِ وحذارِ عقابِهِ أنْ يحلَّ بهم مشفقون: يقول: حَذِرُونَ أنْ يعصوه ويخالفوا أمره ونهيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ۝٢٩﴾

يقول تعالى ذكره: ومَنْ يَقُلْ من الملائكةِ: إني إلهٌ من دونِ الله «فَذَلِكَ»

الـذي يقـولُ ذلك منهم «نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ»، يقول: نُثيبُه على قِيلِه ذلك جهنمَ «كَذلكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ»، يقول: كما نجزي مَنْ قال من الملائكة: إني إلهٌ من دونِ الله جهنمَ، كذلك نجزي ذلك كُلَّ مَنْ ظلم نفسه، فكفرَ بالله وعبدَ غيره. وقيل: عنى بهذه الآية إبليسَ. وقال قائلو ذلك: إنما قلنا ذلك، لأنه لا أحدَ من الملائكةِ قال: إني إله من دون الله سواه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٠﴾

يقول تعالى ذكره: أو لم ينظُرْ هؤلاء الذين كفروا بالله بأبصارِ قلوبهم، فيروا بها، ويعلموا أنَّ السمواتِ والأرضَ كانتا رَتْقاً: يقول: ليس فيهما ثقبٌ، بل كانتا ملتصقتين.

وقوله: «فَفَتَقْناهُما»، يقول: فصدعناهما وفرجناهما.

ثم اختلف أهل التأويل في معنى وصفِ الله السمواتِ والأرضَ بالرتقِ، وكيف كان الرتقُ، وبأيِّ معنى فتق؟ فقال بعضهم: عَنَى بذلك أنَّ السمواتِ والأرضَ كانتا ملتصقتين، ففصلَ اللهُ بينهما بالهواء.

وقال آخرون: بل معنى ذلك أنَّ السموات كانت مرتتقةً طبقةً، ففتقها الله فجعلها سبعَ سمواتٍ، وكذلك الأرض كانت كذلك مرتتقة، ففتقها، فجعلها سبعَ أرضين.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك أنَّ السمواتِ كانت رتقاً لا تُمْطِرُ، والأرض كذلك رتقاً لا تُنْبِتُ، ففتق السماءَ بالمطر، والأرضَ بالنبات.

وقال آخرون: إنما قيل: «فَفَتَقْناهُما» لأنَّ الليلَ كان قبل النهار، ففتق النهار.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصواب قولُ من قال: معنى ذلك: أو لم يَرَ الذين كفروا أن السمواتِ والأرضَ كانتا رتقاً من المطرِ والنباتِ، ففتقنا السماء بالغيثِ، والأرض بالنبات.

وإنما قلنا ذلك أَوْلى بالصوابِ في ذلك لدلالة قوله: «وَجَعَلْنا مِنَ الماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيّ» على ذلك، وأنه جلّ ثناؤه لم يعقب ذلك بوصفِ الماء بهذه الصفةِ إلا والذي تَقَدَّمَهُ من ذِكْرِ أسبابِهِ.

وقوله: «أَفَلا يُؤْمِنُونَ»، يقول: أفلا يصدّقون بذلك، ويُقِرُّونَ بألوهةِ مَنْ فعلَ ذلك ويفردونه بالعبادة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أو لم يَرَ هؤلاء الكفار أيضاً من حججنا عليهم وعلى جميعِ خَلقنا، أنَّا جعلنا في الأرض جبالاً راسيةً، والرواسي: جمع راسيةٍ، وهي الثابتة.

وقوله: «أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ»، يقول: أنْ لا تَتَكَفَّأَ بهم، يقول جَلَّ ثناؤه: فجعلنا في هذه الأرض هذه الرواسي من الجبالِ، فثبتناها لئلا تتكفأ بالناسِ، وليقدروا بالثباتِ على ظهرها.

«وجَعَلْنا فيها فِجاجاً سبلاً»، يعني: مسالك، واحدها فجٌّ

وقوله: «سُبُلًا» أي طرقا، وهي جمع السبيل.

وقوله: «لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ»، يقول تعالى ذكره: جعلنا هذه الفِجَاجَ في الأرض ليهتدوا إلى السير فيها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ ۝٣٢ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٣٣﴾

يقول تعالى ذكره: «وَجَعَلْنا السَّماءَ سَقْفاً» للأرض مسموكاً.

وقوله: «مَحْفُوظاً»، يقول: حفظناها من كلِّ شيطانٍ رجيم.

وقوله: «وَهُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضُونَ»، يقول: وهؤلاء المشركون عن آياتِ السماء، ويعني بآياتها: شمسَها وقمرَها ونجومَها. «معرضون»، يقول: يُعْرِضُونَ عن التفكُّرِ فيها، وتَدَبُّرِ ما فيها من حججِ الله عليهم، ودلالتها على وحدانيةِ خالقها، وأنه لا ينبغي أنْ تكونَ العبادةُ إلا لمن دَبَّرَهَا وسوَّاها، ولا تصلحُ إلا له.

وقوله: «وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ والنَّهارَ والشَّمْسَ والقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ»، يقول تعالى ذكره: والله الذي خلق لكم أيها الناسُ الليلَ والنهار، نعمةً منه عليكم وحجة، ودلالةً على عظيمِ سلطانه، وأنَّ الأُلوهةَ له دونَ كلِّ ما سواه فهما يختلفان عليكم لصلاحِ معايشكم وأمورِ دنياكم وآخرتكم، وخلق الشمسَ والقمر أيضاً، كلٌّ في فلكٍ يسبحون، يقول: كلُّ ذلك في فلكٍ يسبحون.

وأما قوله: «يَسْبحُونَ» فإن معناه: يَجْرُون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ۝٣٤ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٣٥﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: وما خلدنا أحداً من بني آدم يا محمدُ قبلكَ في الـدنيا فنخلِّدَكَ فيها، ولابُدَّ لكَ من أن تموتَ كما ماتَ من قبلك رُسُلنَـا. «أفـإنْ مِتَّ فَهُمُ الخـالِـدُونَ»، يقـول: فهؤلاء المشركون بربهم هم الخالدونَ في الدنيا بعدك؟ لا، ما ذلك كذلك، بل هم ميتون بكلِّ حالٍ عشتَ أو متَّ.

وقوله: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَة المَوْتِ»، يقول تعالى ذكره: كُلُّ نفسٍ منفوسةٍ من خَلْقِه، معالجةٌ غصصَ الموتِ، ومتجرّعةٌ كأسها.

وقوله: «وَنَبْلُوكُمْ بالشَّرّ والخَيْرِ فِتْنَةً»، يقول تعالى ذكره: ونختبركم أيها الناسُ بالشرِّ، وهو الشدَّةُ نبتليكم بها، وبالخيرِ، وهو الرخاءُ والسعة العافية، فنفتنكم به.

وقـولـه: «وَإلَيْنـا تُرْجَعُـونَ»، يقول: وإلينا يُرَدُّونَ فَيُجَازونَ بأعمالهم، حَسنها وسَيِّئها.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا الَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَـٰنِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «وَإذَا رآكَ» يا محمدُ «الَّذِينَ كَفَرُوا» بالله «إنْ يَتَّخِذُونَكَ إلاَّ هُزُواً»، يقول: ما يتخذونك إلا سخرياً يقولُ بعضُهم لبعضٍ: «أهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ»، يعني بقوله: يذكرُ آلهتكم بسوءٍ ويَعِيبها، تعجبـاً منهم من ذلـك، يقول الله تعالى ذكره: فيعجبونَ من ذكرك يا محمدُ آلهتَهُمْ التي لا تضرُّ ولا تنفعُ بسوء «وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ» الذي خلقهم وأنعم عليهم، ومنه نفعُهم، وبيده ضرُّهم، وإليه مرجِعُهم بما هو أهلُه منهم أن يذكروه

به كافرون، والعربُ تضعُ الذِّكْرَ موضعَ المدحِ والذمِّ، فيقولون: سمعنا فلانا يذكرُ فلاناً، وهم يريدون سمعناه يذكرهُ بقبيحٍ ويعيبه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ۝٣٧ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «خُلِقَ الإنْسانُ»، يعني آدم «مِنْ عَجَلٍ».

واختلف أهل التأويل في تأويله، فقال بعضهم: معناه: من عجلٍ في بُنْيَتِه وخِلْقَتِهِ، كانَ من العجلة، وعلى العجلة.

وقال آخرون: معناه: خُلِقَ الإنسانُ من عجل: أي من تعجيلٍ في خلقِ الله إياهُ ومن سرعةٍ فيه وعلى عجلٍ، وقالوا: خَلَقَهُ الله في آخرِ النهار يومَ الجمعةِ قبلَ غروبِ الشمس على عجلٍ في خلقه إياه قبل مغيبها.

وقال بعضُ أهلِ العربية من أهلِ البصرة ممن قال نحو هذه المقالة: إنما قال: خُلق الإنسان من عجل، وهو يعني أنه خلقه من تعجيلٍ من الأمر، لأنه قال: «إِنَّمَا قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» قال: فهذا العجل.

وقوله: «فَلا تَسْتَعْجِلُونِ» إني «سأُرِيكُمْ آياتِي» وعلى قول صاحب هذه المقالة يجب أنْ يكونَ كُلُّ خَلْقِ الله خُلِقَ على عجلٍ، لأنَّ كُلَّ ذلك خُلِقَ بأنْ قِيلَ له كُنْ فكانَ. فإذا كان ذلك كذلك، فما وجهُ خصوصِ الإنسانِ إذاً بذكرِ أنه خُلق من عجلٍ دونَ الأشياءِ كلها، وكلها مخلوقٌ من عجل، وفي خصوص الله تعالى ذِكْرُه الإنسانَ بذلك الدليلُ الواضحُ على أنَّ القولَ في ذلك غير الذي قاله صاحبُ هذه المقالة.

وقــال آخــرون: منهم: هذا من المقلوبِ، وإنمـا خُلِقَ العَجَـلُ من الإنسان، وخُلِقَتِ العَجَلةُ من الإنسانِ، وقالوا ذلك مثل قوله: «ما إنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوءُ بالعُصْبَةِ أُولي القُوَّةِ» إنما هو لتنوء العصبةُ بها متثاقلةً، وقالوا: هذا وما أشبهه في كلام العرب كثيرٌ مشهور، قالوا: وإنما كلم القوم بما يعقلون، قالوا: وذلك مثل قولهم: عَرضتُ الناقة، وكقولهم إذا طلعت الشعرى واستوت العود على الحِرْباء: أي استوت الحرباء على العود.

والصوابُ من القولِ في تأويل ذلك عندنا الذي ذكرناه عَمَّنْ قال معناه: خُلِقَ الإنسانُ من عجلٍ في خلقه: أيْ على عجلٍ وسرعةٍ في ذلك، وإنما قيل ذلك كذلك، لأنه بُودِرَ بخلقهِ مغيبَ الشمسِ في آخرِ ساعةٍ من نهارِ يومِ الجمعة، وفي ذلك الوقت نفخ فيه الروح.

وإنمـا قلنا أوْلى الأقوالِ التي ذكرناها في ذلك بالصوابِ، لدلالةِ قولهِ تعالى: «سأُرِيكُمْ آياتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ» على ذلك.

فتأويلُ الكلامِ إذا كان الصوابُ في تأويل ذلك ما قُلْنَا: «خُلِقَ الإنْسانُ مِنْ عَجَلٍ»، ولذلك يستعجلُ رَبَّهُ بالعذابِ. «سأُرِيكُمْ آياتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ»، أيها المستعجلونَ رَبَّهم بالآياتِ القائلونَ لنبينا محمدٍ ﷺ: بل هو شاعرٌ، فليأتِنَا بآيةٍ كما أرسل الأوَّلونَ، آياتي[1]، كما أريتها من قبلكم من الأمم التي أهلكناها بتكذيبها الرسلَ، إذ أتتها الآياتُ فلا تستعجلون، يقول: فلا تستعجلوا رَبَّكم، فإنا سنأتيكم بها ونُريْكُمُوهَا.

وقوله: «وَيَقُولُونَ مَتى هَذَا الوَعْدُ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»، يقول تعالى ذكره: ويقـول هؤلاء المستعجلون رَبَّهم بالآياتِ والعـذاب لمحمـدٍ ﷺ: متى هذا

(١) السياق سأريكم آياتي فلا تستعجلون. . . آياتي.

الوعدُ: يقول: متى يجيئنا هذا الذي تَعِدُنَا من العذابِ إنْ كنتم صادقين فيما تعدوننا به من ذلك.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝٣٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لو يعلمُ هؤلاء الكفار المستعجلونَ عذابَ رَبِّهم ماذا لهم من البلاءِ حين تَلْفَحُ وجوههم النارُ، وهم فيها كالحون، فلا يَكُفُّونَ عن وجوهِهم النارَ التي تلفَحُهَا، ولا عن ظهورِهم فيدفعونها عنها بأنفسهم. «وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ»، يقول: ولا لهم ناصرٌ ينصرهم، فيستنقذهم حينئذٍ من عذابِ الله لما أقاموا على ما هُمْ عليه مقيمون من الكفر بالله، ولسارعوا إلى التوبةِ منه والإيمانِ بالله، ولما استعجلوا لأنفسهم البلاء.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝٤٠﴾

يقول تعالى ذكره: لا تأتي هذه النارُ التي تلفحُ وجوه هؤلاء الكفارِ الذين وَصَفَ أمْرَهُمْ في هذه السورة حين تأتيهم عن علمٍ منهم بوقتها، ولكنها تأتيهم مفاجأةً لا يشعرونَ بمجيئها فَتَبْهَتُهُمْ: يقولُ: فتغشَاهُمْ فجأة، وتلفحُ وجوههم معاينةً كالرجلِ يَبْهَتُ الرجلَ في وجههِ بالشيء، حتى يبقى المبهوتُ كالحيرانِ منه، «فلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّها»، يقول: فلا يُطِيقونَ حين تَبْغَتُهم، فتبهتهم دَفْعَها عن أنفسهم. «وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ»، يقول: ولا هُمْ وإنْ لم يُطِيقُوا دَفْعَها عن أنفسهم يُؤَخَّرُونَ بالعذابِ بها لتوبةٍ يُحْدِثُونَها، وإنابةٍ ينيبون، لأنها ليست حينَ عملٍ وساعةَ تَوْبةٍ وإنابةٍ، بل هي ساعةُ مجازاةٍ وإثابة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: إنْ يَتَّخِذْكَ يا محمدُ هؤلاء القائلونَ لك: هل هذا إلا بَشَرٌ مثلكم، أفتأتونَ السحرَ وأنتم تبصرون، إذْ رأوك هُزُواً، ويقولون: هذا الذي يذكرُ آلهتكم كفراً منهم بالله، واجتراءً عليه، فلقد استهزىء برسلٍ من رسلنا الذين أرسلناهم من قبلك إلى أممهم، يقول: فوجَبَ ونزلَ بالذين استهزءوا بهم، وسخروا منهم من أممهم ما كانُوا به يستهزءون: يقولُ جلَّ ثناؤه: حَلَّ بهم الذي كانوا به يستهزءونَ من البلاءِ والعذابِ الذي كانت رُسُلهم تُخَوِّفُهم نزولَـهُ بهم، يستهزءون: يقول جلّ ثناؤه، فلن يَعْدُو هؤلاء المستهـزءون بكَ من هؤلاءِ الكَفَـرةِ أنْ يكونوا كأسلافِهم من الأممِ المكذِّبةِ رُسُلَها، فينزل بهم من عذابِ الله وسخطه باستهزائِهم بكَ نظير الذي نزلَ بهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾

يقـول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمدُ لهؤلاء المُسْتَعْجِليكَ بالعذابِ، القائلينَ: متى هذا الوعدُ إنْ كنتم صادقين: مَنْ يَكْلَؤُكُم أيها القومُ: يقـول: مَنْ يحفـظُكم ويحرسكم بالليلِ إذا نمتم، وبالنهارِ إذا تصرَّفْتُم من الرحمن؟ يقول: من أمرِ الرحمنِ إنْ نزلَ بكم، ومن عذابِهِ إنْ حلَّ بكم، وترك ذكر الأمر، وقيل من الرحمن اجتزاءً بمعرفةِ السامعينَ لمعناه من ذِكْرِه.

قوله: «بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ»، وقوله: «بل»٪ تحقيقٌ لجحدٍ قد عرفَهُ المخاطبونَ بهذا الكلام، وإنْ لم يكن مذكوراً في هذا الموضع ظاهراً، ومعنى الكلام: وما لهم أنْ لا يعلموا أنه لا كالئَ لهم من أمرِ الله إذا هو حلَّ

بهم ليلاً أو نهاراً، بلِ هُمْ عن ذِكْرِ مواعظِ رَبِّهم وحججه التي احتجَّ بها عليهم معرضون لا يتدبرونَ ذلك، فلا يعتبرونَ به، جهلاً منهم وسفهاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ۝٤٣﴾

يقول تعالى ذكره: ألهؤلاء المُسْتَعْجِلي رَبّهم بالعذابِ آلهةٌ تمنعُهم، إنْ نحنُ أحللنا بهم عذابَنا، وأنزلنا بهم بأسَنا من دوننا، ومعناه: أم لهم آلهةٌ من دوننا تمنعُهم مِنَّا، ثم وصفَ جلَّ ثناؤه الآلهةَ بالضعفِ والمهانةِ، وما هيَ به من صفتها، فقال: وكيف تستطيعُ آلهتهم التي يَدْعُونَها من دوننا أنْ تمنعَهُمْ منا وهي لا تستطيعُ نصرَ أنفسها.

وقوله: «وَلا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ»، يقول: ولا هم منا يُجارُونَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ الْغَٰلِبُونَ ۝٤٤﴾

يقول تعالى ذكره: ما لهؤلاء المشركينَ من آلهةٍ تَمْنَعُهم من دوننا، ولا جارٍ يُجيرهُمْ من عذابنا، إذا نحنُ أردنا عذابَهم، فاتَّكَلُوا على ذلك، وعَصَوا رُسُلَنا اتكالاً منهم على ذلك، ولكنا متعناهم بهذه الحياةِ الدنيا وآباءَهُمْ من قَبْلِهم حتى طالَ عليهم العمرُ، وهُمْ على كُفْرِهم مقيمونَ، لا تأتيهم منا واعظةٌ من عذابٍ، ولا زاجرةٌ من عقابٍ على كفرهم وخلافِهم أمرنا، وعبادتهم الأوثانَ والأصنامَ، فنسوا عَهْدَنا وجهلوا موقعَ نعمتنا عليهم، ولم يعرفوا موضعَ الشكر.

وقوله: «أفلا يَرَوْنَ أنّا نَأْتِي الأرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أطْرَافِها»، يقول تعالى

ذكره: أفلا يرى هؤلاء المشركون بالله السائِلُو محمد ﷺ الآياتِ، المستعجلوه بالعذاب، أنَّا نأتي الأرض نُخَرِّبُهَا من نواحيها بقهرنا أهلَها، وغَلَبَتِنَاهُمْ، وإجلائِهم عنها، وقَتْلِهم بالسيوفِ، فيعتبروا بذلك ويَتَّعِظُوا به، ويَحْذَرُوا منا أنْ نُنَزِّلَ من بأسنا بهم نحوَ الذي قد أنزلنا بمن فعلنا ذلك به من أهلِ الأطراف.

وقوله: «أَفَهُمُ الغالِبُونَ»، يقول تبارك وتعالى: أفهؤلاء المشركون المستعجلُو محمد بالعذابِ الغالبونا، وقد رأوا قَهْرَنَا من أحللنا بساحتِهِ بأسَنَا في أطرافِ الأرضينَ، ليس ذلك كذلك، بل نحنُ الغالبون، وإنما هذا تقريعٌ من الله تعالى لهؤلاء المشركين به بجهلهم يقول: أفيظنون أنهم يغلبونَ محمداً ويقهرونه، وقد قهر مَنْ ناوأه من أهلِ أطرافِ الأرضِ غيرِهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: قل يا محمدُ لهؤلاء القائلينَ فليأتنا بآيةٍ كما أُرسلَ الأولون: إنما أُنذركُمْ أيها القومُ بتنزيلِ الله الذي يُوحِيه إليَّ من عنده، وأُخَوِّفُكُم به بأسَهُ.

وقوله: «وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ» (يعني): ولا يصغي الكافرُ بالله بسمعِ قلبِهِ إلى تَذَكُّرِ ما في وحي الله من المواعظِ والذِّكْرِ، فيتذكر به ويعتبر، فينزجر عَمَّا هُوَ عليه مقيمٌ من ضلالِهِ إذا تُلِيَ عليه وأُريدَ به، ولكنه يُعْرِضُ عن الاعتبارِ به والتفكر فيه، فِعْلَ الأصمِّ الذي لا يسمعُ ما يُقالُ له فيعمل به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى ذكره: ولئن مَسَّتْ هؤلاء المستعجلينَ بالعذابِ يا محمدُ نفحةٌ من عذابِ ربك، يعني بالنفحةِ النصيبَ والحظَّ، من قولهم: نفَحَ فلانٌ لفلانٍ من عطائهِ: إذا أعطاه قسماً أو نصيباً من المال.

وقوله: «لَيَقُولُنَّ ياوَيْلَنا إنَّا كُنَّا ظالِمِينَ»، يقول: لئن أصابتهم هذه النفحةُ من عقوبةِ رَبِّكَ يا محمدُ بتكذيبهم بكَ وكفرهم، ليعلمُنَّ حينئذٍ غبَّ تكذيبهم بك، وليعترفُنَّ على أنفسِهم بنعمةِ الله وإحسانهِ إليهم، وكفرانهم أياديه عندهم، وليقولُنَّ يا ويلنا إنَّا كنا ظالمينَ في عبادتنا الآلهةَ والأندادَ، وتركنا عبادةَ الله الذي خلقنا وأنعمَ علينا، ووضعنا العبادةَ غيرَ موضعها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾

يقـول تعـالى ذكره: «وَنَضَعُ المَوَازِينَ» العدل، وهو «القِسْطَ». وجعلَ القِسْط وهو موحد من نعتِ الموازين، وهو جمعٌ لأنه في مذهب عَدْل ورضا ونظر.

وقوله: «لِيَوْمِ القِيامَةِ»، يقول: لأهلِ يوم القيامةِ، ومَنْ وَرَدَ على الله في ذلك اليوم من خَلْقِه.

وقوله: «فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً»، يقول: فلا يظلم الله نفساً ممن ورد عليه منهم شيئاً بأنْ يعاقبه بذنبٍ لم يعمله أو يبخسه ثوابَ عملٍ عَمِلَهُ، وطاعةٍ أطاعهُ بها، ولكن يجازي المحسنَ بإحسانه، ولا يعاقب مسيئاً إلا بإساءته.

وقوله: «وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها»، يقول: وإنْ كان الذي

له من عمل الحسنات، أو عليه من السيئات وَزْنُ حبةٍ من خردلٍ أتينا بها: يقول: جئنا بها فأحضرناها إياه.

وقوله: «وكَفَى بِنا حاسِبِينَ»، يقول: وحسب مَنْ شهد ذلك الموقفَ بنا حاسبين، لأنه لا أحدَ أعلمُ بأعمالهم، وما سلفَ في الدُّنا من صالحٍ أو سيىءٍ، منا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨﴾

يقـول تعالى ذكره: ولقد آتينا موسى بن عمران وأخاه هارون الفرقانَ، يعني به الكتـابَ الذي يفرقُ بين الحقِّ والباطل، وذلك هو التوراةُ في قول بعضهم. وقال ابن زيد: الفرقان هو الحقُّ آتاهُ الله موسى وهارون، فرق بينهما وبين فرعون، قضى بينهم بالحق.

وهـذا القولُ الذي قاله ابن زيد في ذلك أشبهُ بظاهر التنزيلِ، وذلك لدخولِ الواو في الضياء، ولو كان الفرقانُ هو التوراةُ كما قال مَنْ قال ذلك، لكان التنزيلُ: ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ضياء، لأنَّ الضياءَ الذي آتى اللهُ موسى وهـارون هو التـوراة التي أضـاءتْ لهمـا ولمن اتبعهما أمرَ دينهم فبصَّرَهُم الحلالَ والحرام، ولم يقصد بذلك في هذا الموضع ضياءَ الإبصارِ، وفي دخول الواو في ذلك دليل على أن الفرقان غير التوراة التي هي ضياء.

فإنْ قال قائلٌ: وما ينكر أن يكون الضياء من نعتِ الفرقان، وإنْ كانت فيه واو فيكون معناه: وضياء آتيناهُ ذلك، كما قال: «بِزِينَةٍ الكَوَاكِب وَحِفْظاً»؟ قيل له: إنَّ ذلك وإنْ كان الكلام يحتملُه، فإنَّ الأغلبَ من معانيهِ ما قلنا. والواجب أنْ يوجه معاني كلام الله إلى الأغلبِ الأشهرِ من وجوهها المعروفة عند

العرب ما لم يكن بخلاف ذلك ما يجبُ التسليمُ له من حجةِ خبرٍ أو عقل.

وقوله: «وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ»، يقول: وتذكيراً لمن اتقى الله بطاعته وأداءِ فرائضه، واجتناب معاصيه، ذكَّرهم بما آتى موسى وهارون من التوراة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ۝٤٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: آتينا موسى وهارونَ الفرقان: الذِّكْر الذي آتيناهما للمتقينَ الذينَ يخافونَ رَبَّهم بالغيبِ، يعني في الدنيا أنْ يعاقبهم في الآخرة إذا قَدِمُوا عليه بتضييعهم ما ألزمهم من فرائضِه، فهم من خشيتهِ، يحافظونَ على حدودهِ وفرائضِه، وهُمْ من الساعةِ التي تقومُ فيها القيامةُ مشفقونَ، حَذِرُونَ أنْ تقومَ عليهم، فَيَرِدُوا على رَبِّهم قد فَرَّطُوا في الواجبِ عليهم لله، فيعاقبهم من العقوبةِ بما لا قِبَلَ لهم به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٠﴾

يقول جلَّ ثناؤه: وهذا القرآنُ الذي أنزلناه إلى محمدٍ ﷺ ذِكْرٌ لمن تَذَكَّرَ به، وموعظةٌ لمن اتعظ به. «مباركٌ، أنزلناهُ» كما أنزلنا التوراةَ إلى موسى وهارون ذكراً للمتقين «أفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ»، يقول تعالى ذكره: أفأنتم أيها القومُ لهذا الكتابِ الذي أنزلناهُ إلى محمدٍ مُنْكِرُونَ، وتقولون: «هُوَ أَضْغاثُ أَحْلامٍ، بَلِ افْتَرَاهُ، بَلْ هُوَ شاعِرٌ، فَلْيَأْتِنا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ»، وإنما الذي آتيناهُ من ذلك ذكرٌ للمتقين، كالذي آتينا موسى وهارون ذكراً للمتقين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَلَقَدْ آتَيْنا إبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ» موسى وهارون، ووفَّقناه للحقّ، وأنقذناه من بين قومه وأهلِ بيته من عبادةِ الأوثان، كما فعلنا ذلك بمحمدٍ ﷺ، وعلى إبراهيم فأنقذناهُ من قومهِ وعشيرته من عبادةِ الأوثان، وهديناهُ إلى سبيلِ الرشادِ توفيقاً منا له.

وقوله: «وكُنَّا بِهِ عالِمِينَ»، يقول: وكنا عالمينَ به أنه ذُو يقينٍ وإيمانٍ بالله وتوحيدٍ له، لا يشركُ به شيئاً. «إذْ قَالَ لأَبيهِ وقَوْمِه»، يعني في وقتِ قِيلِه وحينَ قِيله لهم: «ما هذهِ التماثيلُ الَّتِي أنتمُ لَهَا عاكفونَ»، يقول: قال لهم: أيّ شيء هذه الصور التي أنتم عليها مقيمون، وكانت تلك التماثيلُ أصنامهم التي كانوا يعبدونها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾﴾

يقول تعالى ذكره: قال أبو إبراهيم وقومه لإبراهيم: وجدنا آباءنا لهذه الأوثانِ عابدينَ، فنحنُ على ملةِ آبائنا نعبدها كما كانوا يعبدون، «قالَ» إبراهيم: «لَقَدْ كُنْتُمْ» أيها القومُ «أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ». بعبادتكم إياها «فِي ضَلالٍ مُبِينٍ»، يقول: في ذهاب عن سبيل الحقِّ، وجورٍ عن قصدِ السبيل مبين: يقول: بَيِّنٍ لمن تأمَّلَهُ بعقلٍ، إنكم كذلك في جور عن الحقِّ. «قالُوا أجِئْتَنا بالحَقِّ؟»، يقول:

قال أبوه وقومه له: أجئتنا بالحقِّ فيما تقول. «أمْ أنْتَ» هازلٌ لاعبٌ «مِنَ اللاَّعِبِينَ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٦﴾

يقول تعالى ذكره: قال إبراهيمُ لهم: بل جئتكم بالحقِّ لا اللعبِ، ربُّكم ربُّ السمواتِ والأرضِ الذي خلقهنَّ، وأنا على ذلكم من أنَّ ربكم هو ربُّ السموات والأرض الذي فطرهنّ، دونَ التماثيلِ التي أنتم لها عاكفون، ودونَ كلِّ أحدٍ سواه شاهد من الشاهدين، يقول: فإياهُ فاعبدوا لا هذه التماثيلُ التي هي خلقه التي لا تضرُّ ولا تنفع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ۝٥٧ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝٥٨﴾

ذُكِرَ أنَّ إبراهيمَ صلواتُ الله عليه حلفَ بهذه اليمين في سرٍّ من قومهِ وخفاء، وأنه لم يسمع ذلك منه إلا الذي أفشاهُ عليه حين قالوا: مَنْ فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمينَ، فقالوا: سمعنا فتىً يذكرهم يقالُ له إبراهيم.

وقوله: «فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً»، يقول: حطاماً.

وقـولـه: «إلاَّ كَبِيراً لَهُمْ»، يقـول: إلا عظيمـاً للآلهةِ، فإنَّ إبراهيم لم يكسره، ولكنه فيما ذكر عَلَّقَ الفأسَ في عنقه.

وقوله: «لَعَلَّهُمْ إلَيْهِ يَرْجِعُونَ»، يقول: فعل ذلك إبراهيمُ بآلهتهم ليعتبروا ويعلموا أنها إذا لم تَدْفَع عن نفسِها ما فعلَ بها إبراهيمُ، فهي من أنْ تدفعَ عن

غيرها مَنْ أرادَهُ بسوءٍ أبعدُ، فيرجعوا عَمَّا هُمْ عليه مقيمونَ من عبادتها إلى ماهو عليه من دينه وتوحيدِ الله، والبراءةِ من الأوثان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝٦٠ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝٦١﴾

يقول تعالى ذكره: قال قومُ إبراهيمَ لما رأوا آلهتهم قد جُذَّتْ، إلا الذي رَبَط به القَأسَ إبراهيمُ: من فعل هذا بآلهتنا، إنَّ الذي فعلَ هذا بآلهتنا لمن الظالمين: أي لمن الفاعلينَ بها ما لم يكن له فِعْلُه «قالُوا سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إبْراهِيمُ»، يقول: قال الذين سمعوه يقول: «تاللهِ لأكِيدَنَّ أصْنامَكُمْ بَعْدَ أنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ» سمعنا فتىً يذكرهم بعيب يقال له إبراهيم.

وقوله: «فَأْتُوا بِهِ على أعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ»، يقول تعالى ذكره: قال قومُ إبراهيم بعضُهم لبعضٍ: فَأْتُوا بالذي فعلَ هذا بآلهتنا الذي سمعتموه يذكرها بعيبٍ ويَسُبُّها ويذمها على أعينِ الناس، فقيل: معنى ذلك: على رؤوسِ الناس. وقال بعضهم: معناه: بأعينِ الناسِ ومرأىً منهم، وقالوا: إنما أُريدَ بذلك أَظْهِرُوا الذي فعل ذلك للناسِ كما تقولُ العرب إذا ظهر الأمرُ وشهرَ: كان ذلك على أعينِ الناس، يُرادُ به كان بأيدي الناس.

واختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ»، فقال بعضهم: معناه: لعلَّ الناسَ يشهدون عليه، أنه الذي فعلَ ذلك، فتكون شهادتهم عليه حجةً لنا عليه، وقالوا: إنما فعلوا ذلك لأنهم كرهوا أنْ يأخذوه بغيرِ بَيِّنة.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: لعلهم يشهدون ما يعاقبونَهُ به، فيعاينونَهُ ويرونَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ۝٦٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فأَتَوْا بابراهيم، فلما أتوا به قالوا له: أأنتَ فعلتَ هذا بآلهتنا من الكسرِ بها يا إبراهيمُ؟ فأجابهم إبراهيم: بَلْ فعله كبيرهم هذا وعظيمهم، فاسألوا الآلهةَ مَنْ فعلَ بها ذلك وكسرها إنْ كانت تنطقُ، أو تعبرُ عن نفسها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٦٤ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ۝٦٥﴾

يقول تعالى ذكره: فذكروا حين قال لهم إبراهيمُ صلواتُ الله عليه. «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فاسْأَلُوهُمْ إنْ كانُوا يَنطِقُونَ» في أنفسهم، ورجعوا إلى عقولهم، ونظرَ بعضُهم إلى بعضٍ، فقالوا: إنكم معشر القوم الظالمونَ، هذاالرجلَ في مسألتِكُمْ إياهُ، وقِيلكُمْ له: مَنْ فعل هذا بآلهتنا يا إبراهيم، وهذه آلهتُكم التي فعل بها ما فعل حَاضِرَتكُمْ فاسألوها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝٦٦ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٧﴾

يقول تعالى ذكره: قال إبراهيم لقومه: أفتعبدونَ أيها القومُ مالا ينفعكم شيئاً ولا يضرُّكُمْ، وأنتم قد علمتم أنها لم تمنعْ نفسَها مِمَّنْ أرادَها بسوءٍ، ولا

هي تقدرُ أنْ تنطقَ إنْ سئلت عَمَّنْ يأتيها بسوءٍ فتخبر به، أفلا تستحيون من عبادةِ ما كانَ هكذا.

وقوله: «أُفٍّ لَكُمْ»، يقول: قُبحاً لكم وللآلهةِ التي تعبدونَ من دونِ الله، أفلا تعقلونَ قُبْحَ ما تفعلون من عبادتكم ما لا يضرُّ ولا ينفعُ، فتتركوا عبادَتَهُ، وتعبدوا اللهَ الذي فطرَ السمواتِ والأرضَ، والذي بيده النفعُ والضرّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝٦٨ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ۝٧٠﴾

يقول تعالى ذكره: قال بعضُ قومِ إبراهيمَ لبعضٍ: حَرِّقُوا إبراهيمَ بالنار. «وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ»، يقول: إنْ كنتم ناصِرِيهَا، ولم تُريدوا تركَ عبادتها.

وقوله: «قُلْنا يا نارُ كُونِي بَرْدًا وسلاماً عَلى إبْراهيمَ» في الكلام متروك اجتزىء بدلالةِ ماذُكِرَ عليه منه، وهو: فأوقدوا له ناراً ليحرِّقُوه ثم ألقوه فيها، فقلنا للنارِ: يا نارُ كوني برداً وسلاماً على إبراهيم.

وقوله: «وأرَادُوا بِهِ كَيْدًا»، يقول تعالى ذكره: وأرادوا بإبراهيم كيداً «فَجَعَلْناهُمُ الأخْسَرِينَ» يعني الهالكين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ۝٧١﴾

يقول تعالى ذكره: ونَجَّيْنا إبراهيمَ ولوطاً من أعدائهما، نمرود وقومه من

أرضِ العراق. «إلى الأرْضِ التي بارَكْنا فِيها للْعَالِمِينَ» وهي أرضُ الشام، فارقَ صلواتُ الله عليه قومَهُ ودينَهُم، وهاجرَ إلى الشام.

وهذه القصة التي قَصَّ اللهُ من نبأ إبراهيمَ وقومِهِ تذكيرٌ منه بها قومَ محمدٍ ﷺ من قريش أنهم قد سلكوا في عبادتهم الأوثانَ، وأذاهم محمداً على نهيه عن عبادتها، ودعائِهم إلى عبادةِ الله مخلصين له الدين، مسلكَ أعداءِ أبيهم إبراهيمَ، ومخالفتهم دِينَهُ، وأنَّ محمداً في براءته من عبادتها، وإخلاصه العبادةَ لله، وفي دعائهم إلى البراءة من الأصنام، وفي الصبر على ما يَلْقَى منهم في ذلك سالكٌ منهاجَ أبيهِ إبراهيمَ، وأنه مُخْرِجُهُ من بين أظهرهم، كما أخرجَ إبراهيمَ من بين أظهر قومِهِ حين تمادوا في غيهم إلى مهاجرِهِ من أرضِ الشام، ومُسَلٍّ بذلك نبيه محمداً ﷺ عما يَلْقَى من قومِهِ من المكروهِ والأذى، ومُعَلِّمُهُ أنه مُنَجِّيهِ منهم كما نجَّى أباهُ إبراهيمَ من كَفَرَةِ قومه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ۝٧٢ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ۝٧٣﴾

يقول تعالى ذكره: ووهبنا لإبراهيمَ إسحاق ولداً، ويعقوب ولد ولده، نافلةً لك.

واختلف أهلُ التأويلِ في المعنيِّ بقوله: «نافِلَةً»، فقال بعضهم: عَنَى به يعقوبَ خاصة.

وقال آخرون: بل عنى بذلك إسحاقَ ويعقوبَ، قالوا: وإنما معنى النافلة: العَطِيَّة، وهما جميعاً من عطاءِ الله أعطاهما إياه.

وقد بيَّنا فيما مضى قَبْلُ، أنَّ النافلةَ: الفَضْل من الشيء يصيرُ إلى الرجلِ

من أيِّ شيءٍ كان ذلك، وكِلَا ولديه إسحاق ويعقوب كان فَضْلًا من الله تَفَضَّلَ به على إبراهيمَ، وهبةً منه له. وجائزٌ أن يكون عَنَى به أنه آتاهما إياه جميعاً نافلةً منه له، وأنْ يكون عَنَى أنه آتاه نافلة يعقوب، ولا برهانَ يدلُّ على أيِّ ذلك المراد من الكلام، فلا شيء أوْلى أنْ يقالَ في ذلك مما قال اللهُ: ووهب الله له لإبراهيم - إسحاقَ ويعقوبَ، نافلةً.

وقوله: «وكُلًّا جَعَلْنا صَالِحِينَ»، يعني عاملينَ بطاعةِ الله، مجتنبينَ محارمَهُ، وعَنَى بقوله: «كُلًّا»: إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب.

وقوله: «وَجَعَلْناهُمْ أئمَّةً يَهْدُونَ بأمْرِنا»، يقول تعالى ذِكْرُه: وجعلنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أئمةً يؤتَمُّ بهم في الخيرِ في طاعةِ الله في اتباعِ أمرِه ونهيِهِ، ويُقْتَدى بهم، ويُتَّبَعونَ عليه.

وقوله: «يَهْدُونَ بأمْرِنا»، يقول: يهدون الناسَ بأمرِ الله إياهم بذلك، ويدعونهم إلى الله وإلى عبادته.

وقوله: «وأوْحَيْنا إلَيْهِمْ فِعْلَ الخَيْرَاتِ»، يقول تعالى ذكره: وأوحينا فيما أوحينا أنِ افعلوا الخيراتِ، وأقيموا الصلاةَ بأمرنا بذلك. «وكانُوا لَنا عابِدِينَ»، يقول: كانوا لنا خاشعين، لا يستكبرونَ عن طاعتنا وعبادتنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ۝٧٤﴾

يقول تعالى ذكره: وآتينا لوطاً حكماً، وهو فصلُ القضاءِ بين الخصومِ، وعلماً: يقول: وآتيناه أيضاً علماً بأمرِ دينه، وما يجبُ عليه لله من فرائضِه.

وقوله: «ونَجَّيْناهُ مِنَ القَرْيَةِ التي كانَتْ تَعْمَلُ الخَبائِثَ»، يقول: ونَجَّيْناهُ من عذابنا الذي أحللناه بأهلِ القرية التي كانت تعملُ الخبائثَ، وهي قريةُ

سَدُوم التي كان لوطٌ بعثَ إلى أهلها، وكانت الخبائثُ التي يعملونها: إتيان الذكرانِ في أدبارهم، وخَذْفهم الناسَ، وتَضارُطَهُمْ في أنديتهم، مع أشياء أُخَر كانوا يعملونها من المُنكر، فأخرجه اللهُ حين أرادَ إهلاكَهُمْ إلى الشام.

وقوله: «إنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ» مخالفين أمرَ الله، خارجينَ عن طاعتهِ وما يرضى من العمل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِي رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٧٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأدخلنا لوطاً في رحمتنا بانجائِنا إياهُ مما أحللنا بقومهِ من العذابِ والبلاءِ، وإنقاذِنَاهُ منه. «إنه من الصالحين»، يقول: إنَّ لوطاً من الذين كانوا يعملون بطاعتنا، وينتهون إلى أمرنا ونهينا ولا يعصوننا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٦ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٧٧﴾

يقول تعالى ذكره: واذكر يا محمدُ نوحاً إذ نادى رَبَّهُ من قبلك، ومن قبلِ إبـراهيمِ ولـوط، وسألنا أنْ نُهلكَ قومه الذين كذَّبُوا الله فيما تَوَعَّدَهُمْ به من وعيدِه، وكذَّبُوا نوحاً فيما أتاهم به من الحقِّ من عند ربه، «وقَالَ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكـافِرِينَ دَيَّارًا» فاستجبنا له دعاءَهُ، ونجيَّناهُ وأهلَهُ، يعني بأهله: أهل الإيمان من ولده وحلائلهم «مِنَ الكَرْبِ العَظِيمِ» يعني بالكربِ العظيم: العذاب الذي أُحِلَّ بالمكذِّبينَ من الطوفانِ والغرق.

والكربُ: شدّة الغمّ، يقال منه: قد كربني هذا الأمرُ فهو يكرُبني كرباً.

وقوله: «وَنَصَرْناهُ مِنَ القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بآياتِنا»، يقول: ونصرنا نوحاً على القوم الذين كذَّبُوا بحججنا وأدلتنا، فأنجيناهُ منهم، فأغرقناهم أجمعين، إنهم كانوا قومَ سوءٍ، يقول تعالى ذِكْرُه إنَّ قومَ نوحٍ الذين كذَّبُوا بآياتنا كانوا قومَ سوءٍ، يسيئون الأعمالَ، فيعصونَ الله ويخالفون أمره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: واذكُرْ داودَ وسليمانَ يا محمدُ إذ يحكمانِ في الحرث. والحرثُ: إنما هو حرثُ الأرض. وجائزٌ أنْ يكونَ ذلك كان زرعاً، وجائزٌ أنْ يكون غرْساً، وغيرُ ضائرٍ الجهلُ بأيٍّ ذلك كان.

وقوله: «إذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ القَوْمِ»، يقول: حين دخلت في هذا الحرثِ غنمُ القومِ الآخرينَ من غير أهلِ الحرثِ ليلاً، فَرَعَتْهُ أو أفسدته. «وكُنَّا لحكْمِهِمْ شاهِدِينَ»، يقول: وكُنَّا لحكمِ داودَ وسليمان والقوم الذين حكما بينهم فيما أفسدتْ غنمُ أهلِ الغنمِ من حرثِ أهلِ الحرثِ، شاهدينَ لا يخفى علينا منه شيءٌ، ولا يغيبُ عنا علْمُه.

وقوله: «فَفَهَّمْناها»، يقول: ففهَّمنا القضيةَ في ذلك «سُلَيْمانَ» دونَ داود، «وكُلًّا آتَيْنا حُكْماً وعلماً»، يقول: وكلهم من داود وسليمان والرسل الذين ذكرهم في أوَّلِ هذه السورةِ آتينا حكماً وهو النبوةُ، وعلماً: يعني وعلماً بأحكامِ الله.

وقـوله: «وَسَخَّرْنا مَعَ دَاوُدَ الجِبالَ يُسَبِّحْنَ والطَّيْرَ»، يقول تعالى ذكره: وسَخَّرْنَا مع داودَ الجبالَ، والطيرَ يُسَبِّحْنَ معه إذا سَبَّحَ.

وقوله: «وكُنَّا فاعِلِينَ»، يقول: وكنا قد قضينا أنا فاعِلُو ذلكَ، ومُسَخِّرُو الجبالِ والطيرِ في أمِّ الكتابِ مع داودَ عليه الصلاة والسلام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ۝٨٠﴾

يقول تعالى ذكره: وعلمنا داودَ صنعةَ لبوسٍ لكم، واللبوسُ عند العرب: السلاحُ كله، درعاً كانَ أو جوشناً أو سيفاً أو رمحاً.

وأما في هذا الموضع فإنَّ أهلَ التأويلِ قالوا: عَنَى الدروع.

واختلفت القرأةُ في قراءة قوله: «لِتُحْصِنَكُمْ» فقرأ ذلك أكثر قرأةِ الأمصار: «لِيُحْصِنَكُمْ» بالياء، بمعنى: ليحصنكم اللَّبوسُ من بأسِكم، ذَكَّرُوه لتذكيرِ اللَّبوس. وقرأ ذلك أبو جعفر يزيد بن القعقاع «لِتُحْصِنَكُمْ» بالتاء، بمعنى: لتحصنكم الصنعة، فأنَّثَ لتأنيثِ الصنعة. وقرأ شيبة بن نصاح وعاصم ابن أبي النَّجود «لِنُحْصِنَكُمْ» بالنون، بمعنى: لنحصنكم نحنُ من بأسِكم.

وأَوْلى القراءاتِ في ذلك بالصواب عندي قراءةُ من قرأه بالياء، لأنها القراءةُ التي عليها الحجةُ من قرَأةِ الأمصار، وإنْ كانت القراءاتُ الثلاث التي ذكرناها متقاربات المعاني، وذلك أن الصنعة هي اللبوس، واللَّبوس هي الصنعة، والله هو المُحْصِنُ به من البأس، وهو المحصنُ بتصييرِ الله إياهُ كذلك، ومعنى قوله: «لِيُحْصِنَكُمْ» لِيُحْرِزَكُمْ، وهو من قوله: قد أحصنَ فلانٌ جاريته. وقد بَيَّنا معنى ذلك فيما مضى قَبْلُ. والبأْسُ: القتال، وعلَّمنا داودَ صنعةَ سلاحٍ لكم ليحرزكم إذا لبستموه، ولقيتم فيه أعداءَكُمْ من القتلِ.

وقوله: «فَهَلْ أَنْتُمْ شاكِرُونَ»، يقول: فهل أنتم أيها الناسُ شاكِرُو اللهَ على نعمتهِ عليكم بما علَّمَكُمْ من صنعةِ اللبوسِ المحصِنِ في الحربِ وغير ذلك من نعمه عليكم، يقول: فاشكروني على ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾

يقول تعالى ذكره «وَ» سخرنا «لِسُلَيْمانَ» بن داود «الرّيحَ عاصِفَةً» وعُصُوفُها: شدةُ هبوبها «تَجْرِي بأَمْرِهِ إلى الأرْضِ التي بارَكْنا فِيها»، يقول: تجري الريحُ بأمرِ سليمانَ، إلى الأرضِ التي باركنا فيها، يعني: إلى الشام، وذلك أنها كانت تجري بسليمانَ وأصحابِه إلي حيثُ شاء سليمان، ثم تعود به إلى منزله بالشام، فلذلك قيل: «إلى الأرْضِ التي بارَكْنا فِيها».

وقوله: «وكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عالِمِينَ»، يقول: وكُنَّا عالمينَ بأنَّ فعلنا ما فعلنا لسليمان من تسخيرِنَا له، وإعطائِنَا ما أعطيناهُ من الملك وصلاحِ الخلق، فعلى عِلْمٍ منا بموضعِ ما فعلنا به من ذلك فعلنا، ونحنُ عالمونَ بكلِّ شيءٍ لا يَخْفَى علينا منه شيءٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾

يقول تعالى ذكره: وسخرنا أيضاً لسليمانَ من الشياطين مَنْ يغوصون له في البحر، ويعملون عملاً دونَ ذلك من البنيانِ والتماثيلِ والمحاريب «وكُنَّا لَهُمْ حافِظِينَ»، يقول: وكنا لأعمالهم ولأعدادِهم حافظينَ، لا يَئُودُنا حِفْظُ ذلك كله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ۝٨٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: واذكر أيوبَ يا محمدُ إذْ نادى رَبَّهُ وقد مَسَّهُ الضرُّ والبلاء «رَبِّ إنّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وأنْتَ أرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فاسْتَجَبْنا لَهُ»، يقول تعالى ذكره: فاستجبنا لأيوبَ دعاءه إذْ نادانا، فكشفنا ما كانَ به من ضُرٍّ وبلاءٍ وجهد، وكان الضرُّ الذي أصابه، والبلاءُ الذي نزلَ به امتحاناً من الله له، واختباراً.

واختلف أهلُ التأويلِ في الأهلِ الذي ذكر الله في قوله: «وآتَيْناهُ أهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ»، أهُمْ أهلُه الذين أُوتيهم في الدنيا، أمْ ذلك وَعْدٌ وَعَدَهُ الله أيوبَ أنْ يفعل به في الآخرة؟ فقال بعضهم: إنما آتى الله أيوبَ في الدنيا مثلَ أهلِه الذين هلكوا، فإنهم لم يُرَدُّوا عليه في الدنيا، وإنما وعدَ الله أيوبَ أن يؤتيه إياهم في الآخرة.

وقال آخرون: بل رَدَّهُمْ إليه بأعيانهم، وأعطاهُ مِثْلَهُمْ معهم.

وقال آخرون: بل آتاه المِثْلَ من نسلِ ماله الذي رَدَّهُ عليه وأهله، فأما الأهلُ والمالُ فإنه رَدَّهُمَا عليه.

وقوله: «رَحْمَةً» نصبت بمعنى: فعلنا بهم ذلك رحمةً منا له.

وقوله: «وَذِكْرَى لِلْعابِدِينَ»، يقول: وتذكرةً للعابدينَ رَبَّهُم، فعلنا ذلك به ليعتبـروا به، ويعلموا أنَّ الله قد يبتلي أولياءَهُ ومَنْ أحَبَّ من عباده في الدنيا بضروبٍ من البلاءِ في نفسه وأهلِه ومالِه، من غيرِ هوانٍ به عليه، ولكن اختباراً منه له ليبلغ بصبرِه عليه، واحتسابِه إياه، وحُسْنِ يقينه منزلته التي أعَدَّهَا له تباركَ وتعالى من الكرامةِ عنده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾

يعني تعالى ذكره بإسماعيلَ: إسماعيل بن إبراهيم صادق الوعد، وبإدريس: أخنوخ، وبذي الكفل: رجلاً تكفل من بعض الناس، إما من نبيٍّ وإما من ملكٍ من صالحي الملوكِ بعملٍ من الأعمال، فقامَ به من بعده، فأثنى الله عليه حُسْنَ وفائهِ بما تكفَّلَ به، وجعله من المعدودينَ في عباده، مع مَنْ حمد صبره على طاعةِ الله.

وقوله: «وأدْخَلْناهُمْ فِي رَحْمَتِنا إنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ»، يقول تعالى ذكره: وأدخلنا إسماعيلَ وإدريسَ وذا الكفلِ، والهاء والميم عائدتان عليهم. «فِي رَحْمَتِنا إنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ»، يقول: إنهم ممن صلح، فأطاع الله، وعمل بما أمره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾

يقول تعالى ذكره: واذكُرْ يا محمدُ ذا النونِ، يعني صاحبَ النون، والنونُ: الحوتُ. وإنما عنى بذي النون: يونس بن متى، وقد ذكرنا قصته في سورة يونس بما أغنى عن ذِكْرِهِ في هذا الموضع.

وقوله: «إذْ ذَهَبَ مُغاضِباً»، يقول: حين ذهب مغاضباً.

واختلف أهلُ التأويل في معنى ذهابه مغاضباً، وعَمَّنْ كان ذهابُهُ، وعلى مَنْ كان غَضَبُه، فقال بعضهم: كان ذهابُهُ عن قومِهِ وإياهم غاضب.

وقال آخرون: ذهب عن قومه مغاضباً لربه، إذ كشفَ عنهم العذابَ بعد ما وَعَدَهُمُوه.

وقال آخرون: بل إنما غاضَبَ رَبَّهُ من أجلِ أنه أُمِرَ بالمصيرِ إلى قومٍ لينذرهم بأسَهُ، ويدعوهم إليه، فسأل رَبَّهُ أنْ يُنْظِرَهُ، ليتأهَّبَ للشخوصِ إليهم، فقيل له: الأمرُ أسرعُ من ذلك، ولم ينظر حتى شاء أن ينظر إلى أنْ يأخذ نعلاً ليلبسها، فقيل له نحو القول الأوّل، وكان رجلاً في خُلُقِه ضِيقٌ، فقال: أعجلني ربي أنْ آخذَ نعلاً، فذهبَ مُغَاضباً.

وليس في واحدٍ من هذين القولين من وصفِ نبيِّ الله يونس صلواتُ الله عليه شيءٌ إلا وهو دونَ ما وصفه بما وصفه الذين قالوا: ذهبَ مغاضباً لقومِهِ، لأنَّ ذهابه عن قومِهِ مغاضباً لهم، وقد أمره الله تعالى بالمقامِ بين أظهرهم، ليبلِّغَهُمْ رسالتَهُ، ويحذِّرَهُمْ بأسَهُ، وعقوبته على تركِهم الإيمانَ به، والعمل بطاعته لا شك أنَّ فيه ما فيه، ولولا أنه قد كان ﷺ أتى ما قالَهُ الذين وصفوه بإتيانِ الخطيئةِ، لم يكن الله تعالى ذِكْرُه ليعاقبه العقوبةَ التي ذكرها في كتابه، ويصفهُ بالصفةِ التي وصفَهُ بها، فيقول لنبيه ﷺ: «وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الحُوتِ إذْ نادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ»، ويقول: «فالْتَقَمَهُ الحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ، فَلَوْلا أنهُ كانَ مِنَ المُسَبِحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ».

وقوله: «فَظَنَّ أنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويله، فقال بعضهم: معناه: فظنَّ أنْ لن نعاقبه بالتضييقِ عليه من قولهم: قدرت على فلان: إذا ضيقتُ عليه، كما قال الله جلّ ثناؤه: «وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ اللهُ».

وقال آخرون: بل معنى ذلك: فظنَّ أنه يُعْجِزُ رَبَّهُ فلا يقدر عليه.

وقال آخرون: بل ذلك بمعنى الاستفهام، وإنما تأويله: أفَظَنَّ أنْ لنْ نقدرَ عليه.

وأوْلى هذه الأقوال في تأويل ذلك عندي بالصواب، قول من قال: عَنَى به: فظنّ يونس أن لن نحبسه ونضيق عليه، عقوبةً له على مغاضبتهِ رَبَّهُ.

وإنما قلنا ذلك أوْلى بتأويلِ الكلمة، لأنه لا يجوزُ أن يُنسبَ إلى الكفرِ، وقد اختاره لنبوَّتِهِ، ووَصْفُهُ بأنْ ظَنَّ أنَّ ربه يعجزُ عما أرادَ به، ولا يقدرُ عليه، وصفٌ له بأنه جَهِلَ قدرةَ الله، وذلك وصفٌ له بالكفرِ، وغيرُ جائزٍ لأحدٍ وصفُه بذلك.

وقـوله: «فَنادَى في الظُّلُماتِ»، اختلف أهلُ التأويل في المعنيِّ بهذه الظلمات، فقال بعضهم: عنى بها ظُلْمةَ الليل، وظلمةَ البحر، وظلمةَ بطنِ الحوت.

وقال آخرون: إنما عَنَى بذلك أنه نادى في ظُلْمةِ جوفِ حوتٍ في جوفِ حوتٍ آخر في البحر، قالوا: فذلك هو الظلماتُ.

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أخبر عن يونس أنه ناداه في الظلماتِ «أنْ لا إلَهَ إلا أنْتَ سُبْحانَكَ إنّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمينَ»، وَلا شك أنه قد عَنَى بإحدى الظلمات: بطن الحوتِ، وبالأخرى: ظلمة البحر، وفي الثـالثـة اختـلاف، وجـائـزٌ أنْ تكونَ تلك الثالثة: ظلمة الليل، وجائزٌ أنْ تكون لحوت في جوفِ حوتٍ آخر، ولا دليلَ يدلُّ على أيِّ ذلك من أيٍّ، فلا قولَ في ذلك أوْلى بالحقِّ من التسليمِ لظاهرِ التنزيل.

وقوله: «لا إلَهَ إلاَّ أنْتَ سُبْحانَكَ»، يقول: نادى يونس بهذا القول معترفاً بذنبه، تائباً من خطيئته «إنّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» في معصيتي إياك.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ٨٨﴾

يقول تعالى ذكره: «فاسْتَجَبْنَا» ليونسَ دعاءَهُ إيانا، إذْ دعانا في بطنِ الحوتِ، ونجيناه من الغمِّ الذي كان فيه بحبْسِناهُ في بطنِ الحوت، وغَمِّه بخطيئتهِ وذَنْبه. «وكذَلكَ نُنْجِي المُؤْمِنِينَ»، يقول جلّ ثناؤه: وكما أنجينا يونسَ من كربِ الحبسِ في بطنِ الحوتِ في البحرِ إذْ دَعَانَا، كذلك نُنْجِي المؤمنينَ من كَرْبِهم إذا استغاثوا بنا ودَعَوْنَا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: واذكُرْ يا محمدُ زكريا حين نادى رَبَّهُ «رَبِّ لا تَذَرْنِي» وحيداً «فَرْداً» لا ولدَ لي ولا عَقِب. «وأنْتَ خَيْرُ الوَارِثِينَ»، يقول: فارزقني وارثاً من آلِ يعقوبَ يرثني، ثم ردَّ الأمرَ إلى الله فقال: وأنتَ خيرُ الوارثين، يقول الله جلّ ثناؤه: فاستجبنا لزكريا دُعاءَهُ، ووهبنا له يحيى ولداً ووارثاً يرثه، وأصلحنا له زوجه.

واختلف أهلُ التأويل في معنى الصلاح الذي عناه الله جلّ ثناؤه بقوله: «وأصْلَحْنا لَهُ زَوْجَه»، فقال بعضهم: كانت عقيماً فأصلحها، بأنْ جعلها وَلُوداً.

وقال آخرون: كانت سيئةَ الخُلُقِ، فأصلحها اللهُ له بأنْ رزقها حُسْنَ الخُلُق.

والصوابُ مِن القول في ذلك أن يقال: إنَّ الله أصلح لزكريا زوجَهُ، كما أخبر تعالى ذكره بأنْ جعلها ولوداً حسنةَ الخُلُق، لأنَّ كل ذلك من معاني إصلاحِهِ إياها، ولم يَخْصُصِ اللهُ جلَّ ثناؤه بذلك بعضاً دونَ بعضٍ في كتابه،

ولا على لسانِ رسولِه، ولا وضع على خصوصِ ذلك دلالةً، فهو على العموم ما لم يأتِ ما يجبُ التسليمُ له بأنَّ ذلك مرادٌ به بعضٌ دونَ بعض.

وقـولـه: «إِنَّهُمْ كانُـوا يُسـارِعُـونَ فِي الخَيْرَاتِ»، يقول الله: إنَّ الذين سميناهم، يعني زكريا وزوجه ويحيى، كانوا يسارعون في الخيرات في طاعتنا، والعملِ بما يُقَرِّبُهم إلينا.

وقوله: «وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً»، يقول تعالى ذكره: وكانوا يعبدوننا رغَباً ورهَباً، وعَنَى بالـدعاء في هذا الموضع: العبادة، كما قال: «وأَعْتَزِلُكُمْ ومَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ، وأدْعُو رَبِّي عَسى أن لا أكُونَ بدُعاءِ رَبّي شَقِيًّا»، ويعني بقوله: «رَغَباً» أنهم كانوا يعبدونه رغبةً منهم فيما يرجونَ منه من رحمتِهِ وفضله. «وَرَهَباً»، يعني رهبة منهم منعذابِهِ وعقابِهِ، بتركهم عبادَتَهُ، وركوبهم معصيته.

وقوله: «وكانُوا لَنا خاشِعِينَ»، يقول: وكانوا لنا متواضعين متذللين، ولا يستكبرونَ عن عبادتنا. ودعائنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩١﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: واذكر التي أحصنتْ فَرْجَها، يعني مريمَ بنت عمران. ويعني بقوله: «أَحْصَنَتْ»: حفظت، ومنعت فرجها مما حرَّمَ الله عليها إباحتَهُ فيه.

وقوله: «وَجَعَلْناها وَابْنَها آيَةً لِلْعَالمينَ»، يقول: وجعلنا مريمَ وابنها عبرةً لعالمي زمانِهِمَا يعتبرونَ بهما، ويتفكرونَ في أمرهما، فيعلمونَ عظيمَ سلطاننا وقُدْرتنا على ما نشاءُ: وقيل: آية ولم يقل آيتين، وقد ذكر آيتين؛ لأنَّ معنى الكلام: جعلناهما عَلَماً لنا وحجةً، فكلُّ واحدةٍ منهما في معنى الدلالة على

الله، وعلى عظيمِ قُدرته، يقوم مقام الآخر إذا كان أمرهما في الدلالة على الله واحداً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ هذه مِلَّتُكم ملةً واحدة، وأنا رَبُّكم أيها الناسُ فاعبدونِ دونَ الآلهةِ والأوثانِ، وسائر ما تعبدونَ من دوني.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وتفرَّقَ الناسُ في دينهم الذي أمرهم اللهُ به، ودعاهم إليه، فصاروا فيه أحزاباً، فتهوَّدَت اليهودُ، وتنصَّرتِ النصارى، وعُبِدَتِ الأوثانُ، ثم أخبر جلَّ ثناؤه عَمَّا هُمْ إليه صائرونَ، وأنَّ مرجعَ جميعِ أهلِ الأديان إليه متوعداً بذلك أهلَ الزيغِ منهم والضلال، ، ومعلمهم أنه لهم بالمرصاد، وأنه مُجَازٍ جميعَهم جزاءَ المحسنِ بإحسانه، والمسيء بإساءته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾

يقول تعالى ذكره: فَمَنْ عملَ من هؤلاءِ الذين تفرَّقُوا في دينهم بما أمره اللهُ به من العملِ الصالح، وأطاعه في أمرِهِ ونهيه، وهو مقرٌّ بوحدانيةِ الله، مصدِّقٌ بوعده ووعيده، متبرِّئٌ من الأندادِ والآلهةِ. «فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ»، يقول: فإن الله يشكر عملَهُ الذي عمل له مطيعاً له، وهو به مؤمنٌ، فيثيبه في الآخرة

ثوابَهُ الذي وعدَ أهلَ طاعتهِ أنْ يُثِيبَهُمُوه، ولا يكفر ذلك له فيجحده، ويحرمه ثوابَـهُ على عملِه الصـالـحِ. «وَإِنَّـا لَهُ كاتِبُونَ»، يقول: ونحن نكتبُ أعماله الصالحةَ كلها، فلا نتركُ منها شيئاً لنجْزِيه على صغيرِ ذلك وكبيرِه وقليلِهِ وكثيرِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾

تأويل الكـلام: حرامٌ على أهلِ قريةٍ أهلكناهم بِطَبْعِنَا على قلوبِهم، وخَتْمنا على أسماعِهم وأبصارهم، إذْ صَدُّوا عن سبيلنا، وكفروا بآياتنا أنْ يتوبوا، ويراجعوا الإيمان بنا، واتباع أمرنا والعمل بطاعتنا.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: حتى إذا فُتح عن يأجوجَ ومأجوجَ، وهما أُمَّتانِ من الأمم رَدْمُهُمَا.

وأما قوله: «وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ»، فإن أهلَ التأويل اختلفوا في المعنيِّ به، فقال بعضهم: عُنِي بذلك بنو آدمَ أنهم يخرجون من كلِّ موضعٍ كانوا دُفِنُوا فيه من الأرضِ، وإنما عُني بذلك الحشرُ إلى موقفِ الناسِ يومَ القيامة.

وقال آخرون: بل عنى بذلك يأجوج ومأجوج، وقوله: «وهم» كناية أسمائهم.

والصوابُ من القول في ذلك ما قاله الذين قالوا: عنى بذلك: يأجوج

ومأجوج. وإن قوله: «وَهمْ» كناية عن أسمائِهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَاوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

يقول تعالى ذكره: حتى إذا فُتحت يأجوجُ ومأجوجُ، اقتربَ الوعدُ الحقُّ، وذلك وعدُ الله الذي وَعَدَ عبادَهُ أنه يبعثهم من قبورهم للجزاءِ والثوابِ والعقابِ، وهو لا شكَّ حَقٌّ كما قال جلَّ ثناؤه.

وقـولـه: «فإذَا هِيَ شاخِصَةٌ أبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا»، يقول: فإذا الأبصارُ شاخصة، أبصارُ الذين كفروا.

وقوله: «ياوَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا»، يقول تعالى ذكره: فإذا أبصارُ الـذين كفـروا قد شخصت عنـد مجيء الـوعدِ الحقِّ بأهوالِهِ، وقيامِ الساعة بحقائقها، وهم يقولون: يا وَيْلَنا قد كنا قبل هذا الوقتِ في الدنيا في غفلةٍ من هذا الذي نرى ونعاين، ونزلَ بنا من عظيمِ البلاء. وفي الكلام متروكٌ تُرِكَ ذكره استغناءً بدلالة ما ذُكِرَ عليه عنه، وذلك يقولون من قوله: «فاذَا هِيَ شاخِصَةٌ أبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا»، يقولون: يا وَيْلَنا.

وقوله: «بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ»، يقول مخبراً عن قِيلِ الذين كفروا بالله يومئذٍ: ما كنا نعمل لهذا اليومِ ما يُنَجِّينَا من شدائدِه، بل كنا ظالمين بمعصيتنا رَبَّنَا، وطاعتنا إبليسَ وجُنْده في عبادة غير الله عزّ وجلّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾

يقول تعالى ذكره: إنكم أيها المشركونَ بالله، العابدونَ من دونهِ الأوثانَ والأصنام، وما تعبدون من دون الله من الآلهة «حَصَبُ جهنم»، يقول: يُرْمَى بهم فيها. وقد ذكر أنَّ الحَصَبَ في لغةِ أهلِ اليمن: الحطب، فإنْ يكن ذلك كذلك، فهو أيضاً وجهٌ صحيح. وأما ما قلنا من أنَّ معناه الرمي فإنه في لغة أهلِ نجد.

وأما قوله: «أَنْتُمْ لَهَاوَارِدُونَ»، فإن معناه: أنتم عليها أيها الناسُ أو إليها واردونَ، يقول: داخلونَ. وقد بيَّنتُ معنى الورود فيما مضى قَبْلُ بما أغنى عن إعادتهِ في هذا الموضع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَوْكَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّاوَرَدُوهَاۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٩٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لهؤلاء المشركينَ الذين وصفَ صِفَتَهم أنهم ما يأتيهم من ذِكْرٍ من رَبِّهم مُحْدَثٍ إلا استمعوه وهم يلعبون، وهم مشركو قريش أنتم أيها المشركون وما تعبدونَ من دونِ الله وارِدُو جهنمَ، ولو كان ما تعبدونَ من دونِ الله آلهةً ما وَرَدُوهَا، بل كانت تمنعُ مَنْ أرادَ أنْ يُورِدكُمُوهَا إذْ كنتم لها في الدنيا عابدينَ، ولكنها إذْ كانت لا نفعَ عندها لأنفسها، ولا عندها دفع ضرٍّ عنها، فهي من أنْ يكونَ ذلك عندها لغيرها أبعد، ومَنْ كان كذلك كان بَيِّناً بُعْدُهُ من الألوهةِ، وإنَّ الإله هو الذي يقدرُ على ما يشاء، ولا يقدرُ عليه شيء، فأما مَنْ كان مقدوراً عليه، فغير جائز أن يكون إلهاً.

وقوله: «وكلٌّ فِيها خالِدُونَ»، يعنيَ الآلهة، ومَنْ عَبَدَها أنهم ماكثونَ في النار أبداً بغير نهاية، وإنما معنى الكلام: كلكم فيها خالدون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «لَهُمْ» المشركينَ وآلهتَهُمْ، والهاء والميم في قولـه: «لَهُمْ» من ذِكْرِ كلِّ التي في قوله: «وكُلٌّ فِيها خالِدُونَ»، يقول تعالى ذكره: لِكُلِّهم في جهنمَ زفيرٌ. «وَهُمْ فِيها لا يَسْمَعُونَ»، يقول: وهم في النار لا يسمعون.

وأما قوله: «إنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الحُسْنَى، أُولَئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ»، فإنَّ أهلَ التأويلِ اختلفوا في المعنيِّ به، فقال بعضهم: عنى به كل مَنْ سبقتْ له من الله السعادة من خَلْقِه أنه عن النارِ مُبْعَدٌ.

وقال آخرون: بل عنى: من عَبد مِنْ دونِ الله، وهو لله طائعٌ، ولعبادةِ من يَعبد كاره.

وأوْلى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب، قول من قال: عنى بقوله: «إنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ» ما كان من معبود، كان المشركونَ يعبدونَهُ والمعبودُ لله مطيعٌ وعابِدُوهُ بعبادتهم إياه بالله كفَّارٌ، لأنَّ قوله تعالى ذكره: «إنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الحُسْنَى» ابتداء كلام محقق لأمرٍ كان ينكرهُ قومٌ، فكأن المشركين قالوا لنبيِّ الله ﷺ، إذْ قال لهم: «إنَّكُمْ ومَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ»، ما الأمرُ كما تقولُ، لأنَّا نعبدُ الملائكةَ، ويعبدُ آخـرونَ المسيحَ وعُزَيراً، فقال عزَّ وجلَّ ردّاً عليهم قولهم، بل ذلك كذلك، وليس الذين سبقتْ لهم مِنَّا الحسنى هم عنها مُبْعَدُونَ لأنهم غير معنيينَ بقولنا: «إنَّكُمْ ومَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ۝١٠٢﴾

يقول تعالى ذكره: لا يسمع هؤلاء الذين سبقتْ لهم منا الحسنى حَسِيسَ النار، ويعني بالحسيس: الصوتَ والحِسَّ.

«وَهُمْ فِيما اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدُونَ»، يقول: وهم فيما تشتهيه نُفوسُهم من نعيمها ولَذَّاتِها ماكثون فيها، لا يخافونَ زوالاً عنها، ولا انتقالاً عنها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝١٠٣﴾

اختلف أهلُ التأويل في الفزعِ الأكبرِ: أيّ الفزع هو؟ فقال بعضهم: ذلك النارُ إذا أطبقتْ على أهلها.

وقال آخرون: بل ذلك النفخة الآخرة.

وقال آخرون: بل ذلك حين يُؤْمَرُ بالعبدِ إلى النار.

وأوْلى الأقوال في ذلك بالصواب، قولُ من قال: ذلك عند النفخةِ الآخرة، وذلك أنَّ مَنْ لم يحزنه ذلك الفزَعُ الأكبر، وأمِنَ منه، فهو مما بَعْدَهُ أحْرَى أنْ لا يفزعَ، وأنْ مَنْ أفزعه ذلك فغيرُ مأمون عليه الفزعُ مما بعده.

وقوله: «وَتَتَلَقَّاهُمُ المَلائِكَةُ»، يقول: وتستقبلهم الملائكةُ، يُهَنِّئُونَهُمْ يقولون: «هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ» فيه الكرامة من اللهِ، والحِباء، والجزيل من الثوابِ على ما كنتم تَنْصَبُونَ في الدنيا لله في طاعته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ

الأنبياء: ١٠٤

لِلْكُتُبِۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥۚ وَعْدًا عَلَيْنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لا يحزنهم الفَزَعُ الأكبر، يومَ نطوي السماءَ، فيومَ صلة مِنْ يحزنهم.

واختلف أهلُ التأويل في معنى السجلِّ الذي ذكره الله في هذا الموضعِ، فقال بعضهم: هو اسمُ مَلَكٍ من الملائكة.

وقال آخرون: السجلُّ: رجلٌ كان يكتبُ لرسولِ الله ﷺ.

وقال آخرون: بل هو الصحيفةُ التي يكتب فيها.

وأوْلى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب قول من قال: السجلُّ في هذا الموضع: الصحيفةُ، لأن ذلك هو المعروفُ في كلامِ العرب، ولا يعرف لنبينا ﷺ كاتبٌ كان اسمه السجلُّ، ولا في الملائكةِ مَلكٌ ذلك اسمُه.

فإنْ قال قائل: وكيف نطوي الصحيفةَ بالكتابِ إنْ كان السجلُّ صحيفةً؟ قيل: ليس المعنى كذلك، وإنما معناه: يوم نطوي السماءَ كَطَيِّ السجلِّ على ما فيه منَ الكتابِ، ثم جعل نَطوي مصدراً، فقيل: «كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكِتابِ»، واللام في قوله للكتاب، بمعنى على.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءةِ «للكُتُب»، فإنَّ قَرَأة أهلِ المدينةِ وبعض أهلِ الكوفة والبصرة قرءوه بالتوحيدِ، كطيِّ السجلِّ للكتابِ، وقرأ ذلك عامة قرأة الكوفة «لِلْكُتُبِ» على الجماع.

وأوْلى القراءتين عندنا في ذلك بالصوابِ قراءةُ مَنْ قرأه على التوحيدِ للكتابِ، لما ذكرنا من معناه، فإن المراد منه: كطيِّ السجلِّ على مافيه مكتوبٌ، فلا وجه إذْ كان ذلك معناه لجميعِ الكتبِ إلا وجه نتبعه من معروفِ كلامِ العرب، وعند قوله: «كَطَيِّ السِّجِلِّ» انقضاء الخبر عن صلةِ قولِه: «لا

يَحْزُنهُمُ الفَزَعُ الأَكْبَرُ»، ثم ابتدأ الخبر عَمَّا اللهُ فاعلٌ بخلقِه يومئذٍ فقال تعالى ذكره: «كمَا بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ» فالكاف التي في قوله: «كمَا» من صلة «نُعِيدُه» تقدَّمتْ قَبْلَها، ومعنى الكلام: نُعيدُ الخَلْقَ عُراةً حُفاة غُرْلاً يوم القيامة، كما بدأناهم أوَّلَ مَرَّةٍ في حال خَلْقِنَاهُمْ في بطونِ أُمَّهاتهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥﴾

(يعني): ولقد كتبنا في الكتبِ من بعدِ أمِّ الكتابِ الذي كتب اللهُ كُلَّ ماهو كائنٌ فيه قبلَ خَلْقِ السمواتِ والأرض، وذلك أن الزبور هو الكتابُ، يقال منه: زبرتُ الكتابَ وذَبرته[1]: إذا كتبته، وإن كلَّ كتابٍ أنزله اللهُ إلى نبيٍّ من أنبيائه فهو ذِكر. فإذْ كان ذلك كذلك، فإن في إدخاله الألفَ واللام في الذكر، الدلالة البينة أنه معنيٌّ به ذِكْرٌ بعينهِ معلوم عند المخاطبينَ بالآية، ولو كان ذلك غيرَ أمِّ الكتابِ التي ذكرنا لم تكن التوراةُ بأوْلى من أنْ تكونَ المعنيةَ بذلك من صحف إبراهيم، فقد كان قبل زَبور داود.

فتأويل الكلام إذن، إذْ كان ذلك كما وصفنا: ولقد قضينا فأثبتنا قضاءنا في الكتب من بعد أمِّ الكتابِ أنَّ الأرضَ يرثها عباديَ الصالحونَ، يعني بذلك: أنَّ أرضَ الجنةِ يرثها عبادي العاملونَ بطاعتهِ، المنتهون إلى أمره ونهيه من عباده دون العاملين بمعصيته منهم، المؤثرين طاعة الشيطان على طاعته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ١٠٦ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾

(١) بالذال المعجمة، وهي لغة فيه، كما بيناه فيما سبق.

يقول تعالى ذكره: إنَّ في هذا القرآن الذي أنزلناه على نبينا محمدٍ ﷺ لبلاغاً لِمَنْ عبدَ الله بما فيه من الفرائض التي فرضها الله إلى رضوانه، وإدراكِ الطَّلِبة عنده.

وقوله: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ»، يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: وما أرسلناكَ يا محمدُ إلى خَلْقِنا إلا رحمةً لمن أرسلناكَ إليه من خلقي.

ثم اختلف أهلُ التأويل في معنى هذه الآية، أجميع العالمِ الذي أُرسلَ إليهم محمدٌ أُريدَ بها مؤمنهم وكافرهم؟ أم أُريدَ بها أهل الإيمانِ خاصةً دونَ أهلِ الكفر؟ فقال بعضهم: عنى بها جميعَ العالم المؤمن والكافر.

وقال آخرون: بل أُريدَ بها أهل الإيمان دونَ أهلِ الكفر.

وأوْلى القولين في ذلك بالصواب قول مَنْ قال: إنَّ الله أرسلَ نبيه محمداً ﷺ رحمةً لجميعِ العالم مُؤْمِنِهم وكافِرِهم. فأما مؤمنهم فإنَّ الله هَدَاهُ به وأدخله بالإيمان به، وبالعملِ بما جاء من عندِ الله الجنةَ. وأما كافرهم فإنه دفعَ به عنه عاجلَ البلاءِ الذي كان ينزلُ بالأممِ المكذِّبةِ رُسُلَها من قبله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٠٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ: ما يوحي إليَّ ربي إلا أنَّه لا إله لكم يجوزُ أن يُعبدَ إلا إلهٌ واحد، لا تصلح العبادةُ إلا له، ولا ينبغي ذلك لغيرِه. «فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ»، يقول: فهل أنتم مُذْعِنُونَ له أيها المشركون، العابدونَ الأوثانَ والأصنامَ بالخضوعِ لذلك، ومتبرِّئُونَ من عبادةِ ما دونه من آلهتكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

يقول تعالى ذكره: فإنْ أدبرَ هؤلاء المشركونَ يا محمدُ عن الإقرارِ بالإيمانِ، بأنْ لا إله لهم إلا إلهٌ واحد، فأعْرَضُوا عنه، وأَبوا الإجابةَ إليه، فقلْ لهم: «قَدْ آذَنْتُكُمْ عَلى سَوَاءٍ»، يقول: أَعْلِمْهُمْ أنك وهُمْ على علم من أنَّ بعضَكم لبعضٍ حربٌ، لا صلحَ بينكم ولا سِلْمَ.

وإنما عَنَى بذلك قومَ رسولِ الله ﷺ من قُرَيش.

وقوله: «وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ ما تُوعَدُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه: قُلْ وما أدري متى الوقتُ الذي يحلُّ بكم عقابُ الله الذي وعدكم، فينتقم به منكم، أقريبٌ نزولهُ بكم، أم بعيد؟..

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: قل لهؤلاء المشركين، إنَّ الله يعلمُ الجهرَ الذي تجهرونَ به من القولِ، ويعلمُ ما تُخفونَهُ، فلا تجهرونَ به، سواء عنده خَفِيُّه وظاهِرُه، وسِرُّهُ وعلانيته، أنه لا يخفى عليه منه شيءٌ، فانْ أَخَّرَ عنكم عقابَهُ على ما تُخفونَ من الشرك به، أو تجهرون به، فما أدري ما السبب الـذي من أجله يؤخِّرُ ذلك عنكم، لعلَّ تأخيره ذلك عنكم مع وَعْدِهِ إياكم لفتنةٍ يريدها بكم، ولتتمتعوا بحياتكم إلى أجلٍ قد جعله لكم تبلغونه، ثم ينزل بكم حينئذٍ نقمته.

الأنبياء: ١١٢

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قُلْ يا محمدُ: ياربِّ افصلْ بيني وبين من كَذَّبني من مشركي قومي وكَفَرَ بكَ، وعبدَ غيركَ، بإحلالِ عذابكَ ونقمتكَ بهم، وذلك هو الحقُّ الذي أمرَ اللهُ تعالى نبيه أن يسألَ ربه الحكمَ به وهو نظيرُ قوله جلّ ثناؤه: «رَبَّنا افْتَحْ بَيْنَنَا وبَينَ قَوْمِنا بالحَقّ وأَنْتَ خَيْرُ الفاتِحِينَ».

وقوله: «وَرَبُّنا الرَّحْمَنُ المُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ»، يقول جلَّ ثناؤه: وقل يا محمد: وربنا الذي يرحمُ عباده، ويَعُمُّهم بنعمتهِ الذي أستعينُه عليكم فيما تقولونَ وتصفونَ من قولِكم لي فيما أتيتكم به من عند الله «إنْ هَذَا إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ»، وقولكم: «بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شاعِرٌ» وفي كَذِبكُمْ على اللهِ جلَّ ثناؤه وقيلكم: «اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً»، فإنه هينٌ عليه تغييرُ ذلك، وفصل ما بيني وبينكم بتعجيلِ العقوبةِ لكم على ما تَصِفُونَ من ذلك.

سُورَةُ الحَجّ

ترتيبها ٢٢ — آياتها ٧٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يا أيها الناسُ احذروا عقابَ رَبِّكم بطاعتِه، فأطيعوهُ ولا تعصوه، فإنَّ عقابه لمن عاقبَهُ يومَ القيامةِ شديدٌ، ثم وصفَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ هَوْلَ أشراطِ ذلك اليوم وبُدُوِّهِ، فقال: «إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ».

وقوله تعالى: «يَوْمَ تَرَوْنَها»، يقول جَلَّ ثناؤُه: يوم تَرونَ أيها الناسُ زلزلةَ الساعةِ تَذْهَلُ مِنْ عِظَمِهَا، كُلُّ مرضعةِ مولودٍ عما أرضعتْ، ويعني بقوله: «تَذْهَلُ» تنسى وتترك من شِدَّةِ كَرْبها، يقال: ذَهَلْت عن كذا أذْهَل عنه ذُهُولاً وَذَهِلْت أيضاً، وهي قليلة، والفصيحُ: الفتح في الهاء، فأما في المستقبل فالهاء مفتوحة في اللغتين، لم يسمع غير ذلك.

فتأويلُ الكلام: يوم ترون أيها الناسُ زلزلةَ الساعةِ، تنسى وتتركُ كُلُّ والدةِ مولودٍ تُرْضِعُ ولدها عَمَّا أرضعتْ.

«وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا»: يقولُ: وتسقط كُلُّ حاملٍ من شدَّةِ كَرْبِ ذلك حَمْلَها.

وقوله: «وَتَرَى النَّاسَ سُكارَى»، يقولُ: وترى الناسَ يا محمدُ، من عظيمِ ما نزلَ بهم من الكرب وشِدَّتِه سُكارى من الفزعِ، وما هم بسُكارى من شربِ الخمر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣﴾

ذُكِرَ أن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث.

ويعني بقوله: «مَنْ يُجادِلُ في اللهِ بغَيْرِ عِلْمٍ»، مَنْ يخاصمُ في الله، فيزعمُ أنَّ اللهَ غيرُ قادرٍ على إحياء مَنْ قد بَليَ وصار تراباً، بغير علم يعلمه، بل بجهلٍ منه بما يقول، «وَيَتَّبِعُ» في قِيلِه ذلك وجِدالِه في الله بغيرِ علمٍ «كُلَّ شَيْطانٍ مَّرِيدٍ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قُضِيَ على الشيطان: فمعنى «كُتِبَ» ههنا قُضِيَ، والهاء التي في قوله: «عليه» من ذِكْرِ الشيطان.

وقوله: «فأَنَّهُ يُضِلُّهُ»، يقولُ: فإن الشيطان يضله، يعني: يضلُّ مَنْ تَولَّاه.

وتأويل الكلام: قُضِيَ على الشيطان أنه يُضِلُّ أتباعه ولا يهديهم إلى الحقّ.

وقوله: «ويَهْدِيهِ إلى عَذَابِ السَّعِيرِ»، يقولُ: ويَسُوقُ مَنِ اتَّبَعَهُ إلى عذاب جهنم الموقدة. وسياقُه إياه إليه بدعائِه إياه إلى طاعته ومعصية الرحمن، فذلك هدايتُه مَنْ تَبِعَهُ إلى عذابِ جهنم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾

وهذا احتجاجٌ من الله على الذي أخبرَ عنه من الناسِ أنه يجادلُ في الله بغيرِ علمٍ، اتباعاً منه للشيطان المريد، وتنبيهٌ له على موضعِ خطأ قِيلِه، وإنكاره ما أنكرَ من قدرةِ رَبِّه، قال: يا أيها الناسُ إنْ كنتم في شكٍّ من قدرتنا على بَعْثِكم من قبوركم بعد مَمَاتكم وبِلاَكُم استعظاماً منكم لذلك، فإنَّ في ابتدائنا خَلْقَ أبيكم آدم ﷺ من ترابٍ، ثم إنشائِناكُمْ من نطفة آدم، ثم تَصْريفناكُمْ أحوالاً حالاً بعد حالٍ، من نطفةٍ إلى علقةٍ، ثم من عَلَقة إلى مُضْغةٍ، لكم معتبراً ومُتَّعَظاً تعتبرونَ به، فتعلمون أنَّ مَنْ قدرَ على ذلك فغير مُتَعذِّرٍ عليه إعادتكم بعد فنائكم، كما كنتم أحياء قبل الفناء.

واختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «مُخَلَّقةٍ وغير مخلَّقة»، فقال بعضهم: هي من صفةِ النطفة، قال: ومعنى ذلك: فإنَّا خلقناكم من ترابٍ، ثم من نطفة مُخلَّقة وغير مُخَلَّقةٍ، قالوا: فأما المخلَّقة: فما كان خَلْقاً سَوِيّاً. وأما غير مخلقة، فما دفعته الأرحامُ من النُّطَفِ، وألقته قبلَ أنْ يكون خَلْقاً.

وقال آخرون: معنى ذلك: تامة وغير تامة.

وقال آخرون: معنى ذلك: المضغة مصوَّرة إنساناً وغير مصوّرة، فإذا صُوِّرتْ فهي مُخَلَّقة وإذا لم تُصَوَّرْ فهي غير مُخَلَّقة.

وأوْلى الأقوال في ذلك بالصوابِ قولُ مَنْ قال: المُخَلَّقةُ: المصورة خَلْقاً تاماً، وغير مُخَلَّقة: السِّقط قبلَ تمامِ خَلْقِه، لأنَّ المخلَّقة وغير المخلَّقة من

نعتِ المُضغـة والنطفة بعد مصيرها مضغة، لم يبقَ لها حتى تصيرَ خَلْقاً سوياً إلا التصوير. وذلك هو المراد بقوله: «مُخَلَّقَةٍ وغَيرِ مخَلَّقَةٍ» خَلْقاً سوياً، وغير مخلَّقة بأن تلقيه الأمُّ مضغةً ولا تصوّر، ولا يُنفخ فيها الروح.

وقـوله: «لِنُبَيِّنَ لَكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: جعلنا المضغةَ منها المخلقة التامة، ومنها السقط غير التامِّ لنبيِّنَ لكم قُدْرَتَنا على ما نشاءُ، ونُعَرِّفَكُمْ ابتداءنا خَلْقَكُمْ.

وقوله: «وَنُقِرِ في الأرْحامِ ما نَشاءُ إلى أجَلٍ مُسَمًّى»، يقول تعالى ذِكْرُه: مَنْ كُنَّا كتبنا له بقاءً وحياةً إلى أمدٍ وغاية، فإنا نُقِرُّهُ في رحمِ أمهِ إلى وقتهِ الذي جعلنا له أن يمكثَ في رحمها فلا تسقطه، ولا يخرج منها حتى يبلغ أجله، فإذا بلغ وقت خروجه من رحمها أَذِنَّا له بالخروجِ منها، فيخرج.

وقوله: «ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا»، يقول تعالى ذِكْرُه: ثم نخرجكم من أرحامِ أمهـاتكم إذا بلغتم الأجلَ الذي قَدَّرْتُه لخروجكم منها طفلاً صغاراً، وَوَحَّدَ الطفل، وهو صفةٌ للجميع، لأنه مصدرٌ مثل عدل وزور.

وقوله: «ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أشُدَّكُمْ»، يقولُ: ثم لتبلغوا كمالَ عقولكم ونهايةَ قُواكم بعمركم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: ومنكم أيهـا الناس مَنْ يُتَوفَّى قبل أنْ يبلغَ أَشُدَّهُ فيموت، ومنكم مَنْ يُنْسَأ في أجله فيُعَمَّر حتى يهرم، فَيُرَدُّ من بعد انتهاءِ شبابه،

وبلوغه غاية أشدّهِ إلى أرذلِ عُمُره، وذلك الهرمُ حتى يعود كهيئته في حال صباه، لا يعقل من بعد عَقْلِه الأوّلِ شيئاً.

ومعنى الكلام: ومنكم من يُرَدُّ إلى أرذلِ العُمُر بعد بلوغه أشدَّهُ. «لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ» كان يعلمه «شَيْئاً».

وقوله: «وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وترى الأرضَ يا محمدُ، يابسة دارسةَ الآثارِ من النباتِ والزرع.

وقوله: «فإذَا أَنْزَلْنا عَلَيْها المَاء اهْتَزَّتْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فإذا نحن أنزلنا على هذه الأرض الهامدةِ التي لا نباتَ فيها، المطرَ من السماء اهتزّت، يقولُ: تَحَرَّكَتْ بالنباتِ. «وَرَبَتْ»، يقولُ: وأضعفت النباتَ بمجيءِ الغيثِ.

وقوله: «وأَنْبَتَتْ مِنْ كُلّ زَوْجٍ بَهِيجٍ»، يقول جَلَّ ثناؤه: وأنبتت هذه الأرضُ الهامدةُ بذلك الغيث، من كُلِّ نوعٍ بهيج، يعني بالبَهِيج: البَهِج، وهو الحَسَن[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «ذلك» هذا الذي ذكرتُ لكم أيها الناسُ من بَدْئِنَا خَلْقَكُمْ في بطونِ أمهاتكم، ووصفنا أحوالكم قبلَ الميلادِ وبعده، طفلاً، وكهلاً، وشيخاً هَرِماً، وتَنْبيهنَاكُمْ على فِعْلنا بالأرضِ الهامدةِ بما نُنَزِّلُ عليها من الغيثِ لتؤمنوا وتُصَدِّقُوا بأنَّ ذلك الذي فعلَ ذلك، الله الذي هو الحقُّ لاشكَّ

(١) انظر مفردات الراغب: ١٤٨، وهو حُسْنُ اللونِ.

فيه، وأن مَنْ سِواهُ مما تعبدونَ من الأوثانِ والأصنامِ باطلٌ لأنها لا تقدرُ على فِعْل شيءٍ من ذلك، وتعلموا أنَّ القدرة التي جعلَ بها هذه الأشياء العجيبة، لا يتعذَّرُ عليها أنْ يُحْيِي بها الموتى بعد فنائها ودروسها في التراب، وأنَّ فاعلَ ذلك على كلِّ ما أرادَ وشاءَ من شيءٍ قادرٌ، لا يمتنعُ عليه شيءٌ أرادَهُ، ولتوقِنُوا بذلك أنَّ الساعةَ التي وعدتُكم أنْ أبعثَ فيها الموتى من قبورهم جائية لا محالة. «لا رَيْبَ فِيها»، يقولُ: لاشك في مجيئها وحدوثها، «وأنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي القُبُورِ حينئذٍ مَن فيها من الأمواتِ أحياءً إلى موقفِ الحسابِ، فلا تَشُكُّوا في ذلك، ولا تمترُوا فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومِنَ النَّاسِ مَنْ يُخاصِمُ في توحيدِ الله وإفراده بالألوهةِ بغير علمٍ منه بما يُخاصم به، «وَلا هُدًى»، يقولُ: وبغير بيانٍ معه لما يقولُ ولا بُرْهان، «وَلا كِتابٍ مَنِيرٍ»، يقولُ: وبغيرِ كتابٍ من الله أتاه لصحةِ ما يقولُ. «منير»، يقولُ: يُنيرُ عن حُجَّتِه. وإنما يقول ما يقول من الجهلِ ظناً منه وحُسباناً، وذُكِرَ أنه عُنِي بهذه الآيةِ والتي بعدها النضر بن الحارث من بني عبدالدار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يجادلُ هذا الذي يجادلُ في الله بغير علم «ثانِيَ عِطْفِهِ».

واختلف أهل التأويل في المعنى الذي من أجله وُصِفَ بأنه يثني عطفه،

وما المرادُ من وصفه إياه بذلك، فقال بعضهم: وصفه بذلك لتكبُّرِه وتبختُرِه، وذُكِرَ عن العرب أنها تقول: جاءني فلان ثانِيَ عِطْفه: إذا جاء متبختراً من الكِبْرِ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: لاوٍ رَقَبَتَهُ.

وقال آخرون: معنى ذلك أنه يُعْرِضُ عما يُدْعَى إليه فلا يسمع له.

وهذه الأقوال الثلاثة متقاربات المعنى، وذلك أنَّ مَنْ كانَ ذا استكبارٍ، فمن شأنه الإعراضُ عما هو مستكبرٌ عنه ولَيّ عُنُقِه عنه والإعراض.

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله وصف هذا المُخَاصِمَ في الله بغيرِ علمٍ أنه من كِبره إذا دُعِيَ إلى الله، أعرض عن داعيهِ، ولوى عنقَهُ عنه، ولم يسمع ما يُقال له استكباراً.

وقوله: «لِيُضِلَّ عن سَبيلِ الله»، يقول تعالى ذِكْرُه: يجادل هذا المشرك في الله بغير عِلْم مُعْـرِضـاً عن الحقِّ استكبـاراً، ليصـدَّ المؤمنينَ بالله عن دينهم الذي هَداهُم له، ويستزلَّهُمْ عنه. «لَهُ في الدُّنْيا خِزْيٌ»، يقول جَلَّ ثناؤه: لهذا المجادلِ في الله بغيرِ علمٍ، في الدنيا خِزيٌ وهو القَتْلُ والذلُّ والمَهَانة بأيدي المؤمنينَ، فقتلَهُ اللهُ بأيديهم يومَ بدر.

وقوله: «وَنُذِيقُهُ يَوْمَ القِيامَةِ عَذَابَ الحَرِيقِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ونحرقه يومَ القيامةِ بالنار.

وقـولـه: «ذَلكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ»، يقول جَلَّ ثناؤه: ويقال له إذا أُذِيقَ عذابَ النار يومَ القيامة: هذا العذابُ الذي نُذِيقكَهُ اليومَ بما قَدَّمتْ يداكَ في الدنيا من الذنوبِ والآثام، واكتسبته فيها من الإجرام. «وأنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ»، يقولُ: وفعلنا ذلك، لأنَّ الله ليس بظلامٍ للعبيد، فيعاقب بعضَ عبيدهِ على جُرْمٍ، وهـو يغفرُ مِثْلَهُ من آخر غيره، أو يحمل ذَنْبَ مذنبٍ على غيرِ مذنب، فيعاقبه به، ويعفو عن صاحبِ الذنب، ولكنه لا يعاقبُ أحداً إلا على

جُرْمِه، ولا يعذِّبُ أحداً على ذنبٍ يغفر مثله لآخرَ إلا بسببٍ استحقَّ به منه مغفرته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝١١﴾

يعني جلَّ ذِكْرُه بقوله: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلى حَرْفٍ» أعراباً كانوا يَقْدمُونَ على رسولِ الله ﷺ، مهاجرينَ من باديتهم، فإنْ نالوا رخاءً من عيشٍ بعد الهجرةِ والدخولِ في الإسلام أقاموا على الإسلام، وإلا ارتدُّوا على أعقابهم، فقال الله: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ» على شكٍّ، «فإنْ أصابهُ خيرٌ اطمأنَّ بهِ» وهو السَّعَةُ من العيشِ، وما يشبههُ من أسبابِ الدنيا اطمأنَّ به، يقولُ: استقرَّ بالإسلام وثبتَ عليه، «وإنْ أصابَتْهُ فِتْنَةٌ» وهو الضيقُ بالعيشِ وما يشبهه من أسبابِ الدنيا «انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ»، يقولُ: ارتدَّ فانقلبَ على وجهه الذي كان عليه من الكفرِ باللهِ.

وقوله: «خَسِرَ الدُّنْيا والآخِرَةَ»، يقولُ: غَبِنَ هذا الذي وَصفَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ صِفَتَهُ دُنْيَاهُ، لأنه لم يَظْفَرْ بحاجتِهِ منها بما كان من عبادتِه اللهَ على الشكِّ، ووضع في تجارته فلم يربح. «والآخرة»، يقولُ: وخسر الآخرة، فإنه مُعَذَّبٌ فيها بنار الله المُوقدة.

وقوله: «ذلكَ هُوَ الخُسْرَانُ المُبينُ»، يقولُ: وخسارته الدنيا والآخرة هي الخُسْران: يعني الهلاكُ المُبين، يقولُ: يبيِّن لمن فَكَّرَ فيه وتدبره أنه قد خَسِرَ الدنيا والآخرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا

﴿يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإنْ أصابت هذا الذي يعبدُ الله على حرفٍ فتنةٌ، ارتدَّ عن دينِ الله، يدعو من دون الله آلهةً لا تضرُّه إنْ لم يعبدها في الدنيا، ولا تنفعُه في الآخرةِ إنْ عَبَدَهَا. «ذلكَ هُوَ الضَّلالُ البَعِيدُ»، يقولُ: ارتدادهُ ذلك داعياً من دونِ الله هذه الآلهة هو الأخذُ على غيرِ استقامةٍ، والذهابُ عن دين الله ذهاباً بعيداً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ١٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يدعو هذا المنقلبُ على وجهه، من إن أصابته فتنةٌ، آلهةً لَضرُّهَا في الآخرةِ له، أقربُ وأسرعُ إليه من نفعها.

وقوله: «لَبِئْسَ المَوْلَى»، يقولُ: لبئس ابن العمِّ هذا الذي يعبدُ الله على حرفٍ، «وَلَبِئْسَ العَشِيرُ»، يقولُ: ولبئس الخليطُ المعاشرُ والصاحبُ هُوَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الله يدخلُ الذينَ صَدَّقُوا الله ورسولَهُ، وعَمِلوا بما أمرهم الله في الدنيا، وانتهوا عما نهاهم عنه فيها جناتٍ: يعني بساتين. «تَجْري مِنْ تَحْتِها الأنهارُ»، يقولُ: تجري الأنهار من تحت أشجارها، «إنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ» فيعطي ما شاءَ من كرامتِه أهلَ طاعته، وما شاءَ من الهوانِ أهلَ معصيتِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾

اختلف أهلُ التأويل في المَعْنِيِّ بالهاء التي في قوله: «أنْ لَنْ يَنْصُرَهُ الله».

فقال بعضهم: عُنِيَ بها نبيُّ الله ﷺ، فتأويلُه على قولِ بعض قائلي ذلك: مَنْ كان من الناس يحسبُ أنْ لن ينصرَ اللهُ محمداً في الدنيا والآخرة، فليمدُدْ بحبلٍ، وهو السببُ إلى السماء: يعني سماء البيت، وهو سقفه، ثم ليقطع السببَ بعد الاختناقِ به، فلينظُرْ هل يذهبن اختناقه ذلك، وقطعه السبب بعد الاختناق ما يغيظ: يقول: هل يذهبن في ذلك ما يجد في صدره من الغيظ.

وقال آخرون: ممن قال: الهاء في ينصره من ذِكْرِ اسمِ رسولِ الله ﷺ: السماءُ التي ذُكِرَت في هذا الموضِع، هي السماءُ المعروفة، وقالوا: معنى الكلام: مَنْ كان يظنُّ أنْ لَنْ ينصرَ اللهُ نبيه ﷺ، ويكابد هذا الأمر ليقطعه عنه، ومنه: فليقطع ذلك من أصلِه من حيثُ يأتيه، فإنَّ أصلَهُ في السماء، فليمدُدْ بسببٍ إلى السماء، ثم ليقطع عن النبيِّ ﷺ الوحيَ الذي يأتيه من الله، فإنه لا يكايدُه حتى يقطعَ أصلَهُ عنه، فكايدَ ذلك حتىَ قطعَ أصله عنه. «فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ» ما دخلهم من ذلك، وغاظهم اللهُ به من نصرةِ النبيِّ ﷺ وما ينزل عليه.

وقال آخرون: ممن قال «الهاء» التي في قوله: «يَنْصُرَهُ» من ذِكْرِ محمد ﷺ: معنى النصر ها هنا الرزقُ، فعلى قولِ هؤلاءِ تأويلُ الكلام: مَنْ كان يظنُّ أنْ لن يرزقَ اللهُ محمداً في الدنيا، ولن يعطيه. وذكروا سماعاً من العرب: مَنْ ينصرني نَصَرَهُ الله، بمعنى: من يُعْطِني أعطاهُ الله. وحكوا أيضاً سماعاً منهم:

الحج: ١٦

نصرَ المطرُ أرضَ كذا: إذا جَادَهَا وأحياها.

وقال آخرون: الهاء في ينصره من ذكر «مَنْ»، وقالوا: معنى الكلام: مَنْ كان يظنُّ أنْ لن يرزقه الله في الدنيا والآخرة، فليمدُدْ بسببٍ إلى سماء البيت، ثم ليختنق، فلينظرْ هل يذهبن فعله ذلك ما يغيظ، أنه لا يرزق!

وأولى ذلك بالصواب عندي في تأويل ذلك قولُ مَنْ قال: الهاء من ذِكْرِ نبيِّ الله ﷺ ودينه، وذلك أنَّ الله تعالى ذِكْرُه، ذكرَ قوماً يعبدونه على حَرْفٍ، وأنهم يطمئنون بالدين إنْ أصابوا خيراً في عبادتهم إياه، وأنهم يرتدُّونَ عن دِينهم لشدَّةٍ تُصِيبهم فيها، ثم أتبع ذلك هذه الآية، فمعلوم أنه إنما أتبعه إياها توبيخاً لهم على ارتـدادهم عن الدين، أو على شَكِّهم فيه ونفاقهم، استبطاءً منهم السعة في العيشِ، أو السبوغ في الرزق. وإذا كان الواجبُ أنْ يكونَ ذلك عقيبَ الخبرِ عن نفاقهم، فمعنى الكلام إذن، إذْ كان ذلك كذلك: مَنْ كان يحسب أنْ لن يرزقَ اللهُ محمداً ﷺ وأمته في الدنيا، فيوسِّع عليهم من فضلِه فيهـا، ويرزقهم في الآخـرة من سَنِيِّ عطاياه وكـرامتـه، استبطاءً منه فِعْلَ اللهِ ذلك به وبهم، فليمدُدْ بحبلٍ إلى سماء فوقه؛ إما سقفِ بيت، أو غيره مما يعلقُ به السبب من فوقـه، ثم يختنق إذا اغتـاظ من بعضِ ما قضى الله، فاستعجل انكشافَ ذلك عنه، فلينظر هل يذهبنَّ كيده اختناقَهُ، كذلك ما يغيظ، فإنْ لم يُذْهِبْ ذلك غيظَهُ، حتى يأتي الله بالفرج من عنده فيذهبه، فكذلك استعجالُه نصرَ الله محمداً ودينه لن يُؤَخِّر ما قضى اللهُ له من ذلك عن ميقاتِه، ولا يعجِّل قَبْلَ حِينه.

وقد ذُكِرَ أنَّ هذه الآيةَ نزلت في أسد وغطفان، تباطئوا عن الإسلامِ، وقـالوا: نخافُ أن لا يُنْصَر محمدٌ ﷺ، فينقطع الذي بيننا وبين حلفائنا من اليهودِ فلا يميروننا ولا يُرَوُّونَنا، فقال الله تبارك وتعالى لهم: مَنْ استعجل من اللهِ نصرَ محمدٍ، فليمدُدْ بسببٍ إلى السماء فليختنقْ فلينظرْ استعجاله بذلك في

نفسه، هل هو مُذْهِبٌ غيظَهُ؟ فكذلك استعجالُه من الله نصرَ محمدٍ غير مقدِّم نصره قبل حينه.

وقوله: «وكَذلكَ أنْزَلْناهُ آياتٍ بَيِّناتٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكما بيَّنت لكم حُجَجي على مَنْ جحد قُدْرَتِي على إحياءِ مَنْ مات من الخَلْقِ بعد فنائه، فأوضَحْتُهَا أيها الناسُ، كذلك أنزلنا إلى نبينا محمدٍ ﷺ هذا القرآنَ آياتٍ بيِّنات، يعني دِلالاتٍ واضحاتٍ، يهدينَ مَن أرادَ الله هدايَتَهُ إلى الحقِّ. «وأنَّ الله يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ»، يقول جَلَّ ثناؤه: ولأنَّ الله يوفق للصوابِ ولسبيلِ الحقِّ مَنْ أراد، أنزل هذا القرآنَ آياتٍ بيِّنات.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الفصلَ بين هؤلاءِ المنافقينَ الذين يَعْبدونَ اللهَ على حرفٍ، والذين أشركوا بالله فعبدوا الأوثانَ والأصنامَ، والذين هادوا، وهم اليهودُ، والصابئينَ والنصارى والمجوس الذين عَظَّمُوا النيران وخدموها، وبين الذين آمنوا بالله ورُسُلِهِ، إلى الله[1]، وسيفصلُ بينهم يومَ القيامةِ بعدلٍ من القضاء، وفَصْلُهُ بينهم إدخالُه النارَ الأحزابَ كُلَّهم والجنةَ المؤمنينَ به وبرُسُلِهِ، فذلك هو الفصلُ من الله بينهم.

وقوله: «إنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ»، يقولُ: إنَّ الله على كل شيءٍ من أعمالِ هؤلاءِ الأصناف الذين ذكرهم الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ، وغير ذلك من الأشياء كلها شهيدٌ لا يَخْفَى عنه شيءٌ من ذلك.

(١) سياق العبارة: إن الفصل بين هؤلاءِ... إلى الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ألم تَرَ يا محمدُ بقلبكَ، فتعلم أنَّ اللهَ يسجدُ له مَنْ في السمواتِ من الملائكةِ، ومَنْ في الأرض من الخَلْقِ من الجنِّ وغيرِهم، والشمسُ والقمرُ والنجومُ في السماء، والجبالُ، والشجرُ، والدوابُّ في الأرض، وسجودُ ذلك ظلالُه حين تطلعُ عليه الشمسُ، وحينَ تزولُ، إذا تحوَّلَ ظِلُّ كُلِّ شيءٍ فهو سجوده.

وقوله: «وكثيرٌ من الناس»، يقولُ: ويسجد كثير من بني آدم، وهم المؤمنونَ بالله.

وقوله: «وكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العَذَابُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكثيرٌ من بني آدم حَقَّ عليه عذابُ اللهِ، فوجبَ عليه بكُفْرِه به، وهو مع ذلك يسجدُ لله ظله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومن يُهِنْهُ اللهُ من خَلْقه فيُشْقِه «فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ» بالسعادةِ يسعده بها، لأنَّ الأمور كُلَّها بيدِ الله، يوفِّقُ مَنْ يشاءُ لطاعته، ويخذلُ من يشاءُ، ويُشْقِي من أرادَ، ويُسْعِدُ من أحبَّ.

وقوله: «إنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يَشَاءُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الله يفعل في خَلْقِه ما يشاءُ من إهانةِ مَن أرادَ إهانتَهُ، وإكرامِ مَنْ أرادَ كرامتَهُ، لأنَّ الخلق خلقه، والأمر أمره، «لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِي رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ

﴿كَفَرُوا۟ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ۝١٩ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ۝٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٍ ۝٢١ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخۡرُجُوا۟ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ۝٢٢﴾

اختلف أهلُ التأويل في المَعْنِيِّ بهذين الخصمين اللذين ذكرهما اللهُ، فقال بعضهم: أحدُ الفريقين: أهلُ الإيمان، والفريقُ الآخر: عَبَدَةُ الأوثان من مشركي قريش الذين تبارزوا يومَ بدر.

وقال آخرون: ممن قال أحدُ الفريقين فريقُ الإيمان: بل الفريق الآخرُ أهل الكتاب.

وقال آخرون منهم: بل الفريقُ الآخرُ الكفارُ كُلُّهم من أيِّ ملةٍ كانوا.

وقال آخرون: الخصمان اللذان ذكرهما الله في هذه الآية: الجنة والنار.

وأوْلى هذه الأقوال عندي بالصواب، وأشبهها بتأويلِ الآيةِ قولُ مَنْ قال: عَنَى بالخصمين جميعَ الكُفَّار من أي[1] أصنافِ الكفر كانوا، وجميعَ المؤمنين.

وإنما قلتُ ذلك أولى بالصواب، لأنه تعالى ذكره ذكر قبل ذلك صنفين من خَلْقِه: أحدهما أهلُ طاعةٍ له بالسجودِ له، والآخر: أهلُ معصيةٍ له، قد حقَّ عليه العذاب، فقال: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ في السَّمٰوَاتِ وَمَنْ في الأَرْضِ، والشَّمْسُ والقَمَـرُ»، ثم قال: «وَكَثِيرٌ مِنَ النَّـاسِ وكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العَـذَابُ»، ثم أَتْبَـعَ ذلـك صِفةَ الصنفينَ كِلَيْهِمَا وما هو فاعلٌ بهما، فقال: «فالذينَ كَفَرُوا قُطِّعتْ لَهُمْ ثيابٌ منْ نارٍ»، وقال الله: «إنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأنهارُ» فكان بَيِّناً بذلك أن ما بين ذلك خيرٌ عنهما.

---

(١) في المطبوع: «أن» ولا يستقيم بها المعنى.

فإنْ قال قائل: فما أنتَ قائلٌ فيما رُوِيَ عن أبي ذَرٍّ في قوله: «إنَّ ذَلكَ» نزلَ في الذين بارزوا يومَ بدر[٢]؟ قيل: ذلك إنْ شاء الله كما رُوِيَ عنه، ولكن الآية قد تنزلُ بسببٍ من الأسباب، ثم تكون عامةً في كُلِّ ما كان نظيرَ ذلك السبب، وهذه من تلك، وذلك أنَّ الذين تبارزوا إنما كان أحد الفريقين أهل شركٍ وكفرٍ بالله، والآخر أهل إيمانٍ بالله وطاعةٍ له، فكلُّ كافرٍ في حكم فريقِ الشركِ منهما في أنه لأهلِ الإيمانِ خَصْمٌ، وكذلك كُلُّ مؤمنٍ في حكمِ فريقِ الإيمان منهما في أنه لأهلِ الشركِ خصم.

فتأويل الكلام: هذان خصمان اختصموا في دين رَبِّهم، واختصامهم في ذلك معاداةُ كُلِّ فريقٍ منهما الفريقَ الآخر، ومحاربته إياه على دينه.

وقوله: «فالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فأما الكافرُ باللهِ منهما فإنه يُقْطَعُ له قميصٌ من نحاسٍ من نار.

وقوله: «يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رؤوسِهِمُ الحَمِيمُ»، يقولُ: يُصَبُّ على رؤوسهم ماءٌ مُغْلىً.

وقوله: «يُصْهَرُ بِهِ ما في بُطُونِهِمْ وَالجُلُودُ»، يقولُ: يُذَابُ بالحميم الذي يُصَبُّ من فوقِ رؤوسهم ما في بطونهم من الشحوم، وتُشْوَى جلودُهُم منه فتتساقط، والصهرُ: هو الإذابةُ، يقال منه: صهرتُ الألية بالنارِ: إذا أذبتها أصهرها صهراً.

وقوله: «ولَهُمْ مَقامعُ مِنْ حَدِيدٍ» تَضْرِبُ رؤوسَهُم بها الخزنةُ إذا أرادوا الخروجَ من النارِ حتى ترجعهم إليها.

---

(١) حديث متفق عليه: البخاري (٣٩٦٦) و(٣٩٦٨) و(٣٩٦٩) و(٤٧٤٣)، ومسلم (٣٠٣٣)، والذين بارزوا من المسلمينَ هم علي وحمزة وعَبيدة بن الحارث، ومن المشركينَ: شيبة بن ربيعة وعقبة بن ربيعة والوليد بن عتبة.

وقوله: «كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فيها»، يقولُ: كلما أراد هؤلاءِ الكفارُ الذين وصفَ اللهُ صِفَتَهُم الخروجَ من النار، مما نالهم من الغمِّ والكربِ، رُدُّوا إليها.

وعَنَى بقوله: «ذُوقُوا عَذَابَ الحَرِيق»، ويقال لهم: ذوقوا عذابَ النار، وقيل: «عذاب الحريق» والمَعْنَى: المُحْرِقُ، كما قيل: العذاب الأليم، بمعنى: المُؤلِمُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأما الذين آمنوا بالله ورسوله فأطاعوهما بما أمرهم اللهُ به من صالحِ الأعمالِ، فإنَّ الله يُدْخِلُهم جناتِ عدنٍ تجري من تحتها الأنهارُ، فيحلِّيهم فيها من أساورَ من ذهب ولؤلؤاً.

واختلفت القَرَأة في قراءة قوله: «وَلُؤْلُؤاً» فقرأته عامة قَرَأة أهلِ المدينة وبعض أهل الكوفة نصباً معَ التي في الملائكة، بمعنى: يُحَلَّون فيها أساورَ من ذهب ولؤلؤاً، عطفاً باللؤلؤ على موضعِ الأساور، لأن الأساورَ وإنْ كانت مخفوضةً من أجلِ دخول «مِن» فيها، فانها بمعنى النَّصب، قالوا: وهي تعدُّ في خط المصحف بالألف، فذلك دليلٌ على صحةِ القراءةِ بالنصبِ فيه. وقرأت ذلك عامة قَرَأةِ العراق والمِصْرَين «وَلُؤْلُؤٍ» خفضاً عطفاً على إعراب الأساور الظاهر.

واختلف الذين قرأوا ذلك كذلك في وجهِ إثباتِ الألفِ فيه، فكان أبو عَمرو بن العلاء فيما ذُكِرَ لي عنه يقولُ: أثبتت فيه كما أثبتت في قالوا، وكالوا. وكان الكسائي يقولُ: أثبتوها فيه للهمزة، لأن الهمزة حرف من الحروف.

والقول في ذلك عندي أنهما قراءتان مشهورتان، قد قرأ بكل واحدةٍ منهما علماء من القَرَأة، متفقتا المعنى، صحيحتا المخرج في العربية، فبأيتهما قرأ القارئُ فمصيبٌ.

وقوله: «وَلِبَاسُهُمْ فيها حَرِيرٌ»، يقولُ: ولبوسهم التي تَلِي أبشارَهُمْ فيها ثيابُ حريرٍ.

وقوله: «وَهُدُوا إلى الطَّيِّبِ مِنَ القَوْلِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وهداهم رَبُّهم في الدنيا إلى شهادةِ أنْ لا إله إلا الله.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين جحدوا توحيدَ اللهِ، وكذَّبُوا رُسُلَهُ، وأنكروا ما جاءَهُم به من عنـد رَبِّهم، «ويصـدُّونَ عن سبيلِ الله»، يقولُ: ويمنعون الناسَ عن دينِ الله أنْ يدخلُوا فيه، وعن المسجد الحرام الذي جعله اللهُ للناسِ الـذين آمنـوا به كافةً لم يخصص منها بعضاً دون بعضٍ «سَوَاءً العاكِفُ فِيهِ والبادِ»، يقولُ: معتدلٌ في الواجب عليه ـ من تعظيمِ حُرْمَةِ المسجدِ الحرام، وقضاء نُسُكه به، والنزولِ فيه، حيث شاءَ ـ العاكفُ فيه، وهو المقيمُ به؛ والباد: وهو المنتابُ إليه من غيره.

وقوله: «وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أليمٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ومن يُرِدْ فيه إلحاداً بظلمٍ نذقه من عذابٍ أليم، وهو أنْ يميلَ في البيتِ الحرام بظلم.

واختلف أهلُ التأويل في معنى الظلم الذي مَنْ أرادَ الإلحادَ به في المسجد الحرام، أذاقه اللهُ من العذابِ الأليم، فقال بعضهم: ذلك هو الشركُ بالله وعبادةُ غيرِه به: أي بالبيت.

وقال آخرون: هو استحلالُ الحرامِ فيه أو ركوبه.

وقال آخرون: بل معنى ذلك الظلم: استحلالُ الحرم متعمِّداً.

وقال آخرون: بل ذلك احتكارُ الطعامِ بمكة.

وقال آخرون: بل ذلك كُلُّ ما كان منهياً عنه من الفعلِ، حتى قول القائل: لا والله، وبلى والله.

وأوْلى الأقوالِ التي ذكرناها في تأويل ذلك بالصوابِ قولُ مَنْ قال: إنه كُلُّ معصيةٍ لله، وذلك أن الله عَمَّ بقوله: «وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بإلْحادٍ بظُلْمٍ» ولم يخصص به ظلم دون ظلم في خَبَرٍ ولا عَقْلٍ، فهو على عمومِه. فإذْ كان ذلك كذلك، فتأويلُ الكلام: ومَنْ يُرِدْ في المسجدِ الحرامِ بأنْ يميلَ بظلمٍ، فيعصِي اللهَ فيه، نُذِقْهُ يومَ القيامة من عذابٍ موجعٍ له.

القَوْلُ في تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ، مُعْلِمَهُ عظيمَ ما رَكِبَ قومُه من قريش

خاصةً دون غيرهم من سائر خَلْقِه بعبادتهم في حرمه، والبيت الذي أمر إبراهيم خليله ﷺ ببنائه وتطهيره من الآفاتِ والرِّيَبِ والشرك: واذكر يا محمدُ كيف ابتدأنا هذا البيتَ الذي يعبدُ قومُكَ فيه غيري، إذ بَوَّأْنا لخليلنا إبراهيم، يعني بقوله: بوأنا: وَطَّأنا له مكانَ البيت.

ويعني بالبيت: الكعبة. «أنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً» في عبادتك إيايَ، «وَطَهِّرْ بَيْتِيَ» الذي بنيته من عبادةِ الأوثان.

وقوله: «للطَّائِفِينَ»، يعني للطائفين به. «والقائمينَ»، بمعنى: المصلين الذين هُمْ قيامٌ في صلاتهم.

وقوله: «وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ»، يقولُ: والركع السجود في صلاتِهم حولَ البيت.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: عَهِدْنَا إليه أيضاً أنْ أذِّنْ في الناسِ بالحجِّ، يعني بقوله: «وأذِّنْ»: أعْلِم ونادِ في الناسِ أنْ حُجُّوا أيها الناسُ بيتَ الله الحرام. «يَأْتُوكَ رِجالًا»، يقولُ: فإنَّ الناسَ يأتونَ البيتَ الذي تأمرهم بحجِّه مُشاةً على أرجلهم، «وَعَلى كُلِّ ضَامِرٍ»، يقولُ: وركباناً على كُلِّ ضامرٍ، وهي الإبلُ المهازيلُ «يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ» يقولُ: تأتي هذه الضوامرُ من كُلِّ فَجٍّ عميق، يقولُ: من كُلِّ طريقٍ ومكانٍ ومسلكٍ بعيد.

وذُكِرَ أنَّ إبراهيمَ صلواتُ الله عليه لما أمره الله بالتأذينِ بالحجِّ، قام على مقامهِ فنادى: يا أيها الناسُ إنَّ الله كتب عليكم الحجَّ فحجُّوا بيته العتيق.

وقوله: «لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ»، اختلف أهلُ التأويل في معنى المنافع التي ذكرها الله في هذا الموضع فقال بعضهم: هي التجارة ومنافع الدنيا.

وقال آخرون: هي الأَجْرُ في الآخرة، والتجارة في الدنيا.

وقال آخرون: بل هي العفو والمغفرة.

وأوْلى الأقوالِ بالصواب قولُ من قال: عنى بذلك: ليشهدوا منافعَ لهم من العملِ الذي يرضي الله والتجارة، وذلك أنَّ الله عَمَّ لهم منافعَ جميعِ ما يَشْهَد له الموسم، ويأتي له مكة أيامَ الموسم من منافعِ الدنيا والآخرة، ولم يخصص من ذلك شيئاً من منافعهم بخبرٍ ولا عقلٍ، فذلك على العمومِ في المنافعِ التي وصفت.

وقوله: «وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ في أيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِن بَهِيمَةِ الأنْعامِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكي يَذْكُروا اسمَ الله على ما رزقهم من الهدايا والبُـدْن التي أهدوها من الإبلِ والبقر والغنم، في أيامٍ معلومات، وهُنَّ أيامُ التشريق في قولِ بعضِ أهل التأويل. وفي قول بعضهم أيام العَشْر. وفي قول بعضهم: يوم النحر وأيام التشريق.

وقد ذكرنا اختلافَ أهلِ التأويل في ذلك، وبيَّنا الأوْلى بالصوابِ منها في سورة البقرة، فأغنى ذلك عن إعادته في هذا الموضع.

وقوله: «فَكُلُوا مِنْهَا»، يقولُ: كُلُوا من بهائمِ الأنعامِ التي ذكرتم اسمَ الله عليها أيها الناسُ هنالك، وهذا الأمرُ من الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ أمرُ إباحةٍ لا أمرُ إيجابٍ، وذلك أنه لا خلافَ بين جميع الحُجَّةِ أنَّ ذابحَ هَدْيِهِ أو بُدْنَتِهِ هنالك، إنْ لم يأكل من هديه أو بدنته، أنه لم يضيع له فرضاً كان واجباً عليه، فكان معلوماً

بذلك أنه غير واجب.

وقوله: «وأطْعِمُوا البائِسَ الفَقِيرَ»، يقولُ: وأطعموا مِمَّا تذبحونَ أو تنحرون هنالك من بهيمةِ الأنعام، من هَدْيِكُمْ وبُدْنِكم البائسَ، وهو الذي به ضرٌّ الجوعِ والزمانةِ والحاجة، والفقير: الذي لا شيءَ له.

وقوله: «ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ»، يقولُ تعالى ذِكْرُه: ثم ليقضوا ما عليهم من مناسكِ حَجِّهم: من حلقِ شعرٍ، وأخذِ شاربٍ، ورمي جمرةٍ، وطوافٍ بالبيت.

وقوله: «وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ»، يقولُ: وليوفوا الله بما نَذَرُوا من هَدْيٍ وبدنة وغير ذلك.

وقوله: «وَلْيَطَّوَّفُوا بالبَيْتِ العَتيقِ»، يقولُ: وليطَّوَّفُوا ببيتِ الله الحرام.

واختلف أهلُ التأويل في معنى قوله: «العَتِيق» في هذا الموضع، فقال بعضهم: قيل ذلك لبيتِ الله الحرام، لأنَّ الله اعتقه من الجبابرةِ أنْ يَصِلُوا إلى تخريبه وهدمه.

وقال آخرون: قيل له عتيق، لأنه لم يملكه أحدٌ من الناس.

وقال آخرون: سمي بذلك لِقِدَمِهِ، (وهو قول ابن زيد).

ولكل هذه الأقوال التي ذكرناها في قوله: «البَيْتِ العَتِيقِ» وجهٌ صحيح، غير أنَّ الذي قاله ابن زيد أغلب معانيه عليه في الظاهر، غير أن الذي رُوي عن عبدالله بن الزبير أوْلى بالصحة، قال: قال رسول الله ﷺ «إنَّما سُمِّيَ البَيْتِ العَتِيقَ لأنَّ اللهَ أعْتَقَهُ مِنَ الجَبابرَةِ فَلَمْ يَظْهَرْ عَلَيْه قَطُّ صَحِيحاً»[1].

(١) أخرجه المؤلف، والترمذي (٣١٧٠)، وقال: حسن صحيح، وقد روي هذا الحديث عن الزهري عن النبي ﷺ، مرسلاً. قلنا: وساقه الطبري من رواية ابن جريج عن الزهري، وساقه الترمذي من رواية عُقيل عن الزهري. وفي رواية الترمذي: لم يظهر عليه جبار.

وعنى بالطوافِ الذي أمر جَلَّ ثَناؤُهُ حاجَّ بيتهِ العتيقِ به في هذه الآية طوافَ الإفاضة الذي يُطاف به بعد التعريف، إما يوم النحر. وإما بعده، لا خلافَ بين أهلِ التأويلِ في ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «ذلكَ»: هذا الذي أمر به من قضاء التَّفَث، والوفاء بالنذور، والطواف بالبيتِ العتيق هو الفرضُ الواجبُ عليكم يا أيها الناسُ في حجكم. «وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّه»، يقولُ: ومن يجتنبْ ما أمرهُ اللهُ باجتنابه في حالِ إحرامهِ تعظيماً منه لحدود اللهِ أنْ يُواقِعَها وحُرَمهُ أنْ يستحلَّها، فهو خيرٌ له عند ربه في الآخرة.

وقولـه: «وأُحِلَّتْ لَكُم الأَنْعامُ»، يقول جَلَّ ثناؤُه: وأحلَّ اللهُ لكم أيها النـاسُ الأنعـامَ، أنْ تأكلوها إذا ذكَّيْتُموها، فلم يحرِّم عليكم منها بَحيرةً، ولا سائبـةً، ولا وَصِيلةً، ولا حامـاً، ولا ما جعلتمـوهُ منها لآلهتكم «إلاَّ ما يُتْلَى عَلَيْكُمْ»، يقولُ: إلا ما يُتْلَى عليكم في كتابِ الله، وذلك: الميتة، والدَّم، ولحم الخنـزير، ومـا أُهِـلَّ لغيرِ الله به، والمنخنقـة، والموقوذة ، والمتردِّية، والنطيحة، وما أكل السبع، وما ذُبح على النُّصب، فإنَّ ذلك كله رِجْسٌ.

وقوله: «فاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثانِ»، يقولُ: فاتقوا عبادَةَ الأوثانِ، وطاعةَ الشيطانِ في عبادتها فإنها رجسٌ.

وقـولـه: «وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: واتقوا قولَ الكذبِ والفِـرية على الله بقـولكم في الآلهة «ما نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونا إلى اللهِ زُلْفَى»

وقولكم للملائكة: هي بنات الله، ونحو ذلك من القولِ، فإنَّ ذلك كذبٌ وزور، وشرك بالله.

فإنْ قال قائل: وهل من الأوثانِ ما ليس برجسٍ، حتى قيل: فاجتنبوا الرجسَ منها؟ قيل: كُلُّها رِجْسٌ، وليس المعنى ما ذهبت إليه في ذلك. وإنما معنى الكلام: فاجتنبوا الرجسَ الذي يكونُ من الأوثانِ أي عبادتها، فالذي أمر جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقوله: «فاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ» منها اتقاء عبادتها، وتلك العبادة هي الرجس.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: اجتنبوا أيها الناسُ عبادةَ الأوثانِ، وقولَ الشرك، مستقيمينَ لله على إخلاصِ التوحيدِ له، وإفراد الطاعةِ والعبادةِ له خالصاً دونَ الأوثانِ والأصنام، غيرَ مشركينَ به شيئاً من دونه، فإنه مَنْ يُشركْ بالله شيئاً من دونه، فمثله في بُعْدِهِ من الهدى وإصابةِ الحقِّ وهلاكه وذهابه عن ربه، مَثَلُ مَنْ خَرَّ من السماء، فَتَخْطَفُه الطيرُ، فهلكَ، أو هَوَتْ به الريحُ في مكانٍ سحيق، يعني من بعيد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الذي ذكرتُ لكم أيها الناسُ، وأمرتُكم به من اجتنابِ الرجسِ من الأوثان، واجتناب قولِ الزور، حنفاءَ لله، وتعظيم شعائر

الله، وهو استحسانُ البُدْنِ واسْتِسْمَانُها، وأداء مناسك الحجِّ على ما أمرَ اللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ، من تقوى قلوبكم.

وأوْلى الأقـوال في معنى تقوى القلوب أن يقال: إن الله تعالى ذِكْرُه، أخبر أنَّ تعظيمَ شعائرِه، وهي ما جعله أعلاماً لخلقه فيما تَعَبَّدَهُمْ به من مناسكِ حَجِّهم من الأماكن التي أمرهم بأداء ما افترض عليهم منها عندها والأعمال التي ألزمهم عملها في حَجِّهم من تقوى قلوبهم، لم يخصص من ذلك شيئاً، فتعظيمُ كلِّ ذلك من تقوى القلوب، كما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ، وحقّ على عبادِه المؤمنينَ به تعظيم جميع ذلك، وقال: «إنَّها مِنْ تَقْوَى القُلُوبِ» وأنَّثَ، ولم يقل: فإنه، لأنه أُريدَ بذلـك: فإنَّ تلك التعـظيمـةَ مع اجتنابِ الرجس من الأوثانِ من تقوى القلوب، كما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «إنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ». وعَنَى بقوله «فإنَّها مِنْ تَقْوَى القُلُوب» فإنها من وَجَلِ القلوبِ من خشيةِ الله وحقيقةِ معرفتها بعظمتِه وإخلاصِ توحيده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ۝٣٣﴾

اختلف أهلُ التأويل في معنى المنافع التي ذكر الله في هذه الآية، وأخبر عباده أنها إلى أجل مسمى، على نحوِ اختلافهم في معنى الشعائر التي ذكرها جَلَّ ثَنَاؤُهُ، في قوله: «وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللهِ فإنَّهَا مِنْ تَقْوَى القُلُوبِ» فقال: الـذين قالـوا عنى بالشعائر: البُدْن، معنى ذلك: لكم أيها الناسُ في البُدْنِ منافعُ. ثم اختلف أيضاً الذين قالوا هذه المقالة في الحال التي لهم فيها منافع، وفي الأجل الذي قال عزَّ ذِكْرُه «إلى أجَل مُسَمًّى» فقال بعضهم: الحال التي أخبر الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ أنَّ لهم فيها منافع، هي الحال التي لم يوجبها صاحبها ولم يُسَمِّها بُدْنَةً ولم يقلدها. قالوا: ومنافعها في هذه الحال: شربُ ألبانها، وركوبُ

ظهـورها، وما يرزقهم الله من نِتاجها وأولادها. قالوا: والأجلُ المسمى الذي أخبر جَلَّ ثَنَاؤُهُ أنَّ ذلك لعبادِه المؤمنينَ منها إليه، هو إلى إيجابهم إياها، فإذا أوجبوها بطل ذلك، ولم يكن لهم من ذلك شيء.

وقال آخرون ممن قال: الشعائر: البدن في قوله: «وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ الله فإنَّها مِنْ تَقْوَى القُلُوب» والهاء في قوله: «لَكُمْ فِيها» من ذِكْرِ الشعائر، ومعنى قولـه: «لَكُمْ فِيهـا مَنـافـعُ»: لكم في الشعـائرِ التي تعظمونها لله منافع بعد اتخاذِكُمُوها لله بُدْناً أو هدايا، بأنْ تركبوا ظهورها إذا احتجتم إلى ذلك، وتشربوا ألبانَها إن اضطررتم إليها. قالوا: والأجلُ المسمى الذي قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ «إلى أَجَل مُسَمًّى» إلى أنْ تُنْحَرَ.

وأما الذين قالوا: معنى الشعائر في قوله: «وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ الله»: شعائر الحـجّ، وهي الأماكن التي يُنْسَكُ عندها للهِ، فإنهم اختلفوا أيضاً في معنى المنافع التي قال الله: «لكُمْ فِيها مَنافِعُ» فقال بعضهم: معنى ذلك: لكم في هذه الشعـائـر التي تُعَـظِّمُـونَهـا منـافـعُ بتجـارتكم عندها، وبيعكم وشرائكم بحضرتها، وتَسَوُّقِكُم. والأجل المسمى: الخروج من الشعائر إلى غيرها، ومن المواضع التي يُنْسَكُ عندها إلى ما سواها في قول بعضهم.

وقال آخرون منهم: المنافع التي ذكرها الله في هذا الموضع: العملُ لله بما أمر من مناسكِ الحجّ. قالوا: والأجل المسمَّى: هو انقضاءُ أيام الحجِّ التي يُنْسَكُ لله فيهنّ.

وقد دَلَّلنا قَبْلُ على أنَّ قولَ الله تعالى ذِكْرُه: «وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللهِ» معنيٌّ به: كلُّ ما كانَ من عملٍ أو مكانٍ جعله الله عَلماً لمناسكِ حجِّ خَلْقِه، إذ لم يخصص من ذلـك جَلَّ ثَنَاؤُهُ شيئاً في خبرٍ ولا عَقْلٍ. وإذ كان ذلك كذلك فمعلوم أن معنى قوله: «لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إلى أَجَلٍ مُسَمًّى»: في هذه الشعائر منافع إلى أجل مسمى، فما كان من هذه الشعائر بدناً وهدياً، فمنافعها لكم

من حين تملكون، إلى أنْ أوجبتموها هدايا وبدناً وما كان منها أماكن يُنْسَك لله عندها، فمنافعها: التجارة لله عندها، والعمل بما أمر به إلى الشخوص عنها، وما كان منها أوقاتاً بأن يُطاعَ اللهُ فيها بعملِ أعمالِ الحجِّ وبطلبِ المعاشِ فيها بالتجارةِ، إلى أن يُطَافَ بالبيتِ في بعض، أو يوافي الحَرَمَ في بعض، ويخرج عن الحرم في بعض.

وقد اختلف الذين ذكرنا اختلافهم في تأويل قوله: «لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إلى أجَلٍ مُسَمًّى» في تأويل قوله: «ثُمَّ مَحِلُّها إلى البَيْتِ العَتِيقِ» فقال الذين قالوا: عَنَى بالشعائر في هذا الموضع: البُدْن، معنى ذلك: ثم مَحِل البُدْن إلى أن تبلغَ مكةَ، وهي التي بها البيت العتيق.

وقال آخرون: معنى ذلك: ثم محلكم أيها الناسُ من مناسكِ حجكم إلى البيتِ العتيق أنْ تطوفوا به يومَ النحرِ بعد قضائِكم ما أوجبهُ اللهُ عليكم في حجكم.

وقال آخرون: معنى ذلك: ثم مَحِلُّ منافعِ أيامِ الحجِّ إلى البيتِ العتيق بانقضائها.

وأوْلى هذه الأقوالِ عندي بالصواب. قولُ من قال: معنى ذلك: ثم محلُّ الشعائرِ التي لكم فيها منافعُ إلى أجلٍ مسمى إلى البيتِ العتيق، فما كان من ذلك هدياً أو بُدْناً، فبموافاتهِ الحرمَ في الحرم، وما كان من نُسكٍ، فالطواف بالبيت.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: «وَلِكُلِّ أُمَّةٍ»، ولكلِّ جماعةٍ سلف فيكم من أهلِ الإيمانِ باللهِ أيها الناسُ جعلنا ذبحاً يُهرقونَ دَمَهُ. «لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعامِ» بذلك لأنَّ من البهائم ما ليسَ من الأنعام، كالخيلِ والبغالِ والحمير. وقيل: إنما قيلَ للبهائمِ بهائم، لأنها لا تتكلمُ.

وقـولـه: «فَـإِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فاجتنبوا الرجسَ من الأوثانِ، واجتنبوا قولَ الزور، فإلهكم إلهٌ واحدٌ، لا شريكَ له، فإياهُ فاعبدوا، وله أخلصوا الألوهةَ.

وقـولـه: «فَلَهُ أَسْلِمُـوا»، يقولُ: فلإِلٰهِكُمْ فاخْضَعُوا بالطاعةِ، وله فَذلُّوا بالإقرارِ بالعبودية.

وقوله: «وَبَشِّرِ المُخْبِتِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وبشر يا محمدُ، الخاضعينَ للهِ بالطاعةِ، المذعنينَ له بالعبوديةِ، المنيبينَ إليه بالتوبةِ، وقد بيَّنا معنى الإخباتِ فيما مضى من كتابنا هذا[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣٥﴾

فهذا من نعتِ المخبتين، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وبَشِّرْ يا محمدُ المُخْبتينَ الذين تخشعُ قلوبُهم لذكرِ الله، وتخضع من خشيته وَجَلاً من عقابِهِ، وخوفاً من سخطه. «والصَّابِرِينَ عَلى ما أَصَابَهُمْ» من شِدَّةٍ في أمرِ الله، ونالهم من مكروهٍ في جنبه، «والمُقِيمِي الصَّلاةِ» المفروضة، «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ» من الأموالِ «يُنْفِقُونَ» في الواجبِ عليهم إنفاقها فيه في زكاةٍ، ونفقةِ عيالٍ، ومَنْ وجبت عليه نفقته، وفي سبيل الله.

---

(١) انظر تفسير الآية ٢٣ من سورة هود.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والبُدْن: وهي جمع بَدَنَة، وقد يقال لواحدها: بَدَن، وإذا قيل بُدْن احتمل أن يكون جمعاً وواحداً.

والبَـدنُ: هو الضخمُ من كلِّ شيءٍ، ولـذلك قيل لامرىء القيسِ بن النعمـان صاحبِ الخـورنق والسـدير، البَدن: لضخمه واسترخاءِ لحمه، فإنه يقـال: قد بَدَّنَ تبـديناً. فمعنى الكـلام: والإبل العظام الأجسام الضخام، جعلناها لكم أيها الناسُ من شعائرِ الله، يقولُ: من أعلامِ أمرِ الله الذي أمركم به في مناسك حجكم إذا قلدتموها وجَلَّلْتُموها وأشْعَرْتُموها علم بذلك، وشعرَ أنكم فعلتم ذلك من الإبلِ والبقر.

وقوله: «لَكُمْ فِيها خَيْرٌ»، يقولُ: لكم في البُدْن خير، وذلك الخيرُ هو الأجرُ في الآخرةِ بنحرها والصدقةِ بها، وفي الدنيا: الركوب إذا احتاج إلى ركوبها.

وقوله: «فاذْكُرُوا اسْمَ الله عَلَيْهَا صَوَافَّ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فاذكروا اسمَ اللهِ على البُدْن عند نحركم إياها صَوَافّ، بمعنى مُصْطَفَّة، واحدها صافة، يقولُ: مصطفة بين أيديها، معقولة إحدى قوائمها.

وقوله: «فإذَا وَجَبَتْ جُنُوبُها»، يقولُ: فإذا سقطتْ فوقعتْ جنوبُهَا إلى الأرضِ بعد النَّحْرِ، «فَكُلُوا مِنْها» وهو من قولهم: قد وجبت الشمس: إذا غابت فسقطت للتغيب.

وقوله: «فَكُلُوا مِنْها» وهذا مخرجهُ مخرجُ الأمر، ومعناه: الإباحةُ، والإطلاقُ، يقول الله: فإذا نحرت فسقطت ميتةً بعد النحرِ، فقد حَلَّ لكم أكلها، وليس بأمرِ إيجابٍ.

وقوله: «وأَطْعِمُوا القانعَ والمُعْتَرَّ»، يقولُ: فأطعموا منها القانع.

واختلف أهلُ التأويل في المعنيِّ بالقانع والمعترِّ، فقال بعضهم: القانع: الذي يقنع بما أُعْطِيَ أو بما عنده ولا يسأل، والمعترُّ: الذي يتعرّضُ لك أن تطعمه من اللحم ولا يسأل.

وقال آخرون: القانع: الذي يقنع بما عنده، ولا يسأل؛ والمعترّ: الذي يعتريك فيسألك.

وقال آخرون: القانع: هو السائلُ، والمعترُّ: هو الذي يعتريك ولا يسأل.

وقال آخرون: القانع: الجار، والمعترّ: الذي يعتريك من الناس.

وقال آخرون: القانع: الطوَّافُ. والمعترُّ: الصديقُ الزائر.

وقال آخرون: القانع: هو المسكينُ، والمعترُّ: الذي يتعرَّضُ للحم.

وقال آخرون: القانع: الطامعُ، والمعترُّ: الذي يعترُّ بالبدن.

وقال آخرون: القانع: الذي يقنع، والمعترُّ: الذي يعتريك.

وأَوْلى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: عَنَى بالقانع: السائل، لأنه لو كان المعنيُّ بالقانعِ في هذا الموضع، المكتفي بما عنده، والمستغني به، لقيل: وأطعموا القانع والسائل، ولم يقل: وأطعموا القانع والمعترَّ، وفي إتباع ذلك قوله: والمعترَّ، الدليلُ الواضحُ على أنَّ القانعَ معنيٌّ به السائل من قولهم: قنع فلان إلى فلان، بمعنى سأله وخضع إليه، فهو يقنع قنوعاً.

وأما القانع الذي هو بمعنى المكتفي، فإنه من قَنِعتُ بكسر النون أقنعُ

قناعةً وقنعاً وقنعاناً. وأما المعترّ: فإنه الذي يأتيكَ معترّاً بك لتعطيه وتطعمه.

وقوله: «كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ»، يقولُ: هكذا سخرنا البُدْن لكم أيها الناسُ «لَعَلَّكُمْ تَشْكُرونَ»، يقولُ: لتشكروني على تسخيرها لكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لم يصل إلى الله لحوم بدنكم ولا دماؤها، ولكن ينالُه اتقاؤكم إياه إنِ اتقيتمُوه فيها فأردتم بها وَجْهَهُ، وعملتم فيها بما نَدَبَكُمْ إليه، وأمركم به في أمرها، وعظمتم بها حرماته.

وقوله: «كَذلكَ سَخَّرَها لَكُمْ»، يقولُ: هكذا سَخَّرَ لكم البُدن «لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلى ما هَداكُمْ»، يقولُ: كي تُعَظِّمُوا الله على ما هداكم، يعني: على توفيقهِ إياكم لدينهِ، وللنُّسُكِ في حَجِّكم. «وَبَشِّرِ المُحْسِنِينَ»، يقولُ: وبَشِّرْ يا محمدُ الذين أطاعوا الله فأحسنوا في طاعتهم إياه في الدنيا بالجنةِ في الآخرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الله يدفعُ غائلةَ المشركينَ عن الذين آمنوا بالله وبرسوله، إنَّ الله لا يحبُّ كلَّ خَوَّانٍ يخونُ الله، فيخالف أمره ونهيه ويعصيه، ويطيعُ الشيطانَ «كَفُورٍ»، يقولُ: جَحُودٍ لِنِعَمِه عنده، لا يعرف لمنعمها حَقَّهُ، فيشكره عليها.

وقيل: إنه عَنَى بذلك: دفع الله كفار قريش عَمَّنْ كان بين أظهرهم من المؤمنينَ قبل هِجْرَتِهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أَذِنَ اللهُ للمؤمنينَ الذين يقاتلون المشركينَ في سبيلِه بأنَّ المشركينَ ظلموهم بقتالِهم.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك، فقرأته عامة قَرَأَةِ المدينة «أُذِنَ» بضم الألف «يُقاتَلُونَ» بفتح التاء بترك تسميةِ الفاعل، في أُذِنَ ويُقاتَلُونَ جميعاً. وقرأ ذلك بعض الكوفيين وعامة قَرَأَةِ البصرة «أُذِنَ» بترك تسمية الفاعل و«يُقاتِلُونَ» بكسر التاء، بمعنى يقاتل المأذون لهم في القتال المشركينَ. وقرأ ذلك عامة قَرَأَة الكوفيين وبعض المكيين «أَذِنَ» بفتح الألف، بمعنى: أَذِنَ اللهُ، و«يُقاتِلُونَ» بكسر التاء، بمعنى: إن الذين أَذِنَ اللهُ لهم بالقتال، يقاتلون المشركينَ.

وهذه القراءاتُ الثلاث متقاربات المعنى، لأنَّ الذين قرأوا أُذِنَ على وجه ما لم يُسَمَّ فاعلُه يرجع معناه في التأويل إلى معنى قراءة مَنْ قرأهْ على وجه ما سُمي فاعله - وإنَّ من قرأ يُقاتِلونَ، ويُقاتَلُونَ بالكسر أو الفتح، فقريب معنى أحدهما من معنى الآخر - وذلك أنَّ مَنْ قاتل إنساناً، فالذي قاتله له مقاتِلٌ، وكُلُّ واحدٍ منهما مقاتل. فإذْ كان ذلك كذلك فبأيةِ هذه القراءاتِ قرأ القارىءُ فمصيبٌ الصوابَ.

غير أن أَحَبَّ ذلك إليَّ، أنْ أقرأ به أَذِنَ بفتح الألف، بمعنى: أَذِنَ اللهُ، لِقُرْبِ ذلك من قولِه «إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ» أَذِنَ اللهُ في الذين لا يحبهم للذين يقـاتلونهم بقتـالهم، فيردّ أذِنَ على قوله: «إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ»،

وكذلك أَحَبُّ القراءاتِ إليَّ في يُقاتِلُونَ كسر التاء؛ بمعنى: الذين يقاتِلُونَ مَن قد أخبر الله عنهم أنه لا يحبهم، فيكون الكلام متصلاً معنًى بعضِه ببعضٍ.

وقوله: «وإنَّ اللهَ على نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ»، يقول جَلَّ ثناؤه: وإنَّ الله على نصرِ المؤمنينَ الذين يقاتلون في سبيلِ الله لقادرٌ، وقد نصرهم فأعزَّهُمْ ورفعهم، وأهلك عَدُوَّهُمْ، وأذلهم بأيديهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أُذِنَ للذين يقاتلُون «الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ»، فالذين الثانية رَدٌّ على الذين الأولى، وعَنَى بالمُخْرَجِينَ من دُورِهم: المؤمنينَ الذين أخرجهم كفارُ قريش من مكة، وكان إخراجهم إياهم من دُورِهم وتعذيبهم بعضهم على الإيمانِ بالله ورسوله، وسَبِّهم بعضهم بألسنتهم ووعيدهم إياهم، حتى اضطرُّوهم إلى الخروجِ عنهم، وكان فِعْلُهم ذلك بهم بغير حقٍّ، لأنهم كانوا على باطلٍ، والمؤمنونَ على الحقِّ، فلذلك قال جَلَّ ثَناؤُهُ: «الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ».

وقوله: «إلَّا أنْ يَقُولُوا رَبُّنا اللهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لم يُخْرَجُوا من ديارهم إلا بقولهم: رَبُّنا الله وحده لا شريكَ له، فأن في موضع خفض ردّاً على الباء في قوله: «بِغَيْرِ حَقٍّ»، وقد يجوز أن تكون في موضع نصب على وجه الاستثناء.

وقوله: «وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ»، اختلف أهلُ التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: ولولا دفعُ الله المشركينَ بالمسلمينَ.

وقال آخرون: معنى ذلك: ولولا القتالُ والجهادُ في سبيل الله.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ولولا دفعُ الله بأصحابِ رسولِ الله ﷺ عَمَّنْ بَعْدَهم من التابعين.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: لولا أنَّ الله يدفعُ بمن أوجبَ قبولَ شهادتِه في الحقوق، تكون لبعض الناسِ على بعض، عمن لا يجوزُ قبولُ شهادتِه وغيره، فأحيا بذلك مالَ هذا، ويُوقَى بسببِ هذا إراقة دم هذا، وتركوا المظالم من أجلِهِ لتظالمَ الناسُ، فَهُدِّمَتْ صوامع.

وأَوْلى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذِكْرُه، أخبر أنه لولا دفاعه الناسَ بعضَهم ببعضٍ، لهُدم ما ذكر، من دفعهِ تعالى ذِكْرُه بعضَهم ببعضٍ، وكَفِّهِ المشركينَ بالمسلمينَ عن ذلك؛ ومنه كفه ببعضهم التظالُمَ، كالسلطانِ الذي كفَّ به رعيته عن التظالمِ بينهم؛ ومنه كفُّه لمن أجاز شهادته بينهم ببعضهم عن الذهاب بحقِّ مَنْ له قِبَله حَقٌّ ونحو ذلك، وكلُّ ذلك دفع منه الناسَ بعضهم عن بعض لولا ذلك لتظالموا، فهدَم القاهرون صوامعَ المقهورين وَبِيَعهم، وما سَمَّى جَلَّ ثَنَاؤُهُ، ولم يضعِ اللهُ تعالى دلالة في عَقْلٍ، على أنه عَنَى من ذلك بعضاً دون بعض، ولا جاء بأنَّ ذلك كذلك خبرٌ يجبُ التسليمُ له، فذلك على الظاهرِ والعمومِ على ما قد بيَّنه قَبْلُ لعمومِ ظاهرِ ذلك جميع ما ذكرنا.

وقوله: «لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ»، اختلف أهلُ التأويل في المعنيِّ بالصوامع، فقال بعضهم: عَنَى بها صوامع الرهبان.

وقال آخرون: بل هي صوامع الصابئين.

وأما قوله: «وَبِيَعٌ»، فإنه يعني بها: بيع النصارى.

قوله: «وَصَلَوَاتٌ»، اختلف أهلُ التأويل في معناه، فقال بعضهم: عنى بالصلوات: الكنائس.

وقال آخرون: عنى بالصلوات مساجدَ الصابئين.

وقال آخرون: هي مساجد للمسلمين ولأهلِ الكتابِ بالطرق.

وقوله: «وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيها اسْمُ اللهِ كَثِيراً»، اخْتُلِفَ في المساجد التي أُريدت بهذا القولِ، فقال بعضهم: أريد بذلك مساجد المسلمينَ.

وقال آخرون: عنى بقوله: «وَمَسَاجِدُ»: الصوامع والبيع والصلوات.

وأَوْلى هذه الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك: لَهُدِّمَتْ صوامعُ الرهبان: وبِيَعُ النصارى، وصلواتُ اليهود، وهي كنائسهم، ومساجد المسلمين التي يُذْكَرُ فيها اسمُ الله كثيراً.

وإنما قلنا هذا القول أولى بتأويل ذلك، لأنَّ ذلك هو المعروف في كلام العرب المستفيض فيهم، وما خالفه من القولِ، وإنْ كان له وجهٌ فغيرُ مستعمل فيما وَجَّهَهُ إليه مَنْ وجهه إليه.

وقوله: «وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وليعيننَّ اللهُ مَنْ يقاتلُ في سبيله، لتكون كلمته العليا على عدوِّهِ، فَنَصْرُ الله عبدَهُ: معونته إياه، ونَصْرُ العبدِ رَبَّهُ: جهادُه في سبيله لتكون كلمته العليا.

وقوله: «إنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إن الله لقويٌّ على نَصْرِ مَنْ جاهد في سبيله من أهلِ ولايته وطاعته، عزيزٌ في مُلْكه، يقولُ: منيعٌ في سلطانه، لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يقول تعالى ذِكْرُه: «أُذِنَ للذين يقاتلون بأنهم ظلموا»، «الذين إن مكَّناهم في الأرض، أقامُوا الصلاةَ»، والذين ههنا ردٌّ على الذين يقاتلون. ويعني بقوله: «إنْ مَكَّنَّاهُمْ في الأَرْضِ»: إن وَطَّنَّا لهم في البلاد. فقهروا المشركينَ، وغلبوهم عليها، وهم أصحابُ رسولِ الله ﷺ، يقولُ: إنْ نصرناهم على أعدائهم، وقهروا مشركي مكة، أطاعوا اللهَ، فأقاموا الصلاةَ بحدودها، وآتوا الزكاةَ: يقول: وأعطوا زكاةَ أموالِهم مَنْ جعلها اللهُ له، «وأمَرُوا بالمَعْرُوفِ»، يقولُ: ودعوا الناسَ إلى توحيدِ الله، والعملِ بطاعته وما يعرفه أهلُ الإيمان بالله، «ونَهَوْا عَنِ المُنْكَرِ»، يقولُ: ونهوا عن الشركِ بالله، والعملِ بمعاصيه، الذي ينكره أهلُ الحقِّ والإيمانِ بالله. «ولله عاقِبَةُ الأُمُورِ»، يقولُ: ولله آخر أمورِ الخَلْقِ، يعني: أنَّ إليه مصيرها في الثوابِ عليها، والعقاب في الدار الآخرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مُسَلِّياً نبيهُ محمداً ﷺ عما يناله من أذى المشركينَ بالله، وحاضًاً له على الصبرِ على ما يلحقه منهم من السَّبِّ والتكذيب: وإنْ يُكَذِّبُكَ يا محمدُ هؤلاءِ المشركونَ بالله على ما أتيتَهم به من الحقِّ والبرهان، وما تَعِدُهُمْ من العذابِ على كفرهم بالله، فذلك سُنَّةُ إخوانهم من الأممِ الخالية

المكذِّبةِ رُسُلَ الله، المشركةِ بالله، ومنهاجهم من قبلهم، فلا يصدنك ذلك، فإنَّ العذابَ المهين من ورائهم، ونصري إياك، واتباعك عليهم آتيهم من وراء ذلك، كما أَتَىٰ عذابي على أسلافهم من الأممِ الذين من قبلهم بعد الإمهالِ إلى بلوغ الآجال، فقد كذبت قبلهم: يعني مشركي قريش، قوم نوح، وقوم عاد وثمود، وقومُ إبراهيم، وقوم لوط، وأصحاب مدين، وهم قومُ شعيب، يقولُ: كَذَّبَ كلُّ هؤلاءِ رسلَهُم، وكُذِّب موسى، فقيل: وكُذِّب موسى، ولم يقل: وقوم موسى، لأنَّ قومَ موسى بنو إسرائيل، وكانت قد استجابتْ له ولم تكذِّبْهُ، وإنما كذَّبَهُ فرعونُ وقومُه من القبطِ. وقد قيل: إنما قيل ذلك كذلك لأنه وُلِدَ فيهم، كما ولد في أهلِ مكة.

وقوله: «فَأَمْلَيْتُ لِلْكافِرِينَ»، يقولُ: فأمهلتُ لأهلِ الكُفْر بالله من هذه الأمم، فلم أعاجلهم بالنقمة والعذاب، «ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ»، يقولُ: ثم أحللتُ بهم العقابَ بعد الإملاء، «فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ»، يقولُ: فانظرْ يا محمدُ كيف كان تغييري ما كان بهم من نعمةٍ، وتنكري لهم عما كنتُ عليه من الإحسانِ إليهم، ألم أُبدلهم بالكثرةِ قِلَّةً، وبالحياةِ موتاً وهلاكاً، وبالعمارةِ خراباً؟ يقولُ: فكذلك فِعْلي بمكذِّبيكَ من قريش، وإنْ أمليتُ لهم إلى آجالهم، فإني مُنْجِزُكَ وَعْدي فيهم، كما أنجزتُ غيركَ من رُسُلي وعدي في أممهم، فأهلكناهم، وأنجيتُهم من بين أظهرهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾**

يقول تعالى ذِكْرُه: وكم يا محمدُ من قريةٍ أهلكتُ أهلَها وهم ظالمون، يقولُ: وهم يعبدون غيرَ من ينبغي أنْ يُعبدَ، ويعصون مَنْ لا ينبغي لهم أن يَعْصوه.

وقوله: «فَهِيَ خاويَةٌ عَلى عُرُوشِها»، يقولُ: فبادَ أهلُها وخَلَتْ، وخَوَتْ من سكانها فخَرِبَتْ وتَداعتْ، وتساقَطت على عروشها، يعني على بنائها وسُقوفِها.

وقوله: «وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ»، يقول تعالى: فكأيِّنْ من قريةٍ أهلكناها، ومن بئرٍ عَطَّلْنَاهَا بإفناءِ أهلها، وهلاكِ وارديها، فاندفنتْ وتعطلت، فلا واردةَ لها ولا شاربة منها (وَ) من «قَصْرٍ مَشِيدٍ» رفيعٍ بالصخور والجصِّ، قد خلا من سُكّانِه، بما أذقنا أهلَهُ من عذابنا بسوءِ فِعالهم، فبادوا، وبقي قصورُهم المشيدةُ خاليةً منهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾**

يقول تعالى ذِكْرُه: أفلم يسيروا هؤلاءِ المكذِّبونَ بآياتِ الله، والجاحدونَ قُدْرَتَهُ في البلاد، فينظروا إلى مصارعِ ضُرَبائهم من مُكذِّبي رُسُلِ الله الذين خَلَوْا من قبلهم، كعادٍ وثمود، وقوم لوط وشعيب، وأوطانهم ومساكنهم، فيتفكَّروا فيها ويعتبروا بها ويعلموا بتدبرهم أمرها وأمر أهلها، سُنَّةَ الله فيمن كفرَ وعبدَ غيره، وكَذَّبَ رسله فينيبوا من عُتُوِّهم وكُفْرِهم ويكون لهم إذا تدبروا ذلك واعتبروا به وأنابوا إلى الحقِّ «قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بها» حُجَجَ الله على خَلْقِه وقدرته على ما بيَّنا، «أوْ آذانٌ يسمعون بِهَا»، يقولُ: أو آذان تصغى لسماعِ الحقِّ فتعي ذلك، وتميز بينه وبين الباطل.

وقوله: «فإنَّها لا تَعْمَى الأبْصارُ»، يقولُ: فإنها لا تعمى أبصارُهم أنْ يبصروا بها الأشخاصَ ويروها، بل يبصرونَ ذلك بأبصارهم، ولكن تعمى

قلوبُهم التي في صدورهم عن أنصارِ الحقِّ ومعرفته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٤٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويستعجلونك يا محمدُ مشركو قومك بما تَعِدُهُمْ من عذابِ الله على شِرْكِهم به، وتكذيبهم إياك فيما أتيتَهُمْ به من عند الله في الدنيا، ولَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ الذي وعدكَ فيهم، من إحلالِ عذابه ونقمتِه بهم في عاجل الدنيا، ففعل ذلك، ووفى لهم بما وَعَدَهُمْ، فقتلهم يومَ بدر.

واختلف أهلُ التأويل في اليوم الذي قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كألْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ» أيّ يومٍ هُوَ؟ فقال بعضهم: هو من الأيامِ التي خلق الله فيها السمواتِ والأرض.

وقال آخرون: بل هو من أيام الآخرة.

والقول الثاني عندي أشبهُ بالحقِّ في ذلك؛ وذلك أن الله تعالى ذِكْرُه أخبر عن استعجالِ المشركينَ رسولَ الله ﷺ بالعذاب، ثم أخبر عن مبلغِ قَدْرِ اليومِ عنده، ثم اتبع ذلك قوله: «وكأيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظالِمَةٌ» فأخبر عن إملائِه أهلَ القريةِ الظالمة، وتركه مُعَاجَلَتَهُمْ بالعذاب، فَبَيَّنَ بذلك أنه عَنَى بقوله: «وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كألْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ» نَفي العَجَلَة عن نفسه، وَوَصْفها بالأناةِ والانتظار. وإذْ كان ذلك كذلك، كان تأويلُ الكلام: وإنَّ يوماً من الأيامِ التي عند الله يومَ القيامة، يوم واحد كألفِ سنةٍ من عددكم، وليس ذلك عنده ببعيد، وهو عندكم بعيد، فلذلك لا يعجلُ بعقوبةِ مَنْ أرادَ عقوبته حتى يبلغ غايةَ مُدَّتِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ۝٤٨﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: «وكـأيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أمْلَيْت لَهَا»، يقولُ: أمْهَلْتُهم، وأخَّـرْتُ عذابهم، وهم بالله مشـركون، ولأمرِهِ مخالفونَ، وذلك كان ظلمُهم الذي وصفَهُمُ اللهُ به جَلَّ ثَنَاؤُهُ، فلم أُعَجِّلْ بعذابهم، «ثُمَّ أخَذْتُها»، يقولُ: ثم أخذتُها بالعذابِ، فعذَّبْتُهَا في الدنيا بإحلالِ عقوبتنا بهم، «وإليَّ المَصِيرُ»، يقـولُ: وإليَّ مصيرُهم أيضـاً بعد هلاكهم، فَيَلْقَوْنَ من العذابِ حينئذٍ ما لا انقطاعَ له؛ يقول تعالى ذِكْرُه: فكذلك حالُ مُسْتَعْجِليكَ بالعذابِ من مشركي قومك، وإنْ أمليتُ لهم إلى آجالهم التي أجَّلْتُها لهم، فإني آخِذُهُمْ بالعذابِ، فقاتِلُهُمْ بالسيفِ، ثم إليَّ مصيرهم بعد ذلك فموجِعُهُمْ إذن عقوبةً على ما قَدَّمُوا من آثامهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٤٩ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٥٠ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۝٥١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ لمشركي قومك الذين يجادلونك في الله بغير علمٍ، اتباعاً منهم لكلِّ شيطانٍ مَريد، «يا أيُّها النَّاسُ إنَّمَا أنا لَكُمْ نَذِيرٌ مبينٌ» أُنْذِرُكم عقابَ الله أنْ ينزلَ بكم في الدنيا، وعذابَهُ في الآخرة أنْ تَصْلَوْهُ، «مبينٌ»، يقولُ: أُبَيِّنُ لكم إنذاري ذلك وأُظْهِرُه، لتنيبوا من شِرْكِكُمْ، وتَحْذَرُوا ما أُنذركم من ذلك، لا أملكُ لكم غيرَ ذلك، فأما تعجيلُ العقاب وتأخيره الذي تستعجلونني به، فإلى الله ليسَ ذلك إليَّ، ولا أقدرُ عليه؛ ثم وصفَ نذارته وبشارته، ولم يَجْرِ للبشارةِ ذِكْرٌ، ولما ذُكِرَتِ النذارةُ على عملٍ

عُلِمَ أنَّ البشارة على خِلافهِ، فقال: والذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا الصالحات مِنكم أيها الناسُ ومِنْ غيركم «لَهُمْ مَغْفِرَةٌ»، يقولُ: لهم من الله سترُ ذنوبهم التي سَلَفَتْ منهم في الدنيا عليهم في الآخرة، «وَرِزْقٌ كَرِيمٌ»، يقولُ: ورزقٌ حَسَنٌ في الجنة.

وقولـه: «وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنا مُعاجِزِينَ»، يقولُ: والذين عملوا في حججنا فَصَدُّوا عن اتباعِ رسولنا، والإقرارِ بكتابنا الذي أنزلناه.

واختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «مُعاجِزِينَ» فقال بعضهم: معناه: مُشَاقِّين.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أنهم ظنوا أنهم يُعْجِزُونَ اللهَ فلا يقدرُ عليهم.

وهـذان الـوجهـان من التأويل في ذلك على قراءة مَنْ قرأه «في آياتِنا مُعاجِزِينَ» بالألفِ، وهي قراءة عامة قَرَأَة المدينةِ والكوفة. وأما بعض قَرَأَة أهل مكة والبصرة، فإنه قرأه «مُعَجِّزِينَ» بتشديد الجيم بغير ألف، بمعنى أنهم عجزوا الناس، وثَبَّطُوهم عن اتباعِ رسولِ الله ﷺ والإيمانِ بالقرآن.

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان مشهورتان، قد قرأ بكلٍّ واحدةٍ منهما علماء من القَرَأَة متقاربتا المعنى، وذلك أنَّ مَنْ عجز عن آياتِ الله، فقد عاجزَ الله، ومن معاجزةِ اللهِ التعجيزُ عن آياتِ الله، والعملُ بمعاصيهِ وخلاف أمرِه، وكان من صِفَةِ القومِ الذين أنزل اللهُ هذه الآيات فيهم أنهم كانوا يُبَطِّئـون الناسَ عن الإيمانِ بالله، واتباعِ رسوله، ويغالبونَ رسولَ الله ﷺ، يحسبون أنهم يُعْجِزُونَهُ ويَغْلِبُونَهُ، وقد ضَمِنَ اللهُ له نَصْرَهُ عليهم، فكان ذلك معـاجـزتهم الله. فإذ كان ذلك كذلك. فبأيِّ القراءتين قرأ القارىءُ فمصيبٌ الصواب في ذلك.

وأما المعاجزة فإنها المفاعلة من العجز، ومعناه: مغالبة اثنين، أحدهما صاحبه أيهما يعجزه فيغلبه الآخر ويقهره.

وأما التعجيز: فإنه التضعيفُ وهو التّفعيلُ من العجز.

وقوله: «أُولَئِكَ أصْحابُ الجَحِيمِ»، يقولُ: هؤلاءِ الذين هذه صِفَتُهم هم سكانُ جهنم يوم القيامة، وأهلها الذين هم أهلها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٢﴾

قيل: إنَّ السببَ الذي من أجله أنزلت هذه الآيةُ على رسولِ الله ﷺ، أنَّ الشيطانَ كان ألقى على لسانِه في بعضِ ما يتلوهُ مما أَنزلَ اللهُ عليه من القرآنِ ما لم يُنزله اللهُ عليه، فاشتدَّ ذلك على رسول الله ﷺ، واغْتَمَّ به، فَسَلَّاهُ الله مما به من ذلك بهذه الآيات.

وتأويل الكلام: وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولا نبيٍّ إلا إذا تلا كتابَ الله، وقرأ، أو حَدَّثَ وتكلم، ألقى الشيطانُ في كتابِ الله الذي تَلاهُ وقرأه، أو في حديثِهِ الذي حَدَّثَ وتكلم «فَيَنْسَخُ اللهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ»، يقول تعالى: فَيُذْهِبُ اللهُ ما يُلقي الشيطانُ من ذلك على لسانِ نبيه ويُبْطِلُه.

وقوله: «ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آياتِهِ»، يقولُ: ثم يخلص الله آياتِ كتابهِ من الباطلِ الذي ألقى الشيطان على لسانِ نبيه، «وَاللهُ عَلِيمٌ» بما يحدث في خَلْقِه من حدث لا يَخْفَى عليه منه شيءٌ «حَكِيمٌ» في تدبيره إياهم، وصرفه لهم فيما شاء وأَحَبَّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فينسخُ الله ما يلقي الشيطان، ثُم يُحْكِمُ اللهُ آياتِه، كي يجعلَ ما يلقي الشيطانُ في أمنية نبيه من الباطلِ، يقولُ: اختباراً يختبرُ به الذين في قلوبهم مَرَضٌ من النفاقِ، وذلك الشكُّ في صِدْقِ رسولِ الله ﷺ وحقيقةِ ما يُخْبِرُهُمْ به.

وقوله: «والقاسيةِ قُلوبُهُم»، يقولُ: وللذين قَسَتْ قلوبُهم عن الإيمانِ بالله فلا تَلين ولا ترعوي وهُمُ المشركونَ بالله.

وقوله: «وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإنَّ مشركي قومِكَ يا محمدُ لفي خلافٍ لله في أمرِه بعيد من الحقِّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وكي يعلمَ أهلُ العلم بالله أنَّ الذي أنزله الله من آياتِه التي أحكمها لرسولِه، ونسخَ ما ألقى الشيطانُ فيه، أنه الحقُّ من عند ربكَ يا محمـدُ، فيؤمنوا به، يقولُ: فَيُصَدِّقُوا به، «فَتخْبِتَ لهُ قلوبُهم»، يقول تعالى ذِكْرُه: فتخضعَ للقرآنِ قلوبُهم، وتُذْعِنَ بالتصديقِ به والإقرارِ بما فيه. «وَإِنَّ الله لَهاد الَّذِينَ آمَنُوا إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ»، وإنَّ الله لمرشدُ الذين آمنوا بالله ورسوله إلى الحقِّ القاصدِ، والحقِّ الواضحِ بنسخِ ما ألقى الشيطانُ في أمنيةِ رسولِه، فلا يضرُّهُمْ كيدُ الشيطانِ، وإلقاؤه الباطلَ على لسان نبيهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولا يزالُ الذين كفروا بالله في شكٍّ، والهاء التي في قوله «منه» من ذِكْرِ القرآن الذي أحكمَ اللهُ آياتِه.

وقوله: «حتى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ»، يقولُ: لا يزالُ هؤلاءِ الكفار في شك من أمرِ هذا القرآنِ إلى أن تأتيهم الساعة «بَغْتَةً» وهي ساعة حشر الناس لموقفِ الحساب. بغتةً، يقولُ: فجأة، «أَوْ يَأْتِيَهُم عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ».

واختلف أهلُ التأويل في هذا اليوم أيِّ يومٍ هو، فقال بعضهم: هو يومُ القيامة.

وقال آخرون: بل عَنَى به يومَ بدر، وقالوا: إنما قيل له يومٌ عقيم، أنهم لم ينظروا إلى الليل، فكان لهم عقيماً.

وهذا القول الثاني أوْلى بتأويلِ الآية، لأنه لا وجهَ لأنْ يقال: لا يزالون في مريةٍ منه حتى تأتيهم الساعةُ بغتةً، أو تأتيهم الساعةُ؛ وذلك أنَّ الساعةَ هي يوم القيامة، فإن كان اليوم العقيم أيضاً هو يوم القيامة، فإنما معناه ما قلنا من تكرير ذكرِ الساعةِ مرّتين باختلافِ الألفاظ، وذلك ما لا معنى له. فإذْ كان ذلك كذلك، فأوْلى التأويلين به أصحهما معنى وأشبههما بالمعروفِ في الخطابِ وهو ما ذكرناه من معناه.

فتأويلُ الكلام إذن: ولا يزالُ الذين كفروا في مريةٍ منه، حتى تأتيهمُ الساعةُ بغتةً، فيصيروا إلى العذاب الدائمِ، أو يأتيهم عذابُ يومٍ عقيمٍ لهم، فلا يُنْظَرُوا فيه إلى الليلِ، ولا يُؤَخَّرُوا فيه إلى المساء، لكنهم يُقْتَلُونَ قبل المساء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: السُّلْطان والمُلْكُ إذا جاءت الساعةُ للهِ وحده لا شريكَ له ولا ينازِعُه يومئذٍ منازعٌ وقد كان في الدنيا ملوكٌ يُدْعَوْنَ بهذا الاسمِ ولا أحدَ يومئذٍ يُدْعى ملكاً سواه. «يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ»، يقولُ: يفصل بين خَلْقِه المشركينَ به والمؤمنينَ؛ فالذين آمنوا بهذا القرآن، وبِمَنْ أنزَلَهُ، ومَنْ جاء به، وعملوا بما فيه من حلالِه وحرامِه، وحدودِه وفرائِضِه في جناتِ النعيمِ يومئذٍ، والذين كفروا بالله ورسوله، وكذَّبُوا بآياتِ كتابه وتنزيله، وقالوا: ليس ذلك من عند الله، إنما هو إفكٌ افتراهُ محمدٌ، وأعانَهُ عليه قوم آخرون، «فأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ»، يقولُ: فالذين هذه صِفَتُهم لهم عندَ اللهِ يومَ القيامةِ عذابٌ مهين، يعني عذابٌ مُذِلٌّ في جهنم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والذين فارقوا أوطانَهم وعشائرهم، فتركوا ذلك في رِضَا الله وطاعته، وجهاد أعدائِه ثم قتلوا أو ماتوا وهم كذلك، ليرزقَنَّهُمُ الله يومَ القيامةِ في جناتِه رزقاً حسناً، يعني بالحسن: الكريم، وإنما يعني بالرزق الحَسَن: الثواب الجزيل. «وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ خَيرُ الرَّازِقِينَ»، يقولُ: وإنَّ الله لهو خيرُ مَنْ بسطَ فَضْلَهُ على أهلِ طاعتِه وأكرمهم.

وذُكِرَ أنَّ هذه الآية نزلتْ في قومٍ من أصحابِ رسول الله ﷺ اختلفوا في حُكْمِ مَنْ مات في سبيلِ الله، فقال بعضهم: سواء المقتول منهم والميت.

وقال آخرون: المقتولُ أفضل، فأنزل الله هذه الآية على نبيه ﷺ، يعلمهم استواءَ أمرِ الميتِ في سبيله، والمقتول فيها في الثوابِ عنده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ليدخلنَّ اللهُ المقتولَ في سبيله من المهاجرين والميت منهم «مُدْخَلاً يَرْضونَهُ»، وذلك المُدخلُ هو الجنة، «وَإِنَّ الله لَعَلِيمٌ» بمن يهاجرُ في سبيله ممن يخرجُ من داره طَلَبَ الغنيمةِ، أو عَرَضٍ من عروضِ الدنيا. «حَلِيمٌ» عن عُصاةِ خَلْقِه، بتركِه مُعَاجَلَتَهُمْ بالعقوبةِ والعذاب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «ذلكَ»: لهذا، لهؤلاءِ الذين هاجروا في سبيلِ الله، ثم قُتِلُوا أو ماتوا، ولهم مع ذلك أيضاً، أنَّ الله يَعِدُهم النصرَ على المشركينَ الذين بَغَوْا عليهم فأخرجوهم من ديارهم.

وقوله: «إنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غفورٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الله لذو عفوٍ وصفحٍ لمن انتصرَ مِمَّنْ ظَلَمَهُ من بعدِ ما ظلمه الظالمُ بحقٍّ، غفور لما فعل ببادئه بالظلم، مثل الذي فعل به غيرَ مُعَاقِبِهِ عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «ذلكَ»: هذا النصرُ الذي أنصره على مَنْ بغي عليه على الباغي، لأني القادرُ على ما أشاء، فمن قُدْرتِه أنَّ الله يولجُ الليلَ في النهار، يقولُ: يدخل ما ينقصُ من ساعاتِ الليل في ساعاتِ النهار، فما نقص من هذا زاد في هذا، «وَيُولِجُ النَّهَار في اللَّيْلِ» ويدخل ما انتقص من ساعات النهار في ساعات الليل، فما نقصَ من طولِ هذا، زاد في طولِ هذا، وبالقُدرةِ التي تفعل ذلك ينصر محمداً ﷺ وأصحابَهُ على الذين بَغَوْا عليهم فأخرجوهم من ديارهم وأموالهم، «وأنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ» يقولُ: وفعل ذلك أيضاً بأنه ذُو سمعٍ لما يقولون من قول: لا يَخْفَى عليه منه شيءٌ، بصير بما يعملون، لا يغيبُ عنه منه شيء، كل ذلك منه بمرأى ومسمع، وهو الحافظ لكل ذلك، حتى يجازي جميعهم على ما قالوا وعملوا من قولٍ وعملٍ جزاءه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «ذَلكَ»، هذا الفعلُ الذي فعلتُ من إيلاجي الليلَ في النهار، وإيلاجي النهارَ في الليل، لأني أنا الحقُّ الذي لا مثل لي ولا شريك ولا نِدَّ، وأن الذي يدعوه هؤلاءِ المشركونَ إلهاً من دونه، هو الباطلُ الذي لا يقدرُ على صنعة شيء، بل هو المصنوعُ، يقول لهم تعالى ذِكْرُه: أفتتـركون أيها الجُهَّالُ عبادةَ مَنْ منه النفعُ وبيده الضرُّ، وهو القادرُ على كل شيء، وكُلّ شيءٍ دونَهُ، وتعبدونَ الباطلَ الذي لا تنفعكم عبادته.

وقوله: «وأنَّ اللهَ هُوَ العَلِيُّ الكَبيرُ»، يعني بقوله: «العَلِي»: ذو العلوّ على كل شيء، هو فوقَ كلِّ شيء، وكل شيء دون، «الكَبِيرُ»، يعني: العظيم. الذي كُلُّ شيءٍ دونه، ولا شيء أعظم منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «أَلَمْ تَرَ» يا محمدُ، «أنَّ اللهَ أنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً»، يعني مطراً «فَتُصْبِحُ الأرْضُ مُخْضَرَّةً» بما ينبتُ فيها من النبات، «إنَّ اللهَ لَطِيفٌ» بإستخراجِ النباتِ من الأرضِ بذلك الماء وغير ذلك من ابتداعِ ما شاء أنْ يبتدعه «خَبيرٌ» بما يحدثُ عن ذلك النبت من الحبِّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: له مُلْكُ ما في السمواتِ وما في الأرضِ من شيءٍ هم عبيدُه ومماليكه وخلقه، لا شريكَ له في ذلك، ولا في شيءٍ منه، وإنَّ الله هو الغنيُّ عن كلِّ ما في السمواتِ وما في الأرضِ من خلقه وهم المحتاجون إليه، الحميدُ عند عبادِه في إفضالِه عليهم وأياديه عندهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ألم تَرَ أنَّ الله سخر لكم أيها الناس ما في الأرض من الدَّوابِّ والبهائم، فذلك كُلُّه لكم، تصرفونه فيما أردتم من حوائجكم «والفُلْكَ تَجْرِي في البَحْرِ بأمْرِهِ»، يقولُ: وسخر لكم السفن تجري في البحرِ بأمرِه، يعني بقُدرته، وتذليله إياها لكم كذلك.

«ويُمْسِكُ السَّماءَ أنْ تَقَعَ عَلى الأرْضِ»، يقولُ: ويمسكُ السماءَ بِقُدْرته، كي لا تقعَ على الأرض إلا بإذنه. ومعنى قوله: «أنْ تَقَعَ»: أن لا تقع. «إنَّ الله بالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ»، بمعني: إنه بهم لذُو رأفةٍ ورحمة، فمن رأفته بهم ورحمته لهم أمسكَ السماءَ أنْ تقعَ على الأرضِ إلا بإذنه، وسخر لكم ما وصف في هذه الآية تَفَضُّلاً منه عليكم بذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ٦٦ لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ٦٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: واللهُ الذي أنعم عليكم هذه النعمَ، هو الذي جعلَ لكم أجساماً أحياء بحياةٍ أحدثَها فيكم، ولم تكونوا شيئاً، ثم هو يُميتكم من بعد حياتكم، فيفنيكم عند مجيء آجالكم، ثم يحييكم بعد مماتكم عند بَعْثِكم لقيامِ الساعة. «إنَّ الإنْسانَ لَكَفُورٌ»، يقولُ: إنَّ ابنَ آدم لجحودٌ لنعمِ الله التي أنعم بها عليه من حُسْنِ خَلْقِه إياه، وتسخيرِه له ما سخر مما في الأرض والبرِّ والبحر، وتركه إهلاكه بإمساكِه السماءَ أنْ تقعَ على الأرضِ بعبادته غيره من الآلهةِ والأنداد، وتركه إفرادَهُ بالعبادةِ، وإخلاصَ التوحيدِ له.

وقوله: «لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً»، يقولُ: لكل جماعةِ قومٍ هي خَلَتْ من قَبْلِكَ، جعلنا مألفاً يألفُونَهُ، ومكاناً يعتادونه، لعبادتي فيه، وقضاءِ فرائضي، وعملاً يلزمونه، وأصلُ المنسكِ في كلام العرب الموضع المعتاد الذي يعتاده الرجلُ ويألفه، لخيرٍ أو شرٍّ؛ يقال: إنَّ لفلان منسكاً يعتاده، يُراد: مكاناً يغشاهُ ويألفه لخيرٍ أو شرّ. وإنما سُمِّيَتْ مناسكُ الحجّ بذلك، لتردُّدِ الناسِ إلى الأماكن التي تُعمل فيها أعمال الحجّ والعُمرة، وفيه لغتان: (مَنْسِك) بكسر

السين وَفتح الميم، وذلك من لغة أهل الحجاز، و(مَنْسَك) بفتح الميم والسين جميعاً، وذلك من لغة أسد، وقد قُرِىء باللغتين جميعاً.

وقد اختلف أهلُ التأويل في المعنيِّ بقوله: «لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً»: أيّ المناسك عَنَى به؟ فقال بعضهم: عَنَى به: عيدهم الذي يعتادونه.

وقال آخرون: عنى به: ذبح يذبحونه، ودم يُهْرِيقُونَهُ.

والصوابُ من القول في ذلك أن يقال: عَنَى بذلك إراقةَ الدم أيامَ النحرِ بمِنى، لأنَّ المناسكَ التي كان المشركونَ جادلوا فيها رسولَ الله ﷺ كانت إراقة الدم في هذه الأيام، على أنهم قد كانوا جادلوه في إراقةِ الدماء التي هي دماء ذبائح الأنعام بما قد أخبر الله عنهم في سورة الأنعام، غير أن تلك لم تكن مناسك، فأما التي هي مناسك، فإنما هي هدايا أو ضحايا. ولذلك قلنا: عَنَى بالمنسك في هذا الموضع الذبح الذي هو بالصفة التي وصفنا.

وقوله: «فَلا يُنَازِعُنَّكَ في الأَمْرِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فلا ينازعنك هؤلاءِ المشركونَ باللهِ يا محمدُ، في ذبحكَ ومنسكك بقولهم: أتأكلونَ ما قتلتم، ولا تأكلونَ الميتةَ التي قتلها اللهُ؟ فإنك أولى بالحقِّ منهم، لأنك مُحِقٌّ وهم مبطلون.

وقوله: «وَادْعُ إلى رَبِّكَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وادْعُ يا محمدُ، منازِعِيكَ من المشركينَ بالله في نسكك وذبحك، إلى اتباعِ أمرِ ربك في ذلك بأنْ لا يأكلوا إلا ما ذبحوه بعد اتباعك، وبعد التصديقِ بما جئتهم به من عند الله، وتَجَنَّبُوا الذبحَ للآلهةِ والأوثان، وتَبَرَّءُوا منها، إنك لعلى طريقٍ مستقيم غيرِ زائلٍ عن محجةِ الحقِّ والصوابِ في نسكك الذي جعله لكَ ولأمتكَ رَبُّكَ، وهم الضلال على قصدِ السبيل، لمخالفتهم أمرَ اللهِ في ذبائحهم ومطاعِمهم وعبادَتِهم الآلهةَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٦٨ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٦٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وإنْ جادلكَ يا محمدُ، هؤلاءِ المشركونَ باللهِ في نسكك، فقل: اللهُ اعلمُ بما تعملون ونعمل.

وقوله: «اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ القِيامَةِ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: واللهُ يقضي بينكم يومَ القيامةِ فيما كنتم فيه من أمرِ دِينكم تختلفون، فتعلمون حينئذٍ أيها المشركونَ المُحِقَّ من المُبْطِلِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ألم تعلمْ يا محمدُ، أنَّ اللهَ يعلم كلَّ ما في السمواتِ السبع، والأرضين السبع، لا يخفى عليه من ذلك شيءٌ، وهو حاكمٌ بين خَلْقِه يومَ القيامة على عِلْمٍ منه بجميع ما عملوه في الدنيا، فمجازي المُحسن منهم بإحسانه، والمسيء بإساءته. «إنَّ ذلكَ في كِتابٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ عِلْمَهُ بذلك في كتابٍ وهو أمُّ الكتابِ الذي كتب فيه رَبُّنا جَلَّ ثَناؤُهُ قبل أن يخلقَ خَلْقَهُ ما هو كائنٌ إلى يوم القيامة، «إنَّ ذلكَ عَلى اللهِ يَسيرٌ».

وقوله: «إنَّ ذلكَ عَلى اللهِ يَسِيرٌ»، اختلف في ذلك، فقال بعضهم: معناه: إنَّ الحُكْم بين المختلفين في الدنيا يوم القيامة على الله يسير.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أنَّ كتابَ القلم الذي أمرهُ اللهُ أنْ يكتبَ في اللوحِ المحفوظِ ما هو كائنٌ على الله يسير يعني هين. وهذا القول الثاني أولى بتأويلِ ذلك وذلك أن قوله: «إنَّ ذلكَ عَلى اللهِ يَسيرٌ». . . إلى قوله: «إنَّ

ذلكَ فِي كِتابٍ» أقرب وهو له مجاور، ومن قوله: «اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ القِيامَةِ» متباعد مع دخولِ قوله: «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماءِ والأَرْضِ» بينهما، فإلحاقه بما هو أقربُ أوْلى ما وُجِدَ للكلام، وهو كذلك مخرج في التأويل صحيح.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويعبدُ هؤلاءِ المشركونَ باللهِ من دونِه، ما لم يُنَزِّلْ به جَلَّ ثَناؤُهُ لهم حجةً من السماءِ في كتابٍ من كتبه التي أنزلها إلى رسله بأنها آلهةٌ تصلحُ عبادَتُهَا، فيعبدونها بأن الله أَذِنَ لهم في عبادتها، وما ليسَ لهم به علم، أنها آلهة. «وما للظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ»، يقولُ: وما للكافرين بالله الذين يعبدون هذه الأوثان من ناصرٍ ينصرهم يومَ القيامة، فينقذهم من عذابِ الله، ويدفعُ عنهم عقابَهُ إذا أراد عقابهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا تُتلى على مشركي قريش العابدينَ من دونِ الله ما لم ينزل به سلطاناً «آياتُنا» يعني: آيات القرآن «بَيِّناتٍ»، يقولُ: واضحاتٍ حججها وأدلتها فيما أُنزلتْ فيه. «تَعْرِفُ في وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا المُنْكَرَ»، يقولُ: تتبين في وجوههم ما ينكره أهلُ الإيمان بالله من تغيرها لسماعهم بالقرآن.

وقولـه: «يَكادُونَ يَسْطُونَ بالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِم آياتِنا»، يقولُ: يكادون يبطشون بالذين يتلون عليهم آياتِ كتابِ الله من أصحابِ النبيِّ ﷺ لشدَّةِ تَكَرُّههم أنْ يسمعوا القرآن يتلى عليهم.

وقوله: «قُلْ أفأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمْ»، يقولُ: أفأنبئكم أيها المشركونَ بأكْرَهَ إليكم من هؤلاءِ الذين تتكرَّهُونَ قراءتهم القرآنَ عليكم، هي «النَّارُ» وَعَدَهَا اللهُ الذين كفروا، وقد ذُكِرَ عن بعضهم أنه كان يقول: إنَّ المشركينَ قالوا: والله إن محمداً وأصحابه لشرُّ خَلْقِ الله، فقال الله لهم: قُلْ أفأنبئكم أيها القائلونَ هذا القول بِشَرٍّ، من محمدٍ ﷺ، أنتم أيها المشركونَ الذين وَعَدَهُم اللهُ النارَ.

وقوله: «وَبِئْسَ المَصِيرُ»، يقولُ: وبئس المكانُ الذي يصيرُ إليه هؤلاءِ المشركونَ بالله يوم القيامة.

القولُ في تَأْويلِ قَوْلِهِ تَعالَى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يا أيها الناس جُعِلَ لله مَثَلٌ وذِكْرٌ، ومعنى ضَرَبَ في هذا الموضع: جَعَلَ، من قولهم: ضَرَبَ السلطانُ على الناس البَعْثَ، بمعنى: جَعَلَ عليهم، وضربَ الجزيةَ على النصارى، بمعنى: جعل ذلك عليهم؛ والمَثَل: الشَّبه، يقول جَلَّ ثناؤه: جُعِلَ لي شَبَهٌ أيها الناسُ، يعني بالشَّبهِ والمَثَل: الآلهةَ، يقولُ: جَعَلَ لي المشركونَ الأصنامَ[1] شَبَهاً، فعبدوها معي،

(١) في المطبوع: «والأصنام» وما أثبتناه هو الصواب.

وأشركوها في عبادتي، فاستمعوا له، يقولُ: فاستمعوا حالَ ما مَثَّلوه، وجعلوه لي في عبـادتهم إياه شبهاً، وصفته: «إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبـابـاً»، يقولُ: إنَّ جميع ما تعبدون من دونِ اللهِ من الآلهةِ والأصنامِ، لو جُمِعَتْ لم يخلقوا ذُباباً في صِغَرِه وقِلَّته، لأنها لا تقدرُ على ذلك ولا تُطيقه، ولو اجتمع لخلقِه جميعها. والذبابُ واحد، وجمعه في القلة أذبة، وفي الكثير ذِبَّان نظير غُراب، يُجْمَعُ في القلة أَغْربة، وفي الكثرة غِرْبان.

وقوله: «وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً»، يقولُ: وإنْ يسلب الآلهةَ والأوثانَ الذبابُ شيئاً مما عليها من طيبٍ وما أشْبَهَهُ من شيءٍ لا يستنقذُوه منه، يقولُ: لا تقدرُ الآلهةُ أنْ تستنقذَ ذلك منه.

واختُلِفَ في معنى قوله: «ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمَطْلُوبُ»، فقال بعضهم: عنى بالطالب: الآلهة، وبالمطلوب: الذباب.

وكـان بعضهم يقول: معنى ذلك: «ضَعُفَ الطَّالِبُ» من بني آدم إلى الصنمِ حاجَتَهُ «والمَطْلُوبُ» إليه الصنمُ أنْ يعطيَ سائِلَهُ من بني آدمَ ما سألَهُ يقول: ضعفَ عن ذلك وعجزَ.

والصواب من القول في ذلك عندنا أنَّ معناه: وعجز الطالبُ وهو الآلهةُ أنْ تستنقذَ من الذبابِ ما سلبها إياه، وهو الطيب وما أشبهه؛ والمطلوب: الذباب.

وإنما قلتُ هذا القولَ أولى بتأويل ذلك، لأنَّ ذلك في سياق الخبر عن الآلهـةِ والذباب، فأنْ يكون ذلك خبراً عما هو به متصلٌ أشبه من أن يكون خبراً، عما هو عنه منقطع، وإنما أخبر جَلَّ ثَنَاؤُهُ عن الآلهة بما أخبر به عنها في هذه الآية من ضعفها ومهانتها، تقريعاً منه بذلك عَبَدتها من مشركي قريش، يقول تعالى ذِكْرُه: كيف يُجْعَلُ لي مِثْلٌ في العبادة، ويُشْرَكُ فيها معي ما لا

قدرةَ له على خَلْقِ ذبابٍ، وإنْ أَخَذَ له الذبابُ فسلبه شيئاً عليه لم يقدرْ أن يمتنعَ منه، ولا ينتصر، وأنا الخالقُ ما في السمواتِ والأرض، ومالكُ جميعَ ذلك والمحيي مَنْ أردتُ، والمميتُ ما أردت ومَنْ أردتُ، إن فاعل ذلك، لاشكَّ أنه في غايةِ الجهلِ.

وقوله: «ما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ»، يقولُ: ما عَظَّمَ هؤلاءِ الذين جعلوا الآلهةَ للهِ شريكاً في العبادة حَقَّ عظمتهِ حين أشركوا به غيره. فلم يُخْلِصُوا له العبادةَ ولا عرفوه حقَّ معرفتهِ من قولهم: ما عرفتُ لفلان قدره إذا خاطبوا بذلك من قَصَّر بحقه، وهم يريدون تعظيمه.

وقوله: «إنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ»، يقولُ: إن الله لقويٌّ على خَلْقِ ما يشاء، من صغيرِ ما يشاءُ من خَلْقِه وكبيرِه «عَزِيزٌ»، يقولُ: منيعٌ في مُلكه لا يقدرُ شيءٌ دونَهُ أنْ يسلبه من مُلْكِه شيئاً، وليس كآلهتكم أيها المشركونَ الذين تَدْعُونَ من دون الذين لا يقدرون على خَلْقِ ذباب، ولا على الامتناعِ من الذباب، إذا استلبها شيئاً ضعفاً ومهانة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ٧٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الله يختارُ من الملائكةِ رُسُلاً كجبريلَ وميكائيلَ اللذين كانا يرسلهما إلى أنبيائه، ومَنْ شاء من عبادِه ومن الناسِ، كأنبيائه الذين أرسلهم إلى عباده من بني آدم. ومعنى الكلام: الله يصطفي من الملائكةِ رُسُلاً، ومن الناسِ أيضاً رُسُلاً: وقد قيل: إنما أنزلت هذه الآيةُ لما قال المشركونَ: أَأُنْزِلَ عليه الذكر من بيننا، فقال الله لهم: ذلك إليَّ وبيدي دونَ خَلْقي، أختارُ مَنْ شئتُ منهم للرسالةِ.

وقوله: «إنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ»، يقولُ: إنَّ الله سميعٌ لما يقولُ المشركونَ في محمدٍ ﷺ، وما جاءَ به من عندِ ربه، بصيرٌ بمن يختاره لرسالته من خلقه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٧٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الله يعلم ما كان بين أيدي ملائكته ورسله، من قبل أنْ يخلقهم وما خلفهم، يقولُ: ويعلمُ ما هو كائنٌ بعد فنائِهم. «وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ»، يقولُ: إلى الله في الآخرةِ تصيرُ إليه أمورُ الدنيا، وإليه تعودُ كما كان منه البدء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ۝٧٧﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: يا أيها الذين صَدَّقُوا الله ورسوله «ارْكَعُوا» للهِ في صلاتكم «وَاسْجُدُوا» له فيها، «وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ»، يقولُ: وذلُّوا لربكم، واخضعوا له بالطاعـة، «وَافْعَلُوا الخَيْرَ» الذي أمركم رَبُّكم بفعله، «لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»، يقولُ: لتفلحوا بذلك، فَتُدْرِكُوا به طَلِباتكم عند رَبِّكم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ

اختلف[1] أهل التأويل في تأويل قوله: «وَجاهِدُوا في اللهِ حَقَّ جِهادِهِ»، فقال بعضهم: معناه: وجاهدوا المشركينَ في سبيل الله حَقَّ جهاده.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: لا تخافوا في الله لومةَ لائمٍ، قالوا: وذلك هو حقُّ الجهاد.

وقال آخرون: معنى ذلك: اعملوا بالحقِّ، حقَّ عمله.

والصوابُ من القولِ في ذلك، قولُ مَنْ قال: عُنِي به الجهادُ في سبيل الله، لأنَّ المعروفَ من الجهاد ذلك، وهو الأغلبُ على قولِ القائلِ: جاهدتُ في الله. وحقّ الجهاد: هو استفراغُ الطاقةِ فيه.

وقوله: «هُوَ اجْتَباكُمْ»، يقولُ: هو اختاركم لدينه، واصطفاكُمْ لحربِ أعدائهِ، والجهادِ في سبيله.

وقوله: «ومَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ في الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وما جعل عليكم رَبُّكم في الدين الذي تَعَبَّدَكُمْ به من ضيقٍ، لا مخرجَ لكم مما ابتليتم به فيه، بل وَسَّعَ عليكم، فجعلَ التوبةَ من بعضٍ مخرجاً، والكفَّارة من بعض، والقصاصَ من بعض، فلا ذنبَ يذنبُ المؤمنُ إلا وله منه في دِينِ الإسلام مخرجٌ.

وقوله: «مِلَّةَ أبِيكُمْ إبْرَاهِيمَ» نَصَبَ ملة بمعنى: وما جعلَ عليكم في الدين من حرج، بل وَسَّعَهُ، كملَّةِ أبيكم، فلما لم يجعلْ فيها الكاف اتصلت بالفعل الذي قبلها فنصبت، وقد يحتمل نصبها أنْ تكونَ على وجهِ الأمرِ بها، لأنَّ الكلامَ قَبْلَهُ أمرٌ، فكأنه قيل: اركعوا واسجدوا، والْزَمُوا مِلَّةَ أبيكم إبراهيم.

وقوله: «هُوَ سَمَّاكُم المُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وفي هَذَا»، يقول تعالى ذِكْرُه: سماكم يا معشرَ مَنْ آمَنَ بمحمدٍ ﷺ المسلمينَ من قَبْلُ.

(١) في المطبوع: «واختلف» وحذف الواو أليق.

وأما قوله: «مِنْ قَبْلُ»، فإن معناه: من قبل نزولِ هذا القرآن في الكتبِ التي نزلتْ قبله، «وفي هذا»، يقولُ: وَفِي هَذَا الكِتاب.

وقوله: «لِيَكونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ، وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلى النَّاس»، يقول تعالى ذِكْرُه: اجتباكم اللهُ وسَمَّاكم أيها المؤمنونَ بالله وآياته من أمةِ محمدٍ ﷺ مسلمين، ليكون محمدٌ رسول الله شهيداً عليكم يومَ القيامة، بأنه قد بلَّغكم ما أُرسلَ به إليكم، وتكونوا أنتم شهداء حينئذ على الرسل أجمعين، أنهم قد بلغوا أممهم ما أرسلوا به إليهم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ»، يقولُ: فأدُّوا الصلاةَ المفروضةَ لله عليكم بحدودها، وآتوا الزكاةَ الواجبةَ عليكم في أموالكم. «وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ»، يقولُ: وثِقُوا بالله، وتَوكَّلُوا عليه في أموركم، «فَنِعْمَ المَوْلَى»، يقولُ: فنعم الوليُّ الله لمن فعل ذلكم منكم، فأقامَ الصلاةَ، وآتى الزكاةَ، وجاهدَ في سبيلِ الله حَقَّ جهادِه، واعتصمَ به، «وَنِعْمَ النَّصِيرُ»، يقولُ: ونعم النَّاصرُ هو له على من بَغاهُ بسوءٍ.

سُورَةُ المُؤْمِنُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾

يعني جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقوله: «قَدْ أفلَحَ المُؤْمِنُونَ»: قد أدرك الذين صَدَّقُوا اللهَ ورسولَهُ محمداً ﷺ، وأقَرُّوا بما جاءهم به من عندِ الله، وعملوا بما دعاهم إليه مما سَمَّى في هذه الآياتِ الخلودَ في جنَّاتِ رَبِّهم، وفازوا بطَلبتهم لديه[1].

وقوله: «الَّذِينَ هُمْ في صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: الذين هم في صلاتهم إذا قاموا فيها خاشعون، وخشوعُهم فيها تَذَلُّلهم للهِ فيها بطاعتِه، وقيامُهم فيها بما أمرهم بالقيامِ به فيها. وقيل: إنها نزلت من أجلِ أنَّ القومَ كانوا يرفعون أبصارَهُمْ فيها إلى السماء قبل نزولها، فَنُهُوا بهذه الآيةِ عن ذلك.

واختلف أهلُ التأويل في الذي عنى به في هذا الموضع من الخشوع، فقال بعضهم: عنى به: سكون الأطرافِ في الصلاة.

وقال آخرون: عَنَى به الخوفَ في هذا الموضع.

وقد بيَّنا فيما مضى قَبْلُ من كتابنا، أنَّ الخشوع: التذلل والخضوع بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع[2]. وإذْ كان ذلك كذلك، ولم يكن الله تعالى

---

(١) قال الزجاج: أي قد نالوا البقاء الدائم في الخير (معاني القرآن: ٤/٥).

(٢) وانظر معاني القرآن للزجاج: ٤/٦

ذِكْرُه دَلَّ على أنَّ مراده من ذلك معنى دون معنى في عقل ولا خبر، كان معلوماً أنَّ معنى مراده من ذلك العموم. وإذْ كان ذلك كذلك، فتأويل الكلامِ ما وصفتُ من قَبْلُ، من أنه: والذين هم في صلاتهم متذللون لله بإدامةِ ما ألزمهم من فرضِه وعبادته، وإذا تَذَلَّلَ لله فيها العبدُ رُئِيَتْ ذلةُ خضوعِه في سكونِ أطرافه، وشغله بفرضه، وتركه ما أمر بتركه فيها.

وقوله: «وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُون»، يقول تعالى ذِكْرُه: والذين هُمْ عن الباطل، وما يكرههُ اللهُ من خَلْقِه مُعْرِضُون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والذين هم لزكاةِ أموالهم التي فَرَضَها اللهُ عليهم فيها مؤدُّونَ، وفِعْلُهم الذي وُصِفُوا به هو أداؤُهُمُوهَا.

وقوله: «وَالَّذِينَ هُمْ لِفروجِهِمْ حافِظُونَ. إلاَّ عَلى أَزْوَاجِهِمْ»، يقولُ: والذين هم لفروجِ أنفسِهم، وعَنَى بالفروج في هذا الموضع: فروجَ الرجالِ، وذلك أقبالُهم، حافظونَ: يحفظونها من أعمالها في شيء من الفروج.

«إلاَّ عَلى أَزْوَاجِهِمْ»، يقولُ: إلا من أزواجهم اللاتي أحلهنَّ اللهُ للرجالِ بالنكاحِ، «أوْ ما مَلَكَتْ أيْمَانُهُمْ»، يعني بذلك: إماءهم. و«ما» التي في قوله: «أوْ ما مَلَكَتْ أيْمَانُهُمْ» في[1] محلِّ خفضٍ[2]، عطفاً على الأزواج. «فإنَّهُمْ غيرُ مَلُومينَ»، يقولُ: فإنَّ مَنْ لم يحفظ فرجه عن زوجِهِ ومِلْكِ يمينه، وحفظه عن

(١) ليست في المطبوعة.

(٢) أنظر معاني القرآن للفراء: ٢/٢٣١.

غيرِه من الخَلْقِ، فإنه غير مُوَبَّخٍ على ذلك، ولا مذموم، ولا هو بفعله ذلك راكب ذنباً يُلامُ عليه.

وقوله: «فَمَن ابْتَغَى وَرَاءَ ذلكَ»، يقولُ: فمن التمسَ لفرجِهِ مَنْكَحاً سوى زوجته ومِلْكِ يمينه، «فأُولَئِكَ هُمُ العادُونَ»، يقولُ: فهم العادون حدودَ الله، المجاوزونَ ما أحَلَّ الله لهم إلى ما حَرَّمَ عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَالَّذِينَ هُمْ لأَماناتِهِمْ» التي ائْتُمِنُوا عليها «وَعَهْدِهِمْ»، وهو عقودهم التي عاقدوا الناس «راعُونَ»، يقولُ: حافظونَ لا يضيعون، ولكنهم يوفون بذلك كله.

وقوله: «وَالَّذِينَ هُمْ عَلى صَلَوَاتِهِمْ يُحافِظُونَ»، يقولُ: والذين هم على أوقاتِ صلاتهم يحافظون، فلا يضيعونها ولا يشتغلونَ عنها حتى تفوتهم، ولكنهم يراعونها حتى يُؤَدُّوها فيها.

وقوله: «أُولَئِكَ هُمُ الوَارِثُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاء الذين هذه صِفَتُهم في الدُّنيا، هم الوارثونَ يومَ القيامةِ منازلَ أهلِ النار من الجَنَّة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «الَّذِينَ يَرِثُونَ» البُستان ذا الكرم، وهو الفِرْدوس عند العربِ.

وقوله: «هُمْ فِيها خالِدُونَ»، يعني ماكثونَ فيها، يقولُ: هؤلاءِ الذين يرثون الفردوسَ خالدون، يعني ماكثونَ فيها أبداً، لا يتحوَّلُونَ عنها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَلَقَدْ خَلَقْنا الإنسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ» أسللناهُ منه، فالسلالةُ هي المُسْتَلَّةُ من كلِّ تُربةٍ، ولذلك كان آدم خُلِقَ من تربةٍ أُخِذت من أديم الأرض.

وبنحو الذي قلنا في ذلك، قال أهلُ التأويلِ على اختلافٍ منهم في المَعْنيِّ بالإنسان في هذا الموضع، فقال بعضهم: عُنِيَ به آدم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ولقد خلقنا وَلَد آدم، وهو الإنسانُ الذي ذكر في هذا الموضع، من سلالة، وهي النطفةُ التي اسْتُلَّتْ من ظَهْرِ الفَحْلِ من طين، وهو آدمُ الذي خُلِقَ من طين.

وأَوْلى القولين في ذلك بالصواب قولُ مَنْ قال معناه: ولقد خلقنا ابنَ آدم من سُلالةِ آدمَ، وهي صفةُ مائِهِ وآدم هو الطين، لأنه خُلِقَ منه.

وإنما قلنا ذلك أولى التأويلين بالآية لدلالة قوله: «ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً في قَرارٍ مَكِينٍ» على أنَّ ذلك كذلك، لأنه معلومٌ أنه لم يصر في قرارٍ مكين إلا بعد خَلْقِهِ في صُلْب الفَحْل، ومن بعد تَحَوُّلِه من صلبه صار في قرارٍ مكين، والعربُ تسمي ولدَ الرجلِ ونطفته: سليله وسلالته، لأنهما مسلولان منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ

﴿خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ»: ثم جعلنا الإنسانَ الذي جعلناهُ من سلالةٍ من طين، نطفةً في قرارٍ مكين، وهو حيث استقرَّتْ فيه نطفةُ الرجل من رحم المرأة، ووصفه بأنه مكين، لأنه مُكِّنَ لذلك، وهُيِّىءَ له ليستقرَّ فيه إلى بلوغِ أمره الذي جعله له قراراً.

وقوله: «ثُمَّ خَلَقْنا النطْفَةَ عَلَقَةً»، يقولُ: ثم صَيَّرنا النطفةَ التي جعلناها في قرار مكين عَلَقة، وهي القطعة من الدم، «فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً»، يقولُ: فَجعلنا ذلك الدمَ مضغةً، وهي القطعةُ من اللحم.

وقوله: «فخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظاماً»، يقولُ: فجعلنا تلك المضغة من اللحم عظاماً.

وقوله: «فَكَسَوْنا العظامَ لَحْماً»، يقولُ: فألبسنا العظام لحماً.

وقوله: «ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ»، يقولُ: ثم أنشأنا هذا الإنسان خَلْقاً آخر، وهذه الهاء التي في «أنْشَأْناهُ» عائدةٌ على الإنسانِ في قوله: «وَلَقَدْ خَلَقْنا الإِنْسانَ» وقد يجوز أنْ تكونَ من ذِكْرِ العظم والنطفة والمضغة، جعل ذلك كله كالشيءِ الواحد، فقيل: ثم أنشأنا ذلك خَلْقاً آخر.

واختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ»، فقال بعضهم: إنشاؤه إياه خلقاً آخرَ: نفخهُ الروحَ فيه، فيصير حينئذٍ إنساناً، وكان قبلَ ذلك صورة.

وقال آخرون: إنشاؤهُ خَلْقاً آخر، تصريفه إياه في الأحوالِ بعد الولادةِ في الطفولة والكهولة، والاغتذاء، ونباتِ الشعرِ والسنِّ، ونحو ذلك من أحوالِ

الأحياء في الدنيا.

وقال آخرون: بل عَنَى بانشائِه خلقاً آخر: سَوَّى شبابه.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قولُ مَنْ قال: عَنَى بذلك نفخَ الروحِ فيه، وذلك أنه بنفخِ الروحِ فيه يتحوَّلُ خلقاً آخر إنساناً، وكان قبلَ ذلك بالأحوالِ التي وصفَهُ اللهُ أنه كان بها من نطفةٍ وعلقةٍ ومُضغةٍ وعظمٍ، وبنفخِ الروح فيه يتحوَّلُ عن تلك المعاني كُلِّها إلى معنى الإنسانيةِ، كما تحوَّلَ أبوهُ آدمُ بنفخِ الروح في الطينة التي خلق منها إنساناً، وخلقاً آخر غير الطينِ الذي خُلِقَ منه.

وقوله: «فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالِقِينَ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معناه: فتبارك الله أحسنُ الصانعين، وهو قول مجاهد.

وقال آخرون: إنما قيل: «فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالِقِينَ» لأن عيسى بن مريم كان يخلق، فأخبر جَلَّ ثَنَاؤُهُ عن نفسِه أنه يخلقُ أحسنَ مما كانَ يَخْلُقُ، وهو قول ابن جُرَيْج.

وأوْلى القولين في ذلك بالصواب قول مجاهد، لأنَّ العربَ تسمي كُلَّ صانعٍ خالقاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ثم إنكم أيها الناسُ من بَعْدِ إنشائِكم خلقاً آخرَ وتَصْيِيرِنَاكُم إنساناً سوياً مَيِّتُونَ وعائدونَ تراباً كما كنتم، ثم إنكم بعد موتكم وعَوْدِكم رفاتاً بالياً مبعوثونَ من الترابِ خلقاً جديداً، كما بدأناكم أوَّلَ مرّة. وإنما قيل: «ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلكَ لَمَيِّتُونَ» لأنه خبر عن حالٍ لهم يحدث ولم يكن.

وكذلك تقول العربُ لمن لم يَمُتْ: هو مائتٌ وميتٌ عن قليلٍ، ولا يقولون لمن قد مات مائت، وكذلك هو طَمِعٌ فيما عندكَ إذا وصف بالطَّمَع، فإذا أخبر عنه أنه سيفعل ولم يفعل قيل هو طامعٌ فيما عندك غداً، وكذلك ذلك في كلٍّ ما كان نظيراً لما ذكرناه[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد خلقنا فوقكم أيها الناسُ سبعَ سمواتٍ، بعضهنَّ فوقَ بعضٍ، والعربُ تسمي كُلَّ شيءٍ فوقَ شيءٍ طريقة. وإنما قيل للسمواتِ السبعِ سبع طرائق، لأن بعضهنَّ فوقَ بعضٍ، فكلُّ سماء منهنَّ طريقة.

وقوله: «وَما كُنَّا عَنِ الخَلْقِ غافلِينَ»، يقولُ: وما كنا في خَلْقِنَا السمواتِ السبع فوقكم عن خلقنا الذي تحتها غافلين، بل كنا لهم حافظينَ من أنْ تسقط عليهم فتهلكهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأنزلنا من السماء ما في الأرضِ من ماءٍ فأسكناهُ فيها.

وقوله: «وَإِنَّا على ذهاب بِه لَقادِرُونَ»، يقول جَلَّ ثناؤُه: وإنا على الماء الـذي أسكناهُ في الأرض لقادرون أنْ نذهبَ به، فتهلكوا أيها الناسُ عَطَشاً

(١) هذا كلام الفراء في معاني القرآن: ٢/٢٣٢.

وتخرب أَرَضُوكُمْ، فلا تنبت زرعاً ولا غرساً، وتهلك مواشيكم، يقولُ: فمن نعمتي عليكم تَرْكي ذلك لكم في الأرضِ جارياً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فأَحْدَثْنَا لكم بالماءِ الذي أنزلناهُ من السماء بساتينَ من نخيلٍ وأعنـاب «لَكُمْ فِيهَا»، يقولُ: لكم في الجنات «فَوَاكِهُ» كثيرة، «وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ»، يقولُ: ومن الفواكه تأكلون. وقد يجوز أنْ تكونَ الهاء والألف من ذكر الجنات، ويحتمل أن تكون من ذكر النخيل والأعناب.

وخصّ جَلَّ ثَنَاؤُهُ الجنات التي ذكرها في هذا الموضع، فوصفها بأنها من نخيلٍ وأعناب، دونَ وصفها بسائرِ ثمارِ الأرض، لأنَّ هذين النوعينِ من الثمارِ كانا هما أعظم ثمارِ الحجاز وما قَرُبَ منها؛ فكانتِ النخيلُ لأهلِ المدينة. والأعنابُ لأهلِ الطائف، فذكَّرَ القومَ بما يعرفونَ من نعمةِ الله عليهم، بما أنعمَ به عليهم من ثمارها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ٢٠﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: وأنشـأنا لكم أيضاً شجرةً تخرجُ من طورِ سيناء، «وشجرةً» منصوبة عطفاً على الجنات ويعني بها: شجرة الزيتون.

وقوله: «تخْرُجُ مِنْ طُورِ سيناءَ»، يقولُ: تخرج من جبلٍ ينبتُ الأشجار.

وقد بيَّنتُ معنى الطور فيما مضى، واختلاف المختلفين بما أغنى عن إعادتِه في هذا الموضع.

وأما قوله: «سيناءَ» فإنَّ القَرَأة اختلفت في قراءته، فقرأته عامة قَرَأة المدينة والبصرة «سِيناءَ» بكسر السين. وقرأ ذلك عامة قَرَأة الكوفة «سَيْنَاءَ» بفتحِ السين، وهما جميعاً مجمعون على مَدِّهَا.

والصوابُ من القولِ في ذلك، أنهما قراءتان معروفتان في قَرَأة الأمصار، بمعنى واحد، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيبٌ.

واختلف أهلُ التأويل في تأويله، فقال بعضهم: معناه: المباركُ، كأن معنى الكلام عنده: شجرةً تخرجُ من جبلٍ مباركٍ.

وقال آخرون: معناه: حَسَنٌ.

وقال آخرون: هو اسمُ جبلٍ معروف.

وقال آخرون: معناه: أنه جبلٌ ذو شجر.

والصوابُ من القولِ في ذلك أن يقال: إنَّ سيناء اسمٌ أُضِيفَ إليه الطورُ يعرف به، كما قيل جَبَلا طيىء فأضيفا إلى طيىء، ولو كان القولُ في ذلك كما قال مَنْ قال: معناه: جَبَلٌ مباركٌ، أو كما قال: من قال معناه حَسَن. لكان الطور مُنَوَّناً، وكان قوله سيناء، من نعته، على أن سيناء بمعنى: مبارك وحسن، غير معروفٍ في كلام العرب، فيجعل ذلك من نعت الجبل، ولكن القول في ذلك إن شاء الله، كما قِيلَ من أنه جبلٌ عُرِفَ بذلك، وأنه الجبلُ الذي نُودِيَ منه موسى ﷺ، وهو مع ذلك مباركٌ، لا أَنَّ معنى سيناء: معنى مباركٍ.

وقوله: «تَنْبُتُ بالدُّهْنِ»، يقولُ: تَنْبُتُ هذه الشجرة بثمرِ الدهن.

وقوله: «وصِبْغٍ للآكِلِين»، يقولُ: تَنْبُتُ بالدهن وبِصِبْغٍ للآكلين يَصْطَبِغُ بالزيتِ الذينَ يأكلونه[1].

---

(١) يصطبغ: يأْتدمُ، أي: الآكلون يأتدمون بالزيت. وانظر معاني القرآن للفراء: ٢/٢٣٣.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وإنَّ لَكُمْ» أيها الناس «في الأنْعامِ لَعِبْرَةً» تعتبرونَ بها، فتعرفونَ بها أياديَ اللهِ عندكم، وقُدْرَتَهُ على ما يشاء، وإنه الذي لا يمتنعُ عليه شيءٌ أراده، ولا يعجزه شيءٌ شاءه. «نُسْقيكُمْ مِمَّا في بُطُونها» من اللبنِ الخارجِ من بينِ الفرثِ والدم، «ولَكُمْ» مع ذلك «فِيها»، يعني في الأنعام «مَنافِعُ كَثِيرةٌ» وذلك كالإبلِ التي يُحملُ عليها، ويُرْكَبُ ظهرها، ويُشْرَب دَرُّها، «ومِنْها تَأْكُلُونَ»، يعني: من لحومها تأكلون.

وقوله: «وَعَلَيْها وَعَلى الفُلْكِ تُحْمَلُونَ»، يقولُ: وعلى الأنعام وعلى السفن تحملون على هذهِ في البرِّ، وعلى هذه في البحر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إلى قَوْمِهِ» داعيهم إلى طاعتنا وتوحيدنا، والبراءة من كلِّ معبودٍ سِوانا، «فَقالَ» لهم نوح: «يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ»، يقولُ: قال لهم: ذلُّوا يا قوم للهِ بالطاعة، «ما لَكُمْ مِنْ إلَهٍ غَيْرُهُ»، يقولُ: ما لكم من معبودٍ يجوزُ لكم أنْ تَعْبُدُوه غيره، «أفَلا تَتَّقُونَ»، يقولُ: أفلا تخشون بعبادتِكُمْ غيرَهُ عقابَهُ أنْ يحلَّ بكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَالَ الْمَلَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ

﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فقالت جماعةُ أشرافِ قوم نُوح، الذين جحدوا توحيدَ الله، وكذَّبُوه لقومهم: ما نوح أيها القومُ إلا بشرٌ مثلكم، إنما هو إنسانٌ مثلكم، وكبعضكم «يُرِيدُ أنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ»، يقولُ: يريد أنْ يصيرَ له الفضلُ عليكم، فيكون متبوعاً وأنتم له تبع، «ولَوْ شاءَ اللهُ لأنْزَلَ مَلائِكَةً»، يقولُ: ولو شاء الله أنْ لا نعبدَ شيئاً سواه لأنزلَ ملائكةً، يقولُ: لأرسلَ بالدعاء إلى ما يَدْعُوكم إليه نوح ملائكةً تؤدِّي إليكم رسالته.

وقوله: «ما سَمِعْنا بهَذَا» الذي يدعونا إليه نوح من أنه لا إلهَ لنا غير الله في القرونِ الماضية، وهي آباؤهم الأوَّلُون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه مُخبراً عن قِيلِ الملإِ الذين كفروا من قوم نوح: «إنْ هُو إلَّا رجُلٌ بِه جِنَّةٌ» ما نوح إلا رجلٌ به جنونٌ. وقد يقال أيضاً للجنِّ جنة، فيتفق الاسمُ والمصدر، وهو من قوله: «إنْ هو» كناية اسم نوح.

وقوله: «فَتربَّصُوا بِهِ حتى حِينٍ»، يقولُ: فَتلَبَّثُوا به، وتنظروا به حتى حِين: يقول إلى وقت مَّا، ولم يَعْنُوا بذلك وقتاً معلوماً، إنما هو كقولِ القائلِ:

دَعْهُ إلى يوم ٍ مَّا، أو إلى وقتٍ مَّا.

وقـولـه: «قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ»، يقولُ: قال نوح داعياً ربه، مستنصراً به على قومه لما طال أمره وأمرهم، وتمادوا في غيهم «رَبِّ انْصُرْنِي» عَلى قَوْمي «بِما كَذَّبُونِ»، يعني: بتكذيبهم إيايَ، فيما بلَّغتُهم من رسالتك، ودعوتهم إليه من توحيدك.

وقوله: «فَأَوْحَيْنا إلَيْهِ أنِ اصْنَعِ الفُلْكَ بأعْيُنِنا وَوَحْينا»، يقولُ: فقلنا له حين استنصرَنا على كَفَرةِ قومِهِ: اصنع الفُلْكَ، وهي السفينة بأعيننا، يقولُ: بمرأىً منا، ومنظرٍ، «وَوَحْيِنَا»: يقولُ: وبتعليمنا إياكَ صنعتها، «فإذَا جاء أمْرُنا»، يقولُ: فإذا جاء قضاؤنا في قومكَ بعذابِهم وهلاكِهم، «وَفَارَ التَّنُّورُ».

وقد ذكرنا فيما مضى اختلافَ المختلفين في صفة فَوْرِ التنور. والصواب عندنا من القولِ فيه، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

«فاسْلُكْ فيها مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ»، يقولُ: فادخل في الفلك واحملْ، والهاء والألف في قوله: «فيها» من ذِكْر الفُلك «مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ»، يقال: سلكته في كذا وأسلكته فيه.

«وأهْلَكَ»، وهم وَلَدُه ونساؤهم، «إلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ القَوْل» من الله بأنه هالكٌ فيمن يهلكُ من قومكَ فلا تَحملْهُ معكَ، وهو يام الذي غرق. ويعني بقـوله: «مِنْهُمْ» مِن أهلكَ، والهاء والميم في قوله: «منهم» من ذِكْرِ الأهل. وقوله: «وَلا تخاطِبْنِي»... الآية، يقولُ: ولا تسألني في الذين كفروا بالله أنْ أُنجِّيهم، «إنَّهُمْ مُغْرَقُونَ»، يقولُ: فإني قد حتمتُ عليهم أنْ أُغرِقَ جميعَهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «فإذَا اسْتَوَيْتَ أنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلى الفُلْكِ»: فإذا اعتدلتَ في السفينة أنتَ ومَنْ معك ممن حملته معكَ من أهلك راكباً فيها عالياً فوقها، «فَقُلْ الحَمْدُ للهِ الَّذي نَجَّانا مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ»، يعني من المشركينَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه نوح عليه السلام: وقُلْ إذا سَلَّمَكَ اللهُ وأخرجكَ من الفُلك، فنزلتَ عنها: «رَبِّ أنْزِلْني مُنزَلاً» من الأرضِ «مُبارَكاً، وأنْتَ خَيْرُ» مَنْ أنزلَ عِبادَهُ المنازلَ.

وقوله: «إنَّ في ذلكَ لآياتٍ» يقول تعالى ذِكْرُه: إن فيما فعلنا بقومِ نوحٍ يا محمـدُ من إهـلاكِنـاهُمْ إذْ كذبوا رُسُلَنَا، وجحدوا وحدانيتنا وعبدوا الآلهةَ والأصنامَ، لَعِبَراً لقومكَ من مشركي قريش، وعظاتٍ وحُجَجاً لنا، يستدلون بها على سنتنا في أمثالهم، فينزجروا عن كفرهم، ويرتدعوا عن تكذيبكَ، حذراً أن يصيبهم مثلُ الذي أصابهم من العذابِ.

وقوله: «وَإنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكنا مُخْتَبِرِيهم بتذكيرنا إياهم بآياتنا، لننظُرَ ما هُمْ عاملونَ قبلَ نزولِ عقوبتنا بهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ثم أحدثنا من بعد مَهْلِكِ قومِ نوحٍ، قرناً آخرين،

فأوجدناهم «فأَرْسَلْنا فِيهِم رَسُولاً مِنْهُمْ» داعياً لهم «أَنِ اعْبُدُوا اللهَ» يا قوم، وأطيعوهُ دونَ الآلهةِ والأصنام، فإنَّ العبادةَ لا تنبغي إلا له «ما لَكُمْ مِنْ إلَهٍ غَيْرُهُ»، يقولُ: ما لكم من معبودٍ يصلحُ أنْ تعبدُوا سواه «أفَلا تَتَّقُونَ» أفلا تخافون عقابَ الله بعبادتكم شيئاً دونه، وهو الإلهُ الذي لا إله لكم سواه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَـٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۝٣٣﴾

يقولُ تعالى ذِكْرُه: وقالت الأشرافُ من قومِ الرسولِ الذي أرسلنا بعد نوحٍ، وعَنَى بالرسولِ في هذا الموضع: صالحاً، وبقومِه: ثمود «الَّذِينَ كَفَرُوا وكَذَّبُوا بِلِقاءِ الآخِرَةِ»، يقولُ: الذين جحدوا توحيدَ الله؛ وكذَّبُوا بلقاءِ الآخرة: يعني كَذَّبُوا بلقاءِ الله في الآخرة.

وقوله: «وأتْرَفْناهُمْ في الحَياةِ الدُنْيا»، يقولُ: ونعَّمناهم في حياتهم الدنيا بما وسَّعنا عليهم من المعاشِ، وبسطنا لهم من الرزقِ، حتى بَطِرُوا وعَتَوْا على رَبِّهم، وكفروا.

وقوله: «ما هَذَا إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ»، يقولُ: قالوا: بعثَ اللهُ صالحاً إلينا رسولاً من بيننا، وخَصَّهُ بالرسالة دوننا، وهو إنسانٌ مثلنا يأكلُ مما نأكلُ منه من الطعام، ويشربُ مما نشربُ، وكيف لم يرسل مَلَكاً من عندِه يُبَلِّغُنَا رسالَتَهُ قال: «وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ»، معناه: مما تشربونَ منه، فحذف «من» الكلام «منه»، لأنَّ معنى الكلام: ويشربُ من شرابكم، وذلك أنَّ العربَ تقولُ: شربتُ من شرابك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ الملأ من قومِ صالح لقومهم: «وَلئِنْ أطَعْتُمْ بَشَراً مثْلَكُمْ» فاتبعتموه، وقَبِلْتُمْ ما يقولُ وصدَّقْتُموه «إنَّكُمْ» أيها القومُ «إذاً لَخاسِرُونَ»، يقولُ: قالوا: إنكم إذن لمغبونون حظوظَكُمْ من الشرفِ والرفعةِ في الدنيا باتباعكم إياه.

وقوله: «أيَعِدُكُمْ أنَّكُمْ إذَا مِتُّمْ وكُنْتُمْ تُراباً وَعِظاماً»... الآية. يقول تعالى ذِكْرُه: قالوا لهم: أيَعِدُكُمْ صالحُ أنكم إذا متم وكنتم تراباً في قبوركم، وعظاماً قد ذهبتْ لحومُ أجسادِكم، وبقيتْ عظامُهَا أنكم مُخْرَجُونَ من قبورِكم أحياء، كما كنتم قبلَ مماتكم؟.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾

وهذا خَبَرٌ من الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ عن قولِ الملأ من ثمود أنهم قالوا: هيهاتَ هيهاتَ: أي بعيدٌ ما تُوعَدُونَ أيها القومُ، من أنكم بعدَ موتِكم ومصيرِكُمْ تراباً وعظاماً مُخْرَجُونَ أحياء من قبوركم، يقولون ذلك غير كائن.

وقوله: «إنْ هِيَ إلاّ حَياتُنا الدُّنْيا»، يقولُ: ما حياة إلا حياتُنَا الدنيا التي نحنُ فيها «نَمُوتُ وَنَحْيَا» يقولُ: تموتُ الأحياءُ منا فلا تحيا، ويحدثُ آخرون منا فيولدونَ أحياء. «وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ»، يقولُ: قالوا: وما نحنُ بمبعوثِينَ بعد المماتِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قالوا ما صالح إلا رجلٌ اختلقَ على الله كذباً في قوله: «ما لَكُمْ مِنْ إلَهٍ غَيْرُهُ»، وفي وَعْدِه إياكم أنكم إذا مِتُّمْ وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مُخْرجون. وقوله: «هُوَ» من ذِكْرِ الرسولِ وهو صالح «وَما نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ»، يقولُ: وما نحنُ له بِمُصَدِّقِينَ فيما يقولُ: إنه لا إلهَ لنا غير الله، وفيما يَعِدُنَا من البعثِ بعد المماتِ.

وقوله: «قالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ»، يقولُ: قال صالح لما أيسَ من إيمانِ قومِهِ بالله، ومن تصديقهم إياه بقولهم: «وَما نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ» ربِّ انصرني على هؤلاءِ بما كَذَّبُونِ، يقولُ: بتكذيبهم إيَّايَ فيما دعوتُهُمْ إليه من الحقِّ، فاستغاثَ صلواتُ الله عليه بربه من أذاهم إياه، وتكذيبهم له، فقال الله له مجيباً في مسألته إيَّاهُ ما سألَ: عن قليلٍ يا صالحُ ليصبحنَّ مُكَذِّبُوكَ من قومك على تكذيبهم إياكَ نادمينَ، وذلك حين تَنزلُ بهم فِتْنَتُنَا فلا ينفعهمُ الندم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: فانتقمنا منهم، فأرسلنا عليهم الصيحةَ، فأخذتهم بالحقِّ، وذلك أنَّ الله عاقبهم باستحقاقِهم العقابَ منه بكفرهم به، وتكذيبهم رسوله. «فَجَعَلْنَاهُمْ غُثاءً»، يقولُ: فَصَيَّرْنَاهُمْ بمنزلةِ الغثاء، وهو ما ارتفعَ على السيلِ ونحوه، كما لا يُنْتَفَعُ به في شيءٍ، فإنما هذا مثل. والمعنى: فأهلكناهم فجعلناهم كالشيء الذي لا منفعةَ فيه.

وقوله: «فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ»، يقولُ: فأبعد اللهُ القومَ الكافرينَ بهلاكِهم إذْ كفروا بربهم، وعَصَوْا رُسُلَهُ، وظلموا أنفسهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ۝٤٢ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٤٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ثم أحدثنا من بعدِ هلاكِ ثمودَ قوماً آخرين.

وقوله: «ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أجَلَهَا»، يقولُ: ما يتقدمُ هلاكُ أمةٍ من تلك الأممِ التي أنشأناها بعدَ ثمود، قبلَ الأجلِ الذي أجَّلْنَا لهلاكها، ولا يستأخرُ هلاكُها عن الأجلِ الذي أجَّلْنَا لهلاكِها، والوقت الذي وَقَّتْنَا لفنائها، ولكنها تهلكُ لمجيئِهِ. وهذا وعيدٌ من اللهِ لمشركي قومِ نبينا محمدٍ ﷺ، وإعلامٌ منه لهم أنَّ تأخيره في آجالهم مع كفرهم به وتكذيبهم رسولَهُ، لِيَبْلُغُوا الأجلَ الذي أجَّلَ لهم، فيحلّ بهم نقمته، كَسُنَّتِهِ فيمَنْ قَبْلَهُمْ من الأممِ السالفة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٤٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «ثُمَّ أرْسَلْنَا» إلى الأمم التي أنشأنا بعد ثمود «رُسُلَنا تَتْرَى» يعني: يتبعُ بعضها بعضاً، وبعضها في إثرِ بعض.

وقوله: «كُلَّما جاءَ أُمَّةً رَسُولَهَا كَذَّبُوهُ»، يقولُ: كلما جاء أمةً من تلك الأممِ التي أنشأناها بعدَ ثمود رسولها الذي نُرسِلُه إليهم كَذَّبُوهُ فيما جاءهم به من الحقِّ من عندنا.

وقوله: «فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً»، يقولُ: فأتبعنا بعضَ تلك الأمم بعضاً بالهلاكِ، فأهلكنا بعضَهم في إثرِ بعض.

وقوله: «وَجَعَلْنَاهُمْ أحادِيثَ» للناس، ومثلاً يُتَحَدَّثُ بهم في الناسِ، والأحاديثُ في هذا الموضع جمع أُحدوثة، لأنَّ المعنى ما وصفتُ من أنهم جُعِلُوا للناسِ مثلاً يتحدَّثُ بهم، وقد يجوز أنْ يكونَ جمع حديث، وإنما قيل: «وَجَعَلْناهُمْ أحادِيثَ» لأنهم جُعِلُوا حديثاً، ومثلاً يتمثَّلُ بهم في الشرِّ، ولا يقالُ في الخير: جعلته حديثاً ولا أُحدوثةً.

وقوله: «فَبُعْداً لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ»، يقولُ: فأبعد اللهُ قوماً لا يؤمنون بالله، ولا يصدِّقُونَ برسوله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ۝٤٥ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ۝٤٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ثم أرسلنا بعدَ الرسلِ الذين وصفَ صِفَتهم قبلَ هذه الآية موسى وأخاهُ هارونَ إلى فرعونَ وأشرافِ قومِهِ من القبطِ «بآياتنا»، يقولُ: بحججنا «فاسْتَكْبَرُوا» عن اتِّباعِهَا والإيمانِ بما جاءهم به من عند الله «وكانُوا قَوْماً عالِينَ»، يقولُ: وكانوا قوماً عالين على أهلِ ناحيتهم، ومَنْ في بلادهم من بني إسرائيل وغيرهم بالظلم، قاهرين لهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ ۝٤٧ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ۝٤٨﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: فقال فرعون وملؤه «أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا» فَنَتَّبعهما «وَقَوْمُهُما» من بني إسرائيلَ «لَنا عابِدُونَ» يعنون أنهم لهم مُطِيعُونَ مُتَذَلِّلُونَ، يأتمرونَ لأمرِهم، ويَدِينُونَ لهم، والعربُ تُسمي كُلَّ مَنْ دان لملكٍ عابداً له. ومن ذلك قِيلَ لأهلِ الحيرة: العُبَّادُ، لأنهم كانوا أهلَ طاعةٍ لملوكِ العجم.

وقـولـه: «فَكَذَّبُوهُمَا فَكانُوا مِنَ المُهْلَكِينَ»، يقولُ: فكذَّبَ فرعونُ وملؤُه موسى وهارونَ فكانوا ممن أهلَكَهُمُ اللهُ، كما أهلكَ مَنْ قَبْلَهُمْ من الأممِ بتكذيبها رسلها.

القـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: ولقد آتينا موسى التوراةَ ليهتدي بها قومُه من بني إسرائيل، ويعملوا بما فيها، «وَجَعَلْنا ابْنَ مَرْيَمَ وأُمَّهُ»، يقولُ: وجعلنا ابنَ مريم وأُمَّهُ حجةً لنا على مَنْ كان بينهم، وعلى قدرتنا على إنشاءِ الأجسامِ من غيرِ أصلٍ، كما أنشأنا خَلْقَ عيسى من غيرِ أبٍ.

وقوله: «وَآوَيْناهُما إلى رَبْوَةٍ»، يقولُ: وضَمَمْنَاهُمَا وصَيَّرْنَاهُمَا إلى ربوةٍ، يقال: أوى فلانٌ إلى موضعِ كذا، فهو يأوي إليه: إذا صار إليه؛ وعلى مثال أفعلته فهو يُؤْويه.

وقوله: «إلى رَبْوَةٍ»، يعني: إلى مكانٍ مرتفع من الأرض على ما حوله، ولذلك قيلَ للرجلِ يكونُ في رِفْعةٍ من قومِهِ، وعزٍّ وشرفٍ وعدد: هو في ربوةٍ من قومه.

وقوله: «ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: من صِفةِ الربوةِ التي آوينا إليها مريمَ وابنَها عيسى، أنها أرضٌ منبسطةٌ، وساحةٌ، وذاتُ ماءٍ ظاهرٍ لغيرِ الباطن حارٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقلنا لعيسى: يا أيها الرسلُ كُلُوا من الحلالِ الذي طَيَّبَهُ اللهُ لكم دونَ الحرامِ، «وَاعْمَلُوا صَالِحاً»، تقول في الكلام للرجل الواحد: أيها القومُ كُفُّوا عنَّا أذاكم، وكما قال: «الَّذِينَ قالَ لهمُ النَّاسُ»، وهو رجلٌ واحد.

وقوله: «إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ»، يقولُ: إني بأعمالكم ذُو علمٍ لا يخفى عليَّ منها شيءٌ، وأنا مُجازِيكم بجميعها، ومُوَفِّيكُمْ أُجورَكُمْ وثوابكم عليها، فَخُذُوا في صالحاتِ الأعمال واجتهدوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾

معنى الكلام: وقلنا لعيسى يا أيها الرسلُ كُلُوا من الطيباتِ. وقلنا: وإنَّ هذه أمتكم أمةً واحدة. وقيل: إنَّ الأمة الذي في هذا الموضع: الدِّينُ والمِلَّةُ.

وقوله: «وأنا رَبُّكُمْ فاتَّقُونِ»، يقولُ: وأنا مولاكم فاتقونِ بطاعتي تأْمَنُوا عِقابي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فتفرَّقَ القومُ الذين أمرهم الله من أمةِ الرسولِ عيسى، بالاجتماع على الدينِ الواحدِ والملةِ الواحدة، دِينَهُمْ الذي أمرهم الله بلزومِهِ. «زُبُـراً» كتباً، فدانَ كُلُّ فريقٍ منهم بكتابٍ غيرِ الكتابِ الذي دانَ به الفريقُ الآخر، كاليهودِ الذين زعموا أنهم دانوا بحكمِ التوراةِ، وكَذَّبُوا بحكمِ الإنجيلِ والقرآنِ، وكالنصارى الذين دانوا بالإنجيلِ بزعمهم، وكَذَّبُوا بحكمِ الفرقان.

وقوله: «كُلُّ حِزْبٍ بما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ»، يقولُ: كُلُّ فريقٍ من تلك الأمم بما اختاروه لأنفسِهم من الدينِ والكتبِ فَرِحُونَ مُعْجَبُونَ به، لا يرون أنَّ الحقَّ سِواه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ، فَدَعْ يا محمدُ، هؤلاءِ الذين تَقَطَّعُوا أمرهم بينهم زبراً «في غَمْرتهم» في ضلالتهم وغيهم، «حتى حِين»، يعني: إلى أجلٍ سيأتيهم عند مجيئِهِ عذابي.

وقوله: «أَيَحْسَبُونَ أنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَبَنِين»، يقول تعالى ذِكْرُه: أيحسبُ هؤلاءِ الأحزابُ الذين فَرَّقُوا دينهم زبراً، أنَّ الذي نُعطيهم في عاجلِ الدنيا من مالٍ وبنين «نُسارِعُ لَهُمْ»، يقولُ: نُسابِقُ لهم في خيراتِ الآخرة، ونبادر لهم فيها. و«ما» من قوله: «أنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ» نصب لأنها بمعنى الذي. «بَلْ لا يَشْعُرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه تكذيباً لهم: ما ذلك كذلك، بل لا يعلمون

أنَّ إمدادي إياهم بما أُمِدُّهُمْ به من ذلك إنما هو إملاءٌ واستدراجٌ لهم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ» إن الذين هم من خشيتِهم وخوفِهم من عذابِ الله مشفقون، فهم من خشيتهم من ذلك دائبـونَ في طاعتـه، جادُّون في طَلَبِ مَرْضَـاتِـه. «وَالَّـذِينَ هُمْ بآياتِ رَبهِمْ يُؤْمِنُونَ»، يقولُ: والذين هم بآياتِ كتابهِ وحججه مُصَدِّقُون. «وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْـرِكُونَ»، يقولُ: والذين يُخْلِصُونَ لربهم عبادَتَهُمْ، فلا يجعلونَ له فيها لغيرِه شركاً لوثَنٍ، ولا لصنمٍ، ولا يُراءون بها أحداً من خَلْقِه، ولكنهم يجعلون أعمالهم لوجهه خالصاً، وإياه يقصدون بالطاعةِ والعبادةِ دونَ كُلِّ شيءٍ سواه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه بقوله: «والَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا» والذين يُعْطُونَ أهلَ سُهْمَانِ الصدقةِ ما فرضَ اللهُ لهم في أموالهم «ما آتَوْا» يعني: ما أعطوهم إياه من صدقةٍ، ويؤدُّونَ حقوقَ الله عليهم في أموالهم إلى أهلها «وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ»، يقولُ: خائفةٌ من أنهم إلى رَبِّهم راجعون، فلا يُنَجِّيهم ما فعلوا من ذلك من عذابِ الله، فهم خائفونَ من المرجعِ إلى الله.

وقوله: «أُولَئِكَ يُسارِعُونَ في الخَيْرَاتِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاءِ الذين هذه الصفاتُ صفاتُهم، يبادرونَ في الأعمالِ الصالحة، ويطلبونَ الزلفةَ عند الله بطاعتِه.

وقوله: «وَهُمْ لَهَا سابِقُونَ» كان بعضهم يقولُ: معناه: سَبَقَتْ لهم من الله السعادةُ، فذلك سبوقهم الخيرات التي يعملونها.

وكان بعضهم يتأوَّلُ ذلك بمعنى: وهُمْ إليها سابقونَ.

وتأوَّلَهُ آخرون: وهم من أجلها سابقون.

وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب، القولُ الذي قيلَ من أنه سَبَقَتْ لهم من الله السعادةُ، قبلَ مسارعتهم في الخيراتِ، ولِمَا سبقَ لهم من ذلك سارعوا فيها.

وإنما قلتُ ذلك أَوْلى التأويلين بالكلام، لأنَّ ذلك أظهر مَعْنَيَيْهِ، وأنه لا حاجةَ بنا إذا وَجَّهْنَا تأويلَ الكلامِ إلى ذلك إلى تحويلِ معنى اللام التي في قوله: «وَهُمْ لَهَا» إلى غيرِ معناها الأغلبِ عليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٦٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولا نكلفُ نفساً إلا ما يَسَعُهَا، ويصلحُ لها من العبادةِ، ولـذلك كلَّفناها ما كلفناها من معرفةِ وحدانيةِ الله، وشَرَعْنَا لها ما شرعنا من الشرائعِ. «وَلَدَيْنا كِتابٌ يَنْطِقُ بالحَقِّ»، يقولُ: وعندنا كتابُ أعمالِ الخَلْقِ بما عملوا من خيرٍ وشرٍّ ينطقُ بالحقِّ. «وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ»، يقولُ: يبينُ بالصدقِ عما عملوا من عمـلٍ في الـدنيا لا زيادةَ عليه ولا نقصان، ونحنُ مُوَفُّو جميعِهم أجـورَهُمْ، المحسن منهم بإحسانه، والمسيء بإساءته. «وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ»، يقولُ: وهم لا يُظْلَمُونَ بأنْ يزادَ على سيئاتِ المسيءِ منهم ما لم يَعْمَلْهُ فيعاقب على غيرِ جُرْمه، وينقص المحسن عما عمل من إحسانِهِ، فينقص عما له من الثواب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ٦٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ما الأمرُ كما يحسبُ هؤلاءِ المشركونَ من أنَّ إمدادنَاهُمْ بما نَمُدُّهُمْ به من مالٍ وبنينَ بخيرٍ نسوقُه بذلك إليهم والرضا منا عنهم، ولكن قلوبهم في غمرةٍ عَمًى عن هذا القرآنِ. وعَنَى بالغمرةِ ما غَمَرَ قلوبَهم، فَغَطَّاها عن فَهْمِ ما أَوْدَعَ اللهُ كتابَهُ من المواعظِ والعبرِ والحججِ. وعَنَى بقوله: «مِنْ هَذَا» من القرآن.

وقوله: «وَلَهُمْ أَعْمالٌ مِنْ دُونِ ذلكَ هُمْ لَهَا عامِلُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولهؤلاءِ الكفار أعمالٌ لا يرضاها اللهُ من المعاصي من دونِ ذلك، يقول: من دونِ أعمالِ أهلِ الإيمانِ بالله، وأهلِ التقوى والخشية له.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ٦٤ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ٦٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولهؤلاءِ الكفار من قريش أعمالٌ من دونِ ذلك هم لها عاملونَ، إلى أنْ يُؤْخَذَ أهلُ النِّعمةِ والبطرِ منهم بالعذاب.

«إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ»، يقولُ: فإذا أخذناهم به جأروا، يقولُ: ضَجُّوا واستغاثوا مما حَلَّ بهم من عذابنا، ولعلَّ الجُؤار: رفع الصوت، كما يجأرُ الثورُ.

وقوله: «لا تَجْأَرُوا اليَوْمَ»، يقولُ: لا تَضجُّوا وتستغيثوا اليومَ وقد نزلَ بكم العذابُ الذي لا يدفع عن الذينَ ظَلَمُوا أنفسَهُمْ، فإنَّ ضجيجَكم غير نافِعِكم، ولا دافعٍ عنكم شيئاً مما قد نزلَ بكم من سخطِ الله، «إِنَّكُمْ منَّا لا تُنْصَرُونَ»، يقولُ: إنكم من عذابنا الذي قد حَلَّ بكم لا تستنقذون، ولا يخلصكم منه

شيء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ۝٦٦ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ۝٦٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لهؤلاءِ المشركينَ من قريش: لا تضجُّوا اليومَ وقد نزلَ بكم سخطُ الله وعذابُه، بما كسبتْ أيديكم، واستوجبتُمُوه بكفركم بآياتِ ربكم «قَدْ كانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ» يعني: آيات كتاب الله، يقول: كانت آياتُ كتابي تُقْرَأُ عليكم، فتكذِّبُونَ بها وترجعونَ مُوَلِّينَ عنها إذا سمعتموها. كراهيةً منكم لسماعها. وكذلك يقال لكلِّ مَنْ رجع من حيثُ جاء نَكَصَ فلانٌ على عقبه.

وقوله: «مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ»، يقولُ: مستكبرينَ بحرمِ الله، يقولون: لا يظهر علينا فيه أحدٌ، لأنَّا أهلُ الحرم.

وقوله: «سامراً»، يقولُ: تَسْمرُونَ بالليل.

أما قوله: «تَهْجرون» فلها وجهان من المعنى: أحدهما أن يكون عَنَى أنه وصفهم بالإعراضِ عن القرآنِ أو البيتِ، أو رسولِ الله ﷺ ورفضِه. والآخرُ أنْ يكونَ عَنَى أنهم يقولون شيئاً من القولِ كما يهجرُ الرجلُ في منامه، وذلك إذا هَذَى، فكأنه وصفهم بأنهم يقولون في القرآنِ ما لا معنى له من القولِ، وذلك أن يقولوا فيه باطلاً من القولِ الذي لا يضرّه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦٨ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٦٩ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ۝٧٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أفلم يتدبرْ هؤلاءِ المشركونَ تنزيلَ الله وكلامَهُ، فيعلموا ما فيه من العِبَرِ، ويعرفوا حججَ اللهِ التي احتجَّ بها عليهم فيه. «أَمْ جاءَهُمْ ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُم الأَوَّلينَ»، يقولُ: أم جاءهم أمرُ ما لم يأتِ من قبلهم من أسلافِهم، فاستكبروا ذلك وأعرضوا، فقد جاءت الرسلُ من قبلهم، وأُنزلت معهم الكتبُ، وقد يحتمل أنْ تكون «أم» في هذا الموضع بمعنى: بَلْ، فيكون تأويل الكلام: أفلم يَدَّبَّرُوا القولَ بَلْ جاءهم ما لم يأتِ آباءهم الأوَّلين، فتركوا لذلك التدبرَ، وأعرضوا عنه، إذْ لم يكنْ فيمن سَلَفَ من آبائِهم ذلك.

وقوله: «أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أم لم يعرف هؤلاءِ المكذِّبُونَ محمداً، وأنه من أهلِ الصِّدْقِ والأمانة، فهم له مُنْكِرُونَ، يقولُ: فينكروا قولَهُ، أو لم يعرفوه بالصدقِ، ويحتجوا بأنهم لا يعرفونه، يقول جَلَّ ثناؤه: فكيف يُكَذِّبُونَهُ وهم يعرفونه فيهم بالصدقِ والأمانةِ. «أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ»، يقولُ: أيقولون بمحمدٍ جنونٌ، فهو يتكلمُ بما لا معنى له، ولا يفهمُ ولا يدري ما يقولُ «بَلْ جاءَهُمْ بالحَقِّ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فإنْ يقولوا ذلك فَكَذِبُهُمْ في قِيلِهم ذلك واضحٌ بَيِّنٌ، وذلك أنَّ المجنونَ يهذي، فيأتي من الكلام بما لا معنى له، ولا يعقل، ولا يفهم، والذي جاءهم به محمدٌ هو الحكمةُ التي لا أحكمَ منها، والحقّ الذي لا تخفى صِحَّتُه على ذي فطرةٍ صحيحة، فكيف يجوزُ أنْ يقال: هو كلام مجنون.

وقوله: «وأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما بهؤلاءِ الكَفَرةِ أنهم لم يعرفوا محمداً بالصدق، ولا أن محمداً عندهم مجنونٌ، بل قد علموه صادقاً محقاً فيما يقولُ، وفيما يدعوهم إليه، ولكن أكثرهم للإذعانِ للحقِّ كارهونَ، ولأتباعِ محمدٍ ساخطون، حَسَداً منهم له، وبغياً عليه، واستكباراً في الأرض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولو عَمِلَ الربُّ تعالى ذِكْرُه بما يهوى هؤلاءِ المشركونَ، وأجرى التدبيرَ على مشيئتهم وإرادتهم، وترك الحقَّ الذي هم له كارهون، لفسدتِ السمواتُ والأرضُ ومَنْ فيهنَّ، وذلك أنهم لا يعرفون عواقبَ الأمور، والصحيحَ من التدبيرِ والفاسدَ؛ فلو كانت الأمورُ جاريةً على مشيئتهم وأهوائهم مع إيثارِ أكثرهم الباطلَ على الحقِّ، لم تقرّ السمواتُ والأرض ومَنْ فيهنَّ من خَلْقِ الله، لأنَّ ذلك قام بالحقّ.

وقوله: «بَلْ أَتَيْناهُمْ بذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويل الذِّكْرِ في هذا الموضع، فقال بعضهم: هو بيانُ الحقِّ لهم بما أنزلَ على رجلٍ منهم من هذا القرآن.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: بل أتيناهم بِشَرَفِهم، وذلك أنَّ هذا القرآنَ كان شرفاً لهم، لأنه نزلَ على رجلٍ منهم، فأعرضوا عنه وكفروا به، وقالوا ذلك نظيرَ قوله: «وإنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ».

وهذان القولان متقاربا المعنى؛ وذلك أنَّ الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ أنزل هذا القرآنَ بياناً بَيَّنَ فيه ما لخلْقِه إليه الحاجةُ من أمرِ دينهم، وهو مع ذلك ذِكْرٌ لرسولِه ﷺ وقومه، وشَرَفٌ لهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أم تسألُ هؤلاءِ المشركينَ يا محمدُ، من قومكَ خراجاً. يعني أجراً على ما جِئتَهُمْ به من عند الله من النصيحة والحقِّ «فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ»: فأجرُ رَبِّكَ على نفاذِكَ لأمرِه، وابتغاء مَرْضَاتِه خيرٌ لك من ذلك، ولم يسألهم النبيُّ ﷺ على ما أتاهم به من عند الله أجراً، قال لهم، كما قالَ اللهُ له، وأمَرَهُ بقِيلِه لهم: «قُلْ لا أسألُكُمْ عَلَيْهِ أجْراً إلاَّ المَوَدَّةَ في القُرْبى»، وإنما معنى الكلام: أم تسألهم على ما جئتهم به أجراً، فَنَكَصُوا على أعقابهم إذا تلوته عليهم مستكبرينَ بالحرم، فخراجُ رَبِّكَ خير.

وقـولـه: «وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقينَ»، يقولُ: واللهُ خيرُ مَنْ أعطى عوضاً على عملٍ، ورزق رزقاً.

وقوله: «وَإنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإنك يا محمدُ، لتدعو هؤلاءِ المشركينَ من قومِك إلى دينِ الإسلام، وهو الطريقُ القاصدُ، والصراطُ المستقيم، الذي لا اعوجاجَ فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: والذين لا يُصَدِّقُونَ بالبعثِ بعد الممات، وقيامِ الساعة، ومجازاةِ اللهِ عبادَهُ في الدار الآخرة «عَنِ الصِّراطِ لَناكِبُونَ»، يقولُ: عن محجَّةِ الحَقِّ؛ وقَصْدِ السبيل وذلك دين الله الذي ارتضاهُ لعباده لعادلون، يقال منه: قد نَكَبَ فلان عن كذا: إذا عَدَلَ عنه ونكب عنه: أي عدل عنه.

وقوله: «وَلَوْ رَحِمْناهُمْ وكَشَفْنا ما بِهِمْ مِنْ ضُرّ»، يقول تعالى: ولو رحمنا

هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرةِ، ورفعنا عنهم ما بهم من القَحْطِ والجدب، وضرِّ الجوعِ والهزال «لَلَجُّوا في طُغْيانهمْ»، يعني: في عُتُوِّهم، وجُرْأَتِهم على رَبِّهم «يَعْمَهُونَ»، يعني: يتردّدون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ۝٧٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد أخذنا هؤلاءِ المشركينَ بعذابِنَا، وأنزلنا بهم بأْسَنَا وسخطنا، وضَيَّقْنَا عليهم معايشهم، وأجدبنا بلادَهُمْ، وقتلنا سراتَهُمْ بالسيفِ «فَمَا اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ»، يقولُ: فما خَضَعُوا لربهم فينقادوا لأمرِه ونهيه، ويُنِيبُوا إلى طاعته. «وَما يَتَضَرَّعُونَ»، يقولُ: وما يتذللون له.

وذُكر أن هذه الآيةَ نزلتْ على رسولِ الله ﷺ حين أخذ الله قريشاً بسني الجَدْبِ، إذْ دعا عليهم رسولُ الله ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٧﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معناه: حتى إذا فتحنا عليهم بابَ القتالِ، فقتلوا يوم بدر.

وقال آخرون: معناه: حتى إذا فتحنا عليهم بابَ المجاعةِ والضرِّ، وهو البابُ ذُو العذابِ الشديد. وهذا القولُ أَوْلى بتأويلِ الآية، لصحةِ الخبرِ عن ابن عباس، أنَّ هذه الآيةَ نزلتْ على رسولِ الله ﷺ، في قصة المجاعةِ التي

أصابت قريشاً بدعاء رسولِ الله ﷺ عليهم[١] وأمر ثمامة بن أثال[٢]، وذلك لاشكَّ أنه كان بعد وقعة بدر.

وقوله: «إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ»، يقولُ: إذا هؤلاءِ المشركونَ فيما فتحنا عليهم من العذابِ حَزْنَى نادمونَ على ما سَلَفَ منهم في تكذيبهم بآياتِ الله، في حين لا ينفعهم الندمُ والحزنُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: واللهُ الذي أحدثَ لكم أيها المكذِّبُونَ بالبعثِ بعد المماتِ، السمعَ الذي تسمعون به، والأبصارَ التي تُبصرونَ بها، والافئدةَ التي تفقهون بها، فكيف يتعذَّرُ على مَنْ أنشأ ذلك ابتداء عادته بعد عدمه وفقده، وهو الذي يُوجِدُ ذلك كُلَّهُ إذا شاء، ويفنيه إذا أراد «قليلاً ما تشكرونَ»، يقولُ: تشكرون أيها المكذِّبُونَ خبرَ اللهِ من عطائِكم السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ قليلاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٧٩﴾

---

(١) ساقه المؤلف من طريق عكرمة عن ابن عباس، وهو ان رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استعصوا فقال: «اللهم أَعِنِّي على قريش بسنين كسني يوسف» أو: «اللهم أعني عليهم بسبعٍ كسبعِ يوسف» وأصله في الصحيحين.

(٢) أسر المسلمون ثمامة بن أثال وأتوا به النبيَّ ﷺ، فخلَّى سبيله، فلحق بمكة، فحال بين أهل مكة وبين الميرة من اليمامة حتى أكلت قريش العِلْهز، فجاء أبو سفيان إلى النبيِّ ﷺ فقال: أليس بأنك بعثت رحمةً للعالمين؟ فقال: بلى. فقال: قد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع، فأنزل الله: «ولقد أخذناهم بالعذاب». انظر: أسباب النزول للواحدي: ١٧٩، والدر المنثور: ١٢/٥.

يقول تعالى ذِكْرُه: والله الذي خلقكم في الأرض، وإليه تُحْشَرُونَ من بعد مماتِكم ثم تُبعَثُونَ من قبوركم إلى موقفِ الحساب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٨٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والله الذي يُحيي خَلْقَهُ يقولُ: يجعلهم أحياء بعد أن كانوا نُطَفاً أمواتاً، بنفخِ الروح فيها بعد التارات التي تأتي عليها، «ويميتُ»: يقـول: ويميتهم بعد أنْ أحياهم. «ولَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ والنَّهارِ»، يقولُ: وهو الذي جعلَ الليلَ والنهار مختلفين، كما يقال في الكلام: لك المنُّ والفضلُ، بمعنى: إنك تَمُنُّ وتفضلُ.

وقوله: «أفَلا تَعْقِلُونَ»، يقولُ: أفلا تعقلون أيها الناسُ أنَّ الذي فعلَ هذه الأفعالَ ابتداءً من غيرِ أصلٍ، لا يمتنعُ عليه إحياءُ الأمواتِ بعد فنائهم، وإنشاءُ ما شاءَ إعدامه بعد إنشائِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ۝٨١ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ۝٨٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ما اعتبرَ هؤلاءِ المشركونَ بآياتِ الله، ولا تَدَبَّرُوا ما احتجَّ عليهم من الحججِ والدلالة على قدرته، على فعل كلِّ ما يشاء، ولكنْ قالوا مثلَ ما قالَ أسلافُهم من الأممِ المُكَذِّبةِ رُسُلَها قَبْلَهُمْ. «قالُوا أئِذَا مِتْنَا وكُنَّا تُراباً وَعِظاماً»، يقولُ: أئذا متنا، وعدنا تراباً، قد بَلِيَتْ أجسامنا، وبرأتْ عظامنا من لحومنا «أئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ»، يقولُ: أئِنَّا لمبعوثون من قبورنا أحياء كهيئتنا قبلَ المماتِ؟ إنَّ هذا لشيءٌ غير كائن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قالوا: لقد وُعِدْنَا هذا الوعدَ الذي تَعِدُنَا يا محمدُ، وَوَعَدَ آباءنا من قبلنا قومٌ ذكروا أنهم لله رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ، فلم نَرَهُ حقيقة أنَّ هذا يقول: ما هذا الذي تَعِدُنَا من البعثِ بعد الممات «إلَّا أساطِيرُ الأوَّلِينَ»، يقولُ: ما سَطَّرَهُ الأوَّلُونَ في كتبهم من الأحاديثِ والأخبارِ التي لا صحةَ لها ولا حقيقة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ، لهؤلاءِ المكذِّبين بالآخرةِ من قومكَ لِمَنْ ملكُ الأرضِ ومَنْ فيها من الخَلْقِ، إنْ كنتم تعلمون مَن مالكها، ثم أعلمه أنهم سيقرُّونَ بأنها لله ملكاً دونَ سائرِ الأشياءِ غيره. «قُلْ أفَلا تَذَكَّرُونَ»، يقولُ: فَقُلْ لهم إذا أجابوكَ بذلك كذلك أفلا تَذَكَّرُونَ، فتعلمون أنَّ مَنْ قدرَ على خَلْقِ ذلك ابتداء، فهو قادرٌ على إحيائهم بعد مماتهم، وإعادتهم خَلْقاً سَوِيّاً بعد فنائهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ لهم يا محمدُ، مَنْ ربُّ السمواتِ السبع، وربُّ العرشِ المحيط بذلك؟ سيقولون ذلك كله لله «وهو رَبُّه»، فقل لهم:

أفلا تتَّقُونَ عقابه على كُفرِكُمْ به، وتكذيبكم خَبَرَهُ وخبرَ رسولِه؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ، مَنْ بيدهِ خزائنُ كُلِّ شيء.

وقوله: «وَهُوَ يُجِيرُ» مَنْ أرادَ مِمَّنْ قَصَدَهُ بسوءٍ «وَلا يُجارُ عَلَيْهِ»، يقولُ: ولا أحد يمتنعُ مِمَّنْ أرادَهُ هو بسوء، فيدفع عنه عذابه وعقابه «إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» من ذلك صفته، فإنهم يقولون: إنَّ ملكوتَ كُلِّ شيءٍ، والقدرة على الأشياء، كُلِّها للهِ، فَقُلْ لهم يا محمدُ «فَأَنَّى تُسْحَرُونَ»، يقولون: فمن أيِّ وجهٍ تصرفون عن التصديقِ بآياتِ الله، والإقرارِ بأخبارِه وأخبارِ رسولِه، والإيمانِ بأنَّ الله القادرُ على كل ما يشاء، وعلى بَعْثِكم أحياء بعد مماتِكم، مع علمكم بما تقولونَ من عظيمِ سلطانِه وقدرته.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَـى: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾

يقولُ: ما الأمرُ كما يزعمُ المشركونَ باللهِ من أنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ، وأنَّ الآلهةَ والأصنامَ آلهةٌ دون الله. «بَلْ أَتَيْناهُمْ بالحَقِّ» اليقين، وهو الدينُ الذي ابتعثَ اللهُ به نبيه ﷺ، وذلك الإسلامُ، ولا يُعْبَد شيءٌ سوى الله، لأنه لا إلهَ

غيره. «وإنَّهُمْ لَكاذِبُونَ»، يقولُ: وإنَّ المشركينَ لكاذبونَ فيما يُضيفونَ إلى الله، ويَنْحَلُونَهُ من الولدِ والشريك.

وقوله: «ما اتَّخَذَ اللهُ من وَلَدٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما لله من وَلَدٍ، ولا كانَ معه في القديم، ولا حين ابتدَعَ الأشياءَ مَنْ تصلحُ عبادتُه، ولو كان معه في القديم، أو عند خَلْقِه الأشياء مَنْ تصلح عبادته «مِنْ إلهٍ إذاً لَذَهَب»، يقولُ: إذنْ لاعتـزلَ كُلُّ إلـهٍ منهم «بِمَا خَلَقَ» من شيءٍ فانفردَ به، ولتغالبوا، فَلَعَلا بعضُهم على بعض، وغَلَبَ القويُّ منهم الضعيف، لأن القويَّ لا يرضى أنْ يعلوه ضعيفٌ، والضعيف لا يصلح أن يكون إلهاً، فسبحان الله ما أبلغها من حجة، وأوجزها لمن عقل وتدبر.

وقوله: «إذاً لَذَهَبَ» جواب لمحذوف، وهو: لو كان معه إلهٌ، إذنْ لذهبَ كُلُّ إلهٍ بما خلق، اجتُزِىءَ بدلالةِ ما ذكر عليه عنه.

«سُبْحـانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه تنزيهاً لله عما يصفه به هؤلاءِ المشركونَ، من أنَّ له ولداً، وعَمَّا قالوه من أنَّ له شريكاً، أو أنَّ معه في القدم إلهاً يُعبد، تباركَ وتعالى.

وقوله: «عالِمُ الغَيْبِ والشَّهادَةِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هو عالِمُ ما غابَ عن خَلْقِه من الأشياء، فلم يَرَوْهُ ولم يشاهدوهُ، وما رأوه وشاهدوه، إنما هذا من الله خَبَرٌ عن هؤلاءِ الذين قالوا من المشركينَ: اتَّخَذَ اللهُ ولداً، وعبدوا من دونِه آلهةً، أنهم فيما يقولون ويفعلون مُبْطِلُونَ مخطئون، فإنهم يقولون ما يقولون من قولٍ في ذلك عن غيرِ علمٍ، بَلْ عن جهلٍ منهم به، وإنَّ العالمَ بقديمِ الأمورِ وبحديثها، وشاهِدِهَا وغائِبها عنهم، اللهُ الذي لا يَخْفَى عليه شيءٌ، فَخَبَرُهُ هو الحقُّ دونَ خبرهم.

وقوله: «فَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فارتفع الله وَعَلاَ عن

شركَ هؤلاءِ المشركينَ، ووصفهم إياه بما يصفون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ۝٩٣ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝٩٤ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ۝٩٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ، ربِّ إنْ تُرِيَنِّي في هؤلاءِ المشركينَ ما تَعِدُهُمْ من عذابكَ، فلا تُهْلِكني بما تُهلكُهم به، ونَجِّني من عذابكَ وسخطكَ، فلا تجعلني في القوم المشركينَ، ولكن اجعلني ممن رضيتَ عنهُ من أوليائكَ.

وقوله: «وإنَّا عَلى أنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإنَّا يا محمدُ، على أنْ نُرِيَكَ في هؤلاءِ المشركينَ ما نَعِدُهُمْ من تعجيلِ العذاب لهم لقادرونَ فلا يَحْزُنَنَّكَ تكذيبُهم إياكَ بما نَعِدُهُمْ به، وإنما نُؤَخِّرُ ذلك ليبلُغَ الكتابُ أجله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ۝٩٦ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ۝٩٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه: ادفع يا محمدُ بالخلةِ التي هي أحسنُ، وذلك الإغضاءُ والصفحُ عن جَهَلَةِ المشركينَ، والصبر على أذاهم، وذلك أمره إياه قبلَ أمرِه بحربِهم، وعَنَى بالسيئة: أذى المشركينَ إياهُ وتكذيبهم له فيما أتاهُمْ به من عندِ الله، يقول له تعالى ذِكْرُه: اصبرْ على ما تَلْقَى منهم في ذاتِ الله.

وقوله: «نَحْنُ أعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: نحنُ أعلمُ بما يصفونَ اللهَ به، وينحَلُونَهُ من الأكاذيبِ والفِريةِ عليه، وبما يقولون فيكَ من السوءِ، ونحن مُجازُوهم على جميعِ ذلك، فلا يَحْزُنْكَ ما تسمعُ منهم من قبيحِ القول.

وقوله: «وَقُلْ رَبِّ أعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وقُلْ يا محمدُ، ربِّ أستجيرُ بك من خنق[1] الشياطينِ وهمزاتها، والهَمْزُ: هو الغَمْز، من ذلك قيل للهمز في الكلام: هَمْزة، والهَمَزَات جمع همزة.

وقوله: «وأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أنْ يحْضُرُونِ»، يقولُ: وقُلْ أستجيرُ بكَ ربِّ أنْ يحضرون في أموري.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: حتى إذا جاء أحدَ هؤلاءِ المشركينَ الموتُ، وعاينَ نزولَ أمرِ اللهِ به، قال لعظيمِ ما يُعاينُ مما يَقْدُمُ عليه من عذابِ اللهِ تَنَدُّماً على ما فاتَ، وتَلَهُّفاً على ما فرطَ فيه قبلَ ذلك من طاعةِ الله ومسألته للإقالة «رَبِّ ارْجِعُونِ» إلى الدنيا، فَرُدُّوني إليها «لَعَلِّي أعْمَلُ صَالِحاً»، يقولُ: كي أعملَ صالحاً فيما تركتُ قبلَ اليومِ من العملِ، فَضَيَّعْتُه، وفَرَّطتُ فيه.

وقوله: «كَلَّا»، يقول تعالى ذِكْرُه: ليس الأمرُ على ما قالَ هذا المشركُ،

(١) الهمز كالعصر، والخنق: هو عصر الرقبة وضغطها لينقطع النَّفَسُ، لذلك قال المؤلف: خنق الشيطان.

لن يُرْجَعَ إلى الدنيا، ولن يُعَادَ إليها «إنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها»، يقولُ: هذه الكلمة، وهو قوله: «رَبِّ ارْجِعُونِ» كلمة هو قائلها: يقولُ: هذا المشرك هو قائلها.

وقوله: «وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ»، يقولُ: ومن أمامهم حاجزٌ يحجزُ بينهم وبين الرجوعِ «إلى يوم يُبْعَثون» من قبورهم، وذلك يوم القيامة. والبرزخُ والحاجزُ والمُهْلَةُ متقارباتٌ في المعنى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تعَالَى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١﴾

اختلف أهلُ التأويل في المعنيِّ بقوله: «فإذَا نُفِخَ في الصُّورِ» من النفختين أيتُهما عَنى بها، فقال بعضهم: عنى بها النفخة الأولى.

فمعنى ذلك على هذا التأويل: فإذا نُفِخَ في الصورِ، فصَعِقَ مَنْ في السموات ومَنْ في الأرض إلا مَنْ شاء الله، فلا أنسابَ بينهم يومئذٍ يتواصلون بها، ولا يتساءلون، ولا يتزاورونَ، فيتساءلون عن أحوالهم، وأنسابهم.

وقال آخرون: بل عنى بذلك النفخة الثانية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تعَالَى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ١٠٣ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ١٠٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُه»: موازينُ حسناته وخَفَّتْ موازينُ سيئاتِه «فأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ» يعني الخالدون في جنات النعيم «وَمَنْ خَفَّتْ

مَوَازِينُهُ»، يقولُ: ومَنْ خفَّت موازين حسناتِه فرجَحَتْ بها موازينُ سيئاته «فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ»، يقولُ: غَبَنُوا أنفسهم حظوظها من رحمة الله «في جَهَنَّمَ خالِدُونَ»، يقولُ: هم في نار جهنم.

وقوله: «تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ»، يقولُ: تَسْفَع وُجُوهَهم النارُ. «وَهُمْ فِيها كالِحُونَ» والكلوح: أنْ تتقلص الشفتان عن الأسنانِ، حتى تبدو الأسنان.

فتأويلُ الكلام: يَسْفَعُ وجوههم لَهَبُ النار فَتُحْرِقها، وهم فيها متقلصو الشِّفاهِ عن الأسنانِ من إحراقِ النارِ وجوهَهُمْ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٠٥ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ۝١٠٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يقال لهم: «أَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ» يعني آيات القرآن تُتْلَى عليكم في الدنيا «فَكُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ».

وقوله: «رَبَّنا غَلَبت علينا شِقْوَتنا»، يقولُ: ربنا غلبتْ علينا ما سَبَقَ لنا في سابقِ عِلْمِكَ وخُطَّ لنا في أمِّ الكتاب.

وقوله: «وكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ»، يقولُ: كنا قوماً ضَلَلْنا عن سبيلِ الرشادِ، وقَصْدِ الحقِّ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلـِهِ تَعَـالَى: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ۝١٠٧ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۝١٠٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مُخبراً عن قِيلِ الذين خَفَّتْ موازينُ صالحِ أعمالهم يومَ

القيامةِ في جهنم: رَبَّنا أخرجنا من النار، فإنْ عُدْنا لما تكرهُ مِنَّا من عملٍ، فإنا ظالمون.

وقوله: «قالَ اخْسَئُوا فِيها»، يقول تعالى ذِكْرُه: قال الربُّ لهم جَلَّ ثَنَاؤُهُ «اخْسَئُوا فِيها»: أي اقعدوا في النار، يقال منه: خَسَأْتُ فلاناً أَخْسَؤُهُ خَسْأً وخُسُوءاً، وخَسِيءَ هو يخسَأُ، وما كان خاسئاً، ولقد خَسِيءَ «وَلا تُكَلِّمُونِ» فعند ذلك أيسَ المساكينُ من الفَرَجِ، ولقد كانوا طامعينَ فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٠٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «إنَّهُ»، وهذه الهاء في قوله: «إنه» هي الهاء التي يسميها أهلُ العربيةِ المجهولةَ. وقد بَيَّنْتُ معناها فيما مضى قَبْلُ، ومعنى دخولها في الكلام بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع. «كانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبادِي»، يقولُ: كانت جماعةٌ من عبادي، وهُمْ أهلُ الإيمانِ بالله يقولون في الدنيا «رَبَّنا آمَنَّا» بك وبرسلكَ، وما جاءوا به من عندك «فاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَارْحَمْنا» وأنتَ خيرُ مَنْ رَحِمَ أهلَ البلاء، فلا تُعَذِّبْنا بعذابكَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ١١٠ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ١١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فاتخذتم أيها القائلونَ لربِّهم «رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا وكُنَّا قَوْماً ضالِّينَ» في الدنيا، القائلين فيها «رَبَّنا آمَنَّا فاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا وأنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ» سخْرِياً. والهاء والميم في قوله «فاتَّخَذْتُمُوهُمْ» من ذِكْرِ الفريق.

واختلفت القَرأة في قوله «سخْرِيًّا فقرأه بعضُ قَرَأةِ الحجازِ وبعض أهلِ البصرة والكوفة «فاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا بكسر السين، ويتأوَّلونَ في كسرها أنَّ معنى ذلك الهزء، ويقولون: إنها إذا ضُمَّتْ، فمعنى الكلمة: السُّخْرَةُ والاستعبادُ، فمعنى الكلام على مذهب هؤلاءِ: فاتخذتم أهلَ الإيمانِ بي في الدنيا هُزُؤاً ولعباً، تهزءونَ بهم حتى أَنْسَوْكُمْ ذكري. وقرأ ذلك عامةُ قَرَأةِ المدينة والكوفة «فاتَّخذْتُموهمْ سُخْرِيًّا» بضم السين، وقالوا: معنى الكلمة في الضمِّ والكسر واحد. وحكى بعضُهم عن العربِ سماعاً لِجِّيٌّ ولُجِّيٌّ، ودرِي، ودُرِّيّ، منسوب إلى الدرّ، وكذلك كِرْسيٌّ وكُرْسيّ؛ وقالوا ذلك من قِيلهم كذلك، نظير قولهم في جمع العصا: العِصِيّ بكسر العين، والعُصيّ بضمها؛ قالوا: وإنما اخترنا الضمَّ في السُّخريّ لأنه أفصحُ اللغتين.

والصوابُ من القول في ذلك، أنهما قراءتان مشهورتان، ولغتان معروفتان بمعنى واحد، قد قرأ بكلٍّ واحدةٍ منهما علماءُ من القَرَأة، فبأيتهما قرأ القارىءُ ذلك فمصيبٌ، وليس يُعْرفُ من فرقٍ بين معنى ذلك إذا كُسرت السينُ وإذا ضُمت، لما ذكرتُ من الروايةِ عَمَّنْ سمع من العربِ ما حَكَيتُ عنه.

وقوله: «حتى أنْسَوكُمْ ذِكْري»، يقولُ: لم يزل استهزاؤكُم بهم أنساكُمْ ذلك من فِعلكم بهم ذكري، فألْهَاكم عنه «وكُنْتُمْ مِنْهُ تَضْحَكُونَ».

وقـولـه: «إنِّي جَزَيْتُهُمُ اليَوْمَ بِمَا صَبَرُوا»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنِّي أيُّها المشركونَ بالله المُخَلَّدُونَ في النار جَزَيتُ الذين اتخذتموهم في الدنيا سخرياً من أهل الإيمان بي، وكنتم منهم تَضحكونَ اليومَ بما صبروا على ما كانوا يَلْقَوْنَ بينكم من أذى سخريتكم وضَحِكِكُمْ منهم في الدنيا. «إنهم هم الفائزون»، يقولُ: إني جزيتهم اليومَ الجنةَ بما صبروا في الدنيا على أذاكُمْ بها في أنهم اليومَ هُمُ الفائزونَ بالنعيمِ الدائمِ، والكرامةِ الباقية أبداً بما عملوا من صالحاتِ الأعمال في الدنيا، ولقوا في طلب رضاي من المكاره فيها.

القَولُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾﴾

تأويلُ الكلام: قال الله: كم لبثتم في الدنيا من عدد سنين؟ قالوا مُجيبينَ له: لبثنا فيها يوماً أو بعضَ يومٍ، فاسألَ العادِّينَ، لأنَّا لا ندري قد نسينا ذلك.

واختلف أهلُ التأويل في المَعْنِيِّ بالعادِّينَ، فقال بعضهم: هُمُ الملائكةُ الذين يحفظون أعمالَ بني آدم، ويُحْصُونَ عليهم ساعاتهم.

وقال آخرون: بل هم الحُسَّابُ.

وأَوْلى الأقوال في ذلك بالصواب أنْ يقالَ كما قالَ الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ «فاسألَ العادِّينَ» وهم الذين يَعُدُّونَ عددَ الشهورِ والسنين وغير ذلك، وجائزٌ أنْ يكونوا الملائكة، وجائز أن يكونوا بني آدم وغيرهم، ولا حُجَّة بأيِّ ذلك من أيٍّ ثبتت صحتها، فغيرُ جائز توجيهُ معنى ذلك إلى بعض العادِّينَ دونَ بعضٍ.

القَولُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾

يعني: قال الله لهم: ما لبثتم في الأرضِ إلا قليلاً، يسيراً لو أنكم كنتم تعلمونَ قَدْرَ لُبْثِكُمْ فيها.

وقوله: «أفَحَسِبْتُمْ أنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً؟»، يقول تعالى ذِكْرُه: أفحسبتم أيها الأشقياءُ أنَّا إنما خلقناكم إذْ خلقناكم لعباً وباطلاً، وأنكم إلى رَبِّكم بعد مَماتِكم لا تصيرونَ أحياء، فَتُجْزَوْنَ بما كنتم في الدنيا تعملون؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ١١٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فتعالى اللهُ الملكُ الحَقُّ عما يَصِفُه به هؤلاءِ المشركونَ من أنَّ له شريكاً وعما يضيفون إليه من اتِّخاذِ البنات. «لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»، يقولُ: لا معبودَ تنبغي له العبودةُ إلا الله الملكُ الحقُّ «ربُّ العرش الكريم» والربُّ مرفوع بالردِّ على الحقِّ، ومعنى الكلام: فتعالى اللهُ الملكُ الحقُّ، رَبُّ العرشِ الكريم، لا إله إلا هو.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ١١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومَنْ يَدْعُ مع المعبودِ الذي لا تصلحُ العبادةُ إلا له معبوداً آخر، لا حُجَّةَ له بما يقولُ ويعملُ من ذلك، ولا بَيِّنة.

وقوله: «فإنَّمَا حِسابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ»، يقولُ: فإنما حسابُ عمله السَّيِّىء عند رَبِّه وهو مُوَفِّيهِ جزاءه إذا قَدِمَ عليه. «إنَّهُ لا يُفْلِحُ الكافِرُونَ»، يقولُ: إنه لا ينجحُ أهلُ الكفرِ بالله عنده، ولا يدركونَ الخلودَ والبقاء في النعيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ، ربِّ اسْتُرْ عليَّ ذنوبي بعفوكَ عنها، وارحمني بقبولِ توبتك، وتَرْكِكَ عقابي على ما اجترمتُ. «وأَنْتَ خَيرُ الرَّاحِمينَ»، يقولُ: وقل أنتَ يا ربِّ خيرُ مَنْ رَحِمَ ذا ذَنْبٍ، فقبل توبته، ولم يعاقبه على ذنبه.

سُورَةُ النُّورِ

ترتيبها ٢٤ — آياتها ٦٤

بسم الله الرحمن الرحيم

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١﴾

يعني بقوله تعالى ذِكْرُه: «سُورَةٌ أَنْزَلْناها»: وهذه السورةُ أنزلناها.

وأما قوله: «وَفَرَضْناها» فإن القَرَأَةَ اختلفت في قراءته، فقرأه بعض قَرَأَةِ الحجازِ والبصرة «وَفَرَّضْناها» ويتأوَّلُونَهُ: وفَصَّلناها ونَزَّلنا فيها فرائضَ مختلفة. وكذلك كان مجاهد يقرؤه ويتأوَّلُه.

وقد يحتمل ذلك إذا قُرِىء بالتشديد وجهاً غيرَ الذي ذكرنا عن مجاهد، وهو أنْ يُوجَّهَ إلى أنَّ معناه: وفرضناها عليكم وعلى مَنْ بعدكم من الناسِ إلى قيامِ الساعة. وقرأ ذلك عامة قَرَأَةِ المدينة والكوفة والشأم «وَفَرَضْناها» بتخفيفِ الراء، بمعنى: أَوْجَبْنَا ما فيها من الأحكامِ عليكم، وأَلْزَمْناكُمُوهُ وبَيَّنا ذلك لكم.

والصوابُ من القولِ في ذلك أنهما قراءتان مشهورتان قد قرأ بكلٍّ واحدةٍ منهما علماء من القَرَأَةِ، فبأيَّتِهِمَا قرأ القارىءُ فمصيبٌ. وذلك أنَّ الله قد فَصَّلها، وأنزَلَ فيها ضروباً من الأحكامِ، وأمرَ فيها ونَهَى، وفرض على عبادِه فيها فرائض. ففيها المعنيان كِلاَهُما: التَّفْرِيضُ، والفرض، فلذلك قلنا بأية القراءتين قرأ القارىءُ فمصيب الصواب.

وقـوله: «وأنْزَلْنا فيها آياتٍ بَيِّناتٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأنزلنا في هذه السورةِ علاماتٍ ودلالاتٍ على الحقِّ بَيِّناتٍ، يعني واضحاتٍ لمن تأمَّلَها وفكَّرَ فيها بعقلٍ، أنها من عند الله، فإنها الحقُّ المبينُ، وإنها تهدي إلى الصراطِ المستقيم. «لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ»، يقولُ: لتتذكروا بهذه الآياتِ البيناتِ التي أنزلناها.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعالَى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مَنْ زنى من الرجالِ، أو زَنَتْ من النساءِ، وهو حُرٌّ بِكْرٌ غيرُ مُحْصَنٍ بزوجٍ، فاجلدُوه ضرباً مئةَ جَلْدَةٍ، عقوبةً لما صَنَعَ وأتى من معصيةِ الله «وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رأفَةٌ في دِينِ الله»، يقول تعالى ذِكْرُه: لا تأخذكم بالزاني والزانيةِ أيها المؤمنونَ رأفةٌ، وهي رِقَّةُ الرحمةِ في دِينِ الله، يعني في طاعة الله فيما أمركم به من إقامةِ الحدِّ عليهما على ما ألزمكم به.

واختلف أهلُ التأويل في المنهيِّ عنه المؤمنونَ من أخذِ الرأفةِ بهما، فقال بعضهم: هو تركُ إقـامـةِ حَدِّ الله عليهمـا، فأما إذا أُقيم عليهما الحدُّ، فَلَمْ تأخذهُمْ بهما رأفةٌ في دِينِ الله.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: «وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رأفَةٌ» فَتُخَفِّفُوا الضربَ عنهما، ولكن أوجعوهما ضرباً.

وأولى القولين في ذلك بالصواب قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: ولا تأخذكم بهما رأفةٌ في إقامةِ حدِّ الله عليهما الذي افترض عليكم إقامته عليهما.

وإنما قلنا ذلك أوْلى التأويلين بالصوابِ لدلالةِ قولِ اللهِ بعده «في دِينِ اللهِ» يعني في طاعة الله التي أمركم بها، ومعلومٌ أنَّ دينَ الله الذي أمر به في الزانيين إقامة الحدِّ عليهما، على ما أمر من جَلْدِ كُلِّ واحدٍ منهما مئة جلدة، مع أن الشدَّةَ في الضرب لا حدَّ لها يوقف عليه، وكلُّ ضربٍ أوجع فهو شديدٌ، وليس للذي يوجع في الشدّة حدٌّ لا زيادة فيه فيؤمر به. وغيرُ جائزٍ وصفه جَلَّ ثَنَاؤُهُ بأنه أمَرَ بما لا سبيلَ للمأمورِ به إلى معرفته. وإذا كان ذلك كذلك فالذي للمأمورين إلى معرفته السبيل هو عدد الجلد على ما أمرَ به وذلك هو إقامة الحد على ما قلنا. وللعربِ في الرأفة لغتان: الرأْفة بتسكين الهمزة والرآفة بمدِّها كالسأْمة والسآمة والكأبة والكآبة. وكأن الرأفةَ المرَّةُ الواحدة، والرآفة المصدر، كما قيل: ضؤل ضآلة، مثل فعل فعالة، وقبح قباحة.

وقوله: «إنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ»، يقولُ: إنْ كنتم تُصَدِّقُونَ بالله رَبّكم وباليومِ الآخر، وأنكم فيه مبعوثون لحشرِ القيامةِ، وللثوابِ والعقابِ، فإنَّ مَنْ كان بذلك مُصَدِّقاً فإنه لا يخالفُ الله في أمرِه ونهيه خوفَ عقابِهِ على معاصيه.

وقولـه: «وَلْيَشْهَـدْ عَذَابُهمـا طائِفَةٌ مِنَ المُؤْمِنِينَ»، يقولُ تعالى ذِكْرُه: وليحضرْ جَلْدَ الزَانِيَيْنِ البِكْرين وَحَدَّهُمَا إذا أُقيمَ عليهما طائفةٌ من المؤمنين. والعربُ تسمي الواحدَ فما زادَ: طائفة.

وقوله: «مِنَ المُؤْمِنِينَ»، يقولُ: من أهلِ الإيمان بالله ورسوله.

وقد اختلف أهلُ التأويل في مبلغ عدد الطائفة الذي أمر الله بشهود عذابِ الزانيين البكرين، فقال بعضهم: أقَلُّه واحد.

وقال آخرون: أقله في هذا الموضع رجلان.

وقال آخرون: أقَلُّ ذلك ثلاثة فصاعداً.

وقال آخرون: بل أقل ذلك أربعة.

وأَوْلى الأقوال في ذلك بالصوابِ قولُ مَنْ قال: أقلُّ ما ينبغي حضور ذلك عدد من المسلمين الواحد فصاعدا، وذلك أنَّ الله عَمَّ بقوله: «وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُما طائِفَـة» والـطائفة: قد تقعُ عند العربِ على الواحدِ فصاعداً. فإذْ كان ذلك كذلك، ولم يكن الله تعالى ذِكْرُه وضع دلالةً على أنَّ مرادَهُ من ذلك خاص من العددِ، كان معلوماً أنَّ حضور ما وقع عليه أدنى اسم الطائفة ذلك المَحْضَر، مخـرجٌ مقيمَ الحـدِّ، ممـا أمـره اللهُ به بقـوله: «وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُما طائِفَةٌ مِنَ المُؤْمِنِينَ» غير أني وإنْ كان الأمرُ على ما وصفتُ، أستحبُّ أنْ لا يقصر بعددِ مَنْ يحضرُ ذلك الموضع عن أربعةِ أنفسٍ عدد مَنْ تقبل شهادتُه على الزنا، لأنَّ ذلك إذا كان كذلك، فلا خلافَ بين الجميعِ أنه قد أدَّى المقيم الحدّ ما عليه في ذلك، وهُمْ فيما دونَ ذلك مختلفون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: نزلتْ هذه الآيةُ في بعض مَنْ استأذنَ رسولَ الله ﷺ في نكاحِ نسوةٍ كُنَّ معروفاتٍ بالزنا من أهلِ الشـرك، وكُنَّ أصحـابَ راياتٍ يكْـرينَ أنْفُسَهُنَّ، فأنـزلَ الله تحريمهنَّ على المؤمنينَ، فقـال: الـزاني من المؤمنينَ لا يتزوَّجُ إلا زانيةً أو مشركةً، لأنهنّ كذلك؛ والزانيةُ من أولئك البغايا لا ينكحها إلا زانٍ من المؤمنينَ أو المشركينَ، أو مشرك مثلها، لأنهنّ كُنَّ مشركات. «وَحُرِّمَ ذلكَ على المُؤْمِنِينَ» فَحَرَّمَ الله نكاحهنَّ في قولِ أهلِ هذه المقالةِ بهذه الآية.

وقال آخرون: معنى ذلك: الزاني لا يزني إلا بزانيةٍ أو مشركة، والزانيةُ

لا يزني بها إلا زانٍ أو مشرك. قالوا: ومعنى النكاح في هذا الموضع: الجماع.

وقال آخرون: كان هذا حكم الله في كُلِّ زانٍ وزانية حتى نَسَخَهُ بقوله: «وأنْكِحُوا الأيامَى مِنْكُمْ» فأحلَّ نكاحَ كُلِّ مسلمةٍ، وإنكاحَ كُلِّ مسلم.

وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصوابِ قولُ مَنْ قال: عَنَى بالنكاح في هذا الموضع: الوطء، وأنَّ الآيةَ نزلتْ في البغايا المشركاتِ ذواتِ الراياتِ، وذلك لقيامِ الحجةِ على أنَّ الزانيةَ من المسلماتِ حرامٌ على كُلِّ مشرك، وأنَّ الزاني من المسلمينَ حرامٌ عليه كُلُّ مشركةٍ من عَبَدَةِ الأوثان. فمعلومٌ إذْ كان ذلك كذلك، أنه لم يُعْنَ بالآيةِ أنَّ الزاني من المؤمنينَ لا يعقدُ عقدَ نكاحٍ على عفيفةٍ من المسلمات، ولا ينكح إلا بزانيةٍ أو مشركة. وإذْ كان ذلك كذلك، فَبَيِّنٌ أنَّ معنى الآية: الزاني لا يزني إلا بزانية لا تستحلّ الزنا، أو بمشركة تستحله.

وقوله: «وحُرِّمَ ذلكَ عَلى المُؤْمِنِينَ»، يقولُ: وحُرِّمَ الزنا على المؤمنينَ بالله ورسوله، وذلك هو النكاحُ الذي قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «الزَّاني لا يَنْكِحُ إلاَّ زَانِيَةً».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والذين يَشْتُمُونَ العفائفَ من حرائرِ المسلمينَ، فيرمونهنَّ بالزنا، ثم لم يأتوا على ما رمَوْهُنَّ به من ذلك بأربعةِ شهداءَ عُدُولٍ يشهدونَ عليهنَّ أنهنَّ رأوهنَّ يفعلنَ ذلك، فاجلدُوا الذين رَمَوْهنّ بذلك ثمانينَ جلدةً، ولا تقبلوا لهم شهادةً أبداً، وأولئك هم الذين خالفوا أمرَ الله، وخرجوا من طاعته، ففسقوا عنها.

وذكر أن هذه الآية إنما نزلتْ في الذين رَمَوْا عائشةَ زوجِ النبيِّ ﷺ بما رَمَوْهَا به من الإفكِ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾

اختلف أهلُ التأويل في الذي استثنى منه قوله: «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذلكَ وأَصْلَحُوا» فقال بعضهم: استثنى من قوله «وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهادَةً أَبداً، وأُولَئِكَ هُمُ الفاسِقُونَ» وقالوا: إذا تابَ القاذفُ قُبِلَتْ شهادتُه، وزالَ عنه اسمُ الفسق، حُدَّ فيه أو لم يُحَدَّ.

وقال آخرون: الاستثناء في ذلك من قوله: «وَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُون»، وأما قوله: «وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهادَةً أبداً» فقد وصل بالأبد ولا يجوز قبولها أبداً.

والصوابُ من القولِ في ذلك عندنا أنَّ الاستثناء من المعنيين جميعاً، أعني من قولــه: «وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهــادَةً أبـداً»، ومن قولـه: «وأُولَئِـكَ هُمُ الفاسِقُونَ»، وذلك أنه لا خلافَ بين الجميعِ أنَّ ذلك كذلك إذا لم يحدّ في القذف حتى تاب، إما بأنْ يرفع إلى السلطان بعفوِ المقذوفةِ عنه، وإما بأنْ ماتت قبـل المـطالبـةِ بحدِّها، ولم يكنْ لها طالبٌ بحدِّها. فإذْ كان ذلك كذلك، وحدثتْ منه توبةٌ، صَحَّتْ له بها العدالة، فإذْ كان من الجميع إجماعاً، ولم يكن الله تعالى ذِكْرُه شَرَطَ في كتابه أنْ لا تُقبلَ شهادتُه أبداً بعد الحدِّ في رَمْيِهِ بل نهى عن قبولِ شهادته في الحال التي أوجبَ عليها فيها الحدَّ، وسماه فيها فاسقاً، كان معلوماً بذلك أنَّ إقامةَ الحدِّ عليه في رميه لا تحدث في شهادته مع التوبةِ من ذنبه ما لم يكن حادثاً فيها، قبل إقامتِه عليه، بَلْ توبته بعد إقامةِ الحدِّ عليه من ذنبه أحرى أنْ تكون شهادته معها أجوز منها قبل إقامته عليه،

لأنَّ الحدَّ يزيدُ المحدود عليه تطهيراً من جُرْمِه الذي استحقَّ عليه الحدّ.

فإنْ قال قائل: فهل يجوز أنْ يكونَ الاستثناءُ من قوله: «فاجْلِدُوهُمْ ثَمانِينَ جَلْدَةً» فتكون التوبة مُسْقطة عنه الحدِّ، كما كانت لشهادته عندك قبل الحدِّ، وبعده مجيزة، ولاسم الفسقِ عنه مُزيلة؟ قيل: ذلك غيرُ جائزٍ عندنا، وذلك أنَّ الحدَّ حقٌّ عندنا للمقذوفةِ كالقصاصِ الذي يجبُ لها من جنايةٍ يجنيها عليها مما فيه القصاصُ، ولا خلافَ بين الجميع أنَّ توبته من ذلك لا تضعُ عنه الواجبَ لها من القصاص منه، فكذلك توبتُه من القذفِ لا تضعُ عنه الواجبَ لها من الحدِّ، لأنَّ ذلك حقٌّ لها، إنْ شاءت عفته، وإن شاءت طالبتْ به، فتوبةُ العبدِ من ذنبِه، إنما تضعُ عن العبدِ الأسماءَ الذميمةَ، والصفات القبيحة، فأما حقوق الآدميين التي أوجبها الله لبعضِهم على بعضٍ في كلِّ الأحوالِ، فلا تزولُ بها ولا تبطل.

واختلف أهلُ العلم في صفة توبةِ القاذفِ التي تُقْبَل معها شهادتُه، فقال بعضهم: هو إكذابُهُ نَفْسَهُ فيه.

وقال آخرون: توبته من ذلك صلاحُ حالِه ونَدَمُهُ على ما فَرَطَ منه من ذلـك، والاستغفـارُ منه، وتركه العَوْدَ في مثل ذلك من الجرمِ، وذلك قولُ جماعةٍ من التابعين وغيرهم، وهو قول مالك بن أنس.

وهذا القولُ أَوْلى القولين في ذلك بالصوابِ، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه جعلَ توبةَ كُلِّ ذي ذَنْبٍ من أهلِ الإيمانِ تركه العودَ منه، والندم على ما سلف منه، واستغفار ربه منه فيما كان من ذنبٍ بينَ العبدِ وبينه، دونَ ما كان من حقوقِ عبادِه ومظالمهم بينهم، والقاذفُ إذا أُقيمَ عليه فيه الحدّ، أو عُفِيَ عنه، فلم يبق عليه إلا توبتُه من جُرْمه بينه وبين رَبِّه، فسبيلُ توبته منه سبيلُ توبته من سائرِ أجرامه. فإذا كان الصحيحُ في ذلك من القولِ ما وصفنا، فتأويلُ الكلام: وأولئـك هم الفـاسقـونَ، إلا الـذين تابوا من جُرْمِهم الذي اجترموه بقذفِهم

المحصنـات من بعـد اجترامِهِمُوهُ «فإنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»، يقول: ساترٌ على ذنـوبهم بعفـوهِ لهم عنهـا، رحيمٌ بهم بعـد التوبة أنْ يُعَذِّبَهُمْ عليها، فاقبلوا شهادتَهم ولا تُسَمُّوهم فَسَقةً، بَلْ سَمُّوهم بأسمائهم التي هي لهم في حال توبتهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٧﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: «وَالَّذِينَ يَرْمُونَ» من الرجال «أَزْوَاجَهُمْ» بالفاحشة، فيقذفونهنَّ بالزنا، «وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ» يشهدونَ لهم بصحةِ ما رموهنَّ به من الفاحشةِ «فَشَهادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهاداتٍ باللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ».

ومعنى الكلام: والذين يرمون أزواجَهُمْ، ولم يكنْ لهم شُهداءُ إلا أنفُسُهم فشهـادةُ أحَـدِهم أربعُ شهاداتٍ بالله إنه لمن الصادقين، تقومَ مقامَ الشهداءِ الأربعةِ في دفعِ الحدِّ عنه، فترك ذكر تقوم مقام الشهداء الأربعة، اكتفاءً بمعرفةِ السامعينَ بما ذكر من الكلامِ، فصار مرافع الشهادة ما وصفت. ويعني بقوله: «فَشَهادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهاداتٍ باللهِ» فحلف أحدهم أربعَ أيمانٍ بالله من قولِ القـائـل: أشهـدُ بالله إنـه لمن الصـادقين فيما رَمى زوجتَهُ به من الفاحشة. «والخامِسَةُ»، يقولُ: والشهادةُ الخامسة «أنَّ لعنةَ اللهِ عَلَيْهِ»، يقولُ: أن لعنةَ الله له واجبةٌ عليه وحالةٌ إنْ كان فيما رماها به من الفاحشةِ من الكاذبين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٨ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ

مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٩﴾

يعني جلَّ ذِكْرُه بقوله: «وَيَدْرَأُ عَنْها العَذابَ» ويدفعُ عنها الحدَّ.

واختلف أهلُ العلم في العذاب الذي عناه الله في هذا الموضع أنه يدرؤه عنها شهاداتُها الأربعُ، فقال بعضهم بنحوِ الذي قلنا في ذلك من أنَّ الحدَّ جلد مئة إنْ كانت بِكراً، أو الرجم إنْ كانت ثَيِّباً قد أحصنت.

وقال آخرون: بل ذلك الحبس، وقالوا: الذي يجبُ عليها انْ هي لم تشهدِ الشهاداتِ الأربع بعد شهاداتِ الزوج الأربع والتعانه: الحبس دونَ الحدِّ.

وإنما قلنا: الواجبُ عليها إذا هي امتنعت من الالْتعانِ بعد الْتعانِ الزوجِ الحدّ الذي وصفنا قياساً على إجماعِ الجميعِ على أنَّ الحدَّ إذا زالَ عن الزوجِ بالشهاداتِ الأربع على تصديقِه فيما رَمَاها به، أنَّ الحدَّ عليها واجبٌ، فجعل اللهُ أيمانَهُ الأربع، والتعانَهُ في الخامسة مُخْرَجَاً له من الحدِّ الذي يجبُ لها برميِهِ إياها، كما جعلَ الشهداء الأربعة مخرجاً له منه في ذلك، وزائلاً به عنه الحدُّ، فكذلك الواجبُ أنْ يكون بزوالِ الحدّ عنه بذلك واجباً عليها حدّها، كما كان بزوالِه عنه بالشهود واجباً عليها، لا فرقَ بين ذلك.

وقوله: «أنْ تَشْهَدَ أرْبَعَ شَهادَاتٍ باللهِ»، يقولُ: ويدفع عنها العذابَ أنْ تحلفَ باللهِ أربعَ أيمانٍ أنَّ زوجَها الذي رماها بما رماها به من الفاحشةِ لمن الكاذبينَ فيما رماها به من الزنا. وقوله: «والخامِسَةُ أنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْها». . . الآية، يقولُ: والشهادة الخامسة: أنَّ غَضَبَ الله عليها إنْ كان زوجها فيما رماها به من الزنا من الصادقين؛ ورفع قوله: «والخامِسَةُ» في كلتا الآيتين بأن التي تليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولولا فضلُ اللهِ عليكم أيها الناسُ ورحمتُه بكم، وأنه عَوَّادٌ على خَلْقِه بلُطْفِه وطَوْلِه، حكيم في تدبيره إياهم، وسياسته لهم، لعاجَلَكُمْ بالعقوبـةِ على معـاصيكم، وفَضَحَ أهلَ الذنوبِ منكم بذنوبهم، ولكنه سَتَرَ عليكم ذنوبَكُمْ، وتركَ فضيحتكم بها عاجلاً رحمةً منه بكم، وتَفَضُّلاً عليكم، فاشكروا نِعمه، وانتهوا عن التقدُّمِ عما عنه نهاكم من معاصيهِ، وتركَ الجواب في ذلك إكتفاءً بمعرفةِ السامعِ المُرَادُ منه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١١﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين جاؤوا بالكذب والبهتان «عُصْبَةٌ مِنْكُمْ»، يقولُ: جماعةٌ منكم أيها الناس. «لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ، بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ»، يقولُ: لا تظنوا ما جاءوا به من الإفكِ شرّاً لكم عند الله، وعندَ الناسِ، بَلْ ذلك خيرٌ لكم عنده وعند المؤمنين، وذلك أنَّ الله يجعلُ ذلك كفارةً للمرميِّ به ويظهر براءته مما رُميَ به، ويجعل له منه مخرجاً. وقيل: إن الذي عَنَى الله بقوله: «إنَّ الَّذِينَ جاؤوا بالإِفْك عُصْبَةٌ مِنْكُمْ»: جماعةٌ منهم حَسّان بن ثابت، ومِسْطَح بن أُثاثة، وحَمْنة بنت جَحْش.

وقوله: «لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ ما اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ»، يقولُ: لكلِّ امرىءٍ من الذين جاءوا بالإفك جزاءُ ما اجترمَ من الإثمِ، بمجيئِه بما جاءَ به.

وقوله: «وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ»، يقولُ: والذي تَحَمَّلَ معظمَ ذلك الإثمِ والإفكِ منهم هو الذي بدأ بالخوضِ فيه، «له عذاب عظيم» يومَ القيامة.

وقد اختلف أهلُ التأويل في المعنيِّ بقوله: «وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ»... الآية، فقال بعضهم: هو حسان بن ثابت.

وقال آخرون: هو عبدالله بن أُبَيّ بن سلول.

وأولى القولين في ذلك بالصوابِ قولُ مَنْ قال: الذي تولَّى كبره من عصبةِ الإفكِ كان عبدالله بن أبيّ، وذلك أنه لا خلافَ بين أهلِ العلم بالسيرِ أنَّ الذي بدأ بذكرِ الإفكِ وكان يجمعُ أهلَهُ ويُحَدِّثُهم عبدالله بن أُبيّ ابن سلول، وفِعْلَهُ ذلك كان تولِّيه كِبْرَ ذلك الأمر.

وكان سبب مجيء أهلِ الإفكِ، ما حدثنا به ابن عبد الأعلى، قال: حدثنا محمد بن ثَوْر، عن مَعْمَر، عن محمد بن مُسْلِم بن عُبيدالله بن عبدالله ابن شهاب، قال: حدثني عروةُ بن الزبير، وسعيد بن المُسَيِّب، وعلقمة بن وقاص، وعُبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود، عن حديث عائشة زوجِ النبيِّ ﷺ حين قال لها أهلُ الإفكِ ما قالوا، فَبَرَّأَها اللهُ، وكُلُّهم حدثني طائفة من حديثها، وبعضُهم كان أوعَى لحديثها من بعض، وأثبت اقتصاصاً، وقد وَعيتُ عن كُلِّ رجلٍ منهم الحديثَ الذي حدثني عن عائشة، وبعضُ حديثهم يُصَدِّقُ بعضاً[1].

زعموا أنَّ عائشة زوج النبيِّ ﷺ قالت: كان رسولُ الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرعَ بين نسائِه، فأيتهنَّ خرج سهمُها خرجَ بها؛ قالت عائشة: فأقرع بيننا في غَزَاةٍ غزاها، فخرج سهمي، فخرجتُ مع رسولِ الله ﷺ، وذلك بعد ما أُنزلَ الحجاب، وأنا أُحمل في هودجي، وأُنزلُ فيه، فسرنا، حتى إذا فرغَ رسولُ الله

---

(١) الحديث بطوله في الصحيحين: البخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠).

ﷺ من غزوهِ وقفلَ إلى المدينة آذنَ ليلةً بالرحيلِ فقمتُ حين آذنوا بالرحيلِ ، فمشيتُ حتى جاوزتُ الجيشَ؛ فلما قضيتُ شأني أقبلتُ إلى الرَّحْلِ ، فلمستُ صدري، فإذا عِقْدٌ لي من جَزْعِ ظَفَار قد انقطعَ، فرجعتُ فالتمستُ عقدي، فحبسني ابتغاؤُه، وأقبلَ الرهطُ الذين كانوا يَرْحَلُون لي[١]، فاحتملوا هَوْدَجي فَرَحلُوه على بعيري الذي كنتُ أركبُ، وهم يحسبونَ أنِّي فيه؛ قالت: وكان النساءُ إذْ ذاكَ خِفافاً لم يُهَبَّلْنَ[٢] ولم يَغْشَهُنَّ اللحمُ، إنما يأكلن العُلْقةَ من الطعامِ ، فلم يستنكرِ القومُ ثقلَ الهودجِ حين رحلوهُ ورفعوه، وكنت جاريةً حديثةَ السنِّ، فبعثوا الجملَ وساروا فوجدتُ عِقدي بعدما استمرَّ الجيشُ فجئتُ منازلهم وليسَ بها داعٍ ولا مجيبٌ، فَتَيَمَّمْتُ منزلي الذي كنتُ فيه، وظننتُ أنَّ القومَ سيفقدوني ويرجعونَ إليَّ، فبينا أنا جالسةٌ في منزلي، غَلَبَتْني عيني، فنمتُ حتى أصبحتُ، وكان صفوانُ بن المُعَطَّلِ السُّلَميُّ، ثم الذكوانيُّ قد عَرَّسَ[٣] من وراءِ الجيش، فادَّلَجَ[٤] فأصبحَ عند منزلي، فرأى سوادَ إنسانٍ نائم، فأتاني فعرفني حين رآني، وكان يراني قبل أنْ يُضربَ الحجابُ عليَّ فاستيقظتُ باسترجاعِه حين عرفني، فَخَمَّرْتُ وجهي بجلباني، والله ما تكلمتُ بكلمةٍ، ولا سمعتُ منه كلمةً غير استرجاعِه، حتى أناخَ راحلَتَهُ، فوطىء على يديها، فركبتها، فانطلق يقودُ بي الراحلةَ، حتى أتينا الجيشَ بعدما نزلوا موغرينَ[٥] في نحرِ الظهيرة، فهلكَ مَنْ هَلَكَ في شأني، وكان الذي تولَّى كِبْرَهُ عبدالله بن أُبيّ ابن سلول، فَقَدِمْنَا المدينةَ، فاشتكيتُ شهراً والناسُ يُفيضونَ في قولِ أهلِ الإفكِ، ولا أشعرُ بشيءٍ من ذلك، وهو يُريبني في وجعي أني لا أعرفُ مِنْ

---

(١) رحلتَ البعير: إذا شددتَ عليه الرحل.

(٢) أي: يثقلن باللحم والشحم.

(٣) عَرَّسَ: نزل آخر الليل للراحة.

(٤) الادِّلاجُ: السير آخر الليل.

(٥) أي: النازل في وقت الوغرة، وهي شدة الحرِّ.

رسولِ الله اللطفَ الذي كنتُ أرى منه حين أشتكي، إنما يدخلُ فَيُسَلِّم ثم يقول: كيف تِيكُمْ، فذلك يريبني، ولا أشعر بالشرِّ حتى خرجتُ بعدما نَقِهْتُ، فخرجتُ مع أمِّ مسطح قِبَلَ المناصع، وهو مُتَبَرَّزُنَا، ولا نخرجُ إلا ليلاً إلى ليلٍ، وذلك قبلَ أنْ نَتَّخِذَ الكُنُفَ قريباً من بيوتنا، وأمْرُنَا أمرُ العربِ الأُولِ في التنزُّهِ[١]، وكنا نتأذّى بالكُنُفِ أنْ نَتَّخِذَها عند بيوتنا، فانطلقتُ أنا وأمُّ مِسْطَحٍ، وهي ابنةُ أبي رُهْمِ بن عبدالمطلب بن عبد مناف، وأمها ابنة صخر بن عامر، خالة أبي بكرٍ الصدِّيق، وابنها مِسْطح بن أُثاثة بن عَبَّاد بن المطلب؛ فأقبلتُ أنـا وابنـةُ أبي رُهْمٍ قِبَـلَ بيتي حين فرغنا من شأننا، فعثرتْ أمُّ مسطحٍ في مِرْطِهَا[٢]، فقالت: تَعِسَ مسطح، فقلتُ لها: بئسَ ما قلتِ! أَتسبين رجلاً قد شهدَ بدراً؟ فقالت أي هَنْتَاهُ[٣] أَوَ لَمْ تَسمعي ما قالَ؟ قلتُ: وما قالَ؟ فأَخْبَرَتْنِي بقولِ أهلِ الإفكِ، فازددتُ مرضاً على مرضي؛ فلما رجعتُ إلى منزلي ودخل عليَّ رسولُ الله ﷺ، ثم قال كَيْفَ تِيكُمْ؟ فقلت: أتأذنُ لي أنْ آتي أبويَّ؟ قال: نعم، قالت: وأنا حينئذٍ أُريدُ أنْ أستثبتَ الخبرَ من قِبَلهما، فأَذِنَ لي رسولُ الله ﷺ، فجئتُ أبويَّ فقلتُ لأمي: أي أُمَّتَاه ماذا يتحدَّث الناسُ؟ فقالت: أي بُنَيَّة هَوِّني عليكِ، فوالله لَقَلَّمَا كانت امرأةٌ قَطُّ وضيئةٌ عند رجلٍ يحبها ولها ضرائرُ إلا أكْثَرْنَ عليها. قالت: قلت: سبحانَ الله، أَوَ قَدْ تَحَدَّثَ الناسُ بهذا وبلغ رسولَ الله ﷺ؟ قالت: نعم، فبكيتُ تلكَ الليلةَ حتى أصبحتُ لا يرقأُ لي دمعٌ، ولا أكتحلُ بنومٍ، ثم أصبحتُ فدخلَ عليَّ أبو بكر وأنا أبكي، فقال لأمي: ما يُبْكِيها؟ قالت: لم تكن علمتْ ما قِيلَ لها، فأكبَّ يبكي، فبكى ساعةً ثم قال: اسكتي يا بنية، فبكيتُ يومي ذلك لا يرقأُ لي دمعٌ، ولا أكتحلُ بنومٍ، ثم بكيتُ

---

(١) هو الخروج إلى الصحراء للخلاء.

(٢) كساء من صوف.

(٣) معناها: يا هذه، وقيل: يا امرأة، وقيل: يا بلهاء.

ليلي المقبل لا يرقأُ لي دمعٌ، ولا أكتحلُ بنومٍ، ثم بكيتُ ليلتي المقبلة، لا يرقأُ لي دمعٌ، ولا أكتحلُ بنومٍ، حتى ظنَّ أبواي أنَّ البكاء سيفلق كبدي.

فدعا رسولُ الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب وأُسامةَ بن زيدٍ حين استلبثَ الوحيُ يستشيرهما في فراقِ أهلِه. قالت: فأما أُسامةُ فأشار على رسولِ الله ﷺ بالذي يعلمُ من براءةِ أهلِه وبالذي في نفسِه من الودِّ فقالَ: يا رسولَ الله هُمْ أهلُكَ ولا نعلمُ إلا خيراً. وأما عليٌّ فقال: لم يُضَيِّقِ الله عليكَ والنساءُ سِواها كثيرٌ وإنْ تسألِ الجاريةَ تَصْدُقْكَ، يعني بريرةَ، فدعا رسولُ الله ﷺ بَريرةَ، فقال: هَلْ رأيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَريبُكِ مِنْ عائِشَةَ؟ قالت له بريرة: والذي بعثك بالحقِّ ما رأيتُ عليها أمراً قطّ أَغْمِصُه[1] عليها، أكثرَ من أنها حديثةُ السنِّ، تنام عن عجينِ أهلها، فتأتي الداجن[2] فتأكُلُه.

فقام النبيُّ ﷺ خطيباً، فحمدَ اللهَ وأثنى عليه بما هو أهلُه، ثم قال: مَنْ يَعْذِرُني مِمَّنْ قَدْ بَلَغَني أَذاهُ في أَهْلِي، يعني عبدالله بن أُبيّ ابن سلول، وقال رسولُ الله ﷺ وهو على المنبر أيضاً: يا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ، مَنْ يَعْذِرُني مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَني أَذاهُ في أَهْلِي، فَوَاللهِ ما عَلِمْتُ عَلى أَهْلِي إلَّا خَيْراً، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا ما عَلِمْتُ عَلَيْهِ إلَّا خَيْراً، وَمَا كانَ يَدْخُلُ عَلى أَهْلِي إلَّا مَعِي.

فقام سعدُ بن معاذ الأنصاري فقال: أنا أعذركَ منه يا رسولَ الله، إنْ كان من الأوسِ ضربنا عُنُقَهُ، وإنْ كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمركَ؛ فقام سعدُ بن عبادة فقال، وهو سيدُ الخزرج، وكان رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحَمِيَّةُ، فقال: أي سعد بن معاذ، لَعَمْرُ اللهِ لا تقتله، ولا تقدرُ على قَتْلِه، فقامَ أُسيد بن حضير وهو ابنُ عَمِّ[3] سعدِ بن معاذ، فقال لسعد بن عبادة: كذبتَ

(١) أي: أَعِيبُه.

(٢) الداجن: الشاة التي تألَفُ البيت ولا تخرج للمرعى.

(٣) في المطبوع: ابن عمه، ولا يستقيم، وما أثبتناه من الصحيحين.

لَعَمْـرُ اللهِ لَنَقْتُلَنَّـهُ، فإنـكَ منـافقٌ تجادلُ عن المنافقينَ، فثار الحَيَّان الأوسُ والخزرجُ، حتى هَمُّوا أنْ يَقْتَتِلُوا، ورسولُ الله ﷺ قائمٌ على المنبر، فلم يَزَلْ رسولُ الله ﷺ يُخَفِّضُهم حتى سكتوا.

ثم أتاني رسولُ الله ﷺ وأنا في بيت أبويَّ، فبينا هُمَا جالسانِ عندي وأنا أبكي، استأذنتْ عليَّ امرأةٌ من الأنصار، فأذنتُ لها، فجلستْ تبكي معي؛ قالت: فبينا نحنُ على ذلك، دخل علينا رسولُ الله ﷺ، ثم جلسَ عندي، ولم يجلسْ عنـدي منذ قِيلَ ما قيلَ، وقد لبثَ شهراً لا يُوحَى إليه في شأني بشيءٍ؛ قالت: فَتَشَهَّدَ رسولُ الله ﷺ حين جلسَ، ثم قال: أمَّا بَعْدُ يا عائِشَةُ فإنَّهُ بَلَغَني عَنْكِ كَذَا وكَذَا، فإنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ، وَإنْ كُنْتِ ألْمَمْتِ بِذَنْبٍ فاسْتَغْفِرِي اللهَ وَتُوبي إلَيْهِ، فإنَّ العَبْدَ إذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تابَ، تابَ اللهُ عَلَيْهِ. فلما قضى رسولُ الله ﷺ مقالتَهُ، قلص[1] دمعي حتى ما أُحِسُّ منه دمعةً؛ قلتُ لأبي: أجِبْ عني رسولَ الله ﷺ فيما قالَ، قال: واللهِ ما أدري ما أقولُ لرسولِ الله ﷺ، فقلتُ لأمي: أجيبي عني رسولَ الله ﷺ، قالتْ: واللهِ ما أدري ما أقولُ لرسول الله ﷺ، فقالت: فقلتُ وأنا جاريةٌ حديثةُ السنِّ لا أقرأُ كثيراً من القرآنِ: إني واللهِ قد عرفتُ أنْ قد سمعتم بهذا حتى استقرَّ في أنفسكم، حتى كِذْتُمْ أنْ تُصَدِّقُوا به، فإنْ قلتُ لكم: إني بريئةٌ، واللهُ يعلمُ أني بريئـةٌ لا تصدِّقوني بذلك، ولئنِ اعترفتُ لكم بأمرٍ، واللهُ يعلم أني منه بريئةٌ لَتُصَدِّقُنِّي، وإني والله ما أجدُ لي ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف «فَصَبْرٌ جمِيلٌ وَاللهُ المُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ».

ثم تولَّيتُ واضطجعتُ على فراشي، وأنا واللهِ أعلمُ أني بريئة، وأن الله سيبـرِّئني ببراءتي، ولكني والله ما كنتُ أظنُّ أنْ يُنْزَلَ في شأني وحيٌ يُتْلَى، ولَشَأني كان أحقر في نفسي من أنْ يتكلمَ اللهُ فيَّ بأمرٍ يُتلى، ولكن كنتُ أرجو

(١) أي: ارتفع فاستمسك نزوله فانقطع.

أنْ يرى رسولُ الله ﷺ في المنام رؤيا يبرّئني اللهُ بها، قالت: والله ما رامَ[1] رسـولُ الله ﷺ مجلسه، ولا خرجَ من البيتِ أحدٌ حتى أنزلَ اللهُ على نبيه، فأخـذه ما كان يأخـذُه من البُـرَحَاءِ[2] عند الوحي، حتى إنه ليتحدَّرُ منه مثلُ الجمـانِ[3] من العَـرَقِ في اليوم الشاتِ، من ثِقَلِ القولِ الذي أُنزلَ عليه؛ قالت: فلما سُرِّيَ عن رسولِ الله ﷺ وهو يضحكُ، كان أوَّلَ كلمةٍ تكلمَ بها أنْ قال: أَبْشِري يا عائِشَةُ إنَّ اللهَ قَدْ برَّأَكِ، فقالتْ لي أمي: قومي إليه، فقلت: والله لا أقومُ إليه، ولا أحمدُ إلا اللهَ، هو الذي أنزلَ براءتي، فأنزل الله: «إِنَّ الَّذِينَ جاؤوا بالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ» عشرَ آيات، فأنزلَ هذه الآياتِ براءةً لي، قالت: فقال أبو بكر: وكان ينفقُ على مسطح لقرابتِه وفقره: والله لا أنفقُ عليه شيئاً أبداً بعد الذي قالَ لعائشة، قالت: فأنزلَ الله: «وَلا يَأْتَلِ أُولُو الفَضْلِ مِنْكُمْ والسَّعَةِ» حتى بلغَ «غَفُورٌ رَحِيمٌ» فقال أبو بكر: إني لأحبُّ أنْ يغفرَ اللهُ لي، فرجعَ إلى مسطحٍ النفقةَ التي كان ينفقُ عليه، وقال: لا أنزعها منه أبداً.

قالت عائشة: وكان رسولُ الله ﷺ، يسألُ زينبَ بنت جحش عن أمري، وما رأتْ، وما سمعتْ، فقالت: يا رسولَ الله أحْمِي سمعي وبصري، والله ما رأيتُ إلا خيراً، قالت عائشـة: وهي التي كانت تُسـاميني[4]، فَعَصَمَهـا اللهُ بالورعِ، وطفقتْ أختُها حَمْنة تحاربُ، فهلكتْ فيمن هَلَكَ.

قال الزهري بن شهاب: هذا الذي انتهى إلينا من أمر هؤلاءِ الرهطِ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ

(١) أي: ما فارق.

(٢) أي الشدة عند الوحي.

(٣) الجمان: الدُّر، شُبِّهَتْ قطراتُ عَرَقِه ﷺ بحباتِ اللؤلؤ في الصفاء والحُسْنِ.

(٤) تساميني: تفاخرني وتضاهيني بجمالها ومكانها عند النبي ﷺ.

﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ١٢﴾

وهذا عتابٌ من الله تعالى ذِكْرُه أهل الإيمانِ به فيما وقعَ في أنفسهم من إرجافِ مَنْ أرجفَ في أمرِ عائشة بما أرجفَ به، يقول لهم تعالى ذِكْرُه: هَلاَّ أيها النـاسُ إذ سمعتم ما قالَ أهـلُ الإفـكِ في عائشة ظَنَّ المؤمنونَ منكم والمؤمناتُ بأنفسهم خيراً: يقول: ظننتم بمن قرفَ بذلك منكم خيراً، ولم تَظُنُّوا به أنـه أتى الفاحشةَ، وقال بأنفسِهم، لأنَّ أهلَ الإسلامِ كُلُّهم بمنزلةِ نَفْسٍ واحدةٍ، لأنهم أهلُ ملةٍ واحدة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ١٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هَلاَّ جاء هؤلاءِ العصبةُ الذين جاؤوا بالإفكِ، ورمَوا عائشةَ بالبهتانِ بأربعةِ شهداء يشهدونَ على مقالتهم فيها، وما رَمَوْهَا به، فإذْ لم يأتـوا بالشهـداءِ الأربعـةِ على حقيقـةِ ما رمَـوْهـا به «فأُولَئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الكـاذِبُونَ»، يقولُ: فالعُصْبَةُ الذين رَمَوْهَا بذلك عند اللهِ هم الكاذبونَ فيما جاؤوا به من الإفك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٤﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: «وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ» أيها الخائضون في أمر عائشةَ، المُشِيعُونَ فيها الكذبَ والإثمَ بتَرْكِه تعجيلَ عقوبَتِكُمْ «وَرَحْمَتُهُ» إياكم لعفـوِهِ عنكم «في الـدُّنْيا والآخِرَةِ» بقبولِ توبتكم مما كان منكم في ذلك، «لَمَسَّكُمْ فيما» خُضْتُمْ فيه من أمرِهَا عاجلاً في الدنيا «عَذَابٌ عَظِيمٌ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لَمَسَّكُمْ فيما أفضيتم فيه من شأنِ عائشةَ عذابٌ عظيم، حين تَلَقَّوْنَهُ بألسنتكم، و«إذ» من صلة قولِه لَمَسَّكُمْ. ويعني بقوله: «تَلَقَّوْنَهُ» تتلقون الإفكَ الذي جاءتْ به العصبةُ من أهلِ الإفك فتقبلونه، ويرويه بعضُكم عن بعضٍ، يقال: تَلَقَّيْتُ هذا الكلامَ عن فلان، بمعنى أخذتُه منه؛ وقيل ذلك لأنَّ الرجلَ منهم فيما ذُكِرَ يَلْقى آخر، فيقول: أَوَ مَا بلغكَ كذا وكذا عن عائشة؟ ليُشيع عليها بذلك الفاحشة.

قوله: «وَتَقُولُونَ بأفْواهِكُمْ ما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وتقولون بأفواهكم ما ليسَ لكم به عِلْمٌ من الأمر الذي تَرْوُونه فتقولون: سمعنا أنَّ عائشةَ فعلت كذا وكذا ولا تعلمونَ حقيقةَ ذلك ولا صحته «وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً» وتظنون أنَّ قولكم ذلك وروايتَكُمُوهُ بألسنتكم، وتَلَقِّيْكُمُوهُ بعضُكم عن بعضٍ هَيِّنٌ سهلٌ، لا إثمَ عليكم فيه ولا حَرَجَ «وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ»، يقولُ: وتلقِّيكم ذلك كذلك، وقولُكُموه بأفواهكم عند الله عظيم من الأمرِ، لأنكم كنتم تؤذونَ به رسولَ الله ﷺ وحليلته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَلَوْلا» أيها الخائضونَ في الإفكِ الذي جاءتْ به عصبةٌ منكم «إِذْ سَمِعْتُمُوهُ» ممن جاء به «قلتُمْ» ما يحلُّ لنا أنْ نتكلمَ بهذا وما ينبغي لنا أن نتفوَّهَ به «سُبْحَانَك» تنزيهاً لك يا ربِّ، وبراءةً إليكَ مما جاء به هؤلاءِ. «هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ»، يقولُ: هذا القول بهتان عظيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٧ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يُذَكِّرُكُمُ اللهُ وينهاكم بآيِ كتابِه، لئلا تَعُودُوا لمثلِ فِعْلِكم الـذي فعلتمـوه في أمـر عائشـةَ من تَلَقِّيكُم الإفك الذي رُوِيَ عليها بألسنتكم، وقولكم بأفواهكم ما ليسَ لكم به عِلْمٌ فيها أبداً «إنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ»، يقولُ: إن كنتم تتعظون بعظاتِ الله، وتأتمرونَ لأمرِه، وتنتهون عما نهاكم عنه.

وقوله: «وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآياتِ»: ويفصِّلُ الله لكم حُجَجَهُ عليكم بأمرِه ونهيه، ليتبين المـطيع له منكم من العاصي، والله عليمٌ بكم وبأفعالكم، لا يَخْفَى عليه شيءٌ، وهـو مُجـازٍ المحسنَ منكم بإحسانِه، والمسيءَ بإساءتِهِ، حكيمٌ في تدبيرِ خَلْقِه، وتكليفه ما كلَّفهم من الأعمال، وفرضه ما فرضَ عليهم من الأفعالِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين يحبون أنْ يذيعَ الزنا في الذين صَدَّقُوا بالله ورسوله، ويظهرَ ذلك فيهم، «لهم عذاب أليم»، يقولُ: لهم عذابٌ وجيعٌ في الـدنيا بالحدِّ الذي جعله الله حدّاً لرامي المحصَنـاتِ والمحصَنين إذا رموهم بذلك، وفي الآخرةِ عذابُ جهنم إنْ ماتَ مُصِرّاً على ذلك غيرَ تائبٍ.

وقوله: «وَاللهُ يَعْلَمُ وأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والله يعلمُ كَذِبَ الذين جاؤوا بالإفك من صدقهم، وأنتم أيها الناسُ لا تعلمون ذلك، لأنكم لا

تعلمون الغيبَ،وإنما يعلمُ ذلك عَلاَّمُ الغيوب. يقول: فلا تَرْوُوا ما لا عِلْمَ لكم به من الإفكِ على أهلِ الإيمان بالله، ولاسيما على حلائلِ رسولِ الله ﷺ فتهلكوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٢٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولولا أنَّ الله تفضَّلَ عليكم أيها الناسُ ورَحِمَكُمْ، وأنَّ الله ذو رأفـةٍ، ذو رحمـة بخلقه لهلكتم فيما أَفَضْتُمْ فيه، وعاجَلَتْكُمْ من اللهِ العقوبةُ. وتركَ ذِكْرَ الجوابِ لمعرفةِ السامعِ بالمرادِ من الكلامِ بَعْدَهُ، وهو قوله: «يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ»... الآية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه للمؤمنينَ به: يا أيها الذين صَدَّقوا اللهَ ورسوله، لا تَسلكُوا سبيلَ الشيطانِ وطُرُقَهُ، ولا تقتفوا آثارَهُ بإشاعتِكم الفاحشةَ في الذين آمنـوا، وإذاعَتِكُمُوها فيهم، وروايتكم ذلك عَمَّنْ جاء به، فإنَّ الشيطانَ يأمرُ بالفحشاء، وهي الزنا، والمنكر من القول.

وقد بيَّنا معنى الخطوات والفحشاء فيما مضى بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولولا فضلُ الله عليكم أيها الناسُ ورحمتُه لكم، ما تَطَهَّرَ منكم من أحدٍ أبداً من دَنَسِ ذنوبه وشِرْكِه، ولكن الله يطهِّرُ مَنْ يشاء من خلقه.

وقـوله: «وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»، يقولُ: والله سميع لما تقولون بأفواهِكم، وتَلَقَّوْنه بألسنتكم، وغير ذلك من كلامِكم، عليمٌ بذلك كله وبغيرِه من أمورِكم، محيطٌ به مُحْصِيه عليكم، ليجازيَكُمْ بكلِّ ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٢﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: ولا يحلفْ بالله ذوو الفضـلِ منكم، يعني ذوي التفضلِ والسَّعةِ: يقولُ: وذوو الجِدَة.

وإنما عُنِي بذلك أبو بكرٍ الصدّيق رضي الله عنه في حلفِه بالله لا ينفق على مِسْطَح، فقال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ولا يحلفْ مَنْ كان ذا فضلٍ من مال وسعة منكم أيها المؤمنونَ بالله، أن لا يُعْطُوا ذَوِي قَرابتهم، فَيَصِلُوا به أرحامَهم، كمِسْطح، وهو ابن خالة أبي بكر «والمَسَاكِينَ» يقولُ: وذوي خَلَّة الحاجةِ، وكان مِسْطح منهم، لأنه كان فقيراً محتاجاً «والمُهَاجِرِينَ في سبيلِ اللهِ» وهم الذين هاجروا من ديارهم وأموالهم في جهادِ أعداءِ الله وكان مِسْطَح منهم لأنه كان مِمَّنْ هاجرَ من مكةَ إلى المدينةِ وشهدَ مع رسولِ الله ﷺ بدراً. «وَلْيَعْفُوا»، يقولُ: وليعفوا عما كان منهم إليهم من جُرْمٍ وذلك كجرمِ مِسطَح إلى أبي بكر في إشاعتِه على ابنته عائشةَ ما أشاعَ من الإفكِ «وَلْيَصْفَحُوا»، يقولُ: وليتركوا عقوبتهم على ذلك بحرمانِهم ما كانوا يُؤْتُونَهُمْ قبلَ ذلك، ولكن ليعودوا لهم إلى مِثْلِ الذي

كانوا لهم عليه من الإفضالِ عليهم، «ألا تُحِبُّونَ أنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ»، يقولُ: ألا تحبون أنْ يسترَ اللهُ عليكم ذنوبكم بإفضالِكُمْ عليهم، فيترك عقوبتكم عليها «وَاللهُ غَفُورٌ» لذنوبِ مَنْ أطاعه، واتَّبَعَ أمْرَهُ، «رحيم» بهم أنْ يُعَذِّبَهُمْ مع اتباعهم أمره، وطاعتهم إياه على ما كانَ لهم من زلةٍ وهفوةٍ قد استغفروهُ منها، وتابوا إليه من فعلها.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْغَـٰفِلَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: «إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ» بالفاحشة «المُحْصَناتِ» يعني العفيفات «الغافلاتِ» عن الفواحشِ «المُؤْمِنات» بالله ورسوله، وما جاء به من عندِ الله. «لُعِنُوا في الدُّنْيا والآخِرَة»، يقولُ: أُبْعِدُوا من رحمةِ الله في الدنيا والآخرة «وَلَهُمْ» في الآخرة «عَذَابٌ عَظِيمٌ» وذلك عذاب جهنم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولهم عذابٌ عظيم «يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ» فاليوم الذي في قوله: «يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ» من صلة قوله: «وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» وعَنَى بقوله: «يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ» يوم القيامة، وذلك حين يجحدُ أحَدُهم ما أكتسبَ في الدنيا من الذنوبِ عن تقريرِ اللهِ إياه بها فيختمُ اللهُ على أفواهِهم، وتشهدُ عليهم أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون.

فإنْ قال قائل: وكيف تشهدُ عليهم ألسنتهم حين يختم على أفواهِهم، قيل: عَنَى بذلك أنَّ ألسنةَ بعضِهم تشهدُ على بعضٍ، لا أنَّ ألسنتهم تنطقُ

وقد ختم على الأفواه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وأَيْدِيهِمْ وأَرْجُلُهُمْ بِمَا كانُوا يَعْمَلُونَ» يوفيهم الله حسابَهُمْ وجزاءهم الحقَّ على أعمالهم. والدينُ في هذا الموضع: الحسابُ والجزاء.

وقوله: «وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ المُبِينُ»، يقولُ: ويعلمون يومئذٍ أنَّ الله هو الحقُّ الذي يبين لهم حقائقَ ما كانَ يَعِدُهُمْ في الدنيا من العذاب، ويزول حينئذٍ الشكُّ فيه عن أهلِ النفاقِ الذين كانوا فيما كان يَعِدُهُمْ في الدنيا يمترون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾

اختلف أهلُ التأويلِ في تأويلِ ذلك، فقال بعضهم: معناه: الخبيثاتُ من القولِ للخبيثين من الرجال، والخبيثونَ من الرجالِ للخبيثاتِ من القولِ، والطيباتُ من القول للطيبين من الناس، والطيبون من الناس للطيبات من القول.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: الخبيثاتُ من النساء للخبيثينَ من الرجال، والخبيثونَ من الرجالِ للخبيثاتِ من النساء.

وأولى هذه الأقـوال في تأويل الآية، قولُ مَنْ قال: عَنَى بالخبيثـات: الخبيثـات من القـول، وذلـك قبيحُـه وسَيِّئُـه للخبيثين من الـرجال والنساء، والخبيثـونَ من النـاس للخبيثـات من القـولِ، هُمْ بها أَوْلى، لأنهم أهلها، والطيبات من القول، وذلك حَسَنُه وجميلُه للطيبينَ من الناس، والطيبون من الناس للطيباتِ من القولِ لأنهم أهلها وأحقُّ بها.

وإنمـا قلنا هذا القولَ أولى بتأويلِ الآية، لأنَّ الآياتِ قبلَ ذلك إنما جاءت بتـوبيخِ الله للقـائلينَ في عائشـة الإفـك، والـرامينَ المحصنـات الغـافلات المؤمنات، وإخبارهم ما خَصَّهُمْ به على إفكهم، فكان ختم الخبرِ عن أولى الفريقين بالإفكِ من الرامي والمرميِّ به، أشبه من الخبرِ عن غيرهم.

وقوله: «أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ»، يقولُ: الطيبون من الناسِ مُبَرَّءُونَ من خبيثاتِ القولِ إنْ قالوها، فإنَّ الله يصفحُ لهم عنها، ويغفرها لهم، وإنْ قيلت فيهم ضَرَّتْ قائلهـا ولم تضـرَّهُمْ، كمـا لو قال الطَّيِّبَ من القولِ الخبيثُ من الناس لم ينفعه الله به، لأنَّ الله لا يَتَقَبَّلُهُ، ولو قيلت له لضرَّتْهُ، لأنه يلحقه عَارُهَا في الدنيا، وذُلُّها في الآخرة.

وقـوله: «لَهُمْ مَغْفِرَةٌ»، يقول لهؤلاءِ الطيبين من الناس: مغفرةٌ من الله لذنوبهم، والخبيثِ من القولِ إنْ كانَ منهم «وَرِزْقٌ كَرِيمٌ»، يقولُ: ولهم أيضاً مع المغفرةِ عطيةٌ من الله كريمة، وذلك الجنة، وما أعدَّ لهم فيها من الكرامةِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ٢٧﴾

اختلف أهلُ التأويل في ذلك، فقال بعضهم: تأويله يا أيها الذين آمنوا

لا تَدْخُلُوا بيوتاً غير بيوتِكم حتى تستأذنوا.

وقال آخرون: معنى ذلك حتى تُؤْنِسُوا أهلَ البيتِ بالتَّنَحْنُحِ والتَّنَحُّمِ وما أشبهه، حتى يعلموا أنكم تُرِيدُونَ الدخولَ عليهم.

والصوابُ من القول في ذلك عندي أن يقال: إنَّ الاستئناس: الاستفعالُ من الانس، وهو أنْ يستأذنَ أهلَ البيت في الدخول عليهم، مخبراً بذلك مَنْ فيه، وهل فيه أحدٌ؟ وليؤذنهم أنه داخلٌ عليهم، فليأنس إلى إذنهم له في ذلك، ويأنسوا إلى استئذانِه إياهم. وقد حُكِيَ عن العربِ سماعاً: اذهب فاستأنس، هل ترى أحداً في الدار؟ بمعنى: أنظر هل ترى فيها أحداً؟.

فتأويل الكلام إذن إذا كان ذلك معناه: يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غيرَ بيوتِكم حتى تُسَلِّمُوا وتستأذنوا، وذلك أن يقول أحدكم: السلامُ عليكم، أَدخلُ؟ وهو من المُقَدَّمِ الذي معناه التأخيرُ إنما هو حتى تسلموا وتستأذنوا.

وقوله: «ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ» يقول: استئناسكم وتسليمكم على أهلِ البيتِ الـذي تريدون دخـولَهُ، فإنْ دُخُولَكُمُوهُ خيرٌ لكم، لأنكم لا تدرون أنكم إذا دخلتموه بغيرِ إذنٍ، على ماذا تهجمون؟ على ما يسوءكم أو يسرّكم؟ وأنتم إذا دخلتم بإذن لم تَدْخُلوا على ما تَكْرَهُونَ، وأدَّيتم بذلك أيضاً حَقَّ الله عليكم في الاستئذان والسلام.

وقـولـه: «لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ»، يقـولُ: لتتـذكروا بفعلكم ذلك أوامرَ الله عليكم، واللازم لكم من طاعتِه فتطيعوه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا فَٱرْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٢٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فإنْ لم تجدوا في البيوت التي تستأذنون فيها أحداً، يأذن لكم بالدخولِ إليها، فلا تَدْخُلُوها لأنها ليستْ لكم، فلا يحلُّ لكم دخولها إلا بإذنِ أربابها، فإنْ أذن لكم أربابُهَا أنْ تدخلوها، فادخلوها. «وَإِنْ قِيلَ لَكُم ارْجِعُوا فارْجِعُوا»، يقولُ: وإنْ قال لكم أهلُ البيوتِ التي تستأذنون فيها: ارجعوا، فلا تدخُلُوها وارجعوا عنها ولا تدخلوها. «هُوَ أَزْكَى لَكُمْ»، يقولُ: رجوعُكم عنها إذا قيلَ لكم ارجعوا، ولم يُؤْذَن لكم بالدخولِ فيها أطهرُ لكم عند الله.

وقوله: «وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ»، يقول جَلَّ ثناؤُه: والله بما تعملون من رجوعكم بعد استئذانكم في بيوت غيركم إذا قيل لكم ارجعوا، وترك رجوعكم عنها وطاعتكم اللهَ فيما أَمَرَكُمْ ونهاكم في ذلك وغيرِه من أمرِه ونهيهِ، ذُو عِلْمٍ محيطٍ بذلك كله، مُحْصٍ جميعه عليكم، حتى يجازيكم على جميع ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ۝٢٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ليس عليكم أيها الناسُ إثمٌ وحَرَجٌ، أنْ تدخلوا بيوتاً لا ساكنَ بها بغير استئذان.

ثم اختلفوا في ذلك أيّ البيوتِ عَنَى، فقال بعضهم: عَنَى بها الخاناتِ والبيوتَ المبنيةِ بالطرقِ التي ليس بها سكانٌ معروفون، وإنما بُنِيتْ لمارَّةِ الطريقِ والسابلةِ، ليأوُوا إليها، ويُؤْوُوا إليها أمتعتهم.

وقال آخرون: هي بيوت مكة.

وقال آخرون: هي البيوت الخَرِبَةُ والمتاعُ الذي قال الله فيها لكم قضاء الحاجة، من الخلاءِ والبولِ فيها.

وأولى الأقـوال في ذلـك بالصوابِ أنْ يقالَ: إنَّ الله عَمَّ بقوله: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أنْ تَدْخُلوا بُيُوتاً غيرَ مَسْكُونَةٍ، فِيها مَتاعٌ لَكُمْ» كلَّ بيتٍ لا ساكنَ به لنا فيه متاعٌ ندخله بغيرِ إذنٍ، لأنَّ الإذنَ إنما يكونُ ليؤنس المأذون عليه قبلَ الدخولِ، أو ليأذنَ للداخلِ إنْ كان له مالكاً، أو كان فيه ساكناً. فأما إنْ كان لا مالكَ له فيحتاج إلى إذنِه لدخولِه ولا ساكنَ فيه، فيحتاج الداخلُ إلى إيناسه، والتسليم عليه، لئلا يهجمَ على ما لا يحبُّ رؤيتَهُ منه، فلا معنى للاستئذانِ فيه. فإذا كان ذلك، فلا وجه لتخصيصِ بعضٍ ذلك دونَ بعضٍ، فكلُّ بيتٍ لا مالكَ له ولا ساكنَ من بيتٍ مبنيٍّ ببعضِ الطرق للمارَّةِ والسابلة ليأووا إليه، أو بيتٍ خرابٍ قد بادَ أهلُه ولا ساكنَ فيه، حيث كان ذلك، فإنَّ لمن أرادَ دخولَهُ أنْ يدخلَ بغيرِ استئذانٍ لمتاعٍ له يُؤويه إليه، أو للاستمتاعِ به لقضاءِ حَقِّهِ من بولٍ أو غائط أو غير ذلك. وأما بيوت التجار، فإنه ليس لأحدٍ دخولها إلا بإذنِ أربابها وسكانها.

فإن ظَنَّ ظانٌّ أنَّ التاجرَ إذا فتح دكانه وقعدَ للناس، فقد أذِنَ لمن أرادَ الدخولَ عليه في دخولِه، فإنَّ الأمرَ في ذلك بخلاف ما ظَنَّ، وذلك أنه ليس لأحدٍ دخول ملكِ غيره بغيرِ ضرورةٍ ألجأته إليه، أو بغير سببٍ أباح له دخوله في الدخول، فذلك بَعْدُ راجعٌ إلى ما قلنا من أنه لم يدخله مَنْ دَخَلَهُ إلا بإذنه. وإذا كان ذلك كذلك، لم يكن من معنى قوله: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غيرَ مَسْكُونَةٍ فِيها مَتاعٌ لَكُمْ» في شيء، وذلك أنَّ التي وضع الله عنا الجناحَ في دخولها بغير إذنٍ من البيوتِ، هي ما لم يكن مسكوناً، إذْ حانوت التاجر لا سبيلَ إلى دخولِه إلا بإذنه، وهو مع ذلك مسكون، فتبين أنه مما عَنَى الله من هذه الآية بمعزل.

وقال جماعةٌ من أهلِ التأويل: هذه الآية مستثناةٌ من قوله: «لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غيرَ بُيُوتِكُمْ حتى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا على أهْلِها».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٣٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ للمؤمنينَ باللهِ وبكَ يا محمدُ «يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ»، يقولُ: يَكُفُّوا من نَظَرِهم إلى ما يشتهونَ النظرَ إليه، مما قد نهاهم الله عن النظر إليه «وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ» أن يراها مَنْ لا يحلُّ له رؤيتها، بلبسِ ما يسترها عن أبصارهم، «ذلكَ أَزْكَى لَهُمْ»، يقولُ: فإنَّ غَضَّهَا من النظرِ عما لا يحلُّ النظرُ إليه، وحفظ الفرج عن أنْ يظهرَ لأبصارِ الناظرينَ أطهرُ لهم عند الله وأفضل. «إِنَّ الله خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ»، يقولُ: إنَّ الله ذو خبرة بما تصنعون أيها الناسُ فيما أمركم به من غضِّ أبصارِكم عما أمَرَكُمْ بالغَضِّ عنه، وحفظ فروجكم عن إظهارِها لمن نهاكم عن إظهارِهَا له.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «وَقُلْ»، يا محمدُ «لِلْمُؤْمِناتِ» من أمتك «يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِن» عما يكرهُ اللهُ النظرَ إليه مما نَهاكُمْ عن النظرِ إليه «وَيَحْفَظْنَ فُرُجَهُنَّ»، يقولُ: ويحفظن فروجهنَّ عن أنْ يراها مَنْ لا يحلُّ له رؤيتها، بلبسِ ما يسترها عن أبصارهم.

وقوله: «وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ»، يقولُ تعالى ذِكْرُه: ولا يُظْهِرْنَ للناسِ الذين

ليسوا لَهُنَّ بِمَحْرَمٍ زينتهنَّ، وهما زينتان: إحداهما ما خفيَ وذلك كالخلخالِ والسوارينِ والقُرْطَيْنِ والقلائد الأخرى ما ظهرَ منها، وذلك مختلف في المعنيِّ منه بهذه الآية، فكان بعضُهم يقول: زينةَ الثيابِ الظاهرةِ.

وقـال آخـرون: الـظاهـرُ من الزينةِ التي أُبيحَ لها أنْ تُبديه: الكحل، والخاتم، والسواران، والوجه.

وقال آخرون: عنى به الوجه والثياب.

وقال آخرون: عُنِي به الكَفَّانِ والوجه.

وأوْلى الأقـوالِ في ذلـك بالصوابِ قولُ مَنْ قالَ: عُنِيَ بذلك: الوجه والكفان، يدخلُ في ذلك إذا كان كذلك: الكحلُ، والخاتمُ، والسوارُ، والخِضَابُ.

وإنما قلنا ذلك أوْلى الأقوالِ في ذلك بالتأويلِ لإجماعِ الجميعِ على أنَّ على كلِّ مُصَلٍّ أنْ يسترَ عورته في صلاته، وأنَّ للمرأةِ أنْ تكشفَ وجهها وكَفَّيْها في صلاتها، وأنَّ عليها أنْ تسترَ ما عدا ذلك من بدنها، إلا ما رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه أباح لها أنْ تُبديه من ذراعها إلى قَدْرِ النصف[1]. فإذ كان ذلك من جميعهم إجماعاً، كان معلوماً بذلك أنَّ لها أنْ تبدي من بدنها ما لم يكُنْ عورةً كما ذلك للرجالِ، لأنَّ ما لم يكن عورة، فغيرُ حرامٍ إظهارُه. وإذا كان لها إظهار ذلك، كان معلوماً أنه مما استثناهُ الله تعالى ذِكْرُه، بقوله: «إلا ما ظَهَرَ مِنْهَا» لأنَّ كُلَّ ذلك ظاهر منها.

وقـوله: «وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ على جُيُوبِهِنَّ» يقول تعالى ذِكْرُه: وليلقين خُمُرهنَّ، وهي جمع خمار على جيوبهنَّ، ليسترنَ بذلك شعورهنَّ وأعناقهن وقِرَطَتَهُنّ.

(١) أخرجه المؤلف مرسلاً من حديث قتادة، وهو في الدر المنثور: ٥/ ٤١.

وقوله: «وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ»، يقول تعالى ذِكْرُه: «وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ» التي هي غيرُ ظاهـرةٍ، بل الخفية منهـا، وذلـك الخلخـال والقـرط والدملج، وما أُمِرَتْ بتغطيتِه بخمارها من فوقِ الجيب، وما وراء ما أُبيحَ لها كشفُه وإبرازُه في الصلاة وللأجنبيين من الناسِ والذراعين إلى فوق ذلك إلا لبعولتهنَّ.

يقول الله تعالى ذِكْرُه: قُلْ للمؤمناتِ الحرائر لا يُظْهِرْنَ هذه الزينةَ الخَفِيَّةَ التي ليست بالظاهرةِ إلَّا لبعولتهنَّ، وهم أزواجُهنَّ، واحدهم بَعْل، أو لآبائهنَّ، أو لآباءِ بعولتهن، يقولُ: أو لآباء أزواجهن، أو لأبنائهن، أو لأبناء بعولتهن، أو لإخوانهن، أو لبني إخوانهن، ويعني بقوله: «أَوْ لإِخْوانِهِنَّ» أو لأخواتهن، أو لبني إخوانهن أو بني أخواتهن، أو نسائهن، قيل: عَنَى بذلك نساءَ المسلمين.

وقوله: «أَوْ ما مَلَكَتْ أيمانُهُنَّ» اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: أو مماليكهنَّ، فإنه لا بأسَ عليها أنْ تُظْهِرَ لهم من زينتها ما تظهره لهؤلاءِ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أو ما ملكتْ أيمانُهُنَّ من إماءِ المشركينَ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٣١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والذين يتبعونكم لطعامٍ يأكلونهُ عندكم ممن لا أربَ

له في النساءِ من الرجالِ، ولا حاجةَ به إليهنَّ، ولا يريدهنَّ[1].

وقوله: «أو الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا على عَوْرَاتِ النِّساءِ»، يقول تعالى ذِكْـرُه: أو الـطفلِ الذين لم يكشفوا عن عوراتِ النساء بجماعهنَّ، فيظهروا عليهن لصغرهنَّ.

وقوله: «وَلا يَضْرِبْنَ بأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ ما يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولا يجعلن في أرجلهنَّ من الحليِّ ما إذا مشين أو حرَّكْنَهُنَّ، عَلِمَ الناسُ الذين مشين بينهم ما يُخْفِينَ من ذلك.

وقوله: «وَتُوبُوا إلى الله جمِيعاً أَيُّها المُؤْمِنُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وارجعوا أيها المؤمنونَ إلى طاعةِ الله فيما أمركم ونهاكم من غضِّ البصر، وحفظِ الفَرْجِ، وتركِ دخولِ بيوتٍ غير بيوتكم، من غير استئذانٍ ولا تسليمٍ، وغير ذلك من أمرِه ونهيِه. «لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»، يقولُ: لِتُفْلِحُوا وتُدْرِكُوا طَلباتِكُمْ لديه، إذا أنتم أطعتموه فيما أمركم ونهاكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٣٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وزَوِّجُوا أيها المؤمنونَ مَنْ لا زوجَ له من أحرارِ رجالِكم ونسائِكم ومن أهلِ الصلاحِ من عبيدكم ومماليككم. والأيامى: جمعُ أَيِّم، وإنما جمع الأيم أيامى لأنها فعيلة في المعنى، فجُمعت كذلك كما جمعت اليتيمة: يتامى.

(١) كأن يكون أحمقاً أو أبلهاً أو مخنثاً أو شيخاً فانياً أو نحو ذلك مما لا حاجة به إلى النساء (انظر: زاد المسير في علم التفسير: ٦/٣٣-٣٤).

«إنْ يَكُـونُوا فُقَرَاءَ»، يقولُ: إنْ يكن هؤلاءِ الذين تنكحونهم من أيامى رجالِكم ونسائِكم وعبيدِكم وإمائِكم أهلَ فاقةٍ وفقرٍ، فإنَّ الله يُغْنيهم من فَضْلِه، فلا يَمْنَعَنَّكُمْ فقرُهُمْ من إنكاحِهم.

وقوله: «وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ»، يقول جَلَّ ثناؤه: واللهُ واسعُ الفضل، جوادٌ بعـطاياه، فزوِّجُـوا إماءكم، فإنَّ الله واسعٌ يوسع عليهم من فَضْلِه، إنْ كانوا فقراء. عليم: يقول: هو ذُو علمٍ بالفقيرِ منهم والغنيِّ، لا يَخْفَى عليه حالُ خَلْقِه في شيءٍ وتدبيرهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ۚ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وليستعففِ الذين لا يجدونَ ما ينكحونَ به النساءَ عن إتيانِ ما حَرَّمَ اللهُ عليهم من الفواحشِ حتى يغنيهمُ اللهُ من سَعَةِ فضلِه، ويوسِّعْ عليهم من رزقه.

وقوله: «وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الكِتابَ مِمَّا مَلَكَتْ أيمَانُكُمْ»، يقول جَلَّ ثناؤه: والذين يلتمسون المكاتبةَ منكم من مماليكِكُمْ «فكاتِبُوهُمْ إنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً»، واختلف أهلُ العلم في وجه مُكاتبةِ الرجلِ عَبْدَهُ الذي قد عَلِمَ فيه خيراً، وهل قولـه: «فَكاتِبُوهُمْ إنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً» على وجه الفرضِ أمْ هُوَ على وجهِ النَّدْبِ؟ فقال بعضهم: فرض على الرجل أنْ يكاتبَ عبده الذي قد علم فيه خيراً إذا سأله العبدُ ذلك.

وقال آخرون: ذلك غيرُ واجبٍ على السيد، وإنما قوله: «فَكاتِبُوهُمْ» نَدْبٌ من الله سادةَ العبيد إلى كتابةِ مَنْ عُلِمَ فيه منهم خيرٌ، لا إيجابٌ.

وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قولُ مَنْ قال: واجبٌ على سيد العبدِ أنْ يكاتبه إذا علم فيه خيراً، وسأله العبدُ الكتابةَ، وذلك أنَّ ظاهرَ قوله: «فَكاتِبُوهُمْ» ظاهر أمرٍ، وأمرُ الله فَرْضٌ الانتهاءُ إليه ما لم يكن دليلٌ من كتابٍ أو سنة، على أنه نَدْبٌ لما قد بَيَّنا من العلةِ في كتابنا المسمى «البيان عن أصول الأحكام».

وأما الخبر الذي أمر الله تعالى ذِكْرُه عبادَهُ بكتابةِ عبيدهم إذْ عَلِمُوه فيهم، فهو القدرةُ على الاحترافِ والكَسْبِ لأداءِ ما كُوتِبُوا عليه.

وقوله: «وآتُوهُمْ مِنْ مالِ الَّذِي آتاكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأعطوهم من مالِ الله الذي أعطاكم.

ثم اختلف أهلُ التأويل في المأمور بإعطائِه من مالِ الله الذي أعطاه مَنْ هو؟ وفي المال أيّ الأموالِ هو؟ فقال بعضهم: الذي أمر اللهُ بإعطاءِ المكاتب من مالِ الله: هو مولى العبد المكاتب، ومال الله الذي أمر بإعطائِه منه هو مالُ الكتابة، والقَدْرُ الذي أمر أن يعطيه منه الربع.

وقال آخرون: بل ما شاء من ذلك المولى.

وقـال آخرون: بل ذلك حَضٌّ من اللهِ أهلَ الأموالِ على أنْ يُعطوهم سَهْمَهُم الذي جعله لهم من الصدقاتِ المفروضةِ لهم في أموالهم بقوله: «إنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالمَساكِينِ والعامِلِينَ عَلَيْهَا والمُؤَلَّفَة قُلُوبُهمْ وفي الرِّقاب»، قال: فالـرقابُ التي جعل فيها أحد سُهمانِ الصدقة الثمانية هم المُكَاتَبُونَ، قال: وإياهُ عَنَى جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقوله: «وآتوهُمْ مِنْ مال الله الَّذِي آتاكُمْ»: أي سهمهم من الصدقة.

وأولى القولين بالصوابِ في ذلك عندي القولُ الثاني، وهو قولُ مَنْ قال: عَنَى به إيتاءَهُمْ سهمَهُمْ من الصدقةِ المفروضة.

وإنمـا قلنا ذلك أوْلى القولين، لأنَّ قوله: «وآتُوهُمْ مِنْ مالِ اللهِ الَّذِي آتاكُمْ» أمرٌ من الله تعالى ذِكْرُه بإيتاءِ المُكَاتَبينَ من مالِه الذي آتى أهلَ الأموالِ، وأمرُ الله فَرْضٌ على عبادِه الانتهاءُ إليه ما لم يُخْبِرْهُمْ أنَّ مُرَادَهُ الندب، لِمَا قد بيَّنا في غير موضع من كتابنا، فإذْ كان ذلك كذلك ولم يَكُنْ أخبرنا في كتابه، ولا على لسانِ رسولِه ﷺ، أنه نَدْبٌ، فَفَرْضٌ واجبٌ. وإذ كان ذلك كذلك، وكانت الحجةُ قد قامتْ أنْ لا حقَّ لأحدٍ في مالِ أحدٍ غيره من المسلمين، إلا ما أوجبه اللهُ لأهلِ سُهْمان الصدقةِ في أموال الأغنياءِ منهم، وكانت الكتابةُ التي يقتضيها سيدُ المُكَاتَبِ من مُكَاتِبِه مالاً من مالِ سيد المكاتب، فيفادُ أنَّ الحقَّ الذي أوجبَ اللهُ له على المؤمنينَ أنْ يُؤْتُوه من أموالهم، هو ما فرض على الأغنياءِ في أموالهم له من الصدقةِ المفروضةِ، إذْ كان لا حقَّ في أموالهم لأحدٍ سواها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: زَوِّجُوا الصالحينَ من عبادِكم وإمائكم، ولا تُكْرِهُوا إماءَكُمْ على البغاء، وهو الزنا «إنْ أرَدْنَ تَحَصُّناً»، يقولُ: إن أردن تعففاً عن الزنا. «لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الحَياةِ الدُّنْيا»، يقولُ: لتلتمسوا باكراهِكُمْ إياهُنَّ على الزنا عَرَضَ الحياةِ الـدنيا وذلـك ما تعـرض لهم إليه الحـاجةُ من رياشها وزينتها وأموالها، «وَمَنْ يُكْرِههُّنَّ»، يقولُ: ومَنْ يُكْرِهُ فتياته على البغاء، فإنَّ اللهَ من بعدِ إكراهِه إياهُنَّ على ذلك لهم «غَفُورٌ رَحِيمٌ»، ووزْرُ ما كان من ذلك عليهم دونهن..

وذُكر أن هذه الآيةَ أُنْزلتْ في عبدالله بن أُبيّ ابن سلول حين أكره أَمَتَهُ مسيكة على الزنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيَّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ٣٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد أنزلنا إليكم أيها الناسُ دلالاتٍ وعلاماتٍ مبينات: يقولُ: مفصلاتٍ الحقَّ من الباطلِ، وموضحاتٍ ذلك.

واختلفت القَرأَةُ في قراءة ذلك، فقرأته عامة قَرأَةِ المدينة وبعض الكوفيين والبصريين «مُبَيَّناتٍ» بفتح الياء بمعنى: مُفَصَّلاتٍ، وأنَّ الله فَصَلَهُنَّ وبَيَّنهنَّ لعباده، فهنَّ مُفَصَّلاتٍ مُبَيَّناتٍ. وقرأ ذلك عامة قَرَأَةُ الكوفة «مُبَيِّناتٍ» بكسر الياء، بمعنى أنَّ الآياتِ هُنَّ تُبَيِّنُ الحقّ والصوابَ للناسِ، وتهديهم إلى الحقّ.

والصواب من القول في ذلك عندنا أنهما قراءتان معروفتان، وقد قرأ بكل واحدةٍ منهما علماءُ من القَرَأةِ، متقاربتا المعنى، وذلك أنَّ الله إذا فصَّلها وبيَّنها صارت مبينة بنفسها الحقَّ لمن التمسهُ من قِبَلها، وإذا بيَّنت ذلك لمن التمسه من قبلها، فيبين الله ذلك فيها، فبأيِّ القراءتين قرأ القارئُ، فمصيبٌ في قراءته الصوابَ.

وقوله: «وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ» من الأمم، وموعظةً لمن اتقى الله، فخافَ عقابَهُ وخشيَ عذابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ

نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «اللهُ نُورُ السَّمواتِ والأرْضِ» هادي مَنْ في السمواتِ والأرض، فهم بنوره إلى الحقِّ يهتدون، وبِهُدَاهُ من حيرةِ الضلالةِ يعتصمون.

وهذا مَثَلٌ ضربه اللهُ للقرآنِ في قلبِ أهلِ الإيمانِ به. فقال: مَثَلُ نورِ الله الذي أنارَ به لعبادِه سبيلَ الرشاد، الذي أنزله إليهم فآمنوا به وصَدَّقُوا بما فيه في قلوبِ المؤمنينَ، مثل مشكاةٍ، وهي عمودُ القنديل الذي فيه الفتيلة، وذلك هو نظير الكوَّةِ التي تكون في الحيطان التي لا منفذَ لها، وإنما جعل ذلك العمود مشكاةً، لأنه غير نافذٍ، وهو أجوف مفتوحُ الأعلى، فهو كالكوَّةِ التي في الحائط التي لا تنفذُ، ثم قال: «فِيها مِصْباحٌ» وهو السِّراجُ، وجعل السراجَ وهو المصباح مَثَلاً لِمَا في قلبِ المؤمنِ من القرآنِ والآياتِ المبينات، ثم قال: «المِصْباحُ في زُجاجَةٍ»، يعني: أن السراج الذي في المشكاة: في القنديل، وهو الزجاجة، وذلك مثل للقرآن، يقولُ: القرآنُ الذي في قلبِ المؤمن الذي أنار الله قَلْبَهُ في صدرِه، ثم مَثَّلَ الصدرَ في خُلوصِه من الكفرِ بالله والشكِّ فيه، واستنارتِه بنورِ القرآنِ، واستضاءتِه بآياتِ رَبِّه المبينات، ومواعظِه فيها بالكوكبِ الدُّرِّيِّ فقال: الزجاجة، وذلك صدرُ المؤمنِ الذي فيه قلبُه كأنها كوكبٌ دُرِّيٌّ، وإنما يَصِفُ صدرَهُ بالنقاءِ من كلِّ ريبٍ وشكٍّ في أسبابِ الإيمان بالله وبُعْدِه من دَنَسِ المعاصي، كالكوكبِ الذي يُشبه الدُّرَّ في الصفاء والضياء والحسن.

واختلفوا في قراءة قوله: «يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ» فقرأ ذلك بعض المكيين والمدنيين وبعض البصريين «تَوَقَّدَ مِنْ شَجَرَةٍ» بالتاء وفتحها وتشديد القاف وفتح الدال، وكأنهم وَجَّهُوا معنى ذلك إلى تَوَقُّدِ المصباحِ من شجرةٍ مباركة. وقرأه بعض عامة قَرَأة المدنيين «يُوقَدُ» بالياء وتخفيف القاف ورفع

الدال، بمعنى: يوقد المصباح موقده من شجرة. وقرأ ذلك عامة قَرَأة الكوفة «تُوقَدُ» بضم التاء وتخفيف القاف ورفع الدال، بمعنى: يوقِدُ الزجاجةَ مُوقِدُهَا من شجرةٍ مباركة. وقرأه بعض أهل مكة «تَوَقَّدُ» بفتح التاء وتشديد القاف وضم الـدال، بمعنى تَتَوَقَّدُ الزجاجةُ من شجرة، ثم أسقطت إحدى التاءين اكتفاء بالباقية من الذاهبة.

وهذه القراءات متقاربات المعاني وإن اختلفت الألفاظ بها، وذلك أنَّ الزجاجة إذا وصفت بالتوقد، أو بأنها تَوَقَّدَ، فمعلومٌ معنى ذلك، فإنَّ المرادَ به تَوَقَّدَ فيها المصباحُ، أو يُوقَدُ فيها المصباحُ، ولكن وجَّهُوا الخبرَ إلى أن وصفها بذلك أقرب في الكلام منها، وفهم السامعين معناه. والمراد منه، فإذا كان ذلك كذلك، فبأيِّ القراءاتِ قرأ القارىءُ فمصيبٌ، غير أنَّ أعجبَ القراءاتِ إليَّ أنْ أقرأ بها في ذلك «تَوَقَّدَ» بفتح التاء وتشديد القاف وفتح الدال بمعنى: وصف المصبـاح بالتوقد، لأنَّ التوقُّدَ والاتِّقَادَ لاشكَّ أنهما من صفتِه دونَ الزجاجة، فمعنى الكلام إذن: كمشكاةٍ فيها مصباح، المصباحُ من دهنِ شجرةٍ مباركةٍ زيتونةٍ، لا شرقيةٍ ولا غربية.

وإنما قيل لهذه الشجرة: لا شرقيةٍ ولا غربية: أي ليست شرقية وحدها حتىَ لا تُصيبَها الشمسُ إذا غربت، وإنما لها نَصِيبُهَا من الشمسِ بالغَداةِ ما دامت بالجانبِ الذي يلي الشرق، ثم لا يكون لها نصيب منها إذا مالت إلى جانب الغرب، ولا هي غربية وحدها، فتصيبها الشمسُ بالعَشِيِّ إذا مالت إلى جانب الغرب، ولا تصيبها بالغَداةِ، ولكنها شرقيةٌ غربيةٌ، تطلعُ عليها الشمسُ بالغداة، وتغرب عليها، فيصيبها حرُّ الشمس بالغَداةِ والعشيِّ، قالوا: وإذا كانت كذلك كان أجود لزيتها.

وقوله: «يَكادُ زيْتُها يُضِيءُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يكادُ زيتُ هذه الزيتونةِ

يضيءُ من صفائه، وحُسْنِ ضيائه. «وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ»، يقولُ: فكيف إذا مَسَّتْهُ النارُ.

وإنما أُريدَ بقوله: «يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ» أنَّ هذا القرآنَ من عند الله، وأنه كلامه، فجعل مَثَلَهُ ومثلَ كونِه من عندِه، مثلَ المصباحِ الذي يُوقَدُ من الشجرةِ المباركةِ، التي وصفها جَلَّ ثَنَاؤُهُ في هذه الآية. وعَنَى بقوله: «يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ» أنَّ حججَ الله تعالى ذِكْرُه على خَلْقِه تكادُ من بيانها ووضوحها تُضِيءُ لمن فَكَّـرَ فيهـا ونظرَ، أو أعرضَ عنها ولها[1]. «وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ»، يقولُ: ولو لم يزدها الله بياناً ووضوحاً بإنزاله هذا القرآنَ إليهم مُنَبِّهاً لهم على توحيدِه، فكيفَ إذا نَبَّههم به وذَكَّرهم بآياتِه، فزادهم به حجةً إلى حُجَجِه عليهم قبل ذلك، فذلك بيانٌ من الله، ونورٌ على البيان، والنور الذي كان قد وضعه لهم ونصبه قبل نزوله.

وقوله: «نُورٌ عَلى نُورٍ»، يعني النار على هذا الزيت الذي كاد يُضِيءُ ولو لم تَمْسَسْهُ النارُ.

وهو عندي كما ذكرتُ مثل القرآن، ويعني بقوله: «نُورٌ عَلى نورٍ» هذا القرآنُ نورٌ من عندِ الله أنزله إلى خَلْقِه يستضيئون به «على نور» على الحججِ والبيانِ الذي قد نَصَبَهُ لهم قبل مجيءِ القرآنِ وإنزاله إياه، مما يدلُّ على حقيقةِ وحدانيتِه، فذلك بيانٌ من الله، ونورٌ على البيانِ، والنور الذي كان وضعه لهم، ونصبه قبل نزوله.

وقوله: «يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يُوَفِّق اللهُ لأتباعِ نوره، وهو هذا القرآن مَنْ يشاء من عباده.

وقوله: «وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثالَ لِلْنَّاس»، يقولُ: ويُمَثِّلُ اللهُ الأمثالَ والأشباه

---

(١) من اللهو واللعب مُعْرِضاً عنها.

للناسِ، كما مثَّلَ لهم مثل هذا القرآن في قلبِ المؤمن بالمصباح في المشكاةِ وسائر ما في هذه الآيةِ من الأمثال.

«وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ»، يقولُ: والله يضربُ الأمثالَ، وغيرَها من الأشياءِ كلها، ذُو عِلْمٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ» اللهُ نورُ السمواتِ والأرضِ، مَثَلُ نورِه كمشكاةٍ فيها مصباحٌ في بيوتٍ أذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ.

وقوله: «وَيُذْكَرَ فِيها اسْمُه»، يقولُ: وأذِنَ لعبادِه أنْ يذكُروا اسمَهُ فيها.

وقوله: «يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بالغُدُوِّ والآصالِ رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ»، اختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: «يُسَبِّحُ لَهُ» فقرأ ذلك عامة قَرَأَة الأمصارِ «يُسَبِّحُ لَهُ» بضم الياء وكسر الباء، بمعنى: يُصَلِّي له فيها رجالٌ، ويجعل يسبح فعلاً للرجال، وخبراً عنهم، وترفع به الرجال، سوى عاصم وابن عامر فإنهما قرأا ذلك «يُسَبَّحُ لَهُ» بضمِّ الياء وفتح الباء على ما لم يسمَّ فاعلُه، ثم يرفعان الرجال بخبرٍ ثان مُضْمَرٍ كأنهما أرادا: يُسَبَّحُ اللهُ في البيوت التي أذِنَ اللهُ أن ترفع، فسبَّح له رجالٌ فرفعا الرجال، بفعل مضمر.

والقراءة التي هي أولاهما بالصوابِ، قراءةُ مَنْ كسر الباء، وجعله خبراً

للرجال وفعلاً لهم. وإنما كان الاختيارُ رفع الرجالِ بمضمرٍ من الفعل لو كان الخبر عن البيوتِ، لا يتمُّ إلا بقوله: «يُسَبِّحُ لَهُ فِيها». فأما والخبر عنها دونَ ذلك تامٌّ فلا وجه لتوجه قوله: يسبح له إلى غيره.

وعَنَى بقوله: «يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بالغُدُوِّ والآصَالِ» يصلي له في هذه البيوتِ بالغُدُواتِ والعَشِيَّاتِ رجالٌ.

وقوله: «رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارةٌ ولا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لا يشغَلُ هؤلاءِ الرجال الذين يصلون في هذه المساجدِ التي أذِنَ اللهُ أن ترفع عن ذِكْرِ اللهِ فيها، وإقامِ الصَلاةِ تجارةٌ ولا بيع.

وقوله: «وَإقامِ الصَّلاةِ»، يقولُ: ولا يَشْغَلُهم ذلك أيضاً عن إقامِ الصلاةِ بحدودها في أوقاتها.

وقوله: «وَإيتاءِ الزَّكاةِ»، قيل: معناه: وإخلاص الطاعةِ لله.

وقوله: «يخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ القُلُوبُ والأَبْصَارُ»، يقولُ: يخافون يوماً تتقلبُ فيه القلوبُ من هَوْله بين طمعٍ بالنجاةِ وحَذَرٍ بالهلاكِ، والأبصار: أيّ ناحيةٍ يُؤْخَذُ بهم أذاتَ اليمينِ أمْ ذاتَ الشمالِ، ومن أينَ يُؤْتَوْنَ كُتُبَهُمْ، أَمِنْ قِبَلِ الأَيمانِ، أم من قِبَلِ الشمائلِ، وذلك يوم القيامة.

وقوله: «لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا»، يقولُ: فعلوا ذلك، يعني أنهم لم تُلْهِهِمْ تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذِكْرِ اللهِ، وأقاموا الصلاةَ، وآتوا الزكاةَ، وأطاعوا رَبَّهم مخافةَ عذابهِ يومَ القيامة، كي يُثيبهم اللهُ يومَ القيامةِ بأحسنِ أعمالِهم التي عملوها في الدنيا، ويَزيدَهُمْ على ثوابهِ إياهم على أحسنِ أعمالهم التي عملوها في الدنيا من فضله، فَيُفْضِلْ عليهم من عندِه بما أحبَّ من كرامته لهم. وقوله: «واللهُ يَرْزقُ مَنْ يَشاءُ بغيرِ حِسَابٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يتفضل على مَنْ شاء وأرادَ من طَوْلِه وكرامتِه، مما لم يستحقه بعمله ولم يبلغه بطاعتِه بغيرِ حسابٍ،

يقولُ: بغير محاسبةٍ على ما بذل له وأعطاه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٣٩﴾

وهذا مَثَلٌ ضربه اللهُ لأعمالِ أهلِ الكفرِ به. فقال: والذين جحدوا توحيد ربهم، وكذَّبُوا بهذا القرآن وبمن جاء به مَثَلُ أعمالهم التي عملوها «كَسَرابٍ»، يقول: مثل سرابٍ، والسراب: ما لصقَ بالأرض، وذلك يكون نصف النهار، وحين يشتدُّ الحَرُّ والآلُ ما كان كالماء بين السماءِ والأرضِ، وذلك يكون أوَّلَ النهارِ يرفع كلَّ شيءٍ ضُحىً.

وقوله: «بقِيعَةٍ» وهي جمع قاع، كالجيرة جمع جارٍ، والقاع: ما انبسط من الأرضِ واتَّسَعَ وفيه يكون السرابُ.

وقوله: «يَحْسَبُهُ الظَّمآنُ ماءً»، يقولُ: يظن العطشانُ من الناس السرابَ ماء «حَتَّى إذَا جَاءَهُ» والهاء من ذكر السراب، والمعنى: حتى إذا جاء الظمآنُ السرابُ ملتمساً ماءً يستغيث به من عطشه «لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً»، يقولُ: لم يجد السرابَ شيئاً، فكذلك الكافرونَ باللهِ من أعمالهم التي عملوها في غرور، يحسبون أنها مُنجيتُهم عندَ الله من عذابه، كما حَسِبَ الظمآنُ الذي رأى السرابَ فظنه ماءً يُرويه من ظمئِه، حتى إذا هَلَكَ وصارَ إلى الحاجةِ إلى عملِه الذي كان يرى أنه نافِعهُ عند الله، لم يجده، ينفعهُ شيئاً، لأنه كان عمله على كفرٍ بالله ووجد الله هذا الكافر عند هلاكهِ بالمرصادِ، فوفَّاهُ يومَ القيامة حسابَ أعمالِه التي عملها في الدنيا، وجازاهُ بها جزاءه الذي يستحقه عليها منه.

فإن قال قائل: وكيف قيل: «حتى إذا جاءَهُ لَمْ يجِدْهُ شَيْئاً» فإن لم يكن

السرابُ شيئاً، فَعَلَامَ أدخلت الهاء في قوله: «حَتَّى إذا جاءَهُ»، قيل: إنه شيءٌ يُرى من بعيدٍ كالضبابِ الذي يُرَى كثيفاً من بعيدٍ، والهباء، فإذا قرب منه المرءُ، رَقَّ وصارَ كالهواءِ. وقد يحتمل أنْ يكون معناه: حتى إذا جاء موضِعَ السرابِ لم يجد السرابَ شيئاً، فاكتفى بذكرِ السرابِ من ذِكْرِ موضِعِه. «واللهُ سَرِيعُ الْحِسابِ»، يقولُ: والله سريعٌ حسابُه، لأنه تعالى ذِكْرُه لا يحتاج إلى عقد أصابع، ولا حفظ بقلب، ولكنه عالم بذلك كله قبل أنْ يعملَهُ العبدُ، ومن بَعْدِ ما عمله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ۝٤٠﴾

وهذا مَثَلٌ آخرُ ضربه اللهُ لأعمالِ الكفارِ، يقول تعالى ذِكْرُه: ومَثَلُ أعمالِ هؤلاءِ الكفار في أنها عُمِلتْ على خطأ وفسادٍ وضلالةٍ وحيرةٍ من عمالها فيها، وعلى غيرِ هُدى، مَثَلُ ظلمات في بحرٍ لُجِّيٍّ. ونسب البحر إلى اللجة وصفاً له بأنه عميقٌ كثيرُ الماء، ولجةُ البحر معظمُه. «يَغْشاهُ مَوْجٌ» يقولُ: يغشى البحرَ موجٌ «مِنْ فَوْقِـهِ مَوْجٌ»، يقـولُ: من فوقِ المـوجِ موجٌ آخرُ يغشاه «مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ»، يقولُ: من فوق الموجِ الثاني الدي يغشى الموجَ الأوّل سحابٌ، فجعل الظلمات مثلاً لأعمالهم، والبحر اللجيّ مثلاً لقلبِ الكافر. يقولُ: عمل بنية قلبٍ قد غَمَرَهُ الجهلُ، وتَغَشَّتْهُ الضلالةُ والحيرة، كما يغشى هذا البحر اللجيَّ موجٌ من فوقه موجٌ، من فوقه سحابٌ، فكذلك قلبُ هذا الكافرِ الذي مثل عمله مثل هذه الظلماتِ، يغشاهُ الجهلُ بالله بأن الله ختم عليه، فلا يعقلُ

عن اللهِ، وعلى سمعه، فلا يسمعُ مواعظَ الله، وجعل على بصره غشاوةً فلا يبصرُ به حججَ الله، فتلك ظلماتٌ بعضُها فوقَ بعضٍ[1].

وقوله: «إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاها»، يقولُ: إذا أخرجَ الناظرُ يَدَهُ في هذه الظلمات لم يَكَدْ يراها.

فإن قال لنا قائل: وكيف قيل: لم يَكَدْ يراها مع شِدَّةِ هذه الظلمةِ التي وصف، وقد علمتَ أنَّ قولَ القائلَ: لم أكد أرى فلاناً، إنما هو إثباتٌ منه لنفسه رؤيته بعد جَهْدٍ وشدّة، ومن دونِ الظلماتِ التي وصف في هذه الآية ما لا يرى الناظرُ يده إذا أخرجها فيه، فكيف فيها؟

قيل في ذلك أقوالٌ نذكرها، ثم نخبر بالصوابِ من ذلك.

أحدها: أن يكون معنى الكلام: إذا أخرج يده رائياً لها لم يكد يراها: أي لم يعرف من أين يراها، فيكون من المُقَدَّمِ الذي معناهُ التأخير، ويكون تأويلُ الكلام على ذلك: إذا أخرج يده لم يقرب أنْ يراها.

والثاني: أنْ يكونَ معناه: إذا أخرج يده لم يرها، ويكون قوله: «لَمْ يَكَدْ» في دخوله في الكلام نظير دخول الظنِّ فيما هو يقينٌ من الكلامِ كقوله: «وظَنُّوا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ» ونحو ذلك.

والثالث: أن يكون قد رآها بعد بُطْءٍ وجَهْدٍ، كما يقول القائلُ لآخرَ: ما كدتُ أراكَ من الظلمةِ، وقد رآه، ولكن بعد إياسٍ وشدةٍ، وهذا القولُ الثالثُ أظهرُ معاني الكلمةِ من جهة ما تستعمل العرب أكاد في كلامها، والقولُ الآخر الذي قلنا إنه يتوجه إلى أنه بمعنى لم يَرَهَا قولٌ أوضحُ من جهة التفسير، وهو

---

(١) قال ابن الجوزي: «فكلامه ظُلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة»، (زاد المسير: ٦/٥١)، وهو كلام منسوب إلى أبي ابن كعب رضي الله عنه.

أخفى معانيه. وإنما حَسُنَ ذلك في هذا الموضع، أعني أنْ يقول: لم يكد يراها مع شدة الظلمةِ التي ذكر، لأنَّ ذلك مَثَلٌ لا خبرٌ عن كائنٍ كان. «وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً»، يقولُ: من لم يرزقه الله إيماناً وهدى من الضلالةِ، ومعرفةً بكتابه، «فَما لَهُ مِنْ نُورٍ»: يقول فما له من إيمانٍ وهُدى ومعرفة بكتابه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ألم تنظُرْ يا محمدُ، بعين قلبكَ، فتعلم أنَّ الله يصلي له من في السموات والأرض من ملكٍ وإنسٍ وجنٍّ «والطَّيْرُ صَافَّاتٍ» في الهواء أيضاً تسبح له «كُلّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وتَسْبِيحَهُ».

ويتوجه قوله: «كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ» لوجوه: أحدها: أنْ تكونَ الهاءُ التي في قوله «صَلاتَهُ وتَسْبيحَهُ» من ذِكْرِ كُلٍّ، فيكون تأويلُ الكلام: كُلٌّ مُصَلٍّ ومُسَبِّحٍ منهم قد علم اللهُ صلاتَهُ وتسبيحه، ويكون الكلُّ حينئذٍ مرتفعاً بالعائد من ذكره في قوله: «كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وتَسْبِيحَهُ» وهو الهاء التي في الصلاة.

والوجه الآخر: أنْ تكونَ الهاءُ في الصلاة والتسبيح أيضاً للكُلِّ، ويكون الكُـلُّ مرتفعـاً بالعائدِ من ذكره عليه في «عَلِمَ»، ويكون «عَلِمَ» فعلاً للكلِّ، فيكـون تأويلُ الكـلام حينئـذٍ: قد علم كل مُصَلٍّ ومُسَبِّحٍ منهم صلاة نفسه وتسبيحه، الذي كُلِّفه وأُلْزمه.

والوجه الآخر: أنْ تكون الهاء في الصلاة والتسبيح من ذِكْرِ الله، والعِلْمُ

للكلِّ، فيكون تأويل الكلام حينئذ: قد علم كلُّ مسبحٍ ومصلٍّ صلاةَ الله التي كَلَّفَهُ إياها وتسبيحه، وأظهرُ هذه المعاني الثلاثة على هذا الكلام. المعنى الأوَّل، وهو أن يكون المعنى: كُلُّ مصلٍّ منهم ومسبح، قد عَلِمَ اللهُ صلاتَهُ وتسبيحه.

وقوله: «وَاللهُ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والله ذو علم بما يفعل كلُّ مصلٍّ ومسبح منهم، لا يخفى عليه شيءٌ من أفعالهم، طاعتها ومعصيتها، محيطٌ بذلك كله، وهو مُجَازِيهم على ذلك كله.

وقوله: «وَللهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ»، يقول جَلَّ ثناؤُه: ولله سلطانُ السمواتِ والأرض وملكها دون كلِّ مَنْ هو دونَهُ من سلطانٍ وملكٍ، فاياه فارهبوا أيها الناسُ، وإليه فارغبوا لا إلى غيرِه، فإنَّ بيدِه خزائنَ السمواتِ والأرض، لا يخشى بعطاياكم منها فقراً. «وإلى اللهِ المَصِيرُ»، يقول: وأنتم إليه بعد وفاتكم، مَصِيرُكُمْ ومعادُكُمْ، فيُوفِّيكم أجورَ أعمالِكم التي عملتموها في الدنيا، فأحسنوا عبادَتَهُ، واجتهدوا في طاعته، وقَدِّمُوا لأنفسكم الصالحات من الأعمال.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «أَلَمْ تَرَ» يا محمدُ «أَنَّ الله يُزْجِي»، يعني يسوق «سحاباً» حيثُ يريدُ «ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ»، يقولُ: ثم يؤلف بين السحاب.

وقوله: «ثُمَّ يجْعَلُهُ رُكاماً» يقولُ: ثم يجعل السحابَ الذي يُزْجيهِ، ويؤلف بعضَهُ إلى بعضٍ رُكاماً، يعني متراكماً بعضه على بعض.

وقوله: «فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ»، يقولُ: فترى المطرَ يخرجُ من بين السحابِ، وهو الودق.

وقوله: «وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبالٍ فِيها مِنْ بَرَدٍ»، قيل في ذلك قولان: أحـدهما: أنَّ معناه: أنَّ الله ينزلُ من السماء من جبالٍ في السماء من بَرَدٍ مخلوقة هنالك خلقة، كأنَّ الجبالَ على هذا القول، هي من برد، كما يقال: جبال من طِين. والقول الآخر: أنَّ الله ينزلُ من السماء قَدْرَ جبالٍ، وأمثالَ جبالٍ من برد إلى الأرضِ، كما يقال: عندي بيتان تبناً، والمعنى: قدر بيتين من التبن، والبيتان ليسا من التبن.

وقوله: «فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشاءُ»، يقولُ: فيعذِّبُ بذلك الذي ينزل من السماء من جبالٍ فيها من برد، من يشاء فيهلكه، أو يهلك به زروعه وماله «ويَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشاءُ» من خلقه، يعني عن زُروعهم وأموالهم.

وقوله: «يَكادُ سَنا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بالأَبْصَارِ»، يقولُ: يكادُ شِدَّةُ ضوء بَرْقِ هذا السحاب يذهبُ بأبصارِ مَنْ لاقى بصره، والسَّنَا مقصورٌ، وهو ضوء البرق.

وقوله: «يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ والنَّهارَ»، يقولُ: يعقب اللهُ بين الليلِ والنهارِ ويصرفهما، إذا أذهبَ هذا جاء هذا، وإذا أذهبَ هذا جاء هذا. «إنَّ في ذلكَ لَعِبْرَةً لِأُولى الأَبْصَارِ»، يقولُ: إنَّ في إنشاءِ الله السحابَ، وإنزاله منه الودقَ، ومن السماء البردَ، وفي تقليبه الليلَ والنهارَ لعبرةً لمن اعتبرَ به، وعِظةً لمن اتَّعَظَ به، مِمَّنْ له فَهْمٌ وعقل، لأنَّ ذلك يُنبىءُ ويدلُّ على أنَّ له مدبِّراً ومصرِّفاً ومُقَلِّباً لا يشبهه شيء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٤٥﴾

قولـه: «خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ»، يعني: من نطفة، «فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِـهِ» كالحياتِ ومـا أشبهها، وقيل إنما قيل «فِمِنْهُمْ مَنْ يَمْشي عَلَى بَطْنِهِ» والمشي لا يكونُ على البطنِ، لأنَّ المشيَ إنما يكونُ لما له قوائم على التشبيه وأنه لَمَّا خالط ما له قوائم ما لا قوائمَ له جازَ، كما قال: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشي عَلى رِجْلَيْنِ» كالطيرِ «وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى أرْبَعٍ» كالبهائم.

فإن قال قائل: فكيف قيل: فمنهم من يمشي، ومِنْ للناس، وكلُّ هذه الأجناس أو أكثرها لغيرهم؟ قيل: لأنه تفريق ما هو داخلٌ في قوله: «وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّـةٍ» وكان داخلاً في ذلك الناسُ وغيرهم، ثم قال: فمنهم، لاجتماعِ الناسِ والبهائمِ وغيرِهم في ذلك واختلاطهم، فكنى عن جميعِهم كنايتَهُ عن بني آدم، ثم فَسَّرهم بمن، إذ كان قد كنى عنهم كناية بني آدم خاصة. «يَخْلُقُ اللهُ ما يَشاءُ»، يقولُ: يحدث الله ما يشاء من الخلق. «إنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»، يقولُ: إن الله على إحداثِ ذلك وخَلْقِه، وخَلْقِ ما يشاء من الأشياء غيره، ذُو قدرةٍ لا يتعذَّرُ عليه شيءٌ أراد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لقد أنزلنا أيها الناسُ علاماتٍ واضحاتٍ دالاتٍ على طريقِ الحقِّ وسبيلِ الرشاد. «وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ»، يقولُ: والله يرشد مَنْ يشاء من خَلْقِه بتوفيقه، فيهديه إلى دينِ الإسلامِ، وهو الصراطُ

المستقيم، والطريقُ القاصدُ الذي لا اعوجاجَ فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويقولُ المنافقونَ: صَدَّقْنَا باللهِ وبالرسولِ، وأطعنا اللهَ وأطعنا الرسولَ «ثُمَّ يَتَوَلَّى فريقٌ مِنْهُمْ»، ثم تُدْبِرُ كُلُّ طائفةٍ منهم من بعدما قالوا هذا القولَ عن رسولِ الله ﷺ، وتدعو إلى المحاكمةِ إلى غيرِه خَصْمَها. «وَمَا أُولَئِكَ بالمُؤْمِنِينَ»، يقـولُ: وليس قائلو هذه المقـالـةِ يعني قوله: «آمَنَّا باللهِ وَبالرَّسُولِ وأطَعْنا» بالمؤمنينَ لتركهم الإحتكامَ إلى رسولِ الله ﷺ وإعراضِهم عنه إذا دُعُوا إليه.

وقوله: «وَإِذَا دُعُوا إلى اللهِ وَرَسُولِهِ»، يقولُ: وإذا دُعِيَ هؤلاءِ المنافقونَ إلى كتابِ الله وإلى رسولِه «لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ» فيما اختصموا فيه بحكمِ الله «إذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ» عن قبولِ الحقِّ، والرضا بحكمِ رسولِ الله ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإنْ يَكُنِ الحقُّ لهؤلاءِ الذين يُدْعَوْنَ إلى اللهِ ورسولِه ليحكمَ بينهم فيأبونَ ويُعْرِضُونَ عن الإجابةِ إلى ذلك، قِبَلَ الذين يَدْعُونَهُمْ إلى اللهِ ورسـولِه يأتوا إلى رسولِ الله مُذْعنينَ، يقولُ: مذعنين مُنْقَادِينَ لحكمِه، مُقِرِّينَ به طائعينَ غيرَ مكرهين، يقال منه: قد أذعنَ فلانٌ بحقه إذا أقرَّ به طائعاً

غير مستكره، وانقادَ له وسلم.

وقوله: «أفي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أفي قلوبِ هؤلاءِ الذين يعرضون إذا دُعُوا إلى اللهِ ورسولِه ليحكمَ بينهم شكٌّ في رسولِ الله ﷺ، أنه للهِ رسولٌ، فهم يمتنعونَ من الإجابةِ إلى حُكْمِه والرضا به «أمْ يَخافُونَ أنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ» إذا احتكموا إلى حكمِ كتابِ الله وحكمِ رسولِه وقال: «أنْ يَحيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ» والمعنى: أنْ يحيفَ رسولُ الله عليهم، فبدأ بالله تعالى ذِكْرُه تعظيماً لله كما يقال: ما شاء الله ثمَّ شئتَ، بمعنى: ما شئت. ومما يدلُّ على أن معنى ذلك كذلك قوله: «وإِذَا دُعُوا إلى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ» فأفرد الرسولَ بالحكمِ ولم يقل: ليحكما.

وقوله: «بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ»، يقولُ: ما خافَ هؤلاءِ الْمُعْرِضُونَ عن حُكْمِ الله وحكم رسوله، إذْ أعرضوا عن الإجابةِ إلى ذلك مما دُعُوا إليه، أنْ يحيفَ عليهم رسولُ الله، فيجورَ في حُكْمِه عليهم، ولكنهم قومٌ أهلُ ظلمٍ لأنفسِهم بخلافهم أمرَ رَبِّهم، ومعصيتهم الله فيما أمرهم من الرضا بحكمِ رسولِ الله ﷺ فيما أَحَبُّوا وكرهوا، والتسليم له.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنما كان ينبغي أنْ يكونَ قول المؤمنينَ إذا دُعُوا إلى حكمِ الله وإلى حكمِ رسولِه، «لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ» وبين خصومهم «أنْ يَقُولُوا سَمِعْنا» ما قيل لنا «وأطَعْنا» مَنْ دَعَانا إلى ذلك. ولم يُعن بكانَ في هذا الموضعِ الخبر عن أمرٍ قد مضى فيقضى، ولكنه تأنيبٌ من الله الذين أنزلت هذه الآية بسببهم، وتأديب منه آخرين غيرهم.

وقوله: «وأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والذين إذا دُعُوا إلى اللهِ ورسولِه ليحكمَ بينهم وبين خصومهم أنْ يقولوا: سمعنا وأطعنا المفلحون، يقولُ: هم المُنْجِحُونَ المُدْرِكُونَ طَلِباتِهم بفِعْلِهم ذلك، المُخلَّدُونَ في جناتِ الله.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٥٢﴾

يقـول جَلَّ ثنـاؤه: «وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَـهُ» فيما أمره ونهاه، ويُسَلِّمْ لحكمهما له وعليه، ويَخَفْ عاقبةَ معصيةِ الله ويحذره، ويَتَّقِ عذابَ الله بطاعته إياه في أمره ونهيه «فَأُولَئِكَ»، يقولُ: فالذين يفعلون ذلك «هُمُ الفَائِزُونَ» برضا الله عنهم يومَ القيامة، وأمنهم من عذابه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٥٣﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: وحَلَفَ هؤلاءِ المعـرضون عن حكمِ اللهِ وحكمِ رسوله، إذْ دُعُوا إليه، «باللهِ جَهْدَ أيمَانِهِمْ»، يقولُ: أغلظَ أيمانِهم وأشدَّها «لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ» يا محمدُ، بالخروج إلى جهادِ عدوِّكَ وعدوِّ المؤمنينَ «لَيَخْرُجُنَّ، قُلْ لا تُقْسِمُوا» لا تحلفُوا، فإنَّ هذه «طاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ» منكم فيها التكذيبُ. «إنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَـا تَعْمَلونَ»، يقـولُ: إنَّ الله ذُو خبـرةٍ بمـا تعملونَ من طاعتكم اللهَ ورسولَهُ، أو خلافكم أمرهما. أو غير ذلك من أموركم، لا يَخْفَى عليه من ذلك شيءٌ، وهو مُجَازِيكم بكلِّ ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه «قُلْ»، يا محمدُ، لهؤلاءِ المقسمينَ بالله جهدَ أيمانِهم لئن أمرتهم ليخرجنَّ، وغَيْرَهُمْ من أمتكَ «أَطِيعُوا اللَّهَ» أيها القومُ، فيما أمَرَكُمْ به، ونهاكُمْ عنه «وأَطِيعُوا الرَّسُولَ» فإن طاعته لله طاعة. «فإنْ تَوَلَّوْا»، يقولُ: فإن تُعْـرِضُوا وتُدْبِرُوا عما أمركم به رسولُ الله ﷺ، أو نهاكم عنه، وتأبوا أنْ تُذْعِنُوا لحكمه لكم وعليكم. «فإنَّمَا عَلَيْهِ ما حُمِّلَ»، يقولُ: فإنما عليه فِعلُ ما أُمِـرَ بفعلِه من تبليغِ رسالةِ الله إليكم على ما كَلَّفَهُ من التبليغِ «وَعَلَيْكُمْ ما حُمِّلْتُمْ»، يقولُ: وعليكم أيها الناسُ أن تفعلوا ما ألزمكم، وأوجَبَ عليكم من اتباعِ رسولِه ﷺ، والانتهاءِ إلى طاعتِه فيما أمركم ونهاكم.

وقوله: «وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا»، يقولُ تعالى ذِكْرُه: وإنْ تُطيعو أيها الناسُ رسولَ الله فيما يأمركم وينهاكم، تَرْشُدُوا وتُصِيبوا الحقَّ في أموركم «وَما عَلى الرَّسُولِ إلَّا البَلاغُ المُبينُ»، يقولُ: وغير واجب على مَنْ أرسله الله إلى قومٍ برسالةٍ إلا أنْ يبلغهم رسالتَهُ بلاغاً يبين لهم ذلك البلاغ عما أرادَ الله به، يقولُ: فليس على محمـدٍ أيها الناسُ إلا أداء رسالةِ الله إليكم وعليكم الطاعةُ وإنْ أطعتموه لحظوظِ أنفسِكم تُصِيبونَ، وإنْ عصيتمُوه بأنفسكم فتوبقون[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي

(١) توبقون: أي تُهلكون أنفسكم. والموبقات: الكبائر من المعاصي لأنهن مهلكات.

﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝٥٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا» بالله ورسولِه «مِنْكُمْ» أيها الناسُ «وَعَمِلُوا الصَّالحاتِ»، يقولُ: وأطاعوا الله ورسوله فيما أمراه ونهياه «لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأرْضِ»، يقــولُ: ليورثنهم الله أرضَ المشـركينَ من العـربِ والعجمِ، فيجعلهم ملوكَها وساسَتها «كَما اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ»، يقولُ: كما فعل من قبلهم ذلـك ببني إسـرائيل، إذ أهلكَ الجبـابرةَ بالشأم، وجعلهم ملوكَها وسكـانهـا. «وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّـذِي ارْتَضَى لَهُمْ»، يقولُ: وليوطِّئَنَّ لهم دِينهم، يعني ملتهم التي ارتضاها لهم، فأمرهم بها. وقيل: وَعَدَ اللهُ الذين آمنوا، ثم تَلَقَّى ذلك بجوابِ اليمينِ بقوله: «لَيَسْتَخْلِفَنهم» لأنَّ الوعدَ قولٌ يصلحُ فيه «أن»، وجوابُ اليمين كقوله: وعدتُكَ أنْ أكرمكَ، ووعدتك لأُكْرِمَنَّكَ.

وقوله: «وَلَيُبَدِّلنهم من بعدِ خَوْفهم أمناً»، يقولُ: وليغيرنَّ حالَهُمْ عَمَّا هي عليه من الخوفِ إلى الأمنِ، والعربُ تقول: قد بَدَّلَ فلان إذا غيرت حاله، ولم يأت مكان فلان غيره، وكذلك كُلُّ مغيرٍ عن حاله، فهو عندهم مُبَدَّلٌ بالتشديد.

وقـولـه: «يَعْبُدُونَنِي»، يقولُ: يخضعون لي بالطاعةِ، ويتذللون لأمري ونهيي. «لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً»، يقولُ: لا يشركون في عبادتهم إيايَ الأوثانَ والأصنامَ ولا شيئاً غيرها، بل يخلصون لي العبادةَ فَيُفْرِدُونَها إليَّ دونَ كلِّ ما عبد من شيء غيري.

وذُكر أنَّ هذه الآية نزلتْ على رسولِ الله ﷺ من أجل شكايةِ بعضِ أصحابهِ إليه في بعضِ الأوقاتِ التي كانوا فيها من العدوِّ في خوفٍ شديدٍ مما هُمْ فيه من الرعبِ والخوفِ، وما يلقونَ بسببِ ذلك من الأذى والمكروه.

ومعنَى الكُفر الذي ذكره اللهُ في قوله: «وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلكَ» هو قول مَن قال: إنه كُفرٌ بالنعمةِ لا كفرٌ بالله؛ وذلك أنَّ الله وعد الإنعامَ على هذه الأمةِ

بما أخبر في هذه الآية، أنه منعمٌ به عليهم؛ ثم قال عقيبَ ذلك: فَمَنْ كفرَ هذه النعمةَ بعد ذلك «فَأُولَئِكَ هُمُ الفاسِقُونَ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وأقيمُوا» أيها الناسُ «الصَّلاةَ» بحدودها، فلا تُضَيِّعُوها «وآتُوا الزَّكاةَ» التي فرضَها اللهُ عليكم أهْلَهَا، وأطيعوا رسولَ رَبِّكم فيما أمركم ونهاكم. «لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ»، يقولُ: كي يرحمكم رَبُّكم، فينجيكم من عذابه.

وقـولـه: «لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لا تحسبنَّ يا محمدُ، الذين كفروا بالله مُعْجِزِيهِ في الأرضِ إذا أراد إهلاكَهُمْ «وَمَأْوَاهُمْ» بعد هلاكِهم «النَّارُ، وَلَبِئْسَ المَصِيرُ» الذي يصيرونَ إليه ذلك المأوى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ الْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْـَٔايَـٰتِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾

اختلف أهـلُ التـأويل في المعنيِّ بقـولـه: «لِيَسْتَـأْذِنْكُمُ الَّـذِينَ مَلَكَتْ

أيمَـانُكُمْ»، فقـال بعضهم: عنى بذلـك: الرجال دون النساء، ونُهُوا عن أنْ يَدْخُلُوا عليهم في هذه الأوقاتِ الثلاثة، هؤلاءِ الذين سُمُّوا في هذه الآيةِ إلا بإذنٍ.

وقال آخرون: بل عنى به: الرجال والنساء.

وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قولُ مَنْ قال: عنى به الذكور والإناث، لأن الله عَمَّ بقولِهِ «الَّذِينَ مَلَكَتْ أيمانُكُمْ» جميع أملاكِ أيماننا، ولم يخصص منهم ذكراً ولا أنثى، فذلك على جميع من عَمَّهُ ظاهرُ التنزيل.

فتأويلُ الكلام: يا أيها الذين صَدَّقُوا اللهَ ورسوله، ليستأذنكم في الدخولِ عليكم عبيدُكُمْ وإماؤكم، فلا يدخلوا عليكم إلا بإذنٍ منكم لهم.

«وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الحُلُمَ مِنْكُمْ»، يقولُ: والذين لم يحتلموا من أحراركم «ثَلاثَ مَرَّاتٍ»، يعني ثلاث مرات في ثلاثة أوقاتٍ من ساعاتِ ليلكم ونهاركم.

وقوله: «ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ»، اختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك، فقرأته عامةُ قَرَأَة المدينة والبصرة «ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ» برفع الثلاث، بمعنى الخبر عن هذه الأوقاتِ التي ذكرت كأنه عندهم، قيل: هذه الأوقاتُ الثلاثة التي أمرناكم بأنْ لا يدخلَ عليكم فيها مَنْ ذكرنا إلا بإذنٍ، ثلاث عورات لكم، لأنكم تَضَعُونَ فيهـا ثيابَكم، وتَخْلُونَ بأهلِيكم، وقرأ ذلك عامة قَرَأَة الكوفة «ثَلاثَ عَوْراتٍ» بنصب الثـلاث على الـردِّ على الثلاثِ الأولى، وكأن معنى الكلام عندهم: ليستأذنكم الذين مَلَكَتْ أيمانُكم، والذين لم يبلغوا الحُلُمَ منكم ثلاث عوراتٍ لكم.

والصوابُ من القول في ذلك أنهما قراءتان متقاربتا المعنى، وقد قرأ بكلٍّ واحدةٍ منهما علماءُ من القَرَأَةِ، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب.

وقـوله: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُناحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ»، يقول

تعـالى ذِكْـرُه: «ليس عليكم» معشـر أربابِ البيوتِ والمساكن «ولا عليهم»، يعني: ولا على الذين مَلَكَتْ أيمانُكم من الرجالِ والنساء، والذين لم يبلغوا الحُلُمَ من أولادِكم الصغار، حَرَجٌ ولا إثمٌ بعدهنّ، يعني بعد العورات الثلاث، والهاء والنون في قوله: «بَعْدَهُنَّ» عائدتان على الثلاث من قوله: «ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ»، وإنما يعْني بذلك أنه لا حَرَجَ ولا جناحَ على الناسِ أنْ يدخلَ عليهم مماليكُهم البالغون، وصبيانُهم الصغارُ بغيرِ إذنٍ بعد هذه الأوقاتِ الثلاثِ اللاتي ذكرهنَّ في قوله: «مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الفَجْرِ، وحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ، وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ العِشاءِ».

وقوله: «طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ»، يقولُ: هؤلاءِ المماليكُ والصبيانُ الصغارُ هُمْ طَوَّافونَ عليكم أيها الناسُ، ويعني بالطوَّافينَ: أنهم يدخلونَ ويخرجونَ على مواليهم وأقربائهم في منازلهم غدوةً وعشيةً بغيرِ إذنٍ يطوفون عليهم، بعضكم على بعض في غير الأوقاتِ الثلاثِ التي أمرهم أن لا يدخلوا على ساداتهم وأقربائهم فيها إلا بإذن. «كَذلكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُم الآياتِ»، يقول جَلَّ ثناؤه: كما بينتُ لكم أيها الناسُ أحكامَ الاستئذانِ في هذه الآية، كذلك يُبَيِّنُ اللهُ لكم جميعَ أعلامِه وأدِلَّتِه وشرائع دينه. «وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»، يقولُ: والله ذُو عِلْمٍ بما يصلحُ عبادَهُ، حكيمٌ في تدبيرِه إياهم، وغير ذلك من أموره.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا بلغَ الصغارُ من أولادِكم وأقربائكم، ويعني بقوله: «مِنْكُمْ» من أحراركم «الحُلُمَ» يعني الاحتلامَ واحتلموا. «فَلْيَسْتَأْذِنُوا»، يقولُ:

فلا يدخلوا عليكم في وقتٍ من الأوقاتِ إلا بإذنٍ، لا في أوقاتِ العوراتِ الثلاث ولا في غيرها.

وقوله: «كَما اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ»، يقولُ: كما استأذنَ الكبارُ من ولد الرجلِ وأقربائه الأحرار، وخَصَّ اللهُ تعالى ذِكْرُه في هذه الآية الأطفالَ بالذِّكْر، وتعريف حُكْمِهم عبادَهُ في الاستئذانِ دونَ ذِكْرِ ما ملكَتْ أيمانُنَا، وقد تقدَّمَتِ الآيةُ التي قبلها بتعريفهم حُكْمَ الأطفالِ الأحرارِ والمماليكِ، لأنَّ حكم ما ملكتْ أيمانُكم من ذلك، حُكْمٌ واحد، سواء فيه حُكْمُ كبارِهم وصغارِهم في أنَّ الإذنَ عليهم في الساعاتِ الثلاثِ التي ذكرها الله في الآية التي قَبْلُ.

«كَذلكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آياتِهِ»، يقولُ: هكذا يبينُ اللهُ لكم آياته، أحكامَهُ وشرائعَ دِينهِ، كما بَيَّنَ لكم أمرَ هؤلاءِ الأطفالِ في الاستئذانِ بعد البلوغ. «وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»، يقولُ: والله عليم بما يصلحُ خَلْقَهُ وغيرَ ذلك من الأشياء، حكيمٌ في تدبيره خلقه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: واللَّواتي قد قَعَدْنَ عن الولدِ من الكبر من النساء، فلا يَحِضْنَ ولا يَلِدْنَ، واحدتهنَّ قاعدٌ. «اللاَّتي لا يَرْجُونَ نِكاحاً»، يقولُ: اللاتي قد يَئِسْنَ من البعولةِ، فلا يطمعن في الأزواج. «فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُناحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيابَهُنَّ»، يقولُ: فليس عليهنَّ حَرَجٌ ولا إثمٌ أنْ يضعن ثيابهنَّ، يعني جلابيبهنَّ، وهي القناعُ الذي يكونُ فوقَ الخمارِ، والرداءُ الذي يكون فوقَ الثيابِ، لا حَرَجَ عليهنَّ أن يضعنَ ذلك عند المحارمِ من الرجالِ، وغيرِ المحارمِ من الغرباءِ، غير متبرجاتٍ بزينة.

وقوله: «غيرَ مُتَبرِّجاتٍ بزِينَةٍ»، يقولُ: ليس عليهنَّ جناحٌ في وضع أرديتهنَّ إذا لم يُرِدْنَ بوضعِ ذلك عنهنَّ أنْ يُبْدِينَ ما عليهنَّ من الزينةِ للرجالِ. والتبرُّجُ: هو أنْ تُظْهِرَ المرأةُ من محاسنها ما ينبغي لها أنْ تستره.

وقوله: «وأنْ يَسْتَعْفِفْنَ خيرٌ لَهُنَّ»، يقولُ: وإنْ تَعَفَّفْنَ عن وضعِ جلابيبهنَّ وأرديتهنَّ، فَيَلْبَسْنَهَا خيرٌ لهنَّ من أن يَضَعْنَهَا.

«وَاللهُ سَمِيعٌ» ما تنطقون بألسنتكم «عَلِيمٌ» بما تُضْمِرُهُ صدورُكُمْ، فاتقوه أنْ تَنْطِقُوا بألسنتكم ما قد نَهاكُمْ عن أن تنطقوا بها، أو تُضمروا في صدوركم ما قد كَرِهَهُ لكم، فتستوجِبُوا بذلك منه عقوبةً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

اختلف أهلُ التأويل في هذه الآيةِ في المعنى الذي أُنزلتْ فيه، فقال بعضهم: أنزلت هذه الآيةُ ترخيصاً للمسلمين في الأكل مع العميانِ والعرجانِ والمرضى وأهلِ الزمانة من طعامهم، من أجلِ أنهم كانوا قد امتنعوا من أنْ يأكلوا معهم من طعامهم، خشيةَ أنْ يكونوا قد أتوا بأكْلِهم معهم من طعامِهم

شيئاً مما نَهَاهُمْ اللهُ عنه بقوله: «يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالبَاطِلِ، إلَّا أنْ تَكُونَ تِجارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ».

وقال آخرون: بل نزلتْ هذه الآيةُ ترخيصاً لأهلِ الزمانة في الأكلِ من بيوتِ مَنْ سَمَّى اللهُ في هذه الآية، لأنَّ قوماً كانوا من أصحابِ رسولِ الله ﷺ إذا لم يكن عندهم في بيوتهم ما يطعمونهم ذهبوا بهم إلى بيوتِ آبائهم وأمهاتهم، أو بعض مَنْ سَمَّى اللهُ في هذه الآية، فكانَ أهلُ الزمانةِ يتخوَّفُونَ من أنْ يُطْعَمُوا ذلك الطعام، لأنه أطعمهم غيرَ مُلْكِه.

وقال آخرون: بل نزلت ترخيصاً لأهلِ الزمانة الذين وصفهم الله في هذه الآية أنْ يأكُلُوا من بيوتِ من خَلَّفهم في بيوته من الغزاة.

وقال آخرون: بل عَنَى بقوله: «لَيْسَ عَلى الأعْمَى حَرَجٌ، وَلا عَلى الأعْرَجِ حَرَجٌ، وَلا عَلى المَرِيضِ حَرَجٌ» في التخلُّفِ عن الجهادِ في سبيل الله، قالوا: وقوله: «وَلا عَلى أنْفُسِكُمْ أنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ» كلامٌ منقطعٌ عما قبله.

وقال آخرون: بل نزلتْ هذه الآيةُ ترخيصاً للمسلمين الذين كانوا يتقون مؤاكلةَ أهلِ الزمانة في مؤاكلتهم إذا شاؤوا ذلك.

واختلفوا أيضاً في معنى قوله: «أوْ ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ»، فقال بعضهم: عَنَى بذلك: وكيلَ الرجل وقَيِّمَهُ، أنه لا بأسَ عليه أنْ يأكلَ من ثمرِ ضيعتِه، ونحوِ ذلك.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك: منزل الرجل نفسه أنه لا بأسَ عليه أنْ يأكل.

وأشبهُ الأقوال بالصواب قولُ مَنْ قال: إنها نزلت ترخيصاً لأهل الزمانةِ الذين وصفهم الله في هذه الآية أن يأكلوا من بيوتِ من خَلَّفهم في بيوته من

الغـزاة، وذلـك أنَّ أظهـرَ معاني قوله: «لَّيْسَ عَلى الأعْمَى حَرَجٌ، وَلا عَلى الأعْرَجِ حَرَجٌ»، أنه لا حرجَ على هؤلاءِ الذين سموا في هذه الآية أنْ يأكلوا من بيوتِ مَنْ ذَكَرَهُ اللهُ فيها على ما أباحَ لهم من الأكلِ منها فإذْ كان ذلك أظهر معانيه، فتوجيه معناه إلى الأغلبِ الأعرفِ من معانيه أَوْلى من توجيهه إلى الأنكرِ منها. فإذ كان ذلك كذلك، كان ما خالفَ من التأويلِ قولُ مَنْ قال: معناه: ليس في الأعمى والأعرج حرج أَوْلى بالصواب. وكذلك أيضاً الأغلبُ من تأويل قوله: «وَلا عَلى أنْفُسِكُمْ أنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ» أنه بمعنى: ولا عليكم أيها الناسُ، ثم جمع هؤلاءِ والزَّمْنى الذين ذكرهم قَبْلُ في الخطابِ، فقال: أنْ تأكلوا من بيوتِ أنفسِكم، وكذلك تفعلُ العربُ إذا جمعت بين خبرِ الغائبِ والمخـاطَبِ، غَلَّبَتِ المُخَـاطَبَ، فقـالت: أنتَ وأخـوكَ قمتمـا، وأنتَ وزيدٌ جلستمـا، ولا تقول: أنت وأخوكَ جلسا، وكذلك قوله: «وَلا عَلى أنْفُسِكُمْ» والخبر عن الأعمى والأعرج والمريض غَلَّبَ المخاطب، فقال: أنْ تأكلوا، ولم يقل: أن يأكلوا.

فإن قال قائل: فهذا الأكلُ من بيوتهم قد علمناه، كان لهم حلالاً، إذْ كانَ ملكاً لهم، أو كانَ أيضاً حلالاً لهم الأكلُ من مالِ غيرهم؟ قيل له: ليس الأمـرُ في ذلـك على ما تَوَهَّمْتَ، ولكنـه أنهم كانوا إذا غابوا في مغازيهم، وتَخَلَّفَ أهلُ الزمانة منهم، دفع الغازي مفتاحَ مسكنه إلى المتخلِّفِ منهم، فأطلقَ له في الأكل مما يخلف في منزله من الطعام، فكان المتخلفون يتخوَّفُونَ الأكلَ من ذلك وربُّه غائبٌ، فأعلمه الله أنه لا حَرَجَ عليه في الأكلِ منه، وأذِنَ لهم في أكله فإذا كان ذلك كذلك تَبَيَّنَ أنْ لا معنى لقولِ مَنْ قال: إنما أنزلت هذه الآية من أجلِ كراهة المستتبع أكلَ طعامِ غير المستتبع، لأن ذلك لو كان كما قالَ مَنْ قال ذلك، لقيل: ليس عليكم حرجٌ أنْ تأكلوا من طعامِ غيرِ مَنْ أضافَكُمْ، أو من طعامِ آباءِ مَنْ دعاكم، ولم يقل: أن تأكلوا من بيوتِكم أو بيوتِ آبائكم، وكذلك لا وجهَ لقولِ مَنْ قال: معنى ذلك: ليس على الأعمى

حَرَجٌ في التخلفِ عن الجهادِ في سبيلِ الله، لأنَّ قوله: «أنْ تأْكُلُوا» خبر ليس، وأن في موضع نصب على أنها خبرٌ لها، فهي متعلقةٌ بليسَ، فمعلومٌ بذلك أنَّ معنى الكلام: ليس على الأعمى حرج أنْ يأكلَ من بيته، لا ما قاله الذين ذكرنا من أنه لا حَرَجَ عليه في التخلفِ عن الجهادِ.

فإذْ كان الأمرُ في ذلك على ما وصفنا، تبين أنَّ معنى الكلام: لا ضيقَ على الأعمى، ولا على الأعرج، ولا على المريض، ولا عليكم أيها الناسُ أنْ تأكلُوا من بيوتِ أنفسكم، أو من بيوتِ آبائكم، أو من بيوتِ أمهاتكم، أو من بيوتِ إخوانكم، أو من بيوتِ أخواتكم، أو من بيوتِ أعمامكم، أو من بيوتِ عماتكم، أو من بيوتِ أخوالكم، أو من بيوتِ خالاتكم، أو من البيوتِ التي ملكتم مَفَاتِحَهَا، أو من بيوتِ صديقكم إذا أَذِنُوا لكم في ذلك عند مَغِيبهم ومَشْهَدِهم. والمفاتحُ: الخزائنُ، واحدها: مفتح، إذا أريد به المصدر، وإذا كان من المفاتيح التي يفتح بها، فهي مِفتح ومفاتح، وهي ههنا على التأويل الذي اخترناهُ جمع مِفتح الذي يفتح به.

وأمـا قولـه: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنـاحٌ أنْ تأْكُلُوا جَمِيعاً أوْ أشْتاتا» فإن أهلَ التأويلِ اختلفوا في تأويله فقال بعضهم: كان الغنيُّ من الناسِ يتخوَّفُ أنْ يأكلَ مع الفقير، فَرَخَّصَ لهمِ في الأكل معهم.

وقـال آخـرون: بل عُني بذلـك حيٌّ من أحياء العرب، كانوا لا يأكلُ أحدُهم وحدَهُ، ولا يأكلُ إلا مع غيره، فأذِنَ الله لهم أن يأكلَ مَنْ شاء منهم وحدَهُ، ومَنْ شاء منهم مع غيره.

وقال آخرون: بل عُني بذلك قومٌ كانوا لا يأكلون إذا نزلَ بهم ضيفٌ إلا مع ضيفهم، فَرَخَّصَ لهم في أنْ يأكلوا كيف شاءوا.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، أنْ يقالَ: إنَّ الله وضع الحَرَجَ عن المسلمينَ أنْ يأكلوا جميعاً معاً إذا شاءوا، أو أشتاتاً متفرِّقينَ إذا أرادوا، وجائزٌ

أنْ يكون ذلك نزل بسببِ مَنْ كان يتخوَّفُ من الأغنياء الأكلَ مع الفقيرِ، وجائزٌ أنْ يكونَ نزل بسببِ القومِ الذين ذكر أنهم كانوا لا يَطْعَمُونَ وحداناً، وبسبب غير ذلك، ولا خبرَ بشيءٍ من ذلك يَقْطَعُ العُذْرَ، ولا دلالةَ في ظاهرِ التنزيلِ على حقيقةِ شيءٍ منه، والصوابُ التسليمُ لما دَلَّ عليه ظاهرُ التنزيل، والتوقُّفُ فيما لم يَكُنْ على صحتِه دليلٌ.

وقولـه: «فإذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللهِ»، اختلف أهلُ التأويل في ذلك، فقال بعضهم: معناه: فإذا دخلتم أيها الناسُ بيوتَ أنفسِكم، فَسَلِّمُوا على أهليكم وعيالكم.

وقال آخرون: بل معناه: فإذا دخلتم المساجدَ فسلموا على أهلها.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: إذا دخلتم بيوتاً من بيوتِ المسلمينَ فيها ناسٌ منكم، فليسلم بعضُكم على بعض.

وإنمـا قلنا ذلك أوْلى بالصواب، لأنَّ الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ قال: «فإذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً» ولم يخصصْ من ذلك بيتاً دونَ بيتٍ، وقال: «فَسَلِّمُوا عَلى أنْفُسِكُمْ»، يعني: بعضكم على بعض: فكان معلوماً إذ لم يخصص ذلك على بعضِ البيوتِ دونَ بعض، أنه معنيٌّ به جميعها، مساجدها وغير مساجدها. ومعنى قوله: «فَسَلِّمُوا عَلى أنْفُسِكُمْ» نظير قوله: «وَلا تَقْتُلُوا أنْفُسَكُمْ».

وقوله: «كَذلكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ الآياتِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هكذا يفصلُ اللهُ لكم معالمَ دِينكم، فيبينها لكم، كما فَصَّلَ لكم في هذه الآية ما أحلَّ لكم فيهـا، وعَـرَّفَكُمْ سبيلَ الـدخولِ على مَنْ تدخلونَ عليه، «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»، يقولُ: لكي تَفْقَهُوا عن اللهِ أمرَهُ ونَهْيَهُ وأدبه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلـهِ تَعـالَى: إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ

﴿وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٦٢﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: ما المؤمنونَ حقَّ الإيمانِ، إلَّا الذين صَدَّقُوا الله ورسـوله. «وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ»، يقولُ: وإذا كانوا مع رسولِ الله ﷺ «عَلى أمْرٍ جامعٍ»، يقولُ: على أمرٍ يجمعُ جميعَهُمْ من حربٍ حضرت، أو صلاةٍ اجتمعَ لها، أو تشاورٍ في أمرٍ نَزَلَ «لَمْ يَذْهَبُوا»، يقولُ: لم ينصرفوا عما اجتمعوا له من الأمرِ، حتى يستأذنوا رسولَ الله ﷺ.

وقوله: «إنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ باللهِ وَرَسُولِهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين لا ينصرفون يا محمدُ إذا كانوا معكَ في أمرٍ جامعٍ عنك إلا بإذنكَ لهم طاعةً منهم لله ولكَ، وتصديقاً بما أتيتهم به من عندي، أولئك الذين يصدقون الله ورسوله حقاً، لا مَنْ يخالفُ أمرَ اللهِ وأمرَ رسولِه، فينصرف عنك بغيرِ إذنٍ منك له، بعد تَقَدُّمِكَ إليه أنْ لا ينصرفَ عنك إلا بإذنك.

وقوله: «فإذَا اسْتَأْذَنوك لبَعْضِ شأنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فإذا استأذنكَ يا محمدُ الذين لا يذهبون عنك إلا بإذنكَ في هذه المواطن لبعضِ شأنهم، يعني: لبعضِ حاجاتهم التي تعرضُ لهم، فأْذَنْ لمن شئتَ منهم في الإنصرافِ عنكَ لقضائها. «وَاسْتَغْفِرْ لَهُم» يقولُ: وادْعُ الله لهم بأنْ يتفضَّلَ عليهم بالعفوِ عن تبعاتِ ما بينه وبينهم «إنَّ اللهَ غَفُورٌ» لذنوبِ عبادِه التائبين «رَحِيمٌ» بهم أن يعاقبهم عليها بعد توبتهم منها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ

يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لأصحاب نبيه محمدٍ ﷺ: «لا تَجْعَلُوا» أيها المؤمنونَ «دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً».

واختلف أهلُ التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: نَهَى الله بهذه الآيةِ المؤمنينَ أنْ يتعرَّضُوا لدعاء الرسولِ عليهم، وقال لهم: اتقوا دعاءه عليكم بأنْ تفعلوا ما يسخطه، فيدعو لذلك عليكم فتهلكوا، فلا تجعلوا دعاءه كدعاء غيرِه من الناسِ، فإنَّ دعاءه موجبة، وهو قول ابن عباس.

وقال آخرون: بل ذلك نهيٌ من الله أنْ يَدْعُوا رسولَ الله ﷺ بغلظٍ وجفاءٍ، وأمرٌ لهم أنْ يدعوه بلينٍ وتواضعٍ، وهو قول مجاهد، وقتادة.

وأَوْلى التأويلين في ذلك بالصواب عندي، التأويلُ الذي قاله ابن عباس، وذلك أنَّ الذي قبل قوله: «لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً» نهيٌ من الله المؤمنينَ أن يأتوا من الانصرافِ عنه في الأمرِ الذي يجمعُ جميعَهُمْ ما يكرهه، والذي بعده وعيدٌ للمنصرفينَ بغيرِ إذنهِ عنه، فالذي بينهما بأنْ يكون تحذيراً لهم سخطه أنْ يضطرّه إلى الدعاء عليهم، أشبه من أنْ يكونَ أمراً لهم بما لم يجرِ له ذِكْرٌ من تعظيمِه وتوقيره بالقول والدعاء.

وقوله: «قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنكم أيها المنصرفونَ عن نبيكم بغيرِ إذنه، تستراً وخفيةً منه، وإنْ خفيَ أمرُ مَنْ يفعل ذلك منكم، على رسولِ الله ﷺ، فإنَّ الله يعلمُ ذلك، ولا يَخْفَى عليه، فليتَّقِ مَنْ يفعل ذلك منكم، الذين يخالفون أمرَ الله في الانصرافِ عن رسولِ الله ﷺ إلا بإذنِه، أنْ تُصيبهم فتنةٌ من الله، أو يصيبهم عذابٌ أليم، فيطبع على قلوبهم، فيكفروا بالله،

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ ٦٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ألا إنَّ لله مُلكُ جميعِ السمواتِ والأرضِ: يقولُ: فلا ينبغي لمملوكٍ أنْ يخالفَ أمرَ مالِكه فيعصيه، فيستوجبُ بذلك عقوبته، يقولُ: فكذلك أنتم أيها الناسُ لا يصلحُ لكم خلافُ رَبِّكم الذي هو مَالِكُكُمْ فأطيعوهُ، وَأْتَمِرُوا لأمرِه، ولا تنصرفوا عن رسوله إذا كنتم معه على أمرٍ جامعٍ إلا بإذنه.

وقوله: «قَدْ يَعْلَمُ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ» من طاعتكم إياه فيما أمركم ونهاكم من ذلك.

«وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ»، يقولُ: ويوم يرجعُ إلى اللهِ الذين يخالفونَ عن أمرِه. «فَيُنَبِّئُهُمْ»، يقولُ: فيخبرهم حينئذٍ «بِمَا عَمِلُوا» في الدنيا، ثم يجازيهم على ما أسلفوا فيها من خلافِهم على رَبِّهم «وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ»، يقولُ: واللهُ ذُو عِلْمٍ بكلِّ شيء عملتُموه أنتم وغيركم وغير ذلك من الأمورِ، لا يَخْفَى عليه شَيْءٌ، بل هو محيطٌ بذلك كُلِّه، وهو موفٍّ كلَّ عاملٍ منكم أجرَ عَمَلِه يومَ تُرْجَعُونَ إليه.

سُورَةُ الفُرْقَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وتقدست أسماؤه ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾

تبارَكَ: تفاعلَ من البركة، فقوله: «تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ»، يقولُ: تبارك الذي نَزَّلَ الفصلَ بين الحقِّ والباطلِ فصلاً بعد فصلٍ وسورةً بعدَ سورةٍ، على عبده محمدٍ ﷺ، ليكونَ محمدٌ لجميعِ الجنِّ والإنسِ ، الذين بعثه الله إليهم داعياً إليه، «نذيراً»، يعني: منذراً ينذرهم عقابه، ويُخَوِّفهم عذابه، إنْ لم يُوَحِّدُوه ولم يُخْلِصُوا له العبادةَ، ويخلعوا كلَّ ما دونه من الآلهةِ والأوثان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: تباركَ الذي نَزَّلَ الفرقانَ «الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ»، يعني: الذي له سلطانُ السمواتِ والأرضِ يُنْفِذُ في جميعها أمرَهُ وقضاءه، ويُمْضِي في كُلِّها أحكامَهُ، يقولُ: فحقٌّ على مَنْ كان كذلك أن يطيعه أهلُ مملكته، ومَنْ في سلطانه، ولا يعصوه، يقولُ: فلا تعصوا نذيري إليكم أيها الناسُ واتبعوه، واعملوا بما جاءكم به من الحقِّ. «ولَم يَتَّخِذْ وَلَداً»، يقولُ:

تكذيباً لمن أضافَ إليه الولد، وقال: الملائكة بنات الله، ما اتَّخذَ الذي نَزَّلَ الفرقانَ على عبده ولداً، فمن أضافَ إليه ولداً فقد كذب وافترى على ربه. «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ في المُلْكِ»، يقولُ تكذيباً لمن كان يضيفُ الأُلوهةَ إلى الأصنام ويعبدها من دونِ الله من مشركي العرب، ويقول في تلبيته: لَبَّيْكَ لا شريكَ لك، إلا شريكاً هو لكَ تملكُه وما مَلَكَ، كَذَبَ قائلو هذا القولِ، ما كان لله من شريكٍ في مُلكه وسلطانه، فيصلح أنْ يعبد من دونه.

يقول تعالى ذِكْرُه: فأفردوا أيها الناسُ لربكم الذي نَزَّلَ الفرقانَ على عبدِه محمدٍ نبيه ﷺ الألوهةَ، وأخلصوا له العبادةَ دون كلِّ ما تعبدون من دونِه من الآلهةِ والأصنامِ والملائكة والجنِّ والإنس، فإنَّ كُلَّ ذلك خلقه وفي ملكه، فلا تصلحُ العبادةُ إلا لله الذي هو مالك جميع ذلك.

وقـوله: «وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وخلق الذي نَزَّلَ على محمـدٍ الفرقانَ كل شيء، فالأشياء كلها خَلْقُه وملكه، على المماليكِ طاعةُ مالكهم، وخدمةُ سَيِّدهم دونَ غيره، يقولُ: وأنا خالقكم ومالككم، فأخلصوا لي العبادةَ دونَ غيري.

وقوله: «فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً»، يقولُ: فَسَوَّى كُلَّ ما خلق، وهَيَّأَهُ لما يصلح له، فلا خَلَلَ فيه ولا تفاوت.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مُقَرِّعاً مشركي العرب بعبادتهم ما دونَهُ من الآلهةِ، ومُعَجِّباً أُولي النُّهى منهم، ومُنَبِّههم على موضعِ خطأ فِعْلِهم، وذهابهم عن

منهج الحقِّ، وركوبهم من سبلِ الضلالةِ ما لا يركبهُ إلا كُلُّ مدخولِ الرأي، مسلوبِ العقلِ، واتخذ هؤلاءِ المشركونَ بالله من دون الذي له مُلك السمواتِ والأرض وحده، من غير شريك، الذي خلق كل شيءٍ فَقَدَّرَهُ، آلهة: يعني أصناماً بأيديهم يعبدونها، لا تخلقُ شيئاً وهي تخلق، ولا تملكُ لأنفسها نفعاً تَجُرُّهُ إليها، ولا ضرّاً تدفعه عنها ممن أرادها بضرٍّ، ولا تملكُ إماتةَ حيٍّ، ولا إحياءَ ميتٍ، ولا نشرَهُ من بعد مماتِه، وتركوا عبادةَ خالق كلِّ شيءٍ، وخالق آلهتهم، ومالك الضرِّ والنفعِ، والذي بيده الموتُ والحياةُ والنشور. والنشور: مصدر نُشر الميت نشوراً، وهو أن يبعث ويحيا بعد الموتِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقال هؤلاءِ الكافرون بالله، الذين اتَّخَذُوا من دونِه آلهةً: ما هذا القرآنُ الذي جاءنا به محمدٌ «إلَّا إفْكٌ»، يعني: إلا كذبٌ وبهتان «افْتَرَاهُ» اختلقه وتَخَرَّصَهُ بقوله: «وأعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ» ذكر أنهم كانوا يقولون: إنما يعلِّمُ محمداً هذا الذي يجيئنا به اليهودُ، فذلك قوله: «وأعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ»، يقولُ: وأعان محمداً على هذا الإفكِ الذي افتراه يهود.

وقوله: «فَقَدْ جاؤوا ظُلْماً وَزُوراً»، يقول تعالى ذِكْرُه: فقد أتى قائلو هذه المقالة، يعني الذين قالوا: «إنْ هَذَا إلَّا إفْكٌ افْتَرَاهُ وأعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ» ظلماً، يعني بالظلم نِسبتهم كلامَ الله وتنزيله إلى أنه إفكٌ افتراهُ محمدٌ ﷺ. وقد بيَّنا فيما مضى أنَّ معنى الظلم: وضع الشيء في غيرِ موضعِه، فكأنَّ ظلمَ قائلي هذه المقالةِ القرآنَ بقِيلهم هذا وَصْفهم إياهُ بغير صِفَتِه. والزور: أصله تحسينُ الباطل. فتأويلُ الكلام: فقد أتى هؤلاءِ القوم في قِيلهم «إنْ هَذَا إلَّا إفْكٌ افْتَرَاهُ وأعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ» كذباً محضاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾

ذكر أن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث، وأنه المعنيُّ بقوله: «وَقَالُوا أساطيرُ الأوَّلينَ».

وتأويل الكلام: وقال هؤلاءِ المشركونَ باللهِ، الذين قالوا لهذا القرآنِ: إنْ هذا إلا إفكٌ افتراهُ محمدٌ ﷺ، هذا الذي جاءنا به محمدٌ، أساطيرُ الأولينَ، يَعْنُونَ أحاديثَهم التي كانوا يُسَطِّرُونَهَا في كتبهم، اكتتبها محمدٌ ﷺ من يهود، «فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ» يعنون بقوله: «فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ»، فهذه الأساطيرُ تُقْرَأُ عليه من قولهم: أمليتُ عليكَ الكتابَ. وأمللت «بُكْرَةً وَأَصِيلاً»، يقولُ: وتملى عليه غدوةً وعشياً.

وقوله: «قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ في السَّمَوَاتِ والأَرْضِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: «قُلْ»، يا محمدُ، لهؤلاءِ المكذِّبينَ بآياتِ الله من مشركي قومك: ما الأمرُ كما تقولون من أنَّ هذا القرآنَ أساطيرُ الأوّلين، وأنَّ محمداً ﷺ افتراهُ وأعانه عليه قومٌ آخرون، بل هو الحقُّ أنزله الربُّ الذي يعلمُ سِرَّ من في السموات ومن في الأرض، ولا يَخْفَى عليه شيءٌ، ومُحْصِي ذلـك على خَلْقِـه، ومُجَازِيهم بما عزمتْ عليه قلوبُهم، وأضمروه في نفوسهم. «إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً»، يقولُ: إنه لم يزلْ يصفح عن خلقِه ويرحمهم، فيتفضَّلْ عليهم بعفوه، يقولُ: فلأن ذلك من عادتِه في خَلْقِه، يُمْهِلُكُمْ أيها القائلونَ ما قلتم من الإفكِ، والفاعلونَ ما فعلتم من الكفر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ

وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾

ذُكر أنَّ هاتين الآيتين نزلتا على رسولِ الله ﷺ فيما كان مشركو قومِه قالوا له ليلةَ اجتماعِ أشرافهم، بظهر الكعبة، وعرضوا عليه أشياء، وسألوهُ الآيات.

فتأويل الكلام: وقال المشركون: ما لهذا الرسول: يعنون محمداً ﷺ، الذي يزعمُ أنَّ الله بعثه إلينا يأكل الطعام كما نأكل، ويمشي في أسواقنا كما نمشي، لولا أُنزلَ إليه: يقول: هَلَّا أُنزلَ إليه ملَكٌ إنْ كان صادقاً من السماء، فيكون معه منذراً للناس، مصدِّقاً له على ما يقول، أو يُلْقَى إليه كنزٌ من فضة أو ذهب، فلا يحتاج معه إلى التصرُّفِ في طلب المعاش. «أَوْ تَكونُ لهُ جَنَّةٌ»: يقولُ: أو يكون له بستانٌ «يَأْكُل مِنْهَا».

وقوله: «وَقال الظَّالِمُونَ»، يقولُ: وقال المشركونَ للمؤمنين بالله ورسوله «إنَّ تَتَّبِعُونَ» أيها القوم باتباعكم محمداً إلا رجلاً به سحر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: انظرْ يا محمدُ، إلى هؤلاءِ المشركينَ الذين شَبَّهُوا لك الأشباهَ بقولهم لك: هو مسحورٌ، «فَضَلُّوا» بذلك عن قصدِ السبيل، وأخطؤوا طريقَ الهدى والرشاد، «فلا يستطيعون»، يقول: فلا يجدون «سبيلا» إلى الحقِّ، إلا فيما بعثتك به، ومن الوجهِ الذي ضلوا عنه.

وقوله: «تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذلكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأنهارُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: تَقَدَّسَ الذي إنْ شاء جعلَ لك خيراً من ذلك.

واختلف أهلُ التأويل في المعنيِّ بذلك التي في قوله: «جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذلكَ»، فقال بعضهم: معنى ذلك: خيراً مما قال هؤلاءِ المشركونَ لك يا محمدُ، هَلاَّ أُوتيته وأنتَ لله رسولٌ، ثم بَيَّنَ تعالى ذِكْرُه عن ذلك الذي لو شاء جعل له من خيرٍ مما قالوا، فقال: «جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ»، وهو قول مجاهد.

وقال آخرون: عنى بذلك المشي في الأسواق. والتماس المعاش، وهو قول ابن عباس.

وقال آخرون: بل عنى بذلك بيوت التجار التي فيها أمتعةُ الناس.

والقولُ الذي ذكرناه عن مجاهد في ذلك، أشبهُ بتأويلِ الآية، لأنَّ المشركينَ إنما استعظموا أنْ لا تكونَ له جنةٌ يأكل منها، وأنْ لا يُلْقَى إليه كنزٌ، واستنكروا أنْ يمشي في الأسواق، وهو للهِ رسولٌ، فالذي هو أولى بوعدِ الله إياه أن يكون وعداً بما هو خير مما كان عند المشركينَ عظيماً، لا مما كان منكراً عندهم.

وعنى بقوله: «جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ»: بساتين تجري في أصول أشجارها الأنهار.

وقوله: «وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً»، يعني بالقصور: البيوت المبنية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ما كَذَّبَ هؤلاءِ المشركونَ باللهِ، وأنكروا ما جِئْتَهُمْ به يا محمدُ من الحقِّ من أجلِ أنكَ تأكلُ الطعام، وتمشي في الأسواق، ولكن من أجلِ أنهم لا يُوقِنُونَ بالمَعَادِ، ولا يصدقون بالثوابِ والعقابِ تكذيباً منهم بالقيامة، وبعث الله الأموات أحياء لحشرِ القيامة. «وأعتدنا»، يقولُ: وأعددنا لمن كَذَّبَ ببعثِ اللهِ الأمواتَ أحياءً بعد فنائهم لقيامِ الساعة، ناراً تُسَعَّرُ عليهم، وتَتَّقِدُ إذا رأتهم من مكانٍ بعيد، يقولُ: إذا رأتْ هذه النارُ التي أعتدناها لهؤلاءِ المكذبينَ أشخاصَهُمْ من مكانٍ بعيد، تَغَيَّظَتْ عليهم، وذلك أنْ تغلي وتفور، يقال: فلان تَغَيَّظَ على فلانٍ، وذلك إذا غضبَ عليه، فغلى صدره من الغضب عليه، وتبين في كلامه، وزفيراً، وهو صوتها.

فإن قال قائل: وكيف قيل: «سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً»، والتغيظ: لا يسمع، قيل: معنى ذلك: سمعوا لها صوتَ التغيظ من التلهُّبِ والتوقُّد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا أُلقِيَ هؤلاءِ المكذِّبُونَ بالساعة من النار مكاناً ضيقاً، قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال «دَعَوْا هُنالكَ ثُبُوراً»، والثبور في هذا الموضعِ دعاء هؤلاءِ القوم بالندمِ على انصرافِهم، عن طاعةِ الله في الدنيا، والإيمان بما جاءهم به نبيُّ الله ﷺ، حتى استوجبوا العقوبةَ منه، كما يقول القائل: واندامتاه، واحسرتاه على ما فَرَّطت في جَنْبِ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قُلْ يا محمدُ لهؤلاءِ المكذِّبينَ بالساعة: أهذه النارُ التي وصفَ لكم رَبُّكم صِفَتَها وصِفَةَ أهلِها خيرٌ؟ أم بستانُ الخلد الذي يدومُ نعيمُه ولا يبيدُ، الذي وَعَدَ مَنِ اتقاه في الدنيا بطاعته فيما أمره ونهاه؟

وقوله: «كانَتْ لَهُمْ جَزاءً وَمَصِيراً»، يقولُ: كانت جنةُ الخلد للمتقينَ جزاءَ أعمالِهم للهِ في الدنيا بطاعته، وثواب تقواهم إياه، ومصيراً لهم، يقولُ: ومصيراً للمتقين يصيرونَ إليها في الآخرةِ.

وقوله: «لَهُمْ فيها ما يَشاءُونَ»، يقولُ: لهؤلاءِ المتقين في جنة الخُلْدِ التي وَعَدهُمُوها اللهُ ما يشاؤونَ مما تشتهيه الأنفسُ، وتَلَذُّ الأعينُ «خالِدِينَ فيها»، يقولُ: لابثينَ فيها ماكثينَ أبداً، لا يزولون عنها، ولا يزول عنهم نَعِيمُهَا.

وقوله: «كَانَ عَلى رَبِّكَ وَعْداً مَسْئُولاً» وذلك أنَّ المؤمنينَ سألوا رَبَّهم ذلك في الدنيا حين قالوا: «آتِنا ما وَعَدْتَنا عَلى رُسُلِكَ»، يقول الله تبارك وتعالى: وكان إعطاءُ اللهِ المؤمنينَ جنةَ الخلدِ التي وصف صفتها في الآخرة وعداً وعدهم اللهُ على طاعتهم إياه في الدنيا، ومسألتهم إياهُ ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ۝١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويومَ نحشرُ هؤلاءِ المكذِّبينَ بالساعةِ، العابدينَ الأوثان، وما يعبدونَ من دونِ الله من الملائكةِ والإنس والجنّ.

وقوله: «فَيَقُولُ أأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبادِي هَؤلاءِ»، يقولُ: فيقولُ اللهُ للذين كان هؤلاءِ المشركونَ يعبدونهم من دونِ الله: أنتم أضللتم عبادي هؤلاءِ: يقولُ: أنتم أزلتموهم عن طريق الهدى، ودعوتُموهُمْ إلى الغيِّ والضلالة، حتى تَاهُوا وهَلَكُوا، أم هُمْ ضَلُّوا السبيلَ، يقولُ: أم عبادي هم الذين ضلوا سبيلَ الرشدِ

والحقِّ، وسلكوا العطب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قَالُوا۟ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكۡرَ وَكَانُوا۟ قَوۡمَۢا بُورٗا ١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قالت الملائكةُ الذين كان هؤلاءِ المشركونَ يعبدونهم من دونِ الله وعيسى تنزيهاً لكَ يا رَبَّنا، وتبرئةً مما أضافَ إليكَ هؤلاءِ المشركونَ، ما كان ينبغي لنا أنْ نتخذَ من دونكَ من أولياء نواليهم، أنتَ وَلِيُّنا من دونِهم ولكنْ مَتَّعتهم بالمالِ يا رَبَّنا في الدنيا والصحة، حتى نَسُوا الذِّكْرَ، وكانوا قوماً هَلْكى، قد غلبَ عليهم الشقاءُ والخذلان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗاۚ وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا ١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عما هو قائلٌ للمشركين عند تبرِّي مَنْ كانوا يعبدون في الدنيا من دون الله منهم، قد كذَّبوكم أيها الكافرون، مَنْ زعمتم أنهم أضَلُّوكم، ودعوكم إلى عبادَتِهم بما تقولون، يعني بقولكم، يقولُ: كذَّبوكم بكذبكم.

وقوله جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلا نَصْراً»، يقولُ: فما يستطيعُ هؤلاءِ الكفار صَرْفَ عذابِ الله حين نزلَ بهم عن أنفسهم، ولا نصرها من اللهِ حين عَذَّبَها وعاقبها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ به: «وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ» أيها المؤمنونَ، يعني بقوله: «وَمَنْ يَظْلِمْ» ومَنْ يُشْرِكْ بالله فيظلمْ نفسَهُ، فذلك نُذِقْهُ عذاباً كبيراً كالذي ذكرنا أنّا نُذِيقُه الذين كذَّبُوا بالساعة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾

وهذا احتجاجٌ من الله تعالى ذِكْرُه لنبيه على مشركي قومه الذين قالوا: «ما لِهَذا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ ويَمْشِي في الأَسْوَاقِ» وجوابٌ لهم عنه. يقول لهم جَلَّ ثَنَاؤُهُ: وما أنكرَ يا محمدُ هؤلاءِ القائلون: ما لهذا الرسولِ يأكلُ الطعام، ويمشي في الأسواق، من أكلك الطعام، ومشيك في الأسواق، وأنتَ للهِ رسولٌ، فقد عَلِمُوا أنّا ما أرسلنا قبلكَ من المرسلينَ إلّا إنهم ليأكلونَ الطعامَ ويمشونَ في الأسواقِ، كالذي تأكلُ أنتَ وتمشي، فليس لهم عليكَ بما قالوا من ذلك حجةٌ.

فإن قال قائل: فإن «مَن» ليست في التلاوة، فكيف قلت: معنى الكلام: إلا مَن إنهم ليأكلون الطعام؟ قيل: قلنا في ذلك: معناه: أنَّ الهاء والميم في قوله: إنهم، كناية أسماء لم تُذكر، ولابدَّ لها من أنْ تعودَ على من كُني عنه بها، وإنما ترك ذكر «من» وإظهاره في الكلام، اكتفاء بدلالة قوله: «مِنَ المُرْسَلِينَ» عليه، كما اكتفى في قوله: «وَما مِنَّا إلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ» من إظهار «من»، ولاشكَّ أن معنى ذلك: وما منا إلا مَنْ له مقامٌ معلوم، كما قيل: «وإنْ مِنْكُمْ إلَّا وَارِدُها» ومعناه: وإن منكم إلا مَنْ هو وارِدُها، فقوله: «إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ» صلة لمن المتروك، كما يقال في الكلام: ما أرسلتُ إليك من الناسِ إلا من إنه ليبلِّغَكَ الرسالةَ، فإنه ليبلغك الرسالة صِلةٌ لمن.

وقوله: «وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وامْتَحَنَّا أيها الناسُ بعضَكم ببعضٍ، جعلنا هذا نبياً وخصصناه بالرسالةِ، وهذا مَلِكاً وخصصناه بالدنيا، وهذا فقيراً وحرمناه الدنيا لنختبرَ الفقيرَ بصبرِه على ما حرم مما أُعطيه الغنيُّ، والمَلِكَ بصبره على ما أُعطيه الرسولُ من الكرامة، وكيف رضيَ كُلُّ إنسانٍ منهم بما أُعطيَ، وقسم له، وطاعته ربه مع ما حُرِمَ مما أُعطي غيره، يقولُ: فمن أجلِ ذلك لم أُعطِ محمداً الدنيا، وجعلته يطلبُ المعاشَ في الأسواقِ، ولأبتليكم أيها الناسُ، وأختبر طاعتَكُمْ رَبَّكُمْ وإجابتكم رسولَهُ إلى ما دعاكُمْ إليه، بغيرِ عَرَضٍ من الدنيا ترجونه من محمدٍ أنْ يعطيكم على اتباعكم إياه، لأني لو أعطيته الدنيا لسارعَ كثيرٌ منكم إلى اتباعه طمعاً في دنياه أن يَنال منها.

وقوله: «وَكانَ رَبُّكَ بَصِيراً»، يقولُ: وربك يا محمدُ بصيرٌ بمن يجزعُ ومَنْ يصبر على ما امْتُحِنَ به من المحن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقال المشركونَ الذين لا يخافونَ لِقَاءنا، ولا يَخْشَوْنَ عِقابنا، هَلَّا أنزل الله علينا ملائكةً، فتخبرنا أنَّ محمداً مُحِقٌ فيما يقول، وأنَّ ما جاءنا به صدقٌ، أو نرى رَبَّنَا فيخبرنا بذلك، كما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ مُخبراً عنهم: «وَقالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً»، ثم قال بعد: «أَوْ تَأْتِيَ باللهِ وَالمَلائِكَةِ قَبِيلاً»، يقول الله: لقد استكبرَ قائِلُو هذه المقالة في أنفسهم، وتعظموا، «وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً»، يقولُ: وتجاوزوا في الاستكبار بقِيلِهم ذلك حَدَّهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يوم يرى هؤلاءِ الذين قالوا: «لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا المَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا» بتصديقِ محمدٍ الملائكة، فلا بُشْرَى لهم يومئذٍ بخير. «يقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً»، يعني أن الملائكة يقولون للمجرمين حِجراً محجوراً، حراماً محرَّماً عليكمُ اليومَ البُشْرى أن تكونَ لكم من الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَقَدِمْنَا» وعمدنا إلى ما عَمِلَ هؤلاءِ المجرمون «مِنْ عَمَلٍ».

وقوله: «فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً»، يقولُ: فجعلناه باطلاً، لأنهم لم يعملوه للهِ وإنما عملوه للشيطانِ. والهباء: هو الذي يُرَى كهيئةِ الغبارِ إذا دخلَ ضوءُ الشمسِ من كُوَّةٍ يحسبُه الناظرُ غباراً ليس بشيءٍ تقبضُ عليه الأيدي ولا تَمَسُّهُ، ولا يرى ذلك في الظلِّ.

وقوله جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «أَصْحَابُ الجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرّاً وأَحْسَن مَقِيلاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: أهلُ الجنةِ يومَ القيامة خيرٌ مستقراً، وهو الموضعُ الذي يستقرّون فيه من منازلهم في الجنة من مستقرٍّ هؤلاءِ المشركينَ الذين يفتخرون بأموالهم، وما أُوتُوا من عَرَضِ هذه الدنيا في الدنيا، وأحسن منهم فيها مَقِيلاً.

فإن قال قائل: وهل في الجنة قائلة؟ فيقال: «وأَحْسَنُ مَقِيلاً» فيها؟ قيل: معنى ذلك: وأحسن فيها قراراً في أوقات قائلتهم في الدنيا وذلك أنه ذكر أنَّ

أهلَ الجنة لا يمرُّ فيهم في الآخرة إلا قَدْر ميقاتِ النهار من أوَّلِه إلى وقتِ القائلة، حتى يسكنوا مساكنهم في الجنة، فذلك معنى قوله: «وأحْسَنُ مَقِيلاً».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ۝٢٥ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ۝٢٦﴾

تأويلُ الكلام: ويومَ تُشقق السماءُ عن الغمامِ، وقيل: إنَّ ذلك غمامٌ أبيض مثل الغمام الذي ظَلَّلَ على بني إسرائيل، وجعلت الباء، في قوله: «بالغَمامِ» مكان «عن» كما تقول: رميت عن القوس وبالقوس، وعلى القوس بمعنى واحد.

وقوله: «وَنُزِّلَ المَلائكَةُ تَنْزيلاً»، يقولُ: ونُزِّلَ الملائكةُ إلى الأرض تنزيلاً. «المُلْكُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ للرَّحْمَنِ»، يقولُ: الملكُ الحقُّ يومئذٍ خالصٌ للرحمنِ دونَ كلِّ مَنْ سواه، وبطلت الممالكُ يومئذٍ سوى ملكه. وقد كان في الدنيا ملوكٌ، فبطل الملكُ يومئذٍ سوى مُلْك الجبارِ «وكانَ يَوْماً عَلى الكافِرينَ عَسِيراً»، يقول: وكان يومُ تَشَقُّقِ السماءِ بالغمامِ يوماً على أهلِ الكفرِ بالله عسيراً، يعني صعباً شديداً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ۝٢٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويوم يَعَضُّ الظالمُ نفسَهُ المشركُ بربِّه على يديه ندماً وأسفاً على ما فَرَّطَ في جنب الله، وأوبقَ نفسَهُ بالكفرِ به في طاعةِ خليله الذي صَدَّهُ عن سبيلِ ربه، يقولُ: يا ليتني اتخذتُ في الدنيا مع الرسولِ سبيلاً، يعني طريقاً إلى النجاةِ من عذابِ الله.

وقوله: «يا وَيْلَتا لَيْتَني لم أتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً».

وقوله: «لَقَدْ أضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إذْ جاءَنِي»، يقول جَلَّ ثناؤه مخبراً عن هذا النادمِ على ما سَلَفَ منه في الدنيا، من معصيةِ رَبِّه في طاعة خليله، لقد أضلني عن الإيمانِ بالقرآن، وهو الذكر، بعد إذ جاءني من عند الله، فصدَّني عنه، يقول الله: «وكَانَ الشَّيْطانُ للإنْسانِ خَذُولاً»، يقولُ: مسلماً لما يَنزلُ به من البلاء غير مُنْقِذِهِ ولا مُنَجِّيهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ۝٣٠ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ۝٣١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقال الرسولُ يوم يعضُّ الظالمُ على يديه: يا ربِّ إنَّ قومي الذين بعثتني إليهم لأدعوهم إلى توحيدكَ اتَّخَذُوا هذا القرآنَ مهجوراً.

واختلف أهلُ التأويل في معنى اتخاذهم القرآنَ مهجوراً، فقال بعضهم: كان اتخاذهم ذلك هُجراً، قولهم فيه السيىء من القولِ، وزَعْمَهُمْ أنه سحرٌ، وأنه شِعرٌ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: الخبرُ عن المشركينَ أنهم هجروا القرآنَ وأعرضوا عنه ولم يسمعوا له.

وهذا القولُ أَوْلى بتأويل ذلك، وذلك أنَّ الله أخبر عنهم أنهم قالوا: لا تسمعوا لهذا القرآنِ والْغَوْا فيهِ، وذلك هجرهم إياه.

وقوله: «وكَذلكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنَ المُجْرِمِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وكما جعلنا لكَ يا محمدُ أعداء من مشركي قومِكَ، كذلك جعلنا لكلِّ مَنْ نَبَّأْنَاهُ مِنْ قبلكَ عدوّاً من مشركي قومِه، فلم تُخصصْ بذلك من بينهم، يقولُ: فاصبرْ لِما نالَكَ منهم كما صبرَ مِنْ قبلكَ أُولُو العزمِ من رسلنا.

وقوله: «وَكَفَى بِرَبِّكَ هادِياً وَنَصِيراً»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه: وكفاك يا محمدُ بربك هادياً يهديك إلى الحقِّ، ويُبَصِّرُكَ الرُّشْدَ، ونصيراً: يقولُ: ناصراً لكَ على أعدائكَ، يقولُ: فلا يَهُولَنَّكَ أعداؤكَ من المشركينَ، فإني ناصرك عليهم، فاصبرْ لأمري، وامضِ لتبليغِ رسالتي إليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا» بالله «لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرآنُ»، يقولُ: هَلاَّ نُزِّلَ على محمدٍ ﷺ القرآن «جُمْلَةً وَاحِدَةً» كما أُنزلتِ التوراةُ على موسى جملةً واحدةً؟ قال الله «كَذلكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ» تنزيله عليك الآيةَ بعد الآية، والشيءَ بعد الشيء، لنثبتَ به فؤادكَ نَزلناه. ويعني بقوله: «لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ» لنصحح به عزيمةَ قلبكَ ويقينَ نفسكَ، ونشجعك به.

وقوله: «وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً»، يقولُ: وشيئاً بعد شيء عَلَّمْنَاكَهُ حتى تحفَظَـهُ، والترتيلُ في القراءة: الترسُّلُ والتَّثَبُّتُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولا يأتيك يا محمدُ هؤلاءِ المشركونَ بمثلٍ يضربونَهُ إلا جِئْناكَ من الحقِّ، بما نبطلُ به ما جاؤوا به، وأحسن منه تفسيراً.

وقوله: «الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلى وُجُوهِهِمْ إلى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكاناً»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه: هؤلاءِ المشركونَ يا محمدُ، القائلونَ لكَ: «لَوْلَا نُزِّلَ هَذا القُرآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً» ومَنْ كان على مثل الذي هُمْ عليه من الكفرِ باللهِ، الذي يُحْشَرونَ يوم القيامة على وجوههم إلى جهنم، فَيُسَاقُونَ إلى جهنم شرٌّ مستقرّاً في الدنيا والآخرة من أهلِ الجنةِ في الجنة، وأضلُّ منهم في الدنيا طريقاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ يَتَوَعَّدُ مشركي قومِه على كُفْرِهم باللهِ، وتكذيبهم رسوله ويخوِّفُهم مِنْ حلول نقمته بهم، نظيرَ الذي يحلُّ بمن كان قبلَهُم من الأممِ المكذِّبةِ رُسُلَها. «وَلَقَدْ آتَيْنَا» يا محمدُ «مُوسَى الكِتابَ» يعني التوراة، كالذي آتيناك من الفرقان «وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هارُونَ وَزِيراً» يعني مُعيناً وظهيراً «فَقُلْنا اذْهَبا إلى القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بآياتِنا»، يقولُ: فقلنا لهما: اذهبا إلى فرعون وقومِه الذين كذَّبُوا بإعلامنا وأدلتنا، فدمرناهم تدميراً. وفي الكلام متروكٌ استغني بدلالة ما ذكر من ذكره وهو: فذهبا فكذبوهما، فدمرناهم حينئذٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٣٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقومَ نوح لما كذَّبوا رُسُلَنَا، ورَدُّوا عليهم ما جاءوهم به من الحقِّ، أغـرقناهم بالطوفانِ. «وَجَعَلْنَاهُمْ للنَّاسِ آيَةً»، يقولُ: وجعلنا تغريقنا إياهم وإهلاكَنَا عِظَةً وعبرةً للناس يعتبرون بها. «وأَعْتَدْنا للظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً»، يقولُ: وأعددنا لهم من الكافرين بالله في الآخرةِ عذاباً أليماً، سوى الذي حَلَّ بهم من عاجلِ العذابِ في الدنيا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ۝٣٨ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ۝٣٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ودَمَّرنا أيضاً عاداً وثمود وأصحابَ الرسِّ.

واختلف أهلُ التأويل في أصحابِ الرسِّ، فقال بعضهم: أصحاب الرسِّ من ثمود.

وقال آخرون: بل هي قريةٌ من اليمامةِ يقال لها الفلْج.

وقال آخرون: هم قوم رَسُّوا نبيهُم في بئر.

وقال آخرون: هي بئر كانت تسمى الرسّ.

والصواب من القول في ذلك، قولُ من قال: هم قوم كانوا على بئرٍ، وذلك أن الرَّسَّ في كلامِ العربِ كلّ محفورٍ مثل البئر والقبر ونحو ذلك، ولا أعلمُ قوماً لهم قصةٌ بسببِ حفرةٍ، ذكرهم اللهُ في كتابهِ إلا أصحاب الأخدود، وإنْ يكونوا غيرَهُمْ فلا نعرفُ لهم خبراً إلا ما جاء من جملةِ الخبرِ عنهم أنهم قومٌ رسوا نبيهم في حفرة.

وقوله: «وكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكل هذه الأمم التي أهلكناها التي سميناها لكم أو لم نُسَمِّها ضربنا له الأمثالَ، يقولُ: مَثَّلْنَا له الأمثالَ ونَبَّهْنَاهَا على حججنا عليها، وأَعْذَرْنَا إليها بالعبرِ والمواعظِ، فلم نهلكْ منهم أمةً إلا بعد الإبلاغِ إليهم في المعذرة.

وقوله: «وكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيراً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكل هؤلاءِ الذين ذكرنا لكم أمْرَهُمْ استأصلناهم، فدمرناهم بالعذابِ إبادةً، وأهلكناهم جَميعاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد أتى هؤلاءِ الذين اتخذوا القرآنَ مهجوراً على القرية التي أمطرها اللهُ مَطَرَ السوءِ وهي سَدُوم، قرية قوم لوط، ومطر السوء: هو الحجارةُ التي أمطرها الله عليهم فأهلكهم بها.

وقوله: «أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا»، يقول جَلَّ ثناؤه: أو لم يَكُنْ هؤلاءِ المشركونَ الذين قد أتوا على القريةِ التي أُمْطِرَتْ مطرَ السوءِ يرونَ تلك القرية، وما نزلَ بها من عذابِ الله بتكذيبِ أهلِهَا رُسُلَهم، فيعتبروا ويتذكَّرُوا، فيراجعوا التوبةَ من كُفْرِهم وتكذِيبهم محمداً ﷺ. «بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُوراً»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما كَذَّبُوا محمداً فيما جاءهم به من عند الله، لأنهم لم يكونوا رأوا ما حلَّ بالقريةِ التي وصفتُ، ولكنهم كَذَّبُوه من أجلِ أنهم قومٌ لا يخافون نُشوراً بعد المماتِ، يعني أنهم لا يوقِنُونَ بالعقابِ والثوابِ، ولا يؤمنونَ بقيامِ الساعة، فيردَعُهُمْ ذلك عما يأتونَ من معاصي الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وإذا رآكَ هؤلاءِ المشركونَ الذين قَصَصْتُ عليك قصصهم. «إنْ يَتَّخِذُونَكَ إلاَّ هُزُواً»، يقولُ: ما يتخذونك إلا سخريةً يسخرونَ منك، يقولون: «أهذَا الَّذِي بَعثَ اللهُ» إلينا «رَسُولاً» من بينِ خَلْقِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن هؤلاءِ المشركينَ الذين كانوا يهزؤونَ برسولِ الله ﷺ إنهم يقولون إذا رأوه: قد كادَ هذا يُضِلّنَا عن آلهتنا التي نعبدها، فيصدّنا عن عبادتها لولا صبرنا عليها، وثبوتنا على عبادتها. «وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ العَذَابَ»، يقولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: سيبينُ لهم حين يعاينون عذابَ الله قد حَلَّ بهم على عبادتهم الآلهةَ «مَنْ أضَلُّ سَبِيلاً»، يقولُ: مَنِ الراكبُ غيرَ طريقِ الهدى، والسالكُ سبيلَ الردى أنتَ أو هُمْ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: «أرَأيْتَ» يا محمدُ، «مَنِ اتخذَ إلههُ» شَهْوَتَهُ التي يهواها، وذلك أنَّ الرجلَ من المشركينَ كان يعبدُ الحجرَ. فإذا رأى أحسنَ منه رمى به، وأخذ الآخرَ يعبُده، فكان معبودهُ وإلهه ما يَتَخَيَّرُه لنفسه، فلذلك قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «أرأيْتَ مَنِ اتَّخذَ إلَهَهُ هَوَاهُ، أفأنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: أفأنتَ تكونُ يا محمدُ على هذا حفيظاً في أفعاله مع عظيمِ جهله؟ «أمْ

تَحْسَبُ» يا محمدُ أنَّ أكثرَ هؤلاءِ المشركينَ «يَسْمعُونَ» ما يُتلى عليهم، فَيَعُون «أوْ يَعْقِلُونَ» ما يُعَاينونَ من حججِ اللهِ، فيفهمون. «إنْ هُمْ إلَّا كالأنْعَامِ»، يقولُ: ما هُمْ إلا كالبهائِمِ التي لا تعقلُ ما يقالُ لها، ولا تفقه، بل هم من البهائمِ أضلُّ سبيلاً لأنَّ البهائمَ تهتدي لمراعيها، وتنقادُ لأربابها، وهؤلاءِ الكَفَرَةُ لا يطيعونَ رَبَّهم، ولا يشكرون نعمةَ مَنْ أنعمَ عليهم، بل يَكْفُرونَها، ويعصون مَنْ خلقهم وبرأهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «أَلَمْ تَرَ» يا محمدُ «كَيْفَ مَدَّ» رَبُّكَ «الظِّلَّ»، وهو ما بين طلوعِ الفجر إلى طلوعِ الشمس.

قوله: «وَلَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً»، يقولُ: ولو شاء لجعله دائماً لا يزولُ، ممدوداً لا تُذْهِبُه الشمسُ، ولا تنقصه.

وقوله: «ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً»، يقول جَلَّ ثناؤه: ثم دللناكم أيها الناسُ بنسخِ الشمس إياه عند طلوعها عليه، أنه خَلْقٌ من خَلْقِ رَبِّكم، يُوجِدُه إذا شاء، ويفنيه إذا أراد؛ والهاء في قوله: «عليه» من ذكر الظلِّ. ومعناه: ثم جعلنا الشمسَ على الظلِّ دليلاً. قيل: معنى دلالتها عليه أنه لو لم تكنِ الشمسُ التي تنسخُه لم يعلم أنه شيء إذا كانت الأشياء إنما تعرف بأضدادها نظير الحلوِ الذي إنما يُعْرَفُ بالحامضِ والبارد بالحارّ، وما أشبه ذلك.

وقوله: «ثُمَّ قَبَضْناهُ إلَيْنا قَبْضاً يَسِيراً»، يقول تعالى ذِكْرُه: ثم قبضنا ذلك

الدليلَ من الشمسِ على الظلِّ إلينا قَبْضاً خَفِيّاً سريعاً بالفيء الذي نأتي به بالعشيِّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ۝٤٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الذي مَدَّ الظلَّ ثم جعلَ الشمسَ عليه دليلاً، هو الذي جعل لكم أيها الناسُ الليلَ لباساً. وإنما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِباساً» لأنه جعله لخلْقِه جُنَّةً يجتنون فيها ويسكنون، فصار لهم سترا يستترون به، كما يستترون بالثياب التي يُكسونها.

وقوله: «والنَّوْم سُباتاً»، يقولُ: وجعل لكم النومَ راحةً تستريحُ به أبدانكم، وتهدأُ به جوارحكم.

وقوله: «وَجَعَلَ النَّهارَ نُشُوراً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وجعلَ النهارَ يقظةً وحياةً من قولهم: نَشر الميتُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ۝٤٨ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ۝٤٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والله الذي أرسلَ الرياحَ الملقحة «بُشْراً»: حياةً أو من الحيا والغيثِ الذي هو مُنْزِلُه على عبادِه. «وأَنْزَلْنا مِنَ السَّمَاءِ ماءً طَهُوراً»، يقولُ: وأنزلنا من السحابِ الذي أنشأناهُ بالرياحِ من فوقِكم أيها الناسُ ماءً طهوراً. «لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً»، يعني أرضاً قَحِطةً عذيةً لا تُنْبِتُ. وقال «بَلْدَةً مَيْتاً» ولم يقل ميتةً، لأنه أُريدَ بذلك لنحييَ به موضعاً ومكاناً ميتاً. «وَنُسْقِيَهُ»

من خَلْقِنا «أنْعَاماً» من البهائمِ «وَأناسِيَّ كَثِيراً»، يعني الأناسيّ: جمع إِنسان وجمع أناسي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٥٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد قسمنا هذا الماءَ الذي أنزلناهُ من السماء طهوراً لنحييَ به الميتَ من الأرضِ بين عبادي، ليتذكَّروا نِعمي عليهم، ويشكروا أياديَّ عندهم وإحساني إليهم، «فأبى أكْثَرُ النَّاسِ إلاَّ كُفُوراً»، يقولُ: إلا جُحُوداً لِنِعمي عليهم، وأياديَّ عليهم.

القَــوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝٥١ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولو شئنا يا محمدُ لأرسلنا في كلِّ مِصْرٍ ومدينةٍ نذيراً ينذرهم بأسنا على كفرهم بنا، فَيخِفُّ عنكَ كثيرٌ من أعباءِ ما حَمَّلْنَاكَ منه، ويسقط عنـك بذلـك مؤنةٌ عظيمة، ولكنا حملناك ثِقَلَ نذارةِ جميعِ القرى، لتستوجبَ بصبركَ عليه إنْ صبرتَ ما أعدَّ اللهُ لكَ من الكرامةِ عنده، والمنازلِ الرفيعةِ قِبَله، فلا تُطِعِ الكافرينَ فيما يدعونكَ إليه من أنْ تعبدَ آلهتهم، فنذيقكَ ضِعْفَ الحياةِ وضعف المماتِ، ولكن جاهدهم بهذا القرآن جهاداً كبيراً، حتى ينقادوا للإقرارِ بما فيه من فرائضِ الله، ويدينوا به ويذعنوا للعملِ بجميعه طوعاً وكرها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ

الفرقان: ٥٣

﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ٥٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والله الذي خلطَ البحرينِ، فأمرجَ أحدهما في الآخر، وأفاضَهُ فيه، وأصلُ المرج الخلط، ثم يقال للتخليةِ مرج، لأنَّ الرجلَ إذا خلى الشيء حتى اختلطَ بغيره، فكأنه قد مَرَجَهُ، ومنه الخبرُ عن النبيِّ ﷺ، وقوله لعبدالله بن عمرو: «كَيْفَ بِكَ يا عَبْدَاللهِ إذَا كُنْتَ في حُثَالَةٍ مِنَ النَّاسِ، قَدْ مَرِجَتْ عُهُودُهُمْ وأماناتُهُمْ، وَصَارُوا هَكَذَا وشَبَّكَ بين أصابعه»[1]؟ يعني بقوله: قد مرجت: اختلطت، ومنه قول الله: «في أمْرٍ مَرِيجٍ»: أي مُخْتلط.

وقـولـه: «هَـذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ» الفرات: شديدُ العذوبةِ، يقال: هذا ماءٌ فُرات: أي شديد العذوبة.

وقوله: «وَهَذَا مِلْحٌ أُجاجٌ»، يقولُ: وهذا ملح مرٌّ، يعني بالعذبِ الفراتِ: مياهَ الأنهارِ والأمطار، وبالملح الأجاج: مياه البحار.

وإنما عنى بذلك أنه من نعمته على خَلْقِه، وعظيم سلطانه، يخلطُ ماءَ البحرِ العذبِ بماءِ البحرِ الملح الأُجاج، ثم يمنع الملحَ من تغييرِ العذبِ عن عذوبته، وإفسادِه إياه بقضائِه وقُدْرتِه، لئلا يضرَّ إفساده إياه بركبان الملح منهما، فلا يجدوا ماءً يشربونه عند حاجتهم إلى الماء، فقال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخـاً»، يعني حاجـزاً يمنـعُ كُلَّ واحـدٍ منهمـا من إفسـادِ الآخر. «وَحِجْراً مَحْجُوراً»، يقولُ: وجعل كلّ واحد منهما حراماً محرّماً على صاحبِه أنْ يُغَيِّرَهُ ويفسده.

وإنما اخترنا القولَ الذي اخترناه في معنى قوله: «وجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وحِجْراً مَحْجُوراً»، دونَ القولِ الذي قاله مَنْ قال معناه: إنه جعل بينهما حاجزاً

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٤٢) وابن ماجة (٣٩٥٧)، والحاكم: ٤/٤٣٥وصححه، ووافقه الذهبي.

من الأرضِ أو من اليبس، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه أخبرَ في أوّلِ الآيةِ أنه مرجَ البحرينِ، والمرجُ: هو الخلطُ في كلامِ العربِ على ما بيَّنتُ قبل، فلو كان البرزخُ الذي بين العذبِ الفراتِ من البحرين، والملحِ الأُجاجِ أرضاً أو يبساً لم يكن هناك مرجٌ للبحرينِ، وقد أخبر جَلَّ ثَنَاؤُهُ أنه مرجهما، وإنما عرفنا قدرته بحجزهِ هذا الملحَ الأُجاجَ عن إفسادِ هذا العذبِ الفراتِ، مع اختلاطِ كلٍّ واحدٍ منهما بصاحبه. فأما إذا كان كلُّ واحد منهما في حَيِّزٍ عن حيزِ صاحبِه، فليس هناك مرجٌ، ولا هناك من الأعجوبةِ ما يُنبه عليه أهل الجهل به من الناسِ، ويذكرون به وإنْ كان كلّ ما ابتدعه رَبُّنا عجيباً، وفيه أعظمُ العبرِ والمواعظِ والحججِ البوالغ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ۝٥٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والله الذي خلق من النطفِ بشراً إنساناً فجعله نسباً، وذلك سبعةٌ، وصهراً، وهو خمسةٌ، كما حُدِّثت عن الضحاكِ أنه قال في قوله: «فجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً» النسب: سبع، قوله: «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهاتُكُمْ». . . إلى قولـه: «وَبَنـاتُ الأُخْتِ». والصهـرُ خمسٌ، قولـه: «وأُمَّهـاتُكُمُ الـلاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ». . . إلى قوله: «وَحَلائِلُ أَبْنائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ»[1].

وقوله: «وكانَ رَبُّكَ قَدِيراً»، يقولُ: وربك يا محمدُ ذُو قدرةٍ على خلْقِ ما يشاء من الخلق، وتصريفهم فيما شاء وأراد.

---

(١) وذكر الماوردي أن المناكح سميت صهراً لاختلاط الناس بها كما يختلط الشيءُ إذا صهر (زاد المسير: ٦/٩٧).

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويعبدُ هؤلاءِ المشركونَ باللهِ من دونِه آلهةً لا تنفعهم، فتجلب إليهم نفعاً إذا هم عبدوها، ولا تضرُّهم إنْ تركوا عبادتها، ويتركونَ عبادةَ مَنْ أنعمَ عليهم هذه النِّعَمَ التي لا كفاءَ لأدناها، وهي ما عَدَّدَ علينا جَلَّ جلالُه في هذه الآيات من قوله: «أَلَمْ تَرَ إلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ» إلى قوله: «قَدِيراً»، ومن قدرته القدرة التي لا يمتنعُ عليه معها شيءٌ أرادَهُ، ولا يتعذَّرُ عليه فِعْلُ شيءٍ أراد فعله، ومَنْ إذا أرادَ عقابَ بعض مَنْ عصاه من عبادِه أحلَّ به ما أحلَّ بالذين وصفَ صِفَتَهم من قومِ فرعون وعادٍ وثمودَ وأصحابَ الرَّسِّ، وقُروناً بين ذلك كثيراً، فلم يكن لمن غضبَ عليه منه ناصرٌ، ولا له عنه دافع «وكانَ الكافِرُ عَلى رَبِّهِ ظَهِيراً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكان الكافرُ معيناً للشيطانِ على ربه، مُظَاهراً له على معصيته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «وَما أَرْسَلْنَاكَ» يا محمدُ إلى مَنْ أرسلناكَ إليه «إلَّا مُبَشِّراً» بالثوابِ الجزيلِ، مَنْ آمَنَ بك وصدَّقَكَ، وآمنَ بالذي جئتهم به من عندي، وعملوا به، «ونَذِيراً» من كَذَّبَكَ وكَذَّبَ ما جئتهم به من عندي، فلم يُصَدِّقُوا به، ولم يعملوا «قُلْ ما أسألُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أجْرٍ»، يقول له: قُلْ لهؤلاءِ الذين أرسلتكَ إليهم، ما أسألكم يا قوم على ما جئتكم به من عند ربي أجراً، فتقولون: إنما يطلبُ محمدٌ أموالنا بما يدعونا إليه، فلا نتبعه فيه، ولا نعطيه من أموالنا شيئاً، «إلَّا مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً»، يقولُ: لكن

مَنْ شاء منكم اتَّخَذَ إلى رَبِّه سبيلًا، طريقاً بإنفاقهِ من مالهِ في سبيله، وفيما يُقَرِّبُه إليه من الصدقةِ والنفقةِ في جهادِ عَدُوِّهِ، وغير ذلك من سُبُلِ الخير.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وتوكَّلْ يا محمدُ على الذي له الحياةُ الدائمةُ التي لا موتَ معها، فَثِقْ به في أمرِ ربك، وفَوِّضْ إليه، واستسلمْ له، واصبرْ على ما نابكَ فيه.

قوله: «وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ»، يقولُ: واعبده شكراً منك له على ما أنعمَ به عليكَ.

قوله: «وكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عبادِهِ خَبيراً»، يقولُ: وحَسْبُكَ بالحيِّ الذي لا يموتُ خابراً بذنوبِ خَلْقِه، فإنه لا يَخْفَى عليه شيءٌ منها وهو مُحْصٍ جميعَها عليهم حتى يجازيهم بها يومَ القيامة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وتَوَكَّلْ عَلى الحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ - الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا في سِتَّةِ أَيَّامٍ» فقال: «وَمَا بَيْنَهُمَا»، وقد ذكر السمواتِ والأرضِ، والسمواتُ جماع، لأنه وَجَّهَ ذلك إلى الصنفين والشيئين.

وقوله: «فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ»، قيل: كان ابتداء ذلك يوم الأحد، والفراغ يوم الجمعة. «ثُمَّ اسْتَوَى عَلى العَرْشِ الرَّحْمنُ»، يقولُ: ثم استوى على العرش الرحمن وعَلَا عليه، وذلك يوم السبت فيما قيل. وقوله: «فاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً»،

يقولُ: فاسأل يا محمدُ خبيراً بالرحمن، خبيراً بخلقه، فإنه خالقُ كلِّ شيءٍ، ولا يخفى عليه ما خلق.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا قيل لهؤلاءِ الذين يعبدونَ من دونِ الله ما لا ينفَعُهُمْ ولا يضرُّهم: «اسْجُدُوا لِلْرَّحْمَن»: أي اجعلوا سجودَكُمْ لله خالصاً دونَ الآلهةِ والأوثانِ، قالوا: «أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا».

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك، فقرأته عامة قَرَأَةِ المدينة والبصرة: «لِمَا تَأْمُرُنا» بمعنى: أنسجد نحن يا محمدُ لما تأمرنا أنتَ أنْ نسجدَ له. وقرأته عامةُ قَرَأَةِ الكوفة: «لِمَا يَأْمُرُنا» بالياء، بمعنى: أنسجدُ لما يأمرُ الرحمنُ، وذَكَرَ بعضُهم أنَّ مُسيلمةَ كان يُدْعى الرحمن، فلما قال لهم النبيُّ ﷺ: اسجدوا للرحمنِ، قالوا: أنسجدُ لما يأمرنا رحمنُ اليمامةِ؟ يعنون مُسَيلمة بالسجود له[1].

والصواب من القولِ في ذلك، أنهما قراءتان مستفيضتان مشهورتان، قد قرأ بكل واحدةٍ منهما علماءُ من القَرأةِ، فبأيتهما قرأ القارىءُ فمصيب.

وقوله: «وَزَادَهُمْ نُفُوراً»، يقولُ: وزاد هؤلاءِ المشركينَ قولُ القائلِ لهم: اسجدوا للرحمن من إخلاصِ السجودِ للهِ، وإفرادِ الله بالعبادةِ بُعْداً مما دُعُوا إليه من ذلك فِراراً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا

---

(١) هذا بعيد، وإنما أمروا بالسجود للرحمن رب العالمين، وهو استفهام إنكار، ومعناه: لا نسجد للرحمن الذي تأمرنا بالسجود له.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ۝٦١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: تَقَدَّسَ الربُّ الذي جعل في السماء بروجاً، ويعني بالبروج: القصور في قول بعضهم، وهو الأوْلى بالصواب، لأن ذلك في كلام العرب، ولقوله تعالى: «ولو كنتم في بروجٍ مشيَّدة».

وقرأته عامة قَرَأة الكوفيين «وَجَعَلَ فِيها سُرُجاً» على الجماع، كأنهم وَجَّهُوا تأويلَهُ: وجعلَ فيها نجوماً «وقَمَراً مُنِيراً» وجعلوا النجوم سرجاً إذْ كان يُهْتَدى بها.

والصوابُ من القولِ في ذلك عندي أنْ يقالَ: إنهما قراءتان مشهورتان في قَرَأةِ الأمصار، لكلٍّ واحدةٍ منهما وجهٌ مفهوم، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب.

وقوله: «وَقَمَراً مُنِيراً»، يعني بالمنير: المضيء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ۝٦٢﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «جَعَلَ اللَّيْلَ والنَّهَارَ خِلْفَةً»، فقال بعضهم: معناه: أن الله جعل كُلَّ واحدٍ منهما خلفاً من الآخر، في أنَّ ما فاتَ أحدهما من عملٍ يعملُ فيه لله، أُدْرِكَ قضاؤه في الآخر.

قوله: «وَجَعَلَ فيها سِرَاجاً»، اختلف القَرَأة في قراءة ذلك، فقرأته عامة قَرَأة المدينة والبصرة: «وَجَعَلَ فِيها سرَاجاً» على التوحيدِ، ووجَّهُوا تأويلَ ذلك إلى أنه جعل فيها الشمسَ، وهي السراج التي عَنَى عندهم بقوله: «وَجَعَلَ فِيها سِرَاجاً».

وقال آخرون: بل معناه: أنه جعلَ كُلَّ واحدٍمنهمامخالفاً صاحبَهُ، فجعلَ هذا أسود وهذا أبيض.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أنَّ كُلَّ واحدٍ منهما يخلفُ صاحبه إذا ذَهَبَ هذا جاءَ هذا، وإذا جاء هذا ذهبَ هذا.

والعرب تقول: خلف هذا من كذا خلفة، وذلك إذا جاء شيءٌ مكانَ شيءٍ ذَهَبَ قبلهِ[1].

وقوله: «لِمَنْ أرَادَ أنْ يَذَّكَّرَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: جعلَ الليلَ والنهارَ، وخلوفَ كُلٍّ واحدٍ منهما الآخرَ حجةً وآيةً لمن أرادَ أنْ يَذَّكَّرَ أمرَ الله، فينيبَ إلى الحقِّ، «أوْ أرَادَ شُكُوراً» أو أراد شُكْرَ نعمةِ الله التي أنعمها عليه في اختلافِ الليل والنهار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۝٦٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَعِبادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلى الأرْضِ هَوْناً» بالحلمِ والسكينةِ والوقارِ غيرَ مستكبرينَ، ولا متجبِّرينَ، ولا ساعينَ فيها بالفسادِ ومعاصي الله.

وقوله: «وَإِذَا خاطَبَهُمُ الجاهِلُونَ قالُو سَلاماً»، يقولُ: وإذا خاطبهم الجاهلونَ بالله بما يكرهونه من القولِ أجابوهم بالمعروفِ من القولِ، والسدادِ من الخطاب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ۝٦٤ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٦٦﴾

(١) هذا هو اختيار المؤلف، كما سيأتي النص عليه بعد قليل.

يقول تعالى ذِكْرُه: والذين يبيتون لربِّهم يُصَلُّونَ لله، يراوحونَ بين سجودٍ في صلاتهم وقيام.

وقوله: «وَقِياماً» جمع قائم، كما الصيامُ جمع صائم «وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والذين يَدْعُونَ الله أنْ يصرفْ عنهم عقابَهُ وعذابَهُ حَذَراً منه ووجلاً.

وقوله: «إنَّ عَذَابها كانَ غَراماً»، يقولُ: إنَّ عذابَ جهنم كان غراماً ملحاً دائماً لازماً غير مفارقٍ مَنْ عُذِّبَ به من الكفارِ، ومُهْلِكاً له، ومنه قولهم: رَجُلٌ مُغْرَمٌ، من الغُرْمِ والدَّين. ومنه قيل للغريم غَريم لطلبه حَقَّهُ، وإلحاحَهُ على صاحبِهِ فيه. ومنه قيل للرجلِ المولَعِ للنساء: إنه لمغرَمٌ بالنساء، وفلانٌ مغرَم بفلانٍ: إذا لم يصبرْ عنه.

«إنَّها ساءَت مُسْتَقَرّاً ومَقُاماً»، يقولُ: إنَّ جهنم ساءت مستقرّاً ومقاماً، يعني بالمستقرّ: القرار، وبالمقام: الإقامة؛ كأنَّ معنى الكلام: ساءت جهنمُ منزلاً ومقاماً، وإذا ضُمَّتِ الميمُ من المقام فهو من الإقامةِ، وإذا فتحت فهو من قمت، ويقال: المقام إذا فتحت الميم أيضاً هو المجلس.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والذين إذا أنفقوا أموالهم لم يُسْرِفُوا في إنفاقها.

ثم اختلف أهلُ التأويل في النفقة التي عناها اللهُ في هذا الموضع، وما الإسرافُ فيها والإقتار، فقال بعضهم: الإسرافُ: ما كان من نفقةٍ في معصيةِ الله، وإنْ قَلَّتْ، قال: وإياها عَنَى الله، وسماها إسرافاً. قالوا: والإقتار: المنعُ من حَقِّ الله.

الفرقان: ٦٧

وقال آخرون: الإسرافُ هو أن تأكلَ مالَ غيرِكَ بغير حقٍّ.

وقال آخرون: السرف: المجاوزةُ في النفقة الحدّ؛ والإقتار: التقصير عن الذي لابدَّ منه.

والصواب من القول في ذلك، قولُ مَنْ قال: الإسرافُ في النفقة الذي عَنَاهُ اللهُ في هذا الموضع: ما جاوزَ الحدَّ الذي أباحهُ اللهُ لعبادِهِ إلى ما فوقه، والإقتار: ما قصر عما أمرَ اللهُ به، والقوام: بين ذلك.

وإنما قلنا: إنَّ ذلكَ كذلك، لأنَّ المسرفَ والمقتر كذلك، ولو كان الإسراف والإقتار في النفقة مرخصاً فيهما ما كانا مذمومين، ولا كانَ المسرفُ ولا المقتر مذموماً، لأنَّ ما أذن الله في فعله فغيرُ مستحقٍّ فاعلُه الذمَّ.

فإن قال قائل: فهل لذلك من حَدٍّ معروف تبينه لنا؟ قيل: نعم ذلك مفهومٌ في كلِّ شيء من المطاعم والمشاربِ والملابسِ والصدقةِ وأعمالِ البرِّ وغير ذلك نكره تطويلَ الكتابِ بذكرِ كُلِّ نوعٍ من ذلك مفصلاً، غير أنَّ جملة ذلك هو ما بيَّنا، وذلك نحو أكلِ آكلٍ من الطعامِ فوقَ الشبعِ ما يضعفُ بَدَنَهُ، ويُنْهِكُ قُواه، ويَشْغَلُه عن طاعةِ رَبِّه، وأداءِ فرائضه، فذلك من السرف، وأنْ يتركَ الأكلَ وله إليه سبيلٌ حتى يضعفَ ذلك جسمه، ويَنْهَك قواه ويضعفه عن أداءِ فرائضِ ربه، فذلك من الإقتارِ وبين ذلك القوام على هذا النحو كلّ ما جانس ما ذكرنا. فأما اتخاذ الثوبِ للجمال يلبسهُ عند اجتماعهِ مع الناسِ، وحضوره المحافلَ والجُمُعَ والأعيادَ دونَ ثوبِ مهنته، أو أكله من الطعام ما قَوَّاهُ على عبادةِ رَبِّه، مما ارتفع عما قد يسدُّ الجوع مما هو دونه من الأغذية، غير أنه لا يعينُ البدنَ على القيامِ لله بالواجبِ معونته، فذلك خارجٌ عن معنى الإسرافِ، بل ذلك من القوام، لأنَّ النبيَّ ﷺ قد أمرَ ببعضِ ذلك، وحضَّ على

بعضه كقوله: «ما عَلى أَحَدِكُمْ لَو اتَّخَذَ ثَوْبَيْن: ثَوْباً لِمِهْنَتِه، وثَوْباً لِجُمعَتِهِ وَعِيدِهِ؟»[1].

وكقوله: «إِذَا أَنْعَمَ اللهُ عَلى عَبْدٍ نِعْمَةً أَحَبَّ أَنْ يَرَى أَثَرَهَا عَلَيْهِ»[2]، وما أشبه ذلك.

وأما قوله: «وكانَ بينَ ذلكَ قَواماً»، فإنه النفقةُ بالعدلِ والمعروفِ على ما قد بيَّنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والذين لا يعبدون مع الله إلهاً آخرَ، فيشركون في عبادتهم إياهُ، ولكنهم يخلصون له العبادةَ ويُفْرِدُونَهُ بالطاعة. «وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ» قتلها «إلا بالحَقِّ» إما بكفرٍ بالله بعد إسلامها، أو زنا بعد

---

(١) حديث صحيح بشاهده من حديث عائشة رضي الله عنها، أخرجه ابن خزيمة (١٧٦٥)، وابن ماجة (١٠٩٦)، وابن حبان (٢٧٧٧)، وشاهده عن أبي داود (١٠٧٨)، وابن ماجة (١٠٩٥).

(٢) صحيح بشواهده من حديث عمران بن حصين: أخرجه أحمد ٢٣٨/٤، وابن سعد ٢٩١/٤، وابن أبي الدنيا في «الشكر» (٥٠)، والطحاوي في «مشكل الآثار» ١٥١/٤، وشواهده في كتاب الشكر.

إحصانِها، أو قتلِ نَفْسٍ؛ فتقتل بها «وَلَا يَزْنُونَ» فيأتون ما حَرَّمَ اللهُ عليهم إتيانَهُ من الفروجِ. «وَمَنْ يَفْعَلْ ذلكَ»، يقولُ: ومَنْ يأتِ هذه الأفعالَ، فدعا مع الله إلهاً آخر، وقتل النفس التي حَرَّمَ اللهُ بغير الحقِّ، وزنى. «يَلْقَ أثاماً»، يقولُ: يَلْقَ من عقابِ الله عقوبةً ونكالاً، كما وصفه ربُّنا جَلَّ ثَنَاؤُهُ، وهو أنه «يُضَاعَفْ لَهُ العَذَابُ يَوْمَ القِيامَةِ ويَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً».

وقد ذُكِرَ أنَّ هذه الآيةَ نزلتْ على رسولِ الله ﷺ من أجلِ قومٍ من المشركينَ أرادوا الدخولَ في الإسلام، ممن كان منه في شركه هذه الذنوب، فخافوا أنْ لا ينفعهم مع ما سلَفَ منهم من ذلك إسلام، فاستفتَوْا رسولَ الله ﷺ في ذلك، فأنزلَ اللهُ تبارك وتعالى هذه الآيةَ، يُعْلِمُهُمْ أنَّ الله قابلٌ توبةَ مَنْ تابَ منهم.

وقوله: «وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً»، ويبقى فيه إلى ما لا نهايةَ في هوان.

وقوله: «إلَّا مَنْ تَابَ وآمَنَ وعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: ومَنْ يفعل هذه الأفعالَ التي ذكرها جَلَّ ثَنَاؤُهُ يلق آثاماً. «إلَّا مَنْ تَابَ»، يقولُ: إلا مَنْ راجعَ طاعةَ الله تبارك وتعالى بتركِه ذلكَ، وإنابته إلى ما يرضاهُ اللهُ. «وآمَنَ»، يقولُ: وصَدَّقَ بما جاء به محمدٌ نبيُّ الله. «وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً»، يقولُ: وعمل بما أمرَهُ الله من الأعمالِ، وانتهى عما نَهاهُ الله عنه.

قوله: «فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَناتٍ» اختلف أهلُ التأويلِ في تأويلِ ذلك، فقال بعضهم: معناه: فأولئك يبدّل اللهُ بقبائحِ أعمالهم في الشرك محاسن الأعمالِ في الإسلام، فيبدله بالشركِ إيماناً. وبقِيلِ أهلِ الشركِ باللهِ قِيلَ أهلِ الإيمانِ به، وبالزنا عفة وإحصاناً.

وقال آخرون: بل معنى ذلك، فأولئك يبدِّلُ الله سيئاتهم في الدنيا حسنات لهم يوم القيامة.

وأَوْلى التأويلين بالصوابِ في ذلك، تأويل مَنْ تأَوَّلَهُ: فأولئكَ يبدِّلُ الله سيئاتهم: أعمالهم في الشِّرْكِ حسنات في الإسلام، بنقلهم عما يسخطه الله من الأعمالِ إلى ما يرضى.

وإنما قلنا ذلك أولى بتأويل الآية، لأنَّ الأعمالَ السيئة قد كانت مَضَتْ على ما كانتْ عليه من القُبْحِ، وغير جائز تحويل عين قد مضت بصفةٍ إلى خلافِ ما كانتْ عليه إلا بتغييرها عما كانتْ عليه من صفتها في حال أخرى، فيجب إنْ فعل ذلك كذلكَ أنْ يصيرَ شركُ الكافر الذي كان شركاً في الكفر بعينه إيماناً يوم القيامة بالإسلام ومعاصيه كلها بأعيانها طاعةً، وذلك ما لا يقوله ذُو حجا.

وقوله: «وكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكان اللهُ ذا عفوٍ عن ذنوبِ مَنْ تابَ مِن عباده وراجع طاعته، وذا رحمةٍ به أنْ يعاقبه على ذنوبِه بعد توبته منها.

قوله: «وَمَنْ تابَ»، يقولُ: ومن تاب من المشركين، فآمَنَ باللهِ ورسوله. «وَعَمِلَ صَالِحاً»، يقولُ: وعملَ بما أمره الله فأطاعه، فإنَّ الله فاعلٌ به من إبدالِه سيىءَ أعمالِه في الشرك بحسنها في الإسلام، مِثْلَ الذي فَعَلَ من ذلك بمن تابَ وآمَنَ وعملَ صالحاً قبل نزولِ هذه الآيةِ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ٧٢﴾

اختلف أهلُ التأويل في معنى الزور الذي وصف اللهُ هؤلاءِ القوم بأنهم لا يشهدونه، فقال بعضهم: معناه الشرك بالله.

وقال آخرون: بل عَنَى به الغِناء.

وقال آخرون: هو قولُ الكذب.

وأصلُ الزورِ تحسينُ الشيء ووصفُه بخلافِ صِفَتِه، حتى يخيل إلى مَنْ يسمعُه أو يراهُ أنه خلاف ما هُوَ به، والشركُ قد يدخلُ في ذلك لأنه مُحَسَّنٌ لأهله، حتى قد ظنوا أنه حقٌّ، وهو باطل، ويدخل فيه الغناء، لأنه أيضاً مما يحسنه ترجيعُ الصوت، حتى يستحلي سامعُه سماعَهُ، والكذبُ أيضاً قد يدخلُ فيه لتحسين صاحبه إياه، حتى يظنَّ صاحبه أنه حقٌّ، فكلُّ ذلك مما يدخلُ في معنى الزور.

فإذا كان ذلـك كذلـك، فأوْلى الأقوالِ بالصوابِ في تأويله أن يقال: والذين لا يشهدونَ شيئاً من الباطل لا شِرْكاً، ولا غِنَاءً، ولا كذباً ولا غيره، وكلّ ما لزمه اسمُ الزور، لأنَّ الله عَمَّ في وصفه إياهم أنهم لا يشهدونَ الزورَ، فلا ينبغي أنْ يُخَصَّ من ذلك شيءٌ إلا بحجةٍ يجبُ التسليمُ لها من خبرٍ أو عقل.

وقوله: «وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً» اختلف أهلُ التأويل في معنى اللغو الذي ذُكِر في هذا الموضع، فقال بعضهم: معناه: ما كان المشركونَ يقولونه للمؤمنينَ، ويُكَلِّمُونَهُمْ به من الأذى، ومرورهم به كِراماً: إعراضهم عنهم وصفحهم.

وقال آخرون: بل معناه: وإذا مَرُّوا بذكْرِ النكاح، كَفُّوا عنه.

وقال آخرون: إذا مَرُّوا بما كان المشركونَ فيه من الباطلِ مَرُّوا مُنْكِرينَ له.

وقال آخرون: عنى باللغو ههنا: المعاصي كلها.

وأوْلى الأقوال في ذلك بالصوابِ عندي، أن يقال: إنَّ الله أخبر عن هؤلاءِ المؤمنينَ الـذين مَدَحهم بأنهم إذا مَرُّوا باللغو مَرُّوا كِراماً، واللغو في كلامِ العربِ هو كُلُّ كلامٍ أو فعلٍ باطلٍ لا حقيقةَ له ولا أصل، أو ما يُسْتَقْبَحُ،

فسبُّ الإنســانِ الإنسانَ بالباطلِ الذي لا حقيقةَ له من اللَّغوِ، وذِكْرُ النكاحِ بصريحِ اسمهِ مما يُستقبحُ في بعض الأماكن، فهو من اللغو، وكذلك تعظيمُ المشركينَ آلِهَتَهُمْ من الباطلِ الذي لا حقيقةَ لما عَظَّمُوه على نحوِ ما عظموه، وسمـاع الغناء مما هو مستقبحٌ في أهل الدين، فكل ذلك يدخلُ في معنى اللغو، فلا وْجه إذْ كان كُلُّ ذلك يلزمه اسم اللغو، أنْ يقال: عنى به بعض ذلك دون بعض، إذْ لم يكن لخصوصِ ذلك دلالةٌ من خبرٍ أو عقلٍ. فإذْ كان ذلك كذلـك، فتـأويلُ الكـلام: وإذا مَرُّوا بالبـاطلِ فسمعوه أو رأوه، مَرُّوا كراماً، مرورهم كراماً في بعض ذلك بأنْ لا يسمعوه، وذلك كالغناء. وفي بعض ذلك: بأن يعرضوا عنه ويصفحوا، وذلك إذا أُوذُوا بإسماعِ القبيحِ من القولِ، وفي بعضه: بأن يَنْهَوْا عن ذلك وذلك بأنْ يروا من المنكرِ ما يغَيَّرُ بالقولِ فيغيروهُ بالقولِ. وفي بعضه بأنْ يُضارَبُوا عليه بالسيوفِ، وذلك بأن يروا قوماً يقطعونَ الطريقَ على قومٍ، فَيَسْتَصْرِخُهم المراد ذلك منهم، فيصرخونهم، وكلُّ ذلك مرورهم كراماً.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ۝٧٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والذين إذا ذَكَّرهم مُذَكِّرٌ بحججِ الله، لم يكونوا صُمّاً لا يسمعون، وعمياً لا يبصرونها ولكنهم يِقَاظُ القلوب، فُهَمَاءُ العقول، يفهمون عن الله ما يُذَكِّرُهُمْ به، ويفهمون عنه ما يُنَبِّههم عليه، فيوعون مواعظه آذاناً سمعته، وقلوباً وعته.

فإن قال قائل: وما معنى قوله: «لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمّاً وعُمْياناً» أو يَخرُّ الكـافـرون صماً وعمياناً إذا ذُكِّرُوا بآياتِ الله، فَيُنْفَى عن هؤلاءِ ما هو صفة للكفار؟ قيل: نعم، الكافرُ إذا تُليتْ عليه آياتُ الله خَرَّ عليها أصمَّ وأعمى،

وخَرُّه عليها كذلك: إقامتُه على الكفرِ، وذلك نظير قولِ العرب: سببت فلاناً، فقام يبكي، بمعنى فَظَلَّ يبكي، ولا قيامَ هنالك، ولعلَّه أن يكون بكى قاعداً، وكما يقال: نهيتُ فلاناً عن كذا، فقعد يشتمني: ومعنى ذلك: فجعل يشتمني، وظَلَّ يشتمني، ولا قعود هنالك، ولكنَّ ذلك قد جرى على ألسنِ العرب، حتى قد فهموا معناه، وذكر الفرّاء[1] أنه سمع العربَ تقول: قعد يشتمني، كقولك: قام يشتمني، وأقبل يشتمني.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: والذين يرغبون إلى الله في دعائهم ومسألتهم بأن يقولوا: رَبَّنا هَبْ لنا من أزواجنا وذرِّياتنا ما تَقَرُّ به أعيننا من أنْ تُرِيَنَاهُمْ يعملونَ بطاعتكَ.

وقـوله: «وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إماماً» اختلف أهلُ التأويل في تأويله، فقال بعضهم: معناه: اجعلنا أئمةً يَقْتَدِي بنا مَنْ بَعْدَنَا.

وقال آخرون: بل معناه: واجعلنا للمتقين إماماً نَأْتَمُّ بهم، ويأتَمُّ بنا مَنْ بعدَنَا.

وأوْلى القولين في ذلك بالصواب قولُ مَنْ قال: معناه: واجعلنا للمتقينَ الذين يتقون معاصيكَ، ويخافون عقابكَ؟ إماماً يأتمونَ بنا في الخيرات، لأنهم إنما سألوا رَبَّهم أنْ يجعلهم للمتقينَ أئمةً ولم يسألوه أن يجعل المتقين لهم إماماً.

---

(١) معاني القرآن: ٢/٢٧٤.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴾ ﴿٧٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاءِ الذين وصفتُ صِفتهم من عبادي، وذلك من ابتداءِ قوله: «وَعِبادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلى الأَرْضِ هَوْناً»... إلى قوله: «وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْوَاجِنَا... » الآية «يُجْزَوْنَ»، يقولُ: يُثَابُونَ على أفعالهم هذه التي فعلوها في الدنيا «الغُرْفَةَ» وهي منزلةٌ من منازلِ الجنة رفيعة «بِما صَبرُوا»، يقولُ: بصبرهم على هذه الأفعال، ومقاساة شدتها.

وقوله: «وَيُلَقَّوْنَ فِيها تَحِيَّةً وَسَلاماً»، اختلفت القَرَأَةُ في قراءته، فقرأته عامةُ قَرَأةِ أهلِ المدينة والبصرة «وَيُلَقَّوْنَ» مضمومة الياء مشدَّدةَ القاف، بمعنى: وتَتَلَقَّاهُم الملائكةُ فيها بالتحيةِ، وقرأ ذلك عامة قَرَأة الكوفة: «وَيَلْقَوْنَ» بفتح الياء وتخفيف القاف.

والصوابُ من القول في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان مشهورتان في قَرَأةِ الأمصار بمعنى واحد، فبأيتهما قرأ القارىءُ فمصيب، غير أنَّ أعجبَ القراءتين إليَّ أنْ أقرأ بها «وَيَلْقَوْنَ فِيها» بفتح الياء وتخفيف القاف، لأنَّ العرب إذا قالت ذلك بالتشديد قالت: فلان يُتَلَقَّ بالسلامِ وبالخير ونحن نتلقاهم بالسلام قرنته بالياء وقَلَّمَا تقول: فلان يُلَقَّى السلام، فكان وجهُ الكلام لو كان بالتشديد أن يقال: ويُتَلَقَّوْنَ فيها بالتحيةِ والسلام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أولئك يُجْزَوْنَ الغرفةَ بما صبروا، خالدينَ في الغرفة، يعني أنهم ماكثونَ فيها، لابثونَ إلى غيرِ أمدٍ، حَسُنَتْ تلك الغرفةُ قراراً لهم ومقاماً يقولُ: وإقامةً.

وقوله: «قُلْ ما يَعْبَأُ بِكُمْ ربّي» يقول جَلَّ ثناؤه لنبيه: قُلْ يا محمدُ، لهؤلاءِ الذين أرسلت إليهم: أيّ شيء يَعُدّكم، وأيّ شيء يصنع بكم ربي، يقال منه: عبأت به أعبأُ عبئاً، وعبأتُ الطيب أعبؤه: إذا هَيَّأْتُه.

وقوله: «لَوْلا دُعاؤُكُمْ»، يقولُ: لولا عبادةُ مَنْ يَعبدُه منكم، وطاعةُ مَنْ يطيعه منكم.

وقوله: «فَقَدْ كَذَّبْتُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه لمشركي قريش قومِ رسولِ الله ﷺ: فقد كَذَّبتم أيها القومُ رسولَكُمْ الذي أُرسلَ إليكم وخالفتم أمرَ رَبِّكم الذي أمر بالتمسكِ به لو تمسكتم به، كان يعبأُ بكم ربي، فسوفَ يكونُ تكذيبكم رسولَ رَبِّكم، وخلافكم أمرَ بارئِكُمْ، عذاباً لكم ملازِماً، قتلاً بالسيوفِ وهلاكاً لكم مُفْنِياً يَلْحَقُ بعضَكم بعضاً. ففعل الله ذلك بهم، وصَدَقَهُمْ وَعْدَهُ، وقتلهم يومَ بدرٍ بأيدي أوليائه، وألحقَ بعضَهم ببعضٍ، فكان ذلك العذابُ اللزام.

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

بسم الله الرحمن الرحيم

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾

وقد ذكرنا اختلاف المختلفين في ابتداء فواتحِ سورِ القرآنِ من حروف الهجاء، وبيَّنا الذي هو أوْلى بالصوابِ من القولِ فيه فيما مضى من كتابنا هذا بما أغنى عن إعادته(١)، وقد ذكر عنهم من الاختلاف في قوله: طسم وطس، نظير الذي ذكر عنهم في: ألم وألمر وألمص.

فتأويلُ الكلام على قولِ ابن عباس والجميع: إنَّ هذه الآيات التي أنزلتُها على محمدٍ ﷺ في هذه السورة لآيات الكتابِ الذي أنزلتُه إليه من قبلها الذي بيَّنَ لِمَنْ تَدَبَّرَهُ بفهمٍ، وفَكَّرَ فيه بعقلٍ، أنه من عند الله جَلَّ جلالُه، لم يتخرَّصْهُ محمدٌ ﷺ، ولم يتقوَّلْهُ من عنده، بل أوحاهُ إليه رَبُّه.

وقوله: «لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أنْ لا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لعلك يا محمدُ قاتلٌ نفسكَ ومُهْلِكُهَا إنْ لم يؤمنْ قومُكَ بك، ويُصَدِّقُوكَ على ما جئتهم به، والبَخْع: هو القتلُ والإهلاكُ في كلام العرب.

---

(١) انظر أول تفسير سورة البقرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ٤﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ». . . الآية، فقال بعضهم: معناه: فظلَّ القومُ الذين أنزل عليهم من السماء آية خاضعة أعناقهم لها من الذلَّةِ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: فظلت سادَتُهم وكبراؤهم للآيةِ خاضعينَ، ويقولُ: الأعناقُ: هم الكُبَراءُ من الناس.

وأَوْلى الأقوال في ذلك بالصوابِ وأشبهها بما قالَ أهلُ التأويل في ذلك أنْ تكونَ الأعناقُ هي أعناقُ الرجال، وأنْ يكون معنى الكلام: فظلت أعناقُهم ذليلةً للآيةِ التي ينزلها اللهُ عليهم من السماء.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وما يجيءُ هؤلاءِ المشركينَ الذينَ يكذِّبونكَ ويجحدونَ ما أتيتَهُمْ به يا محمدُ من عند رَبِّكَ من تذكيرٍ وتنبيه على مواضعِ حُججِ اللهِ عليهم على صِدْقِـكَ، وحقيقـةِ ما تَدْعُوهم إليه مما يُحَدِّثُه اللهُ إليكَ ويوحيهِ إليك، لتذكرهم به، إلا أعرضوا عن استماعِه، وتركوا إعمالَ الفكرِ فيه وتدبره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَٰٓؤُا مَا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ٦﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: فقد كذَّبَ يا محمدُ هؤلاءِ المشركونَ بالذكر الذي أتـاهم من عند الله، وأعرضوا عنه. «فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ»، يقولُ: فسيأتيهم أخبارُ الأمرِ الذي كانوا يسخرون منه وذلك وعيدٌ من اللهِ لهم أنه مُحِلٌّ بهم عقابَهُ على تمادِيهم في كفرهم، وتمرُّدِهم على رَبِّهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أو لم يَرَ هؤلاءِ المشركونَ المكذّبون بالبعث والنشر إلى الأرض، كم أنبتنا فيها بعد أنْ كانت ميتةً لا نباتَ فيها «مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ» يعني بالكريم: الحسن، كما يقال للنخلةِ الطيبةِ الحملِ: كريمة، وكما يقال للشاةِ أو الناقةِ إذا غزرتَا، فكثرتْ ألبانُهما: ناقةٌ كريمةٌ، وشاةٌ كريمةٌ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ في إنباتنا في الأرض من كلِّ زوجٍ كريم لآيةً: يقولُ: لدلالةً لهؤلاءِ المشركينَ المكذِّبينَ بالبعثِ، على حقيقتِهِ، وأنَّ القدرةَ التي بها أَنبتَ اللهُ في الأرض ذلك النباتَ بعد جُدوبَتها، لن يُعجزه أن يُنْشِر بها الأمواتَ بعد مماتِهم أحياءً من قبورِهم.

وقوله: «وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ»، يقولُ: وما كان أكثرُ هؤلاءِ المكذِّبينَ بالبعثِ، الجاحدينَ نبوَّتَكَ يا محمدُ بمُصَدِّقيكَ على ما تأتيهم به من عندِ الله من الذِّكْرِ، يقول جَلَّ ثناؤه: وقد سَبَقَ في علمي أنهم لا يؤمنون، فلا يؤمن بكَ أكثرُهم للسابقِ من عِلْمي فيهم.

وقوله: «وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ»، يقولُ: وإنَّ رَبَّكَ يا محمدُ لهو العزيزُ في نقمته، لا يمتنع عليه أحدٌ أرادَ الانتقامَ منه، يقول تعالى ذِكْرُه: وإني إنْ أحللتُ بهؤلاءِ المكذِّبينَ بك يا محمدُ، المُعْرِضينَ عما يأتيهم من ذِكْرٍ من عندي، عقوبتي بتكذيبهم إياك، فلن يمنعهم مني مانعٌ، لأني أنا العزيزُ الرحيم، يعني أنه ذو الرحمة بمن تابَ من خَلْقِه من كفره ومعصيته أنْ يعاقبه على ما سَلَفَ من جُرْمِه بعد توبته.

وإنما اخترنا القولَ الذي اخترناه في ذلك في هذا الموضع، لأنَّ قوله: «وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ» عقيبَ وعيدِ الله قوماً من أهلِ الشركِ والتكذيبِ بالبعثِ، لم يكونوا أهلكوا، فيوجه إلى أنه خَبَرٌ من الله عن فِعْلِه بهم وإهلاكِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: واذكُرْ يا محمدُ إذ نادى رَبُّكَ موسى بن عمران «أنِ ائْتِ القَوْمَ الظَّالِمينَ»، يعني الكافرينَ قومَ فرعون.

وقوله: «ألا يَتَّقُونَ»، يقولُ: ألا يتقون عقابَ الله على كُفْرِهم به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «قالَ» موسى لربه «رَبِّ إنِّي أخافُ» من قوم فِرعونَ الذين أمرتني أنْ آتيهم «أنْ يُكَذِّبونِ» بِقِيلي لهم: إنكَ أرسلتني إليهم «وَيَضِيقُ صَدْرِي» من تكذيبهم إياي إنْ كذَّبوني، ورفع قوله «وَيَضِيقُ صَدْرِي» عطفاً به

على أخاف، ومعناه: وإني يضيق صدري.

وقوله: «وَلا يَنْطَلِقُ لسانِي» يقولُ: ولا ينطلقُ بالعبارةِ عما ترسلني به إليهم للعلَّةِ التي كانت بلسانه.

وقوله: «فأَرْسِلْ إلى هارُونَ»، يعني هارون أخاه، ولم يقل: فأرسِلْ إليَّ هارون ليؤازِرَني وليعينَني، إذْ كان مفهوماً معنى الكلام، وذلك كقولِ القائل: لو نزلتْ بنا نازلةٌ لفزعنا إليك، بمعنى: لفزعنا إليك لِتُعِينَنَا.

وقوله: «وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ»، يقولُ: ولقومِ فرعونَ عليَّ دعوى ذنبٍ أذنبت إليهم، وذلك قتلُه النفسَ التي قتلها منهم.

وقوله: «فَأخافُ أنْ يَقْتُلُونِ»، يقولُ: فأخافُ أنْ يقتلوني قوداً بالنفسِ التي قتلتُ منهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «كَلَّا»: أي لن يقتلكَ قومُ فرعون «فاذْهَبا بآياتِنا»، يقولُ: فاذهبْ أنتَ وأخوكَ بآياتنا، يعني بأعلامنا وحُجَجِنَا التي أعطيناكَ عليهم.

وقوله: «إنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ» من قومِ فرعونَ ما يقولونَ لكم، ويجيبونكم به.

وقوله: «فَأْتِيا فِرْعَوْنَ فَقُولا»... الآية، يقولُ: فأتِ أنتَ يا موسى وأخوكَ هارونُ فرعونَ «فقُولا إنَّا رَسُولُ رَبِّ العالَمين» إليكَ بـ«أنْ أرْسِلْ مَعَنا بَنِي إسْرائِيلَ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾

وفي هذا الكلام محذوف اسْتُغْنِي بدلالةَ ما ظهر عليه منه، وهو: فَأْتِيَا فرعونَ فأبْلغَاهُ رسالَةِ رَبِّهما إليه، فقال فرعونُ: أَلَمْ نُرَبِّكَ فينا يا موسى وليداً، ولبثتَ فينا من عُمُركَ سنين، وذلك مُكْثُه عنده قبل قَتْلِه القتيلَ الذي قتله من القبطِ، وفعلتَ فَعْلَتكَ التي فعلتَ: يعني قتلَهُ النفسَ التي قتل من القبط.

وقوله: «وأنْتَ مِنَ الكافِرينَ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: وأنتَ من الكافرينَ بالله على ديننا، وهو قول السدي.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وأنتَ من الكافرينَ نعمتَنا عليكَ، وهو قولُ ابن زيد.

وهذا القولُ الذي قاله ابن زيد أشبهُ بتأويلِ الآية، لأنَّ فرعونَ لم يكن مُقرّاً لله بالربوبية وإنما كان يزعمُ أنه هو الربُّ، فغير جائزٍ أنْ يقول لموسى: إنْ كان موسى كان عنده على دينه يوم قتل القتيل على ما قاله السديّ: فعلت الفعلة وأنت من الكافرين، الإيمان عنده: هو دينه الذي كان عليه موسى عنده، إلا أن يقول قائل: إنما أراد: وأنتَ من الكافرينَ يومئذٍ يا موسى، على قولكَ اليومَ، فيكون ذلك وجهاً يتوجه.

فتأويل الكلام إذن: وقتلتَ الذي قتلتَ مِنّا وأنتَ من الكافرينَ نِعْمَتَنا عليكَ، وإحسانَنَا إليك في قتلِكَ إياهُ. وقد قيل: معنى ذلك: وأنتَ الآن من الكافرينَ لنعمتي عليكَ، وتربيتي إياكَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال موسى لفرعون: فعلتَ تلك الفعلةَ التي فعلتَ: أي قتلتُ تلك النفسَ التي قتلتُ إذنْ وأنا من الضالين: يقولُ: وأنا من الجاهلينَ قبلَ أنْ يأتيني من الله وحيٌ بتحريمِ قتله عليَّ. والعرب تضع الضلال موضع الجهل، والجهل موضع الضلال، فتقول: قد جهل فلان الطريق وضلَّ الطريق، بمعنى واحد.

وقوله: «فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ»... الآية، يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ موسى لفرعونَ: «فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ» معشرَ الملأ من قومِ فرعونَ «لَمَّا خِفْتُكُمْ» أنْ تقتلوني بقتلي القتيلَ منكم «فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً»، يقولُ: فوهَبَ لي ربي نبوّةً وهي الحكم.

وقوله: «وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ»، يقولُ: وألحقني بعدادِ مَنْ أرسلَهُ إلى خَلْقِهِ، مُبَلِّغاً عنه رسالَتَهُ إليهم بإرسالِه إيايَ إليكَ يا فرعون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قيلِ نبيه موسى ﷺ لفرعونَ «وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَيَّ»، يعني بقوله: وتلك تربية فرعون إياه، يقولُ: وتربيتكَ إيايَ، وتركَكَ استعبادي، كما استعبدتَ بني إسرائيل نعمة منك تمنها عليَّ بحقٍّ، وفي

الكلام محذوفٌ استغني بدلالة ما ذكر عليه عنه، وهو: وتلك نعمةٌ تمنها عليَّ أنْ عبدتَ بني إسرائيل وتركتني، فلم تستعبدني، فترك ذِكْرَ: وتركتني، لدلالة قوله: أنْ عبدتَ بني إسرائيل عليه.

وقوله: «قال فِرْعَوْنُ ومَا رَبُّ الْعَالَمِينَ»، يقولُ: وأيّ شيءٍ ربُّ العالمين؟ «قالَ» موسى: هو «رَبُّ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ» ومالكهنّ. «وَما بَيْنَهُمَا»، يقولُ: ومالك ما بينَ السمواتِ والأرضِ من شيء. «إنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ»، يقولُ: إنْ كنتم مُوقِنينَ أنَّ ما تُعَاينونَهُ كما تعاينونه، فكذلك فأيقنوا أنَّ ربنا هو ربُّ السمواتِ والأرضِ وما بينهما.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «قالَ لِمَنْ حَوْلَهُ ألا تَسْتَمِعُونَ» قال فرعونُ لِمَنْ حولَهُ من قومِه: ألا تستمعون لما يقولُ موسى، فأخبرَ موسى عليه السلام القومَ بالجوابِ عن مسألة فرعونَ إياهُ وقيلِه له: «وَما رَبُّ العَالَمِينَ؟» ليفهم بذلك قومُ فرعونَ مقالتَهُ لفرعون، وجوابه إياه عما سأله، إذْ قال لهم فرعونُ «ألا تَسْتَمِعُونَ» إلى قولِ موسى، فقال لهم: الذي دعوتُه إليه وإلى عبادته «رَبُّكُمْ» الذي خلقكم «وَرَبُّ آبائِكُمُ الأوَّلِينَ» فقال فرعون لما قال لهم موسى ذلك، وأخبرهم عما يدعو إليه فرعون وقومه: «إنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إلَيْكُمْ لَمَجْنُون»، يقولُ: إنَّ رسولكم هذا الذي يزعمُ أنه أُرسلَ إليكم لمغلوبٌ على عقله، لأنه يقولُ قولاً لا نعرفه ولا نفهمه، وإنما قال ذلك ونَسَبَ موسى عدوُّ اللهِ إلى الجِنَّةِ، لأنه كان عنده وعند قومه أنه لا ربَّ غيرُه يُعْبَدُ، وأنَّ الذي يدعوه إليه موسى باطلٌ ليست

له حقيقةٌ، فقال موسى عند ذلك محتجاً عليهم، ومُعَرِّفَهُمْ رَبَّهم بصفتِه وأدِلَّتِه، إذْ كان عند قوم فرعونَ أنَّ الذي يعرفونه رباً لهم في ذلك الوقت هو فرعون، وأن الذي يعرفونه لآبائهم أرباباً ملوكٌ أُخر، كانوا قبلَ فرعون، قد مَضَوْا فلم يكن عندهم أنَّ موسى أخبرهم بشيءٍ له معنى يفهمونَهُ ولا يعقلونه، ولذلك قال لهم فرعـون: إنه مجنون، لأنَّ كلامه كان عندهم كلاماً لا يعقلونَ معناه: الذي أدعـوكم، وفرعونَ إلى عبادتِه رَبُّ المشرق والمغرب وما بينهما، يعني ملكُ مشرقِ الشمسِ ومغربها، وما بينهما من شيء، لا إلى عبادةِ ملوكِ مصرَ الذين كانوا ملوكَها قبلَ فرعونَ لآبائِكم فَمَضَوْا، ولا إلى عبادةِ فرعونَ الذي هو ملكها «إنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ»، يقـولُ: إنْ كانَ لكم عقـولٌ تعقلونَ بهـا ما يقالُ لكم، وتفهمون بها ما تسمعون مما يعين لكم؛ فلما أخبرهم عليه السلام بالأمرِ الذي علموا أنه الحقُّ الواضحُ، إذ كان فرعونُ ومَنْ قَبْلَهُ من ملوكِ مصر لم يجاوزْ مُلْكُهُمْ عريشَ مصر، وتَبَيَّنَ لفرعون ومَنْ حوله من قومه أنَّ الذي يدعوهم موسى إلى عبـادتِه، هو الملكُ الذي يملكُ الملوكُ قال فرعون حينئذٍ استكباراً عن الحقِّ، وتمادياً في الغيّ لموسى: «لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي»، يقولُ: لئن أقررت بمعبودٍ سواي «لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المَسْجُونِينَ»، يقولُ: لأسجننك مع مَنْ في السجن من أهله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال موسى لفرعون لما عَرَّفَهُ رَبَّهُ، وأنه ربُّ المشرقِ والمغـربِ، ودعـاهُ إلى عبـادتـه وإخلاصِ الأُلوهةِ له، وأجابه فرعونُ بقوله:

«لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المَسْجُونِينَ» أتجعلني من المسجونين «وَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ» يبينُ لك صِدْقَ ما أقولُ يا فرعون وحقيقة ما أدعوكَ إليه. وإنما قال ذلك له، لأنَّ من أخلاقِ الناسِ السكون للإنصاف، والإجابة إلى الحقِّ بعد البيان؛ فلما قال موسى له ما قال من ذلك قال له فرعون: فأتِ بالشيءِ المُبَيِّنِ حقيقةَ ما تقول، فإنا لن نسجنك حينئذٍ إنِ اتخذتَ إلهاً غيري إنْ كنتَ من الصادقين، يقولُ: إنْ كنتَ محقاً فيما تقولُ، وصادقاً فيما تصف وتخير، «فَأَلْقَى عَصَاهُ فإذا هيَ ثُعْبَانٌ مُبينٌ»، يقول جَلَّ ثناؤه: فألقى موسى عصاه فتحوَّلَتْ ثعباناً، وهي الحيَّةُ الذَّكَرُ كما قد بيَّنتُ فيما مضى قَبْلُ من صِفَتِه.

وقوله: «مُبينٌ»، يقولُ: يبين لفرعونَ والملأ من قومِه أنه ثعبان.

وقوله: «وَنَزَعَ يَدَهُ فإذَا هيَ بَيْضَاءُ»، يقولُ: وأخرجَ موسى يَدَهُ من جيبه فإذا هي بيضاء تلمع «للنَّاظِرِينَ» لمن ينظرُ إليها ويراها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال فرعونُ لما أراهُ موسى من عظيمِ قدرةِ الله وسلطانِه حُجَّةً عليه لموسى بحقيقةِ ما دعاهُ إليه، وصدق ما أتاهُ به من عند ربه «لِلْمَلإِ حَوْلَه» يعني لأشرافِ قومه الذين كانوا حوله «إنَّ هَذَا لَساحِرٌ عَلِيمٌ»، يقولُ: إنَّ موسى سَحَرَ عصاهُ حتى أراكُموهَا ثعبانا. «عَلِيمٌ»، يقولُ: ذو علمٍ بالسحرِ وبَصَرٍ به. «يُرِيدُ أنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ»، يقولُ: يريد أن يخرج بني إسرائيلَ من أرضكم إلى الشأم بقهرِهِ إياكم بالسحر. وإنما قال: يريد أن

يخرجكم فجعل الخطاب للملإ حوله من القبطِ، والمعنيّ به بنو إسرائيلَ، لأنَّ القِبطَ كانوا قد استعبدوا بني إسرائيلَ، واتخذوهم خدماً لأنفسهم ومُهَّاناً، فلذلك قال لهم: «يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ» وهو يريدُ أنْ يخرجَ خَدَمَكُمْ وعبيدَكُمْ من أرضِ مصر إلى الشأم.

وإنما قلتُ معنى ذلك كذلك، لأنَّ الله إنما أرسلَ موسى إلى فرعونَ يأمرهُ بإرسالِ بني إسرائيل معه، فقال له ولأخيه: «فَأْتِيا فِرْعَوْنَ فَقُولا إنَّا رَسُولُ رَبِّ العَالَمِينَ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنا بني إسْرائِيلَ».

وقوله: «فَمَاذَا تَأْمُرُونَ»، يقولُ: فأيّ شيءٍ تأمرونِ في أمرِ موسى وما به تُشِيرونَ من الرأي فيه، «قالُوا أرْجِهْ وأخاهُ، وَابْعَثْ في المَدَائِنِ حاشِرِينَ»، يقولُ تعالى ذِكْرُه: فأجاب فرعونَ الملأُ حولَهُ بأنْ قالوا له: أخِّرْ موسى وأخاهُ وأنْظِرْهُ، وابعثْ في بلادكَ وأمصارِ مصرَ حاشرينَ يحشرون إليكَ كُلَّ سَحَّارٍ عليمٍ بالسحرِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٣٨ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ۝٣٩ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝٤٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فجمع الحاشرون الذين بعثهم فرعونُ بحشرِ السَّحَرةِ «لِمَيقاتِ يَوْم مَعْلُومٍ»، يقولُ: لوقتٍ واعد فرعون لموسى الاجتماعَ معه فيه من يومٍ معلوم، وذلك يومُ الزينة. «وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحَى»، وقيل للناس: هل أنتم مجتمعونَ لتنظروا إلى ما يفعل الفريقان، ولمن تكونُ الغَلَبةُ، لموسى أو للسحرة؟ فَلَعَلَّنَا نتبعُ السحرةَ، ومعنى لعلَّ هنا كي، يقولُ: كي نَتَّبعَ السحرةَ إنْ كانوا هم الغالبين موسى. وإنما قلت ذلك معناها، لأنَّ قومَ فرعون كانوا على

دِينِ فرعون، فغيرُ معقولٍ أنْ يقول: مَنْ كان على دينٍ أنظر إلى حجة من هو على خلافي لعلي أتبعُ ديني، وإنما يقال: أنظر إليها كي أزداد بصيرةً بديني، فأقيم عليه، وكذلك قال قوم فرعون، فإياها عَنوا بقِيلِهم: لعلنا نتبع السحرة إنْ كانـوا هم الغالبين. وقيل: إنَّ اجتماعَهُمْ للميقاتِ الذي اتَّعَدَ للاجتماعِ فيه فرعون وموسى كان بالإسكندرية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ» فرعونَ لوعدِ لموسى وموعدِ فرعون قالُوا لِفِرْعَوْنَ أئِنَّ لَنا لَأجرَ سِحرِنَا قِبَلَكَ «إنْ كُنَّا نَحْنُ الغالِبِينَ» موسى، «قالَ» فرعونُ لهم «نَعَمْ» لكم الأجرُ على ذلك «وإنَّكُمْ لَمِنَ المُقَرَّبِينَ» منَّا، فقالوا عند ذلك لموسى: إما أنْ تُلْقيَ، وإما أنْ نكونَ نحنُ المُلْقِينَ، وتَرَكَ ذِكْر قِيلهم ذلك لدلالةِ خبرِ الله عنهم أنهم قال لهم موسى: ألقوا ما أنتم مُلْقُونَ، على أنَّ ذلك معناه فـ«قالَ لَهُمْ مُوسَى ألْقُوا ما أنْتُمْ مُلْقُونَ» من حبالِكُمْ وعِصِيِّكُمْ، «فَألْقَوْا حِبَـالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ» من أيديهم. «وَقـالُـوا بعزَّةِ فرْعَوْنَ»، يقولُ: أقسموا بقوَّةِ فرعونَ وشدَّةِ سلطانه، ومنعة مملكته «إنَّا لَنَحْنُ الغالِبُونَ» موسى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ

﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: «فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ» حين ألقتِ السَّحَرَةُ حبالهم وعِصِيَّهُمْ، «فَإِذَا هِي تَلْقَفُ مَا يأْفِكُونَ»، يقولُ: فإذا عصا موسى تَزْدَرِدُ ما يأتونَ به من الفِـرْيةِ والسحرِ الذي لا حقيقةَ له، وإنما هو مخاييل وخدعة «فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجدِينَ»، يقولُ: فلما تَبَيَّنَ السحرةُ أنَّ الذي جاءهم به موسى حقٌّ لا سحرٌ، وأنه مما لا يقدرُ عليه غيرُ اللهِ الذي فَطَرَ السمواتِ والأرضِ من غير أصلٍ، خَرُّوا لوجوههم سُجَّداً لله، مُذْعِنينَ له بالطاعة، مُقِرِّينَ لموسى بالذي أتاهم به من عندِ الله أنه هو الحقُّ، وأن ما كانوا يعملونه من السحر باطلٌ، قائلينَ «آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ» الذي دعانا موسى إلى عبادته دون فرعون، وملئه «رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ. قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أنْ آذَنَ لَكُمْ»، يقول جَلَّ ثناؤه: قال فرعونُ للذين كانوا سَحَرَتَهُ: فآمنوا: آمنتُمْ لموسى بأنَّ ما جاء به حقٌّ قبلَ أنْ آذنَ لكم في الإيمانِ به «إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ»، يقولُ: إن موسى لرئيسُكم في السحرِ، وهو الذي عَلَّمَكُمُوهُ، ولذلك آمنتم به، «فَلَسَوْفَ تَعْلَمونَ» عند عقابي إياكم وَبَالَ ما فعلتم، وخطأَ ما صنعتم من الإيمانِ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٩ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝٥٠﴾

يقولُ: «لأُقَطِّعَنَّ أيْدِيَكُمْ وأرْجُلَكُمْ» مخالفاً في قَطْعِ ذلك منكم بين قطعِ الأيدي والأرجل، وذلك أنْ أقطعَ اليدَ اليمنى والرِّجْلَ اليسرى، ثم اليدَ اليسرى والرجلَ اليمنى، ونحو ذلك من قطعِ اليد من جانب، ثم الرِّجْلِ من الجانب الآخـر، وذلـك هو القـطع من خلاف. «وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أجمَعِينَ» فَوَكَّـدَ ذلـك بأجمعينَ إعلاماً منه أنه غير مُسْتَبْقٍ منهم أحداً. «قالُوا لا ضَيْرَ»، يقول تعالى

ذِكْرُه: قالت السَّحَرَةُ: لا ضيرَ علينا وهو مصدرٌ من قولِ القائل: قد ضار فلاناً فلاناً فهو يضير ضيراً، ومعناه: لا ضرر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥١ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٥٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ السحرةِ: إنَّا نطمعُ: إنَّا نرجو أنْ يصفحَ لنا رَبُّنَا عن خطايانا التي سلفت منا قبل إيماننا به، فلا يعاقبنا بها. «أنْ كُنَّا أَوَّلَ المُؤْمِنِينَ»، يقولُ: لأنْ كُنَّا أَوَّلَ مَنْ آمن بموسى وصدَّقَهُ بما جاء به من توحيدِ الله وتكذيب فرعونَ في ادّعائِه الربوبيةَ في دهرنا هذا وزماننا.

وقوله: «وأَوْحَيْنا إلى مُوسَى أنْ أسْرِ بعِبادِي»، يقولُ: وأوحينا إلى موسى إذْ تمادى فرعونُ في غَيِّهِ وأبى إلا الثباتَ على طغيانِه بعدما أَرَيْنَاهُ آياتنا، أنْ أسْرِ بعبادي: يقولُ: أنْ سِرْ ببني إسرائيلَ ليلاً من أرض مصر. «إنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ» إنَّ فرعونَ وجُنْدَهُ مُتَّبِعُوكَ وقومكَ من بني إسرائيل، ليحولوا بينكم وبين الخروجِ من أرضهم، أرض مصر.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٥٣ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝٥٤ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ۝٥٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فأرسل فرعونُ في المدائنِ يحشرُ له جُنْدَهُ وقومه، ويقول لهم: «إنَّ هَؤُلاءِ» يعني بهؤلاءِ: بني إسرائيلَ «لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ» يعني بالشرذمة: الطائفة والعصبة الباقية من عصب جبيرة، وشرذمة كل شيء: بقيته القليلة.

وقوله: «وإنَّهُمْ لَنا لَغائِظُونَ»، يقولُ: وإنَّ هؤلاءِ الشرذمة لنا لغائظونَ، فذكر أنَّ غيظَهم إياهم كان قتل الملائكة مَنْ قتلت من أبكارِهم.

وقوله: «وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حاذِرونَ»، اختلفت القرأة في قراءة ذلك، فقرأته عامة قرأةِ الكوفة «وإنا لجميعٌ حاذرون» بمعنى: أنهم مُؤْدُونَ ذَوُو أداةٍ وقوّةٍ وسلاح، وقرأ ذلك عامة قَرَأة المدينة والبصرة «وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَذِرُونَ» بغير ألفٍ. وكان الفرّاء يقول: كأنَّ الحاذرَ الذي يحذرك الآن، وكأن الحَذِرَ المخلوق حذراً لا تلقاهُ إلا حذْراً[1].

والصوابُ من القولِ في ذلك أنهما قراءتان مستفيضتان في قَرَأةِ الأمصار متقاربتا المعنى، فبأيَّتِهِمَا قرأ القارىءُ، فمصيبٌ الصوابَ فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ۝٥٩ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فأخرجنا فرعونَ وقومَهُ من بساتين وعيونِ ماء، وكنوزِ ذهبٍ وفضة، ومقامٍ كريم. قِيلَ: إنَّ ذلك المقامَ الكريم: المنابر.

وقوله: «كَذلكَ»، يقولُ: هكذا أخرجناهم من ذلك كما وصفتُ لكم في هذه الآية والتي قبلها. «وأَوْرَثْناها»، يقولُ: وأورثنا تلك الجنات التي أخرجناهم منها والعيون والكنوز والمقام الكريم عنهم بهلاكِهم بني إسرائيل.

وقولـه: «فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ»، فأتبع فرعون وأصحابه بني إسرائيل، «مشرقين» حين أشرقتِ الشمسُ، وقِيلَ حين أصبحوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٦٢ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب

---

(١) انظر معاني القرآن للفراء: ٢/٢٨٠.

﴿بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما تناظرَ الجمعانِ: جَمْعُ موسى وهم بنو إسرائيل، وجمعُ فرعون وهم القبطُ «قال أصْحابُ مُوسَى إنَّا لَمُدْرَكُونَ» أي إنَّا لَمُلْحَقُونَ، الآنَ يلحقنا فرعونُ وجنودُه فيقتلوننا، وذُكِرَ أنهم قالوا ذلك لموسى، تشاؤماً بموسى.

وقوله: «كَلَّا إنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ»، قال موسى لقومه: ليسَ الأمرُ كما ذكرتم، كلا لن تُدْرَكُوا إنَّ معي ربي سيهدين، يقولُ: سيهدينِ لطريقٍ أنجُو فيه من فرعونَ وقومِه.

وقوله: «فَأَوْحَيْنَا إلى مُوسَى أنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ البَحْرَ فانْفَلَقَ» ذُكِرَ أنّ الله كان قد أمرَ البحرَ أنْ لا ينفلقَ حتى يضربه موسى بعصاه.

وقوله: «فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطَّوْدِ العَظِيمِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فكان كل طائفةٍ من البحرِ لَمَّا ضربه موسى كالجبلِ العظيمِ، وذُكر أنه انفلق اثنتي عشرة فلقةً على عددِ الأسباطِ، لكلِّ سبطٍ منهم فِرْقٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾

يعني بقوله تعالى ذِكْرُه: «وأزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ»: وقَرَّبْنَا هنالك آلَ فرعونَ من البحر، وقَدَّمْنَاهُمْ إليه، ومنه قوله: «وأُزْلِفَتِ الجَنَّةُ للْمُتَّقِينَ» بمعنى: قُرِّبَتْ وأُدْنِيَتْ.

وقوله: «وأنجَيْنا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أجمَعِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأنجينا

موسى مما أتبعنا به فرعون وقومه من الغرقِ في البحرِ ومَنْ مع موسى من بني إسرائيل أجمعين.

وقوله: «ثُمَّ أغْرَقْنَا الآخَرِينَ»، يقولُ: ثم أغرقنا فرعونَ وقومَهُ من القِبْطِ في البحر بعد أنْ أنجينا موسى منه ومَنْ معه.

وقوله: «إنَّ فِي ذلكَ لآيَةً»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ فيما فعلتُ بفرعونَ ومَنْ معه من تغريقي إياهم في البحر إذْ كَذَّبُوا رسولي موسى، وخالفوا أمري بعدَ الإعذارِ إليهم، والإنذارِ لدلالةً بَيِّنَةً يا محمدُ لقومِكَ من قريش على أنَّ ذلك سنتي فيمن سلكَ سبيلَهُمْ من تكذيبِ رسلي، وعِظَةً لهم وعبرةً أنِ ادَّكِرُوا واعتبرُوا أنْ يفعلوا مِثْلَ فِعلهم من تكذيبِكَ مع البرهانِ والآياتِ التي قد أتيتهم، فيحلّ بهم من العقوبةِ نظير ما حلَّ بهم، ولكَ آيةٌ في فعلي بموسى، وتنجيتي إياهُ بعد طولِ علاجِهِ فرعونَ وقومَهُ منه، وإظهاري إياه وتوريثه وقومه دُورَهُمْ وأرْضَهُمْ وأموالهم، على أني سالكٌ فيكَ سبيله، إنْ أنتَ صبرتَ صبره، وقمتَ من تبليغِ الرسالةِ إلى مَنْ أرسلتكَ إليه قيامه، ومُظْهِرُكَ على مُكَذِّبيكَ ومُعْلِيكَ عليهم، «وما كان أكثرهم مؤمنين»، يقولُ: وما كان أكثر قومكَ يا محمدُ مؤمنينَ بما آتاكَ اللهُ من الحقِّ المبين، فسابقٌ في علمي أنهم لا يؤمنون. «وَإنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ» في انتقامِهِ مِمَّنْ كفرَ به وكَذَّبَ رُسُلَهُ من أعدائِه، «الرَّحِيمُ» بمن أنجى من رُسُلِه، وأتباعهم من الغرقِ والعذابِ الذي عذَّبَ به الكَفَرَةَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: واقصصْ على قومكَ من المشركينَ يا محمدُ خبرَ إبراهيمَ حين قال لأبيهِ وقومه: أيّ شيء تعبدون؟ «قَالوا» له: «نَعْبُدُ أصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ» يقولُ: فنظلُّ لها خَدَماً مُقيمينَ على عبادتها وخدمتها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝٧٢ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۝٧٣ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٧٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال إبراهيمُ لهم: هل تسمعُ دعاءكم هؤلاءِ الآلهةُ إذْ تَدْعُونَهُمْ؟

وقوله: «أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ»، يقولُ: أو تنفعكم هذه الأصنامُ، فيرزقونكم شيئاً على عبادَتِكُمُوها، أو يضرُّونكم فيعاقبونَكُمْ على تَرْكِكُمْ عبادَتَها بأنْ يسلبوكم أموالَكُم، أو يهلكوكم إذا هلكتم وأولادكم. «قالُوا بَلْ وَجَدْنا آباءَنا كَذلكَ يَفْعَلُونَ»، وفي الكلام متروكٌ استغني بدلالةِ ما ذكر عما ترك، وذلك جوابهم إبراهيمَ عن مسألتِه إياهم: «هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ، أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ»، فكان جوابهم إياه، لا، ما يسمعونَنَا إذا دَعَوْنَاهُمْ، ولا ينفعوننا ولا يضرُّون يدلُّ على أنهم بذلك أجابوه.

قولهم: «بَلْ وَجَدْنَا آباءَنا كَذلكَ يَفْعَلُونَ» وذلك أنَّ بَلْ رجوعٌ عن مجحودٍ، كقولِ القائل: ما كان كذا بل كذا وكذا، ومعنى قولهم: «وَجَدْنا آباءَنا كذلكَ يَفْعَلُونَ» وجدنا مَنْ قَبْلَنَا من آبائنا يعبدونها ويعكفون عليها لخدمتها وعبادتها، فنحن نفعلُ ذلك اقتداءً بهم، واتباعاً لمنهاجهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال إبراهيمُ لقومه: أفرأيتم أيها القومُ ما كنتم تعبدونَ من هذهِ الأصنامِ أنتم وآباؤكم الأقدمون، يعني بالأقدمين: الأقدمين من الذين كان إبراهيمُ يخاطبهم، وهم الأوَّلُون قَبْلَهُمْ ممن كان على مِثْلِ ما كانَ عليه

الذين كَلَّمهم إبراهيمُ من عبادةِ الأصنامِ ، فإنهم عدوٌّ لي إلا ربَّ العالمين: يقول قائل: وكيف يُوصَفُ الخشبُ والحديد والنحاس بعداوةِ ابنِ آدم، فإنَّ معنى ذلك: فإنهم عدوٌّ لي لو عبدتهم يومَ القيامة، كما قال جَلَّ ثَناؤُهُ: «واتَّخذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً، كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً» [مريم: ٨١].

وقوله: «إلَّا رَبَّ العالَمِينَ» نصباً على الاستثناء، والعدوُّ بمعنى الجمع، ووحّدَ لأنه أخرج مخرجَ المصدرِ، مثل القعود والجلوس، ومعنى الكلام: أفرأيتم كلَّ معبودٍ لكم ولآبائكم، فإني منه بريءٌ لا أعبده، إلا ربَّ العالمين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾

يقولُ: فإنهم عدوٌّ لي إلا ربَّ العالمين الذي خلقني فهو يهدين للصوابِ من القولِ والعمل، ويُسَدِّدُني للرشادِ. «وَالَّذي هُوَ يُطْعِمُني وَيَسْقِين»، يقولُ: والذي يَغْذُوني بالطعامِ والشرابِ، ويرزقني الأرزاقَ «وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ»، يقولُ: وإذا سقم جسمي واعتلَّ فهو يُبْرِئُه ويعافيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢﴾

يقولُ: والذي يُميتني إذا شاء ثم يُحْييني إذا أرادَ بعد مماتي «وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لي خَطِيئَتِي يَوْمِ الدِّينِ» فربي هذا الذي بيدهِ نفعي وضرّي، وله القدرةُ والسلطانُ، وله الدنيا والآخرة، لا الذي لا يسمع إذا دُعِيَ، ولا ينفعُ ولا يضر.

وإنما كان هذا الكلامُ من إبراهيمَ احتجاجاً على قومه، في أنه لا تصلحُ الألوهةُ، ولا ينبغي أنْ تكونَ العُبودَةُ إلا لمن يفعلُ هذه الأفعال، لا لمن لا يطيقُ نفعاً ولا ضرّاً.

ويعني بقوله: «يَوْمَ الدِّينِ» يوم الحساب، يوم المجازاة، وقد بيَّنا ذلك فيما مضى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ۝٨٣ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ۝٨٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن مسألة خليله إبراهيم إياهُ «رَبِّ هَبْ لي حُكْماً»، يقولُ: ربِّ هَبْ لي نبوَّةً «وأَلْحِقْنِي بالصَّالِحِينَ»، يقولُ: واجعلني رسولاً إلى خَلْقِكَ حتى تُلْحِقني بذلك بعدادِ مَنْ أرسلتَهُ من رُسُلِكَ إلى خَلْقِكَ، وائْتَمَنْتَهُ على وَحْيِكَ، واصطفَيْتَهُ لنفسكَ.

وقوله: «وَاجْعَلْ لي لِسانَ صِدْقٍ في الآخِرِينَ»، يقولُ: واجعلْ لي في الناسِ ذِكْراً جميلاً، وثناءً حسناً باقياً فيمن يجيءُ من القرونِ بعدي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ۝٨٥ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ۝٨٦ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝٨٧ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾

يعني إبراهيمُ صلواتُ الله عليه بقوله: «وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ» أورثني يا ربِّ من منازلِ من هلك من أعدائكَ المشركينَ بكَ من الجنة، وأسكنِّي ذلك. «وَاغْفِرْ لأبي»، يقولُ: واصفحْ لأبي عن شِرْكِه بكَ، ولا تعاقبه

عليه، «إِنَّه كانَ مِنَ الضَّالِّينَ»، يقولُ: إنه كان ممن ضَلَّ عن سبيلِ الهدى فكفرَ بكَ.

وقد بيَّنا المعنى الذي من أجله استغفرَ إبراهيمُ لأبيهِ صلوات الله عليه، واختلاف أهلِ العلم في ذلك، والصواب عندنا من القولِ فيه فيما مضى بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

وقـوله: «وَلا تُخْزِني يَوْمَ يُبْعَثُونَ»، يقولُ: ولا تُذلَّني بعقابكَ إيايَ يومَ تبعثُ عبادكَ من قبورهم لموقفِ القيامة. «يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ»، يقولُ: لا تُخْزِني يومَ لا ينفعُ مَنْ كَفَرَ بك وعصاكَ في الدنيا مالٌ كانَ له في الدنيا، ولا بُنُوةُ الذين كانوا له فيها، فيدفع ذلك عنه عقابَ الله إذا عاقبه، ولا ينجيه منه.

وقوله: «إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ»، يقولُ: ولا تخزني يوم يبعثون، يوم لا ينفعُ إلا القلب السليم.

والذي عنى به من سلامةِ القلبِ في هذا الموضع: هو سلامةُ القلب من الشكِّ في توحيدِ الله، والبعثِ بعدَ المماتِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝٩٠ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۝٩١ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٩٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ۝٩٣ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ۝٩٤ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ۝٩٥﴾

يعني جَلَّ ثَنـاؤُهُ بقوله: «وأُزْلِفَتِ الجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ» وأُدنيتِ الجنةُ وقُرِّبَتْ للمتقين، الـذين اتقوا عقابَ الله في الآخرةِ بطاعتهم إياه في الدنيا «وبُرِّزَتْ الجَحِيمُ لِلْغاوِينَ»، يقولُ: وأُظْهِرَتِ النارُ للذين غَوَوا فضلُّوا عن سواءِ السبيل «وَقِيلَ» للغاوين «أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ» من الأنداد «هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ»

اليومَ من الله، فينقذونكم من عذابه، «أَوْ يَنْتَصِرُونَ» لأنفسهم، فينجونَها مما يُرَادُ بها؟

وقوله: «فَكُبْكِبُوا فيها هُمْ والغاوُونَ»، يقولُ: فرمى ببعضهم في الجحيم على بعضٍ، وطرح بعضُهم على بعضٍ مُنْكَبِّينَ على وجوههم. وأصل كُبْكِبُوا، كُبِبُوا ولكنَّ الكافَ كُرِّرتْ كما قيل: «بِريحٍ صَرْصَرٍ»، يعني به صرٌّ، ونهنهني يُنهنَهني، يعني به: نهنهني.

وقوله: «وَجُنُودُ إبْلِيسَ أجمَعُونَ»، يقولُ: وكُبْكِبَ فيها مع الأندادِ والغاوينَ جنودُ إبليسَ أجمعون، وجنوده: كُلُّ مَنْ كان من تُبَّاعِه من ذرِّيتهِ كانَ أو مِنْ ذرِّيةِ آدم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۝٩٦ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٩٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال هؤلاءِ الغاوونَ والأندادُ التي كانوا يعبدونها من دونِ الله وجنود إبليسَ، وهم في الجحيم يختصمون «تالله إنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبينٍ»، يقولُ: تالله لقد كُنَّا في ذهابٍ عن الحقِّ، إن كنا لفي ضلال مبين، يُبينُ ذهابنا ذلك عنه عن نفسِه، لِمَنْ تأمَّلَهُ وتَدبَّرَهُ، أنه ضلالٌ وباطل.

وقوله: «إذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ العَالَمِينَ»، يقولُ: الغاوون للذين يعبدونهم من دون الله: تالله إنْ كنا لفي ذهابٍ عن الحق حين نَعْدِلُكُمْ بربِّ العالمين فنعبدكُمْ من دونِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٩٩ فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝١٠١ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مُخبراً عن قيلِ هؤلاءِ الغاوين في الجحيم: «وَما أَضَلَّنا إِلَّا المُجْرِمُونَ»، يعني بالمجرمين إبليس، وابن آدم الذي سَنَّ القتل.

وقوله: «فَمَا لَنا مِنْ شافِعِينَ»، يقولُ: فليس لنا شافعٌ فيشفع لنا عند الله من الأباعدِ، فيعفوَ عنا، وينجينا من عقابه، «وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ» من الأقارب.

واختلف أهلُ التأويل في الذين عُنوا بالشافعين، وبالصديقِ الحميم، فقال بعضهم: عنى بالشافعين: الملائكة، وبالصديق الحميم: النسيب.

وقال آخرون: كل هؤلاءِ من بني آدم.

وقوله: «فَلَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ»، يقولُ: فلو أنَّ لنا رجعةً إلى الدنيا فنؤمن بالله فنكون بإيماننا به من المؤمنينَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ فيما احتجَّ به إبراهيمُ على قومِه من الحجج التي ذكرنا له لدلالة بَيِّنة واضحة لمن اعتبرَ، على أنَّ سنةَ الله في خَلْقِه الذين يستنون بسنةِ قومِ إبراهيمَ من عبادةِ الأصنام والآلهة، ويقتدون بهم في ذلك ما سنَّ فيهم في الدار الآخرة، من كَبْكَبَتِهم وما عَبَدُوا من دونِه مع جنود إبليس في الجحيم، وما كان أكثرهُمْ في سابقِ عِلْمِه مؤمنينَ، وإنَّ رَبَّكَ يا محمدُ لهو الشديدُ الانتقامِ ممن عبد دونه، ثم لم يَتُبْ من كُفْره حتى هلك، الرحيمُ بمن تابَ منهم أنْ يعاقبه على ما كان سَلَفَ من قبل توبته من إثم وجرم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ» رُسُلَ الله الذين أرسلهم إليهم لما «قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ» فتحذروا عقابَهُ على كُفْرِكُمْ به، وتكذِيبكم رُسُلَهُ «إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ» من الله «أَمِينٌ» على وَحْيِه إليَّ، برسالتِه إيايَ إليكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٠٨ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٠٩ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فاتقوا عقابَ الله أيها القوم على كفركم به، وأطيعوني في نصيحتي لكم، وأمري إياكم باتقائه. «وماأسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أجْرٍ»، يقولُ: وما أطلبُ منكم على نصيحتي لكم وأمري إياكم باتقاءِ عقابِ الله بطاعته فيما أمركم ونهاكم، من ثوابٍ ولا جزاء «إنْ أجريَ إلَّا عَلى رَبِّ العالَمِينَ» دونَكم ودونَ جميعِ خَلْقِ الله، فاتقوا عقابَ الله على كفركم به، وخافوا حُلولَ سخطهِ بكم على تكذيبكم رُسُلَه، «وأطيعونِ»، يقول: وأطيعوني في نصيحتي لكم، وأمري إياكم بإخلاص العبادة لخالقكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ۝١١١ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١١٢ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ۝١١٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال قومُ نوحٍ له مُجيبيه عن قِيله لهم: «إني لكم رسولٌ أمين، فاتقوا الله وأطيعونِ» قالوا: أنؤمنُ لك يا نوح، ونُقِرُّ بتصديقك فيما تَدْعُونَا إليه، وإنما اتَّبَعَكَ مِنَّا الأرذلون دونَ ذوي الشرفِ وأهلِ البيوتات. «قال وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» قال نوح لقومه: وما علمي بما كان أتباعي يعملون، إنما لي منهم ظاهرُ أمْرِهم دونَ باطنِه، ولم أكلَّفْ عِلْمَ باطنهم، وإنما كلفت الظاهر، فَمَنْ أظْهَرَ حسناً ظننتُ به حسناً، ومَنْ أظهر سيئاً ظننتُ به سيئاً.

«إنْ حِسابَهُمْ إلاَّ عَلى ربّي لَوْ تَشْعُرُونَ» يقولُ: إن حساب باطنِ أمرِهم الذي خَفِيَ عني إلا على ربي لو تشعرون، فإنه يعلمُ سِرَّ أمرهم وعلانيته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١١٤ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ١١٥ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ١١٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ نوحٍ لقومه: وما أنا بطاردٍ مَنْ آمنَ بالله واتبعني على التصديقِ بما جئتُ به من عند الله. «إنْ أنا إلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ»، يقولُ: ما أنا إلا نذيرٌ لكم من عند ربِّكم أُنْذِرُكُمْ بأسَهُ، وسطوته على كفركم به مبين: يَقول: نذيرٌ قد أبانَ لكم إنذاره، ولم يَكْتُمكم نصيحتَهُ. «قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ المَرْجُومِينَ»، يقولُ: قال لنوحٍ قومُه: لئن لم تنته يا نوحُ عما تقولُ، وتدعو إليه، وتعيبُ به آلهتنا، لتكوننَّ من المشتومين، يقولُ: لنشتمك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ١١٧ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١١٨ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ١١٩ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ١٢٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال نوح: «رَبِّ إنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ» فيما أَتيتُهم به من الحقِّ من عندك، وردُّوا عليَّ نصيحتي لهم. «فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً»، يقولُ: فاحكُمْ بيني وبينهم حكماً من عندكَ تُهْلك به المُبْطِلَ، وتنتقم به ممن كَفَرَ بكَ وجحدَ توحيدكَ، وكذَّبَ رسولك. «وَنَجِّنِي»، يقولُ: ونجني من ذلك العذاب الذي تأتي به حكماً بيني وبينهم. «وَمَنْ مَعِيَ مِنَ المُؤْمِنِينَ»، يقولُ: والذين معي من أهلِ الإيمانِ بكَ والتصديقِ لي.

وقوله: «فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ في الفُلْكِ المَشْحُونِ»، يقولُ: فأنجينا نوحاً ومَنْ معه من المؤمنينَ حين فتحنا بينَهم وبينَ قومهم، وأنزلنا بأسنا بالقومِ الكافرينَ في الفلك المشحون، يعني في السفينةِ الموقرةِ المملوءة.

وقوله: «ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الباقِينَ» من قومه الذين كذَّبُوهُ، ورَدُّوا عليه النصيحة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ فيما فعلنا يا محمدُ بنوحٍ ومَنْ معه من المؤمنينَ في الفلك المشحون، حين أنزلنا بأسنا وسَطْوتَنا، بقومِه الذين كذَّبُوه، لآية لكَ ولقومكَ المُصَدِّقيكَ منهم والمكذِّبيكَ، في أنَّ سنتنا تنجيةُ رسلنا وأتباعهم، إذا نزلت نقمتنا بالمكذِّبينَ بهم من قومهم، وإهلاك المكذِّبين بالله، وكذلك سنتي فيكَ وفي قومكَ. «وما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ»، يقولُ: ولم يكن أكثرُ قومكَ بالذين يصدِّقونكَ مما سَبَقَ في قضاءِ اللهِ أنهم لن يؤمنوا «وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ» في انتقامه ممن كفر به، وخالف أمره. «الرَّحِيمُ» بالتائب منهم، أن يعاقبه بعد توبته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «كَذَّبَتْ عَادٌ» رُسُلَ اللهِ إليهم «إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ» عقابَ اللهِ على كُفْرِكم به. «إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ» من ربي يأمركُمْ بطاعتِه،

ويحذِّرُكُمْ على كفركم بأسَهُ، «أمِينٌ» على وحيِهِ ورسالتِه «فاتَّقُوا الله» بطاعتِه والانتهـاءِ إلى ما يأمـركم وينهـاكم «وأطِيعُـونِ» فيمـا آمـركُمْ به من اتقاءِ الله وتحذيركم سطوته. «وَما أسألُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أجْرٍ»، يقولُ: وما أطلبُ منكم على أمـري إياكم باتقاءِ الله جزاءً ولا ثواباً. «إنْ أجْرِيَ إلَّا عَلى رَبِّ العَالَمِينَ»، يقولُ: ما جزائي وثوابي على نصيحتي إياكم إلا على ربِّ العالمين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه مخبراً عن قيلِ هودٍ لقومِه: «أتَبْنُونَ بِكُلِّ ريع آيَةً تَعْبَثُـونَ»، والريع: كلّ مكانٍ مُشْرِفٍ من الأرْضِ مرتفع، ويعني بقوله «آيَةً» بنيانـاً، عَلَماً. وقد بيَّنا في غير موضع من كتابنا هذا، أنَّ الآيةَ هي الدلالة والعلامة بما أغنى من إعادتِه في هذا الموضع.

وقوله: «تَعْبَثُونَ»، قال: تلعبون.

وقوله: «وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ» اختلف أهلُ التأويل في معنى المصانع، فقال بعضهم: هي قصور مُشَيَّدة.

وقال آخرون: بل هي مآخذُ للماء.

والصـواب من القـول في ذلـك أن يقال: إنَّ المصانعَ جمع مصنعة، والعربُ تسمي كل بناء مصنعة، وجائزٌ أنْ يكون ذلك البناءُ كان قصوراً وحصوناً مشيدة، وجائزٌ أنْ يكون كان مآخذَ للماء، ولا خبرَ يقطعُ العُذْرَ بأيٍّ ذلك كان، ولا هو مما يُدرك من جهة العقل، فالصواب أن يقال فيه، ما قال الله: إنهم كانوا يتخذون مصانعَ.

وقوله: «لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ»، يقولُ: كأنكم تخلدون، فتبقون في الأرض.

وقوله: «وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ»، يقولُ: وإذا سطوتم سطوتم قتلاً بالسيوفِ، وضرباً بالسياط.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٣١ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۝١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۝١٣٣ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝١٣٤ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٣٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قيلِ هودٍ لقومِه من عادٍ: اتقوا عقابَ الله أيها القومُ بطاعتكم إياهُ فيما أمَرَكُمْ ونهاكم، وانتهوا عن اللهوِ واللعب، وظُلْمِ الناس، وقهرِهم بالغَلَبَةِ والفسادِ في الأرض، واحذروا سخطَ الذي أعطاكم من عنده ما تعلمون، وأعانكم به من بين المواشي والبنين والبساتين والأنهار. «إنّي أخافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ» من الله «عَظيمٍ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ۝١٣٦ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ۝١٣٧ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝١٣٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قالت عادٌ لنبيهم هود ﷺ: معتدلٌ عِنْدَنا وَعْظُكَ إيانا، وتَرْكُكَ الوعظَ، فلن نؤمنَ لكَ ولن نصدِّقَكَ على ما جِئْتَنا به.

وقوله: «إنْ هَذَا إلّا خُلُقُ الأوّلِينَ»، اختلفت القَرَأةُ في قراءة ذلك؛ فقرأته عامة قَرَأة المدينة سوى أبي جعفر؛ وعامة قَرَأة الكوفة المتأخرين منهم «إنْ هَذَا إلّا خُلُقُ الأوّلِينَ» من قَبْلِنَا. وقرأ ذلك أبو جعفر، وأبو عمرو بن العلاء «إنْ هَذَا إلّا خَلْقُ الأوّلِينَ» بفتح الخاء وتسكين اللام بمعنى: ما هذا الذي جئتنا به إلا كذب الأوّلين وأحاديثهم.

واختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، نحو اختلاف القرَّاء في قراءته،

فقال بعضهم: معناه: ما هذا إلا دين الأوَّلين وعادتهم وأخلاقهم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك، ما هذا إلا كذب الأوَّلين وأساطيرهم.

وأوْلى القراءتين في ذلك بالصواب قراءةُ من قرأ: «إنْ هَذَا إلَّا خُلُقُ الأوَّلِينَ» بضمّ الخاء واللام بمعنى: إنْ هذا إلا عادةُ الأوَّلينَ ودِينُهم، كما قال ابن عباس، لأنهم إنما عُوتِبُوا على البنيانِ الذي كانوا يتخذونه، وبطشهم بالناس بطشَ الجبابرةِ، وقلة شكرهم رَبَّهم فيما أنعمَ عليهم، فأجابوا نبيهم بأنهم يفعلونَ ما يفعلونَ من ذلك، احتذاءً منهم سُنَّةَ مَنْ قَبْلَهُمْ من الأمم، واقتفاء منهم آثارَهُمْ، فقالوا: ما هذا الذي نفعله إلا خُلُق الأوَّلينَ، يعنون بالخلق: عادة الأوّلين. ويزيدُ ذلك بياناً وتصحيحاً لما اخترنا من القراءةِ والتأويل قولهم: «وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ» لأنهم لو كانوا لا يُقِرُّونَ بأنَّ لهم رباً يقدرُ على تعذيبهم، ما قالوا: «وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ» بل كانوا يقولون: إنَّ هذا الذي جئتنا به يا هودُ إلا خُلُقُ الأوّلين، وما لنا من معذِّبٍ يعذِّبنا، ولكنهم كانوا مُقِرِّين بالصانعِ، ويعبدونَ الآلهةَ، على نحو ما كان مشركو العربِ يعبدونها. ويقولون: إنَّها تُقَرِّبُنا إلى اللهِ زُلْفَى، فلذلك قالوا لهودٍ وهُمْ منكرونَ نبوّته «سَوَاءٌ عَلَيْنا أوَعَظْتَ أمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الوَاعِظِينَ»، ثم قالوا له: ما هذا الذي نفعله إلا عادةُ مَنْ قَبْلَنَا وأخلاقهم، وما اللهُ مُعَذِّبنا عليه. كما أخبرنا تعالى ذِكْرُه عن الأمم الخالية قبلنا، أنهم كانوا يقولون لرسلهم: «إنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ» [الزخرف: ٢٣].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةًۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فكذَّبتْ عادٌ رسولَ رَبِّهم هوداً، والهاء في قوله: «فَكَذَّبُوهُ» من ذكر هود «فَأَهْلَكْنَاهُمْ»، يقولُ: فأهلكنا عاداً بتكذيبهم رسولَنا «إنَّ

فِي ذلكَ لآيَةً»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ في إهلاكنا عاداً بتكذيبها رسولها، لعبرةً وموعظةً لقومكَ يا محمدُ، المُكَذِّبيكَ فيما أتيتَهُمْ به من عند رَبِّكَ. «وَما كانَ أكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ»، يقولُ: وما كان أكثر مَنْ أهلكنا بالذين يؤمنون في سابقِ عِلْمِ الله «وإنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ» في انتقامه من أعدائه، الرحيم بالمؤمنينَ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: كَذَّبَتْ ثمود رُسُلَ الله، إذْ دَعاهم صالحٌ أخوهم إلى الله، فقال لهم: ألا تتقون عقابَ الله يا قوم على معصيتِكُمْ إياه، وخلافِكم أمْرَهُ، بطاعتكم أمرَ المفسدينَ في أرض الله، «إنّي لَكُمْ رَسُولٌ» من الله أرسلني إليكم بتحذيركم عقوبتَهُ على خِلافِكُمْ أمرَهُ «أمِينٌ» على رسالته التي أرسلها معي إليكم «فَـاتَّقُوا الله» أيها القومُ، واحذروا عقابه «وأطِيعُونِ» في تحذيري إياكم، وأمـر رَبِّكم باتبـاعِ طاعته. «وَما أسألُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أجْرٍ»، يقولُ: وما أسألكم على نُصْحي إياكم، وإنذاركم من جزاء ولا ثواب «إنْ أجْرِيَ إلاَّ على رَبِّ العالَمِينَ»، يقولُ: إن جزائي وثوابي إلاَّ على ربِّ جميعِ ما في السموات، وما في الأرض، وما بينهما من خلق.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ صالحٍ لقومِه من ثمود: أيترككم يا قومِ رَبُّكم في هذه الدنيا آمنينَ، لا تخافون شيئاً. «في جَنَّاتٍ وعُيُونٍ»، يقولُ: في بساتين وعيونِ ماءٍ «وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُها هَضِيمٌ».

واختلف أهلُ التأويل في معنى قوله: «هَضِيمٌ»، فقال بعضهم: معناه اليانع النضيج.

وقال آخرون: بل هو المُتَهَشِّمُ المتفتتُ.

وقال آخرون: هو الرطبُ الليِّن.

وقال آخرون: هو الراكبُ بعضه بعضاً.

وأولى الأقوال في ذلك بالصوابِ أنْ يقال: الهضيم: هو المُتَكَسِّرُ من لِينِه ورطوبته، وذلك من قولهم: هضم فلان حقه: إذا انتقصه وتَحَيَّفه، فكذلك الهضم في الطلع، إنما هو التنقُّصُ منه من رطوبتِهِ ولِينِهِ إما بمسِّ الأيدي، وإما بركوبِ بعضِه بعضاً، وأصله مفعول صرف إلى فعيل.

وقوله: «وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وتتخذون من الجبال بيوتاً، فاختلفت القَرَأة في قراءة قوله: «فارِهِينَ» فقرأته عامة قَرَأة أهل الكوفة «فارِهِينَ» بمعنى: حاذقينَ بنحتها. وقرأته عامة قَرَأة أهل المدينة والبصرة «فَرِهِينَ» بغير ألف، بمعنى أَشِرِينَ بَطِرِينَ.

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن قراءة مَنْ قرأها «فارِهِينَ» وقراءة من قرأ «فَرِهِينَ» قراءتان معروفتان، مستفيضةُ القراءةُ بكلِّ واحدةٍ منهما في علماء القَرَأةِ، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب. ومعنى قراءة من قرأ «فَارِهِينَ»: حاذقينَ بنحتها، مُتَخَيِّرينَ لمواضعِ نحتها، كَيِّسينَ، من الفراهة. ومعنى قراءة من قرأ «فَرِهِينَ»: مَرِحِينَ أَشِرِينَ. وقد يجوزُ أنْ يكون معنى فاره وفَرِه واحداً، فيكون فاره مبنياً على بنائِه، وأصله من فعل يفعل، ويكون فَرِه صفةً، كما

يقال: فلانٌ حاذقٌ بهذا الأمر وحَذِقٌ.

وقوله: «فَاتَّقُوا اللهَ وأَطِيعُونِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فاتقوا عقابَ الله أيها القومُ على معصيتكم رَبَّكم، وخلافِكُمْ أمره، وأطيعون في نصيحتي لكم، وإنذاري إياكم عقابَ الله ترشدوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ١٥١ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ١٥٢ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ١٥٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ صالحٍ لقومه من ثمود: لا تطيعوا أيها القومُ أمرَ المسرفينَ على أنفسهم في تماديهم في معصيةِ الله، واجترائهم على سخطِه، وهم الرهطُ التسعةُ الذين كانوا يفسدون في الأرض، ولا يصلحون من ثمود الذين وَصَفَهُمُ اللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقوله: «وَكانَ في المَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ في الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ» [النمل: ٤٨]، يقولُ: الذين يسعون في أرضِ الله بمعاصيه، ولا يصلحون، يقولُ: ولا يصلحون أنفسَهُمْ بالعملِ بطاعة الله.

وقوله: «إِنَّمَا أَنْتَ منَ المُسَحَّرِينَ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويله، فقال بعضهم: معناه: إنما أنتَ من المسحورين، وهو قول مجاهد.

وقال آخرون: معناه: من المخلوقين، وهو قول ابن عباس.

والصواب من القول في ذلك عندي القولُ الذي ذكرته عن ابن عباس، أنَّ معناه: إنما أنتَ من المخلوقينَ الذين يعللون بالطعام والشراب مثلنا، ولستَ رباً ولا ملكاً فنطيعك، ونعلم أنك صادقٌ فيما تقول، والمسحَّرُ: المفعل من السحرة، وهو الذي له سحرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٥٤ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ١٥٥ وَلَا

﴿تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ۝١٥٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ ثمود لنبيها صالح «ما أَنْتَ» يا صالحُ «إلاّ بَشَرٌ مِثْلُنا» من بني آدم تأكلُ ما نأكلُ، وتشربُ ما نشربُ، ولست بربٍّ ولا ملكٍ، فَعلامَ نَتَّبِعُكَ، فإن كنتَ صادقاً في قِيلكَ، وأنَّ الله أرسلكَ إلينا «فَأْتِ بآيَة»، يعني: بدلالةٍ وحجةٍ على أنك محقٌّ فيما تقولُ، إنْ كنتَ ممن صدقنا في دعواه أنَّ الله أرسَلَهُ إلينا.

وقولِه: «قالَ هَذِهِ ناقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قال صالحٌ لثمودَ لما سألوه آيةً يعلمون بها صِدْقَهُ، فأتاهم بناقةٍ أخرجها من صخرةٍ أو هضبة: هذه ناقة يا قوم، لها شِرْبٌ ولكم مِثْلُه شِرْبُ يومٍ آخر. معلومٌ ما لكم من الشرب، ليس لكم في يومِ وِرْدِهَا أنْ تشربوا من شِرْبها شيئاً، ولا لها أنْ تشربَ في يومكم مِمَّا لكم شيئاً. ويعني بالشرب: الحظّ والنصيب من الماء، يقولُ: لها حظٌّ من الماء، ولكم مِثْلُه، والشُّرْب والشِّرْب مصادر كلها بالضم والفتح والكسر.

وقوله: «وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ»، يقولُ: لا تَمَسُّوها بما يؤذيها من عَقْرٍ وقتلٍ ونحوِ ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ۝١٥٧ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ۝١٥٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٥٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فخالفت ثمود أمرَ نَبِيِّها صالح ﷺ، فعقروا الناقة التي قال لهم صالح: لا تَمَسُّوها بسوءٍ، فأصبحوا نادمينَ على عقرها، فلم ينفعهم

ندمهم، وأخذهم عذابُ الله الذي كان صالح تَوَعَّدَهُمْ به فأهلكهم «إِنَّ في ذلكَ لآيَةً»، يقولُ: إنَّ في إهلاكِ ثمود بما فعلتْ من عقرها ناقةَ الله وخلافها أمر نبيِّ الله صالح لعبرةً لمن اعتبرَ به يا محمدُ من قومك. «وَما كانَ أكْثَرُهُمْ مُؤْمِنينَ»، يقولُ: ولن يؤمن أكثرهم في سابقِ عِلْمِ الله «وَإنَّ رَبَّكَ» يا محمدُ «لَهُوَ العَزِيزُ» في انتقامه من أعدائه «الرَّحِيمُ» بمن آمنَ به من خَلْقِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ» مَنْ أرسَلَهُ اللهُ إليهم من الرسل حين «قَالَ لَهُمْ أخُوهُمْ لُوطٌ: ألاَ تَتَّقُونَ» اللهَ أيها القومُ «إنِّي لَكُمْ رَسُولٌ» من رَبِّكم «أمِينٌ» على وحيه، وتبليغ رسالته «فاتَّقُوا اللهَ» في أنفسكم، أنْ يحلَّ بكم عقابُه على تكذيبكم رسوله «وأطِيعُونِ» فيما دَعَوْتُكُمْ إليه أَهْدِكُمْ سبيلَ الرشاد: «وَما أسألُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أجْرٍ»، يقولُ: وما أسألكم على نصيحتي لكم ودعايتكم إلى ربي جزاءً ولا ثواباً. «إنْ أجْرِيَ إلاَّ عَلى رَبِّ العَالَمِينَ»، يقولُ: ما جزائي على دعايتكم إلى الله، وعلى نُصحي لكم وتبليغ رسالاتِ الله إليكم، إلا على ربِّ العالمين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾

يعني بقوله: «أتأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ العالَمِينَ»: أتنكحون الذكران من بني

آدمَ في أدبارهم.

وقوله: «وَتَذَرُونَ ما خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِنْ أَزْوَاجِكُمْ»، يقولُ: وتَدَعُونَ الذي خلق لكم رَبُّكم من أزواجكم من فروجهنَّ، فأحلَّهُ لكم.

وقوله: «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عادُونَ»، يقولُ: بل أنتم قومٌ تتجاوزونَ ما أباحَ لكم رَبُّكم، وأحَلَّهُ لكم من الفروجِ إلى ما حَرَّمَ عليكم منها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال قوم لوط: «لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا لُوطُ» عن نَهْيِنَا عن إتيانِ الذُّكرانِ «لَتكُونَنَّ مِنَ المُخْرَجِينَ» من بين أَظْهُرِنَا وبَلَدِنَا «قال إنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ القالِينَ»، يقولُ لهم لوط: إني لعملكم الذي تعملونَهُ من إتيانِ الذكرانِ في أدبارهم من القالينَ، يعني من المُبْغِضِينَ، المُنْكِرينَ فعله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فاستغاثَ لوطٌ حين تَوَعَّدَهُ قومُه بالإخراجِ من بلدهم إنْ هو لم يَنْتَهِ عن نهيهم عن ركوبِ الفاحشة، فقال: «رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي» من عقوبتكَ إياهم على ما يعملون من إتيانِ الذكران «فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ من عقوبتنا التي عاقبنا بها قومَ لوط «أجمَعينَ إلاَّ عَجُوزاً في الغابِرينَ»، يعني في الباقين، لطولِ مرورِ السنين عليها، فصارت هَرِمةً، فإنها أُهْلِكت من بينِ أهلِ لوط، لأنها كانت تدلُّ قومَها على الأضيافِ. وقد قيل: إنما قيل من الغابرينَ لأنها لم تهلكْ مع قومها في قريتهم، وأنها إنما أصابها الحجرُ بعدما خرجتْ عن قريتهم مع

لوطٍ وابنتيه، فكانت من الغابرينَ بعد قومها، ثم أهلكها اللهُ بما أمطرَ على بقايا قومِ لوطٍ من الحجارة، وقد بيَّنا ذلك فيما مضى بما أغنى عن إعادته.

القَولُ فِي تأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ثم أهلكنا الآخرينَ من قومِ لوطٍ بالتدمير «وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً» وذلك إرسال الله عليهم حجارةً من سِجِّيلٍ من السماء «فَساءَ مَطَرُ المُنْذَرِينَ»، يقولُ: فبئسَ ذلك المطرُ مَطَرُ القومِ الذين أنذرهم نَبيُّهم فكذَّبُوه. «إنَّ في ذلك لآيةً»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ في إهلاكنا قومَ لوطٍ الهلاكَ الذي وَصَفْنا بتكذِيبهم رسولَنَا، لعبرةً وموعظةً لقومكَ يا محمدُ، يَتَّعِظُونَ بها في تكذيبهم إياكَ، وردِّهم عليكَ ما جئتهم به من عندِ رَبِّكَ من الحقِّ «وَمَا كانَ أكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ» في سابقِ عِلْمِ الله «وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ» بمن آمنَ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «كَذَّبَ أصحَابُ الأَيْكَةِ»، والأيكة: الشجرُ المُلْتَفُّ، وهي واحدة الأيك.

وأصحاب الأيكة: هم أهلُ مَدْيَنَ فيما ذُكِر.

وقوله: «إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ألا تَتَّقُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قال لهم شعيب: ألا تتقون عقابَ الله على معصيتكم ربَّكُمْ «إنِّي لَكُمْ» من اللهِ «رَسُولٌ أمِينٌ» على وحيهِ «فاتَّقُوا» عقابَ الله على خلافِكم أمرَهُ «وأطِيعُونِ» تَرْشُدُوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾﴾

يقولُ: «وَمَا أَسْأَلُكُمْ» على نُصْحي لكم من جزاء وثواب، ما جزائي وثوابي على ذلكَ «إلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ. أوْفُوا الكَيْلَ»، يقولُ: أوفوا الناسَ حقوقَهُم من الكيلِ. «وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ»، يقولُ: ولا تكونوا ممن نقصَهم حقوقَهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾

يعني بقوله: «وزِنُوا بالقِسْطاسِ» وزِنُوا بالميزانِ «المُسْتَقِيمِ» الذي لا بخسَ فيه على مَنْ وزنتم له «وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أشْياءَهُمْ»، يقولُ: ولا تنقصوا الناسَ حقوقهم في الكيلِ والوزن «وَلا تَعْثَوْا في الأرْضِ مُفْسِدِينَ»، يقولُ: ولا تُكْثِرُوا في الأرْضِ الفسادَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ

﴿ٱلصَّـٰدِقِينَ ١٨٧﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: «وَاتَّقُوا أيها القومُ عقابَ رَبِّكم «الَّذِي خَلَقَكُمْ، وَ» خَلَقَ «الجبِلَةَ الأَوَّلِينَ» يعني بالجِبِلَّة: الخَلْقَ الأَوَّلين.

وقوله: «قالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ المُسَحَّرِينَ»، يقولُ: قالوا: إنما أنتَ يا شعيبُ معللٌ تعللَ بالطعامِ والشراب، كما نعلل بهما، ولست ملَكاً «وما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا» تأكلُ وتشربُ «وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الكاذِبِينَ»، يقولُ: وما نَحْسَبُكَ فيما تُخْبِرُنا وتَـدْعُونَا إليه، إلا مِمَّنْ يكذِبُ فيما يقولُ، فإنْ كنتَ صادقاً فيما تقولُ بأنك رسولُ الله كما تزعم. «فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّماءِ»، يعني قِطعاً من السماء، وهي جمع كِسفة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨٨ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ١٨٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال شُعيبٌ لقومِه: «رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ»، يقولُ: بأعمالهم هو بها محيطٌ، لا يخفى عليه منها شيء، وهو مُجازيكم بها جزاءَكم. «فَكَـذَّبُوهُ»، يقولُ: فكذَّبه قومُه «فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يومِ الظُّلَّةِ»، يعني بالظلة: سحابةٌ ظللتهم، فلما تَتامُّوا تحتها التهبتْ عليهم ناراً وأحرقتهم.

وقوله: «إِنَّهُ كانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ»، يقولُ تعالى ذِكْرُه: إنَّ عذابَ يومِ الظلة كانَ عذابَ يومٍ لقومِ شُعيب عظيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٩٠ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٩١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ في تعذيبنا قومَ شُعيب عذابَ يومِ الظُّلَّةِ بتكذيبهم

نبيهم شُعيباً لآيةٍ لقومك يا محمدُ، وعبرة لمن اعتبر، إن اعتبروا أنَّ سنتنا فيهم بتكذيبهم إياكَ سُنَّتَنا في أصحابِ الأيكة. «وما كانَ أكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ» في سابقِ عِلْمِنَا فيهم «وَإنَّ رَبَّكَ» يا محمدُ «لَهُوَ العَزِيزُ» في نقمتِه ممن انتقمَ منه من أعدائِه «الرَّحِيمُ» بمن تابَ من خَلْقِه، وأنابَ إلى طاعته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ١٩٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإنَّ هذا القرآنَ لتنزيلُ ربِّ العالمين، والهاء في قوله: «وَإنَّهُ» كنايةُ الذِّكرِ الذي في قوله: «وَما يأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ» [الشعراء: ٥].

واختلفت القَرَأة في قراءة قوله: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ» فقرأته عامةُ قَرَأة الحجاز والبصرة «نَزَلَ بِهِ» مخففة «الرُّوحُ الأَمِينُ» رفعاً بمعنى: أنَّ الروحَ الأمينَ هو الذي نزل بالقرآنِ على محمدٍ، وهو جبريل، وقرأ ذلك عامة قَرَأة أهل الكوفة «نَـزَّلَ» مشـددة الـزاي «الرُّوحَ الأَمِينَ» نصباً، بمعنى: أنَّ ربَّ العالمين نَزَّلَ بالقرآنِ الروحَ الأمينَ، وهو جبريل عليه السلام.

والصوابُ من القول في ذلك عندنا أنْ يقال: إنهما قراءتان مستفيضتان في قَرَأةِ الأمصار، متقاربتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب، وذلك أنَّ الروحَ الأمين إذا نزل على محمدٍ بالقرآن، لم ينزل به إلا بأمرِ الله إياهُ بالنزولِ، ولَنْ يجهلَ أنَّ ذلك كذلك ذُو إيمانٍ بالله، وأنَّ الله إذا أنزله به نزل.

وقوله: «عَلى قَلْبِكَ»، يقولُ: نزل به الروحُ الأمينُ فتلاه عليكَ يا محمدُ، حتى وَعَيْتَهُ بقلبكَ.

وقوله: «لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرِينَ»، يقولُ: لتكون من رُسُلِ الله الذين كانوا

ينذرونَ مَنْ أُرْسِلُوا إليه من قومهم، فتنذرَ بهذا التنزيلِ قومكَ المكذِّبينَ بآياتِ الله.

وقوله: «بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ»، يقولُ: لتنذر قومكَ بلسانٍ عربيٍّ مبين، يبينُ لمن سمعه أنه عربيٌّ، وبلسانِ العرب نزل، والباء من قوله: «بِلِسانٍ» من صِلَةِ قولِه: «نَزَلَ»، وإنما ذكر تعالى ذِكْرُه أنه نزل هذا القرآن بلسانٍ عربيٍّ مبين في هذا الموضع، إعلاماً منه مشركي قريش أنه أنزله كذلك، لئلا يقولوا إنه نزلَ بغيرِ لساننا، فنحنُ إنما نعرضُ عنه ولا نسمعُه، لأنَّا لا نفهمه، وإنما هذا تقريعٌ لهم، وذلك أنه تعالى ذِكْرُه قال: «مَا يأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَن مُحْدَثٍ إلاَّ كانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ» [الشعراء: ٥]، ثم قال: لم يُعْرِضُوا عنه لأنهم لا يفهمونَ معانيه، بل يفهمونها، لأنه تنزيلُ ربِّ العالمين نزلَ به الروحُ الأمينُ بلسانهم العربيِّ، ولكنهم أعرضوا عنه تكذيباً به واستكباراً «فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيأتيهمْ أنباءُ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئونَ» [الشعراء: ٦] كما أتى هذه الأممَ التي قَصَصْنا نبأَها في هذه السورة حين كذَّبَتْ رُسُلَها أنباء ما كانوا به يُكذبون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: وإن هذا القرآن لفي زُبُرِ الأوّلينَ: يعني في كُتُبِ الأوّلينَ، وخرج مَخْرَجَ العموم ومعناهُ الخصوص، وإنما هو: وإنَّ هذا القرآن لفي بعضِ زبر الأوّلين، يعني: أنَّ ذِكْرَهُ وخَبَرَهُ في بعضِ ما نزلَ من الكتبِ على بعضِ رسله.

الشعراء: ٢٠١

وقوله: «أوَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَنِي إسْرائِيلَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أو لم يكن لهؤلاءِ المُعْرِضِينَ عما يأتيكَ يا محمدُ من ذكر ربك، دلالةً على أنكَ رسولُ ربِّ العالمين، أنْ يعلم حقيقةَ ذلك وصِحَّتَهُ علماءُ بني إسرائيل. وقيل: عَنَى بعلماء بني إسرائيل في هذا الموضع: عبدالله بن سلام ومَنْ أشْبَهَهُ ممن كان قد آمنَ برسولِ الله ﷺ من بني إسرائيل في عصره.

وقوله: «وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ»، يقولُ تعالى ذِكْرُه: ولو نَزَّلْنا هذا القرآنَ على بعضِ البهائمِ التي لا تنطقُ، وإنما قيل على بعض الأعجمين، ولم يقل على بعض الأعجميين، لأنَّ العربَ تقول إذا نَعتتِ الرجلَ بالعُجْمةِ وأنه لا يفصحُ بالعربية: هذا رجل أعْجم، وللمرأة: هذه إمرأة عَجْماء، وللجماعة: هؤلاءِ قوم عُجْمٌ وأعجمون، وإذا أريد هذا المعنى وصف به العربيّ والأعْجَميّ، لأنه إنما يعني أنه غير فصيحِ اللسان، وقد يكون كذلك، وهو من العرب. فأما إذا أُريدَ به نسبةُ الرجلِ إلى أصله من العجم، لا وصفه بأنه غيرُ فصيحِ اللسانِ، فإنه يقال: هذا رجل عجميٌّ، وهذان رجلان عجميان، وهؤلاءِ قوم عَجَمٌ، كما يقال: عربيٌّ، وعربيان، وقوم عرب. وإذا قيل: هذا رجل أعجميٌّ، فإنما نسب إلى نفسه كما يقال للأحمر: هذا أحمري ضخم. وقوله: «فَقَرَأهُ عَلَيْهِمْ»، يقولُ: فقرأ هذا القرآنَ على كفارِ قومكَ يا محمدُ الذين حتمتُ عليهم أنْ لا يؤمنوا ذلك الأعجمُ ما كانوا به مؤمنينَ: يقولُ: لم يكونوا ليؤمنوا به، لما قد جرى لهم في سابقِ عِلْمي من الشقاء.

وهذا تسليةٌ من الله نبيه محمداً ﷺ عن قومه، لئلا يشتدَّ وَجْدَه بإدبارِهم عنه، وإعراضِهم عن الاستماعِ لهذا القرآنِ، لأنه كان ﷺ شديداً حِرْصُه على قبولهم منه، والدخول فيما دعاهم إليه، حتى عاتبه رَبّه على شدَّةِ حِرْصِه على ذلك منهم، فقال له: «لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ ألا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» [الشعراء: ٣]، ثم قال مُؤْيِسَهُ من إيمانِهم وأنهم هالكونَ ببعضِ مثلاته، كما هلك بعضُ الأمم

الذين قصَّ عليهم قصصهم في هذه السورة، ولو نَزَّلناهُ على بعض الأعجمين يا محمدُ لا عليكَ، فإنك رجل منهم، ويقولون لكَ: ما أنتَ إلا بشرٌ مثلنا، وهَلَّا نزلَ به ملك، فقرأ ذلك الأعجمُ عليهم هذا القرآنَ، ولم يكن لهم علة يدفعونَ بها أنه حقٌّ، وأنه تنزيلٌ من عندي، ما كانوا به مُصَدِّقينَ، فَخَفِّضْ من حِرْصِكَ علىٰ إيمانهم به، ثم وَكَّدَ تعالى ذِكْرُه الخبرَ عما قد خَتَّمَ على هؤلاءِ المشركينَ، الذين آيسَ نبيه محمداً ﷺ من إيمانِهم من الشقاءِ والبلاءِ، فقال: كما حتمنا على هؤلاءِ أنهم لا يؤمنون بهذا القرآن «وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ» فقرأه عليهم «كَذَلِكَ نَسْلُكُه» التكذيبُ والكفر «في قُلُوبِ المجرِمِينَ». ويعني بقوله: سلكنا: أدْخَلْنا، والهاء في قوله «سَلَكْنَاهُ» كناية من ذكرِ قوله: «ما كانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ»، كأنه قال: كذلك أدخلنا في قلوبِ المجرمين تركَ الإيمانِ بهذا القرآن.

وقوله: «لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حتى يَرَوُا العَذَابَ الأَلِيمَ»، يقولُ: فعلنا ذلك بهم لئلا يُصَدِّقُوا بهذا القرآنِ، حتى يروا العذابَ الأليمَ في عاجلِ الدنيا، كما رأت ذلك الأممُ الذين قَصَّ اللهُ قَصصهم في هذه السورة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٢٠٢ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ۝٢٠٣ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ۝٢٠٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فيأتي هؤلاءِ المكذِّبينَ بهذا القرآن، العذابُ الأليمُ بَغْتَةً، يعني فجأة. «وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ»، يقولُ: لا يعلمون قبل ذلك بمجيئه حتى يفجأهم بغتةً «فَيَقُولُوا» حين يأتيهم بغتة «هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ»: أي هل نحنُ مؤخَّرٌ عنا العذابُ، ومُنْسأ في آجالنا لنتوبَ، ونُنِيبَ إلى اللهِ من شِرْكنا وكُفْرِنَا باللهِ، فنراجع الإيمانَ به، وننيب إلى طاعته.

وقولـه: «أَفَبِعَـذابِنـا يَسْتَعْجِلُونَ»، يقـول تعـالى ذِكْرُه: أفبعذابنا هؤلاءِ المشركونَ يستعجلون بقولهم: لن نؤمنَ لك حتى تُسقط السماءَ كما زعمتَ علينا كسفاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ثم جاءهم العذابُ الذي كانوا يُوعَدُونَ على كُفْرِهم بآياتنـا، وتكـذيبهم رسـولَنا، «ما أَغْنَى عَنْهُمْ»، يقولُ: أيّ شيء أغنى عنهم التأخيرُ الذي أخَّرْنَا في آجالهم، والمتاعُ الذي مَتَّعناهُمْ به من الحياة، إذْ لم يتوبوا من شركهم، هل زادهم تمتيعنا إياهم ذلك إلا خبالاً، وهل نفعهم شيئاً، بل ضَرَّهُمْ بازديادِهم من الآثامِ، واكتسابِهم من الإجرامِ ما لو لم يُمَتَّعُوا لم يكتسبوه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ» من هذه القرى التي وصفتُ في هذه السور «إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ»، يقولُ: إلا بعدَ إرسالِنا إليهم رسلاً ينذرونهم بأسَنا على كفرهم وسخطنا عليهم. «ذِكْرَى»، يقولُ: إلا لها منذرون ينذرونهم، تذكرةً لهم وتنبيهاً لهم على ما فيه النجاةُ لهم من عذابنا.

قولـه: «وَمـا كُنَّـا ظالِمينَ»، يقـولُ: ومـا كنـا ظالميهم في تَعْـذِيبِنَاهُمْ وإهلاكهم، لأنَّا إنما أهلكناهم، إذ عَتَوْا علينا، وكفروا نِعْمَتنا، وعبدوا غيرَنا بعد

الإعذارِ عليهم والإنذار، ومتابعةِ الحججِ عليهم بأنَّ ذلك لا ينبغي أن يفعلوه، فأبوا إلا التمادي في الغيّ.

وقوله: «وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وما تنزَّلَتْ بهذا القرآنِ الشياطينُ على محمدٍ، ولكنه ينزل به الروح الأمين «وَما يَنْبَغِي لَهُمْ»، يقولُ: وما ينبغي للشياطين أنْ ينزلوا به عليه، ولا يصلح لهم ذلك «وَما يَسْتَطِيعُونَ»، يقولُ: وما يستطيعون أنْ يتنزَّلوا به، لأنهم لا يصلون إلى استماعه في المكان الذي هو به من السماء «إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ»، يقولُ: إنَّ الشياطين عن سمعِ القرآنِ من المكانِ الذي هو به من السماء لمعزولون، فكيف يستطيعون أنْ يتنزَّلوا به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ «فَلا تَدْعُ» يا محمدُ، «مَعَ اللهِ إلَهاً آخَرَ»: أي لا تعبد معه معبوداً غيره «فَتَكُونَ مِنَ المُعَذَّبِينَ» فينزل بك من العذابِ ما نزلَ بهؤلاءِ الذين خالفوا أمرنا وعبدوا غيرنا.

وقوله: «وأَنْذِر عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ»، يقول جَلَّ ثناؤُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وأنذر عشيرتَكَ من قومكَ الأقربينَ إليك قرابةً، وحذِّرْهُمْ من عذابنا أنْ ينزلَ بهم بكفرهم.

وذُكر أن هذه الآية لما نزلت، بدأ ببني جَدِّهِ عبدِالمطلب وولده، فحذَّرَهُمْ وأنذرهم.

وقوله: «وَاخْفِضْ جَناحَكَ»، يقولُ: وأَلِنْ جانِبَكَ وكلامَكَ «لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ».

القَوْلُ في تَأْويلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فإنْ عصتك يا محمدُ عشيرتكَ الأقربونَ الذين أمرتُك بإنذارهم، وأبوا إلا الإقامةَ على عبادةِ الأوثان، والإشراكَ بالرحمنِ، فقل لهم: «إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ» من عبادةِ الأصنام ومعصية باريء الأنام «وَتَوَكَّلْ عَلى العَزِيزِ» في نقمته من أعدائه «الرَّحِيمِ» بمن أنابَ إليه وتابَ من معاصيه، «الَّذي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ»، يقولُ: الذي يراك حين تقومُ إلى صلاتكَ.

«وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: ويرى تَقَلُّبَكَ في صلاتكَ حين تقومُ، ثم تركع، وحين تسجد.

وقال آخرون: بل معنى ذلكَ: ويرى تقلبك في المصلين، وإبصاركَ منهم مَنْ هو خلفك، كما تبصر مَنْ هو بين يديك منهم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وتقلبك مع الساجدين: أي تَصَرُّفَكَ معهم في الجلوسِ والقيام والقعود.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ويرى تصرُّفَكَ في الناس.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وتصرُّفك في أحوالك كما كانت الأنبياءُ من قبلك تفعله، والساجدون في قولِ قائلِ هذا القول: الأنبياء.

وأولى الأقوال في ذلك بتأويله قولُ مَنْ قال تأويله: ويرى تقلبكَ مع الساجدينَ في صلاتهم معكَ، حين تقومُ معهم وتركع وتسجد، لأنَّ ذلك هو الظاهر من معناه. فأما قولُ مَنْ وجَّهه إلى أن معناه: وتقلبك في الناس، فإنه قولٌ بعيد من المفهومِ بظاهرِ التلاوة، وإنْ كان له وجه، لأنه وإنْ كان لا شيءَ إلا وظلُّه يسجدُ لله، فإنه ليس المفهوم من قولِ القائل: فلانٌ مع الساجدين، أو في الساجدين، أنه مع الناسِ أو فيهم، بل المفهومُ بذلك أنه مع قومٍ سُجودٍ، السجودَ المعروفَ، وتوجيه معاني كلامِ الله إلى الأغلبِ أولى من توجيههِ إلى الأنكرِ، وكذلك أيضاً في قولِ مَنْ قال: معناه: تتقلَّبُ في أبصار الساجدين، وإنْ كان له وجه، فليس ذلك الظاهر من معانيه.

فتأويلُ الكلام إذن: وتوكَّلْ على العزيز الرحيم، الذي يراكَ حين تقومُ إلى صلاتك، ويرى تَقَلُّبَكَ في المُؤْتَمِّينَ بكَ فيها بين قيامٍ وركوعٍ وسجود وجلوس.

وقوله: «إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ ربك هو السميعُ تلاوتَكَ يا محمدُ، وذِكْرَكَ في صلاتك ما تتلو وتذكر، العليمُ بما تعملُ فيها ويعملُ فيها من يتقلَّبُ فيها معكَ مؤتماً بك، يقولُ: فرتلْ فيها القرآنَ، وأقِمْ حُدودَها، فإنك بمرأى من رَبِّكَ ومسمع.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَـى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «هَلْ أُنَبِّئُكُمْ» أيها الناسُ «عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ» من الناسِ؟ «تَنَزَّلُ عَلى كُلِّ أَفَّاكٍ» يعني كذّابٍ بَهَّاتٍ «أَثِيمٍ» يعني: آثم.

وقوله: «يُلْقُونَ السَّمْعَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يلقي الشياطينُ السمعَ، وهو

ما يسمعونَ مما اسْتَرَقُوا سَمْعَهُ من حين حَدَثَ من السماء إلى «كُلِّ أفاكٍ أثِيمٍ» من أوليائِهم من بني آدم.

وقوله: «وأكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ»، يقولُ: وأكثرُ من تَنَزَّلُ عليه الشياطينُ كاذبونَ فيما يقولونَ ويخبرون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والشعراءُ يتبعهم أهلُ الغيِّ لا أهلُ الرشادِ والهدى.

واختلف أهلُ التأويل في الذين وصفوا بالغيِّ في هذا الموضع فقال بعضهم: رُوَاةُ الشعر.

وقال آخرون: هم الشياطين.

وقال آخرون: هم السفهاء، وقالوا: نَزَلَ ذلك في رجلين تهاجَيَا على عهدِ رسولِ الله ﷺ.

وقال آخرون: هم ضلال الجنِّ والإنس.

وأوْلى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال فيه ما قال الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ: إن شعراء المشركينَ يتبعهم غُواةُ الناس، ومَرَدَةُ الشياطين، وعُصَاةُ الجِنِّ، وذلك أنَّ الله عَمَّ بقوله: «والشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ» فلم يخصصْ بذلك بعضَ الغواةِ دونَ بعضٍ، فذلك على جميعِ أصنافِ الغواةِ التي دخلت في عموم الآية.

قوله: «أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ألم تر يا محمدُ أنهم، يعني الشعراء في كلِّ وادٍ يذهبون، كالهائمِ على وجههِ على غيرِ قصدٍ، بل جائراً على الحقِّ، وطريقِ الرشاد، وقصد السبيل.

وإنما هذا مَثَلٌ ضربه اللهُ لهم في افتنانهم في الوجوه التي يفتنون فيها بغير حقٍّ، فيمدحونَ بالباطل قوماً ويهجونَ آخرينَ كذلك بالكذبِ والزور.

وقوله: «وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ»، يقولُ: وأنَّ أكثرَ قِيلِهم باطلٌ وكَذِبٌ.

وقوله: «إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» وهذا استثناء من قوله: «والشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ـ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ». وذُكِرَ أنَّ هذا الاستثناء نزل في شعراء رسولِ الله ﷺ، كحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، ثم هو لكلِّ مَنْ كان بالصفةِ التي وَصَفَهُ اللهُ بها.

وقوله: «وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيراً»، اختلف أهلُ التأويل في حال الذكر الذي وصف الله به هؤلاءِ المستثنينَ من الشعراء، فقال بعضهم: هي حال منطقهم ومحاورتهم الناسَ، قالوا: معنى الكلام: وذكروا اللهَ كثيراً في كلامهم.

وقال آخرون: بل ذلك شِعْرُهم.

وأولى الأقوالِ في ذلك بالصواب أن يقال: إنَّ الله وصف هؤلاءِ الذين استثناهم من شعراءِ المؤمنينَ بذكرِ الله كثيراً، ولم يخص ذكرهم الله على حالٍ دونَ حالٍ في كتابِه، ولا على لسانِ رسولِه فَصِفَتُهم أنهم يذكرونَ الله كثيراً في كلِّ أحوالهم.

وقوله: «وانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا»، يقولُ: وانتصروا مِمَّنْ هَجَاهُمْ من شعراءِ المشركينَ ظلماً بشعرهم وهجائهم إياهم، وإجابتهم عما هجوهم به.

الشعراء: ٢٢٧

وقوله: «وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا»، يقول تعالى ذِكْرُه: وسيعلمُ الذين ظلموا أنفسَهُمْ بِشِرْكِهِم باللهِ من أهلِ مكة «أيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ»، يقولُ: أيَّ مرجعٍ يرجعونَ إليه، وأيَّ معادٍ يعودونَ إليه بعد مماتهم، فإنهم يصيرونَ إلى نارٍ لا يُطفأ سعيرُهَا، ولا يَسْكُن لهبها.

سُورَةُ النَّمْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣﴾

وقد بيَّنا القولَ فيما مضى من كتابنا هذا فيما كان من حروفِ المعجم في فواتح السور، فقوله: «طسٓ» من ذلك[1]. وقد رُوي عن ابن عباس أن قوله: «طسٓ»: قَسَمٌ أقسمه الله، هو من أسماء الله.

وقال بعضهم: «الطاء من اللطيف والسين من السَّميع»[2]، فالواجبُ على هذا القول أن يكون معناه: والسميع اللطيف، إنَّ هذه الآيات التي أنزلتُها إليكَ يا محمدُ لآيات القرآن، وآيات كتاب مبين. يقولُ: يبينُ لمن تدبَّرَهُ، وفكَّرَ فيه بفهمٍ أنه من عندِ الله، أنزلَهُ إليكَ، لم تتخرَّصْهُ أنتَ ولم تتقوَّلْهُ، ولا أحد سواك من خَلْقِ الله، لأنه لا يقدرُ أحدٌ من الخلق أن يأتي بمثله، ولو تظاهرَ عليه الجنُّ والإنسُ. وخفض قوله: «وكِتابٍ مُبِينٍ» عطفاً به على القرآن.

---

(١) انظر أول تفسير سورة البقرة.

(٢) وقع هنا سقط في المطبوعات والمخطوط، فاستدركنا ما بين الحاصرتين من (زاد المسير) لابن الجوزي ١٥٤/٦ ليتسق المعنى.

وقوله: «هُدًى» من صِفَةِ القرآنِ، يقولُ: هذه آياتُ القرآنِ بيانٌ من الله بَيَّنَ به طريقَ الحقِّ وسبيلَ السلام. «وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ»، يقولُ: وبشارة لمن آمنَ به، وصدَّقَ بما أنزل فيه بالفوز العظيم في المعاد.

وقوله: «والَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ»، يقولُ: هو هُدى وبُشْرى لمن آمنَ بها، وأقامَ الصلاةَ المفْروضةَ بحدودها.

وقوله: «وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ»، يقولُ: ويؤدُّونَ الزكاةَ المفروضة. وقيل: معناه: ويُطَهِّرُونَ أجسادهم من دَنَسِ المعاصي. «وَهُمْ بالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ»، يقولُ: وهم مع إقامتهم الصلاةَ، وإيتائهم الزكاةَ الواجبةَ بالمعادِ إلى الله بعد المماتِ يُوقِنُونَ، فيذلون في طاعةِ الله، رجاءَ جزيلِ ثوابه، وخوفَ عظيمِ عقابه، وليسوا كالذين يكذِّبُونَ بالبعثِ، ولا يبالون، أحْسَنُوا أمْ أساؤوا وأطاعوا، أم عصوا، لأنهم إنْ أحسنوا لم يرجوا ثواباً، وإنْ أساؤوا لم يخافوا عقاباً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إن الذين لا يصدِّقُونَ بالدارِ الآخرة، وقيامِ الساعة، وبالمعادِ إلى الله بعد المماتِ والثوابِ، والعقاب «زَيَّنا لَهُمْ أعمالَهُمْ»، يقولُ: حَبَّبْنَا إليهم قبيحَ أعمالهم، وسَهَّلْنَا ذلك عليهم «فَهُمْ يَعْمَهُونَ»، يقولُ: فهم في ضلالِ أعمالهم القبيحة التي زَيَّناها لهم يتردَّدُونَ حيارى، يحسبون أنهم يحسنون.

وقوله: «أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ العَذَابِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاءِ الذين لا يؤمنونَ بالآخرةِ لهم سُوءُ العذابِ في الدنيا، وهم الذين قتلوا ببدر من مشركي

قريش. «وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ»، يقولُ: وهم يومَ القيامةِ هم الأوضعونَ تجارةً والأوكَسُوهَا باشترائِهم الضلالَةَ بالهدى. «فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ» [البقرة: ١٦].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإنك يا محمدُ لَتُحَفَّظُ القرآنَ وتعلمه «مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ»، يقولُ: من عند حكيمٍ بتدبيرِ خَلْقِه، عليمٍ بأنباء خلقه ومصالحهم، والكائن من أمورهم، والماضي من أخبارهم، والحادث منها «إِذْ قال مُوسى» وإذْ من صِلَةِ عليم، ومعنى الكلام: عليم حين قال موسى «لأَهْلِهِ» وهو في مسيرِه من مدينَ إلى مصرَ، وقد آذاهم بردُ ليلِهم لما أَصْلَدَ زَنْدُه[1] «إِنِّي آنَسْتُ ناراً»: أي أبصرتُ ناراً أو أحْسَسْتُها، فامكثُوا مكانكم «سآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ»، يعني من النار، والهاء والألف من ذكر النار، «أَوْ آتِيكُمْ بِشِهابٍ قَبَسٍ».

واختلفت القَرَأَة في قراءة ذلك، فقرأته عامة قَرَأَة المدينة والبصرة «بِشِهابِ قَبَسٍ» بإضافة الشهابِ إلى القبس، وترك التنوين، بمعنى: أو آتيكم بشعلةِ نارٍ أقتبسها منها. وقرأ ذلك عامة قَرَأَة أهل الكوفة: «بِشِهابٍ قَبَسٍ» بتنوين الشهاب وترك إضافته إلى القبس، يعني: أو آتيكم بشهاب مقتبس.

والصوابُ من القول في ذلك أنهما قراءتان معروفتان في قَرَأَة الأمصار، متقاربتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب.

---

(١) أصلد الزَّنْدُ: صَوَّتَ ولم يُورِ، أي صوت ولم يُخْرِجْ ناراً.

وقوله: «لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ»، يقولُ: كي تصطلوا بها من البرد.

وقوله: «فَلَمَّا جاءَها»، يقولُ: فلما جاء موسى النار التي آنسها «نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ ومَنْ حَوْلَهَا».

واختلف أهلُ التأويل في المعنيِّ بقوله: «مَنْ فِي النَّارِ»، فقال بعضهم: عَنَى جلَّ جلاله بذلك نفسه، وهو الذي كان في النار، وكانت النارُ نورَهُ تعالى ذِكْرُه في قول جماعةٍ من أهلِ التأويل.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: بُورِكَتِ النارُ.

واختلف أهلُ التأويل في معنى النار في هذا الموضع، فقال بعضهم: معناه: النورُ كما ذكرتُ عمن ذكرتُ ذلك عنه.

وقال آخرون: معناه النارُ لا النورُ.

وقوله: «وَمَنْ حَوْلَها»، يقولُ: ومَنْ حولَ النارِ. وقيل: عَنَى بمن حولها: الملائكة.

وقال آخرون: هو موسى والملائكة.

وقوله: «وَسُبْحانَ الله رَبِّ العَالَمِينَ» يقولُ: وتنزيهاً لله ربِّ العالمين، مما يَصِفُه به الظالمون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قيله لموسى: «إِنَّهُ أنا اللهُ العَزِيزُ» في نقمته من أعـدائه «الحَكِيمُ» في تدبيره في خَلْقِه، والهاء التي في قوله: «إِنَّهُ» هاء

عماد، وهم اسمٌ لا يظهرُ في قولِ بعضِ أهلِ العربية، وقال بعض نحويي الكوفة: يقول هي الهاء المجهولة، ومعناها: أنَّ الأمر والشأن: أنا الله.

وقـولـه: «وألْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رآهَا تَهْتَزُّ» في الكلام محذوف تُرك ذِكْرُه، استغناءً بما ذُكِر عما حُذف، وهو: فألقاها فصارتْ حَيَّةً تهتزُّ «فَلَمَّا رآها تَهْتَزُّ كأنَّها جانٌّ»، يقولُ: كأنها حيةٌ عظيمة، والجانّ: جنس من الحيات معروف.

وقوله: «وَلَّى مُدْبراً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وَلَّى موسى هارباً خوفاً منها. «وَلَمْ يُعَقِّبْ»، يقولُ: ولم يرجع، من قولهم: عقب فلان: إذا رجع على عقبه إلى حيث بدأ.

وقوله: «يا موسَى لا تَخَفْ إنِّي لا يَخاف لَديَّ المُرْسَلُونَ إلاَّ مَنْ ظَلَمَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فناداه رَبُّهُ: يا موسى لا تَخَفْ من هذه الحيةِ، إني لا يخافُ لديَّ المرسلون: يقولُ: إني لا يخافُ عندي رسلي وأنبيائي الذين أَخْتَصُّهم بالنبوَّةِ، إلا مَنْ ظلم منهم، فعملَ بغيرِ الذي أُذِنَ له في العملِ به.

وقوله: «ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْد سُوءٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فمن أتى ظلماً من خَلْقِ الله، وركب مأثماً، ثم بَدَّلَ حُسناً، يقولُ: ثم تابَ من ظُلْمِه ذلك، وركوبه المأثم، «فإني غَفُورٌ»، يقولُ: فإني ساترٌ على ذنبه وظلمه ذلك بعفوي عنه، وتركِ عقوبته عليه «رَحِيمٌ» به أن أعاقبه بعد تبديله الحسن بضده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِه لنبيه موسى: «وأَدْخِلْ يَدَكَ في جَيْبِك» ذُكِرَ أنه تعالى ذِكْرُه أمره أنْ يُدْخِلَ كَفَّهُ في جيبه، وإنما أمره بإدخالِه في جيبه، لأنَّ الذي كان عليه يومئذٍ مِدرعة من صوفٍ. قال بعضهم: لم يكن لها كُمٌّ.

وقال بعضهم: كان كُمُّهَا إلى بعضِ يده.

وقوله: «تَخْرُجْ بَيْضَاءَ»، يقولُ: تخرج اليدُ بيضاءَ بغير لونِ موسى «من غيرِ سُوءٍ»، يقولُ: من غير بَرَصٍ في تسعِ آياتٍ، يقول تعالى ذِكْرُه: أدخِلْ يدكَ في جيبكَ تخرجْ بيضاءَ من غيرِ سوءٍ، فهي آية في تسعِ آياتٍ مُرْسَلٌ أنتَ بهنَّ إلى فرعون، وتركِ ذِكْرَ مُرْسَل لدلالة قوله: «إلى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ» على أن ذلك معناه.

والآياتُ التسع: هُنَّ: العصا، واليد، والجراد، والقمل، والضفادع، والطوفان، والدم، والحجر، والطمس الذي أصابَ آلَ فرعونَ في أموالهم.

وقوله: «إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ»، يقولُ: إنَّ فرعونَ وقومه من القبط كانوا قوماً فاسقين، يعني كافرينَ بالله، وقد بَيَّنا معنى الفسق فيما مضى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾**

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما جاءت فرعونَ وقومَهُ آياتُنَا، يعني أدِلَّتُنَا وحججنا، على حقيقةِ ما دعاهم إليه موسى وصحته وهي الآيات التسع التي ذكرناها قَبْلُ.

وقوله: «مُبْصِرَةً»، يقولُ: يُبْصِرُ بها مَنْ نظرَ إليها ورآها حقيقةَ ما دَلَّتْ عليه.

]قَالُوا: هَذَا سِحْرٌ مُبينٌ»، يقولُ: قال: فرعون وقومه: هذا الذي جاءنا به موسى سحرٌ مبين، يقولُ: يبينُ للناظرينَ له أنه سحرٌ.

وقوله: «وَجَحَدُوا بِها»، يقولُ: وكَذَّبُوا بالآياتِ التسعِ أنْ تكونَ من عند الله.

وقوله: «وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ»، يقولُ: وأيقنتها قلوبُهم، وعلموا يقيناً أنها من عند الله، فعاندوا بعد تَبَيُّنِهم الحقَّ، ومَعْرفتهم به.

وقوله: «ظُلْماً وَعُلُوّاً»، يعني بالظلم: الاعتداء، والعلوّ، الكِبْر، كأنه قيل: اعتداء وتَكَبُّراً.

وقوله: «فانْظُرْ كَيْف كانَ عاقِبَةُ المُفْسِدِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: فانظر يا محمدُ بعينِ قلبكَ كيف كان عاقبةُ تكذيبِ هؤلاءِ الذين جحدوا آياتنا حين جاءتهم مُبْصِرَةً، وماذا حلَّ بهم من إفسادِهم في الأرض ومعصيتهم فيها رَبَّهم، وأعقبوا ما فعلوا، فإنَّ ذلك أخرجهم من جناتٍ وعيونٍ، وزروعٍ ومقامٍ كريم، إلى هلاكٍ في العاجل بالغرق، وفي الآجل إلى عذابٍ دائم، لا يفتر عنهم، وهم فيه مبلسون. يقولُ: وكذلك يا محمدُ سنتي في الذين كَذَّبُوا بما جِئْتَهُمْ به من الآياتِ على حقيقةِ ما تدعوهم إليه من الحقِّ من قومك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانُ عِلْماً»، وذلك علم كلامِ الطيرِ والدوابِّ، وغير ذلك مما خَصَّهُمُ اللهُ بعلمه. «وَقالا الحَمْدُ للهِ الَّذِي فَضَّلَنا عَلى كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ المُؤْمِنِينَ»، يقول جَلَّ ثناؤُه: وقال داود وسليمان: الحمدُ لله الذي فَضَّلَنَا بما خَصَّنَا به من العلمِ الذي آتاناهُ دونَ سائرِ خَلْقِه من بني آدم في زماننا هذا على كثيرٍ من عبادِهِ المؤمنينَ به في دهرنا هذا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَوَرِثَ سُلَيْمانُ» أباه «دَاوُدَ» العلم الذي كانَ آتاهُ اللهُ في حياتِه، والمُلْكَ الذي كان خَصَّهُ به على سائرِ قومه، فجعله له بعد أبيه دونَ سائرِ ولدِ أبيه. «وَقالَ يا أيُّها النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ»، يقولُ: وقال سليمانُ لقومه: يا أيها الناسُ عُلِّمْنَا منطقَ الطيرِ، يعني: فهمنا كلامَها، وجعلَ ذلك من الطيرِ كمنطقِ الرجلِ من بني آدمَ إذْ فهمه عنها.

وقوله: «وأُوتينا مِنْ كلِّ شَيْءٍ»، يقولُ: وأُعطينا ووهبَ لنا من كلِّ شيءٍ من الخيرات. «إنَّ هَذَا لَهُوَ الفَضْلُ المُبِينُ»، يقولُ: إن هذا الذي أُوتينا من الخيراتِ لَهُوَ الفضلُ على جمعِ أهلِ دَهْرِنَا المبين، يقولُ: الذي يبينُ لمن تأمَّله وتَدَبَّرَهُ أنه فضلُ أُعْطِيناهُ على مَنْ سِوَانا من الناسِ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وجُمِعَ لسليمانَ جنوده من الجنِّ والإنس والطير في مسيرٍ لهم فهم يوزعون.

واختلف أهلُ التأويل في معنى قوله: «فَهُمْ يُوزَعُونَ»، فقال بعضهم: معنى ذلك: فهم يُحْبَسُ أَوَّلُهم على آخرهم حتى يجتمعوا.

وقال آخرون: بل معناه: فهم يتقدمون.

وقال آخرون: معنى ذلك: فهم يُسَاقُون.

وأَوْلى هذه الأقـوالِ بالصـوابِ قولُ مَنْ قال: معنـاه: يُرَدُّ أَوَّلُهم على آخرهم، وذلك أن الوازِعَ في كلام العرب هو الكافّ، يقال منه: وزع فلان فلانـاً عن الـظلم: إذا كفَّهُ عنه. وإنما قيل للذين يدفعون النـاسَ عن الولاةِ والأمراءِ وَزَعة: لِكَفِّهم إياهم عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه بقوله: «حتى إذَا أتَوْا عَلى وَادِي النَّمْلِ» حتى إذا أتى سليمانُ وجنودُه على وادي النمل. «قالَتْ نَمْلَةٌ يا أيُّها النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يحْطِمَنَّكُمْ سلَيْمانُ وَجُنُودُهُ»، يقولُ: لا يكسرنكم ويقتلنَّكُمْ سليمانُ وجنوده. «وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ»، يقولُ: وهم لا يعلمون أنهم يحطمونكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فتبسَّمَ سليمانُ ضاحكاً من قولِ النملة التي قالت ما قالت، وقال: «رَبِّ أوْزِعْنِي أنْ أشْكُرَ نِعْمَتَكَ التي أنْعَمْتَ عَليَّ»، يعني بقوله: «أوْزِعْنِي» ألهمني.

وقوله: «وأنْ أعْمَلَ صَالِحَاً تَرْضَاهُ»، يقولُ: وأوزعني أنْ أعملَ بطاعتك ما ترضاه «وأدْخِلْنِي برَحْمَتِكَ في عِبادِكَ الصَّالِحينَ»، يقولُ: وأدخلني برحمتك مع عبادكَ الصالحينَ، الذين اخترتهم لرسالتك وانتخبتهم لوحيكَ، يقولُ: أدخلني من الجنة مداخلهم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى

﴿ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٢١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَتَفقَّدَ» سليمانُ «الطَّيْرَ فَقَالَ ما ليَ لا أرَى الهُدْهُدَ» وكان سبب تفقده الطيرَ وسؤاله عن الهدهدِ خاصةً من بين الطير. . أنَّ سليمان نزلَ منزلة في مسيرٍ له، فلم يَدْرِ ما بُعْد الماءِ، فقال: مَنْ يعلم بُعْدَ الماء؟ قالوا: الهدهد، فذاك حين تَفَقَّدَهُ.

وقوله: «فَقالَ ما لِيَ لا أرَى الهُدْهُدَ» أخطأه بصري فلا أراه وقد حضر أم هو غائبٌ فيما غابَ من سائرِ أجناس الخَلْقِ فلم يحضر.

وقوله: «لأعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً»، يقولُ: فلما أُخْبرَ سليمانُ عن الهدهدِ أنه لم يحضرْ وأنه غائبٌ غيرُ شاهدٍ، أقسَمَ «لأُعَذِّبَنَّه عَذَاباً شَدِيداً» وكان تعذيبه الطيرَ فيما ذُكِرَ عنه إذا عذَّبَها أنْ ينتفْ ريشها.

وقوله: «أو لأَذْبَحَنَّهُ»، يقولُ: أو لأقتلنه.

وقوله: «أوْ لَيَأْتِيَنِّي بسُلْطانٍ مُبينٍ»، يقولُ: أو ليأتيني بحجةٍ تبينُ لسامعها صحتها وحقيقتها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝٢٢﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «فَمَكَثَ غيرَ بَعِيدٍ» فمكث سليمانُ غيرَ طويلٍ من حينِ سألَ عن الهدهدِ، حتى جاء الهدهد.

واختلف القَرأة في قراءة قوله: «فَمَكَثَ» فقرأت ذلك عامة قَرأة الأمصارِ سوى عاصم «فَمَكُثَ» بضمّ الكاف، وقرأه عاصم بفتحها، وكلتا القراءتين عندنا

صواب، لأنهما لغتان مشهورتان، وإنْ كان الضمُّ فيها أعجب إليَّ، لأنها أشهر اللغتين وأفصحهما.

وقوله: «فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ»، يقولُ: فقال الهدهدُ حين سأله سليمانُ عن تخلفه وغيبته: أحطتُ بعلمِ ما لم تُحِطْ به أنت يا سليمان.

وقوله: «وَجِئْتُكَ مِنْ سَبإٍ بِنَبإٍ يَقِينٍ»، يقولُ: وجئتك من سبإٍ بخبرٍ يقين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن قِيلِ الهدهدِ لسليمانَ مخبراً بعذره في مغيبه عنه «إنِّي وَجَدْتُ امْرأةً تَمْلِكُهُمْ»، يعني تملكُ سبأ، وإنما صارَ هذا الخبرُ للهدهدِ عذراً وحجةً عند سليمان، درأ به عنه ما كان أُوعِدَ به، لأنَّ سليمانَ كان لا يرى أنَّ في الأرض أحداً له مملكة معه، وكان مع ذلك ﷺ رجلاً حُبِّبَ إليه الجهادُ والغزو، فلما دَلَّهُ الهدهدُ على مُلْكٍ بموضعٍ من الأرضِ هو لغيره، وقومٍ كَفَرَةٍ يعبدونَ غير الله، له بجهادهم وغزوهم الأجرُ الجزيل، والثوابُ العظيم في الآجل، وضَمُّ مملكةٍ لغيره إلى ملكه، حقَّت للهدهدِ المعذرةُ، وصَحَّتْ له الحجةُ في مغيبه عن سليمان.

وقوله: «وأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ»، يقولُ: وأوتيتْ من كلِّ شيء يُؤْتَاهُ الملكُ في عاجلِ الدنيا مما يكونُ عندهم من العتاد والآلة.

وقوله: «وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ»، يقولُ: ولها كرسي عظيم. وعنى بالعظيم

في هذا الموضع: العظيم في قَدْرِه، وعِظَمِ خَطَرِه، لا عِظَمَهُ في الكبر والسعة.

وقوله: «وَجَدْتُهَا وقَوْمَها يَسْجُدُونَ للشَّمْس مِنْ دُونِ اللهِ»، يقولُ: وجدتُ هذه المرأةَ ملكةَ سبأ، وقومَها من سبأ، يسجدونَ للشمس فيعبدونها من دونِ الله.

وقــولـه: «وَزَيَّنَ لَهُم الشَّيْطَانُ أعمـالَهُمْ»، يقـولُ: وحَسَّنَ لهم إبليسُ عبادتهم الشمسَ، وسجودهم لها من دونِ الله، وحَبَّبَ ذلك إليهم «فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ»، يقولُ: فمنعهم بتزيينه ذلك لهم أن يتبعوا الطريقَ المستقيم، وهو دينُ الله الـذي بعثَ به أنبياءه، ومعنـاه: فَصَدَّهُمْ عن سبيلِ الحقِّ «فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ»، يقولُ: فهم لما قد زين لهم الشيطانُ ما زيَّنَ من السجود للشمس من دون الله والكفـر به لا يهتـدون لسبيل الحقِّ ولا يسلكـونه، ولكنهم في ضلالهم الذي هم فيه يتردَّدُون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾

قوله: «ألَّا يَسْجُدوا»، بمعنى: وزيَّنَ لهم الشيطانُ أعمالهم لئلا يسجدُوا لله.

ويعني بقوله: «يُخْرِجُ الخَبْءَ» يخرجُ المَخْبُوءَ في السمواتِ والأرضِ من غيثٍ في السماء، ونباتٍ في الأرض ونحو ذلك.

«ويَعْلَمُ ما تُخْفُـونَ ومَا تُعْلِنُونَ»، يقولُ: ويعلم السرَّ من أمورِ خَلْقِه، هؤلاءِ الذين زَيَّنَ لهم الشيطانُ أعمالهم والعلانية منها.

وقوله: «اللهُ لا إلَهَ إلَّا هُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيم»، يقول تعالى ذِكْرُه: الله الذي لا تصلحُ العبادةُ إلا له، لا إله إلا هو، لا معبودَ سواهُ تصلحُ له العبادة، فأخلصوا له العبادَةَ، وأفردوه بالطاعةِ، ولا تشركوا به شيئاً «رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ»، يعني بذلك: مالكُ العرشِ العظيمِ الذي كُلُّ عرشٍ وإنْ عَظُمَ فدونه، لا يُشبهه عرشُ ملكةِ سبأ ولا غيره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٢٧ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ۝٢٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «قالَ» سليمان للهدهد «سَنَنْظُرُ» فيما اعتذرتَ به من العذرِ، واحتججتَ به من الحجةِ لغيبتِكَ عنا، وفيما جِئْتَنا به من الخبرِ «أصَدَقْتَ» في ذلك كله «أمْ كُنْتَ مِنَ الكاذِبِينَ» فيه «اذْهَبْ بكِتابي هَذَا فأَلْقِهِ إلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فانْظُر ماذَا يَرْجِعُونَ».

فاختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معناه: اذهب بكتابي هذا؛ فألْقِه إليهم؛ فانظر ماذا يَرْجعون؛ ثم تولَّ عنهم منصرفاً إليَّ، فقال: هو من المؤخَّرِ الذي معناه التقديمُ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: اذهب بكتابي هذا فألْقِه إليهم، ثم تولَّ عنهم فَكُنْ قريباً منهم، وانظرْ ماذا يرجعون؛ قالوا: وفعل الهدهدُ وسمعَ مراجعةَ المرأةِ أهلَ مملكتها، وقولَها لهم: «إنّي أُلْقِيَ إليَّ كتابٌ كَريمٌ، إنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَإنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم» وما بعد ذلك من مراجعة بعضِهم بعضاً. وهذا القول أشبهُ بتأويلِ الآية، لأنَّ مراجعةَ المرأةِ قومَها، كانت بعد أن أُلقيَ إليها الكتابُ، ولم يكن الهدهد لينصرفَ وقد أُمِرَ بأنْ ينظرَ إلى مراجعةِ القومِ بينهم

ما يتراجعونه قبل أنْ يفعلَ ما أمرَهُ به سليمان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فذهب الهدهد بكتابِ سليمان إليها، فألقاهُ إليها؛ فلما قرأته قالت لقومها: «يا أيُّها المَلأُ إنِّي أُلْقِيَ إليَّ كِتابٌ كَرِيمٌ»، والملأ: أشرافُ قومها.

واختلف أهل العلم في سبب وصفها الكتابَ بالكريمِ، فقال بعضهم: وَصَفَتْهُ بذلك لأنه كان مختوماً.

وقال آخرون: وصفته بذلك لأنه كان من ملكٍ فوصفته بالكرمِ لكرمِ صاحبه.

وقولـه: «إنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» كُسِرت إن الأولى والثانية على الردّ على إني من قوله: «إنِّي أُلْقِيَ إليَّ كِتابٌ كَرِيمٌ». ومعنى الكلام: قالت: يا أيها الملأ إني ألقي إليَّ كتابٌ، وإنه من سليمان.

وقوله: «أنْ لا تَعْلُوا عَلَيَّ وأْتونِي مُسْلِمِينَ»، يقولُ: أُلْقِيَ إليَّ كتابٌ كريم ألا تَعْلُوا عليَّ.

وعنى بقوله: «أنْ لا تَعْلُوا عَلَيَّ»: أنْ لا تتكبروا ولا تتعاظَمُوا عما دَعَوْتُكم إليه.

وقوله: «وأْتُونِي مُسْلِمِينَ»، يقولُ: وأقبلوا إليَّ مُذْعِنينَ لله بالوحدانية والطاعة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قالت ملكةُ سبأ لأشرافِ قومها: «يا أَيُّها المَلأُ أَفْتُونِي في أَمْرِي»، تقول: أشيروا عليَّ في أمري الذي قد حَضَرني من أمرِ صاحبِ هذا الكتابِ الذي أُلقِيَ إليَّ، فجعلت المشورة فتيا.

وقوله: «ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حتى تَشْهَدُونِ»، تقول: ما كنتُ قاضيةً أمراً في ذلك حتى تشهدون، فأشاوركم فيه.

وقوله: «قالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وأُولُو بأسٍ شَدِيدٍ»، يقولُ تعالى ذِكْرُه: قال الملأُ من قومِ ملكةِ سبأ إذْ شاورتهم في أمرها وأمرِ سليمان: نحن ذَوُو القوَّةِ على القتال، والبأسِ الشديدِ في الحرب، والأمر أيتها الملكة إليكِ في القتال وفي تركه، فانظري من الرأي ما ترين، فَمُرِينا نأتمرْ لأمركِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قالت صاحبة سبأ للملأ من قومها إذْ عرضوا عليها أنفسهم لقتالِ سليمان إنْ أمرتهم بذلك: «إنَّ المُلُوكَ إذَا دَخَلُوا قَرْيَةً» عُنْوَةً وغَلَبة «أَفْسَدُوها»، يقولُ: خَرَّبُوها «وَجَعَلُوا أعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً» وذلك باستعبادهم الأحرارَ، واسترقاقِهم إياهم، وتناهى الخبرُ منها عن الملوكِ في هذا الموضع فقال الله: «وكذلكَ يَفْعَلُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكما قالتْ صاحبةُ سبأ تفعلُ الملوكُ إذا دخلوا قريةً عنوة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٣٥ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ۝٣٦ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ۝٣٧﴾

ذكر أنها قالت: إني مرسلةٌ إلى سليمان، لتختبرَهُ بذلك وتعرفَهُ به، أملكٌ هو، أم نبيٌّ؟ وقالت: إن يكن نبياً لم يقبل الهديةَ، ولم يَرْضَهُ منا، إلا أنْ نتبعه على دِينه، وإن يكنْ ملكاً قَبِلَ الهديةَ وانصرف.

وقوله: «فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ المُرْسَلُونَ»، تقول: فأنظر بأيِّ شيءٍ من خَبرِه وفِعْلِه في هديتي التي أرسلها إليه ترجع رسلي، أبقبولٍ وانصرافٍ عنا، أم بردِّ الهديةِ والثباتِ على مطالبتنا باتباعه على دينه؟ وقالت: «وإنِّي مُرْسِلَةٌ إلَيْهِمْ» وإنما أرسلت إلى سليمانَ وحده على النحو الذي بيَّنا في قوله: «عَلى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ»، وقوله: «فَلَمَّا جاءَ سُلَيْمانَ قال أتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ».

إن قال قائل: وكيف قيل «فَلَمَّا جاءَ سُلَيْمانَ» فجعل الخبر في مجيء سليمان عن واحد، وقد قال قبل ذلك: «فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ المُرْسَلُونَ» فإن كان الرسولُ كان واحداً، فكيف قيل: «بِمَ يَرْجِعُ المُرْسَلُونَ» وإنْ كانوا جماعة فكيف قيل: فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمان»؟

قيل هذا نظير ما قد بَيَّنا قَبْلُ من إظهارِ العربِ الخبرَ في أمرٍ كان من واحدٍ على وجه الخبر عن جماعةٍ إذا لم يقصد الخبر عن شخص واحد بعينه، يُشار إليه بعينه، فسمى في الخبر، وقد قيل: إنَّ الرسول الذي وجَّهتهُ ملكةُ سبأ إلى سليمان كان امرأً واحداً، فلذلك قال: «فَلَمَّا جاءَ سُلَيْمانَ» يُراد به: فلما جاء الرسولُ سليمانَ، واستدلَّ قائلو ذلك على صحة ما قالوا من ذلك بقول سليمان للرسول «ارجِعْ إلَيْهِمْ».

وقوله: «قال أتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ»، يقولُ: قال سليمان لما جاء الرسول من قِبَلِ المرأةِ بهداياها: أتمدونن بمال.

وقوله: «فَمَا آتانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ»، يقولُ: فما آتاني اللهُ من المالِ والدنيا أكثر مما أعطاكم منها وأفضل. «بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ»، يقولُ: ما أفرح بهديتكم التي أهديتم إليَّ، بل أنتم تفرحون بالهديةِ التي تُهدى إليكم، لأنكم أهلُ مفاخرةٍ بالدنيا، ومكاثرةٍ بها، وليست الدنيا وأموالها من حاجتي، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه قد مَكَّنني منها ومَلَّكني فيها ما لم يُمَلِّكْ أحداً «ارْجِعْ إِلَيْهِمْ»، وهذا قول سليمان لرسولِ المرأة «ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها» لا طاقةَ لهم بها ولا قدرةَ لهم على دفعهم عما أرادوا منهم.

وقوله: «وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ»، يقولُ: ولنخرجنَّ مَنْ أرسلكم من أرضِهم أذلةً وهم صاغرون إنْ لم يأتوني مسلمين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

اختلف أهلُ العلم في الحِينِ الذي قال فيه سليمان: «يا أيها المَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتيني بِعَرْشِها»، فقال بعضهم: قال ذلك حين أتاه الهدهدُ بنبأ صاحبةِ سبأ، وقال له: «جِئْتُكَ مِنْ سَبإٍ بِنَبإٍ يَقِينٍ»، وأخبره أنَّ لها عرشاً عظيماً، فقال له سليمان ﷺ: «سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الكاذِبِينَ» فكان اختباره صِدْقَهُ من

النمل: ٤٠

كذبه وأنْ قال لهؤلاءِ: أَيُّكُمْ يأتيني بعرشِ هذه المرأة قبل أن يأتوني مسلمين. وقالوا: إنما كتب سليمان الكتابَ مع الهدهد إلى المرأةِ بعدما صَحَّ عنده صِدْقُ الهدهدِ بمجيء العالم بعرشها إليه على ما وصفَهُ به الهدهدُ، قالوا: ولولا ذلك كان محالاً أنْ يكتبَ معه كتاباً إلى مَنْ لا يدري، هل هو في الدنيا أم لا؟ قالوا: وأخرى أنه لو كان كتب مع الهدهد كتاباً إلى المرأةِ قبل مجيء عرشها إليه، وقبل علمه صِدْقَ الهدهد بذلك، لم يكن لقوله له: «سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الكاذِبِينَ»، معنًى، لأنه لا يُلِم بخبره الثاني من إبلاغه إياها الكتاب، أو ترك إبلاغه إياها ذلك، إلا نحو الذي علم بخبره الأوَّل حين قال له «جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ»، قالوا وإنْ لم يكن في الكتاب معهم امتحانُ صِدْقِه من كذبه، وكان محالاً أن يقول نبيُّ الله قولاً لا معنى له وقد قال: «سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الكاذِبِينَ» علم أن الذي امتحنَ به صدق الهدهد من كذبه هو مصيرُ عرشِ المرأةِ إليه، على ما أخبره به الهدهدُ الشاهد على صدقه، ثم كان الكتاب معه بعد ذلك إليها.

وقال آخرون: بل إنما اختبر صِدْقَ الهدهد سليمانُ بالكتاب، وإنما سأل من عنده إحضاره عرش المرأة بعدما خرجتْ رُسُلُهَا من عندِه، وبعد أن أقبلت المرأةُ إليه.

واختلف أهل العلم في السبب الذي من أجله خصَّ سليمان مسألةَ الملأ من جندِه إحضارَ عرشِ هذه المرأةِ من بين أملاكها قبل إسلامها، فقال بعضهم: إنما فعل ذلك لأنه أعجبه حين وصف له الهدهد صفته، وخشي أنْ تُسْلِمَ فَيَحْرُمُ عليه مالُها، فأراد أنْ يأخذ سريرَها ذلك قبل أن يَحْرُمَ عليه أخذُه بإسلامها.

وقال آخرون: بل فعل ذلك سليمان ليعاتبها به، ويختبر به عَقْلَها، هل تُثْبِتُه إذا رأتْه، أم تُنْكِرُه؟

واختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «قَبْلَ أنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ»، فقال بعضهم: معناه: قبل أن يأتوني مستسلمين طوعاً.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: قبل أن يأتوني مسلمين الإسلامَ الذي هو دينُ الله.

وأولى الأقوال بالصواب في السبب الذي من أجله خصَّ سليمان بسؤاله الملأ من جنده بإحضاره عرشَ هذه المرأةِ دونَ سائرِ مُلْكِهَا عندنا، ليجعل ذلك حجةً عليها في نبوَّته، ويُعَرِّفَهَا بذلك قُدرةَ اللهِ وعظيمَ شأنه، أنها خلَّفته في بيتٍ في جوفِ أبيات، بعضها في جوف بعض، مغلق مقفل عليها، فأخرجه الله من ذلك كله، بغيرِ فتحِ أغلاقٍ وأقفال، حتى أوصله إلى وَلِيِّهِ من خَلْقِه، وسَلَّمَهُ إليه، فكان لها في ذلك أعظم حجة، على حقيقة ما دعاها إليه سليمانُ، وعلى صِدْقِ سليمانَ فيما أعلمها من نبوّته.

فأما الذي هو أوْلى التأويلين في قوله: «قَبْلَ أنْ يَأْتُوني مُسْلِمِينَ» بتأويله، فقول مَنْ قال: إن معناه طائعين، لأن المرأةَ لم تأتِ سليمانَ إذْ أتته مسلمةً، وإنما أسلمتْ بعد مقدمها عليه وبعد محاورةٍ جرت بينهما ومساءلة.

وقوله: «قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الجِنِّ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قال رئيسٌ من الجنِّ ماردٌ قويٌّ.

وقوله: «أنا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ»، يقولُ: أنا آتيك بعرشها قبل أنْ تقومَ من مقعدك هذا، وكان فيما ذُكر قاعداً للقضاء بين الناس، فقال: أنا آتيكَ به قبلَ أنْ تقومَ من مجلسك هذا الذي جلستَ فيه للحكم بين الناس. وذكر أنه كان يقعدُ إلى انتصافِ النهار.

وقوله: «وإنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أمِينٌ» على ما فيه من الجواهر، ولا أخونُ فيه.

قوله: «قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الكِتاب»، يقول جَلَّ ثناؤه: قال الذي

عنده علمٌ من كتابِ الله وكان رجلًا فيما ذكر من بني آدم.

وقوله: «أنا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معناه: أنا آتيكَ به قبل أن يصلَ إليكَ مَنْ كان منك على مَدِّ البصر.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: من قبل أن يبلغ طَرْفُكَ مَدَاهُ وغايته.

وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: قبل أن يرجع إليك طرفك من أقصى أثـره، وذلك أن معنى قوله: «يَرْتَدَّ إِلَيْكَ» يرجع إليك البصر، إذا فتحت العين غير راجع، بل إنما يمتدُّ ماضياً إلى أن يتناهى ما امتدَّ نوره. فإذا كان ذلك كذلك، وكان الله إنما أخبرنا عن قائل ذلك: «أنا آتيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ» لم يكن لنا أن نقول: أنا آتيكَ به قبل أن يرتدَّ راجعاً «إِلَيْكَ طَرْفُكَ» من عند منتهاه.

وقوله: «فَلَمَّا رآه مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ»، يقولُ: فلما رأى سليمانُ عرشَ ملكةِ سبأ مستقرّاً عنده. وفي الكلام متروكٌ استغني بدلالة ما ظهر عما ترك، وهو: فدعا الله، فأتى به؛ فلما رآهُ سليمانُ مستقرّاً عنده.

وذُكر أنَّ العالم دعا اللهَ، فغار العرش في المكان الذي كان به، ثم نبعَ من تحتِ الأرضِ بين يدي سليمان.

وقوله: «قالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي»، يقولُ: هذا البصرُ والتمكنُ والمُلْكُ والسلطانُ الذي أنا فيه حتى حُمِلَ إليَّ عرشُ هذه في قَدْرِ ارتدادِ الطرفِ من مأربَ إلى الشام، من فضلِ ربي الذي أَفْضَلَهُ عليَّ وعطائِه الذي جادَ به عليَّ «ليبلوني»، يقولُ: ليختبرني ويمتحنني، أأشككرُ ذلك من فعله عليَّ، أم أكفرُ نعمته عليَّ بترك الشكرِ له.

وقد قيل: إن معناه: أأشكرُ على عرشِ هذه المرأةِ إذْ أُتِيتُ به، أم أكفرُ

إذْ رأيت مَنْ هو دوني في الدنيا أعلم مني.

وقوله: «وَمَنْ شَكَرَ فإنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ»، يقولُ: ومَنْ شكر نعمةَ الله عليه، وفضلَهُ عليه، فإنما يشكرُ طلبَ نفعِ نفسِه، لأنه ليس ينفعُ بذلك غيرَ نفسِه، لأنه لا حاجة للهِ إلى أحدٍ من خَلْقِه، وإنما دعاهم إلى شكرِهِ تعريضاً منه لهم للنفع، لا لاجتلابٍ منه بشكرِهم إياهُ نفعاً إلى نفسِه، ولا دفع ضرٍّ عنها، «وَمَنْ كَفَرَ فإنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ»، يقولُ: ومن كفر نعمه وإحسانه إليه، وفضله عليه لنفسِه ظلمَ وحظَّها بخَسَ، والله غنيٌّ عن شكره، لا حاجةَ به إليه، لا يضرُّه كُفْـرُ مَنْ كفرَ به من خلقِه. كريم، ومن كرمه إفضالُه على مَنْ يكفرُ نِعَمَهُ، ويجعلها وصلةً يتوصل بها إلى معاصيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ۝٤١﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: قال سليمان لما أتى عرش بلقيس صاحبة سبأ، وقَدِمَتْ هي عليه لجندِه: غَيِّرُوا لهذه المرأةِ سريرها.

وقوله: «نَنْظُرْ أتَهْتَدِي»، يقولُ: ننظر أتعقلُ فَتُثْبِتُ عَرْشَها أنه هو الذي لها «أمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ»، يقولُ: من الذين لا يعقلون فلا تثبت عرشها.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ۝٤٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لما جاءت صاحبةُ سبأ سليمانَ، أخرجَ لها عرشها،

فقال لها: «أَهَكَذَا عَرْشُكِ؟» قَالت وشبهته به: «كَأَنَّهُ هُوَ».

وقـولـه: «وأوتِينـا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا»، يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ سليمان، وقال سليمان: «وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا» أي هذه المرأة، باللهِ وبقدرتِه على ما يشاء، «وَكُنَّا مُسْلِمِينَ» للهِ من قَبْلِهَا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وَمَنَعَ هذه المرأةَ صاحبة سبأ «ما كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ الله»، وذلك عبادتها الشمسَ أنْ تعبدَ الله.

وقوله: «إنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرينَ»، يقولُ: إنَّ هذه المرأةَ كانت كافرةً من قومٍ كافرين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾

ذُكـر أنَّ سليمـانَ لما أقبلت صاحبةُ سبأ تريده، أمرَ الشياطينَ فَبَنُوا له صرحـاً، وهو كهيئةِ السطح من قوارير، وأجرى من تحتهِ الماء ليختبرَ عقلها بذلـك، وفَهْمَهَـا على نحوِ الذي كانت تفعلُ هي من توجيهها إليه الوصائفَ والوصفاء ليميزَ بين الذكورِ منهم والإناث معاتبةً بذلك كذلك. وجائزٌ عندي أن يكون سليمان أمرَ باتخاذِ الصرحِ للأمرين، ليختبر عقلها، وينظر إلى ساقها وقدمها، ليعرف صحة ما قيل له فيها.

وقوله: «فَلَما رأتْهُ حَسِبَتْهُ لُجةً»، يقولُ: فلما رأت المرأةُ الصرحَ حسبته لبياضِه واضطرابِ دوابِ الماء تحته لجةَ بحرٍ كشفتْ عن ساقيها لتخوضه إلى سليمان.

وقوله: «إنَّهُ صَرحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِيرَ»، يقول جَلَّ ثناؤه: قال سليمان لها: إنَّ هذا ليس ببحرٍ، إنه صَرْحٌ مُمَرَّدٌ من قوارير، يقولُ: إنما هو بناء مبنيٌّ مشيد من قوارير.

وقوله: «قَالَتْ رَبِّ إنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وأَسْلَمْتُ مَعَ سُلِيْمانَ». . . الآية، يقول تعالى ذِكْرُه قالت المرأةُ صاحبةُ سبأ: ربِّ إني ظلمتُ نفسي في عبادتي الشمس، وسجودي لما دونك «وأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ للهِ»، تقول: وانْقَدْتُ مع سليمانَ مُذْعِنةً لله بالتوحيدِ، مُفْرِدةً له بالألوهةِ والربوبيةِ دونَ كلِّ مَنْ سواه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «ولَقَدْ أرْسَلْنا إلى ثَمُودَ أخاهُمْ صَالِحاً أنِ اعْبُدُوا اللهَ» وَحده لا شَرِيك له، ولا تجعلوا معه إلهاً غيره. «فإذَا هُمْ فَرِيقانِ يَخْتَصِمُونَ»، يقولُ: فلما أتاهم صالح داعياً لهم إلى الله صار قومُه من ثمودَ فيما دعاهم إليه فريقين يختصمون، ففريقٌ مُصَدِّقٌ صالحاً مؤمنٌ به، وفريق مكذِّبٌ به كافر بما جاء به.

وقـوله: قالَ يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الحَسَنَةِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قال صالح لقومه: يا قوم لأيِّ شيءٍ تستعجلونَ بعذابِ الله قبل الرحمة.

وقوله: «لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ»، يقولُ: هلا تتوبون إلى الله من كفركم، فيغفر لكم ربكم عظيمَ جُرْمِكم، يصفح لكم عن عقوبتِه إياكم على ما قد أتيتم من عظيمِ الخطيئة.

وقوله: «لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ»، يقولُ: ليرحمكم رَبُّكم باستغفارِكم إياه من كفركم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قالت ثمود لرسولها صالح «اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ» أي تشاءمنا بكَ وبمن معكَ من أتباعنا، وزجرنا الطيرَ بأنَّا سيصيبنا بك وبهم المكاره والمصائب، فأجابهم صالح فقال لهم: «طائِرُكُمْ عِنْدَ اللهِ» أي ما زجرتم من الطير لما يُصِيبكم من المكاره عند الله عِلْمُه، لا يدري أيّ ذلك كائن، أما تظنون من المصائب أو المكاره، أم لا تَرْجُونَهُ من العافيةِ والرجاءِ والمحاب.

وقوله: «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ»، يقولُ: بل أنتم قوم تُخْتَبَرُونَ، يختبركم رَبُّكم إذْ أرسلني إليكم، أتطيعونه، فتعملون بما أمركم به، فيجزيكم الجزيلَ من ثوابِه، أم تَعْصُونَهُ، فتعملونَ بخلافِه، فيحلُّ بكم عقابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وكان في مدينة صالح، وهي حِجر ثمود، تسعةُ أنفسٍ

يفسدونَ في الأرض ولا يصلحون، وكان إفسادهم في الأرض: كُفْرُهُمْ باللهِ، ومعصيتُهم إياه، وإنما خصَّ الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ هؤلاءِ التسعةَ الرهطِ بالخبر عنهم أنهم كانوا يفسدون في الأرض، ولا يصلحون، وإنْ كان أهلُ الكفر كُلُّهم في الأرضِ مفسدين، لأنَّ هؤلاءِ التسعة هم الذين سعوا فيما بلغنا في عقرِ الناقة، وتعاونوا عليه، وتحالفوا على قتلِ صالح من بين قومِ ثمود. وقد ذكرنا قصصهم وأخبارهم فيما مضى من كتابنا هذا.

وقوله: «قالُوا تَقاسَمُوا باللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وأهْلَهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قال هؤلاءِ التسعة الرهط الذين يُفسدون في أرضِ حِجْرِ ثمود، ولا يصلحون، تقاسموا بالله: تحالفوا بالله أيها القوم، ليحلفْ بعضُكم لبعضٍ: لَنُبَيِّتَنَّ صالحاً وأهله، فلنقتلنه. «ثم لنقولن لوليه: ما شهدنا مَهْلِكَ أهله».

وقوله: «وَإنَّا لَصَادِقُونَ»، نقول لوليه: وإنا لصادقون، أنَّا ما شهدنا مهلكَ أهله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وغَدَرَ هؤلاءِ التسعة الرهط الذين يفسدون في الأرض بصالحٍ بمصيرِهم إليه ليلاً ليقتلوهُ وأهلَهُ، وصالحٌ لا يشعرُ بذلك. «وَمَكَرْنا مَكْراً»، يقولُ: فأخذناهم بعقوبتنا إياهم، وتعجيلنا العذابَ لهم «وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ» بمكرنا.

وقد بيّنا فيما مضى معنى: مكر الله بمن مكرَ به، وما وجه ذلك، وأنه أخْذُهُ مَنْ أخذَهُ منهم على غرَّةٍ، أو استدراجُه منهم مَنِ استدرج على كفرِه به،

ومعصيته إياه، ثم إحلاله العقوبةَ به على غرّةٍ وغفلة.

وقـوله: «فانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقبَةُ مَكْرِهِمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فانظُر يا محمدُ بعينِ قلبكَ إلى عاقبةِ غدرِ ثمودَ بنبيِّهم صالح كيف كانت، وما الذي أورثها اعتداؤُهم وطغيانُهم وتكذيبهم، فإنَّ ذلك سنتنا فيمن كذَّبَ رسلنا، وطغى علينا من سائرِ الخلق، فَحَذِّرْ قومكَ من قريش أنْ ينالهم بتكذيبِهم إياكَ ما نالَ ثمود بتكذيبِهم صالحاً من المَثُلات.

وقوله: «أنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أجْمَعِينَ»، يقولُ: إنا دمرنا التسعةَ الرهط الذين يفسدون في الأرض من قوم صالح وقومهم من ثمود أجمعين، فلم نُبْقِ منهم أحداً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾

يعني تعـالى ذِكْـرُه بقوله: «فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً» فتلك مساكنهم خاويةً خاليةً منهم، ليس فيها منهم أحدٌ، قد أهلكهم الله فأبادهم «بِمَا ظَلَمُوا»، يقول تعالى ذِكْرُه: بظلمهم أنفسَهُمْ بِشِرْكهم بالله، وتكذيبهم رسولهم. «إنَّ في ذلكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إن في فعلنا بثمود ما قَصَصْنَا عليكَ يا محمـدُ من القصـة، لعِظَةً لمن يعلم فِعْلَنا بهم ما فعلنا من قومكَ الذين يكذِّبُونَكَ فيما جئتهم به من عند رَبِّكَ وعبرةً. «وأنجَيْنا الَّذِينَ آمَنُوا»، يقولُ: وأنجينـا من نقمتنـا وعذابنا الذي أحللناهُ بثمود رسولَنا صالحاً والمؤمنينَ به. «وكانُوا يَتَّقُونَ»، يقولُ: وكانوا يتقون بإيمانهم، وبتصديقهم صالحاً الذي حَلَّ

بقومهم من ثمود ما حلَّ بهم من عذابِ الله، فكذلك ننجيكَ يا محمدُ وأتباعَكَ، عند إحلالنا عقوبتنا بمشركي قومك من بين أظهرهم.

وذكر أنَّ صالحاً لما أحلَّ الله بقومه ما أَحَلَّ، خرج هو والمؤمنونَ به إلى الشام، فنزل رملةَ فلسطين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأرسلنا لوطاً إلى قومه، إذْ قال لهم: يا قوم «أتأْتُونَ الفاحِشَةَ وأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ» أنها فاحشة، لِعِلْمِكُمْ بأنه لم يسبقكم إلى ما تفعلونَ من ذلك أحدٌ.

وقوله: «أئِنَّكُمْ لَتأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً» منكم بذلك من دونِ فُروجِ النساء التي أباحها اللهُ لكم بالنكاحِ.

وقوله: «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ»، يقولُ: ما ذلك منكم إلا أنكم قومٌ سفهاء جَهَلَةٌ بعظيمِ حقِّ الله عليكم، فخالفتم لذلك أمره، وعصيتم رسولَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلم يكن لقومِ لوطٍ جوابٌ له، إذْ نَهاهُمْ عما أمره الله بنهيهم عنه من إتيانِ الرجال، إلا قِيل بعضِهم لبعضٍ «أخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ» عما نفعله نحنُ من إتيانِ الذكرانِ في أدبارهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فأنجينا لوطاً وأهلَهُ سِوى امرأته من عذابنا حين أَحْلَلْنَاهُ بهم، ثم «قَدَّرْناها»، يقولُ: فإن امرأته قَدَّرْنَاهَا: جعلناها بتقديرنا «مِنَ الغابرينَ» من الباقين «وأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً» وهو إمطارُ اللهِ عليهم من السماءِ حجارةً من سِجِّيل، «فَسَاءَ مَطَرُ المُنْذَرِينَ»، يقولُ: فساء ذلك المطرُ مطر القومِ الذين أنذرهم الله عقابَهُ على معصيتهم إياهُ، وخَوَّفَهُمْ بأسَهُ بإرسالِ الرسولِ إليهم بذلك.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ «قُلْ»، يا محمدُ «الحَمْدُ للهِ» على نِعَمِه علينا، وتوفيقِه إيانا لما وفَّقنا من الهداية. «وَسَلامٌ»، يقولُ: وأَمَنَةٌ منه من عقابِه الذي عاقبَ به قومَ لوطٍ، وقوم صالح، على الذين اصطفاهم، يقولُ: الذين اجْتَبـاهُمْ لنبيهِ محمدٍ ﷺ، فجعلهم أصحابه ووزراءه على الدِّينِ الذي بعثه بالدعاء إليه دونَ المشركينَ به، الجاحدينَ نبوَّة نبيه.

وقـوله: «ءَ آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُون»، يقول تعالى ذِكْرُه: «قُلْ»، يا محمدُ، لهؤلاءِ الذين زيَّنا لهم أعمالَهم من قومكَ فهم يَعْمَهُونَ: اللهُ الذي أنعمَ على أوليائه هذه النِّعمَ التي قَصَّها عليكم في هذه السورة، وأهلكَ أعداءه بالذي أهلكهم به من صنوفِ العذابِ التي ذكرها لكم، فيها خيرٌ، أمَّا تُشْرِكُونَ من أوثانِكم التي لا تنفعكم ولا تضرّكم، ولا تدفعُ عن أنفسها ولا عن أوليائها سوءً،

ولا تجلبُ إليها ولا إليهم نفعاً، يقولُ: إن هذا الأمر لا يُشكِلُ على مَنْ له عقلٌ، فكيف تستجيزون أنْ تُشركوا عبادةَ مَنْ لا نفعَ عندَهُ لكم، ولا دفعَ ضُرٍّ عنكم في عبادةِ مَنْ بيدهِ النفعُ والضرّ، وله كلُّ شيء. ثم ابتدأ تعالى ذِكْرُه تعديدَ نِعَمِه عليهم، وأياديه عندهم، وتعريفهم بقلة شكرهم إياه على ما أولاهم من ذلك، فقال: «أمَّنْ خلَقَ السَّمٰوَاتِ والأرْضَ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمشركينَ به من قُريش: أعبادةُ ما تعبدونَ من أوثانِكم التي لا تضرُّ ولا تنفعُ خيرٌ، أم عبادةُ مَنْ خَلَقَ السمواتِ والأرضَ؟ «وأنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماء»، يعني مطراً، وقد يجوز أن يكون مريداً به العيونَ التي فَجَّرها في الأرضِ، لأنَّ كل ذلك من خَلْقِه «فأنْبَتْنَا بِهِ»، يعني بالماء الذي أنزل من السماء «حَدَائِقَ» وهي جمع حديقة، والحديقة: البستان عليه حائط محوّط، وإنْ لم يكن عليه حائطٌ لم يكن حديقة.

وقوله: «ذَاتَ بَهْجَةٍ»، يقولُ: ذاتَ منظرٍ حَسَن.

وقوله: «ما كانَ لَكُمْ أنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا»، يقول تعالى ذِكْرُه: أنبتنا بالماء الذي أنزلناه من السماء لكم هذه الحدائقَ إذْ لم يكن لكم، لولا أنه أنزلَ عليكم الماءَ من السماءِ، طاقةٌ أنْ تُنْبِتُوا شجرَ هذه الحدائق، ولم تكونوا قادرينَ على ذهابِ ذلك، لأنه لا يصلحُ ذلك إلا بالماء.

وقوله: «أإلَهٌ مَعَ اللهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أمعبودٌ مع الله أيها الجَهَلَةُ خلق

ذلك، وأنزلَ من السماء الماء، فأنبتَ به لكم الحدائقَ، فقوله: أءلهٌ مَردودٌ على تأويل: أمَعَ اللهِ إلـهٌ. «بَـلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْـدِلُونَ»، يقول جَلَّ ثناؤه: بل هؤلاءِ المشركونَ قوم ضلال، يعدلون عن الحقِّ، ويجورون عليه، على عمدٍ منهم لذلك، مع عِلْمِهم بأنهم على خطأ وضلالٍ ولم يعدلوا عن جهلٍ منهم، بأنَّ من لا يقدرُ على نفعٍ ولا ضرّ، خيرٌ مِمَّنْ خلقَ السمواتِ والأرض، وفعل هذه الأفعال، ولكنهم عدلوا على عِلْمٍ منهم ومعرفة، اقتفاءً منهم سُنَّةَ مَنْ مضى قبلهم من آبائهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أعبادةُ ما تُشْرِكُونَ أيها الناسُ بربِّكم خيرٌ وهو لا يضرُّ ولا ينفع، أم الذي جعل الأرضَ لكم قراراً تستقرُّونَ عليها لا تميدُ بكم «وَجَعَلَ» لكم «خِـلالَهَـا أنهـاراً»، يقولُ: بينها أنهاراً «وجعل لَها رَوَاسِيَ» وهي ثوابت الجبال، «وَجَعَلَ بينَ البَحْرَيْنِ حاجِزاً» بين العذب والملح، أنْ يُفْسِدَ أحدُهُمَا صاحبَهُ «أءِلَهٌ مَعَ اللهِ» سواه فَعَلَ هذه الأشياء فأشركتموه في عبادتكم إياه؟

وقـولـه: «بَـلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: بل أكثرُ هؤلاءِ المشركينَ لا يعلمون قَدْرَ عظمةِ الله، وما عليهم من الضرِّ في إشراكِهم في عبادةِ الله غيره، وما لهم من النفعِ في إفرادهم اللهَ بالألوهةِ، وإخلاصهم له العبادةَ، وبراءتهم من كلِّ معبودٍ سواه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾

﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أم ما تُشركون بالله خيرٌ، أم الذي يجيب المضطرَّ إذا دَعَاهُ، ويكشف السوء النازل به عنه؟

وقوله: «ويجْعَلُكُمْ خُلفاءَ الأرْضِ»، يقولُ: ويستخلف بعد أمرائكم في الأرضِ، منكم خلفاءَ أحياء يخلفونهم.

وقوله: «أءِلَهٌ مَعَ اللهِ»، يقولُ: أءِلَهٌ مع الله سواه يفعل هذه الأشياءَ بكم، وينعم عليكم هذه النعم؟

وقوله: «قَليلاً ما تَذَكَّرونَ»، يقولُ: تَذَكُّراً قليلاً، من عظمةِ الله وأياديه عندكم، تَذَكَّرُونَ وتعتبرونَ حججَ الله عليكم يسيراً، فلذلك أشركتم باللهِ غيرَهُ في عبادته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا(١) بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أم ما تشركون بالله خيرٌ، أمِ الذي يهديكم في ظلماتِ البرِّ والبحرِ إذا ضللتم فيهما الطريق، فأظلمتْ عليكم السُّبُلُ فيهما.

قوله: «وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بينَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ»، يقولُ: والذي يرسل

---

(١) في المطبوعات والمخطوط ومفردات الراغب ولسان العرب: نُشْراً ـ بضم النون وسكون الشين المعجمة ـ وهي قراءة ابن عامر الشامي هنا وكذلك فعلنا في الآية ٥٧ من سورة الأعراف، وأثبتنا قراءة المصحف عند ورودها في التفسير.

الرياح بُشْراً لموتَانِ الأرضِ بين يدي رحمته، يعني قَدَّامَ الغيثِ الذي يحيي مواتَ الأرض.

وقوله: «أءِلَهٌ مَعَ اللهِ تعالى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أءِلهٌ مع الله سوى الله يفعل بكم شيئاً من ذلك فتعبدوه من دونه، أو تشركوه في عبادتكم إياه. «تَعَالَى اللهُ»، يقولُ: لله العلوُّ والرِفعةُ عن شِرْكِكُمْ الذي تشركون به، وعبادتكم معه ما تعبدون.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أم ما تشركون أيها القومُ خيرٌ، أم الذي يبدأُ الخلقَ ثم يُعيده، فينشئه من غيرِ أصلٍ، ويبتدعه ثم يفنيه إذا شاء، ثم يعيده إذا أراد كهيئته قبل أنْ يفنيه، والذي يرزقكم من السماء والأرض فينزل من هذه الغيث، وينبت من هذه النبات لأقواتِكم، وأقواتِ أنعامكم «أءِلَهٌ مَعَ اللهِ» سوى الله يفعل ذلك؟ وإنْ زعموا أنَّ إلهاً غير الله يفعل ذلك أو شيئاً منه فـ «قُلْ» لهم يا محمدُ، «هاتُوا بُرْهانَكُمْ»: أي حجتكم على أنَّ شيئاً سوى الله يفعل ذلك «إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» في دعواكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه لنبيه محمـدٍ ﷺ: «قُـلْ»، يا محمدُ لسائليكَ من

المشـركينَ عن السـاعةِ متى هي قائمة «لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ» الـذي قد استأثرَ اللهُ بعلمه، وحجبَ عنه خَلْقَهُ غيره، والساعة[1] من ذلك. «وَما يَشْعُرُونَ»، يقولُ: وما يدري مَنْ في السموات والأرض من خَلْقِه متى هُمْ مبعوثونَ من قبورِهم لقيامِ الساعة.

وقوله: «بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ في الآخِرَةِ»، اختلفت القَرَأة في قراءة ذلك، فقـرأتـه عامة قَرَأة أهلِ المدينة سوى أبي جعفر وعامة قَرَأة أهل الكوفة «بَلِ ادَّارَكَ» بكسر اللام من بل وتشديد الدال من ادَّارَكَ، بمعنى: بل تدارَكَ عِلْمُهم أي تَتَابَع علمهم بالآخرة هل هي كائنة أم لا.

وقرأته عامة قَرَأة أهل مكة: «بَلْ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ» بسكون الدال وفتح الألف، بمعنى هل أدرك علمهم عِلْمَ الآخرة.

والصـواب من القـول في ذلك عندي أنهما قراءتان معروفتان في قَرَأة الأمصار، فبأيتهما قرأ القارىءُ فمصيبٌ عندنا.

وقـولـه: «بَـلْ هُمْ في شَكٍّ مِنْها»، يقولُ: بل هؤلاءِ المشركونَ الذين يسـألـونـك عن الساعة في شَكٍّ من قيامها لا يوقنون بها ولا يصدِّقُونَ بأنهم مبعـوثون من بعدِ الموتِ، «بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ»، يقولُ: بل هـم من العلم بقيامها عَمُون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ۝٦٧ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦٨﴾

(١) يعني: علم الساعة، وهو يوم القيامة.

يقول تعالى ذِكْرُه: قال الذين كفروا بالله أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ من قبورنا أحياء، كهيئتنا من بعدِ مماتنا بعد أنْ كُنَّا فيها تراباً قد بَلِينا. «لَقَدْ وُعِدْنا هَذَا نَحْنُ وآباؤُنا مِنْ قَبْلُ»، يقولُ: لقد وَعَدَنَا هذا من قبلِ محمدٍ واعدونَ وَعَدُوا ذلك آباءَنا، فلم نَرَ لذلك حقيقةً، ولم نتبينْ له صِحَّةً. «إنْ هَذَا إلاَّ أساطِيرُ الأوَّلِينَ»، يقولُ: قالوا: ما هذا الوعدُ إلا ما سَطَّرَ الأوَّلُونَ من الأكاذيبِ في كتبهم، فأثبتوه فيها وتحدَّثُوا به من غيرِ أنْ يكون له صحةٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٦٩ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝٧٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ «قُلْ»، يا محمدُ، لهؤلاءِ المكذِّبينَ ما جِئْتَهُمْ به من الأنباء من عند ربك: «سِيرُوا فِي الأرْضِ فَانْظُرُوا» إلى ديارِ مَنْ كان قبلكم من المكـذِّبينَ رُسُلَ الله ومساكنهم كيف هي، ألم يُخَرِّبْهَا الله، ويهلك أهلَها بتكذيبهم رسلهم، وردِّهم عليهم نصائحهم فَخَلَتْ منهم الديارُ وتعفَّت منهم الرسومُ والآثار، فإنَّ ذلك كان عاقبةَ إجرامهم، وذلك سنة ربكم في كلِّ مَنْ سلك سبيلهم في تكذيبِ رُسُلِ رَبِّهم، والله فاعلٌ ذلك بكم إنْ أنتم لم تبادروا الإنابةَ من كُفْرِكُم وتكذيبكم رسولَ رَبِّكم.

وقوله: «وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ولا تحزنْ على إدبـار هؤلاءِ المشـركينَ عنـك وتكـذيبهم لك «وَلا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّـا يَمْكُرُونَ»، يقولُ: ولا يَضِقْ صدرُكَ من مكرهم بك، فإنَّ الله ناصرك عليهم، ومهلكهم قتلاً بالسيف.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝٧١ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ۝٧٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويقولُ مشركو قومكَ يا محمدُ، المكذِّبُوكَ فيما أتيتهم به من عند رَبِّك «مَتى» يكون «هَذَا الوَعْدُ» الذي تَعِدُنَاهُ من العذاب، الذي هو بنا فيما تقولُ حالٌّ «إنْ كُنْتُم صَادِقِينَ» فيما تَعِدُونَنَا به. «قُلْ عَسَى أنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ»، يقولَ جَلَّ جَلاله: «قُلْ» لهم يا محمدُ: عسى أن يكون اقتربَ لكم ودَنَا «بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ» من عذابِ الله.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝٧٣ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٧٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه «وَإنَّ رَبَّكَ» يا محمدُ «لَذُو فِضْلٍ عَلَى النَّاسِ» بتركِه معاجلَتَهُم بالعقوبةِ على معصيتهم إياه، وكُفْرهم به، وذُو إحسانٍ إليهم في ذلك وفي غيرِه من نعمهِ عندهم «وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَـ»ـهُ على ذلك من إحسانِه وفَضْلِه عليهم، فيخلصوا له العبادةَ، ولكنهم يشركون معه في العبادةِ ما يضرُّهُمْ ولا ينفعهم ومَنْ لا فضلَ له عندهم ولا إحسان.

وقوله: «وَإنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَما يُعْلِنُونَ»، يقولُ: وإنَّ رَبَّكَ ليعلمُ ضمائرَ صدورِ خَلْقِه، ومكنونَ أنفسهم، وخَفِيَّ أسرارهم، وعلانيةَ أمورهم الظاهرةِ، لا يَخْفَى عليه شيءٌ من ذلك، وهو مُحْصِيهَا عليهم حتى يجازي جميعَهُمْ بالإحسانِ إحساناً وبالإساءَةِ جزاءها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٧٥ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٧٦﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: «وَمَا مِنْ» مكتوم سرٍّ وخفيٍّ أمرٍ يغيبُ عن أبصارِ الناظرينَ «في السَمَاءِ وَالأرْضِ إلاَّ في كِتَابٍ» وهو أمُّ الكتابِ الذي أثبتَ ربُّنا فيه كُلَّ ما هو كائنٌ من لَدُن ابتدأ خَلْقَ خَلْقِه إلى يومِ القيامة. ويعني بقوله: «مُبِينٌ» أنه يبينُ لمن نظر إليه، وقرأ ما فيه مما أثبتَ فيه ربُّنا جَلَّ ثَنَاؤُهُ.

وقـولـه: «إنَّ هَذَا القُـرآنَ يَقُصُّ عَلى بَني إسْـرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ هذا القرآنَ الذي أنزلته إليك يا محمدُ، يَقُصُّ على بني إسـرائيل الحقَّ في أكثـرِ الأشياء التي اختلفوا فيها، وذلك كالذي اختلفوا فيه من أمرِ عيسى، فقالت اليهودُ فيه ما قالتْ، وقالت النصارى فيه ما قالت. وتَبَرَّأَ لاختلافِهم فيه هؤلاء مِنْ هؤلاء، وهؤلاء من هؤلاء، وغير ذلك من الأمورِ التي اختلفوا فيها، فقال جَلَّ ثَنَاؤُهُ لهم: إنَّ هذا القرآنَ يَقُصُّ عليكم الحقَّ فيمـا اختلفتم فيه فاتَّبِعُـوه، وأقرّوا لما فيه، فإنه يقصُّ عليكم بالحقِّ، ويهديكم إلى سبيل الرشاد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٧٧ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٧٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ هذا القرآن لهدى، يقولُ: لبيان من الله، بَيَّنَ به الحقَّ فيما اختلفَ فيه خَلْقُه من أمورِ دِينهم «وَرَحْمَةٌ للْمُؤْمِنِينَ»، يقولُ: ورحمة لمن صَدَّقَ به وعملَ بما فيه «إنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ»، يقولُ: إنَّ ربك يقضي بين المختلفين من بني إسـرائيل بحكمِـه فيهم، فينتقم من المُبْطِلِ منهم، ويجـازي المحسنَ منهم المحقّ بجزائِه «وَهُوَ العَزِيزُ العَلِيمُ»، يقولُ: وربُّك العزيزُ في انتقامِهِ من المبطل منهم ومن غيرهم، لا يقدرُ أحدٌ على منعه من الانتقامِ منه إذا انتقم العليمُ بالمحقِّ المحسنِ من هؤلاءِ المختلفين من بني إسرائيل فيما اختلفوا فيه، ومن غيرهم من المُبْطِلِ الضالِّ عن الهدى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ۝٧٩ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ۝٨٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ففوِّض إلى الله يا محمدُ أمورَك، وثِقْ به فيها، فإنه كافيكَ «إنَّكَ عَلَى الحَقِّ المُبِين» لمن تأمَّله، وفكر ما فيه بعقلٍ، وتدبره بفهمٍ، أنه الحقّ، دونَ ما عليه اليهودُ والنصارى المختلفون من بني إسرائيل، ودونَ ما عليه أهلُ الأوثانِ المكذِّبُوكَ فيما أتيتهم به من الحقِّ، يقولُ: فلا يحزنك تكذيبُ مَنْ كذَّبكَ، وخلاف من خالفك، وامضِ لأمرِ ربك الذي بعثك به، وقوله: «إنَّكَ لا تُسْمِعُ المَوْتَى»، يقولُ: إنك يا محمدُ لا تقدر أن تُفهِم الحقَّ مَنْ طبعَ اللهُ على قلبِه فأماته، لأنَّ الله قد ختمَ عليه أنْ لا يفهمه. «وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ»، يقولُ: ولا تقدر أنْ تُسْمِعَ ذلك مَنْ أَصَمَّ اللهُ عن سماعِه سَمْعَهُ. «إذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ»، يقولُ: إذا هم أدبروا معرضينَ عنه، لا يسمعون له لغلَبَةِ دينِ الكفرِ على قلوبهم، ولا يُصغون للحقِّ، ولا يتدبرونه، ولا ينصتون لقائلِه، ولكنهم يعرضون عنه، وينكرون القول به، والاستماع له.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ۝٨١ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ۝٨٢﴾

تأويل الكلام ما وصفت «وَمَا أنتَ» يا محمدُ «بِهادِي» مَنْ أعماهُ اللهُ عن الهدى والرشاد فجعلَ على بصرِه غشاوةً عن أنْ يتبين سبيلَ الرشادِ عن ضلالته التي هو فيها إلى طريقِ الرشادِ وسبيلِ الرشاد.

وقوله: «إنْ تُسْمِعُ إلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بآياتِنا»، يقولُ: ما تقدر أنْ تُفْهِمَ الحقَّ

وتُوعِيه سَمْعَ أحدٍ إلا سمعَ مَنْ يصدِّقُ بآياتنا يعني بأدلته وحججه وآيِ تنزيله «فَهُمْ مُسْلِمُونَ» فإن أولئك يسمعون منكَ ما تقولُ ويتدبرونه، ويفكرون فيه، ويعملون به، فهم الذين يسمعون.

(وقوله: «وإذا وَقَع القولُ عَليهم أخرجنا لهم دابةً من الأرض»، يقولُ: إذا وجب الغضب عليهم أخرجنا لهم دابة)[1].

وقال جماعة من أهل العلم: خروجُ هذه الدابة التي ذكرها حين لا يأمرُ الناسُ بمعروفٍ ولا ينهون عن منكر. وذُكِرَ أنَّ الأرضَ التي تخرجُ منها الدابةُ مكة.

وقوله: «تُكَلِّمهم»، يقولُ: تخبرهم وتحدثهم.

وقوله: «أنَّ النَّاسَ كَانُوا بآياتِنا لا يُوقِنُونَ» اختلفت القَرَأَةُ في قراءةِ ذلك، فقرأته عامةُ قَرَأَةِ الحجاز والبصرة والشام «إنَّ النَّاسَ» بكسر الألف من «إن» على وجـه الابتداء بالخبرِ عن الناسِ أنهم كانوا بآياتِ الله لا يوقنون، وهي وإنْ كسـرت في قراءة هؤلاءِ فإنَّ الكـلامَ لها متناولٌ، وقرأ ذلك عامة قَرَأَةِ الكوفة وبعض أهل البصرة «أنَّ النَّاسَ كانُوا» بفتح أن بمعنى: تكلمهم بأنَّ الناسَ، فيكون حينئذٍ نصباً بوقوعِ الكلام عليها.

والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان متقاربتا المعنى مستفيضتان في قراءة الأمصار، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝٨٣ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ

(١) وقع في هذا الموضع سقط في المطبوعات والمخطوط، واستدركنا ما بين الحاصرتين من الآثار التي ساقها المؤلف تثبيتاً لتفسيره، ليتصل الكلام.

﴿تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويومَ نجمعُ مِنْ كلِّ قرنٍ وملةٍ فوجاً، يعني جماعةً منهم، وزمرة «مِمَّنْ يُكَذِّبُ بآياتِنا»، يقولُ: ممن يكذِّبُ بأدلتنا وحججنا، فهو يحبسُ أوَّلَهُمْ على آخرِهم، ليجتمعَ جميعُهم، ثم يُساقُونَ إلى النار.

وقوله: «حتى إذَا جاؤُوا قالَ أكَذَّبْتُمْ بآياتِي»، يقول تعالى ذِكْرُه: حتى إذا جاء من كُلِّ أمةٍ فوجٌ ممن يكذِّبُ بآياتنا فاجتمعوا قال الله: «أكذَّبتم بآياتي»: أي بحججي وأدلتي. «وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً»، يقول ولم تعرفوها حَقَّ معرفتها؟ «أمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» فيها من تكذيبٍ أو تصديق.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ۝٨٥ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٨٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ووجبَ السخطُ والغضبُ من الله على المكذِّبينَ بآياتِه «بِمَا ظَلَمُوا» يعني بتكذيبهم بآياتِ الله، يوم يُحشَرون. «فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ»، يقولُ: فهم لا ينطقون بحجةٍ يدفعونَ بها عن أنفسِهم عظيمَ ما حلَّ بهم ووقعَ عليهم من القول.

وقوله: «أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ألم يَرَ هؤلاءِ المكذِّبُونَ بآياتنا تصريفنا الليل والنهار، ومخالفتنا بينهما بتصييرِنَا هذا سكناً لهم يسكنون فيه، ويهدؤون راحةَ أبدانِهم من تعبِ التصرُّفِ والتقلب نهاراً، وهذا مضيئاً يُبْصِرُونَ فيه الأشياء ويعاينونها فيتقلبونَ فيه لمعايشهم، فيتفكَّرُوا في ذلك، ويتدبَّرُوا، ويعلموا أنَّ مُصَرِّفَ ذلك كذلك هو الإِلهُ الذي

لا يُعْجِزُه شيءٌ، ولا يتعذَّرُ عليه إماتةُ الأحياء، وإحياءُ الأمواتِ بعد المماتِ، كما لم يتعذَّرْ عليه الذهابُ بالنهار والمجيءِ بالليل، والمجيءِ بالنهار والذهابِ بالليل مع اختلاف أحوالهما. «إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ في تصييرنا الليلَ سكناً، والنهار مُبصراً لدلالةً لقومٍ يؤمنونَ بالله على قُدْرَتِه على ما آمنوا به من البعثِ بعد الموتِ، وحجةً لهم على توحيدِ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ۝٨٧﴾

اختلف أهلُ التأويلِ في تأويل قوله تعالى: «وَيَوْمَ يُنْفَخ في الصورِ»، وقد ذكرنا اختلافهم فيما مضى، وبيَّنا الصوابَ من القولِ في ذلك عندنا.

قوله: «فَفَزِعَ مَنْ فِي السَمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ»، يقولُ: ففزع مَنْ في السمواتِ من الملائكة ومَنْ في الأرضِ من الجنِّ والإنسِ والشياطين، من هَوْلِ ما يعاينون ذلك اليوم.

وقوله: «إلا مَنْ شاءَ الله»، قيل: إنَّ الذين استثناهم الله في هذا الموضع من أنْ ينالهم الفَزَعُ يومئذٍ الشهداءُ، وذلك أنهم أحياءٌ عند رَبِّهم يُرْزَقُونَ ، وإنْ كانوا في عِدَادِ الموتى عند أهلِ الدنيا.

وقوله: «وكُلٌّ آتَوْهُ داخِرِينَ»، يقولُ: وكلٌّ آتَوْهُ صاغرين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ۝٨٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَتَرى الجِبَالَ» يا محمدُ «تَحْسَبُهَا» قائمةً «وَهِي تَمُرُّ

مَرَّ السَّحاب»، يقولُ: ثم تسير، فيحسب رائيها لكثرتها أنها واقفة، وهي تسير سيراً حثيثا.

قولـه: «صُنْـعَ الله الَّـذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ» وأوثق خَلْقَهُ، «إنه خَبيرٌ بما يفعلون»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ اللهَ ذو علمٍ وخِبْرةٍ بما يفعلُ عباده من خَيْرٍ وشـرٍّ وطاعة له ومعصية، وهو مجازي جميعهُم على جميع ذلك على الخيرِ الخيرَ، وعلى الشرِّ الشرَّ نظيره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ۝٨٩ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٩٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «مَنْ جاءَ» الله بتوحيده والإيمان به، وقول لا إله إلا الله مُوقِناً به قلبه، «فَلَهُ» من هذه الحسنةِ عندَ الله «خَيرٌ» يومَ القيامة، وذلك الخيرُ أنْ يُثِيبَه الله «مِنْهَا» الجنةَ، ويؤمِّنُه «مِنْ فَزَعٍ» الصيحةِ الكبرى وهي النفخ في الصور «وَمَنْ جاءَ بالسَّيِّئَةِ»، يقولُ: وَمَنْ جاء بالشرك به يومَ يَلْقَاهُ، وجحود وحدانيتِه «فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ» في نار جهنم.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: «وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ» فقرأ ذلك بعض قَرَأة البصرة «وَهُمْ مِنْ فَزَعِ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ» بإضافة فزع إلى اليوم. وقرأ ذلك جماعة قَرَأة أهلِ الكوفة «مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ» بتنوين فزع.

والصـواب من القول في ذلك عندي أنهما قراءتان مشهورتان في قرأةِ الأمصـار متقـاربتـا المعنى، فبأيتهما قرأ القارىءُ فمصيب، غير أنَّ الإضافة أعجب إليَّ، لأنه فزع معلوم. وإذا كان ذلك كذلك كان معرفة على أنَّ ذلك في سياق قوله: «وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ

إلَّا مَنْ شاءَ اللهُ»، فإذا كان ذلك كذلك، فمعلوم أنه عنى بقوله: «وَهُمْ مِنْ فَزَعِ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ» من الفزع الذي قد جرى ذِكْرُه قَبْلَهُ. وإذا كان ذلك كذلك، كان لاشكَّ أنه معرفة، وأنَّ الإضافةَ إذا كان معرفة به أولى من تركِ الإضافة؛ وأخرى أنَّ ذلك إذا أضيف فهو أبينُ أنه خبرٌ عن أمانِه من كلِّ أهوالِ ذلك اليوم منه إذا لم يُضَفْ ذلك، وذلك أنه إذا لم يُضَفْ كان الأغلب عليه أنه جعل الأمان من فزعِ بعضِ أهواله.

وقوله: «هَلْ تُجْزَوْنَ إلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُون»، يقول تعالى ذِكْرُه: يقال لهم: هل تُجْزَوْنَ أيها المشركونَ إلا ما كنتم تعملون، إذ كَبَّكُمُ اللهُ لوجوهِكم في النار، وإلا جزاء ما كنتم تعملونَ في الدنيا بما يسخطُ رَبَّكم، وترك: يقال لهم اكتفاء بدلالةِ الكلامِ عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: يا محمدُ «قُلْ إنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِه الْبَلْدَةِ» وهي مكة «الَّذِي حَرَّمَهَا» على خَلْقه أنْ يسفكوا فيها دماً حراماً، أو يظلمـوا فيها أحداً، أو يُصَادَ صَيْدُهَا، أو يُخْتَلى خلاَها دونَ الأوثانِ التي تعبدونها أيها المشركونَ.

وقوله: «وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ»، يقولُ: ولربُّ هذه البلدة الأشياء كلها ملكاً، فإياهُ أُمرتُ أنْ أعبدَ، لا من لا يملك شيئاً. وإنما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «رَبَّ هَذِهِ البَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَها» فَخَصَّها بالذكرِ دونَ سائرِ البلدان، وهو ربُّ البلادِ كُلِّها، لأنه أرادَ تعريفَ المشركينَ من قومِ رسولِ الله ﷺ، الذين هُمْ أهلُ مكة بذلك نعمتَهُ عليهم، وإحسانَهُ إليهم، وأنَّ الذي ينبغي لهم أنْ يعبدوه هو الذي حَرَّمَ بلدهم، فمنعَ الناسَ منهم، وهم في سائرِ البلاد يأكلُ بعضُهم بعضاً، ويقتل بعضهم

بعضاً، لا مَنْ لم تجرِ له عليهم نعمةٌ، ولا يقدرُ لهم على نفعٍ ولا ضرٍّ.

وقوله: «وأُمِرْتُ أنْ أكُونَ مِنَ المُسْلِمِينَ»، يقولُ: وأمرني ربي أنْ أُسْلِمَ وجهي له حنيفاً، فأكون من المسلمينَ الذين دانوا بدين خليلهِ إبراهيمَ وجَدِّكُمْ أيها المشركونَ، لا مَنْ خالفَ دِينَ جَدِّهِ المحقّ، ودانَ دِينَ إبليسَ عدوِّ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْءَانَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ۝٩٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «قُلْ إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ البَلْدَةِ» و«أَنْ أَكُونَ مِنَ المُسْلِمِين وأَنْ أَتْلُو القُرْآنَ، فَمَنِ اهْتَدَى»، يقولُ: فمن تبعني وآمن بي وبما جئتُ به، فسلكَ طريقَ الرشاد. «فإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ»، يقولُ: فإنما يسلكُ سبيلَ الصوابِ باتباعه إيايَ، وإيمانه بي، وبما جئتُ به لنفسه، لأنه بإيمانه بي، وبما جئتُ به يأمنُ نقمته في الدنيا وعذابَهُ في الآخرة.

وقوله: «وَمَنْ ضَلَّ»، يقولُ: وَمَنْ جَارَ عن قصدِ السبيل بتكذيبه بي وبما جئت به من عند الله «فقل إنما أنا من المنذرين»، يقول تعالى ذِكْرُه: فقل يا محمدُ، لمن ضلَّ عن قصد السبيل، وكَذَّبَكَ، ولم يُصَدِّقْ بما جئتَ به من عندي، إنما أنا ممن ينذرُ قومَهُ عذابَ الله وسخَطَهُ على معصيتِهم إياهُ، وقد أنذرتُكم ذلك معشرَ كفارِ قُريشٍ، فإنْ قبلتم وانتهيتم عما يكرههُ اللهُ منكم من الشركِ به، فحظوظَ أنفسِكُم تُصيبونَ، وإنْ رَدَدْتُمْ وكَذَّبتم فعلى أنفسكم جَنَيْتُمْ، وقد بَلَّغْتُكُمْ ما أُمرتُ بإبلاغهِ إياكم، ونصحتُ لكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ»، يا محمدُ، لهؤلاءِ القائلينَ لكَ من مشركي قومكَ «مَتى هَذَا الوَعْدُ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ـ الحَمْدُ للهِ» على نعمتِه علينـا بتـوفيقِه إيَّانا للحقِّ الذي أنتم عنه عَمُونَ، سَيُرِيكم رَبُّكم آياتِ عذابِه وسخطه، فتعرفونَ بها حقيقةَ نُصحي كانَ لكم، ويتبينُ صِدْقُ ما دعوتُكُمْ إليه من الرشاد.

وقوله: «وَما رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وما رَبُّكَ يا محمدُ بغافلٍ عما يعملُ هؤلاءِ المشركونَ، ولكنْ لهم أجلٌ هم بالِغُوه. فإذا بلغوه فلا يستأخرونَ ساعةً ولا يستقدمون، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: فلا يَحْزُنكَ تَكْذِيبُهم إياكَ، فإني من وراءِ إهلاكِهم، وإني لهم بالمرصاد، فأيقِنْ لنفسكَ بالنصرِ، ولعدوِّكَ بالذلِّ والخزي.

المجلد الخامس

فهرس المحتويات

تفسير الطبري

من كتابه

جامع البيان عن تأويل آي القرآن

هذبه وحققه وضبط نصه وعلق عليه

الدكتور بشار عواد معروف	عصام فارس الحرستاني

المجلد السادس

القصص إلى الجاثية

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير الطبري

٦

الطّبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

مؤسّسة الرّسالة للطباعة والنشر والتوزيع

مؤسّسة الرّسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٦٠٣٢٤٣ - ٨١٥١١٢ - ص.ب: ٧٤٦٠ - برقياً: بيوشران

سُورَةُ القَصَص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وتقدَّست أسماؤه: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣﴾

قد بيَّنا قَبْلُ فيما مضى تأويلَ قولِ الله عزّ وجلّ: «طسٓم»، وذكرنا اختلافَ أهلِ التأويل في تأويله.

وأما قوله: «تلكَ آياتُ الكِتابِ المُبينِ» فإنه يعني هذه آياتُ الكتابِ الذي أنزلتُه إليكَ يا محمدُ، المبينُ أنه من عِندِ اللهِ، وأنك لم تتقوَّلْهُ ولم تتخرَّصْهُ.

وقوله: «نَتْلو عَلَيْكَ»، يقولُ: نقرأُ عليكَ ونقصُّ في هذا القرآنِ من خبرِ موسى «وَفِرْعَوْنَ بالحَقِّ».

وقوله: «نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بالحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»، يقول في هذا القرآنِ نَبَؤُهُم.

وقوله: «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»، يقولُ: لقومٍ يُصَدِّقُونَ بهذا الكتاب، ليعلموا أنَّ ما نتلو عليكَ من نَبَئِهم فيه نبؤهم، وتطمئنَّ نفوسُهم، بأنَّ سُنَّتَنا فيمن خالفكَ وعَادَاكَ من المشركينَ سنتُنا فِيمَنْ عادى موسى، ومَنْ آمن به من بني إسرائيل من فرعون وقومِهِ، أنْ نهلكهم كما أهلكناهم، ونُنَجِّيهم منهم كما أنجيناهم.

القَولُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ فرعونَ تَجَبَّرَ في أرضِ مصرَ وتَكَبَّرَ، وعَلاَ أهلَها وقَهرهم، حتى أقَرُّوا له بالعبودَةِ.

وقوله: «وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً» يعني بالشيع: الفِرَق، يقول: وجعل أهلَها فِرقاً متفرّقين.

وقوله: «يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ» ذُكِرَ أنَّ استضعافَهُ إياها كان استعباده.

وقوله: «إنَّهُ كانَ مِنَ المُفْسِدِينَ»، يقولُ: إنه كان ممن يفسد في الأرض بقتله مَنْ لا يستحقُّ منه القتلَ، واستعباده مَنْ ليس له استعباده، وتَجَبُّرُهُ في الأرض على أهلها، وتكبُّرُه على عبادةِ رَبِّه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾

قولـه: «وَنُـرِيدُ» عطف على قولـه: «يَسْتَضْعِفُ طائِفَـةً مِنْهُمْ»، ومعنى الكلام: أنَّ فرعونَ عَلاَ في الأرض وجعلَ أهلها من بني إسرائيل فِرَقاً يستضعِفُ طائفةً منهم «وَ» نَحْنُ «نُرِيدُ أنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ» استضعفهم فرعون من بني إسرائيل «وَنَجْعَلَهُمْ أئِمَّةً».

وقوله: «وَنَجعَلَهُمْ أئِمَّةً» أي ولاةً وملوكاً.

وقوله: «وَنَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ»، يقولُ: ونجعلهم وُرَّاثَ آلِ فرعون يَرِثُونَ

الأرضَ من بعدِ مهلكهم.

وقوله: «وَنُمَكِّنَ لَهُمْ في الأَرْضِ»، يقولُ: ونُوطِّئ لهم في أرضِ الشام ومصر «وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وهامانَ وَجُنُودَهُمَا» كانوا قد أخبروا أنَّ هلاكهم على يدِ رجل من بني إسرائيل، فكانوا من ذلك على وَجَلٍ منهم، ولذلك كان فرعون يُذَبِّحُ أبناءهم، ويستحيي نساءهم، فأرى الله فرعونَ وهامانَ وجنودَهُمَا من بني إسرائيلَ على يدِ موسى بن عمران نبيه ما كانوا يَحْذَرُونَهُ منهم من هلاكِهم وخرابِ منازلهم ودُورِهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَأَوْحَيْنَا إلى أُمّ مُوسَى» حين ولدت موسى «أَنْ أرْضِعِيهِ».

وكان قَتادة يقول، في معنى ذلك: «وأَوْحَيْنا إلى أُمِّ مُوسَى» قَذَفْنَا في قلبها.

واختلف أهلُ التأويل في الحالِ التي أُمِرَتْ أمُّ موسى أنْ تُلقي موسى في اليَمِّ، فقال بعضهم: أُمِرَتْ أنْ تُلقيهِ في اليمِّ بعد ميلادِه بأربعةِ أشهر، وذلك حال طَلَبِهِ من الرضاعِ أكثر مما يطلبُ الصبيُّ بعد حالِ سقوطِهِ من بطنِ أمه.

وقال آخرون: بل أُمِرَتْ أنْ تُلقيه في اليم بعد وِلَادِهَا إياه، وبعد رضاعها.

وأَوْلى قولٍ قيل في ذلك بالصواب، أنْ يقال: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه أمرَ

أمِّ موسى أنْ ترضعه، فإذا خافتْ عليه من عدوٍّ الله فرعون وجُنْدِه أنْ تُلقيه في اليمِّ. وجائزٌ أنْ تكون خافتهم عليه بعد أشهرٍ من ولادها إياه، وأيُّ ذلك كان، فقد فعلتْ ما أوحى الله إليها فيه، ولا خبرَ قامتْ به حجةٌ، ولا فطرة في العقلِ لبيانِ أيِّ ذلك كان من أيٍّ، فأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصحة أنْ يُقال كما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ، واليمّ الذي أُمِرَتْ أنْ تُلقيه فيه هو النيلُ.

وقوله: «وَلا تَخافي وَلا تَحْزَني»، يقولُ: لا تخافي على ولدك من فرعونَ وجُنْدِه أنْ يقتلوه، ولا تحزني لفراقه.

وقوله: «إنَّا رَادُّوهُ إلَيْكِ وَجاعِلُوهُ مِنَ المُرْسَلِينَ»، يقولُ: إنَّا رَادُّو ولدكِ إليكِ للرضاعِ لتكوني أنتِ تُرضعيه، وباعثوهُ رسولاً إلى مَنْ تخافينه عليه أنْ يقتله، وفعل الله ذلك بها وبه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَالْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ۝٨﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: فالتقـطه آلُ فرعـونَ فأصابوهُ وأخذوه، وأصلُه من اللقطة، وهو ما وُجد ضالاً فأُخِذَ.

واختلف أهلُ التأويلِ في المعنيِّ بقوله: «آلُ فِرْعَوْنَ» في هذا الموضع، فقال بعضهم: عنى بذلك: جواري امرأةِ فرعون.

وقال آخرون: بل عنى به ابنة فرعون.

وقال آخرون: عنى به أعوان فرعون.

ولا قول في ذلك عندنا أوْلى بالصوابِ مما قال الله عَزَّ وجَلَّ: «فالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ» وقد بيَّنا معنى الآل فيما مضى بما فيه الكفاية من إعادته ههنا.

قوله: «فالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً» إنما هو: فالتقطهُ آلُ فرعون ظناً منهم أنهممحسنونَإلى أنفسهم، ليكون قُرَّةَ عينٍ لهم، فكانت عاقبةَ التقاطِهم إياهُ منه هلاكهم على يديه.

وقوله: «عَدُوّاً وَحَزَناً»، يقولُ: يكون لهم عدوّاً في دينهم، وحَزَناً على ما ينالهم منه من المكروه.

وقوله: «إنَّ فِرْعَوْنَ وهَامانَ وَجُنُودَهُما كانُوا خاطِئِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ فرعونَ وهامان وجنودهما كانوا بربِّهم آثمينَ، فلذلك كان لهم موسى عَدُوّاً وحَزَناً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَقالَتِ امْرَأةُ فِرْعَوْنَ» له: هذا «قُرَّةُ عَيْنٍ لِي ولَكَ» يا فرعونُ، فقرّةُ عينٍ مرفوعة بِمُضْمَرٍ هو هذا، أو هو.

وقوله: «لا تَقْتُلُوهُ» مسألة من امرأةِ فرعون أنْ لا يقتله، وذُكِرَ أنَّ المرأةَ لما قالت هذا القولَ لفرعونَ، قال فرعونُ: أمَّا لكِ فنعم، وأما لي فلا، فكان كذلك.

وقوله: «لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أنْ يَنْفَعَنَا أوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً» ذُكِرَ أنَّ امرأةَ فرعون قالت هذا القولَ حين هَمَّ بقتلِه.

قال بعضهم: حين أتَى به يومَ التقَطَهُ من اليَمِّ.

وقال بعضهم: يوم نَتَف من لحيتِه أو ضَرَبَهُ بعصا كانتْ في يده.

وقـولـه: «وَهُمْ لا يَشْعُـرُونَ»، اختلف أهـلُ التأويل في تأويله، فقال

بعضهم: معنى ذلك: وهم لا يشعرون هلاكهُم على يده.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: «وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» بما هو كائنٌ من أمرِهم وأمرِه.

وقال آخرون: بل معنى قوله: «وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ» بنو إسرائيلَ لا يشعرون أنَّا التقطناه.

والصوابُ من القولِ في ذلك، قول مَنْ قال: معنى ذلك: وفرعونُ وآلُه لا يشعرونَ بما هو كائنٌ من هلاكِهم على يديه.

وإنما قلنا ذلك أَوْلى التأويلاتِ به لأنه عُقَيب قوله: «وَقالَتِ امْرأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لي ولَكَ، لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً»، وإذا كان ذلك عقبه، فهو بأَنْ يكون بياناً عن القول الذي هو عقبه أحقّ من أَنْ يكون بياناً عن غيره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾

اختلفَ أهلُ التأويلِ في المَعْنِيِّ الذي عَنَى اللهُ أنه أصبحَ منه فؤادُ أمِّ موسى فارغاً، فقال بعضهم: الذي عنى جَلَّ ثَنَاؤُهُ أنه أصبح منه فؤادُ أمِّ موسى فارغاً: كُلُّ شيءٍ سوى ذِكْرِ ابنها موسى.

وقال آخرون: بل عَنَى أنَّ فؤادها أصبح فارغاً من الوحي الذي كان اللهُ أوحاهُ إليها، إذْ أمرها أنْ تُلقيه في اليمِّ فقال: «وَلا تَخافِي وَلا تَحْزَنِي، إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ، وَجاعِلُوهُ مِنَ المُرْسَلِينَ»، قال: فحزنتْ ونسيتْ عهدَ اللهِ إليها، فقال اللهُ عَزَّ وجَلَّ: «وأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فارِغاً» من وحينا الذي أوحيناه إليها.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي قولُ مَنْ قال: معناه: «وَأَصْبَحَ

فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً» من كلِّ شيء إلا من هَمِّ موسى.

وإنما قلنا: ذلك أوْلى الأقوالِ فيه بالصوابِ لدلالةِ قوله: «إنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلاَ أنْ رَبَطْنا على قَلْبِها» ولو كان عَنَى بذلك: فراغَ قلبها من الوحي لم يعقب بقوله: «إنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ» لأنها إنْ كانت قاربت أنْ تُبدي الوحي، فلم تكد أنْ تبديه إلا لكثرةِ ذِكْرِها إياهُ، وولُوعِهَا به، ومحالٌ أنْ تكونَ به ولعةً إلا وهي ذاكرة. وإذا كان ذلك كذلك بطلَ القولُ بأنها كانت فارغةَ القلبِ مما أُوحي إليها، وأخرى أنَّ الله تعالى ذِكْرُه أخبرَ عنها أنها أصبحتْ فارغةَ القلب، ولم يخصصْ فراغَ قلبها من شيءٍ دونَ شيء، فذلك على العمومِ إلا ما قامتْ حُجَّتُهُ أنَّ قلبَها لم يفرغ منه. وقد ذكر عن فضالة بن عبيد أنه كان يقرؤه «وأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فازِعاً» من الفزع.

وقوله: «إنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ»، يقولُ: لتبدي به أنه ابْنُهَا من شِدَّةِ وَجْدِها.

وقوله: «لَوْلاَ أنْ رَبَطْنا عَلَى قَلْبِهَا»، يقولُ: لولا أنْ عَصَمْنَاها من ذلك بِتَثْبِيتِنَاهَا وتوفيقِنَاهَا للسكوتِ عنه.

وقوله: «لِتَكُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: عصمناها من إظهارِ ذلك وقِيلِه بلسانها، وثَبَّتْنَاهَا للعهدِ الذي عهدنا إليها «لِتَكُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ» بوعدِ اللهِ، الموقِنِينَ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَقَالَتْ» أمُّ موسى لأختِ موسى حين ألقته في اليم «قُصِّيهِ»، يقولُ: قُصِّي أثرَ موسى، اتبعي أثره، تقول: قصصت آثار القومِ: إذا اتبعت آثارهم.

وقوله: «فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فقصت أختُ موسى أثره، فَبَصُرَتْ به عن جُنُب: يقول فبصرت بموسى عن بُعْدٍ لم تَدْنُ منه ولم تَقْرَبْ، لئلا يُعْلَمَ أنها منه بسبيلٍ، يقال منه: بصرت به وأبصرته، لغتان مشهورتان، وأبصرت عن جنب، وعن جنابة.

وقوله: «وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ»، يقولُ: وقوم فرعون لا يشعرون بأختِ موسى أنها أختُه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ۝١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وَ مَنَعْنَا موسى المراضعَ أنْ يرتضعَ منهنَّ من قَبْلِ أمه، ذُكِرَ أنَّ أختاً لموسى هي التي قالت لآلِ فرعون: «هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ ناصِحونَ».

ويعني بقوله: «يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ»: يَضُمُّونَهُ لكم.

وقوله: «وَهُمْ لَهُ ناصِحونَ» ذُكِر أنها أُخِذَت، فقيل: قد عَرَفْتُهُ، فقالت: إنما عنيتُ أنهم للمَلِكَ ناصحون.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «فَرَدَدْنَا» موسى «إلى أُمِّهِ» بعد أن التقطه آلُ فرعون، لتقرَّ عينُها بابنها، إذْ رجع إليها سليماً من قَتْلِ فرعون «وَلا تَحْزَن» على فراقهِ إياها «وَلِتَعْلَمَ أنَّ وَعْدَ اللهِ» ـ الذي وَعَدَها إذْ قال لها: «فإذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فألْقِيهِ

في الْيَمِّ، وَلا تَخافِي وَلا تَحْزَنِي»... الآية - حقٌّ.

وقـولـه: «وَلكِنَّ أَكْثَـرَهُمْ لا يَعْلَمُـونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولكنَّ أكثرَ المشركينَ لا يعلمونَ أنَّ وعد الله حقٌّ لا يصدِّقُون بأنَّ ذلك كذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَلَمَّا بَلَغَ» موسى «أَشُدَّهُ»، يعني: حان شِدَّةُ بدنه وقُواه، وانتهى ذلك منه.

وقوله: «وَاسْتَوَى»، يقولُ: تناهى شبابُه، وتَمَّ خلقه واستحكَمَ.

وقوله: «آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً» يعني بالحكم: الفهمَ بالدينِ والمعرفة.

وقـولـه: «وكـذلكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكما جزينا موسى على طاعتِه إيانا وإحسانِه بصبرِه على أمرنا، كذلك نجزي كُلَّ مَنْ أحسنَ من رُسُلِنَا وعبادنا، فصبرَ على أمرنا وأطاعنا، وانتهى عما نَهيناهُ عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَدَخَلَ» موسى «المَدِينَةَ» مدينة منف من مصر «عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها» وذلك عند القائلةِ نصفَ النهار.

وقوله: «فَوَجَدَ فِيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ»، يقولُ: هذا من أهلِ دينِ موسى من بني إسرائيل «وهَـذَا مِنْ عَدُوِّهِ» من القبطِ من قومِ فرعون «فاسْتَغاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ»، يقولُ: فاستغاثه الذي هو من أهلِ دينِ موسى على الذي من عدوِّهِ من القبطِ «فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ»، يقولُ: فَلَكَزَهُ ولَهَزَهُ في صدره بجمعِ كَفِّه.

وقوله: «فَقَضَى عَلَيْهِ»، يقولُ: فَفَرَغَ من قتلِه. وقد بيَّنتُ فيما مضى أن معنى القضاء: الفراغ.

وقوله: «قالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قال موسى حين قتل القتيل: هذا القتل من تسبب الشيطان لي بأن هيَّج غضبي حتى ضربت هذا فهلك من ضربتي، «إِنَّهُ عَدُوٌّ»، يقولُ: إنَّ الشيطان عدوٌّ لابنِ آدم «مُضِلٌّ» له عن سبيلِ الرشادِ بتزيينِه له القبيحَ من الأعمالِ، وتحسينه ذلك له «مُبِينٌ» يعني أنه يبينُ عداوته لهم قديماً، وإضلاله إياهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن ندم موسى على ما كان من قتلِه النفسَ التي قتلها، وتوبته إليه منه، ومسألته غفرانه من ذلك «رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي» بقتلِ النفسِ التي لم تأمرني بقتلها، فاعْفُ عن ذنبي ذلك، واسترهُ عليَّ، ولا تؤاخذني به فتعاقبني عليه.

وقوله: «فَغَفَرَ لَهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فعفا اللهُ لموسى عن ذَنْبِه ولم يعاقبه

به. «إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ»، يقولُ: إنَّ الله هو الساترُ على المُنِيبينَ إليه من ذنوبِهم على ذنوبهم، المتفضِّلُ عليهم بالعفوِ عنها، الرحيمُ للناسِ أنْ يعاقبهم على ذنوبهم بعدما تابوا منها.

وقوله: «قالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قال موسى ربِّ بانعامكَ عليَّ بعفوكَ عن قتلِ هذه النفس «فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ»، يعني المشركينَ، كأنه أقسمَ بذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ۝١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فأصبح موسى في مدينةِ فرعون خائفاً من جنايتِه التي جناها، وقتله النفسَ التي قتلها أن يُؤخَذَ فَيُقْتَلَ بها. «يَتَرَقَّبُ»، يقولُ: يترقبُ الأخبارَ: أي ينتظرُ ما الذي يتحدَّثُ به الناسُ، مما هم صانعونَ في أمرِه وأمرِ قتيله.

وقـوله: «فإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فرأى موسى لما دخل المدينةَ على خوفٍ مترقباً الأخبارَ عن أمرِه وأمرِ القتيل، فإذا الإسرائيليُّ الذي استنصره بالأمسِ على الفرعونيِّ يقاتله فرعونيٌّ آخر، فرآهُ الإسرائيليُّ فاستصرخَهُ على الفرعونيِّ: يقولُ: فاستغاثه أيضاً على الفرعونيِّ، وأصله من الصُّراخِ، كما يقال: قال بنو فلان: يا صَبَاحاه، قال له موسى: «إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ»، يقول جَلَّ ثناؤه: قالَ موسى للإسرائيليِّ الذي استصرخه، وقـد صادف موسى نادمـاً على ما سَلَفَ منـه من قَتْلِه بالأمس القتيلَ، وهـو يستصرخُه اليومَ على آخرَ: إنك أيها المستصرخُ لَغَوِيٌّ: يقولُ: إنك لَذُو غوايةٍ، «مبين»: يقولُ: قد تبيَّنَتْ غوايتك بقتلكَ أمس رجلاً، واليوم آخر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما أراد موسى أنْ يبطشَ بالفرعونيِّ الذي هو عدوٌّ له وللإسرائيلي، قال الإسرائيليُّ لموسى وظَنَّ أنه إياهُ يريد «أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كما قَتَلْتَ نَفْساً بالأَمْسِ».

وقوله: «إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً في الأَرْضِ»، يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ الإسرائيلي لموسى: إنْ تريدُ ما تريدُ إلا أنْ تكونَ جباراً في الأرض، وكان من فعلِ الجبابرة: قَتْلُ النفوسِ ظلماً بغير حقٍّ. وقيل: إنما قال ذلك لموسى الإسرائيليُّ، لأنه كان عندهم مَنْ قتلَ نفسينِ من الجبابرة.

وقوله: «وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ المُصْلِحِينَ»، يقولُ: ما تريد أن تكونَ ممن يعملُ في الأرض بما فيه صلاحُ أهلها، من طاعة الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾

ذُكِرَ أنَّ قولَ الإسرائيلي سمعه سامعٌ فأفشاه، وأعلمَ به أهلَ القتيلِ، فحينئذٍ طلب فرعونُ موسى، وأمر بقتلِه، فلما أمرَ بقتلِه، جاء موسى مُخْبِرٌ وخَبَّرَهُ بما قد أمرَ به فرعون في أمرِه، وأشار عليه بالخروجِ من مصرَ بلدِ فرعونَ وقومِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ

﴿ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢١ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فخرج موسى من مدينةِ فرعونَ خائفاً من قتله النفسَ أنْ يُقْتَلَ به «يترقب»، يقولُ: ينتظر الطلبَ أنْ يدركه فيأخذه.

وقوله: «قالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قال موسى وهو شاخصٌ عن مدينة فرعون خائفاً: ربِّ نجني من هؤلاءِ القوم الكافرين، الذين ظلموا أنفسهم بكُفْرِهم بك.

وقوله: «وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولما جعل موسى وجهه نحو مدينَ، ماضياً إليها، شاخصاً عن مدينةِ فرعون، وخارجاً عن سلطانه، «قال: عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ»، وعَنَى بقوله: «تِلْقَاءَ»: نحوَ مدينَ؛ ويقال: فعل ذلك من تلقاءِ نفسِه، يعني به: مِن قِبَل نفسه ويقال: دارُه تِلقاءَ دارِ فلان: إذا كانت مُحَاذِيَتَها.

وقوله: «عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ»، يقولُ: عسى ربي أنْ يبينَ لي قصدَ السبيلِ إلى مَدْيَنَ، وإنما قال ذلك لأنه لم يكن يعرف الطريقَ إليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَلَمَّا وَرَدَ» موسى «مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً»، يعني: جماعةً «مِنَ النَّاسِ» يَسْقُونَ نَعَمَهُمْ ومواشيهم.

وقوله: «وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِم امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ»، يقولُ: ووجدَ من دون أمة

الناس الذين هُمْ على الماءِ امرأتين تذودان، يعني بقوله: «تَذُودَانِ» تَحْبِسان غَنَمَهُمَا عن الناسِ حتى يَفرغُوا من سقي مواشيهم؛ يقال منه: ذادَ فلانٌ غنمه وماشيته: إذا أرادَ شيءٌ من ذلك[1] يَشِذُّ ويذهب، فردَّهُ ومنعه، يذودها ذَوْداً.

وقوله: «قالَ ما خَطْبُكُمَا»، يقول تعالى ذِكْرُه: قال موسى للمرأتين ما شأنكما وأمركما تذودانِ ماشيتكما عن الناسِ، هَلَّا تسقونها مع مواشي الناسِ، والعربُ تقولُ للرجل: ما خَطْبُك: بمعنى ما أمرك وحالك.

وقوله: «قالَتا لا نَسْقي حتى يُصْدِرَ الرِّعاءُ»، يقول جَلَّ ثناؤه: قالتِ المرأتان لموسى: لا نسقي ماشيتنا حتى يصدرَ الرِّعَاءُ مواشِيَهم، لأنَّا لا نُطيقُ أنْ نسقي، وإنما نسقي مواشينا ما أفضلَتْ مواشي الرِّعاءِ في الحوض، والرِّعاء: جَمْعُ راعٍ، والراعي جمعه رعاء ورُعاة ورعيان.

وقوله: «وَأَبُونا شَيْخٌ كَبِيرٌ»، يقولان: لا يستطيعُ من الكِبَرِ والضعفِ أنْ يسقيَ ماشيته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فسقى موسى للمرأتين ماشيتهما، ثم تَوَلَّى إلى ظلٍّ شجرةٍ ذُكِر أنها سَمُرة.

وقوله: «فقالَ رَبِّ إنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إليَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ» محتاج، وذُكِرَ أنَّ نبيَّ الله موسى عليه السلام قال هذا القولَ، وهو بجهدٍ شديدٍ، وعَرَّضَ ذلك للمرأتين تعريضاً لهما، لعلَّهما أنْ تُطعماه مما به من شدَّةِ الجوع. وقيل: إنَّ

(١) يعني: إذا أراد شيء من الغنم أن يشذّ.

الخير الذي قالَ نبيُّ الله «إنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إليَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ» محتاجٌ، إنَّما عَنَى به: شَبْعَة من طعام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فجاءت موسى إحدى المرأتينِ اللَّتين سَقَى لهما تمشي على استحياءٍ من موسى، وقد سترتْ وجهها بثوبها.

وقوله: «قَالَتْ إنَّ أبي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنَا»، يقول تعالى ذِكْرُه: قالت المرأةُ التي جاءت موسى تمشي على استحياء: إنَّ أبي يدعوك ليجزيك: تقول: يُثِيبَكَ أجرَ ما سقيتَ لنا.

وقوله: «فَلَمَّا جاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ القَصَصَ»، يقولُ: فمضى موسى معها إلى أبيها، فلما جاء أباها وقَصَّ عليه قَصَصَهُ مع فرعونَ وقومِه من القبطِ، قال له أبوها: «لَا تَخَفْ» فقد «نَجَوْتَ مِنَ القَوْمِ الظالِمِينَ» يعني: من فرعونَ وقومِه، لأنه لا سلطانَ له بأرضنا التي أنتَ بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قالت إحدى المرأتين اللتين سقى لهما موسى لأبيها حينَ أتاهُ موسى، وكان اسمُ إحداهما صَفُّورا، واسم الأخرى لَيًّا، وقيل: شَرْفا كذلك.

وأما أبوهما ففي اسمه اختلافٌ، فقال بعضهم: كان اسمه يثرون.

وقال آخرون: بل اسمه: يَثرَى.

وقال آخرون: بل اسمه شعيب، وقالوا: هو شعيب النبيُّ عليه السلام.

وهذا مما لا يُدرك عِلْمُه إلا بخبرٍ، ولا خبرَ بذلك تجبُ حجته، فلا قولَ في ذلك أولى بالصواب مما قاله الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ «وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ. . . قالَتْ إحْداهُمَا: يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ» تعني بقولها: استأجره ليرعى عليكَ ماشيتكَ «إنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ القَوِيُّ الأمِينُ»، تقول: إنَّ خيرَ مَنْ تستأجره للرعي القويّ على حِفْظِ ماشيتكَ والقيام عليها في إصلاحها وصلاحها، امين الذي لا تخافُ خيانته، فيما تأمنه عليه. وقيل: إنها لما قالت ذلك لأبيها، استنكرَ أبوها ذلك من وَصْفِهَا إياهُ فقال لها: وما عِلْمُكِ بذلك، فقالت: أما قُوَّتَهُ فما رأيتُ من علاجِه ما عالجَ عند السقي على البئر، وأما الأمانةُ فما رأيتُ من غَضِّ البصرِ عني.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «قالَ» أبو المرأتين اللتين سقى لهما موسى لموسى: «إنّي أُرِيدُ أنْ أُنْكِحَكَ إحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ عَلى أنْ تَأْجُرَنِي ثَمانِيَ حِجَجٍ»، يعني بقوله: «عَلى أن تَأْجُرَني»: على أن تُثِيبني من تزويجها رعي ماشيتي ثماني حِجَجٍ، من قولِ الناس: آجركَ اللهُ فهو يَأجُرُك، بمعنى: أثابكَ الله؛ والعربُ تقول: أَجرتُ الأجيرَ أجره، بمعنى: أعطيتُه ذلك، كما يقال: أخذته فأنا آخذه. وكأنَّ أباها عندي جعلَ صَدَاقَ ابنتِهِ التي زوّجها موسى رَعْيَ موسى

عليه ما شيتَهُ ثمانيَ حجج، والحِجَج: السنون.

وقـولـه: «فإنْ أتمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ»، يقولُ: فإن أتممتَ الثماني الحجج عشراً التي شَرَطْتُهَا عليكَ بإنكاحي إياك إحدى ابنتيَّ، فجعلتها عشر حجج، فإحسانٌ من عندك، وليس مما اشترطتُه عليكَ بسببِ تزويجك ابنتي «وَما أُريدُ أنْ أشُقَّ عَلَيْكَ» باشتراطِ الثماني الحِجَج عَشْراً عليكَ «سَتَجِدُنِي إنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ» في الوفاء بما قلتُ لك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «قَالَ» موسى لأبي المرأتين «ذلكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ» أي هذا الذي قلتَ من أنك تُزَوِّجُنِي إحدى ابنتيكَ على أنْ آجُرَكَ ثماني حِجَج، واجبٌ بيني وبينك، على كُلِّ واحدٍ منا الوفاءُ لصاحبِهِ بما أوجبَ له على نفسه.

وقوله: «أيَّمَا الأجَلَيْنِ قَضَيْتُ»، يقولُ: أيَّ الأجلين منَ الثماني الحجج والعشر الحجج قضيتُ، يقولُ: فرغتُ منها فوَفَّيْتُكَهَا رعيَ غنمكَ وماشيتكَ «فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ»، يقولُ: فليس لك أنْ تعتدي عليَّ، فتطالبني بأكثرَ منه.

وقوله: «وَاللهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ»، يقولُ: والله على ما أوجبَ كُلَ واحدٍ منا لصاحبِهِ على نفسه بهذا القولِ شهيدٌ وحفيظ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما وَفَّى موسى صاحِبَهُ الأجلَ الذي فارقه عليه عند إنكاحِه إياه ابنتَهُ، وذُكِرَ أنَّ الذي وَفَّاهُ من الأجلين، أتمهما وأكملهما، وذلك العشر الحجج، على أنَّ بعضَ أهلِ العلم قد رُوِيَ عنه أنه قال: زاد مع العشر عَشْراً أخرى.

وقوله: «وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جانِبِ الطورِ ناراً»، يقول تعالى ذِكْرُه: «فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ» شاخصاً بهم إلى منزله من مصرَ «آنَسَ مِنْ جانِبِ الطُّورِ» يعني بقوله: آنَسَ: أبصرَ وأحَسَّ.

وقوله: «قال لأهْلِهِ امْكُثُوا إنِّي آنَسْتُ ناراً»، يقولُ: قال موسى لأهله: تَمَهَّلُوا وانتظروا، إنِّي أبصرتُ ناراً «لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها»، يعني من النار «بِخَبَرٍ أو جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ»، يقولُ: أو آتيكم بقطعةٍ غليظةٍ من الحطبِ فيها النارُ.

وقوله: «لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ»، يقولُ: لعلكم تسخَنون بها من البرد، وكان في شتاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما أتى موسى النارَ التي «آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ» «نُودِيَ مِنْ شَاطِىءِ الْوَادِ الأيْمَنِ»، يعني بالشاطىءِ: الشطَّ، وهو جانبُ الوادي وعدوته، والشاطىءُ يُجمعُ شواطىء وشطآن، والشطّ: الشُّطوطَ، والأيمن: نعتٌ من الشاطىء عن يمينِ موسى.

وقوله: «في البُقْعة المباركة» من صلة الشاطىء.

وتأويل الكلام: فلما أتاها نادى اللهُ موسى من شاطىءِ الوادي الأيمنِ في البقعة المباركة منه من الشجرة: «أنْ يا مُوسَى إنِّي أنا الله رَبُّ العَالَمِينَ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: نُودِي موسى: «أنْ يا موسى إنِّي أنا اللهُ ربُّ العَالَمِين. وأنْ أَلْقِ عَصَاكَ» فألقاها موسى، فصارت حيةً تسعى «فَلَمَّا رآها» موسى «تَهْتَزُّ»، يقولُ: تَتَحَرَّكُ وتضطرب «كأنَّها جانٌّ» والجانُّ: واحِدُ الجِنَّان، وهي نوعٌ معروف من أنواع الحيات، وهي منها عظام. ومعنى الكلام: كأنها جانٌّ من الحيات. «وَلَّى مُدْبِراً»، يقولُ: ولى موسى هارباً منها. «وَلَمْ يُعَقِّبْ»، يقولُ: ولم يرجعْ على عقبه.

وقوله: «يا مُوسَى أقْبِلْ وَلا تَخَفْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فَنُودِيَ موسى: يا موسى أقبلْ إليَّ ولا تَخَفْ من الذي تهربُ منه. «إنَّك مِنَ الآمِنِينَ» مِنْ أنْ يضرَّكَ، إنما هو عصاك.

وقوله: «اسْلُكْ يَدَكَ في جَيْبِكَ»، يقولُ: أدْخِلْ يدكَ، وفيه لغتان: سلكته، وأسلكته «في جَيْبِكَ» يقولُ: في جيبِ قميصكَ.

وقوله: «تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غيرِ سُوءٍ»، يقولُ: تخرج بيضاء من غيرِ بَرَصٍ.

وقوله: «وَاضْمُمْ إلَيْكَ جَنَاحَكَ»، يقولُ: واضمُمْ إليكَ يَدَكَ.

وقوله: «مِنَ الرَّهْبِ»، يقولُ: من الخوفِ والفرَقِ الذي قد نالكَ من معاينتك ما عاينتَ من هولِ الحية.

وقوله: «فَذَانِكَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فهذانِ اللذان أَرَيْتُكَهُمَا يا موسى من تَحَوُّلِ العصا حيةً، ويدكَ وهي سمراء، بيضاءَ تلمعُ من غير برصٍ، «برهانان»، يقول: آيتانِ وحجتان، وأصلُ البرهانِ: البيانُ، يقال للرجل: يقول القول إذا سئل الحجة عليه: هاتِ برهانكَ على ما تقولُ: أي هاتِ تبيان ذلك ومصداقه.

«إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ»، يقولُ: إلى فرعون وأشرافِ قومِه حجةً عليهم، ودلالةً على حقيقةِ نبوّتكَ يا موسى «إنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ»، يقولُ: إنَّ فرعونَ وملأه كانوا قوماً كافرين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «قالَ» موسى: «رَبِّ إنِّي قَتَلْتُ» من قوم فرعون «نَفْسَاً فَأَخافُ» إنْ أتيتهم فلم أُبِنْ عن نفسي بحجةٍ «أنْ يَقْتُلُونِ» لأن في لساني عقدةً، ولا أبينُ معها ما أريدُ من الكلام «وَأخِي هَارُون هُوَ أفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً»، يقولُ: أحسنُ بياناً عما يريدُ أنْ يبينه «فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْأً»، يقولُ: عوناً «يُصَدِّقُنِي»: أي يبينُ لهم عني ما أخاطبهم به.

وقوله: «إنِّي أخافُ أنْ يُكَذِّبُونِ»، يقولُ: إني أخافُ أنْ لا يصدقوني على قولي لهم: إني أُرسِلْتُ إليكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال الله لموسى «سَنَشُدُّ عَضُدَكَ»؛ أي نُقَوِّيك ونُعِينُكَ بأخيكَ، تقولُ العربُ إذا أعزَّ رجلٌ رجلًا وأعانَهُ ومنعه مِمَّنْ أرادَهُ بظلم: قد شَدَّ فلانٌ على عَضُدِ فلان، وهو مَنْ عاضده على أمرٍ: إذا أعانه.

وقوله: «وَنَجْعَلُ لَكما سُلْطاناً»، يقولُ: ونجعل لكما حُجَّةً.

وقوله: «فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما»، يقول تعالى ذِكْرُه: فلا يصلُ إليكما فرعونُ وقومه بسوء.

وقوله: «بآياتِنا»، يقول تعالى ذِكْرُه: «فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا» فرعونُ وقومُه «بِـآياتِنا أَنْتُما وَمَنْ اتَّبَعَكُما الغالِبُونَ» فالباء في قوله بآياتنا من صلةِ غالبون. ومعنى الكـلام: أنتمـا ومَن اتَّبعكما الغالبونَ فرعونَ وملأَهُ بآياتنا أي بحُجَّتِنا وسُلطاننا الذي نجعلُه لكما.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما جاء موسى فرعونَ وملأَهُ بأدلَّتنا وحُجَجِنَا بيناتٍ أنها حججٌ شاهدةٌ بحقيقةِ ما جاء به موسى من عندِ ربه، قالوا لموسى: ما هذا الذي جئتنا به إلا سِحْرٌ افتريته من قبلك وتَخَرَّصْتَهُ كذباً وباطلاً «وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا» الذي تَدْعُونَا إليه من عبادةِ مَنْ تدعونا إلى عبادتِه في أسلافنا وآبائنا الأوّلين الذين مضوا قَبْلَنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَقالَ مُوسَى» مجيباً لفرعون «رَبِّي أَعْلَمُ» بالمحقِّ منا يا فرعون من المُبْطِلِ، ومَنِ الذي جاء بالرشاد إلى سبيل الصواب والبيانِ عن واضحِ الحجةِ من عنده، ومَنِ الذي له العقبى المحمودة في الدار الآخرة منا.

وهذه معارضةٌ من نبيِّ الله موسى عليه السلام لفرعون، وجميل مخاطبة، إذْ ترك أن يقول له، بل الذي غَرَّ قَوْمَهُ وأهلك جنودَهُ، وأضلَّ أتباعَهُ أنتَ لا أنا، ولكنه قال: «رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بالهُدَى مِنْ عِنْدِهِ، وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ» ثم بالغ في ذَمِّ عدوِّ الله بأجمل من الخطاب فقال: «إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ»، يقولُ: إنه لا ينجحُ ولا يدركُ طَلِبتَهُم الكافرونَ بالله تعالى، يعني بذلك فرعونَ، إنه لا يفلح ولا ينجح لكفرِه بربه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقال فرعونُ لأشرافِ قومه وسادتهم: «يا أَيُّها المَلأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي» فتعبدوه، وتُصَدِّقُوا قولَ موسى فيما جاءكم به من أنَّ لكم وله رباً غيري ومعبوداً سواي، «فَأَوْقِدْ لي يا هامانُ عَلى الطِّينِ»، يقولُ: فاعمل لي آجُراً، وذُكِرَ أنه أوَّلُ مَنْ طبخ الآجُرَّ وبَنَى به.

وقوله: «فاجْعَلْ لي صَرْحاً»، يقولُ: ابن لي بالآجرِّ بناءً، وكل بناء مسطح فهو صرحٌ كالقصر.

وقوله: «لَعَلِّي أَطَّلِعُ إلى إلَهِ مُوسَى»، يقولُ: أنظر إلى معبودِ موسى، الذي يعبده، ويدعو إلى عبادته «وإنِّي لأَظُنُّهُ» فيما يقولُ من أنَّ له معبوداً يعبدُه في السماء، وأنه هو الذي يُؤيده ويَنْصُره، وهو الذي أرسله إلينا «مِنَ الكاذبين». فَذُكِرَ لنا أنَّ هامان بنى له الصرحَ، فارتقى فوقَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ۝٣٩ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَاسْتَكْبَرَ» فرعونُ «وَجُنُودُهُ» في أرضِ مصرَ عن تصديقِ موسى واتباعِه على ما دعاهم إليه من توحيدِ الله، والإقرارِ بالعبوديةِ له بغير الحقِّ، يعني تعدِّياً وعتوّاً على رَبِّهم «وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إلينا لا يُرْجَعُونَ»، يقولُ: وحسبوا أنهم بعد مماتهم لا يُبْعَثُونَ، ولا ثوابَ، ولا عقابَ، فركبوا أهواءهم، ولم يعلموا أنَّ الله لهم بالمرصاد، وأنه لهم مُجازٍ على أعمالهم الخبيثة.

وقوله: «فَأَخَذْناهُ وَجُنُودَهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فجمعنا فرعونَ وجنودَهُ من القبطِ «فَنَبَذْناهُمْ في الْيَمِّ»، يقولُ: فألقيناهم جميعَهُمْ في البحر فغرقناهم فيه، وذكر أنَّ ذلك بحر من وراء مصر.

وقوله: «فانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فانظر يا محمدُ بعينِ قلبكَ كيفَ كان أمرُ هؤلاءِ الذين ظلموا أنفسهم فكفروا بربهم. وردُّوا على رسولِه نصيحتَهُ، ألم نُهْلِكهم فَنُوَرِّثُ ديارهم وأموالَهُمْ أولياءنا، ونُخَوِّلُهم ما كانَ لهم من جناتٍ وعيونٍ وكنوزٍ، ومقامٍ كريم، بعد أنْ كانوا مستضعفين، تُقَتَّلُ أبناؤهم، وتُسْتَحْيَا نساؤهم، فإنَّا كذلك بكَ وبمن آمنَ بكَ وصدَّقكَ فاعلونَ مُخَوِّلُوكَ وإياهم دِيارَ مَنْ كَذَّبكَ، وردَّ عليكَ ما أتيتهم به من الحقِّ وأموالهم، ومُهْلِكُوهم قتلاً بالسيفِ، سُنَّةَ الله في الذين خَلَوْا من قَبْلُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وجعلنا فرعونَ وقومَهُ أئمةً يأتمُّ بهم أهلُ العُتُوِّ على اللهِ والكفرِ به، يدعونَ الناسَ إلى أعمالِ أهلِ النار «وَيَوْمَ القيامَةِ لا يُنْصَرُونَ»، يقول جَلَّ ثناؤُه: ويومَ القيامة لا ينصرهم اللهُ إذا عَذَّبَهم ناصرٌ، وقد كانوا في الدنيا يتناصرون، فاضمحلَّتْ تلك النُّصْرَةُ يومئذٍ.

وقوله: «وأَتْبَعْنَاهُمْ في هَذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ القيامَةِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وألزمنا فرعونَ وقومَهُ في هذه الدنيا خِزْياً وغضباً منا عليهم، فحتمنا لهم فيها بالهلاكِ والبوارِ والثناء السيّء، ونحن مُتْبِعُوهم لعنةً أخرى يومَ القيامة، فَمُخْزُوهُمْ بها الخِزْيَ الدائمَ، ومُهِينُوهم الهوانَ اللازم.

وقوله: «هُمْ مِنَ المَقْبوحِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هُمْ من القومِ الذين قَبَّحَهُمُ اللهُ فأهلكهم بكفرِهم بربِّهم، وتكذيبهم رسولَهُ موسى عليه السلام، فجعلهم عبرةً للمعتبرين، وعِظَةً للمتعظين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى» التوراةَ «مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا الأُمَمَ التي كانت قَبْلَهُ كقومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ وقومِ لوطٍ وأصحابِ مَدين «بَصَائِرَ لِلنَّاسِ»، يقولُ: ضياء لبني إسرائيل فيما بهم إليه الحاجة من أمر دينهم «وَهُدًى»،

يقـولُ: وبيانـاً لهم ورحمـة لمن عملَ به منهم. «لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ»، يقولُ: ليتذكروا نِعْمَ اللهِ بذلك عليهم، فيشكروهُ عليها ولا يَكْفُروا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «وَمَا كُنْتَ» يا محمدُ «بِجَانِب» غربيِّ الجبلِ «إِذْ قَضَيْنا إلى مُوسَى الأَمْرَ»، يقولُ: إذ فرضنا إلى موسى الأمرَ فيما ألزمناهُ وقومَهُ، وعَهِدْنَا إليه من عهد «وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ»، يقولُ: وما كنتَ لذلك من الشاهدين.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وَلَكِنَّا أَنْشأنا قُروناً» ولكنا خلقنا أمماً فأحدثناها من بعدِ ذلك «فَتطاوَلَ عَلَيْهِم العُمُرُ».

وقوله: «وما كُنْتَ ثاوياً في أَهْلِ مَدْيَنَ»، يقولُ: وما كنت مقيماً في أهلِ مدين، يقال: ثويت بالمكان أَثْوي به ثَواء.

«تَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتِنـا»، يقولُ: تقرأُ عليهم كتابَنا. «وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ»، يقولُ: لم تَشْهَدْ شيئاً من ذلك يا محمدُ، ولكنا كُنَّا نحنُ نفعلُ ذلك ونرسلُ الرُّسُلَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وما كنتَ يا محمدُ بجانبِ الجبلِ إذ نادينا موسى بأنْ «فَسأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ، وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِنَا يُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيّ»... الآية [الأعراف: ١٥٦].

وقوله: «وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لم تشهدْ شيئاً من ذلك يا محمدُ فتعلمه، ولكنَّا عَرَّفْنَاكَهُ، وأنزلنا إليك، فاقْتَصَصْنَا ذلك كُلَّهُ عليك في كتابنا، وابتعثناكَ بما أنزلنا إليكَ من ذلك رسولاً إلى مَنِ ابتعثناكَ إليه من الخَلْقِ رحمةً منا لكَ ولهم.

وقوله: «لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولكنْ أرسلناكَ بهذا الكتابِ وهذا الدينِ لتنذر قوماً لم يَأْتِهم من قَبْلِكَ نذيرٌ، وهم العربُ الذين بعث إليهم رسولُ الله ﷺ، بعثه الله إليهم رحمةً لينذرَهم بأسه على عبادتِهم الأصنامَ، وإشراكِهم به الأوثانَ والأنداد.

وقوله: «لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ»، يقولُ: ليتذكَّرُوا خطأَ ما هُمْ عليه مقيمونَ من كفرِهم بربِّهم، فينيبوا إلى الإقرارِ لله بالوحدانية، وإفرادِه بالعبادةِ دونَ كُلِّ ما سواه من الآلهة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولولا أنْ يقولَ هؤلاءِ الذين أرسلتُك يا محمدُ إليهم، لو حَلَّ بهم بأسُنا، أو أتاهم عذابنا من قبل أنْ نُرسلك إليهم على كُفْرِهم بربِّهم، واكتسابهم الآثامَ، واجترامهم المعاصي: رَبَّنا هَلَّا أرسلتَ إلينا رسولاً من قَبْلِ أنْ يحلَّ بنا سَخَطُكَ، وينزلَ بنا عذابُكَ فنتبعَ أدِلَّتَكَ، وآيَ كتابكَ الذي تنزله على رسولكَ ونكونَ من المؤمنينَ بأُلوهيتكَ، المصدِّقينَ رسولَكَ فيما أمَرْتَنا ونهيتنا، لعاجلناهم العقوبةَ على شِرْكِهم من قبلِ ما أرسلناكَ إليهم، ولكنا بعثناكَ إليهم نذيراً بأسَنَا على كفرهم، لئلا يكونَ للناسِ على الله حجةٌ بعدَ الرسلِ. والمصيبةُ في هذا الموضع: العذابُ والنقمةُ.

ويعني بقوله: «بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ» بما اكتسبوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ۝٤٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما جاء هؤلاءِ الذين لم يأتِهِمْ من قبلكَ يا محمدُ نذيرٌ فبعثناكَ إليهم نذيراً «الحقُّ من عِنْدِنَا»، وهو محمدٌ ﷺ بالرسالةِ من الله إليهم، قالوا: تمرّداً على الله، وتمادياً في الغيّ: هَلَّا أُوتيَ هذا الذي أُرسلَ إلينا، وهو محمدٌ ﷺ مثل ما أُوتيَ موسى بن عمران من الكتابِ، يقول الله تبارك وتعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ لقومكَ من قريش، القائلينَ لك «لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسَى» أو لم يَكْفُر الذين علموا هذه الحجةَ من اليهودِ بما أوتيَ موسى من قَبْلِكَ.

وقوله: «قالوا سِحْرَان تَظاهرا»، بمعنى: كتاب موسى وهو التوراة، وكتاب

عيسى وهو الإنجيل[١].

وقوله: «وَقالُوا إنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وقالت اليهودُ: إنَّا بكلِّ كتابٍ في الأرض من توراةٍ وإنجيلٍ، وزبورٍ وفرقانٍ كافرون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٩﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ»، يا محمدُ للقائلينَ للتوراةِ والإنجيل: هما سحران تظاهرا: ائتوا بكتابٍ من عند الله، هو أَهْدَى منهما لطريقِ الحقِّ ولسبيلِ الرشاد «أَتَّبِعْهُ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» في زعمكم أنَّ هذين الكتابينِ سحرانِ، وأنَّ الحقَّ في غيرِهما[٢].

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٠﴾

---

(١) هذا هو الـرأي الـذي ارتضـاه المؤلف وصَـوَّبه بعد إيراد مجموعة من الآراء، وأن المخاطبين بذلك هم اليهود. وكلام المؤلف فيه شيء من الاضطراب، ولولا أنه كرره فيما يأتي من تفسير لقلنا إنه من وهم النساخ، فالمشهور أن المخاطبين بذلك هم أهل مكة، والمقصود بذلك التوراة والقرآن، وهو الذي قاله الفراء في معاني القرآن: ٣٠٦/٢، وابن الجوزي في زاد المسير: ٢٢٨/٦، وانظر التعليق الآتي.

(٢) ثم قال المؤلف: «وبنحو الذي قلنا قال أهل التأويل» ثم ساق تفسير ابن زيد: «قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما، من هذين الكتابين الذي بعث به موسى والذي بعث به محمدﷺ»، وانظر بَعْدُ إلى تعليقنا السابق. على ان المؤلف سيزيد ذلك بياناً في تفسير الآية الآتية.

يقـول تعـالى ذِكْرُه: فإنْ لم يُجِبْكَ هؤلاءِ القائلونَ للتوراةِ والإنجيلِ: سحرانِ تَظَاهرا، الزاعمونَ أنَّ الحقَّ في غيرهما من اليهودِ يا محمدُ، إلى أنْ يأتوكَ بكتابٍ من عند الله، هو أهدى منهما، فاعلمْ أنَّما يَتَّبِعُونَ أهواءهم وأنَّ الذي ينطقونَ به ويقولونَ في الكتابين، قولُ كَذِبٌ وباطلٌ لا حقيقةَ له.

ولعل قائلًا أنْ يقول: أَوَ لَمْ يكن النبيُّ ﷺ يعلم أنَّ ما قالَ القائلونَ من اليهودِ وغيرهم في التوراة والإنجيل من الإفكِ والزور المُسَمُّوهُمَا سِحْرَيْنِ باطلُ من القولِ، إلا بأنْ لا يجيبوه إلى إتيانهم بكتابٍ هو أهدى منهما؟

قيل: هذا كلام خرجَ مخرجَ الخطابِ لرسولِ الله ﷺ، والمرادُ به المَقُولُ لهم أَوَ لَمْ يَكفُروا بما أُوتيَ موسى من قبلُ من كفار قريش، وذلك أنه قيل للنبيِّ ﷺ: قُلْ يامحمدُ لمشركي قريش: أو لم يكفر هؤلاءِ الذين أمروكم أنْ تقولوا: هَلَّا أُوتيَ محمدُ مِثْلَ ما أُوتِيَ موسى، بالذي أوتيَ موسى من قبل هذا القرآن، ويقولوا للذي أنزل عليه وعلى عيسى «سِحْرَانِ تَظَاهَرَا»، فقولوا لهم إنْ كنتم صادقين أنَّ ما أُوتي موسى وعيسى سحرٌ، فأْتُوني بكتابٍ من عند الله، هو أهدى من كتابيهما، فإنْ هم لم يُجِيبُوكُمْ إلى ذلك فاعلموا أنهم كَذَبَةٌ، وأنهم إنما يتبعون في تكذيبهم محمداً، وما جاء به من عندِ الله أهواء أنفسهم، ويتركون الحقَّ وهم يعلمون، يقول تعالى ذِكْرُه: وَمَنْ أضلُّ عن طريقِ الرشادِ، وسبيلِ السدادِ مِمَّنْ اتَّبَعَ هوى نفسِه بغيرِ بيانٍ من عند الله، وعهدٍ من الله، ويتركُ عهدَ الله الذي عَهِدَهُ إلى خَلْقِه في وحيه وتنزيله. «إنَّ اللهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمينَ»، يقـول تعالى ذِكْرُه: إن الله لا يُوفِّق لإصابةِ الحقِّ وسبيلِ الرشد القومَ الذين خالفوا أمرَ الله وتركوا طاعته، وكذَّبُوا رسولَهُ، وبَدَّلُوا عهده، واتبعوا أهواء أنفسهم إيثاراً منهم لطاعةِ الشيطانِ على طاعةِ ربهم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ

﴿يَتَذَكَّرُونَ ۝٥١ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد وَصَّلْنَا يا محمدُ لقومكَ من قريش ولليهودِ من بني إسرائيلَ القولَ بأخبارِ الماضين والنبأ عما أحللنا بهم من بأسنا، إذْ كَذَّبُوا رُسُلَنَـا، وعَمَّـا نحنُ فاعلونَ بمن اقتفى آثـارهم، واحتـذى في الكفر بالله، وتكذيبِ رسله مِثالَهُمْ، ليتذكَّروا فيعتبروا ويَتَّعِظُوا، وأصله من وَصْلِ الحبالِ بعضِها ببعضٍ.

وقـوله: «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ»، يعني بذلك تعالى ذكره قوماً من أهلِ الكتابِ آمنوا برسولِه وصَدَّقُوه، فقال الذين آتيناهم الكتابَ من قبلِ هذا القرآنِ هُمْ بهذا القرآنِ يؤمنون، فَيُقِرُّونَ أنه حقٌّ من عندِ الله، ويُكَذِّبُ جَهَلَةُ الأميين، الذين لم يأتِهم من الله كتابٌ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ۝٥٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَإِذَا يُتْلَى» هذا القرآنُ على الذين آتيناهم الكتابَ من قبل نزولِ هذا القرآنِ «قالُوا آمَنَّا بِهِ»، يقولُ: يقولون: صَدَّقْنَا به «إِنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّنا»، يعني من عندِ رَبِّنَا نَزَلَ، «إِنَّا كُنَّا مِنْ قبلِهِ» أي نزولِ هذا القرآن «مُسْلِمِينَ»، وذلك أنهم كانوا مؤمنينَ بما جاء به الأنبياءُ قبلَ مجيءِ نبينا محمدٍ ﷺ وعليهم، من الكتبِ، وفي كتبهم صفةُ محمدٍ ونعتُه، فكانوا به وبمبعثِه وبكتابِه مُصَدِّقينَ قبل نزولِ القرآن، فلذلك قالوا: «إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ».

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٥٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاءِ الذين وصفتُ صِفَتَهم «يُؤْتَوْنَ» ثوابَ عملهم «مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا».

واختلف أهلُ التأويل في معنى الصبر الذي وَعَدَ اللهُ ما وعدَ عليه، فقال بعضهم: وَعَـدَهُمْ ما وَعَدَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بصبرِهم على الكتابِ الأوّل، واتباعِهم محمداً ﷺ، وصبرهم على ذلك.

وقال آخرون: بل وعدهم بصبرهم بإيمانهم بمحمدٍ ﷺ قبلَ أنْ يبعث، وباتباعهم إياهُ حين بُعِثَ.

وقـال آخـرون: إن قوماً كانوا مشركينَ أسلموا، فكانَ قومهم يؤذونهم، فنزلت «أولَئِكَ يُؤْتونَ أجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا»[1].

وقوله: «وَيَدْرَءُونَ بالحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ»، يقولُ: ويدفعون بحسناتِ أفعالهم التي يفعلونها سيئاتِهم «وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ» من الأموالِ «يُنْفِقُونَ» في طاعة الله، إما في جهادٍ في سبيلِ الله، وإما في صدقةٍ على محتاجٍ، أو في صِلَةِ رَحِمٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا سمع هؤلاءِ القوم الذين آتيناهم الكتابَ اللغوَ، وهو الباطلُ من القولِ.

---

(١) لم يبين المؤلف الأولى بالصـواب من هذه الأقـوال، على غير عادته، والظاهر أن القـولين الأولين همـا الأولى بالصـواب، وهمـا بمعنى واحـد لإطباق الجمهور أن المقصودين بهذا هم مؤمنو أهل الكتاب. وأيضاً لحديث ابي موسى الأشعري رضي الله عنه في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهـل الكتـاب آمن بنبيه وأدرك النبي ﷺ فآمن به واتبعـه وصـدقـه فله أجران. . . الحديث»: البخاري (٩٧)، ومسلم (١٥٤).

وقال آخرون: عنى باللغو في هذا الموضع ما كان أهل الكتاب ألحقوه في كتاب الله مما ليس هو منه.

وقال آخرون: نزلت في قوم كانوا مشركين فأسلموا فكان قومهم يؤذونهم.

وقوله: «أَعْرَضُوا عَنْهُ»، يقولُ: لم يُصْغُوا إليه ولم يستمعوه «وَقالُوا لَنا أعمالُنا وَلَكُمْ أعمالُكُمْ»، وهذا يدلُّ على أنَّ اللغو الذي ذكره الله في هذا الموضع. إنما هو سماعُ القومِ ممن يؤذيهم بالقولِ ما يكرهون منه في أنفسهم، وأنهم أجابوهم بالجميلِ من القولِ «لَنا أعمالُنا» قد رَضِينَا بها لأنفسنا، «وَلَكُمْ أعمالُكُمْ» قد رضيتم بها لأنفسكم.

وقوله: «سَلامٌ عَلَيْكُمْ»، يقولُ: أَمَنَة لكم مِنَّا أنْ نُسابَّكُمْ أو تَسمعُوا مِنَّا ما لا تُحِبُّون «لا نَبْتَغِي الجاهِلِينَ»، يقولُ: لا نريدُ محاورةَ أهلِ الجهلِ ومسابَّتَهُمْ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «إِنَّكَ» يا محمدُ «لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ» هدايتَهُ «وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ» أنْ يهديه من خَلْقه بتوفيقِه للإيمانِ به وبرسوله. ولو قيل: معناه: إنك لا تهدي مَنْ أحببته لقرابتِهِ منكَ، ولكنَّ الله يهدي مَنْ يشاء، كان مذهباً. «وَهُوَ أَعْلَمُ بالمُهْتَدِينَ»، يقول جَلَّ ثناؤه: والله أعلمُ مَنْ سبقَ له في عِلْمِه أنه يهتدي للرشاد، ذلكِ الذي يهديه الله فيسدِّدُه ويوفِّقُه.

وذُكر أنَّ هذه الآية نزلتْ على رسولِ الله ﷺ من أجلِ امتناعِ أبي طالب عَمِّهِ من إجابتِه إذْ دَعَاهُ إلى الإيمانِ بالله إلى ما دعاه إليه من ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقالتْ كفارُ قريش: إنْ نَتَّبعِ الحقَّ الذي جئتَنا به معكَ، ونتبرأْ من الأندادِ والآلهةِ، يَتخطَّفْنا الناسُ من أرضنا بإجماعِ جميعِهم على خِلافِنا وحَرْبِنا، يقولُ الله لنبيه: فقل: «أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً»، يقولُ: أو لم نُوَطِّئْ لهم بلداً حرّمنا على الناسِ سفكَ الدماءِ فيه، ومنعناهم من أنْ يتناولوا سُكَّانَهُ فيه بسوءٍ، وأمنا على أهله من أنْ يُصِيبَهُمْ بها غارةٌ، أو قتلٌ، أو سِباء.

وقولـه: «يُجْبَى إلَيْهِ ثَمَـرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ»، يقولُ: يُجمع إليه، وهو من قولهم: جبيتُ الماء في الحوضِ إذا جمعتُه فيه، وإنما أُريد بذلك: يُحملُ إليه ثَمراتُ كلِّ بلدٍ.

وقوله: «رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا»، يقولُ: ورزقاً رزقناهم من لدنا، يعني: من عندنا «وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولكنَّ أكثرَ هؤلاءِ المشركينَ القـائلينَ لرسـولِ الله ﷺ: «إنْ نَتَّبعِ الهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أرْضِنا»، لا يعلمونَ أنَّا نحنُ الذين مكَّنا لهم حرماً آمناً، ورزقناهم فيه، وجعلنا الثمرات من كلِّ أرضٍ تُجْبَى إليهم، فهم بجهلِهم بِمَنْ فعـلَ ذلـك بهم يكفـرون، لا يشكرون مَنْ أنعمَ عليهم بذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ» أَبْطَرَتها «مَعِيشتها» فبطرتْ، وأَشِرَتْ، وطَغَتْ، فكفرت رَبَّها. وقيل: بَطِرَتْ معيشتَها، فجعل الفعل للقرية، وهو في الأصل للمعيشة، كما يقال: أسْفَهَكَ رأيك فَسفِهته، وأبطرك مالُكَ فبطرته.

وقوله: «فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إلاَّ قَلَيلاً»، يقولُ: فتلك دُورُ القومِ الذين أهلكناهم بكفرهم بربِّهم ومنازلهم، لم تُسْكَنْ من بعدِهم إلا قليلاً، يقولُ: خَرِبَتْ من بعدِهم فلم يُعمرْ منها إلا أقلها، وأكثرها خرابٌ، ولفظ الكلام وإنْ كان خارجاً على أنَّ مساكنهم قد سُكِنتْ قليلاً، فإن معناه: فتلك مساكِنُهم لم تُسْكَنْ من بعدِهم إلا قليلاً منها، كما يقال: قضيتُ حَقَّكَ إلا قليلاً منه.

وقوله: «وَكُنَّا نَحْنُ الوَارِثِينَ»، يقولُ: ولم يكنْ لما خَرَّبْنَا من مساكنهم منهم وارثٌ، وعادتْ كما كانت قبل سُكناهم فيها، لا مالكَ لها إلا الله، الذي له ميراثُ السمواتِ والأرض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَما كانَ رَبُّكَ» يا محمدُ «مُهْلِكَ القُرَى» التي حوالي مكة في زمانكَ وعصرك «حتى يَبْعَثَ في أُمِّها رَسُولاً»، يقولُ: حتى يبعثَ في مكةَ رسولاً، وهي أمّ القرى، يتلو عليهم آياتِ كتابنا، والرسولُ محمدٌ ﷺ.

وقوله: «وَما كُنَّا مُهْلِكِي القُرَى إلاَّ وأهْلُها ظالِمونَ»، يقولُ: ولم نكن لنهلك قريةً وهي بالله مؤمنةً إنما نُهلكها بِظُلْمِها أنفُسَها بكفرِها بالله، وإنما

أهلكنا أهلَ مكةَ بكفرِهم بربِّهم وظُلْمِ أنفسهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وما أُعطيتم أيها الناسُ من شيءٍ من الأموالِ والأولاد، فإنما هو متاعٌ تتمتعون به في هذه الحياة الدنيا، وهو من زِينَتِهَا التي يُتَزَيَّنُ به فيها، لا يغني عنكم عند الله شيئاً، ولا ينفعكم شيءٌ منه في مَعادِكم، وما عندَ اللهِ لأهلِ طاعته وولايته خيرٌ مما أُوتيتموهُ أنتم في هذه الدنيا من متاعها وزينتها وأبقى. يقولُ: وأبقى لأهلِه، لأنه دائمٌ لا نفادَ له.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أفَمَنْ وعَدناهُ من خَلْقِنا على طاعتِه إيَّانَا الجنةَ، فآمَنَ بما وعدناه وصدَّقَ وأطاعنا، فاستحقَّ بطاعتِه إيانا أنْ نُنْجزَ له ما وعدناهُ، فهو لاقٍ ما وُعِدَ، وصائرٌ إليه كَمَنْ متَّعناهُ في الحياة الدنيا متاعها، فتمتع به، ونسي العملَ بما وعدنا أهلَ الطاعة، وتركَ طلبه، وآثرَ لذَّةً عاجلةً على آجلة، ثم هو يوم القيامة إذا ورد على الله من المُحْضَرينَ، يعني: من المُشْهَدين عذابَ الله وأليمَ عقابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَاۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويوم ينادي ربُّ العِزَّةِ الذين أشركوا به الأندادَ والأوثانَ في الدنيا، فيقول لهم: «أَيْنَ شُرَكائيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ» أنهم لي في الدنيا شركاء «قالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمْ القَوْلُ»، يقولُ: قال الذين وَجَبَ عليهم غضبُ الله ولعنتـه، وهُمُ الشياطينُ الـذين كانوا يغوون بني آدم: «رَبَّنا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنا، أَغْوَيْناهُمْ كَمَا غَوَيْنا».

وقوله: «تَبَرَّأنا إلَيْكَ»، يقولُ: تبرأنا من ولايتهم ونُصْرتِهم إليك «ما كانُوا إيَّانَا يَعْبُدُونَ»، يقولُ: لم يكونوا يعبدوننا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقِيلَ للمشركينَ بالله الآلهةَ والأندادَ في الدنيا «ادْعُوا شركاءَكُمْ» الذين كنتم تَدْعُونَ من دونِ الله. «فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ»، يقولُ: فلم يُجيبُوهم. «ورأَوُا العَذَابَ»، يقولُ: وعاينوا العذابَ «لَوْ أَنَّهُمْ كانُوا يَهْتَدُونَ»، يقولُ: فوَدُّوا حين رأوا العذابَ لو أنهم كانوا في الدنيا مهتدين للحقِّ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعـالَى: وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويوم ينادي اللهُ هؤلاءِ المشركينَ فيقول لهم: «ماذَا أَجَبْتُمُ المُرْسَلِينَ» فيما أرسلناهم به إليكم من دعائِكم إلى توحيدنا، والبراءة من الأوثانِ والأصنام «فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأنْباء يَوْمَئِذٍ»، يقولُ: فخفيت عليهم الأخبارُ من قولِهم: قد عَمِيَ عني خبرُ القوم: إذا خفيَ. وإنما عُنِيَ بذلك أنهم عميت

عليهم الحجةُ ، فلم يدروا ما يحتجون، لأنَّ الله تعالى قد كان أبلغَ إليهم في المعـذرةِ، وتابعَ عليهم الحجةَ، فلم تكن لهم حجةٌ يحتجون بها، ولا خبر يخبرون به مما تكونُ لهم به نجاةٌ ومَخْلصٌ.

وقوله: «فَهُمْ لا يَتساءَلُونَ» بالأنسابِ والقرابة.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «فأمَّا مَنْ تابَ» من المشركينَ، فأنابَ وراجعَ الحقَّ، وأخلصَ للهِ الألوهةَ، وأفردَ له العبادةَ، فلم يشركْ في عبادته شيئاً. «وآمَنَ»، يقولُ: وصدَّق بنبيه محمدٍ ﷺ، «وَعَمِلَ صَالِحاً»، يقولُ: وعمل بما أمرهُ اللهُ بعملِه في كتابه، وعلى لسانِ رسولِهِ ﷺ، «فَعَسَى أن يكُونَ مِنَ المُفْلِحِينَ»، يقولُ: فهو من المُنْجِحينَ المُدْرِكينَ طَلبتهم، عند الله الخالدينَ في جنانِهِ، وعَسَى من الله واجبٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَرَبُّكَ» يا محمدُ «يَخْلُقُ ما يَشَاءُ» أنْ يخلقه «وَيَخْتارُ» لولايته الخِيرةَ من خَلْقِه، ومَنْ سَبقتْ له من السعادة. وإنما قال جَلَّ ثَناؤُهُ: «وَيَخْتَارُ ما كانَ لَهُمُ الخِيرَةُ»، والمعنى: ما وصفتُ، لأنَّ المشركينَ كانوا فيما ذُكِرَ عنهم يختارون أموالَهم، فيجعلونها لآلهتِهم، فقال اللهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: وربُّكَ يا محمدُ يخلقُ ما يشاءُ أنْ يخلقه، ويختارُ للهدايةِ والإيمانِ والعملِ الصالح من خَلْقِهِ ما هو في سابقِ عِلْمِه أنه خِيرتُهم، نظيرَ ما كانَ من هؤلاءِ

المشركينَ لآلهتهم خيار أموالِهم، فكذلكَ اختياري لنفسي، واجتبائي لولايتي، واصطفائي لخِدْمتي وطاعتي خِيَارَ مملكتي وخلقي.

وقوله سبحانه وتعالى: «عَمَّا يُشْرِكُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه تنزيهاً لله وتبرئةً له، وعُلُوّاً عما أضافَ إليه المشركونَ من الشركِ، وما تخرَّصُوه من الكذبِ والباطلِ عليه. وتأويل الكلام: سبحان الله وتعالى عن شركهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٦٩ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٧٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ورَبُّكَ يا محمدُ يعلمُ ما تُخْفي صدورُ خَلْقِه، وهو مِنْ أكننتُ الشيءَ في صدري: إذا أضمرتُه فيه، وكننتُ الشيءَ: إذا صُنْتُه. «وما يُعْلِنُونَ»، يقولُ: وما يُبْدُوْنَهُ بألسنتهم وجوارِحهم، وإنما يعني بذلك أنَّ اختيارَ مَنْ يختارُ منهم للإيمانِ به على عِلْمٍ منه بسرائرِ أمورِهم وبواديها. وأنه يختارُ للخيرِ أهْلَهُ، فيوفِّقُهم له، ويولي الشرَّ أهلَهُ، ويُخَلِّيهم وإياهُ.

وقوله: «وَهُوَ اللهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وربك يا محمدُ المعبودُ الذي لا تصلحُ العبادةُ إلَّا له، ولا معبودَ تجوزُ عبادته غيره «لَهُ الحَمْدُ في الأُولى» يعني في الدنيا والآخرة. «وَلَهُ الحُكْمُ»، يقولُ: وله القضاءُ بين خَلْقِه «وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ»، يقولُ: وإليه تُرَدُّونَ من بعدِ مماتِكم، فيقضي بينكم بالحقّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝٧١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «قُلْ»، يا محمدُ، لهؤلاءِ المشركينَ باللهِ: أيها القومُ أرأيتم إنْ جعلَ اللهُ عليكم الليلَ دائماً لا نهارَ إلى يومِ القيامة يَعْقُبه. والعربُ تقول لكلِّ ما كانَ متصلاً لا ينقطعُ من رخاءٍ أو بلاءٍ أو نعمةٍ هو سَرْمَدٌ.

وقوله: «مَنْ إلَهٌ غيرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بضياءٍ»، يقولُ: مَنْ معبودٌ غيرُ المعبودِ الذي له عبادةُ كُلِّ شيءٍ يأتيكم بضياءِ النهارِ، فتستضيئونَ به. «أفلا تَسْمَعُونَ»، يقولُ: أفلا تَرْعُونَ ذلك سَمْعَكُمْ، وتفكرون فيه فتتعِظُونَ، وتعلمونَ أنَّ ربكم هو الـذي يأتي بالليلِ ويذهبُ بالنهارِ إذا شاء، وإذا شاء أتى بالنهارِ وذهبَ بالليل، فينعم باختلافِهِمَا كذلك عليكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٧٢﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه لنبيه محمـدٍ ﷺ «قُلْ»، يا محمدُ لمشركي قومك «أرأيْتُمْ» أيها القوم «إنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً» دائماً لا ليلَ معه أبداً «إلى يَوْمِ القِيامَةِ مِنْ إلَهٌ غيرُ اللهِ» مَنْ معبودٌ غيرُ المعبودِ الذي له عبادةُ كلِّ شيء «يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ» فتستقرُّونَ وتهدؤون فيه. «أفَلا تُبْصِرُونَ»، يقولُ: أفلا ترون بأبصاركم اختلافَ الليلِ والنهار عليكم، رحمة من الله لكم، وحجة منه عليكم، فتعلَمُوا بذلك أنَّ العبادةَ لا تصلحُ إلا لمن أنعمَ عليكم بذلك دونَ غيرِه، ولمن له القُدرةُ التي خالفَ بها بين ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَمِنْ رَحْمَتِهِ» بكم أيها الناسُ «جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ والنَّهارَ» فخالفَ بينهما، فجعل هذا الليلَ ظلاماً «لِتَسْكُنُوا فِيهِ» وتَهْدَؤوا وتستقرُّوا لراحةِ أبدانِكم فيه من تعبِ التصرُّفِ الذي تتصرَّفُونَ نهاراً لمعايشتكم، وجعل هذا النهارَ ضياءً تُبصرونَ فيه، فتتصرَّفُونَ بأبصارِكم فيه لمعايشتكم، وابتغاءَ رزقهِ الذي قَسَمَهُ بينكم بفضْلِه الذي تفضَّلَ عليكم.

وقوله: «وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولتشكروهُ على إنعامِه عليكم بذلك، فَعَلَ ذلك بكم لِتُفْرِدُوه بالشكرِ، وتُخْلِصُوا له الحمدَ، لأنه لم يشركه في إنعامِه عليكم بذلك شريكٌ، فلذلك ينبغي أن لا يكونَ له شريكٌ في الحمد عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٧٤ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝٧٥﴾

يعني تعالى ذِكْرُه: ويومَ ينادي رَبُّكَ يا محمدُ هؤلاءِ المشركينَ فيقولُ لهم: «أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ» أيها القومُ في الدنيا أنهم شركائي.

وقوله: «وَنَزَعْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً» وأحضرنا من كلِّ جماعةٍ شهيدَها وهو نَبِيُّهَا الذي يشهدُ عليها بما أجابته أمتُه فيما أتاهُمْ به عن اللهِ من الرسالة.

وقوله: «فَقُلْنا هاتُوا بُرْهانَكُمْ»، يقولُ: فقلنا لأمةِ كُلِّ نبيٍّ منهم التي رَدَّتْ نصيحتَهُ، وكذَّبتْ بما جاءها به من عند رَبِّهم، إذْ شهدَ نبيُّها عليها بإبلاغِه إياها رسالةَ الله. «هاتُوا بُرْهَانَكُمْ»، يقولُ: فقال لهم: هاتوا حُجَّتكم على إشراكِكم بالله ما كنتم تشركونَ مع إعذارِ اللهِ إليكم بالرسلِ، وإقامته عليكم بالحجج.

وقوله: «فَعَلِمُوا أنَّ الحَقَّ للهِ»، يقولُ: فعلموا حينئذٍ أنَّ الحجةَ البالغةَ لله عليهم، وأنَّ الحقَّ لله، والصدقَ خبرُه، فأيقنوا بعذابٍ من اللهِ لهم دائمٌ. «وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ»، يقولُ: واضمحلَّ فذهبَ الذي كانوا يُشركونَ باللهِ في الدنيا، وما كانوا يتخرَّصُونَ، ويكذبون على رَبِّهم، فلم ينفعهم هنالك بل ضَرَّهم وأصلاهم نارَ جهنم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «إنَّ قارُونَ» وهو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوي ابن يعقوب «كانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى»، يقولُ: كان من عشيرةِ موسى بن عمران النبيِّ ﷺ، وهو ابنُ عمه لأبيهِ وأمهِ وذلك أنَّ قارونَ هو قارونُ بن يصهر بن قاهث، وموسى: هو موسى بن عمران بن قاهث، كذا نَسَبَهُ ابنُ جُرَيج، وأكثر أهلِ العلم في ذلك على ما قاله ابنُ جريج.

وقوله: «فَبَغَى عَلَيْهِمْ»، يقولُ: فتجاوز حَدَّهُ في الكِبْرِ والتَّجبُّرِ عليهم.

وقوله: «وآتَيْناهُ مِنَ الكُنُوزِ ما إنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوءُ بالعُصْبَةِ أُولي القُوَّةِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وآتينا قارونَ من كنوزِ الأموالِ ما إنَّ مفاتحه، وهي جمع مفتح، وهو الذي يفتح به الأبواب، لَتُثْقِلُ العُصْبَةَ.

وقوله: «أُولي القُوَّةِ» يعني: أُولي الشدّة.

وقوله: «إذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَح إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الفَرِحِينَ»، يقولُ: إذ قال قومه: لا تَبْغِ ولا تَبْطَر فرحاً، إنَّ الله لا يحبُّ مِنْ خَلْقِه الأشِرينَ البَطِرِينَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مخبراً عن قِيلِ قومِ قارونَ له: لا تبغِ يا قارونُ على قومكَ بكثرةِ مالك، والتمسْ فيما آتاكَ اللهُ من الأموالِ خيرات الآخرةِ بالعملِ فيها بطاعةِ الله في الدنيا.

وقوله: «وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا»، يقولُ: ولا تترك نصيبكَ وحظكَ من الدنيا أنْ تأخذَ فيها بنصيبكَ من الآخرة، فتعمل فيه بما ينجيكَ غداً من عقابِ الله.

وقوله: «وأحْسِنْ كمَا أحْسَنَ اللهُ إلَيْكَ»، يقولُ: وأحسنْ في الدنيا إنفاقَ مالِكَ الذي آتاكَهُ اللهُ في وجوهِه وسُبُلِه، كما أحسنَ اللهُ إليكَ، فوسَّعَ عليكَ منه، وبسطَ لكَ فيها.

«وَلَا تَبْغِ الفَسَادَ في الأرْضِ»، يقولُ: ولا تلتمسْ ما حرَّمَ اللهُ عليكَ من البغي على قومكَ. «إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُفْسِدِينَ»، يقولُ: إن الله لا يحبُّ بغاةَ البغي والمعاصي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال قارونُ لقومِهِ الذين وعظوه: إنما أوتيتُ هذه الكنوزَ على فضلِ علمٍ عندي عَلِمَهُ اللهُ مني، فرضيَ بذلك عني، وفَضَّلني بهذا

المالِ عليكم، لعلمِه بفضلي عليكم.

وقولـه: «أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ القُـرُونِ مَنْ هو أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وأَكْثَرُ جَمْعاً»، يقول جَلَّ ثناؤُه: أو لم يعلم قارونُ حين زعمَ أنه أوتيَ الكنوزَ لفضلِ علمٍ عنده علمته أنا منه، فاستحقَّ بذلك أنْ يُؤتى ما أُوتيَ من الكنوزِ، أنَّ الله قد أهلكَ من قبله من الأممِ منْ هو أشـدُّ منـه بطشـاً، وأكثر جمعاً للأموال؛ ولو كان اللهُ يؤتي الأموالَ مَنْ يؤتيه لفضلٍ فيه وخيرٍ عنده، ولِرضَاهُ عنه. لم يكن يهلك مَنْ أهلكَ من أربابِ الأموال الذين كانوا أكثر منه مالاً، لأنَّ مَنْ كان عنه راضياً، فمحالٌ أنْ يهلكه اللهُ، وهو عنه راضٍ، وإنما يهلكُ مَنْ كان عليه ساخطاً.

وقوله: «ولا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ المُجْرِمُونَ»، قيل: إن معنى ذلك أنهم يدخلون النارَ بغير حسابٍ، وهو قول قتادة.

وقيل: معنى ذلـك: أنَّ المـلائكـةَ لا تسـأل عنهم، لأنهم يعـرفـونهم بسيماهم، وهو قول مجاهد.

وقيل معنى ذلـك: ولا يُسْـأَلُ عن ذنوبِ هؤلاءِ الذينَ أهلكَهُم اللهُ من الأممِ الماضيةِ المجرمونَ فِيمَ أُهْلِكُوا. فالهاء والميم في قوله: «عَنْ ذُنُوبِهِم» على هذا التأويل لِمَنْ الذي في قوله: «أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ القُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً»، وعلى التأويل الأوَّلِ الذي قاله مجاهد وقَتادة للمجرمين، وهي بأنْ تكون من ذِكْرِ المحرمينَ أوْلى، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه غيرُ سائلٍ عن ذنوبِ مذنبٍ غيرَ مَنْ أذنبَ، لا مؤمنٍ ولا كافر. فإذْ كان ذلك كذلك، فمعلومٌ أنه لا معنى لخصوصِ المجرمين، لو كانت الهاء والميم اللتان في قولـه: «عَنْ ذُنُوبِهم»، لمن الذي في قوله: «مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً» من دونِ المؤمنينَ، يعني لأنه غير مسؤولٍ عن ذلك مؤمنٌ ولا كافرٌ، إلا الذين رَكِبُوه واكتسبُوه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فخرج قارونُ على قومِهِ في زينته، وهي فيما ذُكِرَ ثيابُ الأرجوان.

«قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيا: يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قال الذين يريدون زينةَ الحياة الدنيا من قوم قارون: يا ليتنا أُعْطِينا مِثْلَ ما أُعطِيَ قارونُ من زينتها. «إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ»، يقولُ: إنَّ قارونَ لذو نصيبٍ من الدنيا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقال الذين أُوتوا العلم باللهِ، حين رأوا قارونَ خارجاً عليهم في زينتهِ، للذين قالوا: يا ليتَ لنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارون: وَيْلَكُمْ اتَّقُوا اللهَ وأطيعوه، فثوابُ الله وجزاؤُه لمن آمنَ به وبرسله، وعملَ بما جاءتْ به رُسُلُه من صالحاتِ الأعمالِ في الآخرة، خيرٌ مما أُوتِيَ قارونُ من زينته وماله.

وقوله: «وَلا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ»، يقولُ: ولا يُلَقَّاها: أي ولا يوفَّقُ لِقِيلِ هذه الكلمةِ، وهي قوله: «ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وعَمِلَ صَالِحاً» والهاء والألف كناية عن الكلمة، وقال: «إِلَّا الصَّابِرُونَ» يعني بذلك: الذينَ صبروا عن طلب زينةِ الحياةِ الدنيا، وآثروا ما عندَ اللهِ من جزيلِ ثوابهِ على صالحاتِ الأعمالِ على لذّاتِ الدنيا وشهواتها، فَجَدُّوا في طاعةِ الله، ورفضوا الحياةَ الدنيا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ۝٨١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فخسفنا بقارونَ وأهل داره. وقيل: وبدارِه، لأنه ذكر أنَّ موسى إذْ أمرَ الأرضَ أنْ تأخذه أمرها بأخذِهِ، وأخذ مَنْ كان معه من جلسائِهِ في داره، وكانوا جماعةً جلوساً معه، وهم على مثل الذي هو عليه من النفاقِ والمؤازرةِ على أذى موسى.

وقوله: «فَمَا كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ»، يقولُ: فلم يكن له جُنْدٌ يرجع إليهم، ولا فئةٌ ينصرونه لما نزل به من سخطه. بل تَبَرَّؤُوا منه «وَما كانَ مِنَ المُنْتَصِرِينَ»، يقولُ: ولا كان هو ممن ينتصر من الله إذا أحلَّ به نقمتَهُ، فيمتنع لقوَّته منها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأصبحَ الذين تَمَنَّوْا مكانَهُ بالأمسِ من الدنيا وغناه وكثرة ماله، وما بُسِطَ له منها بالأمسِ، يعني قبلَ أنْ ينزلَ به ما نزلَ من سخطِ الله وعقابه، يقولون: وَيْكَأَنَّ الله، ومعناه: ألم تَرَ أن.

فتأويل الكلامِ: وأصبح الذين تمنوا مكانَ قارونَ وموضِعَهُ من الدنيا بالأمسِ يقولون لَمَّا عاينوا ما أحلَّ اللهُ به من نقمته، ألم تَرَ يا هذا أنَّ الله يبسطُ الرزق لمن يشاءُ من عبادِهِ فيوسع عليه، لا لفضلِ منزلتِهِ عنده، ولا لكرامته عليه، كما كان بسط من ذلك لقارونَ لا لفضله ولا لكرامته عليه. «وَيَقْدِرُ»،

يقولُ: ويضيق على مَنْ يشاء من خَلْقِه ذلك، ويقتر عليه، لا لهوانِه، ولا لسخطه عمله.

وقوله: «لَوْلَا أنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا»، يقول: لولا أنْ تَفَضَّلَ علينا، فصرفَ عنا ما كنا نتمناهُ بالأمسِ «لَخَسَفَ بِنا».

وقوله: «وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الكافِرُونَ»، يقولُ: ألَمْ تعلم أنه لا يفلحُ الكافرونَ فَتُنْجِح طلباتهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝٨٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: تلك الدارُ الآخرةُ نجعل نعيمَها للذينَ لا يريدونَ تَكَبُّراً عن الحقِّ في الأرضِ وتجبراً عنه ولا فساداً: يقولُ: ولا ظُلْمِ الناسِ بغير حقٍّ وعملاً بمعاصي اللهِ فيها.

وقوله: «وَالعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والجنةُ للمتقينَ»، وهُمْ الذين اتقوا معاصي الله، وأدّوا فرائضه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٨٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: من جاء الله يومَ القيامةِ بإخلاصِ التوحيد، فله خيرٌ، وذلك الخير هو الجنة والنعيمُ الدائمُ، ومَنْ جاء بالسيئة، وهي: الشركُ بالله.

وقوله: «فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ»، يقولُ: فلا يثاب الذين عملوا السيئات على أعمالهم السيئة «إلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ»، يقولُ: إلا جزاء ما كانوا يعملون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذي أنزلَ عليكَ يا محمدُ القرآنَ.

واختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «لَرَادُّكَ إلى مَعادٍ»، فقال بعضهم: معناه: لمصيركَ إلى الجنة.

وقال آخرون: معنى ذلك: لرادُّوكَ إلى الموتِ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: لَرَادّك إلى الموضِعِ الذي خرجتَ منه، وهو مكة.

والصوابُ من القول في ذلك عندي قولُ مَنْ قال: لرادُّكَ إلى عادتك من الموتِ، أو إلى عادتك حيث ولدتَ، وذلك أنَّ المعادَ في هذا الموضع: المفعل من العادة ليس من العَوْدِ، إلا أنْ يوجه موجه تأويل قولِهِ «لَرَادّكَ» لمصيركَ، فيتوجه حينئذ قوله: «إلى مَعادٍ» إلى معنى العَوْدِ، ويكون تأويله: إنَّ الذي فرض عليك القرآنَ لمصيرك إلى أنْ تعودَ إلى مكةَ مفتوحةً لك.

وقوله: «قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بالهُدَى وَمَنْ هُوَ في ضَلالٍ مُبِينٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ»، يا محمدُ، لهؤلاءِ المشركينَ: ربي أعلمُ مَنْ جاء بالهُدى الذي من سَلَكَهُ نجا، ومَنْ هو في جورٍ عن قَصْدِ السبيلِ منا ومنكم.

وقوله: «مُبين»، يعني أنه يبين للمفكر الفهم إذا تأمَّله وتدبَّره، أنه ضلالٌ، وجورٌ عن الهدى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وما كنتَ ترجو يا محمدُ أنْ ينزلَ عليك هذا القرآن، فتعلم الأنباءَ والأخبارَ عن الماضينَ قبلكَ والحادثة بعدك، مما لم يكن بعد، مما لم تَشْهدهُ ولا تشهدهُ، ثم تتلو ذلك على قومكَ من قريش، إلا أنَّ رَبَّك رحمكَ، فأنزلَهُ عليكَ، فقوله: «إلاَّ رَحْمَة مِنْ رَبِّكَ» استثناء منقطع.

وقوله: «فَلا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِلْكافِرِينَ»، يقولُ: فاحمد رَبَّكَ على ما أنعمَ به عليكَ من رحمتِه إياكَ بإنزالِه عليكَ هذا الكتابَ، ولا تكونَنَّ عَوْناً لمن كفرَ بربك على كفرِه به، وقيل: إنَّ ذلك من المؤخَّرِ الذي معناه التقديمُ. وإن معنى الكلام: إنَّ الذي فَرضَ عليك القرآنَ فأنزله عليكَ، وما كنتَ ترجو أنْ ينزلَ عليك، فتكون نبياً قبل ذلك لرادُّوكَ إلى مَعَادٍ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: ولا يصرفنَّكَ عن تبليغِ آياتِ الله وحججه بعد أنْ أنزلها إليكَ رَبُّكَ يا محمدُ هؤلاءِ المشركونَ بقولهم: «لَوْلاَ أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسَى» وادْعُ إلى رَبِّكَ وبَلِّغْ رسالتَهُ إلى مَنْ أرسلكَ إليه بها. «وَلا تَكُونَنَّ مِنَ المُشْـرِكِينَ»، يقولُ: ولا تتركنَّ الدعاءَ إلى رَبِّكَ، وتبليغ المشركينَ رسالته، فتكون ممن فعَلَ فِعْلَ المشركينَ بمعصيتِه رَبَّهُ، وخلافه أمره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

القصص: ٨٨

يقول تعالى ذِكْرُه: ولا تعبد يا محمدُ مع معبودك الذي له عبادةُ كُلِّ شيءٍ معبوداً آخرَ سواه.

وقوله: «لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»، يقولُ: لا معبودَ تصلحُ له العبادةُ إلا اللهُ الذي كُلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهه.

واختلف في معنى قوله: «إِلَّا وَجْهَهُ»، فقال بعضهم: معناه: كلُّ شيءٍ هالك إلا هو.

وقال آخرون: معنى ذلك: إلا ما أُريدَ به وجهه.

وقوله: «لَهُ الحُكْمُ»، يقولُ: له الحُكمُ بين خلقِهِ دونَ غيرِه، ليسَ لأحدٍ غيره معه فيهم حُكْمٌ. «وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ»، يقولُ: وإليه تُرَدُّونَ من بعدِ مماتِكُم، فيقضي بينكم بالعدلِ، فيجازِي مؤمنيكم جزاءهم، وكفاركم ما وَعَدَهُمْ.

سُورَةُ العَنكَبُوتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾

وقد بيَّنا معنى قوله تعالى ذِكْرُهُ «آلمٓ» وذكرنا أقوالَ أهلِ التأويل في تأويله، والذي هو أوْلى بالصوابِ من أقوالهم عندنا فيما مضى بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع(١).

وأما قوله: «أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ» فإنَّ معناه: أظَنَّ الذين خرجوا يا محمدُ من أصحابك من أذى المشركين إياهم أنْ نتركهم بغير اختبارٍ ولا ابتلاء امتحانٍ، بأنْ قالوا: آمنا بك يا محمدُ فصدَّقْناكَ فيما جِئْتَنَا به من عندِ الله، كلا لنختبرهم، ليتبينَ الصادقُ منهم من الكاذب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولقد اختبرنا الذين من قبلهم من الأممِ، مِمَّنْ أرسلنا إليهم رسلنا، فقالوا مِثْلَ ما قالته أمتكَ يا محمدُ بأعدائهم، وتمكيننا إياهم من أذاهم كموسى إذْ أرسلناه إلى بني إسرائيلَ، فابتليناهم بفرعون ومَلَئِهم، وكعيسى

(١) انظر أول سورة البقرة.

إِذْ أرسلناهُ إلى بني إسرائيل، فابتلينا مَن اتَّبعهُ بمن تولَّى عنه، فكذلك ابتلينا أتباعكَ بمخالفيكَ من أعدائك «فَلَيَعْلَمَنَّ الله الَّذِينَ صَدَقُوا» منهم في قِيلِهم آمنا «ولَيَعْلَمَنَّ الكاذِبين» منهم في قِيلهم ذلك، والله عالمٌ بذلك منهم قبلَ الاختبارِ، وفي حال الاختبارِ، وبعد الاختبارِ، ولكن معنى ذلك: ولَيُظْهِرَنَّ الله صِدْقَ الصادقِ منهم في قِيله آمنا بالله من كذبِ الكاذبِ منهم بابتلائِه إياه بعدوِّهِ، ليعلم صدقه من كذبه أولياؤه، على نحوِ ما قد بيَّناه فيما مضى قبلُ.

وذكر أنَّ هذه الآية نزلتْ في قومٍ من المسلمين عَذَّبهم المشركونَ، فَفُتِنَ بعضُهم، وصبرَ بعضُهم على أذاهم حتى أتاهم الله بفرجٍ من عنده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أم حَسِبَ الذين يشركون بالله فيعبدونَ معه غيرَهُ، وهم المَعْنِيُّونَ بقولـه: «الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أنْ يَسْبِقُونا»، يقول: أنْ يُعْجِزُونَا فيفوتونا بأنفسهم، فلا نقدرُ عليهم فننتقم منهم لِشِرْكِهم بالله.

وقولـه: «ساءَ مَا يَحْكُمونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ساء حُكْمُهم الذي يحكمونَ بأنَّ هؤلاء الذين يعملون السيئاتِ يسبقوننا بأنفسهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: مَنْ كان يرجو الله يومَ لقائه، ويطمع في ثوابه، فإنَّ

أجلَ الله الذي أجَّلَهُ لبعثِ خَلْقِه للجزاءِ والعقابِ لآتٍ قريباً، «وهو السميعُ»، يقول: والله الذي يرجو هذا الراجي بلقائه ثوابَهُ، السميعُ لقوله: آمنا بالله، «العليمُ» بصدقِ قِيله.

وقوله: «وَمَنْ جَاهَدَ فإنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ»، يقول: وَمَنْ يجاهد عدوَّهُ من المشـركينَ فإنمـا يجاهدُ لنفسه، لأنه يفعل ذلك ابتغاءَ الثوابِ من الله على جهادِه، والهرب من العقابِ، فليس بالله إلى فِعْلِه ذلك حاجةٌ، وذلك أنَّ الله غنيٌّ عن جميعِ خلقه، له الملكُ والخلقُ والأمر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: والذين آمنوا بالله ورسوله، فَصَحَّ إيمانُهم عند ابتلاءِ الله إياهم وفتنته لهم، ولم يرتدُّوا عن أديانهم بأذى المشركين إياهم «وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ» التي سَلَفَتْ منهم في شركهم «وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّـذِي كَانُـوا يَعْمَلُونَ»، يقول: ولَنُثِيبَنَّهُمْ على صالحاتِ أعمالهم في إسلامهم، أحسنَ ما كانوا يعملونَ في حالِ شِرْكِهم مع تكفيرنا سيئاتِ أعمالهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۚ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَوَصَّيْنَا الإنْسانَ» فيما أنزلنا إلى رسولنا «بِوَالِدَيْهِ» أن يفعل بهما «حُسْناً».

وقوله: «وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما»، يقول: ووصينا الإنسانَ، فقلنا له: إنْ جاهدك والداكَ لتشركَ بي ما ليسَ لك به علمٌ أنه ليس لي شريك، فلا تطعهما فتشرك بي ما ليسَ لك به علمٌ ابتغاءَ مَرْضَاتِهما، ولكنْ خالفهما في ذلك «إليَّ مرجعكم»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إليَّ مَعَادُكم ومصيرُكُم يوم القيامة. «فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»، يقول: فأخبركم بما كنتم تعملون في الدنيا من صالحِ الأعمالِ وسَيِّئاتِها، ثم أُجازيكم عليها المحسن بالإحسان، والمسيء بما هو أهله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «والَّذِينَ آمَنُوا» بالله ورسولِهِ «وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ» من الأعمالِ، وذلك أن يُؤَدُّوا فرائضَ الله، ويجتنبوا محارِمَهُ «لَنُدْخِلَنَّهُمْ في الصَّالِحِينَ» في مَدْخلِ الصالحين، وذلك الجنة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومن الناس مَنْ يقولُ: أقررنا بالله فوحَّدْنَاهُ، فإذا آذاهُ المشركون في إقرارِه بالله، جعلَ فتنةَ الناس إياهُ في الدنيا، كعذابِ الله في الآخرة، فارتدَّ عن إيمانِه بالله، راجعاً على الكُفْر به. «وَلَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ» يا محمدُ أهلَ الإيمانِ به «لَيَقُولُنَّ» هؤلاء المرتدُّونَ عن إيمانهم، الجاعلونَ فتنةَ الناس كعذابِ الله: «إِنَّا كُنَّا» أيها المؤمنون «مَعَكُمْ» ننصركم على أعدائِكم،

كذباً وإفكاً، يقول الله: «أوَ لَيْسَ الله بأعْلَمَ» أيها القومُ من كلِّ أحدٍ «بمَا في صُدُور العَالمينَ» جميع خَلْقِه، القائلينَ آمنَّا بالله وغَيرهم، فإذا أُوذِيَ في الله ارتَّدَ عن دينِ الله فكيف يُخَادَعُ مَنْ كان لا يَخْفَى عليه خافيةٌ، ولا يستترُ عنه سر ولا علانية.

وذُكِرَ أنَّ هذه الآيَةَ نزلتْ في قومٍ من أهلِ الإيمانِ كانوا بمكة، فخرجوا مهاجرين، فأُدْرِكُوا وأُخِذُوا فَأَعْطُوا المشركينَ لَمَّا نالَهُمْ أذاهم ما أرادُوا منهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ۝١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وليعلمنَّ الله أولياءَ الله، وحِزْبَهُ أهلَ الإيمانِ بالله منكم أيها القومُ، وليعلمنَّ المنافقينَ منكم حتى يميزوا كُلَّ فريقٍ منكم من الفريقِ الآخر، بإظهارِ الله ذلك منكم بالمحنِ والابتلاءِ والاختبارِ وبمسارعةِ المُسَارِعِ منكم إلى الهجرةِ من دارِ الشركِ إلى دارِ الإسلامِ، وتثاقلِ المتثاقلِ منكم عنها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وقالَ الذين كفروا بالله من قريش لِلَّذِينَ آمنوا بالله منهم «اتَّبِعُوا سَبِيلَنا»، يقول: قالوا: كونوا على مِثْلِ ما نحنُ عليه من التكذيب بالبعثِ بعد المماتِ وجحودِ الثوابِ والعقابِ على الأعمال. «وَلْنَحْمِلْ خطاياكُمْ»، يقول: قالوا فإنكم إن اتبعتم سبيلَنا في ذلك، فَبُعِثْتُمْ من بعد

المماتِ، وجُوزِيتم على الأعمالِ، فإنَّا نتحملُ آثام خطاياكُمْ حينئذٍ.

وقوله: «وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ»، وهذا تكذيبٌ من الله للمشركين القائلين للذين آمنوا «اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: وكذبوا في قِيلِهم ذلك لهم، ما هُمْ بحاملينَ من آثامِ خطاياهم من شيءٍ، إنهم لكاذبون[1] فيما قالوا لهم ووعدُوهم، من حملِ خطاياهم إنْ هم اتَّبَعُوهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وليحملنَّ هؤلاء المشركونَ باللهِ القائلونَ للذين آمنوا به اتَّبِعُوا سبيلَنا ولنحملْ خطاياكم أوزارَ أنفسِهم وآثامها، وأوزارَ مَنْ أضَلُّوا وصَدُّوا عن سبيلِ الله مع أوزارِهم، ولَيُسْأَلُنَّ يومَ القيامةِ عما كانوا يُكَذِّبُونهم في الدنيا بوعدهم إياهم الأباطيلَ، وقِيلِهم لهم: اتَّبِعُوا سبيلنا ولنحملْ خطاياكم فيفترونَ الكذبَ بذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾﴾

وهذا وعيدٌ من الله تعالى ذكره هؤلاء المشركينَ من قريش، القائلينَ للذين آمنوا: اتَّبِعُوا سبيلَنا، ولنحملْ خطاياكم. يقولُ لنبيه محمدٍ ﷺ: لا يَحْزُنَنَّكَ يا محمدُ ما تَلْقَى من هؤلاء المشركين أنتَ وأصحابُكَ من الأذى، فإني وإنْ أمليتُ

---

(١) في المطبوع لكاذبوا.

لهم فأطلتُ إملاءهم، فإنَّ مصيرَ أمرِهم إلى البوارِ، ومصيرَ أمرِكَ وأمر أصحابِكَ إلى العُلُوِّ والظفرِ بهم، والنجاةِ مما يحلُّ بهم من العقاب، كَفِعْلِنَا ذلك بنوحٍ، إذْ أرسلناهُ إلى قومِه، فلبثَ فيهم ألفَ سنةٍ إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى التوحيد، وفراقِ الآلهةِ والأوثانِ، فلم يَزِدْهُمْ ذلك من دعائِه إياهم إلى الله من الإقبالِ إليه، وقبولِ ما أتاهم به من النصيحةِ من عند الله إلَّا فراراً.

وقوله: «وَهُمْ ظالِمُونَ»، يقول: وهم ظالمون أنفسهم بكفرهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فأنجينا نوحاً وأصحابَ سفينتِه، وهم الذين حملهم في سفينتِه من ولدِه وأزواجِهم.

وقد بينًا ذلك فيما مضى قبل، فأغنى ذلك عن إعادته في هذا الموضع.

«وَجَعَلْناها آيَةً لِلْعَالَمِينَ»، يقول: وجعلنا السفينةَ التى أنجيناهُ وأصحابَهُ فيها عبرةً وعِظةً للعالمين، وحجةً عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: واذكُرْ أيضاً يا محمدُ إبراهيمَ خليل الرحمن، إذْ قال لقومه: «اعبدوا الله» أيها القومُ دونَ غيره من الأوثانِ والأصنامِ،

فإنه لا إلهَ لكم غيرهُ، «واتقوه»: يقول: واتقوا سخطه بأداءِ فرائضِه، واجتنابِ معاصيه «ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» ما هو خيرٌ لكم مما هو شرٌ لكم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ مخبراً عن قِيل خليله إبراهيم لقومه: إنما تعبدون أيها القومُ من دونِ الله أوثاناً مُثُلاً.

فتأويل الكلام إذن: إنما تعبدون من دون الله أوثاناً، وتصنعون كذباً وباطلاً.

وقوله: «إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: إن أوثانكم التي تعبدونَها، لا تقدر أنْ ترزقكم شيئاً، «فابتغُوا عندَ الله الرِّزْقَ»، يقول: فالتمسوا عند الله الرزقَ لا من عندِ أوثانكم، تدركوا ما تبتغونَ من ذلك، «وَاعْبُدُوهُ»، يقول: وذلُّوا له «وَاشْكُرُوا لَهُ» على رزقِهِ إياكم، ونِعَمِه التي أنعمهَا عليكم، يُقال: شكرتُه، وشكرتُ له أفصح من شكرته.

وقوله: «إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ»، يقول: إلى الله تُرَدُّونَ من بعدِ مماتِكم، فيسألكم عما أنتم عليه من عبادتكم غيرَهُ وأنتم عبادُهُ وخَلْقُه، وفي نعمِه تَتَقلَّبُونَ، ورزقه تأكلون.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإنْ تُكذِّبوا أيها الناسُ رسولَنا محمداً ﷺ فيما دعاكم إليه من عبادةِ ربِّكم الذي خلقكم ورزقكم، والبراءةِ من الأوثانِ، فقد كَذَّبتْ جماعاتٌ من قبلكم رُسُلَها فيما دَعَتْهُمْ إليه الرُّسُلُ من الحقِّ، فَحَلَّ بها من الله سَخَطُهُ، ونـزلَ بهـا منه عاجلُ عقوبتِه، فسبيلكُمْ سبيلُهَا فيما هو نازلٌ بكم بتكذيبكم إياه. «وَما على الرَّسُولِ إلاَّ البَلاغُ المُبينُ»، يقول: وما على محمدٍ إلا أنْ يُبلِّغَكُمْ عن الله رسالتَهُ، ويؤدِّي إليكم ما أَمَرهُ بأدائِه إليكم رَبُّه. ويعني بالبلاغ المبين: الذي يُبين لِمَنْ سمعه ما يُرادُ به، وَيُفْهِمُ به ما يُعْنَى به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ١٩ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ٢٠﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُهُ: أَوَلَمْ يَرَوْا كيف يستـأنفُ الله خَلْقَ الأشياء طفلاً صغيراً، ثم غلاماً يافعاً، ثم رجلاً مجتمعاً، ثم كهلاً، يقال منه: أبدأ وأَعاد، وبدأ وعاد، لغتان بمعنى واحد.

وقوله: «ثُمَّ يُعِيدُه»، يقول: ثم هو يُعِيدُه من بعدِ فنائِه وبِلاَهُ، كما بدأَهُ أَوّلَ مرّةٍ خَلْقاً جديداً، لا يتعذَّرُ عليه ذلك. «إنَّ ذلكَ على الله يَسِيرٌ» سهلٌ كما كان يسيراً عليه إبداؤُه.

وقوله: «قُلْ سِيرُوا في الأرضِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ لمحمد ﷺ: قُلْ يا محمدُ للمنكرين للبعثِ بعد المماتِ، الجاحدينَ الثوابَ والعقابَ: سيروا في الأرضِ فانـظروا كيف بدأ الله الأشياءَ وكيف أنشأها وأحدثها؛ وكما أوجدها وأحدثها ابتداءً، فلم يتعذَّرْ عليه إحداثُها مُبْدِئاً. فكذلك لا يتعذَّرُ عليه إنشاؤُها

مُعِيداً، «ثُمَّ الله يُنْشِىءُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ»، يقول: ثم الله يبدئ تلك البدأة الآخرة بعد الفناء.

وقوله: «إنَّ الله على كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الله على إنشاء جميعِ خَلْقِه بعد إفنائِه كهيئته قبل فنائه، وعلى غيرِ ذلك مما يشاء فعله قادر لا يُعجزه شيءٌ أراده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ۝٢١ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ثم الله يُنْشِىءُ النشأةَ الآخرة خَلْقَهُ من بعدِ فنائِهم. فيعذِّبُ مَنْ يشاءُ منهم على ما أسلفَ من جُرْمِه في أيامِ حياته، ويرحمُ مَنْ يشاء منهم مِمَّنْ تابَ وآمنَ وعملَ صالحاً «وَإلَيْهِ تُقْلَبُونَ»، يقول: وإليه تُرْجَعُونَ وتُرَدُّونَ.

وأما قوله: «وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ في الأَرْضِ وَلا في السَّماء» فإن ابن زيد قال في ذلك: لايُعجزه أهلُ الأرضينَ في الأرضين ولا أهلُ السمواتِ في السمواتِ إنْ عَصَوْهُ، وقرأ: «مثقالُ ذَرّةٍ في السَّموات ولا في الأرض، وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذلكَ ولا أَكْبَرُ إلاَّ في كِتابٍ مُبينٍ».

وقال في ذلك بعضُ أهلِ العربيةِ من أهلِ البصرة: وما أنتم بمعجزين في الأرضِ ولا مَنْ في السماء مُعْجِزِينَ قال: وهو من غامضِ العربيةِ للضمير الذي لم يظهر في الثاني.

وهذا القولُ أصحُّ عندي في المعنى من القول الآخر، ولو قال قائل: معناه: ولا أنتم بمعجزين في الأرض، ولا أنتم لو كنتم في السماء بمعجزين

كان مذهباً.

وقوله: «وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصيرٍ»، يقول: وما كان لكم أيها الناسُ من دونِ الله من وليٍّ يلي أمورَكُمْ، ولا نصيرٍ ينصركم من الله إنْ أرادَ بكم سوءً ، ولا يمنعكم منه إنْ أحلَّ بكم عقوبتَه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: والذين كفروا حُجَجَ الله ، وأنكروا أدِلَّتَهُ، وجحدوا لقاءَهُ والورودَ عليه، يومَ تقومُ الساعة «أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: أولئك يَئِسُوا من رحمتي في الآخرة لما عَايَنُوا ما أُعِدَّ لهم من العذابِ، وأولئك لهم عذابٌ مُوجِع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فلم يكن جواب قومِ إبراهيمَ له إذ قال لهم: اعبدُوا الله واتَّقوهُ، ذلكم خيرٌ لكم إنْ كنتم تعلمون، إلا أنْ قالَ بعضُهم لبعضٍ: اقتلوه أو حَرِّقُوهُ بالنارِ، ففعلوا، فأرادُوا إحراقَهُ بالنار، فأضرموا له النار، فألقَوْهُ فيها، فأنجاهُ الله منها، ولم يسلطها عليه، بل جعلها عليه بَرْداً وسلاماً.

«إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ في إنجائنا لإبراهيمَ من النارِ، وقد أُلْقِيَ فيها وهي تَسَعَّرُ، وتصييرها عليه برداً وسلاماً، لأدلةً

وحججاً لقومٍ يصدّقون بالأدلةِ والحججِ إذا عاينوا ورأوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٢٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ مخبراً عن قِيلِ إبراهيمَ «وقَالَ» إبراهيم لقومه: يا قوم «إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ الله أَوْثاناً».

واختلفتِ القَرَأَةُ في قراءة قوله: «مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ» فقرأته عامة قَرَأَة المدينة والشام وبعض الكوفيين «مَوَدَّةً» بنصب مودة بغير إضافة بينكم بنصبها. وقرأ ذلك بعض الكوفيين «مَوَدَّةً بَيْنَكُمْ» بنصب المودّة وإضافتها إلى قوله: «بَيْنِكُمْ»، وخَفْض بينكم. وكأن هؤلاء الذين قرءوا قوله: «مَوَدَّةً» نصباً وجَّهُوا معنى الكلام إلى: إنما أتخذتم أيها القومُ أوثاناً مودة بينكم، فجعلوا إنما حرفاً واحداً، وأوقعوا قوله: «اتَّخَذْتُمْ» على الأوثانِ، فنصبوها بمعنى: اتخذتمُوها مودّة بينكم في الحياة الدنيا، تَتَحابُّونَ على عبادتها، وتتوادُّونَ على خدمتها، فتتواصلونَ عليها.

وقرأ ذلك بعضُ قَرَأَةِ أهلِ مكة والبصرة «مَوَدَّةُ بَيْنِكُمْ» برفع المودة وإضافتها إلى البين، وخفض البين. وكأن الذين قرؤوا ذلك كذلك، جعلوا «إنَّ مَا» حرفين، بتأويل: إنَّ الذين اتخذتم من دونِ الله أوثاناً إنما هو مودَّتُكم للدنيا، فرفعوا مودة على خبر إن. وقد يجوز أنْ يكونوا على قراءتهم ذلك رفعاً بقوله: «إنما» أن تكون حرفاً واحداً، ويكون الخبر متناهياً عند قوله: «إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ الله أَوْثاناً» ثم يبتدئُ الخبر فيقال: ما مَوَدَّتُكم تلك الأوثانَ بنافعتِكُمْ، إنما مودّة بينكم في حياتكم الدنيا، ثم هي منقطعة، وإذا أُريدَ هذا

المعنى كانت المودَّةُ مرفوعة بالصفة بقوله: «في الحَياةِ الدُّنيا» وقد يجوز أنْ يكونوا أرادوا برفعِ المودّة، ورفعَها على ضمير هي.

وهذه القراءات الثلاث متقاربات المعاني، لأنَّ الذين اتخذوا الأوثانَ آلهةً يعبدونها، اتخذوها مودة بينهم، وكانت لهم في الحياةِ الدنيا مودةً، ثم هي عنهم منقطعةٌ، فبأيِّ ذلك قرأ القارئُ فمصيبٌ، لتقاربِ معاني ذلك، وشهرةِ القراءةِ بكلٍّ واحدةٍ منهنّ في قَرَأةِ الأمصار.

وقوله: «ثُمَّ يَوْمَ القِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ، وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ثم يومَ القيامةِ أيها المتوادُّونَ على عبادةِ الأوثانِ والأصنام، والمتواصلونَ على خدماتها عند ورودِكُمْ على رَبِّكم، ومعاينتكم ما أعدَّ الله لكم على التواصل، والتوادِّ في الدنيا من أليم العذابِ، يَكْفُر بعضُكم ببعضٍ: يقول يتبرأُ بعضُكم من بعضٍ، ويلعنُ بعضُكم بعضاً.

وقوله: «وَمأْوَاكُمُ النَّارُ»، يقول جَلَّ ثناؤهُ: ومصيرُ جميعِكُم ـ أيها العابدونَ الأوثانَ وما تعبدونَ ـ النارُ. «وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ»، يقول: وما لكم أيها القومُ المُتَّخِذُو الآلهة، من دونِ الله مودَّة بينكم من أنصارٍ ينصرونكم من الله حين يُصْلِيكُمْ نارَ جهنم، فينقذونَكُمْ من عذابِهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فَصَدَّقَ إبراهيمَ خليلَ الله لوطٌ «وَقَالَ إنّي مُهَاجِرٌ إلى رَبِّي»، يقول: وقال إبراهيمُ: إني مهاجر دارَ قومي إلى ربي إلى الشام.

وقوله: «إنَّهُ هُوَ العَزِيزُ الحكِيمُ»، يقول: إنَّ ربي هو العزيز الذي لا يذِلُّ مَنْ نَصَره، ولكنه يمنعه مِمَّنْ أراده بسوءٍ، وإليه هجرتُه، الحكيمُ في تدبيرِه

خَلْقَهُ، وتصريفه إياهم فيما صرفهم فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٢٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ورزقناه من لَدُنَّا إسحاقَ ولداً، ويعقوبَ من بَعْدِهِ وَلَدَ وَلَدٍ.

وقوله: «وَجَعَلْنَا في ذرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ والكتابَ» بمعنى الجمع، يُرادُ به الكتبَ، ولكنه خُرِّجَ مخْرج قولهم: كثر الدرهم والدينار عند فلان.

وقوله: «وآتَيْناهُ أجْرَهُ في الدُّنْيا»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأعطيناه ثوابَ بلائِه فينا في الدنيا «وَإِنَّهُ» مع ذلك «في الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ» فله هناكَ أيضاً جزاء الصالحين، غير منتقص حَظُّه بما أُعطي في الدنيا من الأجرِ على بلائِه في الله عَمَّا له عنده في الآخرة.

وقيل: إنَّ الأجرَ الذي ذكره الله عزَّ وجلَّ أنه آتاهُ إبراهيمَ في الدنيا هو الثناء الحسن، والولد الصالح.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: واذكر لوطاً إذْ قال لقومه: إنكم لتأتونَ الذُّكْرَانَ «مَا سَبَقَكُمْ بِهَا»، يعني بالفاحشة التي كانوا يأتونَها، وهي إتيان الذكران «مِنْ أَحَدٍ مِنَ العَالَمِينَ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٢٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ مخبراً عن قِيلِ لوطٍ لقومه «أئِنَّكُمْ» أيها القومُ «لَتَأْتُونَ الرِّجالَ» في أدبارهم. «وَتَقْطَعُونَ السَّبيلَ»، يقول: وتقطعون المسافرينَ عليكم بفِعْلِكُمْ الخبيث، وذلك أنهم فيما ذُكِرَ عَنْهُمْ كانوا يفعلون ذلك بمن مَرَّ عليهم من المسافرينَ، ومَنْ وردَ بلادهم من الغرباء.

وقوله: «وَتَأْتُونَ في نادِيكُمُ المُنْكَرَ»، معناه: وتحذفون في مجالسكم المارَّة بكم، وتسخرون منهم.

وقوله: «فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إلاَّ أنْ قالُوا ائْتِنا بعَذَابِ الله إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فلم يكن جواب قوم لُوطٍ إذْ نَهاهُمْ عما يكرههُ الله من إتيانِ الفواحشِ التي حَرَّمَهَا الله إلا قِيلُهم: ائْتِنَا بعذابِ الله الذي تَعِدُنَا، إنْ كنتَ من الصادقينَ فيما تقولُ، والمُنْجزِينَ لما تَعِدُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ۝٣٠ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ۝٣١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَلَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إبْراهيمَ بالبُشْرَى» من الله بإسحاق، ومن وراءِ إسحاقَ يعقوبَ «قالُوا إنَّا مُهْلِكُو أهْل هَذِهِ القَرْيَةِ»، يقول: قالت رُسُلُ الله لإبراهيمَ: إنَّا مُهْلِكُو أهل هذه القرية، قرية سَدُوم، وهي قرية قوم لوط «إنَّ أهْلَها كانُوا ظالمينَ»، يقول: إنَّ أهلَها كانوا ظالمي أنفسهم

بمعصيتهم الله، وتكذيبهم رسولَهُ ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًاۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٣٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال إبراهيمُ للرسلِ من الملائكةِ إذْ قالوا له: «إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ القَرْيَةِ إنَّ أهْلَها كانُوا ظالِمِينَ» فلم يستثنوا منهم أحداً. إذْ وصفوهم بالظلم إن فيها لوطاً، وليس من الظالمين، بَلْ هو من رُسُلِ الله، وأهلِ الإيمانِ به، والطاعةِ له، فقالت الرسلُ له: «نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا» من الظالمينَ الكافرينَ بالله منك، وإنَّ لوطاً ليسَ منهم، بَلْ هو كما قلت من أولياءِ الله، لَنُنَجِّيَنَّهُ وأهلَهُ من الهلاكِ الذي هو نازلٌ بأهلِ قريته «إلّا امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الغابِرِينَ» الذين أبقتهم الدهورُ والأيامُ، وتطاولت أعمارُهم وحياتهم، وأنها هالكةٌ من بين أهلِ لوطٍ مع قومها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٣٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَلَمَّا أَنْ جاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً» من الملائكة «سِيءَ بِهِمْ»، يقول: ساءته الملائكةُ بمجيئِهم إليه، وذلك أنهم تَضيفُوه، فساؤوه بذلك، فقوله: «سِيءَ بِهِمْ»: فُعِلَ بهم، مِنْ ساءه بذلك، «وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً»، يقول: وضاقَ ذَرْعُه بضيافَتِهم لِمَا عَلِمَ من خُبْثِ فعلِ قومه.

وقوله: «وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: قالت الرسلُ للوطٍ: لا تخف علينا أن يصل إلينا قومُكَ، ولا تحزَنْ مما أخبرناكَ من أنَّا

مُهْلِكُوهم، وذلك أنَّ الرسلَ قالت له: «يا لُوطُ إنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إلَيْكَ فَأسْرِ بأهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ، إنَّا مُنَجُّوكَ» من العذابِ الذي هو نازلٌ بقومكَ. «وأهْلَكَ»، يقول: ومُنَجُّو أهلِكَ معكَ «إلَّا امْرَأتَكَ» فإنها هالكةٌ فيمن يهلكُ من قومِها، كانت من الباقينَ الذين طالتْ أعمارُهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ٣٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ مخبراً عن قِيلِ الرسلِ للوطٍ: «إنَّا مُنْزِلُونَ» يا لُوط «عَلى أهْلِ هَذِهِ القَرْيَةِ» سَدُوم «رِجْزاً مَنَ السَّمَاءِ»، يعني: عذاباً.

وقوله: «بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ»، يقول: بما كانوا يأتونَ من معصيةِ الله، ويركبونَ من الفاحشةِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٣٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولقد أبقينا من فعلتنا التي فَعَلْنا بهم آيةً، يقول: عبرةً بَيِّنةً وعِظةً واعظة، لقومٍ يعقلون عن الله حُجَجه، ويتفكرونَ في مواعظِه، وتلك الآيةُ البَيِّنَةُ هي عندي عُفُوُّ آثارِهم، ودروسُ معالِمهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ٣٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأرسلتُ إلى مَدْينَ أخاهم شعيباً، فقال لهم: يا قوم اعبدوا الله وحده، وذِلُّوا له بالطاعةِ، واخضعوا له بالعبادة. «وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ»، يقول: وارجوا بعبادَتِكُمْ إيايَ جزاءَ اليوم الآخر، وذلك يوم القيامة. «وَلَا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ»، يقول: ولا تُكْثِرُوا في الأرض معصيةَ الله، ولا تُقيموا عليها، ولكنْ تُوبوا إلى الله منها وأنيبوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ۝٣٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فكذَّبَ أهلُ مَدين شعيباً فيما أتاهم به عن الله من الرسالةِ، فأخذتهم رَجْفَةُ العذابِ فأصبحوا في دارهم جاثمينَ جُثوماً، بعضُهم على بعضٍ مَوْتَى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ۝٣٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: واذكروا أيها القومُ عاداً وثمود، وقد تَبَيَّنَ لكم من مساكِنهم خرابُها وخلاؤُها منهم بوقائعنا بهم، وحلولِ سَطْوتنا بجميعهم «وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ»، يقول: وحَسَّنَ لهم الشيطانُ كفرهم بالله، وتكذيبَهُم رُسُلَهُ «فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ»، يقول: فَرَدَّهُمْ بتزيينِه لهم ما زيَّنَ لهم من الكفرِ عن سبيلِ الله، التي هي الإيمان به ورسله، وما جاؤوهم به من عند رَبِّهم. «وكانُوا مُسْتَبْصِرِينَ».

يقول: وكانوا مُسْتَبْصرينَ في ضلالتهم، مُعْجَبِينَ بها، يحسِبونَ أنهم على

هُدى وصوابٍ، وهُمْ على الضلال.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُهُ: واذكُرْ يا محمدُ قارونَ وفرعونَ وهامانَ، ولقد جاء جميعَهُمْ موسى بالبيِّناتِ، يعني بالواضحاتِ من الآياتِ، فاستكبروا في الأرضِ عن التصديقِ بالبيناتِ من الآياتِ، وعن اتِّباعِ موسى صلواتُ الله عليه. «وما كانوا سابقين»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما كانوا سابقِينَا بأنفسِهم، فيفُوتُونَا، بَلْ كنا مُقْتَدِرِينَ عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فأخذنا جميعَ هذه الأمم التي ذكرناها لك يا محمدُ بعذابنا «فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حاصِباً» وهم قوم لُوطٍ الذين أمطرَ الله عليهم حجارةً من سِجِّيلٍ مَنضُود، والعرب تسمي الريحَ العاصفَ التي فيها الحصى الصغارُ أو الثلجُ أو البَرَدُ والجليدُ: حاصباً.

وقوله: «وَمِنْهُمْ مَنْ أخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ»، اختلف أهل التأويل في الذين عُنوا بذلك، فقال بعضهم: هم ثمود قومُ صالحٍ.

وقال آخرون: بل هم قومُ شعيب.

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إنَّ الله قد أخبر عن ثمود وقوم

شعيب مِن أهلِ مَدْيَنَ أنه أهلكهم بالصيحةِ في كتابه في غير هذا الموضع، ثم قال جَلَّ ثناؤُهُ لنبيه ﷺ: فَمِنَ الأممِ التي أهلكناهم مَنْ أرسلنا عليهم حاصباً، ومنهم مَنْ أخذته الصيحةُ، فلم يخصص الخبرَ بذلك عن بعضِ مَنْ أخَذَتْهُ الصيحةُ من الأممِ دونَ بعضٍ، وكلا الأمتين أعني ثمود ومديَن قد أخذتهم الصَّيحة.

وقوله: «وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ»، يعني: بذلك قارون.

«وَمِنْهُمْ مَنْ أغْرَقْنَا»، يعني: قوم نوح وفرعون وقومه.

وقوله: «وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كانُوا أنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولم يَكُن الله لِيُهْلِكَ هؤلاء الأمم الذين أهلكهم بذنوبِ غيرهم، فيظلمَهُمْ بإهلاكه إياهم بغيرِ استحقاق، بَلْ إنما أهلكهم بذنوبهم، وكُفْرهم بربِّهم، وجحودهم نِعَمَهُ عليهم، مع تتابع إحسانه عليهم، وكثرة أياديه عندهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون بتصرفهم في نِعمِ رَبِّهم، وتَقَلُّبهم في آلائه وعبادتهم غيرَهُ، ومعصيتهم مَنْ أنعَمَ عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: مَثَلُ الذين اتَّخَذُوا الآلهةَ والأوثانَ من دونِ الله أولياءَ يَرْجُونَ نَصْرها ونَفْعَها عند حاجتهم إليها في ضعفِ احتيالهم، وقُبْحِ رواياتهم، وسوء اختيارهم لأنفسهم، كمثَلِ العنكبوتِ في ضَعْفِها، وقِلَّةِ احتيالها لنفسها، اتخذتْ بيتاً لنفسها، كيما يُكِنّها، فلم يُغْنِ عنها شيئاً عند حاجتها إليه، فكذلك هؤلاء المشركونَ لم يُغْنِ عنهم حين نزلَ بهم أمرُ الله، وحَلَّ بهم سخطه أولياؤُهم الذين اتخذوهم من دونِ الله شيئاً، ولم يدفعوا عنهم ما أحلَّ الله بهم

من سخطهِ بعبادتهم إياهم.

وقولـه: «وإنَّ أوْهَنَ البُيُوتِ»، يقـول: وإنَّ أضعفَ البيوتِ «لَبَيْتُ العَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ»، »، يقول تعالى ذِكْرُهُ: لو كان هؤلاء الذين اتخذوا من دون الله أولياء، يعلمونَ أنَّ أولياءهم الذين اتخذوهم من دونِ الله في قلةِ غَنائِهم عنهم، كغناءِ بيتِ العنكبوت عنها، ولكنهم يجهلون ذلك، فيحسبون أنهم ينفعونَهُمْ ويُقَرِّبُونهم إلى الله زُلْفى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٤٢ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾

اختلف القَرَأَةُ في قراءةِ قوله: «إنَّ الله يَعْلَمُ ما يَدْعُونَ» فقرأته عامة قَرَأَةِ الأمصار «تَدْعُونَ» بالتاء بمعنى الخطاب لمشركي قريش. «إنَّ الله» أيها الناسُ «يَعْلَمُ ما تَدْعُونَ إلَيْهِ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ». وقرأ ذلك أبو عمرو «إنَّ الله يَعْلَمُ ما يَدْعُونَ» بالياء بمعنى الخبرِ عن الأممِ، إنَّ الله يعلمُ ما يدعو هؤلاء الذين أهلكناهم من الأممِ من دونِه من شيء.

والصوابُ من القراءة في ذلك عندنا، قراءةُ مَنْ قرأ بالتاء، لأنَّ ذلك لو كان خبراً عن الأممِ الذين ذكر الله أنه أهلكهم، لكان الكلامُ: إنَّ الله يعلمُ ما كانوا يدعون، لأنَّ القومَ في حالِ نزولِ هذا الخبرِ على نبيِّ الله لم يكونوا موجودينَ، إذْ كانوا قد هلكوا فبادوا، وإنما يقال: إنَّ الله يعلمُ ما تَدْعونَ إذا أُريدَ به الخبر عن موجودينَ، لا عَمَّنْ قد هَلَكَ.

فتأويلُ الكلامِ إذْ كان الأمرُ كما وصفنا: إنَّ الله يعلمُ أيها القومُ حالَ ما تعبدونَ من دونِه من شيء، وأنَّ ذلك لا ينفعكُمْ ولا يضرُّكُم، إنْ أراد الله بكم

سوءٍ، ولا يغني عنكم شيئاً؛ وإنَّ مَثَلَهُ في قِلَّةِ غَنائِه عنكم، مَثَلُ بيتِ العنكبوتِ في غَنَائه عنها.

وقوله: «وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ»، يقول: والله «العزيز» في انتقامه مِمَّنْ كفرَ به، وأشركَ في عبادتِه معه غيره فاتقوا أيها المشركونَ به عقابَهُ بالإيمانِ به قبلَ نزولِه بكم، كما نزلَ بالأممِ الذين قَصَّ الله قَصصهم في هذه السورةِ عليكم، فإنه إنْ نزلَ بكم عقابُه لم تُغْنِ عنكم أولياؤكم الذين اتَّخذتُموهم من دونِه أولياءَ، كما لم يُغْنِ عنهم مَنْ قَبْلَكُمْ أولياؤُهم الذين اتخذوهم من دونه، «الحكيم» في تدبيره خلقه، فمُهلك مَن استوجبَ الهلاكَ في الحال التي هلاكه صلاح، والمؤخر من أخَّرَ هلاكَهُ من كَفَرَةِ خَلْقِه به إلى الحينِ الذي في هلاكهِ الصلاحُ.

وقوله: «وَتلكَ الأمْثَالُ نَضْرِبُها للنَّاسِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وهذه الأمثالُ، وهي الأشباهُ والنظائر. «نضربها للناسِ»، يقول: نُمَثِّلُهَا ونُشَبِّهُهَا ونحتجُّ بها للناسِ.

«وَما يَعْقِلُها إلَّا العالِمُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما يعقلُ أنه أصيبَ، بهذه الأمثالِ التي نضربها للناسِ منهم، الصوابَ والحقَّ، فيما ضربتُ له مَثَلاً، إلا العالمونَ بالله وآياتِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمد ﷺ: خلق الله يا محمدُ السمواتِ والأرضَ وحده منفرداً بخلقها، لا يَشْركُه في خَلْقِها شريكٌ. «إنَّ في ذلكَ لآيَةً»، يقول: إن في خَلْقِه ذلك لحجةً لمن صَدَّقَ بالحججِ إذا عاينها، والآياتِ إذا رآها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: «اتْلُ» يعني: اقرأ «ما أُوحِيَ إِلَيْكَ» مِنَ الكتابِ يعني: ما أُنزلَ إليكَ من هذا القرآنِ «وأقِمِ الصَّلاةَ»، يعني: وأدِّ الصلاةَ التي فرضها الله عليكَ بحدودها. «إنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ»، اختلف أهلُ التأويل في معنى الصلاةِ التي ذكرت في هذا الموضع، فقال بعضهم عنى بها القرآن الذي يقرأ في موضعِ الصلاةِ، أو في الصلاة.

وقال آخرون: بل عنى بها الصلاة.

والصوابُ من القول في ذلك أنَّ الصلاةَ تنهى عن الفحشاءِ والمنكر.

فإنْ قال قائل: وكيف تَنْهى الصلاةُ عن الفحشاءِ والمنكر إنْ لم يكن معنياً بها ما يُتْلَى فيها؟ قيل: تنهى مَنْ كان فيها، فتحول بينه وبين إتيانِ الفواحش، لأنَّ شُغْلَهُ بها يَقْطَعُه عن الشغلِ بالمنكرِ، ولذلك قال ابن مسعود: من لم يُطِعْ صلاتَهُ لَمْ يَزْدَدْ من الله إلا بُعْداً. وذلك أنَّ طاعتَهُ لها إقامتُه إياها بحدودِها، وفي طاعته لها مُزْدَجرٌ عن الفحشاءِ والمنكر.

وقوله: «وَلَذِكْرُ الله أَكْبَرُ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويله، فقال بعضهم: معناه: ولَذِكْرُ الله إياكم أفضلُ من ذِكْرِكُمْ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ولَذِكْرِكم الله أفضلُ من كلِّ شيءٍ.

وقال آخرون: هو محتملٌ للوجهين جميعاً، يعنون القولَ الأوّلَ الذي ذكرناه والثاني.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: لَذِكْرُ الله العبد في الصلاة أكبرُ من الصلاة.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وللصلاة التي أتيتَ أنتَ بها وذكركَ الله فيها أكبر ـ مما نهتك الصلاة عن الفحشاء والمنكر.

وأشبه هذه الأقوال بما دلّ عليه ظاهر التنزيل قول من قال: ولذكر الله إياكم أفضل من ذكركم إياه.

وقوله: «وَالله يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ»، يقول: والله يعلم ما تصنعونَ أيها الناسُ في صلاتكم من إقامةِ حدودها، وتركِ ذلك وغيرهِ من أموركم، وهو مُجازِيكم على ذلك، يقول: فاتقوا أنْ تُضيعوا شيئاً من حدودِها، والله أعلم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَلاَ تُجَادِلُوا» أيها المؤمنون بالله وبرسوله اليهودَ والنصارى، وهم: أَهْلُ الكِتابِ «إلاَّ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ»، يقول: إلا بالجميلِ من القولِ، وهو الدعاء إلى الله بآياته، والتنبيه على حُججه.

وقوله: «إلاَّ الَّذين ظَلَمُوا مِنْهُمْ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويله؛ فقال بعضهم: معناه: إلا الذين أبوا أنْ يُقِرُّوا لكم باعطاءِ الجزيةِ، ونصبوا دونَ ذلك لكم حرباً، فإنهم ظَلَمةٌ، فأولئك جادلوهم بالسيفِ حتى يُسْلِمُوا أو يُعْطُوا الجزيةَ.

وقال آخرون: معنى ذلك: «وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ» الذين قد آمنوا به، واتَّبَعُوا رسولَهُ فيما أخبروكم عنه مما في كتبهم «إلاَّ بالتي هي أَحْسَنُ» «إلاَّ الَّذِينَ

ظَلَمُوا مِنْهُمْ»، فأقاموا على كفرهم، وقالوا: هذه الآية محكمةٌ، وليست بمنسوخة.

وقال آخرون: بل نزلت هذه الآيةُ قبل أن يُؤْمَرَ النبيُّ ﷺ بالقتالِ، وقالوا: هي منسوخةٌ نَسَخَهَا قوله: «قاتِلُوا الَّذِين لا يُؤْمِنُونَ باللهِ وَلاَ باليَوْمِ الآخِرِ».

وأولى هذه الأقوال بالصوابِ، قولُ مَنْ قال: عنى بقوله: «إلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ»: إلا الذين امتنعوا من أداءِ الجِزْيةِ، ونصبوا دونَها الحرب.

فإن قال قائلَ: أو غير ظالم من أهلِ الكتاب، إلا مَنْ لم يؤدِّ الجزيةَ؟ قيل: إنَّ جميعهم وإنْ كانوا لأنفسهم بكفرهم بالله، وتكذيبهم رسولَهُ محمداً ﷺ ظَلَمَةٌ، فإنه لم يَعْنِ بقولِه: «إلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ» ظلم أنفسهم. وإنما عنى به: إلا الذين ظلموا منهم أهلَ الإيمانِ بالله ورسوله محمدٍ ﷺ، فإنَّ أولئك جادِلُوهم بالقتالِ.

وإنما قلنا: ذلك أوْلى الأقوالِ فيه بالصوابِ، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه أَذِنَ للمؤمنينَ بجدالِ ظَلَمَةِ أهلِ الكتابِ بغير الذي هو أحسن، بقوله: «إلاَّ الَّذِين ظَلَمُوا مِنْهُمْ»، فمعلومٌ إذ كان قد أذن لهم في جدالهم، أنَّ الذين لم يُؤْذَنْ لهم في جِدالهم إلا بالتي هي أحسن، غير الذين أذِنَ لهم بذلك فيهم، وأنهم غير المؤمن، لأنَّ المؤمنَ منهم غيرُ جائزٍ جِدَالُهُ إلا في غير الحقِّ، لأنه إذا جاء بغيرِ الحقِّ، فقد صار في معنى الظَّلَمةِ في الذي خالف فيه الحقَّ. فإذْ كان ذلك كذلـك، تَبَيَّنَ أنَّ لا معنى لقـولِ مَنْ قال: عنى بقـولـه: «وَلاَ تُجَادِلُوا أَهلَ الكِتابِ» أهلَ الإيمانِ منهم، وكذلك لا معنى لقولِ مَنْ قال: نزلت هذه الآية قبلَ الأمرِ بالقتال، وزعم أنها منسوخةٌ، لأنه لا خبرَ بذلك يقطعُ العُذْرَ، ولا دلالة على صحته من فطرةِ عقلٍ.

وقد بيَّنا في غير موضعٍ من كتابنا، أنه لا يجوز أنْ يُحْكَمَ على حُكْمِ

الله في كتابه بأنه منسوخٌ إلا بحجةٍ يجبُ التسليمُ لها من خبرٍ أو عقل.

وقوله: «وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ للمؤمنين به وبرسوله، الذين نهاهم أنْ يُجَادِلُوا أهلَ الكتاب إلا بالتي هي أحسن، إذا حَدَّثَكُمْ أهلُ الكتاب أيها القومُ عن كتبهم، وأخبروكم عنها بما يمكن ويجوز أنْ يكونوا فيه صادقينَ، وأنْ يكونوا فيه كاذبين، ولم تَعْلَمُوا أمرَهُمْ وحالهم في ذلك فقولوا لهم: «آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ» مما في التوراة والإنجيل. «وَإِلَهُنَا وإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ»، يقول: ومعبـودُنـا ومعبودُكُمْ واحد. «وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ»، يقول: ونحن له خاضعون مُتَذَلِّلُونَ بالطاعةِ فيما أمرنا ونهانا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: كما أنزلنا الكُتُبَ على مَنْ قبلكَ يا محمدُ من الرسل «كَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ» هذا «الكِتَابَ فالَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الكِتَابَ» من قَبْلِكَ من بني إسرائيل «يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ»، يقول: ومِنْ هؤلاءِ الذين هم بين ظَهْرَانَيْكَ اليومَ مَنْ يؤمنُ به كعبدِالله بن سلام، ومَنْ آمَنَ برسولِه من بني إسرائيل.

وقوله: «وَمَا يَجْحَدُ بآياتِنَا إِلَّا الكَافِرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَما يجحدُ بأدلتنا وحججنا إلا الذي يجحدُ نِعَمَنَا عليه، وينكر توحيدنا وربوبيتنا على عِلْمٍ منه عناداً لنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَمَا كُنْتَ» يا محمدُ «تَتْلُو»، يعني: تقرأُ «مِنْ قَبْلِهِ»، يعني: من قبلِ هذا الكتابِ الذي أنزلتُه إليكَ «مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ»، يقول: ولم تكن تكتب بيمينكَ، ولكنك كنت أمِّيًّا «إِذَنْ لارْتَابَ المُبْطِلُونَ»، يقول: ولو كنتَ من قبلِ أن يُوحَى إليك تقرأ الكتابَ، أو تَخُطُّهُ بيمينكَ، «إِذَنْ لارتابَ»، يقول: إذن لشَكَّ بسببِ ذلك في أمرك، وما جئتهم به من عندِ رَبِّكَ من هذا الكتابِ الذي تتلوه عليهم المُبْطِلُونَ القائلونَ إنه سَجْعٌ وكَهَانةٌ، وإنه أساطيرُ الأوّلين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

اختلف أهل التأويل في المعنيِّ بقوله: «بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ في صُدُورِ الَّذِينَ أُوتوا العِلْمَ»، فقال بعضهم: عُنِيَ به نبيُّ الله ﷺ، وقالوا: معنى الكلام: بل وجودُ أهلِ الكتابِ في كتبهم أن محمداً ﷺ لايكتبُ ولا يقرأُ، وأنه أميٌّ، آيات بينات في صدورهم.

وقال آخرون: عنى بذلك القرآن، وقالوا: معنى الكلام: بَلْ هذا القرآن آياتٌ بيِّناتٌ في صدور الذين أُوتُوا العِلْمَ من المؤمنين بمحمدٍ ﷺ.

وأَوْلى القولين في ذلك بالصوابِ قولُ مَنْ قال: عنى بذلك: بل العلم بأنك ما كنتَ تتلو من قبلِ هذا الكتابِ كتاباً، ولا تَخُطُّهُ بيمينكَ، آيات بينات في صدور الذين أُوتوا العلم من أهلِ الكتاب.

وإنما قلت ذلك أوْلى التأويلين بالآية، لأنَّ قوله: «بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ في صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ» بين خبرينِ من أخبارِ الله عن رسولِه محمدٍ ﷺ، فهو بأنْ يكونَ خبراً عنه أوْلى من أن يكون خبراً عن الكتابِ الذي قد انقضى الخبرُ عنه قبلُ.

وقوله: «وَمَا يَجْحَدُ بآياتِنَا إلَّا الظَّالِمُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ما يجحدُ نُبُوَّةَ محمدٍ ﷺ وأدِلَّتَهُ، ويُنْكِرُ العلمَ الذي يعلمُ من كتبِ الله التي أنزلها على أنبيائِه، ببعثِ محمدٍ ﷺ ونبوّته ومبعثِه إلا الظالمونَ، يعني الذين ظلموا أنفسَهُمْ بكفرِهم بالله عزَّ وجلَّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وقالت المشركونَ من قريش: هَلَّا أُنْزِلَ على محمدٍ آيةٌ من رَبِّه تكونُ حجةً لله علينا كما جُعِلَتِ الناقةُ لصالحٍ، والمائدةُ آيةً لعيسى، قُلْ يا محمد إنما الآياتُ عندَ الله لا يقدرُ على الإتيانِ بها غيرُه. «وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ»، وإنما أنا نذيرٌ لكم أُنذركُمْ بأسَ الله وعقابَهُ على كُفْرِكُمْ برسولِه. وما جاءكم به من عند ربكم «مبين»، يقول قد أبان لكم إنذارَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أَوَ لَمْ يَكْفِ هؤلاء المشركين يا محمدُ، القائلينَ: لولا أُنزلَ على محمدٍ ﷺ آيةٌ من ربهِ، من الآياتِ والحجج «أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ» هذا «الكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ»، يقول: يُقْرأ عليهم. «إنَّ في ذلكَ لَرَحْمَةً»، يقول: إنَّ

في هذا الكتاب الذي أنزلنا عليهم لرحمة للمؤمنين به وذكر يتذكرون بما فيه من عبرةٍ وعِظة.

وذُكِرَ أنَّ هذه الآيةَ نزلت من أجلِ أنَّ قوماً من أصحابِ رسولِ الله ﷺ انتسخوا شيئاً من بعضِ كتبِ أهلِ الكتاب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ للقائلينَ لك: لولا أُنزِلَ عليك آيةٌ من ربـك، الجـاحـدينَ بآياتنا من قومك: كفى الله يا هؤلاء بيني وبينَكُمْ شاهداً لي وعليَّ، لأنه يعلم المُحِقَّ مِنَّا من المُبْطِلِ، ويعلمُ ما في السموات وما في الأرض، لا يَخْفَى عليه شيء فيهما، وهو المجازي كُلَّ فريقٍ منا بما هو أهلُه، المحقَّ على ثباته على الحقِّ، والمُبْطِلَ على باطله بما هو أهلُه. «وَالَّذِينَ آمَنُوا بالباطِلِ»، يقول: صدقوا بالشرك، فأقَرُّوا به وكفروا به: يقول: وجَحَدُوا الله. «أُولَئِكَ هُمُ الخاسِرُونَ»، يقول: هم المغبونون في صفقتهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ويستعجلك يا محمدُ هؤلاء القائلونَ من قومكَ: لولا أُنزلَ عليه آيةٌ من ربه بالعذاب ويقولون: «اللَّهُمَّ إنْ كانَ هَذا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فأمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارةً مِنَ السَّماءِ»، ولولا أجلٌ سَمَّيْتُه لهم فلا أُهْلِكهُمْ حتى يَسْتَوْفُوه ويبلغوه، لجاءهم العذابُ عاجلاً.

وقوله: «وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ»، يقول: وليأتينهم العذابُ فجأةً وهم لا يشعرون بوقتِ مجيئِه قبلَ مجيئه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: يستعجلك يا محمدُ هؤلاء المشركونَ بمجيءِ العذابِ ونزولِه بهم، والنارُ بهم محيطةٌ لم يَبْقَ إلا أنْ يدخلوها. وقيل: إنَّ ذلك هو البحر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٥٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بالكافِرينَ» يومَ يَغْشَى الكافرينَ العذابُ من فوقِهم في جهنم، ومن تحتِ أرجلهم.

وقوله: «وَيَقُولُ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: ويقول الله لهم: ذُوقُوا ما كنتم تعملونَ في الدنيا من معاصي الله، وما يُسخطهُ فيها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ۝٥٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ للمؤمنينَ به من عبادِه: يا عبادي الذين وَحَّدُوني وآمنوا بي وبرسولي محمدٍ ﷺ «إنَّ أرْضِي واسِعَةٌ».

واختلف أهلُ التأويل في المعنى الذي أُريدَ من الخبرِ عن سَعَةِ الأرض،

فقال بعضهم: أُريدَ بذلك أنها لم تَضِقْ عليكم فتقيموا بموضعٍ منها لا يحلُّ لكم المُقَـامُ فيه، ولكن إذا عُمِلَ بمكانٍ منها بمعاصي الله فلم تقدروا على تغييرِه، فاهرُبوا منه.

وقال آخرون: معنى ذلك: إنَّ ما أُخْرِجُ من أرضي لكم من الرزقِ واسعٌ لكم.

وأَوْلى القولين بتأويل الآيةِ قول مَنْ قال: معنى ذلك: إنَّ أرضي واسعة فاهربوا مِمَّنْ مَنَعَكُمْ من العملِ بطاعتي لدلالةِ قوله: «فإِيَّايَ فاعْبُدُونِ» على ذلك، وأنَّ ذلك هو أظهر معنييه، وذلك أنَّ الأرضَ إذا وصفها بِسعَة، فالغالبُ من وصفهِ إياها بذلك أنها لاتضيقُ جميعها على مَنْ ضاقَ عليه منها مَوْضِعٌ، لا أنه وصفها بكثرةِ الخيرِ والخِصْبِ.

وقوله: «فإِيَّايَ فاعْبُدُونِ»، يقول: فأخلِصُوا لي عبادتكم وطاعتكم، ولا تطيعوا في معصيتي أحداً من خَلْقِي.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ۝٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٥٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ للمؤمنين به من أصحابِ نبيه هاجرُوا من أرضِ الشركِ من مكةَ إلى أرضِ الإسلام المدينة، فإنَّ أرضي واسعةٌ فاصبروا على عبادتي، وأخلِصـوا طاعتي، فإنكم ميتـون وصـائـرون إليّ، لأن كُلَّ نفسٍ حية ذائقةُ الموتِ، ثم إلينا بعد الموتِ تُرَدُّونَ، ثم أخبرهم جَلَّ ثناؤهُ عما أعَدَّ للصابرينَ منهم على طاعتِه من كرامتِه عنده. فقال: «والذين آمنوا»، يعني: صدّقوا الله

ورسوله فيما جاء به من عندِ الله «وعملوا الصالحات»، يقول: وعملوا بما أمرهم الله فأطـاعوه فيه، وانتهوا عما نهاهم عنه «لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الجَنَّةِ غُرَفاً»، يقول: لننزلنهم من الجنة عَلاليَ.

وقـوله: «تَجْري مِنْ تَحْتِها الأنهارُ»، يقول: تجري من تحتِ أشجارها الأنهـارُ. «خـالِـدِينَ فِيهـا»، يقـول: ماكثينَ فيهـا إلى غيرِ نهاية. «نِعْمَ أجْرُ العامِلِين»، يقول: نعم جزاءُ العاملينَ بطاعةِ الله هذه الغرفُ التي يُثْويهُمُوها[1] الله في جنَّاتِه، تجري من تحتها الأنهار، الذينَ صَبَرُوا على أذى المشركينَ في الدنيا، وما كانوا يَلْقون منهم، وعلى العملِ بطاعةِ الله وما يرضيهِ وجهادِ أعدائه «وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» في أرزاقهم وجهادِ أعدائهم، فلا يَنْكُلون عنهم ثِقةً منهم بأنَّ الله مُعْلِي كَلمتِه، ومُوهِنُ كيدِ الكافرينَ، وأن ما قُسِم لهم من الرزقِ فلن يَفُوتَهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ للمؤمنينَ به، وبرسولِه من أصحابِ محمدٍ ﷺ: هاجِرُوا وجاهدوا في الله أيها المؤمنونَ أعداءَهُ، ولا تخافوا عيلةً ولا إقتاراً، فكم من دابةٍ ذاتِ حاجـةٍ إلى غذاءٍ ومـطعمٍ ومشـربٍ لا تحمـلُ رزقها، يعني غذاءها لا تحمله، فترفعه في يومها لغدها لِعَجْزِهَا عن ذلك «الله يَرْزُقُها وَإيَّاكُمْ» يوماً بيومٍ «وَهُوَ السَّمِيعُ» لأقوالِكم: نَخْشَى بفراقنا أوطانَنَا العَيْلَةَ «العَلِيمُ» ما في أنفسِكم، وما إليه صائرٌ أمرُكُمْ، وأمرُ عدوِّكم من إذلالِ الله إياهم، ونُصْرتكم عليهم، وغير ذلك من أمورِكم، لا يَخْفَى عليه شيءٌ من أمورِ خَلْقِه.

---

(١) أي يقيمون في هذه الغرف من الجنة. من فعل: ثَوَى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولئن سألتَ يامحمدُ هؤلاء المشركينَ بالله مَنْ خلقَ السمواتِ والأرض فسوَّاهُنَّ، وسخَّرَ الشمسَ والقمر لعبادِه، يجريانِ دائبين لمصالحِ خَلْقِ الله، ليقولُنَّ: الذي خَلَقَ ذلك وفعَلَه الله. «فأنَّى يُؤْفكُونَ»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: فأنى يُصْرَفُونَ عَمَّنْ صنعَ ذلك، فيعدلون عن إخلاصِ العبادةِ له.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: الله يُوَسِّعُ مِنْ رِزْقِه لِمَنْ يشاءُ من خَلْقِه، ويُضَيِّقُ فيُقتِّرُ لمن يشاءُ منهم: يقول: فأرزاقُكم وقِسْمَتُهَا بينكم أيها الناسُ بيدي دونَ كُلِّ أحدٍ سوايَ، أبسطُ لمن شئتُ منها، وأقترُ على مَنْ شئت، فلا يخلفنكم عن الهجرةِ وجهادِ عدوِّكُمْ خوفُ العَيْلَةِ. «إنَّ الله بكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ»، يقول: إنَّ الله عليمٌ بمصالحكم، ومَنْ لا يصلُح له إلا البسطُ في الرزق، ومَنْ لا يصلحُ له إلا التقتيرُ عليه، وهو عالم بذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: ولئن سألتَ يا محمدُ هؤلاء المشركينَ

بالله من قومك مَنْ نَزَّلَ من السماء ماءً، وهو المطرُ الذي ينزله الله من السحابِ. «فأحْيا بِه الأرضِ»، يقول: فأحيا بالماءِ الذي نزلَ من السماء الأرضَ، وإحياؤها: إنباتُه النباتَ فيها «منْ بعدِ موْتها» من بعد جُدُوبِها وقُحُوطِها.

وقوله: «لَيَقُولُنَّ الله»، يقول: ليقولُنَّ: الذي فَعَلَ ذلك الله الذي له عبادةُ كُلِّ شيءٍ.

وقوله: «قُلِ الحَمْدُ لله»، يقول: وإذا قالوا ذلك، فَقُلِ الحمدُ لله. «بَلْ أكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ»، يقول: بل أكثرُ هؤلاء المشركينَ بالله لا يعقلونَ ما لهم فيه النفعُ من أمرِ دِينهم، وما فيه الضرُّ، فَهُمْ لجهلِهم يحسِبُونَ أنهم لعبادتهم الآلهةَ دونَ الله، ينالونَ بها عندَ الله زُلْفةً وقربةً، ولا يعلمونَ أنهم بذلك هالكونَ مستوجبونَ الخلودَ في النار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَمَا هَذِهِ الحَياةُ الدُّنْيا» التي يتمتعُ منها هؤلاء المشركونَ. «إلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ»، يقول: إلا تعليلُ النفوسِ بما تلتذُّ به، ثم هو مُنْقَضٍ عن قريبٍ، لا بقاءَ له ولا دوامَ «وإنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ»، يقول: وإنَّ الدارَ الآخرةَ لفيها الحياةُ الدائمة التي لا زوالَ لها ولا انقطاعَ ولا موتَ معها.

وقوله: «لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ»، يقول: لو كان هؤلاء المشركون يعلمونَ أنَّ ذلك كذلك، لقَصَّرُوا عن تكذِيبِهم بالله، وإشراكِهم غيرَهُ في عبادتِه، ولكنهم لا يعلمونَ ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فإذا ركبَ هؤلاء المشركونَ السفينةَ في البحر، فخافوا الغرقَ والهلاكَ فيه «دَعَوُا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ»، يقول: أخلصوا لله، عند الشدَّةِ التي نزلتْ بهم، التوحيدَ، وأفردوا له الطاعةَ، وأذعنوا له بالعبودةِ، ولم يستغيثوا بآلهتم وأندادهم، ولكنْ بالله الذي خلقهم «فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إلى البَرِّ»، يقول: فلما خَلَّصهم مما كانوا فيه وسلَّمهم، فصاروا إلى البرِّ إذا هُمْ يجعلونَ مع الله شريكاً في عبادتهم، ويَدْعُونَ الآلهةَ والأوثانَ معه أرباباً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فلما نَجَّى الله هؤلاء المشركينَ مما كانوا فيه في البحرِ من الخوفِ والحَذَرِ من الغرقِ إلى البرِّ إذا هم بعد أنْ صاروا إلى البرِّ يُشركونَ بالله الآلهةَ والأندادَ «لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ»، يقول: ليجحدوا نعمةَ الله التي أنعمها عليهم في أنفسهم وأموالهم.

«وَلِيَتَمَتَّعُوا»، اختلفت القَرَأَةُ في قراءةِ ذلك، فقرأته عامة قَرَأَةِ المدينة والبصرة «وَلِيَتَمَتَّعُوا» بكسر اللام، بمعنى: وكي يتمتعوا آتيناهُمْ ذلك. وقرأ ذلك عامة قَرَأَةِ الكوفيين «وَلْيَتَمَتَّعُوا» بسكون اللام على وجهِ الوعيدِ والتوبيخ: أي اكْفُرُوا فإنكم سوفَ تعلمونَ ماذا يَلْقَوْنَ من عذابِ الله بكفرهم به.

وأولى القراءتين عندي في ذلك بالصوابِ، قراءة من قرأ بسكونِ اللام

على وجهِ التهديدِ والوعيدِ، وذلك أنَّ الذين قرؤوه بكسر اللام زعموا أنهم إنما اختاروا كسرها عطفاً بها على اللام التي في قوله: «لِيَكْفُرُوا»، وأنَّ قوله: «لِيَكْفُرُوا» لَمَّا كان معناه: كي يكفروا كان الصوابُ في قوله: «وَلِيَتَمَتَّعُوا» أن يكون: وكي يتمتعوا، إذْ كان عطفاً على قوله: ليكفروا عندهم، وليسَ الذي ذَهَبُوا من ذلكِ بمذهب، وذلك لأنَّ لام قوله: «لِيَكْفُرُوا» صَلُحت أنْ تكون بمعنى كي، لأنها شرطٌ لقولِه: إذا هم يشركون بالله كي يكفروا بما آتيناهم من النعم، وليس ذلك كذلك في قوله: «وليتَمَتَّعُوا» لأن إشراكَهم بالله كان كفْراً بنعمتِه، وليس إشراكُهم به تمتعاً بالدنيا، وإنْ كان الإشراكُ به يسهلُ لهم سبيلُ التمتعِ بها، فإذْ كان ذلك كذلك فتوجيههُ إلى معنى الوعيدِ أوْلى وأحقّ من توجيهِهِ إلى معنى: وكي يتمتعوا، وبعد فقد ذكر أن ذلك في قراءة أُبيّ «وَتَمَتَّعُوا» وذلك دليلٌ على صحةِ مَنْ قرأه بسكونِ اللام بمعنى الوعيد.

وقوله: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ مُذَكِّراً هؤلاء المشركينَ من قريش ـ القائلينَ: لولا أُنزلَ عليه آيةٌ من رَبِّه ـ نِعْمَتَهُ عليهم التي خَصَّهُمْ بها دونَ سائرِ الناسِ غيرهم مع كُفْرِهم بنعمتِه وإشراكهم في عبادته الآلهةَ والأندادَ، أوَ لَمْ يَرَ هؤلاء المشركونَ من قريش، ما خَصَصْنَاهُمْ به من نعمتنا عليهم دونَ سائرِ عبادنا، فيشكرونا على ذلك، ويَنْزَجِرُوا عن كُفْرِهم بنا، وإشراكِهم ما لا ينفعنا ولا يضرُّهُمْ في عبادتنا أنَّا جعلنا بلدَهم حَرَماً، حَرَّمْنَا على الناسِ أنْ يدخلوهُ بغارةٍ أو حربٍ آمناً، يأمَنُ فيه مَنْ سكنه، فأوى إليه من السِّباء والخوفِ، والحرام الذي لا يأمنه غيرهم من الناسِ «وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ»، يقول: وتُسْلَبُ الناسُ من حولهم قتلاً وسِباءً.

وقوله: «أَفَبالباطِلِ يُؤْمِنُونَ»، يقول: أفبالشركِ بالله يُقِرُّونَ بألوهةِ الأوثانِ بأنْ يُصَدِّقُوا، وبنعمةِ الله التي خَصَّهم بها من أنْ جعلَ بلدَهُمْ حرماً آمناً يكفرونَ، يعني بقوله: «يكفرون»: يَجْحَدُونَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومَنْ أظلمُ أيها الناسُ ممن اختلقَ على الله كذباً، فقالوا إذا فعلوا فاحشةً: وجدنا عليها آباءنا، والله أمرنا بها، والله لا يأمرُ بالفحشاء. «أَوْ كَذَّبَ بالحَقِّ لَمَّا جاءَهُ»، يقول: أو كذَّبَ بما بعثَ الله به رسولَهُ محمداً ﷺ من توحيدِه، والبراءةِ من الآلهةِ والأندادِ لما جاءه هذا الحقُّ من عندِ الله. «أَلَيْسَ في جَهَنَّمَ مَثْوًى للْكافِرينَ»، يقول: أليس في النار مَثْوىً ومَسْكَنٌ لِمَنْ كفرَ بالله، وجَحَدَ توحيدَهُ وكذَّبَ رسولَهُ ﷺ، وهذا تقريرٌ، وليسَ باستفهامٍ. إنما أخبر أن للكافرين بالله مَسْكَنا في النار، ومنزلا يَثْوُون فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: والذين قاتلوا هؤلاء المفترينَ على الله كذباً من كفارِ قريش، المكذِّبينَ بالحقِّ لما جاءهم فينا، مُبْتَغِينَ بقتالهم علوَّ كَلِمَتِنَا، ونُصْرةَ ديننا، «لنهدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا»، يقول: لنوفِّقَنَّهُمْ لإصابةِ الطرقِ المستقيمة، وذلك إصابة دينِ الله الذي هو الإسلامُ الذي بعث الله به محمداً ﷺ «وَإِنَّ الله لَمَعَ المُحْسِنِينَ»، يقول: وإنَّ الله لمع مَنْ أحسنَ من خَلْقِه، فجاهدَ فيه أهلَ الشركِ، مُصَدِّقاً رسولَهُ فيما جاء به من عندِ الله بالعونِ له، والنصرةِ على مَنْ جاهد من أعدائه.

سُورَةُ الرُّومِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾

قد بَيَّنا فيما مضى قبلُ معنى قوله: «الٓمٓ» وذكرنا ما فيه من أقوالِ أهلِ التأويل، فأغنى ذلك عن إعادته في هذا الموضع[1].

وتأويل الكلام: غَلبت فارسُ الرومَ «في أدْنَى الأرْضِ» من أرضِ الشام إلى أرضِ فارس «وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ»، يقول: والرومُ من بعد غَلَبَةِ فارس إياهم «سَيَغْلِبُونَ» فارسَ «في بِضْعِ سِنِينَ لله الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ» غَلَبتهم فارسُ «وَمِنْ بَعْدُ» غلبتهم إياها، يقضي في خَلْقِه ما يشاء، ويحكمُ ما يريدُ، ويُظْهِرُ مَنْ شاء منهم على مَنْ أحبَّ إظهارَهُ عليه «وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ الله»، يقول: ويوم يغلِبُ الرومُ فارسَ يفرحُ المؤمنونَ بالله ورسوله بنصرِ الله إيَّاهُمْ على المشركينَ، ونُصْرةِ الرومِ على فارسَ. «يَنْصُرُ» الله تعالى ذكره «مَنْ يَشاءُ» من خلقه، على مَنْ يشاء، وهو نُصْرَةُ المؤمنينَ على المشركينَ ببدرٍ. «وَهُوَ العَزِيزُ»،

---

(١) انظر تفسير أول سورة البقرة.

يقول: والله الشديدُ في انتقامِه من أعدائِه، لايمنعه من ذلك مانعٌ، ولا يحولُ بينه وبينه حائلٌ. «الرَّحِيمُ» بمن تابَ من خَلْقِه، وراجعَ طاعتَهُ أنْ يُعَذِّبَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَعْدَ الله جَلَّ ثناؤُهُ، وَعَدَ أنَّ الرومَ ستغلبُ فارسَ من بعدِ غلبةِ فارسَ لهم، ونَصَبَ «وَعْدَ الله» على المصدر من قوله: «وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ» لأنَّ ذلك وَعْدٌ من الله لهم أنهم سيغلبون، فكأنه قال: وَعَدَ الله ذلك المؤمنينَ وعداً. «لا يُخْلفُ الله وَعْدَهُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الله يَفِي بوعدِه للمؤمنينَ أنَّ الرومَ سيغلبونَ فارسَ، لا يُخْلِفُهُمْ وَعْدَهُ ذلك، لأنه ليس في مواعيدِه خُلْفٌ. «ولكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ»، يقول: ولكنَّ أكثرَ قريش الذين يُكَذِّبُونَ بأنَّ الله مُنْجز وعده المؤمنينَ، من أنَّ الرومَ تغلبُ فارس، لا يعلمونَ أنَّ ذلك كذلك، وأنه لا يجوزُ أنْ يكونَ في وعدِ الله إخلافٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: يعلمُ هؤلاء المُكَذِّبُونَ بحقيقةِ خبرِ الله أنَّ الرومَ ستغلبُ فارسَ، ظاهراً من حياتهم الدنيا، وتدبير معايشهم فيها، وما يُصْلِحُهُمْ، وهُمْ عن أمْرِ آخرتِهم، وما لهم فيه النجاةُ من عقابِ الله هنالك غافلونَ، لا يفكرون فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ۝٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أوَ لَمْ يَتفكَّرْ هؤلاء المكذّبونَ بالبعثِ يا محمدُ من قومكَ في خَلْقِ الله إياهم، وأنه خَلَقَهُمْ ولم يكونوا شيئاً، ثم صرفهم أحوالاً وتاراتٍ حتى صاروا رجالاً، فيعلموا أنَّ الذي فعل ذلك قادرٌ أنْ يُعيدَهُمْ بعد فنائِهم خَلْقاً جديداً، ثم يجازي المحسنَ منهم بإحسانِه، والمسيءَ بإساءتِه، لا يظلمُ أحداً منهم فيعاقبه بجرمِ غيرِه، ولا يحرمُ أحداً منهم جزاءَ عملِه، لأنه العدلُ الذي لايجورُ «ما خَلَقَ الله السمواتِ والأرض وما بينهما»، إلا بالعدلِ، وإقامةِ الحقِّ، «وأجلٍ مسمى»، يقول: وبأجلٍ مؤقتٍ مُسَمّى، إذا بلغتْ ذلك الوقتَ أفنى ذلك كُلَّهُ، وبَدَّلَ الأرضَ غيرَ الأرضِ والسموات، وبَرَزُوا لله الواحدِ القهَّار، وإنَّ كثيراً من الناسِ بلقاء رَبِّهم جاحدونَ مُنْكِرُونَ، جهلاً منهم بأنَّ مَعَادهم إلى الله بعد فنائهم، وغفلةً منهم عن الآخرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أوَ لَمْ يَسِرْ هؤلاء المكذِّبُونَ بالله، الغافلونَ عن الآخرةِ من قريش في البلادِ التي يسلكونها تَجراً، فينظروا إلى آثار الله فيمن كان قَبْلَهُمْ من الأممِ المكذِّبةِ، كيف كان عاقبةُ أمرها في تكذيبها رُسُلَهَا، فقد كانوا أشدَّ منهم قوَّةً، وأثاروا الأرضَ، يقول: واستخرجوا الأرضَ، وحَرَثُوها وعَمَرُوهَا أكثرَ

مما عَمَرَ هؤلاء، فأهلكهم الله بكفرهم وتكذيبهم رُسُلَهُم، فلم يقدروا على الامتناعِ، مع شدّةِ قواهم مما نزلَ بهم من عقابِ الله، ولا نَفَعتهم عمارتهم ما عَمَرُوا من الأرضِ، إذْ جاءتهم رُسُلَهُم بالبيناتِ من الآياتِ، فكذَّبُوهم، فأحَلَّ الله بهم بأسَهُ، فما كان الله ليظلمهم بعقابِه إياهم على تكذيبهم رُسُلَهُ وجحودهم آياتِه، ولكن كانوا أنفسهم يظلمونَ بمعصيتهم رَبَّهُمْ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ثم كان آخرَ أمرِ مَنْ كفرَ من هؤلاءِ الذي أثاروا الأرضَ وعمروها، وجاءتهم رُوسُلُهم بالبيناتِ بالله، وكَذَّبُوا رُسُلَهم، فأساءوا بذلك من فعلهم. السوأى: يعني الخلة التي هي أسوأ من فِعْلِهم؛ أما في الدنيا، فالبوارُ والهلاكُ، وأما في الآخرة فالنارُ لا يُخْرَجُونَ منها، ولا هم يُسْتعتبون.

وقوله: «أنْ كذَّبُوا بآياتِ الله»، يقول: كانتْ لهم السوأى، لأنهم كَذَّبُوا في الدنيا بآياتِ الله، «وكانوا بها يستهزؤون»، يقول: وكانوا بحججِ الله وهم أنبياؤُه ورسله يسخرون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: الله تعالى يبدأُ إنشاءَ جميعِ الخَلْقِ منفرداً بإنشائه من غيرِ شريكٍ ولا ظهير، فَيُحْدِثُه من غيرِ شيءٍ، بل بقدرته عزَّ وجلَّ، ثم يُعِيدُه خلقاً جديداً بعد إفنائِه وإعدامِه، كما بدأه خَلْقاً سَوِيّاً، ولم يَكُ شيئاً. «ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُـونَ»، يقول: ثم إليه من بعد إعادتهم خلقاً جديداً يُرَدُّونَ، فَيُحْشَرون

لفصلِ القضاءِ بينهم و«لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بالحُسْنَى» [النجم: ٣١].

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ويومَ تجيءُ الساعةُ التي فيها يفصلُ الله بين خَلْقِه، وينشـر فيهـا المـوتى من قبـورهم، فيحشـرهم إلى موقفِ الحسـابِ «يُبْلِسُ المُجْرِمُـونَ»، يقول: يَيْأَسُ الذين أشركوا بالله، واكتسبوا في الدنيا مساوىءَ الأعمالِ من كلِّ شرٍّ، ويكتئبون ويَتَنَدَّمُونَ.

وقوله: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ويومَ تقومُ الساعة لم يكن لهؤلاء المجرمينَ الذين وصف جَلَّ ثناؤُهُ صِفَتهم من شركائِهم الذين كانوا يتبعونهم، على ما دعوهم إليه من الضلالةِ، فيشاركونهم في الكفرِ بالله، والمعاونةِ على أذى رُسُلِه، شفعاءُ يشفعونَ لهم عندَ الله، فيستنقذوهم من عذابِـه، «وكـانُـوا بِشُـرَكـائِهم كافِرينَ»، يقول: وكانوا بشركائهم في الضلالةِ والمعـاونـة في الـدنيا على أولياءِ الله كافرينَ، يجحدونَ ولايتهم، ويتبرَّؤُونَ منهم، كما قال جَلَّ ثناؤُهُ: «إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا، ورأَوُا العَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبابُ، وَقالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كما تَبَرَّؤُوا مِنَّا» [البقرة: ١٦٦-١٦٧].

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ويوم تجيءُ الساعةُ التي يحشرُ فيها الخلقُ إلى الله «يومئذٍ»، يقول: في ذلك اليوم «يتفرَّقُون»، يعني: يتفرّقُ أهلُ الإيمانِ بالله، وأهلُ الكفرِ به، فأما أهلُ الإيمانِ، فَيُؤْخَذُ بهم ذاتَ اليمينِ إلى الجنةِ، وأما أهلُ الكفر فيؤخذُ بهم ذاتَ الشمالِ إلى النار، فهنالك يميزُ الله الخبيثَ من الطيِّبِ.

«فأمَّا الَّذينَ آمَنُوا» بالله ورسوله «وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ»، يقول: وعملوا بما أمرهم الله به، وانتهوا عما نَهاهم عنه «فَهُمْ في رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ»، يقول: فهم في الرياحين والنباتاتِ الملتفة، وبين أنواعِ الزهر في الجِنان يُسَرُّونَ، ويُلَذُّونَ بالسماعِ وطِيبِ العيشِ الهنيِّ، وإنما خصَّ جَلَّ ثناؤُهُ ذِكْرَ الروضةِ في هذا الموضعِ، لأنه لم يَكُنْ عند الطرفين أحسن منظراً، ولا أطيب نشراً من الرياض، فأعلمهم بذلك تعالى، أنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحَاتِ من المنظرِ الأنيق، واللذيذِ من الأراييحِ، والعيشِ الهنيّ فيما يحبون، ويُسَرُّونَ به، ويُغْبَطُونَ عليه. والحبرةُ عند العرب: السرورُ والغِبطة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْأَخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ١٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأما الذين جحدوا توحيدَ الله، وكذَّبُوا رُسُلَهُ، وأنكروا البعثَ بعد المماتِ والنشورَ للدارِ الآخرة، فأولئك في عذابِ الله مُحْضَرُونَ، وقد أحضرهم الله إياها، فجمعهم فيها ليذوقوا العذابَ الذي كانوا في الدنيا يُكَذِّبُون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ

تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فَسَبِّحُوا الله أيها الناسُ: أي صَلُّوا له حين تُمْسُونَ، وذلك صلاة المغرب، وحين تُصْبحونَ، وذلك صلاة الصبح «وَلَهُ الحَمْدُ في السَّمَـوَاتِ والأَرْضِ»، يقـول: ولـه الحمـدُ من جميع خَلْقِـه دونَ غيرِه في السمـواتِ من سكانها من الملائكةِ، والأرض من أهلها، من جميع أصنافِ خَلْقِه فيها، «وَعشِيًّا»، يقول: وسَبِّحوه أيضاً عَشِيًّا، وذلك صلاة العصر «وَحِينَ تُظْهِرُونَ»، يقول: وحين تَدْخلون في وقتِ الظهر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: صَلُّوا في هذه الأوقات التي أمركم بالصلاةِ فيها أيها الناسُ، لله الذي يخرجُ الحيَّ من الميت، وهو الإنسانُ الحيّ من الماءِ الميتِ، ويخرجُ الماءَ الميتَ من الإنسانِ الحيِّ «ويُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها» فَيُنْبِتُهَا، ويخرجُ زَرْعَها بعد خَرَابها وجُدُوبها. «وكذلكَ تُخْرَجُونَ»، يقول: كما يُحْيِي الأرضَ بعد موتها، فيخرج نباتَها وزَرْعَها، كذلك يُحْيِيكُمْ من بعد مماتِكم، فيخرجكم أحياءً من قبورِكم إلى موقفِ الحسابِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومِنْ حُججهِ على أنه القادرُ على ما يشاءُ أيها الناسُ

من إنشـاءٍ وإفنـاءٍ، وإيجادٍ وإعدامٍ، وأنَّ كُلَّ موجودٍ فَخَلَقَهُ خلقة أبيكم من ترابٍ، يعني بذلك خلقَ آدمَ من ترابٍ، فوصفهم بأنه خَلَقَهم من ترابٍ، إذْ كان ذلك فِعْلُه بأبيهم آدم كنحوِ الذي قد بَيَّنا فيما مضى من خطابِ العربِ مَنْ خاطبت بما فعلتْ بِسَلَفِه من قولهم: فعلنَا بكم وفَعَلْنَا.

وقوله: «ثُمَّ إذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ»، يقول: ثم إذا أنتم معشَر ذرّيةِ مَنْ خلقناهُ من ترابٍ بَشَرٌ تنتشرون، يقول: تَتصرّفُونَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومن حججه وأدلته على ذلك أيضاً خَلْقُه لأبيكم آدم من نفسِه زوجةً ليسكُنَ إليها، وذلك أنه خَلَقَ حوَّاءَ من ضلعٍ من أضلاعِ آدم.

وقـولـه: «وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً»، يقول: جعل بينكم بالمصاهرةِ والختونةِ مودَّةً تتوادُّونَ بها، وتتواصلونَ من أجلها، ورحمةً رَحِمَكُمْ بها، فعطفَ بعضُكم بذلك على بعضٍ «إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لقَوْمٍ يَتفَكَّرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ في فِعْلِه ذلك لَعِبَراً وعظاتٍ لقومٍ يتذكرون في حججِ الله وأدلته، فيعلمونَ أنه الإلهُ الذي لا يُعجزه شيءٌ أراده، ولا يتعذَّرُ عليه فِعْلُ شيءٍ شاءه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومن حججه وأدلته أيضاً على أنه لا يُعْجِزُه شيءٌ، وأنه إذا شاء أماتَ مَنْ كان حياً من خَلْقِه، ثم إذا شاء أَنْشَرَهُ وأعاده كما كان قبلَ

إماتته إياهُ خَلْقُهُ(١) السمواتِ والأرضِ من غيرِ شيءٍ أحدث ذلك منه، بل بِقُدرَتِه التي لا يمتنعُ معها عليه شيءٌ أراده. «وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ»، يقول: واختلاف منطقِ ألسنتكم ولغاتِها «وأَلْوَانِكُمْ»، يقول: واختلاف ألوانِ أجسامكم. «إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لِلْعَالِمِينَ»، يقول: إنَّ في فعله ذلك كذلك لعبراً وأدلةً لخلقِه الذين يعقلونَ أنه لا يُعْيِيهِ إعادتُهم لهيئتهم التي كانوا بها قبلَ مماتِهم من بعد فنائِهم، وقد بيَّنا معنى العالمين فيما مضى قَبْلُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومن حججه عليكم أيها القومُ تقديرهُ الساعاتِ والأوقاتِ، ومخالفته بين الليلِ والنهار، فجعلَ الليلَ لكم سكناً تسكنونَ فيه، وتنامونَ فيه، وجعلَ النهارَ مُضيئاً لتصرُّفِكُمْ في معايشِكُمْ والتماسِكم فيه مِنْ رزقِ رَبِّكم «إنَّ في ذلك لآياتٍ لقَوْمٍ يَسْمَعُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ في فعلِ الله ذلك كذلك، لعبراً وذكرى وأدلةً على أنَّ فاعلَ ذلك لا يُعْجِزُهُ شيءٌ أرادَهُ لقومٍ يسمعونَ مواعظَ الله، فيتعظون بها، ويعتبرون فيفهمون حججَ الله عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومن حججه «يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفاً» لكم إذا كنتم سفراً،

---

(١) سياق العبارة: ومن حججه.. خلقه.

أنْ تُمْطَرُوا فتتأذَّوْا به «وطَمَعاً» لكم، إذا كنتم في إقامةٍ أن تُمطروا، فَتَحْيَوا وتُخْصِبُوا. «وَيُنَزِّلُ منَ السَّماءِ ماءً»، يقول: وينزِّلُ من السماء مطراً، فيحيي بذلك الماء الأرضَ الميتةَ، فتنبتُ ويخرجُ زَرْعُهَا بعد موتِها، يعني جُدوبها ودروسها. «إن في ذلكَ لآياتٍ»، يقول: إن في فِعْلِه ذلك كذلك لعبراً وأدلةً «لِقَوْمٍ يَعْقِلونَ» عن الله حُجَجَهُ وأدلته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ٢٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومن حججه أيها القومُ على قُدْرتِه على ما يشاءُ، قيامُ السماء والأرض بأمره خُضوعاً له بالطاعةِ بغيرِ عَمَدٍ تُرى، «ثُمَّ إذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأرْضِ إذَا أنْتُمْ تَخْرُجُونَ»، يقول: إذا أنتم تَخْرُجُونَ من الأرضِ، إذا دعاكم دعوةً مُستجيبينَ لدعوتِه إياكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ٢٦ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ٢٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولله مَنْ في السمواتِ والأرض من ملك وجنٍّ وإنسٍ عبيدٌ وملْكٌ «كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ»، يقول: كلٌّ له مطيعونَ، فيقول قائلٌ: وكيف قيلَ: «كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ» وقد علمَ أنَّ أكثرَ الإنسِ والجنِّ له عاصون؟

فنقول: اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فنذكر اختلافهم، ثم نبين الصوابَ عندنا في ذلك من القولِ، فقال بعضهم: ذلك كلام مخرجهُ مخرجُ العمومِ، والمرادُ به الخصوص، ومعناه: كلٌّ له قانتون في الحياةِ والبقاءِ

والموتِ، والفناءِ والبعثِ والنشورِ، لا يمتنعُ عليه شيءٌ من ذلك، وإنْ عصاه بعضُهم في غير ذلك.

وقال آخرون: هو على الخصوص، والمعنى: وله مَنْ في السمواتِ والأرض من مَلِكٍ وعبدٍ مؤمنٍ لله مطيعٌ دونَ غيرهم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: كُلٌّ له قانتون بإقرارهم بأنه ربهم وخالقهم.

وأولى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ قولُ من قال: هو أنَّ كلَّ مَنْ في السمواتِ والأرض من خَلْقٍ لله مطيعٌ في تَصَرُّفِه فيما أرادَ تعالى ذِكْرُه من حياةٍ وموت، وما أشبه ذلك، وإنْ عَصَاهُ فيما يكسبُه بقولِه، وفيما له السبيلُ إلى اختيارِه وإيثارِه على خِلافِه.

وإنما قلتُ: ذلك أوْلى بالصواب في تأويلِ ذلك، لأنَّ العُصَاةَ من خَلْقِه فيما لهم السبيلُ إلى اكتسابِه كثيرٌ عددهم، وقد أخبر تعالى ذكره عن جميعهم أنهم له قانتون، فغيرُ جائزٍ أنْ يخبر عَمَّنْ هو عاصٍ أنه له قانتٌ فيما هو له عاصٍ. وإذا كان ذلك كذلك، فالذي فيه عاصٍ هو ما وصفتُ، والذي هو له قانتٌ ما بَيَّنْتُ.

وقوله: «وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: والذي له هذه الصفاتُ تبارَكَ وتعالى، هو الذي يبدأُ الخَلْقَ من غيرِ أصلٍ فينشِئُه ويُوجِدُه، بعد أنْ لم يكن شيئاً، ثم يفنيه بعد ذلك، ثم يُعِيدُه، كما بدأَهُ بعد فنائه.

«وهو أهونُ عليه»، اختلف أهلُ التأويل، في معنى قوله: «وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ»، فقال بعضهم: معناه: وهو هَيِّنٌ عليه.

وقال آخرون: معناه: وإعادةُ الخَلْقِ بعد فنائِهم أهونُ عليه من ابتداء

خلقهم.

وقد يحتملُ هذا الكلامُ وجهين غيرَ القولينِ اللَّذيْنِ ذكرتُ، وهو أنْ يكونَ معناهُ: وهو الذي يبدأ الخَلْقَ ثم يُعيده، وهو أهوَنُ على الخلق: أي إعادةُ الشيءِ أهونُ على الخَلْقِ من ابتدائه.

وقوله: «وَلَهُ المَثَلُ الأعْلَى»، يقول: ولله المَثَلُ الأعلى في السمواتِ والأرض، وهو أنه لا إله إلا هو وحده لا شريكَ له، ليسَ كمثلِه شيءٌ، فذلك المَثَلُ الأعلى، تعالى رَبُّنا وتَقَدَّسَ.

وقوله: «وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وهو العزيزُ في انتقامِه من أعدائِه، الحكيم في تدبيرِه خَلْقَهُ، وتصريفهم فيما أراد من إحياءٍ وإماتةٍ، وبعثٍ ونشرٍ، وما شاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: مَثَّلَ لكم أيها القومُ رَبُّكُم مَثَلًا من أنفسكم، «هل لكم مما ملكتْ أيمانُكم»، يقول: من مماليكِكُم من شُركاءَ، فيما رزقناكم من مالٍ، «فأنتم فيه سواء» وَهُمْ، يقول: فإذا لم ترضوا بذلك لأنفسكم فكيف رضيتم أنْ تكونَ آلهتُكم التي تعبدونَها لي شركاءَ في عبادتكم إيَّايَ، وأنتم وَهُمْ عَبيدي ومماليكي، وأنا مالكُ جميعَكُمْ.

واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: «تَخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أنْفُسَكُمْ»، فقال بعضهم: معنى ذلك: تخافون هؤلاء الشركاء مما ملكتْ أيمانُكم أنْ يَرِثُوكُمْ أموالَكُمْ من بعد وفاتِكم، كما يرثُ بعضُكم بعضاً.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: تخافون هؤلاء الشركاء مما ملكتْ أيمانُكم أنْ يُقاسِمُوكُمْ أموالَكم، كما يقاسِمُ بعضُكم بعضاً.

وأولى القولين بالصوابِ في تأويلِ ذلك القولُ الثاني، لأنه أشبههما بما دلَّ عليه ظاهرُ الكلام، وذلك أنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ وَبَّخَ هؤلاء المشركينَ الذين يجعلون له من خَلْقِه آلهةً يعبدونها، وأشركوهم في عبادتهم إياه، وهم مع ذلك يُقِرُّونَ بأنها خَلْقَهُ وهم عَبيدُه، وغيرهم بفِعْلِهم ذلك، فقال لهم: هل لكم من عبيدكم شركاءُ فيما خوّلناكُمْ من نِعمنَا، فهم سواء، وأنتم في ذلك تخافونَ أنْ يُقاسموكم ذلك المالَ الذي هو بينكم وبينهم، كخيفةِ بعضِكم بعضاً أنْ يُقاسِمَهُ ما بينه وبينه من المالِ شركةً، فالخيفةُ التي ذكرها تعالى ذِكْرُه بأنْ تكون خيفةً مما يخافُ الشريكُ من مقاسمةِ شريكهِ المالَ الذي بينهما إياهُ أشبه من أنْ تكونَ خيفةً منه بأنْ يَرِثَهُ، لأنَّ ذكر الشركة لا يدلُّ على خِيفةِ الوراثة، وقد يدلُّ على خيفةِ الفراقِ والمقاسمة.

وقوله: «كذلكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: كما بَيَّنا لكم أيها القومُ حججنا في هذه الآياتِ من هذه السورةِ على قُدْرَتنا على ما نَشاءُ من إنشاءِ ما نشاءُ، وإفناءِ ما نُحِبُّ، وإعادةِ ما نريدُ إعادَتَهُ بعد فنائِه، ودَلَّلْنَا على أنه لا تصلحُ العبادةُ إلا للواحِدِ القهار، الذي بيده ملكوتُ كلِّ شيءٍ كذلك نبينُ حججنـا في كل حقٍّ لقومٍ يعقلون، فيتدبرونَها إذا سمعوها، ويعتبرونَ فَيَتَّعِظُونَ بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ما ذلك كذلك، ولا أشركَ هؤلاء المشركونَ في عبادة الله الآلهـة والأوثانَ، لأنَّ لهم شركاً فيما رزقهمُ الله من ملكِ أيمانهم، فَهُمْ

وعَبيدُهم فيه سواءٌ، يخافونَ أنْ يُقاسموهم ما هُمْ شركاؤُهم فيه، فَرَضُوا الله من أجلِ ذلك بما رَضُوا به لأنفسهم، فأشركوهم في عبادتِه، ولكنَّ الذين ظلموا أنفسهم فكفروا بالله، اتَّبعُوا أهواءهم، جهلاً منهم لحقِّ الله عليهم، فأشركوا الآلهـةَ والأوثـانَ في عبـادته «فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ»، يقول: فَمَنْ يُسَدِّدْ للصوابِ من الطرق، يعني بذلك مَنْ يُوفِّقْ للإسلامِ مَنْ أضلَّ الله عن الاستقامةِ والـرشـاد «وَمَـا لَهُمْ مِنْ ناصِـرينَ»، يقـول: وما لِمَنْ أَضَلَّ الله من ناصرينَ ينصرونَهُ، فينقذونه من الضلالِ الذي يبتليه به تعالى ذِكْرُه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فَسَدِّدْ وجهكَ نحو الوجهِ الذي وَجَّهَكَ إليه رَبُّكَ يا محمدُ لطاعتِه، وهي الدينُ، «حنيفاً»، يقول: مستقيماً لدينِه وطاعتِه. «فِطْرَةَ الله التي فطرَ الناسَ عليها»، يقول: صنعة الله التي خلقَ الناسَ عليها، ونُصِبَتْ فطرة على المصدر من معنى قوله: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ للدِّينِ حَنِيفاً» وذلك أن معنى ذلك: فَطَرَ الله الناسَ على ذلك فِطرةً.

وقوله: «ذلكَ الدِّينُ القَيِّمُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ إقامتكَ وجهكَ للدين حنيفاً غيرَ مُغيِّرٍ ولا مُبَدِّلٍ هو الدينُ القيم، يعني المستقيم الذي لا عِوَجَ فيه عن الاستقامةِ من الحنيفيةِ إلى اليهوديةِ والنصرانية، وغير ذلك من الضلالاتِ والبدع المُحْدَثَةِ. «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لايَعْلَمُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولكن أكثرَ الناسِ لا يعلمون أنَّ الدينَ الذي أمرتُكَ يا محمدُ به بقولي: «فأقِمْ وَجْهَكَ للدِّينِ حَنِيفاً» هو الدين الحقُّ دونَ سائرِ الأديانِ غيره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝٣١ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٣٢﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «مُنِيبِينَ إِلَيْهِ» تائبينَ راجعينَ إلى الله مقبلين.

وتأويل الكلام: فأقم وجهكَ يا محمدُ للدين حنيفاً منيبينَ إليه إلى الله، فالمُنيبونَ حالٌ من الكافِ التي في وجهكَ.

فإنْ قال قائل: وكيف يكون حالاً منها، والكافُ كناية عن واحدٍ، والمُنيبون صِفةٌ لجماعةٍ؟ قيل: لأنَّ الأمرَ من الكافِ كناية اسمهِ من الله في هذا الموضعِ أمرٌ منه له ولأمتهِ، فكأنه قيل له: فأقِمْ وجهكَ أنتَ وأُمَّتكَ للدينِ حنيفاً لله، مُنيبينَ إليه.

وقوله: «وَاتَّقُوهُ»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: وخَافُوا الله وراقبوه أنْ تُفَرِّطُوا في طاعته، وتركبوا معصيتَهُ. «وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ»، يقول: ولا تكونوا من أهلِ الشركِ بالله بتضييعِكُمْ فرائِضَهُ، وركوبكم معاصيه، وخلافكم الدينَ الذي دعاكم إليه.

وقوله: «مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وكانُوا شِيَعاً»، يقول: ولا تكونوا من المشركين الذين بَدَّلُوا دِينهم، وخالفوه ففارقوه «وكانوا شِيَعاً»، يقول: وكانوا أحزاباً فِرَقاً كاليهودِ والنصارى.

وقوله: «كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ»، يقول: كُلُّ طائفةٍ وفرقةٍ من هؤلاء الذين فارقوا دينهم الحقّ، فأحدَثُوا البِدَعَ التي أحدثوا بما لديهم فَرِحُونَ، يقول: بما هم به متمسكون من المذهبِ، فَرِحُونَ مسرورون، يحسبون أنَّ الصوابَ معهم دونَ غيرهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإذا مَسَّ هؤلاء المشركينَ الذين يجعلونَ مع الله إلهاً آخرَ ضُرٌّ، فأصابتهم شِدَّةٌ وجُدوبٌ وقُحوطٌ «دَعَوْا رَبَّهُمْ»، يقول: أخلصوا لربِّهم التوحيدَ، وأفردوهُ بالدعاءِ والتضرُّعِ إليه، واستغاثوا به مُنيبينَ إليه، تائبينَ إليه من شِرْكِهم وكفرهم، «ثُمَّ إذا أذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً»، يقول: ثم إذا كشف رَبُّهم تعالى ذِكْرُهُ عنهم ذلك الضرَّ وفرَّجَهُ عنهم وأصابهم برخاءٍ وخِصبٍ وسَعةٍ، «إذا فريقٌ منهم»، يقول: إذا جماعةٌ منهم بربِّهم يُشْرِكُونَ، يقول: يعبدونَ معه الآلهةَ والأوثانَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ مُتَوعِّداً لهؤلاءِ المشركينَ الذين أخبرَ عنهم أنه إذا كشفَ الضُّرَّ عنهم كَفَرُوا به، «ليكفروا» بما أعطيناهم، يقول: إذا هم بربِّهم يشركونَ، كي يكفروا: أي يَجْحَدُوا النعمةَ التي أنعمتُهَا عليهم بكشفي عنهم الضُّرَّ الذي كانوا فيه، وإبدالي ذلك لهم بالرخاءِ والخِصْبِ والعافيةِ، وذلك الرخاء والسعة هو الذي آتاهم تعالى ذِكْرُهُ، الذي قال: بما آتيناهم.

وقوله: «فَتَمَتَّعُوا»، يقول: فتمتعوا أيها القومُ بالذي آتيناكم من الرخاءِ والسَّعةِ في هذه الدنيا، «فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» إذا وردتم على رَبِّكم ما تَلْقَوْنَ من عذابِهِ، وعظيم عقابِهِ على كفركم به في الدنيا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ۝٣٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أمْ أنزلنا على هؤلاء الذين يشركونَ في عبادتنا الآلهةَ والأوثانَ كتاباً بتصديقِ ما يقولونَ، وبحقيقةِ ما يفعلونَ «فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ»، يقول: فذلك الكتابُ ينطقُ بصحةِ شِرْكِهم، وإنما يعني جَلَّ ثناؤُهُ بذلك: أنه لم يُنزلْ بما يقولونَ ويفعلون كتاباً، ولا أرسلَ به رسولاً وإنما هو شيءٌ افتعلوهُ واختلقوهُ، اتباعاً منهم لأهوائِهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ۝٣٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإذا أصابَ الناسَ مِنَّا خِصْبٌ ورخاءٌ وعافيةٌ في الأبدانِ والأموالِ، فَرِحُوا بذلك، وإنْ تُصِبْهُمْ منا شدَّةٌ من جَدْبٍ وقحطٍ وبلاء في الأموالِ والأبدان «بِمَا قَدَّمَتْ أيْدِيهِمْ»، يقول: بما أسلفوا من سيءِ الأعمالِ بينهم وبين الله، وركبوا من المعاصي. «إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ»، يقول: إذا هم ييأسون من الفرجِ، والقنوطُ: هو الإياس.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أوَ لَمْ يَرَ هؤلاء الذين يفرحونَ عند الرخاءِ يُصيبهم والخِصْب، وييأسونَ من الفرجِ عند شدَّةٍ تنالهم، بعيونِ قلوبهم، فيعلموا أنَّ الشدَّةَ والرخاءَ بيدِ الله، وأنَّ الله يبسطُ الرزقَ لمن يشاءُ من عبادِهِ فَيُوسِّعهُ عليه،

ويَقْدِرُ على مَنْ أرادَ فَيُضَيِّقُه عليه. «إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»، يقول: إن في بَسْطِهِ ذلك على مَنْ بَسَطَهُ عليه، وقَدْرِهِ على مَنْ قَدَرَهُ عليه، ومخالفته بين مَنْ خالفَ بينه من عبادِهِ في الغنى والفقرِ لدلالة واضحة لمن صَدَّقَ حججَ الله وأقرَّ بها إذا عاينها ورآها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٣٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: فأعطِ يا محمدُ ذا القرابةِ منكَ حَقَّهُ عليكَ من الصِلةِ والبرِّ، والمسكينَ وابنَ السبيلِ، ما فَرَضَ الله لهما في ذلك.

وقوله: «ذلكَ خَيْرٌ للذينَ يُريدونَ وَجْهَ الله»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إيتاء هؤلاء حقوقهم التي ألزمها الله عبادَهُ، خيرٌ للذين يُريدُونَ الله بإتيانهم ذلك. «وأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ»، يقول: ومَنْ يفعل ذلك مبتغياً وجهَ الله به، فأولئك هم المُنْجِحُونَ، المُدْرِكُونَ طَلِباتِهم عند الله، الفائزونَ بما ابتغوا والتمسوا بإيتائهم إياهم ما آتَوْا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ٣٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما أعطيتم أيها الناسُ بعضَكم بعضاً من عَطِيَّةٍ لتزدادَ في أموالِ الناسِ برجوع ثوابها إليه، مِمَّنْ أعطاهُ ذلك، «فلا يَرْبُو عندَ الله»،

يقول: فلا يزدادُ ذلك عند الله، لأنَّ صاحبه لم يُعْطِه مَنْ أعطاهُ مبتغياً به وجهه «وَمـا آتَيْتُمْ مِن زَكـاةٍ»، يقول: وما أعطيتم من صدقةٍ تريدونَ بها وجهَ الله، «فـأولئـك»، يعني: الـذين يتصدَّقُونَ بأموالهم ملتمسينَ بذلك وجهَ الله «هم المضعفـون»، يقـول: هم الـذين لهم الضِّعْفُ من الأجرِ والثواب من قولِ العرب: أصبح القومُ مُسْمِنينَ مُعْطِشينَ، إذا سَمِنَتْ إبلُهم وعَطِشَتْ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٤٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ للمشركينَ به، مُعَرِّفَهُمْ قُبْحَ فِعْلِهم، وخُبْثَ صنيعهم: الله أيها القومُ الذي لا تصلحُ العبادةُ إلا له، ولا ينبغي أنْ تكونَ لغيره، هو الذي خلقكم ولم تكونوا شيئاً، ثم رزقكم وخَوَّلَكُمْ، ولم تكونوا تملكونَ قبلَ ذلك، ثم هو يُمِيتُكم من بعدِ أنْ خلقكم أحياء، ثم يُحييكم من بعدِ مماتكم لبعثِ القيامة.

وقوله: «هَلْ مِنْ شُركائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ»، يقول تعالى ذِكره: هل من آلهتكم وأوثانكم التي تجعلونهم لله في عبادتكم إياهُ شركاءَ مَنْ يفعلُ من ذلكم من شيءٍ، فيخلقُ أو يرزقُ، أو يميتُ، أو ينشرُ، وهذا من الله تقـريعٌ لهؤلاء المشركينَ. وإنما معنى الكلام أنَّ شركاءهم لا تفعل شيئاً من ذلك، فكيف يُعْبَدُ من دونِ الله مَنْ لا يفعلُ شيئاً من ذلك، ثم برأ نفسه تعالى ذِكْرُهُ عن الفِريةِ التي افتراها هؤلاء المشركونَ عليهِ بزعمهم أنَّ آلهتم له شركاءُ، فقال جَلَّ ثناؤُهُ سبحانه: أي تنزيهاً لله وتبرئةً. «وَتَعالى»، يقول: وعُلُوًّا له «عَمَّا يُشْرِكُونَ»، يقول: عن شِرْكِ هؤلاء المشركينَ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ظهرت المعاصي في بَرِّ الأرض وبحرها بكسبِ أيدي الناسِ ما نهاهم الله عنه.

واختلف أهل التأويل في المراد من قوله: «ظهر الفساد في البر والبحر»، فقال بعضهم: عنى بالبر الفلوات، وبالبحر الأمصار والقرى التي على المياه والأنهار.

وقال آخرون: بل عنى بالبر ظهرَ الأرض الأمصار وغيرها، وبالبحرِ البحرَ المعروف.

وأولى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ أنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ، أخبرَ أنَّ الفسادَ قد ظهرَ في البرِّ والبحرِ عند العربِ في الأرض القفار، والبحر بحران: بحرٌ ملحٌ، وبحر عَذْبٌ، فهما جميعاً عندهم بحر، ولم يخصصْ جَلَّ ثناؤُهُ الخبرَ عن ظهورِ ذلك في بحرٍ دونَ بحرٍ، فلذلك على ما وقعَ عليه اسمُ بحرٍ عذباً كان أو ملحاً. وإذا كان ذلك كذلك، دخل القرى التي على الأنهار والبحار.

وقوله: «بما كسبت أيدي الناس»، معناه: ظهرت معاصي الله في كل مكـانٍ من برٍّ وبحرٍ «بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ»، أي بذنوبِ الناسِ، وانتشرَ الظلمُ فيهما.

وقوله: « لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: ليصيبهم بعقوبةِ بعضِ أعمالهم التي عملوا، ومعصيتهم التي عصوا «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ»، يقول: كي يُنيبوا إلى الحقِّ، ويرجعوا إلى التوبة ويتركوا معاصي الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ لهؤلاء المشركينَ باللهِ من قومكَ، سِيروا في البلاد، فانظروا إلى مساكنِ الذين كفروا بالله من قبلكم، وكَذَّبوا رُسُلَه، كيف كان آخرُ أمرِهم، وعاقبةُ تكذِيبهم رسُلَ الله وكفرهم، ألم نهلكهم بعذابٍ منا، ونجعلهم عبرةً لمن بعدَهم، كان أكثرُهُمْ مشركينَ، يقول: فَعَلنا ذلك بهم، لأنَّ أكثرهم كانوا مشركين باللهِ مثلَهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فوجِّهْ وجْهَكَ يا محمدُ نحوَ الوجهِ الذي وجَّهكَ إليه رَبُّكَ «للدِّين القيِّم» لطاعة ربك، والمِلَّةِ المستقيمةِ التي لا اعوجاجَ فيها عن الحقِّ «مِنْ قَبْلِ أنْ يَأتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: من قبلِ مجيءِ يومٍ من أيامِ الله لا مَرَدَّ له لمجيئِه، لأنَّ الله قد قضى بمجيئه فهو لا محالة جاءٍ «يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ»، يقول: يوم يجيء ذلك اليومُ يصدَّعُ الناسُ، يقول: يتفرَّقُ الناسُ فرقتين من قولهم: صَدَعتُ الغنمَ صدعتين: إذا فرقتها فرقتين: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: مَنْ كفرَ بالله فعليه، أوزارُ[١] كُفْرِه، وآثامُ جحودِه نِعَمَ رَبِّهِ، «وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً»، يقول: ومَنْ أطاع الله، فعملَ بما أمره به في الدنيا، وانتهى عما نهاه عنه فيها «فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ»، يقول: فلأنفسهم يستعدون، ويسوُّون المضجعَ ليسلَمُوا من عقابِ رَبِّهم، وينجوا من عذابه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُهُ: «يومئذٍ يصَّدَّعونَ لِيَجْزِيَ الَّذينَ آمَنُوا» بالله ورسوله «وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ»، يقول: وعملوا بما أمرهم الله «مِنْ فَضْلِهِ» الذي وعد مَنْ أطاعَهُ في الدنيا أنْ يجزيه يومَ القيامة «إِنَّهُ لا يُحِبُّ الكافِرينَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنما خصَّ بجزائِه من فضلِه الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ دونَ من كفرَ بالله، إنـه لا يحبُّ أهـلَ الكفـرِ به. واستـأنف الخبـر بقوله: «إِنَّه لا يُحِبُّ الكافِرينَ» وفيه المعنى الذي وصفت.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومن أدلته على وحدانيته وحججه عليكم على أنه إلهُ كلِّ شيءٍ «أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشراتٍ» بالغيثِ والرحمة «وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ»، يقول: ولينزِّلَ عليكم من رحمته، وهي الغيثُ الذي يُحيي به البلادَ، ولتجري

(١) في المطبوع: «أو زاد» وليس بشيء.

السفنُ في البحارِ بها بأمره إياها «وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ»، يقول: ولتلتمسوا من أرزاقِـه ومعـايشكم التي قَسَمَهَا بينكم «وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»، يقول: ولتشكروا رَبَّكُمْ على ذلك أرسلَ هذه الرياحَ مبشرات.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُهُ مسلّياً نبيه ﷺ فيما يَلْقَى من قومِه من الأذى فيه بما لقيَ مَنْ قَبْلَهُ من رُسُلِه من قومهم، ومُعلمه سُنَّتَهُ فيهم وفي قومهم، وأنه سالكٌ به وبقـومِه سنته فيهم، وفي أممهم، ولقد أرسلنا يا محمد من قبلك رسلاً إلى قومهم الكفرة، كما أرسلناكَ إلى قومك العابدي الأوثانِ من دونِ الله «فجاءُوهُمْ بالبيِّناتِ»، يعني: بالواضحاتِ من الحججِ على صِدْقِهم وأنهم لله رسلٌ كما جئتَ أنتَ قومكَ بالبيناتِ فكذَّبُوهم كما كذَّبَكَ قومُكَ، وردُّوا عليهم ما جاءوهم به من عندِ الله، كما ردُّوا عليك ما جئتهم به من عند ربك. «فانْتَقَمْنا مِنَ الَّذِينَ أجْـرَمُـوا»، يقـول: فانتقمنـا من الذين أجرموا الآثامَ، واكتسبوا السيئاتِ من قومِهم، ونحن فاعِلُو ذلـك كذلـــك بمجـرمي قومـكَ «وكَانَ حَقاً عَلَيْنَا نَصْرُ المُؤْمِنِينَ»، يقول: ونجيّنا الذين آمنوا بالله وصَدَّقُوا رسله، إذ جاءهم بأسنا، وكذلك نفعلُ بكَ وبِمَنْ آمَنَ بك من قومك «وكانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ المُؤْمِنِينَ» على الكافرين، ونحنُ ناصروكَ ومَنْ آمَن بك على مَنْ كفرَ بك، ومُظْفِرُوكَ بهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: الله يرسلُ الرياحَ فتثيرُ سحاباً، يقول: فتنشىء الرياحُ سحاباً، وهي جمع سحابة، فيبسطُه في السماء كيف يشاء، يقول: فينشرهُ الله، ويجمعهُ في السماء كيف يشاء.

وقوله: «وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً»، يقول: ويجعل السحاب قِطعاً، متفرّقة.

وقوله: «فَتَرَى الوَدْقَ»، يعني: المطرَ «يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ»، يعني: من بينِ السحاب.

وقوله: «فإذَا أصابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبادِهِ إذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ»، يقول: فإذا صرف ذلك الودقَ إلى أرض مَنْ أراد صَرْفَهُ إلى أرضِه من خَلْقِه رأيتهم يستبشرونَ بأنه صرف ذلك إليهم ويفرحون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ۝٤٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وكان هؤلاء الذين أصابهم الله بهذا الغيثِ من عبادِه من قبل أنْ ينزلَ عليهم هذا الغيث من قبل هذا الغيثِ لَمُبْلِسينَ، يقول: لمكتئبين حزنين باحتباسهِ عنهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٥٠﴾

اختلفت القَرَأَةُ في قوله: «فانْظُرْ إلى آثَارِ رَحْمَةِ الله» فقرأته عامة قَرَأَة أهلِ المدينة والبصرة وبعض الكوفيين «إلى أَثَرِ رَحْمَةِ الله» على التوحيد، بمعنى: فانظرْ يا محمدُ إلى أثرِ الغيثِ الذي أصابَ الله به من أصابَ من

عبادِه، كيف يحيي ذلك الغيثُ الأرض من بعد موتها. وقرأ ذلك عامة قَرَأة الكوفة «فانْظُرْ إلى آثارِ رَحْمَةِ الله» على الجماع، بمعنى: فانظر إلى آثارِ الغيثِ الذي أصابَ الله به مَنْ أصابَ كيف يحيي الأرضَ بعد موتها.

والصوابُ من القولِ في ذلك، أنهما قراءتان مشهورتان في قرأةِ الأمصارِ، متقاربتا المعنى، وذلك أنَّ الله إذا أحيا الأرضَ بغيثٍ أنزله عليها، فإنَّ الغيثَ أحياها باحياءِ الله إياها به، وإذا أحياها الغيثُ، فإنَّ الله هو المحيي به، فبأيِّ القراءتين قرأ القارئُ فمصيب. فتأويلُ الكلام إذن: فانظر يا محمدُ إلى آثارِ الغيثِ الذي يُنَزِّلُ الله من السحابِ، كيف يحيي بها الأرضَ الميتةَ، فَيُنْبِتُها ويُعْشِبُهَا من بعد موتها ودُثورِها، إن ذلك لمحيي الموتى. يقول جلّ ذكره: إن الذي يحيي هذه الأرضَ بعد موتها بهذا الغيثِ، لمحيي الموتى من بعد موتهم، وهو على كلِّ شيءٍ مع قدرته على إحياءِ الموتى قديرٌ، لا يعزُّ عليه شيءٌ أراده، ولا يمتنعُ عليه فعل شيءٍ شاءه سبحانه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولئن أرسلنا ريحاً مفسدةً ما أنبته الغيثُ الذي أنزلناهُ من السماء، فرأى هؤلاء الذين أصابهُم الله بذلك الغيثِ الذي حَيِيَتْ به أرضُوهم، وأعشبتْ ونَبتتْ به زُروعهم ما أنبتته أرضوهم بذلك الغيثِ من الزرعِ مُصْفَرًّا، قد فسدَ بتلك الريحِ التي أرسلناها، فصارَ من بعد خُضْرَتِه مصفراً، لَظَلُّوا من بعد استبشارهم، وفرحتهم به يكفرونَ بربهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ

﴿ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ۝٥٢ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ۝٥٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ «فإنَّكَ» يا محمدُ «لا تُسْمِعُ المَوْتى»، يقول: لا تجعل لهم أسماعاً يفهمون بها عنكَ ما تقولُ لهم، وإنما هذا مَثَلٌ معناه: فإنك لا تقدرُ أنْ تُفْهِمَ هؤلاء المشركينَ الذين قد ختمَ الله على أسماعهم، فَسَلَبَهُم فَهْمَ ما يُتلى عليهم من مواعظِ تنزيلِه، كما لا تقدرُ أنْ تُفْهِمَ الموتى الذين قد سلبهم الله أسماعهم، بأن تجعل لهم أسماعاً.

وقوله: «وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ»، يقول: وكما لا تقدرُ أن تُسْمِعَ الصُّمَّ الذين قد سُلِبُوا السمعَ الدعاء، إذا هُمْ وَلَّوْا عنكَ مُدْبِرينَ، كذلك لا تقدرُ أنْ تُوَفِّقَ هؤلاء الذين قد سلبهم الله فَهْمَ آياتِ كتابه، لسماعِ ذلك وفهمه.

وقوله: «وَما أنتَ بِهادِ العُمْيِ عَنْ ضلالَتِهِمْ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما أنتَ يا محمدُ بمسَدِّدٍ مَنْ أعماهُ الله عن الاستقامة، ومحجة الحقِّ، فلم يوفقه لإِصابةِ الرشد، فصارفه عن ضلالتِه التي هو عليها وركوبه الجائرِ من الطرقِ إلى سبيلِ الرشاد، يقول: ليس ذلك بيدكَ ولا إليكَ، ولا يقدرُ على ذلك أحدٌ غيري، لأني القادرُ على كل شيء، وقيل: بهادي العُمْيِ عن ضلالتهم، ولم يقل: من ضلالتهم. لأنَّ معنى الكلام ما وصفت، من أنه: وما أنتَ بصارفهم عنه، فحمل على المعنى. ولو قيل: من ضلالتهم كان صواباً. وكان معناه: ما أنت بمانِعهم من ضلالتهم.

وقوله: «إنْ تُسْمعُ إلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بآياتِنا»، يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه: ما تسمع السماع الذي ينتفع به سامعه فيعقله، إلا مَنْ يؤمن بآياتنا، لأن الذي يؤمنُ بآياتنا إذا سمع كتابَ الله تدبَّرَهُ وفهمه وعقله، وعمل بما فيه، وانتهى إلى حدودِ الله، الذي حَدَّ فيه، فهو الذي يسمعُ السماعَ النافع.

وقوله: «فَهُمْ مُسْلِمُونَ»، يقول: فهم خاضعونَ لله بطاعته، متذللون لمواعظِ كتابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لهؤلاء المكذِّبينَ بالبعثِ من مشركي قريش محتجاً عليهم بأنه القادرُ على ذلك وعلى ما يشاء «اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ» أيها الناسُ «مِنْ ضَعْفٍ»، يقول: من نطفةٍ وماءٍ مهين، فأنشأكم بشراً سوياً «ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً»، يقول: ثم جعل لكم قُوَّةً على التصرُّفِ من بعدِ خَلْقِه إياكم من ضعف، ومن بعدِ ضعفكم بالصغرِ والطفولةِ «ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً»، يقول: ثم أحدث لكم الضعفَ بالهرمِ والكبرِ عما كنتم عليه أقوياءَ في شبابكم، وشيبةً.

وقوله: «يَخْلُقُ ما يَشاءُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: يخلق ما يشاء من ضعفٍ وقوّةٍ وشبابٍ وشيب «وَهُوَ العَلِيمُ» بتدبيرِ خَلْقِه «القَدِيرُ» على ما يشاء، لا يمتنعُ عليه شيءٌ أراده، فكما فعل هذه الأشياء، فكذلك يُميتُ خَلْقَهُ ويُحييهم إذا شاءَ، يقول: واعلموا أنَّ الذي فعلَ هذه الأفعالَ بقدرته يحيي الموتى إذا شاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ويوم تجيءُ ساعةُ البعثِ، فيبعثُ الخَلْقَ من قبورِهم يُقْسِمُ المجرمونَ، وهم الذين كانوا يكفرون بالله في الدنيا، ويكتسبونَ فيها

الآثامَ، وإقسامُهُم: حلفُهم بالله «ما لَبِثُوا غيرَ ساعةٍ»، يقول: يُقْسِمُونَ بأنهم لم يلبثوا في قبورهم غيرَ ساعةٍ واحدة، يقول الله جَلَّ ثناؤُهُ: «كذلك» في الدنيا «كانوا يُؤْفَكُونَ»، يقول: كذبوا في قِيلهم وقَسَمِهِم ما لبثنا غيرَ ساعة، كما كانوا في الدنيا يكذبون ويحلفون على الكذب وهم يعلمون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾

كان قتادة يقول: هذا من المُقَدَّمِ الذي معناهُ التأخيرُ. وذُكر عن ابن جُرَيج أنه كان يقول: معنى ذلك: وقال الذين أُوتُوا العلمَ بكتابِ الله، والإيمانَ بالله وكتابِه[1].

وقوله: «في كِتَابِ الله»، يقول: فيما كتب الله مما سَبَقَ في علمه أنكم تلبثونه «فَهَذَا يَوْمُ البَعْثِ»، يقول: فهذا يوم يبعث الناس من قبورهم. «وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلمونَ»، يقول: ولكنكم كنتم لا تعلمونَ في الدنيا أنه يكونُ، وأَنَّكُمْ مبعوثونَ من بعد الموتِ، فلذلك كنتم تكذبون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فيوم يبعثون من قبورهم «لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا

(١) حذفنا قول قتادة في كيفية التقديم والتأخير، لاضطرابه في المطبوع والمخطوط، واكتفينا بقول ابن جريج الذي يماثل قول قتادة ويوضحه. وانظر زاد المسير: ٣١٢/٦، وفتح القدير للشوكاني: ٢٢٤/٤.

مَعْذِرَتُهُمْ» يعني: المكذِّبينَ بالبعثِ في الدنيا مَعْذِرَتُهم، وهو قولهم: ما عَلِمْنا أنه يكونُ، ولا أنا نُبعَثُ «وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ»، يقول: ولا هؤلاء الظَّلَمةُ يُسْتَرجعونَ يومئذٍ عما كانوا يكذِّبونَ به في الدنيا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولقد مَثَّلْنا للناسِ في هذا القرآنِ من كُلِّ مثلٍ احتجاجاً عليهم، وتنبيهاً لهم عن وحدانية الله.

وقوله: «وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بآيةٍ»، يقول: ولئن جئتَ يا محمدُ هؤلاء القوم بآيةٍ، يقول: بدلالةٍ على صِدْقِ ما تقولُ، «لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إنْ أنتُمْ إلاَّ مُبْطِلُونَ»، يقول: ليقولنّ الذين جحدوا رسالتكَ، وأنكروا نبوَّتَكَ، إنْ أنتم أيها المصدِّقُونَ محمداً فيما أتاكم به إلا مُبطِلونَ فيما تَجيئُونَنا به من هذه الأمور.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: كذلك يختمُ الله على قلوبِ الذين لا يعلمونَ حقيقةَ ما تأتيهم به يا محمدُ من عند الله من هذه العِبر والعظاتِ، والآياتِ البيِّناتِ، فلا يفقهونَ عن الله حُجةً، ولا يفهمونَ عنه ما يتلو عليهم من آيِ كتابه، فهم لذلك في طغيانهم يتردَّدُونَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فاصبرْ يا محمدُ لما ينالُك من أذاهم، وبلِّغْهُمْ رسالةَ ربك، فإنَّ وعدَ الله الذي وعدكَ من النصرِ عليهم، والظفرِ بهم، وتمكينكَ وتمكينِ أصحابكَ وتُبَّاعك في الأرضِ حقٌّ «وَلَا يسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ»، يقول: ولا يستخفنَّ حلمكَ ورأيكَ هؤلاء المشركونَ بالله الذين لا يُوقِنُونَ بالمعادِ ولا يصدِّقُونَ بالبعثِ بعد المماتِ، فَيُثَبِّطُوكَ عن أمرِ الله والنفوذِ لما كلَّفكَ من تبليغهم رسالَتَهُ.

سُورَةُ لُقْمَانَ

بسم الله الرحمن الرحيم

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾

وقد تقدّم بياننا تأويل قولِ الله تعالى ذكره «الٓمٓ»[1].

«وقوله: «تلك آيات الكتاب الحكيم»، يقول جلَّ ثناؤُهُ: هذه آيات الكتاب الحكيم بياناً وتفصيلاً.

وقوله: «هُدىً وَرَحْمَةً»، يقول: هذه آيات الكتاب بياناً ورحمةً من الله، رَحِمَ به من اتَّبعه، وعَمِلَ به من خَلْقِه.

وقوله: «لِلْمُحْسِنِينَ» وهم الذين أحسنوا في العمل بما أنزلَ الله في هذا القرآن، يقول تعالى ذِكْرُهُ: هذا الكتابُ الحكيمُ هُدى ورحمةٌ للذين أحسنوا، فَعَمِلُوا بما فيه من أمرِ الله ونهيه. «الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ»، يقول: الذين يقيمون الصَّلاةَ المفروضةَ بحدودها «وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ» مَنْ جَعَلَهَا الله له المفروضة في أموالهم. «وَهُمْ بالآخرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ»، يقول: يفعلون ذلك وهم بجزاءِ الله وثوابهِ لمن فعل ذلك في الآخرةِ يوقنون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

---

(١) انظر أول تفسير سورة البقرة.

﴿ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: هؤلاء الذين وصفتُ صِفَتَهم على بيانٍ من رَبِّهم ونور. «وأولَئِـكَ هُمُ المُفْلحونَ»، يقول: وهؤلاء هم المُنْجِحونَ المُدْرِكُون ما رَجَوْا وأمَّلُوا من ثوابِ رَبِّهم يومَ القيامة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦﴾

اختلف أهـلُ التـأويل في تأويل قولـه: «وَمِنَ النَّـاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الحَديثِ»، فقال بعضهم: من يشتري الشراءَ المعروفَ بالثمن.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: مَنْ يختار لَهْوَ الحديثِ ويَسْتَحِبُّهُ.

وأولى التأويلين عندي بالصواب تأويلُ مَنْ قال: معناه: الشراء، الذي هو بالثمن، وذلك أنَّ ذلك هو أظهر مَعْنَيَيْهِ.

فإن قال قائـل: وكيف يشتـري لَهْوَ الحديثِ؟ قيل: يشتري ذاتَ لهوِ الحديثِ، أو ذا لهوِ الحديثِ، فيكون مشترياً لهوَ الحديث.

وأما الحديث، فإنَّ أهلَ التأويل اختلفوا فيه، فقال بعضهم: هو الغناءُ والاستمتاعُ له.

وقال آخرون: عنى باللهو: الطَّبْلَ.

وقال آخرون: عنى بلهـو الحديث: الشِّرْكَ.

والصواب من القول في ذلك أن يقال: عنى به كلَّ ما كانَ من الحديثِ

مُلْهياً عن سبيلِ الله مما نَهى الله عن استماعِه أو رسوله، لأنَّ الله تعالى عَمَّ بقولهِ: «لَهْوَ الحَدِيثِ» ولم يخصصْ بعضاً دونَ بعضٍ، فذلك على عمومِه حتى يأتي ما يدلُّ على خصوصِه، والغناء والشركُ من ذلك.

وقوله: «لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ الله»، يقول: ليصدَّ ذلك الذي يشتري من لهوِ الحديثِ عن دينِ الله وطاعته، وما يقرِّبُ إليه من قراءةِ قرآنٍ وذكرِ الله.

وقوله: «بغَيْرِ عِلْم»، يقول: فَعَلَ ما فعلَ من اشترائِه لهوَ الحديثِ جهلاً منه بما لَهُ في العاقبةِ عند الله من وزرِ ذلك وإثمِه.

وقوله: «وَيَتَّخِذَها هُزْوًا»، اختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك، فقرأته عامة قَرَأَة المـدينـة والبصرة وبعض أهل الكوفة «وَيَتَّخِذُها» رفعاً، عطفاً به على قوله: «يَشْتَرِي»، كأن معناه عندهم: ومن الناس مَنْ يشتري لِهوَ الحديثِ، ويتخذ آياتِ الله هزواً. وقرأ ذلك عامة قَرَأَة الكوفة «وَيَتَّخِذَها» نصباً عطفاً على يضلّ، بمعنى: ليضلَّ عن سبيلِ الله، وليتخذَها هُزُواً.

والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان معروفتان في قَرَأَة الأمصار، متقاربتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارئُ فمصيب الصوابِ في قراءته والهاء والألف في قوله: «وَيَتَّخِذَها» من ذِكر سبيل الله.

وقوله: «أُولَئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: هؤلاء الذين وصفنا أنهم يشترون لهو الحديث ليضلوا عن سبيلِ الله، لهم يومَ القيامةِ عذابٌ مُذِلٌّ مُخْزٍ في نار جهنم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾

يقـول تعـالى ذِكـرُهُ: وإذا تُتلى على هذا الـذي اشترى لهوَ الحديثِ

للإضلالِ عن سبيل الله آيات كتابِ الله، فقرئت عليه «وَلَّى مُسْتَكْبِراً»، يقول: أدبرَ عنها واستكبرَ استكباراً، وأعرضَ عن سماع الحقِّ والإجابة عنه «كأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كأنَّ في أُذُنَيهِ وَقْراً»، يقول: ثقلاً، فلا يطيقُ من أجله سماعه.

وقوله: «فَبشِّرْهُ بعَذابٍ أليم»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فَبَشِّرْ هذا المُعْرِضَ عن آياتِ الله إذا تُلِيتْ عليه استكباراً بعذابٍ له من الله يومَ القيامةِ مُوجِع، وذلك عذابُ النار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا» باللهِ فوحَّدُوه، وصدَّقُوا رسولَهُ واتبعوه «وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ»، يقول: فأطاعوا الله، فعملوا بما أمرهم في كتابهِ وعلى لسانِ رسوله، وانتهوا عما نهاهم عنه «لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيم»، يقول: لهؤلاء بساتين النعيم «خـالـدين فيها»، يقول: ماكثينَ فيها إلى غيرِ نهاية «وَعدَ الله حَقًّا»، يقول: وعدهم الله وعداً حقاً، لا شكَّ فيه ولا خلفَ له «وَهُوَ العَزِيزُ»، يقول: وهو الشديدُ في انتقامِه من أهلِ الشركِ به، والصادِّينِ عن سبيلهِ، «الحَكِيمُ» في تدبير خلقه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومن حكمته أنه «خَلَقَ السَّمَوَاتِ» السبع «بغَيْرِ عَمَدٍ

تَرَوْنَها»، وقد ذكرتُ فيما مضى اختلافَ أهلِ التأويلِ في معنى قوله: «بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها» وبيَّنَّا الصوابَ من القولِ في ذلك عندنا.

وقوله: «وألْقَى في الأرضِ رَواسِيَ أنْ تَمِيدَ بِكُمْ»، يقول: وجعل على ظهرِ الأرضِ رواسيَ، وهي ثوابت الجبال أنْ تَميدَ بكم، يعني: أن لا تميد بكم[1]، يقول: أن لا تضطربَ بكم، ولا تتحرَّكَ يمنةً ولا يسرة، ولكن تستقّر بكم.

وقوله: «وَبَثَّ فيها مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ»، يقول: وفَرَّقَ في الأرضِ من كلِّ أنواعِ الدوابِّ. وقيل الدوابُّ اسمٌ لكلِّ ما أكل وشرب، وهو عندي لكلِّ ما دبَّ على الأرض.

وقوله: «وأنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ ماءً فأنْبَتْنَا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأنزلنا من السماء مطراً، فأنبتنا بذلك المطر في الأرض من كلِّ زوجٍ، يعني من كل نوعٍ من النباتِ كريم، وهو الحسن النِّبتة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: هذا الذي عددتُ[2] عليكم أيها الناسُ أني خلقتُهُ في هذه الآية خلق الله الذي له أُلوهةُ كل شيءٍ، وعبادة كل خلق، الذي لا تصلحُ العبادةُ لغيرِه، ولا تنبغي لشيءٍ سواه، فأروني أيها المشركون في عبادتكم إياه مَن دونه من الآلهةِ والأوثان، أيَّ شيء خَلَقَ الذين من دونه من آلهتكم

(١) «أن» في هذا الموضع تكفي عن «لا»، فالمراد كما ذكر: «أن لا» وأضفنا لفظة «يعني» من عندنا للتوضيح.

(٢) في المطبوع: «أعددت» والصواب ما أثبتنا.

وأصنامكم، حتى استحقت عليكم العبادة فعبدتموها من دونه، كما استحقَّ ذلك عليكم خالقكم، وخالق هذه الأشياء التي عددتها عليكم.

وقوله: «بَلِ الظَّالِمُونَ في ضَلالٍ مُبينٍ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ما عبد هؤلاء المشركون الأوثان والأصنام من أجل أنها تخلقُ شيئاً، ولكنهم دعاهم إلى عبادتها ضلالُهم، وذهابُهم عن سبيل الحقِّ، فهم في ضلال: يقول: فهم في جَوْرٍ عن الحقِّ، وذهابٍ عن الاستقامةِ «مبين»، يقول: يبين لمن تأمله، ونظر فيه وفكَّر بعقلٍ أنه ضلالٌ لا هدى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولقد آتينا لقمانَ الفقهَ في الدينِ والعقل والإصابة في القول.

وقوله: «أنِ اشْكُرْ لله»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولقد آتينا لقمانَ الحكمةَ، أن احمدِ الله على ما آتاكَ من فضلِه، وجعل قوله: «أنِ اشْكُرْ» ترجمةً عن الحكمة، لأنَّ من الحكمةِ التي كان أُوتيها، كان شكره الله على ما آتاهُ.

وقوله: «وَمَنْ يَشْكُرْ فإنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ»، يقول: ومن يشكر الله على نعمه عنده فإنما يشكرُ لنفسه، لأنَّ الله يجزلُ له على شكرِه إياه الثوابَ، وينقذه به من الهَلَكَة «وَمَنْ كَفَرَ فإنَّ الله غَنِيٌّ حَمِيدٌ»، يقول: وَمَنْ كفرَ نعمةَ الله عليه، إلى نفسِه أساءَ، لأنَّ الله معاقبه على كفرانِه إياه، والله غنيٌّ عن شكرِه إياهُ على نعمه، لا حاجةَ به إليه، لأنَّ شكره إياه لا يزيدُ في سلطانه، ولا ينقصُ كفرانه إياه من مُلْكِه، ويعني بقوله: «حَمِيدٌ» محمودٌ على كلِّ حالٍ، له الحمدُ على نِعَمِه، كَفَرَ العبدُ نِعْمَتَهُ، أو شكرَهُ عليها، وهو مصروف من مفعول إلى فعيل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمد ﷺ: واذكُرْ يا محمدُ «إذْ قَالَ لُقْمانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بالله إنَّ الشِّركَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ»، يقول: لخطأٌ من القولِ عظيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأمرنا الإنسان ببرِّ والديه «حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ»، يقول: ضَعْفاً على ضعفٍ، وشِدَّةً على شدّة.

وقوله: «وَفِصَالُهُ في عَامَيْنِ»، يقول: وفطامُه في انقضاء عامين، وقيل: «وَفِصَالُهُ في عامَيْنِ» وترك ذِكْرِ انقضاء اكتفاءً بدلالة الكلام عليه، كما قيل: «وَاسأَلِ القَرْيَةَ التي كُنّا فِيها» يراد به أهل القرية.

وقوله: «أنِ اشْكُرْ لي وَلِوَالِدَيْكَ»، يقول: وعَهِدْنَا إليه أنْ اشكرْ لي على نعمي عليكَ، ولوالديكَ تربيتهما إياك، وعلاجهما فيك ما عالجا من المشقةِ حتى استحكم قواك.

وقوله: «إليَّ المَصِيرُ»، يقول: إلى الله مصيركَ إيها الإنسان، وهو سائِلُكَ عما كان من شكركَ له على نعمِه عليكَ، وعما كان من شكرك لوالديكَ، وبرِّكَ بهما على ما لَقِيا منكَ من العناءِ والمشقةِ في حال طُفُولِيَّتِكَ وصِباكَ، وما اصطنعا إليك في بِرِّهما بكَ، وتَحَنُّنِهِمَا عليكَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإنْ جاهداكَ أيها الإنسانُ والداكَ على أنْ تُشْرِكَ بي في عبادتك إيايَ معي غيري مما لا تعلمُ أنه لي شريكٌ، ولا شريكَ له تعالى ذِكْرُه علوًّا كبيراً، فلا تُطِعْهُمَا فيما أراداكَ عليه من الشركِ بي، «وَصَاحِبْهُمَا في الدُّنْيا مَعْرُوفاً»، يقول: وصاحبهما في الدنيا بالطاعةِ لهما فيما لا تبعةَ عليكَ فيه فيما بينكَ وبين رَبِّكَ ولا إثمَ.

وقوله: «واتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أنابَ إليَّ»، يقول: واسلكْ طريقَ مَنْ تابَ من شركه، ورجعَ إلى الإسلامِ، واتبع محمداً ﷺ.

وقوله: «إليَّ مَرْجِعُكُمْ فأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» فإن إليَّ مصيركم ومعادكم بعد مماتكم فأخبركم بجميعِ ما كنتم في الدنيا تعملون من خيرٍ وشرٍّ، ثم أُجازيكم على أعمالكم، المحسنَ منكم بإحسانِه، والمسيء بإساءته.

فإنْ قال لنا قائل: ما وجه اعتراض هذا الكلامِ بين الخبرِ عن وصيتي لقمان ابنه؟ قيل ذلك أيضاً، وإنْ كان خبراً من الله تعالى ذِكْرُه عن وصيته عبادَهُ به، وأنه إنما أوصى به لقمان ابنه، فكان معنى الكلام«وإذْ قال لُقْمانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بالله إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» ولا تطع في الشرك به والديكَ «وَصَاحِبْهُما في الدُّنْيا مَعْرُوفاً» فإن الله وَصَّى بهما فاستؤنف الكلامُ على وجه الخبرِ من الله، وفيه هذا المعنى، فذلك وجه اعتراض ذلك بين الخبرين عن وصيته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦﴾

تأويل الكلام: إنَّ الأمرَ إنْ تَكُ زنة حبةٍ من خردلٍ من خيرٍ أو شرٍّ عملتهُ، فتكن في صخرةٍ، أو في السمواتِ، أو في الأرض، يأتِ بها الله يومَ القيامةِ، حتى يوفيك جزاءه.

وقوله: «إنَّ الله لَطِيفٌ خَبِيرٌ»، يقول: إن الله لطيفٌ باستخراجِ الحبةِ من موضعها حيث كانت، خبيرٌ بموضعها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ مخبراً عن قِيلِ لقمانَ لابنه «يَا بُنَيَّ أقِمِ الصَّلاَةَ» بحدودها «وأمُرْ بالمَعْرُوفِ»، يقول: وَأْمُرِ الناسَ بطاعةِ الله، واتباعِ أمره. «وَانْهَ عنِ المُنْكَرِ»، يقول: وانه الناسَ عن معاصي الله ومواقعةِ محارمه «وَاصْبِرْ عَلى ما أَصَابَكَ»، يقول: واصبرْ على ما أصابكَ من الناس في ذاتِ الله إذا أنتَ أمرتهم بالمعروف، ونهيتهم عن المنكر، ولا يصدّنَكَ عن ذلك ما نالكَ منهم «إنَّ ذلكَ مِنْ عَزْمِ الأمُورِ»، يقول: إنَّ ذلك مما أمر الله به من الأمور عزما منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨﴾

تأويل الكلام: ولا تُعْرِضْ بوجهكَ عَمَّنْ كَلَّمْتَهُ تَكَبُّراً واستحقاراً لمن تُكَلِّمُه، وأصل الصعر داء يأخذُ الإبلَ في أعناقها أو رؤوسها حتى تَلْفِتَ أعناقُها عن رءوسها، فَيُشَبَّهُ به الرجلُ المتكبرُ على الناس.

وقوله: «وَلاَ تَمْشِ فِي الأرضِ مَرَحاً»، يقول: ولا تمشِ في الأرض مختالاً.

وقوله: «إنَّ الله لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ»، متكبرٍ ذي فخرٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ۝١٩﴾

يقول: وتواضع في مشيكَ إذا مشيتَ، ولا تستكبرْ، ولا تستعجلْ، ولكن اتَّئِدْ.

وقوله: «وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ»، يقول: واخفض من صوتك، فاجعله قصداً إذا تكلمت.

واختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «إنَّ أنْكَرَ الأصْوَاتِ لَصَوْتُ الحَمِيرِ»، فقال بعضهم: معناه: إنَّ أقبحَ الأصوات.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: إنَّ أشرَّ الأصواتِ.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قولُ مَنْ قال: معناه: إنَّ أقبحَ أو أشرَّ الأصواتِ، وذلك نظير قولهم: إذا رأوا وجهاً قبيحاً، أو منظراً شنيعاً: ما أنكرَ وجهَ فلان، وما أنكرَ منظره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي

﴿ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ «أَلَمْ تَرَوْا» أيها الناسُ «أَنَّ الله سَخَّرَ لَكُمْ ما في السَّمَوَاتِ» من شمسٍ وقمر ونجمٍ وسحاب «وَما في الأَرْضِ» من دابةٍ وشجرٍ وماء وبحرٍ وفلك وغير ذلك من المنافعِ، يجري ذلك كله لمنافعكم ومصالحكم لغذائِكم وأقواتِكم وأرزاقكم وملاذِّكم، تتمتعون ببعضِ ذلك كله، وتنتفعون بجميعه.

«وأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وبَاطِنَةً»، واختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك، فقرأه بعض المكيين وعامة الكوفيين «وأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَةً» على الواحدةِ، ووجَّهُوا معناها إلى أنه الإسلامُ، أو إلى أنها شهادة أنْ لا إله إلا الله. وقرأته عامة قَرَأَةُ المدينة والبصرة «نِعَمَهُ» على الجماع، ووجَّهوا معنى ذلك، إلى أنها النعم التي سخرها الله للعبادِ مما في السموات والأرضِ، واستشهدوا لصحةِ قراءتهم ذلك كذلك بقوله: «شاكِراً لأَنْعُمِهِ» قالوا: فهذا جمع النعم.

والصوابُ من القول في ذلك عندنا أنهما قراءتان مشهورتان في قَرَأَةِ الأمصار متقاربتا المعنى، وذلك أن النعمةَ قد تكون بمعنى الواحدة، ومعنى الجماع، وقد يدخل في الجماع الواحدة. وقد قال جَلَّ ثناؤُهُ «وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ الله لا تُحْصُوها» فمعلومٌ أنه لم يعن بذلك نعمةً واحدة. وقال في موضع آخر: «ولم يَكُ من المشركينَ شاكراً لأنعمه»، فجمعها، فبأيِّ القراءتين قرأ القارئ ذلك فمصيب.

وقوله: «ظاهِرَةً»، يقول: ظاهرة على الألسنِ قولاً، وعلى الأبدانِ وجوارحِ الجسدِ عملاً.

وقوله: «وَبَاطِنَةً»، يقول: وباطنة في القلوبِ اعتقاداً ومعرفة.

وقوله: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدىً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومن الناس مَنْ يخاصمُ في توحيدِ الله، وإخلاصِ الطاعةِ والعبادةِ له بغيرِ علمٍ عنده بما يخاصمُ، «ولا هدى»، يقول: ولا بيانٍ يبينُ به صحة ما يقول «وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ»، يقول: ولا بتنزيلٍ من الله جاء بما يدعي، يبينُ حقيقةَ دعواه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإذا قيلَ لهؤلاء الذين يجادلون في توحيدِ الله جهلاً منهم بعظمةِ الله، اتبعوا أيها القومُ ما أنزلَ الله على رسولِه، وصَدِّقُوا به، فإنه يفرقُ بين المحقِّ منا والمبطل، ويفصلُ بين الضَّال والمهتدي، فقالوا: بل نَتَّبِعُ ما وجدنا عليه آباءنا من الأديانِ، فإنهم كانوا أهلَ حقٍّ، قال الله تعالى ذِكْرُهُ: «أَوَ لَوْ كانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ» بتزيينِه لهم سوءَ أعمالِهم، واتباعهم إياهُ على ضلالتهم وكفرهم بالله وتركهم اتباعَ ما أنزلَ الله من كتابِه على نبيه «إلى عَذَابِ السَّعِيرِ»، يعني: عذابَ النار التي تتسعرُ وتلتهب.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومَنْ يُعَبِّدْ وجهَهُ مُتذللاً بالعُبودةِ، مُقرًّا له بالألوهةِ «وَهُوَ مُحْسِنٌ»، يقول: وهو مطيعٌ لله في أمره ونهيه. «فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بالعُرْوَةِ الوُثْقَى»، يقول: فقد تمسك بالطرفِ الأوثقِ الذي لا يخافُ انقطاعه مَنْ تَمَسَّكَ به، وهذا

مَثَلٌ، وإنما يعني بذلك أنه قد تمسك من رِضا الله بإسلامِه وَجْهَهُ إليه وهو مُحْسِنٌ، ما لا يخافُ معه عذابَ الله يومَ القيامة.

وقوله: «وَإلى الله عاقِبَةُ الأمُورِ»، يقول: وإلى الله مرجعُ عاقبةِ كلِّ أمرٍ خيرِه وشرِّه، وهو المُسَائِلُ أهلَهُ عنه، ومُجَازِيهم عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومَنْ كفرَ بالله فلا يحزنك كفرُه، ولا تذهبْ نفسكَ عليهم حسرةً، فإنَّ مرجعهم ومصيرهم يومَ القيامة إلينا، ونحنُ نخبرهم بأعمالهم الخبيثة التي عملوها في الدنيا، ثم نُجازيهم عليها جزاءهم «إنَّ الله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ»، يقول: إنَّ الله ذُو علمٍ بما تُكِنُّه صدورهم من الكفرِ بالله، وإيثار طاعة الشيطان.

وقوله: «نُمَتِّعُهُمْ قليلاً»، يقول: نُمْهِلُهُمْ في هذه الدنيا مهلاً قليلاً يتمتعون فيها، «ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إلى عَذابٍ غَلِيظٍ»، يقول: ثم نُورِدُهم على كرهٍ منهم عذاباً غليظاً، وذلك عذابُ النارِ، نعوذُ بالله منها، ومن عملٍ يُقَرِّبُ منها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولئن سألتَ يا محمدُ هؤلاء المشركينَ بالله من قومك

«مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الحَمْدُ للهِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيهِ محمدٍ، فإذا قالوا ذلك، فقل لهم: الحمدُ لله الذي خلق ذلك، لا لمن لا يخلق شيئاً وهم يُخْلَقُون، ثم قال تعالى ذِكْرُهُ: «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ»، يقول: بل أكثر هؤلاءِ المشركونَ لا يعلمونَ من الذي له الحمدُ، وأين موضعُ الشكرِ.

وقوله: «لله ما في السَّمَوَاتِ والأَرْضِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: لله كلُّ ما في السمواتِ والأرضِ من شيء ملكاً كائناً ما كان ذلك الشيءُ من وثنٍ وصنمٍ وغيرِ ذلك، مما يُعْبَدُ أو لا يعبد. «إنَّ اللهَ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ»، يقول: إنَّ الله هو الغنيُّ عن عبادةِ هؤلاءِ المشركينَ به الأوثانَ والأندادَ، وغير ذلك منهم ومن جميع خلقه، لأنهم مُلْكُه وله، وبهم الحاجةُ إليه، «الحميدُ»، يعني: المحمودُ على نعمِه التي أنعمها على خَلْقِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولو أنَّ شجرَ الأرضِ كلها بُرِيَتْ أقلاماً «والبَحْرُ يَمُدُّهُ»، يقول: والبحرُ له مِدادٌ، والهاء في قوله: «يَمُدُّهُ» عائدةٌ على البحر.

وقوله: «من بَعْدِه سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ» وفي هذا الكلام محذوف استغني بدلالةِ الظاهرِ عليه منه، وهو: يكتب كلام الله بتلك الأقلام وبذلك المدادِ، لتكَسَّرَتْ تلكَ الأقلامُ، ولنفدَ ذلكَ المِدادُ، ولم تنفد كلماتُ الله.

وذُكر أنَّ هذه الآية نزلتْ على رسولِ الله ﷺ في سببِ مجادلةٍ كانت من

اليهودِ له.

وقوله: «إنَّ الله عَزيزٌ حَكِيمٌ»، يقول: إن الله ذو عزَّةٍ في انتقامه ممن أشركَ به، وادَّعى معه إلهاً غيره، حكيم في تدبيرِه خَلْقَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ما خَلْقُكم أيها الناسُ ولا بعثكم على الله إلا كخلقِ نفسٍ واحدة وبعثها، وذلك أن الله لا يتعذّر عليه شيء أراده، ولا يمتنع منه شيء شاءه «إنما أمره إذَا أرادَ شَيْئاً أنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون» فسواء خَلْقُ واحدٍ وبعثُه، وخلق الجميعِ وبعثُهم.

وقوله: «إنَّ الله سَمِيعٌ بَصِيرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الله سميعٌ لما يقولُ هؤلاء المشركونَ ويفترونه على رَبِّهم، من ادِّعائِهم له الشركاءَ والأندادَ وغير ذلك من كلامِهم وكلامِ غيرهم، «بصير» بما يعملونه وغيرهم من الأعمال، وهو مُجازِيهم على ذلك جزاءهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «أَلَمْ تَرَ» يا محمدُ بعينكَ «أنَّ الله يُولِجُ اللَّيْلَ في النَّهار»، يقول: يزيدُ من نقصانِ ساعاتِ الليلِ في ساعاتِ النهار «ويُولِجُ النَّهارَ في اللَّيْلِ»، يقول: يزيد ما نقصَ من ساعاتِ النهار في ساعات اللَّيل.

وقولـه: «وَسَخَّرَ الشَّمْسَ والقَمَرَ كُلٌّ يَجْري إلى أجَلٍ مُسَمًّى»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وسخر الشمسَ والقمرَ لمصالحِ خَلْقِه ومنافعهم «كلٌّ يجري»، يقول: كلّ ذلك يجري بأمرِه إلى وقتٍ معلوم، وأجلٍ محدود إذا بلغه، كوّرت الشمس والقمر.

وقوله: «وأنَّ الله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبيرٌ»، يقول: وإنَّ الله بأعمالكم أيها الناسُ من خيرٍ أو شرٍّ ذُو خبرةٍ وعلمٍ، لا يَخْفَى عليه منها شيءٌ، وهو مُجازيكم على جميع ذلك.

وخرج هذا الكلام خطاباً لرسول الله ﷺ، والمعنيُّ به المشركون، وذلك أنه تعالى ذِكْرُهُ، نَبَّه بقوله: «أنَّ الله يُولِجُ اللَّيْلَ في النَّهارِ، ويُولِجُ النَّهارَ في اللَّيْلِ» على موضعِ حُجَّتِه مَنْ جَهِلَ عظمتَهُ، وأشركَ في عبادته معَهُ غيرَهُ، يدلُّ على ذلك قولُه: «ذلكَ بأنَّ الله هُوَ الحَقُّ وأنَّ ما يَدْعُونَ من دُونِه الباطِلُ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٣٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: هذا الذي أخبرتك يا محمدُ أنَّ الله فعله من إيلاجِه الليلَ في النهـار، والنهارَ في الليل، وغير ذلك من عظيمِ قُدْرَتِه، إنما فعله بأنه الله حقاً، دونَ ما يدعوهُ هؤلاء المشركون به، وأنه لا يقدرُ على فِعْلِ ذلك سواهُ، ولا تصلحُ الألوهةُ إلا لمن فعلَ ذلك بقُدرته.

وقوله: «وأنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِه الباطِلُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وبأنَّ الذي يعبدُ هؤلاء المشركون من دونِ الله الباطل الذي يضمحلُّ، فيبيدُ ويَفْنى. «وأنَّ الله هُوَ العلي الكَبيرُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وبأن الله هو العليُّ، يقول: ذو العلوِّ على كلِّ شيءٍ، وكلّ ما دونه فله متذللٌ مُنْقَادٌ، الكبيرُ الذي كُلُّ شيءٍ دونه،

فله متصاغِرٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٣١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: ألم تَرَ يا محمدُ أنَّ السفنَ تجري في البحر نعمةً من الله على خَلْقِه «لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِه»، يقول: ليريكم من عِبَرِهِ وحُجَجِه عليكم «إنَّ في ذلك لآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ»، يقول: إنَّ في جري الفلك في البحر دلالةً على أنَّ الله الذي أجراها هو الحقُّ، وأنَّ ما يدعون من دونه الباطلُ «لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ»، يقول: لكلِّ مَنْ صبر نفسه عن محارمِ الله، وشكره على نعمه فلم يكفره.

فإن قال قائل: وكيف خصَّ هذه الدلالةَ بأنها دلالةٌ للصبَّارِ الشَّكورِ دونَ سائرِ الخَلْقِ؟ قيل: لأنَّ الصبر والشكر من أفعالِ ذوي الحِجَى والعقولِ، فأخبرَ: إن في ذلك لآياتٍ لكلِّ ذي عقلٍ، لأنَّ الآيات جعلها الله عبراً لذوي العقولِ والتمييز.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ۝٣٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإذا غشيَ هؤلاء الذين يدعونَ من دونِ الله الآلهةَ والأوثانَ في البحرِ، إذا ركبوا في الفُلكِ، موجٌ كالظُّللِ، وهي جمع ظُلَّة، شَبَّه بها الموجَ في شدةِ سوادِ كثرةِ الماء.

وقوله: «دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإذا غشي هؤلاء موجٌ كالظُّللِ ، فخافوا الغرق، فزعوا إلى الله بالدعاءِ مخلصينَ له الطاعةَ، لا يشركونَ به هنالك شيئاً، ولا يدعونَ معه أحداً سواه، ولا يستغيثون بغيره. قوله «فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إلى البَرِّ» مما كانوا يخافونه في البحرِ من الغرق والهلاك إلى البرِّ. «فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ»، يقول: فمنهم مقتصدٌ في قولِه وإقرارِه بربه، وهو مع ذلك مُضْمِرٌ الكفرَ به.

وقوله: «وَما يَجْحَدُ بآياتِنَا إلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما يكفرُ بأدلتنا وحججنا إلا كلُّ غدَّارٍ بعهدِهِ، والخَتْرُ عند العرب: أقبحُ الغدرِ.

وقوله: «كَفُورٌ»، يعني: جحوداً للنِّعم، غير شاكرٍ ما أسدى إليه من نعمة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أيها المشركونَ من قريش، اتقوا الله، وخافوا أنْ يحلَّ بكم سَخَطُه في يومٍ لا يغني والدٌ عن ولدِهِ، ولا مولودٌ هو مُغْنٍ عن والدِهِ شيئاً، لأنَّ الأمر يصيرُ هنالك بيدِ مَنْ لا يُغَالَبُ، ولا تنفعُ عنده الشفاعةُ والوسائل، إلا وسيلة من صالحِ الأعمال التي أسلفها في الدنيا.

وقوله: «إنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ»، يقول: اعلموا أنَّ مجيء هذا اليوم حقٌّ، وذلك أنَّ الله قد وَعَدَ عباده ولا خُلْفَ لوعده «فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الحَياةُ الدُّنْيا»، يقول: فلا تخدعَنَّكُم زينةُ الحياةِ الدنيا ولذَّاتُها، فتميلوا إليها، وتَدَعُوا الاستعدادَ لما فيه خلاصُكم من عقابِ الله ذلك اليوم.

وقوله: «وَلَا يَغُرَّنَّكُم باللهِ الغَرُورِ»، يقول: ولا يخدعنَّكم بالله خادعٌ، والغَرور بفتح الغين: هو ماغَرَّ الإنسانَ من شيءٍ كائناً ما كانَ شيطاناً كان، أو إنساناً، أو دنيا؛ وأما الغُرور بضمِّ الغين: فهو مصدر من قول القائل: غَررته غُروراً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «يا أيها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ، وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً» هو آتيكم عِلْمُ إتيانه إياكم عند رَبِّكم، لا يعلمُ أحدٌ متى هوَ جائيكم، لا يأتيكم إلا بغتةً، فاتقوهُ أنْ يَفْجَأَكُمْ بغتةً، وأنتم على ضلالتكم لم تُنِيبُوا منها، فتصيرُوا من عذابِ الله وعقابِه إلى ما لا قِبَلَ لكم به، وابتدأ تعالى ذِكْرُهُ الخبرَ عن علمه بمجيء الساعةِ، والمعنى ما ذكرتُ لدلالةِ الكلامِ على المراد منه، فقال: «إنَّ الله عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعةِ» التي تقومُ فيها القيامةُ، لا يعلمُ ذلك أحدٌ غيره. «وينزِّلُ الغَيْثَ» من السماء، لايقدرُ على ذلك أحدٌ غيره «وَيَعْلَمُ ما في الأَرْحامِ» أرحامِ الإناث «وما تَدْرِي نَفْسٌ ماذَا تَكْسِبُ غداً»، يقول: وما تعلمُ نَفْسُ حيٍّ ماذا تعملُ في غَدٍ، «وما تَدْري نَفْسٌ بأيِّ أرْضٍ تَمُوتُ»، يقول: وما تعلمُ نفس حيٍّ بأيِّ أرضٍ تكونُ مَنِيَّتُها. «إنَّ الله عَلِيمٌ خَبِيرٌ»، يقول: إن الذي يعلمُ ذلك كله، هو الله دونَ كلِّ أحدٍ سواه، إنه ذو علم بكلِّ شيءٍ، لايخفى عليه شيءٌ، خبيرٌ بما هو كائنٌ، وما قد كان.

سُورَةُ السَّجْدَة

بسم الله الرحمن الرحيم

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿الٓمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ٣﴾

قد مضى البيانُ عن تأويل قوله: «الم» بما فيه الكفاية.

وقوله: «تَنْزِيلُ الكتابِ لا رَيْبَ فِيهِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: تنزيلُ الكتابِ الذي نَزَّلَ على محمدٍ ﷺ، لا شكَّ فيه «من ربِّ العالمين»، يقول: من ربِّ الثقلين: الجنِّ والإنس.

وقوله: «أمْ يَقُولونَ افْتَرَاهُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: يقولُ المشركونَ بالله: اختلقَ هذا الكتابَ محمدٌ من قِبَلِ نفسهِ، وتَكَذَّبَهُ، و: «أم» هذه تقرير، وقد بيَّنا في غير موضعٍ من كتابنا، أنَّ العرب إذا اعترضتْ بالاستفهامِ في أضعافِ كلامٍ قد تقدَّمَ بعضُه أنه يستفهم بأم. ثم أكْذَبَهُمْ تعالى ذِكْرُه، فقال: ما هُوَ كما تزعمونَ وتقولونَ من أن محمداً افتراهُ، بَلْ هو الحقُّ والصِدْقُ من عندِ رَبِّكَ يا محمدُ، أنزلَهُ إليك، لِتُنْذِرَ قوماً بأسَ الله وسطوته، أنْ يحلَّ بهم على كفرهم به «ما أتاهُمْ مِنْ نَذيرٍ منْ قَبْلكَ»، يقول: لم يأتِ هؤلاء القوم الذين أرسلكَ رَبُّكَ يا محمدُ إليهم، وهم قومه من قريش، نذيرٌ ينذرهم بأسَ الله على كفرِهم قبلك.

وقوله: «لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ»، يقول: ليتبيَّنُوا سبيلَ الحقِّ فيعرفوهُ ويؤمنوا به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُهُ: المعبودُ الذي لا تصلحُ العبادةُ إلا له أيها الناسُ «الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ وَما بَيْنَهُما» من خَلْقٍ «في سِتَّةِ أَيَّامٍ» ثم استوى على عرشه في اليومِ السابعِ بعد خَلْقِه السمواتِ والأرض وما بينهما.

وقوله: «ما لَكُمْ مِنْ دُونِه مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ»، يقول: ما لكم أيها النَّاسُ دونَهُ وليٌّ يلي أمركم وينصركم منه إنْ أراد بكم ضراً، ولا شفيعٌ يشفعُ لكم عنده إنْ هو عاقبكم على معصيتكم إياه، يقول: فإياهُ فاتخذوا ولياً وبه وبطاعته، فاستعينوا على أمورِكم فإنه يمنعكم إذا أرادَ مَنْعَكُمْ مِمَّنْ أرادكُمْ بسوءٍ، ولا يقدر أحدٌ على دفعهِ عما أرادَ بكم هو، لأنه لا يقهرهُ قاهرٌ، ولا يغلبهُ غالبٌ. «أفلا تَتَذَكَّرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: أفلا تعتبرونَ وتتفكَّرُونَ أيها الناسُ، فتعلموا أنه ليسَ لكم دونَه وليٌّ ولا شفيعٌ، فتفردوا له الأُلوهةَ، وتُخْلِصُوا له العبادةَ، وتخلعوا ما دونه من الأندادِ والآلهة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: الله هو الذي يُدَبِّرُ الأمْرَ من أمرِ خَلْقِه من السماءِ إلى الأرضِ، «ثم يعرُج إليه»، واختلف أهلُ التأويل في المعنيِّ بقوله: «ثُمَّ يَعْرُجُ إلَيْهِ في يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ ممَّا تَعُدُّونَ»، فقال بعضهم: معناه: أنَّ الأمر

ينزلُ من السماءِ إلى الأرضِ ، ويصعدُ من الأرضِ إلى السماءِ في يومٍ واحد، وقدر ذلك ألف سنة مما تعدُّونَ من أيامِ الدنيا، لأنَّ ما بينَ الأرضِ إلى السماءِ خمس مئةِ عام، وما بين السماء إلى الأرض مثل ذلك، فذلك ألف سنة.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: يُدَبِّرُ الأمرَ من السماءِ إلى الأرضِ ، ثم يعرج إليه في يومٍ من الأيامِ الستةِ التي خَلَقَ الله فيهنَّ الخَلْقَ، كان مقدارُ ذلك اليوم ألفَ سنة مما تعدُّونَ من أيامِكم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: يدبرُ الأمرَ من السماءِ إلى الأرضِ بالملائكة، ثم تعرجُ إليه الملائكةُ، في يَوْمٍ كان مقدارهُ ألفَ سنةٍ من أيام الدنيا.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: يدبرُ الأمرَ من السماء إلى الأرض في يومٍ كان مقدارُ ذلك التدبيرِ ألفَ سنة مما تعدُّون من أيامِ الدنيا، ثم يعرجُ إليه ذلك التدبيرُ الذي دَبَّرَهُ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: يدبرُ الأمرَ من السماء إلى الأرض، ثم يَعْرجُ إلى الله في يومٍ كان مقدارهُ ألفَ سنة، مقدارُ العروجِ ألفُ سنة مما تعدّون.

وأوْلى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قولُ مَنْ قال: معناه: يدبرُ الأمرَ من السماءِ إلى الأرضِ ، ثم يعرجُ إليه في يومٍ ، كان مقدارُ ذلك اليومِ في عروجِ ذلك الأمر إليه، ونزوله إلى الأرض ألفَ سنةٍ مما تعدون من أيامِكم خمس مئةٍ في النزول، وخمس مئة في الصعود، لأنَّ ذلك أظهرُ معانيه، وأشبهها بظاهرِ التنزيل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ

﴿الرَّحِيمُ ۝٦ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: هذا الذي يفعلُ ما وصفتُ لكم في هذه الآياتِ، هو «عالمُ الغيبِ»، يعني: عالم ما يغيبُ عن أبصاركم أيها الناسُ، فلا تبصرونه مما تُكِنُّه الصدورُ، وتخفيه النفوسُ، وما لم يَكُنْ بَعْدُ مما هو كائنٌ، «والشهادة»، يعني: ما شاهدتهُ الأبصارُ فأبصرته وعاينته وما هو موجودٌ. «العَزِيزُ»، يقول: الشديدُ في انتقامهِ ممن كفرَ به وأشركَ معه غيره، وكذَّبَ رُسُلَهُ. «الرَّحِيمُ» بمن تابَ من ضلالتِه، ورجعَ إلى الإيمانِ به وبرسوله، والعملِ بطاعته، أنْ يُعَذِّبَهُ بعد التوبة.

وقوله: «الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ»، اختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك، فقرأه بعض قَرَأَة مكة والمدينة والبصرة «أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ» بسكون اللام. وقرأه بعض المدنيين وعامة الكوفيين «أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ» بفتح اللام.

والصواب من القولِ في ذلك عندي أن يقال: إنهما قراءتان مشهورتان قد قرأ بكلٍّ واحدةٍ منهما علماء من القَرَأَة صحيحتا المعنى، وذلك أنَّ الله أَحْكَمَ خَلْقَهُ، وأَحْكَمَ كُلَّ شيءٍ خَلَقَهُ، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيبٌ.

وقوله: «وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وبدأ خَلْقَ آدمَ من طينٍ «ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ» يعني ذرِّيتَهُ من سلالةٍ، يقول: من الماء الذي انسلَّ فخرجَ منه. وإنما يعني: من إراقةٍ من مائهِ.

وقوله: «مِنْ ماءٍ مَهِينٍ»، يقول: من نطفةٍ ضعيفةٍ رقيقة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ثم سوَّى الإنسانَ الذي بدأ خلقه من طينٍ خَلْقاً سوياً معتدلاً، «ونَفَخَ فِيه مِنْ رُوحِهِ» فصار حياً ناطقاً «وَجَعَل لَكُمُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ والأَفْئِدَةَ قليلاً ما تَشْكُرُونَ»، يقول: وأنعمَ عليكم أيها الناسُ ربكم بأنْ أعطاكم السمعَ تسمعونَ به الأصواتَ، والأبصارَ تُبْصرونَ بها الأشخاص، والأفئدة تعقلونَ بها الخيرَ من السوءِ، لتشكروه على ما وَهَبَ لكم من ذلك.

وقوله: «قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ»، يقول: وأنتم تشكرونَ قليلاً من الشكرِ ربَّكم على ما أنعمَ عليكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وقال المشركونَ بالله، المكذِّبُونَ بالبعثِ «أئِذَا ضَلَلْنَا في الأرض» أي صارت لحومُنَا وعِظامنا تراباً في الأرض، وفيها لغتان: ضَلَلْنا، وضَلِلْنا بفتحِ اللام وكسرها، والقراءة على فتحها، وهي الجَوْداءُ، وبها نقرأُ.

وإنما عنى هؤلاء المشركون بقولهم: «أئِذَا ضَلَلْنا في الأرضِ»، أي: إذا هلكت أجسادُنا في الأرض، لأنَّ كُلَّ شيءٍ غَلَبَ عليه غيرُه حتى خفي فيما غلب، فإنه قد ضلَّ فيه، تقولُ العرب: قد ضلَّ الماءُ في اللبن: إذا غَلَبَ عليه حتى لايتبين فيه.

وقوله: «بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ما بهؤلاء المشركينَ جحودُ قدرةِ الله على ما يشاء، بل هُمْ بلقاءِ رَبِّهم كافرونَ، حذراً لعقابه، وخوفَ مجازاتِه إياهم على معصيتهم إياه، فهم من أجلِ ذلك يجحدونَ لقاءَ رَبِّهم في المعاد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قُلْ يا محمدُ لهؤلاء المشركين بالله «يتوفاكم مَلَكُ الموت»، يقول: يستوفي عَدَدَكُم بقبضِ أرواحِكم مَلَكُ الموتِ الذي وُكِّلَ بقبضِ أرواحكم.

«ثُمَّ إلى رَبِّكُم تُرْجَعُونَ»، يقول: من بعد قبضِ ملكِ الموتِ أرواحَكم إلى رَبِّكم يومَ القيامـةِ تُرَدُّونَ أحياء كهيئَتِكُمْ قبلَ وفاتِكم، فيجازي المحسنَ منكم بإحسانِه، والمُسيء بإساءته.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: لو ترى يا محمدُ هؤلاء القائلين «أئِذَا ضَلَلْنا في الأرضِ أئنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيد» إذ هم ناكِسو رُؤوسِهم عند رَبِّهم حياءً من ربهم، للذي سَلَفَ منهم من معاصيه في الدنيا، يقولون: يا «رَبَّنَا أَبْصَرْنَا» ما كنا نكذِّبُ به من عقابكَ أهلَ معاصيكَ «وَسَمِعْنَا» منك تصديقَ ما كانتْ رُسُلُكَ تأمُرُنا به في الدنيا، «فارجعنا»، يقول: فارْدُدْنَا إلى الدنيا نعملْ فيها بطاعتك، وذلـك العمـل الصـالـح. «إنَّا مُوقِنُونَ»، يقول: إنا قد أيقنَّا الآنَ ما كُنَّا به في الدنيا جهالاً من وحدانيتك، وأنه لايصلحُ أن يُعبدَ سواكَ، ولا ينبغي أنْ يكونَ ربٌّ سواكَ، وأنك تُحيي وتُميتُ، وتبعثُ مَنْ في القبور بعدَ المماتِ والفناءِ وتفعلُ ما تشاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَلَوْ شِئْنَا» يا محمدُ «لآتَيْنَا» هؤلاء المشركينَ بالله من قومكَ وغيرهم من أهلِ الكفرِ بالله «هُدَاهَا»، يعني: رُشْدَها وتوفيقها للإيمان بالله «وَلَكِنْ حَقَّ القَوْلُ مِنِّي»، يقول: وَجَبَ العذابُ مني لهم.

وقوله: «لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ»، يعني: من أهلِ المعاصي والكفرِ بالله منهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: يقالُ لهؤلاء المشركينَ بالله إذا هُمْ دخلوا النارَ: ذُوقُوا عذابَ الله بما نسيتم لقاءَ يومِكم هذا في الدنيا، «إنَّا نَسِيناكُمْ»، يقول: إنَّا تركناكم اليومَ في النار.

وقوله: «وَذُوقُوا عَذَابَ الخُلْدِ»، يقول: يقال لهم أيضاً: ذُوقوا عذاباً تخلدونَ فيه إلى غيرِ نهاية «بِما كُنْتُمْ» في الدنيا «تَعْمَلُونَ» من معاصي الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ما يصدقُ بحججنا وآياتِ كتابنا إلا القومُ الذين إذا ذُكِّرُوا بها وَوُعِظُوا «خَرُّوا» لله «سُجَّداً» لوجوههم، تذلُّلًا له، واستكانةً لعظمتِه،

وإقراراً له بالعبوديَّةِ «وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ»، يقول: وسبحوا الله في سجودهم بحمده، فيبرِّئونَهُ مما يصفه أهلُ الكفرِ به، ويضيفونَ إليه من الصاحبةِ والأولادِ والشركاءِ والأندادِ «وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ»، يقول: يفعلونَ ذلك، وهم لايستكبرونَ عن السجودِ له والتسبيحِ، لا يستنكفونَ عن التذلُّلِ له والاستكانة. وقيل: إنَّ هذه الآيةَ نزلت على رسولِ الله ﷺ، لأن قوماً من المنافقينَ كانوا يخرجونَ من المسجدِ إذا أُقيمت الصلاةُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ١٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: تَتَنَحَّى جنوبُ هؤلاء الذين يؤمنون بآياتِ الله، الذين وصفتُ صِفَتهم، وترتفعُ من مضاجعهم التي يضطجعونَ لمنامِهم، ولا ينامون «يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً» في عفوِه عنهم، وتفضُّلِه عليهم برحمتِه ومغفرتِه «ومِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ» في سبيل الله، ويؤدُّونَ منه حقوقَ الله التي أوجبها عليهم فيه. «وتتجافى»: تتفاعل من الجفاء؛ والجفاء: النبو.

وإنما وصفهم تعالى ذِكْرُهُ بتجافي جنوبِهم عن المضاجِعِ لتركِهم الاضطجاعَ للنومِ شُغلاً بالصلاةِ.

واختلف أهلُ التأويل في الصلاة التي وصفهم جَلَّ ثناؤُهُ، أنَّ جنوبهم تتجافى لها عن المضاجعِ، فقال بعضهم: هي الصلاةُ بين المغربِ والعشاء، وقال: نزلتْ هذه الآيةُ في قومٍ كانوا يصلون في ذلك الوقت.

وقال آخرون: عنى بها صلاة المغرب.

وقال آخرون: لانتظارِ صلاةِ العتمَة.

وقال آخرون: عنى بها قيام الليل.

وقال آخرون: إنما هذه صفة قومٍ لا تخلو ألسنَتُهم من ذِكْرِ الله.

والصوابُ من القول في ذلك أن يقال: إنَّ الله وصف هؤلاء القوم بأنَّ جنوبَهم تَنْبُو عن مضاجِعهم، شغلاً منهم بدعاءِ رَبِّهم وعبادته خوفاً وطمعاً، وذلك نبوّ جنوبِهم عن المضاجع ليلاً، لأنَّ المعروفَ من وصف الواصفِ رجلاً بأنَّ جَنْبَهُ نَبَا عن مضجعه، إنما هو وصفٌ منه له بأنه جفا عن النومِ في وقتِ منامِ الناس المعروفِ، وذلك الليلُ دونَ النهار، وكذلك تَصِفُ العربُ الرجلَ إذا وصفته بذلك، يدلُّ على ذلك قولُ عبدالله بن رواحة الأنصاري رضي الله عنه في صفةِ نبيِّ الله ﷺ:

يَبِيتُ يُجافِي جَنْبَهُ عَنْ فِراشِهِ إذا اسْتَثْقَلَتْ بالمُشْرِكِينَ المَضَاجِعُ

فإذا كان ذلك كذلك، وكان الله تعالى ذِكْرُهُ لم يخصصْ في وصفِهِ هؤلاء القوم بالذي وصفَهُمْ به من جفاءِ جنوبِهم عن مضاجِعهم من أحوالِ الليلِ وأوقاتِه حالاً ووقتاً دونَ حالٍ ووقتٍ؟ كان واجباً أن يكون ذلك على كلِّ آناءِ الليل وأوقاتِه، وإذا كان كذلك كان مَنْ صلى ما بين المغربِ والعشاء، أو انتظرَ العشاء الآخرةَ، أو قامَ الليلَ أو بعضَهُ، أو ذكَرَ الله في ساعاتِ الليل، أو صلى العتمة مِمَّنْ دخلَ في ظاهر قوله: «تَتَجَافَى جُنُوبُهُم عَنِ المَضَاجِعِ» لأن جنبه قد جفا عن مضجعه في الحالِ التي قام فيها للصلاةِ، قائماً صلى أو ذكر الله، أو قاعداً بعد أنْ لا يكون مضطجعاً، وهو على القيامِ أو القعودِ قادرٌ، غير أنَّ الأمرَ وإنْ كان كذلك، فإنَّ توجيهَ الكلامِ إلى أنه معنيٌّ به قيام الليل أعجب إليَّ، لأنَّ ذلك أظهر معانيه، والأغلب على ظاهرِ الكلام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فلاَ تعلم نفسُ ذي نفسٍ ما أخفى الله لهؤلاء الذين وَصَفَ جَلَّ ثناؤُهُ صِفتهم في هاتين الآيتين، مما تقرُّ به أعينهم في جِنانِه يومَ القيامة «جَزاءً بِمَا كانُوا يَعْمَلُونَ»، يقول: ثواباً لهم على أعمالهم التي كانوا في الدنيا يعملون، (فعن) أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «قالَ الله أعْدَدْتُ لعبادي الصَّالحينَ ما لا عَيْنٌ رأتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ واقْرَؤوا إنْ شِئْتُمْ قال الله ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفيَ لَهُمْ من قُرَّةِ أعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كانُوا يَعْمَلُونَ﴾»[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أفهَذا الكافرُ المكذِّبُ بوعدِ الله ووعيدِه، المخالِفُ أمرَ الله ونهيه، كهذا المؤمنِ بالله، المصدِّقِ بوعدِه ووعيدِه، المطيع له في أمرِه ونهيه، كلا «لايَسْتَوُونَ» عند الله، يقول: لا يعتدلُ الكفَّارُ بالله، والمؤمنونَ به عِنْدَهُ، فيما هو فاعلٌ بهم يومَ القيامة.

وقوله: «أمَّا الَّذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ المأْوَى»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: أما الذين صَدَّقُوا الله ورسولَهُ، وعملوا بما أمرهم الله ورسولَهُ «فلهم جناتُ المأوى»، يعني: بساتينُ المساكنِ التي يسكنونها في الآخرةِ ويأوونَ إليها.

---

(١) متفق عليه: البخاري ٣٩٦/٨، ومسلم (٢٨٢٤).

وقوله: «نُزُلاً بِمَا كانُوا يَعْمَلُونَ»، يقول: نُزُلاً أنزلهُمُوها جزاءً منه لهم بما كانوا يعملون في الدنيا بطاعته.

وقوله: «وأمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأما الذين كفروا بالله، وفارقوا طاعته «فَمأْوَاهُمُ النَّارُ»، يقول: فمساكِنُهم التي يأوونَ إليها في الآخرةِ النارُ «كُلَّما أرَادوا أنْ يَخْرُجوا مِنْها أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ به» في الدنيا «تُكَذِّبُونَ» أنَّ الله أعدَّهَا لأهلِ الشركِ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾

اختلف أهلُ التأويل في معنى العذابِ الأدنى، الذي وعد الله أنْ يذيقَهُ هؤلاء الفَسَقَةَ، فقال بعضهم: ذلك مصائبُ الدنيا في الأنفسِ والأموال.

وقال آخرون: عَنَى بها الحدودَ.

وقال آخرون: عَنَى بها القتلَ بالسيفِ، قال: وقُتِلُوا يومَ بدر.

وقال آخرون: عَنَى بذلك سنونَ أصابَتْهُمْ.

وقال آخرون: عَنَى بذلك: عذابَ القبر.

وقال آخرون: ذلك عذاب الدنيا.

وأوْلى الأقوال في ذلك أن يقال: إنَّ الله وعدَ هؤلاءِ الفَسَقَةَ المكذِّبينَ بوعيدِه في الدنيا العذابَ الأدنى، أن يُذِيقَهُمُوه دونَ العذابِ الأكبر، والعذاب: هو ما كانَ في الـدنيا من بلاءٍ أصـابَهُمْ، إما شدّة من مجاعة، أو قتلٍ، أو مصائبَ يُصابونَ بها، فكلُّ ذلك من العذابِ الأدنى، ولم يخصص الله تعالى ذِكْـرُهُ، إذْ وعـدهم ذلك أنْ يعذِّبَهُمْ بنوعٍ من ذلك دونَ نوعٍ، وقد عذَّبَهُمْ بكلِّ ذلك في

الدنيا بالقتلِ والجوعِ والشدائدِ والمصائبِ في الأموال، فأوفى لهم بما وعدهم.

وقوله: «دُونَ العَذَابِ الأكْبَرِ»، يقول: قبلَ العذابِ الأكبر، وذلك عذابُ يومِ القيامة.

وقوله: «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ»، يقول: كي يرجعوا ويتوبوا بتعذيبهم العذابَ الأدنى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأيّ الناسِ أظلمُ ممن وَعَظَهُ الله بحججه، وآي كتابه ورسله، ثم أعرضَ عن ذلك كله، فلم يَتَّعِظْ بمواعظِه، ولكنه استكبرَ عنها.

وقوله: «إنَّا مِنَ المُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ»، يقول: إنا من الذين اكتسبوا الآثامَ، واجترحوا السيئاتِ منتقمونَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولقد آتينا موسى التوراةَ، كما آتيناكَ الفرقانَ يا محمدُ «فَلَا تَكُنْ في مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ»، يقول: فلا تَكُنْ في شكٍّ من لقائِه، فكان قتادةُ يقول: معنى ذلك: فلا تكن في شكٍّ من أنك لقيته، أو تلقاهُ ليلةَ أُسريَ بك.

وقوله: «وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِي إسْرائِيلَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وجعلنا موسى هُدى لبني إسرائيلَ، يعني: رشاداً لهم يَرْشُدونَ باتباعِهِ، ويُصيبونَ الحقَّ

بالاقتداءِ به، والائتمامِ بقوله.

وقوله: «وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أئمَةً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وجعلنا من بني إسرائيلَ أئمةً، وهي جمع إمام، والإمامُ، الذي يُؤْتَمُّ به في خير أو شرٍّ وأُريدَ بذلك في هذا الموضع أنه جعل منهم قادةً في الخير، يؤتَمُّ بهم، ويُهْتَدى بهديهم.

وقوله: «يَهْدُونَ بأمْرِنَا»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: يهدون أتباعَهُم وأهلَ القبولِ منهم بإذننا لهم بذلك، وتقويتنا إياهُمْ عليه.

وقوله: «لَمَّا صَبَرُوا»، اختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك، فقرأته عامة قَرَأَة المدينة والبصرة، وبعض أهل الكوفة «لَمَّا صَبَرُوا» بفتح اللام وتشديد الميم، بمعنى: إذْ صبروا، وحِينَ صبروا، وقرأ ذلك عامة قَرَأَة الكوفة (لِمَا) بكسر اللام وتخفيف الميم، بمعنى: لِصَبْرِهم عن الدنيا وشهواتها، واجتهادِهم في طاعتنا، والعملِ بأمرنا.

والقول عندي في ذلك أنهما قراءتان مشهورتان متقاربتا المعنى، قد قرأ بكلٍّ واحدةٍ منهما عامة من القَرَأَة فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب. وتأويلُ الكلام إذ قُرِىء ذلك بفتح اللام وتشديد الميم: وجعلنا منهم أئمةً يهدون أتباعهم بإذننا إياهم، وتقويتنا إياهم على الهداية، إذْ صبروا على طاعتنا، وعَزَفُوا أنفسَهُمْ عن لذَّاتِ الدنيا وشهواتها. وإذ قُرِىءَ بكسر اللام فيكون على ما قد وصفنا.

وقوله: «وكانُوا بآياتِنا يُوْقِنُونَ»، يقول: وكانوا أهلَ يقينٍ بما دَلَّهُمْ عليه حُججنا، وأهلَ تصديقٍ بما تَبَيَّنَ لهم من الحقِّ، وإيمانٍ برسلنا، وآياتِ كتابنا وتنزيلنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ رَبَّكَ يا محمدُ هو يبينُ جميعَ خلقِه يومَ القيامة فيما كانوا فيه في الدنيا يختلفون من أمورِ الدينِ والبعثِ والثواب والعقاب، وغيرِ ذلك من أسبابِ دينهم، فيفرقُ بينهم بقضاءٍ فاصلٍ بإيجابه لأهلِ الحقِّ الجنةَ، ولأهلِ الباطلِ النارَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أو لم يبين لهم كثرةُ إهلاكِنا القرونَ الماضيةَ من قَبْلِهم يمشونَ في بلادهم وأرضهم، كعادٍ وثمود.

وقوله: «إنَّ في ذلك لآياتٍ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ في خلاء مساكنِ القرونِ الذين أهلكناهم من قَبْلُ هؤلاء المكذِّبينَ بآياتِ الله من قريش من أهلها الذين كانوا سُكَّانها وعُمَّارها بإهلاكِنا إياهم لما كذَّبوا رسلنا، وجحدوا بآياتنا، وعبدوا من دونِ الله آلهةً غيره التي يَمُرُّونَ بها فيُعَايِنُوهَا، لآياتٍ[1] لهم وعظاتٍ يَتَّعِظُونَ بها، لو كانوا أولي حجا وعقولٍ، يقول الله «أفلا يَسْمَعُونَ» عظاتِ الله وتذكيرَهُ إياهم آياتِه، وتعريفَهُمْ مواضعَ حججه؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أوَ لَمْ يَرَ هؤلاءِ المكذِّبُونَ بالبعثِ بعد الموتِ والنشر

---

(١) سياق العبارة: إن في خلاء مساكن... لآياتٍ.

بعدِ الفناء، أنَّا بقُدْرَتِنَا نسوقُ الماءَ إلى الأرض اليابسة الغليظة التي لا نبات فيها، وأصلُهُ من قولهم: ناقةٌ جُرزٌ: إذا كانت تأكل كلَّ شيء، وكذلك الأرضُ الجروزُ: التي لا يبقى على ظهرها شيءٌ إلا أفسدته.

«فنخرجُ به زرعاً تأكلُ منه أنعامهُمْ وأنْفُسهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فنخرجُ بذلك الماءِ الذي نسوقُه إليها على يبسِها وغلظها وطولِ عهدها بالماءِ زرعاً خضراً تأكلُ منه مواشيهم. وتغذى به أبدانهم وأجسامهم فيعيشون به «أفلا يبصرون»، يقول تعالى ذكره أفلا يرون ذلك بأعينهم فيعلموا بِرُؤْيَتِهُمُوهُ أنَّ القدرةَ التي بها فعلتُ ذلك لا يتعذَّرُ عليَّ أنْ أُحيي بها الأمواتَ وأُنشرهم من قبورِهم، وأُعيدُهم بهيئاتهم التي كانوا بها قبلَ وفاتهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَيَقُولونَ» هؤلاء المشركون بالله يا محمدُ لكَ «مَتى هَذَا الْفَتْحُ»، واختلف في معنى ذلك، فقال بعضهم: معناه: متى يجيءُ هذا الحكمُ بيننا وبينكم، ومتى يكونُ هذا الثوابُ والعقاب.

وقال آخرون: بل عنى بذلك: فتحَ مكة.

والصواب من القول في ذلك قولُ مَنْ قال: معناه: ويقولون متى يجيء هذا الحكمُ بيننا وبينكم، يَعْنُونَ العذابَ، يدلُّ على أنَّ ذلك معناه قوله: «قُلْ يَوْمَ الفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ» ولا شكَّ أنَّ الكفارَ قد كان جعل الله لهم التوبة قبل فتحِ مكة وبعدَهُ، ولو كان معنى قوله: «مَتى هَذَا الفَتْحُ» على ما قاله مَنْ قال: يعني به: فتح مكة، لكان لا توبةَ لمن أسلمَ

من المشـركينَ بعد فتحِ مكة، ولا شكَّ أنَّ الله قد تابَ على بشرٍ كثيرٍ من المشركينَ بعد فتح مكة، ونفعهم بالإيمانِ به وبرسوله فمعلومٌ بذلك صحة ما قلنا من التأويلِ، وفساد ما خالفه.

وقوله: «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»، يعني: إنْ كنتم صادقينَ في الذي تقولون مِنْ أنَّا مُعاقَبُونَ على تكذيبنا محمداً ﷺ، وعبادتنا الآلهةَ والأوثان.

وقوله: «قُلْ يَوْمَ الفَتْحِ لاينفع الذين كفروا إيمانهم» يقول لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ لهم يومَ الحكم، ومجيء العذابِ: لا ينفـعُ مَنْ كفرَ بالله وبآياتِه إيمانُهم الذي يحدثونه في ذلك الوقت.

وقوله: «وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ»، يقول: ولا هم يؤخرون للتوبة والمراجعة.

وقوله: «فأَعْرِضْ عَنْهُمْ وانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرونَ»، يقول لنبيه محمدٍ ﷺ: فأعرضْ يا محمدُ عن هؤلاء المشركينَ بالله، القائلينَ لك: متى هذا الفتحُ، المُسْتَعْجِلِيكَ بالعذابِ، وانتظرْ ما الله صانعٌ بهم، إنهم منتظرونَ ما تَعِدُهم من العذابِ ومجيءِ الساعة.

سُورَةُ الأَحْزَابِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: «يا أَيُّها النبيُّ اتَّقِ الله» بطاعته، وأداءِ فرائضه، وواجبِ حقوقِه عليكَ، والانتهاءِ عن محارمه، وانتهاكِ حدوده «وَلَا تُطِعِ الكافِرينَ» الذين يقولون لكَ: اطردْ عنكَ أتباعكَ من ضعفاءِ المؤمنينَ بك حتى نُجالِسَكَ. «والمُنافِقينَ» الذين يُظْهِرُونَ لكَ الإيمانَ بالله والنصيحة لك، وهم لا يَأْلُـونَكَ وأصحابك ودِينَكَ خبالاً، فلا تقبلْ منهم رأياً، ولا تَسْتَشِرْهُمْ مُسْتَنْصِحاً بهم، فإنهم لكَ أعـداء. «إنَّ الله كانَ عَلِيمـاً حَكِيماً»، يقول: إنَّ الله ذو علم بما تُضْمِـرُه نفوسهم، وما الذي يقصدون في إظهارهم لك النصيحة، مع الذي ينطوونَ لكَ عليه، حكيمٌ في تدبيرِ أمركَ وأمرِ أصحابكَ ودينك، وغيرِ ذلكَ من تدبيرِ جميعِ خَلْقِه. «وَاتَّبِعْ ما يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ»، يقول: واعملْ بما ينزل الله عليكَ من وحيِهِ، وآيِ كِتابه. «إنَّ الله كانَ بمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً»، يقول: إنَّ الله بما تعمل به أنتَ وأصحابُك من هذا القرآنِ، وغيرِ ذلك من أمورِكم وأمورِ عبادِه «خبيراً» أي ذا خبرةٍ، لا يخفى عليه من ذلك شيءٌ، وهو مجازيكم على ذلك بما وعدكم من الجزاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وفَوِّضْ إلى الله أمركَ يا محمدُ، وثِقْ به «وكَفَى بالله وَكِيلًا»، يقول: وحَسْبُكَ بالله فيما يأمركَ وكيلًا، وحفيظاً بك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝٤﴾

اختلف أهلُ التأويل في المرادِ من قولِ الله «ما جَعَلَ اللهِ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ في جَوْفِهِ»، فقال بعضهم: عنى بذلك تكذيبَ قومٍ من أهلِ النفاق، وصفوا نبيَّ الله ﷺ بأنه ذو قلبين، فنفى الله ذلك عن نبيهِ، وكَذَّبهم.

وقال آخرون: بل عُنِيَ بذلك: رجلٌ من قريش كان يُدعى ذَا القلبينِ من دَهْيِه.

وقال آخرون: بل عُني بذلك زيد بن حارثة مِنِ أجلِ أنَّ رسولَ الله ﷺ كان تَبَنَّاهُ، فضربَ الله بذلك مثلاً.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قولُ من قال: ذلك تكذيبٌ من الله تعالى قولَ مَنْ قال لرجلٍ في جوفه قلبانِ يعقلُ بهما، وجائزٌ أنْ يكون ذلك تكذيباً من الله لمن وصف رسولَ الله ﷺ بذلك، وأنْ يكون تكذيباً لمن سَمَّى القرشيَّ الذي ذُكر أنه سُمِّيَ ذا القلبين من دَهْيِه، وأيّ الأمرين كان فهو نفيٌ من الله عن خَلْقِه من الرجال أنْ يكونُوا بتلك الصفة.

وقوله: «وَما جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللائِي تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُمْ»، يقول تعالى ذِكْـرُهُ: ولم يجعـل الله أيها الرجالُ نساءَكم اللائي تقولون لَهُنَّ: أنتنَّ علينا كظهورِ أُمَّهاتِنا أُمَّهاتِكُمْ، بَلْ جعل ذلك من قِيلِكم كذباً، وألزمكم عقوبةً لكم كفَّارة.

وقوله: «وَما جَعَلَ أدعياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ»، يقول: ولم يجعل الله من ادَّعيتَ أنه ابنك، وهو ابن غيرك ابنك بدعواك.

وذُكر أنَّ ذلك نزلَ على رسولِ الله ﷺ من أجلِ تَبَنِّيه زيدَ بن حارثة[1].

وقوله: «ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بأفْوَاهِكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: هذا القولَ، وهو قولُ الرجلِ لامرأتِه: أنتِ عليَّ كظهرِ أمي، ودعاؤُه مَنْ ليس بابنهِ أنه ابنُه، إنما هو قولُكم بأفواهِكم لا حقيقةَ له، لا يَثْبُتُ بهذه الدعوى نَسَبُ الذي ادَّعَيْتَ بُنُوَّتَهُ، ولا تصيرُ الزوجةُ أُمًّا بقولِ الرجلِ لها: أنت عليَّ كظهرِ أمي. «واللهُ يقُـولُ الحَقَّ»، يقـول: والله هو الصادقُ الذي يقولُ الحقَّ، وبقولِه يَثْبُتُ نَسَبُ مَنْ أثبت نسبه، وبه تكونُ المرأة للمولودِ أُمًّا إذا حكم بذلك «وَهُوَ يَهْدِي السَّبيلَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: والله يبينُ لعبادِه سبيلَ الحقِّ، ويرشدهم لطريقِ الرشاد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥﴾

يقـول الله تعـالى ذِكْـرُهُ: انسبوا أدعياءَكُم الذين ألحقتم أنسابَهم بكم

---

(١) ذلك ثابت في الصحيحين.

لآبائهم، يقولُ لنبيه محمدٍ ﷺ: أَلْحِقْ نَسَبَ زيدٍ بأبيهِ حارثةَ، ولا تَدْعُهُ زيدَ ابن محمدٍ.

وقوله: «هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ»، يقول: دعاؤُكم إياهُمْ لآبائِهم هو أعدلُ عند الله، وأصدقُ وأصوبُ من دعائِكم إياهم لغيرِ آبائهم ونِسْبَتِكُمُوهُمْ إلى مَنْ تَبَنَّاهُمْ وادَّعاهم وليسوا له بنينَ.

وقـوله: «فإنْ لَمْ تَعْلمُوا آباءَهُمْ فإخْوَانُكُمْ في الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فإنْ أنتم أيها الناسُ لم تعلموا آباءَ أدعيائِكم مَنْ هم فَتَنْسُبُوهُمْ إليهم، ولم تَعْرِفُوهم، فَتُلْحِقُوهم بهم، فإخوانُكم في الدين، يقول: فهم إخوانكم في الدين، إنْ كانوا من أهلِ مِلَّتكم ومواليكم إنْ كانوا مُحَرَّرِيكُمْ وليسوا بِبَنِيكُمْ.

«فإنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فإخْوَانكُمْ في الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ»، فإنْ لم تعلموا مَنْ أبوه فإنما هو أخوكَ ومولاكَ.

وقوله: «وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ فِيما أَخْطأْتُمْ بِهِ»، يقول: ولا حَرَجَ عليكم ولا وزرَ في خطأٍ يكونُ منكم في نسبةِ بعضِ مَنْ تنسبُونَهُ إلى أبيهِ، وأنتم ترونَهُ ابنَ مَنْ ينسبونهُ إليه، وهو ابنٌ لغيره «وَلَكِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ»، يقول: ولكنَّ الإثمَ والحرجَ عليكم في نِسْبَتِكُمُوهُ إلى غيرِ أبيه، وأنتم تعلمونه ابنَ غيرِ مَنْ تنسبونَه إليه.

وقوله: «وكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وكان الله ذا سترٍ على ذنبِ مَنْ ظاهرَ زوجتَهُ فقال الباطلَ والزورَ من القولِ، وذنبِ من ادَّعى ولدَ غيرِه ابناً له، إذا تابا وراجعا أمرَ الله، وانتهيا عن قِيلِ الباطلِ بعد أنْ نهاهما رَبُّهما عنه، ذا رحمةٍ بهما أن يعاقبهما على ذلك بعد توبتِهما من خطيئتِهما.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ۝٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «النَّبِيُّ محمدٌ «أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ»، يقول: أحقُّ بالمؤمنينَ به «مِنْ أَنْفُسِهِمْ» أنْ يحكمَ فيهم بما يشاءُ من حكم، فيجوز ذلك عليهم[1].

وقوله: «وأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ»، يقول: وحرمةُ أزواجِه حرمةُ أمهاتِهم عليهم في أنهن يحرمُ عليهم نكاحهُنَّ من بعدِ وفاتِه، كما يحرمُ عليهم نكاحُ أمهاتهم.

وقوله: «وأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ والمُهَاجِرِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأولو الأرحامِ الذين وَرَّثْتَ بعضَهم من بعضٍ، هم أوْلى بميراثِ بعضٍ من المؤمنينَ والمهاجرين أنْ يرثَ بعضهم بعضاً بالهجرةِ والإيمانِ دون الرحم.

وقوله: «إلا أنْ تَفْعَلُوا إلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً»، اختلف أهلُ التأويل في تأويله، فقال بعضهم: معنى ذلك: إلا أنْ تُوصُوا لذوي قرابتكم من غيرِ أهلِ الإيمان والهجرة.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: إلا أنْ تُمْسِكُوا بالمعروفِ بينكم بحقِّ الإيمانِ والهجرةِ والحلف، فَتُؤْتُونَهُمْ حَقَّهم من النُّصْرةِ والعَقْلِ عنهم[2].

---

(١) الأحاديث الصحيحة في ذلك كثيرة معروفة، ومنها حديث أبي هريرة المعروف: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة»، وهو في الصحيحين.

(٢) العقل: دفع الدية عن القتل الخطأ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أنْ تُوصُوا إلى أوليائكم من المهاجرينَ وصيةً.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك عندي بالصوابِ أنْ يقال: معنى ذلك: إلا أن تفعلوا إلى أوليائِكم الذِينَ كان رسولُ الله ﷺ آخَى بينهم وبينكم من المهاجرينَ والأنصار، معروفاً من الوصيةِ لهم، والنصرة والعقل عنهم، وما أشبهَ ذلك، لأنَّ كُلَّ ذلك من المعروفِ الذي قد حَثَّ الله عليه عباده.

وإنما اخترتُ هذا القولَ، وقلت: هو أولى بالصوابِ من قِيلِ مَنْ قال: عَنَى بذلك الوصيةَ للقرابةِ من أهلِ الشرك، لأنَّ القريبَ من المشرك، وإنْ كان ذا نَسَبٍ فليس بالمولى، وذلك أنَّ الشِّرْكَ يقطعُ ولايةَ ما بين المؤمن والمشركِ، وقد نَهَى الله المؤمنينَ أنْ يتخذوا منهم ولياً بقوله: «لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ»، وغير جائزٍ أنْ ينهاهم عن اتخاذِهم أولياءَ، ثم يَصِفُهم جَلَّ ثناؤُهُ بأنهم لهم أولياء. وموضع «أن» من قوله: «إلَّا أنْ تَفْعَلُوا» نصب على الاستثناء. ومعنى الكلام: وأُولُوا الأرحامِ بعضهم أولى ببعضٍ في كتابِ الله من المؤمنين والمهاجرين، إلا أنْ تفعلوا إلى أوليائكم الذين ليسوا بأولي أرحامٍ منكم معروفاً.

وقوله: «كانَ ذلكَ في الكِتَابِ مَسْطُوراً»، يقول: كان أُولُو الأرحامِ بعضهم أولى ببعضٍ في كتابِ الله: أي في اللوح المحفوظ «مسطوراً»، أي: مكتوباً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: كان ذلك في الكتاب مسطوراً، إذْ كتبنا كُلَّ ما هو كائنٌ في الكتابِ «وإذْ أخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ» كان ذلك أيضاً في الكتاب مسطوراً، ويعني بالميثاق: العهد، وقد بيَّنا ذلك فيما مضى قَبْلُ. «وَمِنْكَ» يا محمدُ «وَمِنْ نُوحٍ وإبْراهِيم ومُوسى وعِيسَى بن مَرْيَمَ وأخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً»، يقول: وأخذنا من جميعهم عهداً مؤكداً أنْ يُصَدِّقَ بعضُهم بعضاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أخذنا من هؤلاءِ الأنبياءِ ميثاقَهم كيما أسألَ المرسلينَ عما أجابَتْهُمْ به أُممهم، وما فعلَ قومُهم فيما أبلغوهم عن رَبِّهم من الرسالة.

وقوله: «وأعَدَّ للكافِرينَ عَذاباً أليماً»، يقول: وأعدَّ للكافِرينَ بالله من الأممِ عذاباً موجعاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ» التي أنعمها على جماعتكم وذلك حين حُوصِرَ المسلمونَ مع رسولِ الله ﷺ أيامَ الخندقِ «إذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ»: يعني جنودَ الأحزابِ: قريش، وغَطفان، ويهود بني النضير «فأرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً» وهي فيما ذكر: ريح الصَّبا.

وقوله: «وكانَ الله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وكان الله

بأعمالكم يومئذٍ، وذلك صبرهم على ما كانوا فيه من الجهدِ والشِدَّةِ، وثباتهم لعـدوِّهم، وغير ذلـك من أعمـالهم، «بصيراً» لا يَخْفَى عليه من ذلك شيءٌ يحصيه عليهم ليجزيهم عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُهُ: وكـان الله بما تعملون بصيراً، إذ جاءتكم جنودُ الأحزابِ من فوقِكم، ومِنْ أسفلَ منكم، وقِيلَ: إنَّ الذينَ أتوهم من أسفلَ منهم أبو سفيان في قريش ومَنْ معه.

وقوله: «وَإِذْ زَاغَتِ الأبْصَارُ»، يقول: وحين عَدلَتْ الأبصارُ عن مقرِّهَا، وشَخَصَتْ طامحةً.

وقوله: «وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ»، يقول: نَبَتِ القلوبُ عن أماكنها من الرعبِ والخوفِ، فبلغتْ إلى الحناجر.

وقوله: «وَتَظُنُّونَ بالله الظُّنُونا»، يقول: وتظنون بالله الظنونَ الكاذبةَ، وذلك كظنِّ مَنْ ظنَّ منهم أنَّ رسولَ الله ﷺ يُغْلَبُ، وأنَّ ما وَعَدَهُ الله من النصرِ أنْ لا يكونَ، ونحوِ ذلك من ظنونهم الكاذبة التي ظنها مَنْ ظنَّ ممن كانَ مع رسولِ الله ﷺ في عسكره.

وقـولـه: «هُنـالِـكَ ابْتُلِيَ المُـؤْمِنُـونَ»، يقـول: عند ذلك اخْتُبِرَ إيمانُ المؤمنين، ومُحِّصَ القومُ وعُرِفَ المؤمنُ من المنافق.

وقوله: «وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً»، يقول: وحُرِّكُوا بالفتنةِ تحريكاً شديداً، وابْتُلُوا وفُتِنُوا.

وقوله: «وَإِذْ يَقُولُ المُنَافِقُونَ والَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ»: شكٌّ في الإيمانِ وضَعْفٌ في اعتقادهم إياه: «ما وَعَدَنَا الله ورسولُه إلا غروراً»، وذلك فيما ذُكِرَ قولُ معتب بن قشير[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «وَإِذْ قَالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ» وإذ قال بعضُهم: يا أهلَ يثربَ، ويثرب: اسمُ أرضٍ، فيقال: إنَّ مدينةَ رسولِ الله ﷺ في ناحية من يثرب.

وقوله: «لا مَقامَ لَكُمْ فارْجِعُوا» بفتح الميم من المقام[2]، يقول: لا مكانَ لكم، تقومونَ فيه.

وقوله: «فارْجِعُوا»، يقول: فارجعوا إلى منازلكم، أمَرَهُمْ بالهربِ من عسكرِ رسولِ الله ﷺ والفرارِ منه، وتركِ رسولِ الله ﷺ. وقيل: إنَّ ذلك من قِيلِ أوس بن قيظي ومَنْ وافقه على رأيه.

---

(١) معتب بن قشير أحد المنافقين، وهو المعنيّ في قوله: «وإذ يقول المنافقون».

(٢) قراءة المصحف بضم الميم كما هو معروف، ولكن المؤلف يرى الأصوب قراءتها بالفتح كما سيأتي.

والقراءة على فتح الميم من قوله: «لا مَقامَ لَكُمْ» بمعنى: لا موضعَ قيامٍ لكم، وهي القراءة التي لا أستجيزُ القراءةَ بخلافها، لإجماع الحُجَّةِ من القرّاءِ عليها. وذُكر عن أبي عبدالرحمن السلمي أنه قرأ ذلك «لا مُقامَ لَكُمْ» بضم الميم، يعني: لا إقامةَ لكم.

وقوله: «وَيَسْتأْذِنُ فَريقٌ مِنْهُمُ النَّبيَّ يَقُولُونَ إنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ وما هِيَ بِعَوْرَةٍ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ويستأذنُ بعضُهم رسولَ الله ﷺ في الإِذنِ بالانصرافِ عنه إلى منزِله، ولكنه يريدُ الفرارَ والهربَ من عسكرِ رسولِ الله ﷺ.

وقوله: «وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها»، يقول: ولو دخلت المدينة على هؤلاء القائلينَ: «إنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ» من أقطارها، يعني: من جوانبها ونواحيها، واحدها: قطر.

وقوله: «ثُمَّ سُئِلُوا الفِتْنَةَ»، يقول: ثم سُئِلُو الرجوعَ من الإيمانِ إلى الشركِ «لَأَتَوْها»، يقول: لفعلوا ورجَعُوا عن الإسلامِ وأشركوا.

وقوله: «وَما تَلَبَّثُوا بها إلَّا يَسيراً»، يقول: وما احْتَبَسُوا عن إجابتهم إلى الشركِ إلا يسيراً قليلاً، ولأسرعوا إلى ذلك.

واختلفت القَـرَأَةُ في قراءةِ قوله: «لَأَتَوْها» فقرأ ذلك عامة قَرَأَةِ المدينة وبعض قَرَأَةِ مكة «لأَتَوْها» بقصر الألف، بمعنى جاؤوها. وقرأه بعض المكيين وعامة قَرَأَةِ الكوفة والبصرة «لَآتَوْها» بمدِّ الألف، بمعنى: لأعطوها لقوله: «ثم سُئِلُوا الفتنة»، وقالوا: إذا كان سؤالٌ كانَ إعطاءٌ، والمدُّ أعجبُ القراءتين إليَّ لما ذكرتُ، وإنْ كانت الأُخرى جائزة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾**

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولقد كان هؤلاء الذين يستأذنونَ رسولَ الله ﷺ في الانصرافِ عنه، ويقولون إنَّ بيوتنا عورةٌ، عاهدوا الله من قبل ذلك، أنْ لا يُوَلُّوا عدوَّهم الأدبارَ، إن لَقُوهُمْ في مشهدٍ لرسولِ الله ﷺ معهم، فما أوفوا بعدهِم، «وكانَ عَهْد الله مَسْئُولاً»، يقول: فيسأل الله ذلك من أعطاه إياه من نفسه.

وذُكر أنَّ ذلك نزلَ في بني حارثة لما كان من فِعْلِهم في الخندق بعد الذي كان منهم بأُحُد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ «قُلْ» يا محمدُ لهؤلاء الذين يستأذنونك في الانصرافِ عنك ويقولون: إن بيوتنا عورة: «لَنْ يَنْفَعَكُمُ الفِرَارُ إنْ فَرَرْتُمْ مِنَ المَوْتِ أوِ القَتْلِ»، يقول: لأن ذلك، أو ما كتب الله منهما واصلٌ إليكم بكلِّ حالٍ، كَرِهْتُمْ أو أحببتم. «وإذاً لا تُمَتَّعُونَ إلَّا قَلِيلاً»، يقول: وإذا فررتم من الموتِ أو القتلِ لم يزد فِراركُم ذلكَ في أعمارِكم وآجالكم، بل إنما تُمَتَّعُونَ في هذه الدنيا إلى الوقتِ الذي كُتِبَ لكم، ثم يأتيكم ما كُتِبَ لكم وعليكم.

وقوله: «قُلْ مَنْ ذا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ الله إنْ أرَادَ بِكُمْ سُوءاً أوْ أرَادَ بِكُم رَحْمَةً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: قُلْ يا محمد لهؤلاء الذين يستأذنونكَ ويقولون: إنَّ بيوتَنا عورةٌ هرباً من القتلِ: مَنْ ذا الذي يمنعُكم من الله إنْ هو أرادَ بكم سوءً في أنفسكم، من قتلٍ أو بلاءٍ أو غيرِ ذلك، أو عافيةٍ وسلامة؟ وهل ما يكونُ بكم في أنفسكم من سوءٍ أو رحمة إلا من قِبَلِه؟

وقولـه: «وَلَا يَجِـدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِياً وَلا نَصِيراً»، يقـول تعـالى ذِكْرُهُ: ولا يجد هؤلاء المنافقون إنْ أرادَ الله بهم سوءاً في أنفسهم وأموالهم من دونِ الله ولياً يَلِيهم بالكفايةِ ولا نصيراً ينصرهم من الله فيدفع عنهم ما أرادَ الله بهم من سوءٍ في ذلك.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قد يعلمُ الله الذين يُعَوِّقُونَ منكم عن رسولِ الله ﷺ فَيَصُدُّونَهم عنه، وعن شهودِ الحربِ معه، نفاقاً منهم، وتخذيلاً عن الإسلامِ وأهلِه «والقائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا»، أي: تعالوا إلينا، ودعوا محمداً، فلا تشهدوا معـه مَشْهَـدَهُ، فإنَّـا نخافُ عليكم الهلاكَ بهلاكِه، «وَلا يَأْتُونَ البأْسَ إلاَّ قَلِيلاً»، يقول: ولا يشهدونَ الحربَ والقتالَ إنْ شهدوا إلا تعذيراً، ودفعاً عن أنفسِهم المؤمنينَ.

وقوله: «أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ»، اختلف أهل التأويل في المعنى الذي وَصَفَ الله به هؤلاء المنافقينَ في هذا الموضعِ من الشُّحِّ، فقال بعضهم: وصفهم بالشحِّ عليهم في الغنيمة.

وقال آخرون: بل وصفهم بالشحِّ عليهم بالخيرِ.

والصوابُ من القولِ في ذلك عندي أن يقال: إنَّ الله وصف هؤلاء المنافقين بالجبنِ والشُّحِّ، ولم يخصصْ وَصْفَهُمْ من معاني الشحِّ، بمعنى دونَ معنى، فهم كما وَصَفَهُم الله به: أشحة على المؤمنينَ بالغنيمةِ والخيرِ والنفقةِ في سبيلِ الله، على أهلِ مسكنةِ المسلمينَ.

وقوله: «فإذَا جاءَ الخَوْفُ»... إلى قوله: «مِنَ المَوْتِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فإذا حَضَرَ البأسُ، وجاء القتالُ خافوا الهلاكَ والقتلَ، رأيتَهم يا محمدُ ينظرونَ إليك لواذاً بك، تدورُ أعينُهم خوفاً من القتلِ، وفراراً منه «كالَّذي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ المَوْتِ»، يقول: كَدَوَرَانِ عينِ الذي يُغْشَى عليه من الموتِ النازلِ به «فإذَا ذَهَبَ الخَوْفُ»، يقول: فإذا انقطعتِ الحربُ واطمأنوا «سَلَقُوكُمْ بألْسِنَةٍ حِدادٍ».

وأما قوله: «سَلَقُوكُمْ بألْسِنَةٍ حِدادٍ»، فإنه يقول: عَضُّوكُمْ بألسنةٍ ذَربةٍ، ويقالُ للرجلِ الخطيبِ الذَّربِ اللسانِ: خطيب مسلق ومصلق، وخطيبٌ سَلاق وصَلاق.

وقد اختلف أهلُ التأويل في المعنى الذي وصف تعالى ذِكْرُهُ هؤلاء المنافقينَ أنهم يسلقونَ المؤمنينَ به، فقال بعضهم: ذلك سَلْقُهُمْ إياهم عند الغنيمةِ بمسألتهم القسمَ لهم.

وقال آخرون: بل ذلك سلقهم إياهم بالأذَى.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أنهم يسلقونهم من القولِ بما تحبون نفاقاً منهم.

وأشبه هذه الأقوالِ بما دلَّ عليه ظاهرُ التنزيل قولُ مَنْ قال «سَلَقُوكُمْ بألْسِنَةٍ حِدَادٍ أشِحَةً عَلى الخَيْرِ» فأخبر أنَّ سلقهم المسلمينَ شحاً منهم على الغنيمةِ والخيرِ، فمعلومٌ إذْ كان ذلك كذلك، أن ذلك لطلبِ الغنيمة. وإذا كان

ذلك منهم لطلبِ الغنيمةِ دخلَ في ذلك قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: سلقوكم بالأذى، لأنَّ فِعْلَهم ذلك كذلك لا شكَّ أنه للمؤمنينَ أذى.

وقوله: «أَشِحَّةً عَلى الخَيْرِ»، يقول: أشحةً على الغنيمةِ إذا ظفرَ المؤمنونَ.

وقوله: «لَمْ يُؤْمِنُوا فأَحْبَطَ الله أعمالَهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: هؤلاء الذين وصفتُ لك صفتهم في هذه الآياتِ لم يُصَدِّقُوا الله ورسولَهُ، ولكنهم أهلُ كُفْرٍ ونفاقٍ، فأحبطَ الله أعمالهم، يقول: فأذهبَ الله أُجورَ أعمالِهم وأبْطَلَها.

وقوله: «وكانَ ذلكَ على الله يَسِيراً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وكان إحباطُ عَمَلِهم الذي كانوا عَمِلُوا قبلَ ارتدادِهم ونفاقِهم على الله يسيراً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: يحسبُ هؤلاء المنافقونَ الأحزابَ، وهم قريش وغطفان.

وقوله: «لَمْ يَذْهَبُوا»، يقول: لم ينصرفُوا، وإنْ كان قد انصرفوا جُبْناً وهَلَعاً منهم.

وقوله: «وَإِنْ يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أنهُمْ بادُونَ في الأعْرابِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإنْ يأتِ المؤمنينَ الأحزابُ وهم الجماعةُ: واحدهم: حزبٌ. «يَوَدُّوا»، يقول: يَتَمَنَّوْا من الخوفِ والجبنِ أنهم غُيَّبٌ عنكم في البادية مع الأعرابِ خوفاً من القتلِ. وذلك أنَّ قوله: «لَوْ أَنَّهُمْ بادُونَ فِي الأعْرابِ»، تقول: قد بَدَا فلانٌ إذا صار في البدوِ فهو يبدو، وهو بادٍ، وأما الأعرابُ: فإنهم جمعُ

أعرابيٌّ، وواحدُ العرب: عربيّ. وإنما قيل: أعرابيٌّ لأهلِ البدو، فَرْقاً بين أهلِ البوادي والأمصار، فجعل الأعراب لأهلِ البادية، والعرب لأهلِ المِصْر.

وقولـه: «يَسـألُونَ عَنْ أنْبائِكُمْ»، يقول: يستخبرُ هؤلاء المنافقونَ أيها المؤمنـونَ الناسَ عن أنبائِكم، يعني عن أخبارِكم بالبادية، هل هَلَكَ محمدٌ وأصحابُه؟ نقول: يتمنون أنْ يسمعوا أخبارَكم بهلاكِكم، أن لا يشهدوا معكم مشاهدكم «وَلَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إلا قَلِيلاً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ للمؤمنين: ولو كانـوا أيضـاً فيكم ما نَفَعُـوكُم، وما قاتلوا المشركينَ «إلا قليلاً»، يقول: إلا تعذيراً، لأنهم لا يقاتلونهم حِسْبَةً ولا رجاءَ ثوابٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾

اختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: «أُسْوَةٌ» فقرأ ذلك عامة قَرَأَةِ الأَمْصَارِ «إسْوَةٌ» بكسر الألف، خَلاَ عاصمَ بن أبي النجود، فإنه قرأه بالضمِّ «أُسْوَةٌ»، وكان يحيى ابن وثاب يقرأُ هذه بالكسر، ويقرأ قوله: «لَقَدْ كانَ لَكُم فِيهِمْ أُسْوَةٌ» بالضمِّ، وهما لغتان. وذُكِرَ أنَّ الكسرَ في أهل الحجاز، والضمَّ في قيس، يقولون: أُسْوة، وأُخوة.

وهذا عتابٌ من الله للمتخلفينَ عن رسولِ الله ﷺ وعسكرِه بالمدينةِ، من المؤمنينَ به، يقولُ لهم جَلَّ ثناؤُهُ: «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة»، أنْ تتأسوا به، وتكونوا معه حيثُ كان، ولاتتخلَّفُوا عنه. «لِمَنْ كانَ يَرْجُو الله»، يقول: فإنَّ مَنْ يرجو ثوابَ الله ورحمتَهُ في الآخرة لا يرغبُ بنفسه، ولكنه تكونُ

له به أُسوة في أنْ يكون معه حيثُ يكونُ هو. «وَذَكَرَ الله كَثِيراً»، يقول: وأكْثَرَ ذِكْرَ الله في الخوفِ والشدّةِ والرخاء.

وقوله: «وَلَمَّا رأى المُؤْمِنُونَ الأحْزَابَ»، يقول: ولَمَّا عاينَ المؤمنونَ بالله ورسـولِه جماعات الكفار قالوا تسليماً منهم لأمر الله، وإيقاناً منهم بأنَّ ذلك إنجاز وعدِه لهم، الذي وَعَدَهُمْ بقوله: «أمْ حَسِبْتُمْ أنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ». . . إلى قوله: «قَرِيبٌ» هذا ما وَعَدَنَا الله ورسولُهُ، وصَـدَقَ الله ورسـولُه، فأحسنَ الله عليهم بذلك من يقينهم، وتسليمهم لأمرِهِ الثنـاء، فقـال: وما زَادَهُمْ اجتماعُ الأحزابِ عليهم إلا إيماناً بالله وتسليماً لقضائه وأمره، ورزقهم به النصرَ والظفرَ على الأعداء.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَـهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِـدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَـآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيـمًا ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «مِنَ المُؤْمِنينَ» بالله ورسولِه «رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا الله عَلَيْه»، يقول: أوفوا بما عاهدُوهُ عليه من الصبرِ على البأساءِ والضرَّاءِ، وحين البأسِ «فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ»، يقول: فمنهم مَنْ فرغ من العملِ الذي كان نَذَرَهُ الله وأوجَبَهُ له على نفسِه، فاستشهد بَعْضٌ يومَ بدرٍ، وبعضٌ يومَ أُحد، وبعضٌ في غيرِ ذلك من المواطن «وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ» قضاءَهُ والفراغ منه، كما قضى مَنْ مضى منهم على الـوفاءِ لله بعهدِه، والنصرِ من الله، والظفرِ على عدوِّهِ. والنَّحْب: النَّذْرُ في كلامِ العرب. وللنحب أيضاً في كلامهم وجوهٌ غير ذلك، منها الموتُ.

وقيل: إنَّ هذه الآية نزلتْ في قومٍ لم يشهدوابدراً، فعاهدوا الله أنْ يَفُوا قتالاً للمشركينَ مع رسولِ الله ﷺ، فمنهم مَنْ أوْفى فقضى نَحْبَهُ، ومنهم من بَدَّلَ، ومنهم من أوْفى ولم يقضِ نحبه، وكان منتظراً، على ما وَصَفَهُم الله به من صفاتهم في هذه الآية.

وقوله: «وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلًا»: وما غَيَّرُوا العهدَ الذي عاقدوا رَبَّهم تغييراً، كما غَيَّرَهُ المُعَوِّقُونَ القائلونَ لإخوانِهم: هَلُمَّ إلينا، والقائلونَ: ﴿إنَّ بيوتَنا عورةٌ﴾ [الأحزاب:١٣].

وقوله: «لِيَجْزِيَ الله الصادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: «مِنَ المُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا الله عَلَيْهِ لِيَجْزِيَ الله الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ»، يقول: لِيُثِيبَ الله أهلَ الصدق بصدقهم الله بما عاهدوه عليه، ووفائِهم لَهُ بِهِ، «وَيُعَذِّبَ المُنَافِقِينَ إنْ شاءَ» بكفرِهم بالله ونفاقِهم «أوْ يَتُوبَ عَلَيهِمْ» من نفاقِهم، فيهديهم للإيمان.

وقوله: «إنَّ الله كانَ غَفُوراً رَحِيماً»، يقول: إنَّ الله كان ذا سترٍ على ذنوبِ التائبينَ، رحيماً بالتائبين أنْ يعاقبهم بعدَ التوبة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَرَدَّ الله الَّذِينَ كَفَرُوا» به وبرسولِه من قُرَيشٍ وغطفانَ «بِغَيْظِهِمْ»، يقول: بِكَرْبِهم وغَمِّهم، بِفَوْتِهم ما أمَّلُوا من الظَّفَرِ، وخَيَّبَهم مما كانوا طَمِعُوا فيه من الغَلَبَةِ «لَمْ يَنالُوا خَيْراً»، يقول: لم يُصِيبُوا من المسلمينَ مالاً ولا إساراً. «وَكَفَى الله المُؤْمِنِينَ القِتَالَ» بجنودٍ من الملائكة والريحِ التي بعثها عليهم.

وقوله: «وكانَ الله قَوِيًّا عَزِيزاً»، يقول: وكان الله قوياً على فِعْلِ ما يشاء فِعْلَهُ بخلقِه، فينصرُ مَنْ شاء منهم على مَنْ شاء أنْ يخذله، لا يغلبُه غالبٌ، «عزيزاً»، يقول: هو شديدُ انتقامُه ممن انتقم منه من أعدائِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأنزلَ الله الذين أعانوا الأحزابَ من قريش وغطفانَ على رسولِ الله ﷺ وأصحابه، وذلك هو مُظَاهَرَتُهم إيَّاهُمْ[1]، وعَنَى بذلك بني قريظة، وهم الذين ظاهروا الأحزابَ على رسولِ الله ﷺ.

وقوله: «مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ»، يعني: من أهلِ التوراةِ، وكانوا يهود.

وقوله: «مِنْ صَياصِيهِمْ»، يعني: من حُصُونهم.

وقوله: «وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهُمُ الرُّعْبَ»، يقول: وألقى في قلوبهم الخوفَ منكم «فَرِيقاً تَقْتُلُونَ»، يقول: تقتلونَ منهم جماعةً، وهم الذين قتلَ رسولُ الله ﷺ منهم حين ظهرَ عليهم «وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً»، يقول: وتأسرونَ منهم جماعةً، وهم نساؤُهم وذَرارِيهم الذين سبوا.

«وأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَديارَهُمْ وأَمْوَالَهُمْ»، يقول: وملَّكَكُمْ بعدَ مَهْلِكِهم أرضَهم، يعني: مزارعهم ومَغَارِسَهُمْ «وديارهم»، يقول: ومساكنهم «وأموالهم»، يعني: سائرَ الأموالِ غيرَ الأرضِ والدور.

---

(١) في المطبوع: «إياه»، وبها يفسد المعنى.

وقوله: «وأرْضاً لَمْ تَطَئُوها»، اختلف أهلُ التأويل فيها، أيّ أرضٍ هيَ؟ فقال بعضهم: هي الروم وفارس ونحوها من البلادِ التي فتحها الله بعدَ ذلك على المسلمين.

وقال آخرون: هي مكة.

وقال آخرون: بل هي خيبر.

والصوابُ من القولِ في ذلك أن يقال: إنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ أخبرَ أنه أورثَ المؤمنينَ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ أرضَ بني قريظة وديارَهُمْ وأموالَهم، وأرضاً لم يطئوها يومئذٍ ولم تكن مكة ولا خَيبر، ولا أرض فارس والروم ولا اليمن، مما كان وَطِئُوه يومئذٍ، ثم وطئوا ذلك بَعْدُ، وأَوْرَثَهُمُوه الله، وذلك كله داخلٌ في قوله: «وأرْضاً لَمْ تَطَئُوها» لأنه تعالى ذِكْرُهُ لم يخصصْ من ذلك بعضاً دونَ بعض.

«وكانَ الله عَلى كُلّ شَيْء قَدِيراً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وكان الله على أنْ أَوْرثَ المؤمنينَ ذلك، وعلى نصرِه إياهم، وغير ذلك من الأمورِ ذَا قُدْرةٍ، لايتعذَّرُ عليه شيءٌ أرادَهُ، ولا يمتنعُ عليه فِعْلُ شيءٍ حاول فعله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ» يا محمدُ «لأزْوَاجِكَ إنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الحَيَاةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ»، يقول: فإني أمتعكن ما أوجبَ الله

على الرجالِ للنساءِ من المتعةِ عندَ فراقهم إياهُنَّ بالطلاقِ بقوله: «وَمَتِّعُوهُنَّ على المُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلى المُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتاعاً بالمَعْرُوفِ حَقًّا على المُحْسِنِينَ».

وقوله: «وأُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَمِيلاً»، يقول: وأطلقكنَّ على ما أذِنَ الله به، وأدَّبَ به عبادَهُ بقوله: «إذَا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَإنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الله وَرَسُولَهُ»، يقول: وإنْ كُنتنَّ تُرِدْنَ رِضَا الله ورضا رسولِه وطاعتهما فأطِعْنَهُمَا «فإنَّ الله أعَدَّ للمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ» وهن العاملات منهنَّ بأمرِ الله وأمرِ رسولِه «أجْراً عَظِيماً».

وذُكر أن هذه الآيةَ نزلت على رسولِ الله ﷺ من أجلِ أنَّ عائشةَ سألتْ رسولَ الله ﷺ شيئاً من عَرَضِ الدنيا، إما زيادةً في النفقة، أو غيرَ ذلك، فاعتزلَ رسولُ الله ﷺ نساءَهُ شهراً فيما ذُكِرَ، ثم أمَرَهُ الله أنْ يُخَيِّرَهُنَّ بين الصبر عليه، والرضا بما قسم لهنَّ، والعملِ بطاعةِ الله، وبين أنْ يمتِّعهُنَّ ويفارِقْهُنَّ إنْ لم يرضينَ بالذي يقسم لهن. وقيل: كان سببُ ذلك غيرةً كانت عائشةُ غارتها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝٣٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لأزواجِ النبيِّ ﷺ: «يا نِساء النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ»، يقول: مَنْ يَزْنِ منكنَّ الزنى المعروف الذي أوجَبَ الله عليه الحَدَّ، يضاعَفْ لها العذابُ على فجورها في الآخرةِ ضِعفين على فجورِ أزواجِ الناسِ غيرهم.

وقوله: «وكانَ ذلكَ على الله يَسِيراً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وكانتْ مضاعفةُ العذابِ على مَنْ فعلَ ذلك منهنَّ على الله يسيراً، والله أعلم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومَنْ يُطِعِ الله ورسوله منكنَّ، وتعملْ بما أمرَ الله به «نُؤْتِها أجْرَها مرَّتَيْنِ»، يقول: يُعْطِهَا الله ثوابَ عملها، مِثْلَي ثواب عملِ غيرهنَّ من سائرِ الناسِ. «وأعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً»، يقول: وأعتدنا لها في الآخرةِ عيشاً هنيئاً في الجنة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لأزواجِ رسولِ الله ﷺ: «يا نِساءَ النَّبيِّ لَسْتُنَّ كأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ» من نساءِ هذهِ الأمةِ «إن اتَّقَيْتُنَّ» الله فأَطَعْتُنَّهُ فيما أمركُنَّ ونهاكُنَّ.

وقوله: «فَلا تَخْضَعْنَ بالقَوْلِ»، يقول: فلا تَلِنَّ بالقولِ للرجالِ فيما يَبْتغيه أهلُ الفاحشةِ منكُنَّ.

وقوله: «فَيَطْمَعَ الَّذي في قَلْبِهِ مَرَضٌ»، يقول: فيطمعَ الذي في قلبه ضَعْفٌ، فهو لضعفِ إيمانِه في قلبه، إما شاكٌّ في الإسلامِ منافقٌ، فهو لذلك من أمرِه يستخفُّ بحدودِ الله وإما متهاونٌ بإتيانِ الفواحش.

وقوله: «وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً»، يقول: وقُلْنَ قولاً قد أذِنَ الله لكم به وأباحه.

واختلفت القَـرَأَةُ في قراءة قولـه: «وَقَرْنَ في بُيُوتِكُنَّ» فقرأته عامة قَرَأة المدينة وبعض الكوفيين: «وَقَرْنَ» بفتح القاف، بمعنى: واقْرَرْنَ في بيوتكنَّ، وكأنَّ مَنْ قرأ ذلك كذلك حذفَ الراءَ الأولى من اقررن، وهي مفتوحة، ثم نقلها إلى القـاف. وقـرأ ذلـك عامـة قَرَأة الكوفة والبصرة: «وَقِرْنَ» بكسرِ القاف، بمعنى: كُنَّ أهلَ وقارٍ وسكينة «فِي بُيُوتِكُنَّ».

وهذه القراءة وهي بالكسر في القاف أوْلى عندنا بالصوابِ لأنَّ ذلك إنْ كان من الوقارِ على ما اخترنا، فلا شكَّ أن القراءةَ بكسرِ القاف، لأنه يقال وَقَرَ فلانٌ في منزله فهو يَقِرُ وُقوراً، فتكسر القاف في تَفْعِل فإذا أُمِرَ منه قيل: قِر كما يقال من وَزَنَ يَزِنُ زِنْ، ومن وَعد يعِد عِدْ، وإنْ كان من القَرارِ، فإنَّ الوجه أن يقـال: اقـررن، لأن مَنْ قال من العربِ: ظَلْت أفعل كذا، وأحَسْت بكذا، فأسقط عين الفعلِ، وحوَّلَ حركتها إلى فائه في فعلَ وفعلنا وفعلتم، لم يفعل ذلك في الأمر والنهي، فلا يقول: ظلّ قائماً، ولا تظل قائما، فليس الذي اعتلّ به من اعتـلَّ لصحـةِ القـراءة بفتـح القاف في ذلك بقول العرب في ظللت وأحسست ظلت، وأحست بعلة توجب صحته لما وصفت من العلة[1].

وقوله: «وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجاهِلِيَّةِ الأُولى»، قيل: إنَّ التبرُّجَ في هذا الموضع التَّبَخْتُرَ والتَّكَسُّرَ.

وأما قوله: «تَبرُّجَ الجاهِلِيَّةِ الأُولى»، فإن أهلَ التأولِ اختلفوا في الجاهلية الأولى، فقال بعضهم: ذلك ما بين عيسى ومحمد عليهما السلام.

وقال آخرون: ذلك ما بين آدم ونوح.

وقال آخرون: بَلْ ذلك بين نوح وإدريس.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك عندي بالصوابِ أنْ يقال: إنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ نهى

---

(١) انظر معاني القرآن للفراء: ٣٤٢/٢، فهذا ما ذهب إليه.

نساءَ النبيِّ أنْ يتبرَّجْنَ تبرُّجَ الجاهليةِ الأولى، وجائزٌ أن يكون ذلك ما بين آدم وعيسى، فيكون معنى ذلك: ولا تبرّجنَ تبرُّجَ الجاهلية الأولى التي قبل الإسلام.

فإنْ قال قائل: أوَ في الإسلامِ جاهليةٌ؟ حتى يقال عَنَى بقوله: «الجاهِلِيَّةِ الأولى» التي قبل الإسلام؟ قيل: فيه أخلاقٌ من أخلاقِ الجاهلية.

وجائزٌ أن يكون ذلك ما بين آدم ونوح. وجائزٌ أنْ يكونَ ما بين إدريس ونوح، فتكون الجاهلية الآخرة، ما بين عيسى ومحمد، وإذا كان ذلك مما يحتملهُ ظاهرُ التنزيل. فالصوابُ أنْ يقالَ في ذلك، كما قال الله: إنه نهى عن تبرُّجِ الجاهليةِ الأولى.

وقوله: «وأقِمْنَ الصَّلاَةَ وآتِينَ الزَّكاةَ»، يقول: وأقِمْنَ الصلاةَ المفروضةَ، وآتينَ الزكاةَ الواجبةَ عليكنَّ في أموالكنَّ «وأطِعْنَ الله وَرَسُولَهُ» فيما أمَرَكُنَّ وَنَهاكُنَّ. «إنَّمَا يُريدُ الله لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أهْلَ البَيْتِ»، يقول: إنما يريدُ الله ليذهب عنكم السوءَ والفحشاءَ يا أهلَ بيتِ محمد ويُطَهِّرَكُمْ من الدَّنَسِ الذي يكونُ في أهلِ معاصي الله تطهيراً.

اختلف أهلُ التأويل في الذين عنوا بقوله: «أهْلَ البَيْتِ» فقال بعضهم: عُنِيَ به رسولُ الله ﷺ وعليٌّ وفاطمةُ والحسنُ والحسينُ رضوان الله عليهم.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك أزواجَ رسولِ الله ﷺ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لأزواجِ نبيهِ محمدٍ ﷺ: واذكُرْنَ نعمةَ الله عليكنَّ، بأنْ جعلكنّ في بيوتٍ تُتْلى فيهـا آياتُ الله والحكمـة، فاشكُرْنَ الله على ذلك،

واحمدنه عليه، وعنى بقوله: «وَاذْكُرْنَ ما يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ الله» واذكرن ما يقرأ في بيوتكنَّ من آياتِ كتابِ الله والحكمة، ويعني بالحكمة: ما أُوحيَ إلى رسولِ الله ﷺ من أحكامِ دينِ الله، ولم ينزلْ به قرآنٌ، وذلك السنة.

وقوله: «إنَّ الله كانَ لَطِيفاً خَبِيراً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الله كان ذا لُطْفٍ بِكُنَّ، إذْ جعلكنَّ في البيوتِ التي تُتلى فيها آياتُه والحكمةُ، خبيراً بِكُنَّ إذ اختارَكُنَّ لرسولِه أزواجاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ المُتَذَلِّلِينَ لله بالطاعةِ والمتذلِّلاتِ، والمصدِّقينَ والمصدِّقات رسولَ الله ﷺ فيما أتاهم به من عند الله، والقانتينَ والقانتاتِ لله، والمطيعينَ لله والمطيعاتِ له فيما أمرهم ونهاهم، والصادقينَ الله فيما عاهدوه عليه والصادقات فيه، والصابرينَ لله في البأساء والضَّرَّاءِ على الثباتِ على دِينه، وحينَ البأسِ والصابرات، والخاشعة قلوبُهم لله وَجَلاً منه ومِنْ عقابه والخاشعات، والمتصدِّقينَ والمتصدقات وهم المؤدُّونَ حقوقَ الله من أموالِهم والمؤدِّياتِ، والصائمينَ شهرَ رمضان الذي فَرَضَ الله صومه عليهم والصائمات ذلك، الحافظينَ فروجهم إلا على أزواجهم أو ما مَلَكَتْ أيمانهم، والحافظات ذلك إلا على أزواجهنَّ إنْ كُنَّ حرائر، أو مَنْ ملكهنَّ إنْ كُنَّ إماء، والذاكرينَ الله بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم والذاكرات، كذلك أَعَدَّ الله لهم مغفرةً

لذنوبهم، وأجراً عظيماً: يعني ثواباً في الآخرة على ذلك من أعمالهم عظيماً، وذلك الجنة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: لم يكن لمؤمنٍ بالله ورسوله، ولا مؤمنةٍ إذا قضى الله ورسولُه في أنفسهم قضاءً أنْ يَتَخَيَّرُوا من أمرهم غير الذي قضى فيهم، ويخالفوا أمرَ الله وأمرَ رسولِه وقضاءهما فيعصوهما، ومَنْ يَعْصِ الله ورسولَهُ فيما أمرا أو نهيا. «فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً»، يقول: فقد جارَ عن قَصْدِ السبيل، وسلك غيرَ سبيل الهدى والرشاد.

وذُكِرَ أنَّ هذه الآيةَ نزلتْ في زينب بنت جحش حين خطبها رَسُولُ الله ﷺ على فتاه زيد بن حارثة، فامتنعتْ من إنكاحِه نفسَها.

وقيل: نزلت في أمِّ كلثوم بنت عُقْبَة بن أبي مُعَيط، وذلك أنها وهبتْ نفسَها لرسولِ الله ﷺ، فزوَّجها زيدَ بن حارثة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه ﷺ عتاباً من الله له «وَ» اذْكُرْ يا محمدُ «إِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ» بالهدايةِ «وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ» بالعِتق، يعني زيد بن حارثة مولى رسولِ الله ﷺ «أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ» وذلك أنَّ زينبَ بنتَ جحشٍ فيما ذُكِرَ رآها رَسُولُ اللهِ ﷺ فأعجبته، وهي في حبالِ مولاه، فأُلقِي في نفسِ زيدٍ كراهَتُهَا لما عَلِمَ اللهُ مما وقع في نفسِ نبيهِ ما وقَعَ، فأرادَ فراقها، فَذكرَ ذلك لرسولِ الله ﷺ زيد، فقال له رَسُولُ الله ﷺ «أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوجَكَ» وهو ﷺ يحبُّ أَنْ تكونَ قد بانَتْ منه لينكحها «وَاتَّقِ اللهَ» وخَفِ اللهَ في الواجبِ له عليكَ في زوجتك. «وتُخْفِي في نَفْسِكَ ما اللهُ مُبْدِيه»، يقول: وتخفي في نفسك محبة فراقِه إياها لتتزوَّجها إنْ هو فارقَها، واللهُ مُبْدٍ ما تُخفي في نفسكَ من ذلك. «وَتَخْشَى النَّاسَ واللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وتخافُ أَنْ يقولَ النَّاسُ: أَمَرَ رجلاً بطلاقِ امرأتِه ونكحها حين طلَّقها، واللهُ أَحقُّ أَنْ تخشاه من الناسِ.

وقوله: «فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فلما قضى زيدُ بن حارثة من زينب حاجَتَهُ، وهي الوطر.

«زَوَّجْنَاكَهَا»، يقول: زوَّجناكَ زينبَ بعدما طَلَّقَها زيدٌ وبانتْ منه «لِكَيْلا يَكُونَ على المؤمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيائِهِمْ»، يعني: في نكاحِ نساءِ مَنْ تَبَنَّوا وليسوا ببَنِيهم ولا أولادِهم على صحةٍ إذا هُمْ طلقوهنَّ وبِنَّ منهم «إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً»، يقول: إذا قضوا منهنَّ حاجاتهم، وآرابهم وفارقوهنَّ وحَلَلْنَ لغيرهم، ولم يَكُنْ ذلك نزولاً منهم لهم عنهنَّ. «وكانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً»، يقول: وكان ما قضى الله من قضاء مفعولاً: أي كائناً كان لا محالة. وإنما يعني بذلك أنَّ قضاءَ الله في زينب أنْ يتزوَّجها رسولُ الله ﷺ كان ماضياً مفعولاً كائناً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ۝٣٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «ما كانَ على النبيِّ من حَرَجٍ»، من إثمٍ فيما أحلَّ الله له من نكاحِ امرأةِ مَنْ تَبَنَّاهُ بعد فراقِه إيَّاهَا.

وقوله: «سُنَّةَ الله في الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْل»، يقول: لم يكن الله تعالى لِيُؤْثِمَ نَبِيَّهُ فيما أحلَّ له مثالَ فِعْلِه بِمَنْ قَبْلَهُ من الرُّسُلِ الذين مَضَوْا قَبْلَهُ في أنه لم يؤثمهم بما أحلَّ بهم، لم يكن لنبيه أنْ يخشى النَاسَ فيما أمره به أو أحَلَّهُ له.

وقوله: «وكانَ أَمْرُ الله قَدَراً مَقْدُوراً»، يقول: وكان أمرُ الله قضاءً مَقْضِياً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝٣٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: سُنَّةَ الله في الذين خَلَوْا من قبلِ محمدٍ من الرسلِ، الذين يبلغون رسالاتِ الله إلى مَنْ أُرْسِلُوا إليه، ويخافونَ الله في تَرْكِهم تبليغَ ذلك إياهم، ولا يخافونَ أحداً إلا الله، فإنهم إياه يرهبون إنْ هم قَصَّرُوا عن تبليغِهم رسالةَ الله إلى مَنْ أُرْسِلُوا إليه. يقول لنبيه محمد: فَمنْ أولئكَ الرسل الذين هذه صِفَتُهم، فَكُنْ ولا تَخْشَ أحداً إلا الله، فإنَّ الله يمنعك من جميعِ خَلْقِه، ولا يمنعك أحدٌ من خلقه منه، إنْ أرادَ بك سوءً، «والذين» من قوله: «الَّذِينَ يُبَلِّغونَ رِسالَاتِ الله» خُفِضَ ردّاً على الذين التي في قوله: «سَنَّةَ الله في الَّذِينَ خَلَوْا».

وقوله: «وكَفَى بالله حَسِيباً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وكفاكَ يا محمدُ بالله

حافظاً لأعمالِ خَلْقِه، ومحاسباً لهم عليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ما كان أيها الناسُ محمدٌ أبا زيدِ بن حارثة، ولا أبا أحدٍ من رجالِكم الذين لم يَلِدْهُ محمدٌ، فيحرم عليه نكاحُ زوجتِه بعد فراقهِ إياها، ولكنه رسولُ الله وخاتمُ النبيين، الذي ختم النبوّة فطبع عليها، فلا تُفْتَح لأحدٍ بعده إلى قيامِ الساعة، وكان الله بكلِّ شيءٍ من أعمالكم ومقالكم وغيرِ ذلك ذا عِلْمٍ لا يخفى عليه شيءٌ.

واختلفت القَرَأَة في قراءة قوله: «وخَاتِمَ النَّبِيِّينَ» فقرأ ذلك قَرَأَة الأمصار سوى الحسن وعاصم بكسر التاء من خاتِم النبيين، بمعنى أنه خَتم النبيينَ.

وقرأ ذلك فيما يذكر الحسن وعاصم «خَاتَمَ النَّبِيِّينَ» بفتح التاء، بمعنى أنه آخرُ النبيينَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: يا أيها الذين صَدَّقُوا الله ورسولَهُ اذكروا الله بقلوبِكُم وألسنتكم وجوارحكم ذِكْراً كثيراً، فلا تُخْلُوا أبدانكم من ذِكْرِه في حالٍ من أحوالِ طاقتكم ذلك. «وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وأَصيلاً»، يقول: صلوا له غدوةً صلاةَ

الصبح، وعشياً صلاةَ العصر.

وقوله: «هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: رَبُّكم الذي تذكرونه الذِّكْرَ الكثيرَ، وتُسَبِّحُونَهُ بُكرةً وأصيلاً، إذا أنتم فعلتم ذلك، الذي يرحمكم، ويُثني عليكم هو، ويَدْعـو لكم ملائكتُـه، وقِيلَ: إنَّ معنى قوله: «يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ» يُشيع عنكم الذِّكْرَ الجميلَ في عباد الله.

وقوله: «لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ»، يقول: تدعو ملائكة الله لكم، فيخرجكم الله من الضلالة إلى الهُدى، ومن الكفرِ إلى الإسلام.

وقوله: «وكانَ بالمُؤْمِنِينَ رَحِيماً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وكان بالمؤمنين به ورسوله ذا رحمةٍ أنْ يُعَذِّبَهُمْ وهُمْ له مطيعونَ، ولأمره مُتَّبِعُونَ «تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: تحية هؤلاء المؤمنينَ يومَ القيامةِ في الجنةِ سلامٌ، يقول بعضُهم لبعضٍ: أمنة لنا ولكم بدخولنا هذا المدخل من الله أنْ يعذِّبَنا بالنارِ أبداً.

وقوله: «وأعَدَّ لَهُمْ أجْراً كَرِيماً»، يقول: وأعدَّ لهؤلاءِ المؤمنينَ ثواباً لهم على طاعتهم إياه في الدنيا كريماً، وذلك هو الجنة.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿٤٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: يا محمدُ «إنَّا أرْسَلْناكَ شاهِداً» على أمتك بإبلاغكَ إياهم ما أرسلناكَ به من الرسالةِ، ومُبَشِّرَهُمْ بالجنة إنْ صَدَّقُوكَ وعملوا بما جئتهم به من عندِ ربكَ، وَنَذِيراً» من النار أنْ يدخلُوها، فيعذَّبُوا بها

إنْ هم كذَّبوكَ، وخالفوا ما جِئْتَهُمْ به من عندِ الله.

وقوله: «وَدَاعِياً إلى الله»، يقول: وداعياً إلى توحيدِ الله، وإفرادِ الألوهةِ له، وإخلاصِ الطاعةِ لوجهِهِ دونَ كلِّ مَنْ سواه من الآلهةِ والأوثانِ.

وقوله: «بإذْنِهِ»، يقول: بأمرِهِ إياكَ بذلك «وَسِرَاجاً مُنِيراً»، يقول: وضياءً لخلْقِه يستضيءُ بالنور الذي أتيتَهم به، من عند الله، عبادُهُ «مُنِيراً»، يقول: ضياءً ينيرُ لمن استضاءَ بضوئِه، وعملَ بما أمَرَهُ. وإنما يعني بذلك: أنه يهدي به مَن اتَّبَعهُ من أمته.

وقوله: «وَبَشِّرِ المُؤْمِنِينَ بأنَّ لَهُمْ مِنَ الله فَضْلاً كَبِيراً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وبشِّر أهلَ الإيمانِ بالله يا محمدُ بأنَّ لهم من الله فضلاً كبيراً: يقول: بأنَّ لهم من ثوابِ الله على طاعتهم إياه تضعيفاً كثيراً، وذلك هو الفضلُ الكبيرُ من الله لهم.

وقوله: «وَلا تُطِعِ الكافِرِينَ والمُنَافِقِينَ»، يقول: ولا تطعْ لقولِ كافرٍ ولا منافقٍ، فتسمع منه دعاءه إياكَ إلى التقصيرِ في تبليغِ رسالات الله إلى مَنْ أرسلَكَ بهـا إليه من خَلْقِه. «وَدَعْ أذَاهُمْ»، يقول: وأعْرِضْ عن أذاهم لكَ، واصبرْ عليه، ولا يمنعك ذلك عن القيامِ بأمرِ الله في عباده، والنفوذ لما كلَّفك.

وقوله: «وَتَوَكَّلْ على الله»، يقول: وفَوِّضْ إلى الله أمورك، وَثِقْ به فإنه كافيكَ جميعَ مَنْ دونَهُ، حتى يأتيكَ أمرُه وقضاؤُه: «وَكَفَى بالله وَكِيلاً»، يقول: وحسبك بالله قيماً بأمورِكَ، وحافظاً لك وكالئاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۝٤٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: يا أيها الذين صدقوا الله ورسولَه «إِذَا نَكَحْتُمُ المُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ»، يعني: من قَبْلِ أنْ تُجامعوهُنَّ «فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا»، يعني: من إحصاءِ أقراءٍ[1]، ولا أشهرٍ تُحْصُونَها عليهِنَّ، فَمَتِّعُوهُنَّ: يقول: أعطوهنَّ ما يستمتعنَ به من عَرَضٍ أو عينِ مالٍ.

وقوله: «وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً»، يقول: وخَلُّوا سبيلهنَّ تخليةً بالمعروفِ، وهو التسريحُ الجميل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: «يا أَيُّها النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ»، يعني: اللاتي تَزَوَّجْتَهُنَّ بِصَدَاقٍ مُسَمّى.

وقوله: «وَما مَلَكَتْ يَمِينُكَ ممَّا أفاءَ الله عَلَيْكَ»، يقول: وأَحْلَلْنا لكَ إماءَكَ اللواتي سَبَيْتَهُنَّ، فملكتهنَّ بالسِّباء، وصِرْنَ لكَ بفتحِ الله عليكَ من الفيء «وَبناتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبناتِ خالِكَ وَبناتِ خالاتِكَ اللاَّتي هاجَرْنَ مَعَكَ» فأحلَّ الله له ﷺ من بناتِ عمه وعماته وخاله وخالاته، المهاجراتِ معه منهنَّ دونَ مَنْ لم يهاجِرْ منهنَّ معه.

---

(١) يعني: حيضات.

وقوله: «وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إنْ وَهَبَتْ نَفْسَها للنَّبيّ»، يقول: وأحللنا له امرأةً مؤمنةً إنْ وهبت نفسها للنبيِّ بغيرِ صداق.

وقوله: «إنْ أرَادَ النَّبيُّ أنْ يَسْتَنْكِحَها»، يقول: إنْ أراد أن ينكحها، فحلالٌ له أن ينكحها إذا وهبت نفسَها له بغيرِ مهرٍ. «خالِصَةً لَكَ»، يقول: لا يحلُّ لأحدٍ من أمَّتكَ أنْ يقربَ امرأةً وهبتْ نفسَها له، وإنما ذلك لكَ يا محمدُ خالصةً أخلصتْ لكَ من دونِ سائرِ أمتك.

وقوله: «قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ في أزْواجِهِمْ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: قد علمنا ما فرضنا على المؤمنينَ في أزواجهم إذا أرادوا نكاحهنَّ مما لم نَفْرِضْهُ عليكَ، وما خَصَصْنَاهُمْ به من الحكمِ في ذلك دونك، وهو أنَّا فرضنا عليهم أنه لا يحلُّ لهم عقد نكاحٍ على حرَّةٍ مسلمةٍ إلا بوليٍّ عصبةٍ وشهودٍ عُدُولٍ، ولا يحلّ لهم منهنّ أكثر من أربع.

وقوله: «وَما مَلَكَتْ أيمانُهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: قد علمنا ما فرضنا على المؤمنين في أزواجهم، لأنـه لا يحلُّ لهم منهنَّ أكثر من أربعٍ، وما ملكتْ أيمانهم، فإنَّ جميعهن إذا كُنَّ مؤمناتٍ أو كتابياتٍ، لهم حلالٌ بالسباء والتسرّي وغير ذلك من أسبابِ الملك.

وقوله: «لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وكانَ الله غَفُوراً رَحِيماً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّا أحللنا لكَ يا محمدُ أزواجَكَ اللواتي ذكرنا في هذه الآية، وامرأةً مؤمنةً إنْ وهبت نفسها للنبيِّ، إنْ أراد النبيُّ أن يستنكحها، لكيلا يكونَ عليكَ إثمٌ وضيقٌ في نكـاحِ مَنْ نكحتَ من هؤلاء الأصنـافِ التي أبحتُ نكاحهنَّ من المسمَّياتِ في هذه الآية، وكان الله غفوراً لكَ ولأهلِ الإيمان بكَ، رحيماً بك وبهم أنْ يُعاقبهم على سالفِ ذنبٍ منهم سَلَفَ بعد توبتهم منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ

ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمٗا ﴿٥١﴾

اختلف أهلُ التأويل في تاويلِ قوله: «تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وتُؤْوِي إلَيْكَ مَنْ تَشاءُ»، فقال بعضهم: عنى بقوله: تُرْجي: تُؤَخِّرُ، وبقوله: تُؤْوِي: تضمُّ.

وقال آخرون: معنى ذلك: تُطْلِقُ وتُخلي سبيلَ مَنْ شئتَ من نسائكَ، وتُمْسِك، مَنْ شئت منهنَّ فلا تطلق.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: تتركُ نكاحَ مَنْ شئتَ، وتنكحُ مَنْ شئت من نساء أمتك.

وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصوابِ أنْ يقال: إنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ جعل لنبيه أنْ يُرجي من النساء اللواتي أحلهنَّ له مَنْ يشاء، ويُؤْوي إليه منهنَّ مَنْ يشاء، وذلك أنه لم يحصر معنى الإرجاءِ والإيواءِ على المنكوحاتِ اللواتي كُنَّ في حباله، عندما نزلتْ هذه الآيةُ دونَ غيرهنَّ مِمَّنْ يُسْتَحدَثُ إيواؤُها أو إرجاؤها منهنَّ. وإذْ كان ذلك كذلك، فمعنى الكلام: تُؤَخِّرُ مَنْ تشاء ممن وهبتْ نفسَها لكَ، وأحللتُ لك نكاحَها، فلا تقبلها ولا تنكحها. أو مِمَّنْ هُنَّ في حبالك، فلا تَقْرَبها، وتضمُّ إليكَ مَنْ تشاء ممن وهبتْ نفسها لك، أو أردتَ من النساءِ التي أحللتُ لك نكاحهنَّ، فتقبلها أو تنكحها، وممن هي في حبالك فتجامعها إذا شئتَ، وتتركها إذا شئتَ بغير قَسْمٍ.

وقوله: «وَمَنِ ابْتَغَيْتَ ممَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: وَمَنْ نكحتَ من نسائك فجامعتَ مِمَّنْ لم تنكح، فَعَزَلْتَهُ عن الجماعِ، فلا جناحَ عليكَ.

وقال آخرون: معنى ذلك: ومَن استبدلت مِمَّنْ أرجيتَ، فخليتَ سبيلَهُ من نسائكَ، أو ممن ماتَ منهنَّ ممن أحللتُ لكَ فلا جناحَ عليك.

وأوْلى التـأولين بالصوابِ في ذلك، تأويلُ من قال: معنى ذلك: ومَنِ ابتغيتَ إصـابتَهُ من نسائكَ «مِمَّنْ عَزَلْتَ» عن ذلك منهنَّ «فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ» لدلالةِ قوله: «ذَلِكَ أدْنَى أنْ تَقَرَّ أعْيُنُهُنَّ» على صِحَّةِ ذلك، لأنه لا معنى لأنْ تقرَّ أعينُهنَّ إذا هو ﷺ استبدلَ بالميتةِ أو المطلقةِ منهنَّ، إلا أن يعني بذلك: ذلك أدنى أنْ تقرّ أعينُ المنكوحةِ منهنَّ، وذلك مما يدلُّ عليه ظاهرُ التنزيلِ بعيدٌ.

وقوله: «ذلكَ أدْنَى أنْ تَقَرَّ أعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ»، يقول: هذا الذي جعلتُ لكَ يا محمدُ من إذني لكَ أنْ تُرْجي مَنْ تشاءُ من النساء اللواتي جعلتُ لك إرجاءهنَّ، وتؤوي مَنْ تشاء منهنَّ، ووَضْعِي عنكَ الحَرَجَ في ابتغائكَ إصابةَ مَنِ ابتغيتَ إصابتَهُ من نسائكَ، وعزلك عن ذلك مَنْ عزلت منهنَّ، أقربُ لنسائكَ أنْ تقرَّ أعينُهنَّ به ولا يَحْزَنَّ ويرضينَ بما آتيتَهُنَّ كُلُّهُنَّ من تفضيلِ مَنْ فضلتَ من قَسْمٍ، أو نفقةٍ، وإيثارِ مَنْ آثرتَ منهن بذلك على غيرِه من نسائكَ، إذا هُنَّ عَلِمْنَ أنه من رِضَايَ منكَ بذلك، وإذني لكَ به، وإطلاقٍ مني لا من قِبَلِكَ.

وقـولـه: «والله يَعلَمُ ما فِي قُلُوبِكُمْ»، يقـول: والله يعلمُ ما في قلوبِ الرجالِ من مَيْلِها إلى بعضِ مَنْ عندَهُ من النساءِ دونَ بعضٍ بالهوى والمحبة؛ يقول: فلذلك وضع عنك الحرج يا محمد فيما وُضع عنكَ من ابتغاءِ مَنِ ابتغيتَ منهنَّ، ممن عزلتَ تَفَضُّلاً منه عليكَ بذلك وتكرمةً «وكانَ الله عَلِيماً»، يقول: وكان الله ذا عِلْمٍ بأعمالِ عباده، وغير ذلك من الأشياء كلها «حَلِيماً»، يقول: ذا حلمٍ على عباده، أنْ يعاجلَ أهلَ الذنوبِ منهم بالعقوبة، ولكنه ذُو حلمٍ وأناةٍ عنهم، ليتوبَ مَنْ تاب منهم، ويُنيبَ من ذنوبه مَنْ أناب منهم.

الأحزاب: ٥٢

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ۝٥٢﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله تعالى: «لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ»، فقال بعضهم: معنى ذلك: لا يحلُّ لك النساءُ من بعدِ نسائكَ اللاتي خَيَّرْتَهُنَّ، فاخترنَ الله ورسولَهُ والدارَ الآخرة.

وقال آخرون: إنما معنى ذلك: لا يحلُّ لكَ النساءُ بعد التي أحللنا لك بقولنا: «يا أيهَا النَّبيُّ إنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أزْواجَكَ»... إلى قوله: «اللَّاتِي هاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرأَةً مُؤْمِنَةً إنْ وَهَبَتْ نَفْسَها للنَّبِيِّ» وكأنَّ قائلي هذه المقالة وَجَّهُوا الكلامَ إلى أنَّ معناه: لا يحلُّ لك من النساء إلا التي أحللناها لك.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: لا يحلُّ لك النساءُ من غيرِ المسلمات، فأما اليهودياتُ والنصرانياتُ والمشركاتُ فحرامٌ عليك.

وأولى الأقوال عندي بالصحة قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: لا يحلُّ لك النساءُ من بعد اللواتي أَحْلَلْتُهُنَّ لكَ بقولي: «إنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ»... إلى قوله: «وَامْرأَةً مُؤْمِنَةً إنْ وَهَبَتْ نَفْسَها للنَّبيّ».

وإنما قلت ذلك أولى بتأويل الآية، لأن قوله: «لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ» عَقيب قوله: «إنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْوَاجَكَ» وغير جائز أن يقول: قد أحللتُ لك هؤلاء، ولا يحللن لكَ إلا بنسخِ أحدهما صاحبه، وعلى أنْ يكون وقت فرض إحدى الآيتين، فَعَلَ الأخرى منهما. فإذ كان ذلك كذلك ولا برهانَ ولا دلالةَ على نسخِ حكمِ إحدى الآيتين حُكْمَ الأخرى، ولا تَقَدَّمَ تنزيلُ إحداهما قبل صاحبتها، وكان غير مستحيل مخرجهما على الصحة، لم يَجُزْ أنْ يقال:

إحداهما ناسخة الأخرى. وإذا كان ذلك كذلك، ولم يكن لقولِ مَنْ قال: معنى ذلك: لا يحلُّ من بعدِ المسلماتِ يهوديةٌ ولا نصرانية ولا كافرة، معنىً مفهوم، إذْ كان قوله: «مِنْ بَعْدُ» إنما معناه: من بعد المسمياتِ المتقدمِ ذِكْرُهُنَّ في الآية قبل هذه الآية، ولم يكن في الآية المتقدم فيها ذكر المسميات بالتحليلِ لرسولِ الله ﷺ ذكر إباحةِ المسلماتِ كلهنَّ، بل كان فيها ذكر أزواجِه وملكِ يمينِه الذي يفيءُ الله عليه، وبناتِ عمه وبنات عماته، وبنات خاله وبنات خالاته، اللاتي هاجرن معه، وامرأةً مؤمنةً إنْ وهبت نفسها للنبيِّ، فتكون الكوافرُ مخصوصاتٍ بالتحريم، صحَّ ما قلنا في ذلك، دونَ قولِ مَنْ خالف قولنا فيه.

وقوله: «وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: لا يحلُّ لكَ النساءُ من بعدِ المسلماتِ، لا يهوديةٌ ولا نصرانيةٌ ولا كافرةٌ، ولا أنْ تَبَدَّلَ بالمسلماتِ غيرهنَّ من الكوافرِ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ولا أنْ تبدَّلَ بأزواجكَ اللواتي هُنَّ في حِبالكَ أزواجاً غيرهنَّ، بأن تُطَلِّقهنَّ، وتنكح غيرهنّ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ولا أنْ تُبادِلَ من أزواجكَ غيركَ، بأنْ تُعطيه زوجتكَ وتأخُذْ زوجتَهُ.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قولُ من قال: معنى ذلك: ولا أنْ تُطَلِّقَ أزواجكَ فتستبدلَ بهنَّ غيرهنَّ أزواجاً.

وإنما قلنا ذلك أوْلى بالصواب، لما قد بَيَّنا قبلُ من أن قولَ الذي قال معنى قوله: «لَا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ» لا يحلّ لك اليهوديةُ أو النصرانيةُ والكافرةُ، قولٌ لا وجهَ له.

فإذ كان ذلك كذلك، فكذلك قوله: «وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ» كافرة لا معنى له، إذْ كان من المسلمات مَنْ قد حُرِّمَ عليه بقوله: «لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ» الذي دللنا عليه قبل. وأما القول الأخير في ذلك أيضاً، فقولٌ لا معنى له، لأنه لو كان بمعنى المبادلة، لكانتِ القراءة والتنزيلُ: ولا أَنْ تُبادِلَ بهنَّ من أزواجٍ، أو ولا أَنْ تُبَدِّلَ بهنَّ بضمِّ التاء، ولكن القراءة المُجْمَعَ عليها، ولا أَنْ تَبَدَّلَ بهنّ بفتح التاء، بمعنى: ولا أَنْ تستبدلَ بهنّ، مع أنّ الذي ذُكِرَ من فعلِ الجاهلية غير معروفٍ في أمةٍ نعلمه من الأمم، أن يُبادل الرجلُ آخرَ بامرأتِه الحرَّةِ، فيقال: كان ذلك من فعلهم، فنهى رسولُ الله ﷺ عن فِعْلِ مثله!

فإن قال قائل: أفَلَمْ يكنْ لرسولِ الله ﷺ أن يتزوَّجَ امرأةً على نسائِه اللواتي كُنَّ عنده فيكون موجهاً تأويل قوله: «وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ» إلى ما تأوّلت، أو قال: وأين ذكر أزواجه اللواتي كُنَّ عنده في هذا الموضع، فتكون الهاء من قوله: «وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ» من ذكرهن وتوهم أن الهاء في ذلك عائدة على النساء، في قوله: «لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ»؟

قيل: قد كان لرسولِ الله ﷺ أَنْ يتزوَّجَ مَنْ شاء من النساءِ اللواتي كان الله أَحَلَّهُنَّ له على نسائِه اللاتي كُنَّ عنده يومَ نزلت هذه الآية، وإنما نُهِيَ ﷺ بهذه الآية أَنْ يفارق مَنْ كان عنده بطلاقٍ أراد به استبدالَ غيرها بها، لإعجابِ حُسْنِ المُسْتَبْدَلَةِ له بها إياهُ إذ كان الله قد جعلهنَّ أُمّهاتِ المؤمنين وخَيَّرَهُن بين الحياةِ الدنيا والدارِ الآخرة، والرضا بالله ورسوله، فاخْتَرْنَ الله ورسولَهُ والدارَ الآخرة، فَحُرِّمْنَ على غيره بذلك، ومنع من فراقهنَّ بطلاق، فأما نكاحُ غيرهنَّ فلم يمنعْ منه، بل أَحَلَّ الله له ذلك على ما بَيَّنَ في كتابه.

وقد رُوي عن عائشة أن النبيَّ ﷺ لم يقبض حتى أحلّ الله له نساءَ أهلِ الأرض[1].

---

(١) حديث صحيح، أخرجه الترمذي (٣٢١٦) والنسائي (٦/٥٦) والمؤلف ٢٢/٣٢ من رواية=

فإن قال قائل: فإن كان الأمرُ على ما وصفتُ من أنَّ الله حَرَّمَ على نبيه بهذه الآيةِ طلاقَ نسائِه اللواتي خَيَّرَهُنَّ فاخْتَرْنَهُ، فما وجهُ الخبرِ الذي رُوِيَ عنه أنه طَلَّقَ حفصة ثم راجعها[1]، وأنه أراد طلاق سودةَ حتى صالحته على تركِ طلاقِه إياها، ووهبتْ يومَها لعائشة[2]؟ قيل: كان ذلك قبلَ نزولِ هذه الآية.

والدليلُ على صحة ما قلنا، من أنَّ ذلك كان قبلَ تحريمِ الله على نَبيِّهِ طلاقهن، الروايةُ الواردةُ «أنَّ عمر دخلَ على حفصةَ معاقِبَها حين اعتزلَ رسولُ الله ﷺ نساءَهُ، كان مِنْ قِيلِه لها: قد كان رسولُ الله ﷺ طَلَّقَكِ، فكلمتُه فراجعكِ، فوالله لئن طلَّقكِ، أو لو كان طلَّقك لا كلَّمْتُه فيكِ، وذلك لا شك قبل نزول آيةِ التخيير لأن آيةَ التخييرِ إنما نزلت حين انقضى وقتَ يمينِ رسولِ الله ﷺ على اعتزالهنّ.

وأما أمر الدلالة على أنَّ أمرَ سَوْدَةَ كان قبلَ نزولِ هذه الآية، أنَّ الله إنما أمر نبيه بتخييرِ نسائِه بين فراقِه والمُقامِ معه على الرضا بأنْ لا قَسْم لهن، وأنه يُرْجِي مَنْ يشاءُ منهنَّ، ويُؤْوِي منهنّ مَنْ يشاء، ويُؤْثِر مَنْ شاء منهنَّ على من شاء، ولذلك قال له تعالى ذكره: ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ

= عطاء عن عائشة. وأخرجه النسائي (٥٦/٦) والمؤلف ٣٢/٢٢ من رواية عطاء عن عبيد بن عمير، عن عائشة، وقال الترمذي: حسن صحيح (في المطبوع من الترمذي «حسن»)، فقط، والصواب ما ذكرناه، انظر تحفة الأشراف للمزي، حديث ١٧٣٨٩).

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود (٢٢٨٣) وابن ماجة (٢٠١٦) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وأخرجه النسائي (٢١٣/٦) بإسناد صحيح من حديث ابن عمر. وانظر الصحيحة للألباني (٢٠٠٧).

(٢) هي سودة بنت زمعة، تزوجها النبي ﷺ بمكة بعد موت خديجة، وهبتها يومَها لعائشة، في الصحيحين: البخاري (٥٢١٢)، ومسلم (١٤٦٣)، وتواردت الروايات على أنها خشيت الطلاق ففعلت ذلك (انظر فتح الباري: ٣١٣/٩).

ذلكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ»، ومن المحالِ أَنْ يكونَ الصلحُ بينها وبينَ رسولِ الله ﷺ جرى على تَرْكِها يومَها لعائشةَ في حالٍ لا يومَ لها منه.

وغيرُ جائزٍ أَنْ يكون كان ذلك منها إلا في حالٍ كانَ لها منه يومٌ هُوَ لها حقٌّ كان واجباً على رسولِ الله ﷺ أداؤُه إليها، ولم يكنْ ذلك لهنَّ بعد التخييرِ لما قد وصفتُ قبلُ فيما مضى من كتابنا هذا.

فتأويل الكلام: لا يحلُّ لكَ يا محمدُ النساء من بعد اللواتي أحللتُهنَّ لكَ في الآية قَبْلُ، ولا أنْ تُطَلِّقَ نساءكَ اللواتي اخترن الله ورسولَهُ والدارَ الآخرة، فَتَبَدَّلَ بهنَّ من أزواجٍ ولو أعجبكَ حُسْنُ مَنْ أردتَ أنْ تبدَّلَ به منهنَّ، إلا ما ملكتْ يمينُك. و«أن» في قوله: «أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ» رفع، لأنَّ معناها: لا يحلُّ لك النساءُ من بَعْدُ، ولا الاستبدالُ بأزواجكَ، و«إلا» في قوله: «إلَّا ما مَلَكَتْ يمينُكَ» استثناء من النساء، ومعنى ذلكَ: لا يحلُّ لك النساءُ من بعد اللواتي أحللتهُنَّ لَكَ، إلا ما ملكتْ يمينُكَ من الإماءِ، فإنَّ لك أنْ تَمْلكَ من أيِّ أجناسِ الناسِ ما شئتَ من الإماء.

وقوله: «وكانَ الله على كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً»، يقول: وكان الله على كل شيءٍ؛ ما أحلَّ لك، وحرَّم عليكَ، وغير ذلك من الأشياءِ كلها، حفيظاً لا يعزُبُ عنه عِلْمُ شيءٍ من ذلك، ولا يَؤودُهُ حِفْظُ ذلك كلّه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا

فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾

يقـول تعالى ذِكْرُهُ لأصحابِ رسولِ الله ﷺ: يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله، لا تدخلُوا بيوتَ نبيٍّ الله إلا أنْ تُدْعَوْا إلى طعامٍ تَطعمونَهُ «غَيْرَ ناظِرينَ إناهُ»، يعني: غيرَ منتظرينَ إدراكَهُ وبُلوغَهُ.

وقوله: «وَلَكِنْ إذَا دُعِيتُمْ فادْخُلُوا»، يقول: ولكنْ إذا دعاكم رسولُ الله ﷺ فادخلوا البيتَ الذي أذنَ لكم بدخوله، «فإذَا طَعِمْتُمْ فانْتَشِرُوا»، يقول: فاذا أكلتم الطعام الذي دُعيتم لأكلِه فانتشروا، يعني فتفرَّقوا واخرجوا من منزله.

ومعنى قولـه: «وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ»: ولا متحدِّثينَ بعدَ فراغِكم من أكلِ الطعام إيناساً من بعضِكم لبعضٍ به.

وقوله: «إنَّ ذَلِكُمْ كانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ»، يقول: إنَّ دخولَكم بيوتَ النبيِّ من غير أن يُؤْذَنَ لكم وجلوسكم فيهـا مستأنسينَ للحديثِ بعد فراغِكم من أكلِ الطعام الذي دُعيتم له، كان يؤذي النبيَّ، فيستحي منكم أنْ يُخرجِكُمْ منها إذا قعدتم فيها للحديثِ بعد الفراغِ من الطعام، أو يمنعكم من الدخولِ إذا دخلتم بغير إذنٍ مع كراهيتِه لذلك منكم «والله لا يَسْتَحْيي مِنَ الحَقِّ» أن يتبينَ لكم، وإن استـحـيا نبيُّكـم فلم يُبَيِّنْ لكـم كراهـيةَ ذلـك حياءً منكـم «وَإذا سألْتمُـوهُنَّ مَتـاعـاً فاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجـابٍ»، يقـول: وإذا سألتم أزواج رسولِ الله ﷺ ونساءَ المؤمنينَ اللواتي لَسْنَ لكم بأزواج متاعاً «فاسْأَلُوهُنَّ من وَرَاءِ حِجـابٍ»، يقـول: من وراء سترٍ بينكم وبينهنَّ، ولا تدخلوا عليهنَّ بيوتَهُنَّ «ذَلِكُمْ أطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ»، يقـول تعالى ذِكْرُهُ: سؤالُكم إياهُنَّ

المتاعَ إذا سألتموهنَّ ذلكَ من وراءِ حجابٍ أطهرُ لقلوبكم وقلوبهنَّ من عوارضِ العينِ فيها التي تعرضُ في صدورِ الرجالِ من أمرِ النساء، وفي صدور النساءِ من أمرِ الرجالِ، وأحْرَى من أنْ لا يكونَ للشيطانِ عليكم وعليهنَّ سبيلٌ.

وقوله: «وَما كانَ لَكُمْ أنْ تُؤْذُوا رَسُول الله»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما ينبغي لكم أن تُؤْذُوا رسولَ الله، وما يصلحُ ذلك لكم. «وَلا أنْ تَنْكِحُوا أزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أبَداً»، يقول: وما ينبغي لكم أن تنكحوا أزواجَهُ من بعدِه أبداً لأنهنَّ أمهاتكم، ولا يحلُّ للرجلِ أن يتزوّج أمه.

وذُكِرَ أنَّ ذلك نزلَ في رجلٍ كان يدخلُ قبلَ الحجاب، قال: لئن ماتَ محمدٌ لأتزوجنَّ امرأةً من نسائِه سماها، فأنزلَ الله تبارك وتعالى في ذلك: «وَما كانَ لَكُمْ أنْ تُؤْذُوا رَسُولَ الله وَلا أنْ تَنْكِحُوا أزْوَاجَهُ من بعدِه أبداً».

وقوله: «إنَّ ذَلِكُمْ كانَ عِنْدَ الله عَظِيماً»، يقول: إنَّ أذاكم رسولَ الله ﷺ ونكاحَكم أزواجَهُ من بعدِه عند الله عظيمٌ من الإثم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾

يقـول تعالى ذِكْرُهُ: إنْ تُظْهِرُوا بألسنتكم شيئاً أيها الناسُ من مراقبةِ النساء، أو غير ذلك مما نهاكم عنه أو أذى لرسولِ الله ﷺ بقول: لأتزوجنَّ زوجتَهُ بعد وفاتِه، «أو تُخْفُوه»، يقول: أو تخفوا ذلك في أنفسكم، «فإنَّ الله كان بكل شيءٍ عليماً»، يقول: فإنَّ الله بكل ذلك وبغيرِه من أمورِكم وأمورِ غيركم، عليمٌ لا يخفى عليه شيءٌ، وهو يُجازيكم على جميعِ ذلك.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ

﴿وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: لا حَرَجَ على أزواجِ رسولِ الله ﷺ في آبائهنّ ولا إثم.

ثم اختلف أهلُ التأويل في المعنى الذي وُضِعَ عنهنَّ الجناحُ في هؤلاء، فقال بعضهم: وُضِعَ عنهنّ الجناحُ في وَضْعِ جلابيبهنَّ عندهم.

وقال آخرون: وضع عنهنّ الجناحُ فيهنَّ في تركِ الاحتجاب.

وأولى القولين في ذلك بالصوابِ قولُ من قال: ذلك وضع الجناح عنهنّ في هؤلاء المسمين أنْ لا يحتجبنَ منهم، وذلك أنَّ هذه الآيةَ عقيبَ آية الحجاب، وبعد قول الله: «وَإذا سألْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فسألُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجاب» فلا يكون قوله: «لا جُناحَ عَلَيْهنَّ في آبائهنَّ» استثناء من جملةِ الذين أمروا بسؤالهنَّ المتاعَ من وارءِ الحجابِ إذا سألوهنَّ ذلكَ أولى وأشبه من أن يكون خبر مبتدإ عن غيرِ ذلك المعنى.

فتأويل الكلام إذن: لا إثمَ على نساءِ النبيِّ ﷺ، وأمَّهاتِ المؤمنينَ في إذنهنّ لآبـائهنّ، وتركِ الحجاب منهنّ، ولا لأبنائهنّ ولا لإخوانهنَّ، ولا لأبناء إخوانهنَّ. وعُني بإخوانهنَّ وأبناء إخوانهنّ: إخوتهنّ وأبناء إخوتهنّ. وخُرِّجَ معهم جمع ذلك مخرجَ جمع فتىً إذا جُمِعَ فتيان، فكذلك جمع أخ إذا جمع إخوان. وأما إذا جمع إخوة، فذلك نظيرُ جمع فتى إذا جُمِعَ فتية، ولا أبناء إخوانهنّ، ولم يذكر في ذلك العمُّ على ما قال الشعبيُّ حَذَراً من أن يصفهنَّ لأبنائه.

وقوله: «وَلا نسائِهنَّ»، يقول: ولا جناحَ عليهنَّ أيضاً في أنْ لا يحتجبنَ من نساء المؤمنين.

وقوله: «وَاتَّقِينَ اللهَ»، يقول: وخَفْنَ الله أيها النساءُ أنْ تتعدَّيْنَ ما حَدَّ الله لَكُنَّ، فَتُبْدِينَ من زينتكُنَّ ما ليسَ لكنّ أنْ تُبْدِينَهُ، أو تتركنَ الحجابَ الذي أمركُنَّ الله بلزومِه، إلا فيما أباحَ لَكُنَّ تركه، والْزَمْنَ طاعَتَهُ. «إنَّ الله كانَ على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الله شاهدٌ على ما تَفْعَلْنَهُ من احتجابكنَّ، وتَرْككُنَّ الحجابَ لمن أبحتُ لَكُنَّ تركَ ذلك له، وغير ذلك من أموركُنَّ؛ يقول: «فاتَّقِينَ الله» في أنفسكنَّ لا تلقين الله، وهو شاهدٌ عليكم بمعصيته، وخلافِ أمرِه ونهيه، فتهلكنَ، فإنه شاهد على كلِّ شيءٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الله وملائكته يُبَرِّكُونَ على النبيِّ محمدٍ ﷺ.

وقد يحتمل أن يقال: إنَّ معنى ذلك: أنَّ الله يرحمُ النبيَّ، وتَدْعُو له ملائكتُه ويستغفرونَ، وذلك أنَّ الصلاةَ في كلامِ العربِ من غيرِ الله إنما هو دعاءٌ. وقد بيَّنا ذلك فيما مضى من كتابنا هذا فأغنى ذلك عن إعادته.

«يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: يا أيها الذين آمنوا ادْعُوا لنبيِّ الله محمدٍ ﷺ «وَسَلِّمُوا عَلَيْهِ تَسْلِيماً»، يقول: وحَيُّوه تحيةَ الإسلام.

وبنحو الذي قلنا في ذلك جاءت الآثارُ عن رسول الله ﷺ.

عن كعب بن عُجرة، قال: لما نزلت: «إنَّ الله وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلى النَّبيِّ يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً» قمتُ إليه، فقلتُ: السلامُ عليك قد عرفناه، فكيف الصلاةُ عليكَ يا رسولَ الله؟ قال: قُلِ اللَّهُمَّ صَلِّ على مُحَمَّدٍ وعلى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلى إبراهِيمَ وآلِ إبْراهِيمَ، إنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ وَبَارِكْ على مُحَمَّدٍ وَعلَى آلِ مُحَمَّدٍ كما بارَكْتَ على إبْراهِيمَ وآلِ

إبْراهيمَ إنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»(١).

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾﴾

يعني بقوله تعالى ذِكْرُهُ: «إنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ الله» إنَّ الذين يُؤْذُون رَبَّهم بمعصيتِهم إياهُ، وركوبِهم ما حَرَّمَ عليهم.

وقوله: «لَعَنَهُمُ الله في الدُّنْيا والآخِرَةِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: أبعدهم الله من رحمتِه في الدنيا والآخرة وأعَدَّ لهم في الآخرة عذاباً يُهينُهم فيه بالخلودِ فيه.

وقوله: «والَّذِينَ يُؤْذُونَ المُؤْمِنِينَ» كان مجاهدٌ يوجِّهُ معنى قوله: «يُؤْذُونَ» إلى: يَقْفُونَ.

فمعنى الكلام على ما قال مجاهد: والذين يَقْفُونَ المؤمنينَ والمؤمناتِ، ويَعِيبُونَهُمْ طَلَباً لِشَيْنِهم. «بِغَيْرِ ما اكْتَسَبُوا»، يقول: بغيرِ ما عملوا.

وقوله: «فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهتاناً وإثْماً مُبِيناً»، يقول: فقد احتملوا زوراً وكذباً وفـريةً شنيعـةً؛ والبهتان: أفحشُ الكذبِ. «وإثْما مُبِيناً»، يقول: وإثماً يبينُ لسامعِهِ أنه إثْمٌ وزور.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾

---

(١) متفق عليه: البخاري (٣٣٧٠) و(٤٧٩٧) و(٦٣٥٧)، ومسلم (٤٠٦) وأخرجاه عن غير كعب أيضاً.

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: يا أيها النبيُّ قُلْ لأزواجكَ وبناتك ونساءِ المؤمنين، لا تَتَشَبَّهْنَ بالإماءِ في لباسهنَّ إذا هُنْ خَرَجْنَ من بيوتهنَّ لحاجتهنَّ، فَكَشَفْنَ شعورهنَّ ووجوههنَّ، ولكن لِيُدْنِينَ عليهنَّ من جلابيبهنَّ، لئلا يعرضَ لهنَّ فاسقٌ، إذا عَلِمَ أنهنَّ حرائر بأذىً من قولٍ.

ثم اختلف أهلُ التأويلِ في صفةِ الإدناء الذي أمرهنَّ الله به، فقال بعضهم: هو أنْ يُغطينَ وجوههنَّ ورؤسهنَّ، فلا يُبْدِينَ منهنَّ إلا عيناً واحدة.

وقال آخرون: بل أُمِرْنَ أنْ يشددن جلابيبهنّ على جباههنَّ.

وقوله: «ذلكَ أدْنَى أنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إدناؤهنَّ جلابيبهنَّ إذا أَدْنَيْنَها عليهنَّ أقربُ وأحرى أنْ يُعْرَفْنَ ممن مَرَرْنَ به، ويعلموا أنهنَّ لسن بإماءٍ، فيتنكَّبُوا عن أذاهنَّ بقولٍ مكروهٍ، أو تَعَرُّضٍ بريبةٍ. «وكانَ الله غَفُوراً» لما سَلَفَ منهنّ من تركهنّ إدناءهنَّ الجلابيبَ عليهنَّ «رَحيماً» بهنَّ أنْ يعاقبهنَّ بعد توبتهنَّ بإدناءِ الجلابيبِ عليهنّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: لئن لم يَنْتَهِ أهلُ النفاق، الذين يستسرُّونَ الكفرَ، ويُظهرونَ الإيمانَ «وَالَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ»، يعني: ريبةً من شهوةِ الزنا وحبُّ الفجور.

وقوله: «وَالمُرْجِفُونَ في المَدِينَةِ»، يقول: وأهلُ الإرجافِ في المدينة بالكذبِ والباطل.

وقوله: «لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ»، يقول: لَنُسَلِّطَنَّكَ عليهم ولنحرِّشَنَّكَ بهم.

وقوله: «ثُمَّ لا يُجَاوِرونَكَ فِيها إلاَّ قَلِيلاً»، يقول: ثم لننفينهم عن مدينتك فلا يسكنونَ معك فيها إلا قليلاً من المدة والأجلِ، حتى ننفيهم عنها، فنخرجهم منها.

وقوله: «مَلْعُونينَ أيْنَما ثُقِفُوا أُخِذوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: مطرودينَ مَنْفِيينَ أينما ثُقِفوا، يقول: حيثما لُقُوا من الأرضِ أُخِذوا وقتلوا لكفرِهم بالله تقتيلاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلٗا ٦٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «سُنَّةَ الله في الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ» هؤلاء المنافقين الذين في مدينةِ رسولِ الله ﷺ معه من ضُرباء هؤلاء المنافقين، إذا هم أظهروا نفاقهم أن يُقَتِّلَهُمْ تَقْتِيلاً، ويلعنهم لَعناً كثيراً.

وقوله: «وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلاً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيهِ محمدٍ ﷺ: ولن تجدَ يا محمدُ لسنةِ الله التي سَنَّها في خَلْقِه تغييراً، فأيقِنْ أنه غير مغيرٍ في هؤلاءِ المنافقينَ سُنَّتَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ٦٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: يَسْأَلُكَ النَّاسُ» يا محمدُ «عَنِ السَّاعَةِ» متى هي قائمة؟ قلْ لهم: إنما علم الساعة «عِنْدَ الله» لا يعلم وقتَ قيامها غيره «وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً»، يقول: وما أشعركَ يا محمدُ لعلَّ قيامَ الساعةِ

يكونُ منك قريباً، قد قرب وقتُ قيامها، ودَنَا حينُ مجيئها.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٦٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الله أبعدَ الكافرينَ به من كُلِّ خير، وأقصاهم عنه «وأعَدَّ لَهُمْ سَعيراً»، يقول: وأعدَّ لهم في الآخرةِ ناراً تَتَّقِدُ وتَتَسَعَّرُ لِيُصْلِهُمُوهَا. «خالِدِينَ فِيها أبَداً»، يقول: ماكثينَ في السعير أبداً، إلى غيرِ نهاية «لَا يجدُونَ وَلِياً» يتولاهم، فيستنقذُهم من السعيرِ التي أصلاهُمُوها الله «وَلا نَصِيراً» ينصرهم، فينجيهم من عقاب الله إياهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ۝٦٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: لا يجد هؤلاء الكافرون ولياً ولا نصيراً في يوم «تقلب وجوههم في النار» حالاً بعد حالٍ «يَقُولُونَ» وتلك حالُهم في النار: «يَالَيْتَنَا أطَعْنَا الله» في الدنيا وأطعنا رسولَهُ، فيما جاءنا به عنه من أمره ونهيه، فكنا مع أهلِ الجنةِ في الجنة، يالها حسرةً وندامةً، ما أعظمَها وأجلَّها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۝٦٧ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ۝٦٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وقال الكافرونَ يومَ القيامة في جهنم: ربنا إنَّا أطعنا

أئمتنا في الضلالةِ وكُبَراءَنَا في الشرك «فَأَضَلُّونا السَّبيلَا»، يقول: فأزالونا عن محجةِ الحقِّ، وطريقِ الهدى، والإيمانِ بك، والإقرارِ بوحدانيتكَ، وإخلاصِ طاعتكَ في الدنيا «رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ العَذَابِ»، يقول: عَذِّبْهُمْ من العذابِ مِثْلَي عذابنا الذي تُعَذِّبنا. «وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً»، يقول: واخْزِهم خزياً كبيراً.

واختلفوا في قراءة قوله: «لَعْناً كَبِيراً» فقرأت ذلك عامة قَرَأَةِ الأمصار بالثاء «كَثِيراً» من الكثرة، سوى عاصم، فإنه قرأه «لَعْناً كَبِيراً» من الكِبَر. والقراءة في ذلك عندنا بالثاء لإجماعِ الحجة من القَرَأَةِ عليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لأصحابِ نبيِّ الله ﷺ: يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله لا تُؤْذُوا رسولَ الله بقولٍ يكرهُه منكم، ولا بفعلٍ لا يحبُّه منكم، ولا تكونُوا أمثالَ الذين آذوا موسى نبيَّ الله، فَرَمَوْهُ بعيبٍ كذباً وباطلاً «فبرَّأَهُ الله مِمَّا قالُوا» فيه من الكذبِ والزورِ بما أظهرَ من البرهانِ على كذِبهم «وكانَ عَنْدَ الله وَجيهاً»، يقول: وكان موسى عند الله مشفعاً فيما يسأل، ذا وجهٍ ومنزلةٍ عنده بطاعتِه إياه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: يا أيها الذين صَدَّقُوا الله ورسوله، اتقوا الله أنْ تعصوهُ، فتستحقوا بذلك عقوبتَهُ.

وقوله: «وَقولوا قَوْلاً سَدِيداً»، يقول: قولوا في رسولِ الله والمؤمنينَ قولاً قاصداً غيرَ جائرٍ، حقاً غير باطل.

وقوله: «يُصْلِحْ لَكُمْ أعمالَكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ للمؤمنين: اتقوا الله وقولُوا السدادَ من القولِ يوفقكم لصالحِ الأعمال، فيصلحْ أعمالكم «وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ»، يقول: ويَعْفُ لكم عن ذنوبِكم، فلا يعاقبكم عليها. «وَمَن يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ» فيعملْ بما أمره به، وينتهي عما نهاهُ، ويَقُلْ السديدَ «فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً»، يقول: فقد ظفر بالكرامةِ العُظْمى من الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾

اختلف أهلُ التأويلِ في معنى ذلك، فقال بعضُهم: معناه: إنَّ الله عرضَ طاعتَهُ وفرائِضَهُ على السمواتِ والأرضِ والجبالِ على أنها إنْ أحسنتْ أُثِيبتْ وجُوزِيَتْ، وإنْ ضَيَّعَتْ عُوقِبَتْ، فأَبَتْ حملها شفقاً منها أن لا تقومَ بالواجبِ عليها، وحملها آدم «إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً» لنفسه «جَهُولاً» بالذي فيه الحظُّ له.

عُنِيَ بالأمـانـةِ في هذا المـوضـع: جميع معاني الأماناتِ في الدين، وأماناتِ الناسِ، وذلك أنَّ الله لم يخصَّ بقوله: «عَرَضْنا الأمانَةَ» بعضَ معاني الأماناتِ لما وصفنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وحملَ الإنسانُ الأمانةَ كيما يعذِّبَ الله المنافقينَ فيها الذين يُظْهِرُونَ أنهم يُؤَدُّونَ فرائضَ الله، مؤمنينَ بها، وهم مُسْتَسِرُّونَ الكفرَ بها، والمنافقاتِ والمشركينَ بالله في عبادتهم إياهُ الآلهةَ والأوثانَ، «وَالمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ الله على المُؤْمِنِينَ والمُؤْمِناتِ» يرجع بهم إلى طاعتِه، وأداءِ الأماناتِ التي ألزمهم إياها حتى يؤدُّوهَا. «وكانَ الله غَفُوراً» لذنوبِ المؤمنينَ والمؤمناتِ، بسترِهِ عليها، وتركِهِ عقابهم عليها. «رَحِيماً» أن يعذِّبَهُمْ عليها بعد توبتِهم منها.

سُورَةُ سَبَإٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: الشكرُ الكاملُ، والحمدُ التامُّ كُلُّه للمعبودِ الذي هو مالكُ جميعِ ما في السمواتِ السبعِ، وما في الأرضينَ السبعِ دونَ كُلِّ ما يعبدونَهُ، ودونَ كُلِّ شيءٍ سواه، لا مالكَ لشيءٍ من ذلك غيره، فالمعنى الذي هو مالك جميعه. «وَلَهُ الحَمْدُ في الآخِرَةِ»، يقول: وله الشكرُ الكاملُ في الآخرة، كالذي هو له ذلك في الدنيا العاجلة، لأنَّ منه النعم كلها على كُلِّ مَنْ في السمواتِ والأرضِ في الدنيا، ومنه يكون ذلك في الآخرة، فالحمدُ لله خالصاً دونَ ما سواه في عاجلِ الدنيا، وآجلِ الآخرة، لأنَّ النعم كلها من قِبله لا يُشركهُ فيها أحدٌ من دونِه، وهو الحكيمُ في تدبيره خَلْقَهُ وصرفه إياهم في تقديره، خبيرٌ بهم وبما يصلحهم، وبما عملوا، وما هُمْ عاملونَ، محيطٌ بجميعِ ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: يعلمُ ما يدخلُ الأرضَ وما يغيبُ فيها من شيءٍ من

قولهم: ولجتُ في كذا: إذا دخلتُ فيه «وَمَا يَخْرُجُ مِنْها»، يقول: وما يخرجُ من الأرضِ «وَمَا يَنْـزِل مِنَ السَّماءِ وَما يعْرُجُ فِيها»، يعني: وما يصعدُ في السماء، وذلك خبرٌ من الله أنه العالمُ الذي لا يَخْفَى عليه شيءٌ في السمواتِ والأرضِ، مما ظَهرَ فيها وما بَطَنَ، «وهو الرحيمُ الغفور»، وهو الرحيمُ بأهل التوبةِ من عبادِه أنْ يعذِّبهم بعد توبتهم، الغفورُ لذنوبهم إذا تابوا منها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ۝٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ويستعجلُكَ يا محمدُ الذين جَحَدُوا قُدْرَةَ الله على إعادةِ خَلْقِه بعد فنائِهم بهيئتهم التي كانوا بها من قبل فنائِهم من قومكَ بقيامِ الساعة، استهزاءً بوعدكَ إياهُمْ، وتكذيباً لخبرك، قُلْ لهم: بلى تأتيكم وربي، قَسَماً به لتأتِيَنَّكُمْ الساعةُ، ثم عاد جلَّ جلاله بعد ذِكْرِه الساعةَ على نفسِه، وتمجيدها، فقال: «عالمِ الغَيْبِ».

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك، فقرأته عامة قَرَأَةِ المدينة «عالِمُ الغَيْبِ» على مثالِ فاعل، بالرفع على الاستئنافِ، إذْ دخلَ بين قوله: «وَرَبِّي»، وبين قولـه: «عـالم الغَيْبِ» كلام حائـلٌ بينـه وبينه. وقرأ ذلك بعض قَرَأَةِ الكوفة والبصرة،عالم على مثال فاعل، غير أنهم خفضوا عالم ردًّا منهم له على قوله: «وَرَبِّي» إذْ كان من صفته. وقرأ ذلك بقية عامة قَرَأَة الكوفة «عَلاَّمُ الغَيْبِ» على مثال فعَّال، وبالخفضِ ردّاً لإعرابه على إعرابِ قوله: «وَرَبِّي» إذ كان من نَعْتِه.

والصوابُ من القولِ في ذلك عندنا، أنَّ كُلَّ هذه القراءاتِ الثلاث،

قراءات مشهورات في قَرَأَةِ الأمصارِ متقاربات المعاني، فبأيتهنَّ قرأ القارىءُ فمصيبٌ، غير أنَّ أعجبَ القراءاتِ في ذلك إليَّ أنْ أقرأَ بها «عَلاَّمُ الغَيْبِ» على القراءةِ التي ذكرتها عن عامةِ قَرَأَةِ أهلِ الكوفة، فأما اختيار عَلَّام على عالم، فلأنَّها أبلغُ في المدح. وأما الخفض فيها فلأنها من نعتِ الربِّ، وهو في موضع الجرِّ. وعنى بقوله: «عَلاَّمُ الغَيْبِ»: علام ما يغيبُ عن أبصارِ الخَلْقِ، فلا يراهُ أحدٌ، إما ما لم يُكَوِّنه مما سيكوِّنُهُ، أو ما قد كَوَّنَهُ فلم يُطْلِعْ عليه أحداً غيره، وإنما وصفَ جَلَّ ثناؤُهُ في هذا الموضعِ نفسَهُ بعلمِه الغيبَ، إعلاماً منه خلقَهُ أنَّ الساعةَ لا يعلم وقت مجيئها أحدٌ سواه، وإنْ كانت جائيةً، فقال لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ للذين كفروا بربهم: بلى وربكم لتأتينَّكُمْ الساعةُ، ولكنه لا يعلمُ وقت مَجيئها أحدٌ سوى علام الغيوب، الذي لا يعزبُ عنه مثقال ذرّة ويعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وَلا يَعْزُبُ عَنْهُ» لا يغيبُ عنه، ولكنه ظاهر له.

وقوله: «مِثْقالُ ذَرَّةٍ»، يعني: زِنَةَ ذرّةٍ في السمواتِ ولا في الأرض، يقول تعالى ذِكْرُهُ: لا يغيبُ عنه شيءٌ من زنةِ ذرّةٍ فما فوقَها فما دونَها، أين كان في السمواتِ ولا في الأرض. «وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذلكَ»، يقول: ولا يعزبُ عنه أصغر من مثقالِ ذرّةٍ «وَلا أَكْبَرُ» منه «إلاَّ في كِتابٍ مُبِينٍ»، يقول: هو مثبت في كتابٍ يبينُ للناظرِ فيه أنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ قد أثْبَتَهُ وأحصاهُ وعَلِمَهُ، فلم يعزبْ عن عِلْمِه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أثبت ذلك في الكتابِ المبين، كي يُثيبَ الذين آمنوا بالله ورسوله، وعملوا بما أمرهم الله ورسولُه به، وانتهوا عما نهاهم عنه على طاعتهم ربهم. «أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: لهؤلاء الذين آمنوا وعملوا

الصالحات، مغفرةٌ مِن رَبِّهم لذنوبهم «وَرِزْقٌ كَرِيمٌ»، يقول: وعيشٌ هنيءٌ يومَ القيامةِ في الجنة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ۝٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أثبتَ ذلك في الكتاب، ليجزي المؤمنينَ ما وصفَ، وليجزي الذين سَعَوْا في آياتنا مُعاجِزينَ، يقول: وكي يُثيبَ الذين عملوا في إبطالِ أدلتنا وحججنا معاونين، يحسبون أنهم يسبقوننا بأنفسهم فلا نقدر عليهم. «أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ»، يقول: هؤلاء لهم عذابٌ من شديدِ العذابِ الأليم، ويعني بالأليم: المُوجِع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أثبت ذلك في كتابٍ مبين، ليجزي الذين آمنوا، والذين سعوا في آياتنا ما قد بَيَّنَ لهم، وليرى الذين أُوتُوا العلم، فَيَرى في موضعِ نصبٍ عطفاً به على قوله: «يجزي»، في قوله: «لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا» وَعَنى بالذين أُوتُوا العلمَ: مسلمةَ أهلِ الكتاب كعبدِالله بن سلام، ونظرائِه الذين قد قرؤوا كُتُبَ الله التي أُنزلتْ قبلَ الفرقانِ، فقال تعالى ذِكْرُهُ: وليرى هؤلاء الذين أُوتُوا العلمَ بكتابِ الله الذي هو التوراة، الكتاب الذي أُنزلَ إليك يا محمدُ من رَبِّكَ هو الحقّ.

وقيل: عنى بالذين أوتوا العلم: أصحابَ رسولِ الله ﷺ.

وقوله: «وَيَهْدِي إلى صِراطِ العَزيزِ الحَميدِ»، يقول: ويُرْشِدُ مَن اتَّبَعَهُ، وعملَ بما فيه إلى سبيلِ الله العزيزِ في انتقامه من أعدائه، الحميدِ عند خَلْقِه، فأياديه عندهم، ونعمه لديهم. وإنما يعني أنَّ الكتابَ الذي أُنزل على محمدٍ يهدي إلى الإسلام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وقال الذين كفروا بالله وبرسوله محمدٍ ﷺ، متعجبينَ من وَعْدِه إياهم البعث بعد المماتِ بعضهم لبعض: «هَلْ نَدُلُّكُمْ» أيها الناسُ «على رَجُلٍ يِنبِّئُكُمْ إذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَديدٍ»، يقول: يُخبركم أنكم بعد تَقَطُّعكم في الأرضِ بلاءً وبعدَ مصيرِكم في الترابِ رُفاتاً، عائدونَ كهيئتِكم قبلَ المماتِ خَلْقاً جديداً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ مخبراً عن قِيلِ هؤلاء الذين كفروا به، وأنكروا البعثَ بعد المماتِ بعضهم لبعض، معجبينَ من رسولِ الله ﷺ في وعدِه إياهم ذلك: أفترى هذا الذي يَعِدُنَا أنَّا بعدَ أنْ نُمَزَّقَ كلَّ ممزَّقٍ في خلقٍ جديد على الله كذباً، فتخلق عليه بذلك باطلاً من القولِ، وتخرص عليه قولَ الزور. «أمْ بِهِ جِنَّةٌ»، يقول: أم هو مجنونٌ فيتكلمُ بما لا معنى له.

وقـوله: «بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ في العَذابِ والضَّلالِ البَعيد»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ما الأمرُ كما قالَ هؤلاء المشركونَ في محمدٍ ﷺ، وظنوا به

من أنه افترى على الله كَذِباً، أو أنَّ به جِنَّةً، ولكنَّ الذين لا يؤمنون بالآخرةِ من هؤلاء المشركينَ في عذابِ الله في الآخرةِ، وفي الذهابِ البعيدِ عن طريقِ الحقِّ، وقَصْدِ السبيل، فهم من أجلِ ذلك يقولون فيه ما يقولون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أفلم ينظر هؤلاء المكذِّبونَ بالمعادِ، الجاحدونَ البعثَ بعد المماتِ، القائلونَ لرسولنا محمدٍ ﷺ «أَفْتَرَى على الله كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ» إلى ما بينَ أيديهم وما خَلْفَهُمْ من السماءِ والأرضِ، فيعلمُوا أنهم حيثُ كانوا، فإنَّ أرضي وسمائي محيطةٌ بهم من بين أيديهم ومن خلفهم، وعن أيمانهم، وعن شمائلهم، فيرتَدعُوا عن جَهْلِهم، وينزجروا عن تكذيبهم بآياتنا حَذَراً أَنْ نأمرَ الأرضَ فَتُخْسَفَ بهم، أو السماء فَتُسْقِطَ عليهم قِطعاً، فإنَّا إنْ نشأ نفعلْ ذلك بهم فِعْلَنا.

وقوله: «إنَّ في ذلكَ لآيةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنيبٍ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إن في إحاطةِ السماءِ والأرضِ بعبادِ الله «لآية»، يقول: لدلالةً لكلِّ عبدٍ منيب، يقول: لكلِّ عبدٍ أنابَ إلى رَبِّه بالتوبةِ، ورجع إلى معرفةِ توحيدِه، والإقرارِ بربوبيته، والاعترافِ بوحدانيته، والإذعانِ لطاعته، على أنَّ فاعل ذلك لا يمتنعُ عليه فِعْلُ شيءٍ أرادَ فِعْلَهُ، ولا يتعذَّرُ عليه فِعْلُ شيءٍ شاءه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾

سبأ: ١١

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولقد أعطينا داودَ منّا فضلاً، وقلنا للجبالِ «أَوِّبي مَعَهُ»: سَبِّحي معه إذا سَبَّحَ. والتأويبُ عند العربِ: الرجوعُ، ومبيتُ الرجلِ في منزله وأهله.

وقوله: «والطَّيْرَ» وفي نصب الطير وجهان: أحدهما: أنَّ الطيرَ نُوديت كما نُوديت الجبالُ، فتكون منصوبة من أجل أنها معطوفة على مرفوع، بما لايحسنُ إعادةُ رافعهِ عليه، فيكون كالمُصْدَر[1] عن جهتِه، والآخر: فعل ضمير متروك استغني بدلالة الكلامِ عليه، فيكون معنى الكلام: فقلنا: يا جبال أَوِّبي معه، وسخرنا له الطيرَ[2]، وإن رفع ردّاً على ما في قوله: سَبِّحي من ذِكْرِ الجبالِ كان جائزاً، وقد يجوزُ رفع الطير وهو معطوفٌ على الجبال، وإنْ لم يحسن نداؤها بالذي نُوديت به الجبالُ[3].

وقوله: «وأَلَنَّا لَهُ الحَدِيدَ»، ذُكِرَ أنَّ الحديدَ كان في يدهِ كالطينِ المبلولِ يُصَرِّفُه في يده كيف يشاء بغير إدخالِ نارٍ، ولا ضربٍ بحديد.

وقوله: «أنِ أعْمَلْ سابِغَاتٍ»، يقول: وعَهِدْنَا إليه أن اعملْ سابغاتٍ، وهي التَّوَامُّ الكواملُ من الدُّروع.

وعنى بقوله: «وَقَدِّرْ في السَّرْدِ»: وقدّر المساميرَ في حَلَقِ الدُّروع حتى يكون بمقدار لا تغلظُ المسمار، وتضيقُ الحلقة، فتفصم الحلقة، ولا تُوسِّعِ الحلقةَ، وتصغر المسامير وتدقها، فتسلس في الحلقة.

وقوله: «واعْمَلُوا صَالِحاً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: واعملْ يا داودُ أنتَ وآلُكَ

(١) هكذا ضبطناها، لأن المقصود بها: كالمصروف عن جهته، أو كما قال الفراء في معاني القرآن (٢/٣٥٥): كالمعدول عن جهته.

(٢) يريد أن سياق العبارة يكون: ولقد اتينا داود منا فضلاً وسخرنا له الطير. (انظر معاني القرآن للفراء: ٢/٣٥٥).

(٣) هذا كله من كلام الفراء في معاني القرآن.

بطاعةِ الله. «إنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: إني بما تعمل أنتَ وأتباعُكَ ذُو بَصَرٍ لا يَخْفَى عليَّ منه شيءٌ، وأنا مُجازِيكَ وإياهم على جميعِ ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ۝١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولقد آتينا داودَ منَّا فضلاً وسَخَّرْنَا لسليمانَ الريحَ.

وقولـه: «غُـدُوُّها شَهْرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وسخرنا لسليمانَ الريحَ، غُدُوُّهَا إلى انتصافِ النهارِ مسيرة شهرٍ، ورواحها من انتصافِ النهار إلى الليل مسيرة شهر.

وقوله: «وأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ»، يقول: وأَذَبْنَا له عينَ النحاسِ، وأجريناها له.

وقوله: «وَمِنَ الجنِّ مَنْ يَعْمَل بَينَ يَدَيْهِ بإذْنِ رَبِّهِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومن الجنِّ مَنْ يطيعه، ويأتمرُ بأمرِهِ، وينتهي لنهيه، فيعمل بين يديه ما يأمره طاعةً له بإذنِ ربه، يقول: بأمرِ الله بذلك، وتسخيره إياهُ له. «وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا»، يقول: ومَنْ يَزِلْ ويَعْدِلْ من الجنِّ عن أمرنا الذي أمرناهُ من طاعةِ سليمانَ «نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ» في الآخرة، وذلك عذابُ نارِ جهنمَ الموقدة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ۝١٣﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ يعملُ الجِنُّ لسليمانَ ما يشاء من محاريب، وهي جمع محراب والمحرابُ: مُقَدَّمُ كُلِّ مسجدٍ وبيتٍ ومصلًّى.

وقوله: «وَتماثيلَ»، يعني: أنهم يعملونَ له تماثيلَ من نحاسٍ وزجاج.

وقوله: «وَجِفَانٍ كالجَوَابِ»، يقول: وينحتون له ما يشاءُ من جِفانٍ كالجوابِ، وهي جمع جابية والجابية: الحوضُ الذي يُجْبَى فيه الماء.

وقوله: «وَقُدُورٍ رَاسياتٍ»، يقول: وقدورٍ ثابتاتٍ لا يحركن عن أماكنهنَّ، ولا تحوّل لِعظَمِهِنَّ.

وقوله: «اعْمَلُوا آلَ دَاودُ شُكْراً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وقلنا لهم اعملوا بطاعةِ الله يا آلَ داودَ شكراً له على ما أنعمَ عليكم من النعم التي خَصَّكم بها عن سائرِ خَلْقِه مع الشكرِ له على سائرِ نعمه التي عَمَّكُمْ بها مع سائرِ خَلْقِه، وتُرِك ذِكْرُ: وقلنا لهم، اكتفاءً بدلالةِ الكلامِ على ما ترك منه، وأخرج قوله: «شُكْراً» مصدراً من قوله: «اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ» لأنَّ معنى قوله: «اعْمَلُوا» اشكروا رَبَّكم بطاعتكم إياه، وأن العملَ بالذي رضي الله، لله شُكْرٌ.

وقوله: «وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وقليلٌ من عبادي المُخْلِصُو توحيدِي، والمُفْرِدُو طاعتي وشكري على نعمتي عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فلما أمضينا قضاءَنا على سليمانَ بالموتِ فماتَ «ما دَلَّهُمْ عَلى مَوْتِهِ»، يقول: لم يدّل الجنَّ على موتِ سليمانَ «إلاّ دَابَّةُ الأَرْضِ»

وهي الأَرَضَةُ وقعتْ في عصاه، التي كان متكئاً عليها فأكلتها، فذلك قولُ الله عزَّ وجلَّ: «تَأْكُلُ مِنْسَاتَهُ».

وقوله: «فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الجِنُّ»، يقول عزَّ وجلَّ: فلما خرَّ سليمانُ ساقطاً بانكسارِ منسأته تبيَّنت الجنّ «أنْ لو كانوا يعلمون الغَيْبَ» الذي يَدَّعُونَ عِلْمَهُ «ما لَبِثُوا في العَذَابِ المُهِينِ» المُذِلّ حولاً كاملاً بعد موتِ سليمان، وهم يحسبونَ أنَّ سليمانَ حيٌّ.

القَوْلُ فى تَأْويل قَوْلِهِ تَعالَى: لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: لقد كانَ لولد سبأ في مسكنهم علامةٌ بَيِّنَةٌ وحجةٌ واضحةٌ على أنه لا رَبَّ لهم إلا الذي أنعمَ عليهم النعم التي كانوا فيها.

وأما قوله: «جَنَّتانِ عَن يَمِينٍ وَشِمالٍ»، فإنه يعني: بستانان كانا بين جبلين، عن يمينِ مَنْ أتاهما وشماله.

وقوله: «كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ» الذي يرزقكم من هاتين الجنتين من زروعهما وأثمارهما، «وَاشْكُرُوا لَهُ» على ما أنعمَ به عليكم من رِزْقِه ذلك، وإلى هذا منتهى الخبَرِ، ثم ابتدأ الخبرَ عن البلدةِ، فقيل: هذه بلدةٌ طيبةٌ: أي ليست بسبخةٍ، ولكنها لم يكن فيها شيءٌ مؤذٍ، الهَمَج[1] والدَّبيب والهوامَ. «وَرَبٌّ غَفُورٌ»، يقول: وربٌّ غفور لذنوبكم إنْ أنتم أطعتموه.

(١) الهمج - بفتحتين - جمع (همجة) وهي ذباب صغير كالبعوض يسقط على وجوه الغنم والحمير وأعينها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فأعرضت سبأ عن طاعةِ رَبِّها وصَدَّتْ عن اتباعِ ما دَعَتْها إليه رُسُلها من أنه خالقها.

وقوله: «فأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ العَرِمِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فَثَقَّبْنا عليهم حين أعرضوا عن تصديقِ رسلنا سَدَّهُمْ الذي كان يحبسُ عنهم السيولَ.

وقوله: «وَبَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَواتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وجعلنا لهم مكانَ بساتينهم من الفواكِهِ والثمار، بساتينَ من جَني ثمرِ الأراكِ، والأراك: هو الخَمْط.

وأما الأَثْلُ فإنه يقال له الطَّرْفاء: وقيل: شجرٌ شبيهٌ بالطَّرْفاء، غير أنه أعظمُ منها، وقيل: إنها السَّمُر.

وقوله: «وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ»، يقول: ذواتي أُكُل خَمْطٍ وأَثْلٍ وشيءٍ من سِدْرٍ قليل.

وكان قتادة يقول في ذلك: بينما شجرُ القومِ خيرُ الشجرِ، إذ صَيَّرَهُ الله من شرِّ الشجرِ بأعمالهم.

وقوله: «ذلكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: هذا الذي فعلنا بهؤلاءِ القوم من سبأ من إرسالنا عليهم سيلَ العرم، حتى هلكتْ أموالهُم، وخَربتْ جَنَّاتُهم، جزاء منَّا على كُفْرِهم بنا، وتكذيبهم رسلنا.

وقوله: «وهل نجازي إلا الكَفُور»، معناه: كذلك كافأناهم على كفرهم بالله، وهل يُجازَى إلا الكفورُ لنعمةِ الله؟

فإن قال قائل: أوَ ما يجزي الله أهلَ الإيمانَ به على أعمالهم الصالحة، فيخصَّ أهلَ الكفرِ بالجزاء؟ فيقال وهل يُجازى إلا الكفورُ؟

قيل: إنَّ المجازاةَ في هذا الموضع: المكافأة، والله تعالى ذِكْرُهُ وَعَدَ أهلَ الإيمان به التفضُّلَ عليهم، وأنْ يجعلَ لهم بالواحدةِ من أعمالِهم الصالحةِ عشرَ أمثالها إلى مالا نهايةَ له من التضعيفِ، ووعد المسيءَ من عبادِهِ أنْ يجعلَ بالواحِدةِ مِن سيئاته، مِثْلَهَا مكافأةً له على جُرْمِه، والمكافأة لأهل الكبائر والكفر، والجزاء لأهل الإيمان مع التفضل، فلذلك قال جَلَّ ثناؤهُ في هذا الموضع: «وَهَلْ يُجازَى إلَّا الكَفُورُ»؟ كأنه قال جَلَّ ثناؤهُ: لا يجازَى: لا يكافأُ على عملِه إلا الكفورُ، إذا كانت المكافأةُ مثلَ المكافأ عليه، والله لا يغفرُ له من ذنوبه شيئاً، ولا يُمَحَّصُ شيءٌ منها في الدنيا. وأما المؤمنُ فإنه يَتفضَّلُ عليه على ما وصفتُ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ۝١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ مخبراً عن نعمته التي كان أنعمها على هؤلاءِ القومِ الـذين ظلموا أنفسهم، وجعلنا بين بلدهم وبين القُرى التي باركنا فيها وهي الشام، قُرىً ظاهرة.

وقيل: عُنِي بالقرى التي بُورِك فيها بيتُ المقدس.

وقوله: «قُرًى ظاهِرَةً»، يعني: قُرًى مُتَّصلةً، وهي قُرًى عَرَبِيَّةٌ.

وقوله: «وَقَدَّرْنا فِيها السَّيْرَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وجعلنا بين قُراهم والقرى التي باركنا فيها سيراً مُقَدَّراً من منزلٍ إلى منزلٍ، وقريةٍ إلى قرية، لا ينزلونَ

إلا في قرية، ولا يغدون إلا من قرية.

وقوله: «سِيرُوا فِيها لَيالِيَ وأيَّاماً آمِنِينَ»، يقول: وقلنا لهم سيروا في هذه القرى ما بين قُراكُم، والقرى التي باركنا فيها لياليَ وأياماً، آمنينَ لا تخافونَ جوعاً ولا عطشاً، ولا من أحدٍ ظلماً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾

تأويل الكلام: فقالوا: يا رَبَّنَا باعِدْ بين أسفارنا، فاجعلْ بيننا وبين الشام فَلَواتٍ ومَفاوِزَ، لنركبَ فيها الرواحلَ، ونتزوَّدَ معنا فيها الأزوادَ، وهذا من الدلالةِ على بطرِ القوم نعمةَ الله عليهم وإحسانه إليهم، وجهلهم بمقدارِ العافيةِ، ولقد عَجَّلَ لهم رَبُّهم الإجابةَ، كما عَجَّلَ للقائلين، «إنْ كانَ هَذا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أوِ ائْتِنَا بِعَذابٍ أليمٍ» أعطاهم ما رَغِبُوا إليه فيه وطلبوا من المسألة.

وقـولـه: «فَظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ»، وكان ظُلْمُهم إياها عمَلَهُمْ بما يسخطُ الله عليهم من معاصيهِ، مما يوجبُ لهم عقابَ الله «فجعَلْنَاهُمْ أحادِيثَ»، يقول: صَيَّرْناهُمْ أحاديثَ للناسِ يضربون بهم المثل في السبِّ، فيقال: تفرَّقَ القومُ أيادِي سَبَأ، وأيدي سبأ إذا تفرَّقُوا وَتَقَطَّعُوا.

وقوله: «وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ»، يقول: وقَطَّعناهُمْ في البلاد كُلَّ مقطع.

وقوله: «إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ في تَمْزِيقِناهُمْ كُلَّ ممزَّقٍ لآيات، يقول: لعظةً وعِبْرةً ودلالة على واجبِ حقِّ الله على عبدِهِ من الشكرِ على نعمهِ إذا أنعم عليه، وحقه من الصبرِ على محنتهِ

إذا امتحنه ببلاءٍ «لكلِّ صبارٍ شكور» على نعمه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٢٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولقد ظَنَّ إبليسُ بهؤلاء الذين بَدَّلْنَاهُمْ بجنَّتيهم جنتين ذواتي أكلِ خَمْطٍ، عقوبةً منا لهم، ظناً غيرَ يقينٍ، علم أنهم يتبعونه ويطيعونه في معصيةِ الله، فَصَدَّقَ ظَنَّهُ عليهم، بإغوائِه إياهم، حتى أطاعوهُ، وعَصَوْا رَبَّهم، إلا فريقاً من المؤمنينَ بالله، فإنهم ثبتوا على طاعةِ الله ومعصيةِ إبليس.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ٢١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما كانَ لإبليسَ على هؤلاءِ القومِ الذين وَصَفَ صِفَتَهُم من حُجَّةٍ يُضِلُّهم بها، إلا بتسليطِنَاهُ عليهم، ليُعْلَمَ حزبُنا وأولياؤُنا. «مَنْ يُؤْمِنُ بالآخِرَةِ»، يقول: مَنْ يصدِّقُ بالبعثِ والثواب والعقابِ «مِمَّنْ هُوَ مِنْها فِي شَكٍّ» فلا يُوقِنُ بالمعاد، ولا يصدِّقُ بثوابٍ ولا عقاب.

وقولُه: «وَرَبُّكَ على كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وربُّكَ يا محمدُ على أعمالِ هؤلاءِ الكَفَرَةِ به، وغير ذلك من الأشياء كلها «حَفِيظٌ» لا يعزبُ عنه عِلْمُ شيءٍ منه، وهو مُجازٍ جميعَهم يومَ القيامة، بِما كسبوا في الدنيا من خيرٍ وشر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُهُ: فهذا فِعْلُنا بولينا ومَنْ أطاعنا، داود وسليمان الذي فعلنا بهما من إنعامِنَا عليهما النعمَ التي لا كفاءَ لها إذا شَكَرَانَا، وذاك فِعْلُنا بسَبَأ الذين فعلنا بهم، إذ بَطِرُوا نعمتنا، وكذَّبُوا رسلنا، وكفروا أيادينا، فَقُلْ يا محمدُ لهؤلاء المشركين بربهم من قومكَ، الجاحدينَ نِعَمَنَا عندهم، ادعوا أيها القومُ الذين زعمتم أنهم لله شريك من دونه، فَسَلُوهُمْ أنْ يفعلوا بكم بعضَ أفعالنا، بالذين وصفنا أمرهم من إنعامٍ أو إياس، فإنْ لم يقدروا على ذلك فاعلموا أنكم مُبْطِلُونَ، لأنَّ الشركةَ في الربوبية لا تصلحُ ولا تجوز، ثم وصف الذين يدعون من دون الله، فقال: إنهم لا يملكون مثقالَ ذرّةٍ في السموات ولا في الأرض من خيرٍ ولا شرٍّ ولا ضرٍّ ولا نفع، فكيف يكون إلهاً مَنْ كان كذلك.

وقوله: «وَما لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولا هُمْ إذ لم يكونوا يملكون مثقالَ ذرّةٍ في السمواتِ ولا في الأرضِ، منفردينَ بملكه من دون الله، يملكونه على وجهِ الشِّركة، لأن الأملاكَ في المملوكات، لا تكون لمالكها إلا على أحدِ وجهين: إما مقسوماً، وإما مُشَاعاً، يقول: وآلهتهم التي يدعون من دونِ الله، لايملكـون وزنَ ذَرّةٍ في السمواتِ ولا في الأرض، لا مُشاعاً ولا مقسوماً، فكيف يكونُ مَنْ كان هكذا شريكاً لمن له ملكُ جميع ذلك.

وقوله: «وَما لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ»، يقول: وما لله من الآلهةِ التي يدعون من دونِه مُعينٌ على خَلْقِ شيءٍ من ذلك، ولا على حِفْظِه، إذ لم يكن لها ملكُ شيءٍ منه مُشاعاً ولا مقسوماً، فيقال: هو لكَ شريكٌ من أجلِ أنه أعانَ وإنْ لم يكن له ملكُ شيءٍ منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولا تنفع شفاعةُ شافعٍ كائناً مَنْ كان الشافعُ لمن شَفَع له، إلا أن يشفعَ لمن أذنَ الله في الشفاعة، يقول تعالى: فإذا كانت الشفاعاتُ لا تنفعُ عند الله أحداً إلا لمن أذِنَ الله في الشفاعة له، والله لا يأذنُ لأحدٍ من أوليائِه في الشفاعة لأحدٍ من الكَفَرَةِ به، وأنتم أهلُ كفرٍ به أيها المشركونَ، فكيف تعبدون مَنْ تعبدونه من دونِ الله زعماً منكم أنكم تعبدونه، ليقرِّبَكُمْ إلى الله زُلْفَى، وليشفع لكم عند ربكم، «فمن»، إذ كان هذا معنى الكلام التي في قوله: «إلاَّ لِمَنْ أذِنَ لَهُ»: المشفوع له.

وقوله: «حتى إذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ»، يقول: حتى إذا جُلِيَ عن قلوبهم، وكشفَ عنهـا الفَزَعُ وذهب. وإذ كان ذلك كذلك؛ فمعنى الكلام: لا تنفعُ الشفاعةُ عنده، إلا لمن أذِنَ له أن يشفَعَ عنده، فإذا أذن الله لمن أذنَ له أن يشفع فزعَ لسماعه إذنه، حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم، فجُلِّيَ عنها، وكشَفَ الفزَعَ عنهم، قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالت الملائكة: الحقّ، «وهو العليُّ» على كل شيءٍ «الكبيرُ» الذي لا شيءَ دونه. والعربُ تستعملُ فُزِّع في معنيين، فتقولُ للشجاع الذي به تنزلُ الأمور التي يُفْزَعُ منها: هو مُفَزَّع، وتقول للجبانِ الذي يَفْزَع من كلِّ شيءٍ: إنه لمُفَزَّع، وكذلك تقولُ للرجل الذي يقضي له الناسُ في الأمور بالغَلَبَةِ على مَنْ نازله فيها: هو مُغَلَّب، وإذا أُريدَ به هذا المعنى كان غالباً، وتقول للرجل أيضاً الذي هو مغلوب أبداً: مُغَلَّب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ لهؤلاء المشركين بربهم الأوثانَ والأصنامَ مَنْ يرزقكُم من السمواتِ والأرضِ بإنزالِه الغيثَ عليكم منها حياةً لحروثكم، وصلاحاً لمعايشكم، وتسخيره الشمسَ والقمرَ والنجومَ لمنافعكم، ومنافع أقواتكم، والأرض بإخراجه منها أقواتكم وأقوات أنعامكم، وترك الخبر عن جوابِ القومِ استغناءً بدلالة الكلامِ عليه، ثم ذكره، وهو: فإنْ قالوا: لا ندري، فقل: الذي يرزقكُم ذلك الله، وإنَّا أو إيَّاكم أيها القومُ لعلى هُدىً، أو في ضلالٍ مبين: يقول: قل لهم: إنَّا لعلى هدى أو في ضلال، أو إنكم على ضلالٍ أو هُدىً.

وهذا عندي أمرٌ من الله لنبيهِ بتكذيبِ مَنْ أمره بخطابِه بهذا القولِ بأجملِ التكذيبِ، كما يقولُ الرجل لصاحبٍ له يخاطبه، وهو يريدُ تكذيبَهُ في خبرٍ له: أحَدُنَا كاذبٌ، وقائل ذلك يعني صاحبه، لا نفسَهُ، فلهذا المعنى صَيَّرَ الكلام بأو.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيهِ محمدٍ ﷺ: قُلْ لهؤلاء المشركينَ: أحدُ فريقينا على هُدى والآخرُ على ضلالٍ، لا تُسْألونَ أنتم عما أجرمنا نحن من جرمٍ، وركبنا من إثمٍ ولا نُسألُ نحن عما تعملون أنتم من عملٍ، قل لهم: «يجمعُ بينَنَا ربُّنَا» يومَ القيامة عنده، «ثم يفتحُ بيننا بالحقِّ»، يقول: ثم يقضي بيننا

بالعدلِ، فيتبينُ عند ذلك المهتدي منا من الضالِّ. «وَهُوَ الفَتَّاحُ العَلِيمُ»، يقول: والله القاضي العليم بالقضاءِ بين خَلْقِه، لأنه لا تخفى عنه خافية، ولا يحتاجُ إلى شهودٍ تُعَرِّفُه المُحقَّ من المُبْطِلِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ٢٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: قل يا محمدُ لهؤلاء المشركينَ بالله الآلهةَ والأصنامَ أرُوني أيُّها القومُ الَّذينَ ألحقتموهم بالله فَصَيَّرْتُموهم له شركاءَ في عبادتكم إياهم: ماذا خَلَقُوا من الأرضِ، أم لهم شِرْكٌ في السمواتِ، «كلا»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: كَذَبُوا، ليس الأمرُ كما وصفوا، ولا كما جعلوا وقالوا من أنَّ لله شريكاً، «بل هو» المعبودُ الذي لا شريكَ له، ولا يصلحُ أنْ يكونَ له شريكٌ في ملكه، «العزيزُ» في انتقامه ممن أشركَ به من خَلْقِه، «الحكيمُ» في تدبيره خلقه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٢٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما أرسلناكَ يا محمدُ إلى هؤلاء المشركينَ بالله من قومِكَ خاصة، ولكنا أرسلناك كافة للناس أجمعين، العرب منهم والعجم، والأحمر والأسود، بشيرا من أطاعك، ونذيرا من كذَّبك، «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» أن الله أرسلك كذلك إلى جميع البشر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ

﴿صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُهُ: ويقول هؤلاء المشركونَ بالله إذا سمعوا وعيدَ الله الكفار وما هو فاعلٌ بهم في مَعَادِهم مما أنزلَ الله في كتابه، «مَتى هَذَا الوَعْدُ» جائياً، وفي أيِّ وقتٍ هو كائنٌ «إنْ كُنْتُم» فيما تَعِدُونَنا من ذلك «صَادِقِينَ» أنه كائنٌ، قال الله لنبيه: «قُلْ» لهم يا محمدُ «لَكُمْ» أيها القومُ «مِيعادُ يَوْمٍ» هو آتيكم «لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ» إذا جاءكم «ساعةً» فتنظروا للتوبةِ والإنابةِ «وَلاَ تستَقْدِمُونَ» قبله بالعذابِ، لأنَّ الله جعلَ لكم ذلك أجلاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَروا» من مشركي العربِ «لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا القُرآن» الذي جاءنا به محمدٌ ﷺ: ولا بالكتابِ الذي جاء به غيره من بين يديه.

وقـولـه: «وَلَوْ تَرَى إذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ» يتلاومون، يحاورُ بعضُهم بعضاً، يقول المستضعفونَ: كانوا في الدنيا للذين كانوا عليهم فيها يستكبرون: لولا أنتم أيها الرؤساءُ والكبراءُ في الدنيا لَكُنَّا مؤمنينَ بالله وآياته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا» في الدنيا، فرأسوا في الضلالةِ والكفرِ بالله «لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا» فيها فكانوا أتباعاً لأهلِ الضلالةِ منهم، إذ قالوا لهم: «لَوْلا أنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ أنحْنُ صَدَدْناكُم عَنِ الهُدَى» وَمَنَعْناكُمْ من اتباعِ الحقِّ «بَعْدَ إذْ جاءَكُمْ» من عندِ الله، يبينُ لكم. «بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ» فَمَنَعكُمْ إيثارُكُم الكفرَ بالله على الإيمانِ من اتِّباعِ الهدى، والإيمانِ بالله ورسوله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا» من الكَفَرَةِ بالله في الدنيا، فكانوا أتباعاً لرؤسائهم في الضلالة «لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا» فيها، فكانوا لهم رؤساءَ بَلْ مَكْرُكُم لنا باللَّيْلِ والنَّهارِ صَدَّنَا عن الهدى «إذْ تَأْمُرُونَنا أنْ نَكْفُرَ بالله ونَجْعَلَ لَهُ» أمثـالاً وأشبـاهاً في العبادةِ والألوهةِ، فأضيفَ المكرُ إلى الليلِ والنهارِ. والمعنى ما ذكرنا من مكرِ المستكبرينَ بالمستضعفينَ في الليل والنهارِ، على اتساعِ العربِ في الذي قد عُرِف معناها فيه من منطِقها، من نقلِ صفةِ الشيءِ إلى غيرِه، فتقول للرجل: يا فلان نهارك صائم وليلك قائم، وما أشبه ذلك.

وقوله: «إذْ تَأْمُرُونَنا أنْ نَكْفُرَ بالله»، يقول: حين تأمروننا أنْ نكفرَ بالله.

وقوله: «ونجعَلَ لَهُ أنْداداً»، يقول: شركاء.

وقوله: «وأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا العَذَابَ»، يقول: ونَدِمُوا على ما فَرَّطُوا من طاعةِ الله في الدنيا حين عاينوا عذابَ الله الذي أعدَّهُ لهم.

وقوله: «وَجَعَلْنا الأغْلالَ في أعناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا» وغُلَّت أيدي الكافرينَ بالله في جهنم إلى أعناقِهم في جوامعَ من نارِ جهنم، جزاءً بما كانوا بالله في الـدنيا يكفرون، يقول جَلَّ ثناؤهُ: ما يفعل الله ذلك بهم إلا ثواباً لأعمالِهم الخبيثة التي كانوا في الدنيا يعملونها، ومكافأةً لهم عليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ۝٣٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما بعثنا إلى أهلِ قريةٍ نذيراً يُنْذِرُهم بأسَنا أنْ ينزلَ بهم على معصيتهم إيَّانا، إلاَّ قال كُبراؤها ورؤساؤها في الضلالةِ كما قال قومُ فرعونَ من المشركينَ له: إنَّا بما أُرْسِلْتُمْ به من النِّذارةِ، وبُعثتم به من توحيدِ الله، والبراءةِ من الآلهةِ والأندادِ كافرونَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٣٥ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وقال أهلُ الاستكبارِ على الله من كُلِّ قريةٍ أرسلنا فيها نذيراً لأنبيائنا ورسلنا، «نحنُ أكْثَرُ أمْوَالاً وأوْلاداً»، وَما نَحْنُ فِي الآخرةِ «بِمُعَذَّبِينَ»، لأنَّ الله لو لم يكن راضياً ما نحنُ عليه من الملةِ والعملِ لَمْ يُخَوِّلْنا الأموالَ والأولاد، ولم يبسطْ لنا في الرزق، وإنما أعطانا ما أعطانا من ذلك لرضاهُ أعمالنا، وآثَرَنَا بما آثرنا على غيرنا لِفَضْلِنَا، وزلفةً لنا عنده، يقولُ الله

لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ لهم يا محمدُ «إن ربي يبسط الرزق» من المعاشِ والرِياشِ في الدنيا «لمن يشاء» من خَلْقِه «ويَقْدِر» فيضيقُ على مَنْ يشاء لا لمحبةٍ فيمن يبسطُ له ذلك ولا خيرٍ فيه ولا زُلْفةٍ له، استحقَّ بها منه، ولا لبُغضٍ منه لمن قَدَرَ عليه ذلك، ولا مَقْتٍ، ولكنه يفعلُ ذلك مِحْنةً لعبادِه وابتلاءً، وأكثرُ الناسِ لا يعلمون أنَّ الله يفعلُ ذلك اختباراً لعبادِه، ولكنهم يظنون أنَّ ذلك منه محبةٌ لمن بَسَطَ له ومَقْتٌ لمن قَدَرَ عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ: وما أموالُكُم التي تفتخرونَ بها أيُّها القومُ على الناسِ، ولا أولادُكُم الذين تتكبرون بهم بالتي تُقَرِّبُكم منا قُرْبَةً.

وقوله: «إلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً»، اختلف أهلُ التأويل في معنى ذلك[1].

وأولى الأقوالِ عندنا بالصواب أنْ يقال: إن «مَن» نُصِبتْ بالاستثناء، وإن شئتَ أوقَعْتَ عليه التقريب، فيكون معنى الكلام: لا تُقَرِّب الأموالُ إلا مَنْ آمن وعمل صالحاً. وقد يحتمل أنْ يكون «مَن» في موضع رفعٍ فيكون كأنه قيل: وما هو إلا مَنْ آمنَ وعمل صالحاً.

---

(١) وقع في تفسير هذا القول سقط ليس بالقليل، على أننا استطعنا أن نتبين رأي المؤلف في تفسيرها بما بقي من كلامه الذي نظن أنه تابع فيه الفرَّاء في معاني القرآن (٢/ ٣٦٣) فصغنا العبارة الآتية على طريقته وبما بقي من كلامه، والاستعانة بكلام الفرَّاء.

وقوله: «فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ»، يقول: فهؤلاء لهم من الله على أعمالِهم الصالحة الضعف من الثواب، بالواحدةِ عَشْرٌ.

وقوله: «في الغُرُفاتِ آمِنُونَ»، يقول: وهم في غرفاتِ الجناتِ آمنونَ من عذابِ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ۝٣٨ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٣٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: والذين يعملون في آياتنا، يعني: في حُجَجِنَا وآيِ كتابنا، يبتغونَ إبطالَهُ، ويريدونَ إطفاءَ نوره معاونينَ، يحسبونَ أنهم يَفُوتُونَنَا بأنفسهم، ويُعْجِزُونَنا «أُولَئِكَ في العذابِ مُحْضَرونَ» يعني في عذابِ جهنم مُحْضَرُونَ يومَ القيامة «قُلْ إنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: قل يا محمدُ إنَّ ربي يبسطُ الرزقَ لمن يشاءُ من خَلْقِه، فيوسعه عليه تكرمةً له وغيرَ تكرمةٍ، ويَقْدِرُ على مَنْ يشاء منهم فيضيقه ويقتره إهانةً له وغيرَ إهانةٍ، بل مِحنةً واختباراً. «وَما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يَخْلِفُهُ»، يقول: وما أنفقتم أيها الناسُ من نفقةٍ في طاعة الله، فإنَّ الله يخلفها عليكم.

وقوله: «وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقينَ»، يقول: وهو خيرُ مَنْ قِيلَ إنه يَرْزُقُ ووُصِفَ به، وذلك أنه قد يوصفُ بذلك مَنْ دُونَهُ، فيقال: فلانٌ يَرْزُق أهلَهُ وعياله.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ

﴿يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ويوم نحشرُ هؤلاء الكفار بالله جميعاً، ثم نقولُ للملائكة: أَهؤلاء كانوا يعبدونَكُمْ من دوننا؟ فتتبرأ منهم الملائكةُ «قَالُوا سُبْحَانَكَ» رَبَّنا، تنزيهاً لك وتبرئةً مما أضافَ إليكَ هؤلاء من الشركاءِ والأندادِ «أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ» لا نَتَّخِذُ ولياً دونكَ «بَلْ كَانوا يَعْبُدُونَ الجِنَّ».

وقوله: «أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنينَ»، يقول: أكثرهم بالجنِّ مُصَدِّقُونَ، يزعمون أنهم بنات الله، تعالى الله عما يقولون عُلُوّاً كبيراً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فاليومَ لا يملكُ بعضُكم أيها الملائكةُ للذين كانوا في الدنيا يعبدونكم نفعاً ينفعونكم به، ولا ضرًّا ينالونكم به، أو تنالونهم به. «وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا»، يقول: ونقول للذين عبدوا غيرَ الله فوضعوا العبادَة في غير موضعها، وجعلوها لغيرِ مَنْ تنبغي أنْ تكونَ له «ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ التي كُنْتُم بِها» في الدنيا «تُكَذِّبونَ» فقد وَرَدْتُمُوها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإذا تُتْلَى على هؤلاء المشركينَ آياتُ كتابنا بيِّناتٍ، يقول: واضحاتٍ أنهنّ حقٌّ من عندنا «قالُوا ما هَذَا إلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُكُمْ»، يقول: قالوا عند ذلك: لا تَتَّبِعُوا محمداً، فما هُوَ إلا رجلٌ يريدُ أنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كان يعبدُ آباؤكم من الأوثانِ، ويغير دينَكُم ودينَ آبائكم. «وَقالُوا ما هَذَا إلاَّ إفْكٌ مُفْتَرًى»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وقال هؤلاء المشركون: ما هذا الذي تَتْلُوا علينا يا محمدُ، يعنونَ القرآنَ، «إلا إفكٌ»، يقول: إلا كذِبٌ مُفترى»، يقول: مُخْتلَقٌ، مُتَخَرَّصٌ «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا للحَقِّ لَمَا جاءهم إنْ هٰذَا إلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: وقال الكفارُ للحقِّ، يعني محمداً ﷺ لما جاءهم، يعني: لما بَعَثَهُ نبياً: هذا سِحْرٌ مبين. يقول: ما هذا إلا سحرٌ مبين، يبينُ لمن رآهُ وتأمَّلَهُ أنه سحرٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما أنزلنا على المشركينَ القائلينَ لمحمدٍ ﷺ لما جاءهم بآياتنا: هذا سحرٌ مبين بما يقولونَ من ذلك كتباً «يدرسونها»، يقول: يقرؤونها.

«وَما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ»، يقول: وما أرسلنا إلى هؤلاء المشركينَ من قومكَ يا محمدُ فيما يقولونَ ويعملون قبلكَ من نَبِيٍّ ينذرهم بأسَنا عليه.

وقوله: «وكَذَّبَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهم»، يقول: وكَذَّبَ الذين من قبلهم من الأممِ رُسُلَنا وَتَنْزِيلَنا «وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ ما آتيناهُمْ»، يقول: ولم يبلغ قومُكَ يا محمدُ عُشْرَ ما أعطينا الذين من قبلهم من الأممِ من القوَّةِ والأيدي والبطْشِ،

وغير ذلك من النعم.

«فَكَذَّبُوا رسلي فكَيْفَ كانَ نَكير»، يقول: فكذَّبوا رسلي فيما أتوهم به من رسالتي، فعاقبناهم بتغييرنا بهم ما كُنَّا آتيناهم من النعم، فانظُرْ يا محمدُ كيف كان نكير، يقول: كيف كان تغييري بهم وعقوبتي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٤٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قُلْ يا محمدُ لهؤلا المشركينَ من قومكَ: إنما أَعِظُكم أيُّها القومُ بواحدةٍ وهي طاعة الله.

وقوله: «أنْ تقُومُوا لله مَثْنَى وَفُرَادَى»، يقول: وتلك الواحدة التي أعِظُكم بها هي أنْ تقوموا لله اثنين اثنين، «وفُرَادَى»، يقول: واحداً واحداً.

وقوله: «ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ما بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ»، يقول: لأنه ليس بمجنون.

وقوله: «إنْ هُوَ إلَّا نَذِيرٌ لَكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شديدٍ»، يقول: ما محمدُ إلا نذيرٌ لكم يُنْذِرُكُم على كُفْرِكم بالله عقابه أمامَ عذابِ جهنمَ قبلَ أنْ تَصْلَوْها، وقوله: «هو» كناية اسم محمد ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٤٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قُلْ يا محمدُ لقومكَ المُكَذِّبيكَ، الرَّادِّينَ عليكَ ما أتيتهم به من عنـدِ رَبِّكَ: ما أسألكم من جُعْلٍ على إنذارِيكُمْ عذابَ الله،

وتخويفكم به بأسَهُ، ونصيحتي لكم في أمري إياكم بالإيمانِ بالله، والعمل بطاعته، فهو لكم لا حاجةَ لي به، وإنما معنى الكلام: قُلْ لهم: إني لم أسألكم على ذلك جُعْلاً فتتهِمُوني، وتَظُنُّوا أني إنما دعوتُكم إلى اتباعي لمالٍ آخذُه منكم.

وقوله: «إنْ أجْرِيَ إلاَّ على الله»، يقول: ما ثوابي على دعائكم إلى الإيمانِ بالله، والعمل بطاعته، وتبليغكم رسالته، إلا على الله «وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ»، يقول: والله على حقيقةِ ما أقولُ لكم شهيدٌ يشهدُ لي به، وعلى غيرِ ذلك من الأشياءِ كلها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ «قُلْ» يا محمدُ لمشركي قومك «إنَّ رَبّي يقذِفُ بالحَقِّ» وهو الوحيُ، يقول: ينزلهُ من السماءِ، فيقذفُه إلى نبيهِ محمدٍ ﷺ «عَلَّامُ الغُيُوبِ»، يقول: علامُ ما يغيبُ عن الأبصارِ، ولا مَظْهَر لها، وما لم يكن مما هو كائنٌ، وذلك من صفةِ الربِّ، غير أنه رُفِعَ لمجيئه بعدَ الخبرِ.

«قُلْ جاءَ الحَقُّ»، يقول: قل لهم يا محمدُ: جاء القرآنُ ووحيُ الله «وَما يُبْدِئُ الباطِلُ»، يقول: وما ينشئُ الباطلُ خَلْقاً، والباطلُ هو فيما فسَّرهُ أهلُ التأويل: إبليسُ «وَما يُعِيدُ»، يقول: ولا يعيدُه حياً بعد فنائِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قُلْ يا محمدُ لقومكَ: إنْ ضَلَلْتُ عن الهدى، فسلكتُ

غيرَ طريقِ الحقِّ، فإنما ضلالي عن الصوابِ على نفسي، يقولُ: فإنَّ ضلالي عن الهدى على نفسي ضرُّهُ. «وَإِنِ اهْتَدَيْتُ»، يقول: وإن استقمتُ على الحقِّ «فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي»، يقول: فبوحيِ اللهِ الذي يوحِي إليَّ، وتوفيقِه للاستقامةِ على محجةِ الحقِّ وطريقِ الهُدى.

وقوله: «إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ»، يقول: إنَّ ربي سميعٌ لما أقولُ لكم، حافظٌ له، وهو المجازي لي على صدقي في ذلك، وذلك مني غير بعيد، فيتعذَّرُ عليه سماعُ ما أقولُ لكم، وما تقولونَ، وما يقولُه غيرنا، ولكنه قريبٌ من كلِّ متكلمٍ يسمعُ كُلَّ ما ينطقُ به، أقربُ إليه من حبلِ الوريد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٥١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمد ﷺ: ولو تَرى يا محمدُ إذْ فزِعُوا.

واختلف أهلُ التأويل في المَعْنِيِّينَ بهذه الآية، فقال بعضهم: عُنِي بها هؤلاء المشركونَ الذين وصفهم تعالى ذكره بقوله: «وَإِذَا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هذا إلَّا رجُلٌ يُرِيدُ أنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كانَ يعبُدُ آباؤُكُمْ»، قال: وعُنِي بقوله: «إذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وأُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ» عند نزولِ نقمةِ اللهِ بهم في الدنيا.

وقال آخرون: عُني بذلك جيش يُخْسَفُ بهم ببيداءَ من الأرضِ.

وقال آخرون: بل عُني بذلك المشركونَ إذا فَزِعُوا عند خروجِهم من قبورهم.

والـذي هو أولى بالصـوابِ في تأويل ذلك، وأشبه بما دلَّ عليه ظاهرُ

لتنزيل قولُ مَنْ قال: وعيدُ الله المشركينَ الذين كَذَّبُوا رسولَ الله ﷺ من قومه لأنَّ الآياتِ قبـلَ هذه الآية جاءت بالإخبارِ عنهم وعن أسبابهم، وبوعيدِ الله إياهم مَغَبَّته، وهذه الآيةُ في سياق تلك الآيات، فَلأَنْ يكونَ ذلك خبراً عن حالهم أشبهُ منه بأنْ يكون خبراً لما لم يَجْرِ له ذِكْرٌ. وإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الكلام: ولو ترى يا محمدُ هؤلاء المشركينَ من قومك، فتعاينهم حين فَزِعُوا من معاينتهم عذابَ الله «فَلا فَوتَ»، يقول: فلا سبيلَ حينئذٍ أنْ يفوتوا بأنفسهم، أو يُعْجِزُونَا هَرَباً، ويَنْجُوا من عذابنا.

وقوله: «وأُخِذُوا من مَكانٍ قَريبٍ»، يقول: وأَخَذَهُم الله بعذابِه من موضعٍ قريبٍ، لأنهم حيث كانوا من الله قريب لا يبعدونَ عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ٥٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وقال هؤلاء المشركونَ حين عايَنُوا عذابَ الله آمَنَّا به، يعني: آمنا بالله وبكتابه ورسولِه.

وقوله: «وأنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ»، يقول: ومن أيِّ وجهٍ لهم التناوشُ، يعني: وأينَ لهم التوبةُ والرجعةُ، أي قد بَعُدَتْ عنهم، فصاروا منها كموضعٍ بعيدٍ أنْ يتناولوها، وإنما وَصَفْتُ ذلك الموضعَ بالبعيدِ، لأنهم قالوا ذلك في القيامة، فقال الله: أنَّى لهم بالتوبةِ المقبولةِ، والتوبةُ المقبولةُ إنما كانت في الدنيا، وقد ذهبت الدنيا فصارتْ بعيداً من الآخرة.

وقوله: «مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ»، يقول: من آخرتهم إلى الدنيا.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ

﴿بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ»، يقول: وقد كفروا بما يسألونه رَبَّهم عند نزولِ العذابِ بهم، ومعاينتهم إياهُ من الإقالةِ له، وذلك الإيمانُ بالله، وبمحمدٍ ﷺ، وبما جاءهم به من عندِ الله.

وقوله: «وَيَقْذِفُونَ بالغَيْبِ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ»، يقول: وهم اليوم يقذفون بالغيبِ محمداً من مكانٍ بعيد، يعني أنهم يرجمُونَهُ، وما أتاهم من كتابِ الله بالظنونِ والأوهامِ، فيقولُ بعضُهُم: هو ساحرٌ وبعضهم: شاعرٌ، وغير ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وحِيلَ بين هؤلاء المشركينَ حين فَزِعُوا، فلا فوتَ، وأُخِذُوا من مكانٍ قريب، فقالوا آمنا به «وَبَيْنَ ما يَشْتَهُونَ» حينئذٍ من الإيمانِ بما كانوا به في الدنيا قبلَ ذلك يكفرونَ ولا سبيلَ لهم إليه.

وقوله: «كماَ فُعِلَ بأشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ»، يقول: فعلنا بهؤلاء المشركين، فَحُلْنَا بينهم وبين ما يشتهونَ من الإيمانِ بالله عند نزولِ سَخَطِ الله بهم، ومعاينتهم بأسَهُ كما فعلنا بأشياعِهم على كُفْرهم بالله من قَبْلِهم من كفارِ الأممِ، فلم نقبلْ منهم إيمانَهُمْ في ذلك الوقتِ، كما لم نقبلْ في مثلِ ذلك الوقتِ من ضُرَبائِهم. والأشياع: جمع شِيَع، وشِيَع: جمع شيعة، فأشياع جَمْعُ الجمع.

وقوله: «إِنَّهُمْ كانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وحِيلَ بين هؤلاء المشركينَ حين عاينوا بأسَ الله، وبين الإيمانِ: إنهم كانوا قبل في الدنيا في

شكٍّ من نزولِ العذابِ الذي نزلَ بهم وعايَنُوهُ، وقد أخبرهم نَبِيُّهُمْ أنهم إنْ لم ينيبوا مما هم عليه مقيمونَ من الكفرِ بالله، وعبادةِ الأوثانِ أنَّ الله مُهْلِكهم، ومُحِلٌّ بهم عقوبَتَهُ في عاجلِ الدنيا، وآجلِ الآخرةِ قبلَ نزوله بهم. «مريب»، يقول: مُوجِبٌ لصاحبِهِ الذي هُوَ به ما يَرِيبهُ من مكروه.

سُورَةُ فَاطِر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: الشكرُ الكاملُ للمعبودِ الذي لا تصلحُ العبادةُ إلا له، ولا ينبغي أنْ تكونَ لغيرِه خالق السمواتِ السبعِ والأرضِ، «جاعِلِ المَلائِكَةِ رُسُلًا» إلى مَنْ يشاءُ من عبادِه، وفيما شاء من أمرِه ونهيه. «أُولي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلاثَ وَرُباعَ»، يقول: أصحاب أجنحة: يعنى ملائكة، فمنهم مَنْ له اثنان من الأجنحةِ، ومنهم من له ثلاثةُ أجنحةٍ، ومنهم مَنْ له أربعة.

وقوله: «يَزِيدُ في الخَلْقِ ما يَشاءُ» وذلك زيادتُه تباركَ وتعالى في خَلْقِ هذا المَلَكِ من الأجنحةِ على الآخرِ ما يشاءُ، ونقصانُه عن الآخرِ ما أحبَّ، وكذلك ذلك في جميع خَلْقِه يزيدُ ما يشاءُ في خَلْقِ ما شاء منه، وينقصُ ما شاء من خَلْقِ ما شاء، له الخَلْقُ والأمرُ، وله القدرةُ والسلطانُ. «إنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»، يقول: إنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ قديرٌ على زيادةِ ما شاء من ذلك فيما شاء، نقصان ما شاء منه ممن شاء، وغير ذلك من الأشياء كلها، لا يمتنعُ عليه فِعْلُ شيءٍ أراده سبحانه وتعالى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: مفاتيحُ الخيرِ ومغالِقُه كُلها بيدِهِ، فما يفتح الله للناسِ من خيرٍ فلا مُغْلِقَ له، ولا ممسكَ عنهم، لأنَّ ذلك أمره لا يستطيعُ أمره أحد، وكذلك ما يغلق من خيرٍ عنهم فلا يبسطُه عليهم، ولا يفتحُهُ لهم، فلا فاتحَ له سِواهُ، لأنَّ الأمور كُلَّها إليه وله.

وقوله: «وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ»، يقول: وهو العزيزُ في نِقمته ممن انتقمَ منه من خَلْقه بحبسِ رحمتِه عنه وخيراتِه، الحكيمُ في تدبير خَلْقِه، وفتحُه لهم الرحمةَ إذا كان فتحُ ذلك صلاحاً، وإمساكُه إياه عنهم إذا كان إمساكُه حكمةً.

القَوْلُ فِي تَأْويل قَوْله تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ للمشركينَ به من قوم رسولِ الله ﷺ من قُرَيش: «يا أيُّها الناسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ الله» التي أنعمها «عَلَيْكُم» بفتحِه لكم من خيراتِه ما فتحَ وبَسْطِه لكم من العيشِ ما بسطَ وفَكِّـرُوا فانظرُوا هَلْ من خالقٍ سوى فاطرِ السمواتِ والأرضِ الذي بيده مفاتيحُ أرزاقِكُم ومغالقها «يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ» فتعبدُوه دونَهُ «لا إلَهَ إلاَّ هُوَ»، يقول: لا معبودَ تنبغي له العبادةُ إلا الذي فَطَرَ السمواتِ والأرضَ، القادرُ على كلِّ شيءٍ، الذي بيده مفاتيحُ الأشياءِ وخزائنها، ومغالقُ ذلك كله، فلا تعبدوا أيها الناسُ شيئاً سواه، فإنه لا يقدرُ على

نفعكم وضـرُّكُمْ سِواهُ، فله فأخْلِصُـوا العبـادةَ، وإياهُ فأفْرِدُوا بالألوهةِ. «فأنَّى تُؤْفكُونَ»، يقول: فأيّ وجهٍ عن خالقكم ورازقكم الذي بيده نَفْعُكم وضرُّكم تصرفون.

القَوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُهُ لنبيه محمـد ﷺ: وإنْ يُكـذِّبـكَ يا محمدُ هؤلاء المشركونَ بالله من قومكَ فلا يُحْزِنَنَّكَ ذلك، ولا يَعْظُمْ عليك، فإنَّ ذلك سنة أمثالهم من كَفَرَةِ الأممِ بالله، من قَبْلِهم وتكذيبهم رُسُلَ الله التي أرسلها إليهم من قبلكَ، ولن يَعْـدُو مشـركُـو قومكَ أنْ يكونوا مِثْلَهُمْ، فَيَتَّبِعُوا في تكذيبك منهـاجهم، ويسلكُوا سبيلهم. «وَإلى الله تُرْجَعُ الأُمُورُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإلى الله مَرْجِعُ أمركَ وأمرهم، فَمُحِلٌّ بهم العقوبةَ، إنْ هم لم يُنيبوا إلى طاعتنا في اتباعك، والإقرارِ بنبوَّتِكَ، وقبولِ ما دَعَوْتَهُمْ إليه من النصيحةِ، نظيرَ ما أحللنا بنظرائِهم من الأممِ المكذِّبةِ رُسُلَها قبلكَ، ومنجِّيكَ وأتباعكَ من ذلك، سُنَّتَنَا بمن قبلكَ في رسلنا وأوليائنا.

وقـوله: «يا أيها الناسُ إنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ لمشركي قريش، المكَذِّبي رسولَ الله ﷺ: يا أيها الناسُ إنَّ وَعْدَ الله إياكم بأسَهُ على إصرارِكم على الكفرِ به، وتكذيبِ رسولِه محمدٍ ﷺ، وتحذيرَكُمْ نزولَ سطوتِه بكم على ذلك حقٌّ، فأيقنوا بذلك، وبادروا حلولَ عقوبتكم بالتوبةِ والإنابةِ إلى طاعةِ الله والإيمانِ به وبرسولِه. «فَلا تَغُرَّنَّكُم الحَياةُ الدُّنْيا»، يقول: فلا يَغُرَّنَّكُمْ ما أنتم فيه من العيشِ في هذه الدنيا ورياسَتِكُمْ التي تترأسون بها في ضعفائِكم فيها عن اتباعِ محمدٍ والإيمانِ «وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بالله الغَرُورُ»، يقول: ولا يَخْدَعَنَّكُمْ

بالله الشيطانُ، فَيُمَنِّيكُم الأمانيَّ، ويَعِدُكُمْ من الله العِدَاتِ الكاذبة، ويحملكم على الإصرارِ على كُفْرِكُمْ بالله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «إنَّ الشَّيْطانَ» الذي نهيتُكم أيها الناسُ أن تغترُّوا بغروره إياكم بالله «لَكُمْ عَدُوٌّ فاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا»، يقول: فأنزلوه من أنفسكم منزلَ العدوِّ منكم، واحْذَرُوهُ بطاعةِ الله واستغشاشِكُمْ إياه، حَذَرَكُمْ من عدوِّكم الذي تخافونَ غائِلَتَهُ على أنفسكم، فلا تطيعُوه ولا تَتَّبِعُوا خُطواتِه، فإنه إنما يدعو حِزْبَهُ يعني شيعته، ومَنْ أطاعه إلى طاعته والقبول منه، والكفر بالله «لِيَكُونُوا من أصحابِ السَّعِير»، يقول: ليكونوا من المخلدين في نارِ جهنم التي تَتَوَقَّدُ على أهلها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «الَّذِينَ كَفَرُوا» بالله ورسوله «لَهُمْ عَذَابٌ» من الله «شَدِيدٌ»، وذلك عذابُ النار.

وقوله: «وَالَّذِينَ آمَنُوا»، يقول: والذين صَدَّقُوا الله ورسولَهُ، وعملوا بما أمرهم الله، وانتهوا عما نهاهم عنه «لَهُمْ مَغْفِرَةٌ» من الله لذنوبهم «وأجْرٌ كَبِيرٌ» وذلك الجنة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ

ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أَفَمَنْ حَسَّنَ له الشيطانُ أعماله السيئة من معاصي الله والكفرِ به، وعبادةِ ما دونه من الآلهةِ والأوثانِ، فرآه حَسَناً، فَحَسِبَ سيىء ذلك حَسَناً، وظَنَّ أنَّ قُبحه جميلٌ، لتزيينِ الشيطانِ ذلك له، ذهبت نفسُكَ عليهم حسراتٍ، وحذفَ من الكلام: ذهبت نفسك عليهم حسرات، اكتفاءً بدلالةِ قولِه: «فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ» منه.

وقوله: «فإنَّ الله يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيهدِي مَنْ يَشاءُ»، يقول: فإنَّ الله يخذلُ مَنْ يشاء عن الإِيمانِ به واتباعكَ وتصديقِكَ، فيضلُّهُ عن الرشاد الى الحقِّ في ذلك، «ويهدي من يشاء» يقول: ويوفق من يشاء للايمان به واتباعك والقبولِ منك، فتهديه إلى سبيل الرشاد، «فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ»، يقول: فلا تُهْلِكْ نفسَكَ حزناً على ضلالتهم وكفرهم بالله، وتكذيبهم لك.

وقوله: «إنَّ الله عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الله يا محمدُ ذُو عِلْمٍ بما يصنعُ هؤلاء الذين زَيَّنَ لهم الشيطانُ سوءَ أعمالهم، وهو مُحْصِيه عليهم، ومُجَازِيهم به جزاءَهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: والله الذي أرسلَ الرياحَ فتثيرُ السحابَ للحَيا والغيثِ «فَسُقْناهُ إلى بَلَدٍ مَيِّتٍ»، يقول: فسقناهُ إلى بلدٍ مُجْدب الأهلِ، مَحْلِ الأرضِ، داثرٍ لا نبتَ فيه ولا زرعَ «فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأرضَ بعدَ مَوْتِها»، يقول: فأخصبنا بغيثِ ذلك السحاب الأرضَ التي سُقْنَاهُ إليها بعد جُدُوبِها، وأنبتنا فيها الزرعَ بعد المَحْلِ. «كَذلكَ النُّشورُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: هكذا يُنْشِر الله

الموتى بعد بلائِهم في قبورهم، فيحييهم بعد فنائهم، كما أحيينا هذه الأرضَ بالغيثِ بعد مماته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾

اختلف أهلُ التأويل في معنى قوله: «مَنْ كانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَلِلَّهِ العِزَّةُ جَمِيعاً»، فقال بعضهم: معنى ذلك: مَنْ كان يريدُ العزَّةَ بعبادةِ الآلهةِ والأوثانِ، فإنَّ العزةَ لله جميعاً،

وقال آخروَن: معنى ذلك: مَنْ كان يريدُ العزة فليتعزَّزْ بطاعةِ الله.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: مَنْ كان يريدُ عِلْمَ العزَّةِ لمن هي، فإنها لله جميعاً كلها، أي كلّ وجه من العزَّةِ فلله.

والذي هو أوْلى الأقوالِ بالصوابِ عندي قولُ مَنْ قال: مَنْ كان يريد العزَّةَ، فبالله فليتعزَّزْ، فلله العزّة جميعاً، دونَ كُلِّ ما دونه من الآلهة والأوثان.

وإنما قلت ذلك أوْلى بالصوابِ، لأنَّ الآياتِ التي قبلَ هذه الآية، جَرَتْ بتقريعِ الله المشركينَ على عبادَتِهم الأوثانَ، وتوبيخِه إياهم، ووعيده لهمْ عليها، فأوْلى بهذه أيضاً أن تكونَ من جنس الحَثِّ على فراقِ ذلك، فكانت قصتها شبيهةً بقصتها، وكانت في سياقها.

وقوله: «إلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّب»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إلى الله يصعدُ ذِكْرُ العبدِ إياهُ وثناؤُه عليه. «والعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ»، يقول: ويرفعُ ذِكْرَ العبدِ رَبَّهُ إليه عَمَلُه الصالح، وهو العملُ بطاعته، وأداء فرائِضه، والانتهاء إلى ما أمرَ به.

وقوله: «وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئاتِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: والذين يكسبون السيئاتِ لهم عذابُ جهنمَ.

وقوله: «وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ»، يقول: وعَمَلُ هؤلاء المشركينَ يبورُ، فيبطلُ فيذهبُ، لأنه لم يَكُنْ لله، فلم ينفعْ عامِلَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَاللهُ خَلَقَكُمْ» أيها الناسُ «مِنْ تُرابٍ» يعني بذلك أنه خلقَ آباهُمْ آدم من ترابٍ، فجعلَ خَلْقَ أبيهم منه لهم خَلْقاً. «ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ»، يقول: ثم خلقكم من نطفةِ الرجلِ والمرأةِ «ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً»، يعني: أنه زوَّجَ منهم الأنثى من الذكر.

وقوله: «وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى ولا تَضَعُ إلاَّ بِعِلْمِه»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما تحملُ من أنثى منكم أيها الناسُ من حمل ولا نطفةٍ إلا وهو عالمٌ بحملها إياهُ ووضعها، وما هو؟ ذَكَرٌ أو أنثى؟ لا يَخْفَى عليه شيء من ذلك.

وقوله: «وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمرِهِ إلاَّ في كِتابٍ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معناه: وما يعمر من معمرٍ فيطول عمره، ولا ينقصُ من عُمُر آخرَ غيره عن عُمُر هذا الذي عمّر عمراً طويلاً. «إلاَّ في كِتابٍ» عنده مكتوبٌ قبلَ أنْ تحملَ به أُمُّه، وقبل أنْ تضعه قد أحصى ذلك كُلَّهُ وعَلِمَهُ قبل أنْ يخلقه. لا يُزادُ فيما كتبَ له ولا ينقص.

وقوله: «إنَّ ذلك على الله يَسِيرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ إحصاءَ أعمارِ خَلْقِه عليه يسيرٌ سهلٌ، طويلُ ذلك وقصيره، لا يتعذَّرُ عليه شيءٌ منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما يعتدلُ البحرانِ فيستويان، أحدهما عَذْبٌ فُراتٌ، والفراتُ: هو أعذبُ العذبِ، «وهذا ملحٌ أُجاجٌ»، يقول: والآخر منهما ملحٌ أجاج، وذلك هو ماءُ البحرِ الأخضر، والأُجاج: المُرُّ، وهو أشدُّ المياهِ مُلوحةً.

وقوله: «وَمِنْ كُلٍّ تأكُلُونَ لَحْماً طَرِياً»، يقول: ومن كلِّ البحارِ تأكلون لحماً طَرِياً، وذلك السمك من عَذْبهما الفراتُ، ومِلْحِهما الأجاجُ. «وتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها»، يعني: الدرّ والمرجان تستخرجونها من الملحِ الأجاج. وقد بيَّنا قَبْلُ وجهَ «تَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً»، وإنما يستخرج من الملح، فيما مضى بما أغنى عن إعادته. «وَتَرَى الفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وترى السفن في كل تلك البحار مواخرَ، تمخرُ الماءَ بصدورِهَا، وذلك خَرْقُها إياهُ إذا مَرَّتْ واحدتها ماخرة، يقال منه: مَخرت تمخُر، وتمخَر مَخْراً، وذلك إذا شقَّت الماءَ بصدورها.

وقوله: «لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ»، يقول: لتطلبوا بركوبكم في هذه البحار في الفلك من معايشكم، ولتتصرَّفُوا فيها في تجاراتكم، وتشكروا الله على تسخيرِه ذلك لكم، وما رَزَقَكُمْ منه من طيباتِ الرزقِ، وفاخرِ الحُليِّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى

ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ﴿١٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: يدخلُ الليلَ في النهارِ، وذلك ما نقصَ من الليلِ أدخله في النهار فزاده فيه، ويولجُ النهارَ في الليلِ، وذلك ما نقصَ من أجزاءِ النهارِ زادَ في أجزاءِ الليلِ، فأدخله فيها.

وقوله: «وسَخَّرَ الشَّمسَ والقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأجَلٍ مُسَمًّى»، يقول: وأجْرى لكم الشمسَ والقمرَ نعمةً منه عليكم، ورحمةً منه بكم، لتعلموا عَدَد السنينَ والحسابَ، وتعرفوا الليلَ من النهار.

وقوله: «كُلٌّ يَجْري لأجَلٍ مُسَمًّى»، يقول: كل ذلك يجري لوقتٍ معلوم.

وقوله: «ذَلِكُمْ الله رَبُّكُمْ»، يقول: الذي يفعل هذه الأفعالُ معبودُكم أيها الناسُ الذي لاتصلحُ العبادةُ إلا له، وهو الله ربكم.

وقوله: «لَهُ المُلْكُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: له الملكُ التامُّ الذي لا شيءَ إلا وهو في مُلْكِه وسلطانه.

وقـوله: «وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: والذين تعبدون أيها الناسُ من دونِ رَبِّكم الذي هذه الصفة التي ذكرها في هذه الآيات الذي له المُلْكُ الكاملُ، الذي لا يُشبهه ملكٌ، صفته، «ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ»، يقول: ما يملكون قِشْرَ نواةٍ فما فوقَها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ

مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾

قولـه: «إنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ ولَوْ سَمِعُوا ما اسْتَجابُوا لَكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنْ تَدْعُوا أيها الناسُ هؤلاء الآلهةَ التي تعبدونها من دونِ الله لا يسمعـوا دعـاءكم، لأنها جمادٌ لا تفهم عنكم ما تقولون: «وَلَوْ سَمِعُوا ما اسْتَجَابُوا لَكُمْ»، يقول: ولو سمعوا دعاءكم إياهم، وفهموا عنكم أنها قولكم، بأنْ جعلَ لهم سمع يسمعون به ما استجابوا لكم، لأنها ليستْ ناطقةً، وليس كلُّ سامعٍ قولاً متيسِّراً له الجوابُ عنه، يقول تعالى ذِكْرُهُ للمشركينَ به الآلهةَ والأوثانَ: فكيف تعبدونَ من دونِ الله من هذهِ صِفَتُه، وهو لا نفعَ لكم عنده، ولا قُدرةَ له على ضُرّكم، وتدعونَ عبادةَ الذي بيده نفعكم وضرّكم، وهو الذي خلقكم وأنعمَ عليكم.

وقوله: «وَيَوْمَ القِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ للمشركينَ من عَبَدَةِ الأوثان: ويومَ القيامة تتبرأُ آلهتُكم التي تعبدونها من دونِ الله من أنْ تكونَ كانتْ لله شريكاً في الدنيا.

وقوله: «وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولا يخبركَ يا محمدُ عن آلهةِ هؤلاءِ المشركينَ وما يكونُ من أمرها وأمرِ عَبَدَتِها يومَ القيامةِ، منْ تبرُّئها منهم، وكُفْرِهَا بهم، مثل ذي خبرةٍ بأمرها وأمرهم، وذلك الخبيرُ هو الله الذي لا يَخْفَى عليه شيءٌ كان أو يكون سبحانه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: يا أيها الناسُ أنتم أُولُوا الحاجةِ والفقرِ إلى ربِّكم،

فإياهُ فاعبدُوا، وفي رضاهُ فسارعوا يغنكم من فقركم، وتُنْجَح لديه حوائِجُكُم «وَاللهُ هُوَ الغَنِيُّ» عن عبادتكم إياه، وعن خدمتكم، وعن غير ذلك من الأشياء، منكم ومن غيركم، «الحَمِيدُ» يعني: المحمودُ على نِعَمِه، فإنَّ كُلَّ نعمةٍ بكم وبغيركم فمنه، فلهُ الحمدُ والشكرُ بكلِّ حال.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنْ يشأ يُهْلككم أيها الناسُ رَبُّكم، لأنه أنشأكم من غيرِ ما حاجــةٍ به إليكم «وَيأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ»، يقـول: ويأتِ بخلقٍ سواكم يُطيعونَهُ، ويأتمرونَ لأمرِه، وينتهونَ عما نهاهم عنه.

وقوله: «وَما ذَلكَ على الله بِعَزيزٍ»، يقول: وما إذهابُكم والإتيانُ بخلقٍ سواكم على الله بشـديدٍ، بل ذلـك عليه يسيرٌ سهلٌ، يقول: فاتقوا الله أيها الناسُ، وأطيعوهُ قبلَ أنْ يفعلَ بكم ذلك.

وقوله: «وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولا تحملُ آثمةٌ إثمَ أخرى غيرها. «وَإنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إلى حِمْلِها لا يُحْمَل مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى»، يقول تعالى: وإنْ تسأل ذاتُ ثِقْلٍ من الذنوبِ مَنْ يحملُ عنها ذنوبَها، وتطلب ذلك لم تجدْ مَنْ يحمل عنها شيئاً منها، ولو كان الذي سألته ذا قرابةٍ من أبٍ أو أخ.

وقوله: «إنَّما تُنْذرُ الَّذينَ يَخْشَونَ رَبَّهُمْ بالغَيْبِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيهِ محمدٍ ﷺ: إنما تنذرُ يا محمدُ الذين يخافونَ عقابَ الله يومَ القيامةِ من غيرِ

معاينةٍ منهم لذلك، ولكنْ لإيمانهم بما أتيتهم به، وتصديقهم لكَ فيما أنبأتهم عن الله، فهؤلاءِ الذين ينفعهم إنذارُكَ، ويَتَّعِظُونَ بمواعظِكَ، لا الذين طَبَع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون.

وقوله: «وأقامُوا الصَّلاةَ»، يقول: وأدَّوا الصلاةَ المفروضةَ بحدودها على ما فَرَضَها الله عليهم.

وقوله: «وَمَنْ تَزَكَّى فإنَّما يَتزكَّى لِنَفْسِه»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومَنْ يتطهَّرْ من دَنَسِ الكفرِ والذنوبِ بالتوبةِ إلى الله، والإيمانِ به، والعمل بطاعته، فإنما يتطهَّرْ لنفسِه، وذلك أنه يُثِيبُهَا به رِضَا الله، والفوزَ بجنانه، والنجاةَ من عقابهِ، الذي أعَدَّهُ لأهلِ الكفر به.

وقوله: «وإلى الله المَصِيرُ»، يقول: وإلى الله مصيرُ كلِّ عاملٍ منكم أيها الناسُ، مؤمنكم وكافركم، وبَرِّكُم وفاجركم، وهو مُجَازٍ جميعَكُم بما قَدَّمَ من خيرٍ أو شرٍّ على ما أهَلٌّ منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَما يَسْتَوِي الأعْمَى» عن دينِ الله الذي ابتعثَ به نبيه محمداً ﷺ «والبصيرُ» الذي قد أبصرَ فيه رُشْدَهُ، فاتبع محمداً وصَدَّقَهُ، وقبلَ عن الله ما ابتعثَهُ به. «وَلا الظُّلُماتُ»، يقول: وما تستوي ظلماتُ الكفر، ونورُ الإيمانِ. «وَلا الظِّلُّ»، قِيلَ: ولا الجنة. «وَلا الحَرُورُ»، قيل: النار، كأنَّ معناه عندهم: وما تستوي الجنةُ والنارُ، والحَرُور بمنزلةِ السَّموم، وهي الرياحُ الحارَّةُ. وذكر أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنى، عن رُؤْبة بن العَجَّاج، أنه كان يقول: الحَرور

بالليلِ، والسَّمُوم بالنهار. وأما أبو عبيدة فإنه قال: الحَرور في هذا الموضع والنهار مع الشمس. وأما الفراء فإنه كان يقول: الحَرُور يكون بالليلِ والنهارِ، والسَّموم لا يكونُ بالليلِ إنما يكون بالنهار[1].

والقول في ذلك عندي، أن الحَرور يكونُ بالليلِ والنهار، غير أنه في هذا الموضع بأنْ يكون كما قال أبو عبيدة: أشبه مع الشمس، لأنَّ الظلَّ إنما يكونُ في يوم شمسٍ، فذلك يدلُّ على أنه أُريدَ بالحَرور: الذي يوجد في حالِ وجودِ الظلِّ.

وقـوله: «وَما يَسْتَوِي الأَحْياءُ ولا الأَمْواتُ»، يقول: وما يستوي الأحياءُ القلوبِ بالإيمانِ بالله ورسولِه، ومعرفةِ تنزيلِ الله، والأمواتُ القلوبِ لغلَبَةِ الكفرِ عليها، حتى صارتْ لاتعقلُ عن الله أمْرَهُ ونَهْيَهُ، ولا تعرفُ الهدى من الضلال، وكلُّ هذه أمثالٌ ضَرَبَها الله للمؤمنِ والإيمانِ، والكافرِ والكفر.

وقوله: «إنَّ الله يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ وَما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي القُبُورِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: كما لا يقدرُ أنْ يُسْمِعَ مَنْ في القبورِ كتابَ الله، فيهديهم به إلى سبيلِ الرشاد، فكذلك لا يقدرُ أنْ ينفعَ بمواعِظ الله، وبيانِ حُججه، مَنْ كان مَيِّتَ القلبِ من أحياءِ عبادِه، عن معرفةِ الله، وفهم كتابه وتنزيله، وواضح حججه.

وقوله: «إنْ أَنْتَ إلَّا نَذِيرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: ما أنتَ إلا نذيرٌ تُنذرُ هؤلاءِ المشركينَ بالله، الذين طبعَ الله على قلوبهم، ولم يُرْسِلْكَ رَبُّكَ إليهم إلا لتبلغهم رسالته. ولم يُكَلِّفْكَ من الأمرِ ما لاسبيلَ لكَ إليه، فأما اهتداؤهم وقبولهم منك ما جئتهم به، فإنَّ ذلك بيدِ الله لا بيدكَ، ولا بيدِ غيركَ

(١) انظر معاني القرآن: ٢/٣٦٩.

من الناس، فلا تذهبْ نفسُك عليهم حَسَراتٍ إنْ هُمْ لم يستجيبوا لك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: «إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ» يا محمدُ «بالحَقِّ» وهو الإيمـانُ بالله وشرائع الدين التي افترضها على عباده «بَشِيراً»، يقول: مُبشِّراً بالجنة مَنْ صَدَّقَكَ وقَبِلَ منك ما جئتَ به من عندِ الله من النصيحة «وَنَذِيراً» تُنذر الناسَ مَنْ كذَّبكَ وردَّ عليك ما جئتَ به من عندِ الله من النصيحةِ «وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ»، يقول: وما من أمةٍ من الأممِ الدائنةِ بملةٍ إلَّا خَلَا فيها من قَبْلِكَ نذيرٌ ينذرهم بأسنا على كفرهم بالله.

وقـوله: «وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ مسلياً نبيه ﷺ فيما يلقى من مشركي قومه من التكذيبِ، وإنْ يكذِّبك يا محمدُ مشركو قومك، فقد كذَّبَ الذين من قبلهم من الأممِ الذين «جاءتهم رُسُلهم بالبيناتِ»، يقول: بحججٍ من الله واضحة، «وبالزُّبُر»، يقول: وجاءتهم بالكتبِ من عندِ الله.

وقوله: «وَبالكتابِ المُنِير»، يقول: وجاءهم من الله الكتاب المنير لمن تأمَّله وتدبَّرة أنه الحقُّ.

وقوله: «ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كانَ نَكِير»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ثم أهلكنا الذين جحدوا رسالةَ رُسُلِنَا، وحقيقةَ ما دَعَوْهُمْ إليه من آياتنا، وأصَرُّوا على جحودهم «فكَيْفَ كانَ نَكِيرِ»، يقول: فانظر يا محمدُ كيف كان تغييري

بهم، وحلول عقوبتي بهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ألم تَرَ يا محمدُ أنَّ الله أنزلَ من السماء غيثاً، «فأخرجنا به ثمراتٍ مختلفاً ألوانُها»، يقول: فسقيناه أشجاراً في الأرض، فأخرجنا به من تلك الأشجارِ ثمراتٍ مختلفاً ألوانها، منها الأحمر، ومنها الأسود والأصفر، وغير ذلك من ألوانها «وَمِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومن الجبالِ طرائق، وهي الجددُ، وهي الخططُ تكونُ في الجبالِ بِيضٌ وحمرٌ وسودٌ، كالطرقِ: واحِدَتُهَا جُدَّة.

وقوله: «مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُها»، يعني: مختلفٌ ألوانُ الجُدُد «وَغَرابِيبُ سُود»، وذلك من المُقَدَّمِ الذي هو بمعنى التأخير، وذلك أنَّ العربَ تقول: هو أسود غربيب، إذا وصفوه بشدّةِ السواد، وجعل السواد ههنا صفة للغرابيب.

وقوله: «وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ» كما من الثمراتِ والجبالِ مختلفٌ ألوانُه بالحُمرةِ والبياضِ والسوادِ والصُّفْرَةِ، وغير ذلك.

وقوله: «إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنما يخافُ اللهَ فيتقي عقابَهُ بطاعتِه العلماءُ، بقدرتِه على ما يشاءُ من شيءٍ، وأنه يفعلُ ما يريد، لأنَّ مَنْ علم ذلك أيقنَ بعقابِه على معصيته، فخافَهُ ورهبه خشياً منه أن يعاقبه.

وقوله: «إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الله عزيزٌ في انتقامِه مِمَّنْ كفرَ به، غفورٌ لذنوبِ مَنْ آمَن به وأطاعه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الذين يقرؤون كتابَ الله الذي أنزله على محمدٍ ﷺ. «وأقامُوا الصَّلاةَ»، يقول: وأدّوا الصلاةَ المفروضةَ لمواقيتها بحدودها وقال: وأقاموا الصلاة بمعنى: ويقيموا الصلاةَ.

وقـولـه: «وأنْفَقُـوا مِمَّـا رَزَقْنـاهُمْ سِرّاً وعَـلانِيَةً»، يقـول: وتَصَدَّقُوا بما أعطيناهم من الأموالِ سرّاً في خفاءٍ، وعلانية: جهاراً. وإنما معنى ذلك أنهم يؤدُّونَ الزكاةَ المفروضةَ، ويتطوَّعونَ أيضاً بالصدقة منه بعد أداءِ الفرضِ الواجبِ عليهم فيه.

وقوله: «يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: يَرْجُونَ بفعلهم ذلك تجارةً لن تبور: لَنْ تكسدَ ولن تهلكَ، من قولهم: بارتِ السوقُ: إذا كسدت، وبارَ الطعامُ.

وقوله: «لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ»، يقول: ويُوَفِّيهم الله على فِعْلِهم ذلك ثوابَ أعمالهم التي عملوها في الدنيا. «وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ»، يقول: وكي يَزِيدَهُمْ على الوفاءِ من فضلِه ما هُوَ له أهلٌ.

وقـولـه: «إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ»، يقول: إنَّ الله غفورٌ لذنوبِ هؤلاءِ القومِ الذين هذه صفتهم، شكورٌ لحسناتهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَالَّذِي أَوْحَينا إلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ» يا محمدُ، وهو هذا القرآن الذي أنزله الله عليه «هُوَ الحَقُّ»، يقول: هو الحقُّ عليك وعلى أمتك أنْ تعملَ به، وتَتَّبعَ ما فيه دونَ غيرِه من الكتبِ التي أُوحيتْ إلى غيرك «مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ»، يقول: هو يصدّق ما مضى بين يديه، فصار أمامه من الكتبِ التي أنزلتها إلى مَنْ قبلكَ من الرسلِ.

وقوله: «إنَّ الله بعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الله بعبادِه لذو عِلْمٍ وخبرةٍ بما يعملون بصير بما يصلحهم من التدبير.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾

اختلف أهلُ التأويل في معنى الكتابِ الذي ذكر الله في هذه الآية أنه أورثَهُ الذين اصطفاهم من عبادِه، ومَنِ المُصْطَفُونَ من عبادِه، والظالمُ لنفسِه، فقال بعضهم: الكتاب: هو الكتبُ التي أنزلها الله من قبلِ الفُرقانِ، والمصطفون من عباده: أمةُ محمدٍ ﷺ، والظالمُ لنفسه: أهلُ الإجرام منهم.

وقال آخرون: الكتابُ الذي أورثَ هؤلاءِ القومَ، هو شهادةُ أنْ لا إله إلا الله، والمصطفونَ هم أمةُ محمدٍ ﷺ، والظالمُ لنفسه منهم هو المنافقُ، وهو في النار، والمقتصدُ، والسابقُ بالخيراتِ في الجنة.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصواب تأويلُ مَنْ قال: عَنَى بقوله: «ثُمَّ أَوْرَثْنا الكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا» الكتب التي أُنزلتْ من قبلِ الفرقان.

فإنْ قال قائل: وكيف يجوز أن يكون ذلك معناه: وأمةُ محمدٍ ﷺ لا يَتْلُونَ غير كتابهم، ولا يعملونَ إلا بما فيه من الأحكامِ والشرائع؟ قيل: إنَّ معنى ذلك على غيرِ الذي ذهبتَ إليه، وإنما معناه: ثم أورثنا الإيمانَ بالكتابِ الـذين اصطفينا، فمنهم مؤمنونَ بكلِّ كتابٍ أنزله الله من السماء قبلَ كتابِهم وعاملونَ به، لأنَّ كُلَّ كتابٍ أنزل من السماء قبل الفرقان، فإنه يأمرُ بالعملِ بالفرقانِ عند نزولِه، وباتباع مَنْ جاء به، وذلك عَمَلُ مَنْ أقرَّ بمحمدٍ ﷺ، وبما جاءَ به، وعَمِلَ بما دعاهُ إليه بما في القرآن، وبما في غيره من الكتب التي أُنزلتْ قبلَهُ.

وإنما قيل: عنى بقوله: «ثُمَّ أَوْرَثْنا الكتابَ» الكتبَ التي ذكرنا لأنَّ الله جَلَّ ثنـاؤُهُ قال لنبيه محمدٍ ﷺ. «والَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ هُوَ الحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيهِ» ثم أتبع ذلك قوله: «ثُمَّ أَوْرَثْنا الكِتابَ الَّذِينَ اصْطفَيْنا» فكان معلوماً إذ كان معنى الميراث إنما هو انتقالُ معنى من قومٍ إلى آخرينَ ولـم تَكُنْ أمةٌ على عهدِ نبينا ﷺ انتقلَ إليهم كتابٌ من قومٍ كانوا قبلهم غير أمته أن ذلك معناه: وإذْ كان ذلك كذلك، فبين أنَّ المصطفينَ من عبادِه هم مؤمنُو أمتِه، وأما الظالمُ لنفسه، فإنه لأنْ يكونَ من أهلِ الذنوبِ والمعاصي التي هي دونَ النفاقِ والشرك عندي أشبهُ بمعنى الآيةَ من أنْ يكونَ المنافق أو الكافر، وذلك أنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ أتبعَ هذه الآيةَ قوله: «جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها» فَعَمَّ بدخولِ الجنةِ جميعَ الأصنافِ الثلاثة.

فإنْ قال قائل: فإنَّ قوله: «يَدْخُلُونَها» إنما عَنَى به المقتصدَ والسابقَ؟ قيل له: وما برهانُكَ على أنَّ ذلك كذلك من خبرٍ أو عقلٍ، فإنْ قال: قيامُ الحجة أنَّ الظالمَ من هذه الأمة سيدخُل النار، ولو لـم يدخل النارَ من هذه الأصنافِ

الثلاثة أحدٌ وَجَبَ أنْ لا يكونَ لأهلِ الإيمانِ وعيدٌ؟ قيل: إنه ليس في الآيةِ خبرٌ أنهم لا يدخلونَ النار، وإنما فيها إخبارٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ أنهم يدخلون جناتِ عَدْنٍ، وجائزٌ أن يدخلها الظالمُ لنفسه بعد عقوبةِ الله إياهُ على ذنوبه التي أصابها في الدنيا، وظُلْمِه نَفْسَهُ فيها بالنار، أو بما شاء من عقابه، ثم يُدخله الجنةَ، فيكون مِمَّنْ عَمَّهُ خبرُ الله جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخلونَها».

وقوله: «ذلكَ هُوَ الفَضْلُ الكَبِيرُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: سبوق هذا السابقِ مَن سَبْقِه بالخيراتِ بإذنِ الله، هو الفضلُ الكبير الذي فضل به مَنْ كان مقصِّراً عن منزلته في طاعةِ الله من المقتصد والظالم لنفسه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: بساتينُ إقامةٍ يدخلونها هؤلاء الذين أورثناهم الكتابَ، الذين اصْطَفَيْنا من عبادِنا يومَ القيامة «يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ» يلبسونَ في جناتِ عدنٍ أسورةً من ذهب «وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ»، يقول: ولباسهم في الجنة حريرٌ.

وقوله: «وَقالُوا الحَمْدُ لله الَّذِي أذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ»، اختلف أهلُ التأويلِ في الحَزَنِ الذي حَمِدَ الله على إذهابِه عنهم هؤلاء القومُ، فقال بعضهم: ذلك الحَزَنُ الذي كانوا فيه قبل دخولهم الجنةَ من خوفِ النار، إذ كانوا خائفين أن يدخلوها.

وقال آخرون: عنى به الموت.

وقال آخرون: عنى به حزن الخبز[1].

وقال آخرون: عنى بذلك: الحَزَن من التعبِ الذي كانوا فيه في الدنيا.

وقال آخرون: بل عنى بذلك الحزن الذي ينالُ الظالمَ لنفسِه في موقفِ القيامة.

وأَوْلى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ أخبرَ عن هؤلاء القوم الذين أكرمهم بما أكرمهم به أنهم قالوا حين دخلوا الجنةَ «الحَمْدُ لله الَّـذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ»، وخوفُ دخولِ النار من الحَزَن، والجزَعُ من الموتِ من الحزن، والجزعُ من الحاجةِ إلى المطعم من الحزن، ولم يخصص الله إذْ أخبر عنهم أنهم حمدوه على إذهابه الحزنَ عنهم نوعاً دونَ نوع ، بل أخبر عنهم أنهم عَمُّوا جميعَ أنواعِ الحزنِ بقولهم ذلك، وكذلك ذلك، لأنَّ من دخلَ الجنةَ فلا حَزَنَ عليه بعد ذلك، فحمدهم على إذهابِه عنهم جميع معاني الحزن.

وقوله: «إنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ مخبراً عن قِيلِ هذه الأصنافِ الذين أخبرَ أنه اصطفاهم من عبادِه عند دخولهم الجنةَ: إنَّ رَبَّنَا لغفورٌ لذنوبِ عبادِه الذي تابوا من ذنوبهم، فَساتِرُهَا عليهم بعفوِه لهم عنها، شكورٌ لهم على طاعتهم إياه، وصالحِ ما قَدَّمُوا في الدنيا من الأعمالِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ٣٥﴾

(١) لَعَلَّهُ يريد بالخبز: هَمّ العيش في الدنيا والتعب الحاصل للإنسان من طَلَبِه خبزه، يعني: معاشه.

يقول تعالى ذِكْرُهُ مخبراً عن قِيلِ الذين أُدخلوا الجنة «إنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنا دَارَ المُقَامَةِ»: أي ربنا الذي أنزلنا هذه الدار، يعنونَ الجنةَ، فدارُ المُقامةِ: دارُ الإقامة التي لا نُقْلَةَ معها عنها، ولا تحوّلَ، والميم إذا ضُمَّتْ من المُقامة، فهي من الإقامة، فإذا فتحت فهي من المجلس، والمكان الذي يُقام فيه.

وقوله: «لَايَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ»، يقول: لا يُصيبنا فيها تَعَبٌ ولا وَجَعٌ «وَلا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ»، يعني باللغوب: العَنَاءَ والإعياء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا» بالله ورسوله «لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ»، يقول: لهم نار جهنم مُخَلَّدينَ فيها، لا حَظَّ لهم في الجنة ولا نعيمها.

«وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها»، يقول: ولا يخفف عنهم من عذابِ نارِ جهنمَ بإماتتهم، فيخفف ذلك عنهم.

وقوله: «كَذَلك نَجْزي كُلَّ كَفُورٍ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: هكذا يُكافىء كُلَّ جَحُودٍ لنعمِ ربه يومَ القيامة، بأنْ يُدخلهم نارَ جهنم بسيئاتهم التي قدّموها في الدنيا.

وقوله: «وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها، رَبَّنا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غيرَ الَّذي كُنَّا نعملُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: هؤلاء الكفار يستغيثون، ويضجُّونَ في النار،

يقولون: يا ربنا أخرجنا نعملْ صالحاً: أي نعملْ بطاعتك «غيرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ» قَبْلُ من معاصيك.

وقوله: «يَصْطَرِخُونَ» يفتعلون من الصُّراخ، حُوِّلَتْ تاؤها طاء لقرب مخرجها من الصاد لما ثَقُلت.

وقوله: «أوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ»، يقول: أو لم نُعمركم يا معشرَ المشركينَ بالله من قُرَيش من السنين، ما يتذكرُ فيه مَنْ تَذَكَّرَ، من ذوي الألبابِ والعقولِ، واتَّعَظَ منهم مَنِ اتعظَ، وتابَ مَنْ تاب، وجاءكم من الله منذرٌ يُنذركم ما أنتم فيه اليومَ من عذابِ الله، فلم تتذكَّروا مواعظَ الله، ولم تقبلوا من نذيرِ الله الذي جاءكم ما أتاكم به من عند ربكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ۝٣٧ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٣٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «فَذُوقُوا» نارَ عذابِ جهنمَ الذي قد صَليتُموه أيها الكافرونَ بالله «فَمَا للظَّالِمِينَ مِنْ نَصِير»، يقول: فما للكافرينَ الذين ظلموا أنفسهم فأكسَبُوها غضبَ الله بكفرهم بالله في الدنيا من نصيرٍ ينصرهم من الله ليستنقذهمَ مَن عقابه.

وقوله: «إنَّ الله عالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ والأرْضِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الله عالِمُ ما تُخْفُون أيها الناسُ في أنفسكم وتُضمرونه، وما لم تُضْمِرُوه ولم تنوُوه مما ستنوُونه، وما هو غائبٌ عن أبصارِكم في السمواتِ والأرض، فاتقوه أنْ يَطَّلعَ عليكم، وأنتم تضمرون في أنفسكم من الشكِّ في وحدانيةِ الله، أو في نبوّةِ محمدٍ ﷺ، غير الذي تبدونه بألسنتكم، «إنَّه عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: الله الذي جعلكم أيها الناسُ خلائفَ في الأرض من بعد عادٍ وثمود، ومَنْ مضى من قبلكم من الأمم فجعلكم تخلفونهم في ديارهم ومساكنهم.

وقوله: «فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فمن كفر بالله منكم أيها الناسُ، فعلى نفسه ضُرُّ كُفْرِه، لا يضرُّ بذلك غير نفسه، لأنه المعاقَبُ عليه دونَ غيره.

وقوله: «وَلا يَزِيدُ الكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مقتاً»، يقول تعالى: ولا يزيد الكافرين كُفْرُهُمْ عند ربهم إلا بعداً من رحمة الله «ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خَسارا»، يقول: ولا يزيد الكافرين كفرهم بالله إلا هلاكاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ «قُلْ» يا محمدُ لمشركي قومك «أرأيْتُمْ» أيها القومُ «شُركاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ الله أَرُونِي ماذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ»، يقول: أروني أيّ شيءٍ خلقوا من الأرض «أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ في السَّمَوَاتِ»، يقول: أم لشركائكم شركٌ مع الله في السموات، إنْ لم يكونوا خَلَقوا من الأرض شيئاً «أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً فَهُمْ عَلى بَيِّنَة مِنْهُ»، يقول: أم آتينا هؤلاء المشركينَ كتاباً أنزلناه

عليهم من السماء بأنْ يشركوا بالله الأوثانَ والأصنامَ، فهم على بيِّنةٍ منه، فهم على برهانٍ مما أمرتهم فيه من الإشراك بي.

وقوله: «بَلْ إنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إلاَّ غُرُوراً» وذلك قولُ بعضِهم لبعضٍ «مـا نَعْبُـدُهُمْ إلا لِيُقَرِّبُونا إلى الله زُلْفى» خداعاً من بعضِهم لبعضٍ وغروراً، وإنما تُزْلِفُهم آلهتُهم إلى النار، وتُقْصِيهم من الله ورحمتِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُهُ: «إنَّ الله يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ والأرْضَ» لئلا تزولا من أمـاكنهمـا «وَلَئِنْ زَالَتَا»، يقول: ولو زالتا «إنْ أمْسَكَهُمَا مِنْ أحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ»، يقول: ما أمسكهما أحدٌ سواهُ، ووضعت «لئن» في قوله «وَلَئِنْ زَالَتَا» في موضع «لو» لأنهما يُجَابان بجوابٍ واحدٍ، فيتشابهان في المعنى، ونظير ذلك قوله: «وَلَئِنْ أرْسَلْنا ريحاً فَرَأوْهُ مُصْفَرّاً لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يكْفُرُونَ» [الروم: ٥١] بمعنى: ولو أرسلنا ريحاً، وكما قال: «ولئن أتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ» [البقرة: ١٤٥] بمعنى: لو أتيتَ، وقد بيَّنا ذلك فيما مضى بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

وقوله: «إنَّهُ كانَ حَليماً غَفُوراً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الله كان حليماً عَمَّنْ أشركَ وكفرَ به من خَلْقِه في تركه تعجيلَ عذابِه له، غفوراً لذنوبِ مَنْ تاب منهم، وأنابَ إلى الإيمانِ به، والعمل بما يرضيه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلـِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ

نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأقسمَ هؤلاء المشركونَ بالله جَهْدَ أيمانهم، يقول: أشدَّ الأيمانِ، فبالغوا فيها، لئن جاءهم من الله مُنذرٌ ينذرهم بأسَ الله «لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إحْدَى الأُمَمِ»، يقول: ليكونُنَّ أسلكَ لطريقِ الحقِّ، وأشدَّ قبولاً لِمَا يأتيهم به النذيرُ من عند الله، من إحدى الأمم التي خَلَتْ من قبلهم؛ «فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ» يعني بالنذيرِ: محمداً ﷺ، يقول: فلما جاءهم محمدٌ ينذرهم عقابَ الله على كفرهم.

وقوله: «ما زَادَهُمْ إلاَّ نُفوراً»، يقول: ما زادهم مجيءُ النذيرِ من الإيمانِ بالله واتباع الحقِّ، وسلوكِ هدى الطريق، إلا نفوراً وهَرَباً.

وقوله: «اسْتِكْباراً في الأرْضِ»، يقول: نفروا استكباراً في الأرض، وخدْعة سيئة، وذلك أنهم صَدُّوا الضعفاءَ عن اتباعه مع كفرهم به. والمكرُ هاهنا: هو الشركُ.

وقوله: «وَلا يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّءُ إلاَّ بأهْلِهِ»، يقول: ولا ينزلُ المكرُ السيء إلا بأهله، يعني بالذين يمكرونه، وإنما عَنَى أنه لايحلُّ مكروهُ ذلك المكرِ الذي مَكَرَهُ هؤلاء المشركون إلا بهم.

وقوله: «فَهَلْ يَنْظُرُونَ إلاَّ سُنَّةَ الأوَّلِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فهل ينتظرُ هؤلاء المشركونَ من قومكَ يا محمدُ إلا سنةَ الله بهم في عاجلِ الدنيا على كفرهم به أليمَ العقاب. يقول: فهل ينتظرُ هؤلاء إلا أن أُحِلَّ بهم من نقمتي

على شِرْكِهم بي وتكذيبهم رسولي مثل الذي أحللتُ بمن قبلهم من أشكالهم من الأمم.

«فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً»، يقول: فلن تَجِدَ يا محمدُ لسنةِ الله تغييراً.

وقوله: «وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً»، يقول: ولن تجدَ لسنةِ الله في خَلْقِه تبديلاً، يقول: لن يغير ذلك، ولا يبدّله، لأنه لا مَرَدَّ لقضائه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أو لم يَسِرْ يا محمدُ هؤلاء المشركون بالله، في الأرضِ التي أهلكنا أهلَها بكفرهم بنا وتكذيبهم رسلنا، فإنهم تجار يسلكون طريقَ الشام «فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» من الأمم التي كانوا يمرونَ بها أَلَمْ نُهلكهم ونخربْ مساكِنَهُمْ ونجعلْهم مَثَلاً لمن بعدهم، فَيَتَّعِظُوا بهم، وينزجروا عما هُمْ عليه من عبادةِ الآلهةِ بالشركِ بالله، ويعلموا أنَّ الذي فعل بأولئك ما فعل «وكانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَبَطْشاً» لن يَتعذَّرَ عليه أنْ يفعلَ بهم مثل الذي فعل بأولئك من تعجيلِ النقمة، والعذابِ لهم.

وقوله: «وَما كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولن يعجزنا هؤلاء المشركونَ بالله من عَبَدَةِ الآلهة، المكذِّبونَ محمداً فيسبقونا هَرَباً في الأرض، إذا نحنُ أردنا هلاكهم، لأنَّ الله لم يكن ليعجزه شيءٌ يُريدُه في السمواتِ ولا في الأرض، ولن يقدر هؤلاء المشركون أنْ ينفُذوا من أقطارِ السمواتِ والأرض.

وقوله: «إِنَّهُ كانَ عَلِيماً قَدِيراً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إن الله كان عليماً

بخلقه، وما هو كائن، ومَن هو المستحقُّ منهم تعجيل العقوبة، ومَن هو عن ضلالتِه منهم راجعٌ إلى الهدى آئبٌ، قديرٌ على الانتقامِ ممن شاء منهم، وتوفيق مَنْ أرادَ منهم للإيمان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولو يؤاخذُ الله الناسَ، يقول: ولو يعاقبُ الله الناسَ، ويكافئهم بما عملوا من الذنوبِ والمعاصي، واجترحوا من الآثامِ، ما تَرَك على ظهرها من دابةٍ تدبُّ عليها «وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إلى أجلٍ مُسَمًّى»، يقول: ولكن يُؤَخِّرُ عقابَهم ومؤاخذتَهم بما كَسَبُوا إلى أجلٍ معلومٍ عنده، محدودٍ لايقصرون دونه، ولا يجاوزُونَهُ إذا بلغوه.

وقوله: «فإذَا جاءَ أَجَلُهُمْ فإنَّ الله كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فإذا جاء أجلُ عقابِهم، فإنَّ الله كان بعباده بصيراً مَنِ الذي يستحقُّ أَنْ يُعاقَبَ منهم، ومَنِ الذي يستوجبُ الكرامةَ، ومَنِ الذي كان منهم في الدنيا له مطيعاً، ومَنْ كان فيها به مشركاً، لا يَخْفَى عليه أحدٌ منهم، ولا يعزبُ عنه علم شيءٍ من أمرهم.

سُورَةُ يسٓ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يسٓ ۝١ وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤﴾

اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: «يسٓ»، فقال بعضهم: هو قَسَمٌ أقسمَ الله به، وهو من أسماء الله.

وقال آخرون: معناه: يا رجل.

وقال آخرون: هو مفتاحُ كلامٍ افتتحَ الله به كلامَهُ.

وقال آخرون: بل هو اسمٌ من أسماء القرآن.

وقد بيَّنا القولَ فيما مضى في نظائرِ ذلك من حروفِ الهجاء بما أغنى عن إعادته وتكريره في هذا الموضع.

وقوله: «والقُرآنِ الحَكِيمِ»، يقول: والقرآن المُحْكَمِ بما فيه من أحكامه، وبيِّناتِ حُجَجِه «إنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ مُقْسِماً بوحيهِ وتنزيلِه لنبيهِ محمدٍ ﷺ: إنك يا محمدُ لمن المرسلين بوحي الله إلى عباده.

وقوله: «عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ»، يقول: على طريقٍ لا اعوجاجَ فيه من الهدى، وهو الإسلام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥﴾

إختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: «تَنْزِيلُ العَزِيزِ الرَّحِيمِ» فقرأته عامة قَرَأَةِ المدينة والبصرة «تَنْزِيلُ العَزِيزِ» برفع تنزيل، والرفع في ذلك يتجه من وجهين: أحدهما: بأن يُجعل خبراً، فيكون معنى الكلام: إنه تنزيل العزيزِ الرحيم. والآخر: بالابتداء، فيكون معنى الكلام حينئذٍ: إنك لمن المرسلين، هذا تنزيلُ العزيز الرحيم. وقرأته عامة قَرَأَة الكوفة وبعض أهل الشام «تَنْزِيلَ» نصباً على المصدر من قوله: «إِنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ» لأنَّ الإرسالَ إنما هو عن التنزيل، فكأنه قيل: لمنزل تنزيل العزيز الرحيم حقاً.

والصوابُ من القولِ في ذلك عندي أنهما قراءتان مشهورتان في قَرَأَة الأمصار، متقاربتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيبٌ الصوابَ. ومعنى الكلام: إنك لمن المرسلين يا محمدُ إرسالَ الربِّ العزيز في انتقامِه من أهلِ الكفرِ به، الرحيم بمن تابَ إليه، وأنابَ من كُفْرِهِ وفُسُوقِه أنْ يعاقبه على سالفِ جُرْمِه بعد توبتِه له.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾

اختلف أهلُ التأويلِ في تأويلِ قوله: «لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ»، فقال بعضهم: معناه: لتنذر قوماً ما أنذرَ الله من قبلهم من آبائهم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك لتنذر قوماً ما أُنذر آباؤهم[1].

وقال بعضهم: لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم: أي هذه الأُمةُ لم يأتهم نذيرٌ،

(١) أي: لم يُنْذَرْ آباؤهم.

حتى جاءهم محمدٌ ﷺ.

واختلف أهلُ العربية في معنى «ما» التي في قوله: «ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ» إذا وُجِّه معنى الكلام إلى أن آباءهم قد كانوا أُنذروا، ولم يُرَدْ بها الجحد، فقال بعض نحويي البصرة: معنى ذلك: إذا أُريد به غير الجحدِ لتنذرهم الذي أُنذر آباؤهم «فَهُمْ غافِلُونَ». وقال: فدخول الفاء في هذا المعنى لا يجوز، والله أعلم. قال: وهو على الجحدِ أحسن، فيكون معنى الكلام: إنك لمن المرسلين إلى قومٍ لم يُنْذَرْ آباؤهم، لأنهم كانوا في الفترة.

وقال بعضُ نحويّي الكوفة: إذا لم يُرَدْ بما الجحدُ، فإنَّ معنى الكلام: لتنذرهم بما أنذر آباؤهم، فَتُلْقَى الباءُ، فتكون «ما» في موضع نصب «فَهُمْ غافِلُونَ»، يقول: فهم غافلون عَمَّا الله فاعلٌ بأعدائه المشركينَ به، من إحلالِ نقمته، وسطوته بهم.

وقوله: «لَقَدْ حَقَّ القَوْلُ على أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: لقد وَجَبَ العقابُ على أكثرهم، لأنَّ الله قد حتم عليهم في أمِّ الكتابِ أنهم لا يؤمنون بالله، ولا يصدِّقُونَ رسولَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنا جعلنا أيمانَ هؤلاءِ الكفارِ مغلولةً إلى أعناقهم بالأغلالِ، فلا تُبْسَطُ بشيءٍ من الخيرات.

وقوله: «إلى الأذْقانِ»، يعني: فأيمانُهم مجموعةٌ بالأغلالِ في أعناقهم، فكُني عن الأيمان، ولم يَجْرِ لها ذِكْرٌ لمعرفةِ السامعينَ بمعنى الكلام، وأنَّ

الأغلال إذا كانت في الأعناق لم تكنْ إلا وأيدي المغلولين مجموعة بها إليها فاستغنى بذكر كونِ الأغلالِ في الأعناق من ذِكْرِ الأيمان[١].

وقوله: «فَهُمْ مُقْمَحُون» والمُقْمَح: هو المقنع، وهو أن يحدر الذقنَ حتى يصيرَ في الصدر، ثم يرفع رأسه في قولِ بعضِ أهلِ العلمِ بكلامِ العربِ من أهل البصرة. وفي قول بعض الكوفيين: هو الغاضُّ بَصَرَهُ، بعد رفعِ رأسه.

وقوله: «وَجَعَلْنا مِنْ بَينِ أيْدِيهِمْ سَداً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وجعلنا من بين أيدي هؤلاء المشركين سدّاً، وهو الحاجزُ بين الشيئين، إذا فُتِحَ كان من فعلِ بني آدم، وإذا كان من فعلِ الله كان بالضمِّ، وبالضمِّ قرأ ذلك عامة قَرَأَةِ المدينة والبصرة وبعض الكوفيين. وقَرَأَهُ بعض المكيين وعامة قَرَأَة الكوفيين بفتح السين «سَدّاً» في الحرفين كلاهما، والضمُّ أعجبُ القراءتين إليَّ في ذلك، وإنْ كانت الأخرى جائزة صحيحة.

وعنى بقوله: «وَجَعَلْنا مِنْ بين أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً» أنه زَيَّنَ لهم سوءَ أعمالهم، فهم يَعْمَهُونَ، ولا يبصرون رشداً، ولا يتنبهون حقاً.

وقوله: «فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ»، يقول: فأغشينا أبصارَ هؤلاء: أي جعلنا عليها غشاوةً فهم لا يبصرون هدى ولا ينتفعون به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وسواء يا محمدُ على هؤلاء الذين حقَّ عليهم القولُ،

---

(١) هذا كلام الفراء في معاني القرآن: ٢/٣٧٢.

أيّ الأمرين كان منكَ إليهم الإنذارُ، أو تركُ الإنذار، فإنهم لا يؤمنون، لأنَّ الله قد حكم عليهم بذلك.

وقوله: «إِنَّمَا تُنْذِر مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنما ينفعُ إنذارُكَ يا محمد مَنْ آمَن بالقرآن، واتَّبَعَ ما فيه من أحكامِ الله «وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ»، يقول: وخافَ الله حين يغيبُ عن أبصارِ الناظرين، لا المنافق الذي يستخفُّ بدينِ الله إذا خلا، ويظهر الإيمان في الملأ، ولا المشرك الذي قد طبع الله على قلبه.

وقوله: «فَبشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ»، يقول: فَبَشِّرْ يا محمدُ هذا الذي اتبعَ الذِّكْرَ وخشيَ الرحمنَ بالغيبِ بمغفرةٍ من الله لذنوبه. «وأجْرٍ كَرِيمٍ»، يقول: وثواب منه له في الآخرة كريم، وذلك أنْ يعطيه على عمله ذلك الجنةَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «إِنَّا نحْنُ نُحْيِي المَوْتى» من خَلْقِنَا «وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا» في الدنيا من خيرٍ وشرٍّ، وصالحِ الأعمال وسَيِّئها.

وقوله: «وآثَارَهُمْ»، يعني: وآثارَ خُطاهم بأرجلهم، وذكر أنَّ هذه الآيةَ نزلتْ في قومٍ أرادوا أن يقربوا من مسجدِ رسول الله ﷺ، ليقرب عليهم.

وقوله: «وكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ في إمامٍ مُبينٍ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وكل شيءٍ كان أو هو كائنٌ أحصيناه، فأثبتناه في أمِّ الكتابِ، وهو الإمامُ المبين. وقيل: «مُبين»، لأنه يبينُ عن حقيقةِ جميعِ ما أُثْبِتَ فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَـٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا

ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومثِّلْ يا محمدُ لمشركي قومكَ مثلاً أصحابَ القرية: ذُكر أنها أنطاكية. «إذْ جاءَها المُرْسَلُونَ»، اختلف أهلُ العلم في هؤلاء الرسل، وفيمن كان أرسلهم إلى أصحابِ القرية: فقال بعضهم: كانوا رُسُلَ عيسى بن مريم، وعيسى الذي أرسَلَهُمْ إليهم.

وقال آخرون: بل كانوا رسلاً أرسلهم الله إليهم.

وقوله: «إذْ أرْسَلْنا إلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بثالِثٍ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: حين أرسلنا إليهم اثنين يَدْعُوانِهم إلى الله فكذَّبُوهما فَشَدَدْناهُمَا بثالثٍ، وقَوَّيناهما به.

وقوله: «فَقالُوا إنَّا إلَيْكُم مُرْسَلُونَ»، يقول: فقال المُرْسَلُونَ الثلاثة لأصحابِ القرية: إنَّا إليكم أيها القومُ مرسلون، بأن تُخْلِصوا العبادةَ لله وحده، لا شريكَ له، وتتبرَّؤوا مما تعبدونَ من الآلهةِ والأصنام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال أصحابُ القريةِ للثلاثةِ الذين أُرسلوا إليهم حينَ أخبروهم أنهم أُرسلوا إليهم بما أُرسلوا به: ما أنتم أيها القومُ إلا أُناسٌ مثلنا، ولو كنتم رسلاً كما تقولون، لكنتم ملائكةً «وما أنْزلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ»، يقول: قالوا: وما أنزلَ الرحمنُ إليكم من رسالةٍ ولا كتابٍ ولا أمركم فينا بشيء «إنْ

أَنْتُمْ إِلَّا تَكْـذِبُونَ» في قِيلِكُمْ إنكم إلينا مُرْسَلُون. «قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ»، يقول: قال الرسلُ: رَبُّنَا يعلمُ إنَّا إليكم لمرسلون فيما دَعَوْنَاكُمْ إليه، وإنَّـا لصـادقون «وَما عَلَينا إِلَّا البلاغُ المُبِينُ»، يقول: وما علينا إلا أنْ نبلغكم رسالةَ الله التي أرسلنا بها إليكم بلاغاً يبينُ لكم أنَّا أَبْلَغْنَاكُمُوها، فإنْ قبلتموها فَحَظَّ أنفسِكُمْ تُصيبونَ، وإنْ لم تقبلوها فقد أَدَّيْنَا ما علينا، والله وليُّ الحكمِ فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُهُ: قال أصحابُ القرية للرسلِ: «إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ»، يعنون: إنَّا تشاءمنا بكم، فإنْ أصابنا بَلاءٌ فمن أجلكم.

وقوله: «لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ»، يقول: لئن لم تنتهوا عما ذكرتم من أنكم أُرسلتم إلينا بالبراءةِ من آلهتنا، والنهي عن عبادتنا لنرجُمَنَّكُمْ، قِيلَ: عنى بذلك لنرجُمَنَّكم بالحجارةِ.

«وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أليمٌ»، يقول: وَلَيَنَالَنَّكُمْ منا عذابٌ مُوجِع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ١٩ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قالت الرسلُ لأصحابِ القرية: «طائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ»، يقولون: أعمالكم وأرزاقكم وحظُّكم من الخيرِ والشرِّ معكم، ذلك كله

في أعناقكم، وما ذلك من شؤمنا إنْ أصابكم سوءٌ فبما كُتِبَ عليكم، وَسَبَقَ لكم من الله.

وقوله: «بَل أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ»، يقول: قالوا لهم: ما بكم التَطيُّرُ بنا، ولكنكم قومٌ أهلُ معاصٍ لله وآثامٍ، قد غلبتْ عليكم الذنوبُ والآثام.

وقوله: «وَجاءَ مِنْ أَقْصَى المَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى»، يقول: وجاء من أقصى مدينةِ هؤلاءِ القومِ الذين أرسلت إليهم هذه الرسلَ رجلٌ يسعى إليهم، وذلك أنَّ أهلَ المدينة هذه عَزَمُوا، واجتمعتْ آراؤهم على قَتْلِ هؤلاء الرسلِ الثلاثة فيما ذُكِر، فبلغَ ذلك هذا الرجلَ، وكان منزلهُ أقصَى المدينة، وكان مؤمناً، وكان اسمه فيما ذُكر «حبيب بن مرى».

وقوله: «قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا المُرْسَلِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال الرجلُ الذي جاء من أقصى المدينة لقومِه يا قومِ اتبعوا المرسلينَ الذين أرسلهم الله إليكم، واقبلوا منهم ما أتوكم به.

وذُكر أنه لما أتى الرسلَ سألهم: هل يطلبونَ على ما جاؤوا به أجراً؟ فقالت الرسلُ: لا، فقال لقومه حينئذٍ: اتَّبِعُوا مَنْ لا يسألُكم على نصيحتهم لكم أجراً.

وقوله: «وَهُمْ مُهْتَدُونَ»، يقول: وهم على استقامةٍ من طريقِ الحقِّ، فاهتدوا أيها القومُ بِهُدَاهُم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ مخبراً عن قِيلِ هذا الرجلِ المؤمنِ «وَما لِي لا أَعْبُدُ الَّـذِي فَطَرَنِي»: أي: وأيّ شيء لي لا أعبد الربَّ الـذي خلقني. «وإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ»، يقول: وإليه تصيرون أنتم أيها القومُ وتُرَدُّون جميعاً، وهذا حين أبدى لقومِه إيمانَهُ بالله وتوحيده.

وقوله: «أأتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً»، يقول: أأعبدُ من دونِ الله آلهةً، يعني معبوداً سواه «إنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ»، يقول: إذ مسني الرحمنُ بضرٍّ وشدّةٍ «لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً»، يقول: لا تغني عني شيئاً بكونها إليَّ شفعاء، ولا تقدرُ على دفعِ ذلك الضرِّ عني. «وَلا يُنْقِذُونِ»، يقول: ولا يخلصوني من ذلك الضرِّ إذا مَسَّني.

وقوله: «إِنِّي إذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ»، يقول: «إني» إن اتخذتُ من دونِ الله آلهةً هذه صِفَتُها «إذاً لفي ضلال مبين» لمن تأمله، جوره عن سبيل الحقّ.

وقوله: «إنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فاسْمَعُونِ»، فاختلف في معنى ذلك، فقال بعضهم: قال هذا القول هذا المؤمن لقومِه يُعلِمُهم إيمانَهُ بالله.

وقال آخرون: بل خاطبَ بذلك الرسلَ، وقال لهم: اسمعوا قولي لتشهدوا لي بما أقولُ لكم عند ربي، وأني قد آمنتُ بكم واتبعتكم، فذكر أنه لما قال هذا القول، ونصح لقومِه النصيحةَ التي ذكرها الله في كتابه وثبوا به فقتلوه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال الله له إذْ قتلوه كذلك فَلَقِيَهُ: «ادْخُلِ الجَنَّة» فلما دَخَلَها وعاينَ ما أكرمه الله به لإيمانِه وصبرِه فيه «قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لي رَبِّي»، يقول: يا ليتهم يعلمون أن السببَ الذي من أجله غفرَ لي ربي

ذنـوبي، وجعلني من الذين أكرمهم الله بإدخاله إياهُ جَنَّتَهُ، كانَ إيماني بالله وصبري فيه، حتى قتلت، فيؤمنوا بالله ويستوجبوا الجنةَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما أنزلنا على قومِ هذا المؤمنِ الذي قَتَلَهُ قومُه لدعائِه إياهم إلى الله ونصيحته لهم «مِنْ بَعْدِهِ»، يعني: من بَعْدِ مَهْلِكِه «مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ».

واختلف أهلُ التأويل في معنى الجند الذي أخبرَ الله أنه لم ينزلْ إلى قومِ هذا المؤمنِ بعد قَتْلِهِمُوه، فقال بعضهم: عُنِي بذلك أنه لم ينزل الله بعد ذلك إليهم رسالةً، ولا بعثَ إليهم نبياً.

وقال آخرون: بل عنى بذلك أنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ لم يبعثْ لهم جنوداً يقاتلهم بها، ولكنه أهلكهم بصيحةٍ واحدة.

وهذا القولُ الثاني أوْلى القولين بتأويلِ الآية، وذلك أنَّ الرسالةَ لا يقال لها جُنْدٌ إلا أنْ يكونَ أرادَ مجاهدٌ بذلك الرُّسُلَ، فيكون وجهاً، وإن كان أيضاً من المفهـومِ بظاهرِ الآيةِ بعيداً، وذلك أن الرسُلَ من بني آدم لاينزلون من السماءِ، والخبر في ظاهرِ هذه الآيةِ عن أنه لم يُنْزِلْ من السماءِ بعد مَهْلِك هذا المؤمنِ على قومه جنداً وذلك بالملائكة أشبه منه ببني آدم.

وقوله: «إنْ كانَتْ إلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فإذَا هُمْ خامِدُونَ»، يقول: ما كانت هَلَكَتهم إلا صيحةً واحدة أنزلها الله من السماءِ عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: يا حسرةً من العبادِ على أنْفُسِهَا وتَنَدُّماً وتلهفاً في استهزائهم برسلِ الله «ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ» من الله «إلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ألم ير هؤلاء المشركونَ بالله من قومكَ يا محمدُ كم أهلكنا قبلهم بتكذيبهم رسلنا، وكفرهم بآياتنا من القرونِ الخالية «أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ»، يقول: ألم يَرَوا أنهم إليهم لايرجعون.

وقوله: «وإنْ كُلٌّ لَمَّا جَميعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإن كل هذه القرونِ التي أهلكناها والذين لم نُهْلِكهم وغيرهم عندنا يومَ القيامة جميعهم مُحْضَرُون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ودلالة لهؤلاء المشركين على قُدرةِ الله على ما يشاء، وعلى إحيائِه مَنْ مات من خَلْقِه وإعادتِه بعد فنائه، كهيئته قبل مماته إحياؤُه

الأرضَ الميتةَ، التي لا نبتَ فيها ولا زرعَ بالغيثِ الذي ينزله من السماءِ حتى يخرج زَرْعها، ثم إخراجُه منها الحبَّ الذي هو قوتٌ لهم وغذاء، فمنه يأكلون.

وقوله: «وَجَعَلنا فِيها جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وأعْنابٍ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وجعلنا في هذه الأرضِ التي أحييناها بعد موتها بساتين من نخيلٍ وأعناب «وَفَجَّرْنَا فِيها مِنَ العُيُون»، يقول: وأنبعنا فيها من عيونِ الماء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أنشأنا هذه الجنات في هذه الأرضِ ليأكلَ عبادي من ثمره، وما عملتْ أيديهم، يقول: ليأكلوا من ثمرِ الجناتِ التي أنشأنا لهم، وما عملت أيديهم مما غَرَسُوا هُمْ وَزَرَعُوا.

وقوله: «أفَلا يَشْكُرُونَ»، يقول: أفلا يشكر هؤلاء القومِ الذين رزقناهم هذا الرزقَ من هذه الأرضِ الميتة التي أحييناها لهم مَنْ رَزَقَهُمْ ذلك وأنْعَمَ عليهم به؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ تنزيهاً وتبرئةً للذي خلقَ الألوانَ المختلفةَ كلها من نباتِ الأرض، «ومن أنفسهم»، يقول: وخلق من أولادهم ذكوراً وإناثاً، ومما لا يعلمونَ أيضاً من الأشياء التي لم يطلعهم عليها، خلق كذلك أزواجاً مما يضيفُ إليه هؤلاء المشركون، ويَصِفُونَهُ به من الشركاءِ وغير ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۝٣٧ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٣٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ودليل لهم أيضاً على قدرةِ الله على فِعْلِ كُلِّ ما شاء «اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْـهُ النَّهـارَ»، يقـول: ننـزِعُ عنه النهار. ومعنى «منه» في هذا الموضع: عنه، كأنه قيل: نسلَخ عنه النهار، فنأتي بالظلمة ونذهبُ بالنهار، ومنه قوله: «وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آياتِنَا فانْسَلَخَ مِنْها» [الأعراف:١٧٥]: أي خرج منها وتركها، فكذلك انسلاخُ الليل من النهار.

وقوله: «فإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ»، يقول: فإذا هم قد صاروا في ظلمةٍ بمجيءِ الليل.

وقـولـه: «والشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: والشمسُ تجري لموضعِ قرارها، بمعنى: إلى موضعِ قرارها.

وقوله: «ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيز العَلِيم»، يقول: هذا الذي وصفنا من جري الشمس لمستقـرٍّ لها، تقدير العزيز في انتقامِه من أعدائه، العليم بمصالحِ خَلْقِه، وغير ذلك من الأشياء كلها، لا يَخْفَى عليه خافيةٌ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۝٣٩ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠﴾

تأويلُ الكلام: وآية لهم: تقديرنا القمرَ منازلَ للنقصانِ بعد تناهيهِ وتمامِه

واستوائِه، حتىٰ عاد كالعرجون القديم، والعرجون: من العِذْقِ من الموضعِ النـابتِ في النخلة إلى موضـعِ الشماريخ، وإنما شَبَّهَهُ جَلَّ ثناؤُهُ بالعرجونِ القديم، والقديمُ هو اليابسُ، لأنَّ ذلك من العِذْق، لا يكادُ يُوجَدُ إلا متقوّساً منحنياً إذا قدم ويَبسَ، ولا يكـادُ أن يُصـاب مستوياً معتدلاً، كأغصانِ سائرِ الأشجارِ وفروعها، فكذلك القمرُ إذا كان في آخرِ الشهر قبل استسرارِه، صار في انحنائه وتَقَوُّسِه نظيرَ ذلك العرجون.

وقوله: «لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أنْ تُدْرِكَ القَمَرَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: لا الشمسُ يصلحُ لها إدراكُ القمرِ، فيذهب ضَوْءُهَا بضوئِه، فتكون الأوقات كلها نهاراً لا ليلَ فيها، «وَلا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولا الليلُ بفائت النهار حتى تذهب ظُلْمَتُه بضيائِه، فتكون الأوقات كلها ليلاً.

وقـوله: «وكُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُونَ»، يقول: وكلٌّ ما ذكرنا من الشمسِ والقمرِ والليلِ والنهار في فلكٍ يَجْرُون.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ودليلٌ لهم أيضاً، وعلامةٌ على قُدرتنا على كلِّ ما نشاءُ حَمْلُنَا ذُرِّيتَهُمْ، يعني مَنْ نجا من ولدِ آدمَ في سفينةِ نوحٍ، وإياها عَنَى جَلَّ ثناؤُهُ بالفُلْكِ المشحون، والفلك: هي السفينةُ، والمشحون: المملوءُ المُوقَرُ.

وقـوله: «وَخَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وخلقنا لهؤلاء المشركينَ المُكَذِّبيكَ يا محمدُ، تَفَضُّلاً منا عليهم، من مثل ذلك الفلكِ

الذي كنا حملنا من ذريّةِ آدمَ مَنْ حملنا فيه الذي يركبونه من المراكب.

ثم اختلف أهلُ التأويل في الذي عَنَى بقوله: «ما يَرْكَبُونَ»، فقال بعضهم: هي السفن.

وقال آخرون: بل عنى بذلك الإبلَ.

وأشبه القولين بتأويلِ ذلك قول مَن قال: عُنِي بذلك السفن، لدلالة قوله: «وَإِنْ نَشأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ» على أنَّ ذلك كذلك، وذلك أنَّ الغرقَ معلومٌ أنه لايكونُ إلا في الماء، ولا غَرَقَ في البرِّ.

وقوله: «وَإِنْ نَشأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ»يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإنْ نشأ نغرق هؤلاء المشركينَ إذا ركبوا الفُلْكَ في البحر «فَلا صَريخَ لَهُمْ»، يقول: فلا مُغِيثَ لهم إذا نحنُ غَرَّقناهم يُغِيثُهم، فينجيهم من الغرق.

وقوله: «وَلاَ هُمْ يُنْقَذُونَ»، يقول: ولا هو يُنقذهم من الغرقِ شيءٌ إنْ نحن أغرقناهم في البحر، إلا أنْ نُنقذَهُمْ نحنُ رحمةً منا لهم، فننجيهم منه.

وقوله: «وَمَتاعاً إلى حينٍ»، يقول: ولنمتعهم إلى أجلٍ هم بالغوه، فكأنه قال: ولا هم يُنْقذُونَ، إلا أنْ نرحمَهُمْ فَنُمَتِعَهُمْ إلى أجلٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإذا قيل لهؤلاء المشركين بالله، المكذِّبينَ رسولَهُ محمداً ﷺ: احذروا ما مضى بين أيديكم من نِقَمِ الله ومَثُلاتِه بمن حَلَّ ذلك به من الأمم قَبْلَكُمْ أنْ يحلَّ مِثله بكم بِشِرْكِكُمْ وتكذيبكم رسولَهُ. «وما

خَلْفَكُمْ»، يقول: وما بعدَ هلاككم مما أنتم لا قوةَ إنْ هلكتم على كُفْرِكُمْ الذي أنتم عليه. «لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُـونَ»، يقـول: ليرحمكم رَبُّكم إنْ حذرتم ذلـك، واتقيتُموه بالتوبةِ من شرككم والإيمانِ به، ولزومِ طاعتهِ فيما أوجبَ عليكم من فرائضه.

وقوله: «وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيةٍ من آياتِ رَبِّهم إلاَّ كانُوا عَنْها مُعْرِضينَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما تجيء هؤلاء المشركينَ من قريشٍ آيةٌ، يعني حجةٌ من حُجَج الله، وعلامةٌ من علاماته على حقيقةِ توحيدِه، وتصديقِ رَسُولِه، إلا كانوا عنها مُعْرِضينَ، لا يتفكَّرونَ فيها، ولا يتدبَّرُونَها، فيعملوا بها ما احتجَّ الله عليهم بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإذا قيل لهؤلاء المشركينَ بالله: أنفقوا من رزقِ الله الذي رزقكم، فأدُّوا منه ما فَرَضَ الله عليكم فيه لأهلِ حاجتكم ومسكنتكم، قال الذين أنكروا وحدانيةَ الله، وعبدوا مَنْ دونه للذين آمنوا بالله ورسولِه، أَنُطْعِمُ أموالَنا وطعامنا مَنْ لو يشاءُ الله أطعَمَهُ.

وفي قوله: «إنْ أنتُمْ إلاَّ في ضَلالٍ مُبين» وجهان: أحدهما: أنْ يكونَ من قِيلِ الكفار للمؤمنين، فيكون تأويلُ الكلامِ حينئذٍ: ما أنتم أيها القومُ في قِيلكم لنا: أنفقوا مما رزقكُمُ الله على مساكينكم، إلا في ذهابٍ عن الحقِّ، وجَوْرٍ عن الرشدِ مُبينٌ لمن تأمَّلَهُ وتَدَبَّرَهُ، أنه في ضلال، وهذا أولى وَجْهَيهِ بتأويله. والوجه الآخر: أنْ يكون ذلك من قِيلِ الله للمشركينَ، فيكون تأويله حينئـذٍ: ما أنتم أيها الكافرونَ في قِيلِكم للمؤمنين: أنطعمُ مَنْ لو يشاء الله أطعمه إلا في ضلالٍ مبين، عن أنَّ قِيلَكُمْ ذلكَ لهم ضلالٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ويقول هؤلاء المشركونَ المكذِّبونَ وعيدَ الله، والبعثَ بعد المماتِ، يستعجلون رَبَّهم بالعذاب «مَتى هَذَا الوَعْدُ»: أي الوعدُ بقيامِ الساعة «إنْ كُنْتُمْ صِادِقِينَ» أيها القومُ، وهذا قولُهم لأهلِ الإيمانِ بأللهِ ورسوله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ما ينتظرُ هؤلاء المشركون الذين يستعجلونَ بوعيدِ الله إياهم، إلا صيحةً واحدةً تأخذهم، وذلك نفخةُ الفَزَعِ عند قيامِ الساعة.

وقوله: «فَلا يَسْتَطِيعونَ تَوْصيةً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فلا يستطيع هؤلاء المشركون عند النفخِ في الصُّورِ أنْ يُوصُوا في أموالهم أحداً. «وَلا إلى أهْلِهِم يَرْجِعونَ»، يقول: ولا يستطيعُ مَنْ كان منهم خارجاً عن أهله أنْ يرجعَ إليهم، لأنهم لا يُمْهَلُونَ بذلك، ولكن يُعَجَّلُونَ بالهلاك.

القَــوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «ونُفِخَ في الصُّورِ»، وقد ذكرنا اختلافَ المختلفين، والصواب من القولِ فيه فيما مضى قبل بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع، ويُعْنَى بهذِه النفخةِ، نفخةَ البعث.

وقوله: «فإذَا هُمْ مِنَ الأَجْداثِ»، يعني: من أجداثهم، وهي قبورهم، واحدها: جَدَث.

وقوله: «إلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ»، يقول: إلى رَبِّهم يخرجونَ سِراعاً، والنَّسَلان، الإسراعُ في المشي.

وقوله: «قالوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذا ما وَعدَ الرحمنُ وصدقَ المُرسلونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال هؤلاء المشركونَ لما نُفخ في الصور نفخة البعث لموقفِ القيامة فَرُدَّتْ أرواحُهم إلى أجسامهم، وذلك بعد نومةٍ ناموها. «يا ويلَنا مَنْ بَعَثنا مِنْ مَرقَدِنا»، وقد قيل: إنَّ ذلك نومة بين النفختين.

ويعني بقوله: «مِنْ مَرقَدِنا هذا» مَنْ أيقظَنَا من منامنا، وهو من قولهم: بعثَ فلانٌ ناقَتَهُ فانبعثتْ، إذا أثارها فثارتْ.

وقد اختلف أهلُ التأويلِ في الذي يقول حينئذٍ: «هذا ما وعَدَ الرحمن»، فقال بعضهم: يقول ذلك أهلُ الإيمانِ بالله.

وقال آخرون: بل كلا القولين، أعني «يا ويلنا مَنْ بعثنا مِنْ مَرقدِنا هذا ما وعد الرحمنُ وصدق المرسلون»: من قولِ الكفار.

والقولُ الأوّلُ أشبهُ بظاهرِ التنزيل، وهو أن يكونَ من كلامِ المؤمنين، لأنَّ الكفارَ في قِيلِهم «مَنْ بعثَنا مِنْ مَرْقَدِنا» دليلٌ على أنهم كانوا بِمَنْ بَعَثهم من مَرْقَدهم جُهَّالاً، ولذلك مِنْ جَهْلِهم اسْتَثْبَتُوا، ومحالٌ أنْ يكونوا استثبتوا ذلك إلاَّ من غيرهم، ممن خالفتْ صفتُه صفتَهم في ذلك.

وقوله: «إنْ كانتْ إلاَّ صَيحةً واحدةً فإذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَينا مُحضَرونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنْ كانت إعادتهم أحياءً بعد مماتِهم إلا صيحة واحدة، وهي النفخة الثالثة في الصور. «فإذا هُمْ جَمِيعٌ لدينَا مْحضرونَ»، يقول: فإذا هم مجتمعون لدينا قد أُحْضِرُوا، فأُشْهِدُوا موقفَ العَرْضِ والحساب، لم يتخلف عنه منهم أحدٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٥٤ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۝٥٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «فاليَوْمَ» يعني يومَ القيامة «لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شيئاً» كذلك ربنا لايظلمُ نفساً شيئاً، فلا يُوفيها جزاءَ عملها الصالح، ولا يحمل عليها وِزْرَ غيرِهَا، ولكنه يوفي كُلَّ نفسٍ أجرَ ما عملت من صالح، ولا يعاقبها إلا بما أجترمتْ واكتسبت من شيء. «وَلا تُجْزَوْنَ إلاَّ ما كُنْتُمْ تَعملونَ»، يقول: ولا تكافئون إلا مكافأة أعمالِكم التي كنتم تعملونها في الدنيا.

وقوله: «إنَّ أصحابَ الجَنَّةِ اليومَ في شُغُلٍ فاكِهُونَ»، اختلف أهلُ التأويل في معنى الشغل الذي وصف الله جَلَّ ثناؤُهُ أصحابَ الجنةِ أنهم فيه يوم القيامة، فقال بعضهم: ذلك افتضاضُ العذارَى.

وقال آخرون: بل عُنِي بذلك: أنهم في نعمة.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أنهم في شُغُلٍ عما فيهِ أهلُ النار.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ أنْ يقالَ كما قال الله جَلَّ ثناؤُهُ: «إنَّ أصحابَ الجنَّةِ» وهم أهلُها «في شُغُلٍ فاكِهُونَ» بنعمٍ تأتيهم في شغلٍ، وذلك

الشغلُ الذي هم فيه نعمةٌ، وافتضاضُ أبكارٍ، ولهوٌ ولذَّةٌ، وشغلٌ عما يَلْقى أهلُ النار.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ۝٥٦ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝٥٧ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨﴾

يعني تعالى بقوله: «هُمْ» أصحابُ الجنة «وأزْوَاجُهُمْ» من أهلِ الجنةِ في الجنة.

وقوله: «هُمْ وأزْوَاجُهُمْ في ظِلالٍ»، قال: حَلائِلُهم في ظُلَل.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك، فقرأه بعضهم «فِي ظُلَلٍ» بمعنى: جمع ظُلَّة. كما تُجمع الحُلَّةُ حُلَلًا. وقرأه آخرون: «في ظِلالٍ»، وإذا قرئَ ذلك كذلك كان له وجهان: أحدهما: أنْ يكون مُراداً به جمع الظُّلَل الذي هو بمعنى الكِنّ، فيكون معنى الكلمة حينئذٍ: هُمْ وأزواجُهم في كِنٍّ لا يضْحَونْ لشمسٍ كما يَضْحَى لها أهلُ الدنيا، لأنه لا شمسَ فيها. والآخر: أنْ يكون مراداً به جمع ضُلّة. فيكون وجه جمعها كذلك نظير جمعهم الخُلّة في الكَثْرةِ: الخِلال، والقُلَّة: قِلال.

وقوله: «عَلى الأرائِكِ مُتَّكِئُونَ»، والأرائك: هي الحِجالُ فيها السُّرُورُ والفُرُشُ: واحدتها: أريكة.

وقوله: «سلامٌ قولاً من ربٍّ رحيم»، «سلامٌ» خبر لقوله: «وَلَهُمْ ما يَدَّعُونَ»، فيكون معنى ذلك: ولهم فيها ما يَدَّعُونَ، وذلك هو سلامٌ من الله عليهم، بمعنى: تسليم من الله، ويكون سلام ترجمة عما يَدَّعون، ويكون القول خارجاً من قوله: سلام.

وقوله: «مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ»، يعني: رحيمٌ بهم إذْ لم يعاقبهم بما سَلَفَ لهم من جُرْمٍ في الدنيا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٩ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ: وتَمَيَّزُوا من المؤمنينَ اليومَ أيها الكافرونَ بالله، فإنكم واردونَ غيرَ موردِهم، داخلونَ غير مُدْخَلِهم.

وقوله: «أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ»، وفي الكلام متروكٌ استغني بدلالةِ الكلامِ عليه منه، وهو ثُمَّ يقال: ألم أعهد إليكم يا بني آدم، يقول: ألم أُوصِكُمْ وآمركم في الدنيا أنْ لا تعبدوا الشيطانَ فتطيعوهُ في معصيةِ الله «إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ»، يقول: وأقولُ لكم: إنَّ الشيطانَ لكم عدوٌّ مبين، قد أبان لكم عَداوته بامتناعهِ من السجودِ، لأبيكم آدم، حسداً منه له، على ما كان الله أعطاهُ من الكرامة، وغُروره إياه، حتى أخرجه وزوجته من الجنة.

وقوله: «وأَنِ اعْبُدُونِي هَذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ»، يقول: وألم أعهدْ إليكم أنِ اعبدوني دونَ كُلِّ ما سواي من الآلهة والأنداد، وإياي فأطيعوا، فإنَّ إخلاصَ عبادتي، وإفرادَ طاعتي، ومعصيةَ الشيطان، هو الدينُ الصحيح، والطريق المستقيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ

﴿تَعۡقِلُونَ ٦٢ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٦٣ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٦٤﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيراً»: ولقد صدَّ الشيطانُ منكم خَلْقاً كثيراً عن طاعتي، وإفرادي بالألوهةِ حتى عبدوه، واتخذوا من دوني آلهةً يعبدونها.

وقوله: «أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ»، يقول: أفلم تكونوا تعقلونَ أيها المشركونَ، إذْ أطعتم الشيطانَ في عبادةِ غيرِ الله، أنه لاينبغي لكم أنْ تُطيعوا عدوَّكُمْ وعدوَّ الله، وتعبدوا غيرَ الله.

وقوله: «هَذِهِ جَهَنَّم التي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ»، يقول: هذه جهنمُ التي كنتم تُوعَدُونَ بها في الدنيا على كفركم بالله، وتكذيبكم رسله. فكنتم بها تُكَذِّبُونَ. وقيل: إنَّ جهنمَ أوّل بابٍ من أبواب النار.

وقوله: «اصْلَوْهَا اليَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ»، يقول: احترقُوا بها اليوم ورِدُوها، يعني باليوم: يوم القيامة «بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُون»، يقول: بما كنتم تَجْحدونها في الدنيا، وتكذّبون بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٦٥﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «اليَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أفْوَاهِهِمْ»: اليومَ نَطْبعُ على أفواهِ المشركين، وذلك يوم القيامة «وَتُكَلِّمُنا أيْدِيهِمْ» بما عملوا في الدنيا من معاصي الله «وَتَشْهَدُ أرْجُلُهُمْ»، قيل: إنَّ الذي ينطقُ من أرجلهم: أفخاذُهُمْ من الرجلِ اليُسرى «بِمَا كانُوا يَكْسِبُونَ» في الدنيا من الآثام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويلِ قوله: «وَلَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا على أعْيُنِهِمْ فاسْتَبَقُوا الصِّراطَ»، فقال بعضهم: معنى ذلك: ولو نشاءُ لأعميناهم عن الهدى، وأضللناهم عن قصدِ المَحَجَّةِ، وهو قول ابن عباس.

وقال آخرون: معنى ذلك: ولو نشاء لتركناهم عُمْياً، وهو قولُ الحسن وقتادة.

وهذا القول الذي ذكرناه عن الحسن وقتادة أشبهُ بتأويلِ الكلام، لأنَّ الله إنما تَهَدَّدَ به قوماً كفاراً، فلا وجهَ لأنْ يقال: وهم كفار، لو نشاءُ لأضللناهم وقد أضلهم، ولكنه قال: لو نشاءُ لعاقبناهُمْ على كُفْرِهم، فطمسنا على أعينهم فصيرناهم عمياً لا يبصرونَ طريقاً، ولا يهتدون له، والطَّمْسُ على العين: هو أنْ لا يكونَ بين جفني العين غرٌّ، وذلك هو الشقُّ الذي بين الجفنين، كما تطمسُ الريحُ الأثرَ، يقال: أعمى مطموس وطميس.

وقوله: «فاسْتَبَقُوا الصِّراطَ»، يقول: فابتدروا الطريقَ.

وقوله: «فَأَنَّى يُبْصِرُونَ»، يقول: فأيّ وجه يبصرون أنْ يسلكوه من الطرق، وقد طمسنا على أعينهم.

وقوله: «وَلَوْ نَشاءُ لَمَسَخْناهُمْ على مَكانَتِهِمْ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولو نشاءُ لأقعدنا هؤلاء المشركينَ من أرجُلِهم في منازلهم «فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِياً وَلا يَرْجِعُونَ»، يقول: فلا يستطيعون أنْ يمضوا أمامهم، ولا أن يرجعوا وراءهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ۝٦٨ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٧٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَمَنْ نُعَمِّرْهُ» فنمُدُّ له في العمر «نُنَكِّسْهُ في الخَلْقِ» نردُّهُ إلى مثلِ حالِه في الصبا من الهَرَمِ والكبر، وذلك هو النكسُ في الخلق، فيصير لا يعلم شيئاً بعد العلم الذي كان يعلمه.

ويعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «أفَلا يَعْقِلُونَ»: أفلا يعقلُ هؤلاء المشركونَ قُدْرَةَ الله على ما يشاء بمعاينتهم ما يعاينونَ من تصريفِهِ خَلْقَهُ فيما شاءَ وأحبَّ من صغرٍ إلى كبرٍ، ومنِ تنكيسٍ بعدَ كبرٍ في هرم.

وقوله: «وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغِي لَهُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما علَّمنا محمداً الشعرَ، وما ينبغي له أن يكون شاعراً.

وقوله: «إنْ هُوَ إلاَّ ذِكْرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ما هو إلا ذِكْرٌ، يعني بقوله: «إنْ هُوَ»: أي محمدٌ إلا ذِكْرٌ لكم أيها الناسُ ذكركم الله بإرسالِه إياهُ إليكم، ونَبَّهَكُمْ به على حَظِّكم «وَقُرآنٌ مُبِينٌ»، يقول: وهذا الذي جاءكم به محمدٌ: قرآنٌ مبين، يقول: يَبِينُ لمن تدبَّرَهُ بعقلٍ ولبّ، أنه تنزيلٌ من الله أنزله إلى محمدٍ، وأنه ليس بشعرٍ ولا سَجْعِ كاهن.

وقوله: «لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيّاً»، يقول: إن محمد إلا ذكر لكم لِينذرَ منكم أيها الناسُ مَنْ كان حيَّ القلبِ، يعقلُ ما يقالُ له، ويفهم ما يُبَيَّنُ له، غير ميتِ الفؤادِ بليد.

وقوله: «وَيحقَّ القَوْلُ على الكافِرِينَ»، يقول: ويحقّ العذابُ على أهلِ الكفر بالله، المولِّينَ عن اتباعه، المعرضينَ عما أتاهم به من عند الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أوَ لَمْ يَرَ هؤلاء المشركون بالله الآلهةَ والأوثانَ «أنَّا خَلَقْنـا لَهُمْ مِمَّـا عَمِلَتْ أيْدِينا»، يقول: مما خلقنا من الخلق «أنْعاماً» وهي المواشي التي خلقها الله لبني آدم، فسخَّرها لهم من الإبل والبقر والغنم، «فَهُمْ لَهَا مالِكُونَ»، يقول: فهم لها مُصرِّفُونَ كيف شاؤوا بالقهر منهم لها والضبط.

وقوله: «وَذَلَّلْناها لَهُمْ»، يقول: وذللنا لهم هذه الأنعامَ «فَمِنْها رَكُوبُهُمْ»، يقول: فمنها ما يركبون كالإبلِ يسافرون عليها، يقال هذه دابةٌ رَكُوب، والرُّكوب بالضمّ: هو الفعل، «وَمِنها يأكُلونَ» لحومها.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولهم في هذه الأنعام منافعُ، وذلك منافع في أصوافها وأوبارها وأشعارها باتخاذهم من ذلك أثاثاً ومتاعاً، ومن جلودها أكناناً، ومشارب يشربون ألبانها.

وقوله: «أفَلا يشكُرُونَ»، يقول: أفلا يشكرون نعمتي هذه، وإحساني إليهم بطاعتي، وإفراد الألوهيةِ لي والعبادة، وترك طاعةِ الشيطانِ وعبادةِ الأصنام.

قوله: «واتَّخذوا مِنْ دونِ الله آلهةً»، يقول: واتخذ هؤلاء المشركونَ من دونِ الله آلهةً يعبدونها «لَعَلَّهُمْ يُنْصَرونَ»، يقول: طمعاً أنْ تنصرهم تلك الآلهةُ من عقابِ الله وعذابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: لا تستطيع هذه الآلهةُ نَصْرَهُمْ من الله إنْ أراد بهم سوءاً، ولا تدفع عنهم ضرّاً.

وقوله: «وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ»، يقول: وهؤلاء المشركون لآلهتهم جُنْدٌ مُحْضَرون.

واختلف أهلُ التأويلِ في تأويلِ قولـه: «مُحْضَرونَ» وأين حضورهم إياهم، فقالَ بعضهم: عنى بذلك: وهم لهم جُنْدٌ محضرون عند الحساب.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وهُمْ لهم جُنْدٌ محضَرون في الدنيا يغضبون لهم.

والقول الثاني أوْلى القولين عندنا بالصواب في تأويل ذلك، لأن المشركينَ عند الحسابِ تتبرأ منهم الأصنامُ، وما كانوا يعبدونه، فكيف يكونون لها جنداً حينئذٍ، ولكنهم في الدنيا لهم جُندٌ يغضبون لهم، ويقاتلون دونهم.

وقوله تعالى: «فَلا يحزنكَ قَوْلُهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: فلا يحزُنك يا محمدُ قول هؤلاء المشركينَ بالله من قومكَ لك: إنك شاعرٌ، وما جئتنا به شعرٌ، ولا تكذيبهم بآياتِ الله وجحودهم نبوَّتَكَ.

وقوله: «إنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وما يُعْلِنونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنا نعلم أنَّ الذي يدعوهم إلى قِيل ذلك الحسدُ، وهم يعلمونَ أنَّ الذي جئتهم به ليس بشعرٍ، ولا يشبهُ الشعرَ، وأنك لست بكذّابٍ، فنعلم ما يُسِرُّونَ من معرفتهم بحقيقةِ ما تدعوهم إليه، وما يعلنون من جحودهم ذلك بألسنتهم علانية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾

يقول جل شأنه: أو لم يَرَ هذا الإنسانُ الذي يقول: «مَنْ يُحْيي العِظَامَ وَهِي رَمِيمٌ» أنّا خلقناهُ من نطفةٍ فسوَّيناهُ خلقاً سَوِيًّا. «فإذا هو خَصِيمٌ»، يقول: فإذا هوَ ذُو خصومةٍ لربه، يخاصمُ فيما قال له رَبُّه إني فاعل، وذلك إخبارٌ لله إياهُ أنه مُحْيِي خَلْقَهُ بعد مماتِهم، فيقول: مَنْ يحيي هذه العظامَ وهي رميمٌ؟ إنكاراً منه لقُدرة الله على إحيائها.

وقوله: «مُبِينٌ»، يقول: يبينُ لمن سمع خُصومته وقِيلَهُ ذلك أنه مخاصمٌ رَبَّهُ الذي خَلَقَهُ.

وقوله: «وَضَرَبَ لنا مَثلاً وَنَسيَ خَلْقَهُ»، يقول: ومثَّل لنا شبهاً بقوله: «مَنْ يُحيي العِظامَ وهيَ رَميمٌ» إذ كان لا يقدرُ على إحياءِ ذلك أحدٌ، يقول: فَجَعَلَنَا كَمَنْ لا يقدرُ على إحياءِ ذلك من الخَلْقِ. «وَنَسيَ خلقَهُ»، يقول: ونسي خَلْقنا إياهُ كيف خلقناه، وأنه لم يكنْ إلا نطفةً، فجعلناها خلقاً سَوِيًّا ناطقاً، يقول: فلم يفكر في خَلْقِنَاهُ، فيعلم أنَّ مَنْ خلقه من نطفةٍ حتى صار بشراً سوياً ناطقاً متصرِّفاً، لا يعجزُ أنْ يعيدَ الأمواتَ أحياء، والعظامَ الرَّميم بشراً كهيئتهم التي كانوا بها قبلَ الفناء، يقولُ الله لنبيه محمد ﷺ: «قُلْ» لهذا المشركِ القائل لكَ: مَنْ يُحيي العظام وهي رميمٌ «يُحييها الَّذي أنشأهَا أوَّلَ مرَّةٍ»، يقول: يحييها الذي ابتدع خَلقَها أوَّل مرّةٍ ولم تكن شيئاً. «وَهُوَ بِكُلِّ خَلقٍ عليمٌ»، يقول: وهو بجميعِ خَلْقِه ذُو علمٍ كيف يُميتُ، وكيف يحيي، وكيف يُبْدِئُ، وكيف يُعيدُ، لا يخفى عليه شيءٌ من أمر خلقه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قُلْ يُحْيِيهَا الذي أنشأها أوّلَ مرّة «الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأخضَر ناراً»، يقول: الذي أخرج لكم من الشجر الأخضر ناراً تُحرق الشجرَ، لا يمتنعُ عليه فِعْلُ ما أراد، ولا يعجز عن إحياء العظامِ التي قد رَمَّتْ، وإعادتها بشَراً سوياً، وخَلْقاً جديداً، كما بدأها أوّلَ مرّة.

قوله: «فإذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدونَ»، يقول: فإذا أنتم من الشجرِ تُوقِدُونَ النار.

وقوله: «أوَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأرض بِقادِرٍ على أنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ مُنَبِّهاً هذا الكافرَ الذي قال: «مَنْ يُحيي العِظامَ وهي رَميمٌ» على خطأ قوله، وعظيمِ جهله «أوَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّموات» السبع «والأرضَ بقادِرٍ على أنْ يَخلُقَ» مثلكم، فإنَّ خَلْقَ مثلكم من العظامِ الرميمِ ليس بأعظمَ من خلقِ السمواتِ والأرض، يقول: فَمَنْ لم يتعذَّرْ عليه خَلْقُ ما هو أعظم من خَلْقِكم، فكيف يتعذَّرُ عليه إحياءُ العظامِ بعدما قد رَمَّتْ وبلِيَت؟

وقوله: «بَلى وَهُوَ الخلاَّقُ العَليمُ»، يقول: بلى هو قادرٌ على أنْ يخلقَ مِثْلَهُم وهو الخلاقُ لما يشاء، الفعَّالُ لما يريد، العليمُ بكلِّ ما خلقَ ويخلقُ، لا يخفى عليه خافية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٣﴾

كان قتادة يقول في ذلك: «أوَ ليسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ بقادرٍ

على أنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلى وَهو الخلاق العليمُ»، قال: هذا مِثْل «إنما أمْرُهُ إذا أراد شيئاً أنْ يقولَ له كُنْ فيكون»، قال: ليس من كلام العربِ شيءٌ هو أخفُّ من ذلك، ولا أهون، فأمرُ الله كذلك.

وقوله: «فَسُبحانَ الَّذي بِيدِهِ مَلكُوتُ كُلِّ شَيءٍ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فتنزيهُ الذي بيدِه مُلْكُ كُلِّ شيءٍ وخزائنه.

وقوله: «وَإليهِ تُرجعونَ»، يقول: وإليه تُرَدُّونَ وتَصيرونَ بعد مماتكم.

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣﴾

أقسم الله تعالى ذِكْرُه بالصَّافاتِ، والزاجرتِ، والتالياتِ ذِكْراً؛ فأما الصَّافات: فإنها الملائكةُ الصافاتُ لربِّها في السماء وهي جمع صافَّة. فالصافات: جَمْعُ جَمْعٍ.

واختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «فالزَّاجِرَاتِ زَجْراً»، فقال بعضهم: هي الملائكة تزجرُ السحابَ تَسُوقُه.

وقال آخرون: بل ذلك آي القرآن التي زجر الله بها عما زَجر بها عنه في القرآن.

والذي هو أَوْلى بتأويلِ الآيةِ عندنا مَنْ قال هُم الملائكةُ، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه، ابتدأ القسم بنوعٍ من الملائكة، وهم الصافُّونَ بإجماعٍ من أهل التأويل، فَلأَنْ يكونَ الذي بعده قسماً بسائرِ أصنافهم أشبهُ.

وقوله: «فالتَّالياتِ ذِكْراً»، يقول: فالقارئاتِ كتاباً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤ رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ۝٥ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ

﴿شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «إنَّ إلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ» والصافاتِ صفاً إنَّ معبودَكُم الذي يستوجبُ عليكم أيها الناسُ العبادةَ، وإخلاص الطاعةِ منكم له لواحدٌ لا ثانيَ له ولا شريكَ. يقول: فأخْلِصُوا العبادةَ، وإياه فأفردوا بالطاعةِ، ولا تجعلوا له في عبادتكم إياهُ شريكاً.

وقـولـه: «رَبُّ السَّمَوَاتِ والأرْضِ ومَا بَيْنَهُما»، يقول: هو واحدٌ خالقُ السمواتِ السبعِ وما بينهما من الخلق، ومالِكُ ذلك كله، والقَيِّمُ على جميع ذلـك، يقول: فالعبادةُ لا تصلحُ إلا لمن هذه صِفَتُه، فلا تعبدوا غيرَهُ، ولا تشركوا معه في عبادتكم إياهُ مَنْ لا يضرُّ ولا ينفع، ولا يخلق شيئاً ولا يُفْنِيه.

وقـولـه: «وَرَبُّ المَشـارِقِ»، يقول: ومُدَبِّرُ مشارقِ الشمسِ في الشتاء والصيف ومغـاربهـا، والقيِّمُ على ذلك ومُصْلِحُه، وترك ذِكْرَ المغارب لدلالةِ الكلامِ عليه، واستغني بذكر المشارق من ذكرها، إذْ كان معلوماً أنَّ معها المغارب.

وقـولـه: «إنَّا زَيَّنا السَّماءَ الدنيا بزينَة الكَوَاكِب» اختلفت القَرَأةُ في قراءة قوله: «بِـزِينَة الكَوَاكِبِ» فقرأته عامة قَرَأة المدينة والبصرة وبعض قَرَأة الكوفة «بزينةِ الكـواكبِ» بإضـافـةِ الزينةِ إلى الكواكب، وخفض الكواكب «إنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا» التي تليكم أيها الناسُ، وهي: الدنيا، إليكم بتزيينها الكواكبُ: أي بأنَّ زينتها الكواكب. وقرأ ذلك جماعة من قَرَأةِ الكوفة «بزِينَةٍ الكَوَاكب» بتنوين زينة، وخفض الكواكب ردّاً لها على الزينة، بمعنى: إنَّا زينا السماء الدنيا بزينةٍ هي الكواكبُ، كأنه قال: زيناها بالكواكبِ.

وأما القراءة فأعجبها إليَّ بإضافة الزينةِ إلى الكواكبِ وخفضِ الكواكب لصحةِ معنى ذلك في التأويل والعربية، وأنها قراءة أكثر قَرَأَةِ الأمصار وإن كان التنوين في الزينة وخفض الكواكب عندي صحيحاً أيضا.

وقوله: «وَحِفْظاً»، يقول تعالى ذكره: وَحِفْظاً للسماءِ الدنيا زَيَّنّاها بزينة الكواكب.

وتأويل الكلام: وحفظاً لها من كل شيطانٍ عاتٍ خبيثٍ زيناها.

وقوله: «لا يَسَّمَّعُونَ إلى المَلإِ الأعْلَى» اختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: «لا يسمعون»، فقرأ ذلك عامة قَرَأَة المدينة والبصرة، وبعض الكوفيين: «لا يَسْمَعُونَ» بتخفيف السين من يسمعون، بمعنى أنهم يَتَسَمَّعُونَ ولا يسمعون. وقرأ ذلك عامة قَرَأَة الكوفيين بعد لا يسمعون، بمعنى: لا يَتَسَمَّعون، ثم أدغموا التاء في السين فشدَّدُوهَا.

وأولى القراءتين في ذلك عندي بالصوابِ قراءةُ من قرأه بالتخفيف، لأنَّ الأخبارَ الواردةَ عن رسولِ الله ﷺ وعن أصحابه، أنَّ الشياطينَ قد تَتَسَمَّعُ الوحيَ، ولكنها تُرْمى بالشُّهُبِ لئلا تسمع[1].

فإنْ ظنَّ ظانٌّ أنه لما كان في الكلام «إلى»، كان التسمع أولى بالكلام من السمع، فإنَّ الأمرَ في ذلك بخلافِ ما ظَنَّ، وذلك أن العربَ تقول: سمعتُ فلاناً يقول كذا، وسمعت إلى فلانٍ يقول كذا، وسمعت من فلان.

---

(١) حديث الزهري عن علي بن الحسين، عن ابن عباس (وروي عن ابن عباس عن رجالٍ من الأنصار). أخرجه المؤلف، وهو عند الترمذي (٢٢٢٤) وقال: حسن صحيح. وحديث عائشة الذي ساقه المؤلف من رواية ابن وهب عن ابن لهيعة، عن أبي الأسود عن عروة، وهي رواية قوية على الرغم من ضعف ابن لهيعة لأنها من رواية ابن وهب عنه (انظر: تهذيب الكمال: ١٥/٤٩٤). كما ساق المؤلف عدداً من اقوال ابن عباس بهذا المعنى..

وتـأويلُ الكلام: إنَّا زَيَّنَّا السماءَ الدنيا بزينة الكواكب. وحفظاً من كلِّ شيطانٍ مارد أنْ لا يسَّمَّع إلى الملإِ الأعلى، فحذفت «إن» اكتفاء بدلالة الكلام عليها.

ويعني بقوله: «إلى المَلإِ»: إلى جماعةِ الملائكةِ التي هم أعلى مِمَّنْ هُمْ دونَهم.

وقـولـه: «وَيُقْـذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ دُحُوراً» ويُرْمَوْن من كلِّ جانبٍ من جوانبِ السماء دُحُوراً، والدحور: مصدر من قولك: دَحَرْتُه أدحَرُه دَحْراً ودُحوراً، والدَّحْر: الدَّفْعُ والإبعادُ، يقال منه: ادْحَرْ عنكَ الشيطانَ: أي ادْفَعْهُ عنك وأبعده.

وقـولـه: «ولَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ»، يقـول تعـالى ذِكْرُه: ولهذه الشياطين المُسْتَرِقةِ السمعَ عذابٌ من الله «واصبٌ»، يقول: دائم خالص.

وقـوله: «إلاَّ مَنْ خَطِفَ الخَطْفَةَ»، يقول: إلا مَنِ استرقَ السمعَ منهم «فأتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ»، يعني: مضيءٌ مُتَوَقِّدٌ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: فاستفتِ يا محمدُ هؤلاء المشركينَ الذين يُنكرون البعثَ بعد المماتِ والنشورَ بعد البلاءِ: يقول: فَسَلْهُمْ: أَهُمْ أشـدُّ خَلْقـاً؟ يقـول: أخلقُهم أشـدُّ؟ أم خَلْقُ مَنْ عَدَدْنا خَلْقَهُ من الملائكةِ والشياطين والسموات والأرض.

وقـولـه: «إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ»، يقول: إنا خلقناهم من طينٍ لاصق. وإنما وصفه جلّ ثناؤه باللُّزوبِ، لأنه ترابٌ مخلوطٌ بماء، وكذلك خَلْقُ ابنِ آدمَ من ترابٍ وماء ونار وهواء؛ والترابُ إذا خُلِطَ بماء صار طيناً لازباً.

وقوله: «بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ»، اختلفت القَرَأة في قراءة ذلك. فقرأته عامة قَرَأة الكوفة: «بَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ» بضم التاء من عجبتَ، بمعنى: بل عَظُمَ عندي وكَبُرَ اتخاذُهم لي شريكاً، وتكذيبهم تنزيلي وهم يسخرون. وقرأ ذلـك عامـة قَرَأةِ المدينة والبصرة وبعض قَرَأة الكوفة «بَلْ عَجِبْتَ» بفتح التاء بمعنى: بل عجبتَ أنتَ يا محمدُ ويسخرون من هذا القرآنِ.

والصوابُ من القولِ في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان مشهورتان في قَرَأةِ الأمصارِ، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب.

فإن قال قائل: وكيف يكون مصيباً القارئُ بهما مع اختلافِ معنييهما؟ قيل: إنهمـا وإنْ اختلفَ مَعْنَيَاهُمَا فكلُّ واحدٍ من معنييه صحيحٌ، قد عجبَ محمدٌ مما أعطاهُ اللهُ من الفضلِ، وسخرَ منه أهلُ الشركِ باللهِ، وقد عَجِبَ رَبُّنَا من عظيمِ ما قاله المشركونَ في الله، وسَخِر المشركونَ بما قالوه.

فإن قال: أكانَ التنزيلُ بإحداهما أو بكلتيهما؟ قيل: التنزيلُ بكلتيهما. فإنْ قال: وكيف يكونُ تنزيلُ حرف مَرَّتين؟ قيل: إنه لم ينزل مَرَّتين، إنما أنزل مرَّةً، ولكنه أمر ﷺ أن يقرأ بالقراءتين كلتيهما، ولهذا مَوضع سنستقصي إنْ شاء الله فيه البيانَ عنه بما فيه الكفاية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا ذُكِّرَ هؤلاء المشركونَ حُجَجَ الله عليهم ليعتبروا

ويتفكروا، فَيُنِيبُوا إلى طاعةِ الله «لا يذكرون»، يقول: لا ينتفعونَ بالتذكيرِ فيتذكَّرُوا.

وقوله: «وَإِذَا رأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ»، يقول: وإذا رأوا حُجَّةً من حججِ الله عليهم، ودلالةً على نبوّةِ نبيه محمدٍ ﷺ يستسخرون: يقول: يسخرون ويستهزئون.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ١٥ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ١٦ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ١٧ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ١٨ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقال هؤلاء المشركونَ من قُرَيش بالله لمحمد ﷺ: ما هذا الذي جئتنا به «إلَّا سحرٌ مبينٌ»، يقول: يبينُ لمن تأمَّلَهُ ورآهُ أنه سحرٌ. «أئِذَا مِتْنا وكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ»، يقولون: منكرينَ بعثَ الله إياهم بعد بلائهم، أئنا لمبعوثونَ أحياءً مَن قبورنا بعد مماتنا، ومصيرنا تراباً وعظاماً، قد ذهبَ عنها اللحومُ «أوَ آباؤُنا الأوَّلُونَ» الذين مضوا مِنْ قَبْلِنَا، فبادوا وهلكوا. يقول الله لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ لهؤلاء: نعم أنتم مبعوثونَ بعد مصيرِكم تراباً وعظاماً أحياء كما كنتم قبل مماتكم، وأنتم داخرون.

وقوله: «وأَنْتُم داخِرُونَ»، يقول تعالى ذكره: وأنتم صَاغِرُونَ أشدَّ الصَّغَر من قولهم: صاغر داخر.

وقوله: «فإنَّما هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فإذَا هُمْ يَنْظُرُونَ»، يقول تعالى ذكره: فإنما هي صيحة واحدة، وذلك هو النفخ في الصور «فاذَا هُمْ يَنْظُرُونَ»، يقول: فإذا هم شاخصةٌ أبصارهم ينظرون إلى ما كانوا يُوعَدُونَهُ من قيامِ الساعةِ ويعاينونه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقال هؤلاء المشركون المكذِّبونَ إذا زُجِرَتْ زجرةً واحدة، ونُفِخَ في الصور نفخةٌ واحدة: «يَاوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ»، يقولون: هذا يومُ الجزاء والمحاسبة.

وقوله: «هَذَا يَوْمُ الفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ»، يقول تعالى ذكره: هذا يومُ فصلِ اللهِ بين خَلْقِه بالعدلِ من قضائهِ الذي كنتم به تُكَذِّبُونَ في الدنيا فتنكرونه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾

وفي هذا الكلام متروكٌ استغني بدلالةِ ما ذُكِرَ عما تُرِكَ، وهو: فيقال: احشروا الذين ظلموا، ومعنى ذلك اجْمَعُوا الذين كفروا بالله في الدنيا وعَصَوْه وأزواجَهم وأشياعَهم على ما كانوا عليه من الكفرِ بالله وما كانوا يعبدونَ من دونِ الله من الآلهة.

وقوله: «ومَا كانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فاهْدُوهُمْ إلى صِراطِ الجَحِيمِ»، يقول تعالى ذكره: احشروا هؤلاء المشركينَ وآلهتهم التي كانوا يعبدونها من دونِ الله، فوجِّهُوهم إلى طريقِ الجحيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَقِفُوهُمْ»: احبسوهم: أي احبسوا أيها الملائكةُ هؤلاء المشركينَ الذين ظلموا أنفسَهم وأزواجَهم، وما كانوا يعبدونَ من دونِ الله من الآلهة. «إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ»، فاختلف أهل التأويل في المعنى الذي يأمرُ الله تعالى ذِكْرُه بوقفِهم لمسألتهِم عنه، فقال بعضهم: يسألهم: هل يُعجبهم وُرُودُ النارِ.

وقال آخرون: بل ذلك للسؤال عن أعمالهم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وقِفُوا هؤلاء الذين ظَلَمُوا أنفسَهم وأزواجَهم إنهم مسئولون عما كانوا يعبدون من دون الله.

وقوله: «ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ»، يقول: مالكم أيها المشركونَ بالله لا ينصرُ بعضُكم بعضاً. «بَلْ هُمُ اليَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ»، يقول: بل هم اليوم مستسلمون لأمرِ الله فيهم وقضائه، مُوقِنونَ بعذابه.

وقوله: «وأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ»، قيل: معنى ذلك: وأقبلَ الإنسُ على الجنِّ يتساءلون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى ذكره: قالت الإنسُ للجنِّ: إنكم أيها الجنُّ كنتم تأتوننا من قِبَلِ الدينِ والحقِّ فتخدَعُونَنَا بأقوى الوجوه، واليمينُ: القوةُ والقدرةُ في كلام العرب.

وقوله: «قالُوا بَلْ لَمْ تكونُوا مُؤْمِنِينَ. ومَا كانَ لنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ»،

يقول تعالى ذِكْرُه: قالت الجنُّ للإنسِ مجيبةً لهم: بل لم تكونوا بتوحيدِ الله مُقِرِّينَ وكنتم للأصنامِ عابدين «وَمَا كانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ»، يقول: قالوا: وما كانَ لنا عليكم من حُجَّةٍ، فنصدَّكم بها عن الإيمان. ونحول بينكم من أجلها وبين اتباعِ الحقِّ «بَلْ كُنْتُمْ قَوْما طاغِينَ»، يقول: قالوا لهم: بل كنتم أيها المشركونَ قوماً طاغينَ على الله، متعدِّينَ إلى ما ليسَ لكم التعدِّي إليه من معصيةِ الله وخلافِ أمره.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ۝٣١ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ۝٣٢ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ۝٣٣ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فحقَّ علينا قولُ رَبِّنَا، فَوَجَبَ علينا عذابُ ربنا، إنا لذائقونَ العذابَ نحنُ وأنتم بما قَدَّمْنَا من ذنوبنا ومعصيتنا في الدنيا، فهذا خبرٌ من الله عن قيلِ الجنِّ والإنس.

وقـوله: «فأَغْوَيْناكُمْ إنَّا كُنَّا غاوِينَ»، يقول: فأضللناكم عن سبيلِ الله والإيمانِ به إنَّا كنا ضالين، وهذا أيضاً خبرٌ من الله عن قِيلِ الجنِّ والإنسِ، قال الله: «فإنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي العَذَابِ مُشْتَرِكُونَ»، يقول: فإنَّ الإنسَ الذين كفروا بالله وأزواجهم، وما كانوا يعبدون من دون الله، والَّذين أَغْوَوا الإنس من الجنِّ يومَ القيامةِ في العذابِ مشتركونَ جميعاً في النار، كما اشتركوا في الدنيا في معصية الله.

«إنَّا كذلكَ نَفْعَلُ بالمُجْرِمينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنا هكذا نفعلُ بالذين اختاروا معاصيَ الله في الدنيا على طاعته، والكفرَ به على الإيمانِ، فنذيقهم العذابَ الأليم، ونجمع بينهم وبين قرنائِهم في النار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونِۭ ۝٣٦ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإنَّ هؤلاء المشركينَ بالله الذين وَصَفَ صفتهم في هذه الآياتِ كانوا في الدنيا إذا قِيلَ لهم: قولوا: «لا إلهَ إلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ»، يقول: يتعظَّمُونَ عن قِيلِ ذلك ويتكبرون، وترك من الكلام: قُولُوا، اكتفاءً بدلالةِ الكلامِ عليه من ذكره.

وقوله: «وَيَقُولُونَ أئِنَّا لتَارِكُو آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ويقول هؤلاء المشركونَ من قريش: أنتركُ عبادةَ آلهتنا لشاعرٍ مجنون، يقول: لاتباعِ شاعرٍ مجنون، يعنون بذلك نبيَّ الله ﷺ، ونقول: لا إله إلا الله.

وقوله: «بَلْ جاءَ بالحَقِّ» وهذا خبرٌ من الله مكذِّباً للمشركينَ الذين قالوا للنبيِّ ﷺ: شاعرٌ مجنون، كَذَبُوا، ما محمدٌ كما وصَفُوهُ به من أنه شاعرٌ مجنون، بل هو لله نبيٌّ جاء بالحقِّ من عنده، وهو القرآن الذي أنزله عليه، «وصَدَّقَ المرسلين» الذين كانوا من قَبْلِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ۝٣٨ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ۝٤١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لهؤلاء المشركين من أهلِ مكة، القائلينَ لمحمدٍ: شاعرٌ مجنون «إنَّكُمْ» أيها المشركونَ «لَذائِقُو العَذابِ الأليمِ» الموجِعِ في الآخرة «ومَا تُجْزَوْنَ»، يقول: وما تُثابون في الآخرة إذا ذقتم العذابَ الأليمَ فيها «إلَّا» ثوابَ «ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» في الدنيا، معاصيَ الله.

وقوله: «إلَّا عِبادَ الله المُخْلَصِينَ»، يقول: إلا عباد الله الذين أخلصهم يومَ خَلَقَهُمْ لرحمتـهِ، وكتبَ لهم السعـادةَ في أمِّ الكتـاب فإنهم لا يذوقـون العذابَ، لأنهم أهلُ طاعةِ الله، وأهلُ الإيمان به.

وقوله: «أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ»، يقول: هؤلاء هم عبادُ الله المخلَصُونَ لهم رزقٌ معلوم وذلك الرزقُ المعلوم: هو الفواكهُ التي خلقها الله لهم في الجنة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ۝٤٢ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٤٣ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٤٤ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝٤٥ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٤٦ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ۝٤٧﴾

قوله: «فَوَاكِهُ» ردّاً على الرزقِ المعلومِ تفسيراً له، ولذلك رفعت.

وقوله: «وَهُمْ مُكْرَمُونَ»، يقول: وهم مع الذي لهم من الرزقِ المعلومِ في الجنـة، مكـرمونَ بكرامةِ الله التي أكرمَهُمُ اللهُ بها «فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ»، يعني: في بسـاتين النعيم. «على سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ»، يعني: أنَّ بعضَهم يقابلُ بعضاً، ولا ينظر بعضهم في قفا بعضٍ.

وقـولـه: «يُطافُ عَلَيْهِمْ بكأْسٍ مِنْ مَعِينٍ»، يقول تعالى ذكره: يطوفُ الخَدَم عليهم بكأسٍ من خمرٍ جاريةٍ ظاهرةٍ لأعينهم غير غائرة.

وقوله: «بَيْضَاءَ لَذَّةٍ للشَّارِبِينَ»، يعني بالبيضاء: الكأس، ولتأنيثِ الكأسِ أُنِّثَتِ البيضاءُ.

وقوله: «لَذَّةٍ للشَّارِبِينَ»، يقول: هذه الخمرُ لذّة يَلْتَذُّهَا شارِبُوها.

وقوله: «لا فِيها غَوْلٌ»، يقول: لا في هذه الخمرِ غَوْلٌ، وهو أنْ تغتالَ

عقولهم: يقول: لا تذهب هذه الخمرُ بعقولِ شاربيها. كما تذهبُ بها خمورُ أهلِ الدنيا إذا شربوها فأكثروا منها.

وقد يحتمل قوله: «لا فِيها غَوْلٌ» أن يكون معنياً به: ليس فيها ما يُؤْذِيهم من مكروه، وذلك أنَّ العربَ تقولُ للرجل يصابُ بأمرٍ مكروهٍ، أو يُنَالُ بداهيةٍ عظيمة: غالَ فلاناً غُولٌ.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: «وَلا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ» فقرأته عامة قَرَأَة المدينة والبصرة وبعض قَرَأَة الكوفة «يُنْزَفُونَ» بفتح الزاي، بمعنى: ولا هُمْ عن شُرْبها تُنْزَف عقولهم. وقرأ ذلك عامة قَرَأَة الكوفة «وَلا هُمْ عَنْها يُنْزِفُونَ» بكسر الزاي، بمعنى: ولا هم عن شربها يَنْفَد شرابُهم.

والصواب من القولِ في ذلك أنهما قراءتان معروفتان صحيحتا المعنى غير مُخْتَلِفَتَيْهِ، فبأيتهما قرأ القارئُ فمصيبٌ، وذلك أنَّ أهلَ الجنة لا ينفدُ شرابهم، ولا يُسْكِرُهم شربهم إياه، فيُذهِب عقولَهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾﴾

يقول تعالى ذكره: وعند هؤلاء المخلَصين من عبادِ الله في الجنة قاصراتُ الطرفِ، وهُنَّ النساءُ اللواتي قَصَرْن أطرافهنَّ على بُعُولتهنَّ، ولا يُرِدْن غيرهم، ولا يَمْدُدْن أبصارهنَّ إلى غيرهم.

وقوله: «عِينٌ»، يعني بالعِين: النُّجْلَ العيونِ عِظامُها، وهي جمع عيناء، والعيناءُ: المرأةُ الواسعةُ العينِ عظيمتها، وهي أحسنُ ما تكون من العيون.

وقوله: «كأنَّهُنَّ بَيضٌ مَكْنُونٌ»، اختلف أهلُ التأويلِ في الذي به شُبِّهْنَ من البيض بهذا القول، فقال بعضهم: شُبِّهْنَ ببطنِ البيضِ في البياض، وهو

الذي داخل القِشْرِ، وذلك أن ذلك لم يمسَّه شيءٌ.

وقال آخرون: بل شُبهن بالبيض الذي يحضنه الطائرُ، فهو إلى الصفرةِ، فشبه بياضهنَّ في الصفرة بذلك.

وقال آخرون: بل عنى بالبيض في هذا الموضع: اللؤلؤ، وبه شُبِّهْنَ في بياضِه وصفائه.

وأوْلى الأقوال في ذلك بالصوابِ عندي قولُ مَنْ قال: شبهن في بياضهن، وأنهنَّ لم يَمَسُّهُنَّ قبلَ أزواجهنَّ إنسٌ ولا جانٌّ ببياضِ البيضِ الذي هو داخل القشر، وذلك هو الجلدةُ المُلْبَسة المُخَّ قبل أنْ تمسه يَدٌ أو شيءٌ غيرها، وذلك لا شكَّ هو المكنونُ؛ فأما القشرة العليا فإنَّ الطائرَ يمسها، والأيدي تُباشِرُهَا، والعُشُّ يلقاها. والعربُ تقول لكلِّ مَصُونٍ مكنونٌ ما كان ذلك الشيءُ لؤلؤاً كانَ أو بيضاً أو متاعاً.

وقوله: «فأقبلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فأقبلَ بعضُ أهلِ الجنة على بعضٍ يتساءلون، يقول: يسأل بعضُهم بعضاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝٥١ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قالَ قائلٌ من أهلِ الجنة إذْ أقبلَ بعضُهم على بعض يتساءلون «إني كانَ لي قَرِينٌ». وكان ذلك القرينُ شيطاناً أو شريكاً كانَ له من بني آدم، أو صاحباً، وهو الذي كان يقولُ له: «أئنَّكَ لَمِنَ المُصَدِّقينَ»، يعني: أتصدقُ بأنك تُبعثُ بعدَ مماتكَ، وتُجْزَى بعملك، وتحاسب؟[1].

---

(١) لا نشك أنه وقع سقط كبير من كلام المؤلف في تفسير هذه الآية، ولكننا عرفنا اختياره مما بقي منه فأثبتناه.

وقـولـه: «أَئِنَّا لَمَدِينُونَ»، يقول: أَئِنَّا لمحاسبون ومجزيُّون بعد مصيرنا عظاماً ولحومنا تراباً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٥ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ۝٥٧﴾

يقول تعالى ذكره: قال هذا المؤمنُ الذي أُدخلَ الجنةَ لأصحابه: «هل أنتم مُطَّلِعـون» في النـار، لعلِّي أرى قريني الذي كان يقول لي: إنك لمن المصدِّقينَ بأنَّا مبعوثونَ بعد المماتِ.

وقوله: «فاطَّلَعَ فَرآهُ فِي سَوَاءِ الجَحِيمِ»، يقول: فاطلع في النارِ فرآه في وسَط الجحيم. وفي الكلام متروكٌ استغني بدلالةِ الكلامِ عليه من ذكره، وهو فقالوا: نعم.

وقوله: «تاللهِ إنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ»، يقول: فلما رأى قرينَهُ في النار قال: تالله إنْ كدت في الدنيا لتهلكني بصدِّكَ إيايَ عن الإيمانِ بالبعثِ والثوابِ والعقاب.

وقوله: «وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ المُحْضَرِينَ»، يقول: ولولا أنَّ الله أنعمَ عليَّ بهدايته، والتوفيق للإيمانِ بالبعثِ بعد الموتِ، لكنتُ من المحضَرِين معكَ في عذاب الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٥٩ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٠ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ۝٦١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ هذا المؤمنِ الذي أعطاهُ الله ما أعطاهُ من كرامتـهِ في جنته سروراً منه بما أعطاهُ فيها «أفَمَا نَحْنُ بمَيِّتِينَ إلاَّ مَوْتَتَنا الأُولى»، يقـول: أفمـا نحن بميتين غيرَ موتتنا الأولى في الدنيا، «ومَا نَحْنُ بِمُعَـذَّبينَ»، يقـول: وما نحن بمعذَّبين بعد دخولنا الجنةَ «إنَّ هَذا لَهُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ»، يقول: إنَّ هذا الذي أعطانَاهُ اللهُ من الكرامةِ في الجنة، أنّا لا نُعَذَّبُ ولا نموتُ، لهو النَّجاءُ العظيم مما كنا في الدنيا نَحْذَرُ من عقابِ الله، وإدراكِ ما كنا فيها، نُؤَمِّلُ بإيماننا، وطاعتنا رَبَّنا.

وقـوله: «لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ العامِلونَ»، يقول تعالى ذكره: لمثل هذا الـذي أُعْـطَيتُ هؤلاء المؤمنينَ من الكـرامـةِ في الآخـرة، فليعملْ في الدنيا لأنفسِهم العاملونَ، ليدركوا ما أدركَ هؤلاء بطاعةِ رَبِّهم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: أهذا الذي أعطيتُ هؤلاء المؤمنين الذين وصفتُ صِفَتَهم من كرامتي في الجنة، ورزقتهم فيها من النعيمِ خيرٌ، أو ما أعددتُ لأهلِ النارِ من الزَّقُّوم. وعُنِي بالنزل: الفضل.

وقوله: «أمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ» ذُكِرَ أنَّ الله تعالى لما أنزلَ هذه الآيةَ قال المشركونَ: كيف ينبتُ الشجرُ في النار، والنار تُحْرِقُ الشجرَ؟ فقال الله: «إنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً للظَّالِمينَ»، يعني لهؤلاء المشركينَ الذين قالوا في ذلك ما قالوا، ثم أخبرهم بصفةِ هذه الشجرة فَقالَ: «إنَّها شَجَرَة تَخْرُجُ فِي أصْلِ الجَحِيمِ».

وقوله: «طَلْعُها كأنَّهُ رُؤوسُ الشَّياطِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: كأنَّ طَلْعَ هذه

الشجرةِ، يعني شجرةَ الزقومِ في قُبحهِ وسماجتهِ رؤوس الشياطين في قُبحها.

فإنْ قال قائل: وما وجهُ تشبيهه طَلْعَ هذه الشجرةِ برؤوسِ الشياطين في القُبْحِ، ولا عِلْمَ عندنا بمبلغِ قُبْحِ رؤوسِ الشياطين، وإنما يمثِّلُ الشيءُ بالشيءِ تعريفاً من المُمثِّل المُمثَّل له قربَ اشتباهِ الممثَّل أحدهما بصاحبِهِ مع معرفة المُمَثَّل له الشيئين كِلَيْهِمَا، أو أحدهما، ومعلومٌ أنَّ الذين خُوطِبُوا بهذه الآيةِ من المشركينَ، لم يكونوا عارفينَ شَجَرةَ الزقوم، ولا برؤوسِ الشياطين، ولا كانوا رأوهما، ولا واحداً منهما؟

قيل له: أما شجرةُ الزقوم فقد وصفها الله تعالى ذِكْرُه لهم وبيَّنَهَا حتى عَرَفُوهَا ما هي وما صفتها، فقال لهم: «شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الجَحِيمِ طَلْعُها كأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّياطِينِ» فلم يتركهم في عَمـاءٍ منها، وأما في تمثيله طَلْعَها برؤوسِ الشياطين، فأقولُ لكلٍّ منها وجهٌ مفهوم: أحدها: أن يكونَ مثَّلَ ذلك برؤوسِ الشياطين على نحو ماقد جَرَى به استعمالُ المخاطبين بالآية بينهم، وذلك أنَّ استعمالَ الناس قد جرى بينهم في مبالغتهم إذا أراد أحدهم المبالغةَ في تقبيحِ الشيءِ، قال: كأنه شيطانٌ، فذلك أحدُ الأقوال. والثاني: أن يكون مُثِّل برأسِ حيةٍ معروفةٍ عند العربِ تسمى شيطاناً، وهي حية لها عُرْفٌ فيما ذُكر قبيحُ الوجهِ والمنظر.

والثالث: أنْ يكون مثلَ نبتٍ معروفٍ برؤوس الشياطين ذُكِر أنه قبيحُ الرأس. «فإنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْها فَمالِئُونَ منها البُطُونَ»، يقول تعالى ذكره: فإنَّ هؤلاء المشركين الذين جعل الله هذه الشجرةَ لهم فتنةً، لآكلونَ من هذه الشجرةِ التي هي شجرةُ الزَّقوم، فمالئونَ من زَقُّومها بطونَهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ۝٦٧ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ۝٦٨ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ۝٦٩ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ

يُهۡرَعُونَ ﴿٧٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «ثُمَّ إنَّ لَهُمْ عَلَيْها لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ» ثم إنَّ لهؤلاءِ المشركينَ على ما يأكلون من هذه الشجرةِ شجرةِ الزقوم شَوْباً، وهو الخَلْط من قولِ العربِ: شابَ فلانٌ طعامَهُ فهو يشوبه شَوْباً وشياباً «مِنْ حَمِيمٍ» والحميم: الماءُ المحموم، وهو الذي أُسْخِنَ فانتهى حَرُّهُ، وأصله مفعول صُرف إلى فعيل.

وقوله: «ثُمَّ إنَّ مَرْجِعَهُمْ لإلى الجَحِيمِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ثم إنَّ مآبَهُمْ ومصيرَهُمْ لإلى الجحيم.

وقوله: «إنَّهُمْ ألْفَوْا آباءَهُمْ ضَالينَ»، يقول: إنَّ هؤلاء المشركين الذين إذا قيل لهم: قولوا لا إله إلا الله يستكبرون، وجدوا آباءهم ضُلّالاً عن قصدِ السبيل، غير سالكين مَحَجَّةَ الحقِّ. «فَهُمْ على آثارِهِمْ يُهْرَعُونَ»، يقول: فهؤلاء يُسْرع بهم في طريقهم، ليقتفوا آثارهم وسنتهم، يقال منه: أُهْرِع فلان: إذا سار سيراً حثيثاً فيه شبه بالرعدة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: وَلَقَدۡ ضَلَّ قَبۡلَهُمۡ أَكۡثَرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٧٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد ضلَّ يا محمدُ عن قَصْدِ السبيل ومَحجة الحقِّ قبل مشركي قومكَ من قريش أكثرُ الأممِ الخاليةِ مِنْ قَبْلِهم «وَلَقَدْ أرْسَلْنا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ»، يقول: ولقد أرسلنا في الأمم التي خلت من قبل أمتك، ومن قبلِ قومكَ المُكَذِّبِيكَ منذرينَ تنذرهم بأسَنا على كُفْرِهم بنا، فَكَذَّبُوهم ولم يقبلوا منهم نصائحهم، فأحللنا بهم بأسَنا وعقوبتنا. «فانْظُرْ كيْفَ كانَ عاقبَةُ

المُنْـذَرِينَ»، يقول: فتأملْ وتَبَيَّنْ كيف كان غِبُّ أمرِ الذين أنْذَرَتْهُمْ أنبياؤُنَا، وإلَامَ صار أمْرُهُمْ، وما الذي أعقبهم كُفْرُهُمْ بالله، ألم نُهْلكهم فَنُصَيِّرَهُمْ للعبادِ عِبرةً ولِمَنْ بعدَهُمْ عِظة؟

وقوله: «إلَّا عِبادَ اللهِ المُخْلَصِينَ»، يقول تعالى: فانظر كيف كان عاقبةُ المُنْذَرينَ، إلا عبادَ الله الذين أخلصناهم للإيمانِ بالله وبرسله، واستثنى عبادَ الله من المنذَرين، لأنَّ معنى الكلام: فانظر كيف أهلكنا المنذَرينَ إلا عبادَ الله المؤمنين، فلذلك حسن استثناؤهم منهم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَـى: وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لقد نادانا نوحٌ بمسألته إيَّانا هلاكَ قومِهِ، فقال: «رَبِّ إنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً ونهاراً، فَلَمْ يَزِدْهُم دُعائي إلَّا فِراراً»... إلى قوله: «ربِّ لا تَذَرْ على الأرْضِ مِنَ الكافِرِينَ دَيَّاراً».

وقـولـه: «فَلَنِعْمَ المُجِيبُونَ»، يقول: فَلَنِعْمَ المجيبونَ كُنَّا له إذ دعانا، فأَجَبْنَا له دعاءَهُ، فأهلكنا قومَهُ. «ونَجَّيْناهُ وأهْلَهُ»، يعني: أهلَ نوحٍ الذين ركبوا معه السفينة.

وقوله: «مِنَ الكَرْبِ العَظِيمِ»، يقول: من الأذى والمكروهِ الذي كان فيه من الكافرينَ، ومن كربِ الطُّوفانِ والغرقِ الذي هَلَكَ به قومُ نوح.

وقوله: «وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الباقِينَ»، يقول: وجعلنا ذرِّيةَ نوحٍ هم الذين بقوا في الأرض بعدَ مَهْلِكِ قومه، وذلك أنَّ الناس كلهم من بعد مَهْلِك نوح إلى اليوم إنما هم ذرِّيةُ نوح.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ۝٧٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٩ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٨٠ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨١ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ۝٨٢﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ» وأبقينا عليه، يعني على نوحٍ ذكراً جميلاً، وثناء حسناً في الآخِرين، يعني: فيمن تأخَّرَ بعده من الناسِ يذكرونه به.

وقوله: «سَلامٌ عَلى نُوحٍ في العَالمينَ»، يقول: أَمَنَةٌ من اللهِ لنوحٍ في العالمين أن يَذْكُره أحدٌ بسوء.

وقوله: «إنَّا كَذلكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ»، يقول تعالى ذكره: إنَّا كما فعلنا بنوحٍ مجازاةً له على طاعتنا وصبره على أذى قومهِ في رِضَانا «فأَنْجَيْناهُ وأَهْلَهُ مِنَ الكَرْبِ العَظِيمِ، وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الباقِينَ»، وأبقينا عليه ثناءً في الآخرين «كَذلكَ نَجْزِي» الذين يُحْسنون فيطيعوننا، وينتهون إلى أمرنا، ويصبرونَ على الأذى فينا.

وقوله: «إنَّهُ مِنْ عِبادِنا المُؤْمِنِينَ»، يقول: إنَّ نوحاً من عبادنا الذين آمنوا بنا، فَوَحَّدُونَا، وأَخْلَصُوا لنا العبادةَ، وأفردونا بالألوهةِ.

وقوله: «ثُمَّ أغْرَقْنا الآخَرِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ثم أغرقنا حين نجَّينا نوحاً وأهله من الكربِ العظيم مَنْ بَقِيَ من قومه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ۝٨٣ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٤ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ۝٨٥ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإنَّ من أشياعِ نوحٍ على مِنهاجه ومِلَّتِهِ لَإبراهيمَ خليلَ الرحمن.

وقوله: «إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إذ جاء إبراهيمُ ربَّهُ بقلبٍ سليمٍ من الشرك، مُخْلِصٍ له التوحيدَ.

وقوله: «إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ماذَا تَعْبُدُونَ»، يقول حين قال: يعني إبراهيمُ لأبيهِ وقومه: أيّ شيءٍ تعبدون.

وقوله: «أَئِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ؟»، يقول: أكَذِباً معبوداً غيرَ الله تُريدون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قيلِ إبراهيمَ لأبيهِ وقومه: «فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ العَالمينَ»؟ يقول: فأي شيءٍ تظنون أيها القومُ أنه يصنعُ بكم إنْ لقيتموه وقد عَبَدْتُمْ غيرَهُ.

وقوله: «فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ» ذُكِرَ أنَّ قومه كانوا أهلَ تنجيمٍ، فرأى نجماً قد طلع، فَعَصَبَ رأسَهُ وقال: إني مَطْعُونٌ، وكان قومُه يهربُون من الطاعونِ، فأرادَ أنْ يتركوه في بيت آلهتهم، ويخرجوا عنه، ليخالفهم إليها فيكسرها.

وقوله: «فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ»، يقول: فتولوا عن إبراهيمَ مُدْبِرِينَ عنه، خوفاً من أن يعدِيَهُم السقمُ الذي ذُكِرَ أنه بهِ.

وقوله: «فَرَاغَ إلى آلِهَتِهِمْ»، يقول تعالى ذكره: فمالَ إلى آلهتهم بعدما خَرَجُوا عنه وأدبروا، ورأى أنَّ أصلَ ذلك من قولهم: راغَ فلانٌ عن فلان: إذا حادَ عنه، فيكون معناه إذا كان كذلك: فَرَاغَ عن قومِهِ والخروجِ معهم إلى آلهتهم. أما أهلُ التأويل فإنهم فَسَّرُوه بمعنى: فمالَ.

وقوله: «فَقالَ ألا تَأكُلُونَ. مالَكُمْ لا تَنْطِقُونَ» هذا خبرٌ من اللهِ عن قِيلِ إبراهيمَ للآلهةِ، وفي الكلامِ محذوفٌ استغني بدلالةِ الكلام عليه من ذكره، وهو: فَقَرَّبَ إليها الطعامَ فلم يَرَهَا تأكل، فقال لها: «ألا تَأْكُلُونَ» فلما لم يَرَهَا تأكلُ قال لها: مالكم لا تأكلونَ، فلم يَرَهَا تنطقُ، فقال لها: «مالَكُمْ لا تَنْطِقُونَ» مستهزئاً بها، وكذلك ذُكِرَ أنه فعل بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فمالَ على آلهةِ قومِهِ ضرباً لها باليمينِ بفأسٍ في يده يكسرهنَّ.

وقوله: «فَأَقْبَلُوا إلَيْهِ يَزِفُّونَ»، اختلف أهلُ التأويل في معناه، فقال بعضهم: معناه: فأقبل قوم إبراهيم إلى إبراهيم يَجْرُون.

وقال آخرون: أقبلوا إليه يَمْشُون.

وقال آخرون: معناه: فأقبلوا يستعجلون.

وقوله: «قالَ أَتَعْبُدونَ ما تَنْحِتُونَ»، يقول تعالى ذكره: قال إبراهيمُ لقومه: أتعبدون أيها القومُ ماتنحتون بأيديكم من الأصنام.

وقوله: «وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ إبراهيمَ لقومِهِ: واللهُ خلقكم أيها القوم وما تعملون.

وفي قوله: «وَمَا تَعْمَلُونَ» وجهان: أحدهما: أن يكون قوله «ما» بمعنى المصدر، فيكون معنى الكلام حينئذٍ: والله خلقكم وعملكم. والآخر: أنْ يكون بمعنى الذي، فيكون معنى الكلام عند ذلك: والله خلقكم والذي تَعْمَلُونه: أي والذي تعملونَ منه الأصنامَ، وهو الخشبُ والنحاسُ والأشياءُ التي كانوا ينحِتُونَ منها أصنامَهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ۝٩٧ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ۝٩٨ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٩٩ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝١٠٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال قومُ إبراهيمَ لما قالَ لهم إبراهيمُ: «أتَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ والله خَلَقَكُمْ ومَا تَعْمَلُونَ» ابْنُوا لإبراهيمَ بُنياناً، ذُكِرَ أنهم بنوا له بنياناً يشبه التَّنُّور، ثم نَقَلُوا إليه الحطبَ، وأوقدوا عليه «فأَلْقُوهُ في الجَحِيمِ» والجحيمُ عند العرب: جَمْرُ النارِ بعضهُ على بعضٍ، والنارُ على النار.

وقوله: «فأَرَادُوا بِهِ كَيْداً»، يقول تعالى ذكره: فأراد قومُ إبراهيمَ بإبراهيمَ كيداً، وذلك ما كانوا أرادوا من إحراقهِ بالنار، يقول الله: «فَجَعَلْناهُم» أي: فجعلنا قومَ إبراهيم «الأسْفَلِين»، يعني: الأذلِّينَ حُجَّة، وغَلَّبنا إبراهيمَ عليهم بالحجةِ، وأنقذناه مما أرادوا به من الكيد.

وقوله: «وقَالَ إنّي ذَاهِبٌ إلى رَبّي سَيَهْدِينِ»، يقول: وقال إبراهيم لما أفْلَجه الله على قومه ونَجَّاهُ من كيدهم «إني ذاهِبٌ إلى رَبّي»، يقول: إني مهاجِرٌ من بلدةِ قومي إلى الله: أي إلى الأرضِ المقدَّسةِ ومُفَارِقُهم، فمعتزِلُهم لعبادةِ الله.

وقوله: «رَبِّ هَبْ لي مِنَ الصَّالِحينَ» وهذا مسألةُ إبراهيمَ رَبَّهُ أنْ يرزقه

ولداً صالحاً، يقول: قال: ياربِّ هَبْ لي منك ولداً يكونُ من الصالحينَ الذين يطيعونكَ، ولا يعصُونكَ، ويصلحون في الأرض، ولا يفسدون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

يقول تعالى ذكره: فبشَّرْنَا إبراهيمَ بغلامٍ حليم، يعني بغلامٍ ذي حِلْم إذا هو كَبِرَ، فأما في طفولته في المهد، فلا يُوصَفُ بذلك، وذُكر أنَّ الغلامَ الذي بَشَّر الله به إبراهيم إسحاق[1].

---

(١) هذا رأي تبناه المؤلف وقال به متابعة لِنَقَلَةِ الإسرائيليات، وفيه نظرٌ شديد، فقد رَدَّهُ شيخُ الإسلام الإمام ابن تيمية وذكر أن هذا القول متلقىً من أهل الكتاب مع أنه باطلٌ في كتابهم، فإنَّ فيه أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه البكر، وفي لفظ: «وحيده» وقد حَرَّفُوا ذلك في التوراة التي بأيديهم. ورَدَّهُ أيضاً تلميذهُ العلامةُ ابن قيّم الجوزية في كتابه «الهديِ النبوي» وقال: إسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومَن بعدهم، وأما القول بأنه إسحاق فمردودٌ بأكثر من عشرين وجهاً.

وقال تلميذه الآخر العلامة ابن كثير في تفسيره عند تفسير هذه الآية: وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام، فإنه أول ولدٍ بُشِّرَ به إبراهيمُ عليه السلام، وهو أكبر من اسحاق باتفاقِ المسلمين، وأهلِ الكتابِ. وقال: بل في نَصِّ كتابهم أنَّ إسماعيلَ عليه السلام ولد ولإبراهيمَ عليه السلام ستُّ وثمانون سنة، ووُلِد إسحاق وعمرُ إبراهيم عليه الصلاة والسلام تسعٌ وتسعون سنة. قال: وإنما أقحموا (يعني: اليهود) إسحاق لأنه أبوهم، وإسماعيل أبو العرب، فحسدوهم، فزادوا ذلك، وحرفوا «وحيدك» بمعنى «الذي ليس عندك غيره» ـ فإن إسماعيل كان ذُهِبَ به وبأمه إلى مكة ـ وهو تأويلٌ وتحريفُ باطل، فإنه لا يقال «وحيدك» إلا لمن ليس له غيره.

وقال أيضاً: «وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو اسحاق وحُكي =

وقوله: «فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ»، يقول: فلما بلغَ الغلامُ الذي بُشِّرَ به إبراهيمُ معَ إبراهيم العملَ، وهو السعي، وذلك حين أطاقَ معونته على عمله.

وقوله: «قالَ يا بُنَيَّ إنِّي أرَى فِي المَنامِ أنِّي أذْبَحُكَ»، يقول تعالى ذكره: قالَ إبراهيمُ خليلُ الرحمن لابنه: «يا بُنَيَّ إنِّي أرَى فِي المَنامِ أنِّي أذْبَحُكَ»، وكان فيما ذكر أنَّ إبراهيمَ أنذر حين بشَّرته الملائكةُ بإسحاقَ ولداً أنْ يجعله إذا ولدته سارّة للهِ ذبيحاً؛ فلما بلغ إسحاقُ مع أبيه السَّعْي أُرِي إبراهيمُ في المنام، فقيلَ له: أوفِ للهِ بنـذركَ، ورؤيا الأنبياءِ يقينٌ، فلذلـك مضى لما رأى في المنام، وقال له ابنه إسحاق ما قال.

قوله: «فانْظُرْ ماذَا تَرَى»، يعني: ماذا ترى من الرأي.

فإنْ قال قائلٌ: أَوَ كانَ إبراهيمُ يُؤَامِرُ ابنه في المُضِيِّ لأمرِ الله، والانتهاءِ

= ذلك عن طائفة من السلف، حتى نُقِل عن بعض الصحابة أيضاً. ثم قال: وليس ذلك في كتاب ولا سنة، وما أظن ذلك تُلُقِّيَ إلا عن أحبارِ أهلِ الكتاب، وأُخذ ذلك مُسَلَّماً من غير حجةٍ... وهذا كتابُ الله شاهدٌ ومرشد إلى أنه إسماعيل، فإنه ذكر البشارة بغلام حليم، وذكر أنه الذبيح، ثم قال بعد ذلك «وبشرناه باسحاقَ نبياً من الصالحين»، ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا: «إنا نبشرك بغلام عليم».

وقـال العـلامة ابن كثير في قوله تعالى عن امرأة ابراهيم عليه السلام فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب (هود: ٧١) أي: بولدٍ لها يكون له ولَدٌ وعقب ونسلٌ، فإنَّ يعقوب ولد إسحاق... ومن ها هنا استدل من استدل بهذه الآية على أنَّ الذبيح إنما هو إسماعيل، وأنه يمتنعُ أنْ يكون هو إسحاق، لأنه وقعت البشارةُ به، وأنه سيولد له يعقوب. قال: فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير ولم يولد له بعدُ يعقوب الموعود بوجوده، ووعدُ الله حَقٌّ لا خُلْفَ فيه؟ قال: فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه. قال: فتعيَّنَ أنْ يكون هو إسماعيل. وهذا من أحسنِ الاستدلال وأَصَحِّهِ وأبْيَنِه.

وقد رَدَّ المؤلف الطبري على بعض هذا فيما يأتي من تفسيره، لكن أكثر المفسرين لم يذهبوا مذهبه.

إلى طاعته؟ قيل: لم يكن ذلك منه مشاورةً لابنه في طاعةِ الله، ولكنه كان منه ليعلمَ ما عندَ ابنه من العَزْمِ: هل هو من الصبرِ على أمرِ الله على مِثْلِ الذي هو عليه، فيسرّ بذلك أم لا، وهو في الأحوال كلها ماضٍ لأمرِ الله.

وقوله: «قالَ يا أبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ»، يقول تعالى ذكره: قال إسحاقُ لأبيهِ: يا أبتِ افعلْ ما يأمركَ به رَبُّكَ من ذبحي. «سَتَجِدُنِي إنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ»، يقول: ستجدني إنْ شاء الله صابراً من الصابرينَ لما يأمرنا به رَبُّنَا، وقال: افعلْ ما تؤمر، ولم يَقُلْ: ما تؤمرُ بهِ، لأنَّ المعنى: افعلِ الأمرَ الذي تُؤمَرُهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ۝١٠٣ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ۝١٠٦﴾

يقول تعالى ذكره: فلما أسلما أَمْرَهُمَا للهِ وفَوَّضَاهُ إليه واتفقا على التسليمِ لأمرِهِ والرضا بقضائهِ.

وقوله: «وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ»، يقول: وصَرَعَهُ للجَبِين، والجبينانِ ما عن يمينِ الجبهةِ وعن شمالها، وللوجه جبينان، والجبهةُ بينهما.

وقوله: «ونَادَيْناهُ أنْ يا إبْراهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرؤْيا»، وهذا جواب قوله: «فَلَمَّا أسْلَما»، ومعنى الكلام: فلما أسلما وتَلَّهُ للجبينِ. وناديناه أنْ يا إبراهيم.

ويعني بقوله: «قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا» التي أريناكَهَا في منامكَ بأمْرِنَاكَ بذبحِ ابنكَ.

وقوله: «إنَّا كَذلكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ»، يقول: إنا كما جَزَيْنَاكَ بطاعتنا يا إبراهيم، كذلك نجزي الذين أحسنوا، وأطاعوا أمرَنَا، وعملوا في رِضَانا.

وقـوله: «إنَّ هَذَا لَهُوَ البَلاءُ المُبينُ»، يقول تعالى ذكره: إنَّ أمرنَا إياكَ يا إبراهيمُ بذبحِ ابنك إسحاق، «لَهُوَ البلاءُ»، يقول: لهو الاختبارُ الذي يبينُ لمن فكَّرَ فيه أنه بلاءٌ شديدٌ ومِحْنةٌ عظيمة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۝١٠٧ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٠٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١١٠ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١١١﴾

وقـوله: «وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ»، يقول: وفدينا إسحاقَ بذبحٍ عظيمٍ، والفـديةُ: الجـزاءُ، يقول: جزيناه بأنْ جعلنا مكانَ ذبحهِ ذبحَ كبشٍ عظيم، وأنقذناهُ من الذبح.

واختلف أهـلُ التأويل في المَفْدِيِّ من الذَّبح من ابني إبراهيم، فقال بعضهم: هو إسحاق.

وقال آخرون: الذي فُدِيَ بالذِّبحِ العظيمِ من بني إبراهيم: إسماعيل.

وأَوْلى القولين بالصواب في المفْدِيِّ من ابني إبراهيم خليل الرحمن على ظاهرِ التنزيل قولُ مَنْ قال: هو إسحاق، لأنَّ الله قال: «وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ» فذكر أنه فَدَى الغلامَ الحليمَ الذي بُشِّرَ به إبراهيمُ حين سأله أنْ يَهَبَ له ولداً صالحاً من الصالحين، فقال: «رَبِّ هَبْ لي مِنَ الصَّالِحِينَ» فإذا كان المفديُّ بالذبح من ابنيه هو المبشّرُ به، وكان الله تبارك اسمه قد بَيَّنَ في كتابه أنَّ الذي بُشِّـر به هو إسحـاق، ومن وراءِ إسحـاقَ يعقوب، فقال جَلَّ ثناؤه: «فَبَشَّرْنَاهُ بإسحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إسحَاقَ يَعْقُوبَ» وكان في كل موضعٍ من القرآن ذِكر تبشيره إياه بولدٍ، فإنما هو معنيٌّ به إسحاق، كان بيِّناً أنَّ تبشيرَهُ إياه بقوله: «فَبَشَّرْنَاهُ بغُلامٍ حَلِيمٍ» في هذا الموضع نحو سائرِ أخبارِه في غيرِه من آياتِ القرآن.

وبعد: فإنَّ الله أخبر جَلَّ ثناؤه في هذه الآيةِ عن خليلهِ أنه بَشَّرَهُ بالغلامِ الحليمِ عن مسألتهِ إياهُ أنْ يَهَبَ له من الصالحينَ، ومعلومٌ أنه لم يسأله ذلك إلا في حالٍ لم يكنْ له فيه ولدٌ من الصالحينَ لأنه لم يكن له من ابنيه إلا إمامُ الصالحين، وغير موهومٍ منه أن يكونَ سألَ رَبَّهُ في هِبَة ماقد كان أعطاهُ ووهبه له. فإذْ كان ذلك كذلك، فمعلومٌ أن الذي ذكر تعالى ذِكْرُه في هذا الموضع هو الذي ذُكِرَ في سائر القرآنِ أنه بَشَّرَهُ به وذلك لاشَكَّ أنه إسحاق، إذْ كان المفديُّ هو المبشَّرُ به. وأما الذي اعتلَّ به مَنِ اعتلَّ في أنه إسماعيل أن الله قد كان وَعَدَ إبراهيمَ أنْ يكونَ له من إسحاقَ ابنُ ابنٍ، فلم يكن جائزاً أنْ يأمره بذبحهِ مع الوعدِ الذي قد تَقَدَّمَ، فإنَّ الله إنما أمره بذبحهِ بعد أنْ بلغَ معه السعيَ، وتلك حالٌ غير ممكنٍ أنْ يكونَ قد وُلد لإسحاقَ فيها أولادٌ، فكيف الواحد؟ وأما اعتلالُ مَنِ اعتلَّ بأن الله أتبع قصة المفديِّ من ولد إبراهيم بقوله: «وَبَشَّرْناهُ بإسحَاقَ نَبِياً» ولو كان المفديُّ هو إسحاقَ لم يُبَشَّرْ به بعد، وقد وُلِدَ، وبلغ معه السعيَ، فإنَّ البشارة بنبوَّةِ إسحاقَ من الله فيما جاءت به الأخبارُ جاءت إبراهيمَ وإسحاقَ بعد أن فُدِيَ تكرمةً من اللهِ له على صبرهِ لأمرِ ربه فيما امتحنَهُ به من الذبح.

وقوله: «وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ»، يقول تعالى ذكره: وأبقينا عليه فيمن بعده إلى يومِ القيامة ثناءً حسناً.

وقوله: «سَلامٌ على إبْرَاهِيمَ»، يقول تعالى ذكره: أَمَنَةً من اللهِ في الأرضِ لإبراهيمَ أنْ لا يُذْكَرَ من بعدهِ إلا بالجميلِ من الذِّكْرِ.

وقوله: «كَذلكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ»، يقول كما جزينا إبراهيمَ على طاعتهِ إيانا وإحسانهِ في الانتهاء إلى أمرنا، كذلك نجزي المحسنين. «إنَّهُ مِنْ عِبادِنا المُؤْمِنِينَ»، يقول: إنَّ إبراهيمَ من عبادنا المخلِصين لنا الإيمانَ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١١٢ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ۝١١٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وبشَّرنا إبراهيمَ بإسحاقَ نبياً شكراً له على إحسانهِ وطاعته.

وقوله: «وبَارَكْنَا عَلَيْهِ وعَلَى إسحَاقَ»، يقول تعالى ذكره: وباركنا على إبراهيمَ وعلى إسحاقَ «وَمِنْ ذُرِّيَّتِهما مُحْسِنٌ»، يعني بالمحسن: المؤمن المطيع لله، المحسن في طاعته إياه «وظَالِمٌ لنَفْسِهِ مُبِينٌ»، ويعني بالظالم لنفسه: الكافر بالله، الجالب على نفسِه بكفرِه عذابَ الله وأليم عقابه. «مبين»، يعني الذي قد أبان ظلمَه نفسَه بكفرِه بالله.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١١٤ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ۝١١٥ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝١١٦﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: ولقـد تَفَضَّلْنَا على موسى وهارون ابني عمران، فجعلناهما نَبِيَّيْنِ، ونَجَّيْنَاهُمَا وقومَهما من الغَمِّ والمكروهِ العظيم الذي كانوا فيه من عُبودةِ آلِ فرعونَ، ومما أهلكنا به فرعون وقومَهُ من الغرقِ.

وقوله: «وَنَصَرْناهُمْ»، يقول: ونصرنا موسى وهارون وقومهما على فرعون وآلهِ بتغريقنَاهُمْ، «فكانُوا هُمُ الغالِبِينَ» لهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ۝١١٧﴾

﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١١٨ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝١١٩ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١٢٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٢١ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٢٢﴾

يقول تعالى ذكره: وآتينا موسى وهارونَ الكتابَ: يعني التوراة.

وقوله: «وَهَدَيْناهُما الصِّراطَ المُسْتَقِيمَ»، يقول تعالى ذكره: وهدينا موسى وهارونَ الطريقَ المستقيمَ، الذي لا اعوجاجَ فيه وهو الإسلامُ دينُ الله، الذي ابتعثَ به أنبياءَهُ.

وقوله: «وَتَرَكْنا عَلَيْهِما فِي الآخِرِينَ»، يقول: وتركنا عليهما في الآخرين بعدهم الثناءَ الحَسَنَ عليهما.

وقوله: «سَلامٌ على مُوسَى وهَارُونَ»، يقول: وذلك أنْ يقالَ: سلامٌ على موسى وهارون.

وقوله: «إنَّا كَذلكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ»، يقول: هكذا نجزي أهلَ طاعتنا، والعاملينَ بما يرضينا عنهم.

«إنَّهُما مِنْ عِبادِنا المُؤْمِنِينَ»، يقول: إن موسى وهارونَ من عبادنا المخلصينَ لنا الإيمانَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٢٣ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٢٤ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٢٥ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٢٦ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۝١٢٧ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝١٢٨ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٢٩﴾

قوله: «لَمِنَ المُرْسَلِينَ»، يقول جَلَّ ثناؤه: لَمُرْسَلٌ من المرسلينَ «إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ ألا تَتَّقُونَ»، يقول حين قال لقومه من بني إسرائيل: ألا تتقونَ اللهَ أيها القـومُ، فتخـافونَهُ، وتحذرونَ عقوبته على عبادتكم رباً غيرَ الله، وإلهاً سواه «وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الخالِقِينَ»، يقول: وتَدَعُونَ عبادةَ أحسن مَن قيلَ له خالقٌ.

وللبَعْل في كلامِ العربِ أوجه: يقولون لربِّ الشيء هو بَعْلُه، يقال: هذا بَعْلُ هذه الدارِ، يعني رَبُّها، ويقولون لزوج المرأةِ بعلُها، ويقولون: لِما كان من الغُـروسِ والـزروعِ مُسْتَغْنِياً بمـاءِ السمـاء، ولم يكنْ سَقياً بَلْ هو بعلٌ، وهو العَذْي. وذُكِرَ أنَّ الله بعثَ إلى بني إسرائيل إلياسَ بعد مهلكِ حِزْقيل بن يوزا.

وقـولـه: «اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبائِكُمُ الأوَّلِينَ»، يعني: ذلك معبودكم أيها النـاسُ الـذي يستحقُّ عليكم العبـادةَ: ربكم الـذي خلقكم، وربّ آبـائكم الماضينَ قبلكم، لا الصنم الذي لا يخلق شيئاً، ولا يضرُّ ولا ينفع.

وقوله: «فَكَذَّبُوهُ فإنَّهُمْ لَمُحْضَرونَ»، يقول: فكَذَّبَ إلياسَ قومُهُ، «فإنهم لمحضرونَ»، يقول: فإنهم لمحضرون في عذابِ الله فيشهدونه.

«إلَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ»، يقول: فإنهم يُحْضَرونَ في عذابِ الله، إلا عبـادَ الله الذين أخلصهم من العذابِ. «وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ»، يقول: وأبقينا عليه الثناءَ الحَسَنَ في الآخرين من الأمم بعده.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

يقول تعالى ذكره: أمنةٌ من اللهِ لآلِ ياسين.

واختلفت القَرَأة في قراءة قوله: «سَلامٌ عَلى إلْياسِينَ» فقرأته عامة قَرَأةِ مكة والبصرة والكوفة: «سَلامٌ عَلى إلياسِينَ» بكسر الألف من إلياسين، فكان بعضهم

يقول: هو اسم إلياس، ويقول: إنه كان يُسمى باسمين: إلياس، وإلياسين مثل إبراهيم، وإبراهام؛ يُستشهد على ذلك أنَّ ذلك كذلك بأنَّ جميعَ ما في السورة من قوله: «سَلامٌ» فإنه سلام على النبيِّ الذي ذُكِرَ دونَ آلهِ، فكذلك إلياسين، إنما هو سلام على إلياسَ دونَ آلهِ.

وقرأ ذلك عامة قَرَأة المدينة «سَلامٌ عَلى آل ياسِينَ» بقطعِ آل من ياسين، فكان بعضُهم يتأوَّلُ ذلك بمعنى: سلامٌ على آلِ محمد.

والصوابُ من القراءة في ذلك عندنا قراءةُ من قرأه «سَلامٌ عَلى إلْيَاسِينَ» بكسرِ ألفها على مثالِ إدراسين، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه إنما أخبر عن كلِّ موضعٍ ذكرَ فيه نبياً من أنبيائهِ صلواتُ الله عليهم في هذه السورة بأنَّ عليه سلاماً لا على آله، فكذلك السلامُ في هذا الموضع ينبغي أنْ يكونَ على إلياسَ كسلامهِ على غيرِه من أنبيائه، لا على آله، على نحو ما بيَّنا من معنى ذلك.

فإنْ ظنّ ظانٌّ أنَّ إلياسين غير إلياس، فإنَّ فيما حكينا من احتجاجِ من احتجَّ بأنَّ إلياسينَ هو إلياس غِنىً عن الزيادةِ فيه.

وقـولـه: «إنَّـا كَذلكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ»، يقول تعالى ذكره: إنا هكذا نجزي أهلَ طاعتنا والمحسنينَ أعمالاً.

وقوله: «إنَّه مِنْ عِبادِنا المُؤْمِنِينَ»، يقول: إنَّ إلياسَ عبدٌ من عبادنا الذين آمنوا، فوحَّدُونَا، وأطاعونا، ولم يُشركوا بنا شيئاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ١٣٣ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ١٣٤ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ١٣٥ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ١٣٦﴾

يقول تعالى ذكره: وإنَّ لوطاً لمرسلٌ من المرسلينَ «إذْ نَجَّيْناهُ وأهْلَهُ أجمَعِينَ»، يقول: إذْ نَجَّينا لوطاً وأهلَهُ أجمعينَ من العذابِ الذي أحللناهُ بقومه، فأهلكناهم به «إلَّا عَجُوزاً فِي الغَابِرِينَ»، يقول: إلا عجوزاً في الباقين، وهي امرأةُ لوط، وقد ذكرنا خَبَرَهَا فيما مضى.

وقوله: «ثُمَّ دَمَّرْنا الآخَرِينَ»، يقول: ثم قذفناهم بالحجارةِ من فوقهم، فأهلكناهم بذلك.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

يقول تعالى ذكره لمشركي قريش: وإنكم لتمرُّونَ على قومِ لوطٍ الذين دمَّرناهم عند إصباحِكم نهاراً وبالليلِ.

وقوله: «أفَلا تَعْقِلُونَ»، يقول: أفليسَ لكم عقولٌ تتدبرونَ بها وتتفكَّرونَ، فتعلمونَ أنَّ مَنْ سلكَ من عبادِ الله في الكفرِ به، وتكذيبِ رُسُلِه، مسلكَ هؤلاءِ الذينَ وصف صِفَتَهُمْ من قومِ لوطٍ، نازلٌ بهم من عقوبةِ الله، مثل الذي نزلَ بهم على كُفْرِهم بالله، وتكذيب رسوله، فَيَزْجُرَكُمْ ذلك عَمَّا أنتم عليه من الشركِ بالله، وتكذيبِ محمدٍ عليه الصلاة والسلام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإنَّ يُونُسَ لمرسلٌ من المرسلينَ إلى أقوامِهم «إذْ أبقَ

إلى الفُلْكِ المَشْحُونِ»، يقول حين فَرَّ إلى الفُلك، وهو السفينة، المشحون: وهو المملوءُ من الحمولة المُوقَر.

وقوله: «فَساهَمَ»، يقول: فقارَعَ.

وقوله: «فَكانَ مِنَ المُدْحَضِينَ» يعني: فكان من المسهومينَ المغلوبينَ، يقال منه: أدحضَ اللهُ حُجَّةَ فلانٍ فدحضتْ: أي أبطلها فبطلت، والدَّحْضُ: أصله الزلقُ في الماء والطين، وقد ذُكر عنهم: دَحَض الله حُجَّتَهُ، وهي قليلة.

وقوله: «فالْتَقَمَهُ الحُوتُ»، يقول: فابتلعه الحوتُ، وهو افتعل من اللَّقْم.

وقوله: «وَهُوَ مُلِيمٌ»، يقول: وهو مكتسبُ اللومَ، يقال: قد ألامَ الرجل؛ إذا أتى ما يُلامُ عليه من الأمرِ وإنْ لم يُلَمْ، كما يقال: أصبحتَ مُحْمِقاً مُعْطِشاً: أي عندك الحمقُ والعطشُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤٤ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ۝١٤٥ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ۝١٤٦﴾

يقول تعالى ذكره: «فَلَوْلا أنَّهُ» يعني يونس «كانَ مِنَ» المُصَلِّينَ للهِ قبلَ البلاءِ الذي ابتُليَ به من العقوبةِ بالحبسِ في بطنِ الحوتِ «للَبِثَ فِي بَطْنِهِ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ»، يقول: لبقي في بطنِ الحوتِ إلى يومِ القيامة، يوم يبعثُ اللهُ فيه خَلْقَه محبوساً، ولكنه كان من الذاكرينَ اللهَ قبلَ البلاءِ، فذكره الله في حالِ البلاء، فأنقذَهُ ونجَّاهُ.

وقوله: «فَنَبَذْناهُ بالعَرَاءِ»، يقول: فقذفناه بالفضاء من الأرضِ، حيثُ لا يُوارِيه شيءٌ من شجرٍ ولا غيره.

وقوله: «وَهُوَ سَقِيمٌ»، يقول: وهو كالصبيِّ المنفوس: لحمٌ نِيْءٌ.

وقوله: «وأنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ»، يقول تعالى ذكره: وأنبتنا على يُونُسَ شجرةً من الشجرِ التي لا تقومُ على ساقٍ، وكُلُّ شجرةٍ لا تقومُ على ساقٍ كالدُّباء والبِطِّيخ والحَنْظَل ونحو ذلك، فهي عند العرب يَقْطِين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فأرسلنا يونسَ إلى مئةِ ألفٍ من الناسِ، أو يزيدونَ على مئةِ ألفٍ. وذُكر عن ابن عباس أنه كان يقول: معنى قوله «أوْ»: بَلْ يَزِيدُونَ.

وقوله: «فَآمَنُوا»، يقول: فَوَحَّدُوا اللهَ الذي أرسلَ إليهم يونس: وصَدَّقُوا بحقيقةِ ما جاءهم به يونسُ من عندِ الله.

وقوله: «فَمَتَّعْناهُمْ إلى حِينٍ»، يقول: فأخَّرْنا عنهم العذابَ، ومَتَّعناهم إلى حينٍ بحياتهم إلى بلوغِ آجالهم من الموتِ.

وقوله: «فاسْتَفْتِهِمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيهِ محمدٍ ﷺ: سَلْ يا محمدُ مشركي قومكَ من قريش.

وقوله: «أَلِرَبِّكَ البَناتُ ولَهُمُ البَنُونَ»: ذُكر أنَّ مشركي قريش كانوا يقولون: الملائكةُ بنات الله، وكانوا يعبدونها، فقال الله لنبيه محمدٍ عليه الصلاة والسلام: سَلْهُمْ، وقُلْ لهم: ألربي البناتُ ولكمُ البَنُون؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِنَـٰثًا وَهُمْ شَـٰهِدُونَ ۝١٥٠ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ۝١٥٢﴾

يعني تعالى ذِكْرُه: أمْ شهدَ هؤلاءِ القائلونَ من المشركين: الملائكة بناتُ الله خَلْقِي الملائكةَ وأنا أَخْلُقُهم إناثاً، فشهدوا هذه الشهادةَ، ووصَفُوا الملائكةَ بأنها إناثٌ.

وقوله: «ألا إنَّهُمْ مِنْ إفْكِهِمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ألا إنَّ هؤلاء المشركين من كَذِبهم «لَيَقُولونَ وَلَدَ اللهُ وإنَّهُمْ لَكاذِبونَ» في قِيلِهم ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ۝١٥٣ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝١٥٤ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٥٥ أَمْ لَكُمْ سُلْطَـٰنٌ مُّبِينٌ ۝١٥٦ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝١٥٧﴾

يقول تعالى ذكره موبِّخاً هؤلاء القائلينَ للهِ البنات من مشركي قريش «أَصْطَفَى» اللهُ أيها القومُ «البَنات عَلى البَنِينَ»، والعربُ إذا وَجَّهُوا الاستفهامَ إلى التوبيخ أثبتوا ألفَ الاستفهام أحياناً وطرحوها أحياناً.

وقوله: «مالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ»، يقول: بِئْسَ الحكمُ تَحكمون أيها القومُ أنْ يكونَ للهِ البنات ولكم البنون، وأنتم لا ترضونَ البناتِ لأنفسكم، فتجعلونَ له ما لاتَرْضَوْنَهُ لأنفسكم؟

وقوله: «أفَلا تَذَكَّرُونَ»، يقول: أفلا تتدبرونَ ما تقولونَ؟ فتعرفوا خَطَأَهُ فتنتهوا عن قِيلهِ.

وقـوله: «أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبِينٌ»، يقول: ألكم حجةٌ تَبَيَّنَ صِحَّتُها لِمَنْ سمعها بحقيقةِ ما تقولون.

وقوله: «فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ»، يقول: فَأْتُوا بحجتكم من كتابٍ جاءكم من عندِ الله بأنَّ الذي تقولون من أنَّ له البنات ولكمُ البنينَ كما تقولون.

وقوله: «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»، يقول: إنْ كنتم صادقين أنَّ لكم بذلك حُجَّة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وجعل هؤلاء المشركونَ بينَ اللهِ وبين الجِنَّةِ نَسَباً.

واختلف أهلُ التأويل في معنى النسب الذي أخبر الله عنهم أنهم جعلوهُ لله تعالى، فقال بعضهم: هو أنهم قالوا أعداءُ الله: إنَّ الله وإبليسَ أخَوانِ.

وقال آخرون: هو أنهم قالوا: الملائكةُ بناتُ الله، وقالوا: الجِنَّةُ: هي الملائكة.

وقوله: «وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ»، اختلف أهلُ التأويلِ في معنى ذلك، فقال بعضهم: معناه: ولقد علمت الجِنَّةُ إنهم لَمُشْهدون الحسابَ.

وقال آخرون: معناه: إنَّ قائلي هذا القول سيُحْضَرُونَ العذابَ في النار.

وأوْلى القــولين في ذلــك بالصــوابِ قولُ مَنْ قال: إنهم لمحضَـرُونَ العذابَ، لأنَّ سائرَ الآياتِ التي ذُكر فيها الإحضارُ في هذه السورة، إنما عُنِيَ به الإحضارُ في العذابِ، فكذلك في هذا الموضع.

وقوله: «سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ»، يقول تعالى ذِكْره: تنزيهاً لله، وتبرئةً له مما يضيفُ إليه هؤلاء المشركونَ به، ويفترونَ عليه، ويصفونه، من أنَّ له بناتٍ، وأنَّ له صاحبةً.

وقوله: «إلَّا عِبادَ اللهِ المُخْلَصِينَ»، يقول: ولقد علمتِ الجنَّةُ أنَّ الذين قالوا: إنَّ الملائكةَ بناتُ الله لَمُحْضَرُونَ العذاب، إلا عبادَ الله الذين أخلَصَهُمْ لرحمتهِ، وخلقهم لجنته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾

يقول تعالى ذكره: «فإنَّكُمْ» أيها المشركون بالله «وما تَعْبُدُونَ» من الآلهةِ والأوثانِ «ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفاتِنِينَ»، يقول: ما أنتم على ما تعبدونَ من دونِ الله بفاتنينَ: أي بِمُضِلِّينَ أحداً «إلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الجَحِيمِ»، يقول: إلا أحداً سَبَقَ في علمي أنه صال الجحيم.

وقوله: «وما مِنَّا إلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ»، وهذا خبرٌ من الله عن قِيلِ الملائكةِ أنهم قالوا: وما مِنَّا معشر الملائكة إلا مَنْ لَهُ مقامٌ في السماء معلوم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْره مخبراً عن قيلِ ملائكته: «وإنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ» للهِ لعبادته «وإنَّا لنَحْنُ المُسَبِّحُونَ» له، يعني بذلك المصلونَ له.

وقوله: «وَإِنْ كانُوا لَيَقُولُونَ. لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِنَ الأوَّلِينَ، لَكُنا عبادَ الله المُخْلَصين»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكان هؤلاء المشركونَ من قريش يقولون قبل أنْ يُبْعَثَ إليهم محمدٌ ﷺ نبياً، «لَوْ أنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِنَ الأوَّلِينَ»، يعني: كتاباً أُنزلَ من السماء كالتوراةِ والإنجيل، أو نبيّ أتانا مثل الذي أتي اليهودَ والنصارى «لَكُنَّا عِبادَ اللهِ» الذين أخلَصهم لعبادته، واصطفاهم لجنته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ١٧٠ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما جاءهم الذِّكرُ من عندِ الله كفروا به، وذلك كفرهم بمحمدٍ ﷺ وبما جاءهم به من عندِ الله من التنزيلِ والكتابِ، يقول الله: فسوف يعلمون إذا وردوا عليَّ ماذا لهم من العذاب بكفرهم بذلك.

وقوله: «وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعبادِنا المُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ المَنْصُورُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد سَبَقَ منا القولُ لرسلنا إنهم لهم المنصورون: أي مضى بهذا منا القضاءُ والحكمُ في أمِّ الكتاب، وهو أنهم لهم النُّصرةُ والغَلَبَةُ بالحجج.

وقوله: «وإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الغالِبُونَ»، يقول: وإنَّ حزبنا وأهلَ ولايتنا لَهُمُ الغالبون، يقول: لهم الظَّفَرُ والفلاحُ على أهلِ الكفرِ بنا، والخلاف علينا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ١٧٤ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ١٧٥ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ١٧٦ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ١٧٧﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتى حِينٍ»: فأعْرِضْ عنهم إلى حينِ مجيء عذابنا ونزولِهِ بهم.

وقوله: «وأبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ»: وأنْظِرْهُمْ فسوفَ يَرَوْنَ ما يحلُّ بهم من عقابنا.

وقوله: «أفَبِعَذَابِنا يَسْتَعْجِلُونَ»، يقول: فبنزولِ عذابنا بهم يستعجلونَكَ يا محمدُ، وذلك قولُهم للنبيِّ ﷺ: «مَتى هَذَا الوَعْدُ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

وقـولـه: «فـإذَا نَزَلَ بسـاحَتِهِمْ»، يقـول: فإذا نزلَ بهؤلاء المشـركين المستعجلينَ بعـذابِ الله العذاب، والعرب تقول: نزل بساحةِ فلانٍ العذابُ والعقـوبةُ، وذلك إذا نزلَ به؛ والساحةُ: هي فناءُ دارِ الرجلِ، «فَساءَ صَباحُ المُنْذَرِينَ»، يقول: فبِئْسَ صباحُ القومِ الذين أنذرهم رسولُنا نزولَ ذلك العذابِ بهم فلم يُصَدِّقُوا به.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝١٧٨ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ۝١٧٩ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٨٢﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه لنبيه محمـدٍ ﷺ: وأعـرض يا محمـدُ عن هؤلاء المشركينَ، وخَلِّهم وفِرْيَتَهُمْ على رَبِّهم «حتى حِينٍ»، يقول: إلى حينِ يأذنُ الله بهلاكِهم. «وأبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ»، يقول: وأنْظِرْهُمْ فسوفَ يروْن ما يحلُّ بهم من عقابنا في حين لا تنفَعُهُم التوبةُ، وذلك عند نزولِ بأسِ الله بهم.

وقوله: «سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ»، يقول تعالى ذكره: تنزيهاً لربـك يا محمـدُ وتبـرئةً له. «ربِّ العزّة»، يقول: ربِّ القوّةِ والبطشِ. «عَمَّا يَصِفُـونَ»، يقول: عَمَّا يَصِفُ هؤلاء المفترونَ عليه من مشركي قريش، من قولهم: ولد الله، وقولهم: الملائكة بنات الله، وغير ذلك من شِرْكِهم وفِرْيتهم على رَبِّهم.

وقوله: «وَسَلامٌ على المُرْسَلِينَ»، يقول: وأَمَنَةً من الله للمرسلينَ الذين أرسلَهُمْ إلى أممهم الذين ذكرهم في هذه السورة وغيرهم من فَزَعِ يومِ العذابِ الأكبر، وغيرِ ذلك من مكروه أنْ ينالهم من قِبَلِ الله تبارك وتعالى.

«والحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالِمينَ»، يقول تعالى ذكره: والحمدُ لله ربِّ الثَّقَلين الجِنِّ والإنس، خالصاً دونَ ماسواه، لأنَّ كُلَّ نعمةٍ لعبادِه فمنه، فالحمدُ له خالصٌ لا شريكَ له، كما لا شريكَ له في نعمهِ عندهم، بَلْ كلها من قِبَلِه، ومِنْ عِنْدِه.

سُورَةُ صٓ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝٢﴾

اختلف أهلُ التأويل في معنى قول الله عزَّ وجلَّ «صٓ»، فقال بعضهم: هو من المُصَاداةِ، مِنْ صاديتُ فلاناً، وهو أمر من ذلك، كأن معناه عندهم: صادِ بعملك القرآنَ: أي عارضه به، ومَنْ قال هذا تأويله، فإنه يقرؤه بكسرِ الدالِ، لأنه أمرٌ.

وقال آخرون: هي حرف هجاء.

وقال آخرون: هو قَسَمٌ أقسمَ اللهُ به.

وقال آخرون: هو اسمٌ من أسماءِ القرآنِ أقسمَ اللهُ به.

وقال آخرون: معنى ذلك: صدق الله.

واختلفت القَـرَأة في قراءة ذلك، والصوابُ من القراءةِ في ذلك عندنا السكون في كل ذلك، لأنَّ ذلك القراءةُ التي جاءت بها قَرَأَةُ الأمصار مستفيضة فيهم، وأنها حروفُ هجاءٍ لأسماءِ المسمياتِ، فيعربن إعرابَ الأسماءِ والأدواتِ والأصواتِ، فيسلكِ بهنَّ مسالكهن، فتأويلها إذْ كانت كذلك تأويل نظائرها التي قد تقدم بَيَانُنَاهَا قَبْلُ فيما مضى.

وقـولـه: «والقُرآنِ ذِي الذِّكْرِ»، وهذا قَسَمٌ أقسمه الله تبارك وتعالى بهذا القرآن فقال: «والقُرآن ذِي الذِّكْرِ»، أي: ذي التذكير لكم.

وقوله: «بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وشِقاقٍ»، يقول تعالى ذكره: بل الذين كفروا باللهِ من مشركي قريش في حميةٍ ومشاقةٍ، وفراقٍ لمحمدٍ وعداوةٍ، وما بهم أنْ لا يكونوا أهلَ علم، بأنه ليس بساحر ولا كذَّاب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾

يقول تعالى ذكره: كثيراً أهلكنا من قبل هؤلاء المشركين من قريش الذين كَذَّبُوا رسولَنا محمداً ﷺ فيما جاءهم به من عندنا من الحقِّ «مِنْ قَرْنٍ»، يعني: من الأمم الذين كانوا قبلهم، فسلكوا سبيلهم في تكذيبِ رُسُلِهم فيما أتوهم به من عند الله «فَنادَوْا»، يقول: فَعَجُّوا إلى رَبِّهم وضَجُّوا واستغاثوا بالتوبةِ إليه، حين نزلَ بهم بأسُ الله وعاينوا به عذابهُ فراراً من عقابه، وهَرَباً من أليمِ عذابه. «وَلاتَ حِينَ مَنـاصٍ»، يقـول: وليس ذلك حِين فرارٍ ولا هربٍ من العذابِ بالتوبة، وقد حقَّتْ كلمةُ العذابِ عليهم، وتابوا حين لا تنفعهم التوبةُ، واستقالوا في غيرِ وقتِ الإقالة.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾

يقول تعالى ذكره: وعجبَ هؤلاء المشركونَ من قريش أنْ جاءهم منذر ينـذرهم بأسَ الله على كفـرهم به من أنفسهم، ولم يأتهم مَلَكٌ من السماء

بذلك. «وقَالَ الكافِرُونَ هَذا ساحِرٌ كذَّابٌ»، يقول: وقال المنكرون وحدانيةَ الله «هذا» يعنونَ محمداً ﷺ «ساحرٌ كذّاب».

وقوله: «أجَعَلَ الآلهةَ إلهاً وَاحِداً»، يقول: وقال هؤلاء الكافرونَ الذين قالوا: محمدٌ ساحرٌ كذّاب، أجعلَ محمدٌ المعبوداتِ كلها واحداً، يسمعُ دعاءنا جميعَنا، ويعلمُ عبادةَ كُلِّ عابدٍ عبدَه منا. «إنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجابٌ»، أي: إنَّ هذا لشيء عجيب.

وكان سبب قِيلِ هؤلاء المشركينَ ما أخبرَ اللهُ عنهم أنهم قالوه، من ذلك، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال لهم: «أسْأَلُكُمْ أنْ تُجِيبُونِي إلى وَاحِدَة تَدِينُ لَكُمْ بِها العَرَبُ، وتعطيكُمْ بِها الخراج العجم. فقالوا: ما هي؟ فقال: تقولون: لا إله إلا الله»[1] فعند ذلك قالوا: أجعلَ الآلهة إلهاً واحداً تعجباً منهم من ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وانطلقَ الأشرافُ من هؤلاء الكافرين من قريش، القائلينَ: «أجَعَلَ الآلهةَ إلهاً وَاحِداً» بأنِ امضُوا فاصبُروا على دينكم وعبادةِ آلهتكم.

وقوله: «إنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ»، أي: إنَّ هذا القولَ الذي يقول محمد، ويَدْعُونَا إليه، من قولِ لا إله إلا الله، شيءٌ يريدُه منا محمدٌ يَطْلُبُ به الاستعلاءَ علينا، وأنْ نكونَ له فيه أتباعاً ولسنا مُجِيبِيه إلى ذلك.

(١) حديث حسن. أخرجه المؤلف من حديث ابن عباس، وأحمد: ١/٣٦٢، والترمذي (٣٢٣٢)، والنسائي في تفسيره (٤٥٦).

وقولـه: «ما سَمِعْنا بِهَذَا فِي المِلَّةِ الآخِرَةِ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويله، فقال بعضهم: معناه: ماسمعنا بهذا الذي يَدْعُونَا إليه محمدٌ من البراءةِ من جميعِ الآلهةِ إلا من الله تعالى ذِكْرُه، وبهذا الكتابِ الذي جاء به في الملَّة النصرانية، قالوا: وهي الملةُ الآخرة.

وقيل: إنَّ الملأ الذين انطلقوا نَفَرٌ من مشيخةِ قريش، منهم: أبو جهل، والعاصُ بن وائل، والأسودُ بن عبد يغوث.

وقوله: «إنْ هَذَا إلاَّ اخْتِلاقٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ هؤلاء المشركينَ في القرآن: ماهذا القرآنُ إلا اختلاقٌ: أي كَذِبٌ اختلَقَهُ محمدٌ وتَخَرَّصَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِىۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ هؤلاء المشركينَ من قريش: أأُنْزِلَ على محمدٍ الذِّكْرُ من بيننا فَخُصَّ به، وليس بأشرفَ منا حَسَباً.

وقولـه: «بَـلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْري»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما بهؤلاء المشركينَ أنْ لا يكونوا أهلَ علم بأنَّ محمداً صادقٌ، ولكنهم في شكٍّ من وَحْيِنَا إليه، وفي هذا القرآنِ الذي أنزلناهُ إليه أنه من عندنا. «بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ»، يقـول: بل لم ينزل بهم بأسنا، فيذوقوا وبالَ تكذِيبهم محمداً، وشَكِّهم في تنزيلنا هذا القرآنَ عليه، ولو ذاقوا العذابَ على ذلك علموا وأيقنوا حقيقةَ ما هُمْ به مكذِّبون، حينَ لا ينفعهم عِلْمُهم. «أمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ العَزِيزِ الوَهَّابِ»، يقول تعالى ذكره: أم عندَ هؤلاءِ المشركينَ المنكرين وحيَ اللهِ إلى محمـدٍ خزائن رحمـةِ رَبِّـكَ، يعني مفاتيح رحمة ربك يا محمدُ، العزيز في

سلطانه، الوهاب لمنْ يشاءُ من خَلْقِه، ما يشاء من مُلكٍ وسلطانٍ ونبوّة، فيمنعوكَ يا محمدُ، ما مَنَّ اللهُ به عليكَ من الكرامةِ، وفضَّلكَ به من الرسالة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ۝١٠ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ۝١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أمْ لهؤلاءِ المشركين الذين هُمْ في عزّةٍ وشِقاق «مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأرْضِ ومَا بَيْنَهُما» فإنه لا يُعازُّني ويُشاقُّني مَنْ كان في مُلكي وسلطاني.

وقوله: «فَلْيَرتَقُوا فِي الأسْبابِ»، يقول: وإنْ كان لهم مُلكُ السمواتِ والأرضِ وما بينهما، فليصعدوا في أبوابِ السماء وطرقها، فإنَّ مَنْ كان له مُلكُ شيءٍ لم يتعذَّرْ عليه الإشرافُ عليه، وتفقُّدُه وتعهُّدُه.

وقوله: «جُنْدٌ مَّا هنالكَ مَهزُومٌ مِنَ الأحْزَابِ»، يقول تعالى ذكره: هُمْ «جُنْدٌ» يعني الذين في عِزَّةٍ وشقاق هنالك، يعني: ببدر مهزوم.

وقوله: «هُنالِكَ» من صلة مهزوم.

وقوله: «مِنَ الأحْزَابِ» يعني من أحزابِ إبليسَ وأتباعهِ الذين مَضَوْا قَبْلَهم، فأهلكَهُم اللهُ بذنوبهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ۝١٢ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ۝١٣ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ۝١٤﴾

يقول تعالى ذكره: كَذَّبَتْ قَبلَ هؤلاء المشركين من قريش، القائلينَ: أجعلَ الآلهةَ إلهاً واحداً، رُسُلَهَا، قومُ نوحٍ وعادٌ وفرعونُ ذو الأوتاد.

واختلف أهلُ العلم في السبب الذي من أجله قِيلَ لفرعون ذو الأوتاد، فقال بعضهم: قِيلَ ذلك له لأنه كانتْ له ملاعبُ من أوتادٍ، يُلْعَبُ له عليها.

وقال آخرون: بل قيل ذلك له كذلك لتعذيبهِ الناسَ بالأوتاد.

وقال آخرون: معنى ذلك: ذُو البنيانِ، قالوا: والبنيانُ: هو الأوتادُ.

وأشبه الأقوال في ذلك بالصوابِ قولُ مَنْ قال: عُنِي بذلك الأوتاد، إما لتعذيبِ الناس، وإما للعبِ، كان يُلْعَبُ له بها، وذلك أنَّ ذلك هو المعروف من معنى الأوتاد، «وثمودُ وقومُ لوط»، وقد ذكرنا أخبار كلِّ هؤلاء فيما مضى قَبْلُ من كتابنا هذا. «وأصحَابُ الأَيْكَةِ»، يعني: وأصحاب الغَيْضة[1].

وقوله: «أُولَئِكَ الأحْزَابُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاء الجماعاتُ المجتمعةُ، والأحزابُ المتحزِّبةُ على معاصي الله والكفر به، الذين منهم يا محمدُ مشركُو قومكَ، وهُمْ مَسْلُوكٌ بهم سبيلهم. «إنْ كُلٌّ إلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ»، يقول: ما كلُّ هؤلاء الأمم إلَّا كذَّبَ رُسُلَ الله، «فَحَقَّ عِقابِ»، يقول: فوجب عليهم عقاب الله إياهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ۝١٥ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ۝١٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «ومَا يَنْظرُ هَؤُلاءِ» المشركونَ بالله من قُريشٍ «إلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً» يعني بالصيحة الواحدة: النفخة الأولى في الصُّورِ. «مالَهَا مِنْ فَوَاقٍ»، يقول: ما لِتلْكَ الصيحةِ من فَيْقَةٍ، يعني من فُتورٍ ولا انقطاع.

---

(١) الغيضة: الأجمة، وهي مغيضُ ماءٍ يجتمع فينبت فيه الشجر، والجمع: غياض وأغياض.

وقوله: «وَقَالُوا رَبَّنا عَجِّلْ لنَا قِطَّنا قَبْلَ يوْم الحِساب»، يقول تعالى ذِكْرُه: وقال هؤلاء المشركونَ بالله من قريش، يا رَبَّنَا عَجِّلْ لنا كَتْبَنَا قبلَ يوم القيامة. والقِطُّ في كلام العرب: الصحيفةُ المكتوبةُ.

ومعنى الكلام: أنَّ القومَ سألوا رَبَّهم تعجيلَ صِكاكهم بحظوظِهم من الخيرِ أو الشرِّ الذي وَعَدَ اللهُ عبادَهُ أنْ يُؤْتِيَهُمُوهَا في الآخرةِ قبلَ يومِ القيامة في الدنيا استهزاءً بوعيدِ الله.

وإنما قلنا إنَّ ذلك كذلك، لأنَّ القطَّ هو ما وصفتُ من الكتبِ بالجوائزِ والحظوظِ، وقد أخبر الله عن هؤلاء المشركين أنهم سألوه تعجيلَ ذلك لهم، ثم أتبعَ ذلك قولَهُ لنبيهِ «اصْبِرْ على ما يَقُولُونَ» فكان معلوماً بذلك أنَّ مسألتَهم ما سألوا النبيَّ ﷺ لو لم تكن على وجهِ الاستهزاءِ منهم لم يكنْ بالذي يتبع الأمر بالصبرِ عليه، ولكن لما كان ذلك استهزاء، وكان فيه لرسولِ الله ﷺ أذىً، أمرهُ اللهُ بالصبرِ عليه منهم حتى يأتيه قضاؤُه فيهم، ولما لم يكن في قوله: «عَجِّلْ لنَا قِطَّنا» بيان أيِّ القطوطِ إرادتهم، لم يكنْ لنا توجيهُ ذلك إلى أنه معنيٌّ به القُطوط ببعض معاني الخيرِ أو الشرِّ، فلذلك قلنا إنَّ مسألتَهم كانت بما ذكرتُ من حظوظِهم من الخيرِ والشرِّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: اصبرْ يا محمدُ على ما يقولُ مشركو قومِكَ لكَ مما تكره قِيلَهُمْ لكَ فإنَّا مُمْتَحِنُوكَ بالمكارهِ امتحاننا سائرَ رسلنا قبلكَ، ثم جاعلُو العلوِّ والرفعةِ والظفرِ لكَ على مَنْ كَذَّبكَ وشاقَّكَ سُنَّتَنا في الرسل الذين أرسلناهم إلى عبادنا قبلكَ فمنهم عَبْدنا أيوب وداود بن إيشا،

فاذْكُرْهُ ذَا الأَيْدِ، ويعني بقوله: «ذَا الأَيْدِ» ذَا القوَّةِ والبطشِ الشديدِ في ذاتِ الله والصبرِ على طاعته.

وقوله: «إنَّهُ أوَّابٌ»، يقول: إنَّ داود رَجَّاعٌ لما يكرهه اللهُ إلى ما يرضيه أوَّابٌ، وهو من قولهم: آبَ الرجلُ إلى أهلِه: إذا رجع.

وقوله: «إنَّا سَخَّرْنا الجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بالعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ»، يقول تعالى ذكره: إنا سخرنا الجبالَ يُسَبِّحْنَ مع داودَ بالعشيِّ، وذلك من وقتِ العصرِ إلى الليلِ، والإشراق، وذلك بالغداة وقت الضحى. ذُكِرَ أنَّ داودَ كان إذا سَبَّحَ سَبَّحَتْ معه الجبالُ.

وقوله: «والطَّيْرَ مَحْشُورَةً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وسَخَّرْنَا الطيرَ يُسَبِّحْنَ معه محشورة بمعنى: مجموعة له، ذُكِرَ أنه ﷺ كان إذا سَبَّحَ أجابته الجبالُ، واجتمعتْ إليه الطيرُ، فسبحت معه، واجتماعها إليه كان حشرها. وقد ذكرنا أقوالَ أهلِ التأويلِ في معنى الحشر فيما مضى، فكرهنا إعادته.

وقوله: «كُلٌّ لَهُ أوَّابٌ»، يقول: كل ذلك له مطيعٌ رجَّاعٌ إلى طاعتهِ وأمرِه. ويعني بالكلِّ: كلَّ الطيرِ.

وقوله: «وَشَدَدْنا مُلْكَهُ»، اختلف أهلُ التأويل في المعنى الذي به شدّد ملكه، فقال بعضهم: شدّد ذلك بالجنودِ والرجالِ، فكان يحرسه كلَّ يومٍ وليلة أربعةُ آلاف، أربعةُ آلاف.

وقال آخرون: كان الذي شدد به ملكه، أن أُعْطِيَ هيبةً من الناسِ له لقضيةٍ كان قَضَاها.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ أن يقال: إنَّ الله تبارك وتعالى أخبرَ أنه شَدَّدَ مُلْكَ داود، ولم يحضر ذلك من تشديده على التشديدِ بالرجالِ والجنودِ دونَ الهيبةِ من الناسِ له ولا على هيبةِ الناس له دون الجنود. وجائزٌ أنْ يكونَ

تشديده ذلك كان ببعض ما ذكرنا، وجائزٌ أن يكون كان بجميعها، ولا قول أَوْلى في ذلك بالصحةِ من قولِ الله، إذ لم يحصُرْ ذلك على بعض معاني التشديد خبر يجبُ التسليمُ له.

وقوله: «وآتَيْناهُ الحِكْمَةَ»، اختلف أهلُ التأويل في معنى الحكمة في هذا الموضع، فقال بعضهم: عَنَى بها النبوَّةَ.

وقال آخرون: عنى بها أنه علم السنن.

وقوله: «وَفَصْلَ الخِطابِ»، اختلف أهلُ التأويلِ في معنى ذلك، فقال بعضهم: عَنَى به أنه علمُ القضاءِ والفهمُ به.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وفصل الخطاب، بتكليفِ المدَّعي البَيِّنَةَ، واليمين على المدعى عليه.

وقال آخرون: بل هو قولُ: أما بعد.

وأَوْلى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إنَّ الله أخبرَ أنه آتى داودَ صلواتُ الله عليه فصلَ الخطاب، والفصلُ: هو القطعُ، والخطابُ هو المخاطبةُ، ومن قطع مخاطبة الرجلِ الرجلَ في حال احتكامِ أحدهما إلى صاحبِهِ قُطِع المحتكم إليه الحكم بين المحتكم إليه وخصمه بصوابٍ من الحكم، ومَنْ قطع مخاطبته أيضاً صاحبه إلزام المخاطب في الحكم ما يجب عليه إنْ كان مدعياً، فإقامة البَيِّنة على دَعْوَاه وإنْ كان مُدَّعىً عليه فتكليفُه اليمينَ إنْ طلب ذلك خصمه. ومن قطع الخطاب أيضاً الذي هو خطبة عند انقضاءِ قصةٍ وابتداءٍ في أخرى الفصل بينهما بأمَّا بَعْدُ. فإذْ كان ذلك كله محتملاً ظاهر الخبر ولم تكن في هذه الآية دلالة على أيِّ ذلك المرادُ، ولا وَرَدَ به خبرٌ عن الرسولِ ﷺ ثابت، فالصوابُ أنْ يعم الخبر، كما عَمَّهُ الله، فيقال: أُوتيَ داودُ فَصْلَ الخطابِ في القضاءِ والمحاورةِ والخطب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وهل أتاكَ يا محمدُ نبأُ الخصم وقيل: إنه عَنَى بالخصمِ في هذا الموضعِ مَلَكان، وخرج في لفظِ الواحدِ، لأنه مصدرٌ مثل الزور والسفر، لا يُثنَّى ولا يُجمع.

وقولـه: «إِذْ تَسَوَّرُوا المِحْرَابَ»، يقول: دخلوا عليه من غيرِ بابِ المحراب، والمحرابُ مُقَدَّمُ كُلِّ مجلسٍ وبيتٍ وأشرفه.

وقوله: «إِذْ دَخَلُوا عَلى دَاوُدَ» فكرَّرَ إِذْ مرتين، وكان بعضُ أهلِ العربية يقول في ذلك: قد يكون معناهما كالواحد، كقولك: ضربتكَ إِذْ دخلتَ عليَّ إذ اجترأتَ، فيكون الدخولُ هو الاجتراءُ، ويكون أنْ تجعل إحداهما على مذهب لما، فكأنه قال: إِذْ تَسَوَّرُوا المحرابَ لما دخلوا، قال: وإنْ شئت جعلتَ لما في الأوّل، فإذا كان لما أوّلاً أو آخراً، فهي بعد صاحبتها، كما تقول: أعطيته لما سألني، فالسؤال قبل الإعطاء في تَقَدُّمِه وتأخُّرِه.

وقوله: «فَفَزِعَ مِنْهُمْ»، يقول القائل: وما كان وجه فزعه منهما وهما خصمان، فإنَّ فزعه منهما كان لدخولهما عليه من غير البابِ الذي كان المَدْخَلَ عليه، فراعَهُ دخولُهما كذلك عليه. وقيل: إنَّ فَزَعَهُ كان منهما، لأنهما دخلا عليه ليلاً في غيرِ وقتِ نَظَرِه بين الناسِ، قالوا: «لا تَخَفْ»، يقول تعالى ذكره: قال له الخصم: لا تَخَفْ يا داودُ، وذلك لمَّا رأياه قد ارتاعَ من دخولهما عليه من غير الباب.

وقوله عزّ وجلّ: «بَغَى بَعْضُنا على بَعْضٍ»، يقول: تَعَدَّى أحدنا على

صاحبِهِ بغيرِ حقٍّ «فاحْكُمْ بَيْنَنا بالحَقِّ»، يقول: فاقضِ بيننا بالعدْلِ «ولَا تُشْطِطْ»، يقول: ولا تَجُرْ، ولا تُسْرِفْ في حكمك، بالميلِ منك مع أحدنا على صاحبه.

وقوله: «وَاهْدِنا إلى سَوَاءِ الصِّراطِ»، يقول: وأرشدنا إلى قَصْدِ الطريقِ المستقيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ٢٣﴾

وهذا مَثَلٌ ضربه الخصمُ المُتَسَوِّرُونَ على داودَ محرابَهُ له، وذلك أنَّ داودَ كانت له فيما قيل: تسعٌ وتسعون امرأةً، وكانت للرجل الذي أغزاه حتى قُتِلَ، امرأةٌ واحدة؛ فلما قُتل نكحَ ـ فيما ذُكِرَ ـ داودُ امرأتَهُ، فقال له أحدهما: «إنَّ هَذَا أخي»، يقول: أخي على ديني.

وقوله: «فقالَ أكْفِلْنِيها»، يقول: فقال لي: انزلْ عنها لي وضُمَّهَا إليَّ.

وقوله: «وَعَزَّنِي فِي الخِطابِ»، يقول: وصار أعزّ مني في مخاطبتهِ إيايَ، لأنه إنْ تَكَلَّمَ فهو أبينُ مني، وإنْ بطشَ كان أشدّ مني فقهرني.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ ۩ ٢٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال داودُ للخصمِ المُتَظَلِّمِ من صاحبِهِ: لقد ظلمكَ صاحِبُكَ بسؤالهِ نعجتَكَ إلى نعاجِه.

وإنما يعني: لقد ظَلِمْتَ بسؤالِ امرأتِكَ الواحدة إلى التسع والتسعين من نسائِه.

وقوله: «وَإنَّ كَثِيراً مِنَ الخُلَطاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ»، يقول: وإنَّ كثيراً من الشركاء ليتعدّى بعضُهم على بعضٍ «إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا» بالله «وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ»، يقول: وعملوا بطاعةِ الله، وانتهوا إلى أمرِه ونهيه، ولم يتجاوزوه. «وَقَلِيلٌ ما هُمْ»، يقول: وقليلٌ ما تجدهم.

وقوله: «وَظَنَّ دَاوُدُ أنَّما فَتَنَّاهُ»، يقول: وعَلِمَ داودُ أنما ابتليناهُ.

وقوله: «فاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ»، يقول: فسأل داودُ رَبَّهُ غفرانَ ذنبِهِ «وَخَرَّ رَاكِعاً»، يقول: وخَرَّ ساجداً لله «وأنابَ»، يقول: ورجعَ إلى رِضا رَبِّه، وتابَ من خطيئته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝٢٥ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ۝٢٦﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «فَغَفَرْنا لَهُ ذلكَ» فعفونا عنه، وصفحنا له عن أن نؤاخذه بخطيئتهِ وذَنْبِهِ ذلك «وإنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفَى»، يقول: وإنَّ له عندنا لَلْقُرْبَةَ منا يومَ القيامة.

وقوله: «وَحُسْنَ مآبٍ»، يقول: مَرْجع ومنقَلَب ينقلبُ إليه يوم القيامة.

وقوله: «يا دَاوُدُ إنَّا جَعَلْناكَ خَليفَةً فِي الأرْضِ»، يقول تعالى ذكره: وقلنا لداودَ: يا داودُ إنَّـا استخلفناكَ في الأرضِ من بعد مَنْ كان قبلكَ من رُسُلِنا

حكماً بين أهلها.

«فـاحْكُمْ بينَ النَّـاس بالحَقِّ»، يعني: بالعـدلِ والإنصاف. «ولاَ تَتَّبِعِ الهَـوَى»، يقول: ولا تُؤْثِرْ هواكَ في قضائكَ بينهم على الحقِّ والعدلِ فيه، فتجور عن الحقِّ «فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبيلِ اللهِ»، يقول: فيميل بك اتباعُكَ هواكَ في قضـائِـكَ على العدلِ والعملِ بالحقِّ عن طريقِ الله الذي جعلَهُ لأهلِ الإيمانِ فيه، فتكون من الهالكينَ بضلالكَ عن سبيلِ الله.

وقوله: «إنَّ الَّذينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين يميلونَ عن سبيلِ الله، وذلك الحقّ الذي شَرَعَهُ لعبادِه، وأمرهم بالعملِ به، فيجورون عنه في الدنيا، لهم في الآخرة يومَ الحسابِ عذابٌ شديدٌ على ضلالهم عن سبيلِ الله بما نَسُوا أمرَ الله، يقول: بما تركوا القضاءَ بالعدلِ، والعملَ بطاعةِ الله.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ۝٢٧ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ۝٢٨ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَمَا خَلَقْنَا السَّماءَ والأرْضَ ومَا بَيْنَهُما» عَبَثاً ولهواً، ما خلقنـاهمـا ليُعْمَلَ فيهما بطاعتنا، ويُنْتَهَى إلى أمرِنَا ونَهْيِنَا، «ذلكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا»، يقول: أي ظَنُّ أنَّا خَلَقْنا ذلك باطلاً ولعباً، ظَنّ الذين كفروا بالله فلم يُوَحِّدُوهُ، ولم يعرفوا عظمَتَهُ، وأنه لا ينبغي أنْ يَعْبَث، فيتيقنوا بذلك أنه لا يخلقُ شيئاً باطلاً. «فَوَيْلٌ للَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ»، يعني: من نار جهنم.

وقـولـه: «أمْ نَجْعَـلُ الَّـذِينَ آمَنُـوا وعَمِلُوا الصَّـالِحَاتِ كالمُفْسِدِينَ في

الأَرْضِ»، يقـول: أنجعلُ الذين صدَّقُوا اللهَ ورسولَهُ وعملوا بما أمر الله به، وانتهوا عما نهاهم عنه «كالمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ»، يقول: كالذين يشركون بالله ويعصُونه ويخالفونَ أمرَهُ ونهيه. «أَمْ نَجْعَلُ المُتَّقِينَ»، يقول: الذين اتقوا الله بطاعتِهِ وراقبوه، فحذروا معاصيه «كالفُجَّارِ» يعني: كالكفارِ المُنْتَهكينَ حُرُماتِ الله.

وقوله: «كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ»، يقول تعالى ذكره: لنبيه محمدٍ ﷺ: وهذا القـرآنُ «كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ» يا محمدُ «مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ»، يقول: ليتدبَّروا حُجَجَ الله التي فيه، وما شرعَ فيه من شرائعِهِ، فَيَتَّعِظُوا ويعملوا به.

«وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبابِ»، يقول: وليعتبرَ أُولُو العقولِ والحِجَا ما في هذا الكتاب من الآياتِ، فيرتدعوا عما هُمْ عليه مقيمينَ من الضلالةِ، وينتهوا إلى مادَلَّهُمْ عليه من الرشادِ وسبيلِ الصواب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: «وَوَهَبْنا لدَاوُدَ سُلَيْمانَ» ابنه ولداً. «نِعْمَ العَبْدُ»، يقول: نعم العبدُ سليمان «إِنَّهُ أَوَّابٌ»، يقول: إنه رَجَّاعٌ إلى طاعةِ الله تَوَّابٌ إليه مما يكرهه منه. وقيل: إنه عُنِيَ به أنه كثيرُ الذِّكْرِ لله والطاعة.

وقوله: «إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بالعَشِيِّ الصَّافناتُ الجِيادُ»، يقول تعالى ذكره: إنه توَّابٌ إلى الله من خطيئته التي أخطأها، إذ عُرِضَ عليه بالعشيِّ الصافنات، والصافنات: جمع الصافن من الخيلِ، والأنثى: صافنة، والصافنُ منها عند

بعض العرب: الذي يجمع بين يديه، ويثني طَرَفَ سُنْبكِ إحدى رجليه، وعند آخرين: الذي يجمع يديه. وزعم الفراء أنَّ الصافن: هو القائم[1].

ويعني بقوله: «فَقالَ إنّي أحْبَبْتُ حُبَّ الخَيْرِ»، أي: أحببتُ حباً للخير، ثم أُضيفَ الحبُّ إلى الخير، وعنى بالخيرِ في هذا الموضع الخيلَ، والعربُ فيما بلغني تسمي الخيلَ الخير، والمالُ أيضاً يسمونه الخير.

وقوله: «عَنْ ذِكْرِ رَبّي»، يقول: إني أحببتُ حُبَّ الخيرِ حتى سهوتُ عن ذِكْرِ ربي وأداء فريضته.

وقوله: «حتى تَوارَتْ بالحِجابِ»، يقول: حتى توارت الشمسُ بالحجاب، يعني: تغيبت في مغيبها.

وقوله: «رُدُّوها عَليَّ»، يقول: رُدُّوا عليَّ الخيلَ التي عُرِضَتْ عليَّ، فشغلتني عن الصلاةِ فكروها عليَّ.

وقوله: «فَطَفِقَ مَسْحاً بالسُّوقِ والأعْناقِ»، يقول: فجعلَ يمسحُ منها السوقَ، وهي جمع الساق، والأعناق، بيده حباً لها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد ابتَلينا سليمانَ وألقينا على كرسيه جَسَداً شيطاناً متمثلاً بإنسان.

(١) انظر معاني القرآن: ٢/٤٠٥.

وقوله: «ثُمَّ أنابَ» سليمان، فرجعَ إلى مُلْكِه من بعد ما زالَ عنه مُلكه فذهب.

قوله: «قالَ رَبِّ اغْفِرْ لي»، يقول تعالى ذكره: قال سليمانُ راغباً إلى ربه: ربِّ استر عليَّ ذنبي الذي أذنبتُ بيني وبينكَ، فلا تعاقبني به «وَهَبْ لي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأحَدٍ مِنْ بَعْدِي» لا يَسْلُبنيه أحدٌ كما سَلَبَنيه قَبْلُ هذا الشيطانُ.

وقوله: «إنَّكَ أنْتَ الوَهَّابُ» يقول: إنك وهابُ ما تشاءُ لمن تشاءُ بيدكَ خزائنُ كلِّ شيءٍ تفتح من ذلك ما أردتَ لمن أردتَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ۝٣٦ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ۝٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ۝٣٨ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٩ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝٤٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فاستجبنا له دُعَاءه، فأعطيناهُ مُلكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده «فَسَخَّرنَا لَهُ الرِّيحَ» مكانَ الخيلِ التي شغلته عن الصلاة «تَجْرِي بأمْرِهِ رُخاءً»، يعني: رِخوةً لينةً، وهي من الرخاوة.

وقوله: «حَيْثُ أصَابَ»، يقول: حيث أراد، من قولهم: أصابَ اللهُ بك خيراً: أي: أراد الله بكَ خيراً.

وقوله: «والشَّياطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وغَوَّاصٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وسخرنا له الشياطينَ فَسَلَّطْنَاهُ عليها مكانَ ما ابتليناهُ بالذي ألقينا على كُرْسِيِّهِ منها يستعملها فيما شاء من أعماله من بنّاء وغوّاص، فالبُناةُ منها يصنعون محاريبَ وتماثيلَ والغَاصَةُ يستخرجونَ له الحُلِيَّ من البحارِ، وآخرون ينحتون له جِفاناً وقدوراً، والمَرَدة في الأغلال مُقرَّنون.

وقوله: «هَذَا عَطاؤُنا فامْنُنْ أَوْ أَمْسِك بغَيْرِ حِسابٍ»، يقول: هذا الذي أعطيناكَ من الملك، وتسخيرنا ما سخرنا لك عطاؤنا، وَوَهْبَنَا لكَ ما سأَلْتَنَا أنْ نَهَبَهُ لكَ من الملكِ الذي لا ينبغي لأحدٍ من بعدكَ.

«فامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بغَيْرِ حِسابٍ»، يقول: فأعطِ مَنْ شئت من المُلك الذي آتيناكَ، وامنعْ مَنْ شئتَ منه ما شئتَ، لا حسابَ عليك في ذلك.

وقوله: «وَإنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مآبٍ»، يقول: وإنَّ لسليمانَ عندنا لقُـرْبـةً بإنابتهِ إلينا وتوبتهِ وطاعتهِ لنا، «وحُسْنَ مآب»، يقول: وحُسْنَ مرجعٍ ومصيرٍ في الآخرة.

فإن قال لنا قائل: وما وجه رغبةِ سليمان إلى ربه في الملك، وهو نبيٌّ من الأنبياء، وإنما يرغبُ في الملك أهلُ الدنيا المؤثِرونَ لها على الآخرةِ؟ أَمْ ما وجه مسألته إياه، إذْ سأله ذلك مُلكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده، وما كان يضرُّهُ أنْ يكون كلُّ مَنْ بَعْدَهُ يُؤْتَى مثلَ الذي أُوتيَ من ذلك؟ أكانَ به بُخْلٌ بذلك، فلم يكنْ من مُلكِه، يُعطى ذلك مَنْ يُعطاه، أم حَسَدٌ للناس؟

قيل: أمَا رغبته إلى رَبِّه فيما يرغبُ إليه من المُلك، فلم تكنْ إن شاء الله به رغبةٌ في الدنيا، ولكن إرادةٌ منه أنْ يعلمَ منزلتَهُ من الله في أجابته فيما رغبَ إليه فيه، وقبوله توبتَهُ، وإجابته دعاءَهُ.

وأما مسألته ربه مُلكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده، فإنَّا قد ذكرنا فيما مضى قبلُ قولَ مَنْ قال: إنَّ معنى ذلك: هَبْ لي مُلكاً لا أُسْلَبُه كما سُلِبْتُه قَبْلُ. وإنما معناه عند هؤلاء: هب لي مُلكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدي أن يسلُبنيه. وقد يتجه ذلك أن يكون بمعنى: لا ينبغي لأحدٍ سوايَ من أهلِ زماني، فيكون حجةً وعَلَماً لي على نبوّتي وأني رسولُكَ إليهم مبعوثٌ، إذْ كانت الرسلُ لابدَّ لها من أعلامٍ تُفارِقُ بها سائرَ الناسِ سواهم، ويتجه أيضاً لأنْ يكون معناه: وهَبْ لي

مُلكاً تَخُصُّنِي به، لا تعطيه أحداً غيري تشريفاً منكَ لي بذلك، وتكرمةً، لتبين منزلتي منكَ به من منازلِ مَنْ سِوايَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ «وَاذْكُرْ» أيضاً يا محمدُ «عَبْدَنا أَيُّوبَ إِذْ نادَى رَبَّـهُ» مستغيثـاً به فيمـا نزلَ به من البلاءِ: يا ربِّ «إِنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ»، كأنَّ معنى النُّصب في هذا المـوضـع: العلة التي نالته في جسده والعناء الذي لاقى فيه، والعذاب: في ذهابِ ماله.

وقوله: «ارْكُضْ بِرِجْلِكَ»، ومعنى الكلام: إذْ نادى ربه مستغيثاً به، أني مَسَّنيَ الشيطانُ ببلاءٍ في جسدي، وعذابٍ بذهابِ مالي وولدي، فاستجبنا له، وقلنا له: اركضْ برجلك الأرضَ: أي حَرِّكْهَا وادفعها برجلك، والركض: حركةُ الرِّجْلِ، يقال منه: رَكَضَتِ الدابةُ، ولا تركض ثوبكَ برجلك.

وقوله: «هَذَا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وشَرَابٌ» ذُكر أنه نَبَعَتْ له حين ضربَ برجلهِ الأرضُ عينان، فشرب من إحداهما، واغتسلَ من الأخرى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾

تأويل الكلام: فاغتسلَ وشربَ، فَفَرَّجْنَا عنه ما كانَ فيه من البلاءِ، ووهبنا له أهلَهُ، من زوجةٍ وولد «وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا» له ورأفةً «وَذِكْرَى»، يقول: وتذكيراً لأولي العقول، ليعتبروا بها فيتعظوا.

وقد حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهْب، قال: أخبرني نافع بن يزيد، عن عُقَيْل، عن ابن شهاب، عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ نَبيَّ اللهِ أيُّوبَ لَبِثَ بِهِ بَلاؤهُ ثَمانِيَ عَشْرَةَ سَنَةً، فَرَفَضَهُ القَرِيبُ والبَعِيدُ، إلاَّ رَجُلانِ مِنْ إخْوانِهِ كانا مِنْ أخصِّ إخْوَانِهِ بِه، كانا يَغْدوَانِ إلَيْهِ ويَرُوحانِ، فَقالَ أحَدُهُما لِصَاحِبِهِ: تَعْلَمُ وَاللهِ لَقَدْ أذْنَبَ أيُّوبُ ذَنْباً ما أذْنَبَهُ أحَدٌ مِنَ العَالمينَ، قال لَهُ صَاحِبُهُ: ومَا ذَاكَ؟ قال: من ثَمانِي عَشْرَةَ سَنَةً لَمْ يَرْحَمْهُ اللهُ فَيَكْشِفَ ما بِه، فَلَمَّا رَاحا إلَيْهِ لَمْ يَصْبِرِ الرَّجُلُ حتى ذَكَرَ ذلكَ لَهُ، فَقالَ أيُّوبُ: لا أدْري ما تَقُولُ، غيرَ أنَّ اللهَ يَعْلَمُ أنِّي كُنْتُ أمُرُّ عَلى الرَّجُلَيْنِ يَتَنازَعانِ فَيَذْكُرانِ اللهَ، فأرْجِعُ إلى بَيْتِي فَأُكَفِّرُ عَنْهُما كَراهِيَةَ أنْ يُذْكَرَ اللهُ إلاَّ فِي حَقٍّ؛ قال: وكانَ يَخْرُجُ إلى حاجَتِهِ، فإذَا قَضَاها أمْسَكَتِ امْرأتُهُ بِيَدِهِ حتى يَبْلُغَ فَلَما كانَ ذاتَ يَوْمٍ أبْطأَ عَلَيْهـا، وَأوحِيَ إلى أيُّوبَ فِي مَكـانِهِ: «أنِ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ»، فاسْتَبْطأتْهُ، فَتَلَقَّتْهُ تَنْظُرُ، فأقْبَلَ عَلَيْها قَدْ أذْهَبَ اللهُ مابِهِ مِنَ البَلاءِ، وَهُوَ عَلى أحْسَنِ ما كانَ؛ فَلَمَّا رَأتْهُ قالَتْ: أيْ بارَكَ اللهُ فِيكَ، هَلْ رأيْتَ نَبيَّ اللهِ هَذَا المُبْتَلى، فَوَاللهِ على ذلكَ مارأيْتُ أحَداً أشْبَهَ بِهِ مِنْكَ إذْ كانَ صحِيحا؟ قالَ: فإنِّي أنا هُوَ؛ قال: وكانَ لَهُ أنْدَرانِ: أنْدَرٌ لِلْقَمْحِ، وأنْدَرٌ للشَّعِيرِ، فَبَعَثَ اللهُ سَحَابَتَيْنِ، فَلَمَّا كانَتْ إحْداهُما على أنْدَرِ القَمْحِ، أفْرَغَتْ فِيهِ الذَّهَبَ حتى فاضَ، وأفرَغَتِ الأُخْرَى في أنْدَرِ الشَّعِيرِ الوَرِقَ حتى فاضَ»[1].

وقوله: «وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً»، يقول: وقلنا لأيوب: خذ بيدك ضغثاً، وهو ما يجمع من شيء مثل حزمة الرُّطْبة، وكملءِ الكفِّ من الشجرِ أو الحشيشِ والشماريخِ ونحو ذلك مما قامَ على ساقٍ.

---

(١) إسناده صحيح، يونس هو ابن عبدالأعلى الصدفي، وابن وهب، هو عبدالله، ونافع ابن يزيد هو الكـلاعي، وهم مصريون ثقات، وعُقيل ـ بضم العين ـ هو ابن خالد الأيلي ثقة، سكن المدينة ثم الشام ثم مصر، وهو من تلامذة الزهري النُّجب، وهذا إسناد مصري معروف.

وقوله عَزّ وجلّ «إنّا أخْلَصْناهُمْ بِخالصَةٍ»، يقول تعالى ذكره: إنا خَصَصْنَاهُمْ بخاصة: ذكرى الدار.

وقوله: «فاضْرِبْ بِهِ»، يقول: فاضربْ زوجتَك بالضِّغْثِ، لتَبرَّ في يمينكَ التي حلفتَ بها عليها أنْ تَضْرِبَها «وَلا تَحْنَثْ»، يقول: ولا تحنَثْ في يمينك.

وقوله: «إنَّا وَجَدْناهُ صَابِراً نِعْمَ العَبْدُ»، يقول: إنا وجدنا أيوبَ صابراً على البلاء، لا يحملُه البلاءُ على الخروجِ عن طاعةِ الله، والدخولِ في معصيته «نِعْمَ العَبْدَ إنَّهُ أوَّابٌ»، يقول: إنه إلى طاعة الله مُقْبِلٌ، وإلى رضاه رَجَّاعٌ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾

اختلفت القرَأةُ في قراءة قوله: «عِبادَنا» فقرأته عامة قَرَأة الأمصار «وَاذْكُرْ عِبادَنا» على الجماع غير ابن كثير، فإنه ذكر عنه أنه قرأه «وَاذْكُرْ عَبْدَنا» على التوحيدِ، كأنه يوجه الكلامَ إلى أنَّ إسحاقَ ويعقوبَ من ذرِّيةِ إبراهيمَ، وأنهما ذُكِرا من بعده.

والصواب عندنا من القراءة في ذلك، قراءةُ من قرأه على الجماعِ، على أنَّ إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ بيان.

يقول جل شأنه: واذكر يا محمدُ عبادنا إبراهيمَ وولَدَه إسحاقَ ويعقوب[1].

وقوله: «أُولي الأَيْدي والأَبْصَارِ» ويعني بالأيدي: القوّة، يقول: أهل القوّة

---

(١) هذه العبارة مستخلصة من كلام له ذكر فيه اختلاف القرأة في قراءة هذه الآية، وهي على طريقته في التفسير.

ص: ٤٧

على عبادةِ الله وطاعته. ويعني بالأبصار: أنهم أهلُ أبصار القلوبِ، يعني به: أُولِي العقولِ للحق[١].

فإن قال لنا قائل: وما الأيدي من القوّةِ، والأيدي إنما هي جَمْعُ يَدٍ، واليدُ جارحةٌ، وما العقولُ من الأبصارِ، وإنما الأبصارُ جمع بَصَرٍ؟ قيل: إن ذلك مَثَل، وذلك أنَّ باليدِ البطش، وبالبطشِ تُعرف قوّةُ القويِّ، فلذلك قيل للقويّ: ذُو يَدٍ؛ وأما البَصَر، فإنه عَنَى به بصرَ القلبِ، وبه تُنال معرفةُ الأَشياء، فلذلك قيل للرجل العالم بالشيء: بصيرٌ به. وقد يُمكن أن يكون عَنى بقوله: «أولي الأَيْدي»: أولي الأيدي عند الله بالأعمالِ الصالحة، فجعل الله أعمالهم الصالحةَ التي عملوها في الدنيا أيدياً لهم عند الله تمثيلاً لها باليد، تكونُ عند الرجل الآخر.

وقوله عز وجل «إنا أخلصناهم بخالصة»، يقول تعالى ذكره: إنا خصصناهم بخاصة ذكرى الدار. وهي ذكرى الدار الآخرةِ، فعملوا لها في الدنيا، فأطاعوا اللهَ وراقبُوه، وقد يدخلُ في وصفهم بذلك أن يكونَ من صفتهم أيضاً الدعاءُ إلى اللهِ وإلى الدارِ الآخرةِ، لأنَّ ذلك من طاعةِ الله، والعمل للدار الآخرة، غير أن معنى الكلمة ما ذَكَرْت.

وقوله: «وإنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ المُصْطَفَينَ الأَخْيارِ»، يقول: وإنَّ هؤلاء الذين ذكرنا عندنا لَمِنَ الذين اصطفيناهم لذكرى الآخرةِ. «الأخيار»، الذين اخترناهم لطاعتنا ورسالتنا إلى خَلْقنا.

---

(١) استشكلت العبارة على ناشر المطبوعة، فقال: «لعل العبارة قد سقط منها كلمة «الابصار» كما يفهم مما قبله ومما يجيء».

قلنا: العبارة سليمة، فقد فسّر الأبصار بأنها هي العقول التي تعقل الحق، كما سيأتي بيانه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ۝٤٨ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝٤٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: واذكُرْ يا محمدُ إسماعيلَ واليسعَ وذَا الكِفْلِ، وما أبلَوْا في طاعةِ الله، فتأسَّ بهم، واسلكْ منهاجَهم في الصبر على ما نالكَ في الله، والنفاذِ لبلاغِ رسالته.

وقوله: «هَذَا ذِكْرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هذا القرآنُ الذي أنزلناه إليك يا محمدُ ذِكْرٌ لكَ ولقومكَ، ذكرناك وإياهم به.

وقوله: «وَإِنَّ للْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مآبٍ»، يقول: وإنَّ للمتقين الذين اتَّقَوُا اللهَ فخافوهُ بأداءِ فرائضهِ، واجتنابِ معاصيه، لَحُسْنَ مَرْجعٍ يرجعونَ إليه في الآخرة، ومَصِيرٍ يصيرون إليه، ثم أخبر تعالى ذكره عن ذلك الذي وعدهم من حُسْنِ المآب ما هُوَ؟ فقال: «جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ۝٥٠ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ۝٥١﴾

قوله تعالى ذِكْرُه: «جَنَّاتِ عَدْنٍ»: بيانٌ عن حُسْنِ المآب، وترجمةٌ عنه، ومعناه: بساتينُ إقامةٍ.

وقوله: «مُفَتَّحَةً لهُمُ الأَبْوابُ»، يعني: مفتحة لهم أبوابها.

فإنْ قال لنا قائل: وما في قوله: «مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأبْوابُ» من فائدةِ خبرٍ حتى ذكر ذلك؟ قيل: فإنَّ الفائدة في ذلك إخبار الله تعالى عنها أنَّ أبوابَها تُفتحُ لهم بغيرِ فتحِ سُكَّانِهَا إياها، بمعاناةٍ بيدٍ ولا جارحةٍ، ولكنْ بالأمرِ فيما ذُكِرَ.

وقوله: «مُتَّكِئِينَ فِيها يَدْعُونَ فِيها بِفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَراب»، يقول: متكئين

في جناتِ عدنٍ، على سُرُرٍ يدعون فيها بفاكهةٍ، يعني بثمارٍ من ثمارِ الجنة كثيرة، وشرابٍ من شرابها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ۝٥٢ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝٥٣ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ۝٥٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: عند هؤلاء المتقين الذين أكرمهم الله بما وصفَ في هذه الآية من إسكانِهم جنات عدن «قاصِراتُ الطَّرْفِ»، يعني: نساء قصرت أطرافهنَّ على أزواجهنَّ، فلا يَرِدْنَ غيرهم، ولا يَمْدُدْنَ أعينهنَّ إلى سواهم.

وقوله: «أتْرَابٌ» يعني: أسنان واحدة.

وقوله: «هَذَا ما تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الحِسَابِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الذي يَعِدُكُم اللهُ في الدنيا أيها المؤمنونَ به من الكرامةِ لمن أدخلَهُ اللهُ الجنةَ منكم في الآخرة.

وقوله: «إنَّ هَذَا لَرِزْقُنا مالَهُ مِنْ نَفادٍ»، يقول تعالى ذكره: إنَّ هذا الذي أعطينا هؤلاء المتقين في جنَّاتِ عدنٍ من الفاكهةِ الكثيرةِ والشرابِ، والقاصرات الطرف، ومَكَّنَّاهُمْ فيها من الوصولِ إلى اللذَّاتِ وما اشتهتْهُ فيها أنفسُهم لرزقنا، رزقناهم فيها كرامةً منا لهم. «مالَهُ مِنْ نَفادٍ»، يقول: ليس له عنهم انقطاعٌ ولا له فناء، وذلك أنهم كلما أخذوا ثمرةً من ثمارِ شجرةٍ من أشجارها، فأكلوها، عادتْ مكانَها أُخرى مثلها، فذلك لهم دائم أبداً، لا ينقطعُ انقطاعَ ما كان أهلُ الدنيا أُوتُوه في الدنيا، فانقطعَ بالفناء، ونَفِدَ بالإنفاد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ۝٥٥ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝٥٦ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۝٥٧ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ

﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ۝٥٩ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ۝٦٠﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «هَذَا»: الذي وصفتُ لهؤلاء المتقينَ. ثم استأنفَ جلَّ وعزَّ الخبرَ عن الكافرينَ به الذين طَغَوْا عليه وبَغَوا، فقال: «وإنَّ للطَّاغِينَ» وهم الذين تمرَّدُوا على رَبِّهم، فعصَوْا أمره مع إحسانِه إليهم «لَشَرَّ مآبٍ»، يقول: لشرَّ مرجعٍ ومصيرٍ يصيرونَ إليه في الآخرةِ بعد خروجهم من الدنيا. ثم بَيَّنَ تعالى ذِكْرُه، ما ذلك الذي إليه ينقلبونَ ويصيرونَ في الآخرة، فقال: «جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها» فترجم عن جهنم بقوله: «لَشَرَّ مآبٍ»، ومعنى الكلام: إنَّ للكافرين لشرَّ مَصِيرٍ يصيرونَ إليه يومَ القيامة، لأنَّ مصيرَهم إلى جهنم، وإليها مُنْقَلَبُهُمْ بعدَ وفاتهم «فَبِئْسَ المِهادُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فبئسَ الفراشُ الذي افترشوه لأنفسهم جهنم.

وقوله: «هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ»، يقول تعالى ذكره: هذا حميمٌ، وهو الذي قد أُغْلِيَ حتى انتهى حَرُّه، وغساقٌ فليذوقوه، ومعناه: يُسْقَونَ الحميم، وما يَسيلُ من صديدهم.

وقوله: «وآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أزْوَاجٌ»، يعني: هذا حميمٌ وغَسَّاقٌ فليذوقوه، وعذابٌ آخرُ من نحوِ الحميمِ ألوانٌ وأنواعٌ، كما يقال: لك عذابٌ من فلان: ضروبٌ وأنواع، وقيل: إنه الزمهرير.

وقوله: «هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ»، يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «هَذَا فَوْجٌ»: هذا فرقةٌ وجماعةٌ مقتحمةٌ معكم أيها الطاغونَ النارَ، وذلك دخول أمةٍ من الأمم الكافرةِ بعد أمةٍ، لا مرحباً بهم، وهذا خبرٌ من الله عن قِيلِ الطاغينَ الذين كانوا قد دخلوا النارَ قبلَ هذا الفوجِ المقتحِمِ للفوجِ المقتحَم فيها عليهم، لا مرحباً بهم، ولكنَّ الكلام اتَّصلَ فصار كأنه قولٌ واحد، كما قيل: «يُرِيدُ أنْ

«يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ» فاتصل قولُ فرعونَ بقولِ مَلَئه، وهذا كما قال تعالى ذكره مخبراً عن أهل النار: «كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها».

ويعني بقولهم: «لا مَرْحَباً بِهِمْ» لا اتَّسعت بهم مداخِلُهم.

وقوله: «إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ»، يقول: إنهم وَارِدُو النارِ وداخِلُوها. «قالُوا بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَبا بِكُمْ» يقول: قال الفوجُ الواردونَ جهنمَ على الطاغينَ الذين وَصَفَ جلّ ثناؤه صفتهم لهم: بَلْ أنتم أيها القومُ لا مرحباً بكم: أي لا اتسعت بكم أماكنكم، «أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لنَا»، يعنون: أنتم قدمتم لنا سُكنى هذا المكان، وصِليَّ النارِ بإضلالِكم إيَّانَا، ودُعائِكم لنا إلى الكفرِ باللهِ، وتكذيب رُسله، حتى ضَلَلْنَا باتباعكم، فاستوجبنا سُكْنى جهنمَ اليوم، فذلك تقديمهم لهم ما قَدَّمُوا في الدنيا من عذابِ الله لهم في الآخرة «فَبِئْسَ القَرارُ»، يقول: فبئسَ المكان يُسْتَقرُّ فيه جهنم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾

وهذا أيضاً قولُ الفوجِ المقتحم على الطاغينَ، وهم كانوا أتباعَ الطاغينَ في الدنيا، يقول جلَّ ثناؤه: وقال الأتباعُ: «رَبَّنا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا»، يعنون: مَنْ قَدَّمَ لهم في الدنيا بدعائهم إلى العملِ الذي يوجب لهم النارَ التي وردوها، وسُكنى المنـزلِ الذي سكنوه منها. ويعنون بقولهم: «هَذَا»: العذاب الذي وردناه «فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً في النَّارِ»، يقولون: فأضْعِفْ له العذابَ في النار على العذابِ الذي هُوَ فيه فيها، وهذا أيضاً من دعاءِ الأتباعِ للمتبوعين.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ

﴿ٱلْأَشْرَارِ ۝٦٢ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ۝٦٣ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ۝٦٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال الطاغُونَ الذين وَصَفَ جلّ ثناؤه صفتهم في هذه الآيات، وهُمْ فيما ذُكِرَ أبو جهلٍ والوليدُ بن المُغيرة وذَوُوهما. «مالَنا لا نَرى رِجالًا»، يقول: ما بالنا لا نرى معنا في النار رجالًا «كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الأشْرارِ»، يقول: كنا نَعُدُّهُمْ في الدنيا من أشرارنا، وعنوا بذلك فيما ذُكِرَ صُهَيْباً وخَبَّاباً وبِلالاً وسَلْمان[1].

وقوله: «اتخذناهُم سخرياً»، معناه: وقال الطاغون: مالنا لا نرى سَلْمان وبِلالاً وخَبَّاباً الذين كُنَّا نَعُدُّهم في الدنيا أشراراً، أتخذناهم فيها سُخرياً نهزأ بهم فيها معنا اليوم في النارِ، أزاغت عنهم أبصارُنا وهم معنا؟

وقوله: «إنَّ ذلكَ لَحَقٌّ»، يقول تعالى ذكره: إنَّ هذا الذي أخبرتُكم أيها الناسُ من الخبرِ عن تراجعِ أهلِ النار، ولَعْنِ بعضِهم بعضاً، ودعاءِ بعضِهم على بعضٍ في النـار لحقٌّ يقينٍ، فلا تشكُّوا في ذلـك، ولكن استيقنـوه. «تخاصمُ أهلِ النارِ» وقوله: «تَخاصُمُ» ردٌّ على قوله: «لَحَقٌّ»، ومعنى الكلام: إنَّ تخاصمَ أهلِ النار الذي أخبرتُكم به لحقٌّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٦٥ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝٦٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ» يا محمدُ لمشركي قومك: «إنَّما

(١) يعني: صهيب الرومي، وخباب بن الأرتّ، وبلال بن رباح، وسلمان الفارسي، رضي الله عنهم.

أنا مُنْذِرٌ» لكم يا معشرَ قريشٍ بين يدي عذابٍ شديد، أُنذركُمْ عذابَ الله وسخطه أنْ يحلَّ بكم على كُفْرِكُمْ به، فاحذروه وبادروا حُلُولَهُ بكم بالتوبة. «ومَا مِنْ إلَهٍ إلاَّ اللهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ»، يقول: وما من معبودٍ تصلحُ له العبادةُ، وتنبغي له الربوبيةُ، إلا الله الذي يدينُ له كلُّ شيءٍ، ويعبدهُ كُلُّ خَلْقٍ، الواحدُ الذي لا ينبغي أنْ يكونَ له في ملكه شريكٌ، ولا ينبغي أنْ تكونَ له صاحبةٌ، القهارُ لكلِّ ما دونَهُ بقدرتِهِ، «ربُّ السمواتِ والأرضِ»، يقول: مالكُ السمواتِ والأرض «وما بينهما» من الخلق، يقول: فهذا الذي هذه صِفَتُه، هو الإلهُ الذي لا إله سواه، لا الذي لا يملكُ شيئا، ولا يضرُّ، ولا ينفعُ.

وقوله: «العَزِيزُ الغفَّارُ»، يقول: العزيزُ في نقمته من أهلِ الكفرِ به، المُدَّعينَ معه إلهاً غيرَهُ، الغفَّارُ لذنوبِ مَنْ تابَ منهم ومِنْ غيرِهم من كفرِهِ ومعاصيه، فأنابَ إلى الإيمانِ به، والطاعةِ له بالانتهاءِ إلى أمرِهِ ونهيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ۝٦٨ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝٦٩ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٧٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ» يا محمدُ لقومكَ المُكَذِّبيكَ فيما جِئْتَهُمْ به من عندِ اللهِ من هذا القرآن، القائلينَ لكَ فيه: إنْ هذا إلا اختلاق. «هُوَ نَبأٌ عَظِيمٌ»، يقول: هذا القرآن خبرٌ عظيم.

وقوله: «أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ»، يقول: أنتم عنه منصرفون لا تعملون به، ولا تُصَدِّقُونَ بما فيه من حججِ الله وآياته.

وقوله: «ما كانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بالمَلإِ الأَعْلَى»، يقول لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ لمشركي قومك: «ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذْ يَخْتَصِمُونَ» في شأنِ آدمَ من قبل أنْ يُوحي إليَّ رَبِّيَ فيعلمني ذلك، يقول: ففي إخباري

لكم عن ذلك دليلٌ واضحٌ على أنَّ هذا القرآنَ وحيٌ من اللهِ وتنزيلٌ من عنده، لأنكم تعلمونَ أنَّ علمَ ذلك لم يكن عندي قبلَ نزولِ هذا القرآن، ولا هو مما شاهدته فعايَنْتُه، ولكني علمتُ ذلك بإخبارِ اللهِ إيايَ به.

وقوله: «إنْ يُوحَى إليَّ إلاّ أنَّمَا أنا نَذيرٌ مُبينٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ: قُلْ يا محمدُ لمشركي قريش: ما يُوحي اللهُ إليَّ عِلْمَ مالا علمَ لي به، من نحوِ العلمِ بالملأ الأعلى واختصامهم في أمرِ آدمَ إذْ أراد خَلْقَهُ، إلا لأني إنما أنا نذيرٌ مبين.

وقوله: «إلا أنما أنا نَذيرٌ مُبينٌ»، يقول: إلا أني نذيرٌ لكم مُبِينٌ لكم إنذارَهُ إياكم.

القَوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾

وقوله: «إذْ قالَ رَبُّكَ» من صلة قوله: «إذْ يَخْتَصِمُونَ»، وتأويلُ الكلام: ما كان لي من علمٍ بالملأ الأعلى إذْ يختصمونَ حين قال رَبُّكَ: يا محمدُ «للْمَلائِكَةِ إنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ» يعني بذلك خلق آدم.

وقوله: «فإذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحي» يقول تعالى ذكره: فإذا سوَّيتُ خَلْقَهُ، وعَدَّلْتُ صورتَهُ، ونفختُ فيه من روحي، قيل: عَنَى بذلك: ونفختُ فيه من قُدرتي.

«فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ»، يقول: فاسجدوا له وخِرُّوا له سُجَّداً.

وقوله: «فَسَجَدَ المَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أجمَعُونَ»، يقول تعالى ذكره: فلما سوَّى اللهُ خَلْقَ ذلك البشرِ، وهو آدم، ونفخَ فيه من روحِهِ، سجدَ له الملائكةُ كُلُّهم

أجمعون، يغني بذلك: الملائكةُ الذين هم في السموات والأرض «إلَّا إبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ»، يقول: غيرَ إبليس، فإنه لم يسجدْ، استكبرَ عن السجودِ له تَعَظُّماً وتكبراً «وكانَ مِنَ الكافِرينَ»، يقول: وكان بتعظُّمِه ذلك، وتكبره على رَبِّه ومعصيته أمرَهُ، ممن كفرَ في علمِ الله السابقِ، فجحدَ ربوبيته، وأنكرَ ما عليه الإقرارُ له به من الإذعانِ له بالطاعة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ٧٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «قالَ» اللهُ لإبليسَ، إذْ لم يسجد لآدمَ، وخالفَ أمره: «يا إبْلِيسُ ما مَنَعَكَ أنْ تَسْجُدَ»، يقول: أيّ شيء منعكَ من السجودِ «لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ»، يقول: لِخَلْقِ يديّ يخبر تعالى ذِكْرُه بذلك أنه خَلَقَ آدمَ بيديه.

وقوله: «أَسْتَكْبَرْتَ»، يقول لإبليس: تعظَّمتَ عن السجودِ لآدمَ، فتركتَ السجودَ له استكباراً عليه، ولم تكن من المتكبرينَ العالينَ قبلَ ذلك. «أمْ كُنْتَ مِنَ العالِينَ»، يقول: أم كنتَ كذلك من قبل ذا علوٍّ وتكُّبرٍ على رَبِّكَ. «قالَ أنا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ»، يقول جلّ ثناؤه: قال إبليسُ لربه: فعلتُ ذلك فلم أسجدْ للذي أمرتني بالسجودِ له لأني خيرٌ منه وكنتُ خيراً لأنك خلقتني من نارٍ وخلقته من طينٍ والنارُ تأكلُ الطينَ وتُحرقُه، فالنارُ خيرٌ منه، يقول: لم أفعل ذلك استكباراً عليك، ولا لأني كنتُ من العالينَ ولكني فعلتُه من أجل أني أشرفُ منه.

وهذا تقريعٌ من الله للمشركينَ الذين كفروا بمحمدٍ ﷺ، وأبَوا الانقيادَ له، واتباع ما جاءهم به من عند الله استكباراً عن أنْ يكونوا تَبَعاً لرجلٍ منهم حين

قالـوا: «أأنْـزِلَ عَلَيْهِ الـذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا» [ص:٨]، و«هَلْ هَذَا إلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ» [الأنبياء: ٣] فقصَّ عليهم تعـالى ذكـره قصـةَ إبليس وإهلاكه باستكبارِه عن السجودِ لآدمَ بدعواه أنه خيرٌ منه، من أجلِ أنه خُلِقَ من نارٍ، وخُلِقَ آدمُ من طين، حتى صار شيطاناً رجيماً، وحَقت عليه من الله لعنته، مُحذِّرهم بذلك أنْ يستحقوا باستكبارهم على محمدٍ، وتكذيبهم إياهُ فيما جاءَهُمْ به من عندِ الله حسداً، وتعظماً من اللعنِ والسخطِ ما استحقه إبليسُ بتكبرِه عن السجودِ لآدم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٧٧ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٧٨ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٧٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لإبليس: «فاخْرُجْ مِنْها» يعني من الجنة «فإنَّكَ رَجِيمٌ»، يقول: فإنك مرجومٌ بالقوم، مشتومٌ ملعونٌ.

وقوله: «وَإنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي»، يقول: وإنَّ لك طردي من الجنة «إلى يَوْمِ الدِّين» يعني: إلى يوم مجازاةِ العبادِ ومحاسبتهم. «قال: رَبِّ فأنْظِرْني إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قال إبليسُ لربه: ربِّ فإذْ لَعَنْتَنِي، وأخْرَجْتَنِي من جنتك «فأنْظِرْني»، يقولُ: فأخِّرْني في الأجل، ولا تُهْلِكْني «إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ»، يقول: إلى يوم تَبْعَثُ خَلْقَكَ من قبورهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٨٠ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٨١ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٨٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال الله لإبليس: فإنكَ مِمَّنْ أنظرتُه إلى يوم الوقتِ المعلوم، وذلك الوقتُ الذي جعله الله أجلًا لهلاكِه.

وقال: «فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أجَمعِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قال إبليسُ: «فَبِعِزَّتِكَ»، أي بقدرتِكَ وسلطانكَ وقهرِكَ مادونَكَ من خَلْقِكَ. «لأُغْوِيَنَّهُمْ أجَمَعِينَ»، يقول: لأُضِلَّنَّ بني آدم أجمعين «إلاَّ عِبادَكَ مِنْهُمُ المُخْلَصِينَ»، يقول: إلا من أخلصتَهُ منهم لعبادتك، وعصمتَهُ من إضلالي، فلم تجعلْ لي عليه سبيلاً، فإني لا أقدرُ على إضلالهِ وإغوائه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾

قوله: «قالَ فالحَقُّ والحَقَّ أقُولُ»، يعني: أنا الحق وأقول الحق.

وقوله: «لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ»، يقول لإبليس: لأملأنَّ جهنمَ منكَ وممنْ تبعكَ منَ بني آدم أجمعين.

وقوله: «قُلْ ما أسأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أجْرٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ قُلْ يا محمد لمشركي قومك، القائلينَ لك «أأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا» ما أسألكم على هذا الذكر وهو القرآنُ الذي أتيتكُم به من عندِ اللهِ أجراً، يعني: ثواباً وجزاء «ومَا أنـا مِنَ المُتَكَلِّفينَ»، يقول: وما أنا ممن يتكلفُ تَخَرُّصَهُ وافتراءَهُ، فتقولون: «إنْ هَذَا إلاَّ إفْكٌ افتَراه» و: «إنْ هَذَا إلاَّ اخْتِلاَقٌ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قل لهؤلاء المشركينَ من قومكَ: «إنْ

ص: ٨٨

هُوَ»، يعني: ماهذا القرآنُ «إلاَّ ذِكْرٌ» يقول: إلا تذكيرٌ من الله «لِلْعَالِمِينَ» من الجنِّ والإنس، ذَكَّرَهُمْ رَبُّهم إرادةَ استنقاذِ مَنْ آمنَ به منهم من الهَلَكة.

وقوله: «وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ»، يقول: ولتعلمُنَّ أيها المشركون بالله من قُرَيش نبأه، يعني: نبأَ هذا القرآن، وهو خَبَرُه، يعني حقيقة ما فيه من الوعدِ والوعيدِ بعد حِين.

سُورَةُ الزُّمَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تأْوِيلِ قَوْلِهِ تعَالَى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ﴾

يقول تعالى ذكره: «تَنْزِيلُ الكِتابَ» الذي نَزَّلْناهُ عليكَ يا محمدُ «مِنَ اللهِ العَزيز» في انتقامه من أعدائه «الحَكِيم» في تدبيرِه خَلْقَهُ، لا من غيره، فلا تكونَنَّ في شكٍّ من ذلك، ورفع قوله «تَنْزِيلُ» بقوله: «مِنَ اللهِ». وتأويل الكلام: من الله العزيز الحكيم تنزيلُ الكتاب.

وقوله: «إنّا أنزَلْنا إلَيْكَ الكِتابَ بالحَقِّ»، يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: إنَّا أنزلنا إليك يا محمدُ الكتابَ، يعني بالكتاب: القرآن «بالحقِّ»، يعني: بالعدل، يقول: أنزلنا إليكَ هذا القرآنَ يأمرُ بالحقِّ والعدل، ومن ذلك الحقّ والعدل أنْ تعبدَ الله مخلِصاً له الدين، لأنَّ الدينَ له لا للأوثانِ التي لا تملك ضرّاً ولا نفعاً.

وقوله: «فاعْبُدِ الله مُخْلِصاً لَهُ الدّينَ»، يقول تعالى ذكره: فاخشع للهِ يا محمدُ بالطاعة، وأخلص له الألوهةَ، وأَفْرِدْهُ بالعبادة، ولا تجعلْ له في عبادتك إياه شريكاً، كما فَعَلَتْ عَبَدةُ الأوثانِ.

وقوله: «ألا للهِ الدِّينُ الخالِصُ»، يقول تعالى ذكره: ألا للهِ العبادةُ والطاعةُ وحده لا شريكَ له، خالصة لا شركَ لأحدٍ معه فيها، فلا ينبغي ذلك لأحدٍ، لأنَّ كل مادونه ملكه، وعلى المملوكِ طاعةُ مالكهِ لا مَنْ لا يملكُ منه شيئاً.

وقوله: «وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلى اللهِ زُلْفى»، يقول تعالى ذكره: والذين اتخذوا من دونِ الله أولياء يَتَوَلَّوْنَهُمْ، ويعبدونهم من دونِ الله، يقولون لهم: ما نعبدكم أيها الآلهةُ إلا لتقربونا إلى الله زُلْفى، قربةً ومنزلةً، وتشفعوا لنا عنده في حاجاتنا.

وقوله: «إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيما هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ»، يقول تعالى ذكره: إنَّ الله يفصلُ بين هؤلاء الأحزابِ الذين اتخذوا في الدنيا من دونِ الله أولياء يومَ القيامة، فيما هُمْ فيه يختلفون في الدنيا من عبادتهم ما كانوا يعبدون فيها، بأنْ يُصْلِيَهم جميعاً جهنمَ، إلا مَنْ أخلصَ الدينَ لله، فوحَّدَهُ، ولم يشركْ به شيئاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي» إلى الحقِّ ودينهِ الإسلام، والإقرارِ بوحدانيته، فيوفِّقَهُ له «مَنْ هُوَ كاذِبٌ» مفترٍ على الله، يتقوَّلُ عليه الباطلَ، ويضيفُ إليه ما ليس من صفته، ويزعمُ أنَّ له ولداً افتراءً عليه، كَفَّارٍ لنعمه، جَحُودٍ لربوبيته.

وقوله: «لَوْ أَرادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً»، يقول تعالى ذكره: لو شاء اللهُ اتخاذَ

ولدٍ، ولا ينبغي له ذلك، «لاصطفى مما يخلقُ ما يشاء»، يقول: لاختارَ من خَلْقِه ما يشاء.

وقوله: «سُبْحانَهُ هُوَ اللهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ»، يقول: تنزيهاً لله عن أنْ يكونَ له ولدٌ، وعما أضافَ إليه المشركونَ به من شركهم. «هُوَ اللهُ»، يقول: هو الذي يَعْبده كلُّ شيء، ولو كان له ولَدٌ لم يكن له عبداً، يقول: فالأشياءُ كلها له ملك، فأنَّى يكون له ولدٌ، وهو الواحدُ الذي لا شريكَ له في مُلكِه وسلطانه، والقهارُ لخلقِه بقدرته، فكل شيءٍ له متذلِّلٌ، ومن سطوتِهِ خاشعٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾

يقول تعالى ذكره واصفاً نفسه بصفتها «خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ بالحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ على النَّهارِ وَيُكَوِّرُ النَّهارَ على اللَّيْلِ»، يقول: يغشِّي هذا على هذا، وهذا على هذا، كما قال: «يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ، وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ» [الحج: ٦١].

وقوله: «وَسَخَّرَ الشَّمْسَ والقَمَرَ»، يقول تعالى ذكره: وسخر الشمسَ والقمرَ لعبادِه، ليعلموا بذلك عَدَدَ السنين والحساب، ويعرفوا الليلَ من النهار لمصلحةِ معاشهم «كُلٌّ يَجْري لأَجَلٍ مُسَمًّى»، يقول: كُلّ ذلك يعني: الشمسَ والقمرَ «يَجْري لأَجَلٍ مُسَمًّى»، يعني إلى قيام الساعة، وذلك إلى أنْ تُكَوَّرَ الشمسُ، وتنكدرَ النجومُ. وقيل: معنى ذلك: أنَّ لكلِّ واحدٍ منهما منازل، لا تَعْدُوهُ ولا تقصرُ دونَهُ. «ألا هُوَ العَزيزُ الغَفَّارُ»، يقول تعالى ذكره: ألا إنَّ الله الذي فعلَ هذه الأفعالَ وأنعم على خَلْقِه هذه النعم هو العزيزُ في انتقامه ممن عاداه، الغفارُ لذنوبِ عباده التائبينَ إليه منها بعفوِه لهم عنها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾

يقول تعالى ذكره: «خَلَقَكُمْ» أيها الناسُ «مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ» يعني من آدم «ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها»، يقول: ثم جعل من آدمَ زوجَهُ حواء، وذلك أنَّ الله خلقها من ضِلَعٍ من أضلاعه.

وقوله: «وأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأنْعامِ ثَمانِيَةَ أزْوَاجٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وجعلَ لكم من الأنعـامِ ثمـانيةَ أزواجٍ من الإبلِ زوجين، ومن البقرِ زوجين، ومن الضأنِ اثنين، ومن المعْزِ اثنين، كما قال جلّ ثناؤه: «ثَمانِيَةَ أزْواجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ المَعْزِ اثْنَيْنِ».

وقوله: «يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ»، يقول تعالى ذكره: يبتدىء خَلْقَكم أيها الناسُ في بطونِ أمهاتكم خلقاً من بعد خلق، وذلك أنـه يحدثُ فيها نطفةً، ثم يجعلها علقةً، ثم مضغة، ثم عظاماً، ثم يكسو العظام لحماً، ثم يُنْشئه خلقاً آخر، تبارك اللهُ وتعالى، فذلك خَلْقُه إياهُ خلقاً بَعدَ خلْقٍ.

وقوله: «في ظُلُماتٍ ثَلاثٍ»، يعني: في ظلمة البطْنِ، وظلمةِ الرَّحِم، وظُلْمة المَشيمَة.

وقوله: «ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ»، يقول تعالى ذكره: هذا الذي فعلَ هذه الأفعالَ أيها الناسُ هو رَبُّكم، لا مَنْ لا يجلبُ لنفسه نفعاً، ولا يدفع عنها ضرّاً، ولا يسوقُ إليكم خيراً، ولا يدفعُ عنكم سوءً من أوثانِكم وآلهتكم.

وقوله: «لَهُ المُلْكُ»، يقول جلَّ وعزَّ: لِرَبِّكم أيها الناسُ الذي صِفَتُه ما وصفَ لكم، وقُدرته ما بَيَّنَ لكم المُلْكُ، مُلْكُ الدنيا والآخرة وسلطانهما لا لغيرِه؛ فأما ملوكُ الدنيا فإنما يملكُ أحدهم شيئاً دونَ شيءٍ، فإنما له خاص من المُلك. وأما المُلكُ التامُ الذي هو المُلكُ بالإطلاقِ فلله الواحد القهار.

وقوله: «لا إِلَهَ إلاَّ هُوَ فَأنّى تُصْرَفُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لا ينبغي أنْ يكون معبودٌ سواه، ولا تصلحُ العبادةُ إلا له «فأنّى تُصْرَفُونَ»، يقول تعالى ذكره: فأنّى تصرفون أيها الناسُ فتذهبون عن عبادةِ رَبِّكم، الذي هذه الصفة صفته، إلى عبادةِ مَنْ لا ضر عنده لكم ولا نفع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٧﴾

واختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «إِنْ تَكْفُرُوا فإنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ، وَلا يَرْضَى لعِبادِهِ الكُفْرَ»، فقال بعضهم: ذلك لخاص من الناسِ، ومعناه: إنْ تكفُروا أيها المشركونَ بالله، فإنَّ الله غنيٌّ عنكم، ولا يرضى لعبادِه المؤمنينَ الذين أخلصهم لعبادتِه وطاعته، الكفرَ.

وقال آخرون: بل ذلك عامٌّ لجميعِ الناسِ، ومعناه: أيها الناسُ إنْ تكفروا، فإنَّ الله غنيٌّ عنكم، ولا يرضى لكم أنْ تكفروا به.

والصوابُ من القول في ذلك ما قال الله جلَّ وعزَّ: إنْ تكفُروا بالله أيها الكفارُ به، فإنَّ الله غنيٌّ عن إيمانكم وعبادتكم إياه، ولا يرضى لعبادِه الكفرَ، بمعنى: ولا يرضى لعباده أنْ يكفُروا به، كما يقال: لست أحبُّ الظلمَ، وإنْ

أحببتُ أنْ يَظلمَ فلانٌ فلاناً فيعاقب.

وقـولـه: «وَإنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ»، يقول: وإنْ تُؤمنوا بربكم وتطيعوهُ يَرْضَ شُكْرَكُمْ له، وذلك هو إيمانُهم به وطاعتهم إياه، فكنى عن الشكر ولم يُذْكر، وإنما ذَكَرَ الفعلَ الدالَّ عليه، وذلك نظير قوله: «الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُم إيماناً» [آل عمران: ١٧٣] بمعنى: فزادهم قولُ الناسِ لهم ذلك إيماناً.

وقوله: «وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى»، يقول: لا تأثمُ آثمةٌ إثم آثمةٍ أخرى غيرَها، ولا تؤاخذ إلا بإثمِ نفسها، يُعْلم عزّ وجلّ عباده أنَّ على كلِّ نفسٍ ما جَنَتْ، وأنها لا تؤاخذ بذنبِ غيرها.

وقوله: «ثُمَّ إلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»، يقول تعالى ذكره: ثم بعد اجتراحكم في الدنيا ما اجترحتم من صالح وسيىءٍ، وإيمانٍ وكفرٍ أيها الناسُ، إلى رَبِّكم مصيرُكم من بعدِ وفاتِكم، «فينبئكم»، يقول: فيخبركم بما كنتم في الدنيا تعملونه من خيرٍ وشرٍّ، فيجازيكم على كلٍّ ذلك جزاءكم، المحسنَ منكم بإحسانهِ، والمسيءَ بما يستحقه، يقول عزَّ وجلَّ لعباده: فاتقوا أنْ تلقوا رَبَّكم وقد عملتم في الدنيا بما لا يرضاهُ منكم فتهلكوا، فإنه لا يَخْفَى عليه عملُ عاملٍ منكم.

وقوله: «إنَّهُ عَلِيمٌ بذاتِ الصُّدُورِ»، يقول تعالى ذكره: إنَّ الله لا يَخْفَى عليه ما أضمرَتْهُ صُدورُكم أيها الناسُ مما لا تُدركه أعينكم، فكيف بما أدركته العيونُ ورأته الأبصارُ. وإنما يعني جلّ وعزّ بذلك الخبر عن أنه لا يَخْفَى عليه شيءٌ، وأنـه مُحْصٍ على عبـاده أعمـالهم، ليجازيهم بها كي يتقوه في سِرِّ أمورِهم وعلانيتها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾

يقول تعالى ذكره: وإذا مَسَّ الإنسانَ بلاءٌ في جسده من مرض، أو عاهةٍ، أو شدّةٍ في معيشته، وجهدٍ وضيقٍ «دعَا رَبَّهُ»، يقول: استغاثَ بربه الذي خلقه من شدّةِ ذلك، ورَغِبَ إليه في كشفِ ما نزلَ به من شدّة ذلك.

وقوله: «مُنِيباً إلَيْهِ»، يقول: تائباً إليه مما كان من قبل ذلك عليه من الكفرِ به، وإشراكِ الآلهةِ والأوثانِ به في عبادته، راجعاً إلى طاعته.

وقوله: «ثُمَّ إذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ»، يقول تعالى ذكره: ثم إذا منحه رَبُّه نعمةً منه، يعني عافية، فكشفَ عنه ضُرَّهُ، وأبدلَهُ بالسقمِ صحةً، وبالشدةِ رخاءً. والعربُ تقولُ لكلِّ مَنْ أعطى غيره من مالٍ أو غيره: قد خَوَّلَهُ.

وقوله: «نَسِيَ ما كانَ يَدْعُو إلَيْهِ مِنْ قَبْلُ»، يقول: ترك دعاءه الذي كان يدعو إلى اللهِ من قَبْلُ أنْ يكشفَ ما كان به من ضُرٍّ «وَجَعَلَ للهِ أنْدَاداً» يعني: شركاء.

وقوله: «لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ»، يقول: ليزيلَ مَنْ أراد أنْ يُوحِّدَ الله ويؤمنَ به عن توحيده، والإقرار به، والدخول في الإسلام.

وقوله: «قُلْ تَمَتَّعْ بكُفْرِكَ قَلِيلاً»، يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ لفاعلِ ذلك: تَمَتَّعْ بكفرِكَ باللهِ قليلاً إلى أنْ تستوفي أجلكَ، فتأتيكَ مَنِيَّتُكَ. «إنَّكَ مِنْ أصحَابِ النَّارِ»: أي إنكِ من أهلِ النار الماكثينَ فيها.

وقوله: «تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ»: وعيدٌ من الله وتهدُّدٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾

اختلفت القَرَأة في قراءة قوله: «أمَّنْ» فقرأ ذلك بعض المكيين وبعض المدنيين وعامة الكوفيين «أمَنْ» بتخفيف الميم، ولقراءتهم ذلك كذلك وجهان: أحدهما أنْ يكون الألف في «أمَن» بمعنى الدعاء، يُرادُ بها: يامَنْ هو قانتٌ آناءَ الليل، والعربُ تنادي بالألفِ كما تنادى بيا، فتقول: أزيدٌ أقْبِلْ، ويا زيدُ أقبل؛ وإذا وجهت الألف إلى النداء كان معنى الكلام: قُلْ تَمَتَّعْ أيها الكافرُ بكفركَ قليلاً، إنكَ من أصحابِ النار، ويا مَنْ هو قانتٌ آناءَ الليل ساجداً وقائماً إنك من أهلِ الجنة، ويكون في النار عَمَّا للفريقِ الكافرِ عندَ اللهِ من الجزاءِ في الآخرة، الكفايةُ عن بيان ما للفريقِ المؤمن، إذْ كان معلوماً، اختلافُ أحوالهما في الدنيا، ومعقولاً أنَّ أحدهما إذا كان من أصحابِ النار لكفرِه بربه أنَّ الآخرَ من أصحابِ الجنة، فحذف الخبرَ عَمَّا له، اكتفاءً بفهمِ السامعِ المراد منه من ذِكْرِ، إذْ كان قد دَلَّ على المحذوفِ بالمذكورِ. والثاني: أنْ تكون الألف التي في قوله «أمَنْ» ألف استفهام، فيكون معنى الكلام: أهَذَا كالذي جعلَ للهِ أنداداً ليضلَّ عن سبيله، ثم اكتفى بما قد سبق من خبرِ اللهِ عن فريقِ الكفرِ به من أعدائه، إذْ كان مفهوماً المراد بالكلام وقرأ ذلك بعض قَرَأة المدينةِ والبصرة وبعض أهل الكوفة: «أمَّنْ» بتشديد الميم، بمعنى: أم من هو؟ ويقولون: إنما هي «أمَّنْ» استفهام اعترض في الكلام بعد كلامٍ قد مضى، فجاء بأم، فعلى هذا التأويل يجبُ أنْ يكونَ جوابُ الاستفهام متروكاً من أجلِ أنه قد جرى الخبرُ عن فريقِ الكفر، وما أعدَّ له في الآخرة، ثم أتبع الخبر عن فريقِ الإيمان، فعلم بذلك المراد، فاستغني بمعرفة السامع بمعناه من ذِكْرِه، إذْ كان معقولاً أن معناه هذا أفضل أم هذا؟

والقول في ذلك عندنا أنهما قراءتان قرأ بكلٍّ واحدةٍ علماءُ من القَرَأَةِ مع صحة كلٍّ واحدةٍ منهما في التأويل والإعراب، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيبٌ.

وقوله: «آناءَ اللَّيْلِ» يعني: ساعات الليل.

وقوله: «ساجِداً وقَائماً»، يقول: يقنت ساجداً أحياناً، وأحياناً قائماً، يعني: يطيعُ، والقنوتُ عندنا الطاعةُ، ولذلك نصب قوله: «ساجِداً وقَائماً» لأنَّ معناه: أمَّنْ هو يقنتُ آناءَ الليلِ ساجداً طوراً، وقائماً طوراً، فهما حالٌ من قانت.

وقوله: «يَحْذَرُ الآخِرَةَ ويَرْجو رحمةَ رَبِّهِ»، يقول: يَحْذَرُ عذابَ الآخرة، ويرجو أن يرحمه الله فيدخله الجنة.

وقوله: «قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ»، يقول تعالى ذكره: قل يا محمدُ لقومِكَ: هل يستوي الذين يعلمونَ ما لهم في طاعتهم لربِّهم من الثوابِ، وما عليهم في معصيتهم إياهُ من التبعاتِ، والذين لا يعلمون ذلك، فهم يخبطون في عشواء، لا يرجونَ بحسن أعمالهم خيراً، ولا يخافون بسيِّئها شراً، يقول: ماهذان بمتساويين.

وقوله: «إنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الألْبابِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنما يعتبرُ حججَ الله، فيتعظ، ويتفكر فيها، ويتدبرها أهلُ العقولِ والحجى، لا أهلُ الجهلِ والنقصِ في العقول.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ: «قُلْ» يا محمدُ لعبادي الذين آمنوا: «يا عِبادِ الَّذِينَ آمَنُوا» بالله، وصدقوا رسوله «اتَّقوا رَبَّكُمْ» بطاعتهِ واجتنابِ معاصيه «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ».

ثم اختلف أهلُ التأويلِ في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معناه: للذين أطاعوا الله حسنة في هذه الدنيا، وقال: «في» من صلة حسنة، وجعل معنى الحسنة: الصحة والعافية.

وقال آخرون: «في» من صلة أحسنوا، ومعنى الحسنة: الجنة.

وقولـه: «وأرْضُ الله وَاسِعَـةٌ»، يقـول تعالى ذِكْرُه: وأرضُ الله فسيحةٌ واسعة، فهاجروا من أرضِ الشركِ إلى دارِ الإسلام.

وقوله: «إنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أجْرَهُمْ بغَيرِ حسابٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنما يُعطي الله أهلَ الصبرِ على ما لقوا فيه في الدنيا أجرهم في الآخرة «بغيرِ حسابٍ»، يقول: ثوابهم بغير حساب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٢ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ لمشركي قومك: إنَّ الله أمرني أنْ أعبده مُفْرداً له الطاعةَ، دونَ كلِّ ماتدعون من دونه من الآلهة والأنداد «وأُمِرْتُ لأَنْ أكُونَ أوَّلَ المُسْلمينَ»، يقول: وأمرني ربي جلَّ ثناؤه بذلك، لأنْ أكـونَ بفعـلِ ذلـك أوَّلَ مَنْ أسلم منكم، فخضعَ له بالتوحيدِ، وأخلصَ له العبادة، وبرئَ من كلِّ مادونه من الآلهة.

وقـولـه تعالى: «قُلْ إنِّي أخافُ إنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ»، يقول تعالى ذكره: قُلْ يا محمدُ لهم إني أخاف إنْ عصيتُ ربي فيما أمرني به من عبادته،

مخلصاً له الطاعةَ، ومُفْرِدَهُ بالربوبية. «عذابَ يومٍ عَظِيم»، يعني عذاب يوم القيامة، ذلك هو اليوم الذي يعظم هَوْلُه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ۝١٤ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمد لمشركي قومك: اللهَ أعبدُ مخلصاً، مُفْرِداً له طاعتي وعبادتي، لا أجعلُ له في ذلك شريكاً، ولكني أُفرده بالألوهةِ، وأبرأُ مما سواه من الأندادِ والآلهةِ، فاعبدوا أنتم أيها القومُ ماشئتم من الأوثانِ والأصنامِ، وغير ذلك مما تعبدونَ من سائرِ خلقه، فستعلمون وبالَ عاقبةِ عبادتكم ذلك إذا لقيتم ربَّكم.

وقوله: «قُلْ إنَّ الخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ»، يقول تعالى ذكره: قُلْ يا محمد لهم: إنَّ الهالكينَ الذين غَبَنُوا أنفسهم، وهلكتْ بعذابِ الله أهلُوهم مع أنفسهم، فلم يكنْ لهم إذْ دخلوا النارَ فيها أهل، وقد كان لهم في الدنيا أهلون.

وقوله: «ألا ذلكَ هُوَ الخُسْرانُ المُبِينُ»، يقول تعالى ذكره: ألا إنَّ خسرانَ هؤلاء المشركينَ أنفسهم وأهليهم يومَ القيامة، وذلك هلاكُها هو الخسرانُ المبين، يقول تعالى ذِكْرُه: هو الهلاكُ الذي يبينُ لمن عاينه وعلمه أنه الخسران.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ۝١٦ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا

﴿وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لهؤلاء الخاسرين يوم القيامة في جهنم «مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّار»، وذلك كهيئةِ الظلل المبنيةِ من النار. «وَمِنْ تَحتهِمْ ظُلَلٌ»، يقول: ومن تحتهم من النارِ ما يَعْلُوهم، حتى يصيرَ ما يعلوهم منها من تحتهم ظللاً، وذلك نظير قولِهِ جلَّ ثناؤه: «لَهُمْ مِنْ جَهَنَمَ مِهادٌ، وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ» [الأعراف: ٤١] يغشاهم مما تحتهم فيها من المهاد.

وقوله: «ذلكَ يُخَوِّفُ اللهُ بهِ عبادَهُ، يا عبادِ فاتَّقُونِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الذي أخبرتكم أيها الناسُ به، مما للخاسرينَ يومَ القيامةِ من العذابِ، تخويفٌ من رَبِّكم لكم، يُخَوِّفُكم به لتحذروه، فتجتنبوا معاصيه، وتُنِيبُوا من كفركم إلى الإيمانِ به، وتصديقِ رسوله، واتباعِ أمرِه ونهيه، فتنجوا من عذابهِ في الآخرة «فاتَّقُونِ»، يقول: فاتقونِ بأداءِ فرائضي عليكم، واجتنابِ معاصي، لتنجوا من عذابي وسخطي.

وقوله: «وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ»: أي اجتنبوا عبادةَ كُلِّ ما عُبدَ من دونِ الله من شيء. ومعنى الطاغوت في هذا الموضع: الشيطانُ، وهو في هذا الموضع وغيره بمعنى واحدٍ عندنا.

وقوله: «وأنابُوا إلى اللهِ»، يقول: وتابوا إلى اللهِ ورجعوا إلى الإقرارِ بتوحيدِه، والعملِ بطاعته، والبراءةِ مما سواهُ من الآلهةِ والأنداد.

وقوله: «لَهُمُ البُشْرَى» يقول: لهم البشرى في الدنيا بالجنة في الآخرة «فَبَشِّرْ عِباد الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ» يقول جلَّ ثناؤه لنبيه محمدٍ ﷺ: فَبَشِّرْ يا محمدُ عبادي الذين يستمعون القولَ من القائلين، فيتبعونَ أرشدَهُ وأهداه،

وأدَلَّهُ على توحيدِ الله، والعمل بطاعته، ويتركون ما سوى ذلك من القولِ الذي لا يدلُّ على رشادٍ، ولا يهدي إلى سداد.

وقوله: «أُولَئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللهُ»، يقول تعالى ذكره: الذين يستمعونَ القـولَ فيتبعـونَ أحسنه الذين هداهم الله، يقول: وفَّقَهُم اللهُ للرشادِ وإصابة الصواب، لا الذين يُعْرِضون عن سماع الحقِّ، ويعبدون ما لا يضرُّ، ولا ينفع.

وقوله: «وأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الألْبابِ»، يعني: أُولُوا العقولِ والحجا.

وذُكر أنَّ هذه الآيـة نزلتْ في رهطٍ معروفينَ وَحَّدَوا الله، وبرئوا من عبادةِ كُلِّ ما دون الله قبل أن يُبعث نبيّ الله، فأنزل الله هذه الآيةَ على نبيه يمدحهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «أفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ العَذَابِ»: أفمن وَجَبَتْ عليه كلمةُ العذاب في سابقِ علم رَبِّكَ يا محمدُ بكفره به.

وقوله: «أفَأنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ: أفأنتَ تنقذُ يا محمدُ مَنْ هو في النار مَنْ حقَّ عليه كلمةُ العذاب، فأنتَ تُنقذه؟

وقوله: «لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ»، يقول تعالى ذكره: لكنِ الذين اتقوا رَبَّهم بأداءِ فرائضِه واجتنابِ محارمه، لهم في الجنة غرفٌ من فوقها غرفٌ مبنيةٌ علاليٌّ بعضُها فوقَ بعض «تَجْري مِنْ تَحْتِها الأنهارُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: تجري من تحتِ أشجارِ جناتها الأنهارُ.

وقوله: «وَعدَ اللهِ»، يقول جلّ ثناؤه: وَعَدْنَا هذه الغرفَ التي من فوقها غرفٌ مبنيةٌ في الجنة، هؤلاء المتقينَ.

«لا يُخْلفُ اللهُ المِيعادَ»، يقول جلّ ثناؤه: واللهُ لا يُخْلِفُهم وَعْدَهُ، ولكنه يوفي بوعده.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: «أَلَمْ تَرَ» يا محمدُ «أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً» وهو المطرُ «فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الأَرْضِ»، يقول: فأجراه عيوناً في الأرض، واحدها ينبوع، وهو ما جاشَ من الأرض. قال: ثم أنبتَ بذلك الماء الـذي أنزله من السماء فجعلَهُ في الأرض عيوناً «زرعاً مختلفاً أَلْوَانُهُ» يعني: أنـواعـاً مختلفـة من بين حنـطة وشعير وسمسم وأرز، ونحو ذلك من الأنواع المختلفـة «ثُمَّ يَهِيجُ فَتـراهُ مُصْفَـرّاً»، يقـول: ثم يَيْبَسُ ذلك الزرعُ من بعد خُضرته، يقال للأرضِ إذا يبسَ ما فيها من الخضرة وذَوَى: هاجتِ الأرضُ، وهاجَ الزرعُ.

وقوله: «فَتَرَاه مُصْفَرّاً»، يقول: فتراه من بعد خُضْرَتِهِ ورطوبته قد يَبِسَ فصار أصفر، وكذلك الزرعُ إذا يبس اصفرَّ. «ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطاماً» والحُطام: فتاتُ التبنِ والحشيشِ، يقول: ثم يجعل ذلك الزرع بعد ما صار يابساً فُتاتاً مُتَكَسِّراً.

وقوله: «إنَّ فِي ذلكَ لَذِكْرَى لأُولي الأَلْبابِ»، يقول تعالى ذكره: إنَّ في فعلِ اللهِ ذلك كالذي وصف لذكرى وموعظةً لأهلِ العقول والحجا يتذكرون به، فيعلمونَ أنَّ مَنْ فعلَ ذلك فلن يتعذَّرَ عليه إحداثُ ما شاء من الأشياء، وإنشاء ما أرادَ من الأجسام والأعراض، وإحياء مَنْ هلكَ من خَلْقِه من بعد مماتِهِ وإعادتِهِ من بعد فنائِهِ، كهيئتِه قبلَ فَنائِه، كالذي فُعِلَ بالأرضِ التي أنزل عليها

من بعد موتها الماء، فأنبتَ بها الزرعَ المختلفَ الألوانِ بقدرته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى ذكره: أفمن فَسَح الله قلبه لمعرفتِه، والإقرارِ بوحدانيته، والإذعانِ لربوبيته، والخضوعِ لطاعته «فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ»، يقول: فهو على بصيرةٍ مما هو عليه ويقين، بتنوير الحقِّ في قلبِه، فهو لذلك لأمر اللهِ مُتَّبِعٌ، وعَمَّا نَهاهُ عنه مُنْتَهٍ فيما يرضيه، كمن أقسى اللهُ قَلْبَهُ، وأخلاهُ من ذِكْره، وضَيَّقَهُ عن استماعِ الحق، واتباعِ الهدى، والعملِ بالصواب، وتَرَكَ ذِكْر الذي أقسى الله قلبَهُ، وجوابَ الاستفهام اجتزاءً بمعرفةِ السامعينَ المراد من الكلام، إذ ذكر أحد الصنفين، وجعل مكانَ ذكر الصنف الآخر الخبر عنه بقوله: «فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ».

قوله: «فَوَيْلٌ للقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ»، يقول تعالى ذكره: فويلٌ للذين جَفَتْ قلوبُهم ونَأَتْ عن ذكرِ الله وأعرضتْ، يعني عن القرآنِ الذي أنزله تعالى ذِكْرُه، مُذَكِّراً به عبادَهُ، فلم يؤمنْ به، ولم يصدِّقْ بما فيه. وقيل «مِنْ ذِكْرِ اللهِ»، والمعنى: عن ذكرِ الله، فوضعت مِنْ مكان عَنْ، كما يقال في الكلام: أُتخمتُ من طعامٍ أكلته، وعن طعامٍ أكلته بمعنى واحد.

وقوله: «أُولَئِكَ في ضَلالٍ مُبِينٍ»، يقول تعالى ذكره: هؤلاء القاسية قلوبهم من ذكرِ الله في ضلالٍ مُبين، لمن تأمَّله وتدبَّره بفهمٍ أنه في ضلالٍ عن الحقِّ جائر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا

الزمر: ٢٣

مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «اللهُ نَزَّلَ أحْسَنَ الحَديثِ كِتاباً»، يعني به القرآنَ «مُتَشابِهاً»، يقول: يشبه بعضُه بعضاً، لا اختلافَ فيه، ولا تضادَّ.

وقوله: «مَثانِيَ»، يقول: تُثَنَّى فيه الأنباءُ والأخبارُ والقضاءُ والأحكامُ والحُجَج.

وقوله: «تَقْشَعِر مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: تقشعرُّ من سَماعِهِ إذا تُليَ عليهم جلودُ الذين يخافون رَبَّهم. «ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ اللهِ» يعني إلى العمل بما في كتابِ الله، والتصديقِ به.

وذُكر أنَّ هذه الآية نزلتْ على رسولِ الله ﷺ من أجلِ أنَّ أصحابَهُ سألوه الحديثَ.

«ذلكَ هُدَى اللهِ يَهدِي بهِ مَنْ يَشاءُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الذي يصيبُ هؤلاء القوم الذين وصفتُ صِفَتَهم عند سماعِهم القرآنَ من اقشعرارِ جلودهم، ثم لِينُها ولينُ قلوبهم إلى ذِكْرِ الله من بعد ذلك، «هُدَى اللهِ»، يعني: توفيق الله إياهم وفَّقهم له «يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ»، يقول: يهدي تبارك وتعالى بالقرآنِ مَنْ يشاءُ من عباده.

وقد يتوجَّه معنى قوله: «ذلكَ هُدَى» إلى أنْ يكونَ ذلك من ذِكْرِ القرآن، فيكون معنى الكلام: هذا القرآنُ بيانُ الله يهدي به مَنْ يشاء، يوفق للإيمانِ به من يشاء.

وقوله: «وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هادٍ»، يقول تعالى ذكره: ومَنْ يخذلْهُ

الله عن الإيمانِ بهذا القرآنِ والتصديقِ بما فيه، فيضله عنه، «فما لَهُ من هادٍ»: يقول: فما له من مُوَفِّقٍ له، ومسددٍ يُسَدِّدُه في اتباعه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّـٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾

اختلف أهلُ التأويلِ في صفةِ اتقاء هذا الضالِّ بوجههِ سُوءَ العذاب، فقال بعضهم: هو أنْ يُرْمى به في جهنم مكبوباً على وجهه، فذلك اتقاؤه إياه.

وقال آخرون: هو أنْ ينطلقَ به إلى النار مكتوفاً، ثم يُرْمَى به فيها، فأوّل ما تمسُّ النارُ وجهه.

وهذا أيضاً مما ترك جوابه استغناء بدلالةِ ماذكر من الكلام عليه عنه. ومعنى الكلام: أَفَمَنْ يَتَّقي بوجههِ سوءَ العذابِ يومَ القيامة خيرٌ، أم من ينعم في الجنان؟

وقـولـه: «وقِيلَ للظَّالِمِينَ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ»، يقول: ويقال يومئذٍ للظالمينَ أنفسهم بإكسابِهم إياها سخطَ الله، ذُوقُوا اليومَ أيها القومُ وبالَ ما كنتم في الدنيا تكسبون من معاصي الله.

وقوله: «كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: كَذَّبَ الذين من قبل هؤلاء المشركين من قُريش من الأممِ الذين مضوا في الدهور الخالية رسلهم «فَـأتـاهُمُ العَـذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُـرونَ»، يقول: فجاءهم عذابُ اللهِ من الموضعِ الذي لا يشعرون: أي لا يعلمونَ بمجيئِهِ منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ

﴿ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٢٦﴾

يقول تعالى ذكره: فَعَجَّلَ اللهُ لهؤلاء الأمم الذين كَذَّبُوا رسلهم الهوانَ في الدنيا، والعذابَ قبل الآخرة، ولم يُنْظِرْهُم إذ عَتَوْا عن أمرِ رَبِّهم. «وَلَعَذابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ»، يقول: ولعذابُ الله إياهم في الآخرة إذا أدخلهم النارَ، فعذَّبهم بها، أكبر من العذابِ الذي عَذَّبهم به في الدنيا، «لو كانوا يعلمون»، يقول: لو عَلِمَ هؤلاء المشركونَ من قريش ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٧ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ٢٨﴾

يقول تعالى ذكره: ولقد مَثَّلْنَا لهؤلاء المشركينَ بالله من كُلِّ مَثَلٍ من أمثالِ القرون للأممِ الخالية، تخويفاً مِنَّا لهم وتحذيراً. «لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ»، يقول: ليتذكَّرُوا فينزجروا عما هُمْ عليه مقيمونَ من الكفر بالله.

وقولـه: «قُرآناً عَرَبياً»، يقول تعالى ذكره: لقد ضربنا للناسِ في هذا القرآنِ من كُلِّ مَثلٍ قرآناً عربياً «غيرَ ذِي عِوَجٍ» يعني: ذي لَبْسٍ.

وقوله: «لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ»، يقول: جعلنا قرآناً عربياً إذْ كانوا عرباً، ليفهموا ما فيه من المواعظِ، حتى يتقوا ما حذَّرهم اللهُ فيه من بأسِهِ وسطوته، فَيُنِيبُوا إلى عبادتهِ وإفرادِ الأُلوهةِ له، ويتبرَّؤوا من الأندادِ والآلهةِ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مَثَّلَ اللهُ مثلاً للكافرِ بالله الذي يعبدُ آلهةً شتَّى، ويطيع جماعةً من الشياطين، والمؤمن الذي لا يعبدُ إلا الله الواحد، يقول تعالى ذِكْرُه: ضَرَب اللهُ مثلاً لهذا الكافر «رجلاً فيه شركاء»، يقول: هو بين جماعةٍ مالكينَ متشاكسينَ، يعني مختلفينَ متنازعينَ، سيئة أخلاقهم، من قولهم: رَجُلٌ شَكِسٌ: إذا كان سيئَ الخُلُقِ وكل واحدٍ منهم يستخدمه بقدرِ نصيبِه ومِلْكِه فيه، «ورجلاً سَلَماً لرجل»، يقول: ورجلاً خُلُوصاً لرجلٍ يعني المؤمن المُوَحِّدَ الذي أخلصَ عبادتَهُ لله، لا يعبدُ غيره ولا يَدِينُ لشيءٍ سواه بالربوبية.

وقوله: «هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: هل يستوي مِثْلُ هذا الذي يخدمُ جماعةَ شركاء سيئة أخلاقهم مختلفة فيه لخدمتهِ مع منازعتهِ شركاءه فيه، والذي يخدم واحداً لا ينازعُه فيه منازعٌ إذا أطاعه عرفَ له موضعَ طاعتهِ وأكرمه، وإذا أخطأ صَفَحَ له عن خطئهِ، يقول: فأيُّ هذين أحسنُ حالاً وأروحُ جسماً وأقلُّ تعباً ونَصَباً.

وقوله: «الحَمْد للهِ»، يقول: الشكرُ الكاملُ، والحمدُ التامُّ لله وحده دونَ كلِّ معبودٍ سواه.

وقوله: «بَلْ أكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ»، يقول جل ثناؤه: وما يستوي هذا المُشْتَرَكُ فيه، والذي هو مُنْفَرِدُ مُلْكِه لواحدٍ، بل أكثر هؤلاء المشركين بالله لا يعلمون أنهما لا يستويان، فهم بجهلِهم بذلك يعبدونَ آلهةً شَتَّى من دونِ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: إنك يا محمدُ ميتٌ عن قليل، وإنَّ

هؤلاء المُكَذِّبيكَ من قومكَ والمؤمنينَ منهم ميتون. «ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ»، يقول: ثم إن جميعكم المؤمنينَ والكافرينَ يومَ القيامة عند رَبِّكم تختصمونَ فيأخذ للمظلومِ منكم من الظالمِ، ويفصلُ بين جميعِكم بالحقِّ.

واختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: عَنَى به اختصامَ المؤمنينَ والكافرينَ، واختصامَ المظلومِ والظالم.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك اختصام أهلِ الإسلام.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ أَنْ يقال: عَنَى بذلك: إنك يا محمدُ ستموتُ، وإنكم أيها الناسُ ستموتون، ثم إنَّ جميعكم أيها الناسُ تختصمونَ عند ربكم، مؤمنكم وكافركم، ومُحِقُّوكم ومُبْطِلُوكم، وظالموكم ومظلوموكم، حتى يؤخذَ لكلٍّ منكم، مِمَّنْ لصاحبِهِ قِبَلَهُ حَقٌّ، حَقُّه.

وإنما قلنا هذا القولَ أَوْلى بالصوابِ لأنَّ الله عَمَّ بقوله: «ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ» خطابَ جميعِ عبادِه، فلم يخصصْ بذلك منهم بعضاً دونَ بعضٍ، فذلك على عمومه على ماعَمَّهُ اللهُ به، وقد تنزل الآية في معنى، ثم يكون داخلاً في حكمها كلُّ ما كان في معنى ما نزلتْ به.

وقوله: «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلى اللهِ، وكَذَّبَ بالصِّدْقِ إِذْ جاءَهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فَمن مِن خَلْقِ الله أعظمُ فِريةً ممن كذبَ على الله، فادَّعى أنَّ له ولداً وصاحبةً، أو أنه حرَّم ما لم يحرمه من المطاعم. «وكَذَّبَ بالصِّدْقِ إِذْ جاءَهُ»، يقول: وكذَّبَ بكتابِ الله إذْ أنزله على محمدٍ، وابتعثه اللهُ به رسولاً، وأنكر قولَ لا إله إلا الله.

وقوله: «أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكافِرِينَ»، يقول تبارك وتعالى: أليسَ في النارِ مأوى ومسكن لمن كَفَرَ بالله، وامتنعَ من تصديقِ محمدٍ ﷺ، واتِّباعِهِ على

ما يَدْعُوه إليه مما أتاه به من عند الله من التوحيدِ، وحُكْمِ القرآن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾﴾

اختلف أهلُ التأويل في الذي جاء بالصِّدْقِ وصَدَّقَ به، وما ذلك؛ فقال بعضهم: الذي جاء بالصدق رسولُ الله ﷺ، قالوا: والصِّدْقُ الذي جاء به: لا إله إلا الله، والذي صَدَّقَ به أيضاً، هو رسولُ الله ﷺ.

وقال آخرون: الذي جاء بالصدقِ: رسولُ الله ﷺ، والذي صَدَّقَ به: أبو بكرٍ رضي الله عنه.

وقال آخرون: الذي جاء بالصدق: رسولُ الله ﷺ، والصِّدْقُ: القرآنُ، والمصدقون به: المؤمنون.

وقال آخرون: الذي جاء بالصدق جبريلُ، والصدق: القرآنُ الذي جاء به من عندِ الله، وصدَّقَ به رسولُ الله ﷺ.

وقال آخرون الذي جاء بالصدق: المؤمنونَ، والصدقُ: القرآنُ، وهم المصدِّقونَ به.

والصواب من القول في ذلك أنْ يقالَ: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه عَنَى بقوله: «وَالَّذِي جاءَ بالصِّدْقِ وَصَدَّق بِهِ» كلُّ مَنْ دعا إلى توحيدِ الله، وتصديقِ رُسُلِهِ، والعمل بما ابتعثَ به رسولَهُ ﷺ من بين رسلِ الله وأتباعِهِ والمؤمنينَ به، وأنْ يقال الصدق: هو القرآنُ، وشهادةُ أنْ لا إله إلا الله، والمصدِّقُ به: المؤمنونَ بالقرآنِ، من جميعِ خَلْقِ الله كائناً مَنْ كان من نبيٍّ الله وأتباعه.

وإنما قلنا ذلك أوْلى بالصواب، لأنَّ قوله تعالى ذِكْرُه: «وَالَّذِي جاءَ بالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ» عُقيبَ قوله: «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ على اللهِ، وَكَذَّبَ بالصِّدْقِ إذْ جاءَهُ»، وذلك ذَمٌّ من الله للمفترينَ عليه، المكذِّبينَ بتنزيلهِ ووحيهِ، الجاحدينَ وحدانيتَهُ، فالواجبُ أنْ يكونَ عقيبَ ذلك مدحُ من كان بخلافِ صفةِ هؤلاء المذمومينَ، وهم الذين دعوهم إلى توحيدِ الله، ووصفه بالصفةِ التي هو بها، وتصديقهم بتنزيلِ اللهِ ووحيهِ، والذين هُمْ كانوا كذلك يوم نزلتْ هذه الآيةُ، رسولُ الله ﷺ وأصحابهُ ومَنْ بعدهم، القائمونَ في كل عصرٍ وزمانٍ بالدعاءِ إلى توحيدِ الله، وحكمِ كتابهِ، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه لم يخصَّ وصفه بهذه الصفةِ التي في هذه الآية على أشخاصٍ بأعيانِهم، ولا على أهلِ زمانٍ دونَ غيرهم، وإنما وصفهم بصفة، ثم مدحهم بها، وهي المجيء بالصدقِ والتصديقِ به، فكل مَنْ كان كذلك وَصْفُه فهو داخلٌ في جملةِ هذه الآية إذا كان من بني آدم.

وقوله: «أُولَئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ»، يقول جلّ ثناؤه: هؤلاء الذين هذه صِفَتُهم، هُم الذين اتقوا الله بتوحيدهِ والبراءةِ من الأوثانِ والأندادِ، وأداءِ فرائضِه، واجتنابِ معاصيه، فخافوا عقابه.

وقوله: «لَهُمْ ما يَشاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لهم عند رَبِّهم يومَ القيامة، ما تشتهيه أنفسُهم، وتَلَذُّهُ أعينُهم. «ذلكَ جَزاءُ المُحْسِنِينَ»، يقول تعالى ذكره: هذا الذي لهم عند ربهم، جزاءُ مَنْ أحْسَنَ في الدنيا فأطاعَ الله فيها، وأتَمَرَ لأمرِهِ، وانتهى عما نَهاهُ فيها عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وجَزَى هؤلاء المحسنينَ رَبُّهم بإحسانِهم، كي يُكَفِّرَ عنهم أسوأَ الذي عملوا في الدنيا من الأعمالِ، فيما بينهم وبين رَبِّهم، بما كانَ منهم فيهـا من توبةٍ وإنـابةٍ مما اجترحوا من السيئات فيها. «ويَجْزِيهُم أَجْرَهُمْ»، يقول: ويثيبهم ثوابهم «بأحْسَنِ الَّذِي كانُوا» في الدنيا «يَعْمَلُونَ» مما يرضى الله عنهم دون أسوئها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٦ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ۝٣٧﴾

اختلفت القَرَأة في قراءة: «أَلَيْسَ اللهُ بكافٍ عَبْدَهُ» فقرأ ذلك بعض قَرَأة المدينة وعامة قَرَأة الكوفة «أَلَيْسَ الله بكافٍ عِبادَهُ» على الجماع، بمعنى: أليس الله بكـافٍ محمـداً وأنبياءه من قبله ما خَوَّفَتْهُمْ أُممهم من أنْ تنالَهم آلهتُهم بسوءٍ، وقرأ ذلك عامةُ قَرَأة المدينة والبصرة، وبعض قَرَأة الكوفة «بِكافٍ عَبْدَهُ» على التوحيد، بمعنى: أليس الله بكافٍ عبده محمداً.

والصوابُ من القول في ذلك أنهما قراءتان مشهورتان في قَرَأةِ الأمصار. فبأيتهما قرأ القارئُ فمصيبٌ لصحةِ مَعْنَيَيْهَا واستفاضةِ القراءةِ بهما في قَرَأةِ الأمصار.

وقوله: «ويُخَوِّفُونَكَ بالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ويخوِّفُكَ هؤلاء المشركون يا محمدُ بالذين من دونِ الله من الأوثانِ والآلهةِ أنْ تصيبكَ بسوء، ببراءتك منها، وعيبكَ لها، والله كافيكَ ذلك.

وقوله: «وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هاد»، يقول تعالى ذكره: ومَنْ يخذلهُ الله فيضلُّهُ عن طريقِ الحقِّ وسبيلِ الرشد، فما له سواه من مرشدٍ ومسدِّدٍ إلى

طريقِ الحقِّ، وموفَّقٍ للإيمان بالله، وتصديق رسوله، والعمل بطاعته «وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ»، يقول: ومَنْ يوفِّقْهُ اللهُ للإيمانِ به، والعمل بكتابه، «فما لَهُ من مُضِلٍّ»، يقول: فما له من مُزِيغٍ يُزِيغُه عن الحقِّ الذي هو عليه إلى الارتدادِ إلى الكفرِ. «أَلَيسَ اللهُ بعَزيزٍ ذِي انْتِقامٍ»، يقول جل ثناؤه: أليسَ اللهُ يا محمدُ بعزيزٍ في انتقامِه من كَفَرَةِ خَلْقِه، ذي انتقامٍ من أعدائه الجاحدينَ وحدانيته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ: ولئن سألتَ يا محمدُ هؤلاء المشركينَ العادلينَ بالله الأوثانَ والأصنامَ مَنْ خلقَ السمواتِ والأرضَ ليقولُنَّ: الذي خَلَقَهُنَّ اللهُ، فإذا قالوا ذلك، فقلْ: أفرأيتم أيها القومُ هذا الذي تعبدونَ من دونِ الله من الأصنامِ والآلهة «إنْ أرادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ»، يقول: بشدة في معيشتي هل هُنَّ كاشفاتٌ عني ما يُصيبني به ربي من الضر. «أَوْ أرادَنِي بِرَحْمَةٍ»، يقول: إنْ أرادني ربي أنْ يصيبني سعة في معيشتي، وكثرة مالي، ورخاء وعافية في بدني، هل هُنَّ ممسكاتٌ عني ما أرادَ أنْ يصيبني به من تلك الرحمة؟ وترك الجواب لاستغناءِ السامعِ بمعرفةِ ذلك، ودلالة ما ظهرَ من الكلام عليه. والمعنى: فإنهم سيقولون: لا، فَقُلْ: حسبيَ اللهُ مما سواه من الأشياء كلها، إياهُ أعبدُ، وإليه أفزعُ في أموري دونَ كلِّ شيءٍ سواه، فإنه الكافي، وبيده الضرُّ والنفعُ، لا إلى الأصنامِ والأوثانِ التي لا تضرُّ ولا تنفع، «عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ المُتَوَكِّلُونَ»، يقول: على الله يتوكل مَنْ هو متوكلٌ، وبه فليثِقْ لا بغيرِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تعالَى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قل يا محمد لمشركي قومكَ، الذين اتخذوا الأوثانَ والأصنامَ آلهةً يعبدونها من دونِ الله، اعملوا أيها القومُ على تمكنكم من العملِ الذي تعملون ومنازلكم.

وقوله: «مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ»، يقول تعالى ذكره: مَنْ يأتيه عذابٌ يخزيه، ما أتاهُ من ذلك العذاب، يعني يُذله ويُهينه. «ويَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ»، يقول: وينزلُ عليه عذابٌ دائمٌ لا يفارقه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تعَالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: إنا أنزلنا عليكَ يا محمدُ الكتابَ تبياناً للناسِ بالحقِّ. «فَمَن اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ»، يقول: فمن عمل بما في الكتابِ الذي أنزلناهُ إليكَ واتبعه فلنفسِه، يقول: فإنما عملَ بذلك لنفسه، وإياها بَغَى الخيرَ لا غيرَها، لأنه أكسَبها رضا اللهِ والفوزَ بالجنة، والنجاةَ من النارِ «وَمَنْ ضَلَّ»، يقول: ومَنْ جارَ عن الكتابِ الذي أنزلناهُ إليكَ، والبيان الذي بيَّناهُ لك، فَضَلَّ عن قصدِ المحجةِ، وزالَ عن سواءِ السبيلِ، فإنما يجورُ على نفسه، وإليها يسوقُ العَطَبَ والهلاكَ، لأنه يكسبها سخطَ الله، وأليمَ عقابِهِ، والخِزْيَ الدائم. «ومَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيل»، يقول تعالى ذِكْرُه: وما أنتَ يا محمدُ على مَنْ أرسلتك

إليه من الناس برقيبٍ ترقبُ أعمالهم، وتحفظ عليهم أفعالهم، إنما أنت رسول، وإنما عليك البلاغ، وعلينا الحساب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تعالَى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٢﴾

يقول تعالى ذكره: ومن الدلالةِ على أنَّ الأُلوهةَ للهِ الواحدِ القهار خالصةٌ دونَ كلِّ ماسواه، أنه يميتُ ويُحيي، ويفعلُ ما يشاء، ولا يقدرُ على ذلك شيءٌ سواه، فجعل ذلك خبراً نَبَّههم به على عظيمِ قُدْرته، فقال: «اللهُ يَتَوَفَّى الأنْفُسَ حِينَ مَوْتِها» فيقبضها عند فناء أجلها، وانقضاءِ مدة حياتها، ويتوفى أيضاً التي لم تَمُتْ في منامها، كما التي ماتت عند مماتها «فَيُمْسِكُ التي قَضَى عَلَيْها المَوْتَ» ذكر أن أرواح الأحياءِ والأموات تلتقي في المنام، فيتعارف ما شاء الله منها، فإذا أراد جميعها الرجوع إلى أجسادها أمسكَ اللهُ أرواحَ الأمواتِ عنده وحبسها، وأرسلَ أرواحَ الأحياءِ حتى ترجعَ إلى أجسادها إلى أجلٍ مسمى وذلك إلى انقضاء مدة حياتها.

وقوله: «إنَّ فِي ذلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ فِي قبضِ اللهِ نفسَ النائمِ والميت وإرساله بعدُ نفسَ هذا ترجعُ إلى جسمها، وحَبْسهُ لغيرها عن جسمها لعبرةً وعظةً لمن تَفَكَّرَ وتدبر، وبياناً له أنَّ الله يحيي مَنْ يشاء من خَلْقِه إذا شاء، ويميتُ مَنْ شاء إذا شاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تعالَى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ۝٤٣ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ

﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أم اتَّخَذَ هؤلاء المشركونَ بالله من دونه آلهتهم التي يعبدونها شفعاءَ تشفعُ لهم عند الله في حاجاتهم.

وقوله: «قُلْ أَوَلَوْ كانُوا لا يَمْلِكونَ شَيْئاً وَلا يَعْقِلُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ لهم: أتتخذونَ هذه الآلهةَ شفعاءَ كما تزعمونَ ولو كانوا لا يملكون لكم نفعاً ولا ضرّاً، ولا يعقلون شيئاً قل لهم: إنْ تكونوا تعبدونها لذلك، وتشفع لكم عندَ اللهِ، فأخلِصُوا عبادتكم لله، وأفردوه بالألوهةِ، فإنَّ الشفاعةَ جميعاً له، لا يشفعُ عنده إلا مَنْ أذِنَ له، ورضيَ له قولاً، وأنتم متى أخلصتم له العبادةَ، فَدَعَوْتُموهُ، شفعكم. «لهُ ملكُ السمواتِ والأرض»، يقول: له سلطانُ السمواتِ والأرضِ ومُلكها، وما تعبدونَ أيها المشركونَ من دونهِ مُلْكٌ له: يقول: فاعبدوا الملك لا المملوكَ الذي لا يملكُ شيئاً. «ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ»، يقول: ثم إلى الله مصيركم، وهو مُعَاقِبُكم على إشراكِكم به، إنْ متم على شِرْكِكُمْ.

ومعنى الكلام: لله الشفاعة جميعا، له مُلك السموات والأرض، فاعبدوا المالك الذي له مُلك السموات والأرض، الذي يقدر على نفعكم في الدنيا، وعلى ضرّكم فيها، وعند مرجعكم إليه بعد مماتكم، فإنكم إليه ترجعون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا أُفرِدَ اللهُ جلَّ ثناؤه بالذِّكْرِ، فَدُعيَ وحده، وقِيلَ:

لا إله إلا الله، اشمأزَّتْ قلوبُ الذين لايؤمنونَ بالمعادِ والبعثِ بعد المماتِ. وعنى بقوله: «اشْمأَزَّتْ»: نفرت من توحيدِ الله، «وَإذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ»، يقول: وإذا ذُكِرَ الآلهةُ التي يدعونها من دونِ الله مع الله، فقيل: تلك الغرانيقُ العُلَى، وإنَّ شفاعتها لَتُرْتَجَى، إذِ الذينَ لا يؤمنونَ بالآخرةِ يستبشرون بذلك ويفرحون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٤٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قل يا محمدُ، اللهُ خالقُ السمواتِ والأرض. «عالمَ الغَيْبِ والشَّهادَةِ» الذي لا تراهُ الأبصارُ، ولا تُحسُّه العيونُ، «والشهادةِ» الذي تَشْهَدهُ أبصارُ خَلْقِه، وتراه أعينهم «أَنْتَ تَحْكُمُ بينَ عِبادِكَ» فتفصلُ بينهم بالحقِّ يوم تجمعهم لفصلِ القضاء بينهم. «فِيما كانُوا فِيهِ» في الدنيا «يَخْتَلِفُونَ» من القولِ فيكَ، وفي عظمتك وسلطانك، وغيرِ ذلك من اختلافهم بينهم، فتقضي يومئذٍ بيننا وبين هؤلاء المشركينَ الذين إذا ذُكِرْتَ وحدكَ اشمأزّتْ قلوبهم، وإذا ذُكِرَ مَنْ دونَكَ استبشروا بالحقِّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ۝٤٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولو أنَّ لهؤلاءِ المشركينَ بالله يوم القيامة، وهم الذين ظلموا أنفسهم «ما في الأرْضِ جَمِيعاً» في الدنيا من أموالها وزينتها «وَمِثْلَهُ مَعَهُ» مُضاعَفاً، فقبل ذلك منهم عِوَضاً من أنفسِهم، لفدوا بذلك كُلِّه أنفسَهم عِوَضاً منها، لينجو من سوءِ عذابِ الله، الذي هو مُعَذِّبُهم به يومئذٍ. «وَبَدَا لَهُمْ مِنَ

اللهِ»، يقول: وظهرَ لهم يومئذٍ من أمرِ الله وعذابِهِ، الذي كان أعدَّهُ لهم، ما لم يكونوا قبلَ ذلك يحتسبون أنه أعدَّهُ لهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٤٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وظهر لهؤلاء المشركين يوم القيامة «سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا» من الأعمال في الدنيا، إذ أعطوا كتبهم بشمائلهم «وَحاقَ بِهِمْ ما كانوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ» ووجب عليهم حينئذٍ، فَلَزِمَهُمْ عذابُ الله الذي كان نبيُّ الله ﷺ في الدنيا يَعِدُهُمْ على كفرهم بربهم، فكانوا به يَسْخَرونَ، إنكاراً أن يصيبهم ذلك، أو ينالهم تكذيباً منهم به، وأحاط ذلك بهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فإذا أصابَ الإنسانَ بؤسٌ وشِدَّةٌ دعانا مستغيثاً بنا من جهة ما أصابَهُ من الضرِّ، «ثُمَّ إذَا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا»، يقول: ثم إذا أعطيناه فرجاً مما كان فيه من الضُرِّ، بأنْ أبدلناهُ بالضرِّ رخاءً وسَعَةً، وبالسقمِ صحةً وعافية، فقال: إنما أُعطيتُ الذي أُعطيتُ من الرخاءِ والسعةِ في المعيشة، والصحةِ في البدن والعافية، على عِلْمٍ عندي، يعني على علمٍ من الله بأني له أهلٌ لشرفي ورِضَاهُ بعملي عندي، يعني فيما عندي، كما يقال: أنت محسنٌ في هذا الأمر عندي: أي فيما أظنّ وأحسب.

وقوله: «أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ»، أي على شرفٍ أعطانيه.

وقوله: «بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ»، يقول تعالى ذكره: بل عَطِيَّتُنَا إياهم تلك النعمةَ من بعد الضُرِّ الذي كانوا فيه فتنةٌ لهم: يعني بلاءٌ ابتليناهم به، واختباراً اختبرناهم به. «وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ» لجهلهم، وسوءِ رأيهم «لا يَعْلَمُونَ» لأي سببٍ أُعْطُوا ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝٥٠ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ۝٥١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قد قال هذه المقالةَ، يعني قولهم: لنعمة الله التي خَوَّلَهم وهم مشركونَ: أُوتيناهُ على علمٍ عندنا «الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» يعني: الذين من قبل مشركي قُرَيش من الأممِ الخاليةِ لرسلها، تكذيباً منهم لهم، واستهزاءً بهم.

وقوله: «فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ»، يقول: فلم يُغْنِ عنهم حين أتاهم بأسُ الله على تكذيبهم رسلَ اللهِ واستهزائِهم بهم ما كانوا يكسبونَ من الأعمال، وذلك عبادتهم الأوثانَ يقول: لم تنفعهم خدمتهم إياها، ولم تشفعْ آلهتُهم لهم عندَ الله حينئذٍ، ولكنها أَسْلَمَتْهُمْ وتَبَرَّأَتْ منهم.

وقوله: «فأَصَابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا»، يقول: فأصابَ الذين قالوا هذه المقالةَ من الأممِ الخالية، وبالُ سيئاتِ ما كسبوا من الأعمالِ، فَعُوجِلُوا بالخزي في دار الدنيا، وذلك كقارون الذي قال حين وُعِظَ: «إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدي» [القصص: ٧٨]، فَخَسَفَ اللهُ بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ، «فَمَا كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كانَ مِنَ المُنْتَصِرِينَ» [القصص: ٨١]، يقول الله جل ثناؤه: «وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاَءِ»، يقول لنبيه محمد ﷺ: والذين كفروا

باللهِ يا محمدُ من قومكَ، وظلموا أنفسهم وقالوا هذه المقالةَ سَيُصيبُهُمْ أيضاً وبال «سيِّئات مَا كَسَبُوا» كما أصابَ الذين من قبلهم بقِيلِهِمُوهَا «ومَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ»، يقول: وما يفوتون ربهم ولا يسبقونه هرباً في الأرض من عذابِهِ إذا نزل بهم، ولكنه يصيبهم «سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنةِ اللهِ تَبْدِيلاً» [الأحزاب: ٦٢] ففعل ذلك بهم، فأحلَّ بهم خزيه في عاجلِ الدنيا فقتلهم بالسيفِ يومَ بدر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أو لم يعلم يا محمدُ هؤلاء الذين كشفنا عنهم ضُرَّهم، فقالوا: إنما أُوتيناهُ على علمٍ منا أنَّ الشدةَ والرخاءَ والسعةَ والضِيقَ والبلاءَ بيدِ الله، دونَ كلِّ مَنْ سواه يبسطُ الرزقَ لمنِ يشاء، فيوسعه عليه، ويَقْدِرُ ذلك على مَنْ يشاء من عباده، فَيُضَيِّقُه، وأنَّ ذلك من حجج الله على عباده، ليعتبروا به ويتـذكَّـروا، ويعلمُوا أنَّ الرغبةَ إليه والرهبةَ دونَ الآلهةِ والأندادِ «إنَّ فِي ذلك لآياتٍ»، يقـول: إن في بسط الله الـرزقَ لمنِ يشـاء، وتقتيره على مَنْ أرادَ «لآياتٍ»، يعني: دلالات وعلامات. «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»، يعني: يُصَدِّقُونَ بالحقّ، فيقرّون به إذا تَبَيَّنُوه وعلموا حقيقتَهُ أنَّ الذي يفعلُ ذلك هو الله دون كلِّ ما سواه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾

اختلف أهلُ التأويل في الذين عُنُوا بهذه الآية، فقال بعضهم: عُنِيَ بها

قومٌ من أهلِ الشرك، قالوا لما دُعُوا إلى الإيمان بالله: كيف نؤمِنُ وقد أشركنا وزَنَيْنَا، وقتلنا النفسَ التي حرَّمَ اللهُ، والله يَعِدُ فاعلَ ذلك النارَ، فما ينفعنا مع ماقد سَلَفَ منا الإيمان، فنزلت هذه الآية.

وقال آخرون: بل عُني بذلك أهل الإسلام، وقالوا: تأويل الكلام: إنَّ الله يغفرُ الذنوبَ جميعاً لمن يشاء، قالوا: وهي كذلك في مصحف عبدالله، وقالوا: إنما نزلتْ هذه الآيةُ في قوم صَدَّهُم المشركونَ عن الهجرةِ وفتنوهم، فأشفقوا أنْ لا يكونَ لهم توبة.

وقال آخرون: نزل ذلك في قومٍ كانوا يرون أهلَ الكبائرِ من أهلِ النار، فأعلمهم اللهُ بذلك أنه يغفرُ الذنوبَ جميعاً لمن يشاء.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قولُ مَنْ قال: عنى تعالى ذكره بذلك جميعَ مَنْ أسرفَ على نفسه من أهل الإيمانِ والشرك، لأنَّ الله عمَّ بقوله: «يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا على أَنْفُسِهِمْ» جميعَ المسرفينَ، فلم يخصصْ به مسرفاً دونَ مسرف.

فإن قال قائل: فيغفرُ اللهُ الشركَ؟ قيل: نعم إذا تابَ منه المشركُ. وإنما عَنَى بقوله: «إنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذنُوبَ جَميعاً» لمن يشاء، كما قد ذكرنا قَبْلُ، أنَّ ابنَ مسعودٍ كان يقرؤه، وأنَّ الله قد استثنى منه الشركَ إذا لم يَتُبْ منه صاحبهُ، فقال: «إنَّ الله لا يغفر أنْ يُشْرَكَ به، ويغفرُ مادون ذلك لمن يشاء» [النساء: ٤٨]، فأخبر أنه لا يغفرُ الشركَ إلا بعد توبةٍ بقوله: «إلَّا مَنْ تابَ وآمَنَ وعَمِلَ صَالِحاً» [مريم: ٦٠] فأما ما عَدَاهُ فإنَّ صاحبه في مشيئة ربه، إنْ شاء تَفَضَّلَ عليه، فَعَفَا له عنه، وإنْ شاء عدل عليه فجازاه به.

وأما قوله: «لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ»، فإنه يعني: لا تيأسوا من رحمةِ الله.

وقوله: «إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً»، يقول: إنَّ الله يسترُ على الذنوب كُلِّها بعفوِه عن أهلها وتركِه عقوبتَهم عليها إذا تابوا منها. «إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» بهم، أنْ يعاقبهم عليها بعد توبتهم منها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأقبلوا أيها الناسُ إلى رَبِّكم بالتوبةِ، وارجعوا إليه بالطاعةِ له، واستجيبوا له إلى ما دعاكم إليه من توحيده، وإفرادِ الألوهةِ له، وإخلاصِ العبادة له.

وقوله: «وأَسْلِمُوا لَهُ»، يقول: واخضعوا له بالطاعةِ والإقرارِ بالدين الحنيفي «مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ العَذابُ» من عندِه على كُفْرِكم به. «ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ»، يقول: ثم لا ينصركم ناصرٌ، فينقذكم من عذابِه النازل بكم.

وقوله: «وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: واتبعوا أيها الناسُ ما أمركم به رَبُّكم في تنزيلِهِ، واجتنبوا ما نهاكم فيه عنه، وذلك هو أحسنُ ما أُنزلَ إلينا من رَبِّنا.

فإن قال قائل: ومن القرآنِ شيءٌ هو أحسنُ من شيءٍ، قيل له: القرآنُ كله حسن، وليس معنى ذلك ما توهَّمْتَ، وإنما معناه. واتَّبِعُوا مما أُنزلَ إليكم رَبُّكم من الأمرِ والنهي والخبرِ، والمَثَلِ، والقَصَصِ، والجدل، والوعدِ، والوعيدِ أَحْسَنَهُ، وأَحْسَنُهُ أَنْ تأتَمِرُوا لأمرِه، وتنتهوا عما نهى عنه، لأنَّ النهي مما أنزل في الكتاب، فلو عملوا بما نُهُوا عنه كانوا عاملينَ بأقبحهِ، فذلك وجهه.

وقوله: «مِنْ قَبْلِ أنْ يَأْتِيَكُمُ العَذابُ بَغتَةً»، يقول: من قبل أنْ يأتيكم عذابُ الله فجأةً «وأنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ»، يقول: وأنتم لا تعلمون به حتى يغشاكم فجأة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝٥٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأنيبوا إلى رَبِّكم، وأسلموا له «أنْ تَقُولَ نَفْسٌ» بمعنى: لئلا تقولَ نَفْسٌ: «يا حَسْرَتا على ما فَرَّطْتُ في جَنْبِ اللهِ»، وهو نظيرُ قوله: «وأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ» [النحل: ١٥، ولقمان: ١٠] بمعنى: أنْ لا تميدَ بكم.

وقوله: «يا حَسْرَتا» يعني أنْ تقول: يا نَدَما.

وقوله: «على ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ»، يقول: على ما ضَيَّعْتُ من العملِ بما أمرني اللهُ به، وقصرت في الدنيا في طاعة الله.

وقوله: «وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ»، يقول: وإنْ كنتُ لمن المستهزئينَ بأمرِ اللهِ وكتابهِ ورسوله والمؤمنين به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٥٧ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٨﴾

يقول تعالى ذكره: وأنيبوا إلى رَبِّكم أيها الناسُ، وأسْلِمُوا له، أنْ لا تقولَ نفسٌ يومَ القيامة: يا حسرتا على ما فرَّطتُ في جنب الله، في أمرِ الله، وأنْ لا

تقول نفسٌ أخرى: لو أنَّ الله هداني للحقِّ، فوفقني للرشادِ لكنتُ مِمَّن اتقاه بطاعتهِ واتباعِ رضاه، أو أنْ لا تقول أخرى حين ترى عذابَ الله فتعاينه «لَوْ أنَّ لي كَرَّةً»، تقول: لو أنَّ لي رجعةً إلى الدنيا «فأكُونَ مِنَ المُحْسِنينَ» الذين أحسنوا في طاعةِ رَبِّهم، والعمل بما أَمَرَتْهُم به الرسلُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مكذباً للقائل: «لَوْ أنَّ الله هَدانِي لَكُنْتُ مِنَ المُتَّقِينَ»، وللقائل: «لَوْ أنَّ لي كَرَّةً فَأكُونَ مِنَ المُحْسِنِينَ»: ما القولُ كما تقولون «بَلى قَدْ جاءَتْـكَ» أيهـا المتمني على الله الـردَّ إلى الدنيا لتكونَ فيها من المحسنين «آياتِي»، يقول: قد جاءتك حججي من بين رسولٍ أرسلتُه إليكَ، وكتابٍ أنزلتُه يُتلَى عليكَ ما فيهِ من الوعدِ والوعيدِ والتذكير «فَكَذَّبْتَ» بآياتي «وَاسْتَكْبَرْتَ» عن قبـولهـا واتبـاعهـا. «وكُنْتَ مِنَ الكـافِـرِينَ»، يقول: وكنتَ ممن يعملُ عملَ الكافرينَ، ويَسْتَنُّ بسنتهم، ويتبعُ منهاجهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٦٠﴾

يقول تعالى ذكره: «وَيَوْمَ القِيامَةِ تَرَى» يا محمدُ هؤلاء «الَّذِينَ كَذَبُوا على الله» من قومـكَ فزعمـوا أنَّ له ولداً، وأنَّ له شريكاً، وعبدوا آلهةً من دونه: «وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ».

وقوله: «أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ»، يقول: أليس في جهنم مأوى ومسكنٌ لمن تكبرَ على الله، فامتنعَ من توحيدِه، والانتهاءِ إلى طاعتِه فيما أمره

ونهاه عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦١ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝٦٢﴾

يقول تعالى ذكره: وينجي اللهُ من جهنمَ وعذابها، الذين اتقوه بأداءِ فرائضِه، واجتنابِ معاصيه في الدنيا، بمفازتهم: يعني بفوزهم.

وقوله: «لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لا يَمَسُّ المتقينَ من أذى جهنمَ شيءٌ، وهو السوءُ الذي أخبر جَلَّ ثناؤه أنه لن يمسهم، «ولا هم يحزنون»، يقول: ولا هم يحزنون على ما فاتهم من آرابِ الدنيا، إذْ صاروا إلى كرامةِ الله ونعيمِ الجِنان.

وقوله: «اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وهُوَ على كُل شَيْءٍ وَكِيلٌ»، يقول تعالى ذكره: اللهُ الذي له الألوهةُ من كُلِّ خَلْقِه الذي لا تصلحُ العبادةُ إلا له، خالقُ كل شيء، لا ما لا يقدرُ على خَلْقِ شيءٍ، «وهو على كل شيء وكيل»، يقول: وهو على كل شيء قَيِّمٌ بالحِفْظِ والكلاءة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٦٣﴾

يقول تعالى ذكره: له مفاتيحُ خزائنِ السمواتِ والأرض، يفتحُ منها على مَنْ يشاء، ويمسكها عَمَّنْ أَحَبَّ من خَلْقِه، واحدها: مقليد. وأما الإقليد: فواحدُ الأقاليد.

وقـوله: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بآياتِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الخاسِرُونَ»، يقول تعالى ذكره: والذين كفروا بحججِ الله فكذبوا بها وأنكروها، أولئك هم المغبونونَ حُظوظَهم من خيرِ السمـواتِ التي بيده مفاتيحُهَا، لأنهم حُرِمُوا ذلك كله في الآخرة بخلودِهم في النار، وفي الدنيا بخذلانِهم عن الإيمانِ بالله عزّ وجلّ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه: قُلْ يا محمدُ لمشركي قومك، الدَّاعِيكَ إلى عبادةِ الأوثان «أفغَيرَ اللهِ» أيها الجاهلونَ بالله «تَأْمُرُونِّي» أنْ «أعْبُدُ» ولا تصلحُ العبادةُ لشيءٍ سواه.

وقوله: «وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ»، يقول تعالى ذكره: ولقد أوحى إليكَ يا محمدُ رَبُّكَ، وإلى الذين من قبلك من الرسل «لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ»، يقول: لئن أشركتَ بالله شيئاً يا محمدُ، ليبطلَنَّ عملُكَ، ولا تنال به ثواباً، ولا تدركْ جزاءً إلا جزاءَ مَنْ أشركَ بالله، وهذا من المُؤَخَّرِ الذي معناه التقديمُ. . ومعنى الكلام: ولقد أُوحيَ إليك لئن أشركتَ ليحبطنَّ عملك، ولتكوننَّ من الخاسرين، وإلى الذين من قبلك، بمعنى: وإلى الذين من قبلك من الرسلِ من ذلك، مثل الذي أُوحيَ إليك منه، فاحذرْ أنْ تشركَ بالله شيئاً فتهلك.

ومعنى قوله: «وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخاسِرِينَ» ولتكوننَّ من الهالكينَ بالإشراكِ بالله إنْ أشركتَ به شيئاً.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٦ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٧﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: لا تعبد ما أمركَ به هؤلاء المشركونَ من قومكَ يا محمدُ بعبادته، بلِ الله فاعبدْ دونَ كلِّ ما سواهُ من الآلهةِ والأوثانِ والأندادِ «وكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ» لله على نعمتهِ عليكَ بما أنعمَ من الهدايةِ لعبادتهِ، والبراءةِ من عبادةِ الأصنام والأوثان.

وقوله: «ومَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ»، يقول تعالى ذكره: وما عظَّمَ اللهَ حقَّ عظمته، هؤلاء المشركونَ باللهِ، الذين يَدْعُونَكَ إلى عبادة الأوثان.

وقـولـه: «والأرْضُ جَميعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القيامَةِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والأرضُ كلها قَبْضَتُه في يومِ القيامةِ «والسَّمَوَاتُ» كلها «مَطْويَّاتٌ بيَمينِهِ» فالخبرُ عن الأرضِ مُتَنَاهٍ عند قوله: يوم القيامة، والأرض مرفوعة بقوله: «قَبْضَتُهُ»، ثم استأنف الخبر عن السموات، فقال: «والسَّمَوَاتُ مَطْوياتٌ بيمينِهِ» وهي مرفوعة بمطويات.

وقوله سبحانه وتعالى: «عَمَّا يُشْرِكُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه تنزيهاً وتبرئةً لله، وعلوّاً وارتفاعاً عما يشرك به هؤلاء المشركونَ من قومكَ يا محمدُ، القائلون لك: اعْبُدِ الأوثانَ من دونِ الله، واسجدْ لآلهتنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨﴾

يقول تعالى ذكره: ونَفَخَ إسرافيلُ في القرن.

وقوله: «فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ ومَنْ فِي الأَرْضِ»، يقول: مات وذلك في النفخةِ الأولى.

وقوله: «إلَّا مَنْ شاءَ اللهُ»، اختلف أهلُ التأويل في الذي عنى الله بالاستثناء في هذه الآية، فقال بعضهم: عَنَى به جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيل وملكَ الموت.

وقال آخرون: عنى بذلك الشهداء.

وقال آخرون: عنى بالاستثناء في الفزع: الشهداء، وفي الصَّعْقِ: جبريلَ، ومَلَكَ الموت، وحَمَلَةَ العرش.

وهذا القول الأخير أوْلى بالصحة، لأنَّ الصعقةَ في هذا الموضع: الموت. والشهداءُ وإنْ كانوا عند الله أحياءً كما أخبر الله تعالى ذِكْرُه فإنهم قد ذاقوا الموتَ قبلَ ذلك.

وإنما عنى جلّ ثناؤه بالاستثناء في هذا الموضع، الاستثناء من الذي صعقوا عند نفخة الصعقِ، لا من الذين قد ماتوا قبل ذلك بزمانٍ ودهرٍ طويل، وذلك أنه لو جاز أنْ يكونَ المرادُ بذلك مَنْ قد هَلَكَ، وذاقَ الموتَ قبلَ وقتِ نفخةِ الصعقِ، وَجَبَ أنْ يكون المرادُ بذلك مَنْ قد هلك، فذاقَ الموتَ من قبل ذلك، لأنه ممن لا يصعقُ في ذلك الوقتِ إذا كان الميتُ لا يُجَدَّدُ له موتٌ آخر في تلك الحال.

وقوله: «ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى»، يقول تعالى ذكره: ثم نُفخ في الصور نفخة أخرى، والهاء التي في «فيه» من ذِكْرِ الصور.

وقوله: «فإذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ»، يقول: فإذا مَنْ صَعِقَ عند النفخةِ التي قبلها وغيرهم من جميعِ خَلْقِ الله الذين كانوا أمواتاً قبل ذلك قيامٌ من قبورهم وأماكنهم من الأرض أحياءٌ كهيئتهم قَبْلَ مماتِهم ينظرونَ أمرَ الله فيهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٦٩﴾

يقول تعالى ذكره: فأضاءت الأرضُ بنورِ ربها، يقال: أشرقتِ الشمسُ: إذا صَفَتْ وأضاءت، وأشرقت: إذا طلعت، وذلك حين يبرزُ الرحمنُ لفصلِ القضاءِ بين خَلْقِه.

وقوله: «وَوُضِعَ الكِتابُ»، يعني: كتاب أعمالهم لمحاسبتهم ومجازاتهم.

وقوله: «وَجِيءَ بالنَّبِيِّينَ والشُّهَداء»، يقول: وجِيءَ بالنبيين ليسألهم رَبُّهم عما أجابتهم به أُممهم، وردَّتْ عليهم في الدنيا، حين أتتهم رسالةُ الله؛ «والشهداء»، يعني بالشهداء: أمةَ محمدٍ ﷺ يستشهدهم رَبُّهم على الرسلِ، فيما ذكرت من تبليغها رسالةَ الله التي أرسلهم بها رَبُّهم إلى أممها، إذْ جَحدتْ أُممهم أنْ يكونوا أبلغوهم رسالةَ الله. والشهداءُ: جَمْعُ شهيد، وهذا نظير قول الله: «وكذَلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً، لِتَكونُوا شُهَداءَ على النَّاسِ، وَيكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً» [البقرة: ١٤٣] وقيل: عنى بقوله: «الشُّهَداءُ»: الذين قُتلوا في سبيل الله، وليس لما قالوا من ذلك في هذا الموضع كبيرُ معنى، لأنَّ عقيب قوله: «وَجِيَ بالنَّبيِّينَ وَالشهَداءِ، وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بالحَقِّ»، وفي ذلك دليلٌ واضح على صحة ما قلنا من أنه إنما دُعي بالنبيين والشهداء للقضاءِ بين الأنبياءِ وأممها، وأنَّ الشهداء إنما هي جمعُ شهيد، الذين يشهدونَ للأنبياءِ على أممهم كما ذكرنا.

وقوله: «وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بالحَقِّ»، يقول تعالى ذكره: وقَضَى بين النبيين وأممها بالحقِّ، وقضاؤه بينهم بالحق، أنْ لا يَحملَ على أحدٍ ذنبَ غيرِه، ولا يعاقبَ نفساً إلا بما كسبت.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٧٠ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وَوَفَّى اللهُ حينئذٍ كُلَّ نفسٍ جزاءَ عملها من خيرٍ وشرّ، وهو أعلمُ بما يفعلونَ في الدنيا من طاعةٍ أو معصية، ولا يعزبُ عنه عِلْمُ شيءٍ من ذلك، وهو مُجازِيهم عليه يومَ القيامة، فمثيبٌ المحسنَ بإحسانه، والمسيءَ بما أساء.

وقوله: «وسَيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إلى جَهَنَّمَ» يقول: وحُشر الذين كفروا بالله إلى نارِه التي أعَدَّها لهم يومَ القيامةِ جماعات، جماعةً جماعةً، وحزباً حزباً.

وقوله: «حتى إذَا جاءُوها فُتِحَتْ أبْوَابُها» السبعةُ «وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها» قوَّامها: «ألَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ»، يعني: كتابَ الله المُنْزَلَ على رُسُلِه وحججه التي بعث بها رسله إلى أممهم «وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هَذا»، يقول: وينذرونكم ما تَلْقَوْنَ في يومكم هذا، وقد يحتمل أن يكون معناه: وينذرونكم مصيرَكُم إلى هذا اليوم، «قالوا: بلى»، يقول: قال الذين كفروا مُجيبينَ لخزنةِ جهنمَ: بلى قد أتتنا الرسلُ منا، فأنذرتنا لقاءَنا هذا اليومَ «وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ العَذَابِ على الكافِرِينَ»، يقول: قالوا: ولكن وجبت كلمةُ الله أنَّ عذابه لأهلِ الكفرِ به علينا بكفرنا به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٧٢﴾

يقول تعالى ذكره: فتقولُ خَزَنَةُ جهنمَ للذين كفروا حينئذٍ: «ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ» السبعة على قَدْرِ منازلكم فيها. «خالِدِينَ فِيها»، يقول: ماكثينَ فيها لا يُنقلون عنها إلى غيرها. «فَبِئْسَ مَثْوَى المُتَكَبِرين»، يقول: فبئسَ مسكنُ المتكبرينَ على الله في الدنيا، أنْ يُوَحِّدُوه ويُفْرِدُوا له الأُلوهةَ، جهنم يوم القيامة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وحُشِرَ الذين اتقوا رَبَّهم بأداءِ فرائضِه، واجتنابِ معاصيه في الدنيا، وأخلصوا له فيها الأُلوهةَ، وأفردوا له العبادةَ، فلم يشركوا في عبادتهم إياهُ شيئاً «إلى الجَنَّةِ زُمَراً» يعني: جماعاتٍ، فكان سوقُ هؤلاء إلى منازلهم من الجنةِ وَفْداً على ماقد بَيَّنا قَبْلُ في سورة مريم على نجائبَ من نجائبِ الجنة، وسوق الآخرين إلى النار دَعاً ووِرداً، كما قال الله.

ثم قال: «حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها: سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين»، دخلوها «وقالوا: الحمدُ لله الذي صَدَقَنا وعده». وعَنَى بقوله: «سَلامٌ عَلَيْكُمْ»: أَمَنَةٌ من الله لكم أنْ ينالكم بعدُ مكروهٌ أو أذى.

وقوله: «طِبْتُمْ» يقول: طابتْ أعمالُكم في الدنيا، فطابَ اليومَ مثواكم.

وقوله: «وقَالُوا الحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ»، يقول: وقال الذين سِيقُوا زمراً ودخلوها، الشكرُ خالصٌ للهِ الذي صَدَقنا وَعْدَهُ، الذي كان وَعَدَنَاهُ في الدنيا على طاعتهِ، فَحَقَّقَهُ بإنجازه لنا اليومَ، «وأَوْرَثَنا الأَرْضَ»، يقول: وجعلَ أرضَ الجنةِ التي كانت لأهلِ النار لو كانوا أطاعوا الله في الدنيا، فدخلوها،

ميراثاً لنا عنهم.

وقوله: «نَتَبَوَّأُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ»، يقول: نَتَّخِذُ من الجنةِ بيتاً، ونسكنُ منها حيث نحبُّ ونشتهي.

وقوله: «فَنِعْمَ أَجْرُ العامِلِينَ»، يقول: فنعم ثوابُ المطيعينَ لله، العاملينَ له في الدنيا، الجنة لمن أعطاهُ الله إياها في الآخرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وترى يا محمدُ الملائكةَ مُحْدِقينَ من حولِ عرشِ الرحمنِ، ويعني بالعرش: السرير.

وقوله: «يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ»، يقول: يُصَلُّونَ حولَ عرشِ الله شكراً له، والعـربُ تُدْخِلُ الباء أحياناً في التسبيح، وتحذفها أحياناً، فتقول: سبح بحمدِ الله، وسبح حَمْدَ الله، كما قال جلّ ثناؤه: «سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى» [الأعلى: ١]، وقال في موضع آخر: «فَسَبِّحْ باسْمِ رَبِّكَ العَظِيمِ» [الواقعة: ٧٤].

وقوله: «وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بالحَقِّ»، يقول: وقَضَى الله بين النبيينَ الذين جِيءَ بهم، والشهـداء وأممها بالعدلِ، فأسكنَ أهلَ الإيمانِ بالله، وبما جاءت به رُسُلُه الجنةَ. وأهلَ الكفرِ به، وبما جاءت به رسله النارَ. «وَقِيلَ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَـالِمينَ»، يقول: وختمت خاتمة القضاء بينهم بالشكرِ للذي ابتدأ خَلْقَهُم الذي له الأُلوهيةُ، ومُلكُ جميعِ ما في السمواتِ والأرضِ من الخَلْقِ من ملك وجنٍّ وإنس، وغيرِ ذلك من أصنافِ الخلق.

سُورَةُ غَافِرٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾

قوله: «حمٓ»، القول في ذلك عندي نظيرُ القولِ في أخواتها، وقد بيَّنا ذلك، في قوله: «الٓمٓ»، ففي ذلك كفايةٌ عن إعادته في هذا الموضع، إذْ كان القولُ في «حمٓ»، وجميعِ ما جاءَ في القرآن على هذا الوجهِ، أعني حروف التَّهجِّي قولاً واحداً.

وقوله: «تَنْزِيلُ الكِتابِ مِنَ اللهِ العَزيزِ العَلِيمِ»، يقول الله تعالى ذِكْرُه: من الله العزيزِ في انتقامِهِ من أعدائه، العليمِ بما يعملونَ من الأعمالِ وغيرِها، تنزيل هذا الكتاب.

وفي قوله: «غافِرِ الذَّنْبِ» وجهان: أحدهما: أن يكون بمعنى يغفرُ ذنوبَ العباد، فيكون معنى الكلام حينئذٍ: تنزيلُ الكتابِ من اللهِ العزيزِ العليمِ، من غافرِ الذنبِ، وقابلِ التوب.

والآخر: أنْ يكون معناهُ: أنَّ ذلك من صِفَتِهِ تعالى، إذْ كان لم يَزَلْ لذنوبِ العبادِ غفوراً من قبلِ نزولِ هذه الآيةِ وفي حالِ نزولِها، ومن بعدِ ذلك.

وقوله: «شَدِيدِ العِقابِ»، يقول تعالى ذكره: شديدٌ عقابُهُ لمن عاقَبَهُ من

أهلِ العصيان له، فلا تَتَّكِلُوا على سَعَةِ رحمتِه، ولكنْ كونوا منه على حَذَرٍ، باجتنابِ معاصيه، وأداءِ فرائضِه، فإنه كما أنه لا يُؤْيِسُ أهلَ الإجرامِ والآثام من عفوِه، وقبولِ توبةِ مَنْ تاب منهم من جُرْمِه، كذلك لا يؤمنهم من عقابِه وانتقامه منهم بما اسْتَحَلُّوا من محارِمه، وركبوا من معاصيه.

وقـوله: «ذِي الطَّوْلِ»، يقول: ذي الفضل والنعمِ المبسوطةِ على مَنْ شاء من خَلْقِه، يقال منه: إنَّ فلاناً لذو طَوْلٍ على أصحابه إذا كان ذا فَضْلٍ عليهم.

وقوله: «لا إِلَهَ إِلاَّ هَو إِلَيْهِ المَصِيرُ»، يقول: لا معبودَ تصلحُ له العبادةُ إلا الله العزيزُ العليم، الذي صِفَتُه ما وصفَ جل ثناؤه، فلا تعبدوا شيئاً سواه «إِلَيْهِ المَصِيرُ»، يقول تعالى ذكره: إلى الله مصيركم ومرجعكم أيها الناس، فإياه فاعبدوا، فإنه لا ينفعكم شيءٌ عبدتموه عند ذلك سواه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلـِهِ تَعَالَى: مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾

يقـول تعـالى ذكـره: ما يخـاصمُ في حججِ الله وأدلته على وحدانيتهِ بالإنكارِ لها، إلا الذينَ جَحَدُوا توحيدَهُ.

«فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي البلادِ»، يقول جلّ ثناؤه: فلا يخدعك يا محمدُ تَصَرُّفُهم في البلاد وبقاؤهم ومُكْثُهم فيها، مع كُفْرِهم بربِّهم، فتحسب أنهم إنما أُمْهِلُوا وتقلَّبُوا، فتصرَّفُوا في البلاد مع كفرهم بالله، ولم يُعَاجَلُوا بالنقمةِ والعذاب على كُفْرِهم لأنهم على شيءٍ من الحقِّ فإنَّا لم نُمهلهم لذلك، ولكنْ ليبلغَ الكتابُ أجلَهُ، ولتحقَّ عليهم كلمةُ العذابِ، عذاب ربك.

ثم قَصَّ على رسولِ الله ﷺ قَصَصَ الأمم المكذِّبةِ رُسُلَها، وأخبره أنهم كانوا من جدالهم لرسله على مِثْلِ الذي عليه قومُه الذين أرسل إليهم، وأنه أحلَّ بهم من نقمته عند بلوغهم أمدهم بعد إعذارِ رسلهِ إليهم، وإنذارِهم بأسَهُ ماقد ذكر في كتابه إعلاماً منه بذلك نَبِيَّهُ، أنَّ سُنَّتَهُ في قومه الذين سلكوا سبيلَ أولئك في تكـذيبـه وجدالِه سنته من إحلالِ نقمته بهم، وسطوته بهم، فقال تعالى ذكره: كَذَّبَتْ قبلَ قومكَ المكذِّبينَ لرسالتكَ إليهم رسولاً، المُجَادِليكَ بالباطلِ قومُ نوحٍ والأحزابُ من بعدهم، وهم الأممُ الذين تَحَزَّبُوا وتجمَّعُوا على رسلهم بالتكذيبِ لها، كعادٍ وثمود، وقومِ لوط، وأصحابِ مَدْيَن وأشباههم.

وقوله: «وهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ برَسُولِهِمْ لِيأْخُذُوهُ»، يقول تعالى ذكره: وهمت كلُّ أمةٍ من هذه الأمم المكذبةِ رُسُلَها، المتحزِّبة على أنبيائها، برسولهم الذي أُرسلَ إليهم ليأخذوه فيقتلوه.

وقوله: «وجَادَلُوا بالباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الحَقَّ»، يقول: وخاصموا رسولَهم بالباطلِ من الخصومةِ لِيُبْطِلُوا بجدالهم إياهُ وخصومتهم له الحقَّ الذي جاءهم به من عند الله، من الدخولِ في طاعته، والإقرار بتوحيده، والبراءة من عبادةِ ما سواه، كما يخاصمكَ كُفَّارُ قومكَ يا محمدُ بالباطل.

وقوله: «فأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ»، يقول تعالى ذكره: فأخذتُ الذين هَمُّـوا برسـولهم ليأخذوه بالعذابِ من عندي، فكيف كان عقابي إياهم، أَلَمْ أُهلكهم فأجعلهم للخلق عبرةً، ولمن بعدهم عِظَةً؟ وأجعل ديارهم ومساكنهم منهم خلاء، وللوحوش ثواء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾﴾

يقول تعالى ذكره: وكما حَقَّ على الأمم التي كَذَّبَتْ رسلها التي قصصتُ عليك يا محمدُ قصصها عذابي، وحَلَّ بها عقابي بتكذيبهم رسلهم، وجدالهم إياهم بالباطل، ليدحضوا به الحقَّ، كذلك وَجَبَتْ كلمةُ ربك على الذين كفروا بالله من قومكَ، الذين يجادلون في آياتِ الله.

وقوله: «أنَّهم أصحاب النَّار»، بمعنى: وكذلك حَقَّ عليهم عذابُ النار، الذي وَعَدَ الله أهلَ الكفرِ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧﴾

يقول تعالى ذكره: الذين يحملون عرشَ الله من ملائكته، ومن حولِ عرشه، مِمَّنْ يحفُّ به من الملائكةِ «يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ»، يقول: يُصَلُّونَ لربهم بحمدِه وشكره «وَيُؤْمِنُونَ بِهِ»، يقول: ويُقِرُّونَ بالله أنه لا إله لهم سواه، ويشهدون بذلك، لا يستكبرون عن عبادته «وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا»، يقول: ويسألون رَبَّهم أنْ يغفرَ للذين أقَرُّوا بمثلِ إقرارِهم من توحيدِ الله، والبراءةِ من كلِّ معبودٍ سواه ذنوبهم، فيعفوها عنهم.

وقوله: «رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً»، وفي هذا الكلام محذوفٌ، وهو: يقولون، ومعنى الكلام: ويستغفرونَ للذين آمنوا يقولون: يا رَبَّنا وسعتَ كلَّ شيءٍ رحمةً وعلماً. ويعني بقوله: «وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً»: وسعتْ رحمتُكَ وعِلْمُكَ كلَّ شيء من خَلْقِكَ، فعلمتَ كلَّ شيء، فلم يَخْفَ عليك شيءٌ، ورحمتَ خَلْقَكَ، ووسعتهم برحمتك.

وقوله: «فاغْفِرْ للَّذِينَ تابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ»، يقول: فاصفحْ عن جُرْمِ مَنْ تابَ من الشرك بك من عبادك، فرجعَ إلى توحيدكَ، واتَّبَعَ أمركَ ونهيك.

وقوله: «وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ»، يقول: وسلكوا الطريقَ الذي أمرتهم أنْ يسلكوه، ولزموا المنهاجَ الذي أمرتهم بلزومه، وذلك الدخول في الإسلام.

وقوله: «وَقِهِمْ عَذَابَ الجَحِيمِ»، يقول: واصرفْ عن الذين تابوا من الشركِ، واتبعوا سبيلكَ عذابَ النار يومَ القيامة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾﴾

يقول تعالى ذكره مخبراً عن دعاءِ ملائكته لأهلِ الإيمانِ به من عباده، تقول: يا«رَبَّنا وأدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ»، يعني: بساتينَ إقامة «التي وَعَدْتَهُمْ»، يعني: التي وعدتَ أهلَ الإنابةِ إلى طاعتكَ أنْ تُدْخِلَهُمُوهَا «وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائهِمْ وأزْوَاجِهِمْ وَذُرِّياتِهِمْ»، يقول: وأدخِلْ مع هؤلاء الذين تابوا «واتَّبَعُوا سَبِيلَكَ» جنات عدنٍ مَنْ صلح من آبائهم وأزواجهم وذرّياتهم، فعملَ بما يُرضيكَ عنه من الأعمالِ الصالحة في الدنيا، وذُكِرَ أنه يدخل مع الرجل أبواه وولده وزوجته الجنة، وإنْ لم يكونوا عملوا عملَهُ بفضلِ رحمة الله إياه.

وقوله: «إنك أنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ»، يقول: إنك أنتَ يا رَبَّنا العزيزُ في انتقامه من أعدائه، الحكيمُ في تدبيره خلقه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله مخبراً عن قِيلِ ملائكته: «وقِهم»، اصرفْ عنهم سوءَ عاقبةِ سيئاتهم التي كانوا أتوها قبل توبتهم وإنابتهم، يقولون: لا تؤاخذهم بذلك، فتعذّبهم به «وَمَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ»، يقول: ومَنْ تَصْرِفْ عنه سوءَ عاقبةِ سيئاته بذلك يومَ القيامة، فقد رحمته، فَنَجَّيْتَهُ من عذابكَ. «وَذلكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيم» لأنه مَنْ نجا من النارِ وأُدخلَ الجنةَ فقد فاز، وذلك لا شكَّ هو الفوزُ العظيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين كفروا بالله ينادون في النار يومَ القيامة إذا دخلوها، فَمَقَتُوا بِدُخُولِهِمُوها أنفسَهُمْ حين عاينوا ما أعدَّ اللهُ لهم فيها من انواع العذاب، فيقال لهم: لَمَقْتُ اللهِ إياكم أيها القومُ في الدنيا، إذْ تُدْعَوْنَ فيها للإيمانِ بالله، فتكفرونَ أكبرُ من مقتِكم اليومَ أنفسَكم لما حلَّ بكم من سخطِ الله عليكم.

وقوله: «رَبَّنا أَمَتَّنا اثْنَتَيْنِ وأحْيَيْتَنا اثْنَتَيْنِ» قد أتينا عليه في سورةِ البقرةِ[1]، فأغنى ذلكَ عن إعادتهِ في هذا الموضع.

وقوله: «فاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا»، يقول: فأقْرَرْنَا بما عملنا من الذنوبِ في الدنيا «فَهَلْ إلى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ»، يقول: فهل إلى خروجٍ من النار لنا سبيل، لنرجعَ إلى الدنيا، فنعمل غير الذي كنا نعملُ فيها.

---

(١) البقرة:

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾

وفي هذا الكلام متروكٌ استغني بدلالةِ الظاهرِ من ذِكْرِه عليه، وهو: فأُجيبوا أنْ لا سبيلَ إلى ذلك هذا الذي لكم من العذاب أيها الكافرونَ «بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَه كَفَرْتُمْ»، فأنكرتم أنْ تكونَ الأُلوهةُ له خالصة، وقلتم: «أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحداً».

«وإنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا»، يقول: وإنْ يُجْعَلْ لله شريكٌ تُصَدِّقُوا مَنْ جعلَ ذلك له «فالحُكْمُ للهِ العَلِيِّ الكَبِيرِ»، يقول: فالقضاءُ لله العليِّ على كلِّ شيءٍ، الكبير الذي كلُّ شيءٍ دونَهُ متصاغراً له اليوم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى ذكره: الذي يُريكم أيها الناسُ حُجَجَهُ وأدِلَّتَهُ على وحدانيتهِ وربوبيتهِ. «وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ رِزْقاً». يقول: ينزِّلُ لكم من أرزاقكم من السماء بإدرارِ الغيثِ الذي يُخرِجُ به أقواتَكم من الأرضِ، وغذاءَ أنعامِكم عليكم «وَمَا يَتَذَكَّرُ إلاَّ مَنْ يُنِيبُ»، يقول: وما يتذكر حججَ الله التي جعلها أدلةً على وحدانيته، فيعتبر بها ويتعظ، ويعلم حقيقةَ ما تدلُّ عليه، «إلا مَنْ ينيب»، يقول: إلا مَنْ يرجع إلى توحيده، ويُقْبِلْ على طاعته.

وقوله: «فادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ»، يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ وللمؤمنين به، فاعبدُوا الله أيها المؤمنونَ له، مخلصينَ له الطاعةَ غيرَ مشركينَ

به شيئاً مما دونه. «وَلَوْ كَرِهَ الكافِرُونَ»، يقول: ولو كره عبادتكم إياهُ مخلصينَ له الطاعةَ الكافرونَ المشركونَ في عبادَتِهم إياهُ الأوثانَ والأندادَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى ذكره: هو رفيع الدرجات. «ذو العَرْشِ»، يقول: ذُو السريرِ المحيط بما دونه.

وقوله: «يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ على مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ»، يقول: ينزل الوحيَ من أمرِه على مَنْ يشاء من عباده.

وقوله: «لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ»، يقول: لينذر مَنْ يلقي الروح عليه من عباده من أمرِ الله بانذارِه من خَلْقِه عذابَ يومٍ تلتقي فيه أهلُ السماء وأهلُ الأرض، وهو يومُ التلاق، وذلك يومُ القيامة.

وقوله: «يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا يَخْفَى على اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ»، يعني بقوله: «يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ» يعني المنذَرِينَ الذينَ أرسل اللهُ إليهم رُسُلَهُ لينذروهم وهم ظاهرونَ يعني للناظرينَ لا يحولُ بينهم وبينهم جبلٌ ولا شجرٌ، ولا يسترُ بعضهم عن بعضٍ ساترٌ، ولكنهم بقاعٍ صَفْصَفٍ لا أمتَ فيه ولا عِوَجَ وهُمْ من قوله: «يَوْمَ هُمْ» في موضعِ رفعٍ بما بعده، كقول القائل: فعلتُ ذلك يومَ الحجاج أميرٌ.

وقوله: «لا يَخْفَى على اللهِ مِنْهُمْ»، أي: ولا من أعمالهم التي عملوها في الدنيا «شَيْءٌ».

وقوله: «لِمَنِ المُلْكُ اليَوْمَ؟» معناه: يقول الربُّ: لمن السلطانُ اليوم؟ وذلك يوم القيامة، فيجيب نفسه فيقول: «للهِ الوَاحِدِ» الذي لا مِثْلَ له ولا شبيه «القَهَّارِ» لكلِّ شيء سواه بقدرته، الغالب بِعِزَّته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِه يومَ القيامة حين يبعثُ خَلْقَهُ من قبورهم لموقفِ الحساب «الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ»، يقول: اليوم يُثَابُ كلُّ عاملٍ بعمله، فيوفى أجرَ عمله، فعاملُ الخير يُجْزَى الخيرَ، وعاملُ الشرِّ يجزى جزاءه.

وقوله: «لا ظُلْمَ اليَوْمَ»، يقول: لا بَخْسَ على أحدٍ فيما استوجبه من أجرِ عملِهِ في الدنيا، فَيُنْقَص منه إنْ كان محسناً، ولا حُمِلَ على مسيءٍ إثمُ ذَنْبٍ لم يعمله فيعاقب عليه. «إنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسابِ»، يقول: إن الله ذُو سرعةٍ في محاسبةِ عبادِهِ يومئذٍ على أعمالهم التي عملوها في الدنيا، ذُكر أنَّ ذلك اليوم لا يَنْتَصِفُ حتى يَقِيلَ أهلُ الجنة في الجنة، وأهلُ النارِ في النار، وقد فرغ من حسابهم، والقضاء بينهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه: وأنذر يا محمدُ مشركي قومكَ يومَ الآزفةِ، يعني

يومَ القيامةِ أنْ يُوافُوا اللهَ فيه بأعمالهم الخبيثة، فيستحقوا من الله عقابَهُ الأليم.

وقوله: «إذِ القُلُوبُ لَدَى الحَناجِرِ كاظِمِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إذ قلوبُ العبادِ من مخافةِ عقابِ الله لدى حناجرهم قد شَخَصَتْ من صدورهم، فَتَعَلَّقَتْ بحلوقِهم كاظِمِيهَا، يَرُومونَ رَدَّهَا إلى مواضِعها من صدورهم فلا ترجع، ولا هي تخرجُ من أبدانهم فيموتوا.

وقوله: «ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ»، يقول جلّ ثناؤه: ما للكافرينَ باللهِ يومئذٍ من حميمٍ يحم لهم، فيدفع عنهم عظيمَ ما نزلَ بهم من عذابِ الله، ولا شفيع يشفعُ لهم عند رَبِّهم فيطاع فيما شَفعَ، ويُجابَ فيما سألَ.

وقوله: «يُطاعُ» صلة للشفيع. ومعنى الكلام: ما للظالمينَ من حميمٍ ولا شفيعٍ إذا شفع أُطيعَ فيما شفع، فأُجيبَ وقُبِلَتْ شفاعتُه له.

وقوله: «يَعْلَمُ خائِنَةَ الأَعْيُنِ»، يقول جلَّ ذكره مخبراً عن صفة نفسه: يعلمُ رَبُّكم ما خانتْ أعينُ عبادِه، وما أَخْفَتْهُ صُدورُهم، يعني: وما أضمرتْهُ قلوبُهم: يقول: لا يَخْفَى عليه شيءٌ من أمورهم حتى ما يحدِّثُ به نفسَهُ، ويضمره قلبُه إذا نظرَ ماذا يريدُ بنظرِه، وما ينوي ذلك بقلبه. «وَاللهُ يَقْضِي بالحَقِّ»، يقول: والله تعالى ذِكْرُه يقضي في الذي خانته الأعين بنظرها، وأخفته الصدورُ عند نَظَرِ العيونِ بالحق، فيجزي الذين أغمضوا أبصارَهم، وصرفوها عن محارمهِ حَذَارَ الموقفِ بين يديه، ومسألته عنه بالحُسنى، والذين رَدَّوُا النظرَ، وعَزَمَتْ قلوبُهم على مواقعةِ الفواحشِ إذا قدَرت، جزاءها.

وقوله: «والَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ»، يقول: والأوثانُ والآلهة التي يعبدها هؤلاء المشركونَ بالله من قومكَ من دونهِ لا يقضون بشيءٍ، لأنها لا تعلمُ شيئاً، ولا تقدرُ على شيء، يقول جلّ ثناؤه لهم: فاعبدوا الذي يقدرُ على كلِّ شيءٍ، ولا يَخْفَى عليه شيءٌ من أعمالكم، فيجزي محسنكم

بالإحسانِ، والمسيءَ بالإساءةِ، لا مالا يقدرُ على شيءٍ ولا يعلمُ شيئاً، فيعرف المحسنَ من المسيء، فيثيب المحسن، ويعاقب المسيء.

وقوله: «إنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ»، يقول: إنَّ الله هو السميعُ لما تنطقُ به ألسنتكم أيها الناسُ، البصيرُ بما تفعلون من الأفعالِ، محيطٌ بكلِّ ذلك مُحْصِيه عليكم، ليجازي جميعَكم جزاءه يومَ الجزاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أَوَ لَمْ يَسِرْ هؤلاء المُقِيمونَ على شركهم بالله، المكذِّبونَ رسولَهُ من قريش في البلاد، «فَيَنْظُروا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ»، يقول: فيروا ما الذي كان خاتمةَ أممِ الذين كانوا من قَبْلِهم من الأممِ الذين سلكوا سبيلَهم، في الكفرِ بالله، وتكذيبِ رسله. «كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً»، يقول: كانت تلك الأممُ الذين كانوا من قبلهم أشدّ منهم بطشاً، وأبقى في الأرضِ آثاراً، فلم تنفعهم شِدَّةُ قُواهم، وعظمُ أجسامِهم، إذْ جاءهم أمرُ الله، وأخذهم بما أجرموا من معاصيهِ، واكتسبوا من الآثام، ولكنه أبادَ جَمْعَهُمْ، وصارتْ مساكِنُهم خاويةً منهم بما ظلموا «وَمَا كانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ»، يقول: وما كان لهم من عذابِ الله إذْ جاءهم، من واقٍ يَقِيهم، فيدفعه عنهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى ذكره: هذا الذي فعلتُ بهؤلاء الأممِ الذين من قبل مشركي قريش من إهلاكِنَاهُمْ بذنوبِهم فَعَلْنَا بهم بأنهم كانتْ تأتيهم رُسُلُ اللهِ إليهم «بالبَيِّناتِ»، يعني: بالآياتِ الدالاتِ على حقيقةِ ما تدعوهم إليه من توحيد الله، والانتهاء إلى طاعته «فَكَفَرُوا»، يقول: فأنكروا رسالَتها، وجحدوا توحيدَ الله، وأبوا أن يطيعوا الله «فأخَذَهُمُ اللهُ»، يقول: فأخذهم الله بعذابه فأهلكهم «إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ العِقَابِ»، يقول: إنَّ الله ذو قُوَّةٍ لا يقهره شيءٌ، ولا يغلبه، ولا يعجزه شيءٌ أراده، شديدُ عقابه مَنْ عاقبَ من خَلْقِه، وهذا وعيدٌ من الله مشركي قريش، المكذِّبينَ رسولَهُ محمداً ﷺ يقول لهم جلّ ثناؤه: فاحذروا أيها القومُ أنْ تسلكـوا سبيلَهم في تكذيبِ محمدٍ ﷺ وجحودِ توحيدِ الله، ومخالفةِ أمره ونهيه فيسلك بكم في تعجيلِ الهلاكِ لكم مسلَكَهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مُسَلِّياً نبيه محمداً ﷺ، عما كان يَلْقَى من مشركي قومِه من قريش، بإعلامِه ما لقيَ موسى مِمَّنْ أُرسلَ إليه من التكذيب، ومُخْبِرَهُ أنه مُعْلِيه عليهم، وجاعلٌ دائرةَ السَّوْءِ على مَنْ حادَّهُ وشاقَّهُ، كَسُنَّتِه، في موسى صلواتُ الله عليه، إذْ أعلاه، وأهلكَ عدوَّهُ فرعونَ «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بآياتِنا»، يعني: بأدلته. «وَسُلْطانٍ مُبِينٍ»: أي عذر مبين، يقول: وحججه المبينة لمن يراها أنها حُجَّةٌ مُحَقِّقَةٌ ما يَدْعُو إليه موسى «إلى فِرْعَوْنَ وهَامان وقَارُونَ، فَقالُوا ساحِرٌ كَذَّابٌ»، يقول: فقال هؤلاء الذين أُرسلَ إليهم موسى لموسى: هو ساحرٌ يسحرُ العَصا، فيرى الناظرُ إليها أنها حيةٌ تسعى. «كذّاب»، يقول: يكذبُ على اللهِ، ويزعمُ أنه أرسله إلى الناسِ رسولاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تعالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى ذكره: فلما جاء موسى هؤلاء الذين أرسلَهُ اللهُ إليهم بالحقِّ من عندنا، وذلك مجيئهُ إياهم بتوحيدِ الله، والعملِ بطاعته، مع إقامةِ الحجةِ عليهم، بأنَّ الله ابتعثه إليهم بالدعاءِ إلى ذلك «قالُوا اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا» بالله «مَعَهُ» من بني إسرائيل. «وَاسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ»، يقول: واستبقوا نساءَهُمْ للخِدمة.

فإنْ قال قائل: وكيف قيل: «فَلَمَّا جاءَهُمْ مُوسَى بالحَقِّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، واسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ»، وإنما كان قَتْلُ فرعون الولدانَ من بني إسرائيل حَذارَ المولودِ الذي كان أُخْبِرَ أنه على رأسِهِ ذهابُ مُلْكِه، وهلاكُ قومِهِ، وذلك كان فيما يقال قبل أنْ يَبْعَثَ اللهُ موسى نبيًّا؟ قيل: إنَّ هذا الأمرَ بقتلِ أبناءِ الذين آمنوا مع موسى، واستحياءِ نسائهم، كان أمراً من فرعونَ وملئه من بعدِ الأمرِ الأوَّلِ الذي كان من فرعون قبلَ مولدِ موسى.

وقوله: «ومَا كَيْدُ الكافِرِينَ إلَّا فِي ضَلالٍ»، يقول: وما احتيالُ أهلِ الكفرِ لأهلِ الإيمان بالله إلا في جَوْرٍ عن سبيلِ الحقِّ، وصدٍّ عن قصدِ المحجة، وأخذٍ على غير هدى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وقالَ فِرْعَوْنُ» لملئه: «ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ»

الذي يزعمُ أنه أرسله إلينا فيمنعه منا «إِنّي أخافُ أنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ»، يقول: إني أخافُ أن يُغَيِّرَ دِينَكم الذي أنتم عليه بسحره.

وقوله: «أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الفَسادَ»، يعني: إني أخافُ من موسى أنْ يغير دينكم الذي أنتم عليه، أو أنْ يُظْهِرَ في أرضكم أرضِ مصر، عبادةَ رَبِّه الذي يدعوكم إلى عبادتِه، وذلك كان عنده هو الفسادُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى ذكره: وقال موسى لفرعونَ ومَلَئِه: إني استجرتُ أيها القومُ بربي وربِّكم، من كلِّ متكبرٍ عليه، تكبَّرَ عن توحيدِه، والإقرارِ بألوهيته وطاعته، لا يؤمنُ بيومٍ يحاسبُ اللهُ فيه خَلْقَهُ، فيجازي المحسنَ بإحسانِه، والمسيءَ بما أساء، وإنما خصَّ موسى صلوات الله وسلامه عليه، الاستعاذةَ باللهِ ممن لا يؤمنُ بيومِ الحساب، لأنَّ مَنْ لم يؤمن بيومِ الحساب مُصَدِّقاً، لم يكنْ للثوابِ على الإحسانِ راجياً، ولا للعقابِ على الإساءة، وقبيحِ ما يأتي من الأفعال خائفاً، ولذلك كان استجارتُه من هذا الصنفِ من الناسِ خاصة.

وقـوله: «وقَالَ رَجُلٌ مؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إيمَانَهُ»، اختلف أهلُ العلم في هذا الرجل المؤمن، فقال بعضهم: كان من قومِ فرعون، غيرَ أنه كان قد آمنَ بموسى، وكان يُسِرُّ إيمانَهُ من فرعونَ وقومِهِ خوفاً على نفسه.

وأولى القولين في ذلك بالصواب عندي قولُ مَن قال: إنَّ الرجلَ المؤمنَ كانَ من آلِ فرعونَ، قد أصغى لكلامه، واستمع منه ما قاله، وتوقَّفَ عن قتلِ موسى عند نهيِهِ عن قتله، وقِيلِه ما قالَ، وقال له: ما أُرِيكُمْ إلا ما أرى، وما أهديكم إلا سبيلَ الرشادِ، ولو كان إسرائيلياً لكان حَرِيًّاً أنْ يعاجل هذا القائلَ له، ولملئه ما قال بالعقوبةِ على قوله: لأنه لم يكنْ يَستنصحُ بني إسرائيلَ، لاعتدادِه إياهم أعداءً له، فكيف بقولِهِ عن قتلِ موسى لو وجد إليه سبيلاً، ولكنه لما كان من ملأ قومِهِ، استمعَ قولَهُ، وكَفَّ عما كان هَمَّ به في موسى.

وقـوله: «أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ»، يقول: أتقتلون أيها القومُ موسى لأن يقول ربي الله.

«وَقَـدْ جاءَكُمْ بالبَيِّناتِ»، يقول: وقد جاءكم بالآياتِ الواضحاتِ على حقيقةِ ما يقولُ من ذلك، وتلك البينات من الآيات يَدُهُ وعَصَاهُ.

وقوله: «وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعلَيْهِ كَذِبُهُ»، يقول: وإنْ يَكُ موسى كاذِباً في قِيلِهِ: إنَّ اللهَ أرسلَهُ إليكم يأمركم بعبادتِهِ، وتركِ دِينكُم الذي أنتم عليه، فإنما إثمُ كَذِبهِ عليه دونَكم «وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ»، يقول: وإنْ يَكُ صادقاً في قِيلِهِ ذلك، أصابكم الذي وعدكم من العقوبةِ على مقامكم على الدين الذي أنتم عليه مقيمون، فلا حاجةَ بكم إلى قتلِهِ، فتزيدوا رَبَّكم بذلك إلى سَخَطِه عليكم بكفرِكُمْ سَخطاً. «إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ»، يقول: إن الله لا يوفِّقُ للحقِّ مَنْ هو متعدٍّ إلى فعلِ ما ليسَ له فِعْلُه، كذّاب عليه يكذب، ويقول عليه الباطلَ وغيرَ الحقِّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ المؤمنِ من آلِ فرعونَ لفرعونَ ومَلَئِه: «يا قَوْمِ لَكُمُ المُلْكُ اليَوْمَ ظاهِرِينَ في الأَرْضِ»، يعني: أرض مصر، يقول: لكم السلطانُ اليومَ والملكُ ظاهرينَ أنتم على بني إسرائيل في أرض مصر «فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللهِ»، يقول: فَمَنْ يدفعُ عنا بأسَ الله وسطوته إنْ حَلَّ بنا، وعقوبته إنْ جاءتنا، قال فرعون! «ما أُرِيكُمْ إلا ما أَرَى»، يقول قال فرعونُ مجيباً لهذا المؤمن الناهي عن قتلِ موسى: ما أُرِيكُم أيها الناسُ من الرأي والنصيحةِ إلا ما أرى لنفسي ولكم صلاحـاً وصـواباً، «وما أهديكم إلا سبيلَ الرشاد»، يقول: وما أدعوكم إلا إلى طريقِ الحقِّ والصوابِ في أمرِ موسى وقتله، فإنكم إنْ لم تقتلوه بَدَّلَ دينكم، وأظهرَ في أرضكم الفساد.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ۝٣٠ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ۝٣١﴾

يقول تعالى ذكره: وقال المؤمنُ من آلِ فرعونَ لفرعونَ وملئه: يا قوم إني أخافُ عليكم بقتلكم موسى إنْ قتلتموه مثلَ يومِ الأحزابِ الذين تَحَزَّبُوا على رُسُلِ الله نوحٍ وهود وصالح، فأهلكهم الله بِتَجَرُّئهم عليهم، فَيُهْلِكَكُمْ كما أهلكهم.

وقوله: «مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ»، يقول: يفعل ذلك بكم فيهلككم مِثْلَ سُنَّتِه في قومِ نوحٍ وعادٍ وثمود وفعله بهم. وقد بيَّنا معنى الدأب فيما مضى .

وقوله: «وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ» يعني قوم إبراهيم، وقوم لوط، وهم أيضاً من الأحزاب.

وقوله: «ومَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً للْعِبادِ»، يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ المؤمنِ من آلِ فرعونَ لفرعونَ وملئه، وما أهلكَ اللهُ هذه الأحزابَ من هذه الأمم ظلماً منه لهم بغير جُرْمٍ اجترموه بينهم وبينه، لأنه لا يريد ظُلْمَ عباده، ولا يشاؤه، ولكنه أهلكهم بإجرامهم وكفرهم به، وخلافهم أمره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قيل هذا المؤمنِ لفرعون وقومه: «ويَا قَوْمِ إنّي أخافُ عَلَيْكُمْ» بقتلكم موسى إنْ قتلتموه عقابَ الله «يَوْمَ التّنادِ».

وقوله: «يوم التّنادِ»، معناه: ويا قومِ إني أخافُ عليكم يوم ينادي الناسُ بعضُهم بعضاً، إما من هولِ ما قد عاينوا من عظيمِ سلطانِ الله، وفظاعةِ ماغَشِيَهُمْ من كَرْبِ ذلك اليوم، وإما لتذكيرِ بعضِهم بعضاً إنجازَ الله إياهم الوعدَ الذي وَعَدَهُمْ في الدنيا، واستغاثة من بعضهم ببعض، مما لقِيَ من عظيمِ البلاءِ فيه.

وقوله: «يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبرِينَ»، فتأويله: يَوْمَ يُوَلُّونَ هارِبينَ في الأرْضِ حذَارَ عَذَابِ اللهِ وعقابِهِ عِنْدَ مُعايَنَتِهِمْ جَهَنَّمَ.

وقوله: «ما لَكُمْ مِنَ اللهِ من عاصِمٍ»، يقول: مالكم من الله مانعٌ يمنعكم، وناصرٌ ينصركم.

وقوله: «وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هاد»، يقول: ومَنْ يخذله اللهُ فلم يوفِّقْهُ لرشده، فما له من موفِّقٍ يوفقهُ له.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد جاءكم يوسفُ بن يعقوب يا قوم من قبل موسى بالواضحاتِ من حججِ الله.

وقوله: «فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جاءَكُمْ بِهِ»، يقول: فلم تزالوا مرتابينَ فيما أتاكم به يوسفُ من عند رَبِّكم غير موقني القلوبِ بحقيقتهِ «حتى إِذَا هَلَكَ»، يقول: حتى إذا ماتَ يوسفُ قلتم أيها القومُ: لن يبعثَ الله من بعد يوسفَ إليكم رسولاً بالدعاء إلى الحقِّ «كَذلكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مَسْرِفٌ مُرْتابٌ»، يقول: هكذا يصدُّ الله عن إصابةِ الحقِّ وقصدِ السبيل مَنْ هو كافرٌ به مرتابٌ، شاكٌّ في حقيقةِ أخبارِ رسله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾

يقول تعالى ذكره مخبراً عن قِيلِ المؤمنِ من آلِ فرعون: «الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ بغَيْرِ سُلْطانٍ أتاهُمْ»، فقوله: «الذين» مردودٌ على «من» في قوله: «مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ». وتأويل الكلام: كذلك يُضِلُّ اللهُ أهلَ الإسرافِ والغلوِّ في ضلالهم بكفرهم بالله، واجترائهم على معاصيه، المرتابينَ في أخبار رسله، الـذينَ يخـاصمـونَ في حججه التي أتتهم بها رسله ليدحضوها بالباطلِ من الحُجج بغيرِ سلطانٍ أتاهم، يقول: بغير حجة أتتهم من عند رَبِّهم يدفعونَ بها

حقيقةَ الحُجَج التي أتتهم بها الرسلُ.

وقوله: «كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ»، يقول: كبر ذلك الجدالُ الذي يجادلونه في آياتِ الله مقتاً عند الله، «وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا» بالله.

وقوله: «كَذَلكَ يَطْبَعُ اللهُ على كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ»، يقول: كما طبعَ اللهُ على قلوبِ المسرفينَ الذين يجادلونَ في آياتِ الله بغيرِ سلطانٍ أتاهم، كذلك يطبعُ اللهُ على كُلِّ قلبِ متكبرٍ على اللهِ أنْ يُوَحِّدَهُ، ويصدِّقَ رُسُلَهُ «جبار»، يعني: متعظم عن اتِّباعِ الحقِّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

يقول تعالى ذكره: وقال فرعونُ لما وَعَظَهُ المؤمنُ من آلهِ بما وعظَهُ به وزجرَهُ عن قتلِ موسى نبيِّ الله وحَذَّرَهُ من بأسِ الله على قِيلِهِ اقتله ما حذره لوزيره وزيرِ السوءِ هامان «يا هامانُ ابْنِ لي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبابَ»، يعني: بناءً.

«لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبابَ»، اختلفَ أهلُ التأويلِ في معنى الأسبابِ في هذا الموضع، فقال بعضهم: أسباب السموات: طرقها.

وقال آخرون: عَنَى بأسباب السموات: أبوابَ السموات.

وقال آخرون: بل عُنِي به مَنْزِل السماء.

وقد بيَّنا فيما مضى قبل، أنَّ السبب: هو كلُّ ما تُسَبِّبَ به إلى الوصولِ

إلى ما يطلبُ من حبلٍ وسلَّمٍ وطريقٍ وغير ذلك.

فأوْلى الأقوالِ بالصوابِ في ذلك أن يقال: معناه لعلِّي أبلغ من أسبابِ السمـواتِ أسباباً أتسببُ بها إلى رؤيةِ إلهِ موسى، طرقاً كانت تلك الأسباب منها، أو أبواباً، أو منازل، أو غير ذلك.

وقوله: «فأطَّلع إلى إلَهِ مُوسَى»، اختلفت القَرَأة في قراءة قوله: «فأطَّلِعَ» فقـرأتْ ذلك عامة قَرَأة الأمصارِ «فأطَّلِعُ» بضم العين: ردّاً على قوله: «أبْلُغُ الأسْبابَ» وعطفاً به عليه. وذُكر عن حميد الأعرج أنه قرأ «فأطَّلِعَ» نصباً جواباً للعَلِّي.

والقراءة التي لا أستجيزُ غيرها الرفع في ذلك، لإجماعِ الحجةِ من القراءِ عليه.

وقوله: «وَإني لأَظُنُّهُ كاذِباً»، يقول: وإني لأظنُّ موسى كاذباً فيما يقول ويدَّعي من أنَّ له في السماء رباً أرسله إلينا.

وقوله: «وكَذَلكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ»، يقول الله تعالى ذكره: وهكذا زَيَّنَ الله لفرعونَ حين عَتَا عليه وتمرَّدَ، قبيحَ عمله، حتى سَوَّلَتْ له نفسُه بلوغَ أسبابِ السمواتِ، ليطلع إلى إلهِ موسى.

وقوله: «وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ»، اختلفت القَرَأةُ في قراءة ذلك، فقرأته عامة قَرَأة المدينة والكوفة: «وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ» بضمِّ الصاد، على وجه ما لم يُسَمَّ فاعله.

وقـرأ ذلـك حميد وأبـو عمرو وعامة قَرَأة البصرة «وَصَدَّ» بفتح الصاد، بمعنى: وأعرضَ فرعونُ عن سبيلِ الله التي ابتُعِث بها موسى استكباراً.

والصوابُ من القول في ذلك أن يقال: إنهما قراءتانِ معروفتان في قرأةِ الأمصارِ، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب.

وقوله: «ومَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إلَّا فِي تَبابٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وما احتيالُ فرعون الذي يحتالُ للاطلاع إلى إله موسى، إلا في خسارٍ وذهابِ مالٍ وغبنٍ، لأنه ذهبت نفقته التي أنفقها على الصرحِ باطلاً، ولم يَنَلْ بما أنفقَ شيئاً مما أراده، فذلك هو الخَسَارُ والتباب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۝٣٨ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ۝٣٩﴾

يقول تعالى ذكره مخبراً عن المؤمنِ باللهِ من آلِ فرعونَ «وقَالَ الَّذِي آمَنَ» من قومِ فرعـونَ لقـومـه: «يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ»، يقول: إن اتبعتموني فقبلتم مني ما أقولُ لكم، بَيَّنتُ لكم طريقَ الصوابِ الذي تَرشُدون إذا أخذتم فيه وسلكتُموه وذلك هو دِينُ الله الذي ابتعثَ به موسى، يقول: «إنَّمَا هَذِهِ الحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ»، يقول لقومه: ماهذه الحياةُ الدنيا العاجلةُ التي عَجَّلْتُ لكم في هذه الدار إلا متاعٌ تستمتعونَ بها إلى أجلٍ أنتم بالغوه، ثم تموتونَ وتزول عنكم «وَإنَّ الآخِرَةَ هِيَ دارُ القَرارِ»، يقول: وإن الدار الآخرة، وهي دارُ القرار التي تستقرُّونَ فيها فلا تموتونَ ولا تزولُ عنكم، يقول: فلها فاعملوا، وإياها فاطلبوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٤٠﴾

يقول: مَنْ عملَ بمعصيةِ الله في هذه الحياة الدنيا، فلا يجزيه اللهُ في

الآخرةِ إلا سيئة مثلها، وذلك أن يعاقبه بها؛ «وَمَنْ عِمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى»، يقول: ومن عمل بطاعةِ الله في الدنيا، وأْتَمَرَ لأمره؛ وانتهى فيها عما نهاه عنه من رجلٍ أو امرأةٍ، وهو مؤمنٌ بالله «فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ»، يقول: فالذين يعملون ذلك من عبادِ الله يدخلون في الآخرةِ الجنةَ.

وقوله: «يُرْزَقُونَ فِيها بغَيْرِ حِسابٍ»، يقول: يرزقهم الله في الجنة من ثمارها، وما فيها من نعيمها ولذَّاتِها بغير حساب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ هذا المؤمن لقومِهِ من الكَفَرَةِ «مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ» من عذابِ الله وعقوبته بالإيمانِ به، واتباعِ رسولِهِ موسى، وتصديقِهِ فيما جاءكم به من عندِ رَبِّه «وَتَدْعُونَنِي إلى النَّارِ»، يقول: وتدعونني إلى عملِ أهلِ النار.

وقوله: «تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ باللهِ، وأُشْرِكَ بِهِ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ»، يقول: وأشرك بالله في عبادته أوثاناً، لستُ أعلمُ أنه يصلحُ لي عبادتها وإشراكها في عبادة الله، لأنَّ الله لم يأذن لي في ذلك بخبرٍ ولا عقل.

وقوله: «وأنا أدْعُوكُمْ إلى العَزِيزِ الغَفَّارِ»، يقول: وأنا أدعوكم إلى عبادةِ العزيزِ في انتقامِهِ ممن كفر به، الذي لا يمنعُه إذا انتقم من عدوٍّ له شيءٌ، الغفار لمن تابَ إليه بعد معصيتِهِ إياهُ، لعفوِهِ عنه، فلا يضرُّهُ شيءٌ مع عفوِهِ عنه، يقول: فهذا الذي هذه الصفةُ صفته فاعبدوا، لا ما لا ضرَّ عنده ولا نفع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾﴾

يقول: حقاً أن الذي تدعونني إليه من الأوثانِ، ليس له دعاءٌ في الدنيا ولا في الآخرة، لأنه جمادٌ لا ينطقُ، ولا يفهم شيئاً.

وقوله: «وأنَّ مَرَدَّنا إلى اللهِ»، يقول: وأنَّ مرجعنا ومنقلبنا بعد مماتنا إلى الله «وأنَّ المُسْرِفِينَ هُمْ أصحَابُ النَّارِ»، يقول: وأنَّ المشركينَ بالله المتعدِّينَ حدوده، القَتَلَةَ النفوس التي حَرَّمَ اللهُ قتلها، هم أصحابُ نارِ جهنمَ عند مرجعنا إلى الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى ذكره مخبراً عن قِيلِ المؤمنِ من آلِ فرعونَ لفرعونَ وقومِهِ: فستذكرون أيها القومُ إذا عاينتم عقابَ الله قد حَلَّ بكم، ولقيتم ما لقيتموه صِدْقَ ما أقولُ، وحقيقةَ ما أخبركم به من أنَّ المسرفينَ هم أصحابُ النار.

وقوله: «وأُفَوِّضُ أمْري إلى اللهِ»، يقول: وأُسلمُ أمري إلى الله، وأجعله إليه وأتوكَّلُ عليه، فإنه الكافي مَنْ تَوكَّل عليه.

وقوله: «إنَّ اللهَ بَصِيرٌ بالعِبادِ»، يقول: إنَّ الله عالمٌ بأمورِ عبادِه، ومَن المطيعُ منهم، والعاصي له، والمستحقُّ جميلَ الثوابِ، والمستوجبُ سَيِّئَ العقاب.

وقوله: «فَوَقاهُ اللهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا»، يقول تعالى ذكره: فدفعَ اللهُ عن هذا المؤمنِ من آلِ فرعون بإيمانهِ وتصديقِ رسولهِ موسى، مكروهَ ما كان فرعونُ ينالُ به أهلَ الخلافِ عليه من العذابِ والبلاء، فَنَجَّاهُ منه.

وقوله: «وحَاقَ بآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ العَذاب»، يقول: وحَلَّ بآلِ فرعونَ ووجَبَ عليهم، وعَنَى بآلِ فرعونَ في هذا الموضع تُبَّاعَهُ وأهلَ طاعته من قومه.

وعنى بقوله: «سُوءُ العَذَابِ»: ما ساءهم من عذابِ الله، وذلك نارُ جهنم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مبيِّناً عن سوءِ العذابِ الذي حلَّ بهؤلاء الأشقياءِ من قومِ فرعونَ ذلك الذي حاق بهم من سوءِ عذابِ الله «النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها» إنهم لما هلكوا وغرَّقهم اللهُ، جُعلتْ أرواحُهم في أجوافِ طيرٍ سُودٍ، فهي تُعْرَضُ على النارِ كُلَّ يومٍ مرّتين «غُدُوّاً وَعَشِيًّا» إلى أنْ تقومَ الساعة.

وقوله: «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أشَدَّ العَذَاب»، معناه: ويوم تقومُ الساعةُ يقول الله لملائكته: «أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أشَدَّ العَذَابِ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «وَأَنْذِرْهُم يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ القُلُوبُ لَدَى الحَنَاجِرِ كاظِمِينَ» [غافر: ١٨]، «وإِذْ يَتَحَاجُّونَ في النَّارِ»، يقول: وإذْ يتخاصمون في النار: وعَنَى بذلك: إذ يتخاصمُ الذين أُمِرَ رسولُ الله ﷺ بإنذارِهم من مشركي قومِهِ في النارِ، فيقولُ الضعفاءُ منهم وهم المتبعون على الشركِ بالله «إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً» تقولُ لرؤسائِهم الذين اتبعوهم على الضلالةِ: إنَّا كنا لكم في الدنيا تبعاً على الكفرِ بالله «فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ» اليومَ «عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ» يعنون حظاً فَتُخَفِّفُوه عَنَّا، فقد كُنَّا نسارعُ في محبتكم في الدنيا، ومن قِبلكم أُتِينَا، لولا أنتم لكنا في الدنيا مؤمنينَ، فلم يُصِبْنَا اليومَ هذا البلاء.

«قال الذين استكبروا»، وهم الرؤساءُ المتبوعونَ على الضلالةِ في الدنيا: إنَّا أيها القومُ وأنتم كلنا في هذه النار مُخَلَّدُونَ، لا خلاصَ لنا منها. «إِنَّ الله قَدْ حَكَمَ بَيْنَ العِبَادِ» بفصلِ قضائِه، فأسكنَ أهلَ الجنةِ الجنةَ، وأهلَ النارِ النارَ، فلا نحنُ مما نحنُ فيه من البلاء خارجونَ، ولا هم مما فيه من النعيم منتقلونَ، ورفع قوله: «كُلٌّ» بقوله: «فِيها» ولم ينصب على النعت.

وقد اختلف في جواز النصبِ في ذلك في الكلام. وكان بعض نحويي البصرة يقول: إذا لم يضف كلّ لم يجزِ الاتباعُ. وكان بعض نحويي الكوفة يقول: ذلك جائزٌ في الحذفِ وغيرِ الحذفِ، لأنَّ أسماءها إذا حُذفت اكتفي بها منها. وقد بيَّنا الصوابَ من القولِ في ذلك فيما مضى بما أغنى عن إعادته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقال أهلُ جهنم لخزنتها وقوَّامها، استغاثةً بهم من عظيم ما هُمْ فيه من البلاء، ورجاءَ أنْ يجدوا من عندهم فَرَجاً «ادْعُوا رَبَّكُمْ» لَنا «يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً» واحداً، يعني قَدْرَ يومٍ واحدٍ من أيامِ الدنيا «مِنَ العَذَابِ» الذي نحنُ فيه. وإنما قلنا: معنى ذلك: قَدْرَ يومٍ من أيامِ الدنيا، لأنَّ الآخرةَ يومٌ لا ليلَ فيه، فيقال: خفف عنهم يوماً واحداً.

وقوله: «قالُوا أوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بالبَيِّناتِ»، يقول تعالى ذكره: قالت خَزَنَـةُ جهنم لهم: أو لم تَكُ تأتيكم في الـدنيا رُسُلكم بالبينـاتِ من الحجـجِ على توحيدِ الله، فَتُوحِّدُوه وتؤمنوا به، وتَبَرَّؤوا مما دونه من الآلهةِ؟ قالوا: بلى، قد أتتنا رُسُلُنَا بذلك.

وقوله: «قالُوا فادْعُوا»، يقول جلّ ثناؤه: قالت الخَزَنَةُ لهم: فادْعُوا إذنْ ربَّكم الذي أتتكم الرسلُ بالدعاءِ إلى الإيمانِ به.

وقوله: «وَمَا دُعاءُ الكافِرِينَ إلاَّ فِي ضَلالٍ»، يقول: قد دَعَوْا وما دعاؤُهم إلا في ضلال، لأنه دعاءٌ لا ينفعهم، ولا يُستجابُ لهم، بل يقال لهم: «اخْسَئُوا فِيَها وَلاَ تُكَلِّمُونِ» [المؤمنون: ١٠٨].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾

يقول القائل: وما معنى: «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَياةِ الدُّنْيا» وقـد علمنـا أنَّ منهم مَنْ قتله أعـداؤه، ومَثَّلُوا به، كشعياء ويحيى بن زكريا وأشباههما. ومنهم مَنْ هَمَّ بقتلِهِ قومُه، فكان أحسن أحواله أنْ يخلصَ منهم حتى فارقهم ناجياً بنفسه، كإبراهيمَ الذي هاجرَ إلى الشامِ من أرضِه مفارقاً

لقومِهِ، وعيسى الذي رفع إلى السماء إذْ أراد قومُه قَتْلَهُ، فأينَ النُّصْرَةُ التي أخبرنا أنه ينصرها رُسُلَهُ، والمؤمنينَ به في الحياة الدنيا، وهؤلاء أنبياؤه قد نالهم من قومِهم ما قد علمتَ، وما نصروا على مَنْ نالهم بما نالهم به؟

قيل: إنَّ لقوله: «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَياةِ الدُّنْيا» وجهين كلاهما صحيحٌ معناه. أحدهما: أنْ يكون معناه: إنا لننصرُ رُسُلَنَا والذينَ آمنوا في الحياةِ الدنيا إما بإعلائِنَاهُمْ على مَنْ كَذَّبَنَا وإظفارِنَا بهم، حتى يقهروهم غَلَبَةً، ويُذِلُّوهُمْ بالظفرِ ذِلَّةً، كالذي فعل من ذلك بداود وسليمان، فأعطاهما من المُلكِ والسلطان ماقهرا به كُلَّ كافرٍ، وكالذي فعل بمحمدٍ ﷺ بإظهارِه على مَنْ كَذَّبَهُ من قومه، وإما بانتقامنا ممن حادَّهُمْ وشاقَّهُمْ بإهلاكِهم وإنجاءِ الرسلِ ممن كَذَّبهم وعَادَاهم، كالذي فعل تعالى ذِكْرُه بنوحٍ وقومِهِ، من تغريقِ قومهِ وإنجائهِ منهم، وكالذي فعل بموسى وفرعون وقومه، إذ أهلكهم غرقاً، ونجى موسى ومَنْ آمنَ به من بني إسرائيلَ وغيرهم ونحو ذلك، أو بانتقامنا في الحياة الدنيا من مُكَذِّبيهم بعد وفاةِ رسولنا من بعد مهلكهم، كالذي فعلنا من نصرتنا شعياء بعد مهلكه، بتسليطنا على قَتَلَتِه مَن سلَّطنا حتى انتصرنا بهم مِنْ قَتَلَتِه، وكفِعْلِنَا بقَتَلَةِ يحيى، من تسليطنا بُخْتُنَصَّر عليهم حتى انتصرنا به من قتله له وكانتصارنا لعيسى من مُريدي قَتْلِه بالروم حتى أهلكناهم بهم، فهذا أحدُ وجهيه.

والوجه الآخر: أنْ يكونَ هذا الكلامُ على وجهِ الخبرِ عن الجميعِ من الرسل والمؤمنينَ، والمرادُ واحدٌ، فيكون تأويلُ الكلام حينئذٍ: إنَّا لننصرُ رسولَنا محمداً ﷺ والذين آمنوا به في الحياة الدنيا، ويومَ يقومُ الأشهادُ، كما بَيَّنا فيما مضى أنَّ العربَ تُخْرِجُ الخبرَ بلفظِ الجميع، والمرادُ واحدٌ إذا لم تنصب للخبر شخصاً بعينه.

وعنى بقوله: «وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهادُ» يوم يقومُ الأشهادُ من الملائكةِ والأنبياءِ

والمؤمنينَ على الأمم المكذبة رُسُلَها بالشهادة بأنَّ الرسل قد بلغتهم رسالات رَبِّهم، وأنَّ الأمم كذَّبتهم. والأشهادُ: جَمْعُ شهيد، كما الأشرافُ: جمع شريف.

وقوله: «يومَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرتُهُمْ»، يقول تعالى ذكره: ذلك يوم لا ينفعُ أهلَ الشركِ اعتذارُهم لأنهم لا يعتذرونَ إن اعتذروا إلا بباطلٍ، وذلك أنَّ الله قد أعـذرَ إليهم في الدنيا، وتابعَ عليهم الحُجَجَ فيها فلا حجةَ لهم في الآخرة إلا الاعتصامُ بالكذبِ بأنْ يقولوا: «وَاللهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِين».

وقوله: «ولَهُمُ اللَّعْنَةُ»، يقول: وللظالمينَ اللعنةُ، وهي البُعْدُ من رحمةِ الله. «ولَهُمْ سُوءُ الدَّارِ»، يقول: ولهم مع اللعنةِ من اللهِ شَرُّ ما في الدارِ الآخرةِ، وهو العذابُ الأليم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى» البيانَ للحقِّ الذي بعثْناهُ به كما آتينا ذلك محمداً فكذَّبَ به فرعون وقومه، كما كذَّبتْ قريش محمداً «وَأَوْرَثْنا بَني إسْرائِيلَ الكِتابَ»، يقول: وأورثنا بني إسرائيلَ التوراةَ، فعَلَّمْناهُمُوها، وأنزلناه إليهم «هُدًى» يعني: بياناً لأمرِ دينهم، وما ألزمناهم من فرائضها، «وَذِكْرَى لأُولي الألْبابِ»، يقول: وتذكيراً منا لأهلِ الحِجَا والعقولِ منهم بها.

وقوله: «فاصْبرْ إنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ: فاصبرْ يا محمدُ لأمرِ ربك، وانفذ لما أرسلكَ به من الرسالةِ، وبلِّغْ قومكَ ومن أُمرتَ بإبلاغهِ ما أنزل إليك، وأيقن بحقيقةِ وعدِ الله الذي وعدكَ من نصرتك،

ونصرةِ مَنْ صَدَّقَكَ وآمنَ بك، على مَنْ كَذَّبَكَ، وأنكرَ ماجئته به من عند ربك، إنَّ وعدَ الله حقٌّ لا خُلْفَ له وهو منجزٌ له. «وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ»، يقول: وسله غفرانَ ذنوبكَ وعفوَهُ لكَ عنه «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ»، يقول: وصلِّ بالشكرِ منك لربـك «بِـالْعَشِيِّ» وذلك من زوالِ الشمس إلى الليل، «وَالإِبْكَارِ» وذلك من طلوعِ الفجرِ الثاني إلى طلوع الشمس.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٥٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين يخاصمونكَ يا محمدُ فيما أتيتهم به من عندِ رَبِّكَ من الآياتِ «بغير سلطانٍ أتاهم»، يقول: بغير حجةٍ جاءتهم من عندِ الله بمخاصمتكَ فيها. «إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ»، يقول: ما في صدورهم إلا كِبْرٌ يتكبرونَ من أجلِهِ عن اتباعكَ، وقبولِ الحقِّ الذي أتيتَهُمْ به حَسَداً منهم على الفضل الذي آتاكَ الله، والكرامة التي أكرمكَ بها من النبوّةِ «ما هُمْ بِبالِغِيهِ»، يقول: الذي حسدوك عليه أمرٌ ليسوا بمُدْرِكِيه ولا نائليه، لأنَّ ذلك فضلُ الله يؤتيه مَنْ يشاء، وليس بالأمرِ الذي يُدْرَكُ بالأمانيّ.

وقوله: «فاسْتَعِذْ باللهِ إنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فاستجرْ باللهِ يا محمدُ من شرِّ هؤلاء الذين يجادلون في آياتِ الله بغيرِ سلطانٍ، ومن الكبر أنْ يعرض في قلبكَ منه شيءٌ. «إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ»، يقول: إنَّ الله هو السميعُ لما يقولُ هؤلاء المجادلونَ في آياتِ الله وغيرهم من قولٍ «البصير» بما تعمله جوارحهم، لا يَخْفَى عليه شيءٌ من ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لابتداع السمواتِ والأرضِ وإنشاؤُها من غير شيءٍ أعظمُ أيها الناسُ عندكم إن كنتم مُسْتَعْظِمي خَلْقِ الناس، وإنشائِهم من غير شيءٍ من خلق الناس، ولكنَّ أكثرَ الناس لا يعلمون أنَّ خَلْقَ جميع ذلك هَيِّنٌ على الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

وما يستوي الأعمى الذي لا يبصرُ شيئاً، وهو مثل الكافر الذي لا يتأملُ حُجَجَ الله بعينه، فيتدبرها ويعتبر بها، فيعلم وحدانيته وقُدْرَتَهُ على خَلْقِ ما شاء من شيءٍ، ويؤمن به ويصدِّق. والبصيرُ الذي يرى بعينيه ما شَخَصَ لهما وببصره، وذلك مَثَلٌ للمؤمن الذي يرى بعينيه حُجَجَ الله، فيتفكَّر فيها ويتعظ، ويعلم ما دلَّتْ عليه من توحيدِ صانعِه، وعظيمِ سلطانِهِ وقُدْرتِهِ على خَلْقِ ما يشاء، يقول جلّ ثناؤه: كذلك لا يستوي الكافرُ والمؤمنُ. «والَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلوا الصَّالحاتِ»، يقول جل ثناؤه: ولا يستوي أيضاً كذلك المؤمنونَ باللهِ ورسوله، المطيعونَ لربهم، ولا المسيء، وهو الكافرُ بربه، العاصي له، المخالف أمره «قَليلاً ما تَتَذَكَّرُونَ»، يقول جلّ ثناؤه: قليلاً ما تتذكرون أيها الناسُ حجج الله، فتعتبرونَ وتتعظون، يقول: لو تذكرتم آياتهِ واعتبرتم، لعرفتُمْ خطأَ ما أنتم عليه مقيمونَ من إنكارِكم قُدْرَةَ الله على إحيائهِ من فني من خَلْقِه من بعد الفناء، وإعادتِهم لحياتِهم من بعد وفاتِهم، وعلمتم قُبْحَ شِرْكِكم مَنْ تُشْرِكُون في عبادة ربكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٩ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾

يقول تعالى ذكره: إنَّ الساعةَ التي يحيي اللهُ فيها الموتى للثوابِ والعقابِ لجائيةٌ أيها الناسُ لا شكَّ في مجيئها، يقول: فأيقنوا بمجيئها، وأنكم مبعوثون من بعدِ مماتِكم، ومجازونَ بأعمالِكم، فتوبوا إلى رَبِّكم. «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسَ لا يُؤْمِنُونَ»، يقول: ولكن أكثر قريش لا يُصَدِّقُونَ بمجيئها.

وقوله: «وقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ويقول رَبُّكم أيها الناسُ لكم ادعوني: يقول: اعبدوني وأَخْلِصُوا لي العبادةَ دونَ مَنْ تعبدون من دوني من الأوثانِ والأصنام وغير ذلك «أَسْتَجِبْ لَكُمْ»، يقول: أُجِبْ دعاءكم فأعفو عنكم وأرحمكم.

وقوله: «إنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي»، يقول: إنَّ الذين يتعظمون عن إفرادي بالعبادة، وإفراد الألوهةِ لي «سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ»، بمعنى: صاغرين. وقد دَلَّلْنا فيما مضى قَبْلُ على معنى الدَّخْرِ بما أغنى عن إعادتهِ في هذا الموضع[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝٦١﴾

(١) أنظر تفسير سورة النمل: ٨٧.

يقول تعالى ذِكْرُه: الله الذي لا تصلحُ الألوهةُ إلا له، ولا تنبغي العبادةُ لغيره، الذي صِفَتُه أنه جعلَ لكم أيها الناسُ الليلَ سَكَناً لتسكنوا فيه، فتهدؤوا من التصـرُّفِ والاضـطرابِ للمعاش، والأسباب التي كنتم تتصرفون فيها في نهاركم «والنَّهارَ مُبْصِراً»، يقول: وجعلَ النهارَ مُبصراً مَن اضطربَ فيه لمعاشه، وطلبِ حاجاتِه، نعمةً منه بذلك عليكم. «إنَّ الله لَذُو فَضْلٍ على النَّاس»، يقول: إنَّ اللهَ لمتفضلٌ عليكم أيها الناسُ بما لا كفءَ له من الفضل. «وَلَكِنَّ أكْثَـرَ النَّـاسِ لا يَشْكُـرُونَ»، يقـول: ولكن أكثرهم لا يشكرونه بالطاعةِ له، وإخلاصِ الألوهةِ والعبادةِ له، ولا يدٌ تقدَّمت له عنده استوجبَ بها منه الشكر عليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الذي فعلَ هذه الأفعالَ، وأنعمَ عليكم هذه النعمَ أيها الناسُ، الله مالِكُكم ومُصْلحُ أموركم، وهو خالقكُم وخالقُ كلِّ شيءٍ «لا إلَهَ إلاَّ هُوَ»، يقول: لا معبودَ تصلحُ له العبادةُ غيره، «فَأنَّى تُؤْفَكُونَ»، يقول: فأيَّ وجه تأخذون، وإلى أينَ تذهبونَ عنه، فتعبدونَ سواه؟

وقوله: «كَذَلك يُؤْفَكُ الَّذِينَ كانُوا بآياتِ اللهِ يَجْحَدُونَ»، يقول: كَذَهابِكُم عنه أيها القومُ، وانصرافِكم عن الحقِّ إلى الباطل، والرشد إلى الضلالِ، ذهب عنـه الـذين كانوا من قبلكم من الأممِ بآياتِ الله يعني: بحججِ اللهِ وأدلَّتِه يكـذِّبُـونَ فلا يؤمنونَ؛ يقول: فسلكتم أنتم معشرَ قريشٍ مَسْلَكَهُم، وركبتم محجتهم في الضلال.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «اللهُ» الذي له الأُلوهةُ خالصة أيها الناسُ «الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأرْضَ» التي أنتم على ظهرها سكان «قَراراً» تستقرونَ عليها، وتسكنون فوقَها، «والسَّماءَ بِناءً»: بناها فرفعها فوقَكم بغيرِ عَمَدٍ ترونها لمصالحكم، وقوام دُنياكُمْ إلى بلوغِ آجالِكم «وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ»، يقول: وخلقكم فأحسنَ خَلْقَكُم. «وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ»، يقول: ورزقكم من حلالِ الرزق، ولذيذاتِ المطاعمِ والمشارب.

وقوله: «ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فالذي فعلَ هذه الأفعالَ، وأنعم عليكم أيها الناسُ هذه النعمَ، هو اللهُ الذي لا تنبغي الألوهةُ إلا له، وربُّكم الذي لا تصلحُ الربوبيةُ لغيره، لا الذي لا ينفعُ ولا يضرُّ، ولا يخلقُ ولا يرزقُ «فَتَبارَكَ اللهُ رَبُّ العالَمينَ»، يقول: فتبارك الله مالكُ جميع الخَلْقِ جِنِّهم وإنْسِهم، وسائرِ أجناسِ الخلقِ غيرهم «هُوَ الحَيُّ»، يقول: هو الحيُّ الذي لا يموتُ، الدائمُ الحياةِ، وكُلُّ شيءٍ سواه فمنقطعُ الحياةِ غير دائمها «لا إلَهَ إلاَّ هُوَ»، يقول: لا معبودَ بحقٍّ تجوزُ عبادته، وتصلحُ الأُلوهةُ له إلا الله الذي هذه الصفاتُ صفاته، فادعوه أيها الناسُ مخلصينَ له الدين، مخلصينَ له الطاعةَ، مفردينَ له الأُلوهةَ، لا تشركوا في عبادته شيئاً سواه، من وثنٍ وصنم، ولا تجعلوا له نداً ولا عِدلاً.

«الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالمينَ»، يقول: الشكرُ لله الذي هو مالكُ جميعِ

أجناسِ الخلقِ، من مَلكٍ وجنٍّ وإنس وغيرهم، لا للآلهةِ والأوثان التي لا تملكُ شيئاً، ولا تقدرُ على ضُرٍّ ولا نفعٍ، بل هو مملوكٌ، إنْ ناله نائلٌ بسوء لم يقدر له عن نفسه دفعاً.

وكان جماعةٌ من أهلِ العلم يأمرون مَنْ قال لا إله إلا الله أنْ يُتْبِعَ ذلك «الحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالِمينَ» تأولاً منهم هذه الآيةَ، بأنها أمرٌ من اللهِ بِقِيلِ ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ لمشركي قومكَ من قريش «إنّي نُهِيتُ» أيها القومُ «أنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ» من الآلهةِ والأوثانِ «لَمَّا جاءَنيَ البَيِّناتُ مِنْ رَبّي»، يقول: لما جاءني الآيات الواضحات من عند ربي، وذلك آيات كتابِ الله الذي أنزله «وأُمِرْتُ أنْ أُسْلِمَ لِربِ العَالمينَ»، يقول: وأمرني ربي أنْ أذلّ لربِّ كلِّ شيءٍ، ومالكِ كلِّ خَلْقٍ بالخضوع، وأخضع له بالطاعةِ دونَ غيرِه من الأشياء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

يقول تعالى ذكره آمراً نبيه محمداً ﷺ بتنبيه مشركي قومه على حججهِ عليهم في وحدانيتهِ قُلْ يا محمدُ لقومكَ: أُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لربِّ العالمين الذي

صِفَتُه هذه الصفاتُ، وهي أنه خَلَقَ أباكم آدم «مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ» خلقكم «مِنْ نُطْفَةٍ، ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ» بعد أن كنتم نطفاً «ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً» من بطونِ أمهاتكم صغاراً، «ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ»، فتتكامل قُواكم، ويتناهَى شبابُكم، وتمام خلقكم شيوخاً «وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ» أن يبلغَ الشيخوخة «وَلِتَبْلُغُوا أجَلاً مُسَمًّى»، يقول: ولتبلغوا ميقاتاً مؤقتاً لحياتكم، وأجلاً محدوداً لا تجاوِزُونَهُ، ولا تتقدمون قَبْلَهُ «وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»، يقول: وكي تَعْقِلُوا حججَ الله عليكم بذلك، وتتدبروا آياتهِ فتعرفوا بها أنه لا إله غيرُه فعلَ ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ لهم يا محمدُ «هوَ الَّذِي يُحْيِي ويُمِيتُ»، يقولُ: قل لهم: ومن صفته جَلَّ ثَنَاؤُهُ أنه هو الذي يحيي مَنْ يشاء بعد مماته، ويُميتُ مَنْ يشاء من الأحياءِ بعد حياتهِ و«إذَا قَضَى أمْراً»، يقولُ: وإذا قضى كونَ أمرٍ من الأمورِ التي يريد تكوينها «فإنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ»، يعني للذي يريد تكوينه كُنْ، فيكون ما أرادَ تكوينه موجوداً بغير معاناةٍ، ولا كلفةِ مؤنة.

وقوله: «أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ يُجادِلُونَ في آياتِ اللهِ أنَّى يُصْرَفُونَ»، يقول لنبيه محمـدٍ ﷺ: ألم تَرَ يا محمـدُ هؤلاءِ المشـركينَ من قومـك، الـذين يخاصمونك في حججِ الله وآياته «أنَّى يُصْرَفون»، يقولُ: أيِّ وجه يصرفون عن الحقِّ، ويعدلون عن الرشد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا

بِهِۦ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «ألم تر إلى الذين يجادلونَ في آياتِ الله أنّى يُصرفون الذين كذَّبُوا بكتابِ الله»، وهو هذا القرآنُ، والذين الثانية في موضع خفض ردّاً لها على الذين الأولى على وجه النعت «وَبِما أرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا»، يقولُ: وكَذَّبُوا أيضاً مع تكذيبهم بكتابِ الله بما أرسلنا به رُسُلَنا من إخلاصِ العبادةِ لله، والبراءة مما يعبد دونه من الآلهةِ والأنداد، والإقرار بالبعثِ بعد المماتِ للثواب والعقاب.

وقوله: «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إذِ الأغْلالِ في أعْناقِهِمْ والسَّلاسِلُ»، وهذا تهديدٌ من الله المشركينَ به، يقول جَلَّ ثناؤه: فسوف يعلمُ هؤلاءِ الذين يجادلون في آياتِ الله، المكذِّبُونَ بالكتابِ حقيقة ما تخبرهم به يا محمدُ، وصحة ما هُمْ به اليوم مُكَذِّبونَ من هذا الكتابِ، حين تُجعلُ الأغلالُ والسلاسلُ في أعناقهم في جهنم.

وقوله: «يُسْحَبُونَ»، يقولُ: يَسْحَبُ هؤلاءِ الذين كَذَّبُوا في الدنيا بالكتابِ زبانيةُ العذابِ يومَ القيامة في الحميم، وهو ما قد انتهى حَرُّه، وبلغَ غايته.

وقوله: «ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ»، يقولُ: ثم في نار جهنم يحرقون، يقولُ: تُسَجَّرُ بهم جهنم: أي تُوقَدُ بهم.

وقوله: «ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أيْنَما كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ الله»، يقولُ: ثم قيل: أين الذين كنتم تشركونَ بعبادتكم إياها من دونِ الله من آلهتكم وأوثانكم حتى

يغيثوكم فينقذوكم مما أنتم فيه من البلاءِ والعذابِ فإنَّ المعبودَ يغيث من عبده وخدمه، وإنما يقال هذا لهم توبيخاً وتقريعاً على ما كان منهم في الدنيا من الكفر باللهِ وطاعةِ الشيطانِ؛ فأجابَ المساكينُ عند ذلك فقالوا: ضَلُّوا عنا: يقولُ: عَدَلُوا عنا، فأخذوا غير طريقنا، وتركونا في هذا البلاء، بَلْ ما ضَلُّوا عنا، ولكِنَّا لم نكن نَدْعُو من قَبْلُ في الدنيا شيئاً: أي لم نكن نعبدُ شيئاً، يقول الله تعالى ذِكْرُه: «كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ الكافِرِينَ»، يقولُ: كما أضلَّ هؤلاءِ الذين ضلَّ عنهم في جهنم ما كانوا يعبدون في الدنيا من دونِ الله من الآلهةِ والأوثانِ آلهتهم وأوثانهم، كذلك يضلُّ الله أهلَ الكفرِ به عنه، وعن رحمتهِ وعبادتهِ، فلا يرحمهم فينجيهم من النارِ، ولا يغيثهم فيخفف عنهم ما هُمْ فيه من البلاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأرضِ بغيرِ الحَقِّ» هذا الذي فعلنا اليوم بكم أيها القومُ من تَعذِيبناكُمْ العذابَ الذي أنتم فيه، بفرحكم الذي كنتم تفرحونه في الدنيا، بغيرِ ما أذن لكم به من الباطل والمعاصي، وبمرحكم فيها. والمرح: هو الأشَرُ والبطر.

وقوله: «ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها»، يقول تعالى ذِكْرُه لهم: ادخلوا أبوابَ جهنمَ السبعة من كلِّ بابٍ منها جزء مقسوم منكم. «فَبِئْسَ مَثْوَى المُتَكَبِّرِينَ»، يقولُ: فبئس منزلُ المتكبرين في الدنيا على الله أنْ يُوَحِّدُوه، ويؤمنوا برسلهِ اليومَ، جهنمُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: فاصبر يا محمدُ، على ما يجادلك به هؤلاءِ المشركونَ في آياتِ الله التي أنزلناها عليك، وعلى تكذيبهم إياك، فإنَّ الله منجزٌ لكَ فيهم ما وعَدَكَ من الظفرِ عليهم، والعلوِّ عليهم، وإحلالِ العقاب بهم، كسنتنا في موسى بن عمران ومَنْ كذَّبه «فإمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ»، يقول جَلَّ ثناؤه: فإما نُرِيَنَّكَ يا محمدُ في حياتك بعض الذي نعد هؤلاءِ المشركينَ من العذاب والنقمة أنْ يحلَّ بهم «أوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ» قبل أن يحلَّ ذلك بهم «فَإلَيْنا يُرْجَعُونَ»، يقولُ: فإلينا مصيرك ومصيرهم، فنحكم عند ذلك بينك وبينهم بالحقِّ بتخليدِناهُمْ في النار، وإكرامِنَاكَ بجوارنا في جنات النعيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «وَلَقَدْ أرْسَلْنَا» يا محمدُ «رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ» إلى أممها «مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ»، يقولُ: من أولئك الذين أرسلنا إلى أممهم مَنْ قَصَصْنَا عليكَ نبأهم «وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ» نبأهم.

وقوله: «وَما كانَ لِرَسُولٍ أنْ يَأْتِيَ بآيَةٍ إلاَّ بإذْنِ اللهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وما جعلنا لرسولٍ ممن أرسلنا من قبلكَ قصصناهم عليك، والذين لم نقصصهم عليكَ إلى أممها أنْ يأتي قومَهُ بآيةٍ فاصلةٍ بينه وبينهم، إلا بإذنِ الله له بذلك،

فيأتيهم بها، يقول جَلَّ ثناؤه لنبيه: فلذلك لم يجعلْ لكَ أنْ تأتي قومكَ بما يسألونك من الآياتِ دونَ إذننا لكَ بذلك، كما لم نجعلْ لمن قبلك من رُسُلنا إلا أن نأذنَ له به «فإذَا جاءَ أمْرُ اللهِ قُضِيَ بالحَقِّ» يعني بالعدل، وهو أن يُنَجِّي رسله والذين آمنوا معهم «وَخَسِرَ هُنَالكَ المُبْطِلُونَ»، يقولُ: وهلك هنالك الذين أبطلوا في قِيلهم الكذبَ، وافترائِهم على الله وادعائِهم له شريكاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٧٩ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ۝٨٠ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ۝٨١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه «اللهُ» الذي لا تصلحُ الأُلوهةُ إلا له أيها المشركونَ به من قريش «الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأنْعَامَ» من الإبلِ والبقرِ والغنمِ والخيل، وغير ذلك من البهائمِ التي يقتنيها أهلُ الإسلام لمركبٍ أو لمطعم «لِتَرْكَبُوا مِنْهَا»، يعني: الخيلَ والحمير «وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ» يعني الإبلَ والبقرَ والغنم. وقال: «لِتَرْكَبُوا مِنْهَا»، ومعناه: لتركبوا منها بعضاً ومنها بعضاً تأكلون، فحذف استغناء بدلالة الكلام على ما حذف.

وقوله: «وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ» وذلك أنْ جعلَ لكم من جُلودِهَا بيوتاً تَسْتَخِفُّونها يوم ظَعْنِكم، ويومَ إقامتِكم، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين.

وقوله: «وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حاجَةً في صُدُورِكُمْ»، يقولُ: ولتبلغوا بالحمولةِ على بعضها، وذلك الإبل حاجة في صدوركم لم تكونوا بالغيها لولا هيَ، إلا بشقِّ أنفسكم، كما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إلى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بالِغِيهِ

إلَّا بِشِقِّ الأَنْفُسِ».

وقـوله: «وَعَلَيْها»، يعني: وعلى هذه الإبلِ، وما جانَسَها من الأنعامِ المركوبةِ «وَعَلى الفُلْكِ»، يعني: وعلى السفن «تُحْمَلُونَ»، يقولُ: نحملكم على هذه في البَـرِّ، وعلى هذه في البحـر «وَيُرِيكُم آياتِـهِ»، يقولُ: ويريكم حُجَجَـهُ، «فأيَّ آياتِ اللهِ تُنْكِرونَ»، يقولُ: فأي حجج الله التي يُريكم أيها الناسُ. في السماء والأرض تنكرون صِحَّتَها، فتكذِّبُونَ من أجلِ فسادها بتوحيدِ الله، وتدعونَ من دونِه إلهاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أفلم يَسِرْ يا محمدُ هؤلاءِ المجادلونَ في آياتِ الله من مشركي قومك في البلاد، فإنهم أهل سفرٍ إلى الشأم واليمن، رحلتهم في الشتاء والصيف، فينظروا فيما وطئوا من البلادِ إلى وقائعنا بمن أوقعنا به من الأممِ قبلهم، ويروا ما أحْلَلْنَا بهم من بأسنا بتكذيبهم رُسُلَنا، وجحودهم آياتنا، كيف كان عُقْبَى تكذِيبهم، «كانوا أكثر منهم»، يقولُ: كان أولئك الذين من قبل هؤلاءِ المُكَذِّبيكَ من قريش أكثر عدداً من هؤلاءِ وأشدّ بطشاً، وأقوى قوّةً، وأبقى في الأرض آثاراً، لأنهم كانوا ينحتون من الجبالِ بيوتاً ويتخذون مصانع.

وقوله: «فَمَا أغْنَى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ»، يقولُ: فلما جاءهم بأسنا وسطوتنا، لم يُغْنِ عنهم ما كانوا يعملونَ من البيوتِ في الجبال، ولم يدفَعْ عنهم ذلك شيئاً، ولكنهم بادوا جميعاً فهلكوا. وقد قيل: إنَّ معنى قوله: «فَمَا أغْنَى عَنْهُمْ» فأيّ شيء أغنى عنهم، وعلى هذا التأويلِ يجب أنْ يكونَ ما الأولى في موضع نصب، والثانية في موضع رفع. يقولُ: فلهؤلاءِ المُجَادِليكَ من قومكَ

يا محمدُ في أولئك معتبرٌ إنْ اعتبروا، ومُتَّعَظٌ إنِ اتَّعَظُوا، وإنَّ بأسنا إذا حَلَّ بالقوم المجرمين لم يدفعه دافع، ولم يمنعه مانع، وهو بهم إنْ لم ينيبوا إلى تصديقكَ واقع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما جاءتْ هؤلاءِ الأمم الذين من قبل قريش المكذِّبةِ رُسُلَهَا رُسُلَهم الذين أرسلهم الله إليهم «بالبيناتِ»، يعني: بالواضحاتِ من حججِ الله عزّ وجلَّ «فرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ العِلْمِ»، يقولُ: فرحوا جهلاً منهم بما عندهم من العِلْمِ وقالوا: لن نبعث، ولن يُعَذِّبَنَا الله.

وقوله: «وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ»، يقولُ: وحاقَ بهم من عذابِ الله ما كانوا يستعجلون رُسُلَهم به استهزاءً وسخريةً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: فلما رأتْ هذه الأممُ المكذِّبةُ رُسُلَها بأسنا، يعني عقابَ الله الذي وعدتهم به رُسُلُهم قد حَلَّ بهم.

وقوله: «قالُوا آمَنَّا باللهِ وَحْدَهُ»، يقولُ: قالوا أقررنا بتوحيدِ الله، وصَدَّقنا أنه لا إله غيره، «وَكَفَرْنا بِمَا كُنَّا بهِ مُشْرِكِينَ»، يقولُ: وجَحَدنا الآلهةَ التي كنا قبل وقتنا هذا نُشْرِكُهَا في عبادتنا الله ونعبدها معه، ونتخذها آلهةً، فَبَرِئْنَا منها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا سُنَّتَ

﴿ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلم يَكُ ينفعهم تصديقهم في الدنيا بتوحيدِ اللهِ عند معاينةِ عقابهِ قد نزلَ، وعذابه قد حلَّ، لأنهم صَدَّقُوا حين لا ينفعُ التصديقُ مصدِّقاً، إذْ كان قد مضى حُكْمُ الله في السابقِ من عِلْمِه، أنَّ مَنْ تابَ بعد نزولِ العذابِ من الله على تكذيبهِ لم تنفعه توبته.

وقوله: «سُنَّةَ اللهِ التي قَدْ خَلَتْ في عِبادِهِ»، يقولُ: تَرَكَ اللهُ تبارك وتعالى إقـالَتَهُمْ، وقبولَ التوبةِ منهم، ومراجعتهم الإيمانَ بالله، وتصديقَ رسلهم بعد معاينتهم بأسَهُ، قد نزلَ بهم، سُنَّتَهُ التي قد مَضَتْ في خَلْقِه، فلذلك لم يُقِلْهُمْ ولم يقبلْ توبتهم في تلك الحال.

وقوله: «وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكافِرُونَ»، يقولُ: وهلك عند مُجيء بأسِ الله، فغبنتْ صفقتُـه وَوُضِـعَ في بيعهِ الآخرةَ بالدنيا، والمغفرة بالعذاب، والإيمانَ بالكفر، الكافرونَ بربهم، الجاحدونَ توحيدَ خالِقهم، المتخذونَ من دونِه آلهةً يعبدونهم من دونِ بارئهم.

سُورَةُ فُصِّلَتْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حمٓ ① تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ② كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ③ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ④﴾

قد تقدم القولُ منا فيما مضى قبلُ في معنى «حمٓ»، والقول في هذا الموضع كالقولِ في ذلك.

وقوله: «تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هذا القرآنُ تنزيلٌ من عندِ الرحمنِ الرحيم نَزَّلَهُ على نبيه محمدٍ ﷺ «كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ»، يقولُ: كتابٌ بُيِّنَتْ آياتُه.

وقوله: «لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ»، يقولُ: فُصِّلَتْ آياتُ هذا الكتابِ قرآناً عربياً لقومٍ يعلمونَ اللسانَ العربي «بشيراً» لهم يبشرهم إنْ هُمْ آمنوا به، وعملوا بما أنزلَ فيه من حدودِ الله وفرائضه بالجنة، «ونذيراً»، يقولُ: ومنذراً مَنْ كَذَّبَ به ولم يعملْ يما فيه بأمرِ الله في عاجلِ الدنيا، وخلودِ الأبدِ في نارِ جهنمَ في آجلِ الآخرة.

وقوله: «فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فاستكبرَ عن الإصغاءِ له وتَدَبُّرِ ما فيه من حُجَجِ الله، وأعرضَ عنه أكثرُ هؤلاءِ القوم الذين أنزلَ هذا

القرآنُ بشيراً لهم ونذيراً، وهم قومُ رسولِ الله ﷺ. «فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ»، يقولُ: فهم لا يُصْغُونَ له فيسمعوه إعراضاً عنه واستكباراً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَـٰمِلُونَ ۝٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقال هؤلاءِ المشركونَ المُعْرِضُونَ عن آياتِ الله من مشركي قريش إذْ دعاهم محمدٌ نبيُّ الله إلى الإقرارِ بتوحيدِ الله وتصديقِ ما في هذا القرآنِ من أمرِ الله ونهيه، وسائر ما أنزل فيه. «قُلُوبُنا في أكِنَّةٍ»، يقولُ: في أغطيةٍ «مِمَّا تَدْعُونا» يا محمدُ «إلَيْهِ» من توحيدِ الله، وتصديقكَ فيما جِئْتَنَا به، لا نَفْقَهُ ما تقولُ «وفي آذَانِنا وَقْرٌ» وهو الثِقَلُ، لا نسمعُ ما تَدْعُونَا إليه استثقالاً لما يدعو إليه وكراهةً له.

وقوله: «وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ»، يقولون: ومن بيننا وبينك يا محمدُ ساترٌ لا نجتمعُ من أجلهِ نحنُ وأنتَ، فيرى بعضُنا بعضاً، وذلك الحجابُ هو اختلافُهم في الدين، لأنَّ دِينهم كان عبادة الأوثان، ودين محمدٍ ﷺ عبادة الله وحده لا شريكَ له، فذلك هو الحجابُ الذي زعموا أنه بينهم وبين نبيِّ الله، وذلك هو خلافُ بعضِهم بعضاً في الدين.

وقوله: «فاعْمَلْ إنَّنا عامِلُونَ»، يقولُ: قالوا له ﷺ: فاعملْ يا محمدُ بدينكَ وما تقولُ إنه الحقُّ، إننا عاملونَ بديننا، وما نقولُ إنه الحقُّ، ودَعْ دُعَاءَنا إلى ما تَدْعُونَا إليه من دِينكَ، فإنَّا ندع دعاءك إلى ديننا. وأدخلت «من» في قوله: «وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ»، والمعنى: وبيننا وبينك حجابٌ توكيداً للكلام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قُلْ يا محمدُ لهؤلاءِ المعرضينَ عن آياتِ اللهِ من قومكَ أيها القومُ: ما أنَا إلاَّ بشرٌ من بني آدم مثلكم في الجنسِ والصورةِ والهيئةِ لستُ بملَك «يُوحَى إليَّ»، يقولُ: يوحي اللهُ إليَّ أنْ لا معبودَ لكم تصلحُ عبادتُه إلا معبودٌ واحدٌ «فاسْتَقِيمُوا إلَيْه»، يقولُ: فاستقيموا إليه بالطاعةِ، وَوَجِّهُوا إليه وجوهَكُمْ بالرغبةِ والعبادةِ دونَ الآلهةِ والأوثانِ «وَاسْتَغْفِرُوهُ»، يقولُ: وسَلُوه العَفْوَ لكم عن ذنوبِكم التي سَلَفَتْ منكم بالتوبةِ من شرككم، يَتُبْ عليكم ويغفر لكم.

وقوله: «وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وصديدُ أهلِ النار، وما يسيلُ منهم للمُدَّعينَ للهِ شريكاً العابدينَ الأوثانَ دونَهُ الذينَ لا يُؤْتُونَ الزكاةَ.

وقوله: «وَهُمْ بالآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ»، يقولُ: وهُمْ بقيام الساعة، وبعث الله خَلْقَهُ أحياء من قبورِهم، من بعدِ بلائِهم وفنائِهم مُنْكِرُون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين صَدَّقُوا اللهَ ورسولَهُ، وعملوا بما أمرهم الله به ورسولُه، وانتهوا عما نَهيَاهُمْ عنه، وذلك هو الصالحاتُ من الأعمالِ «لَهُمْ

أجْرٌ غيرُ مَمْنُونٍ»، يقولُ: لِمَنْ فعلَ ذلك أجرٌ غيرُ منقوصٍ عمّا وَعَدَهُمْ أنْ يأجُرَهُمْ عليه.

وقوله: «أئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالَّذِي خَلَقَ الأرْضَ فِي يَوْمَيْنِ» وذلك يوم الأحد ويوم الأثنين.

وقوله: «وَتَجْعَلُونَ لَهُ أنْدَاداً»، يقولُ: وتجعلونَ لمن خَلَقَ ذلك كذلك أنداداً، وهم الأكفاءُ من الرجالِ تُطيعونهم في معاصي الله. وقد بيَّنا معنى النِّدِّ بشواهده فيما مضى قَبْلُ.

وقوله: «ذلكَ رَبُّ العالَمِينَ»، يقولُ: الذي فعل هذا الفعل، وخلقَ الأرضَ في يومين، مالك جميع الجنِّ والإنس، وسائر أجناسِ الخَلْقِ، وكلُّ ما دونه مملوكٌ له، فكيف يجوزُ أنْ يكون له ندٌّ، وهل يكون المملوكُ العاجز الذي لا يقدرُ على شيءٍ نِدّاً لمالكه القادر عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وجعلَ في الأرضِ التي خلق في يومين جبالاً رواسيَ، وهي الثوابتُ في الأرض من فوقها، يعني: من فوقِ الأرضِ على ظهرها.

وقوله: «وَبَارَكَ فِيها» يقولُ: وباركَ في الأرض فجعلها دائمةَ الخيرِ لأهلها.

قوله: «وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَهَا»، تأويله أن يقال: إن الله تعالى أخبرَ أنه قَدَّرَ في الأرضِ أقـواتَ أهلهـا، وذلـك ما يَقُـوتُهم من الغـذاءِ، ويُصْلِحُهم من المعاشِ، ولم يخصصْ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقوله: «وقَدَّرَ فِيها أقْواتَها» أنه قَدَّرَ فيها قوتاً دونَ قوتٍ، بل عَمَّ الخبر عن تقديره فيها جميع الأقوات، ومما يقوتُ أهلها ما لا يصلحهم غيرهُ من الغذاء، وذلك لا يكونُ إلا بالمطرِ والتصرُّفِ في البلاد لما خَصَّ به بعضاً دونَ بعضٍ، ومما أخرج من الجبالِ من الجواهر، ومن البحر من المـآكلِ والحُليِّ، ولا قولَ في ذلك أصحّ مما قال جَلَّ ثَنَاؤهُ: قدّر في الأرضِ أقواتَ أهلِها لما وصفنا من العلة.

وقال جَلَّ ثَنَاؤهُ: «في أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ»، أولهن يوم الأحد وآخرهن يوم الأربعاء.

وقوله: «سواءً للسائلين»، معناه: وقَدَّرَ فيها أقواتَها سواءً لسائِليها على ما بهم إليه الحاجةُ، وعلى ما يصلحهم.

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «ثم استوى إلى السماء»: ثم ارتفع إلى السماء.

وقوله: «فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً»، يقول جَلَّ ثناؤه: فقال الله للسمـاء والأرض: جِيْئَا بما خلقتُ فيكما، أما أنتِ يا سماءُ فأطلعي ما خلقتُ فيكِ من الشمسِ والقمرِ والنجومِ، وأما أنتِ يا أرضُ فأخرجي ما خلقتُ فيكِ من الأشجار والثمار والنبات، وتَشَقَّقِي عن الأنهار «قالَتا أتَيْنا طائِعينَ» جِئْنَا بما أحدثتَ فينا من خَلْقِكَ، مُستجيبينَ لأمركَ لا نعصي أمركَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ففرغَ مِنْ خَلْقِهنَّ سبعَ سمواتٍ في يومين، وذلك يوم الخميس ويوم الجمعة.

وقوله: «وأَوْحَى فِي كُلِّ سَماءٍ أمْرَها»، يقولُ: وألقى في كلِّ سماءٍ من السمواتِ السبعِ ما أرادَ من الخلق.

وقوله: «وَزَيَّنا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وزَيَّنا السماءَ الدنيا إليكم أيها الناسُ بالكواكبِ وهي المصابيح.

وقوله: «ذلكَ تَقْدِيرُ العَزيزِ العَلِيمِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الذي وصفتُ لكم من خلقي السماءَ والأرضَ وما فيهما، وتزييني السماءَ الدنيا بزينة الكواكبِ، على ما بَيَّنْتُ تقدير العزيز في نقمته من أعدائه، العليم بسرائرِ عبادهِ وعلانيتهم، وتدبيرهم على ما فيه صلاحُهم.

القَولُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فإنْ أعرض هؤلاءِ المشركونَ عن هذه الحجةِ التي بَيَّنْتَها لهم يا محمدُ، ونَبَّهتهم عليها فلم يؤمنوا بها ولم يُقِرُّوا أن فاعل ذلك هو الله الذي لا إله غيره، فقل لهم: أنذرتكم أيها الناسُ صاعقةً تُهلككم مثلَ صاعقةِ عادٍ وثمود.

وقوله: «إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَينِ أيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ»، يقولُ: فقل: أنذرتُكم صاعقةً مثلَ صاعقةِ عادٍ وثمود التي أهلكتهم، إذ جاءتْ عاداً وثمودَ الرسلُ من بين أيديهم، فقوله: «إذ» من صلة صاعقة. وعَنَى بقوله: «مِنْ بَينِ

أَيْدِيهِمْ» الرسل التي أَتَتْ آباءَ الذين هلكوا بالصاعقةِ من هاتين الأمتين وعَنَى بقوله: «وَمِنْ خَلْفِهِمْ»: من خلفِ الرسلِ الذين بعثوا إلى آبائهم رسلاً إليهم، وذلك أنَّ الله بعث إلى عادٍ هوداً، فكذَّبُوه من بعد رسل قد كانت تَقَدَّمَتْهُ إلى آبائهم أيضاً، فكذَّبوهم، فأهلكوا.

وقوله: «أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: جاءتهم الرسلُ بأَنْ لا تعبدوا إلا الله وحدَهُ لا شريكَ له، قالوا: «لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً»، يقول جَلَّ ثناؤه: فقالوا لرسلهم إذْ دَعَوْهم إلى الإقرارِ بتوحيدِ الله: لو شاء رَبُّنَا أنْ نوحده، ولا نعبد من دونه شيئاً غيره، لأنزل إلينا ملائكةً من السماءِ رسلاً بما تدعوننا أنتم إليه، ولم يرسلكم وأنتم بشرٌ مثلنا، ولكنه رضيَ عبادَتَنا ما نعبدُ، فلذلك لم يرسلْ إلينا بالنهي عن ذلك ملائكةً.

وقوله: «فإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ»، يقولُ: قالوا لرسلهم: فإِنَّا بالذي أرسلكم به ربكم إلينا جاحدونَ غير مصدِّقينَ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «فأَمَّا عادٌ» قوم هود «فاسْتَكْبَرُوا» على ربهم وتَجَبَّرُوا «في الأَرْضِ» تكبراً وعتوّاً بغيرِ ما أَذِنَ اللهُ لهم به «وقالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً؟ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ» وأعطاهم ما أعطاهم من عظمِ الخلق، وشدَّةِ البطشِ «هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً» فيحذروا عقابه، ويتقوا سطوته لكفرهم به، وتكذيبهم رسله «وكانُوا بآياتِنا يَجْحَدُونَ»، يقولُ: وكانوا بأدلتنا وحججنا عليهم يجحدون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فأرسلنا على عادٍ ريحاً صرصراً، يعني: شديدة.

وقوله: «في أيَّامٍ نَحِساتٍ»، يعني: في أيام مشائيم ذاتِ نُحوس، لأنَّ ذلك هو المعروف من معنى النحس في كلام العرب.

وقوله: «لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ في الحَياةِ الدُّنْيا»، يقول جَلَّ ثناؤه: ولَعَذَابُنَا إياهُمْ في الآخِرة أخزى لهم وأشدّ إهانةً وإذلالاً «وهُمْ لا يُنْصَرُونَ»، يقولُ: وهم يعني عاداً لا ينصرهُمْ من اللهِ يومَ القيامةِ إذا عذَّبهم ناصرٌ، فينقذهم منه، أو ينتصر لهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فبيَّنا لهم سبيلَ الحقِّ وطريقَ الرشد.

وقوله: «فاسْتَحَبُّوا العَمَى على الهُدَى»، يقولُ: فاختاروا العَمَى على البيانِ الذي بيَّنتُ لهم، والهدى الذي عرفتهم، بأخذهم طريقَ الضلالِ على الهدى، يعني على البيانِ الذي بَيَّنْتُه لهم، من توحيدِ الله.

وقوله: «فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ العَذابِ الهُونِ بمَا كانُوا يكْسِبُونَ»، يقولُ: فأهْلَكَتْهم من العذابِ المذلِّ المهينِ لهم مُهلكةٌ أذلَّتْهُمْ وأخزتهم، والهونُ: هو الهوانُ.

وقوله: «بِمَا كانُوا يَكْسِبُونَ» من الآثامِ بكفرهم بالله قبل ذلك، وخلافهم إياه وتكذيبهم رسله.

وقوله: «وَنَجَّيْنا الَّذِينَ آمَنُوا»، يقولُ: ونجينا الذين آمنوا من العذابِ الذي أخذهم بكفرهم بالله، الذين وحَّدُوا الله، وصدَّقُوا رُسُلَهُ «وكانُوا يَتَّقُونَ»، يقولُ: وكانوا يخافون الله أنْ يحلَّ بهم من العقوبة على كفرهم لو كفروا ما حلَّ بالذين هَلَكُوا منهم، فآمنوا اتقاءَ اللهِ وخوفَ وعيدِه، وصدَّقُوا رسله، وخلعوا الآلهةَ والأنداد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٩ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويومَ يجمع هؤلاءِ المشركونَ أعداءَ اللهِ إلى النار، إلى نارِ جهنم، فهم يُحْبَسُ أوَّلُهم على آخِرهم.

وقوله: «حتى إِذَا ما جاؤُوها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وأبْصارُهُمْ»، يقولُ: حتى إذا ما جاءوا النارَ شَهِدَ عليهم سمعُهم بما كانوا يصغون به في الدنيا إليه، ويستمعون له، وأبصارهم بما كانوا يبصرون به وينظرون إليه في الدنيا «وَجُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢١ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقال هؤلاءِ الذين يحشرون إلى النار من أعداءِ الله سبحانه لجلودِهم إذْ شهدتْ عليهم بما كانوا في الدنيا يعملون: لِمَ شَهدْتُمْ علينا بما كُنَّا نعملُ في الدنيا؟ فأجابتهم جُلُودُهم: «أَنْطَقَنا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ» فنطقنا، وذُكر أنَّ هذه الجوارحَ تشهدُ على أهلها عند استشهادِ اللهِ إياها عليهم إذا هُمْ أنكروا الأفعالَ التي كانوا فعلوها في الدنيا بما يسخطُ الله.

وقوله: «وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والله خلقكم الخلقَ الأوَّلَ ولم تكـونـوا شيئـاً، «وَإِلَيْهِ تُرْجَعُـونَ»، يقولُ: وإليه مصيرُكم من بعد مماتِكم، «وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ» في الدنيا «أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ» يوم القيامة «سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ».

واختلف أهـلُ التـأويل في معنى قولـه: «وَمـا كُنْتُمْ تَسْتَتِـرُونَ»، فقال بعضهم: معناه: وما كنتم تستَخْفُون.

وقال آخرون: معناه: وما كنتم تَتَّقُونَ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وما كنتم تظنون.

وأولى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: وما كنتم تستَخْفُونَ، فتتركوا ركوبَ محارمِ الله في الدنيا حذراً أنْ يشهدَ عليكم سَمْعُكم وأبصارُكم اليوم.

وإنما قلنا ذلك أوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ، لأنَّ المعروفَ من معاني الاستتار الاستخفاء.

فإنْ قال قائلٌ: وكيف يستخفي الإنسانُ عن نفسه مما يأتي؟ قيل: قد بيَّنا أنَّ معنى ذلك إنما هو الأماني وفي تركه إتيانه إخفاؤه عن نفسه.

وقوله: «وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا» كنتم «تَعْمَلُونَ»، يقول جَلَّ ثناؤه: ولكن حسبتم حين ركبتم في الدنيا ما ركبتم من معاصي الله أنَّ الله

لا يعلمُ كثيراً مما تعملون من أعمالكم الخبيثة، فلذلك لم تستتروا أنْ يشهدَ عليكم سمعكم وأبصاركم وجلودكم، فتتركوا ركوبَ ما حَرَّمَ الله عليكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وهذا الذي كان منكم في الدنيا من ظَنِّكم أنَّ الله لا يعلمُ كثيراً مما تعملون من قبائح أعمالكم ومساويها، هو ظَنُّكم الذي ظَنَنْتُم بربِّكم في الدنيا «أرْدَاكُمْ»، يعني: أهْلَكَكُمْ، «فأصبحتم من الخاسرين»، يقولُ: فأصبحتم اليوم من الهالكينَ، قد غبنتم ببيعكم منازِلَكُمْ من الجنةِ بمنازلِ أهلِ الجنة من النار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فإنْ يصبرْ هؤلاءِ الذين يحشرون إلى النار على النار، فالنارُ مسكنٌ لهم ومنزلٌ، «وإنْ يَسْتَعْتِبُوا»، يقولُ: وإنْ يسألوا العُتْبى، وهي الرجعةُ لهم إلى الذي يُحِبُّونَ بتخفيفِ العذابِ عنهم «فَمَا هُمْ مِنَ المُعْتَبِينَ» يقولُ: فليسوا بالقومِ الذين يُرْجَعُ بهم إلى الجنةِ، فَيُخَفَّفُ عنهم ما هُمْ فيه من العذاب، وذلك كقوله جَلَّ ثَنَاؤُهُ مخبراً عنهم: «قالُوا رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا». . . إلى قوله: «وَلا تُكَلِّمُونِ» [المؤمنون: ١٠٦ـ١٠٨] وكقولهم لِخَزَنَةِ جهنَمَ: «ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يوماً مِنَ العَذابِ». . . إلى قوله: «وَما دُعاءُ الكافِرِينَ إلَّا في ضَلال» [غافر: ٤٩ـ٥٠].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «وَقَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ» وبعثنا لهم نُظراءَ من الشياطين، فجعلناهم لهم قرناءَ قَرَنَّاهُمْ بهم يُزَيِّنُونَ لهم قبائحَ أعمالهم، فزينوا لهم ذلك.

وقوله: «فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَينَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ»، يقولُ: فَزَيَّنَ لهؤلاءِ الكفارِ قرناؤُهم من الشياطين ما بين أيديهم من أمرِ الدنيا، فَحَسَّنُوا ذلك لهم وحَبَّبوهُ إليهم حتى آثَرُوه على أمرِ الآخرة «وَما خَلْفَهُمْ» يقولُ: وَحَسَّنوا لهم أيضاً ما بعد مماتهم بأنْ دَعَوْهُمْ إلى التكذيب بالمعاد، وأنَّ مَنْ هلكَ منهم، فلن يُبْعَثَ، وأنْ لا ثوابَ ولا عقابَ حتى صَدَّقُوهم على ذلك، وسَهَّلَ عليهم فِعْلَ كلِّ ما يشتهونه، وركوبَ كلِّ ما يَلْتَذُّونَهُ من الفواحشِ باستحسانِهم ذلك لأنفسهم.

وقوله: «وَحَقَّ عَلَيْهِمُ القَوْلُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ووجَبَ لهم العذابُ بركوبهم ما ركبوا مما زَيَّنَ لهم قرناؤهم وهم من الشياطين.

«في أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وحقَّ على هؤلاءِ الذين قَيَّضْنَا لهم قُرَناءَ من الشياطين، فزيَّنُوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم العذاب في أمم قد مضت قبلهم من ضُرَبائِهم، حقَّ عليهم من عذابِنَا مثل الذي حَقَّ على هؤلاءِ بعضهم من الجنِّ وبعضهم من الإِنس. «إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ»، يقولُ: إنَّ تلك الأمم الذين حَقَّ عليهم عذابنا من الجنِّ والإِنس، كانوا مغبونين ببيعهم رضا اللهِ ورحمتَهُ بسخطهِ وعذابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَروا» بالله ورسوله من مشركي قريش «لا تَسْمَعُوا لِهَذا القُرآنِ وَالْغَوْا فِيهِ»، يقولُ: قالوا للذين يطيعونهم من أوليائِهم من المشركينَ: لا تسمعوا لقارىءِ هذا القرآنِ إذا قرأه، ولا تُصْغُوا له، ولا تتبعوا ما فيه فتعملوا به.

وقوله: «وَالْغَوْا فيه»، يقولُ: الغطُوا بالباطلِ من القولِ إذا سمعتم قارِئَهُ يقرؤه كَيْما لا تسمعوه، ولا تفهموا ما فيه.

وقوله: «لَعلَّكُمْ تَغْلِبُونَ»، يقولُ: لعلكم بفِعْلِكم ذلك تَصُدُّون مَنْ أراد استماعه عن استماعه، فلا يسمعه، وإذا لم يسمعه ولم يفهمه لم يتبعه، فَتَغلبونَ بذلك من فِعْلِكم محمداً، قال الله جَلَّ ثَناؤُهُ: «فَلَنُذِيقَنَّ الَّذينَ كَفَرُوا» بالله من مشركي قريش الذين قالوا هذا القولَ عذاباً شديداً في الآخرة «وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ»، يقولُ: ولنثيبنهم على فعلهم ذلك وغيره من أفعالهم بأقبحِ جزاء أعمالهم التي عملوها في الدنيا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الجزاءُ الذي يُجْزَى به هؤلاءِ الذين كفروا من مشركي قريش جزاء أعداءِ الله، ثم ابتدأ جَلَّ ثَنَاؤُهُ الخبرَ عن صفةِ ذلك الجزاء، وما هو؟ فقال: هو النار، فالنارُ بيانٌ عن الجزاء، وترجمةٌ عنه، ثم قال: «لَهُمْ

فِيهَا دَارُ الخُلْدِ»، يعني: لهؤلاءِ المشركينَ باللهِ في النارِ دارُ الخُلْدِ يعني دار المُكْثِ واللُّبْثِ، إلى غير نهاية ولا أمد، والدارُ التي أخبر جَلَّ ثَنَاؤُهُ أنها لهم في النارِ هي النارُ، وحسن ذلك لاختلاف اللفظين، كما يقال لك: من بلدتكَ دارٌ صالحةٌ، ومن الكوفة دارٌ كريمةٌ، والدار: هي الكوفةُ والبلدة، فيحسن ذلك لاختلافِ الألفاظ.

وقوله: «جَزَاءً بِمَا كانُوا بآياتِنا يَجْحَدُونَ»، يقولُ: فعلنا هذا الذي فعلنا بهؤلاءِ من مجازاتنا إياهم النارَ على فِعْلِهِم جزاءً منا بجحودِهم في الدنيا بآياتنا التي احْتَجَجْنَا بها عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقال الذين كفروا بالله ورسوله يومَ القيامةِ بعدما أُدْخِلُوا جهنمَ: يا رَبَّنا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانا من خَلْقِكَ من جِنِّهم وإنسهم. وقيل: إن الذي هو من الجنِّ إبليسُ، والذي هو من الإنس ابنُ آدم الذي قتل أخاه.

وقوله: «نَجْعَلْهُما تَحْتَ أقْدامِنا لِيَكُونا مِنَ الأسْفَلِينَ»، يقولُ: نجعلُ هذين اللَّذَيْنِ أضَلَّانا تحتَ أقدامنا، لأنَّ أبوابَ جهنم بعضها أسفل من بعض، وكلُّ ما سَفَلَ منها فهو أشدُّ على أهله، وعذابُ أهلِه أغلظُ، ولذلك سأل هؤلاءِ الكفار رَبَّهم أنْ يُرِيَهُمْ اللذين أضلاهم ليجعلوهما أسفل منهم ليكونا في أشدِّ العذابِ في الدَّرْكِ الأسفلِ من النار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «إنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنا اللهُ» وحده لا شريكَ له، وبَرِئُوا من الآلهـةِ والأنداد، «ثُمَّ اسْتَقامُوا» على توحيدِ الله، ولم يخلطوا توحيدَ الله بِشرْكِ غيرِه به، وانتهوا إلى طاعته فيما أَمَرَ ونهى.

وقولـه: «تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِم المَلاَئِكَةُ»، يقولُ: تتهبط عليهمُ الملائكةُ عند نزولِ الموت بهم.

وقوله: «أنْ لا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا»، يقولُ: تتنزلُ عليهمُ الملائكةُ بأنْ لا تخافوا ولا تحزنوا.

وَعَنَى بقوله: «لا تَخافُوا» ما تقدمون عليه من بعد مماتكم «وَلا تَحْزَنُوا» على ما تخلفُونَهُ وراءكم.

وقوله: «وأَبْشِرُوا بالجَنَّةِ التي كُنْتُم تُوعَدُونَ»، يقولُ: وسُرُّوا بأنَّ لكم في الآخرةِ الجنة التي كنتم تُوعَدُونَها في الدنيا على إيمانِكم بالله، واستقامتكم على طاعته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ ملائكتِه التي تَتَنَزَّلُ على هؤلاءِ المؤمنينَ الذين استقاموا على طاعتِه عند موتهم «نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ» أيها القَوْمُ «فِي الحَياةِ الدُّنْيا» كنا نَتولَّاكم فيها، وذُكِرَ أنهم الحَفَظَةُ الذين كانوا يكتبون أعمالَهم.

وقوله: «وفِي الآخِرَةِ»، يقولُ: وفي الآخرة أيضاً نحن أولياؤكم، كما كنا لكم في الدنيا أولياء، «وَلَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ»، يقولُ: ولكم في الآخرةِ عند الله ما تشتهي أنفسُكم من اللذَّات والشهواتِ.

وقوله: «وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ»، يقولُ: ولكم في الآخرة ما تَدَّعُونَ.

وقوله: «نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ»، يقولُ: أعطاكم ذلك رَبُّكم نُزُلاً لكم من ربٍّ غفورٍ لذنوبكم، رحيم بكم أنْ يعاقبكم بعد توبتكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٣ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: ومَنْ أحسنُ أيها الناسُ قولاً مِمَّنْ قال رَبُّنا اللهُ ثم استقامَ على الإيمانِ به، والانتهاءِ إلى أمرِه ونهيه، ودعا عبادَ الله إلى ما قالَ وعملَ به من ذلك.

وقوله: «وَقَالَ إنَّنِي مِنَ المُسْلِمِينَ»، يقولُ: وقال: إنني ممن خضعَ لله بالطاعةِ، وذَلَّ له بالعبودةِ، وخشع له بالإيمانِ بوحدانيته.

وقوله: «وَلا تَسْتَوِي الحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولا تستوي حَسَنَةُ الذين قالوا رَبُّنا اللهُ ثم استقاموا، فأحسنوا في قولهم، وإجابتهم رَبَّهم إلى ما دَعَاهم إليه من طاعته، ودعوا عبادَ الله إلى مِثْلِ الذي أجابوا رَبَّهم إليه، وسيئة الذين قالوا: «لا تَسْمَعُوا لِهَذَا القُرآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ» فكذلك لا تستوي عند الله أحوالهم ومنازلهم، ولكنها تختلف كما وصف جَلَّ ثَنَاؤُهُ أنه خالف بينهما.

وإنما عنى بقوله: «وَلا تَسْتَوِي الحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ» ولا يستوي الإيمانُ بالله والعمل بطاعتهِ والشرك به والعمل بمعصيته.

وقوله: «ادْفَعْ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ادفعْ

يا محمدُ بحلمكَ جهلَ مَنْ جهلَ عليك، وبعفوكَ عَمَّنْ أساء إليكَ إساءة المسيء، وبصبرك عليهم مكروه ما تجد منه ويلقاك من قبلهم.

وقوله: «فإذَا الَّذِي بَيْنَكَ وبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كأنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: افعلْ هذا الذي أمرتُكَ به يا محمدُ من دَفْعِ سيئةِ المسيءِ إليك بإحسانكَ الذي أمرتُكَ به إليه، فيصير المسيء إليكَ الذي بينك وبينه عداوةٌ، كأنه من مُلاطفتهِ إياكَ، وبِرِّهِ لكَ، وليٌّ لك من بني أعمامك، قريبُ النسبِ بك، والحميمُ: هو القريبُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وما يُعْطَى دفعَ السيئةِ بالحسنةِ إلا الذين صبروا للهِ على المكارهِ، والأمور الشاقة؛ وقال: «وَما يُلَقَّاها» ولم يقل: وما يُلَقَّاهُ، لأنَّ معنى الكلام: وما يُلَقَّى هذه الفعلة من دفعِ السيئةِ بالتي هي أحسن.

وقوله: «وَما يُلَقَّاهَا إلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ»، يقولُ: وما يُلَقَّى هذه إلا ذُو نصيبٍ وجدٍّ له سابقٌ في المَبَرَّاتِ عظيم.

وقوله: «وَإمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فاسْتَعِذْ باللهِ»... الآية، يقول تعالى ذِكْرُه: وإما يُلْقِيَنَّ الشيطانُ يا محمدُ في نفسكَ وسوسةً من حديثِ النفس إرادةَ حَمْلِكَ على مجازاةِ المسيءِ بالإساءة، ودعائك إلى مساءته، فاستجِرْ بالله واعتصمْ من خطواته، إنَّ الله هو السميعُ لاستعاذتك منه واستجارتك به من نزغاته، ولغير ذلك من كلامك وكلامِ غيرك، العليم بما ألقى في نفسك من نزغاته، وحَدَّثَتْكَ به نفسُك ومما يُذْهِبُ ذلك من قلبكَ، وغيرِ ذلك من أمورِكَ

وأمورِ خَلْقِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومِنْ حُجج الله تعالى على خَلْقِه ودلالته على وحدانيته، وعظيمِ سلطانه، اختلاف الليلِ والنهار، ومعاقبة كلٍّ واحدٍ منهما صاحبَهُ، «والشمس والقمر»، لا الشمسُ تُدْرِكُ القمرَ «وَلا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وكُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُون» [يسٓ: ٤٠] لا تسجدوا أيها الناسُ للشمسِ ولا للقمرِ، فإنهما وإنْ جَرَيَا في الفلك بمنافعكم، فإنما يجريان بها لكم بإجراءِ الله إياهما لكم طائعينَ له في جَرْيِهما ومسيرهما، لا بأنهما يقدران بأنفسهما على سيرٍ وجَرْيٍ دونَ إجراءِ الله إياهما وتسييرهما، أو يستطيعان لكم نفعاً أو ضرًّا، وإنما الله مُسَخِّرهما لكم لمنافعكم ومصالحكم، فله فاسجدُوا، وإياهُ فاعبدوا دونَهما، فانه إنْ شاء طمسَ ضوءهما، فتركَكم حيارَى في ظلمةٍ لا تهتدونَ سبيلاً، ولا تبصرون شيئاً.

وقوله: «إنْ كُنْتُمْ إيَّاهُ تَعْبُدُونَ»، يقولُ: إن كنتم تعبدون الله، وتَذُلُّونَ له بالطاعةِ، وإنَّ من طاعتِه أنْ تُخْلِصُوا له العبادةَ، ولا تشركوا في طاعتكم إياه وعبادَتِكُمُوه شيئاً سواه، فإنَّ العبادةَ لا تصلحُ لغيره ولا تنبغي لشيءٍ سواه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فإنِ استكبرَ يا محمدُ هؤلاءِ الذين أنتَ بين أظهرهم من مشركي قريش، وتَعَظَّمُوا عن أنْ يسجدُوا لله الذي خلقهم وخلقَ الشمسَ والقمرَ، فإنَّ الملائكةَ الذين عندَ رَبِّكَ لا يستكبرونَ عن ذلك، ولا يتعظمون عنه، بل يُسَبِّحُون له، ويصلون ليلاً ونهاراً، «وهم لا يسأمون»، يقولُ: وهم لا يفترون عن عبادتهم، ولا يَمَلُّونَ الصلاة له.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٣٩﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: ومن حجج الله أيضاً وأدلته على قُدْرَتِه على نشرِ الموتى من بعد بِلاَهَا، وإعادتها لهيئتها كما كانتْ من بعد فنائها أنكَ يا محمدُ ترى الأرضَ دارسةً غبراءَ، لا نباتَ بها ولا زرع.

«فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت»، يقول تعالى ذِكْرُه: فإذا أنزلنا من السماء غيثاً على هذه الأرضِ الخـاشعـةِ اهتـزَّتْ بالنبـاتِ، يقـولُ: تحرَّكَتْ به، «وَرَبتْ»، يقولُ: انتفخت.

وقوله: «إنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِي المَوْتَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذي أحيا هذه الأرضَ الدارسةَ فأخرجَ منها النباتَ، وجعلها تهتزُّ بالزرعِ من بعد يبسها ودُثُورِهَا بالمطر الذي أنزل عليها، القادر أن يُحْيِي أمواتَ بني آدمَ من بعد مماتِهم بالماءِ الذي ينزلُ من السماء لإحيائهم.

وقوله: «إنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ رَبَّكَ يا محمدُ على إحياءِ خَلْقِه بعد مماتهم وعلى كُلِّ ما يشاءُ ذو قدرةٍ لا يعجزه شيءٌ أراده، ولا يتعذَّرُ عليه فِعْلُ شيءٍ شاءه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾

يعني جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقوله: «إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياتِنَا»: إن الذين يميلونَ عن الحقِّ في حججنا وأدلتنا، ويعدلونَ عنها تكذيباً بها وجُحوداً لها.

وقوله: «لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا»، يقول تعالى ذِكْرُه: نحن بهم عالمونَ لا يخفونَ علينا، ونحنُ لهم بالمرصاد إذ وردوا علينا، وذلك تهديدٌ من الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ لهم بقوله: سيعلمونَ عند ورودِهم علينا ماذا يَلْقَوْنَ من أليمِ عذابنا، ثم أخبر جَلَّ ثَنَاؤُهُ عما هو فاعلٌ بهم عند ورودِهم عليه، فقال: «أفَمَنْ يُلْقَى في النَّار خَيْرٌ، أمْ مَنْ يأْتِي آمِناً يَوْمَ القِيامَةِ»، يقول تعالى ذِكْرُه لهؤلاءِ الذين يُلْحدون في آياتنـا اليوم في الدنيا يوم القيامةِ عذاب النار، ثم قال الله: أفهذا الذي يُلْقى في النار خيرٌ، أم الذي يأتي يومَ القيامة آمِناً من عذابِ الله لإيمانه بالله جلَّ جلاله؟ هذا الكافر، إنه إنْ آمنَ بآياتِ الله، واتَّبَعَ أمرَ الله ونهيه، أمَّنه يومَ القيامة مما حَذَّرَهُ منه من عقابِهِ إنْ وَرَدَ عليه يومئذٍ به كافراً.

وقوله: «اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ» وهذا أيضاً وعيدٌ لهم من الله خرجَ مخرجَ الأمر.

وقوله: «إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ»، يقول جَلَّ ثناؤه: إنَّ الله أيها الناسُ بأعمالكم التي تعملونها ذو خبرةٍ وعلمٍ لا يَخْفَى عليه منها، ولا من غيرها شيءٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ

﴿حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين جَحَدُوا هذا القرآنَ وكَذَّبُوا به لما جاءهم، وعَنَى بالذكرِ القرآنَ.

وقوله: «وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإنَّ هذا الذِّكْرَ لكتابٌ عزيزٌ بإعزازِ اللهِ إياهُ، وحِفْظِه من كلِّ مَنْ أرادَ له تبديلاً، أو تحريفاً، أو تغييراً، من إنسيٍّ وجنيٍّ وشيطانٍ مارد.

وقوله: «لا يَأْتِيهِ الباطِلُ مِنْ بَينِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويله، فقال بعضُهم: معناه: لا يأتيه النكيرُ من بين يديه ولا من خلفه.

وقال آخرون: معنى ذلك: لا يستطيعُ الشيطانُ أنْ ينقصَ منه حقاً، ولا يزيد فيه باطلاً، قالوا: والباطلُ هو الشيطان.

وقال آخرون: معناه: إنَّ الباطلَ لا يطيقُ أنْ يزيدَ فيه شيئاً من الحروفِ ولا ينقص منه شيئاً منها.

وأولى الأقوالِ في ذلك عندنا بالصواب أنْ يقال: معناه: لا يستطيعُ ذُو باطلٍ بكيدِه تغييرَهُ بكيدِه، وتبديل شيءٍ من معانيه عَمَّا هُوَ به، وذلك هو الإتيانُ من بين يَدَيْهِ، ولا إلحاقَ ما ليسَ منه فيه، وذلك إتيانه من خلفه.

وقوله: «تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هو تنزيلٌ من عند ذي حكمةٍ بتدبيرِ عبادِه، وصرفهم فيما فيه مصالحهُم، «حميدٌ»، يقولُ: محمودٌ على نِعَمِه عليهم بأياديِه عندهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ما يقولُ لكَ هؤلاءِ المشركونَ المُكَذِّبُونَ ما جئتهم به من عند رَبِّكَ إلا ما قد قاله مَنْ قَبْلَهُمْ من الأمم لرسلهم الذين كانوا من قبلك، يقول له: فاصبرْ على ما نالك من أذىً منهم، كما صبرَ أُولُو العزمِ من الرسلِ، وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الحُوتِ.

وقوله: «إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ»، يقولُ: إن ربك لذو مغفرةٍ لذنوبِ التائبينَ إليه من ذنوبهم بالصفحِ عنهم. «وَذُو عِقابٍ أَليمٍ»، يقولُ: وهو ذو عقابٍ مؤلمٍ لمن أَصَرَّ على كُفْرِهِ وذنوبه، فمات على الإِصرارِ على ذلك قبل التوبة منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولو جعلنا هذا القرآنُ الذي أنزلناه يا محمدُ أعجمياً لقال قومُكَ من قريش: «لَوْلا فُصِّلَتْ آياتُهُ»، يعني: هلا بُيِّنَتْ أدِلَّتُهُ وما فيه من آية، فنفقهُه ونعلم ما هوَ وما فيه، أأعجميٌّ، يعني أنهم كانوا يقولون إنكاراً له: أأعجميٌّ هذا القرآنُ ولسانُ الذي أُنْزِلَ عليه عربيٌّ؟

وقوله: «قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وشِفاءٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قُلْ يا محمدُ لهم هو، ويعني بقوله: «هُوَ» القرآن «لِلَّذِينَ آمَنُوا» باللهِ ورسولِه، وصَدَّقُوا بما جاءهم به من عند رَبِّهم «هُدًى»، يعني: بيانٌ للحقِّ «وَشِفاءٌ»، يعني: أنه شفاء من الجهل.

وقوله: «وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً»، يقول تعالى

ذِكْرُه: والذين لا يؤمنونَ باللهِ ورسوله، وما جاءهم به من عندِ الله في آذانهم ثقلٌ عن استماعِ هذا القرآن، وصَمَمٌ لا يستمعونه ولكنهم يعرضون عنه، «وهو عليهم عمى»، يقولُ: وهذا القرآنُ على قلوبِ هؤلاءِ المكذِّبينَ به عمًى عنه، فلا يبصرونَ حُجَجَهُ عليهم، وما فيه من مواعظه.

وقوله: «أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ»، اختلف أهلُ التأويل في معناه، فقال بعضهم: معنى ذلك: تشبيهٌ من الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ: لِعَمَى قلوبِهم عن فَهْمِ ما أُنـزلَ في القرآن من حُجَجِهِ ومواعِظِه، ببعيدٍ فَهْمُ سامعِ صوتٍ من بعيدٍ نُودِيَ، فلم يفهمْ ما نُودي، كقولِ العربِ للرجلِ القليلِ الفَهْمِ: إنك لَتُنَادَى من بعيدٍ، وكقولهم للفَهِمِ: إنك لتأخذُ الأمورَ من قريبٍ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: إنهم ينادون يومَ القيامةِ من مكانٍ بعيد منهم بأشنع أسمائهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الكِتابَ» يا محمدُ، يعني التوراةَ كما آتيناكَ الفرقانَ، «فاخْتُلِفَ فِيه»، يقولُ: فاختلف في العمل بما فيه الذين أُوتُوه من اليهود. «وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ»، يقولُ: ولولا ما سبقَ من قضاءِ الله وحُكْمِه فيهم أنه أخَّرَ عذابهم إلى يوم القيامة. «لقضيَ بينهم»، يقولُ: لعَجَّلَ الفصلَ بينهم فيما اختلفوا فيه بإهلاكِهِ المُبْطِلِينَ منهم.

وقوله: «وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ»، يقولُ: وإنَّ الفريقَ المُبْطِلَ منهم لفي شكٍّ مما قالوا فيه «مُريب»، يقول: يريبهم قولهم فيه ما قالوا، لأنهم قالوا بغير ثبتٍ، وإنما قالوه ظنًّا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: مَنْ عملَ بطاعةِ الله في هذه الدنيا، فَأْتَمَرَ لأمرِه، وانتهى عما نهاه عنه «فَلِنَفْسِهِ»، يقولُ: فلنفسه عملَ ذلك الصالحَ من العملِ، لأنه يجازى عليه جزاءه، فيستوجبُ في المعاد من الله الجنةَ، والنجاةَ من النار، «وَمَنْ أساءَ فَعَلَيْها»، يقولُ: ومَنْ عملَ بمعاصي الله فيها، فعلى نفسه جَنَى، لأنه أكسبها بذلك سخطَ اللهِ، والعقابَ الأليم «وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وما رَبُّكَ يا محمدُ بحاملٍ عقوبةَ ذنبِ مذنبٍ على غيرِ مكتسبه، بل لا يعـاقبُ أحـداً إلا على جُرْمِه الذي اكتسبه في الدنيا، أو على سببٍ استحقَّهُ به منه، واللهُ أعلم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إلى الله يَرُدُّ العالمونَ به عِلْمَ الساعة، فإنه لا يعلم ما قيامها غيرُه «وَما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَراتٍ مِنْ أكمامِها»، يقولُ: وما تظهرُ من ثمرةِ شجـرةٍ من أكمامها التي هي متغيبةٌ فيها، فتخرج منها بارزة «وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى»، يقولُ: وما تحملُ من أنثى من حملٍ حينَ تحملُه، ولا تَضَعُ ولدها إلا بعلْمٍ من الله، لا يَخْفَى عليه شيءٌ من ذلك.

وقوله: «وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكائي»، يقول تعالى ذِكْرُه: ويوم ينادي اللهُ هؤلاءِ المشـركينَ به في الـدنيا الأوثـانَ والأصنـامَ: أين شركائيَ الذين كنتم تشركونهم في عبادتكم إياي «قالُوا آذَنَّاكَ»، يقولُ: أعلمناك «ما مِنَّا مِنْ شَهِيد»،

يقولُ: قال هؤلاءِ المشركونَ لربِّهم يومئذٍ: ما منا من شهيدٍ يشهدُ أنَّ لك شريكاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وضَلَّ عن هؤلاءِ المشركينَ يوم القيامة آلهتُهم التي كانوا يعبدونَها في الدنيا، فأَخذَ بها طريقٌ غير طريقهم، فلم تنفعهم، ولم تَدْفَعْ عنهم شيئاً من عذابِ الله الذي حَلَّ بهم.

وقوله: «وَظَنُّوا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ»، يقولُ: وأيقنوا حينئذٍ ما لهم من ملجأ: أي ليس لهم ملجأ يلجؤون إليه من عذابِ الله.

وقوله: «لا يَسأَمُ الإنْسانُ مِنْ دُعاءِ الخَيْرِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لا يملُّ الكافرُ بالله من دعاء الخيرِ، يعني من دعائِه بالخيرِ، ومسألته إياه رَبَّهُ، والخيرُ في هذا الموضع: المالُ وصحةُ الجسم، يقولُ: لا يملُّ من طلب ذلك «وَإنْ مَسَّهُ الشَّرُّ»، يقولُ: وإنْ ناله ضرٌّ في نفسه من سُقمٍ أو جَهْدٍ في معيشته، أو احتباسٍ من رزقه «فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ»، يقولُ: فإنه ذو يأسٍ من روحِ الله وفرجه، قنوطٌ من رحمتِه، ومن أنْ يكشف ذلك الشرَّ النازلَ به عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولئن نحن كشفنا عن هذا الكافرِ ما أصابَهُ من سقمٍ في نفسه وضرٍّ، وشدَّةٍ في معيشته وجهد، رحمةً منا، فوهبنا له العافيةَ في نفسه بعد السقم، ورزقناه مالاً، فوسَّعنا عليه في معيشته من بعد الجهدِ والضرِّ «لَيَقُولَنَّ هَذَا لي» عند الله، لأنَّ الله راضٍ عني برضاهُ عملي، وما أنا عليه مقيمٌ.

وقوله: «وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً»، يقولُ: وما أحسبُ القيامةَ قائمةً يومَ تقومُ «وَلَئِنْ رُجِعْتُ إلى رَبِّي»، يقولُ: وإنْ قامتْ أيضاً القيامةُ، ورُدِدْتُ إلى الله حياً بعد مماتي «إنَّ لي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى»، يقولُ: إن لي عنده غِنًى ومالاً.

وقوله: «فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِما عَمِلُوا»، يقول تعالى ذِكْرُه: فلنخبرنَّ هؤلاءِ الكفار بالله، المتمنين عليه الأباطيلَ يوم يرجعونَ إليه بما عملوا في الدنيا من المعاصي، واجترحوا من السيئاتِ، ثم لنجازينَّ جميعَهم على ذلك جزاءهم «وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ»، وذلك العذابُ الغليظُ تخليدهم في نارِ جهنمَ، لا يموتونَ فيها ولا يحيون.

القَوْلُ في تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا نحنُ أنعمنا على الكافر، فكشفنا ما به من ضُرٍّ، ورزقناه غِنىً وسَعَةً، ووهبنا له صِحَّةَ جسمٍ وعافية، أَعْرَضَ عَمَّا عَدَوْنَاهُ إليه من طاعته، وصدَّ عنه. «وَنَأَى بجانِبِهِ»، يقول: ويَبْعُدَ من إجابتنا إلى ما دَعَوْنَاهُ إليه، ويعني بجانبه: بناحيته.

وقوله: «وَإِذَا مَسَّه الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ»، يعني بالعريض: الكثير.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ»، يا محمدُ للمكذِّبينَ بما جئتهم به من عند ربك من هذا القرآن «أَرَأَيْتُمْ» أيها القومُ «إِنْ كانَ» هذا الذي تُكَذِّبُونَ به «مِنْ عِنْدِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ» ألستم فِي فِراقٍ للحَقِّ وبُعْدٍ من الصواب، فجعل مكانَ التفريق الخبر، فقال: «مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ في شِقاقٍ بَعِيدٍ» إذا كان مفهوماً معناه.

وقوله: «مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ في شِقاقٍ بَعِيدٍ»، يقولُ: قل لهم من أشدُّ ذهاباً عن قصدِ السبيل، وأسلكُ لغيرِ طريقِ الصوابِ، ممن هو في فراقٍ لأمرِ الله وخلافٍ له، بعيد من الرشاد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: سَنُرِي هؤلاءِ المكذِّبينَ ما أنزلنا على محمدٍ عبدنا من الذِّكْرِ آياتِنَا في الآفاق.

واختلف أهلُ التأويل في معنى الآيات التي وَعَدَ اللهُ هؤلاءِ القوم أنْ يُريهم، فقال بعضهم: عنى بالآياتِ في الآفاق وقائعَ النبيِّ ﷺ بنواحي بلدِ المشركينَ من أهلِ مكةَ وأطرافِها، وبقوله: «وفِي أَنْفُسِهِمْ» فتحَ مكة.

وقال آخرون: عَنَى بذلك أنه يريهم نجومَ الليلِ وقمره، وشمسَ النهار، وذلك ما وعدهم أنه يريهم في الآفاق. وقالوا: عَنَى بالآفاق: آفاقَ السماء، وبقوله: «وفِي أَنْفُسِهِمْ» سبيلَ الغائطِ والبول.

وأولى القولين في ذلك بالصوابِ القول الأوَّل، وذلك أنَّ الله عزَّ وجلَّ وعد نبيهُ ﷺ أنْ يُري هؤلاءِ المشركينَ الذين كانوا به مكذِّبينَ آياتٍ في الآفاق، وغير معقول أنْ يكون تَهدُّدَهُمْ بأنْ يُريَهم ما هُمْ رَاؤوه، بل الواجب أنْ يكون ذلك وعداً منه لهم أنْ يريهم ما لم يكونوا رأوه قَبْلُ من ظهورِ نبيِّ الله ﷺ على أطرافِ بلدهم وعلى بلدهم، فأما النجومُ والشمس والقمرُ فقد كانوا يرونها كثيراً قَبْلُ وبَعْدُ ولا وجهَ لتهدّدهم بأنه يريهم ذلك.

وقوله: «حتى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ»، يقول جَلَّ ثناؤُه: أُرِي هؤلاءِ المشركينَ وقائعنا بأطرافهم وبهم حتى يعلموا حقيقةَ ما أنزلنا إلى محمدٍ، وأوحينا إليه من الوعدِ له بأنَّا مُظْهِرُو ما بعثناهُ به من الدين على الأديانِ كلها، ولو كره المشركونَ.

وقوله: «أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أو لم يكفِ بربك يا محمدُ أنه شاهدٌ على كل شيءٍ مما يفعله خَلْقُه، لا يعزبُ عنه عِلْمُ شيءٍ منه، وهو مُجازِيهم على أعمالهم، المحسن بالإحسانِ، والمسيء جزاءه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ألا إنَّ هؤلاءِ المكذِّبينَ بآياتِ الله في شكٍّ من لقاءِ رَبِّهم، يعني أنهم في شكٍّ من البعثِ بعد المماتِ، ومعادِهم إلى رَبِّهم.

وقوله: «ألا إنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ألا إنَّ الله بكل شيءٍ مما خلق محيطٌ عِلْماً بجميعه، وقُدرة عليه، لا يعزبُ عنه عِلْمُ شيءٍ منه أراده فيفوته، ولكنَّهُ المقتدرُ عليه العالِمُ بمكانه.

سُورَةُ الشُّورَىٰ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣﴾

قد ذكرنا اختلاف أهل التأويل في معاني حروفِ الهجاءِ التي افتتحت بها أوائلُ ما افتتح بها من سور القرآن، وبيَّنا الصوابَ من قولهم في ذلك عندنا بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع، إذ كانت هذه الحروف نظيرةَ الماضيةِ منها[1].

وقوله: «كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِين مِنْ قَبْلِكَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هكذا يوحي إليكَ يا محمدُ وإلى الذين من قبلك من أنبيائه.

وقوله: «اللهُ العزيزُ الحكيمُ»، يعني: العَزِيزُ في انتقامه من أعدائه، الحَكِيمُ في تدبيره خلقه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾

---

(١) انظر أول تفسير سورة البقرة.

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: للهِ مُلك «مَا في السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ» من الأشياء كلها «وَهُـوَ العَلِيُّ»، يقـولُ: وهو ذو عُلُوٍّ وارتفاعٍ على كلِّ شيءٍ، والأشياء كلها دونه، لأنهم في سلطانه، جارية عليهم قُدرته، ماضية فيهم مشيئته «الْعَظِيمِ» الذي له العَظَمَةُ والكبرياءُ والجبرية.

وقـوله: «تَكادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ»، يقول تعالى ذِكْرُه: تَكادُ السمواتُ يتشقَّقْنَ من فوقِ الأرضينَ، من عظمةِ الرحمنِ وجلاله.

وقوله: «وَالمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والملائكةُ يُصلونَ بطاعةِ رَبِّهم وشكرهم له من هيبةِ جلالهِ وعظمته.

وقوله: «وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ»، يقولُ: ويسألون رَبَّهم المغفرةَ لذنوبِ مَنْ في الأرض من أهلِ الإيمان به. يقول الله عَزَّ وجَلَّ: «ألا إنَّ الله هو الغفور» لذنوبِ مؤمني عبادِه. «الرحيم» بهم أنْ يعاقبهم بعد توبتهم منها.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ۝٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا» يا محمدُ من مشركي قومك مِنْ دُونِ اللهِ آلهةً يتولونها ويعبدونها «اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ» يُحْصِي عليهم أفعالَهم، ويحفظُ أعمالَهم، ليجازيهم بها يومَ القيامة جزاءهم «وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ»، يقولُ: ولستَ أنتَ يا محمدُ بالوكيلِ عليهم بحفظِ أعمالِهم، وإنما أنتَ منذرٌ فَبَلِّغْهُمْ ما أُرْسلتَ به إليهم، فإنما عليكَ البلاغُ وعلينا الحساب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وهكذا «أَوْحَيْنا إلَيْكَ» يا محمدُ «قُرْآناً عَرَبِيًّا» بلسانِ العـرب، لأن الـذين أرسلتـك إليهم قومٌ عَرَبٌ، فأوحينـا إليك هذا القـرآنَ بألسنتهم، ليفهموا ما فيه من حججِ اللهِ وذِكْره، لأنَّا لا نرسلُ رسولاً إلا بلسانِ قومه، ليبين لهم «لِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى» وهي مكة «وَمَنْ حَوْلَها»، يقولُ: ومن حول أمِّ القرى من سائرِ الناس.

وقوله: «وَتُنْذِرَ يَوْمَ الجَمْعِ»، يقولُ عَزَّ وجَلَّ: وتنذر عقابَ الله في يومِ الجمعِ عبادَهُ لموقفِ الحسابِ والعرض. وقيل: وتنذر يومَ الجمع، والمعنى: وتنذرهم يومَ الجمع، كما قيل: يخوِّفُ أولياءه، والمعنى: يخوِّفكم أولياءه.

وقوله: «لا رَيْبَ فِيهِ»، يقولُ: لا شكَّ فيه.

وقـوله: «فَرِيقٌ فِي الجَنَّة، وفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ»، يقولُ: منهم فريقٌ في الجنـة، وهم الـذين آمنوا بالله واتَّبَعُوا ما جاءهم به رسولُه ﷺ. «وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ»، يقولُ: ومنهم فريقٌ في المُوقَدَةِ من نارِ الله المسعورةِ على أهلها، وهم الذين كفروا بالله، وخالفوا ما جاءهم به رسولُه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولو أراد الله أنْ يجمعَ خَلْقَهُ على هدى، ويجعلهم على ملةٍ واحـدةٍ لفعـلَ، و«لجعلهم أمـةً واحـدة»، يقولُ: أهل ملة واحدة،

وجماعة مجتمعة على دينٍ واحد «وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ في رَحْمَتِهِ»، يقولُ: لم يفعلْ ذلك فيجعلهم أمةً واحدة، ولكن يُدخلُ مَنْ يشاء من عباده في رحمته، يعني أنه يُدخله في رحمته بتوفيقِه إياه للدخولِ في دينه، الذي ابتعثَ به نَبِيَّهُ محمداً ﷺ «وَالظَّالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ»، يقولُ: والكافرون بالله ما لهم من وليٍّ يتولاهم يومَ القيامة، ولا نصير ينصرهم من عقابِ الله حين يعاقبهم، فينقذهم من عذابه، ويقتصَّ لهم ممن عاقبهم، وإنما قيلَ هذا لرسولِ الله ﷺ تسليةً له عما كان يناله من الهمِّ بتوليةِ قومِه عنه، وأمراً له بتركِ إدخالِ المكروهِ على نفسه من أجلِ إدبارِ مَنْ أدبرَ عنه منهم، فلم يستجبْ لما دعاه إليه من الحقِّ، وإعلاماً له أنَّ أمورَ عباده بيده، وأنه الهادي إلى الحقِّ مَنْ شاء، والمضلّ مَنْ أراد دونه، ودون كلِّ أحدٍ سواه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٩ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أم اتخذ هؤلاءِ المشركونَ بالله أولياء من دونِ الله يتولَّونهم «فالله هُوَ الوَلِيُّ»، يقولُ: فاللهُ هو وليُّ أوليائه، وإياه فليتخذوا ولياً لا الآلهةَ والأوثانَ، ولا ما لا يملكُ لهم ضرّاً ولا نفعاً، «وَهُوَ يُحْيِي المَوْتَى»، يقولُ: والله يحيي الموتى من بعد مماتهم، فيحشرهم يوم القيامة «وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»، يقولُ: والله القادرُ على إحياءِ خَلْقِه من بعد مَمَاتِهم وعلى غير ذلك، إنه ذُو قدرةٍ على كلِّ شيء.

وقوله: «وَما اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إلى اللهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وما اختلفتم أيها الناسُ فيه من شيءٍ فتنازعتم بينكم، «فَحُكْمُه إلى الله»، يقولُ: فإن الله هو الذي يقضي بينكم ويفصل فيه الحكم.

وقـولـه: «ذَلِكُمُ اللهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ»، يقـول لنبيه ﷺ: قُلْ لهؤلاءِ المشركينَ بالله هذا الذي هذه الصفاتُ صفاتُه ربي، لا آلهتكم التي تَدْعُونَ من دونه، التي لا تقدرُ على شيءٍ «عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ» في أموري، وإليه فَوَّضْتُ أسبابي، وبه وثقتُ «وَإلَيْهِ أُنِيبُ»، يقولُ: وإليه أرجع في أموري وأتوبُ من ذنوبي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًاۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «فَاطِرُ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ»، خالق السموات السبعِ والأرض.

وقـوله: «جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: زَوَّجكم رَبُّكم من أنفسكم أزواجاً وإنما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «مِنْ أَنْفُسِكُمْ» لأنه خلق حوّاء من ضلعِ آدم، فهو من الرجال «وَمِنَ الأَنْعامِ أَزْوَاجاً»، يقول جَلَّ ثناؤُه: وجعل لكم من الأنعامِ أزواجاً من الضأنِ اثنين، ومن المعز اثنين، ومن الإبل اثنين، ومن البقـر اثنين، ذكـوراً وإناثاً، ومن كلِّ جنسٍ من ذلك. «يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ»، يقولُ: يخلقكم فيما جعلَ لكم من أزواجِكم، ويُعَيِّشُكُمْ فيما جعلَ لكم من الأنعام.

وقوله: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ»، فيه وجهان: أحدهما أنْ يكون معناه: ليس هُوَ كشيءٍ، وأدخـلَ المِثْـلَ في الكـلام توكيداً للكـلام إذا اختلف اللفظ به وبالكاف، وهما بمعنى واحد.

والآخر: أن يكون معناه: ليس مثله شيءٌ، وتكون الكاف هي المدخلة

في الكلام.

وقوله: «وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ»، يقول جَلَّ ثناؤه واصفاً نفسه بما هو به، وهو يعني نفسه، السميعُ لما تنطقُ به خَلْقُه من قولٍ، البصيرُ لأعمالهم، لا يَخْفَى عليه من ذلك شيءٌ، ولا يعزبُ عنه عِلْمُ شيءٍ منه، وهو محيطٌ بجميعه، مُحْصٍ صغيرَهُ وكبيره «لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ» من خيرٍ أو شرّ.

القَوْلُ فِي تَأْويل قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «لَهُ مَقالِيدُ السَّمواتِ والأَرْضِ»: له مفاتيحُ خزائنِ السمواتِ والأرض وبيده مغاليقُ الخير والشرِّ ومفاتيحها، فما يفتحْ من رحمةٍ فلا مُمْسِكَ لها، وما يمسك فلا مرسلَ له من بعدِه.

وقوله: «يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ»، يقولُ: يُوسِّعُ رِزْقَهُ وفَضْلَهُ على مَنْ يشاء من خلقه، ويبسطُ له، ويكثرُ مالَهُ ويُغْنِيه «ويقدر»، يقولُ: ويُقَتِّرُ على مَنْ يشاء منهم فيضيقه ويفقره «إنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ»، يقولُ: إنَّ الله تبارك وتعالى بكلِّ ما يفعلُ من توسيعِه على مَنْ يُوسِّعُ، وتقتيرِه على مَنْ يقتر، ومَن الذي يُصْلِحُه البَسْطُ عليه في الرزقِ، ويفسده من خلقه، والذي يُصلحه التقتيرُ عليه ويفسده، وغير ذلك من الأمور، ذُو عِلْمٍ لا يخفى عليه موضعُ البسطِ والتقتيرِ وغيره، من صلاحِ تدبيرِ خَلْقِه. يقول تعالى ذِكْرُه: فإلى مَنْ له مقاليدُ السمواتِ والأرض الذي صِفَتُه ما وصفتُ لكم في هذه الآياتِ أيها الناسُ فارغبوا، وإياهُ فاعبدوا مخلصينَ له الدِّينَ لا الأوثانَ والآلهةَ والأصنامَ، التي لا تملكُ لكم ضرّاً ولا نفعاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «شَرَعَ لَكُمْ» رَبُّكم أيها الناسُ «مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً» أنْ يعمله «وَالَّذِي أوْحَيْنا إلَيْكَ»، يقول لنبيه محمدٍ ﷺ: وشَرَعَ لكم من الدين الذي أوحينا إليك يا محمدُ، فأمرناكَ به «وَما وَصَّيْنا بِهِ إبْراهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ»، يقولُ: شرع لكم من الدين، أنْ أقيموا الدين، فأنْ، إذْ كان ذلك معنى الكلام، في موضعِ نصبٍ على الترجمةِ بها عن «ما» التي في قوله: «ما وَصَّى بِهِ نُوحاً». ويجوز أنْ تكون في موضع خفض ردّاً على الهاء التي في قوله: «بِهِ»، وتفسيراً عنها، فيكون معنى الكلام حينئذٍ: شرع لكم من الدينِ ما وَصَّى به نوحاً، أنْ أقيموا الدين ولا تتفرَّقُوا فيه. وجائزٌ أنْ تكون في موضع رفعٍ على الاستئناف، فيكون معنى الكلام حينئذٍ: شَرَعَ لكم من الدين ما وصى به، وهو أنْ أقيموا الدين. وإذ كان معنى الكلام ما وصفت، فمعلومٌ أنَّ الذي أوصى به جميع هؤلاءِ الأنبياء وصية واحدة، وهي إقامة الدينِ الحَقِّ، ولا تتفرَّقُوا فيه.

وعنى بقوله: «أنْ أَقِيمُوا الدِّينَ» أنِ اعْمَلُوا به على ما شَرَعَ لكم وفَرَضَ، كما قد بينا فيما مضى قبل في قوله: «أَقِيمُوا الصَّلاةَ».

وقـولـه: «وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ»، يقولُ: ولا تختلفوا في الدين الذي أُمِرْتُمْ بالقيامِ به، كما اختلفَ الأحزابُ من قبلكم.

وقـولـه: «كَبُرَ على المُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إلَيْهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: كَبُرَ على المشركينَ باللهِ من قومكَ يا محمدُ ما تدعوهم إليه من

إخلاص العبادةِ لله، وإفرادِه بالألوهةِ والبراءة مما سواه من الآلهةِ والأنداد.

وقـوله: «اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ»، يقولُ: الله يصطفِي إليه من يشاء من خَلْقِه، ويختارُ لنفسه، وولايته مَنْ أحبَّ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وما تفرَّقَ المشركونَ باللهِ في أديانهم فصاروا أحزاباً، إلَّا من بعدِ ما جاءهم العلمُ بأنَّ الذي أمرهم اللهُ به، وبعثَ به نوحاً، هو إقامةُ الدين الحقِّ، وأنْ لا تتفرَّقُوا فيه.

وقوله: «بَغْياً بَيْنَهُمْ»، يقولُ: بغياً من بعضِكم على بعضٍ وحَسَداً وعداوةً على طَلَبِ الدنيا. «وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إلى أَجَلٍ مُسَمًّى»، يقول جَلَّ ثناؤه: ولولا قولٌ سَبَقَ يا محمدُ من رَبِّكَ لا يُعاجلهم بالعذابِ، ولكنه أَخَّرَ ذلك إلى أجلٍ مسمى، وذلك الأجلُ المسمى فيما ذُكر: يوم القيامة.

وقـولـه: «لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ»، يقـولُ: لفـرغ رَبُّـكَ من الحُكْمِ بين هؤلاءِ المختلفينَ في الحقِّ الذي بعث به نبيهُ نوحاً من بعد علمهم به، بإهلاكِه أهلَ الباطلِ منهم، وإظهارِه أهلَ الحقِّ عليهم.

وقوله: «وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ»، يقولُ: وإنَّ الذين آتاهم الله من بعد هؤلاءِ المختلفينَ في الحقِّ كتابةَ التوراةِ والإنجيلِ «لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ»، يقولُ: لفي شكٍّ من الدين الذي وَصَّى اللهُ به نوحاً، وأوحاهُ إليكَ يا محمدُ، وأمركما بإقامتِهِ مُرِيبٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فإلى ذلك الدين الذي شَرَع لكم، ووصَّى به نوحاً، وأوحاهُ إليكَ يا محمدُ، فادع عبادَ الله، واستقم على العملِ به، ولا تَزِغْ عنه، واثبتْ عليه كما أمركَ رَبُّكَ بالاستقامة.

وقوله: «وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولا تتبع يا محمدُ أهواءَ الذين شكُّوا في الحقِّ الذي شَرَعَهُ اللهُ لكم من الذين أُورِثُوا الكتابَ من بعد القرونِ الماضية قبلهم، فتشكَّ فيه، كالذي شَكُّوا فيه. «وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتابٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وقُلْ لهم يا محمدُ صَدَّقْتُ بما أنزلَ اللهُ من كتـابٍ كائنـاً ما كان ذلك الكتابُ، توراةً كانَ أو إنجيلاً أو زَبُوراً أو صُحُفَ إبراهيمَ، لا أكذِّبُ بشيءٍ من ذلك تكذيبكم ببعضِه معشرَ الأحزابِ، وتصديقَكُمْ ببعضٍ.

وقوله: «وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وقُلْ لهم يا محمدُ وأمرني ربي أنْ أعدلَ بينكم معشرَ الأحزابِ، فأسيرَ فيكم جميعاً بالحقِّ الذي أمرني به وبعثني بالدعاء إليه.

وقوله: «اللهُ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ»، يقولُ: الله مَالِكُنا ومالِكُكُمْ معشرَ الأحزابِ من أهلِ الكتابين التوراة والإنجيل «لَنا أعمالُنا ولَكُمْ أعمالُكُمْ»، يقولُ: لنا ثوابُ ما اكتسبناهُ من الأعمالِ، ولكم ثوابُ ما اكتسبتم منها.

وقوله: «لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ»، يقولُ: لا خصومةَ بيننا وبينكم.

وقوله: «اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا»، يقولُ: اللهُ يجمعُ بيننا يومَ القيامة، فيقضي بيننا بالحقِّ فيما اختلفنا فيه. «وإلَيْهِ المَصِيرُ»، يقولُ: وإليه المَعَادُ والمرجعُ بعد مماتنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والذين يخاصمونَ في دِينِ الله الذي ابتعثَ به نبيه محمداً ﷺ من بعد ما استجابَ له النـاسُ، فدخلوا فيه من الذين أُورِثُوا الكتابَ. «حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ»، يقولُ: خصومتهم التي يخاصمونَ فيه باطلةٌ ذاهبة عند ربهم. «وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ»، يقولُ: وعليهم من اللهِ غضبٌ، ولهم في الآخرةِ عذابٌ شديد، وهو عذابُ النار.

وذُكر أنَّ هذه الآيَةَ نزلتْ في قومٍ من اليهودِ خاصموا أصحابَ رسولِ الله ﷺ في دِينهم، وطمعوا أن يَصُدُّوهم عنه، ويردُّوهم عن الإسلامِ إلى الكفرِ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ» هذا «الكِتَابَ» يعني القرآنَ «بالحَقِّ والمِيزَانِ»، يقولُ: وأنزلَ الميزانَ وهو العدلُ، ليقضي بين الناسِ بالإنصاف، ويحكم فيهم بحكمِ اللهِ الذي أمرَ به في كتابه.

وقوله: «وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأيّ شيء يُدْرِيكَ ويعلمـك، لعلَّ الساعةَ التي تقومُ فيها القيامةُ قريبٌ، «يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بها»، يقولُ: يستعجلك يا محمدُ بمجيئِها الذينَ لا يُوقِنُونَ بمجيئهـا، ظنـاً منهم أنهـا غير جائيةٍ. «وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا»، يقولُ: والذين صَدَّقُوا بمجيئها، وَوَعْدَ اللهِ إياهُمْ الحشرَ فيها، «مشفقون منها»، يقولُ: وَجِلُونَ من مجيئها، خائفونَ من قيامها، لأنهم لا يدرون ما اللهُ فاعلٌ بهم فيها «وَيَعْلَمُونَ أَنَّها الحَقُّ»، يقولُ: ويوقنون أنَّ مجيئها الحقُّ اليقينُ، لا يمترون في مجيئها «ألَا إنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ألا إنَّ الذين يُخاصمونَ في قيام الساعة ويجادلون فيه «لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ»، يقولُ: لفي جَوْرٍ عن طريقِ الهدى، وزيغٍ عن سبيلِ الحقِّ والرشاد، بعيد من الصواب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ۝١٩ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ۝٢٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الله ذُو لطف بعبادِه، يرزقُ مَنْ يشاء فيوسع عليه ويقتِّر على مَنْ يشاء منهم «وَهُوَ القَوِيُّ» الذي لا يغلبه ذُو أَيدٍ لشدَّته، ولا يمتنعُ عليه إذا أراد عقابَهُ بقدرته «العَزِيزُ» في انتقامه إذا انتقم من أهلِ معاصيه. «مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: مَنْ كان يريدُ بعمله الآخرةَ «نَزِدْ له في حرثه»، يقولُ: نزد له في عمله الحسن، فنجعل له بالواحدةِ عشراً، إلى ما شاء رَبُّنَا من الزيادةِ «وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْهَا»، يقولُ: ومَنْ كان يُريدُ بعملِه الدنيا ولها يسعى لا للآخرة، نُؤْته منها ما قسمنا له منها «وما لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ»، يقولُ: وليس لمن طلب بعمله الدنيا،

ولم يُرِد الله به في ثوابِ الله لأهلِ الأعمالِ التي أرادوه بأعمالهم في الدنيا حظّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أم لهؤلاءِ المشركينَ بالله شركاء في شِرْكِهم وضلالتهم «شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يأْذَنْ بِهِ الله»، يقولُ: ابتدعوا لهم من الدين ما لم يُبِحِ الله لهم ابتداعَهُ «وَلَوْلا كَلِمَةُ الفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولولا السابقُ من الله في أنه لا يعجلُ لهم العذابَ في الدنيا، وأنه مضى من قِيلِه إنهم مُؤَخَّرُونَ بالعقوبةِ إلى قيامِ الساعة، لفرغ من الحكمِ بينكم وبينهم بتعجيلنا العذابَ لهم في الدنيا، ولكن لهم في الآخرة من العذابِ الأليم، كما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»، يقولُ: وإنَّ الكافرينَ بالله لهم يوم القيامةِ عذابٌ مؤلم مُوجِعٌ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ترى يا محمدُ الكافرينَ بالله يومَ القيامة «مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا»، يقولُ: وَجِلِينَ خائفينَ من عقابِ الله على ما كسبـوا في الـدنيا من أعمالهم الخبيثة «وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ»، يقولُ: والذين هم مشفقونَ منه من عذابِ الله نازلٌ بهم، وهم ذائقوهُ لا محالة.

وقوله: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الجَنَّاتِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والذين آمَنُوا بالله وأطاعوه فيما أمر ونهى في الدنيا في روضاتِ البساتين في الآخرة. ويعني بالروضات: جمع روضة، وهي المكانُ الذي يكثُرُ نَبْتُه، ولا تقولُ العربُ لمواضعِ الأشجار: رياض. وإنما عَنَى جَلَّ ثَنَاؤُهُ بذلك: الخبرَ عَمَّا هُمْ فيه من السرورِ والنعيم.

وقوله: «لَهُمْ ما يَشاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ»، يقول: للذين آمنوا وعملوا الصالحات عند رَبِّهم في الآخرة ما تشتهيه أنفسُهم، وتَلَذُّهُ أعينُهم، «وذلك هو الفضلُ الكبير»، يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الذي أعطاهم الله من هذا النعيم، وهذه الكرامةِ في الآخرةِ: هو الفضلُ من اللهِ عليهم، الكبيرُ الذي يفضلُ كُلَّ نعيمٍ وكرامةٍ في الدنيا من بعضِ أهلها على بعض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الذي أخبرتكم أيها الناسُ أني أَعْدَدْتُه للذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ في الآخرة من النعيمِ والكرامةِ، البشرى التي يُبَشِّرُ الله عبادَهُ الذين آمنوا به في الدنيا، وعملوا بطاعتِه فيها «قُلْ لا أسألُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ للذين يمارونك في الساعة من مشركي قومكَ: لا أسألكم أيها القومُ على دعايتكم إلى ما أدعوكُمْ إليه من الحقِّ الذي جئتكم به، والنصيحة التي أنصحكم ثواباً وجزاء، وعِوَضاً من أموالكم تُعْطُونَنِيه «إِلَّا المَوَدَّةَ فِي القُرْبى».

واختلف أهلُ التأويل في معنى قوله: «إِلَّا المَوَدَّةَ فِي القُرْبى»، فقال بعضهم: معناه: إلا أن تَوَدُّوني في قرابتي منكم، وتَصِلُوا رَحِمي بيني وبينكم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: قل لمن تبعك من المؤمنينَ: لا أسألكم على ما جئتكم به أجراً إلا أن تَوَدُّوا قرابتي.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: قُلْ لا أسألكم أيها الناسُ على ما جئتكم به أجراً إلا أنْ تَوَدَّدُوا إلى الله، وتَتَقَرَّبُوا بالعملِ الصالحِ والطاعةِ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: إلا أنْ تَصِلُوا قرابتكم.

وأولى الأقوال في ذلك بالصوابِ، وأشبهها بظاهرِ التنزيلِ قولُ مَنْ قال: معناه: قل لا أسألكم عليه أجراً يا معشرَ قريش، إلا أنْ تَوَدُّوني في قرابتي منكم، وتَصِلُوا الرحم التي بيني وبينكم.

وإنما قلتُ هذا التأويل أوْلى بتأويل الآية لدخول «في» في قوله: «إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى»، ولو كان معنى ذلك على ما قاله مَنْ قال: إلا أن تَوَدُّوا قرابتي، أو تقربوا إلى الله، لم يكن لدخول «في» في الكلام في هذا الموضع وجـهٌ معروف، ولكان التنزيلُ: إلا مودّة القربى إنْ عُنِيَ به الأمرُ بمودَّةِ قرابةِ رسولِ الله ﷺ، أو إلا المودَّة بالقُرْبَى، أو ذا القربَى إنْ عُنِيَ به التودّد والتقرّب. وفي دخول «في» في الكلام أوضحُ الدليل على أن معناه: إلا مودّتي في قرابتي منكم، وأنَّ الألف واللام في المودّةِ أدخلت بدلاً من الإضافة، كما قيل: «فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى» [النازعات: ٤١]. وقوله: «إلا» في هذا الموضع استثناء منقـطع ومعنى الكلام: قل لا أسألكم عليه أجراً، لكني أسألكم المودَّةَ في القُرْبى، فالمودَّةُ منصوبة على المعنى الذي ذكرت.

وقوله: «وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً»، يقول تعالى ذِكْرُه: ومَنْ يعمـلْ حسنةً. وذلك أنْ يعمل عملاً يطيعُ اللهَ فيه من المؤمنينَ «نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً»، يقولُ: نضاعف عمله ذلك الحسن، فنجعل له مكانَ الواحدِ عشراً إلى ما شئنا من الجزاءِ والثواب.

وقوله: «إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ»، يقولُ: إن اللهَ غَفورٌ لذنوبِ عباده، شكورٌ لحسناتِهم وطاعتهم إياه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أمْ يقولُ هؤلاءِ المشركونَ بالله: «افْتَرَى» محمدٌ «على اللهِ كَذِباً» فجاء بهذا الذي يَتْلُوهُ علينا اختلافاً من قِبَلِ نفسه.

وقوله: «فَإِنْ يَشَإِ اللهُ» يا محمدُ يطبعْ على قلبكَ، فتنسَ هذا القرآنَ الذي أُنزلَ إليك.

وقوله: «وَيَمْحُ اللهُ الباطِلَ»، يقولُ: ويذهب الله بالباطلِ فيمحقُه «ويُحِقُّ الحَقَّ بكَلِماتِه» التي أنزلها إليكَ يا محمدُ فيثبته.

وقوله: «إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الله ذو علم بما في صدورِ خَلْقِه، وما تنطوي عليه ضمائِرُهم، لا يَخْفَى عليه من أمورِهم شيءٌ، يقول لنبيه محمدٍ ﷺ: لو حَدَّثْتَ نفسكَ أنْ تفتري على الله كذباً، لطبعتُ على قلبكَ، وأذهبتُ الذي آتيتُكَ من وحيي، لأني أمحو الباطلَ فَأُذْهِبُه، وأُحِقُّ الحقَّ، وإنما هذا إخبارٌ من الله الكافرينَ به، الزاعمينَ أنَّ محمداً افترى هذا القرآنَ من قِبَلِ نفسه، فأخبرهم أنه إنْ فعلَ لفعلَ به ما أخبرَ به في هذه الآية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: واللهُ الذي يقبلُ مراجعةَ العبدِ إذا رجعَ إلى توحيدِ الله

وطاعته من بعد كُفْرِه «وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ»، يقولُ: ويعفو له أنْ يعاقبه على سيئاتِه من الأعمالِ، وهي معاصيه التي تاب منها.

«وَيَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ»، اختلفت القَـرَأة في قراءة ذلك، فقرأته عامة قَرَأة المدينة والبصرة: «يَفْعَلُونَ» بالياء، بمعنى: ويعلمُ ما يفعلُ عباده، وقرأته عامة قَرَأة الكوفة: «تَفْعَلُونَ» بالتاء على وجه الخطاب.

والصواب من القولِ في ذلك عندي أنهما قراءتان مشهورتان في قَرَأَةِ الأمصار متقاربتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارىءُ فمصيبٌ، غير أنَّ الياء أعجبُ إليَّ، لأنَّ الكلام من قبل ذلك جرى على الخبرِ، وذلك قوله: «وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ»، ويعني جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقوله: «وَيَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ» ويعلم رَبُّكم أيها الناسُ ما تفعلونَ من خيرٍ وشرٍّ، لا يخفى عليه من ذلك شيءٌ، وهو مُجَازِيكم على كُلِّ ذلك جزاءه، فاتقوا الله في أنفسكم، واحذروا أنْ تركبوا ما تستحقونَ به منه العقوبة.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ٢٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويجيبُ الذين آمنوا باللهِ ورسولِه، وعملوا بما أمرهم اللهُ به، وانتهوا عما نهاهم عنه لبعضِهم دعاء بعض.

وقـولـه: «وَيَزِيدُهُـمْ مِنْ فَضْلِهِ»، يقـول تعالى ذِكْرُه: ويزيدُ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ مع إجابته إياهم دعاءهم، وإعطائِه إياهم مسألتهم من فَضْلِه على مسألتهم إياه، بأنْ يعطيهم ما لم يسألوه. وقيل: إنَّ ذلك الفضلَ الذي ضَمِنَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أنْ يَزِيدَهُمُوه، هو أنْ يُشَفِّعَهُمْ في إخوانِ إخوانهم إذا هم شفعوا في إخوانهم، فشفعوا فيهم.

وقوله: «والكافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ»، يقول جَلَّ ثناؤه: والكافرونَ باللهِ لهم يومَ القيامةِ عذابٌ شديدٌ على كفرهم به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ۝٢٧﴾

ذكر أن هذه الآية نزلتْ من أجلِ قومٍ من أهل الفاقةِ من المسلمينَ تَمَنَّوْا سَعَةَ الدنيا والغِنى، فقال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ولو بَسَطَ اللهُ الرزقَ لعباده، فوسَّعَهُ وكَثَّرَهُ عندهم لَبَغَوْا، فتجاوزوا الحدَّ الذي حَدَّهُ اللهُ لهم إلى غير الذي حَدَّهُ لهم في بلاده بركوبهم في الأرض ما حظره عليهم، ولكنه يُنَزِّلُ رزقهم بقدرٍ لكفايتهم الذي يشاء منه.

وقوله: «إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الله بما يصلحُ عبـادَهُ ويفسـدهم من غنى وفقرٍ وسَعَـةٍ وإقتـار، وغيرِ ذلك من مصالحهم و مضارِّهم، ذُو خبرةٍ وعلمٍ بصير بتدبيرهم وصرفهم فيما فيه صلاحُهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٢٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والله الذي ينزل المطرَ من السماءِ فيغيثكم به أيها الناسُ «مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا»، يقولُ: من بعد ما يَئِسَ من نزوله ومجيئه «وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ»، يقولُ: وينشر في خلقه رحمته، ويعني بالرحمة: الغيث الذي ينزله من السماء.

وقوله: «وَهُوَ الوَلِيُّ الحَمِيدُ»، يقولُ: وهو الذي يَلِيكُمْ بإحسانِه وفَضْلِه، الحميدُ بأياديه عندكم، ونعمهِ عليكم في خلقه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومن حُجَجِه عليكم أيها الناسُ أنه القادرُ على إحيائِكم بعد فنائِكم، وبَعْثِكم من قبوركم من بعد بلائِكم خَلْقُهُ السمواتِ والأرضَ، «وما بثَّ فيهما من دابةٍ»، يعني: وما فرّق في السموات والأرض من دابة.

«وَهُوَ على جَمْعِهِمْ إِذَا يَشاءُ قَدِيرٌ»، يقولُ: وهو على جمعِ ما بَثَّ فيهما من دابةٍ إذا شاء ذلك، ذُو قدرةٍ لا يتعذَّرُ عليه، كما لم يتعذر عليه خَلْقُه وتَفْريقُه، يقول تعالى ذِكْرُه: فكذلك هو القادرُ على جمعِ خَلْقِه بحشرِ يوم القيامةِ بعد تفرُّقِ أوصالِهم في القبور.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وما يصيبكم أيها الناسُ من مصيبةٍ في الدنيا في أنفسكم وأهليكم وأموالكم. «فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ»، يقولُ: فإنما يصيبكم ذلك عقوبة من اللهِ لكم بما اجترمتُمْ من الآثامِ فيما بينكم وبينَ رَبِّكم ويعفو لكم رَبُّكم عن كثيرٍ من إجرامكم، فلا يعاقبكم بها.

وقوله: «وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ»، يقولُ: وما أنتم أيها الناسُ بمفيتي رَبِّكم بأنفسكم إذا أراد عقوبَتكم على ذنوبكم التي أذنبتموها، ومعصيتكُمْ إياهُ التي رَكِبْتُموها هَرَباً في الأرض، فَمُعْجِزِيه، حتى لا يقدر عليكم، ولكنكم حيثُ كنتم في سلطانِه وقَبْضَتِه، جاريةٌ فيكم مشيئَتُهُ «وَما لَكُمْ

مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ» يليكم بالدفاعِ عنكم إذا أرادَ عقوبتَكم على معصيتكم إياه «ولا نَصِيرٍ»، يقولُ: ولا لكم من دونِه نصيرٌ ينصركم إذا هو عاقبكم، فينتصر لكم منه، فاحذروا أيها الناسُ معاصيه، واتقوهُ أنْ تخالفوه فيما أمركم أو نهاكم، فإنه لا دافعَ لعقوبتِه عَمَّنْ أَحَلَّهَا به.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومن حجج الله أيها الناسُ عليكم، بأنه القادرُ على كلِّ ما يشاءُ، وأنه لا يتعذَّرُ عليه فِعْلُ شيءٍ أراده السفنُ الجاريةُ في البحر[1]. والجواري: جمع جارية، وهي السائرة في البحر.

وقوله: «كالأعْلام»، يعني: كالجبال، واحدها: علم.

وقوله: «إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيح فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ على ظَهْرِهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنْ يشأ الله الذي قد أجرى هذه السفنَ في البحر أنْ لا تجري فيه، أسكنَ الريحَ التي تجري بها فيه، فثبتنَ في موضعٍ واحد، ووقفنَ على ظهرِ الماءِ لا تجري، فتتقدّم ولا تتأخر.

وقوله: «إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ»، يقولُ: إنَّ في جَرْيِ هذه الجواري في البحر بقُدرةِ الله لعظةً وعبرةً وحجة بَيّنةً على قُدْرةِ الله على ما يشاء، لكل ذي صبرٍ على طاعةِ الله، شكور لنِعمه وأياديه عنده.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾﴾

(١) السياقُ: ومن حجج الله عليكم... السفنُ الجارية في البحر.

﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أو يوبقْ هذه الجواري في البحرِ بما كسبتْ رُكْبانُها من الذنوبِ، واجترموا من الآثامِ، وجَزَمَ يُوبقهنَّ، عطفاً على «يُسْكِنِ الرِّيحَ» ومعنى الكلام: إنْ يشإ يسكن الريحَ فيظللنَ رواكدَ على ظهره، «أَوْ يُوبِقْهُنَّ» ويعني بقوله: «أَوْ يُوبِقْهُنَّ» أو يهلكهنَّ بالغرَقِ.

وقولـه: «وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ»، يقـولُ: ويصفح تعالى ذِكْرُه عن كثيرٍ من ذنوبِكم فلا يعاقب عليها.

وقوله: «وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آياتِنَا»، يقول جَلَّ ثناؤه: ويعلم الذين يخاصمونَ رسولَهُ محمداً ﷺ من المشركينَ في آياته وعبره وأدلته على توحيدِه.

وقوله: «مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيص»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما لهم من مَحِيدٍ من عقابِ الله إذا عاقبهم على ذنوبهم، وكفرهم به، ولا لهم منه ملجأ.

وقوله: «فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الحَياةِ الدُّنْيا»، يقول تعالى ذِكْرُه: فما أُعْطِيتم أيها الناسُ من شيءٍ من رياشِ الدنيا من المالِ والبنينَ، «فمتاعُ الحياة الدنيا»، يقول تعالى ذِكْرُه: فهو متاعٌ لكم تتمتعونَ به في الحياة الدنيا، وليس من دارِ الآخرة، ولا مِمَّا ينفعكُمْ في مَعادِكم. «وَما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وأَبْقَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: والذي عندَ اللهِ لأهلِ طاعتِه والإيمانِ به في الآخرةِ، خيرٌ مما أُوتيتموه في الدنيا من متاعها وأبقى، لأنَّ ما أُوتيتم في الدنيا فانٍ نافد، وما عند الله من النعيمِ في جنانِه لأهلِ طاعته باقٍ غير نافد. «لِلَّذِينَ آمَنُوا»، يقولُ: ومـا عنـدَ الله للذين آمنوا به، وعليه يتوكلونَ في أمورهم، وإليه يقومون في أسبابهم، وبه يَثِقُونَ، خيرٌ وأبقى مما أوتيتموه من متاعِ الحياة الدنيا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ۝٣٧ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وما عندَ اللهِ للذين آمنوا «وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الإِثْمِ»، وكبائرَ فواحشِ الإثم، «وَالفَوَاحِشَ»، قيل: إنها الزِّنى.

وقوله: «وَإِذَا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا ما غضبوا على مَنِ اجترمَ إليهم جرماً، هم يغفرونَ لمن أجرمَ إليهم الجُرْمَ ذَنْبَهُ، ويصفحونَ عنه عقوبةَ ذَنْبِهِ.

وقوله: «وَالَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ وأقامُوا الصَّلاةَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والذين أجابوا لربهم حين دعاهم إلى توحيدِه، والإقرارِ بوحدانيتِه والبراءةِ من عبادةِ كُلِّ ما يعبد دونه. «وأقامُوا الصَّلاةَ» المفروضةَ بحدودها في أوقاتها. «وأمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ»، يقولُ: وإذا حَزَبَهُمْ أمرٌ تشاوروا بينهم، «وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ»، يقولُ: ومن الأموالِ التي رزقناهم ينفقونَ في سبيلِ الله، ويؤدُّونَ ما فرض عليهم من الحقوقِ لأهلها من زكاةٍ ونفقةٍ على مَنْ تَجِبُ عليه نفقته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ۝٣٩ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والذين إذا بَغَى عليهم باغٍ، واعتدى عليهم هُمْ ينتصرون.

ثم اختلف أهلُ التأويل في الباغي الذي حَمِدَ تعالى ذِكْرُه، المُنْتَصر منه

بعد بغيِهِ عليه، فقال بعضهم: هو المشركُ إذا بَغَى على المسلم.

وقال آخرون: بل هو كُلُّ باغٍ بغى فَحُمِدَ المُنْتَصِرُ منه.

وهذا القولُ الثاني أوْلى في ذلك بالصواب، لأنَّ الله لم يخصصْ من ذلك معنًى دونَ معنى، بل حَمِدَ كلَّ مُنتصرٍ بحقٍّ مِمَّنْ بغى عليه. فإن قال قائل: وما في الانتصار من المدح؟ قيل: إنَّ في إقامةِ الظالم على سبيل الحقِّ وعقوبتِه بما هُوَ له أهلٌ تقويماً له، وفي ذلك أعظمُ المدح.

وقوله: «وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها»، وقد بيَّنا فيما مضى معنى ذلك، وأنَّ معناه: وجزاءُ سيئةِ المسيءِ عقوبته بما أوجَبَهُ اللهُ عليه، فهي وإنْ كانت عقوبةً من الله أوجبها عليه، فهي مَساءة له. والسيئة: إنما هي الفعلة من السوء، وذلك نظير قول الله عَزَّ وجَلَّ: «وَمَنْ جاءَ بالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إلَّا مِثْلَها [الأنعام: ١٦٠].

وقوله: «فَمَنْ عَفا وأَصْلَحَ فَأجْرُهُ على اللهِ»، يقول جَلَّ ثناؤه: فمن عفا عَمَّنْ أساءَ إليه إساءته إليه، فغفرها له، ولم يعاقبه بها، وهو على عقوبته عليها قادرٌ ابتغاءَ وجهِ الله، فأجرُ عَفْوه ذلك على الله، واللهُ مُثيبُه عليه ثوابه. «إنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ»، يقولُ: إنَّ الله لا يحبُّ أهلَ الظلم الذين يَتعدَّوْنَ على الناسِ، فيسيئون إليهم بغيرِ ما أذن الله لهم فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ۝٤١ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولمن انتصرَ مِمَّنْ ظَلَمَهُ من بعدِ ظُلْمِه إياه «فأُولَئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ»، يقولُ: فأولئك المنتصِرُونَ منهم لا سبيلَ للمنتصَرِ منهم

عليهم بعقوبةٍ ولا أذى، لأنهم انتصروا منهم بحقٍّ، ومَنْ أخذَ حَقَّهُ مِمَّنْ وَجَبَ ذلك له عليه، ولم يتعدَّ، لم يَظْلِمِ، فيكونَ عليه سبيل.

وقد اختلف أهلُ التأويلِ في المعنيِّ بذلك، فقال بعضهم: عنى به كلَّ منتصرٍ ممن أساءَ إليه، مسلماً كان المسيءُ أو كافراً.

وقال آخرون: بل عُنِي به الانتصارُ من أهلِ الشركِ، وقال: هذا منسوخ.

والصوابُ من القولِ أن يقال: إنه معنيٌّ به كلُّ منتصرٍ من ظالمِه، وأنَّ الآية محكمةٌ غير منسوخةٍ للعلة التي بينتُ في الآية قَبْلَها.

وقوله: «إنَّمَا السَّبِيلُ على الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ»، يقول تبارك وتعالى: إنما الطريقُ لكم أيها الناسُ على الذين يتعدَّوْنَ على الناس ظُلماً وعدواناً، بأنْ يعاقبوهم بظلمهم لا على مَنِ انتصرَ مِمَّنْ ظلمه، فأخذ منه حقه.

وقوله: «وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ»، يقولُ: ويتجاوزون في أرضِ الله الحدَّ الذي أباح لهم ربُّهم إلى ما لم يأذنْ لهم فيه، فيفسدون فيها بغير الحقِّ «أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»، يقولُ: فهؤلاءِ الذين يظلمون الناسَ، ويبغون في الأرضِ بغير الحقِّ، لهم عذابٌ من الله يومَ القيامة في جهنم مؤلمٌ مُوجِعٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولمَنْ صبرَ على إساءةِ مَنْ أساء إليه، وغفر للمسيء إليه جُرْمَهُ إليه، فلم ينتصرْ منه، وهو على الانتصار منه قادرٌ ابتغاءَ وجهِ الله وجزيلِ ثوابه. «إنَّ ذلكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمورِ»، يقولُ: إنَّ صبره ذلك وغفرانَهُ ذَنْبَ المسيءِ إليه، لمن عَزْمِ الأمورِ التي نَدَبَ إليها عبادَهُ، وعزمَ عليهم العملَ به.

«وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ»، يقولُ: ومَنْ خذله اللهُ عن الرشاد، فليس له من وليٍّ يليه، فيهديه لسبيلِ الصواب، ويسدِّده من بعدِ إضلالِ اللهِ إياه «وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رأَوُا العَذَابَ» يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وترى الكافرينَ باللهِ يا محمدُ يومَ القيامة لما عاينوا عذابَ الله يقولون لربِّهم: «هَلْ» لنا يا ربِّ «إلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ؟» وذلك كقوله: «وَلَو تَرَى إِذِ المُجْرِمُونَ ناكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا» [السجدة: ١٢]. . . الآية، استعتب المساكين في غيرِ حِينِ الاستعتاب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وترى يا محمدُ الظالمينَ يُعْرَضُونَ على النار «خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ»، يقولُ: خاضعين متذللين.

وقوله: «يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ»، يقولُ: ينظر هؤلاءِ الظالمونَ إلى النارِ حين يُعْرَضُونَ عليها من طرفٍ خفيٍّ، يعني: من طرفٍ ذليلٍ، وصفه الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ بالخفاء للذِلَّةِ التي قد رَكِبَتْهُمْ، حتى كادتْ أعينُهم أنْ تغورَ، فتذهب.

وقوله: «وَقالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القِيامَةِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وقال الذين آمنوا بالله ورسوله: إنَّ المغبونين الذين غبنوا أنفسهم وأهليهم يومَ القيامة في الجنة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا

مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولم يكن لهؤلاءِ الكافرينَ حين يُعَذِّبهم اللهُ يومَ القيامة أولياء يمنعونهم من عذابِ الله ولا ينتصرونَ لهم من رَبِّهم على ما نالهم به من العذابِ من دون الله «وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ»، يقول: ومَنْ يخذله عن طريقِ الحقِّ فما له من طريقٍ إلى الوصولِ إليه، لأنَّ الهدايةَ والإضلالَ بيدِه دونَ كلِّ أحد سواه.

وقوله: «اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: للكافرين به: أجيبوا أيها الناسُ داعيَ اللهِ وآمنوا به واتبعوه على ما جاءكم به من عند ربكم، «مِنْ قَبْلِ أَنْ يأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ»، يقولُ: لا شيء يردُّ مجيئه إذا جاء اللهُ به، وذلك يوم القيامة. «ما لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ»، يقول جَلَّ ثناؤه: ما لكم أيها الناسُ من معقلٍ تحترزونَ فيه، وتلجؤونَ إليه، فتعتصمونَ به من النازلِ بكم من عذابِ الله على كفركم به، كان في الدنيا «وَما لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ»، يقولُ: ولا أنتم تقدرون لما يحلُّ بكم من عقابِهِ يومئذٍ على تغييرِه، ولا على انتصارٍ منه إذا عاقبكم بما عاقبكم به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ ﴿٤٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فإنْ أعرضَ هؤلاءِ المشركونَ يا محمدُ عما أتيتهم به من الحقِّ، ودَعَوْتَهُمْ إليه من الرشد، فلم يستجيبوا لك، وأبَوْا قَبولَهُ منكَ، فَدَعْهُمْ، فإنَّا لم نرسلكَ إليهم رقيباً عليهم، تحفظ عليهم أعمالَهم وتحصيها

«إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا البَلاغُ»، يقولُ: ما عليكَ يا محمدُ إلا أنْ تبلغهم ما أرسلناكَ به إليهم من الرسالةِ، فإذا بلَّغتهم ذلك، فقد قضيتَ ما عليكَ «وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِها»، يقولُ تعالى ذِكْرُه: فإنَّا إذا أغنينا ابنَ آدم فأعطيناهُ من عندنا سَعَةً، وذلك هو الرحمةُ التي ذكرها جَلَّ ثَناؤُهُ، «فَرِحَ بها»، يقولُ: سُرَّ بما أعطيناهُ من الغِنى، ورزقناه من السَّعة وكثرة المال، «وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ»، يقولُ: وإنْ أصابتهم فاقةٌ وفقرٌ وضِيقُ عيشٍ «بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ»، يقولُ: بما أسلفت من معصيةِ الله عقوبة له على معصيتِه إياه، جَحَدَ نعمةَ الله، وأَيِسَ من الخير «فَإِنَّ الإِنْسانَ كَفُورٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فإنَّ الإنسانَ جَحُودٌ نِعَمَ رَبِّهِ، يُعَدِّدُ المصائبَ، ويجحد النعم. وإنما قال: «وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ» فأخرج الهاء والميم مخرجَ كناية جمعِ الذكور، وقد ذكر الإنسان قبل ذلك بمعنى الواحد، لأنه بمعنى الجمع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: لله سلطانُ السمواتِ السبعِ والأرضينَ، يفعلُ في سلطانه ما يشاء، ويخلقُ ما يحبُّ خَلْقَهُ، يَهَبُ لمن يشاء من خَلْقِهِ من الولد الإناثِ دونَ الذكورِ، بأنْ يجعل كل ما حَمَلَتْ زوجتُه من حملٍ منه أنثى «وَيَهَبُ لِمَنْ يَشـاءُ الـذُّكُورَ»، يقولُ: ويَهَبُ لمن يشاء منهم الذكور، بأنْ يجعل كلَّ حملٍ حملته امرأته ذكراً لا أنثى فيهم.

وقوله: «أو يُزَوِّجُهم ذُكراناً وإناثاً ويجعلُ مَنْ يشاءُ عَقِيماً»، يقولُ: يَهَبُ لهم ذكراناً وإناثاً، ويجعل من يشاء عقيماً لا يولَدُ له.

وقوله: «إنَّهُ عَلِيم قَدِيرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الله ذُو علم بما يخلقُ،

وقُدرةٍ على خَلْقِ ما يشاء لا يعزبُ عنه علمُ شيءٍ من خلقه، ولا يعجزه شيءٌ أراد خلقه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وما ينبغي لبشرٍ من بني آدم أنْ يُكَلِّمَهُ رَبُّه إلا وحياً يُوحي اللهُ إليه كيف شاء، أو إلهاماً، وإما غيره «أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجابٍ»، يقول: أو يكلمه بحيثُ يسمعُ كلامَهُ ولا يراهُ، كما كَلَّمَ موسى نَبِيَّهُ ﷺ «أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً»، يقولُ: أو يرسل اللهُ من ملائكته رسولاً، إما جبرائيل، وإما غيره «فَيُوحِيَ بإِذْنِهِ مَا يَشاءُ»، يقولُ: فيوحي ذلك الرسولُ إلى المُرْسَلِ إليه بإذنِ رَبِّه ما يشاءُ، يعني: ما يشاء رَبّه أنْ يوحيه إليه من أمرٍ ونهيٍ، وغيرِ ذلك من الرسالةِ والوحي.

وقوله: «إنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنه يعني نفسه جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ذُو عُلوٍّ على كل شيء وارتفاعٍ عليه، واقتدار. «حكيم»، يقولُ: ذو حكمة في تدبيره خلقه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا»، وكما كنا نوحي في سائر رسلنا، كذلك أوحينا إليك يا محمدُ هذا القرآنَ، «روحاً من

أمرنا»، يقولُ: وحياً ورحمةً من أمرنا.

وقـوله: «مَا كُنْتَ تَدْرِي ما الكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ»، يقول جَلَّ ثناؤه لنبيه محمـدٍ ﷺ: ما كنتَ تدري يا محمـدُ أيَّ شيء الكتاب ولا الإيمان اللذين أعطيناكهُمَا «وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً»، يقولُ: ولكن جعلنا هذا القرآنَ، وهو الكتاب نوراً، يعني ضياءً للناس، يستضيئونَ بضوئِه الذي بَيَّنَ الله فيه، وهو بيانه الذي بين فيه، ممـا لهم فيه في العمـلِ به الرشادُ، ومن النار النجاةُ. «نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبادِنا»، يقولُ: نهدي بهذا القرآن، فالهاء في قوله: «به» من ذِكْرِ الكتاب.

ويعني بقوله: «نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ»: نسدّد إلى سبيلِ الصوابِ، وذلك الإيمـانُ بالله «مَنْ نَشـاءُ مِنْ عِبادِنا»، يقولُ: نهدي به من نشاء هدايتَهُ إلى الطريقِ المستقيمِ من عبادنا.

وقوله: «وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وإنـك يا محمدُ لتهدي إلى صراطٍ مستقيمٍ عبادَنَا، بالدعاءِ إلى الله، والبيانِ لهم. «صِراطِ اللهِ الَّذي لَهُ ما في السَّمٰواتِ وما في الأرْضِ»، يقول جَلَّ ثناؤه: وإنك لتهدي إلى صراطٍ مستقيم، وهو الإسلامُ، طريقُ الله الذي دعا إليه عبادَهُ، الذي له مُلكُ جميعِ ما في السمواتِ وما في الأرضِ، لا شريكَ له في ذلك. والصراط الثاني: ترجمة عن الصراط الأوّل.

وقوله جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «ألا إلى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ»، يقول جَلَّ ثناؤه: ألا إلى الله أيها الناسُ تصيرُ أمورُكم في الآخرة، فيقضي بينكم بالعدل.

فإن قال قائل: أَوَ ليستْ أمورُهم في الدنيا إليه؟ قيل: هي وإنْ كان إليه تدبيرُ جميعِ ذلك، فإنَّ لهم حكاماً ووُلاةً ينظرونَ بينهم، وليس لهم يومَ القيامة حاكمٌ ولا سلطانٌ غيرُه، فلذلك قيل: إليه تصيرُ الأمورُ هنالك وإنْ كانت الأمور كلها إليه وبيدِه قضاؤُها وتدبيرها في كل حال.

سورة الزخرف

بسم الله الرحمن الرحيم

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾

قد بيَّنا فيما مضى قوله: «حمٓ» بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع[(١)].

وقوله: «وَالكِتابِ المُبِينِ» قَسَم من الله تعالى أقسم بهذا الكتابِ الذي أنزله على نبيه محمدٍ ﷺ فقال: «وَالكِتابِ المُبِينِ» لمن تدبَّره وفكَّر في عبره وعظاته هداه ورشده وأدلته على حَقِّيَّتِهِ، وأنه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد، لا اختلاقٍ من محمدٍ ﷺ ولا افتراءٍ من أحدٍ «إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً»، يقولُ: إنا أنزلناه قرآناً عربياً بلسانِ العرب، إذْ كنتم أيها المُنْذَرُونَ به من رَهْطِ محمدٍ ﷺ عرباً. «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»، يقولُ: لتعقِلُوا معانيه وما فيه من مواعظ، ولم يُنْزِلْهُ بلسانِ العجَم، فيجعله أعجمياً، فتقولوا: نحن عَرَبٌ، وهذا كلام أعجميٌّ لا نفقهُ معانيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾

---

(١) تقدم في السور المبتدئة بالحروف.

يقول تعالى ذِكْرُه: وإن هذا الكتابَ أصلُ الكتابِ الذي منه نُسِخَ هذا الكتابُ عندنا «لعليٌّ»، يقولُ: لذو عُلُوٍّ ورِفْعةٍ، «حكيم»، قد أُحْكِمَتْ آياتُه، ثم فُصِّلَتْ فهو ذُو حِكْمةٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويلِ ذلك، فقال بعضهم: معناه: أفنضربُ عنكم ونتركُكم أيها المشركونَ فيما تحسبون، فلا نُذَكِّرُكُمْ بعقابنا من أجلِ أنكم قومٌ مشركون.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أفنتركُ تذكيرَكُمْ بهذا القرآنِ، ولا نذكركم به، لِأَنْ كنتم قوماً مسرفين.

وأولى التأويلين في ذلك بالصواب تأويلُ من تأوَّلَهُ: أفنضربُ عنكم العذابَ فنترككم ونعرض عنكم لِأَنْ كنتم قوماً مسرفينَ لا تؤمنون بربِّكم.

وإنما قلنا ذلك أولى التأويلين بالآية، لأنَّ الله تبارك وتعالى أتبعَ ذلك خبره عن الأممِ السالفةِ قبل الأمم التي تَوَعَّدَها بهذه الآيةِ في تكذيبها رسلها، وما أحلَّ بها من نقمته، ففي ذلك دليلٌ على أن قوله: «أَفَنَضْرِبُ عَنْكُم الذِّكْرَ صَفْحاً» وعيدٌ منه للمخاطبينَ به من أهلِ الشرك، إذْ سلكوا، في التكذيب بما جاءهم عن الله، رسولَهم، مَسْلَكَ الماضينَ قبلهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ» يا محمدُ في القرون الأوَّلينَ الذين مضوا قبل قَرْنِكَ الذي بُعِثْتَ فيه كما أرسلناكَ في قومكَ من قريش «وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ»، يقولُ: وما كانَ يأتي قرناً من أولئك القرونِ وأمةً من أولئك الأممِ الأوَّلينَ لنا من نبيٍّ يدعوهم إلى الهدى وطريقِ الحقِّ، إلا كان الـذين يأتيهم ذلك من تلك الأمم نَبِيُّهم الذي أرسله إليهم يستهزئون سخريةً منهم بهم كاستهزاءِ قومكَ بكَ يا محمد. يقولُ: فلا يَعْظُمَنَّ عليكَ ما يفعلُ بكَ قومُكَ، ولا يشقنَّ عليكَ، فإنهم إنما سلكوا في استهزائِهم بك مسلكَ أسلافِهم، ومنهاجَ أئمتهم الماضينَ من أهلِ الكفرِ بالله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فأهلكنا أشدَّ من هؤلاءِ المستهزئينَ بأنبيائِهم بطشاً إذا بطشوا فلم يُعْجِزُونا بقواهم وشدَّةِ بطشهم، ولم يقدروا على الامتناعِ من بأسنا إذْ أتاهم، فالذين هُمْ أضعفُ منهم قوَّةً أحرى أنْ لا يقدروا على الامتناعِ من نقمنا إذا حلَّتْ بهم. «وَمَضَى مَثَلُ الأوَّلِينَ»، يقول جَلَّ ثناؤه: ومضى لهؤلاءِ المشركينَ المستهزئينَ بك ولمن قَبْلَهُمْ من ضُرَبائِهم مَثَلُنَا الذي مَثَّلناه لهم في أمثـالهم من مكـذِّبي رُسُلِنَـا الـذين أهلكنـاهم، يقولُ: فليتوقع هؤلاءِ الذين يستهزئونَ بكَ يا محمدُ من عقوبتنا مثلَ الذي أحللناه بأولئكَ الذين أقاموا على تكذيبك.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولئن سألتَ يا محمدُ هؤلاءِ المشركينَ من قومكَ: مَنْ خلقَ السمواتِ السبع والأرضينَ، فأحدثهنَّ وأنشأهنَّ؟ ليقولُنَّ: خلقهنَّ العزيزُ في سلطانه وانتقامه من أعدائه، العليمُ بهنَّ وما فيهنَّ من الأشياء، لا يَخْفَى عليه شيءُ «الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأرْضَ مَهْداً»، يقولُ: الذي مَهَّدَ لكم الأرْضَ، فجعلها لكم وِطاءً تُوطئُونَها بأقدامِكُمْ، وتمشون عليها بأرجلكم «وَجَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً»، يقولُ: وسهَّلَ لكم فيها طرقاً تتطرَّقُونَها من بلدةٍ إلى بلدة، لمعايشِكم ومتاجرِكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بقَدَرٍ»، يعني: ما نزَّلَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ من الأمطارِ من السماءِ «بقدر»، يقول: بمقدارِ حاجتكم إليه، فلم يجعله كالطوفانِ، فيكون عذاباً كالذي أنزل على قومِ نوحٍ، ولا جعله قليلاً، لا ينبتُ به النباتُ والزرعُ من قِلَّته، ولكنه جعله غيثاً مُغيثاً، وَحَياً للأرضِ المَيْتَةِ مُحيياً. «فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً»، يقول جَلَّ ثناؤه: فأحيينا به بلدةً من بلادكم ميتاً، يعني مُجْدِبةً لا نباتَ بها ولا زرعَ، قد دَرَسَتْ من الجدوبِ، وتَعَفَّتْ من القحوطِ «كَذلكَ تُخْرَجُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: كما أخرجنا بهذا الماء الذي نَزَّلناهُ من السماء من هذه البلدةِ الميتةِ بعد جُدوبها وقُحوطها النباتَ والزرع، كذلك أيها الناسُ تُخرجون من بعد فنائِكم ومصيركم في الأرضِ رُفاتاً بالماء الذي أنزله إليها لإحيائِكم من بعدِ مماتِكم منها أحياء كهيئتكم التي كنتم بها قبلَ مماتكم.

وقوله: «وَالَّذِي خَلَقَ الأزْوَاجَ كلَّها»، يقول تعالى ذِكْرُه: والذي خلق كلَّ شيءٍ فزوجه، أي خلقَ الذكورَ من الإناثِ أزواجاً، والإناثَ من الذكورِ أزواجاً.

«وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الفُلْكِ» وهي السفن «والأنْعام» وهي البهائم «ما تَرْكَبُونَ»، يقولُ: جعل لكم من السفنِ ما تركبونَهُ في البحارِ إلى حيث قصدتم واعتمدتم في سيركم فيها لمعايشِكم ومطالبكم، ومن الأنعامِ ما تركبونه في البرِّ إلى حيث أردتم من البلدانِ، كالإبلِ والخيلِ والبغالِ والحمير.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: كي تَسْتَوُوا على ظهورِ ما تركبون.

وقـوله: «ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ثم تذكروا نعمةَ رَبِّكم التي أنعمها عليكم بتسخيرِه ذلك لكم مراكب في البَرِّ والبحر «إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ» فَتُعَظِّمُوه وتُمَجِّدُوه، وتقولوا تنزيهاً لله الذي سَخَّرَ لنا هذا الذي ركبناه من هذه الفلك والأنعـام، ممـا يَصِفُه به المشركونَ، وتشرك معه في العبادة من الأوثانِ والأصنام.

وقوله: «ومَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ» وما كنا له مُطِيقينَ ولا ضابطينَ، من قولهم: قد أقرنتَ لهذا: إذا صرت له قِرْناً وأطقته، وفلان مقرنٌ لفلانٍ: أي: ضابطٌ له مُطِيق.

وقوله: «وَإِنَّا إلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُون»، يقول جَلَّ ثناؤُه: وليقولوا أيضاً: وإنَّا إلى رَبِّنَا من بعدِ مماتنا لصائرونَ إليه راجعون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا

﴿بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وجعلَ هؤلاءِ المشركونَ للهِ من خَلْقِهِ نصيباً، وذلك قولهم للملائكةِ: هُمْ بناتُ الله.

وقوله: «إنَّ الإنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الإنسانَ لَذُو جَحْدٍ لنِعمِ رَبِّه التي أنعمها عليه «مبين»، يقولُ: يبينُ كفرانُه نِعَمَهُ عليه، لمن تأمَّلَهُ بفكرِ قلبِهِ، وتدبر حاله.

وقولـه: «أمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ»، يقول جَلَّ ثناؤه موبخاً هؤلاءِ المشركينَ الذين وصفوه بأن الملائكةَ بناته: أتخذ رَبُّكم أيها الجاهلون مما يخلقُ بناتٍ، وأنتم لا ترضونَ لأنفسكم، «وأصفاكُمْ بالبنين»، يقولُ: وأخلَصَكُمْ بالبنينَ، فجعلهم لكم «وَإذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَن مَثَلاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا بُشِّرَ أحدُ هؤلاءِ المشركينَ الجاعلينَ لله من عبادِه جزءاً «بما ضَرَبَ للرحمنِ مثلاً»، يقولُ: بما مَثَّلَ لله، فَشَبَّهَهُ شَبَهاً، وذلك ما وصفه به من أنَّ له بناتٍ.

وقوله: «ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: ظَلَّ وجهُ هذا الذي بشَّر بما ضربَ للرحمنِ مَثَلاً من البنات مسوداً من سُوءِ ما بُشِّرَ به. «وَهُوَ كَظِيمٌ»، يقولُ: وهو حزين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ۝١٨﴾

يقــول تعــالى ذِكْـرُه: أَوَ مَنْ ينبتُ في الحِلْيةِ ويزين بهـا «وَهُـوَ فِي الخِصَامِ»، يقول: وهو في مخاصمةِ مَنْ خاصمه عند الخصامِ غيرُ مبين، من خصمه ببرهان وحجة، لعجزه وضعفه، جعلتموه جُزْءاً لله من خَلْقِهِ وزعمتم أنه

نصيبه منهم، وفي الكلام متروكٌ استغني بدلالةِ ما ذُكِرَ منه وهو ما ذكرتُ.

واختلف أهلُ التأويل في المعنيِّ بقوله: «أَوْ مَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ»، فقال بعضهم: عُنِي بذلك الجواري والنساء.

وقال آخرون: عُنِي بذلك أوثانهم التي كانوا يعبدونها من دونِ الله.

وأَوْلى القولين في ذلك بالصوابِ قولُ مَنْ قال: عنى بذلك الجواري والنساء، لأنَّ ذلك عقيبَ خبرِ الله عن إضافةِ المشركينَ إليه ما يَكْرَهُونَهُ لأنفسهم من البناتِ، وقِلَّةِ معرفتهم بحقِّه، وتحليتهم إياهُ من الصفاتِ والبخل، وهو خالِقُهم ومالِكُهم ورازقهم، والمنعمُ عليهم النعمَ التي عَدَّدَهَا في أوَّلِ هذه السورةِ ما لا يرضونه لأنفسهم، فإتباع ذلك من الكلام ما كان نظيراً له أشبه وأَوْلى من إتباعهِ ما لم يَجْرِ له ذِكْرٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وجعل هؤلاءِ المشركونَ بالله ملائكته الذين هم عبادُ الرحمن.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك، فقرأته عامة قَرَأة المدينة «الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ» بالنون، فكأنهم تأوَّلُوا في ذلك قول الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ» فتأويلُ الكلام على هذه القراءة: وجعلوا ملائكةَ الله الذين هم عنده يُسَبِّحُونَهُ ويقدِّسُونه إناثاً، فقالوا: هم بناتُ الله جهلاً منهم بحقِّ الله، وجرأةً منهم على قِيلِ الكذبِ والباطل. وقرأ ذلك عامة قَرَأة الكوفة والبصرة «وَجَعَلُوا المَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمَنِ إناثاً» بمعنى: جمع عبد. فمعنى الكلام على قراءةِ هؤلاءِ: وجعلوا ملائكةَ الله الذين هم خَلْقُه وعباده بنات الله، فأنَّثوهُمْ بوصفِهم إياهم بأنهم إناث.

والصـوابُ من القولِ في ذلك عندي أنهما قراءتان معروفتان في قرأةِ الأمصارِ صحيحتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب، وذلك أنَّ الملائكة عبادُ الله وعنده.

واختلفـوا أيضاً في قراءة قوله: «أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ» فقرأ ذلك بعض قَرَأة المدينة «أَأُشْهِدُوا خَلْقَهُمْ» بضم الألف، على وجه ما لم يُسمَّ فاعلُه، بمعنى: أَأَشْهَدَ اللهُ هؤلاءِ المشركينَ الجاعلينَ ملائكةَ اللهِ إناثاً، خَلْقَ ملائكته الذين هم عنده، فعلموا ما هُمْ، وأنهم إناثٌ، فوصفوهم بذلك، لعلمهم بهم، وبرؤيتهم إياهم، ثم رُدَّ ذلك إلى ما لم يُسَمَّ فاعلُه. وقُرِئ بفتح الألف، بمعنى: أَشَهِدُوا هم ذلك فَعَلِمُوه؟

والصواب من القول في ذلك عندي أنهما قراءتان معروفتان، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيبٌ.

وقـوله: «سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: سَتُكْتَبُ شهادةُ هؤلاءِ القائلين: الملائكة بنات الله في الدنيا، بما شهدوا به عليهم، ويُسألون عن شهادتهم تلك في الآخرة أنْ يأتوا ببرهانٍ على حقيقتها، ولن يجدوا إلى ذلك سبيلاً.

القولُ في تأويلِ قولِهِ تعالَى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقال هؤلاءِ المشركونَ من قريشٍ: لو شاء الرحمنُ ما عبدنا أوثانَنا التي نعبدها من دونه، وإنَّما لم يُحِلَّ بنا عقوبةً على عبادتِنا إياها لرضاهُ مِنَّا بعبادَتِنَاهَا.

«ما لَهُمْ بِذَلكَ مِنْ عِلْمٍ»، يقولُ: ما لهم بحقيقةِ ما يقولون من ذلك من علمٍ، وإنما يقولونه تَخَرُّصاً وتكذُّباً، لأنهم لا خبرَ عندهم مني بذلك ولا بُرْهانَ. وإنما يقولونه ظناً وحسباناً. «إنْ هُمْ إلاَّ يَخْرُصُونَ»، يقولُ: ما هم إلا مُتَخَرِّصُونَ هذا القولَ الذي قالوه، وذلك قولهم: «لَوْ شاءَ الرَّحْمَنُ ما عَبَدْناهُمْ».

وقوله: «أمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما آتينا هؤلاءِ المتخرِّصينَ القائلينَ: لو شاء الرحمنُ ما عبدنا الآلهةَ كتاباً بحقيقةما يقولون من ذلك، من قبلِ هذا القرآنِ الذي أنزلناه إليكَ يا محمدُ «فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ»، يقولُ: فهم بذلك الكتابِ الذي جاءهم من عندي من قبلِ هذا القرآن، مستمسكون يعملون به، ويَدينونَ بما فيه، ويحتجون به عليك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ما آتينا هؤلاءِ القائلينَ: لو شاء الرحمنُ ما عبدنا هؤلاءِ الأوثانِ بالأمرِ بعبادتها، كتاباً من عِنْدِنَا، ولكنهم قالوا: وجدنا آباءنا الذين كانوا قبلنا يعبدونها، فنحنُ نَعْبُدُهَا كما كانوا يعبدونها؛ وعنى جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقوله: «إنَّا وَجَدْنا آباءَنَا على أُمَّةٍ»: بَلْ وجدنا آباءنا على دِينٍ ومِلَّةٍ، وذلك هو عبادَتُهم الأوثانَ.

وقوله: «وَإنَّا على آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ»، يقولُ: وإنَّا على آثارِ آبائنا فيما كانوا عليه من دِينهم مهتدون، يعني: لهم مُتَّبِعُونَ على منهاجهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ

﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ۝٢٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وهكذا كما فعلَ هؤلاءِ المشركونَ من قريشٍ فعل مَنْ قبلهم من أهلِ الكفرِ بالله، وقالوا مِثْلَ قولهم، لم نرسل مِنْ قبلك يا محمدُ في قريةٍ، يعني إلى أهلها رسلاً تنذرهم عقابنا على كفرهم بنا فأنذروهم وحذَّروهم سخطنا، وحلولَ عقوبتنا بهم «إلَّا قال مُتْرَفُوها»، وهم رؤساؤهم وكبراؤهم.

وقوله: «إنَّا وَجَدْنَا آباءَنَا على أُمَّةٍ»، يقولُ: قالوا: إنَّا وجدنا آباءنا على مِلَّةٍ ودِين «وَإنَّا على آثارِهِمْ»، يعني: وإنا على منهاجهم وطريقتهم مقتدون بفعلهم نفعلُ كالذي فعلوا، ونعبدُ ما كانوا يعبدون: يقول جَلَّ ثناؤه لمحمدٍ ﷺ: فإنما سَلَكَ مشركُو قومكَ منهاجَ مَنْ قَبْلَهُمْ من إخوانِهم من أهلِ الشركِ بالله في إجابتهم إياكَ بما أجابوكَ به، وردِّهم ما ردُّوا عليكَ من النصيحةِ، واحتجاجهم بما احتجوا به لمُقامهم على دينهم الباطل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٢٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ»، يا محمدُ، لهؤلاءِ المشركينَ من قومك، القائلينَ: «إنَّا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون». «أوَ لَوْ جِئْتُكُمْ» أيها القومُ من عند ربكم «بأَهْدَى» إلى طريقِ الحقِّ، وأدلَّ لكم على سبيلِ الرشاد «مِمَّا وَجَدْتُمْ» أنتم عليه آباءكم من الدين والمِلَّةِ، «قالُوا إنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ»، يقولُ: فقال ذلك لهم، فأجابوهُ بأنْ قالوا له كما قالَ الذينَ من قبلهم من الأممِ المكذِّبةِ رُسُلَها لأنبيائِها: «إنَّا بما أُرسلتم به» يا أيها القومُ «كافرون»، يعني: جاحدون مُنْكِرُون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فانتقمنا من هؤلاءِ المكذِّبةِ رُسُلَها من الأممِ الكافرةِ بربها، بإحلالنا العقوبةَ بهم، فانظرْ يا محمدُ كيف كان عُقْبى أمرهم، إذ كَذَّبوا بآياتِ الله. ويعني بقوله: «عاقِبَةُ المُكَذِّبينَ» آخر أمر الذين كذَّبوا رُسُلَ الله إلاَمَ صار يقولُ: ألم نهلكهم فنجعلهم عبرةً لغيرهم؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَإِذْ قالَ إبْراهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ» الذين كانوا يعبدون ما يعبده مشركُو قومكَ يا محمدُ «إنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ» من دونِ الله، فكذَّبوه، فانتقمنا منهم كما انتقمنا مِمَّنْ قَبْلَهُمْ من الأمم المكذِّبة رُسُلَها. وقيل: «إنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ» فوضعَ البراءَ وهو مصدر موضعَ النعتِ، والعربُ لا تثني البراء ولا تجمع ولا تؤنث، فتقول: نحن البراء والخلاء لِما ذكرت أنه مصدر، وإذا قالوا: هو بريءٌ منك ثنوا وجمعوا وأنَّثوا، فقالوا: هما بريئان منك، وهم بريئون منك. وذُكر أنها في قراءة عبدالله: «إنَّنِي بَرِيءٌ» بالياء، وقد يجمع بريء: براء وأبراء «إلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي»، يقولُ: إني بريء مما تعبدونَ من شيءٍ إلا من الذي فَطَرَني، يعني الـذي خَلَقَني. «فـإنَّهُ سَيَهْدِينِ»، يقولُ: فإنه سيقوِّمُني للدينِ الحقِّ، ويوفقني لاتباعِ سبيلِ الرشد.

وقوله: «وَجَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ»، يقولُ تعالى ذِكْرُه: وجعل قوله: «إنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي» وهو قولُ لا إله إلا الله، كلمةً باقيةً في عَقِبِهِ، وهم ذُرِّيته، فلم يزل في ذرّيته مَنْ يقول ذلك من بعده.

وقوله: «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ»، يقولُ: ليرجعوا إلى طاعةِ رَبِّهم، ويثوبوا إلى عبادته، ويتوبوا من كفرهم وذنوبهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «بَلْ مَتَّعْتُ» يا محمدُ «هَؤُلَاءِ» المشركينَ من قومكَ «وَآباءَهُمْ» من قبلهم بالحياةِ، فلم أُعاجِلْهُمْ بالعقوبةِ على كفرهم «حتى جاءَهُمْ الحَقُّ»، يعني جَلَّ ثَنَاؤُهُ بالحقِّ: هذا القرآن: يقولُ: لم أُهلكهم بالعذابِ حتى أنزلتُ عليهم الكتابَ، وبعثتُ فيهم رسولاً مبيناً. يعني بقوله: «وَرَسُولٌ مُبِينٌ»: محمداً ﷺ، والمبين: أنه يبينُ لهم بالحججِ التي يحتجُّ بها عليهم أنه الله رسولٌ مُحِقٌّ فيما يقول. «ولَمَّا جاءَهُمُ الحَقُّ»، يقول جَلَّ ثناؤه: ولما جاء هؤلاءِ المشركينَ القرآنُ من عند الله، ورسولٌ من الله أرسله إليهم بالدعاءِ إليه. «قالُوا هَذَا سِحْرٌ»، يقولُ: هذا الذي جاءنا به هذا الرسولُ سحرٌ يسحرنا به، ليس بوحيٍ من الله «وَإِنَّا بِهِ كافِرُونَ»، يقولُ: قالوا: وإنَّا به جاحدون، نُنْكِرُ أنْ يكونَ هذا من الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّاۗ

وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: وقال هؤلاءِ المشركونَ باللهِ من قريش لما جاءهم القرآنُ من عند الله: هذا سحرٌ، فإنْ كان حقاً فَهَلَّا نزلَ على رجلٍ عظيمٍ من إحدى هاتين القريتين مكة أو الطائف.

وقوله: «أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أهؤلاءِ القائلون: لولا نُزِّلَ هذا القرآنُ على رجلٍ من القريتين عظيم يا محمدُ، يَقْسِمُونَ رحمةَ رَبِّكَ بين خَلْقِه، فيجعلونَ كرامته لمن شاؤوا، وفَضْلَهُ لمن أرادوا، أم اللهُ الذي يقسمُ ذلك، فيعطيه مَنْ أحبَّ، ويحرمه مَنْ شاء؟

وقوله: «نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الحَياةِ الدُّنْيا»، يقول تعالى ذِكْرُه: بل نحنُ نقسم رحمتَنا وكرامَتَنا بين مَنْ شئنا من خَلْقِنَا، فنجعل مَنْ شِئنَا رسولاً، ومَنْ أردنـا صِدِّيقاً، ونتخذ مَنْ أردنا خليلاً، كما قسمنا بينهم معيشتهم التي يعيشون بها في حياتهم الدنيا من الأرزاقِ والأقواتِ، فجعلنا بعضَهم فيها أرفعَ من بعضٍ درجةً، بل جعلنا هذا غنياً، وهذا فقيراً، وهذا ملكاً، وهذا مملوكاً «لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا».

وقوله: «لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا»، يقولُ: ليستسخرَ هذا هذا في خِدْمَتِه إياه، وفي عَوْدِ هذا على هذا بما في يديه من فضلٍ، يقولُ: جعل تعالى ذِكْرُه بعضاً لبعضٍ سبباً في المعاش في الدنيا.

وقـوله: «وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ورحمةُ ربك يا محمدُ بإدخالهم الجنةَ خيرٌ لهم مما يجمعون من الأموالِ في الدنيا.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَلَوْلا أنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً»: جماعةً واحدة.

ثم اختلف أهلُ التأويل في المعنى الذي لم يُؤْمَنْ اجتماعُهم عليه، لو فَعَلَ ما قالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ، وما به لم يفعله من أجله، فقال بعضهم: ذلك اجتماعُهم على الكفر. وقال: معنى الكلام: ولولا أنْ يكونَ الناسُ أمةً واحدة على الكفر، فيصيرَ جميعهم كفاراً «لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّة».

وقال آخرون: اجتماعهم على طَلَبِ الدنيا وتركِ طلب الآخرة. وقال: معنى الكلام: ولولا أنْ يكونَ الناسُ أمةً واحدة على طَلَبِ الدنيا ورفضِ الآخرة.

وقوله: «لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لجعلنا لمن يكفرُ بالرحمنِ في الدنيا سقفاً، يعني أعاليَ بيوتهم، وهي السطوحُ فِضَّةً.

وقوله: «وَمَعَارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ»، يقولُ: ومراقِيَ ودَرَجاً عليها يصعدونَ، فيظهرون على السقف. والمعارج: هي الدرج نفسها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وجعلنا لبيوتهم أبواباً من فضة، وسُرُراً من فضة.

وقوله: «وَزُخْرُفاً»، يقولُ: ولَجَعَلْنا لهم مع ذلك زخرفاً، وهو الذهبُ.

وقوله: «وَإِنْ كُلُّ ذلكَ لَمَّا مَتاعُ الحَياةِ الدُّنْيَا»، يقول تعالى ذِكْرُه: وما كلُّ

هذه الأشياء التي ذكرتُ من السقفِ من الفضةِ والمعارجِ والأبوابِ والسُّرُرِ من الفضةِ والزخرفِ، إلا متاعٌ يستمتعُ به أهلُ الدنيا في الدنيا. «وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وزَيْنُ الدارِ الآخرةِ وبهاؤُها عند رَبِّكَ للمتقين، الذين اتقوا الله فخافوا عقابه، فَجَدُّوا في طاعته، وحذروا معاصيه خاصةً دونَ غيرهم من خَلْقِ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝٣٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومَنْ يُعْرِضْ عن ذِكْرِ الله فلم يَخَفْ سطوته، ولم يَخْشَ عقابَهُ «نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ»، يقولُ: نجعلْ له شيطاناً يُغْويه «فهو له قرينٌ»، يقولُ: فهو للشيطانِ قرينٌ، أي يصيرُ كذلك، وأصلُ العشو: النظرُ بغيرِ ثبتٍ لعلةٍ في العين، يقال منه: عَشَا فلانٌ يعشو عشواً وعشوّاً: إذا ضَعُفَ بَصَرُه، وأظلمتْ عينه، كأنَّ عليه غشاوة.

وقوله: «وإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإنَّ الشياطينَ ليصدُّونَ هؤلاءِ الذين يعشون عن ذِكْرِ الله، عن سبيل الحقِّ، فيزينون لهم الضلالة، ويُكَرِّهُونَ إليهم الإيمانَ بالله، والعمل بطاعته. «وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ»، يقولُ: ويظنُّ المشركونَ بالله بتحسينِ الشياطينِ لهم ما هُمْ عليه من الضلالةِ، أنهم على الحقِّ والصوابِ، يخبرُ تعالى ذِكْرُه عنهم أنهم من الذي هُمْ عليه من الشركِ على شكٍّ وعلى غيرِ بصيرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ۝٣٨ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ۝٣٩﴾

يقول جَلَّ ثناؤه: حتى إذا جاءنا هذا الذي عَشِيَ عن ذِكْرِ الرَّحمنِ، وقَرِينُه الذي قُيِّضَ له من الشياطين.

وقوله: «يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ المَشْرِقَيْنِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قال أحد هذين القرينين لصاحبه الآخر: وَدِدْتُ أنَّ بيني وبينك بُعْدَ المشرقين: أي بُعْدَ ما بين المشرقِ والمغرب.

وقوله: «فبئس القرينُ»، يعني: فبئس القرينُ أنتَ أيها الشيطانُ[1].

وقـولـه: «وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ اليَوْمَ» أيها العاشُونَ عن ذِكْرِ الله في الدنيا «إذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ في العَذَابِ مُشْتَرِكُونَ»، يقولُ: لن نُخفف عنكم اليوم من عذابِ الله اشتراككم فيه، لأنَّ لكلِّ واحدٍ منكم نصيبه منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَـٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾**

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «أفأنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ»: مَنْ قد سَلَبَهُ اللهُ استماعَ حُجَجِه التي احتجَّ بها في هذا الكتاب فأصَمَّهُ عنه، أو تهدي إلى طريقِ الهدى مَنْ أعمى اللهُ قلبه عن إبصارِه، واستحوذَ عليه الشيطانُ، فزيَّنَ له الرَّدَى. «وَمَنْ كانَ في ضَلالٍ مُبِينٍ»، يقولُ: أو تَهْدي مَنْ كان في جَوْرٍ عن قصدِ السبيل، سالك غير سبيل الحقِّ، قد أبانَ ضلالُه أنه عن الحقِّ زائلٌ، وعن قصدِ السبيلِ جائرٌ: يقول جَلَّ ثناؤه: ليس ذلك إليكَ، إنما ذلك إلى اللهِ الذي بيده صَرْفُ قلوبِ خَلْقِه كيفَ شاء، وإنما أنتَ منذرٌ، فَبَلِّغْهُمْ النذارةَ.

---

(١) هذه الجملة ليست في المطبوعة واستدركناها لإتمام تفسير الآية، وهي مستخلصة من تفسير المؤلف، وانظر أيضاً: زاد المسير لابن الجوزي: ٣١٧/٧.

وقوله: «فإمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فإنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ»، اختلف أهلُ التأويل في المعنيين بهذا الوعيد، فقال بعضهم: عُنِيَ به أهلُ الإسلام من أمةِ نبينا عليه الصلاة والسلام.

وقال آخرون: بل عنى به أهل الشرك من قريش، وقالوا: قد أرى اللهُ نَبِيَّهُ عليه الصلاة والسلام فيهم.

وهذا القول الثاني أوْلى التأويلين في ذلك بالصوابِ، وذلك أنَّ ذلك في سياقِ خبرِ الله عن المشركينَ فلأنْ يكونَ ذلك تهديداً لهم أوْلى من أنْ يكون وعيداً لمن لم يجرِ له ذِكْرٌ. فمعنى الكلام إذ كان ذلك كذلك: فإنْ نذهبْ بكَ يا محمدُ من بين أظهر هؤلاءِ المشركينَ، فنخرجَك من بينهم «فَإنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ»، كما فعلنا ذلك بغيرهم من الأمم المكذِّبةِ رُسُلَها، «أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ» يا محمدُ من الظفر بهم، وإعلائِكَ عليهم «فَإنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ» أنْ نُظْهِرَكَ عليهم، ونخزيهم بيدك وأيدي المؤمنين بك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: فَتَمَسَّكْ يا محمدُ بما يأمركَ به هذا القرآنُ الذي أوحاه إليك رَبُّكَ، «إنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» ومنهاج سديد، وذلك هو دينُ الله الذي أمر به، وهو الإسلام.

وقوله: «وَإنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإنَّ هذا القرآنُ الذي أُوحيَ إليك يا محمدُ، الذي أمرناك أنْ تستمسك به لشرفٌ لك ولقومكَ من قريش «وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ»، يقولُ: وسوف يسألك رَبُّكَ وإياهم عما عملتم فيه، وهل عملتم بما أمركم ربكم فيه، وانتهيتم عما نهاكم عنه فيه؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

اختلف أهلُ التأويلِ في معنى قوله: «واسأَلْ مَنْ أرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا» ومن الذين أُمِرَ رسولُ الله ﷺ بمسألتهم ذلك، فقال بعضهم: الذين أُمر بمسألتهم ذلك رسول الله ﷺ: مؤمنُو أهلِ الكتابين: التوراة، والإنجيل.

وقال آخرون: بل الذين أُمِرَ بمسألتهم ذلك الأنبياء الذين جُمِعوا له ليلة أُسرِيَ به ببيتِ المقدس.

وأوْلى القولين بالصوابِ في تأويل ذلك، قولُ مَنْ قال: عنى به: سَلْ مؤمني أهلِ الكتابين.

فإنْ قال قائل: وكيف يجوز أن يقال: سَلِ الرسل، فيكون معناه: سل المؤمنينَ بهم وبكتابهم؟ قيل: جاز ذلك من أجلِ أنَّ المؤمنينَ بهم وبكتبهم أهلُ بلاغٍ عنهم ما أتوهم به عن رَبِّهم، فالخبرُ عنهم وعما جاؤوا به من رَبِّهم إذا صحَّ بمعنى: خَبَّرْهُمْ، والمسـألة عما جاؤوا به بمعنى مسألتهم إذا كان المسؤول من أهلِ العلم بهم والصدق عليهم، وذلك نظير أمر الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ إيانا بردِّ ما تنازَعْنَا فيه إلى اللهِ وإلى الرسولِ، يقولُ: «فإنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلى اللهِ وَالـرَّسُولِ» [النساء: ٥٩]، ومعلومٌ أن معنى ذلك: فردُّوه إلى كتاب الله وسنةِ رسولِه، لأنَّ الردّ إلي ذلك ردّ إلى الله والرسول.

وكذلك قوله: «وَاسْأَلْ مَنْ أرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا» إنما معناه: فاسأل كُتُبَ الذين أرسلنا من قبلك من الرسلِ، فإنك تعلمُ صِحَّةَ ذلك من قِبَلِنا، فاستغنى بذكر الرسل من ذكر الكتب، إذ كان معلوماً ما معناه.

وقـوله: «أجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ» يقولُ: أمرناهم بعبادةِ

الآلهةِ من دون الله فيما جاؤوهم به، أو أتوهم بالأمرِ بذلك من عندنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد أرسلنا يا محمدُ موسى بحججنا إلى فرعونَ وأشرافِ قومه، كما أرسلناك إلى هؤلاءِ المشركينَ من قومك، فقال لهم موسى: إني رسولُ ربِّ العالمين، كما قلتَ أنتَ لقومكَ من قريش: إني رسولُ الله إليكم، «فَلَمَّا جاءَهُمْ بآياتِنا إذَا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ»، يقولُ: فلما جاء موسى فرعونَ ومَلأَهُ بِحُجَجِنَا وأدلتنا على صِدْقِ قوله: فيما يدعوهم إليه من توحيدِ الله والبراءةِ من عبادةِ الآلهة، إذا فرعونُ وقومُه مما جاءهم به موسى من الآياتِ والعِبَر يضحكونَ؛ كما أنَّ قومكَ مما جِئْتَهُمْ به من الآياتِ والعِبر يسخرون.

وهذا تسليةٌ من الله عَزَّ وجَلَّ نبيه ﷺ عما كان يَلْقَى من مشركي قومه، وإعلامٌ منه له، أنَّ قومه من أهلِ الشرك لن يَعْدُوا أنْ يكونوا كسائرِ الأممِ الذين كانوا على منهاجهم في الكفر بالله وتكذيبِ رسله، وندب منه نبيه ﷺ إلى الاستنانِ في الصبرِ عليهم بسننِ أُولي العزمِ من الرسل، وإخبارٌ منه له أنَّ عُقْبَى مَرَدِّتهم إلى البوارِ والهلاكِ كسنته في المتمرِّدِينَ عليه قبلهم، وإظفارِه بهم، وإعلائِه أمره، كالذي فعلَ بموسى عليه السلام، وقومه الذين آمنوا به من إظهارِهم على فرعونَ ومَلَئِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: وما نُري فرعونَ وملأه آيةً، يعني: حُجَّةً لنا عليه بحقيقة ما يدعوه إليه رسولُنا موسى «إلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها»، يقولُ: إلا التي نُريه من ذلك أعظمُ في الحجةِ عليهم وأوكدُ من التي مَضَتْ قبلها من الآيات، وأدلُّ على صحةِ ما يأمره به موسى من توحيدِ الله.

وقوله: «وأخَذْناهُمْ بالعَذَابِ»، يقولُ: وأنزلنا بهم العذابَ، وذلك كأخذِه تعـالى ذِكْرُه إياهم بالسِّنينَ، ونقصٍ من الثمـرات، وبـالجـرادِ، والقمـلِ، والضفادعِ، والدم.

وقوله: «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ»، يقولُ: ليرجعوا عن كفرهم بالله إلى توحيدِه وطاعتِه، والتوبةِ مما هُمْ عليه مُقيمونَ من معاصيهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ۝٤٩ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ۝٥٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقال فرعونُ ومَلَؤُه لموسى: «يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ» وعنوا بقولهم: «بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ»: بعهده الذي عَهِدَ إليكَ أنَّا إنْ آمنا بكَ واتبعناك، كُشِفَ عنا الرِّجْز.

إنْ قال لنا قائل: وما وجهُ قِيلِهم: «يا أيها الساحرُ ادْعُ لنا رَبَّكَ بما عهد عنـدكَ»، وكيف سمـوه ساحراً وهم يسألونه أنْ يدعوَ لهم رَبَّهُ ليكشفَ عنهم العذابَ؟ قيل: إنَّ الساحرَ كان عندهم معناه: العالم، ولم يكن السحر عندهم ذماً، وإنما دعوه بهذا الاسم، لأنَّ معناه عندهم كان: يا أيها العالم.

وقوله: «إنَّنا لَمُهْتَدُونَ»، يقولُ: قالوا: إنَّا لَمُتَّبِعُوكَ فَمُصَدِّقُوكَ فيما جِئْتَنا به، ومُوَحِّدُو الله فَمُبْصِرُو سبيلَ الرشاد.

وقوله: «فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ العَذَابَ إذا هُمْ يَنْكُثُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه:

فلما رفعنا عنهم العذابَ الذي أنزلنا بهم، الذي وعدوا أنهم إنْ كُشِفَ عنهم اهتدوا لسبيلِ الحقِّ، إذا هم بعد كشفنا ذلك عنهم ينكثون العهدَ الذي عاهدونا: يقولُ: يغدرون ويُصِرُّونَ على ضلالهم، ويتمادون في غيهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٥١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَنادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ» من القبط، فـ«قالَ يا قَوْمِ أَلَيْسَ لي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأنهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي، أَفَلا تُبْصِرُونَ»، يعني بقوله: «مِنْ تَحْتِي»: من بين يديّ في الجِنان.

وقوله: «أَفَلا تُبْصِرُونَ»، يقولُ: أفلا تبصرون أيها القومُ ما أنا فيه من النعيمِ والخيرِ، وما فيه موسى من الفقرِ وعِيِّ اللسانِ، افتخرَ بملكِه مصرَ عدوُّ الله، وما قد مكّن له من الدنيا استدراجاً من الله له، وحَسِبَ أنَّ الذي هو فيه من ذلك نالَهُ بيده وحَوْلِه، وأنَّ موسى إنما لم يصلْ إلى الذي يصفه، فَنَسَبَهُ من أجلِ ذلك إلى المهانةِ محتجاً على جَهَلَةِ قومِه بأنَّ موسى عليه السلام لو كان مُحِقًّا فيما يأتي به من الآياتِ والعبر، ولم يكنْ ذلك سحراً، لأكسبَ نفسَهُ من المُلْكِ والنعمة، مثلَ الذي هُوَ فيه من ذلك جهلاً بالله واغتراراً منه بإملائِه إياه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ۝٥٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مُخبراً عن قِيلِ فرعونَ لقومه بعد احتجاجِه عليهم بملكِه

وسلطانِه، وبيانِ لسانه وتمام خَلْقِه، وفضلِ ما بينه وبين موسى بالصفاتِ التي وصف بها نفسَهُ وموسى: أنا خيرٌ أيها القومُ، وصفتي هذه الصفةُ التي وصفتُ لكم، «أَمْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ» لا شيءَ له من المُلْكِ والأموالِ مع العلة التي في جسده، والآفةِ التي بلسانه، فلا يكادُ من أجلها يبينُ كلامه؟

وقوله: «وَلا يَكادُ يُبِينُ»، يقولُ: ولا يكادُ يُبين الكلامَ من عِيٍّ لسانه.

وقوله: «فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ»، يقولُ: فَهَلَّا أُلْقِيَ على موسى إنْ كان صادقاً أنه رسولُ ربِّ العالمين أسورةٌ من ذهبٍ، وهو جمع سوار، وهو القُلْب الذي يُجْعَلُ في اليد.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك، فقرأته عامة قَرَأَةِ المدينة والبصرة والكوفة: «فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَساوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ». وذُكر عن الحسن البصري أنه كان يقرؤه «أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ»[1]. وأَوْلى القراءتين في ذلك بالصوابِ عندي ما عليه قَرَأَةُ الأمصار، وإن كانت الأخرى صحيحة المعنى.

وقوله: «أَوْ جاءَ مَعَهُ المَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ»، يقولُ: أو هَلَّا إنْ كان صادقاً جاء معه الملائكةُ مقترنين قد اقترنَ بعضُهم ببعضٍ، فتتابَعُوا يشهدونَ له بأنه للهِ رسولٌ إليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فاستخفَّ فرعونُ خَلْقاً من قومِه من القبط، بقوله الذي أخبر اللهُ تبارك وتعالى عنه أنه قاله لهم، فقبلوا ذلك منه فأطاعوه، وكَذَّبُوا موسى، قال الله: وإنما أطاعوا فاستجابوا لما دعاهم إليه عدوُّ الله من تصديقه،

---

(١) وهي قراءة حفص عن عاصم.

وتكذيب موسى، لأنهم كانوا قوماً عن طاعةِ الله خارجينَ بخذلانِه إياهم، وطبعه على قلوبهم، يقول الله تبارك وتعالى: «فَلَمَّا آسَفُونا»، يعني بقوله: آسفونا: أغضبونا.

وقوله: «انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ»، يقولُ: انتقمنا منهم بعاجلِ العذابِ الذي عجَّلناه لهم، فأغرقناهم جميعاً في البحر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ۝٥٦ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝٥٧﴾

تأويل الكلام: فجعلنا هؤلاءِ الذين أغرقناهم من قومِ فرعونَ في البحر مقدّمةً يتقدمونَ إلى النار، كفار قومكَ يا محمدُ من قريشٍ، وكفار قومك لهم بالأثر.

وقوله: «وَمَثَلًا للآخِرِينَ»، يقولُ: وعبرةً وعِظةً يتعظُ بهم مَنْ بَعْدَهُمْ من الأممِ، فينتهوا عن الكفرِ بالله.

وقوله: «ولما ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَم مَثَلًا»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولما شبه الله عيسى في إحداثه وإنشائه إياه من غير فحلٍ بآدمَ، فَمَثَّله به بأنه خَلَقَهُ من ترابٍ من غير فحلٍ، إذا قومكَ يا محمدُ من ذلك يَضِجُّون ويقولون: ما يريدُ محمدٌ منا إلا أنْ نتخذه إلهاً نعبده، كما عبدتِ النصارى المسيحَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ۝٦٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقال مشركو قومكَ يا محمدُ: آلهتنا التي نعبدها خير؟ أم محمدٌ فنعبدُ محمداً؛ ونترك آلهتنا؟

وقوله تعالى ذِكْرُه: «مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إلا جَدَلاً» يقول تعالى ذِكْرُه: ما مَثَّلُوا لك هذا المثلَ يا محمدُ، ولا قالوا لك هذا القولَ إلا جدلاً وخصومةً يخاصمونكَ به. «بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ»، يقول جَلَّ ثناؤه: ما بقومكَ يا محمدُ هؤلاءِ المشركينَ في مُحَاجَّتِهم إياكَ بما يحاجُّونَكَ به طَلَبَ الحقِّ «بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُون» يلتمسونَ الخصومةَ بالباطل.

وذُكر عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «ما ضَلَّ قَوْمٌ عَنِ الحَقِّ إلَّا أُوتُوا الجَدَلَ»[1].

وقوله: «إنْ هُوَ إلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فما عيسى إلا عبدٌ من عبادنا، أنعمنا عليه بالتوفيقِ والإيمان، وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل، يقولُ: وجعلناه آيةً لبني إسرائيلَ، وحجةً لنا عليهم بإرسالِنَاهُ إليهم بالدعاءِ إلينا، وليس هو كما تقولُ النصارى من أنه ابنُ الله تعالى، تعالى اللهُ عن ذلك.

وقولـه: «وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الأرضِ يَخْلُفُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولو نشاء معشرَ بني آدم أهلكناكُمْ، فأفنينا جَميعَكُمْ، وجعلنا بدلاً منكم في الأرض ملائكةً يخلفونكم فيها يعبدونني، وذلك نحو قوله تعالى ذِكْرُه: «إنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّها النَّاسُ وَيأْتِ بآخَرينَ وكانَ اللهُ على ذلكَ قَدِيراً» [النساء: ١٣٣] وكما قال: «إنْ يَشأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ ما يَشاءُ» [الأنعام: ١٣٣].

---

(١) أخرجه المؤلف (٢٥/ ٨٨) والترمذي (٣٢٥٣)، وابن ماجة (٤٨) من حديث أبي غالب عن أبي أمامة صدي بن عجلان رضي الله عنه، وإسناده صحيح، وقال الترمذي: حسن صحيح. وتحرف «أبو غالب» في المطبوع من سنن ابن ماجة إلى «أبي طالب» وهو تحريف قبيح. وأخرجه المؤلف من حديث أبي جعفر بن القاسم عن أبي أمامة (٢٥/ ٨٨).

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٢﴾

اختلف أهلُ التأويل في الهاء التي في قوله: «وإنَّهُ» وما المعنيُّ بها، ومن ذِكْرِ ما هِيَ، فقال بعضهم: هي من ذكر عيسى، وهي عائدةٌ عليه. وقالوا: معنى الكلام: وإنَّ عيسى ظهورُه عِلْمٌ يُعْلَمُ به مجيءُ الساعة، لأنَّ ظهورَهُ من أشراطها، ونزوله إلى الأرض دليلٌ على فناء الدنيا، وإقبالِ الآخرة.

وقال آخرون: الهاء التي في قوله: «وَإِنَّهُ» من ذِكْرِ القرآن، وقالوا: معنى الكلام: وإنَّ هذا القرآنَ لعلمٌ للساعةِ يعلمكم بقيامها، ويخبركم عنها وعن أهوالها[1].

وقوله: «فَلا تَمْتَرُنَّ بِها»، يقولُ: فلا تَشُكُّنَّ فيها وفي مجيئها أيها الناسُ.

وقوله: «وَاتَّبِعُونِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأطيعونِ فاعملوا بما أمرتُكم به، وانتهـوا عما نَهَيْتُكُمْ عنه، و«هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ»، يقولُ: اتباعكم إيايَ أيها الناسُ في أمري ونهيي «صراطٌ مستقيم»، يقولُ: طريقٌ لا اعوجاجَ فيه، بل هو قويم.

وقوله: «وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطانُ»، يقول جَلَّ ثناؤُه: ولا يعدلنكم الشيطانُ عن طاعتي فيمـا آمُرُكُمْ وأنهاكم، فتخالفوه إلى غيره، وتجوروا عن الصراطِ المستقيم فتضلوا. «إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ»، يقولُ: إنَّ الشيطان لكم عدوٌّ يدعوكم

---

(١) لم يرجح المؤلف أحد القولين، والأول أرجح على ما قرره العلامة ابن كثير ودلَّلَ عليه. وأيضاً فقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه أخبر بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة.

إلى ما فيه هلاككم، ويصدّكم عن قَصْدِ السبيل، ليورِدَكُمْ المهالكَ، «مبينٌ» قد أبانَ لكم عداوته، بامتناعِه من السجودِ لأبيكم آدم، وإدلائِه بالغرورِ حتى أخرجه من الجنة حَسَداً وبغياً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولما جاء عيسى بني إسرائيل بالبيِّناتِ، يعني بالواضحاتِ من الأدلة. وقيل: عَنَى بالبيِّناتِ: الإنجيلَ.

وقوله: «قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بالْحِكْمَةِ»، قيل: عَنَى بالحكمة في هذا الموضع: النبوَّةَ.

وقوله: «وَلأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ»، يقولُ: ولأُبَيِّنَ لكم معشرَ بني إسرائيلَ بعضَ الذي تختلفونَ فيه من أحكامِ التوراة.

وقوله: «فاتَّقُوا الله وأطِيعُونِ»، يقولُ: فاتقوا رَبَّكم أيها الناسُ بطاعته، وخافوه باجتنابِ معاصيه، وأطيعونِ فيما أمرتُكم به من اتقاءِ الله واتباعِ أمره، وقبولِ نصيحتي لكم.

وقوله: «إنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فاعْبُدُوهُ»، يقولُ: إنَّ الذي يستوجبُ علينا إفرادَهُ بالألوهيةِ وإخلاصِ الطاعةِ له، ربي وربكم جميعاً، فاعبدوه وحده، لا تشركوا معه في عبادته شيئاً، فإنه لا يصلح، ولا ينبغي أن يُعبد شيءٌ سواه.

وقوله: «هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ»، يقولُ: هذا الذي أمرتُكم به من اتقاءِ الله وطاعتي، وإفرادِ الله بالألوهةِ، هو الطريقُ المستقيم، وهو دينُ الله الذي لا يقبلُ

من أحدٍ من عبادهِ غيره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾

اختلف أهلُ التأويل في المَعْنِيِّينَ بالأحزاب، الذين ذكرهم اللهُ في هذا الموضعِ، فقال بعضهم: عَنَى بذلك: الجماعةُ التي تناظرت في أمر عيسى، واختلفتْ فيه.

وقال آخرون: بل هم اليهود والنصارى.

والصواب من القول في ذلك أن يقال: معنى ذلك: فاختلف الفِرَقُ المختلفونَ في عيسى بن مريم من بين مَنْ دعاهم عيسى إلى ما دعاهم إليه من اتقاءِ الله والعملِ بطاعته، وهم اليهود والنصارى، ومن اختلف فيه من النصارى، لأنَّ جميعهم كانوا أحزاباً مختلفي الأهواء مع بيانه لهم أمرَ نَفْسِه، وقوله لهم: «إنَّ الله هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ».

وقوله: «فَوَيْلٌ للَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أليمٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فالوادي السائل من القيحِ والصديدِ في جهنم للذين كفروا بالله، الذين قالوا في عيسى بن مريم بخلافِ ما وصف عيسى به نَفْسَهُ.

في هذه الآية «مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ»، يقولُ: من عذابِ يومٍ مؤلمٍ، ووصفَ اليومَ بالإيلام، إذ كان العذابُ الذي يؤلمهم فيه، وذلك يوم القيامة.

وقوله: «هَلْ يَنْظُرُونَ إلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً»، يقولُ: هل ينظر هؤلاءِ الأحزاب المختلفون في عيسى بن مريم، القائلونَ فيه الباطلَ من القولِ، إلا الساعةَ التي فيها تقومُ القيامةُ فجأة. «وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ»، يقولُ: وهم لا يعلمون

بمجيئها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝٦٧ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۝٦٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: المُتَخالُّونَ يومَ القيامة على معاصي اللهِ في الدنيا، بعضُهم لبعضٍ عدوٌّ، يتبرأُ بعضُهم من بعضٍ، إلا الذين كانوا تخالّوا فيها على تقوى الله.

وقوله: «يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ وَلا أَنْتُم تَحْزَنُونَ»، وفي هذا الكلام محذوف استغني بدلالة ما ذُكِرَ عليه. ومعنى الكلام: الأخلَّاءُ يومئذٍ بعضُهم لبعضٍ عدوٌّ إلا المتقين، فإنهم يقال لهم: يا عبادي لا خوفٌ عليكم اليوم من عقابي، فإني قد أمنتكم منه برضايَ عنكم، ولا أنتم تحزنونَ على فراقِ الدنيا فإنَّ الذي قَدِمْتُمْ عليه خيرٌ لكم مما فارقتمُوه منها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٦٩ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۝٧٠﴾

وقوله: «الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا»، يقول تعالى ذِكْرُه: يا عبادي الذين آمنوا وهم الذين صَدَّقُوا بكتابِ اللهِ ورسله، وعملوا بما جاءتهم به رُسُلهم، «وكانوا مسلمينَ»، يقولُ: وكانوا أهلَ خضوعٍ لله بقلوبهم، وقبولٍ منهم لِمَا جاءتهم به رُسُلُهم عن رَبِّهم على دينِ إبراهيمَ خليلِ الرحمن ﷺ، حنفاءَ لا يهود ولا نصارى، ولا أهلَ أوثان.

وقوله: «ادْخُلُوا الجَنَّةَ أَنْتُمْ وأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ»، يقول جَلَّ ثناؤُه: ادخلوا الجنةَ أنتم أيها المؤمنونَ وأزواجُكم مغبوطينَ بكرامةِ الله، مسرورينَ بما أعطاكم

اليوم رَبُّكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يُطافُ على هؤلاءِ الذين آمنوا بآياته في الدنيا إذا دخلوا الجنـةَ في الآخـرةِ بصِحَـافٍ من ذهبٍ، وهي جمـع للكثير من الصَّحْفـة، والصَّحْفة: القصعة.

وقوله: «وأكْوابٍ» وهي جمع كوب، والكوب: الإبريقُ المستديرُ الرأسِ، الذي لا أُذُنَ له ولا خرطوم.

ومعنى الكـلام: يُطافُ عليهم فيهـا بالـطعامِ في صِحافٍ من ذهب، وبالشرابِ في أكوابٍ من ذهب، فاستغنى بذكر الصِّحاف والأكواب من ذكر الطعام والشراب، الذي يكون فيها لمعرفةِ السامعينَ بمعناه «وَفِيها ما تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لكم في الجنةِ ما تشتهي نُفوسُكم أيها المؤمنونَ، وتلذُّ أعينكم «وأنْتُمْ فِيها خالِدُونَ»، يقولُ: وأنتم فيها ماكثون، لا تخرجون منها أبداً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يقال لهم: وهذه الجنةُ التي أُورَثَكُمُوهَا اللهُ عن أهلِ النـارِ الذين أدخلهم جهنمَ بما كنتم في الدنيا تعملون من الخيراتِ. «لَكُمْ فِيها»، يقولُ: لكم في الجنةِ فاكهةٌ كثيرةٌ من كلِّ نوعٍ «مِنْهَا تَأْكُلُونَ»، يقولُ: من الفاكهةِ تأكلونَ ما اشتهيتم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «إِنَّ المُجْرِمِينَ» وهم الذين اجترموا في الدنيا الكفرَ بالله، فاجترموا به في الآخرة «فِي عَذَاب جَهَنَّم خَالِدُونَ»، يقولُ: هم فيه ماكثـونَ، «لا يُفَتَّرُ عنهم»، يقولُ: لا يُخَفَّفُ عنهم العذابُ. وأصل الفتور: الضعف «وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ»، يقولُ: وهم في عذاب جهنم مبلسون، والهاء في فيه من ذِكْرِ العذاب، والمعنى: وهم في جهنم مُبْلِسُونَ؛ والمبلس في هذا الموضع: هو الآيسُ من النجاةِ الذي قد قَنطَ فاستسلمَ للعذابِ والبلاء.

وقوله: «وَما ظَلَمْناهُمْ وَلَكِنْ كانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وما ظلمنا هؤلاء المجرمينَ بفعلنا بهم ما أخبرناكم أيها الناسُ أنَّا فعلنا بهم من التعذيبِ بعذابِ جهنمَ «وَلَكِنْ كانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ» بعبادتهم في الدنيا غيرَ مَنْ كان عليهم عبادتُهُ، وكفرهم بالله، وجحودهم توحيده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ونادى هؤلاءِ المجرمونَ ـ بعدما أدخلهم اللهُ جهنمَ، فنـالهم فيها من البلاءِ ما نالهم ـ مالكاً خازنَ جهنم «يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ»، قال: لِيُمِتْنا رَبُّكَ، فيفرغ من إماتتنا، فذكر أن مالكاً لا يُجيبهم في وقتِ قِيلِهم له ذلك، ويَدَعُهُمْ ألفَ عامٍ بعد ذلك، ثم يُجيبهم، فيقول لهم: «إِنَّكُمْ ماكِثُونَ».

وقوله: «لَقَدْ جِئْناكُمْ بالحَقّ»، يقولُ: لقد أرسلنا إليكم يا معشرَ قريش

رسولنا محمداً بالحق.

«وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولكن أكثركم لِمَا جاءَ به محمدٌ ﷺ من الحقِّ كارهون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ۝٧٩ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ۝٨٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أمْ أبرمَ هؤلاءِ المشركونَ من قريش أمراً فأحكموه، يكيدون به الحقّ الذي جئناهم به، فإنَّا مُحْكِمُونَ لهم ما يُخزيهم، ويُذِلُّهم من النكال.

وقوله: «أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ»، يقولُ: أم يظنُّ هؤلاءِ المشركونَ بالله أنَّا لا نسمعُ ما أخفوا عن الناسِ من منطقهم، وتشاوروا بينهم وتناجَوْا به دونَ غيرِهم، فلا نعاقبهم عليه لخفائِه علينا.

وقوله: «بَلى ورُسُلُنا لَدَيْهِم يَكْتُبُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: بل نحنُ نعلمُ ما تناجَوْا به بينهم، وأخفوهُ عن الناسِ من سرِّ كلامهم، وحَفَظَتُنا لديهم، يعني: عِنْدَهُمْ يكتبونَ ما نطقوا به من منطقٍ، وتكلموا به من كلامهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ۝٨١ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٨٢﴾

معنى الكلام: قُلْ يا محمدُ لمشركي قومكَ الزاعمينَ أنَّ الملائكة بنات الله: إنْ كان للرحمنِ ولدٌ فأنا أَوَّلُ عابديهِ بذلك منكم، ولكنه لا ولدَ له، فأنا أعبدُه بأنه لا ولدَ له، ولا ينبغي أنْ يكون له.

وإذا وُجِّهَ الكلامُ إلى ما قلنا من هذا الوجه لم يكن على وجهِ الشكِّ، ولكن على وجه الإلطافِ في الكلام وحُسْنِ الخطاب، كما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «قُلِ اللهُ، وإنَّا أوْ إيَّاكُمْ لَعَلى هُدًى أوْ في ضَلالٍ مُبينٍ» [سبأ: ٢٤] وقد علم أنَّ الحقَّ معه، وأنَّ مخالفيهِ في الضلال المبين.

وقوله: «سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ والأرْضِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: تبرئةً وتنزيهاً لمالكِ السموات والأرضِ ومالك العرش المحيط بذلك كله، وما في ذلك من خَلْق مما يَصِفُه به هؤلاءِ المشركونَ من الكذبِ، ويُضِيفُونَ إليه من الولد وغير ذلك من الأشياء التي لا ينبغي أن تُضَافَ إليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فَذَرْ يا محمدُ هؤلاءِ المفترينَ على الله، الواصِفيهِ بأنَّ له ولداً يَخُوضُوا في باطلهم، ويلعبوا في دنياهم «حتى يُلاقُوا يَوْمَهُمْ الَّذِي يُوعَدُونَ» وذلك يومَ يُصْلِيهمُ اللهُ بفِرْيَتِهم عليه جهنمَ، وهو يومُ القيامة.

وقوله: «وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إلَهٌ، وفي الأرضِ إلَه»، يقول تعالى ذِكْرُه: والله الذي له الألوهةُ في السماء معبودٌ، وفي الأرضِ معبودٌ كما هو في السماء معبودٌ، لا شيءَ سِواهُ تَصْلُح عبادته؛ يقول تعالى ذِكْرُه: فأفردوا لمن هذه صِفَتُه العبادةَ، ولا تشركوا به شيئاً غيره.

وقوله: «وَهُوَ الحَكِيمُ العَلِيمُ»، يقولُ: وهو الحكيمُ في تدبيرِ خَلْقِه، وتسخيرهم لما يشاء، العليمُ بمصالحهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وتباركَ الذي له سلطانُ السمواتِ السبع والأرض، وما بينهما من الأشياء كلها، جارٍ على جميع ذلك حُكْمُه، ماضٍ فيهم قضاؤُه. يقول: فكيف يكونُ له شريكاً مَنْ كان في سلطانِه وحُكْمُه فيه نافذٌ. «وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ»، يقولُ: وعنده علمُ الساعةِ التي تقومُ فيها القيامةُ، ويُحْشَرُ فيها الخَلْقُ من قبورهم لموقفِ الحساب.

قوله: «وَإلَيْهِ تُرْجَعُونَ»، يقولُ: وإليه أيها الناسُ تُرَدُّونَ من بعد مماتِكم، فتصيرونَ إليه، فيجازي المحسنَ بإحسانِه، والمسيءَ بإساءته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٨٦﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك: فقال بعضهم معنى ذلك: ولا يملكُ عيسى وعُزير والملائكة الذين يعبدهم هؤلاءِ المشركونَ بالساعةِ، الشفاعةَ عند الله لأحدٍ، إلا مَنْ شهد بالحقِّ، فَوَحَّدَ الله وأطاعَهُ، بتوحيدٍ عُلِمَ منه، وصحةٍ بما جاءتْ به رُسُله.

وقال آخرون: عنى بذلك: ولا تملكُ الآلهةُ التي يَدْعُوهَا المشركونَ ويعبدونها من دونِ الله الشفاعةَ إلا عيسى وعُزير وذَوُوهما، والملائكةُ الذين شهدوا بالحقِّ، فأقرُّوا به وهم يعلمون حقيقةَ ما شهدوا به.

وأَوْلى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه أخبر أنه لا يملكُ الذين يعبدهُم المشركونَ من دونِ الله الشفاعةَ عنده لأحدٍ، إلا مَنْ

شهد بالحقِّ، وشهادته بالحقِّ: هو إقرارُه بتوحيدِ الله، يعني بذلك: إلا مَنْ آمنَ بالله، وهم يعلمـون حقيقـةَ توحيدِه، ولم يخصص بأن الذي لا يملك ملك الشفاعة منهم بعض من كان يعبد دون الله، فذلك على جميع مَنْ كان تعبد قريش من دونِ الله يومَ نزلتْ هذه الآيةُ وغيرهم، وقد كان فيهم مَنْ يعبدُ من دونِ الله الآلهةَ، وكان فيهم مَنْ يعبدُ من دونِه الملائكةَ وغيرهم، فجميعُ أولئكَ داخلونَ في قوله: «ولا يملك» الذين يدعو قريش وسائر العرب من دون الله الشفـاعـة عند الله. ثم استثنى جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقوله: «إلَّا مَنْ شَهِدَ بالحَقّ وهم يَعْلَمُونَ» وهم الذين يشهدون شهادةَ الحقِّ فيوحِّدُونَ الله، ويخلصون له الوحدانيةَ، على عِلْمٍ منهم ويقينٍ بذلك، أنهم يملكون الشفاعةَ عنده بإذنه لهم بها، كما قال جَلَّ ثَنَـاؤُهُ «وَلا يَشْفَعُونَ إلا لِمَن ارْتَضَى» فأثبت جَلَّ ثَنَاؤُهُ للملائكة وعيسى وعُزير ملكهم من الشفاعة ما نفاهُ عن الآلهةِ والأوثانِ باستثنائهِ الذي استثناه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٨٧ وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٨٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولئن سألتَ يا محمدُ هؤلاءِ المشركينَ بالله من قومك: مَنْ خَلَقَهم؟ ليقولُنَّ: اللهُ خَلَقَنا. «فَأَنَّى يُوْفَكُونَ»، فأيّ وجهٍ يصرفون عن عبادةِ الذي خلقهم، ويُحْرَمُونَ إصابةَ الحقِّ في عبادته.

وقوله: «وَقِيلِه: يا رَبِّ إن هَؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ»، يعني: وقال محمدٌ قِيلَهُ شاكياً إلى رَبِّه تبارك وتعالى قومَهُ الذين كَذَّبُوهُ، وما يَلْقَى منهم: يا ربِّ إنَّ هؤلاءِ الذين أمرتني بإنذارِهم وأرسلتني إليهم لدعائِهم إليكَ، قومٌ لا يؤمنون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَـٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٨٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ، جواباً له عن دعائِهِ إياهُ إذْ قال: «يا ربِّ إن هؤلاءِ قوم لا يؤمنون» «فاصْفَحْ عَنْهُمْ» يا محمدُ، وأعْرِضْ عن أذاهم «وَقُلْ» لهم «سَلامٌ» عليكم.

واختلفت القَـرَأة في قراءة قوله: «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» فقرأ ذلك عامة قَرَأة المدينة «فَسَوْفَ تَعْلَمونَ» بالتاء على وجه الخطاب، بمعنى: أمر الله عَزَّ وجَلَّ نبيه ﷺ أنْ يقولَ ذلك للمشركينَ، مع قوله «سَلامٌ»، وقرأته عامة قَرَأة الكوفة وبعض قرّاء مكة: «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» بالياء على وجه الخبر، وأنه وعيدٌ من الله للمشركين، فتأويله على هذه القراءة: «فاصْفَحْ عَنْهُمْ» يا محمدُ، «وَقُلْ سَلامٌ». ثم ابتدأ تعالى ذِكْرُه الوعيدَ لهم، فقال: «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» ما يَلْقَوْنَ من البلاءِ والنكالِ والعذابِ على كفرهم، ثم نسخَ الله جَلَّ ثَناؤُهُ هذه الآية، وأمرَ نبيَّهُ ﷺ بقتالهم.

سُورَةُ الدُّخَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾

قد تقدم بياننا في معنى قوله: «حمٓ، والكِتابِ المُبِينِ».

وقـوله: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ في لَيْلَةٍ مُبارَكةٍ» أقسم جَلَّ ثناؤُهُ بهذا الكتاب، أنه أنزله في ليلةٍ مباركة، وهي ليلةُ القدر، لأن الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ أخبر أن ذلك كذلك لقوله تعالى: «إِنَّـا كُنَّا مُنْذِرينَ» خَلْقنا بهذا الكتابِ الذي أنزلناه في الليلة المباركةِ عقوبتنا أنْ تحلَّ بمن كفرَ منهم، فلم ينبْ إلى توحيدنا، وإفرادِ الألوهةِ لنا.

وقوله: «فِيها يُفْرَق كُلُّ أمْرٍ حَكِيمٍ»، يعني بقوله: «فيها»: ليلة القدر لِمَا قد تَقَدَّمَ من بياننا عن أن المعنيَّ بقوله: «إِنَّا أَنْزَلْناهُ في لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ» ليلة القدر، والهاء في قوله: «فيها» من ذِكْرِ الليلةِ المباركة. وعَنَى بقوله: «فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أمْرٍ حَكِيمٍ» في هذه الليلةِ المباركة يُقْضَى ويُفْصَلُ كلُّ أمرٍ أحكمَهُ اللهُ تعالى في تلك السنةِ إلى مِثْلِهَا من السنةِ الأخرى، ووضع حكيم موضع محكم، كما قال: «آلم، تِلْكَ آياتُ الْكِتَابِ الحَكِيمِ» «لقمان: ١-٢» يعني: المحكم.

وقوله: «أمْراً مِنْ عِنْدِنا»، يقول تعالى ذِكْرُه: في هذه الليلة المباركة يُفْرَقُ كلُّ أمرٍ حكيم، أمراً من عندنا.

وقوله: «إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّا كنا مُرْسِلي رسولنا محمدٍ ﷺ إلى عبادنا رحمةً من رَبِّكَ يا محمدُ. «إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ»، يقولُ: إن الله تبارك وتعالى هو السميعُ لما يقولُ هؤلاءِ المشركونَ فيما أنزلنا من كتابنا، وأرسلنا من رُسُلِنَا إليهم، وغير ذلك من منطِقِهم ومنطِقِ غيرهم، العليمُ بما تنطوي عليه ضمائرهم، وغير ذلك من أمورهم وأمورِ غيرهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩﴾

ويعني بقوله: «رَبِّ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُما»، يقول تعالى ذِكْرُه: الذي أنزلَ هذا الكتابَ يا محمدُ عليك، وأرسلكَ إلى هؤلاءِ المشركينَ رحمةً من ربك، مالك السمواتِ السبعِ والأرضِ وما بينهما من الأشياء كلها.

وقوله: «إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِين»، يقولُ: إنْ كنتم تُوقنون بحقيقةِ ما أخبرتكم من أنَّ رَبَّكم ربُّ السموات والأرض، فإن الذي أخبرتكم أنَّ الله هو الذي هذه الصفات صفاتُه، وأنَّ هذا القرآنَ تنزيلُه، ومحمداً ﷺ رسوله حَقٌّ يقين، فأيقنوا به كما أيقنتم بما توقنون من حقائقِ الأشياء غيره.

وقـولـه: «لا إِلَـهَ إلاَّ هُوَ»، يقـولُ: لا معبودَ لكم أيها الناسُ غير ربِّ السمواتِ والأرضِ وما بينهما، فلا تعبدوا غيره، فإنه لا تصلحُ العبادةُ لغيره، ولا تنبغي لشيءٍ سواه، يُحيي ويُميت، يقولُ: هو الذي يُحيي ما يشاء، ويميت ما يشاء مما كان حياً.

وقـولـه: «رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الأوَّلِين»، يقولُ: هو مالِكُكُمْ ومالكُ مَنْ مضى قبلكم من آبـائكم الأوَّلين، يقـولُ: فهذا الذي هذه صِفَتُه، هو الربُّ

فاعبدوه دونَ آلهتكم التي لا تقدرُ على ضُرٍّ ولا نفع.

وقوله: «بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُون»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما هُمْ بموقنينَ بحقيقةِ ما يُقالُ لهم ويخبرون من هذه الأخبار، يعني بذلك مشركي قريش، ولكنهم في شكٍّ منه، فهم يلهون بشكهم في الذي يخبرون به من ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه بقوله: «فارْتَقِبْ» فانتظرْ يا محمدُ بهؤلاءِ المشركينَ من قومكَ الذين هم في شَكٍّ يلعبون، وإنما هو افتعل، مِنْ رَقَبْتُه: إذا انتظرته وحرسته.

وقوله: «يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ»، اختلف أهلُ التأويل في هذا الذي أمر اللهُ عَزَّ وجَلَّ نبيه ﷺ أنْ يرتقبه، وأخبره أنَّ السماءَ تأتي فيه بدخانٍ مبين: أيّ يومٍ هُوَ، ومتى هو؟ وفي معنى الدخان الذي ذُكِرَ في هذا الموضع، فقال بعضهم: ذلك حين دعا رسولُ الله ﷺ على قريشٍ رَبَّهُ تبارك وتعالى أنْ يأخذهم بسنين كسنيِّ يوسف، فأُخِذُوا بالمجاعةِ، قالوا: وعنى بالدخان ما كان يُصيبهم حينئذٍ في أبصارهم من شدَّةِ الجوعِ من الظلمة كهيئةِ الدخان.

وقال آخرون: الدخانُ آيةٌ من آياتِ الله، مُرْسَلَةٌ على عبادِه قبلَ مجيء الساعة، فيدخل في أسماعِ أهلِ الكفرِ به، ويعتري أهلَ الإيمان به كهيئةِ الزكام، قالوا: ولم يأتِ بَعْدُ، وهو آتٍ.

وأَوْلى القولين بالصوابِ في ذلك أنَّ الدخان الذي أمر الله نبيه ﷺ أنْ يَرتقبه، هو ما أصابَ قومه من الجَهْدِ بدعائه عليهم، لأنَّ الله جَلَّ ثَناؤُهُ توعَّدَ

بالدخان مشركي قريش وإنَّ قوله لنبيِّه محمد ﷺ: «فارتَقِبْ يومَ تأتِي السماءُ بدخانٍ مبين» في سياق خطابِ الله كفارَ قريش وتقريعه إياهم بشركهم بقولهم: «لا إلَهَ إلَّا هُوَ يُحْيِي ويُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الأَوَّلِينَ، بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ»، ثم أتبع ذلك قوله لنبيهِ عليه الصلاة والسلام: «فارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخانٍ مُبين» أمراً منه له بالصبر إلى أنْ يأتيهم بأسُه، وتهديداً للمشركين فهو بأنْ يكون إذْ كان وعيداً لهم قد أحَلَّهُ بهم، أشبــه من أنْ يكـون أَخَّرَهُ عنهم لغيرهم، وبعـد، فإنه غير منكرٍ أنْ يكونَ أحلَّ بالكفارِ الذين توعدهم بهذا الوعيد ما توعدهم، ويكون مُحِلاًّ فيما يستأنف بعد بآخرينَ دخاناً.

وإن كان تأويل الآية في هذا الموضع ما قلنا، فَبَيِّنٌ أنَّ معناه: فانتظر يا محمدُ لمشركي قومكَ يوم تأتيهم السماءُ من البلاءِ الذي يحل بهم على كفرهم بمثـلِ الدخان المبين لمن تأمله أنه دخان. «يَغْشَى النَّاسَ»، يقولُ: يغشى أبصارَهُمْ من الجَهْدِ الذي يصيبهم «هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ»، يعني: أنهم يقولون مما نالهم من ذلـك الكرب والجهد: هذا عذاب أليم. وهو الموجِعُ، وترك من الكلام «يقولون» استغناء بمعرفة السامعين معناه من ذكرها.

وقوله: «رَبَّنا اكْشِفْ عَنَّا العَذَابَ»، يعني أن الكافرين الذين يصيبهم ذلك الجهد يضرعونَ إلى ربهم بمسألتهم إياه كشفَ ذلك الجهدِ عنهم، ويقولون: إنكَ إنْ كشفته آمنا بكَ وعبدناكَ من دون كلِّ معبودٍ سواك، كما أخبر عنهم جَلَّ ثَناؤُهُ: «رَبَّنا اكْشِفْ عَنَّا العَذَابَ إنَّا مُؤْمِنُونَ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ۝١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: من أيِّ وجهٍ لهؤلاءِ المشركينَ التذكر من بعد نزولِ

البلاءِ بهم، وقد تولوا عن رسولنا حين جاءهم مُدْبرينَ عنه، لا يتذكرون بما يُتْلى عليهم من كتابنا، ولا يَتَّعِظُونَ بما يعظهم به من حججنا، ويقولون: إنما هو مجنون عُلِّمَ هذا الكلام.

وقوله: «إِنَّا كاشِفُو العَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عائِدُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه لهؤلاءِ المشـركينَ الذين أخبر عنهم أنهم يستغيثونَ به من الدخانِ النازلِ والعذابِ الحالِّ بهم من الجهد، وأخبر عنهم أنهم يعاهدونه أنه إنْ كشفَ العذابَ عنهم آمنوا «إنا كاشفو العذاب»: يعني الضُرَّ النازل بهم بالخصبِ الذي نُحْدِثُه لهم «قَلِيلاً إِنَّكُمْ عائِدُونَ»، يقولُ: إنكم أيها المشركونَ إذا كَشَفْتُ عنكم ما بكم من ضُرٍّ لم تَفُوا بما تَعِدُونَ وتعاهدون عليه رَبَّكم من الإيمان، ولكنكم تعودون في ضلالتكم وغَيِّكم، وما كنتم قبل أن يكشف عنكم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ۝١٦ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ۝١٧ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنكم أيها المشركونَ إنْ كشفتُ عنكم العذابَ النازلَ بكم، والضُرَّ الحالَّ بكم، ثم عدتم في كفركم، ونقضتم عهدكم الذي عاهدتم رَبَّكم، انتقمتُ منكم يوم أبـطشُ بكم بطشتي الكبـرى في عاجـلِ الدنيا، فأهلككم، وكشفَ اللهُ عنهم، فعادوا، فبطشَ بهم جَلَّ ثَناؤُهُ بطشتَهُ الكبرى في الدنيا، فأهلكهم قتلاً بالسيف.

وقد اختلف أهلُ التأويل في البطشة الكبرى، فقال بعضهم: هي بطشة الله بمشركي قريش يوم بدر.

وقال آخرون: بل هي بطشة الله بأعدائه يوم القيامة.

وقد بيَّنا الصوابَ في ذلك فيما مضى، والعلة التي من أجلها اخترنا ما اخترنا من القولِ فيه[1].

وقوله: «وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد اختبرنا وابتلينا يا محمدُ قبلِ مشركي قومكَ مثالَ هؤلاءِ قوم فرعونَ من القبطِ «وَجاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ»، يقولُ: وجاءهم رسولٌ من عندنا أرسلناهُ إليهم، وهو موسى بن عمران صلوات الله عليه.

وقوله: «أَنْ أَدُّوا إليَّ عِبادَ اللهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وجاء قومَ فرعون رسولٌ من الله كريمٌ عليه بأنْ ادفعوا إليَّ، ومعنى «أدُّوا»: ادفعوا إليَّ فأرسلوا معي واتبعونِ.

وقوله: «إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ»، يقولُ: إني لكم أيها القومُ رسولٌ من الله أرسلني إليكم لا يدرككم بأسه على كُفْرِكُمْ به، «أمينٌ»، يقولُ: أمينٌ على وحيه ورسالتِه التي أَوْعَدَنِيهَا إليكم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وجاءهم رسولٌ كريم، أنْ أَدُّوا إليَّ عبادَ الله، وبأنْ لا تَعْلُوا على الله.

وعنى بقـوله: «أنْ لا تَعْلُوا على اللهِ» أنْ لا تطغوا وتَبْغُوا على رَبِّكم، فتكفـروا به وتعصـوه، فتخالفوا أمرَهُ «إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ»، يقولُ: إني

(١) انظر تفسير الآية من سورة

آتيكم بحجةٍ على حقيقةِ ما أدعوكم إليه، وبرهانٍ على صحته، مبين لمن تأمَّلَها وتَدَبَّرَهَا أنها حجةٌ لي على صحةِ ما أقولُ لكم.

وقوله: «وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ»، يقولُ: وإني اعتصمتُ بربي وربكم، واستجرتُ به منكم أن ترجمون.

واختلف أهلُ التأويل في معنى الرجم استعاذَ موسى نبيُّ اللهِ عليه السلام بربه منه، فقال بعضهم: هو الشتمُ باللسان.

وقال آخرون: بل هو الرجمُ بالحجارة.

وقال آخرون: بل عَنَى بقوله: «أَنْ تَرْجُمُونِ»: أنْ تقتلوني.

وأَوْلى الأقوال في ذلك بالصواب ما دلَّ عليه ظاهرُ الكلام، وهو أنَّ موسى عليه السلام استعاذَ بالله من أنْ يرجُمَهُ فرعونُ وقومُه، والرجمُ قد يكون قولاً باللسان، وفعلاً باليد. والصوابُ أن يقال: استعاذ موسى بربه من كُلِّ معاني رجمهم الذي يصل منه إلى المرجومِ أذًى ومكروهٌ، شتماً كان ذلك باللسانِ، أو رجماً بالحجارة باليد.

وقوله: «وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فاعْتَزِلُون»، يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ نبيه موسى عليه السلام لفرعونَ وقومه: وإنْ أنتم أيها القومُ لم تُصَدِّقوني على ما جئتُكم به من عند ربي، «فاعتزلون»، يقولُ: فَخَلُّوا سبيلي غيرَ مرجومٍ باللسانِ ولا باليد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فدعا موسى رَبَّهُ إِذْ كَذَّبوه ولم يؤمنوا به، ولم يؤدّ إليه

عبادُ الله، وهَمُّوا بقتله بأنَّ هؤلاءِ، يعني فرعون وقومه «قَوْمٌ مُجْرِمُونَ»، يعني: أنهم مشركون بالله كافرون.

وقوله: «فَأَسْر بِعِبَادِي» وَفِي الكلام محذوفٌ استغني بدلالة ما ذُكِرَ عليه منه، وهو: فأجابه رَبُّهُ بأنْ قال له: فأسْرِ إذْ كان الأمرُ كذلك بعبادي، وهم بنو إسرائيل. وَإنَّما معنى الكلام: فأسْرِ بعبادي الذين صدّقوكَ وآمنوا بك، واتبعوك دونَ الذين كذَّبُوكَ منهم، وأبَوْا قبولَ ما جئتهم به من النصيحةِ منك، وكان الذين كانـوا بهذه الصفة يومئذٍ بني إسرائيل. وقال: «فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا» لأنَّ معنى ذلك: سِرْ بهم بليلٍ قبل الصباح.

وقوله: «إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ»، يقولُ: إنَّ فرعونَ وقومه من القبطِ مُتَّبِعُوكم إذا شخصتم عن بلدهم وأرضهم في آثاركم.

وقوله: «وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً»، يقولُ: وإذا قطعتَ البحرَ أنتَ وأصحابُك، فاتركه ساكناً على حاله التي كان عليها حين دخلته. وقيل إنَّ الله تعالى ذِكْرُه قال لموسى هذا القول بعد ما قطع البحرَ ببني إسرائيلَ فإذ كان ذلك كذلك، ففي الكلام محذوفٌ، وهو: فسرَى موسى بعبادي ليلاً، وقطعَ بهم البحر، فقلنا له بعد ما قَطَعَهُ، وأرادَ ردَّ البحرِ إلى هيئتِه التي كان عليها قبل انفلاقِه: اتركْهُ رَهْواً.

وقوله: «إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ»، يقولُ: إنَّ فرعونَ وقومه جند، الله مُغْرِقُهم في البحر.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: كم تركَ فرعونُ وقومُه من القبطِ بعدَ مهلكِهم وتغريقِ اللهِ إياهم من بساتينَ وأشجارٍ، وهي الجناتُ، «وعيون»، يعني: ومنابعَ ما كان ينفجرُ في جنانهم «وزروع» قائمة في مزارعهم «وَمَقامٍ كَرِيم»، يقولُ: وموضع كانوا يقومونه شريف كريم.

وقوله: «وَنَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأُخْرِجُوا من نعمةٍ كانوا فيها فاكهينَ متفكهينَ ناعمين.

وقـوله: «كَذلكَ وَأَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هكذا كما وصفتُ لكم أيها الناسُ فعلنا بهؤلاءِ الذين ذكرتُ لكم أمرَهُمْ، الذين كذَّبُوا رسولَنا موسى ﷺ.

وقـولـه: «وَأَوْرَثْنـاهـا قَوْماً آخَرِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأورثنا جناتهم وعيونهم وزروعهم ومَقـاماتهم وما كانوا فيه من النعمةِ عنهم قوماً آخرِينَ بعد مهلكهم، وقيل: عُنِي بالقومِ الآخرينَ بنو إسرائيل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فما بكتْ على هؤلاءِ الذين غَرَّقَهُمْ اللهُ في البحر، وهم فرعون وقومه، السماءُ والأرضُ، وقيل: إنَّ بكاءَ السماء حُمْرَةُ أطرافِها.

وقوله: «وَما كانُوا مُنْظَرِينَ»، يقولُ: وما كانوا مؤخرينَ بالعقوبةِ التي حلَّتْ بهم، ولكنهم عُوجِلُوا بها إذ أَسْخطوا رَبَّهم عَزَّ وجَلَّ عليهم. «وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ العَذَابِ المُهِينِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد نجَّينا بني إسرائيلَ من العذابِ الذي كان فرعونُ وقومه يعذِّبُونَهُمْ به، «المهين»، يعني: المذلّ لهم.

وقوله: «مِنْ فِرْعَوْنَ إنَّهُ كانَ عالِياً مِنَ المُسْرِفِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد نجينا بني إسرائيل من العذابِ من فرعونَ، فقوله: «مِنْ فِرْعَوْنَ» مكرّرة على قوله: «مِنَ العَذَابِ المُهِينِ» مبدلة من الأولى. ويعني بقوله: «إنَّهُ كانَ عالِياً مِنَ المُسْرِفِينَ»، إنه كان جباراً مُسْتَعْلِياً مستكبراً على ربه، «مِنَ المُسْرِفِينَ»، يعني: من المتجاوزينَ ما ليسَ لهم تجاوزُه. وإنما يعني جَلَّ ثَنَاؤُهُ أنه كان ذا اعتداءٍ في كفرِه، واستكبارٍ على رَبِّه جَلَّ ثَنَاؤُهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٢ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ۝٣٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد اخترنا بني إسرائيلَ على عِلْمٍ منا بهم على عالمي أهل زمانِهم يومئذٍ، وذلك زمان موسى صلواتُ الله وسلامه عليه.

قولـه: «وَآتَيْنَـاهُمْ مِنَ الآياتِ ما فِيهِ بَلاءٌ مُبِينٌ»، يقـول تعـالى ذِكْرُه: وأعطيناهم من العِبَرِ والعِظاتِ ما فيه اختبارٌ يبين لمن تأمَّلَهُ أنه اختبارٌ اختبرهم اللهُ به.

واختلف أهلُ التأويل في ذلك البلاء، فقال بعضهم: ابتلاهم بنعمهِ عندهم.

وقال آخرون: بل ابتلاهم بالرخاء والشدَّةِ.

وأوْلى الأقـوال في ذلك بالصواب أنْ يقال: إنَّ الله أخبر أنه آتى بني إسرائيلَ من الآياتِ ما فيه ابتلاؤُهم واختبارُهم، وقد يكون الابتلاءُ والاختبارُ بالرخاء، ويكون بالشدّةِ، ولم يضعْ لنا دليلاً من خبرٍ ولا عقلٍ، أنه عنى بعضَ ذلك دونَ بعضٍ، وقد كان الله اختبرهم بالمَعْنَيَيْنِ كليهما جميعاً. وجائزٌ أن يكون عنى اختباره إياهم بهما، فإذا كان الأمرُ على ما وصفنا، فالصوابُ من

القولِ فيه أن نقولَ كما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ إنه اختبرهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ٣٤ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ٣٥ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٣٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ مشركي قريش لنبيِّ الله ﷺ: إنَّ هؤلاءِ المشركينَ من قومكَ يا محمدُ، «لَيَقُولُونَ إنْ هِيَ إلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولى» التي نموتها، وهي الموتةُ الأولى «وَما نَحنُ بِمُنْشَرِينَ» بعد مماتنا، ولا بمبعوثِينَ تكذيباً منهم بالبعثِ والثوابِ والعقاب.

وقوله: «فَأْتُوا بِآبَائِنَا إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قالوا لمحمدٍ عليه الصلاة والسلام: فأتوا بآبائنا الذين قد ماتوا إنْ كنتم صادقين، أنَّ الله باعثنا من بعد بِلاَنَا في قبورنا، ومُحْيينا من بعد مَمَاتِنَا، وخُوطِبَ ﷺ هو وحده خطابَ الجميع، كما قيل: «يا أَيُّها النَّبِيّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ» [الطلاق: ١] وكما قال: «رَبِّ ارْجِعُونِ» [المؤمنون: ٩٩] وقد بيَّنتُ ذلك في غيرِ موضعٍ من كتابنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ٣٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: أهؤلاءِ المشركونَ يا محمدُ من قومكَ خيرٌ، «أم قومُ تُبَّع»، يعني: تُبَّعاً الحِمْيريَّ.

وقوله: «وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أهؤلاءِ المشركونَ من قريش خيرٌ أم قومُ تُبَّعٍ والذين من قبلِهم من الأممِ الكافرة بربها، يقولُ: فليس هؤلاءِ بخيرٍ من أولئكَ، فنصفح عنهم، ولا نُهلكهُم، وهم بالله كافرون، كما

كان الذين أهلكناهم من الأمم قَبْلَهم كفاراً.

وقوله: «إِنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ»، يقولُ: إنَّ قومَ تُبَّع والذين من قبلهم من الأمم الذين أهلكناهم إنما أهلكناهم لإجرامهم، وكُفْرِهم بربِّهم. وقيل: إنهم كانوا مجرمين، فكُسرت ألفُ «إن» على وجه الابتداء، وفيها معنى الشرطِ استغناءً بدلالةِ الكلامِ على معناها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَمَا خَلَقْنَا السَّمواتِ» السبع والأرضين وما بينهما من الخلق لَعِباً.

وقوله: «مَا خَلَقْناهُمَا إلَّا بالحَقّ»، يقولُ: ما خلقنا السمواتِ والأرضَ إلا بالحقِّ الذي لا يصلحُ التدبيرُ إلا به. وإنما يعني بذلك تعالى ذِكْرُه التنبيه على صحةِ البعثِ والمجازاةِ، يقول تعالى ذِكْرُه: لم نخلقِ الخلقَ عبثاً بأنْ نُحْدِثَهُمْ فَنُحْيِيَهُمْ ما أردنَا، ثم نُفْنِيهم من غيرِ الامتحانِ بالطاعةِ والأمرِ والنهي، وغير مجازاة المطيعِ على طاعته، والمعاصي على المعصية، ولكن خلقنا ذلك لنبتليَ مَنْ أردنا امتحانه من خَلْقِنَا بما شئنا من امتحانِه من الأمرِ والنهي «لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أساءُوا بِما عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بالحُسْنَى» [النجم: ٣١].

«وَلَكِنْ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولكنَّ أكثرَ هؤلاءِ المشركينَ بالله لا يعلمون أن الله خلق ذلك لهم، فهم لا يخافون على ما يأتونَ من سخطِ الله عقوبةً، ولا يرجونَ على خيرٍ إنْ فعلوه ثواباً لتكذيبهم بالمعاد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٠﴾

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ يومَ فصلِ الله القضاء بين خَلْقِه بما أسلفوا في دنياهم من خيرٍ أو شرٍّ يُجْـزَى به المحسنُ بالإحسانِ، والمسيءُ بالإساءة «ميقاتهم أجمعين»، يقولُ: ميقات اجتماعهم أجمعين.

وقوله: «يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً»، يقولُ: لا يدفع ابنُ عمٍّ عن ابن عمٍّ، ولا صاحبٌ عن صاحبِه شيئاً من عقوبةِ الله التي حَلَّتْ بهم من الله. «وَلا هُمْ يُنْصَـرُونَ»، يقولُ: ولا ينصرُ بعضهم بعضاً، فيستعيذوا ممن نالهم بعقوبةٍ كما كانوا يفعلونه في الدنيا.

وقوله: «إلا مَن رَحِمَ اللهُ»، يقولُ: يوم لا يغني مولًى من مولى شيئاً إلا من رحم الله منهم، فإنه يغني عنه بأنْ يشفع له عند رَبِّه.

وقوله: «إنَّهُ هُوَ العَزيزُ الرَّحِيمُ»، يقول جَلَّ ثناؤه واصفاً نفسه: إنَّ الله هو العزيزُ في انتقامه من أعدائِه، الرحيمُ بأوليائِه، وأهلِ طاعته.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «إنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ» التي أخبر أنها تَنْبُتُ في أصل الجحيم، التي جعلها طعاماً لأهلِ الجحيم، ثمرها في الجحيم طعامُ الآثمِ في الدنيا بربِّه، والأثيمُ: ذو الإثم، والإثمُ مِنْ أَثِمَ يأثَمُ فهو أثيمٌ. وعنى به في هذا الموضع: الذي إثمهُ الكفرُ بربِّه دونَ غيرِه من الآثام.

وقوله: «كالمُهْلِ يَغْلِي فِي البُطُونِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ شجرةَ الزقوم

التي جعل ثمرتها طعام الكافر في جهنم، كالرصاصِ أو الفضة، أو ما يُذابُ في النار إذا أُذيبَ بها، فتناهَتْ حرارتُه، وشدّت حميته في شدّةِ السواد.

وقوله: «كَغَلْي الحَمِيمِ»، يقولُ: يغلي ذلك في بطونِ هؤلاءِ الأشقياء كغلي الماءِ المحموم، وهو المسخنُ الذي قد أُوقدَ عليه حتى تناهَتْ شِدَّةُ حَرِّهِ، وقيل: حميمٌ وهو محمومٌ، لأنه مصروفٌ من مفعولٍ إلى فعيل، كما يقال: قتيل من مقتول.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٤٧ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «خُذُوهُ» يعني: هذا الأثيم بربِّه، الذي أخبر جَلَّ ثَنَاؤُهُ أنَّ له شجرةَ الزقوم طعام «فاعْتِلُوهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فادفعوه وسوقوه، يقال منه: عتله يعتله عتلاً: إذا ساقه بالدفع والجذب.

وقوله: «إلى سَوَاءِ الجَحِيمِ»، إلى وسطِ الجحيم. ومعنى الكلام: يقال يوم القيامة: خُذُوا هذا الأثيمَ فسوقُوه دفعاً في ظهره، وسحباً إلى وسط النار.

وقوله: «ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رأسِهِ مِنْ عَذابِ الحَمِيمِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ثم صُبُّوا على رأسِ هذا الأثيمِ من عذاب الحميم، يعني: من الماء المسخن الذي وصفنا صفته، وهو الماءُ الذي قال الله: «يُصْهَرُ بِهِ ما في بُطُونِهِمْ والجُلُودُ» [الحج: ٢٠]، وقد بيَّنتُ صفته هنالك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ۝٤٩ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ۝٥٠﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: يقال لهذا الأثيم الشقيّ: ذُقْ هذا العذابَ الذي تعذَّبُ به اليوم. «إنَّكَ أنتَ العَزِيزُ» في قومك «الكَرِيمُ» عليهم.

فإنْ قال قائـل: وكيف قيل وهو يهان بالعذاب الذي ذكره الله، ويذلُّ بالعتلِ إلى سواء الجحيم: إنك أنت العزيز الكريم؟

قيل إن قوله: «إنَّكَ أنْتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ» غير وصف من قائلِ ذلكَ به بالعزَّةِ والكرم، ولكنه تقريعٌ منه له بما كان يصفُ به نفسه في الدنيا، وتوبيخٌ له بذلـك على وجهِ الحكـاية، لأنه كان في الدنيا يقول: إنكَ أنتَ العزيزُ الكريم، فقيل له في الآخرة، إذْ عذّب بما عُذِّبَ به في النار: ذُقْ هذا الهوانَ اليوم، فإنكَ كنتَ تزعمُ أنك أنتَ العزيزُ الكريم، وإنك أنتَ الذليلُ المهين، فأين الذي كنتَ تقولُ وتدَّعي من العزِّ والكرمِ، هلا تمتنع من العذاب بعزَّتك.

وقوله: «إنَّ هَذَا ما كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يقال له: إنَّ هذا العذابَ الذي تعذّب به اليومَ، هو العذابُ الذي كنتم في الدنيا تَشُكُّون، فتختصمونَ فيه، ولا تُوقِنُونَ به فقد لقيتموه، فذوقوه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ۝٥١ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٢ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ۝٥٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين اتقوا الله بأداءِ طاعته، واجتنابِ معاصيه في موضع إقامة، آمنينَ في ذلك الموضعِ مما كان يخافُ منه في مقاماتِ الدنيا من الأوصابِ والعللِ والأنصابِ والأحزان.

وقوله: «فِي جَنَّاتِ وَعُيُونٍ» الجناتُ والعيون ترجمةٌ عن المقام الأمين، والمقـامُ الأمين: هو الجناتُ والعيون، والجناتُ: البساتين، والعيونُ: عيونُ الماء المطرد في أصول أشجار الجنات.

وقوله: «يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ»، يقولُ: يلبسُ هؤلاءِ المتقون في هذه الجنات من سندسٍ، وهو ما رَقَّ من الديباجِ، وإستبرق: وهو ما غَلُظَ من الديباجِ.

وقوله: «مُتَقابِلِينَ»، يعني: أنهم في الجنة يقابل بعضُهم بعضاً بالوجوه، ولا ينظر بعضهم في قفا بعض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: كما أعطينا هؤلاءِ المتقين في الآخرةِ من الكرامةِ بإدخالِنَاهُمْ الجنات، وإلباسِنَاهُمْ فيها السندسَ والإستبرقَ، كذلك أكرمناهم بأنْ زوَّجناهم أيضاً فيها حوراً من النساء، وهُنَّ النقياتُ البياضِ، واحدتهنَّ: حَوْراء.

وقوله: «يَدْعُونَ فِيها»... الآية، يقولُ: يَدْعُو هؤلاءِ المتقونَ في الجنة بكلِّ نوعٍ من فواكه الجنةِ اشتهوه، آمنينَ فيها من انقطاعِ ذلك عنهم ونفادِهِ وفنائِه، ومن غائلةِ أذاهُ ومكروهه، يقولُ: ليست تلك الفاكهةُ هنالك كفاكهةِ الدنيا التي نأكلها، وهم يخافون مكروهَ عاقِبتها، وغِبَّ أذاها مع نفادِهَا من عندهم، وعدمها في بعضِ الأزمنةِ والأوقات.

وقوله: «لا يَذُوقُونَ فِيها المَوْتَ إلاَّ المَوْتَةَ الأُولى»، يقول تعالى ذِكْرُه: لا يذوق هؤلاءِ المتقون في الجنة الموتَ بعدَ الموتةِ الأولى التي ذاقوها في الدنيا.

وقوله: «وَوَقاهُمْ عَذابَ الجَحِيمِ فَضْلاً مِنْ رَبِّك»، يقول تعالى ذِكْرُه: ووقى هؤلاءِ المتقين ربهم يومئذٍ عذابَ النارِ تفضلاً يا محمدُ من رَبِّك عليهم، وإحساناً منه إليهم بذلك، ولم يعاقبهم بجرمٍ سَلَفَ منهم في الدنيا، ولولا تفضله عليهم بصفحِه لهم عن العقوبةِ لهم على ما سَلَفَ منهم من ذلك، لم يَقِهِمْ عذابَ الجحيم، ولكن كان ينالهم ويصيبهم أَلَمُهُ ومكروهُه.

وقوله: «ذَلكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الذي أعطينا هؤلاءِ المتقينَ في الآخرة من الكرامةِ التي وصفتُ في هذه الآيات، «هو الفوزُ العظيم»، يقولُ: هو الظفرُ العظيم بما كانوا يطلبون من إدراكه في الدنيا بأعمالهم وطاعتهم لربهم، واتقائهم إياه، فيما امتحنهم به من الطاعاتِ والفرائضِ، واجتنابِ المحارم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ۝٥٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: فإنما سَهَّلْنَا قراءةَ هذا القرآن الذي أنزلناهُ إليكَ يا محمدُ بلسانكَ، ليتذكَّرَ هؤلاءِ المشركونَ الذين أرسلناك إليهم بعبرِه وحُجَجِه، ويتَّعِظُوا بعِظَاتِه، ويتفكَّرُوا في آياتِه إذا أنتَ تتلوهُ عليهم، فينيبوا إلى طاعةِ ربهم، ويُذْعِنُوا للحقِّ عند تَبَيُّنِهِمُوه.

وقوله: «فارْتَقِبْ إنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: فانتظرْ أنتَ يا محمدُ الفتحَ من ربك، والنصر على هؤلاءِ المشركينَ بالله من قومكَ من قريش، إنهم منتظرون عند أنفسهم قهركَ وغلبتكَ بصدِّهم عما أتيتهم به من الحقِّ مَنْ أراد قبوله واتباعك عليه.

سُورَةُ الجَاثِيَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾

قد تقدم بياننا في معنى قوله: «حمٓ».

وأما قوله: «تَنْزِيلُ الكتابِ مِنَ اللهِ» فإن معناه: هذا تنزيلُ القرآن من عند الله «العَزِيزِ» في انتقامه من أعدائه «الحَكِيمِ» في تدبيره أمرِ خلقه.

وقوله: «إنَّ فِي السَّمَوَاتِ والأرْضِ لآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ في السمواتِ السبع اللاتي منهنَّ نزولُ الغيثِ، والأرض التي منها خروج الخَلْقِ أيها الناسُ «لآياتٍ للْمُؤْمِنِينَ»، يقولُ: لأدلةً وحججاً للمصدِّقين بالحججِ إذا تَبيَّنُوهَا ورأوها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وفي خَلْقِ الله إياكم أيها الناسُ، وخَلْقِه ما تفرَّقَ في الأرضِ من دابةٍ تدبُّ عليها من غيرِ جنسكم «آياتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ»، يعني: حججاً وأدلةً لقومٍ يوقنونَ بحقائقِ الأشياء، فيقرُّونَ بها، ويعلمون صحتها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥﴾

يقول تبارك وتعالى: «وفي اخْتِلافِ اللَّيْلِ والنَّهارِ» أيها الناسُ، وتعاقبهما عليكم، هذا بظلمتِه وسوادِه وهذا بنورِه وضيائه «وَما أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ» وهو الغيثُ الذي به تُخْرِجُ الأرضُ أرزاقَ العباد وأقواتهم، وإحيائِه الأرضَ بعد موتها: يقول: فأنبتَ ما أنزلَ من السماءِ من الغيْثِ مَيِّتَ الأرض، حتى اهتزَّتْ بالنباتِ والزرع من بعد موتها، يعني: من بعد جُدُوبها وقُحُوطها ومصيرها دائرة لا نبتَ فيها ولا زَرْعَ.

وقوله: «وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ»، يقولُ: وفي تصريفه الرياحَ لكم شمالاً مرّةً، وجنوباً أخرى، وصبًّا أحياناً، ودَبُوراً أخرى لمنافعكم.

وقوله: «آياتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: في ذلك أدلةٌ وحججٌ للهِ على خَلْقِه، لقومٍ يعقلون عن الله حججه، ويفهمونَ عنه ما وَعَظَهُمْ به من الآياتِ والعِبر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هذه الآياتُ والحججُ يا محمدُ من ربك على خَلْقِه «نتلوها عليك بالحقِّ»، يقولُ: نخبرك عنها بالحقِّ لا بالباطلِ، كما يخبر مشركو قومكَ عن آلهتهم بالباطل، أنها تُقَرِّبُهم إلى الله زُلْفَى، «فبأيِّ حديثٍ بعد الله وآياته تؤمنون»، يقول تعالى ذِكْرُه للمشركينَ به: فبأيِّ حديثٍ أيها القومُ بعد

حديثِ الله هذا الذي يتلوه عليكم، وبعد حججه عليكم وأدلته التي دَلَّكُمْ بها على وحدانيته من أنه لا ربَّ لكم سواه، تصدّقون، إنْ أنتم كذّبتم لحديثه وآياته. وهذا التأويلُ على مذهب قراءةِ مَنْ قرأ «تُؤْمِنُونَ» على وجه الخطابِ من اللهِ بهذا الكلامِ للمشركينَ، وذلك قراءة عامة قَرَأة الكوفيين. وأما على قراءة من قرأه «يُؤْمِنُون» بالياء، فإن معناه: فبأيِّ حديث يا محمدُ بعد حديثِ الله الذي يتلوه عليك وآياته هذه التي نَبَّهَ هؤلاءِ المشركينَ عليها، وذكَّرَهُمْ بها، يؤمن هؤلاء المشركون، وهي قراءة عامة قرأة أهل المدينة والبصرة، ولكلتا القراءتين وجهٌ صحيح، وتأويلٌ مفهوم، فبأية القراءتين قرأ ذلك القارىءُ فمصيبٌ عندنا، وإنْ كنتُ أميلُ إلى قِراءته بالياء، إذ كانت في سياق آياتٍ قد مَضَيْنَ قبلها على وجهِ الخبر، وذلك قوله: «لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ» و«لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الوادي السائلُ من صديدِ أهلِ جهنم، لكلِّ كَذَّابٍ ذي إثمٍ بربه، مُفْتَرٍ عليه، «يَسْمَعُ آياتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ»، يقولُ: يسمعُ آياتِ كتابِ الله تُقْرَأُ عليه «ثُمَّ يُصِرُّ» على كفره وإثمه فيقيم عليه غيرَ تائبٍ منه، ولا راجعٍ عنه «مُسْتَكْبِراً» على ربه أنْ يذعنَ لأمرِهِ ونهيه «كأنْ لَمْ يَسْمَعْها»، يقولُ: كأن لم يسمع ما تُلِيَ عليه من آياتِ الله بإصرارِه على كفره «فَبَشِّرْهُ بعَذابٍ أليمٍ»، يقولُ: فبشر يا محمدُ هذا الأفَّاكَ الأثيمَ الذي هذه صِفَتُه بعذابٍ من الله له. «أليم»، يعني: موجعٌ في نار جهنم يوم القيامة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَإِذَا عَلِمَ» هذا الأفاكُ الأثيمُ «مِنْ» آياتِ الله «شَيْئاً اتَّخَذَها هُزُواً»، يقولُ: اتخذ تلك الآياتِ التي علمها هزواً، يسخرُ منها، وذلك كفعلِ أبي جهل حين نزلت «إنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّوم طَعامُ الأثِيمِ» [الدخان: ٤٣] إذ دعا بتمرٍ وزبد فقال: تَزَقَّمُوا من هذا، ما يَعِدُكُمْ محمد إلا شهداً، وما أشبه ذلك من أفعالهم.

وقولـه: «أُولَئِـكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهينٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاءِ الذين يفعلونَ هذا الفِعْلَ، وهم الذين يسمعونَ آياتِ الله تُتلى عليهم ثم يصرُّونَ على كفرهم استكباراً، ويتخذون آياتِ الله التي علموها هزواً، لهم يومَ القيامةِ من الله عذابٌ مهين يُهينهم ويُذِلُّهم في نارِ جهنم، بما كانوا في الدنيا يستكبرونَ عن طاعةِ الله واتباع آياته، وإنما قال تعالى ذِكْرُه: «أُولَئِكَ» فجمع. وقد جرى الكلامُ قبل ذلك ردّاً للكلام إلى معنى الكلِّ في قوله: «وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أثِيمٍ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْـًٔا وَلَا مَا اتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومن وراء هؤلاءِ المستهزئينَ بآياتِ الله، يعني: من بين أيديهم. وقد بَيَّنا العلة التي من أجلها قِيلَ لِمَا أمامكَ، هو وَرَاءك، فيما مضى بما أغنى عن إعادتِه؛ يقول: من بين أيديهم نارُ جهنمَ هم وارِدُوهَا، ولا يُغْنِيهم ما كسبوا شيئاً: يقولُ: ولا يغني عنهم من عذابِ جهنمَ إذا هم عُذِّبُوا به ما كسبوا في الدنيا من مال وولدٍ شيئاً.

وقولـه: «وَلا ما اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أوْلِياءَ»، يقولُ: ولا آلهتهم التي عَبَـدُوهَـا من دونِ الله، ورؤسـاؤهم، وهم الـذين أطـاعوهم في الكفر بالله، واتخذوهم نُصراءَ في الدنيا، تغني عنهم يومئذٍ من عذابِ جهنم شيئاً. «وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ»، يقولُ: ولهم من الله يومئذٍ عذابٌ في جهنم عظيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هذا القرآنُ الذي أنزلناه على محمدٍ هُدًى: يقولُ: بيانٌ ودليلٌ على الحقِّ، يهدي إلى صراطٍ مستقيم، مَن اتَّبَعَهُ وعملَ بما فيه. «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بآياتِ رَبِّهِمْ»، يقولُ: والذين جحدوا ما في القرآنِ من الآياتِ الدالاتِ على الحقِّ، ولم يُصَدِّقُوا بها، ويعملوا بها، لهم عذابٌ أليمٌ يومَ القيامة موجع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: اللهُ أيها القوم، الذي لا تنبغي الألوهةُ إلا له، الذي أنعمَ عليكم هذه النعم، التي بيَّنها لكم في هذهِ الآيات، وهو أنه «سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ» السفنُ «فيه بأمره» لمعايشِكم وتَصَرُّفِكُمْ في البلادِ لطلبِ فَضْلِه فيها، ولتشكروا رَبَّكم على تسخيره ذلك لكم فتعبدوه وتطيعوه فيما يأمركم به، وينهاكم عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّمَوَاتِ» من شمسٍ وقمرٍ ونجوم «وَما فِي الأَرْضِ» من دابةٍ وشجرٍ وجبلٍ وجمادٍ وسفنٍ لمنافعكم ومصالحكم «جَمِيعاً منه»، يقول تعالى ذِكْرُه: جميع ما ذكرتُ لكم أيها الناسُ من هذه

النعم، نِعَمٌ عليكم من اللهِ أنعمَ بها عليكم، وفضلٌ منه تفضَّلَ به عليكم، فإياهُ فاحمدوا لا غيره، لأنه لم يشركه في إنعامِ هذه النعم عليكم شريكٌ، بل تفرَّدَ بإنعامها عليكم وجميعها منه، ومن نعمه فلا تجعلوا له في شكركم له شريكاً بل أفردوه بالشكر والعبادةِ، وأخلصوا له الألوهةَ، فإنه لا إله لكم سواه.

وقوله: «إنَّ فِي ذلكَ لآياتٍ لِقومٍ يَتفكَّرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ في تسخيرِ الله لكم ما أنبأكم أيها الناسُ أنه سخره لكم في هاتين الآيتين «لآياتٍ»، يقولُ: لعلامات ودلالات على أنه لا إله لكم غيره، الذي أنعم عليكم هذه النعمَ، وسَخَّرَ لكم هذه الأشياء التي لا يقدرُ على تسخيرها غيره لقومٍ يتفكرونَ في آيات الله وحججه وأدلته، فيعتبرونَ بها ويَتَّعِظُونَ إذا تدبروها، وفكَّرُوا فيها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه لنبيه محمـدٍ ﷺ: قل يا محمدُ للذين صدَّقُوا الله واتبعوكَ، يغفروا للذين لا يخافون بأسَ الله ووقائعه ونِقَمَهُ إذا هُمْ نالوهم بالأذى والمكـروه «لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كانُوا يَكْسِبُونَ»، يقولُ: ليجزيَ اللهُ هؤلاءِ الذين يؤذونهم من المشركينَ في الآخرةِ، فيصيبهم عذابُه بما كانوا في الدنيا يكسبون من الإثمِ، ثم بأذاهم أهلَ الإيمانِ بالله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مَنْ عمل من عبادِ الله بطاعته فانتهى إلى أمره، وانزجرَ لنهيهِ، فلنفسِه عملَ ذلك الصالحَ من العملِ، وطلب خلاصها من عذابِ الله، أطاعَ

رَبَّهُ لا لغير ذلك، لأنه لا ينفعُ ذلك غيره، والله عن عمل كُلِّ عاملٍ غنيٌّ «وَمَنْ أساءَ فَعَلَيْهَا»، يقولُ: وَمَنْ أساء عمله في الدنيا بمعصيته فيها رَبَّهُ، وخلافه فيها أمره ونهيه، فعلى نفسه جنى، لأنه أوبقها بذلك، وأكسبها به سخطه، ولم يضرَّ أحداً سوى نفسه «ثُمَّ إلى رَبِّكُم تُرْجَعُونَ»، يقولُ: ثم أنتم أيها الناسُ أجمعون إلى رَبِّكم تصيرونَ من بعد مماتكم، فيجازي المحسنَ منكم بإحسانِه، والمسيءَ بإساءته، فمن وَرَدَ عليه منكم بعملٍ صالح، جُوزيَ من الثواب صالحاً، ومن ورد عليه منكم بعملٍ سيءٍ جُوزيَ من الثواب سيئاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَلَقَدْ آتَيْنَا» يا محمدُ «بَنِي إسْرائِيلَ الكِتابَ»، يعني: التوراة والإنجيل، «وَالحُكْمَ» يعني: الفهمَ بالكتاب، والعلمَ بالسُّنَنِ التي لم تنزلْ في الكتاب، «وَالنُّبُوَّةَ»، يقولُ: وجعلنا منهم أنبياء ورسُلاً إلى الخلقِ، «وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ»، يقولُ: وأطعمناهم من طيبتِ أرزاقنا، وذلك ما أطعمهم من المَنِّ والسلوى. «وَفَضَّلْنَاهُمْ على العالَمِينَ»، يقولُ: وفضلناهم على عالمي أهلِ زمانِهم في أيامِ فرعونَ وعهدِه في ناحيتهم بمصر والشأم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأعطينا بني إسرائيلَ واضحاتٍ من أمرنا بتنزيلنا إليهم التوراةَ فيها تفصيلُ كُلِّ شيءٍ «فَمَا اخْتَلَفُوا إلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ العِلْمُ بَغْياً

بَيْنَهُمْ» طلباً للرياساتِ، وتركاً منهم لبيان الله تبارك وتعالى في تنزيله.

وقوله: «إنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ فِيما كانُوا فيهِ يَخْتَلِفُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: إنَّ ربكَ يا محمدُ يقضي بين المختلفينَ من بني إسرائيل بغياً بينهم يومَ القيامة، فيما كانوا فيه في الدنيا يختلفونَ بعدَ العلمِ الـذي آتاهم، والبيانِ الذي جاءهم منه، فيفلجُ المُحِقُّ حينئذٍ على المُبْطِلِ بفصلِ الحكمِ بينهم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ثم جعلناكَ يا محمدُ من بعد الذي آتينا بني إسرائيلَ، الذين وصفتُ لك صفتهم «عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الأمْرِ»، يقولُ: على طريقةٍ وسنةٍ ومنهاجٍ من أمرنا الذي أمرنا به من قبلك من رسلنا «فاتَّبِعْها»، يقولُ: فاتَّبِعْ تلك الشريعةَ التي جعلناها لكَ «ولا تَتَّبِعْ أهْواءَ الذِينَ لا يَعْلَمُونَ»، يقـولُ: ولا تتبـعْ ما دعـاكَ إليه الجاهلونَ باللهِ، الذين لا يعرفونَ الحقَّ من الباطل، فتعمل به، فتهلك إنْ عملتَ به.

وقوله: «إنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ هؤلاءِ الجاهلين بربهم، الذين يدعونكَ يا محمدُ إلى اتباعِ أهوائهم، لن يغنوا عنكَ إنْ أنتَ اتبعتَ أهواءهم، وخالفتَ شريعةَ ربك التي شرعها لك من عقابِ الله شيئاً، فيدفعوه عنكَ إنْ هو عاقبك، وينقذوك منه.

وقـولـه: «وَإنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أوْلِياءُ بَعْضٍ»، يقولُ: وإن الظالمين بعضهم أنصـارُ بعض، وأعـوانهم على الإيمـانِ باللهِ وأهل طاعته «واللهُ وَلِيُّ

المُتَّقِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: واللهُ يَلِي مَن اتَّقاهُ بأداءِ فرائضِه، واجتنابِ معاصيه بكفايته، ودفاعِ مَنْ أرادهُ بسوء، يقول جَلَّ ثناؤه لنبيه عليه الصلاة والسلام: فَكُنْ من المتقينَ، يَكْفِكَ الله ما بغـاكَ وكادَكَ به هؤلاءِ المشركونَ، فإنه وليُّ مَنِ اتقـاه، ولا يعظم عليكَ خلاف مَنْ خالفَ أمره وإنْ كَثُرَ عددهم، لأنهم لن يضرُّوكَ ما كان الله وَلِيُّكَ وناصرك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٢٠ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٢١﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: «هَذَا» الكتابُ الذي أنزلناه إليكَ يا محمدُ «بَصَائِرُ لِلنَّاسِ» يُبْصِرون به الحقَّ من الباطلِ، ويعرفونَ به سبيلَ الرشادِ، والبصائر: جمع بصيرة.

وقوله: «وَهُدًى»، يقولُ: ورشادُ «وَرَحْمَة لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ» بحقيقةِ صِحَّةِ هذا القرآنِ، وأنه تنزيلٌ من الله العزيز الحكيم. وخصَّ جَلَّ ثَنَاؤُهُ الموقنينَ بأنه لهم بصائرُ وهدى ورحمة، لأنهم الذين انتفعوا به دونَ مَنْ كَذَّبَ به من أهلِ الكفرِ، فكان عليه عَمَىً وله حزناً.

وقوله: «أمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أم ظَنَّ الذين اجترحوا السيئاتِ من الأعمالِ في الدنيا، وكَذَّبُوا رُسُلَ الله، وخالفوا أمرَ ربهم، وعبدوا غيره، أنْ نجعلهم في الآخرةِ، كالذينَ آمنوا بالله وصَدَّقُوا رسله وعملوا الصالحاتِ، فأطاعوا الله، وأخلصوا له العبادةَ دونَ ما سواه من الأندادِ والآلهـةِ، كَلَّا ما كانَ اللهُ ليفعلَ ذلك، لقد مَيَّزَ بين الفريقين، فجعل حزبَ الإيمانِ في الجنة، وحزبَ الكفرِ في السعير.

وقوله: «سَوَاءً مَحْياهُمْ ومَماتُهُمْ»، اختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: «سَوَاء»، فقرأت ذلك عامة قرأة المدينة والبصرة وبعض قَرَأَة الكوفة «سَوَاءٌ» بالرفع، على أنَّ الخبرَ مُتناهٍ عندهم عند قوله: «كالَّذِينَ آمَنُوا» وجعلوا خبرَ قوله: «أنْ نَجْعَلَهُمْ» قوله: «كالَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ»، ثم ابتدؤوا الخبرَ عن استواء حالِ محيا المؤمنِ ومماتِه، ومحيا الكافرِ ومماته، فرفعوا قوله: «سَوَاءٌ» على وجهِ الابتداءِ بهذا المعنى، وإلى هذا المعنى وَجَّهَ تأويلَ ذلك جماعةٌ من أهلِ التأويل.

وقد يحتمل الكلامُ إذا قُرِىء «سواء» رفعاً وجهاً آخر غير هذا المعنى الذي ذكرناه، وهو أن يوجه إلى: أمْ حَسِبَ الذين اجترحوا السيئاتِ أنْ نجعلهم والمؤمنينَ سواء في الحياةِ والموت، بمعنى: أنهم لا يستوونَ، ثم يرفع سواء على هذا المعنى، إذ كان لا ينصرف.

وقرأ ذلك عامة قَرَأَة الكوفة «سَوَاءً» نصباً، بمعنى: أحسبوا أن نجعلهم والذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء.

والصوابُ من القول في ذلك عندي أنهما قراءتان معروفتان في قرأةِ الأمصار قد قرأ بكلٍّ واحدةٍ منهما أهلُ العلم بالقرآن صحيحتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارىءُ فمصيبٌ.

وقوله: «ساءَ ما يَحْكُمُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: بئسَ الحكمُ الذي حسبوا أنَّا نجعلُ الذين اجترحوا السيئاتِ والذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ سواء محياهم ومماتهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَخَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ بالحَقِّ» للعدل والحقِّ، لا لِمَا حسبَ هؤلاءِ الجاهلونَ باللهِ، من أنه يجعلُ من اجترحَ السيئات، فعصاهُ وخالفَ أمره، كالذين آمنوا وعملوا الصالحات في المحيا والممات، إذْ كان ذلك من فِعْلِ غيرِ أهلِ العدل والإنصاف، يقول جَلَّ ثناؤُه: فلم يخلق اللهُ السمواتِ والأرضَ للظلمِ والجور، ولكنَّا خلقناهُمَا للحقِّ والعدل. ومن الحقِّ أنْ نخالفَ بين حكم المسيءِ والمحسن في العاجل والآجل.

وقوله: «وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وليثيبَ اللهُ كلَّ عاملٍ بما عمل من عملٍ، خَلَقَ السمواتِ والأرضَ، المحسنَ بالإحسانِ، والمسيءَ بما هو أهلُه، لا لنبخسَ المحسنَ ثوابَ إحسانِه، ونحمل عليه جُرْمَ غيره، فنعاقبه، أو نجعلَ للمسيءِ ثوابَ إحسانِ غيرِه فنكرمه، ولكن لنجزي كُلًّا بما كسبتْ يداهُ، وهم لا يُظلمون جزاءَ أعمالهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾**

يقول جَلَّ ثناؤه: أفرأيتَ يا محمدُ مَنِ اتخذَ معبودَهُ هواه، فيعبد ما هَوِيَ من شيءٍ دونَ إلهِ الحقِّ الذي له الألوهةُ من كلِّ شيء.

وقوله: «وأَضَلَّهُ اللهُ على عِلْمٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وخذله عن محجةِ الطريق، وسبيلِ الرشاد في سابقِ علمه على علمٍ منه بأنه لا يهتدي، ولو جاءته كُلُّ آية.

وقوله: «وَخَتَمَ على سَمْعِهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وطَبَعَ على سمعه أنْ يسمعَ مواعظَ الله وآيَ كتابه، فيعتبر بها ويتدبرها، ويتفكر فيها، فيعقل ما فيها

من النورِ والبيانِ والهُدى.

وقوله: «وَقَلْبِهِ»، يقولُ: وطبع أيضاً على قلبه، فلا يعقل به شيئاً، ولا يعي به حقاً.

وقوله: «وَجَعَلَ على بَصَرِهِ غشَاوَةً»، يقولُ: وجعلَ على بصره غشاوةً أنْ يبصرَ به حججَ الله، فيستدلّ بها على وحدانيته، ويعلم بها أنْ لا إلهَ غيرُه.

وقوله: «فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فَمَنْ يوفِّقه لإصابةِ الحقِّ، وإبصار محجة الرشد بعد إضلالِ الله إياه «أفَلا تَذَكَّرُونَ» أيها الناسُ، فتعلموا أنَّ مَنْ فعلَ اللهُ به ما وصفنا، فلن يهتدي أبداً، ولن يجد لنفسه ولياً مرشداً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقال هؤلاءِ المشركونَ الذين تَقَدَّمَ خبرُه عنهم: ما حياةٌ إلا حياتُنَا الدنيا التي نحنُ فيها لا حياةَ سِواها تكذيباً منهم بالبعثِ بعد الممات.

وقولـه: «نَمُـوتُ وَنَحْيا» نموتُ نحن وتحيا أبناؤنا بعدنا، فجعلوا حياةَ أبنائِهم بعدهم حياةً لهم، لأنهم منهم وبعضهم، فكأنهم بحياتِهم أحياء، وذلك نظير قولِ الناس: ما ماتَ مَنْ خَلَّفَ ابناً مثل فلان، لأنه بحياةِ ذِكْرِهِ به، كأنه حيٌّ غيرُ ميتٍ، وقد يحتملُ وجهاً آخر، وهو أن يكون معناه: نحيا ونموتُ على وجه تقديمِ الحياةِ قبلَ الممات، كما يقال: قمتُ وقعدتُ، بمعنى: قعدتُ وقمتُ؛ والعربُ تفعل ذلك في الواو خاصة إذا أرادوا الخبر عن شيئين أنهما كانا أو يكونان، ولم تقصد الخبر عن كونِ أحدهما قبلَ الآخر، تقدم المتأخر

حدوثاً على المتقدمِ حدوثه منهما أحياناً، فهذا من ذلك، لأنه لم يقصد فيه إلى الخبر عن كونِ الحياةِ قبل المماتِ، فقدَّم ذِكْرَ المماتِ قبل ذِكْرِ الحياة، إذْ كانَ القصد إلى الخبر عن أنهم يكونون مرّةً أحياء وأخرى أمواتاً.

وقوله: «وَما يُهْلِكُنا إلاَّ الدَّهْرُ»، يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن هؤلاءِ المشركينَ أنهم قالوا: وما يُهْلِكُنَا فيفنينا إلا مَرُّ الليالي والأيامِ وطولُ العمر، إنكاراً منهم أنْ يكونَ لهم ربٌّ يفنيهم ويهلكهم.

وذُكِرَ أنَّ هذه الآيةَ نزلت من أجلِ أنَّ أهلَ الشركِ كانوا يقولون: الذي يُهْلِكُنَا ويُفنينا الدهرُ والزمانُ، ثم يَسُبُّونَ ما يفنيهم ويهلكهم، وهم يرون أنهم يسبون بذلك الدهرَ والزمانَ، فقال الله عَزَّ وجَلَّ لهم: أنا الذي أفنيكم وأهلككم، لا الدهرُ والزمانُ، ولا عِلْمَ لكم بذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا تُتلى على هؤلاءِ المشركينَ المكذِّبينَ بالبعثِ آياتنا، بأنَّ اللهَ باعثُ خَلْقَهُ من بعد مماتِهم، فجامِعُهم يومَ القيامةِ عنده للثوابِ والعقابِ «بَيِّناتٍ»، يعني: واضحاتٍ جَليَّات، تنفي الشكَّ عن قلبِ أهلِ التصديقِ بالله في ذلك «ما كانَ حُجَّتَهُمْ إلاَّ أنْ قالُوا ائْتُوا بآبائنا إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

يقول جَلَّ ثناؤه: لم يكن لهم حجةٌ على رسولنا الذي يتلو ذلك عليهم إلا قولهم له: ائتنا بآبائنا الذين قد هَلَكُوا أحياء، وانشرهم لنا إنْ كنتَ صادقاً فيما تتلو علينا وتخبرنا، حتى نُصَدِّقَ بحقيقةِ ما تقولُ بأنَّ الله باعثنا من بعد مماتنا، ومُحْيينَا من بعدِ فنائنا.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢٦﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه لنبيه محمـدٍ ﷺ: قُلْ يا محمـدُ لهؤلاءِ المشركينَ المكذِّبينَ بالبعثِ، القائلينَ لك ائتنا بآبائنا إنْ كنتَ صادقاً: اللهُ أيها المشركونَ يُحييكم ما شاء أنْ يُحييكم في الدنيا، ثم يُميتكم فيها إذا شاء، ثم يجمعُكُمْ إلى يومِ القيامة، يعني: أنه يجمعكم جميعاً أوَّلكم وآخركم، وصغيركم وكبيركم «إلى يوم القيامة»، يقولُ: ليوم القيامة، يعني: أنه يجمعكم جميعاً أحياء ليومِ القيامة. «لا رَيْبَ فِيهِ»، يقولُ: لاشكَّ فيه، يقولُ: فلا تَشُكُّوا في ذلك، فإنَّ الأمـرَ كما وصفتُ لكم «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ»، يقولُ: ولكنَّ أكثرَ النـاسِ الـذين هم أهـلُ تكذيبٍ بالبعث، لا يعلمون حقيقةَ ذلك، وأنَّ الله مُحْيِيهم من بعد مماتهم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝٢٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولله سلطانُ السمواتِ السبع والأرض، دونَ ما تَدْعُونَهُ له شريكاً، وتعبدونه من دونه، والذي تدعونه من دونِهِ من الآلهةِ والأندادِ في مُلكه وسلطانه، جارٍ عليه حُكْمُه، فكيفَ يكونُ ما كان كذلك له شريكاً، أم كيف تعبدونه، وتتركونَ عبادةَ مالِكِكُمْ، ومالكُ ما تعبدونه من دونه «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ويوم تجيءُ الساعةُ التي يُنْشِرُ اللهُ فيها الموتى من قبـورهم، ويجمعهم لموقف العرض، «يَخْسَرُ المُبْطِلُونَ»، يقولُ: يغبنُ فيها الذين أبطلوا في الدنيا في أقوالهم ودعواهم لله شريكاً، وعبادَتِهم آلهةً دونَهُ بأنْ يفوزَ بمنازلهم من الجنة المُحِقُّونَ، ويُبَدَّلُوا بها منازلَ من النارِ كانت للمحقين،

فجعلت لهم بمنازلهم من الجنة، ذلك هو الخسرانُ المبين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٢٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وترى يا محمدُ يومَ تقومُ الساعةُ أهلَ كُلِّ ملةٍ ودِينٍ «جاثيةً»، يقولُ: مجتمعة مستوفزة على رُكَبِهَا من هَوْلِ ذلك اليوم.

وقوله: «كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إلى كِتابِها»، يقولُ: كُلُّ أهلِ ملةٍ ودِينٍ تُدعى إلى كتابها الذي أملت على حَفَظَتِهَا. عن أبي هريرة، قال: «قال النَاسُ: يا رسولَ الله هل نَرَى ربَّنا يومَ القيامَةِ؟ قال: هَلْ تُضَامُّونَ[1] في الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَها سَحَابٌ؟ قالوا: لا يا رسولَ الله. قال: هَلْ تُضَارُّونَ في القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ لَيْسَ دُونَـهُ سحابٌ؟ قالوا: لا يا رسولَ الله. قال: فإنَّكُمْ تَرَوْنَهُ يَوْمَ القِيامَةِ كَذَلِكَ. يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ فَيَقُولُ: مَنْ كانَ يَعْبُدُ شَيْئاً فَلْيَتْبَعْهُ، فَيَتْبَعُ مَنْ كانَ يَعْبُـدُ القَمَـرَ القَمَـرَ، وَمَنْ كانَ يَعْبُـدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ، وَيَتْبَع مَنْ كانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ، وَتَبْقَى هَذِهِ الأُمَّةُ فِيها مُنافِقُوها، فَيأتِيهِمْ رَبُّهُمْ فِي صورَةٍ، وَيُضْرَبُ جِسْرٌ على جَهَنَّمَ قال النبيُّ ﷺ: فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُجيز، وَدَعْوَةُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ، اللَّهُمَّ سَلِّمْ، وبها كَلالِيبُ كَشَوْكِ السَّعْدانِ[2]. هَلْ رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدانِ؟ قالوا: نعم يا رسول الله. قال: فإنَّها مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ غير أَنَّهُ لا يَعْلَمُ أَحَدٌ قَدْرَ عِظَمِها إلاَّ اللهُ ويُخْطَفُ النَّاسُ بأعمالِهِمْ، فَمِنْهُمْ المُوبَق

---

(١) يعني: هل يشقُّ عليكم وتتعبون؟ والمراد: هل تشكون. ومثلها ما ورد في روايات أخرى: هل تضارّون. أو هل تمارون، ونحوها.

(٢) نبتٌ له شوكة عظيمة مثل الحسك من كل الجوانب.

بعَمَلِه، وَمِنْهُمُ المُخَرْدَلُ[1] ثُمَّ يَنْجُو، ثم ذكر الحديث بطوله»[2].

وقوله: «اليَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: كلُّ أُمةٍ تُدعى إلى كتابها، يقال لها: «اليوم تجزون»، أي: تُثابونَ وتُعْطَوْنَ أجورَ ما كنتم في الدنيا من جزاءِ الأعمالِ تعملونَ بالإحسانِ الإحسانَ، وبالإساءةِ جزاءها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٢٩ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ۝٣٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لكلِّ أمةٍ دُعِيَتْ في القيامة إلى كتابها الذي أملت على حفَظَتِهَا في الدنيا. «اليَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» فلا تجزعوا من ثوابنَاكُمْ على ذلك، فإنكم يَنْطقُ عليكم إنْ أنكرتموه بالحقِّ فاقرؤوه «إنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»، يقولُ: إنَّا كنا نستكتبُ حَفَظَتنا أعمالَكُمْ، فَتُثْبِتُهَا في الكتبِ وتكتبها.

وقوله: «فأمَّا الَّذينَ آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، فِيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فأما الذين آمنوا بالله في الدنيا فوحَّدُوه، ولم يشركوا به شيئاً، «وعملوا الصالحاتِ»، يقولُ: وعملوا بما أمرهم اللهُ به، وانتهوا عما نهاهم الله عنه «فَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَتِهِ»، يعني: في جنته برحمته.

وقوله: «ذلكَ هُوَ الفَوْزُ المُبِينِ»، يقولُ: دخولهم في رحمةِ الله يومئذٍ هو

---

(١) المخردل: هو المرمي المصروع، وقيل: المقطَّع، تقطعه كلاليب الصراط حتى يهوي في النار. يقال: خردلت اللحم: أي: فَصَّلْتُ أعضاءه وقطعته.

(٢) الحديث بطوله في الصحيحين: البخاري (٦٥٧٣) ومسلم (١٨٢).

الظفرُ بما كانوا يطلبونه، وإدراك ما كانوا يسعون في الدنيا له، المبين غايتهم فيها، أنه هو الفوز.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأما الذين جحدوا وحدانيةَ الله، وأبوا إفرادَهُ في الدنيا بالألوهة، فيقال لهم: ألم تكنْ آياتي في الدنيا تُتْلَى عليكم.

وقوله: «فاسْتَكْبَرْتُمْ»، يقولُ: فاستكبرتم عن استماعها والإيمانِ بها «وكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ»، يقولُ: وكنتم قوماً تكسبونَ الآثامَ والكفرَ بالله، لا تُصَدِّقُونَ بمعَادٍ، ولا تؤمنون بثوابٍ ولا عقاب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويقال لهم حينئذٍ «وَإِذَا قِيلَ» لكم «إنَّ وَعْدَ اللهِ» الذي وَعَدَ عبادَهُ، أنه مُحْيِيهم من بعد مماتِهم، وباعِثُهم من قبورِهم «حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ» التي أخبرهم أنه يقيمها لحشرهم، وجمعهم للحسابِ والثوابِ على الطاعة، والعقابِ على المعصية، آتيةٌ «لا رَيْبَ فِيها»، يقولُ: لاشكَّ فيها، يعني: في الساعة، والهاء في قوله: «فِيها» من ذِكْرِ الساعة. ومعنى الكلام: والساعةُ لا ريبَ في قيامها، فاتقوا الله وآمنوا باللهِ ورسولِه، واعملوا لما يُنجيكم من عقابِ الله فيها. «قُلْتُمْ ما نَدْرِي ما السَّاعَةُ» تكذيباً منكم بوعدِ الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ، وردًّا لخبرِه، وإنكاراً لقُدْرتِه على إحيائِكم من بعد مماتكم.

وقوله: «إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنّاً»، يقولُ: وقلتم ما نظنُّ أنَّ الساعةَ آتيةٌ إلا ظناً: «وَما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ» أنها جائيةٌ، ولا أنها كائنةٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وَبَدا لهؤلاءِ الذين كانوا في الدنيا يكفرونَ بآياتِ الله سيئاتُ ما عملوا في الدنيا من الأعمال، يقولُ: ظَهَرَ لهم هنالك قبائحها وشرارها لما قرؤوا كُتُبَ أعمالهم التي كانت الحَفَظَةُ تنسخها في الدنيا «وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ»، يقولُ: وحاقَ بهم من عذابِ الله حينئذٍ ما كانوا به يستهزئون إذْ قيل لهم: إن الله مُحِلُّهُ بمن كَذَّبَ به على سيئاتِ ما في الدنيا عملوا من الأعمال.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقيل لهؤلاءِ الكَفَرةِ الذين وصفَ صِفَتهم: اليومَ نَتْرُكُكم في عذابِ جهنم، كما تركتمُ العملَ للقاءِ رَبِّكم يومَكم هذا.

وقوله: «وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ»، يقولُ: ومأواكم التي تأوون إليها نارُ جهنم، «وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ»، يقولُ: وما لكم من مُسْتَنْقِذٍ يُنقذكم اليومَ من عذابِ الله، ولا منتصر ينتصرُ لكم ممن يعذِّبُكم، فيستنقذُ لكم منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يقال لهم: هذا الذي حَلَّ بكم من عذابِ الله اليومَ «بِأَنَّكم» في الدنيا «اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللهِ هُزُواً»، وهي حججه وأدلته وآي كتابه التي أنزلها على رسولِه ﷺ «هُزُواً»، يعني: سخريةً تسخرون منها «وَغَرَّتْكُمُ الحَياةُ الدُّنْيا»، يقولُ: وخدعتكم زينةُ الحياة الدنيا، فآثرتُموهَا على العملِ لما يُنجيكم اليومَ من عذابِ الله، يقول تعالى ذِكْرُه: «فالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا» من النار «وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ»، يقولُ: ولا هُمْ يُرَدُّونَ إلى الدنيا ليتوبوا ويراجعوا الإنابةَ مما عُوقِبُوا عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «فَلِلَّهِ الحَمْدُ» على نِعمه وأياديه عند خَلْقِه، فإياهُ فاحمدوا أيها الناسُ، فإنَّ كُلَّ ما بكم من نعمةٍ فمنه دونَ ما تعبدونَ من دونِه من آلهةٍ ووثنٍ، ودونَ ما تتخذونه من دونه رباً، وتشركونَ به معه «رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَب الأَرْضِ»، يقولُ: مالك السمواتِ السبع، ومالك الأرضين السبع و«رَبِّ العالمِينَ»، يقولُ: مالك جميع ما فيهنَّ من أصنافِ الخلق، «وله الكبرياءُ في السموات والأرض»، يقولُ: وله العَظَمَةُ والسلطانُ في السموات والأرض دونَ ما سواهُ من الآلهةِ والأنداد «وَهُوَ العَزِيزُ» في نقمته من أعدائِه، القاهرُ كُلَّ ما دونه، ولا يقهرهُ شيءٌ «الحَكِيمُ» في تدبيره خَلْقَهُ وتصريفه إياهم فيما شاء كيف شاء، واللهُ أعلم.

المجلد السادس

فهرس المحتويات

تفسير الطبري

من كتابه

جامع البيان عن تأويل آي القرآن

هذبه وحققه وضبط نصه وعلق عليه

الدكتور بشار عواد معروف عصام فارس الحرستاني

المجلد السابع

الأحقاف إلى الناس

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير الطبري

٧

الطّبعَة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

مؤسّسة الرّسالة للطباعة والنشر والتوزيع

مؤسّسة الرّسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٦٠٣٢٤٣ - ٨١٥١١٢ - ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

سُورَةُ الأحقاف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾

قد تقدّم بيانُنا في معنى قوله: «حمٓ. تَنْزِيلُ الكِتابِ» بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

وقوله: «ما خَلَقْنا السَّمَوَاتِ والأرْضَ وَمَا بَيْنَهُما إلاّ بالحَقّ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما أحدثنا السمواتِ والأرضَ فأوجدناهما خلقاً مصنوعاً، وما بينهما من أصنافِ العالم «إلا بالحقّ»، يعني: إلا لإقامةِ الحقِّ والعدلِ في الخلق.

وقوله: «وَأجَلٍ مُسَمًّى»، يقولُ: وإلاّ بأجلٍ لكلِّ ذلك معلومٍ عنده يُفْنِيه إذا هو بَلَغَهُ، ويُعْدِمُه بعد أنْ كانَ موجوداً بإيجادِه إياه.

وقوله: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والذين جحدوا وحدانيةَ الله عن إنذارِ الله إياهم مُعْرِضُونَ، لا يَتَّعِظُونَ به، ولا يتفكرون فيعتبرون.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى

﴿مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قُلْ يا محمدُ لهؤلاءِ المشركينَ بالله من قومكَ، أرأيتم أيها القومُ الآلهةَ والأوثانَ التي تعبدونَ من دون الله، أروني أيَّ شيءٍ خلقوا من الأرضِ، فإنَّ ربي خلقَ الأرضَ كلها، فَدَعَوْتُمُوهَا من أجلِ خَلْقِهَا ما خَلَقَتْ من ذلك آلهةً وأرباباً، فيكون لكم بذلك في عبادتكم إياها حجةٌ، فإنَّ من حجتي على عبادتي إلهي، وإفرادِي له الألوهةَ، أنه خَلَقَ الأرضَ فابتدعَهَا من غيرِ أصلٍ.

وقوله: «أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أم لآلهتِكُم التي تعبدونها أيها الناسُ شِرْكٌ مع اللهِ في السمواتِ السبع، فيكون لكم أيضاً بذلك حجةٌ في عِبَادَتِكُمُوهَا، فإنَّ من حجتي على إفرادي العبادةَ لربي، أنه لا شريكَ له في خَلْقِها، وأنه المنفردُ بخلقها دونَ كلٍّ ما سواه.

وقوله: «ائْتُونِي بِكِتابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا»، يقول تعالى ذِكْرُه: بكتابٍ جاء من عند الله من قَبْلِ هذا القرآنِ الذي أُنزلَ عليَّ، بأنَّ ما تعبدونَ من الآلهةِ والأوثانِ خلقوا من الأرضِ شيئاً، أو أنَّ لهم مع الله شركاً في السموات، فيكون ذلك حجة لكم على عبادتكم إياها، لأنها إذا صَحَّ لها ذلك صَحَّتْ لها الشركةُ في النِّعم التي أنتم فيها، ووجَبَ لها عليكم الشكرُ، واستحقتْ منكم الخدمةَ، لأن ذلك لا يقدر أنْ يخلقه إلا الله.

وقوله: «أو أثارةٍ من عِلْمٍ»، معناه: ائتوني أيها القومُ بكتابٍ من قَبْلِ هذا الكتابِ، بتحقيقِ ما سألتكم تحقيقَهُ من الحجةِ على دعواكم ما تَدَّعُونَ لآلهتِكم، أو ببقيةٍ من عِلْمٍ يوصل بها إلى عِلْمِ صِحَّةِ ما تقولونَ من ذلك «إنْ

كُنْتُمْ صادِقِين» في دَعْوَاكُمْ لها ما تَدَّعُونَ، فإنَّ الدعوى إذا لم يكن معها حجةٌ لم تُغْنِ عن المدَّعي شيئاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأيُّ عبدٍ أضلُّ من عبدٍ يدعو من دونِ الله آلهةً «لا يستجيبُ له إلى يوم القيامة»، يقولُ: لا يُجيبُ دعاءه أبداً، لأنها حجرٌ أو خشب أو نحو ذلك.

وقوله: «وَهُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غَافِلُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وآلهتُهم التي يَدْعُونَهُمْ عن دعائِهم إياهم في غَفْلةٍ، لأنها لا تسمعُ ولا تنطقُ، ولا تعقلُ. وإنما عنى بوصفها بالغفلة، تمثيلَها بالإنسانِ الساهي عَمَّا يُقالُ له، إذْ كانت لا تفهمُ مما يقالُ لها شيئاً، كما لا يفهمُ الغافلُ عن الشيءِ ما غفلَ عنه، وإنما هذا توبيخٌ من الله لهؤلاءِ المشركينَ لسوءِ رأيهم، وقُبْحِ اختيارِهم في عبادتهم، مَنْ لا يعقلُ شيئاً ولا يفهم، وتركهم عبادةَ مَنْ جميعُ ما بِهِمْ من نعمتِه، ومَنْ به استغاثتهم عندما ينزلُ بهم من الحوائجِ والمصائب، وقيل: «مَنْ لا يستجيب له»، فأخرج ذِكْرَ الآلهةِ وهي جمادٌ مخرجَ ذِكْرِ بني آدمَ، ومَنْ له الاختيارُ والتمييزُ، إذْ كانت قد مَثَّلَتْهَا عَبَدَتُهَا بالملوكِ والأمراءِ التي تخدم في خدمتهم إياها، فأجرى الكلامَ في ذلك على نحوِ ما كان جارياً فيه عندهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا جُمِعَ الناسُ يومَ القيامةِ لموقفِ الحساب، كانت هذه الآلهـةُ التي يدعونها في الدنيا لهم أعداء، لأنهم يتبرَّؤونَ منهم «وكانُوا بعِبادتِهِمْ كافِرينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكانت آلهتُهم التي يعبدونها في الدنيا بعبادتهم جاحدينَ، لأنهم يقولون يوم القيامة: ما أمرناهم بعبادتنا، ولا شَعَرْنَا بعبادتِهم إيانا، تبرأنا إليكَ منهم يا رَبَّنَا.

وقوله: «وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آياتُنَا بَيِّناتٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا يُقْرأ على هؤلاءِ المشركينَ بالله من قومك آياتنا، يعني حججنا التي احتججناها عليهم، فيما أنزلناهُ من كتابنا على محمدٍ ﷺ «بَيِّناتٍ»، يعني: واضحات نَيِّراتٍ «قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قالَ الذين جحدوا وحدانيةَ الله، وكَذَّبُوا رسولَهُ للحقِّ لما جاءهم من عند الله، فأنزله على رسوله ﷺ «هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ» يعنون: هذا القرآن خداعٌ يخدعنا، ويأخذُ بقلوبِ مَنْ سمعه فِعْلَ السحرِ «مبين»، يقول: يُبينُ لمن تأمَّلَهُ ممن سمعه أنه سحرٌ مبين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أم يقولون هؤلاءِ المشركونَ بالله من قريش، افترى محمـدٌ هذا القـرآنَ، فاختلقـه وتَخـرَّصَهُ كذباً. قُلْ لهم يا محمدُ إنِ افتريتُه وتَخَرَّصْتُه على الله كذباً «فَلا تَمْلِكُونَ لي»، يقولُ: فلا تُغْنُونَ عني من الله إنْ عاقبَني على افترائي إياه، وتَخَرُّصي عليه شيئاً، ولا تقدرون أنْ تدفعوا عني سوءً إنْ أصابني به.

وقوله: «هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيه»، يقولُ: ربي أعلمُ من كلِّ شيءٍ سواه

بما تقولون بينكم في هذا القرآنِ، والهاء من قوله: « تُفِيضُونَ فِيهِ» من ذِكْرِ القرآن.

وقوله: « كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ»، يقولُ: كفى بالله شاهداً عليَّ وعليكم بما تقولون من تكذيبكم لي فيما جِئْتُكم به من عندِ الله الغفورِ الرحيمِ لهم، بأنْ لا يعذبهم عليها بعد توبتهم منها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ لمشركي قومكَ من قريش: «ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُل»، يعني: ما كنتُ أوَّل رُسُلِ الله التي أرسلها إلى خَلْقِه، قد كان من قبلي له رسلٌ كثيرةٌ أُرسلتْ إلى أممٍ قبلكم؛ يقال منه: هو بِدْعٌ في هذا الأمر، وبديعٌ فيه، إذا كان فيه أوَّل.

وقوله: «وَما أدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويله، فقال بعضهم: عنى به رسول الله ﷺ، وقيل له: قُلْ للمؤمنينَ بك: ما أدري ما يُفعلُ بي ولا بكم يومَ القيامة، وإلام نصيرُ هنالك، قالوا: ثم بَيَّنَ الله لنبيه محمدٍ ﷺ وللمؤمنينَ به حالهم في الآخرة، فقيل له: «إنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبيناً. لِيَغْفِـرَ لَكَ اللهُ ما تَقـدَّم مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ» [الفتح: ١-٢] وقال: «لِيُدْخِلَ المُؤْمِنينَ وَالمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِها الأنهارُ خالِدِينَ فِيها وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ» [الفتح: ٥].

وقـال آخـرون: بل عني ذلك أمرٌ من الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ نَبِيَّهُ عليه الصلاة والسلام أنْ يقوله للمشركينَ من قومه ويعلم أنه لا يدري إلامَ يصيرُ أمرُه وأمرهم في الـدنيا، أيصيرُ أمـرُه معهم أنْ يقتلوه أو يُخْـرجوه من بينهم، أو يؤمنوا به

فيتبعوه، وأمرهم إلى الهلاك، كما أهلكت الأمم المكذِّبةُ رُسُلَها من قبلهم أو إلى التصديقِ له فيما جاءهم به من عند الله.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وما أدري ما يُفْتَرَضُ عليَّ وعليكم، أو ينزل من حُكْمٍ، وليس يعني: ما أدري ما يُفعلُ بي ولا بكم غداً في المعاد من ثوابِ الله مَنْ أطاعَهُ، وعقابِه مَنْ كَذَّبه.

وقال آخرون: إنما أمر أنْ يقول هذا في أمرٍ كان ينتظره من قِبَلِ الله عَزَّ وجَلَّ في غير الثواب والعقاب.

وأوْلى الأقوال في ذلك بالصحة وأشبهها بما دلّ عليه التنزيل القول الثاني.

وإنما قلنا أوْلاها بالصوابِ لأنَّ الخطاب من مبتدإ هذه السورةِ إلى هذه الآية، والخبر خرج من الله عَزَّ وجَلَّ خطاباً للمشركين وخبراً عنهم، وتوبيخاً لهم، واحتجاجاً من الله تعالى ذِكْرُه لنبيه ﷺ عليهم. فإذا كان ذلك كذلك، فمعلومٌ أنَّ هذه الآية أيضـاً سبيلهـا سبيل ما قبلها وما بعدها في أنها احتجاج عليهم، وتوبيخٌ لهم، أو خبرٌ عنهم. وإذا كان ذلك كذلك، فمحالٌ أنْ يقال للنبيِّ ﷺ: قل للمشركينَ: ما أدري ما يُفعل بي ولا بكم في الآخرة، وآيات كتاب الله عَزَّ وجَلَّ في تنزيله ووحيه إليه متتابعة بأنَّ المشركينَ في النار مُخَلَّدون، والمؤمنونَ به في الجنـان مُنَعَّمُونَ، وبذلك يرهبهم مرّة، ويرغبهم أخرى. ولو قال لهم ذلك، لقالوا له: فعلامَ نَتَّبعك إذن وأنتَ لا تدري إلى أيِّ حالٍ تصير غداً في القيامـة، إلى خَفْضٍ وَدَعَـةٍ، أم إلى شِدَّةٍ وعـذاب؛ وإنمـا اتباعُنَا إياك إنِ اتبعناكَ، وتصديقنا بما تدعونا إليه، رغبة في نِعمة، وكرامة نصيبها، أو رهبة من عقوبة، وعذاب نهرب منه. ثم بَيَّنَ الله لنبيه ﷺ ما هو فاعلٌ به، وبمن كذَّبَ بما جاء به من قومه وغيرهم.

وقوله: «إنْ أتَّبِعُ إلَّا ما يُوحَى إليَّ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قل لهم ما أَتَّبِعُ فيما آمركم به، وفيما أفعله من فعلٍ إلا وحي الله الذي يُوحيه إليَّ، «وَما أنا إلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ»، يقولُ: وما أنا لكم إلا نذير، أنذركم عقابَ الله على كفركم به «مبين»، يقولُ: قد أبان لكم إنذاره، وأظهر لكم دعاءه إلى ما فيه نصيحتكم، يقولُ: فكذلك أنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «قُلْ»، يا محمدُ، لهؤلاءِ المشركينَ القائلينَ لهذا القرآن لما جاءهم هذا سحرٌ مبين «أرأيْتُمْ» أيها القوم «إنْ كانَ» هذا القرآنُ «مِنْ عِنْدِ اللهِ» أنزله عليَّ «وَكَفَرْتُمْ» أنتم «بِهِ»، يقولُ: وكذبتم أنتم به.

وقوله: «وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إسْرائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معناه: وشهدَ شاهدٌ من بني إسرائيل، وهو موسى بن عمران عليه السلام على مثله، يعني: على مِثْلِ القرآنِ، قالوا: ومِثْلُ القرآنِ الذي شَهِدَ عليه موسى بالتصديقِ التوراةُ.

وقال آخرون: عنى بقوله: «وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ» عبدالله بن سلام، قالوا: ومعنى الكلام وشهد شاهدٌ من بني إسرائيل على مثل هذا القرآن بالتصديق. قالوا: ومثل القرآن التوراة.

والصواب من القول في ذلك القول الأخير، فهو أشبه بظاهرِ التنزيل، لأنَّ قوله: «قُلْ أرأيْتُمْ إنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ» في سياق توبيخِ اللهِ تعالى ذِكْرُه مشركي قريش، واحتجاجاً عليهم

لنبيه ﷺ، وهذه الآيةُ نظيرةُ سائرِ الآياتِ قبلَها، ولم يَجْرِ لأهلِ الكتابِ ولا لليهودِ قبلَ ذلك ذِكْرٌ، فتوجَّه هذه الآيةُ إلى أنها فيهم نزلتْ، ولا دَلَّ على انصرافِ الكلامِ عن قصصِ الذين تَقَدَّمَ الخبرُ عنهم معنى، غير أنَّ الأخبارَ قد وردتْ عن جماعةٍ من أصحابِ رسول الله ﷺ بأنَّ ذلك عُنِيَ به عبدالله بن سلام وعليه أكثرُ أهل التأويل، وهم كانوا أعلم بمعاني القرآن، والسبب الذي فيه نزل، وما أُريدَ به، فتأويلُ الكلام إذ كان ذلك كذلك: وشهدَ عبدُالله بن سلام، وهو الشاهدُ من بني إسرائيل على مِثْلِه، يعني: على مِثْلِ القرآن، وهو التوراة، وذلك شهادته أن محمداً مكتوبٌ في التوراة أنه نبيٌّ تجده اليهودُ مكتوباً عندهم في التوراة، كما هو مكتوبٌ في القرآن أنه نبيٌّ.

وقوله: «فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ»، يقولُ: فآمَنَ عبدُالله بن سلام، وصدَّقَ بمحمدٍ ﷺ، وبما جاء به من عند الله، واستكبرتم أنتم على الإيمانِ بما آمَنَ به عبدُالله بن سلام معشر اليهود «إنَّ اللهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ»، يقولُ: إنَّ الله لا يوفِّق لإصابةِ الحقِّ، وهدى الطريق المستقيم، القومَ الكافرينَ الذين ظلموا أنفسهم بإيجابهم لها سَخَطَ الله بكفرهم به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقال الذين جحدوا نُبُوَّةَ محمدٍ ﷺ من يهودِ بني إسرائيل للذين آمنوا به، لو كانَ تصديقكم محمداً على ما جاءكم به خيراً، ما سبقتُمُونا إلى التصديقِ به، وهذا التأويلُ على مذهبِ مَنْ تأوَّلَ قوله: «وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إسْرائِيلَ عَلى مِثْلِهِ» أنه معنيٌّ به عبدالله بن سلام، فأما على تأويلِ مَنْ تأوَّل أنه عُنِيَ به مشركو قريش، فإنه ينبغي أنْ يوجَّه تأويلُ قوله:

«وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ» أنه عُنِيَ به مشركو قريش.

وقوله: «وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإذْ لم يبصروا بمحمدٍ وبما جاء به من عندِ اللهِ من الهدى، فيرشدوا به الطريقَ المستقيم «فَسَيَقُولُونَ هٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ»، يقولُ: فسيقولون هذا القرآن الذي جاء به محمدٌ ﷺ أكاذيبُ من أخبارِ الأوَّلِينَ قديمة، كما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ مُخْبِراً عنهم، «وَقالُوا أساطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وأَصِيلًا» [الفرقان: ٥].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومن قبل هذا الكتابِ، كتابُ موسى، وهو التوراةُ، إماماً لبني إسرائيل يأتمُّونَ به، ورحمة لهم أنزلناه عليهم، وخرج الكلامُ مخرجَ الخبرِ عن الكتابِ بغيرِ ذكرِ تمامِ الخبر اكتفاءً بدلالةِ الكلام على تمامه؛ وتمامه: ومن قبله كتابُ موسى إماماً ورحمةً أنزلناهُ عليه، وهذا كتابٌ أنزلناه لساناً عربياً.

وقوله: «لِيُنْذِر الَّذِينَ ظَلَمُوا»، يقولُ: لينذر هذا الكتابُ الذي أنزلناه إلى محمدٍ عليه الصلاة والسلام الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بالله بعبادتهم غيره

وقوله: «وبُشْرى لِلْمُحْسِنِينَ»، يقولُ: وهو بشرى للذين أطاعوا الله فأحسنوا في إيمانهم وطاعتهم إياه في الدنيا، فحسن الجزاء من الله لهم في الآخرةِ على طاعتهم إياه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا

﴿خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝١٣ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنا اللهُ» الذي لا إله غيره «ثُمَّ اسْتَقامُوا» على تصديقهم بذلك فلم يخلطوه بشركٍ، ولم يخالفوا اللهَ في أمرِه ونهيه «فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ» من فزعِ يومِ القيامةِ وأهواله «وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ» على ما خَلَّفُوا وراءهم بعد مماتهم.

وقوله: «أُولَئِكَ أصحَابُ الجَنَّةِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاءِ الذين قالوا هذا القولَ، واستقاموا، أهلُ الجنةِ وسكانها «خالِدِينَ فِيها»، يقولُ: ماكثينَ فيها أبداً «جَزَاءً بِمَا كانُوا يَعْمَلُونَ»، يقولُ: ثواباً مِنَّا لهم آتيناهم ذلك على أعمالِهم الصالحة التي كانوا في الدنيا يعملونها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ووصينا ابنَ آدمَ بوالديه الحُسْنَ في صحبته إياهما أيام حياتهما، والبِرِّ بهما في حياتهما وبعد مماتهما.

واختلفت القَرَأة في قراءةِ قوله: «إحساناً» فقرأته عامة قَرَأة المدينة والبصرة «حُسْناً» بضمِّ الحاء على التأويلِ الذي وصفتُ. وقرأ ذلك عامة قَرَأة الكوفة «إِحْساناً» بالألف، بمعنى: ووصيناه بالإحسانِ إليهما، وبأيِّ ذلك قرأ القارىء

فمصيبٌ، لتقارب معاني ذلك، واستفاضة القراءة بكل واحدة منهما في القَرَأة.

وقـولـه: «حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: ووصينا الإنسانَ بوالديه إحساناً بِرّاً بهما، لِمَا كان منهما إليه حَملاً ووليداً وناشئاً، ثم وصف جَلَّ ثَنَاؤُهُ ما لديه من نعمةِ أمه، وما لاقتْ منه في حال حَمْلِه ووضعِه، ونَبَّهَـهُ على الـواجبِ لها عليه من البرِّ، واستحقاقها عليه من الكرامةِ وجميل الصحبـة، فقـال: «حَمَلَتْـهُ أُمُّـهُ»، يعني: في بطنهـا كرهـاً، يعني: مَشَقَّةً، «وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً»، يقولُ: وولدته كرهاً يعني: مشقة.

وقوله: «وَحَمْلُهُ وفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرَاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وحَمْلُ أمه إياهُ جنيناً في بطنها، وفصالها إياهُ من الرَّضَاعِ، وفطمها إياه شربَ اللبن، ثلاثون شهراً.

وقوله: «حتى إذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ»، اختلف أهلُ التأويل في مبلغِ حَدِّ ذلك من السنين، فقال بعضهم: هو ثلاثٌ وثلاثون سنة.

وقال آخرون: هو بلوغُ الحلم.

وقد بيَّنا فيما مضى أنَّ الأشدَّ جمع شدّ، وأنه تَنَاهي قوّته واستوائِه. وإذا كان ذلك كذلك، كان الثلاثُ والثلاثون به أشبه من الحلم، لأنَّ المرءَ لا يبلغُ في حال حُلمه كمالَ قُواه، ونهايةَ شِدَّتِه، فإنَّ العربَ إذا ذكرت مثل هذا من الكـلام، فعـطفت ببعضٍ على بعض جعلتْ كلا الوقتين قريباً أحدهما من صاحبه، كما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «إنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أدنى مِنْ ثُلُثَي اللَّيْل وَنِصْفَهُ»، ولا تكاد تقول: أنا أعلمُ أنك تقومُ قريباً من ساعةٍ من الليلِ وكله، ولا أخـذت قليلاً من مال أو كله، ولكن تقول: أخذت عامة مالي أو كله، فكذلك ذلك في قوله: «حتى إذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً» لاشكَّ أنَّ نَسَقَ الأربعينَ على الثـلاث والثـلاثين أحسنُ وأشبـه، إذ كان يُراد بذلـك تقريب أحدهما من الآخر من النسق على الخمس عشرة أو الثمان عشرة.

وقوله: «وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً» ذلك حين تكاملتْ حجةُ الله عليه، وَسَيَّرَ عنه جهالةَ شبابه وعرفَ الواجبَ لله من الحقِّ في برِّ والديه.

وقوله: «قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قال هذا الإنسانُ الذي هداهُ الله لرشده، وعرف حَقَّ الله عليه فيما ألزمه من برِّ والديه «رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ»، يقولُ: أَغْرِني بشكرِ نعمتكَ التي أنعمتَ عليَّ في تعريفك إياي توحيدَكَ وهدايتك لي للإقرارِ بذلك، والعمل بطاعتك «وَعَلَى وَالِدَيَّ» من قبلي، وغير ذلك من نعمك علينا، وألهمني ذلك، وأصله من: وَزَعتُ الرجلَ على كذا: إذا دفعتُه عليه.

وقوله: «وأنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضاهُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: أوزعني أنْ أعمل صالحاً من الأعمالِ التي ترضاها، وذلك العمل بطاعتِه وطاعةِ رسولِه ﷺ.

وقوله: «وأَصْلِحْ لي في ذُرِّيَّتي»، يقولُ: وأصلح لي أموري في ذرّيتي الذين وهبتهم، بأنْ تجعلهم هُداةً للإيمانِ بكَ، واتباعِ مَرْضَاتِكَ، والعمل بطاعتك.

وقوله: «إنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ المُسْلِمِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: مخبراً عن قِيلِ هذا الإنسان: «إنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ»، يقولُ: تبتُ من ذنوبي التي سَلَفَتْ مني في سالفِ أيامي إليك «وَإِنِّي مِنَ المُسْلِمِينَ»، يقولُ: وإني من الخاضعينَ لكَ بالطاعة، المستسلمينَ لأمركَ ونهيكَ، المنقادينَ لحكمك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاءِ الذين هذه الصفةُ صفتُهم، هم الذين يُتَقَبَّلُ

عنهم أحسنَ ما عَمِلُوا في الدنيا من صالحاتِ الأعمال، فيجازيهم به، ويُثيبهم عليه «ونَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِم»، يقولُ: وَيَصْفَحُ لهم عن سيئاتِ أعمالهم التي عملوها في الدنيا، فلا يعاقبهم عليها. «في أصحَابِ الجَنَّةِ»، يقولُ: نفعلُ ذلك بهم فِعْلَنَا مثلَ ذلك في أصحابِ الجنة وأهلها الذين هم أهلها.

وقوله: «وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كانُوا يُوعَدُون»، يقولُ: وَعَدَهم اللهُ هذا الوعدَ، الحقِّ لاشَكَّ فيه أنه موفٍّ لهم به، الذي كانوا إياهُ في الدنيا يَعِدُهُم اللهُ تعالى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾﴾

وهذا نعتٌ من الله تعالى ذِكْرُه نَعْتُ ضالٍّ به كافر، وبوالديه عاقّ، وهما مجتهدان في نصيحته ودعائه إلى الله، فلا يزيده دعاؤهما إياهُ إلى الحقِّ، ونصيحتهما له إلا عتوّاً وتمرّداً على الله، وتمادياً في جهله، يقول الله جَلَّ ثناؤه: «وَالَّذِي قالَ لِوَالِدَيْهِ» أنْ دَعَوَاهُ إلى الإيمانِ بالله، والإقرارِ ببعثِ اللهِ خَلْقَهُ من قبورهم، ومجازاتِه إياهم بأعمالهم «أُفٍّ لَكُما»، يقولُ: قذراً لكما ونتناً «أتَعِدَانِنِي أنْ أُخْرَجَ»، يقولُ: أتعدانني أن أخرج من قبري من بعدِ فنائي وبلائي فيه حياً.

وقوله: «وَقَدْ خَلَتِ القُرُونُ مِنْ قَبْلِي»، يقولُ: أتعدانني أنْ أُبْعَثَ، وقد مضت قرونٌ من الأممِ قبلي، فهلكوا، فلم يبعثْ منهم أحداً، ولو كنتُ مبعوثاً بعد وفاتي كما تقولان، لكان قد بُعِثَ مَنْ هَلَكَ قبلي من القرون «وَهُما يَسْتَغِيثانِ اللهَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ووالداه يستصرخانِ اللهَ عليه، ويستغيثانِه عليه

أنْ يؤمنَ باللهِ، ويقرَّ بالبعثِ ويقولان له: «وَيْلَكَ آمن»، أي: صَدِّقْ بوعدِ الله، وأقِرَّ أنكَ مبعوثٌ من بعد وفاتك، أن وعد الله الذي وَعَدَ خَلْقَهُ أنه باعثهم من قبورهم، ومخرجهم منها إلى موقفِ الحسابِ لمجازاتهم بأعمالهم حقٌّ لاشكَّ فيه، فيقولُ عدوُّ الله مجيباً لوالديه، وردّاً عليهما نصيحتَهما، وتكذيباً بوعدِ الله: ما هذا الذي تقولانِ لي وتَدْعُوَاني إليه من التصديقِ بأني مبعوثٌ من بعدِ وفاتي من قبري، إلا ما سَطَّره الأوَّلون من الناسِ من الأباطيلِ، فكتبوه، فأصبتماه أنتما فصدَّقتما.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ۝١٨ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاءِ الذين هذه الصفةُ صِفَتُهم، الذين وَجَبَ عليهم عذابُ الله، وحَلَّتْ بهم عقوبتُه وسخطه، فيمن حلَّ به عذابُ الله على مِثْلِ الذي حلّ بهؤلاءِ من الأمم الذين مضوا قبلهم من الجنِّ والإنس، الذين كَذَّبُوا رُسُلَ الله، وعَتَوْا عن أمرِ ربهم.

وقوله: «إنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنهم كانوا المغبونينَ ببيعِهم الهدى بالضلالِ والنعيمَ بالعقاب.

وقـولـه: «وَلِكُـلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولكلِّ هؤلاءِ الفريقين: فريق الإيمانِ بالله واليومِ الآخر، والبرِّ بالوالدين، وفريق الكفرِ بالله واليومِ الآخر، وعقوقِ الوالدينِ اللذين وصفَ وصفهم ربنا عَزَّ وجَلَّ في هذه الآيات منازل ومراتب عند الله يومَ القيامة، مما عملوا، يعني: من عملهم الذي عملوه في الدنيا من صالحٍ وحَسَنٍ وسيىء يُجازيهم اللهُ به.

وقـوله: «وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ»، يقولُ: وجميعهم لا يظلمون: لا يجازي المسيءَ منهم إلا عقوبةً على ذنبه، لا على ما لم يعملْ، ولا يحمل عليه ذنبَ غيره، ولا يبخس المحسنَ منهم ثوابَ إحسانه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ۝٢٠﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: «وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا» بالله «عَلى النَّارِ» يقال لهم: «أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيا، وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِها»: فيها.

وقوله: «فالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الهُونِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يقال لهم: فاليومَ أيها الكافرون الذين أذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا «تُجْزَوْنَ»، أي: تُثابون «عذابَ الهون»، يعني: عذاب الهوان، وذلك عذاب النار الذي يهينهم. «بما كُنْتم تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأرْضِ بغَيْرِ الحَقّ»، يقولُ: بما كنتم تتكبرون في الدنيا على ظهر الأرض على رَبِّكم، فتأبون أنْ تُخْلِصُوا له العبادةَ، وأنْ تُذْعِنُوا لأمرِهِ ونهيه بغير الحقِّ، أي: بغير ما أباحَ لكم رَبُّكم، وأذِنَ لكم به. «وبِما كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ»، يقولُ: بما كنتم فيها تخالفون طاعتَهُ فتعصُونه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٢١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: واذكر يا محمدُ لقومكَ الرَّادِّينَ عليكَ ما جِئْتَهُمْ به من الحقِّ هوداً أخا عادٍ، فإنَّ الله بعثكَ إليهم كالذي بعثه إلى عادٍ،

فخوَّفَهُمْ أنْ يحلَّ بهم من نقمةِ الله على كُفْرِهم ما حلَّ بهم إذ كذَّبُوا رسولَنا هوداً إليهم، إذْ أنـذر قومه عاداً بالأحقافِ. والأحقاف: جمع حقف وهو من الرمل ما استطال، ولم يبلغ أن يكون جبلاً.

وقوله: «وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وقد مضت الرسلُ بإنذارِ أممها «مِنْ بَينِ يَدَيْهِ»، يعني: من قبلِ هودٍ ومن خلفه، يعني: ومن بعد هود. «أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ»، يقولُ: لا تشـركوا مع الله شيئاً في عبادتكم إياهُ، ولكنْ أخلصوا له العبادةَ، وأفردوا له الألوهةَ، إنه لا إله غيره، وكانوا فيما ذُكر أهلَ أوثانٍ يعبدونها من دون الله.

وقوله: «إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: مخبراً عن قِيلِ هودٍ لقومِه: إني أخافُ عليكم أيها القومُ بعبادتكم غيرَ الله عذابَ الله في يومٍ عظيم وذلك يومٌ يَعْظُمُ هَوْلُه، وهو يوم القيامة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قالت عادٌ لهودٍ، إذْ قال لهم لا تعبدوا إلا الله: إني أخافُ عليكم عذابَ يوم عظيم. أجئتنا يا هودُ لِتَصْرِفَنَا عن عبادةِ آلهتنا إلى عبادةِ ما تَدْعُونَا إليه، وإلى اتباعك على قولك. «فأْتِنا بِمَا تَعِدُنا» من العذابِ على عبادتنا ما نعبدُ من الآلهةِ «إنْ كُنْتَ» من أهلِ الصدقِ في قوله وعِدَاته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ۝٢٣﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: قال هودٌ لقومِه عاد: «إنَّما العِلْمُ» بوقتِ مجيءِ ما

أعِدُكُمْ به من عذابِ الله على كفركم به عند الله، لا أعلمُ من ذلك إلا ما عَلَّمني. «وَأُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ»، يقولُ: وإنما أنا رسولٌ إليكم من الله، مُبَلِّغٌ أبلغكم عنه ما أرسلني به من الرسالة «وَلَكِنِّي أرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ»، مواضعَ حُظوظِ أنفسكم، فلا تعرفونَ ما عليها من المضرَّةِ بعبادَتِكم غيرَ الله، وفي استعجال عذابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما جاءهم عذابُ الله الذي استعجلوه، فرأوه سحاباً عارضاً في ناحية من نواحي السماء «مُسْتَقْبِلَ أوْدِيَتِهِمْ» والعربُ تسمي السحابَ الـذي يُرَى في بعض أقـطار السماء عشياً، ثم يُصْبِحُ من الغَدِ قد استوى، وَحَبَا[1] بعضَهُ إلى بعضٍ عارضاً، وذلك لعرضه في بعض أرجاء السماء حين نشأ، «قالُوا هَذَا عارِضٌ مُمْطِرُنا» ظناً منهم برؤيتهم إياهُ أنَّ غيثاً قد أتاهم يَحْيَوْنَ به، فقالوا: هذا الذي كان هودٌ يَعِدُنَا، وهو الغَيْثُ.

وقوله: «بَلْ هُوَ ما اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ نبيه هود ﷺ لقـومه لما قالوا له عند رؤيتهم عارضَ العذاب، قد عَرَضَ لهم في السماء هذا عارضٌ مُمْطِرُنَا نحيا به، ما هو بعارضِ غيثٍ، ولكنه عارضُ عذابٍ لكم، بل هو ما استعجلتم به: أي: هو العذابُ الذي استعجلتم به، فقلتم: «ائْتِنـا بِمَـا تَعِدُنا إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» [الأعراف: ٧٠] «رِيحٌ فِيها عَذَابٌ ألِيمٌ». والريحُ مكرَّرةٌ على ما في قوله: «هُوَ ما اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ» كأنه قيل: بل هو ريحٌ فيها عذابٌ أليم.

---

(١) أي: زحف بعضه إلى بعض، بمعنى: تَجَمَّعَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾

وقوله: «تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا»، يقول تعالى ذِكْرُه: تُخَرِّبُ كلَّ شيءٍ، وترمي بعضَهُ على بعضٍ فتهلكه.

وإنما عنى بقوله: «تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بأمْرِ رَبها» مما أُرْسِلَتْ بهلاكِه، لأنها لم تُدَمِّرْ هوداً ومَنْ كان آمنَ به.

وقوله: «فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إلَّا مَساكِنُهُمْ»، يقولُ: فأصبح قومُ هودٍ وقد هَلَكُوا وفنوا، فلا يُرى في بلادهم شيء إلا مساكنهم التي كانوا يسكنونها.

وقوله: «وَكَذَلكَ نَجْزِي القَوْمَ المجرِمينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: كما جزينا عاداً بكفرهم باللهِ من العقابِ في عاجلِ الدنيا، فأهلكناهم بعذابنا، كذلك نجزي القومَ الكافرينَ باللهِ من خلقنا، إذْ تمادوا في غيِّهم وطَغَوا على رَبِّهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لكفارِ قريش: ولقد مَكَّنا أيها القومُ عاداً الذين أهلكناهم بكفرهم فيما لم نُمَكِّنْكُمْ فيه من الدنيا، وأعطيناهم منها الذي لم نُعْطِكُمْ منهم من كثرةِ الأموالِ، وبَسْطةِ الأجسام، وشدَّةِ الأبدان.

وقوله: «وَجَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً» يسمعونَ به مواعظَ رَبِّهم، وأبصاراً يُبصرونَ

بها حججَ الله، وأفئدةً يعقلون بها ما يَضُرُّهُمْ وينفعهم «فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ»، يقولُ: فلم ينفعهم ما أعطاهم من السمعِ والبصرِ والفؤادِ إذْ لم يستعملُوها فيما أعطوها له، ولم يعملوها فيما يُنجيهم من عقابِ الله، ولكنهم استعملوها فيما يُقَرِّبُهم من سخطه «إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بآياتِ اللهِ»، يقولُ: إذ كانوا يكذِّبُونَ بحججِ الله وهم رُسُله، وينكرون نُبُوَّتهم «وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ»، يقولُ: وعَادَ عليهم ما استهزؤوا به، ونـزلَ بهم ما سَخِرُوا به، فاستعجلوا به من العذابِ، وهذا وعيدٌ من الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ لقريش، يقول لهم: فاحذروا أنْ يحلَّ بكم من العذابِ على كُفْرِكم باللهِ وتكذيبكم رُسُلَهُ، ما حَلَّ بعادٍ، وبادِرُوا بالتوبةِ قبل النقمة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لكفارِ قريش مُحَذِّرَهُمْ بأسَهُ وسطوتَهُ، أنْ يحلَّ بهم على كفرهم. «وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا» أيها القومُ من القُرَى ما حولَ قَرْيَتِكُمْ، كحِجْرِ ثمودَ وأرضِ سَدُوم ومأرب ونحوها، فأنذرنا أهلَها بالمَثُلاتِ، وخَرَّبْنا ديارها، فجعلناها خاويةً على عروشها.

وقوله: «وَصَرَّفْنَا الآياتِ»، يقولُ: ووعظناهم بأنواعِ العِظَاتِ، وذَكَّرْنَاهُمْ بضروبٍ من الذِّكْر والحججِ، وبيَّنا لهم ذلك.

«لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ»، يقولُ: ليرجعوا عما كانوا عليه مقيمينَ من الكفرِ بالله وآياته، وفي الكلام متروكٌ تُرِك ذِكْرُه استغناءً بدلالةِ الكلامِ عليه، وهو: فأَبَوْا إلا الإقامةَ على كفرهم، والتمادي في غيهم، فأهلكناهم، فلن ينصرهم منا

ناصرٌ؛ يقول جَلَّ ثناؤُه: فلولا نصر هؤلاءِ الذين أهلكناهم من الأممِ الخاليةِ قبلهم أوثانهم وآلهتهم التي اتَّخَذُوا عبادَتَها قرباناً يتقرَّبُونَ بها فيما زعموا إلى رَبِّهم منا إذْ جاءهم بأسنا، فتنقذهم من عذابنا إنْ كانتْ تشفعُ لهم عند رَبِّهم كما يزعمون، وهذا احتجاجٌ من الله لنبيه محمدٍ ﷺ على مُشركي قومه، يقول لهم: لو كانتْ آلهتُكم التي تعبدونَ من دونِ اللهِ تغني عنكم شيئاً، أو تنفعكم عند الله كما تزعمونَ أنكم إنما تعبدُونها، لتقرِّبَكُمْ إلى اللهِ زُلْفى، لأغنتْ عَمَّنْ كان قَبْلَكُمْ من الأممِ التي أهلكتها بعبادتهم إياها، فدفعتْ عنها العذابَ إذا نزلَ، أو لَشَفعَتْ لهم عند رَبِّهم، فقد كانوا من عبادتها على مِثْلِ الذي عليه أنتم، ولكنها ضَرَّتْهُمْ ولم تنفعهم.

يقول تعالى ذِكْرُه: «بل ضَلُّوا عنهم»، يقولُ: بل تركتهم آلهتهم التي كانوا يعبدونها، فأخذت غيرَ طريقهم، لأنَّ عَبَدَتَها هلكتْ، وكانت هي حجارةً أو نحاساً، فلم يُصِبْهَا ما أصابَهُمْ، ودَعَوْهَا، فلم تُجِبْهُمْ، ولم تُغِثْهُمْ، وذلك ضلالها عنهم، «وذلك إفكهم»، يقول عَزَّ وجَلَّ: هذه الآلهةُ التي ضلَّتْ عن هؤلاءِ الذين كانوا يعبدونَها من دونَ اللهِ عند نزولِ بأسِ الله بهم، وفي حال طمعهم فيها أنْ تُغيثهم، فخذلتهم، هو إفكهم: يقولُ: هو كَذِبُهُمْ الذي كانوا يكذِّبون، ويقولون هؤلاءِ آلهتنا «وما كانوا يفترون»، يقولُ: وهو الذي كانوا يفترون، فيقولون: هي تُقَرِّبُنَا إلى الله زُلفى، وهي شفعاؤنا عند الله. وأخرج الكلام مخرج العقل، والمعنيُّ المفعول به المأفوكُ به، لأنَّ الإفكَ إنما هو فِعلُ الإفكِ، والآلهةُ مأفوكٌ بها. وقد مضى البيانُ عن نظائر ذلك قَبْلُ، قال: وكذلك قوله: «وما كانُوا يَفْتَرُونَ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه مُقرِّعاً كفارَ قريشٍ بكفرهم بما آمنتْ به الجنُّ «وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ»، يا محمدُ «نَفراً مِنَ الجِنِّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآنَ» ذكر أنهم صُرِفُوا إلى رسولِ الله ﷺ بالحادِث الذي حَدَثَ من رَجْمِهم بالشهب.

وقوله: «فَلَمَّا حَضَرُوهُ»، يقولُ: فلما حضرَ هؤلاءِ النفر من الجنِّ الذين صَرَفَهُم الله إلى رسولِه نبيِّ الله ﷺ.

واختلف أهلُ العلم في صِفَةِ حُضُورِهم رسولَ الله ﷺ، فقال بعضهم: حضـروا رسـولَ الله ﷺ، يتعرَّفُونَ الأمرَ الذي حدث من قبله ما حدث في السماء، ورسولُ الله ﷺ لا يشعرُ بمكانهم.

وقال آخرون: بل أمر نبيّ الله ﷺ أنْ يقرأ عليهم القرآنَ، وأنهم جُمِعُوا له بعد أن تقدَّم اللهُ إليه بإنذارهم، وأمره بقراءةِ القرآنِ عليهم.

وقـولـه: «فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا»، يقول تعالى ذِكْرُه: فلما حضروا القرآنَ ورسولُ الله ﷺ يقرأ، قال بعضُهم لبعضٍ: أنصتوا لنستمع القرآنَ.

وقوله: «فَلَمَّا قُضِيَ»، يقولُ: فلما فرغَ رسولُ الله ﷺ من القراءةِ وتلاوةِ القرآن.

وقوله: «وَلَّوْا إلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ»، يقولُ: انصرفوا مُنْذِرِينَ عذابَ الله على الكُفْرِ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ٣٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ هؤلاءِ الذين صُرِفُوا إلى رسولِ الله ﷺ من الجن لقومهم لما انصرفوا إليهم من عندِ رسولِ الله ﷺ: «يا قَوْمَنا» من

الجنّ «إنَّا سَمِعْنَا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ» كتاب «مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ»، يقولُ: يُصَدِّقُ ما قَبْلَهُ من كُتُبِ الله التي أنزلها على رُسُلِه.

وقوله: «يَهْدِي إلى الحَقِّ»، يقولُ: يُرْشِدُ إلى الصوابِ، ويدلُّ على ما فيه للهِ رِضا «وَإلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ»، يقولُ: وإلى طريقٍ لا اعوجاجَ فيه، وهو الإسلامُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ هؤلاءِ النفرِ من الجنِّ «يا قَوْمَنا» من الجنِّ «أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ»، قالوا: أجيبوا رسولَ الله محمداً إلى ما يَدْعُوكم إليه من طاعةِ الله «وآمِنُوا بِهِ»، يقولُ: وصدِّقُوه فيما جاءكم به وقومه من أمرِ اللهِ ونَهْيِه، وغير ذلك مما دعاكم إلى التصديقِ به «يَغْفِرْ لَكُمْ»، يقولُ: يتغمد لكم رَبُّكم من ذُنُوبِكم فيسترها لكم ولا يفضحكم بها في الآخرةِ بعقوبتِه إياكم عليها «ويُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ»، يقولُ: ويُنقذكم من عذابٍ مُوجعٍ إذا أنتم تبتم من ذنوبِكم، وأَنَبْتُمْ من كُفْرِكم إلى الإيمانِ باللهِ وبِدَاعِيه.

وقوله: «وَمَنْ لا يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ» يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ هؤلاءِ النفر لقومهم: ومَنْ لا يُجِبْ أَيُّها القومُ رسولَ الله ﷺ محمداً، وداعيه إلى ما بعثَهُ بالدعاء إليه من توحيدِه، والعملِ بطاعته «فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ»، يقولُ: فليس بمعجزٍ رَبَّهُ بِهَرَبِه، إذا أراد عقوبته على تكذيبه داعيه، وتركه تَصْدِيقَهُ وإنْ ذهب في الأرضِ هارباً، لأنه حيثُ كانَ فهو في سلطانه وقَبْضَته «وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءُ»، يقولُ: وليس لِمَنْ لم يُجِبْ

داعيَ اللهِ من دونِ رَبِّه نُصراء ينصرونَهُ من اللهِ إذا عاقبه رَبُّه على كفره به وتكذيبهِ دَاعِيه.

وقوله: «أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ»، يقولُ: هؤلاءِ الذين لم يُجِيبُوا داعيَ الله فيصدِّقُوا به، وبما دَعَاهُمْ إليه من توحيدِ الله، والعملِ بطاعته في جَوْرٍ عن قَصْدِ السبيلِ، وأخذٍ على غيرِ استقامةٍ، «مبين»، يقولُ: يبينُ لمن تَأَمَّلَهُ أنه ضلالٌ، وأخذٌ على غيرِ قصدٍ.

القَــوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِــهِ تَعَـالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أو لم ينظرْ هؤلاءِ المنكرونَ إحياءَ اللهِ خَلْقَهُ من بعد وفاتِهم، وبعثه إياهم من قبورهم بعد بلائهم، القائلونَ لآبائهم وأمهاتهم «أفٍّ لكمـا أتَعِدَانِنِي أنْ أُخْرَجَ وقد خلَتِ القرونُ من قبلي» [الأحقاف: ١٧] فلم يُبْعَثُوا بأبصـارِ قلوبهم، فيروا ويعلمـوا أنَّ الله الـذي خلقَ السمواتِ السبع والأرضَ، فابتدعهنَّ من غير شيءٍ، ولم يَعْيَ بإنشائهنَّ، فيعجز عن اختراعهنَّ وإحداثهنَّ. «بِقَادِرٍ على أنْ يُحْيِي المَوْتَى» فَيُخْرِجَهُمْ من بعد بلائهم في قبورهم أحياء كهيئتهم قبلَ وفاتهم.

وقوله: «بَلَى إنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: بلى، يَقْدِرُ الذي خَلَقَ السمواتِ والأرضَ على إحياءِ الموتى: أي الذي خلقَ ذلك على كلِّ شيءٍ شاءَ خَلْقَهُ، وأرادَ فِعْلَهُ، ذُو قُدرةٍ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ أراده، ولا يُعْيِيه شيءٌ أراد فعله، فيعييه إنشاء الخلق بعد الفناء، لأنَّ مَنْ عجزَ عن ذلك فضعيفٌ، فلا ينبغي أن يكون إلهاً مَنْ كان عما أرادَ ضعيفاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝٣٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويومَ يُعْرَضُ هؤلاءِ المُكَذِّبُونَ بالبعثِ، وثوابِ اللهِ عبادَهُ على أعمالِهم الصالحة، وعقابه إياهم على أعمالِهم السيئة، على النارِ، نارِ جهنمَ، يقال لهم حينئذٍ: أليسَ هذا العذابُ الذي تُعَذَّبُونَهُ اليومَ، وقد كنتم تكذِّبُونَ به في الدنيا بالحقِّ، توبيخاً من اللهِ لهم على تكذيبهم به، كان في الدنيا «قالُوا بَلَى وَرَبِّنا»، يقولُ: فيجيبُ هؤلاءِ الكَفَرَةُ من فَوْرهم بذلك، بأنْ يقولوا بلى هو الحقُّ واللهِ؛ قال: «فَذُوقُوا العَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ»، يقولُ: فقال لهم المقرِّر بذلك: فَذُوقُوا عذابَ النارِ الآنَ بما كنتم تجحدونه في الدنيا، وتُنْكِرُونَهُ، وتأبَوْنَ الإقرارَ إذا دُعيتم إلى التصديقِ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ۝٣٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ، مُثَبِّته على المُضيِّ لما قَلَّدَهُ من عبْءِ الرسالة، وثِقَلِ أحمالِ النبوّةِ ﷺ. وآمره بالائْتِساءِ في العَزْمِ على النفوذِ لذلك بأولي العزمِ من قَبْلِه من رُسُلِه الذين صبروا على عظيمِ ما لَقُوا فيه من أقوامِهم من المكارِه، ونالهم فيه منهم من الأذى والشدائد: «فاصْبِرْ» يا محمدُ على ما أصابك في الله من أذى مُكَذِّبيكَ من قومكَ الذين أرسلناك إليهم بالإنذار «كَمَا صَبَرَ أُولُو العَزْمِ» على القيامِ بأمرِ الله، والانتهاء إلى طاعته من رُسُلِه الذين لم ينههم عن النفوذِ لأمره، ما نالهم فيه من شدَّةٍ. وقيل: إنَّ أولي العزم منهم،

كانوا الذين امتُحِنوا في ذاتِ الله في الدنيا بالمِحَنِ، فلم تَزِدْهُمْ المحنُ إلا جدّاً في أمرِ الله، كنوحٍ وإبراهيمَ وموسى ومَنْ أشبههم.

وقولـه: «وَلَا تَسْتَعْجِـلْ لَهُمْ»، يقولُ: ولا تستعجلْ عليهم بالعذاب، يقولُ: لا تعجل بمسألتك رَبَّكَ ذلك لهم فإنَّ ذلك نازلٌ بهم لا محالة «كأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ»، يقولُ: كأنهم يومَ يرون عذابَ الله الذي يَعِدُهم أنه مُنْزِلُه بهم، لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعةً من نهار، لأنه ينسيهم شدَّةَ ما ينزلُ بهم من عذابه، قَدْرَ ما كانوا في الدنيا لبثوا، ومبلغَ ما فيهـا مَكَثُوا من السنين والشهور، كما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ؟ قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، فاسْأَلِ العادِّينَ» «المؤمنون: ١١٢-١١٣].

وقوله: «بَلاغٌ»، فيه وجهان: أحدهما أنْ يكون معناه: لم يلبثوا إلَّا ساعةً من نهارٍ ذلكَ لبث بلاغ، بمعنى: ذلك بلاغٌ لهم في الدنيا إلى أجلهم، ثم حذفت ذلـك لبث، وهي مرادةٌ في الكلام اكتفاءً بدلالة ما ذُكِرَ من الكلامِ عليهـا. والآخر: أن يكون معناه: هذا القرآنُ والتذكير بلاغٌ لهم وكفاية، إنْ فَكَّروا واعتبروا فتذكروا.

وقوله: «فَهَلْ يُهْلَكُ إلَّا القَوْمُ الفاسِقُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فهل يُهْلِكُ اللهُ بعذابِه إذا أنزله إلا القومَ الذين خالفوا أمرَهُ، وخرجوا عن طاعته وكفروا به. ومعنى الكلام: وما يهلكُ اللهُ إلا القومَ الفاسقين.

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝١ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الذين جَحَدُوا توحيدَ الله وعبدوا غيرَهُ وصَدُّوا مَنْ أراد عبادته والإقرارَ بوحدانيته، وتصديقَ نبيه محمدٍ ﷺ عن الذي أراد من الإسلامِ والإقرارِ والتصديقِ. «أَضَلَّ أعمالَهمْ»، يقولُ: جعل الله أعمالَهم ضلالاً على غير هدى وغير رشادٍ، لأنها عملتْ في سبيلِ الشيطانِ وهي على غيرِ استقامةٍ. «وَالَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والذين صدّقوا الله وعملوا بطاعتِه، واتبعوا أمرَهُ ونهيه «وآمَنُوا بمَا نُزِّلَ على مُحَمَّدٍ»، يقولُ: وصدّقوا بالكتابِ الذي أنزل الله على محمدٍ «وَهُوَ الحَقُّ مِنْ رَبِّهِم كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ»، يقولُ: مَحَا الله عنهم بفعلهم ذلك سَيِّئَ ما عملوا من الأعمالِ، فلم يُؤَاخِذْهم به، ولم يُعَاقِبهم عليه «وأَصْلَحَ بالَهُمْ»، يقولُ: وأصلح شأنهم وحالهم في الدنيا عند أوليائه، وفي الآخرة بأنْ أورثَهم نعيمَ الأبدِ والخلود الدائم في جنانه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ۝٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الذي فعلنا بهذين الفريقين من إضلالنا أعمالَ الكافرين، وتكفيرنا عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، جزاءً مِنَّا لكلِّ فريقٍ منهم على فعله. أما الكافرونَ فأضللنا أعمالَهم، وجعلناها على غيرِ استقامةٍ وهدى، بأنهم اتَّبَعُوا الشيطانَ فأطاعوه، وهو الباطل.

وأما المؤمنونَ فكفَّرْنَا عنهم سيئاتِهم، وأصلحنا لهم حالَهم بأنهم اتبعوا الحقَّ الذي جاءهم من رَبِّهم، وهو محمدٌ ﷺ، وما جاءهم به من عند رَبِّه من النورِ والبرهان «كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ»، يقول عَزَّ وجَلَّ: كما بينتُ لكم أيها الناسُ فِعْلي بفريقِ الكفرِ والإيمان، كذلك نُمَثِّلُ للناسِ الأمثالَ، ونُشَبِّهُ لهم الأشباهَ، فنلحق بكلِّ قومٍ من الأمثالِ أشكالاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لفريقِ الإيمانِ بهِ وبرسولِه: «فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا» باللهِ ورسولِه من أهلِ الحربِ، فاضربوا رِقَابَهُمْ.

وقوله: «حتى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الوَثَاقَ»، يقولُ: حتى إذا غَلَبْتُموهم وقَهَرْتُمْ مَنْ لم تَضْرِبُوا رقبته منهم، فصاروا في أيديكم أسرى «فَشُدُّوا الوَثَاقَ»، يقولُ: فَشُدُّوهم في الوثاقِ كيلا يقتلوكُمْ، فيهربوا منكم.

وقوله: «فإمَّا مَنًّا بَعْدُ وإمَّا فِدَاءً»، يقولُ: فإذا أَسَرْتُموهم بعد الإثخانِ، فإمَّا أن تمنوا عليهم بعد ذلك بإطلاقِكم إياهم من الأسرِ، وتُحَرِّرُوهُمْ بغير عِوَضٍ ولا فِدْيةٍ، وإما أنْ يُفَادُوكُمْ فداءً بأنْ يُعطوكم من أنفسِهم عِوَضاً حتى

تُطْلِقُوهم، وتخلوا لهم السبيل.

واختلف أهلُ العلم في قوله: «حتى إذَا أثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الوَثَاقَ، فإمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإمَّا فِداء»، فقال بعضهم: هو منسوخٌ نَسَخَهُ قولُه: «فاقْتُلُوا المُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُم» [التوبة: ٥] وقوله: «فإمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ في الحَرْب فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ» [الأنفال: ٥٧].

وقال آخرون: هي مُحْكَمَةٌ وليست بمنسوخةٍ، وقالوا: لا يجوزُ قتل الأسير، وإنما يجوزُ المَنُّ عليه والفداء.

والصوابُ من القول عندنا في ذلك أنَّ هذه الآية محكمةٌ غير منسوخة، وذلك أنَّ صفة الناسخ والمنسوخ ما قد بَيَّنا في غيرِ موضعٍ في كتابنا إنه ما لم يجز اجتماع حُكْميهما في حالٍ واحدة، أو ما قامت الحجةُ بأنَّ أحدهما ناسخ الآخر، وغير مستنكرٍ أنْ يكون جعل الخيارَ في المَنِّ والفداء والقتل إلى الرسولِ ﷺ، وإلى القائمينَ بعده بأمرِ الأمة، وإنْ لم يكن القتل مذكوراً في هذه الآية، لأنه قد أذِنَ بقتلِهم في آيةٍ أخرى. وذلك قوله: «فَاقْتُلُوا المُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ»... الآية، بل ذلك كذلك، لأنَّ رسولَ الله ﷺ كذلك كان يفعلُ فيمن صار أسيراً في يده من أهلِ الحرب، فيقتل بعضاً، ويفادي ببعض، ويمنُّ على بعضٍ، مثلَ يومِ بدرٍ قتلَ عقبةَ بن أبي مُعَيْطٍ وقد أُتيَ به أسيراً، وقتل بني قُرَيظة. وقد نزلوا على حُكْمِ سعدٍ، وصاروا في يده سِلماً، وهو على فِدائِهم، والمنّ عليهم قادرٌ، وفادَى بجماعة أسارى المشركينَ الذين أُسروا ببدرٍ، ومَنَّ على ثمامة بن أثال الحنفيِّ، وهو أسيرٌ في يده، ولم يَزَلْ ذلك ثابتاً من سيره في أهلِ الحرب من لدن أَذِنَ اللهُ له بحربهم، إلى أنْ قَبَضَهُ إليه ﷺ دائماً ذلك فيهم، وإنما ذكر جَلَّ ثَنَاؤُهُ في هذه الآية المنّ والفداء في الأسارى، فخصَّ ذكرهما فيها، لأن الأمر بقتلهما، والإذن منه بذلك قد كان تَقَدَّمَ في سائرِ آيِ تنزيلِه مكرّراً، فأعلم نَبِيَّهُ ﷺ بما ذكر في هذه الآية من المنِّ والفداء ماله

فيهم مع القتل.

وقوله: «حتى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَها»، يقول تعالى ذِكْرُه: فإذا لقيتم الذين كفروا فاضربوا رقابَهُمْ، وافعلوا بأسراهم ما بَيَّنتُ لكم، حتى تضعَ الحربُ آثامها وأثقالَ أهلها، المشركينَ بالله بأنْ يتوبوا إلى الله من شِرْكِهم، فيؤمنوا به وبرسوله، ويطيعوه في أمرِهِ ونَهْيِه، فذلك وضع الحرب أوزارها.

وقوله: «ذلكَ وَلَوْ يَشاءُ اللهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الذي أمرتُكم به أيها المؤمنونَ من قتلِ المشركينَ إذا لقيتموهم في حربٍ، وشَدِّهم وثاقاً بعد قَهْرِهم، وأسْرِهم، والمنّ والفداء «حتى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَها» هو الحقّ الذي ألزمكم رَبُّكم «ولو يشاء ربكم»، ويريدُ لانتصرَ من هؤلاءِ المشركينَ الذين بَيَّنَ هذا الحكمَ فيهم بعقوبةٍ منه لهم عاجلة، وكفاكم ذلك كله، ولكنه تعالى ذِكْرُه كَرِهَ الانتصارَ منهم، وعقوبتهم عاجلاً إلا بأيديكم أيها المؤمنونَ «لِيَبْلُو بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ»، يقولُ: ليختبرَكُمْ بهم، فيعلم المجاهدينَ منكم والصابرينَ، ويبلوهُمْ بكم، فيعاقب بأيديكم مَنْ شاء منهم، ويَتَّعِظَ مَنْ شاء منهم بمن أهلك بأيديكم مَنْ شاء منهم حتى يُنيبَ إلى الحقِّ.

وقوله: «والذين قُتِلُوا في سبيلِ اللهِ» اختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك، فقرأته عامة قَرَأَة الحجاز والكوفة «وَالَّذِينَ قاتَلُوا» بمعنى: حاربوا المشركينَ، وجاهدوهم، بالألف، وكان الحسنُ البصريُّ فيما ذُكِرَ عنه يقرؤه «قُتِّلُوا» بضم القاف وتشديد التاء، بمعنى: أنه قَتَلَهُمْ المشركونَ بعضهم بعد بعض، غير أنه لم يُسَمَّ الفاعلون. وذُكر عن الجَحْدَرِيّ عاصم[1] أنه كان يقرؤه «الَّذِينَ قَتَلُوا» بفتحِ القاف وتخفيف التاء، بمعنى: والذين قَتَلوا: المشركونَ بالله[2]. وكان أبو

---

(١) هو عاصم بن أبي الصباح الجحدري البصري، أبو المجشر، توفي قبل الثلاثين ومئة (طبقات القراء: ١/٣٢٩).

(٢) يعني: وهم المشركونَ بالله.

عَمرو يقرؤه «قُتِلُوا» بضم القاف وتخفيف التاء بمعنى: والذين قتلهم المشركونَ، ثم أسقط الفاعِلين، فجعلهم لم يسمّ فاعل ذلك بهم.

وأَوْلى القراءات بالصواب قراءةُ من قرأه «وَالَّذِينَ قاتَلُوا» لاتفاقِ الحُجَّةِ من القرّاء، وإنْ كان لجميعها وجوهٌ مفهومة.

وإذ كان ذلك أولى القراءاتِ عندنا بالصوابِ، فتأويلُ الكلام: والذين قاتلوا منكم أيها المؤمنونَ أعداءَ اللهِ من الكفار في دين الله، وفي نُصْرَةِ ما بعث به رسولَهُ محمداً ﷺ من الهدى، فجاهدوهم في ذلك «فَلَنْ يُضِلَّ أعمالَهُمْ» فلن يجعلَ اللهُ أعمالهم التي عملوها في الدنيا ضلالاً عليهم كما أضلَّ أعمالَ الكافرين.

وذُكِرَ أنَّ هذه الآيةَ عُنِي بها أهلُ أُحد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: سَيُوَفِّقُ اللهُ تعالى ذِكْرُه للعملِ بما يرضى ويحبُّ، هؤلاءِ الذين قاتلوا في سبيله، «وَيُصْلِحُ بالَهُمْ»: ويصلح أمْرَهُمْ وحالهم في الدنيا والآخرة «وَيُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُمْ»، يقولُ: ويُدخلهم الله جنته «عَرَّفَها»، يقولُ: عَرَّفها وبَيَّنها لهم، حتى إنَّ الرجلَ ليأتي منزلَهُ منها إذا دخلها كما كان يأتي منزله في الدنيا، لا يشكلُ عليه ذلك.

وقوله: «يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يا أيها الذين صَدَّقُوا اللهَ ورسوله، إنْ تنصروا الله ينصركم بنصرِكم رسولَهُ محمداً ﷺ على أعدائِه من أهلِ الكفرِ به وجهادكم إياهم معه لتكون كلمتُه العُليا

ينصركم عليهم، ويظفركم بهم، فإنه ناصرٌ دِينَهُ وأولياءه.

وقوله: «وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ»، يقولُ: ويُقَوِّكُمْ عليهم، ويُجَرِّئكم، حتى لا تولوا عنهم، وإنْ كَثُرَ عَدَدُهم، وقَلَّ عَدَدُكُمْ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا» بالله، فجحدوا توحيدَهُ «فَتَعْساً لَهُمْ»، يقولُ: فَخِزْياً لهم وشقاءً وبلاء.

وقوله: «وأضَلَّ أعمالَهُمْ»، يقولُ: وجعلَ أعمالهم معمولةً على غير هُدىً ولا استقامة، لأنها عملت في طاعةِ الشيطان، لا في طاعةِ الرحمن.

وقوله: «ذلكَ بأنَّهم كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الذي فعلنا بهم من الإتعاسِ وإضلالِ الأعمالِ من أجلِ أنهم كَرِهُوا كتابنا الذي أنزلناه إلى نبينا محمد ﷺ وسخطوه، فكذَّبوا به، وقالوا: هو سِحْرٌ مبين.

وقوله: «فَأَحْبَطَ أعمالَهُمْ»، يقولُ: فأبطل أعمالهم التي عملوها في الدنيا، وذلك عبادتهم الآلهة، لم ينفعهم اللهُ بها في الدنيا ولا في الآخرة، بل أَوْبَقَهُمْ بها، فأَصْلاَهُمْ سعيراً. وهذا حُكْمُ اللهِ جَلَّ جلالُه في جميع مَنْ كفر به من أجناسِ الأمم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ۝١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أفلم يَسِرْ هؤلاءِ المُكَذِّبُون محمداً ﷺ، المُنْكِرُو ما

أنزلنا عليه من الكتابِ في الأرض سفراً، وإنما هذا توبيخٌ من الله لهم، لأنهم قد كانوا يسافرونَ إلى الشام، فيرون نقمةَ الله التي أحَلَّها بأهلِ حِجْرِ ثمودَ، ويرون في سفرهم إلى اليمن ما أحلَّ اللهُ بسَبَأ، فقال لنبيه عليه الصلاة والسلام وللمؤمنينَ به: أفلم يَسِرْ هؤلاءِ المشركونَ سفراً في البلاد فينظروا كيف كان عاقبةُ تكذيبِ الذين من قبلهم من الأممِ المكذِّبةِ رُسُلَها الرَّادَّةِ نصائحها أَلَمْ نُهلكها فندمِّر عليها منازلَها ونُخرِّبها، فَيَتَّعِظُوا بذلك، ويحذروا أنْ يفعلَ اللهُ بهم في تكذيبهم إياهُ، فَيُنِيبُوا إلى طاعةِ الله في تصديقكَ، ثم تَوَعَّدَهُمْ جَلَّ ثَنَاؤُهُ، وأخبرهم إنْ هُمْ أقاموا على تكذيبهم رسولَهُ، أنه مُحِلٌّ بهم من العذابِ ما أحلَّ بالذين كانوا من قبلهم من الأمم، فقال: «ولِلْكافِرينَ أمْثالُهَا»، يقولُ: وللكافرينَ من قريش المُكَذِّبي رسول الله ﷺ من العذاب العاجل، أمثال عاقبةِ تكذيبِ الأممِ الذين كانوا من قَبْلِهم رُسُلَهُمْ على تكذِيبهم رسولَهُ محمداً ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ۝١١ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۝١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الفعلُ الذي فعلنا بهذين الفريقين: فريقِ الإيمانِ، وفريقِ الكفر، من نُصْرَتنا فريقَ الإيمانِ بالله، وتثبيتَنا أقدامَهُمْ، وتدميرنا على فريقِ الكفر. «بأنَّ الله مَوْلى الَّذينَ آمَنُوا»، يقولُ: من أجل أنَّ الله وليُّ مَنْ آمن به، وأطاعَ رسولَهُ.

وقوله: «وأنَّ الكافِرينَ لا مَوْلى لَهُمْ»، يقولُ: وبأنَّ الكافرينَ بالله لا وليّ لهم، ولا ناصر.

وقوله: «إنَّ الله يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وعمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأنهَارُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الله له الألوهةُ التي لا تنبغي لغيره، يُدخل الذين آمنوا بالله وبرسوله بساتينَ تجري من تحت أشجارها الأنهارُ، يفعل ذلك بهم تكرمةً على إيمانهم به وبرسوله.

وقوله: «والَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ ويَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأنْعامُ»، يقول جَلَّ ثناؤه: والذين جحدوا توحيدَ الله، وكذَّبوا رسولَهُ ﷺ يتمتعون في هذه الدنيا بحطامها ورياشها وزينتها الفانيةِ الدارسة، ويأكلونَ فيها غير مُفَكِّرينَ في المعاد، ولا معتبرينَ بما وضع الله لخلقه من الحججِ المؤدِّيةِ لهم إلى علمِ توحيدِ اللهِ ومعرفةِ صِدْقِ رُسُلِه، فَمَثَلُهم في أكْلِهم ما يأكلونَ فيها من غيرِ علمٍ منهم بذلك، وغير معرفةٍ، مثل الأنعامِ من البهائمِ المُسَخَّرةِ التي لا هِمَّةَ لها إلا في الاعتلافِ دونَ غيرِه «والنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ»، يقول جَلَّ ثناؤه: والنارُ نارُ جهنمَ مسكنٌ لهم، ومأوى، إليها يصيرونَ من بعد مماتهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ١٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وكم يا محمدُ من قريةٍ هي أشدُّ قوّةً من قريتك، يقولُ: أهلُها أشدُّ بأساً، وأكثر جمعاً، وأعدُّ عديداً من أهلِ قريتكَ، وهي مكة، وأخرج الخبرَ عن القريةِ، والمرادُ به أهلُها.

وقال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «أخْرَجَتْكَ»، فأخرجَ الخبرَ عن القرية، فلذلك أُنِّثَ، ثم قال: أهلكناهم، لأنَّ المعنى في قوله: أخرجَتْكَ، ما وصفتُ من أنه أُريدَ به أهلُ القرية، فأخرجَ الخبرَ مرّةً على اللفظ، ومرّةً على المعنى.

وقوله: «فَلا ناصِرَ لَهُمْ» فيه وجهان من التأويل: أحدهما أن يكون معناه،

وإن كان قد نصب الناصر بالتبرئةِ، فلم يكن لهم ناصرٌ، وذلك أنَّ العربَ قد تُضْمِرُ كانَ أحياناً في مثل هذا، والآخر أن يكون معناه: فلا ناصرَ لهم الآنَ من عذابِ الله ينصرهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «أَفَمَنْ كَانَ» على برهانٍ وحجةٍ وبيانٍ «مِنْ» أمرِ «رَبِّهِ» والعلم بوحدانيته، فهو يعبدُه على بصيرةٍ منه، بأنَّ له ربًّا يُجازيه على طاعتِه إياهُ الجنةَ، وعلى إساءتِه ومعصيتِه إياهُ النارَ، «كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ»، يقولُ: كمن حَسَّنَ له الشيطانُ قبيحَ عمله وسيئه، فأراه جميلاً، فهو على العملِ به مقيمٌ، «واتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ»، يقولُ: واتبعوا ما دَعَتْهُمْ إليه أنفُسُهم من معصيةِ الله، وعبادة الأوثانِ من غير أنْ يكونَ عندهم بما يعملونَ من ذلك برهانٌ وحجةٌ.

وقيل: إنَّ الذي عنى بقوله: «أفَمَنْ كانَ على بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ» نبينا عليه الصلاةُ والسلام، وإنَّ الذي عُنِيَ بقوله: «كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ» هم المشركونَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: صفةُ الجنة التي وُعِدَهَا المتقونَ، وهم الذين اتقوا في الدنيا عقابَهُ بأداءِ فرائضِه، واجتنابِ معاصيه «فِيهَا أنهارٌ مِنْ ماءٍ غَيرِ آسِنٍ»،

يقول تعالى ذِكْرُه: في هذه الجنة التي: ذكرها أنهارٌ من ماءٍ غيرِ متغيرِ الريحِ، يقال منه: قد أَسِنَ ماءُ هذه البئر: إذا تغيرتْ ريحُ مائِها فأنتنتْ.

وقوله: «وأنهارٌ مِنْ لَبنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وفيها أنهارٌ من لبنٍ لم يتغير طَعْمُه لأنه لم يُحْلَبْ من حيوانٍ فيتغير طعمُه بالخروجِ من الضروعِ، ولكنه خلقه اللهُ ابتداءً في الأنهار، فهو بهيئتِه لم يتغيرْ عما خلقه عليه.

وقوله: «وأنهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ للشَّارِبِينَ»، يقولُ: وفيها أنهارٌ من خمرٍ لَذَّةً للشاربينَ يلتذُّونَ بشربها.

وقوله: «وأنهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى»، يقولُ: وفيها أنهارٌ من عسلٍ قد صُفِّيَ من القَذى، وما يكون في عِسل أهلِ الدنيا قبلَ التصفيةِ، وإنما أعلم تعالى ذِكْرُه عبادَهُ بوصفِه ذلك العسلَ بأنه مُصَفًّى أنه خُلِقَ في الأنهارِ ابتداءً سائلاً جارياً سيلَ الماءِ واللبنِ المخلوقَيْنِ فيها، فهو من أجلِ ذلك مصفًّى، قد صَفَّاهُ اللهُ من الأقذاءِ التي تكون في عسلِ أهلِ الدنيا الذي لا يَصْفُو من الأقذاءِ إلا بعدَ التصفيةِ، لأنه كان في شمعٍ فصُفِّيَ منه.

وقوله: «وَلَهُمْ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولهؤلاءِ المتقين في هذه الجنة من هذه الأنهارِ التي ذكرنا من جميعِ الثمراتِ التي تكونُ على الأشجار «وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ»، يقولُ: وعَفْوٌ من الله لهم عن ذنوبِهم التي أذنبوها في الدنيا، ثم تابوا منها، وصَفْحٌ منه لهم عن العقوبةِ عليها.

وقوله: «كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ في النَّارِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أَمَّنْ هو في هذه الجنةِ التي صِفَتُهَا ما وصَفْنَا، كَمَنْ هو خالدٌ في النار.

وقوله: «وَسُقُوا ماءً حَمِيماً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وسُقِيَ هؤلاءِ الذين هُمْ خلودٌ في النار ماءً قد انتهى حَرُّهُ فَقَطَّعَ ذلك الماء من شِدَّةِ حَرِّه أمعاءهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ١٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومن هؤلاءِ الكفارِ يا محمدُ «من يَسْتَمِع إِلَيْكَ» وهو المنافِقُ، فيستمعُ ما تقولُ فلا يعيه ولا يفهمه، تهاوناً منه بما تتلو عليه من كتابِ رَبِّكَ، وتغافلاً عما تقوله، وتدعو إليه من الإيمان، «حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ» قالوا إعلاماً منهم لمن حَضَرَ معهم مجلسكَ من أهلِ العلمِ بكتابِ الله، وتلاوتكَ عليهم ما تلوتَ، وقِيلِكَ لهم ما قلتَ إنهم لن يُصْغُوا أسماعَهُمْ لقولكَ وتلاوتِكَ «ماذَا قالَ» لنا محمدٌ «آنِفاً»؟.

وقوله: «أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ على قُلُوبِهِمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاءِ الذين هذه صِفَتُهم هُمُ القومُ الذين ختمَ اللهُ على قلوبهم، فهم لا يهتدونَ للحقِّ الذي بعثَ اللهُ به رسولَهُ عليه الصلاة والسلام، «واتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ»، يقولُ: ورفضوا أمرَ الله، واتبعوا ما دَعَتْهُمْ إليه أنفُسُهم، فهم لا يرجعونَ مما هُمْ عليه إلى حقيقةٍ ولا برهانٍ، وسَوَّى جَلَّ ثَنَاؤُهُ بين صفةِ هؤلاءِ المنافقينَ وبين المشركينَ، في أنَّ جميعَهُمْ إنما يتبعونَ فيما هم عليه من فراقهم دِينَ الله، الذي ابتعثَ به محمداً ﷺ أهواءَهُمْ، فقال في هؤلاءِ المنافقينَ: «أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ على قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ»، وقال في أهل الكفرِ به من أهلِ الشرك «كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ، واتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ» [محمد: ١٤].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ١٧ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأما الذين وفَّقهم اللهُ لاتباعِ الحقِّ، وشرح صدورَهُمْ للإيمانِ به وبرسوله من الذين استمعوا إليكَ يا محمدُ، فإنَّ ما تلوتَهُ عليهم، وسمعوه منكَ «زَادَهُمْ هُدىً»، يقولُ: زادهم الله بذلك إيماناً إلى إيمانهم، وبياناً لحقيقة ما جِئْتَهُمْ به من عندِ الله إلى البيانِ الذي كان عندهم. وقد ذُكر أن الذي تلا عليهم رسولُ الله ﷺ من القرآنِ، فقال أهلُ النفاق منهم لأهلِ الإيمانِ، ماذا قال آنفاً، وزادَ اللهُ أهلَ الهدى منهم هُدىً، كان بعضُ ما أنزلَ اللهُ من القرآنِ ينسخُ بعضَ ما قد كان الحُكْمُ مَضَى به قَبْلُ.

وقوله: «وآتاهُمْ تقْوَاهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأعطى اللهُ هؤلاءِ المهتدينَ تَقْوَاهُمْ، وذلك استعمالُه إياهم: تقواهم إياه.

وقـوله: «فَهَلْ يَنْظُرُونَ إلَّا السَّاعَةَ أنْ تَأْتِيهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أشْرَاطُها»، يقول تعالى ذِكْرُه: فهل ينظرُ هؤلاءِ المكذِّبُونَ بآياتِ الله من أهلِ الكفر والنفاقِ إلا الساعةَ التي وعدَ اللهُ خَلْقَهُ بَعْثَهُمْ فيها من قبورِهم أحياء، أنْ تَجِيْئَهُمْ فجأةً لا يشعرونَ بمجيئها. والمعنى: هل ينظرونَ إلا الساعةَ، هل ينظرون إلا أنْ تأتيهم بغتةً.

وقوله: «فَقَدْ جاءَ أشْرَاطُها»، يقولُ: فقد جاء هؤلاءِ الكافرينَ باللهِ الساعةُ وأدِلَّتُها ومقدِّمَاتُها، وواحدُ الأشراطِ: شَرَط.

وقوله: «فأنى لَهُمْ إذَا جاءَتْهُمْ ذِكْراهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فمن أيِّ وجهٍ لهؤلاءِ المكذِّبينَ بآياتِ الله ذكرى ما قد ضَيَّعوا وفَرَّطوا فيه من طاعةِ الله إذا جاءتهم السـاعـةُ، يقولُ: ليس ذلك بوقت ينفعهم التَّذَكُّرُ والندمُ، لأنه وقتُ مجازاةٍ لا وقت استعتابٍ ولا استعمال.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعالَى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: فاعلم يا محمدُ أنه لا معبود تنبغي أو تصلحُ له الألوهـةُ، ويجـوزُ لك وللخلقِ عبادتُه، إلا الله الذي هو خالقُ الخَلْقِ، ومالكُ كلِّ شيء، يَدِينُ له بالربوبيةِ كلُّ ما دُونَهُ. «وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ» وسَلْ رَبَّكَ غفرانَ سالِفِ ذنوبِكَ وحادِثِها، وذنوب أهلِ الإيمانِ بكَ من الرجالِ والنساء. «وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْواكُمْ»، يقولُ: فإنَّ الله يعلم مُتصرَّفَكُمْ فيما تتصرَّفُونَ فيه في يَقَظَتِكم من الأعمالِ، ومَثْواكُم إذا ثَوَيْتُمْ في مضاجعكم للنوم ليلاً، لا يَخْفَى عليه شيءٌ من ذلك، وهو مُجَازِيكم على جميعِ ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌۭ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌۭ مُّحْكَمَةٌۭ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌۭ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌۭ وَقَوْلٌۭ مَّعْرُوفٌۭ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًۭا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويقولُ الذين صَدَّقُوا اللهَ ورسوله، هَلَّا نزلتْ سورةٌ من الله تأمُرنَا بجهادِ أعداءِ الله من الكفارِ «فإذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ»، يعني: أنها محكمةٌ بالبيانِ والفرائض.

وقوله: «وَذُكِرَ فِيها القِتالُ»، يقولُ: وذُكر فيها الأمرُ بقتالِ المشركينَ.

وقوله: «رأيْتَ الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ»، يقولُ: رأيتَ الذين في قلوبهم شَكٌّ في دينِ الله وضَعْفٌ. «يَنْظُرُونَ إلَيْكَ» يا محمدُ، «نَظَرَ المَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ المَوْتِ»، خوفاً أنْ تَغْزِيهم وتأمرهم بالجهادِ مع المسلمينَ، فهم خوفاً من ذلك وتجنُّباً عن لقاءِ العدوِّ ينظرونَ إليكَ نَظَرَ المغشيِّ عليه الذي قد صُرِعَ. وإنما عنى بقوله: «مِنَ المَوْتِ» من خوفِ الموتِ، وكان هذا فِعْلَ أهلِ النفاق.

وقوله: «فَأَوْلَى لَهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فأَوْلى لهؤلاءِ الذين في قلوبهم مَرَضٌ، وهو وعيدٌ توعَّد اللهُ به هؤلاءِ المنافقينَ.

وقوله: «طاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ»، وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن قِيلِ هؤلاءِ المنافقينَ من قَبْلِ أنْ تنزلَ سورةٌ محكمةٌ، ويُذْكَر فيها القتال، وأنهم إذا قيل لهم: إنَّ الله مُفْتَرِضٌ عليكم الجهادَ، قالوا: سَمْعٌ وطاعة، فقال الله عَزَّ وجَلَّ لهم «إذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ» وفُرِضَ القتالُ فيها عليهم، فَشَقَّ ذلك عليهم، وكـرهـوه «طاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ» قبل وجوبِ الفرضِ عليكم، فإذا عَزَمَ الأمرُ كَرِهْتُموه وشَقَّ عليكم.

وقوله: «فإذَا عَزَمَ الأمْرُ»، يقولُ: فإذا وَجَبَ القتالُ وجاء أمرُ الله بفرضِ ذلك كرهتموه.

وقوله: «فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لكانَ خَيْراً لَهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فلو صَدَقُوا اللهَ ما وعدوه قبل نزولِ السورةِ بالقتالِ بقولهم: إذ قيل لهم: إنَّ الله سيأمركم بالقتالِ طاعةٌ، فَوَفَّوْا له بذلك، لكان خيراً لهم في عاجلِ دنياهم، وآجلِ مَعَادِهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لهؤلاءِ الذين وصف أنهم إذا نزلتْ سورةٌ محكمة، وذُكِرَ فيها القتالُ نظروا إلى رسولِ الله ﷺ نَظَرَ المغشيِّ عليه «فَهَلْ عَسَيْتُمْ» أيها القومُ، يقولُ: فَلَعَلَّكُمْ إنْ تَوَلَّيتم عن تنزيلِ الله جَلَّ ثَنَاؤُه، وفارقتم أحكامَ كتابِه، وأدبرتم عن محمدٍ ﷺ وعَمَّا جاءكم به «أنْ تُفْسِدُوا فِي الأرْضِ»، يقولُ:

أنْ تَعْصُوا اللهَ في الأرضِ، فتكفروا به، وتسفكوا فيها الدماء «وَتُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ» وتعودوا لما كنتم عليه في جاهليتكم من التَّشَتُّتِ والتفرُّقِ بعدما قد جَمَعَكم اللهُ بالإسلامِ، وألَّفَ به بين قلوبكم.

وقوله: «أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاءِ الذين يفعلونَ هذا، يعني: الذين يُفْسِدُونَ ويقطعونَ الأرحامَ الذين لعنهم اللهُ، فأبعدهم من رحمتِهِ «فأصمَّهُم»، يقولُ: فسلبهم فَهْمَ ما يسمعون بآذانِهم من مواعظِ اللهِ في تنزيلهِ «وأعْمَى أَبْصَارَهُمْ»، يقولُ: وسَلَبَهُمْ عقولَهم، فلا يَتَبَيَّنُونَ حُججَ اللهِ، ولا يتذكَّرُونَ ما يرون من عِبَرِه وأدلته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ۝٢٤ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ۝٢٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أفلا يتدبر هؤلاءِ المنافقونَ مواعظَ اللهِ التي يَعِظُهم بها في آيِ القرآنِ الذي أنزله على نبيه عليه الصلاةُ والسلام، ويتفكَّرُونَ في حُجَجِه التي بيَّنها لهم في تنزيله فيعلموا بها خطأ ما هُمْ عليه مقيمونَ. «أمْ عَلى قُلُوبٍ أقْفالُها»، يقولُ: أم أقفلَ اللهُ على قلوبهم فلا يعقلونَ ما أنزلَ اللهُ في كتابه من المواعظِ والعِبَر.

وقوله: «إنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلى أدْبارِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الهُدَى»، يقول اللهُ عَزَّ وجَلَّ: إنَّ الذين رجعوا القَهْقَرى على أعقابِهم كفاراً باللهِ من بعد ما تبينَ لهم الحقُّ وقَصْدُ السبيلِ، فعرفوا واضحَ الحجةِ، ثم آثروا الضلالَ على الهدى عناداً لأمرِ اللهِ تعالى ذِكْرُه من بعدِ العِلْمِ.

وقوله: «الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: الشيطانُ زَيَّنَ لهم ارتدادَهُمْ على أدبارِهم، من بعدِ ما تَبَيَّنَ لهم الهدى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أملى اللهُ لهؤلاءِ المنافقينَ وتركَهُمْ، والشيطانُ سَوَّلَ لهم، فلم يُوَفِّقْهُم للهدى من أجلِ أنهم «قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللهِ» من الأمرِ بقتالِ أهلِ الشركِ به من المنافقينَ: «سَنُطِيعُكُمْ في بَعْضِ الأمْرِ» الذي هو خلافٌ لأمرِ الله تباركَ وتعالى، وأمرِ رسولِه ﷺ.

وقوله: «وَاللهُ يَعْلَمُ إسْرارَهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: واللهُ يعلمُ إسرارَ هذين الحزبين المتظاهرين من أهلِ النفاق، على خلافِ أمرِ الله وأمرِ رسوله، إذ يتسارُّونَ فيما بينهم بالكفرِ باللهِ ومعصيةِ الرسول، ولا يَخْفَى عليه ذلك ولا غيره من الأمورِ كلها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: واللهُ يعلمُ إسرارَ هؤلاءِ المنافقينَ، فكيف لا يعلمُ حالَهم إذا تَوَفَّتْهُم الملائكةُ، وهم «يضربونَ وجوهَهُمْ وأدبارهم»، يقولُ: فحالُهم أيضاً لا يَخْفَى عليه في ذلك الوقت ويعني بالأدبارِ: الأعجاز.

وقوله: «ذَلِكَ بأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللهَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: تفعلُ الملائكةُ هذا الذي وصفتُ بهؤلاءِ المنافقينَ من أجلِ أنهم اتبعوا ما أسخطَ

الله، فأغضَبَهُ عليهم من طاعةِ الشيطانِ «وكَرِهُوا رِضْوَانَهُ»، يقولُ: وكَرِهُوا ما يُرضيه عنهم من قتالِ الكفارِ به، بعدما افْتَرَضَهُ عليهم.

وقوله: «فأَحْبَطَ أعمالَهُمْ»، يقولُ: فأبطلَ اللهُ ثوابَ أعمالهم وأذْهَبَهُ، لأنها عملتْ في غيرِ رضاه ولا محبته، فبطلتْ، ولم تنفع عاملها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أَحَسِبَ هؤلاءِ المنافقونَ الذين في قلوبهم شَكٌّ في دينهم، وضَعْفٌ في يقينهم، فهم حَيارَى في معرفة الحقِّ أنْ لن يُخرج اللهُ ما في قلوبهم من الأضغـانِ على المؤمنينَ، فَيُبْـدِيهِ لهم ويظهـره، حتى يعرفوا نفاقَهم، وحيرتَهم في دِينهم «وَلَوْ نَشاءُ لأَرَيْناكَهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولو نشاء يا محمدُ لعرَّفْنَاكَ هؤلاءِ المنافقينَ حتى تعرفَهم من قولِ القائل: سأُرِيكَ ما أصنعُ، بمعنى سأعلمك.

وقوله: «فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ»، يقولُ: فَلَتَعْرِفَنَّهُمْ بعلاماتِ النفاقِ الظاهرةِ منهم في فحوى كلامهم، وظاهرِ أفعالهم، ثم إنَّ الله تعالى ذِكْرُه عَرَّفَهُ إياهم.

وقوله: «وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ القَوْلِ»، يقولُ: ولتعرفنَّ هؤلاءِ المنافقينَ في معنى قولهم نحوه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟

﴿الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لأهلِ الإيمانِ به من أصحابِ رسولِ الله ﷺ «وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ» أيها المؤمنونَ بالقتلِ، وجهادِ أعداءِ الله «حتى نَعْلَمَ المُجاهِدِينَ مِنْكُمْ»، يقولُ: حتى يُعْلَمَ حزبي وأوليائي أهلُ الجهاد في الله منكم، وأهلُ الصبر على قتالِ أعدائه، فيظهر ذلك لهم، ويُعْرَفَ ذَوو البصائرِ منكم في دينهِ من ذوي الشكِّ والحَيرةِ فيه، وأهل الإيمانِ من أهل النفاقِ «ونبلو أخباركم»، فنعرفَ الصادقَ منكم من الكاذب.

وقوله: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إن الذين جحدوا توحيدَ الله، وصَدُّوا الناسَ عن دِينهِ الذي ابتعثَ به رُسُلَه «وَشاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الهُدَى»، يقولُ: وخالفوا رسولَهُ محمداً ﷺ، فحاربوه وآذَوْهُ من بعدِ ما علموا أنه نبيٌّ مبعوث، ورسولٌ مُرْسَلٌ، وعرفوا الطريقَ الواضحَ بمعرفته، وأنه للهِ رسولٌ.

وقوله: «لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً» لأنَّ اللهَ بالغ أمره، وناصر رسوله، ومُظْهره على مَنْ عَادَاهُ وخالفه «وسَيُحْبِطُ أعمالَهُمْ»، يقولُ: وسَيُذْهِبُ أعمالَهم التي عملوها في الدنيا فلا ينفعهم بها في الدنيا ولا الآخرة، ويُبْطِلُها إلا مما يَضُرُّهُمْ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «يا أيُّها الَّذِينَ آمَنْوا» باللهِ ورسولِه «أطِيعُوا اللهَ وأطِيعُوا الرَّسُولَ» في أمْرِهما ونَهْيِهما «وَلا تُبْطِلُوا أعمالَكُم»، يقولُ: ولا تُبْطِلُوا بمعصيتكم إياهما، وكُفْرِكُمْ بربِّكم ثوابَ أعمالكم فإنَّ الكفرَ بالله يحبطُ السالفَ من العملِ الصالح.

وقوله: «إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ ماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين أنكروا توحيدَ الله، وصَدُّوا مَنْ أرادَ الإيمانَ باللهِ وبرسولِه عن ذلك، فَفَتَنُوهم عنه، وحالوا بينهم وبين ما أرادوا من ذلك، «ثم ماتوا وهم كفارٌ»، يقولُ: ثم ماتوا وهم على ذلك من كفرهم «فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ»، يقولُ: فلن يعفوَ اللهُ عما صنع من ذلك، ولكنه يعاقبُه عليه، ويفضحُه به على رؤوسِ الأشهاد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ٣٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلا تَضْعُفُوا أيها المؤمنونَ بالله عن جهادِ المشركينَ وتَجْبُنُوا عن قتالهم.

وقوله: «وَتَدْعُوا إلى السَّلْمِ وأنْتُمُ الأعْلَوْنَ»، يقولُ: لا تَضْعُفُوا عنهم وتدعوهم إلى الصلحِ والمسالمةِ، وأنتم القاهرونَ لهم والعالُونَ عليهم» «وَاللهُ مَعَكُمْ»، يقولُ: والله معكم بالنصرِ لكم عليهم.

وقوله: «وَلَنْ يَتِرَكُمْ أعمالَكُمْ»، يقولُ: ولن يظلمكم أجورَ أعمالِكم فينقصكم ثوابَها، من قولهم: وَتَرْتَ الرجلَ إذا قتلتَ له قتيلاً، فأخذتَ له مالاً غَصْباً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ۝٣٦ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ۝٣٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: حَاضًّا عبادَهُ المؤمنينَ على جهادِ أعدائه، والنفقة في سبيله، وبذل مُهْجَتِهم في قتالِ أهلِ الكفر به: قاتلوا أيها المؤمنونَ أعداءَ الله وأعداءَكم من أهلِ الكفر، ولا تَدعكم الرغبةُ في الحياة إلى تركِ قتالهم، فإنما الحياةُ الدنيا لَعِبٌ ولهوٌ، إلا ما كانَ منها للهِ من عملٍ في سبيله، وطَلَبِ رِضَاهُ، فأما ماعدا ذلك فإنما هو لَعِبٌ ولهو، يضمحلُّ فيذهبُ ويندرسُ فيمرّ، أو إثمٌ يبقى على صاحبهِ عارُهُ وخزيه «وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ»، يقولُ: وإنْ تعملوا في هذه الدنيا التي ما كان فيها مما هُوَ لها، فَلَعِبٌ ولهوٌ، فَتُؤْمِنُوا به وَتَتَّقُوه بأداءِ فرائِضِه، واجتناب معاصيه، وهو الذي يبقى لكم منها، ولا يبطل بطول اللهو واللعب، ثم يُؤْتِكُمْ رَبُّكُم عليه أجورَكُمْ، فَيُعَوِّضَكُمْ منه ما هو خيرٌ لكم منه يومَ فقركم، وحاجتكم إلى أعمالكم «وَلا يَسأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ»، يقولُ: ولا يسألكم رَبُّكم أموالَكم، ولكنه يكلفكم توحيدَهُ، وخلعَ ما سِواهُ من الأندادِ، وإفرادَ الأُلوهةِ والطاعةِ له «إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا»: يقول جَلَّ ثناؤه: إنْ يسألكم رَبُّكم أموالكُم «فَيُحْفِكُمْ»، يقولُ: فَيُجْهِدَكُمْ بالمسألةِ، ويُلِحَّ عليكم بطلبها منكم فيلحف، «تبخلوا» يقول: تبخلوا بها وتمنعوها إياه، ضَنّاً منكم بها، ولكنه عَلِمَ ذلك منكم، ومِنْ ضِيقِ أنفسكم فلم يسألْكُمُوها.

وقوله: «وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ» يقولُ: ويخرج جَلَّ ثَنَاؤُهُ لو سأَلَكُمْ أموالكم بمسألته ذلك منكم أضغانَكُمْ قال: قد علم الله أنَّ في مسألته المالَ خروج الأضغان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ «ها أَنْتُم» أيها الناسُ «هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا في سَبِيلِ اللهِ»، يقولُ: تُدْعَوْنَ إلى النفقةِ في جهادِ أعداءِ الله ونُصْرَةِ دِينِه «فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ» بالنفقةِ فيه.

وقوله: «وَمَنْ يَبْخَلْ فإِنَّما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ومَنْ يبخلْ بالنفقةِ في سبيل الله، فإنما يبخلُ عن بُخْلِ نفسه، لأنَّ نفسَهُ لو كانت جواداً لم تبخلْ بالنفقةِ في سبيلِ الله، ولكن كانت تجودُ بها «وَاللهُ الغَنِيّ وأَنْتُمُ الفُقَرَاءُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولا حاجةَ لله أيها الناسُ إلى أموالكم ولا نفقاتِكم، لأنه الغنيُّ عن خَلْقِهِ، والخَلْقُ الفقراءُ إليه، وأنتم مِنْ خَلْقِه، فأنتم الفقراءُ إليه، وإنما حَضَّكم على النفقة في سبيله، لِيُكْسِبَكُمْ بذلك الجزيلَ من ثوابه.

وقوله تعالى ذِكْرُه: «وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإِنْ تتولَّوْا أيها الناسُ عن هذا الدين الذي جاءكم به محمدٌ ﷺ، فترتدُّوا راجعينَ عنه. «يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ»، يقولُ: يُهْلِكْكُمْ ثم يجيءُ بقومٍ آخرينَ غيركم بدلاً منكم يُصَدِّقُونَ به، ويعملون بشرائعه «ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ»، يقولُ: ثم لا يبخلوا بما أُمِرُوا به من النفقةِ في سبيلِ الله، ولا يضيعونَ شيئاً من حدودِ دينهم، ولكنهم يقومون بذلك كله على ما يُؤْمَرُونَ به.

سُورَةُ الفَتْح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾

يعني بقوله تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً»، يقولُ: إنَّا حكمنا لك يا محمدُ حُكماً لمن سمعه أو بلغه على مَنْ خالفكَ وناصبكَ من كفارِ قومك، وقَضَيْنا لكَ عليهم بالنصرِ والظفرِ، لتشكُرَ رَبَّكَ، وتحمده على نعمتِه بقضائِه لكَ عليهم، وفتحِه ما فتحَ لك، ولتسبحه وتستغفره، فيغفر لكَ بفعالِكَ ذلكَ رَبُّكَ، ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِكَ قبلَ فتحِهِ لكَ ما فتحَ، وما تأخَّر بعد فتحِه لك ذلك ما شَكَرْتَهُ واستغفرته.

وإنما اخترنا هذا القولَ في تأويلِ هذه الآية لدلالةِ قولِ الله عَزَّ وجَلَّ: «إِذَا جاءَ نَصْرُ اللهِ وَالفَتْح، ورأيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ في دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً» على صحته، إذ أَمَرَهُ تعالى ذِكْرُه أنْ يُسَبِّحَ بحمدِ رَبِّهِ إذا جاءه نصر الله وفتح مكة، وأن يستغفروه، وأعلمه أنه تَوَّابٌ على مَنْ فعل ذلك، ففي ذلك بيانٌ واضحٌ أنَّ قوله تعالى ذِكْرُه «لِيَغْفِرَ لَكَ الله ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ» إنما هو خَبَرٌ من الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ نبيه عليه الصلاة والسلام عن جزائِه له على شُكْرِه له، على النعمة التي أنعمَ بها عليه من إظهاره له ما فتح، لأن جزاء الله تعالى عباده على أعمالهم دون غيرها.

وَبَعْدُ ففي صحةِ الخبرِ عنه ﷺ «أنه كان يقومُ حتى تَرِمَ[1] قدماهُ، فقيل له: يا رسولَ الله تفعلُ هذا وقد غفرَ لكَ ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ فقال أفَلا أكُونُ عَبْداً شَكُوراً[2]؟»، الدلالةُ الواضحةُ على أنَّ الذي قلنا من ذلك هو الصحيح من القول، وأنَّ الله تبارك وتعالى، إنما وَعَدَ نبيه محمداً ﷺ غفرانَ ذنوبِهِ المتقدمة، فتح ما فتح عليه، وبعده على شُكْره له، على نِعَمِه التي أنعمها عليه. وكذلك كان يقول ﷺ: «إنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ وأتُوبُ إلَيْهِ في كُلِّ يَوْمٍ مِئَةَ مَرَّةٍ»[3] ولو كان القولُ في ذلك أنه من خبرِ الله تعالى نبيه أنه قد غفرَ له ما تقدَّمَ من ذنبه وما تأخرَ على غير الوجهِ الذي ذكرنا، لم يكنْ لأمرِه إياهُ بالاستغفارِ بعد هذه الآية، ولا لاستغفارِ نبيِّ الله ﷺ رَبَّهُ جلَّ جلالَهُ من ذنوبِهِ بعدها معنىً يعقل، إذِ الاستغفارُ معناه: طَلَبُ العبدِ من رَبِّه عَزَّ وجَلَّ غفرانَ ذنوبِه، فإذا لم يكنْ ذنوبٌ تغفر لم يكن لمسألتِه إياهُ غفرانَها معنىً، لأنه من المحالِ أنْ يقال: اللهمّ اغفر لي ذنباً لم أعمله، وقد تأوَّلَ ذلك بعضهم بمعنى: ليغفرَ لك ما تقدّم من ذنبك قبلَ الرسالةِ، وما تأخَّرَ إلى الوقتِ الذي قال: «إنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ». وأما الفتحُ الذي وَعَدَ اللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ نبيه ﷺ هذه العِدَةِ على شُكْرِه إياهُ عليه، فإنه فيما ذُكِرَ الهدنةُ التي جرت بين رسولِ الله ﷺ وبين مشركي قريش بالحديبية.

وذُكر أنَّ هذه السورةَ أُنزلتْ على رسولِ الله ﷺ مُنْصَرَفه عن الحديبية بعد الهدنةِ التي جرَت بينه وبين قومه.

وقوله تعالى: «وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ»، بإظهاره إياكَ على عدوِّكَ، ورفعه

---

(١) تَرِمَ: بلفظ المضارع، من الورم، هكذا سُمِعَ، وهو نادرٌ.

(٢) متفق عليه من حديث المغيرة بن شعبة: البخاري (١١٣٠) و(٤٨٣٦) و(٦٤٧١)، ومسلم (٢٨١٩).

(٣) حديث صحيح، انظر فتح الباري: ١٠١/١١، وفيه كلام جيد في الموضوع.

ذِكْـرَكَ في الـدنيا، وغفرانه ذنوبكَ في الآخرة. «وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً»، يقولُ: ويرشدك طريقاً من الدين لا اعوجاجَ فيه، يستقيم بك إلى رِضَا ربك «وينْصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً»، يقولُ: وينصركَ على سائرِ أعدائكَ، ومَنْ ناوأكَ نصراً، لا يغلبهُ غالبٌ، ولا يدفعهُ دافعٌ للبأسِ الذي يُؤَيِّدُكَ اللهُ به، وبالظفرِ الذي يُمِدُّكَ به.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾

يعني جلَّ ذِكْرُه بقوله: «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ في قُلُوبِ المُؤْمِنِينَ» اللهُ أنزلَ السكونَ والطمأنينةَ في قلوبِ المؤمنينَ بالله ورسوله إلى الإيمان. والحقّ الذي بعثك الله به يا محمدُ.

«لِيَزْدَادُوا إيمانا مَعَ إيمانِهِمْ»، يقولُ: ليزدادوا بتصديقِهم بما جَدَّدَ اللهُ من الفرائضِ التي أَلْزَمَهُمُوهَا، التي لم تكنْ لهم لازمةً «إيماناً مع إيمانهم»، يقولُ: ليزدادوا إلى إيمانهم بالفرائضِ التي كانت لهم لازمة قبل ذلك.

وقـوله: «وللهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وللهِ جنودُ السمواتِ والأرض أنصارٌ ينتقمُ بهم مِمَّنْ يشاءُ من أعدائِه. «وكانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولم يَزَلِ اللهُ ذا علمٍ بما هو كائنٌ قبل كونه، وما خَلْقُه عامِلُوهُ، حكيماً في تدبيره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا

عَظِيمًا ﴿٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّا فتحنا لك فتحاً مبيناً، لتشكرَ رَبَّكَ، وتحمده على ذلك، فيغفرَ لك ما تقدَّمَ من ذنبك وما تأخر، وليحمد رَبَّهُمُ المؤمنونَ بالله، ويشكروهُ على إنعامِه عليهم بما أنعمَ به عليهم من الفتحِ الذي فتحه، وقَضَاهُ بينهم وبين أعـدائهم من المشركين، بإظهارِه إياهم عليهم، فيدخلهم بذلك جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ، ماكثينَ فيها إلى غيرِ نهاية، وليكفِّرَ عنهم سيِّئَ أعمالِهم بالحسناتِ التي يعملونها شكراً منهم لربهم على ما قضى لهم، وأنعم عليهم به. «وكـانَ ذلـكَ عِنْدَ اللهِ فَوْزاً عَظِيماً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكان ما وَعَدَهم الله به من هذه العِدَة، وذلك إدخالهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار، وتكفيره سيئاتِهم بحسناتِ أعمالهم التي يعملونها عند الله لهم «فَوْزاً عَظِيماً»، يقولُ: ظَفَراً منهم بما كانوا تأمَّلوهُ ويسعون له، ونجاةً مما كانوا يحذرونه من عذابِ الله عظيماً.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: إنَّا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لكَ الله، وليدخل المؤمنينَ والمؤمناتِ جناتٍ تجري من تحتها الأنهار، وليعذِّب المنافقينَ والمنـافقـاتِ، بفتح اللهِ لكَ يا محمدُ، ما فتحَ لك من نصركَ على مشركي قريش، فيكبتوا لذلك ويحزنوا، ويخيب رجاؤهم الذي كانوا يرجونَ من رؤيتهم في أهـلِ الإيمان بكَ من الضعفِ والوهنِ والتولي عنكَ في عاجلِ الدنيا،

وصِليِّ النارِ والخلود فيها في آجلِ الآخرة. «وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ»، يقولُ: وليعذِّبَ كذلك أيضاً المشركينَ والمشركات «الظَّانِّينَ باللهِ» أنه لن ينصركَ، وأهلَ الإيمانِ بكَ على أعدائِكَ، ولَنْ يُظْهِرَ كلمته فيجعلها العليا على كلمةِ الكافرين به، وذلك كان السوءِ من ظنونهم التي ذكرها اللهُ في هذا الموضع، يقول تعالى ذِكْرُه: على المنافقينَ والمنافقاتِ، والمشركينَ والمشركاتِ الذين ظنوا هذا الظنَّ «دائرةُ السوءِ»، يعني: دائرةُ العذابِ تدورُ عليهم به.

وقوله: «وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ»، يقولُ: ونالهم اللهُ بغضبٍ منه، «ولعنهم»، يقولُ: وأبْعَدَهُمْ فأقصاهم من رحمته «وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ»، يقول: وأعدَّ لهم جهنَّمَ يصلونها يومَ القيامة «وَسَاءَتْ مَصِيراً»، يقولُ: وساءت جهنم منزلاً يصيرُ إليه هؤلاءِ المنافقونَ والمنافقات. والمشركونَ والمشركات.

وقوله: «وَللهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ»، يقول جَلَّ ثناؤُه: وللهِ جنودُ السمواتِ والأرض أنصاراً على أعدائِه، إنْ أمرهم بإهلاكِهم أهلكُوهم، وسارعوا إلى ذلك بالطاعة منهم له. «وكانَ اللهُ عَزيزاً حَكِيماً»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولم يَزَلِ اللهُ ذا عزّةٍ، لا يغلبه غالبٌ، ولا يمتنعُ عليه مما أراده به ممتنعٌ، لِعظَمِ سلطانِه وقدرته، حكيم في تدبيره خَلْقَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ» يا محمدُ «شاهِداً» على أمتكَ بما أجابوكَ فيما دَعَوْتَهُمْ إليه مما أرسلتُكَ به إليهم من الرسالة، ومبشراً لهم بالجنةِ إنْ أجابوكَ إلى ما دعوتهم إليه من الدين القيم، ونذيراً لهم عذاب الله إنْ هُمْ تَوَلَّوْا عما جِئْتَهُمْ به من عند ربك.

وقولـه: «وَتُعَزِّرُوهُ وَتُـوَقِّرُوهُ»، معنى التعزير في هذا الموضع: التقويةُ بالنُّصرةِ والمعونةِ. فأما التوقير: فهو التعظيمُ والإجلالُ والتفخيم.

وقوله: «وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وأَصِيلاً»، يقولُ: وتُصَلُّوا له، يعني لله، بالغدواتِ والعشياتِ، والهاء في قوله: «وَتُسَبِّحُوهُ» من ذِكْرِ اللهِ وحده دونَ الرسول.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ» بالحديبيةِ من أصحابكَ على أن لا يفرُّوا عند لقاءِ العدوِّ، ولا يولُّوهم الأدبارَ «إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ»، يقولُ: إنما يبايعون ببيعتهم إياكَ اللهَ، لأنَّ اللهَ ضمن لهم الجنةَ بوفائِهم له بذلك.

وفي قوله: «يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» وجهان من التأويل: أحدهما: يَدُ اللهِ فوق أيديهم عند البيعة، لأنهم كانوا يبايعونَ اللهَ ببيعتهم نَبِيَّهُ ﷺ، والآخر: قوّةُ اللهِ فوقَ قُوَّتهم في نُصْـرةِ رسوله ﷺ، لأنهم إنما بايعوا رسولَ اللهِ ﷺ على نُصْرَته على العدوِّ.

وقوله: «فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ على نَفْسِهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فمن نَكَثَ ببيعتِهِ إياكَ يا محمدُ، ونقضها فلم ينصرك على أعدائك، وخالف ما وعد ربَّهُ «فـإِنَّمَـا ينكث على نفسـه»، يقـول: فإنما ينقض بيعتَهُ، لأنه بِفِعْلِهِ ذلك يخرجُ ممن وَعَدَهُ اللهُ الجنةَ بوفائِه بالبيعة، فلم يَضُرَّ بنكثِه غيرَ نفسِه، ولم ينكثْ إلا عليها، فأما رسولُ اللهِ ﷺ، فإن الله تبارك وتعالى ناصرُه على أعدائِه، نكثَ الناكثُ منهم، أو وَفَى ببيعته.

وقوله: «وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عاهَدَ عليهُ اللهَ»... الآية، يقول تعالى ذِكْرُه:

ومَنْ أوفى بما عاهد الله عليه من الصبرِ عند لقاءِ العدوِّ فيْ سبيل الله ونُصرةِ نبيه ﷺ على أعدائه «فَسَيُؤْتِيهِ أجْراً عَظِيماً»، يقولُ: فسيعطيه اللهُ ثواباً عظيماً، وذلك أن يُدخله الجنةَ جزاءً له على وفائه بما عاهد عليه الله، ووثق لرسوله على الصبر معه عند البأسِ بالمؤكدة من الأيمان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: سيقولُ لك يا محمدُ الذين خلفهم في أهليهم عن صُحْبَتِكَ، والخروج معك في سفرك الذي سافرتَ، ومسيرِكَ الذي سِرْتَ إلى مكة معتمراً، زائراً بيتَ الله الحرام إذا انصرفتَ إليهم، فعاتبتهم على التخلفِ عنك، شَغَلَتْنَا عن الخروجِ معكَ معالجةُ أموالنا، وإصلاح معايشنا وأهلونا، فاستغفرْ لنا ربنا لتخلُّفنا عنكَ، قال الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ مُكَذِّبَهُمْ في قِيلِهم ذلك: يقول هؤلاءِ الأعرابُ المخلَّفونَ عنكَ بألسنتهم ما ليسَ في قلوبهم، وذلك مسألتهم رسولَ الله ﷺ الاستغفارَ لهم، يقولُ: يسألونه بغير توبةٍ منهم ولا نَدَمٍ على ما سَلَفَ منهم من معصيةِ الله في تخلفهم عن صحبةِ رسولِ الله ﷺ والمسير معه «قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه: قل لهؤلاءِ الأعرابِ الذين يسألونكَ أنْ تستغفرَ لهم لِتَخَلُّفِهم عنكَ: إنْ أنا استغفرتُ لكم أيها القومُ، ثم أرادَ اللهُ هلاكَكُمْ أو هلاكَ أموالِكم وأهليكم، أو أرادَ بكم نفعاً بتثميره أموالكم، وإصلاحه لكم أهلِيكُمْ، فَمَنْ ذَا الذي يقدرُ على دفعِ ما أراد الله بكم من خيرٍ أو شرٍّ، والله لا يعازّه أحد، ولا يغالبه غالبٌ.

وقوله: «بَلْ كانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُون خبيراً»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما الأمرُ كما يظنُّ هؤلاءِ المنافقونَ من الأعرابِ أنَّ الله لا يعلمُ ما هم عليها منطوون من النفاقِ، بل لم يزل اللهُ بما يعملون من خيرٍ وشرٍّ خبيراً، لا يَخْفَى عليه شيءٌ من أعمالِ خَلْقِه، سرِّها وعلانيتها، وهو مُحْصِيها عليهم حتى يجازيهم بها، وكان رسولُ الله ﷺ فيما ذُكِرَ عنه حين أراد المسيرَ إلى مكةَ عامَ الحُديبية معتمراً استنفر العربَ ومَنْ حولَ مدينتهِ من أهلِ البوادي والأعرابِ ليخرجُوا معه حَذَراً من قومِه قريش أنْ يعرضوا له الحربَ، أو يَصُدُّوهُ عن البيتِ، وأحْرَمَ هو ﷺ بالعمرةِ، وساقَ معه الهَدْيَ، ليعلمَ الناسُ أنه لا يريدُ حرباً، فتثاقلَ عنه كثيرٌ من الأعرابِ، وتخلَّفُوا خِلافَهُ فهم الذين عَنَى الله تبارك وتعالى بقوله: «سَيَقُول لَكَ المُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَاب شَغَلَتْنَا أمْوَالُنا وأهْلُونا». . . الآية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه لهؤلاءِ الأعرابِ المعتذرينَ إلى رسولِ الله ﷺ عند مُنْصَـرَفِـه من سَفَره إليهم بقولهم: «شَغَلَتْنا أمْوالُنا وأهْلُونا» ما تخلفتم خِلافَ رسـولِ الله ﷺ حين شَخَصَ عنكم، وقَعَدْتُمْ عن صحبتِهِ من أجلِ شُغْلِكم بأموالِكم وأهليكم، بل تَخَلَّفْتُمْ بعده في منازلكم، ظناً منكم أنَّ رسولَ الله ﷺ ومَنْ معه من أصحابه سيهلكون، فلا يرجعونَ إليكم أبداً باستئصالِ العدوِّ إياهم وزُيِّنَ ذلك في قلوبكم، وحَسَّنَ الشيطانَ ذلك في قلوبكم، وصَحَّحَهُ عندكم حتى حَسُنَ عندكم التخلفُ عنه، فقعدتم عن صُحْبَتِه «وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ»، يقولُ: وظننتم أنَّ الله لن ينصرَ محمداً ﷺ وأصحابه المؤمنينَ على أعدائهم، وأنَّ العدوَّ سيقهرونَهم ويغلبونهم فيقتلونهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لهؤلاءِ المنافقينَ من الأعرابِ: ومَنْ لم يؤمن أيها الأعرابُ باللهِ ورسوله منكم ومن غيركم، فيصدِّقْهُ على ما أخبرَ به، ويقرَّ بما جاءَ به من الحقِّ من عندِ ربه، فإنَّا أَعْدَدْنا لهم جميعاً سعيراً من النارِ تستعرُ عليهم في جهنم إذا وَرَدُوهَا يومَ القيامة. يقال من ذلك: سعرت النار: إذا أوقدتها، فأنا أسعرها سعراً؛ ويقال: سعرتها أيضاً إذا حرَّكتها. وإنما قيل للمِسْعر مِسْعر، لأنه يُحَرَّكُ به النارُ، ومنه قولهم: إنه لمسْعر حربٍ: يُرادُ به مُوقِدُهَا ومُهَيِّجُها.

وقوله: «وَللهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولله سلطانُ السمواتِ والأرض، فلا أحد يقدرُ أيها المنافقونَ على دفعه عما أراد بكم من تعذيبٍ على نِفاقِكم إنْ أصررتُمْ عليه، أو منعه من عفوه عنكم إنْ عفا، إنْ أنتم تبتم من نفاقِكم وكفركم، وهذا من الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ حَثٌّ لهؤلاءِ الأعرابِ المتخلفينَ عن رسولِ الله ﷺ على التوبةِ والمراجعةِ إلى أمرِ الله في طاعةِ رسولِهِ ﷺ، يقولُ لهم: بَادِرُوا بالتوبةِ من تَخَلُّفِكُمْ عن رسولِ الله ﷺ، فإنَّ الله يغفرُ للتائبين. «وكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً»، يقولُ: ولم يزل اللهُ ذا عفوٍ من عقوبةِ التائبينَ إليه من ذنوبِهم ومعاصِيهم من عبادِه، وذا رحمةٍ بهم أنْ يعاقبهم على ذنوبهم بعدَ توبتهم منها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَٰمَ اللَّهِ ۚ قُل لَّن

تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: سيقولُ يا محمدُ المُخَلَّفُونَ في أهليهم عن صُحْبَتِكَ إذا سرتَ معتمراً تريدُ بيتَ الله الحرام، إذا انطلقتَ أنتَ ومَنْ صَحِبَكَ في سفركَ ذلك إلى ما أفاءَ الله عليك وعليهم من الغنيمة «لِتَأْخُذُوها» وذلك ما كان اللهُ وَعَدَ أهلَ الحديبية من غنائمِ خيبر «ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ» إلى خيبرَ، فنشهد معكم قتالَ أهلها «يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كلامَ اللهِ»، يقولُ: يريدون أنْ يُغَيِّرُوا وعدَ الله الذي وَعَدَ أهلَ الحديبية، وذلك أنَّ الله جعل غنائم خيبرَ لهم، ووعدهم ذلك عِوَضاً من غنائمِ أهلِ مكةَ إذا انصرفوا عنهم على صُلْحٍ، ولم يصيبوا منهم شيئاً.

وقوله: «قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونا، كَذَلِكُمْ قالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ لهؤلاءِ المخلفين عن المسيرِ معكَ يا محمدُ: لن تتبعونا إلى خيبرَ إذا أردنا السيرَ إليهم لقتالِهم. «كَذَلِكُمْ قالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ»، يقولُ: هكذا قالَ اللهُ لنا من قبل مَرْجِعنا إليكم، إن غنيمةَ خيبرَ لمن شَهِدَ الحديبيةَ معنا، ولستم ممن شَهِدَهَا، فليس لكم أن تَتَّبعونا إلى خيبرَ، لأنَّ غنيمتها لغيركم.

وقوله: «فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنا» أنْ نصيبَ معكم مغنماً إنْ نحنُ شهدنا معكم، فلذلك تَمْنَعُونَنَا من الخروجِ معكم.

وقوله: «بَلْ كانُوا لا يَفْقَهُونَ إلاَّ قَلِيلاً»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ وأصحابه: ما الأمرُ كما يقولُ هؤلاءِ المنافقونَ من الأعرابِ من أنكم إنما تمنعونَهُمْ من اتباعكم حَسَداً منكم لهم على أنْ يُصيبوا معكم من العدوِّ مغنماً، بل كانوا لا يفقهونَ عن اللهِ مالَهُمْ وعليهم من أمرِ الدينِ إلا قليلاً يسيراً، ولو عقلوا ذلك ما قالوا لرسولِ الله والمؤمنينَ به، وقد أخبروهم عن الله تعالى ذِكْرُه

أنه حرمهم غنائمَ خيبر، إنما تمنعوننا من صُحْبَتِكم إليها لأنكم تَحْسُدُونَنَا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ»، يا محمدُ «لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأعْرَابِ» عن المسيرِ معكَ، «سَتُدْعَوْنَ إلى» قتالِ «قَوْمٍ أُولي بَأْسٍ» في القتال «شَدِيدٍ».

وقوله: «تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه للمخلَّفِينَ من الأعراب: تقاتلونَ هؤلاءِ الذين تُدْعَوْنَ إلى قتالِهم، أو يُسلمونَ من غيرِ حربٍ ولا قتال.

وقوله: «فإنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللهُ أجْراً حَسَناً»، يقول تعالى ذِكْرُه: فإن تُطِيعُوا اللهَ في إجابتكم إياه إذا دعاكم إلى قتالِ هؤلاءِ القومِ الأولي البأسِ الشديدِ، فَتُجِيبُوا إلى قتالِهم والجهادِ مع المؤمنينَ «يُؤْتِكُم اللهُ أجْراً حَسَناً»، يقولُ: يُعْطِكُمْ اللهُ على إجابتكم إياهُ إلى حربهم الجنةَ، وهي الأجرُ الحَسَنُ. «وَإنْ تَتَوَلَّوْا كما تَوَلَّيْتُم مِنْ قَبْلُ»، يقولُ: وإنْ تعصوا رَبَّكم فَتُدْبِرُوا عن طاعتِه وتخالفوا أمرَهُ، فتتركوا قتالَ الأولي البأسِ الشديد إذا دُعيتم إلى قتالِهم «كمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ»، يقولُ: كما عَصَيْتُمُوهُ في أمرِه إياكم بالمسيرِ مع رسولِ الله ﷺ إلى مكةَ، من قبل أن تُدْعَوْا إلى قتالِ أولي البأسِ الشديد «يُعَذِّبْكُمُ اللهُ عَذَاباً أَلِيماً»، يعني: وجيعاً، وذلك عذاب النار على عصيانِكم إياهُ، وترككم جهادكم وقتالهم مع المؤمنينَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ليس على الأعمى منكم أيها الناسُ ضِيقٌ، ولا على الأعرجِ ضِيقٌ، ولا على المريضِ ضِيقٌ أنْ يتخلَّفُوا عن الجهادِ مع المؤمنينَ، وشهودِ الحربِ معهم إذا هم لَقُوا عَدُوَّهُمْ، للعللِ التي بهم، والأسبابِ التي تمنعهم من شهودِها.

وقوله: «وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنهارُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ومَنْ يُطع اللهَ ورسولَهُ فيجيب إلى حربِ أعداء الله من أهلِ الشركِ، وإلى القتالِ مع المؤمنينَ ابتغاء وجهِ الله إذا دُعِيَ إلى ذلك، يُدْخله اللهُ يومَ القيامـةِ جنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهار. «وَمَنْ يَتَوَلَّ»، يقولُ: ومَنْ يَعْصِ اللهَ ورسولَهُ، فيتخلَّفْ عن قتالِ أهلِ الشركِ بالله إذا دُعِيَ إليه، ولم يستجبْ لدعاءِ الله ورسولِه يُعَذِّبه عذاباً موجعاً، وذلك عذابُ جهنمَ يومَ القيامة.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعـالَى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لقد رضيَ اللهُ يا محمدُ عن المؤمنينَ «إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ»، يعني: بيعةُ أصحابِ رسولِ الله ﷺ رسولَ الله بالحديبيةِ حين بايعوهُ على مُنَاجَزَةِ قريشٍ الحربَ، وعلى أنْ لا يَفِرُّوا، ولا يُوَلُّوهم الدبرَ تحتَ الشجرةِ، وكانتْ بيعتُهم إياهُ هنالكَ فيما ذُكِرَ تحتَ شجرةٍ.

وكان سبب هذه البيعةِ ما قيلَ: إنَّ رسولَ الله ﷺ كان أرسلَ عثمانَ بن عفان رضي الله عنه برسالتِه إلى الملإِ من قريشٍ، فأبطأ عثمانُ عليه بعضَ الإبطاءِ، فَظَنَّ أنه قد قُتِلَ، فدعا أصحابَهُ إلى تجديدِ البيعةِ على حربهم على ما وصفتُ، فبايعوه على ذلك، وهذه البيعةُ التي تسمى بيعةَ الرضوان، وكان الذين بايعوهُ هذه البيعةَ فيما ذُكِرَ في قولِ بعضهم: ألفاً وأربع مئة، وفي قول بعضِهم: ألفاً وخمس مئة، وفي قول بعضهم: ألفاً وثلاث مئة.

وقوله: «فَعَلِمَ ما في قُلُوبِهِم»، يقول تعالى ذِكْرُه: فعلمَ رَبُّكَ يا محمدُ ما في قلوبِ المؤمنينَ من أصحـابكَ إذْ يبايعونكَ تحتَ الشجرةِ، من صِدْقِ النيةِ، والوفاءِ بما يبايعونكَ عليه، والصبرِ معك «فأنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ»، يقولُ: فأنزل الطمأنينةَ، والثباتَ على ما هُمْ عليه من دينهم وحُسْنِ بَصِيرتِهم بالحقِّ الذي هداهم الله له.

وقـوله: «وأثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً»، يقولُ: وعَوَّضَهُم في العاجلِ مما رَجوا الظفرَ به من غنائمِ أهلِ مكة بقتالهم أهلَها فتحاً قريباً، وذلك فيما قيل: فتح خيبر.

وقوله: «وَمَغانِمَ كَثِيرَةً يأْخُذُونَها»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأثابَ اللهُ هؤلاءِ الذين بايعوا رسولَ الله ﷺ تحتَ الشجرةِ، مع ما أكرمَهُمْ من رِضَاهُ عنهم، وإنزاله السكينةَ عليهم، وإثابته إياهم فتحاً قريباً، معه مغانم كثيرة يأخذونها من أموالِ يهودِ خيبرَ، فإنَّ الله جعلَ ذلك خاصةً لأهلِ بيعةِ الرضوان دونَ غيرهم.

وقوله: «وكانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً»، يقولُ: وكان الله ذا عزَّةٍ في انتقامِه ممن انتقمَ من أعدائِه، حكيماً في تدبيره خَلْقَهُ وتصريفه إياهم فيما شاء من قضائِه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ

﴿صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢٠ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝٢١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لأهلِ بيعةِ الرضوان: «وَعَدَكُمُ اللهُ» أيها القومُ «مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا»، اختلفَ أهلُ التأويل في هذه المغانم التي ذكر اللهُ أنه وَعَدَهَا هؤلاءِ القوم أيّ المغانمِ هِيَ، فقال بعضهم: هي كُلُّ مغنمٍ غَنَّمَهَا اللهُ المؤمنينَ به من أموالِ أهلِ الشركِ من لَدُن أنزلَ هذه الآيةَ على لسانِ نبيه ﷺ.

وعلى هذا التأويلِ يحتمل الكلام أنْ يكون مراداً بالمغانمِ الثانية المغانمَ الأولى. ويكون معناه عند ذلك، فأثابهم فتحاً قريباً، ومغانمَ كثيرة يأخذونَها، وَعَدَكُمْ اللهُ أيها القوم هذه المغانمَ التي تأخذونها، وأنتم إليها واصلونَ عدة، فجعلَ لكم الفتحَ القريبَ من فتحِ خيبر. ويُحتمل أن تكون الثانية غير الأولى، وتكون الأولى من غنائم خيبر، والغنائم الثانية التي وَعَدَهُمُوهَا من غنائمِ سائرِ أهلِ الشركِ سِواهم.

وقال آخرون: هذه المغانمُ التي وَعَدَ اللهُ هؤلاءِ القومِ هي مغانمُ خيبر.

وقوله: «فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ»، اختلف أهلُ التأويل في التي عُجِّلَتْ لهم، فقال جماعةٌ: غنائمُ خيبر، والمؤخرةُ سائرُ فتوحِ المسلمينَ بعد ذلك الوقتِ إلى قيامِ الساعة.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك الصلحَ الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين قريش.

وأوْلى الأقوال في تأويل ذلك بالصوابِ هو أن الذي أثابهم اللهُ من مسيرهم ذلك مع الفتحِ القريبِ المغانمَ الكثيرةَ من مغانمِ خيبرَ، وذلك أنَّ المسلمينَ لم يغنموا بعد الحديبيةِ غنيمةً، ولم يفتحوا فتحاً أقرب من بيعتهم رسولَ الله ﷺ بالحديبيةِ إليها من فتح خيبرَ وغنائمِها.

وأما قوله: «وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً» فهي سائرُ المغانمِ التي غَنَّمَهُمُوها اللهُ بعد خيبرَ، كغنائمِ هوازن، وغطفان، وفارس، والروم.

وإنما قلنا ذلك كذلك دونَ غنائمِ خيبرَ، لأنَّ اللهَ أخبرَ أنه عَجَّلَ لهم هذه التي أثابهم من مسيرهم الذي ساروه مع رسولِ الله ﷺ إلى مكةَ، ولما علم من صحة نيتهم في قتال أهلها، إذْ بايعوا رسولَ الله ﷺ. على أنْ لا يَفِرُّوا عنه، ولاشكَّ أنَّ التي عجَّلت لهم غير التي لم تُعجَّلْ لهم.

وقوله: «وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه لأهلِ بيعةِ الرضوانِ: وكَفَّ اللهُ أيدي المشركينَ عنكم.

ثم اختلف أهلُ التأويل في الذين كُفَّتْ أيديهم عنها مَنْ هم؟ فقال بعضهم: هم اليهودُ كَفَّ اللهُ أيديهم عن عيالِ الذين ساروا من المدينةِ مع رسولِ الله ﷺ إلى مكةَ.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك أيدي قريشٍ إذْ حَبَسَهُمْ اللهُ عنهم، فلم يقدروا له على مكروهٍ. والقولُ الأول في ذلك عندي أشبه بتأويل الآية، وذلك أنَّ كفَّ اللهِ أيديَ المشركينَ من أهلِ مكةَ عن أهلِ الحُديبية قد ذكرهُ اللهُ بعد هذه الآية في قوله: «وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ» فعلم بذلك أنَّ الكَفَّ الذي ذكره الله تعالى في قوله: «وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ» غير الكفِّ الذي ذكر اللهُ بعدَ هذه الآيةِ في قوله: «وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيدِيَهُمْ عَنْكُمْ، وأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ».

وقوله: «وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ»، يقولُ: وليكون كَفُّه تعالى ذِكْرُه أيديهم عن عيالِهم آيةً وعبرةً للمؤمنينَ به فيعلموا أنَّ اللهَ هو المتولي حياطَتَهُمْ وكلاءَتَهُمْ في مَشْهَدِهم ومَغِيبهم، ويتقوا اللهَ في أنفسهم وأموالهم وأهليهم بالحِفْظِ وحُسْنِ الولايةِ ما كانوا مقيمينَ على طاعته، منتهين إلى أمره ونهيه.

وقوله: «وَيَهْدِيكُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً»، يقولُ: ويُسَدِّدكم أيها المؤمنونَ طريقاً واضحاً لا أعوجاجَ فيه، فَيُبَيِّنه لكم، وهو أنْ تَتَّقُوا في أموركم كلها بربكم، فتتوكلوا عليه في جميعها، ليحوطَكُمْ حِيَاطَتَهُ إياكم في مسيركم إلى مكةَ مع رسولِ الله ﷺ في أنفسكم وأهليكم وأموالكم، فقد رأيتم أثرَ فِعْلِ الله بكم، إذْ وثقتم في مسيركم هذا.

وقوله: «وأُخْرَى لم تَقْدِروا عليها قَدْ أحاطَ اللهُ بِهَا»، يقول تعالى ذِكْرُه ووعدكم أيها القومُ رَبُّكم فتحَ بلدةٍ أُخرى لم تقدروا على فتحها، قد أحاطَ اللهُ بها لكم حتى يفتحها لكم.

واختلف أهلُ التأويل في هذه البلدةِ الأخرى، والقرية الأخرى التي وعدهم فتحَها، التي أخبرهم أنه محيطٌ بها، فقال بعضهم: هي أرضُ فارس والروم. وما يفتحهُ المسلمونَ من البلادِ إلى قيامِ الساعة.

وقال آخرون: بل هي خيبر.

وقال آخرون: بل هي مكة. وهذا القولُ أشبه بما دلَّ عليه ظاهرُ التنزيل، وذلك أنَّ الله أخبرَ هؤلاءِ الذين بايعوا رسولَ الله ﷺ تحتَ الشجرةِ، أنه محيطٌ بقريةٍ لم يَقْدِرُوا عليها، ومعقولٌ أنه لا يقال لقومٍ لم يقدروا على هذه المدينة، إلا أنْ يكونوا قد رَامُوهَا فتعذَّرَتْ عليهم، فأمَّا وهُمْ لم يَرُومُوهَا فتتعذَّر عليهم فلا يقال: إنهم لم يقدروا عليها.

فإذْ كان ذلك كذلك، وكان معلوماً أنَّ رسولَ الله ﷺ لم يقصد قبلَ نزولِ هذه الآية عليه خيبرَ لحربٍ، ولا وجَّهَ إليها لقتالِ أهلها جيشاً ولا سريةً. عُلِمَ أن المعنيَّ بقوله: «وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها» غيرَها، وأنها هي التي قد عالجها ورامها، فتعذَّرتْ فكانت مكة وأهلها كذلك، وأخبر اللهُ تعالى ذِكْرُه نبيه ﷺ والمؤمنينَ أنه أحاطَ بها وبأهلها، وأنه فاتحها عليهم، وكان اللهُ على كلِّ ما يشاءُ من الأشياءِ ذا قُدرةٍ، لا يتعذَّرُ عليه شيءٌ شاءه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ به من أهلِ بيعةِ الرضوان: «وَلَو قاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا» باللهِ أيها المؤمنونَ بمكةَ «لَوَلَّوُا الأَدْبارَ»، يقولُ: لانهزموا عنكم، فولوكم أعجازَهُمْ، وكذلك يفعلُ المنهزمُ من قرنِه في الحربِ «ثُمَّ لا يَجدونَ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً»، يقولُ: ثم لا يجد هؤلاءِ الكفارُ المنهزمونَ عنكم، المُوَلُّوكُم الأدبارَ، ولياً يُواليهم على حَرْبِكم، ولا نصيراً ينصرهم عليكم، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه معكم، ولن يُغْلَبَ حزبٌ اللهُ ناصِرُه.

وقوله: «سُنَّةَ اللهِ التي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لو قاتلكم هؤلاءِ الكفارُ من قريشٍ، لخذلهم الله حتى يهزمهم عنكم خذلانه أمثالهم من أهلِ الكفرِ به. الذين قاتلوا أولياءَهُ من الأممِ الذين مضوا قَبْلَهم.

وقوله: «وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً»، يقول جَلَّ ثناؤه لنبيه محمدٍ ﷺ: ولن تجدَ يا محمدُ لسنةِ اللهِ التي سَنَّها في خَلْقِه تغييراً، بل ذلك دائم، للإحسانِ جزاؤهُ من الإحسانِ، وللإساءةِ والكفرِ العقابُ والنكالُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لرسوله ﷺ: والذين بايعوا بيعة الرضوانِ، «وهو الذي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ»، يعني: أنَّ الله كفَّ أيدي المشركينَ الذين كانوا خرجوا على عسكرِ رسولِ الله ﷺ، بالحديبيةِ يلتمسون غِرَّتَهُمْ لِيُصِيبُوا منهم، فبعثَ

رسولُ الله ﷺ فأتى بهم أَسْرَى، فَخَلَّى عنهم رسولُ الله ﷺ، ومَنَّ عليهم ولم يقتلهم، فقال اللهُ للمؤمنين: وهو الذي كَفَّ أيديَ هؤلاءِ المشركينَ عنكم، وأيديَكُمْ عنهم ببطنِ مكةَ، من بعدِ أنْ أظفرَكُمْ عليهم.

وقوله: «وكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكان الله بأعمالكم وأعمالهم بصيراً لا يَخْفَى عليه منها شيءٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاءِ المشركون من قريش هم الذين جَحَدُوا توحيدَ الله، وصَدُّوكُم أيها المؤمنونَ باللهِ عن دخولِ المسجدِ الحرام، وصَدُّوا «الهَدْيَ معكوفاً»، يقولُ: محبوساً عن أنْ يبلغَ مَحِلَّهُ.

وعنى بقوله تعالى ذِكْرُه: «أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ» أن يبلغ محلَّ نَحْرِه، وذلك دخول الحرم، والموضع الذي إذا صار إليه حلَّ نحرهُ، وكان رسولُ الله ﷺ ساقَ معه حين خرجَ إلى مكةَ في سَفرته تلك سبعين بَدَنة.

وقوله: «وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنات لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أنْ تَطَؤُوهُمْ، فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بغَيرِ عِلْمٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولولا رجالٌ من أهلِ الإيمانِ ونساءٌ منهم أيها المؤمنونَ باللهِ أنْ تطؤوهم بخَيْلِكُمْ ورجلكم لم تعلموهم بمكةَ، وقد حبسهم المشركونَ بها عنكم، فلا يستطيعونَ من أجلِ ذلك الخروجَ إليكم فتقتلُوهم.

والمَعَرَّةُ: هي المفعلة من العرِّ، وهو الجربُ، وإنما المعنى: فتصيبكم من قبلهم معرّة تعرّون بها، يَلْزَمُكُمْ من أجلها كفَّارةُ قتلِ الخطأ، وذلك عتق رقبةٍ مؤمنةٍ، مَنْ أطاقَ ذلك، ومَنْ لم يُطِقْ فصيامُ شهرين.

وإنما اخترتُ هذا القولَ، لأنَّ الله إنما أوجبَ على قاتلِ المؤمنِ في دارِ الحرب إذا لم يكنْ هاجرَ منها، ولم يكن قاتِلُه عَلِمَ إيمانَهُ الكفارةَ دونَ الديةِ، فقال: «وإنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وهُوَ مُؤمِنٌ، فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ» لم يوجبْ على قاتِلِه خطأً ديتـه، فلذلك قلنا: عنى بالمعرّةِ في هذا الموضع الكفارةَ، و«أنْ» من قوله: «أنْ تَطَئُوهُمْ» في موضعِ رفعٍ ردّاً على الرجال، لأن معنى الكـلام: ولـولا أنْ تَطؤوا رجـالاً مؤمنينَ ونساءً مؤمناتٍ لم تعلموهم، فتصيبَكُمْ منهم معرَّةٌ بغير علمٍ لأذِنَ اللهُ لكم أيها المؤمنونَ في دخولِ مكةَ، ولكنه حالَ بينكم وبين ذلك «لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ»، يقولُ: ليدخلَ اللهُ في الإسلام من أهلِ مكةَ مَنْ يشاء قبلَ أنْ تدخلوها، وحذفَ جوابَ لولا استغناءً بدلالةِ الكلامِ عليه.

وقوله: «لَوْ تَزَيَّلُوا»، يقولُ: لو تَمَيَّزَ الذين في مشركي مكةَ من الرجالِ المؤمنينَ والنساءِ المؤمناتِ، الذين لم تعلموهم منهم، ففارقوهم وخرجوا من بين أظهـرهم «لَعَذَّبْنا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُم عَذاباً أليماً»، يقولُ: لقتلنا مَنْ بقيَ فيها بالسيفِ، أو لأهلكناهم ببعضِ ما يؤلمهم من عذابنا العاجل.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه بقوله: «إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ

الجاهِلِيَّةِ» حين جعل سُهيل بن عمرو في قلبه الحمية، فامتنعَ أنْ يكتبَ في كتابِ المقاضاةِ الذي كتبَ بين يدي رسولِ الله ﷺ والمشركينَ: بسم الله الرحمن الرحيم، وأنْ يكتبَ فيه: محمدٌ رسول الله، وامتنعَ هو وقومُه من دخولِ رسولِ الله ﷺ عامَهُ ذلك.

وقوله: «فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وعَلَى المُؤْمِنِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه فأنزلَ الله الصبرَ والطمأنينةَ والوقارَ على رسولِه وعلى المؤمنينَ، إذْ حميَ الذين كفروا حميةَ الجاهلية، ومنعوهم من الطوافِ بالبيتِ، وأبوا أنْ يكتبوا في الكتاب بينه وبينهم بسم الله الرحمن الرحيم، ومحمدٌ رسول الله «وأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى»، يقال: ألزمهم قولَ لا إله إلا الله التي يتقون بها النارَ، وأليمَ العذاب.

وقوله: «وكانُوا أحَقَّ بِها وأهْلَها»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكان رسولُ الله ﷺ: والمؤمنونَ أحقَّ بكلمةِ التقوى من المشركينَ «وأهلها»، يقولُ: وكان رسولُ الله ﷺ والمؤمنونَ أهل كلمةِ التقوى دونَ المشركينَ.

وقوله: «وكانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولم يزل اللهُ بكل شيءٍ ذَا علمٍ، لا يَخْفَى عليه شيءٌ هو كائنٌ، ولعلمه أيها الناسُ بما يحدثُ من دخولِكم مكةَ وبها رجالٌ مؤمنون، ونساءٌ مؤمنات لم تعلموهم، لم يأذَنْ لكم بدخولِكم مكةَ في سفرتكم هذه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ٢٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لقد صَدَقَ اللهُ رسولَهُ محمداً رُؤْيَاهُ التي أراها إياهُ أنه يدخلُ هو وأصحابه بيتَ الله الحرام آمنينَ، لا يخافون أهلَ الشرك، مقصِّراً

بعضُهم رأسَهُ، ومحلِّقاً بعضهم.

وقوله: «فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا»، يقول تعالى ذِكْرُه: فعلمَ اللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ ما لم تعلموا، وذلك علمه تعالى ذِكْرُه بما بمكةَ من الرجالِ والنساءِ المؤمنينَ، الـذين لم يعلمهم المؤمنـونَ، ولـو دخلوها في ذلك العام لوطئوهم بالخيلِ والرَّجلِ، فأصابتهم منهم معرَّةٌ بغيرِ علمٍ، فردَّهم اللهُ عن مكة من أجلِ ذلك.

وقوله: «فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلكَ فَتْحاً قَرِيباً»، اختلف أهلُ التأويل في الفتحِ القـريبِ، الـذي جعله الله للمؤمنينَ دونَ دخـولهم المسجدَ الحرام محلِّقِينَ رُؤوسهم ومقصِّرينَ، فقال بعضعم: هو الصلحُ الذي جرى بين رسولِ الله ﷺ وبين مشركي قريش.

وقال آخرون: عنى بالفتحِ القريبِ في هذا الموضع: فتح خيبر.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ أن يقال: إنَّ الله أخبرَ أنه جعلَ لرسولِه والذين كانوا معه من أهلِ بيعةِ الرضوانِ فتحاً قريباً من دونِ دخولهم المسجدَ الحرام، ودونَ تصديقِه رؤيا رسولِ الله ﷺ وكان صلح الحُديبية وفتح خيبر دونَ ذلك، ولم يخصص الله تعالى ذِكْرُه خبره ذلك عن فتحٍ من ذلك دونَ فتحٍ، بل عَمَّ ذلك، وذلك كله فتحٌ جعله الله من دونِ ذلك.

والصوابُ أنْ يَعُمَّهُ كما عَمَّهُ، فيقال: جعلَ اللهُ من دونِ تصديقِه رؤيا رسولِ الله ﷺ بدخولِه وأصحابِه المسجدَ الحرامَ محلِّقينَ رؤوسهم ومقصِّرينَ، لا يخافونَ المشركينَ، صلحَ الحُديبية وفتحَ خيبر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ

ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ» الذي أرسل رسوله محمداً ﷺ بالبيانِ الواضح، وَدِينِ الحَقِّ، وهو الإسلامُ؛ الذي أرسله داعياً خَلْقَهُ إليه. «لِيُظْهِرَهُ عَلى الدِّينِ كُلِّهِ»، يقولُ: لِيُبْطِلَ به المللَ كُلَّها، حتى لا يكونَ دينٌ سواه، وذلك كان كذلك حتى ينزل عيسى بن مريم، فيقتل الدجال، فحينئذٍ تبطلُ الأديانُ كلها، غير دينِ الله الذي بَعَثَ به محمداً ﷺ، ويظهر الإسلام على الأديان كلها.

وقوله: «وَكَفَى باللهِ شَهِيداً»، يقول جَلَّ ثناؤه لنبيه محمدٍ ﷺ: أَشْهَدَكَ يا محمدُ رَبُّكَ على نفسِه، أنه سيظهرُ الدينَ الذي بعثكَ به «وَكَفى باللهِ شَهِيداً»، يقولُ: وحَسْبُكَ به شاهداً.

وقوله: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ والَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ على الكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: محمدٌ رسولُ الله وأتباعُه من أصحابِه الذين هُمْ معه على دينه، أشدَّاءُ على الكفارِ، غليظةٌ عليهم قلوبُهم، قليلةٌ بهم رحمتهم. «رُحَماءُ بَيْنَهُمْ»، يقولُ: رقيقةٌ قلوبُ بعضِهم لبعضٍ، لينةٌ أنفُسُهم لهم، هَيِّنَةٌ عليهم لهم.

«تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً»، يقولُ: تراهم ركعاً أحياناً لله في صلاتهم سُجَّداً أحياناً. «يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ»، يقولُ: يلتمسونَ بركوعِهم وسجودِهم وشِدَّتِهم على الكفارِ ورحمةِ بعضِهم بعضاً، فضلاً من الله، وذلك رحمته إياهم، بأنْ يتفضلَ عليهم، فَيُدْخِلَهُمْ جَنَّتَهُ «وَرِضْوَاناً»، يقولُ: وأنْ يرضى عنهم رَبُّهم.

وقوله: «سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ»، يقولُ: علامتهم في وجوههم من أثر السجودِ في صلاتهم.

ثم اختلف أهلُ التأويل في السيما الذي عَنَاهُ اللهُ في هذا الموضع، فقال بعضهم: ذلك علامةٌ يجعلها الله في وجوهِ المؤمنينَ يومَ القيامة، يُعْرَفُونَ بها لِمَا كان من سجودِهم له في الدنيا.

وقال آخرون: بل ذلك سيما الإسلام وسَمْته وخشوعه، وعَنَى بذلك أنه يُرَى من ذلك عليهم في الدنيا.

وقال آخرون: ذلك أثرٌ يكون في وجوهِ المصلين، مثل أثرِ السهرِ الذي يظهرُ في الوجهِ مثل الكَلَفِ والتهيُّجِ والصُّفْرَةِ، وما أشبه ذلك مما يظهرهُ السهرُ والتعبُ في الوجه، ووجَّهُوا التأويل في ذلك إلى أنه سيما في الدنيا.

وقال آخرون: ذلك آثارٌ تُرى في الوجه من ثرى الأرضِ، أو نَدَى الطُّهُور.

وأَوْلى الأقوال في ذلك بالصواب أنْ يقال: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه أخبرنا أنَّ سِيَما هؤلاءِ القومِ الذين وَصَفَ صِفَتَهُمْ في وجوههم من أثرِ السجود، ولم يخصَّ ذلك على وقتٍ دونَ وقتٍ، وإذا كان ذلك كذلك، فذلك على كلِّ الأوقاتِ، فكان سيماهم الذي كانوا يُعْرَفُونَ به في الدنيا أثرُ الإسلامِ، وذلك خشوعُه وهَدْيُه وزُهْدُه وسمته، وآثارُ أداء فرائضِه وتطوّعه، وفي الآخرة ما أخبرَ أنهم يعرفونَ به، وذلك الغرَّة في الوجه، والتحجيلُ في الأيدي والأرجلِ من أثرِ الوضوءِ، وبياضُ الوجوهِ من أثرِ السجود.

وقوله: «ذلكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ»، يقولُ: هذه الصفةُ التي وصفتُ لكم من صفةِ أتباعِ محمدٍ ﷺ، الذين معه، صفتهم في التوراة.

وقوله: «وَمَثَلُهُمْ فِي الإنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ»، يقولُ: وصِفَتُهم في

إنجيلِ عيسى صِفَةُ زرعٍ أخرج شطأه. وهو فراخه، يقال منه: قد أشطأ الزرع: إذا فرَّخ فهو يشطىء إشطاءً، وإنما مَثَّلَهُمْ بالزرعِ المشطىء، لأنهم ابتدؤوا في الدخولِ في الإسلامِ، وهم عَدَدٌ قليلون، ثم جعلوا يتزايدون، ويدخل فيه الجماعةُ بعدهم، ثم الجماعةُ بعد الجماعةِ، حتى كَثُرَ عددهم، كما يحدثُ في أصلِ الزرعِ الفرخ منه، ثم الفرخُ بعده حتى يكثرَ وينمي.

وقال آخرون: هذان المَثَلان في التوراة والإنجيلِ مثلهم.

وأَوْلى القولين في ذلك بالصوابِ قولُ مَنْ قال: مَثَلُهُم في التوراة، غيرُ مثَلِهم في الإنجيلِ، وإنَّ الخبرَ عن مَثلهم في التوراة مُتَنَاهٍ عند قولِهِ: «ذلكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ» وذلك أنَّ القولَ لو كان كما قيل أنَّ مثلهم في التوراةِ والإنجيلِ واحدٌ، لكان التنزيل: ومثلهم في الإنجيل، وكزرع أخرج شطأه، فكان تمثيلهم بالزرع معطوفاً على قوله: «سيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ» حتى يكون ذلك خبراً عن أنَّ ذلك مَثلهم في التوراة والإنجيل، وفي مجيء الكلامِ بغيرِ واوٍ في قوله: «كَزَرْعٍ» دليلٌ بَيِّنٌ على صحةِ ما قُلنا، وأنَّ قولهم: «وَمَثَلُهُمْ فِي الإنْجِيلِ» خبرٌ مبتدأً عن صِفَتِهم التي هي في الإنجيلِ دونَ ما في التوراة منها.

وقوله: «فآزَرَهُ»، يقول: فقوَّاهُ: أي قَوَّى الزرع شطأه وأعانه، وهو من المؤازرةِ التي بمعنى المعاونة. «فاسْتَغْلَظَ»، يقولُ: فغلظ الزرع «فاسْتَوَى على سُوقِهِ»، والسوق: جمع ساق، وساقُ الزرع والشجر: حاملته.

وقوله: «يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يعجبُ هذا الزرعُ الذي استغلظَ فاستوى على سُوقِه في تمامه وحُسْنِ نباته، وبلوغِه وانتهائِه الذين زرعوه «لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ»، يقولُ: فكذلك مثَلُ محمدٍ ﷺ وأصحابه، واجتماع عددهم حتى كثروا ونموا، وغَلُظَ أَمْرُهُمْ كهذا الزرعِ الذي وصفَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ صِفَتَهُ، ثم قال: «لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ» فدلَّ ذلك على متروكٍ من الكلامِ،

وهو أنَّ الله تعالى فعلَ ذلك بمحمدٍ ﷺ وأصحابه ليغيظَ بهمُ الكفارَ.

وقولـه: «وَعَـدَ اللهُ الَّـذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وأجْراً عَظِيمـاً»، يقـول تعـالى ذِكْرُه: وَعَدَ اللهُ الذين صَدَّقُوا الله ورسولَهُ، «وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ»، يقولُ: وعملوا بما أمرهم اللهُ به من فرائضِه التي أوجبها عليهم.

وقوله: «مِنْهُمْ»، يعني: من الشَّطْءِ الذي أخرجَهُ الزرعُ، وهم الداخلونَ في الإسلامِ بعدَ الزرعِ الذي وصفَ رَبُّنَا تبارك وتعالى صفته. والهاء والميم في قوله: «مِنْهُمْ» عائدةٌ على معنى الشطء، لا على لفظِه، ولذلك جمع فقيل: «منهم»، ولم يقل: «منه». وإنما جمع الشطء لأنه أُرِيدَ به مَنْ يدخل في دينِ محمـدٍ ﷺ إلى يوم القيامـة بعـد الجماعةِ الذين وصفَ الله صِفَتَهُمْ بقوله: «وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلى الكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً».

وقوله: «وَمَغْفِرَةً»، يعني: عفواً عَمَّا مَضَى من ذنوبهم، وسيِّئِ أعمالهم بحسنها.

وقوله: «وأجْراً عَظِيماً»، يعني: وثواباً جزيلاً، وذلك الجنة.

سُورَةُ الحُجُرَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ①﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا»: يا أيها الذين أقرُّوا بوحدانيةِ الله، وبنبوَّةِ نبيهِ محمدٍ ﷺ «لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ»، يقولُ: لا تعجلوا بقضاء أمرٍ في حروبكم أو دينكم، قبل أن يقضي اللهُ لكم فيه ورسولُه، فتقضوا بخلافِ أمرِ اللهِ وأمرِ رسوله، محكيٌّ عن العرب: فلانٌ يُقدِّمُ بين يدي إمامِه، بمعنى: يعجلُ بالأمرِ والنهي دونه.

وقوله: «وَاتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»، يقولُ: وخافوا اللهَ أيها الذين آمنوا في قولكمْ، أنْ تقولُوا ما لَمْ يأذَنْ لكم به اللهُ ولا رسولُه، وفي غير ذلك من أموركم، وراقبوه، إنَّ الله سميعٌ لما تقولون، عليمٌ بما تريدون بقولكم إذا قلتم، لا يَخْفَى عليه شيءٌ من ضمائرِ صدوركم، وغيرِ ذلك من أموركم وأمورِ غيركم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ②﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يا أيها الذين صَدَّقُوا الله ورسولَهُ، لا ترفعوا أصواتَكُم فوقَ صوتِ رسولِ الله تَتَجَهَّمُوه بالكلام، وتغلظون له في الخطاب «وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ»، يقولُ: ولا تنادوه كما ينادي بعضُكم بعضاً، يا محمدُ، يا محمدُ، يا نبيَّ الله، يا نبيَّ الله، يا رسولَ الله.

وقوله: «أَنْ تَحْبَطَ أعمالُكُمْ»، يقولُ: أنْ لا تحبطَ أعمالُكم فتذهبَ باطلةً لا ثوابَ لكم عليها، ولا جزاء برفعِكم أصواتَكُمْ فوقَ صوتِ نبيكم، وجَهْرِكم له بالقولِ كجهرِ بعضِكم لبعض.

وقوله: «وأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ»، يقولُ: وأنتم لا تعلمونَ ولا تدرون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين يَكُفُّونَ رفعَ أصواتِهم عندَ رسولِ الله، وأصلُ الغضِّ: الكفُّ في لِيْنٍ. ومنه: غَضُّ البصر، وهو كَفُّه عن النظرِ.

وقوله: « أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ للتَّقْوَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاءِ الذين يَغُضُّونَ أصواتَهم عندَ رسولِ الله، هم الذين اختبرَ اللهُ قلوبَهم بامتحانِه إياها، فاصطفاها وأخْلَصَها للتقوى. يعني لاتقائِه بأداءِ طاعتِه، واجتنابِ معاصيه، كما يُمْتَحَنُ الذهبُ بالنارِ، فيخلص جيدها، ويبطل خبثها[1].

وقوله: «لَهُمْ مَغْفِرَةٌ» يقولُ: لهم من الله عفوٌ عن ذنوبِهم السالفة، وصَفْحٌ منه عنها لهم، «وأَجْرٌ عَظِيمٌ»، يقولُ: وثوابٌ جزيل، وهو الجنةُ.

(١) الضمير في جيدها وخبثها راجع إلى الذهب، لأنها مؤنثة، وقد تُذكر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: إنَّ الذين ينادونك يا محمدُ من وراءِ حجراتِكَ، والحجراتُ: جمع حجرة، والثلاث: حُجَر، ثم تجمع الحجر فيقال: حُجُرات وحُجْرات.

وقوله: «وأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُون»، يقولُ: أكثرهم جهالٌ بدينِ الله، واللازمُ لهم من حقك وتعظيمك.

وذُكر أنَّ هذه الآيةَ والتي بعدها نزلتْ في قومٍ من الأعرابِ جاؤوا ينادونَ رسولَ الله ﷺ من وراءِ حُجُراتِه: يا محمدُ اخرجْ إلينا.

وقوله: «وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حتى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولو أنَّ هؤلاءِ الذين ينادوكَ يامحمد من وراء الحجرات صبروا فلم ينادوكَ حتى تخرجَ إليهم إذا خرجتَ، لكَان خيراً لهم عند الله، لأنَّ الله قد أمرهم بتوقيركَ وتعظيمكَ، فهم بتركِهم نداءكَ تاركونَ ما قد نَهاهُمُ اللهُ عنه، «وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: الله ذُو عفوٍ عَمَّنْ ناداكَ من وراءِ الحجابِ، إنْ هو تابَ من معصيةِ الله بندائِكَ كذلك، وراجعَ أمرَ اللهِ في ذلك وفي غيره؛ رحيمٌ به أنْ يعاقبه على ذَنْبِه ذلك من بعدِ توبته منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ۝٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يا أيها الذين صَدَّقُوا الله ورسولَهُ «إنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ» عن قوم «فَتَبَيَّنُوا».

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: «فَتَبَيَّنُوا» فقرأ ذلك عامة قَرَأة أهلِ المدينة «فَتَثَبَّتُوا» بالثاء، وذُكر أنها في مصحف عبدالله منقوطة بالثاء. وقرأ ذلك بعض القَرَأة «فتبيَّنوا» بالباء، بمعنى: أمهلوا حتى تعرفوا صحته، لا تعجلوا بقبولِه، وكذلك معنى: «فَتَثَبَّتُوا».

والصوابُ من القولِ في ذلك أنهما قراءتان معروفتان متقاربتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارىءُ فمصيبٌ.

وذُكر أنَّ هذه الآيةَ نزلت في الوليدِ بن عقبة بن أبي مُعَيط[1].

وقوله: «أنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فتبيَّنوا لئلا تصيبوا قوماً برآء مما قُذفوا به بجناية بجهالةٍ منكم «فَتُصْبِحُوا على ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ»، يقولُ: فتندموا على إصابَتِكُمْ إياهم بالجنايةِ التي تُصيبونهم بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لأصحابِ نبيِّ الله ﷺ: واعلموا أيها المؤمنونَ بالله ورسوله،

---

(١) ساق المؤلف عدداً من الأحاديث والآثار لإثبات ذلك، وليس فيها من حديث ذي سند صحيح. وإنما أبقينا ذلك لأنه سيعتمده في تفسير الآية الآتية، ويذكر فيها ملخص القصة.

«أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ» فاتقوا الله أنْ تقولوا الباطلَ، وتفتروا الكذبَ، فإنَّ الله يخبره أخباركم، ويعرِّفُه أنباءكم، ويُقَوِّمُه على الصوابِ في أموره.

وقوله: «لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لو كان رسولُ الله ﷺ يعملُ في الأمور بآرائِكم، ويقبلُ منكم ما تقولونَ له فيطيعكم «لَعَنِتُّمْ»، يقولُ: لَنَالَكُمْ عَنَتٌ، يعني: الشدّةُ والمشقةُ في كثيرٍ من الأمورِ بطاعتِهِ إياكم لو أطاعَكُمْ لأنه كان يخطىءُ في أفعاله كما لو قَبِلَ من الوليد بن عقبة قولَهُ في بني المصطلق: إنهم قد ارتَدُّوا، ومنعوا الصدقةَ، وجمعوا الجموعَ لغزو المسلمين، فغزاهم فَقَتَلَ منهم، وأصابَ من دمائِهم وأموالهم كانَ قد قَتَلَ، وقَتَلْتُمْ مَنْ لا يحلُّ لَهُ ولا لَكُمْ قَتْلُه، وأَخَذَ وأَخَذْتُم من المالِ ما لا يحلُّ له ولكم أخذُه من أموالِ قومٍ مسلمينَ، فنالكم من الله بذلك عَنَتٌ «وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمانَ» باللهِ ورسولِه، فأنتم تطيعون رسولَ الله، وتأتَمُّونَ به فَيَقِيكُمُ اللهُ بذلك من العنتِ ما لو لم تُطِيعُوهُ وتَتَّبِعُوه، وكان يُطِيعكم لنالَكُمْ وأصابَكُمْ.

وقوله: «وَزَيَّنَهُ في قُلُوبِكُمْ»، يقولُ: وحَسَّنَ الإيمانَ في قلوبكم فآمنتم، «وكَـرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْـرَ» بالله «وَالفُسُـوقَ»، يعني: الكذبَ، «والعِصْيانَ» يعني: ركوبَ ما نهى الله عنه في خلافِ أمرِ رسولِ الله ﷺ، وتضييع ما أمرَ اللهُ به «أولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ»، يقولُ: هؤلاءِ الذين حَبَّبَ اللهُ إليهم الإيمانَ، وزَيَّنَهُ في قلوبهم، وكَرَّهَ إليهم الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ أولئك هم الراشدونَ السالكونَ طريقَ الحقِّ.

وقوله: «فَضْلاً مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً»، يقولُ: ولكن الله حبَّبَ إليكم الإيمانَ، وأنعمَ عليكم هذه النعمـةَ التي عَدَّها فضلاً منه، وإحساناً ونعمةً منه أنعمها عليكـم «وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِـيمٌ»، يقــولُ: والله ذُو علمٍ ـ بالـمحسنِ منكم من المسيء، ومَنْ هو لنعمِ اللهِ وفَضْلِه أهلٌ، ومَنْ هو لذلك غير أهلٍ ـ وحكمةٍ في تدبيره خَلْقَهُ، وصَرْفه إياهم فيما شاءَ من قضائِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإنْ طائفتانِ من أهلِ الإيمان اقتتلوا، فأصلحُوا أيها المؤمنونَ بينهما بالدعاءِ إلى حُكْمِ كتابِ الله، والرضا بما فيه لهما وعليهما، وذلك هو الإصلاحُ بينهما بالعدل «فإنْ بَغَتْ إحْدَاهُما عَلى الأُخْرَى»، يقولُ: فإن أبَتْ إحـدى هاتين الـطائفتين الإجابةَ إلى حُكْمِ كتاب الله له، وعليه وتَعَدَّتْ ما جعلَ اللهُ عدلاً بين خلقه، وأجابت الأخرى منهما «فقاتِلُوا الَّتي تَبْغِي»، يقولُ: فقاتلوا التي تعتدي، وتأبى الإجابةَ إلى حُكْمِ الله «حتى تَفِيءَ إلى أمْرِ اللهِ»، يقولُ: حتى ترجعَ إلى حكم الله الذي حكم في كتابهِ بين خَلْقِه «فإنْ فاءَتْ فأصْلِحُوا بَيْنَهُما بالعَدْلِ»، يقولُ: فإنْ رجعت الباغيةُ بعد قتالكم إياهم إلى الرضا بحكم الله في كتابه، فأصلحوا بينها وبين الطائفةِ الأخرى التي قاتلتها بالعدلِ: يعني بالإنصافِ بينهما، وذلك حكم الله في كتابه الذي جعله عدلاً بين خلقه.

وقوله: «وأقْسِطُوا»، يقول تعالى ذِكْرُه: واعدلوا أيها المؤمنونَ في حكمكم بين مَنْ حكمتم بينهم بأنْ لا تتجاوزوا في أحكامكم حُكْمَ اللهِ وحكمَ رسولِه. «إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ»، يقولُ: إنَّ الله يحبُّ العادلينَ في أحكامهم، القاضينَ بين خَلْقِه بالقسط.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لأهلِ الإيمان به «إنَّما المُؤْمِنُونَ إخْوَةٌ» في الدين «فأَصْلِحُوا بينَ أخَوَيْكُمْ» إذا اقتتلا بأنْ تحملوهما على حُكْمِ الله وحُكْمِ رسوله. ومعنى الأخوين في هذا الموضع: كل مُقْتَتِلَيْنِ من أهلِ الإيمان.

«واتَّقُوا الله لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وخافُوا الله أيها الناسُ بأداءِ فرائضِه عليكم في الإصلاحِ بين المقتتلين من أهل الإيمانِ بالعدلِ، وفي غيرِ ذلك من فرائضِه، واجتنابِ معاصيه، ليرحمكم رَبُّكم، فيصفح لكم عن سالفِ إجرامِكم إذا أنتم أطعتموه، واتبعتم أَمْرَهُ ونهيه، واتقيتموهُ بطاعتِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يا أيها الذين صَدَّقُوا اللهَ ورسولَهُ، لا يهزأْ قومٌ مؤمنونَ من قومٍ مؤمنين «عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ»، يقولُ: المهزوءُ منهم خيرٌ من الهازئين «وَلا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ»، يقولُ: ولا يهزأْ نساءٌ مؤمناتٌ من نساءٍ مؤمنات، عسى المهزوء منهنَّ أنْ يَكُنَّ خيراً من الهازئات.

وقوله: «وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولا يغتبْ بعضُكم بعضاً أيها المؤمنونَ، ولا يطعنْ بعضُكم على بعضٍ؛ وقال: «لا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ» فجعل اللامزَ أخاهُ لامزاً نفسَهُ، لأن المؤمنينَ كرجلٍ واحد فيما يلزمُ بعضَهم لبعضٍ من تحسينِ أمره، وطلب صلاحه، ومحبته الخير. ولذلك رُوي الخبر عن رسولِ الله ﷺ أنه قال: «المُؤْمِنُونَ كالجَسَدِ الوَاحِدِ إذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ

تَدَاعَى لَهُ سائِرُ جَسَدِهِ بالحُمَّى والسَّهَر»[1]. وهذا نظير قوله: «يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالباطِلِ، إلَّا أنْ تَكُونَ تِجارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ، وَلا تَقْتُلُوا أنفُسَكُمْ»، بمعنى: ولا يقتلْ بعضكم بعضاً.

وقوله: «وَلا تَنَابَزُوا بالألقاب»، يقولُ: ولا تَدَاعَوْا بالألقابِ؛ والنبز واللقبُ بمعنى واحد، يجمع النبز: أنبازاً، واللقبُ: ألقاباً.

واختلف أهلُ التأويل في الألقابِ التي نهى اللهُ عن التنابزِ بها في هذه الآية، فقال بعضهم: عنى بها الألقاب التي يكرهُ النبزَ بها الملقَّب، وقالوا: إنما نزلت هذه الآيةُ في قومٍ كانت لهم أسماء في الجاهلية، فلما أسلموا نُهُوا أنْ يدعوَ بعضُهم بعضاً بما يكرهُ من أسمائِه التي كان يُدْعَى بها في الجاهلية.

وقال آخرون: بل ذلك قول الرجلِ المسلمِ للرجلِ المسلم: يا فاسق، يا زاني.

وقال آخرون: بل ذلك تسميةُ الرجلِ الرجلَ بالكفرِ بعد الإسلامِ، وبالفسوقِ والأعمالِ القبيحةِ بعد التوبة.

والذي هو أوْلى الأقوالِ في تأويل ذلك عندي بالصوابِ أنْ يقالَ: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه نهى المؤمنينَ أنْ يتنابزوا بالألقاب؛ والتنابزُ بالألقاب: هو دعاءُ المرءِ صاحبَهُ بما يكرههُ من اسمٍ أو صفةٍ، وعَمَّ الله بنهيه ذلك، ولم يخصص به بعضَ الألقاب دونَ بعضٍ، فغير جائزٍ لأحدٍ من المسلمين أن ينبزَ أخاهُ باسمٍ يَكْرَهُهُ، أو صفةٍ يكرهها. وإذا كان ذلك كذلك صحّت الأقوالُ التي قالها أهلُ التأويل في ذلك التي ذكرناها كلها، ولم يكن بعضُ ذلك أوْلى بالصوابِ من بعض، لأنَّ كلّ ذلك مما نهى الله المسلمينَ أنْ ينبزَ بعضهم بعضاً.

---

(١) متفق عليه من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه: البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).

وقوله: «بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإيمَانِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ومَنْ فعلَ ما نَهَيْنا عنه، وتقَدَّمَ على معصيتنا بعد إيمانِه، فسخرَ من المؤمنينَ، ولَمَزَ أخاهُ المؤمنَ، ونبزه بالألقابِ، فهو فاسقٌ «بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإيمَانِ»، يقولُ: فلا تفعلوا فتستحقوا إنْ فعلتموه أنْ تُسمّوا فساقاً، بئسَ الاسمُ الفسوقُ، وترك ذكر ما وصفنا من الكلام، اكتفاء بدلالة قوله: «وبِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ» عليه.

وقوله: «وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ومَنْ لم يَتُبْ من نبزِه أخاهُ بما نهى الله عن نبزِه به من الألقابِ، أو لَمْزِه إياه، أو سخريته منه، فأولئك هم الذين ظلموا أنفسهم، فأكسبوها عقابَ الله بركوبهم ما نهاهم عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يا أيها الذين صَدَّقُوا اللهَ ورسولَهُ، لا تقربوا كثيراً من الظنِّ بالمؤمنين، وذلك أنْ تظنوا بهم سوءً، فإنَّ الظانَّ غير مُحِقٍّ، وقال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ»، ولم يقل: الظنَّ كله، إذ كان قد أذِنَ للمؤمنينَ أنْ يظنَّ بعضُهم ببعضٍ الخيرَ، فقال: «لَوْلا إذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ المُؤْمِنُونَ وَالمُؤْمِناتُ بأنْفُسِهِمْ خَيْراً، وقَالُوا هَذَا إفْكٌ مُبِينٌ»، فأذنَ اللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ للمؤمنينَ أنْ يَظُنَّ بعضهم ببعضٍ الخيرَ وأنْ يقولوه، وإنْ لم يكونوا من قِيلِه فيهم على يقين.

وقوله: «إنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إثْمٌ»، يقولُ: إنَّ ظنَّ المؤمنِ بالمؤمنِ الشرَّ لا الخيرَ إثمٌ، لأنَّ الله قد نهاه عنه، فَفِعْلُ ما نهى اللهُ عنه إثمٌ.

وقوله: «وَلا تَجَسَّسُوا»، يقولُ: ولا يَتَتَبَّعْ بعضُكم عورةَ بعضٍ، ولا يبحثْ عن سرائرِه، يبتغي بذلك الظهورَ على عيوبِه، ولكنْ اقنعوا بما ظهرَ لكم من أمرِه، وبه فاحمدوا أو ذموا، لا على ما لا تعلمونه من سرائره.

وقوله: «ولا يَغْتَبْ بعضُكم بعضاً»، يقولُ: ولا يَقُلْ بعضُكم في بعضٍ بظهر الغيبِ ما يكرهُ المقولُ فيه ذلك أنْ يُقَالَ له في وجهه.

وقوله: «أيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أنْ يأْكُلَ لَحْمَ أخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ: أيحبُّ أحدكم أيها القومُ أنْ يأكلَ لحمَ أخيهِ بعد مماتِه ميتاً، فإنْ لم تُحِبُّوا ذلك وكَرِهْتُموه، لأنَّ الله حَرَّمَ ذلك عليكم، فكذلك لا تحبوا أنْ تغتابوه في حياته، فاكْرَهُوا غيبتَهُ حياً، كما كرهتم لَحْمَهُ ميتاً، فإنَّ الله حَرَّمَ غيبته حياً، كما حرّم أكلَ لحمِه ميتاً.

وقوله: «وَاتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فاتقوا اللهَ أيها الناسُ، فخافوا عقوبتَهُ بانتهائِكم عما نَهاكُمْ عنه من ظَنِّ أَحدِكم بأخيهِ المؤمن ظَنَّ السوء، وتتبعِ عوراتِه، والتجسسِ عما ستر عنه من أمره. واغتيابه بما يكرهه، تريدون به شَيْنَهُ وعَيْبَهُ، وغير ذلك من الأمور التي نهاكم عنها رَبُّكم «إنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ»، يقولُ: إنَّ الله راجعٌ لعبدِه إلى ما يحبه إذا رجعَ العبدُ لربهِ إلى ما يُحِبُّهُ منه، رحيمٌ به بأنْ يعاقبه على ذنبٍ أذنبه بعد توبتِه منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يا أيها الناسُ إنَّا أنشأنا خلقكم من ماءِ ذَكَرٍ من الرجالِ، وماءِ أُنثى من النساء.

وقوله: «وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وقَبَائِلَ لِتعارَفُوا»، يقولُ: وجعلناكم متناسبين، فبعضُكم ينـاسبُ بعضـاً نسباً بعيداً، وبعضُكم ينـاسبُ بعضـاً نسبـاً قريباً؛ فالمناسب النسبَ البعيدَ من لم ينسبه: أهل الشعوب، وذلك إذا قيلَ للرجل من العربِ: من أيِّ شعبٍ أنتَ؟ قال: أنا من مُضَر، أو من ربيعةَ. وأما أهلُ المناسبة القريبة أهل القبائل، وهم كتميم من مضر، وبكر من ربيعة، وأقرب القبائل الأفخاذ وهما كشيبان من بكر ودارم من تميم، ونحو ذلك.

وقوله: «لِتَعارَفُوا»، يقولُ: ليعرفَ بعضُكم بعضاً في النسبِ، يقول تعالى ذِكْرُه: إنما جعلنا هذه الشعوبَ والقبائلَ لكم أيها الناسُ، ليعرفَ بعضُكم بعضاً في قُرْبِ القرابةِ منه وبعده، لا لفضيلةٍ لكم في ذلك، وقُرْبةٍ تُقَرِّبُكُمْ إلى الله، بَلْ أكرمُكُم عندَ الله أتقاكم.

وقوله: «إنَّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أتْقَاكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ أكرمكم أيها الناسُ عند ربكم، أشدّكم اتقاءً له بأداءِ فرائضِه واجتنابِ معاصيه، لا أعظمكم بيتاً ولا أكثركم عشيرةً.

وقوله: «إنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الله أيها الناسُ ذُو علمٍ بأتقاكم عند الله وأكرمكم عنده، ذُو خبرةٍ بكم وبمصالحكم، وغير ذلك من أموركم، لا تَخْفَى عليه خافية.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قالت الأعرابُ: صدّقنا باللهِ ورسولِه، فنحنُ مؤمنونَ، قال الله لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ لهم: «لَمْ تُؤْمِنُوا» ولستم مؤمنينَ «ولَكِنْ

قُولُوا أَسْلَمْنَا».

واختلف أهـلُ التأويل في السببِ الذي من أجله قِيلَ للنبيِّ ﷺ: قُلْ لهؤلاءِ الأعراب: قولوا أسلمنا، ولا تقولوا آمنا، فقال بعضهم: إنما أُمِر النبي ﷺ بذلك، لأنَّ القومَ كانوا صدّقوا بألسنتهم، ولم يُصَدِّقُوا قولَهم بفعلِهم، فقيل لهم: قولوا أسلمنا، لأنَّ الإسلامَ قولٌ، والإيمانَ قولٌ وعملٌ.

وقال آخرون: إنما أُمِرَ النبيُّ ﷺ بقيلِ ذلك لهم، لأنهم أرادوا أنْ يتسمّوا بأسماءِ المهاجرينَ قبلَ أنْ يُهاجِرُوا، فأعلمهم الله أنَّ لهم أسماءَ الأعرابِ، لا أسماءَ المهاجرين.

وقال آخرون: قيل لهم ذلك لأنهم مَنُّوا على رسولِ الله ﷺ بإسلامِهم، فقال الله لنبيه ﷺ: قُلْ لهم لم تؤمنوا، ولكن استسلمتم خوفَ السِّباءِ والقتلِ.

وأَوْلى الأقوالِ بالصوابِ في تأويلِ ذلك القول الأول، وهو أنَّ الله تقدَّمَ إلى هؤلاءِ الأعرابِ الذين دخلوا في الملة إقراراً منهم بالقول، ولم يحققوا قولهم بعملهم أنْ يقـولـوا بالإطلاقِ آمنا دونَ تقييدِ قولهم بذلك بأنْ يقولوا آمنا بالله ورسولِه، ولكنْ أمرهم أنْ يقولوا القولَ الذي لا يشكلُ على سامعيه والذي قائلُه فيه مُحِقٌّ، وهـو أنْ يقـولوا أسلمنا، بمعنى: دخلنا في الملة لحفظ الأنفس والأموالِ، والشهادة الحقّ.

قوله: «وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمَانُ في قُلُوبِكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولَمَّا يدخل العِلْمُ بشرائعِ الإيمانِ، وحقائقِ معانيهِ في قلوبِكم.

وقوله: «وَإِنْ تُطِيعُوا الله ورَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أعمالِكُمْ شَيْئاً»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ لهؤلاءِ الأعرابِ القائلينَ آمنا ولما يدخلِ الإيمانُ في قلوبهم، إنْ تُطيعوا الله ورسولَهُ أيها القومُ، فتأتمروا لأمرهِ وأمرِ رسوله، وتعملوا بمـا فرضَ عليكم، وتنتهوا عما نهاكم عنه، «لا يَلِتْكُمْ مِنْ أعمالِكُمْ شَيْئاً»،

يقولُ: لا يظلمكم من أجورِ أعمالِكم شيئاً ولا ينقصكم من ثوابها شيئاً.

وقوله: «إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الله ذُو عفوٍ أيها الأعرابُ لمن أطاعه، وتابَ إليه من سالفِ ذُنوبه، فأطيعوه، وانتهوا إلى أمره ونهيه، يغفر لكم ذنوبَكم، رحيمٌ بخلقِه التائبينَ إليه أن يعاقبهم بعد توبتهم من ذُنوبِهم على ما تابُوا منه، فتوبُوا إليه يرحمكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للأعرابِ الذين قالوا آمنا ولما يدخل الإيمانُ في قلوبهم: إنما المؤمنونَ أيها القومُ الذين صدّقوا اللهَ ورسولَهُ، «ثم لم يرتابوا»، يقولُ: ثم لم يَشُكُّوا في وحدانيةِ الله، ولا في نبوّةِ نبيه ﷺ، وألزمَ نفسَهُ طاعةَ الله وطاعةَ رسولِه، والعملَ بما وجَبَ عليه من فرائضِ الله بغير شكٍّ منه في وجوب ذلك عليه، «وَجاهَدُوا بأَمْوَالِهِمْ وأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ»، يقولُ: جاهدوا المشركينَ بإنفاقِ أموالهم، وبَذْلِ مُهَجِهِم في جهادهم، على ما أمرهم اللهُ به من جهادِهم، وذلك سبيله لتكونَ كلمةُ اللهِ العليا، وكلمةُ الذين كفروا السُّفْلَى.

وقوله: «أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ»، يقول: هؤلاءِ الذين يفعلون ذلك هم الصادقونَ في قولهم: إنَّا مؤمنونَ، لا مَنْ دخلَ في الملةِ خوفَ السيفِ ليحقنَ دَمَهُ وماله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝١٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ»، يا محمدُ، لهؤلاءِ الأعرابِ القائلينَ آمنا ولمَّا يدخلِ الإيمانُ في قلوبهم: «أَتُعَلِّمُونَ اللهَ» أيها القومُ بدينكم، يعني بطاعتكم ربَّكم «وَاللهُ يَعْلَمُ ما فِي السَّمواتِ ومَا فِي الأَرْضِ»، يقولُ: والله الذي تعلِّمونه أنكم مؤمنونَ، عَلَّامُ جميعِ ما في السمواتِ السبعِ والأرضينَ السبعِ، لا يَخْفَى عليه منه شيءٌ، فكيف تعلمونه بدينكم، والذي أنتم عليه من الإيمانِ، وهو لا يَخْفَى عليه خافيةٌ، في سماءٍ ولا أرضٍ، فيخفى عليه ما أنتم عليه من الدين «وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ»، يقولُ: والله بكلِّ ما كانَ، وما هو كائنٌ، وبما يكونُ ذُو علمٍ. وإنما هذا تقدّم من الله إلى هؤلاءِ الأعرابِ بالنهي، من أنْ يُكَذِّبُوا ويقولوا غيرَ الذي هُمْ عليه في دِينهم. يقولُ: اللهُ محيطٌ بكلِّ شيء عالم به، فاحذروا أنْ تقولوا خِلافَ ما يعلمُ من ضمائرِ صُدورِكم، فينالكم عقوبته، فإنه لا يَخْفَى عليه شيء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: يَمُنُّ عليكَ هؤلاءِ الأعرابُ يا محمدُ أنْ أَسْلَمُوا «قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ، بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أنْ هَدَاكُمْ للإيمَانِ»، يقولُ: بل اللهُ يمن عليكم أيها القومُ أنْ وَفَّقَكُمْ للإيمانِ به وبرسولِه «إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»، يقولُ: إنْ كنتم صادقينَ في قولكم آمنا، فإن الله هو الذي مَنَّ عليكم بأنْ هداكم له، فلا تمنوا عليَّ بإسلامكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٨﴾

الحجرات: ١٨

يفول تعالى ذِكْرُه: إنَّ اللهَ أيها الأعرابُ لا يَخْفَى عليه الصادقُ منكم من الكاذب، ومَنِ الداخلُ منكم في ملةِ الإسلامِ رغبةً فيه، ومَن الداخلُ فيه رهبةً من رسولنا محمدٍ ﷺ وجنده، فلا تعلمونا دينكم وضمائر صدوركم، فإنَّ الله يعلم ما تُكِنُّهُ ضمائرُ صدوركم، وتحدِّثُونَ به أنفسكم، ويعلمُ ما غابَ عنكم، فاسْتَتَرَّ في خبايا السموات والأرضِ، لا يخفى عليه شيءٌ من ذلك. «وَاللهُ بَصِيرٌ بِمـا تَعْمَلُونَ»، يقـولُ: والله ذو بَصَـرٍ بأعمالِكم التي تعملونها، أجهراً تعملون أم سِرّاً، طاعةً تعملونَ أو معصيةً؟ وهو مُجَازِيكم على جميعِ ذلك، إنْ خيراً فخير، وإنْ شرّاً فشرٌ وكُفُؤه.

سُورَةُ قٓ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قٓ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾

اختلف أهلُ التأويل في قوله: «قٓ»، فقال بعضهم: هو اسمٌ من أسماء الله تعالى أقسم به.

وقال آخرون: هو اسمٌ من أسماءِ القرآنِ.

وقال آخرون: «قٓ» اسمُ الجبلِ المحيطِ بالأرضِ، وقد تَقَدَّمَ بيانُنا في تأويل حروفِ المعجمِ التي في أوائلِ سورِ القرآن بما فيه الكفايةُ عن إعادتِه في هذا الموضع[1].

وقوله: «وَالقُرآنِ المَجِيدِ»، يقولُ: والقرآن الكريم.

وقوله: «بَلْ عَجِبُوا أنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ ما كذَّبكَ يا محمدُ مشركو قومكَ أنْ لا يكونوا عالمينَ بأنكَ صادقٌ مُحِقٌّ، ولكنهم كذَّبوكَ تعجباً من أن جاءهم مُنْذِرٌ يُنْذِرُهم عقابَ الله منهم، يعني: بشراً منهم من بني آدم، ولم يأتهم مَلَكٌ برسالةٍ من عند الله.

---

(١) انظر أول تفسير سورة البقرة.

وقـوله: «فَقَالَ الكافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فقال المُكَذِّبُونَ باللهِ ورسولِه من قريش إذ جاءهم مُنْذِرٌ منهم «هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ»، أي: مجيءُ رجـلٍ منا من بني آدم برسالةِ اللهِ إلينا، «هَلاَّ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾

يقول القائلُ: لم يجرِ للبعثِ ذِكْرٌ، فيخبر عن هؤلاءِ القومِ بكفرهم ما دعوا إليه من ذلك، فما وجهُ الخبر عنهم بإنكارِهم ما لم يدعوا إليه، وجوابهم عما لم يُسْأَلُوا عنه؟

قيل: قد اختلفَ أهلُ العربية في ذلك، فنذكر ما قالوا في ذلك، ثم نُتبعه البيانَ إنْ شاء الله تعالى، فقال في ذلك بعض نحويِّي البصرة قال: «أئذا مِتْنا وكُنَّا تُراباً ذَلكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ»، لم يذكر أنه راجع، وذلك والله أعلم لأنه كان على جواب، كأنه قيل لهم: إنكم ترجعون، فـ«قالُوا أئِذَا متنا وكُنَّا تُراباً ذَلكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ». وقال بعض نحويِّي الكوفة قوله: «أئِذَا مِتْنا وكُنَّا تُراباً» كلام لم يظهر قبله، ما يكون هذا جواباً له، ولكن معناه مُضْمَرٌ، إنما كان والله أعلم: «قَ والقـرآن المجيد» لَتُبْعثنَّ بعـد المـوتِ، فقـالوا: أئذا كنا تراباً بُعثنا؟ جَحَدُوا البعثَ، ثم قالوا: «ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ» جحدوه أصلاً، قوله: «بَعِيدٌ» كما تقولُ للرجلِ يخطىء في المسألة، لقد ذهبتَ مذهباً بعيداً من الصواب: أي أخطأتَ.

والصوابُ من القولِ في ذلك عندنا، أنَّ في هذا الكلام متروكاً استغني بدلالـةِ ما ذُكِـرَ عليه من ذِكْـرِه، وذلـك أنَّ الله دلَّ بخبره عن تكذيبِ هؤلاءِ المشركينَ الذين ابتدأ هذه السورةَ بالخبرِ عن تكذيبهم رسولَهُ محمداً ﷺ بقوله:

«بَـلْ عَجِبُوا أنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ، فَقالَ الكافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ» على وعيدِه إياهم على تكذيبهم محمداً ﷺ، فكأنه قال لهم: إذ قالوا مُنكرينَ رسالةَ الله رسوله محمداً ﷺ «هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ» ستعلمون أيها القومُ إذا أنتم بُعِثْتُمْ يومَ القيامةِ ما يكونُ حالُكُمْ في تكذيبكم محمداً ﷺ، وإنكاركم نبوَّتَهُ، فقالوا مُجيبينَ رسولَ الله ﷺ «أئِذَا مِتْنا وكُنّا تُراباً» نعلم ذلك، ونرى ما تَعِدُنَا على تكذيبكَ «ذلكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ»: أي أن ذلك غير كائنٍ، ولسنا راجعينَ أحياءً بعد مماتنا، فاستغنى بدلالة قوله: «بَـلْ عَجِبُـوا أنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ» فقال الكافرون: «هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ» من ذِكْرِ ما ذكرتَ من الخبرِ عن وعيدهم.

وقوله: «قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الأرضَ مِنْهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قد علمنا ما تأكلُ الأرضُ من أجسامهم بعد مماتهم، وعندنا كتابٌ بما تأكلُ الأرضُ وتفني من أجسامِهم، ولهم كتابٌ مكتوبٌ مع علمنا بذلك، حافظ لذلك كله، وسَمَّاهُ الله تعالى حفيظاً، لأنه لا يدرسُ ما كُتِبَ فيه، ولا يتغيرُ ولا يتبدلُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ما أصابَ هؤلاءِ المشركونَ القائلون: «أئِذَا مِتْنا وكُنّا تُراباً ذَلِـكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ» في قِيلِهم هذا «بَلْ كَذَّبُوا بالحَقِّ»، وهو القرآنُ «لَمَّا جَاءَهُمْ» من الله.

«فَهُمْ في أمْرٍ مَرِيجٍ»، يقولُ: فهم في أمرٍ مختلطٍ عليهم ملتبسٍ، لا يعرفون حَقَّهُ من باطلِه، يقال: قد مَرَجَ أمرُ الناس إذا اختلطَ وأُهمل.

وقوله: «أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إلى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها»، يقول تعالى ذِكْرُه: أفلم يَنْظُرْ هؤلاءِ المكذِّبُونَ بالبعثِ بعد الموتِ المُنكرون قُدْرَتَنا على إحيائِهم بعد بلائِهم «إلى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْف بَنَيْناها» فَسَوَّيْناهَا سقفاً محفوظاً، وزَيَّنَّاهَا بالنجومِ «وما لَهَا مِنْ فُرُوجٍ»، يعني: وما لها من صُدُوعٍ وفُتوق.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾

وقوله: «والأَرْضَ مَدَدْناها»، يقولُ: والأرضَ بسطناها «وأَلْقَيْنا فِيها رَوَاسِيَ»، يقولُ: وجعلنا فيها جبالاً ثَوابتَ، رَسَتْ في الأرض، «وأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأنبتنا في الأرضِ من كلِّ نوعٍ من نباتٍ حَسنٍ، وهو البهيجُ.

وقوله: «تَبْصِرَةً»، يقولُ: فعلنا ذلك تبصرةً لكم أيها الناسُ بنصركم بها قُدْرَةَ ربِّكم على ما يشاء، «وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ»، يقولُ: وتذكيراً من اللهِ عظمته وسلطانه، وتنبيهاً على وحدانيته «لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ»، يقولُ: لكلِّ عبدٍ رجعَ إلى الإيمانِ باللهِ، والعملِ بطاعته.

القَوْلُ في تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَنَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً»، مطراً مباركاً، فأنبتنا به بساتينَ: أشجاراً، وحبَّ الزَّرع المحصودِ من البُرِّ والشعيرِ، وسائر أنواعِ الحبوب.

وقوله: «والنَّخْلَ باسِقاتٍ»، يقولُ: وأنبتنا بالماء الذي أنزلنا من السماءِ النخلَ طوالاً، والباسق: هو الطويل، يقال للجبل الطويل: جبل باسق.

وقوله: «لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ»، يقولُ: لهذا النخلِ الباسقات طَلْعٌ وهو الكُفُرَّى[1]، «نضيد»، يقولُ: منضودٌ بعضُه على بعضٍ متراكب.

وقوله: «رِزْقاً للْعِبادِ»، يقولُ: أنبتنا بهذا الماء، الذي أنزلناهُ من السماء هذه الجنات، والحبَّ والنخلَ قُوتاً للعبادِ، بعضها غذاءً، وبعضها فاكهةً ومتاعاً.

وقوله: «وأَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأحيينا بهذا الماء الذي أنزلناهُ من السماء بلدةً ميتاً قد أجدبتْ وقَحِطَت، فلا زرعَ فيها ولا نَبْتَ.

وقوله: «كَذَلِكَ الخُرُوجُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: كما أنبتنا بهذا الماء هذه الأرضَ الميتةَ، فأحييناها به، فأخرجنا نباتَها وزَرْعَها، كذلك نُخْرِجُكم يومَ القيامةِ أحياءً من قبوركم من بعد بلائكم فيها بما ينزل عليها من الماء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «كذَّبتْ» قبلَ هؤلاءِ المشركينَ الذين كَذَّبُوا محمداً ﷺ من قومِه «قَوْمُ نوحٍ وأَصْحابُ الرَّسِّ»، وقد مضى ذِكْرُنا قَبْلُ أمرَ أصحابِ الرسِّ[2]، وأنهم قوم رسُّوا نبيهم في بئر.

---

(١) الكُفُرَّى: وعاء الطلع وقشره الأعلى، فالطلع قبل أن يخرج من أكمامه فهو نضيد، فإذا خرج من أكمامه فليس بنضيد (انظر معاني القرآن للفراء: ٣/٧٦).

(٢) انظر تفسير الآية ٣٨ من سورة الفرقان.

«وَثَمُودُ، وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ، وَإِخْوَانُ لُوطٍ، وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ»، وهم قومُ شعيبٍ، وقد مضى خبرهم قَبْلُ.

«وَقَوْمُ تُبَّعٍ»، وكان قومُ تُبَّعٍ أهلَ أوثانٍ يعبدونها، وكان من خبرِه وخبرِ قومه: أنَّ تبعاً كان رجلاً من العربِ، وإنه ظهرَ على الناسِ، فاختار فِتيةً من الأخيارِ فاستبطنهم واستدخلهم، حتى أخذ منهم وبايعهم، وإنَّ قومه استكبَرُوا ذلكَ وقالوا: قد ترك دِينَكُمْ، وبايعَ الفِتيةَ؛ فلما فَشا ذلك، قال للفتية، فقال الفتيةُ: بيننا وبينَهم النارُ تُحْرِق الكاذبَ، وينجو منها الصادقُ، ففعلوا فَعَلَّقَ الفِتيةُ مصاحفَهُمْ في أعناقِهم، ثم غدوا إلى النارِ، فلما ذهبوا أنْ يدخلوها، سفعت النارُ في وجوههم، فنكصوا عنها، فقال لهم تُبَّع: لتدخُلُنَّها؛ فلما دخلوها أُفرجتْ عنهم حتى قَطَعُوها، وأنه قال لقومه: ادخلوها؛ فلما ذهبوا يدخلونها سفعت النارُ وجوههم، فنكصوا عنها، فقال لهم تُبَّع: لتدخلنها، فلما دخلوها أُفرجتْ عنهم، حتى إذا تَوَسَّطُوا أحاطتْ بهم، فأحرقتهم، فأسلم تُبَّعٌ، وكان تُبَّعٌ رجلاً صالحاً.

وقوله: «كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: كلُّ هؤلاءِ الذين ذكرناهم كَذَّبُوا رُسُلَ الله الذين أرسلهم «فَحَقَّ وَعِيد»، يقولُ: فَوَجَبَ لهم الوعيدُ الذي وعدناهم على كُفْرِهم بالله، وحَلَّ بهم العذابُ والنقمة. وإنما وصفَ رَبُّنا جَلَّ ثَناؤُهُ ما وصفَ في هذه الآية من إحلالِه عقوبته بهؤلاءِ المكذِّبينَ الرسلَ ترهيباً منه بذلك مشركي قريش وإعلاماً منه لهم أنهم إنْ لم يُنِيبُوا من تكذيبهم رَسُولَهُ محمداً ﷺ، أنه مُحِلٌّ بهم من العذابِ، مِثْلَ الذي أَحَلَّ بهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾

وهذا تقريعٌ من الله لمشركي قريش الذين قالوا: «أئذَا مِتْنَا وكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ»، يقول لهم جَلَّ ثَنَاؤُهُ: أَفَعَيِينَا بابتداعِ الخَلْقِ الأوَّلِ الذي خلقناه، ولم يكن شيئاً فَنَعْيَا بإعادَتِهم خَلْقاً جديداً بعد بلائِهم في التراب، وبعد فنائهم؛ يقولُ: ليس يُعْيِينَا ذلك، بل نحنُ عليه قادرونَ.

وقوله: «بَلْ هُمْ في لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما يشكُّ هؤلاءِ المشركونَ المكذِّبون بالبعث أنَّا لم نَعْيَ بالخَلْقِ الأوَّلِ، ولكنهم في شكٍّ من قُدْرَتِنَا على أنْ نخلقهم خَلْقاً جديداً بعد فنائهم، وبَلائهم في قبورهم.

وقوله: «وَلَقَدْ خَلَقْنا الإِنسانَ وَنَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد خلقنا الإِنسانَ ونعلمُ ما تُحَدِّثُ به نفسُه، فلا يَخْفَى علينا سرائرُه وضمائرُ قلبه. «ونَحْنُ أقْرَبُ إلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ»، يقولُ: ونحنُ أقربُ للإِنسانِ من حبلِ العاتق؛ والوريد: عِرْقٌ بين الحلقومِ والعلباوين، والحبلُ: هو الوريدُ، فأُضيفَ إلى نفسِه لاختلافِ لفظ اسميه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ونحنُ أقربُ إلى الإِنسانِ من وريدِ حَلْقِه، حين يَتَلَقَّى الملَكَانِ، وهما المتلقيان، «عَنِ اليَمِينِ، وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيد»، وقيل: عَنَى بالقعيد: الرَّصَد.

وقوله: «ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما يلفظُ الإِنسانُ من قولٍ فيتكلم به، إلا عندما يلفظ به من قول «رقيبٌ عَتيد»، يعني: حافظٌ يحفظُهُ، عتيدٌ مُعَدٌّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾﴾

وفي قوله: «وَجاءَتْ سَكْرَةُ المَوْتِ بالحَقّ» وجهان من التأويل، أحدهما: وجاءتْ سكرةُ الموتِ، وهي شِدَّتُه وغَلَبتُه على فَهْمِ الإنسان، كالسكرةِ من النومِ أو الشرابِ، بالحقِّ من أمرِ الآخرةِ، فَتَبَيَّنَهُ الإنسانُ حتى تَثَبَّتَهُ وعَرَفَهُ. والثاني: وجاءتْ سكرةُ الموتِ بحقيقةِ الموت.

وقوله: «ذلكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ»، يقولُ: هذه السكرةُ التي جاءتك أيها الإنسانُ بالحقِّ هو الشيء الذي كنت تهربُ منه، وعنه تروغ.

وقوله: «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذلكَ يَوْمُ الوَعِيدِ»، قد تقدّم بياننا عن معنى الصُّور[1]، وكيف النَّفخُ فيه بذكرِ اختلافِ المختلفين، والذي هو أولى الأقوالِ عندنا فيه بالصواب، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

وقـولـه: «ذلكَ يَوْمُ الوَعِيدِ»، يقولُ: هذا اليومُ الذي ينفخُ فيه هو يومُ الوعيدِ الذي وعده الله الكفارَ أنْ يُعَذِّبَهُمْ فيه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وجاءتْ يومَ يُنْفَخُ في الصور كُلُّ نفسٍ رَبَّها، معها سائقٌ يسوقُهَا إلى اللهِ، وشهيدٌ يشهدُ عليها بما عملت في الدنيا من خيرٍ أو شرّ.

---

(١) انظر تفسير الآية ٧٣ من سورة الأنعام.

وقد عُنِيَ بهذه الآيات البَرُّ والفاجرُ، لأنَّ الله أتبعَ هذه الآيات قوله: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسانَ ونَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُه»، والإنسانُ في هذا الموضع بمعنى: الناسُ كُلُّهم، غير مخصوصٍ منهم بعضٌ دونَ بعضٍ. فمعلومٌ إذا كان ذلك كذلك أنَّ معنى قوله: «وَجاءَتْ سَكْرَةُ المَوْتِ بالحَقِّ»، وجاءتك أيها الإنسانُ سكرةُ الموتِ بالحقِّ «ذلكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ»، وإذا كان ذلك كذلك كانت بَيِّنَةً صحةُ ما قلنا.

وقوله: «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا»، يقول تعالى ذِكْرُه: يُقالُ له: لقد كنتَ في غفلةٍ من هذا الذي عاينتَ اليومَ أيها الإنسانُ من الأهوالِ والشدائد «فَكَشَفْنا عَنْكَ غطاءَكَ»، يقولُ: فَجَلَّيْنَا ذلك لكَ، وأظهرناه لعينيكَ، حتى رأيتَهُ وعاينته، فزالت الغفلةُ عنك.

وقوله: «فَبَصَرُكَ اليَوْمَ حَدِيدٌ»، يقولُ: فأنتَ اليومَ نافذُ البصر، عالمٌ بما كنتَ عنه في الدنيا في غفلة، وهو من قولهم: فلان بصيرٌ بهذا الأمر: إذا كانَ ذا علمٍ به، وله بهذا الأمر بَصَرٌ: أي عِلْمٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقال قرينُ هذا الإنسانِ الذي جاء به يوم القيامة معه سائق وشهيد.

وقوله: «هَذَا ما لَدَيَّ عَتِيدٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: مخبراً عن قِيلِ قَرينِ هذا الإنسانِ عند موافاته رَبَّهُ به، ربِّ هذا ما لديَّ عتيد: يقولُ: هذا الذي هو عندي مُعَدٌّ محفوظ.

وقوله: «أَلْقِيا في جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ»، فيه متروك استغني بدلالةِ الظاهرِ

عليه منه، وهو: يقال: ألقيا في جهنمَ، أو قال تعالى: ألقيا، فأخرجَ الأمرَ للقرينِ، وهو بلفظٍ واحد مخرجَ خطابِ الاثنين. وفي ذلك وجهان من التأويل: أحدهما: أنْ يكون القرينُ بمعنى الاثنين، كالرسول، والاسم الذي يكون بلفظِ الواحدِ في الواحد، والتثنية والجمع، فردَّ قوله: «أَلْقِيا في جَهَنَّمَ» إلى المعنى. والثاني: أنْ يكون كما كان بعضُ أهلِ العربية يقول، وهو أنَّ العربَ تأمرُ الواحدَ والجماعةَ بما تأمر به الاثنين، فتقول للرجل: ويلك أرحلاها وازْجُراها[1].

«كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ»، يعني: كُلَّ جاحدٍ وحدانيةَ الله «عنيد»، وهو العامدُ عن الحقِّ وسبيلِ الهدى.

وقوله: «مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ»، أي: يمنع الخير، وهو في هذا الموضع: المال، وهو عندي كل حق وجَبَ لله، أو لآدمي في ماله.

وقوله: «مُعْتَدٍ»، يقولُ: معتدٍ على الناسِ بلسانِه بالبذاءِ والفُحْشِ في المنطقِ، وبيدِهِ بالسطوةِ والبطشِ ظلماً.

وقوله: «مُرِيبٍ»، يعني: شاكٍّ في وحدانيةِ الله وقُدْرَتِه على ما يشاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ٢٦﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: الذي أشرك بالله فعبدَ معه معبوداً أخرَ من خَلْقِه «فأَلْقِياهُ في العَذَابِ الشَّدِيدِ»، يقولُ: فألقياه في عذابِ جهنمَ الشديد.

---

(١) هذا كلام الفراء في معاني القرآن: ٣/٧٨.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ۝٢٧ قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ۝٢٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال قرينُ هذا الإنسانِ الكفَّارِ المنَّاعِ للخيرِ، وهو شيطانُه الذي كان موكلًا به في الدنيا.

وقوله: «رَبَّنا ما أطْغَيْتُهُ»، يقولُ: ما أَنَا جَعلْتُه طاغياً متعدِّياً إلى ما ليسَ له، وإنما يعني بذلك الكفرَ بالله «وَلكِنْ كانَ في ضلالٍ بَعِيدٍ»، يقولُ: ولكن كان في طريقٍ جائرٍ عن سبيلِ الهدى جوراً بعيداً. وإنما أخبر تعالى ذِكْرُه هذا الخبرَ عن قولِ قرينِ الكافرِ له يومَ القيامة، إعلاماً منه عبادَهُ، تَبَرُّأَ بعضُهم من بعضٍ يومَ القيامة.

وقوله: «لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قال الله لهؤلاءِ المشركينَ الذين وصفَ صِفَتَهُمْ، وصفةَ قُرنائِهم من الشياطين «لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ» اليومَ «وَقَدْ قَدَّمْتُ إلَيْكُمْ» في الدنيا قبل اختصامكم هذا، بالوعيدِ لمن كفرَ بي، وعصاني، وخالفَ أمري ونَهْيِي في كتبي، وعلى أَلْسُنِ رسلي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ۝٢٩ يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ۝٣٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِه للمشركينَ وقرنائهم من الجنِّ يومَ القيامةِ، إذْ تبرأ بعضُهم من بعضٍ: ما يُغَيَّرُ القولُ الذي قلته لكم في الدنيا، وهو قوله: «لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أجمَعِينَ» [هود: ١١٩، والسجدة: ١٣]، ولا قضائي الذي قضيتُه فيهم فيها.

وقوله: «وَما أنا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ»، يقولُ: ولا أنا بمعاقبٍ أحداً من خَلْقي بجرمِ غيرِه، ولا حاملٍ على أحدٍ منهم ذنبَ غيرِه فمعذِّبه به.

وقوله: «يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ»، يقولُ: وما أنا بظلامٍ للعبيد في «يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلْ امْتَلأتِ» وذلك يوم القيامة، ويومَ نقولُ من صلة ظلَّام. وقال تعالى ذِكْرُه لجهنمَ يومَ القيامة: «هَلِ امْتَلأْتِ»؟ لما سَبَقَ من وَعْدِه إياها بأنه يملؤها من الجِنَّةِ والناسِ أجمعين.

وأما قوله: «هَلْ مِنْ مَزِيدٍ» فإنَّ أهلَ التأويلِ اختلفوا في تأويله، فقال بعضهم: معناه: ما مِنْ مزيد. قالوا: وإنما يقولُ الله لها: هل امتلأتِ بعد أنْ يضعَ قدمه فيها، فينزوي بعضُها إلى بعضٍ، وتقول: قط قط، من تَضَايُقِهَا؛ فإذا قال لها وقد صارتْ كذلك: هل امتلأتِ؟ قالت حينئذٍ: «هل من مزيد»، أي ما مِنْ مزيدٍ، لشدَّةِ امتلائها، وتضايُقِ بعضِها إلى بعضٍ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: زِدْني، إنما هو هل من مزيد، بمعنى الاستزادة.

وأوْلى القولين في ذلك عندي بالصوابِ قولُ مَنْ قال: هو بمعنى الاستزادة، هل من شيء أزداده؟

وإنما قلنا ذلك أوْلى القولين بالصواب لصحةِ الخبر عن رسولِ الله ﷺ أنه قال: «احْتَجَّت الجَنَّةُ والنَّارُ، فَقالَتِ النَّارُ: يَدْخُلُنِي الجَبَّارُونَ والمُتَكبِّرُونَ؛ وَقالَتِ الجَنَّةُ: يَدْخُلُنِي الفُقَراءُ وَالمَساكِينُ؛ فَأَوْحَى اللهُ عَزَّ وجَلَّ إلى الجَنَّة: أَنْتِ رَحْمَتِي أُصِيبُ بِكِ مَنْ أشاءُ؛ وأَوْحَى إلى النَّارِ: أَنْتِ عَذَابِي أُصِيبُ بِكِ مَن أشاءُ، وَلِكُلّ وَاحِدَةٍ مِنْكُما مِلْؤُهَا؛ فأَمَّا النَّارُ فَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حتى يَضَعَ قَدَمَهُ فِيها، فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ»[1]. ففي قولِ النبيِّ ﷺ: «لا تَزَالُ جهنَّمُ

---

(١) ساق المؤلف من حديث أبي هريرة، وهـو في الصحيحين: البخـاري (٤٨٤٩) =

تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ» دليلٌ واضحٌ على أن ذلك بمعنى الاستزادةِ لا بمعنى النفي، لأنَّ قوله: «لا تزالُ» دليلٌ على اتصال قولٍ بعد قولٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝٣١ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝٣٣﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وأُزْلِفَتِ الجَنَّةُ للْمُتَّقِينَ غيرَ بَعِيدٍ»، وأُدْنِيَتِ الجنةُ وقُرِّبَتْ للذين اتقوا رَبَّهم، فخافوا عقوبتَهُ بأداءِ فرائضِه، واجتنابِ معاصيه.

وقولـه: «هَذَا ما تُوعَدُونَ»، يقولُ: قال لهم: هذا الذي تُوعَدُونَ أيها المتقون، أنْ تدخلوها وتسكنوها.

وقوله: «لِكُلِّ أوَّابٍ»، يعني: لكلِّ راجعٍ من معصية الله إلى طاعته، تائبٍ من ذنوبه.

وقوله: «حَفِيظٍ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويله، فقال بعضهم: حفظ ذنوبه حتى تاب منها.

وقال آخرون: معناه: أنه حفيظٌ على فرائضِ الله وما ائتمنه عليه.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ أنْ يقال: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه وَصَفَ هذا التائبَ الأوَّابَ بأنه حفيظٌ، ولم يخصَّ به على حفظِ نوعٍ من أنواعِ الطاعاتِ دونَ نوعٍ، فالواجبُ أنْ يَعُمَّ كما عَمَّ جَلَّ ثَنَاؤُهُ، فيقال: هو حفيظٌ لكلِّ ما قَرَّبَهُ

= و(٤٨٥٠) و(٧٤٤٩)، ومسلم (٢٨٤٦)، ومن حديث أنس. وهو في الصحيحين أيضاً: البخاري (٤٨٤٨) و(٦٦٦١) و(٧٣٨٤)، ومسلم (٢٨٤٨). وقولها ـ أعاذنا الله منها ـ قط قط: حسبي حسبي!

إلى رَبِّه من الفرائضِ والطاعاتِ والذنوبِ التي سلفَتْ منه للتوبة منها والاستغفار.

وقوله: «مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بالغَيْبِ»، يقولُ: مَنْ خاف الله في الدنيا من قبل أنْ يلقاه، فأطاعه، واتبع أمره.

وقوله: «وَجاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ»، يقولُ: وجاء الله بقلبٍ تائبٍ من ذنوبِه، راجع مما يكرههُ اللهُ إلى ما يُرْضِيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ٣٤ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ٣٥ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ٣٦﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «ادْخُلُوها بِسَلامٍ» ادخلوا هذه الجنةَ بأمانٍ من الهَمِّ والغضبِ والعذابِ، وما كنتم تَلقَوْنَهُ في الدنيا من المكارهِ.

وقوله: «ذَلِكَ يَوْمُ الخُلُودِ»، يقولُ: هذا الذي وصفتُ لكم أيها الناسُ صِفَتَهُ من إدخالي الجنةَ مَنْ أُدْخِلُه، هو يومُ دخولِ الناسِ الجنةَ، ماكثينَ فيها إلى غيرِ نهاية.

وقوله: «لَهُمْ ما يَشاؤونَ فِيها»، يقولُ: لهؤلاءِ المتقينَ ما يُريدونَ في هذه الجنة التي أُزْلِفَتْ لهم من كُلِّ ما تَشتَهيهِ نُفوسُهم، وتَلَذُّهُ عيونهم.

وقوله: «وَلَدَيْنا مَزِيدٌ»، يقولُ: وعندنا لهم على ما أعطيناهم من هذه الكرامةِ التي وصَفَ جَلَّ ثَناؤُهُ صِفَتَها مزيدٌ يزيدهم إياه. وقيل: إنَّ ذلك المَزِيدَ: النظرُ إلى الله جَلَّ ثَناؤُهُ.

وقوله: «وكمْ أهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ»، يقولُ تعالى ذِكْرُه: وكثيراً أهلكنا

قبلَ هؤلاءِ المشركينَ من قريش من القرونِ، «هُمْ أَشَدُّ» من قريشٍ الذين كذَّبُوا محمداً «بَطْشاً، فَنَقَّبُوا في البِلادِ»، يقول: فَخَرقُوا البلادَ فساروا فيها[1]، فطافوا وتوغَّلُوا إلى الأقاصي منها.

وقوله: «هَلْ مِنْ مَحِيصٍ»، يقول جَلَّ ثناؤه: فهل كان لهم بتنقبهم في البلاد مَن معدل عن الموت؛ ومَنْجى مِن الهلاك إذ جاءهم أمرنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إن في إهلاكنا القرونَ التي أهلكناها من قبلِ قريشٍ «لَذِكْرَى» يُتَذَكَّرُ بها. «لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ»، يعني: لمن كان له عقلٌ من هذه الأمةِ، فينتهي عن الفعلِ الذي كانوا يفعلونَهُ من كُفْرِهم بربِّهم، خوفاً من أنْ يحلَّ بهم مثلُ الذي حَلَّ بهم من العذاب.

وقوله: «أوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ»، يقولُ: أو أصغى لإخبارِنَا إياهُ عن هذه القرونِ التي أهلكناها بسمعه، فيسمع الخبر عنهم، كيف فَعَلْنَا بهم حين كفـروا بربِّهم، وعَصَوْا رُسُلَهُ. «وَهُوَ شَهِيدٌ»، يقولُ: وهو مُتَفَهِّمٌ لما يخبرُ به عنهم شاهدٌ له بقلبِهِ، غيرُ غافلٍ عنه ولا ساهٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝٣٨﴾

---

(١) هذا كلام الفراء في معاني القرآن: ٣/٧٩، وشَدَّدَ مُحَقِّقُه الرَّاء من «خَرَقُوا» وما أصاب.

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد خلقنا السمواتِ السبع والأرض وما بينهما من الخلائقِ في ستةِ أيام، وما مسَّنا من إعياء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: فاصبرْ يا محمدُ على ما يقولُ هؤلاءِ اليهود، وما يفترون على الله، ويكذبونَ عليه، فإنَّ الله لهم بالمرصاد «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ»، يقولُ: وصَلِّ بحمدِ رَبِّكَ صلاةَ الصبحِ قبلَ طلوعِ الشمس، وصلاةَ العصر قبل الغروب.

وقوله: «وَمِنَ اللَّيْل فَسَبِّحْهُ»، اختلف أهلُ التأويل في التسبيحِ الذي أُمِرَ به من الليلِ، فقال بعضهم: عَنَى به صلاةَ العَتَمة.

وقال آخرون: هي الصلاةُ بالليلِ في أيِّ وقتٍ صلى.

والقولُ الأخير في ذلك أقربُ إلى الصواب، وذلك أنَّ الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ قال: «وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ» فلم يَحُدَّ وقتاً من الليلِ دونَ وقتٍ. وإذا كان ذلك كذلك كان على جميعِ ساعاتِ الليل. وإذا كان الأمرُ في ذلك على ما وصفنا، فهو بأنْ يكونَ أمراً بصلاةِ المغربِ والعشاء، أشبه منه بأنْ يكون أمراً بصلاةِ العَتَمة، لأنهما يصلَّيان ليلاً.

وقوله: «وأدْبارَ السُّجُودِ»، يقولُ: سبح بحمدِ رَبِّكَ أدبارَ السجودِ من صلاتك.

واختلف أهلُ التأويل في معنى التسبيح الذي أمرَ اللهُ نبيه أنْ يسبحه أدبارَ السجودِ، فقال بعضهم: عَنَى به الصلاة، قالوا: وهما الركعتانِ اللتانِ يُصَلَّيانِ بعدَ صلاةِ المغرب.

وقال آخرون: عَنَى بقوله: «وأدْبارَ السُّجُودِ»، التسبيح في أدبارِ الصلواتِ المكتوباتِ، دونَ الصلاةِ بعدها.

وقال آخرون: هي النوافلُ في أدبارِ المكتوباتِ، وهو قول ابن زيد.

وأوْلى الأقوال في ذلك بالصحةِ، قولُ مَنْ قال: هما الركعتان بعد المغرب، لإجماع الحُجَّةِ من أهلِ التأويلِ على ذلك، ولولا ما ذكرت من إجماعها عليه، لرأيتُ أنَّ القولَ في ذلك ما قاله ابن زيد. لأنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ لم يخصصْ بذلك صلاةً دونَ صلاةٍ، بل عَمَّ أدبارَ الصلواتِ كلها، فقال: وأدبارَ السجودِ، ولم تَقُمْ بأنه معنيٌّ به: دبرَ صلاةٍ دونَ صلاةٍ، حجةٌ يجبُ التسليمُ لها من خبرٍ ولا عقلٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: واستمعْ يا محمدُ صيحةَ يومِ القيامةِ، يوم ينادي بها مُنادِينا من موضعٍ قريبٍ.

وقوله: «يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بالحَقِّ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يوم يسمع الخلائقُ صيحةَ البعثِ من القبورِ بالحقِّ، يعني بالأمرِ بالإجابةِ للهِ إلى موقفِ الحساب.

وقوله: «ذلكَ يَوْمُ الخُرُوجِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يوم خروج أهلِ القبورِ من قبورهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنا نحنُ نُحيي الموتى ونُميتُ الأحياءَ، وإلينا مصيرُ جميعِهم يومَ القيامة «يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً»، يقول جَلَّ ثناؤه: وإلينا مَصِيرُهم يومَ تَشَقَّقُ الأرضُ، فاليوم من صِلَةِ مصير.

وقوله: «تَشَقَّقُ الأَرْض عَنْهُمْ»، يقولُ: تَصَدَّعُ الأرضُ عنهم. وقوله: «سِرَاعاً» ونُصبت سراعاً على الحالِ من الهاءِ والميم في قوله: «عنهم»، والمعنى: يومَ تشقَّقُ الأرضُ عنهم فيخرجونَ منها سراعاً، فاكتفى بدلالةِ قوله: «يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ» على ذلك من ذِكْرِه.

وقوله: «ذلك حَشْرٌ عَلَيْنا يَسِيرٌ»، يقولُ: جَمْعُهم ذلك جَمْعٌ في موقفِ الحساب، علينا يسيرٌ سَهْلٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: نحنُ يا محمدُ أعلمُ بما يقولُ هؤلاءِ المشركونَ باللهِ من فِرْيَتهم على الله، وتكذِيبهم بآياته، وإنكارهم قُدرةَ الله على البعثِ بعد الموتِ «وما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ»، يقولُ: وما أنتَ عليهم بِمُسَلَّط.

وقوله: «فَذَكِّرْ بالقُرآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فَذَكِّر يا محمدُ بهذا القرآنِ الذي أنزلته إليك مَنْ يخافُ الوعيدَ الذي أوعدتُه مَنْ عصاني وخالفَ أمري.

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝٢ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ۝٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَالذَّارِياتِ ذَرْواً»، يقولُ: والرياح التي تَذْرُو الترابَ ذَرْواً، يقال: ذرت الريح الترابَ وأَذْرَتْ.

وقوله: «فالْحامِلاتِ وِقْراً»، يقولُ: فالسحاب التي تحملُ وقرها من الماء.

وقوله: «فالجارِياتِ يُسْراً»، يقولُ: فالسفن التي تجري في البحار سهلاً يسيراً، «فالمُقَسِّماتِ أمْراً»، يقولُ: فالملائكة التي تقسم أمرَ اللهِ في خلقه.

وقوله: «إنَّمَا تُوعَدُونَ لَصادِقٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذي تُوعَدُونَ أيها الناسُ من قيامِ الساعة، وبعثِ الموتى من قبورهم «الصادقُ»، يقولُ: لكائنٌ حقٌّ يقين.

«وَإنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ»، يقولُ: وإنَّ الحسابَ والثوابَ والعقابَ لواجبٌ، والله مُجازٍ عبادَهُ بأعمالهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والسماء ذاتِ الخَلْق الحَسَن، وعنى بقوله: «ذَاتِ الحُبُكِ»: ذات الطرائق، وتكسيرُ كُلِّ شيءٍ: حُبُكُه، وهو جمع حِباكٍ وحَبيكة[1].

وقوله: «إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ»، يقولُ: إنكم أيها الناسُ لفي قولٍ مختلفٍ في هذا القرآن، فمن مُصَدِّقٍ به ومُكَذِّب.

وقوله: «يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ»، يقولُ: يصرف عن الإيمانِ بهذا القرآنِ مَنْ صرف، ويدفع عنه من يُدْفع، فيُحْرَمه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ ۝١١ يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٢ يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ۝١٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لُعِنَ المُتَكَهِّنُونَ الذينَ يَتَخَرَّصُونَ الكذبَ والباطلَ فيَتَظَنَّنُونَهُ.

وقوله: «الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ ساهُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: الذين هم في غمرةِ الضلالةِ وغَلَبتها عليهم متمادون، وعن الحقِّ الذي بعثَ الله به محمداً ﷺ ساهون، قد لَهُوا عنه.

وقـولـه: «يَسـأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ؟»، يقول تعالى ذِكْرُه: يسأل هؤلاءِ الخرَّاصُونَ الذين وصف صِفَتهم: متى يوم المجازاة والحساب، ويوم يُدِينُ الله العبادَ بأعمالهم.

---

(١) القول بأنها ذات الخَلْق الحسن، هو قول المفسرين منهم ابن عباس وقتادة. والقول بأنها ذات الطرائق هو تفسير اللغويين، وكل هذه الأقوال ترجـع إلـى شيء واحد وهو الحُسْنُ والبهاء. قال ابن كثير: فإنها من حُسْنِهَا مرتفعة شفافة صفيقة شديدة البنـاء، متسعـة الأرجـاء، أنيقة البهاء، مُكللة بالنجوم الثوابت والسيارات، موشحة بالشمس والقمر والكواكب الزاهرات.

وقوله: «يَوْمَ هُمْ على النَّارِ يُفْتَنُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يومَ هُمْ على نارِ جهنمَ يُفْتَنُونَ.

واختلف أهلُ التأويل في معنى قوله: «يُفْتَنُونَ» في هذا الموضع، فقال بعضهم: عنى به أنهم يعذّبون بالإحراقِ بالنار.

وقال آخرون: بل عنى بذلك: أنهم يكذبون.

وأوْلى القولين بالصوابِ في تأويلِ قوله: «يَوْمَ هُمْ عَلى النَّارِ يُفْتَنُونَ» قولُ مَنْ قال: يُعَـذَّبُونَ بالإحراقِ، لأنَّ الفتنةَ أصلها الاختبار، وإنما يقال: فتنت الذهب بالنار: إذا طبختها بها لتعرف جودتها، فكذلك قوله: «يَوْمَ هُمْ عَلى النَّارِ يُفْتَنُونَ» يُحْرَقُونَ بها كما يُحْرَقُ الذهبُ بها.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه بقوله: «ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ»، يقال لهم: ذُوقُوا فتنتكم وترَكَ: يقال لهم، لدلالةِ الكلام عليها.

ويعني بقوله: «فِتْنَتَكُمْ»: عذابكم وحريقكم.

وقوله: «هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يقال لهم: هذا العذابُ الذي تُوَفَّوْنَهُ اليومَ، هو العذابُ الذي كنتم به تستعجلون في الدنيا.

وقوله: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين اتقوا

الله بطاعته، واجتناب معاصيه في الدنيا في بساتينَ وعيونِ ماءٍ في الآخرة.

وقوله: «آخِذِينَ ما آتاهُمْ رَبُّهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: عاملينَ ما أمَرَهُمْ به رَبُّهم مؤدِّينَ فرائضه.

وقوله: «إنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلكَ مُحْسِنِينَ»، يقولُ: إنهم كانوا قبلَ أنْ يفرضَ عليهم الفرائض محسنينَ، يقولُ: كانوا لله قبلَ ذلك مُطِيعينَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تعَالَى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝١٩﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «كانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ»، قال بعضهم: معناه كانوا قليلاً من الليل لا يهجعون، وقالوا: «ما» بمعنى الجحد.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: كانوا قليلاً من الليل يهجعون، ووجهوا «ما» ـ التي في قوله: «ما يَهْجَعُونَ» إلى أنها صِلَة.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: كانوا يُصَلُّونَ العَتَمة، وعلى هذا التأويل «ما» ـ في معنى الجحد.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: كانوا هؤلاء المحسنونَ قبلَ أنْ تُفرضَ عليهم الفرائضُ قليلاً من الناسِ، وقالوا الكلام بعد قوله: «إنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلكَ مُحْسِنِين» كانوا قليلاً مستأنفٌ بقوله: «مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ» فالواجبُ أن تكون «ما» على هذا التأويلِ بمعنى الجحد.

وأما قوله: «يَهْجَعُونَ»، فإنه يعني: ينامونَ، والهجوعُ: النوم.

وأَوْلى الأقوالِ بالصحةِ في تأويل قوله: «كانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ ما

يَهْجَعُون»، قولُ مَنْ قال: كانوا قليلاً من الليل هُجُوعُهم، لأنَّ الله تبارك وتعالى وصَفَهم بذلك مَدْحاً لهم، وأثنى عليهم به، فوصفهم بكثرةِ العملِ، وسهر الليلِ، ومكابدته فيما يُقَرِّبُهم منه ويُرْضِيه عنهم أوْلى وأشبه من وَصْفِهم من قلةِ العملِ، وكثرةِ النومِ، مع أنَّ الذي اخترنا في ذلك هو أغلب المعاني على ظاهرِ التنزيل.

وقـوله: «وَبالأسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويله: فقال بعضهم: معناه: وبالأسحارِ يُصَلُّون.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك أنهم أَخَّرُوا الاستغفارَ من ذنوبهم إلى السحر.

وقوله: «وفِي أمْوَالِهِمْ حَقٌّ للسَّائِلِ والمَحْرُومِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وفي أموالِ هؤلاءِ المحسنينَ الذي وَصَفَ صِفَتَهُمْ حقٌّ لسائِلهم المحتاج إلى ما في أيدِيهم والمحروم.

وبنحو الذي قلنا في معنى السائل، قال أهلُ التأويل، وهم في معنى المحرومِ مختلفونَ، فمن قائلٍ: هو المحارَفُ الذي ليس له في الإسلامِ سهم.

ومن قائل: هو المُتَعَفِّفُ الذي لا يسأل الناس شيئاً.

وقائل: هو الذي لا سهمَ له في الغنيمة.

وقائل: هو الذي لا يَنْمي له مالٌ.

وقائل: هو الذي قد ذهب ثمره وزرعه.

والصوابُ من القولِ في ذلك عندي أنه الذي قد حُرِمَ الرزقَ واحتاجَ، وقد يكون ذلك بذهابِ ماله وثمره، فصار ممن حرمه الله ذلك، وقد يكون بسبب تَعَفُّفِه وتركِه المسألةَ، ويكون بأنه لا سهم له في الغنيمة لغيبته عن الوقعة، فلا

قولَ في ذلك أوْلى بالصوابِ من أنْ تعمَّ، كما قال جَلَّ ثَناؤُهُ: «وفي أمْوَالِهِمْ حَقٌّ للسَّائِلِ وَالمَحْرُومِ»(١)

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٢١ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وفي الأرضِ عِبَرٌ وعِظَاتٌ لأهلِ اليقينِ بحقيقةِ ما عايَنُوا ورأوا إذا ساروا فيها.

وقـوله: «وفي أنْفُسِكُمْ أفَلا تُبْصِرُونَ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: وفي سبيلِ الخلاءِ والبولِ في أنفسكم عِبرةٌ لكم، ودليلٌ لكم على رَبِّكم، أفلا تُبصرونَ إلى ذلك منكم.

وقـال آخـرون: بل معنى ذلك: وفي تسويةِ الله تباركَ وتعالى مفاصلَ أبدانِكم وجوارحكم دلالةٌ لكم على أنْ خُلِقْتُمْ لعبادته.

والصوابُ من القولِ في ذلك أن يقال: معنى ذلك: وفي أنفسكم أيضاً أيها الناسُ آياتٌ وعِبرٌ تَدُلُّكم على وحدانيةِ صانِعكم، وأنه لا إلهَ لكم سِواهُ، إذْ كان لا شيء يقدرُ على أنْ يخلقَ مِثْلَ خَلْقِه إياكم «أفلا تُبْصِرُونَ»، يقولُ: أفلا تنظرونَ في ذلك فتتفكَّرُوا فيه، فتعلموا حقيقةَ وحدانيةِ خالِقِكم.

وقوله: «وفي السَّماءِ رِزْقُكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: «وفي السماء» المطرُ

---

(١) رجَّح ابن الجوزي أنَّ المحروم هو المتعفف، وقال: «لأنه قَرَنَهُ بالسائل، والمتعفف لا يسأل ـ ولا يكاد الناسُ يعطونَ مَنْ لا يسأل ـ ثم يتحفظ بالتعفف من ظهور أثر الفاقة عليه، فيكون محروماً من قِبَلِ نفسه حين لم يسأل، ومن قِبَلِ الناس حين لا يعطونه، وإنما يفطنُ له متيقظ» (أنظر: زاد المسير: ٨/٣٣). وهذا كلام جيد.

والثلجُ اللذان بهما تُخْرِجُ الأرضَ رِزْقَكُمْ، وقُوتَكم من الطعامِ والثمارِ وغير ذلك.

واختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «وَما تُوعَدُونَ»، فقالَ بعضهم: معنى ذلك: وما تُوعَدُونَ من خيرٍ، أو شرّ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وما تُوعدون من الجنةِ والنار.

وأوْلى القولين بالصوابِ في ذلك عندي، القولُ الأول، لأنَّ اللهَ عَمَّ الخبرَ بقوله: «وَما تُوعَدُونَ» عن كلِّ ما وعدنا من خيرٍ أو شرٍّ، ولم يُخَصِّصْ بذلك بعضاً دونَ بعضٍ، فهو على عمومهِ كما عَمَّهُ اللهُ جلّ ثناؤه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مُقْسِماً لخلْقِه بنفسِه: فوربِّ السماءِ والأرض، إنَّ الذي قلتُ لكم أيها الناسُ: إنَّ في السماء رزقُكم وما تُوعدونَ لحقٌّ، كما حقٌّ أنكم تَنْطِقُون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ، يخبره أنه مُحِلٌّ بمن تمادى في غيِّهِ، وأصرَّ على كُفْره، فلم يَتُبْ منه من كفارِ قومه، ما أحلَّ بمن قَبْلَهم من الأممِ الخالية، ومُذَكِّراً قومَهُ من قريشٍ بإخبارِه إياهم أخبارَهُمْ وقَصَصَهُمْ، وما فعلَ

بهم، هل أتاك يا محمدُ حديث ضيفِ إبراهيمَ خليلِ الرحمن المكرمين.

يعني بقوله: «المُكْرَمِينَ» أنَّ إبراهيمَ عليه السلام وسارّة خَدَمَاهم بأنفسهما.

وقوله: «إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ»، يقولُ: حين دخل ضيفُ إبراهيمَ عليه، فقالوا له سلاماً: أي أسلموا إسلاماً، قال: سلام.

وقوله: «قَوْمٌ مُنْكَرُونَ»، يقولُ: قومٌ لا نَعْرِفُكم، ورفع «قوم منكرون» باضمارِ أنتم.

وقوله: «فَرَاغَ إلى أَهْلِهِ»، يقولُ: عَدَلَ إلى أهله ورَجَعَ. وكان الفرَّاءُ يقول[1]: الروغُ وإنْ كان على هذا المعنى فإنه لا يُنْطَقُ به حتى يكون صاحبه مُخْفِياً ذهابه أو مجيئه، وقال: ألا ترى أنكَ تقولُ: قد راغَ أهلُ مكة وأنتَ تريدُ رجعوا أو صدروا، فلو أخفى راجعٌ رجوعَهُ حَسُنَتْ فيه راغَ ويروغُ.

وقوله: «فَجاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ»، يقولُ: فجاء ضيفَه بعجلٍ سمينٍ قد أنضجه شَيّاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ۝٢٧ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ۝٢٨ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ۝٢٩﴾

وقوله: «فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ، قالَ ألا تَأْكُلُونَ؟»، وفي الكلام متروك استُغني بدلالةِ الظاهرِ عليه منه وهو: فقرَّبَهُ إليهم، فأمسكوا عن أكْلِه، فقال: ألا تأكلونَ؟ «فأوجَسَ منهم»، يقولُ: فأوجسَ في نفسِه إبراهيمُ من ضيفِه خِيفةً

---

(١) معاني القرآن: ٣/٨٦.

وأضمرها. «قالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بغُلامٍ عَلِيمٍ»، يعني: بإسحاقَ، وقال: «عليم» بمعنى عالم إذا كبر.

وإنما قلت: عَنَى به إسحاق، لأنَّ البشارةَ كانت بالولد من سارَّة، وإسماعيل لهاجرَ لا لسارّة.

قوله: «فأقْبَلَتِ امرأتُهُ في صَرَّةٍ»، يعني: سارّة، وليس ذلك إقبال نقلةٍ من موضعٍ إلى موضعٍ، ولا تَحوُّلٍ من مكانٍ إلى مكانٍ، وإنما هو كقولِ القائلِ: أقبل يشتمني، بمعنى: أخذ في شتمي. وقوله «في صَرَّةٍ» يعني: في صَيْحَةٍ.

وقوله: «فَصَكَّتْ وَجْهَها» اختلف أهل التأويلِ في معنى صكها، والموضع الذي ضربته من وجهها فقال بعضهم: معنى صَكِّها وَجْهَهَا: لَطْمِها إياه.

وقال آخرون: بل ضَرَبَتْ بيدها جَبْهَتَها تعجباً.

والصكُّ عند العربِ: هو الضربُ. وقد قيل: إنْ صَكَّهَا وَجْهَهَا، أنْ جَمَعَتْ أصابعها، فضربتْ بها جَبْهَتَها «وَقالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ»، يقولُ: وقالت: أَتَلِدُ، وحُذِفَتْ أَتَلِدُ لدلالةِ الكلامِ عليه، وبضمير أَتَلِدُ رُفِعَتْ عجوزٌ عقيمٌ، وعنى بالعقيم: التي لا تَلِدُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ ضيفِ إبراهيمَ لزوجتِه إذْ قالت لهم، وقد بَشَّرُوها بغلامٍ عليم: أَتَلِدُ عجوزٌ عقيم. «قالُوا كَذلِكِ قالَ رَبُّكِ»، يقولُ: «هكذا قال رَبُّكِ»، أي كما أخبرناكِ وقلنا لكِ: «إنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ العَلِيمُ» والهاء في قوله: «إنه» من ذكر الربِّ، «هو الحكيم» في تدبيره خَلْقَهُ، «العليم» بمصالحِهم، وبما كان، وبما هو كائن.

وقوله: «قَال فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّها المُرْسَلُونَ»، يقولُ: قال إبراهيمُ لضيفه: فما شأنكم أيها المُرْسَلُونَ. «قالُوا إنَّا أُرْسِلْنا إلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ» قد أجرموا لِكُفْرِهم باللهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝٣٣ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ۝٣٤ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥﴾

«لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِينٍ»، يقولُ: لنمطرَ عليهم من السماءِ حجارةً من طينٍ «مُسَوَّمَةً»، ـ يعني: مُعَلَّمة ـ «عند ربك» يا إبراهيمُ «للمُسْرفين»، يعني: للمتعدِّينَ حدودَ الله، الكافرينَ به من قوم لوط.

«فأخرَجْنا مَنْ كانَ فيها مِنَ المُؤْمِنِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فأخرجنا مَنْ كان في قرية سَدُوم، قرية قوم لوطٍ من أهلِ الإيمانِ باللهِ وهُمْ لوطٌ وابنتاهُ، وكَنَّى عن القريةِ بقوله: «مَنْ كانَ فيها» ولم يَجْرِ لها ذكرٌ قبل ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ۝٣٦ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۝٣٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فما وجدنا في تلك القريةِ التي أخرجنا منها مَنْ كان فيها من المؤمنينَ غيرَ بيتٍ من المسلمينَ، وهو بيتُ لوط.

وقوله: «وَتَرَكْنافِيهَا آيَةً لِلَّذينَ يَخافُونَ العَذَابَ الأَلِيمَ»، يقولُ: وتركنا في هذه القريةِ التي أخرجنا مَنْ كان فيها من المؤمنينَ آيةً، وقال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «وتَرَكْنا فِيها آيَةً»، والمعنَى: وتركناها آيةً لأنها التي ائْتُفِكَتْ بأهلِها، فهي الآية، وذلك كقولِ القائل: ترى في هذا الشيء عبرةً وآيةً؛ ومعناها: هذا الشيءُ آيةٌ وعبرة، كما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «لَقَدْ كانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آياتٌ للسَّائِلِينَ» [يوسف: ٧]

وهم كانوا الآيات وفعلهم، ويعني بالآية: العظة والعبرة، للذين يخافونَ عذابَ اللهِ الأليمَ في الآخرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وفي موسى بن عمران إذْ أرسلناهُ إلى فرعونَ بحجةٍ تبينُ لِمَنْ رآها أنها حجةٌ لموسى على حقيقةِ ما يقولُ ويدعو إليه.

وقوله: «فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ»، يقولُ: فأدبرَ فرعونُ كما أرسلنا إليه موسى بقومِه من جُنْدِه وأصحابه.

وقوله: «وَقَالَ ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ»، يقولُ: وقال لموسى: هو ساحرٌ يسحرُ عيونَ الناسِ، أو مجنونٌ، به جنَّة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فأخذنا فرعونَ وجنودَهُ بالغضبِ منا والأسف «فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ»، يقولُ: فألقيناهم في البحر، فَغَرَّقْناهُمْ فيه: «وَهُوَ مُلِيمٌ»، يقولُ: وفرعونُ مليمٌ، والمليمُ: هو الذي قد أتى ما يُلامُ عليه من الفعل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وفِي عادٍ» أيضاً، وما فعلنا بهم لهم آية وعبرة «إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ العَقِيمَ»، يعني بالريحِ العقيم: التي لا تلقحُ الشجرَ.

وقوله: «ما تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إلاَّ جَعَلَتْهُ كالرَّمِيمِ» والرميمُ في كلام العرب: ما يَبِسَ من نباتِ الأرضِ ودِيْسَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وفي ثمود أيضاً لهم عبرةٌ ومُتَّعَظٌ، إذْ قال لهم رَبُّهم، يقولُ: فَتَكَبَّرُوا عن أمرِ رَبِّهم وعلَوْا استكباراً عن طاعةِ الله.

وقوله: «فأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فأخذتهم صاعقةُ العذابِ فجأة، «وهم يَنْظرون»، يقولُ: ينتظرون حُلُولَهُ بهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فما استطاعوا من دفاعٍ لما نزلَ بهم من عذابِ الله، ولا قدروا على نهوضٍ به.

وقوله: «وَما كانُوا مُنتَصِرينَ»، يقولُ: وما كانوا قادرينَ على أنْ يَسْتَفِيدُوا مِمَّنْ أحَلَّ بهم العقوبةَ التي حَلَّتْ بهم.

وقوله: «وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ»، اختلفت القَرَأَةُ في قراءةِ قولِه: «وقَوْم نُوحٍ» نصباً، ولنصب ذلك وجوهٌ: أحدها: أنْ يكونَ القومُ عطفاً على الهاء والميم في قوله: «فأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ» إذْ كان كلُّ عذابٍ مُهْلِكٍ تُسميه العربُ صاعقة، فيكون معنى الكلام حينئذٍ: فأخذتهم الصاعقةُ وأخذتْ قومَ نوحٍ من قَبْلُ. والثاني: أن يكون منصوباً بمعنى الكلام، إذْ كان فيما مضى

من أخبارِ الأممِ قبلُ دلالةٌ على المرادِ من الكلامِ، وأنَّ معناهُ: أهلكنا هذه الأممَ، وأهلكنا قومَ نوحٍ من قَبْلُ. والثالث: أن يضمر له فعلاً ناصباً، فيكون معنى الكلام: واذكُرْ لهم قومَ نوحٍ، كما قال: «وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ» ونحو ذلك، بمعنى أَخْبِرْهُمْ واذْكُرْ لهم.

وقرأ ذلك عامة قَرَأة الكوفة والبصرة «وَقَوْمِ نُوحٍ» بخفضِ القومِ على معنى: وفي قومِ نوح عطفاً بالقومِ على موسى في قوله: «وفي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْناهُ إلى فِرْعَوْنَ».

والصوابُ من القولِ في ذلك أنهما قراءتان معروفتان في قرأةِ الأمصار، فبأيتهما قرأ القارىءُ فمصيبٌ، وتأويلُ ذلك في قراءة مَنْ قرأه خفضاً: وفي قومِ نوحٍ لهم أيضاً عبرةٌ، إذْ أهلكناهم من قبل ثمود لما كَذَّبُوا رسولَنَا نوحاً.

«إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ»، يقولُ: إنهم كانوا مخالفينَ أمرَ الله، خارجينَ عن طاعته.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والسماءَ رفعناها سقفاً بقوّةٍ.

وقوله: «وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ»، يقولُ: لذو سعةٍ بخلقِها وخلقِ ما شِئْنَا أنْ نَخْلقَهُ وقدرةٍ عليه. ومنه قوله: «على المُوسعِ قَدَرُهُ وعلى المُقْتِرِ قَدَرُهُ» [البقرة: ٢٣٦] يراد به القويّ.

وقوله: «والأَرْضَ فَرَشْناها»، يقول تعالى ذِكْرُه: والأرضَ جعلناها فراشاً للخَلْقِ «فَنِعْمَ المَاهِدُونَ» يقولُ: فنعم الماهدونَ لهم نحنُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وخلقنا من كلِّ شيءٍ خلقنا زوجين، وتَرَكَ خَلَقْنَا الأُولى استغناءً بدلالةِ الكلامِ عليها.

واختُلف في معنى: «خَلَقْنا زَوْجَيْنِ»، فقال بعضهم: عَنَى به: ومِنْ كُلِّ شيءٍ خلقنا نوعين مختلفين كالشقاءِ والسعادةِ والهدى والضلالة، ونحو ذلك.

وقال آخرون: عَنَى بالزوجين: الذكرَ والأنثى.

وأَوْلى القولين في ذلك القول الأول، وهو أنَّ الله تبارك وتعالى، خَلَقَ لكلِّ ما خَلَقَ من خَلْقِه ثانياً له مُخَالِفاً في معناه، فكلُّ واحدٍ منهما زوجٌ للآخر، ولذلك قيل: خلقنا زوجين. وإنما نَبَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بذلك من قوله: خَلَقَهُ، على قُدْرَتِه على خَلْقِ ما يشاءُ خَلْقَهُ من شيءٍ، وأنه ليس كالأشياءِ التي شأنها فعل نوعٍ واحدٍ دونَ خلافِه، إذ كلُّ ما صِفَتُه فِعْلُ نوعٍ واحدٍ دونَ ما عَدَاهُ كالنارِ التي شأنها التسخينُ، ولا تَصْلُحُ للتبريد، وكالثلجِ الذي شأنُه التبريدُ، ولا يصلحُ للتسخينِ، فلا يجوزُ أنْ يُوصَفَ بالكمالِ، وإنما كمالُ المدحِ للقادرِ على فعلِ كُلِّ ما شاء فِعْلَه من الأشياء المختلفةِ والمُتَّفِقَةِ.

وقوله: «لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ»، يقولُ: لتذكروا وتَعْتَبِرُوا بذلك، فَتَعْلَمُوا أيها المشركونَ باللهِ أنَّ رَبَّكم الذي يستوجبُ عليكم العبادةَ هو الذي يقدرُ على خلقِ الشيءِ وخِلافِه، وابتداعِ زوجينِ من كلِّ شيءٍ لا ما لا يقدرُ على ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فاهربوا أيها الناسُ من عقابِ الله إلى رحمتِه بالإيمانِ به، واتباعِ أمره، والعمل بطاعتِه «إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ»، يقولُ: إني لكم من اللهِ نذيرٌ أُنْذِرُكم عقابَهُ، وأُخَوِّفُكُمْ عذابَهُ الذي أَحَلَّهُ بهؤلاءِ الأممِ الذين قَصَّ عليكم قَصَصَهُمْ، والذي هو مُذِيقُهم في الآخرة.

وقوله: «مُبِينٌ»، يقولُ: يبينُ لكم نذارته.

وقوله: «وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ»، يقول جَلَّ ثناؤه: ولا تجعلوا أيها الناسُ مع معبودِكم الذي خلقكم معبوداً آخرَ سِواهُ، فإنه لا معبودَ تصلحُ له العبادةُ غيره «إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ»، يقولُ: إني لكم أيها الناسُ نذيرٌ من عقابِهِ على عبادَتِكُمْ إلهاً غيرَهُ: مبينٌ قد أبانَ لكم النذارة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ۝٥٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: كما كَذَّبَتْ قريش نَبِيَّهَا محمداً ﷺ، وقالت: هو شاعرٌ، أو ساحرٌ أو مجنونٌ، كذلك فعلت الأممُ المكذِّبةُ رُسُلَها، الذين أَحَلَّ اللهُ بهم نِقْمَتَهُ، كقومِ نوحٍ وعادٍ وثمود، وفرعون وقومه، ما أتى هؤلاءِ القوم الذين ذكرناهم من قبلهم، يعني من قبلِ قريشٍ قومِ محمدٍ ﷺ «مِنْ رسولٍ إلا قالوا: ساحرٌ أو مجنون»، كما قالت قريشٌ لمحمدٍ ﷺ.

وقوله: «أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أَأَوْصَى هؤلاءِ المُكَذِّبينَ - من قريش محمداً ﷺ على ما جاءهم به من الحقِّ - أوائلُهم وآباؤهم الماضونَ مِنْ قَبْلِهِمْ، بتكذيبِ محمدٍ ﷺ، فَقَبِلُوا ذلكَ عنهم.

وقوله: «بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما أوصى هؤلاءِ المشركونَ آخرهم بذلك، ولكنهم قومٌ مُتَعَدُّونَ طُغاةٌ عن أمرِ رَبِّهم، لا يأتمرون

لأمرِه، ولا ينتهونَ عما نهاهم عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ۝٥٤ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ، فَتَوَلَّ يا محمدُ عن هؤلاءِ المشركينَ باللهِ من قريش، يقول: فأَعْرِضْ عنهم حتى يأتيكَ فيهم أمرُ الله، يقال: ولَّى فلانٌ عن فلان: إذا أعرضَ عنه وتركه.

وقوله: «فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ»، يقول جَلَّ ثناؤه: فما أنتَ يا محمدُ بمَلُومٍ، لا يلومُكَ رَبُّكَ على تفريطٍ كان منكَ في الإنذار فقد أنذرتَ، وبَلَّغْتَ ما أُرْسِلْتَ به.

وقوله: «وَذَكِّرْ فإنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ المُؤْمِنِينَ، يقولُ: وعِظْ يا محمدُ، مَنْ أُرْسِلْتَ إليه، فإنَّ العِظَةَ تنفع أهلَ الإيمانِ باللهِ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧﴾

اختلف أهـلُ التـأويل في تأويل قولـه: «وَما خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إلَّا لِيَعْبُدُونِ»، فقال بعضهم: معنى ذلك: وما خلقتُ السُّعداءَ من الجِنِّ والإنسِ إلا لعبادتي، والأشقياء منهم لمعصيتي.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وما خلقتُ الجنَّ والإنس إلا ليُذْعِنُوا لي بالعُبودةِ.

وأَوْلى القـولين في ذلـك بالصوابِ قولُ من قال هو: ما خلقتُ الجنَّ

والإنسَ إلا لعبادتنا، والتذللِ لأمرنا.

فإنْ قال قائل: فكيف كفروا وقد خلقهم للتذللِ لأمره؟ قيل: إنهم قد تَذَلَّلوا لقضائِه الذي قضاه عليهم، لأن قضاءَهُ جارٍ عليهم، لا يقدرونَ من الامتناع منه إذا نزلَ بهم، وإنما خالفه مَنْ كفرَ به في العملِ بما أمرَهُ به، فأما التذللُ لقضائِه فإنه غير ممتنعٍ منه.

وقوله: «ما أُريدَ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما أُرِيدُ ممن خلقتُ من الجنِّ والإنسِ من رزقٍ يرزقونه خَلْقي «وَما أُرِيدُ أنْ يُطْعِمُونِ»، يقولُ: وما أُريدُ منهم من قُوتٍ أنْ يقوتُوهم، ومن طعامٍ أن يطعموهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الله هو الرزَّاقُ خَلْقَهُ، المتكفِّلُ بأقواتِهم، «ذو القوّة المتين»، يعني بالمتين: الشديد.

وقوله: «فإنَّ للذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوب أصحَابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فإنَّ للذينَ أشركوا باللهِ من قريشٍ وغيرِهم ذَنُوباً، وهي الدَّلْوُ العظيمةُ، وهو السجلُ أيضاً إذا مُلِئتْ أو قاربت الملءَ، وإنما أُريدَ بالذَّنُوب في هذا الموضع: الحظُّ والنصيب.

ومعنى الكلام: فإنَّ للذين ظلموا من عذابِ الله نصيباً وحظاً نازلاً بهم، مثل نصيب أصحابهم الذين مضوا من قَبْلِهم من الأممِ، على منهاجِهم من العذابِ، فلا يستعجلونَ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى

يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فالوادي السائلُ في جهنمَ من قَيْحٍ وصديدٍ للذينَ كَفَرُوا باللهِ وجَحَدُوا وحدانيتَهُ «من يومهم الذين يُوعدون» فيه نزولَ عذابِ الله إذا نزلَ بهم ماذا يَلْقَوْنَ فيه من البلاءِ والجَهْدِ.

سُورَةُ الطُّورِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «والطُّورِ»: والجبلِ الذي يُدعى الطور.

وقوله: «وكِتابٍ مَسْطُورٍ»، يقولُ: وكتابٍ مكتوبٍ.

وقوله: «في رَقٍّ مَنْشُورٍ»، يقولُ: في ورقٍ منشور.

وقوله: «في» من صلة مسطور، ومعنى الكلام: وكتابٍ سطر، وكُتِبَ في ورقٍ منشور.

وقوله: «وَالبَيْتِ المَعْمُورِ»، يقولُ: والبيتِ الذي يعمرُ بكثرةِ غاشيتهِ وهو بيتٌ فيما ذُكِرَ في السماء بحيالِ الكعبةِ من الأرض، يدخلُه كلَّ يومٍ سبعونَ ألفاً من الملائكة، ثم لا يعودون فيه أبداً.

وقوله: «وَالسَّقْفِ المَرْفُوعِ»، يعني بالسقف في هذا الموضع: السماء، وجعلها سقفاً، لأنها سماء للأرضِ، كسماءِ البيتِ الذي هو سقفه.

وقوله: «وَالبَحْرِ المَسْجُورِ»، اختلف أهلُ التأويل في معنى البحر المسجور، فقال بعضهم: الموقد، وتأوَّلَ ذلك: والبحرِ الموقد المَحْمِيِّ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وإذا البحارُ مُلِئَتْ، وقال: المسجور: المملوء.

وقال آخرون: بل المسجور: الذي قد ذَهَبَ ماؤه.

وقال آخرون: المسجورُ: المحبوسُ.

وأوْلى الأقوال في ذلك عندي بالصوابِ قولُ مَنْ قال: معناه: والبحرِ المملوءِ المجموعِ ماؤه بعضُه في بعضٍ، وذلك أنَّ الأغلب من معاني السجر: الإيقاد، كما يقال: سجرتُ التنورَ، بمعنى: أوقدتُ، أو الامتلاء على ما وصفت.

فإذا كان ذلك الأغلب من معاني السَّجْرِ، وكان البحرُ غير مُوقَدٍ اليوم، وكان الله تعالى ذِكْرُه قد وصفه بأنه مسجورٌ، فبطل عنه إحدى الصفتين، وهو الإيقاد صَحَّت الصفةُ الأخرى التي هي له اليوم، وهو الامتلاء، لأنه كلَّ وقتٍ ممتليء.

وقوله: «إنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «إنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ» يا محمدُ، لكائنٌ حالٌّ بالكافرينَ به يومَ القيامة.

وقوله: «ما لَهُ من دَافِعٍ»، يقولُ: ما لذلكَ العذابِ الواقعِ بالكافرينَ من دافعٍ يدفعُه عنهم، فينقذهم منه إذا وقع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ عَذابَ رَبِّكَ لواقعٌ «يَوْمَ تَمُورُ السَّماءُ مَوْراً» فيومَ مِنْ صِلَةِ واقعٍ، ويعني بقوله: «تمور»، تدور وتكفأ.

وقـولـه: «وَتَسِيرُ الجبـالُ سَيْراً»، يقولُ: وتسيرُ الجبالُ عن أماكنها من الأرضِ سيراً، فتصيرُ هباءً مُنْبَثّاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فالوادي الذي يسيلُ من قَيْحٍ وصَديدٍ في جهنم، يومَ تمورُ السماءُ موراً، وذلك يوم القيامةِ للمُكَذِّبينَ بوقوعِ عذابِ اللهِ للكافرينَ، يوم تمورُ السماء مَوْراً.

وقـولـه: «الَّـذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ»، يقولُ: الذينَ هُمْ في فتنةٍ واختلاطٍ في الدنيا يلعبون، غافلينَ عما هُمْ صائرونَ إليه من عذابِ الله في الآخرة.

وقـولـه: «يَوْمَ يُدَعُّـونَ إلى نارِ جَهَنَّمَ دَعّـاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: فويلٌ للمكذِّبينَ يومَ يُدَعُّونَ، وعَنَى بقوله: «يُدَعُّونَ» يدفعون بإرهاقٍ وإزعاجٍ، يقال منه: دَعَعْت في قفاه: إذا دفعت فيه.

وقوله: «هَذِهِ النَّارُ التي كُنْتُمْ بها تُكَذِّبُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يقال لهم: هذه النارُ التي كنتم بها في الدنيا تُكَذِّبُونَ، فتجحدونَ أنْ تردوها، وتصلوها، أو يعاقبكم بها رَبُّكم، وتَرَكَ ذِكْرَ: يُقال لهم، اجتزاءً بدلالةِ الكلامِ عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عما يُقالُ لهؤلاءِ المكذِّبينَ الذين وَصَفَ صِفتَهُمْ إذا وَرَدُوا جهنمَ يومَ القيامة: أَفَسِحْرٌ أيها القومُ هذا الذي وَرَدْتُمُوهُ الآنَ أَمْ أنتم لا تُعَايِنُونَهُ ولا تُبْصِرُونَهُ؟ وقيل هذا لهم توبيخاً لا استفهاماً.

وقوله: «اصْلَوْهَا»، يقولُ: ذُوقُوا حَرَّ هذه النارِ التي كنتم بها تُكَذِّبُونَ، وَرِدُوها فاصبروا على ألمها وشِدَّتِهَا، أو لا تصبروا على ذلك، سواءٌ عليكم صبرتم أو لَمْ تصبروا «إِنَّمَا تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»، يقولُ: ما تُجْزَوْنَ إلا أعمالكم: أي لا تعاقبونَ إلا على معصيتِكُمْ في الدنيا رَبَّكُمْ وكفركم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ۝١٧ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين اتقوا اللهَ بأداءِ فرائضِه، واجتنابِ معاصِيهِ «في جناتٍ»، يقولُ: في بساتين، «ونعيم» فيها، وذلك في الآخرة.

وقوله: «فاكِهِينَ»، يقولُ: عندهم فاكهةٌ كثيرة، وذلك نظير قولِ العربِ للرجلِ يكونُ عنده تمرٌ كثير: رجلٌ تامِرٌ، أو يكون عنده لَبَنٌ كثيرٌ، فيقال: هو لابِنٌ.

وقوله: «بِمَا آتاهُمْ رَبُّهُمْ»، يقولُ: عندهم فاكهةٌ كثيرةٌ بإعطاءِ اللهِ إياهم ذلك. «وَوَقاهُمْ رَبُّهُم عَذَابَ الجَحِيم»، يقولُ: ورفع عنهم رَبُّهم عقابَهُ الذي عَذَّبَ به أهلَ الجحيم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٩ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٢٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «كُلُوا واشربوا»، يُقالُ لهؤلاءِ المتقينَ في الجناتِ: كُلُوا أيها القومُ مما آتاكم رَبُّكم واشربوا من شرابها هنيئاً، لا تخافونَ مما تأكلونَ وتشربونَ فيها أذًى ولا غائلةً. «بما كنتم تعملونَ» في الدنيا للهِ من الأعمالِ.

وقوله: «متكئين على سُرُرٍ مصفوفةٍ»، قد جُعِلَتْ صفوفاً، وترك قوله: على نمارق، اكتفاءً بدلالة ما ذُكرَ من الكلام عليه.

وقوله: «وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وَزَوَّجْنَا الذُّكُورَ من هؤلاءِ المتقينَ أزواجاً «بحورٍ عين» من النساء، يقول الرجلُ: زوِّج هذا الخف الفرد أو النعل الفرد بهذا الفرد، بمعنى: اجعلهما زوجاً، وقد بيَّنا معنى الزوج فيما مضى بما أغنى عن أعادته ها هنا، والحُور: جمع حَوْراء، وهي الشديدةُ بياضِ مقلةِ العينِ في شدّةِ سوادِ الحدقة، والعِين: جمع عَيْنَاء، وهي العظيمةُ العين في حُسْنٍ وسَعَة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴿٢١﴾﴾

يقـول جَلَّ ثنـاؤه: والذين آمنوا باللهِ ورسولِه، وأتبعناهم ذُرِّياتِهم الذين أدركُوا الإيمانَ بإيمانٍ، وآمَنُوا باللهِ ورسولِه، ألحقنا بالذين آمنوا ذُرِّيَتَهُمْ الذين أدركوا الإيمانَ فآمنوا، في الجنة فجعلناهم مَعَهم في درجاتِهم، وإنْ قصرت أعمالهم عن أعمالهم تَكْرِمةً منا لآبائِهم، وما أَلَتْنَاهُمْ من أجورِ عملهم شيئاً.

وقوله: «وَما أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وما أَلَتْنا الآبـاءَ، يعني بقـوله: «وما أَلَتْنَاهُمْ»، وما نَقَصْنَاهُمْ من أجورِ أعمالِهم شيئاً، فنـأخـذه منهم، فنجعله لأبنـائِهم الذين ألحقناهم بهم، ولكنا وَفَّيْنَاهُمْ أجورَ أعمـالِهم، وألحقنـا أبناءَهُمْ بدرجاتِهم، تَفَضُّلاً منا عليهم، والألْتُ في كلام

العرب: النقصُ والبَخْسُ.

وقـولـه: «كُلّ امْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ»، يقولُ: كُلُّ نفسٍ بما كسبتْ وعملتْ من خيرٍ وشرٍّ مرتهنة لا يُؤَاخَذُ أحدٌ منهم بذنبِ غيرِه، وإنما يعاقب بذنبِ نفسه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: وأَمْدَدْنَا هؤلاءِ الذين آمنوا باللهِ ورسولِه، واتبعتهم ذريتهم بإيمانٍ في الجنة، «بفاكهة ولحم مما يشتهون» من اللحمان.

وقـولـه: «يَتَنَـازَعُونَ فِيها كأساً»، يقولُ: يتعاطون فيها كأس الشراب، ويتداوَلُونها بينهم.

وقوله: «لا لَغْوٌ فِيها»، يقولُ: لا باطلَ في الجنة، والهاء في قوله: «فيها» من ذِكْرِ الكأسِ، ويكون المعنى: لما فيها من الشرابِ، بمعنى: أنَّ أهلَها لا لغوٌ عندهم فيها ولا تأثيمٌ، واللغو: الباطلُ.

وقوله: «وَلا تَأْثِيمٌ»، يقولُ: ولا فِعْلٌ فيها يُؤَثِّمُ صاحبه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه. ويطوفُ على هؤلاءِ القومِ الذين وَصَفَ صِفَتَهُمْ في الجنةِ غلمانٌ لهم، «كأنهم لؤلؤ» في بياضِه وصفائِه «مكنون»: يعني: مَصُونٌ في كِنٍّ، فهو أنقى له، وأصفى لبياضه. وإنما عَنَى بذلك أن هؤلاءِ الغلمان

يطوفونَ على هؤلاءِ المؤمنينَ في الجنة بكؤوسِ الشرابِ التي وَصَفَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ صِفَتها.

وقولُه: «وأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ»... الآية، يقول تعالى ذِكْرُه: وأقبلَ بعضُ هؤلاءِ المؤمنينَ في الجنة على بعضٍ، يسألُ بعضُهم بعضاً، وقد قيل: إنَّ ذلك يكونُ منهم عند البعثِ من قبورهم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال بعضُهم لبعض: إنَّا أيها القومُ كنا في أهلنا في الدنيا مُشفقينَ خائفينَ من عذابِ الله وَجِلِينَ أنْ يُعَذِّبَنا رَبُّنا اليومَ «فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنا» بفضْلِه «وَوَقانا عَذابَ السَّمُومِ»، يعني: عذابَ النارِ، يعني: فَنَجَّانَا من النارِ، وأدخلنا الجنةَ.

وقوله: «إنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ»، يقولُ: إنَّا كنا في الدنيا من قبلِ يومِنَا هذا نَدْعُوه: نعبده مُخْلَصاً له الدين، لا نُشْرِكُ به شيئاً «إنَّهُ هُوَ البَرُّ»، يعني: اللطيفُ بعباده.

وقوله: «الرَّحِيمُ»، يقول: الرحيمُ بخلقِه أنْ يعذِّبهم بعد توبتهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: فذكِّرْ يا محمدُ مَنْ أُرْسِلْتَ إليه من قومكَ وغيرهم، وعِظْهُمْ بنعمِ الله عندهم «فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بكاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ»، يقولُ: فلستَ بنعمةِ اللهِ عليكَ بكاهنٍ تَتَكَهَّنُ، ولا مجنونٍ له رئيٌّ يخبرُ عنه قومه ما أخبره به، ولكنكَ رسولُ الله، واللهُ لا يخذلكَ، ولكنه ينصركَ.

وقوله: «أَمْ يَقُولُونَ شاعِر نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المَنُونِ»، يقول جَلَّ ثناؤُه: بل يقول المشركونَ: يا محمدُ لكَ: هو شاعرٌ نتربصُ به حوادثَ الدهرِ، يَكْفِيناهُ بموتٍ أو حادثةٍ مُتْلِفةٍ.

وقوله: «قُلْ تَرَبَّصُوا»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ»، يا محمدُ، لهؤلاءِ المشركينَ الذين يقولون لك: إنك شاعرٌ نتربصُ بكَ ريبَ المنون، «تربصوا»، أي: انتظروا وتَمَهَّلُوا فيَّ رَيْبَ المنونِ، «فإني معكم من المتربصين»، بكم، حتى يأتيَ أمرُ الله فيكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٣٢ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٣٣ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ۝٣٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أتأمرُ هؤلاءِ المشركينَ أحلامُهم بأنْ يقولوا لمحمدٍ ﷺ: هو شاعرٌ، وأنَّ ما جاء به شعر «أَمْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ»، يقول جَلَّ ثناؤه: ما تأمرهم بذلك أحلامُهم وعقولُهم «بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ» قد طَغَوا على رَبِّهم، فتجاوزوا ما أَذِنَ لهم وأمرهم به من الإيمانِ إلى الكفرِ به.

وقوله: «أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أم يقولُ هؤلاءِ المشركونَ: تَقَوَّلَ محمدٌ هذا القرآنَ وتخلَّقه.

وقوله: «بَلْ لا يُؤْمِنُونَ»، يقول جَلَّ ثناؤُه: كذبوا فيما قالوا من ذلك، بَلْ لا يؤمنونَ فيصدِّقُوا بالحقِّ الذي جاءهم من عِندِ رَبِّهم.

وقوله: «فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ»، يقول جَلَّ ثناؤه: فليأتِ قائلو ذلكَ له من المشركينَ بقرآنٍ مِثْلِه، فإنهم من أهلِ لسانِ محمدٍ ﷺ. ولنْ يتعذَّرَ عليهم أنْ يأتوا من ذلك بمثلِ الذي أتى به محمدٌ ﷺ إنْ كانوا صادقينَ في أنَّ محمداً ﷺ تَقوَّلَهُ وتخلَّقَهُ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أَخُلِقَ هؤلاءِ المشركونَ من غيرِ شيءٍ، أي: من غيرِ آباءٍ ولا أمَّهاتٍ، فهم كالجمادِ، لا يعقلونَ ولا يفهمونَ للهِ حجةً، ولا يعتبرونَ له بعبرةٍ، ولا يتعظونَ بموعظةٍ.

وقوله: «أَمْ هُمُ الخالِقُونَ»، يقولُ: أمْ هم الخالقونَ هذا الخَلْقَ. فهم لذلـك لا يأتمرونَ لأمرِ اللهِ، ولا ينتهونَ عما نَهاهم عنه، لأنَّ للخالقِ الأمر والنهي. «أَمْ خَلَقُـوا السَّمَـوَاتِ والأَرْضَ»، يقـولُ: أَخَلَقُوا السموات والأرض فيكونوا هم الخالقينَ، وإنما معنى ذلك: لم يَخْلُقُوا السمواتِ والأرض، «بَلْ لا يُوقِنُونَ»، يقولُ: لم يتركوا أن يأتمروا لأمرِ رَبِّهم، وينتهوا إلى طاعتِه فيما أمرَ ونهى، لأنهم خلقوا السموات والأرض، فكانوا بذلك أرباباً، ولكنهم فعلوا، لأنهم لا يوقنون بوعيدِ اللهِ وما أعَدَّ لأهلِ الكفر به من العذابِ في الآخرة.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ۝٣٧ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٣٨﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: أعنـدَ هؤلاءِ المكذِّبينَ بآياتِ الله خزائنُ رَبِّكَ يا

محمدُ، فهم لاستغنائِهم بذلكَ عن آياتِ رَبِّهم مُعْرِضُونَ، أم هم المسيطرون.

وقوله: «أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ»، يقولُ: أمْ لهم سُلَّمٌ يرتقونَ فيه إلى السماءِ يستمعونَ عليه الوحيَ، فَيَدَّعُونَ أنهم سمعوا هنالك من اللهِ أنَّ الذي هُمْ عليه حقٌّ، فهم بذلك متمسِّكونَ بما هُمْ عليه.

وقوله: «فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ»، يقولُ: فإنْ كانوا يَدَّعُونَ ذلك فليأتِ مَنْ يزعم أنه استمعَ ذلك، فَسَمِعَهُ «بسلطان مبين»، يعني: بحجةٍ تبين أنها حقّ، كما أتى محمدٌ ﷺ بها على حقيقةِ قولِه، وصَدَّقَهُ فيما جاءهم به من عند الله. والسُّلَّمُ في كلام العرب: السَّبَبُ والمِرْقاةُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ۝٣٩ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۝٤٠ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ۝٤١﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه للمشركينَ به من قريشٍ: أَلِرَبِّكُم أيها القومُ البناتُ ولكم البنون؟ ذلك إذنْ قسمةٌ ضِيزَى.

وقوله: «أمْ تَسألُهُمْ أجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمـدٍ ﷺ: أتسألُ هؤلاءِ المشركينَ الذين أرسلناكَ إليهم يا محمدُ على ما تَدْعُوهُمْ إليه من توحيدِ اللهِ وطاعتِه ثواباً وعِوَضاً من أموالهم، فهم من ثِقلِ ما حَمَّلْتَهُمْ من الغُرْمِ لا يقدرون على إجابتكَ إلى ما تَدْعُوهُمْ إليه.

وقوله: «أمْ عِنْدَهُمُ الغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أم عندهم عِلْمُ الغيبِ فهم يكتبونَ ذلك للناسِ، فَيُنَبِّئُونَهُمْ بما شاؤوا، ويخبرونهم بما أرادوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: بل يريدُ هؤلاءِ المشركونَ يا محمدُ بكَ، وبدينِ الله كيداً «فـالَّـذِينَ كَفَـرُوا هُمُ المَكِيدُونَ»، يقولُ: فهم المُكِيدُونَ المَمْكُورُ بهم دونكَ، فثِقْ بالله، وامضِ لما أمركَ به.

وقوله: «أمْ لَهُمْ إلَهٌ غيرُ اللهِ»، يقول جَلَّ ثناؤه: أمْ لَهُمْ معبودٌ يستحقُ عليهم العبادةَ غير الله، فيجوز لهم عبادتُه، يقول: ليس لهم إلهٌ غير الله الذي له العبادةُ من جميعِ خَلْقِه. «سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ»، يقولُ: تنزيهاً لله عن شِرْكِهم وعبادَتِهم مَعَهُ غيرَهُ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: وإنْ يَرَ هؤلاءِ المشركونَ قطعاً من السماء ساقطاً، والكِسْفُ: جمع كِسفة، مثل التمر جمع تمرة، والسِّدْر جمع سِدْرة.

وقوله: «مِنَ السَّماءِ ساقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ»، يقول جَلَّ ثناؤه: يقولونَ لذلك الكِسْفِ من السماء الساقط: هذا سحابٌ مركوم، يعني بقوله مركوم: بعضه على بعض.

وإنما عنى بذلك جَلَّ ثَنَاؤُهُ المشركينَ من قريش الذين سألوا رسولَ الله ﷺ الآيات، فقالوا له: «لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً» . . . إلى قوله: «عَلَيْنا كِسَفاً» [الإسراء: ٩٠ـ٩٢]، فقال الله لنبيه محمدٍ ﷺ: وإنْ يَرَ هؤلاءِ المشركونَ ما سألوا من الآياتِ، فعاينوا كِسْفاً من السماء ساقطاً، لم ينتقلوا عمـا هُمْ عليه من التكـذيبِ، ولقـالوا: إنما هذا سحابٌ بعضُه فوق بعضٍ، لأن الله قد حتَّمَ عليهم أنهم لا يؤمنون.

وقوله: «فَذَرْهُمْ حتى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: فَدَعْ يا محمدُ هؤلاءِ المشركينَ حتى يُلاقوا يومَهُمْ الذي فيه يهلكون، وذلك عند النفخةِ الأولى.

واختلفت القَرَأة في قراءة قوله: «فِيهِ يصعقونَ» فقرأته عامة قَرَأة الأمصار سوى عاصم بفتحِ الياء من «يَصْعَقُونَ»، وقرأ عاصم «يُصْعَقُونَ» بضم الياء، والفتح أعجبُ القراءتين إلينا، لأنه أفصح اللغتين وأشهرهما، وإن كانت الأخرى جائزة، وذلك أنَّ العربَ تقول: صَعِقَ الرجلُ وصُعِقَ، وسَعد وسُعد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝٤٦ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٧﴾

يعني جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقوله: «يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً» يومَ القيامة، حتى يُلاقُوا يومهم الذي فيه يصعقون، ثم بَيَّنَ عن ذلك اليوم أيّ يومٍ هُوَ، فقال: يومَ لا يغني عنهم كيدُهم شيئاً، يعني: مَكْرُهم أنه لا يدفعُ عنهم من عذابِ الله شيئاً، فاليوم الثاني ترجمة عن الأوّل.

وقوله: «وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ»، يقولُ: ولا هُمْ ينصرهم ناصر، فيستقيد لهم ممن عَذَّبهم وعاقبهم.

وَقوله: «وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذلكَ»، اختلف أهلُ التأويل في العذاب الذي تَوَعَّدَ اللهُ به هؤلاءِ الظَّلَمَةَ من دونِ يومِ الصعقة. فقال بعضهم: هو عذابُ القبر.

وقال آخرون: عَنَى بذلك: الجوع.

وقال آخرون: عنى بذلك: المصائب التي تصيبهم في الدنيا من ذهابِ

الأموالِ والأولاد.

والصوابُ من القول في ذلك عندي أن يقال: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه أخبرَ أنَّ للذين ظلموا أنفسَهُم بكفرهم به عذاباً دونَ يومِهم الذي فيه يصعقون، وذلك يوم القيامة، فعذابُ القبر دونَ يومِ القيامة، لأنه في البرزخِ، والجوعُ الذي أصابَ كفارَ قريشٍ، والمصائبُ التي تُصيبهم في أنفسهم وأموالهم وأولادهم دونَ يوم القيامة، ولم يخصصِ الله نوعاً من ذلك أنه لهم دونَ يومِ القيامة دونَ نوعٍ بَلْ عَمَّ فقال «وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ» فكلُّ ذلك لهم عذابٌ، وذلكَ لهم دونَ يومِ القيامة، فتأويلُ الكلام: وإن للذين كفروا بالله عذاباً من الله دونَ يومِ القيامة «وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ» بأنهم ذائِقُو ذلك العذاب.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ «وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ» يا محمدُ الذي حكم به عليكَ، وامضِ لأمره ونهيهِ، وبلِّغْ رسالاته «فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا»، يقول جَلَّ ثناؤُه: فإنك بمرأى مِنَّا نراكَ ونَرَى عملكَ، ونحنُ نَحُوطُكَ ونحفظكَ، فلا يصل إليك مَنْ أرادكَ بسوءٍ من المشركينَ.

وقوله: «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: إذا قمتَ من نومكَ فقل: سبحان اللهِ وبحمده، وهو قول ابن زيد وأبي الأحوص.

وقال بعضهم: بل معنى ذلك: إذا قمتَ إلى الصلاةِ المفروضةِ فقل: سبحانك اللهمَّ وبحمدكَ، وهو قول الضحاك.

وأَوْلى القولين في ذلك بالصواب قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: وصَلِّ بحمدِ

رَبِّكَ حين تقومُ من مَنامك. وذلك نومُ القائلةِ، وإنما عَنَى صلاةَ الظهر.

وإنما قلت: هذا القول أولى القولين بالصواب، لأنَّ الجميعَ مُجْمِعُونَ على أنه غير واجبٍ أن يقال في الصلاة: سبحانك وبحمدك.

فلو كان القولُ كما قاله الضحاك لكان فرضاً أنْ يُقال، لأن قوله: «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ» أمرٌ من الله تعالى بالتسبيح، وفي إجماع الجميع، على أنَّ ذلك غير واجبٍ، الدليلُ الواضحُ على أنَّ القولَ في ذلك غير الذي قاله الضحاك.

فإنْ قال قائل: ولعله أُريدَ به الندبُ والإرشادُ. قيل: لا دلالةَ في الآيةِ على ذلك، ولم تقم حجةٌ بأنَّ ذلك معنيٌّ به ما قاله الضحاك، فيجعل أجماع الجميع على أنَّ التسبيحَ عند القيامِ إلى الصلاةِ مما خُيِّرَ المسلمونَ فيه دليلاً لنا على أنه أُريدَ به الندب والإرشاد.

وإنما قلنا: عُنِي به القيامُ من نومِ القائلةِ، لأنه لا صلاةَ تجبُ فرضاً بعد وقتٍ من أوقاتِ نومِ الناسِ المعروفِ إلا بعد نومِ الليل، وذلك صلاة الفجر، أو بعدَ نومِ القائلة، وذلك صلاة الظهر؛ فلما أمر بعد قوله «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ» بالتسبيحِ بعد إدبارِ النجوم، وذلك ركعتا الفجر بعد قيامِ الناسِ من نومها ليلاً، عُلِمَ أنَّ الأمرَ بالتسبيحِ بعد القيامِ من النومِ هو أمرٌ بالصلاة التي تجبُ بعد قيامٍ من نومِ القائلةِ على ما ذكرنا دونَ القيامِ من نومِ الليل.

وقوله: «وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ»، يقولُ: ومن الليل فعظِّمْ رَبَّكَ يا محمدُ بالصلاةِ والعبادة، وذلك صلاة المغرب والعشاء. «وإدبارَ النُّجُومِ»، يعني: حين تدبر النجومُ للأُفول عند إقبال النهار.

وأَوْلى القولين في ذلك عندي بالصوابِ قولُ مَنْ قال: عنى بها: الصلاة المكتـوبة صلاة الفجر، وذلك أنَّ الله أمرَ فقال: «وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ

الطـور: ٤٩

النُّجُوم » والركعتان قبلَ الفريضةِ غير واجبتين، ولم تَقُمْ حجةٌ يجبُ التسليمُ لها، أنَّ قوله: «فسبحه» على النَّدْبِ، وقد دللنا في غير موضع من كتبنا على أنَّ أمرَ الله على الفرضِ حتى تقومَ حجةٌ بأنه مرادٌ به الندب، أو غير الفرض بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

سُورَةُ النَّجْمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى»، فقال بعضهم: عُنِي بالنجم: الثُّريا، وعُنِي بقوله: «إِذَا هَوَى»: إذا سقطَ، قالوا: تأويل الكلام: والثريا إذا سقطت.

وقال آخرون: معنى ذلك: والقرآن إذا نزل.

والصواب من القول في ذلك عندي أنه عُنِيَ بالنجم في هذا الموضع: الثريا، وذلك أن العربَ تدعوها النجم.

وقوله: «ما ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَما غَوَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما حادَ صاحِبُكم أيها الناسُ عن الحقِّ ولا زالَ عنه، ولكنه على استقامةٍ وسداد.

ويعني بقوله: «وَما غَوَى»: وما صار غويًّا، ولكنه رشيدٌ سديدٌ؛ يقال: غَوَى يَغْوِي من الغيّ، وهو غاوٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وما ينطقُ محمدٌ بهذا القرآنِ عن هواه «إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى»، يقولُ: ما هذا القرآنُ إلا وحيٌ من الله يوحيه إليه.

وقوله: «عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: عَلَّمَ محمداً ﷺ هذا القرآنَ جبريلُ عليه السلام، وعُنِي بقوله: «شَدِيدُ الْقُوَى» شديد الأسباب. والقُوى: جمع قوّة.

وقوله: «ذُو مِرَّةٍ فاسْتَوَى»، اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «ذُو مِرَّةٍ»، فقال بعضهم: معناه: ذو خَلْقٍ حَسَن.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ذُو قُوَّةٍ.

وأوْلى القولين في ذلك بالصوابِ قولُ مَنْ قال: عَنَى بالمِرّة: صِحَّةَ الجسم وسلامته من الآفاتِ والعاهات. والجسمُ إذا كان كذلك من الإنسانِ، كان قوياً، وإنما قلنا إنَّ ذلك كذلك، لأنَّ المِرَّةَ واحدةُ المِرَر. وإنما أُريدَ به: ذو مِرَّةٍ سويَّةٍ. وإذا كانت المِرَّةُ صحيحةً، كان الإنسان صحيحاً. ومنه قول النبيِّ ﷺ: «لا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ، وَلا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ»(١).

وقوله: «فاسْتَوَى وَهُوَ بالأُفُقِ الأَعْلَى»، يقولُ: فاستوى هذا الشديد القويُّ وصاحِبُكم محمدٌ بالأفقِ الأعلى، وذلك لما أُسريَ برسولِ الله ﷺ استوى هو وجبريل عليهما السلام بمطلعِ الشمسِ الأَعلى، وهو الأفق الأعلى(٢).

---

(١) حديث صحيح. أخرجه المؤلف من غير إسناد، وهو من حديث أبي هريرة عن ابن ماجة (١٨٣٩)، والنسائي: ٩٩/٥، وأنظر: إرواء الغليل للعلامة الألباني (٨٧٦) و(٨٧٨).

(٢) هذا قول الفراء في معاني القرآن: ٩٥/٣، وبه أخذ المؤلف الطبري.

وقد قيل: إن المستوي هو جبريلُ، فإنْ كان ذلك كذلك، فلا مُؤْنةَ في ذلك، لأنَّ قوله: «وهو» من ذِكْرِ اسمِ جبريلَ، وكأنَّ قائلَ ذلك وجَّه معنى قوله: «فاسْتَوَى»: أي: ارتفع واعتدل[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ثم دنا جبريلُ من محمدٍ ﷺ فتدلى إليه، وهذا من المؤخَّرِ الذي معناهُ التقديمُ، وإنما هو: ثم تدلى فدنا، ولكنه حسن تقديم قوله: «دنا». إذ كان الدنوُّ يدلُّ على التدلي والتدلي على الدنوِّ، كما يقال: زارني فلانٌ فأحسنَ، وأحسنَ إليَّ فزارني، وشتمني فأساء، وأساء فشتمني، لأنَّ الإساءةَ هي الشتمُ: والشتمُ هو الإساءة[2].

وقوله: «فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى»، يقولُ: فكان جبرائيلُ من محمدٍ ﷺ على قَدْرِ قوسينِ، أو أدنى من ذلك، يعني: أو أقرب منه.

---

(١) هذا هو الذي اختاره ابن كثير، ورَدَّ قولَ الطبري الأول، وقال: وقد قال ابن جرير ها هنا قولاً لم أره لغيره، ولا حكاه هو عن أحد (يعني من المفسرين، وإلا فقد قاله الفراء كما أشرنا في الهامش السابق) ولم يوافقه أحد على ذلك، ثم شرع يوجه ما قال من حديث العربية. . . وهذا الذي قاله من جهة العربية متجه، لكن لا يساعده المعنى على ذلك.

(٢) هذا كلام الفراء في معاني القرآن ٣/٩٥، ويدل عليه حديث عبدالله بن مسعود في الصحيحين: البخاري (٣٢٣٢) و(٤٨٥٦) و(٤٨٥٧)، ومسلم (١٧٤)، وحديث عائشة في الصحيحين: البخاري (٣٢٣٤) و(٣٢٣٥) و(٤٦١٢) و(٤٨٥٥) و(٧٣٨٠) و(٧٥٣١)، ومسلم (١٧٧).

وقوله: «فأَوْحَى إلى عَبْدِه ما أَوْحَى»، معناه: فأوحى جبريلُ إلى عبدهِ[١] محمدٍ ﷺ ما أوحى إليه رَبُّه، لأنَّ افتتاحَ الكلامِ جرى في أوَّلِ السورة بالخبرِ عن رسـول الله ﷺ، وعن جبريل عليه السلام، وقوله: فأَوْحَى إلى عَبْدِهِ ما أَوْحَى» في سِياقِ ذلكَ، ولم يأتِ ما يدلُّ على انصرافِ الخبرِ عنهما، فيوجه ذلك إلى ما صُرِفَ إليه.

وقوله: «ما كَذَبَ الفُؤَادُ ما رأَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما كَذَّب فؤادُ محمدٍ محمداً الذي رأى، ولكنه صَدَّقَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦﴾

يقول جَلَّ ثناؤه: أفتجادلونَ أيها المشركونَ محمداً على ما يرى مما أراهُ من آياته.

وقوله: «وَلَقَدْ رآهُ نَزْلَةً أُخْرَى»، يقولُ: لقد رآهُ مَرَّةً أخرى.

وقوله: «عِنْدَ سِدْرَةِ المُنْتَهَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد رآه عند سدرةِ المنتهى، فعند من صلةِ قوله: «رآهُ»، والسدرةُ: شجرة النَّبق[٢].

وإنَّ معنى المنتهى الانتهاءُ، فكأنه قيل: عند سدرةِ الانتهاءِ. وجائزٌ أنْ يكونَ قِيلَ لها سدرة المنتهى: لانتهاءِ عِلْمِ كُلِّ عالمٍ من الخَلْقِ إليها. وجائزٌ

---

(١) من المعلوم بداهـة أن الهاء من ذكر الله سبحانه وتعالى، فيكون المعنى: فأوحى جبريل إلى عبدالله محمد ﷺ.

(٢)

أن يكونَ قيل ذلك لها، لانتهاءِ ما يصعدُ من تحتِها، وينزلُ من فوقها إليها. وجائزٌ أن يكون قيل ذلك كذلك لانتهاءِ كلِّ مَنْ خلا من الناسِ على سُنَّةِ رسولِ الله ﷺ إليها. وجائزٌ أنْ يكون قِيلَ لها ذلك لجميعِ ذلك، ولا خبرَ يقطعُ العذرَ بأنه قيل ذلك لها لبعضِ ذلك دونَ بعض، فلا قول فيه أصحّ من القولِ الذي قال رَبُّنا جَلَّ جَلالَه، وهو أنها سدرةُ المنتهى.

وقوله: «عِنْدَها جَنَّةُ المأْوَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: عند سدرةِ المنتهى جنةُ مأوى الشهداء.

وقوله: «إذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد رآهُ نَزْلَةً أخرى، إذْ يغشى السدرة ما يغشى، فإذْ من صِلَةِ رآهُ.

واختلف أهلُ التأويل في الذي يَغْشَى السدرةَ، فقال بعضهم: غَشِيَها فَراشُ الذَّهَبِ.

وقال آخرون: الذي غشيها ربُّ العِزَّةِ وملائكته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَازَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ما مالَ بصرُ محمدٍ يَعْدِل يميناً وشمالاً عما رأى، أي: ولا جاوز ما أُمِر به قطعاً، يقولُ: فارتفع عن الحدِّ الذي حُدَّ له.

وقوله: «لَقَدْ رأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الكُبْرَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: لقد رأى محمدٌ هنالك من أعلام رَبِّه وأدلته الأعلامَ والأدلةَ الكبرى.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ

﴿ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أفرأيتم أيها المشركونَ اللاَّتَ، وهي من الله ألحقت فيه التاء فَأُنِّثَتْ، كما قيل عمرو للذكرِ، وللأنثى عمرة؛ وكما قيل للذَّكَرِ عباسٌ، ثم فيل للأنثى عباسة، فكذلك سَمَّى المشركونَ أوثانهم بأسماءِ الله يعني تعالى ذِكْرُهُ، وتقدَّسَتْ أسماؤه، فقالوا من الله اللات، ومن العزيز العُزَّى؛ وزعموا أنهن بنات الله، تعالى اللهُ عَمَّا يقولونَ وافتروا، فقال جَلَّ ثَنَاؤُهُ لهم: أفرأيتم أيها الزاعمونَ أنَّ اللاتَ والعُزَّى ومَنَاةَ الثالثة بناتُ الله. «أَلَكُمُ الذَّكَرُ»، يقولُ: أتختـارونَ لأنفسِكم الـذكـر من الأولادِ، وتكرهونَ لها الأنثى، وتجعلون «لَهُ الأُنْثَى» التي لا ترضونها لأنفسِكم، ولكنكم، تقتلونها كراهةً منكم لهنّ.

وقوله: «أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى»، يقولُ: أتزعمونَ أنَّ لكم الذكرَ الذي ترضونه، ولله الأنثى «تلك إذاً قسمةٌ ضِيزىٰ»، يقول جلَّ ثناؤُهُ: قسمتكم هذه قسمة جائرةٌ غير مستوية ، ناقصةٌ غير تامة، لأنكم جعلتم لربِّكم من الولدِ ما تكرهونَ لأنفسِكم، وآثَرْتُمْ أنفُسَكُمْ بما ترضونه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ما هذه الأسماءُ التي سَمَّيْتُموها وهي اللات والعُزَّى ومناة الثالثة الأخرى، «إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم» أيها المشركونَ بالله، وآباؤكم من قبلكم، «ما أنزل الله بها»، يعني: بهذه الأسماء، يقولُ: لم يُبِح اللهُ ذلك لكم، ولا أذِنَ لكم به.

وقوله: «إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما يتبع هؤلاءِ المشركونَ في هذه الأسماءِ التي سموا بها آلهتَهُمْ إِلَّا الظنَّ بأنَّ ما يقولونَ حقٌّ لا اليّقين. «وَما تَهْوَى الأَنْفُسُ»، يقولُ: وهوى أَنْفُسِهم، لأنهم لم يأخذوا ذلك عن وحيٍ جاءهم من اللهِ، ولا عن رسولٍ لله أخبرهم به، وإنما هو اختراقٌ من قِبَلِ أنفسهم، أو أخذوه عن آبائِهم الذين كانوا من الكفرِ باللهِ على مِثْلِ ما هُمْ عليه منه.

وقوله: «وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الهُدَى»، يقولُ: ولقد جاء هؤلاءِ المشركينَ بالله من رَبِّهم البيانُ مما هُمْ منه على غير يقينٍ، وذلك تسميتهم اللاتَ والعُزَّى ومناةَ الثالثة بهذه الأسماءِ وعبادتهم إياها. يقولُ: لقد جاءهم من رَبِّهم الهدى في ذلك، والبيان بالوحي الذي أوحيناه إلى محمدٍ ﷺ أنَّ عبادَتَها لا تنبغي، وأنه لا تصلحُ العبادةُ إلا لله الواحد القهار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ۝٢٤ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ۝٢٥ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ۝٢٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أم اشتهى محمدٌ ﷺ ما أعطاهُ الله من هذه الكرامةِ التي كَرَّمَهُ بها من النبوةِ والرسالةِ، وأنزل الوحي عليه، وتمنى ذلك، فأعطاهُ إياه رَبُّه، فللَّه ما في الدارِ الآخرةِ والأولى، وهي الدنيا، يعطي مَنْ شاء من خَلْقِه ما شاء، ويحرمُ مَنْ شاء منهم ما شاء.

وقوله: «وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ في السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: «وكم من مَلَكٍ في السموات لا تغني»: كثيرٌ من ملائكةِ الله، لا تنفعُ شفاعتهم عند الله لِمَنْ شَفَعُوا له شيئاً، «إلا» أنْ يشفعوا له «من بعدِ أنْ

يأذَنَ اللهُ» لهم بالشفاعةِ «لمن يشاءُ» منهم أنْ يشفعوا له «ويرضى»، يقولُ: ومِنْ بعدِ أنْ يرضى لملائكتِه الذين يشفعونَ له أنْ يشفَعُوا له، فتنفعه حينئذٍ شفاعتهم.

وإنما هذا توبيخٌ من الله تعالى ذِكْرُه لِعَبَدَةِ الأوثانِ والملأ من قريشٍ وغيرهم الذين كانوا يقولون «ما نَعْبُدهُمْ إلَّا لِيُقَرِّبُونا إلى اللهِ زُلْفَى»، فقال الله جلَّ ذِكْرُه لهم: ما تنفعُ شفاعةُ ملائكتي الذين هم عندي لمن شَفَعُوا له، إلا مِنْ بعدِ إذني لهم بالشفاعةِ له ورضاي، فكيفَ بشفاعةِ مَنْ دُونَهم، فأعْلَمَهُمْ أنَّ شفاعةَ ما يعبدونَ من دونِه غير نافِعَتِهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين لا يُصدِّقُون بالبعثِ في الدارِ الآخرةِ، وذلك يومِ القيامة، لَيُسَمُّونَ ملائكةَ الله تسميةَ الإناثِ، وذلك أنهم كانوا يقولون: هم بناتُ الله.

وقوله: «وَما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ»، يقولُ تعالى: وما لهم بما يقولونَ من تسميتهم الملائكةَ تسميةَ الأنثى من حقيقةِ علمٍ «إنْ يَتَّبِعُونَ إلَّا الظَّنَّ»، يقولُ: ما يتبعونَ في ذلك إلا الظنَّ ، يعني: أنهم إنما يقولون ذلك ظناً بغير علم.

وقوله: «وَإنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئاً»، يقولُ: وإنَّ الظنَّ لا ينفعُ من الحقِّ شيئاً فيقوم مقامه.

وقوله: «فأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا»، يقول جَلَّ ثناؤه لنبيه محمدٍ ﷺ: فَدَعْ مَنْ أدبرَ يا محمدُ عن ذِكْرِ الله ولم يؤمِنْ به فيوحده.

وقوله: «وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيا»، يقولُ: ولم يطلبْ ما عندَ اللهِ في الدارِ الآخرة، ولكنه طلب زينةَ الحياةِ الدنيا، والتمسَ البقاءَ فيها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الذي يقوله هؤلاءِ الذين لا يؤمنونَ بالآخرةِ في الملائكةِ مِنْ تسميتِهم إيَّاهَا تسميةَ الأنثى «مَبْلَغُهُمْ مِنَ العِلْمِ»، يقولُ: ليس لهم عِلْمٌ إلا هذا الكفر باللهِ، والشركُ به على وجهِ الظنِّ بغيرِ يقينِ عِلْمٍ.

وقوله: «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ ربكَ يا محمدُ هو أعلمُ بمن جَارَ عن طريقهِ في سابقِ عِلْمِه، فلا يؤمن، وذلك الطريقُ هو الإسلامُ. «وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى»، يقولُ: وربُّكَ أعلمُ بمن أصابَ طريقه فسلكه في سابقِ عِلْمِه، وذلك الطريقُ أيضاً الإسلام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَللهِ» مُلكُ «ما في السَّمٰواتِ وَما فِي الأَرْضِ» من شيء، وهو يُضِلُّ مَنْ يشاء، وهو أعلمُ بهم «لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أساؤُوا بِمَا عَمِلُوا»، يقولُ: ليجزي الذين عَصَوْه من خَلْقِه، فأساؤوا بمعصيتهم إياهُ، فيثيبهم بها النار «وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بالحُسْنَى»، يقولُ: وليجزيَ الذين أطاعوه فأحسنوا بطاعتهم إياهُ في الدنيا بالحسنى وهي الجنة، فيثيبهم بها.

وقوله: «الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ»، يقولُ: الذين يبتعدونَ عن كبائرِ الإثمِ التي نهى اللهُ عنها وحَرَّمَها عليهم فلا يَقْرَبُونَها، وذلك الشركُ باللهِ، وما قد بيَّنَّاهُ في قوله: «إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ» [النساء: ٣١].

وقوله: «وَالفَوَاحِشَ»، وهي الزنا وما أشبهه، مما أوجبَ اللهُ فيه حَدّاً.

وقولـه: «إِلَّا اللَّمَمَ»، اختلفَ أهـلُ التـأويل في معنى «إلا» في هذا الموضع، فقال بعضهم: هي بمعنى الاستثناء المنقطع، وقالوا: معنى الكلام: الـذين يجتنبونَ كبائرَ الإثمِ والفواحشَ، إلا اللممَ الذي ألَمُّوا به من الإثمِ والفواحش في الجاهليةِ قبلَ الإسلامِ، فإنَّ الله قد عَفَا لهم عنه، فلا يُؤَاخِذْهم به.

وكان بعضُ أهلِ العلمِ بكلامِ العربِ ممن يوجه تأويل «إلا» في هذا الموضع إلى هذا الوجهِ الذي ذكرته.

يقول في تأويل ذلك: لم يُؤْذَنْ لهم في اللمم، وليس هو من الفواحشِ، ولا من كبائرِ الإثمِ، وقد يُسْتثنى الشيءُ من الشيء، وليس منه على ضميرٍ قد كَفَّ عنه فَمُجَازِهِ، إلا أنْ يُلِمَّ بشيءٍ ليس من الفواحشِ ولا من الكبائرِ.

وقال آخرون: بَلْ ذلك استثناءٌ صحيح، ومعنى الكلام: الذين يجتنبونَ كبائرَ الإثمِ والفواحشَ إلا اللمم إلا أنْ يُلِمَّ بها ثم يتوب.

وقال آخرون: ممن وَجَّهَ معنى «إلا» إلى الاستثناءِ المنقطع: اللمم: هو دونَ حَدِّ الدنيا وحدِّ الآخرة، قد تجاوزَ اللهُ عنه.

وأَوْلى الأقـوالِ في ذلـك عنـدي بالصـوابِ قولُ مَنْ قال «إلا» بمعنى الاستثنـاء المنقـطع، ووجَّـه معنى الكـلام إلى «الَّـذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الإِثْمِ والفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ»، بما دونَ كبائر الإثم، ودون الفواحش الموجبة للحدود

في الدنيا، والعذاب في الآخرة، فإنَّ ذلك مَعْفُوٌّ لهم عنه، وذلك عندي نظير قوله جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُم، وَنُدْخِلُكُمْ مُدْخَلًا كَرِيماً» [النساء: ٣١]. فوعد جَلَّ ثَنَاؤُهُ باجتناب الكبائر، العفوَ عما دُونَها من السيئاتِ، وهو اللممُ الذي قال النبيُّ ﷺ: «العَيْنانِ تَزْنِيانِ، وَاليَدانِ تَزْنِيانِ، وَالرِّجْلانِ تَزْنِيانِ وَيُصَدِّقُ ذلكَ الفَرْجُ أَوْ يُكَذِّبُهُ»[1]، وذلك أنه لا حَدَّ فيما دونَ ولوجِ الفَرْجِ في الفرجِ، وذلك هو العفوُ من الله في الدنيا عن عقوبةِ العبدِ عليه، والله جَلَّ ثَنَاؤُهُ أكرمُ من أنْ يعودَ فيما قد عَفَا عنه، كما رُوِي عن النبيِّ ﷺ. واللممُ في كلام العرب: المقاربةُ للشيء، ذكر الفرّاء[2] أنه سمع العربَ تقول: ضربه ما لَمَم القتلَ، يريدونَ ضرباً مُقَارِباً للقتلِ، قال: وسمعت من آخر: أَلَمَّ يفعلُ في معنى: كادَ يفعلُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «إِنَّ رَبَّكَ» يا محمدُ «وَاسِعُ المَغْفِرَةِ»: واسعٌ عَفْوُه للمذنبينَ الذين لم تَبْلُغْ ذنوبُهم الفواحشَ وكبائرَ الإثمِ، وإنما أعلم جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقوله هذا عبادَهُ أنه يغفرُ اللممَ بما وصفنا من الذنوبِ لمن اجتنب كبائرَ الإثمِ والفواحش.

وقوله: «هُو أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ»، يقول تعالى ذِكْرُه:

---

(١) من حديث أبي هريرة الذي في الصحيحين: (البخاري (٦٢٤٣) و(٦٦١٢)، ومسلم (٢٦٥٧).

(٢) معاني القرآن: ٣/١٠٠.

رَبُّكم أعلمُ بالمؤمنِ منكم من الكافرِ، والمحسن منكم من المسيء، والمطيع من العاصي، حين ابتدعَكُمْ من الأرضِ، فأحدثكم منها بخلقِ أبيكم آدم منها، وحين «أنتم أجِنَّةٌ في بطونِ أمهاتكم»، يقولُ: وحين أنتم حمل لم تُولَدُوا.

وقوله: «فَلا تُزَكُّوا أنْفُسَكُمْ»، يقول جَلَّ ثناؤه: فلا تَشْهَدُوا لأنفسِكم بأنها زكيةٌ بريئةٌ من الذنوبِ والمعاصي.

وقوله: «هُوَ أعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى»، يقول جَلَّ ثناؤه: رَبُّكَ يا محمدُ أعلمُ بمن خافَ عقوبةَ الله فاجتنبَ معاصيهِ من عبادِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أفرأيتَ يا محمدُ الذي أدبرَ عن الإيمانِ باللهِ، وأعرضَ عنه وعن دِينه، وأعطى صاحبَهُ قليلاً من مالِه، ثم منعه فلم يُعْطِه، فَبَخِلَ عليه.

وذُكر أن هذه الآيةَ نزلتْ في الوليدِ بن المغيرةِ من أجلِ أنه عاتبه بعضُ المشركينَ، وكان قد اتَّبَعَ رسولَ الله ﷺ على دِينه، فضمنَ له الذي عاتبه إنْ هو أعطاهُ شيئاً من ماله، ورجعَ إلى شِرْكِه أنْ يتحملَ عنه عذابَ الآخرةِ، ففعلَ، فأعطى الذي عاتَبَهُ على ذلك بعضَ ما كانَ ضَمِنَ له، ثم بَخِلَ عليه ومنعه تمامَ ما ضَمِنَ له.

وقوله: «أعِنْدَهُ عِلْمُ الغَيْبِ فَهوَ يَرَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: أعندَ هذا الذي ضَمِنَ له صاحبُه أنْ يَتَحَمَّلَ عنه عذابَ الله في الآخرةِ عِلْم الغيبِ، فهو يرى

حقيقةَ قولِه، ووفائه بما وَعَدَهُ.

وقوله: «أمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا في صُحُفِ مُوسَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: أم لم يُخَبَّرْ هذا المضمونُ له، أنْ يتحملْ عنه عذابَ اللهِ في الآخرةِ، بالذي في صُحُفِ موسى بن عمران عليه السلام.

وقوله: «وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى»، يقولُ: وإبراهيمَ الذي وفى مَنْ أَرْسَلَ إليه ما أُرْسِلَ به.

وإنما عُنِي بقوله: «ألاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى»، الذي ضَمِن للوليدِ بن المغيرة أنْ يتحمـلَ عنـه عذابَ اللهِ يومَ القيامة، يقول: ألم يُخْبَرْ قائلُ هذا القولِ، وضامِنُ هذا الضمانِ بالذي في صُحُفِ موسى وإبراهيم مكتوبٌ: أنْ لا تأثم آثمةٌ إثمَ أُخرى غيرها. «وأنْ لَيْسَ للإِنْسانِ إلاَّ ما سَعَى»، يقول جَلَّ ثناؤه: أَوَ لَمْ يُنَبأ أنه لا يُجازى عاملٌ إلا بعمله، خيراً كان ذلك أو شرّاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾

قوله جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «وأنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأنَّ عملَ كُلِّ عاملٍ سوف يراهُ يومَ القيامةِ، مَنْ وَرَدَ القيامةَ بالجزاءِ الذي يُجازى عليه، خيراً كان أو شرّاً، لا يؤاخذ بعقوبةِ ذنبِ غير عامله، ولا يُثاب على صالحِ عَمَلِهِ عاملٌ غيره. وإنما عُنِي بذلك: الذي رجعَ عن إسلامِهِ بضمانِ صاحبِه له أنْ يتحملَ عنه العذابَ، أنَّ ضمانَهُ ذلك لا ينفعُهُ، ولا يُغني عنه يومَ القيامةِ شيئاً، لأنَّ كُلَّ عاملٍ فبِعَمَلِه مأخوذٌ.

وقوله: «ثُمَّ يُجْزَاهُ الجَزَاءَ الأَوْفَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: ثم يُثابُ بسعيه ذلك الثواب الأوفى. وإنما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «الأَوْفَى» لأنه أوفى ما وعد خَلْقَهُ

عليه من الجزاء، والهاء في قوله: «ثُمَّ يُجْزَاهُ» من ذِكْرِ السعي، وعليه عادت.

وقوله: «وأنَّ إلى رَبِّكَ المُنْتَهَى»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وأنَّ إلى رَبِّكَ يا محمدُ انتهاء جميعِ خَلْقِه ومرجعهم، وهو المجازي جميعَهُمْ بأعمالِهم، صالحهم وطالحهم، ومحسنهم ومسيئهم.

وقوله: «وأنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وأبْكَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأنَّ رَبَّكَ هو أضحكَ أهلَ الجنةِ في الجنةِ بدخولهم إياها، وأبكى أهلَ النارِ في النار بدخُولِهُمُوها، وأضحكَ مَنْ شاء من أهل الدنيا، وأبكى مَنْ أرادَ أنْ يبكيه منهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ۝٤٤ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ۝٤٦ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ۝٤٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأنه هو أماتَ مَنْ مات من خَلْقِه، وهو أحيا مَنْ حَيِيَ منهم. وعنى بقوله: «أحْيا» نَفْخَ الروحِ في النطفةِ الميتة، فجعلها حيةً بتصييرِه الروحَ فيها.

وقوله: «وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ والأُنْثَى، مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأنه ابتدعَ إنشاء الزوجين الذكر والأنثى، وجعلهما زوجين، لأنَّ الذكرَ زوجُ الأنثى، والأنثى له زوجٌ فهما زوجانِ، يكون كلُّ واحدٍ منهما زوجاً للآخر.

وقوله: «مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى» و«مِنْ» من صِلَةِ «خَلَقَ» يقول تعالى ذِكْرُه: خَلَقَ ذلك من نطفةٍ إذا أمناهُ الرجلُ والمرأة.

وقوله: «وأنَّ عَلَيْهِ النَّشأَةَ الأُخْرَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأنَّ على رَبِّكَ يا محمدُ أنْ يخلقَ هذين الزوجينِ بعدَ مماتهم، وبِلاَهُمْ في قبورهم الخلق الآخر، وذلك إعادتهم أحياء خَلْقاً جديداً، كما كانوا قبل مماتهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ۝٤٨ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ۝٤٩ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ۝٥١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأنَّ رَبَّكَ هو أغنى مَنْ أغنى من خَلْقِه بالمالِ وأقناه، فجعلَ له قُنيةَ أصولِ أموالٍ.

وقوله: «وأنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأنَّ رَبَّكَ يا محمدُ هو ربُّ الشِّعْرَى، يعني بالشعرى: النجم الذي يسمى هذا الاسم، وهو نجمٌ كان بعضُ أهلِ الجاهلية يعبدُه من دونِ الله.

وقوله: «وأنَّهُ أهْلَكَ عاداً الأُولى»، يعني تعالى ذِكْرُه بعادٍ الأولى: عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح، وهُمْ الذين أهلكهم اللهُ بريحٍ صَرْصَرٍ عاتية، وإياهم عَنَى بقوله: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بعادٍ إرَمَ».

وقوله: «وَثَمُودَ فَمَا أبْقَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولم يُبْقِ اللهُ ثمودَ فيتركها على طُغيانِها وتَمَرُّدِهَا على رَبِّها مُقيمةً، ولكنه عاقبها بكفرها وعُتُوِّهَا فأهلكها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۝٥٢ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأنه أهلكَ قومَ نوحٍ من قبلِ عادٍ وثمود، إنهم كانوا هم أشدّ ظلماً لأنفسهم، وأعظم كفراً بربهم، وأشدّ طغياناً وتمرّداً على الله من الذين أهلكهم مِنْ بَعْدُ من الأمم، وكان طغيانهم الذي وصَفَهم اللهُ به، وأنهم كانوا بذلك أكثر طغياناً من غيرهم من الأمم.

وقوله: «وَالمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى»، يقول تعالى: والمخسوف بها، المقلوب

أعلاها أسفلَها، وهي قريةُ سَدُوم قوم لوط، أهوى الله، فأمرَ جبريلَ ﷺ، فرفعها من الأرضِ السابعةِ بجناحِه، ثم أهواها مقلوبةً.

وقوله: «فَغَشَّاهَا ما غَشَّى»، يقول تعالى ذِكْرُه: فَغَشَّى اللهُ المؤتفكة من الحجارةِ المنضودةِ المُسَوَّمةِ ما غَشَّاهَا، فأمطرها إياه من سِجِّيل.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝٥٥ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝٥٦ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ۝٥٧ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨﴾

يقولُ: «فَبأيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمارَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: فبأيِّ نعمات رَبِّكَ يا ابنَ آدم التي أنعمها عليك ترتابُ وتشكُّ وتجادلُ.

وقوله: «هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأُولى» اختلف أهلُ التأويل في معنى قوله جلَّ ثناؤُهُ لمحمدٍ ﷺ «هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُر الأولى» ووصفه إياه بأنه من النذر الأولى وهو آخرهم، فقال بعضهم: معنى ذلك: إنه نذيرٌ لقومه، وكانت النُّذُرُ الذين قَبْلَهُ نُذراً لقومهم، كما يقال: هذا واحدٌ من بني آدم، وواحدٌ من الناس.

وقال آخرون: معنى ذلك غير هذا كله، وقالوا: معناه هذا الذي أنذرتُكُمْ به أيها القومُ من الوقائعِ التي ذكرتُ لكم أني أوقعتُها بالأممِ قَبْلَكُمْ من النُّذُرِ التي أنذرتها الأمم قبلكم في صحفِ إبراهيمِ وموسى.

وهذا القولُ الأخيرُ أشبهُ بتأويلِ الآية، وذلك أنَّ الله تعالى ذِكْرُه ذكرَ ذلك في سياق الآياتِ التي أخبر عنها أنها في صحفِ إبرايمَ وموسى نذيرٌ من النُّذرِ الأولى التي جاءت الأممَ قَبْلَكُمْ كما جاءتكم، فقوله: «هَذَا» بأن تكون إشارة إلى ما تَقَدَّمَهَا من الكلامِ أَوْلى وأشبه منه بغير ذلك.

وقوله: «أَزِفَتِ الآزِفَةُ»، يقولُ: دَنَتِ الدانيةُ، وإنما يعني: دنت القيامةُ

القريبةُ منكم أيها الناسُ. يقال منه: أزِف رَحيلُ فلانٍ: إذا دَنا وقَرُبَ.

وقوله: «لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ كاشِفَةٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ليس للآزفة التي قد أزفت، وهي الساعةُ التي قد دَنَتْ من دونِ الله كاشفٌ، يقول: ليس تنكشف فتقوم إلا بإقامةِ الله إيَّاها، وكَشْفِهَا دونَ مَنْ سِواهُ من خَلْقِه، لأنه لم يُطْلِعْ عليها مَلَكاً مُقرَّباً، ولا نبياً مُرْسَلاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ۝٦٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لمشركي قريش: أَفَمِنْ هذا القرآنِ أيها الناسُ تَعْجَبُونَ، أنْ نَزَلَ على محمدٍ ﷺ، وتضحكونَ منه استهزاءً به، ولا تبكون مما فيه من الوعيدِ لأهلِ معاصي الله، وأنتم من أهلِ معاصيه «وأَنْتُمْ سامِدُونَ»، يقولُ: وأنتم لاهُونَ عَمَّا فيه من العِبَرِ والذكر، مُعْرِضُونَ عن آياته؛ يقال للرجل: دَعْ عنا سُمودَك، يُرادُ به: دَعْ عنا لَهْوَكَ، يقال منه: سَمَد فلانٌ يَسْمُد سُمُوداً.

وقوله: «فاسْجُدُوا للهِ وَاعْبُدُوا»، يقول تعالى ذِكْرُه: فاسجدوا لله أيها الناسُ في صلاتكم دونَ مَنْ سِواهُ من الآلهةِ والأندادِ، وإياهُ فاعبدوا دونَ غيرِه، فإنه لا ينبغي أنْ تكون العبادةُ إلا له، فأخلِصُوا له العبادةَ والسجودَ، ولا تجعلوا له شريكاً في عبادتكم إياه.

سُورَةُ القَمَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ»: دَنَت الساعةُ التي تقومُ فيها القيامة.

وقوله: «اقْتَرَبَت» افتعلت من القُرب، وهذا من الله تعالى ذِكْرُه إنذارٌ لعبادِه بِدُنُوِّ القيامةِ، وقُرْبِ فناءِ الدنيا، وأمرٌ لهم بالاستعدادِ لأهوالِ القيامةِ قبلَ هُجومِهَا عليهم، وهم عنها في غَفْلَةٍ ساهون.

وقوله: «وَانشَقَّ القَمَرُ»، يقول جَلَّ ثناؤه: وانفلقَ القمرُ، وكان ذلك فيما ذُكِرَ على عهدِ رسولِ الله ﷺ وهو بمكةَ، قبل هجرتِهِ إلى المدينةِ، وذلك أنَّ كُفَّارَ أهلِ مكة سألوه آيةً، فأراهم ﷺ انشقاقَ القمر، آيةً حُجَّةً على صِدْقِ قوله، وحقيقةِ نُبُوَّتِه؛ فلما أراهم أعْرَضُوا وكذَّبوا، وقالوا: «هذا سِحْرٌ مستمرٌّ»، سَحَرَنَا محمدٌ، فقال الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ».

وقوله: «وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإنْ يَرَ المشركونَ علامةً تَدُلُّهم على حقيقةِ نبوَّةِ محمد ﷺ: ودلالة تدلهم على صِدْقِه فيما جاءهم به عن رَبِّهم، يُعْرِضُوا عنها، فِيُوَلُّوا مُكَذِّبينَ بها مُنكرينَ أنْ يكونَ يقيناً، ويقولوا

تكذيباً منهم بها، وإنكاراً لها أنْ تكونَ حقاً: هذا سحرٌ سَحَرَنا به محمدٌ حين خَيَّلَ إلينا أنَّا نرى القمرَ منفلقاً باثنين بِسِحْرِه، وهو سحرٌ مستمرٌ، يعني يقول: سِحر مستمرٌ ذاهبٌ، من قولهم: قد مَرَّ هذا السحرُ إذا ذهبَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وكَذَّبَ هؤلاءِ المشركونَ من قريشٍ بآياتِ الله بعد ما أتتهم حقيقَتُهَا، وعاينوا الدلالةَ على صحتها برؤيتهم القمرَ منفلقاً فلقتين «وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ»، يقولُ: وآثروا اتباعَ ما دَعَتْهُمْ إليه أهواءُ أنفسهم من تكذيبِ ذلك على التصديقِ بما قد أيقنوا صِحَّتَهُ من نبوَّةِ محمدٍ ﷺ، وحقيقة ما جاءهم به من ربهم.

وقوله: «وكُلُّ أمْرٍ مُسْتَقِرٌّ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكلُّ أمرٍ من خيرٍ أو شرٍّ مستقرٌّ قرارهُ، ومتناهٍ نهايته، فالخيرُ مستقرٌّ بأهلِهِ في الجنة، والشرُّ مستقرٌّ بأهله في النار.

وقوله: «وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنَ الأنْباءِ ما فِيهِ مُزْدَجَرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد جاء هؤلاء المشركينَ من قريشٍ الذين كذَّبُوا بآياتِ الله، واتَّبَعُوا أهواءَهُمْ من الأخبارِ عن الأممِ السالفةِ، الذين كانوا من تكذيبِ رُسُلِ الله على مِثْلِ الذي هُمْ عليه، وأحَلَّ اللهُ بهم من عقوباتِه ما قَصَّ في هذا القرآن ما فيه لهم مُزْدَجَرٌ، يعني: ما يَرْدَعُهُمْ، ويَزْجُرُهم عَمَّا هُمْ عليه مُقيمونَ، من التكذيبِ بآياتِ الله، وهو مُفْتَعَلٌ من الزَّجْر.

وقوله: «حِكْمَةٌ بالِغَةٌ»، يعني بالحكمةِ البالغة: هذا القرآن، ورُفعت

الحكمةُ ردّاً على «ما» التي في قوله: «وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنَ الأَنْباءِ ما فيهِ مُزْدَجَرٌ».

وتأويلُ الكلام: ولقد جاءهم من الأنباءِ النبأُ الذي فيه مزدَجَرٌ، حكمة بالغة. ولو رُفعت الحكمةُ على الاستئنافِ كان جائزاً، فيكون معنى الكلام حينئذٍ: ولقد جاءهم من الأنباء النبأ الذي فيه مُزْدَجَرٌ، ذلك حكمةٌ بالغةٌ، أو هو حكمةٌ بالغةٌ، فتكون الحكمة كالتفسير لها.

وقوله: «فَمَا تُغْنِي النُّذُرُ» وفي «ما» التي في قوله: «فَمَا تُغْنِي النُّذُرُ» وجهان: أحدهما أنْ تكونَ بمعنى الجَحْدِ، فيكون إذا وجهت إلى ذلك معنى الكلام، فليست تُغْني عنهم النذرُ ولا ينتفعونَ بها، لإعراضِهم عنها وتكذيبهم بها. والآخر: أنْ تكونَ بمعنى: أنى، فيكون معنى الكلام إذا وجهت إلى ذلك: فأيّ شيء تُغني عنهم النُّذر[1]. والنُّذر: جمع نذير، كما الجُدُدُ: جمع جَديد، والحُصُرُ: جمع حَصير.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ۝٧ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾

يعني تعالى ذِكْره بقوله: «فَتَوَلَّ عَنْهُمْ»: فأعْرِضْ يا محمدُ عن هؤلاءِ المشركينَ من قومِكَ، الذينَ إنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا ويقولوا: سِحْرٌ مستمرٌّ، فإنهم يوم يَدْعُو داعي الله إلى موقفِ القيامةِ، وذلك هو الشيء النُّكُر «خُشَّعاً أبْصَارُهُمْ»، يقولُ: ذليلة أبصارُهم خاشعة، لا ضررَ بها «يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْداثِ». وهي جمع جَدَثٍ، وهي القبورُ.

---

(١) انظر معاني القرآن للفراء: ٣/١٠٥.

وإنما وصف جَلَّ ثَناؤُهُ بالخشوع الأبصارَ دونَ سائرِ أجسامِهم، والمراد به جميعَ أجسامِهم، لأنَّ أثرَ ذِلَّةِ كُلِّ ذليلٍ، وعِزَّةِ كُلِّ عزيزٍ، تتبينُ في ناظريه دونَ سائرِ جسده، فلذلك خَصَّ الأبصارَ بوصفها بالخشوع.

وقـوله: «كأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يخرجونَ من قبورِهم كأنهم في انتشارهم وسعيهم إلى موقِفِ الحساب جرادٌ منتشر.

وقوله: «مُهْطِعِينَ إلى الدَّاعِ»، يقولُ: مُسرعينَ بنظرهم قِبَلَ داعِيهم إلى ذلك الموقفِ.

وقـولـه: «يَقُـولُ الكـافِـرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يقولُ الكافرونَ بالله يومَ يَدْعُ الداعي إلى شيءٍ نُكُر: هذا يوم عسر. وإنما وصفوه بالعسر لشدةِ أهوالِه وبَلْباله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠﴾

وهذا وعيدٌ من الله تعالى ذِكْرُه، وتهديدٌ للمشركينَ من أهلِ مكةَ وسائرِ من أرْسَـلَ إليه رَسُولَهُ محمداً ﷺ على تكذِيبهم إياهُ، وتَقَدَّمَ منه إليهم إنْ هُمْ لم يُنِيبُوا من تكذيبهم إياه، أنه مُحِلٌ بهم ما أحلَّ بالأمم الذين قَصَّ قصصهم في هذه السورةِ من الهلاكِ والعذابِ، ومُنَجٍّ نبيَّهُ محمداً والمؤمنينَ به، كما نجَّى من قبله الرسلَ وأتباعَهُمْ من نِقَمِه التي أحلَّها بأممهم، فقال جَلَّ ثَنَاؤُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: كَذَّبَتْ يا محمدُ قبلَ هؤلاءِ الذين كَذَّبُوكَ من قومكَ، الذين إذا رأوْا آيةً أعرضوا وقالوا سحرٌ مستمرٌّ، قومُ نوحٍ، فكذَّبوا عَبْدَنَا نوحاً إذْ أرسلناهُ إليهم، كما كذَّبتكَ قريش إذ أتيتَهُمْ بالحقِّ من عندنا وقالوا: هو مجنونٌ وازْدُجِر، وهو افْتُعِلَ من زجرت، وكذا تفعلُ العربُ بالحرف إذا كان أوّله زاياً صيروا تاءَ الافتعالِ منه

دالًا من ذلك قولهم: ازدجر من زجرت، وازدلف من زلفت، وازديد من زدت.

وقوله: «فَدَعا رَبَّهُ أني مَغْلُوبٌ فانْتَصِرْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فدعا نوحٌ رَبَّهُ: إنَّ قومي قد غلبوني، تمرّداً وعتوّاً، ولا طاقة لي بهم، فانتصرْ منهم بعقابٍ من عندكَ على كُفْرِهم بك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «فَفَتَحْنَا» لَمَّا دعانا نوحٌ مُسْتغيثاً بنا على قومِه «أبْوَابَ السَّماءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ» وهو المندفقُ.

وقوله: «وَفَجَّرْنا الأرْضَ عُيُوناً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأسَلْنَا الأرضَ عيون الماء.

«فالْتَقَى المَاءُ على أمْرٍ قَدْ قُدِرَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فالتقى ماءُ السماء وماءُ الأرضِ على أمرٍ قد قَدَّرَهُ الله وقَضَاه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وحملنا نوحاً إذ التقى الماءُ على أمرٍ قد قُدِرَ، على سفينةٍ ذات ألواحٍ ودُسُر. والدُّسُر: جمع دسار؛ وقد يقال في واحدها: دسير، كما يقال: حَبِيك وحِباك؛ والدِّسار: المسمار الذي تُشَدُّ به السفينةُ؛ يقال منه: دسرت السفينة إذا شددتها بمساميرَ أو غيرها.

وقوله: « تَجْري بأعْيُننا»، يقول جَلَّ ثناؤه: تجري السفينةُ التي حملنا نوحاً فيها بمرأى مِنّا ومنظرٍ.

وقوله: «جزاءً لمن كان كُفِر»، معناه: ففتحنا أبوابَ السماء بماءٍ مُنْهَمِرٍ، وفجَّرنا الأرضَ عيوناً، فَغرَّقْنَا قومَ نوح ونجينا نوحاً، عقاباً من الله وثواباً للذي جُحِدَ وكُفِر، لأنَّ معنى الكفرِ: الجحود، والذي جحدَ أُلُوهَتَهُ ووحدانيتَهُ قومُ نوحٍ، فقال بعضُهم لبعضٍ: «لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ، وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً ولا سُواعاً، ولَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ ونَسْراً» [نوح: ٢٣]، ومَنْ ذهب به إلى هذا التأويلِ، كانت من الله، كأنه قِيلَ: عُوقِبُوا لله ولكفرهم به. ولو وَجَّه مُوَجِّهٌ إلى أنها مرادٌ بها نوح والمؤمنون به كان مذهباً، فيكون معنى الكلام حينئذٍ، فعلنا ذلك جزاء لنوحٍ ولِمَنْ كان معه في الفُلْكِ، كأنه قيل: غَرَّقْنَاهُمْ لنوحٍ ولِصَنِيعِهِم بنوحٍ ما صَنَعُوا من كُفْرِهم به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٥ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٦ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد تركنا السفينةَ التي حملنا فيها نوحاً ومَنْ كان معه آيةً، يعني: عِبْرةً وعِظةً لمن بعد قومِ نوحٍ من الأممِ ليعتبروا ويَتَّعِظُوا، فينتهوا عن أنْ يسلكوا مَسْلكهم في الكفرِ بالله، وتكذيبِ رسله، فيصيبهم مثل ما أصابهم من العقوبة.

وقوله: «فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ»، يقولُ: فهل من ذي تَذَكُّرٍ يتذكَّرُ ما قد فعلنا بهذه الأمةِ التي كفرت بربها، وعَصَتْ رسولَهُ نوحاً، وكذَّبته فيما أتاهم به عن رَبِّهم من النصيحةِ، فيعتبر بهم، ويحذر أنْ يَحِلَّ به من عذابِ الله بكفرِه بربِّهِ، وتكذيبه رسولَهُ محمداً ﷺ، مثل الذي حَلَّ بهم، فينيبَ إلى التوبةِ، ويراجعَ

الطاعةَ، وأصل مُدَّكر: مفتعل من ذكر، اجتمعت فاءُ الفعلِ، وهي ذال وتاء، وهي بعد الذال، فَصُيِّرَتا دالاً مشدّدة، وكذلك تفعلُ العرب فيما كان أَوَّلُه ذالاً يتبعهـا تاءُ الافتعال يجعلونهما جميعاً دالاً مُشَدَّدةً، فيقولون: ادَّكرتُ ادّكاراً، وإنما هو اذتكرتُ اذتكاراً، و: فَهَلْ من مُذْتَكِر.

وقوله: «فَكَيْفَ كانَ عَذَابِي وَنُذُر»، يقولُ تعالى ذِكْرُهُ: فكيفَ كانَ عذابِي لهؤلاءِ الـذين كفروا بربهم من قوم نوحٍ، وكَذَّبوا رَسُولَهُ نوحاً، إذ تمادوا في غيهم وضلالهم وكيف كان إنذاري بما فعلتُ بهم من العقوبةِ التي أحللتُ بهم بكفرِهم بربِّهم، وتكـذيبهم رسولَهُ نوحاً. صلواتُ الله عليه، وهو إنذارٌ لمن كفر من قومِه من قريشٍ، وتحذيرٌ منه لهم، أنْ يُحِلَّ بهم على تمادِيهم في غيهم، مثل الذي حَلَّ بقومِ نوحٍ من العذاب.

وقوله: «وَنُذُرِ»، يعني: وإنذاري، وهو مَصْدَرٌ.

وقـولـه: «وَلَقَـدْ يَسَّـرْنا القُرْآنَ للذِّكْرِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد سَهَّلْنَا القرآنَ، بيَّناهُ وفصَّلناه للذكرِ، لمن أرادَ أنْ يتذكَّرَ ويعتبرَ ويتَّعِظَ، وهوَّنَّاهُ.

وقوله: «فَهَلْ مِنْ مُدَّكِر»، يقولُ: فَهَلْ من مُعْتَبِرٍ مُتَّعِظٍ يتذكرُ فيعتبرُ بما فيه من العبرِ والذكر.

وقد قال بعضُهم في تأويل ذلك: هل مِنْ طالبِ علمٍ أو خيرٍ فيُعان عليه، وذلك قريبُ المعنى مما قلناه، ولكنَّا اخترنا العبارةَ التي عبرناها في تأويله، لأنَّ ذلك هو الأغلب من معانيهِ على ظاهرِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: كَذَّبَتْ أيضاً عادٌ نَبِيَّهُمْ هوداً ﷺ فيما أتاهم به عن الله، كالذي كذَّبَتْ قومُ نوحٍ، وكالذي كذَّبتم مَعْشَر قريشٍ نبيَّكُمْ محمداً ﷺ وعلى جميعِ رُسُلِه، «فكَيْفَ كانَ عَذَابي وَنُذُرِ»، يقولُ: فانظروا معشرَ كَفَرَةِ قريشٍ باللهِ كيف كان عذابي إياهم، وعقابي لهم على كُفْرِهم بالله، وتكذيبهم رسولَهُ هوداً، وإنذاري بفِعلي بهم ما فعلتُ مَنْ سلكَ طرائِقَهُمْ، وكانوا على مِثْلِ ما كانوا عليه من التمادي في الغيِّ والضلالة.

وقوله: «إنَّا أرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً»، يقولُ تعالى ذِكْرُه: إنا بعثنا على عادٍ إذْ تمادوا في طغيانهم وكفرهم بالله ريحاً صرصراً، وهي الشديدةُ العصوفِ في بردٍ، التي لِصَوْتِها صريرٌ، وهي مأخوذةٌ من شدة صوتِ هبوبها إذا سمع فيها كهيئةِ قولِ القائلِ: صرّ. فقيل منه: صرصر، كما قيل: فَكُبْكِبُوا فيها، من فَكُبُّوا، ونَهْنَهتْ من نَهْنَهْتُ.

وقوله: «في يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ»، يقولُ: في يوم شرٍّ وشُؤْمٍ لهم.

وقوله: «مُسْتَمِرٍّ»، يقولُ: في يومِ شرٍّ وشؤم، استمرَّ بهم البلاءُ والعذابُ فيه إلى أنْ وافى بهم جهنم.

وقوله: «تَنْزِعُ النَّاسَ كأَنَّهُمْ أعجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ»، يقولُ: تقتلعُ الناسَ ثم تَرْمي بهم على رؤوسهم، فتندقُّ رِقابُهم، وتبينُ من أجسامِهم.

وقال: «كأنهم أعجازُ نخل»؛ ومعنى الكلام: فيتركهم كأنهم أعجازُ نخلٍ منقعر، فترك ذِكْرَ: فيتركهم، استغناءً بدلالةِ الكلامِ عليه. وقيل: إنما شَبَّهَهُمْ بأعجازِ نخلٍ منقعر، لأنَّ رؤوسهم كانت تبينُ من أجسامهم، فتذهب لذلك رِقابُهم، وتبقى أجسادهم.

«فَكَيْفَ كانَ عَذَابِي وَنُـذُرِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فانظروا يا معشرَ كفارِ قريش، كيف كان عذابي قومَ عادٍ، إذْ كفروا بربِّهم، وكَذَّبُوا رسولَهُ، فإنَّ ذلك

سنة الله في أمثالهم، وكيف كان إنذاري بهم مَنْ أنذرتُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٢٢ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ۝٢٣ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ۝٢٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد سَهَّلْنا القرآنَ وهَوَّنَّاهُ لِمَنْ أرادَ التذكُّرَ به والاتِّعَاظَ «فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ»، يقولُ: فهل مِنْ مُتَّعِظٍ ومُنْزَجِرٍ بآياتِه.

وقوله: «كَذَّبَتْ ثَمُودُ بالنُّذُرِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: كذَّبت ثمودُ قومُ صالحٍ بنذرِ الله التي أتتهم من عنده، فقالوا تكذيباً منهم لصالح رسولِ رَبِّهم: أبشراً مِنَّا نتبعه نحنُ الجماعةُ الكبيرةُ، وهو واحد؟.

وقوله: «إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ»، يقولُ: قالوا: إنَّا إذاً باتِّباعِنَا صالحاً إن اتبعناهُ، وهو بَشَرٌ منا واحدٌ، «لفي ضلال»، يعنون: لفي ذَهابٍ عن الصوابِ وأخذٍ على غير استقامةٍ؛ «وسُعُر»، يعنون بالسُّعُر: جمع سَعير.

وكان قتادة يقول: عنى بالسُّعُر: العَنَاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ۝٢٥ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ۝٢٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مخبراً عن قِيلِ مُكَذِّبي رسولِه صالحٍ ﷺ من قومِه ثمود: «أأُلْقِيَ عليه الذكر من بيننا» يَعنونَ بذلك: أَنَزَلَ الوحيُ وخُصَّ بالنبوّةِ من بيننا وهو واحدٌ منا؟ إنكاراً منهم أنْ يكون الله يُرسل رسولا من بني آدم.

وقوله: «بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أشِرٌ»، يقولُ: قالوا: ما ذلكَ كذلكَ، بَلْ هو كَذَّابٌ أشر، يعنون بالأشر: المَرِح ذا التَّجَبُّرِ والكِبْرياءِ، والمَرَح من النشاط.

وقوله: «سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الكَذَّابُ الأَشِرُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قال الله لهم: ستعلمونَ غداً في القيامةِ مَنِ الكذَّابُ الأشِرُ منكم معشرَ ثمود، ومَن رسولُنا صالحٌ حين تَرِدُونَ على رَبِّكم. وهذا التأويلُ تأويلُ مَنْ قرأه «سَتَعْلَمُونَ» بالتاء، وهي قراءةُ عامة أهلِ الكوفة سوى عاصم والكسائي. وأما تأويل ذلك على قراءةِ مَنْ قرأه بالياء، وهي قراءة عامة قَرَأة أهل المدينة والبصرة وعاصم والكسائي، فإنه قال الله: «سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الكَذَّابُ الأَشِرُ» وتُرِكَ من الكلامِ ذِكْرُ: قالَ الله، استغناءً بدلالةِ الكلامِ عليه.

والصوابُ من القول في ذلك عندنا أنهما قراءتان معروفتان، قد قرأ بكل واحدةٍ منهما علماء من القَرَأة، فبأيتهما قرأ القارىءُ فمصيبٌ، لتقارب معنييهما، وصحتهما في الإعرابِ والتأويل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّا باعثو الناقة التي سَأَلْتَهَا ثمودُ صالحاً، من الهضبةِ التي سألوهُ بَعْثَتها منها، آيةً لهم، وحجةً لصالح على حقيقةِ نُبُوَّته وصِدْقِ قوله.

وقوله: «فِتْنَةً لَهُمْ»، يقولُ: ابتلاءً لهم واختباراً، هل يؤمنونَ باللهِ ويتبعون صالحاً ويصدِّقونه بما دَعَاهُمْ إليه من توحيدِ الله إذا أرسلَ الناقةَ. أم يُكَذِّبُونَهُ ويكفرونَ بالله؟

وقوله: «فارْتَقِبْهُم»، يقول تعالى ذِكْرُه لصالح: إنا مُرْسِلُو الناقةِ فتنةً لهم، فانتظرهم. وتَبَصَّرْ ما هُمْ صانِعُوه بها «وَاصْطَبِرْ»، يقول له: واصطبرْ على ارتقابهم ولا تعجلْ، وانتظر ما يصنعونَ بناقةِ الله. وقيل: «وَاصْطَبِرْ» وأصل الطاء تاء، فجعلت طاء، وإنما هو افتعل من الصبر.

وقوله: «وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الماءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: نَبِّئْهُمْ: أَخْبِرْهُمْ أنَّ الماءَ قسمةٌ بينهم، يومَ غبِّ الناقةِ، وذلك أنها كانت تَرِدُ الماءَ يوماً، وتغبُّ يوماً، فقال جَلَّ ثَنَاؤُهُ لصالح: أخبر قومك من ثمود أنَّ الماء يوم غبِّ الناقةِ قسمةٌ بينهم، فكانوا يقتسمون ذلك يوم غبها، فيشربون منه ذلك اليوم، ويتزوَّدُونَ فيه منه ليوم وُرُودِها.

وقوله: «كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: كُلُّ شِرْبٍ من ماء يومَ غبِّ الناقةِ، ومن لَبَنِ يوم وُرُودِها محتضرٌ يحتضرونَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ۝٢٩ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٠ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ۝٣١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فنادت ثمودُ صاحِبَهم عاقِرَ الناقةِ قدار بن سالف ليعقرَ الناقةَ حضّاً منهم له على ذلك.

وقوله: «فَتَعَاطَى فَعَقَرَ»، يقولُ: فتناولَ الناقةَ بيده فعقَرَهَا.

وقوله: «فَكَيْفَ كانَ عَذَابِي وَنُذُرِ»، يقول جَلَّ ثناؤه لقريش: فكيف كان عذابي إياهم معشرَ قريشٍ حين عَذَّبْتُهم أَلَمْ أُهْلِكْهُمْ بالرجفةِ؟ «ونُذُرِ». يقولُ: فكيف كان إنذاري مَنْ أنذرتُ من الأممِ بعدهم بما فعلتُ بهم وأحللتُ بهم من العقوبة.

وقوله: «إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً»، وقد بيَّنا فيما مضى أمرَ الصيحةِ، وكيف أتتهم.

وقوله: «فكانُوا كَهَشِيمِ المُحْتَظِر»، يقول تعالى ذِكْرُه: فكانوا بهلاكِهم بالصيحةِ بعد نَضَارتِهم أحياء، وحُسْنِهم قَبْلَ بَوارِهم كَيَبْسِ الشجرِ الذي حظرته بحظير حظرته بعد حُسْنِ نباتِه. وخُضْرَةِ ورقِهِ قبل يُبْسِه.

القَوْلُ فِي تأْوِيلِ قَوْلِهِ تعالَى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٣٢ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ۝٣٣ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ۝٣٤ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ۝٣٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد هَوَّنّا القرآنَ بَيَّناه للذِّكْر: يقول: لِمَنْ أراد أنْ يتذكرَ به فَيَتَّعِظَ «فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ»، يقولُ: فهل من مُتَّعِظٍ به ومعتبرٍ فيعتبر به، فيرتدع عما يكرهه الله منه.

وقوله: «كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بالنُّذُرِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: كذَّبَتْ قومُ لوطٍ بآياتِ الله التي أنذرهم وذَكَّرهم بها.

وقوله: «إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ حاصِباً»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّا أرسلنا عليهم حجارةً.

وقوله: «إلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْناهُمْ بسَحَرٍ»، يقولُ: غير آلِ لوطٍ الذين صَدَّقُوهُ واتَّبعوهُ على دِينِهِ فإنا نجَّيناهم من العذابِ الذي عَذَّبنا به قومَهُ الذين كذَّبوه، والحاصبُ الذي حَصَبْنَاهُمْ به بِسَحَرٍ «نعمةً من عندنا»، يقولُ: نعمة أنعمناها على لوطٍ وآلِهِ، وكرامة أكرمناهم بها من عندنا.

وقوله: «كَذَلكَ نَجْزِي مَنْ شَكَر»، يقولُ: وكما أثَبْنا لوطاً وآلَهُ، وأنعمنا عليه. فأنجيناهم من عذابنا بطاعتهم إيَّانا كذلك نُثيبُ مَنْ شَكَرَنا على نِعْمَتنا عليه، فأطاعنا وانتهى إلى أمرنا ونهينا من جميعِ خلقنا. وأجرى قوله: بِسَحَر، لأنه نكرةٌ، وإذا قالوا: فعلت هذا سَحَر بغير باءٍ لم يُجْرُوه.

القَوْلُ فِي تأْوِيلِ قَوْلِهِ تعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ۝٣٦ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝٣٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد أنذر لوطٌ قومَهُ بَطْشَتَنَا التي بطشناها قبل ذلك «فَتَمارَوْا بالنُّذُرِ»، يقولُ: فكذَّبوا بإنذارِه ما أنذرَهُمْ من ذلك شكاً منهم فيه.

وقوله: «وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ»، يقول جَلَّ ثناؤه: ولقد راودَ لوطاً قومُهُ عن ضيفِهِ الذين نزلوا به حين أرادَ اللهُ إهلاكَهم «فَطَمَسْنا أعْيُنَهُمْ»، يقولُ: فطمسنا على أعينهم حتى صيَّرناها كسائرِ الوجهِ لا يُرَى لها شقٌّ، فلم يُبْصِرُوا ضيفَهُ. والعربُ تقول: قد طمستِ الريحُ الأعلامَ: إذا دفنتها بما تسفي عليها من الترابِ.

وقوله: «فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فذوقوا معشرَ قومِ لوطٍ من سدوم، عذابي الذي حَلَّ بكم، وإنذاري الذي أنذرتُ به غيرَكُمْ من الأممِ من النكالِ والمَثُلاتِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد صُبِّحَ قَوْمُ لوطٍ بُكْرَةً ذُكِرَ أنَّ ذلك كان عندَ طلوعِ الفجر.

وقوله: «عَذَاب»، وذلك قَلْبُ الأرضِ بهم، وتصييرُ أعلاها أسفلَها بهم، ثم إتباعهم بحجارةٍ من سجيلٍ منضود.

وقوله: «مُسْتَقِرّ»، يقولُ: استقرَّ ذلك العذابُ فيهم إلى يومِ القيامةِ حتى يوافوا عذابَ اللهِ الأكبرَ في جهنم.

وقوله: «فَذُوقُوا عَذَابِي ونُذُرِ»، يقول تعالى ذِكْرُه لهم: فَذُوقُوا معشرَ قومِ لوطٍ عذابي الذي أَحْلَلْتُه بكم، بكفركم باللهِ وتكذِيبكم رسولَهُ، وإنذاري بكم

الأممَ سِواكُمْ بما أنزلتُه بكم من العقاب.

وقوله: «وَلَقَدْ يَسَّرْنا القُرْآنَ للذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد سَهَّلْنَا القرآنَ للذكرِ لِمَنْ أرادَ التذكُّرَ به فَهَلْ من مُتَّعِظٍ ومعتبرٍ به فينزجر به عما نهاهُ اللهُ عنه إلى ما أمرَهُ به وأذِنَ له فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ۝٤١ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٤٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد جاء أتباعَ فرعونَ وقومَهُ إنذارُنَا بالعقوبةِ بكفرهم بنا وبرسولنا موسى ﷺ «كَذَّبُوا بآياتِنا كُلِّها»، يقول جَلَّ ثناؤُه كَذَّبَ آلُ فرعونَ بأدلتنا التي جاءتهم من عندنا، وحُجَجِنَا التي أتتهم بأنه لا إلهَ إلا اللهُ وحده كلها «فأخَذْناهُمْ أخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فعاقبناهم بكفرهم باللهِ عقوبةَ شديدٍ لا يُغْلَبُ، مُقْتَدِرٍ على ما يشاءُ، غير عاجزٍ ولا ضعيف.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ۝٤٣ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۝٤٤ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لكفار قريش الذين أخبر الله عنهم أنهم «إنْ يَرَوْا آيَةً يُعْـرِضُـوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌ» أكُفَّارُكُمْ معشرَ قريشٍ خيرٌ من أولئكم الذين أحللتُ بهم نقمتي من قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ، وقومِ لوطٍ وآلِ فرعونَ، فهم يأملون أنْ يَنْجُـوا من عذابي، ونقمي على كفـرهم بي، وتكذيبهم رسولي. يقولُ: إنما أنتم في كفركم باللهِ وتكذيبكم رسولَهُ، كبعضِ هذه الأممِ التي وصفتُ لكم أمْرَهُمْ، وعقوبة الله بكم نازلة على كُفْرِكُمْ به، كالذي نزلَ بهم إنْ لم تَتُوبُوا وتُنيبُوا.

وقوله: «أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ في الزُّبُر»، يقول جَلَّ ثناؤه: أم لكم براءةٌ من عقابِ الله معشرَ قريشٍ، أنْ يُصِيبَكُمْ بكفرِكُمْ بما جاءكم به الوحيُ من اللهِ في الزُّبُرِ، وهي الكُتُب.

وقوله: «أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أيقولُ هؤلاء الكفارُ من قريشٍ: نحنُ جميعٌ منتصر ممن قَصَدَنَا بسوءٍ ومكروهٍ، وأراد حَرْبَنَا وتفريقَ جَمْعِنَا، فقال الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ: سَيُهْزَمُ الجمعُ يعني جمعُ كفارِ قريشٍ «وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ»، يقولُ: ويُوَلُّونَ أدبارهم المؤمنينَ بالله عند انهزامهم عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ما الأمرُ كما يزعمُ هؤلاءِ المشركون من أنهم لا يُبْعَثُونَ بعد مماتهم «بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ» للبعثِ والعقابِ «وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وأَمَرُّ» عليهم من الهزيمةِ التي يُهْزَمُونَها عند التقائهم مع المؤمنينَ ببدرٍ.

وقولـه: «إِنَّ المُجْـرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُـرٍ»، يقـول تعالى ذِكْرُه: إنَّ المجرمينَ في ذهابٍ عن الحقِّ، وأخذٍ على غيرِ هدى «وَسُعُرٍ»، يقولُ: في احتراقٍ من شدّةِ العَنَاء والنصب في الباطل.

وقوله: «يَوْمَ يُسْحَبُونَ في النَّارِ على وُجُوهِهِمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يوم يُسْحَبُ هؤلاءِ المجرمون في النار على وجوههم.

وقوله: «ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يوم يَسحبونَ في النار على وجوههم، يقال لهم: ذُوقُوا مَسَّ سقَر، وتركَ ذكر: «يقال لهم» استغناءً بدلالةِ الكلامِ عليه من ذكره.

فإنْ قالَ قائلٌ: وكيف يُذاقُ مَسُّ سقر، أَوَلَهُ طَعْمٌ فيُذَاقُ؟

قيل إنَّ ذلك مختلفٌ فيه؛ فقال بعضهم: قِيلَ ذلك كذلك على مجازِ الكلام، كما يقال: كيفَ وجدتَ طَعْمَ الضربِ؟ وهو مجازٌ. وقال آخر: ذلك كما يقال: وجدتُ مَسَّ الحُمَّى يُرادُ به أوّل ما نالني منها، وكذلك وجدتُ طعمَ عَفْوِكَ. وأما سَقَرُ فإنها اسمُ بابٍ من أبوابِ جهنم[1] وتركَ إجراؤها لأنها اسم لمؤنث معرفة.

وقـوله: «إنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بقَدَرٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّا خلقنا كُلَّ شيءٍ بمقدارٍ قَدَّرْنَاهُ وقضيناه. وفي هذا بيانٌ، أنَّ الله جَلَّ ثَنَاؤُه، تَوَعَّدَ هؤلاءِ المجرمينَ على تكذيبهم في القدر مع كُفْرِهم به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٥١ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ۝٥٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وما أَمْرُنَا للشيءِ إذا أمرناهُ وأردنا أنْ نُكَوِّنه إلا قولةٌ واحدة: كُنْ فيكون، لا مراجعةَ فيها ولا مُرادةَ «كَلَمْحٍ بالبَصَرِ»، يقول جَلَّ ثناؤُه: فيوجد ما أمرناه وقلنا له: كُنْ كَسُرْعةِ اللمحِ بالبصرِ لا يُبطىءُ ولا يتأخر.

يقول تعالى ذِكْرُه لمشركي قريشٍ الذين كَذَّبُوا رسولَهُ محمداً ﷺ: ولقد

(١) هكذا قال، والذي في كتب اللغة والتفسير أنها اسم من أسماء جهنم.
أنظر مثلاً: معاني القرآن للفراء: ٣/١١٠، ومعاني القرآن للزجاج: ٥/٢٤٧، ومفردات الراغب: ٤١٤، وزاد المسير: ٨/١٠١ وغيرها. ويدل عليه قوله تعالى في سورة المدثر: ﴿سأُصْليه سَقَر، وما أدراك ما سقر﴾.

أهلكنا أشياعَكُمْ معشرَ قريشٍ من الأممِ السالفةِ والقرونِ الخالية، على مِثْلِ الذي أنتم عليه من الكفرِ بالله، وتكذيب رُسُلِه «فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ»، يقولُ: فهل من مُتَّعظٍ بذلك منزجرٍ ينزجرُ به.

وقوله: «وكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكل شيءٍ فعله أشياعُكم الذين مضوا قبلكم معشرَ كفَّارِ قريشٍ في الزُّبر، يعني: في الكتبِ التي كَتَبَتْهَا الحَفَظَةُ عليهم. وقد يحتمل أنْ يكون مراداً به في أمِّ الكتابِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ۝٥٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وكُلُّ صَغِيرٍ وكَبِيرٍ» من الأشياءِ «مُسْتَطَرٌ»، يقولُ: مُثْبَتٌ في الكتابِ مكتوبٌ.

وقوله: «إِنَّ المُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ ونَهَرٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين اتقوا عقـابَ الله بطاعتِـه وأداءِ فرائضِه، واجتنابِ معاصيه في بساتينَ يومَ القيامةِ، وأنهارٍ، وَوَحَّدَ النهرَ في اللفظ، ومعناه الجمع، كما وَحَّدَ الدُّبُرَ، ومعناه الإدبار في قوله: «يُوَلُّونَ الدُّبُرَ».

وقوله: «في مَقْعَدِ صِدْقٍ»، يقولُ: في مجلسِ حَقٍّ لا لغوٌ فيه ولا تأثيمٌ «عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ»، يقولُ: عند ذي مُلْكٍ مقتدرٍ على ما يشاءُ، وهو الله ذُو القوّةِ المتين، تباركَ وتعالى.

سُورَةُ الرَّحْمَنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الرحمنُ أيها الناسُ برحمته إياكم عَلَّمكم القرآنَ، فأنعمَ بذلك عليكم، إذ بَصَّرَكُمْ به ما فيه رضا رَبِّكم، وعَرَّفكم ما فيه سخطه، لتطيعوه باتباعكم ما يُرْضِيه عنكم، وعملكم بما أَمَرَكُمْ به، وبِتَجَنُّبِكُمْ ما يُسْخِطُه عليكم، فتستوجبوا بذلك جزيلَ ثوابِهِ، وتَنْجُوا من أليمِ عقابه.

وقوله: «خَلَقَ الإِنْسانَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: خَلَقَ آدم وهو الإنسانُ في قولِ بعضهم.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك الناسَ جميعاً، وإنما وَحَّدَ في اللفظ لأدائه عن جنسه، كما قيل: إن الإنسان لفي خُسر، والقولان كلاهما غير بعيدين من الصوابِ لاحتمال ظاهرِ الكلام إياهما.

وقوله: «عَلَّمَهُ البَيانَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: علَّم الإنسانَ البيان.

ثم اختلف أهلُ التأويل في المعنيِّ بالبيانِ في هذا الموضع، فقال بعضهم: عَنَى به بيانَ الحلال والحرام.

وقال آخرون: عنى به الكلام: أي: أن الله عزّ وجلّ عَلَّمَ الإنسانَ البيان.

والصوابُ من القولِ في ذلك أن يقال: معنى ذلك: أنَّ الله علَّم الإنسانَ ما به الحاجةُ إليه من أمرِ دينه ودُنياه من الحلالِ والحرام، والمعايشِ والمنطقِ، وغير ذلك مما به الحاجةُ إليه، لأن الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ لم يخصص بخبرهِ ذلك، أنه علَّمه من البيانِ بعضاً دونَ بعضٍ، بل عَمَّ فقال: علَّمه البيان. فهو كما عَمَّ جَلَّ ثَنَاؤُهُ.

وقوله: «الشَّمْسُ والقَمَرُ بِحُسْبانٍ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معناه: الشمسُ والقمرُ بحسبان، ومنازل لها يجريانِ ولا يَعْدُوَانِهَا.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أنهما يجريان بقَدَرٍ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك أنهما يدوران في مثل قطبِ الرَّحا.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ قولُ مَنْ قال: معناه: الشمسُ والقمر يجريان بحسابٍ ومنازل، لأنَّ الحسبانَ مصدرٌ من قول القائل: حسبته حساباً وحسباناً، مثلُ قولهم: كُفرته كُفراناً، وغُفرته غُفْراناً. وقد قيل: إنه جمع حساب، كما الشُّهبان: جمع شِهاب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾

اختلف أهلُ التأويل في معنى النجم في هذا الموضع مع إجماعهم على أنَّ الشجرَ ما قام على ساقٍ، فقال بعضهم: عنى بالنجم في هذا الموضع من النبات: ما نجمَ من الأرضِ، مما ينبسطُ عليها، ولم يكن على ساقٍ مثل البقلِ ونحوه.

وقال آخرون: عُنِي بالنجمِ في هذا الموضع: نجم السماء.

وأولى القولين في ذلك بالصواب قولُ مَنْ قال: عُنِي بالنجم: ما نجمَ من الأرضِ من نَبْتٍ لعطف الشجرِ عليه، فكان بأنْ يكون معناه لذلك: ما قامَ على ساقٍ وما لا يقومُ على ساقٍ يَسْجُدَانِ لله، بمعنى: أنه تسجدُ له الأشياءُ كلها المختلفة الهيئاتِ من خلقه أشبه وأوْلى بمعنى الكلام من غيره.

وأما قوله: «والشَّجَرُ» فإن الشجر ما قد وصفتُ صِفَتَهُ قَبْلُ.

وأما قوله: «يَسْجُدانِ»، فإنه عُنِي به سجودُ ظِلِّهما، كما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «ولله يَسْجُدُ مَنْ في السَّمَوَاتِ والأرْضِ طَوْعاً وكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بالغُدُو والآصَالِ» [الرعد: ١٥].

وقوله: «والسَّماءَ رَفَعَها»، يقول تعالى ذِكْرُه: والسماءَ رفعها فوقَ الأرضِ.

وقوله: «وَوَضَعَ المِيزَانَ»، يقولُ: ووضع العدلَ بين خَلْقِه في الأرض.

وقوله: «ألَّا تَطْغَوْا فِي المِيزَانِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ألا تَظْلِمُوا وتبخَسُوا في الوزن.

وقوله: «وأقِيمُوا الوَزْنَ بالقِسْطِ»، يقولُ: وأقيموا لسانَ الميزانِ بالعدل.

وقوله: «وَلا تُخْسِرُوا المِيزَانَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولا تُنْقِصُوا الوزنَ إذا وزنتم للناسِ وتظلموهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَالأرْضَ وَضَعَها لِلأنَامِ» والأرضَ وَطَّأها للخَلْقِ وهم الأنام.

وقوله: «فِيها فاكِهَةٌ والنَّخْلُ ذَاتُ الأكمَامِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: في الأرض فاكهة، والهاء والألف فيها من ذِكْرِ الأرض. «والنَّخْلُ ذَاتُ الأكمامِ» والأكمام: جمع كِمّ، وهو ما تكممتْ فيه.

واختلف أهلُ التأويل في معنى ذلك. فقال بعضهم: عنى بذلك تَكَمُّمَ النخلِ في الليف.

وقال آخرون: يعني بالأكمام: الرُّفَات.

وقال آخرون: بل معنى الكلام: والنخل ذات الطلع المتكمم في كمامه.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ أن يقال: إنَّ الله وصفَ النخلَ بأنها ذات أكمامٍ. وهي متكممةٌ في ليفها، وطلعها متكمم في جُفِّهِ، ولم يخصص الله الخبرَ عنها بتكممها ولا تكممِ طَلْعِهَا في جفه، بل عَمَّ الخبرَ عنها بأنها ذات أكمام.

والصوابُ أن يقال: عَنَى بذلك ذات ليف، وهي به مُتَكَممةٌ وذات طَلْعٍ هو في جُفِّه متكَمِّمٌ فيُعَمِّم، كما عَمَّ جَلَّ ثَنَاؤُهُ.

وقوله: «والحَبُّ ذُو العَصْفِ والرَّيْحان»، يقول تعالى ذِكْرُه: وفيها الحبُّ، وهو حبُّ البُرِّ والشعير ذو الورق، والتبن: هو العَصْف.

وأما قوله: «والرَّيْحانُ» فإنَّ أهلَ التأويلِ اختلفوا في تأويله، فقال بعضهم: هو الرزقُ.

وقال آخرون: هو الريحانُ الذي يشمّ.

وقال آخرون: هو خُضْرَةُ الزرع.

وقال آخرون: هو ما قامَ على ساق.

وأَوْلى الأقوال في ذلك بالصواب قولُ مَنْ قال: عُنِي به الرزق، وهو

الحبُّ الذي يُؤكَلُ منه.

وإنما قلنا ذلك أَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصواب، لأنَّ الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ أخبر عن الحَبِّ أنه ذُو العصفِ، وذلك ما وصفنا من الورقِ الحادثِ منه، والتبن إذا يبس، فالذي هو أَوْلى بالريحان، أَنْ يكونَ حَبُّه الحادث منه، إذ كان من جنس الشيء الذي منه العصفُ، ومسموعٌ من العربِ تقول: خرجنا نطلبُ رَيْحانَ الله ورِزْقَهُ، ويقال: سبحانَك وريحانَك: أي ورِزْقَك.

واختلفت القَرَأَة في قراءة قوله: «والرَّيْحان» فقرأ ذلك عامة قَرَأَة المدينة والبصرة وبعض المكيين وبعض الكوفيين بالرفع عطفاً به على الحبِّ، بمعنى: وفيها الحبُّ ذُو العصفِ، وفيها الريحانُ أيضاً. وقرأ ذلك عامة قَرَأَة الكوفيين «والرَّيْحانِ» بالخفضِ عطفاً به على العصف، بمعنى: والحبُّ ذُو العصفِ وذُو الريحانِ.

وأَوْلى القراءتين في ذلك بالصواب: قراءةُ من قرأه بالخفضِ للعلة التي بَيَّنْتُ في تأويله، وأنه بمعنى الرزق. وأما الذين قرءوه رفعاً، فإنهم وجَّهوا تأويله فيما أرى إلى أنه الريحانُ الذي يُشَمُّ، فلذلك اختاروا الرفع فيه. وكونُه خَفْضاً بمعنى: وفيها الحبُّ ذو الورقِ والتبنِ، وذو الرِّزْقِ المَطْعوم أَوْلىٰ وأحسن لما قد بيَّناه قبلُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٦﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكُما معشرَ الجنِّ والإنسِ من هذه النعم تُكَذِّبان.

الرحمن: ١٦

فإنْ قال لنا قائل: وكيف قيل: «فَبأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ» فخاطب اثنين، وإنما ذُكِرَ في أوَّلِ الكلام واحدٌ، وهو الإنسانُ؟ قيل: عاد بالخطابِ في قوله: «فَبأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ» إلى الإنسانِ والجانّ، ويدلُّ على أنَّ ذلك كذلك ما بعدَ هذا من الكلام. وهو قوله: «خَلَقَ الإنسانَ مِنْ صَلْصَالٍ كالفَخَّارِ، وخَلَقَ الجانَّ مِنْ مارجٍ مِنْ نارٍ». وقد قيل: إنما جعل الكلام خطاباً لاثنين، وقد ابتدىء الخبر عن واحدٍ لما قد جرى من فِعْلِ العربِ تفعل ذلك. وهو أن يخاطبوا الواحدَ بفعلِ الاثنين، فيقولون: خلياها يا غلام، وما أشبه ذلك[1] مما قد بيَّناه في كتابنا هذا في غير موضع[2].

وقوله: «خَلَقَ الإنْسانَ مِنْ صَلْصَالٍ كالفَخَّارِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: خلقَ اللهُ الإنسانَ وهو آدم من صلصالٍ: وهو الطينُ اليابسُ الذي لم يطبخ، فإنه من يُبْسِه له صَلْصَلَةٌ إذا حُرِّكَ ونُقِرَ كالفخار؛ يعني أنه من يُبْسه وإنْ لم يكن مطبوخاً، كالذي قد طُبِخَ بالنارِ فهو يُصَلْصِلُ كما يُصلصل الفخارُ، والفخار: هو الذي قد طُبخ من الطين بالنار.

وقوله: «وَخَلَقَ الجانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وخلق الجانَّ من مارِجٍ من نار، هو ما اختلط بعضُه ببعضٍ، من بين أحمر وأصفر وأخضر من قولهم: مَرِجَ أمرُ القوم: إذا اختلط، ومن قول النبيِّ ﷺ لعبدالله بن عمرو: «كَيْفَ بِكَ إذَا كُنْتَ في حُثالَةٍ مِنَ النَّاسِ قَدْ مَرِجَتْ عُهُودُهُمْ وأماناتُهُمْ»[3]: وَذلكَ هُوَ لَهَبُ النَّارِ وَلِسانُهُ.

---

(١) مثل: ارحلاها وازجراها، ونحوهما.

(٢) ذكر الوجهين الفراء في معاني القرآن: ٣/١١٤، واختيار المؤلف هو الأول، نعني: الإنسان والجان، وهو الأصوبُ إن شاء الله لما دلل عليه المؤلف.

(٣) قطعة من حديث صحيح. أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجة والدارمي، وعلق البخاري بعضه (أنظر: فتح الباري: ١/٥٦٥، وسلسلة الأحاديث الصحيحة للعلامة الألباني: ٢٠٥).

وقوله: «فَبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فبأيِّ نعمةِ رَبِّكما معشرَ الثقلين من هذه النعم تُكذِّبان؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٨ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ذلكم أيها الثقلان «رَبُّ المَشْرِقَينِ»، يعني بالمشرقين: مشرقَ الشمسِ في الشتاء، ومشرقها في الصيف.

وقـولـه: «وَرَبُّ المَغْرِبَينِ»، يعني: وربّ مغربِ الشمسِ في الشتاء، ومغربها في الصيف.

وقوله: «فَبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»، يقولُ: فبأيِّ نعم رَبِّكما معشرَ الجنِّ والإنسِ من هذه النعم التي أنعم بها عليكم من تسخيرِه الشمسَ لكم في هذين المشرقين والمغربين تجري لكما دائبةً بمرافقكما، ومصالح دُنياكُما ومَعايشكُمَا تكذبان.

وقوله: «مَرَجَ البَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: مَرَجَ ربُّ المشرقين وربُّ المغـربين البحـرينِ يلتقيانِ، يعني بقـوله: «مَرَجَ»: أرسل وخَلَّى، من قولهم: مرجَ فلانٌ دابته: إذا خَلَّاها وتركها.

واختلف أهلُ العلمِ في البحرين اللذين ذكرهما الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ في هذه الآية، أيّ البحرينِ هُمَا؟ فقال بعضهم: هما بحران: أحدهما في السماء، والآخرُ في الأرض.

وقال آخرون: عَنَى بذلك بحرَ فارس وبحرَ الروم.

وأَوْلى الأقـوَالَ في ذلـك عنـدي بالصواب قولُ مَنْ قال: عُنِيَ به بحرُ السماء، وبحرُ الأرضِ، وذلك أن الله قال: «يَخْرُجُ مِنْهُما اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجانُ» واللؤلؤ والمرجان إنما يخرجُ من أصدافِ بحرِ الأرضِ عن قَطْرِ ماء السماء، فمعلومٌ أن ذلك بحر الأرض وبحر السماء.

وقوله: «بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: بينهما حاجزٌ وبُعْدٌ، لا يُفْسِدُ أحَدُهما صاحِبَهُ فيبغي بذلك عليه، وكل شيء كان بين شيئين فهو برزخٌ عند العرب، وما بين الدنيا والآخرة برزخ.

واختلف أهلُ التأويل في معنى قوله: «لا يَبْغِيانِ»، فقال بعضهم: معنى ذلك: لا يبغي أحدهما على صاحبه.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أنهما لا يختلطانِ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: لا يبغيانِ على اليَبَسِ.

وقال آخرون: بل معناه: لا يبغيانِ أنْ يلتقيا.

وأَوْلى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إنَّ الله وصفَ البحرينِ اللذين ذكرهما في هذه الآية أنهما لا يبغيان، ولم يخصصْ وَصْفُهُمَا في شيءٍ دونَ شيءٍ، بل عَمَّ الخبـرَ عنهمـا بذلك، فالصوابُ أن يُعَمَّ كما عمّ جَلَّ ثَنَاؤُهُ. فيقـال: إنهمـا لا يبغيانِ على شيء، ولا يبغي أحـدهمـا على صاحبه، ولا يتجاوزان حَدَّ الله الذي حَدَّهُ لهما.

وقـوله: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فبأيِّ نعم الله رَبِّكُمَا معشرَ الجنِّ والإنس تُكَذِّبان من هذه النعم التي أنعمَ عليكم من مَرْجِهِ البحرينِ، حتى جعلَ لكم بذلك حليةً تلبسونها كذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ

ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يخرجُ من هذين البحرين اللذين مَرَجَهُمَا اللهُ، وجعل بينهما برزخاً اللؤلؤ والمرجان.

واختلف أهلُ التأويل في صفة اللؤلؤِ والمرجانِ، فقال بعضهم: اللؤلؤ: ما عظم من الدُّرِّ، والمرجانُ: ما صَغُرَ منه.

وقال آخرون: المرجانُ من اللؤلؤ: الكبار، واللؤلؤ منها: الصغار.

وقال آخرون: المرجان: جَيِّدُ اللؤلؤ.

وقال آخرون: المرجان: حجر.

والصوابُ من القول في اللؤلؤ، أنه هو الذي عرفه الناسُ مما يخرجُ من أصدافِ البحرِ من الحَبِّ؛ وأما المرجان، فإني رأيتُ أهلَ المعرفةِ بكلامِ العربِ لا يتدافعون أنه جمع مرجانة، وأنه الصغارُ من اللؤلؤ، قد ذكرنا ما فيه من الاختلاف بين متقدمي أهلِ العلم، والله أعلمُ بصوابِ ذلك.

وقوله: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فبأيِّ نِعم ربكما معشرَ الثقلينِ التي أنعم بها عليكم فيما أخرجَ لكم من منافع هذين البحرينِ تكذِّبان.

وقوله: «وَلَهُ الجَوارِ المُنْشَئاتُ فِي البَحْرِ كالأَعْلام»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولربِّ المشرقين والمغربين الجواري، وهي السفنُ الجاريةُ في البحار.

وقوله: «كالأعْلام»، يقولُ: كالجبالِ، شبَّه السفنَ بالجبالِ، والعربُ تسمي كُلَّ جبلٍ طويلٍ علماً.

وقوله: «فَبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فبأيِّ نعم رَبِّكما معشرَ الجنِّ والإنس التي أنعمها عليكم بإجرائِه الجواري المنشئاتِ في البحرِ جاريةً بمنافعكم تُكَذِّبان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٨ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ۝٢٩ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: كُلُّ مَنْ على ظهرِ الأرضِ من جنٍّ وإنسٍ فإنه هالكٌ، ويبقى وجهُ رَبِّكَ يا محمدُ ذو الجلال والإكرام؛ وذو الجلال والإكرام من نعت الوجه، فلذلك رفع ذو.

وقوله: «فَبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكُما معشرَ الثقلين من هذه النعم تكذّبان.

وقوله: «يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إليه يَفْزَعُ بمسألةِ الحاجات كُلُّ مَنْ في السمواتِ والأرضِ، من مَلَكٍ وإنسٍ وجِنٍّ وغيرهم، لا غِنَى بأحدٍ منهم عنه.

وقوله: «كُلَّ يَومٍ هُوَ في شأنٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هو كلَّ يومٍ في شأنِ خَلْقِه، فيفرج كَرْبَ ذي كرب ويرفع قوماً ويخفض آخرين، وغير ذلك من شؤونِ خلقه.

وقوله: «فَبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكُما معشرَ الجنِّ والإنس التي أنعم عليكم من صَرْفِه إياكم في مصالحكم، وما هو أعلمُ به منكم من تقليبِه إياكم فيما هو أنفعُ لكم تكذبان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ۝٣١ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٢ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ۝٣٣ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٤﴾

هذا وعيدٌ من الله لعبادِه وتَهَدُّدٌ، كقولِ القائلِ الذي يتهدَّدُ غيره ويتوعده، ولا شغلَ له يَشْغَلُه عن عقابه. لأتفرغنَّ لكَ، وسأتفرَّغُ لكَ، بمعنى: سأجِدُّ في أمركَ وأعاقبكَ، وقد يقول القائلُ للذي لا شغلَ له، قد فرغت لي، وقد فرغت لشتمي: أي أخذت فيه وأقبلت عليه، وكذلك قوله جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «سَنَفْرُغُ لَكُمْ» سنحاسبكم، ونأخذ في أمركم أيها الإنسُ والجنُّ، فنعاقب أهلَ المعاصي، ونثيب أهلَ الطاعة.

وقوله: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»: فبأيِّ نعمِ رَبِّكُما معشرَ الثقلين التي أنعمها عليكم، من ثوابِهِ أهلَ طاعتِه، وعقابه أهلَ معصيتِه تكذّبان.

وقوله: «يا مَعْشَرَ الجِنِّ والإِنْسِ إن اسْتَطَعْتُمْ أنْ تَنْفُذُوا مِنْ أقْطارِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ فانْفُذُوا» اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أنْ تَنفُذُوا»، فقال بعضهم: معنى ذلك: إن استطعتم أنْ تَجُوزُوا أطرافَ السمواتِ والأرضِ، فتعجزوا رَبَّكم حتى لا يقدر عليكم، فَجُوزُوا ذلِك، فإنكم لا تجوزونه إلا بسلطانٍ من رَبِّكم، قالوا: وإنما هذا قولٌ يقالُ لهم يومَ القيامة، قالوا: ومعنى الكلام: سنفرغُ لكم أيها الثقلانِ، فيقال لهم: «يا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنْسِ إنِ اسْتَطَعْتُمْ أنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فانْفُذُوا».

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أنْ تنفذوا من أقطارِ السمواتِ والأرضِ، فانفذوا هاربينَ من الموتِ، فإنَّ الموتَ مُدْرِكُكُمْ، ولا ينفعكم هَرَبُكُمْ منه.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: إن استطعتم أنْ تعلموا ما في السمواتِ والأرض فاعلموا.

وقال آخرون: معنى قوله: «لا تَنْفُذُونَ» لا تَخْرُجُونَ من سلطاني.

وأما الأقطار فهي جمع قُطْر، وهي الأطرافُ.

وأما قوله: «إلَّا بسُلْطانٍ»، فإن أهلَ التأويلِ اختلفوا في معناه، فقال بعضهم: معناه: إلا بِبيِّنَةٍ، وقد ذكرنا ذلك قَبْلُ.

وقال آخرون: معناه: إلا بحجةٍ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: إلا بملكٍ وليس لكم ملكٌ.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: إلا بحجةٍ وبَيِّنةٍ، لأنَّ ذلك هو معنى السلطان في كلام العرب، وقد يدخل الملك في ذلك، لأن الملك حجة.

وقوله: «فَبأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكُما تكـذِّبـان معشـرَ الثقلين التي أنعمتُ عليكم، من التسويةِ بين جميعكم، لا يقدرونَ على خلافِ أمرٍ أراده بكم تكذّبان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «يُرْسَلُ عَليكُمَا» أيها الثقلانِ يومَ القيامة «شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ» وهو لَهَبُهَا من حيث تشتعلُ وتؤجَّج بغيرِ دخانٍ كان فيه.

وأمـا قولـه: «ونُحاسٌ» فإن أهلَ التأويلِ اختلفوا في المعنيِّ به، فقال

بعضهم: عُنِي به الدخان.

وقال آخرون: عني بالنحاس في هذا الموضع: الصُّفر.

وأوْلى القولين في ذلك عندي بالصوابِ قولُ مَنْ قال: عُني بالنحاس: الـدخان، وذلك أنه جَلَّ ثَنَاؤُهُ ذَكَرَ أنه يُرْسَلُ على هذين الحيَّين شواظٌ من نار، وهو النارُ المَحْضَة التي لا يخلطها دخان، والذي هو أولى بالكلام أنه تَوَعَّدَهُمْ بنارٍ هذه صِفَتُها أنْ يُتبع ذلك الوعد بما هو خلافها من نوعِها من العذابِ دونَ ما هو من غير جنسها، وذلك هو الدخان، والعربُ تسمي الدخان نُحاساً بضم النون، ونِحاساً بكسرها، والقَرَأة مُجْمِعَةٌ على ضمها.

وقوله: «فَلا تَنْتَصِرَانِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فلا تنتصرانِ أيها الجنُّ والإِنسُ منه إذا هو عاقبكما هذه العقوبةَ، ولا تُسْتَنْقذَانِ منه.

قال: وقوله: «فإذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ فَكانَتْ وَرْدَة كالدِّهانِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فإذا انشقَّت السماء وتفطَّرت، وذلك يوم القيامة، فكان لونُها لون البرذون الورد الأحمر.

وقوله: «فَبأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تكذبان»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فبأيِّ قدرةِ ربكما معشرَ الجنِّ والإِنسِ على ما أخبركم بأنه فاعلٌ بكم تكذِّبان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فيومئذٍ لا يسألُ الملائكةُ المجرمينَ عن ذنوبهم، لأنَّ الله قد حَفِظَها عليها، ولا يسأل بعضُهم عن ذنوبِ بعضٍ رَبُّهم.

وقوله: «فَبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما معشـرَ الثقلين، التي أنعمَ عليكم من عَدْلِـه فيكم، أنه لم يعاقبْ منكم إلا مجرماً، تكذبان.

وقوله: «يُعْرَفُ المُجْرِمُونَ بسِيماهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: تعرفُ الملائكةُ المجرمينَ بعلاماتهم وسيماهم التي يسوِّمهم الله بها من اسْوِدَادِ الوجوهِ، وازْرِقَاقِ العيون.

وقوله: «فَيُؤْخَذُ بالنَّوَاصِي والأَقْدَامِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فتأخذهم الزبانيةُ بنـواصيهم وأقـدامهم فتسحبهم إلى جهنمَ، وتقـذفهم فيها «فَبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فبأيِّ نعم رَبِّكُما معشرَ الجنِّ والإنسِ التي أنعم عليكم بها من تعريفِه ملائكتَهُ أهلَ الإجرامِ من أهلِ الطاعة منكم حتى خَصُّوا بالإذلالِ والإهانةِ المجرمينَ دونَ غيرهم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: يقال لهؤلاءِ المجرمين الذين أخبر جَلَّ ثَنَاؤُهُ أنهم يُعْرفُونَ يومَ القيامةِ بسيماهم حين يؤخذُ بالنواصي والأقدام: هذه جهنمُ التي يُكَذِّبُ بها المجرمون، فترك ذكر: «يقال» اكتفاءً بدلالةِ الكلامِ عليه منه.

وقوله: «يَطُوفُونَ بَيْنَها وبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يطوفُ هؤلاءِ المجـرمونَ الذين وَصَفَ صفتهم في جهنمَ بين أطباقها «وَبَيْنَ حِمِيمٍ آنٍ»، يقولُ: وبينَ ماءٍ قد أُسْخِنَ وأُغْلِيَ حتى انتهى حَرُّه وأَنَى طَبْخُه؛ وكلُّ شيءٍ قد أدرك وبلغ فقد أنى؛ ومنه قوله: «غَيرَ ناظِرِينَ إناهُ» [الأحزاب: ٥٣]، يعني: إدراكَهُ وبُلوغَهُ.

وقوله: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»، يقولُ: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكُما معشرَ الجنِّ والإنسِ التي أنعمها عليكم بعقوبته أهلَ الكفرِ به وتكريمه أهلَ الإيمانِ به تكذّبان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٧ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ۝٤٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولمن اتقى الله من عبادِه، فخافَ مقامَهُ بين يديهِ، فأطاعَهُ بأداءِ فرائضِه، واجتنابِ معاصيه جنتان، يعني: بستانين.

وقوله: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فبأيِّ نعم رَبِّكُما أيها الثقلانِ التي أنعم عليكم بإثابته المحسنَ منكم ما وصف جَلَّ ثَناؤُهُ في هذه الآيات تكذّبان.

وقوله: «ذَوَاتا أفْنانٍ»، يقولُ: «ذَوَاتا ألوانٍ»، واحدها فن، وهو من قولهم: افْتَنَّ فلانٌ في حديثه: إذا أخذ في فنونٍ منه وضروبٍ.

وقوله: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكُما تكذِّبان معشرَ الثقلين التي أنعم عليكما بإثابته هذا الثوابَ أهلَ طاعته تكذّبان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۝٥٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥١ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوْجَانِ ۝٥٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: في هاتين الجنتين عينا ماءٍ تجريانِ خلالهما، فبأيِّ آلاءِ رَبِّكما تكذّبان.

وقوله: «فِيهِما مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ زَوْجانِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فيهما من كلِّ

نوعٍ من الفاكهةِ ضَرْبانِ، فبأيِّ آلاءِ رَبِّكُما التي أنعم بها على أهل طاعته من ذلك تكذِّبان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ۝٥٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «ولِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّه جَنَّتانِ» يتنعمون فيهما «مُتَّكِئِينَ عَلى فُرُشٍ»، فنصبَ متكئينَ على الحالِ من معنى الكلام الذي قَبْلَهُ لأن الذي قبله بمعنى الخبر عَمَّنْ خافَ مقامَ رَبِّه أنه في نَعْمة وسرورٍ، يتنعمون في الجنتين.

وقوله: «عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُها مِنْ إِسْتَبْرَقٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: بطائنُ هذه الفرشِ من غليظِ الديباجِ، والإستبرق عند العرب: ما غَلُظَ من الديباج وخَشُنَ.

وقوله: «وَجَنى الجَنَّتَينِ دانٍ»، يقولُ: وثَمرُ الجنتينِ الذي يُجْتَنَى قريبٌ منهم، لأنهم لا يتعبونَ بصعودِ نَخْلِهَا وشجرها، لاجتناءِ ثمرها، ولكنهم يجتنونها من قعودٍ بغير عناء.

وقوله: «فَبأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»، يقول تعالى ذِكْرُه فبأيِّ آلاء رَبِّكُما معشرَ الثقلين التي أنعمَ عليكما مَنْ أنْ أثابَ أهلَ طاعته منكم هذا الثوابَ، وأكرمهم هذه الكرامةَ تكذِّبان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٥٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: في هذه الفرش التي بطائنها من إستبرق «قاصِراتُ

الطَّرْفِ» وهُنَّ النساءُ اللاتي قد قَصرَ طرفهنَّ على أزواجهنَّ، فلا ينظرن إلى غيرهم من الرجال.

وقوله: «لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جانٌّ»، يقولُ: لم يمسهنَّ إنسٌ قبلَ هؤلاءِ الذين وصف جَلَّ ثَنَاؤُهُ صفتهم، وهم الذين قال فيهم: «ولِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ». «ولا جان»، يقال منه: ما طمثَ هذا البعيرَ حَبلٌ قطّ: أي ما مَسَّهُ حبل.

وقوله: «فبأي آلاء ربكما تكذبان»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فبأي آلاء ربكما معشرَ الجنِّ والإنسِ من هذه النِّعَمِ التي أنعمها على أهل طاعته تكذبان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِه تَعالَى: كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: كأن هؤلاءِ القاصرات الطرفِ اللواتي هُنَّ في هاتين الجنتينِ في صَفَائهنَّ الياقوت الذي يُرَى السِّلْكُ الذي فيه من ورائه، فكذلك يُرَى مُخُّ سُوقِهنَّ من وراءِ أجسامهنَّ، وفي حُسْنِهنَّ الياقوتُ والمرجان.

وقوله: «فَبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فبأيِّ نعمِ رَبِّكما التي أنعمَ عليكم معشرَ الثقلين من إثابتِه أهلَ طاعته منكم بما وَصَفَ في هذه الآيات تكذّبان.

وقوله: «هَلْ جَزَاءُ الإحْسانِ إلَّا الإحْسانُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هل ثوابُ خوفِ مقامِ الله عَزَّ وجَلَّ لمن خافه فأحسنَ في الدنيا عمله، وأطاعَ رَبَّهُ، إلا أنْ يُحْسِنَ إليه في الآخرة ربُّهُ، بأنْ يُجازيه على إحسانِه ذلك في الدنيا ما وصفَ في هذه الآيات من قوله: «ولِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ»... إلى قوله:

«كأنَّهنَّ الياقوتُ والمَرْجانُ».

وقوله: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»، يقولُ: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكُما معشرَ الثقلين التي أنعمَ عليكم من إثابته المحسنَ منكم بإحسانِه تكذِّبان؟

القَولُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومِنْ دُونِ هاتين الجنتين اللتين وصفَ اللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ صِفَتَهُمَا التي ذكرَ أنهما لمن خافَ مقامَ رَبِّه جنتان.

ثم اختلف أهلُ التأويل في معنى قوله: «وَمِنْ دُونِهِما» في هذا الموضع، فقال بعضهم: معنى ذلك: ومن دونهما في الدَّرَج.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ومن دونهما في الفضل[1].

وقوله: «فَبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبان»، يقولُ: فبأيِّ نعم رَبِّكُما التي أنعم عليكم بإثابته أهلَ الإحسانِ ما وصفَ من هاتين الجنتين تكذِّبان؟

وقوله: «مُدْهامَّتانِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: مُسْوَادَّتانِ من شِدَّةِ خُضْرَتِهِمَا.

وقوله: «فَبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكذِّبانِ»، يقولُ: فبأيِّ نِعَم رَبِّكُما التي أنعمَ عليكم بإثابتِه أهلَ الإحسانِ ما وصفَ في هاتين الجنتين تكذِّبان.

وقوله: «فِيهِما عَيْنانِ نَضَّاخَتانِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: في هاتين الجنتين اللتين من دونِ الجنتينِ اللتين هُمَا لمن خافَ مقامَ رَبِّه، عينانِ نَضَّاخَتانِ، يعني:

---

(١) لم يرجح المؤلف أحد القولين، والقول الأخير يدل عليه حديث أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما...» الحديث، وهي في الصحيحين: البخاري (٤٨٧٨)، ومسلم (١٨٠).

فَوَّارتانِ، وعُنِيَ بذلك أنهما تنضخان بالماء.

وقوله: «فَبأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكُما التي أنعم عليكم بإثابته مُحْسِنَكُمْ هذا الثوابَ الجزيل تكذّبان؟.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ۝٦٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٩ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ۝٧٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وفي هاتين الجنتين المُدْهَامَّتَيْنِ فاكهةٌ ونخلٌ ورُمَّان.

وقد اختلف في المعنى الذي من أجله أُعيدَ ذِكْرُ النخلِ والرمانِ؛ وقد ذُكر قَبْلُ أنَّ فيهما الفاكهة، فقال بعضهم: أُعيدَ ذلك لأنَّ النخلَ والرمان ليسا من الفاكهة.

وقال آخرون: هما من الفاكهة؛ وقالوا: قلنا هما من الفاكهة، لأنَّ العربَ تجعلهما من الفاكهة، قالوا: فإنْ قيل لنا: فكيف أُعيدَا وقد مضى ذِكْرُهما مع ذِكْرِ سائرِ الفواكه؟ قلنا: ذلك كقوله: «حافِظوا على الصَّلَوَاتِ والصَّلاةِ الوُسْطَى» [البقرة: ٢٣٨] فقد أمرهم بالمحافظةِ على كلِّ صلاةٍ، ثم أعادَ العصرَ تشديداً لها، كذلك أُعيدَ النخلُ والرمَّانُ ترغيباً لأهلِ الجنة. وقال: وذلك كقوله: «أَلَمْ تَرَ أنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ في السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ»، ثم قال: «وكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، وكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العَذَابُ» [الحج: ١٨]، وقد ذكرهم في أوّلِ الكلمة في قوله: «مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ».

وقوله: «فَبأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تكذّبانِ»، يقولُ: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبَانِ، يقولُ: فبأيِّ نعم ربكما التي أنعمها عليكم بهذه الكرامةِ التي أكرمَ بها مُحْسِنَكُمْ تكذّبان.

وقوله: «فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسانٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: في هذه الجنانِ الأربع

اللواتي اثنتان منهنّ لمن يخافُ مقامَ ربِّه، والأُخْرَيانِ منهنّ من دُونِهِمَا المُدْهَامَّتانِ خيراتُ الأخلاقِ. حِسانُ الوجوه.

وقوله: «فَبأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»، يقولُ: فبأيِّ نِعَم رَبِّكُما التي أنعمَ عليكما بما ذكر تُكَذِّبان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ۝٧٢ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٣ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٧٤ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن هؤلاءِ الخيرات الحسان: «حُورٌ»، يعني بقوله حور: بِيضٌ، وهي جمع حَوْراء، والحوراء: البيضاء.

وأما قوله: «مَقْصُوراتٌ» فإنَّ أهلَ التأويل اختلفوا في تأويله، فقال بعضهم: تأويلُه أنهنَّ قُصِرْن على أزواجهنَّ، فلا يبغينَ بهم بَدَلاً، ولا يرفعنَ أطرافهنَّ إلى غيرهم من الرجالِ.

وقال آخرون: عُنِي بذلك أنهنَّ محبوساتٍ في الحِجال.

والصوابُ من القول في ذلك عندنا أنْ يقال: إنَّ الله تبارك وتعالى وصفهنَّ بأنهنَّ مقصوراتٍ في الخيام، والقصرُ: هو الحبسُ، ولم يخصص وصفهنَّ بأنهنَّ محبوساتٍ على معنى من المعنيين اللذين ذكرنا دونَ الآخر بل عَمَّ وَصْفَهُنَّ بذلك. والصوابُ أنْ يُعَمَّ الخبر عنهنَّ بأنهنَّ مقصورات في الخيام على أزواجهنَّ، فلا يردن غيرهم، كما عَمَّ ذلك.

وقوله: «فِي الخِيامِ»، يعني بالخيام: البيوت.

وقوله: «فَبأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تكذِّبانِ»، يقولُ: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكُما التي أنعمَ

عليكما من الكرامةِ، بإثابةِ محسنكم هذه الكرامةَ تكذّبان.

وقوله: «لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جانٌّ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لم يمسهنَّ بنكاحٍ فيُدْمِيهنَّ إنسٌ قبلهم ولا جانٌّ.

وقوله: «فَبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»، يقولُ: فبأيِّ نِعَم رَبِّكُما التي أنعمَ عليكم بها مما وصَفَ تكذّبان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ ٧٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٧٧ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٧٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يُنَعِّمُ هؤلاءِ الذين أكرمهم جَلَّ ثَنَاؤُهُ هذه الكرامةَ التي وصفها في هذه الآياتِ في الجنتين اللتين وصفهما «مُتَّكِئِينَ على رَفْـرَفٍ خضرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسانٍ».

واختلف أهلُ التأويل في معنى الرفرف، فقال بعضهم: هي رياضُ الجنة، واحدتها: رَفْرَفة.

وقال آخرون: هي المحابس.

وقال آخرون: بل هي المرافق.

وأما العبقريّ، فإنه الطنافسُ الثِّخان، وهي جماع، واحدها: عبقريةٌ: وقد ذُكِرَ أنَّ العربَ تسمي كُلَّ شيءٍ من البسط عبقرياً.

وقوله: «فَبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبان»، يقول تعالى ذِكْرُه: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكُما التي أنعم عليكم من إكرامهِ أهلَ الطاعةِ منكم هذه الكرامةَ تكذّبان.

وقوله: «تَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: تباركَ ذِكْرُ رَبِّكَ يا محمدُ «ذِي الجَلالِ»، يعني: ذي العظمة «والإكْرَامِ»، يعني: ومَنْ له الإكرامُ من جميعِ خَلْقِه.

سُورَةُ الوَاقِعَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ۝٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه بقوله: «إِذَا وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ»: إذا نزلتْ صيحةُ القيامةِ، وذلك حين يُنفخ في الصورِ لقيامِ الساعة.

وقوله: «لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ»، يقول تعالى: ليس لوقعةِ الواقعةِ تكذيبٌ ولا مردوديةٌ ولا مَثْنَويةٌ، والكاذبةُ في هذا الموضعِ مصدر، مثل العاقبة والعافية.

وقوله: «خافِضَةٌ رَافِعَةٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: الواقعةُ حينئذٍ خافضةٌ، أقواماً كانوا في الدنيا، أعزّاءَ إلى نارِ الله.

وقوله: «رَافِعَةٌ»، يقولُ: رفعت أقواماً كانوا في الدنيا وُضَعاءَ إلى رحمةِ الله وجَنَّتِه. وقيل: خفضت فأسمعت الأدنى، ورفعت فأسمعت الأقصى.

وقوله: «إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا»، يقول تعالى ذِكْرُه: إذا زلزلتِ الأرضُ فحرّكت تحريكاً من قولهم السهمُ يرتجُّ في الغرض، بمعنى: يهتزُّ ويضطرب.

وقوله: «وَبُسَّتِ الجِبالُ بَسًّا»، يقول تعالى ذِكْرُه: فُتِّتَتِ الجبالُ فتاً، فصارت كالدقيقِ المبسوس، وهو المبلولُ، كما قال جَلَّ ثَناؤُهُ: «وَكانَتِ الجِبالُ كَثِيباً مَهِيلاً» والبَسيسةُ عند العرب: الدقيقُ والسَّويقُ تُلَتُّ وتُتَّخَذُ زاداً.

وقوله: «فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا»، اختلف أهلُ التأويل في معنى الهباء، فقال بعضهم: هو شعاعُ الشمسِ الذي يدخلُ من الكوَّةِ كهيئة الغبار.

وقال آخرون: هو رهج الدوابِّ.

وقال آخرون: هو ما تطايرَ من شررِ النارِ الذي لا عينَ له.

وقال آخرون: هو يَبِيسُ الشجرِ الذي تَذْرُوهُ الرياح.

وقد بيَّنا معنى الهباء في غير هذا الموضع، فأغنى عن إعادته في هذا الموضع[1].

وأما قوله: «مُنْبَثًّا» فإنه يعني: متفرّقاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وكنتم أيها الناسُ أنواعاً ثلاثة وضروباً.

وقوله: «فأصحَابُ المَيْمَنَةِ ما أصحَابُ المَيْمَنَةِ»، وهذا بيانٌ من الله عن الأزواجِ الثلاثة، يقول جَلَّ ثَنَاؤُهُ: وكنتم أزواجاً ثلاثة: أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة، والسابقون، فجعل الخبرَ عنهم، مُغْنياً عن البيانِ عنهم، على الوجهِ الذي ذكرنا، لدلالةِ الكلامِ على معناه، فقال: «فَأصحَابُ المَيْمَنَةِ

---

(١) في الآية ٢٣ من سورة الفرقان، ولو بيَّنَ اختياره هنا لكان أحسن. قال هناك: «والهباء هو الذي يُرى كهيئة الغبار إذا دخل ضوء الشمس من كوةٍ يحسبه الناظر غباراً ليس بشيءٍ تقبض عليه الأيدي ولا تمسه، ولا يرى ذلك في الظل».

ما أصْحَابُ المَيْمَنَةِ» يعجِّبُ نبيه محمداً منهم، وقال: «ما أصحَابُ اليَمِينِ» الذين يُؤخَذُ بهم ذات اليمين إلى الجنة، أيّ شيء أصحاب اليمين «وأصحَابُ المَشـأَمَةِ ما أصحَابُ المَشْأَمَةِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأصحابُ الشمال الذين يُؤخَذُ بهم ذات الشمال إلى النار، والعربُ تسمي اليدَ اليسرى: الشؤمىٰ.

وقوله: «والسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ» وهم الزوجُ الثالث، وهم الذين سَبقوا إلى الإيمانِ بالله ورسوله، وهم المهاجرونَ الأوّلون.

وقوله: «في جَنَّاتِ النَّعِيمِ»، يقولُ: في بساتين النعيم الدائم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝١٤ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ۝١٦ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩ وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: جماعةٌ من الأممِ الماضيةِ، وقليلٌ من أمةِ محمدٍ ﷺ، وهم الآخرونَ، وقيل لهم الآخرون: لأنهم آخرُ الأمم. «على سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ»، فوقَ سُرُرٍمنسوجةٍ، قد أُدْخِلَ بعضُها في بعضٍ، كما يُوضَنُ حلق الدرع بعضُها فوقَ بعض مضاعفة.

وقوله: «مُتَّكِئِينَ عليها مُتَقابلينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: متكئينَ على السُّرر الموضونةِ، متقابلين بوجوههم، لا ينظرُ بعضُهم إلى قفا بعضٍ.

وقوله: «يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يطوفُ على هؤلاءِ السابقينَ الذين قَرَّبهم الله في جناتِ النعيم، ولدانٌ على سنٍّ واحدةٍ، لا يتغيرونَ ولا يموتون.

الواقعة: ٢١

وقـوله: «بأكْوابٍ وأبارِيقَ» والأكوابُ: جمع كوبٍ، وهو من الأباريق ما اتسع رأسُه، ولم يكن له خرطومٌ.

وأما الأباريقُ: فهي التي لها عرى.

وقوله: «وكأسٍ مِنْ مَعِينٍ»، وكأس خمرٍ من شرابٍ معين، ظاهر العيون، جارٍ.

وقوله: «لا يُصَدَّعُونَ عَنْها»، يقولُ: لا تُصَدَّعُ رؤوسُهم عن شربها فتسكر.

وقوله: «وَلا يُنْزِفُونَ»، اختلفت القَرَأة في قراءته، فقرأت عامةُ قَرَأةِ المدينةِ والبصـرة «يُنْـزَفُـونَ» بفتـح الـزاي، ووجَّهوا ذلك إلى أنه لا تنزفُ عقولهم. وقرأته عامة قَرَأة الكوفة «لا يُنْزِفُونَ» بكسر الزاي بمعنى: ولا ينفدُ شرابهم.

والصـوابُ من القول في ذلك عندي أنهما قراءتان معروفتان صحيحتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارىءُ فمصيبٌ فيها الصواب.

واختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك على نحوِ اختلافِ القَرَأة فيه.

وقد بيَّنا الصوابَ من القولِ فيه في سورة الصافات[1]، فأغنى ذلك عن إعادته في هذا الموضع.

وقوله: «وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ويطوفُ هؤلاءِ الولدانُ المُخَلَّدُونَ على هؤلاءِ السابقينَ بفاكهةٍ من الفواكهِ التي يتخيرونها من الجنةِ لأنفسهم، وتَشْتَهِيها نفوسُهم. «وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ»، يقولُ: ويطوفونَ أيضاً عليهم بلحمِ طيرٍ مما يشتهونَ من الطيرِ الذي تشتهيه نفوسهم.

---

(١) الصافات: ٤٧.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٤ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ۝٢٦﴾

الحور جماعة حَوْراء: وهي النقيةُ بياضِ العينِ، الشديدةُ سوادها. والعِينُ: جمع عَيْناء، وهي النَّجْلاء العين في حُسْنٍ.

وقوله: «كأَمْثالِ اللُّؤْلُؤِ المَكْنُونِ»، يقولُ: هُنَّ في صفاء بياضهنَّ وحُسْنِهن، كاللؤلؤِ المكنونِ الذي قد صِينَ في كِنٍّ.

وقوله: «جَزاءً بِمَا كانُوا يَعْمَلُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ثواباً لهم من الله بأعمالهم التي كانوا يعملونها في الدنيا، وعوضاً من طاعتهم إياه.

وقوله: «لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَلا تأثِيماً»، يقولُ: لا يسمعونَ فيها باطلاً من القولِ ولا تأثيماً، يقولُ: ليس فيها ما يُؤثمهم.

وقوله: «إلاَّ قِيلاً سَلاماً سَلاماً»، يقولُ: لا يسمعونَ فيها من القولِ إلا قيلاً سلاماً: أي ٱسْلَمْ مما تَكْرَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ۝٢٧ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ۝٣١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «وأصحَابُ اليَمِينِ» وهم الذين يُؤخَذُ بهم يوم القيامة ذاتَ اليمين، الذين أُعطوا كُتُبَهم بأيمانِهم يا محمدُ «ما أصحابُ اليَمِينِ» أيّ شيء هُمْ وما لهم، وماذا أعدَّ لهم من الخيرِ، وقيل: إنهم أطفالُ المؤمنين.

ثم ابتدأ الخبرَ عَمَّا ذا أعدَّ لهم في الجنةِ، وكيف يكونُ حالُهم إذا هم دخلوها؟ فقال: هم: «في سِدْرٍ مَخْضُودٍ»، يعني: في ثمرِ سِدْرٍ مُوقَرٍ حملاً قد ذهبَ شوكُه.

وقوله: «وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ» أما القَرَأَة[1] فعلى قراءةِ ذلك بالحاء «وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ»، وكذا هو في مصاحف أهلِ الأمصار، ورُوي عن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه كان يقرأ «وَطَلْعٍ مَنْضُودٍ» بالعين.

وأما الطلح فإن المعمر بن المثنى كان يقول: هو عندَ العربِ شجرٌ عِظامٌ كثيرُ الشوك[2].

وأما أهلُ التأويل من الصحابةِ والتابعينَ فإنهم يقولون: إنه هو الموز.

وقوله: «مَنْضُودٍ»، يعني: أنه قد نُضِدَ بعضُه على بعض، وجُمِعَ بعضُه إلى بعض.

وقوله: «وَظِلٍّ مَمْدُودٍ»، يقولُ: وهم في ظلٍّ دائمٍ لا تنسخه الشمسُ فتذهبه، وكلُّ ما لا انقطاعَ له فإنه ممدود.

وقوله: «وَماءٍ مَسْكُوبٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وفيه أيضاً ماءٌ مسكوبٌ، يعني: مصبوبٌ سائلٌ في غير أخدود.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾

---

(١) في المطبوع: «الفرَّاء» مُصحَّف.

(٢) مجاز القرآن: ٢/٢٥٠.

يقولُ: «وَفاكِهَةٍ كَثِيرةٍ، لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وفيها «فاكِهَة كَثِيرَة» لا ينقطع عنهم شيء منها أرادوهُ في وقتٍ من الأوقات، كما تنقطعُ فواكهُ الصيفِ في الشتاء في الدنيا، ولا يمنعهم منها، ولا يحولُ بينهم وبينها شوكٌ على أشجارها، أو بُعْدها منهم، كما تمتنعُ فواكهُ الدنيا من كثيرٍ ممن أرادها ببعدها على الشجرةِ منهم، أو بما على شجرها من الشوكِ، ولكنها إذا اشتهاها أحَدُهم وقعتْ في فيه أو دَنَتْ منه حتى يتناولها بيده.

وقـوله: «وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولهم فيها فُرُشٌ مرفوعةٌ طويلة، بعضُها فوقَ بعض، كما يقال: بناء مرفوع.

وقوله: «إنَّا أنْشأناهُنَّ إنْشاءً، فجَعَلْناهُنَّ أبْكاراً عُرُباً»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنّـا خلقناهن خَلْقاً فأوجدناهنَّ؛ قال أبو عبيدة[1]: يعني بذلك: الحور العين اللاتي ذَكَرَهُنَّ قَبْلُ، فقال: «وَحُورٌ عِينٌ كأمْثالِ اللُّؤْلُؤِ المَكْنُونِ، إنَّا أنْشأناهُنَّ إنْشاءً».

وقوله: «فجَعَلْناهُنَّ أبْكاراً»، يقولُ: فَصَيَّرْنَاهُنَّ أبكاراً عَذارى بعد إذْ كُنَّ عجائز في الدنيا عُمشاً رُمْصاً[2].

وقوله: «عُرُباً»، يقول تعالى ذِكْرُه: فجعلناهنَّ أبكاراً غَنِجاتٍ مُتَحَبِّباتٍ إلى أزواجهنَّ يُحْسِنَّ التَّبَعُّلَ وهي جمع، واحدهن عَرُوب، كما واحدُ الرُّسُلِ رسولٌ، وواحدُ القطف قَطُوف.

وقوله: «أتْرَاباً»، يعني: أنهنّ مستويات على سِنٍّ واحدة، واحدتهنّ تِرْب، كما يقال: شَبَهٌ وأشْباه.

---

(١) مجاز القرآن: ٢/٢٥١.

(٢) الرَّمَص: وسخٌ يجتمع في مُوق العين، فإذا سال فهو غمص.

وقـولـه: «لِأَصحَـابِ اليَمِينِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أنشأنا هؤلاءِ اللواتي وَصَفَ صِفَتَهُنَّ من الأَبكارِ للذين يُؤخَذُ بهم ذاتَ اليمينِ من موقِفِ الحسابِ إلى الجنة.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الذين لهم هذه الكرامةُ التي وصفَ صِفَتَها في هذه الآياتِ ثُلَّتان، وهي جماعتان وأمتان وفرقتان: «ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ»، يعني: جماعة من الذين مضوا قبلَ أمةِ محمدٍ ﷺ، «وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ»، يقولُ: وجماعةٌ من أمةِ محمدٍ ﷺ.

وقوله: «وَأَصحَابُ الشِّمالِ ما أصحَابُ الشِّمالِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: مُعَجِّباً نبيه محمداً ﷺ من أهلِ النار: «وأصحَاب الشِّمالِ» الذين يُؤخَذُ بهم ذات الشمال من موقفِ الحسابِ إلى النارِ «ما أصحَابُ الشِّمالِ» ماذا لهم، وماذا أعدَّ لهم.

وقوله: «فِي سَمُومٍ وحَمِيمٍ»، يقولُ: هُمْ في سَموم جهنم وحَميمها.

وقوله: «وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وظلٍّ من دُخانٍ شديدِ السواد، والعربُ تقول لكلِّ شيء وصَفْتَهُ بشدَّةِ السواد: أسود يَحْموم.

وقوله: «لا بارِدٍ وَلا كَرِيمٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ليس ذلك الظلُّ ببارِدٍ، كبَـردِ ظِلالِ سائـرِ الأشياء، ولكنه حارٌّ، لأنه دخانٌ من سعيرِ جهنمَ، وليس

بكريمٍ لأنه مؤلمٌ مَنِ استظلَّ به، والعربُ تتبع كلَّ مَنْفِيٍّ عنه صفة حَمْدٍ نفي الكرمِ عنه، فتقول: ما هذا الطعامُ بطيبٍ ولا كريم، وما هذا اللحمُ بسمينٍ ولا كريم، وما هذه الدارُ بنظيفةٍ ولا كريمة.

وقوله: «إنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلكَ مُتْرَفِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ هؤلاءِ الذين وَصَفَ صفتهم من أصحابِ الشمال، كانوا قبل أنْ يُصيبهم من عذابِ الله ما أصابهم في الدنيا مُتْرَفِينَ، يعني: مُنَعَّمِينَ.

وقوله: «وكانُوا يُصِرونَ على الْحِنْثِ العَظِيمِ»، يقول جَلَّ ثناؤه: وكانوا يقيمون على الذَّنْبِ العظيم، وهو الشرك بالله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝٤٧ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ۝٤٨ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٥٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وكانوا يقولون كفراً منهم بالبعثِ، وإنكاراً لإحياءِ الله خَلْقَهُ من بعدِ مماتِهم، أئِذَا كُنَّا تراباً في قبورنا من بعد مماتنا، وعظاماً نَخِرَةً، أئِنَّا لمبعوثونَ منها أحياء كما كُنَّا قبلَ الممات، أَوَ آباؤنا الأوّلون الذين كانوا قبلنا، وهم الأوّلون، يقولُ: الله لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ»، يا محمدُ، لهؤلاءِ: إنَّ الأوّلين من آبائكم والآخرين منكم ومن غيركم، لمجموعونَ إلى ميقاتِ يوم معلوم، وذلك يوم القيامة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ۝٥١ لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝٥٢ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝٥٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لأصحابِ الشمال: ثم إنكم أيها الضالونَ عن طريقِ الهدى، المُكَذِّبُونَ بوعيدِ الله وَوَعْدِهِ، لآكلونَ من شجرٍ من زقوم.

وقوله: «فَمالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ»، يقولُ: فمالئونَ من الشجرِ الزَّقوم بطونَهم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فشاربُ أصحابُ الشمالِ على الشجر من الزقُّومِ إذا أكلوه، فملأوا منه بطونَهم من الحميمِ الذي انتهى غَلْيُه وحَرُّهُ. وقد قيل: إن معنى قوله: «فَشارِبونَ عَلَيْهِ»: فشاربونَ على الأكلِ من الشجر من الزقوم.

وقـوله: «فَشارِبُونَ شُرْبَ الهِيمِ»، الهيم: جمع أهيم، والأنثى هيماء؛ والهيم: الإبلُ التي يُصيبها داءٌ فلا تَرْوى من الماء. ومن العربِ من يقول: هائم، والأنثى هائمة، ثم يجمعونه على هِيم، كما قالوا: عائطٌ وعِيطٌ، وحائِلٌ وحول؛ ويقال: إنَّ الهيم: الرمل، بمعنى أنَّ أهلَ النارِ يشربونَ الحميمَ شُرْبَ الرملِ الماءَ.

وقوله: «هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الذي وصفتُ لكم أيهـا النـاسُ، أن هؤلاءِ المكذِّبينَ الضالينَ يأكلونه من شجرٍ من زقوم، يشربونَ عليه من الحميمِ، هو نُزُلُهُمْ الذي يُنْزِلُهم رَبُّهم يومَ الدين، يعني: يومَ يدينُ الله عبادَهُ.

وقوله: «نَحْنُ خَلَقْناكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه لكفارِ قريشٍ والمكـذِّبينَ بالبعثِ: نحنُ خلقنـاكم أيها الناسُ ولم تكونوا شيئاً، فأوجدناكم

بشراً، فَهَلاَّ تُصَدِّقُونَ مَنْ فعل ذلك بكم في قِيلِه لكم: إنه يبعثكم بعد مماتِكم وبِلاَكُمْ في قبوركم، كهيأتِكُمْ قبل مماتكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ۝٥٩ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لهؤلاءِ المكذِّبينَ بالبعثِ: أفرأيتم أيها المُنكرون قُدرةَ الله على إحيائِكم من بعد مماتكم النطف التي تمنون في أرحامِ نسائِكم، أأنتم تخلقونَ تلكَ أم نحنُ الخالقون.

وقوله: «نَحْنُ قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ المَوْتَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: نحنُ قَدَّرْنَا بينكم أيها الناسُ الموتَ، فعجَّلناه لبعضٍ، وأخَّرناه عن بعضٍ إلى أجلٍ مسمى.

وقـولـه: «وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ، عَلى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: «وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ» أيها الناسُ في أنفسكم وآجالكم، فَمُفْتَاتٌ علينا فيها في الأمرِ الذي قَدَّرْنَاهُ لها من حياةٍ وموتٍ بل لا يتقدمُ شيءٌ من أجلنا، ولا يتأخرُ عنه.

وقوله: «على أنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ»، يقولُ: على أنْ نُبَدِّلَ منكم أمْثالَكُمْ بعد مَهْلِكِكُمْ فنجيء بآخرينَ من جِنْسِكم.

وقـوله: «وَنُنْشِئَكُمْ فِيما لا تَعْلَمُون»، يقولُ: ونُبدلَكُمْ عَمَّا تعلمونَ من أنفسكم فيما لا تعلمونَ منها من الصورِ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد علمتم أيها الناسُ الإحداثةَ الأولى التي أَحْدَثْنَاكُمُوهَا، ولم تكونوا من قبل ذلك شيئاً.

وقوله: «فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فَهَلَّا تذكرون أيها الناسُ، فتعلموا أن الذي أنشأكم النشأة الأولى، ولم تكونوا شيئاً، لا يتعذَّرُ عليه أنْ يُعيدَكُمْ من بعد مماتِكم وفنائِكم أحياء.

وقوله: «أفرأيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أفرأيتم أيها الناسُ الحرثَ الذي تحرثونه «أأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ»، يقولُ: أأنتم تُصَيِّرُونَهُ زرعاً، أم نحن نجعله كذلك؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَوْنَشَاءُ لَجَعَلْنَهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لو نشاءُ جعلنا ذلكَ الزرعَ الذي زرعناهُ حُطاماً، يعني: هشيماً لا يُنتفعُ به في مطعمٍ وغذاء.

وقوله: «فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك: فقال بعضهم: معنى ذلك: فظلتم تتعجبونَ مما نزل بكم في زرعكم من المصيبةِ باحتراقِه وهلاكِه.

وقال آخرون: معنى ذلك: فظلتم تَلَاوَمُونَ بينكم في تفريطِكم في طاعةِ رَبكم جَلَّ ثَنَاؤُهُ، حتى نالكم بما نالكم من إهلاكِ زَرْعِكم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: فظلتم تندمونَ على ما سَلَفَ منكم في معصية الله التي أوجبَ لكم عقوبته، حتى نالكم في زرعكم ما نالكم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: فظلتم تعجبونَ.

وأوْلى الأقوال في ذلك بالصواب قولُ مَنْ قال: معنى «فَظَلْتُمْ»: فأقمتم تعجبونَ مما نزلَ بزرعكم، وأصلُه من التَّفَكُّهِ بالحديثِ إذا حَدَّثَ الرجلُ الرجلَ بالحديثِ يُعْجَبُ منه، ويلهى به، فكذلك ذلك، وكأنَّ معنى الكلام: فأقمتم تتعجبون يُعَجِّب بعضُكم بعضاً مما نزلَ بكم.

وقوله: «إِنَّا لَمُغْرَمُونَ»، اختلف أهلُ التأويل في معناه: فقال بعضهم: إنَّا لمولَّعٌ بنا.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: إنا لَمُعَذَّبُونَ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: إنا لَمُلقَّوْنَ للشرِّ.

وأوْلى الأقـوال في ذلك بالصوابِ قولُ مَنْ قال: معناه: إنا لمعذَّبُونَ، وذلك أنَّ الغرامَ عند العرب: العذاب.

وقوله: «بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ»، يعني بذلك تعالى ذِكْرُه أنهم يقولون: ما هلكَ زَرْعُنَا وأُصِبْنَا به من أجلِ «إِنَّا لَمُغْرَمُونَ» ولكنا قومٌ محرومون، يقولُ: إنهم غير مجدودينَ، ليس لهم جَدٌّ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝٦٩ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۝٧٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أفرأيتم أيها الناسُ الماءَ الذي تشربون، أأنتم أنزلتموهُ من السحابِ فوقَكم إلى قرارِ الأرضِ، أم نحنُ مُنْزِلُوهُ لكم.

وقوله: «لَوْ نَشاءُ جَعَلْنَاهُ أُجاجاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: لو نشاء جعلنا ذلك الماءَ الذي أنزلناه لكم من المُزْنِ مِلحاً، وهو الأجاجُ، والأجاج من الماء: ما اشتدَّتْ مُلوحتُه، يقول: لو نشاء فعلنا ذلك به فلم تنتفعوا به في شربٍ ولا

غرسٍ، ولا زرع.

وقوله: «فَلَوْلا تَشْكُرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فَهَلاَّ تشكرونَ رَبَّكم على إعطائِه ما أعطاكم من الماءِ العذبِ لشربِكُمْ ومنافِعكم، وصلاحِ معايشكم، وتركه أنْ يجعله أُجاجاً لا تنتفعونَ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أفرأيتم أيها الناسُ النارَ التي تستخرجونَ من زَنْدِكم. «أأَنْتُمْ أنْشَأْتُم شَجَرَتَها»، يقول: أأنتم أحدثتم شجرتها واخترعتم أصْلَها «أمْ نَحْنُ المُنْشِئُونَ؟»، يقولُ: أم نحن اخترعنا ذلك وأحدثناه؟

وقـولـه: «نَحْنُ جَعَلْنـاها تَذْكِرَةً»، يقولُ: نحنُ جعلنا النارَ تذكرةً لكم تذكرونَ بها نارَ جهنمَ، فتعتبرونَ وتَتَّعِظُونَ بها.

وقوله: «وَمَتاعاً لِلْمُقْوِينَ»، اختلف أهلُ التأويل في معنى المُقْوِينَ، فقال بعضهم: هم المسافرونَ.

وقال آخرون: عُنِي بالْمُقْوِين: المستمتعونَ بها.

وقال آخرون: بل عُنِي بذلك: الجائعون.

وأَوْلى الأقـوالِ في ذلـك بالصـوابِ عنـدي قولُ مَنْ قال: عُنِي بذلك المسافر الذي لا زادَ معه، ولا شيءَ له، وأصله من قولهم: أقوتِ الدارُ: إذا خَلَتْ من أهلِها وسكانِها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: فَسَبِّحْ يا محمدُ بذكرِ رَبِّك العظيم، وتسميته.

وقوله: «فَلا أُقسِمُ بِمَوَاقعِ النُّجُومِ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويله.

فقال بعضهم: عُنِيَ بقوله: «فَلا أُقْسِمُ»: أقسم[1].

وقال بعضُ أهل العربية: معنى قوله: «فَلا» فليسَ الأمرُ كما تقولون ثم استأنفَ القسمَ بَعْدُ فقيل: أُقسم[2].

وقوله: «بِمَواقعِ النُّجُومِ»، اختلف أهلُ التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: معناه: فلا أقسم بمنازلِ القرآنِ، وقالوا: أُنْزلَ القرآنُ على رسولِ الله ﷺ نجوماً متفرِّقة.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: فلا أقسمُ بمساقطِ النجوم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: بمنازلِ النجوم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: بانتشارِ النجومِ عند قيامِ الساعة.

وأَوْلى الأقوال في ذلك بالصوابِ قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: فلا أقسم بمساقطِ النجوم ومغايبها في السماء. وذلك أنَّ المواقعَ جمعُ موقعٍ، والموقع المَفعل، مِنْ وقع يقع موقعاً، فالأغلبُ من معانيهِ والأظهرُ من تأويله ما قلنا في

(١) يعني: أنها دخلت توكيداً.

(٢) أي: أنَّ «لا» هنا على أصلها.

ذلك، ولذلك قلنا: هو أولى معانيهِ به.

وقولـه: «وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإنَّ هذا القسمَ الذي أقسمتُ لَقَسَمٌ لو تعلمونَ ما هو، وما قدره، قَسَمٌ عظيم من المؤخَّرِ الذي معناهُ التقديمُ، وإنما هو: وإنه لقسم عظيم لو تعلمونَ عِظَمَهُ.

وقوله: «إِنَّهُ لَقُرآنٌ كَرِيمٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فلا أقسمُ بمواقعِ النجومِ أنَّ هذا القرآنَ لقرآنٌ كريم، والهاء في قوله: «إنه» من ذِكْرِ القرآن.

وقوله: «فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هو في كتابٍ مَصُونٍ عندَ اللهِ لا يَمسُّه شيءٌ من أذىً من غبارٍ ولا غيره.

وقـولـه: «لا يَمَسُّهُ إلاَّ المُطَهَّرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لا يمسُّ ذلك الكتابَ المكنونَ إلا الذين قد طهَّرهم اللهُ من الذنوب.

والله جَلَّ ثَنَاؤُهُ، أخبر أنه لا يمسُّ الكتابَ المكنونَ إلا المطهرونَ فَعَمَّ بخبرهِ المطهرينَ، ولم يخصصْ بعضاً دونَ بعض، فالملائكةُ من المطهرين، والـرسـل والأنبياء من المطهرين وكُلُّ مَنْ كان مطهراً من الذنوب، فهو ممن استثني، وعُنِيَ بقوله: «إلا المُطَهَّرُونَ»[1].

وقـوله: «تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ العالمِينَ»، يقولُ: هذا القرآنُ تنزيلٌ من رَبِّ العالمين، نَزَّلَهُ من الكتابِ المكنون.

---

(١) استدل بعض الفقهاء بهذه الآية فقالوا: «لا يمسه إلا المطهرون» أي: من الجنابة والحدث، واحتجوا في ذلك بما رواه مالك في «الموطأ» عن عبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، أنَّ في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم أنْ لا يمسَّ القرآن إلا طاهر (٢٣٤) وهو حديث مرسل، روي موصولاً بطرق ضعيفة.
قال ابن كثير: وهو صحيح بمجموع طرقه. والكتاب المذكور ساقه ابن حبان في صحيحه (٦٥٥٩) وفيه هذا، فانظر تعليق محققه عليه، فقد ساق له شواهد قد تحسنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أفبهذا القرآنِ الذي أنبأتُكم خبرَهُ، وقصصتُ عليكم أمرَهُ أيها الناس أنتم تُلِينونَ القولَ للمكذِّبينَ به، ممالأةً منكم لهم على التكذيبِ به والكفر.

وقوله: «وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ»، يقولُ: وتجعلونَ شُكْرَ اللهِ على رزقِه إياكم التكذيب، وذلك كقولِ القائلِ الآخر: جعلتَ إحساني إليكَ إساءةً منكَ إليَّ، بمعنى: جعلتَ شكر إحساني، أو ثوابَ إحساني إليكَ إساءةً منكَ إليَّ.

وقوله: «فَلَوْلا إذا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فَهلَّا إذا بلغتِ النفوسُ عند خروجِها من أجسادِكم أيها الناسُ حَلاَقِيمَكُم «وأَنْتُمْ حِينَئِذ تَنْظُرُونَ»، يقولُ: ومَنْ حَضَرَهُمْ منكم من أهلِيهم حينئذٍ إليهم ينظر.

وخرج الخطاب ها هنا عاماً للجميع، والمراد به: مَنْ حَضَرَ الميتَ من أهلِه وغيرهم، وذلك معروفٌ من كلام العرب وهو أنْ يخاطبَ الجماعة بالفعل، كأنهم أهلُه وأصحابُه، والمراد به بعضُهم غائباً كان أو شاهداً، فيقول: قتلتم فلاناً، والقاتلُ منهم واحدٌ، إما غائب، وإما شاهد. وقد بينَّا نظائرَ ذلك في مواضع كثيرة من كتابنا هذا.

يقولُ: «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ»، يقولُ: ورُسُلُنَا الذين يقبضونَ رُوحَهُ أقربُ إليه منكم، «وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فَهَلَّا إنْ كنتم أيها الناسُ غير مَدِينينَ.

واختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «مَدِينِينَ»، فقال بعضهم: غيرَ محاسَبينَ.

وقال آخرون: معناه: غير مبعوثينَ.

وقال آخرون: بل معناه: غير مجزيينَ بأعمالِكم.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ قول مَنْ قال: غير محاسبينَ فمجزيينَ بأعمالِكم من قولهم: كما تَدينُ تُدان، ومن قول الله: «مالكِ يَوْمِ الدِّينِ».

وقوله: «تَرْجِعُونَها إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»، يقولُ: تردّون تلكَ النفوسَ من بعدِ مصيرِهَا إلى الحلاقيمِ إلى مُسْتَقَرِّها من الأجسادِ إنْ كنتم صادقين، إن كنتم تمتنعونَ من الموتِ والحسابِ والمجازاة، وجواب قوله: «فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ»، وجواب قوله: «فَلَوْلا إنْ كُنْتُمْ غَيرَ مَدِينِينَ» جوابٌ واحد وهو قوله: «تَرْجِعُونَها» وذلك نحو قوله: «فإمَّا يأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً، فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ» جعل جوابَ الجزاءين جواباً واحداً.

وقوله: «فأمَّا إنْ كانَ مِنَ المُقَرَّبينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحانٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فأما إن كان الميتُ من المقرّبين الذين قرّبهم الله من جوارِه في جنانه «فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ»، يقولُ: فله رَوْحٌ وريحان.

وعنى بالرَّوْح: الفرح والرحمة والمغفرة، وأصله من قولهم: وجدت رَوْحاً: إذا وجدَ نسيماً يستروحُ إليه من كرْبِ الحرِّ. وأما الريحان، فإنه عندي الريحانُ الذي يتلقى به عند الموت، فلم يكن أحدٌ من المقربين يفارقُ الدنيا حتى يؤتى بغصنٍ من ريحانِ الجنة فيشمه، ثم يُقبض، لأنَّ ذلك الأغلب والأظهر من معانيه.

وقوله: «وَجَنَّةُ نَعِيمٍ»، يقولُ: وله مع ذلك بستانُ نعيمٍ يتنعمُ فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٩١ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ۝٩٣ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ۝٩٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وأمَّا إنْ كانَ» الميتُ «مِنْ أصحَابِ اليَمِينِ» الذين يُؤخَذُ بهم إلى الجنةِ من ذاتِ أيمانِهم «فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أصحَابِ اليَمِينِ»، يقولُ: فسلامٌ لكَ إنكَ من أصحابِ اليمين، فَسلِمْتَ من عذابِ الله، ومما تكرهُ، لأنك من أصحابِ اليمين.

وقوله: «وأمَّا إنْ كانَ مِنَ المُكَذِّبينَ الضَّالِّينَ، فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ»، يقول تعالى: وأما إنْ كان الميتُ من المكذِّبين بآياتِ الله، الجائرينَ عن سبيلِه، فله نُزُلٌ من حميمٍ قد أُغْليَ حتى انتهى حَرُّهُ، فهو شرابه. «وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ»، يقولُ: وحريقُ النار يُحْرَقُ بها؛ والتصليةُ: التفعلة من صَلَّاه الله النارَ فهو يُصْليه تَصْليةً، وذلك إذا أحرقه بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ۝٩٥ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ۝٩٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ هذا الذي أخبرتُكم به أيها الناسُ من الخبرِ عن المُقَرَّبينَ وأصحابِ اليمين، وعن المكذِّبين الضالينَ، وما إليهِ صائرةٌ أمورهم «لَهُوَ حَقُّ اليَقِينِ»، يقولُ: لهو الحقُّ من الخبرِ اليقين لاشكَّ فيه.

وقوله: «فَسَبِّحْ باسْم رَبِّكَ العَظِيمِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فسبح بتسميةِ رَبِّكَ العظيم بأسمائِه الحسنى.

سُورَةُ الحَدِيدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى:

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «سَبَّحَ للهِ مافي السَّمَوَاتِ والأرْضِ» أن كلَّ مادُونَهُ من خَلْقِه يسبحه تعظيماً له، وإقراراً بربوبيته، وإذعاناً لطاعته، كما قال جلّ ثناؤه: «تُسبِّحُ لَهُ السَّمواتُ السَّبْعُ والأرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وإنْ مِنْ شَيْءٍ إلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاتَفقهُون تسْبِيحَهُمْ» [الاسراء: ٤٤].

وقوله: «وَهُوَ العَزيزُ الحَكيمُ»، يقولُ: ولكنه جلَّ جلاله العزيزُ في انتقامهِ مِمَّنْ عصاه، فخالفَ أمره مما في السموات والأرضِ من خلقه «الحَكيم» في تَدْبيرِهِ أمرهم، وتصريفه إياهم فيما شاءَ وأحبَّ.

وقولـه: «لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأرْضِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: له سلطانُ السمواتِ والأرضِ وما فيهنَّ ولا شيء فيهنَّ يقدرُ على الامتناعِ منه، وهو في جميعهم نافذُ الأمر، ماضي الحكم.

وقوله: «يُحْيِي ويُميتُ»، يقول: يُحيي مايشاءُ من الخَلْقِ بأنْ يوجده كيف يشاء، وذلك بأنْ يحدثَ من النطفةِ الميتةِ حيواناً بنفخِ الروحِ فيها من بعد تاراتٍ يُقَلِّبُهَا فيها، ونحوِ ذلك من الأشياء، ويُميتُ مايشاء من الأحياء بعد

الحياةِ بعد بلوغِه أجَلَهُ فيُفْنِيه «وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»، يقول جَلَّ ثناؤُه: وهو على كل شيء ذُو قدرة، لايتعذَّرُ عليه شيءٌ أرادَهُ، من إحياءٍ وإماتةٍ، وإعزازٍ وإذلالٍ، وغير ذلك من الأمور.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾

يقول تعالى ذكره: «هو الأَوَّل» قبل كل شيءٍ بغير حَدٍ «والآخر»، يقول: والاخر بعد كل شيءَ بغير نهاية. وإنما قيل ذلك كذلك، لأنه كان ولاشي موجودٌ سِواه، وهو كائنٌ بعد فناءِ الأَشياء كلها، كما قال جَلَّ ثناؤُه: «كُلُّ شَيْءٍ هالكٌ إلاَّ وَجْهَهُ».

وقوله: «والظَّاهِرُ» يقول: وهو الظاهر على كلِّ شيءٍ دونه، وهو العالي فوق كل شيء، فلا شيءَ اعلى منـه «والبـاطِنُ»، يقول: وهو الباطن جميع الأَشياء، فلا شيء أقرب الى شيء منه، كما قال: «وَنَحْنُ أقْرَبُ إليهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ» [ق: ١٦].

وقوله: «وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وهو بكلِّ شيءٍ ذُو علمٍ، لايَخْفى عليه شيء، فلا يعزبُ عنه مثقالُ ذرّةٍ في الأَرض ولا في السماءِ ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، إلا في كتابٍ مبين.

وقوله « هُو الذَّي خَلَقَ السَّمواتِ والأرْضَ في سِتَّةِ أيَّامٍ »، يقول تعالى ذِكْرُه: هو الذي أنشأ السمواتِ السبع والأرضينَ، فدبرهُنَّ وما فيهنَّ، ثم استوى على عرشهِ، فارتفعَ عليهِ وعَلاَ.

وقوله: «يَعلَم مايَلِج في الأرْضِ وَما يَخرجُ مِنْها»، يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن صفته، وأنه لايخفى عليه خافية من خلقه: يَعْلَمُ ما يَلِجُ في الأرْضِ» من خَلْقِه. يعني بقوله: «يَلِجُ»: يدخُل «وَما يَخْرُج مِنها، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّماء» إلى الأرض من شيءٍ قطّ «وَمَا يَعْرُجُ فيها» فيصعد إليها من الأَرض. «وهو مَعَكُمْ أينما كُنْتُمْ»، يقول: وهو شاهدٌ لكم أيها الناسُ أينما كنتم يعلمكم، ويعلمُ أعمالَكُمْ، ومُتَقَلَّبَكُمْ ومَثْواكُمْ. وهو على عرشهِ فوقَ سمواتِهِ السبعْ. «وَالله بِما تَعملون بَصير»، يقول: والله بأعمالكم التي تعملونها من حَسَنٍ وسيّئٍ، وطاعةٍ ومعصيةٍ، ذُو بصرٍ، وهـو لهـا مُحْصٍ، ليجـازي المحسن منكم بإحسـانه، والمسيءَ بإساءِته، يَومَ تُجزَى كُلُّ نَفْسٍ بما كَسَبتْ، وَهُمْ لايُظلمون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: له سلطانُ السمواتِ والارضِ نافذٌ في جميعهنَّ، وفي جميع مافيهنَّ أمرُهُ «وَإلى الله تُرْجَعُ الأُمورُ»، يقول جَلَّ ثَناؤُهُ: والى الله مصيرُ أمورِ جميعِ خَلْقِهِ، فيقضي بينهم بحكمهِ.

وقـولـه: «يُولِجُ اللَّيْلَ في النَّهار» يعني بقولِهِ: «يُولِجُ اللَّيْلَ في النَّهار» يدخل مانقص من ساعات اللَّيلِ في النهارِ، فيجعلهُ زيادةً في ساعاتهِ «وَيُولِجُ النَّهار في اللَّيْل» يقول: ويدخل مانقص من ساعاتِ النهارِ في اللَّيل، فيجعلهُ زيادةً في ساعاتِ اللَّيل.

وقوله: «وَهُوَ عَلِيمٌ بذاتِ الصدُّورِ»، يقول وهو ذُو عِلمٍ بضمائرِ صدورِ عبـادِهِ، ومـا عزمتْ عليهِ نُفوسُهم من خيرٍ أو شرٍّ، أو حدثت بهما أنفسهم، لايخفَىٰ عليه من ذلك خافية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: آمنوا باللهِ أيها الناسُ، فأقِرُّوا بوحدانيتِهِ وبرسولِهِ محمدٍ ﷺ فصدِّقُوهُ فيما جاءكم به من عندِ الله واتبعوه، وأنفقوا مما جعلكم مُستخلَفِينَ فيه، يقول جَلَّ ثناؤه: وأنفقوا مما خَوَّلَكُمُ الله من المالِ الذي أورثكم عَمَّنْ كان قبلكم، فجعلكم خلفاءهم فيه في سبيلِ الله.

وقوله: «فالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وأنْفَقُوا» يقول: فالذين آمنوا بالله ورسوله منكم أيها الناسُ وأنفقوا مما خولهم اللهُ عَمَّنْ كان قبلهم ورزقهم من المال في سبيلِ الله «لَهُمْ أجْرٌ كَبِيرٌ»، يقول: لهم ثوابٌ عظيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومالكم لاتؤمنونَ بالله، وما شأنكم أيها الناسُ لاتُقِرُّونَ بوحدانيةِ الله، ورسولِهِ محمدٍ ﷺ يدعوكم إلى الاقرارِ بوحدانيتِه، وقد أتاكم من الحُججِ على حقيقةِ ذلك، ماقطعَ عُذْرَكُمْ، وأزال الشكَّ من قلوبكم، وقد أخذ ميثاقكم، قيل: عَنَى بذلك، وقد أخذ منكم رَبُّكم ميثاقكم في صلبِ آدم، بأنَّ الله رَبُّكم لا إله لكم سواه.

وقوله: «إنْ كُنْتُمْ مؤْمِنِينَ» يقول: إنْ كنتم تريدونَ أنْ تؤمنوا بالله يوماً من الأيام، فالآن أحرى الأوقات، أنْ تؤمنوا لتتابعِ الحُججِ عليكم بالرسولِ وإعلامِهِ، ودعائِهِ إياكم الى ماقد تقرَّرتْ صِحَّتُهُ عندكم بالإعلامِ والأدلةِ والميثاقِ المأخوذِ عليكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الله الذي يُنَزِّلُ على عبدهِ محمدٍ «آياتٍ بَيناتٍ» يعني: مفصَّلات «لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ»، يقول جَلَّ ثناؤه: ليخرجكم أيها الناسُ من ظُلمةِ الكفرِ الى نورِ الإيمان، ومن الضلالةِ الى الهُدى.

وقوله: «وَإنَّ اللهَ بِكم لَرءوفٌ رَحِيمٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإنَّ الله بإنزالهِ على عبدِه ما أنزلَ عليه من الآياتِ البيِّناتِ لهدايتكم، وتبصيركم الرشادَ، لَذُو رأفةٍ بكم ورحمة، فمن رأفتهِ ورحمتهِ بكم فَعَلَ ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١٠﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: ومالكم أيها الناسُ أنْ لاتنفقوا مما رزقَكم اللهُ في سبيلِ الله وإلى الله صائرٌ أموالكم إنْ لم تُنفِقوها في حياتِكم في سبيل الله، لأنَّ له ميراث السمواتِ والأرضِ، وإنما حَثَّهم جَلَّ ثَناؤهُ بذلك على حظهم، فقال لهم: أنفقوا أموالَكُمْ في سبيلِ الله ليكون ذلكم لكم ذُخْراً عند الله من قبل أنْ تموتوا، فلا تقدروا على ذلك، وتصيرُ الأموال ميراثاً لمن له السمواتُ والأرض.

وقوله: «لايسْتَوِي مِنْكُمْ مَن أنْفَقَ مِن قَبْلِ الفَتْح وقَاتَلَ».

اختلف أهلُ التأويلِ في تأويلِ ذلك، فقال بعضهم: معناه: لايستوي

منكم أيها الناسُ مَنْ آمن قبلَ فتحِ مكةَ وهاجرَ.

وقال آخرون: عنى بالفتح: فتحَ مكة، وبالنفقةِ: النفقةَ في جهادِ المشركين.

وقال آخرون: عنى بالفتح في هذا الموضع: صُلْحَ الحديبية.

وأَوْلىٰ الأقوال في ذلك بالصواب عندي أن يقال: معنى ذلك: لايستوي منكم أيها الناسُ مَنْ أنفقَ في سبيلِ الله من قبل فتح الحُديبية وقاتل المشركينَ، بمن أنفقَ بعد ذلك وقاتل. وترَكَ ذِكْر من أنفقَ بعد ذلك وقاتل استغناءً بدلالةِ الكلامِ الذي ذُكِرَ عليه من ذِكْرِهِ: «أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجةً مِنَ الَّذين أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقـاتَلُوا». يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاء الذينَ انفقوا في سبيل الله من قبل فتحِ الحديبية، وقاتلوا المشركينَ أعظمُ درجة في الجنة عند الله من الذين أنفقوا من بعد ذلك، وقاتلوا.

وقوله: «وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكلُّ هؤلاء الذين أنفقوا من قبل الفتحِ وقاتلوا، والذين أنفقوا من بَعْدُ وقاتلوا، وَعَدَ اللهُ الجنةَ بإنفاقِهم في سبيلِهِ، وقتالِهِمْ أعداءَهُ.

وقولِهِ: «واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والله بما تعملونَ من النفقةِ في سبيلِ الله، وقتالِ أعدائهِ، وغيرِ ذلك من أعمالكم التي تعملون، خبيرٌ لايَخْفَى عليه منها شيءٌ، وهو مُجازِيكم على جميعِ ذلك يومَ القيامة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: من هذا الذي ينفقُ في سبيلِ الله في الدنيا محتسباً في نفقته مبتغياً ما عندَ الله، وذلك هو القرضُ الحَسَنُ، يقول: فيضاعف له رَبُّه قَرْضَهُ ذلك الذي أقرضه، بإنفاقِهِ في سبيلِهِ، فيجعل له بالواحدةِ سبعَ مئةٍ.

«وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ»، يقول: وله ثوابٌ وجزاءٌ كريمٌ، يعني بذلك الأَجر: الجنة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾

وقوله جَلَّ ثناؤه: وكلًّا وَعَدَ اللهُ الحسنى يومَ تَرونَ المؤمنينَ والمؤمناتِ يسعىٰ ثوابُ إيمانِهم وعملهم الصالح بين أيديهم، وفي أيمانِهم كُتُبُ أعمالِهم تتطايرُ.

وقوله: «بُشْرَاكم اليَوْمَ جَنَّاتٌ تَجرِي من تَحْتِهَا الأَنهارُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يقـال لهم: بشارتكم اليومَ أيها المؤمنونَ التي تبشرون بها جنات تجري من تحتها الأَنهارُ، فأبشروا بها.

وقوله: «خالِدِين فِيها» يقول: ماكثينَ في الجنات، لاينتقلونَ عنها ولا يتحولون.

وقوله: «ذلكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيم» يقول: خلودهم في الجناتِ التي وصفها هو النُّجْحُ العظيمُ الذي كانوا يطلبونه بعد النجاةِ من عقابِ الله ودخول الجنة خالدين فيها.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ

﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هو الفوزُ العظيمُ في يوم يقولُ المنافقونَ والمنافقات: انظرونا: بمعنى: انتظرونا.

وقوله: «نَقْتَبِسْ مِنَ نُورِكُمْ» يقول: نَسْتَصْبِحْ من نُورِكم، والقبسُ: الشعلةُ:

وقوله: «قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فالتَمِسُوا نُوراً»، يقول جَلَّ ثناؤه: فَيُجَابُونَ بأنْ يقـال لهم: ارجعوا من حيث جئتم، واطلبوا لأنفسِكم هنالك نوراً، فإنه لاسبيلَ لكم الى الاقتباسِ من نورنا.

وقوله: «فَضُربَ بَينَهُمْ بْسُورٍ لَهُ بابٌ، باطِنُهُ فِيه الرَّحْمَةُ وظَاهِرُهُ مِنْ قِبلِهِ العذَابُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فَضَربَ الله بين المؤمنينَ والمنافقينَ بسُورٍ، وهو حاجزٌ بين أهلِ الجنة وأهل النار.

وقوله: «لَهُ بابٌ باطنُهُ فِيه الرَّحْمَةُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لذلك السورِ بابٌ باطنُه فيه الرحمةُ وظاهرةُ من قبل ذلك الظاهر العذابُ: يعني: النار.

وقوله: «يُنادونَهُم ألَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ؟ قالوا بَلى»، يقول تعالى ذِكْرُه: ينادي المنافقون المؤمنين حين حُجِزَ بينهم بالسور، فبقوا في الظلمة والعذاب، وصار المؤمنـون في الجنـة، ألم نكن معكم في الـدنيا نصلي ونصوم، ونُنَاكِحُكم ونُوارِثُكم؟ «قالوا: بلىٰ» يقول: قال: المؤمنون: بلىٰ، بل كنتم كذلك، ولكنكم فَتَنتم أنفسكم، فنافقتم، وفَتْنَتُهُمْ أنفسهَم في هذا الموضع كانت النفاق.

وقوله: «وتَربَّصْتُمْ»، يقول: وتَلَبَّثْتُم بإيمانِ، ودافعتم بالاقرار بالله ورسولِه.

وقوله: «وَارتَبْتم»، يقول وشَكَكْتُمْ في توحيد الله وفي نبوة محمدٍ ﷺ.

وقوله: «وغرَّتْكمُ الأمانِيُّ»، يقول: وخدعتكم أمانيُّ نفوسِكم، فَصَدَّتْكُمْ

عن سبيل الله وأضلتْكُمْ، «حتى جاء أمْر الله» يقـول: حتى جاء قضـاءُ الله بمنَايَاكُمْ، فاجْتَاحَتْكُمْ.

وقوله: «وَغرَّكم بالله الغَرُورُ»، يقول وخَدَعكم بالله الشيطانُ، فأطمعكم بالنجاةِ من عقوبته، والسلامة من عذابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالىٰ ذِكْرُهُ مخبراً عن قيل المؤمنين لأهل النفاق، بعد أن مَيَّزَ بينهم في القيامة «فاليومَ» أيها المنافقون «لايُؤخَذُ مِنْكُم فِدْيَةٌ»، يعني: عِوَضاً وبَدَلاً، يقول: لايؤخذ ذلك منكم بَدَلاً من عقابكم وعذابكم فيخلصكم من عذاب الله «ولا من الذين كَفَروا يقول: ولا تؤخذُ الفديةُ أيضاً من الذين كفروا:

وقوله: «مأواكم النار» يقول: مَثْواكم ومَسْكَنُكم الذي تسكنونَه يومَ القيامة النارُ:

وقوله«هي مَولاكم» يقول: النار أولى بكم.

وقوله: «وبئس المصير»: يقول: وبئس مصير مَنْ صار الى النار.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «ألم يأنِ للذّين آمَنوا»: ألم يحن للذين صَدَّقُوا الله ورسولَهُ أنْ تلينَ قلوبُهم لذكرِ الله، فتخضع قلوبُهم له، ولِمَا نزلَ من الحقِّ،

وهو هذا القرآن الذي نَزَّلَهُ على رسولِهِ ﷺ.

وقوله: «وَلا يَكونُوا كالَّذين أوتُوا الكِتاب مِن قَبلُ فَطال عَليهم الأَمد»، يقول تعالى ذِكْرُه: ألم يأن لهم أن لا يكونوا، يعني: الذين آمنوا من أمةِ محمد ﷺ «كالذين أُوتوا الكْتاب مِن قَبل». يعني من بني إسرائيلَ، ويعني بالكتابِ الذي أُوتُوهُ من قبلهم التوراة والانجيل:

ويعني بقـولـه: «فَـطال عَلَيهم الأَمَدُ» مابينهم وبين موسىٰ ﷺ، وذلك الأَمدُ: الزمان.

وقـولـه: «فقَستْ قُلوبُهمْ» عن الخيراتِ، واشتـدَّتْ على السكونِ إلى معاصي الله «وكثيرٌ مِنْهُمْ فاسِقون»، يقول جَلَّ ثناؤُه: وكثيرٌ من هؤلاءِ اللذينَ أُوتُوا الكتابَ من قبلِ أمةِ محمدٍ ﷺ فاسقون:

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «اعْلَمُوا» أيها الناسُ «أنَّ الله يُحْيي الأرْضَ» الميتَةَ التي لاتُنْبِتُ شيئاً «بَعْد مَوتِها» يعني: بعد دُثُورِهَا ودُرُوسها، يقول: وكما نُحيي هذه الأرض الميتة بعد دروسها كذلك نهدي الإنسان الضالَ عن الحقِ الى الحقِ، فنوفِّقهُ ونسدِّدهُ للإيمان حتى يصيرَ مؤمناً من بعدِ كفرهِ، ومهتدياً من بعد ضلالهِ:

وقوله «قَدْ بينا لَكُم الآيات لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»، يقول: قد بَيَّنا لكم الأدلةَ والحججَ لِتعقلوا.

وقوله: «إنَّ المُصَّدقين والمُصَّدِّقاتَ»: معناه: إن المُتَصدقين من أموالهم والمتصدقاتِ «وأقْرضُوا الله قَرْضاً حَسَناً» يعني: بالنفقة في سبيلهِ، وفيما أمرَ

بالنفقةِ فيه، أو فيما ندبَ إليه «يُضاعَفُ لَهُمْ وَلَهُم أجْرٌ كَريمٌ» يقول: يضاعف الله لهم قُروضَهم التي اقرضوها إياه، فيوفيهم ثوابها يومَ القيامةِ، «ولهم أجْرٌ كَرِيمٌ»، يقول: ولهم ثوابٌ من الله على صِدْقِهم وقُروضِهم إياه كريم، وذلك الجنة:

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ١٩﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: والذين أقَرُّوا بوحدانية الله وإرساله رُسُلَهُ، فَصَدَّقُوا الرسَل وآمنوا بما جاؤوهم به من عند رَبِّهم، أولئك هم الصِّديقون:

وقـوله: «والشُّهداء عِنْد رَبِّهِمْ»، اختلف أهلُ التأويلِ في ذلك، فقال بعضُهم: والشهداءُ عند رَبِّهم منفصل من الذي قبله: والخبر عن الذين آمنوا بالله ورسله متناهٍ عند قوله: الصديقون. والصديقون مرفوعونَ بقوله هم: ثم ابتـدىء الخبر عن الشهداء فقيل: والشهداءُ عند ربهم لَهم أجرهم ونورهم. والشهداءُ في قولهم مرفوعونَ بقوله: لهم أجـرهم ونورهم.

وقال آخرون: بل قوله: «والشهداء» مِنْ صفةِ الذين آمنوا بالله ورسلِهِ: قالوا: إنما تناهى الخبرُ عن الذين آمنوا عند قولهم: «والشُهدَاءُ عِنْد رَبِّهم» ثم ابتدىء الخبر عَمَّا لهم. فقيل: لهم أَجْرُهُمْ ونُورهم.

وقـال آخرون: «الشهداءُ عند ربهم» في هذا الموضع: النبيونَ الذين يشهدونَ على أممهم، من قولِ الله عَزَّ وجَلَّ: «فَكَيْف إذا جِئنا مِن كل أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنا بِكَ على هَؤُلاءِ شَهِيداً» [النساء: ٤١].

والذي هو أوْلى الأقوال عندي في ذلك بالصواب قولُ مَنْ قال: الكلامُ

والخبرُ عن الذين آمنوا، مُتَنَاهٍ عند قوله: «أُولئك هُمُ الصِّديقونَ» وإن قوله: «والشهداء عِنْدَ رَبِّهم» خبر مبتدأ عن الشهداء.

وإنمـا قلنـا: إنَّ ذلك أَوْلى الأَقوال في ذلك بالصواب، لانَّ ذلك هو الأَغلب من معانيه في الظاهر، وأنّ الإيمان غير مُوجِبٍ في المتعارف للمؤمنِ اسم شهيد إلا بمعنى غيرهِ، إلا أن يُراد به شهيدٌ على ما آمن به وصدّقه، فيكون ذلك وجهاً، وإنْ كان فيه بعضُ البُعْدِ، لأنَّ ذلك ليس بالمعروفِ من معانيهِ، إذا أطلق بغير وصلٍ، فتأويلُ قوله: «والشُهَدَاءُ عِنْد رَبِّهِمْ لَهُم أجرُهُمْ ونُورُهُمْ» إذن والشهداء الذين قُتِلُوا في سبيلِ الله، أو هلكوا في سبيله عند ربهم، لهم ثوابُ الله إياهم في الآخرة ونُورُهم:

وقـولـه: «والذّين كَفرَوُا وكَذَّبُوا بآياتنا أُولئك أصحَاب الجحيم»، يقول تعالى ذِكْرُه: والـذين كفروا بالله وكذّبوا بأدلتهِ وحججهِ، أولئك أصحاب الجحيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: اعلموا أيها الناس أنَّ متاعَ الحياةِ الدنيا المعجلة لكم، ماهي إلا لعبٌ ولهـوٌ تتفكهُّونَ به، وزينةٌ تتزيَّنونَ بها، وتفاخرٌ بينكم، يفخرُ بعضكم على بعضٍ بمـا أولى فيهـا من رياشهـا «وتكـاثُـرٌ في الأَمـوالِ والأولاد»، يقول تعالى ذِكْرُه: ويباهي بعضُكم بعضاً بكثرةِ الأموال والأولاد «كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفَّار نَباته ثُمَّ يَهِيجُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ثم يَيْبسُ ذلك النباتُ «فتراهُ

مُصْفراً» بعد أن كان أخضر نضِراً:

وقـولـه: «ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً، يقول تعالى ذِكْرُه: ثم يكون ذلك النباتُ حطاماً، يعني به أنه يكونُ نبتاً يابساً متهشماً. «وفي الآخرة عَذَاب شَدِيدٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وفي الآخرة عذابٌ شديدٌ للكفارِ. «ومغفرَةٌ مِنَ الله وَرِضوان» لأهلِ الإيمان بالله ورسوله:

وقوله: «وَما الحياةُ الدُّنْيا إلَّا مَتاعَ الغُرور» يقول تعالى ذِكْرُه: وما زينة الحياةِ الدنيا المعجلةِ لكم أيها الناسُ، إلا متاعُ الغرور.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «سابقوا» أيها الناسُ «إلىٰ» عملٍ يُوجِبُ لكم «مَغْفرةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرضُها كَعَرْضِ السَّماء والأرضِ أُعِدَّتْ» هذه الجنة «لِلَّذين آمنوا باللهِ ورَسُلهِ» يعني الذين وَحدَّوا الله، وصَدَّقُوا رسله.

وقوله: «ذَلك فَضْل الله يؤتيهِ مَنْ يَشاءُ» يقول جَلَّ ثناؤه: هذه الجنة التي عرضها كعرض السماء والأَرض التي أعدَّها الله للذين آمنوا بالله ورسله، فضل الله تَفَضَّلَ به على المؤمنينَ، والله يؤتي فضلهُ من يشاء من خَلْقِه، وهو ذُو الفضل العظيم عليهم، بما بَسَطَ لهم من الرزقِ في الدنيا، ووهب لهم من النِّعم، وعَرَّفهم موضعَ الشكرِ، ثم جزاهم في الآخرة على الطاعةِ ما وصفَ أنه أعدَّهُ لهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ

﴿أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ماأصابكم أيها الناس من مصيبةٍ في الأَرض بجدوبها وقُحُوطها وذهاب زرعها وفسادها «وَلا في أَنْفُسِكُمْ» بالأوصاب والاوجاع والأسقام «إلَّا فِي كِتابٍ» يعني: إلا في أم الكتاب «من قَبْلِ أنْ نَبْرأها»، يقول: من قبل أن نبرأ الأَنفسَ، يعني: من قبلِ أنْ نخلقها: يقال: قد برأ الله هذا الشيءَ، بمعنى: خَلَقَهُ فهو بارِئُه.

وقوله: «إن ذلك على الله يَسير» يقول تعالى ذِكْرُه: إن خلق النفوس، وإحصاء ما هي لاقية من المصائب على الله سهل يسير:

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ: ماأصابكم أيها الناسُ من مصيبةٍ في أموالكم ولا في أنفسكم، إلا في كتابٍ قد كُتب ذلك فيه من قبل أنْ نخلقَ نفوسكم «لِكَيْلا تَأسَوْا»، يقول: لكيلا تحزنوا «على مافاتَكُمْ» من الدنيا، فلم تدركوه منها «وَلا تَفْرَحُوا بما آتاكُمْ» منها.

ومعنى قولـه: «بما آتاكُمْ» إذا مُدَّت الأَلفُ منها: بالذي أعطاكم منها رَبُّكم وملَّكَكُمْ وخوَّلَكُمْ؛ وإذا قُصرت الأَلف، فمعناه: بالذي جاءكم منها.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: «بما آتاكُمْ» فقرأ ذلك عامة قَرَأَة الحجاز والكوفة «بما آتاكُمْ» بمدِّ الالف. وقرأه بعض قرأة البصرة «بما أتاكم» بقصر الألف؛ وكأن مَنْ قرأ ذلك بقصر الالف اختار قراءته كذلك، إذْ كان الذي قبله على ما فاتكم، ولم يكن على ماأفاتكم، فيردّ الفعلَ الى اللهِ، فألحقَ قوله «بِما أتاكُم» به، ولم يردّه إلى أنه خبرٌ عن الله.

والصواب من القولِ في ذلك أنهما قراءتان صحيح معناهما، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيبٌ، وإنْ كنتُ أختارُ مَدَّ الألفِ لكثرةِ قارئي ذلك كذلك، وليس للذي اعتل به منه معتلو قارئيه بقصرِ الألفِ كبيرُ معنى، لأنَّ ماجعل من ذلك خبراً عن الله، وما صرف منه الى الخبرِ عن غيرِه فغير خارج جميعه عند سامعيه من أهل العلم أنه من فعل الله تعالى، فالفائت من الدنيا مَنْ فاته منها شيء، والمدرك منها ما أدرك عن تقدّم الله عَزَّ وجَلَّ وقضائه، وقد بين ذلك جَلَّ ثَنَاؤُهُ لمن عقل عنه بقوله: «ما أصاب مِنْ مُصيبةٍ في الارض وَلا في أنْفُسِكُم إلاَّ في كِتاب مِن قَبْلِ أنْ نبرَأَهَا»، فأخبر أنَّ الفائتَ منها بإفاتته إياهم فاتهم، والمدرك منها بإعطائه إياهم أدركوا، وأنَّ ذلك محفوظ لهم في كتابٍ من قبل أنْ يخلقهم.

وقوله: «والله لايُحب كُلَ مُختالٍ فَخُور»، يقولُ: والله لايحب كل متكبرٍ بما أوتيَ من الدنيا. فخور به على الناس.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والله لايحب كُل مختال فخور، الباخلين بما أُوتُوا في الدنيا على اختيالهم به وفخرهم بذلك على الناس، فهم يبخلون بإخراج حَقِّ الله الـذي أوجبه عليهم فيه، ويشحون به، وهم مع بُخْلِهم به أيضا يأمرون الناس بالبخل.

وقولُه: «وَمَنْ يَتول فإنَّ الله هُوَ الغَنيُّ الحَميدُ» يقول تعالى ذِكْرُه: ومن يُدْبر مُعْرِضاً عن عِظَةِ الله «فإن الله هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وَمَنْ يُدْبِر معرضاً عن عِظَةِ الله، تاركاً العمل بما دعاهُ إليه من الإنفاق في سبيله، فَرِحاً بما أُوتِيَ من الدنيا مختالاً به فخوراً بخيلاً، فإنَّ الله هو الغنيُّ عن ماله

ونفقته، وعن غيرِه من سائر خَلْقِه، الحميد الى خَلْقِه، بما أنعمَ به عليهم من نِعمه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لقد أرسلنا رُسُلَنا بالمفصَّلاتِ من البيان والدلائلِ، وأنزلنا معهم الكتابَ بالأحكامِ والشرائع، والميزانَ بالعدلِ.

وقوله: «لِيَقُومَ النَّاس بالقِسْطِ» يقول تعالى ذِكْرُه: ليعملَ الناسُ بينهم بالعدل.

وقوله: «وأنْزَلْنا الحَديد فيهِ بأسٌ شَدِيدٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأنزلنا لهم الحديدَ فيه بأسٌ شديد: يقولُ: فيه قوةٌ شديدةٌ، ومنافع للناس، وذلك ماينتفعون به منه عند لقائهم العدوَّ، وغير ذلك من منافعه.

وقوله: «وَلِيعلم الله مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَه بالغَيْب»، يقول تعالى ذِكْرُه: أرسلنا رُسُلَنَا إلى خَلْقِنَا وأنزلنا معهم هذه الأشياء ليعدلُوا بينهم، وليعلم حزب الله مَن ينصر دينَ الله ورُسُلَهُ بالغيب منه عنهم.

وقوله: «إن الله قَوِيٌّ عَزِيزٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الله قويٌّ على الانتصار ممن بارزه بالمعاداة، وخالفَ أمرَهُ ونهيه، عزيزٌ في انتقامِه منهم، لايقدر أحدٌ على الانتصار منه مما أحل به من العقوبة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي

ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: ولقد أرسلنا أيها الناسُ نوحاً الى خلقنا، وإبراهيم خليله إليهم رسولاً «وَجَعَلْنا في ذُرِّيَّتِهِما النُّبوَّةَ وَالكتابَ»، وكذلك كانت النبوة في ذُرِّيتهما، وعليهم أُنزلتِ الكتبُ: التوراةُ، والإنجيلُ، والزبور، والفرقان، وسـائـرُ الكتبِ المعروفة «فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ» يقولُ: فمن ذُرِّيتهما مُهْتَدٍ إلى الحقِّ مستبصر «وكَثِيرٌ مِنْهُمْ»، يعني من ذُرِّيتهما «فاسِقُونَ»، يعني: ضُلَّالٌ، خارجون عن طاعة الله الى معصيته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ثم أتبعنا على آثارهم برسلنا الذين آرسلناهم بالبيناتِ على آثارِ نوحٍ وإبراهيم برسلنا، وأتبعنا بعيسىٰ بنِ مريمَ «وَجَعَلْنا فِي قُلُوبِ الَّذينَ اتَّبَعوهُ»، يعني: الذين اتبعوا عيسىٰ على منهاجِه وشريعته «رأْفَةً» وهو أشدُّ الرحمة «ورَحْمَةً ورَهْبانيَّة ابْتَدَعُوها»، يقول: أحدثوها «ماكَتَبْناها عَلَيْهم» يقولُ: ماافترضنا تلك الرهبانية عليهم «إلا ابتغاءَ رِضْوَانِ الله»، يقولُ: لكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوانِ الله «فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها».

واختلف أهـل التأويل في الذين لم يرعوا الرهبانيةَ حَق رعايتها، فقال بعضهم: هم الذين ابتدعوها، لم يقوموا بها، ولكنهم بَدَّلُوا وخالفوا دينَ الله الذي بعث به عيسىٰ: فتنصَّرُوا وتَهوَّدُوا.

وقال آخرون: بل هُمْ قومٌ جاؤوا من بعد الذين ابتدعوها فلم يَرْعَوْها حَقَّ رعايتها، لأنهم كانوا كفاراً ولكنهم قالوا: نفعل كالذي كانوا يفعلون من ذلك أوّلياً، فهم الذين وصف الله بأنهم لم يَرْعَوْها حَقَّ رعايتها.

وأولى الأقوال في ذلك بالصحة أنْ يقال: إنَّ الذين وصفهم الله بأنهم لم يرعوا الرهبانية حقَّ رعايتها، بعض الطوائف التي ابْتَدَعَتْهَا، وذلك أنَّ الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ أخبر أنه آتي الذين آمنوا منهم أجْرَهُمْ، قال: فَدَلَّ بذلك على أنَّ منهم مَنْ قد رعاها حق رعايتها، فلو لم يكن منهم مَنْ كان كذلك لم يكن مستحق الأَجرِ الذي قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «فآتَيْنا الَّذِين آمنوا مِنهم أجْرَهُمْ» إلا أنَّ الذين لم يرعوها حَقَّ رعايتها ممكنٌ أن يكونوا كانوا على عهدِ الذين ابتدعوها، وممكن أن يكونوا كانوا بعدهم، لأنَّ الذين هم من أبنائهم إذا لم يكونوا رعوها، فجائزٌ في كلامِ العربِ أن يقال: لم يَرْعَها القومَ على العموم: والمرادُ منهم البعضُ الحاضر، وقد مضى نظيرُ ذلك في مواضع كثيرة من هذ الكتاب.

وقـولـه: «فآتَيْنا الَّذين آمنوا مِنْهُمْ أجْرَهُم»، يقول تعالى ذِكْرُه: فأعطينا الذين آمنوا باللهِ ورُسُله من هؤلاء الذين ابتدعوا الرهبانيةَ ثوابَهم على ابتغائِهم رضوانَ الله، وإيمانهم به وبرسولهِ في الآخرة، وكثير منهم أهلُ معاصٍ، وخروج عن طاعته، والايمان به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يا أيها الذين صَدَّقوا الله ورسولَه من أهلِ الكتابين: التـوراة والإنجيل، خَافُـوا الله بأداءِ طاعتـهِ، وأجتناب معاصيه، وآمنوا برسولهِ محمدٍ ﷺ.

وقوله: «يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَحْمَتِهِ» يُعْطِكُمْ ضِعْفَيْنِ من الأجرِ لإيمانكم بعيسى ﷺ، والانبياء قبل محمد ﷺ، ثم إيمانكم بمحمدٍ ﷺ حين بعث نبياً: وأصلُ الكفل: الحظّ، وأصله: مايكتفلُ به الراكبُ فيحبسه ويحفظه عن السقوط؛ يقولُ: يُحَصِّنكم هذا الكِفْلُ من العذاب، كما يُحَصِّنُ الكِفْلُ الراكبَ من السقوطِ.

وقوله: «وَيجْعل لَكُم نُوراً تَمْشُونَ بِهِ»، اختلف أهلُ التأويل في الذي عنى به النور في هذا الموضع، فقال بعضهم: عنى به القرآن.

وقال آخرون: عُنِي بالنور في هذا الموضع: الهدى.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه وَعَدَ هؤلاء القوم أنْ يجعلَ لهم نوراً يمشونَ به، والقرآنُ، مع اتباعِ رسولِ الله ﷺ، نورٌ لمن آمنَ بهما وصَدقَّهما، وهُدَىً، لأن مَنْ آمن بذلك، فقد اهتدى.

وقوله: «وَيَغْفِرْ لَكُمْ»، يقولُ: ويصفح لكم عن ذنوبكم فيسترها عليكم «وَالله غَفُور رَحِيمٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والله ذُو مغفرةٍ ورحمة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنين به وبمحمدٍ ﷺ من أهل الكتاب، يفعل بكم رَبُّكم هذا لكي يعلمَ أهلُ الكتابِ أنهم لايقدرون على شيءٍ من فضلِ الله الذي آتاكم وخَصَّكم به، لأنهم كانوا يرون أن الله قد فضَّلهم على جميعَ الخَلْقِ، فأعلمهم الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ أنه قد آتى أمة محمدٍ ﷺ من الفضلِ والكرامةِ، مالم يؤتهم، وأنَّ أهلَ الكتاب حسدوا المؤمنين لما نزل قوله: «يا أَيُّها الَّذين

آمنوا اتَّقوا الله وآمنوا بِرَسُولِهِ يؤتِكُم كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ، ويَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُون بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ، والله غَفُور رَحِيم»، فقال الله عَزَّ وجَلَّ: فعلتُ ذلك ليعلم أهلُ الكتابِ أنهم لايقدرون على شيءٍ من فضل الله.

وقوله: «وأنَّ الفَضْلَ بِيدِ الله»، يقول تعالى ذِكْرُه: وليعلموا أنَّ الفضلَ بيدِ الله دونهم، ودونَ غيرهم من الخلق «يُؤْتِيه مَنْ يَشاء»، يقولُ: يُعْطِي فضله ذلك من يشاء من خلقه، ليس ذلك الى أحدٍ سواه «والله ذُو الفَضْل العظِيم»، يقول تعالى ذِكْرُه: والله ذُو الفضلِ على خَلْقِه، العظيم فضله.

سُورَةُ المُجَادلةِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وتقدست أسماؤه

﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قَدْ سِمع الله» يا محمدُ، «قَوْل الَّتي تجادِلُكَ فِي زَوْجِها» والتي كانت تجادلُ رسول الله ﷺ في زوجها امرأةٌ من الأنصار.

واختلف أهلُ العلم في نَسَبها واسمها، فقال بعضهم: خَوْلة بنت ثَعْلَبة، وقال بعضهم: اسمها خُوَيلة بنت ثعلبة:

وقال آخرون: هي خويلة بنت خُويلد.

وقال آخرون: هي خويلة بنت الصَّامت.

وقال آخرون: هي خويلة ابنة الدليج[1].

وكانت مجادلتها رسول الله ﷺ في زوجها، وزوجُها أوسُ بن الصامت مراجعتها إياهُ في أمرِه، وما كانَ من قولِه لها: أنتِ عليَّ كظهر أمي، ومحاورتها

---

(١) انظر تفاصيل ذلك في تهذيب الكمال للمزي: ٣١٣/٢٨ و١٦٣/٣٥ وأصح ذلك: «خولة بنت ثعلبة» لحديث عائشة الصحيح عند ابن ماجة (٢٠٦٣)..

إياه في ذلك[1].

وقوله: «وَتَشْتَكي إلى الله»، يقولُ: وتشتكي المجادلة ما لديها من الهَمِّ بِظَهَارِ زوجِها منها إلى الله، وتسأله الفَرَجَ «والله يَسْمَعُ تحاوركُما»، يعني: تحاور رسولِ الله ﷺ، والمجادلة خولة ابنة ثعلبة: «إنَّ الله سَميع بَصير»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الله سميعٌ لِمَا يَتَجاوَبَانِه ويتحاورانه، وغير ذلك من كلامِ خَلْقِهِ، بصيرٌ بما يعملون، ويعملُ جميعُ عباده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الذين يُحَرِّمونَ نسائهم على أنْفُسِهم تحريمَ الله عليهم ظهورَ أُمهاتِهم، فيقولونَ لهنَّ: أَنْتُنَّ علينا كظهور أمهاتِنا، وذلك كانَ طلاقُ الرجلِ امرأتَهُ في الجاهلية.

وقوله: «ما هُن أمَّهاتِهِمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما نساؤهم اللائي يُظاهِرْنَ منهم بأمهاتِهم، فيقولوا لهنَّ: أنتن علينا كظهرِ أمهاتنا، بل هُنَّ لهم حلال.

وقوله: «إنْ أُمهَّاتُهُمْ إلاَّ الَّلائي وَلَدْنَهُمْ» لا اللائي قالوا لَهُنَّ ذلكَ.

---

(١) قصتها في حديث عائشة عند المؤلف، وابن ماجة (٢٠٦٣)، والحاكم: ٢/٤٨١، والبيهقي: ٧/٣٨٢، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وهو كما قالا. ورواه محمد ابن إسحاق، عن معمر بن عبدالله بن حنظلة، عن يوسف بن عبدالله بن سلام، عنها. أخرجه المؤلف، وأبو داود (٢٢١٤) و (٢٢١٥)، والطبري: ٢٤/٢٤٧، ولكن معمر ابن عبدالله مجهول، تفرد بالرواية عنه ابن إسحاق، ولم يوثقه سوى ابن حبان (انظر تهذيب الكمال: ٢٨/٣١٢ والتعليق عليه).

وقولـه: «وإنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ القَوْلِ وَزُوراً» يقول جَلَّ ثناؤه: وإنَّ الرجال ليقولون منكراً من القولِ الذي لاتُعرفُ صحته «وزوراً» يعني كذباً.

«وَإن الله لَعَفُو غفورٌ»، يقول جَلَّ ثناؤه: إنَّ الله لَذُو عفوٍ وصفحٍ عن ذنوبِ عبادِه إذا تابوا منها وأنابوا، غفور لهم أنْ يعاقبهم عليها بعدَ التوبة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾

يقول جَلَّ ثناؤه: والذين يقولون لنسائهم: أنتنَّ علينا كظهورِ أمهاتنا.

وقوله: «ثُمَّ يَعُودُون لَما قالوا» اختلف أهلُ العلم في معنى العَوْدِ لما قال المظاهِرُ، فقال بعضهم: هو الرجوع في تحريم ما حَرَّم على نفسه من زوجتِه التي كانت له حلالاً قبل تظاهرِه، فيحلها بعد تحريمِه إيَّاها على نفسِه بعزمِه غشيانِها ووَطئها.

وقال آخرون نحو هذا القول، إلا أنهم قالوا: إمساكُه إياها بعد تظهيرِه منها، وتَرْكُه فِراقَها، عَوْدٌ منه لِمَا قالَ، عَزَمَ على الوطءِ أو لَمْ يعزمْ.

وقال بعض نحويي الكوفة «ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَاقالوا» يصلحُ فيها في العربية: ثم يعودون الى ما قالوا، وفيما قالوا، يريدونَ النكاحَ، يريد: يرجعون عما قالوا: وفي نقض ماقالوا، قال: ويجوز في العربية أن تقول: إنْ عاد لما فعل، تريد إنْ فعلَ مرة أخرى، ويجوز إنْ عاد لما فعل: إنْ نَقَضَ مافعل، وهو كما تقول: حلف أنْ يضربك، فيكون معناه: حلف لايضربك، وحلف ليضربنك.

والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: معنى اللام في قوله: «لما

قالُوا» بمعنى: إلى أوْ في، لأنّ معنى الكلام: ثم يعودونَ لنقض ماقالوا من التحـريم فيحللونه، وإنْ قيل معناه: ثم يعودونَ الى تحليل ماحَرَّموا. أو في تحليل ماحَرَّمُوا فصوابٌ، لأن كلَّ ذلك عَوْدٌ له، فتأويلُ الكلام: ثم يعودونَ لتحليل ماحَرَّمُوا على أنفسهم مما أحَلَّهُ الله لهم.

وقوله: «فَتَحْرِيرُ رَقَبَة من قَبْلِ أنْ يَتَماسا»، يقول: فعليه تحرير رقبةٍ، يعني: عِتْقُ رقبةِ عبدٍ أو أَمَةٍ، من قبلِ أنْ يماس الرجلُ المُظَاهِرُ امرأتَهُ التي ظاهَر منها أو تماسه.

وقوله: «ذَلِكم تُوعَظُونَ بِهِ» يقول تعالى ذِكْرُه: أوْجَبَ رَبُّكم ذلك عليكم عِظَةً لكم تتعظون به، فتنتهونَ عن الظِّهارِ وقولِ الزور «والله بمَا تَعْمَلونَ خبيرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والله بأعمالكم التي تعملونها أيها الناس ذُو خبرةٍ لايخفَى عليه شيء منها، وهو مُجازِيكم عليها، فانتهوا عن قولِ المنكر والزور.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فَمَنْ لم يجد منكم مِمَّنْ ظاهَرَ من امرأتِه رقبة يُحَرِّرُها، فعليه صيامُ شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا، والشهران المتتابعان هما اللذان لافَصْلَ بينهما بإفطارٍ في نهار شيء منهما الا مِنْ عُذْرٍ، فإنه إذا كان الإفطار بالعذر ففيه اختلافٌ بين أهل العلم، فقال. بعضهم: إذا كان إفطارهُ لعذر فزال العذر بنى على مامضى من الصوم.

وقال آخرون: بل يستأنفُ، لأنَّ مَنْ أفطرَ بعذرٍ أو غير عذرٍ لم يتابع صوم شهرين.

وأولى القولين عندنا بالصواب قولُ مَنْ قال: يبني المفطرُ بعذر، ويستقبل المفطر بغير عذر، لإجماع الجميع على أن المرأة إذا حاضت في صومها الشهرين المتتابعين بعذر، فمثله، لأنَّ إفطار الحائض بسبب حيضها بعذر كان من قبل الله فكل عذرٍ كان من قبل الله فمثله.

وقوله: «فَمَن لم يَستطع فإطعام ستين مِسكيناً» يقول تعالى ذِكْرُه: فَمَن لم يستطع منهم الصيامَ فعليه إطعام ستين مسكيناً، وقد بَينا وجهَ الإطعام في الكفَّارات فيما مضى قبل: فأغنى ذلك عن إعادته

وقوله: «ذَلك لتِؤْمنوا بالله ورَسُولِهِ»، يقول جَلَّ ثناؤه: هذا الذي فرضتُ على مَنْ ظاهر منكم مافرضت في حال القدرة على الرقبة، ثم خففتُ عنه مع العجز بالصوم، ومع فَقْدِ الاستطاعة على الصوم بالإطعام، وإنما فعلته كي تقر الناسُ بتوحيد الله ورسالة الرسول محمد ﷺ، ويصدقوا بذلك، ويعملوا به، وينتهوا عن قولِ الزور والكذب «وَتِلكَ حُدُود الله» يقول تعالى ذِكْرُه: وهذه الحدود التي حَدَّها الله لكم، والفروض التي بينها لكم حدود الله فلا تتعدوها أيها الناس «وللكافرين» بها، وهم جَاحدو هذه الحدود وغيرها من فرائض الله أن تكون من عند الله «عَذابٌ أليمٌ» يقول عذابٌ مؤلم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين يخالفون الله في حدوده وفرائضه، فيجعلون حدوداً غير حدودهِ، وذلك هو المحادة لله ولرسوله.

وأما قوله: «كُبِتُوا كَما كُبِتَ الذين من قَبْلِهِمْ»، فإنه يعني: غِيظُوا وأُخْزُوا كما غيظَ الذين من قبلهم من الامم الذين حادّوا الله ورسولَهُ، وخُزُوا.

وقوله: «وقَد أنْزَلْنا آيات بَيِّنات»، يقولُ: وقد أنزلنا دلالاتٍ مفصلاتٍ، وعلاماتٍ مُحْكماتٍ تدلُ على حقائقِ حدود الله.

وقـولـه: «وللكْافرينَ عَذَابٌ مُهِينٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولجاحدي تلك الآيات البيِّنات التي أنزلناها على رسولنا محمد ﷺ، ومُنْكِريها عذابٌ يومَ القيامةِ «مهينٌ» يعني: مُذِلٌ في جهنم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وللكافرين عذابٌ مهينٌ في يوم يبعثهمُ الله جميعاً، وذلك «يَوْمَ يَبْعثُهُمُ الله جَميعاً» من قبورهم لموقفِ القيامة «فينَبِّئُهُمْ» الله «بِمَا عَمِلُوا، أحْصَاهُ الله وَنَسُـوهُ» يقـول تعالى ذِكْرُه: أحصى الله ماعملوا، فَعَدَّهُ عليهم، وأثبتـه وحفـظَهُ، ونَسِيَهُ عامِلُوهُ «والله على كل شيءٍ شهيد»، يقول: «وَالله» جَلَّ ثَنَاؤُهُ «على كُلِّ شَيْءٍ» عَمِلُوه وغير ذلك من أمْرِ خَلْقِه «شَهيد»، يعني: شاهد يعلمه، ويحيطُ به، فلا يعزبُ عنه شيء منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ألم تنظرْ يا محمدُ، بعين قلبك فترى «أنَّ الله يَعْلَمُ مافي السَّمَوَات ومَا في الأرْض» من شيء، لايَخْفَى عليه صغيرُ

ذلك وكبيره، يقول جَلَّ ثناؤه: فكيف يخفى على مَنْ كانت هذه صِفَتُه أعمالُ هؤلاء الكافرين وعصيانُهم رَبَّهم، ثم وصف جَلَّ ثَنَاؤُهُ قُرْبَهُ من عبادِه وسماعَهُ نَجْـوَاهُمْ، ومـا يكتمـونَهُ الناسَ من أحاديثهم، فيتحدثونه سراً بينهم، فقال: «مايَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ» من خَلْقِه «إلَّا هو رَابِعُهُمْ» يسمعُ سِرَّهُمْ ونجواهم، لايخفى عليه شيئٌ من أسرارهم «وَلا خَمْسَةٍ إلَّا هُوَ سادسُـهُم»، يقولُ: ولا يكونُ من نجوى خمسةٍ الا هو سادسهم كذلك «وَلا أَدْنَى مِنْ ذلكَ»، يقول: ولا أقلَّ من ثلاثةٍ «وَلا أَكْثَرَ» من خمسةٍ «إلا هو مَعَهُمْ» إذا تناجوا «أَيْنَما كانوا» يقول: في أي موضعٍ ومكانٍ كانوا.

وعنى بقوله: «هُو رَابعهم» بمعنى أنه مُشَاهِدُهُمْ بعلْمِه، وهو على عَرْشِه.

وقوله: «ثُم يُنَبِّئُهم بِمَا عَملُوا يَوْمَ القيامَةِ» يقول تعالى ذِكْرُه: ثم يخبر هؤلاء المتناجين وغيرهم بما عملوا من عملٍ مما يُحِبُّه أو يُسْخِطُهُ يومَ القيامة «إنَّ الله بِكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ»، يقول: إن الله بنجواهم وأسرارهم، وسرائر أعمالهم، وغير ذلك من أمورهم وأمور عباده عليم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «أَلَمْ تَرَ الى الذين نُهوا عن النَّجْوَى» من اليهود «ثُمَّ يَعودونَ» فقد نهى الله عَزَّ وجَلَّ إياهم عنها، ويتناجون بينهم بالإثم والعدوان ومعصية الرسول.

وقوله: «ثُم يَعُودُون لمَا نُهوا عَنه»، يقولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ثم يرجعون إلى

مانُهُوا عنه من النجوى. «وَيَتَناجَوْنَ بالإِثم وَالعُدوَانِ وَمَعْصِية الرَّسُولِ»، يقول جَلَّ ثناؤه: ويتناجون بما حَرَّمَ الله عليهم من الفواحش والعدوان، وذلك خلاف أمر الله ومعصية الرسول محمد ﷺ.

وقوله: «وَإذا جاؤُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَم يُحَيِّكَ به الله» يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وإذا جاءك يا محمدُ، هؤلاء الذين نُهوا عن النجوى الذين وصف الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ صفتهم، حَيَّوْكَ بغير التحية التي جعلها الله لكَ تحيةً، وكانت تحيتهم التي كانوا يحيونه بها التي أخبر الله أنه لم يُحَيِّهِ بها فيما جاءتْ به الأخبارُ، أنهم كانوا يقولون: السَّامُ عليكَ[1]

وقوله جَلَّ ثناؤه: «وَيَقُولُونَ في أنْفُسِهِم لَوْلا يُعذِّبُنا الله بما نَقُولُ»، يقول جَلَّ ثنـاؤه: ويقولُ مُحَيُّوك بهذه التحيةِ من اليهود: هَلاَّ يعاقِبُنا الله بما نقولُ لمحمـدٍ ﷺ، فيُعَجِّـل عقوبتَهُ لنا على ذلك، يقول الله: حَسْب قائلي ذلك يامحمد جهنم، وكفاهم بها يَصْلَوْنَها يومَ القيامة، فبئس المصيرُ جهنم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ياأيها الذين صدَّقُوا الله ورسولَهُ «إذا تَناجَيْتُمْ» بينكم «فَلا تَتَناجَوْا بالإثم والعُدْوَان وَمَعْصية الرَّسُول» وَلكنْ «تَناجَوْا بالبر» يعني: طاعة الله وما يُقَرِّبُكُمْ منه «والتَّقْوى» يقول: وباتقائه بأداء ماكلَّفكم من فرائضه واجتناب

---

(١) فكان رسول الله ﷺ يرد عليهم: «وعليكم»: ويوصي المسلمين بالرد عليهم كذلك، وتقديره: وعليكم ماتستحقونه من الذم، انظر صحيح مسلم (٢١٦٣) و (٢١٦٤) و (٢١٦٥) و (٢١٦٦).

معاصيه «وَاتَّقوا الله الَّذي إلَيْهِ تُحشَرونَ»، يقول: وخافُوا الله الذي اليه مصيرُكم، وعنده مجتمعكم في تضييع فرائضِه، والتقدُّمِ على معاصيهِ أنْ يعاقبكم عليه عندَ مصيركم إليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنما المناجاة من الشيطان، ثم اختلف أهل العلمِ في النجوى التي أخبر الله أنها من الشيطان، أي ذلك هو، فقال بعضهم: عُنيَ بذلك مناجاةُ المنافقين بعضهم بعضاً بالإثمِ والعدوان وهو أولى الأقوال في ذلك بالصواب، وذلك أن الله جَلَّ ثَناؤُهُ تقدم بالنهي عنها بقوله: «إذَا تَناجَيْتُمْ فَلا تَتَناجوا بالإِثْم والعُدْوَان وَمَعْصِيَة الرَّسُول»، ثم عما في ذلك من المكروهِ على أهلِ الإيمان، وعن سببِ نهيه إياهم عنه، فقال: «إنَّما النَّجْوَى مِنَ الشَّيطان لِيَحْزُنَ الذَّينَ آمنوا» فبين بذلك إذا كان النهيُ عن رؤيةِ المرءِ في منامه كان كذلكَ، وكان عقيب نهيه عن النجوى بصفة أنه من صفةِ مانهى عنه.

وقوله: «وَلَيْس بِضارِّهِم شَيْئاً إلاَّ بإذْنِ الله» يقول تعالى ذِكْرُه: وليس التناجي بضار المؤمنين شيئاً إلا بإذْنِ الله، يعني بقضاء الله وقَدَره.

وقوله: «وَعَلى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُونَ» يقول تعالى ذِكْرُه: وعلى الله فليتوكَّلْ في أمورهم أهلُ الإيمان به، ولا يحزنوا من تناجي المنافقينَ ومَنْ يَكِيدُهُمْ بذلك. وأنَّ تناجيهم غير ضارِّهم إذا حَفِظَهُمْ رَبُّهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ياأيها الذين صَدَّقُوا الله ورسولَهُ «إذا قيل لَكُم تَفَسَّحُوا في المِجالسِ» يعني بقوله: تفسَّحوا: تَوَسَّعُوا من قولهم: مكانٌ فسيحٌ إذا كان واسعاً.

وقوله: «فافْسَحُوا»، يقولُ: فوسعوا «يَفْسَحِ الله لَكُمْ»، يقولُ: يُوَسِّع الله منازِلَكُمْ في الجنةِ. «وَإذا قيل انْشزُوا فانْشُزُوا»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا قيل ارتفعوا، وإنما يُراد بذلك: وإذا قيل لكم قُومُوا الى قتالِ عدوٍ، أو صلاةٍ، أو عملِ خيرٍ، أو تَفرَقُّوا عن رسولِ الله ﷺ، فقوموا.

وقوله: «يَرْفَعِ الله الذِّين آمنوا منكم والذينَ أُوتُوا العِلْم دَرَجاتٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يرفع الله المؤمنين منكم أيها القومُ بطاعتهم رَبَّهم فيما أَمَرَهُمْ به من التَّفَسُّحِ في المجلس إذا قيل لهم تَفَسَّحُوا، أو بنشوزِهم الى الخيراتِ إذا قيل لهم انشزوا إليها، ويرفع الله الذين أُوتُوا العلمَ من اهل الايمان على المؤمنين الذين لم يؤتوا العلم بفضلِ عِلْمِهم درجاتٍ، إذا عملوا بما أُمِرُوا به.

وقوله: «وَالله بِما تَعْمَلُون خَبِيرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والله بأعمالكم أيها النـاسُ ذُو خبـرةٍ، لايخفى عليه المطيع منكم رَبَّهُ من العاصي، وهو مُجازٍ جميعكُمْ بعملِهِ المحسنَ بإحسانِه، والمسيء بالذي هو أَهْلُهُ، أو يعفو.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ياأيها الذين صدقوا الله ورسوله، إذا ناجيتم رسول الله، فَقَـدِّمُـوا أمام نجواكم صدقةً تتصدَّقُونَ بها على أهل المَسْكَنةِ والحاجة

«ذَلكَ خَيْرٌ لَكُمْ»، يقولُ: وتقديمكُم الصدقةَ أمامَ نجواكَمْ رسول الله ﷺ، خيرٌ لكم عندَ الله «وأطْهَرُ» لقلوبِكُمْ من المآثم.

وقوله: «فإنْ لَمْ تَجِدُوا» يقول تعالى ذِكْرُه: فإنْ لم تجدوا ماتتصدَّقُونَ به أمام مُنَاجَاتِكم رسولَ الله ﷺ «فإنَّ الله غَفُور رَحِيمٌ»، يقولُ: فإنَّ الله ذُو عفوٍ عن ذنوبكم إذا تبتم منها، رحيمٌ بكم أنْ يعاقبكم عليها بعد التوبةِ، وغيرُ مؤاخِذِكُمْ بمناجاتِكُمْ رسولَ الله ﷺ قبلَ أنْ تُقدِّمُوا بين يدي نجواكم إياه صدقة.

القَــوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ١٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أَشَقَّ عليكم وخَشِيتُمْ أيها المؤمنون بأنْ تقدموا بين يدي نجواكم رسولَ الله ﷺ صدقات الفاقة، وأصل الإشفاق في كلامِ العرب: الخوف والحذر، ومعناه في هذا الموضع: أخشيتم بتقديم الصدقةِ الفاقة والفقرَ.

وقـولـه: «فـإذْ لَمْ تفعلُوا وتَـاب الله عَليْكُم»، يقـول تعـالى ذكـره: فإذْ لم تُقـدِّمُوا بين يدي نجواكم صدقاتٍ، ورزقكم الله التوبة من ترككم ذلك، فأدُّوا فرائض الله التي أوجبهـا عليكم، ولم يَضَعها عنكم من الصلاة والزكاةِ، وأطيعوا الله ورسوله، فيما أمركم به، وفيما نهاكم عنه.

«والله خَبير بمـا تَعْمَلُونَ»، يقـول جَلَّ ثنـاؤه: والله ذُو خبـرةٍ وعلمٍ بأعمالكم، وهو مُحْصِيها عليكم ليجازيكم بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم

﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ألم تَنْظُرْ بعين قلبكَ يامحمد، فترى الى القوم الذين تولَّوْا قوماً غَضِبَ الله عليهم. وهم المنافقونَ تولوا اليهود وناصحوهم.

وقوله: «ماهُم مِنْكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ماهؤلاء الذين تولَّوا هؤلاء القوم الذين غضبَ الله عليهم «منكم»، يعني: من أهل دينكم ومِلَّتكم، «ولا منهم»، ولاهُمْ من اليهود الذين غضبَ الله عليهم، وإنما وصفهم بذلك منكم جَلَّ ثَنَاؤُهُ لأنهم منافقون إذا لقوا اليهود، قالوا: «إنَّا مَعَكُم إنمَّا نحنْ مُسْتَهزئونَ» [البقرة: ١٤]، «وإذا لَقُوا الَّذينَ آمنوا قَالُوا آمنا» [البقرة: ١٤].

وقوله: «وَيحلِفُونَ على الكَذِبِ وَهُم يَعْلَمُون» يقول تعالى ذِكْرُه: ويحلفون على الكذب، وذلك قولُهم لرسول الله ﷺ: نشهدُ إنك لرسولُ الله وهم كاذبون غير مصدِّقينَ به، ولا مؤمنين به، كما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «والله يَشْهَدُ إنَّ المُنافِقين لَكاذِبُونَ»، وقد ذُكر أنَّ هذه الآية نزلت في رجلٍ منهم عاتبهُ رسول الله ﷺ على امرٍ بَلَغَهُ عنه، فحلفَ كذباً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أعَدَّ الله لهؤلاء المنافقينَ الذين تولَّوْا اليهودَ عذاباً في الاخرة شديداً «إنَّهُمْ ساءَ ماكانُوا يَعْمَلُونَ» في الدنيا بِغِشِّهم المسلمينَ، ونُصْحِهم لأعدائِهم من اليهود.

وقوله: «اتَّخذُوا أيمانَهُم جُنَّةً»، يقول جَلَّ ثناؤه: جعلوا حلفهم وأيمانهم

جُنَّةً يَسْتَجِنُّونَ بها من القتلِ ويدفعون بها عن أنفسِهم وأموالِهم وذَرارِيهم، وذلك أنهم إذا اطُّلِعَ منهم على النفاق، حَلَفُوا للمؤمنين بالله انهم لمنهم «فَصَدُّوا عَنْ سَبيلِ الله»، يقول جَلَّ ثَنَاؤُهُ: فَصَدُّوا بأيمانِهم التي اتخذوها جُنَّةً المؤمنين عن سبيلِ الله فيهم، وذلك أنهم كَفَرَةٌ، وحكمُ الله وسبيلُه في أهلِ الكفر به من أهلِ الكتابِ القتل، أو أخذ الجزيةِ، وفي عَبَدَةِ الأَوثانِ القتل، فالمنافقون يَصُدُّونَ المؤمنينَ عن سبيلِ الله فيهم بأيمانهم إنهم مؤمنون، وإنهم منهم، فيحولونَ بذلك بينهم وبين قَتْلِهم، ويمتنعونَ به مما يمتنع منه أهلُ الايمان بالله.

وقوله: «فَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ»، يقولُ: فلهم عذابٌ مُذِلٌ لهم في النار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ۝١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لن تُغْني عن هؤلاء المنافقينَ يومَ القيامة أموالُهم، فيفتدوا بها من عذابِ الله المهين لهم ولا أولادهم، فينصرونهم ويَستنقذونَهُمْ من اللهِ إذا عاقبهم «أولَئِك أصحَابُ النَّارِ»، يقولُ: هؤلاء الذين تَوَلَّوا قوماً غضبَ الله عليهم، وهم المنافقونَ أصحابُ النار، يعني: أهلها الذين هم فيها خالدون، يقول: هم في النار ماكثونَ الى غيرِ نهاية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ۝١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاء الذين ذكرهم هُمْ أصحابُ النار، يومَ يبعثُهم الله جميعاً، فيوم من صِلَةِ أصحاب النار، وعُني بقوله: «يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ الله جَميعاً» من

قبـورِهم أحياءً كهيئاتِهم قبلَ مَمَاتِهم، فيحلفونَ له كما يحلفونَ لكم كاذبينَ مُبْطِلينَ فيها.

وقـوله: «وَيحسَبُونَ أَنَّهُمْ على شَيْءٍ» يقولُ: ويظنون انهم في أيمانهم وحلفهم باللهِ كاذبينَ على شيءٍ من الحقِّ، «ألا إِنَّهُمْ هُمُ الكـاذِبُـونَ» فيمـا يحلفون عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝١٩﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِم الشَّيْطانُ» غَلَبَ عليهم الشيطانُ «فأنْساهُمْ ذِكْرَ اللهِ أولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطانِ»، يعني: جُنْدَهُ وأتباعَهُ «ألا إنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الخاسِرونَ»، يقول: ألا إنَّ جُنْدَ الشيطانِ وأتباعه هم الهالكونَ المغبونونَ في صَفْقَتِهِمْ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ ۝٢٠ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٢١﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: إنَّ الذين يخالفونَ الله ورسوله في حدودِه، وفيما فَرَضَ عليهم من فرائِضه فيعادونه.

وقوله: «أولئك في الأذَلينَ» يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاء الذين يُحادُّونَ الله ورسولَهُ في أهلِ الذلة، لأنَّ الغَلَبَةَ للهِ ورسوله.

وقوله: «كَتَبَ اللهُ لأغْلِبَنَّ أنا ورسُلي»، يقول: قَضىٰ الله وخَطَّ في أمِّ الكتابِ، لأَغلبنَّ أنا ورسلي مَن حادَّني وشاقَّني.

وقوله: «إنَّ الله قَويٌّ عَزيزٌ»، يقولُ: إنَّ الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ ذو قُوَّةٍ وقُدْرةٍ على كل مَنْ حادَّهُ ورسوله أنْ يُهْلِكَهُ، ذُو عزةٍ فلا يقدر أحدٌ أنْ ينتصرَ منه إذا هـو أهلك وَلِيَّهُ، أو عاقبه، أو أصابه في نفسه بسوء.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعـالَى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾

يعني جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقوله: «لاَتجدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بالله وَاليَوْمِ الآخر يُوادُّوْن مَنْ حادَّ الله ورَسُولَه» لاتجـدُ يامحمدُ قوماً يصدقونَ الله، ويُقِرُّونَ باليومِ الآخِرِ يوادُّونَ مَنْ حادَّ الله ورسوله وشاقَّهما وخالفَ أمرَ الله ونهيه «وَلَوْ كانُوا آباءَهُمْ»، يقولُ: ولو كان الذين حادُّوا الله ورسولَهُ آباءهم، «أوْ أبْناءَهُمْ أوْ إخْوانهُم أو عَشيرَتَهُمْ»، وإنما أخبرَ الله جل ثناؤه نبيه عليه الصلاةُ والسلام بهذه الآية «ألم تر إلى الـذين تولوا قوماً غضب الله عليهم» ليسوا من أهل الإيمان بالله ولا باليومِ الآخر، فلذلك تولَّوْا الذينَ تولَّوْهم من اليهودِ.

وقوله: «أولَئِك كَتَبَ في قُلُوبِهِمُ الإيمانَ»، يقول جَلَّ ثناؤه: هؤلاء الذين لايوادُّونَ مَنْ حادَّ الله ورسـولـه ولو كانوا آباءهم، أو أبناءهم، أو إخوانهم أو عشيرتهم، كتبَ الله في قلوبهم الايمان. وإنما عُنِي بذلك: قَضَى لقلوبهم الإيمان، ففي، بمعنى اللام، وأخبر تعالى ذِكْرُه أنه كتبَ في قلوبهم الايمانَ لهم، وذلـك لمَّا كان الإيمانُ بالقلوبِ، وكان معلوماً بالخبرِ عن القلوبِ أنَّ المرادَ به أهلُها، اجتزىء بذكرها مِنْ ذِكْرِ أهلها.

وقـولـه: «وأيَّدهُمْ بِرُوحٍ مِنْـهُ»، يقولُ: وقَوَّاهُمْ ببرْهانٍ منه ونور وهدى «وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأنهارُ»، يقولُ: ويدخلهم بساتين تجري من تحتِ أشجارها الانهار «خالِدِينَ فِيها»، يقولُ: ماكثينَ فيها ابداً «رَضِيَ الله عَنْهُمْ» بطاعتهم إياه في الدنيا «وَرَضُوا عَنْهُ» في الآخرةِ بإدخالهِ إياهم الجنة «أولئك حزْبُ الله»، يقول: أولئك الذين هذه صِفَتُهم جُنْدُ اللهِ وأولياؤه «ألا إنَّ حِزْبَ الله»، يقـولُ: ألا إنَّ جنـدَ الله وأولياءه «هُمُ المُفْلِحُونَ»، يقولُ: هم الباقون المُنْجَحُونَ بإدراكهم ماطلبوا، والتمسوا ببيعتهم في الدنيا وطاعتهم رَبَّهم.

سُورَةُ الحَشْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١﴾

يعني بقوله جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «سَبَّحَ لِلَّهِ» صَلَّى لله، وسَجَدَ له «مافي السَّمَوَاتِ وَما في الأَرْضِ» من خَلْقِهِ «وَهُوَ العَزِيزُ الحكيمُ»، يقولُ: وهو العزيزُ في انتقامه ممن انتقم من خَلْقِه على معصيتِهم إياهُ، الحكيمُ في تدبيره إياهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ۝٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه بقوله: «هُو الذي أخرج الذين كَفَروا من أهْلِ الكتابِ من دِيارِهِمْ لأَوَّلِ الحَشْرِ» الله الذي أخرجَ الذين جَحَدُوا نبوةَ محمدٍ ﷺ من أهلِ الكتاب، وهم يهود بني النضيرِ من ديارهم، وذلك خروجهم عن منازلهم ودورهم، حين صالحوا رسولَ الله ﷺ على أنْ يُؤمنهم على دمائِهم ونسائِهم وذراريهم، وعلى أنَّ لهم ما أقلَّت الإبلُ من أموالهم، ويُخْلُوا له دورهم، وسائر

أموالِهم، فأجابهم رسولُ الله ﷺ الى ذلك، فخرجوا من ديارهم، فمنهم مَنْ خرج الى الشام، ومنهم مَنْ خرج الى خيبر، فذلك قولُ الله عَزَّ وجَلَّ: «هُوَ الذي أَخْرَجَ الَّذينَ كَفَروا مِنْ أَهْلِ الكتاب مِنْ دِيارِهِمْ لأَوَّلِ الحَشْرِ».

وقـوله: «لأَوَلِ الْحَشْرِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لأَوَّلِ الجمعِ في الدنيا، وذلك حشرهم الى أرضِ الشام.

وقـوله: «ماظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا» يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ من أصحاب رسولِ الله ﷺ: ماظننتم أن يخرجَ هؤلاء الذين أخرجهم الله من ديارهم من أهل الكتاب من مساكنهم ومنازلهم، «وَظَنُّوا أَنَّهم مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ الله» وإنما ظَنَّ القومُ فيما ذكر ذلك أَنَّ عبدالله بن أبيّ وجماعة من المنافقين بعثوا إليهم لما حَصَرَهم رسولُ الله ﷺ يأمرونَهُمْ بالثباتِ في حصونهم وَيعِدُونَهم النصرَ.

وقوله: «فأَتاهُمُ الله مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبوا» يقول تعالى ذِكْرُه: فأتاهم أمرُ الله من حيثُ لم يحتسبوا أنه يأتيهم، وذلك الأمرُ الذي أتاهم من اللهِ من حيث لم يحتسبوا، قَذَفَ في قلوبهم الرُّعْب بنزولِ رسولِ الله ﷺ بهم في أصحابِه، يقول جَلَّ ثناؤه: «وقَذَفَ في قلوبهم الرعب».

وقوله: «يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بأَيْدِيهم وأَيْدِي المؤمنينَ» يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «يُخْرِبُون بُيُوتَهُمْ» بني النضير من اليهود، وأنهم يخربون مساكنهم، وذلك أنهم كانوا ينظرون الى الخشبة فيما ذُكِرَ في منازلهم مما يَسْتَحْسِنُونَهُ، أو العمود أو الباب، فينزعونَ ذلك منها بأيديهم وأيدي المؤمنينَ.

وقوله: «فاعْتَبِروا يا أولي الأَبْصَارِ» يقول تعالى ذِكْرُه: فاتَّعِظُوا يامعشرَ ذوي الأَفهام بما أحلَّ الله بهؤلاءِ اليهودِ الذين قَذَفَ الله في قلوبهم الرعب، وهم في حصونهم من نقمته، واعلموا أن الله وليُّ مَنْ والاه، وناصرُ رسولِه على كلِّ مَنْ ناوأه، ومحِـلٌّ من نقمته به نظيرَ الذي أَحَلَّ ببني النضير، وإنما عنى بالأبصارِ في

هذا الموضع أبصار القلوب، وذلك أنَّ الاعتبارَ بها يكون دونَ الإبصارِ بالعيون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولولا أنَّ الله قضى وكتبَ على هؤلاء اليهودِ من بني النضير في أمِّ الكتابِ الجلاءَ، وهو الانتقالُ من موضعٍ الى موضع، وبلدةٍ الى أخرى.

وقوله: «لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنيا» يقول تعالى ذِكْرُه: «ولوَلا أنْ كَتَبَ الله عَلَيهم الجَلاءَ» من أرضهم وديارهم، لعذَّبَهُمْ في الدنيا بالقتلِ والسَّبْي، ولكنه رفعَ العذابَ عنهم في الدنيا بالقتلِ، وجعَل عذابهم في الدنيا الجلاء «وَلهمْ في الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ» مع ما حَلَّ بهم من الخزي في الدنيا بالجلاءِ عن أرضِهم ودُورهم.

وقوله: «ذلك بأنَّهُمْ شاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الذي فَعَلَ الله بهؤلاء اليهودِ مافعلَ بهم من إخراجِهم من ديارهم، وقَذَفَ الرعبَ في قلوبِهم من المؤمنين، وجعلَ لهم في الاخرة عذابَ النار بما فعلوا هم في الدنيا من مخالفتهم اللهَ ورسولَهُ في أمره ونهيه، وعصيانِهم رَبَّهم فيما أمرهم به من اتباع محمد ﷺ «ومن يُشاقِّ الله فإنَّ اللهَ شَدِيدُ العقابِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ومَنْ يخالف الله في أمرِهِ ونهيه، فإنَّ الله شديدُ العقاب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ماقطعتم من ألوانِ النخلِ، أو تركتموها قائمةً على أصولها.

وإنما أنزلت هذه الآيةُ فيما ذُكِرَ من أجلِ أن رسولَ الله ﷺ لما قطعَ نخلَ بني النضير وحَرَّقَها، قالت بنو النضير لرسولِ الله ﷺ: إنك كنتَ تنهى عن الفسادِ وتَعيبُه، فما بالُكَ تقطعُ نَخْلَنَا وتُحرقها؟ فأنزلَ الله هذه الآيةَ، فأخبرهم أنَّ ماقطع من ذلك رسولُ الله ﷺ أو تركَ، فَعَنْ أمرِ الله فَعَلَ.

وقوله: «فَبِإِذْنِ اللهِ»، يقول: فبأمرِ اللهِ قطعتم ما قطعتم، وتركتم ماتركتم، وليغيظَ بذلك أعداءه، ولم يكن فساداً.

وقوله: «وَلِيُخْزِيَ الفاسقينَ»، وليذِلَّ الخارجينَ عن طاعةِ الله عَزَّ وجَلَّ، المخالفينَ أمرَهُ ونهيه، وهم يهودُ بني النضير.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والذي رَدَّهُ الله على رسولِهِ منهم، يعني من أموالِ بني النضير، يقال منه. فَاءَ الشيءُ على فلان: إذا رجعَ إليه، وأفأتُهُ أنا عليه: إذا رَدَدْتُه عليه.

«فَمَا أوجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا ركابٍ»، يقول: فما أوضعتم فيه من خيلٍ ولا في إبلٍ وهي الركابُ، وإنما وصفَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ الذي أفاءه على رسولِهِ منهم بأنـه لم يُوجَفْ عليه بخيلٍ من أجلِ أن المسلمينَ لم يَلْقَوْا في ذلك حرباً، ولا كُلِّفُـوا فيه مُؤْونَـةً، وإنما كان القومُ معهم، وفي بلدهم، فلم يكن فيه إيجافُ خيلٍ ولا رِكابٍ.

وقـوله: «وَلكِنَّ الله يُسَلِّطُ رُسُلَهُ على مَنْ يَشاء» أعلمكَ أنه كما سلَّط محمداً ﷺ على بني النضير، يخبرُ بذلك جَلَّ ثَنَاؤُهُ أنَّ ماأفاء الله عليه من أموالٍ لم يوجفِ المسلمونَ بالخيلِ والركاب، من الاعداء مما صالحوه عليه له خاصـة يعمل فيه بما يرى: يقولُ: فمحمدٌ ﷺ إنما صار إليه أموالُ بني النضير بالصلح لاعنوةً، فتقع فيها القسمة «وَالله على كُلِّ شَيْء قَدِيرٌ»، يقولُ: والله على كلِّ شيء أراده ذُو قدرةٍ لايعجزهُ شيءٌ، وبقدرته على مايشاءُ سلَّط نبيه محمداً ﷺ على ماسُلِّطَ عليه من أموالِ بني النضير، فحازَهُ عليهم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧﴾

يعني بقوله جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «ما أفاءَ الله على رَسُولِهِ مِن أَهْلِ القُرى» الذي رَدَّ الله عَزَّ وجَلَّ على رسوله من أموالِ مشركي القرى.

واختلف أهـلُ العلمِ في الـذي عنى بهـذه الآية من الألـوان، فقـال بعضهم: عَنَى بذلك الجزيةَ والخراجَ.

وقال آخرون: عَنَى بذلك الغنيمة التي يُصيبها المسلمونَ من عدوِّهم من أهلِ الحربِ بالقتال عنوة.

وقال آخرون: عَنَى بذلك الغنيمة التي أوجفَ عليها المسلمونَ بالخيلِ والركابِ، وأُخِذَتْ بالغلبةِ، وقالوا: كانت الغنائم في بُدُوِّ الاسلامِ لهؤلاء الذين سَمَّاهم الله في هذه الايات دونَ المُرْجِفينَ عليها، ثم نسخ ذلك بالآية التي في سورة الانفال.

وقـال آخرون: عَنَى بذلك: ماصالحَ عليه أهلُ الحرب المسلمينَ من أمـوالهم، وقـالـوا قولـه: «مـا أفـاءَ الله على رَسُـولِـهِ مِن أهْلِ القُرَى فللّه وللرَّسُولِ»... الآيات، بيانُ قَسْمِ المالِ الذي ذَكَرَهُ الله في الآيَةِ التي قبلَ هذه الايةِ، وذلك قوله: «ما أفاءَ الله على رَسُولِهِ منْهُمْ فَمَا أوْ جَفْتُمْ عَلَيْه مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكاب» وهذا قولٌ كان يقولُه بعض المتفقهةِ من المتأخرين.

والصوابُ من القول في ذلك عندي أنَّ هذه الآية حُكْمُهَا غيرُ حكمِ الآية التي قَبْلَها، وذلك أنَّ الاية التي قبلها مالٌ جعله الله عَزَّ وجَلَّ لرسولِه ﷺ خاصةً دونَ غيرِه، لم يجعلْ فيه لأحدٍ نصيباً.

وقوله: «ولذي القُرْبى» يقولُ: ولذي قرابةِ رسول الله ﷺ من بني هاشم وبني المطلب «واليتامى» وهم أهلُ الحاجةِ من أطفالِ المسلمينَ الذين لامال لهم، «والمسـاكين»، وهم الجـامعونَ فاقةَ وذُلَّ المسألة، وابن السبيل» وهم المُنْقَطِعُ بهم من المسافرينَ في غيرِ معصيةِ الله عَزَّ وجَلَّ.

وقوله: «كَيْلا يَكُونَ دُولَةً بَينَ الأَغْنياء مِنْكُمْ»، يقول جَلَّ ثناؤه: وجعلنا ما أفاءَ الله على رسولِهِ من أهلِ القرى لهذه الاصنافِ، كيلا يكونَ ذلك الفيءُ دولةً يتداوله الاغنياءُ منكم بينهم، يصرفُه هذا مرةً في حاجاتِ نفسه، وهذا مرّةً في أبوابِ البرِّ وسُبُلِ الخيرِ، فيجعلون ذلك حيث شاؤوا، ولكننا سَنَنَّا فيه سنةً لاتُغير ولاتُبدَّلُ.

وقوله: «وَمَا آتاكم الرَّسول فَخُذُوهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وما أعطاكم رسولُ الله ﷺ مما أفاءَ الله عليه من أهلِ القرى فَخُذُوه «وَما نَهاكُم عَنْهُ» من الغلولِ وغيره من الامورِ «فانْتَهُوا» وكان بعضُ أهلِ العلم يقول نحو قولنا في ذلك غير أنه كان يُوَجِّهُ معنى قوله: «وَما آتاكُمُ الرَّسُولَ فخُذُوهُ» الى ماآتاكم من الغنائم[1].

(١) وهذا وإنْ نزل في أمر الفيء، فهو عام في كل ما أمر به ﷺ، ونهى عنه، وللشوكاني في «فتح القدير» كلام جيد فيه.

وقوله: «واتقوا الله»، يقولُ: وخَافُوا الله، واحذروا عقابَهُ في خِلافِكم على رسولِه بالتقدُّمِ على مانهاكم عنه، ومعصيتِكُمْ إياه «إنَّ الله شَدِيد العِقابِ»، يقولُ: إنَّ الله شديدٌ عقابُه لمن عاقبه من أهلِ معصيتِهِ لرسولِه ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: كيلا يكونَ ما أفاء الله على رسولِهِ دُولةً بين الاغنياء منكم، ولكن يكون «للفقراء المهاجرينَ الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم».

وقوله: «يبتغون فضلاً من الله» (أي: «رزقاً يأتيهم»، «ورضواناً»، يعني: رضى رَبِّهم حين خرجوا الى دارِ الهجرة)[1].

وقوله: «وَيَنْصرونَ الله وَرَسُولَهُ»، يقولُ: وينصرونَ دينَ الله الذي بعثَ به رسولَهُ محمداً ﷺ.

وقوله: «أولَئِك هُمُ الصَّادِقُونَ» يقولُ: هؤلاء الذين وَصَفَ صِفَتَهُمْ من الفقراءِ المهاجرينَ هم الصادقونَ فيما يقولون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ

(١) أضفنا مابين الحاصرتين من زاد المسير لابن الجوزي (٨/٢١٢) وكأنه سقط من تفسير الطبري شيء في هذا الموضع.

الحشـــر: ٩

﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَالذِّين تَبـوَّؤُوا الدَّارَ والإيمانَ» يقولُ: اتَّخذُوا المدينةَ مدينـةَ الـرسولِ ﷺ، فابْتَنوهَا منازَل، «وَالايمَانَ» باللهِ ورسولِه «مِن قَبْلِهم»، يعني: من قبلِ المهاجرينَ، «يُحِبونَ مَنْ هاجَرَ إليْهِمْ»: يحبون مَنْ تركَ منزله، وانتقلَ إليهم من غيرِهم، وعني بذلك الأنصار يُحبونَ المهاجرينَ

وقوله: «وَلا يَجِدُونَ في صُدُورِهِمْ حاجةً مِمَّا أُوتُوا»، يقول جَلَّ ثناؤه: ولايجدُ الذين تَبَوَّءُوا الدَّارَ من قبلهم، وهم الأنصارُ في صدورهم حاجةً، يعني حَسَداً «مما أوتوا»، يعني: مما أُوتيَ المهاجرونَ من الفيء، وذلك لما ذُكِرَ لنا من أنَّ رسـولَ الله ﷺ قَسَمَ أمـوالَ بني النضير بين المهاجرينَ الأَوّلينَ دونَ الأنصار، إلا رجلين من الأنصارِ، أعطاهما لفقرهما، وإنما فُعِلَ ذلك لرسولِ الله ﷺ خاصة[1].

وقوله: «وَيُؤْثِرُونَ على أنْفُسِهِمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وهو يَصِفُ الأَنصارَ الـذين تبـوَّؤوا الـدارَ والإيمـانَ من قبـل المهـاجـرين «ويُؤْثِـرُونَ على أنْفُسِهِمْ»، يقولُ: ويُعْطُون المهاجرينَ أموالهم إيثاراً لهم بها على أنفسِهم «وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ»، يقولُ: ولو كان بهم حاجةٌ وفاقةٌ الى ما آثروا به من أموالهم على أنفسهم، والخَصاصة مصدر، وهي أيضاً اسم، وهو كلُّ ماتخللته ببصركَ كالكُوَّةِ والفُرْجَةِ في الحائط، تُجْمَعُ خَصاصاتٍ وخصاص.

وعن أبي هريرة، قال: «جاء رجلٌ الى النبي ﷺ ليضيفه، فلم يكن عنده مايُضيفه، فقال: أَلَا رجلٌ يضيفُ هذا رَحِمَهُ الله؟ فقام رجلٌ من الأَنصار يقال له أبو طلحة، فانطلقَ به الى رَحْلِه، فقال لامرأته: أكرمي ضيفَ رسولِ الله

---

(١) انظر سيرة ابن هشام: ١٩٤/٣.

ﷺ، نوِّمي الصِّبْيَةَ، وأطفئي المصباحَ، وأريه بأنكِ تأكُلينَ معه، واتركيه لضيفِ رسول الله ﷺ ففعلت، فنزلت «وَيُؤْثِرونَ على أَنْفُسِهم وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصَاصةٌ»[1].

وقوله: «وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: مَنْ وقاهُ الله شُحَّ نفسه «فـأولئـكَ هُمُ المُفْلِحُـونَ» المُخلَّدُونَ في الجنـة. والشُّحُّ في كلام العرب: البُخْلُ، ومَنْعُ الفضلِ من المال.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والذين جاؤوا من بعد الذين تَبَوَّؤوا الدارَ والإيمان من قبل المهاجرين الأوَّلينَ «يَقولُـونَ رَبَّنا اغْفِر لَنا ولإخْوَانِنا الَّذين سَبَقُونا بالإيمَان» مِنَ الأنْصار. وعني بالذين جاؤوا من بَعْدِهم المهاجرونَ أنهم يستغفرونَ لإخوانِهم من الأنصارِ.

وقوله: «وَلا تَجْعَلْ في قُلُوبِنا غِلًّا للَّذينَ آمَنُوا»، يعني: غمراً وضِغْناً، وقيل: عَنَى بالذين جاؤوا من بعدهم: الذين أسلموا من بعدِ الذين تَبَوَّؤوا الدارَ.

وقوله: «للَّذينَ آمَنُوا رَبنَّا إنَّكَ رَؤوفٌ رَحيمٌ»، يقول جَلَّ ثناؤه: مخبراً عن قِيل الذين جاؤوا من بعدِ الذين تبوّؤوا الدارَ والايمانَ أنهم قالوا: لاتجعلْ في قلوبنا غِلًّا لأحدٍ من أهل الايمانِ بكَ ياربنا.

وقوله: «إنَّكَ رَؤوفٌ رَحيمٌ»، يقول: إنك ذُو رأفةٍ بخلقك، وذُو رحمةٍ بمن تابَ واستغفرَ من ذنوبه.

---

(١) حديث أبي هريرة في الصحيحين بتفصيل أكثر: البخاري (٤٨٨٩)، ومسلم (٢٠٥٤).

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ألم تَنْظُرْ بعينِ قلبكَ يامحمدُ، فترى الى الـذين نافقوا وهم فيما ذُكِرَ عبدُالله بن أُبيّ بن سلول، ووديعة، ومالك ابنا نوفل وسُوَيد وداعس بَعَثوا الى بني النضير حين نزلَ بهم رسولُ الله ﷺ للحربِ أن اثْبُتوا وتَمَنَّعُوا، فإنَّا لن نُسْلِمَكُمْ، وإنْ قُوتِلْتُمْ قاتلنا معكم، وإنْ خرجتم، خرجنا معكم فتربصوا لذلك من نصرهم، فلم يفعلوا، وقَذَفَ اللهُ في قلوبهم الرعبَ، فسألوا رسولَ الله ﷺ أنْ يُجْلِيهم، ويكفَّ عن دمائِهم على أنَّ لهم ماحملتِ الإبلُ من اموالهم إلا الحَلْقَة[1].

وقوله: «يَقُولُون لإخْوَانِهِمُ الَّذينَ كَفَرُوا مِن أَهْلِ الكتابِ»، يعني: بني النضير.

وقوله: «لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ»، يقولُ: لئن أُخرجتم من ديارِكم ومنازلكم، وأُجْليتم عنها لنخرجَنَّ معكم، فَنُجلي عن منازلنا وديارنا معكم.

وقـولـه: «وَلا نُطيعُ فِيكُمْ أَحَـداً أَبَـداً»، يقـولُ: ولا نطيع أحداً سألنا خِذْلانَكُمْ، وتَـرْكَ نُصْـرَتكُمْ، ولكنـا نكونُ معكم «وَلَئِنْ قُوتِلْتُمْ لنَنصرَنَّكُمْ»، يقولُ: وإن قاتلكم محمدٌ ـ ﷺ ـ ومَنْ معه لَنَنْصُرَنَّكُمْ معشر النضيرِ عليهم.

وقوله: «وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ»، يقول: والله يشهدُ إنَّ هؤلاء المنافقين الذين وَعَدُوا بني النضير النصرةَ على محمدٍ ﷺ «لَكَاذِبُون» في وَعْدِهم إياهم

---

(١) الحلقة: السلاح عامة، أو الدرع خاصة.

مَاوَعَدُوهم من ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لئن أُخرج بنو النضيرِ من ديارهم، فأُجلَوْا عنها لايخرج معهم المنافقونَ الذين وَعَدُوهم الخروجَ من ديارهم، ولئن قاتلهم محمدٌ ﷺ لاينصرهم المنافقونَ الذين وعدوهم النصرَ، ولئن نَصَرَ المنافقونَ بني النضيرِ ليولُّنَّ الأَدبارَ منهزمينَ عن محمدٍ ﷺ وأصحابه هاربينَ منهم، قد خذلوهم «ثُم لايُنْصَرُونَ»، يقولُ: ثم لاينصرُ اللهُ بني النضير على محمدٍ ﷺ وأصحابه، بل يخذلهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ به من أصحابِ رسولِ الله ﷺ: لأَنْتُمْ أيها المؤمنـونَ أشـدُّ رهبةً في صدورِ اليهودِ من بني النضير من الله: يقولُ: هُمْ يَرْهَبُونَهم أشدَّ من رهبتهم من الله «ذَلك بأَنَّهُمْ قَوْمٌ لايَفْقَهُونَ» يقول تعالى ذِكْرُه: هذه الرهبةُ التي لكم في صدورِ هؤلاء اليهودِ التي هي أشدُّ من رهبتهم من الله من أجلِ أنهم قومٌ لايفقهون قَدْرَ عظمةِ الله، فهم لذلك يستخفون بمعاصيه، ولايرهبون عقابه قَدْرَ رهبتِه منكم.

وقولـه: «لايُقـاتِلُونَكمْ جَمِيعاً إلاَّ في قُرىً مُحصَّنَة»، يقول جَلَّ ثناؤه: لايقاتلكم هؤلاء اليهود بني النضير مجتمعين إلا في قرى محصنة بالحصونِ، لايبرزونَ لكم بالبرازِ، «أو مِن وَرَاء جُدُرٍ» يقولُ: أو من خَلْفِ حيطان.

وقوله: «بأسهُم بينهم شديدٌ»، يقول جَلَّ ثناؤه: عداوةُ بعض هؤلاء الكفار من اليهـود بعضاً شديدٌ «تَحْسَبُهُم جَمِيعاً»، يعني: المنافقين وأهل الكتاب، يقـولُ: تَظُنُّهُمْ مُؤْتَلفين مجتمعةً كلمتهم، «وَقُلُوبُهمْ شَتَّى»، يقولُ: وقلوبهم مختلفة لمعاداةِ بعضهم بعضاً.

وقوله: «ذَلَك بأنَّهم قَوْمٌ لايَعْقِلُونَ»، يقول جَلَّ ثناؤه: هذا الذي وصفتُ لكم من أمر هؤلاء اليهود والمنافقين، وذلك تشتيت أهوائهم، ومعاداةُ بعضهم بعضاً من أجل أنهم قومٌ لايعقلون مافيه الحظ لهم مما فيه عليهم البخسُ والنقص.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٥ كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مَثل هؤلاء اليهود من بني النضير والمنافقين فيما الله صانعٌ بهم من إحلالِ عقوبتهِ بهم «كمَثَل الذِّينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» يقولُ: كشبهِهِمْ

واختلف أهلُ التأويل في الذين عُنُوا بالذين من قَبْلِهم، فقال بعضهم: عُني بذلك بنو قينقاع.

وقال آخرون: عني بذلك مشركو قريش ببدر.

وأولى الاقوال بالصواب أنْ يقالَ إن الله عَزَّ وجَلَّ مَثل هؤلاء الكفار من

أهل الكتاب مما هو مُذِيقُهُمْ من نكالهِ بالذين من قبلهم من مكذبي رسولهِ ﷺ الذين أهلكهم بِسَخَطِهِ وأمرُ بني قينُقاع ووقعة بدر كانا قبل جلاء بني النَضير وكل أولئك قد ذاقوا وبالَ أمرهم ولم يخصص الله عَزَّ وجَلَّ منهم بعضاً في تمثيل هؤلاء بهم دونَ بعضٍ ، وكُلٌّ ذائقٌ وبالَ أمرِه فَمَنْ قَرُبَتْ مُدَّتُهُ منهم قبلهم ، فهم ممثلونَ بهم فيما عُنُوا به من المثلِ .

وقوله : «ذاقوا وَبالَ أَمْرِهِمْ» يقولُ: نالهم عقابُ الله على كُفْرِهم به.

وقوله : «وَلَهم عَذَاب أليم» ، يقول : ولهم في الآخرة مع مانالهم في الدنيا من الخزي عذابٌ اليمٌ يعني : مُوجِعٌ .

وقولـه : «كَمَثَلِ الشَّيطان إذ قالَ للإنْسانِ اكْفُرْ، فلَمَا كَفَرَ قال إنّي بَرِيءٌ مِنْكَ إنّي أخافُ الله رَبَّ العَالمين» ، يقول تعالى ذِكْرُه : مَثَلُ هؤلاء المنافقين الذين وَعَـدُوا اليهـود من النَضيرِ النُّصْرَةَ ، إنْ قُوتِلُوا ، أو الخروج معهم إنْ أخرجوا ، ومثل النضير في غرورهم إياهم بإخلافِهم الوعدَ ، وإسلامِهِمْ إياهم عند شِدَّةِ حاجتِهم اليهم ، وإلى نُصـرتِهم إياهم ، كمثل الشَّيطان الذي غَرَّ إنْساناً ، ووعدهُ على اتباعِهِ وكُفْرِه بالله ، النصرة عند الحاجة اليه ، فكفر بالله واتَّبَعَهُ وأطاعَهُ ، فلما احتاج الى نُصْرَتِه أسْلَمَهُ وتبرأ منه ، وقال له : «إني أخافُ الله ربَّ العالمين» في نُصرتك .

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَىٰ : ﴿ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٨ ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه : فكان عُقبى أمر الشيطانِ والانسان الذي أطاعَهُ ، فكفرَ باللهِ أنَّهُمَا خالدانِ في النار ماكثانِ فيها أبداً «وَذلك جَزَاءُ الظَّالمين» ، يقولُ :

وذلك ثوابُ اليهود من النضيرِ والمنافقين الذين وعدوهم النصرةَ، وكل كافرٍ بالله ظالم لنفسهِ على كفرهِ بهِ أنهم في النارِ مُخَلَّدون.

وقـولـه: «يا أيُّها الذين آمنوا اتقوا الله» يقول تعالى ذِكْرُه: ياأيها الذين صَدَّقُوا الله ووحَّدُوهُ، اتقوا الله بأداءِ فرائضهِ، واجتناب معاصيه.

وقوله: «وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ماقَدَّمَتْ لِغَدٍ»، يقولُ: ولينظُرْ احدكم ماقَدَّمَ ليومِ القيامةِ من الأَعمال، أَمِنَ الصالحاتِ التي تُنْجِيه أم من السيئاتِ التي تُوبِقُهُ؟

وقوله: «وَاتَّقوا الله»، يقول: وخافوا الله بأداءِ فرائضه، واجتناب معاصيه «إنَّ الله خَبير بما تَعْمَلُونَ»، يقولُ: إنّ الله ذُو خبرةٍ وعلمٍ بأعمالكم خيرها وشَرِّها، لايَخْفَى عليه منها شيءٌ، وهو مجازيكم على جميعها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولاتكونوا كالذين تركوا أداءَ حَقِّ الله الذي أوجبه عليهم «فأنْساهُمْ أنْفُسَهمْ» يقول: فأنساهم الله حظوظَ أنفسهم من الخيرات.

وقوله: «أولَئِكَ هُمُ الفاسقون»، يقول جَلَّ ثناؤه: هؤلاء الذين نَسُوا الله، هم الفاسقونَ، يعني: الخارجون من طاعة الله الى معصيته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾

يقـول تعـالى ذِكـرُه: لايعتدل أهلُ النار وأهل الجنة، أهل الجنة هم الفائزون، يعني أنهم المُدرِكون ماطلبوا وأرادوا، الناجـون مما حذروا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾

وقوله: «لَوْ أَنْزَلْنا هَذا القُرآن عَلى جَبَلٍ لرأيْتَهُ خاشعاً مُتَصَدّعاً مِن خَشْيَةِ اللهِ»، يقول جَلَّ ثناؤه: لو أنزلنا هذا القرآن على جبلٍ، وهو حَجَرٌ، لرأيته يا محمدُ «خاشِعاً»، يقولُ: متذللاً، «متصدّعاً من خشيةِ الله» على قَساوتِهِ، حذراً مِنْ أنْ لايؤدّي حَقَّ الله المُفْتَرَضَ عليهِ في تعظيمِ القرآن، وقد أنزل على ابن آدم وهـو بحقِّـه مُسْتَخِفٌّ، وعنـه عَمَّا فيه من العِبَرِ والذِّكْرِ مُعْرِضٌ، كأنْ لم يسمعها، كأنَّ في أذنيه وَقْراً.

«وَتِلكَ الأَمْثال نَضْرِبُها للنَّاسِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وهذه الأشياء نُشَبِّهُهَا للناسِ، وذلك تعريفُه جَلَّ ثَنَاؤُهُ إياهم أنَّ الجبالَ أشد تعظيماً لحقِّه منهم مع قساوتها وصلابتها.

وقوله: «لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُون»، يقولُ: يضربُ الله لهم هذه الأَمثالَ ليتفكَّروا فيها، فَيُنِيبُوا، وَينْقَادُوا للحق.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: الذي يتصدعُ من خشيتهِ الجبلُ أيها الناسُ، هو المعبودُ الذي لاتنبغي العبادةُ والالوهية إلّا له، عالمُ غيبِ السمواتِ والأرض، وشاهد مافيهما مما يُرَى ويُحَسُّ «هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ»، يقولُ: هو رحمنُ الدُّنيا والآخرة، رحيم بأهلِ الايمان به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هو المعبودُ الذي لاتصلحُ العبادةُ الا له، الملكُ الذي لاملكَ فوقَهُ، ولاشيءَ إلا دونَهُ، «القدّوس»، قيل: هو المُبَارَكُ.

وقوله: «السَّلام»، يقولُ: هو الذي يَسْلَمُ خَلْقُه من ظُلْمِه، وهو اسمٌ من أسمائه.

وقوله: «المؤمنُ» يعني بالمؤمن: الذي يُؤَمِّنُ خَلْقُه من ظُلمه.

وقوله: «المُهَيْمِنُ» فقد بينتُ أولى الأقوال فيه بالصواب في سورة المائدة[1].

وقوله: «العَزِيزُ»: الشديدُ في انتقامهِ ممن انتقم من أعدائهِ.

وقـولـه: «الجَبَّـارُ»، يعني: المُصْلحُ أمـورَ خَلْقِه، المُصَرِّفَهُمْ فيما فيه صَلاحُهُمْ، وكان قتادة يقول: جَبَرَ خَلْقَهُ على مايشاء من أمره.

وقوله: «المُتَكَبِّرُ»، قيل: عُنِي به أنه تكبر عن كلِّ شَرٍّ.

«سُبْحـان الله عَمَّـا يُشْـرِكـون»، يقـولُ: تنزيهاً لله وتبرئةً له عن شِرْكِ المشركين به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾

---

(١) انظر تفسير الاية ٤٨ من سورة المائدة.

يقول تعالى ذِكْرُه: هو المعبودُ الخالقُ، الذي لامعبودَ تَصْلُحُ له العبادةُ غيره، ولا خالق سِواهُ «البارىءُ» الذي برأ الخلق، فأوجدهم بقدرته، «المصوِّرُ» خَلْقَهُ كيف شاءَ، وكيفَ يشاء.

وقوله: «لَهُ الأَسْماء الحُسْنَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: لله الأَسماءُ الحسنى، وهي هذه الاسمـاءُ التي سَمَّى الله بها نفسه، التي ذكرها في هاتين الآيتين «يُسَبِّحُ لَهُ مافي السَّمَواتِ والأَرْضِ»، يقولُ: يسبحُ له جميع ما في السمواتِ والارض، ويسجدُ له طوعاً وكرهاً «وَهُو العَزِيزُ» يقولُ: وهو الشديدُ الانتقام من أعدائهِ «الْحَكِيم» في تدبيرِه خَلْقَهُ، وصَرْفِهم فيما فيه صَلاَحُهم.

سُورَةُ المُمْتَحَنَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ به من أصحاب رسول الله ﷺ: «يا أيها الذين آمنوا لاتتَّخِذوا عَدُوِّي» من المشركينَ «وَعَدُوَّكُم أوْلِياء»، يعني: أنصاراً.

وقوله: «تُلْقُون إليهم بالمَوَدَّةِ»، يقول جَلَّ ثناؤُه: تلقون اليهم مودَّتكم إياهم، ودخول الباء في قوله: «بالمَوَدَّةِ» وسقوطها سواء، نظير قول القائل: أريد بأن تذهب، وأريد أن تذهب سواء، وكقوله: «وَمَنْ يُرِدْ فِيه بإلحادٍ بظلمٍ» والمعنى: وَمَنْ يُرِدْ فيه الحاداً بظلم.

«وقد كَفَرُوا بما جاءكُم من الحقِّ»، يقولُ: وقد كفر هؤلاء المشركون الذين نهيتكم أنْ تَتَّخِذُوهم أولياء بما جاءكم من عند الله من الحق، وذلك كفرهم بالله ورسوله وكتابه الذي انزله على رسوله.

وقوله: «يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وإيَّاكُم أنْ تُؤمِنُوا بالله رَبكُمْ»، يقول جَلَّ ثناؤُه:

يخرجون رسول الله ﷺ وإيَّاكُمْ، بمعنى: ويُخْرِجونَكُمْ أيضاً من دياركم وأرضكم، وذلك إخراج مشركي قريشٍ رسولَ الله ﷺ وأصحابه من مكة.

وقوله: «أنْ تُؤمِنُوا بالله رَبِّكُمْ»، يقول جَلَّ ثناؤه: يُخرجونَ الرسولَ وإياكم من ديارِكم، لأنْ آمنتم بالله.

وقوله: «إنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهاداً في سَبِيلي وابْتِغاءَ مَرْضَاتِي» من المُؤَخَّرِ الذي معناهُ التقديمُ، ووجهُ الكلام: ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوّي وعدوَّكُمْ أولياءَ تُلْقُونَ اليهم بالمودّةِ وقد كفروا بما جاءكم من الحق إنْ كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي، وابتغاء مرضاتي «يُخرجون الرسول وإياكم أنْ تُؤمنوا بالله رَبِّكم».

ويعني بقوله تعالى ذِكْرُه: «إنْ كُنْتُمْ خرجتم جهاداً في سَبِيلي»: إنْ كنتم خرجتم من دياركم، فهاجرتم منها الى مهاجركم للجهادِ في طريقي الذي شرعتُه لكم، وديني الذي أمرتُكم به والتماس مَرْضاتي.

وقوله: «تُسِرونَ إلَيْهم بالمَوَدّةِ» يقول تعالى ذِكْرُه: للمؤمنينَ من أصحاب رسول الله ﷺ: تُسِرُّونَ أيها المؤمنون بالمَوَدة الى المشركين بالله «وأنا أعْلَمُ بِمَا أخْفَيْتُمْ»، يقولُ: وأنا أعلم منكم بما أخفى بعضكم من بعض، فأسَرَّهُ منه «وما أعلَنْتُمْ»، يقولُ: وأعلم أيضاً منكم ماأعلنه بعضُكم لبعضٍ «وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبيل»، يقول جَلَّ ثناؤه: ومَنْ يُسِرُّ منكم الى المشركين بالمودةِ أيها المؤمنون «فقد ضَلَّ» يقولُ. فقد جار عن قَصْدِ السبيلِ التي جعلها الله طريقاً الى الجنة ومحجةً إليها.

وذُكر أنَّ هذه الآيات من أوَّلِ هذه السورةِ نزلتْ في شأن حاطب بن أبي بَلتعة، وكان كتب الى قُريشٍ بمكة يُطْلِعُهم على أمرٍ كان رسولُ الله ﷺ قد أخفاه عنهم.

عن علي رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزُّبير بن العوام

والمِقْداد، فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ[1]، فإنَّ بها ظعينةً معها كتابٌ، فخذوه منها، فانطلقنا تَعادَى[2] بنا خيلُنا حتى انتهينا الى الرَّوضة، فوجدنا امرأةً، فقلنا: أخرجي الكتابَ، قالت: ليس معي كتابٌ، قلنا لَتُخْرِجِنَّ الكتابَ، أو لَنُلْقِيَنَّ الثيابَ، فأخرجتهُ من عِقاصِها[3]، وأخذنا الكتابَ، فانطلقنا به الى رسول الله ﷺ، فإذا فيه: مِنْ حاطب بن أبي بلتعة الى نَاسٍ بمكة، يخبرهم ببعض أمرَ رسول الله ﷺ، فقال رسولُ الله ﷺ: يا حاطِبُ ما هَذَا؟ قال: يارسول الله لاتَعْجَلْ عليَّ! كنتُ امرأً مُلْصَقاً في قريش[4]، ولم يكن لي فيهم قرابةٌ، وكان مَنْ معكَ من المهاجرين لهم قراباتٌ، يحمون أهليهم بمكة، فأحببت إذ فاتني ذلك من النَّسب أنْ أتَّخِذَ فيها يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلتُ ذلك كُفْراً ولا ارتـداداً عن ديني، ولا رضـا بالكُفرِ بعد الاسلام، فقال رسولُ الله ﷺ: قَدْ صَدَقَكُمْ، فقال عمر: يارسول الله دعني أضرِبْ عُنُقَ هذا المنافق، فقال: «إنَّه قَدْ شَهِـدَ بَدْراً، وَما يُدْريكَ لَعَلَّ الله قَدَ اطلَعَ على أهْلِ بَدْرٍ فقال: اعْمَلُوا ما شِئْتُم فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُم».

ونَزلت فيه: «يا أيها الذَّين آمنوا لاتَتَّخِذوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُم أولْياءَ»... إلى قوله: «حتَّى تُؤْمِنوا بالله وَحْدَهُ»[5].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ

(١) موضع بين مكة والمدينة، بقرب المدينة.

(٢) في المطبوع «تتعادى» وما أثبتناه من الصحيحين، وهو الصواب، وتعادى: تجري.

(٣) عقاصها: شعرها المضفور، جمع عقيصة.

(٤) إذ كان حليفاً لهم، ولم يكن من انفسهم.

(٥) الحديث في الصحيحين: البخاري ٣٠٠٧) و (٣٠٨١) و (٣٩٨٣) و (٤٢٧٤) و ٤٨٩٠) و (٦٢٥٩) و)٦٩٣٩)، ومسلم (٢٤٩٤).

إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣

يقول تعالى ذِكْرُه: إنْ يَثْقَفُكُمْ هؤلاء الذين تُسِرُّونَ أيها المؤمنونَ إليهم بالمودّةِ، يكونوا لكم حرباً وأعداء «وَيَبْسُطُوا إلَيْكُمْ أيْدِيَهُمْ» بالقتال «وألْسِنَتَهُمْ بالسوُّءِ».

وقوله: «وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ»، يقولُ: وتَمَنَّوا لكم أنْ تَكْفُروا بربِّكم، فتكونُوا على مِثْلِ الذي هم عليه.

وقـولـه: «لَنْ تَنْفَعَكُم أرْحامُكُم وَلا أوْلادُكُمْ يَوْمَ القيامَةِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لايدعونكم أرحامكم وقراباتكم وأولادكم الى الكفر بالله، واتخاذ اعدائه أولياءَ تُلْقُونَ إليهم بالمودةِ، فإنه لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم عند الله يومَ القيامة، فتدفع عنكم عذابَ الله يومئذٍ، إنْ أنتم عَصَيْتُمُوه في الدنيا، وكفرتم به.

وقوله: «يَفْصل بَيْنكم» يقول جَلَّ ثناؤه: يفصل رَبُّكم أيها المؤمنونَ بينكم يومَ القيامة بأنْ يُدْخِلَ أهلَ طاعتِه الجنة، وأهل معاصيه والكفر به النار.

وقوله: «والله بما تَعْمَلُونَ بَصيرٌ»، يقول جَلَّ ثناؤه: والله بأعمالكم أيها النـاسُ ذُو علمٍ وبَصَرٍ، لايَخْفَى عليه منها شيءٌ، هو بجميعها مُحيط، وهو مُجازِيكم بها إنْ خيراً فخير، وإنْ شراً فشرّ، فاتقوا الله في أنفُسِكم واحْذَرُوه.

القَـوْلُ في تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعـالَى: قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا

بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ به من أصحاب رسولِ الله ﷺ, قد كانَ لكم أيهـا المؤمنونَ «أسوةُ حسنةٌ» يقولُ: قدوة حسنةٌ في ابراهيم خليل الرحمن، تقتدونَ به، «والذين معه» من أنبياء الله.

وقوله: «إذْ قالُوا لِقَوْمِهمْ إنَّا بُرآءُ مِنكُمْ وَمِماً تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله»، يقول: حين قالـوا لقـومهم الـذين كفروا بالله، وعبدوا الطاغوت: أيها القومُ إنَّا بُرَآءُ منكم، ومِنْ الذين تعبدون من دونِ الله من الالهة والانداد.

وقوله: «كَفرنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنا وَبَيْنَكم العَدَاوَةُ وَالبَغْضاءُ أَبداً حتى تؤمِنوا باللهِ وَحْـدَهُ»، يقـول جَلَّ ثناؤه مخبراً عن قِيل أنبيائه لقومهم الكفرة: «كفرنا بكم»، أنْكَرْنَا ماكنتم عليه من الكفرِ باللهِ وجَحَدْنَا عبادَتَكُمْ ما تعبدون من دون الله أنْ تكون حقاً، وظهرَ بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً على كفركم بالله، وعبادتكم ماسواه، ولاصُلْحَ بيننا ولا هوادةَ، «حتى تؤمنوا بالله وحده» يقول: حتى تُصَدِّقُوا بالله وحده، فتوحِّدُوهُ، وتُفْرِدُوْهُ بالعبادة.

وقوله: «إلاَّ قَوْلَ إبْرَاهِيم لأَبِيه لأَسْتَغْفِرنَّ لك، ومَا أمْلِكُ لكَ مِنَ الله من شَيْء»، يقول تعالى ذِكْرُه: قد كانت لكم أسوة حسنةٌ في إبراهيم والذين معه في هذه الأَمور التي ذكرناها من مباينة الكفارِ ومعادَاتِهم، وترك موالاتهم الا في قول إبراهيم لأبيه «لأَستغفرنَّ لك» فإنه لاأسوةَ لكم فيه في ذلك، لأَنَّ ذلك كان من إبراهيم لأَبيه عن مَوْعدةٍ وعَدَها إياه قبل أنْ يتبينَ له أنه عدوٌّ الله، «فلما تَبيَّنَ له أنه عدوٌّ لله تبرأ منه»، يقول تعالى ذِكْرُه: فكذلك أنتم أيها المؤمنونَ بالله، فتبرَّؤوا من أعداءِ الله من المشركينَ به ولا تَتَّخِذُوا منهم أولياء حتى يؤمنوا بالله

وَحْدَهُ ويتبرّؤُوا عن عبادةِ ما سواه وأَظْهِرُوا لهم العداوةَ والبغضاء.

ويعني بقوله: «وَما أَمْلك لك من الله من شيءٍ»، يقولُ: وما أدفع عنك من الله من عقوبة، إنِ الله عَاقَبَكَ على كُفْرِكَ به، ولا أُغْنِي عنك منه شيئاً.

وقوله: «رَبَّنا عَلَيْك تَوكَّلنا»، يقول جَلَّ ثناؤه: مخبراً عن قيل إبراهيم وأنبيائه صلواتُ الله عليهم: «رَبَّنا عَلَيْكَ تَوكَّلْنا، وإِلَيْكَ أَنَبْنا»، يعني: وإليك رَجَعْنا بالتوبةِ مما تَكْرَهُ الى ماتُحِبُّ وتَرْضَى «وَإِلَيْك المَصِيرُ»، يقول: وإليك مصيرُنا ومَرْجِعُنَا يومَ تَبْعَثُنَا من قبورنا، وتحشرنا في القيامةِ الى موقفِ العَرْض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قيل إبراهيم خليله والذين معه: ياربنا لاتجعلنا فتنة للذين كفروا بك فجحدوا وحدانيتك، وعبدوا غيرَك، بأنْ تُسَلِّطهم علينا، فيروا أنهم على حقّ، وأنَّا على باطلٍ، فتجعلنا بذلك فتنة لهم.

وقوله: «وَاغْفِر لَنا رَبَّنا»، يقولُ: واسْتُرْ علينا ذنوبنا بعفوكَ لنا عنها يارَبَّنا، «إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحكيمُ»، يعني: الشديد الانتقام ممن انتقم منه، «الحكيم»، يقولُ: الحكيمُ في تدبيرهِ خَلْقَهُ، وصرفهُ إياهم فيما فيه صلاحُهم.

وقوله: «لَقَدْ كان لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لقد كان لكم أيها المؤمنون قدوةٌ حسنةٌ في الذين ذكرهم إبراهيمُ والذين معه من الأنبياء صلواتُ الله عليهم والرُّسُلِ «لِمَنْ كانَ يَرْجُو الله وَاليَوْمَ الآخِرَ»، يقولُ: لمن كان منكم يرجو لقاء الله، وثوابَ الله، والنجاة في اليومِ الآخر.

وقوله: «وَمَنْ يَتَوَل فإنَّ الله هُو الغَنِي الحَمِيدُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وَمْن يتولَّ عما أمَرَهُ الله به ونَدَبَهُ إليه منكم ومن غيركم، فأعرضَ عنه وأدبَر مُستكبراً، ووالى أعـداء الله، والقى اليهم بالمودَّةِ، فإنَّ الله هو الغني عن إيمانِهِ به، وطاعته إياه، وعن جميعِ خَلْقِه، الحميد عند أهلِ المعرفةِ بأياديه، وآلائِه عندهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: عسىٰ الله أيها المؤمنونَ أنْ يجعلَ بينكم وبين الذين عاديتم من أعدائي من مشركي قريش مودَّةً، ففعلَ الله ذلك بهم، بأنْ أسلمَ كثيرٌ منهم، فصاروا لهم أولياء وأحزاباً.

وقوله: «والله قَديرٌ» يقولُ: والله ذُو قدرةٍ على أنْ يجعلَ بينكم وبين الذين عاديتم من المشركين مودة «والله غَفُورٌ رَحِيمٌ»، يقولُ: والله غفور لخطيئة مَنْ ألقى الى المشركين بالمودة إذا تابَ منها، رحيمٌ بهم أنْ يُعَذِّبَهمْ بعد توبتِهم منها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «لاينْهاكم الله عَن الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلوكُمْ في الدِّينِ» من أهـلِ مكة «ولم يُخْرِجُوكُم مِنْ دِيارِكُمْ أنْ تبرُّوهُمْ، وتقْسِطُوا إلَيْهِمْ»، يقولُ: وتَعْدِلُوا فيهم بإحسانِكم إليهم، وبِرِّكُمْ بهم.

واختلف أهلُ التأويل في الذين عُنوا بهذه الآية، فقال بعضهم: عُني بها: الذين كانوا آمنوا بمكة ولم يهاجروا، فأذِنَ الله للمؤمنين ببرِّهم والإحسانِ إليهم.

وقال آخرون: عُنِي بها من غير أهلِ مكة مَنْ لم يهاجر.

وقال آخرون: بل عُنِي بها من مشركي مكة مَنْ لم يقاتل المؤمنين، ولم يخرجوهم من ديارهم، قال: ونسخَ الله ذلك بعدُ بالأمرِ بقتالهم.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قولُ مَنْ قال: عُنِي بذلك: لاينهاكُمْ الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين، من جميعِ أصنافِ المللِ والأديانِ أن تَبَرُّوهم وتَصِلُوهُمْ، وتُقْسِطُوا إليهم، أنْ الله عَزَّ وجَلَّ عَمَّ بقوله: «الذِّينَ لَمْ يُقاتلوكُمْ في الدين، وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ» جميعَ مَنْ كان ذلك صِفَتُه، فلم يخصُص بْه بعضاً دونَ بعضٍ، ولا معنى لقولِ مَنْ قال: ذلك منسوخٌ، لأَنَّ بِرَّ المؤمنِ من أهلِ الحربِ ممن بينه وبينه قرابةُ نَسَبٍ، أو ممن لاقرابةَ بينه وبينه ولا نسب غير محرّم ولا منهيٌّ عنه اذا لم يكن في ذلك دلالة له، أو لأهلِ الحربِ على عورةٍ لأَهلِ الاسلام، أو تقوية لهم بكُراعٍ أو سلاحٍ.

وقوله: «إنّ الله يحبُّ المُقْسِطين»، يقولُ: إنَّ الله يحبُّ المنصفينَ الذين يُنْصِفُونَ الناسَ، ويُعْطُونهم الحقَّ والعدلَ من أنفسهم، فيبرّون مَنْ برّهم، ويُحْسنون الى مَنْ أحسنَ إليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «إنَّما يَنْهاكُمُ الله» أيها المؤمنون «عَن الذِّين قَاتَلُوكم

في الـدّين» من كفـار أهـل مكـة «وأخـرَجُـوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ، وَظـاهَرُوا على إخْرَاجِكُمْ، أنْ تَولّوْهُمْ»، يقولُ: وعاونوا مَنْ أخرجكم من دياركم على إخراجِكم أنْ تولـوهم، فتكونوا لهم أولياءَ ونُصَراءَ «وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ»، يقولُ: ومَنْ يجعلهم منكم أو من غيركم أولياء «فأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ»، يقولُ: فأولئكَ هم الذين تولوا غيرَ الذي يجوزُ لهم أنْ يَتَوَلّوهُمْ، ووضعوا ولايتهم في غيرِ موضعها، وخالفوا أمرَ الله في ذلك.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنين من أصحاب رسولِ الله ﷺ: «يا أيها الَّذين آمَنُوا إِذَا جاءَكُم» النساءُ «المُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ» من دار الكفرِ الى دارِ الإسلام «فامْتَحِنُوهُن».

عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: كان المؤمنات إذا هاجرنَ الى رسولِ الله ﷺ يُمْتَحَنَّ بقولِ الله: «ياأَيُّها النَّبِيُّ إذا جاءَكَ المُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ»... إلى آخر الآية، قالت عائشةُ: فَمَنْ أَقَرَّ بهذا من المؤمناتِ، فقد أَقَرَّ بالمحبةِ، فكان رسولُ الله ﷺ إذا أقررن بذلك من قولهنَّ قال لَهُنَّ: انطلقن فقد بايعتكُنَّ، ولا والله مامَسَّتْ يَدُ رسولِ الله ﷺ يدَ امرأةٍ قطّ، غير أنه بايعهنَّ بالكلام، قالت عائشة: والله ما أخذ رسول الله ﷺ على النساء قطّ، إلا بما أمره الله عَزَّ وجَلَّ، وكان يقول لَهُنَّ إذا أخذَ عليهن قد بايعتكُنَّ كلاماً[1].

---

(١) حديث صحيح: أخرجه من حديث الزهري، عن عروة، عن عائشة.

وقوله: «اللهُ أَعْلَمُ بإيمانِهِنّ»، يقولُ: الله أعلمُ بإيمانِ مَنْ جاء من النساء مهاجراتٍ إليكم.

وقوله: «فإنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إلى الكُفَّارِ»، يقولُ: فإنْ أَقْرَرْنَ عند المحنةِ بما يصحُّ به عَقْدُ الإيمان لهنَّ، والدخول في الإسلام، فلا تَرُدُّهُنَّ عند ذلكَ الى الكفارِ، وإنما قيل ذلك للمؤمنين، لأنَّ العهدَ كان جرى بين رسولِ الله ﷺ وبين مشركي قريشٍ في صلح الحديبية أنْ يردَّ المسلمون الى المشركينَ مَنْ جاءهم مسلماً، فابطل ذلك الشرط في النساء إذا جئن مؤمنات مهاجرات فامتحن، فوجدهنَّ المسلمونَ مؤمناتٍ، وصَحَّ ذلك عندهم مما قد ذكرنا قَبْلُ، وأمروا أن لايردُّوهنَّ الى المشركين إذا علم أنهن مؤمنات، وقال جَلَّ ثَنَاؤُهُ لهم: «فَإنْ عَلِمتُمُوهُنَّ مُؤْمِنات فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إلى الكُفَّارِ، لاهُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ»، يقولُ: لا المؤمنات حِلٌّ للكفار ولا الكفار يحلون للمؤمنات.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۖ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿١٠﴾

وقوله: «وآتُوهُمْ ما أنْفَقُوا»، يقولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: وأعطوا المشركين الذين جاءكم نساؤُهم مؤمناتٍ إذا علمتموهن مؤمناتٍ، فلم ترجعوهن إليهم ماأنفقوا في نكاحِهم إياهن من الصَّدَاقِ.

وقوله: «وَلا جُناح عَلَيْكُمْ أنْ تَنْكِحُوهُنَّ إذا آتَيْتُمُوهُنَّ أجُورَهُنَّ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولا حَرَجَ عليكم أيها المؤمنون ان تنكحوا هؤلاء المهاجراتِ اللاتي لَحِقْنَ بكم من دارِ الحربِ مفارقاتٍ لأزواجهنَّ، وإنْ كان لهن أزواج في دارِ

الحرب إذ علمتموهُنَّ مؤمناتٍ إذ أنتم أعطيتموهُنَّ أجورَهُنَّ، ويعني بالأجور: الصَّدُقات: وكان قتادة يقول: كُنَّ إذا فَرَرْنَ من المشركين الذين بينهم وبين نبيٍّ الله ﷺ وأصحابهِ عهدٌ إلى أصحاب نبيٍّ الله ﷺ فتزوَّجُوهُنَّ، بعثوا بمهورهنَّ الى أزواجِهِنَّ من المشركين الذين بينهم وبين أصحاب نبي الله ﷺ عَهْدٌ.

وقولـه: «وَلا تُمْسِكُـوا بعصَم الكَـوَافِـر»، يقـول جَلَّ ثناؤه: للمؤمنين به من أصحـاب رسـولِ الله ﷺ: لاتُمْسِكُوا أيهـا المؤمنـونَ بحبال النساء الكوافر وأسبابهن، والكوافر: جمع كافرة، والعصم جمع عصمة، وهي ما اعتصم به من العقدِ والسبب وهذا نهيٌ من الله للمؤمنين عن الإقدام على نكاح النساء المشركاتِ من أهل الأوثان، وأمرٌ لهم بفراقهنَّ.

وقوله: «وَاسْـأَلُـوا ما أَنْفَقْتُمْ وَليسـألـوا ما أنفَقُـوا»، يقول تعالى ذِكْرُه: لأزواج اللواتي لَحِقْنَ من المؤمنين من دار الإسـلام بالمشـركين الى مكـة من كفار قريش: واسألوا أيها المؤمنون الذين ذهبتْ أزواجُهم فلحقن بالمشركينَ ماأنفقتم على أزواجكم اللواتي لحقن بهم من الصَّدَاقِ مَنْ تَزَوَّجَهُنَّ منهم، وليسألكم المشركون منهم الذين لحق بكم أزواجُهم مؤمناتٍ إذا تزوَّجْنَ فيكم مَنْ تزوَّجَها منكم ما أنفقوا عليهنَّ من الصداق.

وقوله: «ذَلِكُم حُكْم الله يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الحكم الذي حكمتُ بينكم من أمركم أيها المؤمنون بمسالة المشركين، ما أنفقتم على أزواجكم اللاتي لَحِقْنَ بهم وأمرهم بمسألتكم مثلَ ذلك في أزواجهنَّ اللاتي لحقن بكم، حكمُ الله بينكم فلا تعتـدوه، فإنـه الحق الذي لايسعُ غيره، فانتهى المؤمنون من أصحاب رسول الله ﷺ فيما ذُكِرَ الى أمرِ الله وحُكْمِه، وامتنع المشركونَ منه وطلبوا الوفاء بالشروطِ التي كانوا شَارَطُوها بينهم في ذلك الصلح.

وقوله: «والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ»، يقول جَلَّ ثناؤه: والله ذُو علمٍ بما يُصْلِحُ خَلْقَهُ وغير ذلك من الأمورِ، حكيمٌ في تدبيره إياهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

يقول جَلَّ ثناؤه للمؤمنين من أصحاب رسولِ الله ﷺ: «وَإِنْ فَاتَكُم» أيها المؤمنونَ «شيء مِن أَزْوَاجِكم إلى الكُفار» فلحقَ بهم.

واختلف أهلُ التأويل في الكفار الذين عُنُوا بقوله: «إلى الكُفَّار» مَنْ هم؟ فقـال بعضهم: هم الكفار الذين لم يكن بينهم وبين رسولِ الله ﷺ عهدٌ، قالوا: ومعنى الكلام: وإنْ فاتكم شيءٌ من أزواجكم، إلى مَنْ ليس بينكم وبينهم عهدٌ من الكفار.

وقال آخرون: بل هم كفارُ قريشٍ الذين كانوا أهلَ هدنةٍ.

وقوله: «فآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ ما أَنْفَقُوا»، يقولُ: فأعطوا الذين ذَهَبَتْ أزواجُهم منكم الى الكفارِ مثلَ ماأنفقوا عليهن من الصَّدَاقِ.

واختلف أهـل التأويل في المال الذي أُمِرَ أن يُعْطَى منه الذي ذهبت زوجتهُ الى المشركين، فقال بعضهم: أمِرُوا أن يُعطوهم صداقَ مَنْ لَحِقَ بهم من نساءِ المشركين.

وقال آخرون: بل أُمروا أنْ يعطوه من الغنيمة أو الفيء.

وأولى الاقوال في ذلك بالصواب أن يقالَ: أمر الله عَزَّ وجلَّ في هذه الآية المؤمنين أنْ يعطوا مَنْ فَرَّتْ زوجتُه من المؤمنين الى أهلِ الكفرِ إذا هم كانت

لهم على أهل الكفر عُقبى، إما بغنيمةٍ يُصيبونَها منهم، أو بلحاقِ نساءِ بعضِهم بهم، مثل الذي انفقوا على الفارَّةِ منهم إليهم، ولم يخصص إيتاءهم ذلك من مالٍ دونَ مالٍ، فعليهم أنْ يُعطوهم ذلك من كلِّ الأموالِ التي ذكرناها.

وقوله: «وَاتَّقُوا اللهَ الذي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ»، يقولُ: وخافوا الله الذي انتم به مُصَدِّقُونَ أيها المؤمنون فاتقوهُ بأداءِ فرائضه، واجتناب معاصيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «ياأيُّها النَّبيُّ إذا جاءَكَ المُؤْمِنات» بالله «يُبايِعْنَكَ على أنْ لايُشرِكْنَ بالله شيئاً، ولاَ يَسْرِقْنَ، وَلا يَزْنِينَ، وَلا يَقتُلْنَ أولادَهُنَّ وَلا يأْتين بِبُهْتان يَفْتَرينه بَينَ أَيْدِيهن وأرْجُلهِنَّ»، يقولُ: ولا يأتين بكذبٍ يَكْذِبْنَهُ في مولودٍ يُوجَدُ بين أيديهنَّ وأرجلِهنَّ، وإنما معنى الكلام: ولا يُلْحِقْنَ بأزواجِهنَّ غيرَ أولادِهم.

وقوله: «وَلا يَعْصِينَك في مَعروفٍ»، يقولُ: ولايعصينكَ يامحمد في معروف من أمر الله عزَّ وجلَّ تأمرهُنَّ به، وذُكِرَ أنَّ ذلك المعروفَ الذي شَرَطَ عليهن أنْ لايعصينَ رسولَ الله ﷺ فيه هو النياحة.

وقوله: «فبايِعْهُنَّ» يقول جَلَّ ثناؤه: إذ جاءك المؤمنات يُبايِعْنَكَ على هذه الشروطِ، فبايعهن، «واستغفر لَهُنَّ الله»، يقولُ: سَلْ لهنَّ الله أنْ يصفحَ عن ذنوبهنَّ، ويسترها عليهنَّ بعفوهِ لهنَّ عنها، «إنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ»، يقولُ: إنَّ الله ذُو سترٍ على ذنوبِ مَنْ تابَ إليه من ذنوبِهِ أنْ يُعَذِّبَهُ عليها بعد توبته منها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ به من أصحاب رسولِ الله ﷺ: «يا أيها الذين آمنوا لاتتَولوا قوماً غَضِبَ الله عَلَيْهم» من اليهود «قَدْ يَئسوا مِنَ الآخرة، كما يَئِس الكُفَّارُ مِنْ أصحابِ القُبُورِ».

اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «قَدْ يَئِسوا مِن الآخرة كَما يَئِس الكفار مِنْ أصحاب القُبور». فقال بعضهم: معنى ذلك قد يئسَ هؤلاء القوم الذين غضب الله عليهم من اليهود من ثوابِ الله في الاخرة، وأنْ يُبعثوا، كما يئس الكفارُ الأَحياء من أمواتهم الذين هم في القبور أن يرجعوا اليهم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: قد يَئِسُوا من الآخرةِ أنْ يرحمهم الله فيها، ويغفر لهم، كما يئس الكفار الذين هم أصحاب قبورٍ قد ماتوا وصاروا الى القبورِ، من رحمةِ الله وعفوِه عنهم في الآخرة، لأنهم قد أيقنوا بعذاب الله لهم.

وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قولُ مَنْ قال: قد يئسَ هؤلاء الذين غضب الله عليهم من اليهودِ من ثوابِ الله لهم في الآخرة، وكرامته لِكُفْرِهم وتكذِيبهم رسولَهُ محمداً ﷺ على علمٍ منهم بأنه لله نبيٌّ، كما يئس الكفارُ منهم الـذين مضوا قبلهم فهلكوا، فصاروا أصحابَ القبورِ، وهم على مِثْلِ الذي هؤلاءِ عليه من تكذِيبهم عيسى صلواتُ الله عليه وغيرِه من الرسلِ، من ثوابِ الله وكرامته إياهم.

وإنما قلنا: ذلك أوْلى القولين بتأويل الآية، لأنَّ الأمواتَ قد يئسوا من رجوعِهم الى الدنيا، أو أن يُبْعثوا قبلَ قيامِ الساعة المؤمنون والكفار، فلا وَجْهَ لأنْ يخصَّ بذلك الخبر عن الكفارِ، وقد شركهم في الإياسِ مِنْ ذلك المؤمنونَ.

سُورَةُ الصَّفِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾

يقول جَلَّ ثناؤه: «سَبَّحَ للهِ مافي السَّمَوَاتِ» السبع «ومَا في الأَرْضِ» من الخَلْقِ، مُذْعِنينَ له الألوهةَ والربوبيةَ «وَهُوَ العَزِيزُ» في نقمته مِمَّنْ عَصَاهُ منهم، فكفرَ به، وخالفَ أمره «الحكِيمُ» في تدبيره إياهم.

وقوله: «يا أيها الذين آمنوا لمَ تَقُولُونَ مالا تَفْعَلُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ياأيها الذين آمنوا صَدَّقوا الله ورسولَهُ، لِمَ تقولونَ القولَ الذي لاتصدِّقُونَهُ بالعملِ، فأعمالُكم مخالفةُ أقوالكم «كبُرَ مقتاً عنْدَ الله أن تقُولُوا مالاتَفْعَلُونَ»، يقول: عَظُمَ مقتاً عند رَبِّكم قولُكم مالاتفعلون.

واختلف أهلُ التأويل في السببِ الذي من أجله أنزلت هذه الآيةُ، فقال بعضُهم: أُنزلتْ توبيخاً من الله لقومٍ من المؤمنينَ، تَمَنَّوْا معرفةَ أفضلِ الأعمالِ، فعرَّفَهُم اللهُ إياه، فلما عرفوا قصروا، فَعُوتِبُوا بهذه الآية.

وقال آخرون: بل نزلت هذه الآيةُ في توبيخِ قومٍ من أصحاب رسول الله ﷺ، كان أحدهم يفتخرُ بالفعلِ من أفعالِ الخيرِ التي لم يفعلها، فيقول: فعلت كذا وكذا، فَعَذَلهم اللهُ على افتخارهم بما لم يفعلوا كذباً.

وقال آخرون: بل هذا توبيخٌ من الله لقومٍ من المنافقين، كانوا يَعِدُونَ المؤمنينَ النصرَ وهم كاذبون.

وأولى هذه الأقوالِ بتأويلِ الآيةِ قولُ مَنْ قال: عَنَى بها الذين قالوا: لو عرفنا أحبَّ الأعمال الى الله لعملنا به، ثم قَصَّرُوا في العملِ بعد ماعرفوا.

وإنما قلنا: هذا القول أوْلى بها، لأنَّ الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ خاطب بها المؤمنينَ، فقال: «يا أيُّها الَّذينَ آمنوا» ولو كانت نزلت في المنافقين لم يُسَمَّوْا، ولم يُوصَفُوا بالإيمانِ، ولو كانوا وصفوا أنفسهم بفعلِ مالم يكونوا فَعَلُوه، كانوا قد تَعَمَّدُوا قِيلَ الكذبِ، ولم يكن ذلك صفة القوم، ولكنهم عندي أمَّلوا بقولهم: لوعلمنا أحبَّ الأعمالِ الى الله عملناهُ أنهم لو علموا بذلك عملوه، فلما علموا ضَعُفَتْ قُوى قومٍ منهم، عن القيامِ بما أمَّلُوا القيامَ به قبل العلمِ، وقويَ آخرون فقامُوا به، وكان لهم الفضلُ والشرفُ.

القَـوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِـهِ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ ٤

يقول تعالى ذِكْرُه للقائلين: لو علمنا أحبَّ الأعمالِ الى الله لعملناه حتى نموت: «إنَّ الله» أيها القومُ «يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ في سَبِيلِهِ» كأنهم، يعني في طريقهِ ودينهِ الذي دَعَا إليه «صَفّا»، يعني بذلك أنهم يقاتلون أعداءَ الله مُصْطَفِّينَ.

وقـولـه: «كأنَّهمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ»، يقولُ: يقاتلون في سبيلِ الله صفاً مصطفاً، كأنهم في اصطفافهم هنالك حيطانٌ مبنيَّةٌ قد رُصَّ، فأُحْكِمَ وأُتْقِنَ، فلا يغادرُ منه شيئاً.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: واذكُرْ يا محمدُ، «إذ قال مُوسَى» بن عمران «لِقَوْمِهِ ياقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَني وَقَدْ تَعْلَمُونَ» حقاً «أَنّي رَسُولُ الله إلَيْكُمْ».

وقوله: «فَلَما زَاغوا أزاغَ الله قُلُوبَهُمْ، يقول: فلما عَدَلُوا وجَارُوا عن قَصْدِ السبيلِ أزاغَ الله قلوبهم: يقول: امالَ الله قلوبَهُمْ عنه.

«والله لايهدي القَوْمَ الفاسِقِينَ»، يقولُ: والله لايوفق لإصابةِ الحقِّ القومَ الذين اختاروا الكفرَ على الإيمان.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: واذكُرْ أيضاً يامحمدُ «إِذْ قال عيسَى بنُ مَرْيَمَ» لقومِهِ من بني إسرائيل «يابَنِي إسْرائيلَ إنّي رَسُولُ الله إلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بينَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ»، التي أُنزلت على موسى «وَمُبَشِّراً» أُبَشِّرُكُمْ «بِرَسُولٍ يأتي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أحْمَدُ».

«فَلَمَّـا جاءَهُمْ بالبيناتِ» يقـول: فلمـا جاءهم أحمـدُ بالبينـاتِ، وهي الـدلالاتُ التي آتاهُ الله حججاً على نبوَّتِه، «قالُوا هَذا سِحْرٌ مُبِينٌ»، يقول: ماأتى به غير أنه ساحر[1].

---

(١) قد بَيَّنَ المؤلف فيما سبق أن السحر والساحر واحد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومَنْ أشدُّ ظلماً وعدواناً ممن اختلقَ على الله الكذب، وهو قولُ قائلهم للنبيِّ ﷺ: هو ساحرٌ وما جاء به سحر، فكذلك افتراؤه على الله الكذبِ وهو يُدعى الى الإسلامِ يقولُ: إذا دُعي الى الدخولِ في الإسلام، قالَ على الله الكـذبَ، وافترى عليه الباطلَ «والله لايَهْدِي القوم الظَّالمين»، يقولُ: والله لايوفِّق القومَ الذين ظلموا أنفسَهُمْ بكفرِهم به لإصابة الحقِّ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِه تَعَالَى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يريد هؤلاء القائلونَ لمحمدٍ ﷺ: هذا ساحرٌ مبين «لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بأفْوَاهِهِمْ»، يقولُ: يريدون ليبطلوا الحقَّ الذي بعثَ الله به محمداً ﷺ «بأفواههم»، يعني: بقولِهم إنَّهُ ساحرٌ، وماجاء به سحر، «وَالله مُتِمُّ نُورِهِ»، يقـولُ: الله مُعْلِنٌ الحقَّ، ومُـظْهِـرٌ دِينَهُ، وناصرٌ محمداً عليه الصلاة والسلام على مَنْ عاداه، فذلك إتمامُ نورِه، وعنى بالنور في هذا الموضع الاسلام.

وقوله: «وَلَوْ كَرِهَ الكافِرُون» يقولُ: والله مُظْهِرٌ دِينَهُ، وناصرٌ رسولَهُ، ولو كَرِهَ الكافرون بالله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الله الذي أرسلَ رسولَهُ محمداً بالهدى ودينِ الحقِّ، يعني ببيان الحقِّ «ودينِ الحقِّ»، يعني: ويدينِ الله، وهو الإسلامُ.

وقوله: «لِيُظْهِرَهُ على الدِّين كُلِّهِ»، يقولُ: ليظهر دينَهُ الحق الذي أرسل به رسوله على كلِّ دينٍ سواه، وذلك عند نزولِ عيسى بن مريم، وحين تصيرُ الملةُ واحدةً، فلا يكون دينٌ غير الإسلامِ(١).

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «يا أيها الَّذِين آمنوا هَلْ أَدُلُّكُمْ على تِجارَةٍ تُنْجيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَليمٍ» موجعٌ، وذلك عذاب جهنم، ثم بَيَّنَ لنا جَلَّ ثَنَاؤُهُ ما تلكَ التجارة التي تُنْجينا من العذابِ الأليم، فقال: «تُؤْمِنُونَ باللهِ وَرَسُولِهِ» محمدٍ ﷺ.

فإنْ قال قائل: وكيف قيل: «تُؤْمِنون بالله وَرَسُولِهِ»، وقد قيل لهم: «يا أيُها الَّذين آمنوا» بوصفهم بالايمانِ؟ فإنَّ الجوابَ في ذلك نظير جوابِنا في قولُه: «ياأيُّها الَّذِين آمنوا» آمنوا بالله، وقد مضى البيانُ عن ذلك في موضعهِ بما أغنى عن إعادته .

وقوله: «وتُجاهِدُونَ في سَبيل الله بأَمْوَالِكُمْ وأَنْفُسِكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه:

---

(١) فسر المؤلف قول الله تعالى: ﴿ولو كره الكافرون﴾ في الآية السابقة، فكأنه لم ير مسوغاً لإعادة تفسير ﴿ولو كره المشركون﴾ هنا.

وتجاهدون في دينِ الله، وطريقهِ الذي شَرَعَهُ لكم بأموالِكم وأنفسكم « ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ»، يقـولُ: إيمانكم بالله ورسوله، وجهادكم في سبيلِ الله بأموالكم وأنفسكم «خَيْرٌ لَكُمْ» من تضييعِ ذلك والتفريط «إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمونَ» مضارَّ الأشياءِ ومنافعها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يستر عليكم ربُّكم ذنوبَكُمْ إذا أنتم فعلتم ذلك فيصفح عنكم ويعفو «وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحتِها الأَنهارُ»، يقول: ويُدخلكم بساتينَ تجري من تحتِ أشجارها الانهار «ومَسَاكِنَ طَيِّبَةً»، يقولُ: ويُدخِلكم أيضاً مساكنَ طيبة «فِي جَنَّات عَدْنٍ»، يعني: في بساتين إقامة، لاظعنَ عنها.

وقـولـه: «ذلـكَ الفَوْزُ العَظِيمُ»، يقولُ: ذلك النجاءُ العظيمُ من نكالِ الآخرةِ وأهوالها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾

يقول جَلَّ ثناؤه: هَلْ أَدُلُّكُمْ على تجارةٍ تُنجيكم من عذابٍ أليم، تؤمنون بالله ورسوله، يغفر لكم ذنوبكم، ويدخلكم جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ، ولكم خلةٌ أخرى سوى ذلـك في الـدنيا تحبـونها: نصرٌ من الله لكم على أعدائِكم، وفتحٌ قريبٌ يُعَجِّلُه لكم.

«وَبَشِّرِ المُؤمِنِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لنبيه محمدٍ ﷺ: وبَشِّرْ يامحمد المؤمنينَ بنصرِ الله إياهم على عدوِّهم، وفتحٍ عاجلٍ لهم.

وقوله: «يا أيُّها الذين آمنوا كُونوا أنْصَارَ الله»، يعني ياأيها الذين صَدَّقُوا الله ورسـولَـهُ، كونوا أنصارَ الله، كما قال عيسى ابن مريمَ للحواريين: «مَنْ أنصاري الى الله»، يعني من أنصاري منكم الى نُصْرَةِ الله لي.

وقوله: «قالَ الحوَارِيُّونَ نَحْنُ أنْصَارُ اللهِ»، يقولُ: قالوا: نحن أنصارُ الله على مابعثَ به أنبياءَهُ من الحقِّ.

وقوله: «فآمَنَتْ طائِفَةٌ مِنْ بَني إسرائِيلَ وكفَرَتْ طائِفَةٌ»، يقول جَلَّ ثناؤه: فآمنت طائفةٌ من بني إسرائيل بعيسى، وكفرتْ طائفة منهم به.

وقوله: «فأيَّدْنا الَّذِينَ آمنوا على عَدُوِّهِمْ»، يقولُ: فَقَوَّيْنَا الذين آمنوا من الـطائفتينِ من بني إسـرائيلَ على عدوِّهُمْ، الـذين كفـروا منهم بمحمدٍ ﷺ بتصديقه إياهم، أنَّ عيسى عبدُ الله ورسولُهُ، وتكذيبه مَنْ قالَ هو إلهٌ، ومَنْ قال: هو ابنُ الله تعالى ذِكْرُه.

«فأصبحوا ظاهرين»، فأصبحت الطائفةُ المؤمنونَ ظاهرينَ على عدوِّهم الكافرينَ منهم.

سُورَةُ الجُمُعَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يسبحُ للهِ كلُّ مافي السمواتِ السبع، وكلُّ مافي الأرضين من خَلْقِه، ويعظمه طوعاً وكرهاً «المَلِكِ القُدُّوس» الذي له ملكُ الدنيا والآخرة وسلطانهما، النافذُ أمرهُ في السموات والارض ومافيهما، «القدّوس»: وهو الطاهر من كلِّ مايُضيفُ إليه المشركونَ به، ويَصِفُونَهُ به مما ليس من صفاتِهِ، المباركُ. «العَزيزُ» يعني: الشديد في انتقامه من أعدائه «الحْكَيمُ» في تدبيرِه خَلْقَهُ، وتصريفه إياهم فيما هو أعلمُ به من مصالحهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الله الذي بعثَ في الأميين رسولاً منهم، فقوله «هو» كناية من اسم الله، والأُميون: هم العربُ. وقد بينّا فيما مضى المعنى الذي من أجله قيل للأميِّ أميٌّ[1].

---

(١) البقرة: ٧٨.

وقال جَلَّ ثَناؤُهُ: «رَسُولاً مِنْهُمْ»، يعني: من الأميين، وإنما قال: «منهم» لأن محمداً ﷺ كان أُمِّيًّا، وظهرَ من العربِ.

وقوله: «يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتِهِ» يقول جَلَّ ثناؤه: يقرأ على هؤلاء الأميينَ آياتِ الله التي أنزلها عليه. «وَيُزَكِّيهِمْ»، يقولُ: ويطهرهم من دَنَسِ الكفر.

وقوله: «ويُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ»، يقولُ: ويعلمهم كتابَ الله، ومافيه من أمرِ الله ونهيه، وشرائعِ دينه. «والْحِكمَةَ» يعني بالحكمة: السُّنَنَ.

وقوله: «وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلِ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وقد كان هؤلاء الأُميونَ من قَبْلِ أنْ يبعثَ الله فيهم رسولاً منهم في جَوْرٍ عن قصدِ السبيل، وأخذٍ على غيرِ هُدىً «مبين»، يقولُ: يبين لمن تأمله أنه ضلالٌ وجَوْرٌ عن الحقِّ وطريقِ الرشد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وهو الذي بعث في الأُميينَ رسولاً منهم، وفي آخرينَ منهم لَمَّا يَلْحَقُوا بهم، فآخرون في موضعِ خفضٍ عطفاً على الأميين.

وقد اختلف في الذين عُنوا بقوله: «وآخَرِينَ مِنْهُمْ»، فقال بعضهم: عُنِي بذلك العجم.

وقال آخرون: إنما عُني بذلك جميعُ من دخَل في الاسلامِ من بعد النبيِّ ﷺ كائناً من كان الى يومِ القيامة.

وأوْلى القولين في ذلك بالصواب عندي قولُ من قال: عُني بذلك كلُّ

لاحقٍ لَحِقَ بالذين كانوا صَحِبُوا النبيَّ ﷺ في إسلامِهم من أيِّ الأَجناس، لأن الله عَزَّ وجَلَّ عَمَّ بقوله: «وآخَرينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ»، كُلَّ لاحقٍ بهم من آخرين، ولم يخصص منهم نوعاً دونَ نوعٍ، فكل لاحقٍ بهم فهو من الآخرين الذين لم يكونوا في عِدَادِ الأوّلين الذين كان رسولُ الله ﷺ يَتْلُو عليهم آياتِ الله.

وقوله: «لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ»، يقولُ: لم يجيئوا بعد وسيجيئون.

وقوله: «وَهُوَ العزيزُ الحكيم»، يقولُ: والله العزيز في انتقامه ممن كَفَرَ به منهم، الحكيم في تدبيره خَلْقَهُ.

وقوله: «ذلكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الذي فعلَ تعالى ذِكْرُه من بعثتهِ في الاميينَ من العربِ، وفي آخرينَ رسولاً منهم يتلو عليهم آياتهِ، ويفعل سائرَ ما وصفَ، فضلُ الله، تَفَضَّلَ به على هؤلاء دونَ غيرهم. «يُؤْتِيه مَنْ يشاء»، يقول: يُؤْتِي فَضْلَهُ ذلك مَنْ يشاء من خَلْقِه، لايستحق الذمّ ممن حرمه الله إياه، لأنه لم يمنعه حقاً كانَ له قبله ولاظلمه في صرفهِ عنه الى غيره، ولكنه على مَنْ هُو له أهلٌ، فأودعه إياهُ، وجعله عنده.

«والله ذُو الفَضْلِ العَظيم»، يقولُ: والله ذُو الفضل على عباده، المحسنَ منهم والمسيءَ، والذين بعثَ فيهم الرسولَ منهم وغيرهم، العظيم الذي يقلُّ فَضْلُ كلِّ ذي فضلٍ عنده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مَثَلُ الذين أوتوا التوراةَ من اليهودِ والنصارى، فحملوا

العملَ بها «ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها» يقول: ثم لم يعملوا بما فيها، وكذَّبوا بمحمدٍ ﷺ، وقد أُمِرُوا بالايمانِ به فيها واتباعِه والتصديق به «كَمَثَلِ الحِمارِ يحمل أسفاراً»، يقولُ: كمثل الحمار يحملُ على ظهرِه كتباً من كُتُبِ العلم، لاينتفعُ بها، ولايعقلُ ما فيها، فكذلك الذين أوتُوا التوراةَ التي فيها بيانُ أمر محمدٍ ﷺ مَثَلُهم إذا لم ينتفعوا بما فيها، كمثلِ الحمارِ الذي يحملُ اسفاراً فيها علمٌ، فهو لايعقلها ولاينتفعُ بها.

وقـولـه: «بِئْس مَثَلُ القَوْمِ الَّذينَ كَذَّبُوا بآياتِ الله»، يقول: بئس هذا المَثَلُ، مَثَلُ القوم الذين كَذَّبُوا بآياتِ الله، يعني: بأدلتِه وحججِه. «والله لَايَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والله لايوفِّق القومَ الذين ظلموا أنفسهم، فكفروا بآياتِ رَبِّهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: لنبيه محمدٍ ﷺ: قل يامحمدُ لليهود «ياأَيُّها الَّذين هادوا إنْ زَعَمْتُمْ أنَّكُمْ أوْلِياءُ لله مِنْ دُونِ النَّاسِ» سواكم «فَتَمنَّوا المَوْتَ إنْ كُنْتُمْ صَادقِينَ» في قيلِكُمْ، إنكم أولياءُ لله من دونِ الناس، فإنَّ الله لايعذِّبُ أولياءَهُ، بل يكرمهم وينعمهم، وإنْ كنتم مُحقِّينَ فيما تقولونَ فَتَمَنَّوا الموتَ لتستريحوا من كَرْبِ الدنيا وهمومها وغمومها، وتصيروا الى روحِ الجِنانِ ونعيمها بالموت.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ «ولايَتَمَنَّوْنَهُ أبَداً»، يقولُ: ولايتمنى

اليهودُ الموتَ أبداً «بما قَدَّمَتْ أيْديهِمْ»، يعني: بما اكتسبوا في هذه الدنيا من الآثام، واجترحوا من السيئاتِ. «واللهُ عَلِيمٌ بالظَّالِمينَ»، يقولُ: واللهُ ذُو علم بمن ظَلَمَ من خَلْقِهِ نَفْسَهُ، فأويقها بكفرهِ باللهِ.

القَوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ «قُلْ» يامحمدُ لليهودِ «إنَّ المَوْتَ الذي تَفِرُّونَ مِنْهُ» فتكرهونه، وتأبون أنْ تتمنوه «فإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ» ونازلٌ بكم «ثُمَّ تُرَدُّونَ إلى عالمِ الغيْبِ والشَّهادةِ» ثم يردُّكُمْ رَبّكم من بعد مماتكم الى عالمِ الغيبِ والشهادةِ، عالم غيب السمواتِ والارضِ، «والشهادة» يعني: وماشهد فظهر لرأي العين، ولم يغبْ عن أبصارِ الناظرين.

«فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»، يقول: فيخبركم حينئذ ما كنتم في الدنيا تعملون من الأعمال، سيئها وحَسَنها، لأنه محيطٌ بجميعها، ثم يجازيكم على ذلك المحسنَ بإحسانِهِ، والمسيء بما هو أهْلُه.

القَوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: للمؤمنين به من عبادهِ: يا أيها الذين صَدَّقوا اللهَ ورسولَهُ «إذَا نُودِيَ للصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الجُمْعَةِ» وذلك هو النداء، ينادي بالدعاء الى صلاة الجمعة عند قعودِ الامام على المنبر للخطبة، ومعنى الكلام: إذا

نُوديَ للصلاة من يوم الجمعة «فاسْعَوْا إلى ذِكْرِ الله»، يقولُ: فامضوا الى ذِكْرِ الله، واعملوا له، وأصلُ السعي في هذا الموضع العمل.

وقوله: «وَذَرُوا البَيْعَ»، يقولُ: ودَعوا البيعَ والشراءَ اذا نُوديَ للصلاةِ عند الخطبة.

وقوله: «ذَلِكُم خَيْرٌ لَكُم إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ»، يقولُ: سَعْيُكم إذا نُوديَ للصلاةِ من يوم الجمعة الى ذِكْرِ الله، وَتَرْكُ البيعِ خيرٌ لكم من البيعِ والشراءِ في ذلك الوقتِ، إنْ كنتم تعلمون مصالحَ أنفسِكم ومضارّها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فإذا قُضيت صلاةُ الجمعة يومَ الجمعة، فانتشروا في الارض انْ شئتم، ذلك رخصةٌ من الله لكم في ذلك.

وقوله: «وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ الله» ذُكِرَ عن النبي ﷺ في تأويل ذلك ماحدثني العباس ابن أبي طالب، قال حدثنا عليّ بن المعافى بن يعقوب الموصليّ. قال: حدثنا أبو عامر الصائغ من الموصل، عن أبي خلف، عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ (في قوله: «فإذَا قُضِيَتِ الصَّلاة فانتشروا في الأرْض، وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ الله» قال: لَيْس لِطَلَبِ دُنْيا، وَلَكِنْ عِيادَةُ مَرِيضٍ، وَحُضُورُ جَنازَةٍ، وزَيارَةُ أخٍ في الله)[1].

---

(١) لايصح، بل موضوع، أبو عامر الصائغ كان يضع الحديث (الميزان: ٤/الترجمة ١٠٣٤٨)، وأبو خلف الأعمر قال يحي بن معين: كذاب، وقال أبو حاتم: منكر الحديث (تهذيب الكمال: ٢٨٦/٣٣)، ولا ندر ي كيف اختار المؤلف هذا التفسير؟!

وقد يحتمل قوله: «وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ» أن يكون معنياً به: والتمسوا من فضل الله الذي بيده مفاتيحُ خزائنه لدنياكم وآخرتكم[١].

وقوله: «وَاذْكُروا الله كثيراً لَعَلَّكُم تُفْلِحُونَ»، يقولُ: واذكروا الله بالحمد له، والشكر على ماأنعمَ به عليكم من التوفيق لأداء فرائضهِ، لِتُفْلِحُوا، فتدركوا طلباتكم عند رَبِّكم، وتَصِلُوا الى الخُلْدِ في جِنانه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذَا رَأَوْا تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا رأى المؤمنون عِيرَ تجارة أو لهواً «انْفَضُّوا إليها» يعني: أسرعوا الى التجارة «وَتَرَكُوك قائماً»، يقول للنبي ﷺ: وتركوك يامحمد قائماً على المنبر[٢].

وقوله: «قُلْ ماعِنْدَ الله خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ ومِنَ التِّجارَةِ»، يقول جَلَّ ثناؤه: لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ لهم يا محمدُ، الذي عِنْدَ الله من الثواب، لمن جلس مستمعاً خطبةَ رسولِ الله ﷺ وموعظته يومَ الجمعةِ إلى أنْ يفرغَ رسولُ الله ﷺ منها، خيرٌ له من اللهو ومن التجارة التي يَنْفَضُّونَ اليها. «وَالله خَيْر الرازِقين»، يقولُ: والله خيرُ رازقٍ، فإليه فارغبوا في طَلَبِ أرزاقكم، وإياهُ فاسألوا أنْ يُوسِّعَ عليكم من فضلهِ دونَ غيره.

---

(١) الصواب في ذلك: اباحة طلب الرزق بالتجارة بعد المنع منها بقوله تعالى: ﴿وذروا البيع﴾. انظر زاد المسير ٢٦٨/٨، وتفسير ابن كثير: ٣٦٧/٤ وغيرهما.

(٢) حديث جابر بن عبدالله الأنصاري في الصحيحين: «أقبلت عير يوم الجمعة ونحن مع النبي ﷺ، فثار الناس إلا اثنا عشر رجلاً، فأنزل الله: ﴿وإذا رأوا تجارةً أولهواً انفضوا إليها﴾: البخاري (٤٨٩٩)، ومسلم (٨٦٣).

سُورَةُ المُنَافِقُون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۝١﴾

يقولُ تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ «إِذَا جاءَكَ المُنافِقونَ» يامحمد «قالُوا» بألسنتهم «نَشْهَدُ إنَّكَ لَرَسُولُ الله، وَاللهُ يَعْلَمُ إنَّكَ لَرَسُولُهُ» قال المنافقون ذلك أو لم يقولوه «وَاللهُ يَشْهَدُ إنَّ المُنافقينَ لَكَاذِبُونَ»، يقولُ: والله يشهدُ أنّ المنافقينَ لكـاذبـونَ في إخبـارهم عن أنفسهم أنها تشهدُ إنك لرسولُ الله، وذلك أنها لاتعتقدُ ذلكَ ولا تؤمنُ به، فهم كاذبونَ في خبرهم عنها بذلك.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: اتخذ المنافقون أيمانَهُمْ جُنَّةً، وهي حلفهم.

وقوله: «جُنَّةً»: سترةً يَسْتَتِرونَ بها كما يستترُ المُسْتَجِنُّ بجنَّتِه في حربٍ وقتال، فيمنعون بها أنفسهم وذراريهم وأموالهم، ويدفعونَ بها عنها.

وقوله: «فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ الله»، يقولُ: فأعرضوا عن دين الله الذي بَعَث به نبيَّهُ ﷺ وشريعته التي شرعها لخَلْقِه «إنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ»، يقولُ:

إن هؤلاء المنافقين الذين اتخذوا أيمانهم جُنَّةَ ساء ماكانوا يعملون في اتخاذهم أيمانَهُمْ جنَّةً، لكذبهم ونفاقهم، وغير ذلك من أمورهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: انهم ساء ماكانوا يعملونَ هؤلاء المنافقونَ الذين أتَّخذُوا أيمانهم جُنة من أجلِ أنهم صدَّقوا الله ورسوله، ثم كفروا بَشكِّهم في ذلك وتكذيبهم به،

وقوله: «فَطُبع عَلى قُلُوبِهمْ»، يقولُ: فجعل الله على قلوبهم ختماً بالكفرِ عن الايمان.

وقوله: «فَهُمْ لايَفْقَهُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فهم لايفقهون صواباً من خطأ، وحقاً من باطلٍ لطبع الله على قلوبِهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٤﴾

يقول جَلَّ ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وإذا رأيتَ هؤلاء المنافقين يا محمدُ، تُعجبكَ أجسامهم لاستواءِ خَلْقِها وحُسْنِ صُوَرِهَا. «وَإِنْ يَقُولَوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ»، يقول جَلَّ ثناؤه: وإنْ يَتَكلَّموا تسمعْ كلامَهم يشبهُ منطقُهم منطق الناس. «كأنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ»، يقولُ كأن هؤلاء المنافقين خُشُب مسندة لاخير عندهم ولا فقه لهم ولا علم، وإنما هم صورٌ بلا أحلامٍ، وأشباحٌ بلا عقول.

وقوله: «يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ»، يقول جَلَّ ثناؤه: يحسبُ هؤلاء المنافقونَ من خُبْثِهِمْ وسوءِ ظنهم، وقِلَّةِ يَقينهم كلَّ صيحةٍ عليهم، لأنهم على وَجَلٍ أنْ يُنْزل الله فيهم أمراً يهتكُ به أستارَهُمْ ويفضحهم، ويبيحُ للمؤمنين قَتْلَهُمْ وسبيَ ذراريهم، وأخذ أموالهم، فهم من خوفهم من ذلك كلما نزل بهم من الله وحي على رسولِه، ظنوا أنه نزلَ بهلاكِهم وعَطَبهم، يقول جَلَّ ثناؤه: لنبيه محمدٍ ﷺ: هم العدو يا محمدُ، فاحْذَرْهمْ، فإنَّ أَلسنتهم إذا لقُوكم معكم وقلوبهم عليكم مع أعدائِكم، فهم عينٌ لاعدائكم عليكم.

وقوله: «قاتَلَهُمُ الله أنى يُؤْفكُونَ»، يقولُ: أخزاهم الله الى أيّ وجهٍ يصرفون عن الحقِّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا قيل لهؤلاء المنافقين: تعالوا إلى رسولِ الله يستغفرْ لكم «لَوَّوْا رؤوسَهم»، يقولُ: حَرَّكُوها وهَزُّوها استهزاءً برسولِ الله ﷺ وباستغفاره.

وقوله: «ورأيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ورأيتهم يُعْرِضون عما دُعُوا إليه بوجوههم «وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ»، يقول: وهم مستكبرونَ عن المصيرِ الى رسولِ الله ﷺ ليستغفرَ لهم.

وإنما عُنِيَ بهذه الآياتِ كلها فيما ذُكِرَ، عبدُالله بن أبّي ابن سَلُول، وذلك أنه قال لأصحابه: لاتنفقوا على مَنْ عندَ رسولِ الله حتى يَنْفَضُّوا، وقال: «لَئِنْ رَجَعْنا الى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْها الأَذَلَّ» [المنافقون: ٨] فسمع بذلك زيْد ابن أرقَم، فأخبرَ به رسولَ الله ﷺ، فدعاه رسولُ الله ﷺ، فسأله عما أخبرَ به عنه، فحلف أنه ماقاله، وقيل له: لو أتيتَ رسولَ الله ﷺ، فسألته أنْ يستغفر

لك، فجعل يلوي رأسه ويحركه استهزاءً، ويعني بذلك أنه غير فاعلٍ ما أشاروا به عليه، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ فيه هذه السورةَ من أوّلها الى آخرها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: سواء يا محمدُ على هؤلاء المنافقينَ الذين قِيلَ لهم تعالوا يستغفرْ لكم رسولُ الله «أستَغْفَرْتَ لَهُمْ» ذنوبَهُمْ «أمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُم لَنْ يَغْفِرَ الله لهمْ»: يقولُ: لن يصفحَ الله لهم عن ذنوبِهم، بل يعاقبهم عليها. «إنَّ اللهَ لَايهدِي القَوْمَ الفاسِقِين»، يقولُ: إن الله لايوفِّق للإيمانِ القومَ الكاذبينَ عليه، الكافرينَ به، الخارجينَ عن طاعته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ» يعني: المنافقين الذين يقولون لأصحابهم «لاتُنْفِقُوا عَلى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ» من أصحابِهِ المهاجرينَ «حتى يَنْفَضُّوا»، يقولُ: حتى يَتفرَّقُوا عنه.

وقولُه: «ولله خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ والأرْضِ»، يقولُ: ولله جميع مافي السمواتِ والأرض من شيءٍ وبيده مفاتيحُ خزائن ذلك، لايقدرُ أحدٌ أن يعطي أحداً شيئاً إلا بمشيئته «وَلَكِنَّ المُنافِقِينَ لايَفْقَهُونَ» أنَّ ذلك كذلك، فلذلك يقولون: لاتنفقوا على مَنْ عندَ رسولِ الله ﷺ حتى ينفضُّوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يقول هؤلاء المنافقونَ الذينَ وَصَفَ صفتهم قبل «لَئِنْ رَجَعْنا الى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْها الأَذَلَّ» فيها، ويعني بالأعزّ: الاشدَّ والأقوى، قال الله جَلَّ ثَناؤُهُ: «وللهِ العِزَّةُ» يعني: الشدّة والقوّة «وَلِرَسُولِهِ وَللمُؤْمِنِينَ» بالله «وَلَكِنَّ المُنافِقِينَ لايعْلَمُونَ» ذلك.

وذُكر أنَّ سببَ قِيلِ ذلك عبدُالله بن أبيّ كان من أجلِ أنَّ رجلاً من المهاجرين كَسَعَ رجلاً من الأنصار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ياأيها الذين صَدَّقُوا الله ورسولَهُ «لاتُلْهِكُمْ أمْوالُكُمْ»، يقولُ: لاتوجب لكم أموالكم «وَلا أوْلادُكُمْ» اللَّهْوَ «عَنْ ذِكْرِ اللهِ» وهو من: ألهيته عن كذا وكذا، فَلَهَا هُوَ يَلْهُو لهواً.

وقوله: «وَمَنْ يَفْعَلْ ذلكَ»، يقولُ: ومَنْ يُلْهِه مالُهُ وأولادُهُ عن ذِكْرِ الله «فأولَئِكَ هُمُ الخاسِرُونَ»، يقولُ: هم المغبونونَ حظوظَهُمْ من كرامةِ الله رحمتهِ تبارك وتعالى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ

﴿ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأنفقوا أيها المؤمنونَ بالله ورسولِه من الأموالِ التي رزقناكم مِنْ قبلِ أنْ يأتيَ أحدَكُمُ الموتُ فيقول إذا نزلَ به الموتُ: ياربِّ هلا أخَّرْتني فتمهلَ لي في الأجل الى أجل قريب «فأصَّدَّقَ»، يقول: فأزكّيَ مالي «وأكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ»، يقولُ: وأعمل بطاعتكَ، وأؤدّيَ فرائضك.

وقوله: «وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إذا جاءَ أجَلُها» يقولُ: لن يؤخر اللهُ في أجلِ أحدٍ فيمدَّ له فيه إذا حَضَرَ أجلُه، ولكن يَخْترمه «والله خَبيرٌ بمَا تَعْمَلُونَ»، يقولُ: والله ذُو خبرةٍ وعلمٍ بأعمالِ عبيدِهِ هو بجميعها محيطٌ، لايَخْفَى عليه شيءٌ، وهو مُجازِيهم بها، المحسنَ بإحسانِهِ، والمسيء بإساءته.

سُورَةُ التَّغَابُنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يسجدُ له مافي السمواتِ السبع ومافي الأرض من خَلْقِه ويُعَظِّمه.

وقولـه: «لَـهُ المُلْكُ» يقـول تعالى ذِكْرُه: له مُلكُ السمواتِ والأرضِ وسلطانُه ماضٍ، قضاؤه في ذلك نافذٌ فيه أمرهُ.

وقوله: «وَلَهُ الحَمْدُ»، يقولُ: وله حمدُ كلِّ مافيها من خَلْقٍ، لأنَّ جميعَ مَنْ في ذلك من الخَلْقِ لايعرفونَ الخيرَ إلا منه، وليس لهم رازقٌ سِواهُ فله حمدُ جميعِهم «وَهُو على كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ»، يقولُ: وهو على كل شيءٍ ذُو قدرةٍ، يقولُ: يخلقُ مايشاء، ويُميتُ مَنْ يشاء، ويُغْني مَنْ أراد، ويُفْقِرُ مَنْ يشاء ويعزُّ من يشاء، ويذلُّ من يشاء، لايتعذَّرُ عليه شيءٌ أراده، لأنه ذُو القدرةِ التامةِ التي لايعجزه معها شَيْءٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الله «الَّذي خَلَقَكُمْ» أيها الناسُ، وهو من ذكر اسم الله «فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ»، يقولُ: فمنكم كافرٌ بخالقِهِ وأنه خَلَقَهُ، ومنكم مؤمنٌ: يقولُ: ومنكم مصدِّقٌ به مُوقِنٌ أنه خالقه أو بارئه «وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ»، يقولُ: واللهُ الذي خلقكم بصيرٌ بأعمالكم عالم بها، لايَخْفَى عليه منها شيءٌ، وهو مُجَازِيكم بها، فاتقوهُ أنْ تُخالفوه في أمرِهِ أو نهيه، فيسطوَ بكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: خَلَقَ السموات السبع والأرض بالعدلِ والإنصافِ، «وصَوَّركم»: يقولُ: ومثلكم فأحسن مثلكم: وقيل: إنه عُنِي بذلك تصويره آدمَ، وخَلْقَه إياه بيده.

وقوله: «وَإِلَيْهِ المَصِيرُ»، يقولُ: وإلى الله مرجعَ جميعِكم أيها الناسُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يعلمُ رَبُّكم أيها الناسُ مافي السمواتِ السبع والأرض من شيءٍ، لايَخْفَى عليه من ذلك خافيةٌ «وَيَعْلَمُ ماتُسِرُّون» أيها الناسُ بينَكم من قولٍ وعملٍ «وَما تُعْلِنُون» من ذلك فَتُظْهِرُونَهُ «والله عَلِيمٌ بذَاتِ الصُّدورِ» يقول جَلَّ ثناؤه: والله ذُو عِلْمٍ بضمائرِ صدورِ عباده، وما تنطوي عليه نفوسُهم، الـذي هو أخْفَى من السِّر، لايعزبُ عنه شيءٌ من ذلك، يقول تعالى ذِكْرُه: لعبـاده: احذرُوا أن تُسِرُّوا غيرَ الذي تُعْلِنون أو تُضْمِرُوا في أنفسكم غير ما

تُبدونه، فإنَّ رَبَّكم لايَخْفَى عليه من ذلك شيء، وهو مُحْصٍ جميعَهُ وحافظٌ عليكم كله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لمشركي قريش: ألم يأتِكُمْ أيها الناسُ خَبَرُ الذين كفروا من قبلكم، وذلك كقوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ وقومِ إبراهيمَ وقومِ لوطٍ «فَذَاقُوا وبَالَ أمْرِهِمْ» فَمَسَّهم عذابُ الله إياهم على كفرهم «وَلهمْ عَذابٌ أليمٌ» يقولُ: ولهم عذابٌ مؤلمٌ مُوجِعٌ يومَ القيامة في نارِ جهنم، مع الذي أذاقهم الله في الدنيا وبالَ كُفْرِهم.

وقوله: «ذلكَ بأنَّهُ كانَتْ تأتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بالبَيِّناتِ»، يقول جَلَّ ثناؤه: هذا الذي نال الذين كفروا من قِبَلِ هؤلاء المشركينَ من وبالِ كفرهم، والذي أعَدَّ لهم رَبُّهم يومَ القيامة من العذاب، من أجلِ أنه كانت تأتيهم رُسُلُهم بالبينات الذين أرسلهم إليهم رَبُّهم بالواضحاتِ من الأدلةِ والاعلامِ على حقيقةِ مايَدْعُونَهم إليه، فقالوا لهم: أبَشَرٌ يهدوننا، استكباراً منهم أنْ تكونَ رُسُلُ الله اليهم بشراً مثلهم واستكباراً عن اتباع الحقِّ من أجلِ أنَّ بشراً مثلهم دعاهم إليه، وجمع الخبر عن البشر، فقيل: «يَهْدُونَنَا»، ولم يقل: يهدينا، لأنَّ البشر، وإنْ كان في لفظِ الواحدِ، فإنه بمعنى الجميع.

وقوله: «فَكَفَروا وَتوَلَّوْا» يقولُ: فكفروا بالله، وجحدوا رسالةَ رُسُلِه الذين بعثهم الله اليهم استكباراً «وتَوَلَّوا»، يقولُ: وأدبروا عن الحقِّ فلم يقبلوه، وأعرضوا عما دعاهم إليه رُسُلُهم «واستغْنَى الله»، يقولُ: واستغنى الله عنهم،

وعن إيمانِهم بِهِ وبرسلِهِ، ولم تكنْ به الى ذلك منهم حاجةٌ «وَاللهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ»، يقـولُ: واللهُ غنيٌّ عن جميعِ خلقِـه، محمـودٌ عنـد جميعِهم بجميلِ أياديه عندهم، وكريمِ فعالِهِ فيهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۞٧﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: زَعَمَ الذين كفروا باللهِ أنْ لن يبعثهمُ اللهُ إليه من قبورِهم بعد مَمَاتِهم. وكان ابن عمر يقولُ: زعم كنية الكذب.

وقوله: «قُلْ بَلى وربِّي لَتُبْعَثُنَّ»، يقول لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ لهم يامحمدُ: بلى وربي لتبعثن من قبـورِكم «ثُمَّ لَتُنبؤنَّ بِمَـا عَمِلْتُمْ» يقـولُ: ثم لتخبـرنَّ بأعمالِكم التي عملتُموهَا في الدنيا، «وَذلكَ على اللهِ يَسيرٌ» يقولُ: وبَعْثُكم من قبورِكم بعد مماتِكم على الله سهلٌ هَيِّنٌ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلْنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٞ ۞٨﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: فَصَـدِّقُـوا باللهِ ورسوله أيها المشركونَ المُكَذِّبُونَ بالبعث، وبإخبارِه إياكم أنكم مبعوثونَ من بعد مماتكم، وأنكم من بعد بلائِكم تنشرونَ من قبورِكم، «والنور الذي أنزلنا»، يقولُ: وآمِنوا بالنورِ الذي أنزلنا، وهو هذا القرآنُ الذي أنزله اللهُ على نبيه محمدٍ ﷺ «واللهُ بما تَعْمَلُون خَبيرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: واللهُ بأعمالكم أيها الناسُ ذُو خبرةٍ محيطٌ بها، مُحْصٍ جميعَها، لايَخْفَى عليه منها شيءٌ، وهو مُجَازِيكم على جميعها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والله بما تعملون خبيرٌ «يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الجَمْعِ» الخلائقَ للعرضِ «ذلكَ يَوْمُ التَّغابُنِ» يقول: الجمعُ يوم غَبْن أهل الجنة أهلَ النار.

وقوله: «وَمَنْ يُؤْمِنْ بالله وَيَعْمَلْ صَالِحاً» يقول تعالى ذِكْرُه: ومَنْ يصدِّقْ باللهِ ويعملْ بطاعتِهِ، وَيَنْتَهِ الى أمره ونهيهِ «يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ»، يقولُ: يَمْحُ عنه ذُنوبَهُ «وَيُدخلْهُ جنَّاتٍ تَجْرِي منْ تَحْتِها الأَنهارُ»، يقولُ: ويُدخله بساتينَ تجري من تحتِ أشجارها الأنهارُ.

وقوله: «خالدينَ فيها أَبداً»، يقولُ: لابثينَ فيها أبداً، لايموتون، ولايخرجون منها.

وقوله: «ذلك الفَوْزُ العَظِيمُ»، يقول: خلودُهم في الجناتِ التي وصفنا النجاءُ العظيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والذين جحدوا وحدانيةَ الله، وكَذَّبُوا بأدلته وحججهِ وآي كتابهِ الذي أنزله على عبدِه محمدٍ ﷺ «أُولَئِك أصحَابُ النَّارِهُمْ فيها خالِدُونَ»، يقولُ: ماكثينَ فيها أبداً لايموتون فيها، ولايخرجون منها «وَبِئْسَ المَصِيرُ»، يقولُ: وبئس الشيء الذي يُصَارُ إليه: جهنمُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لم يصب أحداً من الخَلْقِ مصيبة إلا بإذنِ الله، يقولُ: إلا بقضاءِ اللهِ وتقديرِه ذلكَ عليه «وَمَنْ يُؤْمِنْ باللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ»، يقولُ: ومَنْ يُصَدِّقْ باللهِ فيعلم أنه لا أحدَ تُصيبهُ مصيبةٌ الا بإذن الله بذلك «يَهْدِ قلبه»، يقول: يوفِّق اللهُ قَلْبَهُ بالتسليمِ لأمرِهِ والرضا بقضائه.

وقوله: «واللهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ»، يقولُ: واللهُ بكل شيءٍ ذُو علمٍ بما كان ويكونَ وماهو كائنٌ من قبلِ أنْ يكون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: «وأطيعُوا الله» أيها الناسُ في أمرِهِ ونهيه «وأطيعوا الرَّسُولَ» ﷺ «فإن توليتم» فإنْ أدبرتم عن طاعةِ الله وطاعةِ رسولِه مستكبرينَ عنها، فلم تطيعوا اللهَ ولا رسولَهُ «فإنما» فليسَ «على رسولنا» محمدٍ إلاَّ «البلاغُ المبينُ» أنـه بلاغ إليكم لمـا أرسلتُـه به يقـول جَلَّ ثناؤه: فقد أعْذَرَ إليكم بالإبلاغِ والله وليُّ الانتقامِ ممن عَصَاهُ، وخالفَ أمره، وتولَّى عنه «الله لاإلَهَ إلا هو» يقول جَلَّ ثناؤه: معبودُكم أيها الناسُ معبودٌ واحدٌ لاتصلحُ العبادةُ لغيرِه ولا معبودَ لكم سواه.

«وعَلى الله فَلْيَتَوكَّل المؤمِنون» يقول تعالى ذِكْرُه: وعلى الله أيها الناسُ فليتوكل المُصَدِّقُون بوحدانيته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ياأيها الذين صَدَّقُوا الله ورسوله «إن مِنْ أزْوَاجِكُمْ وأوْلادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ» يصَدُّونَكُمْ عن سبيل الله، ويُثَبِّطونَكُمْ عن طاعةِ الله «فاحْذَرُوهُمْ» أنْ تَقبَلُوا منهم ما يأمرونَكُمْ به من تركِ طاعة الله.

وذُكِرَ أنَّ هذه الآية نزلتْ في قومٍ كانوا أرادوا الاسلامَ والهجرةَ، فثبَّطهم عن ذلك أزواجُهم وأولادُهم.

وقوله: «وإنْ تَعْفُوا وتَصْفَحُوا»، يقولُ: وإنْ تَعْفُوا أيها المؤمنونَ عما سَلَفَ منهم من صَدِّهم إياكم عن الإسلام والهجرةِ وتَصْفَحُوا لهم عن عقوبتكم إياهم على ذلك، وتغفروا لهم غيرَ ذلك من الذنوب «فإن الله غَفُورٌ رَحِيمٌ» لكم لِمَنْ تابَ من عبادِه، من ذنوبكم «رحيمٌ» بكم أنْ يعاقبكم عليها من بعد توبتكم منها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ما أموالُكُمْ أيها الناسُ وأولادُكمْ إلا فتنةٌ، يعني: بلاءٌ في الدنيا.

وقوله: «والله عِنْدَهُ أجْرٌ عَظِيمٌ»، يقولُ: والله عنده ثوابٌ لكم عظيمٌ، إذا

أنتم خالفتم أولادَ كُمْ وأزواجَكم في طاعةِ الله رَبِّكم، وأطعتمُ الله عَزَّ وجَلَّ، وأدَّيْتُمْ حَقَّ الله في أموالِكم. والأجر العظيم الذي عندَ اللهِ الجنة.

وقوله: «فاتَّقُوا الله ماسْتَطعْتُم»، يقول تعالى ذِكْرُه: واحْذَرُوا الله أيها المؤمنونَ وخَافُوا عقابَهُ، وتَجَنَّبُوا عذابَهُ بأداءِ فرائضه واجتنابِ معاصيه، والعمل بما يُقَرِّبُ إليه ماأطَقْتُمْ وبلَغهُ وُسْعُكُمْ.

وذُكِرَ أنّ قولهُ «فاتَّقُوا اللهَ ماسْتَطَعْتُمْ» نزل بعد قوله: «واتَّقُوا الله حَقَّ تُقاتِهِ» تخفيفاً عن المسلمين، وأنَّ قوله: « فاتَّقوا الله مااستَطَعْتُم» ناسخٌ قوله: « اتَّقوا الله حَقَّ تُقاتِهِ».

وقد تقدم بياننا عن معنى الناسخِ والمنسوخِ بما أغنى عن إعادتِهِ في هذا الموضع، وليس في قوله: «فاتَّقُوا الله مااستَطَعْتُمْ» دلالةٌ واضحةٌ على أنه لقوله: «اتَّقوا الله حَقَّ تُقاتِهِ» ناسخٌ، إذْ كان محتملاً قوله: اتقوا الله حقَّ تُقاتِه فيما استطعتم، ولم يكنْ بأنه له ناسخٌ عن رسولِ الله ﷺ، فإذا كان ذلك كذلك، فالواجبُ استعمالها جميعاً على مايحتملانِ من وجوهِ الصحة.

وقوله: «واسَمعُوا وأطِيعُوا» يقولُ: واسمعوا لرسولِ الله ﷺ، وأطيعوهُ فيما أمرَكُمْ به ونهاكم عنه. «وَأنْفِقُوا خَيْراً لأنْفُسِكُمْ»، يقولُ: وأنفقوا مالاً من أموالكم لأنفسِكم تَسْتَنْقِذُوهَا من عذابِ الله، والخيرُ في هذا الموضع المال.

وقوله: «وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ومَنْ يَقِه الله شُحَّ نفسِه، وذلك اتباع هواها فيما نهى الله عنه.

وقوله: «فأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ»، يقولُ: فهؤلاء الذين وُقُوا شُحَّ أنفسِهم، المُنجحُونَ الذين أدركوا طَلباتِهم عند ربِّهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ۝١٧ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإنْ تُنْفِقُوا في سبيل الله، فَتُحْسِنُوا فيها النفقةَ، وتحتسبوا بإنفاقِكم الأَجرَ والثوابَ يُضَاعِفْ ذلك لكم ربُّكم، فيجعل لكم مكانَ الواحدِ سبعَ مئةِ ضِعْفٍ إلى أكثرَ من ذلك مما يشاءُ من التضعيفِ «يَغفرْ لكُم ذُنوبَكُم» فيصفح لكم عن عقوبتكم عليها مع تضعيفهِ نفقتَكم التي تُنفقونَ في سبيله «وَاللهُ شَكُورٌ»، يقولُ: والله ذُو شكرٍ لأهلِ الإنفاقِ في سبيلِه، بِحُسْنِ الجزاءِ لهم على ماأنفقوا في الدنيا في سبيله «حَليمٌ»، يقولُ: حليمٌ عن أهلِ معاصيه بترك معاجَلَتِهم بعقوبتِهِ «عالِمُ الغَيْب والشَّهادةِ» يقولُ: عالمُ ما لاتراهُ أعينُ عبادِه ويَغِيبُ عن أبصارِهم ومايشاهدُونَهُ فيرونَهُ بأبصارِهم. «العَزِيزُ»، يعني: الشديدُ في انتقامِهِ ممَّنْ عَصَاهُ وخالفَ أمره ونهيهُ «الحكيمُ» في تدبيرهِ خَلْقَهُ، وصَرْفه إياهم فيما يُصْلِحُهم.

سُورَةُ الطَّلَاقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «ياأيها النَّبِيُّ إذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدتِهِنَّ»، يقولُ: إذا طلقتم نسائكم فَطَلِّقُوهن لِطُهْرِهِنَّ الذي يُحْصِينَهُ من عِدَّتِهِنَّ، طاهراً من غير جماعٍ، ولا تطلقوهنَّ بحيضِهِنَّ الذي لايَعْتَدِدْنَ به من قرئِهِنَّ.

وقوله: «وأحصوا العِدَّةَ»، يقولُ: وأحصوا هذه العدَّةَ وأقراءَها فاحفظوها.

وقوله: «واتقُوا الله رَبَّكُمْ لاتُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ»، يقولُ: وخافوا الله أيها الناسُ رَبَّكُمْ فاحذروا معصيتَهَ أَنْ تتعدوْا حَدَّهُ، لاتُخْرِجُوا مَنْ طلقتم من نسائِكم

لعدتهنَّ من بيوتهن التي كنتم اسكنتموهُنَّ فيها قبلَ الطلاق حتى تنقضي عدتهُنَّ.

وقوله: «وَلا يَخْرُجْنَ إلَّا أنْ يأتِينَ بفاحِشةٍ مُبيِّنةٍ»، يقول جَلَّ ثناؤه: لاتخرجوهن إلا أنْ يأتين بفاحشةٍ مبينة إنها فاحشةٌ لمن عَايَنَها أو عَلِمَهَا.

واختلف أهلُ التأويلِ في معنى الفاحشة التي ذُكِرَتْ في هذا الموضع، والمعنى الذي من أجله أذِنَ الله بإخراجهنَّ في حال كونهنَّ في العدةِ من بيوتهنَّ، فقال بعضهم: الفاحشة التي ذكرها الله في هذا الموضع هو الزنى، والإخراج الذي أباح الله هو الإخراج لإقامة الحدِّ.

وقال آخرون: الفاحشة التي عناها الله في هذا الموضع: البَذاء على أحمائِها.

وقال آخرون: بل هي كُلُّ معصيةٍ لله.

وقال آخرون: بل ذلك نُشوزُها على زوجِها، فيطلقها على النشوزِ، فيكون لها التحوُّلُ حينئذٍ من بيتها.

وقال آخرون: الفاحشةُ المبينة التي ذَكَرَ الله عَزَّ وجَلَّ في هذا الموضع خروجُهَا من بيتها.

والصواب من القول في ذلك عندي قولُ من قال: عنى بالفاحشة في هذا الموضع: المعصية، وذلك أن الفاحشة هي كل أمرٍ قبيحٍ تَعَدَّى فيه حدّه، فالزنى من ذلك، والسرفُ والبَذَاءُ على الاحماء، وخروجها متحولةً عن منزلها الذي يلزمها أنْ تَعْتَدَّ فيه منه، فأيّ ذلك فعلتْ وهي في عدتها، فَلِزَوْجِهَا إخراجُها من بيتها ذلك، لإتيانها بالفاحشة التي ركبتها.

وقوله: «وَتِلْكَ حُدُودُ الله» يقول تعالى ذِكْرُه: وهذه الأمور التي بَيَّنْتُهَا لكم من الطلاقِ للعدَّةِ، وإحصاءِ العدةِ، والأمرِ باتقاءِ الله، وأنْ لاتخرجَ المطلقةُ من

بيتها، إلا أنْ تأتيَ بفاحشة مبينة ـ حدودُ الله التي حَدَّهَا لكم أيها الناسُ فلا تعتدوها. «وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ الله فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وَمَنْ يتجاوز حدود الله التي حَدَّها لخلقِه «فقد ظلم نفسه»، يقولُ: فقد أكْسَبَ نفسَهُ وزراً، فصارَ بذلك لها ظالماً، وعليها متعدِّياً.

وقـولـه: «لاتَـدْرِي لَعَلَّ الله يحْدِثُ بَعْدَ ذلك أمْراً»، يقول جَلَّ ثناؤه: لاتدري مالذي يحدث؟ لعلَّ الله يحدثُ بعد طلاقِكم إياهُنَّ رجعةً.

وقـولـه: «فإذَا بَلَغْنَ أجَلَهُنَّ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فإذا بلغ المطلقات اللواتي هُنَّ في عدةِ أجلهن وذلـك حين قُرْبِ انقضـاءِ عددهن «فـأمْسِكُوهُنَّ بمعْروفٍ»، يقولُ: فأمسكوهنّ برجعةٍ تراجعوهن، إنْ أردتم ذلك «بمعروف»، يقولُ: بما أمركَ الله به من الإمساكِ، وذلك باعطائها الحقوق التي أوجبها الله عليه لها من النفقة والكسوةِ والمسكنِ وحُسْنِ الصُّحْبَةِ. «أو فارقوهنّ بمعروف»، أو اتركوهن حتى تنقضي عددهنَّ، فتبين منكم بمعروفٍ، يعني: بإيفائها مالَها من حَقٍّ قبلَهُ من الصَّداق والمتعةِ على ما أوجبَ عليه لها.

وقـولـه: «وأشْهِـدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ» وأشهـدوا على الامسـاك إنْ أمسكتموهُنَّ، وذلك هو الرجعة ذَوَيْ عَدْلٍ منكم، وهما اللذان يُرْضَى دِينهما وأمانتهما.

وقوله: «وأقِيموا الشَّهادَةَ لله»، يقولُ: وأشْهِدُوا على الحقِّ إذا استشهدتم، وأدُّوها على صحةٍ إذا أنتم دُعِيتُم إلى أدائها.

وقوله: «ذَلِكُم يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بالله واليَوْمِ الآخرِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الذي أمرتُكم به، وعرَّفْتُكم من أمرِ الطلاقِ، والواجب لبعضِكم على بعضٍ عند الفِراقِ والامساكِ عظة منا لكم، نَعِظُ به مَنْ كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر، فيصدّق به.

وعنى بقوله: «مَنْ كانَ يؤمِنُ بالله» مَنْ كانت صفتُه الإيمان بالله.

وقوله: «وَمَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: مَنْ يَخَفِ الله فيعملْ بما أمرَهُ به، ويجتنبْ مانهاهُ عنه، يجعلْ له من أمره مخرجاً، بأنْ يُعَرِّفَهُ بأنَّ ماقضى فلا بدَّ من أنْ يكون، وذلك أن المطلق إذ طلق، كما نَدَبَهُ الله إليه للعدةِ، ولم يراجعها في عدتها حتى انقضت ثم تتبعها نفسه، جعلَ الله له مخرجاً فيما تتبعها نفسه، بأنْ جعلَ له السبيلَ الى خِطْبَتها ونكاحَهَا، ولو طلقها ثلاثاً لم يَكُنْ له الى ذلك سبيلٌ.

وقوله: «وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَايحْتَسِبُ»، يقولُ: ويسبب له أسبابَ الرزق من حيثُ لايشعر، ولايعلم.

وقوله: «ومن يَتَوَكَّلْ على الله فَهُوَ حَسْبُهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ومَنْ يَتَّقِ الله في أمورِه، ويُفَوِّضها إليه فهو كافِيه.

وقوله: «إنَّ الله بالغُ أمرِهِ» منقطعٌ عن قـوله: «وَمَنْ يَتَوَكَّلْ على اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ»، ومعنى ذلك إنَّ الله بالغ أمره بكلِّ حالٍ توكلَ عليه العبدُ أو لَمْ يتوكلْ عليه.

وقوله: «قَدْ جَعَلَ الله لِكُلِّ شَيْء قَدْراً»، يقول تعالى ذكْرُه: قد جعلَ الله لكل شيء من الطلاقِ والعدّة وغير ذلك حدّاً وأجلاً وقدراً يُنتهى إليه.

القَــوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعـالَى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والنساءُ اللاتي قد ارتفع طمعهنَّ عن المحيضِ، فلا يرجونَ أن يَحِضْنَ من نسائكم إن ارتبتم.

واختلف أهلُ التأويل في معنى قوله: «إنِ أرتَبْتُمْ»، فقال بعضهم: معنى ذلـك: إن ارتبتم بالدمِ الذي يظهر منها لكبرها، أَمِنَ الحيضِ هو، أمْ منَ الاستحاضةِ، فعِدَّتهن ثلاثة أشهر.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ان ارتبتم بحكمهنَّ فلم تدروا ما الحكمُ في عدتهنَّ، فإنَّ عدتهنَّ ثلاثة أشهر.

وقال آخرون: معنى ذلك إن ارتبتم مما يظهر منهنَّ من الدمِ، فلم تَدْرُوا أدَمَ حيضٍ، أمْ دم مستحاضةٍ من كِبَرٍ كان ذلك أو عِلَّةٍ؟

وأولى الأَقوال في ذلك بالصحة قولُ مَنْ قال: عُنِي بذلك: إن ارتبتم فلم تَدْرُوا ما الحكم فيهنَّ، وذلك أنَّ معنى ذلك لو كان كما قاله مَنُ قال: إن ارتبتم بدمـائهنَّ فلم تدروا أدم حيضٍ، أو استحاضةٍ؟ لقيل: إنِ ارْتَبْتُنَّ لأنهن إذا أشكلَ الدمُ عليهنَّ فهنَّ المرتابات بدماءِ أنفسهن لاغيرهن، وفي قوله: «إن ارْتَبْتُمْ» وخـطابـهِ الرجالَ بذلك دونَ النساءِ الدليلُ الواضحُ على صحة ماقلنا من أنَّ معناه: إن ارتبتم أيها الرجال بالحكمِ فيهنَّ، وأخرى وهو أنه جَلَّ ثَنَاؤُهُ قال: «والَّلائِي يَئِسنَ مِنَ المَحِيضِ مِنْ نِسائِكُمْ إن ارْتَبْتُمْ» واليائسةُ من المَحِيضِ هي التي لاترجو محيضاً للكبر، ومحالٌ أن يقال: واللائي يئسن، ثم يقال: ارتبتم بيأسهنَّ، لأنَّ اليأسَ: هو انقطاعُ الرجاء، والمرتاب بيأسها مرجوٌّ لها، وغيرُ جائزٍ ارتفـاعُ الرجاءِ ووجودُه في وقتٍ واحد فإذا كان الصوابُ من القول في ذلك ما قلنـا، فبيِّنٌ أن تأويلَ الآية: والـلائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم بالحكم فيهن، وفي عِدَدِهِنَّ، فلم تدروا ما هُنَّ فإن حكم عددهن إذا طلقن، وهن ممن دخل بهن أزواجهن، فعدتهن ثلاثة أشهر «وَاللائي لم يحضن يقولُ: وكذلك عدد اللائي لم يحضن من الجواري لصغرٍ إذا طلقهن أزواجهن بعد الدخول.

وقوله: «وأُولات الأحْمالِ أجَلُهُنَّ أنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ» في انقضاءِ عدتهنَّ أنْ يضعن حَمْلَهُنَّ، وذلك إجماعٌ من جميعِ أهلِ العلمِ في المطلقة الحامل، فأما في المتوفَّى عنها ففيها اختلافٌ بين أهل العلم.

فقال بعضهم: ذلك عامٌّ في المطلَّقاتِ والمتوفَّى عنهنَّ.

وقال آخرون: ذلك خاصٌّ في المطلقاتِ، وأما المتوفَّى عنها فإنَّ عِدَّتَها آخر الأجلين.

والصوابُ من القول في ذلك أنه عامٌّ في المطلقات والمتوفَّى عنهنَّ، لأنَّ الله جَلَّ وعَزَّ، عَمَّ بقولِهِ بذلك فقال: «وأُولاتُ الأَحْمالِ أجَلُهُنَّ أنْ يَضَعْن حَمْلَهُنَّ»، ولم يخصصْ بذلك الخبر عن مطلقةٍ دونَ مُتَوفَّى عنها، بل عَمَّ الخبر به عن جميع أولاتِ الأحمالِ، إنْ ظَنَّ ظانٌّ أنَّ قوله: «وأُولاتُ الأَحْمالِ أجَلُهُنَّ أنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ» في سياقِ الخبرِ عن أحكامِ المطلقاتِ دونَ المتوفَّي عنهنّ، فهو بالخبرِ عن حكمِ المطلقة أوْلى بالخبرِ عنهنّ، وعن المتوفَّي عنهنّ، فإنَّ الأَمَر بخلافِ ماظنَّ، وذلك أنَّ ذلك وإنْ كان في سياقِ الخبر عن أحكامِ المطلقاتِ، فإنه منقطعٌ عن الخبرِ عن احكام المطلقات، بل هو خبرٌ مبتدأ عن أحكام عددِ جميعِ أولاتِ الأحمال المطلقاتِ منهنَّ وغير المطلقات، ولا دلالةَ على أنـهُ مُرَادٌ به بعض الحواملِ دونَ بعضٍ من خبرٍ ولا عقلٍ، فهو على عمومِه لما بينَّا.

وقوله: «وَمَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَلْ لَه مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً» يقول جَلَّ ثناؤه: ومَنْ يَخَفِ الله فَرَهِبَهُ، فاجتنبَ معاصيه، وأدَّى فرائضَهُ، ولم يخالفْ إذنه في طلاقِ امرأته، فإنه يجعل الله له من طلاقهِ ذلك يُسْراً، وهو أنْ يُسَهِّلَ عليه إنْ أراد الرخصةَ لاتباع نفسه إياها الرجعةَ مادامتْ في عدتها وإنِ انقضتْ عدتها، ثم دَعَتْهُ نفسهُ إليها قَدرَ على خطبتها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ۝٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الذي بيَّنتُ لكم من حكمِ الطلاقِ والرجعةِ والعدّةِ، أمر الله الذي أمرَكُمْ به، أنزله إليكم أيها الناسُ، لتأتمروا له، وتعملوا به.

وقوله: «وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ»، يقولُ: ومَنْ يَخفِ الله فيَتَّقِه باجتنابِ معاصيه، وأداء فرائضهِ، يَمْحُ الله عنه ذنوبَهُ وسيئات أعماله، «وَيُعْظِمْ لَهُ أجْراً»، يقول: ويُجْزِلْ له الثوابَ على عملهِ ذلك وتقواه، ومن إعظامِه له الأجر عليه أنْ يُدْخِلَهُ جَنَّتَهُ، فيخلده فيها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَـٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ۝٦ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أَسْكِنُوا مطلقاتِ نسائكم من الموضع الذي سكنتم «من وُجْدِكُمْ»، يقولُ: من سَعَتِكُمْ التي تجدون، وإنما أمرَ الرجالَ أنْ يعطوهن مسكناً يَسْكُنَّهُ مما يجدونه، حتى يقضينَ عِدَدهنّ.

وقوله: «وَلا تُضارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقوا عَلَيْهِنَّ»، يقول جَلَّ ثناؤه: ولا تضارُّوهُنَّ في المسكن الذي تسكنونهنَّ فيه، وأنتم تجدون سَعَةً من المنازلِ أنْ تطلبوا

التضييقَ عليهنَّ، فذلك قوله: «لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ»، يعني: لتضيقوا عليهنَّ في المسكن مع وجودكم السَعة.

وقوله: «وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حتى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإنْ كان نساؤكم المطلقات أُولاتِ حملٍ وكُنَّ بائناتٍ منكم، فأنفقوا عليهنَّ في عدتهنَّ منكم حتى يضعن حَمْلَهُنَّ.

وقال آخرون: عُنِيَ بقوله: «وَإِنْ كُنَّ أولاتِ حَمْل فَأَنْفِقُوا عَلَيهن حتى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ» كل مُطَلَّقةٍ، مَلَكَ زوجُها رجْعَتَهَا أو لم يملك.

والصوابُ من القول في ذلك عندنا أنْ لانفقةَ للمبتوتةِ إلا أنْ تكونَ حاملاً، لأنَّ الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ جعل النفقةَ بقوله: «وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ» للحواملِ دونَ غيرهنَّ من البائناتِ من أزواجهن ولو كان البوائن من الحوامل وغير الحوامل في الواجب لهنَّ من النفقةِ على ازواجهنَّ سواء، لم يكن لخصوصِ أولاتِ الأحمال بالذِّكرِ في هذا الموضع وجةٌ مفهوم، إذ هُنَّ وغيرهنّ في ذلك سواء وفي خصوصهن بالذكرِ دونَ غيرهنّ أدلّ الدليلِ على أنْ لانفقةَ لبائنٍ إلا أنْ تكون حاملاً.

وقوله: «فإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورهُنَّ»، يقول جَلَّ ثناؤه: فإنْ أرضعَ لكم نساؤكم البوائن منكم أولادهنَّ الأطفال منكم بأجرةٍ، فآتوهُن أجورَهُنَّ على رضاعهن إياهم.

وقوله: «وأتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وليقبلْ بعضُكم أيها الناسُ من بعضٍ ما أمركم بعضُكم به بعضاً من معروف.

وقوله: «وَإِنْ تَعاسَرْتُمْ فَستُرضِعُ لَهُ أُخْرى»، يقولُ: وإنْ تعاسَر الرجلُ والمرأة في رضاع ولدها منه، فامتنعتْ من رضاعه، فلا سبيلَ له عليها، وليس له إكراهها على إرضاعه، ولكنه يستأخر للصبيِّ مرضعةً غير أمِّهِ البائنة منه.

وقوله: «لِيُنْفِقْ ذُو سَعَـةٍ من سَعَتِهِ، وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْه رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ الله»، يقـول تعـالى ذِكْرُه: لينفق الذي بانتْ منه امرأتُه إذا كان ذا سَعَةٍ من المالِ، وغِنىً من سعةِ مالِه وغِناهُ على امرأتِهِ البائنةِ في أجر رضاع ولده منها، وعلى ولده الصغير. «وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْه رِزْقُهُ»، يقولُ: ومَنْ ضُيِّقَ عليه رزقُه فلم يوسع عليه، فلينفقْ مما أعطاهُ الله على قَدْرِ مالِه، وما أعطى منه.

وقوله: «لايُكَلِّفُ الله نَفْساً إلَّا ما آتاها»، يقولُ: لايكلفُ الله أحداً من النفقةِ على مَنْ تلزمه نفقتُه بالقرابةِ والرَّحِمِ لا ما أعطاه، إنْ كان ذَا سعةٍ فمن سعته، وإنْ كان مقدوراً عليه رِزْقُه فَمِمَّا رزَقَهُ الله على قدرِ طاقتهِ، لايُكلف الفقير نفقة الغنيِّ، ولا أحد من خلقِهِ الا فَرْضَهُ الذي أوجبه عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِه تَعَالَى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «سَيَجْعَل الله» لِلمُقِلِّ من المالِ المقدورِ عليه رِزْقُه «بَعْدَ عُسْر يُسْراً»، يقول: من بعد شدةٍ رخاءً، ومن بعدِ ضيقٍ سَعَةً، ومن بعدِ فقرٍ غنىً.

وقوله: «وكأيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَت عَنْ أمْرِ رَبِّها وَرُسُلِهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكأيِّنْ من أهلِ قرية طغوا عن أمرِ رَبِّهم وخالفوهُ، وعن أمرِ رُسُلِ رَبِّهم، فتمادوا في طغيانهم وعُتُوِّهم، ولَجُّوا في كفرهم.

وقوله: «فَحاسَبْناها حِساباً شَديداً»، يقولُ: فحاسبناها على نِعْمَتِنا عندها وشكرها حساباً شديداً، يقولُ: حساباً استقصينا فيه عليهم، لم نَعْفُ لهم فيه عن شيءٍ، ولم نتجاوزْ فيه عنهم.

وقـوله: «وَعَذَّبْناها عَذَاباً نُكراً»، يقولُ: وعَذَّبناها عذاباً عظيماً منكراً، وذلك عذاب جهنم.

وقوله: «فَذَاقَتْ وبالَ أمْرِها»، يقولُ: فذاقتْ هذه القريةُ التي عَتَتْ عن أمرِ رَبِّها ورسله، عاقبةَ ماعملتْ وأتَتْ من معاصي الله والكفر به.

وقوله: «وكانَ عاقِبَةُ أمْرِها خُسْراً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكان الذي أعقب أمرهم، وذلك كفرهم بالله وعصيانهم إياهُ «خسراً» يعني: غَبْناً، لأنهم باعوا نعيمَ الآخرةِ بخسيسٍ من الدنيا قليلٍ، وآثروا اتّبَاعَ أهوائِهم على اتباع أمر الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَـٰتٍ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أعدَّ الله لهؤلاء القومِ الذين عَتَوْا عن أمر رَبِّهم ورسلهِ عذاباً شديداً، وذلك عذابُ النارِ الذي أعَدَّهُ لهم في القيامة «فاتَّقُوا الله ياأُولي الألبـاب»، يقـول تعـالى ذِكْرُه: فخافُوا الله، واحذروا سخطَهُ بأداءِ فرائضِهِ، واجتنابِ معاصيه ياأولى العقول.

وقوله: «وَالَّذين آمنوا»، يقولُ: الذين صَدَّقوا الله ورسله.

وقوله: «قَدْ أنْزَلَ الله إلَيْكُم ذِكْراً رَسُولاً»، اختلفَ أهلُ التأويل في المعنيِّ بالذِّكْرِ والرسولِ في هذا الموضع، فقال بعضُهم: الذِّكْرُ هو القرآنُ، والرسولُ محمدٌ ﷺ.

وقال آخرون: الذِّكْرُ: هو الرسولُ.

والصوابُ من القولِ في ذلك أنَّ الرسولَ ترجمةٌ عن الذكرِ، وذلك نصب لأنه مردودٌ عليه على البيان عنه والترجمة.

فتأويلُ الكلام إذن: قد أنزلَ اللهُ اليكم ياأولي الألبابِ ذكراً من الله لكم يُذَكِّرُكُمْ به، وينبهكم على حَظِّكم من الايمانِ بالله، والعملِ بطاعته، رسولاً يتلو عليكم آياتِ الله التي أنزلها عليه «مُبَيِّنات»، يقولُ: مبينات لِمَنْ سمعها وتَدَبَّرَهَا أنها من عندِ الله.

القَــوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قد أنزل الله إليكم أيها الناسُ ذِكْراً رسولاً، يتلو عليكم آياتِ الله مبيناتٍ، كي يُخْرِجَ الذين صَدَّقُوا الله ورسولَهُ «وَعَملُوا الصَّالِحاتِ»، يقولُ: وعملوا بما أمرهم الله به وأطاعوهُ «مِنَ الظُّلُماتِ الى النُّورِ»، يعني: من الكفرِ وهي الظلمات، «إلى النورِ»، يعني: الى الإيمان.

وقوله: «وَمَنْ يُؤْمِنْ بالله وَيَعْمَلْ صَالحاً»، يقولُ: ومَنْ يصدِّقْ بالله ويعملْ بطاعتـهِ «يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْري من تَحْتِها الأَنهارُ» يقول: يُدخله بساتين تجري من تحتِ أشجارها الأنهار «خالِدين فيها أبَداً»، يقولُ: ماكثينَ مقيمينَ في البساتينِ التي تجري من تحتها الأَنهارُ أبداً، لايموتونَ، ولا يخرجون منها أبداً.

وقوله: «قَدْ أَحْسَنَ الله لَهُ رِزقاً»، يقولُ: قد وَسَّعَ الله له في الجناتِ رزقاً، يعني بالرزق: ما رَزَقَهُ فيها من المطاعِم والمشارب، وسائر ما أَعَدَّ لأَوليائِه فيها، فَطَيَّبَهُ لهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ

الطلاق: ١٢

مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «الله الَّذي خَلَقَ سَبْعَ سَمواتٍ» لاما يعبدُهُ المشركونَ من الآلهةِ والأوثانِ التي لاتقدرُ على خَلْقِ شيءٍ.

وقوله: «وَمِنَ الأرض مِثْلَهُنَّ»، يقولُ: وخَلَقَ من الارضِ مثلهنَّ لما في كُلِّ واحدةٍ منهنَّ مثل ما في السمواتِ من الخَلْقِ.

وقوله: «يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يتنزَّلُ أمرُ الله بين السماء السابعة والأرض السابعة.

وقوله: «لِتَعْلَمُوا أنَّ الله على كُل شَيْءٍ قَديرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ينزل قضاءُ الله وأمره بين ذلك كي تعلموا أيها الناسُ كُنْهَ قُدْرَتِه وسلطانِه، وأنه لايتعذَّرُ عليه شيءٌ أرادَهُ، ولايمتنعُ عليه أمرٌ شاءه، ولكنه على مايشاءُ قدير «وأنَّ الله قَدْ أحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ علماً»، يقول جَلَّ ثناؤه: ولتعلموا أيها الناسُ ان الله بكل شيءٍ من خلقِه محيط عِلْماً، لايعزُبُ عنه مثقالُ ذرةٍ في الارض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر يقول جَلَّ ثناؤه: فخافوا أيها الناسُ المخالفونَ أمرَ رَبِّكم عقوبتَهُ، فإنه لايمنعه من عقوبتِكم مانعٌ ، وهو على ذلك قادرٌ، ومحيطٌ أيضاً بأعمالِكم، فلا يَخْفَى عليه منها خَافٍ وهو مُحْصِيها عليكم ليجازيكم بها، يوم تُجْزَى كلُّ نفسٍ ما كسبتْ.

سُورَةُ التَّحْرِيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لنبيه محمدٍ ﷺ: ياأيها النبيُّ المُحَرِّمُ على نفسهِ ما أحل اللهُ له، يبتغي بذلك مَرْضاةَ أزواجِهِ، لِمَ تُحَرِّم على نفسكَ الحلال الذي أَحَلَّهُ الله لك، تلتمس بتحريمكَ ذلك مرضاةَ أزواجك.

واختلف أهلُ العلم في الحلالِ الذي كان جَلَّ ثَنَاؤُهُ أَحَلَّهُ لرسولِه، فحرمَهُ على نفسهِ ابتغاءَ مرضاةِ أزواجه، فقال بعضهم: كان ذلك مارية مملوكته القبطية، حَرَّمها على نفسه بيمينٍ أنه لايقربها طلباً بذلك رِضاء حفصةَ بنت عمر زوجته، لأنها كانت غارتْ بأنْ خَلَا بها رسولُ الله ﷺ في يومها وفي حجرتها.

وقال آخرون: بل حَرَّمَ رسولُ الله ﷺ جاريته، فجعل اللهُ عَزَّ وجَلَّ تحريمه إياها بمنزلة اليمين، فأوجَبَ فيها من الكفارةِ مثلَ ماأوجبَ في اليمين إذا حَنثَ فيها صاحِبُها.

وقال آخرون: كان ذلك شراباً يشربُه، كان يعجبه ذلك.

والصوابُ من القولِ في ذلك أن يقال: كان الذي حَرَّمَهُ النبيُّ ﷺ على نفسه شيئاً كان الله قد أَحَلَّهُ له، وجائزٌ أنْ يكون ذلك كان جاريته، وجائزٌ أنْ

يكون كان شراباً من الاشربة، وجائزٌ أنْ يكون كان غير ذلك، غير أنه أيّ ذلك كانَ فإنه كان تحريم شيءٍ كان له حلالاً، فعاتَبَه الله على تحريمِه على نفسهِ ماكانَ له قد أحله، وبَيَّنَ له تَحِلَّةِ يمينِه في يمينٍ كان حلفَ بها مع تحريمهِ ماحَرَّمَ على نفسه.

فإن قال قائل: وما برهانُكَ على أنه ﷺ كان حلفَ مع تحريمهِ ماحرم، فقد عَلمت قول مَنْ قال لم يكن من النبيِّ ﷺ في ذلك غير التحريم، وأنَّ التحريمَ هو اليمين؟ قيل: البرهانُ على ذلك واضحٌ، وهو أنه لايُعْقَلُ في لغةٍ عربية ولا عجمية أنَّ قولَ القائل لجاريته، أو لطعامٍ أو شرابٍ، هذا عليَّ حرامٌ يمين، فإذا كان ذلك غير معقولٍ، فمعلومٌ أنَّ اليمينَ غير قول القائل للشيء الحلال له: هو عليَّ حرام: وإذا كان ذلك كذلك صَحَّ ماقلنا، وفَسَدَ ماخالفه. وبَعْدُ، فجائزٌ أنْ يكون تحريم النبيِّ ﷺ ماحَرَّمَ على نفسهِ من الحلالِ الذي كان الله تعالى ذِكْرُه، أحَلَّهُ له بيمين، فيكون قوله: «لِمَ تُحَرِّمُ ما أحَلَّ الله»، معناه: لِمَ تحلف على الشيء الذي قد أحَلَّهُ الله أنْ لاتقربه، فتحرّمه على نفسكَ باليمين.

وإنما قلنا: إنَّ النبيَّ ﷺ حَرَّمَ ذلك، وحلفَ مع تحريمه، كما حدثني الحسن بن قزعة، قال: حدثنا مسلمةُ بن علقمة، عن داود بن أبي هند، عن الشعبيّ، عن مسروق، عن عائشة قالت: آلى رسولُ الله ﷺ وحَرَّمَ، فأُمِرَ في الإيلاء بكفارة، وقيل له في التحريم: «لِمَ تُحَرِّمُ ما أحَلَّ الله لَكَ[1]».

وقوله: «والله غَفورٌ رَحِيمٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والله غفورٌ يامحمدُ لذنوبِ

---

(١) هذا حديث ضعيف. أخرجه الترمذي (١٢٢١) وقال: حديث مسلمة بن علقمة عن داود، رواه علي بن مسهر وغيره، عن داود، عن الشعبي: أن النبي ﷺ، مرسلاً...وهذا أصح من حديث مسلمة بن علقمة. وانظر الارواء للعلامة الألباني (٢٥٧٤).

التائبينَ من عبادِه من ذنوبهم، وقد غفرَ لك تحريمك على نفسِكَ ماأحَلَّهُ الله لكَ، رحيمٌ بعبادِه أنْ يعاقبهم على ماقد تابوا منه من الذنوب بعد التوبة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قد بَيَّنَ الله عَزَّ وجَلَّ لكم تحلَّةَ أيمانِكم، وحَدَّها لكم أيهـا النـاسُ «وَاللهُ مَوْلاكُمْ»، يتـولاَّكُمْ بنصـرِهِ أيهـا المؤمنـون «وَهُـو العَلِيم» بمصالحكم «الحَكِيمُ» في تدبيرِه إياكم، وصَرْفِكم فيما هو أعلم به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ» محمد ﷺ «إلى بَعْضِ أزْوَاجِهِ»، وهو في قول ابن عباس وقتادة وزيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن بن زيد والشعبي والضّحاك بن مزاحم: حفَصْةُ.

وقوله: «حَديثاً» والحديث الذي أَسَرَّ إليها في قولِ هؤلاءِ هو قولهُ لمن أسر إليه ذلكَ من أزواجِه تحريمُ فتاته، أو ماحَرَّمَ على نفسِه مما كان الله جَلَّ ثَناؤُهُ قد أحَلَّهُ له، وحلفه على ذلك، وقوله: «لاتَذْكُري ذَلِكَ لأحد»[1]

وقوله: «فلَمَا نَبَّأتْ به»، يقول تعالى ذِكْرُه: فلما أخبرتْ بالحديثِ الذي أسرَّ اليها رسولُ الله ﷺ صاحِبَتَها «وأظْهَرَهُ الله عَلَيْه»، يقولُ: وأظهر الله نبيه

---

(١) هي عائشة رضي الله عنها، كما سيأتي بيانه بعد.

محمداً ﷺ على أنها قد أنبأت بذلك صاحبتها.

وقوله: «عَرَّفَ بَعْضَهُ وأعْرَضَ عَنْ بَعْض»، يعني: عَرَّفَ النبي ﷺ حفصةَ بعضَ ذلك.

وقوله: «وأعْرَضَ عنْ بَعْض»، يقولُ: وترك أن يخبرها ببعضٍ.

وقوله: «فَلَمّا نَبَّأهَا بِهِ»، يقولُ: فلما خبر حفصةَ نبيُّ الله ﷺ بما أظهره الله عليه من إفشائها سِرَّ رسولِ الله ﷺ الى عائشة «قالت: مَنْ أنْبأكَ هَذَا؟»، يقولُ: قالت حفصة لرسولِ الله: من أنبأك هذا الخبرَ وأخبرك به «قال نَبَّأنيَ العَلِيمُ الخَبيرُ»، يقـول تعالى ذِكْرُه: قال محمد نبيُّ الله لحفصةَ: خَبَّرني به العليمُ بسرائرِ عبادِهِ، وضمائرِ قلوبِهم، الخبيرُ بأمورِهم، الذي لايَخْفَى عنه شيء.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَـٰهَرَا عَلَيْـهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَـٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَـٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنْ تَتُوبا الى الله أيتها المرأتان فقد مالَت قلوبُكما الى محبةِ ماكَرِهَهُ رسولُ الله ﷺ من اجتنابه جاريتَهُ، وتحريمها على نفسِه، أو تحريم ما كان له حلالاً مما حَرَّمَه على نفسِه بسببِ حفصة.

وقوله: «وإنْ تَظاهَرَا عَلَيْهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه للتي أَسَرَّ اليها رسولُ الله ﷺ حديثَهُ، والتي أفشتْ إليها حديثَهُ، وهما عائشة وحفصة رضي الله عنهما.

وقوله: «فـإنَّ الله هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْـريلُ،وَصَـالِـحُ المُؤْمِنِينَ»، يقـولُ: فإنَّ الله هو وَلِيُّهُ وناصرهُ، «وصالح المؤمنين»، وخيارُ المؤمنين أيضاً مولاه وناصره.

وقوله: «وَالمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلك ظَهيرٌ»، يقولُ: والملائكةُ مع جبريلَ وصالح المؤمنينَ لرسولِ الله ﷺ أعوانٌ على مَنْ آذاه، وأرادَ مَسَاءَتَهُ. والظهيرُ في هذا الموضع بلفظ واحدٍ في معنى جمع ولو أخرج بلفظِ الجميع لقيل: والملائكةُ بعد ذلك ظُهَرَاء.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: عسى ربُّ محمدٍ إنْ طلقكنَّ يامعشر أزواجِ محمدٍ ﷺ أنْ يُبْدِلَهُ منكن أزواجاً خيراً منكن.

وقيل: إنَّ هذه الآية نزلتْ على رسولِ الله ﷺ تحذيراً من الله نساءه لما اجتمعن عليه في الغيرة.

وقـولـه: «مُسْلِمـاتٍ» يقولُ: خاضعاتٍ لله بالطاعة «مُؤْمِناتٍ»، يعني: مصدّقاتٍ بالله ورسوله.

وقوله: «قانِتاتٍ»، يقولُ: مطيعاتٍ لله.

وقوله: «تائباتٍ» يقولُ: راجعاتٍ الى مايحبه اللهُ منهن من طاعتِه عما يكرهه منهنَّ. «عابِداتٍ»، يقولُ: متذللاتٍ لله بطاعته.

وقوله: «سائحاتٍ»، يقولُ: صائماتٍ.

وقوله: «ثَيباتٍ» وهُنَّ اللواتي فد افْتُرِعْنَ وذهبتْ عذرتهنَّ «وأبكاراً» وهُنّ اللواتي لم يُجَامَعْنَ، ولم يُفْتَرَعْنَ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ

نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يا أيها الذين صَدَّقُوا الله ورسولَهُ «قُوا أَنْفُسَكُمْ» يقولُ: عَلِّمُوا بعضَكم بعضاً ما تَقُونَ به مَنْ تعلمونه النارَ، وتَدْفَعُونَها عنه إذا عمل به من طاعةِ الله، واعملوا بطاعة الله

وقوله: «وأَهْلِيكُم ناراً»، يقولُ: وعَلِّموا أهليكم من العملِ بطاعةِ الله ما يَقُونَ به أنفُسَهم من النارِ.

وقوله: «وقودُها النَّاس» يقولُ: حَطَبُهَا الذي يُوقَدُ على هذه النارِ بنو آدم وحجارة الكبريت.

وقوله: «عَلَيْها ملائِكة غِلاظٌ شِدَادٌ»، يقولُ: على هذهِ النارِ ملائكةٌ من ملائكة الله، غِلَاظٌ على أهلِ النار، شِدَادٌ عليهم «لايَعْصُونَ الله ماأَمَرَهُمْ»، يقولُ: لايخالفونَ الله في أمره الذي يأمرهم به «وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ»، يقولُ: وينتهون الى مايأمرهم به رَبُّهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِه يومَ القيامة للذين جَحَدُوا وحدانيتَهُ في الدنيا «يا أَيُّها الَّذين كَفَروا» الله «لاتَعْتَذروا اليَوْمَ إِنَّما تُجزْونَ ماكُنْتُم تَعْمَلُون»، يقولُ: يُقالُ لهم: إنما تُثَابُونَ اليومَ، وذلك يوم القيامة، وتعطونَ جزاء أعمالكم التي كنتم في الدنيا تعملون، فلا تطلبوا المعاذيرَ منها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٨﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: يا أيها الذين صَدَّقُوا الله «تُوبُوا الى الله»، يقولُ: ارجعوا من ذنوبكم الى طاعةِ الله، وإلى مايُرضِيه عنكم «تَوْبَةً نَصُوحاً»، يقولُ: رجوعاً لاتعودون فيها أبداً.

وقوله: «عَسَى رَبُّكُم أنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ»، يقولُ: عسى ربكم أيها المؤمنون أنْ يمحو سيئاتِ أعمالكم التي سَلَفَتْ منكم «وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِهـا الأَنهارُ»، يقولُ: وأنْ يُدْخِلَكُم بساتينَ تجري من تحت أشجارها الانهار «يَوْمَ لايُخْزي الله النَّبِيَّ»، محمداً ﷺ «وَالذينَ آمَنوا مَعَهُ، نُورُهُمْ يَسْعَى بَينَ أيْدِيهم»، يقولُ: يسعى نورُهم أمامهم «وبأيمانِهِمْ»، يقولُ: وبأيمانِهم كتابُهم.

«يقولُونَ رَبَّنا أتْمِمْ لَنا نُورَنا، واغْفِرْلَنا»، يقول جَلَّ ثناؤه: مخبراً عن قيل المؤمنينَ يوم القيامة: يقولون: رَبَّنا أتمم لنا نورَنَا، يسألون رَبَّهم أنْ يُبقي لهم نورَهُمْ، فلا يطفئـه حتى يجـوزوا الصراطَ، وذلـك حين يقـولُ المنـافقـونَ والمنافقاتُ للذين آمنوا «انْظُرُونا نَقْتَبِس مِنْ نُورِكُمْ» [الحديد: ١٣].

وقوله: «واغْفِرْلَنا»، يقولُ: واستُرْ علينا ذنوبَنا، ولا تَفْضَحنا بها بعقوبتكَ إيانـا عليهـا «إنَّكَ على كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ»، يقولُ: إنك على إتمامِ نورنا لنا، وغفرانِ ذنوبنا، وغيرِ ذلك من الاشياء ذُو قدرةٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ «ياأيها النَّبِيُّ جاهِد الكُفَّارَ» بالسيفِ «وَالمُنافِقينَ» بالوعيدِ واللسانِ.

«وَاغْلُظْ عَليهِمْ»، يقولُ: واشْدُدْ عليهم في ذاتِ الله «وَمأواهُمْ جَهَنَّمُ»، يقــولُ: ومُكْثُهم جهنمُ، ومصيرُهم الــذي يصيرونَ إليه نارُ جهنمَ. «وَبِئْسَ المَصيرُ»، قال: وبِئْسَ الموضعُ الذي يصيرونَ إليه جهنمُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مَثَّلَ الله مثلاً للذين كفروا من الناسِ وسائرِ الخَلْقِ امرأةَ نوحٍ وامرأةَ لوطٍ، كانتا تحتَ عَبْدَيْنِ من عبادنا، وهما نوح ولوط فخانَتَاهُما.

ذُكِرَ أنَّ خيانَةَ امرأةِ نوح زوجَها أنها كانت كافرة، وكانت تقولُ للناس: إنه مجنونٌ. وأنَّ خيانةَ امرأةِ لوطٍ، أنَّ لوطاً كان يُسِرُّ الضيفَ[1]، وتَدُلُّ عليه.

وقوله: «فَلم يُغْنِيَا عَنْهُما مَن الله شَيئاً»، يقولُ: فلم يُغْنِ نوحٌ ولوطٌ عن امرأتَيْهِمَا من الله لَمَّا عَاقَبَهُمَا على خيانَتِهما أزواجَهما شيئاً، ولم يَنْفَعْهُمَا أنْ كانت أزواجُهما أنبياءَ.

---

(١) كانت امراة لوط إذا ضافَ لوطا أحدٌ أخبرتْ به أهل المدينة ممن يعملُ السوء. ويُسِرُّ: بمعنى يخفي.

وقوله: «وَقِيل ادخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلينَ»، قال الله لهما يوم القيامةِ: ادخلا أيتها المرأتان نارَ جهنمَ مع الداخلين فيها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وضربَ الله مثلاً للذين صَدَّقُوا الله ووحَّدُوه، امرأةَ فرعونَ التي آمنت بالله ووحَّدَتْهُ، وصدَّقَتْ رسولَهُ موسى، وهي تحت عدوٍّ من أعداءِ الله كافر، فلم يضرّها كُفْرُ زوجِهَا، إذْ كانت مؤمنة بالله، وكان من قضاءِ الله في خَلْقِه أنْ لاتزرَ وازرةٌ وزر أُخرى، وأنَّ لكل نفس ماكسبتْ، إذ قالتْ «رَبِّ ابْنِ لي عَنْدكَ بَيْتاً في الجْنَّةِ»، فاستجاب الله لها فبنى لها بيتاً في الجنة.

وقوله: «ونجِّني من فِرْعَوْنَ وَعَملِهِ»، وتقول: وأنقذني من عذابِ فرعونَ، ومن أنْ أعملَ عَمَلَهُ، وذلك كفره بالله.

وقـولـه: «وَنجِّنِي مِنْ القَوْمِ الظَّالمين»، تقول: وأَخْلِصْني وأنقذني من عملِ القومِ الكافرينَ بك، ومن عذابهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَضَرَبَ الله مَثَلاً للَّذِينَ آمنوا»، مَرْيَمَ ابْنَة عِمْرَانَ الَّتي أَحْصَنَتْ فَرْجَها، يقولُ: التي منعت جَيْبَ درعها جبريلَ عليه السلام، وكلُّ

ماكان في الدرعِ من خَرْقٍ أو فَتْقٍ، فإنه يُسمى فَرْجاً، وكذلك كُلُّ صدعٍ وشقٍّ في حائطٍ، أو فرجِ سقفٍ فهو فَرْجٌ.

وقوله: «فَنَفَخْنا فِيه مِنْ رُوحِنا»، يقولُ: فنفخنا فيه في جيبِ درعها، وذلك فرجها، من رُوحِنَا من جبرئيلَ، وهو الروحُ.

«وَصَدَّقَتْ بِكَلِماتِ رَبِّها»، يقولُ: آمنت بعيسى، وهو كلمةُ الله «وكتبِهِ»، يعني: التوراةَ والإنجيلَ. «وكانتْ مِنَ القانِتِينَ»، يقولُ: وكانت من القوم المُطيعينَ.

سُورَةُ المُلْك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾

يعني بقوله تعالى ذِكْرُه: «تبارَكَ»: تَعَاظَمَ وتَعَالى «الَّذي بِيَدِهِ المُلْكُ» بيده مُلكُ الدنيا والآخرة وسُلطانُهما، نافذٌ فيهما أَمْرُهُ وقضاؤه. «وَهُوَ على كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»، يقولُ: وهو على مايشاءُ فِعْلَهُ ذُو قدرةٍ لايمنعهُ من فعله مانعٌ، ولايحولُ بينه وبينه عجزٌ.

وقوله: «الَّذي خَلَقَ المَوْتَ والْحَياةَ» فأماتَ مَنْ شاء وما شاء، وأحيا مَنْ أرادَ وما أرادَ الى أجلٍ معلومٍ «لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً»، يقولُ: ليختبركُمْ فينظر أَيُّكُمْ له أيها الناسُ أطوع، وإلى طلبِ رضاهُ أسرع.

وقـوله: «وَهوَ العَزيزُ»، يقولُ: وهو القويُّ الشديدُ انتقامُه مِمَّنْ عَصَاهُ، وخالفَ أمره «الغَفُورُ» ذنوبَ مَنْ أنابَ اليه وتابَ من ذنوبه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن صفته:«الذّي خَلَقَ سَبْعَ سَمَواتٍ طباقاً» طبقاً فوقَ طبقٍ، بعضُهما فوق بعض.

وقوله: «ماتَرى في خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفاوُتٍ»، يقول جَلَّ ثناؤه: ما تَرى في خَلْقِ الرحمنِ الذي خلق لافي سماءٍ ولا في أرضٍ، ولا في غيرِ ذلك من تفاوتٍ، يعني: من اختلاف.

وقوله: «فارْجِعِ البَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ»، يقولُ: فَرُدَّ البصَر، هل تَرَى فيه من صُدوع؟ وهي من قولِ الله «تَكـادُ السَّمــوات يَتَفَـطَّرْنَ مِن فَوْقِهِن» [الشورى: ٥] بمعنى: يتشققن ويتصدعْنَ والفطور: مصدر فُطِر فُطوراً.

وقوله: «ثُمَّ ارْجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْن»، يقول جَلَّ ثناؤه: ثم رُدَّ البصرَ ياابن آدم كَرَّتين، مرّةً بعدَ أُخرى، فانظر «هَلْ ترى مِنْ فُطورٍ» أو تفاوتٍ «يَنْقَلِبْ إلَيْكَ البَصَـرُ خاسئاً»، يقـول: يرجع إليك بَصَرُكَ صاغراً مُبْعَداً من قولهم للكلب اخسأ: إذا طَرَدُوه أي: ابعدْ صاغراً. «وَهوَ حَسيرٌ»، يقولُ: وهو مُعْيٍ كال.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: «وَلَقَدْ زَيَّنا السَّماء الدُّنْيا بِمَصَابِيحَ» وهي النجوم، وجعلها مصابيح لإضاءتها وكذلك الصبحُ إنما قيلَ له صبحٌ للضوءِ الذي يضيء للناس من النهار «وَجَعلناها رُجُوماً للشَّياطِين»، يقولُ: وجعلنا المصابيح التي زينَّا بها السماء الدنيا رُجوماً للشياطين تُرْجَمُ بها.

وقوله: «وأعْتَدنا لَهُمْ عَذَابَ السَّعير»، يقول جَلَّ ثناؤه: وأعتدنا للشياطين في الآخرة عذابَ السعيرِ، تُسْعَرُ عليهم فتُسْجَر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝٦ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَلِلَّذينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ» الذي خَلَقَهم في الدنيا «عَذَابَ جَهَنَّمَ»، في الاخرة «وَبِئْسَ المَصير»، يقولُ: وبئس المصيرُ عذابُ جهنمَ.

وقوله: «إذَا أُلْقُوا فيها»، يعني إذا أُلقي الكافرون في جهنمَ «سَمِعُوا لها» يعني: لجهنمَ «شَهيقاً»، يعني بالشهيق: الصوت الذي يخرجُ من الجوفِ بشدّةٍ كصوتِ الحمار.

وقوله: «وَهي تَفُورُ» يقول: تَغْلي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۝٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «تَكادُ» جهنم «تَميَّزُ»، يقولُ: تَتَفَرَّقُ وتتقطَّعُ «مِنَ الغَيْظِ» على أهلِها.

وقوله: «كُلَّما أُلْقيَ فيها فَوْجٌ سألَهُمْ»، يقول جَلَّ ثناؤه: كلما أُلقي في جهنمَ جماعةٌ سألهم «خزَنَتُها: أَلَمْ يأتِكُمْ نَذيرٌ»، يقولُ: سأل الفوج خَزَنَةَ جهنم، فقالوا لهم: ألم يأتكم في الدنيا نذير يُنْذِرُكم هذا العذاب الذي أنتم فيه؟ فأجابهم المساكين: «فقالوا بَلى قَدْ جاءَنا نَذيرٌ»، ينذرنا هذا، «فَكَذَّبْنا» ه «وَقُلنا» له «مانَزَّلَ الله مِنْ شيءٍ إنْ أَنْتُمْ إلاّ في ضَلالٍ كَبيرٍ»، يقولُ: في ذهابٍ عن الحق بعيد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقال الفوجُ الذي أُلقي في النار للخزنة «لَوْ كُنَّا» في الدنيا «نَسْمَعُ أَوْ نَعقِلُ» من النذر ماجاؤونا به من النصيحة، أو نعقل عنهم ماكانوا يَدْعُونَنَا إليه «ماكُنَّا» اليومَ «في أصحابِ السَّعير»، يعني: أهل النار.

وقوله: «فاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهم»، يقولُ: فأقَرُّوا بذنبهم ووحَّدَ الذَّنْبَ، وقد أُضيفَ الى الجمعِ، لأنَّ فيه معنى فعل، فأدى الواحدُ عن الجمع، كما يقال: خَرَجَ عطاءُ الناس، وأُعطيةُ الناس. «فَسُحقاً لأصحاب السَّعيرِ»، يقولُ: فُبعداً لأهلِ النار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين يخافون رَبَّهم بالغيب: يقولُ: وهُمْ لم يَرَوْهُ «لَهُمْ مَغْفِرَةٌ»، يقولُ: لهم عفوٌ من الله عن ذنوبهم. «وأجْرٌ كَبيرٌ»، يقولُ: وثوابٌ من الله لهم على خشيتهم إياه بالغيب جزيلٌ.

وقوله: «وأسِرُّوا قَوْلَكُمْ أو اجْهَرُوا بهِ»، يقول جَلَّ ثناؤه: وأَخْفُوا قولَكُمْ وكلامَكُمْ أيها الناسُ أو أعلنوه وأظْهِرُوه «إنَّهُ عَليمٌ بذَاتِ الصُّدور» يقولُ: إنه ذُو علم بضمائر الصدور التي لم يُتَكَلَّم بها، فكيف بما نطق به وتكلم به، أخفى ذلكَ أو أعْلَنَ، لأنَّ مَنْ لم تَخْفَ عليه ضمائر الصدورِ فغيرُهَا أحرى أنْ لايَخْفَى عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «ألا يَعْلَمُ» الربُّ جَلَّ ثَنَاؤُهُ «مَنْ خَلَقَ» من خَلْقِهِ، يقولُ: كيف يَخْفَى عليه خَلْقُه الذي خَلَقَ «وَهُوَ اللَّطِيفُ» بعبادِه «الخَبِيرُ» بهم وبأعمالهم.

وقوله: «هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: الله الذي جعلَ لكم الارض ذَلُولاً سهلاً، سَهَّلها لكم «فامْشوا في مَناكبها»، يقول: فامشوا في نواحيها وجوانبها.

وقوله: «وكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ» يقولُ: وكلوا من رزقِ الله الذي أخرجه لكم من مناكب الارضِ، «وإلَيْهِ النُّشورُ» يقول تعالى ذِكْرُه: وإلى اللهِ نَشْرُكُمْ من قبورِكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «أَأَمِنْتُمْ مَنْ في السَّماءِ» أيها الكافرون «أنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأرض فإذَا هي تَمُورُ»، يقولُ: فإذا الارض تذهب بكم وتجيء وتضطرب «أمْ أمِنْتُمْ مَنْ في السماء» وهو الله «أنْ يُرْسِل علَيْكُمْ حاصباً»، وهو الترابُ فيه الحَصْبَاءُ الصِّغَارُ «فَستَعْلَمونَ كَيْف نَذِيرِ»، يقولُ: فستعلمون أيها الكَفَرَةُ كيف عاقبة نذيري لكم، إذ كذبتم به، ورَدَدْتُموه على رسولي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ١٨ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد كذَبَ الذين من قبل هؤلاء المشركين من قريش من الأمم الخالية رُسُلَهُمْ، «فكيف كانَ نَكيرِ»، يقولُ: فكيف كان نكيري تكذيبَهُمْ إياهم. «أوَ لمْ يَرَوا الى الطَّير فَوْقَهُمْ صافات»، يقولُ: أو لم يَرَ هؤلاء المشركون الى الطير فوقهم صافات أجنحتَهُنّ «ويَقْبِضْنَ»، يقولُ: ويقبضن أجنحتهن أحياناً، وإنما عُني بذلك أنها تَصُفُّ أجنحتها أحياناً، وتقبضُ أحياناً.

وقوله: «ما يُمْسِكُهُنَّ إلا الرَّحمنُ»، يقولُ: مايمسك الطيرَ الصافاتِ فوقَكُمْ إلا الرحمنُ: يقولُ: فلهم بذلك مُذَكِّرٌ إنْ ذكروا، ومُعْتَبَرٌ إنْ اعتبروا، يعلمون به أنَّ رَبَّهم واحدٌ لاشريك له «إنَّهُ بِكُلِّ شَيءٍ بَصِيرٌ»، يقولُ: إنَّ الله بكل شيء ذو بصر وخبرة، لايدخل تدبيره خلل، ولا يرى في خلقه تفاوت.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ٢٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمشركينَ به من قريش: مَنْ هذا الذي هو جُنْدٌ لكم أيها الكافرون به، ينصركم من دونِ الرحمن إنْ أرادَ بكم سوءً، فيدفعُ عنكم ما أراد بكم من ذلك «إنِ الكافرونَ إلاَّ في غُرُور»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما الكافرون بالله إلا في غرورٍ من ظَنِّهم أنَّ آلهتهم تُقَرِّبُهم الى الله زُلْفى، وأنها تنفعُ أو تضرُّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ بَل

لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أَمْ مَنْ هذا الذي يُطْعِمُكم ويَسْقِيكم، ويأتي بأقواتِكم إنْ أمسكَ ربكم رزقه، الذي يرزقكم، عنكم.

وقوله: «بَلْ لَجُّوا في عُتُوٍّ ونُفُورٍ»، يقولُ: بل تَمادوا في طغيانٍ ونُفُورٍ عن الحقِّ واستكبارٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «أفَمَنْ يَمْشي» أيها الناسُ «مُكِباً عَلى وَجْهِهِ» لايبصرُ ما بين يديه، وما عَنْ يمينهِ وشمالهِ «أهْدَى»: أشدُّ استقامةً على الطريق، وأهْدى له، «أمْ مَنْ يَمْشي سَوياً» مَشْيَ بني آدمَ على قَدَميهِ «على صِراطٍ مُسْتَقيمٍ»، يقولُ: على طَريقٍ لا اعوجاجَ فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قُلْ يا محمدُ، للذين يكذِّبونَ بالبعثِ من المشركينَ: الله الـذي أنشـأكم فخلقَكُمْ، «وجَعَلَ لَكُم السَّمْعَ» تسمعونَ به، «والأبصار» تُبْصِرُونَ بها «والأفئدَةَ» تَعْقِلُونَ بها «قَليلاً ماتَشْكُرُونَ»، يقولُ: قليلاً ماتشكرون ربَّكم على هذه النِّعم التي أنعمها عليكم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٥﴾ ۝٢٤

يقول تعالى ذِكْرُه: لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ، الله «الذي ذَرأَكُمْ في الأرضِ»، يقولُ: الله الذي خلقكم في الأرضِ «وإلَيْهِ تُحْشَرُونَ»، يقولُ: وإلى الله تُحشرونَ، فَتُجمَعُونَ من قُبوركم لموقِفِ الحساب. «وَيَقُولُونَ مَتى هَذَا الوَعْدُ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِين»، يقول جَلَّ ثناؤُه: ويقولُ: المشركون متى يكون ماتِعدُنَا من الحشرِ الى الله إنْ كنتم صادقينَ في وَعْدِكم إيانا ماتَعِدُونَنَا.

القَوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢٦ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ۝٢٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ، لهؤلاء المُسْتَعْجِلِيكَ بالعذابِ وقيامِ الساعة: إنما عِلْمُ الساعة، ومتى تقومُ القيامة عندَ الله لايعلمُ ذلك غيرهُ، «وإنَّما أنا نَذِير مُبين»، يقولُ: وما أنا إلا نذيرٌ لكم أنذركُم عذابَ الله على كُفْرِكم به «مُبينٌ»: قد أبانَ لكم إنذاره.

وقوله: «فَلَمَّا رأوْهُ زُلْفَة سِيئَتْ وُجوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا»، يقول تعالى ذِكْرُه: فلما رأى هؤلاء المشركونَ عذابَ الله زلفةً: يقولُ: قريباً، وعايَنُوهُ، سِيئَتْ وجوهُ الذين كفروا: يقولُ: ساءَ اللهُ بذلك وجوهَ الكافرينَ.

«وَقِيلَ هَذَا الذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ»، يقولُ: وقال الله لهم: هذا العذابُ الذي كنتم به تُذَكِّرونَ رَبَّكم أنْ يُعَجِّلَهُ لكم.

القَوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِه تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا

﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ» يا محمدُ، للمشركين من قومكَ «أرأيتمْ» أيها الناسُ «إنْ أهْلَكَنِي اللهُ» فأماتني «وَمَنْ مَعي، أو رحِمَنا» فأخَّرَ في آجالنا «فَمَنْ يُجيرُ الكافِرينَ» بالله «مِنْ عَذابٍ» مُوجعٍ مُؤْلِمٍ، وذلك عذابُ النار. يقولُ: ليس يُنْجي الكفارَ من عذابِ الله موتُنا وحياتنا، فلا حاجةَ بكم الى أنْ تستعجلوا قيامَ الساعةِ، ونزولَ العذابِ، فإنَّ ذلك غير نافِعِكُمْ، بل ذلك بلاءٌ عليكم عظيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ، رَبُّنا «الرَّحْمَن آمَنَّا بِهِ»، يقولُ: صَدَّقْنا به، «وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنا»، يقولُ: وعليه اعتمدنا في أمورنا، وبه وَثِقْنا فيها «فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ»، يقولُ: فستعلمونَ أيها المشركون بالله الذي هو في ذهابٍ عن الحق، والذي هو على غيرِ طريقٍ مستقيمٍ مِنَّا ومنكم إذا صِرْنَا إليه، وحُشِرْنا جميعاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ۝٣٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ» يا محمدُ، لهؤلاء المشركين «أرأيْتُمْ» أيها القوم العادلون بالله «إنْ أصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً»، يقولُ: غائراً لاتنالُه الدِّلاءُ «فَمَنْ يأتيكُمْ بمَاءٍ مَعِينٍ»، يقولُ: فمن يجيئكم بماءٍ مَعينٍ، يعني بالمعين: الذي تراهُ العيون ظاهراً.

سُورَةُ القَلَمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «نٓ» وقد ذكرنا القول فيما جانس ذلك من حروفِ الهجاء التي افتتحت بها أوائل السور، والقول في قوله نظير القول في ذلك[1].

وأما القلم: فهو القلمُ المعروفُ، غير أنَّ الذي أقسمَ به رَبُّنا من الأَقلام: القلم الذي خَلَقَهُ الله تعالى ذِكْرُه، فأمرَهُ فجرى بكتابة جميع ماهو كائن الى يوم القيامة[2].

وقولـه: «وَمـا يَسْطُرُون»، يقولُ: والذي يخطُّونَ ويكتبونَ: وإذا وُجِّهَ التأويلُ الى هذا الوجهِ كان القَسَمُ بالخَلْقِ وأفعالهم. وقد يحتمل الكلامُ معنى آخر، وهو أنْ يكون معناه: وسَطْرهم مايسطرونَ، فتكونُ «ما» بمعنى المصدر.

---

(١) انظر اول تفسير سورة البقرة.

(٢) فَضَّل ابن كثير القول بأنه القلمُ الذي يكتبُ به الناس، كقوله تعالى ﴿اقرأ وربك الأكرم الذي عَلَّم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم﴾ فهو قسم منه تعالى وتنبيه لخلقه على ماأنعم به عليهم من تعليم الكتابة التي بها تنال العلوم، ولهذا قال: ﴿ومايسطرون﴾.

وإذا وُجِّه التأويلُ الى هذا الوجه، كان القسمُ بالكتابِ، كأنه قيل: نٓ والقلمِ والكتابِ.

وقوله: «ماأنْتَ بنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُون»، يقول تعالى ذِكْرُه: لنبيه محمدٍ ﷺ: ما أنت بنعمةِ رَبِّك بمجنونٍ، مكذِّباً بذلك مشركي قريش الذين قالوا له: إنك مجنون.

وقوله: «وَإنَّ لكَ لأَجْراً غَيْر مَمْنُون»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإنَّ لك يامحمد لثواباً من الله عظيماً على صَبْرِكَ على أذى المشركين إياك غيرَ منقوصٍ ولا مقطوعٍ من قولهم: حبل مُنين[٢]، إذا كان ضعيفاً، وقد ضَعُفَتْ مُنَّته: إذا ضَعُفَتْ قُوَّتُه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لنبيه محمدٍ ﷺ: وإنك يا محمدُ، لعلى أدبٍ عظيمٍ، وذلك أدبُ القرآنِ الذي أدَّبَهُ الله به، وهو الإسلامُ وشرائِعُه.

وقوله: «فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ بأيِّكُم المُفْتُون»، يقول تعالى ذِكْرُه: فَسَتَرى يا محمدُ، ويرى مشركوُ قومك الذين يَدْعُونَكَ مجنوناً «بأيِّكُم المَفْتُونَ»، يقول: بأيكم الجنون.

وقوله: «إنَّ رَبَّك هُوَ أعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبيلِه»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ

---

(٢) في المطبوع «منير» خطأ، وانظر معاني القرآن للفراء: ٣/١٧٣.

رَبَّكَ يا محمدُ، هو أعلمُ بمن ضلَّ عن سبيله، كضلالِ كفارِ قريشٍ عن دينِ الله، وطريقِ الهدى. «وَهُوَ أَعْلَمُ بالمُهْتَدينَ»، يقول: وهو أعلمُ بمن اهتدى، فاتَّبع الحقَّ وأقرَّ به، كما اهتديتَ أنت فاتبعتَ الحقَّ.

وهـذا من معـاريضِ الكلام، وإنما معنى الكلام: إنَّ رَبَّكَ هو أعلمُ يامحمد بك، وأنت المهتدي وبقومكَ من كفارِ قريشٍ وأنهم الضَّالُّونَ عن سبيل الحقِّ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «فَلا تُطِعْ» يا محمدُ، «المُكَذِّبِينَ» بآيات الله ورسـولِه «وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ»، يقولُ: ودَّ هؤلاء المشركون يا محمدُ، لو تلينُ لهم في دينك بإجابتكَ إياهم الى الرُّكُونِ الى آلهتهم، فَيلِينُونَ لكَ في عبادتِكَ إلَهَكَ، كما يقول جَلَّ ثناؤُه: «وَلَوْلا أنْ ثَبَّتْناكَ لَقد كِدْتَ تَرْكَنُ إلـيهـم شيئـاً قليلاً، إذاً لأذَقْنـاكَ ضِعْـفَ الـحيـاةِ وضعـف الـمَمَـاتِ» [الاسراء: ٧٤ ـ ٧٥]. وإنما هو مأخوذ من الدُّهن، شَبَّهَ التليينَ في القولِ بتليين الدُّهن.

وقوله: «وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ»، ولا تطع يا محمدُ، كل ذي إكثارٍ للحلف بالباطِل «مَهين»، وهو الضعيف.

وقوله: «هَمَّازٍ»، يعني: مغتابٍ للناسِ يأكلُ لحومَهم.

وقوله: «مَشَّاءٍ بنَميمٍ»، يقولُ: مشاء بحديثِ الناسِ بعضهم في بعضٍ، ينقلُ حديثَ بعضهم الى بعضٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾

وقوله: «مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ» يقول تعالى ذِكْرُه: بخيلٍ بالمالِ ضنين به عن الحقوق.

وقوله: «مُعْتَدٍ»، يقولُ: مُعْتَدٍ على الناس «أثيمٍ» ذي إثمٍ بربه.

وقوله: «عُتُلٍّ»، يقولُ: وهو عتل، والعتلُّ: الجافي الشديد في كفرِه، وكلُّ شديدٍ قوي، فالعربُ تسميه عُتُلاً.

وقوله: «زَنيم»، والزنيمُ في كلام العرب: المُلْصَقُ بالقومِ وليس منهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾

يعني جَلَّ ثَناؤُهُ: ولا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهين «أنْ كانَ ذا مال وبنين» كأنه نَهاهُ أنْ يطيعهُ من أجلِ أنه ذُو مالٍ وبَنين.

وقوله: «إذَا تُتلى عَلَيه آياتنا قال أساطير الأَوَّلينَ»، يقولُ: إذ تُقرأ عليه آياتُ كتابِنَا، قال: هذا مما كتبه الأَوَّلونَ استهزاءً به وإنكاراً منه أنْ يكون ذلك من عند الله.

وقوله: «سَنَسمهُ على الخُرْطُومِ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم، معناه: سنخطمُهُ بالسيفِ. فنجعل ذلك علامةً باقيةً، وسِمَةً ثابتةً فيه ماعاشَ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: سَنَشِينُه شيناً باقياً.

وقال آخرون: سِيمَا على أنفِهِ.

وأولى القولين بالصواب في تأويل ذلك عندي قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: سَنُبَيِّنُ أمرَهُ بياناً واضحاً حتى يعرفوهُ، فلا يَخْفَى عليهم، كما لاتخفى السمةُ على الخرطومِ، وقال قتادة: معنى ذلك: شَيْنٌ لايفارقُه آخر ماعليه، وقد يحتمل أيضاً أنْ يكون خَطْمٌ بالسيف، فجمع له مع بيانِ عيوبِه للناسِ الخطمَ بالسيف.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «إِنَّا بَلَوْناهُمْ»: اي بَلَوْنَا مشركي قريش، يقولُ: امْتَحَنَّاهُمْ فاختبرناهم، «كَما بَلونا أصحَابَ الجَنَّةِ»، يقولُ: كما امتحنا أصحابَ البستانِ «إِذْ أقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّها مُصْبِحِينَ»، يقولُ: إذْ حَلَفُوا ليصرمُنَّ ثمرَهَا إذا أصبحوا، «وَلا يَستَثنون»، ولا يقولونَ إنْ شاء الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فَطَرَقَ جنةَ هؤلاءِ القومِ ليلاً طارقٌ من أمرِ الله وهم نائمونَ، ولايكون الطائفُ في كلام العرب إلا ليلاً، ولا يكون نهاراً، وقد يقولون: أطفت بها نهاراً.

وقوله: «فأَصْبَحَتْ كالصَّرِيمِ»، اختلف أهلُ التأويل في الذي عُني بالصريم، فقال بعضهم: عُني به الليل الاسود.

وقال بعضهم: معنى ذلك فأصبحت جَنَّتُهم محترقةً سوداءَ كسوادِ الليلِ المظلمِ البهيم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: فأصبحت كأرضٍ تُدْعى الصريم معروفة بهذا الاسم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فتنادى هؤلاء القوم وهم أصحاب الجنةِ، يقولُ: نادى بعضُهم بعضاً «مُصْبحين»، يقولُ: بعد أنْ أصبحوا «أن اغْدُوا على حَرثِكُمْ» وذلك الزرع «إنْ كُنْتُم صَارِمين»، يقولُ: إنْ كنتم حاصدي زرعكم «فانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتخافَتُونَ»، يقولُ: فمضوا الى حَرْثِهم وهم يتسارُّونَ بينهم «أنْ لايَدخُلَنَّها اليَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِين»، يقولُ: وهم يتسارُّونَ يقول بعضُهم لبعضٍ: لايدخلنَّ جَنَّتَكُم اليوم عليكم مسكين.

ومعنى قوله: «وَغَدَوْا على حَرْدٍ قادِرِينَ»، وغَدوا على أمرٍ قد قَصَدُوهُ واعتمدوه، واستسرُّوهُ بينهم، قادرينَ عليه في أنفسهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما صار هؤلاء القوم الى جَنَّتِهم، ورأوها محترقاً حَرْثُهَا، أنكروها وشَكُّوا فيها، هل هي جَنَّتُهم أم لا، فقال بعضُهم لأصحابهِ ظناً منه أنهم قد أغفلوا طريق جنتهم، وأنَّ التي رأوا غيرَها: إنا أيها القوم

لضالونَ طريقَ جَنَّتنا، فقال مَنْ علم أنها جنتهم، وأنهم لم يُخْطِئُوا الطريقَ: بل نحنُ أيها القومُ محرومونَ، حُرِمْنَا منفعةَ جنتنا بذهابِ حرثها.

وقوله: «قال أوْسَطُهُمْ»، يعني: أَعْدَلُهم.

وقولـه: «ألَمْ أقُـل لَكُمْ لَولا تُسَبِّحُـونَ»، يقولُ: هَلاَّ تَسْتَثْنُون إذ قلتم «لَنَصْرِمُنَّها مُصْبِحينَ»، فتقولوا إنْ شاءَ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَـٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ ﴿٣١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال أصحاب الجنة «سُبْحانَ رَبِّنا إنَّا كُنَّا ظالمِينَ»، في تركنا الاستثناء في قسمنا وعَزْمِنَا على تركِ إطعام المساكين من ثمرِ جَنَّتِنا.

وقوله: «فأقْبَلَ بَعْضُهُم على بَعْضٍ يَتَلاومونَ»، يقول جَلَّ ثناؤه: فأقبل بعضُهم على بعضٍ يلومُ بعضهم بعضاً على تفـريطهم فيما فَرَّطوا فيه من الاستثناء، وعزمهم على ماكانوا عليه من تركِ إطعامِ المساكين من جنتهم.

وقوله: «ياوَيْلنا إنَّا كُنَّا طاغِينَ»، يقولُ: قال أصحاب الجنة: ياوَيْلَنَا إنَّا كنا مُبْعَدين: مخالفينَ أمرَ الله في تركنا الاستثناء والتسبيحَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مخبراً عن قيل أصحاب الجنة «عَسَى رَبُّنا أنْ يُبْدِلنَا خَيْراً مِنْها» بتوبتنا من خطأ فِعْلِنا الذي سَبَق منا خيراً من جَنَّتنا «إنَّا الى رَبِّنا

رَاغبونَ»، يقولُ: إنا الى ربنا راغبون في أنْ يُبْدِلَنَا من جنتنا إذْ هلكَت خيراً منها.

يقـول تعـالى ذِكْرُه: «كَذلكَ العَذَابُ»، يقول جَلَّ ثَنَاؤُهُ: كَفِعْلِنَا بجنة أصحـاب الجنـة، إذ أصبحت كالصريم بالذي أرسلنا عليها من البلاء والآفة المفسـدةِ، فَعَلْنـا بِمَنْ خالفَ أمرَنَا وكفرَ برسلنا في عاجل الدنيا، «وَلَعَذَاب الآخرة أكبر»، يعني: عقوبة الآخرة بمن عصى رَبَّه وكفر به أكبر يومَ القيامة من عقوبة الدنيا وعذابها.

وقوله: «لو كانُوا يَعْلَمُونَ»، يقولُ: لو كان هؤلاء المشركون يعلمونَ أنَّ عقـوبـةَ الله لأهلِ الشركِ به أكبر من عقوبتهِ لهم في الدنيا، لارتدعُوا وتابوا وأنابوا، ولكنهم بذلك جُهَّالٌ لايعلمون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «إنَّ للمتقِينَ» الذين اتقوا عقوبةَ الله بأداءِ فرائِضه، واجتناب معاصيه «عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ»، يعني: بساتين النعيم الدائم.

وقوله: «أفَنَجْعَلُ المُسْلِمِينَ كالمُجْرِمينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أفنجعلُ أيها النـاسُ في كرامتي ونعمتي في الآخـرة الذين خَضَعُوا لي بالطاعة، وذَلُّوا لي بالعبودية، وَخَشعُوا لأمري ونهيي، كالمجرمين الذين اكتسبوا المآثم، ورَكِبُوا المعاصيَ، وخالفوا أمري ونهيي؟ كَلَّا ماالله بفاعلٍ ذلك.

وقوله: «مالَكُم كَيفَ تَحكُمُونَ» أتجعلون المطيعَ لله من عبيدِهِ، والعاصي له منهم في كرامته سواء يقول جَلَّ ثناؤه: لاتُسَوُّوا بينهما فإنهما لايستويان عندَ الله، بل المطيعُ لَهُ الكرامةُ الدائمةُ والعاصي له الهوانُ الباقي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ۝٣٧ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ۝٣٨ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ۝٣٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمشركين به من قريش: أَلَكُمْ أيها القوم بتسويتِكُمْ بين المسلمينَ والمجرمينَ في كرامةِ الله كتابٌ نزلَ من عند الله أتاكم به رسولٌ من رُسُلهِ بأنَّ لكم ما تَخَيَّرونَ، فأنتم تدرسون فيه ما تقولون.

وقوله: «إن لَكُمْ فِيه لَمَا تَخيّرون»، يقول جَلَّ ثناؤه: إنَّ لكم في ذلك الـذي تَخَيَّرُونَ من الأمـورِ لأنفسكم، وهذا أمرٌ من الله، توبيخٌ لهؤلاء القوم وتقريعٌ لهم فيما كانوا يقولون من الباطلِ، ويتمنون من الأمانيِّ الكاذبة.

وقوله: «أمْ لَكُمْ» فيه «أيمانٌ عَلَيْنا بالِغَةٌ الى يَوْمِ القيامَةِ»، يقولُ: هل لكم أيمانٌ علينا تنتهي بكم الى يوم القيامةِ، بأنَّ لكم ماتحكمونَ أي: بأنَّ لكم حكمكم، ولكنَّ الالفَ كُسِرَتْ من «إن» لما دخل في الخبر اللام: أي هل لكم أيمانٌ علينا بأنَّ لكم حكمكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ۝٤٠ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ۝٤١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: سل يا محمدُ هؤلاء المشركين أَيُّهم بأنَّ لهم علينا أيماناً بالغةً بحكمِهم الى يوم القيامةِ «زَعِيمٌ»، يعني: كفيلٌ به، والزعيمُ عند العرب: الضامنُ والمتكلم عن القوم.

وقوله: «أمْ لهم شُركاءُ فَلْيَأْتوا بِشركائِهم إنْ كانُوا صَادِقِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أَلهؤلاءِ القوم شركاء فيما يقولون وَيصفُونَ من الأمورِ التي يزعمونَ أنها لهم، فَلْيَأْتُوا بشركائِهم في ذلك إنْ كانوا فيما يَدَّعُونَ من الشركاءِ صادقينَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: «يومَ يُكشف عَنْ ساقٍ» قال جماعةٌ من الصحابةِ والتابعينَ من أهلِ التأويل: يبدو عن أمرٍ شديد.

وقوله: «وَيُدعَوْنَ الى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطيعُونَ»، يقولُ: ويَدْعُوهم الكشف عن الساقِ الى السجودِ لله تعالى فلا يُطِيقُونَ ذلك.

وقوله: «خاشعةً أبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ»، يقولُ: تَغْشَاهُمْ ذِلَّةٌ من عذابِ الله «وَقَدْ كانوا يُدْعَوْنَ الى السُّجودِ وَهُم سالِمُونَ»، يقولُ: وقد كانوا في الدنيا يدعونهم الى السجود له، وهُمْ سالمون، لايمنعهم من ذلك مانعٌ، ولايحولُ بينه وبينهم حائلٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: كِلْ يا محمدُ، أمرَ هؤلاء المكذِّبينَ بالقرآن اليَّ، وهذا كقولِ القائِل لآخرَ غيره يتوعَّدُ رجلًا: دَعْني وإياهُ، وخَلِّني وإياهُ، بمعنى: أنه من وراءِ مَسَاءَتِهِ.

وقوله: «سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لايَعْلَمُونَ»، يقول جَلَّ ثناؤه: سَنَكِيدُهُمْ من حيثُ لايعلمونَ، وذلك بأنْ يُمَتِّعَهُمْ بمتاع الدنيا حتى يَظُنُّوا أنهم مُتِّعُوا به بخيرٍ لهم عندَ الله، فيتمادوا في طغيانهم، ثم يأخذهم بَغْتَةً وهم لايشعرون.

وقـولـه: «وأملي لَهُم إن كَيْدي مَتينٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأُنْسِئُ في آجالهم ملاوةً من الزمان، وذلك برهة من الدهر على كُفْرِهم وتَمَرُّدِهم على اللهِ

لتتكامل حجج الله عليهم «إنَّ كَيْدي مَتين»، يقول: إنَّ كيدي بأهلِ الكفرِ قويٌّ شديد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۝٤٦ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ۝٤٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: أتسألُ يا محمدُ، هؤلاء المشركين بالله على ما أتَيْتَهُمْ به من النصيحة، ودعوتهم إليه من الحقِّ، ثواباً وجزاءً «فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ»، يعني من غُرْمِ ذلك الأجرِ مُثْقَلُونَ، قد أثقلهم القيامُ بأدائِه، فتحاموا لذلك قبول نصيحتك، وتَجَنَّبوا لِعِظَمِ ماأصابهن من ثقلِ الغُرمِ الذي سألتَهم على ذلك الدخول في الذي دَعَوْتَهُمْ إليه من الدين.

وقوله: «أمْ عِنْدَهُمُ الغَيْبُ فَهُمْ يكْتُبُونَ»، يقولُ: أعندهم اللوحُ المحفوظُ الذي فيه نبأ ماهو كائن، فهم يكتبون منه ما فيه، ويجادلونك به، ويزعمون أنهم على كُفْرِهم بربِّهم أفضلُ منزلةً عند الله من أهلِ الايمان به.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ۝٤٨ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۝٤٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: فاصبرْ يا محمدُ، لقضاء رَبِّكَ وحُكْمِه فيكَ، وفي هؤلاء المشركين بما أتيتهم به من هذا القرآنِ وهذا الدين وامضِ لما أمَرَكَ به رَبُّك، ولايثنيك عن تبليغ ما أُمِرْتَ بتبليغهِ تكذيبُهُمْ إياك وأذاهم لكَ.

وقوله: «وَلاتَكُنْ كَصاحِبِ الحوتِ» الذي حبسه في بطنه، وهو يونس بن مَتّى ﷺ فيعاقبكَ رَبُّكَ على تَرْكِكَ تبليغ ذلك، كما عاقَبَهُ فحبسَهُ في بطنِهِ:

«إِذْ نادَى وَهوَ مَكْظُومٌ»، يقولُ: إذ نادى وهو مغمومٌ، قد أثقلَهُ الغَمُّ وكظمه.

وقوله: «لَوْلا أن تَداركَهُ نِعْمَة مِنْ رَبِّهِ»، يقول جَلَّ ثناؤه: لولا أنْ تداركَ صاحبَ الحوتِ نعمةٌ من رَبِّه فَرَحِمَهُ بها، وتابَ عليه من مُغَاضَبَتِهِ رَبَّهُ «لَنُبِذَ بالعَراءِ» وهو الفضاءُ من الأرضِ.

«وَهو مَذْمُومٌ»، اختلف أهلُ التأويل في معنى قوله: «وَهُوَ مَذْمُومٌ»، فقال بعضهم: معناه وهو مُلِيمٌ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك وهو مُذْنِبٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٥٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فاجتبى صاحب الحوتِ ربُّه، يعني: اصطفاهُ واختارَهُ لنبوَّتِه «فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالحِينَ»، يعني: من المرسَلِينَ العاملينَ بما أمرهم به رَبُّهم، المُنتهينَ عما نهاهن عنه.

وقوله: «وَإِنْ يَكادُ الذِّينَ كَفَروا لَيُزْلِقُونَكَ بأَبْصَارِهِمْ»، يقول جَلَّ ثناؤه: وإنْ يكادُ الذين كفروا يا محمدُ، يَنْفُذونك بأبصارهم من شِدَّةِ عداوتِهم لكَ ويَزيلُونَكَ فَيَرْمُوا بكَ عند نَظَرِهم إليك غيظاً عليكَ، وقد قيل: إنه عُنِيَ بذلك: وإنْ يكادُ الذين كفروا مما عَانُوكَ بأبصارِهم ليرمونَ بكَ يا محمدُ، ويصرعونَكَ كما تقولُ العرب: كادَ فلانٌ يصرَعُني بشدَّةِ نَظَرِهِ إليَّ، قالوا: وإنما كانتْ قريش عانـوا رسولَ الله ﷺ لِيُصِيبُوه بالعينِ، فنظروا إليه لِيُعينُوه، وقالوا مارأينا رجلاً مثله، أو إنه لمجنون، فقال الله لنبيهِ عند ذلكَ: وإنْ يكادُ الذين كفروا ليرمونَكَ بأبصارهم «لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ، وَيَقُولُونَ إنَّهُ لَمجْنُونٌ».

القلم: ٥٢

وقوله: «لَما سَمِعُوا الذِّكْرَ»، يقولُ: لما سمعوا كتابَ الله يُتْلَى «وَيَقُولُونَ إنَّـهُ لَمجنُـونٌ»، يقـول تعـالى ذِكْـرُه: يقولُ: هؤلاء المشركون الذين وَصَفتَ صِفَتَهُمْ: إنَّ محمداً لمجنونٌ، وهذا الذي جائنا به من الهذيانِ الذي يَهْذي به في جُنـونِـه «وَمـا هُو إلاَّ ذِكْرٌ للعالَمِينَ» ومامحمدٌ إلا ذكرٌ ذَكر الله به، العَالَمَيْنِ الثَّقَلَيْنِ، الجنَّ والإنسَ.

سُورَةُ الحَاقَّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْحَاقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَاقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الساعة «الحاقَّةُ»، التي تَحِقُّ فيها الامور، ويجبُ فيها الجزاءُ على الاعمال «ماالحاقَّةُ»، يقولُ: أيّ شيء الساعة الحاقة.

وقوله: «وما أدْراكَ ما الحاقَّةُ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وأي شيءٍ أدراك وعَرَّفَكَ أي شيءٍ الحاقة.

وقوله: «كَذَّبَتْ ثَمُودُ وعادٌ بالقارِعَةِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: كَذَّبَتْ ثمودُ قوم صالحٍ، وعاد قوم هودٍ بالساعةِ التي تقرع قلوب العبادِ فيها بهجومها عليهم، والقارعةُ أيضاً: اسمٌ من اسماء القيامة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «فأمّا ثَمُودُ» قوم صالح، فأهلكهم الله بالطاغية.

واختلف في معنى الطاغية التي أهلك الله بها ثمود أهل التأويل، فقال بعضُهم: هي طغيانهم وكُفْرُهم باللهِ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: فأُهلكُوا بالصيحةِ التي قد جاوزتْ مقادير الصياح وطَغَتْ عليها.

وأولى القولين في ذلك بالصواب قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: فأهلكوا بالصيحة الطاغية.

وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب لأنَّ الله إنما أخبر عن ثمود بالمعنى الذي أهلكها به، كما أخبرَ عن عادٍ بالذي أهلكها به، فقال: «وأمَّا عادٌ فأُهْلِكُوا بريحٍ صَرصَرٍ عاتِيَةٍ»، ولو كان الخبرُ عن ثمودَ بالسبب الذي أهلكها من أجله، كان الخبرُ أيضاً عن عادٍ كذلك، إذْ كان ذلك في سياقٍ واحد، وفي إتباعه ذلك بخبره عن عادٍ بأنَّ هلاكَها كان بالريح الدليلُ الواضحُ على أنَّ إخباره عن ثمود إنما هو مابَيَّنْتُ.

وقوله: «وأمَّا عادٌ فأهْلكوا بِريحٍ صَرْصَر عاتِيةٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأما عادٌ قومُ هودٍ فأهلكهم الله بريحٍ صرصر، وهي الشديدةُ العصوفِ مع شدةِ بَرْدِهَا. «عاتِيَةٍ»، يقولُ: عَتَتْ على خُزَّانِهَا في الهبوب، فتجاوزتْ في الشدة والعصوف مقدارها المعروفَ في الهبوبِ والبردِ.

وقـولـه: «سَخَّرَها عَلَيْهم سَبْعَ لَيالٍ وثَمانِيَةَ أيَّامٍ حُسُوماً»، يقول تعالى ذِكْرُه: سَخَّرَ تلك الرياح على عادٍ سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيام حسوماً، فقال بعضهم: عُني بذلك: تِباعاً.

وقال آخرون: عني بقوله: «حُسُوماً» الريح، وأنها تحسم كُلَّ شيءٍ، فلا تُبْقِي من عادٍ أحداً، وجعلَ هذه الحسومَ من صفةِ الريح.

وأولى القـولين في ذلـك عنـدي بالصواب قولُ مَنْ قال: عُنِي بقوله:

«حُسُوماً» متتابعةً، لإجماع الحُجَّةِ من أهل التأويل على ذلك، وكان بعضُ أهل العربية يقول: الحسوم: التباع، إذا تَتابَعَ الشيءُ فلم ينقطع أوَّلُه عن آخرِهِ قيل فيه حسومٌ، قال: وإنما أُخِذَ والله أعلمُ من حَسْمِ الدَّاءِ: إذا كُوِيَ صاحبه، لأنه لحم يُكْوى بالمكواة، ثم يتابعُ عليه.

وقوله: «فَتَرى القَوْمَ فِيها صَرْعَى»، يقولُ: فترى يا محمدُ، قومَ عادٍ في تلك السبع الليالي والثمانية الأيام الحسوم صَرْعَى قد هَلَكُوا «كأنَّهُم أعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ»، يقولُ: كأنهم أصولُ نخلٍ قد خَوَتْ.

وقوله: «فَهَل تَرَى لَهُمْ مِنْ باقِيةٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لنبيه محمدٍ ﷺ: فهل تَرَى يا محمدُ، لعادٍ قومِ هودٍ مِنْ بقاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَجاءَ فِرْعَوْنُ»، مصرواختلفت القَرَأَةُ في قراءةِ قوله: «وَمَنْ قَبْلَهُ» فقرأته عامة قَرَأة المدينةِ والكوفة ومكة خَلاَ الكسائيِّ: «وَمَن قَبْلَهُ» بفتحِ القافِ وسكون الباء، بمعنى: وجاء من قَبْل فرعونَ من الامم المكذبة بآيات الله كقومِ نوحٍ وعادٍ وثمود وقومِ لوطٍ بالخطيئةِ، وقرأ ذلك عامةُ قرأةِ البصرة والكسائي «وَمَنْ قبله» بكسر القافِ وفتح الباء، بمعنى وجاء فرعون من أهل بلدهِ مصرَ من القبطِ.

والصواب من القول في ذلك عندي أنهما قراءتان معروفتان صحيحتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيبٌ.

وقوله: «وَالمُؤْتفِكاتُ بالخاطِئَةِ»، يقولُ: والقرى التي ائْتُفِكَتْ بأهلِها فصارَ عاليَها سافِلَهَا «بالخاطِئةِ»، يعني: بالخطيئة وكانت خَطيئتها: إتيانها الذُّكْرانَ في أدبارِهم.

وقوله: «فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ»، يقول جَلَّ ثناؤه: فَعَصَى هؤلاءِ الذين ذَكَرَهُم اللهُ، وهم فرعون ومَنْ قَبْلَهُ والمؤتفكاتُ رسولَ رَبِّهم.

وقوله: «فأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيةً»، يقولُ: فأخذهم رَبُّهم بتكذيبهم رُسُلَهُ أخذةً، يعني: أخذةً زائدةً شديدةً ناميةً من قولهم: أربيت: إذا أخذَ أكثرَ مما أعطى من الرِّبا، يقال: أربيتَ فرَبا ربِاكَ، والفضة والذهب قد رَبَوا.

وقوله: «إنَّا لمَّا طَغَى المَاء حَمَلْناكُمْ في الجارِيَةَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنا لما كَثُرَ الماءُ فتجاوزَ حَدَّهُ المعروف كان له، وذلك زمن الطوفان، حملناكم في السفينة التي تجري في الماء.

وقوله: «لِنَجْعَلَهـا لَكُمْ تَذْكِـرةً»، يقولُ: لنجعل السفينة الجارية التي حَملْناكُمْ فيها لكم تذكرةً، يعني: عبرة وموعظة تتعظونَ بها.

وقوله: «وَتَعيها أُذُنٌ وَاعِيةٌ» يعني حافظة عقلت عن الله ماسمعت.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «فإذَا نفخ فِي الصُّور» إسرافيل «نَفْخَة وَاحِدَة» وهي: النفخة الأولى، «وحملت الارض والجبال فَدكَّتا دَكَّةً وَاحِدة»، يقولُ: فَزُلْزِلَتَا زلزلة واحدة.

«فيومئذٍ وقعتِ الواقعةُ»، يقول جَلَّ ثناؤُه: فيومئذٍ وقعت الصيحة الساعةُ، وقامت القيامةُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَاۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وانصدعت السماءُ «فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ»، يقولُ: مُنشَقَّةٌ متصدِّعةٌ.

«والملكُ على أرجائها»، يقول تعالى ذِكْرُه: والمَلَكُ على أطرافِ السماء حين تَشَقَّقُ، وحافَّاتِها.

وقوله: «وَيحمل عرش رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثمانيةٌ»، اختلف أهلُ التأويل في الذي عنى بقوله: «ثَمانِيةٌ»، فقال بعضُهم: عنى به ثمانيةَ صفوفٍ من الملائكة، لايعلمُ عِدَّتَهُنَّ إلا الله.

وقال آخرون: بل عنى به ثمانية أملاكٍ.

وقوله: «يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يومئذٍ أيها الناسُ تُعْرَضُونَ على رَبِّكم، وقِيل: تُعرضون ثلاث عرضات.

وقوله: «لَاتخْفَى مِنْكُمْ خافِيةٌ»، يقول جَلَّ ثناؤُه: لاتَخفَى على الله منكم خافيةٌ، لأنه عالمٌ بجميعكم، محيطٌ بِكُلِّكُمْ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فأما مَنْ أُعطيَ كتابَ أعمالهِ بيمينه، فيقول تعالى: «اقْرؤوا كِتابِيهْ».

وقوله: «إني ظَنَنْتُ أنّي مُلاقٍ حِسابِيهْ». يقولُ: اني علمتُ أنِّي ملاقٍ حسابيه إذا وردتُ يوم القيامةِ على ربي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ۝٢٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فالذي وصفتُ أمرَهُ، وهو الذي أوتي كتابهُ بيمينهِ، في عِيشةٍ مَرْضِيةٍ، أو عيشةٍ فيها الرضا، فوصفت العيشة بالرضا وهي مرضية، لأنَّ ذلك مدح للعيشة، والعربُ تفعلُ ذلك في المدح والذمّ فتقول: هذا ليلٌ نائم، وسِرٌّ كاتم، وماءٌ دافقٌ، فيوجِّهُونَ الفعل إليه، وهو في الأصل مفعول لما يُرادُ من المدحِ أو الذمِّ، ومَنْ قال ذلك لم يجز له أنْ يقولَ للضاربِ مضروب، ولا للمضروبِ ضارب، لأنه لامدحَ فيه ولا ذمٌّ.

وقوله: «في جَنَّةٍ عاليةٍ»، يقولُ: في بستانٍ عالٍ رفيع، و«في» من قوله: «في جَنَّةٍ» من صِلَةِ عِيشة.

وقوله: «قُطوفُها دَانِية»، يقولُ: مايُقْطَفُ من الجنةِ من ثمارها دانٍ قريب من قاطِفِهِ.

وذُكر أنَّ الذي يريدُ ثمرَهَا يتناولُه كيفَ شاءَ قائماً وقاعداً، لايمنعه منه بُعْدٌ، ولايحولُ بينه وبينه شوكٌ.

وقوله: «كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بما أَسْلَفْتُمْ في الأَيَّام الخالِيَة»، يقولُ لهم رَبُّهم جَلَّ ثَنَاؤُهُ: كلوا معشر مَنْ رَضِيتُ عنه، فأدخلته جنتي من ثمارها، وطيبِ

ما فيها من الأطعمةِ، واشربوا من أشْرِبَتها، «هَنيئاً لَكُمْ»، لاتتأذَّوْنَ بما تأكلونَ، ولا بِمَا تشربون، ولا تحتاجونَ من أكلِ ذلكَ الى غائطٍ ولا بولٍ. «بِمَا أَسْلَفْتُمْ في الأيَّامِ الخاليَة»، يقولُ: كلوا واشربوا هنيئاً: جزاءً من الله لكم، وثواباً بما أسلفتمَ، أو على ماأسلفتم: أي على ماقدَّمْتُم في دُنياكم لآخرتِكُمْ من العمل بطاعةِ الله «في الأيامِ الخالية»، يقولُ: في أيام الدنيا التي خَلَتْ فَمَضَتْ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأما مَنْ أُعطي يومئذٍ كتابَ أعمالهِ بشمالهِ، فيقول: ياليتني لم أُعْطَ كتابيه، «وَلَمْ أَدْرِ ماحِسابِيهْ»، يقول: ولم أدرِ أيّ شيءٍ حسابية.

وقوله: «ياليْتها كانَتِ القاضِيَةَ»، يقولُ: ياليت الموتَة التي متُّها في الدنيا كانتْ هي الفراغ من كلٍّ مابَعْدَهَا، ولم يكنْ بَعْدَها حياةٌ ولا بَعْثٌ، والقضاءُ: هو الفراغُ. وقيل: إنه تمنَّى الموتَ الذي يقضي عليه، فتخرج منه نفسه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مخبراً عن قِيلِ الذي أُوتَي كتابَهُ بشماله: «ماأَغْنَى عَنِّي ماليَهْ»، يعني: أنه لم يدفعَ عنه مالهُ الذي كان يملكُه في الدنيا من عذابِ الله شيئاً. «هَلَكَ عَنِّي سُلْطانِيَهْ»، يقولُ: ذهبتْ عني حججي، وضَلَّتْ، فلا حُجَّةَ لي أحتجُّ بها.

وقولـه: «خُـذُوهُ فَغُلُّوهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه لملائكتهِ من خُزَّانِ جهنمَ: «خُذُوهُ فَغُلُّوهُ، ثُمَّ الجَحِيمَ صَلُّوهُ»، يقولُ: ثم في نارِ جهنمَ أَوْرِدُوه ليصلى فيها، «ثُمَّ في سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِرَاعاً فاسْلُكوهُ»، يقولُ: ثم اسلكوه في سلسلةٍ ذَرْعُهَا سبعونَ ذراعاً بذراع الله أعلمُ بِقَدْرِ طُولِها، وقيل: إنها تدخلُ في دُبُرِه، ثم تخرجُ من مَنْخِرَيْهِ.

وقوله: «إنَّهُ كانَ لايُؤْمِنُ باللهِ العَظِيم »، يقولُ: افعلوا ذلك به جزاءً له على كُفْرِه باللهِ في الدنيا، إنه كان لايُصَدِّقُ بوحدانيةِ الله العظيم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ٣٤ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ٣٦ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ٣٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مخبراً عن هذا الشقيِّ الذي أوتي كتابهُ بشمالهِ: إنه كان في الدنيا لايحضُّ الناسَ على إطعامِ أهل المَسْكنةِ والحاجة.

وقوله: «فَلَيْس لَهُ اليوم هَاهُنا حَمِيمٌ»، يقول جَلَّ ثناؤُه: «فليسَ له اليومَ»، وذلك يوم القيامة «هاهنا»، يعني: في الدارِ الآخرةِ «حميمٌ» يعني: قريبٌ يَدْفَعُ عنه، ويُغيثُه مِمَّا هو فيه من البلاءِ.

«ولا طَعـامٌ إلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ»، يقـول جَلَّ ثناؤُه: ولا لَهُ طعامٌ كما كانَ لايحضُّ في الدنيا على طعامِ المسكين، إلا طعامٌ من غِسْلِين، ذلك مايسيلُ من صديدِ أهل النارِ.

وقوله: «لايأكلُهُ إلاَّ الخاطِئُونَ»، يقولُ: لايأكلُ الطعامَ الذي من غِسْلينَ إلاَّ الخاطئونَ، وهم المذنبون الذين ذنوبهم كفر بالله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ٣٩﴾

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٤٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «فلا»، ما الأمر كما تقولونَ معشَر أهلِ التكذيب بكتابِ الله ورُسُلِه، أقسم بالاشياء لها التي تُبْصرُونَ منها، والتي لاتبصرونَ.

وقوله: «إنَّه لقوْلُ رَسُولٍ كَريمٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ هذا القرآن لقولُ رسولٍ كريم، وهو محمدٌ ﷺ يَتْلُوه عليهم.

وقوله: «ومَا هُوَ بقَوْل شاعرٍ قَليلاً ماتُؤْمِنُونَ»، يقول جَلَّ ثناؤه: ماهذا القرآن بقولِ شاعرٍ لأنَّ محمداً لايُحسن قيلَ الشعرِ، فَتَقُولُوا هو شِعرٌ «قَليلاً ماتُؤْمِنُونَ»، يقولُ: تصدّقون قليلاً به أنتم، وذلك خطابٌ من الله لمشركي قريش، «وَلا بقَوْلِ كاهِنٍ قليلاً ماتَذكَّرُونَ»، يقولُ: ولا هُوَ بقولِ كاهنٍ، لأنَّ محمداً ليس بكاهنٍ، فتقولوا: هو من سَجْعِ الكُهَّانِ «قَليلاً ماتَذَكَّرُونَ»، يقولُ: تَتَّعِظُونَ به أنتم، قليلاً ماتعتبرونَ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٣ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ٤٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولكنه «تَنزيلٌ من ربِّ العَالمِينَ» نزلَ عليه «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلينا» محمدٌ «بَعْضَ الأقاويلِ» الباطلة، وتَكذَّبَ علينا «لأخَذْنا مِنْهُ باليَمين»، يقولُ: لأَخَذْنَا منه بالقوّةِ منَّا والقدرةِ، ثم لَقَطَعنا منه نِياطَ القلبِ وإنما يعني بذلك أنه كان يعاجِلُهُ بالعقوبةِ، ولا يُؤَخِّرُه بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ٤٧ وَإِنَّهُۥ

﴿لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فما منكم أيها الناسُ مِنْ أحدٍ عن محمدٍ لو تَقَوَّلَ علينا بعضَ الأقاويل، فأخذنا منه باليمينِ، ثم لقطعنا منه الوتينَ، حاجزينَ يَحْجُزونَنا عن عقوبتِهِ، وما نفعلُه به.

وقوله: «وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ للمُتّقينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإنَّ هذا القرآن لتذكرةٌ، يعني: عظَةٌ يُتَذَكَّرُ به، ويُتَّعَظُ به للمتقينَ، وهم الذين يَتَّقونَ عقابَ الله بأداءِ فرائضه، واجتنابِ معاصيه.

وقوله: «وَإِنَّا لَنَعلَم أنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإنَّا لنعلمُ أنَّ منكم مكذبين أيها الناسُ بهذا القرآنِ. «وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ على الكافِرِينَ». يقول جَلَّ ثناؤه: وإنَّ التكذيبَ به لحسرةٌ وندامةٌ على الكافرين بالقرآن يومَ القيامة.

«وَإِنَّهُ لَحَقُّ اليَقين»، يقولُ: وإنه لَلْحَقُّ اليقينُ الذي لاشك فيه أنه من عندِ الله، لم يَتَقَوَّلْهُ محمدٌ ﷺ: «فَسَبِّحْ باسْمِ رَبِّكَ العَظيمِ»، بذكرِ رَبِّكَ وتسمية العظيم، الذي كل شيءٍ في عظمته صغيرٌ.

سُورَةُ المَعَارِج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾

قوله: «سألَ سائلٌ» بمعنى: سأل سائلٌ من الكفارِ عن عذاب الله، بِمَنْ هو واقعٌ.

وقوله: «بِعَذَاب وَاقِعٍ للكافِرينَ»، يقولُ: سأل بعذابٍ للكافرين واجب لهم يومَ القيامةِ واقع بهم، ومعنى: «للكافِرينَ» على الكافرين.

وقوله: «لَيْس لَهُ دَافِعٌ مِن الله ذِي المعارِج»، يقول تعالى ذِكْرُه: ليس للعذابِ الواقعِ على الكافرينَ من الله دافعٌ يَدْفَعُه عنهم.

وقوله: «ذِي المَعارِجِ»، يعني ذا العُلُوِّ والدرجات والفواضل والنعم.

وقوله: «تعْرُجُ المَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إلَيْه في يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ خَمْسين أَلْفَ سَنة»، يقول تعالى ذِكْرُه: تصعد الملائكة والروح، وهو جبريلُ عليه السلام إليه، يعني الى الله جَلَّ وعَزَّ، والهاء في قوله: «إِلَيْهِ» عائدةٌ على اسم الله «في يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ خَمْسينَ ألفَ سَنة»، يقولُ: كان مقدارُ صعودهم ذلك في يوم لغيرهم من الخلق خمسين الف سنة، وذلك أنها تصعد من منتهى أمرِه من

أسفلِ الأرضِ السابعةِ إلى منتهى أمرِه من فوق السمواتِ السبعِ.

وقـوله: «فاصْبر صَبْراً جميلاً» يقول تعالى ذِكْرُه: فاصبر صبراً جميلاً، يعني: صبراً لاجَزَعَ فيه، يقول له: اصبر على أذى هؤلاء المشركين لكَ، ولا يَثْنِيكَ ما تَلْقى منهم من المكروهِ عن تبليغ ماأمركَ رَبُّكَ أن تُبلِّغهُمْ من الرسالة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إن هؤلاء المشركين يرونَ العذابَ الذي سألوا عنه، الواقع عليهم بعيداً وقوعُه، وإنما أخبرَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ انهم يرونَ ذلك بعيداً، لأنهم كانـوا لا يصـدقـون به، وينكـرون البعث بعـد الممـات، والثواب والعقاب، فقال انهم يرونه غير واقعٍ، ونحن نراه قريباً، لأنه كائن، وكل ماهو آتٍ قريب.

وقـولـه: «يَوْمَ تَكُـونُ السَّماء كالمُهْلِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يوم تكون السماءُ كالشيء المُذابِ.

وقوله: «وَتَكُونُ الجِبال كالعهنِ»، يقولُ: وتكون الجبالُ كالصُّوفِ.

وقـولـه: «وَلا يَسـألُ حَمِيم حَمِيمـاً، يُبَصَّـرونَهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولايسأل قريبٌ قريبهُ عن شأنِه لشغلهِ بشأنِ نفسهِ.

وقوله: «يُبَصَّرُونَهُمْ»، اختلف أهلُ التأويل في الذين عنوا بالهاء والميم في قولـه: «يُبَصَّـرُونهمْ»، فقـال بعضهم: عُني بذلـك الأقرباء أنهم يُعَرَّفُونَ أقرباءهم، ويعرّف كل إنسان قريبه، فذلك تَبصيرُ الله إياهم.

وقال آخرون: بل عُني بذلك المؤمنون أنهم يُبَصَّرُونَ الكفارَ.

وقال آخرون: بل عُني بذلك الكفار الذين كانوا أتباعاً لآخرين في الدنيا على الكفر، أنهم يعرفون المتبوعينَ في النار.

وأولى الأقوال في ذلك بالصحة، قول مَنْ قال: معنى ذلك: ولايسألُ حميم حميماً عن شأنه، ولكنهم يبصرونهم فيعرفونهم، ثم يَفرُّ بعضُهم من بعضٍ، كما قال جَلَّ ثناؤه: «يومَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أخيهِ، وأُمِّهِ وأبيهِ، وصَاحِبَتِهِ وبَنِيه، لِكُلِّ امرىء منهم يَوْمَئِذ شأنٌ يُغْنيهِ» [عبس: ٣٤-٣٧]

وإنما قلنا ذلك أولى التأويلات بالصواب، لأنَّ ذلك أشبهها بما دَلَّ عليه ظاهرُ التنزيل، وذلك أنَّ قوله: «يُبَصَّرُونَهُمْ» تلا قوله: «وَلا يَسألُ حَمِيم حميماً» فلأنْ تكونَ الهاءُ والميمُ من ذكرهم أشبه منها بأنْ تكون من ذِكْرِ غيرهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يَوَدُّ الكافرُ يومئذٍ ويتمنى أنه يفتدي من عذابِ الله إياه ذلكَ اليوم ببنيه «وصاحبتِهِ»، وهي زوجتهِ، «وأخيه»، «وفصيلته». وهم عشيرته «التي تؤويه». يعني التي تضمـهُ الى رَحْلِه، وتنزلُ فيه امرأته، لقربة مابينها وبينه. «ويمن في الأرض جميعاً» من الخلق، «ثم ينجيه» ذلك من عذابِ الله إياهُ ذلك اليوم.

وبدأ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِذِكْرِ البنين، ثم الصاحبة، ثم الأخ، إعلاماً منه عبادَهُ أنَّ الكافرَ من عظيمِ ماينزلُ به يومئذ من البلاء يفتدي نفسَهُ لو وجد الى ذلك سبيلاً بأحب الناس إليه، كان في الدنيا، وأقربهم إليه نَسَباً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: كلا ليس ذلك كذلك، ليس يُنجيه من عذاب الله شيءٌ، ثم ابتدأ الخبر عما أعَدَّهُ له هنالك جَلَّ ثَناؤُهُ، فقال: «إنَّها لَظَى»، ولظى: اسمٌ من أسماء جهنم، ولذلك لم يجز.

وقوله: «نَزّاعَةً للشَّوى»، يقول تعالى ذِكْرُه: مخبراً عن لظَى: إنها تنزعُ جلدةَ الرأس وأطراف البدنِ، والشوى: جمع شواةٍ وهي من جوارح الإنسانِ مالم يكن مقتلاً، يقال: رَمَى فأشوى: إذا لم يُصِبْ مقتلاً.

وقوله: «تَدْعُو مَنْ أدْبَرَ وَتَوَلَّى»، يقولُ: تدعو لظَىَ الى نفسِها من أدبر في الدنيا عن طاعةِ الله، وتولى عن الايمان بكتابهِ ورسلهِ.

وقوله: «وَجَمَعَ فأوعى»، يقولُ: وجمعَ مالاً فجعله في وعاءٍ، ومَنَعَ حقَّ الله منه، فلم يُزَكِّ ولم يُنْفِقْ فيما أو جبَ الله عليه إنفاقه فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: «إنَّ الإنْسانَ» الكافرَ «خُلِقَ هَلُوعاً»، والهَلَعُ: شِدَّةُ الجَزَعِ مع شدةِ الحرصِ والضَّجَر.

وقوله: «إذَا مَسَّه الشَّر جَزُوعاً»، يقولُ: إذا قَلَّ مالهُ ونَالَهُ الفقرُ والعدمُ فهو جَزُوعٌ من ذلكَ لاصبرَ له عليه، «وَإذَا مَسَّه الخَيْرُ مَنُوعاً»، يقولُ: وإذا كَثُرَ مالُه،

ونال الغنى فهو مَنُوعٌ لما في يده، بخيلٌ به، لاينفقه في طاعةِ الله، ولا يؤدِّي حق الله منه.

وقوله: «إلَّا المُصَلِّين الذينَ هُمْ على صَلاتِهِمْ دائمون»، يقولُ: إلَّا الذين يطيعـون الله بأداءِماافتـرض عليهم من الصلاة وهم على أداء ذلك مقيمون لايضيعون منها شيئاً فإن أولئك غير داخلين في عِدادِ مَنْ خُلِقَ هَلُوعاً، وهو مع ذلك بربِّهِ كافرٌ لايصلي لله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإلا الذين في أموالهم حق مؤقتٌ، وهو الزكاةُ للسائِل الذي يسأله من مالِهِ، والمحروم الذي قد حُرِمَ الغِنَى، فهو فقيرٌ لايسألُ.

وقوله: «وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ»، يقولُ: وإلا الذين يُقِرُّونَ بالبعثِ يومَ البعثِ والمجازاة.

وقوله: «وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُشْفِقُونَ»، يقولُ: والذين هم في الدنيا من عذابِ رَبِّهم وَجِلُونَ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ في الآخرةِ، فهم من خشيةِ ذلك لايضيعونَ له فرضاً، ولا يَتَعَدَّوْنَ له حدَّاً.

وقوله: «إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيرُ مأمونٍ»، أَنْ ينالَ مَنْ عَصَاهُ وخالفَ أمره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: «وَالَّـذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ»، يعني أقبالهم حافظون عن كلِّ ماحرَّمَ الله عليهم وَضْعَها فيه «إلَّا» أنهم غير مَلُومينَ في تَرْكِ حِفْـظِهَا «على أزْوَاجِهِم أوْ مامَلَكَتْ أيمانُهُمْ» من إمائهم، وقيل: «لِفُرُوجِهِمْ حافِـظُونَ إلاّ على أزْوَاجِهِمْ»، ولم يتقدم ذلك جحد لدلالة قولِه «فإنَّهُمْ غير مَلُومِينَ» على أنَّ في الكلام معنى جحد، وذلك كقولِ القائل: اعملْ مابَدَا لكَ إلا على ارتكاب المعصية، فإنك معاقَبٌ عليه، ومعناه: اعملْ مابَدَا لكَ إلا أنك معاقَبٌ على ارتكابِ المعصية.

وقوله: «فَمَنِ ابتغَى وَراء ذَلكَ فأولَئك هُمُ العادونَ» فمن التمس لفرجِه منكحاً سوى زوجته، أو مَلْكَ يمينِهِ، ففاعِلُو ذلك هم العادُونَ، الذين عَدَوْا ما أحلَّ الله لهم الى ماحرَّمَ عليهم فهم المَلُومُونَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والا الذين هم لأماناتِ الله التي ائتمنَهُمْ عليها من فرائضه وأماناتِ عباده التي ائتمنوا عليها، وعهودِه التي أخذها عليهم بطاعتهِ فيما امرهم به ونهاهم وعهودِ عباده التي أعطاهم على ماعقدهُ لهم على نفسه راعون يرقُبونَ ذلك، ويَحْفَظُونَه فلا يضيعونه، ولكنهم يُؤدونَها ويتعاهدونها على ماألزمهم الله وأوجب عليهم حفظها «وَالذِينَ هُمْ بِشهادَاتِهِمْ قائمون»، يقولُ: والـذين لايكتمـون مااسْتُشْهِدُوا عليه، ولكنهم يقومون بأدائها، حيث يَلْزَمُهُمْ أداؤها غير مُغَيَّرةٍ ولا مبدَّلةٍ «وَالذِينَ هُمْ عَلى صَلاتهم يُحافظون»، يقول: والذين هم على مواقيت صلاتِهم التي فرضها الله عليهم وحدودها التي أوجَبَها عليهم يحافظون، ولا يُضيعون لها ميقاتاً ولاحداً.

وقوله: «أولَئِكَ في جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ»، يقولُ عَزَّ وجَلَّ: هؤلاء الذين يفعلون هذه الأفعال في بساتين مُكْرَمُونَ يكرمهم الله بكرامته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ۝٣٦ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ۝٣٧ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۝٣٨ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ۝٣٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فما شأنُ الذين كفروا بالله قبلك يا محمدُ، مهْطِعينَ، وقد بيَّنا معنى الإهطاع، وما قال أهل التأويل فيه فيما مضى، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع[1]

وقوله: «عَنِ اليَمينِ وعَنِ الشِّمال عِزِين»، يقولُ: عن يمينكَ يا محمدُ، وعن شمالك متفرِّقينَ حلقاً ومجالسَ جماعة جماعةً، مُعْرِضينَ عنك وعن كتاب الله.

وقوله: «أيَطْمَعُ كُلُّ امْرِىء مِنْهُمُ أنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعيمٍ»، يقولُ: أيطمعُ كلُّ امرىءٍ من هؤلاء الذين كفروا قبلكَ مهطعينَ أنْ يُدخله الله جنةَ نعيم: أي: بساتين نعيمٍ ينعمُ فيها.

وقوله: «كَلَّا إنَّا خَلَقْناهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ»، يقولُ عَزَّ وجَلَّ: ليسَ الأمرُ كما يطمعُ فيه هؤلاء الكفار من أنْ يدخل كلُّ امرىءٍ منهم جنةَ نعيم.

وقوله: «إنَّا خَلقناهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ»، يقول جَلَّ وعَزَّ: إنَّا خلقناهم من مَنيٍّ قذرٍ، وإنما يستوجبُ دخولَ الجنة مَنْ يَسْتَوجِبُه منهم بالطاعةِ، لا بأنه مخلوق، فكيف يطمعون في دخولِ الجنةِ وهم عُصَاةٌ كَفَرَة.

---

(١) ابراهيم: ٤٣، والقمر: ٨، ومعناه: مسرعين بنظرهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٤١ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٤٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلا أقسمُ بربِّ مشارقِ الأرض ومغاربها «إنَّا لَقادِرُونَ على أنْ نُبَدِّلَ خيراً مِنْهُمْ»، يقولُ: إنا لقادرون على أنْ نُهْلِكَهُمْ، ونأتي بخيرٍ منهم من الخَلْقِ يطيعـونني ولايعصـونني «وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وما يفوتنا منهم أحدٌ بأمرٍ نُريدُه منه، فَيُعْجِزنا هَرَباً.

وقـوله: «فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا»، يقولُ لنبيه محمدٍ ﷺ: فَذَرْ هؤلاء المشركينَ المُهْطِعينَ عن اليمين وعن الشمالِ عِزين، يَخوضُوا في باطلهم، ويلعبوا في هذه الدنيا «حتى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الذي يُوعَدُونَ»، يقولُ: حتى يُلاقُوا عذابَ يومِ القيامةِ الذي يُوعَدُونَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝٤٤﴾

وقـوله: «يَوْمَ يَخْرُجُونَ» بيانٌ وتوجيهٌ عن اليومِ الأولِ الذي في قوله: «يَوْمَهُمُ الذي يوعَدُونَ»، وتأويلُ الكلام: حتى يُلاقُوا يومَهُمُ الذي يُوعَدُونَهُ يومَ يَخْرجُونَ مِن الأجداثِ وهي القبورُ: واحِدُهَا جَدَثٌ «سِراعاً كأنَّهم الى نُصُبٍ يُوفِضونَ».

وقـولـه: «إلى نُصُبٍ يُوفِضونَ» يقولُ: كأنهم الى عَلَمٍ قد نُصِبَ لهم يَسْتَبِقُونَ، وأجمعت قَرأةُ الأمصار على فتح النونِ من قولهِ «نَصْبٍ»، غير الحسنِ البصري، فإنه ذُكِرَ عنه أنه كان يَضُمُّها مع الصادِ، وكأن مَنْ فَتَحَها يوجه النصبَ

الى أنه مصدرٌ من قول القائل: نصبت الشيء أنصبه نصباً، وكان تأويله عندهم كأنهم الى صَنَمٍ منصوبٍ يُسرعون سعياً، وأما مَنْ ضَمَّها مع الصادِ فإنه يُوجِّهُه الى إنه واحدُ الأنصاب، وهي آلهتهم التي كانوا يعبدونها.

وأما قوله «يُوفِضُونَ» فإن الإيفاضَ: هو الإسراع.

وقوله: «خاشعة أبْصَارُهُمْ»، يقولُ: خاضعة أبصارهم للذي هم فيه من الخزي والهوان «تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ»، يقولُ: تَغْشَاهم ذلةٌ. «ذَلك اليَوْمُ الذِي كانوا يُوعـدُونَ»، يقولُ عَزَّ وجَلَّ: هذا اليوم الذي وصفتُ صِفَتَهُ، وهو يومُ القيامةِ الذي كان مشركو قريش يوعدونَ في الدنيا أنهم لاقوهُ في الآخرةِ، وكانوا يُكذبُونَ به.

سُورَةُ نُوحٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً» وهو نوحُ بن لَمَكَ «الى قَوْمِهِ أنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أنْ يأتِيَهُمْ عَذَابٌ أليمٌ»، يقولُ: أرسلناهُ اليهم بأنْ أنذرْ قومكَ، مِنْ قَبْلِ أنْ يأتيهم عذابٌ أليم، وذلك العذابُ الأليم هو الطوفانُ الذي غَرَّقَهُمُ الله به.

وقوله: «قالَ ياقَوْمِ إنِّي لَكُمْ نَذيرٌ مُبينٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قال نوح لقومِه: ياقوم إني لكم نذيرٌ مبين، أنذركم عذابَ الله فاحذَرُوهُ أنْ ينزل بكم على كُفْرِكم به «مبين»، يقولُ: قد أبنتُ لكم إنذاري إياكم.

وقوله: «أنِ اعْبُدوا الله واتَقُوه وأطِيعُونِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: مخبراً عن قِيل نوحٍ لقومه: «إني لَكمْ نَذيرٌ مُبينٌ» بأن اعبدوا الله، يقولُ: إني لكم نذيرٌ أنذركم، وآمركم بعبادة الله «وَاتَّقُوهُ»، يقولُ: واتقوا عقابَهُ بالإيمانِ به، والعمل بطاعتهِ. «وأطيعُونِ»، يقولُ: وانتهوا الى ماآمركم به، واقبلوا نصيحتي لكم.

وقوله: «يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ»، يقولُ: يغفر لكم ذنوبكم.

فإن قال قائل: أوَ ليست «من» دالة على البعض؟ قيل: إنَّ لها معنيين وموضعين، فأما احدُ الموضعين فهو الموضع الذي لايصلحُ فيه غيرها، وإذا كان ذلك كذلك لم تدلّ الا على البعض، وذلك كقولك: اشتريتُ من مماليكك فلا يصلحُ في هذا الموضع غيرها، ومعناها: البعض، اشتريت بعضَ مماليكك ومن مماليكك مملوكاً، والموضع الآخر: هو الذي يصلح فيه مكانها «عن»، فإذا، صلحت مكانها «عن» دَلَّتْ على الجميع، وذلك كقولك: وجع بطني من طعامٍ طَعِمتُه، فإنَّ معنى ذلك: أوجعَ بطني طعام طعمته، وتصلح مكان «من» عن، وذلك أنك تضع موضعها «عن» فيصلح الكلام فتقول: وجع بطني عن طعامٍ طعمته، ومِنْ طعامٍ طعمته، فكذلك قوله: «يَغْفِر لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ» إنما هو: ويصفح لكم، ويعفو لكم عنها، وقد يحتمل أنْ يكون معناها يغفر لكم من ذنوبِكم ماقد وعدكم العقوبة عليه، فأما مالم يَعِدكُم العقوبة عليه فقد تقدّم عفوه لكم عنها.

وقوله: «وَيُؤَخِّرْكُمْ الى أَجَلٍ مُسَمًّى»، يقولُ: ويؤخِّرْ في آجالِكم فلا يهلككم بالعذابِ، لابغرقٍ ولاغيره، «إلى أجلٍ مسمىً»، يقولُ: إلى حين كتب أنه يُبْقِيكم إليه، إنْ أنتم أطعتُموه وعبدتُموهُ، في أمِّ الكتاب.

وقوله: «إنَّ أَجَلَ الله إذا جاءَ لايُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إن أجلَ الله الذي قد كتبه على خَلْقِه في أم الكتابِ إذا جاء عنده لايُؤَخَّرُ عن ميقاته، فينظر بعده، «لو كنتم تعلمون». يقول: لو علمتم أنَّ ذلك كذلك، لأنَبْتُمْ إلى طاعةِ رَبِّكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ

ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال نوحٌ لما بَلَّغَ قومَهُ رسالةَ رَبِّه، وأنذرهم ما أَمَرهُ به أَنْ يُنْذِرَهُمُوه فعَصَوْهُ. ورَدُّوا عليه ماأتاهم من عندِه «رَبِّ إني دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً ونهاراً» إلى توحيدكَ وعبادتك، وحَذَّرْتُهم بأسَكَ وسطوتك، «فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إلَّا فِراراً»، يقولُ: فلم يزدهم دعائي إياهم إلى ما دَعَوْتُهم إليه من الحقِّ الذي أرسَلْتَنِي به لهم «إلَّا فِراراً»، يقولُ: إلا إدباراً عنه وهَرَباً منه وإعراضاً عنه.

وقوله: «وإنِّي كُلما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جعَلُوا أصابِعَهُمْ في آذانِهِمْ»، يقولُ جَلَّ وعَزَّ: وإني كلما دعوتهم الى الإقرارِ بوحدانيتك، والعملِ بطاعتكَ، والبراءةِ من عبادةِ كُلِّ ماسواكَ، لتغفرَ لهم إذا هُمْ فعلوا ذلك جعلوا أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا دعائي إياهم الى ذلك «واسْتَغشَوا ثِيابهمْ»، يقول وتَغَشَّوا في ثيابهم، وتَغَطَّوْا بها لئلا يسمعوا دعائي.

وقوله: «وأصَرُّوا» يقولُ: وثَبَتُوا على ماهُمْ عليه من الكفر وأقامُوا عليه.

وقوله: «واسْتَكبروا اسْتِكباراً»، يقولُ: وتَكَبَّروا فتعاظَمُوا عن الإذعانِ للحقِّ، وقبولِ مادعوتهم اليه من النصيحة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾

يقولُ: «ثمَّ إنِّي دَعَوْتُهُم» الى ماأمَرْتَنِي أنْ أدعوهم إليه «جِهاراً» ظاهراً في غيرِ خفَاءٍ

وقولـه: «ثُمَّ إنّي أعْلَنْتُ لَهُمْ وأسْـرَرْتُ لَهُمْ إسْرَاراً»، يقولُ: صرخت لهم: وصحتُ بالذي أمرتني به من الإنذارِ، وأسررتُ لهم ذلك فيما بيني وبينهم في خفاء.

وقوله: «فَقُلْتُ اسْتَغْفِروا رَبَّكم إنَّهُ كانَ غفاراً»، يقولُ: فقلتُ لهم: سَلُوا رَبَّكم غُفْرانَ ذنوبكم، وتوبوا إليه من كفركم، وعبادةِ ماسواه من الآلهة ووَحِّدُوه، وأخْلِصُوا له العبادةَ، يغفرْ لكم إنه كان غفاراً لذنوبِ مَنْ أناب إليه، وتابَ إليه من ذنوبه.

وقـولـه: «يُرْسِـل السَّمـاء عَليكم مِدْرَاراً»، يقـولُ: يَسْقِيكُمْ رَبُّكم إنْ تبتم ووحَّدتُموه وأخلصتم له العبادةَ الغيثَ، فيرسل به السماءَ عليكم مدراراً متتابعاً.

القَـوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِـهِ تَعالَى: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾

وقوله: «ويُمْدِدْكُم بأمْوالٍ وَبَنِينَ»، يقولُ: ويُعْطِكُمْ مع ذلك رَبّكم أموالاً وبنينَ، فَيُكَثِّرها عندكم ويزيد فيما عندكم منها «وَيجعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ»، يقولُ: يرزقُكم بساتينَ «وَيجْعَلْ لَكُمْ أنهاراً»، تَسْقُونَ منها جَنَّاتكم ومزارعَكُمْ، و قال ذلك لهم نوحٌ، لأنهم كانوا فيما ذُكِرَ قومٌ يحبونَ الأموال والأولاد.

وقوله: «مالَكُم لاتَرْجُونَ لله وَقاراً» مالكم لاتَرَوْنَ للهِ عَظَمَةً.

وقوله: «وَقَد خَلَقَكُمْ أطْوَاراً»، يقولُ: وقد خلقكم حالاً بعد حالٍ، طوراً نُطْفَةً، وطوراً عَلَقَةً وطوراً مُضْغَةً.

القَـوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِـهِ تَعـالَى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ

﴿نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مخبراً عن قِيلِ نوحٍ صلواتُ الله وسلامه عليه، لقومِه المشركينَ بربهم، محتجاً عليهم بحججِ الله في وحدانيته: «أَلَمْ تَرَوْا» أيها القومُ فتعتَبِرُوا «كَيْفَ خَلَقَ الله سَبْعَ سَمَواتٍ طِباقاً»، بعضها فوقَ بعضٍ، والطباقُ: مصدرٌ من قولهم: طابقت مطابقة وطباقاً، وإنما عنى بذلك كيف خلق الله سبعَ سمواتٍ، سماءً فوقَ سماءٍ مطابقةٍ.

وقوله: «وَجَعَلَ القَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً»، يقولُ: وجعلَ القمرَ في السمواتِ السبعِ نوراً، «وَجَعَلَ الشَّمْسَ»، فيهنَّ «سِراجاً».

«والله أَنْبَتَكُم مِنَ الأَرْضِ نباتاً»، يقولُ: والله أنشأكم من ترابِ الأرض، فخلقكم منه إنشاءً «ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيها»، يقولُ: ثم يعيدكم في الارضِ كما كنتم تراباً فيصيركم كما كنتم من قبلِ أنْ يخلقكم «ويُخْرِجُكُمْ إخْراجاً»، يقولُ ويخرجكم منها إذا شاء أحياءً كما كنتم بشراً من قبلِ أنْ يُعيدَكُمْ فيها، فيصيركم تراباً إخراجاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ نوحٍ لقومِهِ، مُذَكِّرَهُمْ نِعَمَ رَبِّه: «وَالله جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ بِساطاً»، تستقرُّون عليها وتمتهدونها.

وقوله: «لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلاً فِجاجاً»، يقولُ: لتسلكوا منها طرقاً صِعاباً متفرقةً، والفِجاجُ: جمع فَجٍّ، وهو الطريقُ.

وقـولـه: «قـال نُوحٌ رَبِّ إنَّهُمْ عَصَـونِي»، فخالفوا أمري، وردُّوا عليّ مادَعَوْتُهم إليه من الهدى والرشاد «واتَّبعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مالُهُ وَوَلَدُهُ إلا خَساراً»، يقولُ: واتبعوا في معصيتِهم إيَّايَ مَنْ دعاهم الى ذلك، ممن كَثُرَ مالهُ وولدهُ، فلم تَزِدْهُ كثرةُ مالِهِ وولدِهِ إلا خساراً، بُعداً من الله، وذهاباً عن مَحَجَّةِ الطريق.

وقوله: «وَمَكَرُوا مَكراً كُبَّاراً»، يقولُ: ومكروا مكراً عظيماً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: عن إخبار نوحٍ، عن قومِهِ: «وقالوا لاتَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وُدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعوقَ وَنَسْراً»، كان هؤلاء نفراً من بني آدم فيما ذُكِرَ عن آلهة القوم التي كانوا يعبدونها. وقيل: هذه اسماء اصنامِ قومِ نوحٍ.

وقوله: «وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً»، يقول تعالى ذِكْرُه: مخبراً عن قِيل نوحٍ: وقد ضَلَّ بعبادةِ هذه الأصنام التي أُحْدِثَتْ على صُورِ هؤلاء النفرِ المسمين في هذا الموضع كثيرٌ من الناسِ فنُسِبَ الضَّلالُ إذ ضَلَّ بها عَابِدُوها الى أنها المُضِلَّةُ.

وقوله: «وَلا تَزِدِ الظالمينَ إلا ضَلالاً»، يقولُ: ولا تَزِدِ الظالمين أنفسهم بكفرِهم بآياتِنا الا ضلالاً: إلا طبعاً على قلبه. حتى لايهتدي للحقِّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾

يعني تعـالى ذِكْرُه: بقوله: «مِمَّا خَطِيئاتِهم»، مِنْ خطيئاتِهم «أغرقوا»،

والعربُ تجعلُ «ما» صلة فيما نُويَ به مذهب الجزاء، كما يقال: أينما تَكُنْ أَكُنْ، وحيثما تَجْلِس أَجْلِس، ومعنى الكلام: من خطيئاتهم أُغْرِقُوا.

وقوله: «فأَدْخلوا ناراً» جهنم «فَلَم يَجدوا لَهُمْ مِنْ دُونِ الله أَنْصاراً»، تقتص لهم مِمَّن فعلَ ذلك بهم، ولا تحولُ بينهم وبين مافُعِلَ بهم.

وقوله: «وَقال نُوحٌ رَبِّ لاتَذَرْ على الأَرْضِ مِنَ الكافِرينَ دَيَّاراً»، ويعني بالدَّيارِ مَنْ يدورُ في الأرضِ، فيذهبُ ويجيءُ فيها وهو فَيعال من الدوران ديواراً، اجتمعت الياء والواو، فسبقت الياء الواو وهي ساكنة، وأُدغمت الواو فيها، وصيرتا ياء مشددة، كما قيل: الحيّ القيام من قمت، وإنما هو قيوام. والعربُ تقول: ما بها ديارٌ ولا عريبٌ، ولا دويٌّ، ولاصافرٌ، ولا نافخُ ضِرْمةٍ، يعْني بذلك كله: مابها أحدٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مخبراً عن قِيل نوحٍ في دعائه اياه على قومه: إنك ياربِّ إنْ تَذَرِ الكافرينَ أحياءً على الارضِ، ولم تُهْلِكهم بعذاب من عندكَ «يُضِلُّوا عِبادَكَ» الذين قد آمنوا بكَ، فيصدُّوهُمْ عن سبيلكَ، «وَلا يَلِدُوا إلَّا فاجراً» في دِينكَ «كفَّاراً» لنعمتكَ.

وذُكِرَ أنَّ قِيلَ نوحٍ هذا القول ودعاءَهُ هذا الدعاءَ، كان بعد أنْ أوحى إليه رَبُّه «أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ».

وقوله: «رَبِّ اغفِر لي وَلِوالِدَيَّ» يقولُ: ربِّ اعْفُ عني، واستر عليَّ

ذُنـوبي وعلى والديَّ «ولِمَنْ دَخَلَ بَيتِيَ مُؤْمِناً»، يقولُ: ولمن دخل مسجدي ومصلايَ مُصَلِّياً مؤمناً، يقولُ: مصدقاً بواجبِ فَرْضِكَ عليه.

وقـوله: «ولِلْمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِناتِ»، يقـول: ولـلمصدقيـنَ بـتوحيدكَ والمصدّقاتِ.

وقـولـه: «وَلاتَزِدِ الظَالِمين إلَّا تَباراً»، يقولُ: ولا تزدِ الظالمينَ أنفسهم بكفرِهم إلا خساراً.

سُورَةُ الجِنّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾

يقول جَلَّ ثناؤه: لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ، أوحى الله إليَّ «أنَّهُ استَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الجِنِّ»، هذا القرآن «فقالوا» لقومهم لما سمعوهُ «إنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً يَهْدي الى الرُّشْدِ»، يقولُ: يدلُّ على الحق وسبيلِ الصواب «فآمَنَّا بِهِ»، يقولُ: فصدَّقْناهُ «وَلَن نُشْرِكَ بربِّنا أحداً» من خَلْقِه.

وقوله: «وأنّه تعالى جَدُّ ربِّنا»، معناه: تَعالتْ عَظَمةُ رَبِّنا وقُدْرَتُه وسلطانُه.

وإنما قلنا ذلك لأن للجدّ في كلامِ العرب معنيين: أحدهما الجَدُّ الذي هو أبو الأبِ، أو أبو الأمِ، وذلك غيرُ جائزٍ أنْ يُوصَفَ به هؤلاء النفر الذين وصفهم الله بهذه الصفةِ، وذلك أنهم قد قالوا: «فآمنا به ولن نشركَ بربنا أحداً» ومن وصف الله بأنَّ له ولداً أو جداً وهو أبو أبٍ أو أبو أمٍ، فلا شكَّ أنه من المشركين، والمعنى الآخر: الجَدُّ الذي بمعنى الحظّ، يقال: فلان ذو جَدٍ في هذا الامر: إذا كان له حظٌّ فيه، وهو الذي يقال له بالفارسية البَخْت، وهذا المعنى الذي قصده هؤلاء النفرُ من الجنِّ بقِيلِهم «وأنَّهُ تعالى جَدُّ رَبِّنا»، إنْ شاء الله. وإنما عنَوا أنَّ حَظْوَتَهُ من المُلْكِ والسلطان والقدرة والعظمة عاليةٌ، فلا يكون

له صاحبةٌ ولا ولدٌ، لأنَّ الصاحبةَ إنما تكونُ للضعيفِ العاجزِ الذي تضطرهُ الشهوةُ الباعثةُ إلى اتخاذها، وأنَّ الولدَ إنما يكون عن شهوةٍ أزعجته الى الوِقاعِ الذي يحدثُ منه الولدُ، فقال النفرُ من الجنِّ، عَلاَ مُلْكُ رَبِّنا وسُلطانُه وقدرته وعظمته أنْ يكونَ ضعيفاً ضَعْفَ خَلْقِه الذين تَضْطرُّهُم الشهوةُ الى اتخاذِ صاحبةٍ، أو وقاعِ شيء يكون منه ولدٌ.

وقد بَيَّنَ عن صحةِ ماقلنا في ذلك إخبارُ الله عنهم أنهم إنما نَزَّهُوا الله عَن اتخاذ الصاحبةِ والولدِ بقوله: «وأَنَّهُ تَعالى جَدُّ رَبِّنا ما اتَّخذَ صَاحِبَةً ولا وَلَداً»، يقال منه: رجل جَدِّيٌّ وجديدٌ ومجدودٌ: أي ذُو حظٍ فيما هو فيه.

وقوله: «ما اتَّخذَ صَاحِبةً»، يعني: زوجةً «وَلا وَلَداً».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾

يقولُ عَزَّ وجَلَّ مخبراً عن قِيلِ النفر من الجنِّ الذين استمعوا القرآن «أنَّه كَان يَقُول سَفِيهُنا»، وهو إبليس، وأما الشَّطَط في القول، فإنه ماكان تَعَدِّياً[1].

وقوله: «وأَنَّا ظَنَنَّا أنْ لَنْ تَقولَ الإنْسُ والجنُّ على الله كَذِباً»، يقولُ: قالوا: وأنا حَسِبْنا أنْ لن تَقول بنو آدم والجن على الله كذباً من القولِ، والظنُّ هاهنا بمعنى الشكّ، وإنما أنكر هؤلاء النفر من الجنّ أنْ تكون علمتْ أنَّ أحداً يجترئُ على الكذب على الله لما سمعت القرآن، لأنهم قبل أنْ يسمعوهُ وقبل

(١) فيدخل فيه الجور والكذب، وهو وصفه ـ تعالى ـ بالشريك والولد (انظر: زاد المسير: ٣٧٨/٨).

أنْ يعلموا تكذيبَ الله الزاعمينَ أن لله صاحبةً وولداً، وغير ذلك من معاني الكفر كانوا يحسبونَ أنَّ ابليسَ صادقٌ فيما يدعو بني آدم إليه من صنوفِ الكفر، فلما سمعوا القرآن أيقنوا انه كان كاذباً في كُلّ ذلك، فلذلك قالوا: «وأنَّهُ كانَ يَقولُ سَفيهنا على الله شَطَطاً»، فسمعوه سفيهاً.

وقوله: «وأنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الإِنْس يَعُوذُونَ برجالٍ مِن الجنِّ»، يقول تعالى ذِكْرُه: مخبراً غن قِيلِ هؤلاء النفر: وأنه كانَ رجالٌ من الإنسِ يستجيرونَ برجالٍ من الجنِّ في أسفارهم إذا نزلوا منازلهم.

وقوله: «فَزادوهم رَهَقاً»، معناه: فزادَ الإِنسَ الجنُّ بفعْلِهم ذلك إثماً، وذلك زادوهم به استحلالاً لمحارم الله، والرَّهَقُ في كلام العرب: الإِثمُ وغِشيانُ المحارم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مخبراً عن قِيل هؤلاء النفرِ من الجنِّ «وأنَّهُم ظَنُّوا كما ظَنَنْتُمْ أنْ لَنْ يَبْعَثَ الله أَحَـداً»، يعني: أن الرجالَ من الجنِّ ظنوا كما ظَنَّ الرجالُ من الانسِ أنْ لن يبعثَ الله أحداً رسولاً الى خلقه، يدعوهم إلى توحيده.

وقوله: «وأنَّا لَمَسْنا السَّماء»، يقولُ عَزَّ وجَلَّ مخبراً عن قيلِ هؤلاء النفر: وأنَّا طلبنا السماءَ وأردناها، «فَوَجَدْناها مُلِئَتْ»، يقولُ: فوجدناها مُلِئَتْ «حَرَساً شَديداً»، يعني: حَفَظَةً «وشُهُباً»، وهي جمع شهابٍ، وهي النجومُ التي كانت تُرْجَمُ بها الشياطينُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾

يقـولُ عَزَّ وجَلَّ: وإنَّا كنا معشر الجنِّ نقعدُ من السماءِ مقاعد لنسمعَ مايحدثُ، ومايكونُ فيها، «فَمَن يَستمع الآن»، فيها مِنَّا «يَجد لَهُ شِهاباً رَصَدَاً»، يعني: شهابَ نارٍ قد رُصِدَ له به.

وقوله: «وأنَّا لانَدْرِي أشرٌ أريدَ بِمَن في الأرْض أمْ أرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً»، يقولُ عَزَّ وجَلَّ مخبراً عن قِيل هؤلاء النفر من الجنِّ: وأنا لاندري أعذاباً أرادَ الله أنْ يُنْزِلَهُ بأهلِ الأرض، بمنعهِ إيانا السمعَ من السماءِ ورجمهِ مَن استمع منا فيها بالشُّهب «أمْ أرادَ بِهمِ ربُّهُمْ رَشَداً»، يقول: أمْ أرادَ بهم ربهم الهدى بأن يبعث منهم رسولاً مرشداً يرشدهم الى الحقِّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝١١ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ۝١٢ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ۝١٣﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: مخبـراً عن قيلهم «وأنَّـا مِنَّـا الصَّـالحون»، وهم المسلمون العاملون بطاعةِ الله «ومنا دُون ذلك»، يقولُ: ومنا دونَ الصالحينَ «كنـا طرائقَ قدَداً»، يقـول: وأنا كنا أهواءً مختلفةً، وفِرَقاً شتَّى، منا المؤمنُ والكافر، والطرائق: جمع طريقة، وهي طريقةُ الرجل ومذهبه، والقدد: جمع قدّة وهي الضروبُ والأجناسُ المختلفة.

وقوله: «وأَنَّا ظَنَنَّا أنْ لَنْ نُعْجزَ الله في الأَرْضِ»، يقول: و أنَّا علمنا أنْ لن نُعجزَ الله في الارضِ إن أراد بنا سوءً «ولَنْ نُعْجزَهُ هَرَباً»، إن طلبنا فنفوتَهُ، وإنما وصفوا الله بالقدرةِ عليهم حيث كانوا «وأنَّا لَمَّا سَمِعْنا الهُدى آمنَّا بِهِ»، يقولُ: قالوا: وأنا لما سمعنا القرآن الذي يهدي الى الطريقِ المستقيمِ «آمنا به»، يقولُ: صَدَّقْنَا به، وأقْرَرْنَا أنه حَقٌّ من عندِ الله فمن يؤمن بربه «فَلا يَخافُ بَخْساً وَلا رَهَقاً»، يقولُ: فَمَنْ يصدقْ بربه «فلا يخافُ بخساً» يقولُ: لايخافُ أنْ ينقص من حسناتِه، فلا يُجَازى عليها، «ولا رَهقاً» ولا إثما يحمل عليه من سيئات غيره، أو سيئة يعملها.

القَوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مخبراً عن قيل النفر من الجنِّ «وأنَّا مِنَّا المُسلِمُون»، الذين قد خَضَعُوا لله بالطاعةِ «وَمِنَّا القاسِطُونَ» وهم الجائرونَ عن الاسلامِ وقَصْدِ السبيل.

وقوله: «فَمَنْ أسْلَمَ فأولَئِكَ تَحرَّوا رَشداً»، يقولُ: فمن أسلم وخَضَعَ لله بالطاعةِ، فأولئكَ تَعَمَّدوا وتَرَجَّوْا رَشداً في دينهم. «وأما القاسطونَ»، يقولُ: الجائرونَ عن الاسلامِ «فكانُوا لجَهَنَّم حَطباً»، تُوقَدُ بهم.

القَـوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِـهِ تَعـالَى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: وأن لو استقام هؤلاء القاسطون عن طريقة الحقِّ والاستقامة «لأسْقَيْناهم ماءً غدَقاً»، يقولُ: لوسَّعْنا عليهم في الرزقِ، وبسطناهم

في الدنيا «لنفتنهم فيه» يقولُ: لنَخْتَبِرَهُمْ فيه.

وقوله: «وَمَن يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّه يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً»، يقولُ عَزَّ وجَلَّ: ومَنْ يُعرِضْ عن ذِكْرِ رَبِّه الذي ذكره به، وهو هذا القرآن، ومعناه: ومَنْ يُعْرِضْ عن استماع القرآن واستعمالِهِ، «يسلكه الله عذاباً صعداً»، يقولُ: يسلكه الله عذاباً شديداً شاقاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۝١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ أوحيَ إليَّ أنه استمع نفرٌ من الجنِّ» «وَأَنَّ المسَاجِدَ لله فَلا تَدْعوا»، أيها الناسُ «مَعَ الله أحداً» ولا تُشْرِكُوا به فيها شيئاً، ولكن أفْرِدُوا له التوحيدَ، وأخْلِصُوا له العبادةَ.

وقوله: «وأَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْد الله يَدْعُوهُ كادوا يَكونُونَ عَلَيه لِبَداً»، يقولُ: وأنه لما قام محمدٌ رسولُ الله ﷺ يدعو الله يقولُ: «لا إلـه إلا الله» «كادوا يَكُونُون عَلَيْه لِبَداً»، يقولُ: كادوا يكونونَ على محمدٍ جماعاتٍ بعضُها فوقَ بعضٍ، واحِدُها: لبدة.

وذلك خبرٌ من الله عن أنَّ رسولَهُ محمداً ﷺ لما قام يَدْعُوه كادتِ العربُ تكونُ عليه جميعاً في إطفاءِ نورِ الله.

وإنما قلنا ذلك لأن قوله: «وأنَّه لَمَّا قام عَبْدُالله يَدْعُوهُ»، عقيبَ قولِهِ: «وأنَّ المَساجِدَ لله» وذلك من خبر الله فكذلك قولُهُ: «وأنه لَمَّا قامَ عَبْدالله يَدْعُوهُ»، وأخرى أنه تعالى ذِكْرُه أتبع ذلك قوله: «فَلا تَدْعُوا مَعَ الله أَحَداً»، فمعلومٌ أنَّ الذي يتبعُ ذلك الخبرَ عما لقي المأمورُ بأنْ لايدعو مع اللهِ أحداً في ذلك، لا الخبر عن كثرةِ إجابةِ المدعوينَ وسرعتِهم الى الإجابة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾

اختلفت القَرَأَةُ في قراءةِ قولـه «قُل إنَّما أدْعُو رَبي»، فقرأته عامة قَرأةِ المدينةِ والبصرةِ وبعضُ الكوفيين على وجهِ الخبر «قَال» بالألف، ومَنْ قرأ ذلك كذلك، جعله خبراً من الله عن نبيه محمدٍ ﷺ أنه قال: فيكون معنى الكلام: وأنه لما قام عبدُ الله يدعوه تَلَبَّدُو عليه، قال لهم: إنما أدعُو ربي، ولا أشركُ به أحداً، وقرأ ذلك بعض المدنيين وعامة قَرأة الكوفة على وجهِ الأمر من الله عَزَّ وجَلَّ لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ، للناسِ الذين كادوا يكونون عليك لِبَداً: إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحداً.

والصـوابُ من القـولِ في ذلـك أنهما قراءتانِ معروفتان، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيبٌ.

وقوله: «قُل إني لاأمْلِكُ لَكُم ضَرّاً وَلارَشَداً»، يقول تعالى ذِكْرُه: لنبيه محمدٍ ﷺ: قل يامحمدُ، لمشركي العربِ الذين رَدُّوا عليك ماجِئْتَهُمْ به من النصيحةِ: إني لاأملك لكم ضرّاً في دينكم ولا في دنياكم ولا رشداً أرشدكم، لأن الذي يملكُ ذلكَ، الله الذي له مُلْكُ كلِّ شيء.

وقـولـه: «قل إنِّي لَنْ يُجيرِني مِن الله أحَدٌ»، من خَلْقهِ إنْ أراد بي أمراً، ولا ينصرني منه ناصرٌ.

وقوله: «ولن أجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلتَحَداً» يقولُ: ولن أجدَ من دونِ الله ملجأً ألجأ إليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ لمشركي العرب: إني لاأملكُ لكم ضرّاً ولا رشداً «إلاَّ بَلاغاً مِنَ الله وَرِسالاتِهِ»، يقولُ: إلاَّ أنْ أبلغكم من الله ماأمـرني بتبليغكم إياه. وإلا رسالاته التي أرسلني بها إليكم، فأما الرشدُ والخذلانُ فَبِيدِ الله، هو مالكُه دونَ سائرِ خَلْقِه يهدي مَنْ يشاء ويخذل مَنْ أراد.

وقوله: «وَمن يَعْصِ الله وَرَسولَهُ فإنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّم»، يقول تعالى ذِكْرُه: ومَنْ يعص الله فيما أمره ونهاه، ويكذِّب به ورسوله، فجحدَ رسالاته، فإنَّ له نارَ جهنم يصلاها «خالِدِينَ فيها أبَداً»، يقولُ: ماكثين فيها أبداً الى غير نهايةٍ.

وقوله: «حتى إذا رأوا مايُوعَدُون»، يقول تعالى ذِكْرُه: إذا عَايَنُوا ما يَعِدُهم رَبُّهم من العذاب وقيام الساعة «فَسيَعْلَمونَ مَنْ أضْعَفُ ناصِراً وأقَلُّ عَدَداً» أجُنْدَ الله الذي أشركوا به، أمْ هؤلاء المشركون به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ: قُلْ يا محمدُ، لهؤلاء المشركين بالله من قومكَ: ماأدري أقريبٌ مايعدُكُم رَبُّكم من العذابِ وقيام الساعة «أمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أمَداً»، يعني: غايةً معلومةً تطولُ مدتها.

وقوله: «عالم الغَيْب فَلا يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أحَداً إلاّ مَنِ ارتَضَى مِنْ رَسُولٍ»، يعني: بعالم الغيب: عالم ماغَاب عن أبصارِ خَلْقهِ، فلم يروه فلا يُظْهِر على غيبه أحداً، فيعلمه، أو يُرِيَهُ إياهُ إلا مَنِ ارتضى من رسولٍ، فإنه يُظْهِرُه على ماشاء من ذلك.

وقوله: «فإنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بين يَدَيْهِ ومنْ خَلْفِهِ رَصداً»، يقولُ: فإنه يرسلُ من أمامِهِ ومنْ خَلْفِه حَرَساً وحَفَظَةً يحفظونه.

وقوله: «لِيَعلْمَ أنْ قَدْ أبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهم»، اختلف أهلُ التأويل في الذي عُني بقوله: «لِيعلمَ»، فقال بعضهم: عُني بذلك رسولُ الله ﷺ، وقالوا: معنى الكلام: ليعلَم رسولُ الله ﷺ أنْ ابلغتِ الرُّسُلُ قَبْلَهُ عن رَبِّها.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ليعلمَ المشركونَ أنّ الرسلَ قد بَلَّغُوا رسالاتِ ربهم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ليعلم محمدٌ أنْ قد بلغتِ الملائكةُ رسالاتِ ربهم.

وأولى هذه الاقوالِ عندنا بالصواب، قولُ مَنْ قال: ليعلمَ الرسولُ أنَّ الرسلَ قَبْلَهُ قد أبلغوا رسالاتِ رَبِّهم، وذلك أن قوله: «لِيَعْلَمَ» من سبب قوله: «فإنّه يَسْلُكُ مِنْ بين يَدَيْه وَمِن خَلفه رَصَداً» وذلك خبرٌ عن الرسولِ، فمعلومٌ بذلك أنَّ قوله: ليعلم من سببِهِ إذْ كان ذلك خبراً عنه.

وقوله: «وأحاطَ بِمَا لَدَيْهم» يقولُ: وعلم بكلٍّ ماعندهم «وأحصى كُلَّ شَيء عَدَداً»، يقولُ: عَلم عَدَدَ الأشياء كلها، فلم يَخْفَ عليه منها شيء.

سُورَةُ المُزَّمِّل

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤﴾

يعني بقوله: «يا أَيُّهَا المُزَّمِّلُ» هو الملتفُّ بثيابِهِ. وإنما عنى بذلك نبيَّ الله ﷺ.

واختلف أهلُ التأويل في المعنى الذي وَصَفَ اللهُ به نبيه ﷺ في هذه الآيةِ من التزمُّلِ، فقال بعضهم: وصفه بأنه مُتزملٌ في ثيابه، متأهبٌ للصلاةِ. وذلك قول قتادة.

وقال آخرون: وصفه بأنه متزمِّلٌ النبوّةَ والرسالةَ. وذلك قول عكرمة.

والذي هو أوْلى القولين بتأويلِ ذلك، ما قاله قتادة، لأنه قد عقبه بقوله: «قُم اللَّيْلَ» فكان ذلك بياناً عن أنَّ وصفه بالتزمُّلِ بالثيابِ للصلاةِ، وأنَّ ذلك هو أظهر مَعْنَيَيْهِ.

وقوله: «قُمِ اللَّيْلَ إلاَّ قَلِيلاً»، يقول لنبيه ﷺ: «قم الليل» يا محمدُ كُلَّهُ «إلا قليلاً» منه «نِصْفَهُ»، يقول: قُمْ نصفَ الليلِ «أو انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً، أوْ زِدْ عَلَيْهِ»، يقول: أو زِدْ عليه، خَيَّرَهُ اللهُ تعالى ذِكْرُه حين فَرَضَ عليه قيامَ الليلِ

بين هذه المنازلِ أيَّ ذلك شاءَ فعلَ، فكان رسولُ الله ﷺ وأصحابه فيما ذُكِرَ يقومون الليلَ، نحو قيامِهم في شهرِ رمضانَ فيما ذُكِرَ حتى خفف ذلك عنهم.

وقوله: «وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً»، يقول جلّ وعزّ: وبَيِّنِ القرآنَ إذا قرأته تَبْييناً، وتَرَسَّلْ فيه ترسُّلاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾

اختلف أهلُ التأويلِ في تأويل قوله: «إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْك قَوْلاً ثَقِيلاً»، فقال بعضهم: عُني به: إنَّا سنلقي عليكَ قولاً ثقيلاً العملُ به.

وقال آخرون: بل عنى بذلك أن القولَ عَيْنَهُ ثقيلٌ مَحْمَلُه.

وأوْلى الأقوالِ بالصوابِ في ذلك أنْ يقالَ: إنَّ الله وصفه بأنه قولٌ ثقيلٌ، فهو كما وصفه به ثقيلٌ مَحْمَلُهُ ثقيلُ العملُ بحدودِهِ وفرائضه.

وقوله: «إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً»، يعني جلّ وعزّ بقوله: إنَّ ناشئةَ الليلِ: إنَّ ساعات الليل، وكلّ ساعةٍ من ساعاتِ الليل ناشئة من الليل.

ويعني بقوله: «هِيَ أَشَدُّ وطْئاً» ناشئة الليل أشدُّ ثباتاً من النهارِ وأثبتُ في القلبِ، وذلك أنَّ العملَ بالليل أثبتُ منه بالنهار. وحُكي عن العربِ وطئنا الليلَ وطأً: إذا ساروا فيه.

وقوله: «وأَقْوَمُ قِيلاً»، يقول: وأصوبُ قراءة.

قوله: «إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلاً»، يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: إنَّ لكَ يا محمدُ في النهار فراغاً طويلاً تَتَّسِعُ به، وتتقلَّبُ فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَاذْكُرْ» يا محمدُ «اسْمَ رَبِّكَ» فادْعُهُ به «وَتَبَتَّلْ إلَيْهِ تَبْتِيلاً»، يقول: وانقطعْ إليه انقطاعاً لحوائجكَ وعبادتكَ دونَ سائرِ الأشياءِ غيره، وهو من قولهم: تبتلتُ هذا الأمرَ: ومنه قِيلَ لأمِّ عيسى بن مريم البَتُول، لانقطاعِها إلى اللهِ، ويقال للعابدِ المنقطعِ عن الدنيا وأسبابِها إلى عبادةِ الله: قد تَبَتَّلَ؛ ومنه الخبرُ الذي رُوي عن النبيِّ ﷺ «أنه نهى عن التبتُّل»[1].

وقوله: «رَبُّ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ»، يعني: رَبُّ المشرقِ والمغربِ وما بينهما من العالم.

وقوله: «لا إلَهَ إلاَّ هُوَ»، يقول: لا ينبغي أن يُعبدَ إلهٌ سوى الله الذي هو ربُّ المشرقِ والمغربِ.

وقوله: «فاتَّخِذْهُ وَكِيلاً» فيما يأمركَ وفَوِّضْ إليه أسبابَكَ.

وقوله: «وَاصْبِرْ على ما يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: اصبرْ يا محمدُ على ما يقولُ المشركونَ من قومكَ لكَ، وعلى أذاهم، واهجرهم في الله هجراً جميلاً. والهجرُ الجميلُ: هو الهجرُ في ذاتِ الله، كما قال عزّ وجلّ: «وَإذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا فأعْرِضْ عَنْهُمْ حتى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ» [الأنعام: ٦٨]. . . الآية، وقيل: إن ذلك نُسخ.

---

(١) أي الانقطاع عن النساء وترك النكاح انقطاعاً إلى عبادة الله. وهو حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: «رَدَّ رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل، ولو أذن له لاختَصَيْنَا»، وهو في الصحيحين: البخاري (٥٠٧٣) و(٥٠٧٤)، ومسلم (١٤٠٢)..

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبينَ»، فَدَعْني يا محمدُ والمكذِّبينَ بآياتي «أُولي النَّعْمَةِ»، يعني: أهل التنعم في الدنيا «وَمَهِّلْهُمْ قليلاً»، يقول: وأخِّرْهُمْ بالعذابِ الذي بسطته لهم قليلاً حتى يبلغ الكتابُ أجله.

وقوله: «إنَّ لَدَيْنا أنْكالاً وجَحِيماً»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ عندنا لهؤلاء المكذِّبينَ بآياتنا أنكالاً، يعني: قيوداً، واحدها: نِكْل.

وقوله: «وَجَحِيماً»، يقول: وناراً تسعر «وَطَعاماً ذَا غُصَّةٍ»، يقول: وطعاماً يَغَصُّ به آكِلُه، فلا هو نازلٌ عن حَلْقِه، ولا هو خارجٌ منه.

وقوله: «وَعَذَاباً أليماً»، يقول: وعذاباً مؤلماً موجِعاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ لدينا ـ لهؤلاء المشركينَ من قريشٍ الذين يؤذونك يا محمدُ، العقوباتِ التي وَصَفَها في يوم تَرْجُفُ الأرضُ والجبالُ؛ ورُجْفانُ ذلك: اضطرابُهُ بِمَنْ عليه، وذلك يوم القيامة.

وقوله: «وكانَتِ الجبالُ كَثِيباً مَهِيلاً»، يقول: وكانت الجبالُ رملاً سائلاً متناثراً. والمَهِيلُ: مفعول من قولِ القائلِ: هِلْتُ الرملَ فأنا أهيلُه، وذلك إذا حُرِّكَ أسفلُه، فانهالَ عليه من أعلاه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى ذكره: «إنا أَرْسَلْنا إلَيْكُمْ» أيها الناسُ «رَسُولاً شاهِداً عَلَيْكُمْ» بإجابةِ مَنْ أجاب منكم دعوتي، وامتناعِ مَن امتنع منكم من الإجابةِ، يوم تلقوني في القيامة «كَما أَرْسَلْنا إلى فِرْعَوْنَ رَسُولاً»، يقول: مِثْلَ إرسالنا مِنْ قَبْلِكُمْ إلى فرعون مصرَ رسولاً بدعائهِ إلى الحقِّ، «فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ» الذي أرسلناه إليه «فأَخَذْناهُ أخْذاً وَبِيلاً»، يقول: فأخذناه أخذاً شديداً، فأهلكناهُ ومَنْ معه جميعاً، وهو من قولهم: «كَلأٌ مُسْتَوْبِلٌ، إذا كان لا يُسْتَمْرَأُ»، وكذلك الطعام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمشركينَ به: فكيف تَخافُونَ أيها الناسُ يوماً يجعلُ الولدانَ شِيباً إنْ كفرتم باللهِ، ولم تصدِّقُوا به.

وقوله: «يَوْماً يَجْعَلُ الوِلْدَانَ شِيباً»، يعني يومَ القيامة، وإنما تَشِيبُ الولدانُ من شِدَّةِ هَوْلِهِ وكَرْبه.

وقوله: «السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: السماءُ مُثْقَلَةٌ بذلك اليومِ متصدِّعةٌ متشققة.

وقوله: «كانَ وَعْدهُ مَفْعُولاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: كان ما وَعَدَ اللهُ من أمرٍ أنْ يفعله مفعولاً، لأنه لا يخلف وعده، وما وَعَدَ أنْ يفعله، تكوينه يومَ تكونُ الولدانُ فيه شيباً يقول: فاحذروا ذلك اليوم أيها الناسُ، فإنه كائنٌ لا محالة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: إنَّ هذه الآياتِ التي ذكر فيها أمر القيامةِ وأهوالها، وما هو فاعلٌ فيها بأهلِ الكفر «تذكرةٌ»، يقول: عبرةٌ وعِظةٌ لمن اعتبر بها واتَّعَظَ «فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إلى رَبِّهِ سَبيلًا»، يقول: فمن شاء من الخَلْقِ اتَّخَذَ إلى رَبِّه طريقاً بالإيمانِ به، والعمل بطاعته.

وقوله: «إنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أنكَ تَقُومُ أدْنى مِنْ ثُلُثَي اللَّيْل»، يقول لنبيه محمدٍ ﷺ: إنَّ ربك يا محمدُ يعلمُ أنكَ تقومُ أقرب من ثلثي الليل مصلياً، ونصفه وثلثه.

وقوله: «وطَائِفَةٌ مِنَ الَّذينَ مَعَكَ»، يعني: من أصحابِ رسولِ الله ﷺ الذين كانوا مؤمنينَ بالله حين فَرَضَ عليهم قيامَ الليل.

وقوله: «وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ والنهارَ» بالساعاتِ والأوقاتِ.

وقوله: «عَلِمَ أنْ لَنْ تُحْصُوهُ»، يقول: عَلِمَ رَبُّكم أيها القومُ الذين فرض عليهم قيام الليل أنْ لن تُطِيقُوا قيامَهُ «فَتابَ عَلَيْكُمْ» إذْ عجزتم وضعفتم عنه، ورجعَ بكم إلى التخفيفِ عنكم.

«فَاقْرَءُوا ما تَيَسَّرَ مِنَ القُرْآنِ»، يقول: فاقرءوا من الليلِ ما تَيَسَّرَ لكم من القرآنِ في صلاتكم وهذا تخفيفٌ من الله عزّ وجلّ عن عبادِه فَرْضَهُ الذي كان فرض عليهم بقوله: «قُمِ اللَّيْلَ إلاَّ قَلِيلاً، نِصْفَهُ أو انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً».

وقولـه: «عَلِمَ أنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: علم رَبُّكم أيها المؤمنونَ أنْ سيكونُ منكم أهلُ مرضٍ قد أضعفَهُ المرضُ عن قيامِ الليل، «وآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ» في سَفَرٍ «يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ» في تجارةٍ قد سافروا لطلبِ المعاشِ فأعجزهم، فأضعفهم أيضاً عن قيامِ الليلِ «وآخَرُونَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ»، يقـول: وآخرون أيضاً منكم يجاهدونَ العدوَّ فيقاتلونهم في نُصرةِ دين الله، فَرَحِمَكُم اللهُ فخفَّفَ عنكم، ووضعَ عنكم فَرْضَ قيامِ الليل «فاقْرَؤُوا ماتَيَسَّرَ مِنْهُ»، يقول: فاقرؤوا الآن إذْ خَفَّفَ ذلك عنكم من الليلِ في صلاتكم ماتيسَّر من القرآنِ. والهاء في قوله: «منه» من ذِكْرِ القرآن.

يقـول: وأقيمـوا المفروضةَ وهي الصلواتُ الخمسُ في اليومِ والليلة. «وآتُوا الزَّكاةَ»، يقول: وأعطوا الزكاةَ المفروضةَ في أموالِكم أهلَها.

قولـه: «ومَـا تُقَدِّمُوا لأنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْراً وأعْظَمَ أجْراً»، يقول: وما تُقَدِّمُوا أيها المؤمنونَ لأنفسِكم في دارِ الدنيا من صدقةٍ أو نفقةٍ تنفقونها في سبيل الله، أو غير ذلك من نفقةٍ في وجوهِ الخير، أو عملٍ بطاعةِ الله من صلاةٍ أو صيامٍ أو حجٍّ، أو غير ذلك من أعمالِ الخير في طلب ماعندَ الله، تَجِدُوهُ عند الله يومَ القيامة في مَعَادِكم، هو خيراً لكم مما قدَّمتم في الدنيا، وأعظم منه ثواباً: أي ثوابُهُ أعظمُ من ذلك الذي قَدَّمْتُموه لو لَمْ تكونوا قدَّمتموه «وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وسَلُوا اللهَ غفرانَ ذنوبِكم يصفحْ لكم عنها. «إن الله غَفُورٌ رَحِيمٌ»، يقول: إنَّ الله ذُو مغفرة لذنوبِ مَنْ تابَ من عبادِه من ذنوبِه، وذُو رحمةٍ أنْ يعاقبهم عليها من بعدِ توبتهم منها.

سورة المدثر

بسم الله الرحمن الرحيم

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧﴾

يقول جلّ ثناؤه: «يا أيُّها المُدَّثِّرُ»: يا أيها المُتَدَثِّرُ بثيابهِ عند نومهِ.

وذُكِرَ أنَّ نبيَّ الله ﷺ قيل له ذلك، وهو متدثرٌ بقطيفةٍ.

وقوله: «قُمْ فأنْذِر»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُمْ من نومكَ فأنذر عذابَ الله قومكَ الذين أشركوا باللهِ، وعبدوا غيره.

وقوله: «وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ورَبَّكَ يا محمدُ فَعَظِّمْ بعبادتهِ، والرغبةِ إليه في حاجاتك دونَ غيرِه من الآلهةِ والأنداد.

وقوله: «وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ»، يعني: اغسلها بالماء وطَهِّرْهَا من النجاسةِ، وذلك أظهر معانيه. وقال ابن عباس وعكرمة وابن زكريا: جسمك فطهِّرْ من الذنوبِ، وهو قول عليه أكثرُ السلف، واللهُ أعلمُ بمراده[1].

وقوله: «والرُّجْزَ فاهجُرْ»، معناه: والأوثانَ فاهجر عبادتَها، واترك خِدْمَتَها.

---

(١) هذا هو اختيار المؤلف من بين عدة أقوال، وقد عبرنا عنه بعبارة المؤلف مع شيء من إعادة الترتيب.

وقوله: «ولا تَمْنُنْ تَسْتكثر»، يعني: ولا تمنن على رَبّكَ من أنْ تستكثرَ عملك الصالح.

وإنما قلت ذلك، لأنَّ ذلك في سياقِ آياتٍ تَقَدَّمَ فيهنَّ أمرُ الله نبيَّهُ ﷺ بالجدِّ في الدعاءِ إليه، والصبرِ على ما يَلْقَى من الأذى فيه، فهذه بأنْ تكونَ من أنواعِ تلكَ، أشبهُ منها بأنْ تكونَ من غيرها.

وقوله: «وَلِرَبِّكَ فاصْبِرْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولربِّكَ فاصبرْ على مالَقِيتَ فيهِ من المكروهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢﴾

يعني[1] جلّ ثناؤه بقوله: «فَإذَا نُقِر في الناقور»[2]: فإذا نُفِخَ في الصُّورِ «فذلك يومئذٍ يومٌ عسير»، يعني: شديدٌ، ثم بَيَّنَ اللهُ على مَنْ يقع، فقال: «على الكافرينَ غير يسير»، يقول: غير هَيِّنٍ.

وقوله: «ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: كِلْ يا محمدُ أمرَ الذي خَلَقْتُه في بطنِ أمهِ وحيداً، لا شيءَ له من مالٍ ولا ولدٍ إليَّ.

وذُكر أنه عُنِي بذلك: الوليد بن المغيرة المخزومي.

---

(١) وقــع في تفسير الآيات ٨ - ١٢ اضـطراب وتـداخـل سببـه سقط في المخـطوطـة والمطبوعات استدركناه من الآثار التي ساقها المؤلف للتدليل على صحة اختياره.

(٢) في الأصل: «يعني جل ثناؤه بقوله: فإذا نقر بالناقور»، ولا شك بسقوط ما أثبتناه.

وقوله: «وَجَعَلْتُ لَهُ مالاً مَمْدُوداً»، اختلف أهلُ التأويل في هذا المالِ الذي ذكره الله، وأخبر أنه جَعَلَهُ للوحيدِ ما هُوَ، وما مَبْلَغُه؟

والصواب من القولِ في ذلك أن يقال كما قال الله: «وَجَعَلْتُ لَهُ مالاً مَمْدُوداً» وهو الكثيرُ الممدودُ عَدَدُه أو مساحتُه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وجعلتُ له بنينَ شهوداً، ذُكِرَ أنهم كانوا عشرة.

وقوله: «وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وبسطتُ له في العيش بسطاً.

وقوله: «ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ثم يأملُ ويرجو أَنْ أَزِيدَهُ من المالِ والولدِ على ما أعطيتهُ «كَلَّا» يقول: ليس ذلك كما يأملُ ويرجو من أَنْ أزيدَهُ مالاً وولداً، وتمهيداً في الدنيا «إِنَّهُ كانَ لآياتِنا عَنِيداً»، يقول: إنَّ هذا الذي خلقته وحيداً كان لآياتنا، وهي حِجَجُ الله على خَلْقِه من الكتب والرسل عنيداً، يعني: معانداً للحقِّ مُجَانِباً له، كالبعيرِ العَنُود.

وقوله: «سأُرْهِقُهُ صَعُوداً»، يقول تعالى ذِكْرُه: سَأُكَلِّفُه مشقةً من العذابِ لا راحةَ له منها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ هذا الذي خلقتُه وحيداً، فَكَّر فيما أنزلَ الله على عبدِه محمدٍ ﷺ من القرآنِ، وقَدَّرَ فيما يقولُ فيه «فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ»، يقول: ثم لُعِنَ كيف قَدَّرَ النازلَ فيه «ثُمَّ نَظَرَ»، يقول: ثم رَوَّى[1] في ذلك «ثُمَّ عَبَسَ»، يقول: ثم قبضَ ما بين عينيه «وَبَسَرَ» يقول: كَلَحَ وَجْهُه.

وقولـه: «ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ثم وَلَّى عن الإيمانِ والتصديقِ بما أنزلَ الله من كتابِه، واستكبرَ عن الإقرارِ بالحقِّ «فقال إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ»، قال: يأثرهُ عن غَيْرِه.

وقوله: «إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ»، يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ الوحيدِ في القرآن «إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ» ماهذا الذي يتلوهُ محمدٌ إلا قولُ البشر، يقول: ماهو إلا كلامُ ابنِ آدم، وما هو بكلامِ الله.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾

يعني تعـالى ذِكْرُه بقوله: «سَأُصْلِيهِ سَقَرَ» سأُورِدُه باباً من أبوابِ جهنمَ اسمهُ سقر، ولم يُجَرَّ سقر لأنه اسمٌ من أسماءِ جهنمَ «وَمَا أَدْرَاكَ ما سَقَرُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأيُّ شيءٍ أدراكَ يا محمدُ أيّ شيء سقر. ثم بَيَّنَ الله تعالى ذِكْرُه

---

(١) رَوَّى: أي تفكَّرَ في الأمر.

ما سقر، فقال: هي نارٌ «لا تُبْقي» مَنْ فيها حَيًّاً «وَلا تَذَرُ» مَنْ فيها ميتاً، ولكنها تحرقهم كُلَّمَا جدّد خلقهم.

وقوله: «لَوَّاحَةٌ للبَشَر»، يعني جلّ ثناؤه: مُغَيِّرَةٌ لبشرِ أهلها، واللوَّاحةُ من نَعْتِ سقر.

وقوله: «عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: على سقر تسعة عشر من الخَزَنة.

وقوله: «ومَا جَعَلْنا أصحَابَ النَّارِ إلاَّ مَلائِكَةً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وما جعلنا خَزَنَةَ النارِ إلا ملائكةً يقول لأبي جهل في قولِهِ لقريشٍ: أما يستطيعُ كلُّ عشرةٍ منكم أنْ تغلبَ منها واحداً؟ فَمَنْ ذا يغلبُ خَزَنَةَ النارِ وهم الملائكة.

وقوله: «ومَا جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إلاَّ فِتْنَةً للَّذِينَ كَفرُوا»، يقول: وما جعلنا عِدَّةَ هؤلاء الخزنةِ إلا فتنة للذين كفروا بالله من مُشركي قريش.

وإنما جعل الله الخبرَ عن عِدَّةِ خَزَنَةِ جهنمَ فتنةً للذين كفروا، لتكذيبهم بذلك، وقول بعضِهم لأصحابِهِ: أنا أَكْفِيكُمُوهُمْ.

وقوله: «لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ليستيقنَ أهلُ التوراةِ والإنجيلِ حقيقةَ ما في كتبهم من الخبرِ عن عِدَّةِ خزنةِ جهنمَ، إذْ وافق ذلك ما أنزلَ الله في كتابه على محمدٍ ﷺ.

وقوله: «وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إيمَاناً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وليزدادَ الذين آمنوا بالله تصديقاً إلى تصديقهم باللهِ وبرسولهِ بتصديقِهم بعدّةِ خَزَنَةِ جهنمَ.

وقوله: «وَلا يرتابَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ وَالمؤْمِنُونَ»، يقول: ولا يشكَّ أهلُ التوراةِ والإنجيلِ في حقيقةِ ذلك والمؤمنون باللهِ من أمةِ محمدٍ ﷺ.

وقوله: «وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ والكافِرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه:

وليقولَ الذين في قلوبهم مَرَضُ النفاقِ، والكافرون بالله من مشركي قريش «ماذَا أَرادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً»، يقول: حتى يُخَوِّفَنَا[1] بهؤلاء التسعة عشرة.

وقوله: «كَذلكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشاءُ ويَهْدِي مَنْ يَشاءُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: كما أَضَلَّ اللهُ هؤلاء المنافقينَ والمشركينَ القائلينَ في خبرِ الله عن عدَّةِ خَزَنَةِ جهنمَ: أيّ شيءٍ أرادَ اللهُ بهذا الخبرِ من المثلِ حتى يُخَوِّفَنا بذكْرِ عِدَّتِهم، ويهتدي به المؤمنونَ، فازدادوا بتصديقِهم إلى إيمانهم إيماناً «كَذلكَ يُضِل اللهُ مَنْ يَشاءُ مِنْ خَلْقِهِ» فيخذله عن إصابةِ الحقِّ «ويَهْدِي مَنْ يَشاءُ» منهم، فيوفِّقهُ لإصابةِ الصوابِ «ومَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ» مِنْ كَثْرَتِهم «إلاَّ هُوَ»، يعني: الله.

وقـوله: «ومَا هِيَ إلاَّ ذكرى للْبَشرِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وما النار التي وصفتها إلا تذكرة ذَكَّرَ بها البشرَ، وهم بنو آدم.

القَــوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ۝٣٢ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝٣٣ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ۝٣٤ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ۝٣٥ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۝٣٦ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ۝٣٧﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «كَلَّا» ليس القولُ كما يقولُ مَنْ زعم أنه يكفي أصحابَه المشركينَ خزنةَ جهنمَ حتى يُجْهِضَهم عنها، ثم أقسم رَبُّنَا تعالى فقال: «وَالقَمَرِ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ»، يقول: والليلِ إذ وَلَّى ذاهباً.

وقوله: «والصُّبْحِ إذَا أَسْفَرَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والصبحِ إذا أضاء.

«إنَّها لَإحْدَى الكُبَرِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ جهنمَ لإحدى الكبر، يعني: الأمور العظام.

---

(١) في المطبوع: «يخوننا»، وما أثبتناه هو الصواب، وسيأتي.

وقوله: «نَذِيراً لِلْبَشَرِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ النار لإحدى الكبر، نذيراً لبني آدمَ.

وقوله: «لمنْ شاءَ مِنْكُمْ أنْ يَتَقَدَّمَ أوْ يَتأَخَّرَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: نذيراً للبشرِ لمنْ شاء منكم أيها الناسُ أن يتقدَّمَ في طاعةِ اللهِ، أو يتأخَّرَ في معصيةِ اللهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ۝٣٩ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ۝٤١ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ۝٤٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: كلُّ نفسٍ مأمورة منهية بما عملتْ من معصيةِ اللهِ في الدنيا، رهينة في جهنم «إلَّا أصحَابَ اليَمِينِ» فإنهم غير مُرْتَهَنِينَ، ولكنهم «فِي جَنَّاتٍ يَتساءَلُونَ، عن المُجرمين».

وقوله: «فِي جَنَّاتٍ يَتساءَلُونَ عَن المُجْرِمِينَ ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ»، يقول: أصحابُ اليمين في بساتينَ يَتساءلونَ عن المجرمينَ الذين سُلِكُوا في سقر، أيّ شيءٍ سلككم في سقر؟ «قالُوا لَمْ نَك مِنَ المُصَلِّينَ»، يقول: قال المجرمون لهم: لم نَكُ في الدنيا من المُصَلِّينَ لله «ولَمْ نَكُ نُطْعِمُ المِسْكِينَ» بُخْلاً بما خَوَّلهم اللهُ، ومنعاً له من حقه.

«وكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الخائِضِينَ»، يقول: وكنا نخوضُ في الباطلِ وفيما يكرهه اللهُ مع مَنْ يخوضُ فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ۝٤٧ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ۝٤٨ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝٤٩﴾

وقوله: «وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قالوا: وكنا نكذِّبُ بيوم المجازاةِ والثوابِ والعذابِ، ولا نصدِّقُ بثوابٍ ولا عقابٍ ولا حسابٍ «حتى أتانا اليَقِينُ»، يقول: قالوا: حتى أتانا الموتُ الموقَنُ به «فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشَّافِعِينَ»، يقول: فما يشفعُ لهم الذين شفعهم الله في أهلِ الذنوبِ من أهلِ التوحيدِ، فتنفعهم شفاعَتُهم، وفي هذه الآية دلالةٌ واضحةٌ على أنَّ الله تعالى ذِكْرُه مُشَفِّعٌ بعضَ خَلْقِه في بعض.

وقوله: «فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ»، يقول: فما لهؤلاءِ المشركينَ عن تذكرةِ اللهِ إياهم بهذا القرآنِ مُعْرِضينَ، لا يستمعونَ لها فَيَتَّعِظُوا ويعتبروا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ۝٥١ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ۝٥٢ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ ۝٥٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فما لهؤلاء المشركينَ باللهِ عن التذكرةِ مُعْرِضينَ، مُوَلِّينَ عنها توليةَ الحُمُرِ المستنفرة «فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ».

وقوله: «فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ»، اختلف أهلُ التأويلِ في معنى القسورة، فقال بعضهم: هم الرُّمَاةُ.

وقال آخرون: هم القناص.

وقال آخرون: هم جماعةُ الرجال.

وقال آخرون: هي أصواتُ الرجال.

وقال آخرون: بل هو الأسد.

وقوله: «بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفاً مَنَشَّرَةً»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما بهؤلاءِ المشركينَ في إعراضهم عن هذا القرآنِ أنهم لا يعلمونَ أنه

من عندِ الله، ولكنَّ كلَّ رجلٍ منهم يريدُ أنْ يُؤْتَى كتاباً من السماءِ ينزل عليه.

وقوله: «كَلَّا بَلْ لا يَخافُونَ الآخِرَةَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما الأمرُ كما يزعمونَ من أنهم لو أُوتُوا صحفاً مُنَشَّرة صَدَّقُوا، «بل لا يخافونَ الآخرةَ»، يقول: لكنهم لا يخافونَ عقابَ الله، ولا يُصَدِّقُونَ بالبعثِ والثوابِ والعقاب فذلك الذي دعاهم إلى الإعراضِ عن تذكرةِ الله، وهَوَّنَ عليهم تركَ الاستماعِ لوحيِهِ وتنزيلِهِ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾

يعني جلّ ثناؤه بقـولـه: «كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ» ليس الأمرُ كما يقولُ هؤلاء المشركونَ في هذا القرآنِ من أنه سحرٌ يُؤْثَر، وأنه قولُ البشر، ولكنه تذكرةٌ من الله لخلقِهِ، ذَكَّرهم به.

وقوله: «فَمَن شاءَ ذَكَرَه»، يقول تعالى ذِكْرُه: فمن شاء من عبادِ الله الذين ذَكَّـرَهُمُ الله بهذا القرآنِ ذَكَرَهُ، فاتَّعَظَ فاستعملَ مافيه من أمرِ اللهِ ونهيِهِ «ومَا يَذْكُرُونَ إلَّا أنْ يَشاءَ الله»، يقول تعالى ذِكْرُه: وما يذكرونَ هذا القرآنَ فيَتَّعِظُونَ به، ويستعملونَ مافيه، إلا أنْ يشاءَ الله أنْ يذكروه، لأنه لا أحدَ يقدرُ على شيءٍ إلا بأنْ يشاءَ الله يُقَدِّرَهُ عليه، ويعطيه القُدْرَةَ عليه.

وقوله: «هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وأَهْلُ المَغْفِرَةِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: اللهُ أهلٌ أنْ يَتَّقِي عبادُه عقابَهُ على معصيتهم إياه، فيجتنبوا معاصيه، ويُسارعوا إلى طاعتِهِ، «وأهـلُ المغفـرةِ»، يقول: هو أهل أنْ يغفرَ ذنوبهم إذا هم فعلوا ذلك، ولا يعاقبهم عليها مع توبتهم منها.

سُورَةُ القِيَامَةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾

وإنما قلنا ذلك، لأنَّ المعروفَ من كلامِ الناسِ في محاوراتهم إذا قال أحدهم: لا والله، لا فعلت كذا، أنه يقصد بلا ردَّ الكلام، وبقوله: والله، ابتداء يمين، وكذلك قولهم: لا أقسم بالله لا فعلت كذا؛ فإذا كان المعروف من معنى ذلك ما وصفنا، فالواجبُ أنْ يكون سائر ما جاء من نظائره جارياً مجراه، ما لم يخرجْ شيءٌ من ذلك عن المعروفِ بما يجبُ التسليم له، وبعد: فإنَّ الجميعَ من الحُجَّةِ مُجْمِعُونَ على أنَّ قولَهُ: «لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ القِيامَةِ» قَسَمٌ، فكـذلـك قوله: «وَلا أُقْسِمُ بالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ» إلا أنْ تأتي حجةٌ تدلُّ على أنَّ أحدهما قَسَمٌ، والآخر خبر.

فتأويلُ الكلام إذاً: لا ما الأمرُ كما تقولونَ أيها الناسُ من أنَّ اللهَ لا يبعثُ عباده بعدَ مماتهم أحياء، أقسم بيوم القيامة، وكانت جماعةٌ تقول: قيامةُ كُلِّ نفسٍ مَوْتُها.

وقوله: «وَلا أُقْسِمُ بالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويلِ قوله: «اللَّوَّامَةِ»، فقال بعضهم: معناه: التي تلومُ على الخيرِ والشرِّ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك أنها تلومُ على ما فاتَ وتندم.

وقال آخرون: بل اللوّامة: الفاجرةُ.

وقال آخرون: بل هي المذمومةُ.

وهـذه الأقـوال التي ذكرناها عَمَّنْ ذكرناها عنه وإنِ اختلفتْ بها ألفاظُ قائليها، فمتقارباتُ المعاني، وأشبه القول في ذلك بظاهرِ التنزيلِ أنها تلومُ صاحبها على الخيرِ والشرِّ، وتندم على ما فات.

وقوله: «أيَحْسَبُ الإنْسانُ أنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أيظنُّ ابنُ آدم أنْ لن نقدرَ على جمعِ عظامهِ بعد تَفَرُّقِهَا، بَلَى قادرينَ على أعظم من ذلـك، أنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ، وهي أصابع يديه ورجليه، فنجعلها شيئاً واحداً كخفِّ البعير، أو حافرِ الحمار، فكانَ لا يأخذُ ما يأكلُ إلا بِفِيهِ كسائرِ البهائمِ، ولكنه فَرَّقَ أصابعَ يديه يأخذ بها، ويتناول ويقبض إذا شاء ويبسط، فحسن خلقه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ما يجهل ابن آدم أنَّ رَبَّهُ قادرٌ على أنْ يجمعَ عظامَهُ، ولكنه يريدُ أنْ يمضي أمامه قُدُماً في معاصي الله، لا يثنيه عنها شيءٌ، ولا يتوبُ منها أبداً، ويُسَوِّفُ التوبةَ.

قوله: «يَسأَلُ أيَّانَ يَوْمُ القيامَةِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يسأَلُ ابنُ آدم السائر دائباً في معصيةِ الله قُدُماً: متى يوم القيامة، تسويفاً منه للتوبة، فبين الله له ذلك فقال: «فإذَا بَرِقَ البَصَرُ، وخَسَفَ القَمَرُ، وجُمِعَ الشَّمْسُ والقَمَرُ». . . الآية.

وقوله: «فإذا بَرِق البَصَر»، معناه: فإذا فزِع فَشُقَّ وفُتِحَ من هَوْلِ القيامةِ وفَزَعِ الموتِ.

وقوله: «وَخَسَفَ القَمَرُ»، يقول: ذهبَ ضوءُ القمر.

وقوله: «وجُمِعَ الشَّمْسُ والقَمَرُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وجمع بين الشمسِ والقمرِ في ذهابِ الضوء، فلا ضوءَ لواحدٍ منهما.

وقوله: «يَقُولُ الإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ المَفَرُّ»، معناه: يقول الإنسانُ يوم يعاينُ أهوالَ يومِ القيامة: أين المَفَرُّ من هولِ هذا الذي قد نزل، ولا فِرارَ.

«كَلَّا لا وَزَرَ»، يقول جلّ ثناؤه: ليس هناك فرارٌ ينفعُ صاحبه، لأنه لا ينجيه فِرارهُ، ولا شيء يلجأ إليه من حصنٍ ولا جبلٍ ولا معقلٍ، من أمرِ الله الذي قد حضر، وهو الوزر.

وقوله: «إلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المُسْتَقَرُّ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إلى رَبِّكَ أيها الإنسانُ يومئذٍ الاستقرارُ، وهو الذي يُقِرُّ جميعَ خَلْقِه مَقَرَّهُمْ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُنَبَّؤُا الْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ بَلِ الْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يُخْبَر الإنسانُ يومئذٍ، يعني يومَ يَجْمَع الشمسَ والقمر فيكوَّران بما قَدَّم وأخَّر.

وقوله: «بما قَدَّمَ وأَخَّر»، خبرٌ من الله أنَّ الإنسانَ يُنَبَّأُ بكلِّ ماقدَّمَ أمامه مما عَمِلَ من خيرٍ أو شرٍّ في حياته، وأخَّرَ بعده من سنة حسنةٍ أو سيئةٍ مما قدَّمَ وأخَّر، كذلك ماقدّم من عملٍ عَمِلَهُ من خيرٍ أو شرّ، وأخّر بعده من عملٍ كان عليه فضيَّعه، فلم يعمله مما قَدَّمَ وأخَّر، ولم يخصصِ الله من ذلك بعضاً دون بعضٍ، فكلّ ذلك مما ينبأ به الإنسانُ يوم القيامة.

وقوله: «بَل الإنْسانُ على نَفْسِه بَصِيرةٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: بَلْ للإنسان على نفسِه من نفسِه رُقَبَاءُ يَرْقُبُونَهُ بعمله، ويشهدون عليه به.

وقوله: «وَلَوْ أَلْقَى معَاذِيرَهُ»، اختلف أهلُ الرواية في معنى ذلك، فقال بعضُهم: معناه: بل للإنسانِ على نفسِه شهودٌ من نفسِه، ولو اعتذر بالقولِ مما قد أتى من المآثم، وركب من المعاصي، وجادل بالباطل.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: بل للإنسانِ على نفسِه من نفسِه بصيرة ولو تَجَرَّدَ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ولو أرخى الستورَ وأغلقَ الأبوابَ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك «وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ» لم تُقْبَلْ.

وأوْلى الأقوال في ذلك عندنا بالصوابِ قولُ مَنْ قال: معناه: ولو اعتذر لأنَّ ذلك أشبه المعاني بظاهرِ التنزيل، وذلك أنَّ الله جلّ ثناؤه أخبر عن الإنسانِ أنَّ عليه شاهداً من نفسِه بقوله: «بَلِ الإنْسانُ على نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ» فكان الذي هو أوْلى أنْ يتبعَ ذلك، ولو جادلَ عنها بالباطل، واعتذرَ بغيرِ الحقِّ، فشهادةُ نفسِه عليه به أحقُّ وأولى من اعتذارِه بالباطل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: لا تُحَرِّكْ يا محمدُ بالقرآنِ لسانكَ لتعجلَ به.

واختلف أهلُ التأويل في السببِ الذي من أجله قيل له: «لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ»، فقال بعضُهم: قِيلَ له ذلك، لأنه كان إذا نزلَ عليه منه

شيءٌ عجل به، يريد حفظه من حبه إياه، فقيل له: لا تَعْجَلْ به فإنَّا سَنحفظُه عليك.

وقال آخرون: بل السببُ الذي من أجله قِيلَ له ذلك، أنه كان يُكثر تلاوةَ القرآنِ مخافةَ نِسْيانِه، فقيلَ له: «لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ» إنَّ علينا أنْ نَجْمَعَهُ لكَ، ونُقْرِئكَهُ فلا تَنْسى.

وأشبه القولين بما دلَّ عليه بظاهر التنزيل، القولُ الأولُ وذلك أنَّ قوله: «إنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وقُرآنَهُ» يُنْبيءُ أنه إنما نهى عن تحريكِ اللسانِ به متعجلاً فيه قبلَ جمعه، ومعلومٌ أن دراسته للتذكرِ إنما كانت تكونُ من النبيِّ ﷺ من بعدِ جمعِ اللهِ له ما يدرس من ذلك.

وقوله: «إنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرآنَهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ علينا جمعَ هذا القرآنِ في صدرك يا محمدُ حتى نثبته فيه «وقُرآنَهُ»، يقول: وقرآنه حتى تقرأه بعد أنْ جمعناهُ في صدرك.

وقوله: «فإذا قَرأناهُ فاتَّبِعْ قُرآنه»، يعني: فإذا تُلِيَ عليكَ فاعملْ به من الأمرِ والنهي، واتبع ما أُمرتَ به فيه، لأنه قيل له: «إنَّ علينا جمعه» في صدرك «وقرآنه» ودَلَّلْنَا على أنَّ معنى قوله: «وقُرآنَهُ»: وقراءته، فقد بَيَّنَ ذلك عن معنى قوله: «فإذَا قَرأناهُ فاتَّبِعْ قُرآنَهُ. ثُمَّ إنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ثم إنَّ علينا بيان مافيه من حلالهِ وحرامهِ، وأحكامه لك مفصلة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ٢١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ٢٣ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ٢٤ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ٢٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لعبادِه المخاطبينَ بهذا القرآنِ المُؤْثِرينَ زينةَ الحياةِ الدنيا على الآخرة: ليس الأمرُ كما تقولونَ أيها الناسُ من أنكم لا تُبْعَثُونَ بعد

مماتِكم، ولا تجازون بأعمالِكم، لكنَّ الذي دعاكم إلى قِيلِ ذلك محبتكم الـدنيا العـاجلة، وإيثاركم شهواتها على آجلِ الآخرةِ ونعيمها، فأنتم تؤمنون بالعاجلةِ، وتكذِّبُونَ بالآجلة.

وقوله: «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وجوهٌ يومئذٍ، يعني: يوم القيامة «ناضرة»، يقول: حسنةٌ جميلةٌ من النعيم؛ يقال من ذلك: نَضرَ وجهُ فلانٍ: إذا حَسُنَ من النعمةِ، ونَضرَ الله وجهه: إذا حسَّنه كذلك.

«إلى رَبها ناظِرَة»، اختلف أهلُ التأويلِ في تأويلِ ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: أنها تنظر إلى ربها.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أنها تنتظرُ الثوابَ من رَبِّها.

وأولى القولين في ذلك عندنا بالصوابِ القولُ الأول، من أنَّ معنى ذلك تنظرُ إلى خالقها، وبذلك جاء الأثرُ عن رسولِ الله ﷺ[1].

وقـوله: «وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ووجوهٌ يومئذٍ متغيرةُ الألوانِ، مسودَّةٌ كالحةٌ، يقال: بسرت وجهه أبسره بسراً: إذا فعلت ذلك، وبسر وجهه فهو باسر بَيِّنُ البسور.

وقوله: «تَظُنُّ أنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: تعلم أنه يفعل بها داهية، والفاقرةُ: الداهية.

---

(١) رؤية المؤمنين لله عز وجـل في الدار الآخرة ثابتة في عدد من الأحاديث الصحاح المتـواتـرة، منها حديث أبي سعيد الخدري في الصحيحين: البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣)، وأبي هريرة في الصحيحين: البخاري (٧٤٣٧) ومسلم (١٨٢)، وحـديث جرير بن عبدالله البجلي عنـد البخاري (٧٤٣٤) و(٧٤٣٥) و(٧٤٣٦)، وحديث أبي موسى الأشعري عند مسلم (١٨٠)، وحديث صهيب عند مسلم أيضاً (١٨١) وغيرها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝٢٦ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٖ ۝٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ۝٢٨ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝٣٠﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: ليس الأمرُ كما يظنُّ هؤلاء المشركون من أنهم لا يُعَاقَبُونَ على شِرْكِهم ومعصيتهم رَبَّهُمْ، بل إذا بلغت نفسُ أحدِهم التراقيَ عند مماتِهِ وحشرجَ بها.

«وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ»، يقول تعالى ذكره: وقال أهله: مَنْ ذا يَرْقِيه ليشفيه مما قد نَزَلَ به، وطلبوا له الأطباءَ والمُدَاوِينَ، فلم يُغْنُوا عنه من أمرِ الله الذي قد نزل به شيئاً.

وقوله: «وَظَنَّ أنَّه الفِرَاقُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأيقن الذي قد نزلَ ذلك به أنه فراقُ الدنيا والأهلِ والمالِ والولد.

وقوله: «وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بالسَّاقِ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: والتفَّت شدّةُ أمرِ الدنيا بشدَّةِ أمرِ الآخرة.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: التفَّت ساقا الميتِ إذا لُفَّتَا في الكَفَن.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: التفافُ ساقي الميتِ عند الموتِ.

وقال آخرون: عُنِيَ بذلك يُبْسُهُمَا عند الموتِ.

وقال آخرون: معنى ذلك: والتفَّ أمرٌ بأمرٍ.

وقال آخرون: بل عنى بذلك: والتفَّ بلاءٌ ببلاء.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصحة عندي قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: والتفَّت ساقُ الدنيا بساقِ الآخرة، وذلك شدَّةُ كَرْبِ الموتِ بشدّةِ هولِ المطلع، والذي يدلُّ على أن ذلك تأويله، قوله: «إلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المَساقُ» والعربُ تقولُ لكلِّ

أمرٍ اشتدَّ: قد شَمَّرَ عن ساقِه، وكشفَ عن ساقِه.

وقولـه: «إلى رَبِّـكَ يَوْمَئِذٍ المَساقُ»، يقول: إلى رَبِّكَ يا محمدُ، يومَ التفافِ الساقِ بالساقِ، مَساقُه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ۝٣٣ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ۝٣٥ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلم يُصَدِّقْ بكتابِ الله، ولم يصلِّ له صلاةً، ولكنه كذَّبَ بكتابِ الله، وتولى فأدبرَ عن طاعةِ الله.

وقوله: «ثُمَّ ذَهَبَ إلى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى»، يقول تعالى ذِكْرُه: ثم مضى إلى أهله منصرفاً إليهم، يتبختر في مشيته.

وقيل: إنَّ هذه الآية نزلت في أبى جهل.

وقوله: «أَوْلَى لَكَ فأَوْلَى. ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فأَوْلَى» هذا وعيدٌ من الله على وعيدٍ لأبي جهل[1].

وقوله: «أيَحْسَبُ الإنْسانُ أنْ يُتْرَكَ سُدىً»، يقول تعالى ذِكْرُه: أيظنُّ هذا الإنسانُ الكافرُ بالله أنْ يترك هملاً، أنْ لا يُؤْمَرَ ولا يُنْهى، ولا يتعبَّد بعبادة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣٩ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾

---

(١) قال الزجاج: معناه: وَلِيَكَ المكروهُ يا أبا جهل، والعرب تقول: أولى لفلان، إذا دعت عليه بالمكروه (معاني القرآن: ٥/٢٥٤).

القيامة: ٤٠

يقول تعالى ذِكْرُه: ألم يَكُ هذا المُنْكِرُ قُدرةَ اللهِ على إحيائهِ من بعد مماتهِ، وإيجادِه من بعد فنائه «نُطْفَةً»، يعني: ماءً قليلاً في صُلْبِ الرجل من منيٍّ.

وقوله: «ثُمَّ كانَ عَلَقَةً»، يقول تعالى ذِكْرُه: ثم كان دماً من بعدِ ما كان نطفةً، ثم علقةً، ثم سَوَّاهُ بشراً سوياً، ناطقاً سميعاً بصيراً، «فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَين الذَّكَرَ وَالأُنْثَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: فجعلَ من هذا الإنسانِ بعد ما سوَّاهُ خَلْقاً سوياً أولاداً له، ذكوراً وإناثاً «أَلَيْسَ ذلكَ بقادرٍ على أنْ يُحْيِيَ المَوْتَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: أليس الذي فعلَ ذلكَ فخلقَ هذا الإنسانَ من نطفةٍ، ثم علقةٍ حتى صَيَّرَهُ إنسـاناً سوياً، له أولادٌ ذكورٌ وإناثٌ، بقادرٍ على أن يُحيي الموتى من مماتهم، فيوجدهم كما كانوا من قبل مماتهم. يقول: معلومٌ أنَّ الذي قَدِر على خَلْقِ الإنسانِ من نطفةٍ من منيٍّ يُمْنَى، حتى صَيَّره بشراً سوياً، لا يُعجزه إحياءُ ميتٍ من بعد مماته، وكان رسولُ الله ﷺ إذا قرأ ذلك قال: بلى.

سُورَةُ الإنسَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾

يعني جلّ ثناؤه بقوله: «هَلْ أتى عَلى الإنْسانِ» قَدْ أتى على الإنسان، و«هل» في هذا الموضع خبرٌ لا جَحْدٌ، وذلك كقولِ القائلِ لآخرَ يُقَرِّرُه؛ هل أكرمتكَ؟ وقد أكرمه؛ أو هل زُرْتكَ؟ وقد زاره، وقد تكون جحداً في غيرِ هذا الموضع، وذلك كقولِ القائلِ لآخرَ: هل يفعلُ مِثْلَ هذا أحدٌ؟ بمعنى: أنه لا يفعلُ ذلك أحدٌ. والإنسان الذي قال جلّ ثناؤه في هذا الموضع «هَل أَتى عَلى الإنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ»: هو آدمُ ﷺ.

وقوله: «حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ»، اختلف أهلُ التأويلِ في قدر هذا الحين الذي ذكره الله في هذا الموضع، فقال بعضُهم: هو أربعون سنة؛ وقالوا: مَكثتْ طينةُ آدم مصوَّرةً لا تُنْفَخُ فيها الرُّوحُ أربعينَ عاماً، فذلك قَدْرُ الحِين الذي ذكره الله في هذا الموضع؛ قالوا: ولذلك قيل: «هَلْ أتى عَلى الإنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً» لأنه أتى عليه وهو جسمٌ مُصَوَّرٌ لم تُنْفَخْ فيه الروحُ أربعون عاماً، فكان شيئاً، غير أنه لم يكن شيئاً مذكوراً؛ قالوا: ومعنى قوله: «لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً»: لم يكن شيئاً له نَباهةٌ ولا رِفْعةٌ، ولا شرفٌ، إنما كان طِيناً لازباً

وحماً مسنوناً.

وقال آخرون: لاحَدَّ للحِينِ في هذا الموضع، وقد يدخل هذا القول من أنَّ الله أخبرَ أنه أتى على الإنسانِ حينٌ من الدهر، وغير مفهوم في الكلام أن يقال: أتى على الإنسانِ حينٌ قبلَ أنْ يُوجَدَ، وقبل أنْ يكونَ شيئاً، وإذا أُريد ذلك قيل: أتى حين قبل أنْ يُخلق، ولم يقل: أتى عليه. وأما الدهر في هذا الموضع، فلا حَدَّ له يوقف عليه.

وقوله: «إِنَّا خَلَقْنا الإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَلِيه»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّا خلقنا ذُرِّيَةَ آدم من نطفةٍ، يعني: من ماءِ الرجلِ وماءِ المرأةِ، والنطفة: كلُّ ماءٍ قليلٍ في وعاءٍ كانَ ذلكَ ركية أو قربةً، أو غير ذلك.

وقوله: «أَمْشاجٍ»، يعني: أخلاط، واحدها: مشج ومشيج، وهي نطفةُ الرجلِ ونطفةُ المرأة.

وقوله: «نَبْتَلِيهِ» نختبره.

وقوله: «فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً»، يقول تعالى ذِكْرُه: فجعلناه ذَا سَمْعٍ يسمعُ به، وذا بصرٍ يُبْصِرُ به، إنعاماً من الله على عبادِه بذلك، ورأفةً منه لهم، وحجة له عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ۝٤﴾

يعني جلّ ثناؤه بقوله: «إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ» إنا بَيَّنَّا له طريقَ الجنة، وعرّفناه سبيلَهُ، إنْ شكرَ، أو كفرَ. وإذا وُجِّه الكلامُ إلى هذا المعنى، كانت إمَّا وإمَّا في معنى الجزاء. وقد يجوز أن تكون إما وإما بمعنى واحد، كما قال: «إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ، وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ» فيكون قوله: «إما شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً» حالاً من الهاءِ

التي في هَدَيْناهُ، فيكون معنى الكلام إذا وُجِّه ذلك إلى هذا التأويل: إنا هديناه السبيلَ، إما شقياً وإما سعيداً.

وقوله: «إنَّا أعْتَدْنا للْكافِرِينَ سَلاسِلَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّا أعتدنا لمن كفرَ نِعْمَتَنا وخالفَ أمرنا سلاسلَ يُسْتَوْثَق بها منهم شَدًّا في الجحيم «وأغْلالاً»، يقول: وتُشَدُّ بالأغلالِ فيها أيديهم إلى أعناقهم.

وقوله: «وَسَعيراً»، يقول: وناراً تُسْعر عليهم فتَتَوَقَّدُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾

يقول تعالى ذكره: إنَّ الذين برّوا بطاعتهم رَبَّهم في أداءِ فرائضِه، واجتنابِ معاصيه، يشربونَ من كأسٍ، وهو كُلُّ إناءٍ كان فيه شرابٌ «كانَ مِزَاجُها»، يقول: كان مزاجُ ما فيها من الشرابِ «كافُوراً»، يعني: في طِيْبِ رائحتها كالكافور.

وقوله: «عَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: كان مزاجُ الكأسِ التي يشربُ بها هؤلاء الأبرار كالكافورِ في طيبِ رائحتهِ من عينٍ يشربُ بها عبادُ الله الذين يدخلهم الجنة.

وقوله: «يُفَجِّرُونَها تَفْجِيراً»، يقول تعالى ذِكْرُه: يفجرون تلك العينَ التي يشربونَ بها كيفَ شاؤوا وحيثُ شاؤوا من منازلِهم وقصورِهم تفجيراً، ويعني بالتفجيرِ: الإسالةَ والإجراءَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ

مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الأبرارَ الذين يشربونَ من كأسٍ كان مزاجها كافوراً، بَرُّوا بوفائهم للهِ بالنذورِ التي كانوا ينذرونها في طاعة الله.

وقوله: «ويَخافُونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً»، يقول تعالى ذِكْرُه: ويخافونَ عِقابَ الله بتركهم الوفاءَ بما نَذَرُوا لله من بِرٍّ في يومٍ كان شرُّه مستطيراً، ممتدّاً طويلاً فاشياً.

وقوله: «وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ على حُبِّه مِسْكيناً»، يقول تعالى ذُكره: كان هؤلاء الأبرار يطعمونَ الطعامَ على حُبِّهم إياهُ، وشهوتِهم له.

وقوله: «مِسْكيناً»، يعني جلّ ثناؤه بقوله مسكيناً: ذوي الحاجةِ الذين قد أذَلَّتْهُم الحاجةُ، «وَيَتيماً»: وهو الطفلُ الذي قد مات أبوهُ ولا شيءَ له «وأسِيراً»، وهو الحربيُّ من أهلِ دارِ الحربِ يُؤخذ قهراً بالغَلَبةِ؛ أو من أهل القبلةِ يُؤخذ فيُحبس بحقٍّ، فأثنى اللهُ على هؤلاء الأبرارِ بإطعامهم هؤلاء تَقَرُّباً بذلك إلى اللهِ وطلب رضاه، ورحمةً منهم لهم.

وقـولـه: «إنمَـا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يقولون: إنما نُطْعِمكم إذا هُمْ أطعموهم لوجهِ الله، يعنونَ طَلَبَ رِضَا الله، والقُربة إليه «لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً»، يقولون للذين يطعمونهم ذلكَ الطعام: لا نريدُ منكم أيها الناسُ على إطعامِنَاكُمْ ثواباً ولا شُكوراً.

وفي قوله: «وَلا شُكوراً» وجهان من المعنى: أحدهما: أنْ يكونَ جمعَ الشكرِ، كما الفُلوسُ جمع فَلس، والكفور جمع كُفْر. والآخر: أنْ يكون مصدراً واحداً في معنى جمع، كما يقال: قعد قعوداً، وخرج خروجاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن هؤلاء القوم الذين وصف صفتهم أنهم يقولون لمن أطعموه من أهلِ الفاقةِ والحاجة: ما نطعمكم طعاماً نطلبُ منكم عِوَضاً على إطعامِنَاكُمْ جزاءً ولا شكوراً، ولكنَّا نُطعمكم رجاءً منا أنْ يؤمننا رَبُّنَا من عقوبتهِ في يومٍ شديدٍ هَوْلُه، عظيمٍ أمرهُ، تعبسُ فيه الوجوهُ من شدّةِ مكارِههِ، ويطولُ بلاءُ أهله، ويشتدُّ. والقمطرير: هو الشديدُ.

وقوله: «فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذلكَ اليَوْمِ، وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً»، يقول جلّ ثناؤه: فدفعَ اللهُ عنهم ما كانوا في الدنيا يحذرونَ من شرِّ اليومِ العبوسِ القمطريرِ بما كانوا في الدنيا يعملونَ مما يرضى عنهم رَبُّهم، ولقَّاهم نضرة في وجوههم، وسروراً في قلوبهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝١٣﴾

يقول تعالى ذكره: وأثابهم اللهُ بما صبروا في الدنيا على طاعته، والعمل بمايُرْضِيه عنهم جَنَّةً وحريراً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ۝١٤ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ۝١٥﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا»، وقَرُبت منهم ظلالُ أشجارها.

وقوله: «وَذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلًا»، يقول: وذُلِّل لهم اجتناءُ ثمرِ شجرها، كيف شاؤوا قعوداً وقياماً ومُتَّكِئِينَ.

وقوله: «وَيُطافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وأكْوَابٍ كانَتْ قَوارِيرَاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: ويُطافُ على هؤلاءِ الأبرارِ بآنيةٍ من الأواني التي يشربون فيها شرابهم، هي من فضة كانت قواريرَ، فجعلها فِضةً، وهي في صفاءِ القوارير، فلها بياضُ الفِضَّةِ وصفاءُ الزجاجِ.

وقوله: «وأكْوَابٍ»، يقول: ويُطافُ مع الأواني بِجِرارٍ ضِخامٍ فيها الشرابُ، وكلُّ جرَّةٍ ضخمةٍ لا عروةَ لها فهي كوب.

وقوله: «كانَتْ قَوارِيرَ»، يقول: كانت هذه الأواني والأكواب قواريرَ، فَحَوَّلها الله فضة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «قَوارِيرَ» في صفاءِ الصفاءِ من فضةِ الفضةِ من البياضِ.

وقوله: «قَدَّرُوها تَقْدِيراً»، يقول: قَدَّرُوا تلك الآنيةَ التي يُطافُ عليهم بها تقديراً على قَدْرِ رِيِّهِمْ لا تَزِيدُ ولا تنقصُ عن ذلك.

وقوله: «وَيُسْقَوْنَ فِيها كأساً كانَ مِزَاجُها زَنْجَبِيلًا»، يقول تعالى ذِكْرُه: ويُسْقَى هؤلاء القوم الأبرار في الجنة كأساً، وهي كلُّ إناءٍ كان فيه شرابٌ، فإذا كان فارغاً من الخمرِ لم يُقَلْ له كأسٌ، وإنما يُقالُ له إناء، كما يقال للطبقِ الذي تُهْدَى فيه الهديةُ المِهْدَى مقصوراً مادامت عليه الهديةُ فإذا فَرَغَ مما عليه كان طبقاً أو خِوَاناً، ولم يكن مِهْدًى. «كانَ مِزَاجُها زَنْجَبِيلا»، يقول: كان مزاجُ

شرابِ الكأسِ التي يُسقونَ منها زنجبيلاً.

واختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: يُمْزَجُ لهم شرابهم بالزنجبيلِ.

وقال بعضهم: الزنجبيلُ: اسم للعينِ التي منها مزاجُ شرابِ الأبرار.

وقوله: «عَيْناً فِيها تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: عيناً في الجنة تسمى سلسبيلاً، وهي صفةٌ للعين، وصفت بالسلاسة في الحَلْقِ، وفي حال الجري، وانقيادها لأهلِ الجنة يُصَرِّفُونَها حيث شاؤوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾

يقول تعالى ذكره: ويطوفُ على هؤلاء الأبرارِ ولدانٌ، وهم الوُصَفَاءُ، مُخَلَّدونَ.

اختلف أهل التأويل في معنى: «مُخَلَّدُونَ»، فقال بعضهم: معنى ذلك: أنهم لا يموتون.

وقال آخرون: عنى بذلك «وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ»: مُسَوَّرُونَ.

وقال آخرون: بل عنى به أنهم مُقَرَّطُونَ. وقيل: عنى به أنهم دائمٌ شبابُهم، لا يتغيرونَ عن تلك السنِّ.

وذُكِرَ عن العربِ أنها تقولُ للرجل إذا كبر وثبت سوادُ شعره: إنه لَمُخَلَّدٌ؛ وكذلك إذا كبر وثبتت أضراسُه وأسنانُه قيل: إنه لمخلد، يُرادُ به أنه ثابتُ الحال، وهذا تصحيحٌ لمن قال: إنَّ معناه: لا يموتونَ، لأنهم إذا ثبتوا على حالٍ واحدة فلم يتغيروا بهرمٍ ولا شيبٍ ولا موتٍ، فهم مخلَّدون.

وقوله: «إِذَا رأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُم لُؤْلُواً مَنْثُوراً»، يقول تعالى ذِكْرُه: إذا رأيتَ يا محمدُ هؤلاء الولدانِ مجتمعينَ أو مفترقينَ، تَحسبهم في حُسْنِهم، ونقاءِ بياضِ وجوههم، وكثرتهم، لؤلؤاً مُبَدَّداً، أو مجتَمعاً مصبوباً.

وقوله: «إِذَا رأَيْتَ ثَمَّ رأَيْتَ نَعِيماً»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وإذا نظرتَ ببصرِكَ يا محمدُ، ورميتَ بطرفك فيما أعطيتُ هؤلاء الأبرارِ في الجنة من الكرامة. وعنى بقوله: «ثَمَّ» الجنة «رأَيْتَ نَعِيماً»، وذلك أنَّ أدناهم منزلة مَنْ ينظر في مُلكه فيما قيل في مسيرةِ ألفي عام، يُرى أقصاه، كما يرى أدناه.

وقوله: «مُلْكاً كَبِيراً»، يقول: ورأيتَ مع النعيمِ الذي ترى لهم ثَمَّ مُلْكاً كبيراً. وقيل: إنَّ ذلك المُلْكَ الكبيرَ: تسليمُ الملائكةِ عليهم، واستئذانُهم عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فَوْقَهم، يعني: فوقَ هؤلاءِ الأبرارِ ثيابُ سُنْدُسٍ. وكان بعضُ أهلِ التأويلِ يتأوَّلُ قوله: «عالِيَهُمْ» فوقَ حِجَالهم المثبتة عليهم «ثِيابُ سُنْدُسٍ» وليس ذلك بالقولِ المدفوعِ، لأن ذلك إذا كان فوقَ حجالٍ هُمْ فيها، فقد عَلَاهم فهو عَالِيهم.

وقوله: «ثِيابُ سُنْدُسٍ»، يعني: ثيابُ ديباجٍ رقيقٍ حَسَنٍ، والسندسُ: هو مارَقَّ من الديباجِ. والإستبرق: هو ما غَلُظَ من الديباج.

وقوله: «وَحُلُّوا أساوِرَ مِنْ فِضَّةٍ»، يقول: وحَلَّاهُمْ رَبُّهم أساورَ، وهي جمعُ أسورةٍ من فضة.

وقوله: «وَسَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وسقى هؤلاء الأبرارَ رَبُّهُم شراباً طهوراً، ومِنْ طُهْرِه أنه لا يصيرُ بولاً نجساً، ولكنه يصيرُ رَشْحاً من أبدانِهم كرشحِ المسك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يقال لهؤلاء الأبرارِ حينئذٍ: إنَّ هذا الذي أعطيناكم من الكرامةِ كان لكم ثواباً على ما كنتم في الدنيا تعملونَ من الصالحاتِ «وكانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً»، يقول: كان عملكم فيها مشكوراً، حَمدكُمْ عليه رَبُّكم، ورَضِيَهُ لكم، فأثابكم بما أثابكم به من الكرامةِ عليه.

وقوله: «إنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا عَلَيْكَ القُرآنَ تَنْزِيلاً»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: إنا نحنُ نزّلنا عليكَ يا محمدُ هذا القرآنَ تنزيلاً، ابتلاءً منا واختباراً «فاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ»، يقول: اصبر لما امتحنكَ به رَبُّكَ من فرائضِه، وتبليغِ رسالاتِه، والقيامِ بما ألزمك القيامَ به في تنزيلهِ الذي أوحاهُ إليكَ.

«وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أو كَفُوراً»، يقول: ولا تُطِعْ في معصيةِ الله من مشركي قومكَ آثماً يريدُ بركوبهِ معاصيه، «أو كفوراً»، يعني: جَحُوداً لنعمهِ عنده، وآلائهِ قِبلَهُ، فهو يكفرُ به، ويعبدُ غيره.

وقيل: إنَّ الذي عُنِيَ بهذا القول أبو جهل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ۝٢٦ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ۝٢٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَاذْكُرْ» يا محمدُ «اسْمَ رَبِّكَ» فادْعُهُ به بُكْرَةً في صلاةِ الصبح، وعَشِيّاً في صلاةِ الظهرِ والعصرِ «وَمِنَ اللَّيْلِ فاسْجُدْ لَهُ»، يقول: ومن الليلِ فاسجُدْ له في صلاتكَ، فَسَبِّحْهُ لَيلاً طويلاً، يعني: أكثر الليل، كما قال جلّ ثناؤه: «قُمِ اللَّيْلَ إلاَّ قَلِيلاً، نِصْفَهُ أوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً، أو زِدْ عَلَيْهِ».

وقوله: «إنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ العاجِلَةَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ هؤلاء المشركينَ باللهِ يحبونَ العاجلة، يعني: الدنيا، يقول: يحبونَ البقاءَ فيها وتُعْجِبُهم زِينَتُها «ويذرونَ وراءَهُمْ يوماً ثَقِيلاً»، يقول: ويَدَعُونَ خلفَ ظُهورهم العمـلَ للآخرة، وما لهم فيه النجاةُ من عذابِ الله يومئذٍ، وقد تأوّله بعضُهم بمعنى: ويَذَرُونَ أمامهم يوماً ثقيلاً، وليس ذلك قولاً مدفوعاً، غير أنَّ الذي قلناه أشبه بمعنى الكلمة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا ۝٢٨ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ۝٢٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «نحن خلقنا» هؤلاء المشركينَ بالله المخالفينَ أمْرَهُ ونهيه «وشَدَدْنا أسْرَهُمْ»: وشَدَدْنَا خَلْقَهُمْ، من قولهم: قد أُسِرَ هذا الرجل فأُحْسِنَ أسرهُ، بمعنى: قد خُلِقَ فأُحْسِنَ خَلْقه.

وقوله: «وَإذَا شِئْنا بَدَّلْنا أمْثالَهُمْ تَبْدِيلاً»، يقول: وإذا نحنُ شئنا أهلكنا هؤلاءِ وجِئْنَا بآخرينَ سِواهم من جِنسهم أمثالهم من الخَلْق، مخالفينَ لهم في العملِ.

وقوله: «فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إلى رَبِّهِ سَبيلاً»، يقول: فَمَنْ شاء أيها الناسُ اتَّخَذَ إلى رِضا رَبِّه بالعملِ بطاعتِه، والانتهاءِ إلى أمرِه ونهيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٠ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ۝٣١﴾

يقول تعالى ذكره: «ومَا تَشاؤُونَ» اتخاذَ السبيلِ إلى رَبِّكم أيها الناسُ «إلَّا أنْ يَشاءَ اللهُ» ذلك لكم لأنَّ الأمرَ إليه لا إليكم.

وقوله: «إنَّ اللهَ كانَ عَليماً حَكِيماً» فلن يَعْدُوَ منكم أحدٌ ما سَبَقَ له في عِلْمِه بتدبيركم.

وقوله: «يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ»، يقول: يدخل رَبُّكم مَنْ يشاء منكم في رحمته، فيتوب عليه حتى يموتَ تائباً من ضلالته، فيغفرُ له ذنوبه، ويُدخله جنته. «والظَّالِمِينَ أعَدَّ لَهُمْ عَذاباً ألِيماً»، يقول: الذين ظلموا أنفسهم، فماتوا على شِرْكِهم، أعَدَّ لهم في الآخرةِ عذاباً مؤلماً موجعاً، وهو عذابُ جهنم.

سُورَةُ المُرسَلَات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝١ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ۝٢ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ۝٣ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ۝٤ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾

اختلف أهلُ التأويلِ في معنى قول الله: «وَالمُرْسَلاتِ عُرْفاً» فقال بعضهم: معنى ذلك: والرياحِ المرسلاتِ يتبعُ بعضُها بعضاً، قالوا: والمرسَلات: هي الرياح.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: والملائكة التي تُرسَلُ بالعرف.

وقال بعضهم: عُني بقوله: «عُرْفاً»: متتابعاً كعرف الفرس، كما قالت العرب: الناسُ إلى فلانٍ عرفٌ واحدٌ، إذا تَوَجَّهُوا إليه فأكثروا.

والصواب من القولِ في ذلك عندنا أنْ يقالَ: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه أقسم بالمرسلاتِ عرفاً، وقد تُرْسَلُ عُرْفاً الملائكةُ، وترسل كذلك الرياحُ، ولا دلالةَ تدلُّ على أنَّ المعنيَّ بذلك أحد الحِزْبين دونَ الآخر، وقد عَمَّ جلّ ثناؤه بإقسامهِ بكلِّ ما كانت صِفَتُه ما وَصَفَ، فكلُّ مَنْ كان صفته كذلك، فداخلٌ في قسمه ذلك مَلَكاً أو ريحاً أو رسولاً من بني آدم مرسلاً.

وقوله: «فالعاصِفاتِ عَصْفاً»، يقول جلّ ذكره: فالرياحُ العاصفات عصفاً،

يعني: الشديداتُ الهبوبِ السريعاتُ المَمَرِّ.

وقـوله: «والنَّاشِرَاتِ نَشْراً» اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: عُني بالناشرات نَشْراً: الريح.

وقال آخرون: هي المطر.

وقال آخرون: بل هي الملائكةُ التي تنشُر الكتب.

وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب أن يقال: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه أقسمَ بالنـاشـراتِ نَشْـراً، ولم يَخْصُص شيئـاً من ذلـك دون شيء، فالـريح تنشرُ السحابَ، والمطر ينشر الأرضَ، والملائكة تنشر الكتبَ، ولا دلالةَ من وجهٍ يجبُ التسليمُ له على أنَّ المراد من ذلك بعضٌ دون بعض، فذلك على كُلِّ ما كان ناشراً.

وقوله: «فالْفارِقاتِ فَرْقاً»، اختلف أهلُ التأويل في معناه، فقال بعضهم: عُنِي بذلك: الملائكة التي تفرق بين الحقِّ والباطل.

وقال آخرون: بل عُنِي بذلك القرآن.

والصوابُ من القولِ في ذلك أن يقال: أقسم رَبُّنَا جلَّ ثناؤه بالفارقاتِ، وهي الفـاصـلات بين الحقِّ والباطل، ولم يخصص بذلك منهنَّ بعضاً دون بعض، فذلك قَسَم بكلِّ فارقةٍ بين الحقِّ والباطل، مَلَكاً كان أو قرآناً، أو غير ذلك.

وقوله: «فالمُلْقِياتِ ذِكْراً»، يقول: فالمبلِّغاتِ وحيَ الله رُسُلَهُ، وهي الملائكة.

وقوله: «عُذْراً أَوْ نُذْراً»، يقول تعالى ذِكْرُه: فالملقياتِ ذِكراً إلى الرسل إعذاراً من اللهِ إلى خَلْقِه، وإنذاراً منه لهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ۝٧ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝١٣ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝١٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والمرسلات عرفاً، إنَّ الذي تُوعَدُونَ أيها الناسُ من الأمورِ لواقع، وهو كائنٌ لا محالة، يعني بذلك يوم القيامة، وما ذَكَرَ اللهُ أنه أعَدَّ لخلقِه يومئذٍ من الثوابِ والعذاب.

وقوله: «فإذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ»، يقول: فإذا النجومُ ذهب ضياؤها، فلم يكن لها نورٌ ولا ضوء، «وَإِذَا السَّماءُ فُرِجَتْ»، يقول: وإذا السماءُ شُقِّقَتْ وصُدِّعَتْ، «وَإِذَا الجِبالُ نُسِفَتْ»، يقول: وإذا الجبالُ نُسفتْ من أصلها، فكانت هباءً منبثاً، «وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا الرسلُ أُجِّلَتْ للاجتماعِ لوقتها يوم القيامة.

وقوله: «لأيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ»، يقول تعالى ذِكْرُه مُعَجِّباً عبادَهُ من هولِ ذلك اليوم وشدَّتهِ لأيِّ يومٍ أُجِّلتِ الرسلُ ووقِّتَتْ، ما أعظمه وأهوله؛ ثم بَيَّنَ ذلك: وأيّ يوم هو؟ فقال: أُجِّلَتْ «لِيَوْمِ الفَصْلِ»، يقول: ليومٍ يفصلُ اللهُ فيه بين خَلْقِه القضاء، فيأخذ للمظلومِ من الظالمِ، ويجزي المحسنَ بإحسانِهِ، والمسيء بإساءته.

وقوله: «وَمَا أَدْرَاكَ ما يَوْمُ الفَصْلِ»، يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ، وأيّ شيء أدراكَ يا محمدُ ما يومُ الفصلِ، مُعَظِّماً بذلك أمرَهُ، وشدّةَ هولِهِ.

وقوله: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: الوادي الذي يسيلُ في جهنم من صديدِ أهلها للمكذّبينَ بيومِ الفصل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٦ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ۝١٧ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٨ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ألم نهلك الأممَ الماضِينَ الذين كَذَّبُوا رسلي، وجحدوا آياتي من قومِ نوحٍ وعادٍ وثمود، ثم نُتْبِعهم الآخرينَ بعدهم، ممن سلكَ سبيلَهم في الكفرِ بي وبرُسُلي[1]، كقومِ إبراهيمَ وقومِ لوط، وأصحابِ مَدْيَنَ، فنهلكهم كما أهلكنا الأوّلِينَ قَبْلَهم، «كَذَلك نَفْعَلُ بالمُجْرِمِينَ»، يقول: كما أهلكنا هؤلاء بكفرهم بي، وتكذيبهم برسلي، كذلك سنتي في أمثالهم من الأممِ الكافرة، فنهلك المجرمينَ بإجرامهم إذا طغوا وبغوا «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبينَ» بأخبارِ الله التي ذكرناها في هذه الآية، الجاحدينَ قُدْرَتَهُ على ما يشاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَٰهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢٢ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ۝٢٣ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٢٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ» أيها الناسُ «مِنْ ماءٍ مَّهِينٍ»، يعني: من نطفةٍ ضعيفة.

وقوله: «فَجَعَلْناهُ في قَرارٍ مَكِينٍ»، يقول: فجعلنا الماءَ المَهِينَ في رحمٍ استقرَّ فيها فَتَمَكَّنَ.

وقوله: «إلى قَدَرٍ مَعْلُومٍ»، يقول: إلى وقتٍ معلومٍ لخروجهِ من الرحمِ عند الله.

---

(١) في المطبوع: «وبرسولي» وليس بشيء.

وعني بقوله: «فَقَدَرْنا فَنِعْمَ الْقادِرُونَ»: فملكنا فَنِعْمَ المالكون.

وقوله: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ»، يقول جلّ ثناؤه: ويلٌ يومئذٍ للمكذّبين بأنَّ الله خلقهم من ماءٍ مهين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مُنَبِّهاً عبادَهُ على نِعَمِه عليهم: «أَلَمْ نَجْعَل» أيها الناسُ «الأَرْضَ» لكم «كِفاتاً»، يقول: وعاءً، تقول: هذا كِفْتُ هذا وكفيتهُ، إذا كان وعاءَهُ، وإنما معنى الكلام: ألم نجعلِ الأرضَ كِفاتَ أحيائِكم وأمواتِكم، تَكْفِتُ أحياءَكم في المساكنِ والمنازلِ، فَتَضُمُّهم فيها وتجمعهم، وأمواتَكُم في بطونها في القبور، فَيُدْفَنونَ فيها.

وجائزٌ أنْ يكونَ عُني بقوله: «كِفاتاً أَحْياءً وأَمْواتاً» تَكْفِتُ أذاهم في حالِ حياتهم، وجِيفَهُمْ بعد مماتِهم.

وقوله: «وَجَعَلْنا فِيها رَواسِيَ شامِخاتٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وجعلنا في الأرضِ جبالاً ثابتاتٍ فيها، باذخات شاهقات.

وقوله: «وأَسْقَيْناكُمْ ماءً فُراتاً»، يقول: وأسقيناكم ماءً عذباً.

وقوله: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ»، يقول: ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبينَ بهذه النعم التي أنعمتها عليكم من خلقي الكافرينَ بها.

القَــوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِــهِ تَعَــالَى: ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ

﴿كَٱلْقَصْرِ ۝٣٢ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ۝٣٣ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٣٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لهؤلاء المكذّبينَ بهذه النِّعم والحججِ التي احتجَّ بها عليهم يومَ القيامة: «انْطَلِقُوا إلى ما كُنْتُمْ بِهِ» في الدنيا «تُكَذِّبُونَ» من عذابِ الله لأهلِ الكفرِ به «انْطَلِقُوا إلى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ» يعني تعالى ذكره: إلى ظلٍّ دخانٍ ذي ثلاثِ شعب «لا ظَلِيلٍ»، وذلك أنه يرتفع من وقودها الدخانُ فيما ذُكر، فإذا تصاعدَ تفرَّقَ شعباً ثلاثاً، فذلك قوله: «ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ».

وقوله: «لا ظَلِيلٍ»، يقول: لا هو يُظِلُّهم من حَرِّهَا «وَلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ» ولا يُكِنُّهم من لهبها.

وقوله: «إنَّها تَرْمِي بِشَرَرٍ كالقَصْرِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ جهنم ترمي بشررٍ كالقصرِ، وهو واحدُ القصور، ومعنى الكلام: كعِظَمِ القصر.

وقوله: «جِمالاتٌ صُفْرٌ» معنى ذلك: كأنَّ الشررَ الذي ترمي به جهنمُ كالقصر جِمالاتٌ سُودٌ: أي أَيْنُقٌ سود؛ والصفر في هذا الموضع، بمعنى السود قالوا: وإنما قيل لها: صُفْرٌ وهِي سودٌ، لأنَّ ألوانَ الإبلِ سودٌ تضربُ إلى الصفرةِ، ولذلك قيل لها صُفْر، كما سميت الظباء أدماً، لما يعلوها في بياضها من الظلمة، والجمالات: جمع جمال، نظير رجال ورجالات.

وقوله: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ للْمُكَذِّبينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ويلٌ يومَ القيامةِ للمكذِّبينَ هذا الوعيدَ الذي تَوَعَّدَ الله به المكذّبينَ من عباده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۝٣٦ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٣٧ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٨ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ۝٣٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٠﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه لهؤلاء المكـذِّبينَ بثوابِ الله وعقابه: «هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ» أهل التكذيب بثواب الله وعقابه «وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ» مما اجترموا في الدنيا من الذنوب.

فإنْ قال قائل: وكيف قيل: «هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ» وقد علمتَ بخبرِ الله عنهم أنهم يقولون: «رَبَّنا أخْرِجْنا مِنْها» [المؤمنون: ١٠٧] وأنهم يقولون: «رَبَّنا أَمَتَّنا اثْنَتَينِ وأَحْيَيْتَنا اثْنَتَين» [غافر: ١١] في نظائرِ ذلك مما أخبرَ اللهُ ورسولُه عنهم أنهم يقولونه. قيل: إنَّ ذلك في بعضِ الأحوالِ دونَ بعض. وقوله: «هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ» يخبرُ عنهم أنهم لا ينطقون في بعضِ أحوالِ ذلك اليوم، لا أنهم لا ينطقونَ ذلك اليوم كله.

فإن قال: فهل من بُرهانٍ يعلم به حقيقة ذلك؟

قيل: نعم، وذلك إضافة يوم إلى قوله: «لا يَنْطِقُونَ» والعربُ لا تُضيف اليومَ إلى فَعَـلَ يفعـلُ، إلا إذا أرادت الساعةَ من اليومِ والوقتَ منه، وذلك كقولهم: آتيكَ يومَ يقدُم فلانٌ، وأتيتُكَ يومَ زاركَ أخوكَ، فمعلوم أنَّ معنى ذلك: أتيتكَ ساعةَ زاركَ، أو آتيك ساعةَ يقدُمُ، وأنه لم يكن إتيانُه إياه اليومَ كُلَّهُ، لأن ذلك لو كان أخذ اليوم كله لم يضف اليوم إلى فعل ويفعل، ولكن فعل ذلك إذ كان اليوم بمعنى إذْ وإذا اللتين يطلبان الأفعالَ دونَ الأسماء.

وقوله: «فَيَعْتَذِرُونَ» رفعاً عطفاً على قوله: «وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ» وإنما اختيرَ ذلـك على النصبِ وقبله جحـد، لأنه رأسُ آيةٍ قُرنَ بينه وبين سائرِ رؤوسِ الآيات التي قبلها، ولو كان جاء نصباً كان جائزاً، كما قال: لا يُقْضَى عليهم فيموتوا، وكلُّ ذلك جائزٌ فيه، أعني الرفعَ والنصبَ، كما قيل: «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ» [البقرة: ٢٤٥] رفعاً ونصباً.

وقوله: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبينَ

بخبرِ اللهِ عن هؤلاء القوم، وما هو فاعلٌ بهم يومَ القيامة.

وقوله: «هَذَا يَوْمُ الفَصْلِ جَمَعْناكُمْ والأوَّلِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه لهؤلاء المكذِّبينَ بالبعثِ يومَ يبعثون: هذا يومُ الفصلِ الذي يَفْصل اللهُ فيه بالحقِّ بين عباده «جَمَعْناكُمْ والأوَّلِينَ»، يقول: جمعناكم فيه لموعدكم الذي كنا نَعِدُكُم في الدنيا الجمعَ فيه بينكم وبين سائر مَنْ كان قبلَكم من الأممِ الهالكة. فقد وفَّينا لكم بذلك «فإنْ كانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ»، يقول: والله مُنْجِزٌ لكم ما وَعَدَكُمْ في الدنيا من العقابِ على تكذيبكم إياه بأنكم مبعوثونَ لهذا اليومِ إنْ كانت لكم حيلةٌ تحتالونها في التخلصِ من عقابهِ اليومَ فاحتالوا.

وقوله: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ»، يقول: ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين بهذا الخبر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ۝٤١ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۝٤٢ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٤٣ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٤٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٥﴾

يقول تعالىٰ ذِكْرُه: إنَّ الذين اتقوا عقابَ الله بأداءِ فرائضِه في الدنيا، واجتنابِ معاصيه «فِي ظِلالٍ» ظليلةٍ، وكِنٍّ كَنين، لا يُصِيبهم أذى حَرٍّ ولا قَرٍّ، إذْ كان الكافرون بالله في ظلِّ ذي ثلاثِ شعب، لا ظليل ولا يغني من اللهب «وعُيُونٍ» أنهارٍ تجري خلالَ أشجارِ جَنَّاتِهم «وفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ» يأكلونَ منها كلما اشتهوا لا يخافونَ ضرَّهَا، ولا عاقبةَ مَكْرُوهِهَا.

وقوله: «كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يقال لهم: كُلُوا أيها القوم من هذه الفواكه، واشربوا من هذه العيونِ كلما اشتهيتم «هنيئاً»، يقول: لا تكديرَ عليكم، ولا تنغيصَ فيما تأكلونَهُ وتشربونَ منه، ولكنه لكم دائمٌ، لا يزولُ، ومريءٌ لا يُورِثُكُمْ أذىً في أبدانكم.

وقوله: «بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»، يقول جلّ ثناؤه: يقالُ لهم: هذا جزاء بما كنتم في الدنيا تعملونَ من طاعةِ الله، وتجتهدونَ فيما يُقرِّبُكم منه.

وقوله: «إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ»، يقول: إنَّا كما جزينا هؤلاء المتقينَ بما وصفنا من الجزاءِ على طاعتهم إيانا في الدنيا، كذلك نجزي ونثيبُ أهلَ الإحسانِ في طاعتهم إيانا، وعبادتهم لنا في الدنيا على إحسانهم لا نُضيعُ في الآخرة أجْرَهُمْ.

وقوله: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ»، يقول: ويلٌ للذين يكذِّبُونَ خبرَ الله عما أخبرهم به من تكريمهِ هؤلاءِ المتقينَ بما أكرمهم به يومَ القيامة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾

يقول تعالى ذكره تهدّداً ووعيداً منه للمكذِّبينَ بالبعثِ: كُلُوا في بقيةِ آجالكم، وتمتعوا ببقيةِ أعماركم «إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ» مَسْنُونٌ بكم سُنَّةَ مَنْ قَبْلَكُمْ من مجرمي الأممِ الخاليةِ التي مُتِّعَتْ بأعمارها إلى بلوغِ كتبها آجالَها، ثم انتقم الله منها بكفرها، وتكذيبها رُسُلَها.

وقوله: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ويلٌ يومئذٍ للمكذبين الذين كذَّبُوا خبرَ الله الذي أخبرهم به عما هو فاعلٌ بهم في هذه الآية.

وقوله: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ»، يقول تعالى ذكره: وإذا قيل لهؤلاء المجرمينَ المكذّبين بوعيدِ الله أهل التكذيبِ به: اركعوا، لا يركعونَ.

واختلف أهلُ التأويلِ في الحينِ الذي يقال لهم فيه، فقال بعضهم:

يُقال ذلك في الآخرةِ حين يُدْعون إلى السجودِ فلا يستطيعون.

وقال آخرون: بل قيل ذلك لهم في الدنيا.

وقيل: عُنِي بالركوعِ في هذا الموضع الصلاة.

وأوْلى الأقوال في ذلك أن يقال: إنَّ ذلك خبر من الله تعالى ذِكْرُه عن هؤلاء القوم المجرمين أنهم كانوا له مخالفينَ في أمرِه ونهيه، لا يأتمرونَ بأمرِه، ولا ينتهون عما نهاهم عنه.

وقوله: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ»، يقول: ويلٌ للذين كذَّبُوا رُسُلَ الله، فَرَدُّوا عليهم ما بَلَّغوا من أمرِ الله إياهم، ونهيه لهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فبأيِّ حديثٍ بعد هذا القرآنِ، أي أنتم أيها القومُ كذَّبتم به مع وضُوحِ بُرْهانِه، وصحةِ دلائلِه، أنه حقٌّ من عند الله «تؤمنون»، يقول: تُصَدِّقُون.

وإنما أعلمهم تعالى ذِكْرُه أنهم إنْ لم يصدّقوا بهذه الأخبارِ التي أخبرهم بها في هذا القرآن مع صحةِ حججه على حقيقتِه لم يمكنهم الإقرارُ بحقيقةِ شيءٍ من الأخبار التي لم يشاهدوا المخبرَ عنه، ولم يعاينوه، وإنهم إن صدّقوا بشيءٍ مما غابَ عنهم لدليلٍ قامَ عليه لَزِمَهُم مِثْلُ ذلك في أخبارِ هذا القرآن، والله أعلم.

سُورَةُ النَّبَإِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: عن أي شيءٍ يتساءلُ هؤلاء المشركونَ باللهِ ورسولِه من قريشٍ يا محمدُ، وقيل ذلك له ﷺ، وذلك أنَّ قريشاً جعلت فيما ذُكر عنها تختصمُ وتتجادلُ في الذي دعاهم إليه رسولُ الله ﷺ من الإقرارِ بنبوّتِه، والتصديقِ بما جاء به من عند الله، والإيمان بالبعثِ، فقال الله لنبيه: فيمَ يتساءلُ هؤلاء القوم ويختصمون، و«في» و«عن» في هذا الموضع بمعنىً واحد.

ثم أخبر الله نبيه ﷺ عن الذي يتساءلونه، فقال: يتساءلونَ «عن النبأ العظيم»، يعني: عن الخبرِ العظيم.

وقوله: «الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: الذي صاروا هم فيه مختلفونَ فريقين: فريق به مصدِّق، وفريق به مكذِّب، يقول تعالى ذِكْرُه: فَتَساؤُلُهُمْ بينهم في النبأ الذي هذه صِفَتُه.

وقوله: «كَلَّا»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما الأمرُ كما يزعمُ هؤلاءِ المشركونَ الذين ينكرون بعثَ اللهِ إياهم أحياء بعدَ مماتِهم، وتوعدهم جل ثناؤه على هذا القول منهم فقال: «سَيَعْلَمُونَ»، يقول: سيعلمُ هؤلاء الكفارُ المُنْكِرُونَ وعيدَ الله أعداءه، ما الله فاعلٌ بهم يومَ القيامة، ثم أكّدَ الوعيدَ بتكريرٍ آخر، فقال: ما

الأمرُ كما يزعمونَ من أنَّ الله غير مُحْييهم بعد مماتِهم، ولا معاقبهم على كفرهم به، سيعلمون أنَّ القولَ غير ما قالوا إذا لقوا الله، وأفْضَوْا إلى ما قَدَّمُوا من سيئ أعمالهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه مُعَدِّداً على هؤلاء المشركين نِعَمه وأياديه عندهم، وإحسـانَهُ إليهم، وكفرانَهم ما أَنعم به عليهم، ومُتَوَعِّدَهُمْ بما أعَدَّ لهم عند ورودِهم عليه من صنـوفِ عقـابِـهِ، وأليمِ عذابـه، فقال لهم: «أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ» لكم «مِهاداً» تَمْتَهِدُونَها وتفترشونها.

«والجِبـالَ أَوْتـاداً»، يقـول: والجبـالَ للأرضِ أوتـاداً أَنْ تميدَ بكم «وَخَلَقْناكم أَزْوَاجاً» ذُكْراناً وإناثاً، وطوالاً وقصاراً، أو ذوي دمامةٍ وجمال، مثل قوله: «الَّذِين ظَلَمَوا وأَزْوَاجَهُم»، يعني به: صَيَّرْنَاهُمْ «وَجَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً»، يقـول: وجعلنـا نومَكم لكم راحـةً ودَعـةً، تهدؤون به وتسكنون، كأنكم أمواتٌ لا تشعرون، وأنتم أحياء لم تفارقكم الأرواح، والسبتُ والسباتُ: هو السكونُ، ولذلك سُمِّيَ السبتُ سبتاً، لأنه يومُ راحةٍ ودَعَةٍ «وَجَعَلْنا اللَّيْلَ لِباساً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وجعلنا الليلَ لكم غشاء يتغشَّاكم سوادُه، وتُغَطِّيكم ظُلْمَتُه، كما يغطي الثوبُ لابسَهُ لتسكنوا فيه عن التصرّفِ لما كنتم تتصرَّفُونَ له نهاراً.

وقوله: «وَجَعَلْنا النَّهارَ مَعاشاً»، يقول: وجعلنا النهارَ لكم ضياءً لتنتشروا فيه لمعاشكم، وتتصرَّفُوا فيه لمصالحِ دنياكم، وابتغاء فضلِ اللهِ فيه، وجعلَ جلَّ ثناؤه النهارَ إذ كان سبباً لتصرّفِ عبادِه لِطَلَبِ المعاشِ فيه معاشاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه «وَبَنَيْنا فَوْقَكُمْ»: وسقفنا فوقكم، فجعلَ السقفَ بناءً، إذ كانت العربُ تسمي سُقوفَ البيتِ، وهي سماؤُها بناءً، وكانت السماءُ للأرضِ سقفاً، فخاطبهم بلسانهم إذْ كان التنزيلُ بلسانهم، وقال: «سَبْعاً شِدَاداً» إذ كانت وثاقاً مُحْكَمةَ الخَلْقِ، لا صدوعَ فيهنَّ ولا فطورَ، ولا يبليهنَّ مَرُّ الليالي والأيام.

وقوله: «وَجَعَلْنا سِراجاً وَهَّاجاً»، يقول تعالى ذكره: وجعلنا سراجاً، يعني بالسراج: الشمس. وقوله: «وَهَّاجاً»، يعني: وَقَّاداً مضيئاً.

وقوله: «وأَنْزَلْنا مِنَ المُعْصِراتِ»، اختلف أهلُ التأويلِ في المعنيِّ بالمُعْصِراتِ، فقال بعضهم: عُنِي بها الرياح التي تعصر في هبوبها.

وقال آخرون: بل هي السحابُ التي تَتَحلَّبُ بالمطرِ ولَمَّا تُمْطِرْ كالمرأةِ المُعْصِرِ التي قد دَنَا أوانُ حَيْضِها ولم تحضْ.

وقال آخرون: بل هي السماء.

وأَوْلى الأقوال في ذلك بالصوابِ أن يقال: إنَّ الله أخبر أنه أنزلَ من المعصراتِ، وهي التي قد تَحَلَّبَتْ بالماءِ من السحابِ ماءً.

وإنما قلنا ذلك أَوْلى بالصواب، لأنَّ القول في ذلك على أحدِ الأقوالِ الثلاثةِ التي ذكرت، والرياح لا ماءَ فيها، فينزل منها، وإنما ينزل بها، وكان يصحُّ أنْ تكونَ الرياح لو كانت القراءة (وَأَنْزَلْنا بالمُعْصِرَاتِ) فلما كانت القراءة «مِنَ المُعْصِرَاتِ» علم أن المعنيَّ بذلك ما وصفتُ.

فإنْ ظنَّ ظانٌّ أن الباء قد تعقب في مثل هذا الموضع من قيل ذلك، وإن كان كذلك، فالأغلبُ من معنى «من» غير ذلك، والتأويلُ على الأغلب من معنى الكلام. فإن قال: فإنَّ السماءَ قد يجوز أنْ تكون مراداً بها. قيل: إنَّ ذلك وإنْ كان كذلك، فإنَّ الأغلبَ من نزولِ الغيثِ من السحابِ دونَ غيرِه.

وأما قوله: «ماءً ثَجّاجاً»، يقول: ماءً مُنْصَبّاً يتبعُ بعضُه بعضاً كثجِّ دماءِ البدِن، وذلك سفكها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّـٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لنخرجَ بالماءِ الذي ننزله من المعصراتِ إلى الأرضِ حَبّاً، والحَبُّ كُلُّ ماتضمنه كمامُ الزرعِ التي تحصد، وهي جمع حبة، كما الشعيرُ جمعُ شعيرة، وكما التمر جمع تمرة: وأما النباتُ فهو الكلأ الذي يُرْعَى من الحشيشِ والزروع.

وقوله: «وَجَنَّـاتٍ أَلْفافاً»، يقول: ولنخرج بذلك الغيثِ جناتٍ، وهي البساتينُ، وقال: «وجنات»، والمعنى: وثمرَ جناتٍ، فترك ذِكْرَ الثمرِ استغناءً بدلالةِ الكلامُ عليه من ذِكْرِه.

وقوله: «أَلْفافاً»، يعني: مُلْتَفَّةً مجتمعةً.

وقوله: «إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كانَ مِيقاتاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ يومَ يفصلُ اللهُ فيه بين خَلْقِـه، فيأخذ فيه من بعضِهم لبعضٍ، كان ميقاتاً لما أنفذَ الله لهؤلاء المكذِّبينَ بالبعثِ، ولضُرَبائهم من الخَلْقِ.

وقوله: «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ» تَرْجَم بيوم يُنْفَخُ عن يوم الفصلِ، فكأنه

قيل: يومُ الفصلِ كان أجلاً لما وعدنا هؤلاءِ القوم، يومَ يُنْفَخُ في الصور. وقد بيَّنتُ معنى الصُّور فيما مضى قبل، وهو قَرْنٌ يُنْفَخ فيه عندنا.

وإنما قيل: «فتأْتُونَ أفْوَاجاً» لأنَّ كُلَّ أمةٍ أرسلَ اللهُ إليها رسولاً تأتي مع الذي أُرسِلَ إليها كما قال: «يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُناسٍ بإمامِهِمْ» [الإسراء: ٧١].

وقولـه: «وَفُتِحَتِ السَّمـاءُ فَكانت أبْوَاباً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وشُقِّقَتِ السماءُ فَصُدِّعَتْ، فكانت طُرقاً، وكانت من قبل شداداً لا فطورَ فيها ولا صُدوعَ.

وقوله: «وَسُيِّرَتِ الجبالُ فَكانَتْ سَرَاباً»، يقول: ونُسفت الجبالُ فاجْتُثَّتْ من أصولها، فَصُيِّرَتْ هباءً منبثاً، لعينِ الناظرِ، كالسرابِ الذي يظنُّ مَنْ يراه من بُعْدٍ ماء، وهو في الحقيقة هباء.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: إنَّ جهنمَ كانت ذاتَ رَصْدٍ لأهلها الذين كانوا يكذّبون في الدنيا بها وبالمعادِ إلى اللهِ في الآخرة، ولغيرهم من المصدِّقينَ بها، ومعنى الكلام: إنَّ جهنم كانت ذاتَ ارتقابٍ ترقبُ مَنْ يجتازها وترصُدهم.

وقـوله: «للطَّاغِينَ مآباً»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ جهنمَ للذين طَغَوْا في الدنيا فتجاوزوا حدودَ الله استكباراً على رَبِّهم كانت منزلاً ومرجعاً يرجعون إليه، ومصيراً يصيرونَ إليه يسكنونه.

وقوله: «لابِثِينَ فِيها أحْقاباً»، يقول تعالى ذِكْرُه: إن هؤلاء الطاغينَ في الدنيا لابثونَ في جهنَم، فماكثونَ فيها أحقاباً.

وقوله: «لا يَذُوقُونَ فِيها بَرْداً وَلا شَرَاباً»، يقول: لا يطعمون فيها «بَرْداً» يبرد حَرَّ السعيرِ عنهم إلا الغَسَّاق، «ولا شراباً» يُرَوِّيهم من شدَّةِ العطشِ الذي بهم إلا الحميم.

وقوله: «إِلَّا حَمِيماً وغَسَّاقاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلا حميماً قد أُغْلِيَ حتىّ انتهى حَرُّهُ، فهو كالمُهْلِ يَشْوِي الوجوهَ، ولا بردَ إلا غَسَّاقاً.

والغساقُ عندي: هو الفَعَّالُ، من قولهم: غَسَقَتْ عينُ فلان: إذا سالت دُموعها، وغَسَق الجرحُ: إذا سالَ صَدِيدهُ، ومنه قول الله: «وَمِنْ شَرِّ غاسِقٍ إذَا وَقَبَ»، يعني بالغاسق: الليل إذا لَبِسَ الأشياء وغَطَّاها، وإنما أُريدَ بذلك هجومه على الأشياء هجومَ السيلِ السائلِ، فإذا كان الغسَّاقُ هو ما وصفتُ من الشيءِ السائل، فالواجبُ أن يُقال: الذي وَعَدَ اللهُ هؤلاء القوم، وأخبرَ أنهم يذوقونه في الآخرةِ من الشرابِ هو السائلُ من الزمهريرِ في جهنم الجامع مع شِدَّةِ بردهِ النَّتَنَ.

وقوله: «وكَذَّبُوا بآياتنا كِذَّاباً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكَذَّبَ هؤلاء الكفارُ بحُجَجنا وأدلتنا تكذيباً.

وقوله: «وكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناه كِتاباً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكلَّ شيءٍ أحصيناهُ فكتبناه كتاباً، كَتَبْنَا عَدَدَهُ ومبلغَهُ وقَدْرَهُ، فلا يَعْزُبُ عنَّا علمُ شيءٍ منه.

فإن قال قائل: فإنك قد قلتَ: إنَّ الغَساق: هو الزمهريرُ، والزمهريرُ: هو غايةُ البردِ، فكيف يكونُ الزمهريرُ سائلاً؟ قيل: إنَّ البرد الذي لا يُستطاعُ ولا يُطاقُ يكونُ في صفةِ السائلِ من أجسادِ القوم من القيحِ والصديدِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ

حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هذا العقابُ الذي عُوقِبَ به هؤلاء الكفارُ في الآخرةِ فعلَه بهم رَبُّهم جزاء، يعني: ثواباً لهم على أفعالِهِم وأقوالِهِم الرديئةِ التي كانوا يعملونها في الدنيا، وهو مصدرٌ من قولِ القائل: وافقَ هذا العقابُ هذا العملَ وِفاقاً.

وقوله: «إِنَّهُمْ كانُوا لا يَرْجُونَ حِساباً»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ هؤلاء الكفار كانوا في الدنيا لا يخافونَ محاسبةَ اللهِ إياهم في الآخرةِ على نعمه عليهم، وإحسانهِ إليهم، وسوءِ شُكْرِهم له على ذلك.

وقوله: « فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ الَّا عَذَاباً»، يقول جلَّ ثناؤه: يُقالُ لهؤلاء الكفار في جهنم إذا شربوا الحميمَ والغَسَّاقَ: ذُوقُوا أيها القومُ من عذابِ الله الذي كنتم به في الدنيا تكذِّبون، فلن نَزيدكم إلا عذاباً على العذابِ الذي أنتم فيه، لا تخفيفاً منه ولا ترفُّهاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾

يقول: إنَّ للمتقينَ منَجًى من النارِ إلى الجنةِ، ومخلصاً منها لهم إليها، وظفراً بما طلبوا.

وقوله: «حَدَائِقَ» والحدائق: ترجمةٌ وبيانٌ عن المَفَازِ، وجازَ أن يترجم بها عنه، لأنَّ المفازَ مصدرٌ من قولِ القائل: فَازَ فلانٌ بهذا الشيء: إذا طلبه فظفرَ به، فكأنه قيل: إنَّ للمتقينَ ظَفَراً بما طلبوا من حدائقَ وأعنابٍ؛ والحدائقُ:

جمعُ حديقة، وهي البساتينُ من النخلِ والأعنابِ والأشجارِ المُحَوَّطِ عليها الحيطانَ المُحْدِقة بها، لأحداقِ الحيطانِ بها تُسمى الحديقةُ حديقة، فإنْ لم تكن الحيطانُ بها مُحْدِقَةً لم يُقَلْ لها حديقة، وإحداقُها بها: اشتمالُهَا عليها.

وقوله: «وأعْناباً»، يعني: وكرومَ أعنابٍ، واستغنى بذكرِ الأعنابِ عن ذِكْرِ الكروم.

وقوله: «وَكَوَاعِبَ أتْرَاباً»، يقول: ونواهدَ في سنٍّ واحدة.

وقوله: «وكأْساً دِهاقاً»، يقول: وكأساً ملأى متابعة على شاربيها بكثرةٍ وامتلاءٍ، وأصلُه من الدَّهْق: وهو متابعةُ الضغطِ على الإنسانِ بشدّةٍ وعنفٍ، وكذلك الكأسُ الدِّهاقُ: متابعتها على شاربيها بكثرةٍ وامتلاء.

وقوله: «لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَلا كِذَّاباً»، يقول تعالى ذِكْرُه: لا يسمعونَ في الجنة «لغواً»، يعني: باطلاً من القولِ، «ولا كِذَّاباً»، يقول: ولا مكاذبةً، أي: لا يكذبُ بعضُهم بعضاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾

يعني بقوله جلّ ثناؤه: «جَزاءً مِنْ رَبِّكَ عَطاءً» أعطى الله هؤلاء المتقين ما وصفَ في هذه الآيات ثواباً من رَبِّكَ بأعمالهم على طاعَتِهم إياهُ في الدنيا.

وقوله: «عَطاءً»، يقول: تَفَضُّلاً من اللهِ عليهم بذلك الجزاءِ، وذلك أنه جزاهم بالواحدِ عشراً في بعضٍ، وفي بعضٍ بالواحدِ سبعَ مِئَة، فهذه الزيادةُ وإنْ كانت جزاء، فعطاء من الله.

وقوله: «حِساباً»، يقول: محاسبة لهم بأعمالهم لله في الدنيا.

النبأ: ٣٨

وقوله: «رَبِّ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ومَا بَيْنَهُما الرَّحْمَنِ»، يقول جلّ ثناؤه: جزاءً من رَبِّكَ ربِّ السمواتِ السبع والأرض وما بينهما من الخلق.

واختلف القَرَأةُ في قراءة ذلك، فقرأته عامةُ قَرَأةِ المدينة «رَبُّ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ومَا بَيْنَهُما الرَّحْمَنُ» بالرفع في كِلَيْهِمَا. وقرأ ذلك بعضُ أهلِ البصرة وبعض الكوفيين «رَبِّ» خفضاً «والرَّحْمَنُ» رفعاً ولكلٍّ ذلك عندنا وجهٌ صحيحٌ، فبأيٍّ ذلك قرأ القارئُ فمصيبٌ، غير أنَّ الخفض في الربِّ لقربه من قوله: «جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ»: أعجب إليَّ، وأما «الرَّحْمَنُ» بالرفع فإنه أحسنُ لبعدِه من ذلك.

وقوله: «الرَّحْمَن لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطاباً»، يقول تعالى ذِكْرُه: الرحمن لا يقدرُ أحدٌ من خَلْقِه خطابَهُ يومَ القيامة، إلا مَنْ أذِنَ له منهم وقالَ صواباً.

وقوله: «يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ»، اختلف أهلُ العلمِ في معنى الروح في هذا الموضع فقال بعضُهم: هو مَلَكٌ من أعظمِ الملائكةِ خَلْقاً.

وقال آخرون: هو جبريل عليه السلام.

وقال آخرون: خَلْقٌ من خَلْقِ الله في صورةِ بني آدم.

وقال آخرون: هم بنو آدم.

وقال آخرون: قيل: ذلك أرواح بني آدم.

وقال آخرون: هو القرآن.

وقوله: «لا يَتَكَلَّمُونَ إلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ»، قيل: إنهم يُؤْذَنُ لهم في الكلام حين يُؤْمَرُ بأهلِ النارِ إلى النارِ، وبأهلِ الجنةِ إلى الجنة.

وقال آخرون: «إلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحمنُ» بالتوحيدِ «وَقَالَ صَوَاباً» في الدنيا، فوحَّدَ الله.

والصوابُ من القول في ذلك أن يقال: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه أخبرَ عن خَلْقِه أنهم لا يتكلمونَ يوم يقوم الروحُ والملائكةُ صَفاً، إلا مَنْ أَذِنَ له منهم في الكلام الرحمنُ، وقال صواباً، فالواجبُ أنْ يقالَ كما أخبر إذ لم يخبرنا في كتابه، ولا على لسانِ رسوله، أنه عَنَى بذلك نوعاً من أنواعِ الصوابِ، والظاهر محتمل جميعه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «ذلكَ الْيَوْمُ»، يعني: يوم القيامة، وهو يوم يقومُ الروحُ والملائكةُ صفاً. «الْحَقّ»، يقول: إنه حقٌّ كائنٌ لا شكَّ فيه.

وقوله: «فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إلى رَبِّهِ مآباً»، يقول: فَمَنْ شاء من عبادِه اتخذ بالتصـديقِ بهذا اليومِ الحقِّ، والاستعدادِ له، والعمل بما فيه النجاةُ له من أهوالِهِ «مآباً»، يعني: مرجعاً.

وقوله: «إنَّا أَنْذَرْناكُمْ عَذابا قَريباً»، يقول: إنا حَذَّرْناكُمْ أيها الناسُ عذاباً قد دَنَا منكم وقَرُبَ، وذلك «يَوْمَ يَنْظُرُ المَرْءُ» المؤمنُ «ماقَدَّمَتْ يَدَاهُ» من خيرٍ اكتسبَهُ في الدنيا، أو شرٍّ سَلَفَهُ، فيرجو ثوابَ اللهِ على صالح أعماله، ويخاف عقابه على سَيِّئِها.

وقـوله: «وَيَقُولُ الكافِرُ يا لَيْتَني كُنْتُ تُراباً»، يقول تعالى ذِكْرُه: ويقول الكافرُ يومئذٍ تمنياً لما يَلْقَى من عذابِ الله الذي أعدَّهُ لأصحابِهِ الكافرينَ به، يا ليتني كنتُ تراباً كالبهائمِ التي جُعِلَت تراباً.

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝١ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ۝٢ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝٣ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۝٤ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝٥ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ۝٩﴾

أقسم رَبُّنا جلّ جلاله بالنازعات، واختلف أهلُ التأويل فيها، وما هيَ، و ما تنزعُ؟ فقال بعضهم: هم الملائكةُ التي تنزعُ نفوسَ بني آدم، والمنزوع نفوس الآدميين.

وقال آخرون: بل هو الموتُ ينزعُ النفوسَ.

وقال آخرون: هي النجومُ تنزع من أُفقٍ إلى أفق.

وقال آخرون: هي القسيُّ تنزع بالسهم.

وقال آخرون: هي النفس حين تُنزَع.

والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه أقسمَ بالنازعاتِ غَرْقاً، ولم يخصص نازعةً دونَ نازعة، فكلُّ نازعةٍ غَرْقاً، فداخلةٌ في قَسَمِه، ملكاً كان أو موتاً، أو نجماً، أو قوساً، أو غير ذلك. والمعنى: والنازعات إغراقاً كما يغرق النازع في القوس.

وقوله: «والنَّاشِطاتِ نَشْطاً»، اختلف أهلُ التأويل أيضاً فيهنّ، وما هُنَّ، وما الذي ينشط، فقال بعضهم: هم الملائكة، تَنْشطُ نفسَ المؤمن فتقبضهُا، كما ينشط العقالُ من البعير إذا حُلَّ عنه[١].

وقال آخرون: «النَّاشِطاتِ نَشْطاً» هو الموتُ يَنْشط نفسَ الإنسان.

وقال آخرون: هي النجوم تنشطُ من أفقٍ إلى أفق.

وقال آخرون: هي الأوهاق[٢].

والصوابُ من القولِ في ذلك عندي أن يقال: إنَّ الله جلّ ثناؤهُ أقسمَ بالناشطاتِ نشطاً، وهي التي تنشطُ من موضعٍ إلى موضع، فتذهب إليه، ولم يخصص الله بذلك شيئاً دونَ شيءٍ، بل عَمَّ القَسَمَ بجميعِ الناشطاتِ والملائكةِ تَنشطُ من موضعٍ إلى موضع، وكذلك الموت، وكذلك النجوم والأوهاق وبقر الوحش أيضاً تَنْشط، والهموم تنشط صاحبها. فكلُّ ناشطٍ فداخلٌ فيما أقسمَ به إلا أنْ تقومَ حجةٌ يجبُ التسليمُ لها بأنَّ المعنيِّ بالقسم من ذلك بعضٌ دونَ بعضٍ.

وقوله: «والسَّابِحاتِ سَبْحاً»، يقول تعالى ذكره: واللواتي تَسبحُ سبحاً.

واختلف أهلُ التأويل في التي أقسمَ بها جلَّ ثناؤه من السابحاتِ، فقال بعضهم: هي الموتُ تسبحُ في نفسِ ابن آدم.

وقال آخرون: هي النجوم تَسْبح في فَلَكها.

وقال آخرون: هي السفن.

---

(١) هو قول الفراء في معاني القرآن: ٣/٢٣٠

(٢) الأوهاق: جمعُ وَهْق، وهي الحبل يُرمى فيه أُنشوطة، فتؤخذ فيه الدابة والإنسان، كما في القاموس المحيط.

والصوابُ من القول في ذلك عندي أن يقال: إنَّ الله جلّ ثناؤه أقسَمَ بالسابحاتِ سبحاً من خَلْقِه، ولم يخصص من ذلك بعضاً دونَ بعضٍ، فذلك كل سابح لِمَا وَصَفْنَا قَبْلُ في النازعات.

وقوله: «فالسَّابِقات سَبْقاً»، اختلف أهلُ التأويل فيها، فقال بعضهم: هي الملائكة.

وقال آخرون: بل هي الخيلُ السابقةُ.

وقال آخرون: بل هي النجوم يسبقُ بعضُها بعضاً في السير.

والقول عندنا في هذه مثل القولِ في سائرِ الأحرفِ الماضية.

وقوله: «فالمُدَبِّراتِ أمْراً»، يقول: فالملائكةُ المدبرة ما أمرت به من أمرِ الله.

وقوله: «يَوْمَ تَرْجُفُ الرّاجِفَةُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يوم ترجفُ الأرضُ والجبالُ للنفخةِ الأولى «تَتْبَعُها الرَّادِفَةُ» تتبعها أُخرى بعدَها، وهي النفخة الثانية التي ردفت الأولى لبعثِ يوم القيامة.

وقوله: «قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قلوبُ خَلْقٍ من خَلْقِه يومئذٍ، خائفةٌ من عظيمِ الهولِ النازل.

وقوله: «أَبْصَارُها خاشِعَةٌ»، يقول: أبصارُ أصحابها ذليلةٌ مما قد عَلاَهَا من الكآبةِ والحزنِ من الخوفِ والرُّعْبِ الذي قد نزلَ بهم من عظيمِ هولِ ذلك اليوم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝١١ قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣﴾

فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يقول هؤلاء المكذِّبُونَ بالبعثِ من مشركي قريش إذا قيل لهم: إنكم مبعوثونَ من بعدِ الموتِ: أئِنَّا لمردودونَ إلى حالنا الأولى قبلَ المماتِ، فراجعونَ أحياء كما كنا قبل هلاكنا، وقبل مماتنا.

وقوله: «أئِذَا كُنَّا عِظاماً نَخِرَةً»، اختلفت القَرَأة في قراءة ذلك، فقرأته عامة قَرَأة المدينة والحجاز والبصرة «نَخِرَةً» بمعنى: بالية. وقرأ ذلك عامةُ قَرَأة الكوفة «ناخِرَةً» بألف، بمعنى أنها مجوّفة تنخَر الرياحُ في جوفها إذا مرّت بها. وكان بعضُ أهلِ العلم بكلامِ العربِ من الكوفيينَ يقول: الناخرةُ والنخرة سواء في المعنى، بمنزلة الطامعِ والطَّمِعِ، والباخل والبَخِلِ[1]. وأفصح اللغتين عندنا وأشهرهما عندنا «نَخِرَةً»، بغير ألف، بمعنى: بالية، غير أنَّ رؤوسَ الآي قبلها وبعدها جاءت بالألف، فأعجب إليّ لذلك أن تُلْحَقَ ناخرة بها ليتفقَ هو وسائر رؤوس الآيات، لولا ذلك كان أعجب القراءتين إليَّ حذف الألف منها.

قالوا: «تِلكَ إِذًا كَرَّةٌ خاسِرَةٌ»، يقول جلّ ثناؤه عن قيلِ هؤلاء المكذّبينَ بالبعثِ، قالوا: تلك يعنون تلك الرجعة أحياء بعد الممات، إذاً يعنون الآن كرَّةٌ، يعنون: رجعةٌ خاسرةٌ، يعنون: غابنةٌ.

وقوله: «فإنَّمَا هيَ زَجْرةٌ وَاحِدَةٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فإنما هي صيحةٌ واحدة، ونَفخة تنفخ في الصور، وذلك هو الزجرة.

وقـوله: «فإذَا هُمْ بالسَّاهِرَةِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فإذا هؤلاء المكذّبونَ بالبعثِ المتعجبونَ من إحياءِ اللهِ إياهم من بعد مماتِهم، تكذيباً منهم بذلك

(١) انظر معاني القرآن للفراء: ٣/٢٢١ ـ ٢٢٢

بالساهرةِ، يعني: بظهرِ الأرض، والعربُ تسمي الفلاةَ ووجهَ الأرضِ ساهرة، وأراهم سموا ذلك بها، لأنَّ فيه نوم الحيوانِ وسهرها، فوُصِفَ بصفةِ ما فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: هل أتاكَ يا محمدُ حديثُ موسى بنِ عمرانَ، وهل سمعتَ خَبَرَهُ حين ناجاهُ رَبُّه بالوادِ المقدّس، يعني بالمقدّس: المُطَهَّرِ المُبَارَكِ، و«طُوى» اسم الوادي.

وقوله: «اذْهَبْ إلى فِرْعَوْنَ إنَّهُ طَغَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: نادى موسى رَبُّـهُ: أن اذهبْ إلى فِرعـونَ، فحذفت «أن» إذْ كان النداء قولاً، فكأنه قِيلَ لموسى قال ربه: اذهبْ إلى فرعونَ.

وقوله: «إنَّهُ طَغَى»، يقول: عَتَا وتجاوزَ حَدَّهُ في العدوان، والتكبرِ على رَبِّه.

وقوله: «فَقُلْ هَلْ لَكَ إلى أنْ تَزَكَّى»، يقول: فقل له: هل لكَ إلى أنْ تتطهَّرَ من دَنَسِ الكفرِ، وتؤمِنَ بربِّكَ؟.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۝٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه موسى: قُلْ لفرعونَ: هَلْ لكَ إلى أنْ أُرشدكَ إلى ما يُرْضِي رَبَّكَ، وذلك الدين القيم «فتخشى»، يقول: فتخشى عقابه بأداءِ ما

ألزمكَ من فرائضِه، واجتنابِ ما نهاكَ عنه من معاصيه.

وقوله: «فأَرَاهُ الآيَةَ الكُبْرَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: فأرى موسى فرعونَ الآيةَ الكبرى، يعني الدلالةَ الكبرى، على أنه لله رسولٌ أرسلَهُ إليه، فكانت تلك الآيةُ يدَ موسى إذْ أخرجَها بيضاءَ للناظرينَ، وعَصَاهُ إذ تَحوَّلَتْ ثعباناً مبيناً.

وقـولـه: «فَكَذَّبَ وَعَصَى»، يقول: فكذَّبَ فرعونُ موسى فيما أتاهُ من الآياتِ المعجزةِ، وعصاه فيما أمرَهُ به من طاعتِهِ رَبَّهُ، وخَشيته إياه.

وقوله: «ثُمَّ أدْبَرَ يَسْعَى»، يقول: ثم وَلَّى مُعْرِضاً عما دعاه إليه موسى من طاعتـه ربه، وخشيته وتوحيده «يسعى»، يقول: يعمل في معصيةِ الله، وفيما يُسْخِطُه عليه.

وقوله: «فَحَشَرَ فَنادَى»، يقول: فجمعَ قومَهُ وأتباعه، فنادى فيهم «فقالَ» لهم: «أنا رَبُّكُمُ الأعْلَى» الذي كلُّ ربٍّ دوني، وكَذب الأحمق.

القَــوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِــهِ تَعَــالَى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ۝٢٥ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ۝٢٦ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «فأَخَذَهُ اللهُ» فعاقبه الله «نَكالَ الآخِرَةِ والأُولى»، يقول: عقوبة الآخرة من كَلِمَتَيْهِ، وهي قوله: «أنا رَبُّكُمُ الأعْلَى» والأولى قوله: «ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إلَهٍ غَيري».

وقوله: «والأرْضَ بَعْدَ ذلكَ دَحاها» واختلف أهلُ التأويلِ في معنى قوله: «بَعْدَ ذلكَ»، فقال بعضهم: دحِيت الأرضُ من بعد خَلْقِ السماء.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: والأرضَ مع ذلك دحاها، وقالوا: الأرضُ خُلِقت ودُحِيتْ قبل السماء، وذلك أنَّ الله قال: «هُوَ الَّذي خَلَقَ لكُمْ ما في

الأرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمواتٍ»، قالوا: فأخبرَ اللهُ أنه سَوَّى السمواتِ بعد أنْ خلقَ ما في الأرض جميعاً، قالوا فإذا كانَ ذلك كذلك، فلا وجهَ لقولِهِ: «والأرْضَ بَعْدَ ذلكَ دَحاها» إلا ماذكرنا من أنه مع ذلك دَحَاها قالوا: وذلك كقولِ الله عزّ وجلّ: «عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلكَ زَنِيمٍ» [القلم: ١٣] بمعنى: مع ذلك زنيم، وكما يقال للرجل. أنت أحمق، وأنتَ بعد هذا لئيمُ الحَسَب، بمعنى: مع هذا، وكما قال جلّ ثناؤه: «وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ» [الأنبياء: ١٠٥]: أي من قبل الذكر.

وقوله: «إنَّ فِي ذلكَ لَعِبْرَةً لمنْ يَخْشَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ في العقوبةِ التي عاقبَ اللهُ بها فرعونَ في عاجلِ الدنيا، وفي أخذه إياه نكالَ الآخرةِ والأولى، عِظَةً ومعتبراً لمن يخافُ الله ويخشى عقابه.

وقوله: «أأنْتُمْ أشَدُّ خَلْقاً أمِ السَّماءُ بناها»، يقول تعالى ذِكْرُه للمكذِّبينَ بالبعثِ من قريشٍ، القائلينَ «أئِذَا كُنَّا عِظاماً نَخِرَة، قالُوا تِلكَ إذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ» أأنتم أيها الناسُ أشدُّ خَلْقاً، أم السماء بناها رَبُّكم، فإنَّ مَنْ بنى السماء فرفعها سقفاً، هَيِّنٌ عليه خَلْقُكم وخَلْقُ أمثالِكم، وإحياؤكم بعد مماتِكم وليس خلقكمْ بعد مماتكم بأشدَّ من خَلْقِ السماء، وعنى بقوله: «بنَاها» رفعها فجعلها للأرضِ سقفاً.

وقوله: «رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها»، يقول تعالى ذِكْرُه: فَسَوَّى السماءَ، فلا شيءَ أرفع من شيء، ولا شيء أخفض من شيء، ولكن جميعها مستوي الارتفاع والامتداد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾

وقوله: «وأَغْطَشَ لَيْلَها»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأظلمَ ليلَ السماءِ فأضافَ الليلَ إلى السماءِ، لأنَّ الليلَ غروبُ الشمسِ، وغروبها وطلوعها فيها، فأُضيفَ إليها لمَّا كان فيها، كما قيل نجوم الليل، إذ كان فيه الطلوع والغروب.

وقوله: «وأَخْرَجَ ضُحاها»، يقول: وأخرج ضياءها، يعني: أبرزَ نهارَها فأظهره ونَوَّرَ ضُحَاها.

والقولُ الذي ذكرناه من أنَّ الله تعالى خَلَقَ الأرضَ، وقَدَّرَ فيها أقواتَها، ولم يَدْحُهَا، ثم استوى إلى السماء فسوَّاهُنَّ سبعَ سمواتٍ، ثم دَحَا الأرضَ بعد ذلـك، فأخرج منها ماءها ومرعاها، وأرسى جبالها، أشبه بما دلَّ عليه ظاهرُ التنزيلِ، لأنه جلّ ثناؤه قال: «والأَرْضَ بَعْدَ ذلكَ دَحاها» والمعروف من معنى «بَعْدَ» أنه خلاف معنى «قَبْل» وليس في دُحُوِّ اللهِ الأرضَ بعد تسويتِهِ السمواتِ السبع، وإغطاشِهِ ليلها؛ وإخراجِهِ ضُحَاها، ما يوجبُ أنْ تكونَ الأرضُ خُلقت بعد خلقِ السموات لأن الدحوّ إنما هو البسطُ في كلامِ العرب والمَدُّ، يقال منه: دَحَا يَدْحُو دَحْواً، ودَحَيْتُ أدْحِي دَحْياً، لغتان.

وقوله: «أَخْرَجَ مِنْها ماءَها»، يقول: فَجَّرَ فيها الأنهارَ «وَمَرْعاها»، يقول: أنبت نباتَها.

وقوله: «والجِبالَ أرْساها»، يقول: والجبالَ أثبتها فيها، وفي الكلام متروكٌ استغنيَ بدلالـةِ الكـلامِ عليه من ذكره، وهو فيها، وذلك أن معنى الكلام: والجبالَ أرساها فيها.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٣ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٣٤ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ۝٣٥ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ۝٣٦﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «مَتاعاً لَكُمْ ولأنعامكُمْ» أنه خلقَ هذه الأشياء،

وأخرجَ من الأرضِ ماءها ومرعاها منفعةً لنا ومتاعاً إلى حين.

وقوله: «فإذَا جاءَتِ الطَّامَّةُ الكُبْرَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: فإذا جاءت التي تطم على كلِّ هائلةٍ من الأمور، فتغمرُ ما سِواهَا بعظيمِ هَوْلها، وقيل: إنها اسمٌ من أسماء يوم القيامة.

وقوله: «يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنْسانُ ما سَعَى»، يقول: إذا جاءت الطامةُ يومَ يتذكَّرُ الإنسانُ ما عَمِلَ في الدنيا من خيرٍ وشرّ، وذلك سعيُه. «وَبُرِّزَتِ الجَحِيمُ»، يقول: وأُظْهِرت الجحيم، وهي نارُ الله لمن يراها، يقول: لأبصارِ الناظرين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فأما مَنْ عَتَا على رَبِّه، وعصاه واستكبرَ عن عبادته.

وقوله: «وآثَرَ الْحَياةَ الدُّنْيا»، يقول: وآثَرَ متاعَ الحياةِ الدنيا على كرامةِ الآخرة، وما أعدَّ الله فيها لأوليائِه، فعمل للدنيا، وسعى لها، وتركَ العملَ للآخرةِ «فإنَّ الجَحِيمَ هيَ المأْوَى»، يقول: فإنَّ نار الله التي اسمها الجحيم، هي منزلهُ ومأواهُ، ومصيرهُ الذي يصيرُ إليه يوم القيامة.

وقوله: «وأمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ ونَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى»، يقول: وأما مَنْ خافَ مسألة الله إياه عند وقوفِهِ يومَ القيامةِ بين يديه، فاتقاهُ بأداءِ فرائضِه، واجتنابِ معاصيه، «ونهى النفسَ عن الهوى»، يقول: ونهى نفسَهُ عن هواها فيما يكرهُهُ الله، ولا يرضاهُ منها، فَزَجَرَهَا عن ذلك، وخالفَ هَواها إلى ما أمرهُ به رَبُّه «فإنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى»، يقول: فإنَّ الجنةَ هي مأواهُ ومنزلهُ يومَ القيامة.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝٤٤ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ۝٤٥ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ۝٤٦﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: يسألك يا محمدُ هؤلاء المكذّبونَ بالبعثِ عن الساعةِ التي تبعث فيها الموتى من قبورهم «أيَّانَ مُرْسَاها»، متى قِيامُهَا وظُهورها. وكان الفَرَّاءُ يقول[1]: إنْ قال القائل: إنما الإرساءُ للسفينةِ، والجبال الراسية وما أشبههنّ، فكيف وَصَفَ الساعةَ بالإرساءِ؟ قلتُ: هي بمنزلة السفينةِ إذا كانت جاريةً فَرَسَتْ، ورُسُوُّهَا: قيامُهَا؛ قال: وليس قيامها كقيامِ القائم، إنما هي كقولك: قد قام العدلُ، وقام الحقُّ: أي ظهرَ وثبتَ.

يقول الله لنبيه: «فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها»، يقول: في أيِّ شيء أنتَ من ذِكْرِ الساعةِ والبحثِ عن شأنها. وذُكر أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يُكثر ذِكْرَ الساعة، حتى نزلت هذه الآية[2].

وقوله: «إلى رَبِّكَ مُنْتَهاها»، يقول: إلى رَبِّكَ منتهى علمها، أي: إليه ينتهي علمُ الساعةِ، لا يعلم وقتَ قيامها غيره.

---

(١) معاني القرآن: ٣/٢٣٤.

(٢) حديث عائشة رضي الله عنها، رواه المؤلف مرفوعاً عن يعقوب بن إبراهيم، عن سفيان ابن عُيينة، عن الزهري، عن عروة، عنها (٣٠/٤٩)، وهكذا أخرجه البزار في مسنده (٢٢٧٩)، والحاكم: ٢/٥١٣، ورجاله رجال الصحيح، ولكن قال ابن أبي حاتم في العلل (١٦٩٣): «قال أبو زرعة: الصحيح مرسل بلا عائشة». قلنا: الصحيح أن سفيان رواه مرة مرفوعاً، ورواه مرة مرسلاً. وأخرج المؤلف (٣٠/٤٩) والنسائي في التفسير (٦٦٥) بسند حسن، هذا من حديث طارق بن شهاب، وليست له صحبة، لكن له رؤية كما في تهذيب الكمال: ١٣/٣٤١ ـ ٣٤٣.

وقوله: «إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها»، يقول تعالى ذِكْرُه لمحمد: إنما أنتَ رسولٌ مبعوثٌ بإنذارِ الساعةِ مَنْ يخافُ عقابَ الله فيها على إجرامه، ولم تُكَلَّفْ عِلْمَ وقتِ قيامها، يقول: فَدَعْ ما لم تُكَلَّفْ عِلْمَهُ واعملْ بما أُمرتَ به من إنذارِ من أُمرت بإنذارهِ.

وقوله: «كأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إلا عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها»، يقول جلّ ثناؤه: كأن هؤلاء المكذّبين بالساعةِ، يومَ يرونَ أنَّ الساعةَ قد قامت من عظيمِ هولها، لم يلبثوا في الدنيا إلا عشيةَ يومٍ، أو ضُحَا تلك العَشِيَّة، والعربُ تقول: آتيكَ العشيةَ أو غَداتَها، وآتيكَ الغداةَ أو عشيتها، فيجعلون معنى الغداة بمعنى أوّل النهار، والعشية: آخر النهار، فكذلك قوله: «إلا عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها» إنما معناهُ إلَّا آخرَ يومٍ أو أوّله.

سُورَةُ عَبَسَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ۝٤﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «عَبَسَ»: قَبضَ وجهه تَكَرُّهاً، «وَتَوَلَى»، يقول: وأعرضَ «أَنْ جاءَهُ الأعْمَى»، يقول: لأَنْ جاءه الأعمى.

وذُكر أنَّ الأعمى الذي ذكره الله في هذه الآية، هو ابنُ أمِّ مكتوم، عُوتِبَ النبيُّ ﷺ بسببه[1].

وقوله: «ومَا يدْرِيكَ لَعَلهُ يَزَّكَّى»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وما يُدْرِيكَ يا محمدُ لعلَّ هذا الأعمى الذي عَبَستَ في وجهه يَزَّكَّى: يقول: يتطهَّرْ من ذنوبه.

وقوله: «أَوْ يَذَّكَرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى»، يقول: أو يتذكر فتنفعه الذكرى، يعني: يعتبر فينفعهُ الاعتبارُ والاتعاظ.

---

(١) هو عمرو بن زائدة، ويقال: عمرو بن قيس بن زائدة القرشي العامري، وهو ابن خال خديجة أم المؤمنين (انظر طبقات ابن سعد: ٤/٢٠٥، وتهذيب الكمال: ٢٢/٢٦ ـ ٢٩).

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: أما مَنِ استغنى بمالِهِ فأنتَ له تتعرَّضُ رجاء أنِ يُسْلِمَ.

«وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى»، يقول: وأي شيء عليكَ أنْ لا يتطهَّرَ من كفرِهِ فيُسلم؟

«وأَمَّا مَنْ جاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى»، يقول: وأما هذا الأعمى الذي جاءك سعياً، وهو يخشى اللهَويتَّقِيه «فأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى»، يقول: فأنت عنه تُعْرِضُ، وتشاغلُ عنه بغيرِهِ وتغافل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧﴾

يقول تعالى ذكره: «كَلَّا» ما الأمرُ كما تفعلُ يا محمدُ من أنْ تعبسَ في وجه مَنْ جاءَكَ يسعى وهو يخشى، وتتصدَّى لمن استغنى «إنَّها تَذْكِرَةٌ»، يقول: إنَّ هذه العِظَةَ وهذه السورة «تذكرة»، يقول: عظة وعبرة «فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ»، يقول: «فمن شاء» من عبادِ الله «ذكره»»، يقول: ذكرَ تنزيلَ اللهِ ووحيه والهاء في قوله: «إنَّها» للسورة، وفي قوله: «ذَكَرَهُ» للتنزيلِ والوحي «في صحف»، يقول: إنها تذكرة «في صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ، مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ»، يعني: في اللوح المحفوظ، وهو المرفوعُ المطهَّرُ عند الله.

وقوله: «بِأَيْدِي سَفَرَةٍ»، يقول: الصحف المكرّمة بأيدي سفرة، جمع سافر.

واختلف أهلُ التأويل فيهم ما هم ؟ فقال بعضهم: هم كَتَبة.

وقال آخرون: هم القرّاء.

وقال آخرون: هم الملائكة.

وأولى الأقـوال في ذلـك بالصـوابِ قولُ من قال: هم الملائكةُ الذين يَسْفِرونَ بين اللهِ ورُسُلِهِ بالوحي. وسفيرُ القوم: الذي يسعى بينهم بالصُّلْحِ، يقال: سفرتَ بين القوم: إذا أصلحتَ بينهم.

وإذا وُجِّـه التـأويلُ إلى ما قلنا، احتمل الوجه الذي قاله القائلون هم الكَتَبة، والذي قاله القائلون هم القرّاء، لأنَّ الملائكةَ هي التي تقرأ الكتبَ، وتَسْفِرُ بين اللهِ وبين رُسُلِهِ.

وقوله: «كِرَام بَرَرَةٍ» والبرَرَة: جمع بَارٍّ، كما الكَفَرَةُ جمعُ كافرٍ، والسَحَرَةُ جمع ساحر.

وقوله: «قُتِلَ الإنْسانُ ما أكْفَرَهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لُعِنَ الإنسانُ الكافر ما أكفره.

وفي قوله: «أكْفَرَهُ» وجهان. أحدهما: التعجبُ من كفرِهِ مع إحسانِ اللهِ إليه، وأياديه عنده. والآخر: ما الذي أكْفَرَهُ، أي: أيُّ شيءٍ أكفرَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ۝١٩ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ۝٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ۝٢٢ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ۝٢٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: من أيِّ شيءٍ خُلِقَ الإنسانُ الكافرُ رَبَّهُ: حتى يتكبَّر ويتعظَّم عن طاعةِ ربه، والإقرارِ بتوحيدِهِ؟ ثم بَيَّنَ جلّ ثناؤه الذي منه خَلَقَهُ، فقال: «مِنْ نُطْفَة خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ» أحوالاً نطفةً تارةً، ثم عَلَقةً أخرى، ثم مُضغةً،

إلى أنْ أتَتْ عليه أحواله وهو في رحم أمه «ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ»، يقول: ثم يَسَّرهُ للسبيلِ، يعني: للطريق.

واختلف أهـلُ التأويل في السبيلِ الذي يسَّره لها، فقال بعضهم: هو خروجهُ من بطنِ أمه.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: طريقُ الحقِّ والباطلِ، بَيَّناهُ له وأعلمناه، وسَهَّلْنا له العملَ به.

وأولى التأويلين في ذلك عندي بالصواب قولُ من قال: ثم الطريق، وهو الخروجُ من بطنِ أمه يسَّره.

وإنمـا قلنـا ذلك أولى التأويلين بالصواب، لأنه أشبههما بظاهرِ الآية، وذلك أنَّ الخبرَ من الله قَبْلَها وبعدها عن صفتِهِ خَلْقَهُ وتدبيرِه جِسْمَهُ، وتصريفه إياهُ في الأحوالِ، فالأَوْلى أن يكون أوسط ذلك نظير ما قبله وما بعده.

وقوله: «ثُمَّ أماتَهُ فأقْبَرَهُ»، يقول: ثم قَبَض رُوحَهُ، فأماته بعد ذلك: يعني بقوله: «أقْبَرَهُ»، صَيَّرَهُ ذا قبرٍ، والقابرُ: هو الدافنُ الميتَ بيدِهِ، والمقبر: هو الله، الذي أمرَ عباده أنْ يقبروه بعد وفاتِهِ، فصيَّرَهُ ذا قبرٍ. والعربُ تقول فيما ذُكـر لي: بترت ذنب البعيرِ، والله أبتره؛ وعضبت قَرنَ الثورِ، والله أعضبه؛ وطردت عني فلاناً، والله أطرده، صَيَّرَهُ طريداً[1].

وقـوله: «ثُمَّ إذَا شاءَ أنْشَرَهُ»، يقول: ثم إذا شاء الله أنشره بعد مماتِهِ وأحياهُ، يقال: أنشرَ اللهُ الميتَ بمعنى: أحياه.

وقوله: «كَلَّا لَمَا يَقْضِ ما أمَرَهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: كلا ليس الأمرُ كما يقولُ هذا الإنسانُ الكافرُ من أنه قد أدَّى حقَّ الله عليه، في نفسِه ومالِهِ، لما يقضِ ما أمره، لم يُؤَدِّ ما فرضَ عليه من الفرائضِ ربُّه.

---

(١) انظر معاني القرآن للفراء: ٣/٢٣٧.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝٣٠﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: فلينظر هذا الإنسانُ الكافرُ المُنكِرُ توحيدَ الله إلى طعامه كيفَ دَبَّره.

وقوله: «أَنَّا صَبَبْنا الماءَ صَبًّا»، يقول: أَنَّا أنزلنا الغيثَ من السماء إنزالاً، وصَبَبْنَـاهُ عليهـا صبـاً، «ثُمَّ شَقَقْنـا الأَرْضَ شَقًّـا»، يقـول: ثم فتقنا الأرضَ فَصَدَّعْنَاهَا بالنباتِ «فأَنْبَتْنا فِيها حَبًّا»، يعني: حبّ الزرع، وهو كلُّ ما أخرجته الأرضُ من الحبوبِ كالحنطةِ والشعيرِ، وغير ذلك «وَعِنَباً»، يقول: وكرم عنب «وَقَضْباً»، يعني بالقضب: الرطبة، وأهلُ مكة يسمون القَتَّ القَضْب.

وقوله: «وَزَيْتُوناً» وهو الزيتونُ الذي منه الزيت «ونَخْلاً وَحَدائِقَ غُلْباً»، وقد بيَّنا أن الحديقةَ البستانُ المحوَّطُ عليه.

وقوله: «غُلْباً»، يعني: غِلاظاً. ويعني بقوله: «غُلْبا» أشجاراً في بساتين غلاظ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٢ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ۝٤٢﴾

يقول تعالى ذكره: وفاكهة ما يأكله الناس من ثمار الأشجار، والأبّ: ما تأكله البهائم من العشب والنبات.

وقوله: «مَتاعاً لَكُمْ»، يقول: أنبتنا هذه الأشياءَ التي يأكلها بَنُو آدمَ متاعاً لكم أيها الناسُ، ومنفعةً تتمتعونَ بها، وتنتفعونَ، والتي يأكلها الأنعامُ لأنعامِكم، وأصلُ الأنعام الإبلُ، ثم تُستعملُ في كلِّ راعية.

وقوله: «فَإِذَا جاءَت الصَّاخَّةُ» ذُكر أنها اسمٌ من أسماءِ القيامةِ، وأحسبها مأخوذة من قولهم: صاخَ فلانٌ لصوتِ فلان: إذا استمعَ له، إلا أنَّ هذا يقال منه: هو مُصِيخٌ له، ولعلَّ الصوتَ هو الصاخّ، فإنْ يكن ذلك كذلك، فينبغي أنْ يكون قِيلَ ذلك لنفخةِ الصور.

وقوله: «يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أخِيهِ»، يقول: فإذا جاءت الصاخةُ في هذا اليوم الذي يَفِرُّ فيه المرءُ من أخيه. ويعني بقوله: «يفرُّ من أخيه»، يفرُّ عن أخيه، «وأُمِّـهِ وأبيهِ وَصَاحِبَتِهِ»، يعني: زوجته التي كانت زوجته في الدنيا، «وَبَنِيهِ» حَذَراً من مطالبتهم إياهُ بما بينه وبينهم من التَّبعاتِ والمظالم.

«لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ»، يعني: من الرجلِ وأخيهِ وأمهِ وأبيهِ، وسائر مَنْ ذُكِرَ في هذه الآية «يَوْمَئِذٍ»، يعني: يومَ القيامةِ إذا جاءت الصاخَّةُ يوم القيامة «شأْنٌ يُغْنِيهِ»، يقول: أمرٌ يُغنيه، ويُشغلُه عن شأنِ غيره.

وقـولـه: «وُجُـوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وجوهٌ يومئذٍ مشرقةٌ مضيئة، وهي وجوه المؤمنينَ الذين قد رضي الله عنهم، يقال: أسفرَ وجهُ فلان: إذا حَسُنَ، ومنه أسفرَ الصبحُ: إذا أضاء، وكلُّ مضيءٍ فهو مُسْفِرٌ.

«ضَـاحِكَـةٌ»، يقـول: ضاحكةٌ من السرورِ بما أعطاها اللهُ من النعيمِ والكرامةِ «مُسْتَبْشِرَةٌ» لما ترجو من الزيادة.

وقوله: «وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبرَةٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ووجوهٌ هي وجوهُ الكفارِ يومئذٍ عليها غبرة. ذُكِرَ أنَّ البهائمَ التي يُصَيِّرُهَا اللهُ تراباً يومئذٍ بعد القضاء بينها، يحوِّلُ ذلك الترابَ غَبَرة في وجوهِ أهل الكفر «تَرْهَقُها قَتَرَةٌ»، يقول: يغشى تلك الوجوه قَتَرةٌ، وهي الغَبَرة.

وقوله: «أُوْلَئِكَ هُمُ الكَفَرَةُ الفَجَرَةُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاءالذين هذه صِفَتُهم يومَ القيامة هم الكَفَرَةُ بالله، كانوا في الدنيا الفجرة في دينهم، لا يبالون ما أُتوا به من معاصي الله، وركبوا من محارمه، فجزاهم الله بسوءِ أعمالِهم ما أخبرَ به عبادَهُ.

سُورَةُ التَّكْوِيرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤﴾

اختلف أهلُ التأويلِ في تأويلِ قولِه: «إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ»، فقال بعضهم: معنى ذلك: إذا الشمسُ ذهبَ ضَوْءُها.

وقال آخرون: معنى ذلك: رُمِيَ بها.

والصواب من القول في ذلك عندنا أنْ يقال: «كُوِّرَتْ» كما قال الله جل ثناؤه؛ والتكويرُ في كلام العرب: جمعُ بعضِ الشيءِ إلى بعضٍ، وذلك كتكويرِ العمامةِ، وهو لفها على الرأس، وكتكويرِ الكارة، وهي جمع الثيابِ بعضِها إلى بعضٍ، ولفها، وكذلك قوله: «إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ» إنما معناه: جمع بعضها إلى بعض، ثم لفت فرُمِيَ بها، وإذا فعل ذلك بها ذهبَ ضوءها، فعلى التأويلِ الذي تأوَّلْنَاهُ وبيَّنَّاهُ لكلا القولين اللَّذين ذكرتُ عن أهلِ التأويل وجهٌ صحيح، وذلك أنها إذا كُوِّرت ورُمِيَ بها ذهب ضوءها.

وقوله: «وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ»، يقول: وإذا النجومُ تناثرتْ من السماء فتساقطت.

وقوله: «وَإِذَا الجِبالُ سُيِّرَتْ»، يقول: وإذا الجبال سَيَّرَهَا اللهُ، فكانت سراباً، وهباءً مُنْبَثاً.

وقوله: «وَإِذَا الْعِشارُ عُطِّلَتْ» والعشار: جمع عشراء، وهي التي قد أتى عليها عشرةُ أشهرٍ من حملها يقول تعالى ذكره: وإذا هذه الحواملُ التي يَتَنافسُ أهلها فيها أُهْمِلَتْ فتركت من شدّةِ الهولِ النازلِ بهم فكيف بغيرها؟

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠﴾

اختلف أهـلُ التـأويل في معنى قوله: «وَإِذَا الوُحُوشُ حُشِرَتْ»، فقال بعضهم: معنى ذلك: ماتت.

وقال آخرون: معنى ذلك: وإذا الوحوش اختلطت.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: جُمعت.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قولُ مَنْ قال: معنى حُشِرَتْ: جُمِعَتْ، فأُميتتْ لأنَّ المعروف في كلام العرب من معنى الحشر: الجمع؛ ومنه قول الله: «والطَّيْرَ مَحْشُورَةً» يعني: مجموعة، وقوله: «فَحَشَرَ فَنَادَى». وإنما يُحملُ تأويلُ القرآنِ على الأغلبِ الظاهرِ من تأويله، لا على الأنكرِ المجهولِ.

وقـوله: «وَإِذَا البِحارُ سُجِّرَتْ»، يعني: مُلئت حتى فاضت، فانفجرت وسـالت كمـا وصفهـا الله في الموضع الآخر، فقال: «وإذا البحارُ فُجِّرت»، والعربُ تقول للنهرِ أو للركيِّ المملوء ماءً: مسجور.

وقوله: «وَإِذَا النُّفوسُ زُوِّجَتْ»، معناه: أُلحِقَ كُلُّ إنسانٍ بشكله، وقُرِنَ

بين الضُّرَباءِ والأمثال.

وقوله: «وَإِذَا المَوْؤودَةُ سُئِلَتْ بِأيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ»، يعني: سُئلت الموؤودةُ بأيِّ ذنبٍ قُتلت وقد يتوجه معنى ذلك إلى أن يكون: وإذا الموؤودةُ سُئِلَتْ قَتَلَتَهَا وائِدُهَا، بأيِّ ذنبٍ قتلوها؟ ثم رَدَّ ذلك إلى ما لم يسمّ فاعله، فقيل: بأيِّ ذنبٍ قُتِلَتْ. والموؤودةُ: المدفونةُ حية.

وقوله: «وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ»، يقول تعالى ذكره: وإذا صحفُ أعمالِ العبادِ نُشِرَتْ لهم بعد أن كانت مطويةً على ما فيها مكتوبٌ من الحسناتِ والسيئات.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا السماءُ نُزِعَتْ وجُذِبَتْ ثم طُوِيتْ.

وقوله: «وَإِذَا الجَحِيمُ سُعِّرَتْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا الجحيمُ أُوقدَ عليها فأُحْمِيَتْ.

وقوله: «وَإِذَا الجَنَّةُ أُزْلِفَتْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا الجنةُ قُرِّبَتْ وأُدْنِيَتْ.

وقوله: «عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: علمتْ نفسٌ عند ذلك ما أُحْضِرَتْ من خيرٍ، فتصير به إلى الجنة، أو شرٍّ فتصيرُ به إلى النار، يقول: يتبين له عند ذلك ما كان جاهلاً به، وما الذي كان فيه صلاحُه من غيره.

وقوله: «فَلا أُقْسِمُ بالخُنَّسِ . الجَوَارِ الكُنَّس»، اختلف أهلُ التأويل في

الخُنَّس الجوارِ الكنَّسِ فقال بعضهم: هي النجوم الدراريّ الخمسة تخنِسُ في مجراها فترجعُ وتكنسُ، فتسترُ في بيوتها كما تكنس الظِّباءُ في المغار، والنجومُ الخمسة: بَهْرام، وزُحَل، وعُطارد، والزُّهَرَة، والمُشْتَرِي.

وقال آخرون: هي بقر الوحشِ التي تكنسُ في كناسها.

وقال آخرون: هي الظباء.

وأولى الأقوال في ذلك بالصوابِ أن يقال: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه أقسمَ بأشياء تخنسُ أحياناً: أي تَغيبُ، وتجري أحياناً وتكنسُ أخرى، وكُنُوسُها: أنْ تأوي في مكانسها، والمكانِسُ عند العرب، هي المواضعُ التي تأوي إليها بقرُ الوحشِ والظباءِ، واحدها مَكْنِسٌ وكِناس.

فالكِناسُ في كلامِ العربِ ما وصفتُ، وغير مُنْكَرٍ أنْ يُستعارَ ذلك في المواضع التي تكونُ بها النجومُ من السماء، فإذا كان ذلك كذلك، ولم يكن في الآيةِ دلالةٌ على أنَّ المرادَ بذلك النجوم دون البقر، ولا البقر دون الظباء، فالصوابُ أنْ يُعَمَّ بذلك كلُّ ما كانتْ صفته الخنوسُ أحياناً والجري أخرى، والكنوس بآناتٍ على ما وصفَ جلّ ثناؤه من صفتها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠﴾

أقسم رَبُّنَا جلَّ ثناؤه بالليلِ إذا عسعسَ، يقول: وأقسم بالليلِ إذا عسعس.

واختلف أهلُ التأويل في قوله: «وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ»، فقال بعضهم: عُنِيَ بقوله: «إِذَا عَسْعَس»: إذا أدبر.

وقال آخرون: عُني بقوله: «إِذَا عَسْعَسَ»: إذا أقبلَ بظلامِهِ.

وأولى التأويلين في ذلك بالصواب عندي قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: إذا أدبـرَ، وذلك لقوله: «وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ» فدلَّ بذلك على أنَّ القسمَ بالليلِ مدبراً، وبالنهار مقبلاً، والعربُ تقول: عسعس الليل، وسَعْسَع الليل: إذا أدبر، ولم يبقَ منه إلا اليسير.

وقوله: «وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ»، يقول: وضوء النهار إذا أقبلَ وتَبَيَّنَ.

وقـولـه: «إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ هذا القرآنَ لتنزيلُ رسولٍ كريمٍ، يعني: جبريل، نَزَّله على محمدِ بنِ عبدالله.

وقوله: «ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ذي قوّةٍ، يعني: جبـرائيل على ما كُلِّفَ من أمرٍ غير عاجز «عند ذي العرش مكين»، يقول: هو مكينٌ عند ربِّ العرشِ العظيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «مُطاعٍ ثَمَّ» يعني: جبريل ﷺ، مطاع في السماء تطيعُه الملائكةُ «أمينٍ»، يقول: أمين عندَ اللهِ على وحيهِ ورسالتِه وغيرِ ذلك مما ائتمنه عليه.

وقوله: «وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وما صاحِبُكم أيها النـاسُ محمـد بمجنونٍ فيتكلم عن جنة، ويهذي هَذيانَ المجانين «بَلْ جَاءَ بِالحَقِّ وَصَدَّقَ المُرْسَلِينَ» [الصافات: ٣٧].

وقولـه: «وَلَقَـدْ رآهُ بالأُفُقِ المُبِينِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد رآهُ أي: محمدٌ، جبريلَ ﷺ في صورته بالناحية التي تبين الأشياء، فتُرى من قِبَلها، وذلك من ناحيةِ مطلعِ الشمسِ من قِبَلِ المشرق.

وقوله: «ومَا هُوَ عَلى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ»، يعني: وما محمدٌ على ما عَلَّمه الله من وحيهِ وتنزيلهِ ببخيلٍ بتعليمِكُمُوه أيها الناسُ، بل هو حريصٌ على أن تؤمنوا به وتتعلَّموه.

وقوله: «ومَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطانٍ رَجِيمٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وما هذا القرآنُ بقولِ شيطانٍ ملعونٍ مطرودٍ، ولكنه كلامُ اللهِ ووحيُه.

وقوله: «فأَيْنَ تَذْهَبُونَ؟»، يقول تعالى ذِكْرُه: فأين تذهبونَ عن هذا القرآنِ وتعدلونَ عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنْ هذا القرآنُ، وقوله: «هُوَ» من ذِكْرِ القرآن «إلاَّ ذِكْرٌ للْعَالمِينَ»، يقول: إلا تذكرةٌ وعِظَةٌ للعالمين من الجنِّ والإنسِ «لمنْ شاءَ مِنْكُمْ أنْ يَسْتَقِيمَ» فجعل ذلك تعالى ذِكْرُه: ذِكْراً لمن شاءَ من العالمين أنْ يستقيمَ، ولم يجعله ذِكْراً لجميعِهم، فاللامُ في قوله: «لِمنْ شاءَ منْكُمْ» إبدالٌ من اللام في «للعالمين»، وكأنَّ معنى الكلام: إنْ هُوَ إلا ذِكْرٌ لمن شاء منكم أنْ يستقيمَ على سبيلِ الحقِّ فيتبعه. ويؤمن به.

وقوله: «ومَا تَشاءُونَ إلاَّ أنْ يَشاءَ اللهُ رَبُّ العَالمينَ»، يقول تعالى ذكره: وما تشاؤونَ أيها الناسُ الاستقامةَ على الحقِّ، إلا أنْ يشاءَ اللهُ ذلك.

سُورَةُ الانفِطَار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾

يقول تعالى ذكره: «إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ»: انشقَّت، وإذا كواكبها انتثرتْ منها فَتساقطَتْ، «وَإِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ»، يقول: فَجَّرَ الله بعضَها في بعضٍ، فملأ جميعَها.

وقوله: «وَإِذَا الْقُبُورُ بُعثِرَتْ»، يقول: وإذا القبور أُثيرتْ فاستخرج مَنْ فيها من الموتى أحياء، يقال: بعثرَ فلانٌ حوضَ فلانٍ: إذا جعلَ أسفلَهُ أعلاهُ.

وقوله: «عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وأَخَّرَتْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: علمتْ كلُّ نفسٍ ما قدَّمَتْ لذلك اليوم من عملٍ صالح ينفعه، وأخرت وراءه من شيء سنَّه فعمل به.

وإنما اخترنا القول الذي ذكرناه، لأن كلَّ ما عمل العبدُ من خيرٍ أو شرٍّ فهو مما قدّمه، وأن ما ضيَّع من حقِ الله عليه وفَرَّطَ فيه فلم يعمله، فهو مما قد قَدَّمَ من شرٍّ وليس ذلك مما أخر من العمل، لأنَّ العمل هو ما عمله، فأما ما لم يعمله فإنما هو سيئة قدّمها، فلذلك قلنا: ما أَخَّرَ: هو ما سَنَّهُ من سنةٍ حسنةٍ وسيئة، مما إذا عَمِلَ به العاملُ، كان له مثل أجرِ العاملِ بها أو وُزْره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾

يقول تعالى ذكره: يا أيها الإنسانُ الكافرُ، أيّ شيءٍ غَرَّكَ بربك الكريم، غرَّ الإنسانَ به عدوُّه المسلَّطُ عليه.

وقوله: «الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ»، يقول: الذي خلقكَ أيها الإنسانُ فسوَّى خَلْقَكَ «فعَدَلَكَ».

واختلفت القَـرَأَة في قراءة ذلك، فقرأته عامة قَرَأة المدينة ومكة والشام والبصرة «فَعَدَّلَكَ» بتشديد الدال. وقرأ ذلك عامة قَرَأَةِ الكوفة بتخفيفها. وكأن مَنْ قرأ ذلك بالتشديد وجَّه معنى الكلام إلى أنه جعلك معتدلاً مُعَدَّل الخَلْق مُقَوَّماً، وكأن الذين قرؤوه بالتخفيف وجَّهوا معنى الكلام إلى: صَرَفَكَ، وأمالَكَ إلى أيِّ صورةٍ شاءَ، إما إلى صورةٍ حسنةٍ، وإما إلى صورة قبيحة، أو إلى صورة بعض قراباته.

وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أن يقال: إنهما قراءتان معروفتان في قرأَةِ الأمصـار صحيحتـا المعنى، فبـأيتهما قرأ القارئُ فمصيبٌ، غير أنَّ أعجبهما إليَّ أنْ أقرأ به قراءةَ مَنْ قَرَأَ ذلك بالتشديد؛ لأن دخول «في» للتعديل أحسن في العربية من دخولها للعدل، ألا ترى أنك تقول: عَدَّلْتُكَ في كذا، وصرفتك إليه، ولا تكاد تقول: عَدَلتك إلى كذا وصرفتك فيه، فلذلك اخترتُ التشديد[1].

---

(١) وهو قول واختيار الفراء في معاني القرآن: ٣/٢٤٤.

وقوله[١]: «في أيِّ صورة ما شاء رَكَّبَك»، يقول: في أي صورةٍ اقتضتها مشيئتُه من الصور المختلفة شكلك، إما إلى صورةٍ حسنةٍ، وإما إلى صورة قبيحة، أو إلى صورة بعض قراباتك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝١٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ليس الأمرُ أيها الكافرونَ كما تقولون من أنكم على الحقِّ في عبادتكم غيرَ اللهِ، ولكنكم تكذِّبونَ بالثوابِ والعقابِ، والجزاءِ والحساب.

وقوله: «وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لحَافِظِينَ»، يقول: وإنَّ عليكم رُقَباءَ حافظينَ يحفظون أعمالكم، ويُحْصونها عليكم «كِرَاماً كاتِبينَ»، يقول: كراماً على الله كاتبينَ يكتبونَ أعمالَكم.

وقوله: «يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ»، يقول: يعلمُ هؤلاءِ الحافظونَ ما تفعلونَ من خيرٍ أو شرٍّ، يُحصونَ ذلك عليكم.

وقوله: «إنَّ الأبْرَارَ لَفِي نَعِيم»، يقول جَلَّ ثناؤه: إن الذين بَرُّوا بأداءِ فرائضِ الله، واجتنابِ معاصيه لفي نعيمِ الجنانِ ينعمون فيها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝١٤ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ۝١٦ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩﴾

(١) سقط تفسير هذه الآية وبقيت أقوال المفسرين، فأفدنا منها في استخلاص ما قال، وأفدنا من زاد المسير: ٤٨/٩، وتفسير النسفي: ٣٣٨/٤.

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَإِنَّ الفُجَّارَ» الذين كفروا بربِّهم «لَفِي جَحِيمٍ».

وقـولـه: «يَصْلَوْنَها يَوْمَ الدِّينِ»، يقول جلّ ثناؤه: يَصْلَى هؤلاء الفجار الجحيمَ يومَ القيامة، يومَ يُدانُ العبادُ بالأعمالِ، فيُجازَوْنَ بها.

وقوله: «ومَا هُمْ عَنْها بِغائِبِينَ»، يقول تعالى ذكره: وما هؤلاء الفجار من الجحيمِ بخارجينَ أبداً فغائبينَ عنها، ولكنهم فيها مُخَلَّدُونَ ماكثونَ، وكذلك الأبرارُ في النعيم، وذلك نحو قوله: «ومَا هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ» [الحجر: ٤٨].

وقوله: «ومَا أدْرَاكَ ما يَوْمُ الدِّينِ»، يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وما أدراكَ يا محمدُ، أيّ: وما أشعركَ ما يومُ الدين: يقول: أيُّ شيء يوم الحسابِ والمجازاةِ، مُعَظِّماً شأنه جلّ ذكره بقِيله ذلك.

وقوله: «ثُمَّ ما أدْرَاكَ ما يَوْمُ الدِّينِ»، يقول: ثم أيّ شيءٍ أشعركَ يوم المجازاة والحساب يا محمدُ تعظيماً لأمره، ثم فسَّر جلّ ثناؤه بعض شأنِه فقال: «يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً»، يقول: ذلك اليوم، «يومَ لا تملك نفسٌ»، يقول: يومَ لا تُغني نفسٌ عن نفسٍ شيئاً، فتدفع عنها بليَّةً نزلتْ بها، ولا تنفعها بنافعةٍ، وقد كانت في الدنيا تحميها، وتدفع عنها مَنْ بَغَاها سوء، فبطل ذلك يومئذٍ، لأنَّ الأمرَ صار للهِ الذي لا يغلبهُ غالبٌ، ولا يقهره قاهر، واضمحلَّتْ هنـالـك الممالكُ، وذهبت الرياساتُ، وحصل الملكُ للملكِ الجبار، وذلك قوله: «وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ للهِ»، يقول: والأمرُ كله يومئذٍ، يعني: الدينُ للهِ دونَ سائرِ خَلْقِه، ليس لأحدٍ من خَلْقِه معه يومئذٍ أمرٌ ولا نهي.

واختلفت القَـرَأة في قراءة قولـه: «يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ» فقرأته عامة قَرَأة الحجاز والكوفة بنصب «يَوْمَ» إذ كانتْ إضافته غير محضة. وقرأه بعض قَرَأة البصرة بضم «يَوْمُ» ورفعه ردّاً على اليومِ الأوّل، والرفعُ فيه أفصحُ في كلام العرب، وذلك أن اليوم مضاف إلى يفعل، والعربُ إذا أضافت اليوم إلى تَفْعلُ

الانفطار: ١٩

أو يفعل أو أفعل، رفعوه فقالوا: هذا يومُ أفعلُ كذا، وإذا أضافته إلى فعلٍ ماضٍ نصبوه[1].

---

(١) هذا هو رأي الكسائي، ساقه الفراء في معاني القرآن: ٣/٢٤٥، وبالرفع قرأ ابن أبي إسحاق وعيسى وابن جندب وابن كثير وأبو عمرو (البحر المحيط: ٨/٤٣٧)، وانظر مزيد آراء في وجه رفعها عند الزجاج في معاني القرآن: ٥/٢٩٦).

سُورَةُ المُطَفِّفِين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾

يقول تعالى ذكره: الوادي الذي يسيلُ من صديدِ أهلِ جهنم في أسفلها للذين يُطَفِّفونَ، يعني: للذين يُنْقِصُونَ النـاسَ، ويبخسـونهم حقـوقَهُمْ في مكاييلهم إذا كالوهم، أو موازينهم إذا وزنوا لهم عن الواجب لهم من الوفاء، وأصلُ ذلك من الشيء الطفيفِ، وهو القليلُ النَّزْر، والمُطَفِّفُ: المُقَلِّلُ حَقَّ صاحبِ الحقِّ عَمَّا له من الوفاءِ والتمامِ في كيلٍ أو وزن.

وقوله: «الَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا على النَّاسِ يَسْتَوفُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: الذين إذا اكتالوا من الناسِ ما لهم قِبَلَهُمْ من حقٍّ يستوفون لأنفسهم فيكتالونه منهم وافياً.

وقوله: «وَإِذَا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ»، يقول: وإذا هم كالوا للناسِ أو وَزَنُوا لهم. ومن لغةِ أهلِ الحجازِ أنْ يقولوا: وزَنْتُكَ حَقَّكَ، وكِلْتُكَ طعامك، بمعنى: وزنتُ لكَ وكِلْتُ لك.

وقوله: «يُخْسِرُونَ»، يقول: ينقصونهم.

وقوله: «ألا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ألا يظنُّ هؤلاء المطففونَ الناسَ في مكاييلهم وموازينهم أنهم مبعوثونَ من قبورِهم بعد مماتِهم ليومٍ عظيمٍ شأنهُ، هائلٍ أمرُه، فظيعٍ هَوْلُه.

وقوله: «يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ»، فيوم يقومُ: تفسيرٌ عن اليومِ الأوّلِ المخفوضِ، ولكنه لما لم يعد عليه اللام ردَّ إلى مبعوثون، فكأنه قال: ألا يظنُّ أولئك أنهم مبعوثونَ يومَ يقومُ الناسُ. وقد يجوز نصبه وهو بمعنى الخفض، لأنها إضافة غير محضة، ولو خفض ردّاً على اليومِ الأوّلِ لم يكن لحناً، ولو رفع جاز[1].

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۞ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۞ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۞ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۞﴾

يقول تعالى ذكره: «كلا»، أي: ليس الأمرُ كما يظنُّ هؤلاء الكفار أنهم غير مبعوثينَ ولا معذَّبينَ، إنَّ كتابَهُم الذي كتب فيه أعمالهم التي كانوا يعملونها في الدنيا «لَفِي سِجينٍ»، وهي الأرضُ السابعةُ السفلى وهو «فعيل» من السجن، كما قيل: رجلٌ سِكِّيرٌ من السكر، وفِسِّيق من الفسق.

وقوله: «ومَا أَدْرَاكَ ما سِجِّينٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وأيّ شيءٍ أدراكَ يا محمدُ، أيّ شيءٍ ذلك الكتاب، ثم بَيَّنَ ذلك تعالى ذِكْرُه، فقال:

(١) هذا كلام الفراء في معاني القرآن: ٣/٢٤٦، ولكن قال الزجاج بعد أن ذكر جواز الرفع: ولا يجوز القراءة إلا بما قرأ القراء «يومَ يقوم الناس» ـ بالنصب ـ لأن القراءة سنة، ولا يجوز أن تُخالف بما يجوز في العربية (معاني القرآن: ٥/٢٩٨).

«هُوَ كِتابٌ مَرْقُومٌ»، وعَنَى بالمرقوم: المكتوب.

وقوله: «وَيْلٌ يومئِذٍ لِلْمُكذّبينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ويل يومئذٍ للمكذّبين بهذه الآياتِ، «الذين يكذِّبُونَ بيومِ الدين»، يقول: الذين يكذِّبُونَ بيومِ الحسابِ والمجازاةِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وما يُكذِّبُ بيومِ الدين «إلّا كُلُّ مُعْتَد» اعتدى على الله في قولِه، فخالفَ أمره «أثِيمٍ» بربِّه.

«إذا تُتْلَى عَلَيْهِ آياتُنا»، يقول تعالى ذِكْرُه: إذا قُرِىء عليه حُجَجُنَا وأدلتنا التي بيَّنّاها في كتابنا الذي أنزلناه إلى محمدٍ ﷺ «قالَ أساطِيرُ الأوَّلِينَ»، يقول: قال: هذا ما سطَّرهُ الأوّلونَ فكتبوهُ من الأحاديثِ والأخبار.

وقوله: «كَلّا بَلْ رَانَ عَلى قُلُوبِهِم»، يقول تعالى ذكره مكذّباً نهم في قِيلِهم ذلك: «كلا»، ما ذلكَ كذلكَ، ولكنه «رانَ على قلوبهم»، يقول: غَلَبَ على قلوبهم وغَمَرها وأحاطتْ بها الذنوبُ فَغطَّتها، يقال منه: رانتِ الخمرُ على عقلِه، فهي تَرِينُ عليه رَيْناً، وذلك إذا سَكِرَ، فغلبتْ على عقلِه[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝١٧﴾

---

(١) لم يفسر قوله تعالى: «ما كانوا يكسبون» لأنها متضمنة بهذا التفسير، كأنه يريد: «غلب على قلوبهم وغمرها وأحاطت بها الذنوب، التي كسبوها من معاصيهم فغطتها». ولعله اكتفى بذلك لما ساقه من الآثار بَعْدُ.

يقول تعالى ذِكْرُه: ما الأمرُ كما يقول هؤلاء المكذِّبونَ بيومِ الدين، من أنَّ لهم عند الله زُلْفةً، إنهم يومئذٍ عن رَبِّهم لمحجوبونَ، فلا يرونه، ولا يرون شيئاً من كرامته يصلُ إليهم.

وقد اختلف أهلُ التأويلِ في معنى قوله: «إِنَّهُم عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ»، فقال بعضهم: معنى ذلك: إنهم محجوبونَ عن كرامته.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: إنهم محجوبونَ عن رؤيةِ رَبِّهم.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أنْ يقال: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه أخبرَ عن هؤلاء القومِ أنهم عن رؤيتِهِ محجوبونَ. ويُحتمل أنْ يكونَ مراداً به الحجابُ عن كرامتِهِ، وأنْ يكون مراداً به الحجاب عن ذلك كُلِّه، ولا دلالةَ في الآيةِ تدلُّ على أنه مرادٌ بذلك الحجاب عن معنىً منه دونَ معنى، ولا خبرَ به عن رسولِ الله ﷺ قامتْ حُجَّتُه. فالصوابُ أن يقال: هم محجوبونَ عن رؤيتهِ، وعن كرامتهِ، إذْ كان الخبرُ عاماً، لا دلالة على خصوصه.

وقوله: «إِنَّهُمْ لَصَالُو الجَحِيمِ»، يقول تعالى ذكره: ثم إنهم لَوَارِدُو الجحيم، فَمَشْوِيُّونَ فيها، ثم يقال: «هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ»، يقول جلّ ثناؤه: ثم يقال لهؤلاء المكذِّبينَ بيومِ الدين: هذا العذابُ الذي أنتم فيه اليومَ، هو العذابُ الذي كنتم في الدنيا تُخْبَرُونَ أنكم ذائِقوهُ، فتكذِّبُونَ به، وتُنْكِرُونَهُ، فذوقوهُ الآنَ، فقد صَلَيْتُمْ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢١ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «كلَّا إنَّ كِتابَ الأبْرَارِ لَفِي عِلِيِّينَ»، والأبرار: جمع بَرّ، وهم الذين بَرُّوا اللهَ بأداءِ فرائضِه، واجتنابِ محارمه.

وقوله: «لَفِي عِلِّيِّينَ»، اختلف أهلُ التأويل في معنى عليين، والصوابُ أنْ يقالَ في ذلك، كما قال جلّ ثناؤه: إنَّ كتابَ أعمالِ الأبرارِ لفي ارتفاعٍ إلى حَدٍّ قد عَلِمَ اللهُ جلّ وعزَّ مُنْتَهاهُ، ولا عِلْمَ عندنا بغايته، غير أنَّ ذلك لا يَقصرُ عن السماءِ السابعةِ، لإجماعِ الحجةِ من أهلِ التأويلِ على ذلك.

وقوله: «تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: تعرفُ في الأبرارِ الذين وصف الله صِفَتهم نضرةَ النعيم، يعني حُسْنَهُ وبريقه وتَلأْلُؤَهُ.

وقوله: «يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ»، يقول: يُسقى هؤلاء الأبرار من خمرٍ صِرْفٍ لا غِشَّ فيها.

وقوله: «ومَا أَدْرَاكَ ما عِلِّيُّونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ، مُعَجِّبَهُ من عليين، وأيّ شيء أشعركَ يا محمدُ ما عِلِّيُّونَ.

وقوله: «كِتابٌ مَرْقُومٌ»، يقول جلّ ثناؤه: إنَّ كتابَ الأبرارِ لفي عليين، «كِتابٌ مرقوم»، أي: مكتوبٌ بأمانٍ من الله إياهُ من النارِ يومَ القيامة، والفوز بالجنة.

وقوله: «يَشْهَدُهُ المُقَرَّبُونَ»، يقول: يشهدُ ذلك الكتابَ المكتوبَ بأمانِ اللهِ للبَرِّ من عبادِه من النارِ، وفوزِه بالجنة، المُقَرَّبُونَ من ملائكتِه من كلِّ سماءٍ من السمواتِ السبع.

وقوله: «إنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الأبرارَ الذين بَرُّوا باتقاءِ اللهِ وأداءِ فرائضِه، لفي نعيمٍ دائمٍ، لا يزولُ يومَ القيامةِ، وذلك نعيمُهم في الجِنان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ

﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «عَلى الأرَائِكِ يَنْظُرُونَ» على السُّرُرِ في الحِجال من اللؤلؤِ والياقوتِ ينظرونَ إلى ما أعطاهمُ اللهُ من الكرامةِ والنعيمِ ، والحَبْرةِ في الجنان.

وأما قوله: «مختومٍ خِتامُهُ مسكٌ»، فمعناه: آخرهُ وعاقبتُه مسكٌ، أي: هي طيبةُ الريحِ ، إنَّ ريحَها في آخرِ شربهم يختمُ لها بريحِ المسكِ.

وإنما قلنا ذلك لأنه لا وجه للختمِ في كلامِ العربِ إلا الطبع والفراغ، كقولهم: ختمَ فلانٌ القرآنَ: إذا أتى على آخرهِ، فإذا كان لا وجه للطبعِ على شرابِ أهلِ الجنة يُفْهَمُ إذْ كان شرابهم جارياً جريَ الماء في الأنهار، ولم يكن مُعَتَّقاً في الدِّنَانِ فَيُطَيَّن عليها وتختم، تَعَيَّنَ أنَّ الصحيحَ من ذلك الوجه الآخر وهو العاقبة والمشروب آخراً، وهو الذي ختم به الشراب.

وقوله: «وفِي ذَلكَ فَلْيَتَنافَسِ المُتَنافِسُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وفي هذا النعيم الذي وصف جلَّ ثناؤه أنه أعطى هؤلاءِ الأبرار في القيامةِ، فليتنافسِ المتنافسونَ. والتنافسُ: أن يَنفِسَ الرجلُ على الرجلِ بالشيء يكونُ له، ويتمنى أنْ يكونَ له دونه، وهو مأخوذٌ من الشيءِ النفيسِ ، وهو الذي تحرصُ عليه نفوسُ الناس، وتطلبُه وتشتهيه، وكأنَّ[1] معناه في ذلك: فَلْيَجِدَّ الناسُ فيه، وإليهِ فَلْيَسْتبِقُوا في طَلَبِه، ولْتَحْرِصْ عليه نفوسُهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ٢٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ٢٩﴾

(١) كتبها الناشر: «وكان» فما أصاب، وكان قد كررها قبل هذه مراراً ولم نشر إليها.

يقول تعالى ذِكْرُه: ومزاجُ هذا الرحيق من تسنيم؛ والتسنيمُ: التفعيلُ من قول القائل: سنَّمتهمُ العينَ تَسْنيماً: إذا أُجْرَيْتُهَا عليهم من فوقِهم، فكأَنَّ[1] معناه في هذا الموضع: ومزاجهُ من ماءٍ ينزلُ عليهم من فوقِهم فينحدرُ عليهم.

فتأويل الكلام: ومزاجُ الرحيقِ من عين تُسَنَّم عليهم من فوقِهم، فتنصبُّ عليهم «يَشْرَبُ بِها المُقَرَّبُونَ» من الله صرفاً، وتمزج لأهل الجنة.

وقوله: «إنَّ الَّذِينَ أجْرَمُوا كانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُون»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين اكتسبوا المآثم، فكفروا بالله في الدنيا، كانوا فيها من الذين أَقَرُّوا بوحدانيةِ الله، وصَدَّقُوا به يضحكونَ، استهزاءً منهم بهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ۝٣١ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝٣٢ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ۝٣٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وكان هؤلاء الذين أجرموا إذا مرَّ الذين آمنوا بهم يتغامزونَ؛ يقول: كان بعضُهم يغمزُ بعضاً بالمؤمنِ، استهزاءً به وسخريةً.

وقوله: «وَإِذَا انْقَلَبُوا إلى أَهْلِهِم انْقَلَبُوا فَكِهِينَ»، يقول: وكان هؤلاء المجرمونَ إذا انصرفوا إلى أهلِهم من مجالسِهم انصرفوا ناعمينَ مُعْجَبينَ.

وقوله: «وَإِذَا رأَوْهُمْ قالُوا إنَّ هَؤُلاءِ لَضالُّونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا رأى المجرمونَ المؤمنينَ قالوا لهم: إنَّ هؤلاء لضالونَ عن محجةِ الحقِّ، وسبيلِ القصد «ومَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حافِظِينَ»، يقول جلّ ثناؤه: وما بُعِثَ هؤلاء الكفارُ القائلون للمؤمنينَ «إنَّ هؤلاء لضالون» حافظينَ عليهم أعمالَهم. يقول: إنما

(١) انظر تعليقنا السابق.

كُلِّفُوا الإيمانَ باللهِ، والعملَ بطاعتِهِ، ولم يُجْعَلُوا رُقباءَ على غيرِهم يحفظونَ عليهم أعمالهم ويتفقدونها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «فالْيَوْمَ» وذلك يوم القيامة «الَّذِينَ آمَنُوا» باللهِ في الدنيا «مِنَ الكُفَّارِ» فيها «يَضْحَكُونَ. على الأرَائِكِ يَنْظُرُونَ»، يقول: على سُرُرِهم التي في الحِجالِ ينظرونَ إليهم وهم في الجنةِ، والكفار في النار يُعَذَّبُونَ.

وقوله: «هَلْ ثُوِّبَ الكُفَّارُ ما كانُوا يَفْعَلُونَ»، يقول تعالى ذكره: هل أُثيبَ الكفارُ وجُزُوا ثوابَ ما كانوا في الدنيا يفعلون بالمؤمنينَ من سُخْريتهم منهم، وضَحكِهِمْ بهم بضحكِ المؤمنينَ منهم في الآخرة، والمؤمنونَ على الأرائكِ ينظرون، وهم في النار يعذَّبُونَ.

و«ثُوِّبَ» فعلٌ من الثوابِ والجزاءِ، يقال منه: ثَوَّبَ فلانٌ فلاناً على صنيعهِ، وأثابه منه.

سُورَةُ الانْشِقَاقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥﴾

يقول تعالى ذكره: إذا السماء تَصَدَّعَتْ وتقطَّعتْ فكانت أبواباً.

وقوله: «وأَذِنَتْ لِرَبِّها وَحُقَّتْ» يقول: وسَمِعَت السموات في تَصدُّعِهَا وتَشَقُّقِهَا لربِّها وأطاعتْ له في أمره إياها، والعرب تقول: أذِنَ لك في هذا الأمر أذناً بمعنى: استمعَ لك، ومنه الخبر الذي رُوي عن النبيِّ ﷺ «ما أذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ كأذَنِهِ لِنَبِيٍّ يَتَغَنَّى بالقُرآنِ»[1]، يعني بذلك: ما استمع الله لشيءٍ كاستماعهِ لنبيٍّ يتغنى بالقرآن.

وقوله: «وحُقَّتْ»، يقول: وحققَ الله عليها الاستماعَ بالانشقاقِ والانتهاءِ إلى طاعتهِ في ذلك.

وقوله: «وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا الأرض بُسِطتْ، فَزِيدَتْ في سعتها.

---

(١) ذكره المؤلف معلقاً، وهو في الصحيحين من حديث أبي هريرة: البخاري (٥٠٢٣) و(٥٠٢٤) و(٧٤٨٢) و(٧٥٤٤)، ومسلم (٧٩٢).

وقوله: «وألْقَتْ ما فِيها وتَخلَّتْ»، يقول جلّ ثناؤه: وألقت الأرضُ ما في بطنها من الموتى إلى ظهرها وتخلَّت منهم إلى الله.

وقوله: «وأَذِنَتْ لِرَبِّها وَحُقَّتْ»، يقول: وسمعت الأرضُ في إلقائها ما في بطنها من الموتى إلى ظهرها أحياء، أمرَ رَبِّها وأطاعت «وحُقَّتْ»، يقول: وحقَّقها الله للاستماعِ لأمرهِ في ذلك، والانتهاء إلى طاعته.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ۝٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يا أيها الإنسانُ إنك عاملٌ إلى ربك عملاً فَمُلاقيهِ به خيراً، كان عملك ذلك أو شرّاً؛ يقول: فليكن عملك مما يُنجيك من سُخْطِه، ويوجبُ لك رِضاهُ، ولا يكُنْ مما يُسخطه عليكَ فتهلكَ.

وقوله: «فأمَّا مَن أُوتِيَ كِتابَهُ بيَمِينِهِ»، يقول تعالى ذكره: فأما مَنْ أُعطيَ كتابَ أعمالِه بيمِينه «فَسوفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً» بأنْ ينظر في أعماله، فيغفر له سَيِّئها، ويُجازى على حسنها.

وقـوله: «وَيَنْقَلِبُ إلى أَهْلِهِ مَسْرُوراً»، يقول: وينصرف هذا المحاسَبُ حساباً يسيراً إلى أهله في الجنة مسروراً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ۝١٠ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ۝١١ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا ۝١٥﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: وأما مَنْ أُعطيَ كتابه منكم أيها الناسُ يومئذٍ وراء ظهـره، وذلك أنْ جعلَ يده اليمنى إلى عنقه، وجعل الشمال من يديه وراء ظهره، فيتناول كتابَهُ بشماله من وراءِ ظهره، ولذلك وصفهم جلّ ثناؤه أحياناً، أنهم يُؤْتَوْنَ كتبهم بشمائلهم، وأحياناً أنهم يُؤْتَوْنَها من وراءِ ظهورِهم.

وقـولـه: «فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً»، يقول: فسوف ينادي بالهلاك، وهو أن يقول: وَاثُبُورَاهُ، واوَيْلَاهُ، وهو من قولهم: دعا فلان لهفه: إذا قال: والهفاه.

وقوله: «وَيَصْلَى سَعِيراً»، اختلفت القَرَأَةُ في قراءةِ ذلك، فقرأته عامة قَرَأَة مكـة والمدينة والشام: «وَيُصَلَّى» بضم الياء وتشديد اللام، بمعنى: أنَّ الله يصليهم تصليةً بعـد تصليةٍ، وإنضاجةً بعد إنضاجةٍ، كما قال تعالى: «كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُم جُلُوداً غَيرَها» [النساء: ٥٦]، واستشهدوا لتصحيحِ قراءتِهم ذلك كذلك بقوله: «ثُمَّ الجَحِيمَ صَلُّوهُ» [الحاقة: ٣١] وقرأ ذلك بعضِ المـدنيين وعـامة قَرَأَة الكوفة والبصرة: «وَيَصْلَى» بفتح الياء وتخفيف اللام، بمعنى: أنهم يَصْلونها ويَرِدُونَها، فيحترقونَ فيها، واستشهدوا لتصحيحِ قراءتهم ذلـك كذلك بقول الله: «يَصْلَوْنَها» [إبراهيم: ٢٩ وص: ٥٦ والانفطار: ١٥] و«إلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الجَحِيم» [الصافات: ١٦٣].

والصوابُ من القولِ في ذلك عندي أنهما قراءتان معروفتان صحيحتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارئُ فمصيبٌ.

وقوله: «إنَّهُ كانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنه كان في أهلهِ في الدنيا مسروراً لما فيه من خلافهِ أمرَ الله، وركوبه معاصيَهُ.

وقوله: «إنَّهُ ظَنَّ أنْ لَنْ يَحُورَ بَلى»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ هذا الذي أُوتيَ كتابَهُ وراءَ ظهرهِ يومَ القيامة، ظنَّ في الدنيا أنْ لن يرجعَ إلينا، ولن يُبعثَ بعد مماتهِ، فلم يكن يبالي ما رَكِبَ من المآثم، لأنه لم يكن يرجو ثواباً، ولم يكن

يخشى عقاباً، يقال منه: حَار فلانٌ عن هذا الأمر: إذا رجعَ عنه، ومنه الخبر الذي رُوي عن رسولِ الله ﷺ أنه كان يقول في دعائه: «اللَّهُمَّ إنّي أعُوذُ بِكَ مِنَ الحَوْرِ بَعْدَ الكَوْرِ»[1]، يعني بذلك: من الرجُوعِ إلى الكفرِ بعد الإيمانِ.

وقوله: «بَلى»، يقول تعالى ذِكْرُه: بلى لَيَحُورَنَّ ولَيَرْجِعَنَّ إلى رَبِّه حياً كما كان قبل مماتِه.

وقوله: «إنَّ رَبَّهُ كانَ بِهِ بَصِيراً»، يقول جلّ ثناؤه: إنَّ ربَّ هذا الذي ظَنَّ أنْ لن يحـور، كان به بصيراً، إذ هو في الـدنيا، بمـا كان يعمـلُ فيها من المعاصي، وما إليه يصيرُ أمرُه في الآخرة، عالمٌ بذلك كلِّه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾

وهـذا قَسَم أقسمَ رَبُّنَـا بالشفقِ: والشفق: الحمرةُ في الأفقِ من ناحيةِ المغربِ من الشمسِ في قول بعضِهم.

وقوله: «وَاللَّيْلِ ومَا وَسَقَ»، يقول: والليلِ وما جمعَ مما سكن وهدأ فيه من ذي روحٍ كان يطيرُ، أو يَدِبُّ نهاراً، يقال منه: وسَقْتُه أسِقُهُ وَسْقاً، ومنه طعـامٌ موسُوقٌ، وهو المجموعُ في غرائرَ أو وعاءٍ، ومنه الوَسْقُ، وهو الطعامُ المجتمعُ الكثيرُ مما يُكالُ أو يُوزَنُ.

وقوله: «والقَمَرِ إذَا اتَّسَقَ»، يقول: وبالقمر إذا تَمَّ واستوى.

وقوله: «لَتركَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ»، اختلفت القَرَأةُ في قراءته، فقرأه عمرُ بن

(١) أخرجه مسلم (١٣٤٣) وغيره من حديث عبدالله بن سرجس المزني. ورواه المؤلف هنا معلقاً، ويروى أيضاً «بعد الكون» ـ بالنون ـ بدلاً من الراء.

الخطاب وابن مسعود وأصحابه وابن عباس وعامة قَرَأَة مكة والكوفة «لَتَركَبَنَّ» بفتح التاء والباء، واختلف قارِئُو ذلك كذلك في معناه، فقال بعضهم: لتركَبَنَّ يا محمدُ أنتَ حالاً بعد حالٍ، وأمراً بعد أمرٍ من الشدائدِ.

وقال آخرون ممن قرأ هذه القراءة عُنِي بذلك: لتركبنَّ أنتَ يا محمدُ سماءً بعد سماءٍ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: لتركَبَنَّ الآخرةَ بعدَ الأولى.

وقال آخرون ممن قرأ هذه القراءة: إنما عُنِي بذلك أنها تتغير ضروباً من التغييرِ، وتشَقَّقُ بالغَمامِ مرّةً وتحمَرُّ أُخرى، فتصيرُ وردةً كالدِّهانِ، وتكون أخرى كالمُهْلِ.

وقرأ ذلك عامة قَرَأَة المدينةِ وبعض الكوفيين: «لَتَرْكَبُنَّ» بالتاءِ وبضم الباء على وجهِ الخطابِ للناسِ كافة أنهم يركبونَ أحوالَ الشدّةِ حالاً بعد حالٍ، وقد ذكر بعضهم أنه قرأ ذلك بالياء وبضم الباء على وجه الخبر عن الناس كافة أنهم يفعلون ذلك.

وأولى القـراءات في ذلك عندي بالصوابِ: قراءةُ مَنْ قرأ بالتاء وبفتح الباء، لأنَّ تأويلَ أهلِ التأويلِ من جميعِهم بذلك وَرَدَ، وإنْ كان للقراءاتِ الأُخَرِ وجوهٌ مفهومة. وإذ كان الصوابُ من القراءة في ذلك ما ذكرنا فالصوابُ من التأويلِ قولُ مَنْ قال: «لَتَرْكَبَنَّ» أنتَ يا محمدُ حالاً بعد حالٍ، وأمراً بعد أمر من الشدائد. والمرادُ بذلك، وإنْ كان الخطابُ إلى رسولِ الله ﷺ موجهاً جميعَ الناسِ أنهم يلقون من شدائدِ يومِ القيامة وأهوالِهِ أحوالاً.

وإنما قلنا: عُنِي بذلك ما ذكرنا أنَّ الكلام قبلَ قولِهِ: «لَتَرْكَبنَّ طَبَقا عَنْ طَبَقٍ» جرى بخطابِ الجميعِ، وكذلك بعده، فكان أشبه أنْ يكونَ ذلك نظير ما قَبْلَهُ وما بعده.

وقوله: «طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ» من قولِ العربِ: وقع فلان في بناتِ طبق: إذا وقعَ في أمرٍ شديد.

وقوله: «فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فما لهؤلاءِ المشركينَ لا يصدِّقُونَ بتوحيدِ الله، ولا يُقِرُّونَ بالبعثِ بعد الموتِ، وقد أقسم لهم رَبُّهم بأنهم راكبونَ طبقاً عن طبقٍ مع ما قد عَايَنُوا من حججهِ بحقيقةِ توحيدِه.

وقوله: «وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ القُرآنُ لا يَسْجُدُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا قُرِئَ عليهم كتابُ رَبِّهم لا يخضعونَ ولا يستكينونَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

قوله: «بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: بل الذين كفروا يكذِّبُونَ بآياتِ الله وتنزيله.

وقوله: «وَاللهُ أعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والله أعلمُ بما تُوعيهِ صدورُ هؤلاءِ المشركينَ من التكذيبِ بكتابِ الله ورسوله.

وقوله: «فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أليمٍ»، يقول جلّ ثناؤه: فَبَشِّرْ يا محمدُ هؤلاء المكذِّبينَ بآياتِ الله بعذابٍ أليمٍ لهم عندَ اللهِ موجع «إلا الذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ»، يقول: إلا الذين تابوا منهم وصَدَّقُوا، وأقَرُّوا بتوحيدِه، ونبوّةِ نبيه محمدٍ ﷺ، وبالبعثِ بعد المماتِ. «وعملوا الصالحات»، يقول: وأدُّوا فرائضَ الله، واجتنبوا ركوبَ ما حَرَّمَ اللهُ عليهم ركوبه.

وقـولـه: «لَهُمْ أجْـرٌ غَيرُ مَمْنُونٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه لهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ، ثوابٌ غير محسوبٍ ولا منقوص.

سُورَةُ البُرُوج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝٤ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝٥﴾

قوله: «والسَّماءِ ذَاتِ البُرُوجِ» أقسمَ اللهُ جلّ ثناؤه بالسماءِ ذاتِ البروج، ومعنى ذلك: والسماءِ ذاتِ منازلِ الشمسِ والقمرِ، وذلك أنَّ البروجَ: جمع برجٍ، وهي منازلُ تُتَّخذُ عاليةً عن الأرضِ مرتفعة، ومن ذلك قول الله: «وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ» [النساء: ٧٨] وهي منازل مرتفعة عالية في السماء، وهي اثنا عشر برجاً، فمسيرُ القمر في كلِّ برجٍ منها يومان وثلث، فذلك ثمانيةٌ وعشرون منزلاً، ثم يَسْتَسِرُّ ليلتين، ومسيرُ الشمسِ في كلِّ برجٍ منها شهر.

وقوله: «وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأقسم باليومِ الذي وعدته عبادي لفصلِ القضاء بينهم، وذلك يوم القيامة.

وقوله: «وشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ»، اختلف أهلُ التأويلِ في معنى ذلك، فقال بعضُهم: معنى ذلك: وأقسم بشاهد، قالوا: وهو يومُ الجمعة، ومشهودٍ قالوا: وهو يومُ عرفة.

وقال آخرون: الشاهدُ: محمد، والمشهودُ: يوم القيامة.

وقال آخرون: الشاهد: الإنسانُ، والمشهود: يوم القيامة.

وقال آخرون: الشاهد: محمدٌ. والمشهود: يومُ الجمعة.

وقال آخرون: الشاهد: الله، والمشهود: يوم القيامة.

وقال آخرون: الشاهد: يوم الأضحى، والمشهود: يوم الجمعة.

وقال آخرون: الشاهد: يوم الأضحى، والمشهود: يوم عَرَفة.

وقال آخرون: المشهود: يوم الجمعة[1].

والصوابُ من القول في ذلك عندنا أنْ يقال: إنَّ الله أقسم بشاهدٍ شهدَ، ومشهودٍ شهدَ، ولم يخبرنا مع إقسامهِ بذلك أيَّ شاهدٍ وأيَّ مشهودٍ أرادَ، وكلُّ الذي ذكرنا أنَّ العلماء قالوا: هو المعنيُّ مما يستحقُّ أنْ يُقال له: شاهِدٍ وَمَشْهُودٍ.

وقوله: «قُتِلَ أصحَابُ الأُخْدُودِ»، يقول: لعِنَ أصحابُ الأخدودِ. وكان بعضُهم يقول: معنى قوله: «قُتِلَ أصحَابُ الأُخْدُودِ» خبرٌ من اللهِ عن النارِ أنها قتلتهم.

وقد اختلف أهلُ العلم في أصحابِ الأُخدودِ مَنْ هم؟ فقال بعضُهم: قومٌ كانوا أهلَ كتابٍ من بقايا المجوسِ.

وقال آخرون: بل الذين أحرقتهم النارُ هم الكفارُ الذين فَتنوا المؤمنين.

وأوْلى التأويلين بقوله: «قُتِلَ أصحَابُ الأُخْدُودِ» لُعِنَ أصحابُ الأخدودِ الذين ألقوا المؤمنينَ والمؤمنات في الأخدود.

وإنما قلت: ذلك أوْلى التأويلين بالصوابِ لأنَّ الله أخبرَ أنَّ لهم عذابَ الحريق مع عذابِ جهنم، ولو لم يكونوا أُحْرِقُوا في الدنيا لم يكن لقوله: «ولَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ» معنىً مفهوم، مع إخبارهِ أنَّ لهم عذاب جهنم، لأنَّ عذابَ

---

(١) ذكر ابن الجوزي في «زاد المسير» أربعة وعشرين قولاً في ذلك: ٩/٧٠ـ٧٣.

جهنم هو عذابُ الحريقِ مع سائرِ أنواعِ عذابها في الآخرة، والأخدود: الحفرةُ تُحْفَرُ في الأرض.

وقولـه: «النَّـارِ ذَاتِ الوَقُودِ»، فقوله النار: رَدٌّ على الأخدودِ، ولذلك خفضت، وإنما جازَ رَدُّهَا عليه وهي غيره، لأنها كانت فيه، فكأنها إذ كانت فيه هو، فجـرى الكـلامُ عليه لمعـرفةِ المُخاطَبِينَ به بمعناه وكأنه قيل: قُتِلَ أصحابُ النارِ ذَاتِ الوَقُودِ، ويعني بقوله: «ذَاتِ الوَقُودِ» ذات الحطبِ الجزلِ، وذلك إذا فتحت الواو، فأما الوُقود بضم الواو، فهو الاتِّقادُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: النار ذات الوقود، «إِذْ» هؤلاء الكفار من أصحابِ الأخدودِ «عليها»، يعني: على النار، فقالَ: عليها، والمعنى أنهم قعودٌ على حافةِ الأخدودِ، فقيلَ: على النارِ، والمعنى: لشفيرِ الأخدودِ لمعرفةِ السامعينَ معناه.

وقوله: «وَهُمْ عَلى ما يَفْعَلُونَ بالمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ»، يعني: حُضُورٌ.

وقوله: «ومَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إلَّا أنْ يُؤْمِنُوا باللهِ العَزِيزِ الْحَمِيدِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وما وَجَدَ هؤلاء الكفارُ الذين فَتَنُوا المؤمنينَ على المؤمنينَ والمؤمناتِ، بالنارِ في شيءٍ، ولا فعلوا بهم ما فعلوا بسببٍ، إلا مِنْ أجلِ أنهم آمنوا باللهِ، وقال: «إلا أن يؤمنوا بالله»، لأنَّ المعنى: إلا إيمانَهم بالله، فلذلك حَسُنَ في موضعـه «يؤمنـوا»، إذْ كان الإيمانُ لهم صفةً. «الْعَزِيزِ»، يقول: الشديد في انتقامهِ ممن انتقمَ منه. «الْحَمِيدِ»، يقول: المحمود بإحسانهِ إلى خَلْقِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۝١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الذي له سلطانُ السمواتِ السبع والأرضين وما فيهنَّ، «وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والله على فِعْلِ هؤلاء الكفارِ من أصحابِ الأخدودِ بالمؤمنينَ الذين فتنوهم شاهدٌ، وعلى غيرِ ذلك من أفعالهم وأفعالِ جميعِ خَلْقِه، وهو مجازِيهم جزاءهم.

وقوله: «إنَّ الَّذينَ فَتَنُوا المُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِناتِ»، يقول: إنَّ الذين ابتَلُوا المؤمنينَ والمؤمناتِ بالله بتعذيبِهم وإحراقِهم بالنار.

وقوله: «ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا»، يقول: ثم لم يتوبوا من كُفْرِهم وفعلِهم، الذي فعلوا بالمؤمنينَ والمؤمناتِ من أجلِ إيمانِهم بالله «فَلَهُمْ عَذابُ جَهَنَّمَ» في الآخرة، «ولَهُمْ عَذابُ الْحَرِيقِ» في الدنيا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ۝١١ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢﴾

يقول تعالى ذكره: إنَّ الذين أقَرُّوا بتوحيدِ الله، وهم هؤلاء القوم الذين حَرَّقَهُم أصحابُ الأخدودِ وغيرهم من سائرِ أهلِ التوحيد «وعَمِلوا الصَّالِحاتِ»، يقول: وعملوا بطاعةِ اللهِ، وأْتَمَرُوا لأمرِه، وانتهَوا عما نَهاهم عنه «لَهُمْ جَنَّات تَجْري مِنْ تَحْتِها الأنهارُ»، يقول: لهم في الآخرةِ عندَ اللهِ بساتينُ تجري من تحتها الأنهارُ والخمرُ واللبنُ والعسل «ذلكَ الْفَوْزُ الكَبيرُ»، يقول: هذا الذي هُوَ لهؤلاءِ المؤمنينَ في الآخرة هو الظفرُ الكبيرُ بما طلبوا والتمسوا بإيمانِهم بالله في

الدنيا، وعملهم بما أمرهم الله به فيها ورضيه منهم.

وقوله: «إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: إنَّ بطشَ ربِّكَ يا محمدُ لمنْ بطشَ به من خَلْقِه، وهو انتقامُه ممن انتقمَ منه لشديدٌ، وهو تحذيرٌ من الله لقومِ رسولِه محمدٍ ﷺ، أن يُحِلَّ بهم من عذابِهِ ونقمته. نظيرَ الذي حَلَّ بأصحابِ الأخدودِ على كفرهم به، وتكذيبهم رسولَهُ، وفتنتهم المؤمنينَ والمؤمناتِ منهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾﴾

اختلف أهلُ التأويلِ في معنى قوله: «إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ»، فقال بعضهم: معنى ذلك: إن الله أبدى خلقه، فهو يبتدىء، بمعنى: يُحْدِثُ خَلْقَهُ ابتداءً، ثم يُمِيتهم، ثم يُعِيدهُمْ أحياءً بعد مماتِهم، كهيئتِهم قبل مماتهم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: إنه هو يُبْدِئُ العذابَ ويُعيدُه.

وأَوْلى التأويلين في ذلك عندي بالصوابِ وأشبههما بظاهرِ ما دَلَّ عليه التنزيلُ هو أنه يُبدىء العذابَ لأهلِ الكفرِ به ويُعيدُ، كما قال جلَّ ثناؤه: «فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ» في الدنيا، فأبدأَ ذلك لهم في الدنيا، وهو يعيدُه لهم في الآخرة.

وإنما قلت: هذا أولى التأويلين بالصوابِ لأنَّ اللهَ أتبعَ ذلك قوله: «إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ» فكان للبيانِ عن معنى شدّةِ بطشِهِ الذي قد ذكره قَبْلَهُ، أشبه به بالبيانِ عما لم يَجْرِ له ذِكْرٌ، ومما يؤيدُ ما قلنا من ذلك وضوحاً وصحةً، قوله: «وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ» فَبيَّنَ ذلك عن أن الذي قبله من ذكرِ خبرِه عن عذابهِ وشدَّةِ عقابه.

وقوله: «وَهُوَ الْغَفُورُ الوَدُودُ»، يقول تعالى ذكره: وهو ذُو المغفرةِ لمن تابَ إليه من ذنوبهِ، وذُو المحبةِ له.

وقوله: «ذُو الْعَرْشِ المَجِيدُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ذُو العرشِ الكريم.

وقوله: «فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ»، يقول: هو غفارٌ لذنوبِ مَنْ شاء من عبادِه إذا تابَ وأنابَ منها، معاقِبٌ مَنْ أصرَّ عليها وأقامَ، لا يمنعه مانعٌ، من فِعْلٍ أرادَ أنْ يفعله، ولا يحولُ بينه وبين ذلك حائلٌ، لأنَّ له مُلك السمواتِ والأرض، وهو العزيزُ الحكيم.

وقوله: «هَلْ أتاكَ حَدِيثُ الجُنُودِ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: هل جاءكَ يا محمدُ حديثُ الجنودِ الذين تَجَنَّدُوا على اللهِ ورسولهِ بأذاهم ومكروههم؛ يقول: قد أتاكَ ذلكَ وعلمته، فاصبرْ لأذى قومكَ إياكَ لما نالوكَ به من مكروهٍ كما صبرَ الذين تجند هؤلاء الجنودُ عليهم من رُسُلي، ولا يَثْنِيكَ عن تبليغهم رسالتي، كما لم يَثْنِ الذين أُرسلوا إلى هؤلاء، فإنَّ عاقبةَ مَنْ لم يُصَدِّقكَ ويؤمن بكَ منهم إلى عطبٍ وهلاك، كالذي كان من هؤلاء الجنود، ثم بَيَّنَ جلَّ ثناؤه عن الجنود مَنْ هم فقال: «فِرْعَوْنَ وثَمُودَ»، يقول: فرعون، فاجتزئَ بِذِكْرِه، إذْ كانَ رئيسُ جُنْدِهِ من ذِكْرِ جُنْدِهِ وتُبَّاعه، وإنما معنى الكلام: هل أتاكَ حديثُ الجنودِ، فرعون وقومه وثمود، وخفض فرعون ردّاً على الجنودِ على الترجمةِ عنهم، وإنما فَتَحَ لأنه لا يجري وثمود.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكْذِيبٍ ۝١٩ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ۝٢٠ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظِۭ ۝٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ما بهؤلاءِ القومِ الذين يكذِّبُونَ بوعيدِ اللهِ أنهم لم

يأتِهم أنبـاءُ من قبلهم من الأممِ المكـذِّبـةِ رُسُلَ اللهِ كفرعونَ وقومِهِ، وثمود وأشكالِهم، وما أَحَلَّ اللهُ بهم من النِّقَمِ بتكذِيبِهم الرسلَ، ولكنهم في تكذيب بوحي اللهِ وتنـزيلِهِ إيثاراً منهم لأهوائهم، واتِّباعاً منهم لسننِ آبائهم «وَاللهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ» بأعمالِهم مُحْصٍ لها، لا يَخْفَى عليه منها شيءٌ، وهو مُجازِيهم على جميعها.

وقوله: «بَلْ هُوَ قُرآنٌ مَجيدٌ»، يقول: تكذيباً منه جلَّ ثناؤه للقائلينَ للقرآنِ هو شعرٌ وسَجْعٌ: ما ذلكَ كذلكَ، بَلْ هو قرآنٌ كريم.

وقوله: «فِي لَوْحٍ مَحفُوظٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هو قرآنٌ كريمٌ مثبتٌ في لوحٍ محفوظ.

واختلفتِ القَرَأَةُ في قراءة قوله: «مَحْفُوظٍ» فقرأ ذلك مَنْ قرأه من أهلِ الحجاز أبو جعفر القارىء وابن كثير، ومن قرأه من قَرَأَةِ الكوفةِ عاصم والأعمش وحمزة والكسائي، ومن البصريين أبو عمرو: «محفوظٍ» خفضاً على معنى أنَّ اللوحَ هو المنعـوتُ بالحِفْظِ، وإذا كان ذلـك كذلك كان التأويل: في لوحٍ محفوظٍ من الزيادةِ فيه والنقصانِ منه عما أثبته اللهُ فيه. وقرأ ذلك من المكِّيين ابنُ مُحَيْصِن، ومن المدنيين نافع: «مَحْفُوظٌ» رفعاً ردّاً على القرآنِ، على أنه من نعتهِ وصِفَتهِ. وكأنَّ معنى ذلك على قراءتهما: بل هو قرآنٌ مجيدٌ، محفوظٌ من التغييرِ والتبديلِ في لوحٍ.

والصـوابُ من القـولِ في ذلك عندنا أنهما قراءتان معروفتان في قَرَأَةِ الأمصار صحيحتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارئُ فمصيبٌ، وإذ كان ذلك كذلك، فبأيِّ القراءتين قرأ القارىء فتأويلُ القراءة التي يقرؤها على ما بيَّنا.

سُورَةُ الطَّارِق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ① وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ② النَّجْمُ الثَّاقِبُ ③ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ④ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ⑤ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ⑥ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ⑦ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ⑧ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ⑨ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ⑩﴾

أقسمَ رَبُّنا بالسماءِ وبالطارقِ الذي يطرقُ ليلاً من النجومِ المضيئة، ويَخْفَى نهاراً، وكلُّ ما جاء ليلاً فقد طَرَقَ.

«وَمَا أَدْرَاكَ ما الطَّارِقُ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وما أشْعَرَكَ يا محمدُ ما الطارقُ الذي أقسمتُ به، ثم بَيَّنَ ذلك جلَّ ثناؤه، فقال: هو «النجمُ الثاقبُ»، يعني: يَتوقَّدُ ضِياؤهُ ويتوهَّج.

وقوله: «إنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ»، اختلفتِ القَرَأَةُ في قراءةِ ذلك، فقرأه من قَرَأَة المدينة أبو جعفر، ومن قَرَأةِ الكوفةِ حمزة: «لَمَّا عَلَيْها» بتشديد الميم. وذُكِر عن الحسن أنه قرأ ذلك كذلك.

وقرأ ذلك من أهل المدينة نافع، ومن أهل البصرة أبو عمرو «لَمَا» بالتخفيف، بمعنى: إنْ كلُّ نفسٍ لَعَلَيها حافظٌ، وعلى أنَّ اللامَ جوابُ «إنْ»

و«ما» التي بعدها صِلَة. وإذا كان ذلك كذلك لم يكن فيه تشديد.

والقــراءةُ التي لا أختارُ غيرَها في ذلك التخفيف، لأنَّ ذلك هو الكلام المعروف من كلامِ العرب، وقد أنكرَ التشديدَ جماعةٌ من أهل المعرفة بكلامِ العرب أنْ يكونَ معروفاً من كلام العربِ، غير أنَّ الفرّاء[1] كان يقول: لا نعرفُ جهةَ التثقيلِ في ذلك، ونرى أنها لغةٌ في هذيل يجعلونَ إلا مع إن المخففة لما، ولا يجاوزونَ ذلك، كأنه قال: ما كُلُّ نفس إلَّا عليها حافظٌ، فإنْ كان صحيحاً ما ذكرَ الفرّاءُ من أنها لغةُ هُذَيل فالقراءةُ بها جائزةٌ صحيحة، وإنْ كان الاختيار أيضاً إذا صَحَّ ذلك عندنا القراءة الأخرى وهي التخفيف، لأنَّ ذلك هو المعروف من كلامِ العربِ، ولا ينبغي أن يُتْرَكَ الأعرفُ إلى الأنكرِ.

فتأويل الكلام إذن: إنْ كُلُّ نفسٍ لَعَلَيْهَا حافظٌ من رَبِّها، يحفظُ عملها، ويُحصي عليها ما تكسبُ من خيرٍ أو شرّ.

وقوله: «فَلْيَنْظُرِ الإنْسانُ مِمَّ خُلِقَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فلينظر الإنسانُ المكذِّبُ بالبعثِ بعد المماتِ، المُنكر قُدرةَ الله على إحيائهِ بعد مماته، «مِمَّ خُلِقَ؟»، يقول: من أيِّ شيءٍ خَلَقَهُ رَبُّهُ، ثم أخبر جلّ ثناؤه عَمَّا خَلَقَهُ منه، فقال: «خُلِقَ مِنْ ماءٍ دَافِقٍ»، يعني: من ماءٍ مَدْفُوقٍ، وهو مما أُخرجَتْهُ العربُ بلفظِ فاعل، وهو بمعنى المفعول، ويقال: إنَّ أكثرَ مَنْ يستعملُ ذلك من أحياءِ العربِ سكانُ الحجاز إذا كان في مذهب النعتِ، كقولهم: هذا سِرٌّ كاتمٌ، وهَمٌّ ناصبٌ، ونحو ذلك.

وقوله: «يَخْرُجُ مِنْ بَينِ الصُّلْبِ والتَّرائِبِ»، يقول: يخرجُ من بينِ ذلكَ، ومعنى الكلام: منهما، كما يقال: سيخرجُ من بين هذينِ الشيئينَ خيرٌ كثيرٌ، بمعنى: يخرجُ منهما.

---

(١) معاني القرآن: ٣/٢٥٤.

واختلف أهلُ التأويل في معنى الترائبِ ومَوْضِعِهَا، فقال بعضهم: الترائبُ: موضعُ القِلادةِ من صَدْرِ المرأة.

وقال آخرون: الترائب: ما بين المَنْكِبَينِ والصدر.

وقال آخرون: هو اليدانِ والرجلانِ والعينانِ.

وقال آخرون: معنى ذلك، أنه يخرجُ من بين صُلْبِ الرجل ونَحْرِهِ.

وقال آخرون: هي الأضلاع التي أسفل الصُّلب.

وقال آخرون: هي عصارةُ القلب.

والصوابُ من القول في ذلك عندنا قولُ مَنْ قال: هو موضعُ القِلادةِ من المرأةِ، حيث تقع عليه من صدرها، لأن ذلك هو المعروف في كلام العرب، وبه جاءت أشعارهم.

وقوله: «إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ هذا الذي خلقكم أيها الناسُ من هذا الماءِ الدافق، فجعلكم بشراً سوياً، بعد أنْ كنتم ماء مدفوقاً، على رَجْعِهِ لقادر.

وقوله: «على رَجْعِهِ لقادر»، معناه: إنَّ الله على ردِّ الإنسانِ المخلوقِ من ماء دافقٍ من بعدِ مماتهِ حياً، كهيئتهِ قبلَ مماتهِ، لقادرٌ.

وإنما قلتُ هذا لقولِهِ: «يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ» فكان في إتْبَاعهِ قوله: «إِنَّهُ على رجعهِ لقَادِرٌ» نبأ من أنباءِ القيامةِ، دلالة على أنَّ السابقَ قبلها أيضاً منه، ومنه: «يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِر»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنه على إحيائهِ بعد مماتهِ لقادرٌ يوم تُبلى السرائر؛ فاليوم من صفة الرَّجْعِ، لأن المعنى: إنه على رجعه يومَ تُبْلى السرائرُ لقادرٌ.

وعُنِي بقوله: «يَوْمَ تُبْلى السَّرائِرُ»، يوم تُخْتَبرُ سرائرُ العبادِ، فيظهرُ منها يومئذٍ ما كانَ في الدنيا مُسْتَخْفِياً عن أعينِ العبادِ من الفرائضِ التي كان اللهُ ألزمَهُ إياها، وكلَّفَهُ العملَ بها.

وقوله: «فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ ولا ناصِرٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فما للإنسانِ الكافرِ يومئذٍ من قوّةٍ يمتنعُ بها من عذابِ الله، وأليمِ نكالِه، ولا ناصرٍ ينصرُه فيستنقذُهُ مِمَّنْ نالَهُ بمكروهٍ، وقد كان في الدنيا يرجعُ إلى قوّةٍ من عشيرتِهِ، يمتنعُ بهم ممن أرادَهُ بسوءٍ، وناصرٍ من حليفٍ ينصرُه على مَنْ ظَلَمَهُ واضطهده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «والسَّماءِ ذَاتِ الرَّجْعِ» تَرْجعُ بالغيومِ وأرزاقِ العبادِ كلَّ عام.

وقوله: «والأرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والأرضِ ذاتِ الصدعِ بالنباتِ.

وقوله: «إنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ هذا القولَ وهذا الخبرَ «لقولٌ فصلٌ»: يقول: لقولٌ يفصلُ بين الحقِّ والباطلِ ببيانِه.

وقوله: «ومَا هُوَ بالهَزْلِ»، يقول: وما هو باللعبِ ولا الباطلِ.

وقوله: «إنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ هؤلاء المكذِّبينَ باللهِ ورسولِهِ والوعدِ والوعيدِ يمكرونَ مكراً.

وقوله: «وأكِيدُ كَيْداً»، يقول: وأمكرُ مَكْراً؛ ومكرهُ جلَّ ثناؤه بهم: إملاؤه إياهم على معصيتِهم وكُفْرِهم به.

وقوله: «فَمَهِّلِ الْكافِرِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: فَمَهِّلْ يا محمدُ الكافرينَ ولا تَعْجَلْ عليهم «أمْهِلْهُمْ رُوَيْداً»، يقول: أمهلهم آناً قليلاً، وأنْظِرْهُمْ للوعدِ الذي هو وقتُ حلولِ النقمةِ بهم.

سُورَةُ الأَعْلَى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾

اختلف اهلُ التأويلِ في تأويلِ قوله: «سَبِّحِ اسْم رَبِّكَ الأعْلَى»، فقال بعضهم: معناه: عَظِّمْ رَبَّكَ الأعلى، لا ربَّ أعلى منه وأعظم. وكان بعضُهم إذا قرأ ذلك قال: سبحانَ ربيَ الأعلى

وقال آخرون: بل معنى ذلك: نَزِّهْ يا محمدُ اسمَ رَبِّكَ الأعلى، أنْ تسمي به شيئاً سواه، ينهاهُ بذلك ان يفعلَ ما فعلَ من ذلك المشركونَ مِنْ تَسميتهم آلهتَهُمْ بعضَها اللات، وبعضها العُزَّى.

وقال غيرهم: بل معنى ذلك: نَزِّهِ اللهَ عَمَّا يقولُ فيه المشركونَ كما قال: «وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ، فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْواً بِغَيرِ عِلْمٍ» [الأنعام: ١٠٨]، وقالوا: معنى ذلك: سَبِّحْ رَبَّكَ الأعلى؛ قالوا: وليس الاسمُ معنياً.

وقال آخرون: نَزِّهْ تسميتكَ يا محمدُ رَبَّكَ الأعلى وذِكْرِكَ إياهُ أنْ تَذْكُرَهُ

إلا وأنتَ له خاشعٌ مُتَذَلِّلٌ، قالوا: وإنما عُنِي بالاسم: التسمية، ولكن وُضعَ الاسمُ مكانَ المصدر.

وقال آخرون: معنى قوله: «سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأعْلى»: صَلِّ بذكرِ رَبِّك يا محمد، يعني بذلك: صلِّ وأنتَ له ذاكرٌ، ومنه وَجِلٌ خائف.

وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصوابِ قولُ مَنْ قال: معناه: نَزِّهْ اسمَ رَبِّكَ أنْ تدعو به الآلهةَ والأوثانَ، لما ذُكِرَ من الأخبارِ عن رسولِ الله ﷺ، وعن الصحابةِ أنهم كانوا إذا قرؤوا ذلك قالوا: سبحان ربي الأعلى[1]، فبَيَّنَ بذلك أنَّ معناه كان عندهم معلوم: عَظِّمْ اسمَ ربك ونَزِّهْهُ.

وقوله: «الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى»، يقول: الذي خلقَ الأشياءَ فسوَّى خَلْقَها، وعَدَّلَها، والتسويةُ: التعديلُ.

وقوله: «وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: والذي قَدَّرَ خَلْقَهُ فهدى.

واختلف أهلُ التأويلِ في المعنى الذي عُني بقوله: «فَهَدَى»، فقال بعضهم: هدى الإنسانَ لسبيلِ الخيرِ والشرِّ، والبهائمَ للمراتعِ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: هدى الذكورَ لمأْتى الإناثِ.

والصوابُ من القول في ذلك عندنا أنَّ الله عَمَّ بقوله: «فَهَدَى» الخبر عن هدايتِهِ خَلْقَهُ، ولم يخصصْ من ذلك معنى دون معنى، وقد هداهم لسبيلِ الخيرِ والشرِّ، وهدى الذكورَ لمأتى الإناثِ، فالخبرُ على عمومِهِ حتى يأتي خبرٌ تقومُ به الحجةُ، دالّ على خُصُوصِه.

وقوله: «وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى»، يقول: والذي أخرجَ من الأرضِ مرعى الأنعامِ من صنوفِ النباتِ وأنواعِ الحشيش.

---

(١) لم يثبت فيه حديث عن النبي ﷺ، ولكن ثبت عن بعضِ الصحابة منهم: علي وابن عباس رضي الله عنهم.

وقـوله : «فَجَعَلَهُ غُثاءً أَحْوَى»، يقول تعالى ذِكْرُه : فجعلَ ذلك المرعى غُثاءً، وهو ماجَفَّ من النباتِ ويَبِسَ، فطارتْ به الريحُ، وإنما عُني به هاهنا أنـه جعله هشيمـاً يابساً متغيراً إلى الحُوَّةِ، وهي السواد من بعدِ البياضِ أو الخُضْرةِ، من شدّةِ اليبس.

وقوله : «سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى إلا ما شاءَ اللهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه : سنقرئك يا محمدُ هذا القرآنَ فلا تنساهُ إلا ما شاء الله.

ثم اختلف أهلُ التأويلِ في معنى قوله : «فَلا تَنْسَى إلَّا ما شاءَ اللهُ» فقال بعضهم : هذا إخبارٌ من الله نبيه عليه الصلاة والسلام أنه يُعَلِّمُه هذا القرآنَ، ويحفظه عليه، ونهيٌ منه أنْ يعجلَ بقراءته، كما قال جلّ ثناؤه : «لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ، إنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وقُرآنَهُ». [القيامة : ١٦ ـ ١٧]، فقال قائلو هذه المقالة : معنى الاستثناء في هذا الموضع على النسيانِ، ومعنى الكلام : فلا تَنْسى، إلا ما شاءَ اللهُ أنْ تنساه، ولا تذكُرَهُ، قالوا : ذلك هو ما نَسَخَهُ اللهُ من القرآنِ، فرفع حُكْمَهُ وتلاوته.

وقـال آخرون : معنى النسيان في هذا الموضع : الترك؛ وقالوا : معنى الكلام : سنقرئك يا محمدُ فلا تترك العمل بشيءٍ منه، إلا ما شاء الله أنْ تتركَ العملَ به مما ننسَخه.

والقولُ الذي هو أولى بالصوابِ عندي قولُ مَنْ قال : معنى ذلك : فلا تنسى إلا أنْ نشـاء نحنُ أنْ نُنْسِيكَـهُ بنسخـهِ ورفعـه. وإنمـا قلنا ذلك أَوْلى بالصواب، لأنَّ ذلك أظهر معانيه.

وقوله : «إنَّهُ يَعْلَمُ الجهْرَ وَمَا يَخْفَى»، يقول تعالى ذِكْرُه : إنَّ الله يعلمُ الجهرَ يا محمدُ من عملكَ ما أَظْهَرْتَهُ وأَعْلَنْتَهُ «وَمَا يَخْفَى»، يقول : وما يخفى منه فلم تُظْهِرْهُ مما كتمتَهُ، يقول : هو يعلمُ جميعَ أعمالكَ سِرَّها وعلانيتها؛

يقول: فاحْذَرْهُ أنْ يَطَّلِعَ عليكَ وأنتَ عاملٌ في حالٍ من أحوالكَ بغيرِ الذي أذِنَ لكَ به.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعـالَى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ۝١١ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣﴾

يقـول تعـالى ذكـره: ونُسَهِّلُكَ يا محمـدُ لعمـلِ الخيرِ وهـو اليُسرَى، واليُسرَى: هو الفُعْلى من اليسر.

وقـوله: «فَذَكِّرْ إنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: فذكِّرْ عبادَ اللهِ يا محمدُ عَظَمَتَهُ، وعِظْهُمْ، وحَذِّرْهُمْ عقوبتَهُ «إنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى»، يقول: إنْ نفعتِ الـذكرى الذينَ قد آيستُكَ من إيمانِهم، فلا تنفعهم الذكرى. وقوله: «فَذَكِّرْ» أمرٌ من اللهِ لنبيهِ ﷺ بتذكيرِ جميعِ الناسِ، ثم قال: إنْ نفعتِ الذِّكرى هؤلاءِ الذينَ قد آيستكَ من إيمانهم.

وقوله: «سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى»، يقول جلّ ثناؤه: سيذَّكَّرُ يا محمدُ إذا ذَكَّرْتَ الـذينَ أمـرتُكَ بتذكيرهم مَنْ يخشى اللهَ، ويخاف عقابه «ويَتَجَنَّبُهَا»، يقول: ويتجنَّبِ الـذِّكـرى «الأشْقَى» يعني: أشقى الفـريقين «الَّـذِي يَصْلَى النَّـارَ الكُبْرَى»، وهم الذين لم تنفعهم الذكرى.

وقوله: «الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الكُبْرَى»، يقول: الذي يَرِدُ نارَ جهنم، وهي النارُ الكبرى، ويعني بالكبرى لشدّةِ الحرِّ والألم.

وقوله: «ثمَّ لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيا»، يقول: ثم لا يموتُ في النارِ الكبرى ولا يحيا، وذلـك أن نَفْسَ أحـدِهم تصيرُ فيها في حَلْقِه، فلا تخرج فَتُفَارِقه

فيموت، ولا ترجع إلى مَوْضِعِهَا من الجسمِ فيحيَا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾

يقولُ تعالى ذِكْرُه: قد نجحَ وأدركَ طَلِبتَهُ مَنْ تَطَهَّرَ من الكفرِ ومعاصي الله، وعملَ بما أمرَهُ اللهُ به، فأدّى فرائضه.

وقوله: «وذكرَ اسمَ رَبِّهِ»، معناه: وذَكَرَ اللهَ فَوَحَّدَهُ، ودعاهُ إليه، ورَغَّبَ، لأنَّ كُلَّ ذلك من ذِكْرِ الله، ولم يخصُصِ اللهُ تعالى من ذكرهِ نوعاً دونَ نوعٍ.

وعنى بقوله: «فَصَلَّى»: الصلوات، وذكرَ اللهَ فيها بالتحميدِ والتمجيدِ والدعاء.

وقوله: «بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا»، يقول للناسِ: بل تُؤْثِرونَ أيها الناسُ زينةَ الحياةِ الدنيا على الآخرةِ. «والآخرة خيرٌ» لكم «وأبْقَى»، يقول: وزينةُ الآخرةِ خيرٌ لكم أيها الناسُ وأبقى، لأنَّ الحياةَ الدنيا فانيةٌ، والآخرةَ باقيةٌ، لا تنفَدُ ولا تفنى.

وقوله: «إنَّ هذا لَفِي الصُّحف الأولى»، معناه: إن قوله: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكى، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى. بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا، والآخِرَةُ خَيْرٌ وأَبْقَى» لفي الصُّحُفِ الأولى، صُحُفِ إبراهيمَ خليلِ الرحمنِ، وصحفِ موسى بن عمران.

وإنما قلتُ ذلك لأنَّ هذا إشارةٌ إلى حاضر، فَلأَنْ يكونَ إشارةً إلى ما قَرُبَ منها، أوْلى من أن يكون إشارةً إلى غيرِه. وأما الصحفُ: فإنها جمعُ صحيفةٍ، وإنما عُني بها: كتب إبراهيم وموسى.

سُورَةُ الغَاشِيَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «هَلْ أتاكَ» يا محمدُ «حَدِيثُ الْغاشِيَةِ»، يعني: قصتها وخبرها.

واختلف أهلُ التأويل في معنى الغاشية، فقال بعضهم: هي القيامةُ تَغْشَى الناسَ بالأهوال.

وقال آخرون: بل الغاشية: النارُ تَغْشَى وجوهَ الكَفَرةِ.

والصوابُ من القولِ في ذلك أن يقال: إنَّ الله قال لنبيه ﷺ: «هَلْ أتاكَ حَدِيثُ الْغاشِيَةِ» لم يخبرنا أنه عَنَى غاشيةَ القيامةِ، ولا أنه عَنَى غاشيةَ النار، وكِلْتاهُمَا غاشية، هذه تَغْشَى الناسَ بالبلاءِ والأهوالِ والكروبِ، وهذه تغشى الكفارَ باللَّفحِ في الوجوهِ، والشُّواظِ والنحاسِ، فلا قولَ في ذلك أصحّ من أنْ يقالَ كما قالَ جلّ ثناؤه: ويعمَّ الخبر بذلك كما عَمَّهُ.

وقوله: «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: «وجوهٌ يومئذٍ»، وهي وجوهُ أهلِ الكفر، «خاشعة»، يقول: ذليلةٌ.

وقوله: «عامِلَةٌ»، يعني: عاملةٌ في النار.

وقوله: «ناصِبَةٌ»، يقول: ناصبةٌ فيها.

وقوله: «تَصْلَى ناراً حامِيَةً»، يقول تعالى ذِكْرُه: تَرِدُ هذه الوجوهُ ناراً حاميةً قد حَمِيَتْ واشتدَّ حَرُّهَا.

وقوله: «تُسْقَى مِن عَينٍ آنِيَةٍ»، يقول: تُسْقَى أصحابُ هذه الوجوهِ من شَرابِ عينٍ قد أَنَى حَرُّهَا، فبلغَ غايتَهُ في شدةِ الحرِّ.

وقوله: «لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إلَّا مِنْ ضَرِيعٍ»، يقول: ليس لهؤلاء الذين هم أصحابُ الخاشعةِ العاملةِ الناصبةِ يومَ القيامةِ طعامٌ، إلا ما يَطْعَمُونَهُ من ضَرِيعٍ. والضريعُ عند العرب: نبتٌ يُقال له الشِّبْرق، وتسميه أهلُ الحجازِ الضَّرِيع إذا يَبِسَ، ويسميه غيرهم: الشِّبْرق، وهو سُمٌّ.

وقوله: «لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ»، يقول: لا يُسمنُ هذا الضريعُ يومَ القيامةِ أَكَلَتَهُ من أهلِ النارِ، ولا يُغني من جُوعٍ: يقول: ولا يُشبِعُهم من جُوعٍ يصيبهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ»، يعني: يومَ القيامة «ناعِمَةٌ»، يقول: هي ناعمةٌ بتنعيمِ الله أهلها في جناته، وهم أهلُ الإيمان بالله.

وقوله: «لِسَعْيِها رَاضِيَةٌ»، يقول: لِعَمَلِهَا الذي عَمِلَتْ في الدنيا من طاعةِ رَبِّها راضيةٌ، وقيل: «لِسَعْيِها رَاضِيَةٌ»، والمعنى: لثوابِ سَعْيِها في الآخرةِ

راضية.

وقوله: «فِي جَنَّةٍ عالَيَةٍ»، وهي بستان، «عالية»، يعني: رفيعة.

وقـوله: «لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً»، يقول: لا تسمعُ هذه الوجوهُ، المعني لأهلهـا فيهـا في الجنـة العاليةِ «لاغية»، يعني باللاغية: كلمة لغو. واللَّغو: الباطلُ، فقيل للكلمةِ التي هي لغوٌ لاغيةٌ، كما قيلَ لصاحبِ الدرع: دَارِعٌ، ولصاحبِ الفرس: فارسٌ، ولقائل الشعر شاعر.

وقوله: «فِيها عَينٌ جارِيَةٌ»، يقول: في الجنةِ العاليةِ عينٌ جاريةٌ في غيرِ أُخدود.

وقوله: «فِيها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ»، والسُّرُرُ: جمع سريرٍ، مرفوعةٌ ليرى المؤمنُ إذا جلسَ عليها جميعَ ما خَوَّلَهُ رَبُّه من النعيمِ والملكِ فيها، ويلحق جميع ذلك بصره.

وقوله: «وأكوابٌ مَوْضُوعَةٌ»، وهي جمع كُوبٍ، وهي الأباريقُ التيَ لا آذانَ لها.

وعُنِي بقوله: «مَوْضُوعَةٌ»: أنها موضوعةٌ على حافَّةِ العينِ الجاريةِ، كلما أرادوا الشربَ وجدوها ملأى من الشرابِ.

وقوله: «ونَمارِقُ مَصْفُوفَةٌ»، يعني بالنمارق: الوسائد والمرافق، والنمارق: واحدها نُمْرُقَةٌ بضم النون.

وقوله: «وَزَرَابِي مَبْثُوثَةٌ»، يقول تعالى ذكره: وفيها طنافسُ وبُسُطٌ كثيرةٌ مبثوثةٌ مفروشةٌ، والواحدةُ: زِرْبية. وهي الطِّنفسةُ التي لها خَمَلٌ رقيق.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ

﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ٢٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لمُنكري قُدْرَتِهِ على ما وصفَ في هذه السورة من العقابِ والنكالِ الذي أعَدَّهُ لأهلِ عداوته، والنعيمِ والكرامةِ التي أعدّها لأهلِ ولايتهِ، أفلا يَنْظُرْ هؤلاء المنكرونَ قُدرةَ الله على هذه الأمورِ، إلى الإبلِ كيف خلَقها وسَخَّرها لهم وذَلَّلها وجَعَلَها تحملُ حملها باركةً، ثم تنهض به، والذي خلقَ ذلك غير عزيزٍ عليه أنْ يخلقَ ما وصفَ من هذه الأمورِ في الجنةِ والنار، يقول جلّ ثناؤه: أفلا ينظرونَ إلى الإبلِ فيعتبرونَ بها، ويعلمونَ أنَّ القُدرةَ التي قدر بها على خَلْقِهَا، لن يُعجزه خَلْقُ ما شابهها.

وقوله: «وَإلى السَّماءِ كَيْفَ رُفِعَتْ»، يقول جلّ ثناؤه: أفلا ينظرونَ أيضاً إلى السماءِ كيفَ رَفَعَها الذي أخبركم أنه معِدٌّ لأوليائهِ ما وَصَفَ، ولأعدائهِ ماذكر، فيعلموا أنَّ قُدْرَتَهُ القدرةُ التي لا يُعجِزُهُ فعلُ شيءٍ أرادَ فِعْله.

وقوله: «وَإلى الجبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ»، يقول: وإلى الجبالِ كيف أُقيمتْ منتصبةً لا تسقطُ، فتنبسطُ في الأرضِ، ولكنها جعلها بقدرته منتصبةً جامدة، لا تبرحُ مكانها، ولا تزولُ عن موضعها.

وقوله: «وَإلى الأرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ»، يقول: وإلى الأرضِ كيف بُسطت، يقال: جبل مُسَطَّحٌ إذا كان في أعلاه استواء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ ٢٤ إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ٢٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ «فَذَكِّرْ» يا محمدُ عبادي بآياتي، وعِظْهُمْ بحججي وبلِّغْهُمْ رسالتي «إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ»، يقول: إنما أرسلتُك إليهم مُذَكِّراً لتذكِّرَهُمْ نعمتي عندهم، وتُعَرِّفَهُمْ اللازمَ لهم، وتَعِظَهُمْ.

وقوله: «لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ»، يقول: لستَ عليهم بمسلّطٍ، ولا أنتَ بجبارٍ تَحْمِلُهم على ما تريدُ يقول: كِلْهُمْ إليَّ، ودَعْهُمْ لي وحكمي فيهم؛ يقال: قد تَسَيْطَرَ فلانٌ على قومِهِ: إذا تسلَّطَ عليهم.

وقوله: «إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وكَفَرَ» يتوجَّه لوجهين: أحدهما: فَذَكِّرْ قومكَ يا محمدُ، إلا مَنْ تولَّى منهم عنكَ، وأَعْرَضَ عن آياتِ اللهِ فكفرَ، فيكون قوله: «إلا» استثناء من الذين كان التذكيرُ عليهم، وإنْ لم يُذَكَّرُوا، كما يقال: مضى فلان، فدعا إلا مَنْ لا تُرْجَى إجابتهُ، بمعنى: فدعا الناس إلا مَنْ لا تُرجى إجابته. والوجه الثاني: أن يجعل قوله: «إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وكَفَرَ» منقطعاً عَمَّا قَبْلَهُ، فيكون معنى الكلام حينئذٍ: لستَ عليهم بمسيطرٍ، إلا مَنْ تولى وكفرَ، يُعَذِّبه اللهُ، وكذلك الاستثناء المنقطع يمتحن بأن يحسن معه إنَّ، فإذا حسنت معه كان منقطعاً، وإذا لم تحسن كان استثناء متصلاً صحيحاً، كقولِ القائل: سار القومُ إلا زيداً، ولا يصلحُ دخول إن هاهنا لأنه استثناء صحيح.

وقوله: «فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ»: هو عذابُ جهنم، يقول: فيعذِّبُهُ اللهُ العذابَ الأكبر على كفرِه في الدنيا، وعذابَ جهنمَ في الآخرة.

وقوله: «إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ»، يقول: إنَّ إلينا رجوعَ مَنْ كفرَ ومَعَادهم. «ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ»، يقول: ثم إنَّ على اللهِ حسابه، وهو يُجازيهِ بما سَلَفَ منه من معصيةِ رَبِّه، يُعْلِمُ بذلك نبيه محمداً ﷺ أنه المتولِّي عقوبته دونه، وهو المجازي والمعاقبُ، وأنه الذي إليه التذكيرُ وتبليغُ الرسالة.

سُورَةُ الفَجْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥﴾

هذا قَسَمٌ، أقسمَ رَبُّنا جلَّ ثناؤه بالفجرِ، وهو فجرُ الصبح.

وقوله: «وَلَيَالٍ عَشْرٍ»، هي ليالي عَشْرِ ذي الحجة، لإجماع الحُجَّةِ من أهلِ التأويلِ عليه.

وقوله: «والشَّفْعِ والْوَتْرِ، وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ، هَلْ فِي ذلكَ قَسَمٌ»، اختلف أهلُ التأويلِ في الذي عُني به من الوترِ بقوله: «والْوَتْرِ»، فقال بعضهم: الشفع: يومُ النحرِ، والوترُ: يومُ عرفة.

وقال آخرون: الشفع: اليومانِ بعدَ يومِ النحر، والوَتر: اليومُ الثالث.

وقال آخرون: الشفع: الخَلْقُ كله، والوتر: الله.

وقال آخرون: بل ذلك: الصلاةُ المكتوبةُ، منها الشفعُ كصلاةِ الفجرِ والظهرِ، ومنها الوترُ كصلاةِ المغرب.

والصوابُ من القولِ في ذلك أنْ يقالَ: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه أقسم بالشفعِ والوترِ، ولم يخصصْ نوعاً من الشفعِ ولا من الوتر دونَ نوعٍ بخبرٍ ولا عقلٍ،

وكلُّ شفعٍ ووترٍ فهو مما أقسمَ به مما قالَ أهلُ التأويلِ أنه داخلٌ في قسمهِ هذا لعمومِ قَسَمِه بذلك.

وقوله: «وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ»، يقول: والليلِ إذا سارَ فذهبَ، يقال منه: سرى فلان ليلاً يَسْرِي: إذا سارَ.

وقوله: «هَلْ فِي ذلكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هل فيما أقسمتُ به من هذه الأمورِ مَقْنعٌ لذي حِجْرٍ. وإنما عُنِي بذلك: أن في هذا القسم مُكْتَفىً لمن عَقَلَ عن رَبِّه مما هو أغلظ منه في الإقسام، فأما معنى قوله: «لِذِي حِجْرٍ»: فإنه لِذي حِجًى وذِي عقلٍ؛ يقالُ للرجلِ إذا كان مالكاً نفسَهُ قاهراً لها ضابطاً: إنه لذو حِجْرٍ، ومنه قولهم: حَجَر الحاكمُ على فلان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝١١﴾

وقوله: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ. إرَمَ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ألم تنظرْ يا محمدُ بعينِ قلبكَ، فترى كيف فعلَ رَبُّكَ بعادٍ؟

واختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «إرَمَ» فقال بعضُهم: هي اسم بلدة.

وقال آخرون: عُنِي بقوله: «إرَمَ»: أمة.

وقال آخرون: معنى ذلك: القديمة.

وقال آخرون: تلك قبيلة من عاد.

الفجر: ١١

وقال آخرون: «إرم»: الهالك.

وأشبهُ الأقوالِ فيه بالصوابِ عندي أنها اسمُ قبيلةٍ من عاد، ولذلك جاءت القراءةُ بتركِ إضافةِ عادٍ إليها، وتركِ إجرائها، كما يقال: ألم تَرَ ما فعلَ رَبُّكَ بتميمِ نهشل؟ فيتركُ إجراء نهشل، وهي قبيلة، فتركُ إجراؤها لذلك، وهي في موضـع خفضٍ بالـردِّ على تميم، ولو كانت إرم اسم بلدة أو اسم جدٍّ لعادٍ لجاءتِ القراءةُ بإضافةِ عادٍ إليها، كما يقال: هذا عمرُو زبيدٍ، وحاتمُ طيىء، وأعشى هَمْدانَ، ولكنها اسم قبيلة منها فيما أرى، والله أعلم. فلذلك أجمعت القَرَأَةُ فيها على تركِ الإضافةِ وتركِ الأجراء.

وقوله: «ذَاتِ الْعِمادِ» اختلف أهلُ التأويلِ في معنى قوله: «ذَاتِ الْعِمادِ» في هذا الموضع، فقال بعضُهم: معناه: ذاتُ الطَّوْلِ، وذهبوا في ذلك إلى قولِ العربِ للرجلِ الطويلِ: رجلٌ مُعَمَّدٌ وقالوا: كانوا طُوالَ الأجسامِ.

وقـال بعضهم: بل قيل لهم: «ذَاتِ الْعِمـادِ» لأنهم كانـوا أهل عَمَدٍ، ينتجعونَ الغيوثَ، وينتقلونَ إلى الكلإِ حيثُ كانَ، ثم يرجعونَ إلى منازلهم.

وقال آخرون: بل قيل ذلك لهم لبناءٍ بَنَاهُ بعضُهم، فشيَّدَ عَمَده، ورفعَ بناءه.

وقال آخرون: قيل ذلك لهم لشدَّةِ أبدانِهم وقُواهم.

وأشبه الأقوالِ في ذلك بما دلَّ عليه ظاهرُ التنزيلِ قولُ مَنْ قال: عُنِي بذلك أنهم كانوا أهلَ عمودٍ، سيارة لأنَّ المعروفَ في كلامِ العرب من العِمادِ، ما عُمِلَ به الخيامُ من الخشبِ السواري التي يُحْمَلُ عليها البناء، ولا يُعْلَمُ بناءٌ كان لهم بالعمادِ بخبرٍ صحيح، بل وَجَّهَ أهلُ التأويل قوله: «ذَاتِ الْعِمادِ» إلى أنه عُني به طولُ أجسامهم، وبعضُهم إلى أنه عُني به عمادُ خِيامهم، فأما عمادُ البنيان، فلا يعلمُ كثيرُ أحدٍ من أهلِ التأويل وجَّهَهُ إليه، وتأويلُ القرآن إنما يُوجَّهُ

إلى الأغلبِ الأشهرِ من معانيهِ ما وُجِدَ إلى ذلك سبيلٌ دونَ الأنكرِ.

وقوله: «الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلادِ»، يقول جلّ ثناؤه: ألم تَرَ كيف فعلَ رَبُّكَ بعادٍ، إرمِ التي لم يُخْلَقْ مثلها في البلاد، يعني: مثلَ عادٍ، والهاء عائدةٌ على عاد. وجائزٌ أنْ تكونَ عائدةً على إرم لما قد بَيَّنّا قَبْلُ أنها قبيلةٌ. وإنما عُنِي بقوله: لم يُخْلَقْ مِثْلُهَا في العِظَمِ والبطشِ والأيد.

وقوله: «وثَمُودَ الَّذِينَ جابُوا الصَّخْرَ بالوادِ»، يقول: وبثمودَ الذين خَرَقُوا الصخرَ ودخلوهُ فاتَّخَذُوه بيوتاً، كما قال جلّ ثناؤه: «وكانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الجِبالِ بُيُوتاً آمِنِينَ» [الحجر: ٨٢] والعربُ تقول: جابَ فلانٌ الفلاةَ يجوبُهَا جوباً: إذا دَخَلها وقطعها.

وقوله: «وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتادِ»، يقول جلّ ثناؤه: ألم تَرَ كيفَ فعلَ رَبُّكَ أيضاً بفرعونَ صاحبِ الأوتاد.

ومعنى قوله: «ذي الأوتاد»: الأوتاد التي تُوتَدُ من خشبٍ كانتْ أو حديدٍ، لأنَّ ذلك هو المعروفُ من معاني الأوتاد، ووُصِفَ بذلك لأنه إما أنْ يكون كان يُعذِّبُ الناسَ بها، وإما أنْ يكونَ كان يُلْعَبُ له بها.

وقـوله: «الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ»، يعني بقوله جلّ ثناؤه: «الذين» عاداً وثمـود وفرعون وجُنْدِه، ويعني بقوله: «طَغَوا»: تجاوزوا ما أباحَهُ لهم رَبُّهم، وعَتَوْا على رَبِّهم إلى ما حَظَّرَهُ عليهم من الكفرِ به. وقوله: «فِي الْبِلادِ»: التي كانوا فيها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: فأكثروا في البلادِ المعاصيَ، وركوبَ ما حَرَّمَ الله عليهم «فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ»، يقـول تعـالى ذِكْرُه: فأنزلَ بهم يا محمدُ رَبُّكَ عذابَهُ، وأحَلَّ بهم نقمته، بما أفسدوا في البلادِ، وطَغَوْا على الله فيها. وقيل: «فصبَّ عليهم ربك سَوط عذاب» وإنما كانت نِقَماً تنزلُ بهم؛ إما ريحـاً تُدَمِّرُهُمْ، وإما رَجفاً يُدَمْدِمُ عليهم، وإما غَرَقاً يُهلكهم من غير ضربٍ بسوطٍ ولا عصا، لأنه كان من أليمِ عذابِ القومِ الذين خُوطِبُوا بهذا القرآنِ، الجلدُ بالسياطِ، فكثر استعمالُ القومِ الخبرَ عن شدّةِ العذابِ الذي يُعَذَّبُ به الرجلُ منهم أن يقولوا: ضُرِبَ فلانٌ حتى بالسياطِ، إلى أنْ صار ذلك مثلاً، فاستعملوه في كلّ مُعَذَّبٍ بنوعٍ من العذابِ شديد، وقالوا: صَبَّ عليه سَوطَ عذاب.

وقـوله: «إنَّ رَبَّكَ لَبالمِرْصَادِ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: إنَّ رَبَّكَ يا محمدُ لهؤلاء الذين قَصَصْتُ عليكَ قَصَصَهم، ولِضُرَبائهم من أهلِ الكفـر، لَبـالْمِـرْصَـادِ يَرْصُدُهم بأعمالِهم في الدنيا وفي الآخرة، على قناطر جهنم، ليكردِسَهُمْ فيها إذا وَرَدُوهَا يومَ القيامة.

وقوله: «فأمَّا الإنْسانُ إذَا ما ابْتَلاهُ رَبُّهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فأما الإنسان إذا ما امتحنه رَبُّهُ بالنعمِ والغنى، «فأكْرَمَهُ» بالمالِ، وأفضلَ عليه، «وَنَعَّمَهُ» بما أوسعَ عليه من فَضْلِه «فَيَقُولُ: رَبِّي أكْرَمَنِ»، فيفرحُ بذلك ويُسَرُّ به ويقول: ربي أكرمني بهذه الكرامةِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾﴾

قوله: «وأما إِذَا ما ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ»، يقول: وأما إذا ما امْتَحَنَهُ رَبُّهُ بالفقرِ «فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزقَهُ»، يقول: فضيَّقَ عليه رِزْقَهُ وقَتَّره، فلم يكثر ماله، ولم يُوسِّعْ عليه «فَيَقُولُ رَبِّي أهانَنِ»، يقول: فيقولُ ذلك الإنسانُ: ربي أهانني، يقول: أذَلَّني بالفقرِ، ولم يشكر الله على ماوَهَبَ له من سلامةِ جوارحِهِ، ورَزَقَهُ من العافيةِ في جسمه.

وقـوله: «كَلَّا بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ»، اختلف أهلُ التأويلِ في المعنيِّ بقوله: «كَلَّا» في هذا الموضع، وما الذي أنكر بذلك، فقال بعضُهم: أنكر جلّ ثناؤه أنْ يكون سببَ كرامتهِ مَنْ أكرمَ كثرةُ مالهِ، وسببَ إهانتهِ مَنْ أهان قِلَّةُ مالهِ.

وقال آخرون: بل أنكر جَلَّ ثناؤه حَمْدَ الإنسانِ رَبَّهُ على نِعمهِ دون فَقْرِهِ، وشكواه الفاقة، وقالوا: معنى الكلام: كلا، أي لم يَكُنْ ينبغي أنْ يكون هكذا، ولكن كان ينبغي أن يحمده على الأمرين جميعاً: على الغنى والفقر.

وأوْلى القولين في ذلك بالصواب القولُ الأولُ لدلالةِ قوله: «بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ» والآيات التي بعدها، على أنه إنما أهانَ مَنْ أهانَ بأنه لا يكرمُ اليتيمَ، ولا يَحُضُّ على طعامِ المسكينِ، وسائر المعاني التي عَدَّدَ، وفي إبانته عن السببِ الذي من أجله أهانَ مَنْ أهان، الدلالةُ الواضحةُ على سببِ تكريمهِ مَنْ أكرمَ، وفي تَبْيينهِ ذلك عَقيبَ قولهِ: «فأمَّا الإِنْسانُ إِذَا ما ابْتَلاهُ رَبُّهُ فأكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أكْرَمَنِي، وأمَّا إِذَا ما ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أهانَنِي» بيانٌ واضحٌ عن الذي أنكرَ من قوله ما وصفنا.

وقوله: «بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: بل إنما أَهَنْتُ من أهَنتُ من أجلِ أنه لا يكرمُ اليتيمَ، فأخرجَ الكلامَ على الخطابِ، فقال: بل لستم تُكْرمونَ اليتيمَ، فلذلك أهنتُكُم «وَلا تَحاضُّونَ عَلى طَعامِ المِسْكِينِ»، يقول: ولا يحضُّ بعضُكم بعضاً على طعامِ المسكين.

وقوله: «وتَأكُلُونَ التُّرَاثَ أكْلًا لمًّا»، يقول تعالى ذِكْرُه: وتأكلونَ أيها الناسُ الميراثَ أكلًا لمًّا، يعني: إكلًا شديداً لا تتركونَ منه شيئاً، وهو من قولهم: لَممتُ ما على الخِوانِ أجمع، فأنا ألمهُ لمًّا: إذا أكلتُ ما عليه فأتيتُ على جميعِهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٢٣﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وَتُحِبُّونَ المَالَ حُبًّا جَمًّا» وتحبون جمعَ المالِ أيها الناسُ واقتناءَهُ حباً كثيراً شديداً، من قولهم: قد جَمَّ الماءُ في الحوضِ: إذا اجتمعَ.

ويعني جلّ ثناؤه بقوله: «كَلَّا»: ما هكذا ينبغي أنْ يكونَ الأمرُ، ثم أخبر جلّ ثناؤه عن نَدَمِهم على أفعالهم السيئة في الدنيا، وتلهُّفِهم على ما سَلَفَ منهم حين لا ينفعُهُم النـدمُ، فقال جلّ ثناؤه: «إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا»، يعني: إذا رُجَّتْ وزُلزلت زلزلةً، وحُرِّكَتْ تحريكاً بعدَ تحريك.

وقوله: «وَجاءَ رَبُّكَ وَالمَلَكُ صَفا صَفًّا»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا جاء رَبُّكَ يا محمدُ وأملاكُه صفوفاً، صَفًّا بعدَ صفٍّ.

وقوله: «وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَمَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وجاء اللهُ يومئذٍ بجهنمَ.

وقوله: «يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإنْسانُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يومئذٍ يتذكرُ الإنسانُ تفريطَهُ في الدنيا في طاعةِ الله، وفيما يُقرِّبُ إليه من صالحِ الأعمالِ، «وأنَّى لَهُ الذِّكْرَى»، يقول: من أيِّ وجهٍ له التذكيرُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ۝٢٤ فَيَوْمَئِذٍ

﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾

وقوله: «ياليْتَنِي قَدَّمْتُ لحِيَاتِي»، يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن تلهُّفِ ابنِ آدمَ يومَ القيامةِ، وتَنَدُّمَهُ على تفريطِه في الصَّالِحات من الأعمالِ في الدنيا التي تُورثُهُ بقاءَ الأبدِ في نعيمٍ لا انقطاعَ له، يا ليتني قدمتُ لحياتي في الدنيا من صالحِ الأعمالِ لحياتي هذهِ، التي لا موتَ بعدها، ما يُنجيني من غضبِ اللهِ، ويوجبُ لي رضوانَهُ.

وقـولـه: «فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ، وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ»، يعني: فيومئذٍ لا يعذَّب بعذابِ اللهِ أحدٌ في الدنيا، ولا يوثق كوثاقهِ يومئذٍ أحدٌ في الدنيا.

وقوله: «يا أَيَّتُها النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ ارْجِعي إلى رَبِّك رَاضِيَة مَرْضِيَّةً»، يقول تعـالى ذِكْـرُه مخبـراً عن قِيلِ المـلائكـةِ لأوليائهِ يومَ القيامة: يا أيتها النفسُ المطمئنة، يعني بالمطمئنة: التي اطمأنتْ إلى وَعْدِ الله الذي وعدَ أهلَ الإيمانِ به في الدنيا من الكرامةِ في الآخرة، فَصَدَّقَتْ بذلك.

وقـولـه: «ارْجِعي إلى رَبِّـك»، اختلف أهلُ التأويلِ في تأويله، فقال بعضُهم: هذا خبـرٌ من الله جلَّ ثناؤه عن قِيلِ الملائكةِ لنفسِ المؤمنِ عند البعثِ، تأمُرهَا أنْ ترجعَ في جسد صاحبها؛ قالوا: وعُنِي بالردِّ هاهنا صاحبها.

وقال آخرون: بل يُقالُ ذلكَ لها عند الموتِ.

وأولى القولين في ذلك بالصوابِ قولُ مَنْ قال: إنَّ ذلك إنما يقالُ لهم عنـد رَدِّ الأرواحِ في الأجسـادِ يومَ البعثِ لدلالـةِ قوله: فادْخُلِي فِي عِبادِي وادْخُلِي جَنَّتِي»، ومعنى ذلك: فادخلي في عبادي الصالحينَ، وادخل جنتي.

سُورَةُ البَلَد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله جلَّ ثناؤهُ وتقدست أسماؤه: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾

يقول تعالى ذكره: أُقسِمُ يا محمدُ بهذا البلدِ الحرام، وهو مكة. وقوله: «وأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا البَلَدَ»، يعني: بمكة، يقول جلَّ ثناؤه لنبيه محمدٍ ﷺ: وأنتَ يا مُحمدُ حِلٌّ بهذا البلدِ، يعني بمكةَ، يقول: أنتَ به حلالٌ تصنعُ فيه مِنْ قَتْلِ مَنْ أردتَ قتلَهُ، وأسْر مَنْ أردتَ أسْرَهُ، مُطْلَقٌ ذلكَ لَكَ، يقال منه: هو حِلٌّ، وهو حلالٌ، وهو حِرْمٌ، وهو حرامٌ. وهو مُحِلٌّ، وهو مُحَرَّمٌ، وأحْلَلْنا، وأحْرَمْنا.

وقوله: «وَوَالِدٍ وَما وَلَدَ»، يقول تعالى ذكره: فأقسمُ بوالدٍ وبولدهِ الذي وَلَدَ.

وقوله: «لَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ فِي كَبَدٍ» وهذا هو جوابُ القسم: ومعناه: لقد خلقنا ابنَ آدمَ يُكابدُ الأمورَ ويُعالجها، فقوله: «فِي كَبَدٍ»، معناه: في شدّةٍ.

وإنما قلنا ذلك، لأنَّ ذلك هو المعروف في كلامِ العربِ من معاني الكَبَد.

وقوله: «أَيَحْسَبُ أنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ» ذُكر أنَّ ذلك نزلَ في رجلٍ بعينهِ

من بني جُمَح، كان يُدْعى أبا الأشدَّيْن، وكان شديداً، فقال جلّ ثناؤه: أيحسبُ هذا القويُّ بجَلَدِهِ وقُوَّتِه، أنْ لن يقهرَهُ أحدٌ ويغلبه، فاللهُ غَالِبُه وقاهرُه.

وقوله: «يَقُولُ أهْلَكْتُ مالاً لُبَداً»، يقول هذا الجليدُ الشديدُ: أهلكتُ مالاً كثيرا في عداوةِ محمدٍ ﷺ، فأنفقت ذلك فيه، وهو كاذبٌ في قولهِ ذلك، وهو فعل من التلبُّدِ، وهو الكثيرُ بعضُه، على بعضٍ، يقال منه: لَبد بالأرض يَلْبُدُ: إذا لصقَ بها.

وقوله: «أَيَحْسَبُ أنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: أيظنُّ هذا القائلُ: «أهْلَكْتُ مالاً لُبَداً» أنْ لَمْ يَرَهُ أحدٌ في حالِ إنفاقه، يزعم أنه أنفقه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ألم نجعلْ لهذا القائل: «أهْلَكْتُ مالاً لُبَداً» عينين يبصرُ بهما حججَ اللهِ عليه، ولساناً يعبرُ به عن نفسِه ما أرادَ، وشفتين نعمةً منا بذلك عليه.

وقوله: «وَهَدَيْناه النَّجْدَيْنِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وهديناهُ الطريقينِ، ونجد: طريق في ارتفاع.

واختلف أهلُ التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: عُنِي بذلك: نَجْدُ الخيرِ، ونَجْدُ الشرِّ، كما قال: «إنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إمَّا شاكِراً، وإمَّا كَفُوراً» [الإنسان: ٣].

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وهديناه الثَّديين: سَبيلَي اللبنِ يتغذّى به، وَيَنْبُتُ عليه لحمهُ وجسمهُ.

وأولى القولين بالصواب في ذلك عندنا قولُ من قال: عُنِي بذلك طريقُ الخيرِ والشرّ، وذلـك أنه لا قولَ في ذلك نعلمه غير القولين اللذين ذكرنا، والثديان، وإنْ كانا سبيلي اللبن، فإنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ إذْ عَدَّدَ على العبد نِعَمهُ بقوله: «إنَّا خَلَقْنا الإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أمْشاجٍ نَبْتَلِيهِ، فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً، إنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ» [الإنسان: ٢ و٣] إنما عَدَّدَ عليه هدايته إياهُ إلى سبيهل الخيرِ من نِعمه، فكذلك قوله: «وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ».

وقوله: «فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فلم يركبِ العقبةَ فيقطعها ويجوزها. وذُكر أنَّ العقبةَ: جبلٌ في جهنم. وقوله: «وَما أدْرَاكَ ما الْعَقَبَةُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأيّ شيءٍ أشعرَكَ يا محمدُ ما العقبة.

ثمَّ بَيَّنَ جَلَّ ثناؤه له، ما العقبةُ، وما النجاةُ منها، وما وجهُ اقتحامها، فقال: اقتحامُهَا وقَطْعُهَا، فَكُّ رقبةٍ من الرقِّ وأسرِ العُبودةِ.

وقوله: «أو إطعام»، اختلفت القَرَأة في قراءة ذلك، فقرأه بعض قَرَأة مكة وعامة قَرَأة البصرة، عن ابن أبي إسحاق، ومن الكوفيين الكسائي: «فَكَّ رَقَبَةٍ أوْ أطْعَمَ»، وكان أبو عمرو بن العلاء يحتجُّ فيما بلغني فيه بقوله: «ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِين آمَنُوا» كأنَّ معناه كان عنده، فلا فَكَّ رقبةً ولا أطعَمَ، ثم كان من الذين آمنوا، وقرأ ذلك عامة قَرَأة المدينة والكوفة والشأم «فَكُّ رَقَبَةٍ» على الإضافةِ «أوْ إطْعامٍ» على وجه المصدر. والصوابُ من القولِ في ذلك أنهما قراءتان معروفتان، قد قرأ بكـلٍّ واحـدةٍ منهمـا علمـاءُ من القَـرَأة، وتأويل مفهوم، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيبٌ؛ فقراءته إذا قرىء على وجهِ الفعلِ تأويله: فلا اقتحمَ العقبةَ، لا فَكَّ رقبةً، ولا أطعَمَ، ثم كان من الذين آمنوا: «وَمَا أدْرَاكَ مَّا الْعَقَبَةُ» على التَّعَجُّبِ والتعظيم، وهذه القراءة أحسنُ مخرجاً في العربية، لأنَّ الإطعامَ اسم، وقوله: «ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا» فعلٌ، والعربُ تُؤْثِر رَدَّ الأسماءِ على الأسماءِ مِثْلها، والأفعالَ على الأفعالِ، ولو كان مجيء التَّنزيل: ثم أنْ كان من الذين آمَنوا،

كان أحسن، وأشبه بالإطعام، والفَكُّ مِنْ: ثُمَّ كانَ، ولذلك قلت: «فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ أَطْعَمَ» أوجَهُ في العربيةِ من الآخر، وإنْ كان للآخر وجهٌ معروف.

وقوله: «أَوْ أَطْعَمَ[1] فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ»، يقول: أو أطعمَ في يومٍ ذي مجاعةٍ، والساغبُ: الجائع. وقوله: «يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ»، يقول: أو أطعمَ في يومِ مجاعةٍ صغيراً لا أبَ له من قرابتهِ، وهو اليتيمُ ذو المقربَةِ. وعنى بذي المقربة: ذَا القَرابة.

وقوله: «أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ»، يقول: أو مسكيناً قد لصق بالترابِ من الفقر والحاجة.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ثم كانَ هذا الذي قال: «أَهْلَكْتُ مالاً لُبَداً» من الذين آمَنـوا بالله ورسولِهِ، فيؤمن معهم كما آمنوا «وَتَوَاصَوْا بالصَّبْرِ»، يقول: وممن أوصى بعضُهم بعضاً بالصبرِ على ما نابهم في ذاتِ الله «وَتَوَاصَوْا بِالمَرْحَمَةِ»، يقولُ: وأوصى بعضُهم بعضاً بالمرحمة.

وقوله: «أُولَئِكَ أصحَابُ المَيْمَنَةِ»، يقول: الذينَ فعلوا هذه الأفعالَ التي ذكرتها من فكِّ الرقابِ، وإطعامِ اليتيمِ، وغير ذلك أصحابِ اليمين الذين يؤخذ بهم يوم القيامة ذاتَ اليمينِ إلى الجنة.

وقـولـه: «وَالَّـذِينَ كَفَـرُوا بآياتِنَا»، يقول: والذين كفروا بأدلتنا وأعلامنا وحججنا من الكتبِ والرُّسلِ وغير ذلك «هُمْ أصحَابُ المَشأَمَةِ»، يقول: هم

---

(١) إنما كتبها كذلك لأن هذه هي القراءة المفضَّلة عنده.

أصحابُ الشمالِ يومَ القيامةِ الذين يُؤْخَذُ بهم ذاتَ الشمال.

وقوله: «عَلَيْهِمْ نارٌ مُؤْصَدَةٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: عليهم نارُ جهنمَ يومَ القيامة مُطْبَقَةٌ، يقال منه: أوصدت وآصدت.

سُورَةُ الشَّمْسِ

ترتيبها ٩١ — آياتها ١٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى جلَّ ثناؤه وتقدست أسماؤه: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾

قوله: «وَالشَّمْسِ وَضُحاها» قَسَمٌ، أقسمَ رَبُّنا تعالى ذِكْرُه بالشمسِ وضُحاها، ومعنى الكلام: أُقسِمُ بالشمسِ وبِضُحَى الشمسِ، أي نهارِها.

وقوله: «وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاها»، يقول تعالى ذِكْرُه: والقمرِ إذا تَبِعَ الشمسَ، وذلك في النصفِ الأَوَّلِ من الشهرِ، إذا غربت الشمس تلاها القمرُ طالعاً.

وقوله: «والنَّهارِ إِذَا جَلَّاها»، يقول: والنهارِ إذا جَلَّاها، قال: إذا أضاءَ.

وقوله: «وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشاها»، يقول تعالى ذِكْرُه: والليلِ إذا يغشى الشمسَ حتى تغيبَ فَتُظْلِمُ الآفاقُ.

وقوله: «وَالسَّماءِ وَما بَنَاهَا»، يقول جلَّ ثناؤه: والسَّمَاءِ ومَنْ بناها، يعني: ومَنْ خلَقها. وبناؤه إياها: تصييرُه إياها للأرضِ سقفاً.

وقيل: «وَما بَنَاها» هو جلَّ ثناؤه بانيها، فوضع «ما» موضع «مَنْ»، كما قال: «وَوَالِدٍ وَما وَلَدَ» فوضع «ما» في موضع «مَنْ»، ومعناه: ومَنْ وَلَدَ، لأنه

قَسَمٌ أقسمَ بآدمَ وولـده، وكذلك: «وَلا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّساءِ». وقوله: «فانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ» وإنما هو: فانكحوا مَنْ طابَ لكم وجائزٌ توجيهُ ذلك إلى معنى المصدر، كأنه قال: والسماءِ وبنائِها، ووالدٍ وولادتِه.

وقـولـه: «والأرْضِ وَمـا طَحـاها» وهذه أيضاً نظير التي قبلها، ومعنى الكلام: والأرض ومَنْ طحاها. ومعنى قوله: «طَحاها»: بَسَطَها يميناً وشمالاً، ومِنْ كلِّ جانب.

وقوله: «وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها»، يعني جلَّ ثناؤُه بقوله: «وَمَا سَوَّاها» نفسه، لأنه هو الذي سَوَّى النفس وخلقها، فَعَدَّلَ خَلْقَها. فوضع «ما» موضع «مَنْ». وقـد يُحتمـل أن يكـون معنى ذلـك أيضـاً المصدر. فيكون تأويله: ونفسٍ وتَسويَتها. فيكون القَسَمُ بالنفسِ وبتسويتها.

وقوله: «فألْهَمَها فُجُورَها وَتَقْوَاها»، يقول تعالى ذِكْرُه: فَبَيَّنَ لها ما ينبغي لها أنْ تأتيَ أو تذرَ من خيرٍ، أو شرٍّ، أو طاعةٍ، أو معصية.

القـول في تأويل قولـه تعـالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ۝١٥﴾

قوله: «قَدْ أفْلَحَ مَنْ زَكَّاها»، يقول: قد أفلحَ مَنْ زكَّى اللهُ نفسَهُ، فكثَّرَ تطهيرها من الكفرِ والمعاصي، وأصلحها بالصالحاتِ من الأعمالِ.

وقوله: «وَقَدْ خاب مَنْ دَسَّاهَا»، يقول تعالى ذِكْرُه: وقد خابَ في طِلبتِهِ فلم يُدْرِكْ ما طلبَ والتمسَ لنفسه من الصلاحِ مَنْ دَسَّاها، يعني: مَنْ دَسَّسَ

اللهُ نفسَـهُ فأخْمَلهـا، ووضـع منهـا، بخُـذْلانِـهِ إياها عن الهدى حتى ركب المعاصيَ، وتركَ طاعةَ الله.

وقـولـه: «كَـذَّبَت ثِمُودُ بِطَغْوَاهَا»، يقول: كذّبت ثمودُ بطغيانها، يعني بعذابها الذي وَعَدَهُمُوهُ صالح عليه السلام. فكان ذلك العذابُ طاغياً طغى عليهم، كما قال جلَّ ثناؤه: «فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بالطَّاغِيةِ» [الحاقة: ٥].

وقوله: «إذِ انْبَعَثَ أشْقاها»، يقول: إذْ ثارَ أشقى ثمودَ، وهو قُدَار بن سالف.

وقوله: «فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ»، يعني بذلك جلَّ ثناؤه: صالحاً رسولَ الله ﷺ، فقال لثمودَ صالحٌ: «ناقَةَ الله وَسُقْياها» احذروا ناقةَ اللهِ وسُقياها، وإنما حَذَّرَهُمْ سُقيا الناقةِ، لأنه كان تَقَدَّمَ إليهم عن أمرِ الله أنَّ للناقةِ شِرْبَ يومٍ، ولهم شِرْبُ يومٍ آخر، غيرِ يومِ الناقةِ على ما قد بيَّنتُ فيما مضى قَبْلُ.

وقوله: «فَكَذَّبُوهُ فعَقَرُوها»، يقول: فكذَّبُوا صالحاً في خبره الذي أخبرهم به من أنَّ الله الـذي جعـلَ شِرْبَ الناقةِ يوماً، ولهم شِرْبُ يومٍ معلوم، وأنَّ الله يُحِلُّ بهم نِقْمَتَهُ إنْ هم عَقَرُوهَا، كما وصفهم جلَّ ثناؤه فقال: «كَذَّبَتْ ثَمُودُ وعادٌ بالقارِعَةِ» [الحاقة: ٤]، وقد يُحتمل أنْ يكونَ التكذيبُ بالعقْر، وإذا كان ذلك كذلك. جاز تقديمُ التكذيبِ قبل العقر، والعقر قبل التكذيب، وذلك أنَّ كلَّ فعـلٍ وقع عن سببٍ حَسُنَ ابتداؤه قبلَ السببِ وبعده كقول القائل: أعطيت فأحسنت، وأحسنت فأعـطيت، لأنَّ الإعـطاءَ: هو الإحسان، ومن الإحسانِ الإعطاءُ، وكذلك لو كان العقر هو سبب التكذيب جاز تقديم أيّ ذلك شاء المتكلم.

وقوله: «فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاها»، يقول تعالى ذِكْرُه: فدمَّرَ عليهم رَبُّهُم بذنبهم ذلك، وكفرهم به، وتكذيبهم رسوله صالحاً، وعقرهم ناقته. «فَسَوَّاها»، يقول: فَسَوَّى الدمدمةَ عليهم جميعهم، فلم يَفْلت منهم أحد.

وقوله: «وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا» اختلف أهلُ التأويلِ في معنى ذلك، فقال بعضهم: معناه: لا يخافُ تبعةَ دَمْدَمَتِه عليهم. وقال آخرون: بل معنى ذلك ولم يَخَفِ الذي عَقَرَها عقباها، أي: عقبى فعلته التي فعل.

سُورَةُ اللَّيْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مقسماً بالليلِ إذا غشَّى النهارَ بظلمتهِ، فأذهبَ ضوءه، وجاءتْ ظُلْمَتُه «واللَّيْلِ إذَا يغْشَى» النهارَ «والنَّهارِ إذَا تَجَلَّى» وهذا أيضاً قَسَمٌ، أقسمَ بالنهارِ إذا هو أضاءَ فأنارَ وظهرَ للأبصار، ما كانتْ ظلمةُ الليل قد حالت بينها وبين رؤيته وإتيانه إياها عِياناً، وكان قتادة يذهب فيما أقسمَ اللهُ به من الأشياءِ أنه إنما أقسمَ به لعِظَمِ شأنِهِ عنده.

وقـولـه: «ومَا خَلَقَ الذَّكَرَ والأُنْثَى» يحتملُ الوجهين اللذين وصفتُ في قوله: «والسَّماءِ ومَا بناها، والأرْضِ ومَا طَحاها»[1] وهو أن يجعل «ما» بمعنى «مَنْ» فيكـون ذلـك قسماً من الله جلّ ثناؤه بخالق الذَّكَرِ والأنثى، وهو ذلك الخالق، وأن تجعل «ما» مع ما بعدها بمعنى المصدر، ويكون قسماً بخلقهِ الذكر والأنثى.

---

(١) انظر ما تقدم في سورة الشمس ٥ ـ ٦.

وقوله: «﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾»، يقول: إنَّ عَمَلَكُمْ لمختلفٌ أيها الناسُ، لأنَّ منكم الكافر بربه والعاصي له في أمرِهِ ونهيِهِ، والمؤمن به والمطيع له في أمرِهِ ونهيه.

وقوله: «إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى» جوابُ القسم. والكلام: والليلِ إذا يغشى إنَّ سعيكم لشتَّى، وكذا قالَ أهلُ العلم.

وقوله: «فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى واتَّقَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: فأما مَنْ أعطى واتقى منكم أيها الناسُ في سبيل الله، ومن أَمَرَهُ اللهُ بإعطائِهِ من مالِهِ، وما وَهَبَ له من فضلِهِ، واتقى اللهَ واجتنبَ محارمه.

واختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله تعالى: وَصَدَّقَ بالْحُسْنَى»، فقال بعضهم: معنى ذلك: وصَدَّقَ بالخلَف من الله على إعطائِهِ ما أعطى من مالِهِ فيما أعْطَى فيه مما أمَرَهُ اللهُ بإعطائِهِ فيه.

وقال آخرونَ: بل معنى ذلك: وصدَّقَ بأنَّ الله واحدٌ لا شريكَ له.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وصَدَّقَ بالجنة.

وقال آخرون: بل معناه: وصَدَّقَ بموعودِ الله.

وأشبهُ هذه الأقوالِ بما دلَّ عليه ظاهرُ التنزيلِ، وأولاها بالصوابِ عندي قولُ مَنْ قال: عُنِي به التصديقُ بالخلفِ من اللهِ على نفقتِهِ.

وإنما قلت: ذلك أوْلى الأقوالِ بالصوابِ في ذلك، لأنَّ الله ذكر قبله مُنفقاً أنفقَ طالباً بنفقتِهِ الخلفَ منها فكان أوْلى المعاني به أنْ يكون الذي عَقيبه الخبر عن تصديقِهِ بوعدِ اللهِ إياهُ بالخلفِ، إذْ كانت نفقتُهُ على الوجه الذي يرضاه.

وقوله: «فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى»، يقول: فَسَنُهَيِّئُه للخلَّة اليُسرى، وهي العمل بما يرضاهُ اللهُ منه في الدنيا، ليوجب له به في الآخرةِ الجنة.

وقوله: «وأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأما مَنْ بخلَ بالنفقةِ في سبيلِ الله، ومنع ما وهبَ اللهُ له من فضلِهِ من صرفِهِ في الوجوهِ التي أمر الله بصرفِهِ فيها، واستغنى عن رَبِّه، فلم يرغبْ إليه بالعملِ له بطاعته بالزيادةِ فيما خَوَّلَهُ من ذلك.

وقوله: «فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى»، يقول تعالى ذكره: فسنهيئُهُ في الدنيا للخلَّة العُسرى.

وقيل: «فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى» ولا تيسر في العُسرى للذي تَقَدَّمَ في أَوَّلِ الكلام من قوله: «فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى» وإذا جمع بين كلامين أحدهما ذكر الخير والآخر ذكر الشرّ، جاز ذلك بالتيسيرِ فيهما جميعاً، والعُسرى التي أخبرَ اللهُ جلّ ثناؤه أنه يُيَسِّرُه لها: العمل بما يكرههُ ولا يرضاه.

عن عليٍّ، قال: «كنا في جنازةٍ في البقيع، فأتانا رسولُ الله ﷺ فجلسَ وجلسنا معه، ومعه عودٌ ينكتُ في الأرضِ، فرفع رأسَهُ إلى السماء فقال: ما مِنْكمْ مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إلاَّ قَدْ كُتبَ مَدْخَلُها، فقال القومُ: يا رسولَ الله ألا نَتَّكِلُ على كتابنا، فمن كان من أهلِ السعادةِ فإنَّهُ يعملُ للسعادة، ومَنْ كان من أهلِ الشقاء فإنه يعمل للشقاء، فقال: بَلِ اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ؛ فأَمَّا مَنْ كانَ مِنْ أَهْلِ السَّعادَةِ فإنَّهُ يُيَسَّرُ لِعَمَلِ السَعادَةِ وأَمَّا مَنْ كانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقاءِ فإنَّهُ يُيَسَّرُ للشَّقاءِ، ثم قرأ: «فأَمَّا مَنْ أَعْطَى واتَّقَى وَصَدَّقَ بالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى؛ وأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وكَذَّبَ بالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى»[1].

---

(١) أخرجه المؤلف من طرق متعددة عن علي، وهو في البخاري (٤٩٤٥) و(٤٩٤٦) و(٤٩٤٧) و(٤٩٤٨) و(٤٩٤٩). وقال ابن كثير: والآيات في هذا المعنى كثيرة دالة على أن الله عز وجل يجازي من قصد الخير بالتوفيق له، ومن قصد الشر بالخذلان، وكل ذلك بقدرٍ مقدور، والأحاديث الدالة على هذا المعنى كثيرة، وساق منها حديث علي في البخاري.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْـَٔاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ۝١٣ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨﴾

يعني جلّ ثناؤه بقوله: «ومَا يُغْنِي عَنْهُ مالُهُ»: أي شيء يدفعُ عن هذا الـذي بَخِـلَ بماله، واستغنى عن رَبِّه مالُه يومَ القيامةِ «إذَا» هو «تَردَّى» في جهنمَ، أي: سقطَ فيها فهوى.

وقوله: «إنَّ عَلَيْنا لَلْهدَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ علينا لبيانَ الحقِّ من الباطلِ، والطاعة من المعصيةِ.

وقـوله: «وَإنَّ لَنا لَلآخِرَةَ والأُولى»، يقول: وإنَّ لنا مُلْكَ ما في الدنيا والآخرةِ، نُعطي منهما مَنْ أردنا من خَلْقِنَا، ونحرمُه مَنْ شئنا.

وإنما عَنَى بذلك جلَّ ثناؤه أنه يُوَفِّق لطاعتهِ مَنْ أحبَّ من خَلْقهِ، فيكرمهُ بها في الدنيا، ويهيىء له الكرامةَ والثوابَ في الآخرة، ويخذُل مَنْ يشاء خِذلانه من خلقهِ عن طاعتهِ، فَيُهينهُ بمعصيتهِ في الدنيا، ويخزيه بعقوبته عليها في الآخرة.

ثم قال جلّ ثناؤه: «فأنْذَرْتُكُمْ ناراً تَلَظَّى»، يقول تعالى ذِكْرُه: فأنذرتكم أيهـا الناسُ ناراً تتوهَّجُ وهي نارُ جهنمَ، يقول: احذروا أنْ تَعْصُوا رَبَّكم في الدنيا، وتكفروا به فتَصْلَونها في الآخرة. وقيل: تَلَظَّى، وإنما هي تَتَلَظَّى، وهي في موضع رفعٍ لأنه فعل مستقبل، ولو كان فعلاً ماضياً لقيل: فأنذرتكم نارا تلظتْ.

وقوله: «لا يَصْلاها إلَّا الأشْقَى»، يقول جل ثناؤه: لا يدخلها فَيَصْلَى بسعيرِهـا إلا الأشقى «الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى»، يقول: الذي كذَّبَ بآياتِ رَبِّه،

وأعرضَ عنها، ولم يصدِّقْ بها.

وقوله: «وَسَيُجَنَّبُها الأتقى»، يقول: وسيوقَّى صِلِيَّ النارِ التي تلظَّى التقيُّ.

وقوله: «الَّذي يُؤْتِي مالَهُ يَتزكَّى»، يقول: الذي يعطي مالَهُ في الدنيا في حقوقِ اللهِ التي ألزمَهُ إياها «يتزكى»، يعني: يتطهر بإعطائهِ ذلكَ من ذنوبهِ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾

كان بعض أهل العربية[1] يوجِّهُ تأويلَ ذلك إلى: وما لأحدٍ من خَلْقِ اللهِ عندَ هذا الذي يُؤتي مالَهُ في سبيلِ الله يتزكى «مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى»، يعني: من يدٍ يكافئهُ عليها، يقول: ليس ينفق ما ينفق من ذلك، ويُعْطِي ما يعطي مجازاةَ إنسانٍ يجازيهِ على يدٍ له عنده، ولا مكافأةً له على نعمةٍ سَلَفَتْ منه إليه أنعمَها عليه، ولكن يؤتيه في حقوقِ الله ابتغاءَ وجهِ الله وإلا في هذا الموضع بمعنى لكن. وقال: يجوز أن يكون بفعل في المكافأة مستقبلاً، فيكون معناه: ولم يُرِدْ بما أنفقَ مكافأة من أحدٍ ويكون موقع اللام التي في أحد في الهاء التي خفضتهـا عنـده، فكأنكَ قلت: وما له عند أحدٍ فيما أنفقَ من نعمةٍ يلتمسُ ثوابَها، قال: وقد تضعُ العربُ الحرفَ في غير موضعه إذا كان معروفاً، وهذا الذي قاله الذي حكينا قولَهُ من أهلِ العربية، وزَعم أنه مما يجوز هو الصحيحُ الذي جاءتْ به الآثارُ عن أهلِ التأويلِ، وقالوا: نزلت في أبي بكرٍ بعِتْقه مَنْ أعتقَ.

---

(١) هو أبو عبيدة في «مجاز القرآن»: ٢/٣٠٦.

وقـولـه: «وَلَسَوْفَ يَرْضَى» يقول: ولسوفَ يرضى هذا المؤتِي مالَهُ في حقوقِ الله عزّ وجلّ، يتزكّى بما يُثِيبهُ اللهُ في الآخرةِ عوضاً مما آتى في الدنيا في سبيله إذا لقي رَبَّهُ تبارك وتعالى.

سورة الضحى

بسم الله الرحمن الرحيم

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالضُّحَى ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ۝٨﴾

أقسم رَبُّنا جلَّ ثناؤه بالضحى، وهو النهارُ كله، وأحسبُ أنه من قولهم: ضَحى فلانٌ للشمسِ: إذا ظهرَ، ومنه قوله: «وأنَّكَ لا تَظْمأُ فِيها ولا تَضْحَى» [طه: ١١٩]: أي لا يصيبُكَ فيها الشمسُ.

وقوله: «والليل إذا سَجَى»، معناه: والليلِ إذا سكنَ بأهلِهِ، وثبتَ بظلامِهِ، كما يقال: بحرٌ سَاجٍ: إذا كان ساكناً.

وقوله: «ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ ومَا قَلى» وهذا جوابُ القسم، ومعناه: ما تركك يا محمدُ رَبُّكَ وما أبغضَكَ، وقيل: «ومَا قَلى» ومعناه: وما قلاكَ، اكتفاءً بفهمِ السامعِ لمعناه، إذ كان قد تَقَدَّمَ ذلك قوله: «ما وَدَّعَكَ» فعُرفَ بذلك أنَّ المخاطَبَ به نبيُّ الله ﷺ.

وذُكر أنَّ هذه السورةَ نزلتْ على رسولِ الله ﷺ تكذيباً من اللهِ قريشاً في

قِيلِهم لرسولِ الله لما أبطأ عليه الوحيُ، قد ودَّعَ محمداً ربُّه وقَلاهُ[1].

وقوله: «وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولى»، يقول تعالى ذِكْرُه: وللدارُ الآخرةُ، وما أعدَّ اللهُ لكَ فيها خيرٌ لك من الدار الدنيا وما فيها، يقول: فلا تحزنْ على ما فاتكَ منها، فإنَّ الذي لك عندَ اللهِ خيرٌ لكَ منها.

وقوله: «وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَترْضَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولسوفَ يُعطيكَ يا محمدُ رَبُّكَ في الآخرةِ من فواضلِ نِعَمه حتى ترضى.

وقوله: «أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى»، يقول تعالى ذِكْرُه مُعَدِّداً على نبيهِ محمدٍ ﷺ نِعَمَهُ عنده، ومُذَكِّرَهُ آلاءَهُ قِبَلَهُ: ألم يجدك يا محمدُ رَبُّكَ يتيماً فآوى، يقول: فجعلَ لكَ مأوى تأوي إليه، ومنزلاً تنزلُه «وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى» ووجدكَ على غيرِ الذي أنتَ عليه اليوم.

وقوله: «وَوَجَدَكَ عائِلاً فأغْنَى»، يقول: ووجدكَ فقيراً فأغناكَ، يقال منه: عالَ فلانٌ يَعيلُ عَيْلَةً، وذلك إذا افتقر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «فأمَّا اليَتِيمَ» يا محمدُ «فَلا تَقْهَرْ»، يقول: فلا تَظْلِمْهُ، فتذهبَ بحقِّه استضعافاً منكَ له.

وقوله: «وأمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ»، يقول: وأما مَنْ سألكَ من ذي حاجةٍ فلا تنهره، ولكنْ أطعمه واقضِ له حاجتَهُ «وأمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ»، يقول: فاذْكُرْهُ.

(١) حديث جندب بن عبدالله البجلي الذي ساقه المؤلف، وهو في البخاري (٤٩٥٠) و(٤٩٥١).

سُورَةُ الشَّرْح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ، مذكِّرَهُ آلاءه عنده، وإحسانَه إليه، حاضاً له بذلك على شكرِهِ، على ما أنعمَ عليه ليستوجبَ بذلك المزيدَ منه: «أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ» يا محمدُ للهدى والإيمانِ بالله ومعرفةِ الحقِّ «صَدْرَكَ» فَنُلَيِّن لكَ قلبكَ، ونجعلهُ وعاءً للحكمةِ «وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ»، يقول: وغفرنا لك ما سلفَ من ذنوبكَ، وحَطَطْنَا عنكَ ثقلَ أيامِ الجاهليةِ التي كنتَ فيها، «الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْـرَكَ»، يقول: الذي أثقلَ ظهركَ فأوهنه، «وَوَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ»، قال: ذَنْبَكَ الذي أنقضَ ظهركَ: أثقلَ ظهرَكَ، ووضعناهُ عنكَ، وخفَّفنا عنك ما أثقلَ ظهرَكَ.

وقولـه: «وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ»، يقول: ورفعنا لكَ ذِكْرَكَ، فلا أُذْكَرُ إلا ذُكِرْتَ معي، وذلك قول: «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

وقوله: «فَإِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً. إِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه

محمدٍ ﷺ، فإنَّ مع الشدّةِ التي أنتَ فيها من جهادِ هؤلاءِ المشركينَ، ومن أوَّلِه ما أنتَ بسبيلِه رجاءً وفرجاً بأنْ يُظْفِرَكَ بهم، حتى ينقادوا للحقِّ الذي جِئْتَهُمْ به طوعاً وكَرهاً.

وقوله: «فَإِذَا فَرَغْتَ فانْصَبْ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويلِ ذلك، فقال بعضهم: معناه: فإذا فرَغْتَ من صلاتكَ فانصبْ إلى رَبِّكَ في الدعاء، وسَلْهُ حاجاتك.

وقال آخرون: بل معنى ذلك «فإذَا فَرَغْتَ» من جهادِ عَدُوِّكَ «فانْصَبْ» في عبادةِ ربك.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: فإذا فرغتَ من أمرِ دُنياكَ، فانصبْ في عبادةِ رَبِّكَ.

وأوْلى الأقوال في ذلك بالصوابِ قولُ مَنْ قال: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه أمرَ نبيه أنْ يجعلَ فراغَهُ من كلِّ ما كان به مشتغلاً من أمرِ دنياه وآخرته، مما أدَّى له الشغل به، وأمره بالشغلِ به إلى النَّصَبِ في عبادته، والاشتغالِ فيما قرَّبَهُ إليه، ومسألته حاجاتِه، ولم يخصصْ بذلك حالاً من أحوالِ فراغهِ دونَ حالٍ، فسواء كلِّ أحوالِ فراغهِ من صلاةٍ كان فراغُه، أو جهادٍ، أو أمرِ دنيا كان به مشتغلاً لعمومِ الشرطِ في ذلك من غيرِ خصوصِ حالِ فراغٍ دونَ حالٍ أخرى.

وقوله: «وَإلى رَبِّكَ فارْغَبْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإلى رَبِّكَ يا محمدُ فاجعلْ رغبتكَ دونَ مَنْ سواه من خَلْقهِ، إذْ كان هؤلاء المشركونَ من قومكَ قد جعلوا رغبتهم في حاجاتهم إلى الآلهةِ والأندادِ.

سُورَةُ التِّينِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾

قولـه: «وَالتِّين وَالزَّيْتُونِ» عَنَى بالتين: التين الذي يُؤكل، والزيتون: الزيتون الذي يُعْصَرُ منه الزَيتُ.

وقوله: «طور سينين»: جبلٌ معروفٌ، لأنَّ الطورَ هو الجبلُ ذُو النباتِ، فإضافته إلى سينين تعريفٌ له.

وقـوله: «وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ»، يقول: وهذا البلدِ الآمنِ من أعدائهِ أنْ يحاربوا أهلَهُ، أو يَغْزُوهم. وقيل: الأمينُ، ومعناه: الأمنُ، وعَنَى به: مكة.

وقوله: «لَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ»، وهذا جوابُ القَسَمِ، يقول تعالى ذِكْرُه: والتينِ والزيتونِ لقد خلقنا الإنسانَ في أحسنِ تقويمٍ. ومعنى ذلك: لقد خلقنا الإنسانَ في أحسنِ صورةٍ وأعْدَلِها؛ لأن قوله: «أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» إنما هو نعتٌ لمحذوفٍ، وهو في تقويمٍ أحسنِ تقويم، فكأنه قيل: لقد خلقناهُ في تقويمٍ أحسنِ تقويم.

وقولـه: «ثُمَّ رَدَدْنـاهُ أَسْفَلَ سافِلينَ»، اختلف أهلُ التأويلِ في تأويلِ ذلك، فقال بعضُهم: معنى ذلك: ثم رَدَدْنَاهُ إلى أرذلِ العمر.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك عندي بالصحةِ وأشبهها بتأويلِ الآيةِ قولُ مَنْ قال: معنـاه: ثم رَدَدْنـاهُ إلى أرذلِ العمرِ، إلى عمرِ الخَرْفَى، الذين ذهبتْ عقولُهم من الهرَمِ والكِبَرِ، فهو في أسفلِ مَنْ سَفَلَ في إدبارِ العمر، وذهابِ العقل.

وإنما قلنا: هذا القولُ أوْلى بالصوابِ في ذلك، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه أخبرَ عن خَلْقهِ ابن آدم، وتصريفه في الأحوالِ احتجاجاً بذلك على مُنكري قُدْرتهِ على البعثِ بعد الموتِ. ألا ترى أنه يقول: «فَمَا يُكَذِّبُك بَعْدُ بالدِّينِ»، يعني: بعد هذه الحُجَجِ. ومحالٌ أن يحتجَّ على قومٍ كانوا مُنكرينَ معنىً من المعاني بما كانوا له مُنكرينَ، وإنما الحجةُ على كلِّ قومٍ بما لا يقدرونَ على دفعه، مما يعاينونَهُ ويحسُّونَهُ، أو يُقِرُّونَ به، وإنْ لم يكونوا له مُحسِّين.

وإذْ كان ذلك كذلك، وكان القوم للنار التي كان الله يَتَوَعَّدُهم بها في الآخـرةِ مُنكـرينَ، وكـانـوا لأهـلِ الهـرَمِ والخَرَفِ من بعدِ الشبابِ والجَلَدِ شاهدينَ، علم أنه إنما احتجَّ عليهم بما كانوا له مُعاينينَ من تصريفهِ خَلْقَهُ، ونقله إياهم من حال التقويمِ الحسنِ والشبابِ والجَلَدِ، إلى الهرَمِ والضعفِ وفناءِ العمر، وحدوثِ الخَرَفِ.

وقوله: «إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ»، معناه: ثم رَدَدْنَاهُ إلى أرذلِ العمرِ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ في حالِ صِحَّتِهم وشبابهم، فلهم أجرٌ غيرُ ممنونٍ بعد هرمهم، كهيئةِ ما كان لهم من ذلك على أعمالِهم في حالِ ما كانوا يعملونَ، وهم أقوياء على العمل.

وإنما قلنا ذلك لما وصفنا من الدلالة على صحةِ القولِ بأنَّ تأويلَ قوله: «ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ» إلى أرذلِ العمر.

وقوله: «فلهم أجرٌ غير ممنون»، معناه: فلهم أجرٌ غيرُ منقوصٍ، كما كان له أيامَ صحتهِ وشبابهِ، وهو عندي من قولهم: حبل مَنِين: إذا كان ضعيفاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾

قوله: «فما يُكَذِّبُكَ بَعْدُ»، معنى «ما» هنا بمعنى «مَنْ»؛ فتأويلُ الكلام: فَمَنْ يُكَذِّبُكَ يا محمدُ بعد الذي جاءك من هذا البيانِ من الله بالدين، يعني: بطاعةِ الله، ومجازاته العبادَ على أعمالهم، وقد تأوَّلَ ذلك بعضُ أهلِ العربية بمعنى: فما الذي يكذِّبُكَ بأنَّ الناسَ يُدانونَ بأعمالهم، وكأنه قال: فمن يقدر على تكذيبكَ بالثوابِ والعقابِ بعد ما تَبَيَّنَ له خلقنا الإنسانَ على ما وصفنا.

واختلفوا في معنى قوله: «بالدينِ»، فقال بعضهم: بالحساب.

وقال آخرون: معناه: بحكمِ الله.

وأولى القولين في ذلك بالصوابِ قولُ مَنْ قال: الدين في هذا الموضع: الجزاءُ والحسابُ، وذلك أن أحد معاني الدين في كلام العرب: الجزاء والحساب؛ ومنه قولهم: كما تدين تُدان، ولا أعرفُ من معاني الدين الحكم في كلامهم، إلا أنْ يكون مراداً بذلك: فما يكذِّبُكَ بعدُ بأمرِ الله الذي حكمَ به عليكَ أنْ تُطِيعَهُ فيه، فيكون ذلك.

وقوله: «أَلَيْسَ اللهُ بأَحْكَمِ الْحاكِمِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أليسَ الله يا محمدُ بأحكمِ مَنْ حكمَ في أحكامه، وفصل في قضائه بين عباده[1]؟

---

(١) وقال ابن كثير: «أمَا وهو أحكمُ الحاكمين الذي لا يجورُ ولا يظلم أحداً، ومن عدله أن يقيم القيامة، فينتصف للمظلوم في الدنيا ممن ظلمه؟».

سُورَةُ العَلَق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾

يعني جلَّ ثناؤه بقوله: «اقْرأْ باسْمِ رَبِّكَ»، محمداً ﷺ، يقول: اقرأ يا محمدُ بذكرِ رَبِّكَ «الَّذي خلَقَ»، ثم بَيَّنَ الذي خلقَ فقال: «خَلَقَ الإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ»، يعني: من الدم، وقال: من علق؛ والمراد به من علقةٍ، لأنه ذهبَ إلى الجمعِ كما يقال: شجرةٌ وشجر، وقصَبةٌ وقَصَبٌ، وكذلك علقةٌ وعَلَقٌ. وإنما قال: من علق والإنسان في لفظ واحد، لأنه في معنى جمع، وإن كان في لفظٍ واحد، فلذلك قيل: من عَلَق.

وقوله: «اقْرأْ وَربُّكَ الأكْرَمُ»، يقول: اقرأْ يا محمدُ وربُّكَ الأكرمُ «الَّذي عَلَّمَ بالقَلَمِ» خَلْقَهُ للكتابةِ والخط.

وقيل: إنَّ هذه أوّلُ سورةٍ نزلتْ في القرآنِ على رسولِ الله ﷺ.

عن عائشة أنها قالت: «كان أوّل ما ابتُدِئَ به رسولُ الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقةُ، كانت تجيءُ مثل فَلَقِ الصبح، ثم حُبِّبَ إليه الخلاءُ، فكان بغارِ حراء يتحنَّث فيه الليالي ذوات العدد، قبل أنْ يرجعَ إلى أهلهِ، فيتزوَّد لمثلها،

حتى فَجَأَهُ الحقُّ، فأتاه، فقال: يا محمدُ أنتَ رسولُ الله، قالَ رسولُ الله: «فَجَثَـوْتُ لِرُكْبَتيَّ وأنـا قائمٌ، ثُمَّ رَجَعْتُ تَرْجُفُ بَوادِري، ثُمَّ دَخَلْتُ على خَديجَـةَ، فَقُلْتُ: زَمِّلُوني زَمِّلُوني، حتى ذَهَبَ عنِّي الرَّوْعُ، ثُمَّ أتاني فقالَ يا مُحَمَّدُ أنا جِبْريلُ وأنْتَ رَسُولُ اللهِ، قالَ: فَلَقَدْ هَمَمْتُ أنْ أطْرَحَ نَفْسِي مِنْ حالِقٍ [مِنْ جَبَلٍ» فَتَمَثَّلَ إليَّ حِينَ هَمَمْتُ بذلكَ، فَقالَ يا مُحَمَّدُ أنا جِبْرِيلُ وأنْتَ رَسُولُ اللهِ، ثُمَّ قالَ: اقْرأْ، قلْتُ: ما أقْرأُ؟ قال: فأخَذَني فَغَطَّني ثَلاثَ مَرَّاتٍ حتى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدُ، ثُمَّ قالَ: «اقْرأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ» فَقَرأْتُ، فأتَيْتُ خَديجَـةَ، فَقلْتُ: لَقَدْ أشْفَقْتُ عَلى نَفْسِي فأخْبَرْتُها خَبري، فَقالَتْ: أبْشِرْ، فَوَاللهِ لا يُخْزيكَ اللهُ أبَداً، وَوَاللهِ إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتُؤَدِّي الأمانَةَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَقْري الضَّيْفَ، وتُعِينُ على نَوائِبِ الْحَقِّ، ثُمَّ انْطَلَقَتْ بي إلى وَرَقَةَ بن نَوْفَلِ بن أسَدٍ، قالَتْ: اسمَعْ مِنِ ابْنِ أخِيكَ، فَسألَنِي فأخْبَرْتُهُ خَبري، فَقالَ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذي أُنْزِلَ عَلى مُوسَى ﷺ، لَيْتَني فِيها جَذَعٌ[1]، لَيْتَنِي أكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، قُلْتُ: أَوَ مُخْرِجيَّ هُمْ؟ قال: نَعَمْ إنَّـهُ لَمْ يَجِئْ رَجُـلٌ قَطُّ بِمَا جِئْتَ بِهِ، إلَّا عُودِيَ، وَلَئِنْ أدْرَكَني يَوْمُكَ أنْصُرْكَ نَصْراً مُؤَزَّراً»[2].

وقـوله: «عَلَّمَ الإنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: علَّمَ الإنسانَ الخطَّ بالقلمِ، ولم يكن يَعْلَمُهُ، مع أشياءَ غيرِ ذلك مما علمه ولم يكن يعلمه.

وقوله: «كَلَّا»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما هكذا ينبغي أنْ يكونَ الإنسانُ أن يُنْعِم عليه ربُّـه بتسـويتـهِ خَلْقَهُ وتعليمه ما لم يكن يعلم، وإنعامه بما لا كُفْءَ له، ثم يكفر بربه الذي فعل به ذلك، ويطغى عليه أنْ رآه استغنى.

---

(١) الجذع: الصغير من البهائم، كأنه تمنى أن يكون عند ظهور الدعاء إلى الإسلام شاباً ليكون أمكنَ لنصرهِ.

(٢) انـظر صحيح البخـاري (٣) و(٣٣٩٢) و(٤٩٥٣) و(٤٩٥٥) و(٤٩٥٦) و(٤٩٥٧) و(٦٩٨٢) وهو عنده بألفاظ مقاربة.

وقوله: «إنَّ الإنْسانَ لَيَطْغى. أنْ رآهُ اسْتَغْنَى»، يقول: إنَّ الإنسانَ ليتجاوزُ حَدَّهُ، ويستكبر على رَبِّه فيكفر به، لأنْ رأى نفسَهُ استغنت.

وقوله: «إنَّ إلى رَبِّكَ الرُّجْعَى»، يقول: إلى رَبِّكَ يا محمدُ مَرْجِعه، فذائقٌ من أليمِ عقابهِ مالا قِبَلَ له به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾

ذُكر أنَّ هذه الآية وما بعدها نزلتْ في أبي جهل بن هشام، وذلك أنه قالَ فيما بلغنا: لئن رأيتُ محمداً يصلي لأطأنَّ رَقَبَتَهُ، وكان فيما ذُكر قد نهى رسولَ الله ﷺ أنْ يصلي، فقال الله لنبيه محمدٍ ﷺ: أرأيتَ يا محمدُ أبا جهلٍ الذي يَنْهاكَ أنْ تُصلي عند المقامِ، وهو مُعْرِضٌ عن الحقِّ، مكذِّبٌ به. يُعجِّبُ جلَّ ثناؤه نبيَّهُ والمؤمنينَ من جهلِ أبي جهلٍ، وجراءته على رَبِّه في نهيه محمداً عن الصلاةِ لربه، وهو مع أياديه عنده مُكَذِّبٌ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢﴾

يقول تعالى ذكره: «أرأَيْتَ إنْ كانَ» محمدٌ «عَلى الهُدَى»، يعني: على استقامةٍ وسَدَادٍ في صلاتهِ لربه «أوْ أمَرَ بالتقْوَى» أو أمرَ محمدٌ هذا الذي يَنْهى عن الصلاةِ باتقاءِ الله، وخوف عقابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «أرأَيْتَ إنْ كَذَّبَ» أبو جهل بالحقِّ الذي بعثَ به محمداً «وَتَوَلَّى»، يقول: وأدبرَ عنه، فلم يصدِّقْ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ۝١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ألم يعلم أبو جهل إذ يَنْهى محمداً عن عبادةِ ربه، والصلاةِ له، بأنَّ اللهَ يراهُ فيخاف سطوته وعقابه. وقيل: أرأيتَ الذي ينهى عبداً إذا صلى أرأيتَ إنْ كان على الهدى، فكررت أرأيتَ مرات ثلاثاً على البدل. والمعنى: أرأيتَ الذي ينهى عبداً إذا صلى، وهو مكذبٌ مُتَولٍّ عن رَبِّه، ألم يعلم بأن الله يراه.

وقوله: «كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ»، يقول: ليسَ كما قالَ: إنه يطأُ عنقَ محمدٍ، يقول: لا يقدرُ على ذلك، ولا يصلُ إليه.

وقوله: «لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ»، يقول: لئنْ لم ينته أبو جهل عن محمدٍ «لَنَسْفَعاً بالنَّاصِيَةِ»، يقول: لنأخذنَّ بمقدَّمِ رأسِهِ، فَلَنَضُمَّنَّهُ ولنُذِلَّنَّهُ؛ يقال منه: سفعت بيده: إذا أخذت بيده. وقيل: إنما قيل: «لَنَسْفَعاً بالنَّاصِيَةِ»، والمعنى: لَنُسَوِّدَنَّ وَجْهَهُ، فاكتفى بذكرِ الناصيةِ من الوجهِ كله، إذْ كانت الناصيةُ في مقدم الوجه. وقيل: معنى ذلك: لنأخذنَّ بناصيتهِ إلى النارِ، كما قال: «فَيُؤْخَذُ بالنَّواصِي والأقْدامِ».

وقوله: «ناصِيَةٍ كاذِبَةٍ خاطِئَةٍ» فخفض ناصية ردّاً على الناصيةِ الأولى بالتكريرِ، ووصفَ الناصيةَ بالكذبِ والخطيئةِ، والمعنى لصاحبها.

وقوله: «فَلْيَدْعُ نادِيَهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فَلْيَدْعُ أبو جهل أهلَ مجلسهِ وأنصارِه، من عشيرتهِ وقومهِ، والنادي: هو المجلس.

وإنما قيل ذلك فيما بلغنا، لأنَّ أبا جهل لما نهى النبيَّ ﷺ عن الصلاةِ

عند المقامِ انتهره رسولُ الله ﷺ، وأغلظَ له، فقال أبو جهل: عَلاَمَ يتوعَّدُني محمدٌ وأنا أكثرُ أهلِ الوادي نادياً، فقال الله جلّ ثناؤه: «لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بالنَّاصِيَةِ» فَلْيَدْعُ حينئذٍ نادِيَهُ، فإنه إنْ دعا ناديه دَعَوْنَا الزبانيةَ، وهم الملائكة[1].

وقوله: «كَلاَّ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ليس الأمرُ كما يقول أبو جهل، إذ ينهى محمداً عن عبادةِ رَبِّه، والصلاة له «لاتُطِعْهُ»، يقول جلّ ثناؤه لنبيه محمدٍ ﷺ: لا تُطِعْ أبا جهلٍ فيما أمركَ به من تركِ الصلاةِ لربِّكَ «وَاسْجُدْ» لِرَبِّكَ «وَاقْتَرِبْ» منه بالتَّحَبُّبِ إليه بطاعته، فإنَّ أبا جهلٍ لن يقدرَ على ضرِّكَ، ونحنُ نمنعكَ منه.

(١) «وهم الملائكة» مستخلصة من الآثار التي ذكرها، وكأن في الكتاب نقصاً أو سقطاً، وفي «زاد المسير»: قال عطاء: هم الملائكة الغِلاظ الشِداد. وقال مقاتل: هم خزنة جهنم (١٧٩/٩).

سُورَةُ القَدْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ۝٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّا أنزلنا هذا القرآنَ جملةً واحدةً إلى السماءِ الدنيا في ليلة القَدْرِ، وهي ليلةُ الحُكْم التي يقضي اللهُ فيها قضاءَ السنةِ، وهو مصدرٌ من قولهم: قَدَرَ اللهُ عليَّ هذا الأمرَ، فهو يَقْدُر قَدْراً.

وقوله: «وَمَا أَدْرَاكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ»، يقول: وما أشعركَ يا محمدُ أيّ شيءٍ ليلة القدر. «ليلة القدر خير من ألفِ شهرٍ»، يعني: عملٌ في ليلةِ القدرِ خيرٌ من عملِ ألفِ شهرٍ ليس فيها ليلة القدر.

وقوله: «تَنَزَّلُ المَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيها بإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ»، معناه: تَنَزَّلُ الملائكةُ وجبريلُ معهم، وهو الروح، في ليلةِ القدر «بإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ»، يعني: بإذنِ رَبِّهم من كلِّ أمرٍ قضاهُ اللهُ في تلك السنة، من رزقٍ وأجلٍ وغيرِ ذلك.

وقوله: «سَلامٌ هِيَ حتى مَطْلَعِ الْفَجْرِ»: سلام ليلة القدر من الشرِّ كُلِّه من أوّلها إلى طلوعِ الفجر من ليلها.

سورة البينة

بسم الله الرحمن الرحيم

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤﴾

قوله: «لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَالمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حتى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ» معنى ذلك: لم يكنِ الذينَ كفروا من أهلِ الكتابِ والمشركينَ مفترقينَ في أمرِ محمدٍ، حتى تأتيهم البيِّنةُ، وهي إرسالُ اللهِ إياهُ رسولاً إلى خَلْقِه، «رسولٌ من الله».

وقوله: «مُنْفَكينَ» في هذا الموضع عندي من انفكاكِ الشيئين أحدهما من الآخر، ولذلك صَلُح بغيرِ خبرٍ، ولو كان بمعنى: ما زالَ، احتاج إلى خبرٍ يكونُ تماماً له، واستؤنف قوله: «رَسُولٌ مِنَ اللهِ» هي نكرةٌ على البيِّنةِ، وهي مُعَرَّفة، كما قيل: «ذُو الْعَرْشِ المَجيدُ، فَعَّالٌ»، فقال: حتى يأتيهم بيانُ أمرِ محمدٍ أنه رسولُ الله ببعثةِ اللهِ إياهُ إليهم، ثم ترجمَ عن البيِّنةِ فقال: تلك البينةُ «رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً»، يقول: يقرأُ صحفاً مطهرةً من الباطلِ «فِيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ»، يقول: في الصحفِ المطهرةِ كتبٌ من اللهِ قيمةٌ عادلةٌ مستقيمةٌ، ليس

فيها خطأً، لأنها من عندِ الله.

وقـوله: «وَمَا تَفَرقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ البَيِّنَةُ»، يقول: وما تفرَّق اليهودُ والنصارى في أمرِ محمدٍ ﷺ، فكذَّبُوا به، إلا من بعدِ ما جاءتهم البينـةُ، يعني: من بعـدِ ما جاءتْ هؤلاء اليهود والنصارى البينةُ، يعني: أنَّ بيانَ أمرِ محمدٍ أنه رسولُ بإرسالِ اللهِ إياهُ إلى خَلْقِه، يقول: فلما بَعَثَهُ اللهُ تَفَرَّقُوا فيه، فكذَّبَ به بعضُهم، وآمنَ بعضُهم، وقد كانوا قبل أن يُبعثَ غير مفترقين فيه أنه نبيٌّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥

يقول تعالى ذكره: وما أمرَ اللهُ هؤلاء اليهود والنصارى الذين هم أهلُ الكتابِ إلا أنْ يعبدُوا اللهَ مُخلصينَ له الدينَ، يقول: مُفْردينَ له الطاعةَ، لا يخلطونَ طاعتَهم رَبَّهم بشِرْكٍ، فأشركتِ اليهودُ بربِّها بقولهم إنَّ عُزَيراً ابنُ الله، والنصارى بقولهم في المسيح مثل ذلك، وجحودِهم نبوَّةَ محمدٍ ﷺ.

وقوله: «حُنَفاءَ» قد مضى بياننا في معنى الحنيفية مما أغنى عن إعادته[1].

وقوله: «وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكاةَ»، يقول: وليقيموا الصلاةَ، وليؤتوا الزكاةَ.

وقوله: «وَذَلكَ دِينُ القَيمَةِ»، يعني: أنَّ هذا الذي ذكر أنه أمرَ به هؤلاءِ الذينَ كَفَرُوا من أهلِ الكتابِ والمشركينَ هو الدينُ القيمة، ويعني بالقيِّمة: المستقيمة العادلة، وأضيفَ الدينُ إلى القيِّمةِ، والدينُ هو القَيِّم، وهو من نَعْتِه لاختلافِ لفظيهما.

(١) انظر البقرة: ١٣٥.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين كفروا باللهِ ورسولِه محمدٍ ﷺ، فجحدوا نُبُوَّتَهُ من اليهودِ والنصارى والمشركينَ جميعهم «فِي نارِ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها»، يقول: ماكثينَ لابثينَ فيها «أبداً» لا يُخْرَجُونَ منها، ولا يموتونَ فيها «أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ البَرِيَّةِ»، يقول جلّ ثناؤه: هؤلاء الذين كفروا من أهلِ الكتابِ والمشركينَ، هُمْ شَرُّ مَنْ بَرَأَهُ اللهُ وخَلَقَهُ.

وقوله: «إنَّ الَّذِينَ آمنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ البَرِيَّةِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين آمنوا باللهِ ورسولِه محمدٍ، وعبدوا اللهَ مُخلصينَ له الدِّينَ حنفاءَ، وأقاموا الصلاةَ، وآتوا الزكاةَ، وأطاعوا اللهَ فيما أمرَ ونَهى «أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ البَرِيَّةِ»، يقول: مَنْ فعل ذلك من الناسِ فهم خيرُ البرية[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ثوابُ هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ عند رَبِّهم يومَ القيامة «جَنَّاتُ عَدْنٍ»، يعني: بساتينَ إقامَةٍ لا ظعنَ فيها، تجري من تحتِ أشجارها الأنهارُ «خالِدِينَ فِيها أبداً»، يقول: ماكثينَ فيها أبداً، لا يخرجونَ عنها، ولا يموتونَ فيها «رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ» بما أطاعوه في الدنيا، وعملوا لخلاصِهم من عقابِهِ في ذلك «وَرَضُوا عَنْهُ» بما أعطاهم من الثوابِ يومئذٍ على

(١) وانظر حديث أبي هريرة في صحيح مسلم (١٥٣) وحديث أبي موسى الأشعري عنده أيضاً (١٥٤).

طاعتهم رَبّهم في الدنيا، وجزاهم عليها من الكرامة.

وقوله: «ذَلكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الخيرُ الذي وَصَفْتُه، ووَعَدْتُه الذينَ آمنوا وعملوا الصالحاتِ يومَ القيامة، لمنْ خَشِيَ رَبَّهُ: يقول: لمنْ خافَ الله في الدنيا في سِرِّه وعلانيته، فاتقاه بأداءِ فرائضِه، واجتنابِ معاصيه.

سُورَةُ الزَّلزَلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ جلالُهُ وتقدَّستْ أسْماؤُه: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «إذَا زُلْزِلَتِ الأرْضُ» لقيامِ الساعةِ «زِلْزَالَهَا» فَرُجَّتْ رَجّاً.

وقوله: «وأخْرَجَتِ الأرْضُ أثْقالَهَا»، يقول: وأخرجتِ الأرضُ مافي بطنها من الموتى أحياء، والميتُ في بطنِ الأرض ثقلٌ لها، وهو فوقَ ظهرها حياً ثقلٌ عليها.

وقوله: «وَقالَ الإنْسانُ مالَهَا»، يقول تعالى ذِكْرُه: وقال الناسُ: إذا زُلزلتِ الأرضُ لقيامِ الساعة، ما للأرضِ وما قصتها.

«يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أخْبارَها»، يعني: يومئذٍ تبين الأرضُ أخبارها بالزلزلةِ والرجَّةِ، وإخراجِ الموتى من بطونها إلى ظهورها، بوحيِ اللهِ إليها وإذنِهِ لها بذلك، وذلك معنى قوله: «بأنَّ رَبَّكَ أوْحَى لَهَا».

وقوله: «يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً»، قيل: إنَّ معنى هذه الكلمة التأخير بعد «لِيُرَوْا أعمالَهُمْ» قالوا: ووجهُ الكلام: يومئذٍ تحدثُ أخبارها بأنَّ رَبَّكَ أوحى لها، لِيُرَوْا أعمالَهم يومئذٍ يصدرُ الناس أشتاتاً. قالوا: ولكنه اعترضَ بين ذلك بهذه الكلمة. ومعنى قوله: «يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً» عن موقفِ الحسابِ فِرَقاً متفرقينَ، فآخذ ذاتَ اليمينِ إلى الجنة، وآخذ ذاتَ الشمالِ إلى النار.

وقوله: «لِيُرَوْا أعمالَهُمْ»، يقول: يومئذٍ يصدرُ الناسُ أشتاتاً متفرقينَ عن اليمينِ وعن الشمالِ، ليروا أعمالهم، فيرى المحسنُ في الدنيا المطيعُ لله عَمَلَهُ وما أعدَّ الله له يومئذٍ من الكرامةِ على طاعتهِ إياه كانت في الدنيا، ويرى المسيءُ العاصي لله عَمَلَهُ وجزاءَ عملهِ وما أعدَّ الله له من الهوانِ والخزي في جهنمَ على معصيته إياه كانت في الدنيا، وكفرهِ به.

وقوله: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ»، يقول: فَمَنْ عملَ في الدنيا وزنَ ذرةٍ من خيرٍ، يرى ثوابَهُ هنالك، «وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ»، يقول: ومَنْ كان عَمِلَ في الدنيا وزن ذرَةٍ من شرٍّ يرى جزاءه هنالك، وقيل: ومَنْ يعملْ والخبر عنها في الآخرة، لفهمِ السامعِ معنى ذلك لما قد تَقَدَّمَ من الدليلِ قَبْلُ على أن معناه: فَمَنْ عمل ذلك دلالة قوله: «يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتا لِيُرَوْا أعمالَهُمْ» على ذلك، ولكنْ لما كان مفهوماً معنى الكلام عند السامعينَ، وكان في قولـه: «يَعْمَـلْ» حَثٌّ لأهـلِ الدنيا على العملِ بطاعةِ الله، والزجر عن معاصيه، مع الذي ذكرتُ من دلالةِ الكلامِ قبل ذلك، على أنَّ ذلك مرادٌ به الخبر عن ماضي فعله، وما لهم على ذلك. أخرج الخبر على وجهِ الخبرِ عن مستقبلِ الفعل.

سُورَةُ العَادِيَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وتَقَدَّسَتْ أسْمَاؤُهُ: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾﴾

عَنَى بالعادياتِ ضَبْحاً: الخيل التي تَعْدُو، وهي تُحَمْحِمُ.

وقوله: «فالمُورِيات قَدْحاً»، اختلف أهلُ التأويل، في ذلك، فقال بعضُهم: هي الخيل تُورِي النارَ بحوافرها.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أنَّ الخيلَ هِجْنَ الحربَ بين أصحابهنَّ ورُكْبانهن.

وقال آخرون: بل عُنِي بذلك: الذين يُورون النارَ بعد انصرافِهم من الحرب.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: مَكْرُ الرجال.

وقال آخرون: هي الألسنة.

وقال آخرون: هي الإبلُ حين تسيرُ تَنْسِفُ بمناسمها الحصى.

وأوْلى الأقوال في ذلك بالصوابِ، أن يقال: إن الله تعالى ذِكْرُه أقسم بالمورياتِ التي تُوري النيرانَ قدحاً، فالخيلُ تُوري بحوافرها، والناسُ يُورُونَها بالزَّنْدِ، واللسان مثلاً يوري بالمنطق، والرجالُ يورون بالمكرِ مثلاً، وكذلك الخيلُ تُهَيِّجُ الحربَ بين أهلها: إذا التقت في الحرب، ولم يضع الله دلالةً على أنَّ المرادَ من ذلك بعضٌ دونَ بعض، فكلُّ ما أوْرتِ النارَ قدْحاً، فداخلةٌ فيما أقسمَ به، لعمومِ ذلك بالظاهرِ.

وقوله: «فالمُغِيرَاتِ صُبْحاً»، اختلف أهلُ التأويل في تأويلِ ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: فالمغيراتِ صبحاً على عَدُوِّهَا علانيةً.

وقال آخرون: عُنِي بذلك الإبل حين تدفعُ بركبانها من جمعِ يومِ النحرِ إلى «مِنَى».

وأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ أن يقال: إنَّ الله جلّ ثناؤه أقسمَ بالمُغيراتِ صبحاً، ولم يخصُصْ من ذلك مغيرةً دونَ مغيرةٍ، فكلُّ مغيرةٍ صُبحاً، فداخلةٌ فيما أقسمَ به.

وقوله: «فأَثرنَ بِهِ نَقْعاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: فرفعنَ بالوادي غباراً، والنقع: الغبار.

وقوله: «فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: فوسَطْنَ بركبانهنَّ جمعَ القومِ، يقال: وسطت القوم بالتخفيف، ووسَّطته بالتشديد، وتوسَّطته بمعنى واحد.

وقوله: «إنَّ الإنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ»، يقول: إنَّ الإنسانَ لكفورٌ لِنعمَ رَبِّه. والأرضُ الكَنُودُ: التي لا تُنبتُ شيئاً.

وقوله: «وَإِنَّهُ عَلى ذلكَ لَشَهِيدٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الله على كُنُودِه رَبَّه لشهيدٌ: يعني: لشاهدٌ.

وقوله: «وَإِنَّهُ لِحُبِّ الخَيْرِ لَشَدِيدٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإنَّ الإنسانَ لحبِّ المالِ لشديدٌ.

وقوله: «أفَلا يَعْلَمُ إذَا بُعْثِرَ ما فِي الْقُبُورِ»، يقول: أفلا يعلمُ هذا الإنسانُ الذي هذه صِفَتُه، إذا أُثيرَ ما في القبورِ، وأُخْرِجَ ما فيها من الموتى وبُحث.

وقوله: «وَحُصِّلَ ما فِي الصُّدُورِ»، يقول: ومُيِّزَ وبُيِّنَ، فأبرزَ ما في صدورِ الناسِ من خيرٍ وشرٍّ.

وقوله: «إنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ»، يقول: إنَّ رَبَّهم بأعمالِهم، وما أسَرُّوا في صدورهم وأضمروهُ فيها، وما أعلنوه بجوارحهم منها، عليمٌ لا يَخْفَى عليه منها شيءٌ، وهو مُجَازِيهم على جميعِ ذلك يومئذٍ.

سُورَةُ القَارِعَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «الْقارِعَةُ»: الساعةُ التي يقرعُ قلوبَ الناسِ هَوْلُها، وعظيمُ ما ينزلُ بهم من البلاءِ عندها، وذلك صبيحةٌ لا ليلَ بعدها.

وقوله: «ما الْقارِعَةُ»، يقول تعالى ذِكْرُه معظِّماً شأنَ القيامةِ والساعةِ التي يقرعُ العبادَ هَوْلُها، أيّ شيءٍ القارعة، يعني بذلك: أيّ شيءٍ الساعة التي يقرعُ الخَلْقَ هولُها: أي ما أعظمَها وأفظعَها وأهولَها.

وقوله: «ومَا أدْرَاكَ ما الْقارِعَةُ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وما أشعرَكَ يا محمدُ أيّ شيءٍ القارعة.

وقوله: «يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كالْفَرَاشِ المَبْثُوثِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: القارعةُ يومَ يكونُ الناسُ كالفراشِ، وهو الذي يتساقطُ في النارِ والسِّراجِ، ليس

ببعوضٍ ولا ذبابٍ، ويعني بالمبثوثِ: المُفَرَّقِ.

وقـولـه: «وَتَكُونُ الجِبالُ كالْعِهْنِ المَنْفُوشِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ويومَ تكونُ الجبالُ كالصوفِ المنفوشِ؛ والعِهْنُ: هو الألوانُ من الصوفِ.

وقوله: «فأمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ»، يقول: فأما من ثقُلَتْ موازينُ حسناتِه، يعني بالمـوازين: الوزن، والعربُ تقول: لكَ عندي درهمٌ بميزانِ درهمكَ، ووزنِ درهمكَ، ويقولون: داري بميزانِ داركَ ووزنِ داركَ، يُراد: حذاء داركَ. «فهو في عِيشَة رَاضِيَةٍ»، يقول: في عيشةٍ قد رَضِيَها في الجنة.

وقوله: «وأمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فأُمُّهُ هاوِيَةٌ»، يقول: وأما مَنْ خَفَّ وزنُ حسناتِهِ، فَمَأْوَاهُ ومسكنه الهاويةُ التي يهوي فيها على رأسهِ في جهنم.

وقوله: «ومَا أدْرَاكَ ما هِيَهْ»، يقول جلّ ثناؤه لنبيه محمدٍ ﷺ: وما أشعركَ يا محمدُ ما الهاويةُ، ثم بَيَّنَ ما هيَ، فقال: هي نارٌ حاميةٌ، يعني بالحامية: التي قد حميت من الوقودِ عليها.

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وتَقَدَّسَتْ أسْمَاؤُهُ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ألهاكم أيها الناسُ المباهاةُ بكثرةِ المالِ والعددِ عن طاعةِ ربِّكم، وعمَّا يُنجيكم من سخطهِ عليكم.

وقولـه: «حتى زُرْتُمُ المَقابِرَ»، يعني: حتى صرتم إلى المقابر فدفنتم فيها، وفي هذا دليلٌ على صحةِ القولِ بعذابِ القبر، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه، أخبرَ عن هؤلاء القوم الذين ألهاهم التكاثرُ، أنهم سيعلمونَ ما يَلْقَوْنَ إذا هُمْ زاروا القبورَ وعيداً منه لهم وتَهَدُّداً.

وقوله: «كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ»، يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: كَلَّا: ما هكذا ينبغي أنْ تفعلوا، أن يُلْهِيَكم التكاثرُ.

وقوله: «سَوْفَ تَعْلَمُونَ»، يقول جلّ ثناؤه: سوف تعلمونَ إذا زرتم المقابرَ أيها الذين ألهاهمُ التكاثرُ غبَّ فِعْلِكُم، واشتغالكم بالتكاثرِ في الدنيا عن طاعةِ الله ربكم.

وقوله: «ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ»، يقول: ثم ما هكذا ينبغي أنْ تفعلوا أنْ يُلهيكم التكاثرُ بالأموالِ وكثرة العدد، سوف تعلمونَ إذا زرتم المقابرَ ما تلقونَ إذا أنتم زُرْتُموها من مكروهِ اشتغالِكم عن طاعةِ رَبِّكم بالتكاثر، وكرَّرَ قوله: «كَـلَّا سَوْفَ تَعْلَمُـونَ» مرّتين، لأنَّ العـربَ إذا أرادتِ التغليظَ في التخـويفِ والتهديدِ كَرَّرُوا الكلمةَ مرّتين.

وقوله: «كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما هكذا ينبغي أن تفعلوا أنْ يلهيكم التكاثر أيها الناسُ، لو تعلمونَ أيها الناسُ علماً يقيناً، أنَّ الله باعِثُكم يومَ القيامةِ من بعدِ مماتِكم من قبورِكم ما ألهاكم التكاثرُ عن طاعةِ الله ربكم، ولسارعتم إلى عبادتهِ، والانتهاء إلى أمرِهِ ونهيه، ورفض الدنيا إشفاقاً على أنفسكم من عقوبته.

وقـولـه: «لَتـرَوُنَّ الجَحِيمَ»، معنـاه: لَتـرَوُنَّ أيها المشركونَ جهنمَ يومَ القيامةِ، ثم لَتَرَوُنَّها عياناً لا تغيبونَ عنها.

وقوله: «ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ»، يقول: ثم لَيَسْأَلَنَّكُم الله عزَّ وجلَّ عن النعيمِ الذي كنتم فيه في الدنيا ماذا عملتم فيه، من أينَ وصلتم إليه، وفيم أَصَبْتُموه، وماذا عملتم به.

سُورَةُ العَصْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وتَقَدَّسَتْ أسْمَاؤُهُ: ﴿وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ③﴾

أقسمَ رَبُّنا بالعصرِ، وَالْعَصْر: اسمٌ للدهرِ، وهو العَشِيُّ والليل والنهار، ولم يخصص مما شمله هذا الاسم معنىً دونَ معنى، فكلُّ ما لَزِمَهُ هذا الاسمُ فداخلٌ فيما أقسمَ به جلَّ ثناؤه.

وقوله: «إِنَّ الإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ»، يقول: إنَّ ابنَ آدمَ لفي هلَكةٍ ونقصانٍ، «إِلَّا الذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ»، يقول: إلا الذين صَدَّقُوا الله ووحَّدُوهُ، وأقَرُّوا له بالوحدانيةِ والطاعةِ، وعملوا الصالحاتِ، وأدّوا ما لَزِمَهُمْ من فرائضِه، واجتنبوا ما نهاهم عنه من معاصيهِ، واستثنى الذين آمنوا من الإنسانِ، لأنَّ الإنسانَ بمعنى الجمعِ، لا بمعنى الواحد.

وقوله: «وَتَوَاصَوْا بالحَقِّ»، يقول: وأوصى بعضهم بعضاً بلزومِ العملِ بما أنزلَ الله في كتابهِ من أمرِه واجتنابِ ما نَهى عنه فيه.

وقوله: «وَتَوَاصَوْا بالصبْرِ»، يقول: وأوصى بعضهم بعضاً بالصبرِ على العملِ بطاعةِ الله[1].

---

(١) قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: «لو تدبر الناس هذه السورة لكَفَتْهُمْ، وذلك لما فيها من المراتب التي باستكمالها يحصلُ للشخص غاية كمالهِ: إحداها: معرفة الحق، والثانية، عمله به، والثالثة: تعليمه من لا يحسنه، والرابعة: صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه.

سُورَةُ الهُمَزَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ» الوادي يسيلُ من صديدِ أهلِ النارِ وقَيْحِهم، «لكلّ همزة»، يقول: لكلِّ مغتابٍ للناسِ يغتابُهم ويُغْضِبُهم.

وقوله: «الَّذِي جَمَعَ مالاً وَعَدَّدَهُ»، يقول: الذي جمعَ مالاً وأحصى عَدَدَهُ، ولم يُنْفِقْهُ في سبيلِ الله، ولم يُؤَدِّ حقَّ اللهِ فيه، ولكنه جَمَعَهُ فأوعاهُ وحفظه.

وقوله: «يَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ»، يقول: يحسبُ أنَّ ماله الذي جمعه وأحصاهُ، وبخلَ بإنفاقهِ، مُخَلِّدُهُ في الدنيا، فمزيلٌ عنه الموتَ. وقيل: أخلده، والمعنى: يخلده، كما يقالُ للرجلِ الذي يأتي الأمرَ الذي يكونُ سبباً لهلاكه: عطبَ واللهِ فلانٌ، وهلكَ واللهِ فلانٌ، بمعنى: أنه يعطبُ من فِعلهِ ذلك، ولما يهلك بعدُ، ولم يعطبْ؛ وكالرجلِ يأتي المُوبِقَةَ من الذنوبِ: دخلَ واللهِ فلانٌ النارَ.

وقوله: «كَلَّا»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما ذلكَ كما ظنَّ ليسَ مالُه مُخَلِّدَهُ. ثم أخبرَ جلّ ثناؤه أنه هالكٌ ومعذَّبٌ على أفعالِه ومعاصيهِ التي كان يأتيها في الدنيا، فقال جلّ ثناؤه: «لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ» يقول: ليُقْذَفَنَّ يومَ القيامةِ في الحُطَمةِ، والحُطَمةُ: اسمٌ من أسماءِ النارِ، كما قيل لها: جهنم وسقر ولَظَى، وأحسبها سُمِّيَتْ بذلك لحطمها كُلَّ ما أُلقيَ فيها، كما يقالُ للرجلِ الأكُول: الحطمة.

وقوله: «ومَا أدْرَاكَ ما الْحُطَمَةُ»، يقول: وأيّ شيءٍ أشعركَ يا محمدُ ما الحطمةُ، ثم أخبره عنها ما هيَ، فقال جلّ ثناؤه: هي «نارُ اللهِ المُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلى الأفْئِدَةِ»، يقول: التي يطلعُ ألمها ووهجُهَا القلوبَ.

وقوله: «إنها عَلَيهِمْ مُؤْصَدَة»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الحُطَمةَ التي وصفتُ صِفَتَهـا عليهم، يعني: على هؤلاءِ الهَمَّـازِينَ اللمَّـازين «مُؤْصَـدةٌ»، يعني: مُطْبقةٌ، وهي تهمزُ ولا تهمزُ، وقد قُرئتا جميعاً.

وقوله: «فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ»، اختلفت القَرَأةُ في قراءة ذلك، فقرأته عامةُ قَرَأةِ المـدينـةِ والبصرةِ «فِي عَمَدٍ» بفتحِ العينِ والميمِ، وقرأ ذلك عامة قَرَأة الكوفة: «فِي عُمُدٍ» بضم العينِ والميم. والقولُ في ذلك عندنا أنهما قراءتان معـروفتـان، قد قرأ بكلٍّ واحدةٍ منهما علماءُ من القَرَأة، ولغتان صحيحتان. والعربُ تجمعُ العمودَ: عُمُداً وعَمَداً، بضم الحرفين وفتحهما، وكذلك تفعلُ في جمعِ إهابٍ، تجمعه: أُهُباً بضم الألف والهاء، وأَهَباً بفتحهما، وكذلك القضم، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب.

واختلف أهـلُ التـأويلِ في معنى ذلـك، فقال بعضهم: «إنها عليهم مُؤصدة بعمدٍ ممدّدة» أي مُغْلَقَةٌ مُطْبِقَةٌ عليهم.

وقال آخرون: هي عمد يُعَذَّبُونَ بها.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: إنما دخلوا في عمد، ثم مُدَّتْ عليهم تلك العمد بعماد.

وأولى الأقـوالِ بالصوابِ في ذلك قولُ مَنْ قال: معناه: أنهم يُعَذَّبُونَ بعمدٍ في النارِ، واللهُ أعلمُ كيف تعذيبهُ إياهم بها، ولم يأتنا خبرٌ تقومُ به الحجةُ بصفةِ تَعْذِيبهم بها، ولا وُضِعَ لنا عليها دليلٌ، فندرك به صفةَ ذلك، فلا قولَ فيه، غيرَ الذي قلنا يصحُّ عندنا، والله أعلم.

سُورَةُ الفِيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ألم تَنْظُرْ يا محمدُ بعينِ قلبكَ، فترى بها «كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بأصحَابِ الْفِيلِ» الذينَ قَدِمُوا من اليمن يُريدونَ تخريبَ الكعبةِ من الحَبَشة، ورئيسهم أبرهة الحبشيّ الأشرم «أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ»، يقول: ألم يجعلْ سعيَ الحبشةِ أصحاب الفيلِ في تخريبِ الكعبة «فِي تَضْلِيلٍ»، يعني: في تَضْلِيلِهم عَمَّا أرادوا وحاولوا من تخريبها.

وقوله: «وأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أبابيلَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأرسلَ عليهم رَبُّكَ طيراً متفرِّقةً يتبعُ بعضُها بعضاً من نواحٍ شتى، وهي جماعٌ لا واحدَ لها، مثل الشماطيط والعباديد ونحو ذلك.

وقوله: «تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيل»، يقول تعالى ذِكْرُه: ترمي هذه الطيرُ الأبابيلُ التي أرسلها الله على أصحابِ الفيلِ، بحجارةٍ من سجيل، وقد بيَّنا معنى سِجِّيل في موضعٍ غير هذا[1].

---

(١) هود: ٨٢.

الفيل: ٥

وقوله: «فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مأكولٍ»، يعني تعالى ذِكْرُه: فجعلَ اللهُ أصحابَ الفيلِ كزرعٍ أكلتهُ الدوابُّ فَرَاثَتْهُ، فيبسَ وتفرَّقتْ أجزاؤه، شبَّه تقطُّعَ أوصالهم بالعقوبةِ التي نَزَلَتْ بهم، وتَفَرُّقَ آرابِ[1] أبدانِهم بها، بتفرُّقِ أجزاءِ الرَّوْثِ الذي حدثَ عن أكلِ الزرع.

---

(١) الآراب: الأعضاء، والإرْب: العضو، وجمعه: آراب.

سُورَةُ قُرَيْشٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾

قوله: «لإِيلاف»، هذه اللام بمعنى التَّعَجُّب. ومعنى الكلام: اعْجَبُوا لإيلافِ قريشٍ رحلةَ الشتاءِ والصيفِ، وتركهم عبادةَ ربِّ هذا البيتِ، الذي أطعمهم من جوعٍ، وآمنهم من خوفٍ، فليعبدوا ربَّ هذا البيت، الذي أطعمهم من جوعٍ، وآمنهم من خوف. والعربُ إذا جاءت بهذه اللام، فأدخلوها في الكلام للتعجب اكتفوا بها دليلاً على التعجبِ من إظهارِ الفِعْلِ الذي يجلبها.

وقوله: «إيلافِهِمْ» مخفوضةٌ على الإبدالِ، كأنه قال: لإيلافِ قريشٍ لإيلافِهم، رحلةَ الشتاءِ والصيفِ وأما الرحلةُ فنُصبَت بقوله: «إيلافِهِمْ» ووقوعه عليها.

وقوله: «رِحْلَةَ الشِّتاءِ والصيْفِ»، يقول: رحلة قريش الرحلتين، إحداهما إلى الشامِ في الصيفِ، والأخرى إلى اليمن في الشتاء.

وقوله: «فَلْيَعْبُدُوا ربَّ هَذَا الْبَيْتِ»، يقول: فليقيموا بموضِعهم ووطنهم من

مكةَ، وليعبدوا رَبَّ هذا البيتِ، يعني بالبيت: الكعبة.

وقوله: «الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ»، يقول: الذي أطعمَ قريشاً من جوعٍ.

«وآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ»، اختلف أهلُ التأويل في معنى قوله: «وآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ» فقال بعضهم: معنى ذلك أنه آمنهم مما يَخَافُ منه مَنْ لم يَكُنْ من أهلِ الحرمِ من الغاراتِ والحروبِ والقتالِ، والأمورِ التي كانت العربُ يخافُ بعضُها من بعضٍ.

وقال آخرون: عُنِي بذلك: وآمنهم من الجُذَامِ.

والصوابُ من القولِ في ذلك أن يقال: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه أخبر أنه «آمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ» والعَدُوُّ مَخُوفٌ منه، والجُذَامُ مَخُوفٌ منه، ولم يخصص الله الخبرَ عن أنه آمنهم من العدوِّ دونَ الجُذَامِ، ولا مِنَ الجذام. دونَ العدوِّ، بل عَمَّ الخبرَ بذلك؛ فالصوابُ أنْ يعمَّ كما عمّ جلّ ثناؤه، فيقال: آمنهم من المَعْنَيَيْنِ كِلَيْهِمَا.

سُورَةُ المَاعُونِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وتَقَدَّسَتْ أسْمَاؤُهُ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «أرأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بالدِّينِ» أرأيتَ يا محمدُ الذي يكذِّبُ بثوابِ الله وعقابِه، فلا يُطيعه في أمرِه ونهيه.

وقوله: «فَذلكَ الذي يَدُعُّ اليَتِيمَ»، يقول: فهذا الذي يكذِّبُ بالدين، هو الذي يدفعُ اليتيمَ عن حَقِّه، ويظلمه، يقال منه: دَعَعْتُ فلاناً عن حَقِّه، فأنا أدُعُّه دَعًّا.

وقوله: «وَلا يَحُضُّ على طَعامِ المِسْكِينِ»، يقول تعالى ذكره: ولا يحثُّ غيرَهُ على إطعامِ المحتاجِ من الطعام.

وقوله: «فَوَيْلٌ للْمُصَلِّينَ. الَّذينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فالوادي الذي يسيلُ من صديدِ أهلِ جهنمَ للمنافقينَ الذين يُصَلُّونَ، لا يُريدونَ الله عزّ وجلّ بصلاتِهم، وهم في صلاتهم ساهونَ إذا صلوها.

واختلف أهـلُ التأويلِ في معنى قوله: «عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ»، فقال بعضهم: عُنِيَ بذلك: أنهم يؤخِّرُونَها عن وقتها، فلا يصلونها إلا بعد خروجِ وقتها.

وقال آخرون: بل عُني بذلك أنهم يتركونها فلا يُصَلُّونَها.

وقال آخرون: بل عُنِي بذلك أنهم يتهاونونَ بها، ويتغافلونَ عنها ويلهون.

وأولى الأقـوال في ذلـك عنـدي بالصـوابِ بقـوله: «ساهُونَ»: لاهونَ يتغـافلونَ عنها، وفي اللهوِ عنها والتشاغلِ بغيرها، تضييعها أحياناً، وتضييعُ وقتها أخرى، وإذا كان ذلك كذلك صَحَّ بذلك قولُ مَنْ قال: عُنِي بذلك تركُ وقتها، وقولُ مَنْ قال: عُنِي به تركُها لما ذكرتُ من أنَّ في السهوِ عنها المعاني التي ذكرتُ.

وقوله: «الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ»، يقول: الذين هم يراؤونَ النـاسَ بصلاتِهم إذا صَلُّوا، لأنهم لا يصلون رَغبةً في ثوابٍ، ولا رهبةً من عقابٍ، وإنما يصلونها ليراهم المؤمنونَ فيظنونهم منهم، فيكفُّونَ عن سفكِ دمائِهم، وسبي ذراريهم، وهم المنـافقـونَ الـذين كانـوا على عهدِ رسولِ الله ﷺ، يستبطنونَ الكفرَ، ويُظهرونَ الإسلام.

وقوله: «ويَمْنَعونَ المَاعُونَ»، يقول: ويمنعونَ الناسَ منافعَ ما عِنْدَهُمْ، وأصلُ الماعونِ من كلِّ شيءٍ منفعتُه، يقال للماء الذي ينزلُ من السحابِ ماعون.

واختلف أهـلُ التـأويل في الذي عُنِي به من معاني الماعونِ في هذا الموضع، فقال بعضهم: عُنِيَ به الزكاةُ المفروضة.

وقال آخرون: هو ما يتعاوره الناسُ[1] بينهم من مِثْلِ الدَّلْوِ والقِدْرِ، ونحو ذلك.

وقال آخرون: الماعون: المعروف.

وقال آخرون: الماعون: هو المال.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك عندنا بالصواب، إذْ كان الماعونُ هو ما وصفنا قَبْلُ، وكانَ اللهُ قد أخبرَ عن هؤلاءِ القوم، وأنهم يمنعونَهُ الناسَ خبراً عاماً من غيرِ أنْ يخصَّ من ذلك شيئاً أنْ يقال: إنَّ الله وصفهم بأنهم يمنعونَ الناسَ ما يتعاورونه بينهم، ويمنعونَ أهلَ الحاجةِ والمَسْكَنةِ ما أوجبَ اللهُ لهم في أموالهم من الحقوقِ لأنَّ كُلَّ ذلك من المنافعِ التي ينتفع بها الناسُ بعضُهم من بعضٍ.

---

(١) يتعاوره الناس: أي: يتبادلونه أو يتناوبونه أو يستعيرونه من بعضهم البعض، ومنه: تعاورُ حروفِ الجَرِّ: أي تناوبها عن بعضها بعضاً.

سُورَةُ الكَوْثَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَناؤُهُ وتَقَدَّسَتْ أسْمَاؤُهُ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «إِنَّا أَعْطَيْناكَ» يا محمدُ «الْكَوْثَرَ».

واختلف أهلُ التأويل في معنى الكوثر، فقال بعضهم: هو نهرٌ في الجنةِ أعطاهُ اللهُ نبيَّهُ محمداً ﷺ.

وقال آخرون: عُنِي بالكوثر: الخيرُ الكثيرُ.

وقال آخرون: هو حوضٌ أُعْطِيَهُ رسولُ الله ﷺ في الجنة.

وأوْلى هذه الأقوالِ بالصوابِ عندي، قولُ مَنْ قال: هو اسمُ النهرِ الذي أُعطيَهُ رسولُ الله ﷺ في الجنة، وصفه اللهُ بالكثرةِ لعِظَمِ قَدْرِه.

وإنما قلنا ذلك أوْلى الأقوالِ في ذلك، لتتابعِ الأخبارِ عن رسولِ الله ﷺ بأنَّ ذلك كذلك[1].

وقوله: «فَصَلِّ لرَبِّك وانْحَرْ»، معناه: فاجعلْ صلاتَكَ كلها لربِّكَ خالصاً دونَ ما سِواهُ من الأندادِ والآلهةِ، وكذلك نَحْرَكَ اجْعَلْهُ له دونَ الأوثانِ، شكراً

(١) انظر البخاري (٤٩٦٤) و(٤٩٦٥)، ومسلم (٤٠٠).

له على ما أعطاكَ من الكرامةِ والخيرِ الذي لا كفـء له، وخَصَّكَ به من إعطائهِ إياكَ الكوثرَ.

وإنما قلتُ ذلك، لأنَّ الله جلّ ثناؤه أخبرَ نبيَّهُ ﷺ بما أكرمَهُ به من عَطِيَّتِهِ وكرامتهِ، وإنعامهِ عليه بالكوثر، ثم أتبعَ ذلك قوله: «فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ» فكان معلوماً بذلك أنه خَصَّهُ بالصلاةِ له، والنحرِ على الشُّكْرِ له، على ما أعْلَمَهُ من النعمةِ التي أنعمَهَا عليه باعطائهِ إياهُ الكوثرَ، فلم يكنْ لخصوصِ بعضِ الصلاةِ بذلك دونَ بعضٍ، وبعضِ النحرِ دونَ بعضٍ وجهٌ، إذْ كان حَثّاً على الشكرِ على النِّعم.

فتأويلُ الكلام إذن: إنا أعطيناكَ يا محمدُ الكوثرَ، إنعاماً منا عليكَ به، وتكرمةً منا لكَ، فأخْلِصْ لربكَ العبادةَ، وأفْرِدْ له صلاتَكَ ونُسككَ، خلافاً لما يفعلُه مَنْ كفرَ به، وعَبَدَ غيرَهُ، ونحرَ للأوثانِ.

وقوله: «إنَّ شانِئَكَ هُوَ الأبْتَرُ»، يعني بقوله جلّ ثناؤه: «إنَّ شانِئَكَ»: إنَّ مُبْغِضَكَ يا محمدُ وعدوَّكَ «هُوَ الأبْتَرُ»، يعني بالأبترِ: الأقلُّ الأذَلُّ المنقطعُ دابرهُ، الذي لا عقبَ له.

سُورَةُ الكَافِرُون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ، وكان المشركونَ من قومِه فيما ذُكِرَ عَرَضُوا عليه أنْ يعبدوا اللهَ سنةً، على أنْ يعبدَ نبيُّ الله ﷺ آلهتَهُمْ سنةً، فأنزلَ اللهُ مُعَرِّفَهُ جوابَهم في ذلك، «قُلْ» يا محمدُ لهؤلاء المشركينَ الذين سألوكَ عبادةَ آلهتِهم سنةً، على أنْ يعبدوا إلهكَ سنةً «يا أيُّها الكافِرُونَ» باللهِ «لا أعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ» من الآلهةِ والأوثانِ الآنَ «ولا أنْتُمْ عابِدُونَ ما أعْبُدُ» الآن «ولا أنا عابِدٌ» فيما أستقبلُ «ما عَبَدْتُمْ» فيما مضى «ولا أنْتُمْ عابِدُونَ» فيما تستقبلونَ أبداً «ما أعْبُدُ» أنا الآن، وفيما أستقبل.

وإنما قيل ذلك كذلك، لأنَّ الخطابَ من اللهِ كان لرسولِ الله ﷺ في أشخاصٍ بأعيانِهم من المشركينَ، قد علم أنهم لا يؤمنون أبداً، وسَبَقَ لهم ذلك في السابقِ من عِلْمِه، فأمرَ نبيَّهُ ﷺ أنْ يُؤْيِسَهُمْ من الذي طَمِعُوا فيه، وحَدَّثُوا به أنفسَهُمْ، وأنَّ ذلك غيرُ كائنٍ منه ولا منهم في وقتٍ من الأوقات،

وآيسَ نبيَّ الله ﷺ من الطمع في إيمانِهم، ومن أنْ يُفْلِحُوا أبداً، فكانوا كذلكَ لم يُفْلِحُوا ولم ينجحوا إلى أنْ قُتِلَ بعضهم يوم بدر بالسيفِ، وهلك بعضٌ قبلَ ذلك كافراً.

وقوله: «لَكُمْ دِينُكُمْ ولِيَ دِين»، يقول تعالى ذِكْرُه: لكم دِينكم فلا تتركونَهُ أبداً، لأنه قد خَتَمَ عليكم، وقَضَى أنْ لا تنفكُّوا عنه، وأنكم تموتونَ عليه، ولي دين الذي أنا عليه، لا أتركُه أبداً، لأنه قد مَضَى في سابقِ علمِ الله أني لا أنتقلُ عنه إلى غيرِه.

سُورَةُ النَّصْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: إذا جاءكَ نصرُ اللهِ يا محمدُ على قومكَ من قريشٍ، «والفتحُ»، فتح مكة «ورأيتَ النَّاسَ» من صنوفِ العربِ وقبائِلها أهل اليمن منهم، وقبائل نزار «يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أفْوَاجاً»، يقول: في دينِ الله الذي ابتعثَكَ به، وطاعتكَ التي دَعاهُمْ إليها أفواجاً، يعني: زُمَراً، فوجاً فوجاً.

وقوله: «فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ»، يقول: فَسَبِّحْ رَبَّكَ وعَظِّمْهُ بحمدِه وشُكْرِه على ما أنجزَ لكَ من وَعْدِه فإنك حينئذٍ لاحقٌ به، وذائقٌ ما ذاقَ مَنْ قَبْلَكَ من رُسُلِه من الموتِ.

وقوله: «وَاسْتَغْفِرْهُ»، يقول: وسَلْهُ أنْ يغفرَ ذنوبكَ[1].

«إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً» يقول: إنه كان ذَا رجوعٍ لعبدِه المطيع إلى ما يحبُّ. والهاء من قوله: «إنه» من ذِكْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

---

(١) ساق المؤلف حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: «ما صلَّى النبي ﷺ صلاةً بعد أن نزلت عليه «إذا جاء نصر الله والفتح» إلا يقول فيها: سبحانكَ رَبَّنا وبحمدكَ، اللهم اغفرْ لي»، وهو في البخاري (٤٩٦٧).

سُورَةُ المَسَد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: خَسِرَتْ يد أبي لهبٍ وخَسِرَ هُوَ، وإنما عُنِي بقوله: «تَبَّتْ يَدَا أبي لَهَب»: تَبَّ عَمَلُهُ. وكان بعضُ أهلِ العربية يقول: قوله: «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ»: دعاءٌ عليه من الله.

وأما قوله: «وَتَبَّ» فإنه خَبَرٌ.

وقيل: إنَّ هذه السورةَ نزلتْ في أبي لهب، لأنَّ النبيَّ ﷺ لما خصَّ بالدعوةِ عشيرتَهُ، إذْ نزلَ عليه: «وأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ» [الشعراء: ٢١٤] وجمعهم للدعاءِ، قال له أبو لهبٍ: تَبًّا لكَ سائرَ اليومِ، ألهذا دَعَوْتَنا؟[1]

وقوله: «ما أَغْنَى عَنْهُ مالُهُ ومَا كَسَبَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أيّ شيءٍ أغنى

---

(١) وذلك ثابت في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: البخاري (٤٩٧١)، ومسلم (٢٠٨).

عنه مالُه، ودفعَ من سخطِ اللهِ عليه «ومَا كَسَبَ» وهم ولده.

وقوله: «سَيَصْلَى ناراً ذَاتَ لَهَبٍ»، يقول: سيصلى أبو لهبٍ ناراً ذاتَ لهبٍ.

وقوله: «وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ»، يقول: سيصلى أبو لهبٍ وامرأتُه حمالةَ الحطبِ، ناراً ذاتَ لهبٍ.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة «حَمَّالَةَ الْحَطَبِ»، فقرأ ذلك عامةُ قَرَأَةِ المدينة والكوفة والبصرة «حَمَّالَةُ الْحطَبِ» بالرفعِ، غير عبدالله بن أبي إسحاق، فإنه قرأ ذلك نصباً فيما ذُكِرَ لنا عنه.

واختلف فيه عن عاصم، فحكيَ عنه الرفعُ فيها والنصبُ، وكأن مَنْ رفع ذلك جعله من نعتِ المرأةِ، وجعل الرفعَ للمرأةِ ما تقدّم من الخبرِ، وهو «سيصلى»، وقد يجوز أن يكون رافعها الصفة، وذلك قوله: «فِي جِيدِها» وتكون «حمالة» نعتاً للمرأة، وأما النصبُ فيه فعلى الذمِّ، وقد يُحتمل أنْ يكون نصبها على القطعِ من المرأةِ، لأن المرأةَ معرفة، وحمالة الحطب نكرة.

والصوابُ من القراءةِ في ذلك عندنا الرفعُ، لأنه أفصحُ الكلامين فيه، ولإجماعِ الحجةِ من القَرَأَةِ عليه.

واختلف أهلُ التأويل، في معنى قوله: «حَمَّالَةَ الْحَطَبِ»، فقال بعضُهم: كانت تجيءُ بالشوكِ فتطرحُهُ في طريقِ رسولِ الله ﷺ ليدخلَ في قَدمِه إذا خرجَ إلى الصلاة.

وقال آخرون: قيل لها ذلك: حمالة الحطب، لأنها كانت تحطبُ الكلامَ، وتمشي بالنميمةِ، وتُعَيِّرُ رسولَ الله ﷺ بالفقرِ.

وأولى القولين في ذلك بالصوابِ عندي قولُ مَنْ قال: كانت تحملُ الشوكَ، فتطرحُه في طريقِ رسولِ الله ﷺ، لأنَّ ذلك هو أظهر معنى ذلك.

وقوله: «فِي جِيدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ»، يقول: في عُنُقِهَا، والعربُ تُسمي العنقَ جِيداً.

وقوله: «حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ»، اختلف أهلُ التأويل في ذلك، فقال بعضُهم: هي حبالٌ تكون بمكة.

وقال آخرون: المَسَدُ: اللِّيفُ.

وقال آخرون: المَسَد: الحديدُ الذي يكونُ في البَكْرةِ.

وقال آخرون: هو قلادةٌ من وَدَعٍ في عنقها.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك عندي بالصوابِ قولُ مَنْ قال: هو حبلٌ جُمع من أنواعٍ مختلفة من ليفٍ وحديدٍ ولحاءٍ، وجُعِلَ في عنقها كالقلادةِ من ودع، ولذلك اختلف أهلُ التأويلِ في تأويلهِ على النحوِ الذي ذكرنا.

سُورَةُ الإخلاص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾

ذُكر أنَّ المشركينَ سألوا رسولَ الله ﷺ عن نَسَبِ ربِّ العزَّةِ، فأنزلَ اللهُ هذه السورةَ جواباً لهم. وقال بعضُهم: بل نزلتْ من أجلِ أنَّ اليهودَ سألوه، فقالوا له: هذا اللهُ خَلَقَ الخَلْقَ، فَمَنْ خَلَقَ اللهَ؟ فأُنزلتْ جواباً لهم.

فتأويلُ الكلام إذا كان الأمرُ على ما وصفنا: قُلْ يا محمدُ لهؤلاءِ السَّائِليكَ عن نسبِ رَبِّكَ وصِفَتِه، ومَنْ خلَقَهُ: الربُّ الذي سألتموني عنه، هو الله الذي له عبادةُ كُلِّ شيءٍ لا تنبغي العبادةُ إلا له، ولا تصلحُ لشيءٍ سواه.

وقوله: «اللهُ الصَّمَدُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: المعبودُ الذي لا تصلحُ العبادةُ إلا له الصمد.

واختلف أهلُ التأويل في معنى الصمد، فقال بعضُهم: هو الذي ليس بأجوفَ، ولا يأكلُ ولا يشربُ.

وقال آخرون: هو الذي لا يخرجُ منه شيء.

وقال آخرون: هو الذي لم يَلِدْ ولم يُولَدْ.

وقال آخرون: هو السيدُ الذي قد انتهى سُؤْدَدهُ.

وقال آخرون: بل هو الباقي الذي لا يفَنى. الصمدُ: عند العرب: هو السيدُ الذي يُصْمَدُ إليه، الذي لا أحدَ فوقَهُ، وكذلك تُسمي أشرافَها. فإذا كان ذلك كذلك، فالذي هو أوْلى بتأويلِ الكلمةِ، المعنى المعروفُ من كلامِ مَنْ نزلَ القرآنُ بلسانهِ.

وقوله: «لَمْ يَلِدْ»، يقول: ليس بفانٍ، لأنه لا شيءَ يَلِدُ إلا وهو فانٍ بائدٌ «ولَمْ يُولَدُ»، يقول: وليس بِمُحْدَثٍ لم يَكُنْ فكانَ، لأنَّ كُلَّ مولودٍ فإنما وُجد بعد أنْ لم يكن وحَدَثَ بعد أنْ كان غير موجودٍ، ولكنه تعالى ذِكْرُه قديمٌ لم يَزَلْ، ودائمٌ لم يَبِدْ، ولا يزولُ ولا يفنى.

وقوله: «ولَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أحَدٌ»، اختلف أهلُ التأويلِ في معنى ذلك، فقال بعضُهم: معنى ذلك: ولم يكن له شبيهٌ ولا مِثْلٌ.

وقال آخرون: معنى ذلك، أنه لم يكن له صاحبةٌ.

والكُفُوُ والكفيءُ والكِفَاءُ في كلامِ العربِ واحدٌ، وهو المِثْلُ والشِّبْه.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءةِ قوله: «كفواً» فقرأ ذلك عامة قَرَأَةِ البصرة «كُفُواً» بضم الكافِ والفاء. وقرأه بعض قَرَأَةِ الكوفة بتسكين الفاء وهمزها «كُفْئاً».

والصوابُ من القول في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان معروفتان، ولغتان مشهورتان، فبأيَّتِهِما قرأ القارىء فمصيبٌ.

سُورَةُ الفَلَق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ أستجيرُ بربِّ الفلقِ من شرِّ ما خلقَ من الخَلْقِ.

واختلف أهلُ التأويلِ في معنى الفلق، فقال بعضُهم: هو سجنٌ في جهنمَ يُسَمَّى هذا الاسم.

وقال آخرون: هو اسمٌ من أسماء جهنم.

وقال آخرون: الفَلَقُ: الصبحُ.

وقال آخرون: الفَلَقُ: الخَلْقُ، ومعنى الكلام: قل أعوذُ بربِّ الخَلْقِ.

والصوابُ من القولِ في ذلك أن يقال: إنَّ الله جلَّ ثناؤه أمرَ نبيه محمداً ﷺ أن يقول: «أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ» والفلق في كلامِ العرب: فَلَقُ الصبح، تقولُ العـربُ: هو أبينُ منْ فَلَقِ الصُّبحِ، ومن فَرَقِ الصبحِ. وجائزٌ أن يكون في جهنم سجنٌ اسمه فَلَق، وإذا كان ذلك كذلك، ولم يكن جلّ ثناؤه وضعَ دلالة على أنه عُنِي بقوله: «بِرَبِّ الْفَلَقِ» بعض ما يُدْعَى الفلق دونَ بعضٍ، وكان

الله تعالى ذِكْرُه ربَّ كُلِّ ما خَلَقَ من شيءٍ، وَجَبَ أنْ يكون معنياً به كُلُّ ما اسمهُ الفَلَق، إذ كان ربَّ جميع ذلك.

وقال جلّ ثناؤه: «مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ» لأنه أمرَ نبيه أنْ يستعيذَ من شرِّ كُلِّ شيءٍ، إذْ كان كلّ ما سِواهُ، فهو ما خَلق.

وقوله: «وَمِنْ شَرِّ غاسِقٍ إذَا وَقَبَ»، يقول: ومِنْ شَرِّ مظلمٍ إذا دخلَ، وهجمَ علينا بظلامِه.

ثم اختلف أهـلُ التأويل في المظلمِ الذي عُنِي في هذه الآية، وأمرَ رسولَ الله ﷺ بالاستعاذةِ منه، فقال بعضُهم: هو الليلُ إذا أظلم.

وقال آخرون: هو كوكبٌ، وكان بعضهم يقول: ذلك الكوكبُ هو الثُّريا.

وقال آخرون: بل الغاسق إذا وقب: القمر.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك عندي بالصوابِ أن يقالَ: إنَّ الله أمرَ نبيهُ ﷺ أنْ يستعيذَ «مِنْ شَرِّ غاسِقٍ» وهـو الذي يُظْلم، يقال: قد غَسَق الليلُ يَغْسُق غُسوقاً: إذا أظلمَ «إذَا وَقَبَ»، يعني: إذا دخلَ في ظلامِهِ، والليلُ إذا دخلَ في ظلامِه غاسقٌ، والنجمُ إذا أفلَ غاسقٌ، والقمرُ غاسقٌ إذا وقبَ، ولم يخصصْ بعضَ ذلك بل عَمَّ الأمرَ بذلك، فكلُّ غاسقٍ، فإنه ﷺ كان يُؤْمَرُ بالاستعاذةِ من شَرِّهِ إذا وقبَ.

وقوله: «وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ فِي الْعُقَدِ»، يقول: ومن شَرِّ السواحرِ اللاتي يَنْفُثْنَ في عُقَدِ الخيطِ حين يَرْقِينَ عليها.

وقوله: «وَمِنْ شَرِّ حاسِدٍ إذَا حَسَدَ»، اختلف أهلُ التأويلِ في الحاسدِ الذي أُمِرَ النبيُّ ﷺ أن يستعيذَ من شرِّ حَسَدِه به، فقال بعضهم: ذلك كلُّ حاسدٍ أُمِرَ النبيُّ ﷺ أنْ يستعيذَ من شرِّ عينِهِ ونَفسه.

وقال آخرون: بل أُمِرَ النبيُّ ﷺ بهذه الآية أنْ يستعيذَ من شرِّ اليهودِ الذين حَسَدُوه.

وأولى القولين بالصواب في ذلك قولُ مَنْ قال: أُمِرَ النبيُّ ﷺ أنْ يستعيذَ من شرِّ كلِّ حاسدٍ إذا حَسَدَ، فعابَهُ، أو سَحَرَهُ، أو بَغَاهُ سوءاً.

وإنما قلنا: ذلك أوْلى بالصواب، لأنَّ الله عزّ وجلّ لم يخصص من قوله: «وَمِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذَا حَسَدَ» حاسداً دونَ حاسدٍ، بل عَمَّ أمرهُ إياهُ بالاستعاذةِ من شرِّ كلِّ حاسدٍ، فذلك على عمومه.

سُورَةُ النَّاسِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَناؤُهُ وتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ أستجيرُ «بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ» وهو ملكُ جميعِ الخَلْقِ إنْسِهم وجِنِّهم، وغير ذلك، إعلاماً منه بذلك مَنْ كان يعظم الناس تعظيم المؤمنين ربهم أنه ملك من يعظمه، وأنَّ ذلك في مُلْكِه وسلطانه، تجري عليه قُدْرَتُه، وأنه أَوْلى بالتعظيمِ، وأحقّ بالتَّعَبُّدِ له مِمَّنْ يُعَظِّمُه، ويُتَعَبَّدُ له من غيرِه من الناس.

وقوله: «إِلَهِ الناس»، يقول: معبود الناسِ الذي له العبادةُ دونَ كلِّ شيءٍ سواه.

وقوله: «مِنْ شَرِّ الوَسْوَاسِ»، يعني: من شَرِّ الشيطانِ «الخَنَّاسِ» الذي يخنِسُ مَرَّةً، ويوسوسُ أخرى، وإنما يخنِسُ فيما ذُكِرَ عند ذِكْرِ العبدِ رَبَّهُ.

وقوله: «الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ»، يعني بذلك: الشيطان الوسواس الذي يوسوسُ في صدورِ الناسِ جِنِّهم وإنسهم.

فإنْ قال قائل: فالجِنُّ ناسٌ، فيقال: الذي يوسوسُ في صدورِ الناس من الجِنَّةِ والناس. قيل: قد سَمَّاهم اللهُ في هذا الموضع ناساً كما سَمَّاهم في موضعٍ آخرَ رجالاً، فقال: «وَأَنَّهُ كَانَ رِجالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الجِنِّ»، فجعل الجنَّ رجالاً، وكذلك جعل منهم ناساً.

وقد ذُكر عن بعضِ العربِ أنه قال وهو يحدّثُ، إذْ جاء قومٌ من الجنِّ فوقفوا، فقيل: مَنْ أنتم؟ فقالوا: ناسٌ من الجِنِّ، فجعلَ منهم ناساً، فكذلك ما في التنزيل من ذلك.

المجلد السابع

فهرس المحتويات